صبح الأعشى

أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي ، ولد في قرية قلقشندة بمحافظة القليوبية في مصر سنة 756هـ. و رحل فيها عام 821هـ

الجزء الثالث

صبح الأعشى

الجزء الثالث

الفصل الخامس من الباب الثاني من المقالة الرابعة في الكتب الواردة على الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية ممن جرت العادة بمكاتبته إليها

من أهل المملكة وغيرها من سائر الممالك المكاتبة عن هذه المملكة وهي نوعان النوع الأول المكاتبات الواردة عن ملوك المسلمين وهي على قسمين القسم الأول في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة بالديار المصرية والبلاد الشامية ممن يؤهل للمكاتبة إلى الأبواب السلطانية من النواب وغيرهم من الأمراء وأرباب الأقلام من الوزراء والعلماء ومن في معناهم وهم على ضربين في المطالعات الواردة عن أكابر أهل الدولة بالديار المصرية والبلاد الشامية من النواب ومن في معناهم قد جرت عادة من يكتب إلى الأبواب السلطانية من أهل هذه المرتبة أن يكتب جميعهم كتبهم في قطع العادة فإن كان بالديار المصرية فمن الورق البلدي وإن كان بالبلاد الشامية فمن الورق الشامي وجميع ذلك في الورق الأبيض إلا نائب الشام ونائب الكرك فإنهما قد جرت العادة فيهما بأنهما يكتبان إلى الأبواب السلطانية في الورق الأحمر الشامي شيء اختصا به دون سائر أهل المملكة.

ثم قد ذكر في عرف التعريف أن الملوك لا يكتب إليهم إلا يقبل الأرض وينهي.

ويختم الكتاب بما صورته: طالع المملوك بذلك وللآراء العالية مزيد العلو أو أنها الملوك ذلك وللآراء العالية مزيد العلو والعنوان الملكي الفلاني مطالعة المملوك فلان وحينئذ فالذي جرت به العادة في ذلك أن يبتدئ الكاتب فيكتب فهرست الكتاب في رأس الدرج من جهة وجهه في عرض إصبع في الجانب الأيمن إلى الأبواب الشريفة وفي الجانب الأيسر بسبب كذا وكذا ثم يقلب الدرج ويكتب في ظاهره بعد ترك ما كتب الفهرست في باطنه العنوان فيكتب: الملكي الفلاني في أول العنوان ومطالعة المملوك فلان في آخره ثم بعد ذلك يقلب الدرج ويترك وصلاً أبيض ويكتب البسملة في رأس الوصل الثاني بعد خلو هامش من الجانب الأيمن ثم يكتب تحت البسملة ملاصقاً لها ما صورته الملكي فلاني بحيث يكون آخر الملكي الفلان مسامتاً لجلالة البسملة بلقب السلطان كأنه ينسب نفسه إلى سلطانه ثم يكتب صورة المكاتبة على سمة البسملة في سطر ملاصق للملكي الفلاني يقبل الأرض وينهي كذا وكذا فإن كان ابتداء كتب وينهي أن الأمر كذا وكذا ويأتي بمقاصد المكاتبة فإن كانت فصلاً واحداً ذكره وختم الكتاب بآخر كلامه وإن كان الكتاب مشتملاً على فصول أتى بالفصل الأول إلى آخره ثم يخلي بياضاً قدر خمسة أسطر ثم يسرد الفصول بعد ذلك فصلاً فصلاً يخلي بين كل فصلين قدر خمسة أسطر أيضاً ويقول في أول كل فصل المملوك ينهي كذا وكذا وإذا أتى على ذكر السلطان قال: خلد الله سلطانه أوخلد الله ظله أو أتى على ذكر المرسوم الشريف قال: شرف الله وعظمه ونحو ذلك إذا سأل في مرة قال: والمعلوم يعرض على الآراء الشريفة كذا وكذا أو أن اقتضت الآراء الشريفة كذا وكذا فلها مزيد العلو ولا يقال: يسأل الصدقات الشريفة إلا في أمر جليل أو شيء مهم والعرض أبلغ في الأدب ولا يلقب أحداً بالجناب والمجلس ومجلس الأمير وإذا ذكر كبيراً في الدولة كالنائب الكافل ونائب الشام أو نائب حلب أو أمير كبير قال: أن مملوك مولانا السلطان خلد الله ملكه الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلاً كافل الممالك الشريفة أو نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الشامية المحروسة أو كافل المملكة الشامية المحروسة أو نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة أو أمير فلان الدين فلان الناصري مثلاً أو القاضي فلان الدين أو ناصر الجيوش المنصورة بالأبواب الشريفة وما يجري هذا المجرى ولا يدعى في المطالعة لأحد.

وإذا انتهت الفصول إلى آخرها قال: وقد جهز المملوك بمطالعته هذه مملوكه فلاناً السيفي مثلاً الماثل بها.

وإن كان ثم مشافهة قال: وقد حمله مشافهة يسأل المسامع الشريفة سماعها إن اقتضت ذلك أو ينهيها إلى مسامع الشريفة إذا رسم له بإنهائها طالع بذلك أو أنهى ذلك.

ثم قد جرت عادة النواب بالبلاد الشامية أن يقدموا في صدر المكاتبة ما اشتمل على أخبار البلاد الشرقية من مملكة إيران المجاورة لأواخر هذه المملكة من تجدد أمر أو حركة عدو أو حكاية حال مهمة من أحوال تلك البلاد مثل أن يقال في أول المكاتبة: وينهي أن قصاده عادوا من البلاد الشرقية مخبرين بكذا وكذا ويشرح الحال التي أخبرها قصاده.

وإن كان الخبر نقلاً عن نائب من نواب الأطراف كالرها ونحوها قال: إن مطالعة نائب فلانة ووردت بكذا وكذا ويذكر ما تضمنته ملخصاً وإن كانت المطالعة جواب مثال شريف ورد فقط قال: وينهي أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدي بالأبواب الشريفة يتضمن ما اقتضته المراسيم الشريفة أو ما اقتضته الآراء الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها من كذا وكذا ويذكر نص المثال الشريف حرفاً حرفاً ثم يقال: وتفهم المملوك ما رسم له به وقابل المراسيم الشريفة زاد الله تعالى شرفها بتكرار تقبيل الأرض والامتثال وتقدم بكذا إن كان الأمر مما نفذ أو والذي ينهيه المملوك كذا وكذا إن كان الأمر قد توقف.

ثم إن كان النائب عظيم القدر كنائب السلطنة الشريفة بالشام أو حلب جعل بعد ما بين كل سطرين تقدير رأس إصبع وإن كان دون ذلك جعل ما بينهما أقل من ذلك حتى ينتهي في أقل الرتب إلى ملاصقة السطور بعضها ببعض.

وإن كانت المطالعة في أمر مهم كاستقرار نائب أو بشارة بفتح أو نحو ذلك أتى بجميع الكتاب مسجعاً وإلا فلا.

وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام ابتداء.

يقبل الأرض وينهي أنه ورد على المملوك مكاتبة نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة يذكر فيها أن قصاده عادوا من جهة بلاد الشرق وأخبروا أن العدو المخذول فلاناً قد خرج عليه عدو من ورائه وقصد بلاده فكر راجعاً إليه بعد أن كان قاصداً هذه الجهة وأحب المملوك إحاطة الخواطر الشريفة بذلك.

المملوك ينهي أن مطالعة نائب الرحبة المحروسة وردت على المملوك يخبر فيها أن فلاناً التركماني قد عاد إلى الطاعة الشريفة ولاذ بمراحم الأبواب العالية وأنه ما كان حمله على ما وقع منه من عدم المقابلة إلا الخوف من السطوات الشريفة وأنه يسأل كتابة أمانٍ شريف له ولجماعته ولمن يليه بأن يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وسائر ذات يدهم وأنه إذا وصل إليه الأمان قصد الأبواب السلطانية وتمثل بالمواقف الشريفة وامتثل ما تبرز به الأوامر المطاعة في أمره وأمر جماعته والمملوك ينظر ما يرد به الجواب الشريف في أمره لكاتب نائب الرحبة المحروسة بما يعتمده في أمره.

المملوك ينهي أنه قد بلغ المملوك أن البحر مشغول بمراكب الفرنج ولم يعلم إلى أي مكان يقصدون وقد أخذ المملوك في الاحتراز على السواحل المذكورة بإقامة المركزين وأمرهم بالاحتراز والاحتفاظ وقد عرض المملوك ذلك على الآراء العالية ليكون ذلك على الخواطر الشريفة ويكاتب النواب بالبلاد المجاورة للبحر.

المملوك ينهي أن الأمير فلاناً الفلاني أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق المحروسة قد توفي إلى رحمة الله تعالى والمملوك يسأل الصدقات الشريفة في استقرار إمرته باسم مملوك مولانا السلطان عز نصره ولد المملوك فلان إعانة له على الخدمة الشريفة وجبراً لخاطر المملوك فإن حسن ذلك بالآراء الشريفة وإلا فللرأي العالي مزيد العلو.

المملوك ينهي أن الأمير فلان الدين فلاناً أمير حاجب الشام المحروس كان قد برزت المراسيم الشريفة باستقراره في نيابة صفد المحروسة وقد توجه إلى محل نيابته والمملوك يعرض على الآراء الشريفة إن حسن بالرأي الشريف أن يستقر في الوظيفة المذكورة الأمير فلان الدين فلان أحد الأمراء الطبلخاناه بدمشق المحروسة فإنه كفء لذلك أو يستقر من تبرز به الآراء الشريفة.

المملوك ينهي أن فلاناً: أحد رجال الحلقة المنصورة بدمشق المحروسة قد درج بالوفاة وقد كتب المملوك مربعة باسم فلان الدين فلان باستقراره على إقطاعه وجهزها على الأبواب الشريفة لتعرض على الآراء العالية فإن حسن بالرأي الشريف إمضاؤها وإلا فيستقر على إقطاعه من تبرز المراسيم الشريفة باستقراره وقد جهز المملوك هذه المطالعة على يد مملوكه فلان على الأبواب الشريفة.

طالع بذلك إن شاء الله تعالى.

ثم يكمل.

وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام أيضاً في جواب مكاتبة شريفة وردت عليه وهي: يقبل الأرض وينهي أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدي بالأبواب الشريفة يتضمن أن المرسوم الشريف اقتضى الاجتهاد والاهتمام في حفظ السواحل والموانى وإقامة الأيزاك والأبدال في أوقاتها على العادة وإلزام أربابها بمواظبتها وإلزام المنورين بالديدبانات والمناظر والمناور في الأماكن المعروفة وتعهد أحوالها وتفقدها وتقويم أحوالها بحيث يقوم أحوالها على أحسن العوائد وأكملها ولا يقع على أحد درك بسببها وإن المملوك يتقدم باعتماد ما اقتضاه المرسوم الشريف من ذلك مع مضاعفة الاحتفال بذلك والمبادرة إليه فوقف المملوك على المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه وتفهم ما رسم له به وقابل المراسيم الشريفة زاد الله تعالى شرفها بالامتثال وتقدم باعتماد ما اقتضته المراسيم الشريفة من ذلك وأخذ في حفظ السواحل والموانى وإقامة الأيزك والأبدال وإلزام أربابها بمواظبتها وإلزام المنورين بالديدانات والمناظر فقامت الأحوال على أحسن العوائد وجرت على أكمل القواعد ولم يكن عند المملوك غفلة عما هو بصدده من ذلك وقد أعاد المملوك فلان الدين فلاناً البريدي المذكور بهذه المطالعة ليحصل على الوقوف عليها.

طالع بذلك.

وهذه نسخة مطالعة تشتمل على ابتداء وجواب يقبل الأرض وينهي أنه قد حضر رسول من القان فلان بالمملكة الفلانية وقصده التوجه إلى الأبواب الشريفة والمملوك يعرض على الآراء العالية أمره فإن أذن له في التوجه إلى أبوابه الشريفة جهزه المملوك إليه على العادة.

المملوك ينهي أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان المسفر من الأبواب الشريفة يتضمن طلب فلان الفلاني وحمله إلى الأبواب الشريفة محتفظاً به فبادر المملوك ما برزت به المراسيم الشريفة بالامتثال وتقم بطلب فلان المذكور وسلمه إلى فلان الدين المسفر المذكور وبعث معه من يحتفظ به في الطريق إلى حين وصوله إلى الأبواب الشريفة.

بسم الله الرحمن الرحيم الملكي الظاهري مثلاً يقبل الأرض وينهي أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدي ويكمل عليه على آخره.

الضرب الثاني من المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل المملكة المطالعات الواردة من الولاة ومن في معناهم القسم الثاني في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية عن أهل الممالك الإسلامية المكاتبة عن هذه المملكة الكتب الواردة عن اهل الممالك الاسلامية وحالها مختلف باختلاف حال مصطلح أهل البلاد وحال المكتوب عنه في رفعة القدر.

وفائدة معرفة ذلك أنه إذا عرف الكاتب مصطلح كل مملكة في الكتابة ظهر له ما هو وارد عن ملكها حقيقة وما هو مفتعل عليه ولا يخفى ما في ذلك من كبير الفائدة وعظيم النفع وارتفاع قدر الكاتب عند ملكه بإظهار الزيف بمحك المعرفة.

ومن غريب ما وقع في هذا المعنى أنه ورد رسول من الشرق في الأيام الظاهرية الشهيدية برقوق سقى الله تعالى عهده وأظهر لأهل الطرقات أنه رسول من عند طقتمش صاحب بلاد أزبك ورفعت بطاقته بالقلعة المحروسة بذلك فأمر السلطان النائب الكافل وأكابر الأمراء بالخروج لملاقاته على القرب من القاهرة فخرجوا وتلقوه بالتعظيم على أنه رسول طقتمش خان المقدم ذكره وأنزل بالميدان الكبير تعظيماً لأمره فلما عرض كتابه نظر فيه المقر البدري بن فضل الله تغمده الله تعالى برحمته وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء الشريف فوجده غير جار على مصطلح كتب القانات في الورق والكتابة فاستفسر الرسول المذكور عن ذلك ونوقش في قضيته فأخبر أنه عن الحاكم بالقرم من أتباع طقتمش خان فأنكر عليه ذلك وحط رتبته عن السلطان وأهل دولته عما كان عليه وعلا بذلك مقدار المقر البدري بن فضل الله المشار إليه عند السلطان وشكر له ما كان من ذلك.

ويشتمل على أربعة مقاصد: المقصد الأول في الكتب الواردة عن أهل الشرق الطرف الأول الكتب الواردة عن القانات العظام من بني جنكزخان ولها حالان الحالة الأولى: ما كان الأمر عليه قبل دخولهم في دين الإسلام.

وكان الأمر يجري في كتابتهم مجرى المخاشنة والتصريح بالعداوة ولم أقف على مقادير قطع ورق كتبهم يومئذ ولا ترتيب كتابتها.

وهذه نسخة كتاب كتب به هولاكو بن طوجي بن جنكزخان المنتزع العراق من أيدي الخلفاء العباسيين كتب به إلى الملك المظفر قطز في سنة ثمان وخمسين وستمائة وهو: من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم: باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء.

يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك.

يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أننا جند الله في أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من أحل عليه غضبه فسلموا إلينا أموركم تسلموا قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا وقد عرفتم أننا خربنا البلاد وقتلنا العباد فلكم منا الهرب ولنا خلفكم الطلب فما لكم من سيوفنا خلاص خيولنا سوابق وسيوفنا قواطع وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال من طلب حربنا ندم ومن قصد أمننا سلم فإن أنتم لشرطنا وأوامرنا أطعتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا فقد أعذر من أنذر.

وقد ثبت عندكم أننا كفرة وثبت عندنا أنكم الفجرة فأسرعوا إلينا بالجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترميكم بشرارها فلا يبقى لكم جاه ولا عز ولا يعصمكم منا جبل ولا حرز فما بقي لنا مقصد سواكم والسلام علينا وعليكم وعلى من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى.

الحالة الثانية: ما كان الأمر عليه بعد دخولهم في دين الإسلام مع قيام العداوة بين الدولتين.

وكان عادتهم في المكاتبة في أن يكتب بعد البسملة بقوة الله تعالى قم يكتب بعد ذلك بإقبال قان فرمان فلان يعني كلام فلان.

ولهم في ذلك طريقتان: إحداهما: أن يكتب بسم الله سطراً ويكتب الرحمن الرحيم سطراً تحتها ويكتب بقوة الله سطراً وتعالى سطراً آخر تحته ثم يكتب تحت ذلك في الوسط بهامش من الجانبين بإقبال قان سطراً وتحته فرمان فلان باسم السلطان المكتوب عنه سطراً آخر.

الطريقة الثانية: أن تكتب البسملة جميعها سطراً واحداً ثم يكتب تحت وسط البسملة بقوة الله تعالى سطراً وميامين الملة المحمدية سطراً آخر ثم يكتب تحت ذلك سطراً آخر بزيادة يسيرة من الجانبين فرمان السلطان فلان يعني كلام السلطان فلان.

ولم أقف على قطع الورق الذي كتب فيه حينئذ والظاهر أنه في البغدادي الكامل تعظيماً لشأن المكتوب عنه عندهم.

وبالجملة فإن الظاهر أن الكتب الواردة عنهم على نمط الكتب الواردة من المملكة إليهم جرياً على قاعدة كتاب هذه المملكة من أن الغالب مضاهاتهم لأكابر الملوك في كتبهم في الهيئة والترتيب شرقاً وغرباً.

وهذه نسخة كتاب على الطريقة الأولى ورد عن السلطان أحمد صاحب مملة إيران من بني هولاكو المقدم ذكره وهو أول من أسلم منهم كتب به إلى الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية تغمده الله تعالى برضوانه ورد مؤرخاً بأوسط جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة ورأيت في بعض الدساتير أنه من إنشاء الفخر بن عيسى الموصلي وورد بخطه وهو: بسم الله بقوة الله الرحمن الرحيم تعالى بإقبال قان فرمان أحمد إلى سلطان مصر أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام " فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل

وأخينا الكبير نوبة الملك فأفضى علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه وجلى هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها إلينا فاجتمع عندنا في قوريليان المبارك وهو المجتمع الذي تقدح فيه الآراء جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمو العساكر وزعماء البلاد واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في أنفاذ الجم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها وامتلأت الأرض رعباً من عظم صولتها وشديد بطشتها إلى تلك الجهة بهمة تخضع لها صم الأطواد وعزمة تلين لها الصم الصلاد ففكرنا فيما تمخضت زبد زعائمهم عنه واجتمعت أهواؤهم عليه فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا به إلا ما يوجب حق الدماء وتسكين الدهماء وتجري به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان تعظيماً لأمر الله وشفقة على خلق الله فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة وتسكين الفتن الثائرة وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا الله إليه من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء وأننا لا نحب المسارعة إلى هز النضال للنضال إلا بعد إيضاح المحجة ولا نبادر لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة وقوى عزمنا على ما رأينا من دواعي الصلاح وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح إذا كان الشيخ قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين فأرسلناه رحمة من الله لمن لبى دعاه ونقمة على من أعرض عنه وعصاه وأنفذنا أقضى القضاة قطب الملة والدين الأتابك بهاء الدين اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفوهم طريقتنا ويتحقق عندهم ما تنطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا وبينا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة وأن الإسلام يجب على ما قبله وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ونشاهد أن عظيم نعمة الله للكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان أن لا يحرموها بالنظر إلى سائر الأحوال فكل يوم هو في شان فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد وحجة يثقون بها من بلوغ المراد فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره وعن أثره فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره في إيراه كل أمر أصدره تقديماً لناموس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيماً.

وأدخلنا السرور إلى قلب الجمهور وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عما سلف وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها ومنعنا أن يلتمس شيء مما استحدث عليها وأن لا يغير أحد شيئاً مما قرر أولاً وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج وتجهيز وفدها وتأمين سبلها وتسيير قوافلها وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم وحرمنا على العساكر والقراغولات والشحاني في الأطراف التعرض لهم في مصادرهم ومواردهم وقد كان قراغول صادف جاسوساً في زي الفقراء كان سبيله أن يهلك فلم نهرق دمه لحرمة ما حرمه الله تعالى وأعدناه إليه.

ولا يخفى عنهم ما كان في إنقاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين فإن عساكرنا طالما رأوهم في زي الفقراء والنساك وأهل الصلاح فساءت ظنونهم في تلك الطوائف فقتلوا منهم من قتلوا وفعلوا بهم ما فعلوا وارتفعت الحاجة بحمد الله إلى ذلك بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردد التجار فإذا امتنعوا الفكر في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنها أخلاق جبلية طبيعية وعن شوائب التكلف والتصنع عرية.

وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرة التي كانت موجبة للمخالفة فإنها إن كانت طريقاً للذب والذود عن حوزة الإسلام فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين وإن كانت لما سبق من الأسباب فمن يتحرى الآن طريق الصواب فإن له عندنا لزلفى وحسن مآب.

وقد رفعنا الحجاب وأتينا بفضل الخطاب وعرفناهم طريقتنا وما عزمنا بنيةٍ خالصةٍ لله تعالى على استئنافها وحرمنا على جميع العساكر العمل بخلافها لنرضي الله والرسول ويلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول وتستريح من اختلاف كلمة هذه الأمة وتنجلي بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والغمة ويشكر سابغ ظلمها البوادي والحواضر وتقر القلوب التي بلغت من الجهل الحناجر ويعفى عن سالف الجرائر فإن وفق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح العالم وانتظام أمور بني آدم فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد وبذل الإخلاص بحث تعمر تلك الممالك وتيك البلاد وتسكن الفتنة الثائرة وتغمد السيوف الباترة وتحل العامة أرض الهوينى وروض الهدون وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون.

وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة منع معرفة هذه النعمة فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً " والله تعالى الموفق للرشاد والسداد وهو المهيمن على البلاد والعباد إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة كتاب على الطريقة الثانية كتب بها السلطان محمود غازان صاحب إيران أيضاً إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية وهي: بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمدية فرمان السلطان محمود غازان ليعلم السلطان الملك الناصر أنه في العام الماضي بعض عساكرهم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا كماردين ونواحيها وجاهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهليها وأقدموا على أمور بديعة وارتكبوا آثاماً شنيعة من محاربة الله وخرق ناموس الشريعة فأنفنا من تهجمهم وغرنا من تقحمهم وأخذتنا الحمية الإسلامية فجذبتنا إلى دخول بلادهم ومقابلتهم على فسادهم فركبنا بمن كان لدينا من العساكر وتوجهنا بمن اتفق منهم أنه حاضر قبل وقوع الفعل منا واشتهار الفتك عنا سلكنا سنن سيد المرسلين واقتفينا آثار المتقدمين واقتدينا بقول الله: " لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " وأنفذنا صحبة يعقوب السكرجي جماعة من القضاة والأئمة الثقات وقلنا: " هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة " فقابلتم ذلك بالإضرار وحكمتم عليه وعلى المسلمين بالإضرار وخالفتم سنن الملوك في حسن السلوك وصبرنا على تماديكم في غيكم وخلودكم إلى بغيكم إلى أن نصرنا الله وأراكم في أنفسكم قضاه " أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله " وظننا أنهم حيث تحققوا كنه الحال وآل بهم الأمر إلى ما آل أنهم تداركوا الفارط من أمرهم ورتقوا ما فتقوا بغدرهم ووجه إلينا وجه عذرهم فإنهم ربما سيروا إلينا حال دخولهم إلى الديار المصرية رسلاً لإصلاح تلك القضية فبقينا بدمشق غير مثحثحين وتثبطنا تثبط المتمكنين فصدهم عن السعي في صلاح حالهم التواني وعلقوا نفوسهم عن اليقين بالأماني ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام إنهم فيما بعد يلقوننا على حلب والفراه وأن عزمهم مصر على ذلك لا سواه فجمعنا العساكر وتوجهنا للقاهم ووصلنا الفرات مرتقبين ثبوت دعواهم وقلنا لعل وعساهم فما لمع لهم بارق ولا ذر شارق فقدمنا إلى أطراف حلب وعجبنا من تبطيهم غاية العجب وفكرنا في أنه متى تقدمنا بعساكرنا الباهرة وجموعنا العظيمة القاهرة ربما أخرب البلاد مرورها وبإقامتهم فيها فسدت أمورها وعم الضرر العباد والخراب البلاد فعدنا بقياً عليها ونظرة لطف من الله إليها.

وها نحن الآن مهتمون بجميع العساكر المنصورة ومشحذون غرار عزائمنا المشهورة ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات وقد سيرنا حاملي هذا الكتاب الأمير الكبير ناصر الدين الحصار وعازمون بعد الإنذار " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً " علي خواجا والإمام العالم ملك القضاة جمال الدين موسى بن يوسف وقد حملناهما كلاماً شافهناهما به فلتثقوا بما تقدمنا به فلتعدوا إليهما فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما في الديوان كما قال الله تعالى: " فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين " لنا الهدايا والتحف كما بعد الإنذار من عاذر وإن لم تتداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالهم مطلوبة بتدبيرهم ومطلوبة عند الله في طول تقصيرهم.

فليمعن السلطان لرعيته النظر في أمره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من ولاه الله أمراً من أمور هذه الأمة فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم احتجب دون حاجته وخلته وفقره ".

وقد أعذر من أنذر وأنصف من حذر والسلام على من اتبع الهدى في العشر الأوسط من شهر رمضان سنة سبعمائة بجبال الأكراد والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى وآله وصحبه وعترته الطاهرين.

قلت: وقد تقدم جواب هذين الكتابين في الكلام على المكاتبات على القانات ببلاد الشرق من بني جنكزخان فلينظر هناك.

الطرف الثاني في المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل الشرق من المملوك والحكام بالبلاد أتباع القانات ومن في معناه.

الطرف الثالث في المكاتبات الواردة عن صاحب اليمن إلى هذه المملكة وعادة مكاتبته أن يحذو حذو الديار المصرية فيما يكتب إليه عنها فيبتدئ المكاتبة بلفظ: أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف العالي المولوي السلطاني الفلاني بلقب السلطنة ثم يقول أصدرها من مكان كذا يذكر المقصد ويختم بالدعاء ونحوه ويكتبون بالقطع الشامي الكامل بقلم الثلث.

وهذه نسخة كتاب عن الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن إلى الملك الظاهر برقوق صاحب الديار المصرية في شهور سنة ثمان وتسعين وسبعمائة على يد القاضي برهان الدين المحلي تاجر الخاص والطواشي افتخار الدين فاخر دوادار الملك

الأشرف صاحب اليمن المذكور وهو: أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف العالي السلطاني الظاهري وزاده من البسطة والقدرة وضاعف له مواد الاستظهار والنظر العزيز وجعل الظفر مقروناً برایاته أينما يممت ما بينهما تمييز ومحبوباً على عساكره المنصورة حيث توجهت وفتح ببركة أيامه كل مقفل ممتنع بأمر وجيز ولا زال متمثل الأوامر والمراسيم رافلاً في أردان العز والمكارم ممدوداً على الأمة منه ظل المراحم بمنه وكرمه.

أصدرها إليه زبدة زبيد المحروسة معربة عن صدق ولائه متمسكة بوثيق أسباب آلائه ناشرة طيب ثنائه مترجمة ناظمة لمنثور الكتاب الكريم الظاهري الوارد على يد المجلس العالي البرهاني بتاريخ ذي الحجة عظم الله بركاتها سنة سبع وتسعين وسبعمائة أحسن الله خاتمتها فتلقيناه باليدين ووضعناه على الرأس والعين واستدللنا به على شريف همته وصفاء مودته وتأكيد أخوته وسألنا الله تعالى على أن يمتعنا ببقاء دولته القاهرة وينشر في المشارق والمغارب أقلامه الزاهرة ففضضنا ختامه فوجدنا فيه من نشر السلم الأريج أذكاه ومن أنوار ما مجه القلم الشريف ما يخجل منه نوار الربيع وبهاء فانشرحت به الصدور وتزايد به السرور وقرت به الأعين وكثر التهجد به لما استعذبته الألسن وامتثلنا المرسوم الشريف في تعظيم المجلس العالي ذي الجلالتين برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلي ومراعاته في جميع أموره وسرعة تجهيزه على أنا نجله ونبجله ونوجب حقه ولا نجهله فهو عندنا كما كان في عهد الوالد المرحوم الملك الأفضل بل أمكن وأفضل فهو لدينا المكين الأمين وجهزنا له المتجر السعيد الظاهري وبرزت مراسمنا إلى النواب بثغر عدن المحروس أن لا يعترض في عشور ونول وجملناه على ظهور مراكبنا عزيزاً مكرماً وعرفناه أن لا يصرف على الحمل السعيد ولا الدرهم الفرد وذلك قليل منا لا جل غلمان بابكم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه وجهزنا الهدية السعيدة المباركة المتقبلة صحبته هو والأمير الأجل الكبير الافتخاري افتخار الدين فاخر الداوادار وصارت بأيديهما بأوراق مفصلة للمقام الشريف والأمراء الأجلاء الكبراء وصحبتهما نفر من المعلمين البازدارية برسم حمل الطيور للصيد السعيد والمهتارية للصافنات الجياد على أنا لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهري أعز الله أنصاره بمقدار همته الشريفة العالية ورتبته المنيفة السامية لاستصغرت الأفلاك الدائرة والشهب السائرة واستقلت السبعة الأقاليم تحفه والأرض وما أقلته طرفه ولم نرض أن نبعث إليه الأنام مماليك وخولاً ونجبي إليه ثمرات كل شيء قبلاً ولو رام محب المقام هذه القضية لقصر عنه حوله ولم يصل إليه طوله ولكنه يرجع إلى المشهور بين الجمهور فوجدنا العمل يقوم مقام الاعتماد وليس على المستمر على الطاعة سوى الاجتهاد والمخلص في الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد فوثق بهذه القضية وأنفذ إلى المقام الشريف على يد موصلها هذه الهدية راغباً إلى إنعامه في بسط عذره وحمله على شروط المحبة طوال دهره وتصريفه بين أوامره الممتثلة ومراسيمه المتقبلة والمسؤول الإتحاف بالمهمات والمراسيم الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها.

ونوضح لعلمه الكريم ما أفاء الله به علينا من النصر الذي خفقت بنوده وأشرقت سعوده وبرقت سيوفه في رقاب المارقين واطردت في راياته المآرب فتناولها باليمين " نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين " وفتح القلاع والمصانع والاستيلاء على المرابع والمزارع واستئصالنا شأفة المارقين واسترجاع حصن قاف المحروس بعد طول مكثه تحت يد العرب فكم من كمي مقتول وأسير مكبول وحصان ترك سبيلها ورب حصان كثر عليه عويلها فخربنا المعاقل وأطلقنا العقائل وأوطناهم وغير ذلك مما أرسلنا الحميم " وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم " على يد المجلس البرهاني والأمير افتخار الدين فاخر الداوادار لقضاء بعض الحوائج الطارئة من الديار المصرية ألف وأربعمائة وسبعون قطعة من أصناف البهار وسبع قطع حرير والمستمد من إحسان المقام الشريف العالي بروز أمره الشريف العزيز النافذ المطاع أنفذ الله تعالى شرقاً وغرباً وأمضاه بعداً وقرباً في قضاء حوائجهما وسرعة تجهيزهما وقفولهما على يمن اليمن وعز وتعز قريباً.

وبعد فإن الجلالة والاحترام بهما دوام الموالاة وتوفير الحرمات بل هي أعظم الكرامات والمسؤول من المقام الشريف الظاهري أعز الله تعالى أنصاره وضاعف اقتداره بروز أمره الأشرف إلى النواب بمصر المحروسة وثغر الإسكندرية والشام بالجلالة والاحترام لكافة غلماننا الواردين إلى الديار المصرية ومن انتسب إلينا من تاجر وغيره مسافراً كان أم مقيماً وأن يعار في مهماته جلالة تفيأ ظلالها ويشمله إقبالها كما سبق للوالد المرحوم المقدس الملك المجاهد تغشاه الله برحمته بل نرجو فوق ذلك مظهراً إن شاء الله فثم خطوط ناصرية من السلطان حسن والملك الصالح لخدامنا الدماء لما أرسلوا إلى الإسكندرية ودمشق كتب لهم مربعات ومثالات شريفة ولا غرو أن يبدي المستعطي ما في ضميره إلى المعطي والاشتهار بما بيننا وبين المقام الشريف من الأخوة الممهدة والمصافاة المؤكدة والمودات المحكمة والأسباب الثابتة أوجب ذلك وحسن الظن الجميل نطق به لسان الحال في هذا الاسترسال ولم يخف عن المقام الشريف أن لله عوارف يجذب بها القلوب إليه ولطائف خفية يستدل بها المحب عليه وتعاطي كأس الوداد يدل على حسن الاعتقاد ولذلك نطق اللسان وكتب البنان بما افترض على عباده الرحمن فقال في محكم كتابه المبين: " ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين "

ومحب المقام الشريف يقدم الكتاب ويسأل الجواب بالإذن الشريف ليعتمد بعد الله عليه في حج البيت الحرام عند تسيير الله تعالى لذلك فقد حسن ظنه بذلك وركن إليه لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام فلا زالت أيام المقام الشريف على منابر الدنيا تتلى وآيات الشكر لله سبحانه على استقراره في الملك العقيم تملى.

جميع هذا الخطاب مقدمة الإيجاب بالإذن بالحج وتسفير المحمل في كل عام إلى بيت الله الحرام فحاج اليمن تعذرت عليه الطرقات ولم يطق حمل النفقات ونرجو من الله تعالى أن يفتح ببركة أيامه الشريفة وشمول الفكر الشريف بحل عقدة هذه الأسباب إنه هو الكريم الوهاب بمنه وكرمه.

وأما ما نعتقده من أمانة المجلس البرهاني فإنها متينة وشواهدها من أقواله وأفعاله مبينة خصوصاً في المقام الشريف واستمالته للقلوب بالعبارات اللطيفة فقد نظم مقاعد الائتلاف وتزايد بشرحه الأنس في محاورته والاختلاف ولولا المهم الشريف لاستوقفناه عندنا عاماً كاملاً من بعد هذا التاريخ ليملي علينا آيات المقام الشريف شرفه الله تعالى وعظمه.

وعلى لسانه ما يبديه في المواقف الشريفة شفاهاً إن شاء الله تعالى.

في سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وسبعمائة أحسن الله تعالى ختامها والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً.

قلت: أما إمام الزيدية باليمن فلم أقف على مكاتبة وإن كان المقر الشهابي بن فضل الله قد أشار في كتابه التعريف إلى أنه ورد عنه مكاتبة إلى الأبواب السلطانية الناصرية محمد بن قلاوون يستجيشه على صاحب اليمن والغالب على الظن أن مكاتبته أعرابية كما أن إمارته أعرابية إذ لا اعتناء لأهل البادية وعربان الوادي بفن الإنشاء جملة وإنما يكتب عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم على أن فيما يأتون به مقنعاً من الفصاحة والبلاغة بكل حال إذ عنهم قد علم اللسان وعليهم فيه يعول.

الطرف الرابع في الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن ملوك الهند قد تقدم أن المكاتبة إلى صاحب الهند تشبه المكاتبة إلى القانات العظام بإيران وتوران وتقدم أن الكتب الواردة عن القانات المذكورين تكون في معنى الكتب الصادرة إليهم في قطع الورق والترتيب من حيث أن الغالب جريان العادة في الأجوبة بأن تكون على نمط الكتب الواردة وحينئذ فيكون مقتضى ذلك أن الكتب الواردة من صاحب الهند في هيئة الكتب الصادرة إليه في قطع الورق وغيره فتكون في البغدادي الكامل بقلم مختصر الطومار بالطغراء والخطبة المكتتبتين بالذهب إلى ما جرى مجرى ذلك مما تقدم ذكره في المكاتبات إلى القانات.

قلت: ولم أقف على صورة مكاتبةٍ من ذلك ولا على نسخة شيء ورد لكن قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية عند ذكر مملكة الهند أن في جملة ممالك الهند مملكة تعرف بالسيلان وقد رأيت في تذكرة محمد بن مكرم التي جمعها في وقائع ديوان الإنشاء بالديار المصرية أنه في سنة اثنتين وثمانين وستمائة وصل كتاب من صاحب السيلان هذه في صفيحة ذهب رقيقة عرض ثلاثة أصابع في طول نصف ذراع وحوله مدورة حلقة داخلها شبيه بالخوص أخضر عليه كتابة تشبه الخط الرومي أو القطبي فطلب من يقرأه فلم يوجد فسئل الرسل عما هو مكتوب فيها فقيل: إنه سير رسوله رومان ورفيقه وقصد أن يسير معهما الهدية إلى الباب الشريف فقيل له: ما لهم طريق.

فقال لهم: سافروا إلى هرمز فحضروا إليها وذكروا أن مضمون الكتاب السلام والدعاء للسلطان وأن البلاد السيلان مصر وبلاد مصر السيلان وأنه ترك صحبة صاحب اليمن مرة واحدة وتعلق بمحبة مولانا السلطان خلد الله ملكه وسأل أن يحضر رسول من عند مولانا السلطان إلى عنده صحبة رسله ورسول آخر إلى عدن ينتظر حضورهم من تلك الجهة على تلك الطريق وأن عنده الجواهر واللآلئ والفيلة والقماش الكثير من البز وغيره وكذلك البقم والقرفة وجميع ما يطلب الكارم وأن عنده في كل سنة عشرين مركباً يسيرها إليه فيطلق مولانا السلطان التجار إلى البلاد وأن رسول صاحب اليمن حضر في هذه السنة يتسلم التقادم والفيلة حتى يسافروا إلى اليمن فرده ولم يعطه شيئاً وإنه يعبي التقادم والفيلة على أبواب مولانا السلطان وأن بمملكة سيلان سبعاً وعشرين قلعةً وبها معادن الجوهر والياقوت ومغاص اللؤلؤ ولم يزد على ذلك ورأيت في كتاب الذيل على تاريخ ابن الأثير نحو ذلك وفيه ذكر البلاد التي مرت عليها رسل صاحب السيلان في طرقها.

المقصد الثاني في المكاتبات الواردة عن ملوك الغرب والعادة الجارية في الكتب الواردة عنهم أن تكون على نمط واحد في الورق مع تقارب الحال في الترتيب وتكون كتبهم في طومار واحد في عرض نحو شبرين في طول نحو ثلاثة أشبار والبسملة بعد بياضٍ نحو شبر وثلاثة أصابع مطبوقة من أعلى الطومار وعرض سبعة أصابع مطبوقة عن يمين البسملة والسطور

منحطة الأوائل مرتفعة الأواخر حتى يصير البياض الذي في أعلاها في آخر سطر البسملة قدر شبر فقط وبين كل سطرين قدر عرض إصبع ونصف إصبع وكل سطر ينقص عن الذي فوقه قليلاً من جهة اليمين على التدريج حتى يكون السطر الآخر قطعة لطيفة في زاوية الطومار التي على اليسار إلى أسفل ثم يكتب بحاشية الطومار من أسفله آخذاً من آخر السطر الأخير ويكون بين ذلك وبين الكتابة الأصلية قدر رأس خنصر ويبتدئ السطر الأول منها بقطعة لطيفة منحطة الأول مرتفعة الآخر ثم السطر الثاني قطعة أطول من ذلك ولا يزال كذلك حتى يكمل السطر فيكتب أسطراً كاملة إلا أنه في أول سطر ينقصه قليلاً عن الذي قبله حتى يكون السطر الأخير قدر الأنملة في زاوية الطومار من جهة البسملة ويكون بين كتابة الأصل وبين كتابة الحاشية قدر إصبعين بياضاً إلى سمت البسملة أسطراً متضايقة حتى ينتهي إلى آخر الكلام ويكتب في آخره بقلم الثلث: وكتب في التاريخ المؤرخ ويزاد فيه هاء مشقوقة راجعة إلى الخلف وفيه جمل: الجملة الأولى في المكاتبة الواردة عن صاحب يونس وعادة مكاتبته أن تفتتح بلفظ: من عبد الله الفلاني بلقب الخلافة الخاص به أمير المؤمنين ابن فلان.

ويقال في كل من آبائه أمير المؤمنين إن كان قد ولي الخلافة ويدعى له إلى أخينا فلان ويؤتى وهذه نسخة كتاب عن المتوكل على الله أحمد بن أبي عبد الله بن أبي بكر إلى السلطان الملك الظاهر برقوق صاحب مصر جواباً عن كتابه إليه.

وهو: من عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين أحمد ابن مولانا الأمير أبي عبد الله ابن مولانا أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ابن الأمراء الراشدين أعلى الله به كلمة الإسلام وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام وغض عن جانب عزه عيون حوادث الأيام.

إلى أخينا الذي لم نزل نشاهد من إخائه الكريم في ذات الرب الرحيم قبلة صفاء لم تغيرها يد بعاد ولا انتزاح ونثابر من حفظ عهده والقيام بحق وده على ما يؤكد معرفة الخلوص من لدن تعارف الأرواح ونبادر إلى ما يبعث القلوب على الائتلاف والأمن بفضل الله من عوائق الاختلاف وإن شحطت الدار وتناءت الصور والأشباح.

ونتعرف بما له من مزيد الإعظام بمجاورة البيت الحرام والقيام بما هنالك من مطالع الوحي الكريم ومشاعر الصلاح ونجتلى من أنوائه الكريمة الشريفة ومطالعه العالية المنيفة وجوه البشائر رائقة الغرر والأوضاح.

ونستهدي ما يسرنا من أنبائه ممن يرد من تلقائه حتى من أنوار الصباح وسفراء الرياح ونبتهل إلى الله بالدعاء أن يخبرنا عنه ويطلعنا منه على ما يقر عيون الفوز ويشرح صدور النجاح السلطان الجليل الطاهر الملك الأعظم الظاهر جمال الدين والدنيا مؤيد كلمة الله العليا سيف الملة المرهوب المضاء بيد القضاء وركنها الباسق العلاء في أوج عزها المنداح للفضاء المشهود له من لدن حل التمائم ولوث العمائم بالشهامة التي ترعب الأسد في أجمها وتستخدم له سائر الأمم تركها وعربها وعجمها المختار للقيام بحقه بين عباده في أرضه وبلاده الفائز من جوار بيت الله ومقام خليله ومشرع الحجيج إليه وتيسير سبيله بما أحرز له سعادة الدارين وعز المقامين كوكب السعد الذي شقيت به أعداؤه وبدر الدين الذي استضاءت به أنحاؤه ميزان العدل لإنصاف الحقوق وشمس الهداية النيرة الغروب والشروق أبي سعيد برقوق وصل الله له رتبة راقية يتبوأ محلها ونعمة باقية يتفيأ ظلها وعزة واقية تسم وجوه أعدائه خسفها وذلها بمنه وكرمه.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد حمد الله ناظم الشمل وقد راب نثره وشتاته وجابر الصدع وقد اتسعت عن الجبر جهاته وراد الأمر وقد أعيا ذهابه وفواته وواصل الحبل وقد استولى انقطاعه وانبتاته العالم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة مما تكنه أرضه وسمواته الذي قرن بالعسر يسراً وجعل لكل شيء قدراً فلا تتحرك ذرة إلا بإذنه ولا يكون في ملكه إلا ما تنفذه أحكامه وإرادته.

والصلاة والسلام الأكملين على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي صدعت بالحق آياته وقامت بحجة دعواه معجزاته ونطقت بأنه رسول الله على لسان وحيه الصادق الأمين كلماته المبعوث بالملة السمحة من أزكاها حج بيت الله المقدسة أركانه وحجراته المعظمة عند الله حرماته المغفورة لمن سبقت له الحسنى بحجة سيئاته وعلى آله وأصحابه الذين قضوا رضي الله عنهم وهم أولياء دينه الكريم وولاته وأنصار حزبه المفلح وحماته وليوث دفاعه في صدور الأعداء وكماته والرضا عن الإمام المهدي القائم بهذه الدعوة الموحدية قيام من خلصت لله نياته وصدقت في ذاته دعواته وصممت لإظهار دينه القويم عزماته وصلة الدعاء لهذا المقام الأحمدي المتوكل الفاروقي بنصر تمضي به في صدور أعدائه شباته وعز يطرد به استقلاله وثباته وسعد تطيب به أيامه المتصلة وأوقاته وتطول به حياته.

فإننا كتبنا لسلطانكم كتب الله لكم من إسعاده ما يتكفل بعزه ونصره ويتضمن إطالة زمنه المبارك وعصره ويقوم بحفظ قطره الشريف ومصره من حضرتنا العلية تونس كلأها الله تعالى ووجوه نصر الله العزيز لدينا وضاحة الأسرة متبجلة الصور وآيات فتحه المبين ولله المنة محكمة السور أحاديث الشكر على نعمه سبحانه مسلسلة الخبر وبشرنا بما من الله به عليكم قد عمل بمقتضاه من تحت إيالتنا الكريمة من البشر.

وإلى هذا فموجبه إليكم بعد تقريب حب شرعت في ملة الوفاء قواعده وقبل في عهد الصفاء شاهده واستقل بصلة الخلوص عائده وثبت في مرسوم الصداقة الصادقة زائده إعلامكم أنا علم الله من حين اتصل بنا خبركم الذي جره القدر المقدور وجرى به في أم الكتاب الحكم المسطور لم نزل نتوجه إلى الله تعالى في مظان قبول الدعاء ورفع النداء بأن يجبركم بفضله من حيث صدع ويصلكم بخيره إثر ما قطع ويعطيكم من نعمته أضعاف ما منع إلى أن دارك الله بلطفه وأجاب وتأذن بفضله في قبول الدعاء بظهر الغيب وهو مستجاب فرد عليكم ملككم وصرف إليكم ملككم فأخذ القوس باريها وفوق السهم مقرطسها وراميها وأنفذ القضايا حكمها ومفتيها وإذا كان العويل يفضي إلى النجدة والبلا يقضي بالجدة والفرج يدافع في صدر الشدة فلا جرم غفر الله للأيام ما اقترفت لما أنابت واعترفت وهل هو إلا التمحيص الإلهي أراكم الله من باطن الضراء سراءكم وأجزل من جانب الغماء نعمائكم والتبر بعد السبك يروق النواظر خلاصة نضاره والبدر بعد السرار تتألق أشعة أنواره.

ولما جاءنا بنصركم البشير وطلع من ثنية الهناء بأكمام السرور إلينا يشير هززنا له أعطاف الارتياح وتلقينا منه وارد التهاني والأفراح وحمدنا الله لكم على ما من به من الفوز والنجاح ورأينا أن تهنئتكم به من فروضنا المؤكدة وعهودنا المجددة وأنه لا يقوم به عنا هنالكم ويؤدي ما يجب منه بين يدي كرسي جلالكم إلا من له من ديار الملوك قرب الأدب والسلوك فاقتضى وقد كان منذ أعوام يتطارح علينا في أن نخلي للحج سبيله ونبلغه من ذلك مأموله ويد الضنة لا تسمح به طرفة عين ونفس الاغتباط لا تجيب فيه دواعي البين إلى أن تعين من تهنئتكم الكريمة ما عينه وسهل شأنه علينا وهونه فوجهناه والله تعالى يسعد وجهته ويجعل حجته لقبول الأعمال حجته.

وحملناه من أمانة الحب ما يلقي إليكم ومن حديث الشوق ما يقص أخباره عليكم ومن طيب الثناء ما يفض ختامه بين يديكم وأصحبناه برسم إصطبلاتكم الشريفة ما يسر الحب سبيلها وأوضح الخلوص دليلها ورجونا من فضلكم على نزارتها قبولها إذ لو كانت الملوك تهادى على قدر جلالها لما اتسعت لذلك خزائن أموالها لكنها عنوان الحب السليم حسب ما اقتضاه الحديث النبوي الشريف.

في أثناء شروعنا في ذلك وسلوكنا من أيمن المسالك وصل إلينا كتابكم الكريم تعرف النواظر في وجوه بشائره نضرة النعيم فاطلعنا منه على ما راق العيون وصفاً ونعتاً وعبر للخلوص سبيلاً لا ترى القلوب فيها عوجاً ولا أمتاً ولله هو من كتاب كتب من البيان كتائب واستأثر بفلك الإجادة فأحرز به سعادة الكاتب فقسماً بالقلم وما سطر! والحبر وما حبر! لو رآه عبد الحميد لتركه غير حميد أو بصر به لبيد لأعاده في مقام بليد ولو قص على قس إيادٍ فصاحته لنزله عن منبر خطابه بعكاظ أو سحب على سحبان وائل ذيل بلاغته لأراه كيف يتولد السحر ولما استقرينا من فحواه وخطابه الكريم ونجواه تشوقكم لأخبار جهادنا وسروركم بما يسنيه من ذلك ببلادنا رأينا أن نتحف أسماعكم منه بما قرت به أعين الإسلام وأثلج صدور الليالي والأيام وذلك أنا من حين صدر من عدو الملة في الجزيرة ما صدر حسب ما جره محتوم القدر لم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حرمه وحماه ونطرق طروق الغارة الشعواء بلاده وقراه ونكتسح بأيدي الاستلاب ما جمعت به يداه إلى أن ذاقوا من ذلك وبال أمرهم وتعرفوا عاقبة مكرهم.

وكان من جزائرهم المعترضة شجاً في حلوق الخطار ومتجشمي الأخطار وركاب البحار من الحجاج التجار جزيرة غودش وبها من أعداء الله جم كثير وجمع كبير فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غرباناً نعقت عليهم بالمنون وعرفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون وشحناها عدداً وعدداً واستمددنا لها من الله ملائكة سمائه مدداً فسارت تحت أجنحة النجاح إليها وتحوم إلى أن رمت مخالب مراسيها عليها فلما نزلوا بساحتها وكبروا تكبيرة الإسلام لإباحتها بهت الذي كفر وود الفرار والحين يناديه: أين المفر فلما قضى السيف منهم أوطاره وشفى الدين من دمائهم أواره وشكر الله من المسلمين أنصاره عمدوا على ما تخطاه السيف من والدٍ وولد ومن أخلد إلى الأرض من رجالهم عن المدافعة فلم يعترضه بالقتل منهم أحد فجمعوا منه عدداً ينيف بعد الأربعمائة على الأربعين وجاؤوا بهم في الأصفاد مقرنين وامتلأت بغنائمهم والحمد لله أيدي المسلمين وانقلبوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين إلى أن دخلوا حضرتنا العلية بسلام آمنين.

فعرفناكم بهذا الفتح لتأخذوا بحظكم من شكر الله عليه وتتوجهوا في مثله بصالح أدعيتكم إليه وهو سبحانه وتعالى يطلعنا ويطلعكم على ما يسر النفوس ويهنّيها ويجلو البشائر ويبديها بمنه وكرمه والسلام العطر المحيا الجميل المحيا عائد عليكم ورحمة الله وبركاته.

الجملة الثانية في المكاتبات الواردة عن صاحب تلمسان من بني عبد الواد ورسم مكاتبته فيما وقفت عليه في المكاتبة الواردة على صاحب الديار المصرية أن يبتدأ الكتاب بقوله: إلى الحضرة الفلانية حضرة فلان بالألقاب المعظمة المفخمة ثم يدعى له بما يناسب الحال ويؤتى بخطبةٍ ثم بالسلام ويقع الخطاب في أثناء الكتاب بالإخاء بلفظ الجمع ويختم بالدعاء المناسب.

كما كتب عبد الرحمن بن أبي موسى بن يغمراسن إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة خمس وعشرين وسبعمائة: إلى الحضرة العالية السامية السنية الماجدة المحسنة الفاضلة المؤيدة المظفرة المنصورة المالكة حضرة السلطان الملك الجليل الفاضل المؤيد المنصور المظفر المعظم ناصر الإسلام ومذل عبدة الأصنام الذي أيده الله بالبراهين القاطعة والأنوار المنيرة الساطعة الأعلى الأوحد الأكمل الأرفع الأمجد الأسمى الأسرى ذي المجد الظاهر والشرف الباهر الملك الناصر ابن السلطان الملك الجليل العادل الفاضل المؤيد المظفر الأعلى الأوحد الأكمل الأرفع الأمجد الأسنى الأسمى ناصر الإسلام والمسلمين ومعلي كلمة الموحدين المقدس المرحوم ذي المجد المشهور والفخر المنشور والذكر المذخور الملك المنصور أدام الله علو قدره في الدنيا والآخرة وأسبغ عليه نعمه باطنة وظاهرة وجعل وجوه محاسنهم في صفحات الدهر سارة سافرة وصفقة أعدائهم خائبة خاسرة.

وبعد حمد الله الذي أظهر الأمر العلي الناصري وأيده وبسط في قول الحق وفعله لسانه ويده وسدد نحو الصواب منحاه كله ومقصده والصلاة التامة المباركة على سيدنا محمد رسوله المصطفى الذي خصه الله بعموم الدعوة وأفرده وقرن ذكره بذكره فأبقاه أبد الدهر وخلده والرضا عن آله الكرام وصحابته الأعلام الذين حفظوا بالتوقير والتعزيز مغيبه ومشهده كانوا عند استلال السيوف ومجال الحتوف عدده المظفر وعدده الدعاء لكم المقام الشريف بسعد يطيل في شرف الدين والدنيا مدده وأمده.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته من أخيكم البر بكم الحريص على تصافيكم عبد الرحمن بن أبي موسى بن يغمراسن وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم أنجح المقاصد وأرجحها وأثبتها عزاً وأوضحها من حصن تلمسان حرسها الله تعالى ولا ناشيء بفضل الله تعالى إلا ما عود من بشائر تحث جيادها ومسار يتطاول إلى المزيد اعتيادها وإلى هذا أعلى الله كلمتكم وأمتع المسلمين بطول بقائكم فإنا نعرفكم بطول كتابكم الخطير الأثير فتلقيناه بما يجب من التكريم والتعظيم وتتبعنا فصوله واستوعبنا فروعه وأصوله وتحققنا مقتضاه ومحصوله وعلمنا ما انطوى عليه من المنن والإفضال واشتمل عليه من التفصل والإجمال ومن أعظم ذكر إذنكم لنا في أداء فرض الحج المبرور وزيارة سيد البشر الشفيع في المحشر الذي وجبت له نبوته ومثنى الغيب عليه منسدل وأدام صلوات الله عليه في طينته منجدل وعلم الله أننا لم تزل آمالنا متعلقة بتلكم المشاعر الكريمة وقلوبنا متشوقة إلى تلكم المشاهد العظيمة فلنا في ذلك نيات صادقة التحويم وعزمات داعية التصميم وكان بودنا لو ساعدنا المقدار وجرى الأمر على ما نحبه من ذلك ونختار أن نمتع برؤية المواطن التي تقر أبصاراً ويتشفى بها إيراداً وإصداراً ولعل الله تعالى ينفعنا بخالص نياتنا وصدق طوياتنا بمنه وكرمه.

وقد وجب الشكر علينا من كل الجهات واتصلت المحبة والمودة طول الحياة غير أن في قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيرنا واستئناسكم ونحن والحمد لله أعلم الناس بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف ولنا القدرة على القيام بواجبكم والوفاء بكريم حقكم وليس بيننا وبين بلادكم من يخشى والحمد لله من كيده ولا يبالي بهزله ولا جده وقد توجه إلى بابكم الشريف قرابتنا الشيخ الصالح الحسيب الأورع الأكمل الزاهد أبو زكريا يحيى ابن الشيخ الصالح المرابط المقدس المرحوم أبي عبد الله محمد بن جرار الوادي وهو من أهل الدين والخير وقد شافهناه بما يلقيه إلى ذلكم المقام الشريف من تقرير الود والإخاء والمحبة والصفاء مما يعجز عنه الكتاب فالمقام الشريف يثق إلى قوله ويعامله بما يليق ببيته ودينه وغرضنا أن تعرفوه بجميع ما يصلح لذلكم المقام الشريف مما في بلادنا ويصلكم إن شاء الله في أقرب الأوقات على أحسن الحالات ولكم بذلك علينا المنة العظمى والمزية القصوى والله تعالى يبقي ذلكم المقام الشريف محروس المذاهب مشكور المناقب إن شاء الله تعالى.

الجملة الثالثة في المكاتبات الواردة عن صاحب فاس إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية وعادة كتبهم أن تفتتح بلفظ من عبد الله فلان أمير المسلمين.

وأول من كتب منهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حين استولى على المغرب قبل بني مرين خضوعاً أن يتلقب بأمير المؤمنين مضاهاة للخلفاء وهو: من عبد الله علي أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين ملك البرين ومالك العدوتين أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ملك البرين وسلطان العدوتين القائم لله بإعلاء دين الحق أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق منح الله التأييد مقامه وفسح لفتح معاقل الكفر وكسر جحافل الصفر أيامه.

إلى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل الفاضل الكامل الحافل المالك الناصر المجاهد المرابط المثاغر المؤيد المظفر المنصور الأسعد الأصعد الأرقى الأوقى ناصر الدنيا والدين وقامع البغاة والمعتدين مفيد الأوطار مبيد الكفار هازم جيوش الأرمن والفرنج والكرج والتتار ماليء صدور البراري والبحار حامي القبلتين خديم الحرمين غيث العفاة عون العناة مصرف الكتائب مشرف المواكب ناصر الإسلام ناشر الأعلام فخر الأنام ذخر الأيام قائد الجنود عاقد البنود حافظ الثغور حامي الجمهور نظام المصالح بقية السلف الصالح ظهير الخلافة وعضدها ولي الإمامة وسندها عاضد كلمة الموحدين ولي أمير المؤمنين أبي المعالي محمد بن السلطان الكبير الجليل الشهير الشهيد الخطير العادل الفاضل الكامل الحافظ الحافل المؤيد المظفر المعظم المبجل المكبر الموقر المعزز المجاهد المرابط المثاغر الأوحد سيف الدين قلاوون أدام الله فضل عزمه الماضي بتأييده وأدار الأفلاك بتشييد ملكه الشامخ وتمهيده وطهر أرجاءه من أرجاس المنافقين وأدناس المارقين بما يريق عليها من دمائهم فما كل متطهر يجزأ عنه غسل مائه أو تيمم صعيده.

سلام كريم طيب عميم أرج الشميم متضوع النسيم تستمد الشمس باهر سناه ويستعير المسك عاطر شذاه يخص إخاءكم العلي ووفائكم الوفي ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي أيد المؤمنين على عدوهم فأصبحوا ظاهرين وعرف الإسلام وأهله من السر العجيب والصنع الغريب ما فيه عبرة للمسلمين والناظرين حكمة عجزت عن فهم سرها المكتوم وقصرت عن كنهها المختوم ألباب عبيده القاصرين.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي أرشد به الحائدين الحائرين وأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله برغم الجاحدين الكافرين وعلى آله وصحبه الذين هاجروا إليه وبلادهم هجروا والذين آووا من أوى إليهم ونصروا والذين جاهدوا في الله فصبروا ففازوا بذكر المهاجرين والأنصار وأجر المجاهدين الصابرين وصلة الدعاء لحزب الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها بفضل لا يزالون معه لأعدائهم قاهرين وسعد لا ينفكون له بآمالهم ظافرين ونصر من عند الله وما النصر إلا من عند الله وهو خير الناصرين.

فإنا كتبنا لكم كتب الله لكم مجداً مديد الظلال وعضداً حديد الإلال وسعداً جديد السربال من منصورة تلمسان حرسها الله تعالى والصنائع الربانية تكيف العجائب وتعرف العوارف الرغائب وتشنف الأسماع بما تسمعها من إجزال المنوح والمواهب وتفوف الرقاع بما تودعها من أحاديث الفتوح الغرائب والحمد لله على ما يسر من المآرب وسهل من المواهب وإخاؤكم الصادق مبرور الجوانب مأثور المناقب مشرق الكواكب مغدق السحائب نامي المراتب سامي المراقب والله تعالى يبقيه في ذاته ويقيه من صرف الدهر وأذاته وإلى هذا وصل الله لكم سعداً جديدً وجداً سعيداً ومجداً حميداً وحمداً مجيداً فقد وصل كتابكم الأثير المزري بالمسك النثير فاجتلينا منه روضة جادها البيان فأمرعها ورادها البنان فوشعها واجتنينا من غصون سطوره ثمرات وداد ما أينعها إنباءً عما تلقاه الإخاء الكريم من قبل الشيخ الأجل أبي عبد الله محمد بن الجراح مما عنا تحمل وفي إلفائه وأدائه بحضرتكم الكريمة أحسن وأجمل وهو ما كان عليه عزم مولاتنا الوالدة ألحقها الله تعالى رضوانه وبوأها جنانه من حج البيت المحرم وزيارة القبر المعظم المكرم والصلاة بالمسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم وثالثها في شد الرحال للمسجد الأقصى ونعم المغتنم وقضاء النسك بتلك المناسك والمشاهد والتبرك بتلك المعالم المنيفة والمعاهد وما وصف مع ذلك بهذا الجانب الغربي ورصف في أمر قتالنا لكل مارق أبي وكافر حربي وما منحنا الله من نصر لقلوب أهل الإيمان مبهج ولصدور عبدة الصلبان محرج وإن الإخاء الكريم حصل له بذلك أبهى ابتهاج وحل منه محل القبول الذي انتهج له من اقتفى سبيل القصد أنهى انتهاج فعقد العزم على تلقي الوافد من تلقائنا والوارد رجاء أداء فرض الحج من أرجائنا بتسهيل سبيله وتيسير ارتحاله إلى بيت الله ورسوله وأنه متى وقع الشعور بمقدم المولاة رحمها الله تعالى على بلاده وقربها من جهاته المجودة من جود جوده بعهاده يقدم للخروج من يتلقى ركابها ويعتمد بالبر والتكريم جنابها حتى تحمد وجهتها الشريفة بجميل نظره وإيابها وقام عنا بما نوده من برها وساهم فيما تقدمه إلى الله عز وجل من صالح أجرها.

وقد قابلنا هذا الفضل من الشكر بأجزله ومن البر بأحفاه وأحفله وحصل لدينا بإزائه سليم ود وكريم إخائه من تخليص ولائه وتمحيص صفائه منا ما يزال عهده الأنيق في نهائه وعهده الوثيق في ازدياده ونمائه وغصنه الوريق في رونق غلوائه ولئن

كانت المولاة الوالدة قدس الله روحها وبرد ضريحها قد وافت بما قدمت عند الله من صالح العمل وماتت على ما أبرمته في قصد البيت الشريف في نية وأمل إذا كانت رحمة الله تعالى عليها قد تأهبت لذلك واعتدت لسلوك تلك المناسك وأداء ما فرض الله من السعاية والمناسك وعلى الله إجزال ثوابها وعنده نحتسب ما ألم فآلم من مصابها فإن لدينا ممن يمت بحرمة المحرم إلينا ويلزم بحق التربية علينا من يقوم عندنا مقامها ويروم من ذلك المقصد الشريف مرامها وسنوردها إن شاء الله تعالى على تلكم البقاع ونوردها من تلكم الأقطار والأصقاع ما يجعل بحسن نظركم مورده ومصدره ويطابق في جميل اعتنائكم وحفيل احتفالكم خبره ومخبره بفضل الله وعونه.

وأما تشويق ذلكم الإخاء المواصلة الكتب بسار الأنباء فإن من أقربها عهداً وأعذبها حديثاً يهادى ويهدى ما كان من أمر العاق قاتل أبيه الحال من إقليم تلمسان وممالكها بالمحل النبيه وذلك أن أسلافه بني زيان كانوا قد استولوا على هذه المملكة في سالف الزمان ولم يزل بينهم وبين أسلافي المحتومين على ملك المغرب الأقصى وقائع توريدهم الحمام وتذيقهم الموت الزؤام فيدعون المنازعة ويعودون للموادعة ثم لم يلبثوا أن ينكثوا ولم يصبروا أن يغدروا إلى أن كان من حصار عمنا المقدس المرحوم أبي يعقوب قدس الله تربته إياهم فأكثر موتهم وكدر محياهم وتمادى بهم الحصار تسع سنين وما كانوا غير شر ذمةٍ قليلين وهنالكم اتصلت بينكما المراسلة وحصلت الصداقة والمواصلة ثم حم موته وتم فوته رحمة الله تؤمه ورضوانه يشمله ويعمه فنفس خناقهم وعاد إلى الإبدار محاقهم وصرف القائم بعده عنهم حين عما كان هو رحمه الله قد طوعه من بلاد مغراوة وتحين فاتسعت عليهم المسالك وملكوا ما لم يكن فيه لأوائلهم طمع الممالك لكن هذا الخائن وعمه كانا ممن أسأرته الفتن وعم به فيها غوامر المحن فسلكا ولما سول الشيطان لهذا العاق قتل والده والاستيلاء على طارفه وتالده لم يقدم عملاً على إشخاص إرساله بحضرة مولانا المقدس أبي سعيد قدس الله مثواه وجعل الجنة مأواه في السلم راغباً وللحكم بموادعته طالباً فاقتضى النظر المصلحي حينئذ موافقته في غرضه وإن كان باطنه على مرضه فقوي أمره وضري ضره وشري شره ووقد تحت الرماد جمره وسرى إلى بلاد جيرانه الموحدين داؤه وطال عليهم تضييقه واعتداؤه واستشعر ضعفهم عن مدافعته ووهنهم عن مقاومته ومنازعته فبغى وطغى ولم يدر أن من فوقه سقب السماء رغا وباطن جماعة من عرب أفريقية المفسدين وجروا بحبل الأطماع إليها وأقام على بجاية عشرين سنة يشد على بجاية الحصار ويشن على أحواز تونس الغار حتى كان من هزيمة جيشه لصاحبها ما كان بممالأةٍ منهم ومن غيرهم من وراتيه مابن اللحياني وابن الشهيد وابن عمران فأدى ذلك صاحبها السلطان أبا يحيى أعزه الله تعالى أن بعث إلينا وزيره في طلب النصرة رسولاً وأوفد علينا أعز ولده أبا زكريا في إذهاب المضرة عنه دخيلاً فخاطبنا إذ ذاك هذا الخائن العاق مبصرين وبقوله تعالى: " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا مذكرين فما زادته الموعظة إلا شراً ولا أفادته التذكرة إلا بطراً وحين ذكر فلم تنفعه الذكرى وفكر فلم يتيسر لليسرى بينهما " فأزمعنا قدعه وأجمعنا رده وردعه. امتثلنا فيه أمر الله تعالى المرتب على قوله: " فإن بغت إحداهما على الأخرى "

وفي أثناء ذلكم وصل إلينا أيضاً سلطان الأندلس مستغيثاً على النصارى أعداء الله جيرانه على طاغيتهم المصر على عداوته وعداوتهم فجهزنا معه ولدنا عبد الواحد في أربعة آلاف من الأبطال وأمددناهم بما كفاهم من الطعام والعدة والمال فأجاز في سبتة إلى الخضراء عجلاً ولم يقدم على منازلة جبل الفتح عملاً وكان هذا الجبل الخطير شأنه منذ استولى عليه العدو قصمه الله في سنة تسع وستين شجاً في لهوات أهل العدوتين وغصة لنفوس الساكنين بالجهتين لإطلاله عليهما وإرساله جوارح جواريه إليهما تحطف من رام العبور ببحر الزقاق وما يقرب الملجأ إلى هذا المعقل المستقر من اللحاق فكم أرمل وأيتم وأثكل وأيم فأحاطت به العاديات السوابح براً وبحراً وأذاقت من به من أهماج الأعلاج شراً وحصراً إلى أن أسلموا المسلمين قهراً وقسراً ومنح الله حزبه المؤمنين فتحاً ونصراً وسمع الطاغية الغادر إجابة الله تعالى بأمره فطار بما قدر عليه من حشوده وجنوده إلى إغاثته ونصره فوصله بعد ثمانية أيام من تسليمه للإسلام فنزل بخيله ورجله إزاءه وأقسم بمعبوده لا يبرح فناءه حتى يعيد إليه دينه أو يلقى منونه دونه فأكذب الله زعمه وأوهن عزمه وأحنث يمينه وأقلع بعد شهرين وأيام مدلجاً وأسرع العود إلى مستقره واسأله كيف نجا وكان ذلك سبب إنابته للسلم وانقياده وإجابته لترك ما كان له على أصحاب غرناطة من معتادة وكانوا يعطونه ما ينيف على الأربعين ألفاً من الذهب في العام ضريبة ألزمهم الطاغية أداءها في عقد مصالحته أي إلزام فسمناه تركها وإسقاطها وألزمناه فيما عقدناه له من السلم أن يدع اشتراطها والحمد لله الذي أعز بنا دين الإسلام وأذل رقاب عبدة الأصنام وقد اعتنينا بتحصين حصن هذا الجبل تتميماً لها وتكميلاً وابتدأنا من تحصين أسواره وأبراجه بما يغدو على جبينه تاجاً وإكليلاً.

وكنا في هذه المدة التي جرت بها هذه الأحوال وعرت فيها هذه الأهواء والأهوال منازلين أخانا الممتنع بسجلماسة من بعض بلاد القبلة ومحاولين من إزاحة ضره والإراحة من شره ما فيه الصلاح والفلاح على التفصيل بالجملة لعثايته في الفساد ودعايته إلى العناد ومعاضدته صاحب تلمسان ومساعدته على البغي والعدوان فسهل الله افتتاحها وعجل من صنائعه الجميلة منها مباحها وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونصف ويسر الله تعالى في ذلك من بدائع الصنائع ما يقصر عنه كل نعت

ووصف وفي خلال تلكم المنازلة وحال تلكم المحاولة لاحت للخائن التلمساني فرصة جرع منها عصة إذ ظن أن عنه مشغولون وفي أمر ما عرض من سجلماسة وجبل الفتح معتملون فخرج من بلده على حين غفلة بالعزيمة والجد إلى حصن ماوريرت الذي هو بين بلاده وبلادنا كالحد فوجد هنالك ولدنا الأسعد تاشفين في ثلة من بني مرين آساد العرين فلما نذروا به ثاروا إليه مسرعين فنكص على عقبه ولم ير له جنة أوقى من هربه وعاد لذلك ثانية فلم تكن عساكرنا عن طرده وانية بل ردته في الحافرة وأنشدته بلسان حالها الساخرة.

سريع.

إن عادت العقرب عدنا لها وكانت النعل لها حاضرة ولما فرعنا والحمد لله من تلكم الشواغل وأرغنا من الخائن التلمساني ترك ما هو فيه من إثارة الفتن واغل فأعرض وأشاح وما لاحت عليه مخيلة فلاح نهدنا نحن أرضه لنجزيه بقرضه بجيوش يضيق عنها فسيح كل مدى وخيول تذر الأكم للحوافر سجداً تنقض على الأقران أمثال الأجدال وتقض الجنادل من حوافرها بأصلب من الجنادل فكلفنا بتسليم منازله منزلاً فمنزلاً وتسنم معاقله مقعقلاً فمقعلاً وجل رعاياه تقر بفضلنا وتفر من جواره إلى عدلنا ومن تمسك منهم بحبله أو سلك من الغي في سبله قاده السيف برغمه واستنزله على حكمه والعفو مع ذلك يؤمهم والإحسان يشملهم ويعمهم حتى لم يبق إلا معقله الأشب ومنزله الذي رأى أنه عن عين الشوائب محتجب قد شمخ أنفاً حمياً وصافح كفاً للثريا ولم يرص لهامته عمائم إلا الغمائم ولا لأنامل شرفاته خواتم إلا النجوم العواتم فنزلنا بساحه وأقبلنا على كفاحه وجعلنا نقذفهم من حجارة المجانيق بأمثال النيق ومن كيزان النفط الموقدة بأمثال الشهب المرصدة ومن السهام العقارة بأمثال العقارب الجرارة حتى غدت جدرانهم مهدومة وجسورهم مكلومة وثغور شرفاتهم في أفواه أبراجهم مهتومة وظلت الفعلة تشيد إزاء أبراجهم أبراجاً وتمهد منا لتسوير أسوارهم أدراجاً وللمعاول في أسلافها إعوال وللعواسل على أعاليها أعمال وللأشقياء مع ذلك شدة وجلد وعدة وعدد وحدة ولدد يقاتلون حمية وينازلون بنفوس أبية وحجارة المجانيق تشدخ هامهم وبنات الكنائن تزلزل أقدامهم وهم في مثل ذلك لازمون إقدامهم إلى أن اشتدت أزمتهم فلم يجدوا لها من فارج وأحاطت بهم الأوجال من خارج وهدمت أبراجهم الشواهق وردمت حفائرهم والخنادق وأخذت الكماة في العروج إلى البروج والحماة في السباق إلى الأنفاق والرماة في النضال بالنصال فمن مرتق سلماً غير متق مؤلماً ومشتغل بالنقب غير محتفل بشابور الحجارة المنصب وأفرج المضيق وانتهج الطريق واقتحمته أطلاب الأبطال وولجته أقيال القبائل وولى الأشقياء الأدبار وعاذوا بالفرار وبدت عليهم علامات الإدبار وسابقوا إلى الأبواب فكان مجيئهم من أقوى الأسباب وقتل منهم الزحام من أسأره الهدم الحسام فتملكنا ما دارت عليه الأسوار الخارجة كفرار السبع والملعب وجميع الجنان والعروش التي ما انفك الشقي يجتهد في عمارتها ويتعب وأعلنا بالنداء أن كل من جاءنا هارباً ووصل إلينا تائباً منحناه العفو ومحونا عنه الهفو وأوردناه من إحساننا الصفو فتبادروا عند ذلك يتساقطون من الأسوار تساقط جنيات الثمار فرادى ومثنى آئبين إلى الحسنى فيسعهم ولما رأى الخائن قلة من بقي معه وشاهد تفرق من ذلك الموقف جمعه أمر بسراح من في قبضته وسجنه واعتقدهم عوناً له فكانوا أعون شيء على وهيه ووهنه واعتمد الناس في بقية يومهم السور تتوسع أنقابه وتتخرق أبوابه إلى أن جنهم الليل وحاق منهم بالأعداء الويل ولزم كل مركزه ولم يكن الليل ليحجبه من عمله ولا يحجزه وبات الفرار إلينا يهربون ومن كل نفق يتسربون فلما ارتفع الضياء ومتع الضحاء أمرنا ولدينا يعقوب وعبد الواحد ووزيرنا القاعد له بالمراصد بأن زحفوا إليها مع أطلابنا تحت راياتنا المنصورة عليها فرجفت قلوبهم ووجبت جنوبهم ولم يكن إلا كلا حتى امتطيت تلك الصهوة وتنسمت فيها الذروة وتسلمت بيد العنوة وفصمت عراها عروة عروة وأنزلوا من صياصيهم وتمكنت يد القهر من نواصيهم وحقت عليهم كلمة العذاب من معاصيهم وفر الشقي إلى فناء داره في نفر من ذويه وأنصاره وفيهم ولداه مسعود وعثمان ووزيره موسى بن علي معينه على البغي والعصيان وعبد الحق بن عثمان الخائن الغادر وابن أخيه العامل بعمله ثابت بن عامر فتكنفهم هنالك أولياء دولتنا العلية فأوردوهم ويوسف ولد الشقي السالب حياض المنية ونبذت بالعراء أجسامهم وتقدمنا للحين بأن يمد على الرعية ظل التأمين ويوطأ لهم كنف التهدئة والتسكين ويوطد لهم مهاد العافية وتكف عنهم الأكف العادية حتى لا تمتد إليهم كف منتهب ولا يلتفت نحوهم طرف مستلب ومن انتهب شيء أمر برده وصد عن قصده وكمل لنا والحمد لله بالاستيلاء على هذا القطر جميع البلاد الداخلة في ولاية بني عبد الواد ونسخت منها دولتهم ومحيت من صحيفتها دعوتهم وعوض الرعايا من خوفهم أمناً ومن شؤمهم يمناً وشملتهم كلمتنا الراقية المنصورة بكلمة الله الباقية وفي ذلك معتبر لأهل اليقين والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

والحمد لله على هذه النعمة التي أفاضت على النعم جلالاً والصنيعة التي بهرت الصنائع جمالاً وأضفت على المسلمين من الصلاح والعافية سربالاً.

وقد رأينا من حق الإنعام الجسيم والصنع الرائق الوسيم أن نتبع العفو بعد المقدرة بالإحسان لمن أسلف لنا غمطه أو شكره فمننا على قبائل بني عبد الواد وأضفينا عليهم صنوف الملابس نساء ورجالاً وأوسعنا لهم في العطاء مجالاً وأفعمنا لهم من الحباء سجالاً وأقطعنا له ممن بلاد المغرب حاطها الله تعالى ما هو خير من بلادهم وحبوناهم منها بما كفل بإحساب مرادهم وإخصاب مرادهم وخلطناهم بقبائل بني مرين وحطناهم باتحاد الكلمة من تقول المتقولين وتزوير المزورين وأعددنا منهم لأوان الجهاد أوفر عدد واعتدنا من فرسانهم ورجالهم لطعان الأعادي أكبر مدد وأزيل عن الرعايا بهذه البلاد الشرقية إصرهم وأزيح عنهم بتوخي العدل فيهم جورهم ووزرهم وخففنا عنهم ما آد والحمد لله الذي ثلّ محال الباغين ومجالهم وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم وأخذوهم بما احتقبوا من المآثم واكتسبوا من الجرائم واستحلوا من المحارم وأباحوا من المسكرات وأذاعوا من المنكرات وطالما أصبح ربعهم معدن الفسوق وموطن العقوق ومقطن إضاعة الحقوق ولا سيما في أيام المسرور بهناته المغرور بما سول له الشيطان وأملى له من ترهاته المشهور بقتل أبيه المأثور من مثالبه ومعايبه بما لم يأت الدهر له بشبيه ولقد طبقت الآفاق معاصيه وبلغت أخبار خيانته من بأطراف المعمور وأقاصيه ولكن الله تعالى أملى له ليكثر مآثمه حتى إذا شاء أخذه أخذ القرى وهي ظالمة.

والحمد لله الذي طهر بأيدينا هذه الأرجاء من أرجاسه ورخص عنها بأيدينا أوضار أدناسه وأنجاسه وأتاح لأهلها بهلاك هذا المريد المراد وأراح منه ومن شيعته البلاد والعباد ولو لم يكن إلا ما نال الحجاج من تعنيه وتعديه وطال عليهم من تعرضه لهم وتصديه حتى حجز عن الحجاز الشريف قصاده وحجز بقطع السبيل عن بيت الله الحرام من أراده فكم سلب الحجاج وسد عليهم المسالك والفجاج وفرق فريقهم وعوق طريقهم.

والآن بحمد الله حقت الحقائق وارتفعت العوائق وصح العليل ووضح السبيل وتسهل المرام وتيسر القصد إلى البيت الحرام مكان ترده الزوار عليكم أرسالاً ووفود الأبرار للسلم خفاقاً وثقالاً يأتون من كل فج عميق ويقضون ما يقضون من مناسكهم آمنين في مسالكهم إلى البيت العتيق وهكذا أيضاً خلا وجهنا لجهاد الروم ولإعداد من يغزونهم في عقر دارهم للقصد المروم وأن نجدد من هذا العمل بجزيرة الأندلس حماها الله تعالى ما لسلفنا بها سلف ونبدد من شمل عباد الصليب ما لخلفهم بفضل الله تعالى خير خلف فعمل الجهاد بهذه البلاد هو الفضيلة التي لنا الله سبحانه ذخرها والحسنة التي في صحائف أعمالنا سطرها وبجيوشنا المنصورة عز دين الإسلام بهذا المغرب الغريب وبسيوفنا المشكورة والله المشكور ذل بها الصليب وأوزعنا الله تعالى شكر آلائه وأمتعنا بتواتر نعمائه بمنه وفضله.

وأنهينا لعلمكم الكريم هذه الأنباء السارة والآلاء الدارة لما ذكرتم من تشوفكم لاستطلاعها وسطرتم من تشوقكم لاستماعها ولعلمنا أنكم تسرون بقطع دابر الباغين وتستبشرون بحسم أدواء الطاغين وتؤثرون الإخبار بائتلاف الكلمة على أعداء الله الكافرين إيثار الحامدين لفعل الله تعالى في إظهار دينه الشاكرين.

ولا زلتم تشرع نحوكم البشائر وتفرع بذكركم المنابر وترفع لاجتلاء آثار أمركم الستائر واستجلاء أخبار سيركم الباهرة النواظر وتجمع لسجاياكم السنية العلاء ومزاياكم العلية السناء ثواقب المناقب وقول خير المفاخر إن شاء الله.

والسلام الأتم الأوضع الأنم يخص إخاءكم الأوفى ورحمة الله وبركاته.

قلت: جواب هذا الكلام تقدم في الكلام على المكاتبات عن الأبواب السلطانية في المكاتبات إلى الملوك.

وهذه نسخة كتاب ورد من أبي الحسن المريني صحبة الهدايا والحرة الحاجة في شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ونصه بعد البسملة: من عبد الله علي أمير المسلمين ناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين ملك البرين مالك العدوتين ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ملك البرين وسلطان العدوتين أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ملك البرين وسلطان العدوتين أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ملك البرين وسلطان العدوتين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق منح الله التأييد مقامه وفسح لفتح معاقل الكفر وكسر جحافل الصفر أيامه.

إلى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل الفاضل الكامل الكافل الملك الناصر المجاهد المرابط المؤيد المنصور الأسعد الأصعد الأرقى الأوقى الأمجد الأنجد الأفخم الأضخم الأوحد الأوفى ناصر الدين عاضد كلمة المسلمين محيي العدل في العالمين فاتح الأمصار حائز ملك الأقطار مفيد الأوطار مبيد الكفار هازم جيوش الأرمن والفرنج والكرج والتتار خادم

الحرمين غيث العفاة مصرف الكتائب مشرف المواكب ناصر الإسلام ناشر الأعلام فخر الأنام ذخر الأيام قائد الجنود عاقد البنود حافظ الثغور حائط الجمهور حامي كلمة الموحدين أبي المعالي محمد بن السلطان الجليل الكبير الشهير الشهيد الخطير العادل الفاضل الكافل الكامل الحافظ الحافل المؤيد المكرم المبجل المكبر الموقر المعزر المعزز المجاهد المرابط المثاغر الأوحد الأسعد الأصعد الأوفى الأفخم الأضخم المقدس المرحوم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قسيم أمير المؤمنين.

أبقى الله ملكه موصول الصولة والاقتدار محمي الحوزة حامياً للديار حميد المآثر المأثورة والآثار عزيز الأولياء في كل موطن والأنصار.

سلام كريم زاك عميم تشرق إشراق النهار صفحاته وتعبق من شذا الروض المعطار نفحاته يخص إخاءكم العلي ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي وسع العبادة منّاً جسيماً وفضلاً جزيلاً وألهمهم الرشاد بأن أبدى لهم من آثار قدرته على مقدار وحدته برهاناً واضحاً ودليلاً وألزم أمة الإسلام حج بيته الحرام من استطاع إليه سبيلاً وجعل تعظيم شعائره من تقوى القلوب ومثابات محط الأوزار والذنوب فما أجزل نعمته منيلاً وأجمل رحمة ربه مقيلاً والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المصطفى من أفضل العرب فصيلة في أكمل بقاع الأرض فضيلة وأكرمها جملة وتفصيلاً المجتبى لختم الرسالة وحسم أدواء الضلالة فأحسب الله به النبوة تتميماً والرسالة تكميلاً المخصوص بالحوض المورود والمقام المحمود يوم يقول الظالم: " يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً " المبوأ من دار هجرته ومقر نصرته ومحلا ما بين بيته ومنبره فيه روضة من رياض الجنة ولم يزل بها نزيلاً والرضا عن آله الأبرار وأصحابه الأخيار الذين فضلتهم سابقة السعادة تفضيلاً وأهلتهم العناية بأمر الدين إلى أن يوسعوا الأحكام برهاناً ودليلاً فإنا نحيط علم الإخاء الأعز ما كان من عزم مولاتنا الوالدة قدس الله روحها ونور ضريحها على أداء فريضة الحج الواجبة وتوفية مناسكه اللازبة فأعترض الحمام دون ذلك المرام وعاق القدر عن بلوغ ذلك الوطر فطوي كتابها وعجل إلى مقر الرحمة بفضل الله مآبها وعلى الله أجرها وعنده يحتسب ذخرها وإن لدينا من نوجب إعظامها ونقيمها بحكم البر مقامها وعزمها إلى ما أملته مصروف وأملها إلى ما كانت أمته موقوف وهي محل والدتنا المكرمة المبرورة الأثيرة الموقرة المبجلة المفضلة المعززة المعظمة المطهرة أسنى الله مكانتها وسنى من هذا القصد الشريف لبانتها وقد شيعناها إلى حج بيت الله الحرام والمثول بحول الله تعالى ما بين زمزم والمقام والفوز من السلام على ضريح الرسالة ومثابة الجلالة بنيل السول والمرام لتظفر بأملها وحين شخص لذلكم الغرض الكريم موكبها وخلص إلى قصد الحرم العظيم مذهبها والكرامة تلحفها والسلامة إن شاء الله تكنفها أصحبناها من حور دولتنا وأحظيائها ووجه دعوتنا العلية وأوليائها من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة الأثر والرحلة السعيدة الورد إن شاء الله تعالى والصدر من أعيان بني مرين أعزهم الله تعالى والعرب وأولاد المشايخ أولي الديانة والتقوى المالئين دلاء القرب إلى عقد الكرب وكل من له أثرة مشهورة وشهرة بالمزايا الراجحة والسجايا الصالحة مأثورة وقصدهم من أداء فريضة الحج قصدها ووردهم إن شاء الله تعالى من منهل بركاته الجمة وردها وهكذا سيرنا من تحف هذا البلاد إليكم ما تيسر في الوقت تسييره وإن تعذر في كثير مما قصدناه ولهذا الغرض أردناه تيسيره لطول المغيب عن الحضرة والشغل بتمهيد البلاد التي فتحها الله علينا في هذه السفرة وعينا لإيرادها لديكم وإيفادها عليكم أبا إسحاق ابن الشيخ أبي زكريا يحيى بن عثمان السويدي وأمير الركب الحسن بن عمران وغيرهم كتب الله سلامتهم ويمن ظعنهم وإقامتهم.

ومقام ذلك الإخاء الكريم يسني لهم من اليسرى والتسهيل القصد والسول ويأمر نواب ما له من الممالك وقوم ما بها من المسالك لتكمل العناية بهم في الممر والقفول.

ومعظم قصدنا من هذه الوجهة المباركة إيصال المصحف العزيز الذي خططناه بيدنا وجعلناه ذخيرة يومنا لغدنا إلى مسجد سيدنا ومولانا وعصمة ديننا ودنيانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطيبة زادها الله تشريفاً وأبقى على الأيام فخرها منيفاً رغبة في الثواب وحرصاً على الفوز بحظ من أجر التلاوة فيه يوم المآب.

وقد عينا بيد محل الوالدة المذكورة فيه كرم الله جبهتها ويمن وجهتها من المال ما يشترى به في تلكم البلاد المحوطة من المستغلات ما يكون وقفاً على القرأة فيه مؤبداً عليهم وعلى غيرهم من المالكية فوائده ومجانيه.

والإخاء الكريم يتلقى من الرسل المذكورين ما إليهم في هذه الأغراض ألقيناه ويأمر بإحضارهم لأدائهم بالمشافهة ما لديهم أوعيناه ويوعز بإعانتهم على هذا الغرض المطلوب وييسر لهم أسباب التوصل إلى الأمل والمرغوب وشأنه العون على

الأعمال الصالحة ولا سيما ما كان من أمثال هذا إلى مثل هذه السبل الواضحة وشكر بادراتكم موطد الأساس مطرد القياس متجدد مع اللحظات والأنفاس والله يصل للإخاء العلي نضرة أيامه ويوالي نصرة أعلامه ويبقي الثغور القصية والسبل السرية منوطة بنقصه وإبرامه محوطة بمعاضدة أسيافه وأقلامه والسلام الكريم العميم يخص إخاءكم الأعز ورحمة الله وبركاته وكتب في يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين من ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة.

وهذه نسخة كتاب عن السلطان عثمان بن أبي العباس المريني في العشر الأوسط من شعبان من عبد الله ووليه عثمان أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين سلطان الإسلام والمسلمين ناشر بساط العدل في العالمين المقتدي بآثار آبائه الكرام المتقفي سننهم الحميدة في نصرة الإسلام المعمل نفسه العزيزة في التهمم بما قلده الله من أمور عباده وحياطة ثغوره وبلاده سيف الله المسلول على أعدائه المنتشر عدله على أقطار المعمور وأنحائه ظل الله تعالى في أرضه القائم بسنته وفرضه عماد الدنيا والدين علم الأئمة المهتدين ابن مولانا السلطان المظفر القان الخليفة الإمام ملك الملوك الأعلام فاتح البلدان والأقطار ممهد الأقاليم والأمصار جامع أشتات المحامد ملجأ الصادر والوارد الملك الجواد الذي حلت محبته في الصدور محل الأرواح في الأجساد أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي العباس ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سالم ابن مولانا أمير المسلمين في سبيل رب العالمين أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق وصل الله تعالى أسباب تأييده وعضده وقضى باتصال عرف تجديد سعده وأناله من جميل صنعه ما يتكفل بتيسير أمره وبلوغ قصده.

إلى محلنا أخينا الذي نؤثر حق إخائه الكريم ونثني على سلطانه السعيد ثناء الولي الحميم ونشكر ماله فينا من الحب السليم والود الثابت المقيم السلطان الجليل الماجد الأصيل الأعز الخطير المثيل الشهير الأمجد الأرفع الهمام الأمنع السري الأرضى المجاهد الأمضى الأوحد الأسنى المكين الأحمى خديم الحرمين الشريفين حائز الفخرين المنيفين ناصر الدنيا والدين محيي العدل في العالمين الأجد الأود المكين الأخلص الأفضل الأكمل أبي السعادات فرج ابن السلطان الجليل العز المثيل الخطير الأصيل الأرفع الأمجد الشهير الهمام الأوحد الأسمى الأسرى الأرضى المجاهد الأمضى خديم الحرمين الشريفين حائز الفخرين المنيفين الأفضل الأكمل المبرور المقدم المرحوم أبي سعيد برقوق بن أنص وصل الله تعالى لسلطانه المؤيد جداً لا يعجم عوده وعزاً لا يميل عموده ونصراً يملأ قطره بما يغص به حسوده وعضداً يأخذ بزمام أمله السني فيسوقه ويقوده.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله على سبوغ نعمائه وترادف لطفه وآلائه الذي عرفناه من ولائكم الكريم ما سرنا من اطراد اعتنائه وأبهج النفوس والأسماع من صفاء ولائه والصلاة والسلام الأكملين على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله وأنبيائه ومبلغ رسالاته وأنبائه صاحب المقام المحمود والحوض المورود واللواء المعقود فأكرم بمقامه وحوضه وولائه والرضا عن آله صحبه وأوليائه الذين هم للدين بدور اهتدائه ونجوم إقتدائه وصلة الدعاء لمقامكم الكريم بدوام عزه واعتلائه واقتبال النصر المبالغ في احتفاله واحتفائه وحياطة أنحائه وأرجائه وتأييد عزماته وآرائه.

فإنا كتبنا إليكم كتاب الله لكم سعداً سافراً وعزماً ظاهراً من حضرتنا العلية بالمدينة البيضاء كلأها الله تعالى وحرسها ونعم الله سبحانه لدينا واكفة السجال وولاؤه جل جلاله سابغ الأذيال وخلافتكم التي نرعى بعين البر جوانبها ونقتفي من كل منقبة كريمة سيرها الحميدة ومذاهبها وإلى هذا وصل الله سعدكم ووالى عضدكم وكتابنا هذا يقرر لكم من ودادنا ما شاع وذاع ويؤكد من إخلاصنا إليكم ما تتحدث به السمار فتوعيه جميع الأسماع وقد كان انتهى إلينا حركة عدو الله وعدو الإسلام الباغي بالاجتراء على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام الآخذ فيهم بالعيث والفساد الساعي بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد وتعرفنا أنه كان يعلق أمله الخائب بالوصول إلى أطراف بلادكم المصرية وانتهاز الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية والحمد لله الذي كفى بفضله شره ودفع نقمته وضره وانصرف ناكصاً على عقبه خائباً في نيل أربه كذلك كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذي غلبه الله عليه وما أضمر لخلق الله من الشر الذي يجده في أخراه ظله يسعى بين يديه عزمنا على أن نمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضا ونجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يحمد في إمداد المناصرة ويرتضى فالحمد لله على أن كفى المؤمنين القتال وأذهب عنهم الأوجال ويسر لهم الأعمال وهيأ لخلافتكم السنية وللمسلمين هناء يتضمن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام والسنين.

ويحسب ما لنا فيكم من الود الذي أسست المصافاة بنيانه والحب الذي أوضح الإخلاص برهانه وقع تخيرنا فمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مجمله وتقرير ما لدينا فيه على أتم وجه الاعتقاد وأكمله على الشيخ الأجل الشريف المبارك الأصيل

الأسنى الحظي الأعز الحاج المبرور الأمين الأحفل الأفضل الأكمل أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الأجل العز الأسنى الأوجه الأنوه الأرفع الأمجد الآثر الأزهى الشريف الأصيل المعظم المثيل الأشهر الأخطر الأمثل الأجمل الأفضل الأكمل المرضي المقدس المرحوم أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسني العراقي وصل الله تعالى سعادته وأحمل على حضرتكم السنية وفادته حسب ما يفي بشرح ما حملنا نقله ويكمل بإيضاحه لديكم يقظته ونبله إن شاء الله تعالى وهو سبحانه وتعالى يديم سعادتكم ويحفظ مجادتكم ويسني من كل خير إرادتكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الجملة الرابعة في عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس والرسم في ذلك أن يكتب الأبواب الشريفة ويصفها ثم يقول: أبواب السلطان الفلاني ويصفه ويذكر ألقابه ثم يدعو له ثم يقول سلام كريم ويصفه من فلان ويذكر السلطان المكتوب عنه ثم يقول: أما بعد حمد الله ويأتي بخطبة في المعنى تشتمل على التحميد والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم والرضا عن الصحابة رضي الله عنهم ثم يقول: إنا كتبنا إليكم ويأتي على ما يناسب المقام ثم ينخرط في سلك المقصود إلى آخره ويختم بالدعاء.

وهذه نسخة كتاب كتب عن أمير المسلمين السلطان عبد الله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر صاحب غرناطة من الأندلس إلى السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون إنشاء الوزير عبد الله بن الخطيب صاحب ديوان إنشائه يشير فيه إلى حادثة الفرنج بالإسكندرية الواقعة في سنة سبع وستين وسبعمائة إلا أنه وهم في لقبه الملوكي فلقبه المنصور.

وهي: الأبواب الشريفة التي تعنو لعزة قدرها الأبواب وتعتزي إلى نسب عدلها الحكمة والصواب وتناديها الأقطار البعيدة مفتخرة بولائها واصلة السبب بعلائها فيصدر بما تشفي الجوى منها الجواب.

فإذا حسن مناب عن أئمة الهدى وسباق المدى كان منها عن عمومة النبوة النواب وإذا ضفت على العفاة بغيرها أثواب الصلات ضفت منها على الكعبة المقدسة الأثواب أبواب السلطان الكبير الجليل الشهير الطاهر الظاهر الأوحد الأسعد الأصعد الأمجد الأعلى العادل العالم العامل الكامل الفاضل الكافل سلطان الإسلام والمسلمين رافع ظلال العدل على العالمين جمال الإسلام علم الأعلام فخر الليالي والأيام ملك البرين والبحرين إمام الحرمين مؤمل الأمصار الأقطار وعاصب تاج الفخار هازم الفرنج والترك والتتار الملك المنصور أبي الفتوح شعبان ابن الأمير الرفيع المجادة الكريم النبوة والولادة.

الطاهر الظاهر الكبير الشهير المعظم الممجد الأسمى الموقر الأعلى فخر الملة سيف الأمة تاج الإمارة عز الإسلام جمال الأيام قمر الميادين أسد أجمة لدين سمام الطغاة والمعتدين المقدس المظفر الأمير أبي علي حسين ابن السلطان الكبير الشهير ملك الإسلام والمسلمين والد السلاطين سيف خلافة الله في العالمين ولي أمير المؤمنين وظهير الدين سلطان الحج والجهاد وكاسي الحرم الأمين قامع المعتدين قاهر الخوارج والمتمردين ناصر السنة محيي الملة ملك البرين والبحرين مقيم رسوم الحرمين الشريفين العادل العالم العامل الطاهر الظاهر الأسعد الأصعد الأوحد الأعلى المنصور المؤيد المعان المرفع المعظم المبجل المؤمل المجاهد المرابط الغازي أبي عبد الله محمد قلاوون الصالحي أبقاه الله وفلق الصبح يشهد بكماله وخدمة الحرمين الشريفين طراز مذهب على حلة أعماله ومسورات الإسلام آمنة على طول الأيام من إهماله ولا زال ركناً للدين الحنيف تتزاحم على مستلمه الشريف شفاه أماله.

سلام كريم بريم عميم كما استودعت الرياض أسرارها صدر النسيم وأرسلت مطالع الفجر أنهارها من بحر الصباح الوسيم يسري من الطيب والحمد المطيل المطيب في الصوان الكرم ويقف موقف الأدب والفهامة بما استحفظ من الأمانة إلى محل الإمامة وقوف الحفيظ العليم يعتمد مشارع تلك الأبواب الشارعة إلى الفضل العميم المقابلة لذمام وسائل الإسلام بالصدر المشروح والبر الممنوح والقلب السليم.

من معظم سلطانه ومجل شأنه المفتخر بالانتظام في سلك خلصانه أمير المسلمين بالأندلس عبد الله الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر بلغه الله من رضاه أقصى سؤله وأعانه على جهاد عدو الله وعدو رسوله.

أما بعد حمد الله جاعل قلادة الإسلام على الدوام آمنة من الانخرام والانتثار مفصلة النظام بخرز المآثر العظام والآثار معرف أهلها في حزن البسيطة وسهلها عوارف الصنع المثار وإقالة العثار القوي العزيز الذي لا يغلب قدره بالاحتشاد والاستكثار ولا يبدل غيبه المحجوب بعد ما عين حكمه الوجوب في خزائن الاستئثار حتى تظهر خبيئة عنايته بأوليائه المعترفين بآلائه بادية

للأبصار فيما قرب وبعد من الأعصار ورحمته عند الاستغاثة به والانتصار في مختلف الأقطار والأمصار الولي الذي لا تكدر هبات فضله شروط الاعتصار ولا تشين خطب حمده ضرائر الاقتصار والاختصار.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله نخبة الأكوان وسر الدهور والأزمان وفائدة الأدوار نور الله المتميز باختصاصه واستصفائه واستخلاصه قبل خلق الظلمات والأنوار ورحمته الوارفة الشاملة الهامية الهاملة على الهضاب والوهاد والنجاد والأغوار أقرب عوالم الشهادة والخلق إلى حضرة الحق على تعدد الرتب وتفاضل الأطوار منقذ الناس من البوار ومبوئهم من جوار الله خير الجوار نبي الرحمة والجهاد والغوار المنصور على الأحزاب عندما استداروا بمثوى نبوته على الأطم والأسوار دور السوار الواعد عن ربه بظهور دينه الحق على الأديان فمهما أوقدوا نار الحرب تكفل الله لهم بإطفاء النار وإخماد الأوار.

والرضا عن آله وأصحابه حماة الذمار ومقتحمي الغمار وباذلي كرائم الأموال من دونه ونفائس الأعمار القائمين على سماء ملته للاهتداء بسننهم والاقتداء بسننهم مقام النجوم الهادية والأقمار ما صقلت مداوس النسيم سيوف الأنهار وخجل الورد من تبسم البهار وغازلت عيون زهر المجرة عيون الأزهار وطرد أدهم الليل أشهب النهار.

والدعاء لتلك الأبواب المتعددة الحجاب المعودة باجتلاء غرر الفتوح والمطالع المشيدة المصانع على العز الممنوح والأواوين المؤيدة الدواوين بالملائكة والروح بإعلاء المظاهر والصروح وإنارة الله تعالى بأهلة تلك السروج ساحات تلك السروح ولا زالت أقلام بشائرها تأتي على سورة فإنا كتبناه لمثابتكم السلطانية دار العز الأحمى والملك الأشرف الأسمى والصيت البعيد المرمى كتب الله لها من عنايته وقد فعل أوفر مقاسم النعمى وجعل غيث نوالها الأهمى وحظ جلالها من الله الأنمى ودامت كواكب سعودها تمزق جلابيب الظلما وأخبار بأسها وجودها وسعادة وجودها تهديها على البعد ركائب الدأما وترفرف برياح ارتياحها أجنحة بنات إلما.

من منزلنا المحبور بسعادة سلطانكم المنصور وخزي عدوه المدحور بحمراء غرناطة دار ملك الجهاد بجزيرة ثغر الأندلس وإلى الله عنها الدفاع وأنار بمشكاة نوره الذي وعد بإتمامه الأعلام منها والأيفاع ووصل لها بشرف مخاطبتكم الارتفاع والانتفاع حتى تشفع بتهانيكم الأوتار وتوتر الأشفاع وآلاء الله لدينا بنعمة دين الإسلام علينا قد أخجلت اللسان الشكور وإن استنفدت الرواح والبكور والثقة بالله في هذا الثغر الغريب قد كثرت العدد المنزور والحق الصريح قد كافح الزور والتوطين على الشهادة قد شرح الصدور واقتطع في الجنة المنازل والدور والمعرفة بمقام تلك الأبواب الشريفة عقيدة لا تبدل وأدواح علائها حمائم الحمد بها تتهدل ومحافل ثنائها تتراكم في سمائها الألوة والمندل والحال ما علمتم: بحر زاجر الأمواج وعدو وافر الأفواج وحرم لولا اتقاء الله مقتحم السياج وجياد ضمرتها مصابرة الهياج وداء على الأيام متوقع الاهتياج وعدد إلى الإصراخ والإنجاد عظيم الاحتجاج فالنفوس إلى الله تجهز وتسلم والصبيان في المكاتب تدرب على مواقف الشهادة وتعلم والألسنة بغير شعار الإسلام لا تنبس غالباً ولا تتكلم إلا أن عادة الخبير اللطيف تخفيف الذعر المطيف ونصر النزر الضعيف على عدد التضعيف والحال تجزى بين الحرب والسلم والمكالمة والكلم وتأميل الجبر وارتقاب عاقبة حماة الدبر.

وإلى هذا فإننا اتصل بنا ما رامت الروم من مكيدة التي كان دفاع الله من دونها سداً والملائكة جنداً والعصمة سوراً والروح الأمين مدداً منصوراً وأنها استنفدت الوسع في احتشادها حتى ضاقت اللجج عن أعوادها وبلغت المجهود في استنفادها حتى غص الكافر البحر بكفارها يصيح بهم التأليب ويذمرهم الصليب وقد سول لهم الشيطان كياد ثغر الإسكندرية شجا صدورهم ومرمى آمال غرورهم ومحوم قديمهم ومتعلل غريمتهم ليهتموا ثغر الإسلام بصدمتها ويقودوا جنائب الساحل في رمتها ويرفعوا عن دينهم المعرة ويتلقفوا في القدس كرة الكرة ويقلصوا ما امتد من ظلال الإسلام ويشيموا سيوف التغلب على الشام ويحولوا بين المسلمين وبين محط أوزارهم وحجهم ومزارهم وبيت ربهم الذي يقصدونه من كل فج عميق ويركبون إليه نهج كل طريق وقبر نبيهم الذي يطفئون بزيارته من الشوق كل حريق ويكحلون الجفون بمشاهدة آثاره عن بكاء وشهيق وشوق بذلك الحبيب خليق ويقطعوا حبل المسلمين حتى لا يتأتى بلوغ فريق ولا غرض تشريق والله من ورائهم محيط وبدمائهم مشيط وبعباده بصير ولدنيه الحق ولي ونصير " هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " فما هو إلا أن صمأ جرادهم وخلص إليهم مرادهم وفاض عليها بحرهم وعظم من المحاولة أمرهم حتى اشترك الشرك بعض أسوارها ونال النهب مستطرف ديارها وظنت أنها الوهية التي لا ترفع والمصيبة التي غلتها لا تنفع واشتعل الباس وذعر الناس وأرى الشدة من تدارك بالفرج وأعاد إلى السعة من الحرج وأنشأ ريح النصر عاطرة الأرج ونصر حزب الإسلام من لا غالب لمن ينصره وحصر العدو من كان يحصره وظهر الحق على الباطل والحالي بزينة الله على العاطل فخرج العدو الخاسر عما حازه والسيوف ترهقه حيث تلفه والسهام تثبته وتنفيه وغرماء كرة الإسلام تستقضي منه دينها

وتستوفيه والخزي قد جلل سباله الصهب وحناء الدماء قد خضبت مشيخته الشهب والغلب قد أخضع رقابه الغلب فكم من غريق أردته دروعه لما حشي بالورع روعه وطعين نظمت بالسمهري ضلوعه فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وأحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين " كم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين " .

فأي رحمةٍ منشورةٍ ضفت على الإسلام ظلالها وخطة نعمةٍ اتسع نطاقها ورحب مجالها ومجلى صنيعةٍ راق عيون المؤمنين جمالها فاهتزت بها الأرض وربت وبشكر الله جل جلاله أعربت واستبشرت النفوس وذهب البوس وضفا بمنة الله اللبوس وظهرت عناية الله بمقامكم وإقالة عثرة الإسلام في أيامكم فما كان الله سبحانه ليضيع لكم خدمة الحرمين وإنها للوسيلة الكبرى والذريعة إلى سعادة الدنيا والأخرى وهي عهدة الله التي يصونها من كل اهتضام وقلادته التي ما كان يتركها بغير نظام.

وكان من لطائف هذا الفتح الذي أجزل البشرى وأوسع أعلام الإسلام نشراً وروده بعد أن شفيت العلة ونصرت الملة وبعد أن جفا الدهر وتجافى وعادى ثم صافى وهجر ووافى وأمرض ثم عافى فلو ورد مقدمه قبل تاليه ونقده متأخراً عن كاليه أو كانت أواخره بعيداً ما بينهما ومن أواليه لأوحشت الظنون وساءت وبلغت الهموم من النفوس ما شاءت فإن الإسلام كالجسد يتداعى كله لتألم بعضه ويتساهم إخوانه في بسطه وقبضه وسماؤه مرتبطة بأرضه ونفله متعلق بفرضه فالحمد لله الذي خفف الأثقال وألهم حال الضر الانتقال وسوغ في الشكر المقال وزار وأقال وجمع بين إيقاظ القلوب وإنالة المطلوب وإن وجد العدو طعم الإسلام مراً فما ذاقه وعوداً صلباً فما أطاقه ورفع عن طريق بيت الله ما عاقه وقاد إليكم من بيوتكم فضل الجهاد وساقه ورد المكر السيىء على العدو وأحاقه فما كانت هذه المكيدة إلا داهية للكفر طارقة ونكثة لعصب التثليث عارقة ومعجزة من آثار النبي الشريف لهذا الدين المنيف خارقة واستأصلت للعدو المال وقطعت الآمال وأوهنت اليمين والشمال فبادرنا عند تعرف الخبر المختال من أثواب المسرة في أبهى الحبر المهدي أعظم العبر إلى تهنئتكم تطير بنا أجنحة الارتياح مبارية للرياح وتستفزنا دواعي الأفراح بحسب الود الصراح وكيف لا يسير اليسار بيمينه والوجه بجانبه والمسلم بدينه وخاطبناكم مهنئين ولولا العوائق التي لا تبرح والموانع التي وضحت حتى لا تشرح ومكايدة هذا العدو الذي يأسو به الدهر ويجرح لم نجتز بإعلام القلم عن إعمال القدم حتى نتشرف بالورود على المثابة الشريفة ونمتاز بزيارة الأبواب المنيفة فيقضى الفرض تحت رعيها وبركة سعيها لكن المرء جنيب أمله ونية المؤمن أبلغ من عمله فهنيئاً بما خولكم الله من ظفر شهدت برضى الله مراسمه وافترت عن الثغور العناية الربانية مباسمه وتوفرت لديكم مواهبه ومقاسمه ويهنئ البيت المقدس مكان فضل الله ومنه وسلامة مجنه ويهنئ الإسلام عصمة ثغره المؤشر وطهارة كتابه المنشر وجمال عنوانه وقفل صوانه وباب إيوانه مرفأ الفسطاط ومركز لواء الرباط ومحط رحال الاغتباط ومتخير الإسكندر عند البناء والاختطاط ومما زادنا بجحاً بهذا الفتح وسروراً زائداً بهذا المنح ما تحققنا أنه يثير من شفقة المسلمين لهذا القطر الذي لا يزال يطرقه ما طرق الإسكندرية على مر الأيام وتجلب عليه براً وبحراً عبدة الأصنام بحيث البر موصول والكفر بكثرة العدد يصول ونيران الجوار مترائية للعيان والفراسخ القليلة متوسطة بين مختلف النحل والأديان والعدد لا ينسب والصريح إلا من عند الله لا يحسب فتنجدنا بالدعاء ألسنة فضلائه وتسهمنا خواطر صالحيه وأوليائه والله لا يقطع عن الجميع عوائد آلائه ويعرفنا بركة أنبيائه وينصرنا في أرضه بملائكة سمائه.

وقد كان اتصل بنا في هذه الأيام الفارطة الذخر الذي ملأ اليد استكثاراً والخلد اعتداداً واستظهاراً والهمم فخاراً وأضاء القطر أنواراً جوابكم الكريم يشم من نفحاته شذا الإذخر والجليل وتلتمس من خلال حافاته بركات الخليل وتقرى الوجوه به آثار المعاهد وتلتمح من ثنايا وفادته بوارق الفوائد فأكرم به من وافد مخطوب وزائر مرقوب صدعنا به في حفل الجهاد انتحاء وافتخاراً ثم صناه في كرائم الخزائن اقتناء للخلف وادخاراً وجعلنا قراه شكراً معطاراً وثناء يبقى في الخافقين مطاراً ودعاء يعلي الله به لمقامكم السني في أوليائه مقداراً ويجهز به لملككم كما فعل أنصاراً ويثيبكم الجنة التي لا يرضى السعداء بغيرها قراراً والله تعالى يجعل لأفلاك الهناء على مخاطبة مقامكم الرفيع العلاء مداراً ويقيم الشكر ألزم الوظائف لحقكم ابتداراً والثناء أولى ما تحلى به مجدكم شعاراً ويبقيكم للإسلام ركناً شديداً وظلاً مديداً وسماء مدراراً ما استأنفت البدور إبداراً وعاقب الليل نهاراً والسلام.

في رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السودان وفيه ثلاثة أطراف الطرف الأول في المكاتبات إلى صاحب مالي وهو المستولي على التكرور وغانة وغيرهما وهي أعظم ممالك السودان المسلمين مملكة ولم أقف لأحد منهم على صورة مكاتبة إلى الأبواب السلطانية إلا أن المقر الشهابي بن فضل الله في كتابه مسالك الأبصار عند الكلام على هذه المملكة تعرض لذكر سلطانها في زمان الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو منسى موسى وذكر أنه ورد منه كتاب يمسك لنفسه فيه ناموساً ولم يورد نسخته.

الطرف الثاني في المكاتبة الصادرة عن صاحب البرنو ورسم مكاتبته أن يكتب في ورق مربع بخط كخط المغاربة فإن فضل من المكاتبة شيء كتب بظاهرها وتفتتح المكاتبة بخطبة مفتتحة بالحمد ثم يتخلص إلى المقصد ببعدية ويأتي على المقصد إلى آخره ورأيته قد ختم مكاتبته إلى الأبواب السلطانية بقوله: والسلام على من اتبع الهدى.

وكأن ذلك جهل من الكاتب بمقاصد صناعة الإنشاء إذ لا يهتدون إلى حقائقها.

وهذه نسخة كتاب ورد علىالملك الظاهر أبي سعيد برقوق ووصل في شهور سنة أربع وتسعين وسبعمائة صحبة ابن عمه مع هدية بعث بها إلى السلطان بسبب ما يذكر فيه من أمر عرب جذام المجاورة لهم وهي في ورق مربع السطر إلى جانب السطر بخط مغربي وليس له هامش في أعلاه ولا جانبه وتتمة الكتاب في ظهره من ذيل الكتاب وهو: بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

الحمد لله الذي جعل الخط تراسلاً بين الأباعد وترجماناً بين الأقارب ومصافحة بين الأحباب ومؤنساً بين العلماء وموحشاً بين الجهال ولولا ذلك لبطلت الكلمات وفسدت الحاجات.

وصلوات الله على نبينا المصطفى ورسولنا المرتضى الذي أغلق الله به باب النبوة وختم وجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ما ناحت الورق وما عاقب الشروق الأصيل.

ثم بعد ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

من المتوكل على الله تعالى الملك الأجل سيف الإسلام وربيع الأيتام الملك المقدام القائم بأمر الرحمن المستنصر بالله المنصور في كل حين وأوان ودهر وزمان الملك العادل الزاهد التقي النقي الأنجد الأمجد الغشمشم فخر الدين زين الإسلام قطب الجلالة سلالة الكرماء كهف الصدور مصباح الظلام أبي عمرو عثمان الملك ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم كرم الله ضريحه وأدام ذرية هذا بملكه هذا اللفظ وارد على لسان كاتبنا لآلنا ولا سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر وأعذب من الماء الغمام واليم زاد الله ملككم وسلطانكم والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم الذين يدرسون القرآن والعلوم وجماعتكم وأهل طاعتكم أجمعين.

وبعد ذاك فإنا قد أرسلنا إليكم رسولنا وهو ابن عمي اسمه إدريس بن محمد من أجل الجائحة التي وجدناها وملوكنا فإن الأعراب الذين يسمون جذاماً وغيرهم قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعفاء الرجال وقرابتنا وغيرهم من المسلمين ومنهم من يشركون بالله يمارقون للدين فغاروا على المسلمين فقتلوهم قتلاً شديداً لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا ملكنا عمرو بن إدريس الشهيد وهو أخونا ابن أبينا إدريس الحاج ابن إبراهيم الحاج ونحن بنو سيف بن ذي يزن والد قبيلتنا العربي القريشي كذا ضبطناه عن شيوخنا وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها في بلد برنو كافة حتى الآن وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ويبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم ويختدمون ببعضهم فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى أسوان فإنهم قد اتخذوا متجراً فتبعثوا الرسل إلى جميع أرضكم وأمرائكم ووزرائكم وقضاتكم وحكامكم وعلمائكم وصواحب أسواقكم ينظرون ويبحثون ويكشفون فإذا وجدوهم فلينزعوهم من أيديهم وليبتلوهم فإن قالوا نحن أحرار ونحن مسلمون فصدقوهم ولا تكذبوهم فإذا تبين ذلك لكم فأطلقوهم وردوهم إلى حريتهم وإسلامهم فإن بعض الأعراب يفسدون في أرضنا ولا يصلحون فإنهم الجاهلون كتاب الله وسنة رسولنا فإنهم يزينون الباطل فاتقوا الله واخشوه ولا تخذلوهم يسترقوا ويباعوا قال الله تعالى: " المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ".

. "وقال الله تعالى لنبيه عليه السلام: " فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم

. "وقال الله تعالى: " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض

وكان عليه السلام يقول: " السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم " وقال: " المؤمنون كالبيان يشد بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة ".

وقال: " المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه " إلى آخره.

وفي الحكمة: ومن الفرائض الأمر بالمعروف على كل من بسطت يده في الأرض أراد به السلاطين وعلى من تصل يده إلى ذلك أراد بذلك القضاء والحكام والأمراء فإن لم يقدر فبلسانه أراد بذلك الفقهاء والعلماء وإن لم يقدر فبقلبه أراد بذلك عامة المسلمين أطال الله بقاءكم في أرضكم.

وقال عليه فازجروا الأعراب المفسدين عن دعرهم قال الله تعالى: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين " السلام: " كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته ".

وقال في الحكمة لولا السلطان لأكل بعضهم بعضاً.

وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام: " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ".

والسلام على من اتبع الهدى.

ولم يؤرخ.

الطرف الثالث في المكاتبات الصادرة عن ملك الكانم ولم أقف له على المكاتبة إلا أنه يشبه أن تكون المكاتبة عنه نظير المكاتبة عن صاحب البرنو فإنه على قرب من مملكته والله أعلم المقصد الرابع في الكتب الواردة من الجانب الشمالي وهي بلاد الروم قد تقدم ذكر المكاتبة إلى أمرائها وأن كبيرهم الذي صار أمرهم إليه وانقادوا إلى طاعته الآن هو ابن عثمان صاحب برسا.

النوع الثاني من المكاتبات الواردة إلى هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكفار وهي أربعة أضراب الكتب الواردة عن ملوك الكرج الضرب الثاني الكتب الواردة عن ملوك الحبشة والعادة فيها أن ترد في قطع باللسان ولم أظفر بصورة مكاتبة في هذا المعنى إلا مكاتبة واحدة وردت على الملك الظاهر بيبرس ضمن كتاب إلى صاحب اليمن وصاحب اليمن أرسله إلى هنا فيما وقفت عليه في بعض المصنفات وهو: أقل المماليك يقبل الأرض وينهي بين يدي السلطان الملك الظاهر خلد الله ملكه أن رسولاً وصل إلي من والي قوص بسبب الراهب الذي جاءنا فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهز لنا مطراناً يكون رجلاً جيداً عالماً ولا يجني ذهباً ولا فضة ويرسله إلى مدينة عوان.

وأقل المماليك يسير إلى نواب مولانا الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه وهو يسيره إلى نواب مولانا السلطان وما كان سبب تأخير الرسل عن الحضور إلى ما بين يدي مولانا السلطان إلا أنني في سكار والملك داود قد توفي وقد ملك موضعه ولده وعندي في عسكري مائة ألف فارس مسلمين وأما النصارى فكثير لا يحصون والكل غلمانك وتحت أمرك والمطران الكبير يدعو لك والخلق كلهم يقولون آمين وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقل المماليك ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون وأما الرسول الذي سفروه فهو مريض وبلادنا وخمة أي من مرض لا يقدر أحد أن يدخل إليه وأي من شم رائحته فيمرض فيموت ونحن نحفظ كل من يأتي من بلاد المسلمين فسيروا مطراناً يحفظهم.

قلت: وقد تقدم الجواب عن هذا الكتاب من كلام القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر في الكلام على الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الجانب الجنوبي من أهل الكفر ولكن الكتاب المذكور يخالف ما تقدم هناك من ادعائه العظمة وأنه لولا اضطراره إلى أخذ المطران من بطريرك الديار المصرية لكان يشمخ بنفسه عن المكاتبة ولعل ذلك كان في الزمن المتقدم.

الضرب الثالث الكتب الواردة عن ملوك الروم ورأس الكل صاحب القسطنطينية وقد وقفت على كتاب ورد منه في السابع والعشرين من صفر سنة أربعة عشر وثمانمائة في درج ورق فرنجي في نحو عشرين وصلاً قطع النصف والبياض في أعلاه وصل واحد وفي أسفله وصلان وله هامش عن يمينه وهامش عن يساره كل منها تقدير إصبعين ومقدار ما بين السطور متفاوت فأعلاه بين كل سطرين أربعة أصابع مطبوقة ثم بعد تقدير ثلث الكتاب بين كل سطرين ثلاثة أصابع ثم بعد ذلك ين كل

سطرين قدر إصبعين ثم بعد ذلك بين كل سطرين قدر ثلاثة أصابع إلى آخر الكتاب والقلم في غاية الدقة بقلم الرقاع الدقيق وفي آخره ثلاثة أسطر وقطعة بالحمرة بقلم أجل من الأول قليلاً.

وهذه نسخة كتاب معربة بترجمة بطرك الملكانية بحضور سيف الدين سيف الترجمان وهي: المعظم الممجد المبجل الضابط السلطان الكبير سلطان مصر ودمشق وحلب وغيرها الملك الناصر فرج ابن السلطان الكبير المرحوم الظاهر برقوق المحبوب إلي العزيز أكثر من أولاد مملكتي.

يحيط علمه أنني ومملكتي طيبون بنعمة الله تعالى وكذلك تكون إن شاء الله تعالى سلطنتك الممجدة طيبة في خير وأن المحبة والمودة لم تزل بين والدك المرحوم وبين والدي إلى آخر وقتٍ ونحن بحمد الله قد تزايدت محبتنا على ذلك وتكاثرت وتتوكد أيضاً المحبة بيننا وبين سلطنتك المعظمة إلى الأبد فإن ذلك واجب وتتردد رسلكم بكتبكم إلينا وكذلك رسلنا بكتبنا إلى ملككم وكان قصدنا أن نجهز إليكم رسولاً لكن الفتن في بلادنا وما بلغنا من سفر مولانا السلطان من تخت مملكته ولم نعرف إلى أي مكانٍ توجه أوجب تأخير ذلك وأن حامل هذا الكتاب المتوجه به السلطان المعظم المسمى سورمش التاجر من اسطنبول هو من جهتنا وله عادة بالتردد إلى مملكتكم المعظمة ونحن نعلم أن سلطنتك تحب الطيور الكواهي فجهزنا لكم صحبة المذكور خمس كواهي وبازدار ليكون نظركم الشريف عليهم وكذلك على البطاركة والنصارى والكنائس على حكم معدلة السلطان ومحبته والوصية بهم ومعاونتهم ورعايتهم وإجراؤهم على جاري عوائدهم من غير تشويش على ما ألفوه من إنصافكم أولاً وآخراً لأجل محبتكم لنا ومحبتنا واستمرار العناية بهم مع أن البطاركة عرفونا أن مولانا السلطان يبرز مرسومه بمراعاتهم والإحسان إليهم ولم يزالوا داعين له شاكرين من معدلته ونضاعف شكرنا من إحسانكم على ذلك وتكونوا إن شاء الله طيبين والمحبة متزايدة في أيامكم وأيامنا ومهما كان لمولانا السلطان بمملكتنا من أطواع فيرسم بها ونبادر بذلك.

والذي بآخره بالحمرة علامة الملك مضمونها مانويك المسيحي بنعمة الله ضابط مملكة الروم البلالوغس.

الكتب الواردة من جهة ملوك الفرنج بالأندلس والجهات الشمالية وما والى ذلك والعادة فيها أن تكتب باللسان الفرنجي وعادة الكتب الواردة عنهم جملة أن تكتب في فرخة ورق فرنجي مربعة على نحو مقدار الفرخة البلدي أو دونها بأسطر متقاربة باللسان الفرنجي وقلمه ثم يطوى طياً مسطحاً ويعنون في وسطه ويطوى من جهتي الأول والآخر حتى يصير العنوان ظاهراً من الطي ثم يخرز ويختم بسحاءة ويختم عليه بطمغة في شمع أحمر على نحو ما تقدم في الكتب الواردة من ملوك الغرب فإذا ورد على الأبواب السلطانية فك ختمه وترجم بترجمة الترجمان بالأبواب السلطانية وكتب تعريبه في ورقة منفردة وألصقت به بعد كتابة الجواب من التعريب على ما تقدم ذكره في مقدمة الكتاب.

وهذه نسخة كتاب وارد من دوج البنادقة ميكائيل على يد قاصده نقولا البندقي في السادس عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة ترجمة شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون التراجمة بالأبواب الشريفة فيفرخة ورق فرنجي مربعة متقاربة السطور.

وهو: السلطان المعظم ملك الملوك فرج الله ناصر الملة الإسلامية خلد الله سلطانه.

يقبل الأرض بين يديه نقولا دوج البنادقة ويسأل الله أن يزيد عظمته لأنه ناصر الحق ومؤيده وموئل الممالك الإسلامية كلها وينهي ما عنده من الشوق والمحبة لمولانا السلطان وأنه لم يزل أكابر التجار والمحتشمين والمترددين من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده وتزايد الدعاء ببقاء دولته وقد رغب التجار بالترداد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك ولأجل الصلح المتصل الآن بيننا بالمحبة.

وأما غير ذلك فإنه بلغنا ما اتفق في العام الماضي من حبس العنز في ثغر دمياط المحروس وأن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحتشمين من التجار بثغر الإسكندرية المحروس وزنجرهم بالحديد وأحضرهم إلى القاهرة وحصلت لهم البهدلة بين جنوسهم والضرر والقهر الزائد وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا فإن الذي فعل مع المذكورين إنما فعل معنا وتعجبنا من ذلك لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان في مملكته ومحبتنا له ومناداتنا في جميع مملكتنا بكثرة عدله وبمحبته لطائفتنا وإقباله عليهم وقولنا لجميع نوابنا: إنهم يكرمون من يجدونه من مملكة مولانا السلطان ويراعونه ويحسنون إليه والمسؤول من إحسانه الوصية بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم والنظر في أمورهم إذا حصل ما تشبه هذا الأمر ومنع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار ويترددوا إلى مملكته.

وهذه نسخة كتاب وارد من كبطان الماغوصة والمستشارين بها في ثامن عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة ترجمة شمس الدين سنقر وسيق الدين سودون الترجمانين بالأبواب الشريفة وهو: الملك المعظم ملك الملوك صاحب مصر المحروسة الملك الناصر عظم الله شأنه.

يقبل الأرض بين أياديه الكبطان والمستشارون وينهون أنهم آناء الليل داعون بطول بقائه مجتهدون في استمرار الصلح والمودة التي لا يشوبها كدر بين القومون وبين مولانا السلطان وأن في هذا الوقت ثم حرامية غراب يتحرمون بأطراف هذه البلاد والمين الإسلامية ونحن لم نزل نشحطهم بالمراكب والأغربة ونمنعهم من ذلك جهدنا وقدرتنا حتى إن أحداً صار لا يجسر على الدخول إلى مينا الماغوصة جملة كافية مع أننا كنا خلصنا في المدة الماضية من الحرامية المذكورين خمسة وعشرين نفراً من المسلمين وأكرمناهم وأطلقنا سبيلهم وعزمنا أن نجهزهم إلى دمياط أو إلى ثغر الإسكندرية.

وأما غير ذلك فقد بلغنا أن برطلما أوسق للمواقف الشريفة صابوناً في مراكبه وكان قصد أن يهرب بذلك فللحال عمرنا مركباً كبيراً وأخذنا برطلما المذكور بالمحاربة وأحضرناه إلى الماغوصة وعهدنا بطروق المركب إلى شخص يسمى أرمان سليوريون وهو رجل مشكور السيرة وقلنا له أنه يتوجه إلى خازن الصابون المذكور ويستشيره إن كان يوسق شيئاً من الأصناف لمولانا السلطان ويجهزه إلى أي مكان اختاره ليسلمه ليد من تبرز له المراسيم الشريفة بتسليمه فليفعل وهذا القول كله يكون دليلاً عند مولانا السلطان على صدق الولاة والتمسك بالصلح والمسؤول من الصدقات الشريفة الإقبال على التجار الجنوية الذين عند مملكته وكف أسباب الضرر عنهم وينشر معدلته عليهم والله تعالى يديم بقاءه بمنه وكرمه.

فصل السادس من الباب الثاني في المقالة الرابعة في رسوم المكاتبات الإخوانيات

وهي جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان جمع أخ والمراد المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء وفيه طرفان الطرف الأول في رسوم إخوانيات السلف من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وهي في الغالب لا تخرج عن ضربين الضرب الأول أن تفتتح المكاتبة باسم المكتوب عنه وكان رسمهم فيه أن تفتتح المكاتبة بلفظ من فلان إلى فلان سلام عليك إني أحمد الله الذي لا إله إلا هو فلما كانت خلافة الرشيد وأمر أن يزاد هنا في السلطانيات وأسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده ورسوله كما تقدم في موضعه جرى الكتاب في الإخوانيات على ذلك أيضاً وكان الخطاب يجري بينهم في ذلك بأنا وأنت ولي ولك وعندي وعندك وما أشبه الضرب الثاني أن تفتتح المكاتبة باسم المكتوب إليه تفخيماً لأمره وتعظيماً لشأنه الافتتاح بتفخيم اسم المكتوب إليه وكان رسمهم في ذلك أن يفتتحوا المكاتبة بلفظ إلى فلان من فلان سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وباقي الكتاب على ما تقدم في الضرب الأول في الخطاب والختام وغيرهما.

الطرف الثاني في رسوم الإخوانيات المحدثة بعد السلف وفيه ثلاثة مقاصد المقصد الأول في رسوم إخوانيات أهل المشرق وفيه أربعة مهايع

المهيع الأول في صدور الابتداءآت

الأسلوب الأول: أن تفتتح المكاتبة بالدعاء وعليه اقتصر أبو جعفر النحاس في كتابه صناعة الكتاب وكان على رأس الثلثمائة في خلافة الراضي وقد تقدم في الكلام على مقدمات المكاتبات نقلاً عن مواد البيان أن الأدعية كانت في الزمن الأول تستعمل فيما يتعلق بأمر الدين مثل قولك: أكرمه الله وحفظه الله ووفقه وحاطه وما أشبه ذلك فعدل عنها قصداً للإجلال والإعظام إلى الدعاء بإطالة البقاء وإدامة العز وإسباغ النعمة ونحو ذلك مما يتنافس فيه أبناء الدنيا جرياً على عادة الفرس.

ثم رتبوا الدعاء على مراتب فجعلوا أعلاها الدعاء بإطالة البقاء ثم بإطالة العمر ثم بالمد وكذلك سائر المكاتبات على ما تقدم بيانه هناك.

ثم هو على ستة أضراب: الضرب الأول: المكاتبة من المرؤوس إلى الرئيس وهو على صنفين الصنف الأول: المكاتبة إلى الأمراء.

قد ذكر النحاس أنه يقال في افتتاح مكاتباتهم: أطال الله بقاء الأمير فإذا أردت أجل ذلك كله كتبت: أطال الله بقاء الأمير في أعز العز وأدوم الكرامة والسرور والغبطة وأتم عليه نعمته في علو الدرجة وشرف من الفضيلة وتتابع من الفائدة ووهب له

السلامة والعافية في الدنيا والآخرة وبلغ بالأمير أفضل ما تجري إليه همته وتسمو إليه أمنيته أو بلغ بالأمير أفضل شرف العاجل والآجل وأجزل له ثواب الآخرة.

ثم قال: ومن الدعاء له: أطال الله بقاء الأمير في عز قاهر وكرامة دائمة ونعمة سابغة وزاد في إحسانه إليه والفضيلة لديه ولا أخلى مكانه منه.

قال: ومنه أطال الله بقاء الأمير وأدام عزه وتأييده وعلوه وتمكينه وكبت عدوه.

ثم ذكر أدعية أخرى للأمراء عن الفضل بن سهل.

منها أطال الله بقاء الأمير ومكن له في البسطة وتزايد النعمة وزاده من الكرامة والفضيلة والمواهب الجليلة في أعز عز وأدوم سلامة وأسبل عافية ومنها: أطال الله بقاء الأمير وأدام له الكرامة مرغوباً إليه وزاد في إحسانه لديه وأتم نعمته عليه ووصل له خير العاجل بجزيل الآجل.

الصنف الثاني: المكاتبة إلى القضاة.

وقد قال النحاس: أنه يدعى للقاضي بمثل ما يدعى به الأمير غير أنه يجعل مكان الأمير القاضي إلا أن الفضل بن سهل قال: يدعى لقاضي القضاة أطال الله بقاء القاضي وأدام عزه وكرامته ونعمته وسلامته وأحسن من كل جميل زيادته وألبسه عفوه وعافيته وإنه يدعى له أيضاً: أطال الله بقاء القاضي في عز وسعادة وأدام كرامته وأحسن زيادته وأتم نعمته عليه في أسبغ عافية وأشمل سلامة.

قال: وقال غير الفضل: إن الكفء يكاتب كفأه ومن كان خارجاً من نعمته: أدام الله بقاءك أيها القاضي.

الضرب الثانيالمكاتبة من الرئيس إلى المرؤوس كالمكاتبة عن الوزير وقاضي القضاة وغيرهما قال النحاس: وهي على مراتب أعلاها في حق المكتوب إليه أطال الله بقاءك وأدام عزك وأكرمك وأتم نعمته عليك وإحسانه إليك وعندك.

ودونه: أطال الله بقاءك وأعزك وأكرمك وأتم نعمته عليك وعندك.

ودونه: أدام الله عزك وأطال بقاءك وأدام كرامتك وأتم نعمته عليك وأدامها لك.

ودونه: أعزك الله ومد في عمرك وأتم نعمته عليك وما بعده على توالي الدعاء الذي تقدم.

ودونه: أكرمك الله وأبقاك وأتم نعمته عليك وأدامها لك.

ودونه: أن تسقط وأدامها لك.

ودونه: أبقاك الله وحفظك وأتم نعمته عليك وأدامها لك.

ودونه: أن تسقط وأدامها لك.

ودونه: حفظك الله وأبقاك وأمتع بك.

ودونه: عافانا الله وإياك من السوء.

قال في صناعة الكتاب: هذا إذا جرى الأمر على نسبته ولم تتغير الرسوم وإلا فقد تعرض أن يكون في الدولة من هو متقدم على الوزير أو مساوى به فتتغير الكتابة فقد كان عبد الله بن سليمان يعني وزير المعتضد يكاتب أبا الجيش يعني خمارويه بن

أحمد بن طولون: أطال الله يا أخي بقاك إلى آخر الصدر للمصاهرة التي كانت بين أبي الجيش وبين المعتضد ولأن المعتضد كناه.

ثم قال: فإن كان الرئيس غير الوزير فلربما زاد في مكاتبته زيادة لمن له محل فيزيده ويكاتبه بزيادة التأييد ودوام العز.

قال: ويدعى للفقهاء: أدام الله بقاءك في طاعته وسلامته وكفايته وأعلى جدك وصان قدرك وكان لك ومعك حيث لا تكون لنفسك.

أو أدام الله بقاءك في أسر عيش وأنعم بال وخصك بالتوفيق لما يحب ويرضى وحباك برشده وقطع بينك وبين معاصيه أو طال الله بقاءك بما أطال به بقاء المطيعين وأعطاك من العطاء ما أعطى الصالحين.

أو أكرمك الله بطاعته وتولاك بحفظه وأسعدك بعونه وأيدك بنصره وجمع لك خير الدنيا والآخرة برحمته إنه سميع قريب أو: تولاك من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه وكان لك من هو بالمؤمنين رؤوف رحيم.

أو: أكرم الله عن النار وجهك وزين بالتقوى تجملك.

أو: أكرمك الله بكرامة تكون لك في الدنيا عزاً وفي الآخرة من النار حرزاً.

الضرب الثالث المكاتبة إلى النظراء والمخاطبة فيه بالكاف قال في الصناعة الكتاب وأعلى ما يكتب في ذلك يعني بالنسبة إلى المكتوب إليه يا سيدي أطال الله بقاءك وأدام عزك وتأييدك إلى آخر الصدر.

ودونه: أطال الله يا سيدي بقاءك.

ودونه يا سيدي وأخي أطال الله بقاءك.

ودونه: أدام الله يا أخي بقاءك.

الضرب الرابع المكاتبة الأبناء والخطاب فيه بالكاف قال في صناعة الكتاب يكتب الرجل إلى ابنه: بأبي أنت أو: فداك أبوك.

أو: مات قبلك.

أو: أسأل الله عز وجل حفظك وحياطتك ورعايتك.

أو: أرشدك الله أمرك.

أو: أحسن البلاغ بك.

أو: بلغ الله بك أفضل الأمل وأتم السرور بك وجعلك خلفاً صالحاً وبقية زاكية.

قال النحاس: يدعى لهم: صرف الله السوء عنك وعن حظي منك أو: أطال الله بقاء النعمة عليك وعلي فيك أو: جعلت أنا وطارفي وتالدي فداك.

أو: ملاني الله إخاءك وأدام الله بقاءك.

أو: أستودع الله عز وجل ما وهب لي من خلتك ومنحني من إخوتك وأعزني به من مودتك.

أو: حاط الله حظي منك وأحسن المدافعة عنك.

أو: ببقائك متعت وفقدك منعت.

أو: نفسي تفديك والله يبقيك ويقيني الأسواء فيك.

أو: ملاني الله النعمة ببقائك وهنأني ما منحني من إخائك.

أو: أبقى الله النعمة لي ببقائها لك وبلغتها بك.

أو: وفر الله حظي منك كما وفر من المكارم حظك.

أو: ملاني الله ببقاك كما منحني إخاك.

أو: دافع الله لي وللمكارم عن حوبائك وأمتعني ببقائك وجمع أملي فيك بجمعه المكارم لك.

أو: زادك الله من النعم حسب تزايد البر لإخوانك وبلغ بك أملهم كما بلغ بهم آمالهم فيك.

الضرب السادس المكاتبة إلى النساء قد ذكر النحاس أنهن يكاتبن على نظير ما تقدم من مكاتبة الرئيس والمرؤوس والنظير غير انه قد وقع في الاصطلاح من بعضهم أنه لا يقال في مكاتبتهن: وكرامتك ولا أتم نعمته عليك ولكن أتم نعمته لديك ولا فضله عندك ولا سعادتك ولا فعلت ولا أن تفعلي ولكن إن رأيت أن تمني بذلك مننت به وما أشبه ذلك وقد تقدم في الكلام على مقدمات المكاتبات بيان كراهتهن قلت: ثم راعى الكتاب في تعظيم المكتوب إليه أن عدلوا عن خطابه بالكاف عن نظير خطاب المواجهة إلى المعنى الغيبة فقالوا: له وإليه وعنده ونحو ذلك وخصوا الخطاب بالكاف بأدنى المراتب في حق المكتوب إليه.

على أنه قد تقدم من كلام النحاس إنكار ذلك على من اعتمده محتجاً عليه بأنه أعظم من الله تعالى مع أنه يقال في الدعاء يا الله ونحو ذلك.

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في كتابه ذخيرة الكتاب أدعية مرتبة على الغيبة وقال: أعلاها أطال الله بقاءه وأدام تمكنه وارتقاءه ورفعته وسناءه وكبت عدوه.

ودونه: أطال الله بقاه وأدام تأييده وعلاه وتمهيده وكبت عداه.

ودونه: أطال الله بقاه وأدام تأييده وحرس حوباءه.

ودونه: أطال الله بقاه وأدام تأييده ونعماه.

ودونه: أطال الله بقاه وأدام نعماه.

ودونه: أطال الله بقاه وأدام عزه.

ودونه: أطال الله بقاه وأدام توفيقه وتسديده.

ودونه: أطال الله بقاه وأدام سداده وإرشاده.

ودونه: أطال الله بقاه وأدام حراسته.

ودونه: أدام الله تأييده.

ودونه وأدام الله توفيقه.

ودونه: أدام الله عزه وسناءه.

ودونه: أدام الله عزه.

ودونه: أدام الله حراسه.

ودونه: أدام الله كرامته.

ودونه: أبقاه الله.

ودونه: حفظه الله.

ودونه أعزه الله.

ودونه: سلمه الله.

ودونه: رعاه الله.

ودونه: عافاه الله.

وعلى معنى الغيبة يقال في الدعاء: أطال الله بقاء الأمير أو بقاء القاضي أو بقاء سيدي أو بقاء مولاي وما أشبه ذلك من كل رتبة بحسبها.

واعلم أن الذاهبين من الكتاب إلى إجراء المخاطبة في المكاتبة على معنى الغيبة كما هو طريقة ابن حاجب النعمان وغيره يعبرون عن المكتوب إليه بلقبه الخاص: كالوزير والأمير والحاجب والقاضي كسيدنا ومولانا على لفظ الإفراد كسيدي ومولاي وينعتون المكتوب إليه بالجليل أو الحاجب الجليل ويجعلون الإفراد دون ذلك في الرتبة فيقولون: سيدي أو مولاي الأمير الجليل أو الحاجب الجليل ونحو ذلك.

ثم توسعوا في ذلك فجعلوا الدعاء متوسطاً كلام الصدر على القرب من الابتداء مقدمين بعض كلام الصدر عليه ومؤخرين بعضه عنه مثل أن يقال في المكاتبة بشكر: إذا كان الشكر أطال الله بقاء سيدنا الأمير فلان ترجمان النية ولسان الطوية وشاهد الإخلاص وعنوان الاختصاص وسبباً إلى الزيادة وطريقاً إلى السعادة وكانت معارفه قد أحاطت بمعادنه واستولت على محاسنه فألسن آثارها من الصمت أفصح من لسانه وبيانها مع الجحود أبلغ من بيانه ونحو ذلك.

ثم أحدثوا اصطلاحاً آخر أضافوه إلى الاصطلاح الأول فقدموا على الدعاء لفظ كتابنا أو لفظ كتابي رتبة دون رتبة مثل أن كتبوا: كتابنا أطال الله بقاء الأمير ونحن على أفضل ما وعدنا الله من النظام الأمور وسدادها واستقامتها بحضرتنا واطرادها أو كتابي أطال الله بقاء مولاي الحاجب عن سلامة ينغصها فقدك وينتقصها فراقك وما يجري مجرى ذلك.

وربما أبدلوا لفظ كتابنا أو كتابي بلفظ كتبت بصيغة الفعل وربما ابتدءوا بلفظ أنا ونحوه ثم خرج بهم الاختيار إلى المصطلحات اصطلحوا عليها مع بقاء بعض المصطلح القيم فخاطبوا بالحضرة تارة وبالخدمة تارة وبالمجلس أخرى فكتبوا كتابي أطال الله بقاء حضرة سيدنا الوزير أو سيدنا الأمير ونحو ذلك أو أسعد الله الحضرة أو أسعد الله الخدمة أو ضاعف الله جلال الخدمة أو أعز الله أنصار الخدمة وربما كتبوا: صدرت هذه الخدمة إلى فلان.

وقد يكتبون: صدرت هذه الجملة إلى غير ذلك من تفنناتهم التي لا يسع استيعابها ولا يمكن اجتماع متفرقها.

قلت: وبالجملة فضبط صدور الإخوانيات وابتداءاتها على هذا المصطلح غير ممكن لاختلاف مذاهبهم في ذلك والذي تحصل لي من كلام النحاس وابن حاجب النعمان وترسل أبي إسحاق الصابي والعلاء بن موصلايا وأبي الفرج الببغاء وغيرهم نمن الكتاب المجيدين أن الغالب في المكاتبات الدائرة بين الأعيان الدول على سبعة أساليب: الأسلوب الأول: أن تفتتح المكاتبة بالدعاء: كما كتب أبو إسحاق الصابي إلى صاحب إسماعيل بن عباد بالشكر والتشوق: أطال الله بقاء سيدنا الصاحب الجليل في سلامة دنيا ودين ونفاذ أمر وتمكين وتمام عز وتأييد وثبات وطأة وتمهيد وعلو قدر وسلطان وتعاظم خطر وشان وتولاه في نفسه وأوليائه بأحسن ما عرف وألف من نعم دارة الحلب متفرعة الشعب محمية الجهات والجوانب محجوبة عن النوائب والشوائب وأراه في حساد فضائله وكفار فواضله وما عوده فيهم من شقاء جدودهم وفلول حدودهم وحلول النكال بهم وإثبات العصمة منهم وجعل حكمه قطباً لمدار الأفلاك ونهجاً لمجاري الأقدار فلا ينزل منها محبوب مطلوب إلا توجه إليه ونحاه ولا محذور إلا أعرض عنه وتحاماه ثم كان برؤوس معانديه حلوله وبرقابهم إحاطته وفوق ظهورهم محمله وعلى صدورهم مجثمه أمراً جزماً قضاه الله له وخصه به وأعطيته الأيام عليه عهد أمانها وأمرت له به عقد ضمانها عاطفة عليه بطاعتها ومواتاتها مغضية له عن نوائبها ونبواتها وحقيق عليه جل اسمه أن يفعل ذلك به ويسمع هذا الدعاء فيه إذ كان مرفوعاً إليه في أوفر عباده فضلاً وأغمرهم نيلاً وأجزلهم أدباً وأكثرهم حسباً وأعملهم بطاعته وأولاهم بإحسانه ومعونته.

كتبت هذا الكتاب أطال الله بقاء سيدنا الصاحب الجليل ثم انخرط في سلك مقصده إلى آخره.

الأسلوب الثاني: أن يتوسط الدعاء صدر الكتاب بعد الابتداء بكلام مناسب الحال.

كما كتب أبو إسحاق الصابي أيضاً عن بعض الأمراء إلى أمير آخر مبشراً بفتح: ومن أعظم النعم أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل خطراً وأحسنها أثراً نعمة سكنت ثورة وأطفأت فورة وعادت على الناس بجميل الصنع وجليل النفع ونظام الأمور وصلاح الجمهور فتلك التي يجب أن يكون الشكر عليها مترادفاً الاعتداد بها متضاعفاً بحسب ما أزالت من المضرة وجددت من المسرة وأماطت من المحذور ونشرت من المأمول.

وحقيق على الناس أن يعرفوا حقها ويوفوها من حمد الله قسطها ويتنجزوه وعده الحق أدائها وإطالة الإمتاع بها والحمد لله على أن جعلنا ممن يعرف ذلك ويهتدي إليه ويعتقده وينطوي عليه ويؤدي فرض الاجتهاد في الاستدامة والاستزادة منه وأن خصنا من هذه النعم بذوات الفضل السابغ والظل الماتع الجامعة لكتب العدو ومساءته وابتهاج الولي ومسرته وهو المسؤول جل اسمه وعز ذكره أن لا يسلبنا ما ألبسناه من سرابيلها وأجرناه من فضل ذيولها وعودناه من جلالة أقدارها وتعاظم أخطارها ولا يعدمنا معونة منه على بلوغ أقصى الوسع في الاعتداد بها ومنتهى الطوق في البشر لها بمنه وطوله وقوته وحوله.

وقد عرف مولانا الأمير فلان ما كان من كذا وكذا ثم أتى على ذكر الفتح إلى آخره.

الأسلوب الثالث: أن يفتتح الكتاب بلفظ كتابي كما كتب الصابي عن الوزير أبي عبد الله الحسن بن سعدان إلى فخر الدولة بن بويه في بشارة الفتح: كتابي أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل فخر الدولة ومولانا الملك السيد صمصام الدولة وشمس الملة جار على أفضل حال جمع الله بينهما في تمام عز ونصر ونفاذ أمر ونهي وعلو كلمة ورأي وسبوغ موهبة ونعمة وشكر الله يستزيد من فضله ويستدر المادة من طوله وأنا جار فيما أحمله من أعباء خدمتهما وأتولاه من تعظم شؤونهما على أجمل ما عود الله وزراء هذه المملكة المناصحين لها وأوليائها المحامين عنها من هداية إلى مراشد الأمور وتوفيق لصواب التدبير والحمد لله رب العالمين وقد كان كذا وكذا.

الأسلوب الرابع: أن يفتتح الكتاب بلفظ كتبت كما كتب الصابي إلى صاحب الجيش في تعزية: كتبت أطال الله بقاء سيدنا صاحب الجيش والعين عبرى والكبد حرى والصبر مسلوب والعزاء مغلوب والفجيعة في سيدي فلان نضر الله وجهه وكرم منقلبه التي هدت الجلد وفتت في العضد وبسطت عذر الجزوع وهجنت حلم الحليم فإنا لله وإنا إليه راجعون وإلى أمره صائرون وعند الله نحتسبه غصناً ذوى وشهاباً خبا وعلق مضنة علقت به أيدي النوائب وتخيرته سهام المصائب وقارنت بين قلوب الأباعد والأقارب والخواص والعوام في التألم لفقده والاستيحاش لمصرعه والكآبة لوقوع المحذور به وعز علي ان يجري لساني بهذا القول ويدي بهذا الخط إلى آخر المكاتبة.

الأسلوب الخامس: أن يفتتح بالخطاب كما كتب صاحب ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن أيها السيد الرئيس المحامي عن سربه والذي قصر إلا في المعالي رب ناء بجسمه وهو دان بقلبه وغريب إذا نسبت وأمير على دمشق مطاع في صحبه وله بالعراق إخوان من حزبه إلى آخر المكاتبة.

الأسلوب السادس: أن تفتتح المكاتبة بفظ: أنا كما كتب الصابي عن نفسه إلى الأثير أبي الحسن يهنئه بعيد: أنا أطال الله بقاء سيدنا الأستاذ الأثير أحاول الخدمة له والقرابة منه منذ وصلت إلى العسكر المنصور فيعترض دون ذلك عوارض يجري بها المقدور إلى حين الموقف المسطور وقد علم مني وشهر عني كذا وكذا إلى آخر الكتاب.

الأسلوب الرابع: أن تفتتح المكاتبة بلفظ: صدرت أو أصدرت كما كتب صاحب ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه إلى أبي الفرج سعد بن محمد تشوقاً: صدرت هذه الجملة إلى فلان ولواعج الأشواق إليه متضاعفة مترادفة واستمرار الصبر على البعد عنه قد رث قواه ووهن عراه وأوزعنا وجدناه إذ عنت ذكراه وإن كان ذكره سمير الخاطر وتجاه الناظر والغريم الملازم الذي يستحق غالبه اللبيب الحازم إلى آخر الكتاب.

المهيع الثاني

في وهي على ضربين الضرب الأول أن تفتتح الجواب بما يفتتح به الابتداء ثم يقع التعرض بعد ذلك لوصول الكتاب والجواب عنه إما متلاصقاً لأول الابتداء وإما بعد كلام طويل فأما ما هو متصل بأول الابتداء فكما كتب الصابي كتابي ووصل كتاب مولاي وفهمته وجل عندي قدره وموقعه وسكنت إلى ما دل عليه من سلامته وسألت الله أن يسبغ عليه ظلها ويمليه نعمه كلها فأما ما ذكره من كذا وكذا إلى آخر الكتاب.

وأما ما هو بعد كلام طويل فكما كتب الصابي أيضاً عن نفسه إلى الصاحب ابن العباد: كتابي أطال الله بقاء مولانا الصاحب الجليل كافي الكفاة وليس من جارحة إلا ناطقة بشكره وحمده ولا في الدهر جارحة إلا عافية بفضله ورفده وأنا مستمر له على دعاء إن خلوت من أن يكون عائداً لصلاحي ورائشاً لجناحي لألتزمنه عن الأحرار العائشين في نداه المستظلين بذراه فكيف وأنا أول ساهر في مرابعه ووارد لشرائعه وأحوالي جارية على استقامة أقوى أسبابها تصرف الأيام على آرائه واتباعها إيثاره في أوليائه وأعدائه والحمد لله رب العالمين قضاء لحقه واقتضاء لمزيده واستدامة للنعمة عنده التي استحصفت في أيدينا سعتها وسالت علينا شعابها وغمرتنا سجالها وتفيأت لنا ظلالها وما يزال بين رغبة مولانا الصاحب الجليل كافي الكفاة أدام الله علوه وكبت عدوه في عبده ورغبة عبده إليه سر مكنون في الصدور ومستور تحت الضلوع فهما يتناجيان به على بعد الدار ويلتقيان عليه بالأفكار فإن تطلع من حجاب القلوب وشذ من ظهور الغيوب فإن ظهوره يكون من جهته في نفحات الإنعام ومن جهتي في ثمرات الكلام.

وقد وصل كتابه المخطوط بكرمه لا بقلمه إلى صنيعته الماثل بين يديه بهممه لا بقدمه فلم يستطع إلا أن ينهض من الفكر إلا بقدر ما يبرأ ساحته من الكفر ويبلغه إلى آخر الاجتهاد والعذر وأسأل الله أن يطيل بقاءه للإفضال المأخوذ منه والفضل المأخوذ عنه والعلم الذي يزخربه بحره والفخر الذي يسحب له ذيله والعز الذي ضرب عليه رواقه والسلطان الذي ألقي إليه استحقاقه والأمر والنهي اللذين يحويهما تراثاً واكتساباً إذا حواهما غيره غلولاً واغتصاباً بمنه وطوله وقد كان كذا وكذا.

الضرب الثاني أن يفتتح الجواب بلفظ ورد أو وصل ونحوهما كما كتب الصابي عن الوزير أبي عبد الله بن سعدان في جواب كتاب ورد عليه: وصل كتابك أطال الله بقاءك وفهمته وأدى فلان ما تحمله عنك ووعيته وازدادت به بصيرة في سدادك ومعرفتك وفضلك وحصافتك واجتماع الأدوات الجميلة فيك الداعية إلى إعلاء محلك وحميد حالك والثقة بك والاستنامة إليك وأنهيت ذلك إلى الملك فلان فأصغى إليه مستمعاً وأوجب لك به حقاً متضاعفاً وأمرني كذا وكذا إلى آخر مراده.

وكما كتب أبو الفرج الببغاء في جواب كتاب: ورد كتابك مشافهاً من البر ومؤدياً من الفضل ومتحملاً من المن ما تجاوز الإنصاف إلى الإسراف وقرن الإكرام بالإنعام ولم أدر أي المنح به أشكر ولا بأي العوارف له أعترف أبما تحمله من جميل نيته أم ما أدى من جليل مخاطبته أم ما ناجتني به فوائد ملاطفته أم ما اعتمدني من حلاوة مفاوضته إلى غير ذلك من الوصول إلى النعمة التي لا أطاولها بشكر ولا أقاومها بمنة اعتداد وهو ابتداؤه إياي من المكاتبة بما أحرز به على عادته قصب السبق وزاد على الرغبة مبرهناً وبصادق الود مخبراً وإلى البسط دليلاً وعلى مستأنف الخدمة بالمواصلة باعثاً ووجدته أيده الله قد فعل كذا وكذا.

المهيع الثالث: في خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح

واعلم أنه لم يكن لهم ضابط للاختتامات ولا ما يقضي ملازمة اختتام معين لصدر معين بل ذلك موكول إلى رأي الكاتب لا يرعي فيه غير علو الرتبة وهبوطها حيث تفاوتت رتب الاختتامات عندهم.

ثم الاختتامات عندهم على أنواع شتى: منها: الاختتام باستماحة الرأي وهو على مراتب: أعلاها ولمولانا علو الرأي في ذلك كما كتب الصابي في خاتمة كتاب: ولمولانا علو الرأي في تشريف خادمه بالقبول والتقدم بإعلامه بالوصول واستخدمه بما يتعلق بآرابه وأوطاره ومن نظائر ذلك وأشكاله إن شاء الله.

ودون ذلك: الاختتام بلفظ فإن رأي كذا وكذا فعلكما كتب الصابي في خاتمة كتاب بشارة بفتح: فإن رأى سيدي أن يعرفني موقع هذه البشرى منه ومقابلتها بالشكر الواجب عليها ويتقدم بإشاعتها في نواحيه وأعماله ليبكت الله به عدوه وعدونا ويكاتبني بما أتطلعه من أحواله وأخباره وأتعمد إسعافه بع من مآربه وأوطاره فإني أعتده شريكاً لنا مساهماً وخليطاً مفاوضاً فعل إن شاء الله تعالى.

ودونه: فرأيك في كذا وكذا كما كتب أبو الفرج البيغاء في خاتمة كتاب في الحث على مواصلة الكتب فرأيك في إيناسنا بكتبك متضمنة ما نؤثره من انبساطك ونعلمه من أخبارك موفقاً إن شاء الله تعالى.

وقد تقدم في الكلام على أصول المكاتبات لأي معنى كان فرأيك دون فإن رأيت.

وذكر ابن حاجب النعمان أن أعلى المراتب وللآراء العالية فضل السمو ومزيد القدرة.

ودونه: ولرأي المجلس الفلاني فضله وسموه.

ودونه: ولرأي الحضرة الفلانية فضله.

ودونه: ورأي حضرة مولانا أسمى.

ودونه: ورأي حضرة مولاي العالي.

ودونه: ورأيه موفقاً.

ودونه: ورأيه السديد.

ودونه: ورأيه الأرشد.

ودونه: المؤثر كذا.

ودونه: فأحب أن يفعل كذا.

ودونه: ويجب أن يفعل كذا.

ودونه: فافعل كذا من غير مخالفة.

ودونه: وأحذر المخالفة.

ومنها الاختتام بالدعاء كما كتب الصابي كتاب وأسأل الله أن يطيل بقاءه ويصل إخاءه ويحفظه بعيداً وقريباً ويرعاه غائباً وحاضراً.

ومنها: الاختتام بطلب مواصلة الكتب كما كتبا لصابي في خاتمة كتاب: وأنا أسأله أن يواصلني بكتبه مضمنة أخباره الطيبة وأمره الممتثل وأوطاره ومهماته معتمداً بذلك إن شاء الله تعالى.

ومنها: الاختتام بترك التكليف بالمكاتبة من غير الضروري كما كتب الصابي في آخر مكاتبة: وما أطالب سيدي بالمكاتبة إلا عند الحاجة العارضة فإنه يفيدني بها جميلاً اشكره ويستفيد مني سعياً يحمده فأما ما عدا ذلك مما يشغل أوقات راحته ويسد فرج خلوته فإنني أستعفي منها استعفاء المتقرب إليه المؤثر لما خف عليه وله فيما سألت فضل النظر فيه والإسعاف به إن شاء الله تعالى.

ومنها: الاختتام بالتحذير من المخالفة كما كتب الصابي في خاتمة الكتاب إلى جماعة بتحصيل قوم: وليكتب كل واحد منهم بخبر من عسى أن يظفر به من هؤلاء أو يقف على موضعه أو ينتهي إليه من خبره وليحذر من التقصير في ذلك.

إلى غير ذلك من الاختتامات التي لا تحصى كثرة.

وقد ذهب كثير من الكتاب إلى عدم تفصيل بعض الاختتامات على بعض على أن ابن الحاجب النعمان قد قال في ذخيرة الكتاب: إن أعلى ذلك بالنسبة إلى المكتوب إليه وللآراء الفلانية فضل السمو ومزيد القدرة.

ودونه: ولرأي المجلس الفلاني فضله وسموه.

ودونه: ولرأي الحضرة الفلانية فضله.

ودونه: ورأي حضرة سيدنا أسمى.

ودونه: ورأي حضرة مولاي العالي.

ودونه: ورأيه موفقاً.

ودونه: ورأيه السديد.

ودونه: ورأيه الأرشد.

ودونه: المؤثر كذا.

ودونه: فأحب كذا.

ودونه: ويجب أن تفعل كذا.

ودونه: وسبيله أن يعتمد كذا.

ودونه: فافعل كذا.

ودونه: فافعل كذا من غير مخالفة.

ودونه: وأحذر المخالفة.

المهيع الرابع: في عنوانات الكتب على هذا المصطلح

وفيها أربعة أحوال: الحالة الأولى: أن يكون العنوان من الرئيس إلى المرؤوس.

قد ذكر في صناعة الكتب أن العنوانات من الوزير والقاضي وغيرهما من الرؤساء على تسع مراتب: الأولى: أن يكتب في الجانب الأيمن لأبي فلان أطال الله بقاءه وأعزه وفي الجانب الأيسر من فلان بن فلان باسم الوزير واسم أبيه إن لم يكنه الإمام فإن كناه كتب من أبي فلان والقاضي في معنى ذلك.

الثانية: أن يكتب في الجانب الأيمن لأبي فلان أطال الله بقاءه فقط ويكتب السم ولا يكتب: وأعزه.

الثالثة: أن يكتب في الدعاء للمكتوب إليه: أدام الله عزه.

الرابعة: أن يكتب: أعزه الله.

الخامسة: أن يكتب: أكرمه الله وأدام كرامته.

السادسة: أن يكتب: أكرمه الله وفي ذلك يكتب اسم الوزير في الجانب الأيسر.

السابعة: أن يكتب: أبقاه الله ولا يذكر اسم الوزير في هذه المرتبة وما بعدها.

الثامنة: أن يكتب: حفظه الله ولا يكتب اسم الوزير.

التاسعة: أن يكتب: عافاه الله.

وعلى نحو ذلك جرى ابن حاجب النعمان في ذخيرة الكتاب فقال: إنه يبدأ في الجانب الأيمن بذكر المكتوب إليه ونعوته وكنيته واسمه واسم أبيه ونسبه المشهور من ناحيه أو قبيلته أو بلده ثم يذكر المكتوب عنه في الجانب الأيسر باسمه واسم أبيه فإن كان الكتاب عن الوزير ذكر وقد سبق الكلام على أصول المكاتبات في أول الباب الثاني من هذه المقالة أن من السلف من كره لأبي فلان وقال: الصواب أن يكتب إلى أبي فلان.

قال في صناعة الكتاب ويكتب: لأبي الحسن فإن أعدت الكنية في الناحية الأخرى رفعت فقلت: أبو الحسن علي بن فلان على المبتدأ والخبر أو على إضمار مبتدأ وإن شئت خفضت على البدل فإن لم تعد الكنية كان الخفض أحسن فقلت لأبي الحسن.

ثم قال: وإن كتبت إلى رجلين كنية كل منهما أبو الحسن كتبت لأبوي الحسن إذا لم يكن لهما ولد يقال له الحسن فإن كان لكل منهما ولد يقال له الحسن جاز أن يكتب لأبوي الحسنين.

قال: والاختيار أن يكتب لأبوي الحسن أيضاً لأن المعنى للذين يقال لكل منها أبو الحسن.

ويجوز أن يكتب إلى الرجلين اللذين يكنيان بأبي الحسن: لأبي الحسن بفتح الباء وكسر الياء على لغة من قال جاءني أبك والأصل فيه لأبين الحسن سقطت النون للإضافة ويكتب في الجميع لأبي الحسن بكسر الباء الأصل لأبين بكسرها أيضاً سقطت النون للإضافة على لغة من قال: جاءني أبوك يعني بضم الواو ويجوز أن يكتب لرجل كنيته أبو الحسن لأبا الحسن على لغة القصر كما يقال لفتى الحسن.

قال في ذخيرة الكتاب وإن كان الكتاب إلى اثنين وكنايتهما مختلفة كأبي جعفر وأبي منصور وأبي بكر كتبت آباء جعفر ومنصور وبكر.

وإن كانت كنايتهم متفقة مثل أن تكون كنية كل الحالة الثانية: أن يكون العنوان من المرؤوس إلى الرئيس.

قد ذكر النحاس عن الفضل بن سهل أنه خوطب الكفء بجعلني الله فداك بالصدر الكامل فأحسن دعائه للعنوان أعزه الله وأطال بقاءه وذكر أنه إذا كوتب بأعزه الله فأجمل العنوان مد الله في عمره.

قال في صناعة الكتاب: ولا يتكنى الرجل في كتبه إلا أن تكون أشهر من اسمه فيتكنى على نظيره ويتسمى لمن فوقه ثم يلحق المعروف أبا فلان أو المعروف بأبي فلان.

قال: ويكتب: من أخيه إن كانت الحال بينهما توجب ذلك.

الحالة الثالثة: أن يكون العنوان من الرجل إلى ابنه ومن في معناه قد ذكر النحاس أنه يعنون إليه من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان ثم قال: وكذا كبير الإخوة والرجل إلى أهل بيته.

الحالة الرابعة: أن يكون المكتوب إلى امرأة.

قال في صناعة الكتاب: إن كان المكتوب إليه أم الخليفة كتب: للسيدة أم فلان أمير المؤمنين وإن كانت امرأة الخليفة وكان ابنها معهوداً إليه بالخلافة كتب للسيدة أم فلان ولي عهد المسلمين وإن كانت امرأة رجل جليل كتب للحرة أم فلان ولا يكتب اسمها ويدعو بالدعاء الذي يكون خطابها به.

هذا ما كان الحال عليه في زمن النحاس في خلافة الراضي وما حولها.

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في ذخيرة الكتاب أن الحال تغير عن ذلك عند تغير المكاتبات إلى المجلس العالي والحضرة السامية وما يجري مجرى ذلك ثم قال: فعلى هذا إذا كتب إلى المكتوب إليه بالمجلس العالي السامي ونعوته فيجب أن يكني عن نفسه بالمملوك أو مملوكه أو العبد أو الخادم.

وإذا كتب: الحضرة السامية أو العالية ونوتها فيجب أن يكني عن نفسه خادمها أو خادمه وعبدها أو عبده.

قال: وفي الكتابة إلى النظير لا ضابط لعنوانه كما لا ضابط لمكاتبته بل له أن يكني عن نفسه بما شاء مما تقدم ذكره.

ثم قال: وإن كانت المكاتبة من الرئيس إلى المرؤوس فيجب أن يكني: حضرة الفلاني بغير مولاي ودونه: الفلاني بغير حضرة وكنيته ونعوته واسمه واسم أبيه ويكني عن نفسه ما يختار أن يكتبه الرئيس إلى المرؤوس مما هو معروف مشهور ويزيد في اسمه واسم أبيه ألفاً ولاماً إن كانا مما يجوز أن يزاد فيهما ويحذف من اسمه واسم أبيه الألف واللام.

قال: وللرئيس أن يكتب عن نفسه بما شاء من الكنايات التي تليق بمنصبه واسمه واسم أبيه ونعته المقترن بأمير المؤمنين مثل ناصر أمير المؤمنين وحسام أمير المؤمنين وما أشبه ذلك.

المقصد الثاني في رسوم إخوانيات أهل المغرب وعادتهم فيها

أن يكون الخطاب فيها خطاب المواجهة.

مثل: أنت وأنا ولك وعندي وعندك وربما خاطبوا الواحد بميم الجمع تعظيماً للمكتوب إليه كما يعبر عن المتكلم الواحد بنون الجمع تعظيماً له.

قال ابن شيث في معالم الكتابة: ولا يعرف ذلك لغيرهم وربما وقع الخطاب عندهم على الغيبة أيضاً وفيه جملتان: الجملة الأولى في مفتتحات المكاتبات على اصطلاحهم وفيها مهيعان المهيع الأول في ابتداء المكاتبات وهي على طرق منها: أن تفتتح المكاتبات بالدعاء إما بطول البقاء كما كتب عبد الله بن طاهر: أطال الله بقاء سيدي الأعلى ومفزعي في الجلى متممة عليه النعم ميسرة لديه الهمم أقول بدءاً أيدك الله: لقد أعشى الناظرين سناك كما أعيا الطالبين مسعاك ولئن فت الجميع لقد

أبدعت الصنيع فلا غاية لمجد إلا أنت آتيها ولا ذروة لعز إلا ومن ظباك بانيها لك الهدى والناس ضلال وفي يديك الضوء والكل أغفال وإن الأمر كذا وكذا.

وكما كتب ابن المطرف بن عميرة: أطال الله بقاء الأخ السري الكريم الحري بالتقديم والتعظيم أوحد فرسان الإحسان وواحد عقبان البيان ولا زال قلمه جالي بدائع السحر جالب بضائع الشحر مغبوط السبق عند كلال جياد الكلام مبسوط الرزق في حال إملاق الأقلام إن ذكرت أبقاك الله البلاغة فمن على موردها يساجلك أو قيل في شريعتها بنيت على خمس فإنما هي أناملك صفوها متفجر من معينك وشاؤها لا مطمع فيه لغير يمينك وشأوها تستوفيه في هيئة متمهل وجناها ترعاه بعزة أخي مهلهل فقد صرت أمام أمتها لا بل إمام أئمتها والراضع لرسلها بل الواضع لأصلها.

فهنيئاً لها أن كنت سابق غايتها وسائق رايتها وبشرى لمهرق وشته يراعتك ومشته براعتك لقد أوتي من الحسن ما تشتريه القلوب بحبالها وتشتهيه النفوس أكثر من حياتها وإن الأمر كذا وكذا.

وإما بالبقاء المجرد.

كما كتب أبو محمد بن عبد البر إلى بعض أرباب الأقلام أبقى الله الشيخ في عزة تالدة طارقة وسعادة لا تزال طارقة بكل عارفة ولا زال قاصده مخيماً من رفده بروض ناضر ومحوماً من مجده على مسرة سمع وقر ناظر والأمر كذا وكذا.

وإما بالدعاء للحضرة.

كما كتب أبو زيد الفازازي: أبقى الله حضرة السيد ناضرة أدواح السعد عاطرة أفواح المجد ساكبة أنواع الجد صائبة سهام الجد ولا وزالت مغشية الجانب بوفد الحمد موشية الإهاب بسودد الحفد.

الظل إذا رحب ازدحم عليه الضاحون والورد إذا عذب ازدلفت إليه الممتاحون وظل الحضرة الكريمة كثيف الأفياء ووردها مغن عن وسائط الأرشية والدلاء فلا غرو أن تضرب إليها أكباد الإبل وتغص بالوفود عليها أفواه السبل والله تعالى يعين الحضرة المكرمة على الأيادي تسوغها والآمال تبلغها بمنه.

وإن الأمر كذا وكذا.

وإما بالدعاء للمحل.

كما كتب أبو المطرف بن عميرة في صدر شفاعة: أبقى الله المحل الأعلى حرماً يتحاماه الأنام وعلماً تتضاءل له الأعلام ولا زالت آراؤه الناجحة تستمدها العقول والأفهام ومساعيه الصالحة يشكرها الله والإسلام إن مجداً سامى الكواكب بمثواه وسارى الغر الساكب في جدواه لداع إلى استلام كفه العلية والاستهام على وصفه الذي له حقيقة الأولية وكيف لا وقد أجار من الدهر المخيف وصار قبلة كل داخل تحت التكليف يعيد متى أخطأها صلاة الأمل ويرى الاجتهاد في طلبها من راحة العمل وإن الأمر كذا وكذا إلى غير ذلك من أنواع الدعاء.

ومنها أن تفتتح المكاتبة بلفظ كتابي كما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى بعض العلماء: كتابي إلى سيدي حفظه الله مقيماً وسائراً وأبقاه لغرر البيان ساحراً وعن وجه الإحسان سافراً ولا زالت آدابه تشرق وتروق ساهراً ومحاسنه كالشمس إذا لم يلق نورها ساتراً من فلانة والود روضة مطلوبة ورحم موصولة خلص من القلب إلى حبته واختص منه بما ليس لأحد من أحبته وأثار شوقاً على قدره وهوى ثوى في صدره وأسفاً على عهد أصبو إلى ذكره فات ورد الفائت يعسر وقصر وأيام السرور تقصر كأنما كان قراءة سطر أو إغفاءة فجر أو زيارة مجتاز أو عبارة ذي إيجاز.

فمن لنا بذلك الأرج الذكي والأريحي يرتاح لما يخترع أو يحكي ومتى نفوز بمن ينحت من صخر ويزري بأبي صخر ويغرف من بحر ويجري مع أبي بحر ويجمع إسناده بين الجامع والمسند وينشد من بدائع حفظه ما يؤثر يد المسند شجرة علم تؤتى كل حين أكلها ومزنة فضل تجود ما نخشى بخلها وضالة أدب يقل لها أن نحن لسعنا أو سبيل إلى ما يفيدنا من الكلام فنحن في حروف تجيء بغير معنى وإن الأمر كذا وكذا.

ومنها: أن تفتتح المكاتبة بلفظ: كتبت.

كما كتب أبو زيد الفازازي: كتبت كتب الله للأخ الأبر الأوفى والفاضل الذي آثار مآثره لا تخفى مجداً هامي الربابة سامي الرابة وذاكراً منتحلاً بالإطالة والإطابة وقرن أعماله بالقبول ودعواته بالاستجابة من كان كذا ولا جديد بيمن الله تعالى إلا صنعه الجميل ولطفه العريض الطويل والحمد لله رب العالمين حمداً يؤمن آلاءه من التغيير والتبديل والأمر كذا وكذا.

ومنها: أن تفتتح المكاتبة بكناية عن المكتوب إليه من لقب ونحوه كما كتب أبو المطرف بن عميرة لبعض الرؤساء: الجناب الرياسي أدام الله اعتلاءه وحرس مجده وسناءه.

صدرت هذه الخدمة إليه من فلانة ولا مزيد على ما يجب لجلاله من التعظيم ولفضله من التقديم ولآلائه من الشكر العميم وإن الأمر كذا وكذا.

وكما كتب أبو بكر بن عيسى شافعاً في أنصاري: السيد العماد والماجد الجواد والملجأ المنيع المريع لمن يرتاع أو يرتاد أدام الله علاءه وضاعف عنده آلاءه بدر الجملة الشريفة وفرع الدوحة المنيفة من آل قيس الجود وقيل بني قيلة الباذلين الموجود أولئك الذين عز المهاجرون بإخائهم وسخائهم فلا غرو أن الألسنة بمدحه وتمد الأيدي إلى منحه ويصدر باسمه تاريخ الأجداد فهو أحق مفتتحه والأمر كذا وكذا.

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة عن الأمير أبي جميل زيان إلى الأمير أبي زكريا بن إسحاق: الأمير الأجل الهمام الأعلى حرس الله مقامه وأسعد أيامه وظاهر بالنصرة مضاءه واعتزامه راسخ شرف النجار ثابت أصل الفخار مستهل آلاء السحب الغزار والعيون إليه سامية والهمم إلى ما لديه مترامية والصدور بالأمل فيه تشرح والنفوس الحرة استرقاقه تطمح ولا غور والكرم من بعض شيمه والغنى من فضل ديمه أن يسير إليه في البر والبحر كل ذي رغبة وتترامى نحوه ركائب الرجاء من كل تربة ومخاطبتنا هذه إلى مجلسه أيده الله عما نعلمه من كبير قدره ونوجبه لعالي أمره ونبيح من طيب خبره وجميل ذكره والأمر كذا وكذا.

وكما كتب أبو الحسن بن شلبون: العماد المذخر والملاذ الذي بولائه أفخر جعل الله قدره عالياً ودهره بمحاسنه حالياً ولا زال للنعم قابلاً وللأسواء قالياً كتبت من مكان كذا والود حلية يتألق رونقها وشجرة لا يسقط ورقها وإنها مغروسة لا تقبل بذر العوادي ومحروسة لا يقع عليها من يقع في شجر الوادي والأمر كذا وكذا.

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى بعض الفقهاء شافعاً موصياً: المحل الأعلى ضاعف الله أنوار هدايته وأبقى على الجميع آثار عنايته مستودع الكمال ومشرع الآمال ومعقد أرباب السؤال ومصعد الصالح من الأعمال وإن فلاناً من أمره كذا وكذا.

وكما كتب ابن أبي الخصال: السيخ الأجل أدام الله عزه ونعماه ووصل رفعته وأعلاه بتقواه مجل قدركم وملتزم بركم وشكركم العارف بحقكم فلان فكتب يعظمكم كتب الله لكم خيراً مستمراً ورضاً على ما ترضونه ثابتاً مستقراً من مكان كذا على الرسم الملتزم من توفير علائك والشكر لآلائك والرب تعالى ينهض بحقكم اللازم الألزم ويصل حراسة مجدكم الأتلد الأقدام بمنه وفضله وإن الأمر كذا وكذا.

واعلم أنه ربما أتي بعد ذكر النعوت بالسلام ثم بحمد الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله ثم الرضا عن الخلفاء الماضين والخليفة القائم.

وعلى ذلك كانت طريقة كتاب دولة الموحدين أتباع المهدي بن تومرت كما كتب أبو محمد بن عبد البر.

الشيخ الأجل أدام الله عزته ووصل كرامته ورفعته مجل قدره وملتزم بره وشكره المسرور بما يجزيه إحسانه من طيب ذكره.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد حمد الله العظيم والصلاة على سيدنا محمد رسوله الكريم وعلى آله والرضا عن الإمام المعصوم مهديه وعن خلفائه الأئمة الراشدين والدعاء لسيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين ابن الأئمة الخلفاء أمراء المؤمنين بالنصر الأعز والفتح الأتم الأوفى فكتب كتب الله لكم مجداً لا يهي شرفه وسعداً لا يني طرفه من فلانة حرسها الله ولا ناشيء عن الله تعالى وعميم لطفه إلا الخير الأكمل والصنع الأجمل والحمد لله رب العالمين كثيراً وإن الأمر كذا وكذا.

قلت: وعلى هذه الطريقة كانت كتابة أبي عبد الله بن الخطيب كاتب ابن الأحمر بالأندلس على القرب من زماننا.

ومنها: أن تفتتح المكاتبة بالخطاب إما مع حذف ياء النسب أو مع إثباتها أما مع حذفها فكما كتب أبو المطرف بن المثنى: سيدي ومفخري وعصمتي ووزري وركني وعمادي وذخيرتي وعتادي أبقاك الله ناهجاً سبل المكارم والمعالي موقى حوادث الأيام والليالي كتبي أعزك الله عن عهد حسن لك قد أحكمت معاقده وود محض فيك قد صفت موارده ونفس ترتاح لذكراك ولسان لاه بين محاسنك وعلاك قد انفسح في نشر فضائلك ميدانها وفاق في وصف فواضلك بينها فهي تنظم عقود مجدك على أجياد شكرك وتحوك من برود تقريظك وثنائك خلعاً لمجدك وسنائك وشيها الذكر الخطير وطرازها الترفيع والتوقير تكسير عصب عدن وتعفي على وشي اليمن وتطلع من رياض أخلاقك في منابت أعراقك ما يزري بنسيم المسك تضوع عرفه وانتشاره ويربي على حسن النجوم طوالع أزهاره وأنواره وأخلق بمن جمع الله العالم فيه وحرس معاهد البر بكريم مساعيه أن لا تعزى خلة نبيلة إلا إليه ولا تقصر منقبة جليلة إلا عليه ولا تؤثر مأثرة نفيسة إلا عنه ولا تقتبس سيرة جميلة إلا منه والله تقدس اسمه يحمي هذه الأوصاف البديعة والخلال الرفيعة من طوارق الدهر ونوازل الغير ويجعل عليها وأما مع إثبات يا النسب فكما كتب أبو المطرف بن الدباغ إلى بعض الأدباء عند وروده إلى بلاده: يا مولاي وسيدي العظيم شأنه وامره العالي صيته وذكره من أبقاه الله في عز لا تنفصم عراه وحرز لا يستباح حماه لم أزل أبقى الله سيدي ومولاي تسمو بي إلى الكتابة همة وتترامى بي إلى البلاغة عزمة حتى تذللت لي صعابها فامتطيت وتسهلت لي حزونها فارتقت ولما رفعت لي عن غرائبها الأستار وعلمت عن غوامضها الأسرار وفزت بالمعلى من سهامها والموفور من أقسامها جعلت بأي أئمتها أأتم وأهتدي وإلى أي رؤسائها أنتسب وأعتزي ناظراً في ذلك إلى شائع الأخبار ومتداول الآثار فوجدت ألسنة إذا تناولت صفة سواه تحلت بعض حلاه أو أرقته إلى رتبة من العلياء تمثلت به في الرفعة والسناء ثم تفرده أعزه الله دونها بالفهم المتين والعلم المشهور والحلم المتعارف والفضل المتواصف والرتبة السامية والجلالة المتناهية فكلما رأيت محاسن مجده تجلى وسور فضله تتلى هممت أن أطير إلى حضرته بنجاح الارتياح كما وأركب إلى أفقه نوره الله أعناق الرياح والأيام تقطعني بمصائبها وتقيدني بأحداثها وبحوائبها حتى قضى الله أن يرد هذا الأفق فأفرخ الأمل بغير نصب وأنال البغية بغير طلب طويل.

ومنها أن تفتتح المكاتبة بالتحية والسلام.

كما كتب أبو المطرف بن عميرة: تخص الابن محبة ومقة والعباد اعتداداً بجانبه وثقة حفظ الله نجابته وجعل لداعي السيادة تلبيه وإجابته تحية الجلال والتكرمة والمودة الخالصة المتحكمة ورحمة الله تعالى وبركاته من مكان كذا والود كلف والعهد بالصون من جميع جوانبه مكتنف وتلكم الذات السنية ذخيرة جليلة وأمل لا تخطأ منه مخيلة وهبة يكذب معها أن يقال الأيام بخيلة.

وكنا نظن أن بناء الكرم صم صداه ومربع الفضل عاصب برداه وغائب عن الرشد أداه.

ونقول: ما كل من أقعدته العلية عميلة ومتى يفطن عمير عمر وبحيله فكفا بكفاتها وهل يستوي قيس لرحى العجوز عدمت جداتها حتى تمثل هذا المجاهد من طرفيه المستقبل آثار سلفيه حفظ الله الألفاظ والألسنة وحملة الأقلام والأسنة.

وكما كتب أبو زيد الفازازي: السلام الكريم العميم على الشيخ الذي أثبت على وده فلا أتحول أطنب في حمده فلا أستعر ولا أتأول وأتعلل بذكره عند عدم مرآته ولأمر ما أتعلل فلان أدام الله رفعته وحرس من الأسواء مهجته.

كتب أخوكم البر بكم الشيق إليكم الشاكر محاسنكم المسرور بما سمعه من صلاح أحوالكم فلان ولا جديد بمن الله تعالى إلا الخير والحمد لله كثيراً والأمر كذا وكذا.

ومنها: أن تفتتح المكاتبة بالكناية عن المكتوب عنه كما كتب ابن أبي الخصال إلى بعض الكتاب يسأله حاجة: معظم الشيخ الأجل أبي فلان ومجله المكبر له فلان أعلى الله قدركم وأوزع أولياءكم شكركم أياديكم أدام الله كرامتكم أو كف من الغمام ونعمكم ألزم للأعناق من أطواق الحمام وإن وليكم ومعظمكم يحتاج إلى كذا وكذا.

ومنها: أن تفتتح المكاتبة بلفظ فلان: كما كتب بعضهم من فلان إلى الشيخ الحافظ الأكرم أبي فلان أدام الله كرامته بتقواه فالكتاب إليكم كتب الله لكم أحوالاً صالحة وخيرات عليكم غادية رائحة من موضع كذا والبركات متوافرة والخيرات الظاهرة والحمد لله تعالى وإن الأمر كذا وكذا.

ومنها: أن تفتتح المكاتبة بلفظ فلان كما كتب بعضهم إلى والده: إلى مولاي المعظم مولاي وأبي المتكفل بتعليمي وحسن أدبي أبقاه الله ناظراً إلي بعين رضاه وأعانني على الجري في بره على حكم الشرع القويم ومقتضاه من ابنك المعظم لك بل عبدك المتطلع إلى ما تصل الأنباء الكريمة من عندك المواصل المسعى في شكرك وحمدك فلان بأبي كتبته كتب الله لكم ليانًا من العيش وخفضاً وجمع بعد الافتراق بعضاً منا وبعضاً ويسر لي بطوله ومنته أن يصفح عني وأن يرضى من موضع كذا ولا جديد إلا نعم من الله عز وجل تراوح وتعادي وتجري الخواتم منها على حكم المبادي وشوق إليكم يعمر أحناء ضلوعي وفؤادي ويحسم عني قطيعي دمعي الهتون وسهادي والله جل وعز ييسر انقضاب غربة النوى ويريح النفوس من محرق اللوعة ولاعج الجوى والأمر كذا وكذا.

المهيع الثاني في الأجوبة وهي على ما تقدم في أجوبه المشارقة من أنها على ضربين الضرب الأول أن تفتتح المكاتبة بما أدام الله - يفتتح به الابتداء ثم يقع التعرض إلى وصول الكتاب وذكر الجواب منه كما كتب أبو عمرو الباجي: وعدك الكريم عزك - دين وقضاؤه شرف وزين ومثلك من تحلى بمحاسن الشيم وزاحم في السيادة بالمناكب العمم وحفظ العهد لما أضيع واشترى المجد بما بيع والتزم للوفاء شرطاً لا يفسح ورآه شرعاً لا ينسخ ووصل كتابك العزيز في معنى كذا وكذا.

الضرب الثاني أن يفتتح الجواب بورود الكتاب ووصوله ابتداء كما كتب ابن الخصال ورد كتابك في أمر فلان يفرض الحمل عليه في النفوذ لوجهته والتقدم إلى رتبته وليس عندي إلا عون وإنجاد وطاعة وانقياد غير أن في الأمر كذا وكذا.

في خواتم المكاتبات على اصطلاحهم وهي على أساليب منها: أن يختم الكتاب بالسلام المجرد هن الدعاء.

كما كتب أبو عمرو الباجي في خاتمة كتاب: وأقرأ عليك يا سيدي وأسنى عددي وأجزل السلام وأحفله وأتمه وأكمله.

ومنها: أن يختم بالدعاء.

كما قال أبو المطرف بن الدباغ في خاتمة كتاب: والله لا يخلي مولاي من عبد يسرقه ومنعم ينعم عليه بما يستحقه وجميل يوليه وصنع يسديه بمنه وجميل صنعه.

ومنها: أن يختم بذكر التودد والمحبة.

كما قال أبو جعفر الكاتب في آخر كتاب: وإن لم يكن لي من الحق ما لا أتبسط عليه فلي من الود ما أمت به إليه فحسبي به سلماً إلى فضلك وذريعة إلى مجدك إن شاء الله تعالى والسلام.

ومنها: أن يختم باستماحة النظر في أمر المكتوب عنه.

كما كتب أبو المطرف بن المثنى في خاتمة كتاب: ولط الطول العام والفضل الزاهر في اعتبار أمري وتحقيق خبري والسلام.

إلى غير ذلك من الخواتم التي تستدعيها المكاتبة وتستوجبها المقاصد وفيما ذكر من الصدور والخواتم ابتداء وجواباً مقنع لمن تأمل والله المستعان في الأمر كله.

في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية وفيه ثلاثة مصطلحات المصطلح الأول ما كان عليه في الدولة الطولونية وما قاربها مما جرى عليه ابن عبدكان وغيره وفيه أربعة مهايع

المهيع الأول في الصدور وهي على ضربين الضرب الأول ولهم فيه أساليب الأسلوب الأول: منها: الدعاء بطول البقاء وما في معناه.

كما كتب ابن عبدكان في صدر المكاتبة: أطال الله بقاءك ففي إطالته حياة الأنام وأنس الأيام والليالي وأدام عزك ففي إدامته دوام الشرف ونمو المعالي وأتم نعمته عليك فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق ونزلت منزلة الاستيجاب ووقفت على من لا يكره الآلاء مكانه ولا تنكر الفواضل محله.

وكما كتب عمر الله بك الأزمنة والدهور وآنس ببقائك الأيام والشهور وأمتع بدوام عزك السعداء بحظهم منك.

ومنها: الدعاء بدوام النعمة.

كما كتب: أسبغ الله عليك نعمه الراهنة بنعمة المستظفر وصانها لديك بإيزاع الشكر عليها فلم أر ولله الحمد نعمة قصدت مستقرها وتوخت وليها وتمنت كفؤها إلا نعمتك أكسبت أولياءها عزاً ونضرة وملأت أعداءها ذلة وغضاضة وتمكنت بحل الصيانة والرعاية وخيمت بمستقر الشكر والحمد.

ومنها: اطراح الدعاء بدوام النعمة لتقييدها بموجباتها منها.

كما كتب: قد كفى الله عز وجل مؤونة الدعاء لنعمتك بالنماء لأنها توخت لديها محلها فحلت بفنائك سارة مطمئنة قارة تستوثر مهادها قبلها وتستهنأ مواردها عندك ولم تزل تائقة إليك متطلعة نحوك بما استجمع لها فيك من لطيف السياسة وحسن الاحتمال لأعباء المغارم فهنأكها الله متصلة البقاء بطول مدة بقائك ومتحلية بحسن فنائك فلا زلت لعوارف النعم مستدعياً وللشكر بالزيادة فيها ممترياً وبدوام الحمد لردفها مستمرياً.

ومنها: الدعاء بجعلت فداك.

كما كتب: جعلني الله فداك فإن في ذلك شرفاً في العاجل وذخر العقبى في الآجل وخير تراث لمخلفي من بعدي دعاء أخلصته النية وصدقته الطوية.

ومنها: استكراه الدعاء بالتفدية.

كما كتب: إن قلت في كتابي إليك: جعلني الله فداك فأكون قد بخستك حظ إجسانك إلي وحق مفترضك علي لأنها نفس لا توازن ساعة يومك ولا توازي طرفة من دهرك وإنما يفدى مثلك بالأنفس التي هي أنفس من الدنيا وأعرض من أقطار ومنها: تفدية النعمة إعظاماً لها.

كما كتب: جعلني الله فداء نعمتك التي علت ذروة سنامها وفاضت درة سائها فعمرت أقطار الآملين ونضرت جناب ناحية المعتدين.

ومنها: الدعاء بصلاح الدنيا وغبطة الآخرة.

كما كتب: أسعدك الله ببعواقب قضائه وقدره ووهب لك الصلاح في دينك والسلامة في دنياك.

ومنها: الدعاء بكبت العدو.

كما كتب: مكن الله يدك من ناصية عدوك بالصولة عليه ومن زمام وليك بالإحسان إليه وبلغك من كلتا الحالتين ما ينمي على تأملك ويوفي على تمنيك.

ومنها: الدعاء المشترك بين المكتوب عنه والمكتوب إليه.

كما كتب: أدام الله أنسي بحياتك وحرسني من الغير في نعمتك وأكرمني بصيانة أيامك ولياليك وأعزني بذل عدوك وقمع حاسديك.

ومنها: الدعاء بطيب الحياة.

كما كتب: عش أطيب الأعمار موقى من سوء الأقدار مبلغاً نهاية الآمال مغبوطاً في كل الأحوال لا ينقضي عنك حق عارفة حتى تجدد لك أخرى أجل منها ولا يمر بك يوم من الأيام إلا كان مؤمناً على أمسه عن فضلة غده.

ومنها: الدعاء باقتضاء العدل والإنصاف.

كما كتب: جعلك الله ممن ينظر بعين العدل وينطق بلسان القسط ويزن بقسطاس الحق ويكيل بمعيار الإنصاف.

ومنها: الدعاء بإيزاع الشكر.

كما كتب: وصل الله لك كل نعمة ينعمها عليك من الشكر بما يكون لحقها قاضياً وللمزيد إليها داعياً ومن الغير مؤمناً والسلامة موجباً.

ومنها: الدعاء للحاج بالبلاغ.

كما كتب: أوطأك الله في مسيرك أوثر المطايا وخولك فيما نويته أسبغ العطايا وأوردك الهداية إلى الكريم المشاهدة وزكي المواقف وأولاها بالزلفة المقبولة والقربة المأمولة.

ومنها: الدعاء للمسافر.

كما كتب: جعلك الله في حفظه وكنفه وأحاطك بحيطته وجعل سفرك أيمن سفر عليك ورجع لك بدرك الحاجة وبلوغ الأمل ونجح الطلبة ونيل السؤل.

ومنها: الدعاء بالعافية من المرض.

كما كتب: مسح الله ما بك وعاد بالبر عليك وعجل الشفاء لك ومحص بلواك.

ومنها: الدعاء للولاة.

كما كتب: أجرى الله بالخير يدك وصما بالعز طرفك وأوطأ كل مكرمة قدمك وأطال إلى كل غاية هممك وبلغك أقصى محبتك.

ومنها: الدعاء في الأضحية بقول النسك.

كما كتب: جعلك الله بقبول النسيكة والقربان فائزاً بالأجر والرضوان مخلصاً لله بالإيمان في السر والإعلان مؤدياً لما افترض عليك شاكراً لإحسانه إليك.

ومنها: الدعاء بالهناء في الأعياد.

كما كتب: عرفك الله في هذا العيد المبارك من السلامة وعمومها والعافية وشمولها والعارفة سبوغها والحياطة وكمالها والحماية وجمالها وأفضل ما عرفك في ماضي أعيادك وسالف أعوامك.

ومنها: الدعاء بدفع النوائب.

كما كتب: كان الله جارك من فجائع الدهر ونوبه وولي إنعام النعمة فيما آتاك من فضله وتطول عليك من حسن الحياطة لما تولاك والذب عما أفادك.

الأسلوب الثاني: أن تفتتح المكاتبة بلفظ: كتابي أو كتبت.

فأما كتابي فكما كتب ابن عبدكان: كتابي إليك وأنا استعيب الأيام فيك وأصانع الزمان في تقريبك وربع الجوار الذي كنا نسكن تحت ظلاله ونتفيأ برونق جماله بأجل تحفة وأيسر ألفة وأعذب مشاهدة وأصدق مشافهة ولعل أن يرتاح فيشعب صدعاً ويؤلف جمعاً.

وأما كتبت فكما كتب ابن عبدكان أيضاً: كتبت وأنا من حنين الصبابة إليك وإرزام الشوق نحوك وأليم التشوق إليك ولاعج اللوعة بك على ما أسأل الله أن يرحم ضعفي ويتصدق علي برؤيتك ويهب لي النظر إلى وجهك وجمال غرتك التي هي حليف الجذل ونزهة الأمل.

الأسلوب الثالث: أن تفتتح المكاتبة بالخطاب بأنا.

كما كتب: أنا من جملة صنائعك وحفظة ودائعك وشكرة إحسانك متى تصرفت في البلاد فأنا المعروف بمعروفك والعائش بجدواك وأنت منزع همتي وقرة عيني ومدار أملي ومحل رجائي.

الضرب الثاني الأجوبة وابتداؤها إما كما في الصدور الابتداآت كما تقدم ثم يقع التعرض لوصول الكتاب وإما بإن تصدر بوصوله وهو الأكثر.

كما كتب ابن عبدكان: وصل كتابك فدفع تباريح الشوق وقمع كآبة البين وأطفأ لهيب الحرقة وبرد حر الصبابة.

وكما كتب: وصل كتابك مشتملاً من أنواع البر على ما يقصر في جنب أيسره أعظم الشكر.

وكما كتب: وصل كتابك المصدر بجواهر لفظك وبدائع معانيك ومحاسن نظمك مستودعاً ما لا يقدر على حمده وشكره إلا بالاعتراف بالعجز عنه وما أشبه ذلك.

المهيع الثاني في خواتم الكتب وكان اختتام المكاتبات عنه أهل هذا المصطلح على ما تقدم في مكاتبات أهل المشرق من استماحة الرأي إما بلفظ فإن رأيت: كما كتب ابن عبدكان: فإن رأيت أن تأتي فيه مؤتنفاً ما لم تزل تأتيه سلفاً فعلت.

وإما بلفظ فرأيك: كما كتب: فرأيك فيه بما أنت أهله فإن الرأي الذي أنت أهله فوق ما يلتمسه المسرف في همته والمتبسط في أمنيته.

وكما كتب فرأيك في ذلك بما تقضي به الحق وتصل به الذمام وتحفظ به الحرمة وتصدق به الأمل وتقتعد به الصنعة وتستوجب به الشكر.

المهيع الثالث في عنوانات الكتب ومصطلحهم فيه على نحو ما تقدم في مكاتبات أهل الشرق وكتابة إلى فلان من فلان أو من فلان إلى فلان.

فأما ما يكتب إلى فلان من فلان فكما كتب ابن عبدكان: للسيد الذي استعبد الأحرار بفضله.

وكما كتب: لمن قربه يمن وسعادة ونأيه نكد ومحنة.

وأما ما يكتب من فلان فكما كتب: من صريع الشوق إليه وأسير الرقبة عليه.

وكما كتب: ممن لا يتمنى الخير إلا له إذ كان لا يناله إلا به.

المصطلح الثانيمن مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال في الدولة الأيوبية مما جرى عليه القاضي الفاضل ومن بعده وهو على قسمين القسم الأول: الابتداء: وليس لمصطلحهم ضابط في الابتداء ولا في الترتيب في الرفعة والضعة بل افتتاحاتهم في هذه متباينة.

فمن ذلك الافتتاح بالدعاء وهو أكثر ما يقع في مكاتبتهم والغالب في ذلك الدعاء للمجلس كما كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني: أدام الله أيام المجلس التي لحسنات المدل مدلية ولعثرات المقل مقلية ولمعاطف العز مميلة ولمقاطف الفوز منيلة ولقدح الجدوى مجيلة ولا زالت الآراب بمكارمه باجخة والآراء بمراسمه ناجحة ومتاجر المفاخر بموالاته رابحة وأيدي الآمال لأيديه بمصافاته مصافحة وأرواح أوليائه بروح آلائه في المواطاة أعطياته عابقة فاتحة وأدعية الداعين لأيامن أيامه المذعنين لعهوده إنعامه طيبة صالحة.

ومن ذلك افتتاح العماد الأصفهاني في اعتذار تأخر المكاتبات: إن تأخرت مكاتباتي فإن العذر معلوم والأجر محتوم والقلم مصدود واللقم مسدود والبلد محصور.

إلى غيرها من أساليبهم المشهورة التي لا يسع استيعابها ولا حاجة إلى الإمعان في ذكرها.

المصطلح الثالث من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات ما جرى عليه الاصطلاح في الدولة التركية مما رتبه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي والمقر الشهابي بن فضل الله ومن جرى مجراهم من فضلاء الكتاب إلى زماننا مما هو دائر بين أعيان المملكة وأكابر أهل الدولة من نواب السلطنة وسائر الأمراء والوزراء ومن في معناهم من أعيان الكتاب وفيه مهيهان:

المهيع الأول في رتب المكاتبات المصطلح عليها وقد اختلفت مقاصدهم فيترتيبها اختلافاً متقارباً في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير مع مراعاة أصول المراتب.

وها أنا أذكر ما استقر عليه الحال من ذلك وأبه على ما خالفه من ترتيبهم المقدم الذكر لتحصل الإحاطة به ويعلم ما جرى عليه أهل كل من عصر منهم مما لعل مختاراً يختاره أو ينسج على منواله منبهاً على وهم من وهم في شيء من ذلك.

واعلم أنهم قد بنوا هذا النوع من الإخونيات على قاعدتين تتعين معرفتها قبل الخوض في رتب المكاتبات: القاعدة الأولى فيما يتعلق بورق هذه المكاتبات قد جرت العادة أن تكون جميع هذه المكاتبات من الأعلى إلى الأدنى ومن الأدنى إلى الأعلى ومن النظير إلى النظير في ورق قطع العادة دون ما فوقه من مقادير قطع الورق المتقدمة الذكر غير أن الأعيان أهل الديار المصرية يكاتبون في الورق المصري وأعيان أهل الشام يكاتبون في الورق الشامي لكثرة وجوده عندهم والمعنى في ذلك أن كتب السلطان الصادرة عنه إلى جميع أهل المملكة من النواب وغيرهم في هذا القطع فلا جائز أن تعلو مكاتبة أحد منهم على مكاتبة ثم قد اصطلحوا على أن يكون في أعلى المكاتبة عن كل أحد من أعيان الدولة قبل البسملة وصل واحد بياضاً إذ كان أقل ما يجعل بياضاً في الكتب السلطان وصلين فاقتصروا على وصل واحد كي لا يساويه غيره في ذلك واصطلحوا أيضاً على أم لا تنقص المكاتبات المذكورة عن ثلاثة أوصال: الوصل الأبيض في أعلى المكاتبة على ما تقدم ووصلان مكتوبان إذ لو نقص عن ذلك لخرج الكتاب في القصر عن الحد فيزدرى أما لو عدت الضرورة إلى الزيادة على الثلاثة لزيادة الكلام فلا مانع منه واصطلحوا على أن يترك للكتاب حاشية بيضاء تكون بقدر ربع الدرج على ما تقدم ذكره في غير هذا الموضع.

القاعدة الثانية فيما يتعلق بخط هذه المكاتبات وكيفية أوضاعها وقد اصطلحوا على أن جميع هذه المكاتبات تكتب بقلم الرقاع على ما تقدم ذكره في الكلام على قطع الورق من أن لقطع العادة قلم الرقاع.

واصطلحوا أيضاً على أن تكون كتابة البسملة في أول الوصل الثاني من المكاتبة وأن يكون تحت الجلالة من البسملة لقب المكتوب عنه المضاف إلى ملكه أو أميره فإن كان المكتوب عنه من أتباع السلطان كنواب السلطنة وغيرهم من الأمراء والوزراء ومن في معناهم من رؤساء الكتاب السلطانية كتب الملك الفلاني بلقب ملكه السلطان مثل الملكي الظاهري ونحو ذلك كما في هذه الصورة: الملكي الظاهري وإن كان المكتوب عنه من أتباع الأمراء كإستدار أمير ونحوه انتسب في كتابه إلى لقب أميره الخاص مما يضاف في التلقيب إلى الدين فإن كان أميره لقبه سيف الدين مثلاً كتب بدل الملكي الفلاني: السيفي وإن كان لقب أميره ناصر الدين كتب الناصري وإن كان لقبه علاء الدين كتب العلائي ونحو ذلك.

وإذا كتب تحت الجلالة من البسملة الملكي الفلاني ونحو ذلك جعل ما قبله في السطر بياضاً وما بعده بياضاً ويكون ذلك قطعة من سطر مفردة بذاتها.

واصطلحوا على أنه كلما دق القلم وتقاربت الأسطر كان أعلى في رتبة المكتوب إليه وكلما غلظ القلم وتباعدت الأسطر كان أنزل في رتبة المكتوب إليه.

واصطلحوا على أن في الرتبة العلية من المكاتبات يكون السكر الأول من المكاتبة تلو الملكي الفلاني وما في معناه ملاصقاً له وفيما دون ذلك من المكاتبات يترك بياضاً يسير ولا يكتب فيه شيء وكأن المكتوب عنه يقول للمكتوب إليه: هذا محل العلامة ولكني قد تركت الكتابة فيه وكتبت بحاشية الكتاب تأدباً معك ورفعة لقدرك وفيما دون ذلك يترك بياضاً أوسع من ذلك ويكتب فيه المكتوب عنه علامته على ما سيأتي بيانه في مواضعه إن شاء الله تعالى.

واصطلحوا على أنه بعد انتهاء الكلام في المكاتبة يكتب إن شاء الله تعالى في خطه.

ثم يكتب التاريخ في سطرين: اليوم والشهر في سطر والسنة في سطر ثم يكتب الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سطر ثم الحسبلة في سطر على ما تقدم بينه في الكلام على الفواتح والخواتم في المقالة الثالثة.

وليعلم أن هذه المكاتبات على قسمين: القسم الأول الابتداءات وهو على أربعة درجات سق توجيه ترتيبها في الكلام على أصول المكاتبات وفي أول هذه المقالة الدرجة الأولى: المكاتبة بتقبيل الأرض وهي أعلاها رتبة بالنسبة إلى المكتوب إليه.

واعلم أن كثيراً من كتاب الزمان يظنون أن المكاتبة بتقبيل الأرض من مخترعات كتاب الدولة التركية بل بعضهم يظن أنها مخترعات المقر الشهابي بن فضل الله وليس كذلك بل المكاتبة بذلك كانت موجودة في أواخر الدولة العباسية ببغداد ثم سرت إلى الديار المصرية في أوائل الدولة الأيوبية فاستعملت بعض الاستعمال والمكاتبة بذلك موجودة في كلام القاضي الفاضل في بعض المكاتبات الملوكية ومن ذلك ما كتب به عن نفسه إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في صدر كتاب تهنئة بمولود: المملوك يقبل ارض بالمقام العالي الناصري نضر الله الإسلام بمقامه وأهلك أعداء الحق بانتقامه ولا أعدم الأمة المحمدية عقد التزامه بكفالتها ومضاء اعتزامه.

ثم توسع في الكتاب وقد رتبوا المكاتبة بتقبيل الأرض في المصطلح المستقر عليه الحال على خمس مراتب: المرتبة الأولى: الإتيان بالإنهاء بعد يقبل الأرض من غير تعرض لذكر دعاء ولا ثناء مع مراعاة الاختصار وعدم السجع وتقارب السطور مثل أن يكتب بعد البسملة ولقب المكتوب عنه الذي تحت البسملة: يقبل الأرض وينهي كيت وكيت وسؤال المملوك من الصدقات العميمة بروز الأوامر العالية بكيت وكيت أو: والمملوك يعرض على الآراء العالية كيت وكيت ونحو ذلك ويختم الكتاب بقوله: أنهى ذلك أو طالع بذلك وللآراء العالية مزيد العلو ويعبر عن المكتوب عنه في خلال المكاتبة بالمملوك.

ويختلف الحال في الخطاب المكتوب إليه فإن كان من أرباب السيوف وهو نائب سلطنة خوطب بمولانا ملك الأمراء عز نصره أو أعز الله أنصاره وإن كان أميراً غير نائب سلطنة خوطب بمولانا المخدوم ونحو ذلك مما تقتضيه الحال وإن كان وزيراً رب سيف خوطب بمولانا الوزير وإن كان قاضياً خوطب بمولانا قاضي القضاة وإن كان عالماً كبيراً خوطب بمولانا

شيخ الإسلام وإن كان من مشايخ الصوفية خوطب بمولانا شيخ الشيوخ وعلى ذلك بحسب المراتب والوظائف على ما تقتضيه رأي الكاتب بما يناسب الحال.

والعنوان في هذه المكاتبة: الفلاني مطالعة المملوك فلان ويعبر عن ذلك: بالفلاني بمطالعة.

وقد يعبر عن ذلك عن نفس المكاتبة.

وصورته: أن يكتب في رأس ظاهر المكاتبة من الجانب الأيمن الفلاني باللقب الخاص بالمكتوب إليه كالسيفي والناصري والشمسي وما أشبه ذلك.

ويكون ذلك ممتداً إلى نحو ربع عرض الدرج وتحته فلان بما يقضي تعريفه من وظيفة أو شهرة.

فإن كان نائب سلطنة كتب تحت الفلاني: مولانا ملك الأمراء بالمكان الفلاني وإن كان وزيراً كتب: مولانا الوزير بالمكان الفلاني وإن كان قاضي قضاة كتب: مولانا قاضي القضاة بالمكان الفلاني ونحو ذلك ويعبر عن ذلك بالتعريف ويكتب في الجانب الأيسر من ظاهر المكاتبة مقابل ما كتبه في الأولى ما صورته مطالعة المملوك الفلاني باسم المكتوب عنه ويكون لفظ المملوك تحت ذلك وفلان تحته عن بعد ثلاثة أسطر وتكون لطيفة القد غير ممشوقة على الضد من المكتوب إليه.

وهذا مثال عنوان إلى نائب سلطنة بالشام لقبه سيف الدين عمن اسمه يلبغا: السيفي مطالعة المملوك مولانا ملك الأمراء بالشام المحروس عز نصره يلبغا وعلى ذلك يقاس سائر العنوانات من هذه المرتبة والأصل في ذلك أن الحجاج بن يوسف كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان فكتب في عنوانه بقلم جليل: لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين وفي الجانب الأيسر بقلم ضئيل: من الحجاج بن يوسف كما حكاه أبو جعفر النحاس في صناعة الكتاب فتبعه الناس على ذلك في تعظيم اسم المكتوب إليه وتلطيف اسم المكتوب عنه والعلامة في هذه المكاتبة المملوك فلان باسم المكتوب عنه بقلم ضئيل بحاشية الكتاب سطرين: المملوك سكر والاسم سكر تحته على هذه الصورة: المملوك فلان ويكون ذلك مقابل يقبل ملاصقاً له بحيث تكون جرة الكاف من المملوك تحت الياء من يقبل فكأنهم راعوا في ذلك صورة ما يكتب في القصص التي ترفع إلى أكابر لاستماحة الحوائج ونحوها من حيث إنها يكتب فيها المملوك فلان يقبل الأرض وينهي كيت وكيت لما ظهر من إظهار الخضوع والتواضع.

المرتبة الثانيةأن يأتي بعد يقبل الأرض بذكر الدعاء دون الثناء مع تقارب الأسطر أيضاً واجتناب السجع وقد اصطلحوا في هذه المكاتبة على أن تقارب تحت البسملة مع لقب المكتوب عنه الذي هو الملكي الفلاني ونحوه لقب المكتوب إليه كالسيفي ونحوه على سمت الملكي الفلاني من الجهة اليمنى مع بياض بينهما بحيث يقع بعض اللقب في حاشية الكتاب وبعضه تحت أول البسملة على هذه الصورة: بسم الله الرحمن الرحيم السيفي الملكي الظاهري ثم يأتي بصورة المكاتبة بعد ذلك ويختلف الحال في هذه المكاتبة باختلاف حال المكتوب إليه فإن كان نائب سلطنة كتب يقبل الأرض وينهي بعد رفع الأدعية الصالحة أو بعد ابتهاله إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة تقبلها الله تعالى من المملوك ومن كل داع مخلص ببقاء مولانا ملك الأمراء أو بدوام أيام مولانا ملك الأمراء وخلود سعادته ومزيد تأييده وعلو درجاته في الدنيا والآخرة بمحمد وآله: أن الأمر كيت وكيت والمملوك يسأل الصدقات العميمة أو الصدقات الكريمة أعز الله تعالى أنصارها بروز الأمراء المطاعة بكيت وكيت.

ثم يقول المملوك مملوك مولانا ملك الأمراء وعبد بابه ونشء إحسانه ويسأل تشريفه بمراسيمه وخدمه أو المملوك يستعرض المراسيم الكريمة والخدم العالية ليبادر إلى امتثالها والفوز بقضائها أو والمملوك مملوك الأبواب العالية ونشؤها وغلامها ويسأل دوام النظر الكريم عليه في أحواله كلها ونحو ذلك مما تقضيه الحال وقد جهز المملوك بهذه المكاتبة فلاناً أو مملوكه فلاناً.

فإن كان قد حمله كلام مشافهة قال: وحمله من المشافهة ما يسأل الصدقة عليه بسماعه والإصغاء إليه ونحو ذلك.

ثم يقول: طالع بذلك والرأي العالي أعلاه الله تعالى أعلى.

وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة كتب بدوام أيام مولانا المخدوم بدل مولانا ملك الأمراء.

وإن كان قاضياً كتب ببقاء مولانا قاضي القضاة أو بدوام أيام مولانا قاضي القضاة.

وإن كان من المشايخ الصوفية كتب ببقاء مولانا شيخ الشيوخ ونحو ذلك وباقي المكاتبة على ما تقدم بحسب ما تقتضيه الحال.

والعنوان في هذه المكاتبة الأبواب الفلانية مطالعة المملوك فلان ويعبر عن ذلك بالأبواب بمطالعة ويختلف الحال في ذلك باختلاف حال المكتوب إليه فإن كان المكتوب إليه صاحب سلطنة كتب: البواب الكريمة العالية المولوية الأميرية الكبيرية المالكية المخدومية الكافلية بلقبه الخاص كالسيفية ونحوها أعلاها الله تعالى فلان الفلاني باسمه وشهرته.

وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة أسقط منه الكافلية وإن كان وزيراً رب سيف كتب بعد الأميرية الوزيرية وإن كان وزيراً رب قلم أسقط الأميرية وكتب قبل الفلانية الصاحبية وإن كان من رؤساء الكتاب ممن في معنى الوزراء ككاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش ونحوهم أبدل لفظ الأميرية والوزيرية بالقاضوية.

وإن كان قاضي حكم أتى مع القاضوية قبل الفلانية بالحاكمية وإن كان من المشايخ الصوفية أبدل القاضوية بالشيخية ونحو ذلك.

وصورته أن يكتب الألقاب من أول عرض الدرج سطراً إلى آخر المالكية ويخلى بياضاً في آخر السطر بقدر ربع الدرج ثم يكتب المخدومية الفلانية في أول السطر الثاني ملاصقاً للأول ثم يخلي بياضاً يسيراً ثم يكتب أعلاها الله تعالى ثم يخلي بياضاً يسيراً ثم يكتب فلان الفلاني تحت آخر السطر الأول ثم يكتب في آخر الدرج من الجهة اليسرى بعد خلو بياض مطالعة المملوك فلان ثلاثة أسطر على ما تقدم في العنونة بالفلاني بمطالعة كما في هذه الصورة: الأبواب الكريمة العالية المولوية الأميرية الكبيرية المالكية مطالعة المخدومية اليسفية أعلاها الله تعالى أمر دوادر الظاهري المملوك فلان والعلامة المملوك فلان بقلم ضئيل مسامت يقبل كما في المكاتبة قبلها.

قال في التثقيف: وبهذه المكاتبة يكتب عن أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائب الشام وحلب فيما أظن.

قال: وكذلك كان يكتب المقر العلائي بن فضل الله كاتب السر الشريف إلى المشار إليه يعني نائب حلب إلا أنه كان يكتب له العلامة أسفل الكتاب دون أعلاه.

قلت: وعلى هذا يكون للعلامة في هذه المكاتبة رتبتان إن عظمه كتب له العلامة على سمت يقبل وإلا في أسفل الكتاب ومن ثم ذكرت قول صاحب التثقيف هنا وإن محله رتب المكاتبين على ما سيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

المرتبة الثالثة: أن لا يكتب في أول المكاتبة عن يمين أسفل البسملة الفلاني ويأتي بذكر الدعاء والثناء مسجوعاً مثل أن يكتب البسملة ولقب المكتوب عنه الذي هو الملكي الفلاني يقبل الأرض وينهي بعد رفع دعائه وإخلاصه في محبته وولائه واعترافه بإحسان مولانا وجزيل آلائه أن الأمر كيت وكيت والمملوك يسأل إحسان مولانا أو صدقات مولانا أو إحسان المخدوم أو صدقاته في كيت وكيت ثم يقول: والمملوك فهو مملوك مولانا ومحبه والداعي لإحسانه ويسأل تشريفه بمراسيمه وخدمه وقد جهز المملوك بهذه العبودية فلاناً أو مملوكه فلاناً وحمله على الدعاء والولاء ما يبهيه من لسانه ويعرب عنه ببيانه أو وقد حمل المملوك ما يقوم عنه بعد إنهائه من رصف الأدعية ووصف الأثنية والمملوك يسأل الإصغاء إليه والتشريف بالمراسيم العالية والخدم الكريمة ليفوز بإقبالها ويبادر إلى امتثالها طالع بذلك أو أنهى ذلك أو المملوك يستعرض المراسيم العالية والخدم الكريمة المتوالية ليتشرف بقضائها ويتشوف إلى إمضائها.

صدر آخر: وينهي بعد رفع الأدعية وبث المحامد والأثنية والموالاة التي يحمل منها عالي الأولوية أن الأمر كيت.

آخر: وينهي بعد رفع دعائه الذي لا يفتر لسانه عن رفعه ولا يخفى إن شاء الله أبان نفعه وابتهاله الذي يرفع السحب وشوقه الذي يهدي النجب أن الأمر كيت وكيت.

آخر: وينهي بعد دعائه المقبول وشوقه الذي لا يحول عنه ولا يزول ولا سلامه الذي يعجز عن شرحه القلم ويضعف عن حمله الرسول.

آخر: وينهي بعد دعاء يرفعه بالغدو والآصال وولاء لا يتغير ما دامت الأيام والليال وثناء أطيب من عرف الروض إذا مر عليه نسيم الشمال أن الأمر كيت وكيت.

آخر: وينهي بعد رفع الدعاء ونصب لواء الولاء وجر ذيول الفخر بالانتساب إلى عبودية مولانا والاعتزاء أن الأمر كيت وكيت.

آخر: وينهي بعد دعائه المرفوع وثنائه الذي هو كالمسك يضوع وشكره الذي يسمع منه أطيب مسموع أن الأمر كذا وكذا.

والعنوان لهذه المكاتبة الأبواب الفلانية بغير مطالعة ويختلف الحال فيه فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف وهو نائب سلطنة كتب الأبواب الكريمة العالية المولوية الأميرية الكبيرية السيدية المالكية المخدومية الكافلية الفلانية أعلاها الله تعالى ثم يقال: نائب السلطنة الشريفة المحروسة أو كافل المملكة الفلانية المحروسة وباقي عنوانات أرباب الوظائف من أرباب السيوف والأقلام على ما تقدم في العنونة بالأبواب بمطالعة.

وصورة وضعه أن يكتب الأبواب الكريمة إلى آخر الكافلية مثلاً سطراً واجداً من أول عرض الدرج إلى آخره ثم يكتب الفلانية أعلاها الله تعالى في أول السطر ملاصقاً له ثم يترك بياضاً قدر رأس إبهام ثم يكتب في آخر السطر الثاني كافل الممالك الشريفة الفلانية المحروسة كما في الصورة: الأبواب الكريمة العالية المولوية الأميرية الكبيرية السيدية المالكية المخدومية الكافلية السيفية أعلاها الله تعالى.

كافل الممالك الشريفة بالشام المحروسة.

والعلامة في ذيل الكتاب مقابل تحت البسملة بقلم الرقاع المملوك فلان وكأنهم لما انحطت رتبة المكتوب إليه عن أن تكتب العلامة إليه على سمت يقبل ليكون في معنى القصة كما تقدم أخذ المكتوب عنه في التنازل إلى آخر المكاتبة تواضعاً للمكتوب إليه وتأدباً معه.

قال في التثقيف: وبذلك كان يكتب عن الأمير يلبغا العمري يعني الخاصكي وهو أتابك العساكر المنصورة بالديار المصرية إلى نائبي الشام وحلب.

قال: وكذلك كتب بعده إلى المذكورين: الأمير منكلي بغا والأمير الجاي ونواب السلطنة بالديار المصرية.

المرتبة الرابعة: أن يأتي بصدر المكاتبة على ما تقدم في المكاتبة قبلها من الابتداء بيقبل الأرض وينهي بعد رفع وما معناه على ما تقدم من غير فرق ولا يختلف الحال في الصدر ولا في متن الكتاب والعنوان الكريم ولا يكون إلا بغير مطالعة.

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف كتب الباب الكريم العالي المولوي الأميري الكبيري العالمي العادلي المؤيدي المالكي المخدومي الفلاني أعلاه الله تعالى فلان الفلاني باسم المكتوب إليه.

وإن كان من أرباب الأقلام أو غيرهم فعلى ما تقدم في الأبواب بمطالعة من إبدال الأميري بالقضائي أو الشيخي وصورة وضعه: الباب الكريم بالألقاب المتقدمة إلى آخر المالكي سطراً واحداً من أول الدرج إلى آخره ثم يكتب المخدومي الفلاني أعلاه الله تعالى في أول السطر الثاني ويترك بياضاً ثم يكتب فلان الفلاني باسم المكتوب إليه أو شهرته كما في هذه الصورة: الباب الكريم العالي المولوي الأميري الكبيري العالمي العادلي المؤيدي المالكي المخدومي السيفي أعلاه الله تعالى.

بهادر أمير أخوار الأشرفي تنبيه كل ما كان العنوان فيه الباب الكريم كان العنوان فيه للمسافر المخيم بدل الباب وباقي الألقاب على حالها كما نبه عليه بالتثقيف وغيره والعلامة في آخر المكاتبة مقابل حسبي الله إذ لما كانت العلامة في أسفل الكتاب مقابل تحت الحسبلة كانت العلامة فيما فوق ذلك أنزل في رتبة المكتوب إليه وأعلى في رتبة المكتوب عنه.

المرتبة الخامسة: يقبل الأرض بالمقر الشريف.

والرسم فيه أن يترك بعد البسملة وما تحتها من الملكي الفلاني قر سطر أو سطرين بياضاً ثم يكتب يقبل الأرض بالمقر الشريف ويختلف الحال فيه فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف كتب: يقبل الأرض بالمقر الشريف العالي المولوي الأميري الكبيري العالمي العادلي المؤيدي الذخيري الظهيري المسندي الزعيمي المالكي المخدومي الفلاني أعز الله أنصاره وأعلى مناره وضاعف مباره وينهي بعد وصف محبته وبث أثنيته كيت وكيت والمسؤول من إحسانه كيت وكيت وربما كتب: والمملوك يسأل كيت وكيت كما في المكاتبات السابقة أو والمملوك يسأل تشريفه بمراسمه وخدمه والله تعالى يديم عليه سوابغ نعمه.

دعاء آخر لهذه المكاتبة: أعز الله تعالى أنصاره وأدام انتصاره وجعل على غايات النجوم اقتصاره وينهي.

آخر: لا زالت الرقاب لمهابته خاضعة والركاب به فوق النجوم واضعة وأجنحة السيوف من ماء الأعداء راضعة وينهي.

آخر: لا زالت أعلامه مشرقة وأقلامه مصرفة وأيامه بطيب ثنائه بين الخافقين معرفة.

وآخر: لا زالت الدنيا ببقائه مجملة والعلياء لارتقائه مؤملة والنعم على اختلافها جواهر مكملة وينهي.

قلت: ربما أتي بصورة الإنهاء مسجوعة أيضاً مثل أن يكتب: وينهي بعد تعبده بولائه وقيامه بحقوق آلائه.

أو وينهي بعد دعاء يقوم بوظائفه وولاء يتردى بمطارفه أو وينهي بعد رفع أدعيته وقطع العمر في موالاته وعبوديته ونحو ذلك وعلى ذلك جرى في عرف التعريف إلا أن الغالب في كتابة أهل الزمان إهماله.

العنوان إن قصد تعظيمه: الباب العالي بألقاب الباب الكريم في المكاتبة قبلها إلا أنه يحذف منها الكريم وإن لم يقصد تعظيمه فالمقر الشريف بالألقاب التي في صدر الكتاب.

وصورة وضعه في الباب العالي على ما تقدم في الباب الكريم: أن يأتي به في سطرين كاملين من أول عرض الدرج إلى آخره كما في الصورة: المقر الشريف العالي المولوي الأميري الكبيري العالمي العادلي المؤيدي الذخري الظهيري المسندي الزعيمي المالكي المخدومي السيفي أعز الله تعالى أنصاره.

أمير حاجب بالشام المحروس.

والعلامة في هذه المكاتبة المملوك فلان بقلم الرقاع بأسافل الكتاب مقابل إن شاء الله تعالى.

واعلم أن هذه المراتب الخمس هي الدائرة في المكاتبات بين كتاب زماننا بمملكة الديار المصرية وما جرى على نهجها والمعنى في ترتيبها على هذا الترتيب أنه في المرتبة الأولى منها حذف الدعاء والثناء المقتضيان للدالة من المكتوب عنه على المكتوب إليه واقتصر على اليسير من الكلام دون الكثير الذي فيه سآمة المكتوب إليه وإضجاره عند قراءة الكتاب وعنونت بالفلاني كالسيفي ونحوه من حيث إنه لقب مؤيد إلى رفعة وأتي فيه بمطالعة المملوك فلان إشارة إلى التصريح بالرق والعبودية من المكتوب عنه للمكتوب إليه مع إقامته في مقام الرفعة بذكر لقبه المؤدي إلى رفعة قدره وفي المرتبة الثانية أتي فيها بالفلاني داخل المكاتبة دون العنوان فكانت أنزل مما قبلها من حيث إن العنوان ظاهر وباطن المكاتبة خفي والظاهر المؤدي إلى الرفعة أعلى من الخفي من ذلك وأتي بالدعاء فكانت أنزل رتبة من التي قبلها لما تقدم من أن الدعاء فيه معنى الدالة واجتنب فيه السجع من حيث إن في الإتيان به تفاصحاً على المكتوب إليه وعنوان بالأبواب إشارة إلى شرف محل المكتوب إليه من حيث الإشعار بأن له أبواباً يوقف عليها وجعلت دون المرتبة الثانية من حيث إن العنونة في المرتبة الأولى باللقب المؤدي إلى الرفعة مع دلالته على الذات.

وفي الثانية عنون بالأبواب الموصلة على محل الشخص ولا يخفى أن ما دل على نفس الشخص أعلى مما هو موصل إلى محله وأتي فيها بمطالعة المملوك فلان إشارة إلى التصريح للمكتوب إليه بالرق والعبودية كما تقدم في المرتبة الأولى.

وفي المرتبة الثالثة حذف منها الفلاني المؤدي إلى الرفعة من داخل المكاتبة فكانت أنزل من التي قبلها فأتي فيها بذلك وأتي بالدعاء مسجوعاً فكان أنزل مما قبله لما في السجع من التفاصح على المكتوب عليه وأسقط من عنوانه مطالعة المملوك فلان فكان أنزل من حيث إنه لم يقع فيه تصريح برق وعبودية كما في المرتبة الأولى والثانية وفي المرتبة الرابعة بقي الصدر على حاله وعنون فيها بالباب بلفظ الإفراد فكانت أنزل مما قبلها من حيث إن الإفراد دون الجمع بدليل أنه بعض من أبعاضه.

وفي المرتبة الخامسة قيل: يقبل الأرض بالمقر يعني مقر المكتوب إليه فكانت أنزل مما قبلها من حيث إشهار ذلك بالقرب من محله بخلاف يقبل مطلق الأرض فإنه لا ينحصر في ذلك ثم إن عنونت بالباب العالي مجرداً عن الكريم كانت أنزل مما عنون فيه بالكريم لما جرى عليه الاصطلاح من رفعة رتبة الكريم العالي على العالي المجرد عن الكريم على ما تقدم في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة وإن عنونت بالمقر الشريف فهي على انحطاط الرتبة عما قبلها من حيث إشعاره بقرب المحل من المكتوب إليه.

على أن عنونة هذه المكاتبات بالمقر الشريف نظراً فإن أعلى المراتب الابتداء في المكاتبة بالدعاء هي الدعاء للمقر الشريف وهو بعد تقبيل الباسط والباسطة واليد على ما سيأتي ذكره في الدرجة الثالثة فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فربما التبس عنوان هذه بعنوان تلك قبل فضها والوقوف على صدرها هل هو مفتتح بيقبل الأرض بالمقر أو بالدعاء للمقر إلا أن كتاب الزمان قد رفضوا المكاتبة بالدعاء للمقر الشريف واقتصروا على الدعاء للمقر الكريم إذ كان هو أعلى ما يكتب به السلطان لأكابر أمراء المملكة على ما تقدم ذكره في الكلام على مكاتبات السلطان إلى أهل المملكة في المقالة الرابعة.

قلت: وفي الدساتير المؤلفة في الإخوانيات في الدولة التركية من الزمن السبق ما يخالف بعض هذا الترتيب فجعل التعريف أعلى المراتب يقبل الأرض وينهي كيت وكيت والعنوان الفلاني بمطالعة على ما تقدم ذكره في الترتيب السابق.

ودونه: الصدر بعينه والعنوان الأبواب بمطالعة.

ودونه: كذلك والعنوان الأبواب بغير مطالعة.

ودونه: يقبل الأرض بالمقر الشريف والعنوان إما بالباب العالي أو المقر الشريف.

وفي دستور يعزى لبعض بني الأثير أن أعلى المراتب يقبل الأرض وينهي كيت وكيت على ما تقدم يقبل الأرض ويدعو مثل يقبل الأرض وينهي بعد رفع دعائه الذي لا يفتر لسانه عن رفعه ولا يخفى إن شاء الله إبان نفعه.

ودونه: يقبل الأرض ويدعو لها مثل: يقبل الأرض حماها الله تعالى من غير الزمان واكتنفها بالأمان من صروف الحدثان ولا زالت محط وفود الجدا وكعبة قصاد الندا وينهي كيت وكيت.

ودونه: يقبل الأرض ويصفها مثل أن يكتب: يقبل الأرض التي هي ملجأ العفاه وملثم الشفاه ومحل الكرم الذي لا يخيب من اقتفاه ومقصد الراجي الذي إذا عول عليه كفاه وينهي كيت وكيت.

ودونه: يقبل الأرض ويدعو لها مثل أن يكتب: يقبل الأرض لا زالت محروسة الرحاب هامية السحاب فسيحة الجناب لمن أناب وينهي كيت وكيت.

وجرى في التثقيف: على الترتيب المتقدم في المرتبة الأولى والثانية والثالثة والرابعة على ما تقدم في المراتب الخمس السابقة وجعل المرتبة الخامسة يقبل الأرض مع وصفها على ما تقدم في الدستور المنسوب لبعض بني الأثير مع العنونة بالباب العالي وجعل يقبل الأرض بالمقر الشريف وفي غير هذه الدساتير ما يخالف بعض ذلك في الترتيب والتقديم والتأخير وفي بعض الدساتير بعد تقبيل الأرض تقبيل العتبات مثل أن يكتب: يقبل العتبات الكريمة لا برحت مطلع السعود ومنبع الجود ومهيعاً للمقام المحمود.

أو يقبل العتبات الكريمة لا زالت الأفلاكك تتمنى أها بها تحف وأنها لنجومها إليها بحوض الوالدين تزف.

أو: يقبل العتبات الكريمة لا زالت الآمال بها مطيفة والسعود لها حليفة وسعادتها لاستخدم كل ذي إلمام مضيفة.

ولا يخفى أن بعض هذه الاختيارات غير محكم الأساس ولا موضوع على أصل يقتضي صحة الترتيب فيه بل الكثير من ذلك راجع إلى التشهي كلما تقدم متقدم في دولة من الدول أحب أن يؤثر مخالفة غيره ويجعل له شيئاً يحدثه لينسب إليه ولا يبالي وافق في ذلك غرضاً صحيحاً أم لا وقل من يصيب الغرض في ذلك.

على ما تقدم بعض هذه المراتب على بعض في العلو والهبوط إنما هو من جهة استحسانه لو تكلف المتكلف تأخير ما تقدم فيها أو تقديم ما أخر لأمكنه ذلك.

الدرجة الثانية: المكاتبة بتقبيل اليد وقد رتبوا ذلك على ثلاث مراتب: المرنبة الأولى: يقبل الباسط الشريف وهي الأعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه والرسم فيها أن يترك الكاتب تحت الملكي الفلاني بعد البسملة قدر سطرين بياضاً كما في المسألة قبلها ويختلف الحال في ذلك فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف كتب: يقبل الباسط الشريف العالي المولوي الأميري الكبيري العالمي العادلي المؤيدي السيدي المالكي المخدومي المحسني الفلاني لا زالت ساحته مقبلة وسماحته مؤملة وينهي بعد وصف خدمه وثبوت قيامه فيها على قدمه إن الأمر كيت وكيت والمسؤول من إحسانه كيت وكيت والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه.

دعاء آخر: يليق بهذه المكاتبة يقال بعد تكملة الألقاب لا زالت نعمه باسطة وأيامه لعقود الأيام واسطة وينهي كيت وكيت.

آخر: لا زال جناح كرمه مبسوطاً وجانب حرمه من المخاوف محوطاً وينهي كيت وكيت.

آخر: لا زال يصرف الأعنة والأسنة ويقلد أعناق أعدائه كل أجل وأعناق أوادئه كل منة وينهي.

آخر: لا زالت حمائل السيوف تتسابق إلى بنانه وأعقاب الرماح تأوي إلى أنامله ليمكنها من قلوب أعداء الله يوم طعانه ومتون الخيل متحصنة بعزائمه فيقوى جنانها بجنانه.

آخر: لا زالت رحى حروبه على أعدائه تدار وأسنة رماحه تنادي الأعداء البدار البدار وجنوده تقاتل سفرة الوجوه إذا قاتل الأعداء في قرى محصنة أو من وراء جدار.

آخر: لا زالت أعلام النصر معقودة بأعلامه وجواري اليم السعيد معدودة من خدمه وسطور البأس والكرم مثبتة إما بأقلام الخط من رماحه وإما برماح الخط من أقلامه.

آخر: لا زالت الأعنة والأسنة طوع يمينه وشماله والآمال والأحوال تحت ظلال كرمه وكرم ظلاله والسيوف والأقلام هذه جارية بعوائد بأسه وهذه جارية بعوائد نواله.

آخر: ولا زالت وجوه النصر تتراءى في مرآة صفاحه وثمار النصر تجتنى من أغصان رماحه ولا برح السيف والقلم يتباريان في ضر الأعداء ببأسه ونفع الأولياء بسماحه وإن كان المكتوب إليه وزيراً رب سيف كتب بعد الأميري الوزيري.

وإن كان وزيراً رب قلم كتب قبل فلان أيضاً الصاحبي.

وإن كان من أعيان الكتاب: ككاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش وناظر الدولة وكتاب الدست ونحوهم كتب بدل الأميري القضائي ثم يكتب للجميع بعد الوزيري أو القضائي العالمي العادلي الممهدي المشيدي المالكي المخزومي المحسني الفلاني أسبغ الله تعالى ظلاله ومدها وشيد به مباني الملك وشدها ووهب الأيام منه هبة لا يستطيع الليالي ردها وينهي كيت وكيت.

دعاء آخر: يليق بهذه المكاتبة يقال بعد تكملة الألقاب ولا زالت أقلامه تروع الأسد في آجامها وتزيد على الغيوث في انسجامها وتعلم الرماح الإقدام إذا نكصت لإحجامها وينهي.

آخر: ولا زالت أقلامه تهزأ بالغيوث الهامية وأنعامه تفوق على البحار الطامية وموارد إحسانه تأوي إليها الوفود الظامية.

آخر: وأدام الله القصد لبابه ونزول الآمال برحابه وصعودها إلى سحابه.

آخر: لا زال فسيحاً للمقاصد جنابه مجرباً للمناجح بابه صريحاً في ابتغاء خير الدنيا والآخرة طلابه وإن كان من القضاة الحكام كتب: يقبل الباسط الشريف العالي المولوي القضائي العالمي الإمامي والعلامي السيدي المالكي المخدومي المحسني الحاكمي الفلاني أعز الله تعالى أحكامه وجمل به الدهر وحكامه وثبت به الأمر وزاد إحكامه وينهي كيت وكيت.

دعاء آخر يناسبه: يقال بعد تكملة الألقاب: أعز الله تعالى أحكامه وأنفذها وتدارك به الأمة وأنقذها وأسعف به الملة الإسلامية وأسعدها وينهي.

آخر: نضر الله الدين بنوره وسقى الغمام باقي سوره وحمى حمى الشرع الشريف بما ضرب عليه من سوره.

آخر: وجمل الدهر بمناقبه وزين سماء العلم بكواكبه ولا زال الزمان يقول لمنصب الشرع الشريف بشخصه ورأيه عز يدوم وإقبال لصاحبه.

آخر: وأمضى بيده سيوف الشرع التي هي أقلامه وأعلى طروس العدل والحق فإنها أعلامه آخر: وسدد سهام الحق بأقضيته وشيد أركان الشرع بأبنيته وأيد الإسلام بأقلام سجلاته القائمة للنصر مقام ألويته وإن كان المكتوب إليه من مشايخ الصوفية كتب: يقبل الباسط الشريف العالي المولوي الشيخي الإمامي العالمي العاملي الخاشعي الناسكي السيدي المالكي المخدومي المحسني الفلاني لا أزال يقاتل بسلاحه ويقابل فساد الدهر بصلاحه ويجلو دجى الظلماء بصباحه وينهي.

آخر: ونفع بركاته في الروحات والغدوات وجمل ببقائه المحافل والموات وبسط في صالح الدول يده إما في مباشرته بصالح التدبير وإما في انقطاعه بصالح الدعوات.

والعنوان في هذه المكاتبة الباسط الشريف بالألقاب التي في صدر المكاتبة على السواء والدعاء له بأول سجعة من دعاء الصدر ونحوها بحسب حال المكتوب إليه مثل أن يكتب لمن هو من أرباب السيوف أعز الله تعالى نصره أو عزه بنصره.

ولمن هو من رؤساء الكتاب: أسبغ الله ظلاله.

ولمن هو قاضي حكم: أعز الله أحكامه.

ولمن هو من المشايخ الصوفية: أعاد الله من بركاته.

وصورة وضعه في الورق أن تكتب الألقاب والدعاء والتعريف في سطرين كاملين من أول الورق إلى آخره إلا أنه يفصل بين الألقاب والدعاء ببياض لطيف والتعريف ببياض لطيف كما في الباسط الشريف العالي المولوي الأميري الكبيري العالمي العادلي المؤيدي السيدي المالكي المخدومي المحسني الفلاني أعز الله أنصاره أمير حاجب بحلب المحروسة.

وقد ذكر في عرف التعريف: أنه إن قصد تعظيمه عنونه بالمقر الشريف بالألقاب المتقدمة على السواء ولا تخفى صورة وضعه بعدما تقدم والعلامة المملوك فلان بقلم الرقاع إن شاء الله كالمكاتبة بالمقر الشريف المتقدمة.

المرتبة الثانية: يقبل الباسطة الشريفة والرسم أن يترك تحت الملكي الفلاني قدر سطرين بياضاً كما في المكاتبة قبلها ثم يكتب يقبل الباسطة الشريفة بالتأنيث ويجري الحال في ذلك كما في الباسط فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف يكتب: يقبل الباسطة الشريفة العالية المولوية الأميرية الكبيرية العالمية العادلية المؤيدية الذخيرية المالكية المحسنية الفلانية لا زالت سحائبها مستهلة ومواهبها للبحار مستقلة وينهي كيت وكيت والمستمد من محبته كيت وكيت وربما قيل والمسؤول والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه.

دعاء آخر يليق بذلك: لا زالت سيولها تملأ الرحاب وسيوفها تسرع السل إلى الرقاب.

آخر: لا زالت خناصر الحمد على الفضل بنانها معقودة ومآثر البأس والكرم لها ومنها شاهدة ومشهودة وبواتر السيوف مسيرة القصد إلى مناصرة أقلامها المنضودة.

آخر: لا زالت الآمال لائذة بكرمها عائذة بحرمها مستنجدة على جدب الأيام بسقي ديمها.

آخر: ولا زالت لرسوم الكرم مقيمة ولصنائع المعروف مديمة ولأيدي الإحسان متابعة إذا قصرت عن البروق ديمة وإن كان المكتوب إليه من رؤوس الكتاب كتب بدل الأميري القضائي والباقي على ما تقدم ثم يدعى له بما يناسبه.

دعاء يناسب ذلك: لا زالت السيوف خاضعة لأقلامها والنجوم خاشعة لكلامها والجبال متواضعة لإعلاء أعلامها آخر: لا زالت موالاتها فريضة وأجنحة أعدائها مهيضة ومقل الأسنة إذا خاصمتها أقلامها غضيضة.

آخر: أسبغ الله ظلها وهنأ بها أمة قرب مبعث زمانها وأظلها وهدى الآمال وقد حيرها الحرمان وأضلها.

آخر: لا زال قلمها مفتاح الرزق لطالبه والجاه لكاسبه والنصر لمستنيب كتبها عن كتائبه.

آخر: لا زال رفدها المطلوب وسعدها المكتوب وقلمها المخاطب في مصالح الدول والمخطوب.

آخر: بسط الله ظلها ولا قلصها وزادها من فضله ولا نقصها ولا جرع كبد حاسدها الظامية آخر: ولا زال عميق إنعامها قديماً وحديثاً ديمها وإكرامها قاضية بسعدها النجوم التي في خدامها.

آخر: لا زالت بسيطاً ظلها مديداً فضلها سريعاً إلى داعي الندى والردى قلمها في المهمات ونصلها وإن كان من قضاة الحكم زاد مع القاضوي قبل الفلاني الحاكمي ودعا بما يناسب.

دعاء: أعز الله شأنها وأذل من شانها وأغص بأدمع أعدائها الضريحة شانها.

دعاء آخر يليق بذلك: ولا زالت الآمال إليها وافدة والصلات عائدة ومعاني الفضل عن أخبار معنها زائدة.

آخر: لا زالت خناصر الحمد معقودة على فضل بنانها وفصل بيانها وعوائد الفضل والكرم شاهدة بالحسنين من فضلها وامتنانها.

وإن كان من مشايخ الصوفية أبدل القضائية بالشيخية وأسقط العادلية والحاكمية ودعا نحو قوله: ومتع الإسلام ببقيته الصالحة وبيض صحائف أعماله التي لأيدي الملائكة الكرام مصافحة.

آخر: لا أخلى الله من بركاته خلواته وأعاد من نوامي دعواته وسوامي درجاته وتوجهاته ونحو ذلك.

والعنوان الألقاب التي في صدر المكاتبة والدعاء بالسجعة الأولى من الدعاء باطنه أو نحوها.

وصورة وضعه أن تكتب الألقاب والدعاء والتعريف في سطرين كما تقدم في الباسط كما في هذه الصورة: الباسطة الشريفة العالية المولوية الأميرية الكبيرية العالمية العادلية الذخرية السندية الكاملية المحسنية أعز الله تعالى أنصارها أمير حاجب بحماة المحروسة.

والعلامة المملوك فلان بقلم الرقاع في أول الوصل الثالث على القرب من اللصاق.

المرتبة الثالثة: يقبل اليد الشريفة بألقاب الباسطة المتقدمة ثم اليد الكريمة ثم اليد العالية مع حذف الكريمة رتبة بعد رتبة والألقاب بحالها ويدعى له ثم يقال والمستمد من محبته كيت وكيت والله تعالى المؤيد والحال في اختلاف بعض ألقابها بالنسبة إلى أرباب السيوف وغيرهم على ما تقدم في الباسطة.

وهذه الأدعية لأرباب السيوف في هذه المكاتبة دعاء من ذلك: يقال بعد استكمال الألقاب: لا زالت مقبلة البنان مؤملة الإحسان مفضلة على أنواء السحب بطل لسان وينهي.

آخر: لا زالت ترد بالسيف صدور الكتائب وترد الظمأة منها موارد السحائب وتحدث عن البحر وكم من بحر من العجائب.

آخر: لا أخلى الله ودها ولا قطع وظائف حمدها ولا قضى مغيبها إلا جعل لها ذكرى بعدها.

آخر: لا زالت مصالحها تظفر بالمنى وتحصل على الغنى وتطلق لسانه بعاطر الثنا.

آخر: لا زالت لتقليد المنن سابقة في الجود العذل مقسمة في مكارم التكريم باطنها للندى وظاهرها للقبل.

وهذه أدعية تناسب أرباب الأقلام.

يقال بعد استيفاء الألقاب: لا زالت مستهلة بالندا مستقلة بكبت العادا مطلة على بعد ما بينهما من المدى.

آخر: لا برحت مفاخرها مفصلة ومحبتها في الخواطر ممثلة والكواكب تود لو فارقت فلكها وأصبحت لديها مسبلة.

آخر: لا برحت مفاخرها لصحائف الإحسان مسطرة ولقلوب الأعداء مفطرة ولصنائع المعروف إذا أمسكت الأنواء ممطرة.

آخر: أعلى الله تعالى شانها وضاعف إحسانها.

والعنوان: اليد الشريفة أو اليد الكريمة أو اليد العالية بالألقاب التي في صدر الكتاب من غير زيادة ولا نقص والدعاء بأول سجعة من المدعو به في صدر الكتاب أو نحوها والتعريف بعد ذلك.

وصورة وضعه في الكتابة أن يكتب سطران على ما تقدم في الباسط والباسطة كما في هذه الصورة: اليد الشريفة العالية المولوية الأميرية الكبيرية العالمية العادلية الذخيرية المالكية المحسنية الفلانية أعلى الله تعالى شأنها.

نائبة ملطية المحروسة.

والعلامة المملوك فلان بقلم التوقيعات في آخر الوصل الثاني من الكتاب على القرب من موضع لصاقه.

واعلم أنه ربما وصف التقبيل في هذه المراتب بعد الدعاء بالأوصاف الدالة على زيادة التأدب ورفعة قدر المكتوب إليه وعلى ذلك جرى في عرف التعريف.

وقد يستعمله بعض كتاب الزمان وذلك مثل أن يقول في تقبيل الباسط بعد استعمال الدعاء: تقبيلاً يحوم على مناهله ويحلق نسر السماء على منازله أو يقول: تقبيل محب أخلص ولاءه ومحص الصدق وفاءه أو تقبيلاً يواليه وينظم لآليه أو تقبيلاً يواصل به الخدم ويود لو سعى لأدائه على الرأس إن لم تسعف القدم أو تقبيلاً لا يروى الكرم إلا عنه ولا يستفاد المكارم إلا منه أو تقبيل وارد على ذلك الزلال رائد في ذلك الروض الممتد الظلال أو تقبيل مسارع إليها مزاحم عليها.

وربما أتى في الإنهاء بما يلائم المقام مثل أن يقول: وينهي بعد وصف خدمه وتمنيه لو وقف في صف خدمه وما أشبه ذلك.

قلت: وفي بعض الدساتير بعد تقبيل اليد العالية يقبل يد الجانب الكريم العالي الأميري الكبيري العالمي المؤيدي النصيري الزعيمي الفلاني وبعد ذلك: يخدم الجانب الكريم بنحو هذه الألقاب.

وفي التثقيف: يقبل يد الجانب العالي ويخدم الجانب العالي بدون الكريم ثم يقال بعد ذلك ويبدي لعلمه كيت وكيت والقصد من محبته كيت وكيت فيحيط علماً بذلك.

وبعض الكتاب يستعمل ذلك إلى الآن وهو ذهول إذ سيأتي في أول الدرجة الثالثة أن أعلى المراتب المفتتحة بالدعاء الدعاء للمقر الشريف على المصطلح الأول وللمقر الكريم على ما استقر عليه الحال الآن وإذا كان كذلك فكيف يتأتى أن تكون مراتب الجناب الكريم أو الجناب العالي قبل المقر الشريف أو المقر الكريم.

الدرجة الثالثة المكاتبة بالدعاءوقد رتبوا بالدعاء على ثلاث مراتب المرتبة الأولى: الدعاء للمقر والرسم فيه أن يترك بعد الملكي الفلاني وقد عرض ثلاثة أصابع بياضاً ثم يؤتى بصدر المكاتبة على سمت البسملة.

ويختلف الحال في ذلك فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف كتب: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي العوني النصيري الفلاني.

ثم يدعى له بما يناسب نحو: ولا زالت جيوشه جائلة وجنوده بين الأعداء وبين مطالبها حائلة وأولياؤه على صهوات خيله لديه قائلة أصدرناها إلى المقر الكريم تهدي إليه من السلام أطيبه ومن الثناء أطنبه وتبدي لعلمه الكريم أن الأمر كيت وكيت والقصد من اهتمامه كيت وكيت فيحيط علمه بذلك والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه.

وهذه أدعية تناسب ذلك: دعاء يليق بذلك: يقال بعد تكملة الألقاب: وأيد عزائمه ونصرها وأعلى أعلامه ونشرها ودقق في مقاتل الأعداء حيث تزور الأسنة نظرها وينهي.

آخر: لا برحت الآمال بكرمه تعترف وبوارق صوارمه لأبصار الأعداء تختطف.

آخر: وأعلى قدره وأنفذ أمره أصدرناها.

وإن كان من رؤساء الكتاب كتب: بسط الله ظل المقر أو أسبغ الله ظلال المقر الكريم العالي القضائي الكبيري العالمي العادلي المؤيدي السيدي السندي المالكي المخدومي المحسني الفلاني وباقي الكتابة كما في أرباب السيوف.

وهذه أدعية تناسب ذلك: دعاء يليق به: ولا زالت الأمور إليه مفوضة ومضارب العز إليه عنه مقوضة وصحائف الحسنات بتسويده على أثناء الدهر مبيضة وأصدرناها.

آخر: وصرف لسان قلمه وشرفه مكان قدمه وعرف من كان يناويه أنه أصبح لا يعد من خدمه.

قلت: وقد ذكر في عرف التعاريف أن القضاة والحكام لا مدخل لهم في المكاتبة بالمقر وعلى ذلك جرى في المشايخ الصوفية على أنه قد كوتب بذلك وقد رأيت المكاتبة بذلك في بعض الدساتير وحينئذ فيكتب: أعز الله تعالى أحكام المقر العالي القضائي الكبيري العالمي العلامي الإمامي المالكي المحسني الحاكمي الفلاني ويدعى له بما يناسب مثل: وجدد له إقبالاً وبلغه من الدارين آمالاً ونحو ذلك والباقي على نحو ما تقدم.

وهذه الأدعية تناسب ذلك: لا برحت الشريعة محوطة بأقلامه مضبوطة بأحكامه منوطة بما يشيد كبانيها من أحكامه مؤرخة أيام سعودها بأيامه.

آخر: حرس الله بأحكامه سرح المدى ولا برحت فتاويه بها يقتدى ويظهر على المناوين والمبتدعين من تجريدها مهنداً مهنداً.

آخر: لا برحت أنوار فتاويه لامعة وسيوف أقلامها بها قاطعة وحدودها إلى موارد أحكام الشريعة المحمدية شارعة.

والعنوان لهذه المكاتبة المقر الكريم بنظير ما في الصدر والدعاء بأول سجعة في الصدر من الدعاء.

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين الألقاب والدعاء والتعريف كما في الصورة: المقر الكريم العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي العوني النصيري الفلاني أعز الله المرتبة الثانية: الدعاء للجناب وهو على ثلاث طبقات: الطبقة الأولى: أعز الله تعالى نصر الجانب الكريم والرسم فيه أن يترك تحت الملكي الناصري عرض ثلاثة أصابع بياضاً كما في المسألة قبلها.

ثم إن كان المكتوب إليه أرباب السيوف كتب: أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي العوني الذخري العضدي الفلاني ويدعى له نحو: وأعلى قدره وأنفذ أمره صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب الكريم تهتدي إليه سلاماً رائقاً وثناء عابقاً وتوضح لعلمه الكريم كيت وكيت والقصد من اهتمامه كيت وكيت فيحيط علمه بذلك والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه.

وهذه الأدعية تناسب ذلك: دعاء منه: ولا زالت عزائمه تعير السيوف المضاء وتعلم السهام النفوذ في القضاء.

آخر: ولا زال جنابه مرتعاً وسحابه مربعاً ورعبه لا يدع من القلوب الأعداء موضعاً.

آخر: ولا زالت عزائمه تباري السيوف وتشق الصفوف وتجاري إلى مقاتل الأعداء الحتوف صدرت.

وإن كان من الكتاب كتب: أدام الله تعالى جلال الجناب الكريم العالي القضائي الكبيري الصدري الرئيسي العوني الغياثي الملاذي الفلاني ويدعى له بما يناسبه والباقي من نسبة دعاء يناسبه: وحرس سماءه التي تغنى عن المصابيح ونعماءه التي هي للنعم مفاتيح.

آخر: وبلغه أشرف الرتب وملأ به القلوب الأعداء غاية الرهب وشكر ندى قلمه الذي لم يدع للغمام إلا فضل ما وهب صدرت.

وإن كان قاضياً كتب: أعز الله تعالى أحكام الجناب الكريم العالي القضائي الإمامي العالمي العلامي الأوحدي الفلاني.

ويدعو له: نحو: ونور بعلمه البصائر وسر بحكمه السرائر وجعل فيض يمه مما لا تودع درره إلا في الضمائر.

والباقي من نسبة ما تقدم.

وإن كان من مشايخ الصوفية كتب: أعاد الله تعالى من بركات الجناب الكريم العالي الشيخي الإمامي العالمي العاملي الورعي الزاهدي الفلاني.

ويدعى له نحو: ولا زال يقاتل بسلاحه ويقابل فساد الدهر بصلاحه وتجلى دجى الظلماء بصباحه.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب الكريم تهدي إليه سلاماً يزدان بعرض بخدمته ويزداد نضرة بنظرته.

والعنوان لكل منهم بألقاب الصدر والدعاء بأول سجعة من دعائه أو نحو ذلك.

وصورة وضعه أن يكتب في سطرين ألقابه ودعائه وتعريفه كما ورد في هذه الصورة.

الجناب الكريم العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي النصيري الفلاني أعز الله تعالى نصره فلان الفلاني.

الطبقة الثانية من المرتبة الثانية: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي والرسم فيه أن يترك تحت الملكي الفلاني قدر أربعة أصابع بياضاً ثم يختلف الحال في ذلك فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف كتب: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي المؤيدي العوني النصيري الذخري الفلاني.

ثم يدعى له نحو: ونصره في جلاده وأيده في مواقف جهاده.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تهدي إليه سلاماً يشوق وثناء يروق وتوضح لعلمه كيت وكيت فالجناب العالي يتقدم بكيت وكيت فيحيط علمه بذلك والله تعالى يؤيده ومنه وكرمه.

دعاء آخر يناسب هذه المكاتبة: يقال بعد استيفاء الألقاب: ولا زال عزمه مؤيداً وعزه مؤبداً واجتهاده وجهاده هذا يسر الأولياء وهذا يسوء العدا.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تخصه بالسلام والثناء الوافر الأقسام وتوضح لعلمه كيت وكيت.

آخر: ولا زالت آراؤه كواكب يهتدى بلوامعها وتقرأ سورة النصر في جوامعها وتسير كالسحب فترمي الأعداء بصواعقها وتأتي الأولياء بهوامعها.

وإن كان م الكتاب كتب: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي القضائي الكبيري الصدري الرئيسي القوامي النظامي الفلاني.

ثم يدعى له نحو: ولا زال يرجى لكل جليل ويؤمل لكل جميل ويؤهل لكل منتهى تقصر دونه أصابع النيل.

صدرت هذه المكاتبة والباقي على ما تقدم في أرباب السيوف.

وإن كان من القضاة كتب: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي القضائي العالمي الفاضلي الأوحدي الصدري الرئيسي الفلاني.

ويدعى له نحو: ودفع عنه الأباطيل وأرشد بهداه من الأضاليل.

وإن كان من مشايخ الصوفية كتب: أعاد الله تعالى من بركة الجناب العالي الشيخي الإمامي العالمي الكاملي الورعي الزاهدي.

ويدعى له نحو: ولا زال تكشف به اللأواء وتطب به الأدواء.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تهدي إليه سلاماً وتفض عن مثل المسك ختاماً وتوضح لعلمه.

دعاء آخر: نفع الله بدعواته التي لا حاجب لها عن الإجابة ولا عارض يمنعها عن الإصابة وأمتع ببركاته التي هي أمن للناس ومثابة.

صدرت.

والعنوان: الألقاب التي في صدر المكاتبة.

والدعاء: ضاعف الله تعالى نعمته ثم التعريف.

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في السطرين ألقابه ودعاءه وتعريفه كما ورد في هذه الصورة: الجناب العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي المؤيدي العوني النصيري الذخيري الفلاني.

ضاعف الله تعالى نعمته فلان الفلاني.

والعلامة المملوك فلان بقلم الثلث الثقيل مقابل السطر الأول من المكاتبة.

الطبقة الثالثة: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي وما في معنى ذلك.

والرسم فيه أن يترك تحت الملكي الفلاني بحيث يبقى من الوصل الذي فيه البسملة ما يسع سطرين فقط ثم يختلف الحال فيه فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف كتب: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي الأميري الكبيري العالمي المجاهدي المؤيدي العوني النصيري الذخيري الفلاني.

ويدعى له نحو: وأيد عزمه وأظهره وكبت عدوه وقهره صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تهدي إليه السلام طيباً وثناء مطنباً وتوضح لعلمه كيت وكيت فالجناب العالي يتقدم بكيت وكيت فيحيط علمه بذلك والله يؤيده بمنه وكرمه.

دعاء آخر يناسبه: وموه بجهاده كل سنان ونبه بجلاده جفن كل سيف وسنان صدرت هذه المكاتبة تحييه بسلام يطيب وثناء يهتز غصنه الرطيب وتوضح لعلمه.

وإن كان من الكتاب كتب: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي القضائي.

والألقاب من نسبة ما تقدم في: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي.

والدعاء نحو: ولا زال قلمه لأبواب الأرزاق وإن كان من القضاة كتب: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي والألقاب من نسبة ما تقدم في ضاعف الله نعمة الجناب العالي.

والدعاء نحو: ولا أخلى الله أفق الفضل من موكبه ولا مجال الجدال من مركبه.

صدرت.

وإن كان من مشايخ الصوفية كتب: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي الشيخي.

وبقية الألقاب من نسبة ما تقدم مع ضاعف الله تعالى نعمة الجناب.

والدعاء نحو: نفع الله ببركات خلوته التي كم انجلت عن الرشاد وبان في مرآتها نور الهدى للعباد وأنارت إنارة الشمس لا إنارة الزناد.

والعنوان بنظير الألقاب التي في صدر المكاتبة أدام الله تعالى نعمته.

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين الألقاب والدعاء والتعريف كما في الصورة: الجناب العالي الأميري الكبيري العالمي المجاهدي المؤيدي العوني النصيري الذخيري الفلاني أدام الله نعمته فلان الفلاني.

والعلامة المملوك فلان تحت البسملة مختصر الطومار.

المرتبة الثالثة: الدعاء للمجلس ويختص بالمجلس العالي والبياض فيه تحت الملكي الفلاني بحيث يبقى من الوصل قدر سطرين كما تقدم في الجناب العالي.

ويختلف الحال فيه فإن كان من أرباب السيوف كتب: أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي الأميري الكبيري العالمي المجاهدي المؤيدي الذخري العوني الفلاني.

ويدعى له نحو: وأيد عزمه ووفر من الخيرات قسمه.

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي تهدي إليه سلاماً وتوفر له من الخير أقساماً وتوضح لعلمه المبارك كيت زكيت فالمجلس يتقدم بكيت وكيت فيحيط بذلك علماً.

والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه.

وهذه أدعية تليق بهذه المكاتبة: دعاء من ذلك: ولا زال شكور الاهتمام موصوف المحاسن وصف البدر التمام معروفاً بجميل الأثر مثل ما تعرف مواقع الغمام.

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي تهدي إليه السلام وتسدد لرأيه الصائب سهاماً وتوضح لعلمه الكريم.

آخر: ولا زال سيفاً يدفع بحده ويجري ماء النصر من فرنده ويتنوع به الظفر فيقتل بتجريده ويخاف وهو في غمده.

وإن كان من الكتاب كتب: أدام الله نعمة المجلس العالي القضائي الأجلي الكبيري الرئيسي الماجدي الأوحدي الأثيري الفلاني.

ويدعى له نحو: وسدد رأيه ووفقه وصدق فيه الظن وحققه وجمع له شمل السعادة ثم لا فرقه صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي تشكر مساعيه واهتمامه الذي بان طرف النجم وهو يراعيه وتوضح لعلمه الكريم.

آخر: ولا نزع عنه ثوب السعادة ولا غير منه جميل العادة ولا عرف سوى بابه الذي لو كان له الحق في جبهة الأسد لاستعده صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي تهدي إليه السلام والثناء الذي تنطق به ألسنة الأقلام وتوضح لعلمه.

وإن كان من القضاة كتب: أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي القضائي الكبيري العالمي الفاضلي الأوحدي الفلاني ويدعى به نحو: ولا برحت طلبته مفيدة المطالب مورية الهدى في الغياهب قائمة أقلام هدايتها في ليالي الحيرة مقام الكواكب.

آخر: ولا برحت الدنيا ممطورة بغمامه محبورة بدخولها تحت ذمامه.

وإن كان من مشايخ الصوفية كتب: أدام الله تعالى بركة المجلس العالي الشيخي الإمامي العالمي العاملي العابدي الورعي الزاهدي الأوحدي الفلاني.

ويدعى له نحو: ولا زال نوره يسعى بين يديه ويدعى باسمه إليه.

آخر: أعاد الله من بركاته على الراعي والرعية وجعل خلوته خلوات كل نفس راضية مرضية والباقي على ما تقدم.

والعنوان الألقاب التي في الصدر والدعاء: أدام الله تعالى نعمته.

ثم التعريف.

وصورة وضعه في الورق أن تكتب ألقابه والدعاء والتعريف كما في هذه الصورة: المجلس العالي الأميري الكبيري العالمي المجاهدي المؤيدي الذخيري العوني الفلاني أدام الله تعالى نعمته فلان الفلاني.

والعلامة المملوك فلان بقلم مختصر الطومار تحت الملكي الفلاني على ما تقدم في المكاتبة قبلها.

واعلم أن ترتيب هذه الدرجة على هذه المراتب: من الدعاء بأعز الله تعالى أنصار المقام الكريم ثم أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم ثم ضاعف الله تعالى نعمة الجناب الكريم ثم أدام الله تعالى نصرة الجناب العالي ثم أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي هو المستقر عليه الحال بين كتاب الزمان بالديار المصرية وجعل في عرف التعريف أعلى المراتب في الدعاء: أعز الله

تعالى أنصار المقر الكريم ثم أعز الله تعالى نصرة المقر الكريم ثم أعز الله تعالى نصر المقام الكريم ثم أدام الله نصرة الجناب الكريم ثم أعز الله تعالى المقر الكريم ثم ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي مع اختصار الألقاب وحذف بعضها ثم أدام الله نعمة المجلس العالي وعلى كثير من ذلك كان الحال جارياً إلى آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين ثم أخذ الناس في التغيير إلى أن صار الأمر على ما هو عيه الآن.

قلت: وكانوا في الزمن السلف في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون وما والاها لا يأتون مع المقر الشريف المقر الكريم المقر العالي والجناب الشريف بأصدرنا ولا بصدرت هذه المكاتبة كما هو الآن بل الدعاء يقولون مع أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف: المملوك يقبل الباسطة ثم يأتي بالإنهاء بعد ذلك مثل أن يقول: المملوك يقبل الباسطة الكريمة التي هي معدن السماح وموطن ما يوهن العدا من صدور الصفاح وينهي.

أو يقول يقبل الباسطة الكريمة ويرتع منها في كل ديمة وينهي.

أو المملوك يقبل اليد الشريفة ويلجأ إلى ظلالها الوريفة وينهي.

ومع الجناب الشريف لفظ المملوك يخدم.

ثم يقول: ويبدي مثل أن يكتب: المملوك يخدم بأثنيته التي تزيد الطيب طيباً وتسري سرى السحب فلا تدع في الأرض جريباً ويبدي لعلمه الكريم وربما أعاض ذلك بقوله: صدرت هذه الخدمة مثل أن يقول: صدرت هذه الخدمة وسلامها يتضوع وثناؤها السافر لا يتبرقع.

الدرجة الرابعة: الابتداء بصيغ مخترعة من صدور مكاتبات الأدعية.

اعلم أن صدور المكاتبات المفتتحة بالأدعية يقال فيها بعد الدعاء المعطوف: ومن أجل أصدرناها أو صدرت هذه المكاتبة ثم يقال: وتبدي لعلمه أو وتوضح لعلمه.

ومن أجل ذلك جعلت هذه الدرجة دون درجة الافتتاح بالدعاء لأن هذه فرع من فروع تلك وحينئذ فيكون الصدر مشتملاً بعد الدعاء على ثلاثة أشياء: والثاني: الإشارة إلى المكاتبة بقوله: هذه المكاتبة.

والثالث: الإعلام بما صدرت بسببه المكاتبة فانتظم من ذلك ثلاث مراتب: المرتبة الأولى: الافتتاح بصدور المكاتبة وفيها طبقتان: الطبقة الأولى: صدرت والعالي وهي أن تفتتح المكاتبة بأن يقال: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي.

ويختلف الحال فيها.

فإن كان المكتوب من أرباب السيوف كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي الأميري الكبيري المجاهدي المؤيدي الذخري الأوحدي الفلاني.

ويدعى له: أدام الله تعالى نعمته ووفر من الخير قسمته تتضمن إعلامه كيت وكيت فالمجلس العلاي يتقدم بكيت وكيت فيعلم ذلك ويعتمده والله الموفق.

وإن كان من الكتاب كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي القضائي الكبيري الرئيسي الماجدي الأثيري الأوحدي الفلاني.

ويدعى له نحو: حرس الله مجده وأنجح قصده والباقي على ما تقدم.

وإن كان من القضاة كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي القضائي الأجلي الصدري الفقهي الكاملي الفاضلي الفلاني ويدعى له نحو: ايد الله أحكامه ووفر من الخير أقسامه والباقي على ما تقدم.

وإن كان من مشايخ الصوفية: كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي الشيخي الإمامي العالمي العاملي الزاهدي العابدي الورعي الأوحدي.

ويدعى له نحو: أعاد الله من بركته ونفع المسلمين بصالح أدعيته والباقي على ما تقدم.

والعنوان بالألقاب التي في الصدر وأول من الدعاء فيه.

وتكون الألقاب والدعاء والتعريف في سطرين كما في الصورة: المجلس العالي الأميري الكبيري المجاهدي المؤيدي الذخري الأوحدي الفلاني أدام الله رفعته فلان الفلاني.

والعلامة المملوك فلان تحت الملكي الفلاني بقلم مختصر الطومار الثقيل وربما جعل بعضهم العلامة أخوه.

الطبقة الثانية: صدرت والسامي وهي أن تفتتح المكاتبة بأن يقال: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي والبياض فيها تحت الملكي الفلاني كما صدرت في المكاتبة التي قبلها بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسع سطرين فقط على ما تقدم.

ثم أن المكتوب إليه من أرباب السيوف كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي الأميرين المجاهدي العضدي الذخيري الأوحدي الفلاني ويدعى له نحو: أدام الله سعده وأنجح قصده.

ثم يقال: تتضمن إعلامه كيت وكيت فالمجلس السامي يتقدم بكيت وكيت وإن كان من الكتاب كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القضائي الأجلي الكبيري الزيني الماجدي الأثيري الأوحدي الفلاني.

ويدعى له نحو: ضاعف الله تعالى إقباله أو أدام الله سعادته وبلغه إرادته والباقي على ما تقدم.

وإن كان من القضاة كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القضائي الصدري الفقيهي الإمامي العالمي الفاضلي الكاملي الأوحدي فلان الدين.

والباقي من نسبة ما تقدم.

وإن كان من مشايخ الصوفية كتب: صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي الشيخي العالمي الورعي الزاهدي الأوحدي الفلاني ويدعى له نحو: لا أخلاه الله من أنسه ولا أبعده من حضرة قدسه.

والباقي على نحو ما تقدم.

والعنوان الألقاب التي في صدر المكاتبة بالسجعة الأولى مما فيه من الدعاء والتعريف.

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين كما في الصورة: المجلس السامي الأميري الكبيري المجاهدي العضدي الذخيري الأوحدي الفلاني.

أدام الله سعده فلان الفلاني.

والعلامة أخوه فلان تحت الملكي الفلاني بقلم مختصر الطومار الثقيل.

المرتبة الثانية: الافتتاح بالإشارة إلى المكاتبة وهي أن يكتب: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي بغير ياء في ألقابه ويعبر عنه السامي بغير ياء والبياض فيها تحت الملكي الفلاني متسع أيضاً بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسع سطرين فقط.

وإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف كتب: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي الأمير الأجل الكبير المجاهد المؤيد الأوحد الذخر فلان الدين ويدعى له نحو: أدام الله إقباله وبلغه آماله أو أنجح الله قصده وأعذب ورده تعلمه كيت وكيت فالمجلس يتقدم بكيت وكيت فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه والله الموفق.

وإن كان من الكتاب كتب: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القاضي الأجل الكبير الصدر الرئيس الأوحد ويدعى له نحو: أدام الله سعادته وبلغه من الخير إرادته تعلمه كيت وكيت.

والباقي على ما تقدم.

وإن كان من القضاة كتب: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القاضي الأجل الكبير العالم الفاضل الكامل الأوحد فلان الدين والباقي من نسبة ما تقدم.

وإن كان من مشايخ الصوفية كتب: هذه المكاتبة إلى المجلس السامي الشيخ الصالح الورع الزاهد فلان الدين نفع الله تعالى ببركته ولا أخلى مجالس الذكر من محاسن سمته وسمته.

والعنوان: الألقاب التي في صدر الكتاب وأول سجعة من الدعاء الذي فيه وتعريقه ويكون في سطرين كما في هذه الصورة: المجلس السامي الأمير الأجل الكبير المجاهد المؤيد الأوحد الذخر فلان الدين.

أدام الله إقباله فلان الفلاني.

المرتبة الثالثة: الافتتاح بالإعلام بالقصد وهو أن يكتب: يعلم فلان وقد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات من هذه المقالة أن الصواب فيها ليعلم بإثبات لام الأمر في أوله فحذف كتاب الزمان منها اللام اللازم إثباتها وأجروها مجرى الخبر.

والرسم فيه أن يترك تحت الملكي الفلاني بياضاً بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسع سطرين كما في المكاتبة قبلها وما قبل ذلك.

ثم إن كان المكتوب له من أرباب السيوف كتب: يعلم الأمير الأجل الكبير المؤيد الذخر المرتضى المختار فلان الدين ويدعى له نحو: أدام الله عزه ووفر من الخير كنزه كيت وكيت فمجلس الأمير يتقدم بكيت وكيت فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه والله الموفق بمنه وكرمه.

وإن كان من الكتاب كتب: يعلم مجلس القاضي الأجل الكبير العالم الفاضل الكامل الأوحد فلان الدين كيت وكيت والباقي من نسبة ما تقدم.

وإن كان من القضاة كتب: يعلم مجلس القاضي الأجل الكبير العالم الفاضل الكامل وإن كان من المشايخ الصوفية كتب: يعلم مجلس الشيخ الصالح الورع الزاهد الأوحد فلان الدين كيت وكيت والباقي من نسبة ما تقدم.

والعنوان لهذه المكاتبة الألقاب التي في الصدر والدعاء بأول سجعة مما فيه من الدعاء والتعريف.

وصورة وضعه في الورق أن يكتب ذلك في سطرين كما في الصورة: المجلس الأميري الأجل الكبير المؤيد الذخر المرتضى المختار فلان الدين.

أدام الله عزه فلان الفلاني.

والعلامة تحت البسملة الاسم بقلم مختصر الطومار الثقيل.

قلت: ومما يجب التنبيه عليه أن الألقاب المذكورة في صدور المكاتبات وعنواناتها ليست موقوفاً عندها بل لكل واحد فيه اختيار من تقديم وتأخير وتبديل لقب بلقب وزيادة ونقص إلا أن الزيادة والنقص يكونان على المقاربة مثل زيادة لقب ولقبين وثلاثة ونقصها.

على أنهم في الزمن السابق كانوا يتعاطون في الإخوانيات الألقاب المركبة في الصدور والعنوانات فيما يبدأ فيه بالدعاء وما بعد ذلك إلى آخر المراتب كما هو في السلطانيات.

فإن كان من أرباب السيوف قيل مع الدعاء للمقر الشريف لأرباب السيوف بعد استيفاء الألقاب المفردة عز الإسلام والمسلمين سيد الأمراء في العالمين زعيم الجيوش مقدم العساكر عون الأمة غياث الملة ممهد الدول مشيد الممالك ظهير الملوك والسلاطين عضد أمير المؤمنين.

ومع الدعاء للمقر الكريم: عز الإسلام والمسلمين سيد الأمراء في العالمين نصرة الغزاة والمجاهدين زعيم الجيوش الموحدين عماد الدولة عون الأمة ذخر الملة ظهير الملوك والسلاطين سيف أمير المؤمنين وعلى ذلك إلى آخر كل مرتبة بحسبها.

وإن كان من رؤساء الكتاب قيل: جلال الإسلام والمسلمين سيد الكبراء في العالمي رئيس الأصحاب قوام الأمة نظام الملة مدبر الدولة ذخر الممالك ظهير الملوك والسلاطين وكذلك إلى آخر المراتب كل مرتبة بحسبها وكذلك القول في القضاة ومشايخ الصوفية كل أحد منهم بما يناسبه من الألقاب لوظيفته ورتبته.

ثم اقتصروا بعد ذلك على استعمال اللقب المضاف إلى الملوك والسلاطين مثل ظهير الملوك والسلاطين ونحو ذلك فحذف كتاب الزمان هذه الألقاب المركبة جملة اختصاراً وهو مستحسن لما في ذلك من ميل النفوس إلى الاختصار ولتحالف المكاتبات الصادرة عن السلطان فتكون مختصة بالألقاب المركبة دون غيرها.

القسم الثاني: من المكاتبات الإخوانيات الدائرة بين أعيان المملكة وأكابر أهل الدولة الأجوبة وهي على ضربين: والرسم فيها أن يكتب صدر الكتاب أن لو كان ابتداء ثم يذكر ورود الكتاب المجاوب عنه ويؤتى بالجواب عما تضمنه وهو على أبع مراتب: المرتبة الأولى: وهي أعلاها في تعظيم الكتاب الوارد أن يعبر عنه بالمثال وذلك مع الابتداء بلفظ يقبل الأرض وينهي كيت وكيت وصورته أن يقول بعد كمال الصدر: ورود المثال الكريم العالي أعلاه الله تعالى على المملوك على يد فلان ويذكر ما يليق به من المجلس العالي أو المجلس السامي أو غيرهما ثم يقول: فقبل المملوك لوروده الأرض وأدى من واجبه الفرض وتضاعف دعاء المملوك لتأهيله لغلمانه الأبواب الكريمة وابتهج بوروده وحمد الله وشكره على ما يدل عليه من عافية مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره إن كان المثال قد ورد من نائب سلطنة أو من عافية مولانا قاضي القضاة إن كان قاضياً أو من عافية المخدوم وصحة مزاجه المحروس.

وقابل المملوك المراسيم الكريمة بالامتثال ففهم ما رسم له به من كيت وكيت والمملوك لم يكن عنده غفلة ولا إهمال فيما رسم له به.

وإن كان ثم فصول كثيرة قال: فأما ما رسم له به من كيت وكيت فقد امتثله المملوك ويجاوب عنه.

ثم يقول: وأما ما رسم له به من كيت وكيت فالأمر فيه كيت وكيت حتى يأتي على آخر الفصول فإذا انتهى إلى آخرها قال: وسؤاله من الصدقات العميمة إمداده بمراسيمه الكريمة وخدمه ليفوز بقضائها ويبادر إلى امتثالها المرتبة الثانية: أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمثال العالي بدون الكريم وذلك مع الابتداء بلفظ يقبل الأرض وينهي بعد ابتهاله إلى الله تعالى والابتداء بيقبل الأرض بعد رفع دعائه ويقبل الأرض بالمقر الشريف ويقبل الباسط الشريف.

فأما مع يقبل الأرض بعد ابتهاله فالأمر على ما تقدم في جواب المكاتبة قبلها إلا أنه يقتصر على المثال العالي دون الكريم كما تقدمت الإشارة إليه وأما مع تقبل الأرض بعد رفع دعائه فإنه يقول بعد تكملة الصدر: ورد المثال العالي أعلاه الله تعالى على يد فلان فقبله حين قابله ووقف على ما تضمنه من كيت وكيت وفرح بما يدل عليه من عافية المخدوم وحمد الله تعالى وشكره على ذلك فهم ما أشار إليه من كيت وكيت ويجاوب عنه ثم ويقول: والمملوك يسأل إحسان المخدوم بتشريف المملوك بمهماته ومراسيمه ليفوز بقضائها فإن المملوك وقف المالك طالع بذلك والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه أو نحو ذلك.

وأما مع يقبل الأرض بالمقر الشريف ويقبل الباسط الشريف فإنه يقال ورود المثال العالي أيضاً وربما قيل ورود مثاله العالي.

وقد يقال المشرف الكريم العالي على ما تقتضيه رتبة المكتوب إليه ويرتضيه المكتوب عنه والباقي على نحو ما تقدم.

المرتبة الثالثة: أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمشرفة على التأنيث وذلك مع يقبل الباسطة ويقبل اليد.

ويختلف الحال في ذلك بحسب المراتب فيقال: يقبل الباسطة وينهي ورود المشرفة الكريمة ومع اليد الشرفة الكريمة والعالية وفي معنى ذلك يخدم إذا كتب بها وكذلك أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم وإن كان المكتوب عنه يكنى عن نفسه بنون الجمع المقضية للتعظيم.

ثم يقول في كل منها: فقبلها المملوك حين قابلها ووقف على ما تضمنته من محبته ومودته وفهم ما شرحه من أمر كيت وكيت ويجاوب عنه ثم يقول: والمستمد من محبته تشريف المملوك بمراسيمه ومشرفاته وخدمه ليفوز بقضائها ويبادر إلى امتثالها فإن المملوك ما عنده غفلة فيما يقضيه رأيه العالي والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه.

المرتبة الرابعة: أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمكاتبة وذلك مع الابتداء بالدعاء بلفظ: ضاعف الله نعمة الجناب العالي وأدام الله تعالى نعمة المجلس العالي وصدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي أو المجلس السامي أو هذه المكاتبة إلى المجلس السامي أو يعلم مجلس فيقال: وتوضح لعلمه أو موضحة لعلمه أو تتضمن إعلامه أو تعليمه أو يعلم على حسب المراتب المتقدمة ورود مكاتبته فوقفنا عليها وأحطنا علماً بما تضمنته من كيت وكيت ويجاوب عنه ثم يقول: فيتقدم الجناب أو المجلس أو مجلس الأمير ونحو ذلك مما تقتضيه الحال بإعلامنا بأخباره وضروراته وحوائجه.

واعلم أن لكتاب السر أجوبة لنواب السلطنة وغيرهم ممن ترد عليه مكاتباتهم بطلب الملاحظة عند عرض مكاتباتهم على الحضرة السلطانية وتحسن السفارة في ذلك ويقع الخطاب في جواب كل منهم على حسب رتبته.

ففي جواب نائب السلطان بالشام المحروس يكتب ما صورته: وينهي بعد رفع أدعيته الصالحة تقبلها الله تعالى من المملوك ومن كل داع مخلص بدوام أيام مولانا ملك الأمراء أعز الله تعالى أنصاره وخلود سعادته عليه وأن المثال الكريم ورد على المملوك على يد فلان فنهض له المملوك وأجمل من تلقيه السلوك وفضه عن صدقات عميمة وتفضلات جسيمة وفرح بما دل عليه من سلامة مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره وعافيته وصحة مزاجه المحروس وتضاعف سرور المملوك بذلك وتزايد ابتهاجه به وسأل الله تعالى أن يديم حياة مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره ويبقيه وانتهى إلى ما تضمنته الإشارة في معنى تجهيز المشار إليه إلى خدمة الأبواب الشريفة بما على يده من المكاتبة الكريمة وما رسم به من القيام في خدمتها وعرضها بين يدي المواقف الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها وقابل المملوك الإشارة الكريمة بالامتثال بالسمع والطاعة وبار إلى ما رسم به وقد عرض المملوك المكاتبة الكريمة على المسامع الشريفة كتب الجواب الشريف عن ذلك بما سيحيط بع العلوم الكريمة وعاد بذلك إلى خدمة مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره.

والمملوك مولانا ملك الأمراء عز نصره ومحبه القديم والمعترف بإحسانه الضرب الثاني: من الأجوبة ما يفتتح بورود المكاتبة مصدراً بلفظ: وردت أو وصلت أو وقفت على المكاتبة وما أشبه ذلك.

مثل أن يكتب: ورد المثال الكريم الفلاني: وذكر سلامته أخلى من ذكر الأوائل وقد تطرز منه طرازاً أشرف من طراز الغلائل وما سكن القلب إلى شيء كسكونه إليه ولا رأى وارداً أكرم منه عليه فقابل نعمة قدومه بدوام شكرها وطوى صحائف الآمال إلا من نشرها فإن كان وجه الأيام مقطباً استغنى ببشر وجهه الميمون عن بشرها فإن حسن في رأيه الإجراء على عوائد إحسانه من التشريف بمراسيمه وخدمه والمواصلة بها نالت النفس من ورودها نهاية أربها.

قلت: أما الأجوبة المطلقة وهي الدائرة بين الأصدقاء والأصحاب من أفاضل الكتاب وعيون أهل الأدب ممن له ملكة في الإنشاء وقوة في النظم والنثر فإنها لا تتوقف على ابتداء مخصوص ابتداء لا جواباً بل قد تكون مبتدأة بما تقدم من الابتداءات وقد تكون بغير ذلك من الافتتاحات التي يختارها صاحب الرسالة بل أكثرها مفتتح بالشعر المناسب للحال المكتوب فيها بل ربما اقتصر فيها على الشعر خاصة دون النثر.

المهيع الثاني: في بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية وما تستحقه كل منهم من رتب المكاتبات السابقة على ما الحال مستقر عليه في زماننا.

اعلم أن المكتوب عنهم من أعيان الدولة على طبقات لكل منهم مكاتبات بصدر يختص به إلى ما فوق رتبته أو مساو له في الرتبة أو دونه فيها مرتبة على ترتيب المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الدولة: الطبقة الأولى: من المكتوب عنهم من يكتب إليه عن السلطان أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم ككافل السلطنة وهو نائب السلطان بالحضرة وأتابك العساكر ونائب السلطنة الشام والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على مراتب المرتبة الأولى: من يكتب له عن هذه الطبقة الفلاني بالمطالعة وممن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام في رأيه أتابك العساكر بالأبواب الشريفة وكان ما كتب له المخدومي الأتابكي فلان الفلاني باللقب المضاف إلى لقب السلطان أتابك العساكر المنصورة.

المرتبة الثانية: من يكتب إليه الأبواب بمطالعة ومن يكتب إليه بذلك عليه السلام النائب الكافل بالحضرة والأتابك نائب السلطنة بالشام فقد قال في التثقيف: إن بهذه المكاتبة يكتب أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائب الشام وحلب فيما أظن وممن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام الداودار وأميراخور ومقدمو الألوف بالديار المصرية وأكابر الأمراء مقدمي الألوف بالشام وكافل المملكة الشريفة الحلبية.

المرتبة الثالثة: من يكتب له عن هذه الطبقة الأبواب بغير مطالعة وبذلك يكتب عن كافل السلطنة بالحضرة إلى نائب السلطنة بحلب.

وقد ذكر في التثقيف: أنه كان يكتب بذلك عن الأمير يلبغا العمري يعني الخاصكي وهو اتابك الديار المصرية إلى نائب الشام أيضاً.

ثم قال: وكذلك كتب بعده إلى نائبي الشام وحلب الأمير منكلي بغا والأمير الجاي ونواب السلطنة بالديار المصرية وبذلك يكتب عن النائب الشام إلى كل من قضاة القضاة الأربعة بالديار المصرية وكذلك الوزير وكاتب السر بها.

المرتبة الرابعة: من يكتب له عن هذه الطبقة الباب الكريم والباب العالي أما الباب الكريم فإنه يكتب بذلك عن النائب الكافل والأتابك.

وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى الأمراء الطبلخاناه بالديار المصرية وإستادار الأملاك الشريفة وناظر الجيوش المنصورة بالأبواب السلطانية وناظر الخواص وناظر الدولة وحاجب الحجاب بالشام وقاضي السلطنة بحماة ونائب السلطان بصفد ونائب السلطنة بالكرك.

المرتبة الخامسة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة يقبل الأرض بالمقر الشريف وبذلك يكتب النائب الكافل والأتابك إلى نائب طرابلس ونائب حماة ونائب صفد ونائب الإسكندرية وأمراء الألوف بالديار المصرية وبه يكتب عن نائب الشام.

المرتبة السادسة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة الباسط الشريف وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك إلى مقدم العسكر بغزة ومقدم العسكر بسيس ونائب السلطنة بالكرك وحاجب الحجاب بالشام وحاجب الحجاب بحلب.

المرتبة السابعة: من يكتب له عن هذه الطبقة الباسطة الشريفة وممن يكتب له بذلك عن نائب الشام قاضي القضاة الشافعي بحلب.

المرتبة الثامنة: من يكتب له عن هذه الطبقة اليد الشريفة أو اليد الكريمة أو اليد العالية وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك إلى نائبي الوجه القبلي والوجه البحري بالديار المصرية ونائب القدس ونائب حمص ونائب الرحبة ونائب البيرة ونائب قلعة المسلمين ونائب ملطية ونائب دبركي ونائب الأبلستين ونائب طرسوس ونائب أذنة ونائب بهسنا وأمراء الألوف بالشام وحلب.

وبذلك يكتب أيضاً عن نائب الشام إلى أمراء العشرات بالديار المصرية وقضاة العسكر بها وحاجب الحجاب بحلب والقضاة الثلاثة: الحنفي المالكي والحنبلي بها.

المرتبة التاسعة: من يكتب له عن هذه الطبقة أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم.

وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى كاشف الصفقة القبلية وغلى الأمراء مقدمي اللوف بالشام وناظر الجيش به وأمير آل الفضل ونائب حمص وكاتب السر بحلب ونائب المملكة بها ونائب دوركي ونائب درندة.

المرتبة العاشرة: من يكتب له عن هذه الطبقة أعز الله تعالى نصرة المقر الكريم وبذلك يكتب إلى نائب الشام إلى نائب قلعة الشام والحاجب الثاني بها ووكيل بيت المال بها ومقدمي الألوف بحلب ونائب الجيش بها ونائب الرحبة ونائب الأبلستين ونائب ملطية ونائب قلعة المسلمين ونائب بهسنا ونائب البيرة ونائب جعبر ونائب الرها ونائب حسبان.

المرتبة الحادية عشرة: من يكتب له عن هذه الطبقة أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى الأمراء الطبلخاناه بالشام ونائب القدس ونائب بعلبك ومتولي صيدا والطبلخاناه بحلب ووكيل بيت المال بها والمحتسب بها وناظر خاص البريد بها وأمير حاجب بصفد.

المرتبة الثانية عشرة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي.

وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى والي قطيا وربما زيد فيه الكريم.

المرتبة الثالثة عشرة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي.

وبذلك يكتب إلى نائب الشام إلى أمراء العشرات بمصر وأمراء العشرينات بالشام والمحتسب بها والحاجب الكبير بغزة ومقدم عرب بني عقبة وأكابر عرب آل فضل وأمير عرب آل علي وأمير آل موسى ونائب مصياف ومتولي بيروت.

المرتبة الرابعة عشرة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة: المجلس العالي مع الدعاء.

وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى العشرات بدمشق ووالي المدينة ووالي البر فيها والحاجب الثاني بغزة وأمير آل مرا ومقدم عرب جرم ومقدم بني مهدي وأمراء العشرينات بحلب.

المرتبة الخامسة عشرة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة: صدرت والعالي.

وبذلك يكتب عن نائب الكافل والأتابك إلى كاشف الوجه البحري من الديار المصرية وكاشف الفيوم والبهنساوية ووالي أسوان وكاشف الجسور من أمراء الطبلخاناه بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية ونائب قلعة حلب ونائب آياس ونائب جعبر ونائب درندة وحاجب الحجاب بطرابلس وحاجب الحجاب بحماة وحاجب الحجاب بصفد.

وبذلك يكتب أيضاً عن نائب الشام إلى أجناد الحلقة بمصر والحاجب الكبير بحمص وأمراء العشرات بحلب.

المرتبة السادسة عشرة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة: صدرت والسامي.

وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك إلى والي قوص ووالي منفلوط ووالي الأشمونين ووالي البهنسا ووالي منوف ووالي الغربية ووالي الشرقية ووالي قطيا ونائب مصياف ونائب بعلبك ونائب قلعة صفد ونائب عينتاب والحاجب الكبير بغزة.

وبذلك يكتب أيضاً عن نائب الشام إلى مقدم الحلقة بالشام وأعيان الجند بها ومقدم بني مهدي ومتولي الصلت وعجلون ومتولي صرخد والحاجب الصغير بحمص ووالي تدمر ومقدم إقليم الخروب بصيدا ومقدم إقليم النعاج ووالي البقاعين ووالي بلنياس.

المرتبة السابعة عشرة: من يكتب إليه عن هذه الطبقة: هذه المكاتبة وبذلك يكتب عن نائب الكافل والأتابك إلى والي الجيزية ووالي أطفيح ووالي قليوب ووالي أشموم الرمان بالديار المصرية وبذلك يكتب أيضاً إلى نائب الكختا ونائب كركر ونائب حجر شعلان ونائب سرفندكار ونائب القصير ونائب بغراس ونائب الراوندن ونائب الشغر وبكاس ونائب الرها ونائب

الدربساك ونائب شيزر بالمملكة الحلبية وإلى نائب اللاذقية ونائب صهيون ونائب حصن الأكراد ونائب حمص ونائب المرقب ونائب بلاطنس ونائب الكهف ونائب القدموس ونائب الخوابي ونائب العليقة ونائب المينقة من أعمال طرابلس ونائب شقيف تيرون من معاملة صفد.

وبذلك يكتب أيضاً عن نائب الشام إلى صغار الأجناد بمصر وإلى واعلم أن وراء ما تقدم من المكاتبات عن نائب الشام مكاتبات أخرى إلى من هو خارج عن المملكة وهم على مراتب: المرتبة الأولى: من يكتب له عنه: يقبل الأرض: صاحب بغداد كما كان يكتب للقان أحمد بن أويس كان يكتب إليه في ورق قطع نصف الحموي بقلم الثلث الصغير: يقبل الأرض لدى الحضرة الشريفة العالية المولوية السلطانية العالمية العادلية المؤيدية المالكية القانية ولا زالت عزماتها مؤيدة وآراؤها مسددة وينهي إلى العلم الكريم.

صاحب السراي: ودشت القبجاق مثله بأبسط ألقاب.

المرتبة الثانية: من يكتب إليه: أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف ابن السلطان أحمد بن أويس المذكور.

وورقه نظير ورق والده وقلمه نظير قلمه صاحب هراة: مثله.

المرتبة الثالثة: من يكتب إليه: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم صاحب ماردين: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم العالي المولوي الكبيري العادلي السلطاني الملكي الفلاني ورفع مقداره وأجزل مباره.

المملوك يجدد الخدمة العالية ويصف أشواقه المتوالية وينهي لعلمه الكريم.

صاحب برصا: من بلاد الروم وهو ابن عثمان.

والرسم فيه على ما كان يكتب لأبي يزيد بن مراد بك بن عثمان: أعز الله تعالى أنصار المقر الكرين العالي المولوي الكبيري العالمي العادلي العوني الغياثي الممهدي المشيدي الزعيمي الغازي المجاهدي المثاغري المرابطي العابدي الناسكي الزاهدي المقدمي الأتابكي المحسني الظهيري الملكي الفلاني معز الإسلام والمسلمين سيد الأمراء في العالمين ناصر الغزاة والمجاهدين زعيم جيوش الموحدين مبيد المشركين قامع أعداء الدين مقتلع الحصون من الكافرين عون الأمة عماد الملة ذخر الدولة ظهير الملوك والسلاطين حاكم البلاد الرومية صاحب برصا وقيسرية سيف أمير المؤمنين قهر الله أعداء الدين الحنيفي بعزائمه وسطوته وجعله مؤيداً في حركاته وسكناته وأيده في جهاده واجتهاده بالنصر الذي لا يفارق ألوية أعلامه ورواياته ولا زالت رعاياه محبورة وعساكره منصورة هؤلاء بجوده وهباته وهؤلاء بوجوده وحياته المملوك يقبل اليد التي لا زال القصد بها يزيد وبحر البر من أناملها مديد ونوالها يناله الوافدون حيث أموه من قريب وبعيد ويصف صفاء محبة يتضاعف نماؤها كل يوم جديد وتترادف تحيات أشواقها بالمولاة والتحميد ويتؤامر بهادي رسائلها بصدق المودة الدائمة على التأبيد ويبدي إلى العلم الكريم.

قلت: كذا رأيته في دستور بخط القاضي ناصر الدين بن أبي الكيب كاتب سر الشام كان.

وفيه اضطراب وتخليط من نعته في ألقابه بقوله الملكي الفلاني وقوله سيد الأمراء في العالمين حيث وصفه أولاً بأوصاف الملوك ثم وصفه بأوصاف الأمراء إلى غير ذلك من الخبط الذي لا يخفى على متأمل.

المرتبة الرابعة: أعز الله تعالى أنصار المقر العالي وزير صاحب بغداد وورقه قي قطع الحموي بقلم الثلث الخفيف.

قاضي بغداد: مثله بسوء.

صاحب لارندا من بلاد الروم بمملكة بني قرمان.

ويقال في ألقابه: الأصيلي نوين التوامين مجهز المقانب ذخر القانات.

صاحب سيواس من البلاد الرومية أيضاً.

صاحب آياس لوق من البلاد الرومية.

صاحب جولموك من بلاد الأكراد.

المرتبة الخامسة: الجناب الكريم صاحب حصن كيفا من بلاد الجزيرة ويقال فيه: الملكي الفلاني مقدم التركمان البياضية.

المرتبة السادسة: الجناب العالي صاحب أرزنجان.

صاحب جزيرة ابن عمر من بلاد الجزيرة.

صاحب أنطاليا من بلاد الروم.

ابن الشيخ عبد القادر الكيلاني شيخ الجبال.

المرتبة السابعة: المجلس العالي صاحب ميافارقين من بلاد الجزيرة صاحب أكل من جزيرة أيضاً صاحب قلعة الجوز صاحب جرموك صاحب أماسيا من بلاد الروم نائب ماردين خادم صاحب ماردين صاحب بطنان صاحب سنجار من بلاد الجزيرة صاحب حاسك صاحب أزبك صاحب الموصل صاحب سنوب صاحب بوشاط صاحب الدربند صاحب عين دارا صاحب الحمة صاحب خلاط صاحب طلان صاحب تاخ صاحب جمشكزاك نائب كربزاك صاحب القنطرة نائب خرت برت صاحب البارعية صاحب حران صاحب العمادية صاحب حاني نائب خرت مازكرد نائب صالحية ماردين أمير التركمان الشهرية صاحب أشنة.

الطبقة الثانية: ممن يكتب عنهم أعيان الدولة بالديار المصرية من يكتب له عن السلطان: أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم وهو نائب السلطنة بحلب.

والمكاتبة عنه على مراتب: المرتبة الأولى: الفلاني بمطالعة وهو نائب الكافل بالحضرة السلطانية وأتابك العساكر بالمنصورة.

المرتبة الثانية: الأبواب بمطالعة وهو نائب السلطنة بالشام والأمير الدوادار بالأبواب السلطانية وأستاد الديار بها وأكابر الأمراء المتقدمين الخاصكية.

المرتبة الثالثة: الأبواب بغير مطالعة.

وبذلك يكتب إلى نائب الشام.

المرتبة الرابعة: الباب الكريم.

وبذلك يكتب إلى نائب السلطنة بطرابلس ونائب السلطنة بصفد وكذلك يكتب به إلى الطبقة الثانية من الأمراء المتقدمين بالحضرة ممن دون الخاصكية وفي معنى ذلك الوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش ومن في معناهم.

المرتبة السادسة: يقبل الباسطة وبذلك يكتب إلى الحاجب الثاني بالشام وحاجب الحجاب بحلب وحاجب الحجاب بحماة وحاجب الحجاب بطرابلس وقاضي القضاة الشافعي بحلب وكاتب السر بها.

المرتبة السابعة: يقبل اليد الشريفة.

وبذلك يكتب إلى نائب البيرة ونائب ملطية ونائب قلعة المسلمين ونائب جعبر ونائب الرها ونائب الأبلستين ونائب حمص وأمراء الطبلخاناه بدمشق.

المرتبة الثامنة: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم وبذلك يكتب إلى نائب طرسوس ونائب الرحية والحاجب الثاني بطرابلس ومقدمي الألوف بها والقضاة الثلاثة: المالكي والحنفي والحنبلي بحلب.

إلا أنه يقال: أعز الله تعالى أحكام المقر.

المرتبة التاسعة: أعو الله تعالى أنصار المقر الكريم العالي وبذلك يكتب إلى نائب بهنسى ونائب الرحبة وأكابر الطبلخاناه بالشام ومن تولى الإمرة من عرب آل فضل ثم عزل وقضاة العساكر المنصورة بحلب وناظر المملكة بها وأمير آل علي.

المرتبة العاشرة: أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم وبذلك يكتب إلى أعيان أمراء الطبلخاناه بحلب والحاجب الثالث والرابع بها وأكابر أولاد أمراء عرب آل فضل.

المرتبة الحادية عشرة: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي وما في مهناه مما يكتب به إلى أرباب الأقلام وغيرهم وبذلك يكتب إلى نائب شيزر وأمراء الطبلخاناه بحلب غير الأعيان وناظر الأملاك الشريفة بحلب وناظر خاص البريد وموقعي الدست بها.

المرتبة الثانية عشرة: صدرت والعالي.

وبذلك يكتب إلى نائب عينتاب ونائب الراوندن ونائب الكختا ونائب كركر ونائب بغراس ونائب الدربساك ونائب الشغر وبكاس ونائب القصير وأمراء العشرينات بحلب وأعيان العشرات بها.

المرتبة الثالثة عشرة: صدرت والسامي.

وبذلك يكتب إلى مقدمي الحلقة بحلب ومقدمي البريدية بها وأعيانهم.

المرتبة الرابعة عشرة: السامي بغير الياء.

وبذلك يكتب إلى والي سرمين ووالي الباب ووالي غزاز ووالي أنطاكية ووالي حارم ووالي كفر طال ووالي الجبول ووالي منبج ووالي تل باشر وأجناد الحلقة بحلب وصغار البريدية بها وعداد التركمان وعداد الأكراد.

واعلم أن وراء ما تقدم من المكاتبات الصادرة عن نائب حلب مكاتبات أخرى إلى من هو خارج عن المملكة كما تقدم في المكاتبات الصادرة عن نائب الشام وهي على مراتب: المرتبة الأولى: المكاتبة بيقبل الأرض: القان صاحب بغداد كما كان يكتب إلى القان أويس وابنه أحمد: يقبل الأرض بالمقام الشريف العالي المولوي السلطاني الأعظمي الأوحدي الملاذي العطوفي المحسني القاني الملكي الفلاني الجلالي أعلى الله تعالى شانه وأعز سلطانه وأمكن من رقاب الأعداء مكانهن ولا زال لواؤه يتأزر بالنصر ويرتدي وفناؤه يروح إليه العز ويغتدي وعزمه يثقف صرف الزمان فلا يعتاد أن يعتدي ولا برح محموداً في موقف النصر موقفه ماضياً في هامات أعدائه مرهفه.

وموالاة شفعها فلذات بها الأسماع لذاذة الأعين وينهي بعد أدعية رفعها إلى مواطن الإجابة " فتقبلها ربها بقبول حسن " الساهرة بالوسن أن الأمر كيت وكيت.

المرتبة الثانية: من يكتب له أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف: صاحب ماردين.

والرسم أن يكتب إليه: أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف العالي المولوي الكبيري العالمي العادلي السلطاني الملكي الفلاني ويدعى له نحو: لا زالت أيامه مسعودة وأبوابه مقصودة وألوية النصر بنواصي خيله معقودة المملوك يقبل اليد الشريفة ويقوم

من الخدمة بأكمل وظيفة وينهي لعلمه الكريم بعد السلام الزكي والثناء المسكي كيت وكيت فيحيط بذلك علمه الكريم ويتحف بالمشرفات على عادة فضله العميم.

المرتبة الثالثة: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم.

وبذلك يكتب إلى ابن قرمان نائب السلطنة بالبلاد القرمانية حاكم جولموك صاحب برصا وهو ابن عثمان صاحب آياس لوق.

المرتبة الرابعة: المقر العالي وبذلك يكتب إلى صاحب حصن كيفا والوزير بالممالك القانية المرتبة الخامسة: أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم وبذلك يكتب إلى صاحب أنطاليا من بلاد الروم.

المرتبة السادسة: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي.

وبذلك يكتب إلى نائب كربزاك وحاكم أماسيا وحاكم سنوب والحاكم بخرت برت.

المرتبة السابعة: أدام الله تعالى نعمة الجناب العالي.

وبذلك يكتب إلى نائب ماردين ونائب الصالحية وبعض خدام صاحب ماردين.

المرتبة الثامنة: صدرت والعالي وبذلك يكتب إلى حاكم حران ونائب مازكرد وحاكم قلعة الجوز.

الطبقة الثالثة: ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية.

ومن يكتب إليه عن السلطان ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي.

كوزير المملكة بالديار المصرية وناظر الخاص على ما استقر عليه الحال آخراً.

وأرباب الوظائف من الأمراء المتقدمين بها كأمير سلاح وأمير مجلس وأميرخور والداوادار وإستادار وحاجب الحجاب ونائب الإسكندرية وكذلك نواب السلطنة بطرابلس وحماة وصفد من الممالك الشامية.

والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على تسع مراتب: المرتبة الثانية: الأبواب بمطالعة.

وبذلك يكتب على نائب حلب.

المرتبة الثالثة: الأبواب بغير مطالعة وبذلك يكتب إلى نائب طرابلس ونائب حماة ونائب صفد ونائب الكرك وأمير سلاح وغيره من سائر من في هذه الطبقة.

المرتبة الرابعة: الباب الكريم.

وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين البلي والبحري بالديار المصرية ومقدمي العسكر بغزة وسيس لأمراء المقدمين المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة وقبض الغلال.

المرتبة الخامسة: يقبل الأرض بالمقر الشريف إن قصد تعظيمه أو الباسط الشريف إن لم يقصد وبذلك يكتب إلى المرتبة السادسة: يقبل اليد العالية.

وبذلك يكتب إلى أمراء الطبلخاناه المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة والقبض.

وربما انحطت رتبة أحد هؤلاء فيكتب إليه: أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم أو نصرة الجناب الكريم أو ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي.

المرتبة السابعة: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالي وبذلك يكتب إلى كاشف الوجه البحري وكاشف الفيوم والبهنساوية.

المرتبة الثامنة: أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي.

وبذلك يكتب إلى الولاة الطلبخاناه بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية كقوص والمحلة وغيرهما وربما كتب صدرت والعالي لأحدهم.

المرتبة التاسعة: صدرت والسامي.

وبذلك يكتب إلى ولاة العشرات بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية.

الطبقة الرابعة: ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية من يكتب إليه عن السلطان أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي ككاتب السر وناظر الجيش وكذلك الحجاب الطبلخاناه بالديار المصرية.

وعلى ذلك كان ناظر الخاص في الزمن المتقدم فلما جمع للصاحب شمس الدين المقسي بين الوزارة ونظر الخاص كما يكتب عنه بما يكتب عن الوزراء كما تقدم.

فلما انفصل الخاص عن الوزارة روعي في الخاص ذلك القدر فكتب عن ناظر الخاص كما كتب عن الوزير والأمر على ذلك إلى الآن.

والمكاتبات الصادرة عن هذه الطبقات على مراتب: المرتبة الأولى: الفلاني بمطالعة.

وذلك يكتب إلى النائب الكافل والأتابك ونائب الشام وألحقوا بهذه الرتبة نائب حلب فكتبوا إليه الفلاني.

المرتبة الثانية: الأبواب بمطالعة.

وبذلك يكتب عن هذه الطبقة إلى نواب السلطنة بطرابلس وحماة وصفد وثغر الإسكندرية.

المرتبة الثالثة: الأبواب بغير مطالعة وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية ومقدمي العسكر وسيس وربما كتب إلى أحدهم الباب الكريم.

المرتبة الرابعة: الباسط الشريف.

وبذلك يكتب إلى نائب الكرك.

المرتبة الخامسة: يقبل الباسطة وبذلك يكتب إلى نائب القدس الشريف ونائب الرحبة وكاشف الوجه البحري وكاشف الفيوم بالديار المصرية.

المرتبة السادسة: يقبل اليد العالية.

وبذلك يكتب إلى الولاة الطبلخاناه بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية.

المرتبة السابعة: يخدم الجناب العالي.

وبذلك يكتب إلى الولاة العشرات بالوجهين القبلي والبحري أيضاً.

قلت: وعلى هذه الطبقات الأربع يقاس من دونهم ممن يكتب إليه عن السلطان صدرت والعالي كنائبي القدس والرحبة ومن يكتب له: هذه المكاتبة كالولاة الطبلخاناه بالوجهين القبلي والبحري ومن يكتب له: يعلم كالولاة العشرات بالوجهين أيضاً.

على أن الغالب في مثل هؤلاء أن تكون الكتابة عنهم لأعيان الدولة الفلاني بمطالعة وفيمن هم مثلهم أو دونهم يقاس على ما تقدم.

والعم أن هذه المراتب المضمنة للطبقات ليست على سبيل اللزوم في الوقوف عند حدها بحيث لا يجوز تجاوزها بزيادة ولا التأخر عنها بنقص بل هي على سبيل التقريب والأمر في زيادة رتبة المكتوب إليه زيادة لا تخرجه عن حده في المقدار موكول إلى اختيار الكاتب يزيد في ذلك وينقص بحسب ما تقتضيه الحال من رفعة قدر المكتوب إليه لمزيد رفعته عن نوعه أو محاباته لاستمالته إلى القصد المطلوب منه أو الغض منه بحطيطة رتبته أو نحو ذلك.

الفصل السابع من الباب الثاني من المقالة الرابعة في مقاصد المكاتبات

وهي الأمور التي تكتب المكاتبات بسببها وهي الجزء الأعظم من صناعة الترسل وعليها مدار الكتابة إذ الولايات من مقاصد المكاتبات وهي أهم ما تضع به الكاتب وألزم ما مهر فيه وهي قسمان القسم الأول مقاصد المكاتبات السلطانيات وهي على نوعين النوع الأول ما يكتب عن الخلفاء والملوك وهو على ثلاثة أضراب الضرب الأول ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضاهاهم مما هو مستعمل الآن مما كان عليه الحال في الزمن القديم مما يقل ويكثر تداولها ويتكرر تداوله في الكتابة وسائر المكاتبات في الحوادث المألوفة التي يكثر تداولها وتتكرر الكتابة فيها بتكرر وقائعها وما رسم الكتابة به باق إلى زماننا وإن تغير مصطلح الأبتداء والخطاب وغيرهما من رسوم المكاتبات.

وهو على أصناف الصنف الأول الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة قال في مواد البيان: جرت العادة أن تنفذ الكتب إلى ولاة الأعمال في مثل هذه الحالة متضمنة ما جرى عليه الأمر بالحضرة من انقياد الأولياء والرعايا إلى الطاعة ودخولهم في البيعة بصدور منشرحة وحض من الأعمال من رجال السلطان ورعيته على الدخول فيما دخل فيه أمثالهم وإعطاء الرعايا على لك صفقة أيمانهم.

وقد كان الرسم فيها أن يصدر بحمد الله تعالى على عوارفه التي لم تزل تكشف الخطب وترأب الشعب وتدفع المهم وترفع الملم وتجير الوهن وتسبغ الأمن والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وذكر خصائصه ومناقبه وتشريف الله تعالى له بإقرار الإقامة في أقاربه وتخصصها ببني عمه الذين هم أحق الناس به وما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم من طلب مودته من الأمة بقوله جل من قائل: " قل لا أسألكم عليه أجراً إلا مودة في القربى " وما أشار إليه صلى الله عليه وسلم من بقاء الخلافة فيهم بقوله لعمه العباس: " ألا أبشركم يا عم بي ختمت النبوة وبولدك تختم الخلافة: وما يجري مجرى ذلك.

ثم يتلو ذلك بالإفصاح عن شرف الخلافة وفضلها والإبانة عن رفيع مكانها ومحلها وأنها ظل الله الممدود وحبله المشدود ومساك الدين ونظامه وملاك الحق وقوامه وامتنان الله تعالى على العباد بأن جعل فيهم أئمة يقسطون العدل عليهم ويقيمون الحدود فيهم ويقيمون أديانهم ويهذبون إيمانهم ويرهفون بصائرهم ويهدون حائرهم ويكفون ظلومهم وينصفون مظلومهم ويجمعون كلمتهم ويحمون ذمارهم ويحيطون ديارهم وما يجري مجرى ذلك.

ثم يذكر ما أوجبه الله تعالى على أهل الإسلام للإمام من الطاعة محسن التباعة أيام حياته والانقياد لأمره في طاعة من ينص عليه في القيام مقامه بعد وفاته ليتصل حبل الإمامة بينهم ويمتد ظل الخلافة عليهم فإن كان قد تلقى الخلافة بعهده عن خليفة قد مات من أب أو غيره أتى بمقدمة ذكر الموت وأن الله تعالى سوى فيه بين بريته وجعل في طريقه إلى رسوله أسوة لخليقته وتفر بالبقاء وامتنع عن الفناء ثم يقال: وإن الله تعالى لما اختار لعبده ووليه فلان النقلة إلى دار كرامته والحلول بفناء طاعته وأعانه على سياسة بريته وأنهضه بما حمله وأيده فيما كفله من الذب عن المسلمين والمراعاة في الدين والعمل بكتابه وسنته في القول والفعل واستشعار خيفته ومراقبته في السر والجهر وما يليق بهذا استخلص عبده ووليه فلاناً الإمام الفلاني لخلافته وأهمى سماء الرحمة بغمامته وأحل عزيز النصر بولايته وألقى في تنفيس رأيه النص عليه والتفويض إليه لما علم سبحانه في ذلك من شمول المصلحة للعباد وعموم الأمنة للبلاد فأمضى قدس الله روحه وما ألهمه وكمله قبل خروجه من ديار الدنيا

وتممه عالماً بفصل اختياره وإنه يمل به الهوى في إثارة فقام أمير المؤمنين الإمام الفلاني مقامه وحفظ نظامه وسد ثلمته وعفى رزيته وأقر الله تعالى الإمامة به في نصابها ومقرها وزاد باستخلافه في صيت الخلافة وقدرها.

وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يخص وليه السعيد بقربه بأفضل صلواته وأشرف تحياته ويحسن جزاءه في سعيه في صلاح العباد وسداد البلاد وأن يلهم أمير المؤمنين الصبر على تجرع الرزية فيه ويجزيه أفضل ما جزى به صابراً محتسباً وأن يجبر كسره في فقده ويوفقه لجميل العزاء من بعده ويسدده في مصادره وموارده ويهديه لما يرضيه في جميع مقاصده ويعينه على تأليف الأهواء وجمع الآراء ونظم الشمل وكف القتال وإرخاء الظل.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد اجتمع من بحضرته من ذوي جهته وأمراء دولته وكافة جنده وجماعة حوزته على بيعته وإعطائه صفقة أيمانهم على طاعته ومشايعته عن صدور مخلصة نقية وسرائر صافية سليمة وعقائد مشتملة على الوفاء بما عقدوا عليه وانقادوا مختارين إليه وشملتهم بذلك الرحمة وضفت عليهم النعمة فما برحوا الرزية حتى فرحوا بالعطية ولا وجموا للمصيبة حتى بسموا للرغيبة ولا اظلموا لفقد الماضي حتى أضاء الوجود بالآتي.

فلله الحمد على هذه النعمة التي جبرت الوهن وحققت في فضله المن حمداً يستدر اختلاف فضله ويستدعي سابغ طوله وصلى الله على محمد وآله وأمير المؤمنين يراك من أهل مخالصته والمتحققين بطاعته وهو يأمرك أن تأخذ البيعة له على نفسك وعلى جميع أوليائه المقيمين قبلك وكافة رعاياه الذين هم في عملك وتشعرهم بما عنده للمسارعين لطاعته المبادرين إلى اتباعه من تيسير الإنصاف والعدل وإضافة الإحسان والفضل وما لمن نكب عن الطريقة المثلى وحاد عن الأولى من الكف الرادع والأدب الوازع ويتوسع في هذا المعنى توسعاً يشرح صدور أهل السلامة المستمرين على نهج الاستقامة ويردع أهل الفساد ويغض من نواظر ذوي العناد ويحلي الكتاب بآيات من القرآن الكريم تحسن استعارتها في باب العزاء ويليق ذكرها في باب الإشادة بالخلافة والخلفاء.

فإن كان الكتاب مما يقرأ بالحضرة قال في موضع وكتاب أمير المؤمنين إليك: وأنتم معاشر أقارب أمير المؤمنين من إخوته وبني عمه وخواص الدولة وأمرائها وأجنادها وكتابها وقضائها وكافة رعيتها ومن اشتمل عليه ظل مملكتها أحق من حافظ على عوارف أمير المؤمنين واعتد بلطائفه وقام بشكر نعمته وسارع إلى اتباعه واعتصم بحبل دعوته فاجتمعوا على متابعته وإعطائه صفقة أيمانكم على مبايعته ليجمع الله على التأليف كلمتكم ويحمي بالتأزر بيضتكم وينبع ذلك من وعد أهل الطاعة بما يضاعف جدودهم ومن وعيد أهل المعصية بما يصفر خدودهم على نسف ما سبق في الترتيب.

وهذه نسخة كتاب في المعنى كتب به عن الآمر بأحكام الله تعالى عند استقراره في الخلافة بعد أبيه المستعلي بالله والدولة مشتملة على وزير من إنشاء ابن الصيرفي وهي: الحمد لله المتوحد بالبقاء القاضي على عباده بالفناء الذي تمجد بالأزلة والقدم وتفرد بالوجود وتنزه عن العدم وجعل الموت حتماً مقضياً على جميع الأمم.

يحمده أمير المؤمنين على ما خصه به من الإقامة التي قمصه سربالها وورثه فخرها وجمالها حمد شاكر على جزيل العطية صابر على جليل الرزية مسلم إليه في الحكم والقضية ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي ثبتت حجته ووضحت محجته وعلت كلمته وأنافت على درج الأنبياء درجته صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جعل الله الإمامة كلمة في عقبه باقية وحبه جنة يوم الفزع الأكبر واقية وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين صلاة دائمة إلى يوم الدين.

وإن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه وصلى عليه كان من أوليائه الذين اصطفاهم لخلافته في الأرض وجعل إليهم أزمة البسط والقبض وقام من أوق الإمامة ولم يزل عاملاً بمرضاة الله إلى أن نقله إلى دار المقامة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

رضاً بقضائه وصبراً على بلائه وإجزال حظه عليه من الأجر والثواب وإمداده في خلافته بمواد الإرشاد والصواب بكرمه.

وكتاب أمير المؤمنين يوم كذا من الشهر الفلاني من سنة كذا بعد أم جلس للحاضرين بحضرته من الأمراء عمومته وأوليائه وخدم دولته وسائر أجناده وعبيد مملكته وعامة شيعته وأصناف رعيته وأنوار الخلافة عليه مشرقة وأغصان الإمامة مثمرة مورقة والسيد الأجل الأفضل الذي أمده الله في نصرة الدولة العلوية بالتأييد والإظهار وأبان به برهان الإمامة الآمرية

فوضحت أنوارها للبصائر والأبصار وشهر له من المناقب ما سار مسير الشمس في جميع الأقطار يتولى الأمر بحضرته تولي الكافل الزعيم ويباشر النظر في بيعته مباشرة القسيم الحميم والناس داخلون في البيعة بانشراح صدور وإظهار ابتهاج وسرور يعطون صفقة أيمانهم ويعلمون ما لهم من الحظ في طاعة إمام زمانهم قد تحققوا شمول السعد وعموم الرشاد وتيقنوا الخيرة لهم في العاجلة والمعاد وأمير المؤمنين يعزيك ومن قبلك من أولياء دولته وسائر رعيته عن المعصية في الإمام المستعلي بالله صلى الله عليه التي قطعت من النفوس أملها وأسكنت الألباب جزعاً وولهاً ويهنيك وإياهم دولته التي تهلل لها وجه الزمان واستهلت بها سحائب الفضل والإحسان.

وأمير المؤمنين يحمد الله الذي أقر الحق في منصبه وأفرده بما كان والده الإمام المستعلي بالله أفرد به.

فاعلم ما أعلمك أمير المؤمنين من هذا الخطب الجسيم والنبأ العظيم واشكر الله على ما جدده لك ولكافة المسلمين من نعمة بإمامة أمير المؤمنين التي أوفت بإساءة الزمان وجنايته وشفت من داء كلمه ونكايته وتقدم إلى الدعاء قبلك بأخذ البيعة على نفسك وعلى كافة من في ولايتك واستحمد إلى أمير المؤمنين أنت وهم بالإخلاص في طاعته والاجتهاد في مناصحته والتمسك بعصم مشايعه لتنالوا في العاجلة حظاً جسيماً وتحرزاً في الآجلة أجراً كريماً:: ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ".

وطالع بالكائن منك بعد قراءة كتاب أمير المؤمنين على الحاضرين قبلك وإذاعته في الواردين عليك والمستوطنين عملك ليحمدوا الله على ما أنالهم بخلافة أمير المؤمنين من جميل الصنع العائد على العباد وصلاح البلاد وكتب في اليوم المذكور.

وهذه نسخة كتاب من الآمر بأحكام الله المقدم ذكره كتب إلى الولاة الأطراف بعد قراءة عهده أما بعد فالحمد لله مولي المنائح من نعمه ومجزل العطايا من مواهبه وقسمه ومعود الصنع الجميل من لطفه وكرمه الذي له الحكم الظاهر عدله ولديه الطول الفائض فضله وعنده مفاتح الغيب وإليه يرجع الأمر كله.

يحمده أمير المؤمنين على ما أفرده به من سني المواهب ونظمه له من عقود المناقب ونقله إليه من تراث آبائه الكرام الذين جلا ضياؤهم ظلام الغياهب وتزينت بهم الأرض تزين السماء الدنيا بزينة الكواكب ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي نشر الله به الرحمة وكشف الغمة وأنقذ الأمة صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين والمذكور في زبر الأولين وعلى الصفوة من ذريتهما الهداة الراشدين صلاة باقية إلى يوم الدين.

وإن النعم تتفاضل أقدارها بحسب مواقعها وتتفاوت أخطارها بقدر مواضعها ومن ألطفها مكاناً وأشرفها محلاً وشاناً وأولاها بأن تستنطق به الأقلام وأحقها بأن يتناقل ذكرها الخاص والعام ما خص الله به أمير المؤمنين من المنن الظاهرة وتولاه من المنح المتظاهرة وأصاره إليه من الخلافة في أرضه واستخلفه عليه من القيام بسنن دينه وفرضه واسترعاه إياه من حياطة بلاده وأوجبه من طاعته على كافة خلقه وعباده وذخره لدولته من كفيله وخليله ومقيم أدلة حقه وموضح سبيله السيد الأجل الأفضل الذي ارتضاه الله للذب عن الإسلام وانتضاه لنصرة إمام بعد إمام وشهر مناقبه في كل موقف ومقام وخصه بفضائل لم تر مجتمعة لملك من ملوك الإسلام لا جرم أن أمير المؤمنين قد أحله منه محل الروح من الجسد والوالد من الولد وفوض الأمور إليه تفويض معول على يمن نقيبته معتمد مبالغ في حسن الاختيار للأمة مجتهد ويجازيه عن تشييد مملكته أحسن ما جرى به مخلصاً جمع في الإيمان بين القول والعمل بكرمه.

ولما وقف أمير المؤمنين بما طالعه به السيد الأجل الأفضل عند مثوله بحضرته وإنهائه الأمر دولته وأحوال مملكته على أمرك الذي استحمده في الخدمة واستحقت به إضافة الإحسان وإسباغ النعمة وأن لك في الدولتين المستنصرية والمستعلية من الخدمة المشكورة والمساعي المبرورة ما يدل على مناصحتك وإخلاصك ويبعث على اصطناعك واستخلاصك أمر بكتب هذا السجل لك مؤكداً لأواخيك ومعرباً عن رأيه الجميل فيك مجدداً من ولايتك ومجرباً لك فيها على مستمر رسمك ومستقر عادتك.

فقابل نعمة أمير المؤمنين من الإخلاص في طاعته بما يربطها ووفها من حق الاجتهاد ما يقرها عندك ويثبطها واجعل تقوى الله تعالى عمادك واطو عليها طويتك واعتقادك وكمن في نفوس الأولياء جميل رأي أمير المؤمنين فيهم وإحماده لمواقفهم في الخدمة ومساعيهم وحقق عند كافة المستقرين لديك والواردين عليك ما يكنفون بع من الأمر الشامل ويغمرون به من حسن النظر المتواصل واجر على العادة المألوفة في إفاضة العدل والإنصاف وتنكب سبيل الجور والإجحاف ومهد السبيل قبلك

واحم من أسباب الفساد ولايتك وعملك واخصص متولي الحكم والدعوة الهادية - ثبتها الله تعالى - بالإعزاز والرعاية ووفر حظهم من الملاحظة والعناية وخذ المستخدم في الخطبة العلوية بإقامتها في أوقاتها على أفضل قوانينها وواجباتها معلناً فيها بذكر أمير المؤمنين الذي يتوج فروق المنابر ويشنف أسماع البوادي والحواضر وتوفر على ما ثمر الأموال وأنمائها وغزرها ورخاها وقضى بوفورها ومواصلة حمولها وانظر في أمر الرجال المستخدمين معك نظراً يؤدي إلى مصلحتهم فاعلم هذا من أمير المؤمنين واغتبط بما أصاره الله إليه اغتباط أمثالك من المخلصين واعتقد طاعته اعتقاد من يجاريه من أهل اليقين واعمل بوصاياه ومراشده تحظ في الدنيا والدين وطالع بالكائن منك بعد قراءة هذا السجل على كافة الناس أجمعين وكتب كذا وكذا.

والعم أن العادة جارية بينهم أنه إذا كتب كتاب عن خليفة بانتقال الخلافة إليه يكتب ملطف عن وزير يلف كتاب الخليفة ضمنه ويوجه به إلى حيث المقصد.

وهذه نسخة ملطف في هذا المعنى كتب به عن وزير في الدولة الفاطمية ليلف كتاب الخليفة طيه وهو: ينطوي هذا الأمر الوارد على الأمير على كتاب مولانا الإمام الفلاني لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين أو: أبنائه المنتظرين إن كان لا ولد له بما اصاره إليه من شرف الإمامة وبوأه إياه من مقام العظمة والكرامة إثر انتقال الإمام فلان أمير المؤمنين - قدس الله روحه - إلى جوار ربه.

فاعتمد العمل بمضمونه في أخذ البيعة على نفسك ومن يليك وتلاوته إلى رؤوس الأشهاد وإذاعة مكنونه في الحاضر والباد على رسم المعتاد فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

قلت: وهذا المعنى في الكتابة بانتقال الخلافة إلى الخليفة جار في زماننا بانتقال السلطنة إلى السلطان ويعبر عن ذلك بجلوسه على تخت الملك والأمر على ما تقدم في الخلافة من العتزية بالماضي والتهنئة بالمستقر ونحو ذلك مما يجري مجراه.

وهذه النسخة مكاتبة بالبشارة بجلوس الملك صالح ابن الملك الناصر محمد قلاوون تحت التخت في شهر رجب الفرد سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وبعد خلع الملك الناصر حسن وصورتها بعد الصدر والألقاب: وأورد عليه من البشائر أسنى البشر وأسمعه من التهاني ما انتشى حديثه بين البرايا وانتشر وحفظ عليه وعلى الأمة ما أراد لهم من الخير وولى عليهم خيارهم وجعل مليكهم صالح البشر.

صدرت هذه المكاتبة إلى فلان وبصريها مقدماً بالظفر وذكرها قد ملأ الأقطار فجمع عليه كل قلب كان قد نفر تهتدي إليه سلاماً عن وجه الشكر سفر وثناء يحصل منه على النصيب الأوفر وتوضح لعلمه أن الجنايات العالية الأمراء الأكابر أمراء الدولة الشريفة ضاعف الله نعمتهم كانوا قد عظموا أخانا الناصر وحكموه ومشوا إلى خدمته على أحسن سنن وما أبقوا في خدمته ممكناً من التعظيم والإجلال والتحكيم وامتثال الأمر في كل جليل وحقير فلم يرع لهم ذلك ولا ألتفت إلى ما لهم عليه من حقوق الخدمة واتفق مع الصبيان وأراد القبض على الأمراء وإمساك الجنايات العالية الأمراء الأكابر والإيقاع بهم.

فلما تحققوا من ذلك اجتمعت الأمراء واتفقت الكلمة على خلعه من الملك الشريف وإقامتنا فخلع المشار إليه وكان جلوسنا على تخت الملك الشريف وكرسي السلطنة المعظمة في يوم الاثنين المبارك بحضور الإمام المعتضد بالله أمير المؤمنين أبي الفتح أبي بكر ابن الإمام المرحوم أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان المستكفي بالله ومبايعته لنا وحضور المجالس العالية قضاة القضاة بالأبواب الشريفة أعز الله تعالى أحكامهم وحلف لنا أمراء الدولة الشريفة على جاري العادة في ذلك وضربت عند ذلك البشائر وشهد هذا الهناء كل باد وحاضر وتشنفت الأسماع وقرت الأعين واستقرت الخواطر وابتهجت بذلك الأمم وتباشرت بهذا السعد الذي كتب لنا من القدم وأصبح كل من أنصاره دولتنا الشريفة مبتهلاً بالدعاء مبتهجاً.

فليأخذ المقر حظه من هذه التهنئة وليذع خبرها لتكون المسار معيدة ومبدية ويتحقق ما له عندنا من المكانة والمحل الذي زان بالإقبال الشريف زمانه ويتقدم أمره الكريم بتهنئة المجالس العالية والسامية ومجالس الأمراء بالمملكة الفلانية ويتقدم أيضاً بضرب البشائر بالزينة على العادة.

وقد تجهز إلى الجناب العالي نسخة يمين شريفة يحلف عليها ويكتب خطه ويجهزها إلينا صحبة المجلس السامي الأمير الأجل الكبير العضد الذخري النصيري الأوحدي عضد الملوك والسلاطين يلبغا الحموي الصالحي أدام الله علوه المتوجه بهذا المثال

الشريف وقد جهزنا نسخة يمين شريفة ليحلف عليها لنا الأمراء بطرابلس ويكتبوا خطوطهم ويجهزها إلينا على العادة صحبة المشار إليه.

وقد جهزنا للجناب العالي صحبة المشار إليه تشريفاً شريفاً كاملاً فيتقدم الجناب العالي بتسلمه منه ولبسه ويتحقق ما له عندنا من المكانة والمنزلة ويعيد الأمير سيف الدين يلبغا المشار إليه إلى الباب الشريف ويحيط علمه بذلك.

الصنف الثاني من الكتب السلطانية

الكتب في الدعاء إلى الدين وهو من أهم المهمات قال في مواد البيان: أشرفه ما ينشئه الكاتب الدعاء إلى دين الإسلام الذي أظهره الله تعالى عىل كل دين وأعزه على كره المشركين واستجرار مخالفيه إليه واجتذاب الخارجين عن دائرته إلى الدخول فيه عملاً بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده لأنه قوام الملك ونظام السلطان اللذان لا يصحان إلا به.

قال: والكاتب يحتاج في إنشاء هذه الكتب إلى علم التوحيد وبراهينه وشرع الرسول صلى الله عليه وسلم خاصه وعامه ومعجزاته وآيات نبوته ليتوسع في الإبانة من ظهور حجته ووضوح محجته.

ثم قال: والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله الذي اختار دين الإسلام فأعلاه وأظهره وقدسه وطهره وجعله سبيلاً إلى رضاه وكرامته وطريقاً إلى الزلفى في جنته وشفيعاً لا يقبل عمل عامل إلا به وباباً لا يصل واصل إلا منه فلا يغفر السيئات إلا لمن اعتصم بحبله ولا تتقبل الحسنات إلا من أهله وشكره تعالى على الهداية إليه والتوفيق عليه وذيادته عن مجاهل الضلالة بما أوضحه من برهانه ونوره من تبيانه وتمجيده من تعظيم آياته وباهر معجزاته وحكيم صنعته وبديع فطرته وتنزيهه عما لا يليق بسلطانه ولا يجوز إضافته إلى عظيم شانه وتسبيحه عما يصفه به الملحدون ويختلقه الجاحدون والصلاة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والإفصاح عن دلائل نبوته وبراهين رسالته وما خصه الله تعالى به من إعلاء ثم يتبع ذلك بالدعاء إلى الدين والحض عليه وإيضاح ما في التمسك به من الرشاد في داري المبدأ والمعاد والتبشير بما وعد الله به المستجيبين له والداخلين فيه ومن تمحيض السيئات ومضاعفة الحسنات وعز الدنيا وفوز الآخرة والإنذار بما وعد الله به الناكبين عم سبيله العادلين عن دليله من الإذلال في هذه الدار والتخليد بعد العرض عليه في النار وتصريف المخالفين بين الرغبة والرهبة في العاجل والمغبة.

قال: وينبغي أن يتأنى الكاتب فيما يورده من هذه الأغراض ليقع في المواقع اللائقة به ويجلو الحجج في أحسن المعاريض ويفصح عنها بأقرب الألفاظ من النفوس فإنه إذا وفق لذلك ناب كتابه مناب الجيوش والأجناد وأقر السيوف في الأغماد ثم قال: ومن صدقت في هذا الفن رغبته أيد الله تعالى غريزته وعضد بديهته ورويته.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية قد بطل في زماننا فلم يعهد أم ملكاً من الملوك كتب إلى بلاد الكفر بالدعاية إلى الدين إذ مثل ذلك إنما يصدر مع الغلبة والقوة والقهر كما كان الخلفاء في الزمن المتقدم والكفر مقهور معهم مذلول لديهم.

أما الآن فلولا ما أخبر به صلى الله عليه وسلم بقوله: " ونصرت بالرعب مسيرة شهر " وفي رواية: " ونصرت أمتي " لاجتاح أهل الكفر الإسلام ولكن الله وعد دينه أن لا يخذل.

قال في مواد البيان: كما أن الدين ينتظم بالدعاء إليه والترغيب فيه كذلك ينتظم بصيانة جوزته وما دخل في مملكته وكف أعدائه عن تنقص أطرافه والتغلب على بلاده.

ولهذا الغرض فرض الله تعالى الجهاد وأوجبه وأكد الأمر فيه وشدده والسلطان يحتاج عند الحوادث التي تحدث من تطرق المخالفين إلى بعض الثغور أو شن الغارة على أهل الإسلام أن يدعو إلى الجهاد ومقارعة الأعداء وصون حريم الملة وحفظ نظام الدولة.

ثم ذكر أن الرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على جميل صنعه على إعزاز الكلمة وإسباغ التعنة باظهار هذه الملة وما وعد الله به من نصر أوليائه وخذلان أعدائه وإدالة الموحدين وإذالة الملحدين والصلاة على سوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله

وذكر طرف من مواقفه في الجهاد ومقارعته لشيع الإلحاد وتأييد الله تعالى على أهل العناد ثم يذكر الحادثة بنصها ويشرح القصة على فصها ويندب من جاوره ودناه من أهل الملة أجمعين ويخاطبهم بما يرهف عزائمهم في نصرة الدين وكافة المسلمين واتباع سبيل السلف الصالحين الذين خصهم الله تعالى بصدق الضمائر ونفاذ البصائر وصحة الدين ووثاقة اليقين فم يكونوا ليرموا مراماً إلا سهل لهم ما توعر ويسر عليهم ما تعسر وسما بهم ما هو أقصى منه مرمى وأبعد مدى وأن يحضهم على التمسك بعزائم الدين والعمل على بصائر المخلصين وافتراض ما فرض الله عليهم أعدائه وتنجيز ما وعدهم به من الإظفار بهم والإظهار عليهم وأن يجاهدوا مستنصرين ويؤدوا الحق محتسبين ويقدموا رسلاً لا ناكصين ولا شاكرين ولا مرتابين متبعين الحق حيث يمم وقصد ومضاربين دونه من صد عنه وعند ويبالغ في تنخية أهل البسالة والنجدة والبأس والشدة ويبعثهم على نصر حقهم وطاعة خالقهم والفوز بدرك الثواب والرضوان وتنور البصائر في الإيمان وفضيله الأنف من الضيم والبعد من الذيم إلى غير هذا مما يعدل الأرواح والمهج والإقدام على مصارع التلف.

فإن الملوك الماضين لعلمهم بأن الناس إنما يجودون بذلك للفوائد التي توجبه كانوا يبذلون لمن يدعونه إلى المكافحة ويعرضونه للمذابحة الرغائب التي تهون عليهم إلقاء نفوسهم في المهالك تارة ويذكرونهم الأحقاد والضغائن.

ويخوفونهم من الوقوع من الوقوع في المذلة أخرى.

ثم قال: وينبغي للكاتب أن يقدم في هذه الكتب مقدمات يرتبها على ترتيب يهز الأريحات ويشحذ العزائم ليجمع بين خدمة سلطانه والفوز بنصيب من الأجر.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمر الحكم إلى زماننا.

فما زالت الملوك يكتبون إلى ما يليهم بالحث على الجهاد والقيام بأوامره والحض على ملاقاة العدو والأخذ بنصرة الدين.

وقد تقدم في الكلام على مقدمات المكاتبات في أول هذه المقالة أن الشيخ شهاب الدين محموداً الحلبي ذكر في حسن التوسل أنه إذا كتب الملك في أوقات حركات العدو إلى أهل الثغور يعلمهم بالحركة للقاء عدوهم أنه يبسط القول في وصف العزائم وقوة المهم وشدة الحمية للدين وكثرة العساكر والجيوش والوثوق بعوائد الله في الظفر وتقوية القلوب منهم وبسط آمالهم وحثهم على التيقظ وحضهم على حفظ ما بأيديهم من ذلك وما أشبه.

وأنه يبرز ذلك في أبين كلام وأجله وأمكنه وأقربه من القوة والبسالة وأبعد من اللين والرقة ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى واستنزال نصره وتأييد الرجوع إليه في تثبيت الأقدام والاعتصام به في الصبر والاستعانة به على العدو دون التصريح بسؤال بطلان حركتهم ورجاء تأخيرهم وانتظار العرضيات في تخلفهم لما في ذلك من إيهام الضعف عن لقائهم واستشعار الوهن والخوف منهم وأن زيادة البسط ونقصها في ذلك بحسب المكتوب إليه.

وهذه نسخة مكاتبة من ذلك السلطان إلى بعض نواب الثغور من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي أوردها في حسن التوسل وهي: أصدرناها ومنادي النصر قد أعلن بياخيل الله اركبي ويا ملائكة الرحمن اصحبي ويا وفود الظفر والتأييد اقربي والعزائم قد ركضت على سوابق الركض إلى العدا والهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام فلو كان في مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى والسيوف قد أنفت من الغمود فكادت تنفر من قربها والأسنة قد ظمئت إلى موارد القلوب فتشوفت إلى الارتواء من قلبها والكماة قد زأرت كالليوث إذا دنت فرائسها والجياد قد مرحت لما عودتها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسها والجيوش قد كاثرت النجوم أعدادها وسار بها للهجوم للدين نار غضبها وعداها حر الإشفاق على ثغور المسلمين عن برد الثغور وطيب شنبها والنصر قد أشرقت الوجود دلائله والتأييد قد ظهرت على الوجوه مخايله وحسن اليقين بالله إعزاز دينه قد أنبأت بحسن المآل أوائله والألسن باستنزال نصر الله لهجة والأرجاء بأرواح القبول أرجة والقلوب بعوائد لطف الله بهذه الأمة مبتهجة والحماة وما منهم إلا من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه والأبطال وليس فيهم من يسأل عن عدد عدوه بل عن مكانه والنيات على طلب عدو الله حيث كان مجتمعة والخواطر مطمئنة بكونها مع الله بصدقها وكان مع الله كان الله معه وما بقي إلا طي المراحل والنزول على أطراف الثغور نزول الغيث على البد الماحل والإحاطة بعدو الله من كل جانب وإنزال نفوسهم على حكم الأمرين الآخرين من عذاب واصب وهم ناصب وإحالة وجودهم إلى العدم وإجالة الشيوف التي إن أنكرتها أعناقهم فما بالعهد من قدم واصطلامهم على ما بأيدي العصابة المؤيدة بنصر الله في حربها وابتلاؤهم من حملاتها بريح عاد التي تدمر كل شيء بأمر ربها فليكن مترقباً طلوع طلائعها عليه متيقناً من كرم الله استئصال عدوه الذي إن فر أدركه من

ورائه وإن ثبت أخذته من بين يديه وليجتهد في حفظ ما قبله من الأطراف وضمها وجمع سوائم الرعايا من الأماكن المخوفة ولمهان وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرفة ورمها فإن الاحتياط على كل حال من آكد المصالح الإسلامية وأهمها فكأنه بالعدو وقد زال طعمه وزاد ظلمه وذم عقبى مسيره وتحقق سوء منقلبه ومصيره وتبرأ منه الشيطان الذي دلاه بغروره وأصبح لحمه موزعاً بين ذئاب الفلا وضباعها وبين عقبان الجو ونسوره ثقة من وعد الله وتمسكاً منه باليقين وتحققاً أن الله ينصر من ينصره والعاقبة للمتقين.

وهذه نسخة مرسوم كريم في المعنى بل هو أصرح في ذلك ما قبله كتب به عند ظهور الفرنج اللوسارية والشوال بالبحر من إنشاء الشيخ بدر الدين بن حبيب الحلبي وهو وإن لم يكن عن السلطان فإنه في معناه ولقيام النائب بالمملكة قيام السلطان الذي استنابه وهو: المرسوم بالأمر العالي أعلاه الله تعالى ولا زالت مراسمه النافذة تبلغ أهل العصابة المحمدية غاية الآمال وأوامره المطاعة تفضي بكسر اللوسارية وشين الشوال أن تتقدم العساكر المنصورة بالمملكة الطرابلسية أيد الله تعالى عزائمهم القاهرة وأذل بسيوفهم الطائفة الكافرة بارتداء ملابس الجهاد والتحلي بمرارة الصبر على اجتلاء الجلاد وأن يجيبوا داعي الدين ويكفوا أيدي المعتدين ويفرقوا سهامهم ويجعلوا التقوى أمامهم ويشرعوا رماحهم ويحملوا سلاحهم ويومضوا بروق السيوف ويرسلوا نبال الحتوف ويهدموا بنيان الكفار ويطلعوا أهلة القسي بمد الأوتار ويهضموا جانب أهل العناد ويقابلوا البحر بملء بحر من الجياد ويناظروا أمواجه بأمواج النصال ويقاتلوا الفرقة الفرنجية أشد القتال ولا يهملوهم بالنهار ولا بالليل ويعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل فإذا استنفروا فلينفروا ويبالغوا في الغدو والرواح ليبلغوا الرعية من الأمن أمانيها.

فقد قال صلى الله عليه وسلم: " لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ".

ويعتمدوا على القريب المجيب ويجتهدوا في كسر أصلاب أهل الصليب وينافسوا في أمر الآخرة ويدعوا الدنيا ويقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا ويشهدوا المواقف ويبذلوا التالد والطارف وليبرز الفارس والراجل ويظهر الرماح والنابل فإن الجهاد سطوة الله تعالى على ذوي الفساد ونقمته القائمة على أهل الشرك والعناد وهو من الفروض الواجبة التي لم تزل سهام أصحابه صائبة فواظبوا على فعله ولا تذهبوا عن مذهبه وسبله واطلبوا أعداء الله براً وبحراً وقسموا بينهم الفتكات قتلاً وأسراً وفاجئوهم بمكروه الحرب وناجوهم برسائل الطعن والضرب وخذوا من الكفار باليمين وجدوا في تحصيل الربح الثمين ولازموا النزول بساحل البحر لمنازلة الطغاة والمشركين " يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين " وسابقوا الأعنة وهزوا أعطاف الأسنة وشمروا عن سياق العزائم ولا تأخذكم في الله لومة لائم واتخذوا الخيام مساكن واجعلوا ظهور الخيل لكم مواطن وانصبوا الألوية والأعلام وأطفئوا جمرة الشرذمة الغائظة للإسلام ولا تخشوا من جميعهم الأئل إلى التفريق وحشدهم الذي هو عما قليل إن شاء الله تعالى غريق ولا تعبأوا بسفنهم البحرية فإن سفنكم الخيل المخلوقة من الرياح ولا تنظروا إلى مجاذيفهم الخشبية فإن مجاذيفكم السيوف والرماح فاقلعوا قلوعهم وشتتوا جموعهم وأذهبوا الجنف والحيف وخاطبوا بألسنة السيف وأوقدوا في قلوبهم بالتحصين والاحتراز ناراً وادعوا الله أن لا يذر على الأرض من الكافرين دياراً ونكسوا صليبهم المنصوب وبادروا إلى حرب حزبهم المغلوب وارفعوا باليقين شك هذه المحنة وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة واهجروا في ذات الله طيب المنام وانقلوا الأقدام إلى الأقدام واكشفوا عنكم أستار الملال والملام واهتموا بما يعلي كلمة الإسلام فليرفعنكم الله إلى منازل العز والتمييز " ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ".

الصنف الرابع من الكتب السلطانية الكتب في الحث على لزوم الطاعة وذم الخلاف قال في مواد البيان: طاعة السلطان والانقياد إليه والرجوع إلى رأيه والاعتماد عليه أبدى الأسباب في استمرار الاتساق والاستتباب وهي فرض أوجبه الله تعالى.

فقال: " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " ولا تصح مملكة ولا تدوم دولة إلا بأمرين أحدهما عدل السلطان والآخر طاعة الرعية له فمتى ارتفع أحدهما فسد السائس والمسوس ولم تزل ملوك الأزمنة يقدمون إلى الرعايا لزوم الطاعة والاعتصام بحبل الشريعة والنهي عن مفارقة الجماعة.

قال: والرسم فيها أن تفتتح بالحمد لله على النعم في تأليف قلوب أهل الدين وجمع كلمة الموحدين ورعاية أهوائهم إلى الاتفاق وصيانة عصاهم عن الانشقاق والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم والتنبيه على فضائل الطاعة فإنها العروة الوثقى والمعقل الذي لا يرقى والحصن الحصين والكنف الأمين والحمى الأمنع والمرقب الأرفع وأن من حافظ هعليها فاز وسلم وربح وغنم ومن فارقها خسر وخاب ونكب عن سبيل الصواب وإيضاح ما في سبيل الطاعة من اتفاق الكلمة وانتظام شمل

الأمة وشمول الخيرات وعموم البركات وعمارة البلاد وصلاح العباد وما في المشاققة من الفساد العام العائد بانتثار النظام وانبتات الحبل وتفرق الشمل واجتثاث الأصل وطموس الديار وصيال الأشرار وانقماع الأخيار وتوالي الفتن التي لا يصيب الظالم خاصة دون العادل ولا المشاقق دون الموافق وحلول النوائب المزيلة للنعم وإتباع ذلك بما يجب من إعذار وإنذار وترهيب وترغيب وتذكير وتبصير ووعظ وتخويف وبعث العلماء الحصفاء على ردع الجهلاء السخفاء وتنبيه أهل السلامة والصلاح على كف ذوي العيث والطلاح إلى نحو هذا مما يجاريه.

وأن يبالغ فيما يورده من هذه المعاني فإن هذه الكتب إذا كانت بليغة مستوفاة جيدة العبارة أخذت بمجامع القلوب وأغنت عن الكتائب في إدراك المطلوب.

وهذه المكاتبات في المعنى ذلك أوردها أبو الحسين بن سعد في ترسله وهي: أما بعد فإن الله أفترض الطاعة وأوجبها وأمر بها ورغب فيها وجعلها عصمة في كل فتنة وضياء من كل شبهة وسلامة من كل هلكة وسبباً لظفر بخير الدنيا والآخرة من أراد الله به خيراً وفقه لها وألزمه المحافظة عليها والاعتصام بحبلها فتعجل عزها وشرفها وسعتها وأمنها واستحق السعادة في الدار الآخرة بها والمثوبة عليها.

آخر: وقد علمتم ما جعل الله في الطاعة ولزومها والمحافظة عليها من العز والمنعة والأيد والفوز بخير الدنيا والآخرة وما في خلافها من صنوف وأنواع المتالف.

آخر: وقد كانت الطاعة أنافت بك على كل ظليل وأفضت بك إلى لين مهاد عند إقضاض المضاجع وصفاء المشارب عند تكدر المناهل واتصال أمنة عند حدوث المخاوف حتى فعلت كذا وكذا.

آخر: فلم يمرق من طاعته مارق ولا فارقها مفارق إلا صرع الله خده وأتعس جده آخر: والطاعة في العروة الوثقى والطريقة المثلى والغنيمة لأهلها في الأخرى والأولى.

عبد الحميد: فإن الفتنة تتشوف لأهلها بآنق منظر وأزين ملبس تجر لهم أذيالها وتعدهم تتابع لذاتها حتى ترمي بهم في حومات أمواجها مسلمة لهم تعدهم الكذب وتمنهم الخدع فإذا لزمهم عضاضها ونفر بهم شماسها وتخلت عنهم خاذلة لهم وتبرأت منهم معرضة قد لبسوا أجمل لباس دينهم واستنزلوا عن أحصن معاقل دنياهم من الغناء البهي منظره الجميل أثره حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم والإيجاف في التعب وسوء المنقلب فمن آثر دينه على دنياه تمسك بطاعة ولاته وتحرز بالدخول في الجماعة تاركاً لأثقل الأمرين وأوبل الحالين.

ابن عبدكان في ذم الخلاف: وإن كان فلاناً عبداً من عبيدنا اعتوره إنعامنا ونوه به إكرامنا وشرفه ولاؤنا وحسن عنده بلاؤنا وابتنينا له الأموال وأسنينا له الأعمال وأوطأنا عقبه الرجال فلم تقع النعم منع عند شاكر ولا الصنيعة عند محتمل فلما رفع الله بمكاننا حسيسته وبلغه من شرف الذكر ونباهة القدر وانبساط يده ما كانت ما كانت همته تعجز عنه وآماله تقصر دونه أضراه ذلك وأبطره وأطغاه وأكفره فاختال زاهياً واستكبر عالياً وغدر باغياً وشاق عاصياً وأوضع في الفتنة لنا حرباً ولأعدائنا حزباً ولمن انحرف عنا يداً ولمن مال إلينا ضداً من غير سبب أوجبه ولا أمر دعاه إليه فكان كما قال الله عز وجل في كتابه: " كلا فلما ورده الخبر بما هيأ الله لنا وكقوله: " ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض " إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى " من الرجوع إلى الفسطاط على الحال السارة لأوليائنا الغائظة لأعدائنا سقط في يده وفكر في غليظ جرمه وخيانته فأداه الخوف الذي استشعره والإشفاق الذي خامره إلى أن ركب عظيماً في الأمور وكاشف بالمعصية والغرور مكاتفاً أعداء ومواليا ذوي يجزيه عندنا من جميل عاداته فيمن - العداوة والنشارة ونرجو بحلول الله وقوته وإرادته ومشيئته وما لم يزل الله - تقدس اسمه سفه الحق وزاغ عن القصد أن يبسل هذه الخائن بخبائث أعماله ويسلمه لقبائح أفعاله وأن يصرعه بأسوأ مصارع أمثاله فإن أحداً لم يحمد النعمة إلا استدعى النقمة ولم يذع الشكر ويستعمل الكفر إلا كانت العثرة منه قريبة والبلايا محيطة قولاً لا يبدل رسمه ولا يحول.

من كتاب موسى بن عيسى: أما بعد فإن امرأ لو خلص من فلتات الخطأ وخطوات الملأ بفضيلة رأي ولطافة بصر بالأمور كنت أحجى بذلك دون أهل زمانك للذي جرت لك عليه تصاريف التبع وتعرضت لك به وجوه العبر ولما استقبلت من موارد أمور نفسك وتعقبت من مصادر أمور غيرك ولكن الله إذا أراد أمراً جعل له من قضائه سبباً ومن مقاديره علالاً فمن مقادير علل البلاء تضييع المعرفة وإلغاء ما تفيده التجربة ومن أسباب السلامة الانتباه بالعبر والاستدلال بما كان على ما يكون.

وأنت امرؤ جرت لك وعليك أنحاء من النعم وأنحاء من الحجج عرفت بها ما لك وما عليك فإن تأخذ بها عرفت كيف تسلك كسالكه وإن تدع الأخذ بذلك تدعه على علم.

وقد رأيت الذي انقادت لك به النعمة ووهبت لك به العافية فيما ألهمك الله من طاعة ولاة أمورك والصبر لها على مواطن الحق التي رفع الله بها ذكرك وأحسن عليها عقباك وذخرك فلم تمض بك في طاعتهم رتبة إلا قربك الله بها من الخير عقبة ولا تبذل من نفسك نصحاً إلا أوجب لك به نحجاً ولم تفتأ تواتر ذلك من مناصحتك وحسن طاعتك حتى طلت بها على من طاولك وفضلت بها على فاضلك وجريت ممدوداً عنانك إلى قصوى غايات أملك فأصبحت قريع المسلمين بعد خليفة أمير المؤمنين وخيرته من خلفه بعد ذوي الفضل من أهل بيته حتى تمالك من رجالات العرب نظير في منزلة ولا نديد في حال ولا رتبة بل هم فيك رجلان: إما راهب منك وإما راغب فيك.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمر الكتابة إلى زماننا.

فلما زالت الملوك يكتبون إلى من يتخيلون منه خلع الطاعة من النواب ومن في معناهم ويحثونهم على لزوم الطاعة ويحذرونهم المخالفة والخروج عن الجماعة.

ومن ذلك ما كتب به الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي إلى متملك سيس عند كسرة التتار بعد قيامه معهم في المصاف ومساعدته إياهم وهو: بصره الله برشده وأراه مواقع غيه في الإصرار على مخالفته ونقض عهده وأسلاه بسلامة نفسه عمن روعته السيوف الإسلامية بفقده.

صدرت تعرفه أنه قد تحقق ما كان من أمر العدو الذي دلاه بغروره وحمله التمسك بخدعه على مجتنبة الصواب في أموره وأنهم استنجدوا في كل طائفة وأقدموا على البلاد الإسلامية بنفوس طامعة وقلوب خائفة وذلك بعد أن أقاموا على البلاد مدة يشترون المخادعة بالموادعة ويسرون المصارمة في المسالمة ويظهرون في الظاهر أموراً ويدبرون في الباطن أموراً ويعدون كل طائفة من أعداء الدين ويمنونهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً وكنا بمكرهم عالمين وعلى معاجلتهم عاملين وحين تبين مرادهم وتكمل احتشادهم استدرجناهم إلى مصارعهم واستجررناهم ليقربوا في القتل من مضاجعهم ويعبدوا في الهرب عن مواضعهم وصدمناهم بقوة الله صدمة لم يكن لهم من قبل وحملنا عليهم حملة ألجأهم طوفانها إلى ذلك الجبل وهل يعصم من أمر الله جبل فحصرناهم في ذلك الفضاء المتسع وضايقناهم كما رؤي ومزقناهم كما قد سمع أنزلناهم على حكم السيف الذي نهل من دمائهم حتى روي وأكل من لحومهم حتى شبع وتبعتهم جيوشنا المنصورة تتخطفهم رماحها وتتلقفهم صفاحها ويبددهم في الفوت رعبها ويفرقهم في القفار طعنها المتدارك وضربها ويقتل من فات السيوف منهم العطش والجوع ويخيل للحي منهم أن موضعه كالدنيا التي ليس للميت إليها الرجوع ولعله قد رأى من ذلك فوق ما وصف عياناً وتحقق من كل ما جرى ما لا يحتاج أن نزيده به علماً ولا نقيم عليه برهاناً.

وقد علم أن أمر هذا العدو المخذول ما زال معنا على هذه الوتيرة وأنهم ما أقدموا إلا نصرنا الله عليهم في مواطن كثيرة وما ساقتهم الأطماع في وقت ما إلا إلى حتوفهم ولا عاد منهم قط في وقعة آحاد تخبر عن مصرع ألوفهم ولقد أضاع الحزم من حيث لم يستدم نعمة الله عليه بطاعتنا التي كان في مهاد أمنها ووهاد يمنها وحماية عفوها وبرد رأفتها التي كدرها بالمخالفة بعد صفوها يصون رعاياه بالطاعة عن القتل والإسار ويحمي أهل ملته بالحذر عن الحركات التي ما نهضوا إليها إلا وجروا ذيول الخسار ولقد عرض نفسه وأصحابه لسيوفنا التي كان من سطوتها في أمان ووثق بما ضمن له التتار عناء كان عنه في عنى وأوقع روحه بمظافرة المغل في حومة السيوف التي تخطفت أولياءه من هنا ومن هنا واقتحم بنفسه موارد هلاك سلبت وما هو رداء الأمن عن منكبيه واغتر هو وقومه بما زين لهم الشيطان من غروره " فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه " والوقوف في هذه المواطن التي تتزلزل فيها أقدام الملوك الأكاسرة وأنى لضعاف النقاد قدرة على الثبات لوثوب الأسود الضارية والليوث الأكاسرة لقد اعترض بين السهم والهدف بنجره وتعرض للوقوف بين ناب الأسد وظفره وهو يعلم أننا مع ذلك نرعى له حقوق طاعة أسلافه التي ماتوا عليها ونحفظ له خدمة آبائه التي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في التوصل إليها ونجريه وأهل بلاده مجرى أهل ذمتنا الذين لا نؤيسهم من عفونا ما استقاموا ونسلك فيهم حكم من أطراف البلاد من رعايانا الذين هم في قبضتنا نزحوا أو أقاموا ونحن نتحقق أنه ما بقي ينسى ملازمة ربقة الحتف خناقه ولا يرجع إلى الموت من ذاقه فيستدرك باب الإنابة قبل أن يغلق دونه ويصون نفسه وأهله قبل أن تبتذل السيوف الإسلامية مصونه ويبادر إلى الطاعة قبل أن يبذلها فلا يقبل ويستملك بأذيال العفو قبل أن ترفع دونه فلا تسبل ويعجل بحمل أموال القطيعة وإلا كان أهله وأولاده في الجملة ما يحمل منها إلينا ويسلم مفاتح ما عدا عليه من فتوحنا وإلا غهو يعلم أنها وجميع ما تأخر من بلاده بين يدينا ويكون هو السبب

في تمزق شمله وتفرق أهله وقلع بيته من أصله وهدم كنائسه وابتذال نفسه ونفائسه واسترق حرمه واستخدام أولاده قبل خدمه واستقلاع قلاعه وإحراق ربوعه ورباعه وتعجيل رؤية ما وعد به قبل سماعه ومن لغازان أن يحاب إلى مثل ذلك أو يسمح له مع الأمن من سيوفنا ببعض ما في يده من الممالك لينفع بما أبقت جيوشنا المؤيدة في يده من الخيل والخول ويعيش في الأمن ببعض ما نسمح له به ومن للعور بالحول والسيوف الآن مصغية إلى جوابه لتكف إن أبصر سبيل الرشاد أو تتعوض برؤوس حماته وكماته عن الإغماد إن أصر على العناد والخير يكون إن شاء الله تعالى.

الصنف الخامس من الكتب السلطانية الكتب إلى من نكث العهد من المخالفين

قال في مواد البيان: إذا نقض معاهد عهده أو نفض من شروط الهدنة يده فالرسم أن يصدر ما يكتب به بالحمد لله تعالى موهبته في إظهار الدين وإعزاز المسلمين وما تكفله من النصر على الباغين ووعد به أهل العدل من الإدالة والتمكين والصلاة على سيدنا محمد النبي صلى الله عليه وعلى آله أجمعين وإيراد طرف من معجزاته وفضائله وآياته ومناقبه التي تنخرط في هذا النظام وتليق بهذا النمط من الكلام ثم يتبع ذلك بمقدمة تدل على متانة البصائر في الدين ووثاقه العقائد في إذالة المحادين ومضاء العزائم في مجاهدة المعتدين والاستطالة على المعاندين مع ما تضمنه الله تعالى من نصره وإظفاره ووعد من تأييده وإقراره وسهله من إهواء الأهوية إليه وجمع الكلمة عليه بما خوله من بأس وشدة وعديد وعدة وما يليق بذلك مما يعرب به عن علو السلطان ووفور الإخوان واتساع القوة والأيد وصدق العزم والجد.

ثم يذكر الحال التي انعقدت الهدنة عليها وأن الإجابة إليها لم تقع قصوراً عن غزوهم في عقر دارهم وتشريدهم بالغارات المبثوثة براً وبحراً عن قرارهم وإنما قبولاً لمساءلتهم وامتثالاً لأمر الله تعالى فيها عليهم والمعاقل المنتزعة من أيديهم وأن تلك العزائم مضطرمة متوقدة وتلك السيوف مشحذة مهندة وأن الله تعالى قد أباح حرم من نقض عهده ونفض من الذمام يده وأن كتائب الله موجفة وراء هذا الكتاب في جيش يلحق الخبت بالهضاب ما لم يكن منهم مبادرة إلى الإقلاع والإنابة ومكاتبة في الصفح والاستتابة وأنه قد قدم الأعذار وبدأ قل الإقدام بالإنذار وما تقتضيه الحال من هذا ومثله.

وقال: فإن كان الكتاب جواباً عن ورد أجيب بما ينقضه وبني الأمر فيه على ما يبسط الهيبة ويدعو إلى النزول على أحكام الطاعة.

ويختلف الحال في ذلك باختلاف الأمور الحادثة والأسباب العارضة فينبغي للكاتب أن يحتاط فيما يطلق به قلمه من هذه المعاني الخطيرة لأنها مزاحمة بالدول والملك وحجج تحصل من كل دولة عند الآخرين ودرك ما يقع فيها عائد عليه ومنسوب إليه.

وهذه النسخة كتاب كتب به عن الحافظ لدين الله الخليفة الفاطمي بالديار المصرية إلى النصراني الأرمني الذي كان استوزره ثم خرج عليه رضوان بن ولخشي ارتغاماً للدين لتحكم نصراني في أهل الملة وولي الوزارة مكانه ففر هارباً على الشام ناقضاً للعهد كتب إلى الحافظ يطلب أهله وجماعته من الأرمن الذين كانوا معه في جملة جند الديار المصرية مظهراً للطاعة والرغبة إلى التخلي عن الدنيا والانقطاع في بعض الديرة للتعبد مكراً وخديعة فكتب له بذلك جواباً عن كتابه الوارد منه ونص ما كتب إليه: عرض بحضرة أمير المؤمنين الكتاب الوارد منك أيها الأمير المقدم المؤيد المنصور عز الخلافة وشميها تاج المملكة ونظامها فخر الأمراء شيخ الدولة وعمادها ذو المجدين مصطفى أمير المؤمنين.

ووقف على جميعه واستولى بحكمه على مضمونه.

فأما ما وسعت القول فيه وبسطته وتفسحت فيما أوردته منه ذكرته مما فحواه ومحصوله ما أنت عليه من الطاعة والولاء والمشايعة والاعتراف بنعم الدولة عليك والإقرار بإحسانها إليك فلعمر أمير المؤمنين إن هذا الذي يليق بك ويحسن منك ويحسن أن يرد عنك ويجب أن يعرف لك وقد كانت الدولة أسلفتك من حسن الظن قديماً ونقلتك في درجة التنويه حديثاً حتى رفعك إلى أعلى المراتب وبلغك ما لم تسم إليه همة طالب وأوطأت الرجال عقبك وجعلت أهل الدولة تبعك مما أغنى اعترافك به عن الإطالة بشرحه والإطناب في ذكره.

وأما ما ذكرته مما كان أمير المؤمنين أعطاك التوثقة عليه فأجابك منه إلى ما رغبت فيه فاستقر بينه وبينك في معناه ما اطمأننت إليه فلم يزل أمير المؤمنين على الوفاء باطناً وظاهراً ونية وعلانية واعتقاده أن لا يرجع عنه ولا تغير ما أحكمه منه

وإنما حال بينه وبين هذا المراد أن كافة المسلمين في البعد والقرب غضبوا لملتهم وامتعضوا مما لم يجربه عادة في شريعتهم ونفرت نفوسهم مما يعتقدون أن الصبر عليه قادح في دينهم ومضاعف لآلامهم وانه ذنب لا يغفر ووزر لا يتجاوز ولا صفح عنه حتى إن أهل المشرق أخذوا في ذلك وأعطوا وعزموا على ما اتفقوا عليه مما صرفه الله وكفى مؤونته والاشتغال به.

وأما ما التمسته من تسيير من الباب من طائفتك إليك فهذا أمر لا يسوغ ولا يمكن فعله ولو جاز أن يؤمر به لمنع المسلمون منه فلم يفسحوا فيه.

والآن فلن يخلو حالك من أحد القسمين إما أن تكون متعلقاً بأمور الدنيا وغير منفصل عنها فأمير المؤمنين يخيرك في ولاية أحد ثلاثة مواضع إما قوص أو خميم أو أسيوط فأيها اخترت ولاك إياه ورد أمره والنظر فيه إليك على أن تقتصر من الذين معك على خمسين أو ستين فارساً وتسير الباقين إلى الباب ليجروا على عادتهم ورسومهم في واجباتهم وإقطاعاتهم إذ كانوا عبيد الدولة ومتقلبين في فضلها وأكثرهم متولدون في ظلها.

وإما أن تكون على القضية التي ما زالت تذكر رغبتك فيها وإيثار لها من التخلي عن الدنيا ولزوم أحد الديرة والانقطاع إلى العبادة فإن كنت مقيماً على نحو ذلك فتخير ضيعة من أي الضياع شئت يكون فيها دير تقيم فيه وتنقطع إليه فتعين الضيعة ليجعلها أمير المؤمنين تسويغاً لك مؤبداً وإقطاعاً دائماً مخلداً وتجري مجرى الملك ويكتب لك بذلك ما جرت العادة بمثله مما يطمئن إليه وتستحكم ثقتك به.

وإن أبيت القسمين المذكورين ولم يرضك الأول منها ولا رغبت في الثاني فتحقق أن المسلمين بأجمعهم وكافتهم وأسرهم وكل من يقول بالشهادتين من قاص ودان وقريب وبعيد وكبير وصغير ينفرون إليك ويتفقون على القصد لك ولا يختلفون في التوجه نحوك وهو عمل ديني لا يرثيه أمر دنيوي فتأمل ما تضمنته هذه الإجابة من الأقسام وطالع بما عندك في ذلك.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية لا وجود له في زماننا لعدم وقوع الهدن المترتب عليها هذا الصنف من المكاتبات فإن احتيج إلى ذلك مشاه الكاتب على القاعدة القديمة المتقدمة.

الصنف السادس من الكتب السلطانية الكتب على من خلع الطاعة قال في مواد البيان: وهذه الكتب تختلف رسومها بحسب اختلاف أقدار المكاتبين وأحوالهم في الخروج عن الطاعة.

قال: وجمع أوضاعها كلها في قانون كلي عسير المرام إلا أننا نرسم فيها مرسوماً يمكن الزيادة فيها والنقص منها ثم قال: والعادة أن تنفذ هذه الكتب إلى من ترجى إنابته وتؤمل مراجعته.

فأما من وقع الإياس من استصلاحه ودعت الضرورة إلى كفاحه فلا قال: والرسم فيها أن تفتتح المكاتبة بالتحميد المناسب لمعنى الكتاب والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بما يدعو إلى إيناسه ويزيل أسباب استيحاشه ويعود بثبات جاشه ويبعثه على مراجعة فكره ومعاودة النظر في أمره ويذكره ما أسدي من العوارف إليه وأفيض من النعم عليه وأنه لا ينفر سربها بجحدها وكفرها 0 ويوحش ربعها بإهمال حمدها وشكرها ويربطها بحسن الطاعة ويسترهنها بالتأدب في التباعة ولا يجر الوبال إلى نفسه بالخروج عن العصمة في عاجل ذميم الوصمة وفي آجل أليم النقمة ويبصره بعاقبته ومن يليه من ذوي الجند بما يقتضي رب الإنعام لديهم وإقرار الفضل عليهم وأن يسلبهم ملبس الظل الظليل وأن يعطلهم من خلي الرأي الجميل ويتدرع في أثناء ذلك بشعار النفاق ويتسم بميسم الشقاق ويتعجل من داره وبعده من قراره وهدم ما شيده الإخلاص م نذكره وتقويض ما رفعته الطاعة من قدره ويعود بعد أن كان مجاهداً عن الحوزة مجاهداً بمحتدها وبعد أن كان مراميا عن السدة مرمياً بيدها ويضيع ما أسدى إليه وأفيض من الإحسان عليه وما ذهب من اليقين في تدريجه إلى مراقي السيادة ومن الرغائب في إلحاقه بأهل السعادة ويغتر بمن يزين له عاجل الآجل ويتقرب إليه بخدع الباطل ويجعل أقوالهم دبر سمعه ويبعد أشخاصهم عن نظره ناظراً في عاقبته وحارساً مهجته وراغباً في حقن دمه وصيانة حرمه وليرجع إلى الفناء الذي لم يزل يحرزه والكنف الذي لم يزل يعزه ولا يجعل مسالمه بالعنود منازعاً ومواصله بالجحود مقاطعاً وواهبه بالكفر سالباً ومطلع النعمة بضياعه حقها مغرباً وقد بقي في الحبل ممسك وفي الأمر مستدرك لأن يهب من رقدته ويستبدل من لقاء أمير المؤمنين بلقاء حضرته.

ثم يقول: فإن كان ما جناه قد هد سربه وكدر شربه وأحس في نفسه سوء الظن وأخافه بعد الأمن فليبعث رسوله يستوثق ويعاقد ويتوكد ويعاهد فإذا عاد إليه بما يملأ فؤاده أمناً ويكون عليه حصناً سارع إلى الامتثال المراسم وجرى في الطاعة على سننه المتقادم ولا يستمر على المدافعة والمطاولة ويقتصر على المغايظة والمماطلة.

ثم يقال بعد ذلك: وقد قدم أمير المؤمنين كتابه هذا إليك نائباً عنه في استصلاحك وقائداً يقودك إلى طريق نجاحك قبل تجريد مواضيه وإلحاق مستأنفه في الحرب بماضيه وخيوله تجاذب الأعنة وذوابله مشرعة الأسنة ولم يبق إلا قصدك في عقر دارك التي بوأكها وانتزاع نعمته التي أعطاكها لتذوق مرارة المخالفة وتزنها بحلاوة الموافقة فكن على نفسك لنفسك حاكماً ولا تكن لها ظالماً ونحو ذلك مما يليق به.

وإن كانت المكاتبة إلى رجل قد سبقت له سابقة بخلع الطاعة ثم سأل الإقالة فأقيل بعد الإحاطة به والنكاية فيه ثم راجع العصيان فالرسم أن تفتتح بحمد الله عاجل العافية للمتقين والعدوان على الظالمين والعزة لحزبه والذلة لحربه والإظهار لأهل طاعته والخسار لأهل معصيته ودائرة السوء على الخالعين طاعة خلفائه القائمين بحجته.

ثم يقال: أمير المؤمنين على ما يراك تتخوله به من تصديق آماله وتوفيق أفعاله وتسديد مراميه وهداية مساعيه وإجابة دعوته وتحقيق رغبته بإدالة مواليه وإذالة معاديه وعونته على ما ولاه وتمكينه ممن ناواه ويسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ثم يؤتى بمقدمة تدل على جميل عاقبة الطاعة وذميم مغبة المعصية يبسط القول عليها ويتوسع فيها لتكون فراشاً لما يتلوها.

ثم يقال بعدها: وإنما يحمل ذلك أهل الغرارة الذين لم يوكلوا شكائم التجارب ولم يمارسوا ضرائب النوائب وأنت فقد تذوقت من كراهة المعصية ومرارتها وعذوبة الطاعة وحلاوتها ما يرجو أمير المؤمنين أن يكون قد وعظك بأدبك وقومك وهذبك وكشف لك عن عاقبتهما وعرفك بغايتهما فدعتك الطاعة إليها بما أسبغه عليك من لباس شرفها ومجدها واستخدمته لك من أنصار إقبالها وسعدها ونهتك المعصية عنها بما بلوته من نوائبها وصنائعها وجربته من مرمض مراميها ومواقعها لأنها أقلت عددك ومزقت مطرفك ومتلدك حتى تداركك من عطف أمير المؤمنين ما أنبتك بعد الحصد وراشك بعد الحص وانتهى إلى أمير المؤمنين أنك حنيت إلى أتباع الضلالة الذين غروك وملت إلى أشياع الفتنة الذين استهووك فأصغيت إلى أقوالهم التي ظاهرها نصح وباطنها غش وآرائهم التي موردها صلاح ومصادرها فساد وملت إلى معاودة الشقاق والارتكاس في العصيان ومقابلة النعمى بالكفران فقدم كتابه إليك مذكراً ومنحك خطابه معذراً منذراً ليعرفك حظك ويهديك من مراجعة ما قارفته وأن تنزل عن المنزلة التي رقاك إليها وتجدب رباعك من النعمة التي أرتعك فيها وتتخلى عن مرابع الدعة التي أوردك عليها فانظر لنفسك حسناً وكن إليها محسناً وانتفع بمراشد أمير المؤمنين ولا تفسدن بخلافك عن أمره نصيبك من الدنيا والدين فارجع إليه مسترغماً فإنه يقتدي بالله في الرحمة للمحسنين ما دام مؤثراً لرب النعمة لديك وإقرارها عليك فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

قال: وإن كانت المكاتبة على رعية قد خرجت عن الطاعة كتب إليها بما مثاله: أما بعد وفقكم الله تعالى لطاعته وعصمكم من معصيته فإن الشيطان يدلي الإنسان بغروره ويقيم له الضلال في صورة الهدى ببهتانه وزوره مستخفاً لطائشي الألباب ومستزلاً للأقدام عن موقف الصواب ومحسناً بكيده لاعتقاده الأباطيل مزيناً بغيه اتباع الأضاليل صارفاً بمكره عن سواء السبيل مصوراً للحق في صورة المين مغطياً على القلوب بشغاف الرين والحازم اليقظ من تحرز من أشراكه وحبائله وتحفظ من مخايله وغوائله واتهم هواجس فكره واستراب بوساوس صدره وعرض ما يعرضه له على عقله وكرر فيه النظر متحرزاً من مكر الشيطان وختله فإن ألفاه عادلاً عن الهوى مائلاً إلى التقوى بريئاً من خدع الشيطان آمناً من عوادي الافتتان أمضاه واثقاً بسلامة مغبته وعاقبته وشمول الأمن في أولاه وأخراه.

وانتهى إلى أمير المؤمنين أن الشيطان المريد استخف أحلام جماعة من جهالكم واستولى على أفهام عدة من أراذلكم وحسن لهم شق عصا الإسلام ومعصية الإمام ومفارقة الجماعة والانسلاخ عن الطاعة التي فرضها الله تعالى على الجمهور وجعلها نظام الأمور فقال جل قائلاً: " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " واختار الفرقة التي نهى الله عنها.

ومجانية الألفة التي عدها في جلائل نعمه فقال ممتناً فقال: " ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات " بها على عباده: " واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً " وسول لهم التعري من آداب الدين والمجاهرة بالخلاف على أمير المؤمنين فنبذوا ما بأيديهم من بيعته وسلبوا من ظل دعوته وركبوا من ذلك أوعر المراكب وسلكوا أخشن المسارب وسعوا في البلاد بالفساد وقاموا في وجه الحق بالعناد واستخفوا بجمل الآثام وبسطوا أيديهم إلى الدماء الحرام وشنوا الغارات على الإسلام.

وقد علمتم أن من أقدم على تأثير مثل هذه الآثار فقد استنزل في هذه الدار سخط الجبار وتبوأ في الآخرة مقعده من النار وجرى على غير الواجب في إقامة الفروض والصلوات وتأدية العبادات والزكوات وعقد العقود والمناكحات لأن هذه الأحوال إنما ترضى وترفع وتجاب وتسمع إذا تولاها أمير المؤمنين أو من يستخلفه من صلحاء المسلمين فأما إذا استبددتم فيها بأنفسكم واقتديتم في تأديبها بناكب عن سبيله مجانب لدليله فقد تسكعتم في الضلالة وتطابقتم على الجهالة وكل راض منكم بذلك عاص لله ورسوله وللإمام.

ولما اطلع أمير المؤمنين على ما ذهبتم إليه بسوء الاختيار وركبتموه من مراكب الاغترار لم ير أن يلغيكم ويهجركم ويغفلكم ولا يبصركم فقدم مكاتبتكم معذراً ومنذراً ومخوفاً ومحذراً وبدأكم بوعظه مشفقاً عليكم من زلة القدم وموقف الندم وجاذباً لكم من مضال الغواية إلى مراشد الهداية وافتتحكم باللفظ الأحسن والقول الألين وهداكم إلى السبيل الأوضح والمتجر الأربح واختار أن يهديكم الله تعالى إلى طريق الرشاد ويدلكم على مقاصد السداد ويعيدكم إلى الأولى ويبعثكم على الطريقة المثلى وأن تعرفوا الحق فتعتصموا في أيديكم من بيعته وتقوموا بما فرض عليكم من طاعته وترجعوا إلى إجماع المسلمين وما اتفقت عليه كلمة إخوانكم في الدين وتتبعوا مذاهب أهل السلامة وأولي الاستقامة فإن وقع ما ألقاه إليكم الموقع الذي قدره فيكم وسألتم الإقالة فالتوبة تنفعكم والعفو يسعكم وإن تماديتم في غيكم وباطلكم وغروركم وجهلكم تقدمت إليكم جيوش أمير المؤمنين مقومة ومن عصاتكم منتقمة وذلك مقام لا يتميز فيه البريء من السقيم ولا الجاهل من العليم ألا تسمعون الله تعالى يقول: " واتقوا وأي فتنة أشد من طاعة الشيطان ومعصية السلطان وشق العصا وإراقة الدما وإثارة فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة " الدهما فاتقوا الله وارجعوا وتأملوا وراجعوا وتبصروا واستبصروا وقد أوضح لكم أمير المؤمنين المحجة وبدأكم بالحجة فأوجدوه السبيل إلى ما ينويه لكم ولكافة أهل الإسلام من حقن الدماء وصيانة الحريم وتحصين الأموال وشمول الأمن والأمان وأجيبوا عن كتابه هذا بما يوفقكم الله تعالى إليه من إجابة دعائه والعمل برأيه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض من خرج عن الطاعة وهو: أما بعد: بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المرد على الجرد فسترد عليك جنود الله المقربون وأولياؤه الغالبون ويرد عليك من ذلك حزبه مع ذلك حزبه المنصور من الكهول على الفحول كأنها الوعول تخوض الوحول طوال السبال تختضب بالجربال وهو رجال هم الرجال بين رامح وناشب ليس معهم إلا كلب محارب ولا ينكلون عن الأصحاب قد ضروا بضرب الهام واعتادوا الكر والإقدام ليسوا بذوي هينة ولا لإحجام يقضون بالسيوف ويخالطون الزحوف في أعنتهم الحتوف يزأرون زئير الأسود ويثبون وثوب الفهود وليس فيهم إلا شاك محتبك في الحروب مجرب قد شرب على ناجذ الحرب وأكل ذو شقشقة وكلكل كأنما أشرب وجهه نقيع الحناء قد رئم الحرب ورضعها وغذته وألفها فهي أمه وهو ابنها يسكن إليها ويأنس بقربها فهو بطلبها أرب وعلى أهلها حرب ولا يروعه ما يروع ولا يزيغه ما يزيغ الغمر الجبان حين يشتد الوغى ويخطر القنا وتقلص الشفاه وتسفر الكماه فعند ذلك تسلمك المرد وتكشف عن الجرد.

فتأهب لذلك أهبتك واخطب له خطبتك من المساكين والحولة ثم كيدوني جميعاً فلا تنظرون فما أسرنا إكثارك الجموع وحشدك الخيول فإنك لا تكثف جميعاً ولا تسرب خيلاً إلا وثقنا بأن سيمدنا الله من ملائكته ويزيدنا من نصره بما قد جرت به سنته وسلفت به عادته نحن نجري من ذلك على نقمات من الله ونكال وسطوات مهلكة فرأيتم ذلك في المنازل وعرفتموه في المواطن التي يجمعها الحق والباطل فأبشر منا بما ساءك ضجراً ومشاك تقاد كما يقلد الجمل المخشوش.

ومن أحسن الكتب في المكاتبة في هذا الباب ما كتب به قوام الدين يحيى بن زيادة وزير أمير المؤمنين الناصر لدين الله الخليفة ببغداد إلى طغرل مقطع البصرة بأمر الخليفة له في ذلك وقد بلغه أنه نزح عنها قاصداً بعض الأطراف مفارقاً لطاعة الخليفة عندما طلب من ديوانه شيء من المال فأوجب ذلك انثناءه عن عزمه وتوجهه إلى بغداد داخلاً تحت الطاعة ومقابلته بالصفح وتلقيه بالقبول.

وهذه نسخته: أصدرت هذه الخدمة إلى الجناب الكريم الأميري الاسفهسلاري الأجلي الكبيري العمادي الركني الظهيري المحترمي العزي الجمالي أمير الجيوش أطال الله بقاءه وأدام علوه ونعمته وأنا أوقع الأقوال المتواترة والأموال المتناصرة

مستغرباً لها متعجباً منها كأني أسمعها في المنام وتخاطبني بها أضغاث أحلام فلولا أن الأيام صحائف العجائب ولا يأنس بمتجدداتها إلا من حنكته التجارب ولم أصدق هذه الحركة المباركة التي وقعت منه بسعادته فإني ما أراها إلا عثرة من جواد وعورة من كماله وإلا فمن أين يدخل الزلل على ذلك الرأي السديد والعقل الراجح والفكر الصائب الذي يعلم الآراء كيف تنير ويعرف النجوم كيف تسير ويهدي غيره في المشكلات إلى صواب التدبير.

والفائت لا كلام فيه غير أن العقل يقضي باستدراك الممكن وتلافيه بالانحراف عن الهوى إلى الرأي الصادق والرجوع عن تأويل النفس إلى مراجعة الفكر الناضج فالعود إلى الحق أولى من التمادي على الباطل وأحب أن تسمع ما أقول بإذن واعية وقلب حاضر وحوشي أن تستدفعه الكواذب عن تدبر الحقائق وعرفان النصائح فإن من القول ما برهانه لا يحتاج إلى شاهد من غيره.

قبل كل شيء ما الذي أحوج إلى هذه الحال القبيحة السمعة وركوب الخطر في هذه الحركة واحتمال هذه المشاق والانزعاج من غير أن تدعو إليه حاجة هل هو إلا شيء جرت العادة بمثله وبمطالبة ديوانه بما كان يندفع الأمر ببعضه كما جرت عادة الدواوين وخدم السلاطين ثم إنه عمد - أدام الله نعمته - بأول خاطره وبادأ رأيه في هذه العجلة من غير تثبت ولا روية لم لا راجع فكره الكريم ويقول لنفسه: إلى أين أمضي ولمن أخدم وعلى أي باب أقف وتحت أي لواء أسير وبأي غبار أكتحل وفضل من أطلب وعلى حكم من أنزل بعد أن ربيت في عرصة الخلافة ودار النبوة وحضن المملكة أنشأني نعيمها صغيراً وقدمني كبيراً وكنت مأموراً فجعلني أميراً وطار صيتي في الدنيا ولم أكن شيئاً مذكوراً فأنا خير من ملك أقصده وأمثل من كل أرجوه وأستنجده أفأنزل من السماء إلى الحضيض وأهدم ما بنى الإنعام عندي في الزمن الطويل العريض هذا هو المكروه الأعظم الذي تعوذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: " اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور " ومن يكون حضين الخلافة كيف يرضى أن يكون تابع إمارة ولو لم يكن ما هجم إلا عليه إلا هذا لكفى.

ثم لم لا يلتفت في هذه الحال التي هو عليها التي صحبته بوفائها ويسمع خطابها بلسان حال ثم تقول له يا عماد الدين أما هذه خيام الإنعام عليك أما هذه الخيول المسومة تحتك أما هذه الملابس الفاخرة مفاضة عليك أما هذه مماليكه حافة بك أليس الاصطناع رفع قدرك إلى المنزلة التي ثقل عليك بعض الانحطاط عنها ووهب لك الهمة التي أبيت الضيم بها فحوشيت أن تكون ممن تواترت عليه النعم فملها وتكاثرت عليه فضعف عن حملها فياليت شعري! ماذا يكون جوابها والله إنني أقول له وقوع كل محذور وحلول كل مكروه لك يكن في هذه الحالة معذوراً فكيف - بسعادته ولا أعقب ولو أنه قد تحقق - والعياذ بالله بظن مرجم وقول مسوف متوهم ورأي فطير غير مختمر.

ولقد كان استسلامه لمالك الرق - صلوات الله عليه وسلامه - أحسن في الدنيا وأعقب في العقبى واقعاً ذلك من أحواله حيث وقع.

والآن فالوقت ضاق في إصدار هذه المكاتبة عن استقصاء العتاب والمحاققة وإيراد كل ما تلزم به الحجة لكني أقول على سبيل الجملة: إنني أخاف على سديد ذلك الرأي إجابة داعي الهوى فإن اللجاج من أوسع مداخل الشيطان على الإنسان وحوشي كماله من هذا القسم.

والثاني استشعاره بسعادته من بادرته واستيحاشه من عجلته وهذا أيضاً من أدق مكايد النفس الأمارة بالسوء فإنها تؤمن من الخوف وتخوف المأمون وتسحر العقل بالتحير والشك فلا تصح له عزيمة ولا تصفو له فكرة وهذا النوع إذا عرض في الصدر يجب دفعه بالنظر إلى الحق وشجاعة القلب والإخلاد إلى مناظرة النفس فإن الإنسان ليس بمعصوم والزلل في الرأي ليس من أوصاف الجماد بل من الأوصاف اللازمة للبشرية وليس الكمال لأحد إلا الواحد الصمد.

فإذا عرض له بسعادته هذا الاستشعار دفعه عن نفسه فليس سلطان الوسواس الخناس وإلا في صدور الناس فلهذا لا ينبغي لمذنب أن يقنط ولا لمسيء أن يستوحش لا سيما إذا أتبع الذنب بالاستقالة والاستغفار والاعتذار والإقلاع وعلى الخصوص إذا كانت الخيانة عند من لا يتعاظمه عفوها ولا يضيق حلمه عنها فإن كل كبيرة توجب المخالفة وتغرق في بحر عفو الخلافة فيجب أن يقرر بسعادته ذلك في نفسه ويخرج سوء الظن والاستشعار من خياله فإن مثله من خلصان المماليك لا يسمح به ولا يشغب عليه عند هفوة بادرة.

والثالث الاهباض والحياء.

فإنه ربما يقول في نفسه: بأي وجه ألقى مولاي وبأي أعين أبصر الدار العزيزة رباني وأنشأني وهذا أيضاً لا يصلح خطوره بباله في هذا المقام فإنه في ضعف النحيزة والميل من خوادع الطبع عن نصائح العقل والشرع فإن الحياء إتباع زلة القدم بالندم والاعتذار لا التهوك في اللجاج والإضرار.

فقد قال بعض الملوك لخصيص من خواصه عصاه في شيء من أمره: بأي عين تلقاني وقد عصيت أمري فقال: بالعين التي ألقى بها ربي في الصلوات الخمسة وهو سبحانه يراني على فواضح المعاصي.

وقد أثنى الله سبحانه على ما يقتضي فرط الاستشعار.

هل هو إلا عبد خاف بادرة مولاه فتنحى من مكانه إلى من يعطف عليه برحمته وليس هذا ببديع ولا من الصفح ببعيد على أنه بسعادته لو أنصف من نفسه لما استشعر.

فكم أخرجت الخزائن الشريفة عليه من الأموال حتى نبت عرقه وأورق غصنه وكبر شأنه وجميع ضمان البصرة عشر معشار ذلك.

والرابع إصغاؤه - والعياذ بالله - إلى قول من لا ينصحه ويغويه لا يرشده ويتقرب إليه بمتابعة هواه وهذا ما لا يخفى عنه لمحة الناقث ولا يحتاج الإعراض عنه إلى الباعث فقديماً قيل: صديقك من نهاك وعدوك من أغراك.

والله تعالى يوفقه لتحقيقه النظر في هذه الأقسام الربعة التي أحذرها عليه وأحذره منها وييسره لليسرى.

صلوات الله عليه وسلامه - بإنعامه وأعلى -وبع ذلك فأنا أنصفه من نفسي وأقول الحق: إن نفساً رباها خليفة الله في أرضه همتها باختصاصه وشرفها بنسب عبوديته لا يحتمل الهوان ولا يقر على الابتذال فغالب ظني أن نفوره بسعادته إنما هو من ديوان الزمام المعمور.

والآن فأنا وهو بسعادته عبدان ولكني أنفرد عنه بالسن والتجريب وطريقتي هو بسعادته يعرفها وإنني لا أدخر عن أحد نصحاً.

فالصواب أن يقبل قولي ويتحقق صحة مقصدي في نصيحته ومقصده فإني أوجب ذلك له على نفسي وأراه من واجبات خدم مالك الرق - صلوات الله عليه وقد علم الله تعالى أني قد أوضحت من عذره وأحسنت المناب بسعادته ما لو حضره وتولاه بنفسه لما زاد عليه ورأيت الإنعام يستغني عن كل شرط ولا يحتاج إليه وتقررت قاعدته بسعادته أن لا يكون له مع ديوان الزمام المعمور حديث ولامع غيره ممن لا يعرف حقه ولا يكون من الاحترام واجبه فإن أمر أن أتولى وساطته فأنا أعتمد ذلك في مراضيه وتمشية أمره أكثر مما في نفسه.

وإن اختار بسعادته أن يكون غيري وسيطه وسفيره فيعين من يختاره ليكون حديثه معه.

وقد أسلفت من وظائف إحسان المناب أنني تنجزت له بسعادته أماناً متوجاً بالقلم الأشرف المقدس على نفسه الكريمة وماله وأولاده - والأمان المذكور طي كتابي هذا - مقروناً بخاتم أمان ثان فيجب أن يكون هو بسعادته جواب ذلك.

إذ لا يجوز أن يكون الجواب إلا هو بنفسه الكريمة فلا يشعر به أحد إلا وهو مقابل التاج الشريف ملقياً نفسه بين يدي مالكها الذي هو أرحم لها وألطف بها وأشفق عليها منها تالياً ما حكاه القرآن المجيد عن يونس عليه السلام إذ نادى وهو مكظوم: " فإنه يرى - بمشيئة الله تعالى وتوفيقه - كل ما يجب ويأمن كل ما يحذر. سبحانك إني كنت من الظالمين "

وأنا أستسرع وصوله عن استعراض مهماته ولرأيه كرمه إن شاء الله تعالى.

قلت: فإن اتفقت المكاتبة في معنى ذلك في زماننا راعى الكاتب فيه صورة الحال وجرى في ذلك على ما يلائم حاله ويناسب ما هو فيه مع النظر في كلام من سبقه إلى شيء من لك والنسخ على منوال المجيد والاقتداء بالمحسن في إيراده وإصداره.

الصنف السابع الكتب في الفتوحات والظفر بأعداء الدولة وأعداء الملة واسترجاع المعاقل والحصون والاستيلاء على المدن.

وأصلها في فتح الأقفال ودخول الأبواب كأن المدينة أو الحصن كان مقفلاً ممتنعاً بالإغلاق على مقاصده حتى يفتح له فيدخل.

قال في مواد البيان: وهو من أعظم المكاتبات خطراً وأجلها قدراً لاستمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى الذي وعد به أهل الطاعة إظهار دينهم على كل دين وتوفير حظهم من التأييد والتمكين وما يمر فيها من الأساليب المختلفة التي تشتمل هذا القانون عليها.

قال: والكاتب يحتاج إلى تصريف فكره فيها وتهذيب معانيها لأنها تتلى من فوق المنابر على أسماع السامعين وتجعل نصب عيون المتصفحين.

ثم قال: والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله العفو الحليم الغفور الرحيم العليم الحكيم ذي البرهان المبين والفضل الجسيم والقوة المتين والعقاب الأليم مبيد الظالمين ومبير القاسطين ومؤيد العادلين وجاعل العاقبة للمتقين والمملي إمهالاً وإنذاراً والمعاقب تنبيهاً وإذكاراً الذي لا ينجي منه مهرب ولا يبعد عليه مطلب وكيف يعتصم منه وهو أقرب من حبل الوريد وله على كل لافظ رقيب عتيد.

والصلاة والسلام على رسوله الأمين الذي ختم به النبيين وفضله على المرسلين وأيده بأوليائه التائبين الذين قاموا في نصرته وإعزاز رايته المقام الذي فازوا فيه بالخصل فاستولوا على قصبات الفضل فشركهم معه الوصف والثناء فقال جل قائلاً: " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ".

ثم تؤتى بمقدمة تشتمل على التحدث بنعمة الله في شحذ العزائم لنصرته وتثبيت الأقدام لقاء عدوه ومجاهدته وإنجاز وعده في الإعزاز والإظهار والظفر والإظفار والاستبشار بموقع النعمة في الفتح الجليل والإشادة بإبقاء هذا الأثر الجميل.

ثم يفيض بما جرت العادة به في مقاربة العدو ومداناته وبث الطلائع لتنفيذ السرايا في مبادي ملاقاته وما أفضى إليه الأمر في التقابل والمواثبة والتواشح في المطاعنة والمضاربة وذكر مواقف الشجعان في الكفاح والمجاهدة والذب والمجالدة وثبوت الأقدام والجود بالنفوس واشتداد الأيدي وقوة الشكائم واستصحاب العزائم وتفخيم أمر العدو بوصفه بكثرة الرجال والأجناد والقوة والاستعداد لأن توقع الظفر بمن هذه صفته أعظم خطراً وأوقع في النفوس أثراً.

ثم يذكر ما جال بين الفريقين من قراع ومصاع ومصاولة ومناضلة ومناهدة ومكافحة وحماية ومنافحة وثبات ومصافقة ومقاومة وموافقة ومخادعة ومطامعة وينعت المواكب والكتائب والخيول والأسلحة والجرحى والمجادلين والأسرى والمقتلين.

واستعمال التشبيهات الفائقة والاستعارات الرائقة وإرداف المعاني في الإبانة عن لمعان أسنة الذوابل وبريق صفحات المناصل وإعمال المقاصل في القمم وظهور نجوم السيوف من ليل الحرب في دياجي الظلم وينعت الدماء المنبعثة من الجراح على متون الرماح والصفاح.

ويذكر ما أظهره الله تعالى من تكامل النصر ودلائل الظفر ما انجلت عنه الحرب من قتل من قتل وأسر من أسر وهزيمة من هزم وما فاز به الرجال من الأسلاب والأموال والدواب والرجال وما جرت عليه الحال من انفلال العدو عند المقاتلة أو أسر العدو إن أسر أو اعتصامه بمعقل لا يحصنه أو امتناعه بحث يحتاج إلى منازلته باستنزاله قسراً أو حيازة المعقل الذي كان بيده وما اعتمد فيه من حسن السيرة وتخفيف الوطأة عن الرعية وحسم أسباب الفتنة أو رغبته في المسالمة وسؤاله في المهانة لخوف أظله وهلع احتله وما تردد من رسائل وتقرر من شروط وعقود وإنفاذ الأمر في ذلك كما أوجبه الحزم واقتضاه صواب الرأي.

وإن كان السلم قد وقع والتنازع قد ارتفع ذكر اتفاق الحزبين واتحاد الكلمة وشمول النعمة.

وإن كان لم يجبه من المهانة حذراً من المكر والمخادعة ذكر ما مر في ذلك من رأي وتدبير وإن كان طلب المهانة ليجد فسحة المهل فيكثر عدده ويجم عدده وتتم حيلته فاطلع منه على ذلك فبادره مفلاً لكيده ومكره مذيقاً له وبال أمره شرح الحال على نصها وما انتهى إليه آخرها.

قال: وقد وقع في هذه الأمور ما لا يحتسب وسبيل جمعه هذا السبيل.

ثم قال: ويختم الكتاب بحمد الله القاضي لأوليائه بالإدالة ولأعدائه بالإذالة الذي يستدرج بحلمه إمهالاً ولا يلقى العادل عن حكمه إهمالاً والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

وقد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات في أوائل المقالة الرابعة من الكتب أن هذه الكتب مما يجب بسطها والإطناب فيها وأن ما وقع في كتاب المهلب بن أبي صفرة من كتابه إلى الحجاج في فتح الأزارقة من الخوارج على نظم الفتح وبعد صيته على سبيل الإيجاز والاختصار حيث قال فيه: أما بعد فالحمد لله الذي لا تنقطع مواد نعمه عن خلقه حتى تنقطع منهم مواد الشكر.

وإنا وعدونا كنا على حال يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم ولم يزل الله جل ثناؤه يزيدنا وينقصهم ويعزنا ويذلهم ويؤيدنا ويخذلهم ويمحصنا ويمحقهم حتى بلغ الكتاب أجله.

فإنما سلك في سبيل الإيجاز لكونه من التابع إلى المتبوع إذ الحجاج " فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين " كان هو القائم بأمر العراق وما والاه لعبد الملك بن مروان على شدة سطوته وما كان عليه من قوة الشكيمة وشدة البأس مع كون الأدب في المكاتبة المرؤوس الرئيس الإتيان بقليل اللفظ الدال على المقصد حتى لا يكون فيه شغل للرئيس بطول وبسط القول على ما تقدم بيانه في موضعه.

واعلم أن الكتابة في فتوحات بلاد الكفر ومعاقلهم والاستيلاء على بلاد البغاة تكاد أن تكون في الكتابة على نسق واحد إلا أن مجال الكاتب في الفتوحات بلاد الكفر أوسع من حيث عزة الإسلام على الكفر وظهور دينه على سائر الأديان.

وهذه نسخة كتاب بفتح فتحه الخليفة وعاد منه وهي: الحمد لله مديل الحق ومنيره ومذل الباطل ومبيره مؤيد الإسلام بباهر الإعجاز ومتمم وعده في الإظهار بوشيك الإنجاز وأخمد كل دين وأعلاه ورفض كل شرع واجتباه وجعله نوره اللامع وظله الماتع وانتعث به السراج المنير والبشير النذير فأوضح مناهجه وبين مدارجه وأناب أعلامه وفصل أحكامه وسن حلاله وحرامه وبين خاصه وعامه ودعا إلى الله بإذنه وحض على التمسك بعصم دينه وشمر في نصره مجاهداً من ند عن سبيله وعند عن دليله حتى قصد الأنصاب والأصنام وأبطل الميسر والأزلام وكشف غيابات الإظلام وانتعلت خيل الله بقبائل الهام.

يحمده أمير المؤمنين أن جعله من ولاة أمره ووفقه لاتباع سنة رسوله واقتفاء أثره وأعانه على تمكين الدين وتوهين المشركين وشفاء صدور المؤمنين وأنهضه بالمراماة عن الملة والمحاماة عن الحوزة وإعزاز أهل الإيمان وإذلال حزب الكفران.

ويسأله الصلاة على خيرته المجتبى وصفوته المنتصى محمد أفضل من ذب وكافح وجاهد ونافح وحمى الذمار وغزا الكفار صلى الله عليه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سيفه القاطع ومجنه المدافع وسهمه الصادر وناصره المعاضد فارس الوقائع ومفرق الجمائع ومبيد الأقران ومبدد الشجعان وعلى الطهرة من عترته أئمة الأزمان وخالصة الله من الإنس والجان.

وإن أولي النعم بأن يرفل في لباسها ويتوصل بالشكر إلى إيناسها ويتهادى طيب خبرها ويتفاوض بحسن أثرها نعمة الله تعالى في التوفيق لمجاهدة أهل الإلحاد والشرك وغزو أولي الباطل والإفك والهجوم عليهم في عقر دارهم واجتثاث أصلهم والجد في دمارهم واستنزالهم من معاقلهم وتشريدهم عن منازلهم وتغميض نواظرهم الشوس وإلباسهم لباس البوس لما في ذلك من ظهور التوحيد وعزه وخمود الإلحاد وعره وعلو ملة المسلمين وانخفاض دولة المشركين وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد انكفأ عن ديار الفلانيين المشركين إلى دست خلافته ومقر إقامته بعد أن غزاهم براً وبحراً وشردهم سهلاً ووعراً وجرعهم من عواقب كفراً مراً وفرق جمائعهم التي تطبق سهوب الفضاء خيلاً ورجالاً وتضيق بها المهامه حزناً وسهلاً ومزق كتائبهم التي تلحق الوهاد بالنجاد وتختطف الأبصار ببوارق الأغماد وتجعل رعود سنابكها في السماء وسبى الذراري والأطفال وأسر

البطاريق والأقيال وافتتح المعاقل والأعمال وحاز الأسلاب والموال واستولى من الحصون على حصن كذا وحصن كذا ومحا منها رسوم الشرك وعفاها وأثبت سنن التوحيد بها وأمضاها وغنم أولياء أمير المؤمنين ومتطوعة المسلمين من الغنائم ما أقر العيون وحقق الظنون وانفصلوا وقد زادت بصائرهم نفاذاً في الدين وسرائرهم إخلاصاً في طاعة أمير المؤمنين بما أولاهم الله من النصر والإظفار والإعزاز والإظهار ووضح للمشركين بما أنزل الله عليهم من الخذلان وأنالهم إياه من الهوان أنهم على مضلة من الغي والعمى ومنحاة من الرشد والهدى فضرعوا إلى أمير المؤمنين في السم والموادعة وتحملوا بذلاً بذلوه تفادياً من الكفاح والمقارعة فأجابهم إلى ذلك متوكلاً إلى الله تعالى وامتثالاً لقوله إذ يقول: " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم " وعاقد طاغيتهم على كتاب هدنة كتبه له وأقره في أعين يده حجة بمضمونه.

أشعرك أمير المؤمنين ذلك لتأخذ من هذه النعمة بنصيب مثلك من المخلصين وتعرف موقع ما تفضل الله تعالى به على الإسلام والمسلمين فيحسن ظنك وتقر عينك وتشكر الله تعالى شكر المستمد من فضله المعتد بطوله وتتلو كتاب أمير المؤمنين على كافة من قبلك من المسلمين ليعلموا ما تولاهم الله به من نصره وتمكينه وإذلال عدوهم وتوهينه فاعلم ذلك وأعمل به إن شاء الله تعالى.

ثم الفتوح إما فتح لبعض بلاد الكفر وإما فتح لما استولى عليه البغاة من المسلمين.

فأما فتح بلاد الكفار فكان سبيلهم فيه أن يصدر الكتاب بحمد الله تعالى على علو دين الإسلام ورفعته وإظهاره على كل دين ثم على بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالهداية إلى الدين القويم والصراط المستقيم ويذكر ما كان أمره صلى الله عليه وسلم من جهاد الكفار.

ثم على إقامة الخلفاء في الأرض حفظاً للرعية وحياطة للبرية وصوناً للبيضة ويخص خليفة زمانه من ذلك بما فيه تفضيله ورفعة شأنه ثم يؤخذ في تعظيم شأن العدو وتهويل أمره وكثرة عدده ووفور مدده ثم في وصف جيوش المسلمين بالقوة والاستعداد والاشتداد في الله تعالى والقيام في نصرة دينه ثم يذكر الملحمة وما كان من الوقيعة والتحام القاتل وما انجلت عنه الملحمة من النصرة على عدو الدين وخذلانه والإمكان منه وقتل من قتل منهم وأسر من أسر وتفريق وهذه نسخة كتاب كتب به إلى الديوان العزيز أيام الناصر لدين الله عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بفتح القدس الشريف وإنقاذه من يد الكفر في آخر شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة من إنشاء القاضي الفاضل وهو: أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري ولا زال الجد بكل جاحد وغني التوفيق عن رأي كل رائد موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنبل غوي وريش راشد ولا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرابع وأنواراً إلى المساجد وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد.

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير لصبح هذه الخدمة والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل ولطف تحمل الشكر فيه عبء ثقيل وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب ولله في إعادة شكره رضا وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه: هذا مضى.

وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها واستتبت عقائد أهله على أبين بصائرها وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط حصل المشروط وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه والفوز معروضاً فقد بذلت الأنفس في ثمنه وأمر أمر الحق وكان مستضعفاً وأهل ربعه وكان قد عيف حين عفا وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة فأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقاً وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً واستقرت على الأعلى أقدامهم وخففت على الأقصى أعلامهم وتلاقت على الصخرة قبلهم وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم.

ولما كتب الذين عليها عرف منها سويداء قلبه وهنأ كفؤها الحجر الأسود ببت عصمتها من الكافر بحربه.

وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء لهذه النعمى ولا يناجز من يستمطله في حربه ولا يعاتب بأطراف القنا من يتمادى في عتبه إلا لتكون الكلمة مجموعة والدعوة إلى مسامعها مرفوعة فتكون كلمة الله هي

العليا وليفوز بجوهرة الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا وكانت الألسنة ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ومن طلب خطيراً خاطر ومن رام صفقة رابحة تجاسر ومن سما لأن يجلي غمرة غامر وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضها ويضعف بأيديها مهز القوائم فتقضها هذا إلى كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد ولا يرعى به حق الله في العباد ولا يوفى به واجب التقليد الذي تطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق قبه كانوا يعدلون وخلفاء الله كانوا مثل هذه اليوم لله يسألون لا جرم أنهم أورثوا سرهم وسريرهم خلفهم الأطهر ونجلهم الأكبر وبقيتهم الشريفة وطلعتهم المنيفة وعنوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفة فما غابوا لما حضر ولا غضوا لما نظر بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً ومنه مقبولاً وخلص إليهم على المضاجع ما اطمأنت به جنوبها وإلى الصحائف ما عبقت به جيوبها وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميراً والنهار به بصيراً والشرق يهتدي بأنواره بل إن أبدى نوراً من ذاته هتف به الغرب بأن وراه فإنه نور لا تكنه أغساق السدف وذكر لا تواريه أوراق الصحف.

وكتاب الخدم هذا وقد ظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شفقاً وطارت فرقه فرقاً وفل سيفه فصار عصا وصدعت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصا وكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العيان بالعنان عقوبة من الله تعالى ليس لصاحب يد بها يدان وعثرت قدمه وكانت الأرض لها خليفة وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون وأوضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الكامث والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث فبيوت الشرك مهدومة ونيوب الكفر مهتومة وطوائفه المحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية وشجعانه المتوافية مذعنة لبذل المطامع الوافية لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة ولا فناء الأفنية لهم نصرة وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة وبدل الله مكان السيئة الحسنة ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة.

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته وأنجده بملائكته فكرهم كسرة ما بعدها جبر وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفر وأسر منهم من أسرت به السلاسل وقتل منهم من فتكت به المناصل وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح والأكسار فنيلوا بثأر من السلاح ونالوه أيضاً بثار فكم أهل سيوف تقارض الضراب حتى صارت كالعراجين ثم أنجم أسنة تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد مسافة فافترسه وكان اليوم مشهوداً وكانت الملائكة شهوداً وكان الكفر مفقوداً والإسلام مولوداً وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقوداً.

وأسر الملك بيده أوثق وثاقه وآكد وصله بالدين وعلائقه وهو صليب الصلبوت وقائد أهل الجبروت وما دهموا قط بأمر إلا قام بين دهمائهم يبسط لهم باعه ويحرضهم وكان مد اليدين في هذه ظل ظلامه خشاشهم ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ويرونه ميثاقاً يبنون عليه أشد عقد وأوثقه ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه.

وفي هذا اليوم أسرت سراتهم وذهبت دهاتهم ولم يفلت منهم معروف إلا القومص وكان لعنه الله ملياً يوم الظفر بالقتال ومليا يوم الخذلان بالاحتيال فنجا وكان كيف وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده وأهلكه لموعده فكان لعدتهم فذالك وانتقل من ملك الموت على مالك.

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً والبيضاء صنعاً الخافقة هي وقلوب أعدائها الغالبة هي وعزائم أوليائها المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها البشر وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر فافتتح بلد كذا وكذا وهذه كلها أمصار ومدن وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفدن وكل هذه ذوات معاقيل ومعاقر وبحار وجزائر وجوامع ومنابر وجموع وعساكر يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ويحصد منها كفراً ويزرع إيماناً ويحط من منائر جوامعها صلباناً ويرفع أذاناً ويبدل امذابح منابر والكنائس مساجد ويبوئ بعد أهل الصلبان أهل القآن للذب عن دين الله مقاعد ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النفخ في الصور ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد وظنوا أنها من الله مانعتهم وأن كنيستها إلى الله شافعتهم فلما نازلها الخادم رأى بلداً كبلاد وجمعاً كيوم التناد وعزائم قد تألبت وتألفت على الموت فنزلت بعرصته وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته فزوال البلد من جانب فإذا أودية عميقة ولجج وعرة غريقة وسور قد انعطف عطف السوار وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار فعدل إلى جهة أخرى كان للمطامع عليها معرج وللخيل فيها متولج فنزل عليها وأحاط بها وقرب منها وضرب

خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ويزاحمه السور بأكنافه وقابلها ثم قاتلها ونزلها ثم نازلها وبرز إليها ثم بارزها وحاجزها ثم ناجزها فضمها ضمة ارتقاب بعدها الفتح وصدعأهلها فإذا هم لا يبصرون على عبودية الخد عن عتق الصفح فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لنجدة فعرفهم الخادم في لحن القول وأجابهم بلسان الطول وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها ولا يفارق سهامها نصالها فصافحت السور بأكنافه فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك وقدم النصر نسراً من المنجنيق يخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماك فشج مرادع أبراجها وأسمع صوت عجيجها صم أعلاجها ورفع مثار عجاجها فأخلى السور من السيارة والحرب من النظارة فأمكن النقاب أن يسفر للحرب النقاب أن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبله وتبرأ بعض الحجارة من بعض وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض وفتح في السور باباً سد من فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور كما يئس نجاتهم أبواباً وأخذ ينقب في حجره فقال عنده الكافر: " يا ليتني كنت تراباً " الكفار من أصحاب القبور وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور.

وفي الحال خرج طاغية كفرهم وزمام أمرهم ابن بارزان سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلام لا بالعنوة وبالأمان لا بالسطوة وألقى بيده إلى التهلكة وعلاه ذل الملكة بعد عز المملكة وطرح جبينه في التراب وكان جبيناً لا يتعاطاه طارح وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح إليه طرق آمل طامح وقال: هاهنا أسارى مؤمنون يتجاوزون الألوف وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الدار وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار بدئ بهم فعجلوا وثني بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ثم استقلوا بعد ذلك فلم يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف ولم يسل سيف من يد إلا بعد أن تنقطع أو ينقصف وأشار الأمراء بالأخذ بالميسور فإنه إن أخذ حرباً فلا بد أن تقتحم الرجال الأنجاد وتبذل أنفسها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد.

وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات واعتاق الحركات فقبل منهم المبذول عن يد وهم صاغرون وانصف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان لا جرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم وأرضى أهل الحق وأسخطهم فإنهم خذلهم الله حموها بالأسل والصفاح وبنوها بالعمد والصفاح وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاستبارية منها كل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه ولا يطرد لألاؤه وقد لطف الحديد في تجزيعه وتفنن في توشيعه إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد كالذهب الذي فيه نعيم عتيد فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق وعمداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق.

وأعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان فكادت السموات يتفطرن للسجوم لا للوجوم والكواكب منها ينثرن للطرب لا للرجوم ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدودة وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر فرحب به ترحيب من بر بمن بر وخفق علماه في حفافيه فلو طار سروراً لطار بجناحيه.

وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب في الصدور فإن قوى العساكر قد استنفذت مواردها وأيام الشقاء قد دمرت مواردها والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها في بلاد ترفد ولا تسترفد وتجم ولا تستنفذ وينفق عليها ولا ينفق منها وتجهز الأساطيل لبحرها وتقام المرابط لبرها ويدأب في عمارة أسوارها ومرمات معاقلها وكل شقة فهي بالإضافة إلى نعمة الله الفتح محتملة وأطماع الفرنج فيما بعد ذلك مذاهبها غير مرجئة ولا معتزلة فلن يدعو دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تسمع ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع.

وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص ولا بما سوى المشافهة تتلخص.

فلذلك نفذنا لساناً شارحاً ومبشراً صادحاً ينشر الخبر على سياقته ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته.

قلت: وقد وقفت على نسخة كتاب كتب به عن المكتفي بالله عندما بعث محمد بن سليمان الكاتب إلى الديار المصرية فانتزعها من يد بني طولون واستولى عليها الخليفة في نحو كراسة تاريخها سنة اثنتين وتسعين ومائتين أولها: أما بعد فالحمد لله العلي الكبير العزيز القدير وأضربت عن ذكرها لطولها.

الصنف الثامن المكاتبة بالاعتذار عن السلطان في الهزيمة قال في مواد البيان: من أخلاق العامة تقبيح سيرة السلطان إذا زل في بعض آرائه والإزراء على تدبيره في جيش يجهزه فيكسر ونحو ذلك مما لا يسلم من مثله والإضافة فيه والتشنيع به فيحتاج إلى مكاتبتهم بما يتلاقى الوهن ويقيم العذر كما يكاتبهم بتفخيم المنح وتعظيم الفتوحات والتحدث بمواقع المواهب وشكر الله تعالى على إسباغ النعم والإظفار بأعداء الدين والدولة ليقوي بذلك منتهم ويرهف بصائرهم ويستخلص طاعتهم ويملأ صدورهم رهبة.

قال: وليست لهذه الكتب رسوم ينتظم كل ما وقع فيها لاختلاف ما يلام فيه ويعتذر.

ثم قال: ونحن نرسم في أصوله قولاً وجيزاً وهو أن يقتضب الكاتب له المعاذير التي تحسن أحدوثته وتستر زلته والحجج التي تعيد اللائم عاذراً والذام شاكراً وتوجب التقريظ من حيث يجب التأنيب والإحماد من حيث يستحق التذنيب.

مثل أن يعتذر عن هزيمة جيش فيقول: وقد علمتم أم الحرب سجال والدنيا دول تدال وقد تهب ريح النصر للقاسطين على المقسطين امتحاناً من الله وبلوى ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى من غير أن يصرح بباطل ولا يطلق كذباً محضاً ولا يختلق زوراً يعلم الناس خلافه فتتضاعف الهجنة وتتكاثف المحنة فإنه لا شيء أقبح على السلطان وأقدح من جلالة الشان من أن يعثر في كتبه على إفك قد يعلمه بعض من يقف عليه بل ينبغي أن يعتمد في ذلك حسن التخلص والتورية عن الغرض واستعمال الألفاظ التي تدل على أطراف الحال ولا تفصح بحقائقها.

وهذه نسخة لله الذي ساس الأمور بحكمته وأبان فيها مواقع قدرته وسلك فيها طريق مشيئته وصرفها على ما رآه عدلاً بين العباد في أقسام نعمته ومحنته وأحوال بلواه وعافيته وجعل الأيام فيهم نوباً والأحوال بينهم عقباً فخص أولياءه وأهل طاعته بالنصر في المحاكمة والصلح عند المخاصمة والظهور على من شاقهم وعاداهم والقهر لمن ضادهم وناواهم وإنجازاً لما وعد به الصابرين المحتسبين وإعزازاً للدين وأنصاره من المؤمنين ولم يخبل أعداءه من دولة أدالها لهم وجولة على الحق زادها في طغيانهم ووصل الإملاء لهم فيها بخذلانهم ليجب الثواب للمحسنين ويحق العذاب على الكافرين.

" إن يمسسكم قرح فقد مس قوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس " - فقال في محكم كتابه - وقد ظهر المشركون على المسلمين.

وناب بين الفرقين في المصائب والمواهب والمسار والمضار ليشفي الله وقال: " ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين " صدور المؤمنين وليمحص ما في قلوبهم ويوجب لهم إخلاص السرائر في طاعته والجهاد في سبيله والنصرة لرسوله والمراماة عن دينه والمدافعة عن حريمه ضعف الثواب وحسن المآب ويحل بالمشركين ما أعد لهم في دار الجزاء من أليم العذاب.

وإذا كان الحال بين الفريقين المتلاقيين والفئتين المتجاورتين والحزبين المتحاكمين في تعاور الغلبة وتعاقب الدولة جارياً على تقدير الله ومتصرفاً على حكمه ومستوسقاً على ما سبق في علمه فليس يغني في ذلك زيادة عدد ولا اتصال مدد ولا قوة أيد ولا لطف كيد ولا اختيار وقت محمود للقتال ولا الانتخاب لأهل البسالة والنجدة من الرجال ولا يجب أن يستريث النصر من أبطأ عنه ويستشعر الجزع من نال خصمه منه بعد تحصيله السلامة في نفسه وقيام العذر له بعنايته وجده وقد جمع الله للأمير من المناقب التي ورثها عن آبائه وحازها في صدره والحيازة فيما بان من فضل بأسه وثبات جأشه وأصالة رأيه وصحة تدبيره وإيفائه الحرب شروطها والهيجاء حقوقها من الحزم والتؤدة والإقدام عند الفرصة والإصابة في التقدير والتعبير والاحتياط في سد موقع الخلل والعورة وإعمال النظر والروية لولا اعتراض القضاء الذي هو مالك نواصي العباد وغير مدفوع بمحال ولا جلاد ولا قوة ولا عدة ولا عتاد ما أوفى حسنه على مزية الظفر وزاد عظمه في السناء والخطر إلى ما شمل عسكره في منقلبه بمراعاته لهم ومدافعته من ورائهم حتى توافى الجمع موفورين وآبوا سالمين غانمين وبالله الحول والقوة وعليه ضمان الإدالة على ما جرى به وعده الصادق وأخبر عنه كتابه الناطق وهو حسب أمير المؤمنين وكافيه وناصره ووليه ونعم الوكيل والظهير والمولى والنصير وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وآله الطيبين أجمعين وسلم تسليما.

وفي مثله من إنشاء أحمد بن سعيد: أحكام الله جل جلاله جارية على سبل جامعة لوجوده الحكمة منتظمة لأسباب الصلاح والمعدلة.

فمنها ما عرف الله أولياءه والمندوبين بطاعته والمجموعين بهدايته طريق المراد منه وسبب الداعي إليه والعلة فيما قضي من ذلك لحينه والصورة المقتضية له.

ومنها ما استأثر بعلمه وطوى عن الخلق معرفة حاله فهو وإن أشكل عليهم موضع الحاجة إليه وموقع العائدة به ورؤي بهم اضطراباً في ظاهرة عند تأملهم إياه بمقادير عقولهم ومبالغ أفهامهم فبني على أوثق أساس الحكمة وأثبت أركان الصواب على الجملة وكيف لا يكون كذلك والله خالق الأشياء كلها وعالم بها قبل كونها في أحوال تكوينه إياها وبعده في منزع غاياتها ومقضي عواقبها فليس تخفى عليه خافية ولا تعزب عنه دانية ولا قاضية ولا يسقط عن معرفته فصل ما بين الخاطرين والوهمين في الخير والشر وما بين الجبلين والدربين في الوفور والغمور فكيف بما يبرزه الظهور ويخبر فيه عن موضع التدبير المحتاج فيه إلى إحكام الصنعة وإتقان التقدير ومن ظن أن شيئاً من ذلك يخرج عن نهج الصواب ويخالف طريق الصلاح فقد ضل من حيث ضلل وغلط من حيث غلط واتصل سوء ظنه وفساد فكره بالزراية على فعل ربه تعالى عن قول المبطلين ورجم الشياطين.

ثم إن لله جل جلاله عادة في الجيشين المتحاربين والحزبين المتحاكمين من عباده المؤمنين وأضدادهم المفسدين الملحدين في المداولة بينهما والمعاقبة بين الفئتين منهما في العجز والظهور والوفاء والقصور والمعافاة والامتحان والنصر والخذلان والإعلاء لراية الحق في حال والإملاء للباطل في أخرى بتضمين الخيرة لأوليائه والدائرة على أعدائه عاجلاً بالتمحيص لهؤلاء وبالمحق لأولئك بما يصل إليهم من مصيبته وينوبهم في حاضر الدنيا من رغبته ويحل العادين من المشركين دار الفاسقين ويجعل العاقبة للمتقين ومن سعد بقسم من التوفيق وحظ من فائدة الإرشاد فليس في هذه الحالة بزيادة أنصار وعدة وفضل عتاد وعدة وبسالة ونجدة وأيد وقوة وسعة وبسطة ولا يعدو أن يسلم لله تعالى قاضياً له وعليه ويوفى بإحدى الحسنيين من علوه أو غلبه عدوه أو يتوكل عليه وهو حسبه منعماً وممتحناً ومعافياً ومسلماً ونعم الوكيل.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل بين الكتاب دائر في مصطلحاتهم إلى الآن.

وللشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في ذلك تفننات كثيرة أورد بعضها في كتابة حسن التوسل.

فمن ذلك.

ما شاء أنشأه فيمن هزم هو وجيشه يتضمن إقامة عذره ووصف اجتهاده ويحث على معاودة عدوه والطلب بثاره وهو: هذه المكاتبة إلى فلان: لازال مأمون الغرة مأمول الكرة مجتنياً حلو الظفر من أكمام تلك المرة المرة راجياً من عواقب الصبر أن يسفر له مساء تلك المساءة عن صبح المسرة واثقاً من عوائد نصر الله بإعادته ومن معه في القوة والاستظهار كما بدأهم أول مرة.

أصدرناها وقد أتصل بنا نبأ ذلك المقام الذي أوضحت فيه السيوف عذرها وأبدت به الكماة صبرها وأظهرت فيه الحماة من الوثبات والثبات ما يجب عليها وبذلت فيه الأبطال من الجلاد جهدها ولكن لم يكن الظفر إليها وكان عليهم الإقدام على غمرات المنون والاصطلاء بجمرات الحرب الزبون ولم يكن عليهم إتمام ما قدر أنه لا يكون فكابرت رقاب الأعداء في ذلك الموقف السيوف وكاثرت أعدادهم الحتوف وتدفقت بحارهم على جداول من معه ولولا حكم القدر لانتصفت تلك الآحاد من تلك الألوف فضاق بازدحام الصفوف على رجاله المجال وزاد العدد على الجلد فلم يفد له الإقدام على الأوجال مع قدوم الآجال وأملي للكافرين بما قدر لهم من الإنظار وحصل لهم من الاستظهار وعوضوا بما لم يعرفوه من الإقدام عما ألفوه من الفرار.

" ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض " وقد ورد أنهم ينصرون كما ننصر وإذا كانت الحروب سجالاً فلا ينسب إلى من كانت عليه وبالا إذا اجتهد ولم يساعده القدر أنه قصر مع أنه قد أشتهر بما فعله في مجاله من الذب عن رجاله وما أبداه في قتاله من الضرب الذي ما تروى فيه خصمه إلا بدره بارتجاله وأن الرماح التي امتدت إليه أخرس سيفه ألسنة أسنتها والجياد التي أقدمت عليه جعل طعنة أكفالها مكان أعنتها فأثبت في مستنقع الموت رجله ووقف وما في الموت شك لواقف ليحمي خيله ورجله حتى تحيز أصحابه إلى مأمنهم وأقام نفسه دونهم دريئة لمن بدر من سرعان القوم أو ظهر من مكمنهم وهذا هو الموقف الذي قام له مقام النصر إذ فاته النصراء وفاته النصر والمقام الذي أصيب فيه من أصحابه آحاد يدركهم أدنى العدد وفقد فيه من أعدائه مع ظهورهم ألوف لا يدركهم الحصر وكذا فليكن قلب الجيش كالقلب يقوى بقوته الجسد وإذا حق اللقاء فلا يفر عن كناسه إلا الظبي ولا يحمي عرينه إلا الأسد وما بقى إلا أن تعفو الكلوم وتثوب الحلوم وتندمل

الجراح وتبرأ من فلول المضارب صدور الصفاح وتنهض لاقتضاء دين الدين من غرمائه المعتدين وتبادر إلى استنجاز وعد الله بأن الله يمحص المؤمنين ويمحق الكافرين والليث إذا جرح كان أشد لثباته وأمد لوثباته والموتور لا يصطلى بناره والثائر لا يرهب الإقدام على المنون في طلب ثاره والدهر ذو دول والزمان متلون إن دجت عليكم منه بالقهر ليلة واحدة فقد أشرقت لكم منه بالنصر ليال أول فالمولى لا يلفت إلى ما فات ويقبل بفكره على تدبير ما هو آت ويعد للحرب عدته ويعجل أمد الاستظهار ومدته ولا يؤخر فرصة الإمكان ولا يعيد ذكر ما مضى فإنه دخل في خبر كان ولا يظهر بما العاجز من ظن أنه يصيب ولا يصاب ولا يتخذ غير ظهر حصانه حصاناً فلا حرز أمنع من صهوة الجواد ولا سلم أسلم من الركاب وليعلم أن العاقبة للمتقين ويدرع جنة الصبر ليكون من النصر على ثقة ومن الظفر على يقين فإن الله مع الصابرين ومن كان الله معه كانت يده الطولى وإذا لقي عدو الله وعدوة فليصبر لحملته فإن الصبر عند الصدمة الأولى والله تعالى يكلؤه بعينه ويمده بعونه ويجعل الظفر بعدوه موقوفاً على مطالبته له بدينه.

ومن ذلك ما كتبه على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار ويصف الاحتفال بأخذ الثار: هذه المكاتبة إلى فلان: أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره وبلغه عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح وألسنة الرماح سره وأراه من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقق به أن كسوف الشمس لا ينال طلعتها وأن سرار القمر لا يضره.

توضح لعلمه أنه ربما اتصل به خبر تلك الواقعة التي صدقنا فيها اللقاء وصدمنا العدو صدمة من لا يحب البقاء وأريناه حرباً لو أعانها التأييد فللت جموعه وأذقناه ضرباً لو أن حكم النصر فيه إلى النصل أوجده مصارعه وأعدمه رجوعه.

وحين شرعت رياح النصر تهب وسحاب الدماء من مقاتلهم تصوب وتصب وكرعت الصفاح في موارد نحورهم وكشف الرماح خبايا صدورهم وما بقي إلا أن تستكمل سيوفنا الري من دمائهم وتقف صفوفنا على ربوات أشلائهم وتقبض بالكف من صفحت الصفاح عن دمه وتكف بالقبض يد من ألبسته الجراح حلة عندمه أظهروا الخرع في عزائمهم وحكموا الطمع في غنائمهم فحصل لجندنا عجب أعجل سيوفنا أن تتم هدم بنائهم.

وطمع منع جيوشنا أن تكف عن النهب إلى تصير من ورائهم فاغتنم العدو تلك الغفلة التي ساقها المهلكان العجب والطمع وانتهز فرصة الإمكان التي أعانه عليها المطمعان إبداء الهلع وتخلية ما جمع فانتثر من جمعنا بعض ذلك العقد المنظم وانتقض من حزبنا ركن ذلك الصف الذي أخذ فيه الزحام بالكظم وثبت الخادم في طائفة من ذوي القوة في يقينهم وأرباب البصائر في دينهم فكسرنا جفون السيوف وحطمنا صدور الرماح في صدور الصفوف وأرينا تلك الألوف كيف تعد الآحاد بالألوف وحلنا بين العدو وبين أصحابنا بضرب يكف أطماعهم ويرد سراعهم ويعمي ويصم عن الآثار والأخبار أبصارهم وأسماعهم إلى أن نفسنا للمنهزم عن خناقه وآيسنا طالبه عن لحاقه ورددناه عنه خائباً بعد أن كادت يده تعتلق بأطواقه وأحجم العدو مع ما يرى من قلتنا عن الإقدام علينا ورأى منا جداً كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا وعادوا ولنا في قلوبهم رعب يثنيهم وهم الغالبون ويدركهم وهم الطالبون ويسلبهم رداء الأمن وهم السالبون وقد لم الخادم شعث رجاله وضم فرقهم بذخائر ماله وأمدهم بنفقات أصلحت أحوالهم وأطلقت في طلب عدو الله أقوالهم وسلاح جدد استطاعتهم وأعان شجاعتهم وخيول تكاد تسابقهم إلى طلب عدوهم وتحضهم على أخذ حظهم من اللقاء كأنها تساهمهم في أجر رواحهم وغدوهم وقد نضوا رداء الإعجاب عن أكتافهم واعتصموا بعون الله وتأييده لا بقوة جلدهم ولا بحد أسيافهم وسيعجلون العدو إن شاء الله تعالى عن اندمال جراحه ويتعجلون إليه بجيوش تسوء طلائعها في مسائه وتصبحه كتائبها في صباحه والله تعالى لا يكلنا إلى جلدنا ولا ينزع أعنة نصره من يدنا.

الصنف التاسع المكاتبة بتوبيخ المهزوم وتقريعه والتهكم به وهذا النوع من المكاتبات قليل الوقوع ولذلك لم يتعرض إليه في مواد البيان.

والذي ينبغي أن تبنى المكاتبة فيه عليه ذكر هزيمة المهزوم وما استولى عليه من الغلبة والقهر وصورة الحال في النصرة عليه والاستيلاء على بلاده وأمواله وسائر ذات يده وأسر رجاله واسترقاق ذراريهم ونسائهم وما يجري مجرى ذلك مما في إيلام خاطره وتقطيع قلبه حسرات على ما ناله ونحو ذلك مما يدعو المكتوب إليه إلى الطاعة ويوجب الانقياد.

وهذه نسخة كتاب من هذه النمط كتب به القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله إلى البولس سمند ملك الفرنج المستولي على طرابلس من الشام وأنطاكية من بلاد العواصم حين غزاه الملك في طرابلس ثم قصد أنطاكية فأخذها في عانيه وهي: قد علم المقوص الجليل المنتقلة مخاطبته - بأخذ أنطاكية منه - من البولسية إلى القومصية ألهمه الله رشده وقرن بالخير

قصده وجعل النصيحة محفوظة عنده ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر وهدم الأعمار وكيف كنست تلك الكنائس من على بساط الأرض ودارت الدوائر على كل دائر وكيف جعلت تلك الجوائز من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر وكيف قطرت الرجال واستخدمت الأولاد وتملكت الحائر وكيف قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق - إن شاء الله تعالى - والستائر وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والحواشي وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم الحريم وركب الماشي هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت وإذا سمعت صوتاً قلت فزعاً: علي هذا الصوت وكيف رحلنا عنك رحيل من لا يعود وأخرناك إلى ما كان تأخيرك إلا لأجل معدود وكيف فارقنا بلادك وما بقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية ولا جارية إلا وهي في ملكنا جارية ولا سارية إلا وهي في أيدي المعاون سارية ولا زرع إلا وهو محصود ولا موجود إلا وهو أنك مفقود وما منعت تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة ولا تلك الأودية التي في الختوم مخترقة وللعقول خارقة وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك وإن بعدنا فسنعود على الأثر وها نحن نعلمك بما تم ونفهمك بالبلاء الذي عم.

كان رحيلنا عنك من طرابلس يوم الأربعاء ونزولنا أنطاكية في شهر رمضان وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبارزة وتناصروا فما نصروا وأسر من بينهم كيد اسطيل فسأل في مراجعة أصحابك فدخل إلى المدينة وخرج وهو وجماعتك من رهبانك وإن رأيهم في الخير مختلف وقولهم في الشر واحد فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت وأنهم قد قدر الله عليهم الموت رددناهم وقلنا: نحن الساعة لكم نحاصر وهذا الأول في الإنذار والآخر فرجعوا به متشبهين بفعلك ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ففي بعض ساعة مرشان المرشان وداخل الرهب والرهبان ولان للبلاء القسطلان وجاءهم الموت من كل مكان وفتحنا بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها فلو رأيت خيالتك وهي صرعى تحت أرجل الخيول وديارك والنهاية فيها تصول والكسابة فيها تجول وأموالك وهي توزن بالقنطار وإماؤك كل أربع منها تباع فتشترى من مالك بدينار ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونثرت وصحائفها من الأناجيل المزورة قد نشرت وقبور البطارقة وقد تغيرت ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس والمذابح وقد ذبح فيها الراهب والقسيس والشماس والبطارقة وقد دهموا بطارقة وأبناء المملكة وقد دخلوا في المملكة ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق وقصورك وأحوالها قد حالت وكنيسة بونصر وكنيسة القسيان وقد زلت كل منها وزالت لكنت قلت: يا ليتني كنت تراباً ويا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتاباً ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ولكنت تطفئ تلك النيران بماء عبرتك ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك لصارت شوانيك من شوانيك ولتيقنت أن الإله الذي أنطاك النطاكية منك استرجعها والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعها ومن الأرض اقتلعها ولتعلم أنا قد أخذنا - بحمد الله - منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام وهو دركوش وشقيف تل منس وشقيف كفردبين وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية في هذه المدة إقامة وكونك ما كنت بها فيكون إما قتيلاً وإما أسيراً وإما جريحاً وإما كسيراً وسرلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات ولعل الله إنما أخرك لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خبرناك ولما لم يقدر أحد أن يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواك باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك لتتحقق الأمر على ما جرى وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً كما أن بعيد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل عما جرى.

وهذه نسخة في هذا المعنى من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهي: هذه المكاتبة إلى فلان أقاله الله عثرة زلته وأقامه من حفرة ذلته وتجاوز له عن كبير فراره من جمع عدوه على قلته.

بلغنا أمر الواقعة التي لقي فيها العدو بجمع قليل غناؤه ضعيف بناؤه كثيف في رأي العين جمعه خفيف في المعنى وقعه ونفعه أسرع في مفارقة المجال من الظل في الانتقال وأشبه في مماثلة الوجود بالعدم من طيف الخيال يمشون إليه بقلب واحد ويهتدون من تخرصه برأي بينه وبين الصواب ألف حاجب ويأتمون منه بمقدم يرى الواحد من عدوه كألف ويتسرعون منه وراء مقدام يمشي إلى الزحف ولكن إلى خلف جناح جيشه مهيض وطرف سنانه غضيض وساقة عسكره طالعة وطلائعه كالنجوم ولكن في حال كونها راجعة تأسف السيوف بيمينه على ضارب وتأسى الجنائب حوله إذ تعد لمحارب فتعد لهارب وأنه حين وقعت العين على العين وأيقن عدوه لما رأى من عدده وعدده معاجلة الحين أعجل نصول العدا عن وصولها وترك غنيمة الظفر لعداه بعد أن أشرف على حصولها تناديه ألسنة أسنته: الكرة الكرة فلا يلوي إلى ندائها وتشكو إليه سيوف الظمأ وقد رأت مورد الوريد فيردها إلى الغمود بدائها فمنح عدوه مقاتل رجاله وأباحهم كرائم مال جنده وماله وخلى لهم خزائن سلاحه التي أعدها لقتالهم فأصبحت معدة لقتاله فنجا منجى الحارث ابن هشام وآب بسلامة أعذب منها - لو عقل - شرب كأس الحمام واتسم بين أوليائه وأعدائه بسمة الفرار وكان يقول: النار لا العار فجمع له فراره من الزحف بين النار والعار وعاد

بجمع موفور من الجراح موقر من الإثم والاجتراح لا علم بما جرى عند أسيافهم ولا شاهد بمشاهدتهم الوغى غير مواقع الظبا في أكتافهم فبأي جنان يطمع في معاودة عدوه من هذا قلبه وهؤلاء حزبه وذلك القتال قتاله وتلك الحرب حربه.

وبعد فإن كانت له حمية فستظهر آثارها أو أريحية نارها أو أنفة فستحمله على غسل هذه الدنية وتبعثه على طلب غايتين: إما الشهادة مريحة أو حياة هنيئة والله تعالى يوقظ عزمه من سنته ويعجل له الانصاف من عدوه قبل إكمال سنته.

الصنف العاشر في المكاتبات بالتضييق على أهل الجرائم قال في مواد البيان: لم يزل السلطان يكتب إلى الولاة عندما كان ينتهي إليه من إقدام الرعايا على ارتكاب الجرائم واستباحة المحارم واقتراف المآثم كالزنا واللواط وشرب الخمر وقطع الطرق والغصب والتظالم وما يجري هذا المجرى بالتضييق عليهم وإقامة حدود الله تعالى فيهم.

قال: والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله البادئ بنعمته قبل افتراض طاعته الممتن بفضله قبل إيجاب شكره خالق الخلائق جوداً وكرماً وموسعهم مناً ونعماً الذي اختار دين الإسلام وطهره من الأرجاس ونزهه عن الأدناس واختص به صفوته من الناس وابتعث به محمداً سيد المرسلين: " لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ".

ويحده أمير المؤمنين أن فوض إليه إيالة خلفه وأقدره على القيام بخدمته ونصبه لإعزاز دينه والمحافظة على مفروضه ومسنونه وذيادة العباد عن محارمه التي نهى عن التعدي إليها وإقامة الحدود عليهم فيها ويسأله الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يقال: إن أمير المؤمنين يرى أن من أعظم نعم الله تعالى عليه توفيق لحفظ ما استحفظه من شريعته ورعاية ما استرعاه من بريته وتوفير القيام على من قلده النظر فيهم واعتماد ما يعود بالصلاح في الدين والدنيا عليهم ومساواته بين قريبهم وبعيدهم في تفقده ومماثلته بين قاصيهم ودانيهم في تعهده فلا ينال القريب فقط نصيباً من رعايته ويعلم جاهلهم ويهدي حائرهم ويشحذ بصائرهم ويثقف مائدهم ويصلح فاسدهم ويتخولهم من مواعظه بما يبرد الغلل ويشفي العلل وينسخ الشك باليقين ويقبس مقابس النور المبين فمن أصغى إلى إرشاده سعد جده وورى زنده وأحمد يومه وغده ومن خالف عن أمره ضل مسعاه وخسر آخرته ودنياه ودعا إلى اتباع أمر الله تعالى في تقويمه وإصلاحه والكف بإقامة الحدود عليه من جماحه.

وانتهى إلى أمير المؤمنين ما أقدم عليه الأحداث وأهل الدعارة قبلكم من احتقاب الآثام واستدماث مراكب الحرام واستهتار بمحظور اللذات والإكباب على دنيء الشهوات التي تسلخ من الدين وتخرج عن دائرة المسلمين وتدفع عن تأدية العبادات وإقامة الصلوات وتنظيم في سلك البهائم المرسلة والسوائم المهملة وتقصير مشايخهم وعلمائهم عن كفهم والأخذ على أكفهم وتعريفهم وجوه مراشدهم وتقويم أودهم فامتعض من ذلك وأشفق من نزول القوارع والمثلات وحلول البليات والآيات وارتجاع ما أودعكم الله تعالى من نعمته وانتزاع ما ألبسكم من رحمته وبادر بكتابه موقظاً لغافلكم ومبصراً لذاهلكم وباعثاً لكم على مراضيه الأولى ومعاودة الطريقة المثلى ومبادرة آجالكم بأعمالكم والأخذ لأخراكم من أولاكم ولسقمكم من صحتكم ولنومكم من يقظتكم عالمين بأن الدنيا لعب ولهو وأن الآخرة هي دار القرار وأنكم فيها كسفر شافوا المنزل فاجهدوا عباد الله واحتشدوا وأقلعوا وارجعوا واسمعوا وعوا فأنكم والله قد توضحت خدعها وتصرم متاعها وجل متوقعها والسعيد من وثق بما قدم لنفسه بعد نفاذ أيامه وورود حمامه والشقي من أفرط وفرط وندم حيث لا مندم وأوعز إلى والي الحرب فلان بقراءة ما نص فيه عليكم واختبار سيركم بعد مروره على أسماعكم فمن رغب في التقوى وآثر الآخرة على الدنيا عرف ذلك وتوخاه بتكريمه وتخويله ومن أبى إلا غواية وضلالة وبطالة ومحالاً أقام حد الله تعالى عليه غير مراقب فيه فرحم الله عبداً صان نفسه في هذه الدار عن العار وحماها في الآخرة من عذاب النار وأمير المؤمنين يرجو أن ينفعكم الله بهدايته ويشفي صدوركم بموعظته ويرشدكم إلى ما يفضي بكم إلى الكفاية والحماية.

فليعلم فلان بن فلان ذلك من أمير المؤمنين ورسمه وليعمل عليه بجملته إن شاء الله تعالى.

الصنف الحادي عشر الكتب في النهي عن التنازع في الدين قال في مواد البيان: من أهم ما صرف إليه السلطان تفقده ووقف عليه تعهده أمر الرعايا في أعماله وتنفيذ الكتب إليهم بالنهي عن التنازع في الدين وحسم أسباب المجادلة والمراء والتحذير من اتباع البدع والأهواء والإخلاد إلى مضل النحل والآراء لأنه متى فسح لهم في هذا الباب صاروا شيعاً متباينين وفرقاً متحاربين وانشقت عصاهم وانقضت حليهم وخرجوا عن أحكام أهل السلامة إلى أحكام أهل الفتنة وعاد ضرر ذلك على الدين والسلطان.

ولهذا صرف إليه الساسة الحزمة من الملوك الاهتمام ولم يبخلوا بحسم مادته على تغاير الأيام.

ثم قال: والرسم فيها أن تصدر بحمد الله تعالى على نعمه في تأليف كلمة أهل الإسلام وما من به عليهم من الاتفاق والالتئام وشكره على موهبته في نزع الغل من صدورهم والتأليف بين قلوبهم وتصيير إخواناً متصافين وخلاناً متوافين وعونهم بما وفقهم له من إظهار على من شق عصاهم وإقدارهم بما منحهم من الألفة على مراماة من رماهم والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ثم يشفع هذا بأن أمير المؤمنين بما مكنه الله تعالى من مراضيه ووفقه له من القيام بفرضه والنهوض بحقوق طاعته والعمل بكتابه وسنته ورغبته في الخير العام وشمول الصلاح لكافة الأنام لا يزال يحص رعيته على ما يقضي بسداد دنياهم وحسن المنقلب في أخراهم ويرى أن أنفع ذلك عائدة وأجزله فائدة ما رفع عنهم أسباب التنافر ودعاهم إلى التعاضد والتظافر وحال بينهم وبين الخوض في محدث النحل والآراء والإصغاء إلى مضل البدع والأهواء التي تصد عن سنن الهدى وتلقي في مهاوي الردى وتدعو إلى شق العصا وتقضي بانتثار النظام واختلاف الأنام وانفصام عرى الإسلام وكفهم عن المماراة في الدين والإصغاء إلى سنة المضلين المعطلة للسنن القادحة للفتن الداعية إلى احتقاب الآثام وإراقة الدماء الحرام ونحو ذلك مما يضاهيه.

ثم يقول: وانتهى إلى أمير المؤمنين التفاتكم عن معايشكم التي جعلها الله لدنياكم قواماً وعبادتكم التي صيرها لآخرتكم نظاماً وإقبالكم على المماراة والمنازعة والمناظرة والمجادلة إلى شكوك يقيمها من يرغي في الرياسة والتقدم ليفوز بخبيث المطعم الذي يعمي البصائر ويفسد السرائر ويقدح زند الضلال ويشب نار المحال والانتحال فامتعض أمير المؤمنين من ذلك وخاف عليكم أليم عاجله وذميم آجلته وبادركم بكتابه هذا منبهاً لغافلكم ومرشداً لجاهلكم وباعثاً لكم على التشاغل بما أطاب أخباركم وحسن آثاركم من تلاوة كتاب الله الذي آثركم بتلاوته وزيارة بيوت عبادته والتأدب بأدب نبيه وعترته وأوعز إلى النائب في الحرب بتقويم من خرج عن أمره وتثقيف من أصر على غيه وأن يحسم الداء قبل استشرائه ويستدركه دوين استفحاله فأصغوا إلى زواجر أمير المؤمنين ومواعظه واقتدوا بهديه ومراشده لتفوزوا بطاعته وتسعدوا برضاه وتسلموا في الحاضر من مهانة أنتم بغيرها أولى إن سلكتم الطريقة المثلى وفي الغابر مما أعده الله لمن أمره من العقاب في الدار الأخرى فاعلموا هذا واعملوا به إن شاء الله تعالى.

لصنف الثاني عشر المكاتبة بالأوامر والنواهي

قال في مواد البيان: على هذه الكتب مدار أشغال السلطان في أعماله لأنها النافذة في تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم ولاية وعمالة.

قال: وليس لهذه أمثلة فنوردها لكنه ينبغي للكاتب أن يؤكد القول بها فإن الأمر فيها والنهي - وإن اختلف نظمها - نوع واحد لأن كل مأمور به منهي عن ضده وكل منهي عن ضده مأمور بضده فينبغي له أن يؤكد القول في امتثال ما أمر والعمل عليه والانقياد له والانتهاء عما نهى عنه والحذر من الإمام به.

ويجزم المر في العبارة عنهما جزماً تاماً لا يتمكن معه من الإخلال ببعضهما والنقص فيهما لهوى ويأتي من المبالغة بما يضيق العذر ومتى وقع تقصير أو تثاقل عما حدد فيهما فإنما يمثل مثل ذلك جامعة من تفنن المعاني التي يأمر بها وينهى عنها.

ثم قال: والكاتب إذا عرف الترتيب الواقع في ذهين الغرضين على طريق الإجمال أمكنه أن يبسطه إذا احتاج إلى التفصيل والبيان بمشيئة الله تعالى.

واعلم أن كان للخلفاء والملوك وولاة الأمور في قديم الزمان عناية بالكتابة إلى الرعايا بالأوامر والنواهي المتعلقة بالدين من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يجري مجرى ذلك وغلى العمال بالوصية بالرعايا والاجتهاد فيما لديهم م جباية الخراج والاهتمام بأمر الدواوين وما أشبه ذلك.

فأما الأوامر والنواهي المتعلقة بالدين فقد تقدم في الكلام على مصطلح أهل الغرب في أوائل هذه المقالة من إنشاء أبي زيد الفازازي ما أغنى ذكره هناك عن إعادته هنا أو ذكر غيره.

وأما الأوامر والنواهي المتعلقة بأمور السلطنة فمن ذلك ما كتب به أبو عبد الله بن الجنان عن الأمير أبي عبد الله بن هود أحد ملوك الطوائف بالأندلس في الرفق بالرعية وهو: أما بعد الحمد لله تعالى معلي منار الحق ورافعه ومولي متوالي الإنعام ومتتابعه والصلاة على سيدنا محمد رسوله مشفع الحشر وشافعه المبعوث ببدائع الحكم وجوامعه وعلى آله وصحبه المبادرين إلى مقاصده العلية ومنازعه والذابين عن حوزة الإسلام بمواضي الاعتزام وقواطعه فإنا كتبنا إليكم كتب الله لكم عزة قدحها بالثبوت فائز وسعادة قسطها للنماء حائز من فلانة: وكلمة الحق منصورة اللواء منشورة الأضواء والتوكل على الله وشكره وصلتنا إلى نيل مزيد النعماء والآلاء ومكانتكم لدينا مكانة السني المناصب المنتمي إلى كرام المنتميات والمناسب والمتحلي بالغناء والاكتفاء والخلوص والصفاء بأكرم السجيات والمناقب المعلوم ما لديه من المناصحة السالكة بأكرم السجيات في المناجي الحسان على المهيع الأوضح والسنن الأرحب.

وقد وقفنا على كتابكم معلماً بخبر فلانة وربما رأيتموه من المصلحة في تحصينها والاجتهاد في سبب تأمينها ونحن نعلم أنكم تريدون الإصلاح وتتوخون ما تتوسمون فيه النجاح لكن أهم الأمور عندنا وأولى ما يوافق غرضنا وقصدنا الرفق بالرعية وحملها على قوانين الإحسان المرعية وعلى أثر وصول كتابكم وصلنا كتاب أهل فلانة المذكورة يشكون ضرر الخدمة المتصرفين فيهم ويتظلمون من متحيفيهم ومتعسفيهم وفي هذا ما لا يخفى عليكم ولا ترضون به لو انتهى إليكم ولا يعلم طريق الرفق الحاوية لرفق الخاصة والجمهور أعاد التسكين تنفيراً والتيسير تعسيراً وتعلمون أنا لا نقدم على إيثار العدل في عباد الله المسلمين عملاً ولا نبغي لهم باطنة بغير التخفيف عنهم والإحسان إليهم بدلاً وأنتم أول وأولى من يعتقد فيه أنه يكمل هذا المقصد ويتحرى في مصالح الرعايا هذا السنن الأرشد وقد خاطبنا أهل فلانة بما يذهب وجلهم ويبسط أملهم وعرفناهم بأنكم لو علمتم ما هو جار عليهم من بعض الخدمة لأخذتم على يده وجازيتموه بسوء معتمده وأشعرناهم بأنا قد أوصيناكم بهم خيراً ونبهناكم على ما يدفع عنهم ضيماً ويرفع ضيراً وأنتم - إن شاء الله - تستأنفون نظراً جميلاً وتؤخرون عنهم الخدمة الذين لا يسلكون من السياسة سبيلاً وتقدمون عليهم من تحسن فيهم سيرته وتكرم في تمشية الرفق علانيته وسريرته ومثلكم لا يؤكد عليه في مذهب تحسن عواقبه وغرض يوافقه القصد الاحتياطي ويصاحبه إن شاء الله تعالى.

الصنف الثالث عشر المكاتبة عند حدوث الآيات السماوية قال في مواد البيان: جرت العادة أن يكتب السلطان إلى الرعايا عند حدوث الآيات المهولة التي يريد الله تعالى بها إرشاد عباده: إلى الإقلاع عن معصيته والإقبال على طاعته كالرياح الواصف والزلازل والصواعق واحتباس القطر وخروجه في التسكاب عما جرت به العادة كتباً يضمنها من الوعظ الشافي الرقيق ما يأخذ بمجامع القلوب ويشعرها التقوى والرهبة ويبعث على المراقبة والنظر في العاقبة.

قال: وينبغي للكاتب أن يتلطف في الموعظة ويبالغ في الذكرى التي تخطر الخواطر وتقدحا الأنفس وتحرك العزائم نحو الإخلاص فإنه إذا أبرز هذه المعاني في صورة تشعر الخيفة من غضب الله تعالى وعقبه وترغب في عفوه وثوابه نفع الله بذلك من رغب عن الهوى ورغب في التقوى بكتابه.

قال: والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على آلائه التي يفضيها ابتلاء واختبار وآياته التي يرسلها يخويفاص وإنذاراً وموهبته في التوقف بسابغ نعمته على طاعته والتحذير بدافع نقمته من معصيته والصلاة على رسوله الذي أنقذ بشفاعته وعصم من نزول القوارع بنبوته.

ثم يقدم مقدمة تتضمن أن الله تعالى يقدم الإعذار أمام سخطه وعذابه ويبدأ بالإنذار قبل غضبه وعقابه فمن استيقظ من سنته ونظر لعاقبته ونهض إلى طاعته وأقلع عن معصيته كشف الرين عن قلبه وضاعف أجره ومن أضرب من موعظته وتعامى عن تبصيره وتذكيره أخذه على غرته وسلبه سربال نعمته.

ثم يأخذ في حث الأمة على الفزع إلى الصلوات والمسارعة إلى بيوت العبادات والإكثار من التضرع والخشوع الاستكانة والخنوع بإذراء سحائب الدموع وإخلاص التوبة عن محتقب الآثام ومخترع الأوزار والتوسل إلى الله تعالى في قبول الإنابة بقلوب نقية وطويات على الطهارة مطوية وسرائر صريحة ونيات صحيحة يصدقها الندم على الماضي وعقد العزم على الإقلاع في الآتي والرغبة إليه في رفع سخطه وإنزال رحمته وما يجاري هذا.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات قد ترك في زماننا فلا عناية لأحد به أصلاً وإن كان مما يجب الاهتمام به وتقديمه.

الصنف الرابع عشر: المكاتبات في التنبيه على شرف مواسم العبادة وشريف الأزمنة.

قال في مواد البيان: إن الله وقت لعباده أوقاتاً عظم شانها ورفع مكانها وأمرهم أن يتقربوا فيها إليه بتأدية ما فرضه عليهم لطفاً بهم ورأفة وحناناً ورحمة.

قال: ولم يزل السلطان يكتب إلى عماله بتنبيه الرعايا عليها وتعريفهم فضل العبادة فيها ليستقبلوا بالإخبات والخشوع ويتلقوها بالتضرع والخضوع ويتوسلوا في قبول التوبات وغفران الخطيات حفظاً للنظام الدين وتفقداً لمصالح المسلمين.

قال: وينبغي للكاتب أن يحسن في هذا الكتب ويذكر الناسي وينبه الغافل اللاهي والمهمل الساهي ويحرك النفوس نحو مصالحها ويبعثها على الأخذ بفاضل الأعمال وصالحها.

قال: والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على أن وهب لعباده أوقاتاً يقبل فيها قربهم وأعمالهم ويخفف بالإنابة إليه عند حلولها أوزارهم وأثقالهم فيغفر لمستغفرهم ويعفو عن مسيئهم ويقبل التوبة من تلئبهم والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

ثم يقدم مقدمة مبنية على تعظيم هذه الأوقات والإنابة عما قصرها على العبادات والمسابقة إلى لخيرات من عظيم الثواب.

ويشفع ببعث الولاة على أخذ الرعايا بالمحافظة على السنن وتعهد حق الله تعالى فيها والتوسع في توكيد الحجة ونفي الشبهة وإيراد المواعظ الرادعة والزواجر الوازعة التي تعود بشحذ البصائر وصفاء الضمائر والإتيان بحقوق هذه الأوقات وواجباتها والفوز بما يوفره من جزيل بركاتها والتوفر على حسن مجاورتها والتقرب إلى الله تعالى ببذل الصدقات والإقبال على الصلوات وزيادة بيوت العبادات ومذاكرة أهل الدين والسعي في مصالح المسلمين ونحو ذلك مما يناسبه.

ثم قال: فإن كان الكتاب مقصوراً على الدعاء افتتح بالحمد على أن جعل لعباده حرماً آمناً يمحص ذنوبهم بزيادته ويمحو آثامهم بحجه ووفادته ويلي ذلك ما يليق به من الحث على تأدية المناسك وتكميل الفرائض والسنن وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك الحكم في سائر الأبواب الدينية.

الصنف الخامس عشر: المكاتبة بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد وما ينخرط في سلكها من المواكب الجامعة.

قال في مواد البيان: جرت العادة أن يكاتب السلطان عماله وولاته بسلامة المواسم الإسلامية كلها لأنها تشاهد لجميع أصناف الرعايا وذوي الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة والقلوب المتعادية والمتصاحبة في أمر الدين والدنيا وكل متربص لفتنة ينتهز فرصتها.

فلا تكاد هذه المشاهد تخلو من ثورة وحدوث أحداث منكرة تقضي إلى الفتن التي لا ترفع.

فإذا أنعم الله تعالى بالسلامة منها وجب التحدث بنعمته والشكر لمشيئته وأن يكتب أمير المؤمنين بسلامة ما قبله إلى عماله لتسكن الكافة إلى ذلك ويشتركوا في حمد الله تعالى عنه.

واعلم أن المراسم التي تكاد يعتاد الخلفاء الركوب فيها والكتابة بالسلامة منها هي: عيد الفطر وعيد النحر.

وكان الخلفاء الفاطميون بالديار المصرية يعتادون مع ذلك الركوب في غوة السنة وفي أول رمضان وفي الجمعة الأولى والجمعة الثانية والجمعة الثالثة منه على ما تقدم ذكره في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية.

وكذلك عيد الغدير: وهو عيد من أعياد الشيعة كما سيأتي ذكره.

ونحن نشير إلى ذكر مواكبها موكباً موكباً ونذكر ما جرت به العادة في الكتابة في البشارة بالسلامة في الركوب كل مركوب منها.

الأول: البشارة بالسلامة في الركوب في غرة السنة.

وقد تقدم الكلام على صورة الموكب في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية بالديار المصرية في المقالة الثانية.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك أورده أبو الفضل الصوري في تذكرته وهي: الحمد لله الذي لم يزل يولي إحساناً وإنعاماً وإذا أبلى عبيده عاماً أجد لهم بفضله عاماً فقد أمدكم معاشر الخلفاء كرماً ومناً وآتاكم من جوده أكثر مما يتمنى ومنحكم من عطائه وقد استقبلتم هذه السنة السعيدة وإذا عملتم ما يوفي على ما أردتموه " سخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه " بالطاعة كنتم مستنجزين من ثواب الله الأغراض البعيدة.

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذي غدت الجنة مدخرة لمن عمل بهداه لما سمعه ومهيأة لمن آمن به واتبع النور الذي أنزل معه وبين بإرشاده ما تجري أمور السنين عليه في العدد والحساب ونسخ ما كانت الجاهلية تفعله فيه زيادة في الكفر وضلالاً عن الصواب وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي كمل الله الإسلام بإمامته وضاعف الأجر لأهل ولايته ومنح شيعته مقبول شفاعته وعلى الأئمة من ذريتهما خلفاء الله على خلقه والقائمين بواجب حقه والعاملين في سياسة الكافة بما يرضيه سبحانه ويضمن غفرانه ورضوانه وسلم عليهم أجمعين سلاماً باقياً على يوم الدين.

وإن الحق بنشر الذكر وأوجبها للوصف وإعمال الفكر نعمة رفعت الشك وأزالت اللبس ووضح ضياؤها لأولي الألباب وضوح الشمس واشترك الناس فتضاعفت الفائدة لديهم وانتفعوا بذلك في تواريخهم ومعاملاتهم وما لهم وعليهم وتلك هي المعرفة باليوم الذي هو مطلع السنة وأولها ومبدؤها ومستقبلها وحقيقة ذلك ظهور إمام كل زمان.

وكان ظهور إمام زماننا مولانا وسيدنا الإمام فلان ليتساوى في الشرف برؤيته العامة والخاصة فيكون استقلال ركابه إشعاراً بأن اليوم الذي تجلى فيه لأوليائه ولرعاياه المتفيئين ظل لوائه هو افتتاح السنة وأول محرمها وعليه المعتمد في عدد تام الشهور وناقصها من مفتتحها إلى مختتمها يوم كذا غرة المحرم في سنة كذا في عساكر لا يحصر عددها وقبائل لا ينقطع مددها وإذا اضطرمت نار الكفر والتهبت طفئت بأنوارهم وخبت وقد تقلدت هندية تروع إذا أشرقت وسكنت فما أظن إذا اصطحبت والأرض بمرورها عليها مبهجة مونقة وملائكة الله عز وجل حافة به محدقة فآذن بأن اليوم المذكور هو غرة السنة المعينة وأن اليوم الفلاني أمسه انسلاخ كذا سنة كذا المتقدمة لتسقيهم أمورهم على أعدل نهوجهم وليحفظ نظام دينهم في صومهم وفطرهم وحجهم وكذلك أصدر هذا الكتاب ليتلوه الأمير على من يسكن عمله وجميع من قبله ويتماثلوا في معرفته ويحمل كل منهم الأمر عليه في معتقده وأسباب معاملاته ويشكروا الله على النعمة عليهم بهدايته.

الثاني: البشارة بالسلامة في الركوب في أول شهر رمضان وهو أعلى نحو تقدم في الركوب في غرة السنة.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك من إنشاء ابن الصيرفي وهو: الحمد لله كالئ خلقه في اليقظة والمنام والكفل لهم بمضاعفة الأجر في شهر الصيام وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمة الأنام وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب أخلص ولي وأشرف وصي وأفضل إمام وعلى الأئمة من ذريتهما الداعين إلى دار السلام صلاة دائمة الاتصال مستمرة في الغدو والآصال.

وإن من المسرة التي تتهادى والنعمة الشاملة للخلق جميعاً وفرادى ما من الله به ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين يوم كذا غرة شهر رمضان من سنة كذا إعلاماً بأول الشهر وافتتاحه وأن الصيام المعزية القاهرة المحروسة في عساكره المظفرة وجنوده وأوليائه وأنصاره وعبيده والمنة برؤيته قد تساوى فيها الكافة وملائكة الله مطيفة حافة وعوده إلى قصوره الزاهرة وقد شمل المستظلين بأفيائه بسعادتي الدنيا والآخرة.

أصدر إليك هذا المر على الجملة وتشكر النعمة السابغة على أهل الملة وتتلوها على أهل عملك وتطالع بكائنك في ذلك فاعلم هذا واعمل له إن شاء الله تعالى.

الثالث: الكتابة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الأولى من شهر رمضان.

وهذه نسخة كتاب من ذلك من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً وهي: أفضل ما سير ذكره ووجب حمد الله تعالى عليه وشكره ما عاد على الشريعة بالجمال والبهجة وأضحى واصفه صحيح المقال صادق اللهجة فضاعف حسنه ومحص سيئه وجعل أسباب السعادة متسهلة متهيئة وذلك ما يسره الله تعالى من استقلال ركاب سيدنا ومولانا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين يوم الجمعة من شهر رمضان من سنة كذا مؤدياً خطبتها وصلاتها وضامناً لأمة ائتمت به خلاصها يوم الفزع الأكبر ونجاتها في وقار النبوة وسكينة الرسالة والهيبة المستولية على العظمة والجلالة والعساكر الجمة التي تقلق بمهابتها وتزعج وتظن لكثرتها واقفة والركاب يهملج ولما انتهى إليه خطب ووعظ ففتح أبواب التوبة وآب إلى الطاعات من لم يطمع منه بالأوبة وصلى صلاة تقبلها جل معز بقبول حسن وقصر في وصفها ذوو الفصاحة واللسن وعاد إلى مستقر الخلافة ومثوى الرحمة والرأفة وعين الله له ملاحظة وملائكته له حافظة.

أعلمت ذلك لتذيعه في أهل عملك وتطالع بكائنك.

الرابع: المكاتبة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الثانية من شهر رمضان.

قد تقدم في الكلام على ترتيب المملكة بالديار المصرية في الدولة الفاطمية في المقالة الثانية أن الخليفة كان يركب في الجمعة الثانية من شهر رمضان على الجامع الأنوار وهو جامع باب البحر الذي عمره الحاكم بأمر الله وجدده الصاحب شمس الدين المقسي.

وهذه نسخة كتاب في المعنى من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً وهي: لم يزل غامر كرم فضل وفضله يفوق حاضره ما كان من قبله فنعمة الله تعالى سابغة ومننه متتابعة وملابسها ضافية ومغاربها نامية وسحائبها هامية وهو جل وعز يضاعفها على من صلى وصام ويواليها عند تمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصال لها ولا انفصام وتجدد من ذلك ما كان من بروز مولانا وسيدنا الإمام فلان صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين يوم الجمعة من شهر رمضان من سنة كذا في مشايخ عزه وباذخ مجده وتوجهه إلى الجامع الأنوار المنسوب إلى مولانا الإمام الحاكم بأمر الله جده سلام الله عليه وصلواته وبركاته وتحياته وعساكره قد تجاوزت الحد وكثرت عن الإحصاء والعد فإذا تأملها الطرف انقلب عنها خاسئاً وارتد.

ولما وصل إلى الجامع المذكور خطب فأورد من القول أحسنه ووعظ فأسمع من الوعظ أوضحه وأبينه وصلى صلاة جهر بالقراءة فيها ورتلها وعاد إلى قصوره الشريفة وقد شملت البركات برؤيته ووفق من عمل بموعظته ونجا من اقتدى به في صلاته واستولى على السعد من جميع أرجائه وجهاته.

أعلمناك ذلك لتعرف قدر النعمة به فاشكر الله سبحانه بمقتضاه واعتمد تلاوة هذا الأمر على رؤوس الأشهاد فاعلم ذلك.

الخامس: المكاتبة السلامة في الركوب في الجمعة الثالثة من شهر رمضان.

قد تقدم في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية أن الخليفة كان يركب في الجمعة الثالثة منه إلى الجامع العتيق بمصر فيخطب فيه ويعود إلى قصره.

سبحانه - الإحسان إلى عبيده وتعويضهم - وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك من إنشاء ابن الصيرفي وهي: من عوائد الله للشكر عليه بنموه ومزيده والامتنان بتيسير عصيه وتعجيل بعيده فهو لا يخلبهم من نواجمه ولا يعفيهم من هواجمه.

ولما أقبل هذا الشهر الشريف كان من عموم بركاته وشمول خيراته أن مولانا الإمام الفلاني صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين والى فيه بركته وزكى أعمال المؤمنين في استماع اختطابه والائتمام بصلاته وفي هذا اليوم وهو يوم الجمعة من شهر رمضان اعمل ركابه إلى الجامع العتيق بمصر ليسهم لهذه المدينة من حظي والدنيا والآخرة مثل ما أسهمه وعجله لأهل المعزية القاهرة.

فكانت هيبته يعجز وصفها كل لسان وظهر - عليه السلام - في الردائين: السيف والطيلسان والجيوش قد انبسطت وانتشرت والنفوس قد ابتهجت واستبشرت والألسنة قد عكفت على الدعاء بتخليد ملكه وتوفرت.

وعند وصوله خطب فأحسن في الألفاظ والمعاني وحذر من تأخير التوبة والتضجيع فيها والتواني وصلى صلاة شرفها الله وفضلها ورضيها تبارك وتعالى وتقبلها وانكفأ عائداً إلى قصوره ومنازله المعظمة ضاعف الله له ثوابه وأجره وأوجب شكره ورفع ذكره ويجب أن تعتمد إذاعة ذلك ليبالغ الكافة في الاعتراف بالنعمة فيه ويواصلوا شكر الله تعالى عليه والمطالعة بما اعتمد فيه.

السادس: ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد الفطر.

وقد تقدم الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية في المقالة الثانية أن الخليفة كان يركب لصلاة عيد الفطر صبيحة العيد ويخرج من باب العيد من أبواب القصر ويتوجه إلى المصلى فيصلي ويخطب ثم يعود إلى قصوره ويكتب بذلك إلى أعمال المملكة تارة مع خلو الدولة عن وزير وتارة مع اشتمالها على وزير.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك مع خلو الدولة عن وزير من إنشاء ابن الصيرفي وهو: الحمد لله ناشر لوائه في الأقطار ومعوض المطيعين من جزائه ببلوغ الأوطار الذي نسخ الإفطار بالصيام ونسخ الصيام بالإفطار وكلف عباده ما يطيقونه ووعد عليه جزيل أجره وأسبغ من نعمته ما لا يطمع في القيام بواجب حمده عليه وشكره وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذي أعلن بالإيمان وباح وبين المحظور في الشريعة والمباح وأرشد إلى ما حرمه الإسلام وحلله ومهد سبل الهدى لمن استغواه الشيطان وضلله وأوضح مراتب الأوقات ومنازلها وعرف تفاوت الأيام وتفاضلها وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي مضت في الله عزماته وبيضت وجه الدين الحنيف مواقفه ومقاماته وعلى الأئمة من ذريتهما الذين تكفلوا أمر الأمة نصاً وامتطوا على منارها فلم يألوا جهداً ولم يتركوا حرصاً فالحاضر منهم يوفي على من كان من قبله وأحزاب الحق فرحون بما آتاهم الله من فضله وسلم عليهم أجمعين سلاماً لا انقطاع لدوامه وشرفهم تشريفاً لا انفصال لإبرامه وأسنى ومجد وتابع وجدد.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد الفطر من سنة كذا: بعد أن وفى الصيام حقه وحاز أجر من جعل الله على خزائنه رزقه وبعد أن أفطر بحضرته الأولياء من آله وأسرته والمقدمون من رؤساء دولته والمتميزون من أوليائه وشيعته.

وكان من نبأ هذا اليوم أن أمير المؤمنين لما ارتقب بروزه من قصوره وتجلى فأشرقت الأرض بنوره توجه إلى المصلى قاضياً لسنة العيد فكانت نعمة ظهوره بالنظر للحاضر وبالخبر للبعيد واستقل ركابه بالعساكر المنصورة التي أبدت منظراً مفتناً معجباً وجعلت أديم الأرض بالخيل والرجال محتجباً وذخرت الانتقام ممن شق العصا وتجاوزت في الكثرة عدد الرمل والحصا وزينت الفضاء بهيئتها وروعت الأعداء بهيبتها وجمعت بين الطاعة وشدة الباس وادرعت من التقوى أمنع جنة و أحصن لباس ولم يزل سائراً في السكينة والوقار ناظراً للدنيا بعين الاحتقار والثرى بالجباه والشفاه مصافح ملثوم فهما موسومتان به وهو بهما موسوم إلى أن وصل إلى مقر الصلاة ومحل المناجاة فصلى أتم صلاة وأكملها وأدها أحس تأدية وأفضلها وأخلص في التكبير والتهليل إخلاص من لم يفت أمراً ويخشى الله ويتقيه ونصح في إرشاده ووعظه وأعرب ببديع معناه وفصيح لفظه وعاد إلى مثوى كرامته وفلك إمامته محمود المقام مشمولاً بالتوفيق في النقض والإبرام.

أعلمك أمير المؤمنين ذلك لتذيعه فيمن قبلك وتشكروا الله على النعمة الشاملة لهم ولك فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

وكتب في اليوم المذكور.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك والدولة مشتملة على وزير عن الحافظ لدين الله الذي العلوي خليفة الديار المصرية في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة وهي: الحمد الله الذي أعز الإسلام وشيد مناره وأيد أولياءه ونصر أنصاره وأظهر في مواسمه قوته واستظهاره وختم الشرائع بشرف أبدي فكان حظها منه إيثاره وخط الإسلام استبداده به واستئثاره وصلى الله على جدنا محمد الذي كرمه باصطفائه وأسعد من حافظ على اتباع نهجه واقتفائه وبين بشرعه ما حلله وحرمه ودعا الأمة بإرساله إلى دين قيم أعلى بناءه وأحكمه ووعدهم على مفروضة ومسنونه جزيل الأجر وأمر في اعتقاد خلافه بالدفع والمنع والزجر وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أول الأئمة الخلفاء والمشتهرة فضاءله اشتهاراً ليس به من خفاء ومن حباه

الله المحل الرفيع والمن الجزيل وخصه من الشرف بما جاء فيه من محكم التنزيل وعلى الأئمة من ذريتهما القائمين بفرض الله والمؤدين لحقوقه والذين كفلت أمانتهم بانبساط نور الحق وانتشار لوائه وخفوقه وسلم وكرم ومجد وعظم.

وكتاب أمير المؤمنين إليك يوم كذا عيد الفطر من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة الذي أمر الله فيه بما نهى عنه من قبله وضاعف الأجر بكرمه وفضله فرفع تكاليف الصوم وأوجب الإفطار في هذا اليوم وساوى في ذلك بين كل متهم ومنجد وأمر بني آدم فيه بأخذ الزينة عند كل مسجد وكان من خبره أن الفجر لما طلع مبشراً بالشمس ومؤذناً ببعثها من الرمس تتابعت الجيوش الموفورة والعساكر المنصورة إلى أبواب القصور الزاهرة توكفاً لأنوار أمير المؤمنين وترقباً لظهوره قاضياً حق الدين فلما أسفر الصبح وأضاء وملأت الخلائق الفضاء تجلى من أفلاك إمامته وبرز فأغبط كل مؤمن بثباته على المشايعة وإقامته وكان ظاهراً وهو محتجب بالأنوار وممتنعاً وهو منتهب بالأبصار والكافة يصافحون الأرض ويجتهدون في الدعاء بإخلاص نياتهم والعساكر المؤيدة لو أنها عمت الأرض بتطبيقها وساوت بين قريبها وسحيقها وصارت كالجبال الرواسي فيها لكانت قد تزلزلت ومادت بأهليها وهي مع تباين أجناسها وطوائفها متظافرة على معاندي الدولة ومخالفيها متلائمة على الولاء متمالئة على الأعداء تتلفت إلى المجاهدة كأنها الأسود إقداماً وباساً وكأنها فصلت جوامد الغدران سلاحاً لها ولباساً والسيد الأجل الأفضل التي عظمت به المواهب وجلت وذهبت بوزارته الغياهب وتجلت وتهلل بنظره وجه الملة وكان عابساً وأعاد الدولة معصراً وقد كانت قبله عانساً وحسنت الدنيا بأيامه إذ ليس فيها من يضارهيه وانتظمت أمورها على الإرادة بصدورها عن أوامره ونواهيه ترتب المواكب بمهابته ويستغنى بتوغلها في القلوب عن إيمائه وإشارته وكل طائفة مقبلة على شانها لازمة لمكانها متصرفة على تهذيبه وتقريره عاملة بآدابه فوقوفها بوقوفه ومسيرها بمسيره.

وتوجه أمير المؤمنين إلى المصلى محفوفاً بأنوار تجلى ما أنشأته سنابك الخيل وتمحو آية نقع قام مثارها مقام ظلال الليل وعليه من وقار الإمامة وسكينة الخلافة ما خصه الله تعالى دون البرية وحده لأنه مما ورث أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وجده ولما انتهى إليه قصد المحراب وأمه وأدى الصلاة أكمل أداء وأتمه ثم انتهى إلى المنبر فعلاه ومجد الله تعالى وحمده على ما أولاه ووعظ وعظاً خوف عاقبة المعاصي والذنوب وحل وكاء العيون وداوى مرض القلوب وأمر بسلوك سبيل الطاعات وأفعال البر وحث على التوفر عليها في الجهر والسر وعاد إلى قصوره المكرمة ومواطنه المقدسة وقد بذل في نصحه لله وللمؤمنين جهده وفعل في الإرشاد والهداية ما لا غاية بعده.

أنابك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتشكر الله على النعمة السابع: ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد النحر.

قد تقدم في الكلام على ترتيب دولة الفاطميين في المقالة الثانية أن الخليفة كان يركب لصلاة عيد النحر كما يركب لصلاة عيد الفطر تارة مع اشتمال الدولة على وزير وتارة مع عدم اشتمالها على وزير.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك من إنشاء ابن الصيرفي وهي: أما بعد فالحمد لله الذي أعلى منار الملة وشرف مواسم أهل القبلة وكفل أمير المؤمنين أمر الأيام كما كلفه أمر الأنام فرأى الناس من حسن سيرته أيقاظاً ما لا يرونه مجازاً في المنام وصلى الله على جدنا محمد ونيه الذي أرسله إلى الناس كافة وجعل العصمة محيطة به حافة فأطلع في ظلام الشرك شمس التوحيد ببدره وآمن به من شرح الله للإسلام صدره وعصاه من تمرد فأثقل الوزر ظهره وبين عبادات كرم أجرها وعظم ثوابها وألزم طاعات جعل الجنة للعاملين بها مفتحة أبوابها وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مظافره ومظاهره والمساوي في حكمه بين باطنه وظاهره ولم يزل حاملاً على المحجة البيضاء جاعلاً ذلك من قربه وذخائره قائماً بحقوق الله جاهداً في تعظيم حرماته وشعائره وعلى الأئمة من ذريتهما نجوم الأرض وهداة أهلها والواجبة طاعتهم على م في وعرها وسهلها والذابين وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا وهو يوم أظهر الله قوة الدولة مسارعة النفوس المخالفة إلى الطاعة وابتدارها وذلك أن عساكر أمير المؤمنين - واقتدارها وأوجب فيه - رغبة ورهبة توجهت إلى قصوره الزاهرة عند انفجار الفجر وحافظت على ما تحرزه من كريم الثواب وجزيل الأجر واستنزلت الرحمة برؤية إمام الأمة وأعدت الإخلاص في خدمته من أوفى الحرمات وأقوى الأذمة وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طوالعه ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعه وقصد المصلى في كتائب لجبة ومواكب للتعظيم مستوجبة وعزة تتبين في الشمائل والصفحات وقوة يشهد بطيب وصفها أرج النفحات قد غدت عددها محكمة وخيولها مطهمة وذوابها إذا ظمئت كانت مقومة وإذا رويت عادت محطمة تتقلد صفائح متى انتضيت أنصفت من الجائر الحائف ومتى اقتضبت عملاً كان اقتضابها مبيضاً للصحائف وفي ظلها معاقل للائذين وبحدها مصارع للمنابذين وهي للدماء هوارق وللهامات فوالق ولمستغلق البلاد مفاتيح ولمستفتحها مغالق.

ولما انتهى إلى المصلى قضى الصلاة أحسن قضاءه وأداها أفضل تأدية واستنزل رحمة لم تزل بصلاته متمادية وانتهى إلى المنبر فرقبه وخطب خطبة من استخلفه الله فكان مراقبه ومتقيه ووعظ أبلغ وعظ وأبان عما للعامل بنصحه في الدنيا والآخرة من فائدة وحظ وعطف على الأضاحي المعدة له فنحرها جرياً في الطاعات على فعلها المتهادي وأضحت تتوقع التكميل بإنجازه وعيده في الأعادي فالله يقضي بتصديقه ويمن بتخيله وتحقيقه وعاد إلى قصوره المكرمة مشكوراً سعيه مضموناً نفعه مرضياً فعله مشمولاً عبيده منه هو وأهله وأعلمك أمير المؤمنين ذلك فاعلم هذا واعمل به.

وكتب في اليوم المذكور.

وهذه نسخة كتاب في هذا المعنى والدولة مشتملة على وزير من إنشاء ابن قادوس وهي: أما بعد فالحمد لله ماحي دنس الآثام بالحج إلى بيته الحرام وموجب الفوز في المعاد لمن عمل بمراشده أئمة الهدى الكرام ومضاعف الثواب لمن اجتهد فيما أمر الله به من التلبية والإحرام ومخول الغفران لمن كان بفرائض الحج ونوافله شديد الولوع والغرام وصلى الله على جدنا محمد الذي لبى وأحرم وبين ما أحل الله وحرم وعلى أخيه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي ضرب وكبر وحقر من طغى وتجبر وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الدين وحتوف المعتدين وسلم وكرم وشرف وعظم.

وإن من الأيام كملت محاسنها وتمت وكثرت فضائلها وجمت ووجب تخليد عز صفاتها وتعيين تسطير تأثيراتها يوم عيد النحر من سنة كذا وكان من قصصه أن الفجر لما سل حسامه وأبدى الصباح ابتسامه ونهض عبيد الدولة في جموع الأولياء والأنصار وأولي العزيمة والاستبصار ميممين القصور الزاهرة متبركين بأفنيتها ومستلمين بسعادتها وتألفوا صفوفاً نبهر النواظر ويخجل تأليفها تألف زهر الروض الناضر مستصحين فنوناً من الأزياء تروق ومستتبعين أصنافاً من الأسلحة يغض لمعها من لمع اللهب والبروق والعلام خافقة والرايات بألسنة النصر على الإخلاص لإمام العصر متوافقة فأقاموا على التشوف لظهوره وتطلع للتبرك بلامع نوره.

ولما بزغت شمس سعادته وجرت الأمور على إيثاره وإرادته وبدت أنوار الإمامة الجلية وظهرت طلعتها المعظمة البهية خر الأنام سجوداً بالدعاء والتمجيد والاعتراف بأنهم العبيد بنو العبيد واستقل ركاب أمير المؤمنين ووزيره السيد الأجل الذي قام بنصر الله في إنجاد أوليائه وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه وناضل عن حوزة الدين وجاهد وناضل أحزاب الكفار وناهد يقوم بأحكام الوزارة وتدبير الدولة أولي الإخلاص والطهارة ويتبع آراء أمير المؤمنين فيما تنفذ من أوامره ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره ويحسن السياسة والتدبير ويتوخى الإصابة في كل صغير من أمور الدولة العلوية وكبير ويخلص لله جل وعز ولإمامه ويكفكف من الأعداء ببذل الجهد في إعمال لهذمه وحسامه وسار أمير المؤمنين والعساكر متتابعة في أثره متوافقة على امتثال أمره قد رفعت السنابك من العجاج سحاباً وخيلت جنن الجند للناظرين في البر عباباً.

والجياد المسومة تموج في أعنتها وتختال في مراكبها وأجلتها وتسرع فتكسب الرياح نشاطاً وتفيد المعترض لوصفها إفراطاً وتهدي لمن يحاول مماثلتها غلواً واشتطاطاً وأصوات مرتفعة بالتهليل وأصوات الحديد تسمع بشائر النصر بترجمة الصليل ويكاد يرعب الأرض تزلزل الصهيل وترض سنابكها الهضاب وتغدو صلابها كالكثيب المهيل.

أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذا اليوم الذي تشتمل المسار على جميعه أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً لتذيع نبأه في عمل ولايتك وتشيع خبره في الرعايا على جاري عادتك فاعلم هذا واعمل به وطالع مجلس النظر السيدي الأجلي بما اعتمدته في ذلك إن شاء الله تعالى.

وكتب في اليوم المذكور.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات قد فرض وترك استعماله بديوان الإنشاء في زماننا.

الصنف السادس عشر المكاتبة بالبشارة بوفاء النيل والبشارة في الركوب لفتح الخليج وهذه لمكاتبة من خصائص الديار المصرية لا يشاركها فيها غيرها من الممالك.

ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلم جراً يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاة الأعمال اهتماماً بشأن النيل وإظهاراً للسرور بوفائه الذي يترتب عليه الخصب المؤدي إلى العمارة وقوام المملكة وانتظام أمر الرعية.

وقد كان الخلفاء الفاطميين القائمين بأمر الديار المصرية بذلك كبير العناية ووافر الاهتمام وكانت عادتهم في ذلك أنهم يكتبون بالبشارة بوفاء النيل كتباً مفردة وبفتح الخليج وهو المعبر عنه في زماننا بالكسر كتباً مفردة ولعل فتح الخليج كان يتراخى في زمنهم عن يوم الوفاء فيفردون كل واحد منهما بكتب.

فأما وفاء النيل المبارك فهذه نسخة كتاب بالبشارة به في الأيام الفاطمية من إنشاء ابن قادوس وهي: النعم إن كانت شاملة للأمم فإنها متفاضلة الأقدار والقيم فأولاها بشكر تنشر في الآفاق أعلامه واعتداد تحكم بإدراك الغايات أحكامه نعمة يشترك في النفع بها العباد وتبدو بركتها على الناطق والصامت الجماد وتلك النعمة النيل المصري الذي تبرز به الأرض الجرز في أحسن الملابس وتظهر حلل الرياض على القيعان والبسابس وترى الكنوز ظاهرة للعيان متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان فسبحان من جعله سبباً لإنشار الموات وتعالى من ضاعف به ضروب البركات ووفر به مواد الأرزاق والأقوات وهذا الأمر صادر على الأمير وقد من الله جل وعلا بوفاء النيل المبارك وخلع على القاضي فلان بن أبي الرداد في يوم كذا وكذا وطاف بالخلع والتشريفات والمواهب المضاعفات بالقاهرة المحروسة ومصر على جاري عادته وقدم سيرته ونودي على الماء بوفائه ستة عشر ذراعاً وإصبعاً من سبعة عشر ذراعاً واستبشر بالنعمة بذلك الخلائق وواصلوا بالشكر مواصلة لا تستوقفهم عنها العوائق وبدا من مسرات الأمم وابتهاجهم ما يضمن لهم من الله المزيد وينيلهم المنال السعيد ويقضي لهم بالمآل الحميد.

وموصل هذا الأمر إليك فلان فاعتمد عند وصوله إليك إكرامه وإعزازه وإجمال تلقيه وإفضاله إلى ما جرت به عادة مثله من رجاء وتنويه واحتفاء وإكرام واعتناء ليعود شاكراً.

فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة أخرى من ذلك من إنشاء ابن الصيرفي وهي: أولى ما تحدث به ناقله وراويه وتعجل المسرة حاضره ورائيه ما كانت الفائدة به شائعة لا تتحيز والنعمة به ذائعة لا يتخصص أحد بشمولها ولا يتميز إذ كان علة لتكاثر الأقوات وبها يكون التماثل في الباء والتساوي في الحيات وذلك ما من الله تعالى به بعد وفاء النيل المبارك فإنه انتهى في يوم كذا من سنة كذا إلى ستة عشر ذراعاً وزاد إصبعاً من سبعة عشر ذراعاً وقد سيرنا أيها الأمير فلاناً بهذه البشرى إليك وخصصناه بالورود بها عليك فتلقها من الشكر بمستوجبها واستقبلها من الابتهاج و الاغتباط بما يليق بها واجعل الرسوم التي جرت العادة بتوظيفها لفلان بن أبي الرداد محمولة من جهتك إلى حضرتنا لتولى إليه من جهتنا فاعلم وهذا الصنف من المكاتبات متداول بالديار المصرية إلى آخر وقت يكتب به في كل سنة عن الأبواب السلطانية إلى نواب السلطنة بالممالك الشامية عند وفاء النيل وتسير به البريدية وربما جبي للبريدي من الممالك شيء بسبب ذلك.

وإذا كانت الدولة عادلة ضمن الكتاب أنه لا يجبى للبريدي شيء بسبب ذلك.

وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك: ولا زال عنه وإليه حديث الوفاء والندا ويورد على سمعه الكريم نبأ الخصب الذي صفا موارده ويهنئ بكل نعمة تكلفت للرعايا بمضاعفة الجود ومرادفة الجدا ويخص بكل منة عمت مواهبها الأنام فلن تنسى أحداً.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي وبحر كرمها لا ينتهي إلى مدى وبشر بشراها دائم أبداً تهدي إليه سلاماً مؤكداً وثناء أضحى به الشكر مردداً وتوضح لعلمه الكريم أن الله تعالى قد جرى على جميل عادته وأراد بالأمة من الخير ما هو مألوف من إرادته ومنح مزيد النعم التي لم تزل تعهد من زياداته فأسدى معروفه المعروف إلى خلقه وأيدهم بما يكون سبباً لمادة عطائه ورزقه فبلغهم تأملهم وأجرى نيلهم وزادهم بسطة في الأرض وملأ به الملا وكبق به البلاد طولها والعرض ونشر من الخافقين لواء خصبه وأتى بعسكر ريه لقتل المحل وجديه وبينما هو في القاع إذ بلغ بإذن ربه فجعل من الذهب لباسه وعطر بالشذا أنفاسه ولم يترك خلال قطر إلا جاءه فجاسه ونص السير فسير نص مجيئه في الأرض لما صحح بالوفاء قياسه وغازلته الشمس فكسته حمره أصيلها لما غدت له بمشاهدة ماسه ولم يكن في هذا العم إلا بمقدار ما قيل: أقبل إذ قيل: وفى ومد في الزيادة باعاً وبسط ذراعاً وأطلق بمواهب أصابعه كفاً وعاجل إدراك الهرم في ابتداء أمره مطال شبابه ومر على الأرض فحلا في الأفواه لما ساغ شكر سائغ شرابه واعتمد على نص الكتاب العزيز فكاد أن يدخل كل بيت من بابه.

ولما كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القبط بادرت إلى الوفاء شيمه وأغنت أمواجه عن منة السحب فذمت عندها ديمه وزار البلاد منه أجل ضيف فرشت له صفحة خدها للقرى فعمها كرمه وبلغ من الأذرع ستة عشر ذراعاً ورفع لواءه بالمزيد ونشر وجاء للبشر بأنواع البشر فرسمنا بتعليق ستر مقاسه وتخليقه وتضويع أنفاسه وفي صبيحة اليوم المذكور كسر سد خليجه على العادة وبلغ الأنام أقصى الإرادة وتباشر بذلك العام والخاص وأعلنت الألسنة بحمد ربها بالإخلاص وسطرها وهو بفضل الله ورحمته متتابع المزيد بسيط بحره المديد متجدد النمو في كل يوم من أيام الزيادة جديد.

هذا العام الخصيب ويذيع لها خبراً -فالجناب العالي يأخذ م هذه البشرى بأوفر نصيب ويشكر الله على ما منح - إن شاء الله وذكراً ويضوع بطي هنائها نشراً ويتقدم بأن لا يجبى عن ذلك بشارة بالجملة الكافية لتغدو المنة تامة والمسرة وافية وقد جهزنا بهذه المكاتبة فلاناً وكتبنا على يده أمثلة شريفة إلى نواب القلاع الفلانية جرياً على العادة فيتقدم بتجهيزه بذلك على عادة همته فيحيط علمه بذلك.

وهذه نسخة أخرى في معنى ذلك كتب بها في سابع عشر ذي القعدة سنة ست وستين وسبعمائة وصورتها بعد الصدر: وبشره بأخصب عام أخص مسرة هناؤها للوجود عام وأكمل نعمة تقابل العام من عيون الأرض بمزيد الإنعام.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تهدي إليه أتم سلام وأعم ثناء تام وتوضح لعلمه الكريم أن الله تعالى - وله الحمد - قد جرى في أمر النيل المبارك على عوائد ألطافه ومنح عباده وبلاده من مديد نعمه مزيد إسعافه وأورد الآمال من جنوده منهلاً عذباً وملأها به إقبالاً وخصباً وأحيا به من موات الأرض فاهتزت وربت وأنبتت كل بهيج وأنجبت وأينعت الرياض فجرت فيها الروح ودبت وامتلأت الحياض ففاضت بالمياه وانصبت وطله كالبدر في ازدياده وتوالى على مديد الأرض بامتداده إلى أن بلغ حده ووصل الفرج ومنع الشدة وفي يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا وكذا من شهور القبط وفاه الله ستة عشر ذراعاً فاه فيها بالنجح وعم ثراه الأرض فأشرق بعد ليل الجدب بالرخاء أضوأ صبح وفي ذلك اليوم علق ستره وخلق مقياسه فاشتهر ذكره وكسر سده وتوالى مده ونجز من الخصب وعده وعلا الترع والجروف وقطع الطريق فأمن م الجدب المخوف وأقبل بوجهه على الأرض لباس النفع فبدلها بعد الظمأ رياً فحمدنا الله تعالى على هذه النعم ورأينا أن يكون للجناب العالي أوفر نصيب من هذا الهناء الأعم وآثرنا إعلامه بذلك ليكون في شكره هذه النعمة أكبر مشارك فالجناب العالي يأخذ حظه من هذه البشرى ويتحقق ما له عندنا من المكانة التي خصته في كل مبهجة بالذكرى ويتقدم أمره الكريم بأن لا يجبى عن ذلك حق البشارة ولا يتعرض إلى أحد بخسارة وقد جهزنا بذلك فلاناً.

الصنف السابع عشر فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير بخط اللوق عند وفاء النيل في كل سنة وهو مما يتكرر في كل سنة عند ركوب الميدان ويكتب به إلى جميع النواب الأكابر والأصاغر وتجهز إلى أكابر النواب خيول صحبة المثال الشريف ويرسم لهم بالركوب في ميادين الممالك للعب الكرة وتأسياً بالسلطان فيركبون ويلعبون الكرة.

والعادة في مثل ذلك أن تنشأ نسخة كتاب من ديوان الإنشاء الشريف ويكتب بها إلى جميع النيابات ولا يختلف فيها سوى وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك كتب في ذي القعدة سنة ستين وسبعمائة لنائب طرابلس وصورته بعد الصدر: ولا زال تحمل إيه أنباء ما يبرد غلته من مضاعفة السرور وتبث له أقوال الهناء بما يجب علته من النصر الموفور ونخصه من إقبالنا الشريف بأكمل تكريم وأنم حبور.

صدرت هذه المكاتبة تهدي إليه من السلام والثناء كذا وكذا وتوضح لعلمه الكريم أننا نتحقق مضاء عزائمه حرباً وسلماً واعتلاء هممه التي تحرس بها الممالك وتحمى وأن صوافنه ترتبط لتركض وتحبس لتنهض فلذلك نعلمه من أنباء استظهارنا ما يبهج خاطره ويقر ناظره وهو أننا لما كان يوم السبت المبارك خامس شوال توجه ركابنا الشريف إلى الميدان السعيد وفاض به جنودنا فاخضرت مروجه وظهر به نيرنا الأعظم فأشرقت آفاقه وتشرفت بروجه وأقر العيون منير وجهنا المبارك وبهيجه وغدا كل ولي بموالاة إنعامنا مشمولاً وبمنالات إكرامنا موصولاً وركض الأولياء بين أيدينا جياداً ألفت نزالاً وعرفت طراداً وانعطفت ليناً وانفياداً وعدنا إلى مستقر ملكنا الشريف وقد جدد الله تعالى لنا إسعاداً وأيد لعزمنا المعان مبدأ ومعاداً وآثرنا إعلام الجناب العالي بهذه الوجهة الميمونة والحركة التي هي بالبركة مقرونة ليأخذ حظه من السرور بذلك والهنا ويتحقق من إقبالنا الشريف عليه ما يبلغ به المنى.

وهذه نسخة مثال شريف في المعنى كتب به في العشرين من شعبان سنة أربع وخمسين وسبعمائة.

وصورته على الصدر: ولا زالت الميادين سعده لا تتناهى إلى مدى وكرات كراته في رحاب النصر تلمع كنجم الهدى ومدور صوالجه كشواجر المران تحلو بتأييدها للأولياء وتغدو مريرة للعدا.

صدرت هذه المكاتبة وظفرها لا يزال مؤيداً ونصرها لا برح مؤبداً تهدي إليه سلاماً مؤكداً وثناء كنشر الأرض بالندى وتوضح لعلمه أننا لم نزل بحمد الله نتبع سنن سلفنا الشريف ونجري الأمور على عوائد جميلهم المنيف ونرى تمرين الأولياء على ممارسة الحروب ونؤثر إبقاء آثار الجهاد فيهم على أحسن أسلوب فلذلك لا نخل في كل عام بالتعاهد إلى الميدان السعيد والركوب إليه في أسعد طالع يبديء النصر ويعيده لما في ذلك من ابتهاج يتجدد وأسباب مسرة لكافة الأنام تتأكد ودعوات ألسنتها تتضاعف من الرعية وتتردد.

ولما كان في يوم السبت المبارك سادس عشر شهر رجب الفرد ركبنا إلى الميدان السعيد في أتم وقت أخذ من السعد بمجموعه وأظهر في أفق العساكر من وجهنا الشريف البدر عند طلوعه ولم نبرح يومنا المذكور في عطاء نجيده وإنعام نفيده وإطلاق نبدئه ونعيده والأولياء من أيدينا الشريفة يمرحون وفي بحار كرمنا المنيف يسبحون وفي ميدان تأييدنا المطيف يسيحون والكرات كالشمس تجنح تارة وتغيب وتخشى من وقع الصوالجة فتقابلها بوجه مصفر مريب.

ثم عدنا إلى القلعة المنصورة على أتم حال وأسعد طالع بلغ الأنام الأمان والآمال والعساكر بخدمتنا الشريفة محدقون ومماليكنا بعقود ولائنا مطوقون والرعايا قد ألبسها السرور أثواباً وفتح لها من الابتهاج أبواباً وقد آثرنا إعلام الجناب بذلك ليأخذ حظه من هذه المسرة والبشرى ويشترك هو والأنام في هذه النعمة الكبرى ومرسومنا للجناب أن يتقدم بالركوب بمن عنده من الأمراء في ميدان طرابلس المحروسة ويلعب بالكرة على جاري العادة في ذلك ليساهم أولياء دولتنا القاهرة في ذلك ويسلك طرقهم الجميلة أجمل المسالك.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية لم يزل مستعملاً بديوان الإنشاء يكتب كلما ركب السلطان إلى الميدان الصالحي بخط اللوق إلى أن عطل جيده من الركوب في أواخر الدولة الظاهرية برقوق واقتصر على لعب الكرة في الميدان الذي جرت به العادة فتركت المكاتبة بذلك من ديوان الإنشاء ورفض استعمالها.

الصنف الثامن عشر المكاتبة بالبشارة بحج الخليفة لما كانت الأسفار محل الأخطار وموقع الاختلاف وحدوث الفتن كانت الخلفاء يكتبون الكتب إلى عمالهم بالسلامة عند الإياب من السفر للحج وغيره.

والرسم فيها أن يذكر أن الحج من أجل العبادات وأن النعمة أن يمن الله تعالى بقضاء المناسك والوقوف المشعر الحرام والطواف بالبيت العتيق والسعي بين الصفا والمروة وما يجري مجرى ذلك من شعائر الحج ثم بعد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم واتفاق الكلمة في جميع هذه الأحوال على كثرة الخلائق ومزيد الجيوش والعساكر.

وهذه نسخة كتاب بالسلامة من سفر الحج وهي: الحمد لله الذي جعل بيته مثابة للناس وأمناً وحرماً من دخله كان آمناً الذي اختار دين الإسلام على الأديان وابتعث به صفوته من الإنس والجان محمداً أكرم بني معد بن عدنان.

يحمده امير المؤمنين أن أعانه على تأدية حقه ونصبه لكفالة خلقه ووفقه للعمل بما يرضيه ويدني إليه ويسأله أن يصلي على خير من غار وأنجد وصدر وورد وركع وسجد ووحد ومجد وصلى وعبد وحل وأحرم وحج الحرم وأتى المستجار والملتزم والحطيم وزمزم محمد سيد ولد آدم وعلى أخيه وابن عمه مصباح الدلالة وحجاب الرسالة وإمام الأمة وباب الحكمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ممزق الكتائب ومفرق المواكب ومحطم القواضب في القلل والمناكب وعلى الأئمة من ذريتهما الهادين صلاة باقية في العالمين.

وإن أولى النعم بأن يستعذب ذكرها ويستعطر نشرها وتتحدث بها الألسنة وتعد في مواهب الله الحسنة نعم الله تعالى في التوفيق لحج بيته الذي جعله مثابة لزائريه والإطافة بحرمه الذي يوجب المغفرة لقاصديه والنزول بأفنيته التي من يخدم بها فقد انسلخ من السيئات وتلبس بالحسنات وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم النفر الأول وقد قضى بحمد الله تفثه ووفى نذره وتمم حجته وكمل طوافه وشهد منافعه وأدى مناسكه ووقف الموقف بين يدي ربه قانتاً داعياً وراغباً راجياً وعرفه بعرفات إعلامه قبل سعيه وإجابة تلبيته وبلغه في منى أمانيه من رأفته وأراه من مخايل الرحمة ودلائل المغفرة ما تلألأت أنواره وتوضحت

آثاره وأجراه على تفصيل العبارة في شمول السلامة لكل من حج بحجه ووقف موقفه من أوليائه وخاصته وعامته ورعيته وأنعم باتفاق كلمتهم واجتماع أهويتهم واكتناف الدعة والسكون لهم وزوال الاختلاف والمباينة بينهم.

فإن أراد زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم قال: وهو يصدر بإذن الله تعالى عن موقفه هذا من البيت الحرام إلى زيارة قبر النبي عليه السلام.

فإن أزمع الانكفاء إلى مقره قال: وأشعرك أمير المؤمنين ذلك وهو عائد بمشيئة الله تعالى إلى مقر خلافته في عز من قدرته وعلو من كلمته وامتداد من سلطانه وتضاعف من جنده وأعوانه لتأخذ بحظك من الابتهاج والجذل وتذيعه بين أهل العمل ليشاركك العامة في العلم بهذه النعمة فيخلصوا لله الشكر عليها وهذه نسخة كتاب بسلامة الخليفة من سفر في الجملة.

والرسم فيه أن يذكر نعمة الله تعالى بما منح أمير المؤمنين في سفره ذلك من بلوغ المآرب وتسهيل المقاصد وإدراك الأوطار وشمول النعمة في الذهاب والإياب وما يجري مجرى ذلك مما ينخرط في هذا السلك وهذه نسخته: الحمد لله ذي الطول والإنعام والفضل والإكرام والمنن العظام والأيادي الجسام الذي أرعى أمير المؤمنين من حياطته عيناً لا تنام واستخدم لحراسته والمراماة دونه الليالي والأيام وقضى له بالتوفيق والسعادة في الظعن والمقام.

يحمده أمير المؤمنين أن استخلصه لإمامة الأنام وعدق به أساليب النقض والإبرام ويسأله الصلاة على من اختصه بشرف المقام وابتعثه بدين الإسلام وجلا به حنادس الظلام محمد خاتم الأنبياء الكرام وعلى أخيه وابن عمه الهمام الضرغام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مكسر الأصنام وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الأحكام وأدلة الحلال والحرام.

وإن أمير المؤمنين لا يزال يتحدث بنعم الله مستدراً لأخلافها منتصباً لقطافها ويفيض في ذكرها مستدعياً للزيادة بشكرها ويطلع خلصاءه على حسن آثارها لديه وسبوغ ملابسها عليه ليأخذوا بحظ من الغبطة والاستبشار ويسرحوا في مسارح المباهج والمسار وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك حين استقر ركابه بناحية كذا مبشراً لك نعمة الله في حياطته وموهبته في سلامته وما أولاه من إنارة الدليل وتسهيل السبيل وطي المجاهل وتقريب المنازل وإعذاب المناهل وإنالة الأوطار وتدميث الأوعار وبركة المتصرف وسعادة المنصرف ووصوله إلى مقصده قرير العين قليل الأين محفوظاً سارياً وآئباً مكلوءاً عائداً وذاهباً مشرد النصب مسروراً موفوراً النصيب محبوراً في اجتماع من كلمة أوليائه على طاعته ونفوذ بصائرهم في نصر رايته وإعانته على ما استحفظه من عباده واسترعاه من بلاده: ليأخذ بالحظ الأجزل من الابتهاج والجذل ويشكر الله تعالى على هذه النعمة المتجددة ويضيفها إلى سوالف نعمه التالده ويذيعها بين رعيته وأنصار دعوته ليشتركوا في ارتشاف لعابها والتحاف أثوابها فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية قليل الوقوع فإن وقع مثله للكاتب في زماننا خرجه على نسبة الأسلوب المتقدم.

الصنف التاسع عشر الكتابة بالإنعام بالتشاريف والخلع وهذا الصنف مما أغفله صاحب مواد البيان ولا بد منه.

والرسم فيه أن يكتب عن الخليفة أو السلطان إلى من أخلص في الطاعة أو ظهرت له آثار كفاية كفتح أو كسر عدو وما يجري مجرى ذلك.

وهذه نسخة كتاب كتب به أبو إسحاق الصابي عن الطائع لله إلى صمصام الدولة بن عضد من عبد الله الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى صمصام الدولة وشمس الملة أبي كاليجار بن عضد الدولة وتاج الملة مولى أمير المؤمنين.

سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على جده محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد - أطال الله بقاءك - فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بوأك المنزلة العليا وأنالك من أثرته الغاية القصوى وجعل لك ما كان لأبيك عضد الدولة وتاج الملة - رحمة الله عليه - من القدر المحل والموضع الأرفع الأجل فإنه يوجب لك عند كل أثر يكون منك في الخدمة ومقام حمد تقومه في حماية البيضة وإنعام يظاهره وإكراماً يتابعه ويواتره.

والله يزيدك من توفيقه وتسديده ويمدك بمعونته وتأييده ويخير لأمير المؤمنين فيما رأيه مستمر عليه من مزيدك وتمكينك والإبقاء بك وتعظيمك وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

وقد عرفت - أدام الله عزك - ما كان من أمر كردويه كافر نعمة أمير المؤمنين ونعمتك وجاحد صنيعته وصنيعتك في الوثبة التي وثبها والكبيرة التي ارتكبها وتقديره أن ينتهز الفرصة التي لم يمكنه الله منها بل كان من وراء ذلك دفعه ورده عنها ومعالجتك إياه الحرب التي أصلاه الله نارها وقنعه عارها وشنارها حتى انهزم والأوغاد الذين شركوه في إثارة الفتنة على أقبح أحوال الذلة والقلة بعد القتل الذريع والإثخان الوجيع.

فالحمد لله على هذه النعمة التي جل موقعها وبان على الخاصة والعامة أثرها ولزم أمير المؤمنين خصوصاً والمسلمين عموماً نشرها والحديث بها وهو المسؤول إقامتها وإدامتها برحمته.

وقد رأى أمير المؤمنين أن يجازيك عن هذا الفتح العظيم والمقام المجيد الكريم بخلع تامة ودابتين بمركبين من ذهب مراكبه وسيف وطوق وسوار مرصع فتلق ذلك بشكر الله تعالى عليه والاعتداد بنعمته فيه وألبس خلع أمير المؤمنين وتكرمته وسر من بابه على حملاته وأظهر ما حباك به أهل حضرته ليعز الله بذلك وليه ووليك ويذل عدوه وعدوك إن شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمته وبركاته.

وكتب فلان لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة أطال الله بقاءك وأدام عزك وأجزل حفظك وحياطتك وأمتع أمير المؤمنين بك وبالنعمة فيك وعندك.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية باق على الاستعمال متى أنعم السلطان على نائب سلطنةٍ أو أميرٍ أو وزيرٍ أو غيره بخلعة بعث بها إليه وكتب قرينها مثال شريف بذكر ذلك إلا أنه أهمل في ذلك السجع والازدواج واقتصر فيه على الكلام المحلول كما في غيره من المكاتبات إلا في النادر المعتنى بشأنه.

الصنف العشرون المكاتبة بالتنويه والتلقيب قال في مواد البيان: جرت عادة الخلفاء بالكتابة بالتلقيب لأن اللقب موهبة من مواهب الإمام أمضاها وأجازها فإذا جرت عليه كانت كغيره من نعمة التي يمنحها على عبيده والكنية تكرمة يستعملها الناس فيما بينهم فليس حكمها كحكم اللقب.

قال: والرسم في هذه الكتب أن تفتتح بحمد الله على نعمه السابغة الضافية ومواهبه الزاهية النامية وعوارفه التي جعلها جزاء للمحسنين وزيادة للشاكرين ونحو هذا مما يليق أن يفتتح به هذا الغرض والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يقال: وإن أمير المؤمنين بما خوله الله تعالى من نعمه وبوأه من قسمه وخصه به من التمكين في أرضه والمعونة على القيام بفرضه يرى المن على خلصائه وإسباغ النعم على أوليائه واختصاصهم بالنصيب الأوفر من حبائه والإمالة بهم إلى المنازل الباذخة والرتب الشامخة وإن أحق من وفر قسمه من مواهبه وغزر سهمه من عطاياه ورغائبه من تميز بما تميزت به من إخلاص ومطاوعة وولاءٍ ومشايعةٍ وانقيادٍ ومتابعةٍ وصفاء عقيدة وسريرة وحسن مذهبٍ وسيرة ولذلك رأى أمير المؤمنين أن ينعتك بكذا لاشتياقه هذا النعت من سماتك واستنباطه إياه من صفاتك وشرفك من ملابسه بكذا وطوقك بطوق أو بعقد وقلدك بسيف من سيوفه وعقد لك لواء من ألويته وحملك على كذا من خيله وكذا من مراكبه.

ويحسن الوصف في كل نوع من هذه الأنواع واشتقاق الألفاظ من معانيه يعرب عن قدر الموهبة فيه.

ثم يقال: إبانةً لك عن مكانك من حضرته وإثابةً على تشميرك في خدمته فالبس تشريفه وتطوق وتقلد ما قلدك به واركب حمولاته وابرز للخاصة والعامة في ملابس نعمائه وارفل في حلل آلائه وزين موكبك بلوائه قل: " رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ " وأعني على ما يسترهنها لدي وخاطب أمير المؤمنين متلقباً بسمتك متنعتاً بنعتك.

وهذه نسخة مكاتبة إلى الأفضل بن ولخشي وزير الحافظ لدين الله الفاطمي أحد خلفاء الفاطميين بالديار المصرية حين قرر الحافظ نعوته: السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الأنام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين وهي:

أما بعد فالحمد لله الذي تفرد بالإلهية وتوحد بالقدم والأزلية وأبدع من برأ وخلق وأنشأهم من غير مثال مسبق واصطفى لتدابيرهم في أرضه من بعثه برسالته وجعل ما جاءوا به من الشرائع من أمارة لطفه بهم ودلالته وصلى الله على جدنا محمد رسوله الذي جعل رتبته أخيراً ونبوته أولى فكان أفضل من تقدمه نبياً وسبقه رسولاً وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي ذخره لخلافته وأيده بوزارته مع كونه منزلة الاصطفاء وتأييد الوحي الظاهر من غير خفاء بحيث لا يفتقر جل وعز - إلى قصده - إلى وزير ولا يحتاج إلى ظهير وإنما جعل ذلك تعليماً لمن يستخلفه في الأرض من عباده وتمثيلاً نص واعتماده لما فيه من ضم النشر وصلاح البشر وشمول المنافع وعموم الخيرات التي أمن فيها مدافع وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين بمرضاته والمتقين له حق تقاته والكافلين له مؤمن بأمانه يوم الفزع الأكبر ونجاته وسلم عليهم أجمعين سلاماً متصلاً إلى يوم الدين.

والحمد لله الذي جعل النعم التي أسبغها على أمير المؤمنين بحسب ما اختصه به من منزلته التي فضله بها على جميع العالمين فجعله خليفةً في الأرض والشفيع لمن شايعه يوم الحساب والعرض وأجزل له من مننه ما لا يناهضه شكرٌ إلا كان طالعاً ولا يقابله اعتدادٌ إلا استولى عليه العجز فلم يكن بما يجب له طامعاً وإن من أرفعها مكاناً وأعظمها شاناً وأفخمها قدراً وأنبهها ذكراً وأعمها نفعاً وأحسنها صنعاً وأغزرها مادة وأثبتها قاعدة إذا غدت النعم شاردةً نادة وأعودها فائدةص على الخاص والعام وأضمنها للسعد المساعد والحظ الوافر التام - ما كان من المنة الشامخة الذرى والمنحة الشاملة لجميع الورى والعارفة التي اعترف بها التوحيد والإسلام والموهبة التي إذا أنفق كل أحدٍ عمره في وصفها وشكرها فما يعذل ولا يلام والآية التي أظهرها الله للملة الحنيفية على فترة من الرسل والمعجزة التي هدى أهله لها دون كافة الأمة إلى أعدل السبل والبرهان الذي خص به أمير المؤمنين وأظهره في دولته والفضيلة التي أبانت مكانة من الله وكريم منزلته وذلك ما من الله به على الشريعة الهادية والكلمة الباقية والخلافة النبوية والإمامة الحافظية منك أيها السيد الأجل الأفضل ولقد طال قدرك في حلل الثناء وجل استحقاقك عن كل عوض وجزاء وغدت أوصافك مسألة اجتماع وائتلاف فلو كانت مقالة لم يقع بين أرباب الملل شيء من التناقض فيها والاختلاف وأين يبلغ أمد استجابك من منتحيه أو يتسهل إدراك شأوه على مطالبه ومبتغيه والإيمان لو تجسم لكان على السعي على شكرك أعظم مثابر والإسلام لو أمكنه النطق لقام بالدعاء لك خطيباً على المنابر فأما الشرك فلو أبقيته حياً لتصدى وتعرض لكنك أنحيت عليه وأدلت التوحيد منه فانهد بناؤه بحمد الله وتقوض فكان لك في حق الله العضب الذي تقربت به إليه فأرضيته والعزم الذي صممت عليه في نصرة الحق فأمضيته والباطن الذي اطلع عليه منك فنصرك ولم ترق دماً ولا ورعت مسلماً ولا أقلقت أحداً ولا أزعجته ولا عدلت عن منهج صواب لما انتهجته وذلك مما اشترك الكافة في معرفته وتساووا في علم حقيقته مع من كان من تسييرك العساكر المظفرة صحبة أخيك الأجل الأوحد أدام الله به الإمتاع وعضده وأحسن عنه الدفاع وأيده مما جرت الحال فيه بحسن سياستك وفضل سيادتك على أفضل ما عودك الله من بلوغ آمالك من غير أذى لحق أحداً من رجالك والأمر في ذلك أشهر من الإيضاح وأبين من ضياء فلق الصباح وهذا إذا تأمله أمير المؤمنين أوجب عليه أن يقابلك من إحسانه بغاية ما في إمكانه وأن يوليك من منته أقصى ما في استطاعته وقدرته ولم ير أحضر من أن قرر نعوتك السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الأنام كاف قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبو الفتح رضوان الحافظي إذ لا أولى منك بكفالة قضاة دولته وإرشادهم وهداية دعاتها إلى ما فيه نجاة المستجيبين في معادهم وجدد لك ما كان قدمه من تكفيلك أمر مملكته وإعادة القول فيما أسلفه من رده إليك تدبير ما وراء سرير خلافته التذاذاً بتكرار ذلك وترديده وابتهاجاً ببطرية ذكره وتجديده فأمور الملة والدولة معدوقة بتدبيرك وأحوال الأداني والأقاصي موكولة إلى تقريرك وقد جمع لك أمير المؤمنين من استخدام الأقلام وجعل السيادة لك على سائر القضاة والدعاة والحكام وأسجل لك بالاختصاص بالمعالي والانفراد والتوحد بأنواع الرياسات والاستبداد ولك الإبرام والنقض والرفع والخفض والولاية والعزل والتقديم والتأخير والتنويه والتأمير فالمقدم من قدمته والمحمود من حمدته والمؤخر من أخرته والمذموم من ذممته فلا مخالفة لما أحببته ولا معدلة عما أردته ولا تجاوز لما حددته ولا خروج عما دبرته وأين ذلك مما يضمره لك أمير المؤمنين وينوه ويعتقده فيك فلا يزال مدى الدهر يعيده ويبديه ولو لم يكن من بركاتك على دولة أمير المؤمنين ويمن تدبيرك العائد على الإسلام والمسلمين إلا أن أول عسكر جهزته إلى جهاد الكفرة الملاعين وكان له النصر العزيز الذي تبلج فجره والفتح المبين الذي جل قدره وانتشر ذكره والظفر المبهج للدين العسكر المنصور على الطائفة الكافرة قتلاً لأبطالها وأسراً لأعناق رجالها وأخذاً لقلاع الملسرة منها وأنه لم يفلت من جماعتها إلا من يخبر عنها ولو علم أمير المؤمنين تعظيماً يخرج عما تضمنه هذا السجل لما اقتصر عليه إلا أنه عاجله ما يسره فجاهر لك بما هو مستقر لديه والله عز وجل يخدمك السعود ويخصك من مواهبه بما يتجاوز المعهود ويمدك بمواد التوفيق والتأييد ويقضي لك في كل الأمور بما لا موضع فيه للمزيد إن شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قلت: وهذا الصنف من الكتب السلطانية قد رفض وترك استعماله في زماننا فلا معول عليه أصلاً.

الصنف الحادي والعشرون المكاتبة بالإحماد والإذمام

قال في مواد البيان: السلطان محتاج إلى مكاتبة من يقف منه على طاعة واجتهاد ومناصحةٍ وإخلاص بالشكر والإحماد والبعث على الازدياد من المخالصة وحسن السعي في الخدمة وغيرها مما يرتبط به النعمة ويستوجب معه حفظ الرتبة ومكاتبة من يعثر منه على تقصير وتضجيع وتفريط وتضييع بالذم والتقريع والتأنيب لأنه لا يخلو أعوان السلطان من كفاة يستديم كفايتهم بتصويب مراميهم واستحسان مساعيهم وإحمادهم على تشميرهم وشرح صدورهم ببسط آمالهم والعدة برفع منازلهم ومحالهم وتمييزهم على نظرائهم وأشكالهم وتحذيرهم من التوبيخ وتقديم الأعذار والتخويف من سقوط المراتب وقبح المصاير والعواقب.

قال: وينبغي للكاتب أن ينتهي في خطاب من انتهى في الحالين إلى غايتيهما إلى المعاني الناجمة في الغرضين ويتوسط فيهما سيما التوسط الذي يقتضيه الحال المفاض فيها لأن في ذلك تقديراً للمحسن على إحسانه ونقلاً للمسيء عن إساءته لأنه إذا علم الناهض أنه مثاب على نهضته والواني أنه معاقب على ونيته اجتهد هذا في الاستظهار بخدمته بما يزيد في رتبته وخاف هذا من حط منزلته وتغير حالته ثم قال: والرسوم في هذه المكاتبات تختلف بحسب اختلاف أغراضها وتتشعب بتشعب معانيها والأمير في ذلك موكول إلى نظر الكاتب العارف الكامل ووضعه كل شيء في موضعه وترتيبه إياه في مرتبته.

فأما المكاتبة بالإحماد فكما كتب عن صمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه إلى حاجب الحجاب أبي القاسم سعد بن محمد وهو مقيم بنصيبين على محاربة باد الكردي: كتابنا ووصل كتابك مؤرخاً بيوم كذا تذكر فيه ما جرى عليه أمرك في الخدمة التي نيطت بكفايتك وغنائك ووكلت إلى تدبيرك ووفائك من رد باد الكردي عن الأعمال التي تطرقها وحدث نفسه بالتغلب عليها وتصرفك في ذلك على موجبات الأوقات والتردد بين أخينا وعدتنا أبي حرب زياد بن شهراكويه وبينك من المكاتبات وحسن بلائك في تحيفه ومقاماتك في حص جناحه وآثارك في الانقضاض على فريقٍ بعد فريق من أصحابه واضطرارك إياه بذلك وبضروب الرياضات التي استعملتها والسياسات التي سست أمره بها إلى أن نزل عن وعورة المعصية إلى سهولة الطاعة وانصرف عن مجاهل الغواية إلى معالم الهداية وتراجع عن السوم إلى الاقتصار وعن السرف إلى الاقتصاد وعن الإباء إلى الانقياد وعن الاعتياص إلى الإذعان وأن الأمر استقر على أن قبلت منه الإنابة وبذلت له فيما طلب الاستجابة واستعيد إلى الطاعة واستضيف إلى الجماعة وتصرف على أحكام الخدمة وجرى مجرى من تضمه الجملة وأخذت عليه بذلك العهود المستحكمة والأيمان المغلظة وجددت له الولاية على الأعمال التي دخلت في تقليده وضربت عليها حدوده وفهمناه.

وقد كانت كتب أخينا وعدتنا أبي حربٍ زياد بن شهراكويه مولى أمير المؤمنين ترد علينا وتصل إلينا مشتملة على كتبك إليه ومطالعاتك إياه فنعرف من ذلك حسن أثرك وحزم رأيك وسداد قولك وصواب اعتمادك ووقوع مضاربك في مفاصلها وإصابة مراميك أغراضها وما عدوت من مذاهبك كلها ومتقلباتك بأسرها المطابقة لإيثارنا والموافقة لما أمرت به عنا ولا خلت كتب أخينا وعدتنا أبي حرب من شكرٍ لسعيك وإحماد لأثرك وثناء جميل عليك وتلويح وإفصاح بالمناصحة الحقيقية بك والموالاة اللازمة لك والوفاء الذي لا يستغرب منه مثلك ولا يستكثر ممن حل في المعرفة محلك ولئن كنت قصدت في كل نهج استمررت عليه ومعدلٍ عدلت إليه مكافحة هذا الرجل ومراغمته ومصابرته ومنازلته والتماس الظهور عليه في جميع ما تراجعتماه من قول وتنازعتماه من حد فقد اجتمع لك إلى إحمادنا إياك وارتضائنا ما كان منك المنة عليه إذ سكنت جأشه وأزلت استيحاشه واستللته من دنس لباس المخالفة وكسوته حسن شعار الطاعة وأطلت يده بالولاية وبسطت لسانه بالحجة وأوفيت به على مراتب نظرائه ومنازل قرنائه حتى هابوه هيبة الولاة وارتفع بينهم عن مطارح العصاة.

فالحمد لله على أن جعلك عندنا محموداً وعند أخينا وعدتنا أبي حرب مشكوراً وعلى هذا الرجل ماناً وفي إصلاح ما أصلحت من الأمر مثاباً مأجوراً وإياه نسأل أن يجري علينا عادته الجارية في إظهار آياتنا ونصرة أوليائنا والحكم لنا على أعدائنا وإنزالهم على إرادتنا طوعاً أو كرهاً وسلماً أو حرباً فلا يخلو أحد منهم من أن تحيط لنا بعنقه ربقة أسر أو منة عفو إنه جل ثناؤه بذلك جدير وعليه قدير.

ويجب أن تنفذ إلى حضرتنا الوثيقة المكتتبة على باد الكردي إن كنت لم تنفذها إلى أوان وصول هذا الكتاب لتكون في خزائننا محفوظة وفي دواويننا منسوخة وأن تتصرف في أمر رسله وفي بقية - إن كانت بقيت من أمره - على ما يرسمه لك عنا أخونا وعدتنا أبو حرب فرأيك في العمل على ذلك وعلى مطالعتنا بأخبارك وأحوالك وما يحتاج إلى علمه من جهتك موفقاً إن شاء الله تعالى.

وأما الإذمام فيختلف الحال فيه باختلاف الملوم فيه والمذموم بسببه.

فمن ذلك الذم على ترك الطاعة وشق العصا.

كما كتب عمارة يصف شخصاً بأنه لما ارتفع مكانه وعلا قدره بطر معيشته وخرج عن طاعة الخليفة وأن فلاناً كان ممن عرفت حاله في غموض أمره وخمول ذكره وضيق معيشته وقلة عدده وناهضيه ولا يتجاوز حياته ما يقوله ولا يتعاطى ما وراء ذلك ولا يرومه ولا يمنيه نفسه ولا يدفع يد لامس عنه بقوة تنوء بملأ ولا عز يلجأ إليه فأنعم عليه أمير المؤمنين وأكرمه وشرفه وبلغ به الغاية التي لم يكن يرجوها ولا ترجى له وبسط له من الدنيا وآتاه من غضارتها ونعيمها وعزها وسلطانها ما لم يؤت أحداً من أهل زمانه فلما مكن الله له في الدنيا طغى وتجبر وعلا وتكبر وظن أن الذي كان فيه شيء قاده إلى نفسه بحوله وقوته وتهويلاً من أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك إلا ما أحب من رب صنيعته قبلك واستتمام معرفته إليك وكان أمير المؤمنين أحق من أصلح ما فسد منك وإنك إن عدت لمثل مقالتك وما بلغ أمير المؤمنين عنك رأى في معالجتك رأيه فإن النعمة إذا طالت بالبعد ممتدة أبطرته فأساء حمل الكرامة واستثقل العافية ونسب ما هو فيه إلى حيلته وحسن نبته ورهطه وعشيرته وإذا نزلت به الغير وانكشفت عماية العشي عنه ذل منقاداً وندم حسيراً وتمكن منه عدوه قادراً عليه وقاهراً له ولو أراد أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك ومعاجلة إفسادك جمع بينه وبين من شهد فلتات خطئك وعظيم زلتك ولعمري لو حاول أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك في مجلسك وجحودك فضله عليك لردك إلى ما كنت عليه ولكنت مستحقاً.

وفي مثله: فإن صاحب البريد كتب إلي عن أصحابك بكذا فقلت: إنهم لم يقدموا على ما أقدموا عليه حتى عجموك فعرفوا خور عودك وضعف مكسرك ومهانة نفسك وأنه لا غير عندك ولا نكير.

ومن ذلك الذم على الخطأ كما كتب أحمد بن يوسف: كأن البخل والشؤم صارا معاً في سهمه وكانا قبل ذلك في قسمه فحازهما لوارثه واستحق ما أستملك منهما بالشفعة وأشهد على حيازتهما أهل الدين والأمانة حتى خلصا له من كل ممانع وسلما له من تبعة كل منازع فهو لا يصيب إلا مخطئاً ولا يحسن إلا ناسياً ولا ينفق إلا كارهاً ولا ينصف إلا صاغراً.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية لا يمنع وقوعه في وقت من الأوقات فإن عرض له موجب راعى الكاتب فيه صورة الحال وكتب على ما يوجبه المقام وتقتضيه الوقعة.

الصنف الثاني والعشرون ما يكتب مع الإنعام لنواب السلطنة بالخيل والجوارح وغيرها من أنواع الإنعامات وهذا الصنف من المستعمل في زماننا كل وقت فأما ما يكتب مع الإنعام بالخيل فقد جرت العادة أن السلطان ينعم بالخيل على نواب السلطنة بالشام ويكتب بذلك مثالات شريفة إليهم وربما أنعم بالخيل وكتب بها في غير ذلك.

وهذه نسخة مثال شريف من ذلك: ضاعف الله تعالى نعمة الجناب وخصه من النعم بما لا تحصى له آثار ولا يتعلق له بغبار ولا يوصف بحال واحدة لأنه إن جرى فبحر وإن وقف فنار.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي بكل سلام لا تدرك لسوابقه غاية ولا تحصى له نهاية ولا يرد منه كل ما جاء وله في وجهه كفلق الصبح آية ولا يتقدم في ميدان إلا وقد حمل له في كل مكان راية.

وتوضح لعلمه الكريم أنه قد جهز له قرينها ما جرت به عادته من الحصن التي لا يدعي البرق أن لها نظير ولا تجاري الرياح من سوابقها ما يطير كم لها في ميدان مجال وكم لها في رؤية دوية ارتجال وكم دعي الوغى بها على كل ضامرٍ فأتت رجالاً تقدح سنابكها ناراً وتفيض جوانبها من الركض عقاراً ويتكفل بديعها بكل مرام ويعطي ما في يديها لأنها من الكرام وقد تشرفت من نعمنا الشريفة بالسروج واللجم والعدة المكملة وتحلت من الذهب والفضة ما يغني بجملته المفضلة وأرسلناها إليه ترقص في أعنتها زهواً وتترك بطيب صهيلها كل بحر تخوضه إلى المنايا رهواً وتوجه بها فلان كالعرائس المجلوة في حللها والنجوم لولا ما تميزت به من حلي عطلها والسحاب إلا أنها لا تحتاج منة الرياح في تنقلها.

فليقابل هذه النعمة الشريفة بشكرها وليتسلم هذه الصدقات العميمة التي تعترف كل نعمة بقدرها وليحمد الله من تفقداتنا الشريفة على كرم فرس جاء وهو سابق وجود لا يدور معه السحاب في طابق ويعتمدها لارتقاء كل صهوة منيفة وجهاد أعداء الله عليها بين أيدينا الشريفة ويعيد الواصل بها إلى خدمة أبوابنا العالية والله تعالى يديم عليه بنا النعم المتوالية إن شاء الله تعالى.

آخر: ولا زال إقبالنا يمده من الصافنات الجياد بما يباري الرياح ويتيمن بغررها الصباح ويطلق أعنتها في حلبة السباق فتسبق بركضها ذوات الجناح ولا برح إنعامنا يتحفه بكل طرف يبهج الطرف ويثلج الصدر بما استمد عليه من الملاحة التي تروق العين وتفوق الوصف ويفرده بما اجتمع فيه من الحسن واليمن إذ هو واحد كالألف تهدي إليه سلاماً تعبق بطيب نشره أرجاءه وثناء يعرب عما في ضميره من علو قدره وسمو ذكره فيشرق سناؤه ويضاعف ثناؤه وتوضح لعلمه الكريم أنه غير خاف عنه ما يصل إلى أبوابنا الشريفة من الخيول البرقية في كل عام وما نخصه منها لكل ميمون الغرة مبارك الطلعة هنيء السير على الإنعام وقد أرسلناه إلى جنابه الكريم من ذلك سهمه وأضفنا إلى ذلك ما استصلحناه من الخيل العربية الغربية والعتاق العجمية العربية مما الخير معقود بنواصيها فتزهق على صهواتها نفوس الأعداء وتستنزلها من صياصيها فيأخذ الجناب العالي ما يخصه من ذلك ويفرق الباقي على من رسمنا له من بيمن رأيه المبارك الذي لا يساهمه فيه أحد ولا يشارك ويجهز الخيل المخصوصة بفلان إليه والله تعالى يضاعف عز ظهورها عند امتطائها لديه.

وأما ما يكتب مع الإنعام بالجوارح فمما يكتب مع إرسال سنقر: وقد بعثنا بسنقر كأنه ملك متوج ورزق مروج تجرأ على سفك الدماء وأبى أن يطلب رزقه إلا من السماء يود الكركي لو خلص من مخالبيه ويخاف أن يسلم من خرط الشبكة ويقع في كلاليبه ويدرك الصيد ولا يؤجله ويرفع صدره ثم يومي إليه برأسه كأنه يستعجله قد جمع من المحاسن كل الصنوف وكتبت عليه أسطر تقرأ بما تقرى به الضيوف.

ومما يكتب مع إرسال صقر: وقد وجهنا إليه بصقر لا تؤسى له من الصيد جراح ولا يدع من وحش يسرح ولا طائر يطير بجناح أينما توجه لا يأت إلا بخير وحيثما أطلق كان حتف الوحش والطير يدع أقطار الفلاة مجزرة أو روضة بالدماء مزهرة يجد إلى الطير في عنقه ويحلق إلى السماء فيرجع طائره في عنقه تخافه العفر على نفوسها وتخضع له ولأمثاله فما يخرج إلا والطير على رؤوسها يزيد خبره في مظان الصيد على الخبر وتخرج الظباء وقد تسجت خوفاً منه في ملاءة من العجاج مخيطة من قرونها بالإبر شديد الأيد قد بنى على الكسر حروف الصيد يحمد مقتنيه أيامه الغر ويقول له إذا تلفت إلى الصيد: إن جلبت ضبعاً فأنت حر لا يصحب مستصحبه معه إلا مزاده وأينما سار حامله - وهو معه - كان معه زاده.

ومما يكتب مع إرسال شاهين: وقد وجه إليه حلق وراء الطير شاهت به الوجوه وشاهدت الآمال به ما ترجوه قد أصبح كل محلق الجناح رهين يده وكل سارب من الوحش طعام يومه أو غده لا يتعبه خلف الطريدة بعد المدى ولا يرده خوف مسافة ولا يقحم ردى ربية عام لم يمتع بطول ما دهر وممتدة منه في الطلق مثل ريح سليمان غدوها شهر ورواحها شهر.

ومما يكتب مع إرسال كوهية: وقد جهزنا إليه كوهية هي بالمحاسن حرية ولكثرة الإقدام جرية يكل بها صاحبها أمر مطبخه ويمدها من الطير من ليس بمصرخه لا نعف عن دم ولا ترى أطرافها إلا مثمرة بعناب أو مخضبة بعندم قد أخلت من كل سانح ولبست زي الراهب المتعبد وفتكت بكل سائح.

ومما يكتب مع سقاوة: وقد جهزنا إليه بقساوة مخاليبها على الطير كالحديد أو أشد قساوة تسيل دماء الصيد كالمذانب وتكسو الأرض حبراً من رياش الحبارى وفراء من جلود الأرانب وجعلت في قبضة الكف ما كانت العين عليه تدور وتكفلت بكفاية المطبخ وملأت القدور.

ومما يكتب مع إرسال باز: وقد بعثنا بباز مهما لقي لقف ومهما خطا لديه خطف كأنما خط جوهره بقلم أو ريش عليه من الصباح والظلم قد أعد للطوارق وادرأ بمثل الطوارق قد دحض حجج الحجل وكسرها حتى أبان عليها حمرة الخجل لا يسأل في الصيد عما نهب ولا تعرف قيمة إلا أن له عيناً من الذهب.

ومما يكتب مع الفهد: وقد أنعمنا عليه بفهد أهرت الشدق ظاهر الحذق بادي العبوس مدنر الملبوس شثن البراثن ذي أنياب كالمدى ومخالبه كالمحاجن قد أخذ من الفلق والغسق إرهاباً وتقمص من نجل الحدق جلباباً يضرب المثل في سرعة وثوب الأجل به وبشبهه وتكاد الشمس مذ لقبوها بالغزالة لا تطلع من الوجل على وجهه يسبق إلى الصيد مرامي طرفه ويفوت لحظ مرسله إليه فلا يستكمل النظر إلا وهو في كفه وتتقدمه الضواري إلى الوحش فإذا وثب له تعثرت من خلفه.

وأما ما يكتب مع الإنعام بالسلاح: فمن ذلك: وقد جهزنا إليه سيفاً تلمع مخايل النصر من غمده وتشرق جواهر الفتح في فرنده وإذا سابق الأجل إلى قبض النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حده ومتى جرد على ملك من ملوك العدا وهت عزائمه وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه وعلم أنه سيفنا الذي على عاتق الملك الأعز نجاده وفي يد حبار السموات قائمه.

الصنف الثالث والعشرون المكاتبة بالبشارة عن الخليفة بولد رزقه والرسم فيها أن يذكر شرف الخلافة وعلو رتبتها ويشير إلى تخصيص الخلافة بمصيرها إليه دون سائر البرية وانتقالها إليه بالتوارث من آبائه الطاهرين كابراً عن كابر وبقائها في عقبه إلى الأبد.

ثم يتخلص إلى ذكر النعمة على أمير المؤمنين التي أنعمها الله تعالى عليه وأن من أعظمها نعمة أن رزقه الله تعالى ولداً ويذكر اسمه وكنيته ويصفه بما يناسبه.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك هي: الحمد لله مؤيد الإسلام بخلفائه الراشدين ومظهر الإيمان بأوليائه الهادين الذي جعل الإمامة كلمة باقية فيهم إلى يوم الدين وأقام منهم الحاضر المتبع والمرجو المتوقع وأطلع منهم في سماء الهداية شهباً لا يخبو منها شهاب حتى يتوقد شهاب وفتح بهم للإرشاد أبواباً لا يرتج منها باب حتى يفتح باب.

يحمده أمير المؤمنين أن فوض إليه منازل آبائه ووفقه بانتقال ما ورثه من آبائه إلى أبنائه ويسأله أن يصلي على من كرمه بولادته وشرفه بالانتساب إلى شجرة سيدنا محمد خاتم رسله المترجم عن توحيده وعدله وعلى أخيه وابن عمه علي بن أبي طالب قسيمه في فضله ووصيه على أمته وأهله.

وإن أولى النعم بأن يفاض في شكرها وتعطر المحافل بنشرها نعمة حاطت دعائم الدين وأمرت حبل المسلمين وتساوى في تناول قطافها الكافة وآذنت بشيوع الرحمة والرأفة وأضحت النبوة مشرقة الأنوار والإمامة علية المنار والخلافة مختالة المنبر والسرير رافلة في حلل الابتهاج والسرور.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد رزقه الله تعالى ولداً ذكراً مباركاً رضياً سماه فلاناً وكناه أبا فلان فجعلا بنهار عرته الدامس وافتر بمقدمه العابس واخضر بيمن نقيبته اليابس ووثقت الآمال بسعادة مقدمه وتطلعت الأعناق إلى جوده وكرمه مبشراً لك بهذه النعمى الحسنة الأثر القليلة الخطر علماً بمكانك من ولائه ومخالصته وسرورك بما يفيضه الله عليه من شآبيب نعمته لتأخذ من المسرة والجذل بحظ المولى المخلص والعبد المتخصص ولتشيع مضمون كتابه فيمن قبلك من الأولياء ليشاركونا في الشكر والثناء فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل في البشارة عن السلطان إذا حدث له ولد فيكتب بالبشارة به إلى نواب السلطنة وأهل المملكة.

الصنف الرابع والعشرون ما يكتب عن السلطان بالبشارة بعافيته من مرض وهذه نسخة كتاب بعافية الملك الناصر محمد بن قلاوون من مرض إلى صاحب ماردين وهو: ولا زالت البشائر على سمعه الكريم متواترة والمسار إلى مقام ملكه سائرة والتهاني ببلوغ الأماني من كمال شفائنا تجعل ثغور الثغور باسمة ووجوه الدهور ناضرة ونعم الله تعالى مقابلة بالشكر الجزيل على أن أجد ملك الإسلام بافتقاده وأبقي للدين المحمدي ناصره.

وأصدرناها إلى المقام العالي وموادنا من الصحة حلوة في الأفواه وألسنتنا شاكرة لنعم الله وعافيتنا تجدد في كل جديد وصحتنا قد بلغت من المزيد ما نريد وقد ألبسنا الله تعالى من الشفاء ثوباً قشيباً ونصرنا نصراً عزيزاً وفتح لنا فتحاً مبيناً تهدي إليه سلاماً تتأرج به أرجاء ملكه وثناء تنظيم الأثنية في سلكه وتوضح لعلمه الكريم ما حصل من عافيتنا التي تضاعف بها فرح الإسلام والمسلمين ووجب الشكر عليهم والحمد لله رب العالمين.

الضرب الثاني من مقاصد المكاتبات ما يكتب عن السلطان في الجواب وكل معنى من المعاني الواردة بها الكتاب إليه يستق جوابه منها وغالب ما يعتنى به من ذلك جواب ما يرد من المكاتبات بالتقادم والهدايا وما في معنى ذلك.

وهذه أدعية من ذلك يستضاء بها في أوائل الأجوبة عن المعاني التي ترد فيها.

جواب سلطاني عن وصول خيل: ولا زال يتحف بكل صاهل في الجحفل جمال في المحفل وأجرد إذا أم غاية لمعت في أثره البروق تتطفل ومسوم يلتزم جلاله بمزيد جلاله وكيف لا وهي إذ أسدلت عليه يتكفل أصدرناها والعطر يضوع من سلامها والمسك يفوح من ختامها وآثار الندى تحكي آثار أقلامها.

آخر في المعنى: ولا زال محتفلاً بالجياد وإرسالها ومهدياً لركابنا الشريف السوابق التي إذا لم يسابقها شيء من الحيوان تجلت في مسابقة ظلالها وينتقي لمواكبنا الخيول التي إذا أصبحت في مدى أصبحت الرياح تتعلق بأذيالها.

أصدرناها.

آخر في مثله: ولا زال يُهدي إلينا من الجياد بحراً ويقود من العراب ما تملأ غرته المواكب بشراً آخر في مثله: وأعلى له صهوات العتاق مرتقى وخصه بكل جواد وهو منتقل إليه منتقى وأطلع عليه نواصي الصوافن التي عقد الخير بها عقداً موثقاً.

أصدرناها ونور التحايا من أرجائها ينير ومفاخرها تشرف بها كل منبر وسرير وركائب أثنيتها تسير إلى مقامه فتطيب راحلة في ذلك المسير.

آخر في مثله: ولا زال يهدي من الجياد المسومة أصائلها ويتحف مما يحبيه عند الوفادة عليه صاهلها ويقابل أكرم غرة الخير معقود بناصيتها واليمن يقابلها ويمتع بأعز جواد حلية الشفق دون إهابه إذ يماثلها وسرعة البرق خفته إذ يساجلها.

الضرب الثالث من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نواب السلطنة إلى النواب بسبب ما يرد عليهم من المثالات السلطانية اعلم أنه قد جرت العادة بأنه إذا ورد على نائب السلطنة بالشام مثال شريف من الأبواب السلطانية يأمرهم كتب نائب الشام إلى نواب السلطنة بورود المثال الشريف مبشراً بذلك ويجهز إلى كل منهم مع المثال الوارد إلى كل نائب من نواب السلطان معنى المثال الوارد بذلك لا أنه مبتدئه ويشتمل ذلك على عدة أمور: فمن ذلك جلوس السلطان على تخت الملك فيخبر نائب الشام في الكتاب الصادر عنه إلى بعض النواب بأن المثال الشريف ورد عليه بذلك وأنه ورد كتاب إلى المكتوب إليه فجهزه إليه.

وهذه نسخة كتاب من ذلك كتب به عن نائب الشام إلى بعض نواب السلطنة بالبشارة بسلطنة السلطان الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون وقد ورد على يد بعض الحجاب من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباته في سنة ثلاث وأربعون وسبعمائة وهي بعد الصدر: أمتعه الله من البشائر بما يتوضح على جبين الصباح بشره وبما يترجح على ميزان الكواكب قدره وبما ينفسح من أوقات أمن لا يختصم في ظلها زيد وعمرو حتى يقال: ولا زيد النحو وعمره.

وينهي بعد الدعاء يتبلج في الليل فجره وثناء يتأرج في طي النسيم نشره وولاء يتساوى في درجات الصفاء سره وجهره أن أنا ابن جلا - خير البشائر ما خص أولياء الدولة الشريفة وعم الرعايا وسما إلى ثغور الإسلام خبره الجلي فقال: - وافر وطلاع الثنايا.

وقسمت مسرته على كافلي الممالك فقالت مملكة مولانا - وافر - لنا المرباع منها والصفايا.

وسلك المملوك من الإسراع بإشاعته الحق الواجب وجهز خدمته بين يدي المثال الشريف الذي سبق طائر يمنه ولكنه جاء في خدمته حاجب وهي البشرى الواردة في الأمثلة الشريفة السلطانية المالكة الملكية الصالحية العمادية العريقة في نسب النصر بالأنساب الناصرية المنصورة أعلى الله تعالى أبداً على قواعد الملك عمادها وصرف بها الأعنة لما سر وصرفها عما دهي بجلوسه على كرسي المملكة الذي هو آية سعده الكبرى وتخت السلطنة الذي عاينه ملك الجود والعلم فقال: السلام عليك بحراً وإجماع الأمة على أنه صالح المؤمنين وكفاة الحل والعقد على أنه سلطان الإسلام والمسلمين وأركان البيت الناصري على أنه عماده وعلى أنه سنده المكمل وإذا انقض بيت سناده فيا له جلوساً قامت فيه كواكب السعد مشدودة المناطق ويا له إجماعاً اتفق فيه - حتى من تصميم السيوف وتعبير الأقلام - كل صامت وناطق ويا له بيت ملك أبى الله إلا أن يقيم وزنه أفضل الأفاعيل ويا له ملكاً قال الدهر الطويل انتظاره: " الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل ".

ويا له أمراً بلغ خبره وخبره الأوطار والأوطان ونفذت برده المصرية على حين فترة تالية له السعود: " فأنفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ".

وحشير الناس ضحى ليوم الزينة وجاءوا إليها مستبشرين من أدنى وأقصى كل من في المدينة وضربت البشائر ويا عجباً! إنها تضرب ومكانتها من القلوب مكينة.

حتى إذا أخذت مصر حظها من الهناء قسمت على الأمصار وأضاء بارق نشرها من كل وجه فسمت بالشامات غرة الأبصار وركض بريد الخير بمبارك باب البريد ووصل نيل النيل إلى أنهار دمشق فبردى على الشكر ثابت ويزيد وبشر الإسلام من وجه الخلف الصالح بأكرم من بر واستفاض الاسم الشريف فلو كلف مشتاق فوق وسعه لسعى إليه المنبر.

فالحمد لله على أن سر البيت الشريف الناصري بجمع شمله وعلى أن أتى الملك العقيم الصالح من أهله وقد جهز المملوك المثال الشريف المختص بمولانا ومولانا أولى من انتظمت لديه درر هذه الأخبار الثمينة وعظمت بناحيته شعائر هذه الدولة المكينة وكمل لخير حماه خير قرينة والله تعالى يعز الإسلام بعزمه ويمضي الآجال والأرزاق على يدي حربه وسلمه وينجز لرأيه ورايته النصر قبل أن يطوف الأولياء بعلمه وقبل أن يحيط الأذكياء بعلمه.

ومن ذلك الكتابة بورود مثال شريف بعافية السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون في خلافة الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وهي بعد الألقاب: أورد الله عليه من الهناء كل سري يسره وكل سني يقر أمام ناظره الكريم ويقره وكل وفي إذا طلع في آفاق حلب قيل: لله دره ولا زالت البشائر تلقاه بكل وجه جميل وبكل جلي جليل وبكل خبرٍ تصح الدنيا بصحته فليس بها عنبر النسيم عليل تقبيلاً يزاحم عقود الثغور ويكاد يمنع ضم الشفتين للثم طول الابتسام والسرور وينهي بعد رفع اليد بدعائه وضم الجوانح على ولائه وجزم الهناء المشترك بمسرة مولانا وهنائه أن المثال الشريف زاده الله شرفاً وزاد فضل سلطانه على العباد سرفاً ورد بالبشارة العظمى والنعماء التي ماضاهتها الأيام قبل بنعمى والمسرة التي يأكل حديثها أحاديث المسرات أكلاً لماً ويحبها الإسلام والمسلمون حباً جماً بسلامة جواهر الجسد الشريف من ذلك العرض وشفائه الذي في عيون الأعداء منه شفار تطعن وفي قلوبهم مرض وأن مادة الأدواء بحمد الله قد انحسمت والواردة من الافتقاد بالأجر والعافية قد ابتسمت وأن ظنون الإشفاق قد اضمحلت ونسمات الروض قد فدت الجسم الشريف فاعتلت وأخبار الهناء يعينها بريد نشوان من الفرح ينشد أسائلها أي المواطن حلت فيا لها بشارة خصت الإسلام وعمت بنيه وسارت فوق الأرض وسرت تحتها أسلاف الملك ومبتنيه وشملت البلاد وعبادها والسلطنة وقد حجب الله عمادها عما دهى والملك السليماني وقد ثبت الله به على الدنيا من السماء خيمتها ومن الجبال أوتادها والطير وقد حملت ورقه أوراق السرور والوحش وقد قالت مهاه: على عيني أتحمل ذلك السقام أو ذلك الفتور " ". "والألطاف الراحم بها المؤمنين من خلقه " وكان بالمؤمنين رحيماً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً "

وكان ورود هذا المثال الشريف على يد فلان فيا له من وارد لمشارع الأمن أورده ولروائع الناس عن القلوب حجب أورد وقد جهزه المملوك بالمثال الشريف المختص بمولانا وهذه الخدمة بعد أن ضربت البشائر مسوغة في كل ضرب من التهاني وزينت البلد زينة ما نظمت فيها غير العقود أيدي الغواني فيأخذ حظه من هذه البشرى ونصيبه من هذا الوجه الذي ملأ الوجود بشراً وشطره من الهناء المخصوص الذي تعجل منه المملوك شطراً والله تعالى يسره بكل خير تشرق زواهره وتعبق في كمائم الدروج أزاهره ويتألق على يد بريده من المخلفات كل كوكب صبح تملأ الدنيا بشائره.

ومن ذلك المكاتبة بورود المثال الشريف بوفاء النيل: إذا ورد على نائب الشام بوفاء النيل المبارك كتب نائب الشام نفسه إلى نائب حلب وغيره من نواب السلطنة بالممالك الشامية بورود المثال الشريف عليه بذلك ويكتب عنه كما يكتب عن السلطان من السجع وإيراده مورد البشارة وإظهار الفرح والسرور بذلك لا يكاد يخالفه إلا في كونه وارداً مورد الحكاية لمثال السلطان ومثال السلطان مخبر بذلك ابتداء.

وهذه نسخة مثال كريم من ذلك عن نائب الشام من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة كتب به لسنة ثلاث وأربعين وسبعمائة وهي بعد الصدر: لا زالت مبشرة بكل مبهجة معطرة الأرجاء بكل سائرة أرجة ميسرة الأوقات بمقدمتي سماع وعيان كلاهما للمسار منتجة مستحضرة في معالي الكرم كل دقيقة تشهد بسطة النيل أنها أرفع منه درجة وينهي بعد الدعاء ما الروض أعطر من شذاه ولا ماء النيل وإن كرم وفاء بأوفى من جداه أن المرسوم الشريف زاده الله تعالى شرفاً ورد بوفاء النيل المبارك وحبذا هم من وفي موافي ومتغير المجرى وعيش البلاد به العيش الصافي وحسن الزيارة والرحيل ما ضاهته الغيوث في ولافي ووارد من معبد بعيد وحميل لا جرم أن مده ثابت ويزيد وجائد إذا تتابع حيث تياره يقلد بره ودره من الأرض وساكنها كل جيد وإذا ذكر الخصب لمكان عيده المشهود ألقى السمع وهو شهيد وذلك في يوم كذا وأن البلاد جبرت بكسر خليجه واستقامت أحوالها بتفريجه وأثنت عليه بآلائه ووسمت لونه الأصهب على رغم الصهباء بأحسن أسمائه وخلق فملأت الدنيا بشائر مخلقه وعلق ستره المصري التبري فزكا على معلقه وحلق مسير تراعه على القرى فبات على الندا ضيف نحلقه وحدث عن البحر ولا حرج وانعرج على البقاع يلوي معصمه فلله أوقات ذلك اللوى والمنعرج واستقرت الرعايا آمنين آملين وقطع دابر الجدب بسعود هذه الدولة القاهرة " وقيل الحمد لله رب العالمين " ورسم أن لا يجبى حق بشارة ولا تعبث يد

التنقيص منها ليزداد الخبر نوراً على نور ويكون في إيثاره وحسنه الخبر الحسن المأثور ووصل بهذا الخبر فلان وعلى يده مثال شريف يختص بمولانا وقد جهز به فيأخذ مولانا حظه من هذه البشرى ويوضح بها على كل الوجوه بشراً والله تعالى يملأ له بالمسرات صدراً ويضع بعدله عن الرعية إصراً ويسرهم في أيامه بكل وارد يقول الإحسان لمحتمله: " لو شئت لاتخذت عليه أجراً " إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة كتاب آخر في المعنى إلى بعض النواب من إنشاء جمال الدين بن نباتة أيضاً وهي بعد الصدر: وضاعف مواد نعمته ونعمائه ومسرته وهنائه وحفظ عليه ما وهبه من المناقب التي يروي النيل عن كرمه ووفائه وشرف السيوف لكونها من سمات كرمه والسيول لكونها من سمائه.

المملوك يجدد الخدمة بنفحات سلامه وثنائه ويصف ولاءً لو تجسم لاستمدت عين الشمس من سنائه وينهي أن المرسوم الشريف زاده الله تعالى شرفاً ورد مبشراً بوفاء النيل المبارك في يوم كذا فيا له ربيعاً جاء في ربيع وحاملاً في مفرده الفضل للجميع وداعياً بالخصب ينشد كل ثانية اثنين ريحانة للداعي السميع ومتغنياً على منصة المقياس عرسه يجلى عليه من شباكها الستر الرفيع وأنه أقبل والبلاد أشهى ما تكون للقياه وأشوق ما ترى لمباشرة ريه ورياه وقد امتدت أيدي الجسور لفمه واستعدت شفاه الحروف اللعس للثمه فكرم عليها زائره وصحبها بالنجح ساريه وسائره ودارت على الجدب من خطوط الأمواج دوائره وعمت المنافع وتلقت عيون الفلا ناهلة بالأصابع وفاض البحر ببره ونشر رداء على الأرض وسيضوع روضها بنشره وخلق المقياس فيا لك من قياس بشرى غير ممنوع وكسر الخليج فيا له غصن قلم على النيل وطائر سجعه على الفرات مسموع ورسم أن لا يجبى حق بشارة ولا يدخل فيها النقيص لدار ولا التنغيص لدارة ووصل بهذا الأمر فلان وقد جهز بما على يده والله تعالى يمتع مولانا من أقسام المسار بصنوف ويدفع عن حصون الإسلام بيمنه أيدي الصروف وينفعها بظلاله التي آواها الكريم إلى جنة وكذلك الجنة تحت ظلال السيوف.

الضرب الرابع من المكاتبات السلطانية ما يكتب عن النواب والأتباع إلى الخليفة أو السلطان وفيها مهيعان المهيع الأول في الأجوبة عن الكتب السلطانية السابقة في الضرب الأول قد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات في أول هذه المقالة ذكر الخلاف: عليه السلام هل الكتب الابتدائية أعلى رتبة في الإتيان بها أم الجوابية وذكر الاحتجاج لكل من المذهبين وذكر التحقيق في ذلك فليراجع من موضعه هناك.

ونحن نذكر الكلام على أجوبة الكتب السابقة على الترتيب المتقدم جارين في ذلك على ما قرره في مواد البيان.

فأما الجواب عن الكتاب الوارد بانتقال الخلافة إلى الخليفة فإن الكتاب إن كان متضمناً التعزية في سلفه والهناء بمتجدد النعمة عنده في انتقال الخلافة إليه فالرسم فيما يكاتب به عن الحليفة أن يبنى على الاستبشار بالنعمة في خلافته والمسارعة بإخلاص الضمير إلى الدخول في طاعته وبيعه وانفساح الآمال في دولته والشكر لله تعالى على جبر الوهن وعلو كلمة الإسلام والمسلمين بدعوته وتعزية عن أبيه بما يوجبه محل المحنة ويقتضيه يعني إن كان الخليفة الميت أباه فالدعاء له بأن ينهضه الله تعالى بما حمله ويهينه على ما كفله ويقرن ملكه بالجد السعيد والخلود والتأييد وإدالة الأولياء وإذالة الأعداء ونحو هذا مما يجاريه.

وإن كان الكتاب الوارد بانتقال الخلافة إليه عن أبيه ومن في معناه ممن يواليه في المحبة فإن الكاتب يحوم في الجواب على ما حصل بذلك من صلاح حال الأمة واستقامة أمر الرعية بانتقال الخلافة إليه من غير أن يصرح بذم الذاهب قبله.

ولا يخفى أن الجواب عن ورود الكتاب بانتقال السلطنة إلى السلطان وجلوسه على تخت الملك في معنى الجواب في انتقال الخلافة إلى الخليفة لا يكاد يفرق بينهما على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالدعاء إلى الدين فإنما يتكلفها كتاب مخالفي الملة لأنها إنما تصدر إليهم.

قال في مواد البيان: إلا أنه لا غنى لكتاب الإسلام عن علم ما يقع فيها لتتقدم عندهم المعرفة بما يجيب به المخالفون فيأخذوا عليهم بأطراف الحجة إذا كاتبوهم ابتداء أو أحدها: إجابة الدعاء إلى الدين وقبول الإرشاد والهدى والنزوع عن الغي والإقبال على التبصرة والتذكرة بعقائد خالصة ونيات صريحة.

والثاني: الإصرار على ما هم متمسكون به وتمحل الشبهة في نصرته وادعاء الحق فيما يعتقدونه والمغالطة عن الإجابة إلى قبول ما دعوا إليه.

والثالث: بذل الجزية والمصالحة والجنوح إلى السلم والموادعة.

والرابع: إظهار الحميمة والقيام في دفاع من يروم اقتسارهم على مفارقة شرائعهم وأديانهم وبذل الأنفس في مقارعته.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالحث على الجهاد فقد ذكر في مواد البيان أنها لا تخرج عن معنيين: أحدهما: إجابة الصريخ والمبادرة إلى التشمير في الجهاد والقيام في معونة الأولياء على كفاح الأعداء.

والثاني: الاعتذار والتعلل والتثاقل.

هذا إن كانت الكتب الصادرة إلى القواد والمتقدمين أما إذا كانت مقصورة على الاستنفار فلا جواب لها إلا النفور أو الإمساك.

قال في مواد البيان: والطريق إلى إقامة العذر للمستصرخ في التأخر عن مستصرخه متى أراد الاعتذار عنه صعب على الكاتب ولا سيما إذا كانت الأعذار متكلفة غير صحيحة.

قال: وينبغي أن يتأتى لذلك ويحسن التلطف فيه ولا يعتل بكذب صراح ينكشف للمعتذر إليه.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالحث على لزوم الطاعة إذا وردت على النواب والولاة وأمروا بقراءتها في أعمالهم على الرعايا فإنه يكون: إما بانقياد الرعايا إلى ما دعوا إليه أو استدامتهم لمركب النفاق واستدعاء مادة لتقويمهم.

وأما الجواب عن الكتب إلى من نكث عهده من المتعاهدين فقد ذكر في مواد البيان أنها لا تخلو من أحد أربعة معان: أولها: الاعتذار والاستقالة من مراجعة النكث والرغبة في الصفح عن النبوة والمسامحة بالهفوة.

والثاني: المغالطة والمراوغة واستعمال المداهنة والمخادعة.

والثالث: التجليح والمكاشفة.

والرابع: إيجاب الحجة على المجوب عنه في أنه المبتدئ بفسخ ما عاقد عليه.

قال: والكاتب إذا كان ماهراً كسا كل معنى من هذه المعاني الغرض اللائق به في الصناعة.

وأما الجواب عن الكتب إلى من خلع الطاعة فقد قال في مواد البيان: إنها تحتمل معنيين: أحدهما الاعتذار والآخر الإصرار وكل واحد منهما محتاج إلى عبارة لائقة به ثم قال: والكاتب إذا كان حاذقاً عرف سبيل التخلص فيها بمشيئة الله تعالى.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالفتوح فإنها إن صدرت من السلطان إلى ولاته فينبغي أن يبنى جوابها على الاستبشار بموقع النعم في الظفر بالعدو والجذل بمتجدد الفتح وأن ذلك إنما تهيأ بسعادته وعلو رأيه وانبساط هيبته وما عوده من إظهار أوليائه وخذلان أعدائه وأنهم قد أشاعوا هذا النبأ في الخاصة والعامة من رعاياه فابتهجوا به وشكروا الله تعالى عليه ودعوا له بصالح الدعاء.

وإن صدرت من ولاة الحرب إلى السلطان فينبغي أن يكون ما يجيبهم به مبنياً على حمد الله تعالى على عوارفه والرغبة في مضاعفة لطائفه وشكره على إنجاز وعده في الإظفار بأعداء الملة والدولة ونحو هذا.

ومخاطبة أهل الطاعة بما يرهف عزائمهم ويقوي شوكتهم وتقريظ والي الحرب ووصفه بما يشحذ بصيرته في الخدمة والثناء على الأجناد ووعدهم بجزيل الجزاء على الجهاد والإبلاء إلى غير هذا مما يقتضيه الحال ويوجبه تدبير الأمر الحاضر.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالاعتذار عن السلطان عندما يحصل له زلل في التدبير أو في الظفر بقبض الأعداء على جيش من جيوشه فإنما تقع الإجابة عنها إذا نفذت إلى أحد العمال خصوصاً.

قال في مواد البيان: وحينئذ فينبغي أن يكون الجواب عنها مبنياً على تقوية نفس السلطان وتوثيقه بالأدلة وأن ما ناله لا يتوجه كثيراً على ذوي الحرام إلا أن عواقب الفلج والظفر والإصابة في الرأي والتدبير تكون لهم ونحو هذا مما يجاريه ويليق به.

قال: أما إذا كانت المكاتبة في ذلك إلى الكافة ممهدة لعذر السلطان قاطعة قالة الرعية عنه فإنه لا جواب عنها لأنها إذا لم توجه إلى واحد بعينه لا يستدعي خطاباً.

وأما الجواب في الكتب الواردة عن السلطان بالنهي عن التنازع في الدين إذا صدرت إلى العمال وأمروا بقراءتها على الرعايا على منابر أعمالهم فإنه يبنى الأمر فيها على امتثال الأمر والمطالعة بارتسام القوم ما رسم لهم فيها.

أما إذا كانت صادرة لتقرأ على العامة ليبصروا ما فيها ويعملوا عليه فإنه لا جواب عنها لأنها إنما تشتمل على مواعظ ومراشد تتخول بها الأئمة رعاياهم.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالأوامر والنواهي فقد ذكر في مواد البيان أن الكتب الواردة في ذلك إن كان شيئاً قد جزم المتبوع فيه الأمر وضيق على التابع في إيثاره سبيل المراجعة فيه فإن الجواب عنه سهل لأنه إنما يجب بجواب جامع وهو وقوفه على ما أمر به وإنفاذه له.

وإن كان الوارد أمراً محتملاً للمراجعة من حيث أن إمضائه إذا أمضي إفساداً للعمل وإخلالاً بأسباب الملك والسلطان فالجواب عنه شاق صعب لأنه ينبغي أن يبنى على تلطف شديد في الإبانة عما ينتجه ذلك المأمور به إذا أنفذ على الوجه من فتق وخلل ومورد المراجعة في ألفاظه لا يتبين فيه إزراء على رأي الرئيس ولا طعن في تدبيره بأن يكون ناطقة بأن رأيه الأعلى وتدبيره الأصوب فيكون باطن الكلام توقيفاً على الصواب وظاهره تصويباً وتقريظاً لأن كثيراً من الرؤساء والملوك يعجبون بآرائهم وينزلون بحكم الرياسة في منزلة من لا يراجع ولا يعارض فيما يأمر به.

قال: وقد تأتي من كتب الأوامر كتب يأمر الرئيس فيها المرؤوس بشرح حال واقتصاص أمور.

ثم قال: وأجوبة هذه الكتب يجب أن تكون مستقصية للمعنى المنشرح مستولية على حواشيه غير مخلة بشيء مما يحتاج إلى تعرفه منه.

وأما الجواب عن الكتب الواردة عن الإمام عند حدوث الآيات السماوية وهي مشتملة على مواعظ ومراشد يتخول بها الأئمة رعاياهم فإذا صدرت إلى العمال وأمروا بقراءتها على الرعايا فأجوبتها إنما تبنى على امتثال الأمر والمطالعة بارتسام القوم ما رسم لهم فيها.

أما إذا كانت صادرة لتقرأ على العامة ليتبصروا بما فيها ويعملوا عليه فإنه لا جواب عنها.

وأما الجواب عنه بالتنبيه على مواسم العبادة فإنه يصدر عمن ورد عنه إلى الإمام بعد شهور ذلك الموسم والانفصال عنه على حال السلامة كما في صلاة العيد ونحوها قال في مواد البيان: وأجوبتها تصدر إلى الخلفاء مقصورة على ذكر ما من الله تعالى به من قضاء الفريضة على حال الائتلاف والاتفاق وشمول الأمن والهدي والسكون وسبوغ النعمة على الكافة وأن ذلك بسعادة وعناية الله تعالى بدولته وبرعيته ونحوها مما يقتضيه المعنى.

وأما الجواب عن الكتب الواردة عن الإمام إلى ولاة أمره بالسلامة في ركوب أول العام وغرة رمضان والجمعة الأولى والثانية والثالثة منه وعيدي الفطر والأضحى وفتح الخليج بعد وفاء النيل فقد قال في مواد البيان: إنه إن كان الكتاب عن السلامة في صلاة العيدين أو جمع رمضان فينبغي أن يكون مبنياً على ورود كتبه متضمنة ما أعان الله تعالى عليه أمير المؤمنين من تأدية فريضته والجمع في صلاة عيد كذا برعيته وما ألبسه الله تعالى من الهدي والوقار وأفاضه عليه من البهاء والأنوار وبروزه في خاصته وعامته إلى مصلاه وسماع خطبته وعوده إلى قصره الزاهر وعليه تلألأ القبول لصلاته ودعائه

مما أجراه الله تعالى فيه على عادة آلائه ووقف عليه وقابله بالشكر والإحماد والاعتراف والاعتداد وافتضه على رؤوس الأشهاد فأغرقوا في شكر الله تعالى على الموهبة في أمير المؤمنين ورغبوا إليه إطالة بقائه مراماً عن الإسلام والمسلمين ونحو هذا مما يجاريه.

ثم قال: فإذا نفذت هذه الكتب من العمال إلى أمير المؤمنين مبشرة باجتماع رعاياه لتأدية فريضتهم وعودهم إلى منازلهم سالمين فينبغي أن يكون الجواب عنها: وصل كتابك متضمناً ما لا يزال الله تعالى يوليه لأمير المؤمنين في رعيته وخاصته وعامته من اتفاق كلمتهم وائتلاف أفئدتهم وسلامة كافتهم وما من الله به عليه وعليهم من اجتماعهم لتأدية فريضتهم وعودهم إلى منازلهم على السلامة من ضمائرهم والطهارة من سرائرهم فحمد أمير المؤمنين الله تعالى على ذلك وسأله مزيدهم منه وتوفيقهم لما يرضيه عنهم وشكر مسعاك في سياستهم وامتداد يدك في إيالتهم وهو يأمرك أن تجري على عادتك وتسير فيهم بجميل سيريك وما يليق بهذا.

ثم بنى على ذلك سائر كتب السلامة وقال: ينبغي أن يستنبط من النفس كل كتاب منها المعنى الذي يجب الإجابة به مثل أن يكون الكتاب ورد من أمير المؤمنين إلى أحد عماله مبشراً بسلامته من سفره فينبغي أن يبنى جوابه على ما صورته: ورد كتاب أمير المؤمنين مبشراً عبده بما هيأه الله تعالى له من السلامة ويمن الوجهة مع تقريب الشقة وإنالة المسار وتسهيل الأوطار وإدناء الدار فوقف العبد عليه وامتثل المرسوم في إطلاع الأولياء على ما نص فيه من هذه البشرى فعظمت المنحة لديهم وجلت النعمة عندهم وانشرحت صدورهم وانفسحت آمالهم ووقفوا بصنع الله تعالى لهم وارتفعت أيديهم إلى الله سبحانه بالرغبة في حياطة أمير المؤمنين قاطناً وظاعناً وحسن صحابته حالاً وراحلاً وجميل الخلافة على من خلفه من حامته وعامته وأهل دعوته وخاصة دولته والله تعالى يجيب في أمير المؤمنين صالح الدعاء ويمده بطول البقاء.

وما ينتظم في سلك هذا الكلام ويضاهيه.

قلت: وقد تقدم في الكلام على المكاتبة السلطانية الابتدائية أن المكاتبة بالبشارة بالسلامة في ركوب العيدين وما في معناهما من قدوم السفر وغيره قد ترك استعماله بديوان الإنشاء في زماننا.

فإن قدر مثله في هذه الأيام أجراه الكاتب على نحو ما تقدم على ما تقتضيه مصطلح الزمان في المكاتبات السلطانية.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالخلع وما في معنى ذلك فينبغي أن يكون مبنياً على تعظيم المنة والاعتراف بجزالة المنحة وجميل العطية وزائد الفضل وأن ما أسدي إليه من ذلك تفضل عليه وتطول من غير استحقاق لذلك بل فائض فضل وجزيل امتنان وأنه عاجز عن شكر هذه النعمة والقيام بواجبها لا يستطيع لها مكافأة غير الرغبة إلى الله تعالى بالأدعية لهذه الدولة وما يناسب ذلك من الكلام ويلائمه.

وأما الجواب عن الكتب بالتنويه والتقليب إذا صدرت إلى نواب المملكة فالذي ذكره في مواد البيان أن المنوه به يجيب عما يصله من ذلك بوصول الكتاب إليه ووقوفه عليه ومعرفته بقدر العارفة مما تضمنته الرغبة إلى الله تعالى في إيزاعه الشكر ومعونته على مقابلة النعمة بالإخلاص والطاعة.

أما إذا كتبت بالتنويه والتقليب لأحد من المقيمين بحضرة الخلافة فإنه لا جواب لها.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالإحماد والإذمام فيختلف الحال فيه فإن كان الكتاب الوارد بالإحماد والتقريظ فجوابه مقصور على الشكر الدال على وقوع ذلك الإحماد موقعه من المحمود ومطالبته لنفسه بالخروج من حقه باستفزاع الوسع في الأسباب الموجبة للزيادة منه.

وإذا كان الكتاب بالإذمام فإن كان ذلك لموجدة بسبب أمر بلغه عنه من عدو أو حاسد نعمة أو منزلة هو مخصوص بها من رئيسه كان الجواب بالتنصل والمقابلة بما يبرئ ساحته وأن يورد ذلك بصيغة تزيل عن النفس ما سبق إليها وتبعث على الرضا.

وكذلك في كل واقعة بحسبها مما يحصل به التنصل والاسترضاء ونحو ذلك.

وأما الجواب عن الكتب الواردة مع الإنعام السلطاني فعلى نحو ما سبق في الخلع من تعظيم المنة والاعتراف بجزالة المنحة وجميل العطية وزيادة الفضل وما في معنى ذلك مما تقدم ذكره.

وأما الجواب عن الكتب الواردة عن الخليفة أو السلطان بتجدد ولد فإنه يكون بإظهار السرور والاغتباط وزيادة الفرح والسرور بما من الله تعالى به من تكثير العدد وزيادة المدد والرغبة وأما الجواب عن الكتب الواردة بعافية الخليفة أو السلطان من مرض كان قد عرض له فطريقه حمد الله تعالى وشكره على ما من الله تعالى به من العافية وتفضل به من إزاحة المرض ووقاية المكروه وإظهار الفرح والسرور بذلك.

وما ينخرط في هذا السلك.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالتعزية بولد أو قريب فإنه يظهر فيه الغم والحزن والكآبة وحمد الله تعالى على سلامة نفسه والرغبة إلى الله تعالى في الخلف عليه إن كان الميت ولداً مع الدعاء بطول البقاء وخلود الدولة وما يجري هذا المجرى.

وهذه نسخ أجوبة عن مكاتبات سلطانية مما يكثر وقوعه ويتعدد تكراره يستضيء بها الكاتب في كتاب الأجوبة ونسخ على منوالها.

نسخة جواب عن كتاب وصل من الخليفة بانتقال الخلافة إليه كتب به إلى أمير الأمراء قرين خلعة وسيف وتاج وسوارين من إنشاء أبي الحسين بن سعد وهو: فإن كان سيدنا أمير المؤمنين بما أعلم من فضل مراعاته لأمور الدين وصدق عنايته بمصالح المسلمين وأفيض له من مواهب الله عندهم وصنوف نعنه عليهم فيما هداه من طرق الرشاد وبصره إياه من مناهج الصواب وقرنه به من التوفيق في عزائمه والجد في مراسمه وتوعده فيه بالخيرات التامة والكفاية العامة في كل أمر يمضيه ورأى يرتئيه اعتماداً له بحسن المعونة على ما استرعاه ووصله بالمزيد فيما خوله وأعطاه وحراسة ما ساقه إليه من إرث النبوة وحمل إياه من ثقل الإمامة لما عرفه من نهوضه بالعبء وقيامه بالحق فيما ناطه وأسنده إليه وتأمله ما تأمله من حال عبده الذي لم يزل لطاعته معتقداً وبعصمة ولايته معتضداً ولوقت يبلغه منزلة الإحماد ويحوز له عائدة الاجتهاد فيما أرضاه مرتصداً ولسعيه ونيته وظاهره وطويته معتمداً ووجوده أيده الله في يسير ما امتحن به بلاءه وعرف فيه غناءه موضعاً للصنيعة محتملاً للعارفة مقراً بحق النعمة عارفاً بقدر الموهبة وترقبه فرصة ينتهزها في إبداء عزمه وإمضاء رأيه وأنه واثق بالاستظهار بمكانه والإسهام له في عز سلطانه حتى أسفرت رويته واستقرت عزيمته فاختص عبده بجميل الأثر واصطفاه بلطيف الحظوة واعتمد عليه في إمارة الأمراء موفياً به على رتبة النظراء وكاسياً له حلة المجد والسناء ورد إليه تدبير الرجال وتقدير أمور العمال وشفع ذلك بالتكنية والتلقيب في مشاهد حفلته ومجالس خطوته وأكمل الصنع عنده بإلحاق عبده فيما قسم لكل واحد منهما من شريف حبائه وسني عطائه وتجاوز في التكرمة له إلى أعلى الأحوال وأرفع الرتب والمحال فيما أمر - أعلى الله أمره - بحمله إليه من الخلعة التي يبقى شرف لباسها على الأيام ويخلد ذكرها على الدهور والأعوام والسيف الذي تفاءل لعبده فيه بما يرجو يمن مولاه وسعادة جده أن يحققه الله في الاعتماد به على أعدائه وغمده في نحور مشاقيه وغامصي نعمائه والتاج المرصع الذي نظم له جوامع الفخر والوشاح الموشى الذي وشحه حلية الجمال مدى الدهر والطوق الذي طوقه قلائد المجد والسوارين اللذين آذناه بقوة العضد وبسطة اليد واللواء المعقود به مفاتح العز في طاعته المرفوع به معالم النصر على شانئ دولته ووصل إلي وفهمته.

وسيدنا أمير المؤمنين فيما أكرمه الله به من خلافته وأتمنه من الحكم على بريته ووكله إليه من حقوق الدين وحياطته كرم المسلمين وإحياء السير الرضية والسنن الحميدة وإماطة الأحكام الجائرة والمظالم الظاهرة وتقويم أود المملكة بعد تزعزع أركانها وتصدع بنيانها وإعزاز الأمة وإيناسها بعد أن اشتملت الذلة عليها وتمكنت الوحشة فيها وحكم اليأس في آمالها وغلب القنوط على أطماعها وتفاءل بما اعتمده له وفوضه إلى نظره من الحلية بحقائقه والتوكيد بما لم تزل المخايل فيه لائحة والأمارات منه واضحة والشواهد به صادقة والدلائل عليه ناطقة حتى تدارك بنعمة الله الدين بعد أن طمس مناره وتعفت آثاره ودرست رسومه وغارت نجومه وأنحى الشيطان بجرانه واشرأب لتبديله بعدوانه وانتدب لنصرة الإسلام برأي يستغرق آراء الرجال وحلم يستخف رواسي الجبال وروية تستخرج كوامن الغيوب وتكشف عنها حنادس الشكوك وباع لما يمتد إليه بسيط وذراع لما ينتظم عليه رحيب وصدر يتسع لمعضلات الأمور ويشرق في مدلهمات الحوادث فشرد أعداء الله بعد أن اتصلت بهم مهلة الاغترار وتطاولت بهم مدة الإصرار ومد رواق الملك وضرب قبابه وثبت أواخيه وأحصد أسبابه وقطع أطماع الملحدين وأبطل كيد الكافرين وفت في أعضاد المنابذين فتحصنت البيضة واجتمعت الكلمة واتفقت الأهواء المتفرقة وانتظمت الآراء المتشعبة وسكنت الدهماء المضطربة وقرت القلوب المنزعجة وصدقت خواطر الصدور المثلجة وظهر الحق ورسخ

عموده وبهر جماله ونضر عوده ونشرت أعلامه وطلعت سعوده وعز أولياؤه ونصرت جنوده وساخ بالباطل قدمه وانقطعت وصائله وعصمه وانبتت حباله ورممه وانحلت أسبابه وذممه حقيق بما بان من فضله واستفاض من الأمة من عدله وعم كافة الرعية من طوله ووصلت إلى الملي والذمي والداني والقاصي عائدة الخير في أيامه وفائدة الأمن بمملكته وسلطانه ومأمول لأفضل ما بدا لعبده من ثمرة اجتبائه واصطفائه وما تغمده به من النعم العظيمة والمواهب الجسيمة وأسبغه عليه من العوارف السنية ورفعه إليه من المنازل العلية التي تقصر عنها همم ذوي الأقدار وتقف دونها آمال أولي الأخطار مقدماً له على أهل السوابق من أنصار دولته وأشياع دعوته.

فلو ترافدت ألسن العباد - أيد الله أمير المؤمنين - على اختلاف لغاتهم وتباين طبقاتهم وتفاوت حالاتهم في مقابلة نعمة سيدنا التي أعشى العيون بهاؤها وتأدية حقوقه التي أعيا المجتهدين قضاؤها لكانت حيث انتهت وأنى تصرفت على استفراغ القدرة واستنفاذ الطاعة غير متقاربة حداً من حدودها ولا مؤدية فرضاً من فروضها وإذا كان الأمر على ذلك - أيد الله أمير المؤمنين - في فوت الإحسان مقادير الشكر وإيفائه على مبالغ الوسع فقصد عبده في جبر النقيصة وسد الخلة والازدياد في الطاعة والإخلاص في المولاة والمشايعة وإدامة الابتهال إلى الله تعالى ورفع في المعونة عبد أمير المؤمنين على مجافاة بلائه والتفرد بجزائه وتجديد المسألة في إطالة بقائه في عز لا تبلى جدته وسلطان لا تنتهي مدته ومواد من مناسجه وموائده وروادف من عوائده متظاهرة لا ينقطع منها أول حتى يلحق تاليه ولا ينصرم سالفه حتى ينصرف آتيه ويكون المآل بعد استيفاء شروط الأمل وتقضي حدود المهل إلى النعيم المقيم في جوار العزيز الكريم.

ومن تمام إفضال سيدنا على عبده ونظام معروفه عنده بدؤه إياه بما يمتحن به خفة نهضته وسرعة حركته وقعوده لأمره بحد حديد وبعيش عتيد وصمده لما يحظيه لذلك مولاه ويجوز له حمده ورضاه بصدق بصيرة وخلوص سريرة واستسهال لكل خطة وتجشم لكل مشقة دنت المسافة أم شسعت قربت الطية أم نزحت وسيدنا أهل لاستتمام يد ابتداها وإكمال عارفة أنشأها وكرامة ابتناها باستعمال عبده بأمره ونهيه واعتماد لمهماته بحضرته وفي أطراف مملكته إن شاء الله تعالى.

قلت: وهذه نسخة كتاب أنشأته ليكتب به إلى أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس خليفة العصر عن نائب الغيبة بالديار المصرية حين وردت كتبه الشريفة من الشام إلى الديار المصرية بالقبض على الناصر فرج بن الظاهر برقوق بالشام واستبداده بالأمر دون السلطان معه في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة مفتتحاً له بيقبل الأرض التي يكاتب بها الملوك.

وإن كان قد تقدم من كلام المقر الشهابي بن فضل الله أن المكاتبة إلى أبواب الخلافة بالدعاء للديوان لا يختلف فيه ملك ولا سوقة وهو: يقبل الأرض وينهي ورود المثال الأشرف الميمون طائره المرقوم على صفحات الأفلاك تهانيه المحمول على متن الحساب بشائره الشاهد بالفتح المبين أوائله وبالنصر العزيز أواخره متضمناً ما من الله تعالى به من جميل الصنع الذي وكفت بالخير سحائبه وخفي اللطف الذي بهرت العقول عجائبه بما منح الله تعالى به مولانا أمير المؤمنين مد الله تعالى الإسلام وارف ظله وأنام الأنام بمد رواق الإمامة المعظمة في مهاد عدله ومكن له في الأرض كما مكن لآبائه الخلفاء الراشدين من قبله من جلوسه على سدة الخلافة المقدسة التي وصل منقطع حديثها بإسناده حاز منها بأشرف مقعد تراث آبائه الكرام وأجداده وابتسم ثغر الخلافة بعباسه وتآنس منها جانب الدين بعد الاستيحاش بإيناسه فقبل المملوك له الأرض خاضعاً ولبى أوامره الشريفة ضارعاً وأجاب داعيه بالامتثال سامعاً طائعاً وسجد سجود الشكر لذلك فعرف بسيماه وانتسب إلى الولاة الشريف الإمامي انتساباً شاملاً لاسمه ومعناه وأعلم من قبله من الأمراء والأجناد بذلك فقابلوه بالاستبشار طراً وتلقوها تلقياً يليق بمثلها وإن كان لا مثل لهذه البشرى وقرئت المطلقات الشريفة على المنابر فسكنت الدهماء وقرت وسرت ألفاظها إلى الأسماع الشيقة فسرت وكررت ألفاظها العذبة مراراً فحلت لدى النفوس إذ مرت وارتفعت الأصوات بالدعاء بدوام هذه الدولة النبوية دواماً لا يستشعر مستشعر خلافته فحقيق ظهور معجزة أكرم مرسل بعد الثمانمائة بقوله لعمه العباس: " ألا أبشرك يا عم بي ختمت النبوة وبولدك تختم الخلافة ".

وهذه نسخة جواب عن نائب طرابلس عن مثال شريف ورد بوفاة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون واستقرار ولده السلطان الملك الناصر أبي بكر مكانه في الملك بعهد من أبيه من إنشاء القاضي تاج الدين بن البارنباري بعد التعزية بأبيه السلطان الملك الناصر وهي: وينهي ورود المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه يتضمن أمر المصاب الذي كادت لوقوعه الأرض تتزلزل بأهلها والعقول تتزيل عن محلها وبلغت القلوب الحناجر واستوحشت القصور واستأنست المقابر وتصدعت له صدور السيوف رؤوس المنابر وقصم الظهور وشيب السود من الشعور وجرع كؤوسه وصدع الحوزة إلى رحمته -المحروسة وذلك بما قدر الله تعالى من انتقال مولانا السلطان السعيد الشهيد والد مولانا السلطان - خلد الله ملكه ورضوانه فأجرى المملوك عوض الدموع دماً وأقام الإسلام والمسلمون عليه مأتماً وتغير البدر المنير لفقده فأمسى مظلماً

وندبه الإسلام في سائر محاريبه ومصلاه وأسف عليه البيت الحرام وركناه " إنا لله وإنا إليه راجعون " " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " .

لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أشرق منها ذلك اليوم كل شيء ويوم قبض أظلم منها كل شيء وكان أبو بكر قدس الله - الصديق رضي الله عنه أثبت الناس يوم وفاته صلى الله عليه وسلم وهو الخليفة من بعده ومولانا السلطان الشهيد روحه - كان متشرفاً باسم نبيه ومتبركاً في ذريته الشريفة بذكر سميه ولو ذابت المهج أسفاً عليه لما أنصفت وقد أسفت عليه الأمم بأسرها وحق لها أن أسفت نبتت لحومنا من صدقاته وغمرت المملوك مجزلات هباته وما نقل من قصره إلا إلى جنات النعيم وما فارق ملكه إلا وبات في جوار الله الكريم وكان سلطاننا وهو اليوم عند الله سلطان فسقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان.

وبحمد الله قد جبرت القلوب المنصدعة بجلوس مولانا السلطان - خلد الله ملكه - على تخت السلطنة المعظمة والله معه وما جلس على كرسي الملك إلا أهله ولا قام بأمر المسلمين إلا من علم فضله ومولانا السلطان وارث الملك الناصري المنصور حقاً والقائم بشأن السلطنة غرباً وشرقاً وخلاصة هذا البيت الشريف زاده الله نصراً وأدام ملكه دواماً مستمراً والعيون الباكية واستقر الإسلام بعد قلقه ونام على جفنه بعد قد قرت الآن بهذه البشرى والقلوب الثاكلة قد ملئت بهجة: " إن مع العسر يسرا " أرقه واستقبلت الأمة عاماً جديداً وسلطاناً منصوراً سعيداً واستبشرت القبلتان وتناجى بالمسرة الثقلان والذين كفروا أمسوا ومولانا السلطان هو العريق في سلطنة الإسلام خائبين والذين آمنوا أضحوا فرحين " هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين " والإمام الأعظم بن الإمام فخلد الله ملكه ما دامت الأيام وأحسن عزاءه في خير سلطان الأنام وابتهلت الألسنة بالتراحم على مولانا السلطان الشهيد - قدس الله روحه - بدموع سائلة وقلوب موجوعة بجراحات النياحات ثم عوضوا بالمسرات الكاملة والدعاء مرفوع لمولانا السلطان - خلد الله ملكه - براً وبحراً والبلاد مطمئنة والعساكر على ما يجب من التمسك بالطاعة الشريفة والتشريف بإقبال دولة سلطانهم ووارث سلطانهم وكان المملوك يود لو شاهد مولانا السلطان - خلد الله ملكه - على ذلك السرير والمنبر وقبل الأرض بين يدي المواقف المعظمة والمقام الأكبر إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة جواب عن ورود المثال الشريف بركوب السلطان بالميدان والإذن للنواب في لعب الكرة وهي: ينهي ورود المثال الشريف شرفه الله تعالى وعظمه يتضمن الصدقة التي أجرت أولياءها على أجمل عادة من الاحتفال والمراحم الشاملة التي وسعت لهم كرمها سافرة عن أوجه الإقبال والبشرى التي جمعت من أنواع المسرات ما بلغته الآمال وهو أن الركاب الشريف استقل إلى الميدان السعيد نهار السبت في كذا من شهر كذا في أسعد طالع وأيمن وقت مطاوع وفي الخدمة الشريفة من الأمراء - كثرهم الله تعالى - من جرت العادة بهم من كل كمي مقنع قد لبس من الطاعة برداً وبالإخلاص تدرع وامتطى من فائض الصدفات الشريفة صهوة سابق قد شمر للسباق ذيلاً وفر كبرق لمع ليلاً.

وأن مولانا السلطان - خلد الله ملكه - طلع عليهم طلوع البدر عند الكمال وحوله الممالك الشريفة كالأنجم الزاهرة التي لا تعد ولا تشبه بمثال والجياد لا يرى لها أثر من الركض والكرة تتشرف بالصولجان كما تتشرف بالتقبيل الأرض وعاد الركاب الشريف - زاده الله شرفاً وعظمه - إلى القلعة المنصورة إلى محل المملكة الشريفة وقد دست السلطنة المعظمة محفوفاً من الله تعالى بلطفه " له معقبات من بين يديه ومن خلفه " .

وما اقتضته الآراء الشريفة والمراحم المطيفة وآثرت به إعلام المملوك بذلك والمرسوم الشريف - شرفه الله تعالى وعظمه - والأمراء فقابل - أن يتقدم المملوك بالنزول إلى ميدان فلانة المحروسة ومعه مماليك مولانا السلطان - خله الله تعالى ملكه المملوك هذه الصدقات بتقبيل الأرض ورفع الدعوات وجمعوا بين الكرة والصولجان وحصل لهم من المسرات ما لا يحصره بيان وانبسطت نفوسهم إذ أصبحوا في أمن وأمان وابتهلوا إلى الله تعالى بدوام هذه الأيام التي نوعتهم بأنواع الإحسان وضجوا التي عمت مواهبه وفاق بمكارمه الماضين وأربى على سلفه الشريف بالعطاء - بالأدعية لمولانا السلطان - خلد الله ملكه والتمكن جعل الله أعداءه تحت قهره إلى يوم الدين إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة جواب بوفاء النيل المبارك كتب به عن نائب طرابلس وهي: وينهي ورود المثال الشريف - شرفه الله تعالى وعظمه - الذي أشرقت أنوار تهانيه وتألقت بروق ألفاظه ومعانيه فبشرت بفيض فضل الرحمة وعموم الرعايا بتواتر عميم النعمة ووفاء النيل المبارك الذي ما برح في هذه الأيام الزاهرة يفي بعهده ويسل سيف الخصب من غمده ويقتل المحل بحمرة متنه وجوهر حده مهنئاً للأولياء بهذه الدولة التي أصبحت قلوبهم مطمئنة بالأمن والرخاء مسرورة بما من الله به من ترادف الآلاء وعموم النعماء وحال ما ورد المرسوم الشريف - شرفه الله تعالى وعظمه - بادر المملوك إلى امتثال المرسوم الشريف

بتقبيل الأرض والسمع والطاعة وأخذ كل حظه من هذه البشرى التي عمت تهانيها براً وبحراً وجعلت أمور هذه الأمة بيمن بركة هذه الأيام الشريفة بعد عسر يسراً وقد عاد فلان البريدي ومن معه إلى الأبواب الشريفة بالجواب الشريف طالع بذلك إن شاء الله تعالى.

آخر في المعنى: وينهي ورود المثال الشريف زاده الله علواً وشرفاً وبيض له في القيامة صحفاً يتضمن أنواع الإنعام الجزيل.

وإبداء آثار السرور بما يسر الله من وفاء النيل فأشرقت أنوار تهانيه وتألقت بروق ألفاظه ومعانيه فبشر بفيض فصل الرحمة وعموم الرعايا بتواتر عموم النعمة إذ جاء محياه في هذا العام طلقاً وسلك في عوائد البر والإحسان طرقاً وأذن ببلوغ المرام والمراد وكسر سد خليجه جبراً للعباد والبلاد حيث ملأ الأرض رياً وأهدى من نفحات الأمن والمن رياً والمرسوم الشريف - بأن لا يجبى على ذلك حق بشارة ولا يتعرض إلى أحد بخسارة فقابل المملوك المثال الشريف والمرسوم -شرفه الله وعظمه الشريف بتقبيل الأرض والسمع والطاعة وبادر المملوك إلى إذاعة هذا البشرى التي عمت تهانيها براً وبحراً وجعلت أمور هذه الأمة بيمن بركة هذه الأيام الشريفة بعد عسر يسراً واستنطق الألسنة بالدعاء لهذه الدولة القاهرة وجلا وتلا صور الهناء وسور الآلاء بهذه النعمة الوافية والمنة الوافرة وسأل الله تعالى أن يخلد ملك مولانا السلطان ويوالي أنباء البشائر في أيامه الشريفة مروية بالأسانيد الحسان وقد عاد فلان البريدي بالأبواب الشريفة - شرفها الله تعالى وعظمها - بهذا الجواب الشريف وقد عاين ابتهال أهل هذه المملكة الفلانية بالدعاء بدوام هذه الأيام الزاهرة السارة بهذه البشائر بخلوها من الكلف والخسارة وطالع بذلك.

إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة جواب عن مثال شريف بوصول فرس إنعام كتب به عن نائب طرابلس وهي: يقبل الأرض وينهي ورود المرسوم الشريف أعلاه الله تعالى وشرفه ويتضمن ما اقتضته الآراء الشريفة من الخير التام والإنعام العام والصدقة الوافية الوافرة الأقسام التي ما برحت مماليك هذه الدولة الشريفة في إنعامها العميم تتقلب والخيل السوابق بسعادتها الأبدية تجلب وتجنب وتركب من تجهيز الحصان البرقي بسرجه ولجامه وعدته الكاملة وشمول المملوك بالصدقات التي ما برحت مترادفة متواصلة ولعبد هذا البيت الشريف شاملة وقبل المملوك الأرض وقبل حوافره واعتد بهذه النعمة الباطنة والظاهرة وأعده ليومي تجمل وجهاد ولقاء عدو وطراد والله تعالى يخلد هذه الصدقات الشريفة التي ما برحت تشمل القريب والبعيد والموالي من أولياء هذه الدولة الشريفة والعبيد طالع بذلك إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة عن وصول خيل من الإنعام السلطاني من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود وينهي وصول ما أنعم به من الخيل التي وجد الخير في نواصيها وتتخذ صهواتها حصوناً يعتصم في الوغى بصياصيها.

فمن أشهب غطاه النهار بحلته وأوطأه الليل على أهلته يتموج أديمه رياً ويتأرج رياً ويقول من استقبله في حلي لجامه: هذا الفجر قد طلع بالثريا إن انفلت في المضايق انساب انسياب الأيم وإن انفرجت المسالك مر مرور الغيم كم أبصر فارسه يوماً أبيض بطلعته وكم عاين طرف السنان مقاتل العدو في ظلام النقع بنور أشعته لا يستن داحس في مضماره ولا تطمع الغبراء في شق غباره ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره تسابق يداه مرمي طرفه ويدرك شوارد البروق ثانياً من عطفه.

ومن أدهم حلك الأديم حال الشكيم له مقلة غانية وسالفة ريم قد ألبسه الليل برده وأطلع بين عينيه سعده يظن من نظر إلى سواد طرته وبياض حجوله وغرته أنه توهم النهار نهراً فخاضه وألقى بين عينيه نقطة من رشاش تلك المخاضة لين الأعطاف سريع الانعطاف يقبل كالليل ويمر كجلمود صخر حطه سيل يكاد يسبق ظله ومتى جرى السهم إلى غرض بلغه قبله.

ومن أشقر وشاه البرق بلهبه وغشاه الأصيل بذهبه يتوجس ما لديه بدقيقتين وينفض وفرتيه عن عقيقتين وينزل عذار لجامه من سالفتيه على شقيقتين له من الراح لونها ومن الرياح لينها إن جرى فبرق خفق وإن أسرع فهلال على شفق لو أدرك أوائل حرب بني وائل لم يكن للوجيه وجاهة ولا للنعامة نباهة ولكان ترك إغارة سكاب لؤماً وتحريم بيعها سفاهة يركض ما وجد أرضاً وإذا اعترض به راكبه بحراً وثب عرضاً.

ومن كميت نهد كأن راكبه في مهد وعندمي الإرهاب شمالي الذهاب يزل الغلام الخف عن صهواته وكأن نغم الغريض ومعبد في لهواته قصير المطا فسيح الخطا إن ركب لصيد قيد الأوابد وأعجل عن الوثوب الوحش اللوابد وإن جنب إلى حرب لم

وهي ظفر راكبه - ثانياً عن عنانه وإن سار -يزور من وقع القنا بلبانه ولم يشك لو علم الكلام بلسانه ولم ير دون بلوغ الغاية في سهل اختال بصاحبه كالثمل وإن أصعد في جبل طار في عقابه كالعقاب وانحط في مجاريه كالوعل متى ما ترق العين فيه تسهل ومتى أراد البرق مجاراته قال له الوقوف عند قدره: ما أنت هنا فتمهل.

ومن حبشي أصفر يروق العين ويشوق القلب بمشابهة العين كأن الشمس ألقت عليه من أشعتها جلالاً وكأنه نفر من الدجى فاعتنق منه عرفاً واعتلق احجالاً ذي الكفل يزين سرجه وذيل يسد إذا استدبرته منه فرجه قد أطلعته الرياضة على مراد فارسه وأغناه نضار لونه ونضارته عن ترصيع قلائده وتوشيع ملابسه له من البرق خفة وطئه وخطفه ومن النسيم لين مروره ولطفه ومن الريح هزيزها إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه يطير بالغمز ويدرك بالرياضة مواقع الرمز ويعدو كألف الوصل في استغناء مثلها عن الهمز.

ومن أخضر حكاه من الروض تفويفه ومن الوشي تقسيمه وتأليفه قد كساه النهار والليل حلتي وقار وسنا واجتمع فيه من السواد والبياض ضدان لما استجمعا حسنا ومنحه البازي حلة وشيه ونحلته الرياح ونسماتها قوة ركضه وخفة مشيه يعطيك أفانين الجري قبل سؤاله ولما لم يسابقه شيء من الخيل أغراه حب الظفر بمسابقة خياله كأنه تفاريق شيب في سواد عذار أو طلائع فجر خالط بياضه الدجى فما سجى ومازج ظلامه النهار فما أنار يختال لمشاركة اسم الجري بينه وبين الماء في السير كالسيل ويدل بسبقه على المعنى المشترك بين البروق اللوامع وبين البرقية من الخيل ويكذب المانوية لتولد اليمن فيه بين إضاءة النهار وظلمة الليل.

ومن أبلق ظهره حرم وجريه ضرم إن قصد غاية فوجود الفضاء بينه وبينها عدم وإن صرف في حرب فعمله ما يشاء البنان والعنان وفعله ما تريد الكف والقدم قد طابق الحسن البديع بين ضدي لونه ودلت على اجتماع النقضين علة كونه وأشبه زمن الربيع باعتدال الليل فيه والنهار وأخذ وصف حلتي الدجى في حالتي الإبدار والسرار لا تكل مناكبه ولا يضل في حجرات الجيوش راكبه ولا يحتاج ليله المشرق بمجاورة نهاره إلى أن تسترسل فيه كواكبه ولا يجاريه الخيال فضلاً عن الخيل ولا يمل السرى إلا إذا مله مشبهاه: النهار والليل ولا تتمسك البروق اللوامع من لحاقه بسوى الأثر فإن جهدت فبالذيل فهو الأبلق الفرد والجواد الذي لمحاربه العكس وله الطرد قد أغنته شهرة نوعه في جنسه عن الأوصاف وعدل بالرياح عن مباراته لسلوكها له في الاعتراف جادة الإنصاف.

فترقى المملوك إلى رتب العز من ظهورها وأعدها لخطبة الجنان إذ الجهاد عليها من أنفس مهورها وكلف بركوبها فكلما أكمله عاد وكلما أمله شره إليه فلو أنه زيد الخيل لما زاد ورأى من آدابها ما دل على أنها من أكرم الأصائل وعلم أنها ليومي سلمه وحربه جنة الصائد وجنة الصائل وقابل إحسان مهديها بثنائه ودعائه وأعدها في الجهاد لمقارعة أعداء الله وأعدائه والله تعالى يشكر بره الذي أفرده في الندى بمذاهبه وجعل الصافنات الجياد من بعض مواهبه.

المهيع الثاني من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب به عن نواب السلطان والأتباع إلى السلطان ابتداء

وهو على أنواع كثيرة نذكر منها ما يستضيء به الكاتب في مثله.

فمن ذلك ما يكتب عن نائب كل مملكة إذا وصل إلى مملكته إذا وصل إلى محل ولايته.

قد جرت العادة أن النائب إذا وصل إلى مملكته ومقر ولايته كتب إلى السلطان يخبره بذلك وبما وهذه نسخة مكاتبة من ذلك كتب بها عن نائب حلب في معنى ذلك وهي: يقبل الأرض وينهي أن المملوك وصل إلى المملكة الفلانية المحروسة وحل محالها المأنوسة التي شملته الصدقات الشريفة بكفالتها وأهلته المراحم المنيفة لإيالتها رافلاً في حلل الإنعام الشريف متفيئاً ظل العز الوريف صحبة فلان مسفره ودخلها يوم كذا من شهر كذا لابساً تشريفه لشريف المنعم به عليه ماشياً لمحمل الكرامة الذي سار إليه بحضور من جرت العادة بحضوره من قضاة القضاة والأمراء والحجاب والعساكر المنصورة والأصحاب على أجمل العوائد وأكمل القواعد وقبل الأرض بباب القلعة المنصورة ودخل دار العدل الشريف وقطوف الأماني له مهصورة وقريء بها بحضرة أولياء الدولة تقليده وعظم المراسيم الشريفة تأييده وتصدى لما نصبه له المراسم الشريفة من إنصاف المظلوم وتنفيذ كل مهم شريف ومرسوم وتصفح أحوال المملكة وسلك كل أحد مسلكه واستجلبت لمولانا السلطان واجتهد في حياطة البلاد ممن يمد إليه الشيطان المفسدين بأشطان وانتظم له أمر المملكة بالمهابة الشريفة أحسن انتظام وبلغ به كل ولي من قهر

العدو غاية المرام وقد أعاد المملوك فلاناً مسفره إلى خدمة الأبواب الشريفة مزاح الأعذار مبلغ الأوطار على العادة طالع بذلك ولا زال منه مزيد الشرف والعلو إن شاء الله تعالى.

يقبل الأرض وينهي أنه وصل إلى طرابلس المحروسة مغموراً بالصدقات الشريفة والإنعامات المطيفة صحبة مملوك مولانا السلطان فلان خلد الله تعالى ملكه وألبس تشريفه الشريف وقريء تقليده الشريف بدار العدل وقبل الأرض مراراً على العادة وتقدم المملوك بالحلف الشريف على النسخة المجهزة صحبة المشار إليه من الأبواب الشريفة عظمها الله تعالى بحضور من جرت العادة بحضوره من قضاة القضاة والأمراء وكتب خطه عليها وانتصب المملوك لخلاص الحقوق وإزالة المظالم ونشر لواء العدل الشريف لينتصف المشروف من الشريف وينزجر القوي عن الضعيف واتباع الحق في القضايا واستجلاب الأدعية بدوام هذه الدولة العادلة من الرعايا ورتب أمورك الآزاك المنصورة على أكمل عادة وأجمل قاعدة وقد عاد فلان إلى الأبواب الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها لينهي بين يدي الأيادي المعظمة ما عاينه من المملوك من إخلاصه في الطاعة الشريفة ومغالاته طالع بذلك إن شاء اله تعالى.

ومن ذلك ما يكتب به في التهنئة بالخلافة: أما التهنئة الخلافة فقد قال في مواد البيان: من الأدب المستفيض ترفيه الخلفاء عن الهناء والعزاء إكباراً لهم وتعظيماً إلا أننا رأينا ذوي الأخطار من القدماء قد شافهوه بالعزاء مسلين وبالهناء داعين وربما دفع الكاتب إلى صحبة رئيس يقتضي محله أن يهنئ الخليفة بمتجدد النعم لديه ويعزيه لمتطرق النوائب إليه فاحتيج إلى أن يرسم في هناء الخلفاء وعزائهم ما يحتذى عليه عند الحاجة إلى استعمال مثله.

وهذه نسخة تهنئة بالخلافة أوردها في مواد البيان وهي: أولى النعم - خلد الله ملك مولانا أمير المؤمنين - بأن ينطق بها ألسن الذاكرين يضوع عطرها وتتناقلها أفواه الشاكرين يفوح نشرها نعمة إيلائه في خلافته التي جعلها ذخراً للأنام وعصمة للإسلام وحاجزاً بين الحلال والحرام وقواماً للائتلاف والاتفاق وزماماً عن الاختلاف والافتراق ونظاماً لصالح الخاصة والعامة وسبيلاً في اجتماع الكلمة وسكون الأمة وسبباً لحقن الدماء ودعة الدهماء ومجاهدة الأعداء وإقامة الصلوات وإيتاء الزكوات والعمل بالفرائض والسنن وحسم البدع والفتن وعدقها بالأخبار ورثة نبيه وعترته والأبرار والطهرة من أرومة رسوله وشجرته الذين نصبهم دعاة إلى طاعته وهداة لبريته وأعلاماً لشريعته يأمرون بالمعروف ويأتمرون وينهون عن المنكر وينتهون ويقضون بالحق وبه يعدلون وكلما لحق منهم سلف بمقر أوليته أقام خلفاً يختصه بانتخابه وتكرمته.

والحمد لله الذي جعل قصر خلافته على أمير المؤمنين وآبائه وجعل منهم الماضي الذي كانت مفوضة إليه والآتي الذي أقرت عليه وأنجز لهم ما وعدهم من إبقاء الإمامة في عقبهم إلى يوم القيامة واستخلص لها من عصرنا هذا وليها الحامي لحقيقتها والمرامي عن حوزتها المعز لكلمتها الرافع لرايتها المحدد لحدودها الحافظ لعقودها وسلم قوساً منه إلى باريها وناطقها بكفئها وكافيها وأفضى إليه بشرف الولادة الأبوة وميراث الإمامة والنبوة وألف به بين القلوب الآبية وجمع عليه النفوس النائية واتفقت الآراء بعد تباينها وتنافيها وتطابقت الأهواء على اختلافها وتعاديها واستدت ثلمة الدين بعد انثغارها واطمأنت الدهماء بعد نفارها حمداً يكون لنعمته كفاء ولموهبته جزاء.

وخلافة الله وإن كانت الغاية التي لا تنزع الهمم إليها ولا تتطلع الأماني عليها لاختصاص الله بها صفوته من بريته وخالصته من أهل بيت نبيه وعترته فإن أمير المؤمنين يتعاظم عن تهنئته بوصولها إليه وسبوغ ملابسها عليه إذ لا يسوغ أن يهنأ بإدراك ما كتب الله له أن يدركه بأقلام الأقدار على صفحات الليل والنهار والعبد يسأل الله تعالى في إنهاض أمير المؤمنين بما حمله وكلفه وتوفيقه فيما كلفه واستخلفه وأن يمكن له في الأرض ويعلي يده بالبسط والقبض ويده بعز السلطان وعلو الشان وظهور الأولياء وثبور الأعداء وإعزاز الدين وابتزاز الملحدين وتقوية يده في نصرة الإسلام وسياسة الأنام ويعرف رعيته من يمن دولته وسعادة ولايته ما يجمعهم على الطاعة والموافقة ويعصمهم من المعصية والمفارقة ويوفقهم من الإخلاص في موالاته لما يوفر حظهم من مرضاته ويجعل ولايته هذه مقرونة بانفساح المدة والأجل وبلوغ المنى والأمل وصالح القول والعمل ويبلغه في مملكته ودولته أفضل ما بلغه خليفة من خلفائه ووليا من أوليائه.

ومن ذلك يكتب في البشارة بالفتوح: قد جرت العادة أن السلطان إذا وجه جيشاً لفتح قلعة أو قطر من الأقطار وحصل الفتح على يديه أن يكتب السلطان مبشراً بذلك الفتح منوهاً بقدره معظماً لأمره وما كان فيه من عزيز النصر وقوة الظفر.

فمن مكاتبة في البشارة بفتح حصن المرقب وهي: قد أسفر عن الفتح المبين صباحه والتأييد وقد طار به محلق التباشير فخفق في الخافقين جناحه والإسلام وقد وطيء هامة الكفر بمقدمه والدين وقد عز بفتكات سيفه المنصور فأنف أن يكون الشرك من

خدمه والأفلاك وقد علمت أنه لهذا الفتح القريب كان اجتماع كواكبها والأملاك وقد نزلت لتشهد أحمد النصرة البدرية في صفوفهما ومواكبهما وحصن المرقب وقد ألقت عليه الملة الإسلامية أشعة سعدها وأنجزت له الأيام من الشرف بها آماله بعد ما طال انتظاره لوعدها وأمنته الأقدار التي ذللته للإسلام أن تطاول إليه الحوادث من بعدها وقد أحاطت العلوم بأن هذا الحصن طالما شحت الأحلام أو تخيل فتحه لمن سلف من الأنام فما حدثت الملوك أنفسها بقصده إلا وثناها الخجل ولا خطبته ببذل النفائس والنفوس إلا وكانت من الحرمان على ثقة ومن معاجلة الأجل وقته على وجل وحوله من الجبال كل شامخ تتهيب عقاب الجو قطع عقابه وتقف الرياح خدماً دون التواقل في هضابه وحوله من الأودية خنادق لا تعلم منها الشهور إلا بأصنافها ولا تعرف فيها الأهلة إلا بأوصافها وهو مع ذلك تفرط بالنجوم وتقرطق بالغيوم وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله في التخوم تخال الشمس إذا علت أنها تنتقل في أبراجه ويظن من سما إلى السها أنه ذبالة في سراجه فكم من ذي جيوش قد مات بغصة وذي سطوات أعمل الحيل فلم يفز من نظيره على البعد بفرصة ولا يعلوه من مسمى الطير سوى نسر الفلك ومرزمه ولا يرمق متبرجات أبراجه غير عين شمسية والمقل التي تطرف من أنجمه وقد كان نصب عليه من المجانيق ما سهامه أنفذ من سهام الجفون وخطراته أسرع من لحظات العيون لا يخاطب إلا بوساطة رسله بضمير الطلاب ولا يرى لسان سهمه إلا كما ترى خطفات البرق إذا تألق في علو السحاب فنزلت عليه الجيوش نزول القضاء وصدمته بهممها التي تستعر منها الصوارم سرعة المضاء وروعة الانتضاء فنظرت منه حصناً قد زرر عليه الجوجيب غمامه وافتر ثغره كلما جذب عنه البرق فأضل لثامه فتذللت صعابه وسهلت عقابه وركزت للجنوبات في سفحه وطالما مخلفة تبكي عليها الغمائم فضرب بينهما وبين الحصن بسور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ونصبت فوقه من الأسنة ثغور براقة الثنايا ولكنها غير عذاب فعاد ذلك السفح مصحفاً بصفاحها مشرقاً بأعلام أسنة رماحها فأرسلت إلى أرجائها ما أربى على الغمائم وزاد في نفحه على التمائم طويل.

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم.

ونصبت عليها المجانيق فلم ترع حق جنسها وسطت عليها فأصبح غدها في التحامل أبعد من أمسها واستنهضتها العدا فاعلمتهم أنها لا تطيق الدفاع عن غيرها بعد أن عجزت عن نفسها وبسطت أنفها أمارة على الإذعان ورفعت أصابعها إما إجابة أن تذل للتشهد وإما إنابة إلى طلب الأمان فخاف العدا من ظهور هذا الاستظهار وعلموا أن المجانيق فحول لا تثيب لها الإناث التي عريت من النفع بأيديهم فاستعانوا عليهن مع العدا بطول الجدار فعند ذلك غدت تكمن كمون الأوساد وتثب وثوب الأسود وتباري بها الحصون السماء فكلما قذفت هذه بكواكبها النيرة قذف هذا بكوكبه السود ولم يكسر لهم منجنيق إلا أن نصبوا آخر بمكانه ولا قطعت لأحد إصبع إلا وصل الآخر ببنانه فظلت تتحارب مثل الكماة وتتحامل الرماة حتى لقحت وفسحت للرضا مجالاً ومالت وميل فيها وكذلك الحرب تكون سجالاً.

هذا والنقوب قد دبت في باطنه دبيب السقام وتمشت في مفاصله كما تتمشى في مفاصل شاربها المدام وحشت أضالعه ناراً تشبه نار الهوى تحرق الأحشاء ولا يبدو لها ضرام قد داخلت مرسلة الوجل فتحققوا حلول الأجل وعملوا أن هذا الفتح الذي تمادت عليه الأيام قد جاء يسعى إلى ما بين يديه على عجل وأيقن الحصن بالانتظام في سلك الممالك الشريفة فكاد يرقصه بمن فيه فرط الجذل وزاد شوقه إلى التشريف ويا صبابة لوسمها واسمها مشتاق لكنهم أظهروا الجلد وأخفوا ضرام نار الجزع وكيف تخفي وقد وقد وتدفقت إليهم الجيوش فملأت الأفق وأحاطت بهم إحاطة الطوق بالعنق ونهضت إليهم مستمدة من عزمات سلطانها مستعدة لانتزاع أرواح العدا على يديها من أوطانها فانقطعت بهم الظنون ودارت عليهم رحى المنون وأمطرت عليها المجانيق أحجارها " فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون " وحطت بساحتها عقبان تلك الأحجار فهدمت العمائر والأعمار وأجرت في أرجائها أنهار الدماء فهلكوا بالسيف والنبل والنار وتحكمت هذه الثلاثة في أهل التثليث فبدوا بالخوف من أمنهم وهربوا منها إلى مخايل حصنهم.

ولما ركب الأول للزحف في جيوشه التي كاثرت البحر بأمواجه تزلزل الحصن لشدة ركضه وتضعضع من خوف عصيانه فلحقت سماؤه بأرضه وتحللت قواعد ما شيد من أركانه فانحلت وألقت الأرض ما فيها وتخلت ومشت النار من تحتهم وهم لا يشعرون ونفخ في الصور بل في السور فإذا هم قيام ينظرون وما كان إلا أن قابلت العساكر ذلك البرج حتى أهوى يلثم التراب وتأدب بآداب الطاعة فخر راكعاً وأناب فهاجمتهم الجيوش مهاجمة الحتوف وأسرعت المضاء والانتضاء فلم تدر العدا أهم أم الذين في أيمانهم السيوف التي تسبق العذل وثبت منهم من لم يجد وراءه مجالاً فلجأوا إلى الأمان وتمسك دنيء كفرهم بعزة الإيمان وتشبثوا بساحل العفو حتى ظنوا أنهم أحيط بهم وجاءهم الموج من كل مكان وسألونا أن يكونوا لما من جملة الصنائع وتضرعوا في أن نجعل أرواحهم لسيوفنا من جملة الودائع فنصدق عليهم بأرواحهم كرماً وطلوا على معنى الحديث النبوي: يرون الممات يقظة والحياة حلماً وأطلقتهم اليد التي لا يخيب لديها الأنامل وأعتقتهم اليمنى التي فجاج الأرض في قبضتها

فمتى تشاء تجمع عليهم الأنامل وخرجوا بنفوس قد تجردت حتى من الأجسام ومقل طلقت الكرا خوفاً من الصوارم التي تسلها عليهم الأحلام وسطرت والمدينة قد تسنم أعلاها وشعار الإيمان قد جردها من لباس الكفر وأعراها والأعلام قد سلكت إلى ذلك الحصن أعلى مرقى والسعادة قد بدلت بيعه مساجد ومحاريبه قبلة وكانت شرقاً فأصبح يرفل في حلل الإيمان وأذعن بالطاعة فأخرس جرس الجرس به صوت الأذان إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك ما يكتب به التعازي إلى الخلفاء: وقد تقدم في الكلام على التهنئة بولاية الخلافة أنه كما ينبغي أن لا يهنأ الخليفة بالخلافة إعظاماً فكذلك ينبغي أن لا يعزى في مصابه إلا أنه ربما دعت ضرورة الكاتب إلى ذلك لإكرام بعض أخصاء الخليفة بالكتابة بذلك إلى الخليفة.

ولا يخفى أن الحال في ذلك يختلف باختلاف المعزي من والد أو ولد أو غيرهما.

وهذه نسخة مكاتبة في معنى ذلك ذكرها في مواد البيان وهي: أما بعد فإن الله تعالى جعل خلافته لخلقه قواماً ولبريته نظاماً وجعل له خلفاء يدخرهم لميراثها ويختصهم بتراثها فإذا انقضت مدة ماضيهم لما يريده الله من استدنائه إلى مقر خلصائه نقلها إلى نوره باصطناعه واصطفائه.

والحمد لله الذي قصر خلافته على أمير المؤمنين وآبائه وجعل منهم زعيمهم الماضي الذي كانت بيديه مواريثها والآتي الذي صار إليه تراثها.

والحمد لله الذي ختم لأمير المؤمنين المنتقل إلى دار الكرامة بأفضل الخاتمة وأحسن له الجزاء عن السعي في الأمة وأنعم باستخلاص أمير المؤمنين لإمامة خليقته وحياطة سريعته وحماية بلاده وسياسة عباده ولوراثة تراث آبائه وأجداده وجعل الماضي منهم مرضياً عنه والآتي مرضياً به وأعتدت الرعية من عدل أمير المؤمنين ما جبر كسرها في خليقته وصبرها في رزيته وهو المسؤول أن يلهمه على المصيبة في سلفه الطاهر صبراً وعلى ما أخلفه عليه في تأهيله لخلافته وهذه نسخة كتاب في التعزية أيضاً وهي: إن الله خص أمير المؤمنين بما هو أهله من خلافته وعظم محله بما نصبه له من إمامة بريته وجعله عماداً لأهل الإسلام تجتمع عليه أهواؤهم وتسكن إليه أملاؤهم ويصلح به دينهم ودنياهم ويستقيم به أمر أولاهم وأخراهم فإذا أسبغ نعمة من نعمه عليه وظاهر موهبة من مواهبه لديه شركوه فيها ونهضوا معه على الشكر عليها وإذا ابتلاه ببلية وامتحن صبره برزية أخذوا بالنصيب العظيم من الحادث والحظ الجسيم من الكارث وما أفردوه بثواب الله فيها وما جعله جزاء من الأجر عليها.

وإن الله تعالى كان أعار أمير المؤمنين من فلان - رضي الله عنه - عارية من عواريه وبلغه من الاستماع بها ما احتسب من أمانيه ثم استرجعها ليثقل بها ميزانه ويضاعف إحسانه ويجعلها له ذخراً ونوراً يسعى بين يديه وأجراً فعظم بذلك المصاب على رعيته وكبر الرزء على أهل دعوته لما كانوا يرجونه من سكون القلوب ونقع الخطوب واستقرار قواعد الخلافة وشمول الرحمة والرأفة وقد حصل أمير المؤمنين على نعم كثيرة من موهبته وثوابه في استعادته وحصل كافة خاصته على القلق لفقده والأسى من بعده وقد جعله الله تعالى صلاح كل فساد وثقاف كل مياد ومهبط كل رحمة وطريق كل نعمة وهو خليق بأن ينظر من صبره ورضاه بقضاء الله وتسليمه لأمره ما يبعث على التأسي به والتأدب بأدبه والله تعالى يحسن لأمير المؤمنين الخلف ويعوضه أحسن العوض في المؤتنف ويوفر حظه من الثواب ويعظم له الأجر على المصاب ويريه في أوليائه وأحبائه أعظم محابه وغاية آرابه وينقل المنقول إلى إيوان الكرامة والاحتفاء بأفضل الأجداد والآباء بفضله ورحمته إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة كتاب كتب به إلى الأبواب السلطانية عند فتح آياس قاعدة بلاد الأرمن وانتزاعها من أيديهم وهي: يقبل الأرض وينهي أن ليلة الانتظار أطلعت صباحها ومواعيد الآمال بعثت على يد الإقبال نجاحها والعساكر المنصورة جردت رابع ربيع الأول بمدينة آياس صفاحها وأوردت إلى الصدور رماحها فلم يكن إلا كلمح البصر ولسان صدق القتال قائل بأن الجيش الناصري قد انتصر وانقضى ذلك النهار بإيقاد نار حرب الحصار على أبراج وأسوار أديرت على المينا كما أدير المعصم على السوار فلما أشرق صباح الصفاح ولاح إلا والأعلام الناصرية على قلة القلعة مائسة الأعطاف من الارتياح معلنة ألسنتها بحي على الفلاح وحي على النجاح وعز الإسلام يقابل ذل الكفر بهذا النصر وهذا الافتتاح وجمع الأرمن الملا تفرق ما بين قتل وأسر وانتزاح ولعبت أيدي النيران في القلعة وجوانبها وتفرقت من الأسوار أعضاء مناكبها ونطق ثم انتقلت المحاصرة إلى قلعة البحر وضم الأرمن الملا إليها سيف القدرة والقهر وهذه القلعة عروس بكر في سماء العز شاهقة لم يسبق لأحد من الملوك الأوائل إلى خطبتها سابقة قد شمخت بأنفها ونأت بعطفها وتاهت على وامقها وغضت عين رامقها فهي في عقاب لوح

الجو كالطائر وسورها البحر والحجر فلا يكاد يصل إلى وكرها الناظر وقد أوثقت بحلقات الحديد وقيدت كأنها عاصية تساق بالأصفاد إلى يوم الوعيد فأرسل عليها المنجنيق عقابه وأعلق بها ظفره ونابه فكشف عن شرفاتها شنب ثغرها وسقاها بأكف أسهمه كؤوس حجارة فتمايلت من شدة سكرها وفض من أبراجها الصناديق المقفلة وفصل من أسوارها الأعضاء المتصلة فتزلزل عمدها وزيل من مكانه جلمدها وعلت الأيدي المرامية بها وغلت الأيدي المحامية عنها واشتد مرضها من حرارة وهج الحصار وضعفت قوتها عن مقاومة تلك الأحجار ولم يبق على سورها من يفتح له جفناً وشن المنجنيق عليها غارته إلى أن صارت شناً فأرسل إليها من سماء غضبه رجوماً ووالى ذلك عليها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فبادرت إلى الطاعة واستسلمت وكرر نحوها ركوعه فسجدت وركبت الجيوش المنصورة عوض الصاقنات اللجج وسمحت في سبيل الله عز وجل بالمهج فعند ذلك سارع أهلها إلى التعلق بأسباب الهرب وكان خراب قلعة المينا هذي لخراب قلعتهم من الجرب وأحرقوا كبدها من أيديهم بنار الغضب وانتزحوا منها ليلاً وجروا من الهزيمة ذيلاً وتسلمها المسلمون وتحسر عليها الحسرة الكبرى الكافرون وهدمت حجراً حجراً وصافحت بجبهتها وجه الثرى وأعدمت من الوجود عيناً وأثراً فما أعجب هذا الفتح وأغرب! وما أحلى ذكره في الأفواه وما أعذب! وما ألذ حديثه في الأسماع وما أطرب! وما أسعد هذا الجيش الناصري وما أنجب! بسيط.

بشراك بشراك هذا النصر والظفر هذا الفتوح الذي قد كان ينتظر فتح مبين ونصر جل موقعه سارت به وله الأملاك والبشر عجائب ظهرت في فتحه بهرت لم تأت أمثالها الأيام والبشر لو كان في زمن ماض به نزلت في وصف وقعته الآيات والسور هذي أياس التي قد عز جانبها وعز خاطبها حتى أتى القدر جاءت إليها الجيوش كم بها أسد بيض الصفاح لها الأنياب والظفر جيش لهام كبحر زاجر لجب إذا سرى لا يرى شمس ولا قمر يسير بالنصر أنى سار متجهاً ما زال يقدمه التأييد والظفر جيش له الله والأملاك ناصرة مليكه ناصر للدين منتصر وقلعة البحر كانت آية لهم فعن يسير فأضحت للورى عبر كانت بأفق سماء العز شاهقة أبراجها باسقات خرتها خطر فركب المسلمون البحر باذلة أرواحها في سبيل الله تدخر لم يبق منهم أمير لا ولا ملك يأوي مقراً إلى أن مدت الجسر وعجل الله بالفتح المبين لهم هذا الفتوح الذي توفى له النذر يرضى به الله والإسلام قاطبة وشاهد القول فيه العين والأثر القسم الثاني من مقاصد المكاتبات الإخوانيّات مما يكتب به الرئيس إلى المرؤوس والمرؤوس إلى الرئيس والنظير إلى النظير قال في " مواد البيان ": ولها موقع خطير من حيث تشترك الكافّة في الحاجة إليها.

قال: والكاتب إذا كان ماهراً أغرب معانيها ولطف مبانيها وتسهّل له فيها ما لا يكاد أن يتسهّل في الكتب التي لها أمثلةٌ ورسومٌ لا تتغير ولا تتجاوز وهي على سبعة عشر نوعاً: قال في " مواد البيان ": كتب التهاني من الكتب التي تظهر فيها مقادير أفهام الكتاب ومنازلهم من الصناعة ومواقعهم من البلاغة.

وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة والإبانة عن موقع الموهبة وتضاعف السرور بالعطية.

وأغراضها ومعانيها متشعبة لا تقف عند حد وإنما نذكر منها الأصول التي تفرعت منها فروعٌ رجعت إليها وحملت عليها.

قال: ويجب على الكاتب أن يراعي فيها مرتبة المكتوب إليه والمكتوب عنه في الرسالة اللائقة بهما مما لا يتسامح بمثله.

ثم التهاني على أحد عشر ضرباً: الضرب الأول التهنئة بالولايات وهي على تسعة أصناف الصنف الأول التهنئة بولاية الوزارة قد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على ترتيب المملكة أنّ الوزارة كانت في الزمن المتقدم هي وكانت في زمن الخلفاء تكاد أن تكون كالسلطنة الآن فهي من الأتباع ومن في معنا هم على نحو ما كانت في الزمن المتقدم بين الرؤساء والأكابر ومن الرؤساء والأكابر بحسب ما تقتضيه رتبة المهنّإ.

وهذه نسخ تهانٍ من ذلك على ما كان عليه الحال في الزمن القديم.

تهنئةٌ بوزارة: من إنشاء أبي الحسين بن سعد كتب بها إلى الوزير محمد بن القاسم بن عبيد رحمه الله وهي: من كانت النعمة - أيد الله الوزير - نافرةً عنه وبفنائه غريبة فهي تأوي من الوزير إلى مثوىً معهود وكنف محمود وتجاور منه من يوفّيها حقّها ويقابلها بحسن الصحبة لها ويجري في الشكر لما يولاه والرعاية لما يسترعاه على شاكلةٍ مضى عليها السلف من أهله ونشأ في مثلها الخلف مقتدياً بالأول الآخر وبالماضي الغابر تشابهاً في كرم الأفعال ورعايةً لحقوق الآمال واعتماداً للرأفة والرحمة وعموماً بالإنصاف والمعدلة إلى ما خصّ الله به أهل البيت رضي الله عن الماضين منهم وأقام عزّ الباقين وحراستهم: من العلم بالسياسة والدّراية بتدبير المملكة ورعاية الأمة والهداية فيهم لطرق الحيطة ونهج المصلحة.

والحمد لله على ما خصّ به الوزير من فضله الذي رفع قدره فيه عن مساماة ومشاكلة المقادر والشبيه وجعله فيما حباه به نسيج وحده وقريع دهره وجمع له مواهب الخير وخصائص الفضل ما أبان به موقعه في الدّين وأعطاه معه الولاية من جميع المسلمين.

والحمد لله حمداً مجدّداً على ما جدّده له من رأي أمير المؤمنين واجتبائه ومحله من اختياره واصطفائه.

والحمد لله على ما منحه من كرامته وجدّد له من نعمته فيما أعاد إلى تدبيره من وزارته وأشركه فيه من أمانته احتياطاً منه للملكة ونظراً للخاصّة والعامّة فإنّ عائدة رأيه سوّت بين الضعيف والقوي ووصلت إلى الداني والقصيّ وأعادت إلى الملك بهاءه وإلى الإسلام نوره وضياءه فاكتست الدنيا من الجدّة بعد الإخلاق والنضارة بعد الإنهاج ما لم يكن يوجد مثله إلاّ بالوزير في شرف منصبه وكرم مركّبه فهنّأ الله الوزير ما آتاه وتابع له قسمه ووصل له ما جدّد له بالسعادة وأمدّه فيه بالزيادة وأعطاه من كلّ مأمول أعظم حظٍّ وأوفر نصيب وقسم تراخياً في مدّة العمر وتناهياً في درجة العزّ واحتياطاً بالموهبة في العاجلة وفوزاً بالكرامة في الآجلة إنّه فعّالٌ لما يشاء.

تهنئةٌ أخرى في مثل ذلك: أوردها في ترسّله وهي: التهنئة بالوزير للزّمان وأهله بما جمّلهم به وجدد لهم من ميسم العزّ وسربلهم إياه من حلّة الأمن بولايته والنعمة على أوليائه ورعاياه على حسب مواقعهم من مشاركته وحظوظهم من معدلته ظاهرةٌ ولله على ذلك الحمد الفاضل والشكر الكامل.

وللوزير من هذه النعمة الجليلة والدولة السعيدة أهناها موقعاً وأسراها ملبساً وأدومها مدةً وأجملها نغية وأثراها مبوّءاً وأسلمها عقبى فتولاه الله بالمعونة والحراسة وأيّده الله بالنصر والكفاية وأنهضه بما قلّده واسترعاه وبلغه محابّه ومناه وأرجو أن يكون موقعي من ثقة الوزير يلحقني عنده بمن مكّنته الأيام من قضاء الحقّ في التلقي والإبعاد ويعوّضني بتفضيله مما حرمته منها محلّ ذوي الإخلاص والإعتداد.

تهنئة أخرى في مثل ذلك: أوردها في ترسّله أيضاً وهي: وهذا أوّلٌ يتلوه ما بعده بلا تناهٍ ولا نقص بإذن الله ومشيئته بل يكمن موصولاً لا تبلغ منه غايةٌ إلا شفعتها درجةٌ ترقى تكنف ذلك كفايةٌ من الله شاملةٌ كاملةٌ وغبطةٌ في البدء والعاقبة بلا انقطاع ولا ارتجاع حتّى يكون المنقلب منه بعد بلوغ العمر منتهاه إلى فوزٍ برحمة الله ورضاه.

فهنيئاً للوزير بما لا يقدر أحدٌ أن يدّعي فيه مساعفة المقدار ولا يناله بغير استحقاق إذ لا مثل ولا نظير للوزير: فضلاً ظاهراً وعلماً على العلوم موفياً وسابقةً في تقليب الخلافة ظهراً لبطن وحلب الدّهر شطراً بعد شطر وجمعاً من مال السلطان لما كان متفرّقاً وحفظاً لما كان ضائعاً وحماية لبيضة الملك وضبطاً للثّغور وتلقياً للخطوب بما يفلّ حدّها ويطفئ نارها ولهبها ويقيم أودها وما وهب الله في رأيه من فتح البلاد المرتجة وقمع الأعداء المتغلّبة وسكون الدّهماء وشمول الأمن وعموم العدل والله يصل ذلك بأحسنه.

تهنئة أخرى في مثل ذلك: من إنشاء عليّ بن خلف في " مواد البيان " وهي: أطال الله بقاء حضرة الوزارة الساميّة فارعةً من المعالي أسمقها نجوداً كارعةً من المنن أعذبها وروداً ساحبةً من الميامن أرقّها برودا ممتّعةً بالنّعم التي يرامي الشّر عن حوزتها ويحامي البشر عن حومتها مبلّغةً في أوليائها وأعدائها قاضيةً ما ترتمي إليه رحابها فلا ترى لها وليّاً إلاّ لاحب المذاهب ثاقب الكوكب سامي الطّرف حامي الأنف ولا عدّواً إلا ضيّق المطرح وعر المسرح صالد الزند مفلّل الحد راغم العرنين متلولاً للجبين.

ولازالت أزمّة الدنيا بيدها حتّى تبلغ بآمالها منتهاها وتجري بأيّامها إلى أقصى مداها فهي من أعظم النّعم خطراً وأحسنها على الكافة أثراً وأولاها بأن يفاض في شكرها وتتعطّر الآفاق بذكرها.

ولسيدنا الوزير الأجلّ يراعٌ يستيقظ في صلاحهم وهم هاجعون وينصب في الذبّ عنهم وهم وادعون وكل تدبيرهم فيه إلى مدبرّ يخاف الله ويتّقيه ويعمل فيمن استرعاه بما يرتضيه ولا يمدّ يد الاقتدار عليهم متسلّطاً ولا يتّبع دواعي الهوى فيهم متسقّطاً واضعاً الأشياء في حقائقها سالكاً بها أمثل طرائقها ملايناً من غير ضعف متخاشناً من غير عنف قريباً من غير صغر بعيداً من غير كبر مرغّباً بلا إسراف مرهباً بإنصاف ناظراً إلى محقّرات الأمور وأطرافها كما ينظر في معاظمها وأشرافها آخذاً بوثائق الحزم متمسّكاً بعلائق العزم رامياً بفكرته من وراء العواقب خاطماً بآرائه أنوف المصاعب ناظماً بإيالته عقود المصالح

موطّئاً برياضته ظهور الجوامح إن ثقف ذا النّبوة الفريدة والهفوة الوحيدة اقتصر على ما يوافقه الوالد الحب من مقوّم الأدب وإن قبض على المرتكس في غوايته المفلس في عنايته ضيّق عليه مجال العفو وأحاق به أليم العذاب والسّطو فقد سكنت الرعيّة في عدله وأوت حرماً منيعاً من ظلّه ووثقت أنّ الحق بنظره شامخ شاهق والباطل سائخ زاهق والإنصاف مبسوط منشور والإجحاف محطوط مبتور والشّمل منظوم والشّرّ مضموم.

فنطقت ألسنتها بإحماده واشتملت أفئدتها على وداده واتفقت أهواؤها على رياسته وتطابقت آراؤها المسابقة على دوام سيادته وعرف أمير المؤمنين عدق النظر في دولته وسلّم أمور مملكته إلى النّصيح المأمون والنّجيح الميمون الذي وفقه الله تعالى لاختياره ويسّره لاصطفائه وإيثاره وأنّه قد أناط أموره بمن لم يستخفّ ثقيل حملها وينوء بباهظ ثقلها فتمتّع بلذيذ الكرى وتودّع بعد السّير والسّرى وألمٍ من إلمام ملمٍّ معضل وحدوث حدثٍ مشكل.

وهذه نعمةٌ تعمّ الخاصّة والعامّة عموم الغيث إذا همع وتدفّق وتشملهم شمول النّهار إذا لمع وتألّق وهم أولى بالتهنئة فيها وشكر الله تعالى عليها.

وسيدنا الوزير حقيق بأن يهدى إليه الدعاء المرفوع والتضرّع المسموع بأن ينهضه الله تعالى بما حمّله ويعينه على ما كفّله ويتولاّه بتوفيق يثقب أنواره وتأييدٍ يطبّق غراره وتسديدٍ يحسّن آثاره وإجراء ما يتولاه على أوضح سبيلٍ وأقصده وأرجح دليلٍ وأرشده إذ لا يجوز أن يهنّأ بماله عياؤه وكلّه ولمذعنيه صلاحه كلّه.

والعبد يسأل الله ضارعاً لديه باسطاً يده إليه في أن يقبل صالح أدعيته لحضرة الوزارة السامية وأن يجعل ما أحلّه في محلّه من رياستها وأوقعه في موقعه من سياستها دائباً لا ينتزع وخالداً لا يرتجع وأن يؤيّدها فيه بما يقضي له بالإحراز والتّخويل ويحميه من الابتزاز والتحويل إنّه سميع الدعاء فعّالٌ لما يشاء إن شاء الله تعالى.

الصنف الثاني التهنئة بكفالة السلطنة

وهذه نسخةٌ من ذلك كتب بها عن نائب الشام من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وهي بعد الألقاب: لازال دائراً بهنائه الفلك منيراً بضياء عدله وبشره الحلك قريراً بحسن كفالته الملك شاهداً بفضل أسمائه وسماته الملك مقسوماً بأمر الله نداه وبأسه ليحيا من حيّا ويهلك من هلك تقبيلاً يشافه به التّراب ويشاهد شرف مطلعه على السّحاب.

وينهي قيامه على قدم ولاءٍ ودعاء: هذا ينزل القلب وهذا يصعد إلى الأفق ومقامه على بشرى وحمدٍ منهما الأمن يحلّى بوصفه النّطق كما تحلّى الأعطاف بالنّطق وأنّه ورد مثالٌ شريفٌ على يد فلانٍ يتضمّن البشارة العامّة والمسرّة التامّة والنعمة التي يعوّذ سنا جبينها من كل عينٍ لامّة وخبر الخير الذي حيّت أزهاره المتضوّعة ندّ مصر فأوّل ما بلّغه منافس الشام شامّة بأنّ المواقف الشريفة - أعزّ الله تعالى سلطانها - قد فوّضت إلى مولانا كفالة الإسلام وبنيه وكفاية الملك بصالح مؤمنيه ونيابة السلطنة الشريفة وما نسقت وتدبير الممالك وما وسقت فيالها بشرى ابتسمت لها ثغور البشر ومسرّةً استجلى سناها من آمن وبهت الذي كفر وخبراً تلقّت الأسماع بريده منشدة: قل وأعد بأطيب الخبر هنالك أخذ المملوك حظّه من خير بشرى ونصيبه من مسرّةٍ حمد بصباح طرسها المسرى وحمد الله تعالى على أن أقام لسلطان البسيطة من يبسط العدل والإحسان لمنابه ويقلّد رعيّته عقود النّعم إذا تقلّد ما وراء سريره وبابه ومن إذا كفل سيفه ممالك الإسلام وثقت بالمغنم والسّلامة وإذا كتب قلمه قالت ولا سيّما أخبار جند المسلين: هكذا تكون العلامة وجهّز المملوك هذه الخدمة نائبةً عنه في تقبيل الأرض وعرض الهناء بين يدي من يسرّ المملوك بولائه اليوم ويرجو أن يسرّ به يوم العرض ولو وصف المملوك ما عنده من السرور والشّوق لضاق الورق عن تسطير الواجب منه وضاق الوقت عن أداء الفرض.

والله تعالى يجدّد لمولانا ثمرات الفضل الواضح والرأي الرابح والقدر الذي هو على ميزان الكواكب راجح ويمتّعنا كافة المماليك بدولة سلطانه الذي علم البيت الشريف أنّه على الحقيقة الخلف الصّالح.

وهذه نسخة تهنئةٍ لأمير جاندار بولاية إمرة جاندار من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وهي بعد الألقاب: أعلى الله منارها ومنالها وخلّد قبولها وإقبالها وأجزل من الغضّ الذي تناولته ثمرها وأسبغ به ظلالها ولازال في سيفها وعصاها مآرب للملك وفي بأسها ونداها مواقع للنّجاة والهلك ولا برحت القضب من سيوف وغصون: هذه حاكمةٌ بسعدها حكم الملك وهذه مسخّرة في تجريدها تسخير الفلك تقبيل مخلصٍ في ولائه ودعائه مهنّإ القلب مسرورٍ بما يتجدّد من مسرّات مولانا وهنائه وينهي أنه

بلغه ما أفاضته الصدقات الشريفة على مولانا من المبرّات وما جدّدت له من المسرّات وأنها ضاعفت مزيد الإحسان إليه ودعته أمير جاندار ودّت العصيّ النّجوميّة لو قدّمت نفسها بين يديه وأنّ المواقف الشريفة قرّت به عيناً وأقرّت وأنّ الدولة القاهرة ألقت عصاها إليه واستقرّت وكما سلّمت إليه العصا في السلم سلّمت إليه السيف في الحرب وكما قرّبته في مواقف العدل والإحسان قرّبته في مواقف الطّعن والضرب فأخذ المملوك حظّه من البشرى وأوجب على نفسه الفرح وسجد لله شكراً وودّ لو حضر يشافه بهذا الهناء الشامل ومثل قائماً لديه بحقّ التهنئة القيام الحقيقيّ الكامل.

وحيث بعدت داره ونأت عن العيان أخباره فقد علم الله تعالى مواصلته بالأدعية الصالحة ليلاً ونهاراً والموالاة والمحبّة التي يشهد بها الخاطر الكريم سرّاً وجهازاً والله تعالى المسؤول أن يزيد مولانا من فضله ويسرّه بمتجدّدات الخير الذي هو من أهله ويمتّعنا كافّة المماليك بدوام سلطان هذه الدولة الذي شمل بظله وغني بنصره عن نصله إنشاء الله تعالى الصنف الثالث لتهنئة بالإمارة من كلام الأقدمين تهنئة من ذلك أوردها أبو الحسين بن سعد في ترسّله وهي: وهنأ الله الأمير مواهبه الهنيّة وعطاياه السويّة وأدام تمكينه وقدرته وثبّت وطأته وحرس ما خوّله وجعل ما هيّأ له من مؤتنف الكرامة أيمن الأمور فاتحةً وأسعدها عاقبة ووصل أيّامه بأجمل الولاية وأجلّ الكفاية حتّى ينتهي من استيفاء سعادات الحظوظ وحوز القسم والآمال إلى الدرجة التي تليق بما أفرده الله به من الكمال وخصّه به من الفضل في جميع الخصال.

ومن أفضل ما أعتدّ به من نعم الله عليّ بالأمير وبجميل رأيه ومحلي من طاعته وخدمته أني لا أخلو في كلّ وقت وحالٍ من بهجة تتجدّد لي ومسرّةٍ تصل إليّ وتتوفّر عليّ بما يسهّله الأمير على يده من مستصعب الأمور ومستغلق الخطوب التي تبعد عمّن يزاولها ويجعل الله بطوله وحوله للأمير القدرة عليها ويتوحّد بالكفاية فيها فينمو بجميل تدبيره ولطيف نظره ويطّرد بصاعد نجمه ويمن نقيبته وعزّ دولته وذلك من فضل الله ونعمته يؤتي فضله من يشاء وهو ذو الفضل العظيم.

الصنف الرابع التهنئة بولاية الحجابة وقد كان لها في الزمن القديم المحلّ الوافر في الدولة وعلوّ الرتبة فيها.

من كلام الأقدمين تهنئةٌ من إنشاء أبي الحسين بن سعد كتب بها إلى أبي بكر بن ياقوت حين ولي الحجابة بعد نكبة أصابته وهي بعد الصدر: وقد كانت أنفسنا معشر عبيد سيدنا وحملة إنعامه ومؤمّلي أيامه في هذه الأحوال التي نفد سيدنا منها فيما ابتلاه صبره وأبان فيه قدره وزاد العرف بفضله نفوذاً في البصيرة وأعاد ذوي الارتياب فيه إلى الثقة فاستوى المنازع والمسلّم واستوى العالم والمعاند - نعمةٌ منه تعالى ذكره خصّه بها وصانه عن مشاكلة النظير ومزاحمة الأكفاء على سبيل من القلق والارتماض والسّقوط والانخفاض جزعاً من تلك الحالة الغليظة وإشفاقاً على تلك النّفس النّفيسة وخوفاً على معالم البرّ والتّقى وبقيّة العلم والحجا وتاريخ الكرم والنّدى أن يدرس منارها وتطمس آثارها ولولا ما منّ الله به من الخلاص منها وما منح بكرمه في عاقبتها لأوشكت أن تأتي عليها وتعجلها عن مواقيت آجالها لكنه عظمت آلاؤه وتقدّست أسماؤه أتى بالأمن والفرج بعد استيلاء الكرب والوجل وانبتات أسباب الرّجاء والأمل فعرف سيدنا موقع الخيرة فيما قضاه وميّز له الخبيث من الطيّب ممّن عاداه وتولاّه وجعل النعمة التي جدّدها له فيما ردّه أمير المؤمنين إلى تدبيره من أمر داره ومملكته وحراسة بيضة رعيّته مشتركة النّفع والفائدة مقسومة الخير والعائدة بين كافّة الأمّة فيما عمّ من المعدلة وشمل من المصلحة ولاح من تباشير الخير وأمارات البركة في استقامة أمور البلاد وصلاح أحوال العباد وأفرد الله سيدنا بحظٍّ من الموهبة وقاني فيه على حظوظ الأولياء وزادني على سهام الشّركاء.

والحمد لله في مبتداه والسلامة في عقباه وتبليغه من حظٍّ مأمول وخيرٍ مطلوب وحالٍ عليّة ورتبة سنيّة أفضل ما بلّغ أحداً اختصّه بفضله واصطفاه من خلقه إنه جواد ماجد.

فإن رأى سيدنا أن يتطوّل بإجراء عبده على كريم عادته في تشريفه بمكاتبته وتصريفه في أمره ونهيه محقّقاً بذلك أمله وزائداً في نعمه عنده فعل إن شاء الله تعالى.

تهنئةٌ أخرى من ذلك من إنشاء عليّ بن خلف أوردها في " مواد البيان " وهي: إنما يهنّأ بالولاية - أطال الله بقاء الحاجب الجليل سيّدي ومولاي - من انبسطت إليها يده بعد انقباض وارتفع لها قدره من انخفاض وأوجدته الطريق إلى إحراز جزيل الأجر والجزاء واكتناز جميل البركة والثناء وأفضت به إلى اتّساع السّلطان وانتفاع الأعوان فأمّا من جعل الله يده الطّولى وقدره الأعلى ورياسته حاصلةً في نفسه وجوهره وسيادته مجتناةً من سنخه وعنصره فالأولى - إذا استكفي رغبةً في إنصافه وعدله وحاجةً إلى سداده وفضله وافتقاراً إلى فضل سيرته واضطراراً إلى فاضل سياسته - أن تهنّأ الرعيّة بولايته وتسرّ الخاصّة والعامّة بما عدق من أمورها بكفايته وغير بدع ربط أمير المؤمنين بالحاجب الجليل أمر حجابته ونصبه الزّحمة عن

حضرته وجعله الوسيط والسفير بينه وبين خواصّ دولته وقد وثق بيمن نقيبته واطّلع على خلوص نيّته وسكن إلى صدق طاعته وعرف طهارة جيبه وسلامة غيبه وصدق لهجته وحصافة أمانته واعتماده للحقّ فيما يورد ويصدر وينهي ويجيب وابتلاه فعرف طيب طعمته وخفّة وطأته ورأفته بالضّعيف المهضوم وغلظته على العسوف الظّلوم فرأى أن يحلّه محلّ من لا يغيب عمّا شهده ولا يرتاب بما سمعه على أنّني المهنّأ بكل نعمةٍ يجدّدها الله لديه وسعادةٍ يسبغها عليه.

ولو أنصفت لسلكت من الصّواب سنناً واعتقدت جميلاً حسناً لاستشعار بالأنفس من لبوس سيادته وتحلّيّ بالأنصع من عقود رياسته وإذا كانت رعيّته أجدر أن تهنّأ بولايته وتعرف قدر مالها من الحظ في نظره فأنا أعدل من هنائه إلى الدّعاء له بأن يبارك الله تعالى له فيما قلّده ويوفّقه فيما ولاّه ويسدّده ويلهمه ادّخار الثواب والأجر واكتناز الحمد والشكر والهداية إلى سنن الاستقامة وما عاد بمحبّة الخاصّة والعامّة وإنهاضه في خدمة أمير المؤمنين والعمل من طاعته بما يزلف في الدنيا والدين.

والله يستجيب في الحاجب الجليل هذا الدعاء ويسمعه ويتقبّله ويرفعه إن شاء الله تعالى.

الصنف الخامس التهنئة بولاية القضاء التهنئة بذلك من كلام الأقدمين: تهنئة من ذلك: من إنشاء عليّ بن خلف أوردها في " مواد البيان " وهي: أولى المنح أن يتفاوض شكرها والتحدّث بها ويتقارض حمدها والقيام بواجبها نعمةٌ شمل عطافها وعمّت ألطافها واشترك الناس فيها اشتراك العموم وحلّت منهم في النفع محلّ الغيث السّجوم.

وهذه صورة النعمة في ولاية قاضي القضاة - أطال الله بقاءه - لما تتضمّنه من إثبات العدل والإنصاف وانحسار الجور والإجحاف واعتلاء الحقّ وظهوره واختلاء الباطل وثبوره وعزّ المظلوم وإدالته وذلّ الظّلوم وإذالته وتمكين المضعوف واقتداره وانخزال العسوف واقتساره.

وإن هنّأته حرس الله علاه بموهبة أتى بارقها بجميل الثّناء وجزيل الجزاء قد ناء من تحمّلها بباهظ الشيء ومتعبه وقام من سئلها بكل الأدب ومنصبه عدلت عن الأمثل وضللت عن الطريقة المثلى لكنّي أهنّئه خصوصاً بالمواهب المختصّة به اختصاص أطواق الحمائم بأعناقها والمناقب المطيفة به إطافة كوكب السّماء بنطاقها في أن ألف الله القلوب المتباينة على الإقرار بفضله وجمع الأفئدة المتنافية على الاعتراف بقصور كلّ محلٍّ عن محلّه وجعل كلّ نعمةٍ تسبغ عليه ومنّ تسدى إليه موافقة الآمال والأماني مفضيةً للبشائر والتّهاني لأنّ من أحبّ الحقّ وآثره ولبس الصّدق واستشعره ينطق بلسان الإرادة والاختيار ومن تركهما وقلاهما وخلعهما وألقاهما ينطق بلسان الافتقار والاضطرار والخصائص التي هو فيها نسيج وحده ثم أعود فأهنّئه عموماً بالنّعم المشتركة الشّمول الفضفاضة الذّيول التي أقرّت القضاء في نصابه وأعادت الحكم إلى وطنه بعد نجعته واغترابه وأعلتهما في الرّتبة الفاضلة وقدعت بهما أنف الذّروة العالية.

وأرفع يدي إلى الله تعالى داعياً في إمداد قاضي القضاة بتوفيقٍ يسدّد مراميه ويرشد مساعيه ويهذّب آراءه ويصحّحها ويبلج أحكامه ويوضّحها ويخلّد عليه النعمة خلودها على الشاكرين ويبصّره بحسن العقبة في الدنيا والدّين وهو سبحانه يتقبّل ذلك ويرفعه إن شاء الله تعالى.

التهنئة بذلك من كلام أهل العصر تهنئةٌ من ذلك: أوردها الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ في كتابه " زهر الربيع في الترسّل البديع " وهي: أنفذ الله تعالى أحكامه وشكر إحسانه وإنعامه وخلّده ناصراً للشريعة المطهّرة وأدامه وجدّد سعده وأسعد أيامه وجعله المسترشد والمقتفي بأمر الله والرّاشد والمستنجد والمستنصر والناصر والعاضد والحاكم القائم بأمر الله من القضاة الثلاثة الواحد.

المملوك يقبّل اليد العالية تبرّكاً بتقبيلها وأداءً لواجب تعظيمها وتبجيلها ويهنّيء المولى بما خصّه الله تعالى من مضاعفة نفاذ كلمته ورفع منزلته وإمضاء أحكامه الشريفة وأقضيته وتقليده أمور الإسلام وتنفيذ أوامره في الخاصّ والعام ويهنّيء بالمولى من ردّت أموره إليه وعوّل في ملاحظة مصالحه عليه فإنّ مولانا مازال بالعلم والعمل مشهوراً وسعيه في الدنيا والآخرة سعياً مشكوراً ويقظة مولانا جديرةٌ بزيادة الاهتمام والاحتياط التامّ بملاحظة طلبة العلم و المشتغلين والفقهاء والمدرّسين وسبر أحوال النّوّاب وأن لا يكفيه الاعتماد على حسن البزّة وطهارة الأثواب بل يمعن في الاطّلاع على ما يعتمدونه النّظر ويلاحظ كلاً منهم إن غاب عن مجلسه أو حضر فمن رآه يهدي إلى الحق والطريق المستقيم ولا يقرب إلا بالتي هي أحسن مال اليتيم فيحقّق له من العناية أملاً ولا يضيع أجر من أحسن عملاً حرس الله المولى ومتّع حياته وأعاد على الكافّة بركة صيامه المقبول وصلاته ونفع الإسلام بمستجاب دعواته إن شاء الله تعالى.

الصنف السادس التهنئة بولاية الدعوة على مذهب الشّيعة وقد تقدّم في الكلام على ترتيب المملكة في الدّولة الفاطميّة بالديار المصرية ذكر موضوعها وعلوّ رتبتها عندهم وإنما ذكرناها حفظاً للأصل ولاحتمال وقوعها.

تهنئةٌ من ذلك: من إنشاء عليّ بن خلف أوردها في " موادّ البيان " وهي: أطال الله بقاء داعي الدّعاة لصباح من الرحمة يبلجه وطريقٍ من الحكمة يظهر بيانه وليلٍ من السّنّة ينزع طيلسانه وحرسه على الإيمان يجدّد ما أخلق من بروده وينظّم ما وهى من عقوده وعلى المؤمنين يفتح لهم أبواب الرّشاد ويهمي إليهم سماء الإفادة والإمداد ولا زالت الحقائق مقصودةً منه بالميزة التي رشّحته لحفظ مبانيها وأهّلته للعبارة عن معانيها حتّى يرقمها في الأخلاد ويمحو بها رسوم العناد وينشر بشرها في الآفاق والبلاد.

أنا أعدل عن هناء داعي الدّعاة - أطال الله بقاءه - بما عدق به من أمر الدّعوة الهاديّة العلويّة ونصب له من فرّ مضاحك المشكلات عن أسرار الحقائق الإلهيّة والترجمة عن غوامض الحكم الشّرعيّة والتوقيف على موارد الهدى ومشارعه والإرشاد إلى مشارق الحق ومطالعه إلى هناء الدّعوة وأهلها بما قيّضه الله تعالى لهم من محلّه الرفيع الذي ألحقه العقل نحو هذا الكمال ووطّأ له مدارج الترقّي والاتّصال فشقّت نفسه وشرفت وتطلّعت على عالم الملكوت وأشرفت وجنى بيد التّبصرة ثمار الحكمة واستنزل بمنزل الموادّ غيوث النّعمة وجرّد الضّياء من الظلام تجريد الأرواح من الأجسام إلى دار السلام واستمدّ بلطيفته موائد علوم عالم اللّطافة وأمدّ بمركّب ألفاظها تحاكم الكافة وحلّ في الغبراء محلّ الغرّاء في الخضراء إن أوضحت سبيل سائرٍ بجنب طريقٍ جائر توصّل بنزوعها غاشية إظلام حسر عن الحق قناع إبهام أو فعلت في الجواهر زيادة وثمرة أخذت تعادياً فأدلته للهمم العاملة شرفاً وسموّاً لما أعلى بذلك من قدرها وقدرهم وطيّب من ذكرها وذكرهم وأعطف إلى الدعاء لداعي الدّعاة بأن يجعل الله تعالى ما خوّله من هذه الرّياسة راهناً لا يرتجع وما نوّله من هذه السيادة مستقرّاً لا ينتزع وأن يؤيّده بالتوفيق ويعبّد له مناهج التحقيق ويطلق لسانه بالبيان ويمدّه بروح منه في نصرة الإيمان وقد حتم الله تعالى بإجابة داعيه ولا سيما داعي الدّعاة فإنه جدير بأن يجاب الدعاء فيه إن شاء الله تعالى.

قال في " موادّ البيان ": وإنما أوردت هذا المثال بهذه الألفاظ لأن ألفاظ هذا الدّاعي يجب أن تكون مشتقّة من ألفاظ الدعوة مناسبةً لمذهبها ولولا ذلك لأغنى عنه مثال تهنئة قاضي القضاة ومن تأملهما عرف ما بينهما من الفرقان.

أطال الله بقاءه - من السّؤدد الناطق الشّواهد -الصنف السابع التهنئة بالتقدمة على الرجال رقعةٌ من ذلك من حلّ محلّ سيدي المنتظم المعاقد المتضارع الطارف والتالد المنتقل في الولد عن الوالد والمجد الذي قصر عن مطاولته الطّراز الأوّل وتطأطأ له الإنعام المخوّل وحاز ما حازه من شرف الرّياسة وفضل السّياسة والاستقلال بحقوق ما تولاّه وتسديد ما نوّله واستكفاه فتشوّفت إليه أعالي الرّتب وتشوّقت إليه المنازل السنيّة من كثب خاطبته العلا سائقة عنه مهرها وتطامنت له موطّئةً ظهرها فلم يكثر له أن يتقدّم على أهل عصره فضلاً عن قبيلته ويتأمّر على جميع نوعه فضلاً عن طائفته لأنه المقدّم عليهم بالرّتبة والطّبع لا بالاصطلاح والوضع فشكر المملوك الله تعالى على بزوغ هلاله وإبراقه وطلوعه لميقات العز وتنافقه وسأله أن يجعل ما أقرّ العيون من سيادته وحقّق الظنون في سعادته خالداً راهناً ومقيماً قاطناً وأن يزيده في السعادة ويرقيه كلّ يوم في درج السيادة لتكون هذه الرتبة على امتناع مرقبها وارتفاع مركبها أوّل درجة تخطّاها ومنزلةٍ فرعها وعلاها ثم لا يزال راقياً فيما يتلوها حتّى يحتذي بكواكب الجوزاء ويطحو دارةً على الحلفاء مهنّأً غير منغّص ومزيّداً غير منقّص والله تعالى يجيب هذه الأدعية الواقعة مواقعها والمستحقّات الموضوعة مواضعها.

أطال الله بقاءه رافلاً في لبوس السّعادة -الصنف الثامن التهنئة بولاية الديوان رقعةٌ من ذلك وينهي أنّ من حلّ محلّ مولانا متحفّلاً بسلوس السّيادة متنقلاً في رتب المجد متوقلاً إلى غدن الجدّ مستولياً على شعاب العلا متمكّناً من رقاب الأعداء - في الاستقلال والاضطلاع والمعرفة بحقوق الاصطفاء والاصطناع ورفعة مذهبه على الكفاية والغناء والنهوض بثقيل الأعباء خطبته التصرّفات حاملةً عنه صداقها وتشوّقته الولايات مادّةً إليه أعناقها وقد اتصل بالمملوك ما جدّده الله تعالى من سعادته وأنجزه من مواعيد سيادته التي كانت واضحةً في مخايل فضله لائحةً في دلائل نبله مكتوبةً في صفحات الأقدار مرقومةً بسواد الليل على بياض النهار فجذل المملوك بذلك جذل الحميم المشارك وسرّ به سرور الخليط المشابك وليس ذلك لأنّ الذي تولاّه مولانا وجد فيه خللاً فرقعه وخمولاً فرفعه بل لأنّ الحقّ غالب الحظّ فغلبه والواجب سالب الممكن فسلبه وأناخ ركاب الرّياسة في المحلّة الخصب الذي يحمده ويرتضيه والله تعالى يتفضّل على رعيّته المتوطّنين بفاضل سياسته من حبائه ولطفه ورأفته وعطفه بما يسبغ عليهم ظلال العدل ويقلّص عنهم سدول الجور والحيف إن شاء الله تعالى.

قلت: وكتبت للمقرّ البدريّ محمودٍ الكلستاني الشهير بالسّراي مهنّئاً له باستقراره في كتابة السّرّ الشريف بالديار المصرية في الدولة الظاهرية برقوق في سلطنته الأولى " بسيط ".

رفعت للمجد مذ وليّت بنيانا وشدت للفضل بعد الوهن أركانا وأصبح الملك في زهوٍ ومالكه يميس عجباً وهنّا التّخت إيوانا قدمت مصراً فأمست منك في فرهٍ تهزّ بالبشر من لقياك أردانا وغودر النّيل مذ وافيت مبتهجاً وقد رمى الصّدّ والإبعاد جيحانا ألفاظك الغرّ صارت للورى مثلاً وكتبك الزّهر بعد اللثم تيجانا قد أفحمت في مجازاتٍ بلاغتها تركاً وروماً وبعد الفرس عربانا كلّ الموالي إذا ولّوا فلا أسفٌ إذ أنت باقٍ ويبقي الله مولانا مولىً به قد تشرّفنا وجمّلنا بوجهه ولذكر القوم أنسانا الصنف التاسع التهنئة بولاية عمل أبو الفرج الببّغاء عرّف الله سيدي بركة هذا العمل الجليل بنبيل نظره الجميل وحميد أثره المحروس وتناصر سياسته الشريفة بسمة رياسته ووفّق رعيّته لشكر ما وليها من فائض عدله ومحمود فعله فالأعمال منه - أيده الله تعالى - بالتهنئة أولى وبالتّطاول بما شملها من بركات تدبيره أحرى والله بكرمه يسمع فيه صالح الدعاء ويبلّغه أبلغ مدد البقاء في أسبغ نعمة وأرفع منزلة وأصدق أمنيّة وأنجح طلبة بمنّه.

وله في مثله: لولا ما يشرك التّهاني من بركات الدّعاء الذي أرجو أن يسمع الله فيك صالحه ويجيب أحسنه لأجللناك عن التّهنئة بمستجدّ الأعمال ومستحدث الولايات لقصورها عن استحقاقك وانحطاطها وإن جلّت عن أيسر واجباتك وتعجّلها بمأثور كفايتك وبركات نظرك ومواقع فهنأك الله نعمة الفضل التي الولاية أصغر آلاتها والرّياسة بعض صفاتها ولا أخلاك من موهبةٍ مجدّدة ومنحةٍ مؤبّدة.

وله في مثله: سيدي - أيده الله - أرفع قدراً وأنبه ذكراً وأعظم نبلاً وأشهر فضلاً من أن نهنّئه بولاية وإنّ جلّ خطرها وعظم قدرها لأنّ الواجب تهنئة الأعمال بفائض عدله الرّعيّة بمحمود فعله والأقاليم بآثار رياسته والولايات بسمات سياسته فعرّفه الله يمن ما تولاّه ورعاه في سائر ما استرعاه ولا أخلاه من التوفيق فيما يعانيه والتسديد فيما يبرمه ويمضيه.

الأجوبة عن التّهاني بالولايات قال في " مواد البيان ": هذه الكتب إذا وردت وجب على المجيب أن يستنبط من كل كتاب منها المعنى الذي يجيب به.

قال: والطريقة المستعملة فيها أنّ كتاب المجيب يجب أن يبنى على أن المهنّيء قسيمٌ في النّعمة المتجدّدة وشريكٌ في المنزلة المستحدثة وأن الحظّ الأوفر فيما ناله المهنّى للمهنّي وببركة دعائه وتوقعه لما يرد من حاجاته وتبعاته لينفذها نازلاً على أخلص مخالصته وعاملاً بشروط موّدته ونحو هذا مما يضارعه.

فإن كان المجيب رئيساً أو مرؤوساً وجب أن يرتّب الخطاب على ما تقتضيه رتبة كلّ واحد منهما.

وهذا مثالٌ من ذلك: زهر الربيع: وردت المشرّفة الكريمة أتمّ الله على مرسلها نعمته وأعلى قدره ومنزلته وجعل جناح العدى مخفوضاً وعيشه في دعةٍ وخفض وقدره للتميز مرفوعاً وعدوّه للتقصير في انحطاط وخفض فتلقاها باليمين وظنّها الريح الجنوب لما تحمّلته من رقّة الحنين وعلم ما أبداه فيها من تفضّلاته واعترف بالتقصير عن مجاراته ومجازاته فشنّف سمعه بألفاظٍ كأنّهنّ اللؤلؤ والمرجان وبيّنت البون الذي بينه وبين غيره تلك الفصاحة والبيان وقابل أياديه بشكر لسانه وجازاه بحسن الدّعاء عن إحسانه ولا يقوم بشكر فضله اللسان ولا الجثمان وهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان فأمّا ما أشار إليه من الهناء بالمكان الذي تولاّه وأبداه من المحبّة التي أوجبت عليه أن يتوالاه فالله تعالى يعينه على ما هو بصدده ويجعل الحقّ والخير جاريين على لسانه ويده ويرزقه اتباع محكم كتابه وسنّة رسوله ويحصّل له من الرّشد غاية سوله ومأموله فإن هذه الولاية صعبة المراس وجوادها كثير الشّماس لكن ببركات المولى يحصل من الله الأرب ويسهل لأوليائه القصد والإسعاد والطّلب أدام الله ظلّ المولى وأسعده وأوضح لديه طريق السعادة ومهّده ومنحه من الألطاف الخفيّة أفضل ما عوّده بمنّه وكرمه.

الضرب الثاني التهنئة بكرامة السلطان وأجوبتها وفيه ثلاثة أصناف الصنف الأول التهنئة بالإنعام والمزيد ولبس الخلع وغير ذلك من كلام الأقدمين وينهي أنه اتّصل بالمملوك ما أهّل مولانا السلطان مولانا له: من المحلّ السّنيّ والمكان العليّ الذي لم يزل موقوفاً عليه متشوّفاً إليه نافراً عن كلّ خاطبٍ سواه جامحاً على كلّ راكبٍ إلاّ إيّاه فأقرّ الله عين المملوك بذلك لصدق ظنه وعلم أنّ ما أصاره الله تعالى إليه من هذه المنزلة المنيفة والرّتبة الشريفة مدرجةٌ تفضي إلى مدارج ومعرجة تنتهي إلى معارج والله تعالى يزيد معاليه علوّاً ويضاعف محلّه سموّاً بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى.

ومنه: وينهي أنه اتّصل بالمملوك نبأ الموهبة المتجدّدة لديه والنعمة المسبغة عليه وما اختصّه به مولانا السلطان من الاصطفاء والإيثار والاجتباء والاختيار وتقديمه للرّتبة الأثيرة والإنافة إلى المنزلة الخطيرة فسرّ المملوك للرّياسة إذ أحلّها الله تعالى في محلّها وأنزلها على أهلها ووصلها بكفئها وكافيها وسلّم قوسها إلى راميها والله تعالى يجعل هذه الرتبة أوّل مرقاة من مراقي الآمال ومكين الرّتب التي يفرعها من رتب الجلال إن شاء الله تعالى.

من كلام المتأخرين الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي أدام الله أنصاره وجعل التّقوى شعاره وألبسه من المحامد أكرم حلّه ونوّله من المكارم أحمد خلّة ولا زالت الخلع تتشرّف إذا أفيضت عليه والمدائح تستطاب بذكره لا سيّما إذا أنشدت بين يديه.

الخادم ينهي إلى علم المولى أنه اتّصل به خبرٌ أهدى إليه سروراً ومنحه بهجةً وحبوراً وهو ما أنعم به المولى السلطان خلّد الله سلطانه وضاعف إحسانه من تشريفه بخلعته وما أسبغه عليه من وارف ظلّه ووافر نعمته وأبداه من عنايته بالمولى ومحبّته وقد حصل له من المسرّة ما أجذله وبسط في مضاعفة سعد المولى أمله فإنه بلغه أنّ هذه الخلعة كالرّياض في نضارتها وحسن بهجتها وأنها كلّما برقت برق لها البصر وظنّها لحسنها حديقةً وقد حدّق إليها النظر وقد جمعت ألوان الأزهار وأربى ناسجها في اللّطف على نسمة الأسحار وأسكنت حبّها حبّات القلوب التي في الصّدور وسمت عن المدح برائق المنظوم وفائق المنثور وأن ابن سليمان لو رآها لاعترف بأنّ في لبسها لكلّ فتىً شرفاً لا ريب فيه ونسب البيت المنسوب إليه إلى أعاديه وأنّه لو نظر نضرة نضارها لما جعل لها في الحسن نظيراً ولو ألقاها على وجهه لارتدّ لوقته بصيراً فلذلك أصدر هذه الخدمة مهنّية ومعربةٍ عما حصل له من الفرح ومنبّية ولجيد مدحه العاطل من مثل هذه الألفاظ محلّية نوّله الله في كلّ يوم مسرّةً وبشرى وأجرى له على الألسن حمداً وشكراً وجعله لكلّ خيرٍ أهلاً وشكر له تفضّلاً شاملاً وفضلاً ومتّعه من العافية بلباسٍ لا يبلى إن شاء الله تعالى.

الصنف الثاني التهنئة برضى السلطان بعد غضبه فمن ذلك: وتنهي أنه اتصل بي ما جدّده الله تعالى لمولاي - أطال الله بقاءه - من حسن عاطفة مولانا أمير المؤمنين - خلّد الله ملكه - وانعطافه عليه بعد انصرافه وإعادته إلى رتبته التي نشزت عنه دلالاً لا ملالاً وهجرته هجر المستصلح المستعتب لا هجر القالي المتجنّب وكيف تقلاه وهي لا تجد لها كفؤاً سواه ولتوقع المملوك بما وقع من هذه الحال وعلمه أنّ عودها إليه كعودة المودع إلى مودعه لا عودة المنتجع إلى مربعه وأنّ الذي وقع من الانحراف إصلاح باديه تهذيبٌ وتقويم وخافيه توقيرٌ وتعظيم لما في عتاب أمير المؤمنين من شرف الرّتبة والدّلالة على استقرار الأثرة والقربة وحلوله محلّ الصّقال من أبيض النّصال والثّقاف من العسّال ولا سيّما ورياسته محفوظة وسيادته ملحوظة وهيبته في النّفوس ماثلة وجلالته في القلوب حاصلة ولم يرى المملوك أجلّ موهبةً من الله سبحانه من شكر يسترهن هذه النعمة ويخلّدها وحمدٍ يرتبطها ويقيّدها ورغبت إلى الله سبحانه أن يجعل هذا العزّ الحادث لابثاً لا يتحوّل والسعد الطارف ماكثاً لا يتنقل إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك: وينهي أنّ من عادة الزمان أن يكف سحابه ثم يكفّ ويرفّ نباته ثم يجفّ ويدرّ حلبه ثم ينقطع ويقبل خيره ثم يرتجع إلا أنّه إذا سلب النعمة ممن يستوجب إمرارها عليه وانتزع الموهبة ممن يستحقّ استمرارها لديه كان كالغالط الذي يراجع نفسه فيندم على ما فرط ولا يلبث أن يستدرك الغلط معقباً نبوته بإنابته متعقّباً هفوته باستقالته ماحياً إساءته برأب ما ثلم وأسو ما كلم وإصلاح ما أفسد وتأليف ما شرّد.

فلا جرم أنّ النفوس بإقباله على من هذه صفته واثقة والآمال لانصرافه إلى من هذه صورته متحقّقة وإذا سلبها هرول في إيداعها لديه وأخذ في إفاضتها عليه.

وما زال المملوك - مذ عامل الزمان مولانا بسوء أدبه ونأى عنه بجانبه وقبض بنانه وغيّر عليه سلطانه - عارفاً أنّ هذه الفعلة فلتةٌ من فلتاته التي يتوقى شرّها ولا يرجع إلى مثلها وأنّ الاستبصار يقوده إلى الاعتذار والاضطرار يحدوه على ردّ ما انتزعه بالإجبار لأنه لا يجد من يحلّ محلّ مولانا في ارتباطه بإيناسه وتعهّده بسقي أغراسه وقيامه بشكره وتزكيته ببرّه متوقعاً لأن تتيقّظ عينه وينكشف رينه فيرى ما صنعت يداه ويبادر لاستقالة ما جناه حتّى طرق البشير بما سهّله الله تعالى من انحسار الكربة وعود مولانا إلى شرف الرّتبة وصلاح ما فسد وعود السلطان أعزّ الله نصره إلى ما عهد وركوبه إلى حضرته وانقلابه عنه رافلاً في تشريفه ومكرمته فكان معتقد المملوك فيه هلالاً في السّرار فأهلّ وجنيناً في الحشا فاستهلّ فاستولى على المملوك من السّرور ما عمّ جوارحه وعمر جوانحه وأطار بجناح المرح وألبس حلّة الفرح إذ ما جدّده الله تعالى له من السعادة يحلّ به في العموم محلّ الغيث السّجوم لأنّه حرس الله عزّه لا يستأثر بعوارف الله عنده ولا يكزّ على عطاياه يده بل يمنح مما

منح ويولي مما تولى ولايضنّ بمالٍ ولاجاهٍ ولا يقعد عمن أمّله ورجاه والله تعالى يجعل ذلك مما أقرّ به العيون وصدّق فيه الظنون لا تخلقه الأيام ولا تبليه ولا تزويه الحوادث ولا تؤثر فيه إن شاء الله تعالى.

الشيخ شهاب الدين الحلبي جدّد الله سعده وضاعف جدّه وأنجح قصده وأعذب منهله وورده ولا انفكّت الأيام زاهية ببقائه والأنفس مسرورةً بارتقائه إلى رتب عليائه.

أصدرها تفصح عن شوقٍ يعجز عن سوقه الجنان ويقصر عن طوله اللسان وسرورٍ تزايد حتّى أبكاه ولاعج بمشاهدة طلعته السعيدة أغراه وتهنّيه بما جدّد الله له بعد الاعتقال من الفرج والفرح ومنّ به بعد ضيق الخواطر من الابتهاج والمرح فهذه المسرّة ماءٌ زلالٌ برد بها الأوام وإنعامٌ عامّ حمد الله عليها الخاصّ والعامّ فالحمد لله الذي عوّضه عن مأتم الحزن بما تمّ من السرورّ وعن الهمّ المانع عن الورود والصّدور بانشراح الصّدور فإنّ القلوب شعفها حبّه وشغفها وضاعف لتعويقه أساها وأسفها بحيث اعترى المناطق قلقٌ وعلاها اصفرار وعطّلت يد كل غانية من الحليّ فما ضمّها قلبٌ ولا سوار ولبس الخطباء حزناً وألبسته المحابر وكادت لغيبته وفقد اسمه تندبه الجوامع وتبكيه المنابر خلّد الله سعادته وسهّل له من خيري الدنيا والآخرة قصده وإرادته بمنّه وكرمه.

الأجوبة عن التهنئة بكرامة السلطان ورضاه بعد غضبه قال في " موادّ البيان ": يجب أن تكون أجوبة هذه الرّقاع مودعةً من الثناء على المهنّي - لمحافظته على رسوم الموّدة وقيامه بشروط الخلّة - ما تقتضيه رتبته ورتبة المجيب وأنه مشاركٌ في مجدّد النعمة مفوضّ في حديث المسرّة والتيّمن بالدعاء ونحو هذا مما يحسن موقعه عند المبتديء بالهناء ويضعه بحيث وضع نفسه من الاختصاص بمن كاتبه.

وهذا مثالٌ من ذلك زهر الربيع جواب هناء بخلعة أدام الله علاءه وشكر آلاءه وضاعف ثناءه وحمد مننه التي أثقلت لكلّ معتفٍ ظهراً وخفّفت همّاً وأنالت لكلّ وليٍّ نصيباً من عوارفها وقسماً.

المملوك ينهي إلى العلم الكريم ورود المكتبة التي كستها يده حلّة جمال وألبستها ثوب إفضال وأعدّتها بكرمها وحسّنت وجهها بلسان قلمها فأمطرته سحاب جودٍ أربى على السّحاب وأوقفته منها على ألفاظٍ كأمثال اللّؤلؤ المكنون فاجتنى ثمار الفضائل من أغصانها واجتلى عروس محاسنها وإحسانها وفهم ما أشار إليه من التهنئة بالخلعة التي أنعم المولى بها على خادمه وتصدّق وحقّق الأمل في مكارمه وصدّق وإنعامه خلّد الله دولته وأعزّ نصرته قد كثر حتّى أخجله وميّزه على كثيرٍ من مماليك بيته العالي وفضّله وأناله من المنزلة ما سما بها على أمثاله ورقي بها بعد رقّة حاله فالله يخلّد سلطانه ويثبّت بالسعادة أركانه وهذا بسعادة مولانا ومساعدته ومعاونته ومعاضدته فإنه كان السبب في الاتصال ببابه أوّلاً وآخراً وممّن أغاثه بذلك وأعانه عليه باطناً وظاهراً.

" بسيط " وكلّ خيرٍ توخّاني الزّمان به فأنت باعثه لي أو مسببه الضرب الثالث من التهاني التهنئة بالعود من الحجّ وهذه نسخٌ من ذلك ينسج على منوالها فمن ذلك: وينهي أنه طرق المملوك البشير بعود مولانا - أطال الله بقاءه - من مقام الطائفين إلى مقام المعتفين وأوبته من كعبة الإحرام إلى كعبة الإكرام وتنقّله من موقف الحجّاج إلى موقف المحتاج وحلوله بمنزله الذي هو قبلة ذوي الآمال ومحطّ الرّحال بالسّعي المشكور والحجّ المبرور والنّسك المقبول والأجر المكتوب فحمدت الله تعالى على موهبته وسألته زيادة من مكرمته واستنجحت هذه المكاتبة أمام ما أرومه من مشاهدته وأرجوه من الاستسعاد بملاحظته وبرد أوار الشوق بمحاضرته ومجدّداً عهود التيّمن بمباسمته فإن اقتضى رأيه العالي أن يعرّف المملوك جملةً من خبره في بدئه وعوده ومنقلبه ومتوجّهه وما تفضّل الله تعالى به من أمان سبيله وهداية دليله وتخفيف وعثاء سفره وتسهيل وطره لأسكن إلى ذلك إلى حين التمثّل بنظره فله الفضل في ذلك والله تعالى يبلّغه سوله ويوصّله مراده ومأموله بمنّه وكرمه.

ومن ذلك: وينهي أنّ مولانا لا يزال حاجّاً إلى كعبة الحرم أو كعبة الكرم وطائفاً بشعائر الوفود أو بشعائر الجود وواقفاً بموقف الاستفتاح أو موقف السّماح وناحر البدن بمنى أو ناثر البدر للمنى فلا يرتفع في حالٍ من الأحوال برّه ولا ينقطع عن الله تعالى ذكره ومن كان بهذه المثابة في إحراز الأجر والإنابة فهو حقيقٌ أن تعمر بالتهنئة أوقاته وأزمانه كما عمرها سعيه وإحسانه وقد عرف المملوك انكفاءه - أدام الله علوّه - عن مقام الطائفين والعاكفين إلى مقام القاصدين والمعتفين وعوده إلى منزله المعمور بعد قضائه فريضة السّعي المشكور فعدلت في مخاطبته عن الهناء إلى الدعاء بأن يتقبّل الله تعالى نسكه وثقّل ميزانه ويطلق في حلبة الخيرات عنانه ويحييه لأجر يحرزه وثواب يكنزه والله تعالى يجيب ذلك فيه ويريه في نفسه وأحبّته ما يرتضيه.

ومن ذلك: وتنهي أنّه قد طرقني البشير بانكفاء مولانا إلى مقرّ علائه وانفصاله عن ملاذ النّسّاك والعبّاد إلى معاذ الزّوّار والقصّاد فعرفت أنّ ذلك النسيم العليل من تلقائه وذلك النّور الصادع من آلائه وذلك الافترار من أسرّته ومخايله وتلك العذوبة من شيمه وشمائله فكاد المملوك يطير - لو طار قلبي غير ذي مطار - فرحا وأخرق الأرض وأبلغ الجبال لو أمكن ذلك مرحا وانفتح قلبي حتّى كادت مهجته تفيض سروراً وطاش حلمي حتّى تفرّق مجموعه بهجةً وحبورا والله تعالى يجعل نعمه موصولة الحبل مجموعة الشّمل بمنّه وكرمه.

أبو الفرج الببّغاء: جعل الله سعيك مشكوراً وحجّك مبروراً ونسكك مقبولاً وأجرك مكتوباً وأجزل من المثوبة جزاءك ومن عاجل الأجر وآجله عطاءك وقرن بالطاعات عزماتك وبالسعي إلى الخير نهضاتك ووّفقك من صالح الأعمال وزكيّ الأفعال لما يجمع كلّ خير الدارين.

ولمّا طرقتني البشارة بقدومك بدأت بإهداء الدعاء وتجديد الشكر لله تعالى والثّناء واستنبت في ذلك المكاتبة أمام ما أنا عازم عليه من المشافهة والمخاطبة.

ولن أتأخّر عن حظّي من المسير إليك للتيمّن بالنظر إلى غرّتك ومداواة ما عانيته من ألم الشوق بمشاهدتك.

الضرب الرابع من التهاني التهنئة بالقدوم من السفر عليّ بن خلف وينهي أنّه اتّصل بالمملوك خبر توجّهه إلى الناحية الفلانية فعرف المملوك أنه قصدها ليخصّ قاطنيها بنصيبٍ من مواهبه ويفيض على ساكنيها سجالاً من رغائبه ويسوّي بينهم وبين من راشه بحبائه وجبره بنوافله وآلائه فسألت الله تعالى أن يطيل عمر المكارم بإطالة بقائه ويجمع شمل السّؤدد بدوام علائه ثم اتّصل بي عوده إلى مقرّه خفيف الحقائب من وفره ثقيلها من ثنائه وشكره فحمد المملوك الله تعالى على إسفار سفره عن بلوغ الأوطار وانحسار أمنيّته عن أذيال المسارّ وما خصّه به من السّير الشّحيح والسّعي النّجيح والسّلامة المفرّقة على الوجهة والمنقلب والمفتتح والمعتقب ولمّا عرض للمملوك ما قطعه عن مشافهته بالدعاء رفع يده إلى الله تعالى ضارعاً لديه في أن يتولاّه في هذا المقدم الميمون بالسعد المضمون وإنالة الأمانيّ المقرّة للعيون وأن يمنحه في الحلّ والتّرحال والقطن والانتقال توفيقاً يقارن ويصاحب ويساير ويواكب وأن يجعل ما خوّله من نعمه راهناً خالداً وما أولاه من مواهبه بادئاً عائداً إن شاء الله تعالى.

وله أيضاً: وينهي أنه طلع عليه البشير طلوع القمر المنير مؤذناً بمقدم حضرته ومعلماً بظهور طلعته وحلوله في معانه الذي هو معان الإقبال وعون الرجال وقرارة الأقيال ومحطّ الرّحال وقبلة الجود ومعرّس الوفود فسألت الله تعالى أن يبقيه جمالاً للأيّام وثمالاً للأنام وعماداً للقصّاد ومراداً للرّوّاد والله تعالى لا يخليه في تصرّفاته وجميع حركاته وسكناته من سعي سعيد وعيشٍ رغيد بمنّه وكرمه.

أبو الفرج الببّغاء: من كانت غيبة المكارم مقرونةً بغيبته وأوبة النّعم موصولةً بأوبته سافرت الأنفس حيث كانت إليه وقدمت الآمال عند قدومه عليه وما زالت الأنفس إلى الأمنيّة بقربه متطلّعة ولورود السّرور بوروده متوقّعة إلى أن أنست بعد الوحشة بلقائه وتنسّمت أرج منّه ونعمائه فوصل الله قدومه من الكرامة بأضعاف ما قرن به مسيره من السّلامة محروساً من طوارق الغير مبلّغاً أبعد العمر.

وله في مثله: من كانت مادّة سروره بمغيبه وحضوره لم يجد مع بعدك مؤنساً يسكن إليه ولا عوضاً يعوّل في السّلوة عليه وما زلت أيام غيبتك - لا أوحش الله منك - بالوحدة مستأنساً وبالشّوق إليك مجالساً ألاقيك بالفكر وأشاهدك باتّصال الذّكر إلى أن منّ الله من أوبتك بما عظمت به النعمة وجلّت لديّ معه الموهبة فوصل الله بالسلامة نهضاتك وبالسعادة حركاتك وبالتوفيق آراءك وعزماتك وحرسني ببقائك وبقاء النعمة عندك وهنأني النعمة الجليلة بقربك.

وله في مثله: من كنت نهاية أمنيّته وقطب مسرّته كان من نفسه مستوحشاً مع بعدك وبدهره مستأنساً مع قربك وما زلت معك بالنيّة مسافراً وبالشّوق سائراً وبالفكر ملاقياً وبالأمانيّ مناجياً إلى أن جمع الله شمل سروري بأوبتك وسكّن نافر قلقي بعودتك على الحال السارّة من كمال السّلامة ووفور الكلفة فأسعدك الله بمقدمك سعادةً تكون بها من الزمان محروساً وللإقبال مقابلاً وبالأمانيّ ظافراً ولا أوحش الله منك أوطان الفضل وعضّد إخوانك ببقائك وبقاء النعمة عندك.

وله في مثله: لو كان القلب يجد عنك منصرفاً أو يرى منك في اكتساب المسرّة خلفاً لاستراح إليه من ألم بعدك واستنجده على مرار فراقك لكنّك - أيّدك الله - جملة مسرّته ونهاية أمنيّته فليس تتوجّه أمانيّه إلاّ إليك ولا تقف آماله إلاّ عليك فالحمد لله الذي أقرّ بفيئتك أعين إخوانك وأودّائك وافاك الله من السّعادة في أوبتك أضعاف ما اكتنفك من الكفاية في ظعنك.

سرّ الله مولاي ورئيسي وربّ تشريفي وأنيسي بلقاء الأحباب واتّصال الأسباب وأوبة الغيّاب ولا زالت الأيام تتصنّع لإقباله وتقبّله أوجه العزّ في اقتباله وتوفيه على رغم الحاسد حقّ جلاله.

أدام الله اعتزازه - بمقدم الوزير فلان قد أوضعت ركابها واتّصل بالنفوس أعلاقها وأسبابها فهنيئاً معشر الأولياء -البشرى بسبوغ هذه النعمة الجليلة والمنحة الجزيلة ولا أستوفي شكر ما به أتى معظّم قدره وملتزم برّه من ثناءٍ كعرف الطيب يهدى ومذهب في الإنهاض لا يقضى واجبه ولا يؤدّى ولا زالت حياة مولاي تفدّى وأفعال برّه تتعدّى وقد لثمت مواقع أنامله ودّاً ووردت من محاسن بيانه منهلاً عذباً ووروداً فأمتعني الله بحياته العزيزة الأيّام الطيّبة الإلمام الموصلة العهد والذّمام وأقرأ على سيدي من سلامي ما يلثم يده ويقضي حقّ اليراع الذي أنشأ به البر وولّده والسلام المعاد عليه وعلى جملته ورحمة الله وبركاته.

الشيخ جمال الدين بن نباتة عن نائب الشام إلى القاضي علاء الدين بن فضل الله كاتب السرّ الشريف بالأبواب الشريفة بالديار المصرية عند عوده من الكرك إلى الديار المصرية في سنة ثلاثٍ وأربعين وسبعمائة مهنّئاً له بالعودة إلى منزله بالديار المصرية واستقراره وعوده إلى كتابة السرّ الشريف بالأبواب الشريفة السلطانية وهي: تقبّل الباسطة الشريفة - إلى آخر الألقاب - لا زالت خناصر الحمد على فضل بنانها معقودة ومآثر البأس لها ومنها شاهدةً ومشهودة وبواتر السّيوف مسيّرة القصد إلى مناظرة أقلامها المقصودة تقبيلاً يودّ لو شافه بشفاهه مورد الجود من الأنامل وكاثر بثغره عند المثول للتقبيل ثغور الأماثل فكان يشافه بشوقه مورداً كثير الزّحام وكان يكاثر بعقد قبله على يد الفضل عقوداً جزيلة الانتظام وكان يحاكم جور الضّيم إلى من أبى الله لجار مشاهدته أن يضام وينهي ما وصل إليه وإلى الأولياء من السّرور وما رفع بينهم وبين الابتهاج من الشّرور وما طولع في أخبار المسرّة من السّطور بوصول مولانا ونم معه إلى مساكن العزّ ساكنين ودخولهم كدخول يوسف عليه السلام ومن معه إلى مصر آمنين واستقراره في أشرف مكانٍ ومكانة واستنصار مصر بأقلامه على العادة فإنّ هذه سهامٌ وهذه كنانة وإسفار غمام السّفرة عن كوكب علاً طالما حرس بيمينه أفق الملك وهداه وزانه وما كانت إلا غيبةً أحمد الله عقباها وغيابة بعدٍ من الله عزّ وجلّ وجلاها وفترةً ثنى فترتها فتنفّس خناق المنصب المشتاق لوجهه الكريم وهجرةً صرف الله هجيرها فسقى طرس الإنشاء الذي ابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم وما محاسن مولانا إلاّ زينةٌ من زين الدنيا فعليها يتشاكس المتشاكسون وما مزاج كلماته إلاّ من تسنيم " وفي ذلك فليتنافس المتنافسون " فالحمد لله على أن أقرّ به العيون بمعاودة ظلّه الوريف وعلى أن شفى الصّدور بقربه وأوّلها وأولاها صدر السرّ الشريف وعلى أن أجزل الهناء وقد شمل ظلّه وقد كمل بابن الفضل فضله وقد بهر سناؤه وسناه وقد تسعّب القريب والبعيد فإن أجدى على مصر مورده فقد جادت على الشام سماه وقد أخذ المملوك حظّه من هذه البشرى ووالى السّجود لله شكراً وجهّز خدمته هذه نائبةً عنه في تقبيل بنان إن سمّاه مولى الكرم بحراً فقد سمّاه مربّي الملك برّاً لا زالت الممالك متحفة بيمن مولانا ظاعناً ومقيماً متّصفةً بحمده وحمد سلفه الكريم حديثاً وقديماً تاليةً على مهمّات الملك بصحبة بيته الشريف " وكان فضل الله عليك عظيماً ".

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في تهنئة بقدوم من سفر: أدام الله ظلّه ورفع محلّه وشكر إنعامه وفضله وأعزّ أنصاره وضاعف اقتداره ولا زال مؤيّداً في حركاته مسدّداً في سائر فعلاته مصحوباً بالسلامة في المهامه والقفار مخصوصاً من الله تعالى بالأعوان والأنصار.

المملوك ينهي بعد تقبيل الأرض والقيام بما يجب من سننه والفرض علمه بحلول ركابه العالي بمغناه واستقرار خاطره الشريف في محلّه ومثواه وجمع الشّمل بالأهل بعد طول الغيبة وبعد القفول والأوبة فتضاعف لذلك فرحه وسروره وزال عن قلبه قليل الهمّ وكثيره فالله يمنح المولى أطيب المنازل وأسرّ الرّواحل ويجعل تجارة مجده رابحة وأوامر دوام عزّه لائحة حتّى تنشد نفسه الكريمة قول أبي الطيّب " كامل ".

أنا من جميع الناس أطيب منزلاً وأسرّ راحلةً وأربح متجراً لا زالت الأعين قريرةً برؤيته وقلوب الإخوان قارّةً بمشاهدته والأوجه وسيمة والنّعم الظاعنة مقيمة إن شاء الله تعالى.

أجوبة التهنئة بالقدوم من السفر قال في " موادّ البيان ": أجوبة هذه الرّقاع ينبغي أن تبنى على الاعتراف للمهنّيء بحقّ تعهّده وكرم تفقّده وإطلاعه على الحال في السّفر وما أفضت إليه من السلامة والتأسّف على ما تقضّى من الأيام في مباعدته والتخلّف عن مباسمته وأنه لم يزل يذّرع الإدلاج ويقطع الفجاج رغبةً في القدوم إليه والوفادة عليه وبلّ الغلّة برؤيته وترويح النفس بمحاضرته وما يليق بهذا النّمط من الكلام.

الضرب الخامس من التهاني التهنئة بالشهور والمواسم والأعياد وهي على ثمانية أصناف من كلام المتقدمين تهنئة من ذلك: من إنشاء أبي مسلم محمد بن بحر: أسعد الله سيّدي بعامه والفضل منه وما حوى من الأعياد والأيّام الخطيرة وسائر شهوره وأيّامه ومتصرّف أحواله وبما يأتي ويكرّ عليه من زمانه سعادةً تسوق إليه حظوظ الدّين والدنيا كاملة وتجمع له فوائد الأمدين تامّة وافية وترتهن إليه النّعم فلا تزال لديه زائدةً نامية وبلّغه بها الأمل ومدّ له في البقاء إلى أنفس المهل.

ولأبي الحسين بن سعد: عظّم الله على مولاي بركة الشهر والسنة المتجدّدين ووهب له فيهما وفيما يتلوهما من أيام عمره وأزمان دهره سعادةً تجمع له أشتات الحظوظ وتصل لديه موادّ المزيد وتيسّر له بلوغ الأمل في كلّ ما يطالع وينازع والأمن من كلّ ما يراقب ويحاذر.

وله في مثله: عظّم الله على سيّدي بركة الشهر والسنة وأعاشه لأمثالهما مدّة اختلاف الجديدين وتجاور الفرقدين ممتّعاً بالنّعم السابغة والمواهب المترادفة والسّعادة والغبطة والعزّ والمسرّة.

وله في معناه: جدّد الله لسيّدي في الأيّام الحاضرة والمستقبلة والأحوال الراهنة والمتنقّلة حظوظاً من السّعادات وأقساماً من الخيرات لا يحصى عددها ولا ينقضي مددها.

وله في مثله: عظّم الله على مولاي بركة الشهر والسنة المتجدّدين عليه وعرّفه فيهما وفي الأيّام بعدهما من حادث صنعه ولطيف كفايته ما تدوم فيه السعادة وتعظم به المنّة وتحسن فيه العاقبة.

وله في مثله: عظّم الله على مولاي بركة هذا الشهر الماضي من أيّامه وباقيها وهذه السنة وجعلها أيمن سنةٍ حالت عليه وأسعدها.

ومنه: وينهي أنّ المملوك يهنّيء غرّة الأيّام بغرّة الأنام وصدر العام بصدر الكرام بل يهنّيء الزمن كلّه نعم وأهله بالحضرة التي واست المعالي.

الصنف الثاني: التهنئة بشهر رمضان.

من كلام المتقدمين: لأبي الحسين بن سعد: جمع الله لمولاي في هذا الشهر الشريف شروط آماله وأحكام أماليه في حاضر أمره وعاقبته وله في مثله: عرّف الله سيدي بركة هذا الشهر الشريف وأعاشه لأمثاله ما كرّ الجديدان واختلف العصران ممتّعاً بسوابغ النّعم محروساً من حوادث الغير وموفّقاً في شهره وأزمان دهره لأزكى الأعمال وأرضى الأحوال ومقبولاً منه ما يؤدّيه من فرضه ويتنفّل به قربة إلى ربّه.

وله في مثله: عرّفه الله بركة إهلاله أبقاه طويلاً لأمثاله موفّقاً فيه من عمل الخير ومراعاة الحقّ وتأدية الفرض والتنفّل بالبرّ لما يرضيه ويستحق جزيل المثوبة عليه ممتّعاً بعده بسنيّ المواهب وجسيم الفوائد مع اتصال مدّة العمر واجتماع أمنيّات الأمل.

وله في مثله: عرّف الله مولانا بركة هذا الشهر الشريف وأيّامه وأعانك على صيامه وقيامه ووصل لك ما يزيد من فضله وإنعامه وتابع لك المزيد من منائحه وأنعامه وختم لك بالسعادة العظمى بعد الانتقال في الجاه والرياسة إلى أبعد المدى في العزّ والثّروة إلى أقصى المنى.

أبو الفرج الببغاء: جعل الله ما أظلّه من هذا الصيام مقروناً بأفضل قبول مؤذناً بإدراك البغية ونجح المأمول ووفّقه فيه وفي سائر أيّامه ومستأنف شهوره وأعوامه لأشرف الأعمال وأفضلها وأزكى الأفعال وأكملها ولا أخلاه من برٍّ مرفوع ودعاءٍ مسموع وسعيٍ مشكور وأمرٍ مبرور إلى أن يقطع في أجمل غبطةٍ وأتمّ مسرّةٍ أمثاله.

وله في مثله: عرّفك الله بركة هذا الشهر المعظّم قدره المشرّف ذكره ووفّقك فيه لصالح الأعمال وزكيّ الأفعال وقابل بالقبول صيامك وبتعظيم المثوبة تهجّدك وقيامك ولا أخلاك في سائر ما يتبعه من الشّهور ويليه من الأزمنة والدّهور من أجرٍ تذخره وأثرٍ تشكره.

قلت: ومما كتبت به تهنئة بالصوم للمقرّ الأشرف الناصريّ محمد بن البارزيّ كاتب السرّ الشريف المؤيّديّ بالممالك الإسلامية في سنة ستّ عشرة وثمانمائة نظماً " طويل " أيا كاتب السّرّ الشّريف ومن به تميس نواحي مصر تيهاً مع الشّام ومن جلت الجلّى كتائب كتبه ومن ناب عن وقع السّيوف بأقلام تهنّ بهذا الصّوم والعيد بعده ومن بعده بالعيد والعام فالعام وترقى رقيّ الشّمس في أوج سعدها وتبقى بقاء الدّهر في فيض إنعام عظّم الله بركة إهلاله وأعاشه لأمثاله أطول المدّة ممتّعاً بأدوم النعمة ومشفّعاً بأفضل الأمل والأمنيّة.

وله: أسعد الله سيّدي بانصرامه وإهلال ما بعده وأبقاه ما بقي الزمان ممتّعاً بالعزّ والنّعمة محروساً من الآفات المخوفة والحوادث المحذورة وله: عظّم الله على سيّدي بركة الماضي والمستقبل من الأيّام والشّهور والأعوام والدّهور ووصل لي السعادة باتّصالها وجدّد لي النّعمة بتجدّدها.

وله: عظّم الله بركة انسلاخه وإهلال ما يتلوه مجدّداً لك بتجدّده فوائد الخيرات وأقسام البركات تدوم فيها المدّة وتطول بها النّعمة.

وله: أسعدك الله بإهلاله وأعاشك أبداً لأمثاله ممتّعاً بدوام العزّ والنّعمة واجتماع أسباب الرّخاء وشروط المحبة إنّه جوادٌ كريم.

وله: عظّم الله على مولاي بركات هذا الشهر وما يتلوه وبلّغه ما يحاوله وينحوه في مستأنف الشّهور ومؤتنف الدّهور مضاعفاً له العزّ والتأييد وموصولاً له أصل النّعمة بحسن المزيد.

وله: عظّم الله على مولاي بركة الشّهر وأدام له سلامة الدّهر موفوراً من العزّ والسلطان غير مذعور بنوائب الزّمان.

وله: عظّم الله على سيدي بركة الأيّام والشّهور والسّنين والأحقاب وجمع له المواهب كاملة والفوائد فاضلة ديناً ودنيا وحاضرةً وعقبى.

وله: عظّم الله عليك بركته وعرّفك يمنه وسعادته وجدّد لك الخيرات تجديد الأوقات والسّاعات حتّى تحوز منها أسنى الحظوظ وتبلغ ما تتمنّاه أقصى الغايات.

الصنف الرابع: التهنئة بعيد الفطر

من كلام المتقدمين: لأبي الحسين بن سعد: عظّم الله على سيدي بركة هذا العيد وأعاشه لأمثاله من الأعياد المشهودة والأيّام الجديدة في أهنأ عيشٍ وأرغده وأطول مدىً وأبعده.

أبو الفرج الببغاء: أسعدك الله بهذا الفطر الجديد والعيد السّعيد ووصل أيّامك بعده بأكمل السّعادات وأجمل البركات وجعل ما أسلفته من الدّعاء مقبولاً مسموعاً ومن التهجّد زاكياً مرفوعاً ولا أخلاك من نعمةٍ يحرس الشكر مدّتها ولا يخلق الدّهر جدّتها.

من كلام المتأخرين: المولى أدام الله نعمه وحرس شيمه هو سيّد الأفاضل ورئيس الأماثل وحسنة الزّمان وليث الأقران وهو في الأنام كالأعياد في الأيّام فإنّ الأنام ليلٌ والمولى مصباح بل الصّباح وسائر الأيّام أجسادٌ وسائر الأعياد هي الأرواح فإذا كان المولى قد زهي على أبناء جنسه ويوم العيد على غده وأمسه فقد صار كلٌّ منكما إلى صاحبه يتقرّب ويلزم ويلزب وهو أحقّ الناس بأن يبهجه مقدمه وأن يهنّى بيومه الذي هو مجمع السّرور وموسمه.

والخادم يهنّيء المولى بهذا العيد واليوم السّعيد فإنه وافى في أوان الرّبيع وزمانه ليباهي بغصن قدّه أغصان بانه ويستنشق في صدره وورده رائحة ريحانه ووردة ويختال في رياضه وحدائقه ويلاحظ بهجة أزهاره وشقائقه والعيد والرّبيع ضيفان ومكارم المولى جديرةٌ بإكرام الضيف والتمتّع بالملاذّ فيهما قبل رحيلهما وقدوم حرّ الصّيف وأن يحسّن وجه عيده بحلوله في مغناه ووجوده بما يوليه لعفاته من إنعامه وجوده لا زالت الأعياد تهنّى ببقائه وألسنة الأيّام تشكر سوابغ نعمائه وتحمد جزيل عطائه وتنطق بولائه وثنائه أبداً إن شاء الله تعالى.

قلت: ومما كتبت به مهنّئاً للمقرّ الأشرف الناصريّ محمد بن البارزي صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية في الدولة المؤيّديّة شيخ بعيد الفطر نظماً بعد أن سألته حاجةٌ فقضاها وأسنى لي الجائزة على نثرٍ كتبته له " طويل ".

فمنّ بجاهٍ زعزع الأرض وقعه وجاد بمالٍ لا يرى الفقر بعده وبالبارزيّة ازدان وصف مكارمٍ فأشبه في فضلٍ أباه وجدّه فيهناه صومٌ ثمّ عيد مسرّةٍ وطالع إقبالٍ يقارن سعده ورفع دعاءٍ لا يغبّ تتابعاً وطيب ثناءٍ خامر المسك ندّه الصنف الخامس: التهنئة بعيد الأضحى.

من كلام المتقدمين: أبو الحسين بن سعد: كتابي والنحر نحر الله أعداء مولاي وحسّاد نعمته وأمتعه بمواهبه عنده وبارك له في أعياده ومتجدّد أيّامه بركةٌ تنتظم السّعادات وتتضمّن الخيرات متصلةً غير منقطعة وراهنةً غير فانية.

من كلام المتأخرين: الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي " طويل ".

تهنّ فأيّام السّرور أواهل وكلّ مخوفٍ عن جنابك راحل ونجمك من فوق الكواكب طالعٌ ونجم امريءٍ يشنا سموّك آفل تمتّع بعيد النّحر وافاك خاضعاً يحقّق من دنياك ما أنت آمل ودم كابت الأعداء وابق مخلّداً على المال عالٍ بالرعيّة عادل لقد راق مدحي في معاليك مثل ما صفت منك أوصافٌ ورقّت شمائل جعله الله أبرك الأعياد وأسعدها وأيمن الأيّام وأمجدها وأجمل الأوقات وألذّها وأرغدها ولا برح مسروراً مستبشراً منصوراً على الأعداء مقتدراً مسعوداً محموداً معاناً بملائكة السماء معضوداً مهنّأً بالسّعود الجديدة والجدود السّعيدة والقوّة والناصر والعمر الطويل الوافر " طويل ".

ولا زالت الأعياد لبسك بعده فتخلع مخروقاً وتعطى مجدّدا فذا اليوم في الأيّام مثلك في الورى كما كنت فيهم أوحداً كان أوحدا وأعاده على المولى صحّةٍ دائمة وسلامةٍ ملازمة وأصار عيده مطيعاً لأوامره كسائر العبيد وعبيده في كلّ يوم من المسّرة ببقائه لها كالعيد والأيّام به ضاحكة المباسم والأعوام جميلة المواسم ومتّعنا بدوام حياته واستجلاء جميل صفاته واستحلاء مدائحه بإنشاد عفاته وأراه نحر أعاديه بين يديه كأضاحيه وأصار الحجّ إلى بابه غافراً سيّئات الإفلاس والإعدام ومبيحاً لبس المخيط من إنعامه العامّ ألبسه الله من السعادة أجمل حلّة ومنحه من المكارم أجمل خلّة.

وكان لهم به اهتمامٌ في الدولة الفاطمية بالديار المصرية والطريق في التهنئة به على نحو غيره من الأعياد.

ما تهنئةٌ لكلّ عيد.

أبو الفرج الببغاء: لولا العادة المشهورة والسّنّة المأثورة بالإضافة في الدّعاء والمشافهة بالتهنئة والثناء في مثل هذا اليوم الشريف قدره الرفيع ذكره لكان أيّده الله دون رؤساء الدهر وملوك العصر يجلّ عن التهنئة إذ كانت سائر أيّامه بما يودعها من أفعال الخير معظّمة وبما يبثّها من المحاسن مكرّمة فبلّغه الله أمثاله محروساً في نفسه ونعمته محفوظاً في سلطانه ودولته موفياً على أبعد أمانيه مدركاً غايتها فيما يؤمّله ويرتجيه.

وله في مثله: عرّفك الله يمن هذا العيد وبركته وضاعف لك لإقباله وسعادته وأحياك لأمثاله في أسبغ النّعم وأكملها وأفسح المدد وأطولها وأشرف الرّتب وأرفعها أعزّ المنازل وأيفعها وحرس منحتك من المحذور ووقى نعمتك من عثرات الدّهور.

الصنف السابع: التهنئة بالنّيروز.

وهو من أجلّ أعياد الفرس على ما تقدّم ذكره في الكلام على أعياد الأمم في المقالة الأولى.

وكان للكتّاب به اهتمامٌ في أوائل الدّولة العبّاسية بالعراق جرياً على ما كان عليه الفرس من قديم الزمان.

وفيه لأبي الحسين بن سعد: هذا يومٌ شرّفته العجم ورعى ذمامه الكرم وهو من أسلاف سيّدي ذوي النباهة وأخلافه ذوي الطّهارة بين منشيء رسمه ومؤدّي حقه وكاسٍ له بقبول انتسابه إليه جمالاً يبقى على الأيام وحالاً ينفق بها لدى الأنام فليس أحدٌ أحق بالتهنئة به ممن سنّه آباؤه وشيّدته آلاؤه فصارت إلى أوّليّته نسبته وبكرم سجيّته عصمته.

وفيه له: هذا - أيد الله سيّدي - يومٌ عظّمه السّلف من العجم وسيّدي وارث سنّة الكرم وللسادة على العبيد في هذا اليوم رسم في الإلطاف وعليها لهم حقٌّ في القبول والإسعاف وقد بعثت بما حضر جارياً على سنّة الخدمة وعادلاً عن طريق الحشمة ومقتصراً على ما اتّسعت له الحال وما يوجبه قدر سيّدي من المبالغة في الاحتفال فإن رأى أن يشرّف عبده بالاحتمال إليه وإجرائه مجرى الأنس عنده فعل إن شاء الله تعالى.

وفيه للكرجيّ: هذا يومٌ تسمو له العجم ويستعجم في العرب تشريفاً له واعترافاً بفضله واقتداءً بأهله وأخذاً بسنّتهم فيه فليهن لإحراز الدولة في العزّ منزلاً بحيث لا يرام ولا يضام ولا ترقى إليه الأماني ولا يطمع في مساواته المساوي وإنّهم بعد تصرّم الدولة على حميد آثارها وجميل الذّكر فيها أعلامٌ تضرب بهم الأمثال وتزهو بأيّامهم الأيّام وآثارهم تقتفى وأعيادهم تنتظر يتأهّب لها قبل الأوان ويعرف فيها أثر الزمان وإنك منهم في الذّروة السامية والرّتبة العالية وبمحلٍّ لا عار معه على حرّة في الخشوع لك والتعلّق بحبلك.

وقد وجدت الأتباع عند ساداتها في مثل هذا اليوم على عادةٍ في الإلطاف جسّمتها وسيّرت بها على أقوام منحتهم ظهور الدّعوى فيها فأقبل قائلهم يقول: لو كان باب الإهداء مفتوحاً غير مسدود ومباحاً غير ممنوع لأتحفت بالغراب الأعصم والكبريت الأحمر والأبلق العقوق وبيض الأنوق.

وقد بعثت بهديّة لا تردّ يعني الدّعاء.

وفيه: من كان محلّك من العزّ ونباهة الذّكر وارتفاع الدّرجة وعلوّ المنزلة وسعة البلد وبعد الأمد لم يتقرّب متحلٍّ بالعلم والأدب إليه في يومٍ جديدٍ إلاّ بصالح الدّعاء وحسن الثناء.

وفيه: لو أخّرنا هذا انتظاراً لوجود ما تستحقّه لانقضت أيّامنا بل أعمارنا قبل أن نقضي حقّاً أو نؤدّي عن أنفسنا فرضاً لارتفاع قدرك عمّا تحويه أيدينا وعلوّ حالك عمّا تبلغه آمالنا وقد اقتديت بسنّة الخدم والأولياء في الأعياد وأوضحت العذر في ترك الاجتهاد وبعثت في هذا اليوم الذي أسأل الله أن يعيده عليك ألف عام في نماء من العز وعلوّ من القدر وتمامٍ من السّرور ومزيدٍ من النّعمة.

الصنف الثامن: التهنئة بالمهرجان.

وهو أحد أعياد الفرس على ما تقدّم ذكره في المقالة الأولى في الكلام على أعياد الأمم.

وكان للكتّاب من الاحتفال بالتهنئة به في أوائل الدولة العبّاسيّة ما لهم بالنيّروز.

فيه لأبي الحسين بن سعد: لسيّدي عليّ في الأعياد المشهورة والأيّام الجديدة عادةٌ اختزلني عن بعضها في هذا الفصل كلال الطّبع عن البعض ووقوع الخطر بعرضه من الثناء نظماً ونثراً ومن الإهداء عرضاً وبرّاً دعاءٌ تزيد قيمته على الأخلاق الثّمينة وموقعه على الذخائر النّفيسة ولطفه على التّحف البديعة فأسعد الله سيدي بهذا اليوم سعادةً تقيم ولا تريم وتزيد ولا تبيد وتتوطّن ولا تظعن وتجمع حظوظاً من الخيرات وفوائد من البركات يتّصل سندها ولا ينتهي أمدها وأبقاه في أسبغ عزٍّ وأرفع رتبة وأرغد عيشة مكنوفاً بحراسةٍ تقيه وآله عوادي الزمان وتصرف عنهما طوارق الحدثان ما طرد الليل النّهار وطلع نجم وغار وعلى ذلك - أيد الله سيدي - فإنّ الحرص على إقامة الرّسم والتطيّر من إضاعة الحقّ بعثاني على مراجعة القريحة واستكداد الرّوّية فأسعفا بما قبلته الضرورة ولم أطع في إهدائه سلطان الحشمة وفضل سيدي يتّسع لقبول الميسور وتحسين القبيح والله المعين على تأدية حقّه والقيام بواجب فرضه.

وله فيه أيضاً إلى من منع أن تهدى إليه فيه هدية.

لو كنت فتحت باب الإلطاف ونهجت إليه سبيلاً لتنازع أولياؤك قصب السّبق وتنافسوا في السّرف فبان للمجتهد فضله والتمس العذر في التقصير ملتمسه وعمّت المنحة كافّتهم بما يظهر من مواقعهم وينكشف من أحوالهم لكنّك حظرت ذلك حظراً استوى فيه الفريقان في الحكم وامتدّ فيه على ذوي الخلل السّتر ولم تحظر الدّعاء إذ حظرت الإهداء فأنا أهديه ضرورةً واختياراً وإعلاناً وإسراراً فأسعدك الله بهذا العيد الجديد الذي زاد بك في قدره وشرّفه بأن جعلك من أربابه وولاة أمره.

أبو الفرج البّبغاء: هذا اليوم من غرر الدّهور المشهورة وفضائل الأزمنة المذكورة معظّمٌ في العهد الكسرويّ مستظرفٌ في من برٍّ يوليه ولا - العصر العربيّ باعثٌ على عمارة المودّات مخصوص بالانبساط في الملاطفات ولست استزيده - أيّده الله تطوّل إليّ يسديه غير إدخال في جملة من بسطته الأنسة وثقّفته المحبّة وتقرّبت منه بوكيد الخدمة في قبول ما إن شرّف بقبوله كان كثيراً مع قلّته جليلاً مع نزارته فإن رأى أن يقوّي منه ثقتي ويقابل بقبولٍ ما أنفذته رغبتي فعل إن شاء الله تعالى.

وله في مثله: قد أطعت في الانبساط إليك دواعي الثّقة وسلكت في التحرّك بك سبل الأنسة وتوصّلت بملاطفتك إلى حسم موادّ الحشمة فاستشهدت على ثقتي بك فيما أنفذته بمفارقة الحفلة وكلف المكاثرة فإن رأيت أن تكلني في تقبّله إلى سعة أخلاقك وتسلك في ذلك أخصر طريقٍ إلى ما أخطبه من مودّتك وأزاحم عليه في إخائك فعلت إن شاء الله تعالى.

وله في مثله: هذا اليوم - أيّد الله سيدي - من أعياد المروّة ومواسم الفتوّة وأوطان السرور ومحاسن الأزمنة والدّهور بلغّه الله أمثاله في أنضر عيشٍ وأسبغ سلامة وأبسط قدرة وأكمل مسرّة وقد توثّبت إلى الاقتداء فيه بأدبه والأخذ بمعرفة فروضه بمذهبه وأطعت في الانبساط إليه دواعي الثّقة وأنفذت ما اعتمدت في قبوله على مكاني منه عائداً بالتقليل من كلف المكاثرة ومستثقل الكلفة فإن رأى أن يأتي فيما التمسته ما يناسب شرف طبعه وسعة أخلاقه فعل وله في مثله: لو كانت الملاطفات بحسب الرّتب وقدر المنازل لما انبسطت قدرةٌ ولا اتسع مكان لما يستحقّه نبل محلّه وواجبات رياسته ولكنت من بين خدمه ضعيف المنّة عن خدمته في هذا اليوم السعيد بلّغه الله أمثاله في أفسح أجل وأنجح أمل بما يخدمه به ذوو الخدمات الوكيدة عنده المكينة لديه غير أنّي أثق منه - أيّده الله - بحمل قليلي على علمه بإخلاصي في ولائه وانتسابي إلى جملته واختلاطي بأنسابه فإن رأى أن يجيرني في قبول ذلك على سنّة أمثاله من ذوي الجلالة عند أمثالي من الأولياء والحاشية فعل.

وله في مثله: لو كانت الهدايا لا تتقبّل ما لم تناسب في نفاسة القدر وجلالة الذكر محلّ من يتقرّب بها إليه ومنزلة من أهداها إليه عليه لما سمت همّة ولا اتّسعت قدرة لما يستحقه - أيّده الله - بأيسر واجباته وأصغر مفترضاته غير أنّ الأنسة بتفضله والاعتداد بسالف تطوّله والتحقق بخدمته والانتساب إلى جملته بسطني إلى إنفاذ ما إن شرّفني بقبوله كان مع قلّته كثيراً ومع نزارته جليلاً فإن رأى أن يقوّي بذلك منه ثقتي ويحسم مادّة احتشامي فعل.

أجوبة التهنئة بالمواسم والأعياد.

قال في " موادّ البيان ": هذه الكتب والرّقاع مضمونها الهناء بالموسم الجديد والدعاء للمهنإ فيه بتملّيه.

قال: وهذا المعنى مفاوض بين المهنّي والمهنّى وينبغي أن تكون أجوبتها مشتقّةً منها.

ثم قال: وقد يتصرّف الكتّاب فيها إذا كاتبوا الرّؤساء تصرّفاً يخرج عن هذا الحكم.

وهذه أمثلة من ذلك: أبو الفرج البيغاء: سمع الله دعاءك وبدأ في تقبّل المسألة بك وأجزل من أقسامه حظّك وبلّغك أمثاله في أفسح مدد البقاء وزاد فيما خوّلك من المواهب والنّعماء ولا أخلاني من برّك وأنهضني بواجباتك.

وله في مثله: كلّ يوم أسعد فيه بمشاهدتك وأقطعه في ظلّ مودّتك حقيقٌ بالإحماد موفٍ على محاسن الأعياد فسمع الله دعاءك وأطال ما شئت البقا بقاءك وجعل سائر أيّامك مقرونةً بالسّعادات موصولةً بتناصر البركات.

من زهر الربيع: يخدم المجلس العالي جعل الله قدره على الأقدار سامياً وجزيل نواله على من هام به العفاة هامياً ونصره نصراً عزيزاً وأسكنه من حراسته حصناً حصيناً وحرزاً حريزاً ولا زالت الأيّام حالية الجيد بوجوده والأيدي تهشّ إلى تناول أياديه وجوده وأخبار المكارم عنه مرويّة وإليه معزوّة وآيات فضله وفضائله بكلّ لسانٍ متلوّة.

وينهي إلى علمه ورود مشرّفته التي حلّت الأسماع عندما حلّت وسمت عن الرّياض لمّا جلّيت عروس فضلها وجلّت وزهت على زهورها برقم سطورها وطيب عرفه الذي ما برح متحقّقاً بجميله وجزيله وشاكراً لكثيره وقليله وحصلت له البشرى والمسرّة الكبرى ليس للعيد بمفرده ولا لهذا الهناء بمجرّده بل لبقاء المولى ودوام سعادته وتخليد سيادته فإنّه لكلّ إنسان عينٌ ولكلّ عين إنسان وهو روحٌ والأيّام والأنام جثمان فالمملوك ببقائه كلّ يومٍ يتجدّد له عيدٌ جديد ويتضاعف له جدٌّ سعيد حرس الله شرفه الرفيع من الأذى وأراه في عين أعاديه جذعاً ناتئاً وسلّم لحظه المحروس من القذى وأصار أيّامه كلّها أيام هناء وبداية سعادته بغير حدٍّ وانتهاء.

الضرب السادس التهنئة بالزواج والتسرّي من كلام المتقدّمين: وصل الله هذا الاتّصال السعيد والعقد الحميد بأحمد العواقب وأجمل المنح والمواهب وجعل شمل مسرّتك به ملتئماً وسبب أنسك بإقباله منتظماً وعرّفك به تعجّل البركات وتناصر الخيرات ولا أخلاك فيه من التّهاني بنجباء الأولاد وكبت بكثرة عددك سائر الحسّاد وهنأني النعمة الجليلة بإخائك وعضّدني وسائر إخوانك ببقائك.

وله في مثله: قرن الله بالخيرة ما عقدت وبالسعادة ما جدّدت وبجميل العاقبة ما أفدت وعرّفك بركات هذا الاتصال ولا أخلاك فيه من موادّ السعادة والإقبال وعضّدك بالبررة من عقبك والسادة من ذرّيّتك.

وله في مثله: إنّي وإن كنت ملتحفاً بلحف مودّتك ومتمسّكاً بعصم أخوّتك أولى بالتهنئة بما يحدث لك من ورود نعمة واتّصال موهبة فإنّي ما أجد فرض الدعاء لك ساقطاً ولا واجب الشكر لله تعالى على ما أولاني فيك زائلاً فعرّفك الله بركة هذا الاتصال الحميد والاقتران السّعيد وجعله للسّرور مكثراً وباليمن مبشّراً وأحياك للتهاني بمثله في السادة من ولدك والنّجباء من ذرّيّتك.

وصل الله هذا الاتصال الميمون بأرجح البركات وأفضلها وأنجح الطّلبات وأكملها وأحمد بدأه وعقباه وبلّغك الآمال في سائر ما تهواه وأحياك للتّهاني بأمثاله في البررة من ولدك والنّجباء من عقبك.

من كلام المتأخرين: للشيخ شهاب الدين محمود الحلبي: جعل الله الخيرة له فيما يذره ويأتيه والنجاح مقروناً فيما يعيده من الأوامر ويبديه والألسنة شاكرةً بما يوليه من الإنعام ويسديه.

صدرت هذه الخدمة معربةً عن ثناءٍ تأرّج عرفه وولاءٍ أعجز الألسنة شرحه ووصفه وتهنئةٍ بهذه الوصلة المباركة جعلها الله للاتصال بالسعادة سبباً ومحصّلةً من الخيرات مراماً وافراً وأرباً وعرّفه بركة هذا العرس الذي أصبح الخير بفنائه معرّساً ونور الشمس من ضياء بهجته مقتبساً فنحمد الله على هذه الوصلة سرّاً وجهراً ونشكره أن جعل بينه وبين السّعد نسباً وصهراً منح الله المولى الرّفاء والبنين والعمر الذي يفني الأيام والسّنين ورزقه إسعافاً دائماً وإسعاداً وأراه أولاد أولاده آباءً بل أجداداً إن شاء الله تعالى.

أجوبة التهنئة بالزواج والتّسرّي.

قال في " موادّ البيان ": أجوبة هذه الرّقاع يجب أن تكون شكراً للمهنّي على العناية والاهتمام ومشتملة على الإبانة عن موقع دعائه من التبّرك والتيّمن به إلا أن تكون البداية بمعنىً يخرج عمّا هذا جوابه فينبغي أن يجاب عنه بما يقتضي الإجابة عن ذلك.

الضرب السابع من التهاني التهنئة بالأولاد وهو على ثلاثة أصناف الصنف الأول: التهنئة بالبنين.

مما أورده أبو الحسين بن سعد في ترسّله: إنّه ليس من نعم الله وفرائد قسمه وإن حسن موقعها ولطف محلّها نعمةٌ تعدل النعمة في الولد لنمائها في العدد وزيادتها في قوّة العضد وما يتعّجل من عظيم بهجتها ويرجى من باقي ذكرها في الخلوف والأعقاب ولا حق بركتها في الدعاء والاستغفار.

ومنه: إنّه ليس من النّعم نعمةٌ تشبه النعمة في الولد لزيادتها في قوّة العضد وحسن موقعها في الخلف والعقب واتصل بي خبر مولودٍ فسرّني ما وصل الله به من العارفة إليك وشركتك في جميل الموهبة فيه شركة من له ما لك وعليه ما عليك وسألت الله أن يوزعك شكر النّعمة ويؤنس بهذا المولود ربعك ويكثّر به غددك ويعظّم بركته ويمن طائره عليك ويزيد في النعمة وفيه لأبي الحسين بن سعد إلى أبي المسلم بن بحر يهنّئه بابنٍ حدث له: فأمّا ما جدّد الله من النعمة في القادم والموهوب لك ولداً وأنساً ولنا سنداً وذخراً فقد جلّ قدره هذه الموهبة عن أن يحاط لها بوصف أو يوفى لها بشكر.

وفيه لعلي بن خلف: وينهي أنه اتّصل بالمملوك بزوغ نجم سعدٍ في مشارق إقباله مؤذنٍ باتّساق سموّه وجلاله فأحدث من الحلال والاستبشار بمقدمه والتبرّك والتيّمن بقدمه ما تلألأت على المملوك أنواره وحسنت عنده آثاره وسألت الله تعالى راغباً إليه في أن يعرّفه سعادة مولده ويمن موفده ويجعله شادّاً لعضده وموريا لزنده ويشفعه والسادة السابقين بنجباء متلاحقين يتبلّجون في نطاق سعادته ويتوسّمون في آفاق سيادته ويصون سلكهم من الانفصام وشملهم من الانهدام ويبقيهم غرراً في وجوه الأيّام وأقماراً في صفحات الظّلام بمنّه وفضله إن شاء الله تعالى.

وفيه له: وينهي أنّ المملوك يشكر الله تعالى على ما أنزله عند مولانا من عوارفه واختصّه به من لطائفه شكر من شاركه في النعمة المسبغة عليه وانتهى إليّ خبر السّند المتجدّد لمولانا فطار المملوك بخوافي السّرور ومقادمه وأخذ من الابتهاج بأوفى قسمه وسأل الله تعالى أن يبارك له في عطيّته ويردفه بزيادته ويوفّر عدده ويشدّ بصالح الولد عضده ويجنيه من هذا وفيه: وينهي أنّ أفضل النّعم موقعاً وأشرفها خطراً وموضعاً نعمة الله تعالى في الولد لزيادتها في العدد وقوّة العضد وما يتعجّل من عظم جمالها وزينتها ويرجى من عظم مآلها وعاقبتها في حفظ النسب والأصل وحسن الخلافة على الأهل وجميل الذّكر والثّناء ومتقبّل الاستغفار والدّعاء وقد اتصل بالمملوك بزوغ هلال سماء المجد ومتعلّق الإقبال والسّعد فأشرقت الأيّام بإشراقه ووثقت الآمال باجتلائه واتّساقه فقام المملوك عن مولانا بشكر هذه النّعمة المتجدّدة والموهبة الراهنة الخالدة وهنّأت نفسي بها وأخذت بحظّي منها والله تعالى يعرّفه يمن المولود من أطهر والدة وأطيب والد ويعمّر به منزله ويؤنس ببقائه رحله ويبلّغ محبّيه من الآمال فيه ما بلّغهم في الماجد أبيه إن شاء الله تعالى.

وفيه: وينهي أنّ نعم الله تعالى وإن كانت على مولانا متظاهرة ولديه متناصرة فقد كان المملوك يرغب إلى الله تعالى في أن يجمّل الأيّام من نسله بمن يحفظ عليه شرف أصله ويخلفه بعد العمر الطويل في نبله وكرم فعله ولمّا اتصل بالمملوك نبأ هذا الهلال البازغ في سمائه المقرّ لعيون أوليائه المخيّب لظنون أعدائه حمدت الله تعالى على موهبته وسألته إقرار نعمته وأن يعرّف مولانا بركة قدمه ويمن مقدمه ويوفّر حظّه من زيادته وسعادة وفادته وأن يجعله برّاً تقيّاً مباركاً رضيّاً ويفسّح في أجله ويبلّغه فيه أمله إن شاء الله تعالى.

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي " كامل ".

هنّئت بالإسعاف والإسعاد ونفاذ أمرٍ في العدا بنفاد وبقيت ما بقي الزمان مهنّأً ووقيت شرّ شماتة الحسّاد يا مالك الرّقّ الّذي أضحى لنا من جوده الأطواق في الأجياد خلّدت في عيش هنيٍّ أخضرٍ يسطو ببيض ظباً وسمر صعاد حتّى يخاطبك الزمان مبشّراً متّعت بالإخوان والأولاد جدّد الله في كلّ يوم له مسرّةً وبشرى وأطاب لعرفه عرفاً ونشراً وشدّ له بولده السعيد الطلعة أزراً وأسراً وسرّى به الهموم عن القلوب وأصارها لديه أسرى ورفع درجته إلى سماء المعالي ليقال: سبحان الذي بعبده أسرى.

المملوك يخدم المولى ويهنّيه ويشكره ويطلعه على ما حصل له من الابتهاج للسبب الذي ينهيه ويذكره وهو أنه اتّصل به قدوم المسافر بل إسفار البدر وظهور ميمون الغرّة الذي جاء لأهله بأمانٍ من صروف الدّهر وهو الولد العزيز الموّفق النّجيب فلان أبقاه الله تعالى ليحيا مشكوراً محموداً وأدام عزّه وعلاه وأعلى نجمه وخلّد شرفه وبهاه وضاعف سناءه وسناه وأرانا منه ما أرانا من السعادة في أبيه فسرّ وابتهج بهذه النعمة غاية السّرور والابتهاج واتّضح له في شكر إحسان المولى وحسن ولده كلّ طريقٍ ومنهاج وسأل الله تعالى أن يطوّل له عمراً ويجعله لإسعاد والده وإسعافه ذخراً ليرتعا في رياض الدّعة في صحّة وسلامة ويجعلا في فناء العلا لهما دار إقامة ويبلغا من السعادة درجةً لا تريم عاليةً ولا ترام وتخضع لهما الليالي والأيّام ويرشقاهما بسهام الصّروف ويطعناهما بأسنّتها ويفهما دعاء الأيام لهما من صدورها ويسمعاه من ألسنتها مخاطبةً لأبيه ومنشدةً لسائر أهله ومحبّيه " رجز ": مدّ لك الله الحياة مدّا حتّى ترى نجلك هذا جدّا الصنف الثاني: التهنئة بالبنات.

من كلام المتقدمين: أبو الحسين بن سعد: النّعمة نعمتان إحداهما تعجّل الأنس والأخرى تدّخر الأجر وعلى حسب ما تتلقى به من الشكر على ظاهر المحبوب والتّسليم فيما يجري مجرى بعض المكروه يكون المتاع عاجلاً والثواب آجلاً وما قدّمت القول إلاّ لما ظننته يعرض لك من الوجوم في هذه الموهبة في المولودة التي أرجو أن يعظّم الله بركتها ويجعلها أيمن مولودٍ في عصرها ودالّة على سعادة أبيها وجدّها ولئن كان في الطبع حبّ الذّكور والشّغف بالبنين فإنّ البنين من البنات وهنّ باليمن معروفات وبالبركات موصوفات وبالذّكور في أثرهنّ مبشّرات فهنّأك الله النعمة فيها تهنئةً لا تنقضي سعادتها ولا يعترض النقص والتقدير شيئاً منها وأبقى هذه الصبيّة ممتعاً أبوها بها ومنشأً له الحظّ من حداثتها وبلّغها أفضل مبالغ الصالحات الفاتنات من أمّهاتها وجعل في مولدها أصدق دليل على طول عمر أبيها وسعادة جدّه وتضاعف نعم الله عنده إنه لطيفٌ جواد.

أبو مسلم محمد بن بحر: مرحباً ببكر النّساء وبكر الأولاد وعقيلة الخباء والمأمولة للبركة والمشهورة باليمن وقد جرّبناه فوجدناه معهوداً مسعوداً والله يعرّفك أضعاف ما عرّف من قبلك ويبارك لك فيما رزقك ويثنّي لك بأخٍ للمولودة ويجعله رديفها وفي الخير قرينها وشريكها.

عليّ بن خلف: وينهي أنّ المملوك اتّصل به ارتماض مولانا بمقدم الكريمة الوافدة بطالع السّعادة المتجدّدة فعجب المملوك من وقوع ذلك من مثل مولانا مع كمال نبله وشرف عقله وعلمه فإنّ الله تعالى جلّ اسمه يقول: " يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن وإنّ ما جدّده الله تعالى من مواهبه جديرٌ أن يتلقى بالسّرور والفرح لا بالاستياء والتّرح لا سيّما والذّكر إنما "يشاء الذّكور يتفضّل على الأنثى بنجابته لا بحليته وصورته وقد يقع في الإناث من هو أشرف من الذّكور طبعاً وأجزل عائدةً ونفعا وقد روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: " إذا رزق العبد الأنثى نادى منادٍ من السماء: يا أهل الدار أبشروا بالرّزق وإذا رزق ذكراً نادى منادٍ من السماء.

أبو الفرج الببغاء: لو كان الإنسان متصرّفاً في أمره بإرادته قادراً على إدراك مشيئته لبطلت دلائل القدرة واستحالت حقائق الصنّعة ودرست معالم الآمال وتساوى الناس ببلوغ الأحوال غير أنّ الأمر لمّا كان بغير مشيئته مصنوعاً وعلى ما عنه ظهر في الابتداء مطبوعاً كان المخرج له إلى الوجود من العدم فيما ارتضاه له غير منّهم ومولانا - أيّده الله - مع كمال فضله وتناهي عقله وحدّة فطنته وثاقب معرفته أجلّ من أن يجهل مواقع النّعم الواردة من الله تعالى عليه أو يتسخّط مواهبه الصادرة إليه فيرمقها بنواظر الكفر ويسلك بها غير مذاهب الشكر.

وقد اتّصل بالمملوك خبر المولودة كرّم الله غرّتها وأطال مدّتها وعرّف مولانا البركة بها وبلّغه أمله فيها وما كان من تغيّره عند اتّضاح الخبر وإنكار ما اختاره له سابق القدر فعجب المملوك من ذلك واستنكره من مولانا وأنكره لضيق العذر في مثله عليه.

وقد علم مولانا أنّهن أقرب إلى القلوب وأنّ الله تعالى بدأ بهنّ في الترتيب فقال جلّ من قائل: " يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن وما سمّاه الله هبةً فهو بالشّكر أولى وبحسن التقبّل أحرى ولكم نسبٍ أفدن وشرفٍ استحدثن من طرق الأصهار يشاء الذّكور " والاتّصال بالأخيار والملتمس من الذّكر نجابته لا صورته وولادته ولكم ذكرٍ الأنثى أكرم منه طبعاً وأظهر منه نفعاً فمولانا يصوّر الحال بصورتها ويجدّد الشّكر على ما وهب منها ويستأنف الاعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته والأولى بمثله إن شاء الله تعالى.

الصنف الثالث: التهنئة بالتّوءم.

أحسن ما رأيت من ذلك قول بعض الشّعراء مما كتب به إلى بعض أصحابه وقد ولد له ذكرٌ وأنثى من جاريةٍ سوداء وهو قوله " طويل ": وخصّك ربّ العرش منها بتوءم ومن ظلمات البحر تستخرج الدّرر وأثرك أضحى وارثاً علم جابر فأعطاك من ألقبه الشّمس والقمر الأجوبة عن التهنئة بالأولاد.

قال في " موادّ البيان ": أجوبة هذه الرّقاع يجب أن تبنى على شكر اهتمام المهنّيء ورعايته والاعتداد بعنايته وأنّ الزيادة في تجدّد المهنّى به زيادةٌ في عدده وأن نصيبه من تحرّك السرور فيما يخلص إليه من المواهب كنصيبه لتناسبهما في الإخاء وتوافيهما في الصّفاء وأن تراعى مع وهذا مثالٌ من ذلك: زهر الربيع: وينهي ورود الكتاب الذي تشرّف المملوك بوروده وأشرقت الأيّام بكمال سعوده وأرغم ببلاغته معطس مناويه وحسوده فشكر أيادي من أنعم بإرساله واكتسى بالوقوف عليه حلّة من حلل فخره وجماله وبالغ في إكماله حتّى وقف إجلالاً له بين يديه ثم تلا آيات حسنه على أذنيه فوجده مشتملاً على إحسانٍ

لم يسبقه إلى مثله أحد ومننٍ أودعها فيه فلا يحصيها حصر ولا عدد فهيّج بوروده رسيس الأشواق وتقلّد بإنعام مرسله كما قلّدت الحمائم بالأطواق ووجد لوعةً لا يحسن وصفها لسان اليراع في الأوراق وعلم ما أشار إليه المولى من التهنئة بالولد الجديد بل بأصغر الخدم والعبيد وما أبداه من الابتهاج لميلاده وأظهره من التفضّل المعروف من آبائه الكرام وأجداده ولم لا يكون الأمر كذلك والوالد مملوكه وهو مملوك السادة الأجلاء أولاده حرس الله مجده ومتّعه بثوب مكارمه وخفض قدر محاربه ورفع كلمة مسالمه ولا زال مماليكه تتزيد تزيّد الأيّام وسعادته باقيةً بقاء الأعوام وعين العناية تحرسه في حالتي السفر والمقام إن شاء الله تعالى.

الضرب الثامن من التهاني والعافية من السّقم فمن ذلك: وينهي أنّه ما زالت أجسام أهل التّصافي تشترك في الأسقام والعوافي كما تشترك أنفسهم في التخلّص والتّوافي ولمّا ألمّ بمولانا هذا الألم الذي تفضّل الله تعالى بإماطته ومنّ فيه على السؤدد بحراسة مولانا وحياطته فرأيته حالاً في جوارحي محرقاً لجوانحي ممازجاً لأعضائي مملكاً لأنوائي.

ولئن كنت قد تحمّلت من ذلك عبّاً وارتقيت من تحمله مرتقىً صعباً فلقد فخرت بمماسّته وأحمدت طبعي على مشاكلته وشكرت الله تعالى إذ جعلني شعبة من سرحته وجبلّة من طينته وعلى ما سرّ به من إقالته وإنعاشه ومصافاته وإبشاشه وسألت الله تعالى أن يبقيه نوراً يوضّح مغرب الدّهر ومشرقه ودرّاً يرصّع فود المجد ومفرقه ويحسن الدّفاع عن حوبائه وهو سبحانه وتعالى ذلك ويتقبّله ويرفعه ويسمعه إن شاء الله تعالى.

وله في مثله: المملوك يهنّيء مولاه خاصّةً إذ جعله الله تعالى من صفوة أوليائه وخالصة أحبّائه الذين يبتليهم اختباراً وينتابهم اختياراً ليجمع لهم بين تمحيص وزرهم ومضاعفة أجرهم والحضّ على طاعته والانصراف عن معصيته ويهنّيء الكافّة عامّة بالموهبة في نوره المطلعة لأمل الإقبال المروية لماحل الآمال ثم أعطف على حمد الله على ما منّ به من إبلاله ويسّره من استقلاله والرّغبة إليه في أن يمنحه صحّةً تخلّد وتقيم وعافية ترهن ولا تريم وأن يحميه من عوارض الأسقام ويصونه من حوادث الأيّام بفضله وجوده إن شاء الله تعالى.

أبو الفرج الببغاء: أفضل ما يفزع إليه العبد المخلص والمولى المتخصّص فيما ينوب سيّده ويهمّ وليّ نعمته الدعاء المقترن بصدق النية وصفاء الطويّة فالحمد لله الذي منّ بالصحّة وتصدّق بالإقالة وتدارك بجميل المدافعة وعمّ سائر خدمه أيّده الله بالنّعمة وأعاده إلى أجمل عاداته من السلامة والصّحّة فائزاً بمدّخر الأجر متعبّداً بمستأنف الشّكر فلا أخلاه الله من زيادةٍ فيما يوليه ولا قصدنا بسماع سوءٍ فيه وحرس من الغير مهجته ومن المحذور نعمته.

وله في مثله: ما كنت أعلم أنّ عافيتي مقرونةٌ بعافيتك ولا سلامتي مضافةٌ لسلامتك إلى أن تحققت ذلك من مشاركتي إيّاك في حالتي الألم والصحّة والمرض والمحنة فالحمد لله الذي شرّف طبعي بمناسبتك وجمّل خلقي بملاءمتك فيما ساء وسرّ وإيّاه تعالى أشكر على ما خصّني به من كمال عافيتك وسبوغ سلامتك وسرعة إقالتك وبه - جلّ اسمه - أثق في مزيدك من تظاهر النّعم وتوفّر القسم.

وله في مثله: ولولا أنّ متضمّن كتابك قرن ذكر المرض الهاجم عليك بذكر ما وهبه الله لك من عود السلامة إليك لما اقتصر بي القلق على ما دون المسير نحوك والمبادرة لمشاهدتك غير أنّ السّكون إلى ما أدّاه كتابك سابق الجزع والطّمأنينة إلى ما وهبه الله من كفايتك حالت دون الهلع فالحمد لله الذي منّ بالإقالة وتصدّق بالسّلامة وعمّ الكفاية وهو وليّ حراستك وحراستي فيك.

وله في مثله: سيّدنا في سائر ما يذكّره الله من هجوم ألمٍ مؤذن بصحّة واعتراض محنةٍ مؤدّية إلى منحة مرموقٌ بالعافية محروسٍ من الله جلّ اسمه بالحفظ والكلاءة فهو مع العلّة فائزٌ بذخائر الأجر ومع العافية موفّقٌ لاستزادة الشّكر فالحمد لله الذي عقد الكرم ببقائه وشفى مرض الآمال بشفائه وكفاه اعتراض المخوف وعوارض الصّروف.

وله في مثله: ما انفرد جسمك بالعلّة دون قلبي ولا اختصّت نفسك - حرسها الله تعالى - بمعاناة المرض دون نفسي ولم أزل بالقلب تالياً وفي سائر ما شكوته بالنيّة مساوياً إلى أن كشف الله الغمّة وأقال العثرة ونفّس الكربة ومنّ بالسلامة وتصدّق بالكفاية وأوجب بالعافية علينا جميعاً فروض الشكر بعد ما ادّخره لك بالألم من كثرة الأجر فالحمد لله على ذلك حمداً يؤدّي إلى حراسة ما خوّلك ويؤذن بالمزيد فيما منحك.

ومن كلام المتأخرين: أعلى الله قدر الجناب الفلاني ولا زالت شموس أيامه لا تخاف كسوفاً ولا أفولاً وأقمار لياليه تغرس في قلوب أوليائه ومحبّيه فروعاً وأصولاً.

المملوك يخدم خدمة من تحّمل جميلاً ونال من تفضّل الجناب الكريم جزيلاً.

وينهي ما حصل له من السّرور بعافية مولانا فالشكر لله على ما جدّد من النّعمة التامّة وسمح به من الكرامة العامّة حين أعاد البدر إلى كماله.

والسّرور إلى أتمّ أحواله وما كانت إلاّ غلطةٌ من الدّهر فاستدركها وصفقةٌ خارجةٌ عن يده فملكها فقرّت بذلك العيون وتحققت في بلوغ الأمل الظنون وانجبر قلبه بعدما وهن وعاد جفنه بعد الأرق إلى الوسن وقال: " الحمد لله الذي أذهب عنّا الحزن ".

ولقد كان يتمّنى المملوك لو فاز من الرّؤية الشريفة بحظّ السمع والبصر وتملّى بمشاهدة وجهه والمملوك فما يعدّ نفسه إلا من المحبين الذين بذلوا نفوسهم لمحبته وأعدّوها والله تعالى يسرّ الأولياء بتضاعف سعوده ويديم بهجة الأيّام بميمون وجوده ويطيل في مدّته ويحرسها من الغير ويحرس أحوال مزاجه الكريم على القانون المعتبر ويكفي أولياءه ومحبّيه فيه كلّ مكروهٍ وحذر إن شاء الله تعالى.

من زهر الربيع " متقارب ": ولمّا شكوت اشتكى كلّ ما على الأرض واهتزّ شرقٌ وغرب لأنّك قلبٌ لجسم الزّمان وما صحّ جسمٌ إذا اعتلّ قلب حرس الله جنابه وأسبل عليه رداء السعد وأثوابه ومتّعه ببرود العافية وجلبابها وفتح له إلى نيل السعادة سائر أبوابها ومنحه الكفاية والأمن في سربه والعافية في جسمه من قلق كلّ مرضٍ وكربه وجمع له بين الثّواب والأجر وجازاه بجزيل الغفران عن جميل الصّبر.

المملوك يبشّر نفسه ومولاه بما منّ الله به من صحّة مزاجه الكريم والإبلال من مرضٍ كاد يدير كؤوس الحمام على كلّ صديقٍ حميم ويحمد الله على عافيته حمداً جزيلاً ويشكره عليها بكرةً وأصيلاً فإنّه قد عوفي لعافيته المجد والكرم وزال عنه إلى أعدائه الألم فالمولى حفظ الله صحّته من السّقم وحماه من ألم ألمّ وجعل سعادته تتزايد على ممرّ الأنفاس وجسده سالماً من الأذى الشيخ جمال الدين بن نباتة: وقى الله من الأسواء شخصه الكريم وشمله النّظيم وقلب محبّه الذي هو في كلّ وادٍ من أودية الإشفاق يهيم.

ولا زالت الصحة قرينه حتّى لا يعتلّ في منازله غير مرور النّسيم ويصف شوقاً يزيد بالأنفاس وقداً ويجدّد للأحشاء وجداً ويباشر القلب المغرم فيمدّ له من عذاب الانتظار مدّاً.

وينهي أنّه جهّز هذه الخدمة نائبةً عنه في استجلاء وجه أكرم الأحبّة وتصافح اليد التي أقلام كتبها في شكوى البعاد أطبّة مبدية إلى العلم الكريم أنّه مع ما كان يكابده من الأشواق ويعالجه من خواطر الإشفاق بلغه ضعف الجسد الموقى وعارض الألم الذي استطار من جوانح المحبّين برقاً فلا يسأل الجناب الكريم عن قلبٍ تألّم وصدرٍ صامتٍ بالهموم ولكنّه بجراح الأشجان تكلّم ولسانٍ أنشد " طويل ": ألا ليتني حمّلت ما بك من ضنىً على أنّ لي منه الأذى ولك الأجر ثم لطف الله تعالى وعجّل خبر العافية المأمولة والصحة المقبلة عقيب الدّعوات المقبولة فيا لها مسرّة شملت ومبرّة كملت وتهنئة جمعت قلوب الأودّاء وجملت وأعضاء فدتها عيون المها فنقلت عنها صفات السّقام وحملت وعافية حوّلت إلى قلوب الأعداء المرض وجوهر جسدٍ طاهرٍ زال عنه بأس العرض فهنيئاً له بهذه الصحة المتوافرة الوافية والحمد لله ثم الحمد لله على أن جمع بين حصول الأجر ووصول العافيه وعلى أن حفظ ذاته الكريمة وحفظها هو المقدمة الكافية الشافيه: وتقاسم الناس المسرة بينهم قسماً فكن أجلهم قسما أنا! والله تعالى يسبغ عليه ظلال نعمهو ويحفظه حيث كان في نفسه وأهله وخدمه وكما سر الأحباب بخبر عافيته كذلك يسرهم بعيان مقدمه.

أجوبة التهنئة بالإبلال من المرض والعافية.

قال في " موادّ البيان ": أجوبة هذه الرّقاع يجب أن تكون مبنيّةً على وصف الألم وصورته وما تفضّل الله تعالى به من إماطته وشكر المهنّي باهتمامه وعنايته.

وهذه أمثلة من ذلك: من زهر الربيع: أدام الله نعمته وشكر منّته وأدال دولته وأعلى قدره وكلمته وحتّم على الألسنة شكره والقلوب محبّته ولا زالت التهاني من جهته وافدة والبشائر واردة.

وينهي ورود الكتاب الذي أعدّته يد المعالي فعاد كريماً وشاهد حسن منظره فصار وجهه وسيماً وأنه وقف عليه وأحاط علماً بكّل ما أشار المولى إليه فذكّره أنساً كان بخدمته لم ينسه وجدّد له وجداً ما زال يجد في قلبه ونفسه عينه ونفسه ونشر من مآثره المأثورة وفضائله المرقومة في صفائح الصّحائف المسطورة ما شنّف به وشرّف وشوّق إلى لقائه وشوّف وأقام البرهان على ذكيّ فطنته وزكيّ فطرته وعلم ما أنعم به وتفضّل وأحسن وتطوّل من تهنئة المملوك بالإبلال من مرضه والبرء من سقمه والتخلّص من يدي وجعه وألمه وسرّ بورود كريم مشرّفته أعظم من سروره بلباس ثوب عافيته وبداوم مجده وسعادته أكثر من صحّة مزاجه واستقلمته فإنّ مكارم المولى كالحدائق النّاضرة ومنزلته أعز في القلوب من الأحداق الناظرة.

فالحمد لله الذي منّ بالعافية من ذلك المرض والداء الذي ألمّ بعرضيه فاحتوى منهما على الجوهر والعرض وطال حتّى أسأمه من نفسه وعوّاده وآيسه من الحياة لولا لطف الله والله لطيفٌ بعباده وهذا ببركة المولى ودعائه الذي كان يرفعه والخواطر والأسماع مع بعد الشّقّة تشهد به وتسمعه جعل الله التهاني مع الأبد واردةً منه وإليه وشكر إنعامه وأتمّ نعمته عليه إن شاء الله تعالى.

قلت: وكتبت للمقرّ العلائيّ علاء الدين الكركيّ وهو يومئذ كاتب السّرّ الشريف في الدولة الظاهرية برقوق في سلطنته الثانية وقد برأ من مرض نظماً " بسيط ".

فاستبشرت بعليّ القوم شيعته ومات حاسده بالسّقم والمرض الضرب التاسع التهنئة بقرب المزار الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي: قرّب الله مزاره وأدنى جواره وأعان أعوانه ونصر أنصاره ولا زالت الأنفس لقربه مسرورة ورايات مجده في الملأ الأعلى وأحزاب الإسلام بهيبته على أعداء الدّين منصوره.

المملوك يقبّل الباسطة العالية بسط الله ظلّها وشكر على الأولياء فضلها وينهي أنه اتّصل به طيّب أخباره وقرب مزاره فتضاعف شوقه وتزايد توقه وهيّجت صبابته لاعجه وسهّلت إلى نيل المسرّة طرقه ومناهجه " وافر ": وأبرح ما يكون الشّوق يوماً إذا دنت الدّيار من الدّيار فالله يقرّب من أمد التّلاقي بعيداً ويجعل رداء الاجتماع بخدمته قشيباً جديداً.

الضرب العاشر التهنئة بنزول المنازل المستجدّة فمن ذلك من إنشاء عليّ بن خلف أشرف المنازل رقعة وأترفها بقعة وأرفعها رفعة ما اتّخذه مولانا لنفسه موطناً وجعله بنزوله فيه حرماً آمناً وصيّره بمخصب مكارمه للعفاة مراداً ومقصداً وبمعذب نوافله للظّماة مشرعاً وموردا وللسّؤدد بمجده معقلاً وللرّياسة بشرفه منزلاً والله تعالى يجعل هذه الدار التي تديّرها وحلّها وحطّ بها رحله ونزلها مأهولةً ببقائه آنسةً بسبوغ نعمائه عامرةً بسعادته مشيدةً بتناصر عزّه وزيادته لا تخطئها حوائم الآمال ولا تتخطّاها ديم الإقبال ويعرّفه من بركتها ويمن عتبتها ما يقضي بامتداد الأجل وانفساح الأمل وبلوغ الأماني واتّصالا التّهاني بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك: وينهي أنه قد اتّصل بالمملوك تحوّل مولانا إلى المنزل المنشأ الجديد ذي الطالع السعيد والطائر الحميد فسألت الله تعالى أن يبوّئه منه المبوّأ الكريم ويمتّعه فيه بالدّعة والنّعيم والنّماء والمزيد والعيش الرّغيد ويجعله واصلاً لحبله مأهولاً بأهله ويعرّفه بركة عتبته ويملّيه ببهائه ونضارته وحصل للمملوك السّرور بأن بلّغه الله الوطر في سكنى ما عمر وأناله الأمل والالتذاذ بخدمته والسّرور بافتضاض عذرته إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك: مولانا - أمتع الله بوجوده - غنيّ عن الهناء بمنزلٍ ينزله ومحلٍّ يحلّه إذ الله سبحانه وتعالى قد كثّر أوطانه وأدره وبلّغه في تمام عمارتها وانفساحها وطره وخصّه بأفضلها معاناً وأشرفها مكاناً والمستوجب في الحقيقة للهناء هو الموضع - الذي اختاره داراً وارتضاه مستقرّاً وعرف المملوك انتقاله - لا زال يتنقّل في بروج السّعد ويأوي إلى ظلٍّ ظليلٍ من المجد إلى الدار الفلانية لا زالت جامعةً لشمله مأنوسةً بأهله فعدل عن خدمته بالهناء إلى إخلاص الدّعاء بأن يعرّفه الله تعالى يمنها وبركتها ويريه إقبالها وسعادتها ويقرن تحوّله إليها بأيمن طائر وأبرك طالع فإنّ للحركات أوقاتاً محمودة ومذمومة فإذا اعتنى الله تعالى بعبدٍ من عبيده وفرض له نصيباً من تأييده وفّقه للحركة في الزّمن السعيد والوقت الحميد لتكون مصايره مشاكلةً لمباديه وأعجازه مشابهةً لهواديه والله تعالى يجعل بابها محطّاً للقصّاد ومناخاً للوفّاد ومزاراً للعفاة وملاذاً للعناة ويصل بها حبله و ينشي بها طفله ويضاعف باستيطانها أنسه ويسر بتبوّئها نفسه إن شاء الله تعالى.

أبو الفرج الببغاء: أسعد المنازل وأشرف المواطن ما استوطنه أيّده الله وتبوّاه وتخيّره لنفسه وارتضاه فغدا بشخصه وطن الإقبال وبفائض كرمه حرم الآمال وبشرفه للسّؤدد معقلاً وبنبله للرّياسة منزلاً فعرّفه الله يمن هذه الدار المعمورة بحلول البركات المحفوفة بتناصر السّعادات وجعلها وكلّ ربع يقطنه ومحلٍّ يسكنه مبشّراً بامتداد بقائه وآهلاً بالزّيادة في نعمائه.

وله في مثله: كلّ وطن يحلّه - أيّده الله - ويقطنه ومحلٍّ يتخيّره ويسكنه مقصودٌ بالشّكر والثناء آهلٌ بالحمد والدّعاء لا يتخطاه متوارد الآمال ولا تنقطع عنه موادّ الإقبال ولذلك صار هذا المنزل السعيد من فضائل الأرض ومحاسنها ونجع الآمال ومعادنها فعرّفه الله يمنه وبركته وإقباله وسعادته وقرن انتقاله إليه بأسبغ نعمة وأكمل سلامة وأبسط قدرة وأعلى رتبة.

وله في مثله: عرّفه الله من بركة هذا المنزل المورود والفناء المقصود ما يوفي على سالف ما أولاه من تكامل البركات وتناصر السّعادات وجعل مستقرّه فيه مقروناً بنموّ الحال وتتابع الإقبال في أفسح المدد أطولها وأنجح المطالب وأفضلها وعمر أوطان المكارم بإقباله وعضّد الأمانيّ باتّساع نعمائه.

أجوبة التهنئة بقرب المزار ونزول المنازل المستجدّة.

قال في " موادّ البيان ": أجوبة هذه الرّقاع يجب أن تبنى على الاعتداد للمهنّي بتعهّده والشكر له على تودّده والابتهاج بهنائه والتبرّك بدعائه وأن المستجدّ غير مباينٍ لمنزله ولا خارجٍ عن أحكام محله وأنّ تمام بركته أن يؤنس فيه بزيارته وما يشابه هذا.

الضرب الحادي عشر نوادر التهاني وهي خمسة أصناف الصنف الأوّل: تهنئة الذمّي بإسلامه.

فمن ذلك ما رواه أبو الحسين بن سعد في ترسّله وهو: وما زالت حالك ممثّلة لنا جميل ما وهب الله فيك حتّى كأنّك لم تزل بالإسلام موسوماً وإن كنت على غيره مقيماً وقد كنّا مؤمّلين لما صرت إليه ومشفقين لك مما كنت عليه حتّى إذا كاد إشفاقنا يستعلي على رجائنا أتت السعادة فيك بما لم تزل الأنفس تعد منك ونسأل الله الذي نوّر لك في رأيك وأضاء لك سبيل رشدك أن يؤهّلك لصالح الأعمال وأن يؤتيك في الدنيا حسنةً ويقيك عذاب النار.

ومن ذلك من كلام أبي العيناء: ولتهنئتك نعمة الله عليك في أخوّة المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان والحمد لله الذي فوّز قدحك وأعلى كعبك وأنقذ من النار شلوك وخلّصك من لبس الشّك وحيرة الشّرك فأصبحت قد استبدلت بالأديار المساجد وبالآحاد الجمع وبقبلة الشام البيت الحرام وبتحريف الإنجيل صحّة التنزيل وبأوثان المشركين قبلة الموحّدين وبحكم الأسقفّ رأس الملحدين حكم أمير المؤمنين وسيّد المرسلين فهنأك الله ما أنعم به عليك وأحسن فيه إليك وذكّرك شكره وزادك بالشّكر من فضله.

أجوبة التهنئة بإسلام ذمّي.

قال في " موادّ البيان ": أجوبة هذه الرّقاع يجب أن تكون مبنيّة على شكر المهنّأ للمهنّيء واعترافه بنعمة الله تعالى عنده وابتهاجه بممازجته في الدّين الذي جعل الله أهله إخواناً متصافين وخلاّناً متوافين ومنّ عليهم به وبإماطة الحسائف من قلوبهم ونحو هذا.

الصنف الثاني: التهنئة بالختان وخروج اللّحية.

فمن ذلك تهنئةٌ لأميرٍ بختان ولديه: فمن خصائص ما حباه الله بعد الذي قدّم له في نفسه نفّس الله مدّتها ووسّع مهلتها وأفنى الأعداد دون فنائها والأعمار دون تصرّمها وانتهائها من الفضائل المشهورة والمحاسن المذكورة والمناقب المأثورة وأقسام الفضل الذي ينتهي دون تصرّم منزله وصف الواصف إذا أفرط وينتهي دون أيسرها أمل الآمل إذا اشتطّ ما وهب الله له من أولادٍ سادةٍ فضّلهم في الأخلاق والصّور وأكملهم في الأجساد والمرر وقدّمهم في العقول والأفهام والقرائح والألباب ولم يجعل للمعيب فيهم سيمة ولا للإناث بينهم شركة حتّى يكون مسلّماً لهم قصب العلا والمفاخر وصدور الأسرّة والمنابر من غير منازع ولا مقارع ولا مساهم ولا مقاسم وزادهم من النّماء في النّشء والبركة واليمن بما يؤذن الحاضر منه بالغابر ويدلّ البادي على الآخر وعداً من الله تعالى ذكره لهم بأوفى السعادات وأكمل الخيرات وأعلى الدرجات أرجو أن يجعل الله النّجح

قرينه والنجاة ذريعته وما أولاه فيهم في هذه الحال الحادثة التي يعدق الله بها أداء الفريضة وكمال الشريعة ويقع التطيّر بالختان الذي جعله الله من شروط الإيمان وفرضه على جميع الأديان من السّلامة على عظم الخطر وشدّة الغرر في إمضاء الحديد على أعضاءٍ ناعمة وإيصال الألم إلى قلوبٍ وادعة لم تقارع نصباً ولم تعان وصباً واجتمع فيه إلى رقّة الصّبا وضعف الأسر والقوى اعتياد الرحمة ومخالفة الترّفه والتنقّل بين الشهوات على أن كلّ واحد من الأميرين شهد المعركة أعزل حاسراً وباشر الحرب مغرّراً مخاطراً فثبت لوقع السّلاح وصبر على ألم الجراح وأبلى بلاء الفارس المدجّج والكميّة المقنّع ثم خرج خروج شبل الليث وفرخ العقاب كالقدح المعلّى والشّهاب الساطع والنّجم الثاقب وكان فلان أكثرهما تغيّراً في وجه قرنه وسطوةً على منازله وكلٌّ قد حصّل فوق الخصل وحوى فضيلة السّبق واسحقّ اسم البأس والشّدة وحلية البسالة والنّجدة.

ومن ذلك ما أورده أبو الحسين بن سعد في كتابه: الحمد لله الذي كساك باللّحية حلّة الوقار وردّاك رداء ذي السّمت من الأبرار والأخيار وصانك عن ميسم الصّبا ومطامع أهل الهوى بما جلّلك من اللحية البهيّة وألبسك من لباس ذوي اللّبّ والرّويّة وألحقك في متصرّفاته بمن يستقلّ بنفسه ساعياً ويستغني عمّن صحبه حافظاً وجعل ما جمّل من صورتك وكمّل من أداتك وآلتك قرنا ًلمن جاء بسدادك وجارياً مجرى كملة الرجال على الجملة إلى أن يكشف الله مخابرك بالمحنة وتعطى المهابة من الدّاعر العادي ومن السّبع الضاري ولو كان عارياً من هذه الكسوة الشريفة والحلية الملحوظة لسيقت إلى الازدراء بالأعين والاستصغار بالقلوب والألسن أصناف الحيوان من البهيمة والإنسان ثم لا يحسّ من نفسه قوّةً على الدّفع عنها ولا من صرعته ثباتاً على يدها فيه.

وتلك نعمةٌ من الله جل وعزّ حباك بمرتبتها في جمال غشاك وكمالٍ أتاك فليصدّق بها اعترافك وشكرك وليحسن ثناؤك ونشرك قضاءً لحق الله عليك واستدراراً في المزيد من إحسانه إليك.

أبو الفرج الببغاء: في ذكر الله سيدي بهذا العارض - أماطه الله وصرفه وجعل صحة الأبد خلفه - ما دلّ على ملاحظته إيّاه بالعناية إيقاظاً له من سنة الغفلة إذ كان تعالى لا يذكّر بطروق الآلام وتنبيه العظات غير الصّفوة من عباده الخيرة من أوليائه فهنأه الله الفوز بأجر ما يعانيه وحمل عنه بألطافه ثقل ما هو فيه وأعقب ما اختصّه من ذخائر المثوبة والأجر بعافيةٍ تقتضيه ولا سلب الدنيا جمال بقائه ولا نقل ظلّه عن كافة خدمه وأوليائه.

الصنف الرابع: التهنئة بالصّرف عن الولاية.

أبو الفرج الببغاء: من حلّ محلّه - أيّده الله تعالى - من رتب الرّياسة والنّبل كان معظّماً في حالتي الولاية والعزل لا يقدح في قدره تغيّر الأحوال ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقّل الأعمال إذ كان استيحاشها للفائت من بركات نظره بحسب أنسها كان بما أفادته من محمود أثره فهنأه الله نعمة الكفاية وأوزعه شكر ما احتازه من النزاهة والصيانة ولا أخلاه من التوفيق في سائر متصرّفاته والخيرة الضامنة لعواقب إرادته.

وله في مثله: لو كان لمستحدث الأعمال ومستجدّ الولايات زيادةٌ على ما اختصّك به من كمال الفضل ومأثور النّبل لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاّه بمحمود كفايتك وتحوطه بنواظر نزاهتك وصيانتك غير أنّ الله تعالى جعلك بالفضل متقمّصاً وبالمحاحد متخصصاً فالأسف فيما تنظر فيه عليك لا منك والفائدة فيما تتقلّده بك لا لك ولذلك كنت بالصّرف مهنّأ مسروراً كما كنت في الولاية محموداً مشكوراً فلا أخلاك الله من تواصل آلائه وتظاهر نعمائه في سائر ما تبرمه وتمضيه وتعتمده وترتئيه.

أبو الحسين بن سعد عمّن تولّى عملاً إلى من صرف عنه: قد قلّدت العمل بناحيتك فهنأك الله تجديد ولايتك وأنفذت خليفتي لخلافتك فلا تخليه من تبصيرك وهدايتك إلى أن يمنّ الله بزيارتك.

تهنئة بصرف عن ولاية: لو كانت رياسة سيّدي مجنيّةً من عروش الولايات وسيادته خارجةً عن سانح التصرّفات لأشفق أولياؤه من زوالهما بمزايلتهما وحذروا من انتقالهما بنقلهما لكن ما وسم به من الكمال وعلا به من رتب الجلال موجودٌ في غريزته وجود الفرند في السيف المأثور واللألاء في النور وإذا تصرّف أورد الله الرعيّة من مشارعها نطافاً وأسبغ عليهم من ظلّها عطافاً وإذا انصرف فخيرٌ مسبلٌ تقلّص وعيشٌ رائعٌ تنغّص والأسف على العمل السليب من حلل سياسته الفاضلة العاطل بالعزل مبتهجاً مسروراً كما كان في الولاية محموداً مشكوراً وانطلقت ألسنة -من حلى سيرته العادلة ولهذا أصبح - أيّده الله أوليائه في هنائه بما وهبه الله من الرّفاهية والدّعة وحطّه عنه من الأثقال المقلقة ولا سيّما وقد علم الخاصّ والعامّ أنّ العمال إذا ردّت إليه وعوّل فيها عليه تسلّم المودع وديعته والناشد ضالّته وإذا عدل فيها إلى غيره تناولها تناول الغاصب واستولى عليها

استيلاء السّالب فلا تزال نازعةً إلى ربّها متطلّعةً إلى خطبها حتّى تعود إلى محلّها وترجع إلى نصلها والله تعالى أسأل أن يقضي لمولانا ببلوغ الأوطار إن أجوبة التهنئة بالصرف عن الولاية والخدمة.

قال في " موادّ البيان ": يجب أن تكون أجوبتها مبنيّة على شكر الاهتمام والاعتداد بالمشاركة في الأحوال مع وقوع ما ورد من الخطاب الموقع اللطيف وما ينتظم في هذا السلك.

جواب من ورد عليه كتابٌ من ولي مكانه في معنى ذلك.

فمن ذلك: ما انصرفت عنّي نعمةٌ أعديت إليك ولا خلوت من كرامةٍ اشتملت عليك وإنّي لأجد صرفي بك ولايةً ثانية وحلّة من الوزر واقية لما آمله بمكانك من حميد العاقبة وحسن الخاتمة.

الصنف الخامس: تهنئة من تزوجت أمّه بزواجها.

قد تقدّم في أوّل المقالة الأولى في حكاية حائك الكلام مع عمرو بن مسعدة وزير المأمون أنه قال: يكتب إليه: أما بعد فإنّ الأمور تجري على خلاف محابّ المخلوقين والله يختار لعباده فخار الله لك في قبضها إليه فإن القبور أكرم الأكفاء والسلام.

أبو الفرج الببغاء: وقد أمره سيف الدولة بن حمدان بالكتابة في معنى ذلك امتحاناً له: من سلك إليك - أعزّك الله - سبيل الانبساط لم يستوعر مسلكاً من المخاطبة فيما يحسن واتّصل بي ما كان من خبر الواجبة الحقّ عليك المنسوبة بعد نسبتك إليها إليك - وقّر الله صيانتها - في اختيارها ما لولا أنّ الأنفس تتناكره وشرع المروءة يحظره لكنت في مثله بالرضا أولى وبالاعتداد بما جدّده الله في صيانتها أحرى فلا يسخطنّك من ذلك ما رضيه وجوب الشّرع وحسّنه أدب الدّيانة ومباح الله أحقّ أن يتّبع وإيّاك أن تكون ممن لمّا عدم اختياره تسخّط اختيار القدر له والسلام.

النوع الثاني من مقاصد المكاتبات التّعازي قال في " موادّ البيان ": المكاتبة في التعزية بالأحداث العارضة في هذه الدنيا واسعة المجال لما تتضمّنه من الإرشاد إلى الصّبر والتسليم إلى الله جلّت قدرته وتسلية المعزّى عما يسلبه بمشاركة السابقين فيه ووعده بحسن العوض في الجزاء عنه إلى غير ذلك مما ينتظم في هذا المعنى.

قال: والكاتب إذا كان جيّد الغريزة حسن التأتّي فيها بلغ المراد.

ثم قال: وحكمها حكم التّهاني من الرئيس إلى المرؤوس ومن المرؤوس إلى الرئيس ومن النظير ثم التعزية على أضرب: الضرب الأوّل التعزية بالابن أبلغ ما كتب به في ذلك ما كتب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى معاذ بن جبل معزّياً بابنٍ له مات فيما ذكره أبو الحسين بن سعد في ترسّله وأبو جعفر النّحاس في صناعة الكتّاب وهو: " من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل: سلامٌ عليك فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو.

أما بعد فعظّم الله لك الأجر وألهمك الصّبر ورزقنا وإيّاك الشّكر ثم إنّ أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنيّة وعوارفه المستودعة تمتّع بها إلى أجلٍ معدود وتقبض لوقتٍ معلوم ثم افترض علينا الشّكر إذا أعطى والصبر إذا ابتلى وكان ابنك من مواهب الله الهنيّة وعوارفه المستودعة متّعك به في غبطةٍ وسرور وقبضه منك بأجرٍ كثير: الصلاة والرحمة والهدى إن صبرت واحتسبت فلا تجمعنّ عليك يا معاذ خصلتين: أن يحبط جزعك صبرك فتندم على ما فاتك فلو قدمت على ثواب مصيبتك قد أطعت ربّك وتنجّزت موعده عرفت أنّ المصيبة قد قصرت عنه.

واعلم أنّ الجزع لا يردّ ميّتاً ولا يدفع حزناً فأحسن الجزاء وتنجّز الموعود وليذهب أسفك ما هو نازلٌ بك فكأن قد ".

من كلام المتأخرين: تعزيةٌ بولد من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وهي بعد الألقاب.

وأحسن عزاءه بأعزّ فقيد وأحبّ حبيبٍ ووليد وعوّض بجميل الصبر جوانحه التي سئلت عن الأسى فقالت: ثابتٌ ويزيد.

صدرت هذه المفاوضة تهدي إليه سلاماً يعزّ عليه أن يتبع بالتعزية وثناءً يشقّ عليه أن يطارح حمائم سجعه المطربة بحمائم الشّجو المبكية المنكية وتوّضح لعلمه ورود مكاتبته المؤلمة فوقفنا عليها إلا أنّ الدمعة ما وقفت وخواطر الإشفاق عليه وعلى من عنده طفت حرقها وما انطفت وعلمنا ما شرحه ولم يشرح الصّدر على العادة من وفاة الولد فلان سقى الله عهده ولحده ونضّر وجهه وتغمّد بالرضوان خاله وخدّه وما بقي إلاّ التمسّك بأسباب الصبر والتفويض إلى من له الأمر والدّنيا طريقٌ والآخرة دارٌ ودهليزها القبر وللمرء من تثبّته وازع والاجتماع بالأحبّة الراحلين واقع أن لم يصيروا إلينا صرنا إليهم وإن لم يقدموا في الدار الفانية علينا قدمنا في الدار الباقية عليهم نسأل الله تعالى أن يجمعنا في مستقرّ رحمته ويحضرنا مع الأطفال أو مع المتطفّلين ولائم جنّته والله تعالى يدارك بالصبر الجميل قلبه ولا يجمع عليه فقد الثواب وفقد الأحبّة.

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي: رزقه الله تعالى ثباتاً على رزيّته وصبراً وجعل له مع كلّ عسرٍ يسراً وأبقاه مفدّىً بالأنفس والنّفائس وكان له أعظم حافظٍ من نوب الدهر وأجلّ حارس.

المملوك ينهي علمه بهذه النازلة التي فتّتت القلوب والأكباد وكادت أن تفرّق بين الأرواح والأجساد وأزالت ذخائر العيون وابتذلت من المدامع كلّ مصون وأذابت المهج تحرّقاً وتلهّباً وجعلت كلّ قلب في ناري الأسى والأسف متقلباً وهي وفاة ولده الذي صغر سنّه وتزايد لفقده همّ المملوك وحزنه " طويل ".

ونجلك لا يبكى على قدر سنّه ولكن على قدر المخيلة والأصل وكان الأمل يحدّث بأنه يشدّ للمولى أزره ويشرح ببرّه صدره ويؤصّل مجده ويبقي الذكر الجميل بعده ففقد من بين أترابه وذوى عندما أينع غصن شبابه وغيّب منظره الوسيم في لحده وترابه وسيّدنا يعلم أنّ الموت منهل لابدّ من ورده وابن آدم زرع لابدّ من حصده وأنّ المنية تشمل الصغير والكبير والجليل والحقير والغنيّ والفقير فينبغي له استعمال صبره والاستبشار بمضاعفة أجره والله يمتّعه بأهله وطول عمره.

وله " كامل ": لهفي وما لهفي عليك بنافع! كلاّ ولا وجدي ولا حرقاتي يا من قضى فقضى سروري بعده وتحدّرت أسفاً له عبراتي عقد التجلّد حلّها فرط الأسى والقلب موقوفٌ على الحسرات لو كنت ممّن يشترى أو يفتدى لفديت بالأرواح والمهجات كنت المعدّ لنصرتي في شدّتي فقضى الحمام بفرقةٍ وشتات والله لا أنسيت ندبك والبكا أبداً مدى الأنفاس واللّحظات ويسوءني أن عشت بعدك ساعة أسفاً لفقدك ميّتاً وحياتي أعظم الله أجر مولانا ومنحه صبراً جميلاً وأجراً جزيلاً وثناءً عريض الشّقة لثباته على هذه الفادحة طويلاً وجعل هذه الرزيّة خاتمة الرّزايا وممحّصة جميع الذنوب والخطايا ولا فجعه بعدها في قرّة عين ولا أورد محبوباً شغف به قلبه الكريم منهل الحمام ولا سقاه كأس الحين.

وينهي إلى العلم الشريف علمه بهذه المصيبة التي أصابت فؤاد كلّ محبٍّ فأصمته وطرقت سمع كلّ وليّ فأصمّته وولجت كلّ قلبٍ فأحرقته صبابةً وحزناً ومرّت على الصّلد فصدّعته ولو كان حزناً وهي وفاة فلان سقى الله عهده وأسكن الرحمة ثراه ولحده فشّق أسفاً على المفقود جيب كلّ جنان وطوى الأكباد على جراحها وحسّر الأجساد على أرواحها " طويل ".

وما هي إلاّ نكبةٌ أيّ نكبةٍ أهاجت سعيراً في الحشا يتلهّب! فلا جسم إلاّ بالتحرّق ذائبٌ زاد عدّالي العتاب وأطنبوا ولهذا أصدر المملوك هذه المطالعة يدعو لمولانا فيها ويعزّيه ويندب فقيده بألسنة الأقلام ويبكيه ويبشّره بما وعد الله الصابرين على مثل هذه الرّزية ويسّليه فيا لها نازلةٌ فجعت بغصنٍ رطيب وقمرٍ يرفل من الشّبيبة في ثوبٍ قشيب وصدعت القلوب بفقد حبيبٍ وأيّ حبيب " سريع ".

والموت نقادٌ على كفّه جواهر يختار منها الجياد وبعد فللمملوك في هذه الرزيّة مشاركة كادت تباين بين روحه والجسد وهو المصيب لهذه المصيبة ما تجده الوالهة على فقد الولد لا يستقرّ به قرار ولا ينجيه من يد الحزن فرار دأبه البكاء والعويل وحزنه العريض الطّويل فواضعفاه عن حمل هذا المصاب ووااسفاه على مسافرٍ لا ينتظر له قدومٌ ولا إياب وواعجباه لضدّين اجتمعا لوالده الكريم الجناب " طويل ".

تخون المنايا عهده في سليله وتنصره بين الفوارس والرّجل وعلى كلّ حالٍ فهو أجدر من استعان على هذه الحادثة بصبره وشرح لما قد قدّر فسيح صدره وشكر الله على حلو القضاء ومرّه فما كان إلاّ أحد العمرين فقد فخلفه عمر وثاني القمرين أفل فقام مقامه هلالٌ قدم من سفر وفي بقاء المولى ما يوجب التسليم للقدر والقضاء والشكر لله تعالى في حالتي الشّدّة والرّخاء جعله الله في حرز لا يزال حريزاً مكيناً وحصن على ممرّ الأيام حصيناً.

وله: أعظم الله أجره وأطال عمره وشرح صدره وأجزل صبره وسخّر له دهره.

المملوك ينهي أنه اتّصل به خبرٌ صدع قلبه وسرق رقاده ولبّه وضاعف أسفه وكربه وهو موت فلان تغمّده الله برحمته وأهمى عليه سحائب مغفرته وعامله بلطفه وجعل الخيرة له في حتفه فشّق ذلك قلبه وعظم عليه وقارب لشديد حزنه أن يصل إلى ما وصل المرحوم إليه لكنّه ثبّت نفسه وثبّطها ورفع يده بالدعاء للمولى وبسطها وسأل الله أن يطيل بقاءه ويحسن عزاءه ويحرسه من أزمات الزمان فإنه إذا سلم كان الناس في السّلامة والأمان ويجعله عن كل فائتٍ عوضاً كما أصاره جوهراً وجعل غيره من الأنام عرضاً ولقد جلّت هذه الرزيّة على كلّ جناب ودخل حزنها إلى كلّ قلبٍ من كلّ باب جعل الله أجره للمولى من أعظم الذّخائر ومنحه الحياة الأبديّة التي لا تنتهي إلى أمدٍ ولا آخر إن شاء الله تعالى.

الضرب الثاني التعزية بالبنت من كلام المتقدّمين ابن أبي الخصال المغربي: الشيخ فلان عزّاه الله على احتسابه وجعل الثواب المرتقب أفضل اقتنائه واكتسابه.

معزّيه عن فلذة كبده ومساهمه في أرقه وسهده والفاتّ في عضد صبره الجميل وجلده فلان: فإنّي كتبته - كتب الله لكم خيراً يذهب جزعكم وحسّن منجاكم بالتفدّي الجميل ومنزعكم - عندما وصلني وفاة ابنتكم المرحومة نفعها الله بإيمانها وتلقّاها بروح الجنّة وريحانها وهي: - أعزّك الله - وإن آلمك فقدها وأوجعك أن استأثر بها لحدها فليعزّك عنها مصابنا بنبينا عليه السلام وعلمك بأنّا جميعاً بمدرجة الحمام أفتجد على الأرض خالداً وقديماً ثكلنا ولداً نجيباً ووالداً فمن خلق للفناء واختلس بمرّ الساعات والآناء جديرٌ أن يتّعظ بنفسه ولا يحزن لذهاب من ذهب من ذوي أنسه فاحمد الله عزّ وجلّ إذ رجّحت ميزانك وضمنت لك يوم المعاد جنابك والله عزّ وجلّ يرزقنا احتساباً جميلاً وصبراً ويؤنسك وقد اختار لك الصّهر قبراً ويعظّم لك ثواباً جزيلاً على مصابك وأجراً ويعمّ فقيدتك بالرّحمى ويسكب على جدثها مزنها الأوكف الأهمى ويؤويك إلى كنفه الأعظم الأحمى بمنّه ورحمته لا ربّ غيره والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

الضرب الثالث التعزية بالأب من كلام المتقدمين ابن أبي الخصال معزّياً بوزير: يا سيّدي وواحدي ومحلّ الابن المبرور والأخ المشكور عندي أعزّك الله بالتقوى ورضّاك بما قضى وأمدّك بالنّعمى وشملك بالحسنى.

أعزك الله - وقد وصل كتابك الكريم بما نفذ به القدر الذي هو في العباد حتم وله في كلّ عنق ختم في الوزير الفقيه -كتبته الشهيد أبيك كان رحمه الله وأكرم مثواه وجعل الحسنى التي أعدها لأوليائه مقرّه ومأواه فأسفت كلّ الأسف لفقدانه وقد كان عين زمانه وعمدة إخوانه تغمّده الله بغفرانه ونقله إلى رضوانه وتلك - أعزك الله - غاية الأحياء وسبيل الأعداء والأحبّاء كان على ربّنا - جلّ وعلا - حتماً مقضّياً ووعداً مأتياً والأسوة - أعزك الله - في غمرة الفضفاض وبرّه الفيّاض وأنه ختم له بالخير والانقباض وكان آخر ذلك الحسب القديم والجيل الكريم وقد أمرك الخير فافعل ما أمرت به وكن كما ظنّك وقدّرك وتركك وإنك بفضل الله تسدّ مسدّه وتبلغ في كلّ فضيلةٍ حضره السابق وشدّه وتعدّ للأيام في الجدّ والاعتزام ما أعدّه وإخوتك - أعزك الله - لك أظهارٌ وأعضاد وفيهم غزو مضادّ فاشتمل عليهم وارفق بهم فإنهم ينزلونك منزلة أبيهم وتجد أخلاقه وعونه فيهم.

وأما ما أعتقده من تكريمك وأراه من تفضيلك وتقديمك فشيء تشهد به نفسك ويدركه يقينك وحدسك أشدّ به اعتناء وأجمل له استواء وأوفى عنك ردءاً وغناء جعلنا الله من المتحابّين في خلاله والمتقلبين في ظلاله وأمّنا من الزمان واختلاف أحواله بمنّه والسلام.

الضرب الرابع: التعزية بالأم أبو محمد بن عبد البر المغربي " منسرح ".

ما مات من أنت بعده خلفٌ والكلّ في البعض غير ممتنع كتب عبده القنّ من الأسى لأجله بعض مايجنّ المنطوي على قلبٍ تطمئن القلوب سلوّاً ولا يطمئن فلانٌ: بعد وصول كتابه الكريم بصدعٍ يصمي القلوب ويقدّ أقوياء الجيوب ويترك الأحباب مصرّعين على الجنوب فوقف العبد عليه مترقرق المدامع منحرق الأضالع رائياً سامعاً سجا الأبصار وأسى المسامع فيا أسفي لخطب ضعضع ركن الجدّ وكان وثيقاً وصوّح روض الفضل واكن وريقاً ونغّص حسن الصبر ولم يزل صديقاً وترك العبد خليقاً بهذا القول ومثله معه حقيقاً فآه لدين ومروءة فقدا في قرن وعلى صونٍ وعفاف أدرجا في كفن وحصانٍ رزانٍ لا تعرف بوصمة ولا تزنّ لقد أصمّ بها الناعي وإن كان أسمع وأرقّ ما شاء الفؤاد وأراق المدمع ولم يبق قلباً للصبر إلا صدعه ولا أنفاً للسّلوّ إلا جدعه ولا باباً للتعزّي إلا أرتجه ولا عقيماً للتأسف إلا أنتجه ولو قبل في الموت فداً وصحّ أن يؤخذ فيه فداءٌ لما خلص إليكم ولا ألمّ ولا عداكم في صروف المنايا المخيفة سلم لكن أبى الله إلا أن تعمّ الحرقة وتستولي على الوقت الفرقة.

الضرب الخامس التعزية بالأخ أبو محمد بن عبد البر: وكتبت والأنفس مرتمضة والعين غير مغتمضة والأنفاس تتصعّد والأحزان تتأكّد أسفاً للمصاب الذي عمّ وغمّ وأسمع نعيه فأصمّ وقال للفرح: كفّ من عنانك وللترح انتظر لأوانك بوفاة الفرد الذي في رأسه نور وسداد الآراء المختلفة وسداد الثغور والفذّ الذي شهد الرجال بفضله وعقم النساء فما تجيء بمثله أبي فلان صنوكم السابق الذي لا يجارى والشارق الذي لا يسارى والغيث الذي عمّ المنيل والمستنيل والليث الذي ورد الفرات زئيره والنّيل فإنّا لله وإنّا إليه راجعون! تسليماً للقدر وإن ساء وشمل المرؤوسين والرّؤساء فيا له مصاباً ترك كلّ رأس أميماً وأودع صميم كلّ فؤاد ثكلاً صميماً لقد أنصل السّمر اللّهاذم وأغمد البيض الصّوارم وعطّل الكتائب والمقانب وأوحش المفاوز والسّباسب ولم يبق مشيد علاً إلا هدّه ولا مديد ثناءٍ إلا صدّه.

ولم لا وهو الشخص يموت بموته بشر كثير ويبكيه قلمٌ وحسام ومنيرٌ وسرير وعند الله نحتسبه جميعاً ونوسعه بمحض الصّفاء وصفو الثناء توديعاً وتشييعاً ونفارقه فراق الصّدر خلده والمصاب جلده فوا أسفي لرزئه ما أفظعه موقعاً! ووا حربا ليومه ما أظلمه مطلعاً! ووا حزنا لنعيه ما أشنعه مرأى ومسمعا!!! فلئن جرت الدموع له دما وأضمرت الضلوع به مضطرما لما أدّت حقّه ولا كربت ولا دانت بعض الواجب فيه ولا اقتربت ولولا أنّ المنيّة منهلٌ لا يحلأ وارده ومعلم يهدي إليه على أهدى سمتٍ مباعده لم يبق في أنسٍ مطمع ولا لحزن مستدفع ولكان الثاكل غير ما ترى وتسمع وما أنتم أيّها الشيخ المكرّم ممن ينبّه على ذخر من العمل الصالح يكتسبه وصبرٍ في الرّزء الفادح يحتسبه فصبراً فالمنون غاية الممسين والمصبحين والنبأ الذي يعلم ذوقاً ولو بعد حين وهو تعالى المسؤول أن يرقع بمكانكم هذا الخرق المتّسع ويصل بجنابكم ذلك الثّمل المنصدع.

ابن أبي الخصال: الشيخ فلانٌ أبقاه الله يتلقّى الأرزاء يحسن الصبر وجميل الاحتساب ويتقاضى بالتعزي مرتقب الأجر ومنتظر الثّواب معزّيه في أخيه الكريم علينا العظيم مصابه الفادح لدينا فلانٌ: فإني كتبته - كتب الله لكم صبراً تجدون ذخره عندما وصل من وفاة الشيخ أخيكم رحمه الله تعالى ما كدّر العيش ونغّصه - وأوجب لكم عزاء تحمدون يوم القيامة شأنه وأمره وجشّم جرع الحمام المقطوعة وغصصه فإنّا لله وإنّا إليه راجعون!! استسلاماً لقدره وقضائه وأخذاً فيما يدني ويقرّب من إرضائه وما نحن إلا بنو الأموات الذين درجوا وسنخرج من الدّنيا كما قبلنا خرجوا جعلنا الله جميعاً ممن ينظر لمعاده ويجعل التقوى خير ما أوعاه بجداده وسلك بنا نهج هدايته وطريق رشاده.

وهو جلّ وعلا يجزل لكم على مصابكم ثواباً عميماً موفوراً ويجعل فقيدكم بين أيديكم في يوم القيامة نوراً ويلقّيه في دار الفردوس ملكاً كبيراً وحبوراً ولولا كذا لسرت إليكم لأعزيكم شفاها وأحدّثكم عن ضلوع أحرق هذا المصاب حشاها لكن امتثال أمره المطاع حمل على االبدار إلى ما أمر به والإسراع والله عزّ وجل يديم لنا بكم الإمتاع بمنّه وكرمه والسلام.

الضرب السادس التعزية بالزوجة من كلام المتقدمين أبو محمد بن عبد البر: وقد تقرّر عند ذوي الألباب وثبت ثبوتاً لا يعلّل بالارتياب أنّ الدنيا قنطرةٌ دائرة ومعبرة إلى الآخرة وأنّ ساكنها وإن طال عمره وطار في الخافقين أمره لديغ سمّها وصريع سهمها فما تضحك إلا لتبكي ولا تؤنس إلا لتنكي وقد نفذ القدر الذي ماله ردّ ولا منه بدّ بوفاة فلانة ألحقها الله رضوانه وأسكنها بفضله المرجوّ جنانه فإنّا لله وإنا إليه راجعون!! تأسيّاً بالسّلف الصالح وتسلّياً عن ماء الدمع السّافح وزند القلب القادح.

وعند الله نحتسبها عقيلةً معدومة المثيل مفقودة الدّين والعفّة في هذا الجيل متحلّية من دعاء الفقراء وثناء الصّلحاء بالغرّة الشادخة والتحجيل لقد ذهب لذهابها الرّفق والحنان وعدم لعدمها الشّم البرّة والأخلاق الحسان وإنّ فقدها لخرق لا يرقع وغلّة لا تنقع وخطبٌ لا يزال الدّهر يتذكّر فيصدع ولولا العلم بأن اللّحاق بها أمرٌ كائنٌ وأن المخلّف في الدّنيا لا محالة عنها بائن وأن التنقل للآخرة ما لا ننفكّ نسمعه ونعاين لما بقيت صبابة دمع إلا ارفضّت ولا دعامة صبر إلا انقضّت ولكان الحزن غير ما تسمع وترى والوجد فوق ما يجري وجرى لكن لا معنى لحزن لما يقع فيه الاشتراك ولا وجه لأسف على ما لا يصحّ فيه الاستدراك.

وما أنتم بحمد الله ممن يذكّر بما هو فيه أذكر ولا ممن ينبّه على ما هو بالتنبيه والمنزع وأحرى أن يكون الثواب جزيلاً والجزاء حسناً جميلاً والله يبقيكم أتمّ البقاء ويرقّيكم أتمّ الارتقاء.

ابن أبي الخصال: الشيخ الأجلّ فلان آنس الله وحشته وجددّ على فقيدته رحمته.

معزّيه عن أهله الهالكة وسكنه ومساهمه بأوجب حزنٍ في القلوب وأسكنه.

فلان: فإنا كتبناه عن دموع تصوب وتنسرب وضلوع تخفق من وجيبها وتضطرب وأنس يشرد منا ويحتجب بموت فلانة رحمها الله التي أودعت في جوانحنا من الثكل ما أودعت ورضّت أكبادنا بمصابها وصدعت عزّانا الله جميعاً فيها وأولاها نعيماً في الفردوس الأعلى وترفيها وأعقبنا من الوحشة أنساً وعمر بالرّحمى جدثاً مباركاً ورمساً وجعلنا كلاً ممن يردع عن الانحطاط إلى الدنيا نفساً بمنّه وكرمه.

من كلام المتأخرين: الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي: لمّ علم مملوك المجلس السامي أطال الله بقاءه وأعظم أجره وأحسن عزاءه وفاة السيدة المرحومة سقى الله عهدها عهداً يبلّ الثّرى وجعل الرحمة لمن نزلت به لها القرى تألّم لفقدها غاية الألم ووجد حرقةً كسته ثوبي ضنىً وسقم وحزناً لا يعبّر عنه بعبارة بيانه ولا يستوعب وصفه بلسان قلمه وبنانه " وافر ".

ولو كان النّساء كمن فقدنا لفضّلت النّساء على الرّجال والمولى أولى من عزّى نفسه واستحسن رداء الصبر ولبسه وعلم أنّ الموت غريمٌ لا ينجي منه كثرة المطال ولا يدافع بالأطلاب والأبطال وأنه إذا طالب بذمة كان ألدّ الخصام وإذا حارب فعل بيده ما لا تفعله الكماة بحدّ الحسام.

الضرب السابع التعازي المطلقة من ذلك من ترسّل أبي الحسين بن سعد: من صحب الأيام وتقلّب في آنائها اعتورته أحداثها واختلفت عليه أحكامها بين مسرّة ومساءة يعتقبان وفرحةٍ وترحة يتناوبان وكان فيما تأتيه من محبوبها على غير ثقةٍ من دوامه واتّصاله ولا أمنٍ من تغيره وانتقاله حتّى تعقب السلامة حسرة وتستيحل النعمة محنة والسعيد من وفّق في كلّ حالٍ لحظّه وأعين على ما فيه سلامة دينه من الشّكر على الموهبة والصبر على النازلة وتقديم حقّ الله تعالى في الغبطة والرّزيّة.

ولم تكن بالفجيعة به مفرداً عنّي وإن كان النّسب يقرّبه منك والرّحم تصله بك لما كنت أوجبه من حقّه وأرعاه من مودّته وأختصّه بالاعتداد فيه دون أداني أهلي والثّقة من إخواني فمضى رحمه الله أقوى ما كان الأمل فيه وأكمل ما كان عليه في لبّه وأدبه واجتماع فهمه وكمال هديه وانتظام أسباب الخير وأدوات الفضل فيه.

ومنه: لا ينكر للعبد أن يتناول مولاه عند وقوع المحنة في أهل خاصّته وتخوّن ريب المنون من حاشيته بالتعزية عن مصيبته والإخبار عما يخصّه من ألم فجيعته وعظم رزيّته لا سيّما إذا كان بحيث لا يرى شخصه في الباكين ولا تسمع صرخته بين المتفجّعين ولو سعيت على حدقتي.

إنّ الله تعالى أمر أهل طاعته بتنزيل هذه الدنيا بمنزلتها من إهانته وسوّى بين البرّ والفاجر في رغائبها ومصائبها ولم يجعل العطيّة دليلاً على رضاه ولا الرزيّة دليلاً على سخطه ولكنّه ألزم كلّ واحد من أهل الرّضا والسّخط من نعمها بنصيب وسقاهم من حوادثها بذنوب ليبتلي أهل رضاه في أهون الدارين عليه ويحسن لهم الجزاء في أكرمهما لديه ولذلك حبّب إليهم الزّهادة في زهيد فائدتها وممنوح زهرتها وسمّاها لعباً ولهواً لئلاّ يعلقوا بحطامها وينغمسوا في آثامها وختمها بالموت الذي كتبه على خليقته وسوّى بينهم في سكرته: " ليجزي الّذين أساءوا بما عملوا ويجزي الّذين أحسنوا بالحسنى " ويقرّبهم بدار يفنى الموت ويبقون فيها بعده كما فنوا في هذه الدار وبقي الموت بعدهم فإن تأخّر الأجل فإلى غاية وإن تطاول الأمد فإلى نهاية.

ولا بدّ أن يلحق التالي الماضي والآنف بالسالف وهذه حالٌ نصب الأفكار وتلقاء الأبصار لا تحتاج أن يرتاض الصبر على آلامها والتحمل لمعضلات سهامها والجزع عند وقوعها قادحٌ في البصائر والأفهام دالٌّ على الجهل بالليالي والأيام وقد طرق المملوك ناعي فلان فهدّ جلدي وفتّت كبدي لا ارتياعاً للحادثة لأنّها لو لم تكن فيه لكانت في المملوك ولو لم تتطرّق إليه لتطرّقت إلى المدرك ولكن الأسف على عطل الزمان من حيلة فضله وتعرّيه من حلّة نبله وخلوّا عراصه من الأنس بمثله وما نال سيّدي لفقده وتحمّله من بعده وإلى الله تعالى يرغب المملوك أن يربط على قلبه بالصبر ويوفقه لتنجّز ما وعد به الصابرين من الأجر إن شاء الله تعالى.

عليّ بن خلف: رقعة: ليس عند المصيبة - أطال الله بقاء سيّدي - خيرٌ من التسليم إلى الله والرّضا بقضائه والصبر على بلائه فإنه تعالى مدح الصابرين في كتابه ووعدهم بصلواته فقال جلّ قائلاً: " الّذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون أولئك عليهم صلواتٌ من ربّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون ".

.وقال جلّ قائلاً: " وبشّر المخبتين الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصّابرين على ما أصابهم "

ولم تزل الأولياء من القدماء يحضّون على الصبر وهم لا يرجون عليه ثواباً وينهون عن الجزع ولا يخافون عليه عقاباً.

ومن عرف الأيّام وتداولها والأحوال وتحوّلها وسّع صدره للنوائب وصبر على تجرّع المصائب ومن اغترّ بطول السّلامة وطمع في الاستمرار والإقامة.

رقعة: وقد اتّصل بالمملوك خبر الفجيعة بفلان فأفيضت المدامع وتضعضت الأضالع وزفرت الأنفاس وهمدت الحواسّ وأذاب الطرف سواده على الوجنات بدلاً من الأنقاس وخلعت القلوب سويداءها على الأجساد عوضاً عن جلابيب الحداد وعضّت الأنامل جزعاً ومزّقت الثياب تفجّعاً وتوجّعاً وكل هذا وإن فارق حميد التّماسك ووافق ذميم التّهالك غير موفٍ بحقّ ذلك الدارج الذي بلغ المعالي وهو في مهده وشدّ عائم الفضل ولم يبلغ أوان رشده وعلم سيدي أنّ غاية الجازع وأن صدعت المصيبة قلبه وأطاشت الفجيعة لبّه الصبر والسّلوّ وأنّ نهاية القلق وأن هجمت عليه الحرقة بما لا تتوقّر عليه الأضالع ولا تتماسك معه المدامع القرار والهدوّ والله تعالى لا يريه بعد هذا الرّزء رزءاً بفنائه وينقل ذلك عنه إلى حاسديه وأعدائه.

رقعة: من علم أنّ الأقضية لا تخطيء سهامها والأقدار لا تردّ أحكامها سلّم الأمر في السّرّاء والضّرّاء ورضي بما مناه في البلاء والابتلاء ولا سيّما في مصيبة الموت التي سوّى بين الخليقة في تجريع مصابها واقتحام عقابها وقد اتّصل بالمملوك خبر الحادث الفاصم لعرى الجلد البارح في الجلد فاستحالت في عين المملوك الأحوال ومالت عنه الآمال ورأى السماء وقد تكدّر جوّها والشمس وقد تعكّر ضوّها والسّحائب وقد أخلف نوّها والنّهار وقد أظلم والليل وقد ادلهمّ والنسيم وقد ركد والمعين وقد جمد والزمان وقد سهمت وجنته وسلبت حليته وأفرجت قبضته عن التماسك وقبضت على التهالك وعدلت عن التجلّد إلى التبلّد ثم أفاق من غمرة فجيعته وهبيب سنة روّيته فسلّم لله راضياً بأقضيته راغباً في مثوبته.

إذا كان أيّده الله أهدى في النّعم إلى سبل الشكر وأعرف في المحن بطرق الصبر فكيف نحاذر عليه من المصائب ونذكّره التسليم لمحتوم النّوائب والمصيبة بفلان أعظم من أن نهتدي فيها إلى سلوةٍ غير مستفادةٍ منه أو نقتدي في العزاء بغير ما نأخذه عنه إذا كانت قلوبنا تبع قلبه - سرّه الله - في طروق السّرّاء والضّرّاء وحالتي الشّدّة والرّخاء.

وأحسن الله عن الفجيعة عزاءه وأجزل من المثوبة عطاءه ولا شغله عن حلاوة شكر النّعم بمرارة الصبر على ورود المحن وجعل ما نقل الماضي إليه أنفع له ولسيّدي من الجزع عليه.

وله في مثله: اتّصل بي خبر المصيبة فجدّد الحسرة وسكب العبرة وأضرم الحرقة وضاعف اللّوعة وكان الأسف عليه بقدر تشوّف الآمال كانت إليه فإنّا لله وإنّا إليه راجعون!! أخذاً بأمره وتسليماً لحكمه ورضاً بمواقع أقضيته وأحسن الله في العزاء هدايته وحرس من فتن المصائب بصيرته وحمل عن قلبه ما أظلّه من ثقل المصيبة وعظم الرزيّة.

ولا أزال على جملةٍ من القلق إلى أن يرد عليّ كتابه - أيّده الله - بما أكون فيه بأدبه مقتدياً وبهدايته إلى سبيل العزاء والصبر مهتدياً فإن رأى إجرائي من تشريفه بذلك على مشكور العادة فعل إن شاء الله تعالى.

اشتراك القلوب فيما ألمّ بقلب سيّدي بحسب تساويها في المسرّة بما سرّه إذ كان لا يختصّ دون أوليائه بنعمة ولا ينفرد دون مؤمّليه بحلول موهبة والمصيبة بفلان وإن جلّ موقعها وعظمت الفجيعة بها جلل مع سقوط الأقدار دونه وتجاوزها عنه ومسامحتها به فلا شغل الله قلبه بعدها بمرارة الصبر عمّا توجبه النّعم من حلاوة الشّكر ولا جاوره برزيّة في حميم ولا نعمة.

وله في مثله: بصيرتك إلى العزاء تهديك واغتباطك بثواب الله يسلّيك وعلمك بقلّة الغناء عن الجزع يثنيك وجمعنا بك في الصبر مقتدون ولرأيك في الرّضا بما اختاره الله تعالى متّبعون فحمل الله عن قلبك ثقل المصيبة وحرس يقينك من اعتراض الشبهة وأحسن إلى جميل الصبر هدايتك وتولّى من فتن المحن رعايتك وجعل ما نقل الماضي إليه أنفع لك وله من الأسف عليه.

وله في مثله: اتّصل بي خبر المصيبة فأضرم الحسرة وسكب العبرة وقدح اللّوعة وامترى الدّمعة وكانت مشاركتي إيّاك في المصيبة به والفجيعة لفقده بحسب اختصاصي بمواهب الله عندك واغتباطي بمنحه لديك فإنّا لله وإنّا إليه راجعون!! تسليماً لأمره وانقياداً لحكمه ورضاً بمواقع أقداره وأحسن الله على العزاء توفيقك وإلى السّلوة إرشادك ولا أخلاك فيما تطرقك به مصيبةٌ من مصاحبة الصبر وفيما تفد به عليك نعمةٌ من الاستزادة بالشّكر وحرسك في نفسك وأحبّتك وذوي عنايتك ونعمتك.

وله في مثله: قدرك أكبر وبصيرتك أنور وثقتك بالله تعالى أعظم من اعتراض الشّكوك عليك فيما يطرقك من عظاته بالحوادث وإن عظمت والمحن وإن جلّت اختباراً بالمصائب لصبرك وبما يظاهره عليك من النّعم لشكرك ومثلك أيّدك الله من قابل الفجيعة بفلان - إذ كانت من الواجب المحتوم - بأحسن عزاءٍ وأفضل تسليم غير مرتابٍ بما اختاره الله له ولك فيه فعظّم الله به أجرك وحرسك وحرس فيك.

الأجوبة عن التعازي.

قال في " موادّ البيان ": أجوبة التّعازي يجب أن تبنى على وقوف المعزّى على كتاب المعزّي وأنّ إرشاده نقع غلّته ووعظ نفع علّته وتبصيره سكّن أواره وتذكيره أخمد ناره وتنبيهه أيقظ منه بحسن العزاء غافلاً وهدى إلى الصبر ذاهلاً وحسّن عنده الرزيّة بعد جهامتها ودمّث نفسه للمصيبة بعد فدامتها فسلّم لله تعالى متأدّباً بأدبه وعمل بالحكم مقتدياً بمذهبه وغالب الرّزء بالعزم وأخذ فيه بالحزم وسأل الله تعالى أن يحسن له العوض في ردّه ويجعله له خلفاً ممن جواب عن تعزية: من زهر الربيع: أعزّ الله سيدنا وأسعده وسهّل له طريق المسرّة ومهّده وصان عن حوادث الأيّام حجابه وعن طوارق الحدثان جنابه وجعله في حمىً عن عوارض الغير والغرر وأصار أيّامه محسّنة لوجوه الأيّام كالغرر.

ورد الكتاب الذي أنعم بإرساله بل المشرّف الذي كسته اليد العالية حلّةً من حلل جماله فوقف عليه وفهمه وتذكّر به إحسانه الذي لا ينساه وتفضّله الذي لا يعرف سواه فأما التعزية بفلان فإنّه ردّ بعذب لفظها قوّته وبلّ بماء حسنها غلّته وصبّره على حادثته بفلان بعد أن عزّ عليه العزاء وأعوزه وطلب وعده من صبره فما أنجزه لأنه كان وجد لموت المذكور حزناً ما استطاع له تركاً وفقد لموته خلاً مثله يناح عليه ويبكى وفي بقاء مولانا مسرّةٌ تطرد كلّ حزن وفي بهاء طلعته عوضٌ عن كلّ منظر حسن جعله الله سامياً على أترابه مقدّماً على أضرابه ما سمت الأسماء على الأفعال وتقدّم الحال على الاستقبال.

آخر: ضاعف الله بقاءه وأطال عمره وشرح لإسداء المكارم صدره وأنفذ نهيه وأمره ولا زال إلى أوليائه محسناً وفضله يحصّل لمحبّيه غاية السّول والمنى ورد مشرّفه المعزّي بوفاة فلان سقى الله عهده عهاد رضوانه وأسكنه في غرف غفرانه فجبر مصاباً وفتح إلى الصّبر أبواباً وهدى إلى طريق الخير وقال صواباً وسكّن نفسه وذكّره إحسانه الذي لم ينسه وأزال الوحشة وزاد أنسه بعد أن كان فقد المذكور قد هدّ ركنه وفتّ عضده وأوصله إلى أمد الحزن وضاعف على الأيّام أمده وألبسه رداء الاكتئاب على تربه الذي أصبح تحت التّراب وصديقه الموصوف بالصدق الذي فاق سناه ذلك الأفق جعله الله أصلاً في تحصيل المسرّة إذا ذوت الفروع وسيفاً يقهر به وليّه الحوادث التي تروع إن شاء الله تعالى.

آخر: جعل الله أجره عظيماً كقدره والقلوب مجمعةٌ على حبّه كإجماع الألسنة على شكره.

المملوك يعلمه بورود كتابه الكريم المعزّي بفلان - قدّس الله روحه وأمطر سحائب الرحمة ضريحه - عليه وعنده من شديد الحزن ما أعدمه لذيذ الوسن ومن زائد الاكتئاب ما كاد يحرمه التقمّص بثوب الثّواب بحيث إنّه عوّض بالزّمن الأسود عن العيش الأخضر وذاق من موجب لبس الأبيض طعم الموت الأحمر وأنّه ضمّه إليه ضمّ المحبوب وابتهج به ابتهاج من ظفر بغاية السّول والمطلوب فأغمدت الكآبة خوفاً من قلمه سيفها وأزالت الدنيا الدنيّة عنه حيفها وعزّى نفسه وسلاّها وشغله إحسانه عن محاسن محا الموت سناها فرفض من توجّعه ما فرضته حادثته وسلك منهجاً غير المنهج الذي فتّتت فيه حشاه ومهجته فالله تعالى يكفينا ما نحاذره في المجلس ويحرس سناه ويديم سعده وعلاه.

التّهادي والملاطفة قال في " موادّ البيان ": رقع التّهادي يجب أن تودع من الألفاظ المستحسنة ما يمهّد لقبول الملاطفة والمبرّة التي تتميز في المودّة.

قال: وينبغي أن يطرف الكاتب إذا كان مهدياً أو مستهدياً وقد جرت العادة أن تودع هذه الرقاع من أوصاف الشيء المهدى ما يحسّنه في نفس المهدى إليه.

قال: وينبغي لمن ذهب هذا المذهب أن لا يعتمد تفخيم هديّته ولا الإشارة إلى جلالة خطرها فإنّ ذلك يخلّ بشروط المروءة ويتحاماه الكرماء.

ثم هي على ثلاثة أضرب: الضرب الأول ما يكتب مع التّقادم إلى الملوك من أهل مملكتهم إلى القائمين بإيصال التّقدمة إلى الملك وكاتب السّرّ ونحوهما.

الشيخ جمال الدين بن نباتة: إلى كاتب السّرّ بالأبواب السلطانية صحبة تقدمة من نائب الشام إلى السلطان: لا زالت أقلامها لنتائج الفضل مقدّمة ولمراكض الكرم والبأس جياداً مسوّمة ولكتائب الملك من كتبه أعلاماً بشعارها العبّاسيّة معلمة وفي يد صاحبها من أصحاب الميمنة والذين كفروا بآيات الله ونعمها من أصحاب المشأمة تقبيل محبٍّ لا تفسخ عقود ولائه المحكمة ولا تنسخ إلاّ في الكتب عقود ثنائه المنظّمة ولا تطوف الأشواق ببيت قلبه إلاّ وهي من ملابس السّلوان المحرّم محرمة.

وينهي أنّه قد اختار من عناية مولانا بمقاصده أحسن الخير وبورك له في قصدها " ومن بورك له في شيء فليلزمه " كما جاء الخبر وقد جهّز فلاناً إلى الأبواب الشريفة خلّد الله سلطانها بتقدمته على العادة في كلّ سنة واتبع سفارة مولانا بين يدي المواقف الشريفة فاتّبع من القول أحسنه وسأل حسن نظر مولانا الذي إذا لاحظ قصداً أعلنه وسعداً عيّنه وقد جهّز المملوك برسم مولانا ما هو بمقتدى الورقة المجهّزة عطفها المؤمّلة وإن كانت ورقة قطفها وسأل مقابلتها بالجبر الذي يحسب الأمل حسابه ويستفتح ببنان القلم بابه والإصغاء لما يملى من رسائل الشّوق فإنّها من رسائل إخوان الصّفا المستطابة لا برح القاصدون مرحين بأيّام مولانا وحقّ لهم أن يمرحوا تالين نسبة بيته ورحمى الله على يده: " قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ".

وله إليه أيضاً مع الجهاز الشريف السلطاني: أمتعها الله من خيري الدنيا والآخرة بكرم الأمرين وبشرف الذّكرين وسرّها بما يجهّز في الثناء والثّواب من الوفرين وأعلى منارها المحلّق إلى السماء على وكر النّسرين.

ولا زالت الآمال لا تبرح حتّى تبلغ من تلك اليدين مجمع البحرين تقبيل مخلصٍ في الولاء والدّعاء مستشهدٍ بالخواطر الكريمة على ثبوت الإدّعاء واردٍ لموارد النّعم قبل صدور بل قبل ورود الرّعاء.

وينهي أنّه ليس للملوك فيما يؤمّله ويتأمّله ويفصّله من عقود المطالب ويجمله غير إحسان مولانا الذي لا يملّ على طول الإيناس والإلباس وعوارف بيته المستجدة تالية: " إنّ الله لذو فضلٍ على النّاس ".

وقد جهّز المملوك الولد فلاناً بالجهاز المبارك إلى الأبواب الشريفة خلّد الله سلطانها وملأ به جواهر حبّات القلوب وريحانها وهو على قدر المملوك ومقداره لا على قدر مراده واختياره ولو أنّ المراد مما يحمله العبد إلى سيّده ويقدّمه من سبد الحال ولبده على قدر المحمول إليه والمقدّم بين يديه لضعفت قوى أكثر العبيد عن ذلك ويأس من الرّضوان جهدهم المالك وإنّما على العبيد أن تنصب على قدرتها الحال وعلى السادات أن تصرّف بعوامل الخبر مستقبل الأفعال.

وعلم مولانا الكريم محيطٌ بتنقّل المملوك في هذه السّنين من بلدٍ إلى بلد ومن أمد كلّفه إلى أمدٍ وبما حصل في ذلك من التمحّق في إقطاعاتٍ كاد أن يخني عليها الذي أخنى على لبد.

وكان المملوك يودّ لو كان هذا المحمول من الجهاز من جواهر النّجوم المنثورة وأخبية السّعود المأثورة وجميع ما زيّن للناس من الشّهوات المذكورة أضعاف أضعافه الآن بل أضعاف أضعاف ما حمل الأوّلون من فلانٍ وفلان كالحسن بن سهل مع الجهة المأمونيّة التي حلا ذكرها وابن طولون مع المعتضديّة التي كاثر هذا الغيث قطرها والسّامانيّ وما أدراك والسّلجوقيّ وما أسراك وجميع ما تضمّنته التواريخ التي لو عاينت تاريخ هذه الدولة الشريفة عنت في الحال لمجده وكان كلّ مجلّد منها يموت للهيبة في جلده لما خلّدته أيّامها الشريفة من أخبار حكمها وخيرها وكرمها وبرّها وعطفها على مماليك بيتها الشريف تتقبّل ميسورهم وتكمّل سرورهم ويملأ بجيوش الانشراح صدورهم وتبلّغهم من همم مطلوبهم وتقبل على زاهرات نجاياهم ورياحين قلوبهم " متقارب ".

ولو لم تطعه نيات القلوب لما قبل الله أعمالها والمملوك يسأل من إحسان مولانا الذي ألفه ومعروفه الذي عرفه ملاحظة الولد فلان بين يدي المواقف الشريفة خلّد الله سلطانها وإقامة عذر المملوك بعبارته التي أحلّ الله سحرها وبيانها.

فما للمملوك في مقاصده مثل مودّة مولانا الوافية المتوافية ومقدّمة عبارته الكافية الشافية والله تعالى يعين على شكر مننه والقيام بفرائض حمده وسننه والنهوض بأوصاف أياديه التي يغرّد بها قلم الكتّاب كما يغرّد القمريّ على فننه.

الضرب الثاني ما يكتب مع الهديّة عند بعثها وهو على عشرة أصناف الصنف الأول: ما يكتب مع إهداء الخيل.

علي بن خلف: في إهداء جوادٍ أدهم أغرّ محجّل.

وقد خدم المملوك ركابه الأكرم بجوادٍ أدهم مطهّم قد سلب الليل غياهبه وكواكبه فاشتمل بأديمه وتحلّى بنجومه وأطلع من غرّته السّاذجة قمراً متّصلاً بالمجرّة وتحلّى من رثمته بالثريّا أو النّثر صافي القميص ممحوض الفصوص حديد الناظر صليب الحافر وثيق القصب نقيّ العصب قصير المطا جعد النّسا كأنما انتعلت بالرّياح الأربع أربعه وأصغى لاستراق السّمع مسمعه إن ترك سار وإن غمز طار وإن ثني انحرف وإن استوقف وقف أديب نجيب متينٍ صليب صبورٍ شكور والله تعالى يجعل السعادة مطلع غرّته والإقبال معقد ناصيته.

كتاب عن نائب الشام إلى الملك الصالح: شمس الدين صاحب ماردين قرين خيل منعم بها إليه عن السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة وهو بعد الألقاب: وأجرى بالنّصر جياده وبالظّفر مراده وعلى عوائد السّعد مطالع شمسه التي يسمّيها عرف المملكة بلاده ولا زالت منيرةً بسعادة شمسه الأحلاك نظيمةً بدرّ محامده الأسلاك ماثلةً خيول سعده حتى حمر السّوابق من البروق والشّهب السّوانح في الأفلاك.

المملوك يقبّل اليد التي إذا بسطت فلأن تجود و تستلم وإذا قبضت فعلى سيف أو قلم.

وينهي بعد ولاءٍ وثناءٍ للإخلاص شارحين وفي الضمائر والآفاق سانحين واشتياقٍ و عهدٍ كانا أحقّ بالانتماء لاسمه و نعته وكانا أبواهما صالحين أن المرسوم الشريف زاده الله تعالى شرفاً وردّ يتضمن تشريف مولانا على العادة وإعظامه واستقرار مكانته من الخواطر الشريفة في دار مقامه واستمرار كرامته من الآراء المعظّمة ولا ينكر بين الصالح والصّالح استمرار الكرامة وأنّ الصّدقات الشريفة أنعمت على مولانا بثلاثة أرؤس من الخيل كثلاثة الراح إلا أن حبابها عرق سبقها وثلاثة الشجر كما قال الطائي: تساوي شرف ثمرها وزهرها وعرفها ما منها إلا من تقصر الرّياح أن تسلك فجّه والبروق أن تتبع نهجه.

ومن تودّ الثريّا أن تكون لجامه و الهلال أن يكون سرجه.

ومن يتمطّر كالغمام ويركض كالسّيل.

ومن كملت حلاه ولبس حلّه الفخار فمشى على الحالتين في الحلّتين مسبل الذّيل.

ومن عقد بناصيته كلّ الخير وعقد له لواء الفخار على كل الخيل من كل خضراء معجبة فهي على المجاز حديقة وكل أحمر سابقٍ فهو البرقيّ على الحقيقة وكلّ أصفر شفقيٍّ إلا أنّ الرياح من مجاراته على نفسها شفيقة.

وكيف لا يشبّه بالشّفق وهو من الأصائل وكيف لا يفتخر العسكريّ بهذه الخيل وخناصر عددها في الحسن أوائل قد صرفت وجوهها المقبّلة لباب مولانا أحسن المصارف وكتبت عوارف الفضل في معارفه المسبلة فناهيك منها بكتاب عوارف المعارف ووصل لمولانا بذلك مثالٌ شريف ورسم للمملوك بتجهيزها مع من يراه وقد جهّز المملوك لخدمة مولانا الخيل المذكورة مع المثال الشريف صحبة فلان ومولانا أدرى بنفحات رياض الحمد بهذه الدّيم المطلّة وبالتقبيل بالأرض التي هي سماء حوافر هذه الخيل التي هي أهلة وأولى أن يشرّف المملوك بمهمّاته ويؤنس لحظه بطيف اليقظة من مشرّفاته والله تعالى يجدّد لمعاليه في كل قصد نجحاً ويعلي لمجده في كل حال قدحاً ويروّع الأعداء من خطوات خيله في بلادهم بالمغيرات صبحاً ومن خطرات ذكره في قلوبهم بالموريات قدحاً.

يقبّل الباسطة الشريفة أعلى الله شانها وجمّل ببقائها زمانها وضاعف على الأولياء برّها وإحسانها.

وينهي: أنه ابتاع جواداً أعجبه وطرفاً انتخبه وقد قدّمه لوليّ نعمته ومالك عهدته لأنّ الكرام لا تكون إلا عند سيّد الكرام والذي يصلح للمولى على بعينه التي لا تنام آمين.

الأجوبة بوصول الخيل جوابٌ عن نائب الشام إلى أميرآخور بالأبواب الشريفة عن وصول خيلٍ إليه من الإنعام الشريف من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وهو بعد الألقاب: لازالت مبشّرةً بأعظم الخير وكرام الخيل ميسّرة النعماء بسوابق السّير كدوافق السيل مسفرةً عن إيجاد سوابح إلا أنها في الفخار و الشّية ضافية الذّيل سفيرة في الجواد بكل جوادٍ تبتسم غرّته ابتسام النهار ويدرك طلبه إدراك الليل تقبيلاً يستبق استباق الجياد ويتّسق على الدّرج اتّساق العقود على الأجياد.

وينهي بعد ثناءٍ وولاءٍ: هذا يهيم في كل واد وهذا يهيم بمثله كلّ وادّ ورود مشرّفة مولانا الكريمة بما ملأ القلب مسرة والعين قرّة ودرج عام الفيل من نجب الخيل السيارة مستهلّ وغرّة فقابلها المملوك بتقبيله وقام لها على قدم تبجيله ثم قام إلى الخيل الشريفة المنعم بها عليه فقبّل من حوافرها أهلّةً ثم من غررها نجوماً وتأمّل شياتها البرقيّة واستمطر من السّعود غيوماً فأدنت له من الإقبال أمد قاصيها وظلّ بمنزله الخير المعقود بنواصيها وتضاعفت أدعيته الصالحة لهذه الدولة القاهرة الصالحيّة زادها الله من فضله والوقت الذي ملأ الدنيا بسحاب جوده ورياح جياده ورياض عدله والملك الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعده ولولا شهود العهد الشهيدي لقال: ولا لأحدٍ من قبله وأعدّ المملوك هذه الثلاثة من الخيل ليفني عليها بالقتال أهل التعطيل والتثليث ويستخفّ بها آجال الأعداء بين يدي مالكه فإنها من ذوات العزّ والعزم الحثيث وما هي إلاّ كواكب سعد تمددها أسنتّها الوقّادة وزهرات حسن حيّت بها على البعد سفارته المعتادة لا برح مولانا يقلّد بعنايته وإعانته المنن الجسام وينصر بعزائمه القاطعة وكيف لا ينصر ويقطع وهو الحسام وله في جواب وصول أكديشٍ وبازٍ وكوهيّةٍ: لا زال جزيلاً سماحه جميلاً من الحمد رباحه جليلاً برّه الذي يشهد به طائر الخير ويمنّه وطائل الخيل ونجاحه.

هذه المفاوضة تهدي إليه سلاماً يخفق جناحه وثناءً تشرق غرره وأوضاحه وتوّضح لعلمه الكريم ورود مكاتبته سريعة الاحتثاث طائرةً بيمن طرسها وهديّتها بأجنحةٍ مثنى وثلاث فحصل الوقوف عليها وتجدّد عهد الارتياح لديها وفهمنا ما لم نزل نفهمه من ودّ الجناب العالي وبرّه المتعالي ووفاء عهده الذي تتلقاه المحامد بأمالي المحبّ لا بأمالي القالي ووصل الأكديش الايكر ظاهراً حسنه وسافراً عن وفق المراد يمنه تتجمّل به المواكب وتمشيه الرّياح وبعضها من خلفه جنائب وكذلك وصل البازي والكوهيّة وكلاهما بديع الأوصاف سريع الاقتطاف لأزاهر الطير والاختطاف يسبق الطّرف بجناحه اللّموح ويستعجل من الأفق وارد الرّزق الممنوح ويواصل الخير والمير إلى المطبخ فكأنّ حوائج كاش تغدو إليه وتروح لا برح إحسان الجناب العالي واصلاً وذكره في ضمير الاعتداد حاصلاً وحكم سماحته وشجاعته باستحقاق الثناء حاصلاً.

جواب بوصول جوارح: كتب به عن نائب الشام جواباً لمطالعةٍ وردت على نائب الشام من الصالح صاحب ماردين من بقايا بني أرتق صحبة سناقر هديّةٍ للصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية.

من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة: وأيّد هممه السّوابح ونعمه السوافح وشيمه التي تنتظم منها عليه درر المحامد والممادح وشكر هداياه التي منها جوارح الطير تخفق لفرط استحسانها الجوارح ولا زال من أجنحة نصره حتّى السّماك الرامح ومن جنود سعده للأولياء سعد السّعود وفي الأعداء سعد الذابح ومن جياد ركابه الشهب إلاّ أنّها شهب الأفلاك السّوابح ولا برح سلطان البسيطة مكافئاً عمل قلبه الوفيّ ولا ينكر العمل بالقلوب بين الصالح والصّالح.

المملوك يقبّل الأرض التي تستمدّ السّحب من سمائها وتستعدّ منازل الأنجم للتعلّم من أنوائها تقبيلاً يودع ورق الرسائل أزاهره ويطلع في ليالي السّطور زواهره ويدّخر في أيدي الحروف إلى أن تصل إلى أجياد المنابر جواهره.

بعد دعاءٍ صالح إذ جدّد تجدّد وولاءٍ ناجح إذا انعطف تأكّد وثناء سانح إذا سرى لا يتوقف إلا أنّ نسميه في الآفاق -وينهي يتردّد وارتياح لما يرد من أخبار دياره السارّة إذا شافه سروره سمع الوليّ شهد وسمع الحاسد تشهّد حيث يتلقى ببلاده النّجح والمقاصد وصلات البرّ والعوائد ووفود الآمال من كل أوب فديار بكر ديار زيدٍ وعمرو وخالد - ورود المشرّف الكريم بل الغيث السائر بخصب المقيم على يد فلان ونعم اليد العائلة لأيادي البرّ العميم ونعم المشرّف الوارد عن مقرٍّ هذا للأمل كهف وهذا للتأميل رقيم ففضّه المملوك عن علامة اسم لحسنها رسوم ولها رسوم واستجلى مواقع تلك الأنامل المضيّة وأقسم على فضلها بمواقع النّجوم وانتهى إلى الإشارات العالية وعلم ما كان القلب يعلمه من ضمائر الودّ الحاليّة لا الخالية وقابل كل أمرٍ حسنٍ بما يجب من مذاهب الودّ المتواليه ووصلت السّناقر المنير سنا فضلها المبير في معارك الصيد شبا نصلها القائمة في كواسر الطير مقام الملوك الأكاسرة إلا في حكمها وعدلها لا جرم أنها إذا دخلت آفاق طيرٍ أفسدتها وجعلت أعزّة أهلها أذلّة وإذا انقضّت على سرب وحشٍ جذبتها من دم الأوردة بأرسانٍ حيث كستها من قوادم الأجنحة أجلّة لا يسأل كاسرها في الطّيور بأيّ ذنبٍ قتلت ولا يحملها جانب الطير والوحش إذا عاندته فيا عجباً لها على أيدي البشر كيف حملت تظلّ الصيد فلا عجب أن يفزع بها من ظلّه وتكتب علائم اليمن والظّفر بما في لونها من شبه الخطّ وشكله نعم الجالبة للخير والمير والسائرة بما

يخيف المتصيّدات وكيف لا وعلى رؤوسها الطير أزاهر حسنٍ لا بدع أن يكون لها كمائم وبوارق العزم لا جرم أنّ أجنحتها عمائم ونواقل البأس والكرم عن مرسلها فمهما جمعته الشّجاعة فرّقته المكارم.

استجلاها المملوك بعد ألفاظ المشرّف الكريم فقال: تلك الرياض وهذه السّحب وتلك الأنوار الهادية وهذه في أفق مطارها الشّهب وجهّز المملوك المطالعة المحضرة للأبواب الشريفة أعلاها الله وشرّفها على يد فلان المذكور فقوبل بالإكرام والكرم ومثل بالمواقف الشريفة مثولاً رقى بهمّته إلى الكواكب لا جرم وذكّر بصالح بيت الارتقاء صالح بيت فهل درى البيت أنّي بعد فرقته ما سرت من حرمٍ إلاّ إلى حرم وقد عاد معلماً من البشر بما يراه مولانا عليه معلماً بما تقدّم من نجوى الإنعام بين يديه حاملاً من كرمٍ وجاهٍ يعدّان للأولياء في يوم نزل وللأعداء في يوم نزال قائلاً برجاء سعيه المؤمّن: يا صالح قد كنت فينا مرجوّاً قبل هذا ولن تزال والله تعالى يجري كرم مولانا على عوائد إسعاده ويحرس بعينه وملائكته نفاسه نفسه وبلاده ويدخله باسمه ومسمّاه لدى الدّنيا والآخرة في الصّالحين من عباده.

وله جوابٌ بوصول بازيين: ولا زالت بزاة كرمه على الحمد مطلّة وسحائبه مستهلّة وهممه مستقلّة بأعباء المكارم وإن كانت لكثير ما يهديه مستقلّة.

هذه المفاوضة تهدي إليه من السلام أجلّه وتوضّح لعلمه الكريم وصول مكاتبته العالية فوقفنا عليها وعوّذناها بكلمات الثناء التامّة من خلفها ومن بين يديها وعلمنا ما لم نزل نعلمه من موالاته وآلائه المسند في الشكر عنها والمستند في الولاء إليها ووصل كلا البازيين الحسنين المحسنين كأنّهما فرقدا سماءٍ قد اجتمعا وقمرا حسنٍ طلعا وعلى محاسن الصيد اطّلعا يسرّان القلوب والأبصار ويحمل كلٌّ منهما على اليمين فيحصل به اليسار وما هما بأول إحسانه الأسنى وبرّه الأهنى وأياديه التي أبى الكرم إلا أن ترد مثنى مثنى وعلم اعتزاره عن الكوهيّة التي كان ادّخرها فنفقت ولو أقيمت بها أسواق الصيد نفقت وأرسل بروايتها تحقيقاً لدعوى المكارم التي من زمانٍ تحققت والله تعالى يشكر برّه ويملأ بذكره بحر الثناء وبرّه.

وله جوابٌ بوصول كوهيّتين على يد شخصٍ اسمه باشق.

لا زالت المحامد من مصايد إنعامه وفوائد أيّامه وثمرات البأس والكرم من قضب سيوفه وأقلامه تقبيل معترفٍ بإحسانها مغترفٍ من موارد امتنانها متحفٍ منها بعالي تحفٍ تدلّ على مكانها في الفضل وإمكانها.

وينهي ورود مشرّف مولانا الكريم على يد الولد باشق فياله باشقٌ جاء بكوهيّتين جميلتين وطار للسّرعة وهو حاملٌ منّتين جليلتين وقد وصلتا وكلتاهما حسنة الخبر والخبر حميدة الورد والصدر يحسن مسرى كلٍّ منهما وسيره ويتجمّل بهما باب الشّكر خاناه وصدرها ويكثر خير المطبخ وميره فمدّ المملوك إليهما اليد المتحمّلة الحاملة وإلى المشرّف الكريم اليد المتولّية المتناولة وعلم ما تضمنه من الحسن والإحسان وذكر الموالاة التي يحكم بها القلب العالم قبل شهادة اللّسان واعتذار مولانا عن تعذّر وجود الشاهين وكلّ إحسان مولانا شهيّ كافي وكلّ موارد نعمه هنيّ صافي وما فات مقصدٌ وإنعام مولانا وراء طلبه وإن طال الأمد ولا فرّ مطلوبٌ حتّى يأتي به سعد مولانا مقروناً في صفد والله تعالى يشكر عوائد فضله ولا يضحي الآمال الملتجئة إليه من ظلّه.

جواب بوصول طيور من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة: وشكر هداياه المتقبّلة وسجاياه التي هي بأفواه المحامد مقبلّة ولا زال بدر سعادته المأمولة وطائر هديّته المتأمّلة.

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تهدي إليه من السلام أتمّه ومن الثناء أنمّه وتوضّح لعلمه الكريم ورود مكاتبته الكريمة ومكارمه العميمة وطيور هديّته التي كلٌّ منها في الحسن بدر تمّ وظهرت ظهور البدر لتمامه فأبت محاسنها أن تنكتم فحسن ورودها ورعي بفضل التلطّف والتودّد مقصودها وأقبلت تلك الطيور التمّيّة تامّة الإنعام دالّة بيمن طائرها على بركة عامّة وكيف لا وقد جاءت بيضاء عدد شهور العام والله تعالى يزيده من فضله ويجري الأقدار بالسّعود الشاملة لجمعه الجامعة لشمله إن شاء الله تعالى.

جواب في المعنى من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة أيضاً: لا زالت الجوارح شاهدةً ببرّه والجوانح حائمة الجناح على شريف ذكره والمحامد من مصايد أقلامه ورماحه في السّلم والحرب فإمّا بقوادم سمره وإمّا بمناسر حمره تقبيلاً يبعثه على أجنحة وينهي بعد دعاءٍ تحلّق إلى السماء كلماته الحسنة وولاءٍ وثناء: هذا تخفق بتشوّقه أجنحة القلوب وهذا تخفق بذكره أجنحة

الألسنة أنّ كتاب مولانا ورد على المملوك فأورد عليه المسارّ وملأ يده بالمبارّ ومصايده بالمير ومنازله بالخير وآماله بآمالي الكرم لذي السرحات المنشرح بآية " وعلّمنا منطق الطّير " فقابله المملوك بتقبيله وواصل فضل الاعتداد بتفضيله وحصل من هداياها وهداها على جملة الإحسان وتفصيله وانتهى إلى الإشارات العالية التي زكت على العيان وتأمّله وأربت على الجنان وتأميله.

فأمّا الإنعام بالكوهيّتين اللتين ما قذف البحر إلى الساحل أبهى من دررهما المكنونة وأزهر من وجوههما المباركة الميمونة فقد وصل كلا الطائرين بيمنه والسابقين بمنّه والغائبين في جوّ السماء الآتيين من الصّيود بأوفى من قطرات مونه واستقبل المملوك منهما وجوه المسارّ وحملت يمينه الثّروة وحملت على اليسار وتناولت يده يدي إحسانٍ يسرّ الناظرين والسامعين واستخدما للشّكر خاناه ولحفظ مطبخ يملأ عيون المشبعين والجائعين وقال صنع الله لصناعتهما: ائتيا بصيود السّماء طوعاً أو كرهاً " قالتا أتينا طائعين " قد كتبت باليمن في مطاوي ريشها أشباه الحروف وقضى الجود لتلك الأحرف أن تقري ما تقتري عواصي الطير له بطاقةٍ تقيّد السابح في طلقه ويعود مطلقها وقد ألزم نجاح الطير طائره في عنقه فشكر الله إحسان مولانا الذي ألحف الأمل جناحه والقصد نجاحه وبرّه الذي أحمد في سوانح الطير وبوارحه مساءه وصباحه وعلم ما أشار مولانا إليه في أمر فلان وأمره علم الله تعالى في الخاطر حاضره وما يؤخّر شغله عن إهمالٍ وعائب الإمهال غادر وما أشار إليه في أمر فلان أمير شكاره وأمير شكر المملوك وتقدّم بخلاص حقّه واستنزل بهديّته قضاء الشّغل من أفقه لا برح مولانا ممتثل الأوامر هامي سحب البرّ الهوامر مجدّداً في كلّ وقتٍ نعمى مالئاً بهداياه قلوب محبّيه وبيوتهم شحماً ولحماً إن شاء الله تعالى.

وله جوابٌ في وصول طيور العقعق: لا زالت متّصلةً منن إرفادها وإرفاقها نازلةً على حكمها الأشياء حتّى الطّير العاقة من آفاقها خافقةً أعلام نصرها بالأجنحة مؤمّنةً لظنون القاصدين من إخفاقها تقبيل مطلقٍ لسان الحمد على عوائد إطلاقها مجتنٍ لثمرات الإحسان من غصون أقلامها وغصون أوراقها.

وينهي ورود مشرّف مولانا العالي على يد الولد فلانٍ فوقف المملوك عليه وعلم من جميل الاحتفال ما أشار إليه وأنه موقع على المقصود من طيور العقعق فأوقعها من مطارها واستنزلها من أوكار أفقها وأفق أوكارها وأرسلها قرين مشرّفه الكريم وقلد عنق الأمل بعقدها النّظيم ووصلت سبعةً كعدد أيّام الجمعة الكاملة والكواكب الماثلة والسّموات لا جرم أن سحب يمنها هاملة حسنة الشّكل الموصوف والوصف وإن كان مع عقوقه المألوف طائعةً لأوامر توقيعه فما عقّ منها شيءٌ غير تضعّف اسمها المعروف لا برح إحسان مولانا متنوعاً وبره الجزيل متبرعاً وغصن قلمه بأنواع المكارم متفرعاً.

وله جواب بوصول تماتٍ وإوزٍ صيني وطلب إمرة عشرة: حمى الله تلك النعمة من الغير وأطلعها عليه بأيمن الغرر ولا برح طائر منه كوصفه أبيض الخبر والخبر.

هذه المفاوضة إلى الجناب الكريم تهدي إليه سلاماً يشوق الصباح وثناءً خفاق الجناح وتوضح لعلمه الكريم ورود مكاتبته الكريمة جميلة الفوائد جليلة المصايد تمية البدور المتناولة من منال الفراقد فوقفنا بالأشواق عليها وعطفنا على العادة بتأكيد الولاء إليها ووصلت تلك التمات واضحة الأنوار لائحةً كبياض النوار تامة تمام ميقات موسى عليه السلام إلا أنها لبياضها كأربعين نهار وكذلك البط الصيني كأيام الحج عشرة كاملة مفترضاً على عشرتها ولاء القلوب المتأملة الآملة صينيةٌ مملوءةٌ بمحاسن الألوان التي هي بغير مثلٍ ماثلة وحصل الاعتداد ببره والازدياد لحمده وشكره وفهمنا ما ذكره من إمرة العشرة التي انحلت عن فلان وقد طالعنا بأمرها وعجلنا بذكرها ونرجو أن يعجل بأمانيها المنتظرة وأن يقابل بخوافق أعلامها خوافق بطه فتقابل عشرةٌ بعشرة والله تعالى يعجل لمعاليه الصعود ويؤكد لمساعيه السعود إن الأجوبة عن وصول الصيود ولحومها جوابٌ عن نائب الشام إلى نائب حلب بوصول لحم طير صيد قديد وصحبته بطيخ أخضر من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة.

وهو بعد الألقاب: لا زالت تقتنص المحامد بعاطاياه المكررة وأوابد الصيد برماياه المقررة ورقاب الإنس والوحش إما بسهام نعمه المتواترة وإما بسهام قسيه الموترة ولا برحت نفحات مكارمه تشهد أن المسك بعض دم الغزال وسرحات عزائمه تمتد في صيد الوحش لقرى نزيل أو في صيد الأعداء لتقرير نزال تقبيلاً تتعطف أجياد الظباء لمحاولة عقوده وتزدحم أفواه الأولياء على مشافهة وروده.

وينهي بعد ولاءٍ تقوم الخواطر الكريمة في دعواه مقام شهوده وشوقٍ لا تزال النسمات الشمالية قاضيةً باستمرار وفوده - أن مشرف مولانا الكريم ورد على المملوك على يد فلان وصحبته الإنعام المتجدد وإن كان قديماً في المعنى واللحم القديد وإن كان أطرى من الروض النضير حسناً والسمين المحبوب وإن كان كحال عداه الذين تقدد جسومهم في الحياة قبل الممات حزناً

فقابل المملوك المشرف الكريم بتقبيل أحرفه والإنعام العميم بقبول مسعده ومسعفه وعانقهما بجوانح آماله وأخذ الكتاب والبر كما يقال بيمينه وشماله فيا لها من ظباءٍ تعشق وإن بليت محاسنها وغزلانٍ تغازل وإن بادت عيونها إلا أنه ما باد حب من يعاينها وصيودٍ توصف وإن قصدتها قصد السهام بطعن ويتقى بقرونها القتال والقسي تالية: " كَمْ أَهْلَكْنَا من قَبْلِهم مِنْ قَرْنٍ ".

سلكت خيول مولانا لقنصها المصاعب واتخذها الآكلون سهلاً وتصيدها من الفلاة وأصطادها القاعدون من المقلى ووصل معه البطيخ الأخضر فشبهه بثمار الجنة المشبهون وقيل: هكذا ترتيب مآكل الجنة لهم فيها فاكهةٌ ولحم طيرٍ مما يشتهون لا زالت منن مولانا مشروحة مشروعة وثمرات نعمه من الدنيا كثمرات أهل الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة بمنه وكرمه.

أجوبة هدايا الفواكه وما في معناها الشيخ جمال الدين بن نباتة: جواب وصول مشمش لؤلؤي ودغميشي من حماة.

بسط الله ظلها وندها وأطلع باليمن نجوم هديتها وهداها ولا زالت مواهب بحرها لؤلؤية وشواهد يمنها كوكبية وثمرات جودها فضية الأعيان ذهبية تقبيلاً حلت مواقعه وجلت مطالعه.

وينهي بعد ولاءٍ وحمدٍ: هذا قد ثبتت في القلب شريعته وهذا قد عذبت في السمع مشارعه أن مشرفة مولانا الكريمة وردت على المملوك تتضمن الحسن والإحسان ويمين البر الشامل لكل إنسان وعهد المحبة التي حكمت فيه بعلمها القلوب فما تحتاج إلى بينة لسان فقابلها المملوك مقبلاً واستجلى وجه الود والإحسان مقبلاً ووصل المشمش الذي شفى لؤلؤيه نظر الناظرين ونوعه الآخر الدغميشي الذي هو الشهد بحسنه ولا يدغمش باسمه على الحاضرين فتناول المملوك عوارف بره المعروف والمبتكر واستضاء نجومه المترددة منشداً قول المعري: كم درن وكم يدرن هذه الأكر وقال: شكر الله هذه المنن الحلوة الثمرات المتصلة الخطرات وهذه المجاني التي طابت أصولها وفروعها فلا أبعدهن الله من شجرات وحيا حماة وما جلبت وجنبات ذلك الوادي وما أنجبت وحدائق ذلك العاصي الذي أطاع ببركة مولانا فأنبت أحلى وأحل ما نبت وقد جهز المملوك هذه الخدمة منطويةً على وظائف الحمد المستجادة ولطائف الحب المستفادة وحمد المنن التي لا تزال من مولانا عادة ومن المحبين شهادة لا برحت يد مولانا الكريمة إن بسطت فبعوائد إنعامها وإن قبضت فعلى سيوفها لمصالح الدول وأقلامها وإن زهت فروع المكارم تساقطت ثمرات برها من زهرات أكمامها.

جواب بوصول مشمش وبطيخ حلبي من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة.

وينهي بعد ولاءٍ وثناءٍ: لهذا في الأسماع أزهى وأزهر ثمرة ولهذا في القلوب أرسى وأرسخ شجرة - ورود المشرف الكريم على يد فلان بما ملأ السمع من أخبار مولانا المرتقبة سروراً والعين من آثار يده الكريمة نوراً والفم من هدايا المشمش الحموي كؤوس لذة كان مزاجها كافوراً فقبل المملوك أسطره مستحلياً مواقع رشفاته وقابله بعوائد المحامد مستجلياً عوائد افتقاداته وصلاته ومد يده وفكره فالتقط النجوم المشرقة من هداياه وكلماته وتقلد جواهر المبرات الحسنة والمحسنة والثمرات التي جاءت بدرية القدوم وإن كانت نجومية الهيئات المكونة واستصوب نتائج الغيث فقال: لعل هذه بنادق قوس السماء الملونة وصفا وطاب ظاهرها وقلبها وكذا تكون صفات ذوي القلوب المؤمنة والمؤمن حلوي لا جرم والحموي على عجمه الخراساني أولى بفصاحة الفخار والكرم لا زالت فعلات منن مولانا مستجادة ونعمه لا سيما المشمشية مستزادة وافتقاداته المشهورة لدى مماليكه ومحبيه منه عادةً ومنهم شهادة وجاءت فاكهة البطيخ الحلبي وقد رضع حلب الغمام فأنجب واستوى باطنه وظاهره في الحسن فأعجب من حين أعشب واستطاب الذوق والشم مطعمه وأنفاسه ووصف بالرؤوس فضمه كل متلقٍ وقبل راسه وقال: نعم الهدية السرية والفاكهة التي طلعت حزز ها هلالية وثمرتها بدرية.

جوابٌ عن وصول بطيخ حلبي من إنشائه أيضاً وهو بعد الألقاب: وشكر سجاياه التي علت وهداياه التي تكررت فحلت وافتقاداته التي طاب ظاهرها وباطنها فكأنها من أخلاقه الجميلة نقلت أصدرناها تهدي إليه سلاماً يتقدم كهديته نسيمه العاطر وثناءً ينتج أطايب الثمر مقدمات غيثه الماطر وتوضح لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمة وردت فحسنت بالود مشافهتها وأقرت في الأسماع فاكهتها ومفاكهتها ووصل البطيخ فلله در حلبه ودر جلبه لقد حسنت في ملاذ المطاعم طريقته المرضية ولقد أشبه القناديل بتكوينه وفتيلة عرقه فلا جرم أن قناديله عند الشكر مضية ولقد ملأ خبره وخبره عين البصر وأذن المصيخ ولقد خلق دواءً للأجسام حتى صح قول الحلبيين للأرمد: دواؤك البطيخ فشكر الله إحسان الجناب العالي وبره المتوالي وعلى الوالد والولد ومن عندهما سلام المحب المتغالي والله تعالى يحفظ عليهم من الفضل ما وهب ويرزقهم بغير حساب ويرزق الظن فيهم ما حسب إن شاء الله تعالى.

وله أيضاً جواب بوصول بطيخ حلبي وهو بعد الألقاب: وشكر إحسانه الذي حلا مذاقه وزكت أعراقه وحيا على البعد تحية طيبةً نفحت بها أزهار الكتاب وأثمرت أوراقه هذه المفاوضة تهدي إليه سلاماً طيباً كهديته وثناءً زاكياً كطويته وتوضح لعلمه الكريم ورود مكاتبته الجامعة حسن الأقوال والأفعال المطلعة بوارد غمامها أطيب الثمر في الحال فأحيت ولاءً حاشى لوجوده من العدم وجددت عهد البشر - وما بالعهد من قدم - ووصل البطيخ الحلبي أصله الحموي فصله الدمشقي ضمه وشمه وأكله الفلكي ولا سيما من الأهلة المجتمعة شكله فكرم مطلعاً وحسن من الأفواه موقعاً وعم الحاضرين نوالاً واشتملهم بعطف الإحسان اشتمالاً وأخذ الغلام السكين: متقارب.

فقطّع بالبرق شمس الضّحى وناول كلّ هلالٍ هلالا لا بل أهلة كثر تعدادها وكرر ترددها ورصد قربها ولا نقول كما يقول أصحاب الهيئة أبعادها فشكر الله إحسان الجناب العالي حاضراً وغائباً وبره الذي يطلع كل وقت من هداياه وكتبه أهلةً وكواكباً ومرباه الذي نقل عن ملوكٍ كانت منازلهم للمحامد روضاً وكانت أيديهم للكرم سحائباً إن شاء الله تعالى.

وله جوابٌ بوصول قصب سكر وأتروج وقلقاس: لا زالت أوصاف شيمها تطرب كما يطرب القصب وألطاف كرمها مما يغذي الحسد وينعش الروح ويشفي الوصب وأصناف نعمها من الحلو إلى الحامض مما يعدي الأيدي المتناولة فهي على الأعداء تنتصب تقبيل محبٍ حلت له المنن فتناولها ومواقع اللثم فعاج إليها وعاجلها.

وينهي ورود مشرف مولانا الكريم على يد فلانٍ يتضمن الحسن والإحسان والبر المأثور بكل فمٍ المشكور بكل لسان فقابله المملوك بما يجب من الخدمة لمثله ولاقاه بعوائد تحمد عوائد فضله ووصل قرينه الإنعام الذي تنوع فنوناً وأفناناً وملأ فم الشراب خاناه سكراً ويد المطبخ إحساناً وذكر نباته الطرابلسي عهود الديار المصرية وأوقات الأنس بخدمة مولانا السنية سقياً لها من أوقاتٍ وعهود وشكراً لجود مولانا الذي هو في كل وادٍ موجود ولتدبيره الشمسي الذي أحيا الله به على عباده عناصر هذا الوجود ولا برحت مكارمه متنوعة ونعم أياديه متفرعة فمنها ما حلا فرعه فأصبح لكل حلو أصلاً ومنها ما طاب ريحه وطعمه فكان للمؤمن مثلاً ومنها ما لذ طعامه الشهي فما هو مما يهجر وإن كان مما يقلى.

وله جواب بوصول باكورة خيار وملوخية: لا زالت تشرح بمكارمها الصدور وتفتح بركات الأعوام والشهور وتمنح من لطائف مننها كل جماعةٍ السرور وتلمح في هداياها المستبقة إلى الأولياء خيار الأمور تقبيل محبٍ لا تغير ولاءه الدهور ماشٍ من طريق المصافاة والموافاة في نورٍ على نور.

وينهي ورود مشرفة مولانا على يد فلانٍ تتضمن المعهود من ولائه وآلائه والمشهود المشهور من إحسان نداه قبل ندائه فقابلها المملوك مقابلة الشيق إلى قرب الديار الممضي في المحبة قلبه لمولاه قبل شرط الخيار ووصلت لطائف هديته الخضرة النضرة وطرائف الفضل الباكرة كمعاني اللفظ المبتكرة فتنجز المملوك الفاكهة قبل أوانها البديع ورصد من أفلاك العلب في ذي الحجة غرة ربيع وتفاءل بالهدية المجمعة الأحباب في أن يعود الشمل وهو جميع وقد عاد فلانٌ حاملاً من رسائل الشوق والشكر ما يؤديه بين أيدي مولانا الكريمة ويجدد بذكراه عهود الأنس القديمة لا برح مولانا سابق الكرم مخضر المرابع ببيض النعم.

قلت: وكتبت جواباً لبعض الأصحاب وقد أهدى لي سمكاً بسيط: أهدى لنا سمكاً قد طاب مطعمه أكرم به سمكاً لم يسكن البركا!
لا شكّ أنّ له بالبحر شاكلةً والبحر عادته أن يهدي السّمكا

الضرب الثالث من كتب التهادي الاستهداء

وأعلم أن كل ما يكتب مع إهدائه قد يكتب مع استهدائه إلا أن الغالب مما جرت به عادة الكتاب في الاستهداء طلب الأشياء المستظرفة الخفيفة المنة دون ما يعظم خطره اللهم إلا أن يكون الاستهداء من الملوك ونحوهم فيطلب فيه ما جل وعظم.

والذي جرت عادة الكتاب بالكتابة في استهدائه على أصناف: الصنف الأول - آلات الكتابة: من الأدوية والمداد والأقلام: مما تقدم ذكره في الإهداء.

أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضل نسباً وللصناعة والحظوة سبباً وبالدوي تجتنى ثمرة الصناعة ويحتلب در الكتابة وقد أوحش المملوك الدهر مما كنت أقتنيه من نفائسها وضايقه في وجود الرضي على الحقيقة منها فإن رأى مولانا أن يميط

ببعض ما يستخدمه من حاليها أو عاطلها سمة عطلة المملوك ويسمح بإهدائها إلى أهل تصريفه ويقابل بالنجح والتقبل رغبته فعل إن شاء الله تعالى.

وله في استهداء مداد: التنافس - أيدك الله - في أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر في ظهور النعمة والتخير لبيان الإمكان والقدرة وإلا فسائر الدوي سواءٌ فيما تصدره الأقلام عنها وتستمده بطون الكتب منها وأولى آلاتها بأن تتوفر العناية عيه وينصرف التخير بالضرورة إليه المداد الذي هو ينبوع الآداب وعتاد الكتاب ومادة الأفهام وشرب الأقلام فجعلها الله بواجب القضية والحكم في خير وصفه من الحمد والذم وما زلت لنفائس الأخلاق موطناً ولنجع الإخوان في المحل معدناً ولا معدل بي عن استماحة خزائنك عمرها الله الممكن من جيده فإن رأيت أن تستنفذ دواتي من خمول العطلة وتنزه قلمي عن ظمأ الغلة وتكشف عنها سمة النقصان والخلة فعلت إن شاء الله تعالى.

أولى ما أنبسط في استهدائه وتسمح نفسي في استماحته واستجدائه ما كان ناقعاً لغلة الأقلام مقيداً لشوارد الأفهام محبراً لبرود البيان حالياً في معارض الحسن والإحسان وكتبت هذه الشكوى أطال الله بقاء سيدي.

الصنف الثاني - الشراب.

في استهداء مشروب.

أبو الفرج الببغاء: أنا - أيد الله سيدي - ومن سامحني الدهر بزيارته من إخواني وأوليائه عضد الله جمعنا ببقائه وقوف بحيث يقف بنا اختياره من القبول والانبساط ويرتضيه لنا إيثاره من الهم والسرور لأن الأمر في ذلك مما يولينا من المساعدة بالممكن من المشروب إليه والاعتماد دون كل أحد في اجتماع شمل المسرة لنا به عليه فإن رأى أن يكلني إلى أولى الظنين به وأحقهما بمأثور فتوته فعل.

وله في مثله: ألطف المنن موضعاً وأجلها من الأنفس موقعاً ما عمر أوطان المسرة وطرد عوارض الهم والفكرة وجمع شمل المودة والألفة وأدى إلى اجتناء ثمرة اللذة وبذخائرك من المشروب مع هذه الأوصاف ما يسترق حر الشكر ويحرز قصب السبق إلى الثناء وجميل الذكر فإن رأيت أن تنجد بالممكن منه مروتي على قضاء حق من أوجب المنة علي بزيارتي فعلت.

وله في مثله: من كان للفضل نسباً ولفلك الفتوة قطباً لم تفزع القلوب من الهم إلا إليه ولم تعول الأنفس في استماحة المسار إلا عليه وقد طرقني من إخواني من كان الدهر يماطلني بزيارته وينفس علي بقربه ومشاهدته فصادفني من المشروب معسراً ووجدت الانبساط في التماسه من غيرك علي متعذراً وإلى تفضلك تفزع مروءتي في الإسعاف منه بما يلم شعث الألفة ويجمع شمل المسرة ويجعلنا لك في رق الاعتداد بالمنة ويقضي عني بتفضلك حقوق المودة.

علي بن خلف: قد انتظم لنا - أطال الله بقاء سيدي - مجلسٌ واقفٌ بين النشاط والفتور والكآبة والسرور لغروب نجوم الخمر عن سمائه وعطله من حلي نوره ولألائه وقد عولنا في إطلاقه إلى إحدى الجهتين عليه وجعلنا زمامه بيديه فإن رأى أن يروح أفكارنا بشيءٍ من راحه المشابهة عبقاً وعتقاً لأخلاقه وأعراقه فعل إن شاء الله تعالى.

وله في مثله: أفضل ما أهدى سيدي ما أهدى السرور إلى أحبته ونظم شمل المتحققين بخدمته وحسم عنهم هواجس الفكر وأعداهم على الدهر وقد جمعنا مجلسٌ وهبناه للثناء عليه وزفت عرائس الخمر إليه فإن رأى إيثارنا بما يكمل نشاطنا ويتمم انبساطنا فليعقر همومنا بشيءٍ من عقاره وينظم جمعنا في سلك أياديه ومباره إن شاء الله تعالى.

النوع الرابع الشافعات والعنايات قال في مواد البيان: وهذه الكتب إنما تصدر عن ذوي الرتب والأخطار والمنازل والأقدار الذين يتوسل بجاههم إلى نيل المطلوب ودرك الرغائب.

قال: والملتمس فيها ممن تنفذ إليه أحد ثلاثة أنواع إما بذلك ماله ولا يبذل ماله إلا ذو مروءة يفرض على نفسه حقاً فيه لقاصديه وإما بذل جاهه وفي بذل الجاه إراقة ماء الوجه والتعرض لموقف الرد وإما الاستنزال عن سخيمةٍ وموجدة في النزول عنهما كف حد الغضب وغض طرف الحنق وهما صعبان إلا على من فضل حلمه ولطف فهمه.

ثم قال: والكاتب يحتاج إلى التلطف فيهما وإيداعهما من الخطاب ما يخرج به الشافع عن صورة المثقل على المشفوع إليه بما كلفه إياه ويؤدي إلى بلوغ غرض المشفوع له ونجاح مطلبه ثم أتبع ذلك أن قال: وسبيل ما كان في استماحة المال أن يبنى على الإبانة عن موقع الإفضال وفضيلة النوال واغتنام فرص الاقتدار في معونة الأحرار وما جارى هذا - وسبيل ما كان منهما في طلب الانتفاع بالجاه أن يبنى على الأريحية لاصطناع الصنائع وتحمل المشاق في تقليد المنن وادخار الفعل الحسن واغتنام الأجر والشكر - وسبيل ما كان منهما في الاستنزال عن السخائم أن يبنى على الملاطفة والإشارة إلى فضيلة الحلم والصفح عن الخاطئ وما في ذلك من حسن السمعة في العاجلة ومتوفر المثوبة في الآجلة ونحو ذلك.

وذكر أن أحسن ما قصد في هذا الفن مسلك الإيجاز والاختصار وأن يسلك به مسلك الرقاع القصار المجملة لا الكتب الطوال المفصلة وأن يرجع فيما يودعه إلى قدر الشافع والمشفوع فيه والكاتب إذا كان مرتاضاً ماهراً لم يضل عن تنزيل كل شيء في منزلته وترتيبه في مرتبته.

قلت: ومن أحسن ما يطابق هذا النوع ما رأيته في بعض المصنفات أن عمرو بن مسعدة وزير المأمون كتب إلى المأمون في رقعة: أما بعد فإن فلاناً سألني أن أشفع له إلى أمير المؤمنين فأخبرته أني لم أبلغ عند أمير المؤمنين مبلغ الشفاعة - فلما وصلت الرقعة إلى المأمون وقع عليها بخطه: قد فهمنا تصريحك به وتعريضك من كلام المتقدمين: الحسن بن سهل: كتابي إليك كتاب معتنٍ بمن كتب له واثقٍ بمن كتب إليه ولن يضيع حامله بين عناية وثقةٍ والسلام.

أبو الحسين بن سعد: وقد توجه إليك فلانٌ بقصدٍ فيه مستجمع وأملٍ فيما قبلك منبسط وليس بعد إصابتك عنده موضعاً وعندنا متجملاً لليد الحسنة إلا افتراض ذلك منه ومنا في أمره على يسر في حاجته وتخفيفٍ من مؤونته فإن رأيت أن تأتي في ذلك بما يشبه أمله وظنه وتوجب عليه الحق به ونشكر لك منه ما يبقى عندنا بأنك بحيث تأتي الفضل وتتوخى الصلة فعلت إن شاء الله تعالى.

آخر: معرفتي بأنك لا تتجاوز في العقوبة سبيلها من مواقع الأدب تحملني على مساءلتك ما أنت موجبٌ له والذكرى تنفع المؤمنين ولولا ذلك لاستغنى صاحب كتابي عنه فإن كان ذنبه صغيراً فالصغير يخرجه من حبسه وإن كان كبيراً فالعفو يسعه.

وكتابي متقاضٍ لك تقديم العفو على العقوبة والحسنة على السيئة والاستصلاح على القوة في التأديب.

وأحق من يعطف على أهل البيوتات ويجود لهم بما يبقى ذكره ويحسن به ذخره مثلك وقد وجهت إليك فلاناً وهو من ذوي قراباتي وذوي الهيئة من أسرتي وعرضته لمعروفك وأحببت أن تلبسه نعمتك وتصرفه إلي وقد أودعتني وإياه ما تجده باقياً على البشر الجميل في الغيب والحضر.

ولغيره: وقد جعلك الله غياثاً وجعل عندك لمؤمليك وراجي رفدك أبلغ ذريعةٍ من كرمك وفضلك وقد اصبحت مفزع كل ذي همٍ وملجأ كل ذي أربٍ وموضع كل أمل وأصبحت ملتقى السبل ومجمع الأصناف المختلفة والطوائف المتصرفة.

أبو مسلم محمد بن بحر: قد شهرتني باصطناعك حتى تكافأ في معرفة خبرها أهل بلدان المشرق والمغرب والذين عرفوني فصديقي منهم مغتبط بذلك لي وشريكٌ في النعمة به علي وقوي الظهر بما منحنيه الله من رأيك وإذا نابت بعضهم نائبةٌ يرجوك لكشفها ولم يكن له إليك طريقٌ يدنيه ولا حرمةٌ تقربه وتعطفك عليه سألني الشفاعة له إليك ففعلت ذلك مدلاً بما أعتقده من الشكر على نعمتك عندي والإخلاص في طاعتك المفروضة علي واثقاً بتسويغك إياي ما رقيت إليه من درجة الشافع لغيره والسائل في طريقه وذوي الحق عليه لتكون قد أكملت علي النعمة ووكدت لدي العارفة واستتممت عندي الصنيعة.

أبو الخطاب بن الصابي: أبسط الشفاعة وجهاً وأقربها نجحاً وأوقعها في القلوب وأسرعها إلى القبول ما وقع من أقسام ثلاثة من إدلال السائل بحسن الظن وارتياح المسؤول إلى فعل الخير واستحقاق المسؤول فيه لقضاء الحق فإذا اجتمع لها ذلك كانت الثقة بها زائدة والفتوة لها رائدة والفضل عليها قائماً والنجح بها قادماً وكان الشكر من أقل موجوداتها والمنة من أجل مذخوراتها.

وله: إن دل المملوك فبصدق المودة أو عول فعلى حسن النية أو استظهر فبقديم الحرمة أو استنصر فبكريم الرعاية ووراء ذلك همةٌ من مولانا بعيدة المرامي طويلة المساعي شامخة الأنف سابقة الطرف توجد الآمال سراحاً وتوسعها نجاحاً وتأخذها

خماصاً وتردها بطاناً وتوردها هزالاً وتصدرها سماناً وثقةٌ مني قد أحكم عقدها الزمان وأوثق شدها الامتحان فصارت لأعراض المملوك رائدة وفي قوة نفسه زائدة فالمملوك من اجتماع هذه الأقسام ووجوب ما تقتضيه من الأحكام بين ظنٍ جميلٍ لا مجال للشك عليه ويقينٍ صحيح لا وصول للارتياب إليه.

آخر: ولئن كان المملوك أسرف في مجالي التثقيل على مولانا فإن المملوك لم يرد بعضاً من دواعي الأمل فيه فإن المظنون من فتوة مولانا رائد الثقة بجميل نيته ولن يعدم النجاح من اعتمد على الفتوة والثقة.

آخر: وينهي أن المملوك إن أدل فبحقٍ لدى مولانا أكده أو استرسل فبفضلٍ منه عوده وبين الدالة من المملوك والعادة من مولانا موضعٌ لنجاح الحاجة وبلوغ الإفادة وقد فعل المملوك ما تعلق به واثقاً بالكرم من مولانا فليفعل مولانا ما يتعلق به محققاً للأمل فيه.

آخر: وينهي أن المملوك إن انبسط فمدلٌ بالحرمة الوكيدة ومعول على النية الكريمة أو انقبض فلهيبة الإقدام على مولانا ومراعاة التخفيف عنه ولفضله فيما بين ذلك مسلك وغلبة تسلطٍ يدعوان إلى حسن الظن بمولانا ويوثقان من وجود النجاح لديه.

آخر: بذلك الجاه في إعانة الضعيف وإغاثة الملهوف والترويح عن المضغوط والتفريج عن المكروب المكدود كبذل المال في إسعاف المعسر وإسعاد المقتر ومواساة المحروم والتعطف على المزحوم وما في الحالتين إلا ما الديانة له ضامنة والمروءة له قائمة والحق به مستوجب والأجر به مكتسب والصنيعة به معتقدة والمثوبة به مدخرة.

آخر: وينهي أن حرمة الجوار من أوجب الحرمات حقاً وأحكمها عقداً وأخصها بالعناية وأحقها بالرعاية وما رعاها إلا ذو قدرٍ عظيم وخلقٍ كريم وأصلٍ عريق وعهدٍ وثيق.

وفلان ممن يضرب بدالتها ويمت بوسيلتها ويتخفر بذمتها ويتعلق بعصمتها ويعتدها وزراً مانعاً وذخراً نافعاً وعدةً موجودةً عند الحاجة وله أمرٌ يذكره مشافهة فإن رأى مولانا أن يحقق من ظنه ما كان جميلاً ويصدق من أمله ما كان فضل مولانا إليه سبيلاً فهو المعهود من إحسانه والمؤمل من فضله.

آخر: من سافر إلى سيدي بأمله ورغبته ومت إلى حضرته بوفادته وهجرته فقد استغنى عن الشافع وكفي أمر الوسائل والذرائع وحامل كتابي هذا قد تجشم القدوم إليه وتمسك بذمام الوفادة عليه مع ما يتحقق به من حق المشاركة في الصناعة ويستوجبه بفضيلة الكفاية والأمانة وإنما أصدر المملوك هذه الخدمة عن يده ممهدة لأنسه ومقوية لنفسه وإذا مثل بحضرته ونظره بعين نباهته فقد غني عن الشفاعة وبلغ الإرادة.

آخر: وينهي أن ما يفرضه مولانا لمن أمه بالرجاء ومت له بإخلاص الحمد والثناء من إدرار أخلاف الإفضال وتحقيق الرغبات والآمال يغني قاصديه عن الشفاعات والوسائل ويكفي آميه تحمل الذرائع والمسائل والواصل إليه بهذه الرقعة فلان ومولانا يعرف حقه على المملوك وماله من الموات لديه وقد توجه إلى حضرته راجياً أن يلحفه من ظل سعادته ما يتكفل بمصلحته ويقضي على الزمن بإعدائه ومعونته ومولانا أحق من تولاه بحسن خلافته فيه والتفضل على المملوك بتحقيق ما يرجيه.

آخر في معتقل: علم المملوك بأن مولانا لا يتعدى في العقاب موضع الإصلاح والتأديب ولا يتجاوز في الغضب موقع التقويم والتهذيب عملاً بالعدل وتمسكاً بالفضل يبعثه على تنبيهه لما أغفله وانقياده لما أصله وفلانٌ قد تطاول اعتقاله فإن كان جرمه صغيراً فقد ظلم في القصاص وإن كان كبيراً فقد استحق الخلاص والمسؤول من إحسانه أن يعاود جميل عادته ويراجع كريم شيمته فيعمل في أمره بالعدل إذا لم يره أهلاً للفضل وإن كانت حقوقه متأكدة وحرمته مؤكدة فلا يحسن أن يضاع ويخفر ولا ينبغي أن يجحد وينكر وهو حريٌ أن يحقق الظن فيه ويقابل هذا السؤال بما يقتضيه.

آخر: على حسب أخطار الودائع يكون الإشفاق عليها والشكر ممن صرف رعايته إليها وقد كان المملوك أودع كنف مروءته وفناء همته فلان وهو درة المحاسن الفريدة ونادرة الدهر الشريدة والجامع لأسباب المحامد بفضائله ومناقبه والناظم لنثار المآثر بخلقه وأدبه مع ما خص به من المعرفة بقدر الصنيعة والتعويض بالشكر عن قليل العارفة والمملوك يرجو أن يكون

وينهي أن الأيام -مولانا قد أحسن خلافته فيه ونزله من حياطته وتوليه بما يوجبه مكانه من المملوك ويقتضيه متعوضاً رقعة إذا قعدت بالكرام فأنزلتهم بعد السعة ضيقاً أوجدتهم إلى التثقيل على من يمتون إليه بسالف الخدمة طريقاً وممن تحداه الزمن بنكده وعوضه ببؤسه من رغده فلان وكان قد فزع إلى جماعة من الخلان واثقاً منهم بالامتنان والإحسان فألفى وعداً جميلاً ومطلاً طويلاً فعدل عنهم إلى سيدي وعزل عنهم إليه وتوجه إليه معتمداً بعد الله في مقصده عليه ثقةً بفضل غيره وحسن أثره وتحمل عبودية المملوك هذه ذريعةً تبسط له من مولانا محياه وتوصله إلى ما يرجوه من معروفه ونداه.

وما أولى مولانا بأن يحقق ظن المملوك وظنه ويجوز شكره وشكره إن شاء الله تعالى.

وينهي أن رغبة سيدي في إسداء المعروف وغوث الملهوف تبعث على السفر إليه والتقدم بالرغبات عليه والله تعالى -رقعة يواصل المنح لديه كما وصلها من يديه وقد سبقت له عوارف لا ينساها المملوك ولا يؤمل جزاءها إلا بمرفوع الدعاء وكريم الثناء حتى تقتضي ضرائرها وتستدعي نظائرها وحامل عبوديتي هذه فلان والمملوك يرضى لمولانا لسان شكره كما يرضاه لتحمل بره وقد ركض ظهر الأمل إلى حضرته ووثق ببلوغ الوطر من جهته وأن ينظم في سلك من أسبغت عليه عوارفه وعمته لطائفه وعزز ذلك باستصحاب كتاب المملوك إلى بابه وتقديمه ذريعةً في التزام حقه وإيجابه.

من كان سيدي شافعه انبسط في المنى ولم يرض بغير العلا وقد علم مولانا أن للشفاعة أحوالاً ثلاثاً حالاً تخص الشافع -رقعة وحالاً تخص المستشفع وحالاً تخص المشفوع إليه ولكلٍ حد يجب الانتهاء إليه ولا يجوز التقصير فيه فعلى المستشفع ارتياد أخصب جناب وأسكب سحاب وقصد الجهة التي لا تصد عن البغية سائلاً ولا ترد عن الأمل آملاً وأن ينهض بالشكر على العارفة ويحدث بالنعم عنه في الأحوال الطارفة وعلى الشافع أن يهريق ماء وجهه في السؤال ويجرد رغبته في تسهيل المنال ويعتقد أن ذلك من الدين المقترض والدين المفترض ويتكفل بالقيام بما يستدعي منه من المكافاة ويلتمس من العوض والمجازاة.

وعلى المشفوع إليه أن يعلم أن الشافع والمستشفع ما قصداه إلا بعد الثقة بأحديته ولا اعتمداه إلا بعد السكون إلى أريحيته وأنه لا ينبغي أن يخسر متجرهما ولا يضيع سفرهما وقد اجتمعت هذه الأحوال الثلاث للرئيس المشفوع إليه ولسيدي الشافع ولخادمه المستشفع به ولم يبق إلا عزمةٌ منه تهز أفنان الإقبال فتساقط أثمارها وتنشئ عوارض الآمال فيتهافت قطارها.

أبو الفرج الببغاء: وموصل كتابي هذا غنيٌ عن شفاعتي له بما يمت من حرمات الرغبة إليك والوقوف دون كل مقصدٍ عليك وبما يشفع ذلك من التقدم في الصناعة والتوصل بوجيه الكفاية وإنما زودته هذه الأحرف لأفتح له باب الأنسة وأسهل السبل إلى التعلق بالخلة وأدل بها على ما تكشف منه المطاولة والخيرة وأنت أيدك الله ولي التطول بالتقدم في إيناسه وبسطه في الخدمة بما يستزيد له محمود الأثر فيها من حسن النظر وجميل الرأي.

وله في مثله: وموصل كتابي فيما يؤمله منك ويبلغه بك متمسكٌ من رجائك بأوكد ذمة ومن شفاعتي بأوجب حرمة ومهما مت به بعد ذلك من ظهور كفاية أو تقدم في صناعةٍ كان غير ضائع عند رعايتك ولا مجهولٍ مع تيقظ عنايتك وأرجو أن يحل من تقبلك بحيث أحله حسن النظر بتطولك.

وله في مثله: وفي علمك ما آخذ به نفسي وأروض به أخلاقي من الانقباض عن التسرع إلى مسألةٍ والاحتشام من الانبساط في حاجةٍ ما دلك على موضع فلانٍ ومكانه من إيثاري بواجبات حقوقه وسالف مواته ولذلك سمحت بالكتاب له إليك وفارقت رسمي بالتثقيل في قضاء حقة عليك وقد قصد نحوك بأمله واختارك لرجائه وقدر بك بلوغ البغية واختصر بشفاعتي إلى تفضلك السبيل إلى إدراك المحبة فإن رأيت أن تأتي في بابه ما يشبه فضلك ويناسب وكيد آخر متقارب: رأيت المساكين قد أجمعوا على أنك الوزر المعتمد فأنت لطفلهم والدٌ وأنت لشيخهم كالولد السلام العميم ورحمة الله وبركاته على من جعله الله للمساكين ظلاً يقيهم وطلاً يسقيهم ونعمةً تعمهم ورحمةً تضمهم أبو فلان أبقاه الله في عزةٍ تالدةٍ طارفة وسعادةٍ لا تزال طارقةً بكل عارفة.

من أقامه الله مقامك أيها الشيخ المبرور بالترفق بالفقراء والإحسان إلى الضعفاء لم يعدم مريضاً يقصده في الشفاء ولا يعدم فيضاً يعتمده للاكتفاء لا سيما إذا توسل وحده وتشفع بمن لا يضيع عمل عاملٍ عنده ومتحملها فلان قص الفقر جناحه وأخنى عليه الدهر واجتاحه ولما رأى الفقراء ببركم مرتفقين وعلى شكركم متفقين أمكم حسن الظن بالمن ولم يقدم شفيعاً دنيوياً ولا طريقاً واضحاً سوياً وأنت أيها الشيخ الموقر تنزلونه منزلة سواه ممن ثوى مثواه ونوى فيكم من الأجر والشكر ما نواه إن شاء

الله تعالى والسلام الكريم العميم يخص جنابكم ورحمة الله وبركاته بسيط: فالله سبحانه يبقيك في دعةٍ وحسن حالٍ وتيسيرٍ وإقبال الشفاعات من كلام المتأخرين: الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي: شفاعةٌ في استخدام كاتب درج: جعل الله تعالى دوره رحبة العراص وسعادته في الازدياد وأعاديه في الانتقاص والدعاء لإحسانه مقروناً بصدق النية والإخلاص طويل: وهذا دعاءٌ لو سكتّ كفيته فإنّي سألت الله فيك وقد فعل صدرت هذه الخدمة تستمطر سحاب كرمه وهامي ديمه وتسأل جميل شيمه في معنى مملوك المولى وداعيه والشاكر لأياديه والملازم على رواية أخبار فضائله وبثها ونشر تفضلاته ونثها فإنه من بيتٍ كريم النجار زائد الفخار وله على مولانا حق خدمه وهو يمت بسالف معرفة ومحبة المملوك له شديدة والصحبة بينهما قديمةٌ وشقة المودة جديدة ولولا ذلك ما ثقل على خدمته وتهجم على المولى بمكاتبته وقد توجه إلى بابه العالي مهاجراً وناداه لسان جوده فلباه وأجابه مبادراً وغرضه أن يكون كاتباً بين يديه ومملوكاً تقع عين العناية عليه وهو من الكرام الكاتبين والراغبين في الانتظام في سلك خدمه والمؤثرين وصفاته بالجميل موصوفة وفصاحته معروفة وقلمه الذي يقلم ظفر المهمات ويكف كف الحدثان ولسانه الذي يغني بشباته عن حد السنان ورأيه المقدم في الهيجاء على شجاعة الشجعان فإذا أنعم المولى باستخدامه وتحقيق مرامه كان قد وضع الشيء في محله وصنع المعروف مع أهله وبيض وجه المملوك وشفاعته وصدق الأمل في إحسانه ومروءته ورأيه العالي إن شاء الله تعالى.

وله شفاعة في استخدام جندي: لا زال بره مطلوباً وجوده مخطوباً وذكر إحسانه في الملإ الأعلى مكتوباً ولا برحت رياض جوده أزهر وأنضر من روض الربا ويده البيضاء ترقم له في سواد القلوب سطور حمدٍ أحسن من نور تفتحه الصبا.

هذه الخدمة صدرت على يد فلان تهدي إلى المولى سلام المملوك وتحيته ودعاءه الصالح الذي أخلص فيه نيته وتشفع إليه في تنزيله في الحلقة المنصورة واستخدامه وترتيبه في سلك جيشه المؤيد وانتظامه فإنه من الأجناد الجياد وذوي الجلد على الجلاد وهو الغشمشم الذي لا يرد والشهم الذي لا يصد والباسل الذي لا تحصر بسالته بوصف ولا تحد والنقيب الميمون الغرة والنقيبة الموصوف في الهيجاء بحزم الكهول وجهل ذوي الشبيبة والمولى وإن كان بحمد الله غير محتاجٍ إلى مساعد ولا مفتقرٍ إلى معاضد فإن أسنته لا تحتجب عن روج محتجب ونفسه الشريفة تقوم وحدها يوم الكفاح مقام عسكرٍ لجب وقلبه يغنيه عن الأطلاب والأبطال وجيوش سطوته لا تكلفه المقام في منازل النزال فإن المملوك يعلم أن نفسه الشريفة تهوى تزيد عسكره وجنده وترعى حرمة قاصده وقصده فلهذا توسل بشفع وتر الشافعة وتوصل إلى إزالة ضرع حاله بكثرة الضراعة فإذا أنعم بقبول شفاعة المملوك فيه وحقق له من العناية ما يؤمله ويرتجيه كان قد شد للمشار إليه ما أضعفته العطلة من منته وقلد المملوك جميل منته.

شفاعة في رد معزول إلى ولايته: يقبل اليد العالية لا زالت مقبلة ولإسداء الخير إلى أهله مؤهلة وبأياديها على الكافة متفضلة.

وينهي ملازمته على شكر مواهبه ونشر فضائله الجسيمة ومناقبه وحمده كريم شيمه والاعتذار من تثقيله على خدمة المولى بخدمه وسؤال إنعامه بوجوه مكاتبته ولسان قلمه وما ذاك إلا لما يتحققه من كريم نجاره وشدة تطلبه لإسداء العوارف وإيثاره والموجب لهذه الوسيلة وسؤال مكارمه واستمطار سحائب مراحمه ما بلغه من عزل مملوك المولى وعبده وواصف جميل أوصافه بلسان شكره وحمده فلان أفاض الله عليه إحسان المولى وإنعامه وخلد لنا وله دولته وأيامه فإنه صاحب المملوك وصديقه وشريكه في الدعاء لمولانا ورفيقه وهو من العدول الأمناء والثقات الاتقياء وهو قليل الجدة كثير العيال لا يجد حيلةً إذا بطل بخلاف ما يحكى عن البطال وقد تشفع بالمملوك ومكاتبته في ملاحظة المولى له بعين عنايته والتقدم برده إلى جهة ولايته فلهذا كتب إليه وأكد في معناه السؤال وعلق بتحصيل أمله الآمال يعلم ذلك موفقاً.

شفاعة في خلاص مسجون: فسح الله في مدته وسهل أداء ما يجب من شكر نعمته وألزم الألسنة بحمده والقلوب بمحبته وجعله مفرجاً كل كرب ومسهلاً من المقاصد كل صعب.

وبعد فإن كافة الأمة قد تحققت رحمة قلب المولى ورأفته وتيقنت إحسانه ومروءته وأنه يؤثر إعانة كل عانٍ وإغاثة كل ملهوف وأنه لا يمسك إلا بالإحسان ولا يسرح إلا بالمعروف بحيث سارت بحسن سيرته الركاب عوضاً عن الركبان ودرأت مكارمه عن الأولياء نوب الزمان وعلا على حاتم فلو تشبه بكرمه لقلنا له: مورعًى ولا كالسعدان.

وللملوك من إحسانه أوفر نصيب وهو يرفل من جوده في ثوبٍ قشيب وقد اشتهر ما يعامل به من الإكرام وأن قسمه من العناية أوفر الأقسام وكان يعد من جملة العبيد فأصبح مضافاً إلى الألزام وهذا مما يوجب على المملوك أن يبتهل إلى الله في تخليد دولته ويتضرع وعلى حلم مولانا أنه إذا شفع إليه في مذنب أن يشفع وهو يشفع إليه في مملوكه وعبده والملازم على رفع

رايات مجده وتلاوة آيات حمده فلان رزقه الله رضا الخواطر الشريفة وأسبل عليه حلة عفوه المنيفة على الحلل بظلالها الكثيفة فإنه قد طالت مدة حبسه واعترف بأنه الجاني على نفسه والمعترف بذنبه كمن لا أذنب والمغترف من بحر جوده يروى دون أن يشرب والطالب لبره ينال سوله والمطلب فإن حسن في رأيه العالي زاده الله علاءً وضاعف له سناءً المشي على منار جوده ومنهاجه وبروز أمره المطاع بإطلاقه وإخراجه اغتنم أجره وجبر كسره وربح في هذا الشهر المبارك دعاءه الصالح وشكره وكان قد أنعم على المملوك بقبول شفاعته إليه وفعل ما يوجب على كل مسلم الثناء عليه والله الموفق.

شفاعة بسبب خلاص حق: يخدم المجلس السامي لافتيء بالتحيات مخدوماً وحبل سعده مبروماً ودر المدائح لجيد جوده منظوماً وعدله بين الأخصام قاضياً فما يترك ظالماً ولا مظلوماً.

ولا زالت الآمال متعلقةً بهمته منوطةً بسعيد عزمته راجيةً خلاص كل حقٍ ممن هو في جهته وتوضح لعلمه أن فلاناً أدام الله سعادته وخلد سيادته ذكر أن له ديناً في جهة غريم مماطلٍ مدافع وخصم ممانع وقد جعل هذه الخدمة ذريعةً إلى خلاص حقه وخالها إلى الوصول إلى عناية المولى أقرب طرقه وهو جديرٌ بالتقدم بإحضار غريمه ومحاققته وأخذ ما للمملوك في ذمته وأن لا يفسح له في تأخيره ولا يسمح بقليل الصبر ولا كثيره فإنه يعلم أن المولى المشار إليه واجب الخدمة وافر الحرمة وقد تعلق أمله في خلاص حقه بالمولى ولا يجاوب عن هذه الخدمة بلو ولولا بل يبذل جهده ويطلق في تحصيل الغرض لسان الاجتهاد ويده ويعتمد من الاهتمام ما يليق بأمثاله ويبيض وجه الشافع وسؤاله موفقاً.

شعر طويل: ولو كان لي في حاجتي ألف شافع لما كان فيهم مثل جودك شافع شفاعة فيمن أسمه سراج الدين إلى من اسمه جمال الدين: الشيخ جمال الدين بن نباتة: وينهي بعد ولاء يحكم على القلوب شافع جماله وثناءٍ يجر على أكمام الزهر فضل أذياله أن العلوم الكريمة محيطةٌ بإيجاب حق من هاجر إلى بابها وشكا غلة الفاقة إلى منهل منهل سحابها وأن الماثل بهذه الخدمة فلان ذكر احتياجه إلى عاطفةٍ من عواطف مولانا التي شملت وعارفةٍ من عوارفه التي لو استمدت من غررها الليالي لما أظلمت ولا ظلمت وأن بيده وظيفة شهادة بيت لحم بتواقيع شريفةٍ نظرت في حاله ونشرت حال عياله وأطفاله وأن ثم من ينازعه في جهته المعتادة ويقصد نزعه والنزع عن تلك الشهادة المسطرة أخف من نزع الشهادة ومولانا أول من رحم منه ضعفاً واشتمل عليه عطفاً ودارك بكرمه هذا السراج قبل أن يطفى ورعى سيرة مباشرته الحسنة الآثار واغتنم أدعيته وأدعية أولاده الذين هم كقطع الشطرنج صغارٌ وكبار وكف يد التعرض إليه في أيام عدله فإنها أيامٌ لا ضرر فيها ولا ضرار وعلى الجملة فقد تركته الأيام قطعة لحم فمباشرة بيت لحم أولى به ورجاله فرجانية وأخواتها أحق أن يتعلق سببها بأسبابه والله تعالى ينير بمنن مولانا أحوال المضرورين فإنها ظلام وينصرهم على حرب الأيام بسيوفه التي هي أقلام ويمتع بأيام عدله وإحسانه التي تتنافس فيها أعمار الرعايا فإنهم يتبعون أياماً بأعوام.

وله إلى شخصٍ اسمه شمس الدين: وينهي بعد قيامٍ بوظائف ثناءٍ يتمسك بنفحاته المتوالية وولاء يتمسك بحباله المتينة وما كل شمسٍ حبالها واهية أنه يرتاد الأوقات لخطاب مولانا بالأقلام حيث حبس البعد خطاب الكلام ويتخير حملة رسائل الشوق وإن أضعف عطف النسيم رسائل السلام ولما حضر من مكان كذا عارض هذه الخدمة فلان وذكر توجهه إلى حمى حماة المحروسة وقصد كتاباً يكون في وحشة الاغتراب أنيسه فوافق ذلك غرض المملوك وسلك طريق مراده ولا ينكر من جهة هذا الرجل الصالح السلوك فأعلمته أن المكارم الحمادية لا تحتاج غير الحمد والأجر شافعاً إليها والمنازل الشمسية لا تفتقر إلى دليلٍ ينبه عليها وطالما جمعت لقاصدها الفعل والقول السخي وطالما قال يوسف رحمه الله أخو مولانا أبقاه الله للقاصد: أنا يوسف وهذا أخي ولكن أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله فإنه من أصحاب ولي لله طالما فاض ولي معروفه واستفاضت نسبته المرشدية فكان ولياً مرشداً قامت صفته مقام موصوفه وإن آثار هذه البركات على هذا القادم لائحة وإن على يده تجارة ذكر وأجر وهي في سوق همم مولانا تجارةٌ رابحة والله تعالى يجعل له في كل ثناءٍ وثواب نصيباً ويديم قلمه الكريم مقصد رفد وجاهٍ فطوراً رشاءً وطوراً قليباً.

وله: عن نائب الشام إلى نائب حماة شفاعةٌ في شخصٍ اسمه شهاب الدين وهو بعد الألقاب: لا زالت الأقدار تسعده والملائكة تنجده ومواطن النصر تجرد حد بأسه ومواطن الحلم تغمده والجناة تلوذ بظله فأي جاني ذنبٍ ما يعفو عنه وأي جاني بر ما يرق عليه ويرفده تقبيلاً يترادف مدده ولا تنتهي في القرب والبعد مدده.

وينهي بعد ولاءٍ وثناء: هذا لا يبلى جديده وهذا لا تخفى جدده وشوق وارتياح كلاهما يروى عن ابن شهاب توقده ويحمل على يد شهاب سنده أن العلوم الكريمة محيطةٌ بمقدار الحلم وفضله والعفو ومحله والتجاوز عن هفوات المخطئين من القوم وطلب العفو من الله غداً بالعفو عن عباده اليوم قال الله تعالى: " وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ "

ولما سمع الصديق رضي الله عنه هذه الآية قال: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ثم عفا عمن نزلت بسببه ومملوك مولانا أعز الله أنصاره فلان قد اعترف بهفوةٍ بدت منه وزلة نقلت عنه ما يسعها إلا عفو مولانا ومراحمه وقدم على المملوك فكأنه ما خرج عن ظل مولانا ولا فارقته معالمه وسأل سؤال مولانا أن يشمله بالعفو ويتجاوز له عن السهو ويرحم كبر سنه وكبيرة جهله ويرعى قدم هجرته لخدمة هذا الباب الذي نشأ عمراً طويلاً في ظله أهلاً لأن تشمله عواطف أهله وهو - كما عرف مشكور السيرة بالاعتبار ناهض الخدمة بالاختبار ملازمٌ لثرى الباب بعزمٍ ما -المملوك واطلع عليه حيث كان في نيابة حماة عليه غبار وله على المملوك بالأمس حق خدمة وباليوم حق سؤال يشفع بهما في القلوب وهي كبار والمسؤول من صدقات مولانا تجاوزه عن هفوته ورده إلى أمنه ووظيفته وإجراؤه على عادة إقطاعه وحشاه في أيام مولانا أن يقطع بل حاشى المذكور أن يستخبر وأن لا يقطع واستقراره في مكان خدمته وإجابة سؤال المملوك في كل ما يتعلق بنجاح هجرته وعزمته لا برح مولانا مأمول المنن الغائبة والحاضرة والمقيمة والسائرة مأهول الخواطر برفع ذكره وقدره في الدنيا والآخرة.

الشيخ جمال الدين بن نباتة: لا زالت المحامد بذكرها متوجة ومقدمات الفضل والفضائل من تلقاء شيمها منتجة ومطالع الكرم والإكرام هادية إلى حرمها من اتجه تقبيل مواطبٍ على الدعاء يرفعه والولاء يجمعه والثناء يقول بضاع أرجه لا مما نضيع بل مما نضوعه وينهي أن عارض هذه الخدمة على عارض كرم مولانا الممطر وبابه الذي هو لكبد الحاسد وفم الوارد مفطر فلان لقضاء تعلقاتٍ له أولها التعلق بحبل رجائه المحصد وانتمائه المرصد والتجمل بقصد بابٍ مولانا الذي هو المهم المقدم على كل مقصد وهو من الفضلاء الذين يعرفهم انتقاد مولانا معرفة الخبير وله اتصالٌ بالأكابر الذين سلم منهم زمام المفاخر كل كبير وقصد من المملوك هذه الخدمة لمولانا تؤنس اغترابه وتنشد المقر الذي ما قرع سن الندامة من قرع بابه خفيف: يا غريب الصّفات حقٌّ لمن كا ن غريباً أن يرحم الغرباء والمملوك يسأل من إحسان مولانا ملاحظة المذكور بعين عنايته التي ما أغفت عن القاصدين ولا غفلت وعواطفه التي طالما فتحت أبوابها فأثنت عليها الركائب التي قفلت والله تعالى يديم تقليد الأعناق بكلمه وبره ويمتع الممالك الساحلية بما قذف لها من درر بحره.

النوع الخامس التشوق قال في مواد البيان: وينبغي للكاتب أن يجمع لها فكره ويظهر فيها صناعته ويأخذ في نظمها مأخذاً من اللطافة والرقة يدل على تمازج الأرواح وأتلاف القلوب وما يجري هذا المجرى وأن يستخدم لها أعذب لفظٍ وألطف معنًى ويذهب فيها مذهب الإيجاز والاختصار ويعدل عن سبل الإطناب والإكثار لئلا يستغرق جزءاً كبيراً من الكتاب فيمل ويضجر وينتظم في سلك الملق والتكلف اللذين لا يعتادهما المتصافون من الأصدقاء.

وهذه نسخٌ من ذلك: أبو الفرج الببغاء: شوق المملوك إلا مولانا بحسب مكانه من تفضله وحظه من جميل نظره واختصاصه بإنعامه واغتباطه بشرف خدمته ومكانه من إيثاره والله يجمع للمملوك شمل السعادة بمشاهدة حضرته وماله من الدهر بالنظر إلى غرته على الحال السارة فيه وبه.

وله: شوق المملوك إليه شوق الظمآن إلى القطر والساري إلى غرة الفجر.

وله: شوقي إليه شوق من لم يجد مع بعده عوضاً عنه فتقوده الزيادة إلى الانصراف بالرغبة عنه.

وله: شوقي إليه شوق من فقد بالكره سكنه وفارق بالضرورة وطنه.

وله: لو كان ما يصدره من خطاب ويناجيه به من متضمن كتاب بقدر ما أعانيه من ألم الشوق إلى غرته ومضض الفائت من مشاهدته لما أحاطت بذكره بسطة لسان ولا ناب في إثباته استخدام بنان.

وله: أما الدهر فما يستحق من إبعاد المملوك عنه عتباً ولا يعد ما جناه من ذلك ذنباً إذ كان إنما نقل من حشمة المخاطبه إلى انبساط المكاتبة.

وله: وقدره - أبقاه الله تعالى - يرتفع عن ذكر الشوق إليه فالمملوك يعبر عنه بذكر الشوق إلى ما فارقه من تفضله وبعد عنه من أوطان تطوله.

وله: ولولا أن المملوك يخمد نار الاشتياق ويبرد أوار الفراق بالتخيل الممثل لمن نأت محلته والتفكر المصور لمن بعدت شقته لألهبت أنفاسه وأسعرت حواسه وهمت دموعه وأنقضت ضلوعه والله المحمود على ما وفق له من تمازج الأرواح عند تباين الأشباح.

وله: ولا بد أن يكف بالمكاتبات من غرب الاشتياق ويستعين بأنس المراسلات على وحشة الفراق فإنها ألسنٌ ناطقة وعيونٌ على البعد رامقة.

وله: عند المملوك لمولانا خيالٌ مقيم لا يبرح ولا يريم يجلو عليه صورته ويطلع على عين فكرته طلعته إن سهر المملوك سامر معيناً على السهاد أو رقد تصور معذباً طعم الرقاد لا يمطله بزيارته ولا يوحشه بغيبته كأنما تصور بصورته في الوفاء وتخلق بخلقه في المحافظة على وله: إن تزايلت الأشباح فقد تواصلت الأرواح وإن نزحت الأشخاص وبعدت فقد دنت الأنفس وتقاربت فلا تمض الفرقة وتؤلم وتنغص النوى وتكلم وقد ينال بتناجي الضمائر وتحاور السرائر ما لا تصل إليه الإشارة ولا تدل عليه العبارة إذ الأنفس البسيطة أرق مسرًى وأبعد من الألسنة مرمًى.

التشوق من كلام المتأخرين: نسخة كتاب من ذلك من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وهو بعد الصدر: لا زال الدهر يقضي خدمه ويمضي رأيه وسيفه وقلمه ويرضي الدول الشاكرة تقديمه فيها وقدمه ولا برحت الأقدار المعربة تجزم أمره وتكسره ضده وترفع علمه تقبيلاً إذا لثم الترب التثمه وإذا أودع القلب في ذلك الترب ختمه.

وينهي مواظبته على ولاءٍ لا ينسخ البعد محكمه ودعاءٍ يقابل النجوم ولا تنقطع من القبول إدراراته المنجمة.

وينهي أنه سطرها عن شوقٍ يعز عليه أن ينوب فيه سعي القلم عن سعي القدم وارتياح إلى القرب الذي بأنسه يؤنسه أنواراً على أعلى علم وتطلع لمعاودة الأخبار أوفى من تطلع العامري إلى معاودة أيام ذي سلم وتعلل بقول القائل وافر.

وهيهات! أين نظرات الحروف المرموقة من نظرات العيون الرامقة وأين منال السلو من شجو يقول بسيط: أعيذها نظراتٍ منك صادقةً.

ما يحسب المملوك من النظر إلا ما يملأ العين من ذلك الوجه الكريم ولا يلبس من خلع الأيام إلا ما تخيط الأهداب على شبا ذلك القرب الرقيم وعلى ذلك فقد جهزها المملوك على يد فلان وحمله من رسائل الشوق ما يرجو أن ينهض فيه بأعباء الرسالة ويسأل الإصغاء والملاحظة فيما توجه فيه وإن أدت الأمالي إلى الملالة والله تعالى المسؤول أن يبلغ في امتدادها مولانا الأمنية ويمتع الدول منه بهذه البقية النقية إن شاء الله تعالى.

نسخة كتاب في المعنى عن نائب الشام إلى القاضي علاء الدين بن فضل الله كاتب السر بالأبواب السلطانية من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة أيضاً وهو بعد الألقاب: لا زال قلمها مفتاح الرزق لطالبه والجاه لكاسبه والظفر لمستنيب كتبها عن كتائبه والنجح لرائد مطالبة الدهر بعد المطال به ولا برح البأس والكرم يتحدثان عن بحرها ولا حرج عن عجائبه تقبيلاً تغبطه في مرابعها ثغور الأزاهر لا بل تحسده في مطالعها ثغور الزواهر.

وينهي بعد دعاءٍ أحسنت فيه الألسنة وأخلصت الضمائر وولاءٍ وثناءٍ لهما مصاعد النجمين إلا أن هذا في القلوب واقعٌ وهذا في الآفاق طائر - أنه جهز هذه الخدمة معربةً عن شوقٍ يتجدد وارتياح لا يتعدى ولا يتعدد ساعيةً عنه بخطوات الأقلام أن منع الوقت خطوات الأقدام نائبةً في تقبيل الأنامل التي تستسقى ديمها على القرب والبعد ولا كيد ولا كرامة للغمام وجهزها على يد فلان بعد أن حمله من رسائل الشوق ما إن حملنا من إحسانه لينضي عقود الأنجم لو تعددت ومفاتيح أبوابه لتنوء بالعصبة أولي القوة لو تجسدت وهو بين يديه يقدم نجواها ويستشهد بالخاطر الكريم قبل حضور دعواها والمسؤول إصغاء السمع الكريم إليه والملاحظة فيما توجه يه متكلاً على الله وعليه وإذا عاد مشمولاً بعناية مولانا المعهودة مكفولاً برعايته المقصورة على نجح الآمال الممدودة فلينعم على المملوك من المشرفات الكريمة بما يسكن على جور البعد خواطره الدهشة ويعينه على الوحشة التي حركها نحوه البعادة فهي الوحشة والله تعالى يشكر همم مولانا غائباً وحاضراً وشافعاً لرسائل خدمه وناظراً ويخص بابه العلوي بسلام كسلام سقيط الطل عن ورق الغصن ناضراً.

آخر من كلامه: كتب به إلى بعض رؤساء مصر.

وينهي أن سطرها معربةٌ عن شوقٍ مقيم وعهدٍ لا يبرح على صراطه المستقيم وارتياح لجنابه أو لكتابه ليتلو لإنصات شجوه: متطلعاً لما يرد من أخبار مولانا السارة البارة مرتقباً لأنبائه ارتقاب الزهيرة الفاغرة " أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيم " إلى ضرع الغمام الدارة ولو أن كل ما يتمنى المرء يدركه وكل ما يقترح على الدهر يملكه لغني بقرب المخاطبة عن بعد المكاتبة واستجلى كوكب الجمال المشرق وأقصر في ليالي الانتظار عن المراقبة.

وقد جهزها على يد فلان وحمله من رسائل الشوق أوفى وأوفر من رسائل الصفا وسأل الإصغاء والملاحظة من مولًى كجاره النيل معروف المنافع والوفا ولآمال المملوك بمشرفاته وأوامره جمالٌ حين يريح وحين يسرح وحين يقتصر على مقترحات الأيام حين يشرح فينعم مولانا بمواصلتها على هذه المقدمة ويجعل ذلك من إدرارات صلاته المنجمة والله تعالى لا يعدم المملوك في حال كرمه إما أن يفيض في القرب بحره وإما أن يبعث على البعد ديمه.

وله إلى كاتب السر: أعلى الله أمر قلمها على الأقلام وأدام بفيض أنامله عليه بسط كلمة الإسلام وراع بكتائب كتبه العدا إذا انتبهوا فإذا أغفوا " سلَّتْ عليهم سيُوفَها الأحلام " ز ولا زالت تلك الأقلام العالية في تلك اليد الكريمة إن لم تكن من المنشئات فإنها من المنشآت في البحر كالأعلام تقبيل مواظب على دعاء يطلع طلوع طرة الصبح تحت ذلك الظلام وولاءٍ إذا وينهي أنه جهز هذه الخدمة مقصورةً على وصف الأشواق الممدودة وجوانح الشجو المعهودة وأنفاس التذكر التي لولا شرف مذكورها لم تكن عنده من الأنفاس المعدودة فيالها مقصورةً على شوقٍ ما فيها غير طيور الجوانح خفاقة الجناح سباقة الارتياح ويا لها أنفاس ذكر أغنت منادمتها عن كيس كأس واقتراح وقت راح ويا لها ورقةٌ فازت بمشافهة لثم اليد الشريفة فكرمت وصفاً ونأت عن فخار الروض عطفاً واستطابت بشفاه السطور على تلك البنان رشفاً طويل.

وسطّرتها والجسم أنحل ما يرى فياليتني أصبحت في طيّها واصلةً إلى الباب الكريم بسلام وصل عبقه قبل ما وصلت واردةً على يد فلان وقد حمل من رسائل الصفاء والود مثل ما حملت وحصلت على القرب ويا أسفي على ما حصل وحصلت.

والمملوك يسأل الإصغاء إليها وإليه بفضل النظر والسمع والإنعام على المحب المفارق بمشرفاتٍ تجلو عليه أيام جمع وتعينه على أوقات وحشةٍ إذا وصفها امشتاقون وأقلامهم ولوا وأعينهم تفيض من الدمع لا برح ذكر مولانا عليا وبره بملء الآمال مليا ووصفه بالتقى وسحاب الجود على الحالين وليا سريع.

يا منية النّفس ويا مالكي مذ غبت عنّي لم تنم مقلتي لا أوحش الله من طلعته ولا أخلى من كريم مساعدته وجمع شمل الأنس بخدمته.

المملوك يشكو من المولى فراقاً أوجب له على نفسه فرقاً وجيش صدود منحه من العزائم طوائف وفرقاً وداء صبابةٍ كلما ترجى الإفراق منه ازداد تلهباً وحرقاً ووجوب قلبٍ لغيبته ووجب ودمع عينٍ يمحو مهما عبر عنه لسان قلمه أو كتب وقد أطال الهجر تألمه وعتبه وأطار سنته ولبه مذ وصل المولى غيره وقطع عنه كتبه والمولى يعلم أن المملوك لفظٌ والمولى معناه وسعده شخص وأنت وجهه الميمون ويمناه فيواتر إرسال مكاتباته ويتحف بمأثوره ولباناته ويعطر بذكره الجميل الأماكن ويشنف المسامع كما شرف بحلوله فيها الأضالع والله يديمه ويمده بالإسعاف والإسعاد وينصره على الأضداد والحساد وافر.

أقاسي من بعادك ما أقاسي وقلبك راحمٌ وعليّ قاسي وأحمل من نواك بضعف نفسٍ عناءً يعجز الشمّ الرّواسي وتبعدني وأمرك إن أتاني جعلت محلّه عيني وراسي قرب الله أوبته وعجل رويته وحرس نفسه من الغير والحادثات وصان حجابه المنيع عن الملمات المؤلمات وجمل الأيام بوجوده والأنام بجوده ولا زالت الدنيا به مجملة وأعناق أبنائها لمننه متحملة.

صدرت هذه الخدمة إلى خدمته متضمنةً إهداء سلامه وشاكيةً لغيبته جور أيامه ومنهيةً شدة أشواقه التي أفنت بالصبابة التي أفنت بالصبابة قلبه وأذهبت حشاشته ولبه وهي في ذلك نائبةٌ مناب سائر الخدم ومعبرةٌ عن ألسنة الأقاليم بلسان القلم فإن الأعين متطلعة إلى رويته والقلوب متعطشة إلى قفوله ورجعيته كما تتطلع إلى السماء عيون النرجس وتتعطش الرياض إلى الوابل الغدق بعد اليوم المحر المشمس فالمولى يجعل مواصلته بأخباره فرضاً لازماً ويمتنع من إغفاله كما يمتنع من لذة الطعام إذا كان صائماً فإن المولى هو صورة الجود ومعناه وبيته الكريم فناء الخير ومغناه والناس ما لم يروك أشباه حرسه الله وتولاه وضاعف علاه والسلام.

رجز.

يا أجمل الناس سناءً وسنا جفت جفوني لجفاك الوسنا ثمار آلامٍ إلام أجتني يا ليتني أعلم حظّي ما جنا وأنتم يا أهل بان لعلع مذ بنتم لم أر شيئاً حسنا أقمتم بمنحنى أضالعي وسرتم يا أهل وادي المنحنا في بعدكم منيّتي لا تبعدوا وقربكم غاية والمنا خلد الله سعادته وبلغه من العلياء إرادته وأثل مجده وأدام سعده وأعذب منهله ووِرده.

المملوك يتشوق إلى لقائه ويتشوف إلى أنبائه ويصف شديد أشواقه وصبابته وحنينه إلى مشاهدى المولى ومشافهته وما يجده لذلك من ألمٍ في جوارحه الجريحة وسقمٍ في جوانحه الصحيحة ويلتمس مواصلته بكتبه آناء الليل وأطراف النهار وأخباره السارة ليتضاعف له مزيد الاستبشار فإن القلب بنار الصبابة قد وقد وأما صبره على بعده فقد فقد ومتى ورد كتاب المولى شفي الغليل وأبل العليل ونجع طعم الحياة ونجح التأميل فليصير وتر مكاتباته شفعاً ولا يجعل لوصلهن قطعاً والله يمنح عيشه خفضاً ومكانه رفعاً والسلام.

شعر في معنى التشوق بسيط قد كان لي شرفٌ يصفو برؤيتكم فكدّرته يد الأيّام حين صفا غيره طويل.

كتبت للكتاب مجلّد على أنّه قبلي بلقياك يسعد النوع السادس في الاستزارة قال في مواد البيان: رقاع الاستزارة إنما تشتمل على وصف حالات الأنس ومجالس اللذات ومشاهد المسرات.

قال: ويجب على الكاتب أن يودعها حلو الألفاظ ومؤنق المعاني وبارع التشبيهات ويبالغ في تشويق المستزار إلى الحضور ويتلطف فيه أحسن تلطف.

وهذه نسخ من ذلك: علي بن خلف: رقعتي - أطال الله بقاء سيدي - ومجلسي بمن حله من خدمه ونزله من صنائع كرمه فلكٌ مزينٌ بأنجمه فإن رأى أن يطلع فيه بدراً بطلوعه وينقل قدمه إليهم ويكمل نقصهم بتمامه ويضيف ذلك إلى تليد إنعامه فعل إن شاء الله تعالى.

وله في مثله: قد انتظم لنا - أطال الله بقاء سيدي - مجلسٌ رقت حواشيه وتبسمت راحه عن حبب كاللآليء على ذهب وقامت فيه سوق السرور لا يكسدها إلا تخلفه عن الحضور فإن رأى أن يكمل جذلنا بإطلاع طلعته علينا ويصدق ظننا بنقل قدمه إلينا وأبهج وتمم من الإحسان ما أخدج إن شاء الله تعالى.

وله: هذا - أطال الله بقاء مولانا - يومٌ صفيق الظل رقيق غلالة الطل قد ترفعت شمسه ببرج أنسه وافتر جذلاً عن مضاحك برقه وترنم طرباً بزمجرة رعده ووشت مدارج نسيمه بأرج شميمه وقام على منابر السرور يخطب ابنة الكرم لابناء الكرام وينادي بأعلى صوته: حي على المدام فقد وجب على كل موفقٍ لاجتناء ثمار السرور والتحاف عطاف الحبور أن يلبي دعوته وينتهز فرصته ويعوضه من شمسه الآفلة براحٍ لإظهار ما اختفى من شعاعها كافلة ويقفه على التملي بالكاس والندمان ويجعله سلكاً ينتظم فيه الإخوان.

ورقعتي هذه صادرةٌ إلى مولاي وقد تهيأ لنا مجلسٌ من مجالس الأنس يبسط تجعد النفس فيه بغم ونغم ومزهر وزهر وخلان قد تراضعوا لبان العقار وتساهموا نقل الوقار وشجعوا في معارك الخمار وأدمنوا على المماساة والابتكار إلا أن هذا المجلس مع تمامه مخدج وعلى كماله مختلج لبعد مولاي الحال منه محل الواسطة من النظام والأرواح من الأجسام فإن رأى أن يكمل منه ما نقص ويميط عنه ما نغص فليجملنا بالمصير إلينا والطلوع علينا وإعفائنا من إضجار الانتظار معتداً بذلك في كريم الأيادي والمبار إن شاء الله تعالى.

وله في مثله: هذا اليوم - أطال الله سيدي - يومٌ أعرس فيه الجو بالجارية البيضاء فخدرها وحجبها بسجف الغمام وسترها واختار اختيال المعرس في معرسه بمصندله وممسكه ومورسه واتخذ من ذهب البوارق نثاراً واستنطق من زنار الرواعد أوتاراً ودعا إلى حضور وليمته والسرور بمسرته فإن رأى أن يلبي طلب هذا اليوم الصفيق ويتمتع بعيشه الرافع الرفيق فليطلع علينا طلعته التي تبهر القمر المزهر وتصدع الليل المعتكر لينهض غرة الإصباح بغرة الراح ويقطف ثمار الأنس والمحاضرة ويتملى بالسماع والمذاكرة ويأخذ بحظٍ من لذاذة الفيخة الشبيهة بشمائله ويعد ذلك من مباره وفواضله فعل إن شاء الله تعالى.

وله في الاستزارة في بستان: كتبت - أطال الله بقاء سيدي - وقد غدوت في هذا اليوم إلى بستاني والطير في الأوكار والأنداء تهبط كالتيار والليل مشتملٌ على الصباح اشتمال الأدهم على الأوضاح عازماً على مشارفته ومشارفة ما استمددت من عمارته لا للخلوة فيه بمعاطاة المدام ومؤانسة الندام فحين سرحت الطرف في ميادينه وجداوله وأقبلت على تصفح حلاه وحلله رأيت مناظره تعتلق القلوب اعتلاف الأشراك وتعتاق المستوفز عن الحراك وتقيم قاعد المزاج والنشاط وتوقظ هاجد الفرح والانبساط فمن أشجارٍ كالأوانس في ريحاني الملابس حاليةٍ من موشع الزهر والثمر بأنصع من الياقوت والجوهر كأنما تحفلت لاجتلاء عروس أو معاطاة كؤوس ما بين نخيلٍ قد نشرت عذب السندس على ذراها وأطلعت طلعاً كالخناجر غشيها صداها ونارنج يحمل أكبر العقيان أو وجنات القيان وأترجٍ قد استعال ثمرة أشواق العشاق إذا صالت عليهم يد الفراق.

ومن ريضان زاهيةٍ بنشرها وقضبها مختالةٌ في ملابس زهرها ونرجسها كعين محبٍ حدق إلى الحبيب وثنى جيده خوف الرقيب إذا عبث به النسيم جمع بين كل قضيب وإلفه وسعى بالاعتناق من شوقه وكلفه ووردها كمداهن ياقوتٍ فيها نضار وشقيقها كمدامات عقيقٍ فيها صوار وبنفسجها فخدٌ تمضي فيه من القرص آثار أو جام لجينٍ عليه من الندى نثار.

ومن أنهار قدت حافاتها قد الأديم وحدت على صراطٍ مستقيم بجرة مسجورة كالسيوف سلوخ الأساود يتخرق ذلك كله نسيمٌ رقيق الغلائل حلو الشمائل يسعى بالنميم في المعاطس والشميم انصبت إلى ملجسٍ فسيح البناء ضيق الأقناء موشى الجدران والسماء في صدره شاذروان يرمي بكسر البلور وفي وسطه نهر ينساب ماؤه انسياب الشجاع المذعور وتتوسطه بركةٌ منمنمةٌ ينصب الماء إليها بالدوالي إلى أربع شاذروانات ويخرج عنها من أربع فطيمات يحتفها كل شجرٍ مثمر وروضٍ مزهر فقلت: هذا المراد الذي يحط به الرائد رحله ويوفد إليه أهله ويدعو إلى اختيار من يهب إلى السرور ويساعد على الحضور للمشاركة في التملي ببهجته والتمتع بنضرته فكان مولاي أول من جرى إليه ذكري ووقع عليه طرف فكري لأنه الساكن في فؤادي الحال في محل رقادي فإن رأى أراه الله ما يقر العين أن يكمل مسرتي بنقل قدمه إلي وإطلاع سعد طلعته علي ليتمم محاسن ما وصفته ويكمل الالتذاذ بما شرحته أجوبة رقاع الاستزارة قال في مواد البيان: لا يخلو المستزار من الإجابة إلى الحضور أو التثاقل عنه فإن حضر على الفور فلا جواب لما نفذ إليه وإن وعد الحضور وتلوم ليقضي شغلاً ويحضر فينبغي أن يبني الجواب على سروره بما دعي إليه وحسن موقعه منه وأن تلومه للعائق الذي قطعه عن أن يكون جواباً عما ورد عليه وأن حضوره يشفع رقعته.

وإن أيس من الحضور وجب أن يبنى الجواب على ما يمهد عذره ويقرر في نفس مستزيره أنه لم يتأخذ عن المساعدة على الأنس إلا لقواطع صدت عنه يعلم المعتذر إليه صحتها لينحرس ما بينهما من المودة فإن كثيراً ما تتفاسد الخلان من مثل هذه الأحوال.

النوع السابع في اختطاب المودة وافتتاح المكاتبة قال في مواد البيان: الرقاع الدائرة بين الإخوان في اختطاب المعاشرة وانتماء المكاثرة وطلب الخلطة والمؤانسة يجب أن يقدر الخطاب فيها على أن يصل المرغوب في عشرته إلى الانخراط في سلك أحبائه والانحياز إلى أهل ولائه ويبعث على قصده في الالتحاق بوده ويدل على المماحصة والصفاء والمخالصة وما جرى هذا المجرى مما يتعامل به أخلاء الصدق ويجعلونه مهراً لما يلتمسونه من الممازجة ويرومونه من الاختلاط والمواشجة.

قال: وينبغي أن يذهب الكاتب في هذه الرقاع مذهباً لطيفاً ويحسن التوصل إلى الإفصاح عن أغراضها ليأخذ بمجامع القلوب ويعين على نيل المطلوب.

وهذه نسخ من ذلك: رقعة: وينهي أن المملوك لم يزل مذ وقع طرفه على صورته وولج سمعه بعد شيمته يناجي نفسه بافتتاح مكاتبته ومراسلته واختطاب ممازجته ومواصلته رغبةً في الاعتقاد بإخائه واالارتشاف من مشارع صفائه والمقادير تطوي الطوية على ما فيها والعوائق تمطل النية بنجاز ما تنويه وتلويها إلى أن أذن الله تعالى بإعراض الأعراض وانقباض أسباب الانقباض فأظهر المملوك ما في القوة واثقاً من مولانا بحسن المروة وأنه يوجب القبول بإجابته ويجيب إلى مساعدته ويرضى المملوك أهلاً لاصطفائه ومحلاً لإخائه عالماً بإيجابه للحق والمعرفة بالسبق وأن تلقى هذه الرغبة بالقبول ويسلم إليها مفتاح المأمول.

رقعة: لو كانت المودة لا تحصل إلا عن ألفة تالدة ومواصلةٍ سالفة لم يستطرف المرء صفياً ولم يستحدث ولياً.

وما زال البعداء يتقاربون والمتناكرون يتعارفون.

ولما نمي إلى المملوك من أنباء مولانا ما تضوع عطره وطاب نشره سارف بالأمل إليه وقدم بالرغبة عليه طالباً الانخراط في سلك أوليائه والاختلاط بخاصته وخلصائه ومثل مولانا من أجاب السول وصدق المأمول والمملوك يرجو أن تكشف الأيام لمولانا منه عن خلة صادقة ومودةٍ صحيحة لا تضيع معها إجابته ولا تخسر صفقته.

رقعة: وينهي أن المملوك ما زال مذ وقع طرفه على صورته البدرية وأحاط علماً بخلائقه المرضية راغباً في مواشجته باعثاً نفسه على اختطاب مودته وإكباره يقعده وإعظامه يبعده فلما تطاول يراع همته شجعت على إنفاذ عزمته فقدم مكاتبته أمام مشافهته فإن حظي بالإجابة وتنويل الطلبة فقد فاز قدحه وتبلج صبحه ونال مناه وبلغ رضاه وصادف هناه وديداً موثوقاً بوده مسكوناً إلى عقده وعهده يحمده عند الاختبار ويعرف به صحة رأيه عند الاختيار والمملوك يرجو أن يصح ما سأله وكفله إن شاء الله تعالى.

رقعة: وينهي أن من عمر الله تعالى بثنائه المحافل وعطر بأنبائه الفضائل وأقام من مساعيه الكرام خطيباً يخطب بسؤدده وفضله ويعرب عن شرف محتده وأصله تطلعت الآمال للانتظام في سلك أحبائه وتشوفت الهمم إلى الامتزاج بخلصائه وأوليائه لما يضفو على المعتصم بعرى مصافاته من لباس جماله ويحلي المعتزي إلى ولائه من خلى جلاله وأحق من أسعفه مولانا بالمودة إذا خطبها وأجابه إلى المصافاة إذا طلبها من بدأه بالرغبة ومت إليه بالمحبة لا لمرغب ولا مرهب واختاره لنفسه على علم بكماله ومعرفةٍ بشرف خلاله.

وما زال المملوك مذ أطلعه الله على ما خص به مولانا من المحاسن المتعذرة إلا لديه والفصائل الممتنعة إلا عليه يحوم على مسارع ممازجته ولا يردها ويروم مواقع مواشجته ولا يعتمدها إكباراً لقدره وإعظاماً لخطره وخوفاً من تصفحه ونقده وإبقاءاً على ماء وجهه من رده.

والمملوك وإن كان عالماً بأن كرم مولانا يرقع الخلل وفضله يصدق الأمل فإنه لا يعدم مذ رغب في قرب مولانا ما لعله يجده فيه مما يخالف مذهبه وينافيه إذ كان لا يبلغ تضاهيه في التمام وتوافيه إلى أن أذن الله تعالى بأن أبلغ نفسه الأمنية وأظهر ما طويت عليه الطوية فكتب هذه الرقعة مجعلها فيما رامه من الاعتلاق بحبل مودته سفيراً وعلى ما التمسه من الانضمام إلى جملته ظهيراً وقدم بها عليه ظنه يترجح عن الإعراض إلى القبول ثقة بقرب نيل المأمول فإن رأى أن يجيبه إلى ما سأله ويسره بتنويل ما اقترحه فعل إن شاء الله تعالى.

اختطاب المودة ومفاتحة المكاتبة من كلام المتأخرين: الشيخ جمال الدين بن نباتة: وضاعف للممالك ببقائه الانتفاع وبارتقائه الارتفاع وسر بمحاسن نظره وخبره العيان والسماع.

ولا زال للمحبين من وده عطف المتلطف وللأعداء من بأسه خطف الشجاع أصدرها المملوك منطوية على ما عهد من صدق المحبة ووفاء العهود المستتبة ودرر المحامد التي لا تسوى لديها درر العقود حبة مبدية لعلمه الكريم أن المودات إذا صفت والقلوب إذا تجندت وتعارفت حثت المحبين في البعاد على المفاتحة بكتبهم ورسائلهم والمخاطبة في ظلال الأوراق بألسنة أقلامهم من لهوات أناملهم إيثاراً لتجديد الأنس وإن صح الميثاق وتذكاراً لخواطر الود وإن رسخت منه الأصول ونمت الأعراق ولذلك فاتح بها مخاطباً وارتقب لمناديها بالأخبار السارة مجاوباً نائبةً عنه في مشاهدة الوجه الكريم ومصافحة اليد في حديث برها القديم تستطلع أخباره وتستعرض أوطاره وتحيي بالسلام وجهه وعهده وديار على يد فلان وقد حمل من المودات والمشافهات ما يعيده على السمع الكريم المنعم بإصغائه المصغي بنعمائه المتحف بالمهمات التي يحصل فوز القيام بها والمشرفات التي كل أسباب السرور متصلٌ بسببها والله تعالى يبهج من تلقائه سمعاً ونظراً ويبقي عيش حاسده هشيماً وعيش محبيه نضراً ويديم رياض ذكره تالية على المسامع: " فأخرجْنا مِنْه خَضِراً ".

قال في مواد الليان: لا يخلو من يرام ذلك منه من أن يجيب أو يعتل فإن أجاب بنى الجواب على وقوع رغبة المختطب أحسن مواقعها وابتهاج المختطب بها ومعرفته بقدر ما رآه أهلاً له ومسارعته إليه وإن اعتل بنى الجواب على أنه قد عرض له ما يقصر عنه ولا ترضى نفسه به وأن العذر ليس بعادةٍ له في المزايلة وطريقةٍ في الانفراد والمجانبة.

النوع الثامن في خطبة النساء قال في مواد البيان: الرقاع في التماس الصهر والمواصلة يجب أن تكون مبنيةً على وصف المخطوب إليه بما يقتضي الرغبة ويدل الخاطب عن نفسه بما يؤدي إلى الكفاية والإسعاف بالطلبة.

قال: وينبغي للكاتب أن يودعها من ألفاظ المعاني المنتظمة في هذا الباب أوقعها في النفوس وأعودها بتقريب المرام وأدلها على صدق القول فيما تكفله من حسن معاشرةٍ ولين معاملة وأن يذهب بها إلى الاختصار والإيجاز.

وهذه نسخٌ من ذلك: وأفضل تلك المواهب موقعاً وألطفها وأحمدها عاقبةً وأرهنها يداً ما يؤلف الله به القربات ويؤكد به الحرمات ويوجب به الصلات ويجدد به المكرمات ويحدث به الأنساب ويقوي به الأسباب ويكثر به من القلة ويجمع به من الفرقة ويؤنس به من الوحشة ويزاد به في الحقوق وجوباً وفي المودات ثبوتاً ثم لا مثل لما كان الله طاعةً ورضاء وبأمره أخذاً واقتداء وبكتابه قدوة واحتذاء فالله نسأل الخيرة في قضائه والبركة فيما يقوم بناؤك عليه.

ومنه: تصل رحماً وتعقد سبباً وتحدث نسباً وتجدد وصلة وتؤكد ألفة.

رقعة: من خصه الله تعالى بما خص به سيدي من طهارة الأعراق والأنساب وشرف الأخلاق والآداب وأفرده باجتماع خلال الخير المتفرقة في الأنام وعطر بثنائه ملابس الأيام رغب الأحرار في مواصلته وهان عليهم بذل الوجه في اختطاب ممازجته والتماس مواشجته ومناسبته وجديرٌ من رغب إليه وطلب ما لديه واختير للمشابكة في الولد واللحمه والمشاركة في المال والنعمة - أن يجيب ولا يمنع ويصل ولا يقطع مصدقاً لأمل من أفرده بارتياده وتوحده باعتماده عارفاً حق ابتدائه بالثقة التي لا يجوز رد من اعتقدها ولا صد من حسن ظنها وقد علم الله تعالى أن مضى للمملوك مدة طويلة وهو يبحث متطلباً مربعاً للتأهل مؤثراً لعمارة المنزل راغباً في سكنٍ تطمئن النفس إليه وتعتمد في الفواتح والمصاير عليه وكلما عرض للمملوك بيتٌ أباه أو ذكر له جنابٌ قطع عنه رجاه لعدم بعض الشروط التي يريدها فيه وتعذرها عليه فلما قرع سمعه ذكر سيدي علم أنه الغاية التي لا مرقى بعدها والنهاية التي لا مطمح وراءها وأنه قد ظفر بالثقة ووصل إلى الأمنية ووجد من يجمع الخلال المرضية ويزيد ويحوز من الفضل الشأو البعيد وكتب المملوك هذه الرقعة خاطباً كريمته فلانة ليكون لها كالغمد الضامن للمهند والجلد الحافظ للمجلد ويكون لمولانا كالولد البر بأبيه ولأخيها كالصنو الشفيق على أخيه فإن رأى سيدي أن يتدبر ما كتبه المملوك ويتسمع من توكيد رقعته ويجيبه إلى ما سأله فله علو الرأي في ذلك إن شاء الله تعالى.

رقعة: وينهي أن مولانا بما تمم الله من محاسنه ومناقبه جديرٌ أن يلقى من خطب الاعتصام بعرى ممازجته وسعى في نيل علقه من مواشجته بالقبول القاضي بنيل المأمول ودرك الرغب والسول ولا سيما إذا كان عارفاً من سمو خطره واعتلاء قدره ما يقضي عليه بخفض الجناح في معاشرته وغض الطرف في معاملته والوقوف دون درجة المساواة والمماثلة والتزحزح عن رتبة المباراة والمطاولة والانتظام في سلك الأتباع والحاشية والخدام والغاشية وكثيراً ما وجد المملوك البركة في مشاركة من هذه صفته أوفر منها في مشاركة النظراء وكانت العاقبة في مشابكة من هذه حاله أجمل منها في مشابكة الأكفاء الذين يصادفون في الحقوق شططاً ولا يغضون عن يسير الواجبات تبسطاً لأنهم يرون أن الوصلة ممن داناهم في الرتبة والمنزلة ليست عائدةً عليهم بشرف ولا مظهرةً لهم من خمول ولأن يستخلص مثل سيدي من الرؤساء مثل المملوك من الأولياء ويختصه بأثره الاجتباء والاصطفاء فيكون مفخره إليه منسوباً وما يرقيه الله تعالى إليه ببركته من درج الفضل في نفسه محسوباً أولى من طلب مماثل يناوئ بقدره ويطاول.

على أنه لو طلب ذلك لطلب معوزاً ورام معجزاً لما أفرده الله تعالى به من السيادة التي لا يترامى إلى منزلتها ولا يتسامى إلى مطاولتها وإذاً كان النظير معدوماً والكفؤ مفقوداً ولو وجد لمال متسلطاً ووقع سومه منبسطاً ومولانا يطلب إليه ولا يطلب ويرغب فيما عنده ولا يرغب فقد سهلت السبيل إلى ما يرومه المملوك من جهته ويؤثره من مواصلته واتسع المجال فيما يقدم عليه من الرغبة في تقليده شرف مصاهرته وإضافته بذلك إلى بطانته وأهل خاصته ويخرجه على ما يخرج عليه الوالد ولده والسيد عبده وقد حمل المملوك موصل مطالعته هذه ما لم تسع إيداعه المكاتبة فإن رأى مولانا أن يصغي إيه ويجيب عبده بما يعتمده المملوك في ذلك فله الفضل إن شاء الله تعالى.

رقعة: وينهي أن لذوي المناجب الطيبة الأنساب والمناحت الزكية الأحساب والأخلاق الكريمة والآداب بين الأنام لسان صدق يخطب لهم بالمحاسن والمحامد ويعطر بثنائهم الصادر والوارد ويدعو القلوب إلى نيل علقه من ممازجتهم والتمسك بطرف من مواصلتهم وقد جمع الله لمولانا من كريم المتلد والمطرف وقديم وحديث الفضل والشرف ما تفرق في السيادات وتوزع على أهل الرياسات وجعله في طهارة المولد وطيبة المحتد واستكمال المآثر واستتمام المفاخر علماً ظاهراً ونجماً زاهراً فما من

رئيس سوى مولانا تعجزه خلة من خلال الرياسة إلا وجدها لديه ولا نفيسٍ تعوزه خصلةٌ من خصال النفاسة إلا استماحها من يديه ولذلك امتدت الأعناق إلى التمسك بحبله وتطلعت الهمم إلى مواجشته في كريم أصله وصار مرغوباً إليه لا راغباً ومطلوباً لديه لا طالباً وهو جديرٌ بما وهبه الله من هذا الفضل الذائع والنبل الشائع أن يجيب سائله ويصدق آمله ولا يتجهم في وجه قاصده ولا يرده عن مقصده ولا سيما إذا كان قد أسلفه الظن الجميل وبدأه بالثقة والتأميل وتعذل عليه قدر العارف بقدره العالم بخطره المرتضي بشرائطه النازل على حكمه المتدبر برأيه وقد علم الله تعالى أن المملوك مذ نشأ وصلح للتأهل مرغوبٌ فيه مخطوبٌ إليه من عدة جهاتٍ جليلة وجنباتٍ رئيسة والمملوك صادٌ عن الإجابة صارفٌ عن المطاوعة لشذوذ بعض الشروط التي يروم أن تكون مجتمعةً في النسب الذي أعده شريكاً في الولد والنشب ومفاوضاً في الحال والسبب مرتادٌ من يقنع بالموافقة ويرتضي بالعشرة والمرافقة حتى أفضى في الانتقاد إلى مولانا فوجد المراد على اشتراط وألفى المقصود على اشتطاط فدعاه ذلك إلى التهجم بعد الإحجام وحمله على التجاسر والإقدام والتوسل إلى مولانا بما يتوسل به الأحرار إلى الأخيار وأمه بصادق الرغبة وصميم المحبة والانبساط في خطبة كريمته فلانة على أن يعاشرها بغاية الأنس ويصحبها صحبة الجسد للنفس ويعرف لها من قدر أبوتها وأمومتها ما تستحق برياستها وقد أصدر هذه الرقعة نائبةً عنه في ذلك فإن رأى مولانا أن يتحفه بالقبول ويجعله أهلاً لإجابة السول فله الفضل في ذلك إن شاء الله تعالى.

ومن النادر الغريب ما ذكره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في حسن التوسل في الكتابة إلى شخص في تزوج أمه وهو: هذه المكاتبة إلى فلانٍ - جعله الله ممن يؤثر دينه على الهوى وينوي بأفعاله الوقوف مع أحكام الله تعالى فإنها لكل امرئٍ ما نوى ويعلم أن الخير والخيرة فيما يسره الله من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن الشر والمكروه فيما طوى نعرض له بأمرٍ لا حرج عليه في الإجابة إليه ولا خلل يلحقه به في المروءة وهل أخل بالمروءة من فعل ما حض الشرع المطهر عليه وأظهر الناس مروءةً من أبلغ النفس في مصالح حرمه عذرها ووفى من حقوق أخصهن ببره كل ما علم أن فيه برها وإذا كانت المرأة عورة فإن كمال صونها فيما جعل الله فيه سترها وصلاح حالها فيما أصلح الله به في الحياة أمرها وإذا كانت النساء شقائق الرجال في باطن أمر البشرية وظاهره وكان الأولى تعجيل أسباب العصمة فلا فرق بين أول وقت الاحتياج إلى ذلك وآخره وما جدع الحلال أنف الغيرة إلا ليزول شمم الحمية وتنزل على حكم الله فيما شرع لعباده النفوس الأبية ويعلم أن الفضل في الانقياد لأمر الله لا في اتباع الهوى بعضل الولية وإذا كان بر الوالدة أتم وحقها أعم والنظر في صلاح حالها أهم تعينت الإجابة إلى ما يصلح به حالها ويسكن إليه بالها ويتوفر به مالها ويعمر به فناؤها ويحصل به عن تقلد المنن استغناؤها وتحمل به كلفة خدمها عنها وتدفع به ضروراتٌ لا بد لذوات الحجاب والحجال منها ويصفو به ستر الإحصان والحصانة عليها ويظهر به سر ما أوجبه الله لها من تتبع مواقع الإحسان إليها.

وقد تقدم من سادات السلف من تولى ذلك لوالدته بنفسه واعتده من أسباب بر يومه الذي قابل به ما أسلفته إليه في أمسه علماً منهم أن استكمال البر مما يعلي قدر المرء ويغلي وقد أجاب زيد بن زين العابدين هشاماً لما سأله: لم زوجت أمك بعد أبيك فقال: لتبشر بآخر مثلي لا سيما والراغب إلى المولى في ذلك ممن يرغب في قربه ويغبط على ما لديه من نعم ربه ويعظم لاجتماع دنياه ودينه ويكرم ليمن نقيبته وجود يمينه ويعلم أن العقيلة تحل منه في أمنع حرم وتستظل من ذراه بأضفى ستور الكرم مع ارتفاع حسبه واشتهار نسبه وعلو قدره في منصبه وحاله وسببه وأنه ممن يحسن أن يحل من المولى محل والده وأن يتجمل من ذريته بمن يكون في الملمات بناناً ليده وعضداً لساعده فإن المرء كثيرٌ بأخيه وإذا أطلق عليه بحكم المجاز لفظ العمومة فإن عم الرجل صنو أبيه وأنا أتوقع من المولى الجواب بما يجمع شمل التقى ويعلم به أنه تخير من البر أفضل ما ينتقى ويتحقق بفعله أن مثله لا يهمل واجباً ولأمرٍ ما قال الأحنف وقد وصف بالأناة: لكني أتعجل أن لا أرد كفؤاً خاطباً.

النوع التاسع في الاسترضاء والاستعطاف والاعتذار قال في مواد البيان: المكاتبة في استعطاف الرؤساء وملاطفة الكبراء تحتاج إلى حسن تأتٍ لما تشتمل عليه من إيجاب حقوق الخدمة وما أسلفوه من مرعي الخدم وما يتبع هذا من التنصل والاعتذار الذي يسل السخائم من القلوب ويستنزل الأوغار من الصدور ويطلع الأنس وقد غرب ولها موقع في تأليف الكلام.

قال: وينبغي للكاتب أن يستعمل فيها فكره ويوفيها حقها من جودة الترتيب واستيفاء المعاني وأن يذهب إلى استعمال الألفاظ الجامعة لمعاني العذر الملوحة بالبراءة مما قرف به ولا يخرج لفظه مخرج من يقيم الحجة على براءة الساحة مما رمي به فإن ذلك مما يكرهه الرؤساء لأن عادتهم جاريةٌ بإيثار اعتراف الخدام لهم بالتقصير والتفريط والإخلال بالفروض ليكون لهم في العفو عند الإقرار عارفةٌ توجب شكراً مستأنفاً فأما إذا أقام التابع الحجة على براءته وسلامته مما رفع عنه فلا يوضع الإحسان إلا إليه في إقراره على منزلته والرضا عنه والاستعطاف بل ذلك واجبٌ له في منعه منه ظلم.

وهذه نسخٌ من ذلك: لابي الحسين بن سعد: فإن رأيت أن تنظر في أمري نظراً يشبه أخلاقك المرضية ويكون لحسن ظني بك مصدقاً ولعظيم أملي فيك محققاً ولما لم تزل تعدنيه منجزاً ولحق حرمتي بك وقديم اتصالي بأسبابك قاضياً فعلت إن شاء الله تعالى.

ومنه: لسليمان بن وهب: من انصرف في الاحتجاج إلى الإقرار بما يلزمه وإن لم يكن لازماً فقد لطف الاستعطاف واستوجب المسامحة والإنصاف.

ومنه: وقد نالني من جفوة الأمير بعد الذي كنت أتعرف من بره وألطافه أمرٌ أحلني محل المذنب في نفسي مع البراءة من الذنب وألزمني الإساءة مع الخروج من التقصير وزاده عندي عظماً وشدة أني حاولت الخروج منه بالاعتذار فلم أجد لي إلى الأمير ذنباً أعتذر منه ولا علي فيما ألزمني من معتبته حجةٌ أحاول دفعها والتخلص منها فأصبحت أعالج من ذلك داءً قد خفي دواؤه وأحاول صلاح أمرٍ لم أجن فساده فإن رأيت أن تفعل كذا وكذا فتصل قديم ما أصبح عندي من معروفك بحديثه فليس عندي في مطالبةٍ حجةٌ أنجح من التوجه إلى الأمير بنفسه والثقة عنده بفضله فإن كنت مذنباً عفا وإن كنت بريئاً راجع.

ومنه: لأبي علي البصير: وأنا أحد من أسكنته ظلك وأعلقته حبلك وحبوته بلطيف برك وخاص عنايتك وانتصف بك من الزمان واستغنى بإخائك عن الإخوان فهو لا يرغب إلا إليك ولا يعتمد إلا عليك ولا يستنجح طلبه إلا بك وقد كان فرط مني قولٌ: إن تأولته لي أراك أوجه عذري وقام عندك بحجتي فأغناني عن توكيد الأيمان على حسن نيتي وإن تأولته علي أحاق بي لائمتك وحبسني على أسوإ حال عندك وقد أتيتك معترفاً بالزلة مستكيناً للموجدة عائذاً بالصفح والإقالة فإن رأيت أن تقرب عيناً قرت بنعمتك عندي ولا تسلبني منها ما ألبستني وأن تقتصر من عقوبتي على المكروه الذي نالني بسبب عتبك علي وتأمر بتعريفي رأيك بما يطمأن هلعي وتسكن إليه نفسي ويأمن به روعي فعلت إن شاء الله تعالى.

ومنه: لأبي الحسين بن أبي البغل: نبو الطرف من الوزير دليلٌ على تغير الحال عنده والجفاء ممن عود الله البر منه شديدٌ وقد استدللت بإزالة الوزير إياي النحل الذي كان نحلنيه بتطوله على ما سؤت له ظناً بنفسي وما أخاف عتباً لأني لم أجن ذنباً فإن رأى الوزير أن يقومني لنفسي ويدلني على ما يريده مني فعل إن شاء الله تعالى.

ومنه: لأبي الربيع: أصدق المقال ما حققه الفعال وأفضل الخبر ما صدقه الأثر.

ومنه: لمولانا سيرةٌ في الفضل والإحسان ما أملها آمل إلا جادت وسخت ومنحت وعوائد في العفو ما رجاها راجٍ إلا صفحت وسمحت وأحق من تلقاه عند العثار بالإقالة والاغتفار ووقف به عند حد التقويم والإصلاح ولم يعرضه لنقيصة الإقصاة والاطراح من شفع الهفوة بالاعتذار وخطب التغمد بلسان الإقرار ودلت التجارب منه على حسم الأضرار وكان له من سالف الخدم وسائل وذرائع ومن صحيح الإخلاص ممهد وشافع فلا عجب أن المملوك يهفو فيعفو ويظلم فيكظم ويجهل فيحلم ويخطئ فيصيب ويدعو متنصلاً فجيب وقد جعل الله سهمه المعلى ويده الطولى وألهمه التفضل بالإنعام والتغميض عن زلات الكرام وقد حصل للمملوك في هذه النبوة من إزرائه على عقله وتقبيحه لفعله أعظم تجربة وأكبر مأدبة والمملوك يسأل إحسان سيدي أن يعيده إلى رضاه ولطفه ويؤنس منه مستوحش إقباله وعطفه ويصدق رجاءه فيه ويجزل ثواب وفادته عليه إن شاء الله تعالى.

رقعة: المملوك يخطب صفح سيده وإقالته بلسان الاغتفار ويستعيد ما عرف من رضاه وعاطفته بوسائل الاعتذار ليكون المتفضل في كل الحالات والمنعم من كل الجهات وقد عرف السهو والنسيان المعترضين للإنسان وأنهما يحولان بينه وبين قلبه ويزوران عليه خطأه في صورة صوابه فيتورط في السقط غير عامد ويتهور في الغلط غير قاصد وقد قال الله تعالى: " لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ولكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُم الأَيْمان ".

وما أولى مولانا بأن يحفظ على المملوك جميل آرائه ولا يسلبه ما شمله من ظل آلائه ولا يسمه بميسم العقوق فإنه يجد نفسه بخلاف ذلك في طاعته ومرتبتها بغير هذه الرتبة في خدمته.

فصل

وقد آوى سيدي المملوك من ظله وأعلقه من حبله وأسبغ عليه من فضله ما أنصفه به من الزمان وأغناه عن الإخوان ووقف رغباته عليه وصرف آماله إليه ونزله منزلة من لا يشك في اعتقاده ولا يستريب بوداده وكان المملوك أرسل لفظاً على سبيل الإشفاق ذهب به الحاسد إلى غير معناه وخالف في تفسيره حقيقة مغزاه وأحاله عن بنيته وعرضه عليه على غير صورته ليوحش محل المملوك المأنوس من رعايته وينفر سربه المطمئن بملاحظته وعنايته وقد أرسل المملوك هذه العبودية سائلاً في محو إظلام موجدته وأن يعيد المملوك إلى مكانه من حضرته إن شاء الله تعالى.

لا أتوسل إليك إلا بك ولا آتيك إلا من بابك ولا أستشفع إليك بسواك ولا أكل رجعة هواك إلا إلى هواك ولا أنتظر إلا عطفتك التي لا تقودها زخارف الأموال ولا تعيدها شفاعات الرجال طويل.

إذا أنت لم تعطفك إلاّ شفاعةٌ فلا خير في ودٍّ يكون بشافع شعر في معنى ذلك سريع.

هبني تخطّيت إلى زلّةٍ ولم أكن أذنبت فيما مضى أليس لي من قبلها خدمةٌ توجب لي منك سبيل الرّضى غيره وافر وحقّك ما هجرتك من ملالٍ ولا أعرضت إلاّ خوف مقت اعتذار من التأخر من ترسل أبي الحسين بن سعد: إن لم يكن في تأخري عنك عذرٌ تقبله فاجعله ذنباً تغفره.

علي بن خلف: الأعذار - أطال الله بقاء سيدي - تنأى على الامتناع وتضيق على الاتساع وذلك بحسب ما تصادفه من قبول ورد ومسامحةٍ ونقد وأنا أحمد الله على أن جعل عذري إلى من يتمحل العذر للمعتذر ويصفح صفح المالك المقتدر كأنما ائتم بقول الشاعر طويل: إذا ما أتت من صاحبٍ لك زلّةٌ فكن أنت محتالاً لزلته عذرا ولم يجعله إلى من يغلب هاجس الظنون على واضح الحجة ومعتل الشك على صحيح اليقين.

ونمي إلي أن غابطاً لمكاني من حضرته حسدني على محلي من مودته وزور ما ينكشف عن الإفك والبهتان ودلس الكذب في صورة البرهان فلما جلاه في معارض زخارفه أظهر لسيدي عواره وأبدى لطرفه شواره فشل سمعه عن وعيه وطرف طرفه عن رعيه واستنم علائم شيمته في حسن الضن بأحبته فقدمت من الاعتذار ما يقدمه المذنب نزولاً على طاعته وتأدباً في خدمته وشفعته من الشكر بما يقتضيه إحسانه ويوجبه.

أبو الفرج الببغاء: أحق المعاذير بالتقبل وأولاها بسعة القلوب ما صدر عن استكانة الأقدار ودل على حسم مواد الأضرار وصفا من كدر الاحتجاجات وتنزه عن تمحل الشبهات ليخلص به ملك العفو وتتكامل نعمة التجاوز.

ولست أكره شرف تأديبه ونبل تثقيفه وتهذيبه ما لم يتجاوز في العقوبة والتقويم إلى مؤلم الإعراض ومضيض التنكر والانقباض ولا أخطب الإقالة من تفضله إلا بلسان الثقة وشافع الخدمة هارباً إلى سعة كرمه مما دفعتني المحبة إليه وأشفى بي عدم التوفيق عليه فإن رأى أن يكون عند أحسن ظني به في الصفح كما هو عند أصدق أملي فيه بالإنعام فعل.

وله في مثله: ليس يخلو الإغراق في التنصل والمبالغة في الاعتذار من إقامةٍ لحجة أو تمسك باعتراض شبهة وأنا أجل ما أخطبه من عظيم عفوه وأكبر ما أحاوله من نعمة تجاوزه عن المقابلة بعين الاعتراف بالزلل وبعد الاستحقاق من الصفح ما لم يوجب لي بسعة تأوله ويعد علي فيه بعادات تفضله لتصفو منه الأعضاء وتلزمني واجبات الشكر والثناء غير ممتنع مع ذلك من التبري إليه مما أنكره من تجاوز السهو إلى العمل والتوجه إلى ما فرط بالاختيار والقصد اللذين يغفر بتجنبهما مذموم الأفعال ويتغمد سيئ الأعمال فإن رأى أن يحمل أمري فيما قصدتني الأيام بتوجه الظنون فيه على غير النية لا ظاهر الفعل إذ كانت صفات الإنسان بالأشهر من أخلاقه والأكثر من أفعاله ولا صفة لي أعرف بها وأنسب إليها غير الاعتراف بإنعامه والتطاول من اصطناعه آخذاً من كل حال بالفضل ومشفعاً بسطة الرياسة والنبل.

وله في مثله: لست أخلو في المدة التي تجاوز الدهر لي عنها في خدمته من توصلٍ بفرط الاجتهاد إلى ما وصل من رأيه إلى أيده الله - رتبة التقبل والإحماد وليس يحبط ما أتيته من مرضي الخدمة بالنية والعمد بما لعله فرط من غير مراد إذ كان بفائض طوله ومأثور فضله - آخذاً من آداب الله بما أحاكمه منه: " إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات ".

ولو لا إيثاري مفترض الطاعة واستكانة الاعتداد وأن لا أخطب رضاه بلسان الاحتجاج ولا ألتمس عفوه بوجوب الاستحقاق لتسلم له صفات التفضل ولي موات الاعتراف بسالف التطول لبرهنت على سلامتي مما قصر علي بتوجه الظنون واعتراض الأوهام ولا أقول بشعث النية وفساد الرأي فإن رأى أن يحفظ ما ابتدأه مختاراً من اصطناعي بما يصونه عن التنكر ويصون عادتي في شكر ذلك والاعتداد به عن الفتور والتغير فعل.

قال في مواد البيان: لا يخلو المعتذر إليه من أمرين أحدهما أن يقبل العذر والآخر أن يستمر على الموجدة ويرفض ما يأتي به من حجة فإن كان قد قبل العذر وجب أن يبنى الجواب على وصول الكتاب والوقوف عليه والتقبل لما تضمنه وتبرئة المعتذر عن الحاجة إلى الاعتذار والانقياد إلى الاعتراف بالجرم والإقرار إكراماً لخلته عن التهمة وللمودة عن الظنة فإن الأمر الذي أوجب العذر لو صدر منه لاقتضى وداده التأول له بأنه ما صدر إلا عن باطنٍ سليم ومصلحةٍ أوجبته.

قال: وليس هذا المعنى هو الذي يجاب به من قبل عذره فقط لأنه يجوز أن يجيب بأنه قد قبل العذر وصفح عن الجرم على أن لا يعود إلى مثله.

وإن استمر على القصد بني الجواب على إبطال العذر ومعارضته بما يقتضيه والدلالة على خطإ المعتذر وأنه مما لا يسوغ الصفح عنه ولا يليق بالحزم إقالته.

قال: وهذان معنيان يحملان من العبارة ما لا يكاد ينحصر في قول مشروح مبسوط فضلاً عن قولٍ مجملٍ موجز إلا أن المتدرب بالصناعة إذا مرت به هذه الأصول أمكنه التفريع عليها.

النوع العاشر في الشكوى قال في مواد البيان: رقاع الشكوى - عصمنا الله من موجباتها - يجب أن تكون مبنيةً من صفة الحال المشكية على ما يوجب المشاركة فيها ويقضي بالمساعدة إن استدعيت عليها من غير إغراقٍ يفضي إلى تظليم الأقدار وإحباط الأجر وشكوى المبتلي بالخير والشر سبحانه وتعالى ويدل على التهالك بالجزع وضعف التماسك وقوة الهلع باستيلاء القنوط والإياس وأن يشفع الشكوى بذكر الثقة بالله سبحانه والتسليم إليه والرضا بأحكامه وتوقع الفرج من عنده وتلقي اختباره بالصبر كما تتلقى نعمه بالشكر ونحو هذا مما يليق به ويجري مجراه.

قال: وقد يكتب الأتباع للرؤساء رقاعاً بشكاية الأحوال ومساءلة النظر ثم ذكر أن سبيل هذه الرقاع أن يعدل بها عن التصريح بالشكوى إلى لفظ الشكر ومعناه وطلب الزيادة والإلحاق بالنظراء في الإحسان لما في إطلاق الشكاية والتصريح بها من التعريض بإخلال الرئيس بما يلزمه النظر فيه من أحوال خاصتهم وتعهد مرافقهم من الكفاية.

وهذه نسخٌ من ذلك: رقعة شكوى هموم: كتب المملوك هذا الكتاب وهو رهين فكرٍ وغم وقلقٍ وهم وحليف جوًى قد سكن القلب وخوفٍ قد أطار اللب وبالله العياذ وهو الملاذ وبيده تحل العقدة وبأمره تزول الشدة وقد ألهم الله سبحانه المملوك صبراً يسر أمره وأملاً في الفرج خفف ضره وليس بآئسٍ من عطفته ولا قانطٍ من نعمته.

رقعة في معنى ذلك: كتب المملوك وهو شاكٍ لتجاهل الأيام وقيدٌ من مواقع سهامها الرغيبة الكلام منهومٌ بهموم تضعف الجليد وتسوء الوديد وتسر الحسود لاقٍ من قسوة الدهر وفظاظته ونبوة العيش ونفرته ما يرد الجفون عن الهجوع ويغرق العيون بالدموع ولله تعالى في عباده أقضيةٌ يقضيها وأقدارٌ يمضيها والله أسأل حسن العاقبة والختام وتمحيص الأوزار والآثام.

رقعة: كتب المملوك وجسمه صحيح وقلبه قريح وجنانه سليم وجنابه سقيم لما يتبادر إليه من نكاياتٍ تقدح وتقرح وحادثاتٍ تكلم وتجرح ونوبٍ نهض وتهدم وترض وخطوبٍ تخاطب شفاهاً وتوصل من اليد إلى اليد أذاها إلا أن الله يهب ريح المنح وقد تداكت المحن فينشفها ويشق عمود الفرح وقد آدلهمت فيكشفها وظن المملوك بالله تعالى جميل وله في صنعه ولطفه تأميل.

رقعة: وينهي أنه قد كتب هذه العبودية ببيدٍ قد أرعشتها الآلام يملي عليها قلبٌ قد قلبته الأسقام فجسمه ناحل وجسده بعد النضرة قاحل وقواه قد وهنت وجلادته قد وهت وصبره قد تخلى واضطرب وتحمله قد نأى واقترب وعاد شبحاً من الأشباح وهباءً تذروه الرياح فلو اعتلق بشعرة لم تنصرم أو ولج خرت إبراة خياط لم تنفصم ولولا الثقة بالله وأنه يتبع السقم بالصحة ويشفع المحنة بالمنحة لذهب ما بقي من ذمائه وأطل على شفا شقائه والمملوك يستشرف منه تعالى لطفاً يعيد الكليل حديداً والمخلق جديداً.

رقعة: وينهي أنه قد كتب هذه الرقعة وقد ساء الأيام عليه وقبح صنعها لديه وابتلته بمؤلم البلوى وأنطقته بلسان الشكوى فهو محترقٌ بنار الغيظ يدعو على نفسه بالفيظ إن لم يكن فرجٌ يفرج بين الأضداد ولطفٌ يريح من هذا الجهاد وكلما طلب المزايلة عوق أو طلب الفكاك اعتلق فهو قاطنٌ في صورة الظاعن وحالٌ في حال الراحل والله يمن بالمخرج ويأتي بالفرج.

رقعة: وقد سطر المملوك هذه العبودية وقد انجلت هذه النبوة عن البلاء والشقوة ونفاد المال واستحالة الحال واستيلاء العدو واستعلاء السو وكذا الدهر خدوع غرور خؤون غدور إن وهب ارتجع وإن ألبس انتزع وإن أعطى أعطى قليلاً وقلع وإن أحلى أمر وإن نفع ضر وإن أبرم نقض وإن رفع خفض وإن أقبل أعرض وإن وعد أمرض فنعمه مقرونةٌ بالزوال ومنحه معرضةٌ للانتقال وصفوه مشوبٌ بالكدر وعيشه ممزوجٌ بالعير ما أجن إلا أوجد خللاً ولا أمن إلا أتبع الأمن جللاً والمملوك يحمد الله تعالى على أن أوسعه في حال البلاء شكراً وفي أجوبة رقاع الشكوى قال في مواد البيان: يجب أن تبنى أجوبة هذه الرقاع على الارتماض في الحال المشكية والتوجع منها وبذل الوسع في المعونة عليها والمشاركة فيها وما يجري هذا المجرى مما يليق به.

النوع الحادي عشر في استماحة الحوائج قال في مواد البيان: ورقاع الاستماحة يختار أن تكون مودعةً من الألفاظ ما يحرك قوى السماح ويبعث دواعي الارتياح ويوجب حرمة الفضل المسهلة بذل المال الصعب بذله إلا على من وفر الله مروءته وأرخص عليه أثمان المحامد وإن غلت.

قال: وينبغي للكاتب أن يتلطف فيها التلطف الذي يعود بنجاح المرام ويؤمن من الحصول على إراقة ماء الوجه والخيبة بالرد عن البغية ويعدل عن التثقيل والإلحاق المضجرين ولا يضيق العذر على السماح إلا أن يتمكن للثقة به ويعلم المشاركة في الحال.

وهذه نسخٌ من ذلك: من كتاب أبي الحسين بن سعد.

ومنه: إن حضرتك نيةٌ في قضاء حاجةٍ فعجلها فإن أهنى المعروف ما عجل وأنكده ما تنازعته العلل واعترضته كثرة الاقتضاء.

ومنه: أنت أعزك الله واجد السبيل إلى اصطناع المعروف واكتساب الثواب وأنت أعرف بما في استنقاذ أسيرٍ من أسرى المسلمين من وارد الأسر وعرصة الكفر وانتياشه من الذلة والفاقة والبلاء والمشقة من جزيل ثواب الله وكريم جزائه وأجل من أن تخاطب في ذلك مخاطبة من يحتاج إلى زيادةٍ في بصيرته وتقويةٍ لنيتة وبالله توفيقك وعونك.

علي بن خلف: قد تمسك أملي بضمانك وتطلع رجائي إلى إحسانك وكفل لي النجاح مشهور كرمك ورغبتك في رب نعمك ولي من فضلك نسيب أعتزي إليه ومن شكري شفيعٌ أعتمد عليه.

وله: المواعيد - أطال الله بقاء مولاي - غروس حلو ثمارها الإنجاز والتعجيل ومره المطل والتطويل وقد شام أملي من سحائب فضله حقيقاً بأن ينهمر ويهمي وارتاد من روض نبله جديراً بأن يزيد وينمي فإن كانت هذه المخيلة صادقة فلتكن منه همةٌ للرجاء محققة إن شاء الله تعالى.

وله: هممت أن أستصحب إلى مولاي ذريعة تحجب مطلي وتكون حجاباً على وجهي في المطالعة بأربي فلاح لي من أساريره برقٌ أوضح مقصدي ومن أخلاقه انبساطٌ أمال تجعدي ولست مع معرفته بحق نعمة الله تعالى وحق مؤمله محتاجاً عنده إلى ذريعة ولا مفتقراً إلى وسيلة.

وله: ولا يحملني مولاي على ظاهر تجملي وجميل توكلي على حالٍ قد أحالتها العطل وتخللتها الخلة وإنما أبقي بالتجمل على ديباجة همتي وأصون بالتخفيف عن الصديق مروتي ولولا أن الشكوى تخفف متحمل البلوى لأضربت عن مساءلته وأمسكت عن تذكيره ولكن لا بد للوصيب الشاكي من ذكر حاله للطبيب الشافي وقد كان برق لي من سحاب وعده ما هو جديرٌ بالانهمار وأورق من نمائه ما هو حقيقٌ بالإثمار فإن رأى أن يسم وجه التأميل بعد الإنجاز والتعجيل فعل.

وله: ما حامت آمالي - أطال الله بقاءه - إلا وقعت بحضرته ولا صعبت علي جوانب الرجاء إلا سهلت من جهته ولا كذبتني الظنون إلا صدقها بعلو همته فلذلك أعتلق في المهم بحبله وأعتصم في الملم بظله وقد عرض لي كذا وعليه فيه المعول وهو المرجو والمؤمل وما أولاه بالجري على عادته في ريش جناحي والمعونة على صلاحي.

في طلب كسوة من كلام المتأخرين: طويل.

إليك اشتكائي من دمشق وبردها وما أنا فيه من أمورٍ تنغّص وإنّي في عرسٍ من البرد دائم تصفّق أسناني وقلبي يرقص المملوك ينهي بعد الابتهال إلى الله تعالى في إدامة نعمته وإدالة دولته أنه ما ألف من إحسانه إلا أنه يضاعف رسم الإنعام ويواتر إرساله على ممر الأيام والأعوام وللمملوك في خزانته الشريفة في كل عامٍ تشريفٌ يفيضه على جسده ويسر به قلوب أوليائه ويفت أكباد حسده ويتقي به سورة الشتال وقره ويجعله قرة ويحمل به من الدعة وقره وقد درس رسمه وفقد من الديوان المعمور اسمه وهو يسأل بروز الأمر العالي بإجرائه على عادته المستمرة وقاعدته السالفة المستقرة بتشريفه بأخذ التشريف ولبسه ليدفع بذلك شدة البرد وأليم مسه ويتذكر بها في يومه ما يوجب حمد المولى وذم أمسه ورأيه العالي.

وله في طلب ورق سريع يا أسمح الناس ويا من غدا جبينه يخجل ضوء الشّفق جودك بالورق عميمٌ فلم أخّرت يا مولاي بعث الورق وله في طلب رسم مجزوء الرجز رسمي مولاي غدا مؤخّراً ولو حضر فقد مضى محرّمٌ وراحتي منه صفر وكتب كاتبٌ إلى مخدومه وقد تأخر صرف معلومه متقارب وتعلم أنّي كثير العيال قليل الجراية والواجب فلست على ظمإٍ قانعاً بوردٍ من الوشل الناضب ولا شكّ في أنّني هاربٌ فقدّر لنفسك في كاتب قلت: وكتبت نظماً لأمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس خليفة العصر أستميحه حاجةً في مجلس كان فيه هو وولده يحيى وأخواه داود ويعقوب ما صورته طويل.

إذا رمت أن تحظى بنيل مآربٍ فبادر إلى العبّاس من آل عبّاس إمامٌ به ثغر الخلافة باسمٌ وعرنيتها يسمو على قمّة الراس أبى الفضل إلاّ أن يكون لأهله دواماً وأن يدعى أبا الفضل في الناس فللمستعين أقصد تجد خير منجدٍ حريصٍ على المعروف برًّا بإيناس فيحيا له يحيى وداود صنوه ويعقوب أعضاداً وحصناً من الباس وكتبت لقاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام عمر البلقيني لقد عمّ نوءٌ منك كلّ مؤمّلٍ وحاشى لبرقٍ شمت يظهر خلبا أأحرم معروفاً له كنت أرتجي ويحجب ذو بعدٍ من القوم أقربا وما زلت أرجو في زمانك رفعةً ولكن جواد الحظّ بالبعد قد كبا ولن يستعيض الخفض بالرّفع ماجدٌ خصوصاً ومن أخّرت ما نال مطلبا ولست ترى منّي إليك وسيلةً سواك وحسبي باعتلاك تقرّبا وكتبت لقاضي القضاة جمال الدين محمود القيسراني وهو يومئذٍ قاضي قضاة الحنفية وناظر الجيوش المنصورة أذكر بطالةً عرضت لي من وظيفة مباشرةٍ كانت بيدي طويل.

إلى الله أشكو من زماني بواره فأمسيت في الحرمان بي يضرب المثل تماديت بطّالاً وأعوزت حيلةً ولم يبرح البطّال تعرف له الحيل فلا ملتجى جاهٍ ولا عزّ صاحبٍ ولا مالكٌ يحنو فيا قوم ما العمل ولكنّ محمود العواقب أرتجي ومن يحمد العقبى على القصد قد حصل وكتبت للقاضي شمس الدين العمري كاتب الدست الشريف في حاجةٍ نجرها بسيط: إن لا أرى عمراً حتّى ألمّ به ألفيت من نسله من كان لي عمرا أجوبة استماحة الحوائج قال في مواد البيان: لا يخلو المستماح والمكلف حاجةً من أن يسعف أو يمنع فإن أسعف فقد غني عن الجواب وربما أجاب المسعف بجواب مبني على حسن موقع انبساط المستميح والاعتذار عن التقصير في حقة وإن كان قد بلغ به فوق ما يجب له - تكرماً وتفضلاً وإن منع فربما أجاب بعذر في الوقت الحاضر أو عذر في المستأنف وربما أخل بالجواب تغافلاً.

وهذه نسخة جواب بالإسعاف بالمقصود كتب بها في جوابٍ لكاتب السر عن نائب الشام في طلب إقطاع من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة إجابةً للمطلوب وهي: لا زال قلمها يمد على الإسلام ظلاً ظليلاً ويستجد صنعاً جميلاً ويأخذ بأمر الله أعداء دينه أخذاً وبيلاً ويقوم باجتهاده في مصالح الملك النهار كله والليل إلا قليلاً تقبيل مواظب على ولاءٍ لا يجد له تبديلاً وثناءٍ لو سمعه المحب فشافه الأحباب إذاً لاتخذوه خليلاً.

وينهي ورود مشرفه مولانا القديم فضلها الكريم وصلها وأصلها فوقف المملوك عليها وأصغى بجملته إليها وعلم مار سم به مولانا وأشار إليه تبياناً وكذلك بلغه مملوكه الولد فلان المشافهة الكريمة فحبذا من صاحب السر إسراراً وإعلاناً وشكر لهما مشرفةً ومشافهةً أوردا الإحسان مثنى مثنى وسرّا سمعه المملوك لفظاً واستهداه معنى فما منهما في الإحسان إلا زائدة ولا في الصلات إلا عائدة لا جرم أن المملوك أقبل على قبيلهما بسمعه وناظره وقلبه وخاطره وجملته وسائره وامتثل الإشارة العالية التي من حقها أن تقدم على كل مهمٍ يرد عليه وأمرٍ يتوجه إليه ويد الزمان مشكورةٌ يأخذها منه بكلتا يديه وعين المملوك لوقته

الإقطاع المطلوب وتقدم بكتابة مربعته حسب ما رسم من تجري السعادة من سطره تحت مكتوب وجهزها قرين هذه الخدمة ومن ذا يقارن سبق ذلك البر المديد وكيف توازي المربعة كتاباً هو بالإحسان للعنق تقليد لا برحت مراسم مولانا معدودةً من رسوم نعمه ومشرفاته محسوبةً من تشريفاته التي يخلعها على أبناء محبيه وخدمه.

النوع الثاني عشر في الشكر قال في مواد البيان: رقاع الشكر يجب أن تكون مودعةً من الاعتراف بأقدار المواهب وكفاية الاستقلال بحقوق النعم والاضطلاع بحمل الأيادي والنهوض بأعباء الصنائع ما يشحذ الهمم في الزيادة منها ويوثق المصطنع بإفاضة الصنع ويعرب عن كريم سجية المحسن إليه.

قال: وينبغي للكاتب أن يفتن فيها ويقرب معانيها وينتحل لها من ألفاظ الشكر أنوطها بالقلوب لتستيقن نفس المتفضل أنه قد اجتنى ثمرة تفضله وحصل من الشكر على أضعاف ما بذله من ماله أو جاهه إلا أنه ينبغي أنها إذا كانت صادرةً من الأتباع إلى رؤسائهم ومن يرجع إلى اختصاصٍ وأثرة أن لا تبنى على الإغراق في الشكر لأن الإغراق في الشكر يحمل هذه الطبقة على التملق الذي لا يليق إلا بالأباعد الذين يقصدون الدلالة على استقلالهم بحقوق ما أسدي إليهم فأما من ضفا عليه من النعم ما يدفع الشك في اعترافه بالذل لديه فإنه يغنى عن المبالغة في الشكر والاعتداد.

ثم قال: وإنما يجب أن يذهب فيما يكتب عن هؤلاء من هذا الفن مذهب الاختصار والإتيان بالألفاظ الوجيزة الجامعة لمعاني الشكر دون مذهب الغلو والإفراط وذو الطبع السليم والفكر المستقيم يكتفي بيسير التمثيل.

أيده الله - مبرهنٌ عن مواقع إحسانه إلي وتظاهر - وهذه نسخٌ من ذلك: أبو الفرج الببغاء في شكر تابع لمتبوعٍ: أنا في شكره إنعامه علي لا مقدرٌ أني مع المبالغة والإسهاب والإطالة والإطناب أجازي عفو تفضله ولا أجامل أيسر تطوله وقد وسمني أيده الله من شرف اصطناعه بما بوأني به أرفع منازل خدمه وأتباعه وإلى الله أرغب في توفيقي من مقابلة ذلك بالاجتهاد في خدمته والمبالغة في طاعته - لما أكون به للمزيد مستوجباً وللحظوة مستحقاً.

وله في شكر قريب: فرض الشكر - أعزك الله - لا يسقط بقرب الأنساب ولذلك لا أستجيز إغفال الواجب علي منه ولا أجد عدولاً في التسامح فيه والإضراب عنه وإن كنت غنياً عن الإفاضة فيما أعتقده من ذلك وأضمره وأبديه وأظهره بالمتعالم من خلوص النية وصحة الاعتقاد فلا أخلاك الله من جميلٍ تسديه وتفضل توليه يمتري لك المزيد من سوابغ النعم وفوائد الشكر.

وله: قد استنفد مادة شكري ووسع اعتدادي ونشري تتابع تفضلك وتوالي تطولك ولست أقدر على النهوض بشكر منةٍ حتى تطرقني منك منة ولا أحاول مجازاة نعمةٍ حتى تفد علي منك نعمة فبأي عوارفك أعترف أم بأي أياديك بالثناء أنتصف فقد فزعت إلى الإقرار بالعجز عما يلزم فمن فروضك وواجبات حقوقك وانصرفت إلى سؤال الله جل اسمه بإيزاعي شكر ما وهب منك والتجاوز للمكارم والفضل عنك.

وله: وقد شكرت برك الجليل موقعه اللطيف موضعه الخفيف محمله العذب منهله وشافهتك من ذلك بما استعت له القدرة لا ما تقتضيه حقوق المنة.

وله: أنا في الشكر بين نعمةٍ تنطقني وعجز عما يجب لك يخرسني ولست أفزع إلى غير تجاوز ولا أعتمد على غير مسامحتك ولا أتطاول إلا بمكاني منك ولا أفاخر إلا بموقعي من إيثارك فالحمد لله الذي جعلني بولائك مشهوراً وفي شكرك مقصوراً.

علي بن خلف: رقعة: وينهي أن الله تعالى لما ألهم مولانا البر ألهم المملوك الشكر فهو لا يزال يوسع في البر ويزيد والمملوك لا يزال يبدي في الشكر ويعيد ولكن شتان بين فاعلٍ وقائل ومعطٍ وقابل وواهبٍ وسائل ورافد وحامد وشاكر وشاكد والمملوك يحمد الله تعالى إذ جعل يده الطولى وحظه الأعلى.

رقعة: وصل بر مولانا وقد أحالت الخلة من المملوك حاله وأمالت آماله فلأمت ما صدعه الدهر من مروته وجددت ما أخلقه من فروته فكف المملوك يديه عن امتحان الخلان وقبض لسانه عن شكاية الزمان وأقر ماء وجهه في قرارته وحفظ على جاهه لباس وجاهته فيا له من برٍ وقع من الفقر موقع القطر من القفر ولم يتقدمه من قدامة الوعد ما يتقدم القطر من جهامة الرعد وكل معروفٍ وإن فاضت ينابيعه وطالت فروعه قاصرٌ عن الأمل في كرمه واقعٌ دون غايات همه كما أن الشكر ولو واكب

النجم وساكب السجم قاصرٌ عن مكافاة تفضله ومجازاة تطوله والمملوك يسأل الله تعالى الذي جعله قدوة الكرام وحسنة الأيام ورب الإنعام وواحد الأنام أن يلهم المملوك من حمده بقدر ما أسبغه عليه من رفده.

رقعة شكر: عند المملوك لسيدي أيادٍ وصلت سابقة هواديها وظلت لاحقة تواليها فصارت صدورها نسباً أعتزي إليه وأعجازها سبباً أعول في الملمات عليه.

رقعة: لولا أن الله تعالى جعل الشكر ثمرة البر والحمد جزاء الرفد وأراد إقرارهما على أهلهما من الغابرين وأن يجعل لهم منا لسان صدق في الآخرين لكان الذي غمر به مولانا من الإنعام يتحدث عنه تحدث الرياح بآثار الغمام ويكفى المملوك بالإشارة مؤونة العبارة والمملوك وإن رام تأدية ما يلزمه من شكره قاصرٌ عن غاية بره ولو استخدم ألسنة الأقلام واستغرق أمدي النثار والنظام ومولانا جديرٌ بقبول اليسير الذي لا تمكن الزيادة عليه والصفح عن التقصير الذي تقود الضرورة إليه إن شاء الله تعالى.

رقعة: لو أن هذه العارفة بكر عوارفه وباكورة لطائفه لعجزت عن شكرها وقصرت عن نشرها فكيف وقد سبقها قرائن ونظائر وتقدمها أترابٌ وضرائر مما أثقل من المملوك كاهله وبسط به يدي أمله فما يعدم شيئاً فيرجيه ولا يفقده فيرغب فيه والذي تربه من المملوك جوارحه وتحويه جوانحه علمه بأنه لا يجاري أياديه ولا يجازي مساعيه والله تعالى يخصه من رقعة: ومثل مولانا من ذوي الشرف والسؤدد من حسن محضره وطاب محبره وكرم غيبه ومشهده وصح على تغاير الأحوال عقده ووده وقد أتصل بالمملوك ما أعاره له مولانا من أوصافه وجرى فيه على عادة فضله وإنصافه فطفق لفضله شاكراً ولطوله ناشراً وأضاف ذلك إلى توالد إحسانه ونظمه في عقد امتنانه.

رقعة: قد طوق مولانا مملوكه من فضله طوقاً كأطواق الحمائم لا ينزع وألبسه برداً من بره لا يخلع وأولاه من مزيده ما قصرت الهمة عن تمنيه ولم تهتد القريحة إليه فتستدعيه ولو وجد المملوك جزاءً على عارفته وكفاءً لمثوبته غير الموالاة الصريحة وعقد الضمائر على المودة الصحيحة واللهج بالشكر في السر والجهر لرمى من وراء عنياته ولا استبعد طول شقته ولكن المملوك عادٌ لما يقابل به يده الغراء عاجزٌ عما يقضي به حق موهبته الزهراء ما لم يحسن كرمه أمره ويقبل منه على التقصير شكره ويضف ذلك إلى لطائفه وينظمه في سلك عوارفه إن شاء الله تعالى.

رقعة: واجتهاد المملوك في نشر أياديه وشكرها كاجتهاد مولانا في كتمانها وسترها فكلما أبديتها بالثناء أخفاها أو نشرتها بالإشادة طواها وهيهات أن يخفى عرفٌ كعرف المسك نشراً ومنٌ كالروضة نوراً والغزالة نوراً ولو كان المملوك والعياذ بالله ستر هذا العرف بكفر واغتمصه مانعاً لشكر لنم عليه حسنه نموم الصباح وتوقد توقد المصباح فكيف وللمملوك مقولٌ لا يسامى يعجم سواد الليالي بالإحماد ويرقم صفحات النهار بالاعتداد الأجوبة عن رقاع الشكر قال في مواد البيان: إن كانت هذه الرقاع من المرؤوسين إلى الرؤساء فلا جواب لها وإن كانت من النظير فالواجب أن يستعمل في أجوبتها مندوب التناصف والتفاوض.

جواب عن فعل المعروف والشكر عليه من كلام المتأخرين من ذلك من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وهو بعد الصدر: خلد الله على الممالك نعمه وعلى المماليك ديمه وحرم ببقائه ذم الزمان وأوجب ذممه ولا برح نحو المحامد ينادي يوم الكرم مفرده ويوم الهياج علمه تقبيلاً يسحب في الفخار بروده المعلمة ويتذكر بالقرب فلا يزال الشوق ينتجه حيث كلا التذكار والعهد مقدمه.

وينهي ورود المثال العالي بما ملأ القلب خياً واليد براً والسمع بشارةً والوجه بشراً حتى تنافست الأعضاء على تقبيله والجوارح على تأميله فاليد تسابق إلى مننه بالامتداد والقلب يسابق إلى كرم عهده بالاعتداد والوجه يقلب ناظره في سماء مواقع القلم والسمع ينعم بما تقص عليه المسار من أخبار جيرة العلم حتى كاد المملوك يمحو بالتقبيل أسطره ويشتغل بذلك عن استجلاء ما ذكره المنعم لا عدم المملوك في مصر والشام تكرره وفهم ما أشار مولانا إليه من الفضل الذي مولانا أهله وكرم العهد الذي لا ينكر من مثله وأين مثله وقابل المملوك جميع ذلك بجهده من الأدعية الصالحة وبسماحة الحمد المتفاوحة والاعتداد بنعمة مولانا التي لولا موالاتها كل وقتٍ لقيل فيها ما أشبه الليلة بالبارحة وتضاعف نهوض المملوك على قدم الموالاة التي يستشهد في دعواها بشهادة الخاطر الشريف ويتقدم بها تقدماً تحت لواء الولاء وتأتي بقية الأولياء في اللفيف والله تعالى يوزع المملوك شكر هذه النعم المتصل مددها والمنن التي لا يعدمها ولا يعدها ويطيل بقاء مولانا لحمدٍ يجتليه ويجتنيه وشرف دنيا وأخرى يهدم وفره وعمره ويبتنيه.

النوع الثالث عشر العتاب قال في مواد البيان: المكاتبة بالمعاتبة على التحول عن المودة والاستخفاف بحقوق الخلة من المكاتبات التي يجب أن تستوفى شروطها وتكمل أقسامها لأن ترخيص الصديق لصديقه في من كلام المتقدمين.

إنني ما أحدثت نبوة إلا بعد أن أحدثت جفوة ولا أبديت هجراً إلا بعد أن أبديت غدراً ولا لويت وجهاً عن الصلة إلا بعد أن ثنيت عطفاً إلى القطيعة والأول منا جانٍ والثاني حانٍ والمتقدم مؤثر والمتأخر مضطر وكم بين فعل المختار والمكره والمبتدع والمتبع آخر: إن أمسكت يا سيدي عن عتابك مرخياً من عنانك كنت بين قطع لحبلك ورضاً بفعلك أو اقتصرت فيه على التلويح به لم يغن ذاك مع كثرة جموحك وما ارتكبته من رائك واستخرجته من جفائك.

رقعة عتاب: لمولانا لدى المملوك عوارف لا يهتدي إلى معرفتها فيوفيها كنه المراد وأيادٍ لا يبلغ ما تستحقه من الإحماد ولو عضدته خطباء إياد أجلها في نفسه خطراً وأحسنها عليه أثراً ما يفرضه له من بره وإكرامه وتعهده واهتمامه وقد غير مولانا عادته ونقض شيمته وبدل المملوك من الانعطاف بالإعراض ومن الانبساط بالانقباض وحمله من ذلك ما أوهى قوى صبره وأظلم بصائر فكره فإن يكن ذلك لخطإٍ واقعه المملوك ساهياً وجرم اجترمه لاهياً فمثل مولانا لا يطالب إلا بالقصد ولا يعاقب إلا على العمد إذ كان المملوك لا يعصم من زلل ولا يسلم من خلل اللهم إلا أن يكون مولانا أراد من المملوك تقويمه وتأديبه وإصلاحه وتهذيبه ليحسين أثره في خدمته ويسلك السبيل الواضح في تباعته فلا أعدم الله المملوك تثقيفه ولا سلبه تبصيره وتعريفه وإن كان ذلك لشكٍ عرض من المملوك في وداده وارتيابٍ خامر في حسن اعتقاده فأعيذه بالله من القطع بالشبهات والعمل بمنغل السعايات ومولانا خليقٌ بأن يطلع من أنس المملوك ما غرب وينبط من سروره ما نضب ويعيده لرضاه ويجريه على ما أحمده منه وأرضاه.

رقعة: ليس المملوك يرفع مولانا في إعراضه إلا إلى فضله ولا يحاكمه على انقباضه إلا إلى عدله ولا يستعين عليه إلا بما يستمليه من آدابه ولا يناظره إلا بما أخذه عنه من محافظته وإيجابه إذ كان المملوك مذ وصلته السعادة بحباله ناسجاً على منواله متقبلاً شرائف خلاله.

وما عهدته عمر الله معاهده وكبت حاسده يغضب تقليداً قبل الاختبار ويحوج البريء إلى موقف الاعتذار ولا سيما إذا كان المظنون به عالماً بشروط الكرم عارفاً بمواقع النعم لا ينسخ الشكر بالكفر ولا يتعوض عن الحمد بالجحد وقد عرف مولانا ثناء المملوك على تفضاله ووقف على بلائه لأعماله وهو فيٌ برب عوارفه وصنائعه وتثمير ما رهن لديه من ودائعه وتنزيه سمعه عن الإصغاء إلى ما يختلقه حاسد ويصوغه كائد وقد حكم المملوك على نفسه نقده الذي لا يبهرج عليه ولا يدلس وكشفه الذي لا يغطى عليه ولا يلبس فليحك أفعال المملوك على محك بصيرته وليجل في تأمل مقاصده طرف فكرته فإنه ممن لا تحيله الأحوال ولا تحوله ولا تغيره الغير ولا تبدله إن شاء الله تعالى.

رقعة: أفعال شكر المملوك في الحلم والغضب والرضا والسخط إذا لم يقتض الحزم إيقاعها موقع الفضل واقعةٌ موقع الإنصاف والعدل ولا يغلب هواه على رأيه ولا بادرته على أناته وقد جانب مع المملوك عادته وباين فيه شيمته وناله من إعراضه وجفائه وانقباضه وتغير رأيه ما وسم المملوك فيه بالذنب ولم يذنبه وحمله على الجرم ولم يحتقبه وأوقفه لديه موقف الاعتذار وأحوجه إلى الاستقالة والاستغفار وليس المملوك يحاكمه إلا إليه ولا يعول في الانتصاف إلا عليه وما أولاه بأن يعيد المملوك إلى محله من رضاه فإنه لم يواقع في خدمته إلا ما يرضاه وحسبه شاهداً بذلك ما يعلم من المملوك من سلامة غيبه وطهارة جيبه وفضل وده وصحة معتقده إن شاء الله تعالى.

رقعة بمعاتبةٍ على.

كل مانع ما لديه من رغبه دافع عما عنده من طلبه فمستغنًى عنه إلا الله تعالى المبتدئ بالنعم العواد بالكرم ولو عرف مولانا بطعم شجرة المعروف لأسرع إلى احتذائها ولو علم ما لله تعالى عليه من الحقوق في ماله وجاهه لم يقصر عن أدائها غير أن ظن الفوز بالوجد غاية المجد وأنه إذا أحمد النسب غنيٌ عن الحمد وأن النعمة ترتبط بالربط عليها وتنصرف بالتصرف فيها وما ساء المملوك أن تنزه عن تقلد منة لئيم وحرم محمدةً من كريم وهذا الحرمان أحسن والله في عين المملوك من النوال وهذا الإكداء أبر لديه من بلوغ الآمال وسينشر المملوك مذهبه في كل ناد ويكف عنه أماني القصاد ويكفيه مؤونة الاعتذار ويصونه عن أن تبذل إليه وجوه الأحرار ليعلم أن المملوك على منعه لم يقصر في بلوغ أوطاره والسعي في إيثاره إن شاء الله تعالى.

رقعة في المعنى: ما رد المملوك بر مولانا مستنزراً لقليله ولا لائماً لنفسه على تأميله لكنه انتجعه انتجاع من ظنه عارفاً بقدره راغباً في شكره فلو أغضى المملوك منه إلى الاطراح لأمره لاستدل منه على قصر الهمة وظن أنه قومه بدون القيمة ولا سيما وهو يفرض لمن لا يجاري المملوك في مضمار ولا يساويه في مقدار من غير قصدٍ بتأميلٍ ورجاء وتقديم ذريعةٍ من تقريظ وثناء ما تضيق عنه الهمم الفساح ولا يصل إليه الاقتراح.

رقعة عتاب على تقصير في خطاب: حوشي مولاي أن يجر الذيل على آثار فضله ويميت من غروس إحسانه ما هو جديرٌ أن يتعهده بوبله ويعفي مني رسوم كرمه ويصدع بمجانبة الإنصاف صفاة صفاته وصفائه وينطق الألسن بعتابه ويصلت سيف التأنيب من قرابه بما استحسنه من مستقبح المصارمة في المخاطبة واستوطاه من جامح الترييث في المكاتبة ولا سيما وهو يعلم أن موقع الإكرام من الكرام ألطف من موقع الإنعام وأن محل القال أفضل من محل النوال وأن تغير العادة في البر مقوض لمعاهد الشكر وسيح السنة في الإنصاف قاضٍ بالانصراف بعد الانعطاف وقد كان المملوك أزمع أن يتحمل تقصيره به وأن يفل من غربه غير مطاوعٍ للحمية ولا منقادٍ لنفس العصبية ولا يقرع سمعه بعتاب ولا يورد عليه ممض خطاب.

ثم رأى المملوك أن يرشده إلى الأزين ويبعثه على اعتماد الأحسن ويحضه على مراجعة الأفضل ومعاودة الأجمل ليتحفظ مع سواه ولا يجري مجراه فليس كل أحدٍ يتحمله ويرضى رضى المملوك بما يفعله فمولانا حبب الله إليه الرشد ووفقه إلى المنهج الأسد هل هو من شيءٍ سوى بشر فما هذا التيه والبطر ولم هذا الأزل والأشر وما فعل الرئيس إلى ما يصغر عنه قدر ولا ييأس من نيله عمر ولا مضت أقلامك في الأقاليم ولا أشير إليك ببنان التعظيم ولا فوضت إليك الوزارة والردافة ولا تأمرت على الكافة ولا طاولت الأكفاء فطلت ولا ناضلت القرناء فنضلت وإنما سرق إليك الحظ من ثماده وشلاً مصرداً وأدر لك الدهر من أخلافه مجدداً فافتتحت المعاملة بظلم الإخوان ونسخ شرائع الإحسان كذبتك نفسك وغرك حدسك كيف بك غداً إذا استرد الزمن ما خولك واسترجع ما نولك وصحوت بالعزل من سكرة الولاية وتقرقرت بعد طلب الغاية وعدت إلى إخوانك فوجدت أوطان أنسهم بك نابية ونفوسهم للإقبال عليك آبية ولو كان الزمن أمكنك من رقبتي وطرق لك الطريق إلى إيداع عرفك في جهتي لقبح بك أن تطول بطولك وتدعي الفضل بفضلك ولم يحسن أن تبدل الإنعام وتضن بالالتزام فإن كنت تفخر بسلفك وأبوتك وتطاول بأوليتك وأسرتك فلو كان أبوك كسرى لما جبر منك كسراً ولو كان جدك بخت نصر لما انتفعت به في مظاهرة ولا نصر فدع أكثر ما فات ولا تعول على العظام الرفات فما استند إليها إلا عارٍ من الفضل عاطلٍ من الحلى.

على أنك لو فاخرتنا بها لفخرناك وتقدمنا وأخرناك وإن كنت تستند إلى ديانتك وتعتمد على نسكك وأمانتك فهذه خالص حالٍ لا تخلص مرتبتها ولا تتم فضيلتها إلا باستشعار التواضع والأخذ بمكارم الأخلاق لدى التنازع فارجع هديتك إلى الأجل واعمل بالأفضل وقف بحيث رتبتك ولا تتشوف إلى غير إلى الأجل واعمل بالأفضل وقف بحيث رتبتك ولا تتشوف إلى غير درجتك وإن أبيت ذاك فاقطع المراسلة وأعفها من المواصلة والسلام.

رقعة عتاب على تأخر المكاتبة: من حكم الوداد - أطال الله بقاء سيدي - الزيارة عند المقاربة والمكاتبة عند المباعدة وإن كانت المودة الصريحة لا يغيرها اجتناب إلا أن الكتب ألسن البعاد والأعين التي تنظر حقائق الوداد ولها في القلوب تأثير وموقعها فيها أثير وحوشي مولانا أن أهز أريحيته لما يؤكد الثقة بإخائه ويشهد بوفائه ولا سيما وهو يفرض ذلك لأحبته وقوله واجبٌ في شرع مودته.

رقعة في معناه: إن ابتدأ المملوك مولانا لم يجب وإن سأله الابتداء لم يوجب فلا حق لإجابة تؤديه ولا ناجز المسألة تقضيه فإن كان إذا شخص غابت عن فكره أشخاص أحبته وإذا بعد عاملهم بتجافيه وجفوته فقد كان ينبغي أن يتكلف ويتجمل ويتصنع ويتعمل فإنه لو علل مشوباً بالانتظار أو اعتذر ممرضاً بالاعتذار لأقمت ذلك مقام المكاتبة وصنته عن محض المعاتبة لكنه مال مع الملال ورضي الاطراح والإهمال ودل على أنه مستقلٌ بالإخوان متنقلٌ مع الزمان وأرجو أن تصدق المخيلة ويرجع إلى العادة الجميلة.

رقعة معاتبة رجل كريم الأصل لئيم الفعل: قد عرف مولانا وفقه الله ووقفه على منهج الرشاد أن جناية الغضب الذميم تقدح في كرم الجنث الكريم وأن قبيح الصلف ينسخ تليد الشرف وخبيث الذرية يعفي على طب المناحت الزكية وأنه ليس لمن تحلى بالظلم والجور وتلبس بالنكث والغدر وسامح نفسه المعاتبة من كلام المتأخرين: الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي: يقبل الأرض وينهي أنه قد صار يرى قربه أزوراراً وطويل سلامه اختصاراً ويغالط في ذلك حتى شاهده عياناً مراراً هذا وبكر الولاء صقيلة الجلباب وعروس الثناء جميلة البزة حسنة الشباب وهو لا يفتأ من الموالاة في صعد وقدره في صبب فكلما مكن وتد الاستعطاف يرجو عدم تخلخله فصل بأيسر سبب بحيث أطفأ الإهمال نار المساعفة والمساعدة وانتقل توهم عدم العناية

إلى تيقن وجوده بالمشاهدة وقد كان يرفع قدره فخفض وعوض في الحال عن الرفع بالابتداء أنه مفرد وينصب كالنكرة في النداء وأهمل حتى صار كالحروف لا تسند ولا يستند إليها وألغي حتى شابه ظننت إذا وقعت متأخرةً عن مفعوليها ومتى يقلق لأمر أنشد نفسه كامل: ما في وقوفك ساعةً من باس.

وكان يغشى مجلسه الكريم خدمةً وأداءً للواجب وطلباً لعادةٍ أكدها إحسانه حتى صارت ضربة لازب فلا يخلو مجلس من إظهار تغير عادةٍ وطد الجود أساسها وانتقاض قاعدةٍ أبرم الكرم أمراسها فينقطع سلوكاً للأدب وتخفيفاً عن الخواطر ويتلقى ما يصدر بقلبٍ شاكٍ ولسانٍ شاكر فإن كان قد عزم مولاه على طرده وعوضه عن منحة القرب المحنة ببعده فإنه يأبى ذلك جوده ولطفه ومعرفة يشكر ويزيد لا يمكن صرفه ولو جاز الصرف لمجرد بالعبودية لمنعه العدل من سيده والحلم الذي عرف من كريم محتده فكان المملوك يستحسن في حبره وسبره ويعوض عن مقابلته بجبره فقد صار سمينه غثاً وشحمه ورما وحديثه رثاً وسهله علما طويل.

وعين الرّضا عن كلّ عيبٍ كليلةٌ كما أنّ عين السّخط تبدي المساويا وما ثم بحمد الله ما يوجب ذلك ولا بعضه ولا يحدث ذم المملوك وبغضه ولو بدا منه زلل أو لمح منه خطل فمكارم مولانا أوسع من إبقاء ذلك في صدور الصدور وأحرى بمحو آيات السيئات فإنه لمن عزم الأمور.

وله: يخدم بدعائه وصادق ولائه وينهي أنه انكسر خاطره وأرق جفنه وناظره وتضاعف بلباله وتزايدت في النقص أحواله مذ تأخرت الأمثلة الكرام وانقطعت عنه بانقطاعها المنن الجسام وهو يسأل العفو عن ذنبٍ وقع وتشريفه بمثال يرفع من قدره ما وضع واستعمال الصفح عنه كسائر عاداته وإجراءه على اللطف الذي ألفه من تفضلاته فقد ضعف صبر المملوك وجنانه وتفرق للفراق جفنه وإنسانه وصغر قدره وأهمل جانبه وممن أمر بإهانته فخره ولهذا ضاقت عليه المسالك وكان لسان حاله ينشد في ذلك كامل.

والمملوك معترفٌ بأنه ما زال يجهل ما يجب عليه من الخدم ومقر بتقصيره عن القيام بحمل ما يواصل به من النعم لكنه ألف من مولانا أن يقابل إساءته بالإحسان وجهله بصفح لا يقوم بشكره اللسان بل جميع الجثمان فإن كان ذنب من المملوك هو الذي أوجب اطراحه وأوجد أسفه وأذهب أفراحه وكان أيسر مما تقدمه من جهله وإساءته فحلمك جديرٌ أن يلحقه بإخوته وإن كان قد تزايد مقداره فالمولى قد تضاعف على العفو اقتداره وإذا كبرت الخطيئة كثر أجر غفرانها وعلت المجاوزة عنها على أقرانها وعلى كلا الأمرين فقد استحق المملوك المغفرة بكل طريق وأن يقابل رجاؤه بالتحقيق وأمله بالتصديق.

وله: وينهي أنه ما زال يتلو آيات محاسنه وحمده ويرفع رايات إحسانه ومجده ويتولاه ولا يتولى عن محبته ويكثر الثناء على ألمعي فطنته وجزير مروءته وقد صار يشاهد من المولى ملالاً وصدوداً وإعراضاً يغيظ به صديقاً ويسر به حسوداً واطراحاً أوهمه أنه ألف وصلٍ درجت أو لفظة هجرٍ لفظت ولا يعرف له ذنباً يوجب إبعاده ولا جرماً يستوجب به أن ينقض حبل وصله ويرفض وداده ولا يعلم سبباً يوجب سبه ولا شيئاً يحدث عتبه مع أن المملوك أحق أن يبدأ بالإعراض ويرفل من إغفال مودته في الثوب الفضفاض فإن المولى آلمه بالقول مراراً وجعل سحابة حيفه تهمي عليه مدراراً وهو يحتمل الأذى ويغضي على القذى ولا يظهر إلا محبة ولا يبطن له إلا مودة فإن شاهد المولى بعد إعراضه إعراضاً فليلم نفسه أو أحرقه لهب نار الجفاء فلا يشكو مسه يحيط بذلك علماً ورأيه العالي.

شعر في العتاب كامل.

مولاي قد طال التّباعد بيننا أوما سئمت قطيعتي وملالي إن لم ترقّ لحالتي يا هاجري مولاي قل لي من يرقّ لحالي غيره طويل.

يباعدني عن قربه ولقائه فلمّا أذاب الجسم منّي تعطّفا غيره منسرح.

إن كان هجراننا يطيب لكم فليس للوصل عندنا ثمن غيره كامل.

شمّتّ بي الأعداء حين هجرتني والموت دون شماتة الأعداء غيره سريع.

تنام عيناك وتشكو الهوى لو كنت صبًّا لم تكن نائما ولبعضهم: سيدي بادأني بلطفٍ من غير خبرة وأعقبني جفاءً من غير ذنب فأطمعني أوله في إخائه وآيسني آخره من وفائه فسبحان من لو شاء لكشف بإيضاح المبهم عن عزيمة الرأي فيه والمملوك يقول: متقارب عجبت لقلبك كيف انقلب وصفو ودادك أنّى ذهب وأعجب من ذا وذا أنّني أراك بعين الرّضا في الغضب أجوبة رقاع العتاب قال في مواد البيان: حكم أجوبة هذه الرقاع حكم رقاع أجوبة الاعتذار إلا أنها لا تخلو من الإجابة بالإعتاب أو الإصرار على العتاب.

قال: ويجب أن يسلك فيها المجيب مذهب المجيب عن رقاع الاعتذار.

زهر الآداب: في جواب العتب على تأخر مكاتبة: وعلم المملوك ما أشار به من العتب بسبب تأخر خدمه عن جنابه وما توهمه من اشتغال المملوك بأهله وأصحابه وحاشاه أن يتوهم في المملوك غير الولاء والملازمة على الحمد والثناء فهو لا يعتمد ذلك إلا تخفيفاً عن خاطره ووثوقاً بما يتحققه المولى من خالص مودته في باطنه زهر الربيع: جواب عتاب: زاد الله جنابه حناناً وأسبغ عليه إنعاماً وإحساناً وخلد له على كل عدوٍ سلطاناً.

ولا زالت همته سماءً لمناكب الكواكب وأياديه تفيض على الأولياء غرائب الرغائب ولا برحت سحائب إنعامه هامية وقطوف إحسانه دائمةً دانية وشرائع مياه جوده تجفف جفوناً من الفاقة دامية.

المملوك يجدد خدمته ويواتر للمولى أدعيته ويعترف بمننه التي أقرت بها ألسنة جوارحه فلا يستطيع أن ينكرها ويغترف بيد تضرعه من بحار جوده التي تثعب الولي من سحابها إلى كل يولي وتقذف له جواهرها.

وينهي ورود الماتبة والعلم بمضمونها والاحتواء على سائر معاني فنونها وما أشار إليه من العتب الذي يرجو به بقاء الوداد واستصحاب حال التواصل من غير نفاد والمملوك فلا ينكر ذنبه ولا يتنصل ولا يتوصل بل يعترف بجرمه وقلة خدمه ويستمسك بالعروة الوثقى من إحسانه وحلمه ويسأل مكارمه إجراءه على عادته بالصفح عنه ورسمله وهو يرجو أن أم هذه الهفوة لا تلد لها أختاً وأنه لا يعتمد إلا ما يزيده إلى المولى مقةً ويزيل مقتاً فإن معاتبة مولانا قد وعتها آخر: أسعد الله المجلس وعطف للأولياء قلبه ونصر كتائبه وأنفذ كتبه وأرهف في نصرة الإسلام سنانه وعضبه وألهم حبة قلب الزمان حبه وأقدره على الحلم الزائد حتى يغفر به لكل مذنب ذنبه.

وينهي ورود الكتاب الذي أعدته يد مولانا فصار كريماً وكسته عبارته ثوب براعته فأصبح منظره وسيماً واستنشق عرف نسيمه المبارك فطاب شميماً وعلم المملوك منه شدة عتبه ومر التجني الذي ظهر من حلو لفظه وعذبه ولم يعرف لعتبه موجباً ولا لتغير مودته سبباً فإنه ما حاد عن طريق ولائه ولا حال ولا زلت قدمه عنه ولازال ولا ماد عن منهج المودة ولا مال وما فتيء لمحاسنه ناشراً ولإحسانه شاكراً فإن كان قد نقل عنه إلى مولانا شيءٌ أزعجه وأخرجه عن عادة حلمه وأحرجه فإن الوشاة قد اختلقوا قولهم ونقلهم وقصدوا تشتيت المصاحبة شتت الله شملهم طويل.

وقد نقلوا عنّي الّذي لم أفه به وما آفة الأخبار إلاّ رواتها آخر: وردت المشرفة العالية أعلى الله نجم مرسلها وأسبغ أياديه وشكر جسيم تفضلها فابتهجت الأنفس بحلولها وحلل جمالها وعوملت بما يجب من إكرامها وإجلالها وفض ختامها ففاح منها أرج العبير والعنبر وتليت ألفاظها التي هي أبهى من الرياض وأحلى من السكر فأغنت كؤوس فصاحتها عن المدام وأزال مباؤها الزلال البارد حر الأوام وأعرب منشيها عما في ضميره من العتب والضيق الذي حصل في ذلك الصدر الرحب وهو يقسم بنعمته وبصادق محبته أنه لم يبد منه ما يوجب عليه عتباً ولا انثنى عن الثناء على محاسنه التي شغفته حباً فإن كان المولى قد توهم شيئاً أحرجه وأقلقه وإلى أليم العتب شوقه فليزل ذلك الوهم من خاطره وليثق بما تحقق من موالاته في باطنه وظاهره ورأيه العالي.

آخر: أعز الله عزماته وشكر جسيم تفضلاته.

ولا زالت نعمته باقية وقدمه إلى درج المعالي راقية وهمته إلى السمو على الكواكب سامية وسماء جوده على العفاة هامية وعزمته لثغور الإسلام حامية عبد نعمه وغرس كرمه يعلمه بصدق وده والمداومة على شكره وحمده وأنه وقف على مشرفه وفهمه وشاهد منه عتبه وعلمه وهو لا يشكو من المولى جفاءً ولا يعيب وعن طريق المصافاة والمخالصة فلا يغيب بل يقول كامل أنت البريء من الإساءة كلّها ولك الرّضا وأنا المسيء المذنب والمرجو من لطافة أخلاقه وطهارة أعراقه أن يصفح عن

زلته ويعفو عن ذنبه وإساءته طويل فأنت الذي ترجى لتخفيف زلتي وتحقيق آمالي ونيل مآربي قلت: وكتبت إلى المولى شهاب الدين الدنيسري وقد بلغني عنه مساعدة بعض الجهال علي في بعض الأمور طويل.

عهدت شهاب الفضل يرمي بسهمه شياطين جهلٍ أن تداني جنابه فما بال مولانا على فرط فضله يعرّف شيطان الجهالة بابه النوع الرابع عشر العيادة والسؤال عن حال المريض رقعة عيادة: وينهي أنه اتصل بالمملوك من ألم مولانا - أطال الله بقاءه - وحرس حوباءه - ما أهمى مدامعه وأحمى أضالعه ومزق جلده وحرق خلده وأطار الوسن عن عينه ونفر الهدوء عن مضجعه حتى تدارك الله تعالى بكتابه الناطق بإقلاع الملم المعرب عن دفاع المهم فرقأ من دموعي ما أرفض وجبر من ضلوع المملوك ما ارتض والتأم من جلده ما تفطر وبرد من خلده ما توقد وجثم ما طار من وسنه و آنس من الهدوء ما نفر عنه والتأمت الآمال بعد انثلامها وبرزت ثمار الأماني من أكمامها وطلع من الرجاء آفله وروي من السرور ما حله وتجدد من السؤدد طامسه وضحك من الزمان عابسه والله تعالى يغض طرف الحدثان عن مهجته ويصرف صروف الزمان عن ساحته ويهنيه بما أعاده إليه من الإبلال ويمليه بما أفاضه عليه من الاستقلال بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى.

رقعة: وينهي أن ما خامره من قلق وجزع وفرقٍ وهلع بسبب ما بلغه من شكوى مولانا لا تحصره الأوهام ولا تسطره الأقلام ولولا ثقة المملوك بالله تعالى لوهت عقد صبره ولا نخلع فؤاده من صدره وقد علم الله تعالى أن هذا الألم لو نقل إلى المملوك لما ثقل عليه وكيف يستثقل ما يخفف عن مولانا وصبه ويحسمه ويعكف له سلك الشفاء وينظمه والله تعالى يجعله في أمانٍ من كفايته وضمانٍ من حياطته إن شاء الله تعالى.

أجوبة كتب الشفاعات والعنايات قال في مواد البيان: هذه الكتب إذا أجيب الملتمس إلى حاجته فينبغي أن تبنى أجوبتها على شكر مقصد الشافع والإدلال والاسترسال وإنالة المشفوع له وطره إيجاباً لحق الشافع وإن وقع الامتناع والتوقف عن الإجابة إلى الملتمس فالواجب أن تبنى على إقامة العذر لا غير.

زهر الربيع: جدد الله له السعادة وخلدها وأصارها له شعاراً وأبدها ووطد به الممالك ومهدها وعضد به طائفة الإسلام وأيدها وشكر له صنائع يعد منها وليٌ ولا كلٌ يستطيع أن يعددها.

المملوك يقبل اليد الشريفة أداءً للفرض اللازم وشكراً لما أولته من الأيادي والمكارم وحمداً لألطافه التي أطمعته بالتمييز فأصبح برفع قدره كالجازم.

وينهي ورود المشرف الذي نزه ناظره وجبر قلبه بحسن ألفاظه وخاطره والعلم بما أمر به وشفع إلى المملوك بسببه وهو الكاتب الذي أشار إليه وقد ركن إلى ما شكره به المولى وأثنى به عليه وأعتقد يمن إغارة الشافع فعقد على المشفوع فيه خنصرة وتقدم بترتيبه في ديوان إنشائه وجعله من جملة خواصه وخلصائه وفعل ذلك كله اتباعاً لإشارته وقبولاً لشفاعته فالمولى يواصل بمراسمه وأمثلته فإنها ترد على مرتسم ممتثل.

ومنه: جواب شفاعةٍ في استخدام جندي: ضاعف الله تعالى نعمه وأهرف في نصرة الإسلام وقلمه ولا برحت ألسنة الأنام ناطقةً بولائه وأيدي ذوي الرجاء مملوءةً من فواضل نعمائه.

المملوك يواصل بأدعيته الصالحة ويستنشق روحاني ريحكم فيسكن منه بلذيذ تلك الرائحة ويشكر له ما منحه من المكارم ويباهي بعزماته الليوث الضراغم فلا يجد مضاهياً لتلك وينهي ورود المثال الذي أشرقت الوجوه بنوره وابتهجت الأنفس ببلاغة منشيه ووشي سطوره وعلم إشارة المولى في معنى فلان أدام الله سعده وأعذب منهله وورده والتوصية بأمره وما أبداه من حمده وشكره وأن يقطع إقطاعاً يليق بأمثاله ويتفيأ من خراجها ضافي ظلاله وعند مثول مثاله العالي امتثل والتثم واستخدم المشار إليه لإشارته وخدم وهذا بعض ما يجب من قبول أمره وتعظيم كتابه وتبجيل قدره فيواصل بمراسمه فإنها تقابل بالارتسام ومشرفاته فإنها تعامل بوافر الإكرام.

جواب شفاعة في الجملة كامل.

قل ما تشاء فإنني لك طائعٌ ما أنت عندي شافعٌ بل آمر جعله الله لكل خيرٍ سبباً وحقق به لأوليائه ظنوناً وحصل أرباً ووفر له من أجر شفاعته الحسنة نصيباً وأدامه عن كل شرٍ بعيداً وإلى كل خيرٍ قريباً.

المملوك ينهي تألمه لفراقه وما يجده من صبابته وشدة أشواقه ويعانيه من حنينه وأتواقه وأنه ورد عليه كتابه فاستلمه ولثمه وبجله وعظمه وعلم ما أشار إليه وأخذ أمر المشفوع فيه بكلتا يديه وجعل قضاء أربه أمراً لازماً وما فتيء على ساق الاجتهاد قائماً إلى أن حصل غرضه وأدى من حسن القيام بأمره ما أوجبه مشرفه العالي وافترضه والمولى آمرٌ غير شفيع ومهما ورد من جهته على المملوك فواردٌ على سميع مطيع فيواصل من مراسمه بما سنح ومن أخباره بما تأرج طيب عرفه ونفح ورأيه في ذلك العالي.

آخر: شكر الله عوارفها وتالد جودها وطارفها ووافر ظلالها ووارفها وينهي ثناءه على معاليه ومداومته على بث محاسنه ونث أياديه وحمد عواقب إحساه ومباديه وشدة أشواقه إلى جنابه ولذيذ مشاهدته وخطابه وما يعانيه من غرامٍ لازمه ملازمة الغريم وداء صبابةٍ يضاعف شوقه إلى رؤية وجهه الوسيم ومداومته على التعوض بشكر محاسنه عن المدامة والنديم ونظم جواهر مدحه لجيد جوده وحمد المولى على ذلك التنظيم وأنه ورد عليه مشرفه العالي فقبله ودعا لمرسله دعاءً يرجو من الله تعالى أن وفهم يستجيبه ويتقبله وحصل له بوصوله ابتهاجٌ عظيم وقال لمن حضر وروده " يأيُّها المَلأُ إنِّي أُلقِيَ إليَّ كتابٌ كَرِيم " مضمونه وفحواه وعلم معناه وما أظهره فيه وأبداه من الوصية بفلان وما يؤثره من تسهيل مطالبه وتيسير مآربه ووصل المشار إليه وحصل الأنس برؤيته وتمتعت النواظر والمسامع بمشاهدته ومشافهته وقام المملوك في أمره قياماً تاماً وجعل عين اجتهاده في مصلحته متيقظة لا تعرف مناماً وشمر عن ساق الاجتهاد في تحصيل المرام والمراد إلى أن حصل له الفوز بنيل أمله وعاد راتعاً من العيش في أخضره وأخضله رافلاً من السرور في أبهى حلله فيحيط علمه بذلك والله تعالى آخر: جعله الله مفتاحاً لكل بابٍ مرتج وصدق به أمل كل آمل وحقق رجاء كل مرتج ولا زالت سحائب جوده هاميةً بالوسمي والولي ماطرةً بوبلها وطلها على الولي.

المملوك يخدم بتحية أرق من النسيم وسلامٍ أطيب عرفاً من بان النقا إذا تحملت عرفه ريح الصريم.

وينهي إلى علمه الكريم ورود مشرفته وأنه أحاط بمضمونها علماً وشاهد منها في حال طيها مكارم أصارت تفضيله على حاتمٍ الطائي حتماً ووقف منها على در لفظ قذفه بحر خاطره نثراً ونظماً وبراعة عبارة زادت قلب مواليه غراماً وأنف مناويه رغماً وفصاحة عرفته قوله صلى الله عليه وسلم إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكماً وفهم عنايته بفلان نفع الله بعلمه وعمله وقرب له من الخير ما لا يطمعه به بعيد أمله وإشارته بسبب التنبيه والإرشاد على جمل فضائله ومفصل مناقبه المشهورة في البلاد وإيضاح كفايته في وجيز تلك الفصول الصحاح الإسناد فحال قدوم المذكور وحلوله وورود مشرفه ووصوله أنهى المملوك أمره إلى مخدومه وطالع به شريف علومه ولا زال يحسن سعيه ويعتمد على مشيئة الله ولا يترك حرصه ومشيه إلى أن حقق قصده بقضاء شغله وقرب له أمد أمله وكتب توقيعه ولم يرد الله تعويقه ونجع طعم قصده وأنجح الله طريقه وقد عاد مصحوباً بالسلامة معروفاً بتحصيل هذا القصد بأنه آخر: في استخلاص حق.

شكر الله إحسانه وإنعامه وحصل به لكل ولي مرامه وحمد تطوله وتفضله وأنال به لكل آملٍ أمله وخلد دولته وأدام نعمته وأنفذ كلمته ولا زال فضله كاملاً وإحسانه إلى الأولياء واصلاً ونواله لبني الآمال شاملاً.

المملوك يخدم أحسن من نور الربا وثناءٍ ألطف من ريح الصبا وسلامٍ أطيب بمروره من تذكر أيام الصبا.

وينهي ورود الكتاب الذي طاب بالمولى محتده ونجاره وزاد على كتائب الكتب فخاره وأنه وقف عليه وقوف مشتاقٍ إلى مرسله شاكرٍ أنعم فضله وجسيم تفضله فأسكرته تلك الفصاحة بشذاها الأرج ونزهت لحظه في در لفظها البهج فظنها لما استنشق رائحتها راحاً قرقفاً ولما أبهجه لفظها بألفاظ تزهي على الرياض روضةً أنفاً وعلم الإشارة الكريمة في معنى فلان والوصية بخدمته وما أمر به من مساعدته ومساعفته وعند وصول مشرف المولى وقبل وضعه من يده نوى المملوك مساعدة المذكور على مقصده فتقدم بإحضار غريمه فوجده عن البلد غائباً فانتظره إلى أن عاد آئباً فعند وصوله طلبه وأحضره وسأله عما يدعيه عليه خصمه فأنكره وطلب الحضور إلى القاضي وحث على ذلك حتى أوهم أنه المتقاضي فلما رأى المملوك أن حجة المشفوع فيه لا تقوم بصدق دعواه وحجج ولا يظهر بها على غريمه إلا من طريقٍ حرج بذل في مصالحتهما جهد الاجتهاد وما زال يرشدهما إلى طريق الرشاد ويدلهما على سبيل السداد ويعرفهما أن التضارر ضير وأن الصلح خير فكل منهما يهيم في واد ويسلق خصمه بألسنةٍ حداد إلى أن تراضيا وتوافقا وسلكا طريق الرفق وترافقا وصدق الخصم خصمه فتصادقا وانفصلا وكلٌ منهما قد أرضى خدنه وعن المحاكمة والمحاققة أغضى جفنه.

آخر: أيد الله سعد المولى وأبده وأثل مجده ومجده وأعانه على إسداء العوارف وعضده وأمده من المسرات بما يزيل عن الأيام أبده وأناله سعداً لا تبلغ الأنام أمده ولا زال برد جده من السعادة جديداً ونجم عدوه آفلاً ونجمه سعيداً.

الذي نحيط به علمه الكريم أن كتابه ورد فسرى هم الأنفس وسرها وضاعف بما ضاع من نشره بشرها وفاح منه شذاً عند إقباله فقيل: قد هبت القبول ورنح الأولياء فقيل: قد هبت ريح الشمال وأديرت الراح الشمول وأن المملوك وقف منه على ألفاظٍ سقته كؤوس سرورٍ لا كؤوس مدام وروت له أخبار حلم لو أسندت إلى سواه لتوهمت أضغاث أحلام وروت أكباداً أضر بها لغيبته حر ظمإٍ وأوام وبينت سحر البيان وأعربت بلسان حسنها عما لمنشيها بل موشيها من الإحسان وأغربت في الفصاحة فخلنا كل كلمة تنطق عن سحبان بلسان وزهت بيانع ثمار فضلها فنزهت كل عين في بستان وعلم إشارة المولى في معنى فلان وما أبداه من العناية في حقه والإيثار لصلة رزقه وأنه من الألزام والذين تجب معاملتهم بالإكرام والاحترام التام وعندما شاهد المملوك كتاب من شرفه وسمع ألفاظه التي بلطفها أتحفه بل بردائها على البرد ألحفه تقدم بإجابة سؤاله وترتيبه في جهةٍ تليق بأمثاله وقمصه من العناية قميصاً لا يبلى وجمع لخاطره والدعة شملاً وهذا حسب إشارة المولى التي لا تخالف وأمره الذي يقف كل أحدٍ عنده ولا يستوقف ولا يواقف.

كتاب إلى مريض بالسؤال عنه من كلام المتأخرين مجزوء الكامل.

حاشى مزاجك من أذًى وكريم جسمك من وصب يا غاية المأمول وال مرجوّ يا كلّ الطّلب جفني غريقٌ بالدّمو ع وماء صبري قد نضب والله مالي في البقا ء وأنت ناءٍ من أرب فترى أبشّر سيّدي أنّ اللّقاء قد اقترب حرس الله مزاج المولى! وأصار العافية له شعاراً والصحة له دثاراً ولا زالت ساكنةً في أصدرها المملوك تعرب عن شوقٍ يكل عن وصفه اللسان وتوقٍ لا يحسن وصفه البنان ولاعجٍ يعجز عن حمل بعضه الجنان ملتمساً المواصلة بأخباره وواصفاً ما يجده القلب من ألم الشوق وناره وشاكياً من جور أيام الفراق وراجياً أن يبشر بالإبلال من مرضه والإفراق وداعياً إلى الله بتعجيل أيام التلاق.

ومع ذلك فلو رمت أن أشرح كل ما أجده من الصبابة لأسأمت وأسهبت بل لو ذكرت ما أعانيه لألمه لثقلت على خاطره وشوشت لكن خاطر المولى شاهدٌ بوجدي وعارفٌ بما تحملته من الكآبة التي لم يحملها أحدٌ قبلي ولا تحمل بعدي فيواصل بأخباره والله يحرسه آناء ليله وأطراف نهاره إن شاء الله تعالى.

في معناه كامل.

يا من شكا فشكا فؤادي حرقةً لا تنطفي وصبابةً لا تبرح وغدا سقيم الجسم يوماً واحدًا فنزحت دمعاً للمدامع يجرح وازداد شوقي نحو طلعته التي أبدًا بيمن بهائها أستنجح لا زلت في عزٍّ وسعدٍ دائمٍ أيّامنا ببقائها تتبجّج وبقيت ما بقي الزّمان مؤيّداً تمسي قرير العين فيه وتصبح كمل الله عافية المولى وحرسه ولا سلبه ثوب الصحة بل قمصه إياه وألبسه وأخدمه الأيام فلا تستطيع مخالفة أمره ولا الخروج عن حكمه ورزقه أن يملك الدنيا بحذافيرها وهذا يحصل بعافية جسمه.

المملوك ينهي أنه اتصل به تألمه فشق ذلك عليه ووصل من القلق إلى حدٍ لم يصل المولى والحمد لله إليه وابتهل إلى الله في معافاة جسده وأن يعضده ببقاء والده وولده ويضاعف تسهيل مآربه ومقاصده ويرفع كلمته وقدره على رغم معطس شانيه الأبتر وحاسده إن شاء الله تعالى.

جوابٌ إلى من قنطره فرسه: ثبت الله قواعد مجده وبلغه سعداً لا تبلغه الآمال لبعده وأهمى على محبيه سحائب جوده ورفده.

المملوك يخدم بتحية أرق من النسيم ويشكر مواهبه التي ما زالت تحنو عليه حنو المرضعات على الفطيم.

وينهي ورود الخبر بأنه كبا به جواده عندما زلت قوائمه وأثقلته فضائل المولى ومكارمه فانزعج لذلك وتألم وكاد قلبه لولا المبشر بسلامته أن يتكلم وجواد المولى لا سبيل إلى ذمه فإنه أسمح جواد ولا اتهامه بالعجز فإنه عرف بإتهام وإنجاد بسيط.

والمولى أولى من قابل عذر طرفه بطرف القبول واعتمد عليه دون سائر الخيول فإن المولى ولله الحمد في صحةٍ دائمة وسلامةٍ ملازمة وهذا هو القصد والمراد والاستبشار الذي تفتر له ثغور الثغور وتعمر به البلاد جعله الله في سعدٍ ما له فراعٌ ولا نفاد ورزقه ما دعا به العماد الفاضل والفاضل العماد إن شاء الله تعالى.

أجوبة كتب العيادة قال في مواد البيان: يجب أن تبنى هذه الأجوبة على وصول الرقعة وما صادفت المرض عليه من المرض وأنها أهدت روح الهدوء وأركدت رياح السوء وأقبلت بنسيم الإبلال وتضوعت بأرج الاستقلال وبشرت بالعافية والسلامة وآذنت بالصلاح والاستقامة وأشباه هذا.

ابن نباتة المصري: شكر الله افتقادها وأنسها وقلمها وطرسها وحمى من عارض الخطب لا من عارض الخصب شمسها ولا أعدم الأولياء قصدها الجميل وودها الجليل وإحسان رسائلها التي كرمت فما صوب الغمام لهار سيل وأمتع الممالك بيمنها التي صحت بتدبيره فليس غير النسيم عليل.

وينهي ورود المشرف الكريم فتلقاه المملوك حبيباً وارداً وطبيباً بإحسانه وللجسد عائداً وفهم المملوك ما انطوى عليه من الصدقات التي ما زالت في فهمه والمحبة الصادقة التي ما عزبت عن علمه وما تضمن من فصولٍ كانت أنفع من فصول أبقراط لمعالجة جسمه وأين أبقراط من بركات كتاب مولانا الذي طالع منه كتاب الشفاء على الحقيقة والنجاة من عروة البأس الوثيقة وأدنى ورقته الحمراء لرأسه تبركاً وإكراماً وقال: نعم الجلنارة المعوذة من الشقيقة واستطب حروفها فإنها عن أيدي الكريم والكرامات ولثم العلامة وتمسك بالسطور فإنها من أسباب الصحة والعلامات ووافقت عيادة مولانا مبادي العافية وآذنت بالزيادة وصلح خطه الكريم عائداً وما كل خطٍ يصلح للعيادة وما تلك الجارحة المتألمة إلا يدٌ أثقلتها منن مولانا فأعيت وتألمت ثم أعانتها بركته هي والقدم بالحمل العظيم وتقدمت وما بقية الجوارح إلا عيونٌ كانت تنتظر لطف الله تعالى وبركته وقد قدمت فشكراً لها من بركاتٍ تنعم بها قبل الجسوم أرواحها وأدويةٍ قلبية تعالج بها ذوات النفوس فكيف أشباحها لا برح جوهر كلمات مولانا يؤذن بالشفاء من العرض وسهام أقلامه إذا كتبت عائدةً أو جائدةً أصابت الغرض وفوق الغرض.

وله: تقبل الله منه وفيه صالح الأدعية وملأ بمحاسن ذكره وبره الآفاق والأندية وشكر هباته وبركاته التي تنزل بعارض الغيث قبل الاستمطار وترفع عارض الألم قبل الأدوية تقبيل معترفٍ بسابق النعم مقيمٍ على صحة العبودية والولاء في حالتي الصحة والسقم.

وينهي ورود مشرف مولانا الكريم على يد فلان عائداً من جهة العيادة وعائداً من جهة الصلات المعتادة ومفتقداً لا عدم الأولياء في الشدة والرخاء افتقاده ما كان إلا ريثما نشق العليل نسماته الصحيحة وتناول كأس ألفاظه الصريحة وإذا بقانون المزاج قد هم باعتداله وكتاب الشفاء والنجاة قد تسنت فوائد إقباله فتميز حال الصحة من المرض واستعمل جوهر الألفاظ فعزم على زواله العرض وبلغ الولد فلان المشافهة وكل مقاصد مولانا مبتدأة مبتدعة والمملوك جوابها وكل أجوبته منوعة شكر الله عوارف مولانا المتصلة ورسل افتقاده التي منها العائد ومنها الصلة.

وله في جواب كتاب عيادة وارد في يوم عيد على يد من اسمه جمال الدين محمود: شكر الله مننها التي إذا أبدت أعادت وإذا جادت أجادت وإذا كررت الافتقاد حلا وإذا تصدت لمودات القلوب صادت تقبيل ملخصٍ في ولائه وابتهاله مقيم على صحة العهد والحمد في صحته واعتلاله.

وينهي ورود مشرفة مولانا الكريمة على يد الولد جمال الدين محمود متفقداً على العادة مكرراً لعيادة الإحسان وإحسان العيادة فقابل المملوك بالحمد واردها وبعوائد الاعتداد عائدها وفهم ما تضمنته من تألم قلب المالك على ضعف المملوك وقلق خاطره على بدن كبيت العروض منهوك وأنه كان ابتداء ضعف المملوك فتألم ثم تلا خبر الصحة فتلا ولكن الله سلم ثم بلغه أن آلاماً تراجعت ومواد واصلت بعدما قاطعت فحملته خواطر الإشفاق علي على تكرير العيادة وارتقاب فعلات الشفاء المستجادة جارياً من إحسانه وافتقاده على أجمل معهود باعثاً مشرفته وحاملها وكلاهما حسن الحال محمود فعندما وصلا أوصلا كمال العافية وحققت أخيلة البرء الشافية وما كان المشكو إلا مادة يسيرةً وزالت وبقية ضعف تولت بحمد الله وبركة مولانا وما توالت وما عيد المملوك إلا وشفاء الجسد في ازدياد والنفس بالوقت وبالمشرفة في عيدين قائمين بأعياد لا زالت منن مولانا إزاء اللحظ حيث دار ووده وحماه جامعين فضل الجار والدار.

زهر الربيع: لا زال محروس الشيم هاطلة سحائبه بالديم مشكوراً بلساني الإنساني والقلم.

المملوك يقبل يده الشريفة مؤدياً للواجب ويواصل بدعاءٍ صالح أصاره إنعامه ضربة لازب.

وينهي إلى كريم علمه ورود مشرفه الذين أبهج الأنفس وضاعف الصبابة وأفنى الصبر عن محياه وإن كان ما أفناه أيسر صبابة وأنه علم منه إنعامه وتشوفه إلى المملوك وإلى سماع أخباره وما أبداه من شفقةٍ ألفت من إحسانه وعرفت من كريم نجاره وتحققت من شيمه على من ينأى عن بابه العالي وداره فالله يحرس هذه الأخلاق التي هي أرق من الماء الزلال والشمائل التي تفعل بلطفها فعل الجريال والمملوك فوالله لا يحصي شوقه إلى الخدمة العالية ولا يحصره ولا يقدر على وصف ما يسره من الأتواق ويظهره إنما الاعتماد في ذلك على شاهدي عدلٍ من خاطره وقلبه وهما يغنيان المملوك عن شرح ولائه بألسنة أقلامه ووجوه كتبه وأما السؤال عن أخبار مزاج المملوك فإنه كان في ألمٍ دائم وسقمٍ ملازم لشدة المرض الذي كان يحتوي على جوهر جسمه والعرض فمذ ورد كتاب المولى انتعشت قوته واشتدت منته وصدقت في طلب تناول الغذاء شهوته وترجى الشفاء بعد أن كان على شفا التلف وكان له كالطبيب الآسي في إزالة مرض الأسا والأسف.

وقد حصلت للمملوك مسرتان بكتاب المولى وعافيته وفرحتان بما أهداه إليه من عفو إنعامه ومحو أثر الألم وتعفيته وكل ذلك بسعادته.

ومنه: ورد المشرف العالي لا زال قدر مرسله شريفاً وشرفه الباذخ يجعل كل شريفٍ مشروفاً وسحائب جوده تهدي إلى الأولياء من مكارمه تليداً وطريفاً وقواضبه ترد طرف حوادث الأيام عنه مطروفاً وأياديه تبعث لمحبيه تحفاً وهيبته تهدي إلى الأعداء خوفاً والدهر بخدمة جنابه العالي مشغوفاً فوقف عليه وقوف مشتاقٍ إلى مسطره متنزه في ربيع ألفاظه وحسن أسطره وعرف منه إحساناً ما فتيء يعرفه وتفضلاً ما زال المولى بمثله يتحفه وما أشار إليه من شدة إيثاره لرؤية المملوك وسماع أخباره والذي ينهيه أن جسده كان قد تضاعف ضعفه حتى أتعب الألسنة وصفه فلما وقف من مشرف المولى على خطٍ هو الوشي المنمنم وألفاظٍ هي الرحيق المختم بل الدر المنظم وسحرٍ هو محلل وكل سحرٍ محرم أبل المملوك وبردت غلته وبرأت علته وكان كمن استوفى نصيبه من النصب وأخذ قسمه من السقم والوصب فسقاه مشرفه الصحة في كاس وأفاض عليه من العافية أفخر لباس.

آخر كامل.

ورد الكتاب فعمّت الأفراح وأضاء في ليل الأسا الإصباح وافترّ ثغرٌ للزّمان بفرحةٍ وللفظه طربت ربًى وبطاح وتضوّعت أرواح طيبٍ عرفها تحيا به الأجسام والأرواح وسقى سلاف فصاحةٍ وبلاغةٍ ما المسك عند شميمها ما الرّاح شكر الله مننه وأخدمه زمنه ومنحه من العيش أغضه وأحسنه وشرف ببقائه الدهر وشنف بمدحه أذنه.

المملوك ينهي إلى علمه وصول مشرفه الذي تنزهت الأعين في حسن منظره ويانع ثمار لفظه البديع ووشي أسطره وأنه استنشق من ريحه أطيب نفحة وتقمص منه ثوبي دعةٍ وصحة فشفى داءً شف منه جسمه وزاد لوروده سروره وزال همه وعلم إنعام المولى الذي لا يشك فيه وإحسانه الذي لا يحصره لسان مادح ولا يحصيه وما ذكره من الألم الملم به واشتغال خاطره الكريم لما ألم بجسمه والمرض بسعادة المولى قد بقي منه قله وتقلص بعدما امتد ظله والعافية تتكمل إن شاء الله تعالى برؤية محياه الكريم ومشاهدته والمثول بين يديه العاليتين في خدمته.

النوع الخامس عشر في الذم ذم بخيل لأحمد بن يوسف: كأن البخل والشؤم صارا معاً في سهمه وكانا قبل ذلك في قسمه فحازهما بالوراثة واستحق ما استملك منهما بالشفعة وأشهد على حيازتهما أهل الدين والأمانة حتى خلصا له من كل مانع وسلما له من تبعة كل منازع فهو لا يصيب إلا مخطياً ولا يحسن إلا ناسياً ولا ينفق إلا كارهاً ولا ينصف إلا صاغراً.

وفي مثله: وصل كتابك فرأيناك قد حليته بزخارف أوصافك وأخليته من حقائق إنصافك وأكثرت فيه الدعاوى على خصمك من غير برهان أتيت به على دعواك وزعمك.

ومنه: ولو أراد غير ذلك من الأخلاق السنية الشريفة الهنية لاستوحش في سبلها ووقع في ومنه: لأبي العيناء: أما بعد فلا أعلم للمعروف طرقاً أحذر ولا أوعر من طريقه إليك ولا مستودعاً أقل زكاءً ولا أبعد ثمرة خيرٍ من مكانه عندك لأنه يحصل منك في حسبٍ دني ولسان بذي ونسبٍ قصي وجهلٍ قد ملك طباعك فالمعروف لديك ضائع والشكر عندك مهجور وإنما غايتك في المعروف أن تحرزه وفي وليه أن تكفر به.

ومنه: لمحمد بن الليث: بكم علن الظلم وظهرت البدع واندفن الحق وعز الفاجر وظهر الكافر وفشت الآثام ونقضت الأحكام واتخذ عباد الله خولاً وأمواله دولاً ودينه دخلاً.

ومنه: لأبي علي البصير: عدوك منعزل عنك وصديقك على وجل منك إن شاهدته عاقك وإن غبت عنه حاقك تسأله فوق الطاقة وترهقه عند الفاقة وإن اعتذر إليك لم تعذره وإن استنصرك لم تنصره وإن أنعم عليك لم تشكره ولا يزيدك السن إلا نقصاً ولا يفيدك الغنى إلا حرصاً تسمو إلى الكبير بقدر الصغير وتشف للتطفيف لا للتخفيف تعترض الناس بالسؤال غير محتشم من الإملال ولا كارهٍ لأن ينظر إليك بعين الاستقلال حتى لقد أخرجت الأضغان وقبحت الإحسان وزهدت في اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف والناس منك بين أسرارٍ تفشى وبوائق تخشى وشناعاتٍ واردة ونوادر باردة.

ودك تخلق وشكرك تملق.

ومنه: لسعيد بن حميد: رجلٌ يعنف بالنعم عنف من قد ساءته بمجاورتها ويستخف بحقها استخفاف من لا يخف عليها محملها ويقصر في شكرها تقصير من لا يعلم أن الشكر يرتبطها ومن كانت هذه حاله في اختياره لنفسه فكيف أرجو حسن اختياره لي ومن كان في مدة من ابتلاء الله بعيدة ما بين الطرفين لا أدري أينفذ بي الأجل إلى أقصاها أم يقصر بي في أدناها فكيف يتسع الصدر للصبر عليه إن الله لا يخاف الفوت فهو يمهله وإنه إن مات لم يخرج من سلطان الله جل وعز إلى سلطان غيره فيعاجله وأنا على خوفٍ من إعجال المدى عن بلوغ مناي فأذهب حرجاً صدري وعلى ثقةٍ من الشغل في الآخرة بنفسي عن التشفي من أهل عداوتي وترتي وأحمد الله على المحنة وأسأله تعجيل روح النعمة وفسحة العافية.

النوع السادس عشر في الأخبار قال في مواد البيان: كتب الأخبار وإن كانت من الكتب الكثيرة الدوران في الاستعمال فليست مما يمكن تمثيله ولا حصر المعاني الوامقة فيه برسوم تشتمل عليها نعم ولا أن نقدم له مقدمةً تكون توطئةً لما بعدها كما يجري الأمر في سائر فنون المكاتبات الأخر التي لا تخلو من مقدمات تحل منها محل الأساس من البنيان والرأس من الجثمان لكن المقدمات التي توضع في الكتب من شرطها أن تكون مشتقةً من نفس معنى الكتاب ومنهي الخبر لا يمكنه أن يستنبط من كل خبرٍ ينهيه مقدمةً تكون باسطاً له وإنما يقول: كتبت من موضع كذا يوم كذا والذي أنهيه كذا بل الذي يلزمه أن يتحداه بطاقته ويتحراه بجهده أن يبين ما يطالع به من الأخبار ويكشفه ويوضحه ويفصح عنه ولا يقف منه إلا عند الشفاء والإقناع لتتقرر صورته في نفس من ينهيه إليه اللهم إلا أن يكون الخبر مما يوجب الأدب العدول عن لفظه الخاص به والإخبار عنه بألفاظٍ تؤدي معناه ولا يهجم على المخبر بما يسوء سماعه كأن يكون خبراً يرفعه إلى سلطانٍ عن عبدٍ له قد أطلق فيه ما يضع منه ويسقط مهابته أو نحو من ذلك مما يثقل على السلطان المنغص منه فإنه ينبغي أن يعدل في هذا وأمثاله عن التصريح إلى التعريض ومن التصحيح إلى التمريض وعن المكاشفة إلى التورية وأن يأتي بألفاظ تدل على معاني ما يروم إبداءه ويحرص على صورة منزلة السلطان وتوقيره عن قرع سمعه بما يكرهه ولا تجوز مقابلته به وأن يقصد إلى استعمال الإيجاز والإطناب في المواضع التي تحتمل كلاً منهما فهذا ما يمكن أن يتعرف من رسوم هذا الباب.

قال: ومن نفذ فهمه وخاطره في الصناعة وتدرب فيها يكتفي بهذه اللمعة ولا يحتاج إلى زيادةٍ عليها.

في الإخبار بوقوع مطر وسيل من ترسل أبي الحسين بن سعد: فالماء منه يفيض على العمران بعد أن ضاقت به المغايص والغدران فأتى على كثير من التلال والروابي فضلاً عن الرساتيق والقرى وصار الوادي على اتساع عرضه وامتداد طوله وسعة مصبه وفسحة مغيضه لا يفي بهضمه ولا يقوم بحمله ففاض منه ما عطل العمران ونسق الدور ومحق الزروع فعظم به البلاء وكثر له الجلاء وشمل الفساد وعظم الخراب.

صدر كتاب بإخبارٍ عن الخليفة: كتبت ومولانا أمير المؤمنين في توطد من خلافته وتمهدٍ من دولته وعلوٍ من رأيه ونفاذٍ من كلمته وعزٍ من سلطانه وارتفاع من شانه ونعم سابغةٍ عليه وعلى أهل طاعته قالصةٍ عن أعدائه وأهل مخالفته واستقامةٍ من أطرافه وثغوره واستتباب من أحوال وأموره الحمد لله على إحسانه حمداً لا يقف دون رضاه ولا يحيط بمقداره سواه.

صدر بإخبار عن الوزير: كتبت وحضرة الوزارة السامية في نعمٍ مخصبة الأكناف بعيدة الأطراف سادرة الويل ساحبة الذيل وما أنظر فيه من أمر دولته منتظم وأراعيه من أحوال رعيته ملتئم وقد وطأ الله له أوعار السياسة والتدبير ووقفه على جواد المصلحة في التقديم والتأخير والحمد لله حمدًا يستقل بحقه فيقضيه وبواجبه فيؤديه وينتهي إليه عز سلطانه فيرضيه.

صدر بإخبارٍ عن أمير: كتبت والأمير في علوٍ من سلطانه وارتفاع من شانه وظفرٍ يواكب ألويته ونصرٍ يصاحب دولته ووافى علي من ظله وشملني من فضله ما سبغ لباسه وطابت أغراسه والحمد لله اعترافاً بنعمته حمدًا يوجب شمول منته ويستدعي الشكر عليها ويقضي بمزيدٍ منها.

صدر بأخبارٍ عن عافية المكتوب عنه: كتبت وأنا صالح الحال وقد من الله تعالى بالعافية والإنعاش والإقالة والا اش وأعاد إلي الصحة بعد نبوها وذهابها والسلامة بعد نجعها وإغرابها وأسبل النعمة بعد الإنذار والتحذير من الاغترار ممحصاً بما ألم من الآلام عصب الأيام والحمد لله أولى ما تليت به النعم وطرز به المفتتح والمختتم حمداً يؤمن من التغيير والتبديل ويعيذ من الانتقال والتحويل.

ابن أبي الخصال في الإخبار عن زلزلة عظيمةٍ وقعت بمدينة قرطبة من الأندلس.

الشيخ الأجل الولي الأكرم الأفضل أبو فلان الذي أطرفه الله تعالى بعجائب الأخبار وأذهب به في مسلك الاتعاظ ومنهج الادكار أبقاه الله آخذاً في سنن الانزعاج ونهج الازدجار.

المخلص له المحض الناصع من الولاء ومعرفة غريب الآثار وعجيب الأنباء فلان.

سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي جعل عبره أنواعاً متلونةً وصنوفاً وأرسل الآيات " وما نُرْسِلُ بالآياتِ إلاَّ تَخْوِيفاً ".

والصلاة على سيدنا محمدٍ المصطفى صلاةً طيبةً تعبق تأريجاً وتضوع تعريفاً وعلى آله وأصحابه الطاهرين الذين حضروا حروباً وشهدوا زحوفاً والدعاء لسيدنا الإمام أمير المؤمنين في نصرٍ عزيزٍ يؤنس مذعوراً ويؤمن مخوفاً فإني كتبته - كتب الله لكم دعةً حافظةً وأماناً وتصديقاً بآيات الله البينة وبرهاناً - من موضع كذا عند ما طرأ علينا ما كحل العيون بقذاها ومنعها لذيذ كراها وأخفق الضلوع الحانية وأقلق مصارين حشاها وهو أن الله عز وجل ذكر عباده إن نفعت الذكرى ونبههم إن تنبهوا ولم يأمنوا منه كيداً مبيراً ولا مكراً وذلك بزلزال قضى به على قرطبة وبعض أعمالها وملأ نفوس ساكنيها من روعاتها وأوجالها وحالت لذلك في الخوف والارتفاع أقبح حالها حتى نحوا إلى الاستكانة والضراعة وأطاع الله من لم يكن له قبل ذلك طاعة وخشوا بل كانوا يوقنون أنها زلزلة الساعة.

وكان من عظيم آثارها وكريه إيرادها وإصدارها انهدام القبة العظمى في المسجد الجامع صانه الله وكانت قبةً أسس على التقوى بناؤها وذهب في المشارق والمغارب ذكرها العاطر وثناؤها وتهدمت بسبب ذلك الهدم ديارٌ كثيرة وحدث به حوادث مبيرة.

وأما تلوكة من أعمالها وكان فيها مبنًى من مباني الروم فإنه غادرها قاعاً صفصفاً وقرًا نفنفاً واضطر ذلك الخطب الفادح والريح القادح إلى أن خرج السيد أبو إسحاق وكافة أهل قرطبة من ديارهم وفروا من الموت بأقواتهم وأصحابهم ثم إن الله عز وجل تدارك بالرحمى وكشف تلك الغمى جعل الله ذلك صقلاً لقلوبنا وتوبةً عما سبق من ذنوبنا وعصمنا من جرمنا الموبق وحوبنا وأولانا وإياكم أمناً من الغير وازدجاراً بما ظهر من العبر وجعل كلانا جميل الحوادث طيب الخبر بمنه والسلام الطيب المبارك ورحمة الله وبركاته.

من كلام المتأخرين في الإخبار بقدوم نائبٍ إلى نيابةٍ.

من ذلك نسخة كتاب عن نائب الشام إلى كافل الممالك الإسلامية مخبراً له بوصوله إلى دمشق من إنشاء جمال الدين بن نباتة وهو بعد الألقاب: لا زالت آفاق الممالك مضيئةً بأنوار شمسه هنيةً بأنس سعادته وسعادة أنسه سنية المقاصد التي قام في كفالتها بنفاسة نفسه ولا برح يستثمر من خير الدنيا والآخرة ما قدم صنعه الجميل من غرسه تقبيلاً يشافه به القلم القرطاس ويود المملوك لو شافه به الخدم ساعياً سعي القلم على الراس.

وينهي قيامه بوظائف دعاء ينير الحلك وولاءٍ يدور بكواكب الإخلاص إدارة الفلك وحمدٍ تذهب به صفحات الصحف حيث ذهب وتسلك عقود الأفلاك حيث سلك وأنه خدم بهذه العبودية عند وروده إلى دمشق المحروسة لنيابةٍ كانت عناية مولانا تعلمه وتعلمه والغيث ببركات الدولة القاهرة - سفيرة أمرها ومميزة برها يوم كذا وسعادة مولانا السلطان - خلد الله ملكه يسايره ويقدمه وثغر المطر يسابق ثغر المملوك إلى مشافهة الثرى ويلثمه والرعية منه آمنةٌ في سربها وادعةٌ بظلال الأبواب الشريفة مع بعدها دعة الصوارم في قربها وباكر المملوك يوم الاثنين الذي بورك فيه في الخميسين من يوم وجيش وانتصب لمهماتٍ على مثلها في الخدمة يطيب أن يرفغ لين العيش مجتهداً فيما هو بصدده مستمداً من ربه عز وجل وسعادة سلطانه برشده معتداً نعم مولانا فيما يأتي في ذلك من أوفى وأوفر عدده ومدده والله تعالى يعين المملوك على شكر منن مولانا الباطنة والظاهرة والغائبة والحاضرة والمقيمة والمسافرة ويصل نفع المملوك بولائه في الدنيا والآخرة ويقيم الرعايا بالأمن من كفالته التي ما برحت بعيون الأعداء فإذا هم بالساهرة.

الأجوبة عن كتب الأخبار قال في مواد البيان: الأخبار على أكثر الأحوال لا أجوبة لها وإنما هي مطالعاتٌ بأمور ينهيها الخدام وأصحاب البرد إلى السلاطين مما تخرج أوامرهم إلى الولاة بما تضمنته مما يقتضيه كل خبر ينهى من سياسةٍ عامة أو مصلحة تامة قال: فأما ما يستعمله الإخوان في المكاتبة بالأخبار التي يكل بعضهم إلى بعض الإخبار بها فمنها ما يقتضي الجواب ومنها ما لا يقتضيه.

قال: وأجوبة ما يقتضي الجواب منها تفتن بحسب افتنان الأخبار والأغراض التي يجيب المجيب بها وهو أيضاً مما لا يعبر عنه بقولٍ جامع ولا برسم رسم كلي وإنما يرجع فيه إلى الأمور التي يبتدأ بها ويجاب عنها.

النوع السابع عشر المداعبة قال في مواد البيان: ومعاني المداعبات التي يستعملها الإخوان غير متناهية والأغراض التي ينتظمها المزاح وتعد من طلاقة النفس لا تقف عند قاصية لأنها مستملاةٌ من أحوالٍ متباينة ومأخوذةٌ من أمور غير معينة وحصرها في رسومٍ جامعةٍ يستحيل وتمثيلها غير مفيد لأنه تعلق لبعضها ببعض ولا نسبة بين الواحد والآخر ثم قال: والأحسن بأهل الوداد والصفاء والأليق بذوي المخالصة والوفاء أن يتنزهوا في المداعبة الدائرة بينهم عن بذيء اللفظ ومفحشه ومؤلم الخطاب ومقذعه ويكفوا اللسان واليد عن الانطلاق بما يدل على خفة الأحلام والرضا بالرذل من الكلام بسفهاء العوام ويتحرجوا من إرسال قولٍ يبقى وصمةً على مدى الأيام إذ لا فرق بين جرح اللسان وجرح اليد وقد نطق بها المثل لما في ذلك من الترفع عن دنايا الأمور التي لا يتنازل إليها الكرماء والتنزه عن المساقط التي لا يستعملها الأدباء وصيانة المروءة عما يشينها ويخدشها وتوقيرها عما ينقصها والأمن من الجواب الذي ربما قدح في النفس وأثر وأحمى الصدر وأوغر ونقل عن التوادد إلى التضادد وعن التداني إلى التباعد وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه بقوله من أبياته المنسوبة إليه متقارب.

فربّ كلامٍ يمضّ الحشا وفيه من الضّحك ما يستطاب مع مراعاة السلامة من المداخلة المنطوية على الغل والمراآة المبنية على المكر إذا لم يكن للمقابلة على الابتداء الممض بالجواب المريض وغير ذلك مما لا تؤمن عاقبته ولا تحسن عائدته.

قال: ويكون المستعمل في هذا الفن ما خف موقعه ولطف موضعه وهش له سامعه وتلقاه الوارد عليه مستحلياً لثماره مستدعياً لأنظاره ولا يعدل به عن سمت الصدق وطريق الحق وموذهب التحرز من المذق ويقتصر فيه على النادرة المستطرفة والنكتة المستظرفة واللمعة المستحسنة والفقرة المستغربة دون الإطالة المملة ولا يجعل المزح غالباً على الكلام مداخلاً لجميع الأقسام فإن ذلك يفسد معاني المكاتبة ويحيل نظام المخاطبة ويضع من معناها وإن كان شريفاً ويوخم لفظها وإن كان لطيفاً ويذهب بجدها في مذهب الهزل ويميله عن القصد وإلى ذلك يشير بعضهم بقوله طويل.

أفد طبعك المكدود بالجدّ راحةً بلهوٍ وعلّله بشيءٍ من المزح ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما يعطى الطّعام من الملح وأن يقتصد مع ذلك.

ثم قال: وينبغي أن يقصد إلى استعمال الدعابة في المواضع اللائقة بها والأحوال المشابهة لها ولا يودع باباً من الأبواب ما لا يحتمله من الخطاب فإن القصد في هذا النوع من المكاتبات إنما هو الإعراب عن الظرف والبراعة والإبانة عن طلاقة النفس والانسلاخ من تعبيس الفدامة والجهامة ثم عقب ذلك بأن قال: ومن وقف من ذلك عند الحد الكافي ولزم فيه الأدب اللائق بأهل التصافي دل على ما ذكرناه وشهد لمستعمله بإحراز ما وصفناه ومن تعدى ذلك عد من المجون والملاعبة وحسب من رذالة

الطبع ونذالة الخيم وسفه اللسان وغير ذلك من الأمور التي لا تليق بالكاتبين الكرام الذين هم خيار الأنام وولاة النقض والإبرام.

وختم ذلك بأن قال: والكاتب إذا كان مهيأ الطبع للانطباع برسوم الصناعة ومناسبة أوضاعها أغناه الوقوف على هذا القول المجمل في استعمال ما يقع في هذا الباب عن تمثيلٍ مفصل ولم يذكر له مثالاً.

ابن أبي الخصال: سيدي وواحدي الذي اجمل ذكره وأوالي شكره لا زال مغناك رحيباً وزمانك خصيباً ولا زلت تأخذ لأخراك نصيباً عبدك فلان مؤديها ينتجع الكرام ويباري في جريها الأيام فتارة يجمع وأخرى يفرق وطوراً يغرب وطوراً يشرق وأم الحضرة - وصل الله حراستها وأدام بهجتها ونفاستها - والملك بها غض الشباب وأخضر الجلباب وإحسانك إحسانك ومكانك من المروءة مكانك فأوسعه قرى واملأ عينيه على الشبع كرى أستغفر الله بل أمجده تبناً وعلفاً وأركبه حزناً من الأرض ظلفاً ودونكه لم يقلب أرضه بيطار ولا لجنايةٍ به جبار وجرحه جبار وعنده كما علمت دعاءٌ مباح وثناءٌ في الشكر مساءً وصباح والسلام.

كتب بعضهم إلى كمال الدين بن الأثير وقد جاء إليه في بستانه فلم يجده ولا وجد من أنصفه: حضر المملوك البستان مستدنياً قطوف الإنعام والإحسان واستمطر سحائب فضله وهز إليه بجذع نخله فلم تتساقط عليه رطباً جنياً فعلم أنه قد جاء شيئاً فرياً فثبت نفسه مع تصاعد الأنفاس والطمع ينشده كامل.

ما في وقوفك ساعةً من باس فانطلق حتى أتى القرية مستطعماً أهلها فأبوا أن يضيفوه مستعطفاً حاشيته الرقيقة فأبوا حاشيته أن يستعطفوه وقال كلٌ منهم: تطالب بالقرى كما تطالب بدينك ارجع حيث شئت هذا فراق بيني وبينك.

وعلم أنه لو أقام بها جداراً لما أعطي عليه أجراً ولو حاول قرًى لسمع من التوبيخ ما لم يستطع عليه صبراً فرجع بخفي حنين بعد مشاق جرعت كاسات الحين فأين هذه المعاملة مما نشيعه عنه من كريم الخلال وكيف نشكو نقص حظٍ وله كمال الإحسان وإحسان الكمال الأجوبة عن رقاع المداعبة قال في مواد البيان: ينبغي للمجيب عن المداعبة أن يشتق من نفس الابتداء جواباً مناسباً لها وأن يبنيه متى أحب الأخذ بالفضل على المسامحة واطراح المناقشة والإغضاء عما يمض إبقاءً على المودة وتحسيناً لقبح الصديق وتعوداً لعادة الحلم والاحتمال وأن يذهب في الجواب مذهب الاختصار وإيراد النكت الرائعة كما في الابتداء على ما تقدم.

الفصل الثامن في إخفاء ما في الكتب من السر

وهو مما تمس الحاجة إليه عند اعتراض معترضٍ من عدو ونحوه يحول بين المكتوب عنه والمكتوب إليه من ملكين أو غيرهما حيث لم تفد الملطفات لضرر الرصد وزيادة الفحص عن الكتب من الجانبين وهو على نوعين.

النوع الأول ما يتعلق بالكتابة وهو على ضربين الضرب الأول ما يتعلق بالمكتوب به وذلك بأن يكتب بشيء لا يظهر في الحال فإذا وصل إلى المكتوب إليه فعل فعلاً مقرراً بين المتكاتبين من إلقاء شيء على الكتابة أو مسحه بشيء أو عرضه على النار ونحو ذلك.

وقد ذكروا لذلك طرقاً: منها - أن يكتب في الورق بلبنٍ حليبٍ قد خلط به نوشادر فإنه لا ترى فيه صورة الكتابة فإذا قرب من النار ظهرت الكتابة.

ومنها - أن يكتب في الورق أيضاً بماء البصل المعتصر منه فلا ترى الكتابة فإذا قرب من النار أيضاً ظهرت الكتابة.

أنه يكتب فيما أرد من ورق أو غيره بماءٍ قد خلط فيه زاجٌ فلا تظهر الكتابة فإذا مسح بماءٍ قد خلط فيه العفص -ومنها المدقوق ظهرت الكتابة.

ومنها - أن يكتب في الورق غير المنشى بالشب المحلول بماء المطر ثم يلقيه في الماء أو يمسحه به فإنه إذا جف ظهرت فيه الكتابة.

ومنها - أن يكتب بمرارة السلحفاة فإن الكتابة بها ترى في الليل ولا ترى في النهار.

أن تأخذ الليمون الأسود وعروق الحنظل المقلوة بزيت الزيتون جزءين متساويين وتسحقهما ناعماً ثم تضيف إليهما -ومنها دهن صفار البيض وتكتب به على جسد من شئت فإنه ينبت الشعر مكان الكتابة وهو من الأسرار العجيبة فإذا أريد إرسال شخصٍ بكتابٍ إلى مكانٍ بعيدٍ فعل به ذلك فإنه إذا نبت الشعر قرئت الكتابة.

ما يتعلق بالخط المكتوب بأن تكون الكتابة بقلمٍ اصطلح عليه المرسل والمرسل إليه لا يعرفه غيرهما ممن لعله يقف عليه ويسمى التعمية وأهل زماننا يعبرون عنه بحل المترجم وفيه نظر فإن الترجمة عبارةٌ عن كشف المعمى ومنه سمي المعبر لغيره عن لغة لا يعرفها بلغةٍ يعرفها بالترجمان وإليه ينحل لفظ الحل أيضاً إذ المراد من الحل إزالة العقد فيصير المراد بحل المترجم ترجمة المترجم أو حل الحل ولو عبر عنه بكشف المعمى لكان أوفق للغرض المطلوب.

ثم مبنى ذلك على قاعدتين: القاعدة الأولى - كيفية التعمية.

اعلم أن التعمية بالنسبة إلى كل واحد من الناس باعتبار ما يجهله من الخطوط فيعمى على العربي في اللغة العربية بالخطوط غير العربية كالرومية والعبرانية ونحوهما إذا كانت حروف تلك اللغة توافق لغة العرب أو بقلمٍ مصطلح عليه على وفق حروف العربية وكذلك يعمى على غير العربي من الرومي ونحوه ممن يجهل الخط العربي بالقلم العربي وعلى ذلك.

ثم للناس في التعمية مذهبان: المذهب الأول - أن يكتب بالأقلام القديمة التي ليست بمتداولةٍ بين الناس مما لا يعرفه إلا الآحاد إذا وافقد ذلك القلم اللغة التي تريد الكتابة بها.

وقد ذكر ابن الدريهم أن أقل اللغات المغل وهو سبعة عشر حرفاً وأطولها الأرمني وهو ستةٌ وثلاثون حرفاً.

ثم قال: والتركي عشرون حرفاً وكذلك الفارسي إلا أن الفارسي ثلاثة أحرف ليست في التركي وهي الهاء والفاء والدال.

وفي التركي ثلاثة ليست في الفارسي وهي الصاد والطاء المهملتان والقاف والعبراني والسرياني اثنان وعشرون حرفاً من أول أبجد إلى آخر قرشت.

واليوناني والرومي القديم أربعةٌ وعشرون حرفاً ولهم قلمٌ آخر ثلاثون حرفاً والقبطي اثنان وثلاثون حرفاً وذكر أن جميع الأقلام مقطعة الحروف على اصطلاح أبجد خلا العربي والمغلي والسرياني فإن حروفها توصل وتقطع وقطع السرياني كالعربي وأقلام المتقدمين المقررة كالرومي والفرنجي وغيرهما معلومةٌ لا حاجة إلى التمثيل بشيءٍ منها.

المذهب الثاني - أن يصطلح الإنسان مع نفسه على قلم يبتكره وحروف يصورها وقد ذكر ابن الدريهم أن الناس اختلفت مقاصدهم في ذلك فمنهم من يصطلح على إبدال حرفٍ معين بحرف آخر معين حيث وقع في القلم المعروف بالقمي وهو أنهم جعلوا مكان كل حرف من حروف العربية حرفاً آخر من حروفها فجعلوا الكاف ميماً وبالعكس والألف واواً وبالعكس والدال المهملة راءً مهملة وبالعكس والسين المهملة عيناً مهملة وبالعكس والفاء ياءً مثناة تحتيةً وبالعكس فيكتب محمد كطكر وعلي سهف ومسعود كعسار وعلى ذلك وقد نظم بعضهم ذلك في بيتٍ واحد ذكر فيه كل حرف تلو ما يبدل به وهو سريع.

كم أو حطٍ صلا له در سعٌ في بز خشٍ غضٍّ ثج تدفق قال: ومنهم - من يعكس حروف الكلمة فيكتب محمد دمحم وعلي يلع.

ومنهم - من يبدل الحرف الأول من الكلمة بثانيه مطلقاً في سائر الكلام فيكتب محمد أخو علي حمدم خا عويل إلى غير ذلك من التمييزات.

ومنهم - من يبدل الحروف بأعدادها في الدمل فيكتب محمد أربعون وثمانية وأربعون وأربعة وتعمل التعمية صفة محاسبة.

من يكتب عوض عدد الحرف حروفاً وهو أبلغ في التعمية فيكتب محمد لي بو لي أج لأن اللام والياء بأربعين وهي -ومنهم عدد ما للميم الأولى والباء والواو بثمانية وهي عدد ما للحاء واللام والياء أيضاً بأربعين وهي عدد ما للميم الثانية والألف والجيم بأربعة وهي عدد ما للدال فكأنه قال: م ح م د.

وإن شاء أتى بغير هذه الحروف مما يتضمن هذه الأعداد.

ومنهم - من يجعل لكل حرفٍ اسم رجل أو غيره.

من يضع الحروف على منازل القمر الثمانية والعشرين على ترتيبها على حروف أبجد فيجعل الألف للشرطين والباء -ومنهم للبطين والجيم للثريا وهكذا إلى آخرها فيكون بطن الحوت للغين من ضطغ.

وربما اصطلح على الترتيب على أسماء البلدان أو الفواكه أو الأشجار أو غير ذلك أو صور الطير وغيره من الحيوانات إلى غير ذلك من ضروب التعامي التي لا يأخذها حصر.

وأكثر أهل هذا الفن على أن يرسم الحروف أشكالاً يخترعها قلماً له مقطعة على ترتيب حروف المعجم.

والطريق في ذلك أن يثبت حروف المعجم ثم يرتب تحت كل واحد شكلاً لا يماثل الآخر فكلما جاءه في اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لا يقع عليه غلطٌ ثم يفصل بين كل كلمتين إما بخط أو بنقط أو ببياض أو دائرة أو غير ذلك وأكثر المتقدمين يجعلون الحرف المشدد بحرفين والمتأخرون يجعلونه حرفاً واحداً وهذه صور حروف مترجمٍ كان قد وصل إلى الأبواب السلطانية من مناصحين في بغداد يقاس عليه.

القاعدة الثانية - حل المعمى وهو مقصود الباب ونتيجته.

ويحتاج المتصدي لذلك مع جودة الحدس وذكاء الفطرة أن يعرف اللغة التي يروم حل مترجمها مما وقع به التعمية فيها ومقدار عدد حروفها ولا خفاء في أن حروف العربية ثمانيةٌ وعشرون حرفاً ويجب أن يعرف الحروف التي تدخل كل لغة والحروف الممتنعة الوقوع فيها كما تقدم.

ثم المعول عليه والمنصب القول إليه فيما هو متعارف في هذه المملكة لغة العرب التي هي أشرف اللغات وأبذخها.

والناظر في حل مترجمها يحتاج إلى أصلين: الأصل الأول - معرفة الأس الذي يترتب عليه الحل والذي تمس إليه الحاجة من ذلك سبعة أمور: أحدها - أن يعرف مقادير الحروف التي تتركب منها الكلمة.

وأعلم أن كلام العرب منه ما يبنى على حرفٍ واحدٍ مثل ق من الأمر بالوقاية وع من الأمر بالوعي ومنه ما يبنى على حرفين من الأفعال مثل قم في الأمر بالقيام وكل في الأمر بالأكل ومن الحروف نحو: من في رب هل بل وما أشبه ذلك.

ومن الأسماء المبنية نحو: ذي ذا من كم ومن الضمير مع حروف الجر نحو: بك له.

ومنه ما يبنى على ثلاثة أحرفٍ وأربعةٍ وخمسة في الحروف والأفعال والأسماء ثم تدخل فيه أحرفٍ وأربعةٍ وخمسة في الحروف والأفعال والأسماء ثم تدخل فيه أحرف الزيادة العشرة وهي هويت السمان وثلاثة أحرف أخر وهي الفاء وباء الجر وكاف التشبيه وكاف الخطاب إلى أن تبلغ الكلمة على اصطلاح الكتاب أربعة عشر حرفاً كقولك مخاطباً لرجلين أنشأ جنينةً: أفلمستنزهاتكما أعددتماها.

قال ابن الدريهم: وليس في كلام العرب كلمةٌ رباعية الأصل أو خماسية الأصل ليس فيها حرف من الحروف الذلقية كاللام والنون والواو والشفوية كالفاء والميم والباء إلا ما شذ مثل عسجد من أسماء الذهب.

قال: ونهاية الأسماء العربية قبل الزيادة خمسةٌ وشذ مثل عندليب والأفعال قبل الزيادة أربعةٌ وليس في القرآن كلمة خماسية الأصل سوى الأسماء الأعجمية مثل إبراهيم ولا يمكن أن يتكرر حرفٌ في كلمةٍ واحدةٍ أكثر من خمسة كقول القائل ما رأينا ككاً كككككم جمع ككة وهو المركب الكبير مثل عكة وعكك وأربع كافات في قولك وككعكك.

الثاني - أن يعرف الحروف التي لا يقارب بعضها بعضاً بمعنى أنها لا تجتمع في كلمةٍ واحدة.

واعلم أن في الأحرف ما لا يقارب بعضه بعضاً مطلقاً بتقديم ولا تأخير كالثاء المثلثة فإنها لا تقارب الذال المعجمة والزاي المعجمة والسين والصاد المهملتين والضاد المعجمة وكذلك الجيم لا تقارب الطاء المهملة ولا الظاء المعجمة ولا الغين المعجمة ولا القاف ولا الكاف وما وقع من ذلك في الكلام نحو: نغجة وبرجق وجولق وجلاهق ومنجنيق وجوقة وجوسق وضنجق وسنجق وجردق ونحو ذلك فليست عربيةً لأنه لا يجتمع في كلام العرب جيم وقاف في كلمةٍ واحدة وكذلك الدال المهملة لا تقارب الظاء المعجمة والذال المعجمة لا تقارن الزاي المعجمة والصاد والضاد والطاء والظاء وما وقع في الكلام من ذلك فليس بعربي مثل طبرزد فارسي والزط نبطي ولا تقارن السين المهملة الصاد المهملة والضاد المعجمة والظاء المعجمة ولا تقارن الصاد المهملة الضاد المعجمة ولا الظاء المعجمة ولا تقارن الضاد المعجمة الشين والظاء المعجمتين ولا تقارن الطاء المهملة الظاء المعجمة ولا تقارن القاف الغين المعجمة ولا الكاف في كلمةٍ أصلية وشد نغق الغراب وناقة نغيق ولا تقارن الكاف الخاء المعجمة في كلمة أصلية ولا تقارن الميم الباء الموحدة والفاء في كلمة أصلية إلا في فمٍ وأصله فوه وأما بمٌ لأحد أوتار العود فليس بعربي والحروف الحلقية لا يقارن بعضها بعضاً خلا الهاء فإنها تعقبها زائدة كهاء الضمير وهاء التأنيث وتعقب العين أصليةً كالعهد والعهر وعهر وليس في كلمةٍ أصلية حرفان حلقيان سوى ما تقدم من الهاء وقد تعقب بواسطةٍ كغيهب وعبهر أما حيهل فمركبة ولا يجتمع حرفان من هذه الخمسة وهي الهاء والطاء المهملة والعين والغين والخاء المعجمة في أول كلمة سوى ما ذكر ولا في أثناء الكلمة إلا الهاء مع العين كهلع والهاء مع الغين كأهيغ والخاء مع الغين كأخيغ والهاء مع الخاء المعجمة في كلمة واحدة وهي هبيخة ولا تجتمع الهاء الأصلية مع الخاء المعجمة ولا الحاء المهملة والعين المهملة إلا أن تكون مركبة مثل: هرقصع والحيعلة.

أن يعرف الحروف التي لا تقارن بعض الحروف في الكلمات إلا قليلاً كمقارنة السين واعلم أن الحرف الواحد يتكرر -الثالث في الكلمة الواحدة كثيراً مثل دهده وتهته ونهنه وحصحص وحبحب وحمحم وجلجل وخلخال وشعشعة وزعزع ودغدغ وبغبغ ونعنع وعسعس وزعازع وغوغاء وضحضاح وخوخ وما أشبه ذلك.

أن يعرف ما يجوز تقديمه على غيره من الحروف وما يمتنع فالثاء لا تتقدم الشين المعجمة والدال المهملة لا تتقدم -الرابع على زاي ولا صادٍ مهملة ولا طاءٍ مهملة بدليل أنهم لما عربوا مهندر أبدلوا الزاي سيناً فقالوا مهندس وهندسة والذال المعجمة لا تتقدم الجيم ولا السين المهملة ولا الشين المعجمة والا العين المهملة ومن هنا لما عربوا الفالوذج من الفارسي قالوا فالوذق والشين المعجمة لا تتقدمها الزاي المعجمة ولا السين المهملة ولا الصاد المهملة والطاء المهملة لا تتقدم الكاف في كلمة أصلية والسين المهملة لا تتقدم على الدال المهملة إلا قليلاً كسداب والذال المعجمة لا تتقدم على الدال المهملة إلا قليلاً كقولك في الأمر ذد الغنم.

أن يعرف ما لا يقع في أول الكلمات من الحروف كالجيم لا تقع بعدها التاء المثناة فوق ولا الصاد المهملة ولا -الخامس الضاد المعجمة ولا الغين المعجمة أما الجص فمعرب.

أن يعرف أنه لا يتكرر حرفٌ في أول كلمة إلا من هذه العشرة الأحرف وهي: الكاف واللام والميم والنون والتاء -السادس المثناة فوق والألف والباء الموحدة والواو والقاف والياء المثناة السابع - أن يعرف أكثر الحروف دوراناً في اللغة ثم الذي يليه من الحروف في الكثرة إلى أقلها دوراناً.

وأعلم أن كلام العرب أكثر ما يقع فيه على ما دل عليه استقراء القرآن الكريم الألف ثم اللام ثم الميم ثم الياء المثناة تحت ثم الواو ثم النون ثم الهاء ثم الراء المهملة ثم الفاء ثم القاف ثم الدال المهملة ثم الذال المعجمة ثم اللام ألف ثم الحاء المهملة ثم الجيم ثم الصاد المهملة ثم الخاء المعجمة ثم الشين المعجمة ثم الضاد المعجمة ثم الزاي المعجمة ثم الثاء المثلثة ثم الطاء المهملة ثم الغين المعجمة ثم الظاء المعجمة وقد جمع بعضهم أحرف الكثرة في قوله اليمونة وبعضهم يجمعها في قوله اليوم هن وجمع الحروف المتوسطة في قوله رعفت بكدس فخج وجمع أحرف القلة في قوله طظغ صخدز قش.

قال ابن الدريهم: وقد يقع في لفظ غير القرآن على خلاف ذلك كما يتعمدون الظم والنثر بغير ألف أو بغير نقط أو بغير عاطل الحروف أو ألفاظ قليلة وقد يكون الكلام ألفاظاً قلائل لا تستوعب الحروف.

الأصل الثاني - كيفية التوصل بالحدس إلى حل المترجم.

قال ابن الدريهم: إذا أردت حل ما ترجم لك فابدأ أولاً بعدد الحروف وكم تكرر كل شكلٍ منها مرةً فأثبته أولاً فأولاً.

قال: وأول ما تستخرج الفاصلة إن كان الذي عمى قد بالغ في التعمية يعني بإخفاء الفاصلة في ضمن الحروف وذلك أنك تأخذ حرفاً فتظن أن الفاصلة تكون الثاني فتجريه على ما تقرر من الكلمات من المقادير على ما تقدم فإن وافق وإلا أخذت الثالث فإن وافق وإلا الرابع وهكذا حتى يصح لك انفصال الكلمات ثم تنظر أكثر الحروف جوراناً في الكلام فتقاربه من الترتيب المتقدم في أكثر الحروف دوراناً على ما تقدم فإذا رأيت حرفاً قد وقع في الكلام أكثر من سائر الحروف فتظن أنه الألف ثم الأكثر وقوعاً بعده فتظن أنه اللام ويؤيد صحة ظنك أن اللام يدار في أكثر استعمالاته تابعاً للألف ثم تنظر إن كان في الكلام حرف مفرد فتظن أنه اللام ألف ثم أول ما تلفق من الكلام الثنائية بتقريب حروفها حتى يصح معك شيءٌ منها فتنظر أشكالها وترقم عليها وتجري الكلام في الثلاثيات حتى يصح معك شيءٌ منها فترقم نظائره ثم تجري الكلام في الرباعيات والخماسيات على الوزن المتقدم وكل ما اشتبه فاحتمل احتمالين أو ثلاثة أو أكثر تثبته إلى حين يتعين من كلمةٍ أخرى فما انتظم لك من ذلك فتثبت الباقي عليه وإذا رأيت حرفاً قد تقدم الألف واللام في أول الكلمة فتظن أنه إما ياء واحدة وإما فاء وإما كاف غالباً.

قال: وينبغي أن يكتب للمبتدئ أولاً كل كلمة على حدتها منفصلة وأن يكتب له الشعر دون النثر فإن الوزن يساعده على ظهور بعض الحروف كهاء التأنيث الساكنة وتاء المتكلمة والساكن الذي لا يمكن أن يكون إلا أحد حروف العلة الدائرة في الكلام وأمثال ذلك ثم ضرب لذلك مثلاً بأنك إذا رأيت هذه الأسطر مكتوبةً بهذا القلم.

قال: فينبغي قبل كل شيءٍ أن يبدأ فيرقم تحت كل شكلٍ من هذه الأشكال كم تكرر مرة أولاً فأولاً على هذا المثال: فيجد قد تكرر معه هذا الشكل أكثر من كل الأشكال بكثيرٍ فيعلم أنه الألف فيرقم عليه في مواضعه ثم المكرر بعده أكثر من باقي الأشكال هذا الشكل فيظن أنه اللام ويحقق ظنه كونه تابعاً للألف في سبعة مواضع من الكلام ثم ينظر فيجد فيه حرفاً واحداً كلمةً فيظن أنها اللام ألف ثم يجد الكلمة الثالثة ثنائية ثانيها اللام ألف فيمكن أن تكون إحدى هذه: بلا تلا جلا حلا خلا سلا علا غلا فلا كلا هلا ولا ثم يجد هذا الشكل الذي مع اللام ألف قد ورد مكرراً في أول كلمة امتنع أن يكون جيماً أو حاء أو خاء أو سيناً أو عيناً أو غيناً أو هاء فلم يبق معنا سوى بلا تلا فلا كلا ولا ثم يجد الكلمة الخامسة ثنائية ثانيها ألف فيمكن أن تكون إحدى هذه با جا دا ذا سا شا ضا فا ما نا يا ثم يترجح أنها ما أو يا لن هذا الشكل قد تكرر أكثر من باقي الحروف فيكون إما الميم أو الياء وإن قاربهما النون لكن ما ويا أكثر وقعاً في الكلام من نا فإنها غريبة الوقوع ثم رأينا هذا الشكل المتقدم قد تلا الشكل الذي مع اللام ألف الذي ظننا أنه أحد هذه ه ب ت ف ك وفي الكلمة الثلاثية المكرر أولها فجربنا الحروف مع الميم فظهر منها لفظة ففي لا غير ثم نظرنا هذا الحرف فوجدناه وقع في أربعة مواضع في الكلام لا غير فقلنا إنه الفاء لأن الياء بنسبة هذا الكلام تقع أكثر من ذلك غالباً فصح معنا أن الكلمة الثالثة فلا والكلمة الخامسة يا والحرف المفرد لا والكلمة الخامسة منه هي رايد ذلك أننا وجدنا الكلمة الحادية عشرة قد تكرر فيها بعد الألف واللام حرفان تلاهما ألف بعده حرف آخر ولا يمكن أن تكرر حرف في مثل هذا المكان سوى الميم إذا جربته على جميع الحروف فقلنا: الممات المماح الممار المماس المماع ورأينا هذا الشكل الذي هو آخر الكلمة قد تكرر أكثر من باقي الحروف بعد الألف واللام والباء فبقي أن تكون هذه ر س ت ع لأن الميم قد صح معنا ولم يكن النون فعلمنا على الميم في مواضعه ونظرنا فرأينا هذا الشكل أول الكلمة الرابعة الثلاثية وقد صح ثانيها اللام وثالثها الميم فجربناها على هذه الحروف فسقطت الراء وبقي أحد هذه: سلم تلم علم ثم نظرنا الكلمة المجارية للممات المماع المماس فرأينا قبل الألف واللام حرفاً يكون أحد هذه ب ل و لأن الفاء علمناها ونظرنا هذا الحرف قد تبع الألف واللام قبل الياء ووجدناه بين البين في كلمة ثلاثية تكون إحدى هذه أبا أذا أسا أنا فجربنا الكلمة على الباء والدال والسين والنون على أن يكون الحرف الآخر السين فلم يتفق منه لفظ فسقط سلم ثم جربناها على أن تكون العين فحصل منه بعد الحرف الأول البياع ثم على أن تكون تاء فحصل منه الثبات السيات فسقط وبقي أبا أسا أنا ثم نظرنا الكلمة السابعة وهي ثلاثية أولها اللام وثانيها هذا الحرف الذي قبل الياء وثالثها هذا الدائر بين العين والتاء قلنا يقوم منها لست وسقط الباء والنون وإنما لم يقم منه كسع لأنه لما سقطت الباء سقطت العين من البياع فصح أن تلك السيئات ونظيرها الممات والثلاثية تلم وسقط علم فرقمنا على التاء في مواضعها وعلى السين في مواضعها فصارت الثلاثية أسا فقد صح معناه من الكلمات: فلا تلم يا لست الممات لا أسا ففي وبقي الحرف الذي قبل السيئات ثم نظرنا الكلمة العاشرة الثلاثية فيها ت ي فجربناها على الحروف فظهر منها حتى لا يشاركها شيء فعلمنا على الحاء في مواضعها ثم نظرنا كلمةً خماسيةً قد بقي منها الحرف الوسط فجربناها على

الحروف فقام من ذلك: حسرات حسكات حسنات فعلمنا أنه حسنات لأن هذا الشكل تكرر أكثر من باقي الحروف بعد الألف واللام والياء والتاء وقد صح الميم فأثبتنا النون في موضعها.

ثم نظرنا هذا الشكل في أول كلمتين ثلاثيتين وقد صح من إحداهما ن ي ومن الأخرى ل ي فجربنا الحرف فوجدناه إما عيناً أو واواً فيقوم منهما عني علي وبي ولي فتعين أن يكون عيناً لقلة الحرف عن مرتبة الواو.

ثم نظرنا كلمة سباعية قد بقي منها حرف مجهول جربناها على الحروف فصحت البيان لا يشاركها لفظةٌ أخرى وللحرف هذا الشكل الذي قبل السيئات فتعينت الباء في مواضعها.

ثم نظرنا كلمةٌ سداسية ثالثها حرفٌ مجهول فجربناها فظهر منها الكتاب ثم نظرنا كلمة خماسية قبل التي قبل هذه قد بقي حرف الوسط منها مجهولاً فجربناها على الحروف فقام لمحيف لمدنف لمصنف فتعينت لمصنف بسبب سياق الكلام بلفظ الكتاب ورقمنا على الصاد.

ثم نظرنا الكلمة الأخيرة قد بقي منها رابعها مجهولاً فجربناها على الحروف فصحت الموصل وصحت الكلمة التي بعد لست أنها أسلو فرقمنا على الواو.

ثم نظرنا الكلمة الأولى وهي ثنائية أولها ص فجربناها فصحت صد وإنما كنا أخرناها لقلة وقع حروفها ثم علمنا على الدال فوجدنا كلمةٌ ثنائية آخرها د فجربناها على باقي الحروف التي لم تظهر فقام منها جد حد قد هد.

ثم نظرنا كلمة ثلاثية فصح أولها ت وآخرها ل وسطها هذا الحرف الذي قبل الدال في الثنائية فجربناها على الجيم والخاء والقاف والهاء فسقطت الهاء وبقي تجل تقل تخل.

ونظرنا فرأينا سياق الكلام يدل على أن الكلمة قبل أسا قد والثلاثية تقد فانتظم الكلام لا تقل قد أسا.

ثم نظرنا الكلمة السادسة قد بقي منها ثانيها مجهولا فجربناها على باقي الحروف فصحت عذولي فرقمنا على الذال في مواضعه ثم نظرنا الكلمة الثلاثية التي بين لمصنف وبين الكتاب أولها هذا الشكل قد صح منها ذا فعلمنا أنها هذا ورقمنا على الهاء ثم نظرنا الكلمة الخماسية التي بين ففي وبين منه قد بقي رابعها فجربناها على باقي الحروف فصحت الوجه.

ثم نظرنا الكلمة السباعية التي قبل الأخيرة وقد بقي منها رابعها مجهولاً فجربناها فظهر منها الدريهم فتكمل الحل وظهر الكلام خفيف.

صدّ عنّي فلا تلم يا عذولي لست أسلو هواه حتّى الممات لا تقل قد أسا ففي الوجه منه حسناتٌ يذهبن السّيّئات هذا البيان لمصنف هذا الكتاب علي بن الدريهم الموصلي.

وعلى مثل هذا المنوال يجري الحل ثم انظر إلى حروف هذا الكلام كيف جاءت أحداً وعشرين حرفاً ونقص منه ثمانيةٌ لم توجد فيه فإذا نظرت إلى ما قررت لك من ترتيب وقع الحروف كما جاءت في الكتاب العزيز رأيت الثمانية الناقصة هي آخر الترتيب سواء لم يختلط منها شيء بتقديم أو تأخير وهذا اتفاقٌ لأنه قد يقع الحرف قريباً من رتبته كما تقدم وكما تقدمت الياء على الميم في هذا الكلام والفاء على الميم والنون وتقدمت الهاء على الميم أيضاً لكن الأصل معرفة وقع الحروف بالتقريب وتجربة الكلمات ومقاربة ما دل عليه سياق الكلام.

ولنضرب مثالاً آخر: لتتضح أنواع الحل.

فتعدد المكررات من الأشكال كما مر وترقمها على هذه الصفة.

فتنظر فإذا أكثرها وقعاً ثم ثم ثم هذين ثم هذين ثم هذا ثم هذه فتظن أن هذا الشكل الألف وهذا اللام لكونهما أكثر وقعاً من الجميع فلم يوافق لأنه قد تقرر أن اللام تكون تابعة للألف في أكثر المواضع ولم نجده تبعه البتة بل وجدنا العكس فعلمنا أن

هذا هو الألف وهذا هو اللام ورقمنا عليهما في مواضعهما فإذا الكلمة الثانية الثلاثية فيها لامان بقي حرف آخرها مجهول فجربناها على الحروف فظهرت الهاء لا يمكن غيرها فعلمنا أنها لله ورقمنا على الهاء في مواضعها ثم وجدنا الكلمة الخماسية قد بقي رابعها مجهولاً فجربناها فظهر الهما ألهجا ألهما الهنا ووجدنا الحرف قد تكرر أكثر من كل الحروف بعد الألف واللام فظننا أنه الميم لكنه يحتمل أن يكون النون وسقط الباء والجيم فوجدناه في الثنائيات في كلمتين قبل الألف فعلمنا أنها ما فرقمنا على الميم في مواضعها ثم رأينا الميم قد تبعه في الثنائيات حرف يحتمل أن يكون مد مر مس مص مط مع من ورأينا الحرف كثير الوقوع وقد تكررت ثلاث لفظات فعلمنا أنها من ورقمنا على النون في مواضعه ثم رأينا هذا الشكل أكثر من غيره وهو قبل الألف واللام وفي أوائل الكلمات فقلنا إنه الواو ثم رأينا آخر كلمة قد بقي منها رابعها مجهولاً فجربناها فظهر والبهم والتهم والجهم والدهم والسهم والشهم والفهم واليهم ثم وجدنا هذا الحرف الذي فيها قد جاء قل حرف في الثنائيات وذلك أكثر ما وقع بعد الألف واللام والميم فيحتمل أن يكون الياء ووجدنا قد بقي من كلمةٍ هذا الحرف فصح أن يكون النهى وأخرى أولي فعلمنا أنها الياء فجربنا الحرف معها فظهر بي ني ووجدنا كلمة خماسية هذا الحرف رابعها وبعد حرفٌ آخر جربناها على الياء والفاء فظهر اللبث اللبد اللبس اللبط اللبك اللفت اللفج اللفح اللفظ اللفق.

ثم وجدنا هذا الحرف الآخر أول كلمة بعده لامان وهاء فجربناها فظهر منها الحرف الثالث مجهولاً جربناها ظهر التمام الحمام الذمام الشمام الغمام الكمام فرأينا سياق الكلام يدل على أنه ظلل الغمام وتعينت تلك اللفظة والأخرى الفهم والثنائية فرقمنا على الفاء ثم رأينا الكلمة الثالثة الثلاثية ثانيها لام وآخرها ياءٌ وبعدها ما ألهما فدل سياق الكلام على أنها على فرقمنا على العين فرأينا الرباعية التي بعد وآله قد بقي ثالثها مجهولاً فجربناها فظهرت معجن معدن فتعين معدن والثنائية التي بعدها وقيل علم كل فرقمنا على الدال في مواضعه ورأينا الكلمة الأولى قد بقي وسطها مجهولاً فجربناها وظهرت الثمد الحمد الصمد فدل سياق الكلام أنها الحمد لأن بعدها لله على ما ألهما فرقمنا على الحاء في مواضعها ورأينا الثالث من الرباعية التي بين على وظلله فجربناها فظهرت الذي ورأينا الكلمة الخماسية التي بعد محمد قد بقي رابعها مجهولاً فجربناها فظهرت النبي فرقمنا على الياء في مواضعها ورأينا قد بقي ثالث السداسية التي بعد من هذا الشكل وهو ثالث رباعية أولها الأولف وثانيها فاء وآخرها حاء وثاني خماسية أولها واو وثالثها حاء ورابعها باء وخامسها هاء فتعينت الصاد فالأولى الصواب والأخرى أفصح والأخرى وصحبه وتعينت الثنائية التي هي أول البيت الثاني بعد السطر الأول ثم والتي تليها صلاة وتعين السين في السلام فصار ثم صلاة الله والسلام وكلما تمرن الإنسان في ذلك ظهر له أسرع بكثرة المباشرة ثم تعين رابع السداسية التي بعد أفصح من أنه الضاد وتعين بسياق الكلام أن بعد بالضاد في اللفظ نطق فرقمنا على القاف فرأينا مجاريها الثلاثية من رأس المصراع خلق فرقمنا على الخاء وتعينت الكلمة التي قبل من خلق أنها خير فتكلمت الأبيات وظهر أنها رجز.

الحمد للّه على ما ألهما من الصّواب وعلى ما علّما ثمّ صلاة الله والسّلام على الّذي ظلّله الغمام محمد النبيّ من خلق أفصح من بالضاد في اللّفظ نطق وآله معدن كلّ علم وصحبه أولي النّهى والفهم قلت: ومما يلتحق بتعمية الخط المتقدمة الذكر ما حكاه ابن شيثٍ في معالم الكتابة أن بعض الملوك أمر كاتبه أن يكتب عنه كتاباً إلى بعض أتباعه يطمنه فيه ليقبض عليه عند انتهاز فرصةٍ له في ذلك وكان بين الكاتب والمكتوب إليه صداقةٌ فكتب الكتاب على ما أمر به من غير خروج عن شيءٍ من رسمه إلا أنه حين كتب في آخره إن شاء الله تعالى جعل على النون صورة شدة فلما قرأه المكتوب إليه عرف أن ذلك لم يكن سدًى من الكاتب فأخذ في التأويل والحدس فوقع في ذهنه أنه يشير بذلك إلى قوله تعالى: " إنَّ المَلأ يَأتَمِرُونَ بكَ لِيَقتُلُوكَ ".

فأخذ حذره واحترز على نفسه وبلغ الملك احترازه على نفسه فاتهم الكاتب في أنه ألحق في الكتاب شيئاً نبهه به على قصد الملك فأحضره وسأله عن ذلك وأمره بأن يكتب الكتاب على صورة ما كتب به من غير خروج عن شيءٍ منه فكتبه ولم يغير شيئاً من رسمه حتى إنه أثبت صورة الشدة على النون فلما قرأه الملك ونظر إلى صورة الشدة أنكرها عليه وقال: ما الذي أردت بذلك قال: أردت قوله تعالى: " إنّ المَلأ يَأتَمِرُونَ بكَ لِيَقتُلُوكَ ".

فأعجب بذلك وعفا عنه لصدقه إياه.

النوع الثاني الرموز والإشارات التي لا تعلق لها بالخط والكتابة وهي التي يعبر عنها أهل المعاني والبيان بالاستعارة بالكناية بالنون بعد الكاف وقد يعبر عنها ومن غريب ما وقع في ذلك ما حكاه العسكري في الصناعتين: أن رجلاً من بني العنبر أسر في بني حنظلة وفهم عنهم أنهم يقصدون الغارة على قومه بني العنبر فقال لبني حنظلة: إن لي حاجةً عند أهلي وأريد رسولاً من قومكم أرسله فيها فأجابوه إلى ذلك بشرط أن يخاطبه في حاجته بحضورهم فأحضروا له رجلاً في الليل وقد أوقدت العرب نيرانها فأقبل على الذي أتوه به وقال له: أتعقل قال: إني لعاقلٌ.

فقال: انظر إلى السماء ونجومها فنظر ثم قال: انظر إلى نيران العرب فنظر فقال له: ما أكثر نجوم السماء أو نيران العرب فقال: إن كلاً منها لكثير قال: إنك إذاً لعاقل ثم دفع إليه حنظلةً وصرةً فيها رمل وصرةً فيها شوك وقال: اذهب إلى قومي فادفع إليهم هذه الحنظلة وهاتين الصرتين وقل لهم يعروا ناقتي الحمراء ويرحلوا جملي الأورق وسلوا أخي الأعور يخبركم الخبر.

فقال الحاضرون: ليس في هذا ما ينكر اذهب في حاجته فذهب إلى بني العنبر ودفع إليهم ذلك وقص عليهم القصة ورجع فبعث القوم إلى أخيه الأعور فحضر فأخبروه الخبر.

فقال: إنه يقول.

أتاكم بنو حنظلة في عد الشوك والرمل وإن نيران العرب تعاد نجوم السماء ويأمركم أن ترحلوا عن الدهناء وانزلوا مكان كذا ففعلوا ورحلوا لوقتهم فصبحهم بنو حنظلة فلم يدركوا منهم أحداً.

وفي معنى ذلك ما حكاه المقر الشهابي بن فضل الله في كتابه التعريف في الكلام على المكاتبة إلى الأذفونش ملك الفرنج بطليطلة من بلاد الأندلس كان خبيث النية سيئ المقاصد لأهل الإسلام وأنه أرسل مرة إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية هديةً فيها سيفٌ وثوبٌ بندقيٌ وطارقةٌ مستطيلة تشبه النعش كأنه يقول: أقتلك بهذا السيف وأكفنك في هذا الثوب وأحملك على هذا النعش.

قال: وكان الجواب أن أرسل إليه حبلاً أسود وحجراً أي إنه كلب يرمى بهذا الحجر أو يربط في هذا الحبل.

قلت: ومما وقع من ذلك في زماننا أنه في الدولة الظاهرية برقوق وتمرلنك يومئذ ببلاد العراق يغاور الممالك الشامية لقصد الاستيلاء عليها ورد عليه كتابٌ من المملكة الحلبية فيه: أنه وقع بتلك البلاد سيلٌ عظيم ساق جملةً من الأسد والنمورة والحيات وأنه دفع حية عظيمةً سعة رأسها بقدر قوس وقريء الكتاب بحضرة السلطان وحملوا ذلك على ظاهره من أن المراد حقيقة السيل وأنه لقوته ساق تلك الحية والسباع وغيرها وشاع ذلك بين الكافة من الأمراء وأهل الدولة وسائر الرعية ومضى الأمر على ذلك ثم ظهر أن المقصود بذلك السيل وما فيه هو تمرلنك وعساكره وأنه كني بالحية العظيمة عن نفسه وبالسباع والحيات عن عساكره.

ومن لطيف ما وقع في ذلك أنه ورد على السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق في أواخر دولته كتابٌ عن صاحب تونس من بلاد المغرب في آخره خطاباً للسلطان وعلى إحسانكم المعول وبيت الطغرائي في لامية العجم لا يتأول فسألني بعض أعيان ديوان الإنشاء عن المراد من ذلك ولم يكن الكتاب متضمناً لغير الوصية على حجاج المغاربة وكان ركب المغاربة قبل تلك الحجة قد عرض لهم عارضٌ من عرب درب الحجاز اجتاحوهم فيه وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ونهبوا منهم أموالاً جمةً فعرضت ذلك على أبيات اللامية فلاح لي أنه يشير إلى قولهفيها بسيط.

فقلت أرجوك للجلّى لتنصرني وأنت تخذلني في الحادث الجلل والجلى بضم الجيم هي الأمر الجليل العظيم والجلل بفتح الجيم في اللغة من أسماء الأضداد يقع على الشيء الجليل وعلى الشيء الحقير كأنه يقول: أنا كنت أرجوك للأمور العظام لتنصرني فيها فخذلتني في هذا الأمر الخسيس وهو الأخذ بثأر حجاج بلادي ممن اعتدى عليهم من عرب بلادك فخاب ظني فيما كنت أرجوه فيك وأؤمله منك وأشار بقوله لا يتأول إلى أنه لا يحمل الجلل في قول الطغرائي على الشيء الجليل كما قال الصلاح الصفدي في شرح اللامية بل على الأمر الخسيس لأنه هو اللائق بالمقام.

واعلم أن مثل هذه الأمور تحتاج إلى قوة ذكاء واحتدام قريحة من الذي يقع منه الرمز وإلى قوة حدس من الذي يحاول إدراك المقصد من تلك المعامي كما يقع في الألغاز والأحاجي للملغز

المقالة الخامسة في الولايات المتحدة

وفيها أربعة أبواب

الباب الأول في بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول في بيان طبقات الولايات

وهي على ثلاث طبقات الطبقة الأولى الخلافة ولما يكتب في ولايتها طريقان: إما عهدٌ من الخلفة الأول وإما بيعةٌ من أهل الحل والعقد إن لم يوجد عهدٌ من الخليفة قبله على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الطبقة الثانية السلطنة ولما يكتب في ولايتها طريقان: أحدهما العهد من الخليفة والثاني العهد من السلطان قبله.

قال في التعريف: أما من قام من الملوك بغير عهد فلم تجر العادة أن تكتب له مبايعةٌ.

الطبقة الثالثة الولايات عن الخلفاء والملوك وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية في أقطار المملكة بمصر والشام والحجاز مما يكتب من ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية.

وهي على خمسة أنواع النوع الأول ولايات أرباب السيوف الصنف الأول النواب من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف وغالب من يكتب له منهم بالبلاد الشامية ومضافاتها كنواب السلطنة بدمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرك ومقدمي العسكر بغزة وسيس ونواب القلاغ بالمدن العظام ذوات القلاع الرفيعة القدر كالنائب بقلعة دمشق والنائب بقلعة حلب والنائب بقلعة صفد.

أما طرابلس وحماة فليس بهما قلعة وكذلك النيابات الصغار المضافة إلى القواعد الكبار كالقدس الشريف وحمص ومصياف من مضافات دمشق وقلعة المسمين والرحبة والبيرة والرها وشيزر وعين تاب وبهسنا وملطية وآياس والأبلستين وأذنة وطرسوس من مضافات حلب واللاذقية وحصن عكار من مضافات طرابلس وما يجري مجرى ذلك على ما سيأتي بيانه مفصلاً في مواضعه إن شاء الله تعالى.

أما ما دونها من النيابات فإن نواب السلطنة بالمملكة يستقلون بالتولية فيها.

قلت: والضابط في ذلك أن كل نيابةٍ كان نائبها تقدمة ألف فولايتها عن السلطان بمرسوم شريفٍ من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية وكل ولايةٍ كان نائبها جندياً أو مقدم حلقة فولايتها عن نائب السلطنة بالمملكة التي هي مضافةٌ إليها بتوقيع كريم من ديوان الإنشاء بها وكل نيابةٍ كان نائبا أمير طبلخاناه أو عشرة ربما ولى فيها السلطان وربما ولى فيها نائب السلطنة إلا أن تولية السلطان لنواب الطبلخاناه أغلب وتولية نواب السلطنة لنواب العشرة أغلب.

أما الديار المصرية فإنه كان يكتب فيها أولاً لولاة الوجهين: القبلي والبحري جرياً على ما كان الأمر عليه في زمن الخلفاء الفاطميين وكذلك والي الإسكندرية قبل أن تستقر نيابةً ووالياً الولاة بالوجهين قبل أن يستقرا نيابتين في جماعةٍ أخرى من أرباب الوظائف كالنائب الكافل وأتابك الجيوش كإستادار وأميراخور ومقدم المماليك ووالي مصر والقاهرة.

ثم صارت الكتابة لذوي الوظائف من أرباب السيوف قاصرةً على النائب الكافل إذا كان موجوداً والنواب المستجدين بالإسكندرية والوجهين: القبلي والبحري وبطل ما عدا ذلك مما كان يكتب وكأن المعنى فيه القرب من مقرة السلطان.

والكتابة إنما تقع في الغالب مع البعد لتكون حجة للمتولي على بعد المدى ولا ينتقض ذلك بما يكتب للخلفاء والملوك في الحضرة فإن ذلك من الأمور العامة التي يخاف انتقاضها أو جحودها إذ مثل ذلك لا يجوز في الولايات عن السلطان لأنه متى شاء عزل من ولاه.

الصنف الثاني - ولاية أمراء العربان وهؤلاء لاحظ لهم في الكتابة بالولاية بالديار المصرية الآن وربما يكتب لأمرائهم بالمملكة الشامية كأمير آل فضل وأمير آل مرا وأمير آل علي ومقدم جرم وكذلك أمير مكة المشرفة وأمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام والنائب بالينبع من البلاد الحجازية.

والمعنى في اختصاص من بعد منهم ما تقدم في الكلام على أرباب السيوف مع ضعف شأن عرب الديار المصرية وعدم الاهتمام بأمرهم.

الصنف الثالث - ولاية المقدمين على الطوائف كمقدمي التركمان والأكراد والجبلية بالبلاد الشامية وأتابك طائفة الإسماعيلية بقلاع الدعوة وحاكم البندق ونحوهم وهذه الطوائف ممن يكتب له إلى الآن أما حاكم البندق فإنه لم يعهد له كتابةٌ من ديوان الإنشاء بمصر والشام.

على أن المقر الشهابي بن فضل الله قد ذكر وصيته في التعريف ولعله ممن كان يكتب له في زمانه أو قبله ثم ترك وإنما يكون ذلك بحسب اعتناء السلطان بشأن البندق وعدمه كما في لباس الفتوة وأنه ربما اعتنى به بعض الملوك فكتب له ثم ترك.

النوع الثاني ولاية أرباب الأقلام الصنف الأول أرباب الوظائف الدينية وهم على ثمانية أضرب الضرب الأول - أكابر القضاة بأقطار المملكة كقضاة القضاة بالحضرة السلطانية بالديار المصرية وثغر الإسكندرية وكذلك قضاة القضاة بدمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرك وقضاة العسكر بالديار المصرية أما القضاة بالنيابات الصغار المضافات إلى دمشق وحلب وما في معناهما إلى النواب بتلك الممالك.

الضرب الثاني - المفتون بدار العدل بالديار المصرية أما المفتون بدار العدل بالممالك الشامية فولايتهم إلى نائبها.

الضرب الثالث - أكابر المحتسبين كمحتسبي مصر والقاهرة أما الممالك الشامية فلا يولي فيها إلا نوابها.

الضرب الرابع - أكابر المدرسين في عامة العلوم بأماكن مخصوصةٍ كالزاوية الخشابية بالجامع العتيق بمصر والمدرسة الصلاحية بتربة الإمام الشافعي بالقرافة ونحو ذلك بأقطار المملكة من مدرسي الفقه والحديث والتفسير وغير ذلك من العلوم الدينية.

الضرب الخامس - أكابر الخطباء بجوامع مخصوصةٍ بأقطار المملكة كجامع الناصري بقلعة الجبل والجامع الأموي بالشام ونحوهما.

الضرب السادس - وكلاء بيت المال بالديار المصرية وغيرها.

الضرب السابع - المتحدثون على الوظائف المعتبرة كنقابة الأشراف ومشيخة الشيوخ فما كان بالديار المصرية فولايته من السلطان وتوقيعه من ديوان الإنشاء وما كان منها بالممالك الشامية فولايتها إلى نواب السلطنة بها.

الضرب الثامن - المتحدثون على جهات البر العامة المصلحة كنظر الأحباس وأنظار البيمارستانات ونحوها فما كان منها بالديار المصرية كنظر الأحباس والبيمارستان المنصوري وما أشبه ذلك فتوليته إلى نوابها ما لم يكن لها ناظرٌ خاصٌ فيكون ذلك مختصاً به.

الصنف الثاني أرباب الوظائف الديوانية ودواوينها على ثلاثة أضرب الضرب الأول دواوين المال وأرباب الخدم بها ممن تكتب ولاياتهم من ديوان الإنشاء إما ناظر أو وزير أو صاحب ديوان أو شهادةٌ أو استيفاءٌ.

فأما الوزارة فلا يصرح بها إلا للزير بالأبواب السلطانية وربما صرح بها لوزير دمشق إذا وليها من ارتفعت مرتبته وإلا عبر عنه بناظر المملكة.

وأما النظر فكنظر الدواوين المعبر عنه بنظر الدولة ونظر الخاص ونظر الخزانة الكبرى ونظر البيوت والحاشية ونظر بيت المال ونظر الإصطبلات السلطانية ونظر دار الضيافة والأسواق ونظر خزائن السلاح ونظر البهار والكارمي ونظر الأهراء ونظر المواريث الحشرية ونظر ثغر الإسكندرية المحروس وغير ذلك من وظائف الأنظار بالديار المصرية.

وكذلك نظر المملكة بدمشق إذا لم يصرح لمتوليه بالوزارة ونظر المملكة بحلب ونظر المملكة بطرابلس ونظر المملكة بحماة ونظر المملكة بصفد ونظر المملكة بسيس ونظر المملكة بغزة ونظر المملكة بالكرك.

وأما صحابة الديوان فكصحابة ديوان الجيش وصحابة ديوان الخاص ونحو ذلك.

وأما الشهادة فكشهادة الخزانة الكبرى وشهادة خزانة الخاص ونحوهما.

وأما الاستيفاء فكاستيفاء الصحبة واستيفاء الدولة واستيفاء الخاص ونحو ذلك.

ولاحظ لغير النظار من دواوين الأموال بالممالك الشامية من صاحب ديوانٍ ولا شاهدٍ ولا مستوفٍ في الكتابة بالولاية من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بل ولايتها من نواب الممالك الشامية بتواقيع من دواوين الإنشاء بها.

وأرباب الخدم بها لا يخرجون عن ناظرٍ وصاحب ديوانٍ وشاهدٍ ومستوفٍ.

والذين يولون عن السلطان منهم وتكتب تواقيعهم من ديوان الإنشاء الشريف ناظر الجيش بالأبواب السلطانية وناظر السلطانية وناظر الجيش بدمشق وناظر الجيش بحلب وناظر الجيش بطرابلس وناظر الجيش بحماة وناظر الجيش بصفد وناظر الجيش بغزة وناظر الجيش بسيس وناظر الجيش بالكرك وصاحب ديوان الجيش بالأبواب السلطانية والشهود والمستوفون بها أما من عدا هؤلاء من نظار الجيش وأصحاب الدواوين والشهود بالممالك الشامية فولايتهم إلى نواب السلطنة بها.

الضرب الثالث دواوين الإنشاء وأرباب الخدم بها لا يخرجون عن كاتب سرٍ وكاتب دستٍ وكاتب درج.

والذين يولون عن السلطان من كاتب هذه الدواوين وتكتب تواقيعهم من ديوان الإنشاء السلطاني صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية وصاحب ديوان الإنشاء بدمشق وصاحب ديوان المكاتبات بحلب وصاحب ديوان المكاتبات بطرابلس وصاحب ديوان المكاتبات بحماة وصاحب ديوان المكاتبات بصفد وكاتب الدرج بسيس وكاتب الدرج بغزة وكاتب الدرج بالكرك وكاتب الدرج بالإسكندرية وكتاب الدست وكتاب الدرج بالأبواب السلطانية أما كتاب الدست وكتاب الدرج بالممالك الشامية فإلى نوابها بتواقيع من دواوين الإنشاء بها.

النوع الثالث ولايات أرباب الوظائف الصناعية كالأطباء والكحالين والجرائحية ومن جرى مجراهم من سائر أرباب الوظائف التي هي من تتمة نظام الملك فما كان منها بالأبواب السلطانية فولايته عن السلطان بتوقيع من ديوان الإنشاء السلطاني وما كان منها بالممالك الشامية فولايته إلى نواب السلطنة بها.

النوع الرابع ولايات زعماء أهل الذمة وهي ضربان الضرب الأول ولاية بطاركة النصارى من اليعاقبة والملكانية الضرب الثاني ولاية رئيس اليهود الحاكم على طوائفهم النوع الخامس ولا يندرج تحت نوع كصغار الأمور التي يكتب فيها لكل فردٍ فرد إما ابتداءً وإما بالحمل على ما بيده من ولايةٍ سابقةٍ من نائبٍ أو قاضٍ أو ناظر وقف أو غير ذلك مما لا ينحصر كثرةً.

قلت: وربما ولى السلطان في بعض الوظائف بالممالك الشامية مما تختص توليته بنواب السلطنة إذا كانت الوظيفة وضيعة المنزلة وأدركت المولى عنايته وربما ولى بعض نواب السلطنة ما تختص توليته بالسلطان إذا عظمت رتبة النائب وارتفعت منزلته خصوصاً إذا كان نظام المملكة محلولاً وأمرها مضطرباً.

الفصل الثاني من الباب الأول من المقالة الخامسة في بيان ما تجب على الكاتب مراعاته في كتابة الولايات على سبيل الإجمال

قال الشيخ شهاب الدين محمودٌ الحلبي رحمه الله في حسن التوسل: يجب على الكاتب أن يراعي في ذلك أموراً.

-منها براعة الاستهلال بذكر الرتبة أو الحال أو قدر النعمة أو لقب صاحب الولاية أو اسمه بحيث لا يكون المطلع أجنبياً من هذه الأحوال ولا بعيداً منها ولا مباينا لها ثم يستصحب ما يناسب الغرض ويوافق القصد من أول الخطبة إلى آخرها.

-ومنها أن يراعي المناسبة وما تقتضيه الحال فلا يعطي أحداً فوق حقه ولا يصفه بأكثر مما يراد من مثله ويراعي أيضاً مقدار النعمة والرتبة فيكون وصف المنة بها على مقدار ذلك.

-ومنها أن لا يصف المتولي بما يكون فيه تعريضٌ بذم المعزول وتنقيص له فإن ذلك مما يوعز الصدور ويورث الضغائن في القلوب ويدل على ضعف الآراء في اختيار الأول مع إمكان وصف الثاني بما يحصل به المقصود من غير تعريض بالأول.

-ومنها أن يتخير الكلام والمعاني فإنه مما يشيع ويذيع ولا يعذر المقصر في ذلك بعجلة ولا ضيق وقت فإن مجال الكلام متسع والبلاغة تظهر في القليل والكثير.

قلت: ومنها أن يحرص الكاتب على أن تكون نهاية السجعة الأولى في السطر الأول أو الثاني ولا يؤخرها عن ذلك.

ومما كان يراعى في ذلك أن تكون الخطبة من أولها إلى آخرها على روي واحدٍ في السجع وكذلك الدعاء في أول صغار التواقيع والمراسيم المبتدأة بلفظ رسم بخلاف ما بعد ذلك إلى آخر ما يكتب فإنه يتفق فيه روي السجعتين والثلاث فما حولها ثم يخالف رويها إلى غيره ولا يكلف الكاتب الإتيان بجميعها على روي واحد وعلى ذلك كانت طريقة فحول الكتاب بالدولة التركية كالقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي والمقر الشهابي بن فضل الله ومن عاصرهم إلا في القليل النادر فإنه ربما وقع لبعضهم مخالفة روي الخطبة وإلى هذا قد جنح غالب كتاب ديوان الإنشاء في زماننا ومالوا إليه لما في التزام الروي الواحد في جميع الخطبة من التكلف وعسر التلفيق على من يتعاناه.

ثم الكلام فيما يكتب في الولاية قد يكون جميعه بلفظ الغيبة مثل أن يقال: عهد إليه بكذا أو قلده كذا أو فوض إليه كذا أو أن يستقر في كذا ونحو ذلك ثم يقال: وأمره بكذا أو ونحن نوصيه بكذا أو فعليه بكذا وما أشبه ذلك وقد يكون جميعه بلفظ الخطاب مثل أن يقال: وقد عهد إليك بكذا أو قلدك كذا أو فوض إليك كذا ثم يقال: ونحن نوصيك بكذا أو فعليك بكذا ونحوه وقد يصدر بلفظ الغيبة ثم يلتفت منها إلى الخطاب وقد يصدر بلفظ الخطاب ثم يلتفت منه إلى الغيبة بحسب ما يؤثره الكاتب وتؤدي إليه بلاغته مما ستقف على تنويعه في خلال كلامهم في أصناف الولايات الآتية في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث من الباب الأول من المقالة الخامسة في بيان ما يقع به التفاوت في رتب الولايات

وذلك من سبعة أوجه الوجه الأول الألقاب وهي على ثلاثة أنواع النوع الأول ألقاب الخلفاء وسبيلها الاختصار دون البسط اكتفاءً بما هو ظاهرٌ من أبهة الخلافة وعلو مقام الإمامة إذ هي الزعامة العظمى والرتبة التي هي أعلى الرتب وأسمى.

وهي صنفان: الصنف الأول - ألقاب الخلفاء أنفسهم وغاية ما ينعت به الإمام وأمير المؤمنين.

الصنف الثاني - ألقاب أولياء العهد بالخلافة وألقابهم نحو السيد الجليل وذخيرة الدين ونحو النوع الثاني ألقاب الملوك وهي ألقاب السلطان نفسه والكتاب تارة يبتدئونها بالسلطان وتارة يبتدئونها بالمقام ولكلٍ منهما نعوتٌ - صنفان أيضاً الصنف الأول تخصه وسيأتي الكلام على ذلك مستوفًى في الكلام على عهود الملوك عن الخلفاء إن شاء الله تعالى.

الصنف الثاني - ألقاب أولياء العهد بالملك والملوك المنفردين بولاية صغار البلدان عن السلطان الأعظم وهي لا تفتتح إلا بالمقام ليس إلا ولها نعوتٌ تخصها يأتي الكلام عليها في الكلام على عهودهم أيضاً.

النوع الثالث ألقاب ذوي الولايات الصادرات عن السلطان من أرباب الوظائف الواقعة في هذه المملكة وقد تقدم في الكلام على الألقاب في مقدمة الكتاب أن أصول الألقاب المستعملة في ذلك خمسة ألقاب على الترتيب وهي المقر ثم الجناب ثم المجلس ثم مجلس مضافاً كمجلس الأمير ومجلس القاضي ومجلس الشيخ ومجلس الصدر ثم الاقتصار على المضاف إليه وحذف المضاف كالأمير والقاضي والشيخ والصدر ويلتحق بذلك لأهل الذمة الحضرة وحضرة الشيخ والشيخ مجرداً عن حضرة وتقدم في الفصل الأول من هذا الباب أن أرباب الولايات خمسة أنواع: أرباب السيوف وأرباب الأقلام وأرباب الوظائف الصناعية وزعماء أهل الذمة ومن لا يختص بطائفةٍ لصغرهم.

وجميع هذه الأنواع على اختلاف أصنافهم لا يخرجون عن الألقاب المتقدمة وقد تقدم الكلام على هذه الألقاب ونعوتها لمن يكاتب عن الأبواب الشريفة السلطانية من أرباب الوظائف مستوفًى في المكاتبات إلا أنه قد يولى عن السلطان من لم يؤهل للمكاتبه عنه كأكثر أرباب الوظائف من حملة الأقلام وغيرهم فاحتيج إلى تعريف مراتب الألقاب لكل نوع من أرباب الولايات.

فأما أرباب السيوف فأعلى ألقابهم المقر وأدناها مجلس الأمير ثم الأمير مجرداً عن مجلس.

وأما أرباب الوظائف الصناعية فأعلى ألقابهم المجلس وأدناها مجلس الصدر ثم الصدر مجرداً عن مجلس.

وأما من لا يختص بطائفة لصغره فيقتصر فيه على لقب التعريف وهو فلان الدين إن عظم وإلا وأما زعماء أهل الذمة فأعلى ألقابهم الحضرة ثم حضرة الشيخ ثم الشيخ مجرداً عن حضرة.

وأعلم أن كل من كانت له مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية من أرباب السيوف والأقلام وغيرهم فلقب ولايته ونعوته كما في مكاتبته غير أنه يزاد في آخر النعوت المركبة ذكر اسمه العلم ونسبته إلى السلطان كالناصري والظاهري ونحوهما إن كان ممن ينتسب إليه بنيابةٍ ونحوها ثم إن كانت مكاتبته تفتتح بالدعاء نقل ذلك الدعاء من أول المكاتبة إلى ما بعد اسمه والنسبة إلى السلطان في الولاية كما إذا كانت مكاتبته أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم فإنه يدعى له عقيب اسمه والنسبة إلى السلطان - إن كانت - بأعز الله تعالى أنصاره وكذلك في البواقي.

وإن كانت مكاتبته تفتتح بغير الدعاء كصدرت هذه المكاتبة ونحو ذلك فإنه يدعى له في الولاية عقب الاسم والنسبة إلى السلطان - إن كانت - بما يدعى له في مكاتبته في آخر الألقاب كما إذا كان من أرباب السيوف ومكاتبته صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي أو المجلس السامي بالياء فإنه يدعى له بمثل: أدام الله سعادته وأدام الله رفعته ونحو ذلك وإن لم تكن له مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية كتب له في الولاية ما يناسبه من اللقب والنعوت ثم يذكر اسمه والدعاء له إن كان مستحقاً للدعاء وسيأتي لقب كل ذي ولاية من الأنواع الخمسة المتقدمة الذكر ونعوته عند ذكر ولايته فيما بعد إن شاء الله تعالى.

أحدهما - الطرة.

ويقتصر فيها على اللقب من القمر أو الجناب أو المجلس أو مجلس مضافاً وما بعده من النعوت إلى اللقب المميز للوظيفة كالأميري والقضائي ونحوهما ثم يذكر لقبه الخاص به وهو الفلاني أو فلان الدين ثم يذكر اسمه وانتسابه إلى السلطان إن كان على ما سيأتي بيانه مفصلاً إن شاء الله تعالى.

الثاني - في أثناء الولاية.

وهناك تستوفى النعوت ويؤتى بما في الطرة في ضمنه إلا أنه يجعل لقب التعريف - وهو الفلاني أو فلان الدين - بين النعوت المفردة والمركبة فاصلاً بينهما.

الوجه الثاني ألفاظ إسناد الولاية إلى صاحب الوظيفة ولها ست مراتب الأولى - لفظ العهد مثل أن يقال: أن يعهد إليه وهي خاصةٌ بالخلفاء والملوك.

الثانية - لفظ التقليد مثل أن يقال: أن يقلد كذا ويكون مع المقر الكريم والجناب الكريم.

الثالثة - لفظ التفويض مثل أن يقال: أن يفوض إليه كذا ويختص بالجناب لأرباب السيوف وكذلك الجناب والمجلس العالي لأرباب الأقلام.

قلت: وكتاب زماننا يستعملونها مع المقر أيضاً ولا يستعملون لفظ يقلد في التقاليد لتوهمهم الاكتفاء بلفظ تقليدٍ عنها ولم يعلموا أن يقلد فوق يفوض كما تقدم.

على أن المقر الشهابي بن فضل الله قد صرح بذلك في التعريف كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

الرابعة - لفظ الاستقرار والاستمرار مثل أن يقال: أن يستقر في كذا أو يستمر في كذا.

ولفظ يستقر مختصٌ بالمستجد ولفظ يستمر مختصٌ بالمستقر ويكونان مع المجلس السامي بالياء والمجلس السامي بغير ياء لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم أما المجلس العالي فإن كانت مكاتبته تفتتح بالدعاء مثل: أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي كنائب السلطنة بالكرك فإنه يقال فيه أن يفوض إليه وإن كانت مكاتبته تفتتح بصدرت هذه المكاتبة كنائب القدس ونحوه فإنه يقال فيه: أن يستقر.

لفظ الترتيب مثل أن يقال: أن يرتب في كذا ويكون مع مجلس مضافاً مثل مجلس الأمير ومجلس القاضي ونحوهما -الخامسة وربما استعملت مع السامي بغير ياء.

السادسة - لفظ التقدم مثل أن يقال: أن يقدم فلانٌ على الطائفة الفلانية ونحو ذلك.

قلت: وهاتان المرتبتان أعني السادسة والخامسة قد ذكرهما المقر الشهابي بن فضل الله في التعريف فقال: وقد يقال أن يرتب وأن يقدم.

وهما موجودان في كتابة معاصريه بمصر والشام.

أما كتاب زماننا فقد رفضوهما جملةً وأضربوا عن استعمالها بكل حال واكتفوا عنهما بالمرتبة الرابعة وهي لفظ الاستقرار والواجب إثباتهما لتفاوت ما بين المراتب.

على أن استعمال لفظ يرتب موجودٌ في كلامهم بكثرة ولفظ يقدم لم يستعملوه إلا في النزر اليسير والله أعلم.

وهذه الألفاظ تقع في الطرة وفي أثناء الكلام على حد واحدٍ.

الوجه الثالث الافتتاحات وهي راجعةٌ إلى أربع مراتب المرتبة الأولى - الافتتاح بلفظ: هذه بيعة أو هذا ما عهد ونحو ذلك في البيعات والعهود على المذهب القديم أو بالحمد لله.

ويقع الابتداء به في العهود والبيعات إذا ابتدئ العهد أو البيعة بخطبة على ما عليه استعمال أهل زماننا.

وكذلك في التقاليد لأرباب السيوف والأقلام والمراسيم المكبرة لأرباب السيوف والتواقيع الكبار لأرباب الأقلام.

المرتبة الثانية - الافتتاح بأما بعد حمد الله.

ويقع الابتداء به في المرتبة الثانية من أرباب المراسيم المكبرة من أصحاب السيوف والمرتبة الثانية من أرباب التواقيع من أصحاب الأقلام.

المرتبة الثالثة - الافتتاح برسم بالأمر الشريف ويقع الافتتاح به في المرتبة الثالثة لأرباب التواقيع والمراسيم من سائر أرباب الولايات.

المرتبة الرابعة - ما كان يستعمل من الافتتاح بأما بعد فإن كذا.

أو من حسنت طرائقه وحمدت خلائقه فإنه أحق وما أشبه ذلك كما أشار إليه في التعريف إذ كان الآن قد رفض وترك على ما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى وقد كان ذلك يستعمل فيما تقدم لأرباب السيوف والأقلام جميعاً.

الوجه الرابع تعدد التحميد في الخطبة أو في أثناء الكلام واتحاده فقد قال في التعريف في الكلام على عهود الملوك للملوك: وكلما كثرت التحميدات في الخطب كان أكبر لأنها تدل على عظم قدر النعمة وذكر في الكلام على عهود الخلفاء عن الخلفاء أن ينتهى في التحميد إلى سبعة.

الوجه الخامس الدعاء وله ثلاثة مواضع الموضع الأول - في طرة الولاية بعد ذكر ما يكتب في الطرة من ألقابه ولا يزاد فيه على دعوة الموضع الثاني - في أثناء الولاية بعد استيفاء الألقاب وذكر الاسم وهو ما في الطرة من الدعوة المناسبة له بغير زائدٍ على ذلك.

الموضع الثالث - في آخر الولاية بالإعانة ونحوها.

قال في التثقيف: وأقلها دعوتان وأكثرها أربعٌ.

قال في التعريف: ومن استصغر من المولين لا يدعى له في آخر ولايته.

ثم قد تقدم في المكاتبات أن الدعاء مع تنزيه الله تعالى كأعز الله تعالى أنصار المقر وضاعف الله تعالى نعمة الجناب ونحو ذلك أعلى من حذفه كأدام الله سعده وأعزه ونحو ذلك ولا شك أنه في الولايات كذلك.

الوجه السادس طول الكلام وقصره فكلما عظمت الوظيفة وارتفع قدر صاحبها كان الكلام فيها أبسط قال في حسن التوسل: ويحسن أن يكون الكلام في التقاليد منقسماً أربعة أقسام متقاربة المقادير فالربع الأول في الخطبة والربع الثاني في ذكر موقع الإنعام في حق المقلد وذكر الرتبة وتفخيم أمرها والربع الثالث في أوصاف المولى وذكر ما يناسب تلك الرتبة ويناسب حاله من عدل وسياسةٍ ومهابة وبعد صيتٍ وسمعة وشجاعةٍ إن كان نائباً ووصف الرأي والعدل وحسن التدبير والمعرفة بوجوه الأموال وعمارة البلاد وصلاح الأحوال وما يناسب ذلك إن كان وزيراً وكذلك في كل رتبة بحسبها والربع الرابع في الوصايا.

قال في التعريف: والذي أختاره اختصار مقدار التحميدة التي في الخطبة والخطب مطلقاً وإطالة ما بعد ذلك والإطناب في الوصايا اللهم إلا لمن جل قدره وعظم أمره فإن الأولى الاقتصار في الوصايا على أهم الجمليات ويعتذر في الاقتصار بما يعرف من فضله ويعلم من علمه ويوثق به من تجربته ومن هذا ومثله.

قال: والكاتب في هذا كله بحسب ما يراه ولكل واقعةٍ مقال يليق بها ولملبس كل رجل قدرٌ معروف لا يليق به غيره وفي هذا غنًى لمن عرف وكفايةٌ لمن علم على أن المقر الشهابي تابع في ذلك القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله فإنك إذا تأملت تقاليده وتواقيعه وجدتها كلها كذلك ولكلٍ وجهٌ ظاهر فإن المطول للخطبة لا يخليها من براعة الاستهلال المناسبة للحال والمقصر لها مراغٍ لزيادة الإطناب في الوصف.

قلت: ولا يخفى أن ما ذكراه في التقاليد يجيء مثله في العهود لجريها على موجبها من مولٍ ومولًى.

أما إذا كانت الولاية بيعةً فإنه يجعل موضع الوصايا ذكر التزام الخليفة البر والإحسان للخلق ووعد النظر في أمور الرعية وصلاح أحوالهم وذكر التحليف للخليفة أو له وللسلطان إن كان معه سلطان قام بعقد البيعة له على الوفاء بالعهد والدخول تحت الطاعة.

قال في حسن التوسل: والأمر الجاري في ذلك على العادة معروفٌ لكنه قد تقع أشياء خارجةٌ عن العادة فيحتاج الكاتب فيها إلى حسن التصرف على ما يقتضيه الحال وذكر من ذلك تقليداً أنشأه لمتملك سيس وتقليداً كتبه بالفتوة وسيأتي ذكر ذلك مع ما شاكله في مواضعه إن شاء الله تعالى.

الوجه السابع قطع الورق وأعلم أن الولايات من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بجملتها ينحصر قطع الورق فيها في خمسة مقادير لا يتعداها: أحدها - قطع البغدادي الكامل وهو مختصٌ بالبيعات والعهد مطلقاً على أي الافتتاحات كان.

قطع الثلثين من المنصوري وهو لأجل الولايات السلطانيات لأرباب السيوف وبعض الثالث - قطع النصف منه وهو -الثاني لما دون ذلك ولا يفتتح فيه إلا بالحمد أيضاً.

الرابع - قطع الثل منه وهو لما دون ذلك.

وأعلم أنه إذا ولي صاحب وظيفةٍ تستحق قطع النصف وظيفة أخرى تستحق قطع العادة فإنه يراعى مقدار صاحبها ويزاد على مقدار العادة إلا أنه لا يبلغ مبلغ رتبة وظيفته العليا بل ينبغي أن يتوسط بينهما فيكتب له في قطع الثلث لتكون رتبة بين رتبتين فتحصل مراعاة تعظيمه من حيث الزيادة على قطع العادة ومراعاة قدر الوظيفة من حيث إنها لم تبلغ شأو وظيفته العليا أما إذا ولي منحط القدر وظيفةً تستحق القطع الكبير فإنه يكتب له فيه وتكون توليته لها رفعاً إلى درجتها.

الخامس - قطع العادة وهو أصغرها.

والأصل أن يفتتح فيه بلفظ رسم بالأمر الشريف وربما علت رتبة صاحب الولاية ولم يؤهل للكتابة في قطع الثلث فيكتب له فيه: أما بعد حمد الله وهو قليل الاستعمال فإن استعمل أما بعد فإن كذا أو إن أولى أو إن أحق ونحو ذلك كتب في قطع العادة أيضاً.

الباب الثاني من المقالة الخامسة في البيعات

وفيه فصلان

الفصل الأول في معناها البيعات

جمع بيعة وهي مصدر بايع فلانٌ الخليفة يبايعه مبايعةً ومعناها المعاقدة والمعاهدة وهي مشبهة بالبيع الحقيقي.

قال أبو السعادات ابن الأثير في نهايته في غريب الحديث: كأن كل واحدٍ منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره.

ويقال: بايعه وأعطاه صفقة يده والأصل في ذلك أنه كان من عادة العرب أنه إذا تبايع اثنان صفق أحدهما بيده على يد صاحبه.

وقد عظم الله تعالى شأن البيعة وحذر من نكثها بقوله خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم " إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّما يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فإِنَّما يَنْكُثُ على نَفْسِه ومَنْ أَوْفى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيه أَجْراً عَظِيماً " .

وأمر بمبايعة المؤمنات في قوله تعالى: " يأَيُّها النَّبِيُّ إِذا جَاءَكَ المُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ على أَلا يُشْرِكْنَ باللهِ شَيئاً وَلاَ يَسْرِقْن وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ واسْتَغْفِرْ لَهُنَّ الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ " .

وبايع النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة رضوان الله عليهم بيعتين.

الفصل الثاني في ذكر تنويع البيعات

وهي نوعان النوع الأول بيعات الخلفاء وفيها سبعة مقاصد المقصد الأول في أصل مشروعيتها فالأصل في ذلك بعد الإجماع ما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها " أَنَّه لمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم اجتمعت الانصار إلى

سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منا أميرٌ ومنكم أميرٌ فذهب إليهم أبو بكرٍ وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكرٍ وكان عمر يقول: ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاماً أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر ثم تكلم أبو بكرٍ فتكلم أبلغ الناس فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء.

فقال الحباب بن المنذر: لا والله لا نفعل! منا أميرٌ ومنكم أمير.

فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء.

فبايعوا عمر أو أبا عبيدة.

فقال عمر: بل نبايعك فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ عمر بيده فبايعه وبايع الناس ".

وهذه أول بيعةٍ بالخلافة كانت في الإسلام ولكن لم ينقل أنه رضي الله عنه كتب له مبايعةٌ بذلك ولعل ذلك لأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا إذا بايعوا لا يجحدون البيعة بعد صدورها بخلاف ما بعد ذلك.

المقصد الثاني في بيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعية وهي خمسة أسباب: السبب الأول - موت الخليفة المنتصب من غير عهد بالخلافة لأحدٍ بعده كما في قصة الصديق المتقدمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أو بتركها شورى في جماعة معينة كما فعل عمر رضي الله عنه عند وفاته حيث تركها شورى في ستة: علي بن أبي طالب والزبير بن العوام السبب الثاني - خلع الخليفة المنتصب لموجب يقتضي الخلع فتحتاج الأمة إلى مبايعة إمام يقوم بأمورها ويتحمل بأعبائها.

السبب الثالث - أن يتوهم الخليفة خروج ناحيةٌ من النواحي عن الطاعة فيوجه إليهم من يأخذ البيعة له عليهم لينقادوا لأمره ويدخلوا تحت طاعته.

السبب الرابع - أن تؤخذ البيعة للخليفة المعهود إليه بعد وفاة العاهد كما كانت الخلفاء الفاطميون تفعل في خلافتهم بمصر وكانوا يسمون البيعة سجلاً كما كانوا يسمون غيرها بذلك.

السبب الخامس - أن يأخذ الخليفة المنتصب البيعة على الناس لولي عهده بالخلافة بأن يكون خليفةٌ بعده إمضاءً لعهده كما فعل معاوية رضي الله عنه في أخذه البيعة لولده يزيد.

المقصد الثالث في بيان ما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة البيعة وأعلم أنه يجب على الكاتب أن يراعي في كتابة البيعة أموراً: منها - أن يأتي في براعة الاستهلال بما يتهيأ له من اسم الخليفة أو لقبه كفلان الدين أو لقب الخلافة كالمتوكل أو المستكفي أو مقتضى الحال الموجب للبيعة من موتٍ أو خلع ونحوهما أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى.

أن ينبه على شرف رتبة الخلافة وعلو قدرها ورفعة شأنها وأنها الغاية التي لا فوقها والدرجة التي لا بعدها وأن كل -ومنها رتبة دون رتبتها وكل منصب فرعٌ عن منصبها.

أن ينبه على مسيس الحاجة إلى الإمام ودعاية الضرورة إليه وأنه لا يستقيم أمر الوجود وحال الرعية إلا به ضرورة -ومنها وجوب نصب الإمام بالإجماع وإن شذ عنه الأصم فخالف ذلك.

أن يشير إلى أن صاحب البيعة استوعب شروط الإمامة واجتمعت فيه ويصفه منها بما يعز وجوده ويتمدح بحصوله -ومنها كالعلم والشجاعة والرأي والكفاية بخلاف ما لا يعز وجوده ولا يتمدح به وإن كان من الشروط كالحرية والذكورة والسمع والبصر ونحو ذلك فإن الوصف بذلك لا وجه له.

أنه ينبه على أفضلية صاحب البيعة وتقدمه في الفضل واستيفاء الشروط على غيره ليخرج من الخلاف في جواز -ومنها تولية المفضول مع وجود الفاضل.

أن ينبه على أن المختارين لصاحب البيعة ممن يعتبر اختياره من أهل الحل والعقد من ومنها - أن ينبه على تعيين -ومنها المختارين للبيعة إن كان الإمام الأول نص عليهم إذ لا يصح الاختيار من غير من نص عليه كما لا يصح إلا تقليد من عهد إليه.

ومنها - أن ينبه على جريان عقد البيعة من المختارين ضرورة أنه إن انفرد شخص بشروط الإمامة في وقته لم يصر إماماً بمجرد ذلك.

ومنها - أن ينبه على سبب خلع الخليفة الأول إن كانت البيعة مترتبة على خلع إذ لا يصح خلع الإمام القائم بلا سبب.

ومنها - أن ينبه على قبول صاحب البيعة العقد وإجابته إليه إذ لا بد من قبوله.

أن ينبه على أن القبول وقع منه بالاختيار لأنه لا يصح الإجبار على قبولها اللهم إلا إن كان بحيث لا يصلح للإمامة -ومنها غيره فإنه يجبر عليها بلا خلاف.

أن ينبه على وقوع الشهادة على البيعة خروجاً من الخلاف في أنه هل يشترط الإشهاد على البيعة أم لا ومنها - أن -ومنها ينبه على أنها لم تقترن ببيعةٍ في الحال ولا مسبوقة بأخرى إذ لا يجوز نصب إمامين في وقتٍ واحدٍ وإن تباعد إقليماهما خلافاً للأستاذ أبي إسحاق الأسفراييني حيث جوز نصب إمامين في إقليمين.

أن ينبه على أنه بمجرد البيعة تجب الطاعة والانقياد إليه ويجب على كافة الأمة تفويض الأمور العامة إليه وطاعته -ومنها فيما وافق حكم الشرع وإن كان جائراً.

أن يعزي في الخليفة الميت ويهنئ بالمستقر إن كانت البيعة مبنيةً على موت خليفةٍ وأن يبين سبب خلع الخليفة الأول -ومنها إن كانت مرتبةً على خلع.

أما التعزية والتهنئة بموت الأول فعليه جرى عامة الكتاب إلا أنه يختص في عرفهم بما إذا كان الخليفة الأول شديد القرب من الثاني كأبيه وأخيه وابن عمه.

وكان الأولون يتعانون ذلك في خطاب الخلفاء بالتهنئة بالخلافة بعد أقاربهم وقد روي أن عطاء بن أبي صيفي دخل على يزيد بن معاوية فهنأه بالخلافة وعزاه في أبيه فقال: رزئت بأمير المؤمنين خليفة الله وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نحبه فغفر الله ذنبه ووليت الرياسة وكنت أحق بالسياسة فاحتسب عند الله جليل الرزية وأشكره على جزيل العطية وعظم الله في معاوية أجرك وأحسن على الخلافة عونك.

وتعرضت أعرابية للمنصور في طريق مكة بعد وفاة أبي العباس السفاح فقالت: يا أمير المؤمنين احتسب الصبر وقدم الشكر فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين وأعظم عليك المنة في الحادثين سلبك خليفة الله وأفادك خلافة الله فسلم فيما سلبك وأشكر فيما وأما التعريف بسبب الخلع فلأنه لا يصح خلع الإمام بغير موجب للخلع.

ومنها - أن يشير إلى ذكر السلطان القائم بالبيعة إن كان القائم بها سلطاناً على ما استقرت عليه قاعدة الكتاب في ذلك.

أن ينبه على أن من استخلف في البيعة من وجوه الدولة وأعيان المملكة إن جرى حلفٌ ويذكر صفة حلفهم وما -ومنها التزموه من الأيمان المؤكدة والمواثيق المغلظة المقصد الرابع في بيان مواضع الخلافة التي يستدعي الحال كتابة المبايعات فيها وهي أربعة أمور: أحدها - موت الخليفة المتقدم عن غير عهدٍ لخليفةٍ بعده وهو موضوعها الأصلي الذي عليه بنيت.

أن يعهد الخليفة إلى خليفةٍ بعده ثم يموت العاهد ويستقر المعهود إليه بالخلافة بالعهد بعده فتؤخذ له البيعة العامة على -الثاني الرعية إظهاراً لوقوع الإجماع على خلافته والاتفاق على الثالث - أن تؤخذ البيعة للخليفة بحضرة ولايته ثم تنفذ الكتب إلى الأعمال لأخذ البيعة على أهلها فيأخذ كل صاحب عملٍ له البيعة على أهل عمله.

الرابع - أن يعرض للخليفة خللٌ في حال خلافته من ظهور مخالف أو خروج خارجي فيحتاج إلى تجديد البيعة له حيث وقع الخلاف.

ولكلٍ من هذه الأحوال ضربٌ من الكتابة يحتاج فيه إلى بيان السبب الموجب لأخذ تلك البيعة.

المقصد الخامس في بيان صورة ما يكتب في بيعات الخلفاء وفيها أربعة مذاهب المذهب الأول الافتتاحية بلفظ تبايع امير المؤمنين أن تفتتح المبايعة بلفظ تبايع فلاناً أمير المؤمنين خطاباً لمن تؤخذ عليه البيعة ويذكر ما يقع عليه عقد المبايعة ويأتي بما سنح من أمر البيعة ثم يذكر الحلف عليها وعلى ذلك جرى مصطلح كتاب خلفاء بني أمية ثم خلفاء بني العباس بعدهم ببغداد.

وأعلم أنه قد تقدم في المقصد الأول من هذا الفصل أنه لم ينقل أنه كتب للصديق رضي الله عنه ولا لمن ولي الخلافة بعده من الصحابة من غير عهدٍ بيعةٌ.

ولما كانت خلافة بني أمية وآل الأمر إلى عبد الملك بن مروان وأقام الحجاج ابن يوسف على إمارة العراق وأخذ في أخذ البيعة لعبد الملك بالعراق رتب إيماناً مغلظة تشتمل على الحلف بالله تعالى والطلاق والعناق والإيمان المحرجات يحلف بها على البيعة واشتهرت بين الفقهاء بإيمان البيعة واطرد أمرها في الدولة العباسية بعد ذلك وجرى مصطلحهم في ذلك على هذا الاسلوب.

وهذه نسخة مبايعةٍ ذكرها أبو الحسين بن إسحاق الصابي في كتابه غرر البلاغة وهي: تبايع عبد الله أمير المؤمنين فلاناً بيعة طوع واختيار وتبرع وإيثار وإعلانٍ وإسرار وإظهارٍ وإضمار وصحة من نغل وسلامة من غير دغل وثباتٍ من غير تبديل ووقار من غير تأويل واعترافٍ بما فيها من اجتماع الشمل واتصال الحبل وانتظام الأمور وصلاح الجمهور وحقن الدماء وسكون الدهماء وسعادة الخاصة والعامة وحسن العائدة على أهل الملة والذمة - على أن عبد الله فلاناً أمير المؤمنين عبد الله الذي اصطفاه وخليفته الذي جعل طاعته جاريةً بالحق وموجبةً على الخلق وموردةً لهم موارد الأمن وعاقدةً لهم معاقد اليمن وولايته مؤذنةٌ لهم بجميل الصنع ومؤديةٌ بهم إلى جزيل النفع وإمامته الإمامة التي اقترن بها الخير والبركة والمصلحة العامة المشتركة وأمل فيها قمع الملحد الجاحد ورد الجائر الحائد ووقم العاصي الخالع وعطف الغازي المنازع - وعلى أنك ولي أوليائه وعدو أعدائه من كل داخلٍ في الجملة وخارج عن الملة وحائدٍ عن الدعوة.

ومتمسكٌ بما يدليه عن إخلاص من رأيك وحقيقةٍ من وفائك لا تنقض ولا تنكث ولا تخلف ولا توراي ولا تخادع ولا تداجي ولا تخاتل علانيتك مثل نيتك وقولك مثل طويتك - وعلى أن لا ترجع عن شيء من حقوق هذه البيعة وشرائطها على مر الأيام وتطاولها وتغير الأحوال وتنقلها واختلاف الأزمان وتقلبها - على أنك في كل ذلك من أهل الملة الإسلامية ودعاتها وأعوان الدولة العباسية ورعاتها لا يداخل قولك مواربةٌ ولا مداهنة ولا تعترضه مغالطةٌ ولا تتعقبه مخالفة ولا تخيس به أمانة ولا تغله خيانة حتى تلقى الله تعالى مقيماً على أمرك وفيًا بعهدك إذ كان مبايعو ولاة الأمور وخلفاء الله تعالى في الأرض " إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ على نَفْسِهِ ومَنْ أَوْفى بما عَاهَدَ عليْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ".

عليك بهذه البيعة - التي أعطيت بها صفقة يدك وأصفيت فيها سريرة قلبك والتزمت القيام بها ما طال عمرك وامتد أجلك - عهد الله إن عهد الله كان مسؤولاً وما أخذه على أنبيائه ورسله وملائكته وحملة عرشه من إيمانٍ مغلظة وعهودٍ مؤكدة ومواثيق مشددة على أنك تسمع وتصغي وتطيع ولا تعصي وتعتدل ولا تميل وتستقيم ولا تحيد وتفي ولا تغدر وتثبت ولا تتغير فمتى زلت عن هذه المحجة حاقراً لأمانتك ورافعاً لديانتك فجحدت الله تعالى ربوبيته وأنكرته وحدانيته وقطعت عصمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم وجذتها ورميت طاعته وراء ظهرك ونبذتها ولقيت الله يوم الحشر إليه والعرض عليه مخالفاً لأمره وخائناً لعهده ومقيماً على الإنكار له ومصرًا على الإشراك به وكل ما حلله الله لك محرمٌ عليك وكل ما تملكه يوم رجوعك عن بذلك وارتجاعك ما أعطيته في قولك من مالٍ موجودٍ ومذخور ومصوغ ومضروب وسارحٍ ومربوط وسائم ومعقول وأرضٍ وضيعة وعقار وعقده ومملوكٍ وأمة صدقةٌ على المساكين محرمةٌ على مر السنين وكل امرأةٍ لك تملك شعرها وبشرها وأخرى تتزوجها بعدها طالقٌ ثلاثاً بتاتاً طلاق الحرج والسنة لا رجعة فيه ولا مثنوية وعليك الحج إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين دفعة حاسراً حافياً راجلاً ماشياً نذراً لازماً ووعداً صادقاً لا يبرئك منها إلا القضاء لها والوفاء بها ولا قبل الله منك توبة ولا رجعة وخذلك يوم الاستنصار بحوله وأسلمك عند الاعتصام بحبله وهذه اليمين قولك قلتها قولاً فصيحاً وسردتها سرداً صحيحاً وأخلصت فيها سرك إخلاصاً مبيناً وصدقت فيها عزمك صدقاً يقيناً والنية فيها نية فلان أمير المؤمنين دون

نيتك والطوية فيها طويته دون طويتك وأشهدت وهذه نسخة بيعةٍ أخرى من هذا الأسلوب أوردها ابن حمدون في تذكرته وربما وافق فيها بعض ألفاظ البيعة السابقة وهي: تبايع الإمام أمير المؤمنين فلاناً بيعة طوع وإيثار واعتقادٍ وإضمار وإعلان وإسرار وإخلاصٍ من طويتك وصدقٍ من نيتك وانشراح صدرك وصحة عزيمتك طائعاً غير مكره ومنقاداً غير مجبر مقراً بفضلها مذعناً بحقها معترفاً ببركتها ومعتداً بحسن عائدتها وعالماً بما فيها وفي توكيدها من صلاح الكافة واجتماع الكلمة من الخاصة والعامة ولم الشعث وأمن العواقب وسكون الدهماء وعز الأولياء وقمع الأعداء - على أن فلاناً عبد الله وخليفته المفترض طاعته والواجب على الأمة إقامته وولايته اللازم لهم القيام بحقه والوفاء بعهده لا تشك فيه ولا ترتاب به ولا تداهن في أمره ولا تميل.

وأنك ولي وليه وعدو عدوه من خاصٍ وعام وقريبٍ وبعيدٍ وحاضرٍ وغائب متمسكٌ في بيعته بوفاء العهد وذمة العقد سريرتك على أن أعطيت الله هذه البيعة من نفسك وتوكيدك إياها في عنقك لفلانٍ أمير - مثل علانيتك وظاهرك فيه وفق باطنك على أن لا تتأول عليه فيها ولا تسعى في - المؤمنين عن سلامةٍ من قلبك واستقامةٍ من عزمك واستمرارٍ من هواك ورأيك نقض شيءٍ منها ولا تقعد عن نصره في الرخاء والشدة ولا تدع النصر له في كل حالٍ راهنة وحادثة حتى تلقى الله مؤذناً بها مؤدياً للأمانة فيها إذ كان الذين يبايعون ولاة الأمر وخلفاء الله في الأرض " إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فإِنَّما يَنْكُثُ على نَفْسه ".

عليك بهذه البيعة - التي طوقتها عنقك وبسطت لها يدك وأعطيت فيها صفقتك وما شرط عليك فيها من وفاءٍ وموالاة ونصح عهد الله إن عهد الله كان مسؤولاً. -ومشايعة وطاعةٍ وموافقة واجتهاد ومتابعة

وما أخذ الله تعالى على أنبيائه ورسله عليهم السلام وعلى من أخذ من عباده وكيدات مواثيقه ومحكمات عهوده وعلى أن تتمسك بها ولا تبدل وتستقيم ولا تميل وإن نكثت هذه البيعة أو بدلت شرطاً من شروطها أو عفيت رسماً من رسومها أو غيرت حكماً من أحكامها معلناً أو مسراً أو محتالاً أو متأولاً أو زغت عن السبيل التي يسلكها من لا يحقر الأمانة ولا يستحل الغدر والخيانة ولا يستجيز حل العقود فكل ما تملكه من عينٍ أو ورق أو آنية أو عقار أو سائمة أو زرع أو صرع أو غير ذلك من صنوف الأملاك المعتدة والأموال المدخرة صدقةٌ على المساكين محرمٌ عليك أن ترجع من ذلك إلى شيء من مالك بحيلةٍ من الحيل على وجه من الوجوه وسببٍ من الأسباب أو مخرج من مخارج الأيمان وكل ما تعتده في بقية عمرك من مالٍ يقل خطره أو يجل فتلك سبيله إلى أن تتوفاك منيتك أو يأتيك أجلك وكل امرأةٍ لك اليوم وأخرى تتزوجها بعدها مدة بقائك طالقٌ ثلاثاً بتاتاً طلاق الحرج والسنة لا مثنوية فيه ولا رجعة وعليك المشي إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجة حافياً حاسراً راجلاً لا يرضى الله منك إلا بالوفاء بها ولا يقبل الله منك صرفاً ولا عدلاً وخذلك يوم تحتاج إليه وبرأك من حوله وقوته وألجأك إلى حولك وقوتك والله عز وجل بذلك شهيداً وكفى به شهيداً.

وهذه نسخة أخرى من هذا الأسلوب أوردها أبو الحسين الصابي في غرر البلاغة وهي: تبايع أمير المؤمنين بقوةٍ من بصيرتك وصحة من سريرتك وصفاءٍ من عقيدتك وصدقٍ من عزيمتك على الرضا به والوفاء له والإخلاص في طاعته والاجتهاد في مناصحته وعقد النية على موالاته وبذل القدرة في ممالاته وأن تكون لأنصاره عوناً ولأوليائه حزباً ولأعدائه حرباً عارفين بما في ذلك من الحظ ومعترفين بما يلزم فيه من الحق ومحافظين على ما حرس الملة الإسلامية والدولة العباسية ثبت الله قواعدها وأحكم معاقدها وزادها استمراراً على مر الدهور واستقراراً على كر العصور وعزًا على تنقل الأمور واشتداداً على تغلب المقدور فإن خالفت ذلك مسراً أو معلناً وحلت عنه مظهراً أو مبطناً وحللت عقوده ناكثاً أو ناقضاً وتأولت فيه محاولاً للخروج منه واستثنيت عليه طالباً للرجوع عنه فبرأني الله من حوله وقوته وسلبني ما وهب من فضله ونعمته ومنعني ما وعد من رأفته ورحمته وخلاني من يديه يوم الفزع الأكبر لديه وجنث كل يمين حلفها المسلمون على قديم الأيام وحديثها والتناهي في تأكيدها وتشديدها وأعروها من لباس الشبهة وأخلوها من دواعي المخاتلة وهذه اليمين يميني أوردتها على صدق من نيتي وصحةٍ من عزيمتي واتفاقٍ من سري وعلانيتي وسردتها سرداً متتابعاً من غير فصل وتلفظت بها تلفظاً من غير قطع والنية فيها نيةَ فلان على حضور منه وغيب وبعد وقرب وأشهد الله تعالى بما عقدته على نفسي منها وكفى بالله شهيداً على من أشهده وحسيباً على من اجترأ على إخفار عهده ونقض عقده.

قلت: فإن كان من تؤخذ عليه المبايعة اثنين أتي في المبايعة بصيغة التثنية أو ثلاثة فأكثر أتي بصيغة الجمع.

ولم أقف على كيفية وضعهم لذلك في الكتابة والذي يظهر أن المبايعة كانت تكتب على الصورة المتقدمة ثم يكتب المبايعون خطوطهم بصدورها عنهم كما يفعل الآن في تحليف من يحلف من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف بالمملكة المصرية والممالك الشامية أو يشهد عليهم في آخر البيعة بمعاقدتهم عليها ورضاهم بها ونحو ذلك.

المذهب الثاني مما يكتب في بيعات الخلفاء أن تفتتح المبايعة بلفظ من عبد الله ووليه فلانٍ أبي فلان الإمام الفلاني إلى أهل دولته ونحو ذلك بالسلام عليهم ويؤتى بما سنح من ثم يقال: أما بعد فالحمد لله ويؤتى على وصفه بشريف المناقب واستحقاقه للخلافة واستجماعه لشروطها وما يجري هذا المجرى ثم ينخرط في سلك البيعة ويذكر القائم بأخذها على الناس من سلطانٍ أو وزيرٍ عظيم أو نحو ذلك ويذكر من أمر ولاية الخليفة ما فيه استجلاب قلوب الرعية والأخذ بخواطرهم وما ينخرط في هذا السلك.

وهذه نسخة بيعةٍ من هذا الأسلوب لولي عهد بعد موت العاهد كتب بها لبعض خلفاء الفاطميين ليس فيها تعرض لذكر الوزير القائم بها وهي: من عبد الله ووليه أبي فلان فلان بن فلان الإمام الفلاني بأمر الله تعالى أمير المؤمنين إلى من يضمه نطاق الدولة العلوية من أمرائها وأعيانها وكبرائها وأوليائها على اتساع شعوبهم وعساكرها على اختلاف ضروبهم وقبائل عربها القيسية واليمنية وكافة من تشمله أقطارها من أجناء الرعية الأمير منهم والمأمور والمشهور منهم والمغمور والأسود والأحمر والأصغر والأكبر وفقهم الله وبارك فيهم.

سلامٌ عليكم فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على محمدٍ خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليماً.

أما بعد فالحمد لله مولي المن الجسيم ومبدي الطول العميم ومانح جزيل الأجر بالصبر العظيم مفيد النعم المتشعبة الفنون ومدني المهج المتعالية لتناول المنون ومبيد الأعمار ومفنيها وناشر الأموات ومحييها والفاتح إذا استغلقت الأبواب والقائل: " الذي لا يغير ملكه مرور الغير ولا يصرف سلطانه تصرف القدر ولا يدرك قدمه وأزليته ولا ينفد بقاؤه لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ " وسرمديته مسلم الأنام للحمام ومصمي الأنفس بسهام الاختزام ومورد البشر من المنية منهلاً ما برحوا في رنقه يكرعون ولمره المشرق يتجرعون ومعزز ذلك بقوله: " كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الموتِ وَنَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً وإلَيْنا تُرْجَعُونَ ".

والحمد لله الذي نصب الأنبياء لمراشده أعلاماً وحفظ ببعثهم من الحق والهدى نظاماً وجعل نبوة جدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم لنبواتهم ختاماً وعضد بوصيه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كمالاً للدين وإتماماً واستخلص من ذريتهما أئمةً هادين إتقاناً لصنعته وإحكاماً وأقام الحجة على الأمم بأن أقام لكل زمانٍ منهم إماماً وعاقب بين أنوار الإمامة فإذا انقبض نورٌ انبسط نور وتابع ظهور بدوره ليشرق طالعٌ إثر غاربٍ يغور رحمةً شاملةً للعالمين وحكمةً تامةً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ولم يخل نبياً مع ما شرفه به من تناول وحيه وتلقيه ولا عصم إماماً مع اختصاصه بفروع منصب الإمامة وترقيه من لقاء المنية ووداع الأمنية بل أجل لكلٍ منهم أجلاً مكتوباً وفسح له أمداً محصوراً محسوباً لا يصرفه عن وصول فضيلة ولا يصل إلى تجاوزه بقوةٍ ولا حيلة قدرةٌ محكمة الأسباب وعبرةٌ واضحةٌ لأولي الألباب وقضيةٌ أوضحها فرقانه الذي أقر بإعجازه الجاحدون إذ يقول مخاطباً لنبيه: " وما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ".

والحمد لله الذي منح أمير المؤمنين من خصائص الإمامة وأنوارها وحاز له من ذخائرها وأودعه من أسرارها ما خوله فاخر تراثها وأصار له شرف ميراثها وجعله القائم بحقه والمرشد لخلقه والماحي بهداه ليلاً من الضلال بهيماً والحاوي بخلافته مجداً لا يزال ثناؤه عظيماً: " ذلك الفضْلُ مِنَ اللهِ وكَفى بِاللَّهِ عَلِيماً ".

يحمده أمير المؤمنين على أن أوضح بآبائه الأئمة سبل الحقائق فأصبحوا خلفاء الخالق وأئمة الخلائق وخوله ما اختصهم به من الإمامة ورفعه بها إلى أشمخ منازل العلا وأرفع مواطن الكرامة ويستمده شكراً يوازي النعم التي أثبتت له على سرير الخلافة وسرها قدماً وصبراً يوازن الفجيعة التي قل لها فيض المدامع دماً.

ويسأله أن يصلي على جده محمدٍ الذي فض بجهاده جموع الإلحاد وحصد باجتهاده من مال عن الهدى وحاد وصدع بما أمر به حتى عم التوحيد ودانت لمعجزاته الأمم وقد دعاها وهو المفرد الوحيد ولم يزل مبالغاً في مرضاة ربه حريصاً على إظهار دينه بيده ولسانه وقلبه حتى استأثر به وقبضه وبدله من الدنيا شرف جواره وعوضه وأصاره إليه أفضل نبي بصر وبشر وأحيا دين الله وأنشر وعلى أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إمام الأمة وأبي الأئمة وقدوة السعداء وسيد الشهداء وعاضد

الدين بذي الفقار ومن لم يزل الحق إلى ذبه شديد الافتقار صلى الله عليه وعلى آبائه والأئمة من ذريتهما الذين أيقظوا العقول بإرشادهم من السنة وأفاضوا من العدل والإحسان ما ألهج بتمجيدهم الألسنة.

وإن الإمام الفلاني لدين الله أمير المؤمنين كان ولياً لله شرفه الله واستخلصه وأفرده بإمامة عصره وخصصه وفوض إليه أمر خلافته وأحله محلاً تقع مطارح الهمم دون علوه وإنافته فقام بحق الله ونهض وعمل بأمره فيما سن وفرض وقهر الأعداء بسطواته وعزائمه وصرف الأمور بأزمة التدبير وخزائمه وبالغ في الذب عن أشياع الملة واجتهد في جهاد أعداء القبلة ووقف على مصلحة العباد والبلاد أمله ووفر على ما يحظي عند الله قوله وعمله ولم يترك في مرضاة خالقه مشقة إلا احتملها ولا روية إلا صرفها في إرشاد خلقه وأعملها حتى بلغ الغاية المحدودة واستكمل الأنفاس المعدودة وأحسن الله له الاختيار وآثر له النقلة من هذه الدار والزلفى بسكنى دار القرار والفوز بمصاحبة الأنبياء الأبرار والحلول في حظائر قدسه مع آبائه الأئمة الأطهار فسار إليه طاهر السريرة جميل المذهب والصورة مستوجباً بسعيه أفضل رضوانه وأمير المؤمنين يحتسب عند الله هذه الرزية التي عظم بها المصاب وعظم عند تجرعها الصاب وأضرمت القلوب ناراً وأجرت الآماق دماً مماراً وأطاشت بهولها الأكباد بالحرق وكحلت الأجفان بالأرق وكادت لهجومها الصدور تقذف أفئدتها والدنيا تنزع نضرتها وبهجتها وقواعد الملة تضعف وتهي والخطوب الكارثة تصر ولا تنتهي فإنا لله وإنا إليه راجعون!! تسليماً لأمره الذي لا يدفع وإذعاناً لقضائه الذي لا يصد ولا يمنع.

وكان الإمام الفلاني لدين الله أمير المؤمنين عند نقلته جعل لي عقد الخلافة ونص علي بارتقاء منصبها المخصوص بالإنافة وأفضى إلي بسرها المكنون وأودعني غامض علمها المصون وعهد إلي أن أشملكم بالعدل والإحسان والعطف والحنان والرحمة والغفران والمن الرائق الذي لا يكدره امتنان وأن أكون لأعلام الهدى ناشراً وبما أرضى الله مجاهراً ولأحزاب القبلة مظافراً مظاهراً ولأعداء الملة مرغماً قاهراً ولمنار التوحيد رافعاً وعن حوزة الإسلام بغاية الإمكان دافعاً مع علمه بما خصصت به من كرم الشيم وفطرت عليه من الخلال القاضية مصالح الأمم وأوتيته من استحقاق الإمامة واستيجابها ومنحته من الخصائص المبرمة لأسبابها.

فتعزوا جميع الأولياء وكافة الأمراء وجميع الأجناد والحاضر من الرعايا والباد عن إمامكم المنقول إلى دار الكرامة بإمامكم الحاضر الموجود الذي أورثه الله مقامه وادخلوا في بيعته بصدورٍ مشروحةٍ نقية وقلوبٍ على محض الطاعة مطوية ونيات في الولاء والمشايعة مرضية وبصائر لا تزال بنور الهدى والاستبصار مضية وأمير المؤمنين يسأل الله أن يجعل إمامته محظوظة بالإقبال دائمة الكمال صافية من الأكدار معضودةً بمواتاة الأقدار ويوالي حمده على ما منحه من الاصطفاء الذي جعله لأمور الدين والدنيا قواماً وأقامه للبرية سيداً وإماماً فاعلموا هذا وأعملوا به والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في يوم كذا من شهر كذا سنة كذا.

وهذه نسخة بيعة كتب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمي بعد وفاة ابن عمه الآمر بأحكام الله قام بعقدها الوزير أبو الفتح يانس الحافظي اقتصر فيها على تحميدةٍ واحدةٍ وعزى بالخليفة الميت ثم انتقل إلى مقصود البيعة وهي: من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الحافظ لدين الله أمير المؤمنين إلى كافة أهل الدولة شريفهم ومشروفهم وأميرهم ومأمورهم وكبيرهم وصغيرهم وأحمرهم وأسودهم وفقهم الله وبارك فيهم.

سلامٌ عليكم فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على جده محمدٍ خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين وسلم أما بعد فالحمد لله اللطيف بعباده وبريته الرؤوف في أقداره وأقضيته المهيمن فلا يخرج شيء من إرادته ومشيئته ذي النعم الفائضة الغامرة والمنن المتتابعة المتظاهرة والآلاء المتوالية المتناصرة مدبر أرضه بخلفائه الذين هم زينةٌ القائل في محكم كتابه: " يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحياةِ الدُّنْيا وفِي الآخِرة " للدنيا وبهجة وهادي خلقه بأوليائه لئلا يكون للناس على الله حجة فسبحان الذي هو للنعم مسبغ وبالكرم جدير و " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ".

يحمده أمير المؤمنين أن جعله خليفةً دون أهل زمانه وأوجب ثواب المستجيبين له بكفالته وضمانه وجعلهم يوم الفزع الأكبر مكنوفين بحفظه مشمولين بأمانه وأوزعه الشكر على ما استرعاه إياه من أمر هذه الأمة ونقله إليه من تراث آبائه الهداة الأئمة وكشفه بإمامته من أفجع نائبةٍ وأفظع ملمة.

وصلى الله على جدنا محمدٍ رسوله الذي أخر الأنبياء المرسلون بصفته ونعته وتداولوا البشرة بما يستقبل من زمانه وبعثه وذكروه فيما أتوا به من كل كتاب أوحاه الله وأنزله واعترفوا بأنه أفضل من كل من نبأه الله وأرسله فيسر الله سبحانه ما كان مرتقباً من ظهوره وأذن في إشراق الأرض بما انتشر في آفاقها من نوره وبعثه - جلت قدرته - إلى الأمة بأسرها قاطبة وجعل ألسنة الأغماد مجادلة لمن خالف شرعه مخاطبة فكان لآية الكفر ماحيا وفي مصالح البرية ساعيا وإلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة داعيا إلى أن لمعت آيات الحق وسطعت وانحسمت مادة الباطل وانقطعت وظهر من آياته ما كبر له المخبتون واشتهر من معجزاته ما خصم به المتعنتون وخاطبه الله فيما أنزل عليه بقوله: " إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَيِّتُون " .

فحينئذ نقله الله إلى ما أعد له من جناته وخصه بشرف الشفاعة في يوم مجازاته وصدقه وعده فيما بوأه من النعيم المقيم: " ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتيه مَنْ يشاءُ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم " .

وعلى أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أولى الناس بالنبي وأول من اتبعه من ذوي قرابةٍ وأجنبي وابن عمه الذي اختصه بمؤاخاته وجعله خليفةً على كافة الناس بعد وفاته وتحمل بأمر الله فيما ولاه وأولاه وخطب الناس في حجة الوداع فقال: " من كُنْتُ مَوْلاه فَعَلِيٌّ مَوْلاه " وعلى آلهما الكرام الأبرار وعترتهما المصطفين الأخيار وهداة المسلمين وقدوتهم وأمراء المؤمنين وأئمتهم الذين حكموا فأقسطوا وما قسطوا وسلك الحاضرون منهم سنن أسلافهم الذين فرطوا واقتفوا آثارهم في السياسة فما قصروا ولا فرطوا ولم يزل كلٌ منهم عاملاً من ذلك بما حسن أيامه فاعلاً في أمر الدين ما رفع مناره ونشر أعلامه حتى اختار الله له ما عنده فنص على من أقامه الاستحقاق مقامه وسلم عليهم أجمعين سلاماً لا انقضاء لأمده ولا انقطاع وإن الحق إن خفي حيناً فلا بد لهلاله من الإبدار وانبساط النور وإن الشمس إن توارت بالحجاب فما أوشك عودتها إلى البزوغ والظهور وإن حسن الصبر إلى أن يبلغ الكتاب أجله يؤمن من تدلية الشيطان بالغرور قال الله عز وجل في كتابه الذي هدانا به: " وإِنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فإِنَّ ذلِكَ مِن عَزْمِ الأُمُور " .

وإن الله تعالى لرأفته بمن أبدعه من خلقه وأنشاه ولسابق علمه في عمارة هذه الدار على ما أراده عز وجل وشاه لا يخلي الأرض من نورٍ يستضيء به الساري في الليل البهيم ولا يدع الأمة بلا إمام يهدي إلى الحق وإلى طريقٍ مستقيم فهو جل وعلا أعدل من أن يجعل جيد الإيمان من حلى الإمامة عاطلاً أو يترك الخلق هملاً وقد قال: " وَمَا خَلَقْنا السماء والأَرضَ وما بَيْنَهما باطِلاً " بل يقطع أعذار العباد فيما خلقهم له ووقفهم ويهديهم بالأئمة إلى التوفر على عمل ما ألزمهم وكلفهم فالأمور محروسة الترتيب محفوظة النظام والأرض إذا أظلمت لفقد إمامٍ أضاءت وأشرقت لقيام إمام.

وقد علم الكافة أن حجة الله في أرضه والمجتنب من الأعمال ما لم يرضه والمحسن إلى البرية ببعثه على المصالح وحضه الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين الذي آتاه الله الحكم صبياً ورفعه من إرث النبوة مكاناً علياً واستخلفه على خلقه فكان للفضل باسطاً ولراية العدل ناشراً وجعله لشمس المحاسن جامعاً ولأئمة الخلفاء الراشدين عاشراً لم يزل ناظراً في البعيد والقريب عاملاً في سياسة الأمة عمل المجتهد المصيب مستقصياً حرصه في المحافظة على إعزاز الملة مستنفداً جهده في الجهاد فيمن خالف أهل القبلة باذلاً من جزيل العطاء وكثيره ما لا يعرف معه أحدٌ من خاصته بالفقر ولا ينسب معه إلى القلة حتى استوفى مدته الموهوبة واستوعب غايته المكتوبة وناله من القضاء ما أخرجه من الدنيا سعيداً وأقدمه على الله شهيداً وأصاره إلى جوار ربه تبارك وتعالى كانتقال أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بغياً من الكافرين واغتيالاً.

وقد كان يذكر ما يعلمه من حق أمير المؤمنين تارةً مجاهراً وتارة مخافتاً إلى أن صار على بسط القول في ذلك وتبيينه مثابراً متهافتاً وأفصح بما كان مستبهماً مستعجماً وصرح بما لم يزل في كشفه ممرضاً وعن إفصاحه محجماً وذلك لما ألفاه أشرف فرع من سنخ النبوة ورآه أكرم في فخارة الأبوة وعلمه أبيه الأمير أبي القاسم عمه سلام الله عليه الذي هو سليل الإمامة القليل المثل ونجل الخلافة المخصوص من الفخر بأجزل حظٍ وأوفر كفل كان المستنصر بالله أمير المؤمنين سماه ولي عهد المسلمين وتضمن ذلك ما خرجت به توقيعاته وتسويغاته إلى الدواوين وثبت في طرز الأبنية وكتب الابتياعات والأشرية وعلمته الكافة علماً يقيناً ظلت فيه غير مرتابةٍ ولا ممترية وفي ضمن ذلك باطنٌ لا يعقله إلا العالمون ولا ينكره إلا من قال فيهم: " وَمَا يَجْحَدُ بآياتِنَا إلاَّ الظَّالِمُون " .

وذلك أن أمير المؤمنين الغرض والمقصد والبغية والمطلب وله عهد بالتلويح والإشارة وإليه أوحى بالنص وإن لم يفصح فيه بالعبارة وكان والده الأمير أبو القاسم - قدس الله روحه - بمنزلة الأشجار التي يتأنى بها إلى أن يظهر زهرها والأكمام التي ينتظر بها إلى أن يخرج ثمرها والزرجونة التي نقلت الماء إلى العنقود والسحابة التي حملت الغيث فعم نفعه أهل السهول والنجود ومما يبين ذلك ويوضحه ويحققه ويصححه وتثلج به للمؤمنين صدور وتقوى أفئدة وتشهد البصائر أن النعمة به على

الإسلام متتابعةٌ متجددة أن المرين إذا تشابها من كل الجهات وكانت بينهما مدد متطاولاتٌ متباعدات فالسابق منهما يمهد للتالي والأول أبداً رمزٌ على الثاني ولا خلاف بين كافة المسلمين في أن الله تعالى أمر جدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بعقد ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلى الله عليه فعقدها له يوم غدير خم وأمير المؤمنين علي ابن عمه وكان له حينئذ عمٌ حاضر وأمضى ما أمر به والإسلام يومئذٍ غضٌ وعوده ناضر وكذلك أن أمير المؤمنين هو ابن عم الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين وقد نص مع حضور عمومته عليه وفعل ما فعل نده رسول الله اقتداءً به وانتهاءً إليه وكان أبو علي المنصور الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه جعل ابنه عبد الرحيم إلياس ولي عهد المسلمين وميزه بذلك على كافة الناس أجمعين ونقش اسمه في السكة وأمر بالدعاء له على المنابر وبمكة وألبسه شدة الوقار المرصعة بالجوهر واستنابه عنه إمام الأعياد في الصلاة وفي رقي المنبر وأقامه مقام نفسه في الاستغفار لمن يتوفى من خواص أوليائه وفي الشفاعة لهم بمتقبل مناجاته ومسموع دعائه مع علمه أنه لا ينال رتبة الخلافة ولا يبلغ درجة الإمامة وأن الإمام الظاهر لإعزاز دين الله - صلى الله عليه - هو الذي خلق لها وحين حمل أعباءها أقلها وما استثقلها وإنما تحت ذلك معنًى لطيفٌ غامض وسرٌ عن جمهور الناس مستترٌ وبرقه لأولي البصائر وامض وهو أن مكنون الحكمة ومكتوم علم الأمة يدلان على أن الإمام المنصور أبا علي سيفعل فيمن يستخلفه بعده مثل فعل النبي وقد علم الإمام الحاكم - عليه السلام - أن المراد بذلك من يأتي بعده ممن أولده أو أنسله لأن ولده حاضرٌ والمقصود من لا ولد له فجعل ولاية عبد الرحيم العهد تأسيساً لما سيكون ونقلاً للنفوس من الانزعاج إلى أن تشملها الطمأنينة والسكون.

فلما أفضى الله إلى الإمام المنصور أبي علي الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين بالخلافة التي جعلها واجباً له حقاً ووافق وكان لقبه من لقبه مشتقاً ظهر المنكتم ووضح المستتر وعاد التعريض تصريحاً والتمريض تصحيحاً - جده - عليه السلام والرمز إبانة والنص على أمير المؤمنين أمانة فاقتدى بجده رسول الله صلى الله عليه وسلم في استخلاف أمير المؤمنين مع حضور عمومته وفعل في ذلك فعلته وجرى على قضيته وكشف عما أبهمه الإمام الحاكم بأمر الله قدس الله لطيفته فتساوى الخاص والعام في معرفته ثم حله أمير المؤمنين محل نفسه في الجلوس على الأسمطة وعمل لأوليائه ورعيته في ذلك بالقضايا المحيطة ونصبه منصبه في الصلاة على من جرت عادته بالصلاة على مثله وجمع في اعتماد ذلك بين إحسانه وفضله وبين امتنانه وعدله وإذ قد تبين هذا الأمر الواضح الجلي وتساوى في علمه الشانئ والولي وعلم هو ما خص الله به أمير المؤمنين من الإمامة وأزاله عن العقول من ضبابٍ متكاثفٍ وغمامة وشمله به من فضله ورافته ونصبه فيه من منصب خلافته التي أيدها بوليه ووزيره وعضدها بصفيه وظهيره السيد الأجل أبي الفتح يانس الحافظي الذي جعله الله على اعتنائه بدولة أمير المؤمنين من أوضح الشواهد والدلائل وصرف به عن مملكته محذور الصروف والغوائل وأقام منه لمناصحة الخلافة مخلصاً جمع فيه أسباب المناقب والفضائل وأيده بالتوفيق في قوله وفعله فأربى على الأواخر والأوائل ودلت سيرته الفاضلة على أنه قد عمر ما بين الله وبينه وحكمت سنته العادلة أن كل مدح لا يبلغ ثناءه وكل وصف لا يقع إلا دونه والله يضاعف نعمه عنده ولديه ويفتح لأمير المؤمنين مشارق الأرض ومغاربها على يديه وهذا يحقق أن الإسلام قد أحدث له قوةً وتمكيناً وأن ذوي الإيمان قد ازدادوا إيماناً واستبصاراً ويقيناً فيجب عليكم لأمير المؤمنين أن تدخلوا في بيعته منشرحةً صدوركم طيبة نفوسكم مجتهدين له في خدمة تقابلون بها إحسانه متقربين إليه بمناصحة تحظيكم عند الله سبحانه عاملين بشرائط البيعة المأخوذة على أمثالكم الذين يتبعون في فعلهم ويقع الإجماع بمثلهم ولكم على أمير المؤمنين أن يكون بكم رحيماً وعن الصغائر متجاوزاً كريماً وبالكافة رؤوفاً رفيقاً وعلى الرعايا عطوفاً شفيقاً وأن يصفح عن المسيء ما لم يأت كبيرة ويبالغ في الإحسان إلى من أحسن السيرة ويولي من الإفضال ما يستخلص الضمائر ويسبغ من الإنعام ما يقتضي نقاء السرائر وأمير المؤمنين يسأل الله أن يعرفكم بركة إمامته ويمن خلافته وأن يجعلها ضامنةً بلوغ المطالب كافلةً لكافتكم بسعادة المبادئ والعواقب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المذهب الثالث أن تفتتح البيعة بعد البسملة بخطبة مفتتحة بالحمد لله ثم يؤتى بالبعدية ويتخلص إلى المقصود وقد يذكر السلطان القائم بها وقد لا يذكر وعلى ذلك كانت تكتب بيعات خلفاء بني أمية بالأندلس ومن ادعى الخلافة ببلاد المغرب وهذه نسخة بيعةٍ كتب بها طاهرٌ الأندلسي في أخذ البيعة على أهل دانية من الأندلس للرشيد بن المأمون الأموي وهو منتصبٌ في الخلافة لخلف توهمه من الرعية اقتصر فيها على الحمد لله الذي أسبغ إنعامه باطناً وظاهراً وسوغ إفضاله هاملاً وهامراً وأعجز عن وصف إحسانه ناظماً وناثراً وقهر الخلق ناهياً وآمراً وتعالى جده فلا ترى له مضاهياً ولا مظاهراً ولا موازياً ولا موازراً ونصر الحق وكفى به ولياً وكفى به ناصراً وجعل جد المطيع صاعداً وجد العصي عاثراً وحذر من الخلاف بادياً وحاضراً وماضياً وغابراً.

نحمده سبحانه على نعمه حمد من أصبح لعلق الحمد ذاخراً ونشكره على مننه ولن يعدم المزيد منه شاكراً ونضرع إليه أن يجعل حظنا من بركة الاعتصام وافراً ووجه نيتنا في الانتظام سافراً وأن يمنح أولياءه النصر ظاهراً والفتح باهراً وأعداءه

الرعب شاجياً والرمح شاجراً ونشهد أن لا إله إلا الله شهادة من أقر له بالوحدانية صاغراً وأضحى لأوامره ممتثلاً ولنواهيه محاذراً ونسأله أن يجعل حزب الإيمان ظافراً ويمده بنصره طالباً للثار ثائراً وصلى الله على سيدنا محمدٍ رسوله الذي انتخبه من صفوة الصفوة كابراً فكابراً وجعله بالفضيلة أولاً وبالرسالة آخراً فأيقظ بالدعاية ساهياً وناسياً وسكن بعد الإبانة منافياً ومنافراً وأذهب بنوره ليلاً من الجهالة ساتراً وقام بجهاد الكفرة ليثاً خادراً وباشر بنفسه المكاره دارعاً وحاسراً وشهد بدراً مبادراً وحنيناً منذراً بالخبر ناذراً وظهر عليهم في كل المشاهد غالباً وما ظهروا نادراً وعلى آله وأصحابه الذين منهم صاحبه وخليفته المعلومة رأفته أبو بكر الذي اقتحم لهول الردة مصابراً وسل في قتال الروم أهل الجلد والشدة سيفاً باتراً ومنهم القوي في ذات الله عمر الذي أصبح به ربع الإسلام عامراً ولم يخش في الله عاذلاً ولم يرج غادراً ومنهم الأصدق حياءً عثمان ملاقي البلوى صابراً والخفر الذي لم ير للأذمة خافراً ومنهم أقضاهم علي الذي قاتل باغياً وكافراً وبات لخوف الله ساهراً ورضي الله عن الإمام المهدي الذي أطلعه نوراً باهراً وبحراً للعلم زاخراً وأتى به والضلال يجر رسنه سادراً والباطل يثبت وينفي وارداً وصادراً فجدد رسم الحق وكان داثراً وقام بآرائه علماً هادياً وقرماً هادراً وعن الخلفاء الراشدين المرشدين من أصبح حائداً عن الحق جائراً المجاهدين خاتلاً بالعهد خاتراً.

أما بعد فإن الله سبحانه جعل الإمامة للناس عصمة ومنجاةً من ريب الالتباس ونعمة بها تتمهد عمارة الأرض ويتجدد صلاح الكل والبعض ولولاها ظهر الخلل واختلط المرعي والهمل وارتكبت المآثم واستبيحت المحارم واستحلت المظالم وانتقم من المظلوم الظالم وفسد الائتلاف وافترق النظام وتساوى الحلال والحرام فاختار لأمرهم رعاةً أمرهم بالعدل فعدلوا وبالتواصل في ذات الله والتقاطع فقطعوا في ذات الله ووصلوا وعدلوا بين أهليهم وأقربيهم فيما ولوا ونهضوا بأعباء الكفاية والحماية واستقلوا وألزمهم الاتفاق والانقياد وحظر عليهم الانشقاق والعناد فملكوا بأزمة العقل قياد الأمور وأشرقت بسيرتهم المباركة أقاصي المعمور وشاهد الناس فواضل إمامهم وتبينوا من سيرتهم العادلة علو محلهم في الخلائف ومقامهم ولم يطرق في مدتهم للإسلام جناب ولا اقتحم له باب وأنى وسيوفهم تقطر من دماء الأعداء وبلادهم ساكنة الدهماء والكفرة بالرعب المخامر والداء العياء وأهل الإيمان يرجون ذيول العزائم وعبدة الصلبان يعثرون في ذيل الهوان الدائم إلى أن عدمت الأرض منهم بحارها الزواخر وأنوارها البواهر ورأت بعدهم العيون الفواقيء والمتون الفواقر واكفهر وجه اللأواء وتفرقت الفرق بحسب الأهواء وسفكت الدماء وركبت المضلة العمياء واحتقبت الجوائر وأهمل الشرع والشعائر ثم إن الله تعالى أذن في كشف الكرب وأطلع بالغرب نوراً ملأ الدلو إلى عقد الكرب وهو النور الذي أضاء للبصائر والأبصار وطلع على الآفاق طلوع النهار وذخرت أيامه السعيدة لدرك الثار وكلفت به الخلافة وطال بها كلفه وقام بالإمامة مثل ما قام بها الخلفاء الراشدون سلفه وذلك هو الخليفة الإمام أمير المؤمنين الرشيد بالله ابن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين وخلد في عقبهم الإمامة إلى يوم الدين وهو الأسد الهصور ومن أبوه المأمون وجده المنصور العريق في الخلافة والحقيق بالإمامة والإنافة فجمع ما افترق ونظم الأمور ونسق ومنع الحوزة أن تطرق والملة أن تفترق أو تفرق.

وهذه نسخة بيعةٍ كتب بها أبو المطرف بن عميرة الأندلسي بأخذ البيعة على أهل شاطبة من الأندلس لأبي جعفر المستنصر بالله العباسي قام بعقدها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هودٍ صاحب الأندلس ثم أخذ البيعة بعد ذلك عليهم لنفسه وأن يكون ابنه ولي عهده بعده وهي: الحمد لله الذي جعل الأرض قراراً وأرسل السماء مدراراً وسخر ليلاً ونهاراً وقدر آجالاً وأعماراً وخلق الخلق أطواراً وجعل لهم إرادةً واختياراً وأوجد لهم تفكراً واعتباراً وتعاهدهم برحمته صغاراً وكباراً.

نحمده حمد من يرجو له وقاراً ونبرأ ممن عانده استكباراً وألحد في آياته سفاهةً واغتراراً وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نجاراً السامي فخاراً فرفع الله من شريعته للأمة مناراً وأطفأ برسالته للشرك ناراً حتى علا الإسلام مقداراً وعز جاراً وداراً وأذعن الكفر اضطراراً واستسلم ذلة وصغاراً فمضى وقد ملأ البسيطة أنواراً وعمها بدعوته أنجاداً وأغواراً وأوجب لولاة العهد بعده طاعةً وأتماراً فجزاه الله أفضل ما جزى نبياً مختاراً ورسولاً اجتباه اختصاصاً وإيثاراً صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثاراً واختباراً وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وأنصاراً صلاةً نواليها إعلاناً وإسراراً ونرجو بها مغفرة ربنا إنه كان غفاراً.

أما بعد فإن المستأثر بالدوام اللطيف بالأنام أنشأهم على التغاير والتباين واضطرهم إلى التجاور والتعاون وجعل لهم مصلحة الاشتراك ومنفعة الالتحام والاشتباك طريقاً إلى الأفضل في حياتهم والأسعد لغاياتهم وبعث النبيين مرغبين ومحذرين ومبشرين ومنذرين فأدوا عنه ما حمل وبينوا ما حرم وحلل وكان أعمهم دعوة وأوثقهم عروة وأعلاهم في المنزلة عند ذروة وأعطفهم للقلوب وهي كالحجارة أو أشد قسوة المخصوص بالمقام المحمود والحوض المورود وشفاعة اليوم المشهود ولواء الحمد المعقود صلى الله عليه وعلى آله وسلم أفضل صلاة تفضي إلى الظل الممدود وتبلغنا من شفاعته أفضل موعود بعثه الله للأحمر والأسود والأدنى والأبعد فصدع بأمره وظلام الليل غير منجاب والداعي إلى الله غير مجاب وأهل الجاهلية كثيرٌ

عددهم شديدٌ جلدهم بعيدٌ في الضلالة والغواية أمدهم فسلك من هدايتهم سبيلاً وصبر لهم صبراً جميلاً يحب صلاحهم وهم العدو ويلين لهم إذا جد بهم العتو ويجهد في أظهار دينه ولدين الله الظهور والعلو حتى انقادوا بين سابق سبقت له السعادة ولاحق تداركته المشيئة والإرادة ولما رفعت راية الإسلام وشفعت حجة الكتاب حجة الإسلام ودعي الناس إلى التزام الأحكام ونهوا عن الاستقسام بالأزلام أخبتوا إلى الرب المعبود وأشفقوا من تعدي الحدود ووعظوا في الأيمان والعهود فأتمروا للشرع حين أمر وخافوا وخامة من إذا عاهد غدر فكان الرجل يدع الخوض فيما لا يعلمه ويترك حقه لأجل يمين تلزمه وشرعت الأيمان في كل فنٍ بحسب المحلوف عليه وعلى قدر الحاجة إليه فواحدةٌ في المال لحق الأداء وأربعٌ مخمسةٌ عند ملاعنة النساء وخمسون انتهي إليها في أحكام الدماء فتوثق للحدود على مقاديرها وجرت أمور العبادات والمعاملات على أفضل تقديرها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والعدل قائم والشرع على القوي والضعيف حاكم والرب جل جلاله بما تخفي الصدور عالم وقام بعده الخلفاء الأربعة أركان الدين وأعضاد الحق المبين يحملون الناس على سننه الواضح وينفذون أمور المصالح ويتفقهون في الأحكام وقوفاً مع الظاهر وترجيحاً للراجح وكانوا يتوقفون في بعض الأحيان ويطلبون للشبه وجه البيان ويستظهرون على تحقيق كثيرٍ من الوقائع بالأيمان حتى كان عليٌ كرم الله وجهه يستثبت في الدراية ويستحلف الراوي على الرواية وما أنكر ذلك أحدٌ ولا أعوزه من الشرع مستند رضي الله عنهم أئمةٌ بالعدل قضوا وعلى سبيله مضوا والسيرة الجليلة تخيروا وارتضوا وعن سيد الأنام ومستنزل در الغمام عم نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام الحامي الحدب والمعقل الأشب والغيث الهامل المنسكب أبي الفضل العباس بن عبد المطلب وعن الفائزين بالرتبة الكريمة والصحبة القديمة والمناقب العظيمة بدور الظلام وبحور الحكم وصدور أندية الفضل والكرم وسائر صحابه عليهم السلام الذين أسلموا على عمره وأسلفوا جداً في نصره وأدركوا من بركة عيانه وزمانه ما لا مدرك لحصره كرم الله مآبهم وأجزل ثوابهم وشكر لهم صبرهم واحتسابهم فلقد عقدوا نية الصدق عند قيامهم لأداء فريضة الإطاقة واستباحوا صلاة الشكر حين رفعوا حدث الردة وأراقوا سؤر الشرك وقد استحق بنجاسته الإراقة وابتزوا كسرى زينته فأبرزوها على سراقة فرأوا عياناً ما أخبر به سيد المرسلين وملكوا ما زوي له منها فاطلع عليه بحقه المبين وذهبوا فأظلمت الأرض من بعدهم وتنكرت المعارف لفقدهم واختلط الهمل والمرعي وتشابه الصريح والدعي وثارت الفتن من كل جانب وصارت الحقوق نهبة كل ناهب ولما برحت العهود وتعديت الحدود بلغ الوقت المحدود وطلعت ببياض العدل الرايات السود تحتها سادات الناس وذادة موقف الباس وشهب اليوم العماس ونجب البيت الكريم من بني العباس فأعادوا إلى الأمر رونقه ونفوا عن الصفو رنقه وحموا حرم المسلمين وأحيوا سنة ابن عمهم سيد المرسلين فأصبحت الأمور مضبوطة والثغور محوطة والسبل آمنة والرعية في ظل العدل والأمن ساكنة وكان الناس قبلهم قد ركبوا الصعب والذلول وامتطوا الحزن والسهول فوثقوا منهم بطاعتهم واستحلفوهم على بيعاتهم ذلك بأنهم ألزموهم منها واجباً على القطع لازماً بإلزام الشرع ووجدوا لمصلحة الارتباط بالأيمان شواهد من الآثار المنقولة والأصول المقبولة ومن أعطى من نفسه كل ما عليها وراعى جملة المصالح وكل ما تطرق إليها فكيف لا يكون في سعةٍ من هذا التكليف المستند إلى الآثار الشرعية الداخل في أقسام المصالح المرعية كما سلف من الأئمة المهتدين آباء أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ابن عم سيدنا وسيد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

لما دعا الناس بالمملكة الفلانية حماها الله إلى حجتهم القوية وإمرتهم الهاشمية مجاهد الدين بسيف أمير المؤمنين جمال الإسلام مجد الأنام تاج خواص الإمام فخر ملوكه شرف أمرائه المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود أسعد الله أيامه ونصر أعلامه وقام لذلك متوحداً المقام الكريم مشمراً عن ساعد التصميم ماضياً على الهول مضاء الحسام القاضب غاضباً لأمر الله ورضاه على غاية هذا الغاضب مالت إليه الأجياد وانثالت عليه البلاد فانتظمها مدينةٌ مدينة وجعل التوكل على الله سبحانه شريعةٌ منيعة وذريعةٌ معينة وتقدم - أيده الله - بأخذ البيعة على نفسه وعلى أهل الملة قاطبةً للقائم بأمر الله سيدنا ومولانا الخليفة الإمام المستنصر بالله أبي جعفر أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين وكان له في ذلك المرام السعيد والمقام الحميد والقدم الذي رضي إبداءه وإعادته المبدئ المعيد وخاطب الديوان العزيز النبوي - خلد الله شرفه - متضرعاً لوسائل خدمته متعرضاً لعواطف رحمته وبعث رسوله على أصدق رجاءً في القبول وأثبت أملٍ في الإسعاف بالمأمول وأثناء هذه الإرادة القويمة والسعادة الكريمة تفاوض أهل البلاد في توثيق عقدهم للسلطان فلان المشار إليه الذي هو حكم من أحكام الإجماع المنعقد وأصلٌ أفضى إليه نظر الناظر واجتهاد المجتهد إذ أجالوا الأمر فيما يزيده وثاقة ويكسو وجهه على الأيام بشراً وطلاقة ويجعل القلوب مطمئنةً برسوخه في الأعقاب وثبوته على الأحقاب فلم يروا رأياً أسد ولا عملاً أحصف وأشد من أن يطلبوه بعقد البيعة لابنه الواثق بالله المعتصم به أبي بكر محمد بن مجاهد الدين سيف أمير المؤمنين على أن يكون ولي عهدهم مدة والده مد الله في حياته وأميرهم عند الأجل الذي لا بد من موافاته فأمضى لهم ذلك من اتفاقهم وأثبتوا على ما شرطته بيعته في أعناقهم.

وبعد ذلك أتى صولة الإسلام وصلة دار السلام وورد رسول مثابة الجلالة ونيابة الرسالة وملتزم الملائك ومعتصم الممالك ومعه الكتاب الذي هو نصٌ أغنى عن القياس بل هو نورٌ يمشي به في الناس وأدى إلى السلطان فلان المشار إليه من تشريف

الديوان العزيز النبوي ما وسمه من الفخار بأجل وسمه وقلده السيف الصارم وسماه باسمه فتلاقى السيفان المضروب والضارب واشتبه الوصفان الماضي والقاضب وبرزت تلك الخلع فابيض وجه الإسلام من سوادها ووضع الكتاب فكادت المنابر تسعى إليه شوقاً من أعوادها وقرئت وصايا الإمام على الأنام فعلموا أنها من تراث الرسالة وقالوا: كافل الإسلام جدد له بهذا الصقع الغربي حكم الكفالة وسمعوا من التقدم بإنصافهم والتهمم بمواسطهم وأطرافهم جملاً عفروا لها الجباه جوداً بالجهد وسجدوا للشكر والحمد فأدركوا من بركة المشاهد أثبت شرفٍ وأبقاه ورأوا حقيقة ما كادت الأوهام تزول عن مرقاه وازدادوا يقيناً بفضل ما صاروا إليه ورأوا عياناً يمن ما بايعوا عليه فتوافت طوائفهم المتبوعة وجماهيرهم المجموعة بداراً إلى المراضي الشريفة وبناءً على وصايا عهد الخليفة أن يجددوا البيعة لمجاهد الدين سيف أمير المؤمنين تولى الله عضده ولابنه الواثق بالله المعتصم به أنهضه الله بإمرته بعده ولم تعد أن تكونالزيادة الطارئة شرطاً في تقرير الإمرة المؤداة وإثباتها أو جاريةً مجرى السنن التي يؤمر المصلي بالإعادة عند فواتها فأعادوا بيعته أداءً للفريضة ورجاءً للفضيلة واستندوا إلى الإشارات الجليلة بعد الاستخارات الطويلة ورأوا أن يأخذوا بها عادة البيعات العباسية واتخاذ حكم الأصل طريق الألحاقات القياسية فبايعوا على تذكرٍ بيعةً أكدوها بالعهود المستحفظة ووثقوها بالأيمان المغلظة وبادروا بها نداء مناديهم وأعطوا على الإصفاق بها صفقة أيديهم.

ولما انتهى ذلك إلى الملإ من أهل فلانة وجهاتها رأوا أن يحلف من سبق ويصدقوا النية مع من صدق ويعقدوا ما عقدوا على ما صرح به العهد الشريف ونطق فحضر منهم العلماء والصلحاء والأجناد والوزراء والفقهاء والكافة على تباينهم في المراتب وتفاوتهم في المناصب واختلافهم في المواطن والمكاسب فأمضوها بيعة كريمة المقاصد سليمة المعاقد عهدها محكم وعقده مبرم وموجبها طاعةٌ وسمع والتقيد بها سنة وشرع ويعمرون بها أسرارهم ويفنون عليها أعمارهم ويدينون بها في عسر ويسر وربح وخسر وضيق ورفاهية ومحبة وكراهية تبرعوا بذلك كله طوعاً واستوفوه فصلاً فصلاً ونوعاً نوعاً وعاهدوا عليها الذي يعلم السر وأخفى وأضمروا منها على ما أبر على الظاهر وأوفى وتقبلوا من الوفاء به ما وصف الله به خليله إذ قال: " وإبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى " وأقسموا بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم وبما أخذه على أنبيائه الكرام من العهود المؤكدة والمواثيق المشددة على أنهم إن حادوا عن هذه السبيل وانقادوا لداعي التحريف والتبديل فهم برآء من حول الله وقوته إلى حولهم وقوتهم تاركون ذمته الوافية لذمتهم والأيمان كلها لازمةٌ لهم على مذهب إمام دار الهجرة وطلاق كل امرأةٍ في ملك كل واحدٍ منهم لازمٌ لهم ثلاثاً وأيما امرأةٍ تزوجها في البلاد الفلانية فطلاقها لازمٌ له كلما تزوج واحدٌ منهن واحدةً خرجت طالقاً ثلاثاً وعلى كل واحدٍ منهم المشي إلى بيت الله الحرام على قدميه محرماً من منزله بحجةٍ كفارةً لا تجزيء عن حجة الإسلام وعبيدهم وأرقاؤهم عتقاء لاحقون بأحرار المسلمين وجميع أموالهم عيناً وعرضاً حيواناً وأرضاً وسائر ما يحويه المتملك كلاً وبعضاً صدقةٌ لبيت مال المسلمين حاشى عشرة دنانير.

كل ذلك على أشد مذاهب الفتوى وألزمها لكلمة التقوى وأبعدها من مخالفة الهوى والظاهر والفحوى أرادوا بذلك رضا الخلافة الفلانية والفلانية بلقبي السلطنة للسلطان وولده المأخوذ لهما البيعة بعد بيعته وأشهدوا الله على أنفسهم وكفى بذلك اعتزاماً والتزاماً وشداً لما أمر به وإحكاماً: و " فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّما يَنْكُثُ على نَفْسِه " . "" ومَنْ يفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أثاماً

وهم يرفعون دعاءهم إلى الله تضرعاً واستسلاماً ويسألونه عصمةً وكفاية افتتاحاً واختتاماً اللهم إنا قد أنفذنا هذا العقد اقتداءً واهتماماً وقضينا حقه إكمالاً وإتماماً وأسلمنا وجهنا إليك إسلاماً فعرفنا من خيره وبركته نماءً ودواماً وأكلأنا بعينك حركةً وسكوناً ويقظةً ومناماً و إنك أنت الله منتهى الرغبات ومجيب "" هَبْ لَنَا مِنْ أزْواجِنا وذُرِّيَّاتنا قُرَّةَ أعْيُنٍ وأجْعَلنا للمتَّقِينَ إماماً الدعوات وإله الأرض والسموات.

وهذه نسخة بيعة مرتبة على موت خليفة أنشأتها على هذه الطريقة لموافقتها رأي كتاب الزمان في افتتاح عهود الملوك عن الخلفاء بالحمد لله كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى وتعرضت فيها إلى قيام سلطان بعقدها لمطابقة ذلك لحال الزمان وهي: الحمد لله الذي جعل الأمة المحمدية أبذخ الأمم شرفاً وأكرمها نجاراً وأفضلها سلفاً وجعل رتبة الخلافة أعلى الرتب رتبةً وأعزها كنفاً وخص الشجرة الطيبة من قريش بأن جعل منهم الأئمة الخلفا وآثر الأسرة العباسية منها بذلك دعوةٌ سبقت من ابن عمهم المصطفى وحفظ بهم نظامها على الدوام فجعل ممن سلف منهم خلفاً.

نحمده على أن هيأ من مقدمات الرشد ما طاب الزمان به وصفا وجدد من رسوم الإمامة بخير إمامٍ ما درس منها وعفا وأقام للمسلمين إماماً تأرج الجو بنشره فأصبح الوجود بعرفه معترفاً.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلص تمسك بعهدها فوفى وأعطاها صفقة يده للمبايعة فلا يبغي عنها مصرفاً وأن محمداً عبده ورسوله الذي تدارك الله به العالم بعد أن أشفى فشفى ونسخت آية دينه الأديان وجلا بشرعته المنيرة من ظلمة الجهل سدفاً وجعل مبايعه مبايعاً لله يأخذه بالنكث ويوفيه أجره على الوفا صلى الله عليه وعلى آله الأطهار وعترته الشرفا ورضي الله عن أصحابه الذين ليس منهم من عاهد الله فغدر ولا واد في الله فجفا خصوصاً من جاء بالصدق وصدق به فكان له قرابةٌ وصفوة الصفا والمرجوع إليه في البيعة السقيفة بعدما اشرأبت نحوها نفوسٌ كادت تذوب عليها أسفاً والقائم في قتال أهل الردة من بني حنيفة حتى استقاموا على الحنيفة حنفا ومن استحال دلو الخلافة في يده غرباً فكان أفيد عبقري قام بأمرها فكفى وعمت فتوحه الأمصار وحملت إليه أموالها فلم يمسكها إقتاراً ولم يبذر فيها سرفاً.

ومن كان فضله لسهم الاختيار من بين أصحاب الشورى هدفاً وجمع الناس في القرآن على صحيفةٍ واحدةٍ وكانت قبل ذلك صحفاً ومن سرى إليه سر: " أما تَرْضى أنْ تكُون منِّي بمنزلة هارُون من مُوسى " فغدا يجر من ذيل الفخار سجفاً واستولى على المكارم من كل جانبٍ فحازَ أطْرافَها طَرَفاً طَرَفاً وعلى سائر الخلفاء الراشدين بعدهم ممن سلك سبيل الحق ولطريق الهدى اقتفى صلاةً ورضواناً يذهبان الداء العضال من وخامة الغدر ويجلبان الشفا ويرفعان قدر صاحبهما في الدنيا ويبوئان منتحلهما من جنات النعيم غرفاً.

أما بعد فإن عقد الإمامة لمن يقوم بأمر الأمة واجبٌ بالإجماع مستندٌ لأقوى دليلٍ تنقطع دون نقضه الأطماع وتنبو عن سماع ما يخالفه الأسماع إذ العباد مجبولون على التباين والتغير مطبوعون على التحالف والتناصر مضطرون إلى التعاون والتجاور مفتقرون إلى التعاضد والتوازر فلا بد من زعيم يمنعهم من التظالم ويحملهم على التناصف في التداعي والتحاكم ويقيم الحدود فتصان المحارم عن الانتهاك وتحفظ الأنساب عن الاختلاط والاشتراك ويحمي بيضة الإسلام فيمنع أن تطرق ويصون الثغور أن يتوصل إليها أو يتطرق ليعز الإسلام داراً ويطمئن المستخفي ليلاً ويأمن السارب نهاراً ويذب عن الحرم فتحترم ويذود عن المنكرات فلا تغشى بل تصطلم ويجهز الجيوش فتنكأ العدو وتغير على بلاد الكفر فتمنعهم القرار والهدو ويرغم أنف الفئة الباغية ويقمعها ويدغم الطائفة المبتدعة ويردعها ويأخذ أموال بيت المال بحقها فيطاوع ويصرفها إلى مستحقها فلا ينازع لا جرم اعتبر للقيام بها أكمل الشروط وأتم الصفات وأكرم الشيم وأحسن السمات.

وكان السيد الأعظم الإمام النبوي سليل الخلافة وولي الإمامة أبو فلان فلان العباسي المتوكل على الله مثلاً أمير المؤمنين سلك الله تعالى به جدد آبائه الراشدين هو الذي جمع شروطها فوفاها وأحاط منها بصفات الكمال واستوفاها ورامت به أدنى مراتبها فبلغت إلى أعياها وتسور معاليها فرقي إلى أعلاها واتحد بها فكان صورتها ومعناها - وكانت الإمامة قد تأيمت ممن يقوم بأعبائها وعزت خطابها لقلة أكفائها فلم تلف لها بعلاً يكون لها قريناً ولا كفئاً تخطبه يكون لديها مكيناً إلا الإمام الفلاني المشار إليه فدعته لخطبتها وهي بيت عرسه " وَرَاوَدَتْهُ الَّتي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِه " فأجاب خطبتها ولبى دعوتها لتحققه رغبتها إليه وعلمه بوجوب إجابتها عليه إذ هو شبلها الناشئ بغابها وغيثها المستمطر من سحابها بل هو أسدها الهصور وقطب فلكها الذي عليه تدور ومعقلها الأمنع الحصين وعقدها الأنفس الثمين وفارسها الأروع وليثها الشهير وابن بجدتها الساقطة منه على الخبير وتلادها العليم بأحوالها والجدير بمعرفة أقوالها وأفعالها وترجمانها المتكلم بلسانها وعالمها المتفنن في أفنانها وحين بلغت من القصد سولها ونالت بالإجابة منه مأمولها وحرم على غيره أن يسومها لذلك تلويحاً أو يعرج على خطبتها تعريضاً وتصريحاً احتاجت إلى ولي يوجب عقدها وشهودٍ تحفظ عهدها فعندها قام السلطان الأعظم الملك الفلاني بالألقاب السلطانية إلى آخرها خلد الله سلطانه ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه فانتصب لها ولياً وأقام يكفر في أمرها ملياً فلم يجد أحق بها منه فتجنب عضلها فلم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها فجمع أهل الحل والعقد المعتزين للاعتبار والعارفين بالنقد من القضاة والعلماء وأهل الخير والصلحاء وأرباب الرأي والنصحاء فاستشارهم في ذلك فصوبوه ولم يروا العدول عنه إلى غيره بوجهٍ من الوجوه فاستخار الله تعالى وبايعه فتبعه أهل الاختيار فبايعوا وانقادوا لحكمه وطاوعوا فقابل عقدها بالقبول بمحضر من القضاة والشهود فلزمت ومضى حكمها على الصحة وانبرمت.

ولما تم عقدها وطلع بصبح اليمن سعدها التمس المقام الشريف السلطاني الملكي الفلاني المشار إليه أعلى الله شرف سلطانه ورفع محله وقرن بالتوفيق في كل أمرٍ عقده وحله أن يناله عهدها الوفي ويرد منها موردها الصفي ليرفع بذلك عن أهل الدين حجباً ويزداد من البيت النبوي قرباً فتعرض لنفحاتها من مقراتها وتطلب بركاتها من مظناتها ورغب إلى أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين أن يجدد له بعهد السلطنة الشريفة عقداً ويأخذ له على أهل البيعة بذلك عهداً ويستحلفهم على الوفاء لهما بما عاهدوا والوقوف عندما بايعوا عليه وعاقدوا ليقترن السعدان فيعم نوءهما ويجتمع النيران فيبهر ضوءهما فلباه تلبية راغب وأجابه إجابة مطلوبٍ وإن كان هو الطالب وعهد إليه في كل ما تقتضيه أحكام إمامته في الأمة عموماً وشيوعاً وفوض له حكم الممالك الإسلامية جميعاً وجعل إليه أمر السلطنة المعظمة بكل نطاق وألقى إليه مقاليدها

وصرفه فيها على الإطلاق وأقامه في الأمة لعهد الخلافة وصياً وجعله للإمامة بتفويض الأمر إليه ولياً ونشر عليه لواء الملك وقلده سيفه العضب وألبسه الخلعة السوداء فابيض من سوادها وجه الشرق والغرب وكتب له بذلك عهداً كبت عدوه وزاد شرفه وضاعف سموه وطولب أهل البيعة بالتوثيق على البيعتين بالأيمان فأذعنوا واستحلفوا على الوفاء فبالغوا في الأيمان وأمعنوا وأقسموا بالله جهد أيمانهم بعد أن أشهدوا الله عليهم في إسرارهم وإعلانهم وأعطوا المواثيق المغلظة المشددة وحلفوا بالأيمان المؤكدة المعقدة على أنهم إن أعرضوا عن ذلك أو أدبروا وبدلوا فيه أو غيروا أو عرجوا عن سبيله أو حادوا أو نقصوا منه أو زادوا فكلٌ منهم بريء من حول الله وقوته إلى حول نفسه وقوته وخارجٌ من ذمته الحصينة إلى ذمته وكل امرأةٍ في نكاحه أو يتزوجها في المستقبل فهي طالقٌ ثلاثاً بتاتاً وكلما راجعها فهي طالقٌ طلاقاً لا يقتضي إقامة ولا ثباتاً وكل مملوكٍ في ملكه أو يملكه في المستقبل حرٌ لاحقٌ بأحرار المسلمين وكل ما ملكه أو يملكه من جماد وحيوانٍ صدقةٌ عليه للفقراء والمساكين وعليه الحج إلى بيت الله الحرام والوقوف بعرفة وسائر المشاعر العظام محرماً من دويرة أهله ماشياً حاسراً عن رأسه وإن كان به أذًى حافياً يأتي بذلك في ثلاثين حجة متتابعةً على التمام لا تجزئه واحدةٌ منها عن حجة الإسلام وإهداء مائة بدنٍ للبيت العتيق كل سنةٍ على الدوام وعليه صوم جميع الدهر إلا المنهي عنه من الأيام وأن يفك ألف رقبةٍ مؤمنةٍ من أسر الكفر في كل عام يمين كلٍ منهم في ذلك على نية أمير المؤمنين وسلطان المسلمين في سره وجهره وأوله وآخره لا نية للحالف في ذلك في باطن الأمر ولا في ظاهره لا يوري في ذلك ولا يستثني ولا يتأول ولا يستفتي ولا يسعى في نقضها ولا يخالف فيها ولا في بعضها متى جنح إلى شيءٍ من ذلك كان آثماً وما تقدم من تعقيد الأيمان له لازماً لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ولا يجزئه عن ذلك كفارةٌ أصلاً كل ذلك على أشد المذاهب بالتخصيص وأبعدها عن التساهل والترخيص.

وأمضوها بيعةً ميمونة باليمن مبتدأةً بالنجح مقرونة وأشهدوا عليهم بذلك من حضر مجلس العقد من الأئمة الأعلام والشهود والحكام وجعلوا الله تعالى على ما يقولون وكيلاً فاستحق عليهم الوفاء بقوله عزت قدرته: " وأَوْفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهَدْتُمْ ولا تَنْقُضُوا الأيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُم كَفِيلاً ".

وهم يرغبون إلى الله تعالى أن يضاعف لهم بحسن نيتهم الأجور ويلجأون إليه أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالى إليه بقوله: " الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهمْ في الأرض أقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاة وأمَرُوا بالمَعْرُوفِ ونَهَوْا عن المُنْكَرِ ولله عاقِبَةُ الأُمُور ".

إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة بيعةٍ مرتبة على خلع خليفةٍ أنشأتها على هذه الطريقة أيضاً وتعرضت فيها لذكر السلطان القائم بها على ما تقدم في البيعة المرتبة على موت خليفةٍ وهي: الحمد لله الذي جعل بيت الخلافة مثابةً للناس وأمناً وأقام سور الإمامة وقايةً للأنام وحصناً وشد لها بالعصابة القرشية أزراً وشاد منها بالعصبة العباسية ركناً وأغاث الخلق بإمام هدًى حسن سيرةً وصفا سريرةً فراق صورةً ورق معنى وجمع قلوبهم عليه فلم يستنكف عن الانقياد إليه أعلى ولا أدنى ونزع جلبابها عمن شغل بغيرها فلم يعرها نظراً ولم يصغ لها أذناً وصرف وجهها عمن أساء فيها تصرفاً فلم يرفع بها رأساً ولم يعمر لها مغنى.

نحمده على نعم حلت للنفوس حين حلت ومنن جلت الخطوب حين جلت ومسار سرت إلى القلوب فسرت ومبار أقرت العيون فقرت وعوارف أمت الخليفة فتوالت وما ولت وقدم صدق ثبتت إن شاء الله في الخلافة فما تزلزلت ولا زلت.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تكون لنا من درك الشكوك كالئة ولمهاوي الشبه دارئة وللمقاصد الجميلة حاوية ولشقة الزيغ والارتياب طاوية وأن محمداً عبده ورسوله الذي نصح الأمة إذ بلغ فشفى عليلها وأوردها من مناهل الرشد ما أطفأ وهجها وبرد غليلها وأوضح لهم مناهج الحق ودعاهم إليها وأبان لهم سبل الهداية: " فَمنِ اهْتَدى فإنَّما يَهْتَدِي لنَفْسِهِ ومَنْ ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عليها " صلى الله عليه وعلى آله أئمة الخير وخير الأئمة ورضي عن أصحابه أولياء العدل وعدول الأمة صلاةً ورضواناً يعمان سائرهم ويشملان أولهم وآخرهم سيما الصديق الفائز بأعلى الرتبتين صدقاً وتصديقاً والحائز قصب السبق في الفضيلتين علماً وتحقيقاً ومن عدل الأنصار إليه عن سعد بن عبادة بعد ما أجمعوا على تقديمه وبادر المهاجرون إلى بيعته اعترافاً بتفضيله وتكريمه والفاروق الشديد في الله بأساً واللين في الله جانباً والموفي للخلافة حقاً والمؤدي للإمامة واجباً والقائم في نصرة الدين حق القيام حتى عمت فتوحه الأمصار مشارق ومغاربا وأطاعته العناصر الأربعة إذ كان لله طائعاً ومن الله خائفاً وإلى الله راغباً وذي النورين المعول عليه من بين سائر أصحاب الشورى تنويهاً بقدره والمخصوص بالاختيار تفخيماً لأمره من حصر في بيته فلم يمنعه ذلك عن تلاوة كتاب الله وذكره وشاهد سيوف قاتليه عياناً فقابل فتكاتها بجميل صبره وأبي الحسن الذي أعرض عن الخلافة حين سئلها واستعفى منها بعد ما اضطر إليها وقبلها وكشف

له عن حقيقة الدنيا فما أم قبلتها بقلبه ولا ولى وجهه قبلها وصرح بمقاطعتها بقوله: يا صفراء غري غيري يا بيضاء غري غيري لما وصلها من وصلها وسائر الخلفاء الراشدين بعدهم الناهجين نهجهم والواردين وردهم.

أما بعد فإن للإمامة شروطاً يجب اعتبارها في الإمام ولوازم لا يغتفر فواتها في الابتداء ولا في الدوام وأوصافاً يتعين إعمالها وآداباً لا يسع إهمالها من أهمها العدالة التي ملاكها التقوى وأساسها مراقبة الله تعالى في السر والنجوى وبها تقع الهيبة لصاحبها فيجل وتميل النفوس إليها فلا تمل فهي الملكة الداعية إلى ترك الكبائر واجتنابها والزاجرة عن الإضرار على الصغائر وارتكابها والباعثة على مخالفة النفس ونهيها عن الشهوات والصارفة عن انتهاك حرمات الله التي هي أعظم الحرمات والموجبة للتعفف عن المحارم والحاملة على تجنب الظلامات ورد المظالم والشجاعة التي بها حماية البيضة والذب عنها والاستظهار بالغزو على نكاية الطائفة الكافرة والغض منها والقوة بالشوكة على تنفيذ الأوامر وإمضائها وإقامة الحدود واستيفائها ونشر كلمة الحق وإعلائها ودحض كلمة الباطل وإخفائها وقطع مادة الفساد وحسم أدوائها والرأي المؤدي إلى السياسة وحسن التدبير والمغني في كثيرٍ من الأماكن عن مزيد الجد والتشمير والمعين في خدع الحرب ومكايده والمسعف في مصادر كل أمر وموارده.

هذا وقد جعلنا الله أمةً وسطاً ووعظنا بمن سلف من الأمم ممن تمرد وعتا أو تجبر وسطا وعصم أمتنا أن تجتمع على الضلال وصان جمعنا عن الخطل في الفعال والمقال وندبنا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسوغ لأئمتنا الاجتهاد في النوازل والأحكام فاجتهادهم لا ينكر خصوصاً في شأن الإمامة التي هي آكد أسباب المعالم الدينية وأقواها وأرفع المناصب الدنيوية وأعلاها وأعز الرتب رتبةً وأغلاها وأحقها بالنظر في أمرها وأولاها.

وكان القائم بأمر المسلمين الآن فلان بن فلان الفلاني ممن حاد عن الصراط المستقيم وسلك غير النهج القويم ومال عن سنن الخلفاء الراشدين فأدركه الزلل وقارف المآثم فعاد بالخلل فعاث في الأرض فساداً وخالف الرشد عناداً ومال إلى الغي اعتماداً وأسلم إلى الهوى قياداً قد انتقل عن طور الخلافة وعزيز الإنافة إلى طور العامة فاتصف بصفاتهم واتسم بسماتهم فمنكرٌ يجب عليه إنكاره قد باشره وصديق سوء يتعين عليه إبعاده قد وازره وظاهره إن سلك فسبل التهمة والارتياب أو قصد أمراً نحا فيه غير الصواب منهمكٌ على شهواته منعكفٌ على لذاته متشاغلٌ عن أمر الأمة بأمر بنيه وبناته الجبن رأس ماله وعدم الرأي قرينه في أفعاله وأقواله قد قنع من الخلافة باسمها ورضي من الإمامة بوسمها وظن أن السؤدد في لبس السواد فمال إلى الحيف وتوهم أن القاطع الغمد فقطع النظر عن السيف.

ولما اطلع الناس منه على هذه المنكرات وعرفوه بهذه السمات وتحققوا فيه هذه الوصمات رغبوا في استبداله وأجمعوا على خلعه وزواله فلجأوا إلى السلطان الأعظم الملك الفلاني بالألقاب السلطانية إلى آخرها نصر الله جنوده وأسمى جدوده وأرهف على عداة الله حدوده ففوضوا أمرهم في ذلك إليه وألقوا كلهم عليه فجمع أهل الحل والعقد منهم ومن تصدر إليهم الأمور وترد عنهم فاستخاروا الله تعالى وخلعوه من ولايته وخرجوا عن بيعته وانسلخوا عن طاعته وجردوه من خلافته تجريد السيف من القراب وطووا حكم إمامته كطي السجل للكتاب.

وعندما تم هذا الخلع وانطوى حكمه على البت والقطع التمس الناس إماماً يقوم بأمور الإمامة فيوفيها ويجمع شروطها ويستوفيها فلم يجدوا لها أهلاً ولا بها أحق وأولى وأوفى بها وأملى من السيد الأعظم الإمام النبوي سليل الخلافة وولي الإمامة أبي فلانٍ فلان العباسي الطائع لله مثلاً أمير المؤمنين لا زال شرفه باذخاً وعرنينه الشريف شامخاً وعهد ولايته لعهد كل ولايةٍ ناسخاً فساموه بيعتها فلبى وشاموا برقه لولايتها فأجاب وما تأبى علماً منه بأنها تعينت عليه وانحصرت فيه فلم تجد أعلى منه فتعدل إليه إذ هو ابن بجدتها وفارس نجدتها ومزيل غمتها وكاشف كربتها ومجلي غياهبها ومحمد عواقبها وموضح مذاهبها وحاكمها المكين بل رشيدها الأمين فنهض المقام الشريف السلطاني الملكي الفلاني المشار إليه قرن الله مقاصده الشريفة بالنجاح وأعماله الصالحة بالفلاح وبدر إلى بيعته فبايع وأتم به من حضر من أهل الحل والعقد فتابع وقابل عقدها بالقبول فمضى ولزم حكمها وانقضى واتصل ذلك بسائر الرعية فانقادوا وعلموا صوابه فمشوا على سننه وما حادوا وشاع خبر ذلك في الأمصار وطارت به مخلقات البشائر إلى سائر الأقطار فتعرفوا منه اليمن فسارعوا إلى امتثاله وتحققوا صحته وثباته بعد اضطرابه واعتلاله واستعاذوا من نقصٍ يصيبه بعد تمامه لهذا الخليفة وكماله فعندها أبانت الخلافة العباسية عن طيب عنصرها وجميل وفائها وكريم مظهرها وجادت بجزيل الامتنان وتلا لسان كرمها الوفي على وليها الصادق: هَلْ جزاءُ الإحسانِ إلاَّ الإحْسان فجدد له بالسلطنة الشريفة عهداً وطوق جيده بتفويضها إليه عقداً وجعله وصيه في الدين ووليه في أمر المسلمين وقلده أمر الممالك الإسلامية وألقى إليه مقاليدها وملكه أزمتها وحقق له مواعيدها وعقد له لواءها ونشر عليه أعلامها وصرفه فيها على الإطلاق وفوض إليه أحكامها وألبسه الخلعة السوداء فكانت لسؤدده شعاراً وأسبغ عليه رداءها فكان له دثاراً

وكتب له العهد فسقى المعاهد صوب العهاد ولهج الأنام بذكره فاطمأنت العباد والبلاد وعندما تم هذا الفصل وتقرر هذا الأصل وأمست الرعايا بما آتاهم الله من فضله فرحين وبنعمته مستبشرين طولب أهل البيعة بما يحملهم على الوفاء ويمنع بيعتهم من التكدر بعد الصفاء من توثيق عقدها بمؤكد أيمانها والإقامة على الطاعة لخليفتها وسلطانها فبادروا إلى ذلك مسرعين وإلى داعيه مطعين وبالغوا في المواثيق وأكدوها وشددوا في الأيمان وعقدوها وأقسموا بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة عالم خائنة الأعين وما تخفي الصدور في البدء والإعادة على الوفاء لهما والموالاة والنصح والمصافاة والموافقة والمشايعة والطاعة والمتابعة يوالون من والاهما ويعادون من عاداهما لا يقعدون عن مناصرتهما عند إلمام ملمة ولا يرقبون في عدوهما إلاً ولا ذمة جارين في ذلك على سنن الدوام والاستمرار والثبوت واللزوم والاستقرار على أن من بدل منهم من ذلك شرطاً أو عفى له رسماً أو حاد عن طريقه أو غير له حكماً أو سلك في ذلك غير سبيل الأمانة أو استحل الغدر وأظهر الخيانة معلناً أو مسراً في كله أو بعضه متأولاً أو محتالاً لإبطاله أو نقضه فقد بريء من حول الله المتين وقوته الواقية وركنه الشديد وذمته الوافية إلى حول نفسه وقوته وركنه وذمته.

وكل امرأةٍ في عصمته الآن أو يتزوجها مدة حياته طالقٌ ثلاثاً بصريح لفظ لا يتوقف على نية ولا يفرق فيه بين سنة ولا بدعة ولا رجعة فيه ولا مثنوية وكل مملوك في ملكه أو يملكه في بقية عمره من ذكر أو أنثى حرٌ من أحرار المسلمين وكل ما هو عل ملكه أو يملكه في بقية عمره إلى آخر أيامه من عينٍ أو عرض صدقةٌ للفقراء والمساكين وعليه الحج إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجة بثلاثين عمرةً راجلاً حافياً حاسراً لا يقبل الله منه غير الوفاء بها باطناً ولا ظاهراً وإهداء مائة بدنةٍ في كل حجة منها في عسرته ويسرته لا تجزئه واحدةٌ منها عن حجة الإسلام وعمرته وصوم الدهر خلا المنهي عنه من أيام السنة وصلاة ألف ركعةٍ في كل ليلة لا يباح له دون أدائها غمض ولا سنة لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ولا يؤجر على شيءٍ من ذلك قولاً ولا فعلاً متى ورى في ذلك أو استثنى أو تأول أو استفتى كان الحنث عليه عائداً وله إلى دار البوار قائداً معتمداً في ذلك أشد المذاهب في سره وعلانيته على نية المستحلف له دون نيته وأمضوها بيعةً محكمة المباني ثابتة القواعد كريمة المساعي جميلة المقاصد طيبة الجنى جليلة العوائد قاطعة البراهين ظاهرة الشواهد وأشهدوا على أنفسهم بذلك من حضر مجلس هذا العقد من قضاة الإسلام وعلمائه وأئمة الدين وفقهائه بعد أن أشهدوا الله عليهم وكفى بالله شهيداً وكفى به للخائنين خصيماً: " فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ على نَفْسِهِ ومَنْ أَوْفى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ".

والله تعالى يجعل انتقالهم من أدنى إلى أعلى ومن يسرى إلى يمنى ويحقق لهم بمن استخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى: " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِين آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمَ أَمْناً ".

إن شاء الله تعالى.

المذهب الرابع مما يكتب في بيعات الخلفاء ويصفها ويذكر ما يناسب ثم يعزي بالخليفة الميت ويهنئ بالخليفة المستقر ويذكر في حق كل منهما ما يليق به من الوصف على نحو مما تقدم وهذه نسخة بيعةٍ أنشأها المقر الشهابي بن فضل الله على ما رأيته في الجواهر الملتقطة المجموعة من كلامه للإمام الحاكم بأمر الله أبي القاسم أحمد بن أبي الربيع سليمان المستكفي بالله ابن الإمام الحاكم بأمر الله بعد موت أبيه.

وذكر القاضي تقي الدين بن ناظر الجيش في دستوره أنه إنما عملها تجربةً لخاطره وهي مرتبة على موت خليفة.

ونصها بعد البسملة الشريفة: " إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّما يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ".

هذه بيعة رضوان وبيعة إحسان وبيعة رضاً تشهدها الجماعة ويشهد عليها الرحمن بيعةٌ يلزم طائرها العنق وتحوم بشائرها على الأفق وتحمل أنباءها البراري والبحار مشحونة الطرق بيعةٌ تصلح لنسبها الأمة وتمنح بسببها النعمة وتؤلف بها الأسباب وتجعل بينهم مودةً ورحمة بيعةٌ تجري بها الرفاق وتتزاحم زمر الكواكب على حوض المجرة للوفاق بيعةٌ سعيدةٌ ميمونة بيعةٌ شريفة بها السلامة في الدين والدنيا مضمونة بيعةٌ صحيحةٌ شرعية بيعةٌ ملحوظةٌ مرعية بيعةٌ تسابق إليها كل نية وتطاوع كل طوية وتجمع عليها أشتات البرية بيعةٌ يستهل بها الغمام ويتهلل البدر التمام بيعةٌ متفق على الإجماع عليها والاجتماع لبسط الأيدي إليها انعقد عليها الإجماع وانعقدت صحتها بمن سمع لله وأطاع وبذل في تمامها كل امرئ ما استطاع وحصل عليها

اتفاق الأبصار والأسماع ووصل بها الحق إلى مستحقه وأقر الخصم وانقطع النزاع وتضمنها كتابٌ كريم يشهده المقربون ويتلقاه الأئمة الأقربون.

. " ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ":" الحمدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانا لِهذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أنْ هَدَانَا الله "

وإلينا ولله الحمد وإلى بني العباس.

أجمع على هذه البيعة أرباب العقد والحل وأصحاب الكلام فيما قل وجل وولاة الأمور والأحكام وأرباب المناصب والحكام وحملة العلم والأعلام وحماة السيوف والأقلام وأكابر بني عبد مناف ومن انخفض قدره وأناف وسراوات قريش ووجوه بني هاشم والبقية الطاهرة من بني العباس وخاصة الأئمة وعامة الناس بيعةً ترسى بالحرمين خيامها وتخفق على المأزمين أعلامها وتتعرف عرفاتٌ ببركاتها وتعرف بمنًى أيامها ويؤمن عليها يوم الحج الأكبر وتؤم ما بين الركن والمقام والمنبر ولا يبتغى بها إلا وجه الله الكريم وفضله العميم لم يق صاحب سنجقٍ ولا علم ولا ضاربٌ بسيفٍ ولا كاتبٌ بقلم ولا رب حكم ولا قضاء ولا من يرجع إليه في اتفاقٍ ولا إمضاء ولا إمام مسجد ولا خطيب ولا ذو فتيا يسأل فيجيب ولا من بين جنبتي المساجد ولا من تضمهم أجنحة المحاريب ولا من يجتهد في رأيٍ فيخطيء أو يصيب ولا متحدثٌ بحديث ولا متكلم بقديم وحديث ولا معروفٌ بدينٍ وصلاح ولا فرسان حرب وكفاح ولا راشقٌ بسهام ولا طاعنٌ برماح ولا ضاربٌ بصفاح ولا ساع على قدم ولا طائرٌ بغير جناح ولا مخالطٌ للناس ولا قاعدٌ في عزلة ولا جمع كثرة ولا قلة ولا من يستقل بالحوزاء لواؤه ولا يقل فوق الفرقد ثواؤه ولا بادٍ ولا حاضر ولا مقيمٌ ولا سائر ولا أولٌ ولا آخر ولا مسرٌ في باطن ولا معلنٌ في ظاهر ولا عربٌ ولا عجم ولا راعي إبل ولا غنم ولا صاحب أناةٍ ولا إبدار ولا ساكنٌ في حضر وباديةٍ بدار ولا صاحب عمد ولا جدار ولا ملججٌ في البحار الزاخرة والبراري القفار ولا من يتوقل صهوات الخيل ولا من يسبل على العجاجة الذيل ولا من تطلع عليه شمس النهار ونجوم الليل ولا من تظله السماء وتقله الأرض ولا من تدل عليه الأسماء على اختلافها وترتفع درجات بعضهم على بعض حتى آمن بهذه البيعة وأمن عليها ومن الله عليه وهداه إليها وأقر بها وصدق وغض لها بصره خاشعاً وأطرق ومد إليها يده بالمبايعة ومعتقده بالمتابعة رضي بها وارتضاها وأجاز حكمها على نفسه وأمضاها ودخل تحت طاعتها وعمل بمقتضاها: " . "وقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَقِيلَ الحمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمِينَ

والحمد لله الذي نصب الحاكم ليحكم بين عباده وهو أحكم الحاكمين والحمد لله الذي أخذ حق آل بيت نبيه من أيدي الظالمين والحمد لله رب العالمين ثم الحمد لله رب العالمين ثم الحمد لله رب العالمين والحمد لله رب العالمين.

وإنه لما استأثر الله بعبده سليمان أبي الربيع الإمام المستكفي بالله أمير المؤمنين - كرم الله مثواه - وعوضه عن دار السلام بدار السلام ونقله فزكى بدنه عن شهادة السلام بشهادة الإسلام حيث آثره ربه بقربه ومهد لجنبه وأقدمه على ما أقدمه من يرجوه لعمله وكسبه وخار له في جواره رقيقاً وجعل له على صالح سلفه طريقاً وأنزله " مَعَ الَّذِينَ أنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً ".

الله أكبر ليومه لولا مخلفه كادت تضيق الأرض بما رحبت وتجزى كل نفس بما كسبت وتنبئ كل سريرةٍ بما أدخرت وما خبت لقد اضطرم سعيرٌ إلا أنه في الجوانح لقد اضطرب منبر وسريرٌ لولا خلفه الصالح لقد اضطرب مأمورٌ وأميرٌ لولا الفكر بعده في عاقبة المصالح لقد غاضت البحار لقد غابت الأنوار لقد غالب البدور ما يلحق الأهلة من المحاق ويدرك البدر من السرار نسفت الجبال نسفا وخبت مصابيح النجوم وكادت تطفى: " وجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفّاً صَفّا ".

لقد جمعت الدنيا أطرافها وأزمعت على المسير وجمعت الأمة لهول المصير وزاغت يوم موته الأبصار: " إنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمئِذٍ لَخَبِير ".

وبقيت الألباب حيارى ووقفت تارةً تصدق وتارةً تتمارى لا تعرف قراراً ولا على الأرض استقراراً: " إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضعةٍ عَمَّا أرضعَتْ وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وتَرَى الناسَ سُكَارى وما هُمْ بِسُكَارى ".

ولم يكن في النسب العباسي ولا في جميع من في الوجود لا في البيت المسترشدي ولا في غيره من بيوت الخلفاء من بقايا آباءٍ لهم وجدود ولا من تلده أخرى الليالي وهي عاقرٌ غير ولود من تسلم إليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم عقد نياتها وسر طوياتها إلا واحدٌ وأين ذلك الواحد هو والله من انحصر فيه استحقاق ميراث آبائه الأطهار وتراث أجداده ولا شيء هو إلا ما

اشتمل عليه رداء الليل والنهار وهو ابن المنتقل إلى ربه وولد الإمام الذاهب لصلبه المجمع على أنه في الأنام فرد الأيام وواحدٌ وهكذا في الوجود الإمام وأنه الحائز لما زررت عليه جيوب المشارق والمغرب والفائز بملك ما بين الشارق والغارب الراقي في صفيح السماء هذه الذروة المنيفة الباقي بعد الأئمة الماضين رضي الله عنهم ونعم الخليفة المجتمع فيه شروط الإمامة المتضع لله وهو من بيتٍ لا يزال الملك فيهم إلى يوم القيامة الذي تصفح السحاب نائله تعوّد بسط الكفّ حتّى لو أنّه ثناها لقبضٍ لم تطعه أنامله والذي طويل.

لا هو في الدّنيا مضيعٌ نصيبه ولا ورق الدّنيا عن الدّين شاغله والذي ما ارتقى صهوة المنبر بحضرة سلطان زمانه إلا قال ناصره وقام قائمه ولا قعد على سرير الخلافة إلا وعرف بأنه ما خاب مستكفيه ولا غاب حاكمه نائب الله في أرضه والقائم بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته وابن عمه وتابع عمله الصالح ووارث علمه سيدنا ومولانا عبد الله ووليه أحمد أبو العباس الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين أيد الله تعالى ببقائه الدين وطوق بسيفه رقاب الملحدين وكبت تحت لوائه المعتدين وكتب له النصر إلى يوم الدين وكف بجهاده طوائف المفسدين وأعاذ به الأرض ممن لا يدين بدين وأعاد بعدله أيام آبائه الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون وعليه كانوا يعملون ونصر أنصاره وقدر اقتداره وأسكن في قلوب الرعية سكينته ووقاره ومكن له في الوجود وجمع له أقطاره.

ولما انتقل إلى الله ذلك السيد ولحق بدار الحق أسلافه ونقل إلى سرير الجنة عن سرير الخلافة وخلا العصر من إمام يمسك ما بقي من نهاره وخليفة يغالب مربد الليل بأنواره ووارث بني بمثله ومثل أبيه استغنى الوجود بعد ابن عمه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم عن نبي مقتفٍ على آثاره ونسي ولم يعهد فلم يبق إذ لم يوجد النص إلا الإجماع وعليه كانت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا نزاع اقتضت المصلحة الجامعة عقد مجلسٍ كل طرف به معقود وعقد بيعةٍ عليها الله والملائكة شهود وجمع الناس له " ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ له الناسُ وذلِك يومٌ مَشْهُود ".

فحضر من لم يعبأ بعده بمن تخلف ولم يربأ معه وقد مد يده طائعاً بمن مدها وقد تكلف واجتمعوا على رأيٍ واحدٍ واستخاروا الله تعالى فيه فخار وناهيك بذلك من مختار وأخذت يمينٌ تمد إليها الإيمان ويشد بها الإيمان وتعطى عليها المواثيق وتعرض أمانتها على كل فريق حتى تقلد كل من حضر في عنقه هذه الأمانة وحط يده على المصحف الكريم وحلف بالله العظيم وأتم إيمانه ولم يقطع ولم يستثن ولم يتردد ومن قطع من غير قصدٍ أعاد وجدد وقد نوى كل من حلف أن النية في يمينه نية من عقدت هذه البيعة له ونية من حلف له وتذمم بالوفاء في ذمته وتكفله على عادة إيمان البيعة بشروطها وأحكامها المرددة وأقسامها المؤكدة بأن يبذل لهذا الإمام المفترضة طاعته الطاعة ولا يفارق الجمهور ولا يظهر عن الجماعة انجماعه وغير ذلك مما تضمنته نسخ الإيمان المكتتب فيها أسماء من حلف عليها مما هو مكتوبٌ بخطوط من يكتب منهم وخطوط العدول الثقات عمن لم يكتب وأذنوا لمن يكتب عنهم حسب ما يشهد به بعضهم على بعض ويتصادق عليه أهل السماء والأرض بيعةٌ تم بمشيئة الله تمامها وعم بالصوب الغدق غمامها " وقالوا الحمدُ لِلَّهِ الذي أذْهَبَ عنَّا الحَزَن ".

ووهب لنا الحسن ثم الحمد لله الكافي عبده الوافي وعده الموافي لمن يضاعف على كل موهبة حمده ثم الحمد لله على نعمٍ يرغب أمير المؤمنين في ازديادها ويرهب إلا أن يقاتل أعداء الله بأمدادها ويرأب بها ما آثر فيما أثر مماليكه ما بان من مباينة أضدادها.

نحمده والحمد لله ثم الحمد لله كلمةٌ لا نمل من ترددها ولا بخل بما يفوق السهام من سدادها ولا نظل إلا على ما يوجب كثرة أعدادها وتيسير إقرار على أورادها ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً يتقايس دم الشهداء ومد مدادها وتتنافس طرر الشباب وغرر السحاب على استمدادها وتتجانس رقومها المدبجة وما تلبسه الدولة العباسية من شعارها والليالي من دثارها والأعداء من حدادها ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى جماعة آله من سفل من أبنائها ومن سلف من أجدادها ورضي الله عن الصحابة أجمعين والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعد فإن أمير المؤمنين لما أكسبه الله تعالى من ميراث النبوة ما كان لجده ووهبه من الملك السليماني عن أبيه ما لا ينبغي لأحدٍ من بعده وعلمه منطق الطير بما تتحمله حمائم البطائق من بدائع البيان وسخر له من البريد على متون الخيل ما سخر من الريح لسليمان وآتاه من خاتم الأنبياء ما أمده به أبوه سليمان وتصرف وأعطاه من الفخار ما أطاعه به كل مخلوق ولم يتخلف وجعل له من لباس بني العباس ما يقضي له سواده بسؤدد الأجداد وينفض على كحل الهدب ما فضل عن سويداء القلب وسواد البصر من السواد ويمد ظله على الأرض فكل مكانٍ حله دار ملك وكل مدينةٍ بغداد وهو في ليله السجاد وفي نهاره العسكري وفي كرمه جعفرٌ الجواد - يديم الابتهال إلى الله تعالى في توفيقه والابتهاج بما يغص كل عدوٍ بريقه ويبدأ يوم هذه

المبايعة بما هو الأهم من مصالح الإسلام وصالح الأعمال مما يتحلى به الإمام ويقدم التقوى أمامه ويقرن عليها أحكامه ويتبع الشرع الشريف ويقف عنده ويوقف الناس ومن لا يحمل أمره طائعاً على العين حمله بالسيف غصباً على الراس ويعجل أمير المؤمنين بما يشفي به النفوس ويزيل به كيد الشيطان إنه يؤوس ويأخذ بقلوب الرعايا وهو غنيٌ عن هذا ولكن يسوس وأمير المؤمنين يشهد الله وخليفته عليه أنه أقر كل امرئ من ولاة الأمور الإسلامية على حاله واستمر به في مقيله تحت كنف ظلاله على اختلاف طبقات ولاة الأمور وتفرقهم في الممالك والثغور براً وبحراً سهلاً ووعراً وشرقاً وغرباً وبعداً وقرباً وكل جليلٍ وحقير وقليلٍ وكثير وصغير وكبير وملك ومملوكٍ وأمير وجنديٍ يبرق له سيفٌ شهير ورمحٌ طرير ومن مع هؤلاء من وزراء وقضاةٍ وكتاب ومن له يدٌ تبقى في إنشاءٍ وتحقيق حساب ومن يتحدث في بريد وخراج ومن يحتاج إليه ومن لا يحتاج ومن في الدورس والمدارس والربط والزوايا والخوانق ومن له أعظم التعلقات وأدنى العلائق وسائر أرباب المراتب وأصحاب الرواتب ومن له في مال رزقٌ مقسوم وحقٌ مجهولٌ أو معلوم واستمرار كل أمرٍ على ما هو عيه حتى يستخير الله ويتبين له ما بين يديه فما زاد تأهيله زاد تفضيله وإلا فأمير المؤمنين لا يريد سوى وجه الله ولا يحابي أحداً في دين ولا يحامي عن أحد في حق فإن المحاماة في الحق مداجاةٌ على المسلمين وكل ما هو مستمرٌ إلى الآن مستقرٌ على حكم الله مما فهمه الله له وفهمه سليمان لا يغير أمير المؤمنين في ذلك ولا في بعضه معتبر مستمرٌ بما شكر الله على نعمه وهكذا يجازى من شكر ولا يكدر على أحدٍ مورداً نزه الله به نعمه الصافية عن الكدر ولا يتأول في ذلك متأولٌ ولا من فجر النعمة أو كفر ولا يتعلل متعلل فإن أمير المؤمنين يعوذ بالله ويعيذ أيامه من الغير وأمر أمير المؤمنين - أعلى الله أمره - أن يعلن الخطباء بذكره وذكر سلطان زمانه على المنابر في الآفاق وأن تضرب باسمهما النقود المتعامل بها على الإطلاق ويبتهج بالدعاء لهما عطف الليل والنهار ويصرح منه بما يشرق به وجه الدرهم والدينار وتباهي به المنابر ودور الضرب هاتيك ترفع اسمهما على أسرة مهودها وهذه على أسارير نقودها وهذه تقام بسببها الصلاة وتلك تدام بها الصلات وكلاهما تستمال به القلوب ولا يلام على ما تعيه الآذان وتوعيه الجيوب وما منهما إلا من تحدق بجواره الأحداق وتميل إليه الأعناق وتبلغ به المقاصد ويقوى بهما المعاضد وكلاهما أمره مطاعٌ من غير نزاع وإذا لمعت أزمة الخطب طار للذهب شعاع ولولاهما ما اجتمع جمعٌ ولا انضم ولا عرف الأنام بمن تأتم فالخطب والذهب معناهما واحد وبهما يذكر الله قيماء المساجد ولولا الأعمال ما بذلت الأموال ولولا الأموال ما وليت الأعمال ولأجل ما بينهما من هذه النسبة قيل إن الملك له السكة والخطبة وقد أسمع أمير المؤمنين في هذا الجمع المشهود ما يتناقله كل خطيب ويتداوله كل بعيد وقريب وإن الله أمر بأوامر ونهى عن نواهٍ وهو قريب وتستفزع الأولياء لها السجايا وتتضرع الخطباء فيها بنعوت الوصايا وتكمل بها المزايا ويتكلم بها الواعظ ويخرج من المشايخ الخبايا من الزوايا وتسمر بها السمار ويترنم الحادي والملاح ويروق شجوها في الليل المقمر ويرقم على جنب الصباح وتعطر بها مكة بطحاءها وتحيا بحديثها قباه ويلقنها كل أبٍ فهم ابنه ويسأل كل ابنٍ أن يجيب أباه وهو لكم أيها الناس من أمير المؤمنين رشد وعليكم بينة وإليكم ما دعاكم به إلى سبيل ربه من الحكمة والموعظة الحسنة ولأمير المؤمنين عليكم الطاعة ولولا قيام الرعايا بها ما قبل الله أعمالها ولا أمسك بها البحر ودحا الأرض وأرسى جبالها ولا اتفقت الآراء على من يستحق وجاءت إليه الخلافة تجر أذيالها وأخذها دون بني أبيه ولم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها وقد كفاكم أمير المؤمنين السؤال بما فتح لكم من أبواب الأرزاق وأسباب الارتفاق وأحسن لكم على وفاقكم وعلمكم مكارم الأخلاق وأجراكم على عوائدكم ولم يمسك خشية الإملاق ولم يبق على أمير المؤمنين إلا أن يسير فيكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويعمل بما ينتفع به من يجيء - أطال الله بقاء أمير المؤمنين - من بعده ويزيد على كل من تقدم ويقيم فروض الحج والجهاد وينيم الرعايا بعدله الشامل في مهاد وأمير المؤمنين يقيم على عباده موسم الحج في كل عام ويشمل سكان الحرمين الشريفين وسدنة بيت الله الحرام ويجهز السبيل على عادته ويرجو أن يعود إلى حاله الأول في سالف الأيام ويتدفق في هذين المسجدين بحره الزاخر صلوات الله عليهم - أين كانوا وأكثرهم في الشام - ويرسل إلى ثالثهما البيت المقدس ساكب الغمام ويقوم بقومة قبور الأنبياء والجمع والجماعات هي فيكم على قديم سننها وقويم سننها وستزيد في أيام أمير المؤمنين بمن انضم إليه وبما يتسلمه من بلاد الكفار ويسلم على يديه.

وأما الجهاد فيكتفي باجتهاد القائم عن أمير المؤمنين بأموره المقلد عنه جميع ما وراء سريره وأمير المؤمنين قد وكل إليه - خلد الله سلطانه - عناء الأيام وقلده سيفه الراعب بوارقه ليسله واجده على الأعداء وإلا سل خباله عليهم في الأحلام ويؤكد أمير المؤمنين في ارتجاع ما غلب عليه العدا وانتزاع ما بأيديهم من بلاد الإسلام فإنه حقه وإن طال عليه المدى وقد قدم الوصية بأن يوالي غزو العدو المخذول براً وبحراً ولا يكف عمن يظفر به منهم قتلاً وأسراً ولا يفك أغلالاً ولا إصراً ولا ينفك يرسل عليهم في البحر غرباناً وفي البر من الخيل عقباناً يحمل فيهما كل فارسٍ صقراً ويحمي الممالك ممن يحوز أطرافها بإقدام ويتخول أكنافها الأقدام وينظر في مصالح القلاع والحصون والثغور وما يحتاج إليه من آلات القتال وما تجتاح به الأعداء ويعجز عنه المحتال وأمهات الممالك التي هي مرابط البنود ومرابض الأسود والجناح الممدود ويتفقد أحوالهم بالعرض بما لهم من خيل تعقد بالعجاج ما بين السماء والأرض وما لهم من زرد مصون وبيضٍ مسها ذائب ذهبٍ فكانت كأنها

بيضٌ مكنون وسيوف قواضب ورماح لكثرة طعنها من الدماء خواضب وسهام تواصل القسي وتفارقها فتحن حنين مفارق وتزمجر القوس زمجرة مغاضب.

وهذه جملةٌ أراد أمير المؤمنين بها تطييب قلوبكم وإطالة ذيل التطويل على مطلوبكم ومأوكم وأموالكم وأعراضكم في حمايةٍ إلا ما أباح الشرع المطهر ومزيد الإحسان إليكم على مقدار ما يخفى منكم ويظهر.

وأما جزئيات الأمور فقد علمتم بأن فيمن تقلد عن أمير المؤمنين غنًى عن مثل هذه الذكرى وفتى حقٍ لا يشغل بطلب شيءٍ فكراً وفي ولاة الأمور ورعاة الجمهور ومن هو سداد عمله ومداد أمله ومراد من هو منكم معشر الرعايا من قبله وأنتم على تفاوت مقاديركم وديعة أمير المؤمنين ومن خولكم وأنتم وهم فيما منكم إلا من استعرف أمير المؤمنين وتمشى في مراضي الله على خلقه وينظر ما هو عليه ويسير بسيرته المثلى في طاعة الله في خلقه وكلكم سواء في الحق عند أمير المؤمنين وله عليكم أداء النصيحة وإبداء الطاعة بسريرةٍ صحيحة وقد دخل كلٌ منكم في كنف أمير المؤمنين وتحت رأفته ولزم حكم بيعته وألزم طائره في عنقه ويستعمل كلٌ منكم في الوفاء ما أصبح به عليماً: " وَمَنْ أَوْفَى بِما عاهَدَ عليهُ اللّهَ فسَيُؤْتِيهِ أجراً عظيماً ".

هذا قول أمير المؤمنين وعلى هذا عهد إليه وبه يعهد وما سوى هذا فهو فجور لا يشهد به عليه ولا يشهد وهو يعمل في ذلك كله ما تحمد عاقبته من الأعمال ويحمل منه ما يصلح به الحال والمآل وأمير المؤمنين يستغفر الله على كل حال ويستعيذ بالله من الإهمال ويختم أمير المؤمنين قوله بما أمر الله به من العدل والإحسان ويحمد الله وهو من الخلق أحمد وقد آتاه الله ملك سليمان والله تعالى يمتع أمير المؤمنين بما وهبه ويملكه أقطار الأرض ويورثه بعد العمر الطويل عقبه ولا يزال على أسرة العلياء قعوده ولباس الخلافة به أبهة الجلالة كأنه ما مات المقصد السادس فيما يكتب في آخر البيعة إذا انتهى إلى آخر البيعة شرع في كتابة الخواتم على ما تقدم فيكتب: " إن شاء الله تعالى " ثم يكتب التاريخ.

ثم الذي يقتضيه قياس العهود أنه يكتب المستند عن الخليفة فيكتب " بالإذن العالي المولويّ الإماميّ النبويّ المتوكّليّ - مثلاً - أعلاه الله تعالى " وكأن الخليفة الذي عقدت له البيعة هو الذي أذن في كتابتها.

قلت: ولو أسقط المستند في البيعات فلا حرج بخلاف العهود لأنها صادرة عن مولٍ وهو العاهد فحسن إضافة المستند إليه بخلاف البيعة فإنها إنما تصدر عن أهل الحل والعقد كما تقدم.

ويكتفى في المستند عنهم بكتابة خطوطهم في آخر البيعة كما سيأتي ثم بعد كتابة المستند - إن كتب - تكتب الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والحسبلة على ما تقدم في الكلام على الفواتح والخواتم في مقدمة الكتاب.

ثم يكتب من بايع من أهل الحل والعقد والشهود على البيعة.

فأما من تولى عقد البيعة من أهل الحل والعقد فيكتب: بايعته على ذلك وكتب فلان بن فلان ويدعو في خلال ذلك قبل اسمه بما يناسب مثل أن يقال بايعته على ذلك قدس الله خلافته أو زاد الله في شرفه أو زاد الله في اعتلائه وما أشبه ذلك.

وأما الشهود على البيعة فالواجب أن يكتب كلٌ منهم: حضرت جريان عقد البيعة المذكورة وكتب فلان بن فلان كما يكتب الشاهد بجريان عقد النكاح ونحوه ولا بأس أن يدعو في رسم شهادته قبل كتابة اسمه بما يناسب مثل قرنها الله تعالى باليمن أو بالسداد أو عرف الله المسلمين بركتها وما أشبه ذلك.

المقصد السابع في قطع الورق الذي تكتب فيه البيعة والقلم الذي تكتب به وكيفية كتابتها وصورة وضعها وأعلم أن البيعات لم تكن متداولة الاستعمال لقلة وقوعها فلم يكن لها قطع ورق ولا تصويرٌ متعارفٌ فيتبع ولكنه يؤخذ فيها بالقياس وعموم الألفاظ.

فأما قطع ورقها فقد تقدم في الكلام على مقادير قطع الورق نقلاً عن محمد بن عمر المدائني في كتاب القلم والدواة أن قطع البغدادي الكامل للخلفاء والملوك ومقتضى ذلك أن البيعات تكتب فيه وهو قياس ما ذكره المقر الشهابي بن فضل الله في التعريف من أن للعهود قطع البغدادي الكامل على ما سيأتي ذكره.

قلت: لكن سيأتي في الكلام على عهود الخلفاء أنها الآن قد صارت تكتب في قطع الشامي الكامل وبينهما في العرض والطول بون كبير على ما تقدم بيانه في الكلام على قطع الورق وحينئذٍ فينبغي أن تكون كتابة البيعات في قطع الشامي مناسبةً لما تكتب فيه عهود الخلفاء الآن.

وأما القلم الذي يكتب به فبحسب الورق الذي يكتب فيه فإن كتبت البيعة في قطع البغدادي كانت الكتابة بقلم مختصر الطومار إذ هو المناسب له وإن كتبت في قطع الشامي كانت الكتابة بقلم الثلث الثقيل إذ هو المناسب له.

وأما كيفية الكتابة وصورة وضعها فقياس ما هو متداول في كتابة العهود وغيرها أنه يبتدأ بكتابة الطرة في أول الدرج بالقلم الذي تكتب به البيعة سطوراً متلاصقةً لا خلو بينها ممتدةً في عرض الدرج من أوله إلى آخره من غير هامشٍ.

ثم إن كانت الكتابة في قطع البغدادي الكامل جرى فيه على القاعدة المتداولة في عهود الملوك عن الخلفاء على ما سيأتي ذكره ويترك بعد الوصل الذي فيه الطرة ستة أوصال بياضاً من غير كتابة لتصير بوصل الطرة سبعة أوصال ثم يكتب البسملة في أول الوصل الثامن بحيث تكون أعالي ألفاته تكاد تلحق الوصل الذي فوقه بهامشٍ عريضٍ عن يمينه قدر أربعة أصابع أو خمسةٍ مطبوقةً ثم يكتب تحت البسملة سطراً من أول البيعة ملاصقاً لها ثم يخلي مكان بيت العلامة قدر شبر جرياً على قاعدة العهود وإن لم تكن علامةٌ تكتب كما يخلى بيت العلامة في بعض المكاتبات ولا يكتب فيه شيء ثم يكتب السطر الثاني تحت بيت العلامة على سمت السطر الذي تحت البسملة في بقية الوصل الذي فيه البسملة ويحرص أن تكون نهاية السجعة الأولى في أثناء السطر الأول أو الثاني ثم يسترسل في كتابة بقية البيعة ويجعل بين كل سطرين قدر ربع ذراع بذراع القماش كما سيأتي في العهود ويستصحب ذلك إلى آخر البيعة فإذا انتهى إلى آخرها كتب إن شاء الله تعالى ثم التاريخ ثم المستند ثم الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والحسبلة على ما تقدم بيانه في الفواتح والخواتم في مقدمة الكتاب ثم يكتب من بايع من أهل الحل والعقد خطوطهم ثم الشهود على البيعة بعدهم.

وإن كانت الكتابة في القطع الشامي فينبغي أن ينقص عدد أوصال البياض الذي بين الطرة والبسملة وصلين فتكون خمسة وينقص الهامش فيكون قدر ثلاثة أصابع على ما يقتضيه قانون الكتابة.

وهذه صورة وضعه في الورق ممثلاً لها بالطرة التي أنشأتها لذلك والبيعة الثانية من البيعتين اللتين أنشأتهما.

بياض بأعلى الدرج بقدر إصبع هذه بيعةٌ ميمونة باليمن مبتدأة بالسعد مقرونة لمولانا السيد الجليل الإمام النبوي المتوكل على الله أبي عبد الله محمدٍ أمير المؤمنين ابن الإمام المعتضد بالله أبي الفتح أبي بكر العباسي زاد الله تعالى شرفه علواً وفخاره سمواً.

قام بعقدها السلطان السيد الأعظم والشاهنشاه المعظم الملك الظاهر أبو سعيد برقوق خلد الله تعالى سلطانه ونصر جيوشه وأعوانه بمجمعٍ من أهل الحل والعقد والاعتبار والنقد من القضاة والعلماء والأمراء ووجوه الناس والوزراء والصلحاء والنصحاء وإمضائها على السداد والنجح والرشاد.

على ما شرح فيه.

بياض ستة أوصال بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي جعل بيت الخلافة مثابةً وأمناً وأقام بيت العلامة تقدير شبر تقدير ربع ذراع القرشية أزراً وشاد منها بالعصبة العباسية ركناً وأغاث تقدير ربع ذراع الخلق بإمام هدًى حسن سيرةً وصفا سريرةً فراق صورةً ورق معنى.

ثم يأتي على الكلام إلى آخر البيعة على هذا النمط إلىأن ينتهي إلى قوله: والله تعالى يجعل انتقالهم من أدنى إلى أعلى ومن يسرى إلى يمنى ويحقق لهم بمن استخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى: " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً " .

إن شاء الله تعالى كتب في الثاني من جمادى الأولى مثلاً سنة إحدى وتسعين وسبعمائة بالإذن العالي المولوي الإمامي النبوي المتوكلي مثلاً أعلاه الله تعالى الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه بايعته على ذلك بايعته على

ذلك بايعته على ذلك قدس الله تعالى خلافته زاد الله تعالى في شرفه زاد الله تعالى في اعتلائه وكتب وكتب فلان بن فلان فلان بن فلان فلان بن فلان حضرت حضرت حضرت جريان عقد جريان عقد جريان عقد البيعة المذكورة البيعة المذكورة البيعة المذكورة قرنها الله تعالى قرنها الله تعالى عرف الله المسلمين باليمن والبركة بالسداد بركتها وكتب وكتب وكتب فلان بن فلان فلان بن فلان فلان بن فلان النوع الثاني من البيعات بيعات الملوك وأعلم أن المقر الشهابي بن فضل الله قد ذكر في التعريف أن من قام من الملوك بغير عهد ممن قبله لم تجر العادة بأن تكتب لهم مبايعةٌ وكأنه يريد اصطلاح بلاد المشرق والديار المصرية أما بلاد المغرب فقد جرت عادة مصطلحهم بكتابة البيعات لملوكهم وذلك أنه ليس عندهم خليفةٌ يدينون له يتقلدون الملك بالعهد منه بل جلهم أو كلهم يدعي الخلافة فهم يكتبون البيعات لهذا المعنى.

وهذه نسخة بيعةٍ من هذا النوع كتب بها للسلطان أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي الحجاج بن نصر بن الأحمر الأنصاري صاحب حمراء غرناطة من الأندلس مفتتحة بخطبة على قاعدتهم في بيعات الخلفاء على ما تقدم ذكره وربما تكرر الحمد فيها دلالةً على عظم النعمة من إنشاء الوزير أبي عبد الله محمد بن الخطيب صاحب ديوان إنشائه على ما رأيته في ديوان ترسله وهي: الحمد لله الذي جل شاناً وعز سلطاناً وأقام على ربوبيته الواجبة في كل شيء خلقه برهاناً الواجب الوجود ضرورةً إذ كان وجود ما سواه إمكاناً الحي القيوم حياةً أبدية سرمدية منزهة عن الابتداء والانتهاء فلا تعرف وقتاً ولا تستدعي زماناً العليم الذي يعلم السر وأخفى فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء إلا أحاط بها علماً وأدركها عياناً القدير الذي ألقت الموجودات كلها إلى عظمته يد الخضوع استسلاماً له وإذعاناً المريد الذي بمشيئته تصريف الأقدار واختلاف الليل والنهار فإن منع منع عدلاً وإن منح منح إحساناً شهد تداول الملوك بدوام ملكه ودل حدوث ما سواه على قدمه وأثنت ألسنة الحي والجماد على مواهبه وقسمه وفاض على عوالم السماء والأرض بحر جوده العميم النوال من قبل السؤال وكرمه وإن من شيء إلا يسبح بحمده ويثني على نعمة سراً وإعلاناً فهو الله الذي لا إله إلا هو ليس في الوجود إلا فعله ألا له الخلق والأمر وإليه يرجع الأمر كله وسع الأكوان على تباينها فضله وقدر المواهب والمقاسم عدله منعاً ومنحاً وزيادةً ونقصاناً.

والحمد لله الذي بيده الاختراع والإنشاء مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء سبق في مكنون غيبه القضاء وخفيت عن خلقه الأسباب وعميت عليهم الأنباء وعجزت عقولهم أن تدرك منها كنهاً أو تكشف منها بياناً.

والحمد لله الذي رفع قبة السماء ما اتخذ لها عماداً وجعل الأرض فراشاً ومهاداً وخلق الجبال الراسية أوتاداً ورتب أوضاعها أجناساً متفاضلة وأنواعاً متباينةً متقابلة فحيواناً ونباتاً وجماداً وأقام فيها على حكمة الإبداع دلائل باهرة الشعاع وأشهاداً وجعل الليل والنهار خلفةً والشمس والقمر حسباناً وقدر السياسة سياجاً لعالم الإنسان يضم منه ما انتشر ويطوي من تعديه ما نشر ويحمله على الآداب التي ترشده إذا ضل وتقيمه إذا عثر وتجبره على أن يلتزم السنن ويتبع الأثر لطفاً منه شمل البشر وحناناً.

ولما عمر الأرض بهذا الجنس الذي فضله وشرفه ووهب له العقل الذي تفكر به في حكمته حتى عرفه وبما يجب لربوبيته الواجبة وصفه جعلهم درجاتٍ بعضها فوق بعض فقراً وغنىً وطاعةً وعصياناً واختار منهم سفرة الوحي وحملة الآيات وأرسل فيهم الرسل بالمعجزات وعرفهم بما كلفهم من الأعمال المفترضات: " لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ".

يوم اعتبار الأعمال واعتبار الحسنات ونصب العدل والمجازاة في يوم العرض عليه قسطاساً وميزاناً.

نحمده وله الحمد في الأولى والآخرة ونثني على مواهبه الجمة وآلائه الوافرة ونمد يد الضراعة في موقف الرجاء والطماعة إلى المزيد من مننه الهامية الهامرة ونسأله دوام ألطافه الخافية وعصمه الظاهرة واتصال نعمه التي لا نزال نتعرفها مثنى ووحداناً ونشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

شهادةً نجدها في المعاد عدةً واقية ووسيلةً للأعمال الصالحة إليه راقية وذخيرةً صالحةً باقية ونوراً يسعى بين أيدينا ويكون على الرضا والقبول فينا عنوناً.

ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً النبي العربي القرشي الهاشمي عبده ورسوله الذي اصطفاه واختاره ورفع بين النبيين والمرسلين مقداره وطهر قلبه وقدس أسراره وبلغه من رضاه اختياره وأعطاه لواء الشفاعة يقفو آدم ومن بعده من الأنبياء الكرام آثاره وجعله أقرب الرسل مكانةً وأرفعهم مكاناً.

رسول الرحمة ونور الظلمة وإمام الرسل الأئمة الذي جمع له بين مزية السبق ومزية التتمة وجعل طاعته من العذاب المقيم أماناً صاحب الشفاعة التي تؤمل والوسيلة التي إلى الله بها يتوسل والدرجة التي لم يؤتها الملك المقرب ولا النبي المرسل والرتبة التي لم يعطها الله سواه إنساناً.

انتخبه من أشرف العرب أماً وأباً وأزكى البرية طينةً وأرفعها نسباً وابتعثه إلى كافة الخلق عجماً وعرباً وملأ بنور دعوته تماماً البسيطة جنوباً وشمالاً ومشرقاً ومغرباً وأنزل عليه كتابة الذي آمنت به الجن لما سمعته وقالوا " إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً " على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء وتبياناً فصدع صلى الله عليه وسلم بأمر من اختار ذاته الطاهرة واصطفاها وأدى أمانة الله ووفاها ورأى الخلائق على شفى المتالف فتلافاها وتتبع أدواء الضلال فشفاها ومحا معالم الجهل وعفاها وشاد للخلق في الحق بنياناً مؤيداً بالمعجزات التي حججها تقبل وتسلم فمن جذع لفراقه يتألم وجمادٍ بصدق نبوته يتكلم وجيشٍ شكا الظمأ ففجر لديه المعين منه بناناً.

وأي معجزةٍ ككتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه فهو اليم والعلوم النافعة كلها مذانبه وأفق الحق الذي تهدي في ظلمات البر والبحر كواكبه والحجة البالغة التي أصبحت بين الحق والباطل فرقاناً فأشرقت الأرض بنور ربها وآياته وتمت كلمة الله صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وبلغ ملك أمته ما زوي له من أقطار المعمور وجهاته حتى عمر من أكناف البسيطة وأرياف البحار المحيطة وهاداً وكثباناً ونقلت كنوز كسرى بعز دعوته الغالبة وظفرت بفلج الخصام أيدي عزائمها المطالبة وأصبح إيوان فارس مجر رماح العرب العاربة وقذفت قيصر من ذوابلها بالشهب الثاقبة حتى فر عن مدرته الطيبة آئباً بالصفقة الخائبة وخلصت إلى فسطاط مصر بكتائبها المتعاقبة فلا تسمع الآذان في إقامتهم إلا إقامةً وأذاناً.

ولا دليل أظهر من هذا القطر الأندلسي الغريب الذي خلصت إليه سيوفها أثباج البحار على بعد المراحل ونزوح الديار وتكاثف العمالات واختلاف الأمصار ومنقطع العمارة بأقصى الشمال ومحط السفار طلعت عليه كلمة الله طلوع النهار واستوطنته قبائل العرب الأحرار وأرغمت فيه أنوف الكفار ضراباً في سبيل الله وطعاناً.

ولما استقام الدين وتمم معالم الإيمان الرسول الأمين وظهر الحق المبين وراق من وجه الملة الحنيفية السمحة الجبين وأخذ المسالك والمآخذ الإفصاح والتبيين وتقررت المستندات المعتمدات سنةً وقرآناً أشعره الوحي بالرحلة عن هذه الدار والانتقال إلى محل الكرامة ودار القرار وخيره الملك فاختار الرفيق الأعلى موفقاً إلى كرم الاختيار ووجد صحبه رضي الله عنهم في الاستخلاف بعده والإيثار حججاً مشرقة الأنوار أطلقت بالحق يداً وأنطقت بالصدق لساناً صلى الله عليه وعلى آله وصحابته وأسرته الطاهرة وعصابته وأنصاره وأصهاره وقرابته الذين كانوا في معاضدته إخواناً وعلى إعلاء إمرة الحق أعواناً نجوم الملة وأقمارها وغيوثها الهامية وبحارها وسيوف الله التي لا تنبو شفارها وأعلام الهدى التي لا تبلى آثارها ودعائم الدين التي رفعت منه على البر والتقوى أركاناً.

وحيا الله وجوه حي الأنصار بالنعيم والنضرة أولي البأس عند الحفيظة والعفو عند القدرة والراضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ويذهبوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فنعمت المنقبة والأثرة الحائزون ببيعة الرضوان فضلاً من الله ورضواناً.

ووزراؤه وظهراؤه في كل أمر وخالصته يوم أحد وبدر لم يزالوا صدراً في كل قلب وقلباً في كل صدر يصلون دونه كل جمر ويفدونه بنفوسهم في كل سر وجهر ويعملون في إعلاء دينه بيضاً عضاباً وسمراً لداناً صلاةً لا تزال سحائبها ثرة وتحيةً دائمةً مستمرة ما لهجت الألسن بثنائهم ووقفت المفاخر على عليائهم وتعلمت المواهب من آلائهم وقصرت المحامد على مسمياتهم وأسمائهم وكان حبهم على الفوز بالجنة ضماناً.

ونسألك اللهم لهذا الأمر النصري الذي سببه بسببهم موصول وهم لفروعه السامية أصول فيالها من نصول خلفتها نصول أنجزت وعد النصر وهو ممطول وأحيت ربوع الإيمان وهي طلول نصراً عزيزاً وفتحاً مبيناً وتأييداً على أعدائك وتمكيناً وملكاً يبقى في الأعقاب وأعقاب الأعقاب وسلطاناً.

وأعنا اللهم على ما أوجبت له من مفروض الطاعة وتأدية الحق بجهد الاستطاعة واعصمنا بإيالته العادلة من الإضاعة واحملنا من مرضاته على سنن السنة والجماعة واجعلها كلمةً باقيةً في عقبة إلى قيام الساعة " وَاعفُ عَنَّا وَاغفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا ".

أما بعدما افتتح به من تحميد الله وتمجيده والثناء الذي تتعطر الأندية بترديده فإن من المشهور الذي يعضده الوجود ويؤيده والمعلوم الذي هو كالشمس ضل من ينكره أو يجحده والذائع بكل قطرٍ ترويه رواة الأنباء وتسنده ما عليه هذا الملك النصري الحمى الأنصاري المنتمى الذي يصيب شاكلة الحق إذا رمى ويعم العباد والبلاد غيثه مهما همى من أصالة الأعراق وكرم الأخلاق والفضل الباهر الإشراق والجهاد الذي هو سمر الركب وحديث الرفاق وإن قومه الملوك الكرام إن فوخروا بنسبٍ ذكروا سعد بن عبادة ومجده أو كوثروا بعددٍ غلبوا بالله وحده أو استنصروا فرجوا كل شدة واستظهروا من عزهم الموهوب وصبرهم على الخطوب بكل عدد وعدة دارهم الثغر الأقصى ونعمت الدار! وشعارهم لا غالب إلا الله ونعم الشعار! زهادٌ إذا ذكر الدين أسودٌ إذا حميت الميادين جبالٌ إذا زحفت الصفوف بدورٌ إذا أطلمت الزحوف غيوثٌ إذا منع المعروف أفرادٌ إذا ذكرت الألوف إن بويعوا فالملائكة وفود وحملة العلم وحملة السلاح شهود وإن ولدوا فالسيوف تمائم والسروج مهود وإن أصحروا للعدو فالظلال بنود وجنود السبع الطباق جنود وإن أظلم الليل أسهروا جفونهم في حياطة المسلمين والجفون رقود.

وإن هذا القطر الذي انتهى سيل الفتح الأول إلى ناحيته وأحيلت قداح الفوز بالدعوة الحنيفية على الأقطار فأخذ الإسلام بناصيته كان من فتحه الأول ما قد علم حسب ما سطر ورسم وإن موسى بن نصير وفتاه حل من فرضة مجازه محل موسى وفتاه وحل الإسلام منه دار قرار وخطةً خليقةً بارتيادٍ واختيار وبلداً لا يحصى خيره ولا يفضله بشيءٍ من المزية ما عدا الحرمين غيره وامتدت الأيام حتى تأنس العدو لروعته وخف عليه ما كان من صرعته وقدح فأورى وأعضل داؤه واستشرى وصارت الصغرى التي كانت الكبرى فلولا أن الله عمد الدين منهم بالعمدة الوثيقة حماة الحقيقة وأئمة الخليقة وسلالة مفتتحي اليمامة ومفتتحي الحديقة لأجهز النصل واجتث من الدين الفرع والأصل لكنهم انتدبوا إلى إمساك الدين بها انتداباً ووصلوا للإسلام أسباباً وتناولها منهم صقر قبيل الخزرج ذو الحسام المضرج والثناء المؤرج أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر أمير المسلمين المنتدب لإقامة سنة سيد المرسلين قدوة الملوك المجاهدين نضر الله وجهه وتقبل جهاده وشكر دفاعه عن حوزة الإسلام وجلاده فأقشعت الظلمة وتماسكت الأمة وكف العدو وأقصر ورأى الإسلام بمن استنصر واستبصر في الطاعة من استبصر وهبت بنصر الله العزائم وكثرت على العدو الهزائم وتوارثوا ملكها ولداً عن أب مستندين إلى عدل وبذل وبسالة وجلالة وحسبن تتضح في أفق الجلال نجوم سيرهم هاديةً للسائرين وتفرق من سطواتهم في الله أسود العرين إلى أن قام بالأمر وسطى سلكهم وبركة ملكهم الخليفة الواجب الطاعة بالحق على الخلق الشهير الجلالة والبسالة في الغرب والشرق أمير المسلمين بواجب الحق ساحب أذيال العفاف والطهارة السعيد الإيالة والإمارة البعيد الغارة من ذعر العدو لبأس حسامه وذخر الفتح الهني لأيامه صدر الملوك المجاهدين وكبير الخلفاء العادلين البعيد المدى في حماية الدين السعيد الشهيد أبو الوليد ابن المولى الهمام الأوحد الرفيع الممجد الطاهر الظاهر الأعلى الرئيس الكبير الجليل المقدس الأرضى أبي سعيد بن أبي الوليد بن نصر فأحيا رحمه الله معالم الكتاب والسنة وجلى بنور عدله غياهب الدجنة وأعز الإسلام وحماه ورمى ثغرة الكفر فأصماه قدس الله روحه الطيب وسقى لحده من الرحمة الغمام الصيب وأورث الملك الجهادي من ولده خير ملك قبلت منه كف واستدار به موكبٌ للجهاد ملتف وشمخ بخدمته أنف وسما إلى مشاهدته طرف وتأرج من ذكره عرف وجرى إلى بابه حرف مولانا الملك الهمام الخليفة الإمام من أشرق بنور إيالته الإسلام وتشرفت بوجوده الليالي والأيام بدر الملك وشمسه وسر الزمان الذي قصر عن يومه أمسه الذي اشتهر عدله وبهر فضله وظهرت عليه عناية ربه وكان الخضوع له في سلمه وحربه مولانا أمير المسلمين وقدوة الملوك المجاهدين والأئمة العارفين السعيد الشهيد الطاهر الظاهر الأوحد الهمام الخليفة الإمام أبو الحجاج رفع الله درجته في أوليائه وحشره مع الذين أنعم الله عليهم من أنبيائه وشهدائه فوضحت المسالك وبانت وأشرقت المعاهد وازدانت وشمل الصنع الإلهي واللطف الخفي أقطار هذه الأمة حيث كانت.

ولما اختار الله له ما عنده وبلغ الأمد الذي قدره سبحانه لحياته وحده وقبضه إليه مستغفراً لذنبه مطمئناً في الحالة التي أقرب ما يكون العبد فيها من ربه كأنما تأهب للشهادة فاختار مكانها وزمانها وطهر بالصوم نفسه التي كرم الله شانها وطيب روحها وريحانها فوقعت آراء أرباب الشورى التي تصح الإمامة باتفاقها وتنعقد بعقد ميثاقها من أعلام العلم بقاعدة ملكه غرناطة حرسها الله تعالى التي غيرها لها تبع وحماة الإسلام الذين في آرائهم للدين والدنيا منتفع وخلصان الثقات ووجوه الطبقات على مبايعة وارث ملكه بحقه الحائز في ميدان الكمال وإحراز ما للإمامة من الشروط والخلال خصل سبقه كبير ولده وسابق أمده ووارث ملكه ووسطى سلكه وعماد فسطاطه وبدر الهالة من بساطه مولانا قمر العلياء ودرة الخلفاء وفرع الشجرة الشماء التي أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء الذي ظهرت عليه مخايل الملك ناشئاً ووليداً واستشعرت الأقطار به وهو في المهد أماناً وتمهيداً واستشرف الدين الحنيف فأتلع جيداً واستأنف شباباً جديداً ناصر الحق وغياث الخلق الذي تميز بالسكينة والوقار والحياء المنسدل الأستار والبسالة المرهوبة الشفار والجود المنسكب الأمطار والعدل المشرق الأنوار وجمع الله فيه شروط الملك والاختيار مولانا وعمدة ديننا ودنيانا السلطان الفاضل والإمام العادل والهمام الباسل الكريم الشمائل شمس الملك وبدره وعين الزمان وصدره أمير المسلمين وقرة أعين المؤمنين أبو عبد الله وصل الله أسباب سعده كما حلى أجياد المنابر بالدعاء لمجده وجعل جنود السماء من جنده ونصره بنصره العزيز فما النصر إلا من عنده ورأوا أن قد ظفرت بالعروة الوثقى أيديهم

وأمن في ظل الله رائحهم وغاديهم ودلت على حسن الخواتم مباديهم فتبادروا وانثالوا وتبختروا في ملابس الأمن واختالوا وهبوا إلى بيعته تطير بهم أجنحة السرور ويعلن انطلاق وجوههم بانشراح الصدور واجتمع منهم طوائف الخاصة والجمهور ما بين الشريف والمشروف والرؤساء أولي المنصب المعروف وحملة العلم وحملة السيوف والأمناء ومن لديهم من الألوف وسائر الكافة أولي البدار لمثلها والخفوف.

فعقدوا له البيعة الوثيقة الأساس السعيدة بفضل الله على الناس البريء عهدها من الارتياب والالتباس الحائزة شروط الكمال الماحية بنور البيان ظلم الإشكال الضمينة حسن العقبى ونجح المآل على ما بويع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن له من الصحابة والآل وعلى السمع والطاعة وملازمة السنة والجماعة فأيديهم في السلم والحرب ردءٌ ليده وطاعتهم إليه خالصةٌ في يومه وغده وأهواؤهم متفقة في حالي الشدة والرخاء وعقودهم محفوظةٌ على تداول السراء والضراء.

أشهدوا عليها الله وكفى بالله شهيداً وأعطوا صفقات أيمانهم تثبيتاً للوفاء بها وتأكيداً وجعلوا منها في أعناقهم ميثاقاً وثيقاً وعهداً شديداً.

والله عز وجل يقول: " فمَنْ نكَثَ فإنَّما ينْكُثُ على نَفْسِهِ ومَنْ أوْفى بمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أجْراً عَظِيماً ".

ومن أصدق من الله وعداً أو وعيداً وهم قد بسطوا أيديهم يستنزلون رحمة الله بالإخلاص والإنابة وصرفوا وجوههم إلى من أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة يسألونه خير ما يقضيه والسير على ما يرضيه.

اللهم بابك عند تقلب الأحوال عرفنا ومن بحر نعمك العميمة أغترفنا وعفوك ستر من عيوبنا كل ما اجترحنا السيئات واقترفنا ومن فضلك أغنيتنا وبعينك التي لا تنام حرستنا وحميتنا فانصر حينا وارحم ميتنا وأوزعنا شكر ما أوليتنا واجعل لنا الخير والخيرة فيما إليه هديتنا.

اللهم إن قطرنا من مادة الإسلام بعيد وقد أحدق بنا بحرٌ زاخرٌ وعدوٌ شديد وفينا أيم وضعيف وهرمٌ ووليد وأنت مولانا ونحن عبيد.

اللهم من بايعناه في هذا العقد فأسعدنا بمبايعته وطاعته وكن له حيث لا يكون لنفسه بعد استنفاد جهده في التحفظ واستطاعته وكف عنه كف عدوك وعدوه كلما هبت به رياح طماعته يا من يفرده العبد بضراعته ويعوذ بحفظه من إضاعته.

اللهم أد عنا حقه فإنا لا نقوى على أدائه وتول عنا شكر ما حمدناه من سيرته وسيرة آبائه واحمله من توفيقك على سوائه.

اللهم إنا إليه ناظرون وعن أمره صادرون ولإنجاز وعدك في نصر من ينصرك منتظرون فأعنه على ما قلدته وأنجز لديننا على يديه ما وعدته فما فقد شيئاً من وجدك ولا خاب من قصدك ولا ضل من اعتمدك آمين آمين يا رب العالمين.

وكتب الملأ المذكورون أسماءهم بخطوط أيديهم في هذا الكتاب شاهدةً عليهم بما التزموه دنيا ودِيناً وسلكوا منه سبيلاً مبيناً.

وذلك في الثاني والعشرين لشوال من عام خمسةٍ وخمسين قلت: وقد أخبر آخر هذه البيعة بأن المبايعين للسلطان تؤخذ خطوط أيديهم في كتاب البيعة شاهدة عليهم بما بايعوا عليه.

والظاهر أن كتابة البيعة عندهم كما في مكاتباتهم في طومارٍ واحدٍ كبيرٍ متضايق السطور وأنه ليس له طرة بأعلاه كما في كتابة المصريين.

لباب الثالث من المقالة الخامسة في العهود وفيه فصلان

الفصل الأول في معنى العهد

العهد لفظٌ مشترك يقع في اللغة على ستة معانٍ: أحدها - الأمان.

. "ومنه قوله تعالى: " فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ

الثاني - اليمين.

. "ومنه قوله تعالى: " وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ

الثالث - الحفاظ.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " حُسْنُ العَهْدِ مِنَ الإيمان ".

الرابع - الذمة.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " لا يُقْتَل مُسْلِمٌ بكافر ولا ذُو عَهْدٍ في عَهْده ".

الخامس - الزمان.

ومنه قولهم: " كان ذلك على عهد فلان ".

السادس - الوصية.

وهو المراد هنا. ومنه قوله تعالى " وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ "

الفصل الثاني في بيان أنواع العهود

وهي ثلاثة أنواع النوع الأول عهود الخلفاء عن الخلفاء ويتعلق النظر به من ثمانية أوجه الوجه الأول في أصل مشروعيتها والأصل في ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قيل لعمر عند موته: ألا تعهد فقال: أأتحمل أمركم حياً وميتاً إن أستخلف فقد أستخلف من هو خيرٌ مني يعني أبا بكر: وإن أترك فقد ترك من هو خيرٌ مني رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأثبت استخلاف أبي بكر رضي الله عنه بذلك مشيراً إلى ما روي: أنه لما اشتد بأبي بكر الصديق رضي الله عنه الوجع أرسل إلى علي وعثمان ورجالٍ من المهادرين والأنصار فقال: قد حضر ما ترون ولا بد من قائمٍ بأمركم فإن شئتم استخرتم لأنفسكم وإن شئتم استخرت لكم.

قالوا: بل اختر لنا فأمر عثمان فكتب عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ما سيأتي ذكره - فقال عمر: لا أطيق القيام بأمور الناس - فقال أبو بكر هاتوا سيفي.

وتهدده فانقاد عمر ثم دخل عليه طلحة فعاتبه على استخلاف عمر.

فقال: إن عمر والله خيرٌ لكم وأنت شرٌ له والله لو وليتك لجعلت أنفك في قفاك ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها.

أتيتني وقد وكفت عينك تريد أن تفتنني عن ديني ووتردني عن رأيي قم لا اقام الله رجلك والله لئن بلغني أنك غمصته وذكرته بسوءٍ لألحقنك بحمضات قنةٍ حيث كنتم تسقون ولا تروون وترعون ولا تشبعون وأنتم بذلك بجحون راضون فقام طلحة فخرج.

قال العسكري: الحمضات جمع حمضة ضربٌ من النبت والقنة أعلى الجبل.

قال الماوردي: وكان استخلاف أبي بكر رضي الله عنه عمر باتفاقٍ من الصحابة من غير نكيرٍ فكان إجماعاً.

وقد عهد عمر رضي الله عنه إلى ستةٍ وهم عثمان وعليٌ وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وتركها شورى بينهم فدخلوا فيها وهم أعيان العصر وأشراف الصحابة رضوان الله عليهم.

في معنى الاستخلاف قال البغوي رحمه الله في كتابه التهذيب في الفقه: الاستخلاف أن يجعله خليفةً في حياته ثم يخلفه بعده.

قال: ولو أوصى بالإمامة فوجهان لأنه يخرج بالموت عن الولاية فلا يصح منه تولية الغير.

واستشكل الرافعي رحمه الله هذه التوجيه بكل وصية وبأن ما ذكره من جعله خليفة بعده إن أريد به استنابته فلا يكون ذلك عهداً إليه بالإمامة.

وإن أريد جعله إماماً في الحال فهو: إما خلع نفس العاهد وإما اجتماع إمامين في وقت واحد.

وإن أريد جعله خليفة أو إماماً بعد موته فهو الوصية من غير فرق.

قلت: وهذا جنوحٌ من الرافعي رحمه الله إلى صحة الخلافة بالوصية أيضاً كما تصح بالاستخلاف.

الوجه الثالث فيما يجب على الكاتب مراعاته وأعلم أنه يجب على الكاتب أن يراعي في كتابة العهد بالخلافة أموراً: منها: براعة الاستهلال بذكر ما يتفق له من معنى الخلافة والإمامة واشتقاقهما وحال الولاية ومنها: أن ينبه على شرف رتبة الخلافة وعلو قدرها ورفعة شأنها ومسيس الحاجة إلى الإمام ودعاية الضرورة إليه ونحو ذلك مما سبق في البيعات أيضاً.

ومنها: أن ينبه على اجتماع شروط الإمامة في المعهود إليه من حين صدور العهد بها من العاهد فقد قال الماوردي: إنه تعتبر شروط الإمامة في المعهود إليه من وقت العهد حتى لو كان المعهود إليه صغيراً أو فاسقاً وقت العهد وبالغاً عدلاً عند الموت لم تصح خلافته حتى يستأنف أهل الاختيار بيعته.

قال الرافعي رحمه الله: وقد يتوقف في هذا.

قال النووي رحمه الله في الروضة: لا توقف والصواب ما قاله الماوردي.

ومنها: أن ينبه على اجتهاد العاهد وتروي نظره في حقية المعهود إليه فقد قال الماوردي: وإذا أراد الإمام أن يعهد بالإمامة فعليه أن يجهد رأيه في الأحق بها والأقوم بشروطها فإذا تعين له الاجتهاد في أحد عهد إليه.

ومنها: أن يشير إلى تقدم الاستخارة على العهد وأن استخارته أدته إلى المعهود إليه فإن الاستخارة أمرٌ مطلوب في كل أمر خصوصاً أمر المسلمين وعموم الولاية عليهم فإن اختيار الله للخلق خيرٌ من اختيارهم لأنفسهم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ومنها: أن ينبه على أن عهده إليه بعد مشورة أهل الاختيار ومراجعتهم في ذلك وتصويبهم له خروجاً من الخلاف.

فقد حكى الرافعي رحمه الله وجهين فيما إذا كان المعهود إليه أجنبياً من العاهد ليس بولد ولا والدٍ هل يجوز أن ينفرد بعقد البيعة له وتفويض العهد إليه ولا يستشير فيه أحداً أصحهما الجواز لأن العهد إلى عمر رضي الله عنه لم يوقف على رضا الصحابة رضوان الله عليهم ولأن الإمام أحق بها فكان اختياره فيها أمضى وقوله فيها أنفذ.

وحكى الماوردي في جواز انفراد العاهد بالبيعة فيما إذا كان المعهود إليه والدً أو ولداً ثلاثة مذاهب: أحدها - ما اقتصر الرافعي رحمه الله على نسبته إلى الماوردي ومقتضى كلامه ترجيحه: أنه يجوز الانفراد بعقدها للولد والوالد جميعاً لأنه أميرٌ

للأمة نافذ الأمر لهم وعليهم فغلب حكم المنصب على حكم النسب ولم يجعل للتهمة طريقاً على أمانته ولا سبيلاً إلى معارضته.

أنه لا يجوز انفراده بها لولد ولا والد حتى يشاور فيه أهل الاختيار فيرونه أهلاً لها فيصح منه حينئذ عقد البيعة لأن -والثاني ذلك منه تزكيةٌ له تجري مجرى الشهادة وتقليده على الأمة يجري مجرى الحكم والشهادة والحكم ممتنعان من الولد والوالد للتهمة لما جبل عليه من الميل إليهما.

أنه يجوز أن ينفرد بعقد لوالده دون ولده لأن الطبع إلى الولد أميل فأما عقدها ومنها: أن ينبه على العلم بحياة -والثالث المعهود إليه ووجوده إن كان غائباً فقد قال الماوردي: إنه لو عهد إلى غائبٍ مجهول الحياة لم يصح عهده وإن كان معلوم الحياة صح ويكون موقوفاً على قدومه.

ومنها: أن ينبه على أن المعهود إليه منصوصٌ عليه بمفرده أو وقع العهد شورى في جماعةٍ وأفضت الخلافة إلى واحدٍ منهم بإخراج الباقين أنفسهم منها أو اختيار أهل الحل والعقد أحدهم إذ يجوز للخليفة أن يعهد إلى اثنين فأكثر من غير تقديم البعض على البعض ويختار أهل الاختيار بعد موته واحداً ممن عهد إليه فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جعلها شورى في ستة فقال: الأمر إلى علي وبإزائه الزبير بن العوام وإلى عثمان وبإزائه عبد الرحمن بن عوف وإلى طلحة وبإزائه سعد بن أبي وقاص.

فلما توفي عمر رضي الله عنه جعل الزبير أمره إلى علي وجعل طلحة أمره إلى عثمان وجعل سعدٌ أمره إلى عبد الرحمن بن عوف فخرج منها ثلاثةٌ وبقيت شورى في عثمان وعلي ثم بايع عليٌ عثمان.

والمعنى في الشورى أنه لا يجوز أن تجعل الإمامة بعد العاهد في غير المعهود إليهم.

ومنها: أن ينبه على عدد المعهود إليهم وترتيبهم إن كان قد رتب الخلافة في أكثر من واحد إذ يجوز أن يعهد إلى اثنين فأكثر على الترتيب.

فلو رتب الخلافة في ثلاثة مثلاً - فقال: الخليفة بعدي فلان فإذا مات فالخليفة بعده فلان فإن مات فالخليفة بعد فلان جاز وكانت الخلافة منتقلة إليهم على ما رتبها.

ففي صحيح البخاري من رواية ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف على جيش مؤتة زيد بن حارثة - وقال: إن أصيب فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة فإن أصيب فليرتض المسلمون رجلاً فتقدم زيدٌ فقتل فأخذ الراية جعفرٌ وتقدم فقتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة وتقدم فقتل فاختار المسلمون بعده خالد بن الوليد.

قال الماوردي: وإذا جاز ذلك في الإمارة جاز مثله في الخلافة.

قال: وقد عمل بذلك في الدولتين من لم ينكر عليه أحدٌ من علماء العصر.

فعهد سليمان بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز ثم بعده إلى يزيد بن عبد الملك وأقره عليه من عاصره من الناس ومن لا تأخذه في الله لومة لائم.

ورتبها الرشيد في ثلاثةٍ من بنيه: الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن من غير مشورة من عاصره من فضلاء العلماء.

ولو قال العاهد: عهدت إلى فلان فإن مات فلانٌ بعد إفضاء الخلافة إليه فالخليفة بعده فلان لم تصح خلافة الثاني ولم ينعقد عهده بها لأنه لم يعهد إليه في الحال وإنما جعله ولي عهده بعد إفضاء الخلافة إلى الأول وقد يموت قبل إفضائها إليه فلا يكون عهد الثاني بها منبرماً.

ومنها: أن ينبه على أن صدور العهد في حال نفوذ أمر العاهد وجواز تصرفه فإنه لو أراد ولي العهد قبل موت العاهد أن يرد ما إليه من ولاية العهد إلى غيره لم يجز لأن الخلافة لا تستقر إلا بعد موت المستخلف.

وكذا لو قال: جعلته ولي عهدٍ إذا أفضت الخلافة إلي لم يجز لأنه ليس في الحال بخليفة فلم يصح عهده بالخلافة.

ومنها: أن ينبه على قبول المعهود إليه العهد فإنه إذا عهد الإمام بالخلافة إلى من يصح العهد إليه على الشروط المعتبرة فيه كان العهد موقوفاً على قبول المعهود إليه فإن قبل صح العهد وإلا فلا حتى لو امتنع من القبول بويع غيره.

والعبرة في زمن القبول بما بين عهد العاهد وموته على الأصح لتنتقل عنه الإمامة إلى المعهود إليه مستقرةً بالقبول المتقدم.

وقيل: إنما يكون القبول بعد موت العاهد لنه الوقت الذي يصح فيه نظر المعهود إليه.

ومنها: أن يورد من وصايا العاهدللمعهود إليه ما يليق به.

وقد ذكر الماوردي أن الذي يلزمه من أمور الأمة عشرة أشياء: أحدها - حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة وأنه إن نجم مبتدعٌ أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ليكون الدين محروساً من الخلل والأمة ممنوعةً من الزلل.

الثاني - تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

الثالث - حماية البيضة والذب عن الحرم ليتصرف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال.

الرابع - إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من الإتلاف والاستهلاك.

الخامس -تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يظفر الأعداء بغرة ينتهكون بها محرماً أو يسفكون فيها لمسلمٍ أو معاهدٍ دماً.

السادس - جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله.

السابع - جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير حيف ولا عسف.

الثامن - تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

التاسع -استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأحوال لتكون الأعمال بالكافة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة.

العاشر -أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذةٍ أو عبادة فقد يخون الأمين ويغش الناصح.

وقد قال تعالى: " يا دَاوُدُ إِنَّا جعَلْنَاكَ خَلِيفةً في الأرْضِ فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالْحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوى فيُضِلَّكَ عن سَبِيلِ اللهِ "

فلم يقتصر الله تعالى على التفويض دون المباشرة بل أمره بمباشرة الحكم بين الخلق بنفسه.

وقد قال صلى الله عليه وسلم " كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكم مَسْؤولٌ عن رَعِيَّته " ولله در محمد بن يزداد وزير المأمون حيث قال مخاطباً له بسيط.

من كان حارس دنيا إنّه قمنٌ أن لا ينام وكلّ الناس نوّام وكيف ترقد عينا من تضيّفه همّان من أمره: حلٌّ وإبرام وحينئذ فيجب على الكاتب أن يضمن هذه الأمور العشرة في وصايا المعهود إليه.

وقد ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في التعريف في وصية ولي العهد بالخلافة ومن في معناه من الملوك وولاة عهدهم هذه الأمور ممتزجةً بأمور أخرى من مهمات الملك وحسن تدبيره وسياسته.

قلت: إنما يحسن إيراد هذا كله في وصايا ولاة العهد إذا كان الأمر على ما كانت الخلافة عليه أولاً من عموم التصرف أما الآن فالواجب أن يقتصر في وصاياهم على حسن التأتي في العهد بالسلطنة لمن يقوم بأعبائها وأن يكون ما تقدم مختصاً وصايا الملوك في العهود عن الخلفاء.

الوجه الرابع فيما يكتب في الطرة وهو تلخيص ما يتضمنه العهد وهذه نسخة طرة أنشأتها لينسج على منوالها وهي: هذا عهدٌ إماميٌ قد علت جدوده وزاد في الارتقاء في العلياء صعوده وفصلت الجواهر قلائده ونظمت بنفيس الدر عقوده.

من عبد الله ووليه الإمام المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بن الإمام المعتضد بالله أبي الفتح أبي بكر بالخلافة المقدسة لولده السيد الجليل ذخيرة الدين وولي عهد المسلمين أبي الفضل العباس بلغه الله فيه غاية الأمل وأقر به عين الأمة كما أقر به عين أمير المؤمنين وقد فعل.

على ما شرح فيه.

الوجه الخامس فيما يكتب لأولياء العهد من الألقاب وهو كما سيأتي في الطريقة الثانية من المذهب الأول مما يكتب في متن العهد من كلام المقر الشهابي بن فضل الله في التعريف أنه يقال فيه: الأمير السيد الجليل ذخيرة الدين وولي عهد المسلمين أبي فلان فلان.

وفي المذهب الثالث فيما كتب به للمستوثق بن المستكفي ما يوافقه وقد تقدم أنه لا يقع في ألقابهم إطنابٌ ولا تعدد ألقاب فليقتصر على ذلك أو ما يشابهه.

الوجه السادس فيما يكتب في متن العهد وفيه ثلاثة مذاهب المذهب الأول أن يفتتح العهد بعد البسملة بلفظ هذا مثل: هذا ما عهد به فلان لفلان أو هذا عهدٌ من فلان لفلان أو هذا كتابٌ أكتتبه فلان لفلان ونحو ذلك.

وللكتاب فيه طريقتان: الطريقة الأولى وهي أن لا يأتي بخطبة في أثناء العهد ولا يتعرض إلى ذكر أوصاف المعهود إليه والثناء عليه أو يتعرض لذلك باختصار ثم يأتي بالوصايا ثم يختمه بالسلام أو بالدعاء أو بغير ذلك مما يناسب.

وعلى ذلك كانت عهود السلف من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اتباعاً للصديق رضي الله عنه فيما كتب به لعمر بن الخطاب كما تقدمت الإشارة إليه في الاستشهاد.

ونسخته فيما رواه البيهقي في السنن واقتصر عليه الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في حسن التوسل.

هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن بر وعدل فذلك ظني به وإن بدل أو غير فلا علم لي بالغيب والخير أردت بكم ولكل امرئٍ ما أكتسب من الإثم " وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون ".

وذكر أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل عن المدائني أنه حين دعا عثمان بن عفان رضي الله عنه لكتابة العهد بالخلافة بعده قال: اكتب هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا نازحاً عنها وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يتوب الفاجر ويؤمن الكافر ويصدق الكاذب وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وقد استخلف - ثم دهمته غشيةٌ فكتب عثمان: عمر بن الخطاب.

فلما أفاق قال: أكتبت شيئاً قال نعم عمر بن الخطاب.

قال: رحمك الله أما إنك لو كتبت نفسك لكنت أهلاً لها أكتب قد استخلف عمر بن الخطاب ورضيه لكم فإن عدل فذلك ظني به ورأيي فيه وإن بدل فلكل نفسٍ ما كسبت وعليها ما اكتسبت والخير أردت ولا أعلم الغيب: " وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ".

وعلى هذه الطريقة كتب عهد عمر بن عبد العزيز بالخلافة عن سليمان بن عبد الملك ثم من بعده إلى أخيه يزيد بن عبد الملك.

وهذه نسخته فيما ذكره ابن قتيبة في تاريخ الخلفاء: هذا ما عهد به عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين وخليفة المسلمين عهد أنه يشهد لله عز وجل بالربوبية والوحدانية وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى محسني عباده بشيراً وإلى مذنبيهم نذيراً وأن الجنة والنار مخلوقتان حقاً خلق الجنة رحمةً وجزاءً لمن أطاعه والنار نقمة وجزاءً لمن عصاه وأوجب العفو جوداً وكرماً لمن عفا عنه وأن إبليس في النار وأن سليمان مقرٌ على نفسه بما يعلم الله من ذنوبه وبما تعلمه نفسه من معصية ربه موجباً على نفسه استحقاق ما خلق من النقمة راجياً لنفسه ما خلق من الرحمة ووعد من العفو والمغفرة وأن المقادير كلها خيرها وشرها مقدورة بإرادته مكونةٌ بتكوينه وأنه الهادي فلا مغوي ولا مضل لمن هداه وخلقه لرحمته وأنه يفتن الميت في قبره بالسؤال عن دينه ونبيه الذي أرسل إلى أمته لا منجى لمن خرج من الدنيا إلى الآخرة من هذه المسألة إلا لمن استثناه عز وجل في علمه.

وسليمان يسأل الله الكريم بواسع فضله وعظيم منه الثبات على ما أسر وأعلن من معرفة حقه وحق نبيه عند مسألة رسله والنجاة من هول فتنة فتانيه.

ويشهد أن الميزان يوم القيامة حقٌ يقين يزن سيئات المسيئين وحسنات المحسنين ليري عباده من عظيم قدرته ما أراده من الخير لعباده بما لم يكونوا يحتسبون وأن من ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه يومئذٍ فأولئك هم الخاسرون.

وأن حوض محمدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم المحشر والموقف للعرض حقٌ وأن عدد آنيته كنجوم السماء من شرب منه لم يظمأ أبداً.

وسليمان يسأل الله بواسع رحمته أن لا يرده عن حوض نبيه عطشان.

وأن أبا بكر وعمر خير هذه الأمة بعد نبينا والله يعلم بعدهما حيث الخير وفيمن الخير من هذه الأمة وأن هذه الشهادة كلها المذكورة في عهده هذا يعلمها الله من سره وإعلانه وعقد ضميره وأنه بها عبد ربه في سالف أيامه وماضي عمره وعليها أتاه يقين ربه وتوفاه أجله وعليها يبعث بعد موته إن شاء الله وأن سليمان كانت له بين هذه الشهادة بلايا وسيئاتٌ لم يكن له عنها محيد ولا بد جرى بها المقدور من الرب النافذ إلى إتمام ما حد فإن يعف ويصفح فذاك ما عرف منه قديماً ونسب إليه حديثاً وتلك صفته التي وصف بها نفسه في كتابه الصادق وكلامه الناطق وإن يعاقب وينتقم فبما قدمت يداه وما الله بظلام للعبيد.

وأن سليمان يحرج على من قرأ عهده هذا وسمع ما فيه من حكمة أن ينتهي إليه في أمره ونهيه بالله العظيم ومحمدٍ رسوله الكريم وأن يدع الإحن المضغنة ويأخذ بالمكارم المدجنة ويرفع يديه إلى الله بالضمير النضوح والدعاء الصحيح والصفح الصريح يسأله العفو عني والمغفرة لي والنجاة من فزعي والمسألة في قبري لعل الودود أن يجعل منكم مجاب الدعوة بما من الله علي من صفحه يعود إن شاء الله وأن ولي عهد سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين وصاحب أمره بعد موته في جنده ورعيته وخاصته وعامته وكل من استخلفني الله عليه واسترعاني النظر فيه الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز بن مروان ابن عمي لما بلوت من باطن أمره وظاهره ورجوت الله بذلك وأردت رضاه ورحمته إن شاء الله.

ثم من بعده تسلم إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان إن بقي بعده فإني ما رأيت منه إلا خيراً ولا أطلعت له على مكروه.

وصغار ولدي وكبارهم إلى عمر إذ رجوت أن لا يألوهم رشداً وصلاحاً والله خليفتي عليهم وعلى جماعة المؤمنين والمسلمين وهو أرحم الراحمين واقرأوا عهدي عليكم السلام ورحمة الله.

فهو ضالٌ مصلٌ يستعتب فإن أعتب وإلا - ومن أبى أمري هذا أو خالف عهدي هذا - وأرجو أن لا يخالفه أحدٌ من أمة محمد فإني لمن صاحب عهدي فيهم بالسيف السيف والقتل القتل فإنهم مستوجبون لهم وهم لهيبته ملقحون والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله القديم الإحسان.

تم ذلك والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله.

وعلى نحوٍ من ذلك كتب المأمون العباسي عهد علي بن موسى العلوي المعروف بالرضي بالخلافة بعده.

وهذه نسخته فيما ذكر صاحب العقد: هذا كتابٌ كتبه عبد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين بيده لعلي بن موسى بن جعفر ولي عهده: أما بعد فإن الله عز وجل اصطفى الإسلام ديناً واصطفى له من عباده رسلاً دالين عليه وهادين إليه يبشر أولهم بآخرهم ويصدق تاليهم ماضيهم حتى انتهت نبوة الله إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم على فترةٍ من الرسل ودروس من العلم وانقطاعٍ من الوحي واقترابٍ من الساعة فختم الله به النبيين وجعله شاهداً لهم ومهيمناً عليهم وأنزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ.

فأحل وحرم ووعد وأوعد وحذر وأنذر وأمر به ونهى عنه لتكون له الحجة البالغة على خلقه وليهلك من هلك عن بينةٍ ويحيا من حي عن بينةٍ وإن الله لسميعٌ عليم.

فبلغ عن الله رسالته ودعا إلى سبيله بما أمره به من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ثم بالجهاد والغلظة حتى قبضه الله إليه واختار له ما عنده صلى الله عليه.

فلما انقضت النبوة وختم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم الوحي والرسالة جعل قوام الدين ونظام أمر المسلمين بالخلافة وإتمامها وعزها والقيام بحق الله فيها بالطاعة التي تقام بها فرائض الله وحدوده وشرائع الإسلام وسننه ويجاهد بها عدوه.

فعلى خلفاء الله طاعته فيما استحفظها واسترعاهم من دينه وعباده وعلى المسلمين طاعة خلفائهم ومعاونتهم على إقامة حق الله وعدله وأمن السبل وحقن الدماء وصلاح ذات البين وجمع الألفة وفي إخلال ذلك اضطراب حبل المسلمين واختلالهم واختلاف ملتهم وقهر دينهم واستعلاء عدوهم وتفرق الكلمة وخسران الدنيا والآخرة.

فحقٌ على من استخلفه الله في أرضه وأتمنه على خلقه أن يؤثر ما فيه رضا الله وطاعته ويعد ل فيما الله واقفه عليه وسائله عنه ويحكم بالحق ويعمل بالعدل فيما حمله الله وقلده فإن الله عز وجل يقول لنبيه داود عليه السلام: " يا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَاسِ بِالحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ "

. " فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ "وقال عز وجل:

وبلغنا أن عمر بن الخطاب قال: لو ضاعت سخلةٌ بجانب الفرات لتخوفت أن يسألني الله عنها.

وأيم الله إن المسؤول عن خاصة نفسه الموقوف على عمله فيما بين الله وبينه لمتعرضٌ لأمر كبير وعلى خطر عظيم فكيف بالمسؤول عن رعاية الأمة وبالله الثقة وإليه المفزع والرغبة في التوفيق مع العصمة والتسديد والهداية إلى ما فيه ثبوت الحجة والفوز من الله بالرضوان والرحمة.

وأنظر الأئمة لنفسه وأنصحهم في دينه وعباده وخلافته في أرضه من عمل بطاعة الله وكتابه وسنة نبيه عليه السلام في مدة أيامه واجتهد وأجهد رأيه ونظره فيمن يوليه عهده ويختاره لإمامة المسلمين ورعايتهم بعده وينصبه علماً لهم ومفزعاً في جمع ألفتهم ولم شعثهم وحقن دمائهم والأمن بإذن الله من فرقتهم وفساد ذات بينهم واختلافهم ورفع نزغ الشيطان وكيده عنهم فإن الله عز وجل جعل العهد بالخلافة من تمام أمر الإسلام وكماله وعزه وصلاح أهله وألهم خلفاءه من توسيده لمن يختارونه له من بعدهم ما عظمت به النعمة وشملت منه العافية ونقض الله بذلك مر أهل الشقاق والعداوة والسعي في الفرقة والرفض للفتنة ولم يزل أمير المؤمنين منذ أفضت إليه الخلافة فاختبر بشاعة مذاقتها وثقل محملها وشدة مؤونتها وما يجب على من تقلدها من

ارتباط طاعة الله ومراقبته فيما حمله منها فأنصب بدنه وأسهر عينه وأطال فكره فيما فيه عز الدين وقمع المشركين وصلاح الأمة ونشر العدل وإقامة الكتاب والسنة ومنعه ذلك من الخفض والدعة بهني العيش علماً بما الله سائله عنه ومحبةً أن يلقى الله مناصحه في دينه وعباده ومختاراً لولاية عهده ورعاية الأمة من بعده أفضل من يقدر عليه في دينه وورعه وعلمه وأرجاهم للقيام بأمر الله وحقه مناجياً لله بالاستخارة في ذلك ويسأله إلهامه ما فيه رضاه وطاعته في ليله ونهاره ومعملاً في طلبه والتماسه من أهل بيته من ولد عبد الله بن العباس وعلي بن أبي طالب فكره ونظره ومقتصراً فيمن علم حاله ومذهبه منهم على علمه وبالغاً في المسألة عمن خفي عليه أمره جهده وطاقته حتى استقصى أمورهم بمعرفته وابتلى أخبارهم مشاهدة وكشف ما عندهم مساءلة فكانت خيرته بعد استخارته لله وإجهاده نفسه في قضاء حقه وبلاده من البيتين جميعاً علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لما رأى من فضله البارع وعلمه الناصع وورعه الظاهر وزهده الخالص وتخليه من الدنيا وتسلمه من الناس وقد استبان له ما لم تزل الأخبار عليه متواطئة والألسن عليه متفقةً والكلمة فيه جامعة.

ولما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعاً وناشئاً وحدثاً ومكتهلاً فعقد له بالعقد والخلافة إيثاراً لله والدين ونظراً للمسلمين وطلباً للسلامة وثبات الحجة والنجاه في اليوم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين.

ودعا أمير المؤمنين ولده وأهل بيته وخاصته وقواده وخدمه فبايعوه مسرعين مسرورين عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعة الله على الهوى في ولده وغيرهم ممن هو أشبك به رحماً وأقرب قرابة وسماه الرضي إذ كان رضياً عند أمير المؤمنين.

فبايعوا معشر بيت أمير المؤمنين ومن بالمدينة المحروسة من قواده وجنده وعامة المسلمين الرضي من بعده على اسم الله وبركته وحسن قضائه لدينه وعباده بيعةً مبسوطةً إليها أيديكم منشرحةً لها صدوركم عالمين بما أراد أمير المؤمنين بها وآثر طاعة الله والنظر لنفسه ولكم فيها شاكرين لله على ما ألهم أمير المؤمنين من نصاحته في رعايتكم وحرصه على رشدكم وصلاحكم راجين عائده في ذلك في جمع ألفتكم وحقن دمائكم ولم شعثكم وسد ثغوركم وقوة دينكم ورغم عدوكم واستقامة أموركم.

وسارعوا إلى طاعة الله وطاعة أمير المؤمنين فإنه الأمر إن سارعتم إليه وحمدتم الله عليه عرفتم الحظ فيه إن شاء الله تعالى.

وعلى هذه الطريقة كتب الوزير أبو حفص بن برد عهد الناصر لدين الله عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر العامري عن المؤيد بالله هشام بن الحكم الأموي الخليفة بالأندلس.

وهذه نسخته: هذا ما عهد هشامٌ المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة وعاهد الله عليه من نفسه خاصة وأعطى به صفقة يمينه بيعةً تامةً بعد أن أنعم النظر وأطال الاستخارة وأهمه ما جعل الله إليه من الإمامة وعصب به من أمر المؤمنين واتقى حلول القدر بما لا يؤمن وخاف نزول القضاء بما لا يصرف وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوي إليه وملجأ تنعطف عليه - أن يكون يلقى ربه تبارك وتعالى مفرطاً ساهياً عن أداء الحق إليها.

ويغمص عند ذلك من أحياء قريش وغيرها من يستحق أن يسند هذا الأمر إليه ويعول في القيام به عليه ويستوجبه بدينه وأمانته وهديه وصيانته بعد اطراح الهوى والتحري للحق والتزلف إلى الله جل جلاله بما يرضيه.

وبعد أن قطع الأواصر وأسخط الأقارب عالماً أن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح وموقناً أن لا وسيلة إليه أزكى من الدين الخالص فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ويفوض إليه الخلافة بعده لفضل نفسه وكرم خيمه وشرف مرتبته وعلو منصبه مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ونقاوته من المأمون الغيب الناصح الجيب النازح على كل عيب ناصر الدولة أبي ابتلاه - المطرف عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر محمد بن أبي عامر وفقه الله إذ كان أمير المؤمنين - أيده الله واختبره ونظر في شأنه واعتبره فرآه مسارعاً في الخيرات سابقاً في الحلبات مستولياً على الغايات جامعاً للمأثرات يجذب بضبعه إلى أرفع منازل الطاعة ويسمو بعينيه إلى أعلى درج النصيحة ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ من سبل البر مداه ويحوي من خلال الخير ما حواه مع أن أمير المؤمنين - أيده الله - بما طالعه من مكنون العلم ووعاه من مخزون الأثر يرى أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص بتحقيق ما أسنده أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا تَقُومُ الساعةُ حتَّى يَخْرُجَ رجُلٌ من قَحْطانَ يَسُوقُ الناسَ بعَصَاه ".

فلما استوى له الاختيار وتقابلت عنده فيه الآثار ولم يجد عنه مذهباً ولا إلى غيره معدلاً صرح إليه في تدبير الأمور في حياته وفوض إليه الخلافة بعد وفاته طائعاً راضياً مجتهداً متخيراً غير محابٍ له ولا مائل بهوادة إليه ولا شرك نصح الإسلام وأهله فيه وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها أن رأى ذلك في بقاء أمير المؤمنين أعزه الله بعده وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه وأنفذه ولم يشترط فيه مثنويةً ولا خياراً وأعطى على الوفاء به به في سره وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه وذمة نفسه أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول أشهد الله على ذلك والملائكة وكفى بالله شهيداً.

وأشهد من أوقع اسمه في هذا وهو جائز الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله وقبوله ما قلده وإلزامه نفسه ما ألزمه وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وثلثمائة.

وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم بذلك.

طريقة المتأخرين من الكتاب أن يأتي بالتحميد في أثناء العهد ويأتي من ألقاب ولي العهد بما يناسب على الاختصار وعليها اقتصر المقر الشهابي بن فضل الله في التعريف فقال: واعلم أن عهود الخلفاء عن الخلفاء لم تجر عادة من سلف من الكتاب أن يستفتحها إلا بما يذكر وهو: هذا ما عهد به عبد الله ووليه فلانٌ أبو فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين عهد إلى ولده أو إلى أخيه الأمير السيد الجليل ذخيرة الدين وولي عهد المسلمين أبي فلان فلان أيده الله بالتمكين وأمده بالنصر المبين وأقر به عين أمير المؤمنين.

ثم ينفق كل كاتبٍ بعد هذا على قدر سعته ثم يقول: أما بعد فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويصلي على نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم ويخطب في ذلك خطبة يكثر فيها التحميد وينتهي فيه إلى سبعة ثم يأتي بعد ذلك بما يناسب من القول يصف فكر الذي يعهد فيمن بعده ويصف المعهود إليه بما يليق من الصفات الجليلة.

ثم يقول: عهد إليه وقلده بعده جميع ما هو مقلده لما رآه من صلاح الأمة أو صلاح الخلق بعد أن استخار الله تعالى في ذلك ومكث مدةً يتدبر ذلك ويروي فيه فكره وخاطره ويستشير أهل الرأي والنظر فلم ير أقوم منه بأمور الأمة ومصالح الدنيا والدين ومن هذا ومثله.

ثم يقال: إن المعهود إليه قبل ذلك منه ويأتي في ذلك بما يليق من محاسن العبارة وأحاسن الكلام.

قلت: ولم أظفر بنسخة عهدٍ على هذا الأسلوب الذي ذكره المقر الشهابي وقد أنشأت عهداً على الطريقة التي أشار إليها امتحاناً للخاطر لأن يكون عن الإمام المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بن المعتضد أبي الفتح أبي بكر خليفة العصر لولده العباس ليكون أنموذجاً ينسج على منواله.

ومن غريب الاتفاق أني أنشأته في شهور سنة إحدى وثمانمائة امتحاناً للخاطر كما تقدم وضمنته هذا الكتاب وتمادى الحال على ذلك إلى أن قبض الله تعالى الإمام المتوكل - قدس الله تعالى روحه - في سنة ثمان وثمانمائة فأجمع أهل الحل والعقد على مبايعته بالخلافة فبايعوه وحقق الله تعالى ما أجراه على اللسان من إنشاء العهد باسمه في الزمن السابق ثم دعتني داعيةٌ إلى التمثل بين يديه الشريفتين في مستهل شهر ذي القعدة الحرام سنة تسع وثمانمائة فقرأته عليه من أوله إلى آخره وهو مصغٍ له مظهرٌ الابتهاج به وأجاز عليه الجائزة السنية.

ثم أنشأت له رسالةً وضمنته إياها وأودعت بخزانته العالية عمرها الله بطول بقائه.

وهذه نسخته: هذا عهدٌ سعيد الطالع ميمون الطائر مبارك الأول جميل الأوسط حميد الآخر تشهد به حضرات الأملاك وترقمه كف الثريا بأقلام القبول في صحائف الأفلاك وتباهي به ملوك الأرض ملائكة السماء وتسري بنشره القبول إلى الأقطار فتنشر له بكل ناحيةٍ علماً وتطلع به سعادة الجد من ملوك العدل في كل أفق نجماً وترقص من فرحها الأنهار فتنقطها شمس النهار بذهب الأصيل على صفحات الماء عهد به عبد الله ووليه أبو عبد الله محمدٌ المتوكل على الله أمير المؤمنين إلى ولده السيد

الجليل عدة الدين وذخيرته وصفي أمير المؤمنين من ولده وخيرته المستعين بالله أبي الفضل العباس بلغ الله فيه أمير المؤمنين غاية الأمل وأقر به عين الخلافة العباسية كما أقر به عين أبيه وقد فعل.

أما بعد فالحمد لله حافظ نظام الإسلام وواصل سببه ورافع بيت الخلافة وماد طنبه وناظم عقد الإمامة المعظمة في سلك بني العباس وجاعلها كلمةً باقيةً في عقبه.

والحمد لله الذي عدق أمر الأمة منهم بأعظمهم خطراً وأرفعهم قدراً وأرجحهم عقلاً وأوسعهم صدراً وأجزلهم رأياً وأسلمهم فكراً.

والحمد لله الذي أقر عين أمير المؤمنين بخير ولي وأفضل ولد وشد أزره بأكرم سيد وأعز سند وصرف اختياره إلى من إذا قام بالأمر بعده قيل هذا الشبل من ذاك الأسد.

والحمد لله الذي جمع الآراء على اختيار العاهد فما قلوه ولا رفضوه وجبل القلوب على حب المعهود إليه فلم يروا العدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه.

والحمد لله الذي جدد للرعية نعمةً مع بقاء النعمة الأولى وأقام لأمر الأمة من بني عم نبيه المصطفى الأولى بذلك فالأولى واختار لعهد المسلمين من سبقت إليه في الأزل إرادته فأصبح في النفوس معظماً وفي القلوب مقبولاً.

والحمد لله الذي أضحك الخلافة العباسية بوجود عباسها وأطاب بذكره رياها فتعطر الوجود بطيب أنفاسها ورفع قدره بالعهد إليه إلى أعلى رتبة منيفة وخصه بمشاركة جده العباس في الاسم والكنية ففاز بما لم يفز به قبله منهم ستة وأربعون خليفة.

والحمد لله الذي أوجب على الكافة طاعة أولي الأمر من الأئمة وألزمهم الدخول في بيعة الإمام والانقياد إليه ولو كان عبداً أسود فكيف بمن أجمع على سؤدده الأمة وأوضح السبيل في التعريف بمقام الآل والعترة النبوية ثم لا يكن.

.

أمركم عليكم غمة.

يحمده أمير المؤمنين على ما منحه من طيب أرومةٍ سمت أصلاً وزكت فرعاً وحباه من شرف محتدٍ راق نظراً وشاق سمعاً ووصله به من نعم آثرت نفاعاً وأثرت نفعاً ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً يتوارثونها كالخلافة كابراً عن كابر ويوصي بها أبداً الأول منهم الآخر ويؤذن قيامهم بنصرتها أنهم معدن جوهرها النفيس ونظام عقدها الفاخر ويشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي خص عمه العباس بكريم الحباء وشريف الإنافة ونبه على بقاء الأمر في بنيه بقولٍ ضل من أظهر عناده أو أضمر خلافه حيث أسر إليه: ألا أبشرك يا عم بي ختمت النبوة وبولدك تختم الخلافة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تعم بركتها الولد والوالد ويشمل معروفها المعهود إليه ويعرف شرفها العاهد ويعترف بفضلها المقر ولا يسع إنكارها الجاحد ما نوه بذكر الخلافة العباسية على أعواد المنابر وخفقت الرايات السود على عساكر المواكب ومواكب العساكر وسلم تسليماً كثيراً.

هذا وكل راعٍ مسؤول عن رعيته وكل امرئ محمولٌ على نيته مخبرٌ بظاهره عن جميل ما أكنه في صدره وما أسره في طويته والإمام منصوبٌ للقيام بأمر الله تعالى في عباده مأمورٌ بالنصيحة لهم جهد طاقته وطاقة اجتهاده مطلوبٌ بالنظر في مصالحهم في حاضر وقتهم ومستقبله وبدء أمرهم ومعاده ومن ثم اختلفت آراء الخلفاء الراشدين في العهد بالخلافة وتباينت مقاصدهم وتنوعت اختياراتهم بحسب الاجتهاد واختلفت مواردهم فعهد الصديق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه متثبتاً وتركها عمر شورى في ستة وقال: أتحمل أمركم حياً وميتاً! وأتى رضي الله عنه لكلٍ من المذهبين بما أذعن له الخصم وسلم فقال: إن أعهد فقد من هو خيرٌ مني أبو بكر وإن أترك فقد ترك من هو خيرٌ مني رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الخلفاء في ذلك بسنتهما ومشوا فيه على طريقتهما فمن راغبٍ عن العهد وراغبٍ فيه وعاهدٍ إلى بعيدٍ وآخر إلى ابنه أو أخيه كلٌ منهم بحسب ما يؤدي إليه اجتهاده وتقوى عليه عزيمته ويترجح لديه اعتماده.

ولما كان أمير المؤمنين - أحسن الله مآبه - قد نور الله عين بصيرته وخصه بطهارة سره وصفاء سريرته وآتاه الله الملك والحكمة وأقامه لمصالح الرعية وصلاح أمر الأمة وعلمه مما يشاء فكان له من علم الفراسة أوفر قسم واصطفاه على أهل عصره وزاده بسطةً في العلم والجسم فلا يعزم أمراً إلا كان رشاداً ولا يعتمد فعلاً إلا ظهر سداداً ولا يرتئي رأياً إلا ألفي صواباً ولا يشير بشيء إلا حمدت آثاره بدايةً ونهايةً واستصحاباً ومع ذلك فقد بلا الناس وخبرهم وعلم بالتجربة حالهم وخبرهم واطلع بحسن النظر على خفايا أمورهم وما به مصلحة خاصتهم وجمهورهم وترجح عنده جانب العهد على جانب الإهمال ورأى المبادرة إليه أولى من الإمهال ولم يزل يروي فكرته ويعمل رويته فيمن يصلح لهذا الأمر بعده وينهض بأعبائه الثقيلة وحده ويتبع فيه سبله ويسلك طرائقه ويقتفي في السيرة الحسنة أثره ويشيم في العدل بوارقه ويقبل على الأمر بكليته ويقطع النظر عما سواه ويتفرغ له من كل شاغلٍ فلا وقد علم أن الأحق بأن يكون لها حليفاً من كان بها خليقاً والأولى بأن يكون لها قريناً من كان بوصلها حقيقاً والأجدر أن يكون لديها مكيناً من اتخذ معها يداً وإلى مرضاتها طريقاً والأليق بمنصبها الشريف من كان بمطلوبها ملياً والأحرى بمكانها الرفيع من كان بمقصودها وفياً والأوفق لمقامها العالي من كان خيراً مقاماً وأحسن نديا وكان ولده السيد الأجل أبو الفضل المشار إليه هو الذي وجهت الخلافة وجهها إلى قبلته وبالغت في طلبه وألحت في خطبته على أنه قد أرضع بلبانها وربي في حجرها وانتسب إليها بالبنوة فضمته إلى صدرها وكيف لا تتشبث بحباله وتتعلق بأذياله وتطمع في قربه وتتغالى في حبه وتميل إلى أنسه وتراوده عن نفسه وهو كفؤها المستجمع لشرائطها المتصف بصفاتها ونسيبها السامي إلى أعاليها الراقي على شرفاتها إذ هو شبلها الناشئ في آجامها بل أسدها الحامي لحماها ومجيرها الوافي بذمامها وفارسها المقدم في حلبة سباقها ووارثها الحائز لجميع سهامها وحاكمها الطائع لأمرها ورشيدها المأمون على سرها وناصرها القائم بواجبها ومهديها الهادي إلى أفضل مذاهبها قد التحف من الخلافة بردائها وسكن من القلوب في سويدائها وتوسمت الآفاق تفويض الأمر إليه بعد أبيه فظهر الخلوق في أرجائها واتبع سيرة أبيه في المعروف واقتفى أثره في الكرم وتشبه به في المفاخر ومن يشابه أبه فما ظلم وتقبل الله دعاء أبيه فوهب له من لدنه ولياً وأجاب نداءه فيه فمكن له في الأرض وآتاه الحكم صبياً فاستوجب أن يكون حينئذٍ للمسلمين ولي عهدهم والياً على أمورهم في حلهم وعقدهم ومتكفلاً بالأمر في قربه وبعده معيناً لأبيه في حياته خليفةً له من بعده وأن يصرح له بالاستخلاف ويوضح ويتلو عليه بلسان التفويض اخلفني في قومي وأصلح.

واقتضت شفقة أمير المؤمنين ورأفته ورفقه بالأمة ورحمته أن ينصب لهم ولي عهدٍ يكون بهذه الصفات متصفاً ومن بحره الكريم مغترفاً ومن ثمار معروفه المعروف مقتطفاً ولمنهله العذب وارداً وعلى بيته الشريف وسائر الأمة بالخير عائداً فلم يجد من هو مستكملٌ لجميعها مستوعبٌ لأصولها وفروعها وهو بمطلوبها أملى وعلى قلوب الرعية أحلى وللغليل أشفى وبالعهد الجميل أوفى من ولده المشار إليه.

فاستشار في ذلك أهل الحل والعقد من قضاته وعلمائه وأمرائه ووزرائه وخاصته وذويه وأقاربه وبنيه وأعيان أهل العصر وعامته وجمهوره وكافته فرأوه صواباً ولم يعرهم فيه ظنةٌ ولا مستراباً ولا وجد أحدٌ منهم إلى باب غيره طريقاً ولا إلى طريق غيره باباً فاستخار الله تعالى فيه فأقبل خاطره الشريف عليه وكرر الاستخارة فلم يجد عنه محيداً إلا إليه.

فلما رأى أن ذلك أمرٌ قد انعقد عليه الإجماع قولاً وفعلاً وعدم فيه المحالف بل لم يكن أصلاً حمد الله تعالى وأثنى عليه وسأله التوفيق ورغب إليه وجدد الاستخارة وعهد إليه بأمر الأمة وقلده ما هو متقلده من الخلافة المقدسة بعده على عادة من تقدمة من الخلفاء الماضين وقاعدة من سلف من الأئمة المهديين وفوض إليه ما هو من أحكامها ولوازمها وأصولها ومعالمها من عهدٍ ووصاية وعزل وولاية وتفويضٍ وتقليد وانتزاعٍ وتخليد وتفريقٍ وجمع وإعطاءٍ ومنع ووصل وقطع وصلة وإدرار وتقليلٍ وإكثار جزئيها وكليها وخفيها وجليها ودانيها وقاصيها وطائعها وعاصيها تفويضاً شرعياً تاماً مرضياً جامعاً لأحكام الولاية جمعاً يعم كل نطاق ويسري حكمه في جميع الآفاق ويدخل تحته سائر الأقاليم والأمصار على الإطلاق لا يغير حكمه ولا يمحى رسمه ولا يطيش سهمه ولا يأفل نجمه.

قبل المعهود إليه - أعلى الله مقامه - ذلك بمحضر من القضاة والحكام والعلماء الأعلام ولزم حكمه وانبرم وكتب في سجلات الأفلاك وارتسم وحملت رسائله مع برد السحاب فطافت به على سائر الأمم وهو - أبقاه الله - مع ما طبعت عليه طباعه السليمة وجبلت عليه سجاياه الشريفة وأخلاقه الكريمة قد تلقى عن أمير المؤمنين من شريف الآداب ما غذي به في مهده وتلقف منه من حسن الأدوات ما يرويه بالسند عن أبيه وجده مما انطبع في صفاء ذهنه الصقيل وانتقش في فهمه واختلط من حال طفوليته بدمه ولحمه وعظمه حتى صار طبعاً ثانياً وخلقاً على ممر الزمان باقياً واجتمع لديه الغريزي فكان أصلاً ثابتاً إن شاء الله - متمسكاً والمرء - وفرعاً على ذلك الأصل القوي نابتاً لكن أمير المؤمنين يوصيه تبركاً ويشرح له ما يكون به إلى الأمر بالخير مندوب ووصية الرجل لبنيه مطلوبةٌ فقد قال تعالى: " وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ "

فعليك بمراقبة الله تعالى فمن راقب الله نجا واجعل التقوى رأس مالك ومن يتق الله يجعل له مخرجاً والجأ إلى الحق فقد فاز من إلى الحق لجا وكتاب الله هو الحبل المتين والكتاب المبين والمنهج القويم والسبيل الواضح والصراط المستقيم فتمسك منه بالعروة الوثقى واسلك طريقته المثلى واهتد بهديه فلا تضل ولا تشقى وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عليك بالاقتداء بأفعالها الواضحة والإصغاء لآثار أقوالها الشارحة عالماً بأن الكتاب والسنة أخوان لا يفترقان ومتلازمان بحبل التباين لا يعتلقان والبلاد والرعايا فحطهما بنظرك ما استطعت وتثبت في كل قطع ووصل فأنت مسؤول عن كل ما وصلت وقطعت والآل والعترة النبوية ففهما حق القرابة منك ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أشرقت به واعلم أنك إذا أكرمت أحداً منهم فإنما أكرمته بسببه واتبع في السيرة سيرة آبائك الخلفاء الراشدين لا تزغ عنها ولا تعمل إلا بها وبما هو - إن استطعت - خيرٌ منها واقف في المعروف آثارهم المقدسة لتحوي من المآثر ما حووا واحذ حذوهم في طريقهم المباركة وابن المجد كما بنوا وأحي من العمل سنة سلفك المصطفين الأخيار واحرص أن تكون من الأئمة الذين يظلهم الله تحت عرشه يوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

وأسلف خيراً تذكر به على ممر الليالي وينتظم ذكره في عقود الأيام كما تنتظم في السلك اللآلي وليكن قصدك وجه الله ليكون في نصرتك فإن من كان الله تعالى في نصرته لا يبالي ولتعلم حق اليقين أن حسنة الإمام تضاعف بحسب ما يترتب عليها من المصالح أو يتجدد بسببها وسيئته كذلك فمن سن سيئةً كان عليه إثمها وإثم من عمل بها ودر مع الحق كيف دار ومل معه حيث مال واعلم بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ولا تخطر ببالك أن هذا الأمر انتهى إليك بقوة أو يغرك ما قدمناه من الثناء عليكم فالتأثر بالمدح يخل بالمروة ولا تتكل على نسبك فمن أطاع الله أدخله الجنة ولو كان عبداً حبشياً ومن عصاه أدخله النار ولو كان هاشمياً قرشياً واستنصر الله ينصرك واستعن به يكن لك عوناً وظهيراً واستهده يهدك وكفى بربك هادياً ونصيراً وكن من الله خائفاً ومن مكره من المشفقين فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ووصيته تملى عليك وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين والله تعالى يبلغه منك أملاً ويحقق فيك علماً ويزكي بك عملاً والاعتماد على الخط المقدس الإمامي المذهب الثاني أن يفتتح العهد بعد البسملة بلفظ من فلان إلى فلان كما يكتب في المكاتبات ثم يأتي بالبعدية ويأتي بما يناسبه مما يقتضيه الحال من ذكر الولاية ووصف المتولي واختيار المولي له ونحو ذلك ثم قاعدة كتابهم أنهم يأتون بعد ذلك بالتحميد في أثناء العهد.

وهذه نسخة عهدٍ من ذلك كتب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمي لولده حيدرة بأن يكون ولي عهد الخلافة بعده وليس فيها تعرض لتحميد أصلاً وهو: من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الحافظ لدين الله أمير المؤمنين إلى ولده ونجله وسلالته الطاهرة ونسله والمجمع على شرفه والعامل بمرضاة الله في قوله وفعله وعقده وحله الأمين أبي تراب حيدرة ولي عهد أمير المؤمنين عليه السلام.

سلامٌ عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على جده محمدٍ خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليماً.

أما بعد فإن الله تعالى لبديع حكمته ووسيع رحمته استودع خلفاءه من خلقه وبرأه واستكفى أمناءه من صوره وذرأه ورتبهم مرتبة النفوس من الأجساد ونزلهم بمنزلة الضياء من الأزناد وجعلهم مستخدمين لأفكارهم في مصالح البرية التي غدت في أمانهم وحصلت في ضمانهم فظلت في ذمامهم وسعدت في عز مقامهم وظل أيامهم لأنهم نصبوا للنظر فيما جل ودق وتعبوا لراحة الكافة تعباً صعب وعظم وشق وكان ذلك سراً من أسرار الحكمة وضرباً من افضل تدبير الأمة إذ لو ساوى بين الرئيس والمرؤوس والسائس والمسوس.

لاختلط الخصوص بالعموم ولم يبق فرقٌ بين الإمام والمأموم.

وقد استخلص الله أمير المؤمنين من أشرف أسرة وأكرم عصابة وأيده في جميع آرائه بالحزامة والجزالة والأصالة والإصابة وقضى لأغراضه أن يكون السعد لها خادماً وحتم لمقاصده أن يصاحبها التوفيق ولا ينفك لها ملازماً وجمع له ما تفرق في الخليفة من المفاخر والمناقب وألهمه النظر في حسن الخواتم وحميد العواقب.

ولما كان ولي عهد أمير المؤمنين أكبر أبناء أمير المؤمنين والمنتهي لأشرف المراتب من تقادم السنين وقد استولى على الفخر باكتسابه وانتسابه وتصدت له مخطوبات الرتب ليحوزها باستحقاقه واستيجابه وله من فضيلة ذاته ما يدل على النبإ العظيم وعليه من أنوار النبوة ما يهتدي به الساري في الليل البهيم وحين حوى تالد الفخر وطارفه ولم يستغن بالقديم عن الحديث ولا بالحديث عن القديم والصفات إذا اختلفت أربابها لا تقع إلا دونه والثواب الجزيل مما أعده الله للذين يخلصون فيه ويتولونه وليفخر بأن خص من العناية الملكوتية بالحظ الأجزل وليتسمح على البرايا ليكون ممدوحاً بالكتاب المنزل وليبذخ فإن وصفه لا تبلغ غايته وإن استخدمت فيه الفكر وليبجح فإن فضله لا يدرك حقيقةً إلا إذا تليت السور فأمتعه الله بمواهبه لديه وأمتع أمير المؤمنين به وأجرى أموره عاجلاً وآجلاً بسببه.

رأى أمير المؤمنين أن يختصه بولاية عهد أمير المؤمنين تمييزاً له بهذا النعت الشريف وسموا به إلى ما يجب لمجده الشامخ ومحله المنيف واقتداءً بأسلافه الأئمة الأطهار فيما يشرفون به أبناءهم الأكرمين وتخصيصاً له بما يبقى فخره على متجدد الأزمان ومتطاول السنين.

وأمر أمير المؤمنين أن يتخير من رجال دولته ووجوه أجناده وشيعته طائفةٌ يكون إليه انتماؤها وإلى شرف هذا النعت انتسابها واعتزاؤها فتوسم بالطائفة العهدية وتحظى إذا أخلصت في الولاية بالسعادة الدائمة الأبدية وتظل موقوفةً على خدمته متصرفةً على أوامره وأمثلته منتهيةً في طاعته إلى أغراضه ومآربه وملازمةً للازم المتعين من ملازمة الخدمة في مواكبه والله تعالى يجعل ما رآه أمير المؤمنين من ذلك كافلاً بالخيرات ضامناً لشمول المنافع وعموم البركات إن شاء الله تعالى.

والسلام على ولي عهد أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

وهذه نسخةٌ بولاية العهد من خليفةٍ لولده بالخلافة على هذه الطريقة من إنشاء القاضي الفاضل أتى فيها بالتحميد بعد التصدير ثلاث مرات وهي: من عبد الله ووليه فلان أبي فلان الإمام الفلاني إلى فلانٍ الفلاني والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم على نحو ما تقدم في العهد قبله: أما بعد فالحمد لله الذي استحق الحمد بفضله وأجرى القضاء على ما أراده ووسع الجرائم بعفوه وعدله وصرف المراحم بين قوله وفعله وأعلى منار الحق وأرشد إلى أهله واختار الإسلام ديناً وعصم المعتلقين بحبله وأوضح سبل النجاة بما أوضح لسالكيه من سبله وتعالى علاه إلى الصفات فلم يوصف بمثل قوله: ليس كمثله وتنزه عن اشتراك التشبيهات في كل جليل الوصف مستقله وغير مستقله علم ما اشتملت عليه خطرات الأسرار وأشارت إليه نظرات الأبصار وانفرجت عنه غمرات الأخطار وأخفته سترات الظلماء وباحت به جهرات الأنوار: سواءٌ منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنّهار.

والحمد لله الذي جعل الدين عنده الإسلام فمن ابتغى غيره ضل المنهج وأبعد المعرج واستلقح المخدج وغلط المخرج وفارق النور الأبلج وركب الطريق الأعوج وأتى يوم القيامة باللسان الملجلج ومن أسلم وجهه إليه فاز بالسعي النجيح وحاز المتجز الربيح وورد المورد الأحمد ويمم القصد الأقصد ووجد الجد الأسعد وسلك المنهج الأرشد فهو العروة الوثقى والطريقة المثلى والدرجة العليا وأمر به خير المرسلين المنعوت في سير الأولين المبعوث بالحق المبين والقائم رسولاً في الأميين والهادي إلى الحق وإلى طريقٍ مستقيم والداعي الذي من أجابه وآمن به غفر له ما تقدم من ذنبه وأجير من عذابٍ أليم والمستقل بالعبء العظيم بفضل ما منح من الخلق العظيم والممدوح بقوله: لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ.

والحمد لله الذي وصل النبوة بالإمامة وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه إلى يوم القيامة وخصها بالخصائص التي لا تنبغي إلا لتام الكرامة وأجار بها خلقه من متالف الطامة وبوادي الندامة وهدى بشرف مقامه إلى دار المقامة واسترد بأنوار تدبيره من ظلام الباطل الطلامة وأحسن بما أجراه من نظره النظر للخاصة والعامة إن هذا لهو الفضل المبين.

يحمده أمير المؤمنين أن رفعه إلى ذلك المحل المنيف واستعمر به المقام الشريف وأظهر كلمة الدين الحنيف ونفى عنه تغالي التعمق وتجديف التحريف وبين بموافقة توفيق هديه طريق التكليف وأمده بمواد إلهيةٍ تشتهر فتستغني عن التعريف وتتصل فتقطع مواد التكييف.

ويسأله أن يصلي على جده محمدٍ الذي نسخ بشريعته الشرائع وهذب بهدايته المشارع وأيده بالحجج القواطع والأنوار السواطع وجعل من ذريته جبال الله القوارع ومن مشكاته نجوم الهدى الطوالع وعدقت صنائعه بالله إذا افتخرت المنعمون بالصنائع

وعلى أخيه وأبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المخصوص بأخوته وأبي الثقلين من عترته والسابق إلى الإسلام فهو بعده أبو عذرته وإلى تفريج الكرب عن وجهه في الحرب فهو ابن بجدته.

وعلى الأئمة من ذريتهما مصابيح الظلمات ومفاتيح الشكوك المبهمات والممنوحين من شرف السمات ما جل عن المسامات والممدوحين بفضل الجاه في الأرضين والسموات.

وإن الله بحكمته البديعة ورحمته الوسيعة أقام الخلفاء لخلقه قواماً ويحقه قواماً وجعل نار الحوادث بنورهم برداً وسلاماً وجعل لهم الهداية بأمره لزاماً واستصرف بهم عن الخلق عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً فهم أرواحٌ والخلائق أجسام وصباحٌ والمسالك أظلام وثمراتٌ والوجود أكمام وحكام والحقائق أحكام يسهرون في منافع الأنام وهم نيام وينفردون بوصب النصب ويفردونهم بلذات الجام ويهتدون بهداياتهم إلى ما تدق عنه حوائط الأفهام ولا يدرك إلا بوسائط إلهام.

وقد اصطفى الله الأمير من تلك الأسرة ورقاه شرف تلك المنابر وملك تلك الأسرة وأنار بمقامه نجوم السعادة المستسرة واستخدم العالم لأغراضه وسدد كل سهمٍ في رميه إلى أغراضه وأقرض الله قرضاً حسناً فهو واثقٌ بحسن عواقب إقراضه وافترض طاعته في خلقه فالسعيد من تلقى طاعة أمير المؤمنين بافتراضه وأمضى أوامره على الأيام فما يقابلها صرفٌ من صروفها باعتراضه وأدار الحق معه حيث دار وكشف له ما استجن تحت أستار الأقدار ووقف الخيرة والنصرة على آرائه ورياته فهو المستشار والمستخار وألهمه أن يحفظ للأمة غدها كما حفظ لها يومها وأن يجري لها موارد توفيق الارتياد ولا يطيل حومها وأن يجعل المؤمن على ثلج من الصدور وفلج من الظهور ويودع عندها برد اليقين بالإشارة إلى مستودع النور ويجعلها على شريعةٍ من الأمر فتتبعها ويحلها بمنزلة الخصب فترتبعها ويعلم ندي خيره ليكون غايتها ومفزعها ويعرفها من تنتظره فتتخذه مآلها ومرجعها ويقتدي في ذلك بسيد المرسلين في يوم الغدير ويشير إلى من يقوم به المشير مقام البشير.

ولما كنت حافظ عهد أمير المؤمنين والسيد الذي لا بد أن يتوج به السرير والنجم الذي لا بد أن نستطيل إلى أنواره ونستطير والذخيرة التي ادخرها الله لنيل كل خطر ودفع كل خطير والسحاب الذي فيه الثج المطير والنجم المنير والرجم المبير وقد تجلت لك أوجه الكرامات وتبدت وتبرجت لك مخطوبات المقامات وتصدت وطلبتك كفؤاً لنيل عقيلتها وسكنى معقلها فما تعدت وأدت إليك لطائف فهمك من أسرار الحقائق ما أدت وعرفت من سيماك هدي النبوة واجتمع لك مزية الشرفين من الطرفين الأبوة والبنوة وأخذت كتاب الحكمة ومصون العصمة بقوة وأجرت القلوب التي بعوارض الشك ممنوة وآثرت العقائد التي بنواقض العقد مملوة وغدت وجوه الأنام بأيامك مجلوة وتوافقت الألسن على مدحك ولا مثل ما مدحت من الآيات المتلوة وكنت بحيث تذهب بالأهوال المسلوة وتقبل بالآمال المرجوة ولو أن ركباً ضل لهداه نورك في الليل البهيم ولو أن ذكرك شذ لتبدى في الآيات والذكر الحكيم ولو أنك طلعت على الأولين لما تساءلوا ولا اختلفوا في النبإ العظيم ولو أن قديماً علا فوق كل حديثٍ لقام لك الحديث مقام القديم ولو أن جميع الأنام في صعيدٍ واحدٍ لصعدت دونهم المقام الكريم ولو أن يدك البيضاء تجسمت للناظرين لأعدت آية موسى الكليم ولو أن هدايتك الغراء تنسمت للذاكرين لأحييت بها العظام وهي رميم ولو أن علومك انتشرت بين العلماء لتلوا: وفوق كل ذي علمٍ عليم ولو أن ليلة ولادتك رصدتها البصائر رأت كيف يفرق فيها كل أمرٍ حكيم والصفات إذا احتفل أربابها وقفت لك عبيداً والأيام إذا كانت ظروفاً لفضائلك كان كل يوم منها للعبيد عيداً والأنساب إذا عددتها كان الجد سعيداً فلتفخر قبل السير بأن أمليت عليها السور وأبشر بأن المنتظر من فضل الله لك فوق ما تعجله النظر واشمخ بأن سادة القبائل مضر وأنك بعد أمير المؤمنين سيد مضر وابذخ بأنك عوضٌ من كل من غاب وما عنك عوضٌ في كل من حضر وابجح بأنك قد أهلت لأمرٍ أبى الله له إلا أولي العزم والخطر واشكر الله على نعمة خلقك لها بقدر ومزيةٍ لا وقل " رَبِّ يوفي حقها من أضمر فأغرق أو نطق فشكر وقل " الحمْدُ للَّهِ الَّذِي هَدَانا لِهذا ومَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانا الله " أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلَى وَالِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صالحاً تَرْضَاه ".

فإليك هذا الأمير يصير وأنت له والله لك نعم المولى ونعم النصير وتأهب له في درجته التي لا ينهالها باعٌ قصير ولا يمتطيها إلا من اختاره الله على علم من أهل الثقلين ولو أن بعضهم لبعضٍ ظهير ولا ترى لها أهلاً إلا من أراه الله من آياته أنه هو السميع البصير وفاوض أمير المؤمنين في مشكلات الأمر ولا ينبئك مثل خبير واقتد منه بمن هو في أهل دهره وصي الوصي ونظير النذير واهتد بنوره الذي هو بالنور البائن دون الخلق بشير وسرد إذا استعملك الله فيهم بما رأيت أمير المؤمنين به فيهم يسير وادع الله بأن ييسر على يدك مناجحهم إن ذلك على الله يسير وأعرف ما آثرك الله به من أنه لم يجعل ليدك كفؤاً إلا ذا الفقار ولا لقدمك كفؤاً إلا المنبر والسرير وتحدث بنعمة الله وإجرائها فأمير المؤمنين اليوم عليك أميرٌ وأنت غداً على المؤمنين أمير: " هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فإِنَّما يَشْكُرُ لنفسه ".

وأما العدل وإفاضته والجور وإغاضته والصعب ورياضته والجدب وترويضه والخطب وتفويضه والجهاد ورفع علمه والذب عن دين الله وحفظ حرمه والأمر بالمعروف ونشر ردائه والنهي عن المنكر وطي اعتدائه وإقامة الحد بالصفح والحد والمساواة في الحق بين المولى والعبد وبث دعوة الله في كل غور من البلاد ونجد وأمر عباد الله إن عباد الله في زمنك الرغد فذلك عهد الأئمة الراشدين وهو إليك من أمير المؤمنين عهدٌ مؤكد العقد وهو سنة فضل الخلفاء التي لا تجد لها تحويلاً ومعنى العهد الذي أمر الله بالوفاء به فقال: " إِنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولاً ".

وهل يوصى البحر بتلاطم أمواجه وتدافع أفواجه وبتزاخر عجاجه وهل يحض البدر المنير على أن ينير سراجه ويطلع ليتضح للسالك منهاجه أو ينبه على هدايته إذا تهادته أبراجه وعليك من سرائر أنوار الله ما يغنيك أن توصى ولديك من ظواهر لطائف الله ما تميز به عن الخلق إذا أضحيت به مخصوصاً ومن شواهد اختيار الله ما تظاهرت عليك آياتك نصوصاً فبسلام الله يحييك المؤمنون وبالاعتلاق بعصمة ولائك في يوم الفزع الأكبر يأمنون والله منجزٌ لك وعده كما أنجزه لمن جعلهم أئمةً لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون والله سبحانه يهدي إليك تحيةً من عنده مباركةً طيبة ويسدي إلى مقام شرفك سحابة رحمةٍ غدقةً صيبة ويجعل ما رآه أمير المؤمنين من ولايتك عهده وكفالتك للأمة بعده للمسرات ناظماً وللمساءات حاسماً وللبركات جامعاً وللباطل خافضاً وللحق رافعاً.

وأمر أمير المؤمنين أن يعين على رجال من أولياء دولته ووجوه شيعته وأنصار سريته عدةٌ يكون إليك اعتزاؤها وبك اعتزازها وببابك العالي إقامتها وإلى جنابك انحيازها فتكون موسومةً بالعبودية ومتعرضة بالولاء للسعادة الأبدية فتمتثل على ما تمثله من المراسم وتتصرف على ما تصرفها عليه من العزائم وتكون أبداً لما ينفذ عنك من أحكام الهبات والمكارم وتقوم من ملازمة الخدمة في مواكبك بما هو لكل خادمٍ فرضٌ لازم وتسارع في مطالبك إلى ما يسارع إليه الحازم وتجود يا سماء الإنعام بالغدق الساجم.

وتقدر لها من الواجبات والزيادات ما تقتضيه همم المكارم تبذل في الخدمة الاجتهاد وتنافس فيما تستمد به الحظوة بحضرته والإحماد وعرضها من الإحسان الجم للازدياد وبلغها المراد بما تبلغ بها من المراد لتتشرف بأن تكون تحت ركابه العالي متصرفة وتفتخر بأن تكون أنسابها باسمه العالي متشرفة إن شاء الله تعالى.

المذهب الثالث أن يفتتح العهد بعد البسملة بخطبة مفتتحة بالحمد لله ثم يأتي بالبعدية ويأتي بما يناسب الحال على نحو ما تقدم وعليه عمل أهل زماننا مع الاقتصار على تحميدةٍ واحدةٍ والاختصار في القول وهذه نسخةٌ أوردها علي بن خلف من إنشائه في كتابه مواد البيان لترتيب الكتابة في زمن الفاطميين وهي: الحمد لله معز دينه بخلفائه الراشدين ومرتب حقه بأوليائها الهادين الذي اختار دين الإسلام لصفوته من بريته وخص به من استخلصه من أهل طاعته وجعله حبله المتين ودينه الذي أظهره على كل دين وسبيله الأفسح وطريقه الأوضح وابتعث به نبيه محمداً صلى الله عليه فصدع بأمره وأعلن بذكره والناس في فترة الضلالة وغمرة الجهالة فلما أنجز في نصرة حقه وتأييده لسعداء خلقه قبضه إليه محمود الأثر طيب الخبر وقام بخلافته من انتخبه من طهره عترته وأودعهم حكمته وكفلهم شريعته فاقتفوا سبيله واتبعوا دليله كلما قبض منهم سلفاً إلى مقر مجده اصطفى خلفاً للإمامة من بعده.

يحمده أمير المؤمنين أن أفضى إليه بتراث الإمامة والرسالة وهدى به كما هدى بجده من الزيغ والضلالة واختصه بميراث النبوة والخلافة ونصبه رحمةً للكافة وأتم نعمته عليه كما أتمها على آبائه وأجزل حظه من حسن بلائه وأعانه على ما استرعاه ووفقه فيما ولاه وأنهضه بإعزاز الملة وإكرام الأمة وإماتة البدع وإبطال المذهب المخترع وإحياء السنن والاستقامة على لاحب السنن ووهبه من بنيه وذريته مؤازرين على ما حمله من أعباء خلافته ومظاهرين على ما كلفه من إمعان النظر في بريته.

ويسأله الصلاة على محمدٍ خاتم أنبيائه والخيرة من خلصائه الذي شرفه بختام رسله وإقرار نيابته في أهله صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه وباب حكمته علي بن أبي طالب وصيه في أمته وعلى الأئمة الطهرة من ذريته مناهج رحمته وسرج هدايته وسلم تسليماً.

وإن الله تعالى جعل الخلافة للكافة عصمة ولأهل الإيمان رحمة تجمع كلمتهم وتحفظ ألفتهم وتصلح عامتهم وتقيم فرائضه وسننه فيهم وتمد رواق العدل والأمنة عليهم وتحسم أسباب الكفر والنفاق وتقمع أهل العناد والشقاق ولذلك وصل الله حبل الإمامة وجعلها كلمةً باقيةً في عقب أوليائه إلى يوم القيامة.

ولما نظر أمير المؤمنين بعين اليقين واقتبس من الحقيقة قبس الحق المبين عرف ما بنيت عليه الدنيا من سرعة الزوال ووشك التحول والانتقال وأن ما فوض الله إليه م خلافته لا بد أن ينتقل عنه إلى أبنائه الميامين كما انتقل إليه عن آبائه الراشدين فلم يغتر بمواعيدها المحال وأضرب عما تخدع به من الأماني والآمال وأشفق على من كفله الله بسياسته وحمله رعايته من أهل الإسلام المعتصمين بحبل دعوته المشتملين بظل بيعته عند تقضي مدته ونزوعه إلى آخرته في الوقت المعلوم بالأجل المحتوم من انتشار الكلمة وانبتات العصمة وانشقاق العصا وإراقة الدما واستيلاء الفتن وتعطيل الفروض والسنن فنظر لهم بما ينظم شملهم ويصل حبلهم ويزجر ظلمتهم ويجمع كلمتهم ويؤلف أفئدتهم ورأى أن يعهد إلى فلان ولده لأنه قريعه في علمه وفضله وعقيبه في إنصافه وعدله والملموح من بعده والمرجو ليومه وغده ولما جمع الله له من شروط الإمامة وكمله له من أدوات الخلافة وجبله عليه من الرحمة والرافة وخصه به من الرصانة والرجاحة والشجاعة والسماحة وآتاه من فصل الخطاب جوامع الصواب ومحاسن الآداب ووقاية الدين والغلظة على الظالمين واللطف بالمؤمنين بعد أن قدم استخارة الله تعالى فيه وسأله توفيقه لما يرضيه ووقف فكره على اختياره ولم يكن باختياره مع إيثاره ويلوح في شمائله ويستوضح في مخايله أنه الولي المجتبى والخليفة المصطفى الذي يحمي الله به ذمار الحق ويعلي بسلطانه شعار الصدق وأنه - سبحانه - قد أفضى إليه بما أفضى به إلى الخلفاء من قبله وأفاض عليه من الكامنات ما أفاضه على أهله وبعد أن عاقده وعاهده على مثل ما عاهده عليه آباؤه من تقوى الله تعالى وطاعته واستشعار خيفته ومراقبته والعمل بكتابه وسنته وإقامة حدود الله التي حدها بفروضه التي وكدها والاقتداء بسلفه الراشدين في المكافحة عن الدين والمسامحة عن أوزار المسلمين وبسط العدل على الرعية والحكم بينهم بالسوية وإنصاف المظلوم من الظلوم وكف يد المغتصب الغشوم وصرف ولاة الجور عن أهل الإسلام وتخير من ينظر بينهم في المظالم والأحكام وأن لا يولي عليهم إلا من يثق بعدالته ويسكن إلى دينه وأمانته ولا يفسح لشريف في التعدي على مشروف ولا يقوى في التسلط على مضعوف وأن يحمل الناس في الحقوق على التساوي ويجريهم في دولته على التناصف والتكافي ويأمر حجابه ونوابه بإيصال الخاصة والعامة إليه وتمكينهم من عرض حوائجهم ومظالمهم عليه ليعلموا: الولاة والعمال أن رعيته على ذكر منه وبال فيتحاموا التثقيل عليهم والإضرار بهم.

وأشهد عليه بكل ما شرطه وحدده والعمل بما يحمد إليه فيما تقلده.

على أنه غني عن وصية وتبصير وتنبيهٍ وتذكير إلا أن محمداً سيد المرسلين يقول لعلي صلى الله عليهما أرسل عاقلاً إلا فأوصه.

فبايعوا على بركة الله تعالى طائعين غير مكرهين برغبةٍ لا برهبة وبإخلاصٍ لا بمداهنة بيعة رضاً واختيار وانقيادٍ وإيثار بصحةٍ من نياتكم وسلامةٍ من صدوركم وصفاءٍ من عقائدكم ووفاءٍ واستقامةٍ فيما تضعون عليه أيمانكم ليعرفكم الله من سبوغ النعمة وشمول الحبرة وحسن العاقبة واتفاق الكلمة ما يقر نواظركم ويبرد ضمائركم ويذهب غل صدوركم ويعز جانبكم ويذل مجانبكم فاعلموا هذا واعملوا به إن شاء الله.

وقد يغني هذا الكتاب الذي ذكرناه مغنى العهد فلا يحتاج إلى عهد.

وعلى ذلك كتب عن الإمام المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أحمد عهد ولده المستوثق بالله بركة بالخلافة بعده.

وهذه نسخته: الحمد لله الذي أيد الخلافة العباسية بأجل والدٍ وأبر ولد وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه والسند كالسند وآواهم من أمرهم إلى الكهف فالكهف وإن تناهى العدد وزان عطفها بسؤدد سواد شعارهم المسجلة أنوارهم ولا شك أن النور في السواد وعدق بصولتهم النبوي معجزها كل مناد.

نحمده على ما من به من تمام النعمة فيهم ونزول الرحمة بتوافيهم ونشهد أن لا إليه إلا الله وحده لا شريك له شهادةً محضة الإخلاص كافلاً محضها بالفكاك من أسر الشرك والخلاص ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بما أوضح سبل الرشاد وقمع أهل العناد والشفيع المشفع يوم التناد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً لا انقضاء لها ولا نفاد وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أمير المؤمنين ويذكر اسمه يعتصم بالله في كل ما يأتي ويذر مما جعل الله له من التفويض ويشر إلى الصواب في كل تصريح منه وتعريض وإنه شد الله أزره وعظم قدره استخار الله سبحانه وتعالى في الوصية بما جعله الله له من الخلافة المعظمة المفخمة الموروثة عن الآباء والجدود الملقاء إليه مقاليدها كما نص عليه ابن عمه صلى الله عليه وسلم في الوالد من

قريش والمولود لولده السيد الأجل المعظم المكرم فلان سليل الخلافة وشبل غابها ونخبة أحسابها وأنسابها أجله الله وشرفه وجمل به عطف الأمانة وفوفه لما تلمحه فيه من النجابة اللائحة على شمائله وظهر من مستوثق إبداء سره فيه بدلائل برهانه مولانا أو سيدنا أمير المؤمنين من حضر من حكام المسلمين: - وبرهان دلائله وأشهد على نفسه الكريمة - صانها الله تعالى قضاة قضاتهم وعلمائهم وعدولهم بمجلسه الشريف أنه رضي أن يكون الأمر في الخلافة المعظمة الذي جعله الله له الآن لولده السيد الأجل فلان بعد وفاته فسح الله في أجله وعهد بذلك إليه وعول في أمر الخلافة عليه وألقى إليه مقاليدها وجعل بيده زمام مبدئها ومعيدها وصى له بذلك جزئيه وكليه وغامضه وجليه وصيةً شرعيةً بشروطها اللازمة المعتبرة وقواعدها المحررة أشهد عليه بذلك في تاريخ كذا.

الوجه السابع فيما يكتب في مستند عهد ولي الخلافة عن الخليفة وما يكتبه الخليفة في بيت العلامة وما يكتب في ذيل العهد بعد إتمام نسخته من قبول المعهود إليه وشهادة الشهود على العهد أما ما يكتب في المستند فينبغي أن يكون كما يكتب في عهود الملوك عن الخلفاء على نحو ما تقدم في البيعات وهو أن يكتب: بالإذن العالي المولوي الإمامي النبوي الفلاني بلقب الخلافة أعلاه الله تعالى أو نحو ذلك من الدعاء.

وأما ما يكتبه الخليفة في بيت العلامة فينبغي أن يكتب: عهدت إليه بذلك لأنه اللفظ الذي ينعقد به العهد.

ولو كتب: فوضت إليه ذلك كما يكتب الخليفة في عهد السلطان الآن على ما سيأتي كفى ذلك.

والأليق بالمقام الأول.

وأما ما يكتب في ذيل العهد بعد تمام نسخته فالمنقول فيه عن المتقدمين ما كتب به علي الرضي تحت عهد المأمون إليه بالخلافة وهو: الحمد لله الفعال لما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وصلواته على نبيه محمدٍ خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين.

أقول وأنا علي بن موسى بن جعفر: إن أمير المؤمنين عضده الله بالسداد ووفقه للرشاد عرف من حقنا ما جهله غيره فوصل أرحاماً قطعت وأمن أنفساً فزعت بل أحياها وقد تلفت وأغناها إذ افتقرت متبعاً رضا رب العالمين لا يريد جزاءً من غيره وسيجزي الله الشاكرين ولا يضيع أجر المحسنين وإنه جعل إلي عهده والإمرة الكبرى إن بقيت بعده فمن حل عقدةً أمر الله بشدها أو فصم عروةً أحب الله إيثاقها فقد أباح حريمه وأحل محرمه إذ كان بذلك زارياً على الإمام منتهكاً حرمة الإسلام بذلك جرى السالف فصبر منهم على الفلتات ولم يعترض بعدها على العزمات خوفاً على شتات الدين واضطراب حبل المسلمين ولقرب أمر الجاهلية ورصد فرصة تنتهز وباقيةٍ تبتدر.

وقد جعلت لله تعالى على نفسي إن استرعاني على المسلمين وقلدني خلافته العمل فيهم عامة وفي بني العباس بن عبد المطلب خاصة بطاعته وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن لا أسفك دماً حراماً ولا أبيح فرجاً ولا مالاً إلا ما سفكته حدوده وأباحته فرائضه وأن أتخير الكفاة جهدي وطاقتي.

جعلت بذلك على نفسي عهداً مؤكداً يسألني الله عنه فإنه عز وجل يقول: " وأَوْفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولاً "

فإن أحدثت أو غيرت أو بدلت كنت للغير مستحقاً وللنكال متعرضاً وأعوذ بالله من سخطه وإليه أرغب في التوفيق لطاعته والحول بيني وبين معصيته في عامة المسلمين والخاصة والحضر يدلان على ضد ذلك: " ومَا أدْرِي ما يُفْعَلُ بي وَلاَ بِكُمْ ": " إنِ الْحُكْمُ إلاَّ للَّهِ يَقُصُّ الحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفاصِلِين ".

لكنني امتثلت رضاه والله يعصمني وإياه وأشهدت الله على نفسي بذلك وكفى بالله شهيداً.

وكتبت بخطي بحضرة أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - والفضل بن سهل وسهل بن الفضل ويحيى بن أكثم وبشر بن المعتمر وحماد بن النعمان في شهر رمضان سنة إحدى ومائتين.

ثم كتب فيه من حضر من هؤلاء وهذه صورة كتابتهم.

رسم أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قراءة مضمون هذا المكتوب ظهره وبطنه بحرم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الروضة والمنبر على رؤوس الأشهاد ومرأى ومسمع من وجوه بني هاشم وسائر الأولياء والأجناد وهو يسأل الله أن يعرف أمير المؤمنين وكافة المسلمين بركة هذا العهد والميثاق بما أوجب أمير المؤمنين الحجة به على جميع المسلمين وأبطل الشبهة التي كانت اعترضت آراء الجاهلين: " مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ على ما أَنْتُمْ عَلَيْه ".

وكتب الفضل بن سهل في التاريخ المعين فيه.

وكتب عبد الله بن طاهر ما صورته أثبت شهادته فيه بتاريخه عبد الله بن طاهر بن الحسين.

وكتب يحيى بن أكثم القاضي ما صورته: شهد يحيى بن أكثم على مضمون هذه الصحيفة ظهرها وبطنها وكتب بخطه بالتاريخ.

وكتب حماد بن النعمان ما صورته: شهد حماد بن النعمان بمضمون ظهره وبطنه وكتب بيده بتاريخه.

وكتب بشر بن المعتمر ما صورته: شهد بمثل ذلك بشر بن المعتمر وكتب بخطه بالتاريخ.

قلت: وعلى نحو ما تقدم من كتابة المعهود إليه بالقبول وشهادة الشهود على العهد ينبغي أن يكون العمل أيضاً في زماننا ليجتمع خط العاهد بالتفويض على ما تقدم وشهادة الشهود.

ولو اقتصر المعهود إليه في الكتابة على قوله: قبلت ذلك كان كافياً وإن كان أمياً أكتفي بشهادة الشهود.

الوجه الثامن في قطع الورق الذي تكتب فيه عهود الخلفاء والقلم الذي يكتب به وكيفية كتابتها وصورة وضعها أما قطع الورق فمقتضى قول المقر الشهابي بن فضل الله في التعريف أن للعهود قطع البغدادي الكامل وأن عهود الخلفاء تكتب في البغدادي كما هو مستعمل في عهود الملوك عن الخلفاء على ما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

وهو مقتضى ما تقدم في الكلام على قطع الورق في مقدمة الكتاب نقلاً عن محمد المدائني في كتاب القلم والدواة أن القطع الكامل للخلفاء.

قلت: وقد أخبرني من يوثق به أنه وقف على عهد المعتضد بالله أبي الفتح أبي بكر والد المتوكل على الله أبي عبد الله محمد خليفة العصر وهو مكتوب في قطع الشامي الكامل وأنه كتب عهد المتوكل على ظهره بخط الشهود دون كاتب إنشاء.

وكأنهم لما تقهقرت الخلافة وضعف شأنها وصار الأمر إلى الملوك المتغلبين على الخلفاء تنازلوا في كتابة عهودهم من قطع وأما القلم الذي يكتب به فالحكم فيه ما تقدم في البيعات وهو إن كتب العهد في قطع البغدادي كتب بقلم مختصر الطومار.

وإن كتب في قطع الشامي كتب بقلم الثلثين الثقيل.

وأما كيفية الكتابة وصورة وضعها فعلى ما تقدم في كتابة البيعات وهو أن يبتدأ بكتابة الطرة في أول الدرج بالقلم الذي يكتب به العهد سطوراً متلاصقةً ممتدةً في عرض الدرج من أوله إلى آخره من غير هامش.

ثم إن كانت الكتابة في قطع البغدادي الكامل جرى فيه على القاعدة المتداولة في عهود الملوك عن الخلفاء فيترك بعد الوصل الذي فيه الطرة ستة أوصال بياضاً من غير كتابة ثم يكتب البسملة في أول الوصل الثامن بحيث يلحق أعالي ألفاته بالوصل الذي فوقه بهامش قدر أربعة أصابع أو خمسة ثم يكتب تحت البسملة سطراً من أول العهد ملاصقاً لها ثم يخلي مكان بيت العلامة قدر شبر كما في عهود الملوك ثم يكتب السطر الثاني تحت بيت العلامة على سمت السطر الذي تحت البسملة.

ويحرص أن تكون نهاية السجعة الأولى في السطر الأول أو الثاني ثم يسترسل في كتابة بقية العهد إلى آخره ويجعل بين كل سطرين قدر ربع ذراع بذراع القماش.

فإذا انتهى إلى آخر العهد كتب إن شاء الله تعالى ثم المستند ثم الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والحسبلة على ما تقدم في الفواتح والخواتم.

ثم يكتب المعهود إليه والشهود بعد ذلك.

وإن كتب في قطع الشامي فعلى ما تقدم في البيعات من أنه وهذه صورة وضعه في الورق ممثلاً فيها بالطرة التي أنشأتها على ما تقدم ذكره في العهد الذي أنشأته على لسان الإمام المتوكل على الله خليفة العصر لولده العباس.

وهو العهد الأخير من المذهب الأول من عهود الخلفاء عن الخلفاء.

بياض بأعلى الدرج تقدير إصبع هذا عهدٌ إماميٌ قد علت جدوده وزاد في الارتقاء في العلياء صعوده وفصلت بالجواهر قلائده ونظمت بنفيس الدر عقوده من عبد الله ووليه الإمام المتوكل على الله أبي عبد الله محمد ابن الإمام المعتضد بالله أبي الفتح أبي بكر بالخلافة المقدسة لولده السيد الجليل ذخيرة الدين وولي عهد المسلمين أبي الفضل العباس بلغه الله تعالى فيه غاية الأمل وأقر به عين الأمة كما أقر به عين أبيه وقد فعل على ما شرح فيه.

بياض ستة أوصال بسم الله الرحمن الرحيم هامش هذا عهدٌ سعيد الطالع ميمون الطائر مبارك الأول عهدت إليه بذلك وكتب فلان بن فلان وترقمه كف الثريا بأقلام القبول في صحائف الأفلاك وتباهي به ملائكة الأرض ملائكة السما وتسري بنشره القبول إلى الأقطار فتنشر له بكل ناحية علما وتطلع به سعادة الجد من ملوك العدل في كل أفق نجما.

ثم يأتي على الكلام إلى آخر العهد على هذا النمط إلى أن ينتهي إلى قوله فيه والله تعالى يبلغه منك أملا ويحقق فيك علماً ويزكي بك عملاً.

إن شاء الله تعالى كتب في اليوم الأول من المحرم سنة إحدى وثمانمائة بالإذن العالي المولوي الإمامي النبوي المتوكلي أعلاه الله تعالى الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه حسبنا الله ونعم الوكيل قبلت ذلك شهد على العاهد والمعهود إليه وكتب فلانٌ ولي فيه زادهما الله شرفاً وكذا بقية الشهود النوع الثاني عهود الخلفاء للملوك ويتعلق النظر به من سبعة أوجه الوجه الأول في أصل مشروعيتها والأصل فيها ما رواه ابن إسحاق وغيره أنه لما رجع وفد بني الحرث بن كعب إلى قومهم باليمن بعد وفود هم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بأربعة أشهر بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حزم يفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم صدقاتهم.

وكتب له كتاباً عهد فيه عهده وأمره فيه أمره على ما سيأتي ذكره في أول نسخ العهود الواردة في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

فقد فوض النبي صلى الله عليه وسلم أمر اليمن في حياته إلى عمرو بن حزم رضي الله عنه.

وذلك أصرح دليل وأقوم شاهدٍ لما نحن فيه.

في بيان معنى الملك والسلطنة اللتين يقع العهد بهما قد تقدم في الكلام على الألقاب نقلاً عن الفروق في اللغة للعسكري أن الملك أخص من السلطنة لأن الملك لا يطلق إلا على الولاية العامة والسلطنة تطلق على أنواع الولايات حتى أن الفقهاء يعبرون عن القاضي ووالي البلد في ابواب الفقه بالسلطان.

ثم تفويض الخليفة الأمور في البلاد والأقاليم إلى من يدبرها ويقوم بأعبائها على ثلاثة أقسام: القسم الأول - وهو أعلاها وزارة التفويض وهو أن يستوزر الخليفة من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده وينظر فيها على العموم.

وعلى ذلك كانت السلطنة في زمن الخلفاء الفاطميين بمصر على ما سيأتي ذكره.

قال الماوردي في الأحكام السلطانية: ولا يمتنع جواز مثل ذلك لأن كل ما وكل إلى الإمام من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرة جميعه إلا بالاستنابة ونيابة الوزير المشارك له في التدبير أصح في تنفيذ الأمور من تفرده بها ليستظهر به على نفسه ولنفسه فيكون أبعد من الزلل وأمنع من الخلل.

قال: وتعتبر في تقليد هذه الوزارة شروط الإمامة إلا النسب وحده.

وقد تقدم بيان شروط الإمامة في الكلام على البيعات.

ثم أحدها - ولاية العهد.

فإن للإمام أن يعهد إلى من يرى وليس ذلك للوزير.

الثاني - أن للإمام أن يستعفي الأمة من الإمامة وليس ذلك للوزير.

الثالث - أن للإمام أن يعزل من قلده الوزير وليس للوزير أن يعزل من قلده الإمام.

مختصٌ بالإمام وهو أن يتصفح أفعال الوزير - وتفارق هذه الوزارة الخلافة في عموم النظر فيما عدا ذلك من وجهين: أحدهما وتدبير الأمور ليقر منها ما وافق الصواب ويستدرك ما خالفه لأن تدبير الأمة إليه موكول وعلى اجتهاده محمول.

والثاني - مختصٌ بالوزير وهو مطالعة الإمام بما أمضاه من تدبيرٍ وأنفذه من ولايةٍ وتقليدٍ لئلا يصير بالاستبداد كالإمام.

أما وزارة التنفيذ فسيأتي الكلام عليها في تقليد الوزارة إن شاء الله تعالى.

القسم الثاني - إمارة الاستكفاء.

وهي التي تنعقد عن اختيارٍ من الخليفة وتشتمل على عملٍ محدودٍ ونظرٍ معهود بأن يفوض الخليفة إليه إمارة بلدٍ أو إقليمٍ ولايةً على جميع أهله ونظراً في المعهود من سائر أعماله فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عملٍ ومعهوداً من نظر.

قال الماوردي: فينظر فيما إليه في تدبير الجيش وترتيبه في النواحي وتقدير أرزاقهم إن لم يكن الإمام قد قدرها وإدرارها عليهم إن كان الإمام قدرها وكذلك النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام وجباية الخراج وقبض الصدقات والعمل فيهما وتفريق ما يستحق منهما وحماية الحريم والذب عن البيضة ومراعاة الدين من تغييرٍ أو تبديل وإقامة الحدود في حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين والإقامة في الجمع والجماعات بالقيام بها والاستخلاف عليها وتسيير الحجيج من عمله ومن يمر عليه من غير عمله وجهاد من يليه من العدو وقسم الغنائم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس.

.وله أن يتخذ وزير تنفيذ لا وزير تفويض

وعلى هذا كانت الأمراء والعمال في الأقاليم والأمصار من ابتداء الإسلام إلى أن تغلب المتغلبون على الأمر واستضعف جانب الخلفاء.

قال الماوردي: ويعتبر في هذه الإمارة ما يعتبر في وزارة التفويض من الشروط إذ ليس بين عموم الولاية وخصوصها فرقٌ في الشروط المعتبرة فيها.

القسم الثالث - إمارة الاستيلاء.

وهي أن يقلده الخليفة الإمارة على بلاد ويفوض إليه تدبيرها فيستولي عليها بالقوة فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير والخليفة بإذنه ينفذ أحكام الدين لتخرج عن الفساد إلى الصحة ومن الحظر إلى الإباحة نافذ التصرف في حقوق الملة وأحكام الأمة.

وهذا ما صار قال الماوردي: وهذا وإن خرج عن عرف التقليد المطلق في شروطه وأحكامه ففيه من حفظ قوانين الشرع وحراسة الأحكام الدينية ما لا يجوز أن يترك مختلاً مدخولاً ولا فاسداً معلولاً فجاز فيه مع الاستيلاء والاضطرار ما امتنع في تقليد الاستكفاء والاختيار لوقوع الفرق بين شروط المكنة والعجز.

قال: والذي يتحفظ بتقليد المستولي من قوانين الشريعة سبعة أشياء يشترك في التزامها الخليفة المولي والأمير المستولي ووجوبها في جهة المستولي أغلظ.

حفظ منصب الإمامة في خلافة النبوة وتدبير أمور الأمة ليكون ما أوجبه الشرع من إقامتها محفوظاً وما تفرع عنها -أحدها من الحقوق محروساً.

والثاني - ظهور الطاعة الدينية التي يزول معها حكم العناد في الدين وينتفي بها مأثم المباينة له.

والثالث - اجتماع الكلمة على الألفة والتناصر ليكون المسلمون يداً على من سواهم.

والرابع - أن تكون عقود الولايات الدينية جائزة والأحكام والأقضية فيها نافذة لا تبطل بفساد عقودها ولا تسقط بخلل عهودها.

الخامس - أن يكون استيفاء الأموال الشرعية بحقٍ تبرأ به ذمة مؤديها ويستبيحه آخذها ومعطيها.

السادس - أن تكون الحدود مستوفاةً بحقٍ وقائمةً على مستحق فإن جنب المؤمن حمًى إلا من حقوق الله تعالى وحدوده.

السابع - أن يكون للأمة في حفظ الدين وازعٌ عن محارم الله تعالى يأمر بحقه إن أطيع ويدعو إلى طاعته إن عصي.

ثم قال: فإن كملت فيه شروط الاختيار المتقدمة كان تقليده حتماً استدعاء لطاعته ودفعاً لمشاقته ومخالفته وصار بالإذن له نافذاً لتصرف في حقوق الملة وأحكام الأمة وجرى على من استوزره أو استنابه أحكام من استوزره الخليفة أو استنابه.

وإن لم تكمل فيه شروط الاختيار جاز له إظهار تقليده استدعاءً لطاعته وحسماً لمخالفته ومعاندته وكان نفوذ تصرفاته في الحقوق والأحكام موقوفاً على أن يستنيب الخليفة له من تكاملت فيه الشروط.

قال: وجاز مثل هذا وإن شذ عن الأصول لأن الضرورة تسقط ما أعوز من شروط المكنة.

قلت: ومملكة الديار المصرية من حين الفتح الإسلامي وهلم جرا إلى زماننا دائرةٌ بين هذه الأقسام الثلاثة لا تكاد تخرج عنها فكانت في بداية الأمر إمارة استكفاء يولي عليها الخليفة في كل زمن من يقوم بأعبائها ويتصرف في أمورها قاصر الولاية عليها واقفٌ عند حد ما يرد عليه من الخليفة من الأوامر والنواهي إلا ما كان في أيام بني طولون من الخروج عن طاعة الخلفاء في بعض الأحيان.

فلما استولى عليها الفاطميون واستوزروا أرباب السيوف في أواخر دولتهم وعظمت كلمتهم عندهم صارت سلطنتها وزارة تفويض.

وكان الخليفة يحتجب والوزير هو المتصرف في المملكة كالملوك الآن أو قريبٍ منهم.

وكانوا يلقبون بألقاب الملوك الآن كالملك الأفضل رضوان وزير الحافظ وهو أول من لقب بالملك منهم فيما ذكره المؤيد صاحب حماة في تاريخه.

والملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز ثم العاضد.

والملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادي وزير العاضد وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وزير العاضد أيضاً قبل أن يستقل بالملك ويخطب بالديار المصرية لبني العباس ببغداد.

ولا نكر في تسمية الوزير ملكاً فقد قيل في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: " وقالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي " إن المراد بالملك الوزير لا الملك نفسه.

ولما انتزعت من الفاطميين وصارت إلى بني أيوب وكانوا يلونها عن خلفاء بني العباس صارت إمارة استيلاء لاستيلائهم عليها بالقوة واستبدادهم بالأمر والتدبير مع أصل إذن الخليفة وتقليده.

وكان الرشيد قد لقب جعفر بن يحيى البرمكي في زمن وزارته له بالسلطان ولم يأخذ الناس في التلقيب به.

فلما تغلب الملوك بالشرق على الخلفاء واستبدوا عليهم صار لقب السلطان سمةً لهم مع ما يختصهم به الخليفة من ألقاب التشريف كشرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة وعز الدولة ونحو ذلك.

وشاركهم في لقب السلطنة غيرهم من ملوك النواحي فتلقب بذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب وتلقب بالملك الناصر عند استبداده بالملك على العاضد الفاطمي بعد وزارته له ونقل ما كان من وزارة التفويض والعهد بها إلى السلطنة وصارت الوزارة عن السلطان معدوقةً بقدرٍ مخصوصٍ من التصرف.

وبقي الأمر على ما هو عليه من الاستيلاء والاستبداد بالملك مع أصل إذن الخليفة وكتابة العهد بالملك وهي على ذلك إلى زماننا إلا ما كان في زمن تعطيل جيد الخلافة من الخلفاء من حين قتل التتار المستعصم آخر خلفاء بني العباس ببغداد إلى حين إقامة الخليفة بمصر في الدولة الظاهرية بيبرس.

على أن في السلطنة الآن شبهاً من وزارة التفويض فإن الخليفة يفوض إليه في تقليده تدبير جميع الممالك الإسلامية بالتفويض العام لا يستثني منها شيئاً.

وغير هذه المملكة وإن كان خارجاً عن يده فهو داخل في عموم ولايته حتى لو غلب على شيء منها أو فتحه لم يحتج فيه إلى توليةٍ جديدةٍ من الخليفة.

ولا مانع لذلك فسيأتي في الكلام على المناشير أنه يجوز للإمام أن يقطع أرض الكفر قبل أن تفتح وإذا جاز ذلك في الإقطاع ففي هذا أولى.

وحينئذ فتكون سلطنة الديار المصرية الآن مركبة من وزارة التفويض وإمارة الاستيلاء.

فيما يجب على الكاتب مراعاته فيه وأعلم أنه يجب على الكاتب مراعاة أمور: منها: براعة الاستهلال بما يتهيأ له من اسم السلطان أو لقبه الخاص مثل فلان الدين أو لقبه بالسلطنة مثل الناصر والظاهر ونحوهما أو غير ذلك مما يدل على ما بعده قبل الإتيان به كما تقدم في البيعات وعهود الخلفاء.

ومنها: التنبيه على شرف السلطنة وعلو رتبتها ووجوب القيام بأمر الرعية وتحمل ذلك عن الخليفة.

ومنها: الإشارة إلى اجتهاد الخليفة وإعمال فكره فيمن يقوم بأمر الأمة وأنه لم يجد بذلك أحق من المعهود إليه ولا أولى به منه فيصفه بالصفات الجميلة ويثني عليه بما يليق بمقام الملك.

ومنها: الإشارة إلى جريان لفظٍ تنعقد به الولاية من عهد أو تقليدٍ أو تفويض وقبول ذلكن ووقوع الإشهاد على الخليفة بالعهد.

ومنها: إيراد ما يليق بالمقام من الوصية بحسب ما يقتضيه الحال من علو رتبة الخلافة وانخفاضها مبيناً لما يلزمه القيام به من حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة وتنفيذ الأحكام وإنصاف المظلوم من الظالم وحماية البيضة والذب عن الحرم وإقامة الحدود وتحصين الثغور وجهاد أعداء الله وغزوهم وجباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع من غير حيف ولا عسف وتقدير العطاء وصرف ما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير في وقت الحاجة إليه واستكفاء الأمناء وتقليد النصحاء للأعمال والأموال ومباشرة الأمور بنفسه وتصفح الأحوال إلى غير ذلك من الأمور المتعلقة بالإمامة من إقامة موسم الحج وتأمين الحرم الشريف وإكرام ضرائح الأنبياء وبيت المقدس وتحرير مقادير المعاملات وغير ذلك مما يقتضيه أمر المملكة.

الوجه الرابع فيما يكتب في الطرة وهو نمطان النمط الأول ما كان يكتب في وزارة التفويض في دولة الفاطميين وكان الخليفة هو الذي يكتب بيده.

وهذا أمرٌ وإن كان قد ترك فالمعرفة به خيرٌ من الجهل خصوصاً وقد أثبت المقر الشهابي بن فضل الله عهدي أسد الدين شيركوه وابن أخيه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالوزارة عن العاضد في جملة عهود الملوك على ما سيأتي ذكره.

وسنوردهما في جملة عهود الملوك عن الخلفاء فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك ما كتب به العاضد في طرة عهد أسد الدين شيركوه المتقدم ذكره وهو: هذا عهدٌ لا عهد لوزير بمثله وتقليد أمانةٍ رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلاً لحمله والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً " وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ".

ومن ذلك ما كتب به العاضد أيضاً في طرة العهد المكتتب عنه بالوزارة للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قبل استقلاله بالسلطنة وهو: هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله تعالى عليك فأوف بعهدك ويمينك وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوة ولمن بقي بقربنا أعظم سلوة " تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً والعاقِبَةُ النمط الثاني ما يكتب في طرة عهود الملوك الآن وهو قريب مما كان يكتب أولاً مما تقدم ذكره إلا أنه يبدل فيه لفظ الوزارة بالملك والسلطنة ويكون الذي يكتبه هو الذي يكتب العهد دون الخليفة.

ثم هو بحسب ما يؤثره الكاتب مما يدل على صدر العهد على ما يقتضيه الحال.

وهذه نسخة طرة عهدٍ كتب بها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في نسخة عهدٍ أنشأه للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة سبع عشرة وسبعمائة وهو: هذا عهدٌ شريفٌ تجددت مسرات الإسلام بتجديده وتأكدت أسباب الإيمان بتأكيده ووجد النصر العزيز والفتح المبين بوجوده ووفد اليمن والإقبال على الخليقة بوفوده وورد الأنام مورد الأمان بوروده من عبد الله ووليه الإمام المستكفي بالله أبي الربيع سليمان أمير المؤمنين ابن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد عهد به إلى السلطان الملك الناصر أبي الفتح محمد خلد الله سلطانه ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي قدس الله روحه.

بسم الله الرحمن الرحيم الوجه الخامس فيما يكتب في ألقاب الملوك عن الخلفاء وهو نمطان النمط الأول ما كان يكتب في قديم الزمان وهو أن يقصر على ما يلقب به الملك أو يكنى به من ديوان الخلافة ثم يقال: " مولى أمير المؤمنين " ولا يزاد على ذلك.

كما كتب أبو إسحاق الصابي في عهد فخر الدولة بن بويه عن الطائع لله: " هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الطائع لله أمير المؤمنين إلى فخر الدولة أبي علي موسى أمير المؤمنين ".

وإلى هذا أشار في التعريف بقوله: على أن لهذا ضابطاً كان في قديم الزمان وهو أن لا يكتب للرجل إلا ما كان يلقب به من ديوان الخلافة بالنص من غير زيادة ولا نقص.

النمط الثاني ما يكتب به لملوك الزمان الأول أن يكتب فيها: السلطان السيد الأجل الملك الفلاني مع بقية ما يناسب من الألقاب المفردة والمركبة: كما كتب القاضي الفاضل في عهد أسد الدين شيركوه الآتي ذكره عن العاضد الفاطمي: " من عبد الله ووليه أبي محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولي الأمة فخر الدولة أسد الدين كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المسلمين أبي الحارث شيركوه العاضدي ".

وعلى هذه الطريقة بزيادة ألقاب كتب ابن القيسراني في العهد للملك الناصر بن محمد قلاوون: قدس الله روحه ونحو ذلك.

قال في التعريف: وأنا إلى ذلك أجنح وعليه أعمل.

الثاني - أن يكتب: المقام الشريف أو الكريم أو العالي مجرداً عنهما.

ويقتصر على المفردة دون المركبة.

كما كتب به الصاحب فخر الدين بن لقمان في عهد الظاهر بيبرس بعد ذكر أوصافه ومناقبه: ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني شرفه الله تعالى وأعلاه.

قلت: وربما أبدل المتقدمون المقام في هذه الحالة بالمقر وأتى بالألقاب من نحو ما تقدم.

وكما كتب به القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في عهد المنصور قلاوون بعد استيفاء مناقبه وأوصافه وذكر إعمال الفكر والروية في اختياره: " وخرج أمر مولانا أمير المؤمنين شرفه وأظفر ه وأقدره وأيده وأبده كل ما فوضه الله لمولانا أمير المؤمنين " ونحو ذلك.

وبقي مذهب ثالث وهو أن يأتي بنظير ألقاب المذهب الأول مقصراً على الألقاب المفردة دون المركبة.

وعلى ذلك جرى الوزير ضياء الدين بن الأثير في العهد الذي كتب به معارضة لعهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الآتي ذكره فقال بعد ذكر مناقبه: " وتلك مناقبك أيها الملك الناصر الأجل السيد الكبير العالم العادل صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ".

ولم يعترض لحكايته في التعريف.

على ابن الأثير إمام هذا الفن وحائز قصب السبق فيه ومقالته مما يحتج بها ويعول عليها.

فإن قيل لعله في التعريف أراد مذاهبه كتاب زمانه فالجواب أن حكاية المذهب الثاني عن المتأخرين يؤذن بأن المراد متقدمو الكتاب و متأخروهم.

الوجه السادس فيما يكتب في متن العهود

المذهب الأول وعليه عامة الكتاب من المتقدمين وأكثر المتأخرين أن يفتتح العهد بلفظ هذا مثل: هذا ما عهد به فلان لفلان أو هذا ما أمر به فلان فلاناً أو عهدٌ من فلان لفلان أو هذا كتاب اكتتبه فلان لفلان وما أشبه ذلك.

وللكتاب فيه طريقتان: الطريقة الأولى طريقة المتقدمين وهي أن لا يأتي بتحميدٍ في أثناء العهد في خطبة ولا في غيرها ولا يتعرض إلى ذكر أوصاف المعهود إليه والثناء إليه أصلاً أو يتعرض إلى ذلك باختصار ثم يقول: فقلده كذا وكذا ويذكر ما فوض إليه ثم يقول: وأمره بكذا حتى يأتي على آخر الوصايا ثم يقول في آخره: هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته لك وعليك ويأتي بما يناسب ذلك ويختم بقوله: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أو والسلام عليك أو بغير ذلك من الألفاظ المناسبة على اختلاف طرقهم في ذلك وتبيان مقاصدهم.

وعلى هذا النهج وما قاربه كانت عهود السلف فمن بعدهم تأسياً بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما كتب به لعمرو بن حزم حين وجهه إلى اليمين كما تقدمت الإشارة إليه في الاستشهاد لأصل عهود الملوك عن الخلفاء.

عهد من محمد النبي رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله فإن الله مع اللذين اتقوا والذين هم محسنون. هذا بيان من الله ورسوله: " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود "

وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به ويعلم الناس القرءان ويفقههم فيه وينهى الناس فلا يمس القرءان إنسان إلا وهو طاهر ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم ويلين للناس في الحق ويشتد عليهم في الظلم فإن الله يبشر الناس بالجنة وبعملها وينذر الناس النار وعملها ويستألف كره الظلم ونهى عنه فقال: " ألا لعنة الله على الظالمين " الناس حتى يفقهوا في الدين ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته وما أمر الله به ن والحج الأكبر الحج الأكبر والحج الأصغر هو العمرة وينهى الناس أن يصلي أحد في ثوبٍ واحد صغير إلا أن يكون ثوباً يثني طرفيه على عاتقيه وينهى الناس أن يحتبى أحد في ثوب واحد يفضي بفرجه إلى السماء وينهى أن لا يعقص أحد شعر رأسه في قفاه وينهى إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيف حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له ويأمر الناس بإسباغ الوضوء: وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين ويمسحون برؤوسهم كما أمرهم الله وأمر بالصلاة لوقتها وإتمام الركوع والسجود والخشوع ويغلس بالصبح ويهجر بالظهر حين تميل الشمس وصلاة العصر والشمس في الأرض مدبرة والمغرب حين يقبل الليل.

أمر بالسعي إلى الجمعة إذا نودي لها والغسل عند الرواح غليها.

وأمره أن يأخذ من المغانم خمس الله وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء وعلى ما سقى الغرب نصف العشر.

وفي كل عشرٍ من الإبل شاتان وفي كل عشرين أربع شياهٍ وفي كل أربعين من البقر بقرةً وفي كل ثلاثين من البقر تبيعٌ جذع أو جذعةٌ وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة فإنها فريضة الله تعالى التي افترض على المؤمنين في الصدقة فمن زاد خيراً فهو خير له.

وانه من أسلم يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين: له مثل مالهم وعليه مثل ما عليهم ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها وعلى كل حالمٍ: ذكرٍ أو أنثى حر أو عبد دينارٌ وافٍ أو عوضه ثياباً فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسوله ومن منع ذلك فإنه عدوٌ لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً.

صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته.

وعلى نحو ذلك كتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عهد مالك بن الأشتر النخعي حين ولاه مصر ن وهو من العهود البليغة جمع فيه بين معالم التقوى وسياسة الملك.

هذا ما أمر به عبد الله عليٌ أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر: جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها أمره بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا بإتباعها ن ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها وأن ينصر الله تعالى بيده وقلبه ولسانه ن فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من اعزه.

وأمره أن يكسر من نفسه عند الشهوات ويزعها عند الجمحات فإن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم الله.

ثم اعلم يا ملك أنى قد وجهتك إلى بلادٍ قد جرت عليها دول قبلك: من عدل وجور وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمر الولاة قبلك ويقولون فيك كما كنت تقول فيهم.

وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرةً العمل الصالح.

فاملك هواك وشح بنفسك عما يحل لك فإن الشح بالنفس الانتصاف منها فيما أحبت وكرهت.

وأشعر قلبك بالرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق: يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطإ: فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه: فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاك.

وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنه لا يدي لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ولا تندمن على عفوٍ ولا تبجحن بعقوبةٍ ولا تسرعن إلى باردةٍ وجدت عنها مندوحةً ولا تقولن إني امرؤ آمر فأطاع: فإن ذلك إدغالٌ في القلب ومهلكةٌ في الدين وتقربٌ من الغير وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهةً أو مخيلةً فانظر إلى عظم ملك الله تعالى فوقك وقدرته منك على ما تقدر عليه من نفسك فإن ذلك يطامن إليك من طماحك ويكف عنك من غربك ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك.

وإياك ومساماة الله تعالى في عظمته والتشبه به في جبروته فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال.

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك وممن لك فيه هوى من رعيتك: فإنك إلا تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ومن خاصمه الله ن أدحض حجته وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب.

وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظلمٍ فأن الله سميعٌ يسمع دعوة المظلومين وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضى الرعية فغن سخط العامة يجحف برضا الخاصة وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة وليس أحدٌ من الرعية أثقل على الوالي مؤونةً في الرخاء وأقل معونةً له في البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف وأقل شكراً عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة وإنما عمود الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة.

فلكين صغوك لهم وميلك معهم وليكن أبعد رعيتك منك وأشنؤهم عندك أطلبهم لمعايب الناس: فأن في الناس عيوباً الوالي أحق بسترها فلا تكشفن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك منها فاستر العورة ما استطعت يستر الله ما تحب سترة من عيبك.

أطلق الناس من كل حقد واقطع عنهم سبب كل وتر وتغاب عن كل ما لا يضح لك ولا تعجلن إلى تصديق ساع: فإن الساعي غاشٌ وإن تشبه بالناصحين ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ولا جباناً يضعفك عن الأمور ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور: فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.

إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً من شاركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة وأنت واجدٌ منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم: ممن لم يعاون طالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه أولئك أخف عليك مؤونةً وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفاً وأفل لغيرك إلفاً فاتخذ أولئك خاصةً لخلواتك وحفلاتك ثم ليكن أثرهم عندك أقولهم لك بمر الحق وأقلهم مساعدةً فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعا ذلك من هواك حيث وقع والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطلٍ لم تفعله: فغن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من الغرة.

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلةٍ واحدةٍ فغن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة.

وإنك لا تدري إذا جاء سائلٌ أأنت بما تعطيه أم هو اسعد! عسى سائلٌ ذو حاجةٍ أن منعته من اليوم سؤلاً أن يكون له غد! وفي كثرة الأيدي عن الجهل زاجرٌ وللحلم أبقى للرجال وأعود! وعلى ذلك كتب أبو إسحاق الصابي عن الخليفة الطائع لله إلى فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه في جمادى الأولى سنة ستٌ وستين وثلثمائة.

وهذه نسخته: هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى فخر الدولة أبي الحسن بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين حين عرف غناءه وبلاءه واستصح دينه ويقينه ورعى قديمه وحديثه واستنجب عوده ونجاره.

وأثنى عز الدولة أبو منصور بن معز الدولة أبي الحسين مولى أمير المؤمنين أيده الله عليه وأشار بالمزيد في الصنيعة إليه وأعلم أمير المؤمنين إقتداءه به في كل مذهب فيه من الخدمة وغرضٍ رمى إليه من النصيحة دخولاً في زمرة الأولياء المنصورة وخروجاً عن جماعة الأعداء المدحورة وتصرفاً على موجبات البيعة التي بعز الدولة أبي منوطة وعلى سائر من يتلوه ويتبعه مأخوذة مشروطة فقلده الصلاة وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي وسائر وجوه الجبايات والعرض والعطاء والنفقة في الأولياء والمظالم وأسواق الرقيق والعيار في دور الضرب والطرز والحسبة بكور همذان وأستراباذ والدينور وقرميسين والإيغارين وأعمال أذربيجان وأران والسحانين وموقان واثقاً منه باستبقاء النعمة واستدامتها والاستزادة بالشكر منها والتجنب لغمطها وجحودها والتنكب لإيحاشها وتنفيرها والتعمد لما مكن له الحظوة والزلفى وحرس عليه الأثرة والقربى بما يظهره ويضمره من الوفاء الصحيح والولاء الصريح والغيب الأمين والصدر السليم والمقاطعة لكل من قاطع العصبة وفارق الجملة والمواصلة لكل من حمى البيضة وأخلص النية - والكون تحت ظل أمير المؤمنين وذمته ومع عز الدولة أبي منصور وفي حوزته والله جل اسمه يعرف أمير المؤمنين حسن العقبى فيما أبرم ونقض وسداد الرأي فيما رفع وخفض ويجعل عزائمه مقرونة بالسلامة محجوبةً عن موارد الندامة وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل أمره بتقوى الله التي هي العصمة المتينة والجنة الحصينة والطود الأرفع والمعاذ الأمنع والجانب الأعز والملجأ الأحرز وان يستشعرها سراً وجهراً ويستعملها قولاً وفعلاً ويتخذها ردءاً دافعاً لنوائب القدر وكهفاً حامياً من حوادث الغير فإنها أوجب الوسائل وأقرب الذرائع وأعودها على العبد بمصالحه وادعاها إلى سبل مناجحه وأولاها بالاستمرار على هدايته والنجاة من غوايته والسلامة في دنياه حين توبق موبقاتها وتردي مردياتها وفي آخرته حين تروع رائعتها وتخيف مخيفاتها.

وأن يتأدب بآداب الله في التواضع والإخبات والسكينة والوقار وصدق اللهجة إذا نطق وغض الطرف إذا رمق وكظم الغيظ إذا أحفظ وضبط اللسان إذا أغضب وكف اليد عن المثائم وصون النفس عن المحارم.

وأن يذكر الموت الذي هو نازل به والموقف الذي هو صائر إليه ويعلم أنه مسؤول عما اكتسب مجزيٌ بما ترمك واحتقب ويتزود من هذا الممر لذاك المقر ويستكثر من أعمال الخير لتنفعه ومن مساعي البر لتنقذه ويأتمر بالصالحات قبل أن يأمر بها ويزدجر عن السيئات قبل يزجر عنها ويبتدئ بإصلاح نفسه قبل إصلاح رعيته: فلا يبعثهم على ما يأتي ضده ولا ينهاهم عما يقترف مثله ويجعل ربه قريباً عليه في خلواته ومروءته مانعةً له من شهواته فإن أحق من غلب سلطان الشهوة وأولى من صرع أعداء الحمية من ملك أزمة الأمور واقتدر على سياسة الجمهور وكان مطاعاً فيما يرى متبعاً فيما يشاء يلي على الناس ولا يلون عليهم ويقتص منهم ولا يقتصون منه فإذا اطلع الله منه على نقاء جيبه وطهارة ذيله وصحة سريرته واستقامة سيرته أعانه على حفظ ما استحفظه وأنهضه بثقل ما حمله وجعل له مخلصاً من الشبهة ومخرجاً من الحيرة فقد قال تعالى: " ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ".

وقال عز من قال: " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ".

إلى أي كثيرةٍ حضنا بها على أكرم الخلق وأسلم الطرق فالسعيد من نصبها إزاء وقال: " اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " ناظره والشقي من نبذها وراء ظهره وأشقى منه من بعث عليها وهو صادف عنها وأهاب إليها وهو بعيد منها وله ولأمثاله يقول الله تعالى: " أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ".

وأمره أن يتخذ كتاب الله إماماً متبعاً وطريقاً موقعاً ويكثر من تلاوته إذا خلا بفكره ويملأ بتأمله أرجاء صدره فيذهب معه فيما أباح وحظر ويقتدي به إذا نهى وأمر ويستبين بيانه إذا استغلقت دونه المعضلات ويستضيء بمصابيحه إذا غم عليه في المشكلات فإنه عروة الإسلام والشافي من مرض القلوب والهادي لمن ضل والمتلافي لمن زل فمن لهج به فقد فاز وسلم ومن لهي عنه فقد خاب وندم قال الله تعالى: " وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ".

وأمره أن يحافظ على الصلوات ويدخل فيها في حقائق الأوقات قائماً على حدودها متبعاً لرسومها جامعاً فيما بين نيته ولفظه متوقياً لمطامح سهوه ولحظه منقطعاً إليها من كل قاطع لها مشغولاً بها عن كل شاغل عنها متثبتاً في ركوعها وسجودها

مستوفياً عدد مفروضها ومسنونها موفراً عليها ذهنه صارفاً إليها همه عالماً بأنه واقفٌ بين يدي خالقه ورازقه ومحييه ومميته ومثيبه و معاقبه لا تستتر دونه خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فإذا قضاها على هذه السبيل منذ تكبيرة الإحرام إلى خاتمة التسليم أتبعها بدعاء يرتفع بارتفاعها ويستمع باستماعها ولا يتعدى فيه مسائل الأبرار ورغائب الأخيار: من استفصاح واستغفار واستقالة واسترحام واستدعاء لمصالح الدين والدنيا وعوائد الآخرة والأولى فقد قال تعالى: " وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر " وقال تعالى: " إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ".

وأمره بالسعي في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة وفي الأعياد إلى المصليات الضاحية بعد التقدم في فرشها وكسوتها وجمع القوام والمؤذنين والمكبرين فيها واستسعاء الناس إليها وحضهم عليها آخذين الأهبة متنظفين في البزة مؤدين لفرائض الطهارة بالغين في ذلك أقصى الاستطاعة معتقدين خشية الله وخيفته مدرعين تقواه ومراقبته مكثرين من دعائه - عز وجل - وسؤاله مصلين على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله بقلوب على اليقين موقوفة وهمم إلى الدين مصروفة وألسن بالتسبيح والتقديس فصيحة فإن هذه المصليات والمتعبدات بيوت الله التي فضلها ومساكنه التي شرفها وفيها يتلى القرآن ومنها ترتفع الأعمال وبها يلوذ اللائذون ويعوذ العائذون ويتعبد المتعبدون ويتهجد المتهجدون وحقيقٌ على المسلمين أجمعين: من والٍ ومولى عليه أن يصونها ويعمروها ويواصلوها ولا يهجروها.

وأن يقيم الدعوة علة منابرها لأمير المؤمنين ثم لنفسه على الرسم الجاري فيها قال الله تعالى في هذه الصلاة: " يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ".

وقال في عمارة المساجد: " إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ".

وأمره بأن يراعي أحوال من يليه من طبقات جند أمير المؤمنين ومواليه ويطلق لهم الأرزاق في وقت الوجوب والاستحقاق وأن يحسن في معاملتهم ويجمل في استخدامهم ويتصرف في سياستهم بين رفق من غير ضعف وخشونة من غير عنف مثيباً لمحسنهم ما زاد بالإبانة في حسن الأثر وسلم معها من دواعي الأشر ومتغمداً لمسيئهم ما كان التغمد له نافعاً وفيه ناجعاً فإن تكررت زلاته وتتابعت عثراته تناوله من عقوبته بما يكون له مصلحاً ولغيره واعظاً.

وأن يختص أكابرهم أماثلهم وأهل الرأي والخطر منهم بالمشاورة في الملم والإطلاع على بعض المهم مستخلصاً نخائل قلوبهم بالبسط والإدناء ومستشحذاً بصائرهم بالإكرام والاحتفاء: فإن في مشاورة هذه الطبقة استلالاً على مواقع الصواب وتحرزاً من غلط الاستبداد وأخذاً بمجامع الحزامة وأمناً من مفارقة الاستقامة وقد حض الله على الشورى حيث قال لرسوله عليه الصلاة والسلام: " وشاورهم في المر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ".

وأمره بأن يعمد لما يتصل بنواحيه من ثغور المسلمين ورباطات المرابطين ويقسم لها قسماً وافراً من عنايته ويصرف إليها طرفاً بل شطراً من رعايته ويختار لها أهل الجلد والشدة وذوي البأس والنجدة: ممن عجمته الخطوب وعركته الحروب واكتسب دربة بخدع المتناوبين وتجربةً بمكايد المتقارعين وأن يستظهر بتكثيف عددهم واختيار عددهم وانتخاب خيلهم وإستجادة أسلحتهم غير مجمر بعثاً إذا بعثه ولامستكره إذا وجهه بل يناوب بين رجاله مناوبةً تريحهم ولا تملهم وترفههم ولا تؤودهم: فإن في ذلك من فائدةٍ الإجمام والعدل في الاستخدام وتنافس رجال النوب فيما عاد عليهم بعز الظفر والنصر وبعد الصيت والذكر وإحراز النفع والجر ما يحق على الولاة أن يكونوا به عاملين وللناس عليه حاملين.

وأن يكرر على أسماعهم ويثبت في قلوبهم مواعيد الله لمن صابر ورابط وسمح بالنفس وجاهد من حيث لا يقدمون على تورط غرة ولا يحجمون عن انتهاز فرصة ولا ينكصون عن تورد معركة ولا يلقون بأيديهم إلى التهلكة فقد أخذ الله تعالى ذلك على خلقه والمرامين عن دينه وأن يزيح العلة فيما يحتاج إليه من راتب نفقات هذه الثغور وحادثها وبناء حصونها ومعاقلها واستطراق طرقها ومسالكها وإفاضة الأقوات والعلوفات للمتربتين فيها والمترددين إليها والحامين لها.

وأن يبذل أمانه لمن طلبه ويعرض على من لم يطلبه.

ويفي بالعهد إذا عاهد وبالعقد إذا عاقد غير مخفرٍ ذمة ولا جارح أمانة فقد أمر الله تعالى بالوفاء فقال جل من قال: " فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ".

وأمره أن يعرض من حبوس عمله على جرائرهم وإنعام النظر في جناياتهم وجرائمهم فمن كان إقراره واجباً أقره ومن كان إطلاقه سائغاً أطلقه.

وان ينظر في الشرطة والأحداث نظر عدل وإنصاف ويختار لها من الولاة من يخاف الله تعالى ويتقيه ولا يحابي ولا يراقب فيه ويتقدم إليهم بقمع الجهال وردع الضلال وتتبع الأشرار وطلب الدعار مستدلين على أماكنهم متوغلين إلى مكامنهم متولجين عليهم في مظانهم متوثقين ممن يجدونه منهم منفذين أحكام الله تعالى فيهم بحسب الذي يتبين من أمرهم ويتضح من فعلهم في كبيرةٍ ارتكبوها وعظيمةٍ احتقبوها ومهجةٍ أفاظوها واستهلكوها وحرمةٍ أباحوها وانتهكوها: فمن استحق حداً من حدود الله المعلومة أقاموه عليه غير مخففين منه وأحلوه به غير مقصرين عنه بعد أن لا يكون عليهم في الذي يأتون به حجةٌ ولا يعترضهم في وجوبه شبه: فإن الواجب في الحدود أن تقام بالبينات وأن تدرأ بالشبهات فأولى ما توخاه رعاة الرعايا فيها أن لا يقدموا عليها مع نقصان ولا يتوقفوا عنها مع قيام دليل وبرهان.

ومن وجب عليه القتل احتاط عليه بما يحتاط به على مثله: من الحبس الحصين والتوثق الشديد وكتب إلى أمير المؤمنين بخبره وشرح جنايته وثبوتها بإقرار يكون منه أو بشهادةٍ تقع عليه ولينتظر من جوابه ما يكون عمله بحسبه فإن أمير المؤمنين لا يطلق سفك دم مسلمٍ أو معاهدٍ إلا ما أحاط به علماً وأتقنه فهماً وكان ما يمضيه فيه عن بصيرة لا يخالطها شك ولا يشوبها ريب.

ومن ألم بصغيرةٍ من الصغائر ويسيرةٍ من الجرائر من حيث لم يعرف له مثلها ولم تتقدم منه أختها وعظه وزجره ونهاه وحذره واستتابه وأقاله ما لم يكن عليه خصم في ذلك يطالب بقصاصٍ منه وجزاءٍ له فأن عاد تناوله من التقويم والتهذيب والتعزيز والتأديب بما يرى أنه قد كفى فيما اجترم ووفى بما قدم فقد قال تعالى: " ومن يتعد حدود وأمره أن يعطل ما في أعماله من الحانات والمواخير ويطهرها من القبائح والمناكير ويمنع من تجمع أهل الخنا فيها وتألف شملهم بها: فإنه شمل يصلحه التشتيت وجمع يحفظه التفريق وما زالت هذه المواطن الذميمة والمطارح الدنيئة داعية لمن يأوي إليها ويعكف عليها إلى ترك الصلوات وإهمال المفترضات وركوب المنكرات واقتراف المحظورات وهي بيوت الشيطان التي في عمارتها الله تعالى مغضبة وفي إخرابها للخير مجلبة والله تعالى يقول لنا معشر المؤمنين: " كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ".

ويقول عز من قال لغيرنا من المذمومين: " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ".

وأمره أن يولي الحماية في هذه الأعمال أهل الكفاية والغناء من الرجال وأن يضم إليهم كل من خف ركابه وأسرع عند الصريخ جوابه مرتباً لهم في المسالح وساداً بهم ثغر المسالك وأن يوصي بالتيقظ ويأخذهم بالتحفظ ويزيح عللهم في علوفة خيلهم والمقرر من أزوادهم وميرهم حيى لا تثقل لهم على البلاد وطأة ولا تدعوهم إلى تحيفهم وثلمهم حاجة وأن يحوطوا السابلة بادئةً وعائدة ويتداركو القوافل صادرةً وواردة ويحرسوا الطرق ليلاً ونهاراً وينفضوها رواحاً وإبكاراً وينصبوا لأهل العيث الأرصاد ويتكمنوا لهم بكل واد ويتفرقوا عليهم حيث يكون التفرق مضيقاً لفضائهم ومؤدياً إلى انفضاضهم ويتجمعوا حيث يكون الاجتماع مطفئاً لجمرتهم وصادعاً لمروتهم وأن لا يخلو هذه السبل من حماةٍ لها وسيارة فيها: يترددون في جواديها ويتعسفون في عواديها حتى تكون الدماء محقونة والأموال مصونة والفتن محسومة والغارات مأمونة ومن حصل في أيديهم من لصٍ خاتل وصعلوك خارب ومخيفٍ لسبيل ومنتهك لحريم امتثل فيه أمر أمير المؤمنين الموافق لقول الله تعالى: " إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم ".

وأمره بوضع الرصد على ما يجتاز في أعماله من أباق بعيد والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم والبحث عن الأماكن التي فارقوها والطرق التي استطرقوها ومواليهم الذين أبقوا منهم ونشزوا عنهم وأن يردوهم عليهم قهراً ويعيدوهم إليهم صغراً وأن ينشدوا الضالة بما أمكن أن تنشد ويحفظوها على ربها بما جاز أن تحفظ ويتجنبوا الامتطاء لظهورها والانتفاع بأوبارها وألبانها مما يجز و يحلب وأن يعرفوا اللقطة ويتبعوا أثرها ويشيعوا خبرها.

فإذا حضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها سلمت إليه ولم يعترض فيها عليه فإن الله عز وجل يقول: " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ".

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ضالة المؤمن حرق وأمره أن يوصي عماله بالشد على أيدي الحكام وتنفيذ ما يصدر عنهم من الأحكام وان يحضروا مجالسهم حضور الموقرين لها الذابين عنها المقيمين لرسوم الهيبة وحدود الطاعة فيها ومن خرج عن ذلك من ذي عقل سخيف وحلم ضعيف نالوه بما يردعه وأحلوا بما يزعه ومتى تقاعس متقاعسٌ عن حضورٍ مع خصم يستدعيه وأمرٍ يوجه الحاكم إليه فيه أو التوى ملتوٍ بحقٍ يحصل عليه ودين يستقر في ذمته قادوه إلى ذلك بأزمة الصغار وخزائم الاضطرار وأن يحبسوا ويطلقوا بأقوالهم ويثبتوا الأيدي في الأملاك والفروج وينزعوها بقضاياهم فإنهم أمناء الله في فصل ما يفصلون وبت ما يبتون وعن كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يوردون ويصدرون وقد قال تعالى: " يا داود إنا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد بما نسوا يوم الحساب ".

وأن يتوخى بمثل هذه المعاملة عمال الخراج في استيفاء حقوق ما استعملوا عليه واستنطاف بقاياهم فيه والرياضة لمن تسوء طاعته من معامليهم وإحضارهم طائعين أو كارهين بين أيديهم فمن آداب الله تعالى للعبد التي يحق عليه أن يتخذها أدباً ويجعلها إلى الرضا عنه سبباً قوله تعالى: " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ".

وأمره أن يجلس للرعية جلوساً عاماً وينظر في مطالبها نظراً تاماً ويساوي في الحق بين خاصها وعامها ويوازي في المجالس بين عزيزها وذليلها وينصف المظلوم من ظالمه والمغصوب من غاصبه بعد الفحص والتأمل والبحث والتبين حتى لا يحكم إلا بالعدل ولا ينطق إلا بفصل ولا يثبت يداً إلا فيما وجب تثبيتها فيه ولا يقبضها إلا عما وجب قبضها عنه وأن يسهل الإذن لجماعتهم ويرفع الحجاب بينه وبينهم ويوليهم من حصانة الكنف ولين المنعطف والاشتمال والعناية والصون والرعاية ما تتعادل فيه أقسامهم وتتوازن منه أقساطهم ولا يصل المكين منهم إلى استضامة من تأخر عنه ولا ذو السلطان إلى هضيمة من حل دونه.

وأن يدعوهم إلى أحسن العادات والخلائق ويحضهم على أجمل المذاهب والطرائق ويحمل عنهم كله ويمد عليهم ظله ولا يسومهم خسفاً ولا يلحق بهم حيفاً ولا يكلفهم شططاً ولا يجشمهم مضلعاً ولا يثلم لهم معيشة ولا يداخلهم في جريمة ولا يأخذ منهم بريئاً بسقيم ولا حاضراً بعديم فإن الله عز وجل نهى أن تزر وازرةٌ وزر أخرى وجعل كل نفسٍ رهينةً بمكسبها بريئةً من مكاسب غيرها.

ويرفع عن هذه الرعية ما عسى أن يكون سن من سنة ظالمة وسلك بها من محجة جائرة ويستقري آثار الولاة قبله عليها فيما ازجوه من خير أو شرٍ إليها: فيقر من ذلك ما طاب وحسن ويزيل ما خبث وقبح: فإن من يغرس الخير يحظى بمعسول ثمره ومن يزرع الشر يصلى بمرور ريعه والله تعالى يقول: " والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقومٍ يشكرون ".

وأمره أن يصون أموال الخراج وأثمان الغلات ووجوه الجبايات موفراً ويزيد ذلك مثمراً بما يستعمله من الإنصاف لأهلها وإجرائهم على صحيح الرسوم فيها: فإنه مال الله الذي به قوة عباده ودرور حلبه واتصال مدده وبه يحاط الحريم ويدفع العظيم ويحمى الذمار وتذاد الأشرار.

وأن يجعل افتتاحه إياه بحسب إدراك أصنافه وعند حضور مواقيته وأحيانه غير مستسلف شيئاً قبلها ولا مؤخر لها عنها وأن يخص أهل الطاعة بالسلامة والترفيه لهم وأهل الاستصعاب والامتناع بالتشدد عليهم: لئلا يقع إرهاقٌ لمذعن أو إهمالٌ لطامع.

وعلى المتولي لذلك أن يضع كلاً من الأمرين موضعه ويوقعه موقعه متجنباً إحلال الغلطة بمن لا يستحقها وإعطاء الفسحة لمن ليس من أهلها والله تعالى يقول: "" وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ".

وأمره بأن يتخير عماله على الأعشار والخراج والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي من أهل الظلف والنزاهة والضبط والصيانة والجزالة والشهامة وأن يستظهر مع ذلك عليهم بوصيةٍ يوعيها أسماعهم وعهودٍ يقلدها أعناقهم بأن لا يضيعوا حقاً

ولا يأكلوا سحتاً ولا يستعملوا الغلات ويتحرزوا من ترك حقٍ لازم أو تعطيل رسم عادل مؤدين في جميع ذلك الأمانة مجتنبين للخيانة.

وان يأخذوا جهابذتهم باستيفاء وزن المال على تمامه واستجادة نقده على عياره واستعمال الصحة في قبض ما يقبضون وإطلاق ما يطلقون.

وأن يوعزوا إلى سعاة الصدقات بأخذ الفرائض من سائمة مواشي المسلمين دون عاملتها وكذلك الواجب فيها وأن لا يجمعوا فيها متفرقاً ولا يفرقوا مجتمعاً ولا يدخلوا فيها خارجاً عنها ولا يضيفوا إليها ما ليس منها: من فحل إبلٍ أو أكولة راع أو عقيلة مال فإذا اجتبوها على حقها واستوفوها على رسمها أخرجوها في سبيلها وقسموها على أهلها الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم "إلا المؤلفة قلوبهم الذين سقط سهمهم فإن الله تعالى يقول: وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضةً من الله والله عليمٌ حكيم ".

وإلى جباة جماجم أهل الذمة أن يأخذوا منهم الجزية في المحرم من كل سنة بحسب منازلهم في الأحوال وذات أيديهم في الأموال وعلى الطبقات المطبقة فيها والحدود المحدودة المعهودة لها وأن لا يأخذوا من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال ولا من ذي سنٍ عالية ولا ذي علة بادية ولا فقير معدم ولا مترهب متبتل وأن يراعي جماعة هؤلاء العمال مراعاةً يسرها ويظهرها ويلاحظهم ملاحظة يخفيها ويبديها: لئلا يزولوا عن الحق الواجب أو يعدلوا وأمره أن يندب لعرض الرجال وإعطائهم وحفظ جراياتهم وأوقات إطعامهم من يعرفه بالثقة في متصرفه والأمانة فيما يجري على يده والبعد عن الإسفاف إلى الدنية والاتباع إلى الدناءة وأن يبعثه على ضبط حلى الرجال وشيات الخيل وتجديد العرض بعد الاستحقاق وإيقاع الاحتياط في الإنفاق فمن صح عرضه ولم يبق في نفسه شيء منه: من شكٍ يعرض له أو ريبةٍ يتوهمها أطلق أمواله موفورة وجعلها في أيديهم غير مثلومة وأن يرد على بيت المال أرزاق من سقط بالوفاة والإخلال ناسباً ذلك إلى جهته ومسوداً له على حقيقته.

وأن يطالب الرجال بإحضار الخيل المختارة والآلات المستكملة المستعملة على ما توجبه مبالغ أرزاقهم وحسب منازلهم ومراتبهم فإن أخر أحدهم شيئاً من ذلك قاصه به من رزقه وأغرمه مثل قيمته فإن المقصر فيه خائنٌ لأمير المؤمنين ومخالف لرب العالمين إذ يقول الله سبحانه: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ".

وأمره أن يعتمد في أسواق الرقيق ودور الضرب و الحبة والطرز على من تجتمع فيه آلات هذه الولايات: من ثقةٍ ودراية وعلم وكفاية و معرفةٍ ودراية وتجربة وحنكة وحصافة ومسكة فإنها أحوال تضارع الحكم وتناسبه وتدانيه وتقاربه وأن يتقدم إلى ولاة أسواق الرقيق بالتحفظ فيمن يطلقون بيعه ويمضون أمره والتحرز من وقوع تجوزٍ فيه وإهمالٍ له إذ كان ذلك عائداً بتحصين الفروج وتطهير الأنساب.

وأن يبعدوا عن أهل الريبة ويقربوا أهل العفة ولا يمضوا بيعاً على شبهة ولا عقداً على تهمة.

وإلى ولاة العيار بتخليص عين الدرهم والدينار: ليكونا مضروبين على البراءة من الغش والنزاهة من المش وبحسب الإمام المقرر بمدينة السلام وحراسة السكك من أن تداولها الأيدي المدغلة وتتناقلها الجهات الظنينة وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب منها ذهباً وفضة وإجراء ذلك على الرسم والسنة.

وإلى ولاة الطرز بأن يجروا الاستعمال في جميع المناسج على أتم النقية وأسلم الطريقة وأحكم الصنعة وأفضل الحصة وأن يثبتوا اسم أمير المؤمنين على طرز الكسا والفرش والأعلام والبنود.

وإلى ولاة الحسبة بتصفح أحوال العوام في حرفهم ومتاجرهم مجتمع أسواقهم ومعاملاتهم وأن يعايروا الموازين والمكاييل يفرزوها على التعديل والتكميل ومن اطلعوا منه على حيلةٍ أو تلبيس أو غيلةٍ أو تدليس أو بخس فيما يوفيه أو استفضال فيما يستوفيه نالوه بغليظ العقوبة وعظيمها وخصوه بوجيعها وأليمها واقفين به في ذلك عند الحد الذي يرونه لذنبه مجازياً وفي تأديبه كافياً فقد قال الله تعالى: " ويلٌ للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ".

هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عليك وقد وقفك به على سواء السبيل وأرشدك فيه إلى واضح الدليل وأوسعك تعليماً وتحكيماً وأقنعك تعريفاً وتفهيماً ولم يألك جهداً فيما عصمك وعصم على يديك ولم يدخرك ممكناً فيما أصلح بك وأصلحك ولا ترك لك عذراً في غلطٍ تغلطه ولا طريقاً إلى متورطٍ تتورطه بالغاً بك في الأوامر والزواجر إلى حيث يلزم الأئمة أن يندبوا الناس إليه ويحثوهم عليه مقيماً لك على منجيات المسالك صارفاً بك عن مرديات المهالك مريداً فيك ما يسلمك في دينك ودنياك ويعود بالحظ عليك في آخرتك وأولاك فإن اعتدلت وعدلت فقد فزت وغنمت وغن تجانفت واعوججت فقد خسرت وندمت والأولى بك عند أمير المؤمنين مع مغرسك الزاكي ومنبتك النامي وعودك الأنجب وعنصرك الأطيب أن تكون لظنه بك محققاً ولمخيلته فيك مصدقاً وأن تستزيد بالأثر الجميل قرباً من رب العالمين وثواباً يوم الدين وزلفى عند أمير المؤمنين وثناءً حسناً من المسلمين فخذ ما نبذ إليك أمير المؤمنين من معاذيره وأمسك بيدك على ما أعطى من مواثيقه واجعل عهده هذا مثلاً تحتذيه وإماماً تقتفيه واستعن بالله يعنك واستهده يهدك وأخلص إليه في طاعته يخلص لك الحظ من معونته ومهما أشكل عليك من الخطب أو أعضل عليك من صعب أو بهرك من باهر أو بهظك من باهظ فاكتب إلى أمير المؤمنين به منهياً وكن إلى ما يرد من جوابه عليك منتهياً إن شاء الله تعالى.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر يوم الأحد لثلاث عشرة ليلةً خلت من جمادى الأولى سنة وعلى هذا الأسلوب كتب أمين الدين أبو سعيد العلاء بن وهب بن موصلايا عن القائم بأمر الله عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بسلطنة الأندلس وبلاد المغرب بعد العشرين والأربعمائة فيما رأيته في ترسل ابن موصيلا المذكور.

وهذه نسخته بعد البسملة الشريفة: هذا ما وعد عبد الله ووليه عبد الله القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى فلان حين انتهى إليه ما هو عليه من ادراع جلابيب الرشاد في الإصدار والإيراد واتباع سنن من أبدى وأعاد فيما يجمع خير العاجلة والمعاد والتخصيص من حميد الأنحاء والمذاهب بما يستمد منه أصناف الآلاء والمواهب والتحلي من السداد الكامل بما فاز فيه بامتطاء الغارب من الجمال والكاهل واتضح ما هو مثبت به من صحة الدين واليقين والمواظبة من اكتساب رضا الله تعالى على ما هو أقوى الظهير والمعين في ضمن ما طوى عليه ضلوعه وأدام لهجه به وولوعه: من موالاةٍ لأمير المؤمنين يدين الله تعالى بها ويرجو النجاة من كل مخوف باستحكام سعيها ومشايعةٍ لدولته ساوى فيها بين ما أظهر وأسر وأمل في اجتناء ثمرها كل ما أبهج وسر فولاه الصلاة بأعمال وأدعى في كل أمر إلى وري الزناد وقد خص الله بها المؤمنين من عباده وحض منها على ما هو أفضل عدة المرء وعتاده فقال تعالى: " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ".

وأمره بأن يأتم بكتاب الله تعالى مستضيئاً بمصباحه مستضيماً لسلطان الغي بالوقوف عند محظوره ومباحه ويقصد الاستبصار بمواعظه وحكمه والاستدرار لصوب التوفيق في الرجوع إلى متقنه ومحكمه ويجعله أميراً على هواه مطاعاً وسميراً لا يرى أن يكشف عنه قناعاً ودليلاً إلى النجاة من كل ما يخاف أثامه وسبيلاً إلى الفوز في اليوم الذي يفسر عن فصل الحساب لثامه ويتحقق موقع الحظ في إدامة درسه وصلة يومه في التأمل بأمسه فإنه يبدي طريق الرشد لكل مبدي في العمل به معيد: " وإنه "لكتابٌ عزيزٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد .

وأمره أن يحفظ على الصلوات قائماً بشروطها وحدودها وشائماً بروق التوفيق في أداء فروضها وحقوقها ومسارعاً إليها في أوقاتها بنيةٍ عائفةٍ مناهل الكدر والرنق عارفةٍ بما في إخلاصها من نصرة الهدى وطاعة الحق وموفراً عليها من ذهنه ما الحظ كامن في طيه وضمنه وموفياً لها من الركوع والسجود ما الرشاد فيه صادق الدلائل والشهود متجنباً ان يلهيه عنها من هواجس الأفكار وواس القلب العون منها والأبكار ما يقف فيه موقف المقصر الغالط وينزل فيه منزلة الجاحد للنعم الغامط وقد أمر الله تعالى بها وفرضها على المؤمنين وأوجبها وحث من إقامتها على ما يفضي إلى صلاح المقاصد واستقامتها فقال عز من قائل: " فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ".

وأمره بالسعي في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة وفي الأعياد إلى المصليات الضاحية بعد أن يتقدم في عمارتها وإعداد الكسوة لها بما يؤدي إلى كمال حلالها ويحظي من حسن الذكر بأعذب الموارد وأحلاها ويوعز بالاستكثار من المكبرين فيها والقوام وترتيب المصابيح العائدة على شمل جمالها بالاتساق والانتظام: فإنها بيوت الله تعالى التي تتلى بها آياته وعلى فيها أعلام الشرع ورياته وأن يقيم الدعوة على ونارها لأمير المؤمنين ولولي هذه العدة للدين أبي القاسم عبد الله بن محمد ابن أمير المؤمنين أدام الله به الإمتاع وأحسن عن ساحته الدفاع ثم لنفسه جاريا في ذلك على ما ألف من مثله وسالكاً منه أقوم مسالك الاهتداء وسبله وقد بين الله تعالى ما في عمارتها من دلائل الإيمان والفوز بما يعطي من سخط الله تعالى أوثق الأمان

في قوله سبحانه: " إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ".

وقال في الحث على السعي إلى الجوامع التي يذكر فيها اسمه ويظهر عليها منار الإسلام ورسمه: " يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ".

وأمره أن يعتمد في إخراج الزكاة ما أمر الله تعالى به وهدى منه إلى أرشد فعلٍ وأصوبه ويقوم بذلك القيام الذي يحظيه بجميل الذكر وجزيل الأجر ويشهد له بزكاء المغرس وطيب النجر ويقصد في أداء الواجب منه ما يصل أمسه في التوفيق بيومه ويطلق الألسنة بحمده ويكفها عن لومه متجنباً من إخلالٍ بما نص عليه في هذا الباب أو إهمالٍ فيه لما يليق بذوي الديانة وأولي الألباب ومتوخياً في المسارعة إليه ما يتطهر به من الأدناس ويتوفر به حسن الأحدوثه عنه بين الناس فقد جعل الله تعالى الزكاة من الفروض التي لا سبيل إلى المحيد عنها ولا دليل في الفوز أوفى منها وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأخذها من أمته وأبان عن كونها مما يجتنى كل مرغوبٍ فيه من ثمرته ووصل الأمر له في ذلك بما يوجب فضل المسابقة إلى قبوله: لما فيه من الحظ الكامل في استنارة غرره وحجوله في قوله سبحانه: " خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكنٌ لهم والله سميعٌ عليم ".

وأمره أن يهذب من الدنس خلاله ويصل بأقواله في الخير أفعاله ويمتنع من تلبية داعي الهوى المضل ويبع سنن المتفيء بالهدى المستظل ويقبض يده على كل محرم توثق أشراكه وتوبق غوائله وتؤذن بسوء المنقلب شواهده ودلائله ويجعل له من نهاره رقيباً على نفسه يصونها عن مراتع الغي و مطارحه وأميناً يصد عن مسارب الإثم ومسارحه فإنها لا تزال أمارةً بالسوء إن لم تقد إلى جدد الرشد وتقم لها سوقٌ من الوعظ يبلغ فيها أقصى الغاية والأمد فالسعيد من أضحى لها عند سورة الغضب وازعاً ولأنحى عليها بلوم يغدو معه عن كل ما يسخط الله تعالى نازعاً و أن يتنزهه عن النهي عما هو له مرتكب والأمر بما هو له مجتنب: إذا كان ذلك بالهجنة حالياً وبين المرء وبين مقاصد هديه حائلاً قال الله تعالى: " أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ".

وأمره أن يضفي على ما قبله من أولياء أمير المؤمنين وجنوده أصناف جلابيب الإحسان و بروده ويخصهم من جزيل حبائه بما يصلون منه إلى أبعد المدى ويملكون به نواصي الآمال ويدركون قواصي المنى ويميز من أدى واجبه في الطاعة وفرضه وأبدى صفحته في الغناء بين يديه بمزيدٍ من الاشتمال يرهف بصيرة كلٍ منهم في التوفر على ما وافقه ووصل بأنفه في التقرب إليه سابقه ويدعو المقصر إلى الاستبصار في اعتماد ما يلحق فيه رتبة من فازت في الحظوة قداحه وفاتت الوصف غرره في الزلفة و أوضاحه: ليمرح به في الاغتذاء بابان النعمة كما انتهج جدده في إحسان الخدمة وأن يرجع إلى آراء ذوي الحنكة منهم مستضيئاً بهم مسترشداً وطالباً ضوال الرأي الثاقب ومنشداً وقد بين الله فضل المشورة التي جعلها للألباب لقاحاً وفي حنادس الشكوك مصباحاً حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بها وبعثه منها على أسد الأفعال وأصوبها فقال تعالى: " وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ".

وأمره أن يعدل في الرعايا قبله ويحلهم من الأمن هضابه وقلله ويمنحهم من الاشتمال ما يمحي به أمورهم من الاختلال ويحوي به من طيب الذكر بحسب ما اكتسب من رضي الأنحاء والخلال ويضفي على المسلم منهم والمعاهد من ظل رعايته ما يساوي فيه بين القوي والضعيف ويلحق التليد منهم بالطريف: ليكون الكل وادعين في كنف الصون راجعين غلى الله تعالى في إمدادهم بالتوفيق وحسن الطاعة والعون.

وأن ينظر في مظالمهم نظراً ينصر الحق فيه وينشر علم العدل في مطاويه وينصف معه بعضهم من بعض وينصب به لهم من اهتمامه أسنى قسم وحظ ملياً لهم في ذلك جانبه ومبيناً ما يظل به كاسب الأجر وجالبه ويزيل عنهم ما شرعه ظلمة الغلمان بتلك الأعمال ويديل من تلك الحلال باستئناف ما يوطؤهم كواهل الآمال جامعاً لهم بين العدل والإحسان وجاعلاً أمر الله تعالى في ذلك ملتقىً بالطاعة الواضحة الدليل والبرهان قال الله تعالى: " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ".

وأمره بأن يكون للمعروف آمراً وعن المنكر زاجراً والله تعالى في إحياء الحق وإماتة الباطل متاجراً وأن يشد من الساعين في ذلك والداعين إليه ويعد القيام بهذه الحال من أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى يوم العرض عليه.

ويتقدم بتعطيل ما في أعماله من المواخير ودحضها وإزالة آثارها ومحوها فإنها مواطن بالمخازي آهلة ومن مشارب المعاصي ناهلة وقد أسست على غير التقوى مبانيها وأخليت من كل ما يرضي الله تعالى مغانيها وقد أبان الله تعالى عن فضل الطائفة التي ظلت بالمعروف آمرةً وعن المنكر ناهية وضنت بما ترى فيه عن مقاصد الخير ذاهلة لاهية فقال: "كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ".

وأمره أن يرتب لحماية الطرقات من يجمع إلى الصرامة والشهامة سلوك محاج الرشاد والاستقامة ويجعل التعفف عن ذميم المراتع شاهداً بتوفيق الله إياه وعائداً إليه بما تحمد مغبته وعقباه ويأمر بحفظ السابلة واختصاصهم بالحراسة السابغة الشاملة وحماية القوافل واردةً وصادرة واعتمادها بما تغدو به إلى السلامة مفضية صائرة: لتحرس الدماء مما يبيحها ويريقها والأموال مما يقصد فيه سبيل الإضاعة وطريقها وأن يخوفهم نتائج التقصير ويعرفهم مناهج التبصير وأن عليهم رقباء يلاحظون أمورهم ويوضحونها ليكون ذلك داعياً إلى التحوط والتحرز واعتماد الميل إلى جانب الصحة والتحيز ويوجب لهم من بعد ما يكفي أمثالهم مثله ويكف أيديهم عن الامتداد إلى ما تذم سبله فإن أخل أحدهم بما حد له أو مزج بالسوء عمله جزاه بحسب ذلك وموجبه قال الله تعالى: " من يعمل سوءاً يجز به ".

وأمره أن يتقدم إلى نوابه في الأعمال بوضع الرصد على من يجتاز من العبيد الأباق والاستظهار عليهم بحسب العدل والاستحقاق واستعلام أماكنهم التي فصلوا عنها ومواطنهم التي بعدوا منها فإذا وضحت أحوالهم وبانت وانحسمت الشكوك في بابهم وزالت أعادوهم إلى مواليهم أبوا أم شاءوا وأصفوا نياتهم في الرجوع إليهم أم شابوا.

وأن يقصدوا إنشاد الضوال ويجتهدوا من إظهار أمرها بما يغدو جمال الذكر به في الظلال ويتجنبوا أن يمتطوا ظهورها بحال أو يمدوا أيديهم إلى منافعها في إسرار وإعلان حتى إذا حضر أربابها سلمت إليهم بالنعوت والأوصاف وأجري الأمر في ذلك على ما يضحى به علم العدل عالي المنار حالي الأعطاف فقد أمر الله تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها وهدى من ذلك إلى أوضح محاج الصحة وسبلها فقال: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل".

وأمره أن يختار للنظر في المعاون والأجلاب من يرجع إلى دينٍ يحميه من مهاوي الزلل وصلفٍ عن مد اليد إلى أسباب المطامع وكلفٍ بما يعدوا على ما كلف إياه بصلاحٍ مشرق المطالع ومعرفة بما وكل إليه كافيةٍ وافية ولما يوجب الاستزادة له ماحيةٍ نافية ويوعز إليهم بالتشمير في طلب الدعار من جميع الأماكن والأقطار وحسم مواد العار في بابهم والمضار.

وأن يمضوا فيهم حكم اله بحسب مقاصدهم في الضلال وتجرى أمورهم على قانون الشرع المنير في حنادس الظلام ممتنعين أن يراقبوا من لم يراقب الله تعالى في فعله ويجانبوا الصواب بقبول الشفاعة فيمن شهدت آثاره بذميم سبله وإذا وقع الظفر بجانٍ قد كشف في الغي قناعه وأظهرت مساعيه إباءه من إجابة داعي الرشد وامتناعه أقيم حد الله تعالى فيه من غير تعدٍ للواجب ولا تعرٍ من ملابس السالكين للجدد اللاحب " ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ".

وأمره أن يوعز إلى أصحاب المعاون بأن يشدوا من القضاة والحكام ويجدوا في إجراء أمورهم على أوفى شروط الضبط والإقدام ويأمرهم بحضور مجالسهم لتنفيذ أحكامهم وإمضائها والمسارعة إلى حث مطايا التشمير في ذلك وإنضائها والتصرف على أمثلتهم في إحضار الخصوم إذا امتنعوا وسوقهم إلى الواجب إذا زاغوا عنه وانحرفوا وأن يتقدم بإمداد عمال الخراج بما يؤدي إلى قوة أيديهم في استيفاء مال الفيء واجتبائه واعتماد ما ينصر الحقوق في مطاويه وأثنائه إذا كان في ذلك من الصلاح الجامع وكف المضار وحسم المطامع ما المعونة عليه واجبة وللتوفيق مقارنةٌ مصاحبة قال الله تعالى: " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على وأمره بعرض من تضمه الحبوس من أهل الجرائم والجرائر وتأمل أحوالهم في الموارد والمصادر والرجوع إلى متولي الشرطة في ذكر صورة كلٍ منهم والسبب في حبسه والتعيين من ذلك على ما يعرف به صحة الأمر من لبسه فمن ألفي منهم للذنوب آلفاً وعن سنن الصواب منحرفاً ترك بحاله وكف بإطالة اعتقاله عن مجاله في ميادين ضلاله وإن وجد منهم من وجب عليه الحد أقيم فيه بحسب مل يقتضيه الحق ومن اعترضت في بابه شبهة تجوز إسقاط الحد عنه ودرأه اعتمد إلحاقه في ذلك بمن اتصل إليه صوب الإحسان ودره ومن يكن له جرم وتظهر صحة شاهده ودليله قدم الأمر في إطلاقه وتخلية سبيله وإن غدا لأحدهم سعيٌ في الفساد واضحٌ وبان وغوى به محاربة الحق وخان قوبل بما أمر الله تعالى به في كتابه حيث يقول: " إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم ".

وأمره باختيار المرتب للعرض والعطاء والنفقة في الأولياء من ذوي المعرفة والبصيرة والمشهورين في العفة بتساوي العلانية والسريرة وممن تحلى بالأمانة جيده واعتضد بطرفيه في الرشاد تليده وكان بما يسند إليه قيماً وفي مقر الكفاية ثاوياً مخيماً.

وأن يتقدم إليه بضبط حلى الرجال وشيات الخيول وأن يقصد في كل وقت من تجديد العرض ما يشهد بالاحتياط السابغ الأهداب والذيول فإذا وضح وجه الإطلاق وسلم مال الاستحقاق كانت التفرقة على قدر المنازل في التقديم والتأخير وبحسب الجرائد التي تدل على الصغير من ذلك والكبير ومتى طرق أحدهم ما هو محتومٌ على خلقه أعاد على بيت المال من رزقه بقدر قسطه وحقه.

وأن يلزمهم إحضار جياد الخيول وخيار الشكك ويأخذهم من ذلك بأوضح ما نهج المرء الطريق فيه وسلك فإن أخل أحدهم بما يلزمه البروز فيه يوم العرض أو قصر في القيام بالواجب عليه الفرض حاسبه بذلك من الثبات باسمه والمطلق برسمه تنبيهاً له على تلافي الفارط وتبصيراً لغيره في البعد عن مقام المخطيء الغالط إذا كان في قوتهم وكمال عدتهم إرهابٌ للأعداء والأضداد وإرهافٌ للبصائر فيما يؤدي إلى المصالح الوافية الأعداد والإمداد قال الله تعالى: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ".

وأمره باختيار عمال الخراج والضياع والأعشار والجهبذة والصدقات والجوالي وأن يكونوا محتضنين من الأمانة والكفاية بما يقع الاشتراك في علمه ومتقمصين من ملابس العفة والدراية ما تحمد العواقب في ضمنه ومتميزين بما يغنيهم عن الأفكار بنتائج الاتعاظ والاعتبار ويغريهم بالاستمرار على السنن المنجي لهم من مواقف التنصل والاعتذار وأن يأمر عمال الخراج بجباية الأموال على أجمل الوجوه والأحوال سالكين في ذلك جدداً وسطاً يحمي من مقام من ضعف في الاستخراج أوسطا.

وأن يتقدم إلى الناظرين في الضياع بتوفية العمارة حقها والزراعة حدها والتوفير من حفظ الغلات الحاصلة على ما يقتفى فيه أرشد المذاهب وأسدها متحرزين من أمرٍ ينبسون فيه إليه العجز والخيانة فكلٌ من الحالين مجزٍ في وضوح أدلة الفساد ومخزٍ.

وغلى الجهابذة بقصد الصحة في القبض والتقبيض وحفظ النقد من التدليس والتلبيس أداءً للأمانة في ذلك واهتداءٍ فيع إلى أقوم المسالك.

وغلى سعاة الصدقات بأخذ الفرائض من مواشي المسلمين السائمة دون العاملة والجري في ذلك على السنة الكاسبة للمحمدة الوافية الكاملة متجنبين من أخذ فحل الإبل وأكولة الراعي وعقائل الأموال المحظورة على سائر الأسباب والدواعي فإذا استوفيت على المحدود من حقها أخرجت في المنصوص عليه من وجوهها وسبلها.

وإلى جباة جماجم أهل الذمة بأخذ الجزية منهم في كل سنة على قدر ذات أيديهم في الضيق والسعة وبحسب العادة المألوفة المتبعة ممتنعين من مطالبة النسوان ومن لم يبلغ الحلم من الرجال ومن علت سنه عن الاكتساب وتبتل من الرهبان ومن غدا فقره واضح الدليل والبرهان وفاءً بالعهد المسؤول وتلقياً لأمر الله تعالى بالقبول حيث يقول: " وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ".

وأمره أن يرد أمر المظالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والطرز والحسبة إلى من عضد بالظلف الورع وانتظم له شمل الهدى واجتمع فكان ذا معرفةٍ بما يحرم ويحل وبصيرةٍ يتقيأ بها من عوارض الشبه ويستظل وأن يكون النظر في ذلك مضاهياً للحكم ملائماً ولن يقوم به إلا من لا يرى عاذلاً له في فعله لائماً وأن يتقدم إلى من يلي المظالم بتسهيل الإذن للخصوم في الدخول عليه وتمكين كلٍ منهم من استيفاء الحجة بين يديه والتوصل إلى فصل ما بينهم بحسب ما يقود الحق إليه وأن يقصد فيما وقع الخلف معهم فيه الكشف الذي يقوم به ويستوفيه فإن وضح له الحق أنفذه وقطع به وإلا ردهم إلى مجالس القضاء لإمضاء ذلك على مقتضى الشرع وموجبه و إلى المرتبين في أسواق الرقيق بالتحفظ فيما يبتاع ويباع وأن يستعمل في ذلك الاقتفاء للسنن الجميل والاتباع: ليؤمن اختلاط الحر بالعبد وتحرس الأنساب من القدح والفروج من الغضب في ضمن حفظ الأموال والمنع من مزج الحرام بالحلال.

و إلى ولاة العيار بتصفية عين الدرهم والدينار من الغش و الإدغال وصون السكك من تداول الأيدي الغريبة لها بحالٍ من الأحوال متحذرين من الاغترار بما ربما وضح الفساد فيه عند الاعتبار ومانعين التجار المخصوصين بالإيراد من كل قولٍ

مخالفٍ للإيثار في الصحة والمراد ومعتمدين إجراء الأمر فيما يطبع على القانون بمدينة السلام من غير خلافٍ لمستقر القاعدة في ذلك ومتسق النظام وأن يثبت ذكر أمير المؤمنين وولي عهده في المسلمين على ما يضرب من الصنفين معاً والمسارعة في ذلك إلى أفضل ما بدر إليه المرء وسعى.

وإلى المستخدمين في الطرز بملاحظة أحوال المناسج والإشراف عليها وأخذ الصناع بالتجويد على العادة التي يجب الانتهاء إليها وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما ينسج من الكسا والفروش والأعلام والبنود جرياً في ذلك على السنن المرضي والمنهاج المحمود.

وإلى من يراعي الحسبة الشريفة بالكشف عن أحوال العوام في الأسواق والانتهاء في ذلك إلى ما ينتهي به شمل الصلاح إلى الانتظام والاتساق وأن يتقدم إليهم بما يجب من تعبير ما يختص بهم من المكاييل والموازين وحملها على قانون الصحة الواضحة الدلائل والبراهين وأن يقصد تبصيرهم مواضع الحظ في الاستقامة ويحذرهم مواقع الانتقام الذي لا تفيد فيه أسباب الاستفصاح والاستقالة فإن عرف من أحدٍ منهم إقداماً على إدغالٍ فيما يزن أو يكيل قوبل من التأديب بما هو الطريق إلى ارتداعه والسبيل قال الله تعالى: " ويلٌ للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ".

وأمره أن يعرف قدر النعمة التي ضفت عليه برودها وحلت جيده عقودها وزفت منه إلى أوفى أكفائها وحفت بجزيل القسم من جميع أكنافها وأرجائها وأن يقابلها بإخلاصٍ في الطاعة يساوي فيه بين ما يبدي ويسر وسعيٍ في الخدمة يوفي على كل مجازٍ ومبر ويبدأ أمام ما يتوخاه بأخذ البيعة لأمير المؤمنين وولي عهده على نفسه وولده وكافة الاجناد والرعايا في بلده عن نية صفت من الكدر والقذى ووفت للتوفيق بما ضمنت من خذلان البغي ونصرة الهدى ويتبع ذلك بالحقوق في كل خدمة ترضي والوقوف عند الأوامر الإمامية في كل ما يؤدي إلى الوفاق ويفضي وأن يحمل إلى حضرة أمير المؤمنين من الفيء والغنائم ما أوجبه الله تعالى وفرضه من غير تأخير لما يجب تقديمه من ذلك ولا تقصير منه فيما يقتضي التلافي والاستدراك ليأمر أمير المؤمنين بصرفه في سبيله المشار إليها ووجوهه المنصوص عليها قال الله تعالى: " واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ".

ثم إن أمير المؤمنين آثر أن يضاعف له من الإحسان ما يقتضيه مقامه لديه من وجيه الرتبة والمكان وشرفه بما يرفل من حلاه في حلل الجمال وتكفل له علاه ببلوغ منتهى الآمال وبوأه بما أولاه محلاً تقصر عن الوصول إليه الأقدام وتعجز عن حل عراه الأيام ولقبه بكذا وأذن له في تكنيته عن حضرته وتأهيله من ذلك لما يتجاوز قدر أمنيته إنافة به على من هو في مجالسته من الأقران طالع وإضافة للنعمة في ذاك إلى ما اقترن بها فيما هو لشمل الفخر عند جامع وأنفذ لواءً يلوي به إلى الطاعة أبي الأعناق ويحوي به من العز ما أنواره وافية الإشراق.

فتلق يا فلان هذه الصنيعة الغراء والمنحة التي أكسبت زنادك الإيراء بالاستبشار التام والاعتراف فيها بسابغ الطول والإنعام وأشع ذكر ذلك عند كل أحد وانته في الإبانة عنه إلى أبعد أمد واعتمد مكاتبة حضرة أمير المؤمنين متسمياً ومن عداه متلقباً متكنياً وتوفر على شكرٍ تستدر به صوب المزيد وتستحق به إلحاق الطريف من الإحسان بالتليد و الله تعالى يقول: " لئن شكرتم لأزيدنكم ".

هذا عهد أمير المؤمنين إليك والحجة لك وعليك قد أوضح لك فيه الصواب وأذل به الجوامح الصعاب وحباك منه بموهبة كفيلةٍ بخيري البدء والمعاد وفيةٍ فيها المنى بسابق الضمان والميعاد وضمنه من مواعظه ما هدى به إلى كل ما الجني ثمره وغدا محظياً بما تروق أوضاحه في المجد وغرره ولم يألك فيه تجملاً يكسبك الفخر النامي ويجعل ذكرك زينة المحفل والنادي وتقديماً ينبيء عما خصصت به من المنح المشرقة اللآلي وإكراماً يبقى صيته على تقضي الأيام والليالي وتبصيراً يقي من فلتات القول والعمل ويرتقي المستضيء بأنواره إلى ذرى الأمن من دواعي العثار والزلل فأصغ إلى ما حواه إصغاء الفائز بأوفى الحظ وتدبر فحواه الناطق بفضل الحث على الهدى والحض وكن لأوامر أمير المؤمنين فيه محتذياً ومن تجاوز محدوده في مطاويه محتمياً وبمواعظه الصادقة معتبراً وفي العمل بما قارن الحق مستبصراً تفز بالغنم الأكبر وبالسلامة في المورد والمصدر وإياك واعتماد ما تذم فيه مكاسبك فإن لك بين يدي الله تعالى موقفاً يناقشك فيه ويحاسبك.

واعلم أن أمير المؤمنين قد قلدك جسيماً وخولك جزيلاً عظيماً فلا تنس نصيبك من الله تعالى غدا ولا تجعل لسلطان الهوى المضل عليك يدا وإن خفي عليك الصواب في بعض ما أنت بصدده أو اعترض فيه من الشبه ما يحول بينك وبين طريق

الرشاد وجدده فطالع حضرة أمير المؤمنين به واستنجد الله في ذلك بأسد رأيٍ وأصوبه يبدلك من الشك يقينا ويبدلك ما يغدو لكل خير ضمينا إن شاء الله تعالى.

الطريقة الثانية طريقة محققي المتأخرين ممن جرى على هذا المذهب: كالشيخ شهاب الدين محمود الحلبي والمقر الشهابي بن فضل الله ومن والاهم وهي أن يأتي في أثناء العهد بخطبة أو تحميدٍ على عادة المكاتبات وأن يذكر بعد صدر العهد حميد أوصاف المعهود إليه ويطنب فيها ويثني عليه بما يليق بمقامه.

قال في التعريف: على نحو ما تقدم في عهود الخلفاء عن الخلفاء.

قال في التثقيف: وصورته أن يكتب: هذا ما عهد به عبد الله ووليه أمير المؤمنين المتوكل على الله مثلاً أبو فلان فلان بن فلان غلى السيد الأجل الملك العالم العادل المؤيد المظفر المنصور المجاهد ويذكر اللقب هنا مثل الناصر أو الكامل أو غيره فلان الدنيا والدين فلان ابن السلطان السعيد الشهيد الملك الفلاني خلد الله أما بعد فأن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويصلي على ابن عمه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويكمل الخطبة بما أمكنه.

ثم يقال: عهد إليه وقلده جميع ما هو مقلده من مصالح الأمة وصلاح الخلق بعد أن استخار الله تعالى في ذلك ومكث مدةً يتدبر هذا الأمر ويروي فكره فيه وخاطره ويستشير أهل الرأي والنظر فلم ير أوفق منه لأمور الأمة ومصالح الدنيا والدين.

ومن هذا وشبهه.

ثم يقال وإن المعهود له قبل ذلك منه ويأتي فيه بما يليق من محاسن العبارة وأجناس الكلام.

قلت: وقد يؤتى بعد أما بعد بخطبة مثل أن يقال: أما بعد فالحمد لله ونحو ذلك ويكمل الخطبة بما يليق بالمقام.

ثم قد يقتصر على تحميدة واحدة وقد يكرره إلى ثلاث وإن شاء بلغ به سبعاً.

فقد قال في التعريف: في الكلام على عهود الملوك للملوك: إنه كلما كثر التحميد كان أدل على عظم النعمة.

وقد يقال في آخره: والاعتماد على الخط الفلاني بلقب الخلافة أعلاه حجةٌ بمقتضاه أو الخط الفلاني أعلاه حجةٌ فيه ونحو ذلك.

وعلى هذه الطريقة كتب الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي عهد الملك العادل كتبغا عن الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد ابن الإمام الذي استحضره الملك الظاهر بيبرس من بغداد وبايعه وهذه نسخته: هذا عهدٌ شريفٌ في كتابٍ مرقومٍ يشهده المقربون ويفوضه آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأئمة الأقربون.

من عبد الله ووليه الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد أمير المؤمنين وسليل الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين رضوان الله عليهم أجمعين إلى السلطان الملك العادل زين الدنيا والدين كتبغا المنصوري أعز الله سلطانه.

أما بعد فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي جعل له منك سلطاناً نصيراً وأقام له بملكك على ما ولاه من أمور خلقه عضداً وظهيراً وآتاك بما نهضت به من طاعته نعماً وملكاً كبيراً وخولك بإقامة ما وراء سريره من مصالح الإسلام بكل أرضٍ منبراً وسريراً وجاء بك لإعانته على ما استخلفه الله فيه من أمور عباده على قدرٍ وكان ربك قديراً وجمع بك الأمة بعد أن كاد يزيغ قلوب فريقٍ منهم وعضدك لإقامة إمامته بأولياء دولتك الذين رضي الله عنهم وخصك بأنصار دينه الذين نهضوا بما أمروا به من طاعتك وهم نازهون وأظهرك على الذين " ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون " واصطفاك لإقامة الدين وقد اختلفت الأهواء في تلك المدة ولم بك شعث الأمة بعد الاضطراب فكان موقفك ثم موقف الصديق يم الردة.

ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة حاكم بأمره مستنزلٍ لك بالإخلاص ملائكة تأييده وأعوان نصره مسترهفٍ بها سيف عزمك على من جاهر بشركه وحاربه بكفره معتصمٍ بتوفيقه في تفويضه إليك أمر سره الذي استودعه في الأمة وجهره

ويصلي على سيدنا محمد رسول الله الذي استخرجه الله من عنصره وذويه وشرف به قدر جده بقوله فيه: " عم الرجل صنو أبيه " وأسر إليه بأن هذا الأمر فتح به ويختم ببنيه وعلى آله وصحبه والخلفاء الراشدين من بعده الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون وجاهدوا أئمة الكفر الذين لا أيمان لهم والذين هم بربهم يعدلون وسلم تسليماً كثيراً.

وإن أمير المؤمنين لما آتاه الله من سر النبوة واستودعه من أحكام الإمامة الموروثة عن شرف الأبوة واختصه من الطاعة المفروضة على الأمم وفرض عليه من النظر في الأخص من مصالح المسلمين والأعم وعصم آراءه ببركة آبائه من الخلل وجعل سهم اجتهاده هو المصيب أبداً في القول والعمل وكان السلطان فلان هو الذي جمع الله به كلمة الإسلام وقد كادت وثبت به الأرض وقد اضطربت بالأهواء ومادت ورفع به منار الدين بعد أن شمخ الكفر بأنفه وألف به شمل المسلمين وقد طمح وحمى العدو إلى افتراقه وطمع في خلفه وحفظ به في الجهاد حكم الكتاب الذي " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه " به الممالك الإسلامية فما شام الكفر منها برق ثغرٍ إلا رمي من وابله بوابل ولا أطلق عنان طرفه إلى الأطراف إلا وقع من سطوات جنوده في كفة حابل ولا اطمأنوا في بلادهم إلا أتتهم سراياه من حيث لم يرتقبوا ولا أنهم مانعتهم حصونهم من الله إلا وأتاهم بجنوده من حيث لم يحتسبوا وألف جيوش الإسلام فأصبحت على الأعداء بيمنه يداً واحدة وقام بأمور الأمة فأمست عيون الرعايا باستيقاظ سيوفه في مهاد الأمن راقدة وأقام منار الشريعة المطهرة فهي حاكمةٌ له وعليه نافذٌ أمرها على أمره فيما وضع الله مقاليده في يده ونصره الله في مواطن كثيرة وأعانه على من أضمر له الشقاق والصلاة وإنها لكبيرة وأظهره بمن بغى عليه في يومه بعد حلمه عنه في أمسه وأيده على الذين خانوا عهده و " يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه " وتعين لملك الإسلام فلم يك يصلح إلا له واختاره الله لذلك فبلغ به الدين آماله وضعضع بملكه عمود الشرك وأماله وأعاد بسلطانه على الممالك بهجتها وعلى الملك رونقه وجلاله وأخدمه النصر فيما أضمر له أحدٌ سوءاً إلا وزلزل أقدامه وعجل وباله ورده إليه وقد جعل من الرعب قيوده ومن الذعر أغلاله وأوطأ جواده هام أعدائه وإن أنف أن تكون نعاله.

عهد إليه حينئذٍ مولانا الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين في كل ما وراء خلافته المقدسة وجميع ما اقتضته أحكام إمامته التي هي على التقوى مؤسسة: من إقامة شعار الملك الذي جمع الله الإسلام عليه وظهور أبهة السلطنة التي ألقى الله و أمير المؤمنين مقاليدها إليه ومن الحكم الخاص والعام في سائر ممالك الإسلام وفي كل ما تقتضيه أحكام شريعة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وفي خزائن الأموال وإنفاقها وملك الرقاب وإعتاقها واعتقال الجناة وإطلاقها وفي كل ما هو في يد الملة الإسلامية أو يفتحه الله بيده عليها وفي جميع ما هو من ضوال الممالك الإسلامية التي سيرجعها الله بجهاده إليها وفي تقليد الملوك والوزراء وتقدمة الجيوش وتأمير الأمراء وفي الأمصار يقر بها من شاء من الجنود ويبعث إليها ومنها ما شاء من البعوث والحشود ويحكم في أمرها بما أمر الله من الذب عن حريمها ويتحكم بالعدل الذي رسم الله به لظاعنها ومقيمها وفي تقديم حديثها واستحداث قديمها وتشييد ثغورها وإمضاء ما عرفه الله به وجهله سواه من أمورها وإقرار من شاء من حكامها وإمضاء ما شاء من إتقان القواعد بالعدل وإحكامها وفي إقطاع خواصها واقتلاع ما اقتضته المصلحة من عمائرها وعمارة ما شاء من قلاعها وفي إقامة الجهاد بنفسه الشريفة وكتائبه ولقاء الأعداء كيف شاء من تسيير سراياه وبعث مواكبه وفي مضايقة العدو وحصاره ومصابرته وإنظاره وغزوه كيف أراد الله في أطراف بلاده وفي عقر داره وفي المن والفداء والإرقاق وضرب الهدن التي تسألها العدا وهي خاضعة الأعناق وأخذ مجاوري العدو المخذول بما أراه الله من النكاية إذا أمكن من نواصيهم وحكم عفوه في طائعهم وبأسه في عاصيهم وإنزال " الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ".

وفي الجيوش التي ألف الأعداء فتكات ألوفها وعرفوا أن أرواحهم ودائع سيوفها وصبحتهم سرايا رعبها المبثوثة إليهم وتركهم وهم الذين ضاقت بمواكبهم إلى العدا سعة الفجاج وقاسمت رماحهم خوفها " كأنهم خشب مسندةٌ يحسبون كل صيحةٍ عليهم " الأعداء شر قسمة ففي أيديهم كعوبها وفي صدور أولئك الزجاج وأذهبت عن الثغور الإسلامية رجس الكفر وطهرت من ذلك ما جاور العذب الفرات والملح الأجاج وعرفوا في الحروب بتسرع الإقدام وثبات الأقدام وأدخر الله لأيامه الشريفة أن تردنها بهم دار السلام إلى ملك الإسلام: فيدر عليهم ما شاء من إنعامه الذي يؤكد طاعتهم ويجدد استطاعتهم ويضاعف أعدادهم ويجعل بصفاء النيات ملائكة الله أمدادهم ويحملهم على الثبات إذا لقوا الذين كفروا زحفاً ويجعلهم في التعاضد على اللقاء كالبنيان المرصوص فإن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً.

وفي أمر الشرع وتولية قضاته وحكامه وإمضاء ما فرض الله عليه وعلى الأمة من الوقوف عند حدود وا مع أحكامه فإن لواء الله الممدود في أرضه وحبله المتين الذي لانقض لإبرامه ولا إبرام لنقضه وسنن نبيه الذي لاحظ عند الله في الإسلام لغير متمسك بسنته وفرضه وهو أعز الله سلطانه سيف الله المشهور على الذين غدوا وهم من أحكام الله مارقون ويده المبسوطة في إمضاء الحكم بما أنزل الله: " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ".

وفي مصالح الحرمين الشريفين وثالثهما الذي تشد أيضاً إليه الرحال.

وإقامة سبيل الحجيج الذين يفدون على الله بما منحهم من بره وعنايته في الإقامة والإرتحال.

وفي إقامة الخطب على وفي عمارة البيوت التي " أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال " المنابر واقترن اسمه الشريف مع اسمه بين كل باد وحاضر والاقتصار على هذه التثنية في أقطار الأرض فإن القائل بالثليث كافر وفي سائر ما تشمله الممالك الإسلامية ومن تشمل عليه شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً وبراً وبحراً وشاماً ومصراً وحجازاً ويمناً ومن يستقر بذلك إقامةً وظغناً.

وفوض إليه ذلك جميعه وكل ما هو من لوازم خلافته لله في أرضه ما ذكر وما لم يذكر تفويضاً لازماً وإمضاءً جازماً وعهداً محكماً وعقداً في مصالح ملك الإسلام محكماً وتقليداً مؤبداً وتقريراً عن كر الجديدين مجدداً وأثبت ذلك وهو الحاكم حقيقةً بما عمله من استحقاقه والحاكم بعلمه وأشهد الله وملائكته على نفوذ حكمه بذلك: "والله يحكم لا معقب لحكمه " .

وذلك لما صح عنده من نهوض ملكه بأعباء ما حمله الله من الخلافة وأدائه الأمانة عنه فيما كتب الله عليه من الرحمة اللازمة والرافة واستقلاله بأمور الجهاد الذي أقام الله به الدين واختصاصه وجنوده بعموم ما أمر الله به الأمة في قوله تعالى: " "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين " .

وانه في الجهاد سهمه المصيب وله به أجر الرامي المسدد وسيفه الذي جرده على أعداء الدين وله من فتكاته حظ المرهف المجرد وظل الله في الأرض الذي مده بيمن يمينه وآية نصره الذي اختاره الله لمصالح دنياه وصلاح دينه الناهض بفرض الجهاد وهو في مستقر خلافته وادع والراكض عنه بخيله وخياله إلى العدو الذي ليس لفتكات سيوفه رادع والمؤدي عنه فرض النفير في سبيل الله كلما تعين والمنتقم له من أهل الشقاق الذين يجادلون في الحق بعدما تبين والقائم بأمر الفتوح التي ترد بيع الكفر مساجد يذكر فيها اسم الله واسمه ويرفع على منابرها شعاره الشريف ورسمه وتمثل له بإقامة دعوته صورة الفتح كأنه ينظر إليها والناظر عنه في عموم مصالح الإسلام وخصوصها تعظيماً لقدره وترفيهاً لسره وتفخيماً لشرفه وتكريماً لجلالة بيته النبوي وسلفه وقياماً له بما عهد إليه ووفاءً من أمور الدين والدنيا بما وضع مقاليده في يديه.

وليدل على عظم سيرته بكرم سيره وينبه على كمال سعادته إذ قد كفي به في أمور خلق الله تعالى والسعيد من كفي بغيره لم يجعل أمير المؤمنين على يده يداً في ذلك ولا فسح لأحد غيره في أقطار الأرض أن يدعى بملك ولا مالك بل بسط حكمه وتحكمه في شرق الأرض وغربها وما بين ذلك وقد فرض طاعته على سائر الأمم وحكم بوجوبها على الخاص والعام ومن ينقض حكم الحاكم إذا حكم وهو يعلم أن الله تعالى قد أودع مولانا السلطان سراً يستضاء بأنواره ويهتدى في مصالح الملك والممالك بمناره فجعل له أن يفعل في ذلك كل ما هدى الله قلبه إليه وبعثه بالتأييد الإلهي عليه واكتفى عن الوصايا بأن الله تعالى تكفل له بالتأييد وخصه من كل خير بالمزيد وجعل خلقه التقوى وكل خير فرعٌ عليها ونور بصيرته بالهدى فما يدل على حسنة من أمور الدنيا والآخرة إلا وهو السابق إليها و الله تعالى يجعل أيامه مؤرخةً بالفتوح ويؤيده بالملائكة والروح على من يدعي الأب والابن والروح ويجعل أسباب النصر معقودةً بسببه والملك " كلمةً باقيةً في عقبه ".

ويشهد بهذا العهد الشريف مع من شهده من الملائكة المقربين كل من حضر تلاوته من سائر الناس أجمعين: لتكون حجة الله على خلقه أسبق وعهد أمير المؤمنين بثبوته أوثق وطاعة سلطان الأرض قد زادها الله على خلقه بذلك توكيداً وشهد الله وملائكته على الخلق بذلك وكفى بالله شهيداً.

والاعتماد على الخط الحاكمي أعلاه حجةٌ به إن شاء الله تعالى.

وعلى نحو ذلك كتب الشيخ شهاب الدين محمودٌ الحلبي عهد الملك المنصور حسام الدين لاجين عن الخليفة الحاكم بأمر الله بن أبي الربيع سليمان المتقدم ذكره.

وهذه نسخته: هذا عهدٌ شريفٌ تشهد به الأملاك لأشرف الملوك من عبد الله ووليه الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين للسلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبي الفتح لاجين المنصوري أعز الله سلطانه.

أما بعد فالحمد لله مؤتي الملك من يشاء من عباده ومعطي النصر من يجاهد فيه حق جهاده ومرهف حسام انتقامه على من جاهر بعناده ومفوض أمر هذا الخلق إلى من أودعه سر رأفته في محبته ومراد نقمته في مراده وجامع كلمة الإيمان بمن اجتباه لإقامة دينه وارتضاه لرفع عماده ومقر الحق في يد من منع سيفه المجرد في سبيل الله أن يقر في أغماده وجاعل ملك الإسلام من حقوق من إذا عد أهل الأرض على اجتماعهم كان هو المتعين على انفراده الذي شرف أسرة ملك الإسلام باستيلاء حسام دينه عليها وزلزل ممالك أعدائه بما بعث من سرايا رعبه إليها وثبت به أركان الأرض التي ستحتوي ملكه في طرفيها وضعضع بسلطانه قواعد ملوك الكفر فودعت ما كان مودعاً لأيامه من ممالك الإسلام في يديها وأقامه وليه بأمره فلم يختلف عله اثنان من خلقه وقلده أمر بريته لما أقدره عليه من النهوض بحقهم وحقه وأظهره على من نصب له الغوائل " والله غالبٌ ونصره في مواطن كثيرةٍ لما قدره في القدم من رفعة شانه وإعتلاء قدره وإن أعرض عن طلبه بجيوش الرعب على أمره " ونقل إليه الملك بسيفه محصوراً وكفاه بنصره على الأعداء التوغل في سفك الدماء فلم " يسرف في القتل إنه كان منصوراً " والدماء مصونة وحكمه فيما كان بيد غيره من الأرض والبلاد آمنةٌ والفتن مأمونة فكان أمر من ذهب سحابة صيف أو جلسة ضيف لم تحل له روعةٌ في القلوب ولم يذعرها وقد ألبسه الله ما نزع عن سواه سالبٌ ولا مسلوب إجراءً لهذه الأمة على عوائد فضله العميم واختصاصاً بما آتاه من ملكه " والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسعٌ عليم ".

يحمده أمير المؤمنين على ما منح في أيامه الدين من اعتضاده بحسامه والاعتماد في ملك المسلمين على من يجعل جباه ملوك الشرك تحت أقدامه والاعتداد بمساعي من حصونه في الجهاد ظهور جياده وقصور أطراف حسامه.

ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة حاكم بما أراه حامدٍ له في ملك الإسلام على تيسر ما وطده ورف ما عراه معتصم به في كل ما أثبته بالحق من قواعد الدين في جهاد أعداء الدين عن سيره في ذلك وسراه وأن محمداً عبده ورسوله الذي جعله من عصبته الشريفة وعصبته وشرفه بوراثة خلافته في أمته ورفع قدر رتبته وقصره على إقامة من يرهب العدا بنشر دعوته في الآفاق مع مواقع رغبته ويسأله أن يصلي عليه صلاةً تفتح له في الدنيا إلى العصمة طريقاً وتجعله في الأخرى وسلم تسليماً كثيراً. معه ومع الذين أنعم الله عليهم من آبائه الشهداء والصالحين " وحسن أولئك رفيقا "

وإن أمير المؤمنين لما اختصه الله به من البر المودع في قلبه والنور الذي أصبح فيه على بينة من ربه والتأييد المنتقل إليه عمن شرف بقربه والنص الذي أسره رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جده العباس من بقاء هذا الأمر في ورثته دون أقاربه وصحبه ولم يزل يرغب إلى سبحانه ويستخيره في إقامة من ينهض في ملك الإسلام حق النهوض ويفوض إليه الأمانة إلى من يرى أداء الأمانة فيهم من آكد الفروض ومن إذ قال النفير يا خيل الله اركبي سابقت خيله خياله وجازت عزائمه نصاله وأخذ عدو الدين من مأمنه وغالب سيفه الأجل على انتزاع روحه من بدنه وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا وجاهد لإقامة منار الإسلام لا للتعرض إلى عرض الدنيا وقدمت له ملوك الدنيا حصونها وبذلت له مع الطاعة مصونها وأقيم له بكل قطرٍ منبرٌ وسرير وجمع ملوك العدا في رق طاعته وهو على جمعهم إذ يشاء قدير ومن يقيم العدل على ما شرع والشرع على ما أخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع ويميت البدع بإحياء السنن ويعلم أن الله جعل لخلقه على لسان نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم سنناً ولا يعدل بهم عن ذلك السنن.

ولما كان السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبو الفتح لاجين المنصوري خلد الله سلطانه هو الذي جعل الله صلاح الأمة على يديه واختاره لإقامة دينه فساق ملك الإسلام عنوةً إليه وأنهضه بذلك وقد أمده بجنود نصره وأنزل سكينته عليه وجمع قلوب أهل الإسلام على حبه وفرق أعداء الدين خوف حربه وجعل النصر حيث توجه من أشياخه وحزبه وعضده لنصرة الإسلام بملائكة سمائه وأقام به عمود الدين الذي بالسيف قام ولا غرور فإن الحسام من أسمائه وأقبلت إليه طوائف جيوش الإسلام مذعنين وأدى في كرامتهم حقوق طاعة الله الذي أيده بنصره وبالمؤمنين وتلقاهم بشير كرامته ونعمه وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين فطارت مخلقات البشائر بملكه في الآفاق وأغص العدا سلطانه فما توهموا في أمر الإسلام الاختلاف حتى تحققوا بحمد الله ويمن أيامه الوفاق واختالت المنابر الإسلامية بذكر أمير المؤمنين وذكره وأعلنت الأمة المحمدية بحمد الله الذي أقربه الحق في مركزه ورد به شارد الملك إلى وكره وتحقق أمير المؤمنين أنه المكنون في طويته والمستكن في صدره والقائم في عمارة بيته النبوي وسلامة مقام سلمانه وعماره فعهد إليه حينئذ في كل ما تقتضيه أحكام إمامته في أمة نبيه وجعله في التصرف المطلق عنه قائماً مقام وصيه في الملة ووليه وقلده أمر ملك الإسلام تقليداً عاماً وفوض إليه حكم السلطنة الشريفة تفويضاً تاماً وألبسه من ذلك ما خلعه عن سواه ونشر عليه لواء الملك الذي زوى ظله عن غيره وطواه وحكمه في كل ما تقتضيه خلافته المقدسة وتمضيه إمامته التي هي على التقوى مؤسسة: من إقامة منار الإسلام والحكم العام في أمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وفي تقليد الملوك والوزراء وتقدمة الجيوش وتأمير الأمراء وفي تجهيز العساكر والسرايا وإرسال الطلائع والرءايا وتجريد الجنود الذين ما ندبهم إلى الأعداء إلا أبوا بالنهاب والسبايا وفي

غزو العدو كيف أراه الله إن بنفسه أو جنده وفي استرسال النصر بالثبات والصبر فإن الله يجزي الصابرين وما النصر إلا من عنده وفي محاصرة العدو ومصابرته وإنظاره ومناظرته وإنزالهم على ما شرع الله فيهم من الأحكام والتوخي في ذلك ما حكم به سعد بن معاذ في زمن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وفي ضرب الهدن وإمضائها والوفاء بالعقود المشروعة إلى انتهاء مددها وانقضائها وفي إرضاء السيوف ممن نكث ولم يتم عهده إلى مدته فإن إسخاط الكفر في إرضائها وفي الأمصار يقر بها من شاء من الجنود ويبعث إليها من البعوث والحشود وفي سداد الثغور بالرجال الذين تفتر بهم عن شنب النصر وتأمن بهم أعدادها من غوائل الحصر وتوفير سهامها من سهام القوة التي ترمي بشرر كالقصر وإمداد بحرها بالشواني المجربة المجددة والسفن التي كأنها القصور الممهدة على الصروح الممردة فلا تزال تدب إليهم من ذوات الأرجل عقاربها وتخطف غربانهم الطائرة بأجنحة القلوع مخالبها وفي تقدمة وتنفيذ السرايا التي لا تزال أسنتها إلى نحور الأعداء مقومة وإنفاق ما يراه في مصالح الإسلام من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة وفي إعلاء منار الشرع الشريف والانقياد إليه والمسارعة إلى نفوذ حكمه فيما له وعليه وتقوية يد حكامه على كل أمير ومأمور أقر الشرع في يده شيئاً أو انتزعه من يديه وتفويض الحكم إلى كل من يتعين لذلك من أئمة الأمة وإقامة الشرع الشريف على قواعده الأربعة فإن اتفاق العلماء حجةٌ واختلافهم رحمة وفي مصالح الحرمين الشريفين وثالثهما الذي تشد الرحال أيضاً إليه وفي إقامة سبل الحجيج الذين دعاهم الله فلبوه واستدعاهم فقدموا عليه وفوض إليه كل ما هو من لوازم خلافته لله في أرضه: ما ذكر وما لم يذكر تفويضاً لازماً وتقليداً جازماً وعقداً محكماً وعهداً في مصالح الإسلام والمسلمين محكماً واكتفى من الوصايا بما جبل عليه خلقه الشريف من التقوى وهدى نفسه النفيسة إليه من التمسك بالسند الأقوم والسبب الأقوى فيما ينبه على حسنه إلا وهو أسبق إليها ولا يدل على خلة وإلا فكره الشريف أسرع من فكر الدال عليها وقد وثق ببراءة الذمة من حق قوم أضحوا لفضل مثله راجين وتحقق حلول النعمة على أمة أمسوا إليها لاجين وقد استخار أمير المؤمنين الله في ذلك كثيراً ولجأ إلى الله في توفيقه وتوفيقه على الصواب مما يجده في الحكم بذلك هادياً ونصيراً وسارع إلى التسليم بأمر الله تعالى فيما فوض إليه من أمور عباده إنه كان بعباده خبيراً بصيراً.

وأشهد الله وملائكته ومن حضره من المؤمنين على نفسه بما تضمنه هذا العهد الكريم وحكم على الأمة بمقتضاه " فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ".

والخط الشريف الإمامي الحاكمي أعلاه حجةٌ بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

وعلى قريب منه كتب القاضي شمس الدين إبراهيم ابن القيسراني عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون عن الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الربيع سليمان.

وهذه نسخته: هذا عهدٌ يعمر بك للإسلام المعاهد وينصر منك الاعتزام فتغنى عن الموالي والمعاضد ويلقي إليك مقاليد الأمور: لتجتهد في مراضي الله وتجاهد ويبعثك على العمل بالكتاب والسنة ليكونا شاهدين لك عند الله في أعظم المشاهد فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة تبركاً بأخذ يحيى عليه السلام للكتاب وحاسب نفسك محاسبةً تجد نفعها يوم يقوم الحساب واعمل صالحاً فالذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآبٍ.

من عبد الله ووليه الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد أمير المؤمنين: إلى السلطان الأجل العالم العادل المجاهد المرابط المظفر الملك الناصر ناصر الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين فاتح الأمصار مبيد الأرمن والفرنج والتتار وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك خادم الحرمين صاحب القبلتين أبي الفتح محمد قسيم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه ولد السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون قدس الله روحه.

أما بعد فالحمد لله الذي أقام ناصر الإسلام وأهله بخير ناصر وأحل في السلطنة المعظمة من استحقها بذاته الشريفة وشرف العناصر ووضع الإصر بمن كثرت منه ومن سلفه الكريم على الرعايا الأواصر وعقد لواء الملك لمن هو واحدٌ في الجود ألفٌ في الوغى ففي حاليه تعقد عليه الخناصر وجمع كلمة الأمة بمتفرد في المعالي متوحد في المفاخر متصفٍ بمناقب أربى بها على أربابها من الملوك الأوائل والأواخر وأقرالنواظر والخواطر بمن أشرق عليهما نوره الباهر وظهرت آثار وجوده على البواطن والظواهر وأعاد شبيبة الأيام في اقتبال سر السرائر وسارت بشائر مقدمه في الآفاق سير المثل وما ظنك بالمثل السائر وفعلت مهابته في التمهيد والتشييد فعل القنا المتاجر وشفت الصدور بوجود الاتفاق وعدم الشقاق بعد أن بلغت القلوب الحناجر وأورث البلاد والعباد صفوة ذريةٍ ورثوا السيادة كابراً عن كابر وسرى سره إذا ولد المولود منهم تهللت له الأرض واهتزت إليه المنابر.

والحمد لله الذي اجتبى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم من أشرف بيتٍ وقبيلة ومنح الأمة برسالته من خيري الدنيا والآخرة الوسيلة وأوجب الشفاعة لمن سأل الله له أعلى درجة لا ينالها إلا رجلٌ واحدٌ وهي الوسيلة وجعل شملهم بمبايعته ومتابعته في الهداية نظيماً وحض على ذلك بقوله تعالى: " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ".

وبلغهم من السعادة غاية مطلوبهم وأيده بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم وزان شريعته المطهرة بمحاسن أبهى منظراً ومخبراً من العقود وفرض على المؤمنين أن يوفوا بالعهود وبالعقود وأقدرهم على حمل الأمانة التي أشفقت السماوات والأرض والجبال من حملها وأنزل في كتابه العزيز: " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ".

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين من سلالة عم نبيه العباس واصطفى بيته المبارك من خير أمةٍ أخرجت للناس وقوى به جأش المسلمين وجيوش الموحدين على الملحدين وآتاه بسيادة جده وسعادة جده ما لم يؤت أحداً من العالمين وحفظ به للمؤمنين ذماماً وجعله للمتقين إماماً وخصه بمزيد من الشرفين: نسبه ومنصبه وجعل مزية الرتبتين كلمةً باقيةً في عقبه وصان به حوزة الدين صيانة العرين بالأسود وصير الأيدي البيض مشكورةً لحاملي راياته السود.

يحمده أمير المؤمنين حمد من اختاره من السماء فاستخلفه في الأرض وجعل إمرته على المؤمنين فرضاً لتقام به السنة ويشهد والفرض ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له " الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى " أن محمداً عبده ورسوله الذي كشف بمبعثه عن القلوب حجب الغي وأشرقت أنوار نبوته فأضاء لها يوم دخوله المدينة كل شيء صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من أقامه في الإمامة مقامه وأشار إلى الاقتداء به من بعده ومنهم من أعز الله به الإسلام في كل قطر مع قربه وبعده ومنهم من كانت اليد الشريفة النبوية في بيعة الرضوان خيراً له من يده ومنهم من أمر الله تعالى بالمباهلة بالأبناء والنفوس فباهل خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم به و بزوجه وولده وعلى بقية العشرة الذين غدت بهم دعوة الحق مشتهرةً منتشرة وعلى عميه أسد الله وأسد رسول الله عليه السلام وجد الأئمة المهديين أمراء المؤمنين وخلفاء الإسلام وسلم تسليماً كثيراً.

إن الله تعالى جعل سجية الأيام الشريفة الإمامية الحاكمية أدام الله إشراقها وقسم بها بين الأولياء والأعداء آجالها وأرزاقها رد الحقوق إلى ناصبها وإعادتها إلى مستحقيها ولو تمادت الأيام على اغتصابها وإقرارها عند من هو دون الورى أولى بها: ليحقق أن نسبه الشريف أظهر على أوامره دلائل الإعجاز وحلى كلماتها بالإيجاز وهباتها بالإنجاز وغن لله جعل الاسم الشريف الحاكمي في الحكم بأمره على خير مسمى وقوى منه في تأييد كلمة الحق جناناً وعزما ولم يخرج من أحكامه عن اتباع أمر الله قضيةً ولا حكما وكنت أيها السيد العالم العادل السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبو الفتح محمد ابن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون قدس الله روحه أولى الأولياء بالملك الشريف: لما لسلفك من حقوق وما أسلفوه من فضلٍ لا يحسن له التناسي ولا العقوق ولما أوجب لك على العساكر الإسلامية سابق الأيمان وصادق الإيمان: ولأنك جمعت في المجد بين طارفٍ وتالد وفقت بزكي نفسٍ وأخ ووالد وجلالة ما ورثتها عن كلالة وخلال مالها بالسيادة إخلال ومفاخر تكاثر البحر الزاخر ومآثر أعجز وصفها الناظم والناثر وكان ركابك العالي قد سار إلى الكرك المحروس وقعدت عنك الأجسام وسافرت معك النفوس ووثقت الخواطر بأنك إلى السلطة تعود وأن الله تعالى يجدد لك صعوداً إلى مراتب السعود وأقمت بها وذكرك في الآفاق سائر والآمال مبشرة بأنك إلى كرسي مملكتك صائر.

فلما احتاج الملك الشريف في هذه المدة إلى ملك يسر سريره وسلطانٍ تغدو باستقراره عيون الأنام والأيام قريرة: لما للمسلمين في ذلك من تيسير أوطار وتعمير أوطان ولأنهم لا ينفذون في المصالح الإسلامية إلا بسلطان لم يدر في الأذهان ولا خطر لقاصٍ ولا دان إلا أنك أحق الناس بالسلطنة الشريفة وأولاهم برتبتها المنيفة ولا ذكر أحدٌ إلا حقوق بيتك وفضلها ولا قال عنكم لأن البلاد فتوحات سيوفكم و رعاياها فيما هم فيه من الأمن والخير بمنزلة ضيوفكم :إلا بقول الله: " وكانوا أحق بها وأهلها " ولأن العساكر الإسلامية استرقهم ولاؤك ووالوك لأنهم أرقاؤك فلم يقل أحد: أنى له الملك علينا بل أقر كلٌ منهم باليد وقر بولايتك عينا وأخلصوا في موالاتك العقائد واستبشروا منك بمبارك الوجه ماجدٍ جائد ولم يغب غائبٌ خليفته جيش أبيه وجده الصاعد ورفعت الممالك يد الضراعة سائلةً وراغبة وخطبتك لعقائلها ومعاقلها والخطباء على المنابر لك خاطبةً وبدعائك مخاطبة وقصدت لذلك أبوابك التي لا تزال تقصد ودعيت للعود المبارك وعود محمد للأمة المحمدية أحمد وفعلت الجيوش المنصورة من طاعتك كل ما سر وأربت في صدق النيات وبرها على كل من بر: ولو ان مشتاقاً تكلف فوق ما - في وسعه لسعى إليك المنبر! فما ضر بمحمد الله بعد الدار والآمال بساكنها مطيفة بل كان لك الذكر في قلب الخليفة نعم الخليفة وكنت لديه وإن غبت حاضراً بجميل الذكر ونأيت داراً فقربك إليه حسن التصوير في الفكر.

وكان أمير المؤمنين قد شاهدك يافعاً وشهد خاطره أن ستصير للمسلمين نافعاً وتأمل منك أمائر أضحى لها لترقيك آملاً وهلالاً دلته كرامته ولا تنكر الكرامة على ان سيكون بدراً كاملاً وبلغه عنك من العدل والإحسان ما أعجز وصفه بلاغتي القلم واللسان فناداك نداءه على بعد المزار ولم يجد لك نظيراً فأطال وأطاب لمقدمك السعيد الانتظار غلى أن أقدمت إقدام الليث وقدمت إلى البلاد المتعطشة إلى نظرك الشريف قدوم الغيث فلاح بك على الوجود دليل الفلاح وحمد الرعايا سراك عند الصباح والاستصباح وشاهدوا منك أسداً فاق بوثباته وثباته الأول وشخصاً لا يصلح إلا لإدالة دول ولا تصلح إلا لمثله الدول وقامت باختبارك على اختيارك الدلائل وعرفك سرير الملك وعرف فيك من أبيك شمائل ورأى أمير المؤمنين من نجابتك فوق ما أخبرت به مساءلة الركبان ومن مهابتك ما دل على خفض الشانيء ورفع الشان ومن محامدك كل ما صغر الخبر عنها الخبر وأعلنت ألسنة الأقدار بأنه لم يبق على تقليدك الممالك الإسلامية بحمد الله تعالى عذر فاختارك على علم العالمين واجتباك للذب عن الإسلام والمسلمين واستخار الله تعالى في ذلك فخار وأفاض عليك من بيعته المباركة مع فخرك المشتهر حلل الفخار وعهد إليك في كل ما اشتملت عليه دعوة إمامته المعظمة وأحكام خلافته التي لم تزل بها عقود الممالك في الطاعة منظمة وفوض إليك سلطنة الممالك الإسلامية براً وبحراً شاماً ومصراً قرباً وبعداً غوراً ونجداً وما سيفتحه الله عليك من البلاد وتستنفذه من أيدي ذوي الإلحاد وتقليد الملوك والوزراء وقضاة الحكم العزيز وتأمير الأمراء وتجهيز العساكر والبعوث للجهاد في سبيل الله ومحاربة من ترى محاربته من الأعداء ومهادنة من ترى مهادنته منهم وجعل إليك في ذلك كله العقد والحل والإبرام والنقض والولاية والعزل وقلدك ذلك كله تقليداً يقوم في تسليم الممالك إليك مقام الإقليد ويقضي لقريبها وبعيدها بمشيئة الله تعالى بمزيد التمهيد والتشييد: لتعلم أن الله قد جعل الأيام الشريفة الحاكمية أدامها الله تعالى فلكاً أبدى سالفاً من البيت المنصوري الشريف أقماراً وأطلع منهم آنفاً بدراً ملأ الخافقين أنواراً فكلما ظهرت لسلفه مآثر بدت مآثر خلفه أظهر ومن شاهدهم وشاهد شمس سعادته المنزهة عن الأفول قال هذا أكبر وكلما ذكر لأحدهم فضلٌ علم أنه في أيامه متزيد وأنه إن مضى منهم سيد في سبيله فقد قام بأطراف الأسنة منهم سيد وصير الدولة الشريفة الخليفية غاباً إن غاب منهم أسود خلفهم شبل بشرت مخايله أنه عليه يسود.

فليتقلد السلطان الملك الناصر ما قلده أمير المؤمنين وليكن لدعوته الهادية من الملبين وعليها من المؤمنين وليرتق إلى هذه الرتبة التي استحقها بحسبه واسترقها بنسبه وليباشرها مستبشراً ويظهر من شكر الله تعالى عليها ما يغدو به مستظهراً فقد أراد أمير المؤمنين القيام في نصرة الدين الحنيف فأقامك أنت مقامه وصرف بك بين أهله الطاعة والعصيان إكرامه وانتقامه رعياً لعهد سلفك الكريم ولما استوجبته نفسك النفيسة من وفور التعظيم و التكريم وعنايةً بالعساكر المؤيدة الذين وجهوا وجوه آمالهم إليك وأبت كلمتهم التي صانها الله عن التفرق أن تجتمع في الطاعة والخدمة إلا عليك ولديك ومنةً عليهم بسلطان ما برحوا من الله تعالى يطلبونه وملك نشأوا بأبوابه العالية فلهذا يحبهم ويحبونه.

فاحمد الله تعالى الذي جعل لك في إعادة الملك أسوةً بسليمان عليه السلام ورده إليك رداً لا انفصال لعروته ولا انفصام فأضحيت لأمور عباده سدداً ولثغور بلاده سدداً وللخليفة عضداً في الخليقة وفي الدهر سامي الحقيقة حامي الحقيقة وللملك وارثاً ورقاك رقياً أصبحت به في السلطنة واحداً وللخلافة المعظمة ثانياً وللقمرين ثالثاً.

وبشراك! أن الله أبرم سبب تأييدك إبراماً لا تصل الأيدي إلى نقضه وأنك سئلت عن أمرٍ طالما أتعب غيرك سؤاله في بعضه وأن الله يحسن لك العون وبك الصون فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا عبد الرحمن بن سمرة! لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن المسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها ".

وبشراك! أن أمير المؤمنين خصك بمزيد من الاعتناء وأقامك مقامه في حسن الغناء وحقق أن السعادة في أيامه موصولةٌ منكم بالآباء والأبناء وبلغك بهذا التقليد الشريف الأماني وتوجه بيمين قريبة عهد باستلام الركن اليماني واصطفاك بلقب أظهر له الكشوف إشراق تلك الستور وغدا مغموراً بالهداية ببركة البيت المعمور ونظرٍ زادته مشاهدة الحرم الشريف النبوي نوراً على نور فقابل ذلك بالقيام في مهمات الإسلام وتدقيق النظر في مصالح الخاص والعام واجتهد في صيانة الممالك اجتهاداً يحرس منها الأوساط والأطراف وتنتظم به أحوالها أجل انتظام وتأتلف أجمل ائتلاف.

والوصايا كثيرةٌ وأولاها تقوى الله: فليجعلها حلية لأوقاته ويحافظ عليها محافظة من يتقيه حق تقاته ويتخذها نجي فكره وأنيس قلبه ويعظم حرمات الله: "ومن يعظم حرمات الله فهو خيرٌ له عند ربه" .

والشرع الشريف فهو لعقد الإسلام نظام وللدين القيم قوام فتجتهد في اقتفاء سننه والعمل بمفروضه وسننه وتكريم أهله وقضاته والتوسل بذلك إلى الله في ابتغاء مرضاته.

وأمراء دولتك فهم أنصار سلفك الصالح وذوو النصائح فيما آثروه من المصالح وخلصاء طاعنهم في السر والنجوى وأعوانهم على البر والتقوى وهم الذين أحلهم والدك من العناية المحل الأسنى والذين سبقت لهم بحسن الطاعة من الله الحسنى ولو لم يكن لهم إلا حسن الوفاء لكفاهم عندك في مزيد الاعتماد والاستكفاء فإنهم جادلوا في إقامة دولتك وجالدوا وأوفوا بالعهد فهم الموفون بعهدهم إذا عاهدوا وهم للوصايا بخدمتك واعون وفيما ائتمنتهم عليه لأماناتهم وعهدهم راعون قد أصفوا لك النيات بظهر الغيب وأخلصوا الطاويات إخلاصاً لاشك معه ولا ريب ونابوا عنك أحسن مناب وكفوا كف العدو فما طال له لافتراس ولا اختلاس ظفرٌ ولا ناب واتخذوا لهم بذلك عند الله وعندك يداً وأثلوا لهم به مجداً يبقى حديثه الحسن الصحيح عنهم مسنداً.

فاستوص بهم وبسائر عساكر المنصورة أخيراً وأجمل لهم سريرةً وفيهم سيراً وأحمدهم عقبى هذه الخدمة وأوردهم منهل إحسانٍ يضاعف لهم النعمة والنغمة: لتؤكد طاعتك على كل إنسان ويثقوا بحسن المكافأة: " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ".

ولتزداد أوامرك ونواهيك امتثالاً ولا يجدوا عن محبة أيامك الشريفة انتقالاً وليقال في حسن خدمهم وإحسانك: هكذا هكذا وإلا فلا لا.

فأقل ما يجزيء فرض الكفاية منه مرةً وأما الغزو والجهاد في سبيل الله تعالى وما أوجبه فيهما قوله: " انفروا خفافاً وثقالاً " في كل عام وأما فرض العين فوجوبه على ذوي الاستطاعة من المسلمين عام وقد عرفت سنن السلطانين الشهيدين: والدك وأخيك قدس الله روحهما في الاعتناء بجهاد الكفار وغزوهم في عقر الدار وموقف أحدهما في موطنٍ زلت فيه الأقدام عن الإقدام واجتمع فيه الكفر على الإسلام وشاب من هوله الوليد ومصابرته تجاه سيف من سيوف الله تعالى الإمام خالد بن الوليد واستنقاذاً لآخر البلاد الساحلية التي أنقذها الله من أيدي المشركين على يد الصلاحين وفتح لهما أبواب الجنة ببركة الافتتاحين وأن والدك وأخاك سداً على المشركين الفجاج وطهرا من أرجاسهم العذب الفرات والملح الأجاج فالكتائب المنصورية أبادت التتار بالسيوف المشرفية والممالك الإسلامية زهت نظاماً بالفتوحات وأما الرعايا بعيدهم وقريبهم ومستوطنهم وغريبهم فيوفيهم من الرعاية حظهم ويجزل صيانتهم وحفظهم وكما يرى الحق له فليرِ الحق عليه ويحسن إلى رعاياه كما أحسن الله إليه وأما العدل فإنه للبلاد عمارة وللسعادة أمارة وللآخرة منجاة من النفس الأمارة فليكن له شعاراً ودثراً وليؤكد مراسمه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحافظة من ذلك على ما يذكر به عند الله ويشكر.

والحدود الشرعية فليحل بإقامتها لسانه وطرسه ولا يتعدها بنقص ولا زيادة " ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ".

والله يخلد له رتبة الملك التي أعلى بها مقامه ويديمه ناصراً للدين الحنيف فأنصاره لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة ويجعل سبب هذا العهد الشريف مدى الأيام متيناً ويجدد له في كل وقت نصراً قريباً وفتحاً مبيناً.

والخط الحاكمي أعلاه حجةٌ بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلامه حسبنا الله ونعم الوكيل.

وعلى نحو ذلك كتب القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر عن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان عهد الملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصوري الجاشنكير.

وهذه نسخته: هذا عهدٌ شريفٌ انتظمت بع عقود مصالح الملك والممالك وابتسمت ثغور الثغور ببيعته التي شهدت بصحتها الكرام الملائك وتمسكت النفوس بمحكم عقده النضيد ومبرم عقده النظيم ووثقت بميثاقه فتركت الألسن مستفتحةً بقول الله الكريم: " إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ".

الحمد لله الذي جعل الملة الإسلامية تأوي من سلطانها إلى ركن شديد وتحوي من متابعة مظفرها كل ما كانت تروم من تأبيد التأييد وتروي أحاديث النصر على ملك لا يمل من نصرة الدين الحنفي وإن مل الحديد من الحديد مؤتي ملكه من يشاء من عباده وملقي مقاليده للولي الملي بقمع أهل عناده ومانحه من لم يزل بعزائمه ومكارمه مرهوباً مرغوباً ومواليه ومواليه من غدا محبواً من الأنام بواجب الطاعة محبوباً ومفوض أمره ونهيه إلى من صرف خطيه عن حمى الدين أخطاراً وخطوباً.

الحمد لله مجري الأقدار ومظهر سر الملك فيمن أضحى عند الإمامة العباسية بحسن الاختبار من المصطفين الأخيار جامع أشتات الفخار ورافع لواء الاستظهار ودافع لأواء الأضرار بجميل الالتجاء إلى ركنٍ أمسى بقوة الله تعالى عالي المنار وافي المبار بادي الآثار الجميلة والإيثار.

والحمد لله على أن قلد أمور السلطنة الشريفة لكافلها وكافيها وأسند عقدها وحلها لمن يدرك بكريم فطنته وسليم فطرته عواقب الأمور من مباديها وأيد الكتائب الإيمانية بمن لم تزل عواليه تبلغها من ذرى الأماني معاليها.

يحمده أمير المؤمنين على إعلاء كلمة الإيمان بأعيان أعوانها وإعزاز نصرها بأركان تشييدها وتشييد أركانها ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تبرح الألسنة ترويها والقلوب تنويها والمواهب تجزل لقائها تنويلاً وتنويها ويشهد أن محمداً عبده ورسوله أكمل نبي وأفضل مبعوث وأشرف مورث لأجل مورث صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تنمي بركاتها وتنم وتخص حسناتها وتعم ورضي الله عز وجل عن عمه العباس جد أمير المؤمنين وعن آبائه الأئمة المهديين الذين ورثوا الخلافة كابراً عن كابر وسمت ووسمت بأسمائهم ونعوتهم ذرى المنابر.

أما بعد فإن الله عز وجل لما عدق بمولانا أمير المؤمنين مصالح الجمهور وعقد له البيعة في أعناق أهل الإيمان فزادهم نوراً على نور وأورثه عن أسلافه الطاهرين إمامة خير أمة وكشف بمصابرته من بأس العدا ظلام كل غمة وأنزل عليه السكينة في مواطن النصر والفتح المبين وثبته عند تزلزل الأقدام وثبت به قلوب المؤمنين وأفاض عليه من مهابة الخلافة ومواهبها ما هو من أهله وأتم نعمته عليه كما أتمها على أبويه من قبله بايع الله تعالى على أن يختار للتمليك على البرايا والتحكيم في الممالك والرعايا من أسس بنيانه على التقوى وتمسك من خشية الله تعالى بالسبب الأقوى ووقف عند أوامر الشرع الشريف في قضائه وحكمه ونهض لأداء فرض الجهاد بمعالي عزمه وحزمه وكان المقام الأشرف العالي المولوي السلطاني الملكي المظفري الركني سلطان الإسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين ناصر الملة المحمدية محيي الدولة العباسية أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين: أعز الله تعالى ببقائه حمى الخلافة وقد فعل وبلغ في بقاء دولته الأمل هو الملك الذي انعقد الإجماع على تفضيله وشهدت مناقبه الطاهرة باستحقاقه لتحويل الملك إليه وتخويله وحكم التوفيق والاتفاق بترقيه إلى كرسي السلطنة وصعوده وقضت الأقدار بأن يلقي إليه أمير المؤمنين أزمة عهوده والذي كم خفقت قلوب الأعادي عند رؤية آيات نصره ونطقت ألسنة الأقدار بأن سيكون مليك عصره وعزيز مصره واهتزت أعطاف المنابر شوقاً للافتخار باسمه واعتزت الممالك بمن زاده الله بسطةً في علمه وجسمه وهو الذي ما برح مذ نشأ يجاهد في الله حق جهاده ويساعد في كل معركة بمرهفات سيوفه وملتفات صعاده ويبدي في الهيجاء صفحته للصفاح فيقيه الله ويبقيه: ليجعله ظله على عباده وبلاده فيردي الأعداء في مواقف تأييده فكم عفر من خدٍ لملوك الكفر تحت سنابك جياده ويشفي بصدور سيوفه صدور قومٍ مؤمنين ويسقي ظماء أسنته فيرويها من مورد وريد المشركين ويطلع في سماء الملك من غرر آرائه نيراتٍ لا تأفل ولا تغور ويظهر من مواهبه ومهابته ما تحسن به الممالك وتحصن الثغور فما من حصنٍ استغلقه الكفر إلا وسيفه مفتاحه ولا ليل خطب دجا إلا وغرته الميمونة صباحه ولا عز أملٌ لأهل الإسلام إلا وكان في رأيه المسدد نجاحه ولا حصل خللٌ في طرفٍ من الممالك إلا وكان بمشيئة الله تعالى وبسداد تدبيره صلاحه ولا اتفق مشهد عدو إلا والملائكة الكرام بمظافرته فيه أعدل شهوده ولا تجدد فتوحٌ للإسلام إلا جاد فيه بنفسه وأجاد والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

كم أسلف في غزو أعداء الدين من يومٍ أغر محجل وانفق ماله ابتغاء مرضاة الله سبحانه فحاز الفخر المعجل والأجر المؤجل وأحيا من معالم العلوم ودوارس المدارس كل داثر وحثه إيمانه على عمارة بيوت الله تعالى الجامعة لكل تالٍ وذكر: " إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ".

وهو الذي ما زالت الأولياء تتخيل مخايل السلطنة في أعطافه معنى وصورة والعداء يرمون إطفاء ما أفاضه الله عليه من أشعة أنواره: "" ويأبى الله إلا أن يتم نوره ".

طالما تطاولت إليه أعناق الممالك فأعرض عنها جانباً وتطفلت على قربه فكان لها رعايةً لذمة الوفاء مجانباً حتى أذن الله لكلمة سلطانه أن ترفع وحكم له بالصعود في درج الملك إلى المحل الأعلى والمكان الأرفع وأدى له من المواهب ما هو على اسمه في ذخائر الغيوب مستودع.

فعند ذلك استخار الله تعالى سيدنا ومولانا الإمام المستكفي بالله أمير المؤمنين أبو الربيع سليمان ابن الإمام الحاكم وذكر نسبه على العادة جعل الله الخلافة كلمة باقيةً في عقبه وأمتع الإسلام والمسلمين بشرفي حسبه ونسبه وعهد إلى المقام العلي

السلطاني بكل ما وراء سرير خلافته وقلده جميع ما هو مقلده من أحكام إمامته وبسط يده في السلطنة المعظمة وجعل أوامره هي النافذة وأحكامه هي المحكمة وذلك بالديار المصرية والممالك الشامية والفراتية والجبلية والساحلية والقلاع والثغور المحروسة والبلاد الحجازية واليمانية وكل ما هو لخلافة أمير المؤمنين منسوب وفي أقطار إمامته محسوب وألقى إلى أوامره أزمة البسط والقبض والإبرام والنقض والرفع والخفض وما جعله الله في يده من حكم الأرض ومن إقامة سنة وفرض وفي كل هبة وتمليك وتصرف في ولاية أمور الإسلام من غير شريك وفي تولية القضاة والحكام وفصل القضايا والأحكام وفي سائر التحكم في الوجود وعقد الألوية والبنود وتجنيد الكتائب والجنود وتجهيز الجيوش الإسلامية ممن التأييد إلى كل مقام محمود وفي قهر الأعداء الذين نرجو بقوة الله تعالى أن يمكنه من نواصيهم ويحكم قواضبه في استنزالهم من صياصيهم واستئصال شأفة عاصيهم حتى يمحو إن شاء الله تعالى بمصابيح سيوفه سواد خطوب الشرك المدلهمة وتغدو سراياه في اقتلاع قلاع الكفر مستهمة وترهبهم خيل بعوثه وخيالها في اليقظة والمنام ويدخل في أيامه أهل الإسلام مدينة السلام بسلام تفويضاً تاماً عاماً منضداً منظماً محكماً محكماً أقمه مولانا أمير المؤمنين في ذلك مقام نفسه الشريفة واستشهد الكرام الكاتبين في ثبوت هذه البيعة المنيفة.

فليتقلد المقام الشريف العالي السلطاني أعزه الله نصره عقد هذا العهد الذي لا تطمح لمثله الآمال وليستمسك منه بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ولا انفصال فقد عول أمير المؤمنين على يمن آرائك التي ما برحت الأمة بها في المعضلات تستشفي واستكفى بكفايتك وكفالتك في حياطة الملك فأضحى وهو بذلك المستكفي وهو يقص عليك من أنباء الوصايا أحسن القصص وينص لديك ما أنت آخذٌ منه بالعزائم إذا أخذ غيرك فيه بالرخص فإن نبهت على التقوى فطالما تمسكت منها بأوثق عروة وإن هديت إلى سبيل الرشاد فما زلت ترقى منه أشرف ذروة وغن استرهفنا عزمك الماضي الغرار واستدعينا حزمك الذي أضاء به دهرك واستنار في إقامة منار الشرع الشريف والوقوف عند نهيه وأمره في كل حكم وتصريف فما زلت خلد الله سلطانك قائماً بسنته وفرضه دائباً في رضا الله تعالى بإصلاح عقائد عباده في أرضه وما برح سيفك المظفر للأحكام الشرعية خادماً ولمواد الباطل حاسماً ولأنوف ذوي البدع راغماً فكل ما نوصيك به من خير قد جبلت عليه طباعك ولم يزل مشتداً فيه ساعدك ممتداً إليه باعك غير أنا نورد لمعة اقتضاها أمر الله تعالى بالتذكرة في كتابه المبين وأوجبها نص قوله تعالى: " وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ".

ويندرج تحت أصولها فروعٌ يستغني بدقيق ذهنه الشريف عن نصها وبفكره الثاقب عن قصها فأعظمها للملة نفعاً و أكثرها للباطل دفعاً الشرع الشريف: فليكن أعز الله نصره عاملاً على تشييد قواعد إحكامه وتنفيذ أوامر أحكامه فالسعيد من قرن أمره بأمره ورضي فيه بحلو الحق ومره.

والعدل فلينشر لواءه حتى يأوي إليه الخائف وينكف بردعه حيف كل خائف ويتساوى في ظله الغني والفقير والمأمور والأمير ويمسي الظلم في أيامك وقد خمدت ناره وعفت آثاره.

وأهم ما احتفلت به العزائم واشتملت عليه همم الملوك العظام وأشرعت له الأسنة وأرهفت من أجله الصوارم أمر الجهاد الذي جعله الله تعالى حصناً للإسلام وجنة واشترى فيه أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فجند له الجنود وأجمع له الكتائب واقض في مواقفه على الأعداء من بأسك بالقواضي القواضب وأغزهم في عقر الدار وأرهف سيفك البتار: لتأخذ منهم للمسلمين بالثار.

والثغور والحصون فهي سر الملك المصون وهي معاقل النفوس إذا دارت رحى الحرب الزبون فليقلد أمرها لكفاتها ويخص حمايتها بحماتها ويضاعف لمن بها أسباب قوتها ومادة أقواتها.

وأمراء الإسلام وجنود الإيمان فهم أولياء نصرك وحفظة شامك ومصرك وحزبك الغالب وفريقك الذين تفرق منهم قلوب العدا في المشارق والمغارب فليكن المقام العالي السلطاني أعزه الله تعالى لأحوالهم متفقداً وببسط وجهه لهم متوداً حتى تتأكد لمقامه العالي طاعتهم وتتجدد لسلطانه العزيز ضراعتهم.

وأما غير ذلك من المصالح فما برح تدبيره الجميل لها ينفذ ورأيه الأصيل بها يشير فلا يحتاج معه عمله بغوامضها إلى إيضاحها " ولا ينبئك مثل خبير ".

و الله تعالى يخص دولته من العدل والإحسان بأوفر نصيب ويمنح سلطانه ما يرجوه من النصر المعجل والفتح القريب إن شاء الله تعالى.

المذهب الثاني أن يفتتح العهد بلفظ من فلان باسم الخليفة وكنيته ولقب الخلافة

إلى فلان باسم السلطان وكنيته ولقب السلطنة كما في المكاتبات ان يفتتح العهد باسم الخليفة ثم يأتي بعد ذلك بلفظ أما بعد ثم تارةً يأتي بعد البعدية بتحميد مثل أن يقول: " أما بعد فالحمد لله ويتلخص إلى ذكر أمر الولاية وما ينخرط في سلكها وتارةً يأتي بعد البعدية بخطاب المولى والدعاء له ويتلخص إلى مقاصد العهد: من الوصايا وغيرها على اختلاف مقاصد الكتاب وعلى ذلك كانت العهود في دولة الفاطميين بمصر.

قات: وقد يستحسن هذا المذهب فيما إذا كان المعهود إليه غائباً عن حضرة الخليفة: لأن العهد يصير حينئذ كالرسالة الصريحة إليه بخلاف ما إذا كان بحضرته فإنه لا يكون في معنى الرسالة الصريحة.

وعلى هذا المذهب كتب أبو إسحاق الصابي عن الطائع لله عهد شرف الدولة شيرزيك بن عضد الدولة بن بويه وهذه نسخته: من عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى شيرزيك بن عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع مولى أمير المؤمنين: سلامٌ عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على محمدٍ عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد أطال الله بقائك أدام عزك وتأييدك وسعادتك ونعمتك وأمتع أمير المؤمنين بك وبالموهبة فيك وعندك فإن أمير المؤمنين يرى أن يحفظ على كل ولي أحمد مذاهبه وأرضى ضرائبه وانصرف عن الدنيا متمسكاً بطاعته متديناً بمشايعته حقوقه المتوحدة وحرماته المتمهدة فيمن يخلفه بعده من ولدٍ أمل أن يرث عن محله ويقوم فيه مقامه وفاءً لأهل الولاية وتصرفاً على أحكام الرعاية وسياقةً للصنيعة من سالفٍ إلى خالف وإمضائها من تالدٍ إلى طارف.

هذا على الأمر الجامع والعموم الشامل فإذا اتفق أن منتهى وراثة القرب إليه والمنازل لديه إلى النجباء الأفاضل والحصفاء الأماثل الذين يستحبون استئناف الاصطناع لهم واستقبال التفويض إليهم بالمناقب الموجودة فيهم لو انفردت عما حازوه عن آبائهم وأوليائهم أجرى أمير المؤمنين ما يفضيه عليهم من الأيادي ويرقيهم إليه من هضاب المعالي مجرى الأمر الواجب الذي كثرت الدواعي إليه واتفق الرأي والهوى عليه وتطابق الإيثار والاختبار فيه واقرن الصواب والسداد به واشترك المسلمون في استثمار فائدته وعائدته والانتفاع بتأديته وعاقبته والله يخير لأمير المؤمنين فيما يمضيه من العزائم ويبنيه من الدعائم ويعتمده من المصالح ويتوخاه من المناجح إنه على ذلك قدير وبه جدير وهو حسب أمير المؤمنين ونعم الوكيل.

وقد علمت أدام الله عزك وأمتع أمير المؤمنين بك أن شجرة بيتك هي التي تمكنت في الخدمة أصولها والفضيلة منوطةٌ بها وأسباب التمام والدوام مجتمعةٌ فيها فلذلك سبغت النعمة عليكم وامتد ظلها إليكم ونقلت فيها أقداحكم وتوفرت منها حظوظكم فتداولتموها بينكم كابراً عن كابر بمساعيكم الصالحة ومناهجكم الواضحة وتعاضدكم على ما لم تشعث الدولة الجامعة وطرف عنها الأعين الحاسدة وكان شيخك عضد الدولة وتاج الملة أبو شجاع رضوان الله عليه صاحب الرتبة الزعمى عند أمير المؤمنين وهمامها والممتطي غاربها وسنامها فعاش ما عاش مشكوراً محموداً ثم انقلب إلى لقاء ربه سعيداً رشيداً وأوجب أمير المؤمنين لك وله منك الحلول بمكانه وحيازة خطره وشانه إذا كنت أظفر ولده وأول المستحقين لوراثته وكانت فيك مع ذلك الأدوات المقتضيات لأن يفوض الأمور إليك ويعتمد فيها عليك: من كفاية وغناء واستقلال ووفاء وسياسةٍ وتدبير وشهامةٍ وتشمير وتصرفٍ على طاعة أمير المؤمنين وإشبالٍ على إخوتك أجمعين وحسن أثرٍ فيما أنفذ أمرك فيه وإفاضة أمنٍ فيمن أمضيت ولايتك عليه وإحاطةٍ بدلائل الحوالة ومخايل الأصالة بمثلها تنال الغايات الأقاصي وتفترع الذوائب والنواصي فنولك أمير المؤمنين تلك المأثرة وخولك تلك المفخرة وجعل أخاك صمصام الدولة وشمس الملة أبا كاليجار أمتع الله بكما أمير المؤمنين بك تأييده والمتقدم بعدك على ولد أبيك وأجراكما في التطبيق بينكما والتقرير لمنازلكما على مثل ما جرى الأمر عليه بين ركن الدولة أبي علي ومعز الدولة أبي الحسين سالفاً ثم بين عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع ومؤيد الدولة أبي منصور آنفاً تولاهم الله بالرحمة ونفعهم بما قبضهم عليه من وثائق العصمة وخصك أمير المؤمنين بعد ذلك بما يخص به ذو القدر الشامخ والقدم السابقة والمحلة السامية فذكرك بالتكنية ورفعك عن التسمية ولقبك لقبين: أحدهما شرف الدولة لتشريفه بك أولياءه الذين أوطأهم عقبك وأعلقهم حبلك والآخر زين الملة لزينة أيامه بمعاليك وتضاعف جمالها بمساعيك وعقد لك بيده لواءين يلويان إليك الأعناق بالطوع ممن سراه وأبهجاه والكره ممن راعاه وأزعجاه وأمر أن تقام لك الدعوة على منابر مدينة اللام وما يجري معها من الأعمال بين الدعوة لأمير المؤمنين وبين الدعوة لصمصام الدولة وشمس الملة أمتع الله أمير المؤمنين بكما وأحسن الدفاع له عنكما: إلحاقاً لك وله بعدك بأبيكما فيما كان شرف به من هذه الحال التي لم يبلغها غيره ولا أهل لها أحدٌ قبله وان يثبت ذكرك باللقب والكنية فيما ينقش من سكك العين والورق في دور الضرب بادياً وذكر صمصام

الدولة كلأكما الله تالياً وحباك أمير المؤمنين مع ذلك بخلع تامة تفاض عليك وفرسين من جياد خيله يقادان إليك بمركبي ذهب من خاص مراكبه وسيفٍ ماضٍ من خيار أسيافه يعز الله منكبيك بنجاديه ويذل مناكب أعدائك بغراريه وطوق وسوارين.

وان تجرى في المكاتبة عنه إلى الغاية التي أجري أبوك رحمه الله إليها وهذا الكتاب ناطقٌ بها ودالٌ عليها.

وندب لإيصال الجميع إليك علي بن الحسين الهاشمي الزيني واحمد بن نصر العباسي حاجبه ووحى خادمه فتلق شرف الدولة وزين الملة وأبا الفوارس ذلك أدام الله عزك بما يحق عليك من تقوى الله في سرك وجهرك ومراقبته في قولك وعملك وابتغاء رضه في مختلج خطراتك وفكرك واتباع طاعته في مخارج أمرك ونهيك وقابل ما أنعم به عليك وأحسن فيه إليك بالشكر الذي موقعه من النعمة موقع القرى من الضيف فإن وجده لم يذم وإن فقده لم يقم وامدد على من وليت عله من الخاصة والعامة ظلك ووطيء لهم كنفك واغمرهم بطولك وسسهم سياسةً يكون بها صلاحهم مضموناً وحريمهم مصوناً وبلادهم معمورة ومنافعهم موفورة وحلبهم داراً وعيشهم رغداً وثغورهم مسدودة وأعاديهم مذودة ومسالكهم محمية ومساكنهم مرعية ومرهم بالمعروف وانههم عن المنكر وابعثهم على الحسنات واكففهم عن السيئات وساو في الحق بين شريفهم ومشروفهم وقويهم وضعيفهم وقريبهم وغريبهم ومليهم وذميهم وقوم سفهاءهم وجهالهم وانف دعارهم وخرابهم وأكرم صلحاءهم وعلماءهم وشاور فضلاءهم وعقلاءهم وجالس أدنياءهم وأعلياءهم وأنلهم مراتبهم ونزلهم منازلهم وأرهم تمسكك بالدين ليقتدوا بك فيه ورغبتك في الخير ليتقربوا إليك به وخذ الحق وأعطه وابسط العدل وقل به وادرإ الحدود بالشبهات وأقمها وأمضها بالبينات: لتكون الرغبة إليك في رغب والرهبة منك في رهب وبالجملة فاحمل الناس على كتاب الله جل وعز وآدابه وسنة الرسول وما جآ به.

واعلم أن أمير المؤمنين قد جعل كتابه هذا عهداً إليك وحجةً لك وعليك وأن الأوامر و النواهي في العهود تكون كثيرة: وإنما قصر فيه عن استيفائها لارتفاع طبقتك عن الحجة إلى استقصائها وللخروج إلى الله من الحق في تضمينه هذه الجمل منها فإذا وصل ذلك إليك مع كرامات أمير المؤمنين المقدم ذكرها لك فالبس خلعه وتقلد سيفه وتحل بحلاه وابرز لمن يليك على حملانه وأظهر له ضروب إحسانه وامتنانه وانصب أمامك الواعين وتكن وتلقب باللقبين وكاتب من تكاتب من طبقات الناس متلقباً بهم متكنياً إلا أمير المؤمنين فإن الأدب أن لا تكاتبه متلقباً بل متسمياً وليس ذلك ناقصاً لك فيما أعطيته ولا مرتجعاً شيئاً مما حبيته ولكنه الأمر بالمعروف والرسم المألوف وصل ما بينك وبين أخيك صمصام الدولة وشمس الملة أدام الله الإمتاع بكما بالمودة كما وصله الله بالأخوة واتفقا على مسالمة المسالمين وتعاضدا في محاربة المحاربين فإن ذلك أرأب للصدع وأحتم للبشر وانظم للشمل وأليق بالأهل.

وأقم الدعوة لنفسك على منابر الممالك بعد إقامتها لأمير المؤمنين وكاتب أمير المؤمنين بأخبارك وطالعه بآثارك واستدع أمره فيما استعجم من التدبير عليك ورأيه فيما استبهم من الأمور دونك واسترشده إلى الحظ يرشدك واستهده في الخطوب يهدك واستمده من المعونة يمددك واشكر آلائه يزدك إن شاء الله تعالى.

أطال الله بقاءك وأدام عزك وتأييدك وسعادتك ونعمتك وأمتع أمير المؤمنين بك وبالرغبة فيك وعندك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وعلى هذا النمط كتب القاضي الفاضل عهد أسد الدين شيركوه بالوزارة عن العاضد من عبد الله ووليه عبد الله أبي محمدٍ الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولي الأمة فخر الدولة أسد الدين كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضدي عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته.

سلامٌ عليك: فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على سيدنا محمدٍ خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وعل آله الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فالحمد لله القاهر فوق عباده الظاهر على من جاهر بعناده القادر الذي يعجز الخلق عن دفع ما أودع ضمائر الغيوب من مراده القوي على تقريب ما عزبت الهمم باستبعاده الملي بحسن الجزاء لمن جاهد في الله حق جهاده مؤتي الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر رشاده ونازعه ممن يشاء بما اقترفه من كبائر فساده منجد أمير المؤمنين بمن أمضى في نصرته العزائم واستقبله الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم وفعلت له المهابة ما لا تصنع الهمم وخلعت آثاره على الدنيا ما تخلعه الأنوار

على الظلم وعدمت نظراؤه بما وجد من محاسنه التي فاق بها ملوك العرب والعجم وانتقم الله به ممن ظلم نفسه وإن ظن الناس أنه ظلم وذاد عن أمير المؤمنين من هو منه أولى بها ويأبى الله سبحانه إلا إمضاء ما حتم ورام إخفاء فضله وهل يشتهر الطيب المسك إلا إذا اكتتم مؤيد أمير المؤمنين بإمامٍ أقر الله به عينهم وقضى على يده من نصرة الدين دينهم: " لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ".

الحمد لله الذي خص جدنا محمداً بشرف الاصطفاء والاجتباء وأنهضه من الرسالة بأثقل الأعباء وذخر له من شرف المقام المحمود أشرف الأنصباء وأقام به القسطاس وطهر به من الأدناس وأيده بالصابرين في البأساء والضراء وحين البأس وألبس شريعته من مكارم الأفعال والأقوال أحسن لباس وجعل النور سارياً منه في عقبه لا ينقصه كثرة الاقتباس: " ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ".

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لأن يقوم في أمته مقامه وهدى بمراشد نوره إلى طرق دار المقامة وأوضح به منار الحق وأعلامه وجعله شهيد عصره وحجة أمره وباب رزقه وسبيل حقه وشفيع أوليائه والمستجار من الخطوب بلوائه والمضمونة لذويه العقبى والمسؤول له الأجر في القربى والمفترض الطاعة على كل مكلف والغاية التي لا يقصر عنها بولائه إلا من تأخر في مضمار النجاة وتخلف والمشفوع الذكر بالصلاة والتسليم والهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم لا يقبل عملٌ إلا بخفارة ولائه ولا يضل من استضاء بأنجم هدايته اللامعة ولا دين إلا به ولا دنيا إلا معه: ليتضح النهج القاصد ولتقوم الحجة على الجاحد وليكون لشيعته إلى الجنة نعم الشافع والرائد وليأتي الله به بنيان الأعداء من القواعد وليبين لهم الذي اختلفوا فيه وليعلموا أنما هو إلهٌ واحد.

يحمده أمير المؤمنين على ما حباه من التأييد الذي ظهر فبهر وانتشر فعم نفعه البشر والإظهار الذي اشترك فيه جنود السماء والأرض والإظفار الذي عقد الله منه عقداً لا تدخل عليه أحكام النقض والانتصار الذي أبان الله به معنى قوله: " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ".

ويسأله أن يصلي على سيدنا محمدٍ الأمين المبعوث رسولاً في الأميين الهادي إلى دار الخلود المستقل بيانه استقلال عواثر الجدود والمعدود أفضل نعمة على أهل الوجود والصافية بشريعته مشارع النعمة والواضحة به الحنيفية البيضاء لئلا يكون أمر الله عليهم غمة وعلى أبينا أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ناصر شريعته وقسيمه في النسب والسبب ويد الحق التي حكم لها في كل طلب بالغلب وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم ومصابيح الظلم ومفاتيح النعم والمخفقين دعوى من باهاهم وفاخر والباذلين جهدهم في جهاد من اتخذ مع الله إلهاً آخر وسلم وردد ووالى وجدد.

وإن أمير المؤمنين لما فوضه الله تعالى من إيالة الخليقة ومنحه من كرم السجية وكرم الخليقة وبسطه من يد على أهل الخلاف وأنجزه من موعوده الذي ليس له إخلالٌ ولا إخلاف وأوضحه من براهين إمامته للبصائر وحفظ به على الإسلام من طليعته المباديء وساقة المصير وأورثه من المقام الذي لا ينبغي إلا له في عصره واستخدم فيه السيوف و الصروف و من تأدية فرائض نصره وأظهر له من المعجزات التي لا يخلو منها زمن وظاهر له من الكرامات التي زادت على أمنية كل متمن وأتمنه عليه من أسرار النبوة التي رآه الله تعالى لها أشرف مودع وعليها أكرم مؤتمن وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب وتسهيل الطلاب وتفليل أحزاب الشرك إذا اجتمع كما اجتمعوا على جده صلى الله عليه وسلم أهل الأحزاب يواصل شكر هذه النعم التوام ويعرف بعوارفها الفرادى والتؤام ويقدم بين يدي كل عمل رغبةً إليه في إيضاح المراشد ونيةً لا تضل منها الهداية ولا سيما وهو الناشد ويستخيره عالماً أنه يقدم إليه أسباب الخير ويناجيه فيطلعه الإلهام على ما يحلي السير ويجلي الغير ويأخذ بيد الله حقه إذا اغتصبت حقوقه ويستنجد بالله إذا استبيح خلافة واستجيز عقوقه ويفزع إلى الله تعالى إذا قرع الضائر ويثق بوعد الله تعالى إذا استهلكت الشبه البصائر فما اعترض ليل كربٍ إلا انصدع لله عن فجرٍ وضاح ولا انتقض عقد غادر إلا عاجله الله سبحانه بأمرٍ فضاح ولا انقطعت سبل نصرةٍ إلا وصلها الله تعالى بمن يرسله ولا انصدعت عصا ألفة إلا تدارك الله تعالى بمن يجرده تجريد الصفاح وإذا عدد أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة والمنح الكريمة واللطائف العظيمة والعوارف العميمة والآيات المعلومة والكفايات المحتومة والعادات المنظومة كنت أيها السيد الأجل أدام الله قدرتك وأعلى كلمتك أعظم نعم الله تعالى أثراً وأعلاها خطراً وأقضاها للأمة وطراً وأحقها بأن تسمى نعمة وأجدرها بأن تعد رحمة وأسماها أن تكشف غمةً وأنضاها في سبيل الله سبحانه عزمة وأمضاها على الأعداء حدا وأبداها في الجهاد جدا وأعداها على الأعداء يدا وأحسنها فعلاً لليوم وأرجاها غدا وأفرجها للأزمة وقد كادت الأمة تصير سدى وأحق الأولياء بأن يدعى للأولياء سيدا وأبقاهم فعلةً لا ينصرم فعلها الذي بدا أبدا.

فليهنك أنك حزب الله الغالب وشهاب الدين الثاقب وسيف الله القاضب وظل أمير المؤمنين الممدود ومورد نعمته المورود والمقدم في نفسه وما نؤخره إلا لأجل معدود نصرته حين تناصر أهل الضلال وهاجرت إليه هاجراً برد الزلال وبرد الظلال وخضت بحار الأهوال وفي يدك أمواج النصال وها في جيدك اليوم عقد جواهر منه ونظم لآل بل قد بلغت السماء وزينت منك بنجوم نهار لا نجوم ليال وكشفت الغماء وهي مطبقةٌ ورفعت نواظر أهل الإيمان وهي مطرقةٌ وعقصت أعين الطغيان وهي مطلقةٌ وأعدت بحنكتك على الدولة العلوية بهجة شبابها المونقة وأنقذت الإسلام وهو على شفى جرفٍ هار ونفذت حين لا تنفذ السهام عن الأوتار وسمعت دعوته على بعد الدار وأبصرت حق الله ببصيرتك وكم من أناس لا يرونه بأبصار وأجليت طاغية الكفر وسواك اجتذبه وصدقت الله سبحانه حين داهنه من لا بصيرة له وكذبه وأقدمت على الصليب وجمراته متوقدة وقاتلت أولياء الشيطان وغمراته متمردة وما يومك في نصرة الدولة بواحد ولا أمسك مجحودٌ وإن رغم أنف الجاحد بل أوجبت الحق بهجرة بعد هجرة وأجبت دعوة الدين قائماً بها في غمرة بعد غمرة وافترعت صهوة هذا المحل الذي رقاك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك وأمات الله العاجزين بما في صدورهم من حسرات لحاقك وكنت البعيد القريب نصحه المحجوب النافذ بحجته المذعورة أعداء أمير المؤمنين به إن فوق سهمه أو أشرع رمحه وما ضرك أن سخطك أعداء أمير المؤمنين و أمير المؤمنين قد ارتضاك ولا أن منعك المعاند حقك وقد ارتضى لك واقتضاك وما كان في محاجزتك عن الحظ في خدمة لذي أنت به منه أولى ومدافعتك عن حقك في قرب مقامه الذي لا يستطيع طولا إلا مغالبة الله فيك والله غالبٌ على أمره ومباعدتك وقد قربك الله من سر أمير المؤمنين وإن بعدت من جهره استشرفتك الصدور وتطلعت إليك عيون الجمهور واستوجبت عقيلة النعم بما قدمت من المهور ونصرت الإيمان بأهله وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين كله وناهضت الكفرة بالباع الأشد والرأي الأسد ونادتهم سيوفك: ولا قرار على زأر من الأسد وأدال الله بك ممن قدم على ما قدم وندم فما أغنى عنه الندم حين لج في جهالته وتمادى في ضلالته واستمر على استطالته وتوالت من عثراتٌ ما أتبعها باستقالة فكم اجتاح للدولة رجالاً وضيق من أرزاقهم مجالاً وسلب من خزائنها ذخائر وأسلحةً وأموالاً ونقلها من أيدي أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى واتسعت هفواته عن التعديد وما العهد منها ببعيد وقد نسخ الله تعالى بك حوادثها فوجب أن تنسخ أحاديثها وأتى الأئمة منك بمن هو وليها والأمة بمن هو مغيثها ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه على بعد الدار وتحقق أنك تتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار واختارك على ثقةٍ من أن الله تعالى يحمده فيك عواقب الاختيار ورأى لك إقدامك ورقاب الشرك صاغرة وقدومك وأفواه المخاوف فاغرة وكرتك في طاعته وأبى الله تعالى أن تكون خاسرة وسطا بك حين تمالى بك المشركون وتمثل وأنفت عزته هجنة الهدنة. لرسلهم بقوله سبحانه: " اخسئوا فيها ولا تكلمون "

وازدرى بخنازيرهم انتظار لوصولك بأسود الإسلام وصبر على أنك تلبي نداءه وقال لأوليائه: " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ " بألسنة الأعلام قبل ألسنة الأقلام فكنت حيث رجا وأفضل ووجدت بحيث رعى وأعجل وقدمت فكتب الله لك العلو وكبت بك العدو وجمع على التوفيق لك طرفي الرواح والغدو ولم يلبس الكافر بسهامك جنةً إلا الفرار وكان " كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار " فلله درك حين قاتلت بخبرك قبل عسكرك ونصرت بأثيرك قبل عشيرك وأكرم بك من قادم خطواته مبرورة وسطواته للأعداء مبيرة وكل يوم من أيامه يعد سيرة وإنك لمبعوثٌ إلى بلاد أمير المؤمنين بعث السحاب المسخر ومقدمٌ في النية وغن كنت في الزمان المؤخر وطالعٌ بفئة الإسلام غير بعيد أن يفيء الله عليها بلاد الكفار ورجال جهادٍ عددناهم عندنا من المصطفين الخيار وأبناء جلاد يشترون الجنة بعزائم كالنار وغرر نصرٍ سكون العدو بعدما غرورٌ ونومه غرار.

ولما جرى من جرى ذكره على عاداته في أمير المؤمنين حاشك والإيحاش منك بكواذب الظنون ورام رجعتك عن الحضرة وقد قرت بك الدار وقرت بك العيون وكان كما قال الله تعالى في كتابه المكنون: " لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور هنالك غضبت نفوس الإسلام ففتكت به أيديها وكشفت له عن غطاء العواقب حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون " " إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد " :التي كانت منه مباديها وأخذه من أخذ أليمٌ شديد وعدل فيه من قال " وما ربك بظلام للعبيد ".

ولما نشرت لواء الإسلام وطواه وعضدت الحق وأضعف قواه وجنيت عقبى ما نويت وجنى عقبى ما نواه وأبيت إلا إمضاء ودفعت الخطب الأشق وطلعت أنوار النصر مشرقة بك وهل العزم في الشرك وما أمضاه " أفرأيت من اتخذ إلهه وأضله الله " قضى الله تعالى إلى أمير المؤمنين عدةً قدمها ثم قضاها تطلع الأنوار إلا من الشرق وقال لسان الحق: " فأي الفريقين أحق " وولاه كما ولى جده صلى الله عليه وسلم قبلةً يرضاها وانتصر لك به انتصاره لآهل البيت بسلمانه وعماره وأنطق أمير المؤمنين باصطفائك اليوم وبالأمس كنت عقد إضماره وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته وتدبير مملكته وحياطة ما وراء سرير خلافته وصيانة ما اشتملت عليه دعوة إمامته وكفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين وتدبير ما عدقه الله بأمير المؤمنين من أمور أوليائه أجمعين وجنوده وعساكره المؤيدين المقيمين منهم والقادمين وكافة رعايا الحضرة بعيدها ودانيها

وسائر أعمال الدولة باديها وخافيها وما يفتحه الله تعالى على يديك من البلاد وما تستعيده من حقوقه التي اغتصبها الأضداد وألقى لك المقاليد بهذا التقليد وقرب عليك كل غرض بعيد وناط بك العقد والحل والولاية والعزل والمنع والبذل والرفع والخفض والبسط والقبض والإبرام والنقض والتنبيه والغض والإنعام والانتقام وما توجب سياسة إمضاءه من الأحكام تقليداً لا يزال به عقد فخرك نظيماً وفضل الله عليك وفيك عظيماً " ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ".

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين من هذه الرتبة التي تتأخر دونها الأقدام والغاية التي لا غاية بعدها إلا ما يمليك الله به من الدوام فلقد تناولتها بيد في الطاعة غير قصيرة ومساع في خدمة أمير المؤمنين أيامها على الكافرين غير يسيرة وبذلت لها ما مهد سبلها ووصلتها بما وصل بك حبلها وجمعت من أدواتها ما جمع لك شملها وقال لك لسان الحق " وكانوا أحق بها وأهلها ".

وتقوى الله سبحانه: فهي وإن كانت لك عادة وسبيل لاحبٍ إلى السعادة فإنها أولى الوصايا بأن تتيمن باستفتاحها وأحق القضايا بأن تبتديء الأمور بصلاحها فاجعل تقوى الله أمامك وعامل بها ربك وإمامك واستنجح بها عواقبك ومباديك وقاتل بها أضادك وأعاديك قال الله سبحانه في كتابه المكنون: " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفسٌ ما قدمت لغدٍ واتقوا الله إن الله خبيرٌ بما تعملون ".

والعساكر المنصورة فهم الذين غذوا بولاء أمير المؤمنين ونعمه وربوا في حجور فضله وكرمه واجتاحهم من لم يحسن لهم النظر واستباحهم بأيدي من أضر لما أصر وطالما شهدوا المواقف ففجروها واصطلوا المخاوف وتولجوها وقارعوا الكفار مسارعين للأعنة مقدمين مع الأسنة مجردين إلى غايتين: إما إلى النصر وإما إلى الجنة ودبروا الويلات فسددوا وتقلدوا الأعمال فيما تقلدوا واعتمد أحمرهم وأسودهم وأقربهم وأبعدهم وفارسهم وراجلهم ورامحهم ونابلهم بتوفير الإقطاع وإدرار النفقات وتصفية موارد العيش المونقات وأحسن لهم السياسة التي تجعل أيديهم على الطاعة متفقة وعزائمهم في مناضلة أعداء الدين مستبقة وأجرهم على العادات في تقليد الويلات واستكفهم لما هم أهله من مهمات التصرفات وميز أكابرهم تمييز الناظر بالحقائق واستنهضهم في الجهاد فهذا المضمار وأنت السابق وقم في الله تعالى أنت ومن معك فقد رفعت الموانع والعوائق: ليقذف الله بالحق الذي نصره على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

والشرع الشريف فأنت كافل قضاته وهادي دعاته وهو منار الله تعالى الأرفع ويده التي تمنع الظلم وتدفع فقم في حفظ نظامه وتنفيذ أحكامه وإقامة حدوده وإمضاء عقوده وتشييد أساس الدعوة وبنائها وتمييز آخذي عهودها وأنبائها قيام من يعول في الأمانة على أهل الديانة ويستمسك بحقوق الله تعالى بالرعاية والصيانة.

والأموال فهي سلاح العظائم ومواد العزائم وعتاد المكارم وعماد المحارب والمسالم و أمير المؤمنين يؤمل أن تعود بنظرك عهود النضارة وأن يكون عدلك في البلاد وكيل العمارة.

والرعايا فقد علمت ما نالهم من إجحاف الجبايات وإسراف الجنايات وتوالى عليهم من ضروب النكايات فاعمر أوطانهم التي أخربها الجور والأذى وانف عن مواردهم الكدر والقذى وأحسن وديعة الله تعالى منهم وخفف الوطأة ما استطعت عنهم وبدلهم من بعد خوفهم أمنا وكف من يعترض في عرض هذا الأدنى.

والجهاد فهو سلطان الله تعالى على أهل العناد وسطوة الله تعالى التي يمضيها في شر العباد على يد خير العباد ولك من الغناء فيه مصراً وشاماً وثبات الجأش كراً وإقداماً والمصارف التي ضربت فكنت ضارب كماتها والمواقف التي اشتدت فكنت فارج هبواتها والتدريب الذي أطلق جدك والتجريب الذي أورى زندك ما يغني عن تجديد الوصايا البسيطة وتأكيد القضايا المحيطة وما زلت تأخذ بالكفار من اليمين وتعظم فتوحك في بلاد الشمال فكيف تكون في بلاد اليمين فاطلب أعداء الله براً وبحراً وأجلب عليهم سهلاً ووعراً وقسم بينهم الفتكات قتلاً وأسراً وغارةً وحصراً قال الله تعالى في كتابه المكنون: " يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ".

فأنت تبتدع من المحاسن ما وتوفيق الله تعالى يفتح لك أبواب التدبير وخبرتك تدلك على مراشد الأمر: " ولا ينبئك مثل خبير " لا تحيط به الوصايا وتخترع من الميامن ما يتعرف بركاته الأولياء والرعايا و الله سبحانه وتعالى يحقق لأمير المؤمنين فيك أفضل المخايل ويفتح على يديك مستغلق البلاد والمعاقل ويصيب بسهامك من الأعداء النحور والمقاتل ويأخذ للإسلام بك ماله عند الشرك من الثارات والطوائل ولا يضيع عمل عامل ويجري الأرزاق والآجال بين سيبك الفاضل وحكمه إن شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وعلى نحو منه كتب القاضي الفاضل أيضاً عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بالوزارة عن العاضد أيضاً وهذه نسخته أيضاً: من عبد الله ووليه عبد الله أبي محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل على نحو ما تقدم في تقليد عمه أسد الدين شيركوه.

أما بعد فالحمد لله مصرف الأقدار ومشرف الأقدار ومحصي الأعمال والأعمار ومبتلي الأخيار والأبرار وعالم سر الليل وجهر النهار وجاعل دولة أمير المؤمنين فلكاً تتعاقب فيه أحوال الأقمار: بين انقضاء سرارٍ واستقبال إبدار وروضاً إذا هوت فيه الدوحات أينعت الفروع سابقة النوار باسقة الثمار ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها والقائم بنصرة دولته فلا تزال حيث يرث الله الأرض ومن عليها قائمةً على أصولها.

والحمد لله الذي اختار لأمير المؤمنين ودله على مكان الاختيار وأغناه باقتضاب الإلهام عن روية الاختبار وعضد به الدين الذي ارتضاه وعضد بمن ارتضاه وأنجز له من وعد السعد ما قضاه فبل أن اقتضاه ورفع محله عن الخلق فكلهم من مضافٍ إليه غير مضاه وجعل ملكته عريناً لاعتزازها بالأسد وشبله ونعمته ميراثاً أولى بها ذوي الأرحام من بني الولاء وأهله وأظهر في هذه القضية ما أظهره في كل القضايا من فضل أمير المؤمنين وعدله فأولياؤه كالآيات التي تتسق دراري أفقها المنير وتنتسق درر عقدها النظيم الدرير: " ما ننسخ من آيةٍ أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ".

والحمد لله الذي أتم بأمير المؤمنين نعمة الإرشاد وجعله أولى من للخلق ساد وللحق شاد وآثره بالمقام الذي لا ينبغي إلا في عصره وأظهر له من معجزات نصره ما لا يستقل العدد بحصره وجمع لمن والاه بين رفع قدره ووضع إصره وجعل الإمامة محفوظةً في عقبه والمعقبات تحفظه بأمره وأودعه الحكم التي رآه لها أحوط من أودعه وأطلع من أنوار وجهه الفجر الذي جهل من ظن غير نوره مطلعه وآتاه ما لم يؤت أحداً وأمات به غياً وأحيا رشداً وأقامه للدين عاضداً فأصبح به معتضداً وحفظ به مقام جده وإن رغم المستكبرون وأنعم به على أمته أماناً لولاه ما كانوا ينظرون ولا يبصرون و " ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ".

يحمده أمير المؤمنين على ما آتاه من توفيقٍ يذلل له الصعب الجامح ويدني منه البعيد النازح ويخلف على الدين من صلاحه الخلف الصالح ويلزم آراءه جدد السعود الواضح ويريه آيات الإرشاد فإنه نازح قدح القادح ويسأله أن يصلي على جده محمدٍ الذي أنجى أهل الإيمان ببعثه وطهر بيديه من رجس الكفر وخبثه وأجار باتباعه من عنت الشيطان وعبثه وأوضح جادة التوحيد لكل مشرك الاعتقاد مثلثه وعلى أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جادلت يده بلسان ذي الفقار وقسم ولائه وعداوته بين الأتقياء والأشقياء الجنة والنار وعلى الأئمة من ذريتها الذي أذل الله بعزتهم أهل الإلحاد وأصفى بما سفكوه من دمائهم موارد الرشاد وجرت أيديهم وألسنتهم بأقوات القلوب وأرزاق العباد وسلم ومجد ووالى وجدد.

وإن الله سبحانه ما أخلى قط دولة أمير المؤمنين التي هي مهبط الهدى ومحط الندى ومورد الحياة للولي والردى للعدا من لطف يتلافى الحادثة ويشبعها ويرأبها ونعمة تبلغ بها النفوس أربها وموهبة تشد موضع الكلم وتسد موضع الثلم وتجلي غمائم الغمم وتحلي مغانم النعم وتستوفي شرائط المناجح وتستدني فوارط المصالح ولم يكن ينسى الحادثة في السيد الأجل الملك المنصور رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة متقلبه ومثواه التي كادت لها أواخي الملك تتزعزع ومباني التدبير تتضعضع إلا ما نظر فيه أمير المؤمنين بنور الله من اصطفائك أيها السيد الجل الملك الناصر: أدام الله قدرتك لأن تقوم بخدمته بعده وتسد في تقدمة جيوشه مسده وتقفو في ولائه أثره ولا تفقد منه إلا أثره فوازت الفادحة فيه النعمة فيك حتى تستوفي حظه من أمير المؤمنين بأجر لا يضيع الله فيه عمله فاستوجب مقعد صدق بما اعتقده من تأدية الأمانة له وحمله واستحق أن ينضر الله وجهه بما أخلقه الله من جسمه في مواقف الجهاد وبدله ومضى في ذمام رضا أمير المؤمنين: وهو الذمام الذي لا يقطع الله منه ما أمره أن يصله واتبع من دعائه بتحف أول ما تلقاه بالروح والريحان وذخرت له من شفاعته ما عليه معول أهل الإيمان في الأمان فرعى الله قطعه البيداء إلى أمير المؤمنين وتجشمه الأسفار ووطأه المواطيء التي تغيظ الكفار وطلوعه على أبواب أمير المؤمنين طلوع أنوار النهار وهجرته التي جمعت له أجرين: أجر المهاجرين وأجر الأنصار وشكر له ذلك المسعى الذي بلغ من الشرك الثار وبلغ الإسلام الإيثار وما لقي ربه حتى تعرض للشهادة بين مختلف الصفاح ومشتجر الرماح ومفترق الأجسام من الأرواح وكانت مشاهدته لأمير المؤمنين أجراً فوق الشهادة ومنةً لله تعالى عليه له لها ما للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وحتى رآك أيها السيد الأجل الملك الناصر أدام الله قدرتك قد أقررت ناظره وأرغمت مناظره وشددت سلطانه وسددت مكانه ورمى بك فأصاب وسقى بك فصاب وجمعت ما فيه من أبهة المشيب إلى ما فيك من مضاء الشباب ولقنت ما أفادته التجارب جملة وأعانتك المحاسن التي هي فيك جلة وقلب عليك إسناد الفتكات فتقلبت وأوضح لك مناهج البركات فتقبلت وسددك سهماً وجردك شهماً وانتضاك فارتضاك غرباً وآثرك على آثر ولده إمامةً في التدبير وحرباً وكنت في السلم لسانه

الآخذ بمجامع القلوب وفي الحرب سنانه النافذ في مضيق الخطوب وساقته إذا طلب وقلب جيشه إذا ثبت وجناحه إذا وثب ولا عذر لشبل نشأ في حجر أسد ولا لهلالٍ استملى النور من شمسٍ واستمد.

هذا ولم يكن لك على هذا الإسناد في هذا الحديث وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث لأغنتك غريزةٌ عزيزة وسجية سجية وشيمةٌ وسيمة وخلائق فيها ما تحب الخلائق ونحائز مثلها حائز ومحاسن ماؤها غير آسن ومآثر جد غير عاثر ومخافر غفل منها الأول ليستأثر بها الآخر وبراعة لسان ينسجم قطارها وشجاعة جنان تضطرم نارها وخلالٌ جلال عليك شواهد أنوارها تتوضح ومساعي مساعد لديك كمائم نورها تتفتح فكيف وقد جمعت لك في المجد بين نفس وأبٍ وعم ووجب أن أسألك من اصطفاء أمير المؤمنين ماذا حصل ثم على الخلق عم فيومك واسطةٌ في المجد بين غدك وأمسك وكل نادٍ من أندية الفخار لك أن تقول فيه وعلى غيرك أن يمسك فبشراك أن أنعم أمير المؤمنين موصولةٌ منكم بوالدٍ وولد وان شمس ملكه كالشمس أقوى ما كانت في بيت الأسد.

ولما رأى الله تقلب وجه أمير المؤمنين في سمائه ولاه من اختيارك قبلة وقامت حجته عند الله باستكفائك وزيراً له ووزراً للملة فناجته مراشد الإلهام وأضاءت له مقاصد لا تعقلها كل الأفهام وعزم له على أن قلدك تدبير مملكته الذي اعرقت في إرثه وأغرقت في كسبه ومهد لك أبعد غايةٍ في الفخر بما يسر لك من قربه ولقد سبق أمير المؤمنين إلى اختيارك قبل قول لسانه بضمير قلبه وذكر فيك قول ربه:"" والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه .

وقلدك لأنك سيف من سيوف الله تعالى يحق به التقلد وله التقليد واصطفاك على علم بأنك واحدٌ منتظم في معنى العديد وأحيا في سلطان جيوشه سنة جده الإمام المستنصر بالله في أمير جيوشه الأول وأقامك بعده كما أقام ولده وإنه ليرجو أن تكون افضل من الأفضل وخرج أمره إليك بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك بتقليدك وزارته التي أحلك ربوتها وأحل لك صهوتها وحلاك نعمتها ولك نغمتها فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبتها التي تناهت في الإنافة إلى أن لا رتبة فوقها إلا ما جعله الله تعالى للخلافة وتبؤ منها صدراً لا تطلع إليه عيون الصدور واعتقل منها في درجةٍ على مثلها تدور البدور: وقل: " الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور " " واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور " .

وباشر مستبشراً واستوطن متديراً وابسط يدك فقد فوض إليك أمير المؤمنين بسطاً وقبضاً وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعاً وخفضاً واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتاً ودحضاً واعقد حبى العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقداً ونقضاً وانفذ فيما أهلك له فقد أدى بك نافلة من السياسة وفرضاً وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصريف وثقف أود الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف واسحب ذيول الفخار حيث لاتصل التيجان واملأ لحظاً من نور الله تعالى حيث تتقي الأبصار لجين الأجفان إن هذا لهو الفضل المبين فارتبطه بالتقوى التي هي عروة النجاة وذخيرة الحياة والممات وصفوة ما تلقى آدم من ربه من الكلمات وخير ما قدمته النفوس لغدها في أمسها وجادلت به يوم تجادل كل نفسٍ عن نفسها قال الله سبحانه ومن أصدق من الله قيلا: " والآخرة خيرٌ لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ".

واستتم بالعدل نعم الله عليك وأحسن كما أحسن الله إليك وأمر بالمعروف فإنك من أهله وانه عن المنكر كما كنت تنزهت عن فعله.

وأولياء أمير المؤمنين وأنصاره الميامين ومن يحف بمقام ملكه من الأمراء المطوقين والأعيان المعصبين والأماثل والأجناد أجمعين فهم أولياؤه حقاً ومماليكه رقاً والذين تبوءوا الدار والإيمان سبقاً وأنصاره غرباً كما أن عسكرك أنصاره شرقاً فهم وهم يدٌ في الطاعة على من ناواهم يسعى بذمتهم أدناهم وتحكم فيهم وأنت عند أمير المؤمنين أعلاهم.

هذا وقد كان السيد الأجل الملك المنصور رضي الله عنه استمطر لهم من إنعام أمير المؤمنين المسامحة بعلقهم وواسى في هذه المنقبة التي استحق بها حسن الذكر بين طوائفهم وفرقهم فصنهم من جائحات الاعتراض وابذل لهم صالحات الأغراض وارفع دونهم الحجاب ويسر لهم الأسباب واستوف منهم عند الحضور إليك غايات الخطاب وصرفهم في بلاد أمير المؤمنين ولاةً حماة كما تصرفهم في أوقات الحرب لماةً وكماة وعرفهم بركة سلطانك واقتد بقلوبهم بزمام إحسانك.

وأما القضاة الدعاة فهم بين كفالتك وهديك والتصريف على أمرك ونهيك فاستعمل منهم من أحسن عملاً فأما بالعنايات فلا.

والجهاد فأنت راضع دره وناشئه حجره وظهور الخيل مواطنك وظلال الجبل مساكنك وفي ظلمات مشاكله تجلى محاسنك وفي أعقاب نوازله تتلى ميامينك فشمر له عن ساقٍ من القنا وخض فيه بحراً من الظبا واحلل فيه عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الحبى وأسل الوهاد بدماء العدا وارفع برؤوسهم الربا حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك ومشهوداً به يوم مقامك بين يديه من لسان إمامك.

والأموال فهي زبدة حلب اللطف لا العنف وجمةٌ يمتريها الرفق لا العسف وما برحت أجد ذخائر الدول للصفوف واحد أسلحتها التي تمضي وقد تنبو السيوف فقدم للبلاد الاستعمار تقدم لك للاستثمار وقطرةٌ من عدل تذخر بها من مالٍ بحار.

والرعايا فهم ودائع الله لأمير المؤمنين وودائعه لديك فاقبض عنهم الأيدي وابسط بالعدل فيهم يديك وكن بهم رؤوفاً وعليهم عطوفاً واجعل الضعيف منهم في الحق قوياً والقوي في الباطل ضعيفاً ووكل برعايتهم ناظر اجتهادك واجعل ألسنتهم بالدعاء من سلاحك وقلوبهم بالمحبة من أجنادك ولو جاز أن يستغني عن الوصية قائمٌ بأمر أو جالسٌ في صدر لاستغنيت عنها بفطنتك الزكية وفطرتك الذكية ولكنها من أمير المؤمنين ذكرى لك وأنت من المؤمنين وعرابة بركةٍ فتلق رايتها باليمين و الله تعالى يؤيدك أيها السيد الأجل أدام الله قدرتك بالنصر العزيز ويقضي لدولة أمير المؤمنين على يديك بالفتح الوجيز ولأهلها في نظرك بالأمر الحريز ويمتع دست الملك بحلى مجدك الإبريز ويقر عيون الأعيان بما يظهر لك في ميدان السعادة من السبق والتبريز ويمليك من نحلة أنعم أمير المؤمنين بما ملكك إياه ملك التحويز ويلق بك في المجد أولك ويحمد فيك العواقب ولك فاعلم ذلك من أمر أمير المؤمنين ورسمه واعمل بموجبه وحكمه إن شاء الله تعالى.

المذهب الثالث أن يفتتح العهد بخطبة وهو ما حكاه في التعريف عن الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان فيما كتب به للظاهر بيبرس وذكر أن لقمان ليس بحجة.

ثم قال: على ان الفاضل محيي الدين بن عبد الظاهر قد تبعه فيما كتب به للمنصور قلاوون.

قلت: ليس ابن لقمان هو المبتكر لهذا المذهب بل كان موجوداً معمولاً به.

استعمله كتاب الإنشاء بديوان الخلافة ببغداد قبل ذلك بزمنٍ طويل وهو منبع الكتابة الذي يصدر عنه الترتيب وقاعدتها التي يبنى عليها المصطلح.

وعليه كتب عهد العادل أبي بكر بن أيوب أخي السلطان صلاح الدين يوسف من بغداد.

وإليه مال ابن الأثير في المثل السائر.

وذكر أن الافتتاح هذا ما عهد قد ابتذل بكثرة الاستعمال وابن لقمان تابعٌ لا متبوع.

على أن إنشائه يدل على تقدمه في الكتابة وهو إن كان ليس بحجة فابن الأثير حجةٌ بهذا الشأن يرجع إليه ويعمل بقوله ويؤيده حديث: " كل أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم " ولذلك مال أهل العصر إلى اختياره والعمل عليه إلا أن فيه مخالفة لما وقع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم وغيره من عهود الصحابة على ما تقدم ذكره.

وبكل حال فأهل هذا المذهب لا يخرجون فيه عن ضربين: ضرب يعبرون عن الأوامر الواردة في العهد عن الخليفة بقوله: أمره بكذا وأمره بكذا وهي طريقة المتقدمين منهم وعليها كتب عهد العادل أبي بكر المشار إليه.

وضربٍ يعبرون بقولهم أن يفعل كذا وكذا وما يجري هذا المجرى ز وهذه نسخة العهد المكتوب به من ديوان الخلافة ببغداد على هذه الطريقة للعادل أبي بكر بن أيوب أخي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وهي: الحمد لله الذي اطمأنت القلوب بذكره ووجب على الخلائق جزيل حمده وشكره ووسعت كل شيءٍ رحتمه وظهرت في كل أمرٍ حكمته ودل على وحدانيته بعجائب ما أحكمه صنعاً وتدبيراً وخلق كل شيء فقدره تقديراً ممد الشاكرين بنعمه التي لا تحصى عدداً وعالم الغيب الذي لا يظهر على غيبه أحداً لا معقب لأحكامه في الإبرام والنقض ولا يؤوده حفظ السماوات والأرض تعالى أن يحيط بحكمه الضمير وجل أن يبلغ وصفه البيان والتفسير: " ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير ".

. "والحمد لله الذي أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق بشيراً ونذيراً " وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً

وابتعثه هادياً للخلق وأوضح به مناشد الرشد وسبل الحق واصطفاه من أشرف الأنساب وأعز القبائل واجتباه لإيضاح البراهين والدلائل وجعله لديه أعظم الشفعاء واقرب الوسائل فقذف صلى الله عليه وسلم بالحق على الباطل وحمل الناس بشريعته الهادية على المحجة البيضاء والسنن العادل حتى استقام اعوجاج كل زائغ ورجع إلى الحق كل حائد عنه ومائل وسجد لله كل شيءٍ تتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام الأفاضل صلاةً مستمرة بالغدوات والأصائل خصوصاً على عمه وصنو أبيه العباس بن عبد المطلب الذي اشتهرت مناقبه في المجامع والمحافل ودرت ببركة الاستسقاء به أخلاف السحب الهواطل وفاز من تنصيص الرسول على عقبه في الخلافة بما لم يفز به أحدٌ من الأوائل.

والحمد لله الذي حاز مواريث النبوة والإمامة ووفر جزيل الأقسام من الفضل والكرامة لعبده وخليفته ووارث نبييه ومحيي شريعته الذي أحله الله عز وجل من معارج الشرف والجلال في أرفع ذروة وأعلقه من حسن التوفيق الإلهي بأمتن عصمة وأوثق عروة واستخرجه من أشرف نجار وعنصر واختصه بأزكى منحة وأعظم مفخر ونصبه للمؤمنين علماً واختاره للمسلمين إماماً وحكماً وناط به أمر دينه الحنيف وجعله قائماً بالعدل والإنصاف بين القوي والضعيف إمام المسلمين وخليفة رب العالمين أبي جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين ابن الإمام السعيد التقي أبي نصر محمد الظاهر بأمر الله ابن الإمام السعيد أبي محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين وعلى آبائه الطاهرين الأئمة المهديين الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ولقوا الله تعالى وهو عنهم راضٍ وهم عنه راضون.

وبعد فبحسب ما أفاضه الله تعالى على أمير المؤمنين صلوات الله عليه وسلامه من خلافته في الأرض وفوضه إلى نظره المقدس في الأمور من الإبرام والنقض وما استخلصه له من حياطة بلاده وعباده ووكله إلى الشريف نظره ومقدس اجتهاده لا يزال صلوات الله عليه يكلأ العباد بعين الرعاية ويسلك بهم في المصالح العامة والخاصة مذاهب الرشد وسبل الهداية وينشر عليهم جناحي عدله وإحسانه وينعم لهم النظر في ارتياد الأمناء والصلحاء من خلصاء أكفائه وأعوانه متخيراً لاسترعاء من استحمد بمشكور المساعي وتعرف إليه في سياسة الرعايا بجميل الأسباب والدواعي وسلك في مفترض الطاعة الواجبة على الخلائق قصد السبيل وعلم منه حسن الاضطلاع في مصالح المسلمين بالعبء الثقيل والله عز وجل يؤيد آراء أمير المؤمنين صلوات الله عليه بالتأييد والتسديد ويمده أبداً من أقسام التوفيق الإلهي بالموفور والمزيد ويقرن عزائمه الشريفة باليمن والنجاح ويسني له فيما يأتي ويذر أسباب الخير والصلاح وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

ولما وفق الله تعالى نصير الدين محمد بن سيف الدين أبي بكر بن أيوب من الطاعة المشهورة والخدم المشكورة والحظوة في جهاد أعداء الدين بالمساعي الصالحة والفوز من المراضي الشريفة الإمامية أجلها الله تعالى بالمغانم الجزيلة والصفقة الرابحة لما وصل فيه سالف شريف الاختصاص بآنفه وشفع تالده في تحصيل مأثور الاستخلاص بطارفه واستوجب بسلوكه في الطاعة المفروضة مزيد الإكرام والتفضيل وضرع في الإنعام عليه بمنشور شريف إمامي يسلك في اتباعه هداه والعمل بمراشد سواء السراط وقصد السبيل اقتضت الآراء الشريفة المقدسة زادها الله تعالى جلالاً متألق الأنوار وقدساً يتساوى في تعظيمه من هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار الإيعاز بإجابته إلى ما وجه أمله إلى الإنافة فيه به إليه والجذب بضبعيه إلى ذروة الاجتباء الذي تظهر أشعة أنواره الباهرة عليه فقلده على خيرة الله تعالى الزعامة والغلات وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والضياع والصدقات والجوالي وسائر وجوه الجبايات والعرض والعطاء والنفقة في الأولياء والمظالم والحسبة في بلاده وما يفتتحه وما يستولي عليه من بلاد الفرنج الملاحين وبلاد من تبرز إليه الأوامر الشريفة بقصده من الشاذين عن الإجماع المنعقد من المسلمين ومن يتعدى حدود الله تعالى بمخالفة من يصل من الأعمال الصالحات بولائه المفروض على الخلائق مقبولة وطاعته ضاعف الله جلاله بطاعته وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم موصولة حيث قال عز من قال: " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " .

واعتمد صلوات الله عليه وسلامه في ذلك على حسن نظره ومدد رعايته وألقى مقاليد التفويض إلى وفور اجتهاده وكمال سياسته وخصه من هذا الإنعام الجزيل بما يبقى له على تعاقب الدهر واستمراره ويخلد له على ممر الزمان حسن ذكره وجزيل فخاره وحباه بتقليد يوطد له قواعد الممالك ويفتح بإقليده رتاج الأبواب والمسالك ويفيد قاعدته في بلاده زيادة تقريرٍ وتمهيد ويطير به صيته في كل قريب وبعيد ووسمه بالملك الأجل السيد الكامل المجاهد المرابط نصير الدين ركن الإسلام أثير الأنام تاج الملوك والسلاطين قامع الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين غازي بك محمد بن أبي بكر بن أيوب معين أمير المؤمنين رعايةً لسوابق خدمه وخدم أسلافه وآبائه عن وفور اجتبائه وكمال ازدلافه وإنافة من ذروة القرب إلى محلٍ وثوقاً بصحة ديانته التي يسلك فيها كريم واختصاصاً له بالإحسان الذي لا يلقاه إلا منهو كما قال الله تعالى: " ذو حظ عظيم "

سواء سبيله واستنامةً إلى أمانته في الخدمة التي ينصح فيها الله تعالى ولرسوله وركوناً إلى كون الإنعام عليه موضوعاً بحمد الله تعالى في أحسن موضع واقعاً به لديه في خير مستقر ومستودع.

و أمير المؤمنين صلوات الله عليه لا زالت الخيرة موصولةً بآرائه والتأييد الإلهي مقروناً بإنقاذه وإمضائه يستمد من الله عز وجل حسن الإعانة في اصطفائه الذي اقتضاه نظره الشريف واعتماده وأدى إليه ارتياده المقدس الإمامي واجتهاده وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل.

أمره بتقوى الله تعالى التي هي الجنة الواقية والنعمة الباقية والملجأ المنيع والعماد الرفيع والذخيرة النافعة في السر والنجوى وأن يدرع بشعارها في جميع الأقوال والأفعال ويهتدي والجذوة المقتبسة من قوله سبحانه: " وتزودوا فإن خير الزاد التقوى " بأنوارها في مشكلات الأمور والأحوال وأن يعمل بها سراً وجهراً ويشرح للقيام بحدودها الواجبة صدراً قال الله تعالى: " ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ".

وأمره بتلاوة كتاب لله متدبراً غوامض عجائبه سالكاً سبيل الرشاد والهداية في العمل به وان يجعله مثلاً يتبعه ويقتفيه ودليلاً يهتدي بمراشده الواضحة في أوامره ونواهيه فإنه الثقل الأعظم وسبب الله المحكم والنور الذي يهدي به إلى التي هي أقوم ضرب الله تعالى فيه لعباده جوامع الأمثال وبين لهم بهداه الرشد والضلال وفرق بدلائله الواضحة بين الحرام والحلال فقال عز من قائل: " هذا بيانٌ للناس وهدىً وموعظةٌ للمتقين ".

وقال تعالى: " كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ".

وأمره بالمحافظة على مفروض الصلوات والدخول فيها على أكمل هيئة من قوانين الخشوع والإخبات وأن يكون نظره في موضع سجوده من الأرض وان يمثل لنفسه في ذلك موقفه بين يدي الله تعالى يوم العرض قال الله تعالى: " قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ".

وقال الله تعالى: " إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ".

وأن لا يشتغل بشاغل عن أداء فروضها الواجبة ولا يلهوا بسببٍ عن إقامة سننها الراتبة فإنها عماد الدين الذي نمت أعاليه وقال ومهاد الشرع الذي تمت قواعده ومبانيه قال الله تعالى: " حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين " سبحانه: " إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ".

وأمره أن يسعى إلى الصلوات الجمع والأعياد ويقوم في ذلك بما فرضه الله تعالى عليه وعلى العباد وأن يتوجه إلى الجوامع والمساجد متواضعاً ويبرز إلى المصليات الضاحية في الأعياد خاشعاً وأن يحافظ في تشييد قواعد الإسلام على الواجب والمندوب ويعظم باعتماد ذلك شعائر الله التي هي من تقوى القلوب وأن يشمل بوافر اهتمامه واعتنائه وكمال نظره وإرعائه بيوت الله التي هي محال البركات ومواطن العبادات والمساجد التي تأكد في تعظيمها وإجلالها حكمه والبيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه وأن يرتب لها من الخدم من يتبتل لإزالة أدناسها ويتصدى لإذكاء مصابيحها في الظلام وإيناسها ويقوم لها بما تحتاج إليه من أساب الصلاح والعمارات ويحضر غليها ما يليق من الفرش والكسوات.

وأمره باتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم التي أوضح جددها عليه السلام أودها وان يعتمد فيها على الأسانيد التي نقلها الثقات والأحاديث التي صحت بالطرق السليمة والروايات وأن يقتدي بما جاءت به من مكارم الخلاق التي ندب صلى الله عليه وسلم إلى التمسك بسببها ورغب أمته في الأخذ بها والعمل بأدبها قال الله تعالى: " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم وأمره بمجالسة أهل العلم والدين وأولي الإخلاص في طاعة الله تعالى واليقين واستشارتهم في عوارض الشك والالتباس والعمل بآرائهم في التمثيل والقياس فإن الاستشارة عين الهداية وأمن من الضلالة والغواية وبها تلقح عقم الأفهام والألباب ويقتدح زناد الرشد والصواب قال الله تعالى في الإرشاد إلى فضلها والأمر في التمسك بحبلها: " وشاورهم في الأمر ".

وأمره بمراعاة أحوال الجند والعسكر في ثغوره وأن يشملهم بحسن نظره وجميل تدبيره مستصلحاً نياتهم بإدامة التلطف والتعهد مستوضحاً أحوالهم بمواصلة التفحص والتفقد وأن يسوسهم سياسة تبعثهم على سلوك المنهج السليم ويهديهم في انتظامها واتساقها إلى السراط المستقيم ويحملهم على القيام بشرائط الخدم والتمسك منها بأقوى الأسباب وأمتن العصم

ويدعوهم إلى مصلحة التواصل والائتلاف ويصدهم عن موجبات التخاذل والاختلاف وأن يعتمد فيهم شرائط الحزم في الإعطاء والمنع وما تقتضيه مصلحة أحوالهم من أسباب الخفض والرفع وان يثبت المحسن على إحسانه ويسبل على المسيء ما وسعه العفو واحتمله المر ذيل صفحه وامتنانه وأن يأخذ برأي ذوي التجارب منهم والحنكة ويجتني بمشاورتهم ثمر الشركة إذ في ذلك أمنٌ من خطإ الانفراد وتزحزح عن مقام الزيغ والاستبداد.

وأمره بالتبتل لما يليه من البلاد ويتصل بنواحيه من ثغور أولي الشرك والعناد وأن يصرف مجامع الالتفات إليها ويخصها بوفور الاهتمام بها والتطلع عليها وأن يشمل ما ببلاده من الحصون والمعاقل بالإحكام والإتقان وينتهي في أسباب مصالحها إلى غاية الوسع ونهاية الإمكان وأن يشحنها بالميرة الكثيرة والذخائر ويمدها من الأسلحة والآلات بالعدد المستصلح الوافر وأن يتخير لحراستها من يختاره من الأمناء التقاة ولسدها من ينتخبه من الشجعان الكماة وأن يؤكد عليهم في استعمال أسباب الحفظة والاستظهار ويوقظهم للاحتراس من غوائل الغفلة والاغترار وان يكون المشار إليهم ممن ربوا في ممارسة الحروب على مكافحة الشدائد وتدربوا في نصب الحبائل للمشركين والأخذ عليهم بالمراصد وأن يعتمد هذا القبيل بمواصلة المدد وكثرة العدد والتوسع في النفقة والعطاء والعمل معهم بما يقتضيه حالهم وتفاوتهم في التقصير والغناء إذ في ذلك حسمٌ لمادة الأطماع في بلاد الإسلام وردٌ لكيد المعاندين من عبدة الأصنام فمعلومٌ أن هذا الغرض أولى ما وجهت غلي العنايات وصرفت وأحق ما قصرت عليه الهمم ووقفت فإن الله تعالى جعله من أهم الفروض التي كرم فيها القيام بحقه وأكبر الواجبات التي كتب العمل بها على خلقه فقال سبحانه وتعالى هادياً في ذلك إلى سبيل الرشاد ومحرضاً لعباده على قيامهم بفروض الجهاد: " ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نصبٌ ولا مخمصةٌ في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عملٌ صالحٌ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ".

وقال تعالى: " فاقتلوهم حيث ثقفتموهم ".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " من نزل منزلاً يخيف فيه المشركين ويخيفونه كان له كأجر ساجدٍ لا يرفع رأسه إلى يوم القيامة وأجر قائمٍ لا يقعد إلى يوم القيامة وأجر صائم لا يفطر ".

وقال عليه السلام: " غدوةٌ في سبيل الله أو روحةٌ خيرٌ مما طلعت عليه الشمس ".

هذا قوله صلى الله عليه وسلم في الحق من سمع هذه المقالة فوقف لديها فكيف بمن كان كما قال عليه السلام: " ألا أخبركم بخير الناس: ممسكٌ بعنان فرسه كلما سمع هيعةً طار إليها ".

وأمره باقتفاء أوامر الله تعالى في رعاياه والاهتداء إلى رعاية العدل والإنصاف والإحسان بمراشده الواضحة ووصاياه وأن يسلك في السياسة سبل الصلاح ويشملهم بلين الكنف وخفض الجناح ويمد ظل رعايته على مسلمهم ومعاهدهم ويزحزح الأقذاء والشوائب عن مناهلهم في العدل ومواردهم وينظر في مصالحهم نظراً يساوي فيه بين الضعيف والقوي ويقوم بأودهم قياماً يهتدي به ويهديهم فيه إلى الصراط السوي قال الله تعالى: " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ".

وأمره باعتبار أسباب الاستظهار والأمنة واستقصاء الطاعة المستطاعة والقدرة الممكنة في المساعدة على قضاء تفث حجاج بيت الله الحرام وزوار نبيه عليه افضل الصلاة والسلام وأن يمدهم بالإعانة في ذلك على تحقيق الرجاء وبلوغ المرام ويحرسهم من التخطف والأذى في حالتي الظعن والمقام فإن الحج أحد أركان الدين المشيدة وفروضه الواجبة المؤكدة قال الله تعالى: " ولله على الناس حج البيت ".

وأمره بتقوية أيدي العاملين بحكم الشرع في الرعايا وتنفيذ ما يصدر عنهم من الأحكام والقضايا والعمل بأقوالهم فيما يثبت لذوي الاستحقاق والشد على أيديهم فيما يرونه من المنع والإطلاق وأنه متى تأخر أحد الخصمين عن إجابة داعي الحكم أو تقاعس في ذلك لما يلزم من الأداء والعدم جذبه بعنان القسر إلى مجلس الشرع واضطره بقوة الإنصاف غلى الأداء بعد المنع وأن يتوخى عمال الوقوف التي تقرب المتقربون بها واستمسكوا في ثواب الله بمتين حبلها وأن يمدهم بجميل المعاونة والمساعدة وحسن الموازرة والمعاضدة في الأسباب التي تؤذن بالعمارة والاستنماء وتعود عليها بالمصلحة والاستخلاص والاستيفاء قال الله تعالى: " وتعاونوا على البر والتقوى ".

وأمره أن يتخير من أولى الكفاءة والنزاهة من يستخلصه للخدم والأعمال والقيام بالواجب: من أداء الأمانة والحراسة والتمييز لبيت المال وأن يكونوا من ذوي الاضطلاع بشرائط الخدم المعنية وأمورها والمتدين إلى مسالك صلاحها وتدبيرها وأن يتقدم إليهم بأخذ الحقوق من وجوهها المتيقنة وجبايتها في أوقاتها المعينة إذ ذاك من مصالح الجند ووفورالاستظهار وموجبات قوة الشوكة بكثير الأعوان والأنصار وأسباب الحفظة التي تحمى بها البلاد والأمصار ويأمرهم بالجري في الطسوق والشروط على النمط المعتاد والقيام في مصالح الأعمال على أقدام الجد والاجتهاد و إلى العاملين على الصدقات بأخذ الزكوات على مشروع السنن المهيع وقصد الصراط المتبع من غير عدول من ذلك عن المنهاج الشرعي أو تساهل في تبديل حكمها المفروض وقانونها المرعي فإذا أخذت من أربابها الذين يطهرون ويزكون بها كان العمل في صرفها إلى مستحقها بحكم الشريعة النبوية وموجبها وإلى جباة الجزية من أهل الذمة بالمطالبة بأدائها في أول سنة واستفيائها منهم على حسب أحوالهم بحكم العادة في الثروة والمسكنة وإجراءً في ذلك على حكم الاستمرار والانتظام ومحافظةً على عظيم شعائر الإسلام.

وأمره أن يتطلع على أحوال كل من يستعمله في أمر من الأمور ويصرفه في مصلحةٍ من مصالح الجمهور تطلعاً يقتضي الوقوف على حقائق أمانتهم وموجب تهذيبهم من حركاتهم وسكناتهم ذهاباً من النصح لله تعالى في بريته وعملاً فيه بقول النبي صلى الله عليه وسلم: وأمره أن يستصلح من ذوي الاضطلاع والغناء من يترتب العرض والعطاء والنفقة في الأولياء وأن يكونوا من المشهورين بالحزم والبصيرة والموسومين في المناصحة بإخلاص الطوية وإصفاء السريرة حالين من الأمانة والصون بما يزين ناكبين عن مظان الشبه والطمع الذي يصم ويشين وأن يأمرهم باتباع عادات أمثالهم في ضبط أسماء الرجال وتحلية الأشخاص والأشكال واعتبار شيات الخيول وإثبات أعدادها وتحريض الجند على تخيرها واقتناء جيادها وبذل الجهد في قيامهم من الكراع واليزك والسلاح بما يلزمهم والعمل بقوله تعالى: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ".

فإذا نطقت جرائد الجند المذكورين بما أثبت لديهم وحقق الاعتبار والعيان قيامهم بما وجب عليهم أطلقت لهم المعايش والأرزاق بحسب إقراراتهم وأوصلت إليهم بمقتضى واجباتهم واستحقاقاتهم: فإن هذا الحال أصل حراسة البلاد والعباد وقيام الأمر بما أوجبه الله تعالى من الاستعداد بفرض الجهاد قال الله تعالى: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ".

وأمره بتفويض أمر الحسبة إلى من يكون بأمرها مضطلعاً وللسنة النبوية في إقامة حدودها متبعاً فيعتمد في الكشف عن أحوال العامة في تصرفاتها الواجب ويسلك في التطلع إلى معاملاتهم السبيل الواضح والسنن اللاحب.

في الأسواق لاعتبار المكاييل والموازين ويقيمه في مؤاخذة المطففين وتأديبهم بما تقتضي شريعة الدين ويحذرهم في تعدي حدود الإنصاف شدة نكاله ويقابل المستحق المؤاخذة بما يرتدع به الجمع الكثير من أمثاله قال الله تعالى: " أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ".

وقال سبحانه: " ويلٌ للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليومٍ عظيمٍ يوم يقوم الناس لرب العالمين ".

فليتول الملك السيد الكامل المجاهد المرابط نصير الدين ركن الإسلام أثير الأنام جلال الدولة فخر الملة عز الأمة سند الخلافة تاج الملوك والسلاطين قامع الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين أمير المجاهدين غازي بك معين أمير المؤمنين ما قلده عبد الله وخليفته في أرضه القائم له بحقه الواجب وفرضه أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين تقليد مطمئنٍ بالإيمان وينصح لله ولرسوله ولخليفته صلوات الله عليه في السر والإعلان وليشرح بما فوض إليه من هذه الأمور صدراً وليقم بالواجب عليه من شكر هذا الإنعام الجزيل سراً وجهراً وليعمل بهذه الوصايا الشريفة الإمامية وليقف آثار مراشدها المقدسة النبوية وليظهر من أثر الجد في هذا الأمر والاجتهاد وتحقيق النظر الجميل لله والإرشاد ما يكون دليلاً على تأييد الرأي الأشرف المقدس أجله الله تعالى في اصطناعه واستكفائه وإصابة مواقع النجح والرشد في التفويض إلى حسن قيامه وكمال اعتنائه فليقدر النعمة في هذه الحال حق قدرها وليمتر بأداء الواجب بما غلب عليه من جزيل شكر غزير درها وليطالع مع الأوقات بما يشكل عليه من الأمور الغوامض ولينه إلى العلوم الشريفة المقدسة أجلها الله تعالى ما يلتبس عليه من الشكوك والغوامض ليرد عليه من الأمثلة ما يوضح له وجه الصواب في الأمور ويستمد من المراشد الشريفة التي هي شفاءٌ لما في الصدور بما يكون ورده عليه وتتابعه إليه نوراً على نور إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة العهد الذي كتب به الصاحب فخر الدين: إبراهيم بن لقمان للظاهر بيبرس التي أنكر عليه القاضي شهاب الدين بن فضل الله في التعريف ابتداءها بخطبة وهي: الحمد لله الذي أضفى على الإسلام ملابس الشرف وأظهر درره وكانت خافيةً بما استحكم عليها من الصدف وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف وقيض لنصره ملوكاً اتفقت على طاعتهم من اختلف.

أحمده على نعمه التي رتعت الأعين منها في الروض الأنف وألطافه التي وقفت الشكر عليها فليس له عنها منصرف وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً توجب من المخاوف أمنا وتسهل من الأمور ما كان حزنا وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي جبر من الدين وهنا وصفيه الذي أظهر من المكارم فنوناً لا فنا صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم لا تفنى وأصحابه الذين أحسنوا في الدين فاستحقوا الزيادة من الحسنى.

وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره وأحقهم أن يصبح القلم ساجداً وراكعاً في تسطير مناقبه وبره من سعى فأضحى بسعيه الجميل متقدماً ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجداً ومتهماً وما بدت يدً من المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصماً ولا استباح بسيفه حمى ووغىً إلا أضرمه ناراً وأجراه دماً.

ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصةً بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني شرفه الله تعالى وأعلاه ذكر الديوان العزيز النبوي الإمامي المستنصري أعز الله تعالى سلطانه تنويهاً بشريف قدره واعترافاً بصنعه الذي تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان واستعتب دهرها المسيء فأعتب وأرضى عنها زمانها وقد كان صال عليها صولة مغضب فأعاده لها سلماً بعد أن كان عليها حرباً وصرف اهتمامه فرجع كل متضايقٍ من أمورها واسعاً رحباً ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنواً وعطفاً وأظهر له من الولاء رغبةً في ثواب الله ما لا يخفى وأبدى من الاهتمام بالبيعة أمراً لو رامه غيره لامتنع عليه ولو تمسك بحبله متمسكٌ لانقطع به قبل الوصول إليه لكن الله ادخر هذه الحسنة ليثقل بها في الميزان ثوابه ويخفف بها يوم القيامة حسابه والسعيد من خفف حسابه فهذه منقبةٌ أبى لله إلا أن يخلدها في صحيفة صنعه وتكرمةٌ قضت لهذا البيت الشريف بجمعه بعد أن حصل الإياس من جمعه و أمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعرف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت في المكارم فرداً ولم يجعل منها بلداً من البلاد ولا حصناً من الحصون مستثنى ولا جهةً من الجهات تعدي الأعلى ولا الأدنى.

فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملاً وخلص نفسك من التبعات اليم ففي غدٍ تكون مسؤولاً لا سائلاً ودع الاغترار بالدنيا فما نال أحد منها طائلاً وما رآها أحدٌ بعين الحق إلا رآها خيالاً زائلاً فالسعيد من قطع آماله الموصولة وقدم لنفسه زاد التقوى فتقدمه غير التقوى مردودةٌ لا مقبولة وابسط يدك بالإحسان والعدل فقد أمر الله بالعدل والإحسان في مواضع من القرآن وكفر به عن المرء ذنوباً وآثاماً وجعل يوماً واحداً فيه كعبادة العابد ستين عاماً وما سلك أحدٌ سبيل العدل والإحسان إلا واجتنيت ثماره من أفنان وتراجع الأمر فيه بعد تداعي أركانه وهو مشيد الأركان وتحصن به من حوادث الزمان وكانت أيامه في الأيام أبهى من الأعياد وأحسن في العيون من الغرر في أوجه الجياد وأحلى من العقود إذا حلي بها عطل الأجياد.

وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نوابٍ وحكام وأصحاب رأي من أصحاب السيوف والأقلام فإذا استعنت بأحد منهم في أمرك فنقب عليك تنقيباً واجعل عليه في تصرفاته رقيباً وسل عن أحواله ففي القيامة تكون عنه مسؤولاً وبما أجرم مطلوباً ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسناتٍ لك لا ذنوباً وأمرهم بالأناة في الأمور والرفق ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق وأن لا يعاملوا أحداً على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعية إخواناً وأن يوسعوهم براً وإحساناً وأن لا يستحلوا حرماتهم إذا استحل الزمان لهم حرماناً فالمسلم أخو المسلم ولو كان عليه أميراً وسلطاناً والسعيد من نسج ولايته في الخير على منواله واستسن بسنته في تصرفاته وأحواله وتحمل عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله.

ومما يؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيء السنن وجدد من المظالم التي هي من أعظم المحن وأن يشترى بإبطالها المحامد رخيصةً بأغلى ثمن ومهما جبي منها من الأموال فإنما هي باقيةٌ في الذمم حاصلة وأجياد الخزائن إن أضحت بها حاليةً فإنما هي على الحقيقة منها عاطلة وهل أشقى ممن احتقب إثماً واكتسب بالمساعي الذميمة ذماً وجعل السواد الأعظم له يوم القيامة خصماً وتحمل ظلم الناس فيما صدر عنه من أعماله " وقد خاب من حمل ظلماً ".

وحقيق بالمقام الشريف المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله وطاعته تخفف ثقلاً لا طاقة لهم بحمله فقد أضحى على الإحسان قادراً وصنعت له الأيام ما لم تصنعه لمن تقدم من الملوك وإن جاء آخراً فالحمد لله على أن وصل إلى جنابك إمام هدىً يوجب لك مزية التقدم وينبه الخلائق على ما خصك الله به من الفضل العظيم وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى ويوالي عليها حمد الله فإن الحمد يجب عليها عقلاً وشرعاً وقد تبين لك أنك صرت في الأمور أصلاً وصار غيرك فرعاً.

ومما يجب أيضاً تقديم ذكره أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضاً وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضاً وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم والدوافع لهم عنده المقام الكريم وخصهم بالجنة التي لا لغو فيها ولا تأثيم وقد تقدمت لك في الجهاد يدٌ بيضاء أسرعت في سواد الحساد وعرفت منك عزمةٌ وهي أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد واشتهرن لك مواقف في القتال وهي أشهر وأشهى إلى القلوب من الأعياد وبك صان الله حمى الإسلام أن يبتذل وبعزيمتك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحاً لا تندمل وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول فأيقظ لنصرة الإسلام جفناً ما كان غافياً ولا هاجعاً وكن في مجاهدة أعداء الله إماماً متبوعاً لا تابعاً وأيد كلمة التوحيد فما تجد في تأييدها إلا مطيعاً سامعاً ولا تخل الثغور من اهتمامٍ بأمرها تبسم له الثغور واحتفالٍ يبدل ما دجا من ظلماتها بالنور فهذه حصونٌ بها يحصل الانتفاع وعلى العدو داعية افتراق لا اجتماع وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاوراً والعدو إليه ملتفتاً ناظراً ولاسيما ثغور الديار المصرية فغن العدو وصل إليها رابحاً وراح خاسراً واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثراً وكذلك الأسطول الذي ترى خيله كالأهلة وركائبه سابقةٌ بغير سائقٍ مستقلة وهو أخو الجيش السليماني فإن ذاك غدت الريح له حاملة وهذا تكفلت بحمله الرياح السابلة وإذا لحظها الطرف جاريةٌ في البحر كانت كالأعلام وإذا شبهها قال: هذه ليالٍ تقلع بالأيام وقد سنى الله لك من السعادة كل مطلب وآتاك من أصالة الرأي الذي يريك المغيب وبسط بعد القبض منك الأمل ونشط بالسعادة ما كان من كسل وهداك إلى منهج الحق ومازلت مهتدياً إليها وألزمك المراشد فلا تحتاج إلى تنبيه عليها و الله تعالى يمد بأسباب نصره ويوزعك شكر نعمه فإن النعمة تستتم بشكره إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخته عهد كتب بها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر للسلطان الملك المنصور قلاوون عن الخليفة الأمام أبي العباس أحمد الحاكم بأمر الله المتقدم ذكره على هذه الطريقة وهي: الحمد لله الذي جعل آية السيف ناسخةً لكثيرٍ من الآيات وفاسخةً لعقود أولي الشك والشبهات الذي رفع بعض الخلق على بعضٍ درجات وأهل لأمور البلاد والعباد من جاءت خوارق تملكه بالذي إن لم يكن من المعجزات فمن الكرامات.

ثم الحمد لله الذي جعل الخلافة العباسية بعد القطوب حسنة الابتسام وبعد الشحوب جميلة الاتسام وبعد التشريد كل دار إسلام لها أعظم من دار السلام.

والحمد لله على أن أشهدها مصارع أعدائها وأحمد لها عواقب إعادة نصرها وإبدائها ورد تشتيتها بعد أن ظن كل أحد أن شعارها الأسود ما بقي منه إلا ما صانته العيون في جفونها والقلوب في سويدائها ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً يتلذذ بذكرها اللسان وتتعطر بنفحاتها الأفواه والأردان وتتلقاها ملائكة القبول فترفعها إلى أعلى مكان ونصلي على سيدنا محمدٍ الذي أكرمنا الله به وشرف لنا الأنساب وأعزنا به حتى نزل فينا محكم الكتاب صلى الله عليه وعلى آله الذين انجاب الدين منهم عن أنجاب ورضي الله عن صحابته الذين هم خير صحاب صلاةً ورضواناً يوفى قائلها أجره يوم الحساب من الكثرة بغير حساب يوم الحساب.

وبعد حمد الله على أن أحمد عواقب الأمور وأظهر للإسلام سلطاناً اشتدت به للأمة الظهور وشفيت الصدور وأقام الخلافة العباسية في هذا الزمن بالمنصور كما أقامها فيما مضى بالمنصور واختار لإعلان دولتها من يحيي معالمها بعد العفاء ورسومها بعد الدثور وجمع لها الآن ما كان جمح عليها فيما قبل من خلاف كل ناجم ومنحها ما كانت تبشر به صحف الملاحم وأنفذ كلمتها في ممالك الدولة العلوية بخير سيفٍ مشحوذٍ ماضي العزائم ومازج بين طاعتها في القلوب وذكرها في الألسنة وكيف لا والمنصور هو الحاكم وأخرج لحياطة الأمة المحمدية ملكاً تقسم البركات عن يمينه وتقسم السعادة بنور جبينه وتقهر الأعداء بفتكاته وتمهر عقائل المعاقل بأصغر راياته ذو السعد الذي ما زال نوره يشف حتى ظهر ومعجزه يرف إلى أن بهر وجوهره ينتقل من جيد إلى جيد حتى علا الجبين وسره يكمن في قلبٍ بعد قلبٍ حتى علم والحمد لله نبأ تمكينه في الأرض بعد حين فاختاره الله على علم واصطفاه من بين عباده بما جبله الله عليه من كرم وشجاعةٍ وحلم وأتى به الأمة المحمدية في وقت الاحتياج عوناً وفي إبان الاستمطار غيثاً وفي حين عيث الأشبال في غير الافتراس ليثاً فوجب على من له في أعناق الأمة المحمدية مبايعة رضوان وعند أيمانهم مصافحة أيمان ومن وجبت له البيعة باستحقاقه لميراث منصب النبوة ومن تصح به كل

ولايةٍ شرعية يؤخذ كتابها منه بقوة ومن هو خليفة الزمان والعصر ومن بدعواته تنزل بالنصر عليكم معاشر الإسلام ملائكة النصر ومن نسبه بنسب نبيكم صلى الله عليه وسلم متشج وحسبه بحسبه ممتزج أن يفوض ما فوضه الله إليه من أمر الخلق إلى من يقوم عنه بفرض الجهاد والعمل بالحق وان يوليه ولايةً شرعية تصح بها الأحكام وتنضبط بها أمور الإسلام وتأتي هذه العصبة الإسلامية يوم تأتي كل أمة بإمامها من طاعة خليفتهم بخير إمام وخرج أمر مولانا أمير المؤمنين شرفه الله أن يكون للمقر العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري أجله الله ونصره وأظفره وأقدره وأبده وأيده كل ما فوضه الله لمولانا أمير المؤمنين من حكم في الوجود وفي التهائم والنجود وفي المدائن والخزائن وفي الظواهر والبواطن وفيما فتحه الله وفيما سيفتحه وفيما كان فسد بالكفر والرجاء من الله أنه سيصلحه وفي كل وجود ومن وفي كل عطاء ومن وفي كل هبة وتمليك وفي كل تفرد بالنظر في أمور المسلمين بغير شريك وفي كل تعاهد ونبذ وفي كل عطاء وأخذ وفي كل عزل و تولية وفي كل تسليم وتخلية وفي كل إرفاق وإنفاق وفي كل إنعام وإطلاق وفي كل استرقاق وإعتاق وفي كل تكثير وتقليل وفي كل اتساع وتقتير وفي كل تجديد وتعويض وفي كل حمد وتقريض ولايةً عامةً تامة محكمة محكمة منضدة منظمة لا يتعقبها نسخٌ من خلفها ولا من بين يديها ولا يعتريها فسخٌ يطرأ عليها يزيدها مر الأيام جدة يعاقبها حسن شباب ولا ينتهي على الأعوام والأحقاب نعم ينتهي إلى ما نصبه الله للإرشاد من سنة وكتاب وذلك من شرع الله أقامه للهداية علماً وجعله إلى احتياز الثواب سلماً فالواجب أن يعمل بجزئيات أمره وكلياته وان لا يخرج أحدٌ عن مقدماته.

والعدل فهو الغرس المثمر والسحاب الممطر والروض المزهر وبه تتنزل البركات وتخلف الهبات وتربي الصدقات وبه عمارة الأرض وبه تؤدى السنة والفرض فمن زرع العدل اجتنى الخير ومن أحسن كفي الضرر والضير والظلم فعاقبته وخيمة وما يطول عمر الملك إلا بالمعدلة الرحيمة والرعية فهم الوديعة عند أولي الأمر فلا يخصص بحسن النظر منهم زيدٌ ولا عمرو والأموال فهي ذخائر العاقبة والمآل والواجب أن تؤخذ بحقها وتنفق في مستحقها والجهاد براً وبحراً فمن كنانة الله تفوق سهامه وتؤرخ أيامه وينتضى حسامه وتجري منشآته في البحر كالأعلام وتنشر أعلامه وفي عقر دار الحرب يحط ركابه ويخط كتابه وترسل أرسانه وتجوس خلالها فرسانه فليلزم منه ديدناً ويستصحب منه فعلاً حسناً وجيوش الإسلام وكماته وأمراؤه وحماته فهم من قد علمت قدم هجره وعظم نصره وشدة باس وقوة مراس وما منهم إلا من شهد الفتوحات والحروب وأحسن في المحاماة عن الدين الدؤوب وهم بقايا الدول.

وتحايا الملوك الأول لا سيما أولو السعي الناجح ومن لهم نسبةٌ صالحية إذا فخروا بها قيل لهم: نعم السلف الصالح فأوسعم براً وكن بهم براً وهم بما يجب من خدمتك وأنت بما يجب من حرمتهم أدرى والثغور والحصون فهم ذخائر الشدة وخزائن العديد والعدة ومقاعد للقتال وكنائن الرجاء والرجال فأحسن لها التحصين وفض أمرها إلى كل قويٍ أمين و إلى كل ذي دينٍ متين وعقل رصين ونواب الممالك ونواب الأمصار فأحست لهم الاختيار وأجمل لهم الاختبار وتفقد لهم الأخبار.

وأما ما سوى ذلك فهو داخلٌ في حدود هذه الوصايا النافعة ولولا أن الله أمرنا بالتذكير لكانت سجايا المقر الأشرف السلطاني الملكي المنصوري مكتفيةً بأنوار ألمعيته الساطعة وزمام كل صلاح يجب أن يشغل به جميع أوقاته هو تقوى الله قال الله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ".

فليكن ذلك نصب العين وشغل القلب والشفتين وأعداء الدين من أرمن وفرنج وتتار فأذقهم وبال أمرهم في كل إيراد للغزو وإصدار وثر لأن تأخذ للخلفاء العباسيين ولجميع المسلمين منهم الثأر واعلم أن الله نصيرك على ظلمهم وما للظالمين من أنصار.

وأما غيرهم من مجاوريهم من المسلمين فأحسن باستنقاذك منهم العلاج وطبهم باستصلاحك فبالطب الملكي والمنصوري ينصلح المزاج والله الموفق بمنه وكرمه.

وعلى هذه الطريقة مشى المقر الأشرف الناصري محمد بن البارزي الحموي صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية وسائر الممالك الإسلامية: جمل الله تعالى الوجود بوجوده وأناف بقدره على كيوان في ارتقائه وصعوده وجعله لسلطانه المؤيد ردءاً ما بدا سعد الملك صاعداً إلا كان له السعد سعوده.

فكتب على ذلك العهد السلطان الملك المؤيد أبي النصر شيخ خلد الله سلطانه عن الأمام المستعين بالله أبي الفضل العباس أمير المؤمنين خليفة العصر أيد الله تعالى به الدين في شعبان المكرم سنة خمس عشرة وثمانمائة بعد خلع الناصر فرج فأتى فيه بما أخجل الروض المنمنم والنجم الزاهر وأوجب على العارف بنقد الآمرين أن يقول: كم ترك الأول للآخر عدد فيه وقائعه

المشهورة وذكر مناقبه التي صارت على صفحات الأيام مرموقةً وعلى مر الليالي مذكورة وفي بطون التاريخ على توالي الجديدين وتعاقب الدهور مسطورة فكتب على ذلك الحمد لله الذي جعل الدين بنصره مؤيداً وانتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه باديةٌ بائدة العدا وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زويت له عوارف العدل ومعارف الفضل فاستغنى ولله الحمد بسعيد السعدا وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمهفأصبحت مأمونة الرداء آمنةً من الردى وامتن على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سهم تدبيره الشريف فيهم مسدداً ومياه الظفر جاريةً من قناة غوره الذي بذلك تعودا وبحر إحسانه الكامل وإن قدم العهد المديد مجدداً.

والحمد لله الذي جعل وجوه هذه الأيام بالأمن مسفرة وليالي جودها بالعدل مقمرة وعذبات أوليائها بالأفراح مزهرة وحدائق أخصائها بالنجاح مثمرة ومنازل أعدائها مقفرةً موحشة ونوازلهم مذعرةً مدهشة وأجسادهم بأمراض قلوبهم مشوشة وأكبادهم بلواعج زفراتهم معطشة.

والحمد لله الذي جعل هذه الأيام الفاضلة الجلال جليلة الفضل شاملة النظام ناظمة الشمل هامية بالمكرمات هائمة بالعدل دانية القطوف معروفةً بالمعروف مغثية الملهوف مرهبةً للألوف متصرفةً في الآفاق صارفة الصروف حمداً يبهج النفوس ويزيل البوس ويديم السرور ويذهب المحذور و " الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ".

نحمده على هذه النعم التي تفيأت الأمم بظلالها وبلغت بها النفوس غاية آمالها ورويت بعد ظمأ الخوف من حياض أمن زلالها واستسرت بعد الحزن بأفراح قبولها وإقبالها وارتفعت بعد انخفاضها رؤوس أبطالها وأقيالها.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تديم النعماء وتجزل العطاء وتكشف الغماء ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي قرن طاعة أولي الأمر بطاعته وأيد من اهتدى منهم بهدايته وأهانه لما استعان بعنايته وأظله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله في دار كرامته صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين انحازوا إلى حوزته واحتموا بحمايته وأثمر لهم غرس دينه فرعوه حق رعايته وشرف وكرم.

وبعد فلما كانت رحمة الله تعالى لغضبه سابقة ورأفته بعباده متلاحقة وكانت الممالك الشريفة قد اختلت أمورها وصار إلى الدثور معمورها وأشرف على البوار أميرها ومأمورها فالشرائع متغيرة شرائعها والعوائد مفقودةٌ مآثرها والمظالم قويٌ سلطانها كثيرٌ أعوانها ضعيفٌ مضاددها قليل معاندها فلا نائب سياسةٍ إلا مشغول بالنوائب ولا حاكم شرع إلا وقد سدت عليه المذاهب ولا تاجرٌ إلا وقد خسرت تجارته فما ربحت ولا ذو قارض إلا ورؤوس أمواله قد انقرضت ولا صاحب تراث إلا وقد محيت آية ميراثه ونسخت ولا ركن مملكةٍ إلا وقد انهدم أساسه ولا عضد دولة إلا وقد بطل إحساسه أقام سبحانه وتعالى لإزالة هذه النوازل الفادحة وإخماد نار هذه القبائح القادحة من توفرت الدواعي على استحقاقه السلطنة الشريفة وأجمعت الأمة على انحصار ذلك في أوصافه المنيفة ودلت أمائر السعود على محله الجليل وجنابه الذي إذا لاذ به من خاف الدهر رجع وطرف الدهر عنه كليل طالما اصطفى موارد العدل وأضفى أذيال الفضل وأمن الخائف وروع الحائف وأمضى في الجهاد عزمه وأنفذ في السرايا إليه حكمه وسدد إلى معاونه في غرض الكفار سهمه وفتح الطريق إلى بيت الله الحرام بعد الانسداد وأنعم على القانع والمعتر بالراحلة والزاد وعمر المساجد وجعلها آهلةً بالراكع والساجد وجلا عروس الأموي في حلل التهليل والتكبير وأعاد عود منبره الذابل وهو نضير هذا مع شجاعةٍ شاهدها وشهد بها أبطال الإسلام وسطوةٍ تخشاها الأسود في الآجام ووقارٍ يخضع بالهيبة رؤوس الأعلام وبشرٍ يطلع فجره من طالع جبهته ونورٍ ساطعٍ من جبهته وحياءٍ متطلع من طلعته وحباء متدفق من أنملته وكنت أيها الملك الجليل المؤيد لا زال شمل الدين بك مجموعاً وعلم الإسلام مرفوعاً وقلب أهل الشرك والنفاق مروعاً أنت المتصف بهذه الصفات الحميدة والكاشف لتلك الشدائد الشديدة فلم يرعك خطر الخطارة ولا انحلال أهل صرخد حيث اشتهرت عزائم صوارمك البتارة ولا خطرتك من القيسارية إلى الريدانية في أسرع من غفوة والشيخ لا تنكر له الخطوة ولا مشاهدة الحمام في الحمام ولا زاغ بصرك باللجون حين أظلم القتام حتى زال المانع وهجع الهاجع وأمنت الخطوب وفرجت الكروب وخلادست السلطنة ممن نكث الأيمان وأصر على الإثم والعدوان وأقررت اسم الخلافة على الانفراد ليستخير الله في الأصلح للعباد والبلاد.

هذا ورأي أهل الحل والعقد من ملوك الإسلام وأمرائه وقضاته وعلمائه ومشايخه وصلحائه وخاصته وعامته ورأي مولانا أمير المؤمنين أعز الله تعالى به الدين وجمع بيمن بركته شمل الإسلام والمسلمين مجمعٌ على تفويض أمر المسلمين وولاية عهدهم وكفالة السلطنة الشريفة والإمامة العظمى إليك خلد الله سلطانك وجعل الدهر خديمك والملائكة أعوانك فقدم أمير المؤمنين من الاستخارة أمام هذا التقليد ما يعتبر في السنة الشريفة ويقدم وعلم أن المصلحة فيما خاره الله وللأمة من ولايتك

أيها الملك المبجل والسلطان الأعظم وأنك أبرأ للذمة وأبر بالأمة وشاهد بإجماع الأمة على سلطنتك من التآلف والاتفاق ما نفى الخلاف والشقاق وما سر الجمهور الطائعين من غير دافع والجم الغفير لبديع آرائك ورفيع راياتك مذعنين لحسن الاتباع وأهل الحل والعقد لأمرك ونهيك قد خضعت منهم الرقاب وسارعوا إلى إجابة دعوتك حين اتضحت لهم أدلة الصواب والزمان بإفضاء الأمر إليك قد طاب واعتدل والأرض في مشارقها ومغاربها بمهابتك قد أمنت من الوجل والنفوس الأبية قد أذعنت لمبايعتك من غير مهل والفتنة وقد رد الله بالغيظ مثيرها والألفة وقد برقت من سرائر أهل التوحيد أساريرها والعساكر المنصورة قد أحاطت به كما أحاطت بالبدور الهالة وقد أنزل الله عليك ناموس المهابة والجلالة وفوض إليك ما ولاه الله من أمور الإسلام والمسلمين وأسند إليك ما في يده من مصالح عباده المؤمنين: لتقيم على أساس أحكامك دعائم الدين القويم وتسير الخلائق على منهاج طريقك المستقيم وتحسن إن شاء الله برعايتك عاقبة الرعية كما أصبحت قلوبهم بك راضية مرضية.

وعهد إليك أمير المؤمنين في كل ما وراء سرير خلافته وفي كل ما يرتبط بأحكامه إمامته وقلدك ذلك شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً وبراً وبحراً وسهلاً ووعراً وفي كل ماله من الملك والممالك وما يفتحه الله على يدك بعد ذلك تفويضاً شاملاً وتقليداً كاملاً وإسناداً عاماً ولايةً مكملة البنيان مؤسسةً على تقوى من الله ورضوان وسلطنةً آخذةً بالذمم مشتملةً على جميع الأمم يدخل في هذا العهد العام والتفويض التام والرأي الذي شهد له إجماع الأمة بالإحكام يدخل في ذلك مفضول الناس وفاضلهم وعالمهم وجاهلهم وخاصهم وعامهم وناقصهم وتامهم وشريفهم ومشروفهم وقويهم وضعيفهم وآمرهم ومأمورهم وقاهرهم ومقهورهم والجمع والجماعات وبيوت العبادة والطاعات والقضاة وأحكامها والخطباء ومنابرها وأعلامها والجيوش والعساكر والكتائب ورب سيفٍ وكاتب إنشاء وقلم حاسب وطوائف الرعايا على اختلاف أطوارهم وتفاوت أرزاقهم وأقدارهم والعربان والعشائر وبيوت الأموال والذخائر وداني الأمم وقاصيها وطائعها وعاصيها والخراج وجبايته والمصروف وجهاته والصدقات ومستحقوها والرزق ومرتزقوها والإقطاعات والأجناد وما يستعد به لمواطن الجهاد والمنع والعطاء والقبض والإمضاء والخمس والزكوات والهدن والمعاهدات والبيع والقمامات وما يظهر من أمور الملك وما يخفى وما تستدعيه براعتك في السر والخفا وشعار السلطنة وأهبتها ونواميس الملك وحرمتها.

فأجبت رعاك الله دعوة أمير المؤمنين ودعوتهم لقبول ذلك مسؤولاً معتمداً على أن الله سينزل إليك من يسددك من الملائك فعلاً وقولاً فاجلس أيدك الله على تخت ملكٍ قد هيأه الله لمواقفك المطهرة وسرير سلطنةٍ علقت سرير سعدك الامجد فتقاعست الهمم عنه مقصرة.

وهذا فالحمد لله ثم الحمد لله عن الدهر وأبنائه ولا مثل هذه النعمة بهذا الخبر وأنبائه " ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس " ما كان من قضية الدين على رغم الوسواس الخناس وهذا ما كانت الآمال تنتظر وروده وجواري القدم ترتقب سعوده: وأما الوصايا فأنت بحمد الله طالما ملأت بها الأسماع وكشفت عاطفتك لمن أردت ترتيبه عنها القناع ولكن عهد من تعبداتك السماع لشدوها والطرب لحدوها فعليك بتقوى الله فيها تورق أغصان الأرب الذوابل ويغرد طائر عزك الميمون بالأسحار والأصائل فاجعلها ربيع صدرك وأينع بها حدائق فكرك وروح بعرفها الأريج أرجاء ملكك وأجر الشرع الشريف على ما عودته من نصرك والعلماء على ما ألفوه من برك وخيرك فهم ورثة الأنبياء عليهم السلام والدالون على الشريعة بأسنة أقلامهم ما يكل عنه حد الحسام وطهر منصب الشرع الشريف من الرذائل وصن أيام ملكك الشريف عن الجهال والآكلين أموال الناس بالباطل والعدل ونستغفر الله فإنك مثمر لغراسه رافعٌ ما انهدم من أساسه قد جعلته مجلس محاكماتك وأنيس خلواتك والفضل وبرك أخجل الأقلام فلو مر بك راجيك على الصفا لارتاح للمعروف أو شاهد هباتك حاتمٌ لرجع طرفه عنها وهو مطروف ولا سرف في الخير ولا ضرر ولا ضير وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فأنت المسؤول بين يدي الله عن ذلك وانه نفسك عن الهوى بحيث لا يراك الله هناك وحدود الله فلا تتعداها والرعايا فحطها بعين رعايتك وارعاها وجند الجنود براً وبحراً وأنل أعدائك قهراً وقسراً وراجع النظر في أمر نواب السلطنة الشريفة مراجعة الناقد البصير وتيقظ لصيانة قلاع الممالك ومعاقلها وحصونها وتخير لها من ليس بمشكوك المناصحة ولا مظنونها وحطها مع عمارتها بالعدة والعدد والأقوات لكي تطمئن النفوس بمددها منها إذا طالت المدد وتفقد أحوال من فيها من المستخدمة وارع حقوق من له بها خدمةٌ متقدمة واجعل الثغور باسمةً بحفظتها ولاحظ الأمور بحسن تدبيرك المألوف في سياستها واستوص خيراً بأمرائك الخالصين من الشكوك السالكين في طاعتك أحسن السلوك وضاعف لهم الحرمة وارع لهم الذمة لا سيما أولي الفكر الثاقب والرأي الصائب فشاورهم في مهمات الأمور واشرح بإحسانك منهم الصدور وارع حقوق المهاجرين والأنصار الذين سلكت معهم مطاياهم البطاح والقفار وهجروا محبوبهم من الوطن والدار وجالدوا وجادلوا وآووا في سبيلك وقاتلوا وأنل كلاً منهم ما يرجوه واشرح صدورهم بإدراك ما أملوه وجيوش الإسلام فاغرس محبتك في قلوبهم بإحسانك وكما سبقتهم بإحسانك فتحبب إليهم بجزيل امتنانك وجيوش البحر فكن لها محيطاً وبجليات مشيها محيطاً فإنها توجه الأصقاع سليمانية الإسراع تقذف بالرعب في قلوب أعداء الدين وتقلع بقلوعها آثار الملحدين فواصل تجهيز السرايا لركوب ثبجه والغوص إلى أعداء الله في عميق لججه وأجمل النظر

في بيت الله الحرام وحرم رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام: لتسلك عين الأمن الأبطاح وتقر عيون حمره بالمائح والمتاح وتتعرف بعرفانك عرفات وترمى مخاوف الخيف من أيدي مهابتك بالجمرات وصل جيرانهما بصلاتك: لتسهر أعينهم بالدعاء لك وأنت في غفواتك.

والقدس الشريف الذي هو أحد المساجد التي تشد إليها الرحال فزد تقديسه واجعل ربوع عباداته بالصلوات مأنوسة.

وإقامة موسم الحج كل سنة فأنت بعد حركة تيمور فاتح سبيله وكاسي محمله حلل توقيره وتبجيله.

هذه الوصايا تذكرةٌ للخاطف الشريف وحاشاك من النسيان وهذا عهد أمير المؤمنين ومبايعة أولي الحل والعقد قد تقاضيا إلى حقك على الزمان وعندك كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما ضل من تمسك بهما ولامان فاتبع أحكام الله يوسع الله لك في ملكك واجعل هديك بهما إمام نهيك وأمرك وأد ما قلدك الله من حقوق الإمامة والأمانة إلى خلقه أداءً موفوراً: " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً " .

قلت: ولما كان هذا العهد قد ادرع جلباب العجائب فأعجب وارتدى برداء الغرائب فأغرب وسقي غرسه ماء البلاغة فأنجب وشنف الأسماع إذا أسمع فأرقص على السماع وأطرب وامتطى صهوة جياد البيان فتنقل فيها من كميت إلى أشقر ومن أحوى إلى أشهب أحببت أن آتي له بطرة هي له في الحقيقة ذيل ونغبةٌ من البحر وقطرةٌ من سيل لا جرم جعلتها هذا عهدٌ شريفٌ ترقمه أقلام أشعة الشمس بذهب الأصيل على صفحات الأيام وتعجمه الثريا بنقط النجوم الزواهر وإن كان لا عهد للعهود بالإعجام وتعترف ملوك الأرض أن صاحبه شيخ الملوك والسلاطين فتقدمه في الرأي وتجله في الرتبة وتعامله بالإجلال والإعظام من عبد الله ووليه وخليفته في أرضه وصفيه وسليل خلفائه الراشدين وابن عم نبيه الإمام الفلاني إلى السلطان الأعظم الملك الفلاني إلى آخر الألقاب.

وهذه نسخة عهد على هذا المذهب كتب به عن أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس خليفة العصر للملك العادل شمس الدنيا والدين مظفرشاه بالسلطنة بالمملكة الهندية في شوال سنة ثلاث عشرة وثمانمائة بدمشق المحروسة من إنشاء الشيخ الإمام علامة العصر جامع أشتات الأدب ومالك زمامه تقي الدين محمد بن حجة الشاعر الحموي ومفتي دار العدل بحماة المحروسة مما كتب بخط المولى تاج الدين عبد الرحمن بن تاج أحد كتاب الإنشاء الشريف بالأبواب الشريفة في قطع البغدادي الكامل بخفيف الطومار وكانت الطرة المكتتبة في الوصل الأول خمسة أسطر بالقلم المذكور وسطرين بخفيف المحقق والطرة البيضاء خمسة أوصال والبياض بين كل سطرين ثلث ذراع وبيت العلامة الشريفة ضعف ذلك والهامش ربع الورق عهدٌ شريفٌ عهد به عبد الله ووليه سيدنا ومولانا الإمام الأعظم العباس أبو الفضل المستعين بالله أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين أعز الله به الدين وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين إلى المقام الأشرف العالي السلطاني العادلي الشمسي أبي المجاهد مظفر شاه أعز الله تعالى أنصاره.

وقلده السلطنة المعظمة بحضرة دهلى وأعمالها ومضافاتها على عادة من تقدمه في ذلك ولايةً عامةً شاملةً كاملةً جامعة وازعةً قاطعةً ساطعة شريفةً منيفة: في سائر الممالك الهندية وأقاليمها وثغورها وبلادها وعساكرها وأكابرها وأصاغرها ورعاياها ورعاتها وحكامها وقضاتها وما احتوت عليه شرقاً وغرباً بعداً وقرباً على ما شرح فيه.

الصدر بعد البسملة الشريفة: الحمد لله الذي وثق عهد النجاح للمستعين به وثبت أوتاده: ليفوز من تمسك من غير فاصلة بسببه وزين السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً وافرغ على أعطاف الأرض حلل الخلافة الشريفة وعلم أن خلفها الشريف زهرة الحياة الدنيا فقال عز من قائل: " إني جاعلٌ في الأرض خليفة ".

واختارها من بيتٍ براعة استهلاله في أول بيتٍ وضع للناس وسبقت إرادته وله الحمد أن تكون هذه النهلة من سقاية العباس.

فالحمد لله على أن جعل هذه السقاية عيناً يشرب بها المقربون ومن علم شرفها وتمسك بقوله والحمد لله الذي استخلف آله في الأرض وفضلهم فإن تحدث أحدٌ في شرف بيتٍ فالله سبحانه قد جعل البيت والحديث لهم فأكرم به بيتاً من أقر بعبوديته كان له بحمد الله من النار عتقاً وتمتع بنعيم بركته التي لا يتجنبها إلا الأشقى وهو البيت الذي بعث الله منه شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وصفى أهله من الأدناس وأنزل في حقهم: " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

وصير علمهم الخليفتي على وجنة الدهر شامة وخصهم بالتقديم فالحمد لله والله أكبر لهذه الإمامة وإذا كان ويطهركم تطهيراً " النسيب مقدماً في المدح وهو في النظم واسطة العقود فهذا هو النسب الذي كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمود وهذا هو الركن الذي من استلمه واستند إليه قيل له: فزت بعلو سندك فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمه العباس: " يا عم ألا أبشرك قال: بلى يا رسول الله قال: إن الله فتح الأمر بي ويختمه بولدك ".

وهذا الحديث يرشد إلى التمسك بطيب العهود العباسية لتفيض على المتمسك بها نيل الوفاء وتعين من استعان بالمستعين وعلم أن النبي عليه السلام قال لجده: " أنت أبو الخلفاء ".

وناهيك أنه صلى الله عليه وسلم قال لأم الفضل وهي شاكةٌ في الحمل: " اذهبي بأبي الخلفاء " فما كان عبد الله المنتظم به هذا الشمل فاحبب بها شجرةً زكا غرسها ونما وتسامت بها الأرض وكيف لا وأصلها ثابتٌ وفرعها في السما فسلام على هذا الخلف الذي منه المستعين بالله والمتوكل عليه والواثق به والمعتصم والرشيد ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيد.

نحمده حمد من علم أن آل هذا البيت الشريف كسفينة نوح وتعلق بهم فنجا ونشكره شر من مال إلى الدخول تحت العلم العباسي وتنصل من الخوارج فوجد له من كل ضيق مخرجا ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نرجو أن تكون مقبولةً عند الحاكم وقت الأدا ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي حرضنا على التمسك بالعهود أرشدنا إلى طريق الهدى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين وفوا بالعهود وكانوا في نظام هذا الدين وجمعه فرائد العقود صلاةً يسقي عهاد لرحمة إن شاء الله عهدها وينتظم في سلك القبول عقدها وسلم تسليماً.

أما بعد حمد الله الذي ألهمنا الرشد وجعل منا الخلفاء الراشدين وهدانا بنبيه صلى الله عليه وسلم وخصنا من بيته الشريف بالأئمة المهديين واصطفى من هذا الخلف خلائف الأرض وسن مواضي العقول التي قطعت أن طاعتنا فرض فإن لعهدنا العباسي شرفاً لا يرفل في حلله إلا من اتخذ مع الله عهداً وأتاه بقلبٍ سليم فقد قال الله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: " إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم ".

لا يتمسك بهذا العهد إلا من صحا إلى القيام بواجب الطاعة وترك أهل الجهل في سكرتهم يعمهون وانتظم في سلك من أنزل الله في حقهم: " والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صبروا وأولئك هم المتقون " فمن نهض إلى المشي في منهاجه مشى بعين البصيرة في الطريق القويم وتلا له لسان الحال: " أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراطٍ مستقيم " وهو قبضةٌ من آثار البيعة النبوية وشعار يتشرف به من مشى تحت ألويته العباسية وما أرسل هذا العهد النبوي إلى أحد من ملوك الأرض إلا عمه الشرف من جميع جهاته و " الله أعلم حيث يجعل رسالته " وشدت أعواد منبره طرباً وأزهرت رونقاً وأثمرت أدباً واستطالت بيد الخلافة لإقامة الحد وكيف لا ويد الخلافة لا تطاولها يد وكان المقام الأشرف إلى آخر الألقاب المذكورة في التعريف واسمه المكتتب في الطرة هو الذي رغب في التمسك بهذا العهد الشريف ليزيل عن ملكه الالتباس واستند إليه ليروي بسنده العالي عن ابن عباس فإنه الملك الذي ظفره الله بأعداء هذا الدين وسماه مظفراً ولقبه بالشمسي واختار له أن يقارن من الطلعة المستعينية قمراً أينع زهر العدل من حضرة دهلى فعطر الآفاق وضاع نشره بالهند فعاد الشم إلى المزكوم بالعراق وصارت دمن سمنات عامرةً بقيام الدين وأيده الله فيها بعد القتال بالفتح المبين ولم يترك للعدو في بيت بيت ليلة وأبطل ما دهره أهل دهلى بحسن اليقظة وقوة الصولة وأباد الكفرة من أهل ديو ولم يقبل لهم دية وفاءوا إلى غير أمر الله فأبادهم بسيفه الهندي فلم تقم لهم فية وفطر أكباد من ناوأه بها فلازموا عن رؤيتها الصوم ونادى منادي عدله بالبلاد الهندية: لا ظلم اليوم ودانت له تلك الممالك براً وبحراً وسهلاً ووعراً ما نظم الأعداء على البحر المديد بيتاً إلا أبان زحافه وأدار عليه دوائره فكم نظم شمل الرعايا بالعدل ونثر رؤوس الطغاة بالسيف فلا عدم الإسلام ناظمه وناثره سئلت الركبان في البر عن مناقبه الجميلة وعم يتساءلون وقد صار لها عظيم النبا وصرح راكب ج فظله في البر ظليل وعدله في البحر بسيط وطويل. البحر بعد التسمية باسمه " واتخذ سبيله في البحر عجباً "

وهذا ولم يبق في تلك الممالك الهندية بقعةٌ غلا ولم يصغر الله بسنابك الخيل فيها ممشاه ولا نفسٌ خارجةٌ عن الطاعة إلا وماتت في رقعة الأرض بمظفر شاه فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السيدي الإمامي الأعظمي النبوي المستعيني سيدنا ومولانا أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس ونسبه إلى الحاكم بأمر الله والدعاء بعد أن استخار الله تعالى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين كثيراً واتخذه هادياً ونصيراً وصلى على ابن عمه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يفوض إلى

المقام الأشرف المشار إليه ولاية العهد وكفالة السلطنة المعظمة بحضرة دهلى وأعمالها كما في الطرة كما هو المعهود: ليهطل جود الرحمة على تلك البقاع المباركة إن شاء الله ويجود: لما رآه من صلاح الأمة ومصالح الخلق استخلافاً تتحلى بذكره الأفواه وتستند إليه الرواة وتترنم به الحداة وتستبشر به كافة الأمم ويقطع به ويحفظه رب كل سيفٍ وقلم ويعتمد عليه كل ذي علم وعلم فلا زعيم جيش بها إلا وهذا التفويض يسعه ويشمله ولاإقليم من أقاليمها إلا ومن به يقبله ويقبله ويتمثل به ويمتثله ولا منبر بجوامعها إلا وخطيبه يتلو برهان هذا التفويض ويرتله.

وأما الوصايا فعنده إن شاء الله تهب نسمات قبولها وتعرب عن نصب مفعولها وهو بحد الله تعالى لوصايا هذا العهد المبارك نعم القابل ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم: " سبعةٌ يظلهم الله في ظله منهم الإمام العادل " والوصية بالرعايا واجبة والعدل فيهم قد حرض النبي صلى الله عليه وسلم عليه وقال: " يومٌ من إمامٍ عادلٍ افضل من مطر أربعين صباحاً أحوج ما تكون الأرض إليه ".

وقال ابن عمنا علي رضي الله عنه " الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر ونشرهما في الرعية ضائع فالدين أسٌ والملك حارس فما لم يكن له أسٌ فمهدوم وما لم يكن له حارسٌ فضائع " فليأمر بالمعروف وينه عن المنكر عالماً أنه ليس يسأل غداً بين يدي الله عز وجل عن ذلك سوانا وسواه وينه نفسه عن الهوى فلا يحسن لعود قده أن يميل مع هواه وليترك الثغور بعدله باسمةً وقواعد الملك بفضله قائمةً وليجاهد في الله حق جهاده ويلطف بالرعايا ويعلم أن الله لطيفٌ بعباده وليشرح لهم بالإحسان صدراً ويجرهم إذا وقف على أحوالهم أحسن مجرى وهو بحمد الله غير محتاج إلى التأكيد: لأنه لم يخل له من القيام في مصالح المسلمين فكر ولكنه تجديد ذكر على ذكر و الله تعالى يمتع بطول بقائه البلاد والعباد ولا برحت سيوفه الهندية تكلم أعداء هذا الدين بألسنةٍ حداد وثبت ملكه بالعدل وشيد أقواله وأفعاله وختم بالصالحات أعماله والاعتماد على الخط الإمامي المستعيني أعلاه إن شاء الله تعالى.

قلت: ولم يعهد أنه كتب عن الخلفاء العباسيين القائمين بالديار المصرية عهدٌ لملك من غير ملوك الديار المصرية سوى هذا العهد.

المذهب الرابع أن يفتتح العهد بقوله أما بعد فالحمد لله أو أما بعد

فإن أمير المؤمنين أو أما بعد فإن كذا ونحو ذلك ويأتي بما يناسب من براعة الاستهلال وحال المتولي والمولي وما يجري مجرى ذلك مما يسنح للكاتب ذكره مما يناسب الحال ويأتي من الوصايا بما يناسب المقام: إما بلفظ الغيبة أو بلفظ الخطاب كما في غيره من المذاهب السابقة وهي طريقة اقترحها الوزير ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر أنشأ عليها عهداً في معارضة المكتوب للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من ديوان الخلافة ببغداد الآتي ذكره في المذهب الخامس وهذه نسخته: أما بعد فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذي يكون لكل خطبة قياداً ولكل أمر مهاداً ويستزيده من نعمه التي جعلت التقوى له زاداً وحملته عبء الخلافة فلم يضعف عنه طوقاً ولم يأل فيه اجتهاداً وصغرت لديه أمر الدنيا فما تسورت له محراباً ثم ولا عرضت عليه جياداً وحققت فيه قوله تعالى: " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً " يصلي على من أنزلت الملائكة لنصره إمداداً وأسري به إلى السماء حتى ارتقى سبعاً شداداً وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصراً ولا أكذب فؤاداً ثم من بعده على أسرته الطاهرة التي زكت أوراقاً وأعواداً وورثت النور المبين تلاداً ووصفت بأنها أحد الثقلين هدايةً وإرشاداً وخصوصاً عمه العباس المدعو له بأن يحفظ نفساً وأولاداً وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدةً لا تخاف دركاً ولا تخشى نفاداً.

وإذا استوفى القلم مداده من هذه الحمدلة وأسند القول فيها عن فصاحته المرسلة فإنه يأخذ في إنشاء هذا التقليد الذي جعله حليفاً لقرطاسه واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من راسه وليس ذلك إلا لإفاضته في وصف المناقب التي كثرت فحسن لها مقام الإكثار واشتبه التطويل فيها بالاختصار وهي التي لا يفتقر واصفها إلى القول المعاد ولا يستوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل في سلوك الأطواد وتلك مناقبك أيها الملك الناصر الأجل السيد الكبير العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب والديوان العزيز يتلوها عليك تحدثاً بشكرك ويباهي بك أولياءه تنويهاً بذكرك ويقول: أنت الذي تستكفى فتكون للدولة سهمها الصائب وشهابها الثاقب وكنزها الذي تذهب الكنوز وليس بذاهب وما ضرها وقد حضرت في نصرتها إذا كان غيرك هو الغائب فاشكر إذاً مساعيك التي أهلتك لما أهلتك وفضلتك على الأولياء بما فضلتك ولئن شوركت في الولاء بعقيدة الإضمار فلم تشارك في عزمك الذي انتصر للدولة فكان له بسطة الانتصار وفرقٌ بين من أمد بقلبه ومن أمد بيده في درحات الإمداد وما جعل الله القاعدين كالذين قالوا " لو أمرتنا لضربنا أكبادها إلى برك الغماد "

وقد كفاك من المساعي أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها فطمست على الدعوة الكاذبة التي كانت تدعيها ولقد مضى عليها زمنٌ ومحراب حقها محفوف من الباطل بمحرابين ورأت ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السوارين اللذين أولهما كذابين فبمصر منهما واحدٌ تاه بمجرى أنهارها من تحته ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجبته ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم أحده ولا يوم سبته وأعانه على ذلك قومٌ رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم واتخذوه صنماً بينهم ولم تكن الضلالة هناك إلا بعجل أو صنم فقمت أنت في وجه باطله حتى قعد وجعلت في جيده حبلاً من مسد وقلت ليده: تبت فأصبح وهو لا يسعى بقدم ولا يبطش بيد وكذلك فعلت بالآخر الذي نجمت باليمين ناجمته وسامت فيه سائمته فوضع بيته موضع الكعبة اليمانية وقال: هذا ذو الخلصة الثانية فأي مقاميك يعترف الإسلام بسبقه أم أيهما يقوم بأداء حقه وهاهنا فليصبح القلم للسيف من الحساد ولتقصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الأنداد ولم يحظ بهذه المزية إلا انه أصبح لك صاحباً وفخر بك حتى طال فخراً كما عز بك جانباً وقضى بولايتك فكان بها قاضياً لما كان حده قاضباً.

وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غورا ونجداً وما اشتملت عليه رعيةٌ وجنداً وما انتهت إليه أطرافها براً وبحراً وما يستنفذ من مجاوريها مسالمةً وقهراً وأضاف إليها بلاد الشام وما تحتوي عليه من المدن الممدنة والمراكز المحصنة مستثنياً منها ما هو بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمود رحمه الله: وهو حلب وأعمالها فقد مضى أبوه على آثار في الإسلام ترفع ذكره في الذاكرين وتخلفه في عقبه في الغابرين وولده هذا قد هذبته الفطرة في القول والعمل وليست هذه الربوة إلا من ذلك الجبل فليكن له منك جارٌ يدنو منه وداداً كما دنا أرضاً ويصبح وهو له كالبنيان يشد بعضه بعضاً والذي قدمناه من الثناء عليك ربما تجاوز بك درجة الاقتصاد وألفتك عن فضيلة الازدياد فإياك أن تنظر إلى سعيك نظر الإعجاب وتقول: هذه بلادٌ افتتحها بعد أن أضرب عنها كثيرٌ من الأضراب ولكن اعلم أن الأرض لله ولرسوله ثم لخليفته من بعده ولا منة للعبد بإسلامه بل المنة لله بهداية عبده وكم سلف قبلك ممن لو رام ما رمته لدنا شاسعه وأجاب مانعه لكن ذخره الله لك لتحظى في الآخرة بمفازه وفي الدنيا برقم طرازه فألق بيدك عند هذا القول إلقاء التسليم وقل: " لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ".

وقد قرن تقليدك هذا بخلعة تكون لك في الاسم شعاراً وفي الرسم فخاراً وتناسب محل قلبك وبصرك وخير ملابس الأولياء ما ناسب قلوباً وأبصاراً ومن جملتها طوقٌ يوضع في عنقك موضع العهد والميثاق ويشير إليك بأن الإنعام قد أطاف بك إطافة الأطواق بالأعناق ثم إنك خوطبت بالملك وذلك خطابٌ يقضي لصدرك بالانشراح ولأملك بالانفساح وتؤمر معه بمد يدك إلى العلياء لا بضمها إلى الجناح وهذه الثلاثة المشار إليها هي التي تكمل بها أقسام السيادة وهي التي لا مزيد عليها في الإحسان فيقال: إنها الحسنى وزيادة فإذا صارت إليك فانصب لها يوماً يكون في الأيام كريم الأنساب واجعله لها عيداً وقل: هذا عيد التقليد والخلعة والخطاب هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانةٌ تجعلك لديه حاضراً وأنت ناءٍ عن الحضور وتظن أن تكون مشتركةً بينك وبين غيرك والضنة من شيم الغيور وهذه المكانة قد عرفتك نفسها وما كنت تعرفها وما نقول إلا أنها لك صاحبةٌ وأنت يوسفها فاحرسها عليك حراسةً تقضي بتقديمها واعمل لها فإن الأعمال بخواتيمها واعلم أنك قد تقلدت أمراً يفتن به تقي الحلوم ولا ينفك صاحبه عن عهدة الملوم وكثيراً ما ترى حسناته يوم القيامة وهي مقتسمةٌ بأيدي الخصوم ولا ينجو من ذلك إلا من أخذ أهبة الحذار وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار وعلم أن الولاية ميزانٌ إحدى كفتيه في الجنة والأخرى في النار.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " يا أبا ذرٍ إني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم ".

فانظر إلى هذا القول النبوي نظر من لم يخدع بحديث الحرص والآمال ومثل الدنيا وقد سيقت إليك بحذافيرها أليس مصيرها إلى زوال.

والسعيد من إذا جاءته قضى بها أرب الأرواح لا أرب الجسوم واتخذ منها وهي السم دواءً وقد تتخذ الأدوية من السموم وما الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح وهو " كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح " و الله تعالى يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تبعاتها التي لابستهم ولابسوها وأحصاها الله عليهم ونسوها ولك أنت من هذا الدعاء حظٌ على قدر محلك من العناية التي جذبت بضعك ومخلك من الولاية التي بسطت من درعك.

فخذ هذا الأمر الذي تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان وكن في رعايته ممن إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان.

وملاك ذلك كله في إسباغ العدل الذي جعله الله ثالث الحديث والكتاب وأغنى بثوابه وحده عن أعمال الثواب وقدر يوماً منه بعبادة ستين عاماً في الحساب ولم يأمر به آمرٌ إلا زيد قوةً في أمره وتحصن به من عدوه ومن دهره ثم يجاء به يوم القيامة

وفي يده كتابا أمان ويجلس على منبر من نور على يمين الرحمن ومع هذا فإن مركبه صعبٌ لا يستوي على ظهره إلا من أمسك عنان نفسه قبل إمساك عنانه وغلبت لمة ملكه على لمة شيطانه ومن أوكد فروضه أن يمحي السنن السيئة التي طالت مدد أيامها ويئس الرعايا من رفع ظلماتها فلم يجعلوا أمداً لانحسار ظلامها وتلك هي المكوس التي أنشأتها الهمم الحقيرة ولا غنى للأيدي الغنية إذا كانت ذات نفوس فقيرة وكلما زيدت الأموال الحاصلة منها قدراً زادها الله محقاً وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الواجبة فسموها حقاً ولولا أن صاحبها أعظم الناس جرماً لما أغلظ في عقابه ومثلت توبة المرأة الغامدية بمتابه وهل أشقى ممن يكون السواد الأعظم له خصماً ويصبح وهو مطالبٌ منهم بما يعلم وبما لم يحط به علماً.

وأنت مأمورٌ بأن تأتي هذه الظلامات فتنحي عل إبطالها وتلحق أسماءها في المحو بأفعالها حتى لا يبقى لها في العيان صور منظورة ولا في الألسنة أحاديث مذكورة فإذا فعلت ذلك كنت قد أزلت عن الماضي سنة سوء سنتها يداه وعن الآتي متابعة ظلم وجده طريقاً مسلوكاً فجرى على مداه فبادر إلى ما أمرت به مبادرة من لم يضق به ذرعاً ونظر إلى الحياة الدنيا بعينه فرآها في الآخرة متاعاً واحمد الله على أن قيض لك إمام هدىً يقف بك على هداك ويأخذ بحجزتك عن خطوات الشيطان الذي هو أعدى عداك وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطرافٍ متباعدة وتفتقر في سياستها إلى أيدٍ مساعدة وبهذا تكثر فيها قضاة الأحكام وأولوا تدبيرات السيوف والأقلام وكلٌ من هؤلاء ينبغي أن يفتن على نار الاختبار ويسلط عليه شاهدا عدل من أمانة الدرهم والدينار فما أضل الناس شيءٌ كحب المال الذي فورقت من أجله الأديان وهجرت بسببه الأولاد والأخوان وكثيراً ما يرى الرجل الصائم القائم وهو عابدٌ له عبادة الأوثان فإذا استعنت بأحد منهم على شيءٍ من أمرك فاضرب عليه بالأرصاد ولا ترض بما عرفته من مبدإ حاله فإن الأحوال تتنقل تنقل الأجساد وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالربيع ابن زياد وكذلك فأمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم أن يأمروا بالمعروف مواظبين وينهوا عن المنكر محاسبين ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الغالبين وليبدأوا أولاً بأنفسهم فيعدلوا بها عن هواها ويأمروها بما يأمرون به من سواها ولا يكونوا ممن هدى إلى طريق البر وهو عنه حائد وانتصب لطب المرضى وهو محتاجٌ إلى طبيبٍ وعائد فما تنزل بركات السماء إلا على من خاف مقام ربه وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه فإذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضيء كل قومٍ إلا بمصباحهم.

ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخواناً في الاصطحاب وأعواناً في توزع الحمل الذي يثقل على الرقاب فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميراً وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيراً وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة اللفيف ويتولاها بالوطء العنيف ولكنها لمن يمال على جوانبه ويؤكل من أطايبه ولمن إذا غضب لم ير للغضب عنده أثر وإذا ألحف في سؤاله لم يلحق الإلحاف بخلق الضجر وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر فلذلك الذي يكون لصاحبه في أصحاب اليمين والذي يدعى بالحفيظ العليم وبالقوي الأمين ومن سعادة المرء أن يكون ولاته متأدبين بآدابه وجارين على نهج صوابه وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانت حسناته مثبتةً في كتابه.

وبعد هذه الوصية فإن هاهنا حسنةً هي للحسنات كالأم الولود ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجنود وتيقظت لنصره والعيون رقود وهي التي تسبغ لها الآلاء ولا يتخطاها البلاء ولأمير المؤمنين بها عنايةٌ تبعثها الرحمة الموضوعة في قلبه والرغبة في المغفرة لما تقدم وتأخر من ذنبه وتلك هي الصدقة التي فضل الله بعض عباده بمزية إفضالها وجعلها سبباً إلى التعويض عنها بعشر أمثالها.

وهو يأمرك أن تتفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليم مادة الأرزاق وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم في ضيقٍ من الإملاق فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا إليها إذ نظروا و ينبغي أن يهيء لهم من أرهم مرفقاً ويضرب بينهم وبين الفقر موبقاً.

وما أطلنا لك القول في هذه الوصية إلا إعلاماً من المهم الذي يستقبل ولا يستدبر ويستكثر منه ولا يستكثر وهذا يعد من جهاد النفس في بذل المال ويتلوه جهاد العدو الكافر في مواقف القتال و أمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما تجعل السيف في ملازمته أخا وتسخو بنفسك إن كان أحدٌ بنفسه سخا ومن صفاته أنه العمل المحبو بفضل الكرامة الذي ينمي أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة وبه تمتحن طاعة الخالق على المخلوق ولولا فضله لما كان محسوباً بشطر الإيمان ولما جعل لله الجنة لها ثمناً وليست لغيره من الأثمان وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى والذي يبلغك وتبلغه عيناً وأذنا ولا يكون للإسلام نعم الجار حتى تكون له بئس الجار ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار و أمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مكافحاً أو تطرق أرضه مماسياً أو مصابحاً بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده قصد المستنفذ لا قصد المغير وأن تحكم فيها

بحكم الله الذي قضاه على لسان سعدٍ في بني قريظة والنضير وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه تلاد الإسلام القديم وأخو البيت الحرام في شرف التعظيم والذي توجهت إليه الوجوه من قبل السجود والتسليم وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر رقبته وأصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته فانهض إليه نهضةً توغل في قرحه وتبدل صعب قياده بسمحه وإن كان عام حديبية فأتبعه بعام فتحه وهذه الاستزادة إنما تكون بعد سداد ما في اليد من ثغرٍ كان مهملاً فحميت موارده أو مستهدماً فرفعت قواعده ومن أهمها ما كان حاضر البحر فإنه عورةٌ مكشوفة وخطة مخوفة والعدو قريبٌ منه على بعده وكثيراً ما يأتي فجأةً حتى يسبق برقه برعده فينبغي أن ترتب بهذه الثغور رابطةٌ تكثر شجعانها وتقل أقرانها ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله هي العليا لا لأن يرى مكانها و حينئذ يصبح كلٌ منها وله من الرجال أسوار ويعلم أهله أن بناء السيف أمنع من بناء الأحجار ومع هذا لا بد من أسطول يكثر عدده ويقوى مدده فإنه العدة التي تستعين بها في كشف الغماء والاستكثار من سبايا العبيد والإماء وجيشه أخو الجيش السليماني: فذاك يسير على متن الريح وهذا على متن الماء ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار وتساوت أقدار خلقها على اختلاف مدة الأعمار وإذا أشرعت قيل جبالٌ متلفعة بقطع من الغيوم وإذا نظر إلى أشكالها قيل: إنها أهلة غير أنها تهتدي في مسيرها بالنجوم ومثل هذه الخيل ينبغي أن يغالى في جيادها ويستكثر من قيادها وليأمر عليها أميرٌ يلقى البحر بمثله من سعة صدره ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بخبره وكذلك فليكن ممن أفنت الأيام تجاربه وزحمتها مناكبه وممن يذل الصعب إذا هو ساسه وإن سيس لان جانبه وهذا الرجل الذي يرأس على القوم فلا يجد هزةً بالرياسة وإن كان في الساقة ففي الساقة أو في الحراسة ففي الحراسة ولقد أفلحت عصابةٌ اعتصبت من ورائه وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنصر من رائه.

واعلم أنه قد أخل من الجهاد بركن يقدح في عمله وهو تمامه الذي يأتي في آخره كما أن صدق النية يأتي في أوله وذلك هو قسم الغنائم فإن الأيدي قد تداولته بالإجحاف وخلصت جهادها في بغلوها فلم ترجع بالكفاف والله قد جعل الظلم في تعدي حدوده المحدودة وجعل الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعودة ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا شر زمانٍ وناسه شر ناس ولم يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نهمله إهمال مضيع ولا إهمال ناس والذي نأمرك به أن تجري هذا الأمر على المنصوص من حكمه وتبريء ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب بإثمه وفي أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ممن يغنيهم عن هذه الأكلة التي تكون غداً أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصةٍ وعذاباً أليماً فتصفح ما سطرناه لك في هذه الأساطير التي هي عزائم مبرمات بل آياتٌ محكمات وتحبب إلى الله و إلى أمير المؤمنين باقتفاء كتابها وابن لك منها مجداً يبقى في عقبك إذا أصيبت البيوت في أعقابها وهذا التقليد ينطق عليك بأنه لم يأل في الوصايا التي أوصاها وأنه لم يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ثم إنه قد ختم بدعواتٍ دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه وسأل فيها خيرة الله التي تتنزل من كل أمير بمنزلة نظامه ثم قال: اللهم إني أشهدك على من قلدته شهادةً تكون عليه رقيبه وله حسيبه فإني لم آمره إلا بأوامر الحق التي فيها موعظةٌ وذكرى وهي لمن اتبعها هدىً ورحمةٌ وبشرى فإذا أخذ بها فلج بحجته يوم يسأل عن الحجج ولم يختلج دون رسول الله عن الحوض في جملة من يختلج وقيل له: لا حرج عليك ولا إثم إذ نجوت من ورطات الإثم والحرج والسلام.

المذهب الخامس أن يفتتح العهد بإن أولى ما كان كذا ونحوه وهي طريقة غريبةٌ كتب عليها عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية من ديوان الإنشاء ببغداد.

وهو الذي عارضه الوزير ضياء الدين بن الأثير في العهد المتقدم ذكره في المذهب الرابع.

وهذه نسخته.

إن أولى من جادت رباعه سحب الاصطناع وخص من الاصطفاء والاجتباء بالصفايا و المرابع من ترسم انتهاج الجدد القويم والطريق الواضح المستقيم واعتلق من الولاء بأوثق عصمه وحباله والفناء الذي يهتدي بأنواره في متصرفاته وأعماله والتحلي بجميل الذكر في سيرته وخلوص الاعتناء بأمور رعيته وكان راغباً في اقتناء حميد الخلال مجتهداً في طاعة الله بما يرضيه من العدل الممتد الظلال عاملاً فيما يناط به بما يتضوع نشر خبره ويجتنى بحسن صنعه يانع ثمره باذلاً وسعه في الصلاح مؤذنةً مساعيه بالفوز القداح.

ولما كان الملك الأجل السيد صلاح الدين ناصر الإسلام عماد الدولة جمال الملك فخر الملة صفي الخلافة تاج الملوك والسلاطين قامع الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين عز المجاهدين ألب غازي بك بن يوسف بن أيوب أدام الله علوه على هذه السجايا مقبلاً وبصفاتها الكاملة مشتملاً مؤثراً تضاعف المأثرات مثابراً على ما تزكو به الأعمال الصالحات متحلياً بالمحامد الرائقة مستبداً بالمناقب التي هي لجميل أفعاله موافقةٌ مطابقة محصلاً من رضى الله تعالى ما يؤثره ويرومه من

طاعة الدار العزيزة لا زالت مشيدة البناء سابغة النعماء دائمة الاستبشار عزيزة الأنصار من استمرار الظفر ما يستدميه اقتضت الآراء الشريفة لا زال التوفيق قرينها والتأييد مظافرها ومعينها إمضاء تصرفه وإنفاذ حكمه في بلاد مصر وأعمالها والصعيد الأعلى والإسكندرية وما يفتحه من بلاد الغرب والساحل وبلاد اليمن وما افتتحه منها ويستخلصه بعد من ولايتها والتعويل في هذه الولايات عليه واستنقاذ ما استولى عليه الكفار من البلاد وإعزاز كل من أذلوه واضطهدوه من العباد: لتعود الثغور بيمن نقيبته ضاحكة المباسم وبإصابة رأيه قائمة المواسم.

أمره بادئاً بتقوى الله التي هي الجنة الواقية والذخيرة الباقية والعصمة الكافية والزاد إذا أنفض وفد الآخرة وأرملوا والعتاد النافع إذا وجدوا شاهداً لهم وعليهم ما عملوا: فإنها العلم المنصوب للرشد قال الله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفسٌ ما قدمت لغد" .

وأمره أن يتخذ كتاب لله سبحانه العلم الذي به يقتدي وبأنواره إلى حدود الصواب يهتدي ويستمع لزواجره ومواعظه ويعتبر بتخويفه وملاحظه ويصغي إليه بسمعه وقلبه وجوارحه ولبه ويعمل بأوامره المحكمة ويقف عند نواهيه المبرمة ويتدبر ما حوته آياته من الوعد والوعيد والزجر والتهديد قال الله عز وجل: " وإنه لكتابٌ عزيزٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد" .

وأمره أن يكون على صلاته محافظاً ولنفسه عن الإخلال والتقصير في أداء فرضها واعظاً فيغتنم الاستعداد أمام أوقاتها للأداء ويحترز من فواتها والحاجة إلى القضاء موفياً حقها من الركوع والسجود على الوصف الواجب المحدود مخلصاً سره عند الدخول فيها وناهياً نفسه عما يصدها بالأفكار ويلهيها مجتهداً في نهي الفكر والوسواس عن قلبه منتصباً في إخلاص العبادة لربه: ليغدو بوصف الأبرار منعوتاً قال الله تعالى: " إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً " .

وأمره بقصد المساجد الجامعة في أيام الجمع امتثالاً لأمر الله المتبع بعزيمةٍ في الخير صادقة ونية للعبادة موافقة وفي الأعياد إلى المصليات المصحرة المجملة بالمنابر الحالية التي هي عن الأدناس نائية فإنها من مواضع العبادة ومواطنها ومظان تلاوة القرآن المأمور بحفظ آدابها وسننها فقد وصف الله تعالى من وفقه لتجميل بيوته بالعمارة بما أوضح فيه الإشارة وشرفه بوضع سمة الإيمان عليه بالإكرام الفاخر فقال: " إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر" : فليقم الدعوة الهادية على المنابر على عادة من تقدمه ومنتهياً فيها إلى أحسن ما عهده وعلمه.

وأمره بلزوم نزاهة الحرمات واجتناب المحرمات والتحلي من العفاف والورع بأجل القلائد الرائقة والتقمص بملابس التقوى التي هي بأمثاله لائقة وسلوك مناهج الصلاح الذي يجمل به فعله ويصفو له عله ونهله وأن يمنع نفسه من الغضب ويردها عما تأمر به من سوء المكتسب ويأخذها بآداب الله سبحانه في نهيها عن الهوى وحملها على التقوى وردعها عن التورط في المهاوي والشبه وكل أمرٍ يلتبس فيه الحق ويشتبه ويلزمها الأخذ بالعفو والصفح والتأمل لمكان الأعمال فيه واللمح قال الله تعالى: " خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين " .

وأمره بإحسان السيرة في الرعايا بتلك البلاد واختصاصهم بالصون الرائح الغاد ونشر جناح الرعاية على البعيد منهم والقريب وإحلال كلٍ منهم محله على القاعدة والترتيب وإشاعة المعدلة فيهم وإسهام دانيهم من وافر ملاحظته وقاصيهم وأن يحمي سرحهم من كل داعر ويذود عنهم كل مواربٍ بالفساد ومظاهره حتى تصفو لهم من الأمن الشرائع وتضفو عليهم من بركة ولايته المدارع وتستنير بضوء العدل منهم المطالع ويحترم أكابرهم ويحنو على أصاغرهم ويشملهم بكنفه ودرعه وينتهي في مصالحهم إلى غاية وسعه ولا يألوهم في النصح جهداً ولا يخلف لهم في الخير وعداً ويشاورهم في أمره فإن المشورة داعيةٌ إلى الفلاح ومفتاح باب الصلاح قال الله تعالى: " فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين " .

وأمره بإظهار العدل في الرعية التي تضمها جميع الأكناف والأطراف والتحلي من النصفة بأكمل الأوصاف وحمل كافتهم على أقوم جدد وعصيان الهوى في تقويم كل أود والمساواة بين الفاضل والمفضول في الحق إذا ظهر صدق دليله والاشتمال عليهم بالأمن الذي يعذب لهم برد مقيله وكشف ظلامة من انبسطت إلى تحيفه الأيدي والأطماع وأعجزته النصرة لنفسه والدفاع وتصفح أحوالهم بعينٍ لا ترنو إلى هوى يميل بها عن الواجب وسمع لا يصغى إلى مقالة مائنٍ ولا كاذب ولا يغفل عن مصلحةٍ تعود إليهم ويرجع نفعها عليهم ولاعن كشف ظلامات بعضهم من بعض وردهم إلى الحق في كل رفع من أحوالهم وخفض فلا يرى إلا بالحق عاملاً وللأمور على سنن الشريعة حاملاً مجتنباً إغفال مصالحهم وإهمالها وحارساً نظامها على

تتابع الأيام واتصالها: ليكون ذلك إلى وفور الأجر داعياً وبحسن الأحدوثة قاضياً مقتدياً بما نطق به القرآن: " إن الله يأمر بالعدل والإحسان ".

وأمره أن يأمر بالمعروف ويقيم مناره وينهى عن المنكر ويمحو آثاره فلا يترك ممكناً من إظهار الحق وإعلانه وقمع الباطل وإخماد نيرانه ويعتمد مساعدة كل مرشد إلى الطريق الأقصد وناهٍ عن التظاهر بالمحظور في كل مشهد فإنه تضحي معونته مشاركةً في إحراز المثوبة ومساهمة ومساومةً في اقتناء الأجر ومقاسمة وأن يوعز بإزالة مظان الريب و الفساد في الداني من الأعمال والقاصي فإنها مواطن الشيطان وأماكن المعاصي وأن يشد على أيدي الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ويعينهم على ذلك بما يطيب ذكره في كل مشهد ومحضر ويجتهد في إزالة كل محظور ومنكر مقدمٍ في الباطل ومؤخر قال الله تعالى: " وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ".

وأمره أن يقدم الاحتياط في حفظ الثغور ومجاوريها من الكفار ويستعمل غاية التيقظ في ذلك والاستظهار: ليأمن عليها غوائل المكايد ويفوز من التوفيق لذلك بأنواع المحامد ويتجرد لجهاد أعداء الدين والانتقام من الكفرة المارقين أخذاً بقول رب العالمين: " انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ".

وأن يعمل فيما يحصل من الغنائم عند فل جموعهم وافتتاح بلادهم وربوعهم بقول الله وما أمر به في قسمتها وإيفاء كل صاحب حصةٍ حصته منها سالكاً سبل من غدا لآثار الصلاح مقتفياً وللفرض في ذلك مؤدياً وبهدى ذوي الرشد مهتدياً.

قال الله تعالى في محكم التنزيل: " واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ".

وأمره أن يجيب إلى الأمان من طلبه منه ويكون وفاؤه مقترناً بما تضمنه غير مضمرٍ خلاف ما يعطي به صفقة أمانه ولا مخالف باطنه ما أظهره من مقاربته إلى عقد الهدن وإتيانه ويجتنب الغدر وما فيه من العار وإسخاط الملك الجبار قال الله عز وجل: " وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ".

وأمره بأن يأمر أصحاب المعاون بمساعدة القضاة والحكام ومعونتهم بما يقضي بلم شمل الصلاح في تنفيذ القضايا والانتظام وأخذ الخصوم بإجابة الداعي إذا استحضروا إلى أبوابهم للإنصاف والمسارعة إلى الحق الواجب عليهم من غير خلاف قال الله تعالى: " وأكثرهم للحق كارهون ".

وأمره بالتعويل في المظالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والحسبة على من يأوي إلى عفافٍ ودين وعلمٍ بأحكام الشريعة وصحة يقين لا يخفى عليه ما حرمه الله تعالى وأحله ولا يلتبس على علمه ما أوضح إلى الحق الواضح سبله وإلى من يتولى المظالم بإيصال الخصوم إليه وإنصافهم كما أوجبه الله تعالى عليه واستماع ظلاماتهم وإحسان النظر في مشاجراتهم فإن أسفر للحق ضياءٌ تبعه أو اشتبه الأمر رده إلى الحكام ورفعه و إلى الناظر في أسواق الرقيق بالاحتراز والاستظهار وتعرية الأحوال من الشبه في امتزاج العبيد بالأحرار: لتضحى الأنساب مصونةً مرعية والأموال عن الثلم محروسةً محمية.

و إلى من ينظر في الحسبة يتصفح أحوال العامة في متاجرهم وأموالهم وتتبع آثار صحتهم في المعاملة واعتلالهم واعتبار الموازيين والمكاييل وإلزام أربابها الصحة والتعديل قال الله سبحانه وتعالى: " وزنوا بالقسطاس المستقيم ".

وأن يعمل الجفن في تطهير البلاد من كل مدخول الاعتقاد معروفٍ بالشبه في دينه والإلحاد ومن يسعى منهم في الفساد ويأمر المرتبين في المراكز والأطراف باقتناصهم وكف فسادهم وإجلائهم عن عراصهم وأن يجري عليهم في السياسة ما يجب على أمثالهم من الزنادقة والذين توبتهم لا تقبل وأمرهم على حكم المخاطبين لا يحمل.

قال الله تعالى: " إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ".

وأمره أن يتلقى النعمة التي أفرغت عليه وانساقت إليه بشكر ينطق به لسانه ويترجم عنه بيانه: ليستديم بذلك الإكرام ويقترن الإحسان عنده بالالتئام وأن يوفيها حقها من دوام الحمد والقصد إلى شكرها والعمد قال الله تعالى: " ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ".

وليعلم أن أمير المؤمنين قد بين له من الصلاح ما اتضحت أعلامه وأثبتت في المرامي سهامه وأرشد إلى ما أودع هذا المنشور من جدد الفوز بمرضاة الله تعالى وشكر عباده عاملاً في ذلك بمقتضى جده واجتهاده: ليحرز السبق في دنياه وعقباه ويتوفر عنده ما منح به مما أرهف عزمه وحباه وغدا بمكانه رافلاً في ملابس الفخر والبهاء نائلاً مني ما طال به مناكب القرناء واختص بما أعلى درجته فتقاعست عنه آمال حاسديه وتفرد بالمكانة عن مقام من يباريه ويناويه وأولي من الإنعام ما أمن به سرب النعمة عنده وأصفى من مناهل الإحسان ورده وأهدى إليه من المواعظ ما يجب أن يودعه واعية الأسماع ويأخذ بالعمل به كل راع فينهج أدام الله علوه محاج الولاء الذي عهده من أمثاله من الأولياء متنزهاً عن تقصيرٍ منه في عامة الأوقات ومراعياً أفعاله في جميع التصرفات ويعلم أنه مسؤول عن كل ما تلفظ به لسانه ناطقاً ونظر طرفه إليه رامقاً قبل أن يجانب هواه ويبقى رهيناً بما اكتسبت يداه ولا يغتر من الدنيا وزخرفها بغرار ليس الوفاء من طباعه ومعيرٍ ما أقصر مدة ارتجاعه! وسبيل كافة القضاة والأعيان ومقدمي العساكر والأجناد ورؤساء البلاد متابعته وموافقته وطلب مصالهم من جنابه والتصرف على استصوابه وقد أكدت وصاته في الرفق بهم والاشتمال عليهم والإحسان إليهم وإجمال السيرة فيهم وكلما أشكل عليه أمرٌ من المتجددات يطالع به الديوان العزيز مجده الله تعالى لينهج له السبيل إلى فتح رتاجه وسلوك منهاجه والله ولي التوفيق والهداية وجمع الكلمة في كل إعادةٍ وبداية والمعونة على العصمة من الزلل والتأييد في القول والعمل إن شاء الله تعالى وهو حسبنا ونعم الوكيل الوجه السابع فيما يكتب في مستند عهد السلطان عن الخليفة وما يكتبه الخليفة في بيت العلامة وما يكتب في نسخة العهد من الشهادة أو ما يقوم مقامها أما ما يكتب في المستند فقد جرت العادة أن يكتب فيه نحو ما تقدم في البيعات وعهود ولاة العهد بالخلافة: وهو: بالإذن العالي المولوي الإمامي النبوي الفلاني بلقب الخلافة أعلاه الله تعالى.

وأما ما يكتبه الخليفة في بيت العلامة فإنه يكتب علامته وتحتها: فوضت إليه ذلك وكتب فلان بن فلان.

ورأيت في بعض الدساتير نقلاً عن الحاكم بأمر الله أبي العباس ابن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان أنه كان يكتب: وكتب أحمد ابن عم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما ما يكتب في نسخة العهد من الشهادة فقد جرت العادة أن يكتب قاضيان فأكثر من قضاة القضاة الأربعة في حاشية العهد أو في ذيله ما صورته: أشهدني مولانا أمير المؤمنين العاهد المشار إليه فيه أدام الله تعالى أيامه بما نسب إليه فيه من العهد إلى فلان بن فلان أو ما في معنى ذلك.

قلت: والواجب أن يضموا في رسم شهادته الشهادة على السلطان بقبول العهد بأن يقال قبل على ما نص وشرح فيه: وعلى مولانا السلطان المشار إليه فيه بقبول ما فوض إليه فيه أو نحو ذلك: لأنه كما يعتبر العهد من العاهد يعتبر القبول من المعهود إليه كما تقدم في موضعه.

الوجه الثامن في قطع الورق الذي تكتب فيه عهود الملوك عن الخلفاء والقلم الذي يكتب به وكيفية كتابتها وصورة وضعها في الورق أما قطع الورق فلا نزاع في أنه يكتب في قطع البغدادي الكامل على ما هو مستقر العادة الآن.

وقد تقدم في الكلام على مقادير قطع الورق في المقالة الأولى من الكتاب أن عرضه ثلاثة أشبار وخمسة أصابع وطول الوصل كذلك.

وأما القلم الذي يكتب به فمختصر قلم الطومار لمناسبته له على ما تقدم فيما يناسب كل قطع من الورق من الأقلام.

وأما كيفية كتابة العهد وصورة وضعه في الورق فعلى ما تقدم في البيعات وعهود أولياء العهد بالخلافة: وهو ان يبدأ بكتابة الطرة في أعلى الدرج من أول عرض الورقة إلى آخره سطوراً متلاصقةً من غير هامشٍ وفي أعلاه قدر إصبع بياضاً ثم يترك ستة أوصالٍ بياضاً من غير كتابة غير الوصل الذي فيه الطرة ثم تكتب البسملة في أول الوصل الثامن بحيث تكون أعالي ألفاتها تكاد تحلق بالوصل الذي فوقه بهامش عن يمين الدرج قدر أربعة أصابع مطبوقة أو خمسة ثم يكتب سطراً من أول العهد تحت البسملة ملاصقاً بحيث تكاد أعالي ألفاته تلحق بالبسملة ثم يخلي بيت العلامة قدر شبر ثم يكتب السطر الثاني من العهد على سمت السطر الذي تحت البسملة ويسترسل في كتابة بقية العهد.

ثم الذي رأيته في دستور معتمد ينسب للمقر العلائي بن فضل الله أنه يكون بين كل سطرين قدر ربع ذراع.

وأخبرني بعض فضلاء الكتاب أنه رأى في بعض الدساتير أن سطوره تكون مزدوجةً على نظير البسملة والسطر الأول وبين كل سطرين بعد بيت العلامة تقدير خمسة أصابع مطبوقةٍ.

قلت: ولعل ذلك تفنن من الكاتب وتطريزٌ للكتابة لا على سبيل اللزوم.

فإن قيل: لم كان مقدار البياض بين سطور العهد مع كبر قطع الورق دون بياض ما بين سطور التقاليد ونحوها مما يكتب عن السلطان على ما سيأتي ذكره فالجواب أن العهد كالمكاتبة من العاهد للمعهود إليه كما أن التقليد كالمكاتبة من المقلد للمقلد والأعلى في حق المكتوب إليه أن تكون السطور متضايقةً على ما تقدم في الكلام على المكاتبات فناسب أن تكون سطور العهد أكثر تقارباً من سطور التقليد وما في معناه تعظيماً لشأن السلطان في الحالتين.

فإن قيل: ينقض ذلك بعظم قلم العهد ضرورة أنه كلما غلظ القلم كان أنزل في رتبة المكتوب إليه على ما تقدم أيضاً فالجواب: أن غلظ القلم في العهد تابعٌ للورق في كبر قطعه وقاعدة ديوان الإنشاء أنه كلما كبر قطع الورق في المكاتبات كان تعظيماً للمكتوب إليه بدليل أنه كل من عظم مقداره من الملوك كان قطع الورق في مكاتبته اكبر ولو كتب العهد بقلمٍ دقيق مع ضيق السطور وسعة الورق لجاء في غاية القصر.

ثم قد جرت العادة أن تكون كتابة العهد من أوله إلى آخره من غير نقط ولا شكل وعليه عمل الكتاب إلى آخر وقت.

قلت: هذا بناءً على المذهب الراجح في أن المكاتبة إلى الرئيس تكون من غير إعجام ولا ضبط: لما في الإعجام والضبط من استجهال المكتوب إليه ونسبته للغباوة وقلة الفهم بخلاف من ذهب إلى أن الكتابة إلى الرئيس تقيد بالإعجام والضبط كي لا يعترضه الشك ولا يكلف إعمال الفكر على ما تقدم ذكره في أوائل المكاتبات فإنه يرى نقط العهد وشكله.

وإذا انتهى إلى آخر العهد كتب المشيئة ثم التاريخ ثم المستند ثم الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم الحسبلة على ما تقدم في الكلام على الفواتح والخواتم في أوائل المقالة الطرة هذا عهدٌ شريفٌ تجددت مسرات الإسلام بتجديده وتأكدت أسباب الإيمان بتأكيده ووجد النصر العزيز والفتح المبين بوجوده ووفد اليمن والإقبال على الخليقة بوفوده وورد الأنام مورد الأمان بوروده.

من عبد الله ووليه الإمام المستكفي بالله أبي الربيع سليمان أمير المؤمنين ابن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد عهد به إلى السلطان الملك الناصر أبي الفتح محمدٍ خلد الله سلطانه ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي قدس الله روحه على ما شرح فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم الهامش هذا عهدٌ شريفٌ يعمر بك للإسلام المعاهد وينصر منك الاعتزام بيت لعلامة فتغني عن الموالي والمعاضد ويلقي إليك مقاليد الأمور لتحمي في مرضاة تقدير ربع ذراع.

الهامش الله وتجاهد ويبعثك على العمل بالكتاب والسنة: ليكونا شاهدين لك تقدير ربع ذراع.

عند الله في أعظم المشاهد إلى أن يأتي إلى قوله في آخره: والله تعالى فأنصاره لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة ويجعل سبب هذا العهد مدى الأيام متيناً و يجدد له في كل وقت نصراً قريباً و فتحاً مبيناً والخط الحاكمي أعلاه حجةٌ بمقتضاه إن شاء الله تعالى كتب في من شهر كذا سنة كذا بالإذن المولوي العالي الإمامي النبوي الحاكمي أعلاه الله تعالى الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلامه حسبنا الله ونعم الوكيل النوع الثالث من العهود عهود الملوك لولاة العهد بالملك وهو أن يعهد الملك بالملك بعده لمن يختاره من أولاده أو إخوته أو غيرهم من الأقارب أو الأجانب.

ويتعلق النظر به من سبعة أوجه: في بيان صحة ذلك لما صحت إمارة الاستيلاء إخماداً للفتن وتنفيذاً للأحكام الشرعية على ما تقدم من كلام الماوردي في النوع الثاني من العهود اقتضت المصلحة تصحيح العهد بالملك لما فيه من المعنى المتقدم.

وقد جرت عهودٌ من الملوك لأبنائهم بالديار المصرية وغيرها بحضرة الجم الغفير من العلماء وأهل الحل والعقد فأمضوا حكم ذلك ولم ينكروه وذلك منهم دليل الجواز.

فإن قيل: قد تقدم في النوع الثاني من العهد من كلام الماوردي أن وزير التفويض لا يجوز له أن يعهد بالوزارة لغيره ووزارة التفويض في معنى السلطنة الآن أو قريبةٌ منها على ما تقدم هناك فالجواب: أنه قد تقدم أن السلطنة الآن مركبة من وزارة التفويض وإمارة الاستيلاء بل السلطان الآن كالمستبد بالأمر والشوكة مصححة لأصل الولاية فلأن تكون مصححة لفرعها أولى.

الوجه الثاني فيما يكتب في الطرة ينبغي أن يكون ما يكتب فيها على نحو ما يكتب في طرر عهود الملوك عن الخلفاء إلا أنه يزاد فيها: عهد إليه بالملك بعده كما يقال في عهود الخلفاء عن الخلفاء: عهد إليه بالأمر بعده.

هذا عهدٌ شريفٌ جليلٌ قدره رفيعٌ ذكره عليٌ فخره متبلج صبحه ضويٌ فجره.

من السلطان الأعظم الملك الفلاني فلان الدنيا والدين فلان خلد الله تعالى سلطانه ونصر جيوشه وأعوانه بالسلطنة الشريفة لولده المقام العالي السلطاني الملكي الفلاني بلغه الله تعالى فيه غاية الآمال وحقق فيه للرعية ما يرجونه من مزيد الإفضال على ما شرح فيه.

الوجه الثالث في الألقاب التي تكتب في أثناء العهد وقد ذكر في التعريف أنه يكتب له: المقام الشريف أو الكريم أو العالي مجرداً عن الشريف والكريم ويقتصر فيها على الألقاب المفردة دون المركبة.

قلت: وعلى هذه الطريقة كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ألقاب الملك الصالح علي بن المنصور قلاوون في عهده بالسلطنة عن والده المذكور فقال: ولما كان المقام العالي الولدي السلطاني الملكي الصالحي العمادي.

وعلى نحو من ذلك كتب المشار إليه ألقاب الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس في عهده بالسلطنة عن والده المذكور فقال: وخرج أمرنا بأن يكتب هذا التقليد لولدنا الملك السعيد ناصر الدين بركة خاقان محمد إلا أنه قد خالف ذلك فيما كتب به في ألقاب الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون في عهده بالسلطنة عن والده فجمع بين الألقاب المفردة والمركبة فقال: هذا عهدنا للسيد الأجل الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين فخر الملوك والسلاطين خليل أمير المؤمنين ولم يتعرض في التعريف لحكاية هذا المذهب مع كون كلام ابن عبد الظاهر حجةً يرجع إليه في هذا الفن.

الوجه الرابع ما يكتب في المستند ويتعين أن يكتب فيه حسب المرسوم الشريف لصدوره عن السلطان كما يكتب في التقاليد.

الوجه الخامس ما يكتب في متن العهد وللكتاب فيه طريقتان الطريقة الأولى أن يفتتح العهد بعد البسملة بلفظ هذا وعلى هذه الطريقة كتب أبو بكر بن القصيرة المغربي الكاتب عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سلطان المغرب بولاية عهده لابنه أبي الحسن على ما بيده من الغرب والأندلس في ذي الحجة سنة ستٍ وتسعين وأربعمائة وهو: كتاب تولية عظيمٍ جسيم وتوصية حميم كريم مهدت على الرضا قواعده وأكدت بيد التقوى معاقده وأبعدت عن الغواية والهوى مصادره وموارده أنفذ أمير المسلمين وناصر الدين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين أدام الله أمره وأعز نصره وأطال فيما يرضيه ويرضى به عنه عمره غير محابٍ ولا تاركٍ في النصيحة لله عز وجل ولرسوله موضع ارتيابٍ لمرتاب للأمير الأجل أبي الحسن علي ابنه المتقبل شيمه وهممه المتأثل حمله وتحمله الناشيء في حجر تقويمه وتأديبه المتصرف بين يدي متحديه وتهذيبه أدام الله عزه وتوفيقه وأنهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه وقد تهمم بمن تحت عصاه من المسلمين وهذا فيمن يخلفه فيهم هدًى للمتقين ولم ير أن يتركهم سدًى غير مدينين فاعتام في النصاب الرفيع واختار واستنصح أولي الرأي منهم ومن غيرهم واستشار واستضاء بشهاب استخارة الله عز وجل واستنار فلم يوقع الله بعد طول تأمل وتراخي مدةٍ وتمهل اختياره ولا اختيار من فاوضه في ذلك من أولي التقوى والحكمة والتجربة واستشاره إلا عليه ولا صار به وبهم الاجتهاد إلا إليه ولا التقى وراد التراثي والتشاور إلا بين يديه فولاه على استحكام بصيرةٍ وبعد طول مشورةٍ عهده وأفضى إليه بالأمر والنهي والبسط والقبض بعده وجعله خليفته في رعايا مسنده وأوطأ عقبه جماهير الرجال وناطه بمهمات الأموال والأحوال وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع ولا يعدل عن سمت العدل وحكم الكتاب والسنة في أحدٍ عصى أو أطاع ولا ينام به عن حماية من أسهره الحيف والخوف والاضطجاع ولا يتلهى دون معلن شكوى ولا يتصمم عن مستصرخ لدفاع بلوى وأن ينتظم أقصى بلاده وأدناها في سلك تدبيره ولا يكون بين القريب والبعيد من رعيته بونٌ في إحصائه وتقديره ثم دعا أدام الله تأييده لمبايعته من دنا ونأى من المسلمين فلبوا مسرعين وأتوا مهطعين وأعطوا صفقة أيمانهم متبرعين متطوعين وبايعوه على السمع والطاعة والتزام سنن الجماعة وبذل النصيحة وإصفاء النيات الصحيحة وموادة من صاحبه ومحاربة من حاربه ومكايدة من كايده ومعاندة من عانده

لا يدخرون في ذلك على حال المكره والمنشط مقدرة ولا يحتجون في وقتي السخط والرضا بمعذرة ثم أمر بمخاطبة أهل البلاد لتبايعه كل طائفة في بلدها وتعطيه كما أعطاه من حضر صفقة يدها حتى يستوي في التزام بيعته القريب والبعيد ويجتمع على الاعتصام بحبل دعوته الغائب والشهيد وتطمئن من أعلام الناس وخيرهم قلوبٌ كانت من تراخي ما انتجز قلقة ولم تزل ببقية التأخر أرقة ويشمل الناس السرور والاستبشار وتتمكن لهم الدعة ويتمهد القرار وتنشأ في الصلاح لهم آمال ويستقبلهم جد صاعدٌ وإقبال والله يبارك لهم فيها بيعة ورضوان وصفقة رجحان ودعوة إيمان إنه على ما يشاء قدير لا إله إلا هو نعم المولى ونعم النصير.

شهد على أمير المسلمين ناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين أدام الله أمره وأعز نصره بكل ما ذكر عنه من التزام البيعة المنصوصة فوق هذا وأعطى صفقة يمينه متبرعاً بها وبالله التوفيق وذلك بحضرة قرطبة حماها الله تعالى.

الطريقة الثانية افتتاح العهد بعد البسملة بالحمد الله أن يفتتح العهد بعد البسملة بخطبة مفتتحةٍ بالحمد لله وهي طريقة المصريين وعليها اقتصر المقر الشهابي بن فضل الله في التعريف وعلى هذه الطريقة كتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر عن الظاهر بيبرس عهد ولده الملك السعيد بركة وهذه نسخته: الحمد لله منمي الغروس ومبهج النفوس ومزين سماء المملكة بأحسن الأهلة وأضوإ البدور وأشرق الشموس الذي شد أزر الإسلام بملوك يتعاقبون مصالح الأنام ويتناوبون تدبيرهم كتناوب العينين واليدين في مهمات الأجساد وملمات الأجسام.

نحمده على نعمه التي أيقظت جفن الشكر المتغافي وأوردت نهل الفضل الصافي وخولت الآلاء حتى تمسكت الآمال منها بالوعد الوفي وأخذت بالوزن الوافي ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبدٍ كثر الله عدده وعدده وأحمد أمسه ويومه ويحمد إن شاء الله تعالى غده ونصلي على سيدنا محمد الذي أطلع الله به نجم الهدى وألبس المشركين به أردية الردى وأوضح به مناهج الدين وكانت الطرائق قددا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً دائمةً الله لا تنقضي أبدا.

وبعد فإنا ألهمنا الله من مصالح الأمم وخولنا من الحرص على مهمات العباد الذي قطع به شأفة الكفر وختم وأتى به والشرك قد علم كل أحدٍ اشتعال ناره فكان علماً بنارٍ مضرمة لا ناراً على علم وقدره من رفع الكفر من جميع الجوانب وقفوهم من كل جهة حتى رماهم بالحتف الواصل والعذاب الواصب فأصبح الشرك من الإبادة في شرك و الإسلام لا يخشى من قتل ولا يخاف من درك وثغور الإسلام عالية المبتنى جانيةٌ ثمار الادخار من هنا ومن هنا تزاحم بروجها في السماء البروج وتشاهد الأعداء منها سماءً قد بنيت وزينت ومالها من فروج وعساكر الملة المحمدية في كل طرف من أطراف الممالك تجول وفي كل وادٍ تهيم حتى تشعر بالنصر ولكنها تفعل ما تقول: قد دوخت البلاد فقتلت العداء تارةً بالإلمام وتارة بالإدهام وسلت سيوفها فراعتهم يقظةٌ بالقراع ونوماً بالأحلام ترى أنا قد لذ لنا هذا الأمر التذاذ المستطيب وحسن لدينا موقعه فعكفنا عليه عكوف المستجيد ولبيناه تلبية المستجيب وجعلنا فيه جميع الآلات و الحواس وتقسمت مباشرته ومؤامرته سائر الزمن حتى غدا أكثر تردداً إلى النفس من الأنفاس واستنفدنا الساعات في امتطاء المضمر الشموس وادراع محكم الدلاص التي كأنها وميض برقٍ أو شعاع شموس وتجريد المرهفات التي جفت لحاظها الأجفان وجرت فكالمياه وأضرمت فكالنيران وتفويق السهام التي غدت قسيها مرابعاً نبالها بان واعتقال السمهرية التي تقرع الأعداء سنها ندماً كلما قرعت هي السنان إلى غير ذلك من كل غارةٍ شعواء تسيء للكفار الصباح وتصدم كالجبال وتسير كالرياح ومنزلاتٍ كم استلبت من موجود وكم استنجزت من نصرٍ موعود وكم مدينةٍ أضحت لها ولكن أخرها الله إلى أجل معدود.

وكانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرعٌ تفرسنا فيه الزيادة والنمو وتوسمنا منه حسن الجنى المرجو ورأينا أنه الهلال الذي قد أخذ في ترقي منازل السعود إلى الإبدار وأنه سرنا الذي صادف مكان الاختبار له مكان الاختيار فأردنا أن ننصبه في منصب أحلنا الله فسيح غرفه ونشرفه بما خولنا الله من شرفه وأن تكون يدنا ويده تلتقطان من ثمره وجيدنا وجيده يتحليان بجوهره وأنا نكون للسلطنة الشريفة السمع والبصر وللملكة المعظمة في التناوب بالإضاءة الشمس والقمر وأن تصول الأمة منا ومنه بحدين ويبطشوا من أمرنا وأمره بيدين وان نرتبه على حسن سياسةٍ تحمد الأمة إن شاء الله تعالى عاقبتها عند الكبر وتكون الخلاق الملوكية منتشئة منه ومنتشئة به من الصغر ونجعل سعي الأمة حمدياً ونهب لهم منه سلطاناً نصيراً وملكاً سعيداً ونقوي به عضد الدين ونريش جناح المملكة وننجح مطلب الأمة بإيالته وكيف لا ينجح مطلب فيه بركة.

وخرج أمرنا لا برح مسعداً ومسعفاً ولا عدمت الأمة منه خلفاً منبلاً ونواءً محلفاً بأن يكتب هذا التقليد لولدنا السعيد ناصر الدين بركة خاقان محمد جعل الله مطلع سعده بالإشراق محفوفاً وأرى الأمة من ميامنه ما يدفع للدهر صرفاً ويحسن بالتدبير تصريفاً بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها وغورها ونجدها وقلاعها وثغورها وبرورها وبحورها وولايتها

وأقطارها ومدنها وأمصارها وسهلها وجبلها ومطلعها ومغتلها وما تحوي أقطاره الأحلام وما ينسب للدولة القاهرة من يمنٍ وحجازٍ ومصر وغربٍ وسواحل وشامٍ بعد شام وما يتداخل ذلك من قفار ومن بيدٍ في سائر هذه الجهات وما يتخللها من نيل وملح وعذبٍ فرات ومن يسكنها من حقير وجليل ومن يحلها من صاحب رغاء وثغاء وصليل وصهيل وجعلنا يده في ذلك كله المبسوطة وطاعته المشروطة ونواميسه المضبوطة ولا تدبير ملكٍ كلي إلا بنا أو بولدنا يعمل ولا سيف ولا رزق إلا بأمرنا هذا يسل وهذا يسأل ولا دست سلطنةٍ إلا بأحدنا يتوضح منه الإشراق ولا غصن قلم في روض أمر ونهي إلا ولدينا ولديه تمتد له الأوراق ولا منبر خطيبٍ إلا باسمنا يميس ولا وجه درهم ولا دينارٍ إلا بنا يشرق ويكاد تبرجاً لا بهرجاً يتطلع من خلال الكيس.

فليتقلد الولد ما قلدناه من أمور العباد وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد وسنتعاهد هذا الولد من الوصايا بما سينشأ معه توءماً ويمتزج بلحمه ودمه حتى يكاد يكون ذلك إلهاماً لا تعلماً وفي الولد بحمد الله من نفاذ الذهن وصحة التصور ما تتشكل فيه الوصايا أحسن التشكيل وتظهر صورة الإبانة في صفائه الصقيل فلذلك استغنينا عن شرحها هاهنا مسرودة وفيه بحمد الله من حسن الخليقة ما يحقق أنها بشرف الإلهام موجودة والله لا يعدمنا منه إشفاقاً وبراً ويجعله أبداً للأمة سنداً وذخراً إن شاء الله تعالى.

وعلى ذلك كتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر أيضاً عن المنصور قلاوون عهد ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل وهذه نسخته: الحمد لله الذي لم يزل له السمع والطاعة فيما أمر والرضا والشكر فيما هدم من الأعمار وما نحمده على أن جعل سلطاننا ثابت الأركان كل روضة من رياضه ذات أفنان لا تزعزعه ريحٌ عقيم ولا يخرجه رزءٌ عظيم عن الرضا والتسليم ولا يعتبط من حملته كريمٌ إلا ويغتبط من أسرته بكريم ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تزيد قائلها تفويضاً وتجزل له تعويضاً وتحسن له على الصبر الجميل في كل خطب جليلٍ تحريضاً ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أنزل عليه التسليم: " وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل ".

والنبي الذي أوضح به المنهاج وبين به السبل صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما تجاوبت المحابر والمنابر في البكر والأصل وما نثرت عقود ونظمت ونسخت آياتٌ وأحكمت ونقضت أمورٌ وأبرمت وما عزمت آراء فتوكلت وتوكلت فعزمت ورضي الله عن أصحابه الذين منهم من كان للخليفة نعم الخليفة ومنهم من لم يدرك أحدٌ في تسويد النفس الحصيفة ولا في تبييض الصحيفة مده ولا نصيفه ومنهم من يسره الله لتجهيز جيش العسرة فعرف الله ورسوله معروفه ومنهم من علم صالحاً أرضى ربه وأصلح في ذريته الشريفة.

وبعد فإن من ألطاف الله تعالى واكتناف عواطفه ببلاده أن جعلنا كلما وهى للملك ركنٌ شديدٌ شيدنا ركناً عوضه وكلما اعترضت للمقادير جملةٌ بدلنا آيةٌ مكان آيةٍ وتناسينا تجلداً تلك الجملة المعترضة فلم يحوج اليوم لأمسه وإن كان حميداً ولا الغارس لغرسه وإن كان ثمره يانعاً وظله مديداً فأطلعنا في أفق السلطنة كوكباً كان لحسن الاستخلاف معداً ومن لقبيل المسلمين خيرٌ ثواباً وخيرٌ مرداً ومن يبشر الله به من الأولياء المتقين وينذر من الأعداء قوماً لداً ولم يبق إلا به أنسنا بعد ذهاب الذين تحسبهم كالسيف فرداً والذي أمضى حده ضريبةٌ إلا قد البيض والأبدان قداً ولا جهز راية كتيبة إلا أغنى غناء الذاهبين وعد الأعداء عداً ولا بعثه جزع فقال: كم من أخ لي صالح إلا لقيه ورعٌ فقال: وخلقت يوم خلقت جلداً وهو الذي بقواعد السلطنة أدرى وبقوانينها الأعرف وعلى الرعايا الأعطف وبالرعايا الأرأف وهو الذي ما قيل لبناء ملك هذا عليه قد وهى إلا وقيل هذا بناءٌ مثله منه أسمى ملكٌ أشرف والذي ما برح النصر ينتسم من مهاب تأميله الفلاح ويبتسم ثغره فتتوسم الثغور من مبسمه النجاح ويقسم نوره على البسيطة فلا مصرٌ من الأمصار إلا وهو يشرئب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح ويتفتق اشتقاق النعوت فيقول التسلي للتملي: سواءٌ الصالح والصلاح والذي ما برح لشعار السلطنة إلى توقله وتنقله أتم حنين وكأنما كوشفت الإمامة العباسية بشرف مسماه فيما تقدم من زمنٍ سلف ومن حين فسمت ووسمت باسمه أكابر الملوك وأخاير السلاطين فخوطب كلٌ منهم مجازاً لا كهذه الحقيقة بخليل أمير المؤمنين والذي كم جلا ببهي جبينه من بهيم وكم غدا الملك بحسن روائه ويمن آرائه يهيم وكم أبرأ مورده العذب هيم عطاشٍ ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه إبراهيم ومن تشخص الأبصار لكماله يوم ركوبه حسيرة وتلقي البنان سلاحها ذهلاً وهي لا تدري لكثرة الإيماء إلى جلاله إذا يبدو مسيره والذي ألهم الله الأمة لجوده ووجوده صبراً جميلاً وأتاهم من نفاسة كرمه وحراسة سيفه وقلمه تأميناً وتأميلاً وعظم في القلوب والعيون بما من بره سيكون فسمته الأبوة الشريفة ولداً وسماه الله خليلاً.

ولما تحتم من تفويض أمر الملك إليه ما كان لوقته المعلوم قد تأخر وتحين حينه فكمل زيادةً كزيادة الهلال حتى بادر تمامه فأبدر اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجمهور والمراقبة لمصالح الأمور والمصاقبة لمناجح البلاد والثغور والمقاربة من فواتح

كل أمر ميسور أن نفوض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظمة المكرمة المفخمة المنظمة وأن يبسط يده المنيفة لمصافحتها بالعهود وتحكمها في العساكر والجنود وفي البحور والثغور وفي التهائم والنجود وأن يعدق ببسطها وقلمها كل قطع ووصل وكل فرع وأصل وكل نصر ونصل وكل ما يحمي سرحاً ويهمي منحاً وفي المثيرات في الإعداء على الأعداء نقعاً وفي المغيرات صبحاً وفي المنع والإطلاق وفي الإرفاد والإرفاق وفي الخميس إذا ساق وفي السيوف إذا بلغت التراقي وقيل من راق وفي الرماح إذا التفت الساق بالساق وفي المعاهدات والهدن وفي الفداء بما عرض من عرض وبالبدن بالبدن وفيما ظهر من أمور الملك وما بطن وفي جميع ما تستدعيه بواعثه في السر والعلن وتسترعيه نوافثه من كبت وكتب متفرقين أو في قرن عهداً مباركاً عوذه وتمائمه وفواتحه وخواتمه ومناسمه ومياسمه وشروطه ولوازمه وعلى عاتق الملك الأعز نجاده وفي يد جبار السماوات قائمه لا راد لحكمه ولا ناقض لبرمه ولا داحض لما أثبته الأقلام من مكنون علمه.

ويزيده مر الليالي جدةً وتقادم الأيام حسن شباب وتلزم السنون والأحقاب استيداعه للذراري والأعقاب فلا سلطانٌ ذو قدر وقدرة ولا ذو أمر وإمرة ولا نائبٌ في مملكة قربت أو بعدت ولا مقدم جيوش أتهمت أو أنجدت ولا راع ولا رعية ولا ذو حكم في الأمور الشرعية ولا قلم إنشاءٍ ولا قلم حساب ولا ذوو أنساب ولا ذوو أسباب إلا وكلٌ داخلٌ في قبول هذا العهد الميمون ومتمسكٌ بحكم كتابه المكنون والتسليم لنصه الذي شهد به من الملائكة الكرام الكاتبون وأمست بيعته بالرضوان محفوفة والأعداء يدعونها تضرعاً وخيفة وليشكروا الصنيع الذي بعد أن كانت الخلفاء تسلطن الملوك قد صار سلطانهم يقيم من ولاة العهد خليفة بعد خليفة.

وأما الوصايا فأنت يا ولدنا الملك الأشرف أعزك الله بها الدرب ولسماع شدوها وحدوها الطرب الذي للغو لا يضطرب فعليك بتقوى الله عز وجل فإنها ملاك سدادك وهلاك أضدادك وبها يراش جناح نجاحك ويحسن اقتداء اقتداحك فاجعلها دفين جوانح تأميلك ووعيك ونصب عيني أمرك ونهيك والشرع الشريف فهو قانون الحق المتبع ومأمون الأمر المستمع وعليه مدار إيعاء فلا تخرج في كل كل إيعاز وبه يتمسك من أشار وامتاز وهو جنة والباطل نار: " فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز " حال عن لوازمه وشروطه ولا تنكب على معلقه ومنوطه.

والعدل فهو مثمرٌ غروس الأموال ومعمرٌ بيوت الرجاء والرجال وبه تزكو الأعمار والأعمال فاجعله جامع أطراف مراسمك وأفضل أيام مواسمك وسم به فعلك وسم به فرضك ونفلك ولا تفرد به فلاناً دون فلان ولا مكاناً دون مكان واقرنه بالفضل: " إن الله يأمر بالعدل والإحسان ".

وأحسن التخويل وأجمل التنويل وكثر لمن حولك من التموين التمويل وضاعف الخير في كل مضاف لمقامك ومستضيفٍ بإنعامك حتى لا تعدم في كل مكان وكل زمان ضيافة الخليل والثغور فهي للممالك مباسمها وللمسالك مناسمها فاجعل نواجذها تفتر عن حسن ثنايا الصون ومراشفها شنبة الشفاه بحسن العون ومنها بما يحمي السرح منها وأعنها بما يدفع المكاره عنها فإنها للنصر مقاعد وبها حفظ البلاد من كل مارٍ من الأعداء مارد وأمراء الجيوش فهم السور الواقي بين يدي كل سور وما منهم إلا كل بطل بالنصر مشهور كما سيفه مشهور وهم ذخائر الملوك وجواهر السلوك وأخاير الأكابر الذين خلصوا من الشكوك وما منهم إلا من له خدمات سلفت وحقوقٌ عرفت وموات على استلزام الرعاية للعهود وقفت فكن لجنودهم متحبباً ولمرابعهم مخصباً ولمصالحهم مرتباً ولآرائهم مستصوباً ولاعتضادهم مستصحباً وفي حمدهم مطنباً وفي شكرهم مسهباً والأولياء المنصوريون الذين هم كالأولاد ولهم سوابق أمت من سوابق الإيجاد وهم من علمت استكانةً من قربنا ومكانةً من قلبنا وهم المساهمون فيما ناب وما برحوا للدولة الظفر والناب فأسهم لك منهم من احترامك نصيباً وأدم لهم ارتياحك وألن جماحك وقوهم بسلاحك تجد منهم ضروباً وترى كلاً منهم في أعدائك ضروباً.

وكما أنك نوصيك بجيوش الإسلام كذا نوصيك بالجيش الذي له جوار المنشآت في البحر كالأعلام فهو جيش الأمواه والأمواج المضاف إلى الأفواج من جيش الفجاج وهو الجيش السليماني في إسراع السير وما سميت شوانيه غرباناً إلا ليجتمع بها لنا ما اجتمع لسليمان صلى الله عليه وسلم من تسخير الريح والطير وهي من الديار المصرية على ثبج البحر الأسوار فإن قذفت قذفت الرعب في قلوب الأعداء وإن أقلعت قلعت منهم الآثار فلا تخله من تجهيز جيشه وسكن طيش البحر بطيشه فيصبح لك جيشان كلٌ منهما ذو كرٍ وفر هذا في برٍ بحرٌ وهذا ببحرٍ بر وبيوت العبادات فهي التي إلى مصلى سميك خليل الله تنتهي محاريبها وبها لنا ولك وللمسلمين سرى الدعوات وتأويبها فوفها نصيبها المفروض غير منقوص ومر برفعها وذكر اسم الله تعالى فيها للأمر المنصوص وأخواتها من بيوت الأموال الواجدات الواجبات من حيث إنها كلها بيوت الله عز وجل: هذه للصلاة وهذه للصلات وهذه كهذه في رفع المنار وجمع المبار وإذا كانت تلك مما أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه فهذه ترفع ويذكر فيها اسمه حتى على الدرهم والدينار فاصرف إليها اجتهادك فيما يعود بالتثمير كما يعود على تلك بالتنوير وعلى هذه

بإشحانها بأنواع الصروف كإشحان تلك باستواء الصفوف فإنها إذا أصبحت مصونة أجملت بحمد الله المعونة وكفلت بالمؤونة وبالزيادة على المؤونة فتكمل هذه لكل ولي دنياه كما كملت تلك لكل ولي دينه وحدود الله فلا يتعداها أحد ولا يرأف فيها ولدٌ بوالد ولاوالد بولد فأقمها وقم في أمرها حتى تنضبط أتم الضبط ولا تجعل يد الفتك مغلولةً إلى عنقها ولا تبسطها كل البسط فلكلٍ من الجنايات والقصاص شرط شرطه الله وحدٌ حده فلا يتجاوز أحد ذلك الحد ولا يخرج عن ذلك الشرط والجهاد فهو الديدن المألوف من حيث نشأ نشأ ونشأتك.

وفي ظهور الخيل فمل على الأعداء كل الميل وصبحهم من فتكاتك بالويل بعد الويل وارمهم بكل شمري قد شمر من يده عن الساعد ومن رمحه عن الساق ومن جواده الذيل واذهب لهم من كل ذلك مذهب وأنر بنجوم الجرسان كل غيٍ وغيهب وتكثر في غزوهم من الليل بكل أدهم ومن الشفق بكل أحمر وأشقر ومن الأصيل بكل أصفر ومن الصبح بكل أشهب واستنهب أعمارهم واجعلها آخر ما يسلب وأول ما ينهب ونرجو أن يكون الله قد خبأ لك من الفتوحات ما يستنجزها لك صادق وعده وان ينصر بك جيوش الإسلام في كل إنجاد وإتهام وما النصر إلا من عنده وبيت الحج المحجوج من كل فج المقصود من كل نهج فسير سبيله ووسع له الخير وأحسن تسبيله وأوصل من برك لكلٍ من الحرمين ما هو له لتصبح ربوعه بذلك مأهولة واحمه ممن يريد فيه بإلحادٍ بظلم وطهره من مكس وغرم: ليعود نفعك على البادي والعاكف ويصبح واديه وناديه مستغنين بذلك عن السحاب الواكف والرعايا فهم للعدل زروع وللاستثمار فروع ولاستلزام العمارة شروع فمتى جادهم غيثٌ أعجب الزراع نباتهم ونمت بالصلاح أقواتهم وصلحت بالنماء أوقاتهم وكثرت للجنود مستغلاتهم وتوفرت زكواتهم وتنورت مشكاتهم والله يضاعف لمن يشاء.

هذا عهدنا للسيد الأجل الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين فخر الملوك والسلاطين خليل أمير المؤمنين أعز الله تعالى ببقائه الدين فليكن بعروته متمسكاً وبنفحته متمسكاً وليتقلد سيف هذا التقليد ويفتح مغلق كل فتح منه بخير إقليد وها نحن قد كثرنا لديه جواهره فدونه ما يشاء تحليته من تتويج مفرقٍ وتختيم أنامل وتسوير زند وتطويق جيد ففي كل ذلك تبجيلٌ وتمجيد و الله تعالى يجعل استخلافه هذا للمتقين إماماً وللدين قواماً وللمجاهدين اعتصاماً وللمعتدين انفصاماً ويطفئ بمياه سيوفه نار كل خطب حتى يصبح كما أصبحت نار سميه صلى الله عليه وسلم برداً وسلاماً إن شاء الله تعالى.

على ذلك كتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر عن المنصور قلاوون المتقدم ذكره عهد ولده الملك الصالح علاء الدين علي وهذه نسخته: الحمد لله الذي شرف سرير الملك منه بعليه وحاطه منه بوصيه وعضد منصوره بولاية عهد صالحه وأسمى حاتم جوده بمكارم حازها بسبق عديه وأبهج خير الآباء من خير الأبناء بمن سمو أبيه منه بشريف الخلق وأبيه وغذى روضه بمتابعة وسيمه وبمسارعة وليه.

نحمده على نعمه التي جمعت إلى الزهر الثمر ودراكت بالبحر وباركت في النهر وأجملت المبتدأ وأحسنت الخبر وجمعت في لذاذة الأوقات وطيبها بين رونق الآصال ورقة البكر ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نلبس الألسنة منها في كل ساعةٍ ثوباً جديداً ونتفيأ منها ظلاً مديداً ونستقرب من الآمال ما يراه سوانا بعيداً ونصلي على سيدنا محمد الذي طهر الله به هذه الأمة من الأدناس وجعلها بهدايته زاكية الغراس صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من فهم حسن استخلافه بالأمر له بالصلاة بالناس ومنهم من بنى الله به قواعد الدين وجعلها موطدة الإساس ومنهم من جهز جيش العسرة وواسى بماله حين الضراء والباس ومنهم من قال عنه صلى الله عليه وسلم: " لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله " فحسن الالتماس بذلك والاقتباس وزاد في شرفه بأن طهر أهل البيت وأذهب عنهم الأرجاس صلاةً لا تزال تتردد تردد الأنفاس ولا تبرح في الآناء حسنة الإيناس.

وبعد فإن خير من شرفت مراتب السلطنة بحلوله وفوفت ملابس التحكيم بقبوله ومن تزهى مطالع الملك بإشراقه وتتبادر الممالك مذعنةً لاستحقاقه ومن يزدهي ملكٌ منصوره نصر الله بولده وولي عهده مكنةً بانيه ومن يتشرف إيوان عظمته: إن غاب والده في مصلحة الإسلام فهو صدره وغن حضر فهو ثانيه ومن يتجمل غاب الإيالة منه بخير شبل كفل ليثاً ويتكفل غوث الأمة بخير وابلٍ خلف غيثاً ومن ألهم الأخلاق الملوكية وأوتي حكمها صبياً ومن خصصته الأدعية الشريفة بصالحها ولم يكن بدعائها شقياً ومن رفعت به هضبة الملك حتى أمسى مكانها علياً ومن هو أحق بأن ينجب الأمل وينجح وأولى بأن يتلى له: " اخلفني في قومي وأصلح " ومن هو بكل خيرٍ ملي ومن إذا فوضت إليه أمور المسلمين كان أشرف من لأمورهم يلي ومن يتحقق من والده الماضي الغرار ومن اسمه العالي المنار أن لا سيف غلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي.

ولما كان المقام العالي الولدي السلطاني الملكي الصالحي العلائي عضد الله به الدين وجمع إذعان كل مؤمن على إيجاب طاعته لمباشرة أمور المسلمين حتى يصبح وهو صالح المؤمنين هو المرجو لتدبير هذه الأمور والمأمول لصالح البلاد والثغور والمدخر في النصر لشفاء ما في الصدور والذي تشهد الفراسة لأبيه وله بالتحكم: أو ليس الحاكم أبو علي هو المنصور فلذلك اقتضت الرحمة والشفقة على الأمة أن ينصب لهم ولي عهد يتمسكون من الفضل بعروة كرمه ويسعون بعد الطواف بكعبة أبيه لحرمه ويقتطفون أزهار العدل وثمار الجود من كلمه وقلمه وتستعد الأمة منه بالملك الصالح الذي تقسم الأنوار لجبينه وتقسم المبار من كرامته وكرمه.

فلذلك خرج الأمر العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري السيفي أخدمه الله القدر ولا زالت الممالك تتباهى منه ومن ولي عهده بالشمس والقمر ان يفوض إليه ولاية العهد وكفالة السلطنة المعظمة ولايةً تامةً عامة شاملةً كاملة شريفةً منيفة عطوفةً رؤوفة في سائر أقاليم الممالك وعساكرها وجندها وعربها وتركمانها وأكرادها ونوابها وولاتها وأكابرها وأصاغرها ورعاياها ورعاتها وحكامها وقضاتها وسارحها وسانحها بالديار المصرية وثغورها وأقاليمها وبلادها وما احتوت عليه والمملكة الحجازية وما احتوت عليه ومملكة النوبة وما احتوت عليه والفتوحات الصفدية والفتوحات الإسلامية الساحلية وما احتوت عليه والممالك الشامية وحصونها وقلاعها ومدنها وأقاليمها وبلادها والمملكة الحمصية والمملكة الحصنية الأكرادية والجبلية وفتوحاتها والمملكة الحلبية وثغورها وبلادها وما احتوت عليه والمملكة الفراتية وما احتوت عليه وسائر القلاع الإسلامية براً وبحراً وسهلاً ووعراً شاماً ومصراً يمناً وحجازاً شرقاً وغرباً بعداً وقرباً وأن تلقى إليه مقاليد الأمور في هذه الممالك الشريفة وأن تستخلفه سلطنة والده خلد الله دولته لتشاهد منه الأمة في وقت واحدٍ سلطاناً وخليفة ولايةً واستخلافاً تسندهما الرواة وتترنم بهما الحداة وتعيهما الأسماع وتنطق بهما الأفواه تفويضاً يعلن لكافة الأمم ولكل رب سيفٍ وقلم ولكل ذي علم وعلم بما قاله صلى الله عليه وسلم لسميه رضي الله عنه حين أولاه من الفخار ما أولاه: " من كنت مولاه فعليٌ مولاه " فلا ملك إقليم إلا وهذا الخطاب يصله ويوصله ولا زعيم جيشٍ إلا وهذا التفويض يسعه ويشمله ولا إقليمٌ إلا وكل من به يقبله ويقبله ويتمثل بين يديه ويمتثله ولا منبرٌ إلا وخطيبه يتلو فرقان هذا التقديم ويرتله.

وأما الوصايا فقد لقنا ولدنا وولي عهدنا ما انطبع في صفاء ذهنه وسرت تغذيته في نماء غصنه ولا بد من لوامع للتبرك بها في هذا التقليد الشريف تنير وجوامع حيث يصير وودائع ينبئك عنها ولدنا أعزنا الله ببقائه ولا ينبئك مثل خبير: فاتق الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وانصر الشرع فإنك إذا نصرته ينصرك الله على أعداء الدين وعداك واقض بالعدل مخاطباً ومكاتباً حتى يستبق إلى الإيعاز به لسانك ويمناك وأمر بالمعروف وانه عن المنكر عالماً أنه ليس يخاطب غداً بين يدي الله عن ذلك سوانا وسواك وانه نفسك عن الهوى حتى لا يراك الله حيث نهاك وحط الرعية ومر النواب بحملهم على القضايا الشرعية وأقم الحدود وجند الجنود وابعثها براً بحراً من الغزو إلى كل مقام محمود واحفظ الثغور ولا حظ الأمور وازدد بالاسترشاد بآرائنا نوراً على نور وأمراء الإسلام الأكابر وزعماؤه فهم بالجهاد والذب عن العباد أصفياء الله وأحباؤه فضاعف لهم الحرمة والإحسان واعلم أن الله اصطفانا على العالمين وإلا فالقوم إخوان لاسيما أولوا السعي الناجح والرأي الراجح ومن إذا فخروا بنسبة صالحية قيل لهم: نعم السلف الصالح فشاورهم في الأمر وحاورهم في مهمات الأمور في كل سرٍ وجهر وكذلك غيرهم من أكابر الأمراء الذين هم من تحايا الدول وذخائر الملوك الأول أجرهم في هذا المجرى واشرح لهم بالإحسان صدراً وجيوش الإسلام هم البنان والبنيان فوال إليهم الامتنان واجعل محبتك في قلوبهم بإحسانك إليهم حسنة المربى وطاعتك في عقائدهم قد شغفها حباً: ليصبحوا بحسن نظرك إليهم طوعاً وليحصل كل جيش منهم من التقرب إليك وأما غير ذلك من الوصايا فسنخولك منها بما ينشأ معك توءماً ونلقنك من آياتها محكماً فمحكماً و الله تعالى ينمي هلالك حتى يوصله إلى درجة الإبدار ويغذي غصنك حتى نراه قد أينع بأحسن الأزهار وأينع الثمار ويرزقك سعادة سلطاننا الذي نعت بنعته تبركاً ويلهمك الاعتضاد بشيعته والاستنان بسنته حتى تصبح كتمسكنا بذلك متمسكاً ويجعل الرعية بك في أمن وأمان حتى لا تخشى سوءاً ولا تخاف دركاً والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه إن شاء الله تعالى.

الوجه السادس فيما يكتب في مستند عهد ولي العهد بالسلطنة وما يكتبه السلطان في بيت العلامة وما يكتب في ذيل العهد أما ما يكتب في مستند العهد وما يكتبه السلطان في بيت العلامة فكغيره من سائر الولايات من التقاليد وغيرها: وهو أن يكتب في المستند حسب المرسوم الشريف كما يكتب في المكاتبات التي هي بتلقي كاتب السر على ما تقدم ذكره في بابه ويكتب السلطان في بيت وأما ما يكتب في ذيل العهد وشهادة الشهود على السلطان بالعهد فمثل أن يكتب: شهدت على مولانا السلطان الملك الفلاني العاهد المشار إليه فيه خلد الله ملكه أو خلد الله سلطانه وما أشبه ذلك من الدعاء بما نسب إليه فيه من العهد بالسلطنة الشريفة إلى ولده المقام الشريف العالي السلطاني الملكي الفلاني وعلى المعهود إليه أعز الله أنصاره بقبول العهد المذكور وكتب فلان بن فلان.

الوجه السابع في قطع ورق هذا العهد وقلمه الذي يكتب به وكيفية كتابته وصورة وضعه في الورق أما قطع ورقه فمقتضى إطلاق المقر الشهابي بن فضل الله في التعريف أن للعهود قطع البغدادي الكامل أنه يكتب في البغدادي أيضاً.

قلت: وهو المناسب لعظمة السلطنة وشماخة قدرها إذ الملك إلى ولي العهد آئل وللدخول تحت أمره صائر خصوصاً إذا كان المعهود إليه ولداً أو أخاً وحينئذ فيكتب بمختصر قلم الطومار لمناسبته له على ما تقدم في غير موضع.

ثم يكتب في وسطه بقلمٍ دقيق ما صورته الاسم الشريف كما يكتب في التقاليد وغيرها على ما سيأتي ثم يبتدئ بكتابة الطرة بالقلم الذي يكتب به العهد من أول عرض الورق من غير هامش سطوراً متلاصقة إلى آخر الطرة ثم يترك ستة أوصال بياضاً من غير كتابةٍ غير الوصل الذي فيه الطرة ثم يكتب البسملة في أول الوصل الثامن بحيث تلحق أعالي ألفاته بالوصل الذي فوقه بهامش عن يمين الورق بقدر أربعة أصابع أو خمسة مطبوقة ثم يكتب تحت البسملة سطراً من أول العهد ملاصقاً لها ثم يخلي بيت العلامة قدر شبر كما في عهود الملوك عن الخلفاء ثم يكتب السطر الثاني تحت بيت العلامة على سمت السطر الذي تحت البسملة ويسترسل في كتابة بقية العهد إلى آخره ويجعل بين كل سطرين قدر ربع ذراع بذراع القماش فإذا انتهى إلى آخر العهد كتب إن شاء الله تعالى ثم المستند ثم الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والحسبلة على ما تقدم في الفواتح والخواتم ثم يكتب شهود العهد بعد ذلك.

وهذه صورة وضعه في الورق ممثلاً له بالطرة التي أنشأها لذلك وبالعهد الذي أنشأه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر عن المنصور قلاوون بالعهد بالسلطنة لولده الملك الصالح علاء الدين علي وهي: هذا عهدٌ شريفٌ جليلٌ قدره رفيعٌ ذكره عليٌ فخره متبلجٌ صبحه ضويٌ فجره من السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله تعالى سلطانه ونصر جيوشه وأعوانه بالسلطنة الشريفة لولده المقام العالي السلطاني الملكي السعيدي بلغه الله تعالى فيه غاية الآمال وحقق فيه للرعية ما يرجونه من مزيد الإفضال.

على ما شرح فيه بسم الله الرحمن الرحيم هامش الحمد لله الذي شرف سرير الملك منه بعليه وحاط منه بوصية وعضد منصورة.

بولاية عهد صالحه وأسمى حاتم جوده.

بمكارم حازها بسبق عديه وأبهج خير.

الآباء من خير الأبناء بمن سمو أبيه منه بشريف الخلق وأبيه وغذى روضه بمتابعة وسيمه وبمسارعة وليه.

نحمده على نعمه التي جمعت إلى الزهر الثمر إلى أن يأتي إلى قوله: ولا يخاف دركاً ولا اعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه.

إن شاء الله تعالى كتب في سنة حسب المرسوم الشريف الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه حسبنا الله ونعم الوكيل عهود الملوك بالسلطنة للملوك المنفردين بصغار البلدان ويتعلق النظر به من أربعة أوجه الوجه الاول في بيان اصل ذلك واول حدوثه في هذه المملكة الى حين زواله عنها قد تقدم في المكاتبات في الكلام على مكاتبة صاحب حماة أن ذلك مما كان في الدولة الأيوبية ثم في الدولة التركية في الأيام المنصورية قلاوون والأيام الناصرية محمد بن قلاوون ثم بطل ذلك وذلك أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حين استولى على البلاد الشامية مع الديار المصرية بعد موت السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام فرق أقاربه في ولاية الممالك الشامية: كدمشق وحلب وحمص وغيرها واستمرت.

وكان صلاح الدين قد ولى حماة لا بن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فبقيت بيده حتى توفي سنة سبع وثمانين وخمسمائة فوليها بعد ابنه المنصور ناصر الدين محمدٌ وبقي بها حتى توفي سنة سبع عشرة وستمائة فوليها ابنه الناصر قليج أرسلان فبقي بها إلى أن انتزعها منه أخوه المظفر في سنة ستٍ وعشرين وستمائة وأقام بها إلى أن مات سنة ثلاثٍ وأربعين وستمائة.

فوليها ابنه المنصور محمد فبقي فيها إلى أن غلب هولاكو ملك التتار على الشام وقتل من به من بقايا الملوك الأيوبية فهرب المنصور إلى مصر وأقام بها إلى أن سار المظفر قطز صاحب مصر إلى الشام وانتزعه من يد التتار وصار الشام مضافاً إلى مملكة الديار المصرية فرد المنصور إلى حماة فبقي بها حتى توفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة فولى المنصور قلاوون ابنه المظفر شادي مكانه وكتب له بها عهداً عنه فبقي بها حتى توفي سنة ثمان وتسعين وستمائةٍ في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية بعد لاجين فولى الملك الناصر قراسنقر أحد أمرائه نائباً فلما استولى غازان ملك التتار على الشام كان العادل كتبغا بعد خلعه من سلطنة الديار المصرية نائباً بصرخد فأظهر في قتال التتار قوةً وجلادة فولاه الملك الناصر حماة وحضر هزيمة التتار مع الملك الناصر سنة اثنتين وسبعمائة ورجع إلى حماة فمات بها فولى الملك الناصر مكانه سيف الدين قبجق نائباً ثم نقله إلى حلب وولى أسندمر كرجي نيابة حماة مكانه.

ولما رجع السلطان الملك الناصر من الكرك نقل أسندمر كرجي من حماة إلى حلب وولى المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل علي ابن المظفر عمر مكانه بحماة مكانه سنة ست عشرة وسبعمائة على عادة من تقدمه من الملوك الأيوبية فبقي بها إلى أن توفي سنة ثنتين وثلاثين وسبعمائة فولى الملك الناصر ابنه الأفضل محمداً مكانه فبقي فيها حتى مات الملك الناصر في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة واستقر في السلطنة بعد ابنه المنصور أبو بكر وقام بتدبير دولته الأمير قوصون.

فكان أول ما أحدث عزل الأفضل بن المؤيد عن حماة وولى مكانه بها الأمير قطز نائباً.

وسار الأفضل إلى الشام فأقام بها حتى توفي سنة ثنتين وأربعين وسبعمائة وهو آخر من وليها من بني أيوب.

وقد ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في مسالك الأبصار أن سلطانها كان يستقل بإعطاء الإمرة والإقطاعات وتولية القضاة والوزراء وكتاب السر وكل الوظائف وتكتب المناشير والتواقيع من جهته.

ولكنه لا يمضي أمراً كبيراً في مثل إعطاء إمرة أو إعطاء وظيفةٍ كبيرة حتى يشاور صاحب مصر وهو لا يجيبه إلا أن الرأي ما يراه.

ومن هذا ومثله.

قال: وإن كان سلطاناً حاكماً وملكاً متصرفاً فصاحب مصر هو المتصرف في توليةٍ وعزلٍ من أراد ولاه ومن أراد عزله.

قلت: وكان للملكة بذلك زيادة أبهة وجمال: لكون صاحبها تحت يده من هو متصف باسم السلطنة يتصرف فيه بالولاية والعزل.

على أن هذا القسم لم يتعرض له المقر التقوى بن ناظر الجيش في التثقيف لخلو المملكة الآن عن مثله وإنما أشار إليه المقر الشهابي بن فضل الله رحمه الله في التعريف حيث قال: وأما ما يكتب للملوك مثل ولاة العهود والمنفردين بصغار البلدان فإنه لا تستفتح عهودهم إلا بالخطب.

وذلك أن حماة كانت في زمنه بأيدي بني أيوب على ما تقدم ذكره ولذلك قال في مسالك الأبصار: ومما في حدود هذه المملكة من له اسم سلطانٍ حاكمٍ وملكٍ متصرفٍ صاحب حماة.

الوجه الثاني في بيان ما يكتب في العهد وهو على ضربين الضرب الأول ما يكتب في الطرة وهو تلخيص ما يشتمل علي العهد وهذه نسخته عهد كتب بها المقر الشهابي بن فضل الله عن الملك الناصر محمد بن قلاوون للملك الأفضل محمد ابن المؤيد عماد الدين إسماعيل بسلطنة حماة أيضاً في رابع صفر سنة اثنتين وثلاثين وسبع مائة.

وهو آخر من ملكها من بني أيوب وهي: الحمد لله الذي أقربنا الملك في أهلة أهله وتدارك مصاب ملكٍ لولا ولده الأفضل لم يكن له شبيهٌ في فضله ووهب بنا بيت السلطنة من أبقى البقايا ما يلحق به كل فرع بأصله ويظهر به رونق السيف في نصله.

نحمده على ما أفاض بمواهبنا من النعم الغزار وأدخل في طاعتنا الشريفة من ملكوك الأقطار وزاد عطايانا فأضحت وهي ممالك وأقاليم وأمصار ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أفلح من مات من ملوك الإسلام عليها وحرض بها في الجهاد على الشهادة حتى وصل إليها ومد يده لمبايعتنا على إعلائها فسابقت الثريا ببسط يدها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي شرف من تسمى باسمه أو مت بالقربى إلى نسبه وصرف في الأرض من تمسك من رعاية الأمة بسببه وأكرم به كريم كل قومٍ وجعل كلمة الفخار كلمةً باقيةً في عقبه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما ناح الحمام لحزنه ثم غنى من طربه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإننا ولله الحمد ممن نحفظ بإحساننا كل وديعة ونتقبل لمن أقبل من الملوك على سؤال صدقتنا الشريفة كل ذريعة ونتكفل لمن مات على ولائنا بما لو رآه في ولده لسره ما جرى وعلم أن هذا الذي كان يتمنى أن يعيش حتى يبصر هذا اليوم ويرى وكان السلطان الملك المؤيد عماد الدين قدس الله روحه هو بقية بيته الشريف وآخر من حل في ملوكهم ذروة عزه ولم يزل في طاعتنا الشريفة على ما كان من الحسنى عليه ومن المحاسن التي لقي الله بها ونور إيمانه يسعى بين يديه فوهبنا له من المملكة الحموية المحروسة ما كان قد طال عليه سالف الأمد ورسمنا له بها عطيةً باقيةً للوالد والولد فلما قارب انقضاء أجله وأشرف على ما قدمه إلى الله وإلينا من صالح عمله لم يشغله ما به عن مطالعة أبوابنا الشريفة والتذكار بولده وتقاضي صدقاتنا العميمة بما كان ينتظره قمره المنيف لفرقده وورد من جهة ولده المقام الشريف العالي الولدي السلطاني الملكي الأفضلي الناصري أعز الله أنصاره ما أزعج القلوب بمصابه في أبيه وأجرى العيون على من لا نقع له على شبيه فوجدنا من الحزن عليه ما أبكى كل سيفٍ دما وأن كل رمح يقرع سنه ندما وتأسفنا على ملك كاد يكون من الملائك وأخٍ كريم أو أعز من ذلك وسلطانٍ عظيم طالما ظهر شنب بوارقه في ثغور الممالك وقمنا من الحزن في مشاركة أهله بالمندوب ثم قلنا: لكم في ولده العوض ولا ينكر لكم الصبر يا آل أيوب.

فاقتضت مراسمنا المطاعة أن نرقيه إلى مقامنا العالي ونعقد له من ألوية الملك ما تهتز به أطراف العوالي ونركبه من شعار السلطنة بما تتجمل به مواكبه وتمتد به عصائبه وتميس من العجب وتمتد رقابها بالرقبة السلطانية جنائبه تنزيهاً لخواطركم الكريمة علينا عن قول ليت وتنويهاً بقدر بيتكم الذي رفع لكم إسماعيل به قواعد البيت: لما نعلمه من المقام العالي الملكي الأفضلي الناصري أمتع الله ببقائه من المناقب التي استحق بها أن يكون له عليكم الملك والعزائم التي قلدت بها من الممالك ما تجول بها الجياد وتجري به الفلك مع ماله من الكرم الذي هو أوفى من العهاد بعهده والفضل الذي اتصل به ميراث الأفضلية عن جده والجود الذي جرى البحر معه فاحمرت من الخجل صفحة خده والوصف الذي لم يرض بالجوزاء واسطةً لعقده والعدل الذي أشبه فيه أباه فما ظلم والعلم الذي ما خلا به بابه من طلب: إما لهدًى وإما لكرم ولم يخرج من كفالة والده إلا إلى كفالتنا التي أظلته بسحبها وحلت سماء مملكته بشهبها وخاطبناه كما كنا نخاطب والده رحمه الله بالمقام الشريف وأجريناه في ألقابه مجرى الولد زيادةً له في التشريف وصرفنا أمره لك ما كان لملوك أهله فيه تصريف وسنرشده إلى أوضح طريقة ويقوم مقام أبيه أو ليس الناصر هو أبو الأفضل حقيقة ورسمنا بطلبه إلى ما بين أيدينا الشريف لنجدد له في نظرنا الشريف ما يتضاعف به سعوده ويزداد صعوده ويتماثل في هذا البيت الشاهنشاهي أبناؤه وآباؤه وجدوده: لتعمل معه صدقاتنا الشريفة ما هو به جدير وترفعه إلى أعز مكانٍ من صهوة المنبر والسرير وتكاثر به كل سلطان وما هو إلا جحفلٌ يسير لتشيد به أركان هذا البيت الكريم وتحيا عظامه وهي في اللحود عظمٌ رميم وتعرف الناس أن عنايتنا الشريفة بهم تزيد على ما عهدوه لجدهم القديم من سمينا الملك الناصر القديم فخرجت المراسيم الشريفة العالية المولوية السلطانية الملكية الناصرية: لازالت الملوك تتقلد مننها في أعناقها ولا برحت الممالك من بعض مواهبها وإطلاقها أن يقلد هذا السلطان الملك الأفضل أدام الله نصره من المملكة الحموية وبلادها وأمرائها وأجنادها وعربها وتركمانها وأكرادها وقضاياها وقضاتها ورعاياها ورعاتها وأهل حواضرها وبواديها وعمرانها وبراريها جميع ما كان والده رحمه الله يتقلده وبسيفه وقلمه يجريه ويجرده: من كل قليل وكثير وجليلٍ وحقير وفي كل مأمورٍ به وأمير يتصرف في ذلك جميعه ويقطع إقطاعاتها بمناشيره ويولي وظائفها بتواقيعه وينظر فيها وفي أهلها بما يعلم أن له ولهم فيه صلاحاً ويقيم من هيبة سلطانه ما يغنيه أن يعمل أسنةً ويجرد صفاحاً.

وليحكم فيها وفي من فيها بعدله ويجمع قلوب أهلها على ولائه كما كانوا عليه لأبيه من قبله وليكن هو وجنوده وعساكره أقرب في النهوض إلى مصالح الإسلام من رجع نفسه وأمضى في العزائم مما يشتبه بها من سيفه وقبسه.

وأما بقية ما يملى من الوصايا أو يدل عليه من كرم السجايا فهو بحمد الله تعالى غريزةٌ في طباعه ممتزجٌ به من زمان رضاعه وإنما نذكره ببعض ما به يتبرك ونحضه على اتباع أبيه فإنها الغاية التي لا تدرك والشرع الشريف أهم ما يشغل به جميع أوقاته وتقوى الله فما ينتصر الملك إلا بتقاته والفكرة في مصالح البلاد والرعايا فإنها مادة نفقاته واستكثار الجنود فإنهم حصنه المنيع في ملاقاته ومبادرة كل مهم في أول ميقاته وولايات الأعمال لا يعتمد فيها إلا على ثقاته وإقامة الحدود التي لا

ينصت في تركها إلى رقي رقاته ورعاية من له على سلفه خدمةٌ سابقة واستجلاب الأدعية الصالحة لنا وله فإنها للسهام مسابقة وليمض في الأمور عزمه فإنه مذرب ويبسط العدل والإحسان فإنه بهما إلينا يتقرب وليأخذ بقلوب الرعايا فإنها تتقلب وسيكرم وفادة الوفود ليقف بهم لنجاح مقاصدهم على بابٍ صحيح مجرب وليجتهد في الجهاد ويتيقظ والسيف مكتحل الجفن بالرقاد ويهتم فإن الهمم العالية تقوم بها عوالي الصعاد ويقوم البريد فإن في تقويمه بقاء الملك وعمارة البلاد وليقف عند مراسمنا الشريفة لتهديه إلى سبيل الرشاد ويحسن سلوكه ليطرب بذكره كل أحد ويترنم كل حاد وغير هذا من كل ما عهدنا والده سقى الله عهده له سالكاً ولأزمة أموره الجميلة مالكاً مما لا يحتاج مما نعرفه من سيرته المثلى إلى شرحه ولا يدل نهاره الساطع على صباحة صبحه وليبشر بما جعل له من فضلنا العميم ويتمسك بوعدنا الشريف أن هذه المملكة له ولأبنائه وأبناء أبنائه ما وجد كفءٌ من نسبهم الصميم و الله تعالى يمدك أيها الملك الفاضل بأفضل مزيده ويحفظ بك ما أبقاه لك أبوك المؤيد من تأييده والاعتماد على الخط الشريف أعلاه إن شاء الله تعالى.

فيما يكتب في المستند عن السلطان في هذا العهد وما يكتبه السلطان في بيت العلامة والحكم في ذلك على ما مر في عهود أولياء العهد بالسلطنة: وهو أن يكتب في مستند العهد حسب المرسوم الشريف كما في غيره من الولايات ويكتب السلطان في بيت العلامة اسمه من غير زيادة.

قلت: ولا يكتب فيه شهادةٌ على السلطان كما يكتب في عهود أولياء العهد بالسلطنة: لأن العهد بالسلطنة العظمى شبيهٌ بالبيعة والشهادة فيها مطلوبةٌ للخروج من الخلاف على ما تقدم في موضعه والعهد بولاية سلطنة بعض الأقاليم شبيهٌ بالتقليد والشهادة في التقاليد غير مطلوبة وذلك أن السلطنة لا تنتهي إلى ولي العهد إلا بعد موت العاهد وربما جحد بعض الناس العهد إليه وولاية بعض البلدان إنما تكون والسلطان المولي منتصبٌ فلا يؤثر الجحود فيها.

الوجه الرابع في قطع ورق هذا العهد وقلمه الذي يكتب به وكيفية الكتابة وصورة وضعها في الورق أما قطع الورق فمقتضى عموم قول المقر الشهابي بن فضل الله في التعريف إن للعهود قطع البغدادي الكامل أن يكتب في قطع البغدادي أيضاً.

قلت: والذي يقتضيه القياس أن تكون كتابته في الورق البغدادي لمعنى السلطنة ولكن في قطعٍ دون القطع الكامل: لنقصان رتبة هذه السلطنة عن السلطنة العظمى ألا ترى مكاتبة صاحب مملكة إيران كانت في زمن القان أبي سعيد تكتب في قطع البغدادي الكامل كما ذكره في التعريف وغيره ومكاتبة صاحب مملكة بيت بركة المعروفة بمملكة أزبك من مملكة توران تكتب له في قطع البغدادي بنقص أربعة أصابع مطبوقة كما ذكره في التثقيف لانحطاط رتبته عن رتبة القان أبي سعيد على ما تقدم ذكره في المكاتبات.

وأما قلمه الذي يكتب به فينبغي إن كتب بقطع البغدادي الكامل أن يكون بمختصر قلم الطومار كما في غيره من العهود التي تكتب في القطع الكامل.

وإن كتب في دون الكامل فينبغي أن يكون القلم دون ذلك بقليل.

وأما صورة وضعه في الورق فعلى ما مر في عهود أولياء العهد بالسلطنة من غير فرق: وهو أن يكتب في رأس الدرج بقلمٍ دقيقٍ الاسم الشريف ثم يبتديء بكتابة الطرة في عرض الورق من غير هامش سطوراً متلاصقةً إلى آخر الطرة ثم يخلي ستة أوصال بياضاً ثم يكتب البسملة في أول الوصل الثامن بهامش قدر أربعة أصابع أو خمسةٍ مطبوقة ثم يكتب سطراً من أول العهد ملاصقاً للبسملة ثم يخلي بيت العلامة قدر شبر على ما تقدم ويكتب السطر الثاني على سمت السطر الذي تحت البسملة ثم يسترسل في كتابة بقية العهد إلى آخره ويكون بين كل سطرين قدر ربع ذراع على قاعدة العهود.

فإذا انتهى إلى آخر العهد كتب إن شاء الله تعالى ثم التاريخ ثم المستند ثم الحمد لله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم الحسبلة.

وتكون كتابته من غير نقط ولا شكل كسائر العهود.

قلت: ولو وسع ما بين سطوره ونقطت حروفه وشكلت: لما فيه من معنى التقاليد لكان به أليق.

وهذه صورة وضعه في الورق ممثلاً بالطرة التي أنشأتها في معنى ذلك والعهد الذي أنشأه المقر الشهابي بن فضل الله الملك الأفضل محمد بن الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل آخر ملوك بني أيوب بها وهي: هذا عهدٌ شريفٌ عذبت موارده وحسنت بحسن النية فيه مقاصده وعاد على البرية باليمن عائده.

من السلطان الأعظم ناصر الدنيا والدين الملك الناصر أبي الفتح محمد ابن السلطان الشهيد قلاوون خلد الله تعالى ملكه وجعل الأرض بأسرها ملكه للمقام الشريف العالي السلطاني الملكي الأفضلي محمد ابن المقام العالي المؤيدي إسماعيل أعز الله تعالى أنصاره وأحمد آثاره بالسلطنة الشريفة بحماة المحروسة وأعمالها على أكمل العوائد وأتمها وأجمل القواعد وأعمها على ما شرح فيه: بسم الله الرحمن الرحيم هامش الحمد لله الذي أقربنا الملك في أهلة أهله وتدارك مصاب ملك لولا ولده الأفضل لم.

يكن لهم شبيهٌ في فضله ووهب بنا بيت السلطنة من أبقى البقايا من يلحق به كل.

فرع بأصله ويظهر به رونق السيف في نصله.

إلى أن يأتي إلى قوله في آخره: والله تعالى يمدك أيها الملك الأفضل بأفضل مزيده ويحفظ بك ما أبقاه لك أبوك الملك.

المؤيد من تأييده والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه.

إن شاء الله تعالى هامش كتب في سنة حسب المرسوم الشريف الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

الباب الرابع من المقالة الخامسة في الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب من أصحاب السيوف والأقلام

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول فيما كان يكتب من ذلك عن الخلفاء

وفيه خمسة أطراف الطرف الأول فيما كان يكتب عن الخلفاء الراشدين من الصحابة رضوان الله عليهم وكان الرسم في ذلك أن يفتتح العهد بلفظ: هذا ما عهد أو هذا عهدٌ من فلان لفلان ويؤتى على المقصد إلى آخره.

ويقال فيه: أمره بكذا وأمره بكذا.

والأصل في ذلك ما كتب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه لأمرائه الذين وجههم لقتال أهل هذا عهدٌ من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام.

عهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره.

وأمره بالجد في أمر الله تعالى ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم: فيدعوهم بدعاية الإسلام: فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله: فإذا أجاب الدعوة لم يكن له عليه سبيلٌ وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به.

ومن لم يجب إلى داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه لا يقبل من أحدٍ شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر به قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله: فإن أظهره الله عز وجل عليه قتل فيهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه مبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم: لئلا يكونوا عيوناً

ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يجعل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول.

وهذه نسخته عهد كتب به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه حين ولاه القضاء: أما بعد فإن القضاء فريضةٌ محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك وانفذ إذا تبين لك: فإنه لا ينفع تكلمٌ بحقٍ لا نفاذ له آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريفٌ في حيفك ولا ييأس ضعيفٌ من عونك.

والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائزٌ بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

لا يمنعنك قضاءٌ قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق: فإن الحق قديم ومراجعة الحق خيرٌ من التمادي في الباطل.

الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتابٍ ولا سنة ثم اعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك بنظائرها واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينةً أمداً ينتهي إليه: فإن أحضر بينةً أخذت له بحقه وإلا استحللت القضية عليه فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى.

والمسلمون عدولٌ بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زورٍ أو ظنيناً في ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان.

وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات: فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن عليه الذخر والجزاء فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم أنه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام.

قلت: هذا ما ذكره ابن عبد ربه في العقد.

ويقع في بعض المصنفات ابتداؤه: من عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن قيس سلامٌ عليك أما بعد.

ووقع في مسند البزار أن أوله: اعلم أن القضاء فريضةٌ محكمة مع تغيير بعض الألفاظ وتقديم بعض وتأخير بعضٍ.

الطرف الثاني فيما كان يكتب عن خلفاء بني أمية كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لبعض من ولاه.

أما بعد فإن أمير المؤمنين عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي الأعرابي المتسكع في حيرة الجهالة وظلم الفتنة ومهاوي الهلكة ورعاعة الذين عاثوا في الأرض فساداً وانتهكوا حرمة الإسلام استخفافاً وبدلوا نعمة الله كفراً واستحلوا دماء أهل سلمه جهلاً أحب أن يعهد إليك في لطائف أمورك وعوام شؤونك ودخائل أحوالك ومصطرف تنقلك عهداً يحملك في أدبه ويشرع لك به عظته وإن كنت بحمد الله من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهد مختصاً لك بذلك دون لحمتك وبني أبيك.

ولولا ما أمر الله تعالى به دالاً عليه وتقدمت فيه الحكماء آمرين به: من تقديم العظة والتذكير لأهل المعرفة وإن كانوا أولي سابقةٍ في الفضل وخصيصاء في العلم لاعتمد أمير المؤمنين على اصطناع الله إياك وتفضيله لك بما رآك أهله في محلك من أمير المؤمنين وسبقك إلى بغائب أخلاقه وانتزاعك محمود شيمه واستيلائك على مشابه تدبيره.

ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم أو لقنوه إلهاماً من تلقائهم ولم نصبهم تعلموا شيئاً من غيرهم لنحلناهم علم الغيب وضعناهم بمنزلةٍ قصر بها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته في فردانيته وسابق لاهوتيته احتجاباً منه لتعقبٍ في حكمه وتثبتٍ في سلطانه وتنفيذ إرادته على سابق مشيئته و لكن العالم الموفق للخير المخصوص بالفضل المحبو بمزية العلم وصفوته أدركه معاناً عليه بلطف بحثه وإذلال كنفه وصحة فهمه وهجر سآمته.

وقد تقدم أمير المؤمنين إليك آخذاً بالحجة عليك مؤدياً حق الله الواجب عليه في إرشادك وقضاء حقك وما ينظر به الوالد المعني الشفيق لولده.

وأمير المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبيح يهش له طمع وأن يعصمك من كل مكروهٍ حاق بأحدٍ وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرئ في دين أو خلق وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعوده ويريه من آثار نعمة الله عليك ساميةً بك إلى ذروة الشرف متبحبحةً بك بسطة الكرم لائحةً بك في أزهر معالي الأدب مورثةً لك أنفس ذخائر العز والله يستخلف عليك أمير المؤمنين ويسأل حياطتك وأن يعصمك من زيغ الهوى ويحضرك داعي التوفيق معاناً على الإرشاد فيه فإنه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو.

اعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضايق أوائلها بمن أمها سالكاً وركب أخطارها قاصداً إلى سعة عاقبتها وأمن سرحها وشرف عزها وأنها لا تعار بسخف الخفة ولا تنشأ بتفريط الغفلة ولا يتعدى فيها بامرئ حده وربما أظهرت بسطة الغي مستور العيب.

وقد تلقتك أخلاق الحكمة من كل جهةٍ بفضلها من غير تعب البحث في طلبها ولا متطاولٍ لمناولة ذروتها بل تأتلت منها أكرم نبعاتها واستخلصت منها أعتق جواهرها ثم سموت إلى لباب مصاصها وأحرزت منفس ذخائرها فاقتعد ما أحرزت ونافس فيما أصبت.

وأعلم أن احتواءك على ذلك وسبقك إليه بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثراً لها وإضمار طاعته منطوياً عليها وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكراً له مرتبطاً فيه للمزيد بحسن الحياطة له والذب عنه من أن تدخلك منه سآمة ملال أو غفلة ضياع أو سنة تهاون أو جهالة معرفة: فإن ذلك أحق ما بديء به ونظر فيه معتمداً عليه بالقوة والآلة والعدة والانفراد به من الأصحاب والحامة فتمسك به لاجئاً إليه واعتمد عليه مؤثراً له والتجئ إلى كنفه متحيزاً إليه: فإنه أبلغ ما طلب به رضا الله وأنجحه مسألةً وأجزله ثواباً وأعوده نفعاً وأعمه صلاحاً أرشدك الله لحظك وفهمك سداده وأخذ بقلبك إلى محموده.

ثم اجعل الله في كل صباح ينعم عليك ببلوغه ويظهر منك السلامة في إشراقه من نفسك نصيباً تجعله له شكراً على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح وعافية بدن وسبوغ نعم وظهور كرامة.

وأن تقرأ فيه من كتاب الله - تبارك وتعالى - جزءاً تردد رأيك في آيه وترتل لفظك بقراءته وتحضره عقلك ناظراً في محكمه وتتفهمه مفكراً في متشابهه: فإن في القرآن شفاء الصدور من أمراضها وجلاء وساوس الشيطان وصعاصعه وضياء معالم النور تبياناً لكل شيء وهدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون.

ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك: فإنه مغلاق الحسنات ومفتاح السيئات وخصم العقل.

واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك ويعترض غفلتك: لأنها خدع إبليس وخواتل مكره ومصايد مكيدته فاحذرها مجانباً لها وتوقها محترساً منها واستعذ بالله عز وجل من شرها وجاهدها إذا تناصرت عليك بعزمٍ صادق لا ونية فيه وحزمٍ نافذٍ لا مثنوية لرأيك بعد إصداره وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه ومضاءةٍ صارمةٍ لا أناة معها ونيةٍ صحيحةٍ لا خلجة شكٍ فيها: فإن ذلك ظهري صدقٍ لك على ردعها عنك وقمعها دون ما تتطلع إليه منك فهي واقيةٌ لك سخطة ربك داعيةٌ إليك رضا العامة عنك ساترةٌ عليك عيب من دونك فازدن بها متحلياً وأصب بأخلاقك مواضعها الحميدة منها وتوق عليها الآفة التي تقتطعك عن بلوغها وتقصر بك دون شأوها: فإن المؤونة إنما اشتدت مستصعبة وفدحت باهظةً أهل الطلب لأخلاق أهل الكرم المنتحلين سمو القدر بجهالة مواضع ذميم الأخلاق ومحمودها حتى فرط أهل التقصير في بعض أمورهم فدخلت عليهم الآفات من جهاتٍ أمنوها فنسبوا إلى التفريط ورضوا بذلك المنزل فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل عمهين عن درج الشرف ساقطين دون منزلة أهل الحجا فحاول بلوغ غاياتها محرزاً لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع محصناً أعمالك من العجب: فإنه رأس الهوى وأول الغواية ومقاد الهلكة حارساً أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي الألقاب وذميم تنابزها من حيث أتت الغفلة وانتشر الضياع ودخل الوهن.

فتوق غلوب الآفات على عقلك فإن شواهد الحق ستظهر بأماراتها تصديق آرائك عند ذوي الحجا وحال الرأي وفحص النظر فاجتلب لنفسك محمود الذكر وباقي لسان الصدق بالحذر لما تقدم إليك فيه أمير المؤمنين متحرزاً من دخول الآفات عليك من

حيث أمنك وقلة ثقتك بمحكمها: من ذلك أن تملك أمورك بالقصد وتداري جندك بالإحسان وتصون سرك بالكتمان وتداوي حقدك بالإنصاف وتذلل نفسك بالعدل وتحصن عيوبك بتقويم أودك وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المردي.

وأناتك فوقها الملال وفوت العمل ومضاءتك فدرعها روية النظر واكنفها بأناة الحلم وخلوتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة وصمتك فانف عنه عي اللفظ وخف سوء القالة واستماعك فأرعه حسن التفهم وقوه بإشهاد الفكر وعطاءك فامهد له بيوتات الشرف وذوي الحسب وتحرز فيه من السرف واستطالة البذخ وامتنان الصنيعة وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصر وحلمك فزعه عن التهاون وأحضره قوة الشكيمة وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط وتعمد بها أهل الاستحقاق وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق وخذ به واجب المفترض وأقم به أود الدين واستئناسك فامنع منه البذاء وسوء المناقثة وتعهد أمورك فحده أوقاتاً وقدره ساعاتٍ لا تستفرغ قوتك ولا تستدعي سآمتك وعزماتك فانف عنها عجلة الرأي ولجاجة الإقدام وفرحاتك فاشكمها عن البطر وقيدها عن الزهو وروعاتك فحطها من دهش الرأي واستسلام الخضوع وحذراتك فامنعها من الجبن واعمد بها الحزم ورجاءك فقيده بخوف الفائت وامنعه من أمن الطلب.

هذه جوامع خلال دخال النقص منها واصلٌ إلى العقل بلطائف أبنه وتصاريف حويله فأحكمها عارفاً بها وتقدم في الحفظ لها معتزماً على الأخذ بمراشدها والانتهاء منها إلى حيث بلغت بك عظة أمير المؤمنين وأدبه إن شاء الله.

ثم لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك ودخلاؤك في سرك أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصاريف الأمور وخبطته فصالها بين فراسن البزل منها وقلبته الأمور في فنونها وركب أطوارها: عارفاً بمحاسن الأمور ومواضع الرأي وعين المشورة مأمون النصيحة منطوي الضمير على الطاعة.

ثم أحضرهم من نفسك وقاراً يستدعي لك منهم الهيبة واستئناساً يعطف إليك منهم المودة وإنصاتاً يفل إفاضتهم له عنك بما تكره أن ينشر عنك من سخافة الرأي وضياع الحزم ولا يغلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأي ويقتطعك دون الفكر.

وتعلم أنك - وإن خلوت بسر فالقيت دونه ستورك وأغلقت عليه أبوابك - فذلك لا محالة مكشوفٌ للعامة ظاهرٌ عنك وإن استترت بربما ولعل وما أرى إذاعة ذلك وأعلم بما يرون من حالات من ينقطع به في تلك المواطن.

فتقدم في إحكام ذلك من نفسك واسدد خلله عنك: فإنه ليس أحدٌ أسرع إليه سوء القالة ولغط العامة بخيرٍ أو شرٍ ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي أصبحت به من دين الله والأمل المرجو المنتظر فيك.

وإياك أن يغمز فيك أحدٌ من حامتك وبطانة خدمتك بضعفةٍ يجد بها مساغاً إلى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه ولا تخلو من لائمته ولا تأمن سوء الأحدوثة فيه ولا يرخص سوء القالة به إن نجم ظاهراً أو علن بادياً ولن يجترئوا على تلك عندك إلا أن يروا منك إصغاءً إليها وقبولاً لها وترخيصاً لهم في الإفاضة بها.

ثم إياك وأن يفاض عندك بشيءٍ من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التي يستخف بها أهل البطالة ويتسرع نحوها ذوو الجهالة ويجد فيها أهل الحسد مقالاً لعيب يذيعونه وطعناً في حقٍ يجحدونه مع ما في ذلك من نقص الرأي ودرن العرض وهدم الشرف وتأثيل الغفلة وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم ككمون النار في الحجر الصلد فإذا قدح لاح شرره وتلهب وميضه ووقد تضرمه وليست في أحد أقوى سطوةً وأظهر توقداً وأعلى كموناً وأسرع إليه بالعيب وتطرق الشين منها لمن كان في مثل سنك: من أغفال الرجال وذوي العنفوان في الحداثة الذين لم تقع عليهم سمات الأمور ناطقاً عليهم لائحها ظاهراً فيهم وسمها ولم تمحضهم شمامتها مظهراً للعامة فضلهم مذيعةً حسن الذكر عنهم ولم يبلغ بهم الصيت في الحنكة مستمعاً يدفعون به عن أنفسهم نواطق ألسن أهل البغي ومواد أبصار أهل الحسد.

ثم تعهد من نفسك لطيف عيبٍ لازمٍ لكثيرٍ من أهل السلطان والقدرة: من أبطال الذرع ونخوة الشرف والتيه وعيب الصلف فإنها تسرع بهم إلى فساد وتهجين عقولهم في مواطن جمة وأنحاء مصطرفة منها قلة اقتدارهم على ضبط أنفسهم في مواكبهم ومسايرتهم العامة: فمن مقلقلٍ شخصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله تزدهيه الخفة ويبطره إجلاب الرجال حوله ومن مقبلٍ في موكبه على مداعبة مسايره بالمفاكهة له والتضاحك إليه والإيجاف في السير مرحاً وتحريك الجوارح متسرعاً يخال أن ذلك أسرع له وأحث لمطيته فلتحسن في ذلك هيأتك ولتجمل فيه دعتك وليقل على مسايرك إقبالك إلا وأنت مطرق النظر غير

ملتفتٍ إلى محدث ولا مقبل عليه بوجهك في موكبك لمحادثته ولا موجف في السيرف مقلقلٍ لجوارحك بالتحريك والاستنهاض فإن حسن مسايرة الوالي واتداعه في تلك الحالة دليلٌ على كثيرٍ من عيوب أمره ومستتر أحواله.

واعلم أن أقواماً يتسرعون إليك بالسعاية ويأتونك على وجه النصيحة.

ويستميلونك بإظهار الشفقة ويستدعون بالإغراء والشبهة ويوطئونك عشوة الحيرة: ليجعلوك لهم ذريعةً إلى استئكال العامة بموضعهم منك في القبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة أو أسرعوا بك في أمره إلى الظنة فلا يصلن إلى مشافهتك ساعٍ بشبهة ولا معروفٌ بتهمة ولا منسوبٌ إلى بدعة فيعرضك لإيتغاغ دينك ويحملك على رعيتك بما لا حقيقة له عندك ويلحمك أعراض قوم لا علم لك بدخلهم إلا بما أقدم به عليهم ساعياً وأظهر لك منهم منتصحاً.

وليكن صاحب شرطتك المتولي لإنهاء ذلك هو المنصوب لأولئك والمستمع لأقاويلهم والفاحص عن نصائحهم ثم لينه ذلك إليك على ما يرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه وتقفه على رأيك من غير أن يظهر ذلك للعامة: فإن كان صواباً نالتك خيرته وإن كان خطأً أقدم به عليك جاهلٌ أو فرطةٌ سعى بها كاذبٌ فنالت الساعي منهما أو المظلوم عقوبةٌ أو بدر من واليك إليه عقوبةٌ ونكال لم يعصب ذلك الخطأ بك ولم تنسب إلى تفريط وخلوت من موضع الذم فيه: محضراً إليه ذهنك وصواب رأيك وتقدم إلى من تولي ذلك الأمر وتعتمد عليه فيه أن لا يقدم على شيءٍ ناظراً فيه ولا يحاول أخذ أحد طارقاً له ولا يعاقب أحداً منكلاً به ولا يخلي سبيل أحد صافحاً عنه: لإصحار براءته وصحة طريقته حتى يرفع إليك أمره وينهي إليك قضيته على جهة الصدق ومنحى الحق ويقين الخبر فإن رأيت عليه سبيلاً لمحبس أو مجازاً لعقوبة أمرته بتولي ذلك من غير أدخاله عليك ولا مشافهةً لك منه فكان المتولي لذلك ولم يجر على يديك مكروه رأي ولا غلظة عقوبةٍ وإن وجدت إلى العفو عنه سبيلاً أو كان مما قرف به خلياً كنت أنت المتولي للإنعام عليه بتخلية سبيله والصفح عنه بإطلاق أسره فتوليت أجر ذلك واستحققت ذخره وأنطقت لسانه بشكرك وطوقت قومه حمدك وأوجبت عليهم حقك فقرنت بين خصلتين وأحرزت حظوتين: ثواب الله في الآخرة ومحمود الذكر في الدنيا.

ثم وإياك أن يصل إليك أحدٌ من جندك وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك أو حاجة يبدهك بطلبها حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذي أهدفته لذلك ونصبته له فيعرضها عليك منهياً لها على جهة الصدق عنها وتكون على معرفة من قدرها: فإن أردت إسعافه بها ونجاح ما سأل منها أذنت له في طلبها باسطاً له كنفك مقبلاً عليه بوجهك مع ظهور سرورك بما سألك وفسحة رأيٍ وبسطة ذرع وطيب نفس وإن كرهت قضاء حاجته وأحببت رده عن طلبته وثقل عليك إجابته إليها وإسعافه بها أمرت كاتبك فصفحه عنها ومنعه من مواجهتك بها فخفت عليك في ذلك المؤونة وحسن لك الذكر ولم ينشر عنك تجهم الرد وينلك سوء القالة في المنع وحمل على كاتبك في ذلك لائمةٌ أنت منها بريء الساحة.

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرسل فلا يصلن إليك أحدٌ منهم إلا بعد وصول علمه إليك وعلم ما قدم له عليك وجهة ما هو مكلمك به وقدر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك فأصدرت رأيك في حوائجه وأجلت فكرك في أمره واخترت معتزماً على إرادتك في جوابه وأنفذت مصدور رويتك في مرجوع مسألته قبل دخوله عليك وعلمه بوصول حاله إليك فرفعت عنك مؤونة البديهة وأرخيت عن نفسك خناق الروية وأقدمت على رد جوابه بعد النظر وإجالة الفكر فيه فإن دخل إليك أحدٌ منهم فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبك وطوى عنه حاجته قبلك دفعته عنك دفعاً جميلاً ومنعته جوابك منعاً وديعاً ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له والغلظة عليه ومنعه من الوصول إليك فإن ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب صارفاً عنك مؤونتها ومسهلاً عليك مستصعبها.

احذر تضييع رأيك وإهمالك أدبك في مسالك الرضا والغضب واعتوارهما إياك فلا يزدهينك إفراط عجبٍ تستخفك روائعه ويستهويك منظره ولا يبدرن منك ذلك خطأً ونزق خفة لمكروه إن حل بك أو حادثٍ إن طرأ عليك وليكن لك من نفسك ظهري ملجأ تتحرز به من آفات الردى وتستعضده في موهم النازل وتتعقب به أمورك في التدبير فإن احتجت إلى مادة من عقلك وروية من فكرك أو انبساط من منطقك كان انحيازك إلى ظهريك مزداداً مما أحببت الامتياح منه والامتيار وإن استدبرت من أمورك بوادر جهلٍ أو مضى زلل أو معاندة حقٍ أو خطل تدبيرٍ كان ما احتجنت إليه من رأيك عذراً لك عند نفسك وظهرياً قوياً على رد ما كرهت وتخفيفاً لمؤونة الباغين عليك في القالة وانتشار الذكر وحصناً من غلوب الآفات عليك واستعلائها على أخلاقك.

وامنع أهل بطانتك وخاصة خدمك من استلحام أعراض الناس عندك بالغيبة والتقرب إليك بالسعاية والإغراء من بعضٍ ببعض أو النميمة إليك بشيءٍ من أحوالهم المستترة عنك أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة: فإن ذلك أبلغ بك سمواً إلى منالة الشرف وأعون لك على محمود الذكر وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير.

وأملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانفهاق وعن القطوب بإظهار الغضب وتنحله: فإن ذلك ضعفٌ عن ملك سورة الجهل وخروجٌ من انتحال اسم الفضل وليكن ضحكك تبسماً أو كشراً في أحايين ذلك وأوقاته وعند كل رائع مستخفٍ مطرب وقطوبك إطراقاً في مواضع ذلك وأحواله بلا عجلة إلى السطوة ولا إسراع إلى الطيرة دون أن يكنفها روية الحلم وتملك عليها بادرة الجهل.

إذا كنت في مجلس ملئك وحيث حضور العامة مجلسك فإياك والرمي بنظرك إلى خاصٍ من قوادك أو ذي أثرة عندك من حشمك وليكن نظرك مقسوماً في الجميع وإراعتك سمعك ذا الحديث بدعةٍ هادئة ووقار حسن وحضور فهم مجتمع وقلة تضجر بالمحدث ثم لا يبرح وجهك إلى بعض حرسك وقوادك متوجهاً بنظر ركين وتفقدٍ محض فإن وجه إليك أحدٌ منهم نظره محدقاً أو رماك ببصره ملحاً فاخفض عنه إطراقاً جميلاً باتداعٍ وسكون وإياك والتسرع في الإطراق والخفة في تصريف النظر والإلحاح على من قصد إليك في مخاطبته إياك رامقاً وأعلم أن تصفحك وجوه جلسائك وتفقدك مجالس قوادك من قوة التدبير وشهامة القلب وذكاء الفطنة وانتباه السنة فتفقد ذلك عارفاً بمن حضرك وغاب عنك عالماً بمواضعهم من مجلسك ثم اعدبهم عن ذلك سائلاً لهم عن أشغالهم التي منعتهم من حضور مجلسك وعاقتهم بالتخلف عنك.

إن كان أحدٌ من حشمك وأعوانك تثق منه بغيب ضمير وتعرف منه لين طاعة وتشرف منه على صحة رأي وتأمنه على مشورتك فإياك والإقبال عليه في كل حادثٍ يرد عليك والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك وأن تريه أو أحداً من أهل مجلسك أن بك حاجةً إليه موحشة أو أ ليس بك عنه غنًى في التدبير أو أنك لا تقضي دونه رأياً إشراكاً منك له في رويتك وإدخالاً منك له في مشورتك واضطراراً منك إلى رأيه في الأمر يعروك: فإن ذلك من دخائل العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك فانفها عن نفسك خائفاً لاعتلاقها ذكرك واحجبها عن رويتك قاطعاً لأطماع أوليائك عن مثلها عندك أو غلوبهم عليها منك.

واعلم أن للمشورة موضع الخلوة وانفراد النظر ولكل أمرٍ غايةٌ تحيط بحدوده وتجمع معالمه فابغها محرزاً لها ورمها طالباً لنيلها وإياك والقصور عن غايتها أو العجز عن دركها أو التفريط في طلبها.

إن شاء الله تعالى.

إياك والإغرام عن حديثٍ ما أعجبك أو أمرْ ما ازدهاك بكثرة السؤال أو القطع لحديث من أرادك بحديثه حتى تنقضه عليه بالخوض في غيره أو المسألة عما ليس منه: فإن ذلك عند العامة منسوب إلى سوء الفهم وقصر الأدب عن تناول محاسن الأمور والمعرفة بمساويها ولكن أنصت لمحدثك وأرعه سمعك حتى يعلم أن قد فهمت حديثه وأحطت معرفةً بقوله: فإن أردت إجابته فعن معرفةٍ بحاجته وبعد علم بطلبته وإلا كنت عند انقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والإغضاء فأجرى عنك الجواب وقطع عنك ألسن العتب.

إياك وأن يظهر منك تبرمٌ بطول مجلسك أو تضجرٌ ممن حضرك وعليك بالتثبت عند سورة الغضب وحمية الأنف وملال الصبر في الأمر تستعجل به والعمل تأمر بإنفاذه فإن ذلك سخفٌ شائنٌ وخفة مردية وجهالةٌ بادية وعليك بثبوت المنطق ووقار المجلس وسكون الريح والرفض لحشو الكلام والترك لفضوله والإغرام بالزيادات في منطقك والترديد للفظك: من نحو اسمع وافهم عني وياهناه وألا ترى أو ما يلهج به من هذه الفضول المقصرة بأهل العقل الشائنة لذوي الحجا في المنطق المنسوبة إليهم بالعي المردية لهم بالذكر.

وخصالٌ من معايب الملوك والسوقة عنها غبية النظر إلا من عرفها من أهل الأدب وقلما حاملٌ لها مضطلع بها صابرٌ على ثقلها آخذٌ لنفسه بجوامعها فانفها عن نفسك بالتحفظ منها واملك عليها اعتيادك إياها معتنياً بها: منها كثرة التنخم والتبصق والتنخع والثؤباء والتمطي والجشاء وتحريك القدم وتنقيض الأصابع والعبث بالوجه واللحية أو الشارب أو المخصرة أو ذؤابة السيف أو الإيماض بالنظر أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدمك بأمر إن أردته أو السرار في مجلسك أو الاستعجال في طعمك أو شرك وليكن طعمك متدعاً وشربك أنفاساً وجرعك مصاً وإياك والتسرع إلى الأيمان فيما صغر أو كبر من الأمور

والشتيمة بقول يا ابن الهناة أو الغميزة لأحدٍ من خاصتك بتسويغهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك أو دارك وفناؤك: فإن ذلك كله مما يقبح ذكره ويسوء موقع القول فيه وتحمل عليك معايبه وينالك شينه وينتشر عليك سوء النبإ به فاعرف ذلك متوقياً له واحذره مجانباً لسوء عاقبته.

استكثر من فوائد الخير: فإنها تنشر المحمدة وتقيل العثرة واصبر على كظم الغيظ: فإنه يورث الراحة ويؤمن الساحة وتعهد العامة دخلهم وتبطن أحوالهم واستثارة دفائنهم حتى تكون منها على رأي عين ويقين خبرة فتنعش عديمهم وتجبر كسيرهم وتقيم أودهم وتعلم جاهلهم وتستصلح فاسدهم: فإن ذلك من فعلك بهم يورثك العزة ويقدمك في الفضل ويبقي لك لسان الصدق في العاقبة ويحرز لك ثواب الآخرة ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك وقلوبهم المتنحية عنك.

قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحجا والرأي والعقل والتدبير والصيت في العامة وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله والخمول عند مباهاة النسب وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل وتستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرفة بك فاعتمد عليهم مدخلاً لهم في أمرك وآثرهم بمجالستك لهم مستمعاً منهم وإياك وتضييعهم مفرطاً وإهمالهم مضيعاً.

هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسراً وجمع لك شواذها مؤلفاً وأهداها إليك مرداً فقف عند أوامرها وتناه عن زواجرها وتثبت في مجامعها وخذ بوثائق عراها تسلم من معاطب الردى وتنل أنفس الحظوظ ورغيب الشرف وأعلى درج الذكر وتأثل سطر العز والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد وتتابع المزيد وبلوغ الأمل وأن يجعل عاقبة ذلك بك إلى غبطة يسوغك إياها وعافية يحلك أكنافها ونعمة يلهمك شكرها: فإنه الموفق للخير والمعين على الإرشاد منه تمام الصالحات وهو مؤتي الحسنات عنده مفاتيح الخير وبيده الملك وهو على كل شيءٍ قدير.

فإذا أفضيت نحو عدوك واعتزمت على لقائهم وأخذت أهبة قتالهم فاجعل دعامتك التي تلجأ إليها وثقتك التي تأمل النجاة بها وركنك الذي ترتجي منالة الظفر به وتكتهف به لمعالق الحذر تقوى الله مستشعراً لها بمراقبته والاعتصام بطاعته متبعاً لأمره مجتنباً لسخطه محتذياً سنته والتوقي لمعاصيه في تعطيل حدوده أو تعدي شرائعه متوكلاً عليه فيما صمدت له واثقاً بنصره فيما توجهت نحوه متبرئاً من الحول والقوة فيما نالك من ظفر وتلقاك من عز راغباً فيما أهاب بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد ورمى بك إليه محمود الصبر فيه عند الله من قتال عدو المسلمين أكلبهم عليه وأظهره عداوةً لهم وأفدحه ثقلاً لعامتهم وآخذه بربقهم وأعلاه عليهم بغياً وأظهره عليهم فسقاً وفجوراً وأشده على فيئهم الذي أصاره الله لهم وفتحه عليهم مؤونةً وكلاً والله المستعان عليهم والمستنصر على جماعتهم عليه يتوكل أمير المؤمنين وإياه يستصرخ عليهم وإليه يفوض أمره وكفى بالله ولياً وناصراً ومعيناً وهو القوي العزيز.

ثم خذ من معك من تباعك وجندك بكف معرتهم ورد مشتعل جهلهم وإحكام ضياع عملهم وضم منتشر قواصيهم ولم شعث أطرافهم وتقييدهم عمن مروا به من أهل ذمتك وملتك بحسن السيرة وعفاف الطعمة ودعة الوقار وهدي الدعة وجمام المستجم محكماً ذلك منهم متفقداً لهم تفقدك إياه من نفسك.

ثم اصمد لعدوك المتسمي بالإسلام الخارج من جماعة أهله المنتحل ولاية الدين مستحلاً لدماء أوليائه طاعناً عليهم راغباً عن سنتهم مفارقاً لشرائعهم يبغيهم الغوائل وينصب لهم المكايد أضرم حقداً عليهم وأرصد عداوةً لهم وأطلب لغرات فرصهم من الترك وأمم الشرك وطواغي الملل يدعو إلى المعصية والفرقة والمروق من دين الله إلى الفتنة مخترعاً بهواه للأديان المنتحلة والبدع المتفرقة خساراً وتخسيراً وضلالاً وتضليلاً بغير هدًى من الله ولا بيان ساء ما كسبت له يداه وما الله بظلام للعبيد وساء ما سولت له نفسه الأمارة بالسوء والله من ورائه بالمرصاد: " وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون ".

حصن جندك واشكم نفسك بطاعة الله في مجاهدة أعدائه وأرج نصره وتنجز موعوده متقدماً في طلب ثوابه على جهادهم معتزماً في ابتغاء الوسيلة إليه على لقائهم: فإن طاعتك إياه فيهم ومراقبتك له ورجاءك نصره مسهل لك وعوره وعاصمك من كل سبة ومنجيك من كل هوة وناعشك من كل صرعة ومقيلك من كل كبوة وداريءٌ عنك كل شبهة ومذهب عنك لطخة كل شك ومقويك بكل أيد ومكيدةٍ ومعزك في كل معترك قتال ومؤيدك في كل مجمع لقاء وكالئك عند كل فتنةٍ مغشية وحائطك من كل شبهة مردية والله وليك وولي أمير المؤمنين فيك والمستخلف على جندك ومن معك.

اعلم أن الظفر ظفران: أحدهما وهو أعم منفعةً وأبلغ في حسن الذكر قالةً وأحوطه سلامة وأتمه عافيةً وأعوده عاقبةً وأحسنه في الأمور مورداً وأعلاه في الفضل شرفاً وأصحه في الروية حزماً وأسلمه عند العامة مصدراً - ما نيل بسلامة الجنود وحسن الحيلة ولطف المكيدة ويمن النقيبة واستنزال طاعة ذوي الصدوف بغير إخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب ومبارزة الفرسان في معترك الموت وإن ساعدتك طلوق الظفر ونالك مزيد السعادة في الشرف ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب وعضاض السيوف وألم الجراح وقصاص الحروب وسجالها بمغاورة أبطالها.

على أنك لا تدري لأيٍ يكون الظفر في البديهة ومن المغلوب بالدولة ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص فحاول إصابة أبلغهما في سلامة جندك ورعيتك وأشهرهما صيتاً في بدو تدبيرك ورأيك وأجمعهما لألفة وليك وعدوك وأعونهما على صلاح رعيتك وأهل ملتك وأقواهما شكيمةً في حزمك وأبعدهما من وصم عزمك وأعلقهما بزمام النجاة في آخرتك وأجزلهما ثواباً عند ربك.

وابدأ بالإعذار إلى عجوك والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة وعز الألفة آخذاً بالحجة عليهم متقدماً بالإنذار لهم باسطاً أمانك لمن لجأ إليك منهم داعياً لهم إليه بألين لفظك وألطف حيلك متعطفاً برأفتك عليهم مترفقاً بهم في دعائك مشفقاً عليهم من غلبة الغواية لهم وإحاطة الهلكة بهم منفذاً رسلك إليهم بعد الإنذار تعدهم إعطاء كل رغبة يهش ليها طمعهم في موافقة الحق وبسط كل أمان سألوه لأنفسهم ومن معهم ومن تبعهم موطناً نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك قابلاً توبة نازعهم عن الضلالة ومراجعة مسيئهم إلى الطاعة مرصداً للمنحاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم إجابةً إلى ما دعوته إليه وبصرته إياه من حقك وطاعتك بفضل المنزلة وإكرام المثوى وتشريف الجاه وليظهر من أثرك عليك وإحسانك إليه ما يرغب في مثله الصادف عنك المصر عل خلافك ومعصيتك ويدعو إلى اعتلاق حبل النجاة وما هو أملك به في الاعتصام عاجلاً وأنجى له من العقاب آجلاً وأحوطه على دينه ومهجته بدءاً وعاقبة فإن ذلك مما يستدعي به من الله نصره عليهم ويعتضد به في تقديمه الحجة إليهم معذراً أو منذراً إن شاء الله.

ثم أذك عيونك على عدوك متطلعاً لعلم أحوالهم التي يتقلبون فيها ومنازلهم التي هم بها ومطامعهم التي قد مدوا أعناقهم نحوها وأي الأمور أدعى لهم إلى الصلح وأقودها لرضاهم إلى العافية وأسهلها لاستنزال طاعتهم ومن أي الوجوه مأتاهم: أمن قبل الشدة والمنافرة والمكيدة والمباعدة والإرهاب والإيعاد أو الترغيب والإطماع متثبتاً في أمرك متخيراً في رويتك مستمكناً من رأيك مستشيراً لذوي النصيحة الذين قد حنكتهم السن وخبطتهم التجربة ونجتهم الحروب متشزناً في حربك آخذاً بالحزم في سوء الظن معداً للحذر محترساً من الغرة كأنك في مسيرك كله ونزولك أجمع مواقفٌ لعدوك رأي عينٍ تنتظر حملاتهم وتتخوف كراتهم معداً أقوى مكايدك وأرهب عتادك وأنكأ جدك وأجد تشميرك معظماً أمر عدوك لأعظم مما بلغك حذراً يكاد يفرط: لتعد له من الاحتراس عظيماً ومن المكيدة قوياً من غير أن يفتأك ذلك عن إحكام أمورك وتدبير رأيك وإصدار رويتك والتأهب لما يحزبك مصغراً له بعد استشعار الحذر واضطمار الحزم وإعمال الروية وإعداد الأهبة: فإن ألفيت عدوك كليل الحد وقم الحزم نضيض الوفر لم يضرك ما اعتددت له من قوة وأخذت له من حزم ولم يزدك ذلك إلا جرأةً عليه وتسرعاً إلى لقائه.

وإن ألفيته متوقد الحرب مستكثف الجمع قوي التبع مستعلي سورة الجهل معه من أعوان الفتنة وتبع إبليس من يوقد لهب الفتنة مسعراً ويتقدم إلى لقاء أبطالها متسرعاً كنت لأخذك بالحزم واستعدادك بالقوة غير مهين الجند ولا مفرط في الرأي ولا متلهفٍ على إضاعة تدبيرٍ ولا محتاجٍ إلى الإعداد وعجلة التأهب مبادرةً تدهشك وخوفاً يقلقك.

ومتى تغتر بترقيق المرققين وتأخذ بالهوينى في أمر عدوك لتصغير المصغرين ينتشر عليك رأيك ويكون فيه انتقاض أمرك ووهن تدبيرك وإهمالٌ للحزم في جندك وتضييعٌ له وهو ممكن الإصحار رحب المطلب قوي العصمة فسيح المضطرب مع ما يدخل رعيتك من الاغترار والغفلة عن إحكام أحراسهم وضبط مراكزهم لما يرون فيه من استنامتك إلى الغرة وركونك إلى الأمن وتهاونك بالتدبير فيعود ذلك عليك في انتشار الأطراف وضياع الأحكام احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوك وإياك ومعاقبة أحدٍ منهم على خبر إن أتاك به اتهمته فيه أو سؤت به ظناً وأتاك غيره بخلافه أو أن تكذبه فيه فترده عليه ولعله أن يكون قد محضك النصيحة وصدقك الخبر وكذبك الأول أو خرج جاسوسك الأول متقدماً قبل وصول هذا من عند عدوك وقد أبرموا لك أمراً وحاولوا لك مكيدة وأرادوا منك غرة فازدلفوا إليك في الأهبة ثم انتقض بهم رأيهم واختلف عنه جماعتهم فأرادوا رأياً وأحدثوا مكيدة وأظهروا قوة وضربوا موعداً وأموا مسلكاً لمدد أتاهم أو قوةٍ حدثت لهم أو بصيرةٍ في ضلالة شغلتهم فالأحوال بهم متنقلة في الساعات وطوارق الحادثات.

ولكن البسهم جميعاً على الانتصاح وارضخ لهم بالمطامع فإنك لن تستعبدهم بمثلها وعدهم جزالة المثاوب في غير ما استنامةٍ منك إلى ترقيقهم أمر عدوك والاغترار إلى ما يأتونك به دون أن تعمل رويتك في الأخذ بالحزم والإستكثار من العدة واجعلهم أوثق من تقدر عليه وآمن من تسكن إلى ناحيته: ليكون ما يبرم عدوك في كل يوم وليلة عندك إن استطعت ذلك فتنقض عليهم برأيك وتدبيرك ما أبرموا وتأتيهم من حيث أمنوا وتأخذ لهم أهبة ما عليه أقدموا وتستعد لهم بمثل ما حذروا.

واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك وربما كانوا لك وعليك فنصحوا لك وغشوا عدوك وغشوك ونصحوا عدوك وكثيراً ما يصدقونك ويصدقونه فلا تبدرن منك فرطة عقوبةٍ إلى أحد منهم ولا تعجل بسوء الظن إلى من اتهمته على ذلك واستنزل نصائحهم بالمياحة والمنالة وابسط من آمالهم فيك من غير أن يرى أحدٌ منهم أنك أخذت من قوله أخذ العامل به والمتبع له أو عملت على رأيه عمل الصادر عنه أو رددته عيه رد المكذب به المتهم له المستخف بما أتاك منه فتفسد بذلك نصيحته وتستدعي غشه وتجتر عداوته.

واحذر أن يعرفوا في عسكرك أو يشار إليهم بالأصابع وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وأمين سرك ويكون هو الموجه لهم والمدخل عليك من أردت مشافهته منهم.

واعلم أن لعدوك في عسكرك عيوناً راصدة وجواسيس متجسسة وأنه لن يقع رأيه عن مكيدتك بمثل ما تكايده به وسيحتال لك كاحتيالك له ويعد لك كإعدادك فيما تزاوله منه ويحاولك كمحاولتك إياه فيما تقارعه عنه فاحذر أن يشهر رجل من جواسيسك في عسكرك فيبلغ ذلك عدوك ويعرف موضعه فيعد له المراصد ويحتال له بالمكايد.

فإن ظفر به فأظهر عقوبته كسر ذلك ثقات عيونك وخذلهم عن تطلب الأخبار من معادنها واستقصائها من عيونها واستعذاب اجتنائها من ينابيعها حتى يصيروا إلى أخذها مما عرض من غير الثقة ولا المعاينة لقطاً لها بالأخبار الكاذبة والأحاديث المرجفة.

واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضاً: فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك وممالأتهم عدوك واجتماعهم على غشك وتطابقهم على كذبك وإصفاقهم على خيانتك وأن يورط بعضاً عند عدوك فأحكم أمرهم فإنهم رأس مكيدتك وقوام تدبيرك وعليهم مدار حربك وهو أول ظفرك فاعمل على حب ذلك وحيث رجاؤك به تنل أملك من عدوك وقوتك على قتاله واحتيالك لإصابة غراته وانتهاز فرصه إن شاء الله.

فإذا أحكمت ذلك وتقدمت في إتقانه واستظهرت بالله وعونه فول شرطتك وأمر عسكرك أوثق قواد عندك وأظهرهم نصيحةً لك وأنفذهم بصيرةً في طاعتك وأقواهم شكيمةً في أمرك وأمضاهم صريمة وأصدقهم عفافاً وأجزأهم غناء وأكفاهم أمانة وأصحهم ضميراً وأرضاهم في العامة ديناً وأحمدهم عند الجماعة خلقاً وأعطفهم على كافتهم رأفة وأحسنهم لهم نظراً وأشدهم في دين الله وحقه صلابة ثم فوض إليه مقوياً له وابسط من أمله مظهراً عنه الرضا حامداً منه الابتداء وليكن عالماً بمراكز الجنود بصيراً بتقدم المنازل مجرباً ذا رأي وتجربةٍ وحزم في المكيدة له نباهةٌ في الذكر وصيتٌ في الولاية معروف البيت مشهور الحسب وتقدم إليه في ضبط معسكره وإذكاء أحراسه في آناء ليلة ونهاره ثم حذره أن يكون منه إذنٌ لجنوده في الانتشار والاضطراب والتقدم لطلائعك فتصاب لهم غرة يجتريء بها عدوك عليك ويسرع إقداماً إليك ويكسر من إياد جندك ويوهن من قوتهم: فإن الصوت في إصابة عدوك الرجل الواحد من جندك أو عبيدهم مطمعٌ لهم فيك مقوٍ لهم على شحذ أتباعهم عليك وتصغيرهم أمرك وتوهينهم تدبيرك فحذره ذلك وتقدم إليه فيه ولا يكونن منه إفراطٌ في التضييق عليهم والحصر لهم فيعمهم أزله ويشملهم ضنكه وتسوء عليهم حاله وتشتد به المؤونة عليهم وتخبث له ظنونهم وليكن موضع إنزاله إياهم ضاماً لجماعتهم مستديراً بهم جامعاً لهم ولا يكون منبسطاً منتشراً متبدداً فيشق ذلك على اصحاب الأحراس وتكون فيه النهزة للعدو والبعد من المادة إن طرق طارق في فجآت الليل وبغتاته.

وأوعز إليه في أحراسه وتقدم إليه فيهم كأشد التقدم وأبلغ الإيعاز ومره فليول عليهم رجلاً ركيناً مجرباً جريء الإقدام ذاكي الصرامة جلد الجوارح بصيراً بمواضع أحراسه غير مصانع ولا مشفع للناس في التنحي إلى الرفاهية والسعة وتقدم العسكر والتأخر عنه فإن ذلك مما يضعف الوالي ويوهنه لاستنامته إلى من ولاه ذلك وأمنه به على جيشه.

واعلم أن مواضع الأحراس من معسكرك ومكانها من جندك بحيث الغناء عنهم والرد عليهم والحفظ لهم والكلاءة لمن بغتهم طارقاً أو أرادهم خاتلاً ومراصدها المنسل منها والآبق من أرقائهم وأعبدهم وحفظها من العيون والجواسيس من عدوهم.

واحذر أن تضرب على يديه أو تشكمه عن الصرامة بمؤامرتك في كل حادثٍ وطارئ إلا في المهم النازل والحدث العام: فإنك إذا فعلت ذلك به دعوته إلى نصحك واستوليت على محصول ضميره في طاعتك وأجهد نفسه في ترتيبك وأعمل رأيه في بلوغ موافقتك وإعانتك وكان ثقتك وردأك وقوتك ودعامتك وتفرغت أنت لمكايدة عدوك مريحاً لنفسك من هم ذلك والعناية به ملقياً عنك مؤونةً باهظة وكلفة فادحة إن شاء الله.

واعلم أن القضاء من الله بمكانٍ ليس به شيءٌ من الأحكام ولا بمثل محله أحدٌ من الولاة: لما يجري على يديه من مغاليظ الأحكام ومجاري الحدود فليكن من توليه القضاء في عسكرك من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع والبصر بوجوه القضايا ومواقعها قد حنكته السن وأيدته التجربة وأحكمته الأمور ممن لا يتصنع للولاية ويستعد للنهزة ويجترئ على المحاباة في الحكم والمداهنة في القضاء عدل الأمانة عفيف الطعمة حسن الإنصاف فهم القلب ورع الضمير متخشع السمت بادي الوقار محتسباً للخير.

ثم أجر عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه وفرغه لما حملته وأعنه على ما وليته: فإنك قد عرضته لهلكة الدنيا وبوار الآخرة أو شرف الدنيا وحظوة الآجلة إن حسنت نيته وصدقت رويته وصحت سريرته وسلط حكم الله على رعيته مطلقاً عنانه منفذاً قضاء الله في خلقه عاملاً بسنته في شرائعه آخذاً بحدوده وفرائضه.

واعلم أنه من جندك بحيث ولايتك الجارية أحكامه عليهم النافذة أقضيته فيهم فاعرف من توليه ذلك وتسنده إليه.

ثم تقدم في طلائعك فإنها أول مكيدتك ورأس حربك ودعامة أمرك فانتخب لها من كل قادةٍ وصحابةٍ رجالاً ذوي نجدة وبأس وصرامة وخبرة حماةً كفاة قد صلوا بالحرب وذاقوا سجالها وشربوا مرار كؤوسها وتجرعوا غصص درتها وزبنتهم بتكرار عواطفها وحملتهم على أصعب مراكبها وذللتهم بثقاف أودها.

ثم انتقهم على عينك واعرض كراعهم بنفسك وتوخ في انتقائك ظهور الجلد وشهامة الخلق وكمال الآلة.

وإياك أن تقبل من دوابهم إلا الإناث من الخيل المهلوبة فإنهن أسرع طلباً وأنجى مهرباً وألين معطفاً وأبعد في اللحوق غاية وأصبر في معترك الأبطال إقداماً وخذهم من السلاح بأبدان الدروع مادية الحديد شاكة النسج متقاربة الحلق متلاحمة المسامير وأسوق الحديد مموهة الركب محكمة الطبع خفيفة الصوغ وسواعد طبعها هندي وصوغها فارسيٌ رقاق المعاطف بأكفٍ واقية وعملٍ محكم.

ويلمق البيض مذهبة ومجردة فارسية الصوغ خالصة الجوهر سابغة الملبس واقية الجنن مستديرة الطبع مبهمة السرد وافية الوزن كتريك النعام في الصنعة واستدارة التقبيب واستواء الصوع معلمة بأصناف الحرير وألوان الصبغ فإنها أهيب لعدوهم وأفت لأعضاد من لقيهم والمعلم مخشيٌ محذور له بديهةٌ رادعة وهيبة هائلة معهم السيوف الهندية وذكور البيض اليمانية رقاق الشفرات مسنونة الشحذ مشطبة الضرائب معتدلة الجواهر صافية الصفائح لم يدخلها وهن الطبع ولا عابها أمت الصوغ ولا شانها خفة الوزن ولا فدح حاملها بهور الثقل قد أشرعوا لدن القنا طوال الهوادي مقومات الأود زرق الأسنة مستوية الثعالب وميضها متوقد وسنخها متلهب معاقص عقدها منحوتة ووصوم أودها مقومة وأجناسها مختلفة وكعوبها جعدة وعقدها حبكة شطبة الأسنان مموهة الأطراف مستحدة الجنبات دقاق الأطراف ليس فيها التواء أود ولا أمت وصم ولا بها مسقط عيب ولا عنها وقوع أمنية مستحقبي كنائن النبل وقسي الشوحط والنبع أعرابية التعقيب رومية النصول مسمومة الصوغ ولتكن سهامها على خمس قبضات سوى النصور فإنها أبلغ في الغاية وأنفذ في الدروع وأشك في الحديد سامطين حقائبهم على متون خيولهم مستخفين من الآلة والأمتعة الزاد إلا ما لا غناء بهم عنه.

واحذر أن تكل مباشرة عرضهم وانتخابهم إلى أحد من أعوانك وكتابك فإنك إن وكلته إليهم أضعت مواضع الحزم وفرطت حيث الرأي ووقفت دون عز الروية ودخل عملك ضياع الوهن وخلص إليك عيب المحاباة وناله فساد المداهنة وغلب عليه من لا يصلح أن يكون طليعة للمسلمين ولا عدةً ولا حصناً يدرئون به ويكتهفون بموضعه.

والطلائع حصون المسلمين وعيونهم وهم أول مكيدتك وعروة أمرك فليكن اعتناؤك بهم وانتقاؤك إياهم بحيث هم من مهم عملك ومكيدة حربك ثم انتخب للولاية عليهم رجلاً بعيد الصوت مشهور الاسم ظاهر الفضل نبيه الذكر له في العدو وقعات معروفات وأيامٌ طوال وصولات متقدمات قد عرفت نكايته وحذرت شوكته وهيب صوته وتنكب لقاؤه أمين السريرة ناصح

الجيب قد بلوت منه ما يسكنك إلى ناحيته: من لين الطاعة وخالص المودة وركانة الصرامة وغلوب الشهامة واستجماع القوة وحصافة التدبير ثم تقدم إليه في حسن سياستهم واستنزال طاعتهم واجتلاب موداتهم واستعذاب ضمائرهم وأجر عليهم وعليه أرزاقاً تسعهم وتمد من أطماعهم سوى أرزاقهم في العامة فإن ذلك من القوة لك عليهم والاستنامة إلى ما قبلهم.

واعلم أنهم في أهم الأماكن لك وأعظمها غناءً عنك وعمن معك وأقمعها كبتاً لمحادك وأشجاها غيظاً لعدوك ومن يكن في الثقة والجلد والبأس والطاعة والقوة والنصيحة والعدة والنجدة حيث وصف لك أمير المؤمنين وأمرك به يضع عنك مؤونة الهم ويرخ من خناقك روع الوف وتلتجيء إلى أمر منيع وظهر قوي ورأي حازم تأمن به فجآت عدوك وغرات بغتاتهم وطوارق أحداثهم ويصير إليك علم أحوالهم ومتقدمات خيولهم فانتخبهم رأي عين وقوهم بما يصلحهم من المنالات والأطماع والأرزاق واجعلهم منك بالمنزل الذي هم به من محارز علاقتك وحصانة كهوفتك وقوة سيارة عسكرك.

وإياك أن تدخل فيهم أحداً بشفاعة أو تحتمله عل هوادة أو تقدمه لأثرة أو أن يكون مع أحدٍ منهم بغلٌ نفلٌ أو فضلٌ من الظهر أو ثقل فادح فتشتد عليهم مؤونة أنفسهم ويدخلهم كلال السآمة فيما يعالجون من أثقالهم ويشتغلون به عن عدوهم إن دهمهم منه رائع أو فجأهم منه طليعةٌ فتفقد ذلك محكماً له وتقدم فيه آخذاً بالحزم في إمضائه أرشدك الله لإصابة الحظ ووفقك ليمن التدبير وقصد بك لأسهل الرأي وأعوده نفعاً في العاجل والآجل وأكبته لعدوك وأشجاه لهم وأردعه لعاديتهم.

ول دراجة عسكرك وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم رجلاً من أهل بيوتات الشرف محمود الخبرة معروفاً بالنجدة ذا سنٍ وتجربة لين الطاعة قديم النصيحة مأمون السريرة له بصيرةٌ بالحق نافذةٌ تقدمه ونية صادقةٌ عن الإدهان تحجزه واضمم إليه عدة نفر من ثقات جندك وذوي أسنانهم يكونون شرطةً معه ثم تقدم إليه في إخراج المصاف وإقامة الأحراس وإذكاء العيون وحفظ الأطراف وشدة الحذر ومره فليضع القواد بأنفسهم مع أصحابهم في مصافهم كل قائدٍ بإزاء مكانه وحيث منزله قد سد ما بينه وبين صاحبه بالرماح شارعةً والترسة موضونةً والرجال راصدةً ذاكية الأحراس وجلة الروع خائفةً طوارق العدو وبياته ثم مره فليخرج كل ليلة قائداً في أصحابه أو عدةٍ منهم إن كانوا كثيراً على غلوة أو اثنتين من عسكرك منتبذاً عنك محيطاً بمنزلك ذاكيةً أحراسه قلقة التردد مفرطة الحذر معدة للروع متأهبةً للقتال آخذةً على أطراف المعسكر ونواحيه متفرقين في اختلافهم كردوساً كردوساً يستقبل بعضهم بعضاً في الاختلاف ويكسع تالٍ متقدماً في التردد واجعل ذلك بين قوادك وأهل عسكرك نوباً معروفة وحصصاً مفروضة لا تعر منها مزدلفاً منك بمودة ولا تتحامل فيه على أحدٍ بموجدة إن شاء الله تعالى.

فوض إلى أمراء أجنادك وقواد خيلك أمور أصحابهم والأخذ على قافية أيديهم رياضة منك لهم على السمع والطاعة لأمرائهم والاتباع لأمرهم والوقوف عند نهيهم وتقدم إلى أمراء الأجناد في النوائب التي ألزمتهم إياها والأعمال التي استنجدتهم لها والأسلحة والكراع التي كتبتها عليهم واحذر اعتلال أحدٍ من قوادك عليك بما يحول بينك وبين تأدي بجندك وتقويمهم لطاعتك وقمعهم عن الإخلال بمراكزهم لشيء مما وكلوا به من أعمالهم فإن ذلك مفسدة للجند مفثأةٌ للقواد عن الجد والإيثار للمناصحة والتقدم في الاحكام.

واعلم أن في استخفافهم بقوادهم وتضييعهم أمر رؤسائهم دخولاً للضياع على أعمالك واستخفافاً بأمرك الذي يأتمرون به ورأيك الذي ترتئي وأوعز إلى القواد أن لا يقدم أحد منهم على عقوبة أحدٍ من أصحابه إلا عقوبة تأديب في تقويم ميل وتثقيف أود فأما عقوبة تبلغ تلف المهجة وإقامة حدٍ في قطع أو إفراطٌ في ضرب أو أخذ مال أو عقوبةٌ في شعر فلا يلين ذلك من جندك أحدٌ غيرك أو صاحب شرطتك بأمرك وعن رأيك وإذنك ومتى لم تذلل الجند لقوادهم وتضرعهم لأمرائهم توجب لهم من عملك أو عجز - إن فرط منهم - في شيءٍ مما -عليك الحجة بتضييع - إن كان منهم - لمرك أو خلل - إن تهاونوا به وكلتهم به أو أسندته إليهم ولا تجد إلى الإقدام عليهم باللوم وعض العقوبة عليهم مجازاً تصل به إلى تعنيفهم بتفريطك في تذليل أصحابهم لهم وإفسادك إياهم عليك وعليهم فانظر في ذلك نظراً محكماً وتقدم فيه برفقك تقدماً بليغاً وإياك أن يدخل حزمك وهنٌ أو يشوب عزمك إيثارٌ أو يخلط رأيك ضياع والله يستودع أمير المؤمنين نفسك ودينك.

إذا كنت من عدوك على مسافةٍ دانية وسنن لقاء مختصر وكان من عسكرك مقترباً قد شامت طلائعك مقدمات ضلالته وحماة فتنته فتأهب أهبة المناجز وخذ اعتداد الحذر وكتب خيولك وعب جندك وإياك والمسير إلا في مقدمة وميمنة وميسرة وساقةٍ قد شهروا الأسلحة ونشروا البنود والأعلام وعرف جندك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم قد أخذوا أهبة القتال واستعدوا للقاء ملتجئين إلى مواقفهم عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومعسكرهم وليكن ترحلهم وتنزلهم على راياتهم وأعلامهم وفي مراكزهم قد عرف كل قائد منهم أصحابه مواقفهم: من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة لازمين لها غير مخلين بها استنجدوا له ولا متهاونين بما أهيب بهم إليه حتى تكون عساكرك في منهلٍ تصل إليه ومسافةٍ تختارها كأنها عسكرٌ واحد في اجتماعها

على العدو وأخذها بالحزم ومسيرها على راياتها ونزولها في مراكزها ومعرفتها بمواضعها إن ضلت دابةٌ من موضعها عرف أهل العسكر من أي المراكز هي ومن صاحبها وفي أي المحل حلوله منها فردت إليه هدايةٌ معروفة بسمت صاحب قيادتها فإن تقدمك في ذلك وإحكامك له طارحٌ عن جندك مؤونة الطلب وعناية المعرفة وابتغاء الضالة.

ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكرك في نفسك صرامةً ونفاذاً ورضاً في العامة وإنصافاً من نفسه للرعية وأخذاً بالحق في المعدلة مستشعراً تقوى الله وطاعته آخذاً بهديك وأدبك واقفاً عند أمرك ونهيك معتزماً على مناصحتك وتزيينك نظيراً لك في الحال وشبيهاً بك في الشرف وعديلاً في الموضع ومقارباً في النسب ثم أكثف معه الجمع وأيده بالقوة وقوه بالظهر وأعنه بالأموال واعمده بالسلاح ومره بالتعطف على ذوي الضعف من جندك ومن أزحفت به دابته وأصابته نكبة: من مرض أو رجلة أو آفةٍ من غير أن يأذن لأحدٍ منهم في التنحي عن عسكره أو التخلف بعد ترحله إلا لمجهودٍ سقماً أو لمطروقٍ بآفةٍ جائحةٍ.

ثم تقدم إليه محذراً ومره زاجراً وانهه مغلظاً في الشدة على من مر به منصرفاً عن معسكرك من جندك بغير جوازك شاداً لهم أسراً وموقرهم حديداً ومعاقبهم موجعاً وموجههم إليك فتنهكهم عقوبةً وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة.

واعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه واثقاً بنصيحته قد بلوت منه أمانة تسكنك إليه وصرامةً تؤمنك مهانته ونفاذاً في أمرك يرخي عنك خناق الخوف في إضاعته لم يأمن أمير المؤمنين تسلل الجند عنك لواذاً ورفضهم مراكزهم وإخلالهم بمواضعهم وتخلفهم عن أعمالهم آمنين تغيير ذلك عليهم والشدة على من اجترمه منهم فأوشك ذلك في وهنك وخذل من قوتك وقلل من كثرتك.

اجعل خلف ساقتك رجلاً من وجوه قوادك جليداً ماضياً عفيفاً صارماً شهم الرأي شديد الحذر شكيم القوة غير مداهن في عقوبة ولا مهين في قوة في خمسين فارساً يحشر إليك جندك ويلحق بك من تخلف عنك بعد الإبلاغ في عقوبتهم والنهك لهم والتنكيل بهم.

وليكن بعقوتك في المنزل الذي ترحل عنه والمنهل الذي تتقوض منه مفرطاً في النفض له والتتبع لمن تخلف عنك به مشتداً فيأهل المنزل وساكنه بالتقدم موعزاً إليهم في إزعاج الجند عن منازلهم وإخراجهم عن مكامنهم وإيعاد العقوبة الموجعة والنكال المبسل في الأشعار والأبشار واستصفاء الأموال وهدم العقار لمن آوى منهم أحداً أو ستر موضعه أو أخفى محله وحذره عقوبتك إياه في الترخيص لأحدٍ والمحاباة لذي قرابة والاختصاص بذلك لذي أثرة وهوادة ولتكن فرسانه منتخبين في القوة معروفين بالنجدة عليهم سوابغ الدروع دونها شعار الحشو وجبب الاستجنان متقلدين سيوفهم سامطين كنائنهم مستعدين لهيج إن بدهمهم أو كمين إن يظهر لهم وإياك أن تقبل منهم في دوابهم إلا فرساً قوياً أو برذوناً وثيجاً: فإن ذلك من أقوى القوة لهم وأعون الظهري على عدوهم إن شاء الله.

ليكن رحيلك إباناً واحداً ووقتاً معلوماً: لتخف المؤونة بذلك على جندك ويعلموا أوان رحيلهم فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم وأعلاف دوابهم وتسكن قلوبهم إلى الوقت الذي وقفوا عليه ويطمئن ذوو الرأي إلى إبان الرحيل ومتى يكن رحيلك مختلفاً تعظم المؤونة عليك وعلى جندك ويخلوا بمراكزهم ولا يزال ذوو السفه والنزق يترحلون بالإرجاف وينزلون بالتوهم حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة.

إياك أن تظهر استقلالاً أو تنادي برحيل من منزل تكون فيه حتى تأمر صاحب تعبئتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك آخذاً بجنبتي فوهته بأسلحتهم عدةً لأمرٍ إن حضر أو مفاجأةٍ من طليعة للعدو إن رأت منكم نهزةً أو لمحت عندكم غرة ثم مر الناس بالرحيل وخيلك واقفة وأهبتك معدة وجنتك واقية حتى إذا استقللتم من معسكركم وتوجهتم من منزلكم سرتم على تعبئتكم بسكون ريح وهدو حملة وحسن دعة.

فإذا انتهيت إلى منهل أردت نزوله أو هممت بالمعسكر به فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله والمعرفة بمرافقه ومر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ويستثير لك علم دفينه ويستبطن علم أموره ثم ينهيها إليك على ما صارت إليه: لتعلم كيف احتماله لعسكرك وكيف ماؤه وأعلافه وموضع معسكرك منه وهل لك - إن أردت مقاماً به أو مطاولة عدوك أو مكايدته فيه - قوةٌ تحملك ومددٌ يأتيه: فإنك إن لم تفعل ذلك لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه وقلة مياهه

وانقطاع مواده إن أردت بعدوك مكيدة أو احتجت من أمورهم إلى مطاولة فإن ارتحلت منه كنت غرضاً لعدوك ولم تجد إلى المحاربة والاخطار سبيلاً وإن أقمت به أقمت على مشة وحصر وفي أزل وضيق فاعرف ذلك وتقدم فيه.

فإن أردت نزولاً أمرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس فوقفت خيله متنحية من معسكرك عدةً لأمر إن غالك ومفزعاً لبديهة إن راعتك فقد أمنت بحمد الله وقوته فجأة عدوك وعرفت موقعها من حرزك حتى يأخذ الناس منازلهم وتوضع الأثقال مواضعها ويأتيك خبر طلائعك وتخرج دبابتك من معسكرك دراجة ودباباً محيطين بعسكرك وعدةً إن احتجت إليها.

ولتكن دبابات جندك أهل جلد وقوة قائداً أو اثنين أو ثلاثةً بأصحابهم في كل ليلةٍ ويومٍ نوباً بينهم فإذا غربت الشمس ووجب نورها أخرج إليهم صاحب تعبئتك أبدالهم عسساً بالليل في أقرب من مواضع دبابي النهار يتعاور ذلك قوادك جميعاً بلا محاباةٍ لأحدٍ فيه ولا إدهان إن شاء الله.

إياك وأن يكون منزلك إلا في خندق وحصن تأمن به بيات عدوك وتستنيم فيه إلى الحزم من مكيدتك إذا وضعت الأثقال وحطت أبنية أهل العسكر لم يمدد طنب ولم يرفع خباء ولم ينصب بناءٌ حتى تقطع لكل قائدٍ ذرعاً معلوماً من الأرض بقدر أصحابه فيحفروه عليهم خندقاً يطيفونه بعد ذلك بخنادق الحسك طارحين لها دون اشتجار الرماح ونصب الترسة لها بابان قد وكلت بحفظ كل باب منهما رجلاً من قوادك في مائة رجلٍ من أصحابه فإذا فرغ من الخندق كان ذانك الرجلان القائدان بمن معهما من أصحابهما أهل ذلك المركز وموضع تلك الخيل وكانوا البوابين والأحراس لذينك الموضعين قد كفوهما وضبطوهما وأعفوا من أعمال العسكر ومكروهه غيرهما.

واعلم أنك إذا كنت في خندق أمنت بإذن الله وقوته طوارق عدوك وبغتاتهم فإن راموا تلك منك كنت قد أحكمت ذلك وأخذت بالحزم فيه وتقدمت في الإعداد له ورتقت مخوف الفتق منه وإن تكن العافية استحقيت حمد الله عليها وارتبطت شكره بها ولم يضررك أخذت بالحزم: لأن كل كلفة ونصب ومؤونة إنفاق ومشقة عمل مع السلامة غنم وغير خطر بالعاقبة إن شاء الله.

فإن ابتليت ببيات عدوك أو طرقك رائعاً في ليلك فليلفك حذراً مشمراً عن ساقك حاسراً عن ذراعك متشزناً لحربك قد تقدمت دراجتك إلى مواضعها على ما وصفه لك أمير المؤمنين ودبابتك في أوقاتها التي قدر لك وطلائعك حيث أمرك وجندك على ما عبأ لك قد خطرت عليهم بنفسك وتقدمت إلى جندك إن طرقهم طارق أو فجاأهم عدو أن لا يتكلم منهم أحدٌ رافعاً صوته بالتكبير مغرقاً في الإجلاب معلناً بالإرهاب لأهل الناحية التي يقع بها العدو طارقاً وليشرعوا رماحهم ناشبين بها في وجوههم ويرشقونهم بالنبل مكتنين بأترستهم لازمين لمراكزهم غير مزيلي قدم عن موضعها ولا متجاوزين إلى غير مركزهم وليكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون لتعرف موضع عدوك من معسكرك فتمد أهل تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطتك ومن انتخبت قبل ذلك عدةً للشدائد بحضرتك وتدس إليهم النشاب والرماح.

وإياك وأن يشهروا سيفاً يتجالدون به.

وتقدم إليهم أن لا يكون قتالهم في تلك المواضع لمن طرقهم إلا بالرماح مسندين لها إلى صدورهم والنشاب راشقين به وجوههم قد ألبدوا بالأترسة واستجنوا بالبيض وألقوا عليهم سوابغ الدروع وجباب الحشو فإن صد العدو عنهم حاملين على جهةٍ أخرى كبر أهل تلك الناحية التي يقع فيها كفعل الناحية الأولى وبقية العسكر سكوتٌ والناحية التي صد عنها العدو لازمةٌ مراكزهم منتطقة الهدو ساكنة الريح ثم عملت في تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعك بإخوانهم.

وإياك أن تخمد نار رواقك وإذا وقع العدو في معسكرك فأججها ساعراً لها وأوقدها حطباً جزلاً يعرف به أهل العسكر مكانك وموضع رواقك فيسكن نافر قلوبهم ويقوى واهي قوتهم ويشتد منخذل ظهورهم ولا يرجمون بك الظنون ويجعلون لك آراء السوء ويرجفون بك آناء الخوف وذلك من فعلك رادٌ عدوك بغيظه لم يستقل منك ظفراً ولم يبلغ من نكايتك سروراً.

وإن انصرف عنك عدوك ونكل عن الإصابة من جندك وكانت بخيلك قوةٌ على طلبه أو كانت لك من فرسانك خيلٌ معدة وكتيبةٌ منتخبة وقدرت على أن تركب بهم أكساءهم وتحملهم على سننهم فأتبعهم جريدة خيل عليها الثقات من فراسنك وأولو النجدة من حماتك فإنك ترهق عدوك وقد أمن من بياتك وشغل بكلاله عن التحرز منك والأخذ بأبواب معسكره والضبط لمحارسه عليك موهنةٌ حماتهم لغبةٌ أبطالهم: لما ألفوكم عليه من التشمير والجد قد عقر الله فيهم وأصاب منهم وجرح من مقاتلتهم وكسر من أماني ضلالهم ورد من مستعلي جماحهم.

وتقدم إلى من توجهه في طلبهم وتتبعه أكساءهم في سكون الريح وقلة الرفث وكثرة التسبيح والتهليل واستنصار الله عز وجل بألسنتهم وقلوبهم سراً وجهراً بلا لجب ضجة ولا ارتفاع ضوضاء دون أن يردوا على مطلبهم وينتهزوا فرصتهم ثم ليشهروا السلاح وينتضوا السيوف فإن لها هيبةً رائعة وبديهة مخوفة لا يقوم لها في بهمة الليل وحندسه إلا البطل المحارب وذو البصيرة المحامي والمستميت المقاتل وقليلٌ ما هم عند تلك الحمية وفي ذلك الموضع.

ليكن أول ما تتقدم به في التهيؤ لعدوك والاستعداد للقائه انتخابك من فرسان عسكرك وحماة جندك ذوي البأس والحنكة والجلد والصرامة من قد اعتاد طراد الكماة وكشر عن ناجذه في الحرب وقام على ساقٍ في منازلة الأقران ثقف الفروسية مجتمع القوة مستحصد المريرة صبوراً على هول الليل عارفاً بمناهزة الفرص لم تمهنه الحنكة ضعفاً ولا بلغت به السن كلالاً ولا أسكرته غرة الحداثة جهلاً ولا ابطرته نجدة الأغمار صلفاً جريئاً على مخاطرة التلف مقدماً على ادراع الموت مكابراً لمهيب الهول متقحماً مخشي الحتوف خائضاً غمرات المهالك برأي يؤيده الحزم ونية لا يخالجها الشك وأهواء مجتمعة وقلوبٍ مؤتلفة عارفين بفضل الطاعة وعزها وشرفها وحيث محل أهلها من التأييد والظفر والتمكين ثم اعرضهم رأي عين على كراعهم وأسلحتهم ولتكن دوابهم إناث عتاق الخيل وأسلحتهم سوابغ الدروع وكمال آلة المحارب متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجوهر وصافي الحديد المتخيرة من معادن الأجناس هندية الحديد أو تبتية يمانية الطبع رقاق المضارب مسمومة الشحذ مشطبة الضريبة ملبدين بالترسة الفارسية صينية التعقيب معلمة المقابض بحلق الحديد أنحاؤها مربعة ومخارزها بالتجليد مضاعفة محملها مستخف وكنائن النبل وجعاب القسي قد استحقبوها وقسي الشريان والنبع أعرابية الصنعة مختلفة الأجناس محكمة العمل مقومة التثقيف ونصول النبل مسمومة وعملها مصيصي وتركيبها عراقي وترييشها بدوي مختلفة الصوغ في الطبع شتى الأعمال في التشطيب والتجنيح والاستدارة ولتكن الفارسية مقلوبة المقابض منبسطة السية سهلة الانعطاف مقربة الانحناء ممكنة المرمى واسعة الأسهم فرضها سهلة الورود ومعاطفها غير مقتربة المواتاة ثم ول على كل مائة رجل منهم رجلاً من أهل خاصتك وثقاتك ونصحائك له صيتٌ في الرياسة وقدم في السابقة وأولية في المشايعة وتقدم إليه في ضبطهم وكف معرتهم واستنزال نصائحهم واستعداد طاعتهم واستخلاص ضمائرهم وتعاهد كراعهم وأسلحتهم: معفياً لهم من النوائب التي تلزم أهل عسكرك وعامة جندك واجعلهم عدة لمرٍ إن حزبك أو طارقٍ إن أتاك ومرهم أن يكونوا على أهبة معدة وحذرٍ نافٍ لسنة الغفلة عنهم فإنك لا تدري أي الساعات من ليلك ونهارك تكون إليهم حاجتك فليكونوا كرجلٍ واحدٍ في التشمير والترادف وسرعة الإجابة فإنك عسيت أن لا تجد عند جماعة جندك في مثل تلك الروعة والمباغتة - إن احتجت إلى ذلك منهم - معونةً كافية ولا أهبة معدة بل ذلك كذلك.

فليكن هؤلاء القوم الذين تنتخب عدتك وقوتك بعوثاً قد وظفتها على القواد الذين وليتهم أمورهم فسميت أولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً فإن اكتفيت فيما يطرقك ويبدهك ببعث واحد كان معداً لم تحتج إلى انتخابهم في ساعتك تلك فقطع البعث عليهم عند ما يرهقك.

وإن احتجت إلى اثنين أو ثلاثةٍ وجهت منهم إرادتك أو ما ترى قوتك إن شاء الله.

وكل بخزائنك ودواوينك رجلاً ناصحاً أميناً ذا ورع حاجز ودين فاضل وطاعةٍ خالصةٍ وأمانةٍ صادقةٍ واجعل معه خيلاً يكون مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزانتك وحولها وتقدم إليه في حفظها والتوقي عليها واتهام كل من تسند إليه شيئاً منها على إضاعته والتهاون به والشدة على من دنا منها في مسير أو ضامها في منزل أو خالطها في منهل.

وليكن عامة الجند والجيش - إلا من استخلصت للمسير معها - متنحين عنها مجانبين لها في المسر والمنزل فإنه ربما كانت الجولة وحدثت الفزعة فإن لم يكن للخزائن ممن يوكل بها أهل حفظ لها وذبٍ عنها وحياطةٍ دونها وقوةٍ على من أراد انتهابها أسرع الجند إليها وتداعوا نحوها حتى يكاد يترامى ذلك بهم إلى انتهاب العسكر واضطراب الفتنة فإن أهل الفتن وسوء السيرة كثيرٌ وإنما همتهم الشر فإياك أن يكون لأحد في خزائنك ودواوينك وبيوت أموالك مطمع أو يجد سبيلاً إلى اغتيالها ومرزأتها إن شاء الله.

اعلم أن أحسن مكيدتك أثراً في العامة وأبعدها صيتاً في حسن القالة ما نلت الظفر فيه بحزم الروية وحسن السيرة ولطف الحيلة فلتكن رويتك في ذلك وحرصك على إصابته بالحيل لا بالقتال وأخطار التلف وادسس إلى عدوك وكاتب رؤساءهم وقادتهم وعدهم المنالات ومنهم الولايات وسوغهم التراث وضع عنهم الإحن واقطع أعناقهم بالمطامع واستدعهم بالمثاوب واملأ قلوبهم بالترهيب إن أمكنتك منهم الدوائر وأصارتهم إليك الرواجع وادعهم إلى الوثوب بصاحبهم أو اعتزاله إن لم يكن لهم بالوثوب عليه طاقةٌ ولا عليك أن تطرح إلى بعضهم كتباً كأنها جواب كتبٍ لهم إليك وتكتب على ألسنتهم كتباً إليك تدفعها

إليهم وتحمل بها صاحبهم عليهم وتنزلهم عنده بمنزلة التهمة ومحل الظنة فلعل مكيدتك في ذلك أن يكون فيها افتراق كلمتهم وتشتيت جماعتهم وإحن قلوبهم وسوء الظن من واليهم بهم فيوحشهم منه خوفهم إياه على أنفسهم إذا أيقنوا باتهامه إياهم فإن بسط يده فقتلهم وأولغ سيفه في دمائهم وأسرع الوثوب بهم أشعرهم جميعاً الخوف وشملهم الرعب ودعاهم إليك الهرب فتهافتوا نحوك بالنصيحة وأموك بالطلب وإن كان متأنياً محتملاً رجوت أن تستميل إليك بعضهم ويستدعي الطمع ذوي الشره منهم وتنال بذلك ما تحب من أخبارهم إن شاء الله.

إذا تدانى الصفان وتواقف الجمعان واحتضرت الحرب وعبأت أصحابك لقتال عدوهم فأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله والتوكل على الله عز وجل والتفويض إليه ومسألته توفيقك وإرشادك وأن يعزم لك على الرشد المنجي والعصمة الكالئة والحياطة الشاملة.

ومر جندك بالصمت وقلة التلفت عند المصاولة وكثرة التكبير في أنفسهم والتسبيح بضمائرهم ولا يظهروا تكبيراً إلا في الكرات والحملات وعند كل زلفةٍ يزدلفونها فأما وهم وقوقٌ فإن ذلك من الفشل والجبن وليذكروا الله في أنفسهم ويسألوه نصرهم وإعزازهم وليكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم حسبنا الله ونعم الوكيل اللهم انصرنا على عدوك وعدونا الباغي واكفنا شوكته المستحدة وأيدنا بملائكتك الغالبين واعصمنا بعونك من الفشل والعجز إنك أرحم الراحمين.

وليكن في معسكرك المكبرون في الليل والنهار قبل المواقعة وقومٌ موقوفون يخصونهم على القتال ويحرضونهم على عدوهم ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ويذكرونهم الجنة ودرجاتها ونعيم أهلها وسكانها ويقولون: اذكروا الله يذكركم واستنصروه ينصركم والتجئوا إليه يمنعكم وإن استطعت أن تكون أنت المباشر لتعبئة جندك ووضعهم مواضعهم من رأيك ومعك رجالٌ من ثقات فرسانك ذوو سنٍ وتجربة ونجدة على التعبئة التي أمير المؤمنين واصفها لك في آخر كتابك فافعل إن شاء الله تعالى.

أيدك الله بالنصر وغلب لك على القوة وأعانك على الرشد وعصمك من الزيغ وأوجب لمن استشهد معك ثواب الشهداء ومنازل الأصفياء والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب سنة تسع وعشرين ومائةٍ.

الطرف الثالث فيما كان يكتب عن خلفاء بني العباس ببغداد إلى حين انقراض الخلافة العباسية من بغداد وهو على أربعة أنواع: النوع الأول ما كان يكتب لوزراء الخلافة وكان رسمهم فيه أن يفتتح بلفظ أما بعد فالحمد لله ويؤتى فيه بثلاث تحميداتٍ وربما اقتصر وهذه نسخة تقليدٍ من ذلك كتب بها العلاء بن موصلايا عن القائم بأمر الله للوزير فخر الدولة بن جهير في شهور سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة وهو: أما بعد فالحمد لله ذي الآلاء الصافية الموارد والنعماء الصادقة الشواهد والطول الجامع شمل أسباب المنح الشوارد ذي القدرة المصرفة على حكمها مجاري القدر والمشيئة الحالية بالنفاذ في حالتي الورد والصدر المذل بجميل صنعه أعناق المصاعب المديم بكريم لطفه من امتداد ذوائب النوائب الذي جل عن إدراك صفاته بعد أو حد ودل بباهر آياته على كونه الفرد الولي بكل شكر وحمد سبحانه وتعالى عما يصفون.

والحمد لله الذي اختص محمداً صلى الله عليه وسلم بالرسالة واجتباه وحباه الكرامة بما أشرق له مطلع الجلال واختاره وبعثه لإظهار كلمة الحق بعد أن مد الضلال رواقه فلم يزل بإعزاز الشرع قائماً ولساعات زمانه في طلب رضا الله قاسماً لا ينحرف عن مقاصد الصواب ولا يميل ولا يخلي مطايا جده في تقوية الدين مما يتابع فيه الرسيم والذميل إلى أن أزال عن القلوب صدأ الشكوك وجلا وأجلى مسعاه عن كل ما أودع نفوس أحلاف الباطل وجلا ومضى وقد أضاء للإيمان هلالٌ أمن سراره وانتضى لإبادة الشرك حساماً لا ينبو قط غراه فصلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه المنتخبين صلاةً يتصل الأصيل فيها بالغدو وترى والحمد لله الذي أصار إلى أمير المؤمنين من إرث النبوة ما هو أحق به وأولى وأنار له من مطالع العز ما أسدى به كل نعمةٍ وأولى وأحله من شرف الإمامة بحيث عنت لطاعته أعناق الرقاب الصعاب وأذعنت له القلوب بالانطواء على الولاء الفسيح الرحاب والشعاب وجعل أيامه بالنضارة آهلة المغاني متقابلةً أسماؤها في الحسن بالمعاني فما يجري فيها إلا ما الصواب في فعله كامن والحظ بابتهاج سبله كائن إبانةً عن اقتران الرشد بعزائمه في حالتي العقد والحل واقتراب مرام كل ما يحل من الصلاح في الدهر أفضل المحل.

ثم إنه يرى من إقرار الحقوق في نصابها وإمرار حبال التوفيق في جانبها من الأطماع الممتدة إلى اغتصابها ما يعرب عن الاهتداء إلى طرق الرشد والاقتداء بمن وجد ضالة المراد حين نشد ويقصد من تجديد العوارف عند كل عالم بقدرها في الزمان عارف ما يحلو جنى ثمره في كل أوان ويحدو انتشار خبره على إعانة كل فكر في وصفه عنوان فيتناقل الرواة ذلك ذلك غوراً ونجداً وتلقى الهمم العلية ادخار الجمال به أنفع من كل قنيةٍ وأجدى استمراراً على شاكلة تحلت بالكرم وحلت من الجلال في القلل والقمم وحلت آثارها في إيلاء نفيس المنح وجزيل القسم.

ولما غدا منصب الوزارة موقوفاً على الذين طالما جزوا بهممهم نواصي الخطوب وحازوا بذممهم المنال في مقاصد استشهدوا بها على إحراز كل فضيلة واستدلوا وكفوا بكفايتهم أكف الفساد وردوا وحازوا الفعال في كل ما سعوا له وجدوا وخلا الزمان ممن ينهض بعبء هذا الأمر الجسيم وتصبح أنباؤه فيه ذكية الأرج والنسيم - لم يبق غيرك ممن يستحق التخييم في عراصه والتحكيم في اجتناء الفخر منه واستخلاصه وكان القدر سبق بانفصالك عن الخدمة لا لضعف سريرة ولا لقوة جريرة ولا لكدر سيرة وكيف وأنت المتفرد بالكمال والمتجرد في كل مقام سلم حد تقربك فيه من حادث الكلال ولك في الدولة الحقوق التي أعتدت لك من وقع الاستزادة مجناً والمواقف التي اغتذت من درة الإحماد بما أين الظئر لها وأنا والمقاصد التي أعدمت منك البدل ولا انحرف لك منها مسعًى عن مناهج الإصابة ولا عدل وتمكنت فيها من عنان التوفيق بما لا يجارى سيفك فيه قط ولا يحسن له حال المسرى إليه المحط والآثار التي أثارت من كوامن الرضا أفضل ما يذخر ويقتنى وأنارت من دلائل الزلفى ما ينتجز به وعد المنى ويقتضى لكن كان ذلك مسطوراً في الكتاب وليتبين أنه لا عوض عنك في الاستحقاق للأمر والاستيجاب لم يوجد لهذه الرتبة كفؤاً سواك ولا ينزهها عن العطل غير رائق حلاك فرأى أمير المؤمنين تسليم مقاليدها إليك إذ كنت أحق بها وأهلها وممن يجمع بعد الشتات شملها فطوقك من قلائدها ما هو بأعطافك ألصق وبتمام أوصافك أليق: لتدرع من عز الوزارة جلباباً لا تخلق الأيام له جدة ولا تزال السعود بما يؤول إلى دوام مدته ممتدة وترتضع من لبان خلالها ما يقضي لك بأن تقف نفسها عليك وتقف آمال الأمثال دون ما انتهت الغاية فيه إليك وتعتمد فيما عدقه بك منها وناطه ووفاك فيه حقوق النظر واشتراطه بحكم توحدت في إحراز أدواتها التي لا يبلغ أحدٌ لك منها مدى ولم يمد طامعٌ إلى مساجلتك فيها يدا - ما يرضي الله تعالى ويرضيه ويخص ذكرك بالطيب ويحيطه فتفوز فوزاً كبيراً وتعيد الساعي في إدراك شأوك ظالعاً حسيراً.

ثم إنه شفع هذه المنحة التي قمصك مجاسد فخرها بالوجوب وعوضك فيها الدهر بحادث البشر عن سابق القطوب - بإيصالك إلى حضرته وإدنائك من سدته ومناجاتك بما يتيح لك امتطاء غارب المجد وصهوته والاحتواء على خالص السعد وصفوته وحبائك من صنوف التشريفات التي تروق حلى خلالها وتتوق الآمال إلى إدراكها ومنالها وصفت الكرامات التي وفت المنى بها بعد مطالها ونفت القذى عن مقل مغضوضة بسوء فعال الأيام ومقالها بما يوطئ عقبك الرجال ويضيق على من يحاول مجاراتك المسرح والمجال ولم يقتنع بذلك في حق النعمى التي أعداك فيها على الغير وأغداك منها في ظلٍ من الأمن البادي الأوضاح والغرر حتى ألحق بسماتك تاج الوزراء تنويهاً بذكرك في الزمان وتنبيهاً على اختصاصك لديه بوجاهة الرتبة والمكان فصار مكروه الأمور في محبوبها سبباً وخبت نار كل من سعى في تضليل النظام وجيفاً وخبباً حتى الآملون أن يجعلوا تخت الخلافة زمناً وتصبح رباعه بعد النضارة دمناً ليعقبهم ذاك نيل ما وصلت إليه الإمضاء لهذا العزم.

وبالجملة فالسامة واقعةٌ من تتابع هذه الشكاوى وقد كان الأحب أن لا يضمن الكتب النافذة سوى تعهد الأنباء لا زال عرفها أرجاً من سائر الأرجاء والنواحي.

لكن تأتي مجاري الأقدار ودواعي الاضطرار إلى ما يرنق ماء الإرادة والإيثار والآن فقد بلغ الماء وجلب من عدم الصبر الحناء ولم يبق غير هزة دينيةٍ منك تكشف بها هذه المعرة وتتحف منها أمير المؤمنين بما يتم لديه أكمل المسرة فقم في ذلك مقام مثلك - وإن كان لا نظير لك يوجد - تحظ بما يمضي لك فيه استحقاق كل الحمد ويوجب إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليد من ذلك كتب بها عن المسترشد - فيما أظن - لبعض وزرائه وهي: أما بعد فالحمد لله المنفرد بكبريائه المتفضل على أوليائه مجزل النعماء وكاشف الغماء ومسبغ العطاء ومسبل الغطاء ومسني الحباء ومسدي الآلاء الذي لا تؤوده الأعباء ولا تكيده الأعداء ولا تبلغه الأوهام ولا تحيط به الأفهام ولا تدركه الأبصار ولا تتخيله الأفكار ولا تهرمه الأعوام بتواليها ولا تعجزه الخطوب إذا ادلهمت لياليها عالم هواجس الفكر وخالق كل شيء بقدر مصرف الأقدار على مشيئته ومجريها ومانح مواهبه من أضحى بيد الشكر يمتريها حمداً يصوب حياه ويعذب جناه وتتهلل أسرة الإخلاص من مطاويه ويستدعي المزيد من آلائه ويقتضيه.

والحمد لله الذي استخلص محمداً صلى الله عليه وسلم من زكي الأصلاب وانتخبه من أشرف الأنساب وبعثه إلى الخليقة رسولاً وجعله إلى منهج النجاة دليلاً وقد بوأ الشرك بوار الذل وقضاه وشهر عضب العز وانتضاه والأمم عن طاعة الرحمن عازفة وعلى عبادة الأوثان عاكفة فلم يزل بأمر ربه صادعاً وعن التمسك بعرا الضلال الواهية وازعاً وإلى ركوب محجة الهدى داعياً وعلى قدم الاجتهاد في إبادة الغواية ساعياً حتى أصبح وجه الحق منيراً مشرقاً وعوده بعد الذبول أخضر مورقاً ومضى الباطل مولياً أدباره ومستصحباً تتبيره وبواره وقضى صلى الله عليه وسلم بعد أن مهد من الإيمان قواعده وأحكم آساسه ووطائده وأوضح سبل الفوز لمن اقتفاها ولحب طريقها بعد ما دثرت صواها فصلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين صلاةً متصلاً سح غمامها مسفراً صبح دوامها.

والحمد لله على أن حاز لأمير المؤمنين من إرث النبوة ما هو أجدر بحيازة مجده وأولى بفيض عده ووطأ له من الخلافة المعظمة مهاداً أحفزته نحوه حوافز ارتياحه وجذبته إليه أزمة راعه والتياحه إلى أنأدرك من ذلك مناه وألقى الاستقرار الذي لا يريم عصاه وعضد دولته بالتأييد من سائر أنحائه ومراميه وأعراضه ومغازيه حتى افقت الدول المتقادمة إشراقاً وأعطتها الحوادث من التغير عهداً وفياً وميثاقاً وأضحت أيامه - أدامها الله - حالية بالعدل أجيادها جالية في ميادين النضارة جيادها وراح الظلم دارسةً أطلاله مقلصاً سرباله قد أنجم سحابه وزمت للرحلة ركابه فما يستمر منها أمرٌ إلا كان صنع الله سبحانه مؤيده والتوفيق مصاحبه أنى يمم ومسدده وهو يستوزعه - جلت عظمته - شكر هذه النعمة ويستزيده بالتحدث بها من آلائه الجمة ويستمد منه المعونة في كل أربٍ قصده وأمه وشحذ لانتحائه عزمه وما توفيقه إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

ولما كانت الوزارة قطب الأمور الذي عليه مدارها وإليه إيرادها وعنه إصدارها وخلا منصبها من كافٍ يكون له أهلاً وينظم من شماله شملاً أجال أمير المؤمنين فيمن يختار لذلك فكره وأنعم لأهل الاصطفاء لهذه المنزلة نظره حتى صرح محض رأيه عن زبدة اختيارك وهداه صائب تدبيره إلى اقتراحك وإيثارك وألقى إليك بالمقاليد وعول في دولته القاهرة على تدبرك السديد وناط بك من أمر الوزارة ما لم يلف له سواك مستحقاً ولا لنسيم استيجابه مسترقاً علماً بما تبديه كفايتك المشهورة وإيالتك المخبورة من تقويم ما أعجز مياده وإصلاح ما استشرى فساده واستقامة كل حالٍ وهي عمادها وأضلت على كثرة الافتداح زنادها وتثبتاً لما تبسم عنه الأيام من آثار نظرك المعربة عن احتوائك على دلائل الجزالة واستيلائك على مخايل الأصالة اللذين تنال بهما غايات المعالي وتفرع الذرى والأعالي.

ثم إن أمير المؤمنين بمقتضى هذه الدعاوى اللازمة وحرمات جدك وأبيك السالفة المتقادمة التي استحصدت في الدار العزيزة قوى أمراسها وأدنت منك الآن ثمرة غراسها رأى أن يشيد هذه العارفة التي تأرج لديك نسيمها وبدت على أعناق فخرك رسومها وجادت رباعك شآبيبها وضفت عليك جلابيبها بما يزيد أزرك اشتداداً وباع أملك طولاً وامتداداً فأدناك من شرف حضرته مناجياً ومنحك من مزايا الأيام ما يكسبك ذكراً في الأعقاب سارياً وعلى الأحقاب باقياً وأفاض عليك من الملابس الفاخرة ما حزت به أوصاف الجمال وجمع لك أباديد الآمال وقلدك من الفخر ما يدوم على مر الزمان ويبقى وأمطاك صهوة سابح يساوي الرياح سبقاً ووسمك بكذا وكذا في ضمن التأهيل للتكنية إبانةً عن جميل معتقده فيك ورعايةً لوسائلك المحكمة المرائر وأواخيك.

وأمرك بتقوى الله التي هي أحصن المعاقل وأعذب المناهل وأنفع الذخائر يوم تبلى السرائر وأن تستشعرها فيما تبديه وتخفيه وتذره وتأتيه: فإنها أفضل الأعمال وأوجبها وأوضح المسالك إلى الفوز برضا الله وألحبها وأجلب الأشياء للسعادة الباقية وأجناها لقطوف الجنان الدانية عالماً بما في ذلك من نفع تتكامل أقسامه وتتفتح عن نور الصلاح الجامع أكمامه قال الله جلت وقال تعالى حاضاً آلاؤه وتقدست أسماؤه: " وسارعُوا إلى مَغْفِرةٍ مِنْ ربِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمواتُ والأرضُ أُعِدَّتْ للمتَّقين " . "على تقواه ومخبراً عما خص به متقيه وحباه وكفى بذلك داعياً إليها وباعثاً عليها: " إنَّ الله يُحِبُّ المتَّقين

وأمرك أن تتوخى المقاصد السليمة وتأتيها وتتوخم الموارد الوخيمة وتجتويها وأن تتبع بالحزم أفعالك وتجعل كتاب الله تعالى إمامك الذي تهتدي به ومثالك وأن تكف من نفسك عند جماحها وإبائها وتصدها عن متابعة أهوائها وتثني عند احتدام سورة الغضب عنانها وتشعرها من حميد الخلائق ما يوافق إسرارها فيه إعلانها: فإنها لم تزل إلى منزل السوء المردية داعية وعن سلوك مناهج الخير المنجية ناهية قال الله تعالى: " إنَّ النَّفْس لأمَّارةٌ بالسُّوء إلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيم " .

وأمرك أن تتخير للخدمة بين يديك من بلوت أخباره واستشففت أسراره فعلمته جامعاً أدوات الكفاية موسوماً بالأمانة والدراية قد عركته رحا التجارب عرك الثفال وحلب الدهر أشطره على تصاريف الأحوال: ليكون أمر ما يولاه على منهج الاستقامة جارياً وعن ملابس الخلل والارتياب عارياً فلا يضع في مزلقةٍ قدماً ولا يأتي ما يقرع سنه لأجله ندماً وأن تمنح رعايا أمير

المؤمنين من بشرك ما يعقل شوارد الأهواء ويلوي إليك بأعناق نوافرها اللائي اعتصمن بالجماح والإباء مازجاً ذلك بشدةٍ تستولي حميا رهبتها على القلوب وتفل مرهفات بأسها صرف الخطوب من غير إفراطٍ في استدامة ذلك يضيق نظامها به ويغريها اتصاله باستشعار وعر الخطأ واستيطاء مركبه.

وأمرك أن تعذب مورد الإحسان لمن أحمدت بلاءه وتحققت غناءه واستحسنت أثره وارتضيت عيانه وخبره وتسدل أسمال الهوان على من بلوت فعله ذميماً وألفيته بعراص الإساءة مقيماً وإلى رباعها الموحشة مستأنساً مستديماً كيلاً لكل امرئٍ بصاعه واتباعاً لما أمر الله باتباعه وتجنباً للإهمال الجاعل المحسن والمسيء سواء والمعيدهما في موقف الجزاء أكفاء فإن في ذلك تزهيداً لذوي الحسنى في الإحسان وتتابعاً لأهل الإساءة في العدوان ولولا ما فرضه الله على أمير المؤمنين من إيجاب الحجة والفكاك من ربقة الاجتهاد ببلاغ المعذرة لثنى عنان الإطالة مقتصراً واكتفى ببعض القول مختصراً ثقةً بامتناع سدادك ونهاك أن يراك صواب الفعل حيث نهاك واستنامةً إلى ما خولك الله من الرأي الثاقب المطلع من خصائص البديهة على محتجب العواقب.

فارتبط يا فلان هذه النعمى التي جادت ديمها مغانيك وحققت الأيام بمكانتها أمانيك بشكر ينطق به لسان الاعتراف فيؤمن وحشي النعم من النفار والانحراف واسلك في جمال السيرة والاقتداء بهذه الأوامر المبينة المذكورة جدداً يغري بحمدك الألسنة ويعرب عن كونك من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه والله يصدق مخيلة أمير المؤمنين فيك ويوزعك شكر ما أولاك ويوليك ويجعل الصواب غرضاً لنبال عزائمه ويذود عن دولته القاهرة كتائب الخطوب بصوارم السعد ولهاذمه ويصل أيامه الزاهرة بالخلود ويبسط على أقاصي الأرض ظله الممدود ما استهل جفن الغيث المدرار وابتسمت ثغور النوار إن شاء الله تعالى.

ما كان يكتب لزعماء أهل الذمة وطريقهم فيه أن يفتتح بلفظ: هذا كتابٌ أمر بكتبه فلانٌ أبو فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين لفلان ثم يقال: أما بعد فالحمد لله ويؤتى فيه بتحميدة أو ثلاث تحميداتٍ إن قصد المبالغة في قهر أهل الذمة بدخولهم تحت ذمة الإسلام وانقيادهم إليه ثم يذكر نظر الخليفة في صالح الرعية حتى أهل لذمة وأنه أنهي إليه حال فلان وسئل في توليته على طائفته فولاه عليهم للميزة على غيره من أبناء طائفته ونحو ذلك ثم يوصيه بما يناسبه من الوصايا.

وهذه نسخة من ذلك كتب بها عن القائم بأمر الله لعبد يشوع الجاثليق من إنشاء العلاء بن موصلايا وهي: هذا كتابٌ أمر بكتبه عبد الله أبو جعفرٍ عبد الله الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين لعبد يشوع الجاثليق الفطرك.

أما بعد فالحمد لله الواحد بغير ثان القديم لاعن وجود زمان الذي قصرت صنيعة الأوهام عن إدراكه وحارت وضلت صنيعة الأفهام عن بلوغ مدى صفاته وحالت المتنزه عن الولد والصاحبة العاجزة عن إحاطة العلم به دلائل العقول الضافية الصائبة ذي المشيئة الحالية بالمضاء والقدرة الجارية عليها تصاريف القدر والقضاء والعظمة الغنية عن العون والظهير المتعالي بها عن الكفء والنظير والعزة المكتفية عن العضد والنصير " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِير ".

والحمد لله الذي اختار الإسلام ديناً وارتضاه وشام به عضب الحق على الباطل وانتضاه وأرسل محمداً صلى الله عليه وسلم منقذاً من أشراك الضلة وكاشفاً عن الإيمان ما غمره من الإشراك وأظله وبعثه ماحياً أثر الكفر من القلوب والأسماع وناحياً في اتباع أوامره ماجد في البدار إليه والإسراع وأدى ما حمله أحسن الأداء وداوى بمعجز النبوة من النفوس معضل الداء ولم يزل لأعلام الهدى مبيناً ولحبائل الغي حاسماً مبيناً إلى أن خلص الحق وصفا وغدا الدين من أضداده منتصفاً واتضح للحائر سنن الرشد وانقاد الأبي باللين والأشد فصلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه المنتخبين وخلفائه الأئمة الراشدين وسلم تسليماً.

والحمد لله الذي استخلص أمير المؤمنين من أزكى الدوحة والأرومة وأحله من عز الإمامة ذروةً للمجد غير مرومة وأصار إليه من تراث النبوة ما حواه بالاستحقاق والوجوب وأصاب به من مرامي الصلاح ما حميت شموسه من الأفول والوجوب وأولاه من شرف الخلافة ما استقدم به الفخر فلبى واستخدم معه الدهر فما تأبى ومنح أيامه من ظهور العدل فيها وانتشاره ولقاح حوامل الإنصاف فيها ووضع عشاره ما فضل به العصور الخالية وظلت السير متضمنةً من ذكرها ما كانت من مثله عاريةً خالية وهو يستديمه - سبحانه - المعونة على ما يقرب لديه ويزلف عنده ويستمد التوفيق الذي يغدو لعزائمه الميمونة أوفى العضد وأمير المؤمنين مع ما أوجب الله تعالى عليه من اختصاص رعاياه بأكنافه التي يمد عليهم رواقها ويرد بها إلى أغصان صلاحهم أوراقها ويلقي على أجيادهم عقودها ويقي رياح ائتلافهم ركودها يرى أن يولي أولي الاستقامة من أهل ذمته

ضروب الرأفة وصنوفها وأقسام العاطفة الدافعة عنهم حوادث الغير وصروفها بمقتضى عهودهم القوية القوى وأذمتهم التي يلزم أن يحافظ عليها أهل العدل والتقوى ويغتمدهم من الضرر الغامر والإجمام المضاهي الآنف منه الغابر بما يقبض يد الضيم وكفه ويفيض عليهم من الملاحظة كل ما حسم الضير دونهم وكفه وأن يحبوهم من الحياطة بما يحرس رسومهم المستمرة من أسباب الاختلال ويجريهم فيها على ماسنه السلف معهم من مألوف السجايا والخلال.

ولما أنهي إلى حضرة أمير المؤمنين تمييزك عن نظرائك وتحليك من السداد بما يستوجب معه أمثالك المبالغة في وصفك وإطرائك وتخصصك بالأنحاء التي فت فيها شأو أقرانك وأفدت بها ما قصر معه مساجلك من أبناء جنسك أن يعدلك في ميزانك وما عليه أهل نحلتك من حاجتهم إلى جاثليق كافلٍ بأمورهم كاف في سياسة جمهورهم مستقلٍ بما يلزمه القيام به غير مقلٍ بما يتعين مثله في أدوات منصبه وأن كلاً ممن يرجع إليه منهم لما تصفع أحوال متقدمي دينهم واستشف وأعمل الفكر في اختيار الأرجح منهم والأشف واتفقوا من بعد على إجالة الرأي الذي أفاضوا بينهم قداحه وراضوا به زند الاجتهاد إلى أن أورى حين راموا اقتداحه فلم يصادفوا من هو بالرياسة عليهم أحق وأحرى وللشروط الموجبة التقديم فيهم أجمع وأحوى وعن أموال وقوفهم أعف وأورع ومن نفسه لداعي التحري فيها أطوع وأتبع منك اختاروك لهم راعياً ولما شد نظامهم ملاحظاً مراعياً وسألوا إمضاء نصهم عليك والإذن فيه وإجراء الأمر فيما يخصك أسد مجاريه وترتيبك فيما أهلت له وحملت ثقله واختصاصك على من تقدمك من الأضراب بمزيدٍ من الإرعاء والإيجاب وحملك وأهل نحلتك على الشروط المعتادة والرسوم التي إمضاء الشريعة لها أوفى الشهادة رأى أمير المؤمنين الإجابة إلى ما وجهت إليه فيه الرغبة واستخارة الله تعالى في كل عزم يطلق شباه ويمضي غربه مقتدياً فيما أسداه إليك وأسناه من أنعمه لديك بأفعال الأئمة الماضين والخلفاء الراشدين صلوات الله عليهم أجمعين مع أمثالك من الجثالقة الذين سبقوا وفي مقامك اتسقوا وأوعز بترتيبك جاثليقاً لنسطور النصارى بمدينة السلام وسائر البلاد والأصقاع وزعيماً لهم وللروم واليعاقبة طراً ولكل من تحويه ديار الإسلام من هاتين الطائفتين ممن بها يستقر وإليها يطرا وجعل أمرك فيهم ممتثلاً وموضعك من الرياسة عليهم متأثلاً وأن تنفرد بالتقدم على هذه الطوائف أجمع: ليكون قولك فيما يجيزه الشرع فيهم يقبل وإليك في أحوالهم يرجع وأن تتميز بأهبة الزعامة في مجامع النصارى ومصلياتهم عامةً من غير أن يشركك فيها أو يشاكلك في النسبة الدالة عليها مطرانٌ أو أسقفٌ للروم أو اليعاقبة: لتغدو شواهد ولايتك بالأوامر الإمامية باديةً للسامع والناظر وآثار قصورهم عن هذه الرتبة التي لم يبلغوها كافةً للمجادل منهم والمناظر ومنعوا بأسرهم عن مساواتك في كل أمر هو من شروط الزعامة ورسومها والتزيي بما هو من علاماتها ووسومها إذ لا سبيل لأحدهم أن يمد في مباراتك باعه ولا أن يخرج عن الموجب عليه من الطاعة لك والتباعة وحملك في ذاك على ما يدل عليه المنشور المنشأ لمن تقدمك الممضى لك ولكل من يأتي بعدك المجدد بما حواه ذكر ما نطقت به المناشير المقررة في أيام الخلفاء الراشدين صلوات الله عليهم أجمعين لمن تقدمك في مقامك وأحرز سبق مغزاك ومرامك: من كون المنصوب في الجثلقة إليه الزعامة على ما تضمه ديار الإسلام من هذه الفرق جمعا والمنصوص عليه في التقدم الذي ليس لغيره من رياضه مرعى وتقدم أمير المؤمنين بحياطتك وأهل نحلتك في نفوسكم وأموالكم وبيعكم وديباركم ومقار صلواتكم وحراسة أموالكم واعتمادكم بأقسام الكلاءة على أجمل الرسم معكم وأن تحموا من نقض سنة رضية قررت لكم ودحض وتيرةٍ حميدةٍ استعملت في فرضكم وأن تقبض الجزية من رجالكم ذوي القدرة على أدائها بحسب ما جرت به عاداتكم دون النساء ومن لم يبلغ الحلم دفعة واحدة في السنة وتجروا في ذلك على السجية التي تناقلها الرواة وتداولتها الألسنة من غير تثنية ولا تكرير ولا ترنيق لمنهل المعدلة عندكم ولا تكدير وأن تحبى بالشد دائماً وتقوية يدك على من نصبته في أمورهم ناظراً ولشملهم ناظماً ويفسح لك في فصل ما يشجر بينهم على سبيل الوساطة: لتقصد في ذاك ما يحسم دواعي الخلف ويطوي بساطه وأن تمضي تثقيفك لهم وأمرك فيهم أسوة ما جرى عليه الأمر مع من كان قبلك يليهم لتحسن معه السيرة العادلة عليهم بحفظ السوام المطابقة للشروط السائغة في دين الإسلام.

وأمر بإنشاء هذا الكتاب مشتملاً على ما خصك به وأمضى أن تعامل بموجبه فقابل نعمة أمير المؤمنين عندك بما تستوجبه من شكرٍ تبلغ فيه المدى الأقصى وبشرٍ لا يوجد التصفح له عندك قصوراً ولا نقصاً وواظب على الاعتراف بما أوليته من كل ما جملك وصدق ظنك وأملك واستزد الإنعام بطاعةٍ تطوي عليها الجوانح وأدعيةٍ لأيامه تتبع الغادي منها بالرائح وتجنب التقصير فيما بك عدق وإليك وكل وعليك علق واحتفظ بهذا الكتاب جنة تمنع عنك ريب الدهر وغيره وحجةً تحمل فيها على ما يحمي ما منحته من كل ما شعثه وغبره وليعمل بهذا المثال كافة المطارنة والأساقفة والقسيسين والنصارى أجمعين وليعتمدوا من التباعة لك ما يستحقه تقديمك على الجماعة وليثقوا بما يغمرهم من العاطفة الحامية سربهم من التفريق والإضاعة إن شاء الله تعالى.

النوع الثاني مما كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد

ما كان يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السيوف وهو على ضربين الضرب الأول العهود وطرقتهم فيها أن تفتتح بلفظ: هذا ما عهد عبد الله ووليه فلانٌ أبو فلان الإمام الفلاني إلى فلان الفلاني حين عرف منه ويذكر بعض مناقبه وربما تعرض لثناء سلطان دولته عليه.

ثم يقال: فقلده كذا وكذا ثم يقال: وأمره بكذا ويأتي بما يناسب من الوصايا ثم يقال: فتقلد كذا وكذا ثم يقال: هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عليك أو نحو ذلك ولا يؤتى فيه بتحميد في أول العهد ولا في أثنائه كما تقدم في عهود الخلفاء للملوك.

عهود أرباب السيوف وهي عدة ولايات منها - النظر في المظالم.

وهذه نسخة عهدٍ كتب به أبو إسحاق الصابي عن المطيع لله إلى الحسين ابن موسى العلوي بتقليد المظالم بمدينة السلام وهي: هذا ما عهد عبد الله الفضل الإمام المطيع لله أمير المؤمنين إلى الحسين بن موسى العلوي حين اجتمع فيه شرف الأعراق والأخلاق وتكامل فيه يمن النقائب والضرائب وعرف أمير المؤمنين فيه فضل الكفاية والغناء ورشاد المقاصد والأنحاء في سالف ما ولاه إياه من أعماله الثقيلة التي لم يزل فيها محمود المقام مستمراً على النظام مصيب النقض والإبرام سديد الإسداء والإلحام زائداً على المزايدين راجحاً على الموازين فائتاً للمحاذين مبرأ على المبارين فقلده النظر في المظالم بمدينة السلام وسوادها وأعمالها وما يجري معها ثقةً بعلمه ودينه واعتماداً على بصيرته ويقينه وسكوناً إلى أن الأيام قد زادته تحليماً وتهذيباً والسن قد تناهت به تحنيكاً وتجريباً وأن صنيعة أمير المؤمنين مستقرةٌ منه عند أكرم أكفائها وأشرف أوليائها برحمه المتاء الدانية وحرمته الشامخة العالية ومعرفته الثاقبة الداعية إلى التفويض إليه الباعثة على التعويل عليه وأمير المؤمنين يستمد الله في ذلك أحسن ما عوده من هدايةٍ وتسديد ومعونةٍ وتأييد وما توفيقه إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

أمره بتقوى الله التي هي الجنة الحصينة والعصمة المتينة والسبب المتصل يوم انقطاع الأسباب والزاد المبلغ إلى دار الثواب وأن يستشعرها فيما يسر ويعلن ويعتمدها فيما يظهر ويبطن ويجعلها إمامه الذي ينحوه ورائده الذي يقفوه إذ هي شيمة الأبرار والأخيار وكان أولى من تعلق بعلائقها وتمسك بوثائقها لمفخره الكريم ومنصبه الصميم واستظلاله مع أمير المؤمنين بدوحة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله - التي يكتنان في فنائها ويأويان إلى أفيائها وحقيقٌ على من كان منزعه وإليها مرجعه أن يكون طيباً زكياً طاهراً نقياً عفيفاً في قوله وفعله.

نظيفاً في سره وجهره قال الله تعالى: " إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهلَ البَيْتِ وِيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ".

وأمره بتلاوة القرآن وتأمل ما فيه من البرهان وأن يجعله نصباً لناظره ومألفاً لخاطره فيأخذ به ويعطي ويأتمر له ينتهي فإنه الحجة الواضحة والمحجة اللائحة والمعجزة الباهرة والبينة العادلة والدليل الذي من اتبعه سلم ونجا ومن صدف عنه هلك وهوى قال الله عز من قائل: " وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد ".

وأمره أن يجلس للخصوم جلوساً عاماً ويقبل عليهم إقبالاً تاماً ويتصفح ما يرفع إليه من ظلاماتهم وينعم النظر في أسباب محادثاتهم فما كان طريقه طريق المنازعة المتعلقة بنظر القضاة وشهادت العدول رده إلى المتولي للحكم وما كان طريقه الغصوب المحتاج فيها إلى الكشف والفحص والاستشفاف والبحث نظر فيه نظر صاحب المظالم وانتزع الحق ممن غصب عليه واستخلصه ممن امتدت له يد التعدي والتغرر إليه وأعاده إلى مستحقه وأقره عند مستوجبه غير مراقب كبيراً لكبره ولا خاصاً لخصوصه ولا شريفاً لشرفه ولا متسلطناً لسلطانه بل يقدم أمر الله جل ذكره في كل ما يأتي ويذر ويتوخى رضاه فيما يورد ويصدر ويكون على الضعيف المحق حدباً رؤوفاً حتى ينتصر وينتصف وعلى القوي المبطل شديداً غليظاً حتى ينقاد ويذعن قال الله جل وعز: " يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفةً فِي الأَرْضِ فاحْكُمْ بَينَ النَّاسِ بالحقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوى فيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وأمره أن يفتح بابه ويسهل حجابه ويبسط وجهه ويلين كنفه ويصبر إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا على الخصوم الناقصين في بيانهم حتى تظهر حجتهم وينعم النظر في أقوام أهل اللسن والبيان منهم حتى يعلم مصيبهم فربما استظهر العريض المبطل بفضل بيانه على العاجز المحق لعي لسانه وهنالك يجب أن يقع التصفح على القولين والاستظهار

للأمرين: ليؤمن أن يزول الحق عن سننه ويزور الحكم عن طريقه قال الله عز وجل: " يأيُّها الّذينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبإٍ فَتَبَيَّنُوا أنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالة فتُصْبِحوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ".

وأمره بأن لا يرد للقضاة حكماً يمضونه ولا سجلاً ينفذونه ولا يعقب ذلك بفسخ ولا يطرق عليه النقض بل يكون لهم موافقاً مؤازراً ولأحكامهم عاضداً ناصراً إذ كان الحق واحداً وإن اختلفت المذاهب إليه فإذا وجد القصة قد سيقت والحكومة قد وقعت فليس هناك شك يوقف عنده ولا ريبٌ يحتاج إلى الكشف عنه وإذا وجد الأمر مشتبهاً الحق ملتبساً والتغرر مستعملاً والتغلب مستجازاً نظر فيه نظر الناصر لحق المحقين الداحض لباطل المبطلين المقوي لأيدي المستضعفين الآخذ على أيدي المعتدين قال الله عز وجل: " يأيُّهَا الّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ فاللهُ أولى بِهِمَا فلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أنْ تعْدِلُوا وإنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فإنَّ اللهَ كانَ بما تَعْمَلُونَ خَبِيراً ".

وأمره أن يستظهر على معرفته بمشاورة القضاة والفقهاء ومباحثة الربانيين والعلماء فإن اشتبه عليه أمرٌ استرشدهم وإن عزب عنه صوابٌ استدل عليه بهم فإنهم أزمة الأحكام وإليهم مرجع الحكام وإذا اقتدى بهم في المشكلات وعمل بأقوالهم في المعضلات أمن من زلة العاثر وغلطة المستاثر وكان خليقاً بالأصالة في رأيه والإصابة في أبحاثه وقد أمر الله - تقدست بالمشاورة فعرف الناس فضلها وأسلكهم سبلها بقوله لرسوله صلى الله عليه وعلى آله: " وشَاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ فإذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوكِّلين " - أسماؤه.

وأمره أن يكتب لمن توجب له حق من الحقوق إلى صاحب الكوفة بالشد على يده والتمكن له منه وقبض الأيدي عن منازعته وحسم الأطماع في معارضته إذ هو مندوبٌ لتنفيذ أحكامه ومأمورٌ بإمضاء قضاياه ومتى أخذ أحدٌ من الخصوم إلى مكاذبةٍ في حقٍ قد حكم عليه به أخذ على يده وكفه عن عدوانه ورده إلى حكم الله الذي لا يعدل عنه قال الله عز وجل: " ومَنْ يَتعدَّ حُدُودَ الله فأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُون " .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عليك قد أرشدك وذكرك.

وهداك وبصرك فكن إليه منتهياً وبه مقتدياً واستعن بالله يعنك واستكفه يكفك.

وكتب الناصح أبو الطاهر في تاريخ كذا.

وهذه نسخة عهد بنقابة الطالبيين كتب به أبو إسحاق الصابي عن الطائع لله إلى الشريف أبي الحسن محمد بن الحسين العلوي الموسوي مضافاً إليها النظر في المساجد وعمارتها واستخلافه لوالده الشريف أبي أحمد الحسين بن موسى على النظر في المظالم والحج بالناس في سنة ثمانين وثلثمائة وهي: هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن الحسين بن موسى العلوي حين وصلته به الأنساب وقرنت لديه الأسباب وظهرت دلائل عقله ولبابته ووضحت مخايل فضله ونجابته ومهد له بهاء الدولة وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة ما مهد عند أمير المؤمنين من المحل المكين ووصفه به من الحلم الرزين وأشار به من رفع المنزلة وتقديم الرتبة والتأهيل لولاية الأعمال وتحمل الأعباء والأثقال وحيث رغبه فيه سابقة الحسين أبيه في الخدمة والنصيحة والمشايعة الصحيحة والمواقف المحمودة والمقامات المشهودة التي طابت بها أخباره وحسنت فيها آثاره وكان محمدٌ متخلقاً بخلائقه وذاهباً على طرائقه: علماً وديانة وورعاً وصيانة وعفةً وأمانة وشهامة وصرامة وتفرداً بالحظ الجزيل: من الفضل الجميل والأدب الجزل والتوجه في الأهل والإيفاء في المناقب على لداته فقلده ما كان داخلاً في أعمال أبيه من نقابة نقباء الطالبيين بمدينة السلام وسائر -وأترابه والإبرار على قرنائه وأضرابه الأعمال والأمصار شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً واختصه بذلك جذباً بضبعه وإنافة بقدره وقضاءً لحق رحمه وترفيهاً لأبيه وإسعافاً له بإيثاره فيه إلى ما أمر أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر في المظالم وتسيير الحجيج في أوان المواسم والله يعرف أمير المؤمنين الخيرة فيما أمر ودبر وحسن العاقبة فيما قضى وأمضى وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

أمره بتقوى الله التي هي شعار المؤمنين وسيما الصالحين وعصمة عباد الله أجمعين وأن يعتقدها سراً وجهراً ويعتمدها قولاً وفعلاً فيأخذ بها ويعطي ويريش ويبري ويأتي ويذر ويورد ويصدر فإنها السبب المتين والمعقل الحصين والزاد النافع يوم الحساب والمسلك المفضي إلى دار الثواب وقد حض الله أولياءه عليها وهداهم في محكم كتابه إليها فقال: " يأيُّها الّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنْتُم مُسْلِمُونَ ".

. "وقال تعالى: " يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ

وأمره بتلاوة كتاب الله سبحانه مواظباً وتصفحه مداوماً ملازماً والرجوع إلى أحكامه فيما أحل وحرم ونقض وأبرم وأثاب وعاقب وباعد وقارب فقد صحح الله برهانه وحجته وأوضح منهاجه ومحجته وجعله فجراً في الظلمات طالعاً ونوراً في المشكلات ساطعاً فمن أخذ به نجا وسلم ومن عدل عنه هلك وهوى وندم.

.قال الله عز وجل: " وَإِنَّهُ لكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ "

وأمره بتنزيه نفسه عما تدعو إليه الشهوات وتتطلع إليه النزوات وأن يضبطها ضبط الحكيم ويكفها كف الحليم ويجعل عقله سلطاناً عليها وتمييزه آمراً ناهياً لها فلا يجعل لها عذراً إلى صبوة ولا هفوة ولا يطلق منها عناناً عند ثورة ولا فورة فإنها أمارة بالسوء منصبة إلى الغي فالحازم يتهمها عند تحرك وطره وأربه واهتياج غيظه وغضبه ولا يدع أن يغضها بالشكيم ويعركها عرك الأديم ويقودها إلى مصالحها بالخزائم ويعتقلها عن مقارفة المحارم والمآثم كيما يعز بتذليلها وتأديبها ويجل برياضتها وتقويمها والمفرط في أمره تطمح به إذا طمحت ويجمح معها أنى جمحت ولا يلبث أن تورده حيث لا صدر وتلجئه إلى أن يعتذر وتقيمه مقام النادم الواجم وتتنكب به سبيل الراشد السالم وأحق من تحلى بالمحاسن وتصدى لاكتساب المحامد من ضرب بمثل سهمه في نسب أمير المؤمنين الشريف ومنصبه المنيف واجتمع معه في ذؤابة العترة الطاهرة واستظل بأوراق الدوحة الفاخرة فذاك الذي تتضاعف له المآثر إن آثرها والمثالب إن أسف إليها ولا سيما من كان مندوباً لسياسة غيره ومرشحاً للتقليد على أهله إذ ليس يفي بإصلاح من ولي عليه من لا يفي بإصلاح ما بين جنبيه وكان من أعظم الهجنة أن يأمر ولا يأتمر ويزجر ولا يزدجر قال الله عز وجل: " أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكتابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ "

وأمره بتصفح أحوال من ولي عليهم واستقراء مذاهبهم والبحث عن بواطنهم ودخائلهم وأن يعرف لمن تقدمت قدمه منهم وتظاهر فضله فيهم منزلته ويوفيه حقه ورتبته وينتهي في إكرام جماعتهم إلى الحدود التي توجبها أنسابهم وأقدارهم وتقتضيها مواقفهم وأخطارهم: فإن ذلك يلزمه لشيئين: أحدهما يخصه وهو النسب الذي بينه وبينهم والآخر يعمه والمسلمين جميعاً وهو فالمودة لهم والإعظام لأكابرهم والإشبال على أصاغرهم قول الله جل ثناؤه: " قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المَوَدّة فِي القُربى " واجب متضاعف الوجوب عليه ومتأكد اللزوم له ومن كان منهم في دون تلك الطبقة من أحداثٍ لم يحتنكوا أو جذعانٍ لم يقرحوا مجرين إلى ما يزري بأنسابهم ويغض من أحسابهم عذلهم ونبههم ونهاهم ووعظهم فإن نزعوا وأقلعوا فذاك المراد بهم والمقصود إليه فيهم وإن أصروا وتتابعوا أنالهم من العقوبة بقدر ما يكف ويردع فإن نفع وإلا تجاوزه إلى ما يوجع ويلذع من غير تطرق لأعراضهم ولا انتهاكِ لأحسابهم فإن الغرض منه الصيانة لا الإهانة والإدالة لا الإذالة وإذا وجبت عليهم الحقوق أو تعلقت بهم دواعي الخصوم قادهم إلى الإغفاء بما يصح منها ويجب والخروج إلى سنن الحق فيما يشتبه ويلتبس ومتى لزمتهم الحدود أقامها عليهم بحسب ما أمر الله به فيها بعد أن تثبت الجرائم وتصح وتبين وتتضح وتتجرد عن الشك والشبهة وتتجلى من الظن التهمة فإن الذي يستحب في حدود الله أن تدرأ عن عباده مع نقصان اليقين والصحة وأن تمضى عليهم مع قيام الدليل والبينة.

.قال الله عز وجل: " وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُون "

وأمره بحياطة هذا النسب الأطهر والشرف الأفخر عن أن يدعيه الأدعياء أو يدخل فيه الدخلاء ومن انتمى إليه كاذباً وانتحله باطلاً ولم يوجد له بيتٌ في الشجرة ولا مصداقٌ عند النسابين المهرة أوقع به من العقوبة ما يستحقه ووسمه بما يعلم به كذبه وفسقه وشهره شهرةً ينكشف بها غشه ولبسه وينزع بها غيره ممن تسول له مثل ذلك نفسه وأن يحصن الفروج عن مناكحة من ليس لها كفؤاً ولا مشاركها في شرفها وفخرها حتى لا يطمع في المرأة الحسيبة النسيبة إلا من كان مثلاً لها مساوياً ونظيراً موازياً فقد قال الله تعالى: " إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً "

وأمره بمراعاة متبتلي أهله ومتهجديهم وصلحائهم ومجاوريهم وأراملهم وأصاغرهم حتى يسد الخلة من أحوالهم ويدر المواد عليهم وتتعادل أقساطهم فيما يصل إليه من وجوه أموالهم وأن يزوج الأيامى ويربي اليتامى ويلزمهم المكاتب ليتلقنوا القرآن ويعرفوا فرائض الإسلام والإيمان ويتأدبوا بالآداب اللائقة بذوي الأحساب: فإن شرف الأعراق محتاجٌ إلى شرف الأخلاق ولا حمد لمن شرف نسبه وسخف أدبه إذ كان لم يكسب الفخر الحاصل له بفضل سعي ولا طلب ولا اجتهادٍ ولا دأب بل بصنعٍ من الله عز وجل له ومزيد في المنة عليه وبحسب ذلك لزوم ما يلزمه من شكره سبحانه على هذه العطية والاعتداد بما فيها من المزية وإعمال النفس في حيازة الفضائل والمناقب والترفع عن الرذائل والمثالب.

وأمره بإجمال النيابة عن شيخه الحسين بن موسى فيما أمره أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر في المظالم والأخذ للمظلوم من الظالم وأن يجلس للمترافعين إليه جلوساً عاماً ويتأمل ظلاماتهم تأملاً تاماً فما كان منها متعلقاً بالحاكم رده إليه ليحمل الخصوم عليه وما كان طريقه طريق الغشم والظلم والتغلب والغصب قبض عنه اليد المبطلة وثبت فيه اليد المستحقة وتحرى في قضاياه أن تكون موافقة للعدل ومجانبة للخذل فإن غايتي الحاكم وصاحب المظالم واحدة: وهي إقامة الحق ونصرته وإبانته وإنارته وإنما يختلف سبيلاهما في النظر: إذ الحاكم يعمل على ما ثبت وظهر وصاحب المظالم يفحص عما غمض واستتر وليس له مع ذلك أن يرد لحاكم حكومة ولا يعل له قضية ولا يتعقب ما ينفذه ويمضيه ولا يتتبع ما يحكم به ويقضيه والله يهديه ويسدده ويوفقه ويرشده.

وأمره أن يسير حجيج بيت الله إلى مقصدهم ويحميهم في بدأتهم وعودتهم ويرتبهم في مسيرهم ومسلكهم ويرعاهم في ليلهم ونهارهم حتى لا تنالهم شدة ولا تصل إليهم مضرة وأن يريحهم في المنازل ويوردهم المناهل ويناوب بينهم في النهل والعلل ويمكنهم من الارتواء والاكتفاء مجتهداً في الصيانة لهم ومعذراً في الذب عنهم ومتلوماً على متأخرهم ومتخلفهم ومنهضاً لضعيفهم ومهيضهم فإنهم حجاج بيت الله الحرام وزوار قبر الرسول عليه السلام قد هجروا الأوطان وفارقوا الأهل والإخوان وتجشموا المغارم الثقال وتعسفوا السهول والجبال يلبون دعاء الله عز اسمه ويطيعون أمره ويؤدون فرضه ويرجون ثوابه وحقيقٌ على المسلم المؤمن أن يحرسهم متبرعاً ويحوطهم متطوعاً فكيف من تولى ذلك وضمنه وتقلده واعتنقه قال الله: " ولله على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ استَطَاعَ إليه سَبِيلاً ".

وأمره أن يراعي أمور المساجد بمدينة السلام وأطرافها وأقطارها وأكنافها وأن يجبي أموال وقوفها ويستقصي جميع حقوقها وأن يلم شعثها ويسد خللها بما يتحصل من هذه الوجوه قبله حتى لا يتعطل رسمٌ جرى فيها ولا تنقض عادةٌ كانت لها وأن يثبت اسم أمير المؤمنين على ما يعمره منها ويذكر اسمه بعده بأن عمرانها جرى على يديه وصلاحها أداه قول أمير المؤمنين إلى فعله فقد فسح له أمير المؤمنين بذلك تنويهاً باسمه وإشادةً بذكره وأن يولي ذلك من قبله من حسنت أمانته وظهرت عفته وصيانته فقد قال الله تعالى: " إنّما يَعْمُرُ مساجدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأقَامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكاةَ ولَمْ يَخْشَ إلاَّ الله فَعَسى أُولئِكَ أنْ يَكُونُوا من المُهْتدين ".

وأمرهأن يستخلف على ما يرى الاستخلاف عليه من هذه الأعمال: في الأمصار الدانية والبلاد القريبة والبعيدة من يثق به من صلحاء الرجال وذوي الوفاء والاستقلال وأن يعهد اليهم مثل الذي عهد إليه ويعتمد عليهم في مثل ما اعتمد عليه ويستقري مع ذلك آثارهم ويتعرف أخبارهم فمن وجده محموداً أقره ولم يزله ومن وجده مذموماً صرفه ولم يمهله واعتاض منه من ترجى الأمانة عنده وتكون الثقة معهودةً منه وأن يختار لكتابته وحجبته والتصرف فيما قرب منه وبعد عنه من يزينه ولا يشينه وينصح له ولا يغشه ويجمله ولا يهجنه من الطبقة المعروفة بالظلف المتصونة عن النطف ويجعل لهم من الأرزاق الكافية والأجرة الوافية ما يصدهم عن المكاسب الذميمة والمآكل الوخيمة فليس تجب عليهم الحجة إلا مع إعطاء الحاجة قال الله تعالى: " وأنْ لَيْسَ لِلإنْسانِ إلاَّ ما سَعى وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزاهُ الجَزَاءَ الأوْفى ".

وأمره بأن يكتب لمن يقوم ببينته عنده وتنكشف حجته له إلى أصحاب المعاون بالشد على يديه وإيصال حقه إليه وحسم الطمع الكاذب فيه وقبض اليد الظالمة عنه إذ هم مندوبون وهذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته لك وعليك قد أنار فيه سبيلك وأوضح دليلك وهداك وأرشدك وجعلك على بينة من أمرك فاعمل به ولا تخالفه وانته إليه ولا تتجاوزه وإن عرض لك أمرٌ يعجزك الوفاء به ويشتبه عليك وجه الخروج منه أنهيته إلى أمير المؤمنين مبادراً وكنت إلى ما يأمرك به صائراً إن شاء الله تعالى.

وكتب في مستهل شعبان سنة ثمانين وثلثمائة.

ومنها - ولاية الصلاة.

وهذه نسخة عهدٍ كتب بها أبو إسحاق الصابي عن الطائع لله لأبي الحارث محمد بن موسى العلوي الموسوي بتقليده الصلاة في جميع النواحي والأمصار والأطراف وتوقف عن إظهاره لرأي رآه في ذلك وهي: هذا ما عهد عبد الله إلى محمد بن موسى العلوي لما استكفاه النظر في نقابة الطالبيين فكفاه وتحمل ذلك العبء فأغناه وفات النظراء في الاستقلال والوفاء وبذ الأمثال في الاضطلاع والغناء جامعاً إلى شرف الأحساب والأعراق شرف الآداب والأخلاق وإلى كرائم المفاخر والمناقب مكارم الطباع والضرائب على الحداثة من سنه والغضاضة من عوده مستولياً من البراعة والنجابة والفراهة واللبابة على التي لا يبلغها الشيب المفارق فضلاً عن البالغ المراهق وغاياتٍ تنقطع دونها أنفاس المنافسين وتتضرم عليها أحشاء الحاسدين لا سيما

وقد أطت بأمير المؤمنين إليه شواجن الأرحام وعطفته على اصطناعه عواطف الآباء والأعمام واقتضت آثاره المحمودة وطرائقه الرشيدة أن يناوبه على رتبة لم يبلغها أحدٌ من ولد أبيه ولم يفترع ذوائبها رجلٌ دونه فقلده الصلاة بمدينة السلام في خمسة جوامعها: فأولها الجامع الداخل في حريم أمير المؤمنين وجامع الرصافة وجامع المنصور وجامع براثى وجامع الكف الذي تولى أبوه إشادته وعمارته وحسنت آثاره في إنشائه وإعلائه وحيث سمت همته إليه وبذل المجهود في إنفاق الأموال الدثرة عليه واستنزل بذلك من الله أجزل إثابة المثابين وأوفر أجر المأجورين وجميع المنابر في شرق الأرض وغربها وبعيد الأقطار وقريبها وأمير المؤمنين يسأل الله حسن التسديد في ذلك وسائر مراميه وجميع مطالبه ومغازيه وجواري هممه التي يمضيها وسرايا عزماته التي ينويها وأن يجعل النجاح قائدها وسائقها والصلاح أولها وآخرها وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

أمره بتقوى الله التي هي أحرز المعاقل وأحصن الجنن عند النوازل وأعظم ملجإ يلجأ إليه وآمن موئل يعول عليه وأن يعتقدها في خلوته وحفلته ويعتمدها في سره وعلانيته ويجعلها سبباً يتبه ولباساً يدرعه فينازع بها من نازعه ويوادع بها من وادعه: فإنها أوكد الأسباب وأوصل القرب والأنساب وأولى الناس بالتمسك بحبلها والاشتمال بظلها من كان بأجل المناسب تعلقه وبأشرف الخلائق تخلقه قال الله سبحانه: " إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ".

وأمره بتلاوة القرآن والمواظبة عليه والإدمان والائتمار بما فيه من الأوامر والازدجار عما تضمن من الزواجر وأن يجعله الإمام المتبع فيقفوه والطريق المهيع فيقصده وينحوه: فإنه العلم المنجي من الغواية والدليل القائد إلى الهداية والنور الساطع للظلام إذا أشكل مشكل والحاكم القاضي بالحق إذا أعضل معضل قال الله: " وإِنَّه لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تنزيلٌ من حكِيمٍ حَمِيدٍ ".

وأمره بتهذيب لبه من جوامح الوساوس وتطهير قلبه من مطامح الهواجس وأن يتوقى اللحظة العارمة ويتجنب اللفظة المؤلمة عاصياً جواذب الخلاعة ومطيعاً أوامر النزاهة حتى يستوي خافيه وعالنه ويتفق ظاهره وباطنه فعال من جعله إمام المسلمين إماماً وقدمته الرعية أماماً وكان إلى الله داعياً وله عن عباده مناجياً وبينهم وبين خالقهم وسيطاً وعلى ما قلده من الصلاة بهم أميناً: لتصح شروط صلاته ويقبل مرفوع دعواته قال الله عز وجل: " وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلى اللهِ وعَمِلَ صالِحاً وقال إِنَّنِي من المُسْلِمِين ".

وأمره بالمحافظة على الصلوات وانتهاز فرصها من الأوقات والدخول فيها بالرقة والخشوع والتوفر بالإخبات والخضوع وحقيقٌ على كل مستشعرٍ شعار الإسلام ومتجلببٍ جلباب الإيمان أن يفعل ذلك مستوفياً شروطه ومستقصياً حدوده ورسومه فكيف بمن أقامه أمير المؤمنين مقامه في امتطاء غوارب المنابر وذراها ونصبه منصبه في أم الرعية أدناها وأقصاها.

قال الله تعالى: " يأَيُّها الذِين آمنُوا اتَّقُوا الله وقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ".

وقال: " اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُم مُسْلِمُونَ ".

وأمره بالسعي في الجمع إلى المساجد الجامعة وفي الأعياد إلى المصليات الضاحية وأن يخص أحدها بصلاته فيه وقصده له ويأمر خلفاءه على الصلاة بالافتراق في سائر الجوامع وباقي المنابر بعد الأمر بجمع المؤذنين والمكبرين وإحضار القوام والمرتبين في أتم أهبةٍ وأجمل هيئة بقلوبٍ مستشعرة للخشوع متصدية للدموع وألسن بالتسبيح والتقديس منطلقة وآمالٍ في حسن الجزاء وجزيل الثواب منفسحة حتى تعبر ألسنتهم إذا افترعوا الخطب وافتتحوا الكلم عن مكنون ضمائرهم ومضمون سرائرهم فتجيء المواعظ بالغةً والزواجر ناجعة قال الله تعالى: " أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكتابَ أَفَلاَ تَعْقِلُون ".

وأمره بمراعاة المساجد وتعهد الجوامع وسد خللها ولم شعثها فإنها مقاوم عزه وفخره ومحاضر صيته وذكره ومراكز أعلام الدين الخافقة ومطالع شموس الإسلام الشارقة ومواقف الحق المشهودة وقواعد الإيمان الموطودة مما لا يتضعضع أحدها إلا تضعضع من أركان الإسلام له ركن ولا التات بعضها إلا التات من أعضاء الدين عضو قال الله عز وجل: " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وأَقامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكَاةَ ولَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يكُونُوا من المُهْتَدِين ".

وأمره في خطبته بكثرة التحفظ وعند افتتاحه واختتامه بطول التيقظ فإن العيون به منوطة والأعناق إليه ممدودة والمسامع فاغرةٌ تتلقف ما يقوله والقلوب فارغةٌ لحفظ ما يبديء وما يعيد فقليل الزلل في ذلك الموقف كثير وصغير الخطل في ذلك المقام كبير والله تعالى يسدده إلى المحجة الوسطى ويقف به على الطريقة المثلى بمنه.

وأمره بالسكينة في انتصابه للصلاة الجامعة وتقدمه لقضاء الفروض اللازمة وأن يسكن في كل حد من حدودها في الركوع والسجود والقيام والقعود فإنه عليها محاسب وبما يلحق من يأتم به في جميعها مطالب وأن يفرغ قلبه لما يتلوه من البيان ويرفع صوته بما يمر به من قوارع القرآن مرتلاً لقراءته ومسترسلاً في تلاوته: ليشترك في سماعها الأقرب والأقصى وينتفع بمواعظها الأبعد والأدنى بعد إخلاص سره وانتزاعه وتسويته في الطهور بين باديه وخافيه وغائبه وحاضره فليس بالطاهر عند الله تعالى من يصيب بالماء أطرافه وأدرن بالخبائث شغافه قال الله تعالى: " يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ".

. "وقال: " إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلى المُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً

وأمره أن يقيم الدعوة على منابر أعماله القاصية والدانية والغائبة والحاضرة لأمير المؤمنين ثم للناهض عنه بالأعباء والقائم دونه في البأساء والضراء الذي غذي بلبان الطاعة وانقاد بزمام المتابعة: بهاء الدولة ولولاة الأعمال من بعده الذين يدعى لهم على المنابر ما يكون منها على العادة الجارية فيها فإنها دعوةٌ تلزم إقامتها وكلمةٌ تجب إشادتها إذ كانت متعلقة بطاعة الله عز وجل وقد أوجبها الله تبارك وتعالى على كافة المسلمين وجميع المعاهدين إذ يقول وهو أصدق القائلين: " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأمْرِ مِنْكُمْ " وعائدتها تعمهم وفائدتها تشملهم إذ كان صلاح الرعية مقروناً بصلاح راعيها وفساد الأمة منوطاً بفساد واليها.

وأمره باستخلاف من يرى استخلافه على الصلاة في الأقطار والأطراف والنواحي والبلدان وأن يختار من الرجال كل حسن البيان مصقع اللسان بليل الريق إذا خطب بليغ القول إذا وعظ.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته لك وعليك قد أعذر فيه وأنذر وهدى من الضلالة وبصر وأعلقك زمام رشدك وغيك وقلدك عنان هلكك وفوزك وخيرك في كلا الأمرين ووقفك إزاء الطريقين فإن سلكت أهداهما لم تلبث أن تعود غانماً وإن ولجت أضلهما فغير بعيد أن تؤوب نادماً واستعن بالله يعنك واسترده من الكفاية يزدك واستلبسه الهداية يلبسك واستدله على نجاح المطالب يدللك إن شاء الله والحمد لله وحده.

ومنها - نظر الأوقاف.

وهذه نسخة عهدٍ من ذلك كتب بها أبو إسحاق الصابي عن الطائع لله - للحسين بن موسى العلوي وهي: هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى الحسين بن موسى العلوي حين طابت منه العناصر ووصلته بأمير المؤمنين الأواصر جمع إلى شرف الأعراق الذي ورثه شرف الخلق الذي اكتسبه ووضحت آثار دينه وأمانته وبانت أدلة فضله وكفايته في جميع ما أسنده أمير المؤمنين إليه من الأعمال وحمله إياه من الأثقال فأضاف إلى ما كان ولاه من ذلك النظر في الوقوف التي كانت يد فلانٍ فيها بالحضرة وسوادها ثقةً بسداده وسكوناً إلى رشاده وعلماً بأنه يعرف حق الصنيعة ويرعى ما يستحفظه من الوديعة ويجري في المنهل الذي أحمده أمير المؤمنين بصواب الرأي فيما نحاه وتوخاه ويؤمنه في عاقبته الندم فيما قضاه وأمضاه وما أمره بتقوى الله التي هي عماد الدين وشعار المؤمنين وأن يعتقدها في سره ونجواه ويجعلها الذخيرة لأولاه وأخراه ويتجنب الموانع المونية ويتوقى الموارد المردية ويغض طرفه عن المطامع المغوية ويذهب بنفسه عن المطارح المخزية فإنه أحق من فعل ذاك وآثره وأولى من اعتمده واستشعره بنسبه الشريف ومفخره المنيف وعادته المشهورة وشاكلته المأثورة وتلاوة كتاب الله الذي هو وعترة رسول الله الثقلان المخلفان في الأمة وقد جمعته وآخرهما الأنساب وجمعته والثاني عصمة أولى الألباب وتوجهت حجة الله عليه بما يرجع من هذه الفضائل إليه وأنه غصنٌ من دوحة أمير المؤمنين التي تحداها الله بالإنذار قبل الخلائق أجمعين إذ يقول لرسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله: " وأنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ ".

. "وقد حض تبارك وتعالى على التقوى ووعد عباده عليها الزلفى فقال: " يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ

وأمره بالاشتمال على ما أسنده إليه أمير المؤمنين من هذه الوقوف مستنفداً طوقه في عمارتها مستفرغاً وسعه في مصلحتها دائباً في استغلالها وتثميرها مجتهداً في تدبيرها وتوفيرها وأن يصرف فاضل كل وقف منها بعد الذي يخرج منه للنفقة على حفظ أصله واستدرار حلبه والمؤونة الراتبة للقوام عليه والحفظة له إلى أربابه الذي يعود ذلك عليهم في وجوهها التي سبل لها ووقف عليها واضعاً جميع ذلك مواضعه موقعاً له مواقعه خارجاً إلى الله من الحق فيه مؤدياً الأمانة إليه وأن يشهد على القابضين بما يقبضونه من وقوفهم ويكتب البرآت عليهم بما يستوفونه من أموالهم ويستظهر لنفسه بإعداد الشواهد والأدلة على ما ينفقه من أموال هذه الوقوف على مصالحه ويصرفه منها إلى أهلها ويخرجه منها في حقوقها وأبواب برها وسائر سبلها ووجوهها سالكاً في ذلك مذهبه المعروف في أداء الأمانة واستعمال الظلف والنزاهة معقباً على من كان ناظراً فيها من الخونة الذين لم يرعوا عهداً ولم يتصونوا عن سحت المطاعم وظلم المآثم.

وأمره باستكتاب كاتبٍ معروفٍ بالسداد مشهورٍ بالرشاد معلومٍ منه نصيحة الأصحاب والضبط للحساب وتفويض ديوان الوقوف وتدبيره إليه وتوصيته بصيانة ما يشتمل عليه من أصول الأعمال وفروعها وقليل الحجج وكثيرها وأن يحتاط لأربابها في حفظ رسومها ومعاملاتها وحراسة طسوقها ومقاسماتها حتى لا يستمر عليها حيف يبقى أثره ولا يتغير فيها رسمٌ يخاف ضرره وأن ينصف الأكرة فيها والمزارعين وسائر المخالطين والمعاملين ولا يجشمهم حيفاً ولا يسومهم خسفاً ولا يغضي لهم عن حق ولا يسمح لهم بواجب خلا ما عادت السماحة به بزيادة عماراتهم وتأليف نياتهم واجتلاب الفائدة منهم والعائدة بهم فإنه مؤتمن في ذلك كله أمانةً وعليه أن يؤديها ويخرج عن الحق فيها.

وأمره باختيار خازنٍ حصيفٍ قؤومٍ أمين يخزن حجج هذه الوقوف وسجلاتها وسائر دفاترها وحساباتها فإنها ودائع أربابها عنده وواجبٌ أن يحتاط عليها جهده فمتى شك في شرط من الشروط أو حدٍ من الحدود أو عارض معارض أو شاغب مشاغب في ايام نظره وأيام من عسى أن تنقل ولاية هذه الوقوف إليه ويناط تدبيرها به دفع ما يحدث من ذلك بهذه الحجج التي هي معارف البرهان وقواعد البنيان وإليها المرجع في كل بينة تنصر وتقام وشبهة تدحض وتضام.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ووثيقته الحاصلة في يديك فاتبع آثار أوامره وازدجر عن نواهيه وزواجره واستمسك به تنج وتسلم واعمل عليه تفز وتغنم واسترشد الله يرشدك واستهده يهدك واستعن به ينصرك وفوض إليه يعصمك إن شاء الله تعالى.

الضرب الثاني مما يكتب من ديوان الخلافة لأرباب السيوف التقاليد

وهي لمن دون أرباب العهود في الرتبة وليس لافتتاحها عندهم ضابطٌ وهذه نسخة تقليدٍ بحماية الكوفة لأبي طريف بن عليان العقيلي من إنشاء أبي إسحاق الصابي وهي: قد رأينا تقليدك - أطال الله بقاءك - الحماية بالكوفة وأعمالها وما يجري معها ثقةً بشهامتك وغنائك وسكوناً إلى استقلالك ووفائك واعتقاداً لاصطناعك واصطفائك وحسن ظنٍ بك في شكر ما يسدى إليك ومقابلته بما يحق عليك من الأثر الجميل فيما تولاه والمقام الحميد فيما تستكفاه فتول - أيدك الله - ذلك مقدماً تقوى الله ومراقبته ومستمداً توفيقه ومعونته واحرس الرعية في مساكنها والسابلة في مسالكها وادفع عن عملك ونواحيه أهل العيث جميعاً واطلبهم طلباً شديداً واطرقهم في مكامنهم وتولج عليهم في مظانهم ونكل بمن تظفر به منهم نكالاً تقيم به حكم الله عليهم وحدوده في أمثالهم وبالغ في ذلك مبالغةً تخيف الظنين وتوجسه وتؤمن السليم وتؤنسه وراع الأكرة والمزارعين حتى ينبسطوا في معايشهم ويتصرفوا في مصالحهم وتتيسر عواملهم في عماراتها ومواشيهم في مسارحها ومتى طردت لأحدٍ منهم طريدةٌ أو امتدت إليهم يدٌ عاتية ارتجعت ما أُخذ له ورددته بعينه أو قيمة مثله وخفف عمن وليت عليه الوطأة وارفع عنهم المؤونة والكلفة وخذهم بالتناصف واقبضهم عن التظالم وامنع قويهم من تحيف المضعوف وشريفهم من استضامة المشروف وأولهم من عدلك وحسن سيرتك واستقامة طريقتك ما يتصل عليه شكرك ويطيب به ذكرك ويقتضي لك دوام الولاية وتضاعف العناية.

واعلم بأنك فيما وليته من هذا الأمر متضمن للمال والدم ومأخوذ بكل ما يهمك من ذمة ومحرم فليكن اجتهادك في الضبط والحماية واحتراسك من الإهمال والإضاعة بحسب ذلك واكتب بأخبارك على سياقتها وآثارك لأوقاتها: ليتصل لك الإحماد عليها والمجازاة عنها إن شاء الله تعالى.

النوع الثالث مما كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يكتب لأرباب الوظائف ببغداد من أصحاب الأقلام ما كان يكتب لاصحاب الاقلام وهي على ضربين: الضرب الأول العهود ورسمها على نحو ما تقدم في عهود أرباب السيوف تفتتح بهذا ما عهد إلى آخر الترتيب المتقدم ذكره.

وهذه نسخة عهد بولاية قضاء حاضرة بغداد وسائر الأعمال كتب به المسترشد بالله لقاضي هذا ما عهد عبد الله أبو منصور الفضل الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين إلى قاضي القضاة علي بن الحسين الزينبي: لما تأمل طريقته وشحذ عقيدته وأحمد مذاهبه وارتضى ضرائبه وتكاثرت دواعيه وحسنت مساعيه ووجده عند الاختبار وفي مضمار الاعتبار راجعاً إلى عقل رصين ودينٍ متين وأمانةٍ مشكورة ونزاهة مخبورة وورع ثمر المشرع عارٍ من دنس المطمع وعلم توفر منه قسمه وأصاب فيه سهمه وحين راعى فيه موروث شرف النسب إلى شرف العلم المكتسب مع ما سلف لبيته من الحرمات المرعية المتأكدة والقربات المرضية المتمهدة والسوابق المحكمة المرائر الحميدة المبادئ والمصاير فقلده قضاء القضاة بمدينة السلام وسائر الأمصار في الآفاق والأقطار شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً إنافةً به إلى ما أصبح له مستحقاً واستمر استيجابه مسترقاً وجذباً بضبعه إلى ما يتحقق نهوضه بأعبائه وحسن استقلاله به وغنائه واقتفاءً لآثار الأئمة الراشدين في إيداع الودائع عند مستحقها وتفويض الأمور إلى أكفائها وأهلها لا سيما أولياء دولتهم وأغذياء نعمتهم الذين كشفت عن سجف خبرتهم التجارب ووردوا من الخلال الرشيدة أعذب المشارب وانتهجوا الجدد الواضح وتقبلوا الخلق الصالح والله سبحانه يقرن عزائم أمير المؤمنين بالخيرة في كل رأي يرتئيه وأمر يؤمه وينتحيه ويصدق مخيلته في حال يأتيها ويمضي عزمه فيها وما توفيقه إلا بالله عليه يتوكل وإليه أمره بتقوى الله التي لا يسعد أحدٌ إلا بالتمسك بسببها ولا يشقى إلا مع إضاعتها فإنها الجناب المريع والمعقل المنيع والنجاة يوم الفزع الأكبر والعدة النافعة في المعاد والمحشر والعصمة الحامية من نزعات الشيطان ومخايله المنقذة من أشراكه وحبائله وبها تمحص الأوزار وتنال الأوطار وتدرك المآرب وتنجح المطالب قال الله تعالى: " يأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً ويُكَفِّرْ عَنْكُم سيِّئَاتِكم ويَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ ذُو الفَضْل العَظِيم ".

وأمره باستشعار خشية الله سبحانه في قوله وفعله واختلاف أطواره وأحواله وتذكر ما هو قادمٌ عليه ووافدٌ إليه: " يَوْمَ لا يَجْزِي والِدٌ عن وَلَده ولا مَوْلُودٌ هو جازٍ عنْ والِدِه شَيْئاً " فلا يقوده الهوى إلى اتباع شهوة أو إجابة داعي هفوة أو صبوة إلا كان الخوف قادعه والحذار مانعه وأن يجعل التواضع والوقار شيمته والحلم دأبه وخليقته فيكظم غيظه عند احتدام أواره واضطرام ناره مجتنباً عزة الغضب الصائرة إلى ذلة الاعتذار ومتوخياً في كل حالٍ للمقاصد السليمة الإيراد والإصدار وأن يتأمل أحوال غيره تأمل من جعلها لنفسه مثالاً واتخذها لنسجه منوالاً فما استحسنه منها فيأتيه وما كرهه فيجتويه غير ناهٍ عما هو من أهله ولا آمرٍ بما هو مجانبٌ لفعله قال الله جلت عظمته: " أتَأمُرُون النَّاسَ بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وأنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتابَ أفَلا تَعْقِلُون ".

وأمره بتلاوة كتاب الله مواظباً والإكثار من قراءته دائباً وأن يجعله إماماً يقتفيه ودليلاً يتبعه فيهديه ونوراً يستضيء به في الظلمات وهادياً يسترشده عند اعتراض الشبهات وموئلاً يستند إليه في سائر أحكامه وحصناً يلجأ به في نقضه وإبرامه عاملاً بأوامره ومزدجراً بزواجره ومنعماً نظره في محكم آياته وصادع بيناته ومعملاً فكره في خوض غماره واستخراج غوامض أسراره فإنه الحق الذي لا يجور متبعه والمتجر الذي لا يبور مبتضعه والمنار الذي به يقتدى والمنهج الذي بأعلامه يهتدى والمصدر الذي تغرى به الأمور في ملبس الإشكال وتشرع معه الأحوال المستبهمة في ورود الوضوع السلسال وينبوع الحكمة الذي ضرب الله فيه الأمثال وفرق فيه بين الحرام والحلال والهداية والضلال قال الله سبحانه: " ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْياناً لكُلِّ شَيْءٍ وهُدًى ورحْمةً وبُشْرى للمُسْلِمِين ".

وأمره بدراسة السنن النبوية صلوات الله على صاحبها والاقتداء بما جاءت به من مكارم الأخلاق التي ندب إليها وحض عليها وتتبع ما يتداخلها من الأخبار الجريحة والروايات غير الصحيحة والفحص عن طرقها وإسنادها وتمييز قويمها وميادها والبحث عن رواتها منحوزها وثقاتها فما ألفاه بريئاً من الطعن آمناً من القدح والوهن عارياً من ملابس الشك والارتياب عاطلاً عن حلى الشبهة والاعتياب اتبعه واقتفاه وتمثله واحتذاه وكان به حاكماً ولأدواء الباطل باتباعه حاسماً وما كان مترجحاً بين كفتي الشك واليقين ولم تبد فيه مخايل الحق المبين جعل الوقف حكمه وردع عن العمل به عزمه إلى أن يضح الحق فيه فيعتمد ما يوجبه ويقتضيه: فإنه عليه السلام الداعي إلى الهدى والرحمة التي عصم الله بها من عوادي الردى والهادي الذي لم يفصل بين العمل بفرائض كتابه وسننه في قوله تقدست أسماؤه وجلت آلاؤه: " وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وما نَهَاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب ".

وأمره بإقامة الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها والمبادرة إليها قبل فواتها والإتيان بشرائطها المحدودة وأركانها.

وأمره بمجالسة العلماء ومباحثة الفقهاء ومناقشة ذوي البصيرة والفهم والفطنة والحزم ومشاورتهم في عوارض الأمور المشكلة وسوانح الأحكام المستبهمة المعضلة حتى يصرح محض رأيه وآرائهم عن زبدة الصواب وتنتج أفكارهم باستجمامها نظراً شافياً بالجواب رافعاً عنه منسدل الحجاب وإن في ذلك ثلجاً للصدور واستظهاراً في الأمور واحترازاً من دواعي الزلل

واستمرار الخلل وامناً من غوائل الانفراد وحطاً للتعويل على الاستبداد فلرب ثقةٍ أدت إلى خجل وأمن أفضى إلى وجل وما زالت الشورى مقرونةً بالإصابة محكمةً عرى الحق وأسبابه حارسةً من عواقب الندم داعيةً إلى السلامة من زلة القدم وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأزلف محله لديه بالاستظهار بالمشاورة مع عظم خطره وشرف قدره فقال: " وشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فإذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِين ".

وأمره أن يختار للحكم الأماكن الفسيحة الأرجاء الواسعة الفضاء وينظر في أمور المسلمين نظراً تفتر ثغور العدل فيه وتلوح خشية الله من مطاويه فيوصل إليه كافة الخصوم ويبرز لهم على العموم غير مشددٍ حجابه ولا مرتج دون المترافعين إليه بابه وأن يولي كلاً من الإقبال عليه وحسن الإصغاء إليه ما يكون بينهم فيه مساوياً ولهم في مجمع الموازاة حاوياً ولا يعطي من التفاته إلى الشريف لشرفه وذي الشارة الحسنة من أجل ثوبه ومطرفه ما يمنعه من تقحمه العيون وتترجم في خموله الظنون: فإن ذلك مطمع لذي الرواء في دفع الحق إذا وجب عليه والتماس الباطل وإن ضعفت الدواعي إليه مؤيسٌ لذي الخمول من الانتصار لحقه وإن أسفر صبح يقينه ونطقت ألسنة أدلته فالناس وإن تباينوا في الأقدار والقيمة وتفاوتوا في الأرزاق المقسومة "فالأسلام لهم مجتمع والحق أحق أن يتبع وهم عند خالقهم سواءٌ إلا من ميزته التقوى وتمسك بسببها الأقوى قال الله تعالى: إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ ".

وقال تعالى: "إنْ يَكُنْ غَنِيّاً أو فَقِيراً فاللهُ أوْلى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أنْ تَعْدِلُوا وإنْ تَلْوُوا أوْ تُعْرِضُوا فإنَّ اللهَ كانَ بما تَعْمَلُون خَبِيراً ".

وأمره أن يتأمل أحوال المترافعين إليه والخصوم لديه ويتطلب ما وقع نزاعهم لأجله في نص الكتاب ويعدل إلى السنة عند عدمه من هذا الباب فإن فقد من هذين الوجهين فليرجع إلى ما اختاره السلف المهتدون وأجمع عليه الفقهاء المجتهدون فإن لم يلف فيه قولاً ولا إجماعاً ولا وجد إليه طريقاً مستطاعاً أعمل رأيه واجتهاده وامتطى ركاب وسعه وجياده مستظهراً بمشورة الفقهاء في هذه الحال ومستخلصاً من آرائهم ما يقع عليه الاتفاق الآمن الاعتلال: " وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيل ".

وأمره باستعمال الأناة عند الحكومات واستماع الدعاوى والبينات من غير سرعةٍ تحدث خطلاً ولا إفراطٍ في التأني يورث ملالاً فإن الحق بين ذينك على شفا خطر وظهر غرر ولا سيما إذا كان أحد الخصمين منطيقاً ينمق كلامه تنميقاً فإنه يخلب ببلاغة نطقه مستمعه ويغطي وجه الباطل بألفاظه الموشعة فإذا اتفق لديه ما هذا سبله شحذ له غرب فطنته وأرهف غرار فكره وبصيرته ومنح كلاً من الإنصات ما يجتلي وجه النصف منيراً ويغدو لأشياع الجور مبيراً.

وإن ذو اللسن روعه وأوهمه أن الحق معه بما يلفقه من كلام يقصر خصمه عن جوابه ويحصر عن جداله واستيفاء خطابه مع عدم البينة المشهودة وتعذر الحجة الموجودة استعاد كلامه واستنطقه واستوضح مغزاه وتحققه من غير إظهار إعجابٍ بما يذكره ولا اغترارٍ بما يطويه وينشره ولا إصغاءٍ يبدو أثر الرغائب من فحواه ولا اختصاصٍ له بما يمنع صاحبه شرواه: لئلاً يولد ذلك له اشتطاطاً ويحدث له انطلاقاً في الخصومة وانبساطاً حتى إذا ابتسم الحق وانتصر الصدق وفلج أحدهما بحجته ولحن ببينته أقر الواجب في نصابه وأداله من جنود الظلم وأحزابه وأمضى الحكم فيه باعتزامٍ صادق ورأيٍ محصد الوثائق غير ملتفت إلى مراجعة الخصوم وتشاجرهم وشكواهم وتنافرهم اعتماداً للواجب وانتهاجاً لجدد العدل اللاحب.

قال الله تعالى: "يَا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفةً في الأرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَاب ".

وأمره إذا انتدب للقضاء أن يفرغ باله ويقضي أمامه أوطاره وأشغاله ويخلي من أحوال الدنيا سره ويشرح لما هو بصدده صدره فلا تنزع نفسه إلى تحصيل مأرب ولا تتطلع إلى درك مطلب فإن القلب إذا اكتنفته شجونه وأحاطت به شؤونه كان عرضة لتشعب أفكاره وحمله على مركب اضطراره الجاري بضد إيثاره واختياره حرياً بالتقصير عن الفهم والإفهام والضجر عند مشتجر الخصام.

وأمره بالتثبت في الحدود والاستظهار عند إقامتها بمن يسكن إلى قوله من الشهود والاحتياط من عجل يحيط الحكم عن بيانه أو ريثٍ يرجيه عند وضوحه وتبيانه وأن يتجافى عما لم يصرح له بذكره وشرحه ولا يسرع إلى تصديق ساعٍ وإن تشبه بالناصحين في نصحه حتى يستبين له الحق فيمضيه عاملاً بما يوجبه حكم الله فيه وأن يدرأ من الحدود ما اعترضت الشبهة

دليلة وكانت شواهده مدخولة ويقيم منها ما قامت شهوده ولم يمكن إنكاره وجحوده قال الله تعالى مكبراً لتجافيها ومعظماً للتجوز فيها: " وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فأُولئك هُمُ الظَّالِمُون ".

وأمره بتصفح أحوال الشهود المعدلين المسموعة أقوالهم في أمور المسلمين وأحوال الدين ومواصلة البحث عن طرائقهم واستشفاف خلائقهم مستخدماً في ذلك سره وجهره وواصلاً بعوان دأبه فيه بكره فمن علمه سليماً في فعله غير ظنين في أصله متحرياً في كسبه مرضياً في مذهبه حافظاً لكتاب الله سبحانه متمسكاً من علم الشريعة بما يلوي عن مهاوي الخطإ عنانه حالياً بالديانة المنيرة المطالع حامياً نفسه عن الإسفاف إلى دنايا المطامع حاوياً من الظلف والأمانة والقدر والصيانة والاحتراس والتحفظ والتحرز والتيقظ ما تميز به على أشكاله وأترابه وطال مناكب أمثاله وأضرابه فقد كملت صفاته واقتضت تقديمه أدواته ووجب أن يمضي كونه عدلاً ويجعله لقبول الشهادة أهلاً ومن رآه عن هذه الخلال مقصراً وببعضها مستظهراً وكان موسوماً بديانة مشكورة ونزاهة مأثورة رضي بذلك منه قانعاً وحكم بقوله سامعاً.

ومن كان عن هذين الفرقين نائياً ولأحوالهم المبين ذكرها نافياً ألغى قوله مطرحاً ورد شهادته مصرحاً فإن هؤلاء الشهود أعوان الحق على انتصاره وحرب الباطل على تتبيره وبواره ومحجة الحاكم إلى قضائه ووزره الذي يستند إليه في سائر أنحائه فإذا أعذر في ارتيادهم واستفرغ وسعه في انتقادهم فقد خرج من عهدة الاجتهاد واستحق من الله جزاء المجتهد يوم التناد ومتى غرر في ذلك توجهت اللائمة عليه وكان قمناً بنسبة التقصير في الاحتياط إليه والله يتولى السرائر ويبلو خفيات الضمائر قال سبحانه: " مِمَّنْ تَرْضَوْنَ من الشُّهَداء ".

وقال جل ذكره: " سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ويُسْأَلُونَ ".

وأمره أن يكل أمور اليتامى في أملاكهم وأموالهم ومراعاة شؤونهم وأحوالهم إلى الثقات الأعفاء والكفاة الأتقياء الذين لا تستهويهم دواعي الطمع ولا يوردهم الإسفاف موارد الطبع وأن يتتبع أمورهم ويتصفحها ويشارفها بنفسه ويستوضحها عالماً أنه عما في أيديهم مسؤول فإن عذره في إهمال يتخلله غير مقبول وهو سبحانه يقول: " إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتَامى ظُلْماً إنَّمَا يَأْكُلُونَ في بُطُونِهِمْ نَاراً وسَيَصْلَوْنَ سعيراً ".

وأن يوعز إليهم بالإنفاق على أربابها بالمعروف: لينتهجوا فيها جدد القصد المألوف حتى إذا بلغوا الحلم وأونس منهم الرشد وعلم وساغ لهم التصرف في نفوسهم ووثق منهم باستدرار معايشهم دفع إليهم أموالهم محروسة ووفاهم إياها كاملة غير منقوصة مستظهراً بالشهادة عليهم والبراءة منها بتسليمها إليهم اتباعاً لقوله تعالى: " وابْتَلُوا الْيَتَامى حَتَّى إذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فإنْ انَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إسْرَافاً وبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا ومَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ ومَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإذَا دَفَعْتُمْ إلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وكَفى بِاللهِ حَسِيباً ".

وأمره بتزويج الأيامى اللواتي فقدن الأولياء واعتدى عليهن صرف الدهر وأساء وأضر بهن طول الإرمال وبدت عليهن آثار الخلة في الحال فينكحهن أكفاءهن من الرجال ويتم عقد نكاحهن على مهور الأمثال.

وأمره بتفويض أمر الوقوف الجارية في نظره إلى من يأمنه ويختاره وتقرن بإعلانه في ارتضائه أسراره: من أهل التجربة والحياء ذوي الاضطلاع والغناء فإنهم أقل إلى المطامع تشوفاً وأبعد في عواقب الأمور نظراً وتلطفاً وأن يوسع عليهم في الأرزاق فيوصلها إليهم مهنأة عند الوجوب والاستحقاق فبذلك يملك المرء نفسه ويستصلحها ويتجنب مواقف التهم ويطرحها وتجب عليه الحجة إن ثلم أمانة أو قارف خيانة مستظهراً بترتيب المشرفين الذين خبر أحوالهم وسبر وأن يتقدم إلى المستنابين قبله بالإنفاق عليها حسب الحاجة من محصولها حافظاً بما تعمده من ذلك لأصولها وجباية ارتفاعها من مظانها والتماس حقوقها في أوانها وصرفها في وجوهها التي شرطها واقفوها وعين عليها أربابها وأهلوها غير مخلٍ مع ذلك بالإشراف والتطلع ولا مهمل للفحص والتبلغ فمن ألفاه حميد الأثر ورضي العيان والخبر عول عليه وفوض مستنيماً إليه ومن وجده قد مد إلى خيانةٍ يده استبدل به وعزله جزاءً بما فعله: " إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيما ".

وأمره أ يستخلف على ما نأى عنه من البلاد من جمع إلى الوقار الحلم وإلى الدراية الفهم وإلى التيقظ الاستبصار وإلى الورع الاستظهار: ممن لا يضيق بالأمور ذرعاً ولا تحدث له مراجعة الخصوم ضجراً ولا تبرماً ولا يتمادى في أسباب الزلة ولا يقصر عن الرجوع إلى الحق إذا اتضح له ولا يكتفي بأدنى معدلة عن بلوغ أقصاها ولا تتهافت نفسه على طاعة هواها ولا يرجئ الأخذ بالحجة عند انكشافها ولا يعجل بحكم مع اعتراض الشبهة واكتنافها ولا يستميله إغراء ولا يزدهيه مدح وإطراء

وأن يعهد بمثل ما عهد أمير المؤمنين إليه ويعذر في الإجهاد بإيجاب الحجة عليه: ليبرأ من تبعة بادرةٍ عساه يأتيها أو مزلقة تناديه فيهب ملبياً لداعيها قال الله تعالى: " وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوى وَلاَ تَعَاوَنُولا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوَانِ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ وأمره أن يمضي ما أمضاه الحكام قبله ولا يتعقب أحكامهم بتأويل مجتنباً تتبع عثراتهم والبحث عن هفواتهم ومهما رفع إليه من ذلك مما الإجماع عليه موافق ولسان الكتاب والسنة به ناطق أمضاه وحكم به وإن كان مباينا لمذهبه: فإن الحكومات كلها ماضيةٌ على اختلاف جهاتها مستمرةٌ على تنافي صفاتها محمية عن التأويل والتعليل محروسةٌ من التغيير والتبديل ما كان لها مخرجٌ في بعض الأقوال أو وجد لها عند الفقهاء احتمال إلا أن يكون الإجماع منعقداً على ضدها آخذاً بإلغائها وردها فيستفرغ في إيضاحها جهده وينفق في تلافيها من الاستطاعة وجده حتى يعيدها إلى مقرها من الواجب ويمضيها على الحق اللازب قال الله عز وجل: " وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالمُونَ ".

وأمره أن يتنخذ كاتباً بالظلف موسوماً وبأدق ما يناط به قؤوماً خبيراً بما يسطره عالماً بما يذكره عارفاً بالشروط والسجلات وما يتوجه نحوها من التأويلات ويتداخلها من الشبه والتلبيسات مطلعاً على أسرارها وعللها وتصاريف حيلها متحرزاً في كل حال متنزهاً عن مذموم الفعال متخذاً خشية الله شعاراً مسبلاً دون عصيانه من التقى أستاراً: فإنها نظاماته التي يرجع إليها ويده التي يبطش بها ويعول عليها ومتى لم يكن له من نفسه وازع ولا من عقله ودينه رادع لم يؤمن أن تدب عقاربه ليلاً ويسحب على الغوائل والموبقات ذيلاً فيعم الضرر بمكانه ويشرع أذاه إلى المسلمين حد سنانه.

وأن يتخير حاجباً طاوياً كشحه دون الأشرار جامعاً لأدب الأخيار مدرعاً جلباب الحياء طلق الوجه عند اللقاء سهل الجانب لينه مستشعر الخير متيقنه غير متجهم للناس ولا معاملهم بغير البشاشة الإيناس فإنه الباب إليه والمعتمد في لقائه عليه فلينتخبه انتخاب من علم أن حسن الثناء خير زاد وأنفس ذخر وعتاد ورأى طيب المحمدة أجمل كسب مراد وحظٍ مجسد مستفاد.

ومتى كان عن هذه الخلال متخلياً وبخلافها متحلياً اعتاض عنه بمن هو أسلم غيباً وآمن ريباً وأنقى جيباً وأقل عيباً قال الله سبحانه: " وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً ".

وأمره أن يتسلم ديوان القضاء وما فيه من الحجج والسجلات والوثائق والكفالات والمحاضر والوكالات بمحضر من العدول ليكونوا له مشاهدين وعليه شاهدين وأن يجعل خزانها من يرتضيه باجتماع أدوات الخير فيه عاملاً في حفظها بما تقتضيه الأمانة التي أشفقت السموات والأرض والجبال منها وأقررن بالعجز عنها متحرياً من أمر يبوء معه بالأثام في دار المقام قال الله تعالى: " إنَّا عَرَضْنَا الأمانَةَ على السَّمواتِ والأرضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنْسانُ إنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً ".

وأمره بمراعاة أمر الحسبة فإنها أكبر المصالح وأهمها وأجمعها لنفع الناس وأعمها وأدعاها إلى تحصين أموالهم وانتظام أحوالهم وحسم مواد الفساد وكف يده عن الامتداد وأن يتقدم إلى المستناب فيها بمداومة الاطلاع على كمية الأسعار والفحص عن مادة المخلوقات في الانقطاع والاستمرار ومواصلة الجلوس في أماكن الأقوات ومظانها: ليكون تسعيرها بمقتضى زيادتها ونقصانها غير خارج في ذلك عن حد الاعتدال ولا مائلٍ إلى ما يجحف بالفريقين من إكثار وإقلال وأن يراعي عيار المكاييل والموازين ليميز ذوي الصحة من المطففين فيقول لمن حسن اعتباره مرحى ويقابل من ساء اختباره بما يجعله لأمثاله رادعاً حتى يزنوا بالقسطاس المستقيم ويتجنبوا التطفيف بقلب من إضمار المعاودة سليم قال الله تعالى: " وَيْلٌ للمطفِّفِينَ الَّذِينَ إذا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُون وَإذَا كَالوُهُمْ أوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ألا يَظُنُّ أُولئِكَ أنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِين ".

هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله تعالى عليك وقفك فيه على منهج الصلاح وأعلقك منه إن اتبعته بأسباب النجاح وأدر به عليك خلف السعادة إن أمريته بيد القبول وجمع لك مع احتذائه بدائد المأمول وعطف لديك متى تمثلته شوارد السول وأوجدك ضالة متاعك إن أصغيت إليه سامعاً مطيعاً وأعاد إن ائتمرت بأوامره شمل أقوالك جميعاً وأرادك مرعى النجاة إن نهضت بأعبائه مريعاً لم يدخرك فيه شفيفاً ولا حقرك إرشاداً وتعريفاً خلع به ربقة فبادر إلى العمل به مسرعاً وقم بالمجدود فيه مضطلعاً واعلم أن لكل عالم هفوة ولكل جواد كبوة فاغضض عن مطامح الهوى طرفك واثن عن أضاليل الدنيا الغرارة عطفك واخش موقفاً تشخص فيه الأبصار وتعدم الأعوان والأنصار يوم ينظر المرء ما قدمت يداه وتنقطع الوسائل إلا ممن أطاع الله وأتقاه ينعم عوفك ويأمن يوم القيامة خوفك ومهما عرض لك من شبهة لم تلف مخرجاً منها ولا صدراً عنها ولا وجدت لسقبها هناء ولدائها شفاء فطالع حضرة أمير المؤمنين بحالها مستعلماً وأنهها إليه مستفتحاً باستدعاء الجواب عما أصبح لديك مستغلقاً مبهماً يمددك منه بما يريك صبح الحق منبلجاً وضيق الشك منفرجاً عن علم عنده البحر كالقياس إلى أوشال

الناس والله تعالى يعضد آراء أمير المؤمنين بالصواب ويمده بالتوفيق في سائر الآراب ويقود لمراده أزمة جوامحها الصعاب ما أنجم سحاب وأثجم رباب بمنه وسعة فضله.

وهذه نسخة عهدٍ بولاية القضاء بسر من رأى كتب بها أبو إسحاق الصابي عن الطائع لله للقاضي أبي الحسين محمد ابن قاضي القضاة أبي محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف حين ولاه القضاء بسر من رأى وغيرها وما أضيف إلى ذلك من أعمال الجزيرة وهي: هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى محمد ابن قاضي القضاة عبيد الله بن أحمد حين عرفت الفضيلة فيه وتقيل مذاهب أبيه ونشأ من حصنه في المنشإ الأمين وتبوأ من سببه ونسبه المتبوأ المصون ووجده أمير المؤمنين مستحقاً لأن يوسم بالصنيعة والمنزلة الرفيعة على الحداثة من سنه والغضاضة من عوده سامياً به في ذلك إلى مراتب أعيان الرجال التي لا تدرك إلا مع الكمال والاكتهال: لما آنس من رشده ونجابته واستوضح من عقله ولبابته واسترجح من وقاره وحلمه واستغزر من درايته وعلمه وللذي عليه شيخه قاضي القضاة عبيد الله بن أحمد من حصافة الدين وخلوص اليقين والتقدم على المتحلين بحليته والمنتحلين لصناعته والاستبداد عليهم بالعلم الجم والمعنى الفخم والافتنان في المساعي الصالحة التي يسود أحدهم بأحدها ويستحق التجاوز لهم من استوعبها بأسرها وبالثقة والأمانة والعفة والنزاهة التي صار بها علماً فرداً وواحداً فذاً حتى تكلفها من أجله من ليست من طبعه ولا سنخه فهو المحمود بأفعاله التي اختص بها وبأفعال غيره ممن حذاه فيها وبما نفق من بضائع الخير بعد كسادها وبالسابقة التي له في خدمة المطيع لله أولاً ثم خدمة أمير المؤمنين ثانياً فإنها سابقة شائعٌ خبرها وجميلٌ أثرها قويةٌ دواعيها متمكنة أواخيها وللمكانة التي خص بها من أمير المؤمنين ومن عز الدولة أبي منصور مولى أمير المؤمنين أيده الله ومن نصير الدولة الناصح أبي طاهر رعاه الله ومن عظماء أهل حوزتهم وأفاريق عوامهم ورعيتهم فلما صدق محمد فراسة أمير المؤمنين ومخايله واحتذى سجايا أبيه وشمائله وحصل له ما حصل من الحرمات المتأثلة والموات المتأصلة أحرز من الأثرة على قرب المدى ما لا يحرزه غيره على بعد المرمى واستغنى أمير المؤمنين فيه عن طول التجربة والاختبار وتكرر الامتحان والاعتبار فقلده الحكم بين أهل سر من رأى وتكريت والطبرهان والسن والبوازيج ودقوقا وخانيجار والبندنيجين وبوحسابور والراذانين ومسكن وقطربل ونهربوق والدبين وجميع الأعمال المضافة إلى ذلك والمنسوبة إليه وشرفه بالخلع والحملان وضروب الإنعام والإحسان وكان فيما أعطاه من هذا الصيت والمجد ونحله إياه من المفخر العد مبتغياً ما كسبه من الله الرضا والزلفى والسلامة في الفاتحة والعقبى وراعياً لما يوجبه لقاضي قضاته عبيد الله بن أحمد من الحقوق التي أخفى منها أكثر مما أبدى وأمسك عن أضعاف ما أحصى وذاهباً على آثار الأئمة المهديين والولاة المجتهدين في إقرار ودائعهم عند المرشحين لحفظها المضطلعين بحملها من أولاد أوليائهم وذرية نصحائهم: إذ كان لا بد للأسلاف أن تمضي وللأخلاف أن تنمي كالشجر الذي يغرس لدناً فيصير عظيماً والنبات الذي ينجم رطبا فيصير هشيماً فالمصيب من تخير الغرس من حيث استنجب الشجر واستحلى الثمر وتعمد بالعرف من طاب منه الخبر وحسن منه الأثر وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى تسديداً تحمد عائدته وتدر عليه مادته ويتولاه في العزائم التي يعزمها والأمور التي يبرمها والعقود التي يعقدها والأغراض التي يعتمدها وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

أمره باعتماد التقوى فإنها شعار أهل الهدى وأن يراقب الله مراقبة المتحرز من وعيده والمتنجز لمواعيده ويطهر قلبه من موبقات الوساوس ويهذبه من مرديات الهواجس ويأخذ نفسه بمآخذ أهل الدين ويكلفها كلف الأبرار المؤمنين ويمنعها من أباطيل الهوى وأضاليل المنى فإنها أمارةٌ بالسوء صببةٌ إلى الغي صادةٌ عن الخير صادفة عن الرشد لا ترجع عن مضارها إلا بالشكائم ولا تنقاد إلى منافعها إلا بالخزائم فمن كبحها وثناها نجاها ومن أطلقها وأمرجها أرداها.

وأولى من جعل تقوى الله دأبه وديدنه والخيفة منه منهاجه وسننه من ارتدى رداء الحكام وأمر ونهى في الأحكام وتصدى لكف الظالم ورد المظالم وإيجاب الحدود ودرئها وتحليل الفروج وحظرها وأخذ الحقوق وإعطائها وتنفيذ القضايا وإمضائها: إذ ليس له أن يأمر ولا يأتمر ويزجر ولا يزدجر ويأتي مثل ما ينهى عنه وينهى عما يأتي مثله بل هو محقوق بأن يصلح ما بين جنبيه قبل أن يصلح ما رد أمره إليه وأن يهذب من نيته ما يحاول أن يهذب من رعيته قال الله تعالى: " يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُون " :وَقُودُها النَاسُ والحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلكافِرِين " فاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي .

وأمره بالإكثار من تلاوة القرآن الواضح سبيله الراشد دليله الذي من استضاء بمصابيحه أبصر ونجا ومن أعرض عنها زل وغوى وأن يتخذه إماماً يهتدي بآياته ويقتدي ببيناته ومثالاً يحذوا عليه ويرد الأصول والفروع إليه فقد جعله الله حجته الثابتة الواجبة ومحجته المستبينة اللاحبة ونوره الغالب الساطع وبرهانه الباهر الناصع وإذا ورد عليه معضل أو غم عليه مشكل اعتصم به عائذاً وعطف عليه لائذاً فبه يكشف الخطب ويذلل الصعب وينال الأرب ويدرك المطلب وهو أحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فينا ونصبهما معلماً بعده لنا قال الله تعالى: " إِنَّا أَنْزلنَا إِلَيْكَ الكتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناسِ بِمَا أَراكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً " .

.وقال تعالى: " وإنَّه لكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلاَ منْ خَلفه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد "

وأمره بالمحافظة على الصلوات وإقامتها في حقائق الأوقات وأن يدخل فيها أوان حلولها بإخلاص من قلبه وحضور من لبه وجمع بين لفظه ونيته ومطابقةٍ بين قوله وعمله مرتلاً للقراءة فيها مفصحاً بالإبانة لها متثبتاً في ركوعها وسجودها مستوفياً لحدودها وشروطها متجنباً فيها جرائر الخطإ والسهو وعوارض الخطل واللغو: فإنه واقف بين يدي جبار السماء والأرض ومالك البسط والقبض والمطلع على خائنة كل عين وخافية كل صدر الذي لا تحتجب دونه طوية ولا تستعجم عليه خبية ولا يضيع أجر محسن ولا يصلح عمل مفسد وهو القائل عز وجل: " وَأقِمِ الصَّلاة إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ".

وأمره بالجلوس للخصوم وفتح بابه لهم على العموم وأن يوازي بين الفريقين إذا تقدما إليه ويحاذي بينهما في الجلوس بين يديه ويقسم لهما أقساماً متماثلةً من نظره وأقساطاً متعادلةً من كلمه: فإنه مقام توازن الأقدام وتكافؤ الخواص والعوام لا يقبل على ذي هيئة لهيئته ولا يعرض عن دميم لدمامته ولا يزيد شريفاً على مشروف ولا قوياً على مضعوف ولا قريباً على أجنبي ولا مسلماً على ذمي ما جمعهما التخاصم وضمهما التحاكم.

ومن أحس منه بنقصان بيان أو عجزٍ عن برهان أو قصورٍ في علم أو تأخر في فهم صبر عليه حتى يستنبط ما عنده ويستشق ضميره وينقع بالإقناع غلته ويزيح بالإيضاح علته.

ومن أحس منه بلسنٍ وعبارةٍ وفضل من بلاغة أعمل فيما يسمعه منه فكره وأحضره ذهنه وقابله بسد خلة خصمه والإبانة لكل منهما عن صاحبه ثم سلط على أقوالهما ودعاويهما تأمله وأوقع على بيناتهما وحججهما تدبره وأنفذ حينئذ الحكومة إنفاذاً يعلمان به أن الحق مستقر مقره وأن الحكم موضوع موضعه فلا يبقى للمحكوم عليه استرابة ولا للمحكوم له استزادة وأن يأخذ نفسه مع ذلك بأطهر الخلائق وأحمدها وأهدى السجايا وأرشدها وأن يقصد في مشيه ويغض من صوته ويحذف الفضول من لفظه ولحظه ويخفف من حركاته ولفتاته ويتوقر من سائر جنباته وجهاته ويتجنب الخرق والحدة ويتوقى الفظاظة والشدة ويلين كنفه من غير مهانة ويرب هيبته في غير غلظة ويتوخى في ذلك وقوفاً بين غايتيه وتوسطاً بين طرفيه فإنه يخاطب أخلاطاً من الناس مختلفين وضروباً غير متفقين ولا يخلو فيهم من الجاهل الأهوج والمظلوم المحرج والشيخ الهم والناشئ الغر والمرأة الركيكة والرجل الضعيف النحيزة وواجبٌ عليه أن يغمرهم بعقله ويشملهم بعدله ويقيمهم على الاستقامة بسياسته ويعطف عليهم بحلمه ورياسته وأن يجلس وقد نال من المطعم والمشرب طرفاً يقف به عند أول الكفاية ولا يبلغ منه إلى آخر النهاية وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها وعوارض البشرية بأسرها: لئلا يلم به من ذلك ملمٌ أو يطيف به طائفٌ فيحيلانه عن جلده ويحولان بينه وبين سدده وليكن همه إلى ما يقول ويقال له مصروفاً وخاطره على ما يرد عليه ويصدر عنه موقوفاً قال الله تعالى: " يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فاحْكُمْ بَيْنَ الناسِ بِالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ ".

وأمره إذا ثبت عنده حقٌ من الحقوق لأحدٍ من الخصوم أن يكتب له متى التمس ذلك صاحب المعونة في عمله بأن يمكنه منه ويحسم المعارضات فيه عنه ويقبض كل يدٍ تمتد إلى منازعته أو تتعدى إلى مجاذبته فقد ندب الله الناس إلى معاونة المحق على المبطل والمظلوم على الظالم إذ يقول عز وجل: " وتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ والتَّقْوى ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ والعُدْوانِ ".

وأمره أن يستصحب كاتباً درباً بالمحاضر والسجلات ماهراً في القضايا والحكومات عالماً بالشروط والحدود عارفاً بما يجوز وما لا يجوز غير مقصر عن القضاة المستورين والشهود المقبولين في طهارة ذيله ونقاء جيبه وتصونه عن خبث المآكل والمطاعم ومقارفة الريب والتهم فإن الكاتب زمام الحاكم الذي إليه مرجعه وعليه معوله وبه يحترس من دواهي الحيل وكوامن الغيل وحاجباً سديداً رشيداً أديباً لبيباً لا يسف إلى دنية ولا يلم بمنكرة ولا يقبل رشوة ولا يلتمس جعالةً ولا يحجب عنه أحداً يحاول لقاءه في وقته والوصول إليه في حينه وخلفاء يرد إليهم ما بعد من العمل عن مقره وأعجزه أن يتولى النظر فيه بنفسه ينتخبهم من الأماثل ويتخيرهم من الأفاضل ويعهد إليهم في كل ما عهد فيه إليه ويأخذهم بمثل ما أخذ به ويجعل لكلٍ من هذه الطوائف رزقاً يكفه ويكفيه وقوتاً يحجزه ويغنيه فليس تلزمهم الحجة إلا مع إعطائهم الحاجة ولا تؤخذ عليهم الوثيقة إلا مع إزاحة العلة فقد قال الله تعالى: " وأنْ لَيْسَ لِلإنْسانِ إلاَّ ما سَعى وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأوْفى ".

وأمره بإقرار الشهود الموسومين بالعدالة على تعديلهم وإمضاء القضاء بأقوالهم وحملهم على ظاهر السلامة وشعار الاستقامة وأن يعتمد مع هذا البحث عن أديانهم والفحص عن أماناتهم والإصغاء إلى الأحاديث عنهم: من ثناءٍ يتكرر أو قدح يتردد فإذا تواتر عنده أحد الأمرين ركن إلى المزكي الأمين ونبا عن المتهم الظنين: فإنه إذا فعل ذلك اغتبط أهل الأمانة بأماناتهم ونزع

أهل الخيانة عن خياناتهم وتقربوا إليه بما تنفق سوقه ويستحق به التوجه عنده واستمر شهوده وأمناؤه وأتباعه وخلفاؤه على المنهج الأوضح والمسلك الأنجح وتحصنت الأموال والحقوق وصينت الحرمات والفروج ومتى وقف لأحدٍ منهم على هفوة لا تغفر وعثرةٍ لا تقال أسقطه من عددهم وأخرجه عن جملتهم واعتاض منه من يحمد دينه ويرتضي أمانته قال الله تعالى: " وإمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فانْبذْ إلَيْهِمْ عَلى سَوَاءٍ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الخائِنِينَ ".

وقال في الشهادة: " وأقِيمُوا الشَّهادَةَ للهِ ".

وأمره بالضبط لما يجري في عمله من الوقوف الثابتة في ديوان حكمه والتعويل فيها على الأمناء الثقات والحصفاء الكفاة المعروفين بالظلف والورع المتنزهين عن النظف والجشع والتقدم إليهم في حفظ أصولها وتوفير فروعها وتثمير غلالها وارتفاعها وصرفها إلى أهلها ومستحقها وفي وجوهها وسبلها ومطالبتهم بحساب ما يجري على أيديهم والاستقراء لآثارهم فيه وأفعالهم وأن يحمد منهم من كفى وكف ويذم من أضاع وأسف وينزل كلاً منهم منزلته التي استحقها بعمله واستوجبها بأثره قال الله تبارك وتعالى: " إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأمَانَات إلى أهْلِهَا وَإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس أنْ تَحْكُمُوا بالعَدْل إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إنَّ اللهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً ".

وأمره بالاحتياط على أموال الأيتام وإسنادها إلى أعف وأوثق القوام والتقدم إلى كل طائفة بأن يجريهم مجرى ولده ويقيمهم مقام سلالته في الشفقة عليهم والإصلاح لشؤونهم والإشراف على تأديبهم وتلقينهم ما لا يسع المسلم جهله من الفرائض المفترضة والسنن المؤكدة وتخريجهم في أبواب معايشهم وأسباب مصالحهم والإنفاق عليهم من عرض أموالهم بالمعروف الذي لا شطط فيه ولا تبذير ولا تضييق ولا تقتير فإذا بلغوا مبالغ كمالهم وأونس منهم الرشد في متصرفاتهم أطلق لهم أموالهم وأشهد بذلك عليهم فقد جعله الله بما تقلده من الحكم خلفاً من الآباء لذوي اليتم وصار بهذه الولاية عليهم مسؤولاً عنهم ومجزياً عما سار به فيهم وأوصله من خير أو شر إليهم قال الله تعالى: " وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا الله وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أموالَ اليَتَامى ظُلْماً إنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ".

وأمره بحفظ ما في ديوانه من الوثائق والسجلات والحجج والبينات والوصايا والإقرارات: فإنها ودائع الرعية عنده وواجبٌ أن يحرسها جهده وأن يكلها إلى الخزان المأمونين والحفظة المتيقظين ويوعز إليهم بأن لا يخرجوا شيئاً منها عن موضعه ولا يضيفوا إليها ما لم يكن بعلمه وأن يتخذ لها بيتاً يحصرها به ويجعله بحيث يأمن عليه: ليرجع متى احتاج الرجوع إليه فقد قال الله تعالى: " وَالَّذِينَ هُمْ لأمَاناتِهِمْ وعَهْدِهِمْ راعُون ".

وأمره إن ورد عليه أمرٌ يُعْيِيه فصلُه ويشتبه عليه وجه الحكم فيه أن يرده إلى كتاب الله ويطلب به سبيل المخلص منه فإن وجده وإلا ففي الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن أدركه وإلا استفتى فيه من يليه من ذوي الفقه والفهم والهداية والعلم فما زالت الأئمة والحكام من السلف الصالح وطراق السنن الواضح يستفتي واحدٌ منهم واحداً ويسترشد بعضٌ بعضاً لزوماً للاجتهاد وطلباً للصواب وتحرزاً من الغلط وتوقياً من العثار قال الله تعالى: " فإنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فرُدُّوه إلى اللهِ والرَّسُول ".

وأمره أن لا ينقض حكماً حكم به من كان قبله ولا يفسخه وأن يعمل عليه ولا يعدل عنه ما كان داخلاً في إجماع المسلمين وسائغاً في أوضاع الدين فإن خرج عن الإجماع أوضح الحال فيه لمن بحضرته من الفقهاء والعلماء حتى يصيروا مثله في إنكاره ويجتمعوا معه على إيجاب رده ثم ينقضه حينئذ نقضاً يشيع ويذيع ويعود به الأمر إلى واجبه ويستقر معه الحقفي نصابه قال الله تعالى: " وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الفاسِقُون ".

هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عليك قد شرح به صدرك وأوضح به سبلك وأقام أعلام الهداية لك ولم يألك تبصيراً وتذكيراً ولم يدخرك تعريفاً وتوقيفاً ولم يجعلك في شيءٍ من أمرك على شبهة تعترضك ولا حيرة تعتاقك والله شاهدٌ له بخروجه من الحق فيما وصى وعهد وعليك بقبولك ما قبلت مما ولى وقلد فإن عدلت واعتدلت - وذلك خليقٌ بك - فقد فاز وفزت معه وإن تجانفت وزللت - وذلك بعيدٌ منك - فقد ربح وخسرت دونه فلتكن التقوى زادك والاحتراس شعارك واستعن بالله يعنك واستهده يهدك واعتضد به يعضدك واستمد من توفيقه يمددك إن شاء الله تعالى.

وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر يوم كذا من رجب سنة ست وستين وثلثمائة.

وهذه نسخة عهد بقضاء القضاة بحاضرة بغداد وسائر الأعمال شرقاً وغرباً كتب به عن الإمام الناصر لدين الله أحمد للقاضي محيي الدين أبي عبد الله محمد بن فضلان من إنشاء أستاذ الدار عضد الدين بن الضحاك وهي: هذا ما عهد عبد الله وخليفته في العالمين المفترض الطاعة على الخلق أجمعين أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمني إلى محمد بن يحيى ابن فضلان: حين سبر خلاله واستقراها واعتبر طرائقه واستبراها فألفاه رشيداً في مذاهبه سديداً في أفعاله وضرائبه موسوماً بالرصانة حالياً بالورع والديانة مبرزاً من العلوم في فنونها عالماً بمفروض الشريعة المطهرة ومسنونها مدرعاً ملابس العفاف قد أناف على أمثاله في بوارع الأوصاف فقلده قضاء القضاة في مدينة السلام وجميع البلاد والأعمال والنواحي والأمصار: شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً سكوناً إلى ما علم من حاله واضطلاعه بالنهضة المنوطة به واستقلاله وركوناً إلى قيامه بالواجب فيما أسند إليه ونهوضه بعبء ما يعول في حفظ قوانينه عليه واستنامة إلى حلول الاصطناع عنده ومصادفته منه مكاناً تبوأه بالاستحقاق وحده والله تعالى يعضد آراء أمير المؤمنين بمزيد التوفيق في جميع الأمور ويحسن له الخيرة فيما يؤمه من مناظم الدين وصلاح الجمهور وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

أمره بتقوى الله تعالى في إعلانه وإسراره وتقمص شعارها في إظهار أمره وإضماره فإنها العروة الوثقى والذخر الأبقى والسعادة التي ما دونها فوزٌ ولا فوقها مرقى وهي حلية الأبرار وسيما الأخيار والمنهج الواضح والمتجر الرابح والسبيل المؤدي إلى النجاة والخلاص يوم لاوزر ولات حين مناص وأنفع العدد والذخائر وخير العتاد يوم تنشر الصحف وتبلى السرائر يوم تشخص الأبصار وتعدم الأنصار: " وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ " ولا ينجو من عذاب الله يومئذٍ إلا من كان زاده التقوى وتمسك منها وأمره أن يجعل كتاب الله إماماً يهتدي بمناره ويستصبح ببواهر أنواره ويستضيء في ظلم المشكلات بمنير مصباحه ويقف عند حدود محظوره ومباحه ويتخذه مثالاً يحتذيه ودليلاً يتبع أثره فيهديه ويعمل به في قضاياه وأحكامه ويقتدي بأوامره في نقضه وإبرامه: فإنه دليل الهدى ورائده وسائقٌ النجح وقائده ومعدن العلم ومنبعه ومنجم الرشاد ومطلعه وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمة والذكر الذي جعله الله تعالى تبياناً لكل شيءٍ وهدىً ورحمة فقال عز من قائل: " وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ".

وأمره بانتزاع الآثار النبوية صلوات الله على صاحبها وسلامه والاهتداء بشموسها التي تنجلي بها دجنة كل مشكل وظلامه والاقتداء بسنة الشريعة المتبوعة وتصفح الأخبار المسموعة والعمل منها بما قامت أدلة صحته من جميع جهاته واستحكمت الثقة بنقلته عنه عليه السلام ورواته وسلمت أسانيده من قدح ورجاله من ظنة وجرح فإنها التالية للقرآن المجيد في وجوب العمل بأوامره والانتهاء بروادعه وزواجره وهو عليه الصلاة والسلام الصادق الأمين الذي ما ضل وما غوى وما ينطبق عن الهوى وقد قرن الله سبحانه طاعته بطاعته والعمل كتابه والأخذ بسنته فقال عز من قائل: " وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا واتَّقُوا اللهَ " وأمره بمجالسة العلماء ومباحثة الفقهاء ومشاركتهم في الأمور المشكلة وعوارض الحكومات المعضلة: لتستبين سبيل الصواب ويعرى الحكم من ملابس الشبه والارتياب ويخلص من خطأ الانفراد وغوائل الاستبداد فالمشورة باليمن مقرونة والسلامة في مطاويها مضمونة وقد أمر الله تعالى بها نبيه صلى الله عليه وسلم مع شرف منزلته وكمال عصمته وتأييده بوحيه وملائكته فقال سبحانه: " وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فإذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ " .

وأمره بفتح بابه ورفع حجابه وأن يجلس للخصوم جلوساً عاماً وينظر في أمورهم نظراً حسناً تاماً مساوياً بينهم في نظره ولحظه وإصغائه ولفظه محترزاً من ذي اللسن وجرأة جنانه متأنياً بذي الحصر عند إقامة برهانه فربما كان أحد الخصمين ألحن بحجته والآخر ضعيفاً عن مقاومته هذا مقام الفحص والاستفهام والتثبت وإمضاء الأحكام: ليسلم من خديعة محتال وكيد مغتال مائلاً في جميع ذلك مع الواجب سالكاً طريق العدل اللاحب غير فارق في إمضاء الحكم بين القوي والضعيف والمشروف والشريف والمالك والمملوك والغني والصعلوك قال الله تعالى: " إنْ يَكُنْ غَنِيّاً أوْ فَقِيراً فَاللهُ أوْلى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أنْ تَعْدِلُوا ".

وقال سبحانه وتعالى: " وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الكَافِرُون " .

وأمره أن يتصفح أحوال الشهود المسموعة أقوالهم في الحقوق والحدود المرجوع إلى أمانتهم المعمول بشهادتهم الذين بهم تقام الحجج وتدحض وتبرم الأحكام وتنقض وتثبت الدعاوى وتبطل وتمضى القضايا وتسجل مجتهداً في البحث عن طرائقهم وأحوالهم وانتقاد تصاريفهم وأفعالهم واستشفاف سجاياهم وعرفان مزاياهم مخصصاً بالتمييز من كان حميد الخلال مرضي الفعال راجعاً إلى ورع ودين متمسكاً من الأمانة والنزاهة بالسبب المتين قال الله تعالى: " وأشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ".

وأمره بالنظر في أمور اليتامى وأموالهم ومراعاة شؤونهم وأحوالهم وأن يرتب بسبب اتساق مصالحهم الثقات الأعفاء والأمناء الأتقياء ممن ظهرت ديانته وحسنت سريرته واشتهر بالظلف والعفاف والتنزه عن الطمع والإسقاف ويأمرهم بحفظها من خلل يتخللها ويدٍ خائنةٍ تدخلها وليكن عليهم حدباً وفي فرط الحنو أباً وخلفاً من آبائهم في الإشفاق عليهم وحسن الالتفات إليهم: فإنه عنهم مسؤول والعذر عند الله تعالى في إهمالهم غير مقبول وأن يأذن لهم في الإنفاق عليهم بالمعروف من غير إسرافٍ ولا تقتير ولا تضييقٍ ولا تبذير فإذا بلغ أحدهم النكاح وآنس منه أمارات الرشد والصلاح دفع ماله إليه وأشهد بقبضه عليه على الوجه المنصوص غير منقوص ولا منغوص ممتثلاً أمر الله تعالى في قوله سبحانه: " فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ".

وأمره بتزويج الأيامى اللواتي لا أولياء لهن من أكفائهن بمهور أمثالهن وأن يشمل ذوات الغنى والفقر منهن بعدله ويتحرى لهن المصلحة في عقده وحله.

وأمره أن يستنيب فيما بعد عنه من البلاد ودنا وقرب منه ونأى كل ذي علم واستبصار وتيقظ في الحكم واستظهار ونزاهةٍ شائعة وأوصافٍ لأدوات الاستحقاق جامعة ممن يتحقق نهوضه بذلك واضطلاعه ويأمن استزلاله وانخداعه وأن يعهد إليهم في ذلك بمثل ما عهد إليه ولا يألوهم تنبيهاً وتذكيراً وإرشاداً وتبصيراً قال الله تعالى: " وتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ والتَّقْوى ولاتَعَاوَنُوا على الإثْم والعُدْوانِ ".

وأمره بإمضاء ما أمضاه قبله الحكام من القضايا والأحكام غير متعقب أحكامهم بنقض ولا تبديل ولا تغيير ولا تأويل إذا كانت جائزةً في بعض الأقوال ممضاةً على وجهٍ من وجوه الاحتمال غير خارقةٍ للإجماع عاريةً من ملابس الابتداع وإن كان ذلك منافياً لمذهبه فقد سبق حكم الحاكم به قال الله تعالى: " وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِك هُمُ الظَّالِمُون ".

وأمره أن يتخذ كاتباً قيماً بشروط القضايا والسجلات عارفاً بما يتطرق نحوها من الشبه والتأويلات ويتداخلها من النقص والتلبيسات متحرزاً في كل حال متنزهاً عن ذميم الأفعال وأن يتخير حاجباً نقي الجيب مأمون المشهد والغيب مستشعراً للتقوى في السر والنجوى سالكاً للطريقة المثلى غير متجهم للناس ولا معتمدٍ ما ينافي بسط الوجه لهم والإيناس: فإنه وصلتهم إليه ووجهه المشهود قبل الدخول عليه فلينتخبه من بين أصحابه وممن يرتضيه من أمثاله وأضرابه.

وأمره بتسلم ديوان القضاء والحكم والاستظهار على ما في خزائنه بالإثبات والختم والاحتياط على ما به من المال والسجلات والحجج والمحاضر والوكالات والقبوض والوثائق والأثبات والكفالات بمحضر من العدول الأمناء الثقات وأن يرتب لذلك خازناً يؤدي الأمانة فيه ويتوخى ما توجبه الديانة وتقتضيه.

وأمره بمراعاة أمر الحسبة: فإنها من أكبر المصالح وأهمها وأجمعها لمنافع الخلق وأعمها وأدعاها إلى تحصين أموالهم وانتظام أحوالهم وأن يأمر المستناب فيها باعتبار سائر المبيعات فيها: من الأقوات وغيرها في عامة الأوقات وتحقيق أسباب الزيادة والنقصان في الأسعار والتصدي لذلك على الدوام والاستمرار وأن يجري الأمر فيها بحسب ما تقتضيه الحال الحاضرة والموجبات الشائعة الظاهرة واعتبار الموازين والمكاييل وإعادة الزائد والناقص منها إلى التسوية والتعديل فإن اطلع لأحد من المتعاملين على خيانةٍ في ذلك وفعل ذميم أو تطفيف عدل فيه عن الوزن بالقسطاس المستقيم أناله من التأديب وأسباب التهذيب ما يكون له رادعاً ولغيره زاجراً وازعاً قال الله تعالى: " وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُون أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيم يَوْمَ يَقُومُ الناسُ لِرَبِّ العالَمِين ".

وهذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله تعالى عليك قد أولاك من صنوف النعم والآلاء وجزيل الكرم والحباء ما يوجب عليك الاعتراف بقدره واستيزاع شكره ووقف بك على محجة الرشاد وهداك إلى منهج الحق وسنن السداد ولم يألك تثقيفاً وتبصيراً وتنبيهاً وتذكيراً فتأمل ذلك متدبراً وقف عند حدود أوامره ونواهيه مستبصراً وأعمل به في كل ما تأتيه وتذره وتورده وتصدره وكن للمخيلة في ارتيادك محققاً وللمعتقد فيك مصدقاً تفز من خير الدارين بمعلى القداح وإحماد السرى عند الصباح وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل إن شاء الله تعالى.

الضرب الثاني مما كان يكتب بديوان الخلافة ببغداد لأرباب الوظائف من أصحاب الأقلام التواقيع وطريقتهم فيها أن يفتتح التوقيع بلفظ أحق أو أولى أو أقمن من أفيضت عليه النعم أو من فوض إليه كذا أو من نوه بذكره ونحو ذلك من كان بصفة كذا وكذا ثم يقال: ولما كان فلانٌ بصفة كذا وكذا فوض إليه كذا وكذا أو أسند إليه كذا وكذا ونحو ذلك.

وهذه نسخة توقيع بتدريس كتب به عن الإمام الناصر لدين الله للقاضي محيي الدين محمد بن فضلان بتدريس المدرسة النظامية ببغداد في سنة أربع عشرة وستمائة وهي: أحق من أفيضت عليه مجاسد النعم وجذب بضبعه إلى مقام التنويه وتقدم القدم من أسفر في أفضية الفضائل صباحه وانتشر في العالم علمه وأزهر مصباحه.

ولما كان الأجل الأوحد العالم محيي الدين حجة الإسلام رئيس الأصحاب مفتي الفريقين مفيد العلوم أبو عبد الله محمد بن يحيى بن فضلان أدام الله رفعته ممن نظم فرائد المحامد عقده النضيد وأوى من العلم والعمل إلى ركن شديد وثبتت قدمه من الديانة على مستثبت راسخ وقرارٍ مهيد - رؤي التعويل في تفويض التدريس بالمدرسة النظامية إليه: ثقةً باضطلاعه واستقلاله وتبريزه في حلبات الاستباق على نظرائه وأمثاله وتراجع المساجلين له عن فوت غايته وبعد مناله وأسند إليه - أدام الله رفعته - النظر في أوقاف المدرسة المذكورة بأجمعها واعتماد ما شرطه الواقف في مصارفها وسبلها سكوناً إلى كفايته وركوناً إلى سداده وأمانته.

ورسم له تقديم تقوى الله تعالى التي ما زال منتهجاً لطرائقها متمسكاً بعصمها ووثائقها وأن يشرح صدره للمتعلمين ولا تأخذه ضجرة من المستفيدين ولا تعدو عيناه عن جهلاء الطالبين ولا يتبرم بالمبالغة في تفهيم المبتدي ولا يغفل عن تذكير المنتهى: فإنه إذا احتمل هذه المشقة وأعطى كل تلميذ حقه كان الله تعالى كفيلاً بمعونته بحسب ما يعلم من حرصه عليهم وإخلاص نيته.

ولكين بسائر المتفقهة معتنياً رفيقاً وعليهم حدباً شفيقاً يفرع لهم من الفقه ما وضح وتسهل ويبين لهم ما التبس من غوامضه وأشكل حتى تستنير قلوبهم بأضواء علوم الدين وتنطق ألسنتهم فيها باللفظ الفصيح المبين وتظهر آثار بركاته في مراشده وتبين ولتتوفر همته في عمارة الوقوف واستنمائها والتوفر على كل ما عاد بتزايدها وزكائها بحيث يتضح مكان نظره فيها ويبلغ الغاية الموفية على من تقدمه ويوفيها ولا يستعين إلا بمن يؤدي الأمانة ويوفيها ويقوم بشرائط الاستحفاظ ويكفيها وهو - أدام الله رفعته - يجري من عوائد المدرسين والمتولين قبله على أوفى معهود ويسامي به إلى أبعد مرتقًى ومقامٍ محمود وأذن له في تناول إيجاب التدريس ونظر الوقوف المذكورة أسوة من تقدمه في التدريس والنظر في الوقوف على ما شرط الواقف .في كل ورد وصدر واعتماد كل ما حده في ذلك ومثله من غير تجاوز

الطرف الرابع فيما كان يكتب عن مدعي الخلافة ببلاد المغرب والأندلس

وكانوا يعبرون عما يكتب من ذلك بالظهائر والصكوك: فالظهائر جمع ظهير وهو المعين سمي مرسوم الخليفة أو السلطان ظهيراً لما يقع به من المعاونة لمن كتب له.

والصكوك جمع صكٍ وهو الكتاب قال الجوهري: وهو فارسي معربٌ والجمع أصكٌ وصكاك وصكوك ثم تحامى المتأخرون منهم لفظ الصك لما جرى به عرف العامة من غلبة استعماله في أحد معنيي الاشتراك فيه وهو الصفع واقتصروا على استعمال لفظ الظهير.

ولذلك حالتان: الحالة الأولى ما كان الأمر عليه في الزمن القديم واعلم أنه لم يكن لهم مصطلح يقفون عند حده في الابتداءات بل بحسب ما تقتضيه قريحة الكتاب فتارةً يبتدأ بلفظ: من فلان إلى فلان أو من فلان إلى أهل فلانة أو إلى الأشياخ بفلانة أو يصلكم فلانٌ بهذا الكتاب.

وتارة يبتدأ بأما بعد حمد الله.

وتارةً يبتدأ بلفظ تقدم فلان بكذا.

وتارة يبتدأ بلفظ مكتوبنا هذا وغير ذلك مما لا ينحصر.

فمن الظهائر المكتتبة لأرباب السيوف عندهم ما كتب به بولاية ناحيةٍ وهي: من فلانٍ إلى أهل فلانة أدام الله لهم من الكرامة أتمها ومن الرعاية أوفاها وأسبغ عليهم برود نعمه الجزيلة وأصفاها.

أما بعد حمد الله ميسر أسباب النجاح ومسني مرام الرشاد والصلاح والصلاة على سيدنا محمدٍ رسوله نبي الرحمة والرفق والإسجاح وعلى آله وصحبه المتصفين بالقوة في ذات الله تارةً وتارةً بخفض الجناح والرضا عن الخليفة أمير المؤمنين ذي الشرف الذي لم يزل بالهدى النبوي متوقد المصباح والدعاء للمقام الإماري بالنصر الذي يؤتي مقاليد الافتتاح والتأييد الماضي حد رعبه حيث لا يمضي غرار المهند وشبا الرماح فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم سكون الأرجاء وهدوها وأجرى لكم بالصلاح رواح الأيام وغدوها - من فلانة وللدولة العلية بركاتٌ تكاثر السحب في انسكابها وانسجامها وتقود الخيرات والمسرات في كل أوبٍ بزمامها والحمد لله حمداً يقضي بوفور جزيلات النعم وجسامها.

وإن الاهتمام بكم لمستبقٌ على كل غرضٍ جميل ومقدمٌ فيما يحظيكم بكل بغية وتأميل وبحسب هذا لا يزال يختار لكم من الولاة كل مختار منتخب ولا يقدم عليكم إلا من ينتهي إلى أثيل حسبٍ وكريم منتسب ولا يزال يداول موضعكم بين كل طريقةٍ تتصل من حسن السير وسداد النظر بأمتن سبب وعلى هذا الأصل استخرنا الله وهو المستخار والذي يقضي ما يشاء ويختار في أن قدمنا عليكم ووليناً للنظر فيما لديكم من له التقدم في الإقدام والاضطلاع الثابت الأقدام وذلك فلان وآثرنا كم به اعتناءً بجانبكم واهتبالاً وخصصناكم منه بمن يفسح في كل أثر حميدٍ مجالاً والمعتقد فيه أن يعمل على شاكلته بنباهة مكانه وأن يبذل في الانتهاض والاكتفاء غاية وسعه وإمكانه وعليه أن يلازم تقوى الله العظيم في سره وعلنه ويجري على سبيل العدل وسننه ويشمر عن ساعده في الدفاع عن أحوازكم كل التشمير ويأخذ على أيدي أهل التعدي أخذاً يقضي على الفساد وأهله بالتتبير ويقصد بكم سديد السعي ورشيد الرأي في الدقيق والجليل والصغير والكبير ويسوي في الحق بين الحافل والتافه والغني والفقير وعليكم أن تسمعوا وتطيعوا ولا تهملوا حق الامتثال والائتمار ولا تضيعوا وأن تكونوا يده التي تبطش وأعوانه فيما يحاول من مستوفي المساعي المرضية ومستوعبها وأن تتعاونوا على التقوى والبر وتقفوا له عند النهي والأمر وتجتهدوا معه في مصالحكم كل الاجتهاد وتعتمدوا على ما رسمناه لكم أتم الاعتماد وستجدون من مواليكم - إن شاء الله - ما يوافق الظن به ويلائم ومنها ما كتب به في ولاية ناحيةٍ أيضاً وهي: من فلان إلى أهل فلانة أدام الله تعالى كرامتهم بتقواه وعرفهم أحق النظر بمصالحهم وأحراه.

وبعد فإنا كتبناه لكم - كتب الله لكم أحوالاً متصلة الصلاح حميدة الاختتام والافتتاح - من فلانة ونعم الله سبحانه موفورة الأقسام صيبة الغمام وقد اقتضى ما نتوخاه من الاحتياط على جوانبكم ونعتمده من الإيثار لكم والاعتناء بكم أن نتخير للتقديم عليكم من نعلم منه الأحوال المرضية حقيقة ونحمد سيره فيما يحاوله وطريقه.

ولما كان فلان ممن حمدت مقاصده وشكرت في المحاولات الاجتهادية عوائده وحسنت فيما نصرفه فيه مصادره وموارده رأينا - والله القاضي فيما نذره ونأتيه بالتوفيق الذي يكون به انقياد النجح وتأتيه - أن نقدمه لحفظ جهاتكم وتأمين أرجائكم وجنباتكم ووصيناه أن يجتهد فيما قلدناه من ذلك كل الاجتهاد وينتهض في إذهاب الشر وإرهاب أهل الفساد وبأن يسلك فيما يتولاه من الأحكام سنن الحق ويجري على سبيل العدل والرفق ويدفع أسباب المظالم وينصف المظلوم من الظالم فإذا وافاكم فتلقوه بنفوس منبسطة وعقائد على العمل الصالح مرتبطة وكونوا معه على تمشية الحق يداً واحدة وفئةً في ذات الله متعاونةً متعاضدة بحول الله سبحانه.

وإنا كتبناه إليكم - كتبكم الله من المتعاونين على البر والتقوى وأعلقكم من طاعته بالحبل الأمتن الأقوى - من فلانة: والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه وقد صرفنا إليكم فلاناً بعد أن أقام هنا شاهداً مشاهد للتعلم نافعة مباشراً من المذاكرة في الكتاب والسنة مجالس ضامنةً لخير الدنيا والآخرة جامعة مطالعاً لأحوال الموحدين أعزهم الله في مآخذهم الدينية ومقاصدهم المحيية لما درس من الملة الحنيفية فنال بذلك كله خيراً كثيراً وأحرز به حظاً من السعادة كبيراً وظفر منه بما يكون له في كل ما ينظر فيه سراجاً منيراً وقد أعدناه إلى الشغل الذي كان يتولاه لجهتكم حرسها الله ووصيناه بتقوى الله تعالى الذي لا يطلع على السرائر سواه وأن يكون بما شاهده مما تقدم ذكره مقتدياً وبأنواره الساطعة التي لا يضل من اهتدى بها مهتدياً ولا يستند في شيءٍ من أحكامه إلى من لا يقوم على عصمته دليل ولا جعل إليه تحريمٌ ولا على تمشية هذه المقاصد الكريمة أكرم إعانة واسلكوا من مظاهرته على الحق وموازرته على -تحليل فأعينوه - وفقكم الله المسالك التي تستبين هنالكم أتم استبانة إن شاء الله تعالى.

ومن الظهائر المكتتبة بالوظائف الدينية ما كتب به في ولاية قاض وهو: أما بعد حمد الله رافع علم الحق لمن اهتدى وواضع ميزان القسط بالشريعة المحمدية الآخذة بالحجز عن مهاوي الردى ومؤيد الدين الحنيفي بمن ارتضى لتحديد حدوده وتجديد عهوده وهدى والصلاة على سيدنا محمدٍ نبيه الكريم الذي أرسله إلى الناس كافة غير مستثنٍ عليه من الخلق أحداً وعلى آله وصحبه الذين سلكوا في نصره وإظهار أمره جدداً والرضا عن الخليفة أمير المؤمنين العباسي الأطيب عنصراً ومحتداً فإنا

كتبناه إليكم - كتبكم الله ممن اعتز بطاعته وتقواه واعتصم من حبله المتين بأوثقه وأقواه - من فلانة وفضل الله سبحانه مديد الظلال وتوكلنا عليه - عز وجهه - ظهيرنا المعتمد به في كل حال وعمادنا الذي نقدمه فيما ندبره من الأعمال وإنكم من عنايتنا وموصول رعايتنا لبالمحل الأدنى ومن خاص نظرنا واهتمامنا لمن نكلف بشأنه كل ونعنى ونعتمد من ذلك بالأحسن فالأحسن فجزاء الذين أحسنوا الحسنى.

وقد علمتم - وصل الله كرامتكم - أن الأحكام الشرعية هي ملاك الأمور ونظامها وعليها مدار الأعمال الدينية وبها تمامها وأنه لا يصلح لها إلا من تجرد عن هواه وآثر الحق على ما سواه واتبع حكم نبيه - عليه السلام - في كل ما عمله ونواه وتجمل بالدراية وحمل الرواية فكانتا أظهر حلاه واتسم بالعدل والاعتدال فيما وليه من ذلك أو تولاه وكان ممن أطلق الحق لسانه وقيد الورع يمناه وقد أمعنا النظر فيمن له من هذه الأوصاف أوفى نصيب ومن إن رمى عن قوس نظره الموفق كان سهمه المسدد مصيب: لنخصكم به قاضياً في هذه الأحكام ونقدمه للفصل بينكم في القضايا الشرعية حكماً من صالحي الحكام فرأينا أهلاً لذلكم ومحلاً من اختبرت على النهج القويم أحواله وارتضيت فيما نيط به من ذلك أعماله وأقواله وشهد له الاختبار بالانكفاف عن كل سابق وغائب وعن ارتكاب الثنيات إلى السنن اللاحب وذلكم فلان أدام الله كرامته وتوفيقه ويسر إلى مسالك النجاة مسلكه وطريقه فأنفذناه إليكم حكماً مرضي لما لديه من استقامة الأحوال عن الوصايا ما خلا التذكير والتنبيه والوصية بتقوى الله فهي التي تعصم العامل بها وتنجيه فقد وصى بها الله من اختاره من خلقه لإقامة حقه وارتضاه فقال تعالى: " وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا الله ".

أدام الله كرامتكم - بنفوس منبسطة وقلوبٍ مبتهجة مغتبطة وأهواءٍ على التظافر والتناصر في الحق مجتمعةٍ مرتبطة -فتلقوه وتعاونوا في ذات الله على الطاعة وكونوا في سبيل الله يداً واحدةً فيد الله مع الجماعة واستعينوه سبحانه يتولاكم بالحفظ الشامل ويستعملكم من طاعته وسلوك سبل مرضاته بأنجى ما استعمل به عامل والسلام.

ومنها ما كتب به أبو الحسن الرعيني في ولاية قاضٍ وهي: من فلانٍ إلى الأشياخ بفلانة أدام الله كرامتهم بتقواه واستعملهم فيما يحبه ويرضاه.

أما بعد فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم حسناه وأوزعكم شكر ما خولكم من نعماه ورحماه ومن مقاصد هذا الأمر العزيز - أدامه الله - ما يعلي يد الحق ويسميها ويسدد سهام العدل إلى أغراضها ومراميها ويتكفل بالجزاء لمن لاذ بأكناف الطاعة ونواحيها والحمد لله على نعمه التي لا نحصرها ولا نحصيها.

وإلى ذلكم فإن فلاناً لما تمكنت الثقة بجميل صفته واستنامت البصيرة إلى استحكام سنه ومعرفته وقد كان تقدم له من خدمة المر وأوليائه ما نجده مع الأيام وخرجه وخصصه من كريم الاستعمال بما استدناه إلى مراقي الذكاء واستدرجه رأينا - والله المستعان - أن نقدمه للنظر في قضاياكم الدينية وأحكامكم الشرعية بعد أن وصيناه بتقوى الله فقدمها وعرضنا عليه ما يعلمه ويلزمه من شروط الحكومة فالتزمها فلينهض إلى ما قدمناه على بركة الله تعالى مشمراً عن ساعد الحزم آخذاً في كافة أموره بما يأخذه أولو العزم جارياً على السنن الواضح المعروف مسوياً في الحق بين النبيه والخامل والشريف والمشروف محتسباً على إقامة فروض الدين أكرم احتساب مكتسباً من الأجر في ردع الظلم والباطل أفضل اكتساب راجياً في تمشية العدل على رغمٍ من أباه ما يرجو المؤمن المحقق من زلفى وحسن مآب ولدينا من عقده على ذلك ما يحسن مقصده ويمكن في بسطة الحق مقعده فإذا وافاكم فاستبشروا بموافاته وقفوا عند ما يمضيه من لوازم الشرع وموجباته وتعاونوا على الخير تعاوناً يجزل حظكم من فضل الله ومن الظهائر المكتتبة بالوظائف الديوانية ما كتب به أبو المطرف بن عميرة بولاية وزارةٍ وهو: مكتوبنا هذا بيد فلان أدام الله علاءه وحفظ عنايته وغناءه يجد به مكان العزة مكيناً ومورد الكرامة عذباً معيناً وسبيل الحرمة المتأكدة واضحاً مستبيناً ويتقلد وزارتنا تقلد تفويضٍ وإطلاق ويلبس ما خلع عليه منها لبسة تمكن واستحقاق وينزل من رتبتها العليا منزلةً شرفها ثابتٌ وحماها باق ويسوغ الدار المخزنية التي يسكنها بفلانة تسويغاً يملكه إياها أصح تمليك ويفرد فيها من غير تشريك إن شاء الله تعالى والسلام.

ومنها ما كتب به أبو عبد الله بن الأبار في مشارفة ناحيةٍ وهو: عن إذن فلان يتقدم فلان للنظر في الأشغار المخزنية بفلانة موفياً ما يجب عليه من الاجتهاد والتشمير والجد الذي ارتسم في الإنماء والتثمير مصدقاً ما قدر فيه من الانتهاض والاستقلال وقرر عنه من الأمانة التي رشحته وأهلته لأنبه الأعمال جارياً في ضبط الأمور المخزنية والرفق بجانب الرعية على المقاصد الجليلة والمذاهب المرضية في عامة الشؤون والأحوال عاملاً بما تقدمت به الوصية إليه وتأكدت الإشارة به عليه من تقوى الله في السر والعلن علماً أن المرء بما قدمته يداه مرتهن.

ومنها ما كتب به المذكور بإعادة مشارف إلى ناحيةٍ وهو: يعاد بهذا المكتوب فلانٌ إلى خطة الإشراف بفلانة: رافلاً من ملابس التكرمة والحظوة في شفوفها مخلى بينه وبين النظر في ضروب الأشغال المخزنية وصنوفها فهو المعروف بالكفاية والاجتهاد الموصوف بحسن الإصدار والإيراد وأولى الناس بالتزام النصيحة والازدياد من بضائع الأعمال الربيحة من كثرت النعم السلطانية لديه ودفع إلى الخطط ودفعت إليه فليتقلد هذه الخطة بحقها من الانتهاض والتشمير وتأدية الأمانة بالإنماء والتثمير وليتزود تقوى الله تعالى ليوم يسأل عن النقير والقطمير جارياً في أموره كلها على الطريقة السوية جامعاً بين الاحتياط للمخزن والرفق بالرعية غير عادلٍ في حالٍ من الأحوال وفنٍ من فنون الأعمال عن مقتضى هذه الوصية إن شاء الله تعالى.

الطرف الخامس فيما كان عليه الأمر في الدولة الفاطمية بالديار المصرية وقد تقدم في الكلام على ترتيب المملكة أنه كان بها من وظائف أرباب السيوف الوزارة إذا كان الوزير صاحب سيف والنظر في المظالم وزم الأقارب ونقابة العلويين وزم الرجال والطوائف: كالأموية والحافظية والأفضلية وغيرهم ممن تقدم ذكره في ترتيب دولتهم وولاية الشرطة وولاية المعاون والأحداث وولاية الحماية وولاية حفظ الثغور والإمارة على الحج والإمارة على الجهاد وولاية الأعمال وغير ذلك.

ومن الوظائف قضاء القضاة والدعوة إلى مذهبهم: والنظر في الأوقاف والأحباس والنظر في المساجد وأمر الصلاة وغير ذلك.

وكانت كتابة ما يكتب لديهم لأرباب الولايات على نوعين: النوع الأول ما كان يكتب به عن الخليفة نفسه وكان من شأنهم أنهم يتعرضون في أثناء الولاية لإشارة الوزير بتولية المولى وثنائه عليه وربما أهملوا ذلك وكانوا يسمون جميع ما يكتب من ديوان الإنشاء سجلات وربما سموه عهوداً وعليه يدل ما كتبه العاضد آخر خلفائهم في طرة سجل السلطان صلاح الدين بالوزارة: هذا عهدً لا عهد لوزيرٍ بمثله على ما تقدم ذكره في الكلام على عهود الملوك.

ولهم فيها أربعة مذاهب: المذهب الأول أن يفتتح ما يكتب في الولاية بالتصدير وهو من عبد الله ووليه فلانٍ أبي فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان بالألقاب المنعوت بها من ديوان الخلافة ويدعى له بدعوتين أو ثلاثٍ ثم يقال: سلامٌ عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على جده محمدٍ صلى الله عليه وسلم وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ويؤتى من وصف الخليفة ومدحه بما يناسب المقام.

ثم هو بعد ذلك على ثلاث مراتب: المرتبة الأولى أن يقال بعد التصدير المقدم أما بعد فالحمد لله ويؤتى من التحميد بما يناسب تلك الولاية ثم يؤتى بتحميدةٍ ثانيةٍ وثالثة وتكون الثالثة متعلقةً بالنعم الشاملة لأمير المؤمنين ثم يقال: وإن أمير المؤمنين لما اختصه الله به من كذا وكذا ويذكر ما سنح من أوصاف الخليفة ويذكر أنه تصفح الناس وسبرهم فلم يجد من يصلح لتلك الولاية إلا هو ويذكر من صفته ما اتفق ذكره ثم يذكر تفويض الولاية إليه ويوصيه بما يناسب ويختم بالدعاء ثم بالسلام مع التفنن في العبارة واختلاف المعاني والألفاظ والتقديم والتأخير بحسب ما تقتضيه حال المنشئ وتؤدي إليه قريحته.

وهي على ضربين: وعلى ذلك كتب سجلات وزرائهم أصحاب السيوف القائمين مقام السلاطين الآن من لدن وزارة أمير الجيوش بدرٍ الجمالي وزير المستنصر: خامس خلفائهم وإلى انقراض دولتهم.

وقد تقدم منها ذكر عهدي المنصور: أسد الدين شيركوه بن شادي ثم ابن أخيه الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بالوزارة عن العاضد في جملة عهود الخلفاء والملوك حيث أشار في التعريف إلى عدهما من جملة عهود الملوك.

ومن أحسنها وصفاً وأبهجها لفظاً وأدقها معنى ما كتب به الموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء عن العاضد المتقدم ذكره بالوزارة لشاور السعدي بعد أن غلبه ضرغام عليها ثم كانت له الكرة عليه.

وهذه نسخته: من عبد الله ووليه عبد الله أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل سلطان الجيوش ناصر الإسلام سيف الإمام شرف الأنام عمدة الدين أبي فلان فلان.

سلامٌ عليك: فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على جده محمدٍ خاتم النبيين وإمام المرسلين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليماً.

أما بعد فالحمد لله مانح الرغائب ومنيلها وكاشف المصاعب ومزيلها ومذل كل عصبة كلفت بالغدر والشقاق ومذيلها ناصر من بغي عليه وعاكس كيد الكائد إذا فوق سهمه إليه وراد الحقوق إلى أربابها ومرتجع المراتب إلى من هو أجدر برقيها وأولى بها ومسني الخير بتيسير أسبابه ومسهل الرتب بتمهيد طرقه وفتح أبوابه ومدني نائي الحظ بعد نفوره واغترابه ومطلع الشمس بعد المغيب ومتدارك الخطب إذا أعضل بالفرج القريب مبدع ما كان ويكون ومسبب الحركة والسكون محسن التدبير ومسهل التعسير: " قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ".

والحمد لله الذي اختص أولياء أمير المؤمنين الأبرار بالاستعلاء والظهور وذلل لهم جوامح الخطوب ومصاعب الأمور وآتاهم من التأييد كل بديع مستغرب وأنالهم من كل غريبٍ إذا أورد قصصه أطرب ومكنهم من نواصي الأعداء وشملهم بعناياته في الإعادة والإبداء وضمن لهم أحمد العواقب وأرشدهم إلى الأفعال التي ثبتت لهم في صحائف الأيام أفضل المناقب وهداهم بأمير المؤمنين إلى ما راق زلاله وتم غاية التمام كما أنه كان لرضا الله سبحانه وحسن ثوابه مآله ويمدهم في المجاهدة عن دولته بالتأييد والتمكين ويحظيهم من أنوار اليقين بما يجلو عن أفئدتهم دجى الشك البهيم ويظهر لأفهامهم خصائص الإمامة في حلل التفخيم والتعظيم ويريهم والحمد لله الذي استثمر من دوحة النبوة الأئمة الهادين وأقامهم أعلاماً مرعدةً في محجة الدين وبين بتبصيرهم الحقائق وورث أمير المؤمنين شرف مقاماتهم وجعله محرز غاياتهم وجامع معجزاتهم وآياتهم وقضى لمن التحف بظل فنائه واشتمل بسابغ نعمه وآلائه وتمسك بطاعته واعتصم بولائه بالخلود في النعيم المقيم والحلول في مقام رضوانٍ كريم: " ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ والله ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ".

يحمده أمير المؤمنين على نعمه التي جعلته للبشر إماماً وأمضت له في المشارق والمغارب أوامر وأحكاماً وجرد من عزمه في حياطة دين الله عضباً مرهفاً حساماً واستخلص لإنجاد دولته من أوليائها أكملهم شجاعةً وإقداماً وأحسنهم في تدبير أمورها قانوناً ونظاماً وأتمهم لمصالح أجنادها ورعاياها تفقداً واهتماماً وأولاهم بأن لا يوجه عليه أحدٌ في حقٍ من حقوق الله ملاماً وأجدرهم بأن يحل من جميل رأي أمير المؤمنين دار سلام يلقى فيها تحيةً وسلاماً ويسأله أن يصلي على جده محمدٍ خاتم النبيين الذي أعلن بالتوحيد وجهر وغلب بالتأييد وقهر وأظهر المعجز البديع واستطال إعجازه وبهر وأطلع نور الإسلام واشتهر في المشارق والمغارب إشراقه وظهر وعلى أخيه وابن عمه أبينا علي بن أبي طالب سيف الله الذي شهره على الكفر وسله وكفله إعزاز الدين فأعظمه بجهاده وأجله وقرع بعزه صفاة الإلحاد فأزاله بعزه وأذله وقصد الأصنام وأرغم من استغواه الشيطان باتباعها وأضله وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الدين وهداة المتقين وموضحي سبيل الحق لأهل اليقين وموصلي الأنوار الدينية إلى بصائر المؤمنين صلاةً تتكرر وتتردد وتدوم مدى الأيام وتتجدد.

وإن أمير المؤمنين - لما اختصه الله به من المنصب الشريف وسما به إليه من المحل الشامخ المنيف وفوضه إليه من تدبير خلقه وأفرده به من اتباع أمره والقيام بحقه وناطه به من المحاماة عن الملة الحنيفية والاجتهاد في أن يشمل أهلها بالحالة السنية والعيشة الهنية وإعانته في إظهار شعارها وتأييده في إظهار علوها على الملك واقتدارها - يبذل جهده في الاستعانة بمن تقوم به حجته عند الله بالاعتماد عليه ويتوثق لنفسه في اختيار من يقوم برضا الله في إسناد الأمور إليه ويحرص على التفويض لمن يكفي في التدبير وتحيط غاية نظره بالصغير من رجال الدولة والكبير تقرباً إلى الله بالعمل فيما ولاه بما يرضيه وازدلافاً باتباع أمره في كل ما ينفذه ويمضيه.

وقد كان أمير المؤمنين تصفح أولياء دولته وعظماء مملكته وأكابر شيعته وأنصار دعوته فوجدك أيها السيد الأجل أكملهم فضلاً وأقلهم مثلاً وأتمهم في التدبير والسياسة إنصافاً وعدلاً وأحقهم بأن تكون لكل رياسةٍ وسيادةٍ أهلاً ففوض إليك في أمور وزارته وعول عليك في تدبير مملكته وجمع لك النظر فيما وراء سرير خلافته فجرت الأمور بمقاصدك السعيدة على إيثار أمير المؤمنين وإرادته واستمر أمر المملكة بمباشرتك على أحسن قانونه وعادته وشملت الميامن والسعود أتم اشتمالٍ على تفصيله وجملته وانحسمت الأدواء وذلت بسطوتك الأعداء وزالت في أيامك المظالم والاعتداء وحسنت بأفعالك الأمور وظهر بك الصلاح وكان قبل وزارتك قليل الظهور فانبسطت الآمال واتسقت الأعمال وأقمع الضلال وأمنت الأهوال وخلصت من الرأي السقيم وحظيت بالملك العقيم وغدا جندها ورعاياها ببركة رأيك في النعيم المقيم.

فلما رمقتك عين الكمال وألهب قلوب حسدتك ما أوتيته من تمام الخلال تكاثر من يحوك المكايد وتظافر عليك المنافس والمعاند ورنت إليك إساءة من عاملته بالإحسان وعدت عليك خيانة من ائتمنته أتم ائتمان وتم له المراد بوفائك وغدره وسلامة صدرك ومكره واتفاق ظاهرك وباطنك ومباينة سره لجهره فكان ما هونه في نفسه سلامة لنفس وأكبر الولد ومنح في إسداده نعماً لا تنحصر بعدد وأفظع ما كان فيه ما أصيب به ولدك الأكبر رضي الله عنه الذي أصيب وهو مظلوم ولو لم يصب لم يمتنع من

الأجل المحتوم فربحت بما نالك ثواباً واستفتح لك الحظ من النصر على الباغي باباً واغتصب الغادر ما لا يستحق ورآه أمير المؤمنين بصورة المبطل ورآك بصورة المحق وهدتك السعادة إلى العمل بسيرة الأنبياء في الانحياز عن الأعداء والتباعد عن أهل الغي والاعتداء فانسللت من الغواة انسلال الصارم من غمده وتواريت من العتاة تواري النار في زنده وقطعت المفاوز مصاحباً للعفر والعين حتى حللت بربوةٍ ذات قرارٍ ومعين وإن أمير المؤمنين يمدك في ذلك بدعائه ويعدك لتدبير دولته وقمع أعدائه ورآك وإن أبعدتك الضرورات عن بابه وأناتك الحادثات عن جنابه أنك وزيره المكين وخالصته القوي الأمين الذي لا ينزع عنه شمس وزارته ولا يؤثر له غير سلطانه ومملكته.

ولما وجهت إلى أعمال أمير المؤمنين بمن استصحبته راجياً من عدوك الانتصار قاصداً إدراك الثار وحللت بعقوته وخيمت في جهته فاتصلت بينكم الحروب وعز على كلٍ منكما نيل المطلوب - أنجدك أمير المؤمنين عند علمه ببلوغ الكتاب أجله واستيفاء الوقت المحدود مهله بإظهار ميله إليك وميله عن ضدك وأن قصده مباينٌ لقصد المذكور موافقٌ لقصدك فسبب ذا نصرك وخذلانه وتقويتك وإيهانه ولأمير المؤمنين في حالة عناية تسعدك ورعايةٌ تؤيدك.

فحين عدت إلى بابه عود الشموس إلى مشارقها قبلك أحسن قبول وتلقاك بتبليغ السول وكشف الغطاء عما كان يسره إليك ويضمره ويريده بك ويؤثره وجدد لك ما كنت تنظر فيه من الوزارة ومباشرة ما كان مردوداً إليك من السفارة والظهارة: لأنك أوحد ملوك العصر كمالاً وأوسعهم في حسن التدبير مجالاً وأشرفهم شيماً بديعةً وخلالاً وأصلحهم آثاراً وأعمالاً وأتمهم سعادةً وإقبالاً وأكثرهم تقيةً لله تعالى وما زلت للمفاخر جامعاً ولراية المجد رافعاً ولذى العلاء والسناء فارعاً تزدان العصور بعصرك وتتجمل الدنيا ببقاء نهيك وأمرك وتتعجب الأفلاك العلية من سعة صدرك وتتضاءل الأقدار السامية لعظيم قدرك وكم لك من منقبةٍ تجل أن يكيفها بديع الأقوال وتعظم أن يتمناها بديع الأقوال فالدولة العلوية بتدبيرك مختالةٌ زاهية وأركان أعدائها وأضدادها بحزمك وعزمك واهية وسعادات من تضمه وتشتمل عليه متضاعفةٌ غير منقطعةٍ ولا متناهية ولم تزل للإسلام سيفاً قاطعاً ماضياً وعلى الإلحاد سيفاً مرهفاً قاضياً تذود الشرك عن التوحيد وتصد الكفر عن الإيمان فيحيد مرغماً ويبيد وكم لك في خدمة أئمة الهدى من مأثرة تؤثر فتبهج ويورد ذكرها فيغري بالثناء عليك ويلهج وتبذلك في طاعتهم النفس والولد وتنتهي في مناصحتهم إلى الأمد الذي ليس بعده أمد فلذلك فزت بدعواتهم التي أعقبتك حسن العواقب وأحلتك المحل الذي لا تسموا إلى رقيه النجوم الثواقب فإذا رفعك أمير المؤمنين إلى منزلةٍ ساميةٍ وجد محلك لديه عنها يجل ويسمو وإذا خصك بفضيلةٍ ما صادف استحقاقك عنها يرتفع ويعلو وإذا استشف خصائصك وجدها بديعة الكمال يمتنع أن يدرك مثلها بحرص ساعٍ أو ينال وقد توافقت الخواطر على أنك أوحد وزراء الدولة العلوية ظفراً ونظراً وأحسنهم في طاعتها ومخالصتها أثراً وأفضلهم خبراً وأطيبهم خبراً وقد جدد لك أمير المؤمنين اصطفاءك لوزارته واجتباءك لتدبير مملكته وجعلك الفرد المشار لك في دولته.

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين من هذه المهمات الجسام وتسنم ما وطده لك من هذه الرتب العظام وتلق آلاءه بما يثبتك في جرائد الأبرار ويمنحك مصاحبة التوفيق في الإيراد والإصدار وباشر ما ناط إليك من كبير الأمور وصغيرها وجليل الأحوال وحقيرها وابسط يدك في تدبير دولته وأنفذ أوامرك في أرجاء مملكته واعن بما جعله لك من تدبير جيوشه الميامين وأوليائه المتقين وكفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين ورب أحوال جنوده ورعاياه أجمعين واعمل في ذلك بتقوى الله الذي ما برحت لك دأباً وطريقة وشيمة وخليقة وبها النجاة من النار والسلامة في دار القرار والفوز بمعنى الخلاص في يوم المناقشة والقصاص فالعارف من مهد بها مقامه في الآخرة تمهيداً وأحرز بها من الثواب في الآخرة مزيداً بقول الله في الكتاب الذي جعله في الإعجاز فريداً: " يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ".

وراقب الله فيما ألقاه إليك فقد فوض إليك مقاليد البسط والقبض والرفع والخفض والولاية والعزل والقطع والوصل والتولية والتصريف والصرف والإمضاء والوقف والغض والتنبيه والإخماء والتنويه والإعزاز والإذلال والإساءة والإجمال والإبداء والإعادة والنقص والزيادة والإنعام والإرغام وكل ما تحدثه تصاريف الأيام وتقتضيه مطالب الأنام فهو إليك مردود وفيما عدق بنظرك معدود.

وأما العدل ومد رواقه وإقامة مواسمه وأسواقه والإنصاف واتباع محجته والاعتماد على أحكامه وأقضيته وكف عوادي الجور والمظالم وحمل الأمر على قصد التصاحب والتسالم وإظهار شعار الدين في إنصاف المتداعين إلى الشرع المتحاكمين والدعوة الهادية وفتح أبوابها للمستجيبين وإعزاز من يتمسك بها من كافة المؤمنين والأموال والنظر فيها والأعمال أقاصيها وأدانيها فكل ذلك محررٌ في تقليد وزارتك الأول وأنت أولى من حافظ على العمل به وأكمل.

وأما أمراء الدولة الأكابر وصدورها الأماثل وأمراؤها الأعيان وأولياؤها الذين بسيوفهم تقام دعائم الإيمان فأنت شفيعهم في كل مكان ومعينهم الذي يبذل جهده بغاية الإمكان والجاهد لهم في النفع والصلاح والحريص على دفع ما يلم بكلٍ منهم من الضرر والاجتياح وما زلت لهم في الأغراض بحضرة أمير المؤمنين مساعداً وعلى ما يبلغهم الآراب حريصاً جاهداً وتخصهم دائماً بعنايتك وتمدهم برعايتك وتعمل لهم في الحاجات صائب رأيك فأجرهم على ما ألفوه من الاعتناء والإجمال وبلغهم من محافظتك نهايات الآمال فهم أبناء الملاحم ومصطلو لهب الجمر الجاحم ومصافحوا الصفاح المرهفة الضروب وملاعبو الرماح العاسلة ذات الكعوب وأمير المؤمنين يعلم أنك بفضل فطرتك وثاقب فطنتك وما ميزك الله به من قديم حنكتك وتجربتك تغنى عن الوصايا وتنزه عن توسيع الشرح في القضايا وإنما أورد لك هذا النزر منها على جهة التيمن بأوامر الأئمة والتبرك بمراسيم هداة الأمة والله يحقق لأمير المؤمنين فيك الأمل ويوفقك في خدمته للقول والعمل ويعينك على إصلاح دولته واغتنام فرص طاعته وبذل الجهد والطاقة في مناصحته والاجتهاد في رفع منار دعوته ويؤيدك على أعداء مملكته ويرشدك إلى العمل بما يسبغ عليك لباس نعمته فاعلم هذا من أمير المؤمنين ورسمه وانته إلى موجبه وحكمه إن شاء الله تعالى.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته والتحميد.

وعلى ذلك كتب الموفق بن الخلال أيضاً عن العاضد بولاية ابن شاور السعدي نيابة الوزارة عن أبيه وتفويض الأمور إليه وهذه نسخته: من عبد الله ووليه بألقاب الخلافة إلى فلان بالنعوت اللائقة به.

سلامٌ عليك إلى آخر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على نحو ما تقدم في سجل الوزارة لأبيه.

أما بعد فالحمد لله مؤيد الحقائق بأفضل الأنصار ومعز الممالك بأكمل ذوي النفاذ والاستبصار وجاعل الولد البار لوالده ركناً وسنداً والنجل المختار لناجله نجدةً ومدداً مرتب الممالك على أفضل نظامها ومرقي الدول إلى المؤثر من إجلالها وإعظامها: ليتضح للمتأملين فضل تأكد الأواصر ويستبين للناظرين فصل تباين العناصر إبراماً منه - جل وعز - لأسباب الحكمة وتوسيعاً لسبيل الحنان والرحمة وشمولاً لما يتتابع به إحسانه من المن الجسيم " فَضْلاً منَ الله ونِعْمَةً وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ".

والحمد لله معلي الدرجات ورافعها ومفيد الأمم ونافعها ومزيل البأساء ودافعها ومجيب الدعوات وسامعها ومضاعف المصالح وجامعها الذي وقف على الدولة العلوية أحسن السير وخصها فيمن تؤثر اصطفاءه بمساعدة القدر ويسر لها رائق التدبير بعد ملابسة الرنق والكدر وادخر لها من الأصفياء من تشرق الدنيا بأنواره وتزين الدهور بمحاسن آثاره وتسمو المفاخر بمفاخره ويتوالى الثناء على ما ابتكره من المكارم في أول نشئه وآخره ويتتابع الإحماد لمن يختاره ويجتبيه وتتضاءل أقدار الملوك إذا ذكر فضله وفضل أبيه وتسكن النفوس إلى تمام ورعه ودينه وينطق لسان الإجماع بصحة معتقده ويقينه.

والحمد لله الذي شمل البرايا فضله وعم الخلائق عدله وأقرت العقول بأن إليه يرجع الأمر كله.

يحمده أمير المؤمنين على نعمه الظاهرة التي أحظت دولته الظاهرة بمؤازرة البيت الجليل الشاوري وأيدت مملكته القاهرة بمحاماته عن حوزتها بالعضب المرهف والسمهري ويشكره على مننه التي استخلصت له منه أنصاراً يرهفون في طاعته العزائم ويحقرون في إرادته العظائم فيذبون عن حوزته ولا يخافون في ذات الله لومة لائم ويسأله أن يصلي على جده محمدٍ الداعي إلى الهدى والمبعوث إلى الخلائق وهم إذ ذاك سدى والمناضل في نصرة الإسلام بالأسرة والآل والمطرح عاجل الدنيا الفانية لآجل المآل وعلى أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي أقام من دين الله منكر الأود وقام لنبي الله مقام النجل المرتضى والولد وقط من طواغيت الكفر شامخ الهام وأوضح غامض التنزيل بما أفرده الله به من مزايا الإلهام وعلى الأئمة من ذريتهما أبناء الرسالة والإمامة والمختصين بإرث بيته المحبو بتظليل الغمامة والقائمين بنصرة الدين والمتفردين بإمرة المؤمنين.

وإن أمير المؤمنين لما أقامه الله له من تمكين قواعد الدين واختاره لإيضاحه من إرشاد فرق المسلمين وأفضى به إليه من سر الإمامة المكنون وألقاه إليه من خفايا الإلهام الذي تستنبط من أنوارها علة ما كان ويكون وأمده من التأييد الذي يستأصل طواغيت النفاق بقوارع المهالك ويسلك بمردة أهل العناد أوعر السبل والمسالك وأنجده في كل الحالات بالألطاف الخفية التي تتكفل بإعلاء كلمته وتتضمن نصر أعلامه ونشر دعوته وآتاه جوامع المعارف والحكم وفرض طاعته على من دان بالتوحيد من جميع الأمم وألزم مقاصده وأنحاءه التوفيق وأوجب لها السعادة في كل جليلٍ ودقيق يفوض أمره إلى الخالق ويفيض جوده وبره في الخلائق فلا يزال لأحوال دولته مراقباً ولا ينفك يفيد كل ما يتعلق بها نظراً ثاقباً فإذا لاحت له لائحة صلاح أو بدت

لنظره مخيلة نجاح اجتهد في توسيع مجالها وحرض على حثها وقصد إعجالها والتمس للدولة اجتلابها وفتح إلى استدعاء النفع بابها: لينمى الخير العميم في دولته ويتضاعف النفع الجسيم لرعيته وتكون كافة الخلق فيها بالأمنة والسكون مغمورين وبحسن صنيع الله بهم فرحين مسرورين.

ولما تصفع أمير المؤمنين أحوال دولته وتأملها تأمل من يؤثر أن يفقه الفحص في كل مهم على حقيقته رأى أن الله جل وعلا قد منح أمير المؤمنين من خالصته وصفيه ووزيره وكافيه ووليه السيد الأجل بالنعوت والدعاء الذي قام بنصرته وكفل أهوال الحروب بنفسه وأولاده وأسرته وحالف التغرب والأسفار واستبدل من لين العيش بملاقاة السهام واللهاذم والشفار واتخذ ظهور الجياد عوضاً من الحشايا ومنازلة الأبطال دأباً في الحنادس والبكر والعشايا وآثر على لبس الغض المونق الجديد لباس اليلب ولأمات الحديد ولازم في ذات الله قرع أبواب الحتوف والتهجم على كل مخشي مخوف حتى ذلل الأعداء وقمع الاعتداء وحسم الأدواء وألزم الدهر بعد خطئه الاستهواء وأفاد دولة أمير المؤمنين باجتهاده عزاً وادخر لها عند الله من الأجر والمثوبة كنزاً وسير عنها في الآفاق أحسن الأحاديث وبين فضلها على غيرها في القديم من الدهر والحديث وأخلص لأمير المؤمنين في الطاعة حتى استخدم الموالي الموافق والمباين المنافق وكمل فضائله التي لا تحد ومحاسنه التي لا تنحصر ولا تعد بفضيلةٍ تفوت الفضائل ومنقبة تفوق بفخرها المناقب الجلائل: وهي ما وجهه الله له من بنوة الأجل فلان الذي لم يزل للدولة عزاً حاضراً ووليّاً ناصراً وعوناً قاهراً ومجداً ظاهراً وجمالاً باهراً.

وما برح الله - جل وعلا - مراقباً ولرضاه وغفرانه طالباً قد جمع إلى كمال الدين وصحة اليقين المخالصة في طاعة أمير المؤمنين لا يفتر منذ مدة الطفولية عن درس القرآن ولا يباري بغير الأمور الدينية نجباء الأقران إن تصفحت محاسنه الدنيوية عد ملكاً مهذباً وإن تأملت مناقبه الدينية حسب ملكاً مقرباً وكم له من منقبة تستنقص الغيوث وشجاعة تستجبن الليوث ومهابةٍ ترد أحاديثها الجيوش على الأعقاب وتغريها بموالاة الحذر والارتقاب إذا أسهبت الخطوب أوجز تدبيره وإذا استطالت الحوادث قصر طولها فأعب تقريره فالدولة العلوية من ذبه في الحرم الآمن والخلافة العاضدية من ملاحظاته في تدبيرٍ يجمع أشتات الميامن فاجتماع المآثر قد وحده بشهادة الإجماع وتوالي المحامد قد أفرده بما شاع منه في الممالك وذاع تتحاسد عليه غر الأخلاق وتتنافس فيه المكارم منافسة ذوات الإشراق فلا توجد خلة فضلٍ بارع إلا وقد جمعها ولا مكنه جبر قارع إلا وهو الذي مهد محجتها ووسعها ومقاماته في الجهاد والجلاد مقاماتٌ أوضحت الحقائق للأفهام وثبتت الدقائق تثبيتاً يبقى على غابر الأيام وأعزت دعوة الدولة العلوية وأيدتها ونصرت أعلامها ونشرتها وأكتنفت بالتفضيل والإحسان رجالها وأزالت بالجد والتشمير أوجالها ومحت آثار عداتها بالسيوف وألفتهم عن النكايات المجحفة بوزع المنايا والحتوف.

والحروب فمرباه في مهودها ومنشاه بين أسودها ورعاتها وقفٌ على إضرامها وإخماد وقودها فإذا توردها توردها باسماً متهللاً وإذا اقتحم مضايقها تصرف فيها متوقفاً متمهلاً لا يحفل بأهوالها ولا يرى لقارعةٍ من عظائم قوارعها وآلها وحسبك فتكاته في طغاة الكفار وقصد أولياء الدولة بالإظهار: فإن الكفار حين نهدوا للنفاق واجتلبوا أشباههم من بعيد الآفاق وتهجموا على الأعمال فجأهم بعزمة من عزماته أقامت راية الدين وجعلتهم حصيداً خامدين وأفنت منهم الصناديد واصطلمتهم ببلايا تزيد على التعديد واجتحفتهم بالقتل والأسر والتفريق ورمتهم بدواهٍ لا يقدر بشريٌ على دفاعها ولا يطيق ولما التجأ طاغية الكفر إلى الحيرة وركد ورام الاعتصام بعروتها واجتهد واغتر بما معه من الجمع وكثرة العدد نهد إليه في الأبطال الأنجاد ونهض نحوه ثابتاً للقراع والجلاد فأزاله عن مجثمه وذعره ذعراً شرده عن معلمه ورماه بالحراك بعد السكون والتعب الذي قدر باغتراره أن مثله لا يكون وكم له فتكةٌ وعند تمادي عتاة الكفار في الإصرار وجوسهم خلال الديار ونفثهم في وجوه الأذى والإضرار وطمعهم في اجتياح أهل الأعمال والأقطار عول أمير المؤمنين في استئصالهم على عزمه واعتضد بذبه وحسمه وجعل إليه التدبير بالقاهرة المحروسة التي هي عمدة الإيمان والإسلام ودار هجرة الإمام ومعقل الخلافة منذ غابر الأيام وأطلق يده في رب جميع الأعمال وتأمينها من بوائق الأوجال فبث بالحضرة وبالأعمال من مهابته ما شرد الأوغار وسهل الأمصار ومحق الضلال وأذاقهم النكال فعم السكون والأمنة واستولت على الأعمال السياسة المستحسنة فحادت بنضرة الأيام وصلاح الوجود واغتبطوا من تدبره بصعود الجدود ورتعوا من عنايته في عيشٍ يضاهي عيش جنان الخلود فالبلاغات بأسرها لا تقوم بمدح ما أوتي من الفضائل ولا يوازي مجموعها منقبةٌ من مناقبه التي أربى بها على الملوك الأواخر والأوائل والخصائص الملوكية بجملتها فيه جبلة وفطرة وإذا قيست نادرةٌ من نوادر فضله بما تفرق في جميع الملوك كانت فضائله بمنزلة البحر ومجموع فضائل الملوك بمنزلة القطرة وقد طرز فضائله البديعة وخلاله السامية الرفيعة من موالاة أمير المؤمنين ومناصحة دولته بما تكفل بسعادة الدنيا والآخرة ونهايات مغانم الثواب الشريفة الفاخرة فليله ونهاره مصروفان إلى المجاهدة عن دولة أمير المؤمنين التي هي دولة التوحيد والمخلص فيها معرض لكل مقامٍ سعيد فمحاسنه ترتفع عن قدر ولما أحمد أمير المؤمنين أثرهما في خدمته وشكر قصدهما في دولته وكان السيد الأجل قد بلغ إربه في الخلال وحل المحل الذي لا تتعاطاه جوامح الآمال وقدره يشرف عن كل تكريم وموضعه يتميز عن كل منٍ جسيم ومنزلته تسمو عن كل تعظيم - فأوصى

أمير المؤمنين السيد الأجل أن يقرر له جميع خدمه ويسبغ عليه في المستأنف أضفى نعمه: فإن محله يرتفع عن محل الخدم الجليلة ويسمو عن كل تصرف يسمه في الدولة بسمة جميلة ورأى أمير المؤمنين والسيد الأجل أن يعلن بإسناد النيابة عن والده في أمور المملكة إليه ويشهر أن ذلك معولٌ فيه عليه: ليخفف عن السيد الأجل أمير الجيوش أمر أثقالها ويتحمل عنه تكليفه بعض أحوالها ترفيهاً للسيد الأجل عن التعب وتخفيفاً من كثرة النصب على أن علو قدره الأجل لم يخله في وقتٍ من الأوقات من مشاركةٍ في التدبير ولا صده عن ممازجةٍ في مهمٍ كبير بل ما برحت يده في جميع أحوال الدولة جائلة وجلالة منصبه تقضي بأن تكون تصريفاته لجميع الأمور شاملة وتوقيعاته ماضية في الأموال والرجال والجهات والأعمال وأمير المؤمنين والسيد الأجل يستسعدان بأداته ويتتبعان في كل السياسات ما هو موافقٌ لإراداته: لما خصه الله به من المرامي الصائبة والمقاصد التي السعادة على ما يرد منها مواظبة وجبله عليه من المحافظة على حسن المرجع وحميد العاقبة - خرج أمر أمير المؤمنين إلى السيد الأجل بالإيعاز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك: فتقلد ما قلدته من النيابة عن والدك فيما إليه من أمور مملكته وأحوال دولته معتمداً على تقوى الله التي بها نجاة أهل اليقين وفوز سعداء المتقين لقول الله عز من قائل: " يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين ".

واحمل عن السيد الأجل والدك ما يؤثر أن تحمله عنه من الأثقال وتكفل ما يكلفك إياه من الأشغال ونفذ ما يختار أن تنفذه وأنجز ما يؤثر أن تنجزه وأمض ما يشير إليك بإمضائه من أساليب التوقيعات وفنون المهمات وقم في كل من أمور نيابتك المقام الذي يرضيه ويوجبه برك ويقتضيه وقد جعلك الله ميمون النقيبة مسعود الضريبة مكمل الأدوات مؤهلاً لترقي الغايات لا تكبر عن مباشرتك كبيرة ولا تشف عن رتبتك رتبةٌ خطيرة واجر على عادة والدك في حسن السياسة والتدبير والإجمال للأولياء لكما في كل صغيرٍ من الأمور وكبير.

والوصايا متسعة الفنون كثيرة الشجون ولك من مزية الكمال وفضيلة الجلال ومساعدة الإقبال والخبرة بالجهات والأعمال وطوائف الأولياء والرجال ما يعينك على استنباط دقائقها والعمل بحقائقها وسلوك أحسن طرائقها.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عليك فاعمل بأحكامه وأجر أمورك على نظامه وبالغ أيها السيد الأجل أمير الجيوش في شكر نعمة الله التي ألهمت الملوك إشاعة فضلك ورتبت السعود على اكتناف عقدك وحلك ومنحتك آية كليم الله فجعلت لك وزيراً من أهلك فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وعلى ذلك كتب بعض كتابهم عن العاضد لرزيك بن الصالح طلائع بن رزيك بولاية المظالم وتقدمة العسكر في وزارة أبيه وهذه نسخته: من عبد الله ووليه فلانٍ أبي فلان الإمام الفلاني بلقب الخلافة أمير المؤمنين إلى فلان بلقبه وكنيته.

سلامٌ عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على جده محمدٍ صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فالحمد لله الغامر بالطول والفضل الآمر بالإحسان والعدل موسع سبل الصلاح لبريته ومسبب أسباب النجاح لدينه الحنيف وملته وجاعل أبرار أوليائه ذخائر معدةً لنفع الخلق ومصطفي سعداء أحبائه لإعلاء منار الشرع وإقامة قسطاس الحق وميسرهم للنهوض بالأعباء التي تتكفل بعضد الدولة العلوية وتقوم ومجتبيهم للفضل بمرضاته فيما يقضي بإغاثة الملهوف وإنصاف المظلوم الذي تنقاد بمشيئته الأمور وتتصرف بإرادته الدهور ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ويغدو فضله على عباده جسيماً و " لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ويُؤْتِ من لَدُنْه أجراً عظيماً ".

والحمد لله الذي أوضح بأنبيائه سبل الهدى للأنام وأنقذ بإرشادهم من عبادة الأوثان والأصنام وأقام باجتهادهم أحكام ما شرعه
قفى على آثارهم ن لا نبوة بعد نبوته ولا

البارعة وناصراً يحاول في الذب عن حوزته عزماً أمضى من السيوف القاطعة وعضداً يقوم له بإرضاء الخالق والمخلوق ومسعداً لا يألو جهداً في إيصال المستحقين إلى ما جعله الله لهم من الحقوق.

ويسأله أن يصلي على جده محمدٍ سيد من بلغ عن الله رسالةً وأمراً وأفضل من دعا إلى توحيد بارئه سراً وجهراً وأكمل من جاهد عن دينه حتى ظهرت بعد الدروس جدته وقهرت إثر الخضوع عزته وانتشرت في المشارق والمغارب كلمته ودعوته صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أبينا علي بن أبي طالب قسيمه في الشرف والأبوة وصديقه الأكبر فيما جاء به من النبوة والمكمل بالنص على إمامته الدين وخامس الخمسة الذين سادسهم الروح الأمين وأبي الأئمة الأبرار والهازم بمفرده كل جيش جرار وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام محجة الهدى وأنوار سبل الإيمان التي بأنوارها يستبصر ويقتدى وأدلة منهاج النجاة وكاشفي غمم الشك إذا الظلم دجاه وسلم ومجد وتابع وردد.

وإن أمير المؤمنينلما اصطفاه الله له من إرث سر الإمامة المصون المكنون وحق بياته العظيم الذي بالخشوع لجلاله أفلح المؤمنون واختاره له من نشر لواء الحق ونصره وتأكيد أحكام الإنصاف ليحظى بعائدتها كافة أهل زمنه وعصره وألبسه إياه من تاج خلافته الذي أشرق لبصائر العارفين نوره الساطع وتجلى لأفهام الموقنين برهانه الصادع ودليله القاطع وأودعه من خفايا الحكم التي عذب سلسبيلها وبلغ إلى النعيم الخالد دليلها وسبيلها وكمله لأيامه من الإقبال الذي جعلها مواسم زاهيةً بهجة النصر المبين وأعياد ظفرٍ تروق بتوالي إبادة العادلين عن الطاعة الناكبين وأوقاتاً سعيدةً تفيد الدين وأولياءه عزاً واعتلاء وتوجب للإيمان وأنصاره اقتداراً واستيلاء وتسبغ عليهم كيفما تصرفت بهم الأحوال مناً ضافيةً وآلاء ويسره لعلمه من الإحاطة بكل مغيب مستور وأوجبه لأغراضه في كل ما يرومه من مظاهرة المقدور ومهده لحلوله من أشمخ منازل التطهير والتقديس وشرف به شيمه من كل خلق نبوي بارعٍ نفيس وفضله به من الكرم الذي لا تزال سحبه تجود الأمم سرفاً ولا تنفك غيوثه تجد لمن مطر به علاءً وشرفاً ولا برح وابله يعم بالنعم الغر الجسام ولا تكف سيوبه عن إفاضة المنن التي علت وغلت فلا تسامى ولا تسام وخص به إحسانه من المثابرة على إعظام المنائح للمستوجبين والمحافظة على إجزال المواهب للمزدلفين إليه بالأعمال الصالحة المتقربين يجهد آراءه في ارتياد من تتضاعف للبرية بالاستعانة بكماله أسباب المصالح وتتأكد للأمة بالتعويل على بارع فضله أحكام النجح والمناجح وتقوم الحجة عند الله بالاعتضاد به فيما يقضي بنفع العباد ويسهل الاعتماد على ديانته بالنصح لله في الحاضر من بريته والباد وينطق شرف خلائقه بتوفره على إحراز مغانم البر والتقوى وتعرب طرائقه عن السعي الذي لا يقف في مرضاة ربه دون بلوغ الغاية القصوى وتدل أحواله على رعاية حقوق الله سبحانه في كل ما يفعل ويقول وتوضح أخباره حسن تأتيه في مصالح الأمم لما يعجز عن استنباطه رواجح العقول ويقتدح نظره أنواراً يستضاء بها في طرق السياسات الفاضلة ويفتتح فكره أبواباً تضحى بها الخليقة غلىالخيرات الكاملة واصلة ويبعثه حسن جبلته على أن يحتقر في إعانة البرايا عظائم المشاق ويدعوه كرم سجيته إلى أن يحنو على الرعايا حنو من يتوخاهم بالرحمة والإشفاق ويقوى بإعانته المستضعف قوةً تحصنه من عدوى الاهتضام ويعز بملاحظته المستذل عزةً تخرجه عن صورة المقهور المستضام ويقتفي الآثار الصالحية في عدل الطباع وحسن الشيم ويتبع السنن الغياثية في الإحسان إلى جميع الأمم ويقصد في اللطف بالصغير والكبير قصدها وينتحي نواجم الباطل فيعتمد اجتثاثها وحصدها ويكون تفويض أمير المؤمنين إليه توثقاً عند خالقه وباريه واحتياطاً لنفسه في استناد المهمات منه إلى من لا يدانيه مدانٍ ولا يباريه وتتيمن الدولة العلوية بمباشرته للأحوال تيمناً يؤذن لها بإدراك كل مطلب بعيد وتستسعد بحسن سيرته استسعاداً يقضي للمناجح بتمكينٍ تبدي فيه وتعيد وتختال الأيام بما اجتلته من جواهر مفاخره وتزدان الأزمان بما توشحته من مناقبه التي حقرت الملوك في أول الدهر وآخره.

وقد اكتنفتك أيها الأجل عنايات الله سبحانه واشتملت عليك وتتابعت مواد اصطفائه واجتبائه إليك وأنالتك من كل فضل بارع غايته وأظهرت فيك لكل كمال رائع آيته وجمعت لك من معجزات المحاسن ما لولا مشاهدتك لوجب استحالة جمعه ولأنكر كل متدبرٍ صدر حديثه عن صدر صدره أو ورود سمعه ويسر لك تمام السعد والإقبال الترقي إلى ذروة العلى التي يهاب النجم أن تمر ملاحظتها منه ببال وتأنقت الحظوظ في إعظام ما خولتك من الفضائل الباهرة فبالغت وتناهت وأغرقت فيما أتحفتك به من المحاسن النادرة فشرفت بك وتباهت حتى غدا جسيم ما قدم شرحه من الثناء وذكره وعظيم ما وجب منه نشره فتضوع أرجه ونشره نغبةً من بحارها الزاخرة وشذرةً من عقودها الفاخرة وقليلاً من كثيرها الجسيم وضئيلاً من جزيلها الذي استكمل خصائص التعظيم.

واستثمر فأنت الجامع لمفترق الفضائل الملكية والفارع ذرى الجلال الذي أفردتك به المواهب الملوكية والممنوح أعلى رتب السيادة السارية إليك من أكرم الأصول والملموح بارتقاء هضاب المجد التي عجز ملوك الآفاق عن الانتهاء إليها والوصول والأوحد الذي بذ العظماء فعظم خطراً وقدراً والأروع الذي انقادت له الصعاب فرحب باعاً وصدراً والعالم بالأمور الذي

أصلح أعلم ملوك الأرض بأحسن التدبير وأدرى والمذكي بأنوار ذكائه في عاتم النوب سراجاً وهاجاً والمشمر في ذات الله فلا يوجد له على غير ما أرضاه معاجاً والمبتكر من غرائب السياسات ما لا تزال محاسنه على مفرق الزمن تاجاً والممجد اللهج بتمجيده كل مقول ولسان والمعجز كل متعاطٍ وإن كان بليغاً بديع الإحسان والممنوح المعرق في السيادة والمملكة والمبتدع المكارم أبكاراً تجل عن أن يشابهه أحدٌ فيها أو يشركه فآيات مجدك ظاهرةٌ باهرة وغر خلائقك في اختراع المآثر وافتراعها ماهرة وإليك إيماء السعادة وإشاراتها والدسوت باعتلائك مناكبها تسامي السماء أرجاؤها ويتحقق في البحر الأعظم بتصدرك فيها رجاؤها فلا كمال إلا ما أصبح إليك ينسب ولا جلال إلا ما يعد من خصائصك ويحسب ولم تزل لربك خاضعاً ولشرفك متواضعاً وأنوار الألمعية توضح لك من طرق الأمانة ما يعجز عن إدراكه قوي التجريب وتحكم لك من أحكام السياسة ما تقصر عن أقله فطن الحكماء الشيب وتبدي لك أسرار الأزمنة المتطاولة في إقبال سنك وتلين بتلطفاتٍ صلابة الخطوب مع نضارة غصنك وما برح لذكر أخبار صولتك وحديث ما عظمه الله من فروسيتك وشجاعتك يوفر حلوم الأبطال في الملاحم إذا أطارها الذعر فطاشت ويسكن نفوس الأنجاد في الملاحم إذا أطارها الذعر فجاشت ويحدث للجبناء جرأةً وإقداماً ويجعل الكهام في الحروب ملقاً حساماً فخيلاء الأعوجية زهو مما ترقبه من شرف امتطائك وصليل المشرفية ترنم بمطرب قصصك وأنبائك واهتزاز السمهرية جذلٌ بما كفلتها من إشادة علائك وضمنتها من إبادة أعدائك وليس بغريبٍ من تفضل الأملاك وتطأ أخامص السماك وتختال في وشي الوصف البديع وتشرق أسرة محاسنك فتخجل ضوء الصبح الصديع وقد أكرمك الله مع فضل الخليقة والفطرة وكمال الخصائص التي غدا كلٌ منها في بديع المعجزات ندرة ببنوة مغيث الأنام ومصلح الأيام وكفيل أمير المؤمنين وكافيه ومبرئ ملكه من أسقام الحوادث وشافيه السيد الأجل الملك وتتمة النعوت والدعاء الذي انتضاه الله لكشف الغمم وارتضاه لتدبير الأمم وفضله على ملوك العرب والعجم وشمخ علاؤه فتطامن له كل علي ودان وسمت مواطئ أقدامه فتمنت منالها مواطئ التيجان وحاز بالمساعي الفضل الباهر أجمع واستولى على بواهر الحكم بالنظر الثاقب والقلب الأصمع وأفرد بكمالٍ عز أن تدركه الآمال أو يكون لاشتطاطها فيه مطمع أو مجال وغدا النصر المبين تابعاً لعذب ألويته وحسن إقباله في كل موطن كفيلٌ بإدبار العدو وتوليته وأجاب داعي الله إذ استنصر لآل بيت النبوة واستصرخ ولبى دعاءة تلبيةً تسطر أخبارها على ممر الزمان وتؤرخ وأجلى شياطين الضلال وقد تبعت في زعيمها الجاحد وثنا وصدها بالعزم المرهف عما أصرت عليه من منكر الإلحاد وثنى وبدلت سطاه جبابرة الطغاة من الأوطان بعداً وسحقاً وأمتعتهم فتكاته من الأعداء الوافرة إفناءً وسحقاً وأذاقتهم حملات جيوشه وبال أمر من عاضد باطلاً وعاند حقاً وجعلتهم شفار سيوفه الباترة في التنائف حصيداً وقصد بمواضيها أشلاءهم ودماءهم فألجم غروبها وسقى وكشف بلوامعها عن الدولة الفاطمية من معرتهم جنحاً عاتماً وغسقاً وكفل أمورهم فأحسن الإيالة والكفالة وأعادها إلى أفضل ما تقدم لها من القوة والفخامة والجلالة ونظر أحوالها فقوم كل معوج وعدل كل مائل وحباها ملبس ولما أباد عصب العناد عطف على الاجتهاد في الجهاد فجابت جحافله متقاذف الأقطار ونالت من الفتك بالكفرة في أقصى بلادها نهاية الأوطار وانتزعت منهم الحصون واستباحت الممنع المصون حتى أصارت جلدهم المشهور فشلاً وفيض إقدامهم المذكور وشلاً وشمل الأمة بسيرةٍ عرفت بالعدل والإحسان وأحظت الخلائق بالأمن المديد الظلال وأرضتهم بالعيش الرائق الزلال وأنالتهم من المطالب ما اتسعت لإدراكه خطا الآمال وجاد ففضح الغمائم ومن على ذوي الذنوب حتى كاد يتقرب إليه بالجرائم وأقال عثراتٍ كبرت فلولا كرم سجيته لم يرم الإقالة من خطرها رائم وأمده الله من معجزات البلاغة والبيان وغرائب الحكم البديعة الافتنان ما يستخف الأحلام بفرط الطرب والإفتان ولم يزل منذ كان يحمي سرح الدين ويضم نشر المؤمنين ويبذل نفسه الشريفة في نصرة الدولة العلوية بذل أكمل ناصرٍ وأفضل معين وتكبر عظائم الخطوب فيكون عزمه أعظم وأكبر وتزهى الأيام بغر محاسنه وهو لا يزهى ولا يتكبر فقد عز جانب كماله عن أن يناهضه جهد المديح وارتفع محل جلاله فلا ينال تكييفه بإشارةٍ ولا تصريح وعظم قدر مفاخره فلم يقابل إلا بموالاة التمجيد لخالقه والتسبيح ووجب على متصفح خصائصه الموالاة في التعظيم ولزوم منهج استيداعٍ لا يبرح عنه ولا يريم ومبالغة قوله تعالى: " مَا هذا بَشَراً إنْ هذا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيم ".

فبلغ الله أمير المؤمنين في إطالة مدته الآمال وأبقى لمدته باستمرار نظره الحظ والجمال وفتح له المشارق والمغارب بهممه العالية وعزائمه وجعل نواجم الإلحاد حصائد شفار صوارمه فافخر أيها الرجل بأصلك وفرعك كيف شيت وابجح بما منحت منه وأوتيت ووال شكر خالقك على ما خولت وأوليت فما فخر بمثل فخرك ملكٌ سميدع ولا تباهى الدهر لأحد بمثل ما تباهى في حقك ولا أبدع.

ولما تكامل لك أيها الأجل بلوغ هذا الفضل الجسيم وتم ما منحته من المجد الحادث والقديم جدد أمير المؤمنين لك شعار التعظيم وكمل لديك المفاخر تكميل العقد النظيم وجعل الخير في إمرته لك عياناً وأقامك للدولة الفائزة والمملكة الصالحية برهاناً وجعلك لكافة المسلمين في أقطار الأرض سلطاناً وطابق بين ما خصك به من السمات السنية وبين ما مكنه لك من المراتب العلية فاتخذك لدولته ناصراً وعضداً وانتخبك للإسلام مجداً وسنداً وأحيا بمرافدتك أنصار الدين وشفى بنظرك صدور المؤمنين واستخلصك لنفسه النفيسة حميماً وخليلاً وبلغ بك إلى الغاية القصوى إعلاءً وتبجيلاً وشرفك بخلع بديعةٍ من أخص

ملابس الخلافة تروق محاسنها كل النواظر وتفوق بدائعها ما دبجه زهر الروض الناضر وقلدك سيفاً يؤذن بالتقليد ويبشر بالنصر الدائم المزيد تتنافس في متنه وفرنده الجواهر ويستولي ناصعها على الباطن منه والظاهر وعززها بالتشريفات التي اكتنفتها البهجة والبهاء وبلغتها في العلى إلى الغاية التي ليس بعدها انتاء وآثر أن تبسط يدك في التدبير ويعدق بك ما هو عنده بالمحل الكبير ويجمع لك من أشتات دولته ما لم يعرف لجمع مثله في سالف الزمن نظير ويسند إلى كمالك ما يعود النفع بصلاحه على المأمور من الأنام والأمير.

ففاوض أيها السيد الأجل الملك الصالح والدك أدام الله قدرته وأعلى كلمته في ذلك مفاوضة أفضت إلى وقوع الإجماع على أنك أكمل ملوك دهرك ديناً وأصحهم يقيناً وأشرفهم نفساً وأخلاقاً وأكرمهم أصولاً وأعراقاً وأمثلهم طريقةً وأحسنهم سيرة وأنقاهم صدراً وأطهرهم سريرة وأشفهم جوهراً وأزكاهم ضريبة وأتقاهم لله سراً وعلناً وأولاهم بأن لا يصدر عنه من الأفعال إلا جميلاً حسناً وأنك أفضل من عدق أمير المؤمنين بنظره أمر الدنيا والدين وأسند إلى ملاحظته أحوال أمراء الدولة ورجالها أجمعين وفوض مصالح المسلمين منه إلى التقي الأمين وأن السيد الأجل الملك الصالح أدام الله قدرته لما أخلص محله عند أمير المؤمنين بتتابع الإشادة وتفرد باستمرار المضاعفة بإذن الله تعالى والزيادة واستولى على الأمد الأقصى في السمو لديه والتعالي وانخفضت عن ثراه ذرى أشمخ المعالي كان عند أمير المؤمنين الأول في الجلال وأنت ثانيه والسابق في الفخار وأنت تاليه ودل بفضلك على فضله دلالة الصبح على النهار والنماء على الإبدار والثمر الطيب على فضيلة الأصل والنجار فتبارك مولي المنن لأوليائه وحبه القائل في محكم كتابه: " والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّه " .

وقرر لك أمير المؤمنين استشفاف أمور المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم والنظر في اسفهسلارية العساكر المؤيدة المنصورة إيثاراً من أمير المؤمنين لأن يجعل لك خير الدنيا والآخرة ميسراً ويثبت لك في كلٍ من أمور العاجلة والآجلة حديثاً حسناً وأثراً ورتب ذلك لك ترتيباً يصحبه التوفيق ويلزمه.

ويكمله السعد ويتممه ويحيط به اليمن والنجاح ويشتمل عليه الحظ والفلاح.

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين شاكراً لأنعمه متمسكاً بأسباب ولائه وعصمه جارياً على أحسن عاداتك في مراقبة الله وخيفته مستمراً على افضل حالاتك في خشيته متبعاً أوامره في العمل بتقواه وزاجراً للنفس عما تؤثره وتهواه يقول الله في كتابه المبين: " إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ ويَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنين " .

والعم أن المظالم كنزٌ من كنوز الرحمة وبابٌ يتوصل منه إلى مصلحة الأمة ووسيلةٌ يتوسل بها السعداء إلى خالقهم في استبقاء ما أسبغ عليهم من النعمة فاجلس لها جلوساً عاماً ترفع فيه الحجاب وتيسر للوصول إليك عنده الأسباب وتأمر بتقريب المتظلمين وتوعز بإدنائهم لتسمع كلام الشاكين وتوفر على الأخذ بيد المستضعف القريع والحرمة التي لا تجد سبيلاً للإنصاف ولا تستطيع وتتقدم بأن تحضر بين يديك النائب في الحكم العزيز الذي على فتياه مدار أحكام الدين ومن تحتاجه من الموقعين والدواوين وتأمر بإحضار القصص وعرضها وتتأمل دعاوي المتظلمين في إبرامها ونقضها وتوقع على كلٍ منها بما يقتضيه الشرع وأحكامه ويوجبه العدل ونظامه.

وانظر في مشكل القصص نظراً يزيل إشكالها ويجعل إلى لوازم الشرع والحق مآلها وراع أمر المنازعات حتى تنتهي إلى الأواخر ولا يبقى فيها تأملٌ لمتأمل ولا نظرٌ لناظر وتخرج أوامرك بإيصال كل ذي حقٍ إلى حقه وكف كل متعد عن سلوك سبيل العدوان وطرقه وليكن الضعيف أقوى الأقوياء عندك إلى أن يصل إلى حقه موفراً والقوي أضعف الضعفاء حتى يخرج مما عليه طائعاً أو مجبراً والشرع والعدل فهما قسطاسا الله في أرضه ومعينان على الحق من أراد العمل بواجب الحق وفرضه فخذ بهما وأعط بين العباد وأثبت أحكامهما فيما قرب وبعد من البلاد وساو بهما في الحقوق بين الأنام وصرف النصفة بحكمهما بين الخواص والعوام حتى ينتصف المشروف من الشريف والضعيف من ذي القوة العنيف والمغمور من الشهير والمأمور من الأمير والصغير من الكبير واستكثر بإغاثة عباد الله ذخائر الرضوان واستفتح بقيامك بحقوق الله فيهم أبواب الجنان واعمم بسعيد نظرك وتام تفقدك وملاحظاتك جميع صدور أولياء الدولة وكبرائها ومقدميها المطوقين وأمرائها وميز بها الأعيان ورجالها الظاهرة نجدتهم للعيان وتوخ الوجوه منهم بالإجلال والإكبار وتبليغ الأغراض والأوطار والتمييز الذي يحفظ نظام رتبهم وينيلهم من حراسة المنازل غاية أربهم والقهم مستبشراً كعادتك الحسنى واجر معهم في كرم الأخلاق على مذهبك الأسنى وعرفهم بإقبالك على مصالح أمورهم واتجاهك لمصالح شؤونهم بركة اشتمالهم بفضلك والتحافهم بظلك واقصد من يليهم بما يبسط آمالهم ويوسع في التكرمة مجالهم ويكسبهم عزة الإدناء والتقريب ويخصهم من إحفائك بأوفر سهم ونصيب وكافة الرجال فاحفظ نظامهم بحسن التدبير وأثر فيهم بجميل النظر أحسن التأثير وتوخهم بما يشد باهتمامك أزرهم

ويصلح بتفقدك أمرهم ويقف على الطاعة سرهم وجهرهم وييسر لهم أسباب المصالح ويسهلها ويتمم لمطالبهم أحكام الميامن ويكملها وأصف لجميع ذكرهم من سابق في التقدمة وتال ومخلص في المشايعة وموال مناهل إحسان أمير المؤمنين الطامية الحمام المتعرضة مواردها العذبة لأدواء كافة الأنام فهم أنصار الدولة وأعوانها وأبناء الدعوة وخلصاؤها وشجعان المملكة وفرسانها ونجدة خلاصها عند اعتراض الكروب وسيوفها المذربة القاطعة الغروب وأسنتها المتوغلة من الأعداء في سويداء القلوب وحزبها الذي أذن الله بأنه الغالب غير المغلوب ولكلٍ منهم منزله من التقديم وموضعه من الاشتمال بظل الطول العميم ومحله من الغناء ومكانه من الكفاية الذي بلغ إليه فسده.

فرتب كلاً من المقدمين في الموضع الجدير به اللائق وأوضح للموفقين أنوار مراشدك ليلحق بتهذيبك السكيت منهم بالسابق.

والوصايا متسعة النطاق متشعبة الاشتقاق ولم يستوعب لك أمير المؤمنين أقسامها ولا حاول إتمامها: للاستغناء بما لك من المعرفة التي غدت في استنباط حكم السياسات أكبر معين ولا يزال يضيء لبصيرتك من أنوار السيد الأجل الملك الصالح - أدام الله قدرته - التي لا تبرح للبصائر لامعة ولمحاسن الأفعال وغررها جامعة ما تستعين بأضوائها على الغرض المطلوب من الإصابة وأكثر.

هذا عهد أمير المؤمني إليك وإنعامه عليك فتلقه من الشكر بما يكون للمزيد سبباً مؤكداً ويغدو الإحسان معه مردداً مجدداً وابذل جهدك فيما أرضى الله وأرضى إمام العصر وثابر على الأعمال التي تناسب فضائلك المتجاوزة حد الحصر والله يعضدك بالتوفيق ويمهد لك إلى السعادة أسهل طريق ويرهف في الحرب عزائمك ويمضي في الأعداء صوارمك ويضاعف لك مواد النصر والتأييد ويخص بناء مجدك بالإعلاء والتشييد إن شاء الله.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قلت: والذي يظهر أن مما كان يكتب في دولتهم على هذه الطريق سجلات كبار نياباتهم حال استفحال الدولة في مبادئ أمرها قبل خروج البلاد الشاسعة عنها واستقلاعها من أيديهم: كدمشق ومضافاتها من البلاد الشامية قبل خروجها عنهم لبني أرتق في زمن المستنصر أحد خلفائهم وكأفريقية وما معها من بلاد الغرب قبل تغلب المعز بن باديس نائب المستنصر المتقدم ذكره بها وقطع الخطبة له وكجزيرة صقلية من جزائر البحر الرومي قبل تغلب رجال أحد ملوك الفرنج عليها وانتزاعها من أيديهم في زمن المستنصر المذكور أيضاً فإن دمشق وأفريقية وصقلية كانت من أعظم نياباتهم وأجل ولاياتهم فلا يبعد أن تكون في كتابة السجلات عندهم من هذه الطبقة.

المرتبة الثانية من المذهب الأول من سجلات ولايات الفاطميين

أن يفتتح السجل بالتصدير فيقال: من عبد الله ووليه إلى آخر التصلية ثم يؤتى بالتحميد مرةً واحدةً ويؤتى في الباقي بنسبة ما تقدم إلا أنه يكون أخصر مما يؤتى به مع التحميدات الثلاث ثم هي إما لأرباب السيوف أو لأرباب الأقلام من أرباب الوظائف الدينية والوظائف الديوانية.

فأما السجلات المكتتبة لأرباب السيوف فمن ذلك نسخة سجلٍ بولاية القاهرة من هذه الرتبة: لرفعة قدر متوليها حينئذٍ وهي: أما بعد فالحمد لله رافع الدرجات ومعليها ومولي الآلاء ومواليها ومحسن الجزاء لمن أحسن عملاً ومضاعف الحباء للذين لا يبغون عن طاعته حولاً ومنيل أفضل المواهب ومخولها ومتمم النعمة على القائم بشكرها ومكملها ومتبع المنن السالفة بنظائرها وأشكالها والمجازي على الحسنة بعشر أمثالها وصلى الله على جدنا محمدٍ ورسوله الذي أقام عماد الدين الحنيف ورفعه وخفض بجهاده منار الإلحاد ووضعه وأرغم عبدة الصليب والأوثان ونشر في أقطار المملكة كلمة الإسلام والإيمان وكشف غياهب الضلال بأنوار الهدى اللامعة وهتك حجاب الكفر ببراهين التوحيد الصادعة وسيوف النصر القاطعة صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سيف الحق الماضي المضارب وبحر العلم الطامي اللجج والعوارب ومعين الحكمة العذب المشارع والمخصوص بكل شرفٍ باسق وفضلٍ بارع وعلى آلهما سادة الأنام وحماة سرح الإسلام وموضحي حقائق الدين وقاهري أحزاب الملحدين وسلم ومجد وضاعف وجدد.

وإن أمير المؤمنين لما آتاه الله من شرف المحتد والنجار وتوجه به من تيجان الإمامة المشرقة الأنوار وألقاه إليه من مقاليد الإبرام والنقض وأناله إياه من الخلافة في الأرض والشفاعة في يوم العرض وعدقه به من إيضاح سبل الهدى اللامعة وهتك

حجاب الكفر ببراهين التوحيد الصادعة وسيوف النصر القاطعة إلى الأنام وأطلعه عليه من أسرار الحكمة بمناجاة الإلهام وأقامه له من إعلاء منار الملة وتقويم عماد الحق وأمد به آراءه من العنايات الربانية فيما جل ودق وأمضاه له في الأقطار من الأوامر والنواهي وأفرده به من الخصائص الشريفة التي يقصر عن تعديدها إسهاب الواصف المتناهي ويسره لإرادته من اقتياد كل أبي جامح وحببه إليه من استعمال السيرة المستدنية من المصالح كل بعيدٍ نازح - يضاعف بهاء أيامه باصطفاء ذوي الصفاء ويزيد في بهجة زمانه باستكفاء أولي الوفاء ورفع منازل المعرقين في الولاء إلى غايات السناء وينيل المخلصين من الحباء ما يدل على مواضعهم الخطيرة من الاجتباء ويسند معالي الأمور إلى الأعيان الصدور ويعدق الولايات الخطيرة بمن حسنت منه الآثار والسيرة وأظهر تغاير الأمور ما هو عليه من خلوص النية ونقاء السريرة واستولى على جوامع الفضل وغاياته وقصرت همم الأكفاء عن مماثلته في الغناء ومساواته وألقت إليه المناقب قياد المستسلم المسلم وأعجز تعديد محاسنه البارعة كل ناطقٍ ومتكلم وسمت همته إلى اكتساب الفخار واستكمل فنون المحامد فحصلت لديه حصول الاقتناء والادخار وفاز من كل مأثرة بالنصب الوافر المعلى وتشوفت إليه الرتب السنية تشوف من رأته لها دون الأكفاء أهلاً وكفى المهمات بجنان ثابتٍ وصدر واسع وقربت عليه أفعاله المرضية من الميامن كل بعيدٍ شاسع ووسم جلائل التصرفات بما خلفه بها من مستحسن الآثار وخلصت مشايعته من الأكدار فحل في أميز محلٍ من الإيثار وجارى المبرزين من أرباب الرياسات فسبق وأبر وأحرز جميل رأي ولي نعمته فيما ساء وسر.

ولما كنت أيها الأمير المعني بهذا الوصف الرفيع المخصوص من مفاخره بكل رائع بديع الحال من الاصطفاء في أقرب محلٍ وأدناه المرتقي من الرياسة أشمخ مكانٍ وأسناه الأوحد في كل فضيلةٍ ومنقبة الكامل الذي أوجب له الكمال صعود الجد وسمو المرتبة المصلح ما يرد إلى نظره بالتدبير الفائق الشامل ما يعدق به بحزمه الذي لا تخشى معه البوائق المجمع على شكر خصائصه وخلاله الفائت جهد الأعيان الأفاضل بعفو استقلاله المعتصم من المشايعة بالسبب المتين المتميز على الأكفاء بمآثره المأثورة وفضله المبين وما زالت مساعيك في طاعة أمير المؤمنين توجب لك منه المزيد تستدعي لمنزلتك من جميل رأيه مضاعفة التشييد وتخصك من الاجتباء بالنصيب الوافر الجزيل وتبلغك من تتابع النعم ما يوفي على الرجاء والتأميل.

وقد باشرت جلائل الولايات وعدق بك أفخم المهمات فاستعملت السيرة العادلة وسست السياسة الفاضلة وجمعت على محبتك القلوب وبلغت الرعية من إفاضة الإنصاف كل مؤثر ومطلوب وإذا برقت بارقة نفاق ونجم ناجم من مردة المراق كنت الولي الوفي والمخلص الصفي والمدافع عن الحوزة بجهاده والمحامي عنها بماضي عزمه وصادق جلاده والباذل مهجته دون ولي نعمته والجاهد فيما يحظيه بنائل مواته وتأكد أذمته ومجي ظلام الخطب الدامس بحسامه ومزيل الخطب الكارث برأيه واعتزامه ومواقفك في الحروب تكشف الكروب وتروي من دماء الأبطال ظامئات الغروب وتورد سنان اللدن العاسل وريد الكمي الباسل وتحكم ظبا المناصل في الهامات والمفاصل وتستبيح من مهج الأقران كل مصون وترميهم من قوارع الدمار بضروب متسعة الفنون فآثارك في كل الحالات محمودة وشرائط الاصطفاء فيك فاضلةٌ موجودة.

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووزيره وكافل ملكه وظهيره السيد الأجل الملك الذي فأثنى عليك ثناءً وسع فيه المجال وخصك من شكره وإحماده بما أفاض عليك حلل الفخر والجمال وقرر لك الخدمة في ولاية القاهرة المحروسة فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك: عاملاً بتقوى الله الذي تصير إليه الأمور ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور قال الله في كتابه المبين: " يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ".

واعلم أن هذه المدينة هي التي أسس على التقوى بنيانها ولها الفضيلة التي ظهر دليلها ووضح برهانها: لأنها خصت بفخرٍ لا يدرك شأوه ولا تدرك آماده وذلك أن منابرها لم يذكر عليها إلا أئمة الهدى آباء أمير المؤمنين وأجداده ثم إنها الحرم الذي أضحى تقديسه أمراً حتماً وظل ساكنه لا يخاف ظلماً ولا هضماً وغدت النعمة به متممةً مكملة والأدعية في بيوت العبادات به مرفوعةً متقبلة: للقرب من أمير المؤمنين باب الرحمة ومعدن الجلالة وثمرة النبوة وسلالة الرسالة فاشمل كافة الرعايا بها بالصيانة والعناية وعمهم بتام الحفظ وابسط عليهم ظل العدل والأمنة وسر فيهم بالسيرة العادلة الحسنة وساو في الحق بين الضعيف والقوي والرشيد والغوي والملي والذمي والفقير والغني واعتمد من فيها من الأمراء والمميزين والأعيان المقدمين والشهود المعدلين والأماثل من الجناد وأرباب الخدم من القواد بالإعزاز والإكرام وبلغهم نهاية المراد والمرام وأقم حدود الله على من وجبت بمقتضى الكتاب الكريم وسنة محمدٍ عليه أفضل الصلاة والتسليم وتفقد أمور المتعيشين وامنع من البخس في المكاييل والموازين وحذر من فسادٍ مدخل على المطاعم والمشارب وانتهج في ذلك سبيل الحق وطريق الواجب واحظر أن يخلو رجلٌ بامرأة ليست له بمحرم وافعل في تنظيف الجوامع والمساجد وتنزيهها عن الابتذال بما تعز به وتكرم واشدد من أعوان الحكم في قود أباة الخصوم واعتمد من نصرة الحق ما تبقى به النعمة عليك وتدوم وأوعز إلى المستخدمين بحفظ الشارع والحارات وحراستها في جميع الأزمنة والأوقات وواصل التطواف في كل ليلة بنفسك في أوفى عدة وأظهر عدة وانته

في ذلك وفيما يجاريه إلى ما يشهد باجتهادك ويزيد في شكرك وإحمادك والله تعالى يوفقك ويرشدك ويسددك في خدمة أمير المؤمنين ويسعدك فاعلم ذلك وأعمل به وطالع مجلس النظر الأجلي الملكي بما تحتاج إلى علمه إن شاء الله تعالى.

قلت: وعلى هذا النمط كان يكتب سجل ولاية الرقية من أعمال الديار المصرية دون غيرها من سائر الولايات إذ كانت هي خاص الخليفة كالجيزية والمنفلوطية الآن وكان واليها هو أكبر الولاة عندهم لذلك.

وأما الوظائف الدينية.

ما كتب به القاضي الفاضل عن العاضد بولاية قاضٍ: من عبد الله ووليه عبد الله أبي محمد الإمام العاضد لدين الله -فمنها أمير المؤمنين إلى القاضي المؤتمن الأمين علم الدين خالصة أمير المؤمنين وفقه الله لما يرضيه وسدده فيما يذره ويأتيه وأعانه على ما عدق به ووليه.

سلامٌ عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على جده سيد ولد آدم وعالم كل عالم ومبقي كلمة المتقين على اليقين ومعلي منار الموحدين على الملحدين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وعلى أمراء المؤمنين صلاةً تتصل في كل بكرة وأصيل ويعدها أهل الفضل وأهل التحصيل ووالى وجدد وعظم ومجد وكرر وردد.

وإن أمير المؤمنين لما آتاه الله إياه من نفاذ حكمه ومضاء حكمته وفوضه إليه من إمامة أمته وأفاضه عليه من أنوارٍ كشفت غمامة كل غمة وشردت بعدله من بسطة ظلم وسطوة ظلمة وأظهره له من حقٍ نصب للنصر علمه وللهداية علمه وأيده به من كل عزمة فتكت بكل أزمة ووكل به همه من إتمام نعمة وابتداء نعمة وأطلق به يده من معروف روض الآمال صوب مدراره وبدت على الأحوال آثار إيثاره وأخذ به الخصب من المحل ثاره واستقال به الرخاء من وهدات عثاره وعضد به أفعاله من أمور التوفيق اتباعاً واقتضاباً وألهمه من موالاة الآلاء التي لا تذهب عهود عهادها انقضاءً ولا انتضاباً ويسر له عزيمةً من الآراء التي لا تكسب إلا حمداً أو ثواباً يختص بإحسانه من ينص الاختبار على أنه أهلٌ للاختيار وتفيض الأحوال من حوالي أوصافه ما يديم المطار في الأوطار وينعم على النعمة بإهدائها إلى ذوي الاستيجاب ويصطنع الصنيعة بإقرارها في مغارس الاستطابة والاستنجاب ويرشح لخدمه من عرف ذكره بأنه فائح وعرف عرفه ناصعٌ ناصح ويبوئ جنان إنعامه من أحسن عملاً واستحقت منزلته من الكفاية أن تكون له بدلاً ولم تبغ تصرفاته في كل الأحوال عنها حولاً ودرجته خصائصه العلية فاقتعد صهوات الدرجات العلى واستحق بفضل تفضيله أن يولي الجميل جملاً وعرضت خلاله على تعيين الانتقاد فاقتضاها ولا يتضاهى وزويت مسالك الغناء بصدره فضاهى ولما كنت أيها القاضي المشتمل على هذه الخلال اشتمال الروض على الأزاهر والأفق على النجوم الزواهر والعقود على فاخر الجواهر والخواطر على خطراتها الخواطر والنواظر على ما تصافح من الأنوار وتباشر المثري من كل وصفٍ حسن المتبوع الأثر بما فرض من المحاسن وسن الكالئ ما تستحفظ بعين كفايةٍ لا يصافح أجفانها وسن الأمين الذي تريه أمانته متاع الدنيا قليلاً وتصحبه ناظراً عن نضارتها كليلاً المؤثر دينه على دنياه المطيع الذي لا يسلو العصبة عن هواه المخلص النية في الولاء ولكل امرئ ما نواه الناصح الذي ينزه ما يلابسه عن لباس الريب البعيد عن مظان الظنون فلا تتطلع الأوهام منه على عب غيب النقي الساحة أن يغرس بها وصمة التقي الذي لا تخدع يده عن التمسك ما استطاع بحبل عصمة المحتوم الحقوق بأن يستودع دهر الوفاء المتوسل بموات توجب له الإيفاء على الأكفاء المستقيم على مثل الظهيرة كهلاً ويافعاً الشافع بنفسه لنفسه وكفى بالاستحقاق شافعاً وحسبك أنك حملت الأمانة وهي حفظ الكتاب وأطلق الله به لسانك فشفيت القلوب من الأوصاب ووصل به سببك إلى رحمته يوم تنقطع الأسباب وأصبح محلك في الدارين آهلاً أثيراً وكنت ممن قال الله فيه: " وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ".

وقد خالطت في مواكب أمير المؤمنين المعقبات التي من بين يديه ومن خلفه وقربت من مجالسه المشتملة منه على عنوان عناية الله بالبرية ولطفه ونوره الذي كلت العيون عن كشفه والحيل عن كسفه وتقدمت بخدمة الخلفاء الراشدين أمراء المؤمنين إلى سوابق سبقت بها في كل مضمار وجمعت في المخالصة فيها بين الإعلان والإضمار وسبر التجرب حالتيك بصحائف خبر واستمرت بك الحال في القرب منهم وفي تقلب الأحوال عبرة وتدرجت في حجب القصور وبدت لك الغايات فما كنت عنها ذا قصور فكانت التقدمة لك مظنونة وبك مضمونة وسريرتك على الأسرار المصونة مأمونة وما اعوجت معالم إلا وكان تقويمها بتقويمك ولا استيقظت حيلةٌ فخاف الحق سبيل غيها بتهويمك وإن كل قائلٍ لا يملك من إصغاء أمير المؤمنين ما تملك بتلاوة الذكر الحكيم ولا يسلك من قلبه ما تسلك بمعجز جده العظيم فأنت تخدم أمير المؤمنين بقلبك موالياً وبلسانك تالياً وبنظرك مؤتمناً وبيدك مختزناً لا جرم أنك حصدت ما زرعت طيباً وسقاك ما استمطرت صيباً وزفت لك الأيادي بكراً وثيباً وحللت يفاع المنازل مستأنساً إذا حل غيرك وهداتها متهيباً.

فأما حرمتك التي بوأتك من الاختصاص حرماً وجعلتك بين الخواص علماً وتوالي يدك بلمس ما حظي من الملابس بصحبة جسده الطاهر واشتمل على زهر النضار وزهر الجواهر فذلك جارٍ مجرى السكة والدعوة في أنهما أمانةٌ تعم العباد والبلاد وهذه أمانة تخص النفوس والأجساد ولك مما في خزانته وكالة التخيير والتعيير وعن أغراضه الشريفة سفارة الإفراج والتغيير وهذه موات تجعل سماء السماح لك دائمة الديم وتسكن آمالك في حرم الكرم وتعقد بينك وبين السعادة أوكد الذمم وتتقاضى لك جدود الجد بقدم الخدم.

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه الذي زهي الزمان به فتاه ووزيره الذي عز به منبره وسريره السيد الأجل أفضل الملوك قدراً وأكثرهم قدرة وأعظمهم صبراً وأدربهم نصرة وأفيضهم جوداً غمراً وأكشفهم لغمرة وأمضاهم على الهول صدراً وأردهم لكرة وأثبتهم جأشاً وصليل السيوف يخطب والمقاتل تسمع وأوضحهم في استحقاق المجد حجة شرعتها الرماح الشرع وأركبهم في طاعة أمير المؤمنين لمشقه وأشدهم وطأةً على من جحد نوره وعق حقه فالدنيا مبتسمةٌ به عن ثغور السرور والملك بكفالته بين ولي منصور وعدو محصور فأسفرت سفارته عن أنك من أمثل ودائع الصنائع وأكفاء الاستكفاء وأعيان من يحقق اختيارهم وفضلهم العيان وأفاضل من هو أهل لإسداء الفواضل وأن الصنيعة ثوب عرك داره وجارٌ قد عقد بين شكرك وبينه جواره وقرر لك تقدمةً في الحضرة لأنك فارسهم اسماً وفعلاً وأولهم حين تتلو وحين تتلى والنظر على المؤذنين بالقصور الزاهرة والمساجد الجامعة وبالمشاهد الشريفة: لأن الأذان مقدمةٌ بين يدي القرآن وأمارةٌ على معالم الإيمان والنظر في تقويم ما يرد إلى الخزانة العالية الخاصة والعامة من الملابس على اختلاف أصنافها والأمتعة على ائتلاف أوصافها ومشارفة خزانة الفروش ليكمل لك النظر في الكسوات التي تصان للملبوس والكسوات التي تبتذل للجلوس وخزن بيت المال الخاص ليكمل لك النظر في الذهب مصوغاً ومرموقاً وخزناً وتقويماً واستصوب أمير المؤمنين ما رآه وأمضى ما أمضاه وخرج أمره إلى ديوان الإنشاء أن يكتب هذا السجل لك بذلك.

فاعرف قدر ما عدق بك من أمور دينٍ ودنيا وخدمٍ لا تقوى عليها إلا بلباس التقوى وأنك قد أصبحت لجنات أنعم أمير المؤمنين رضواناً ويدك للفظ إحسانه لساناً وباشر ذلك مستشعراً خشية الله في سرك وجهرك متحققاً أنه غالبٌ على أمرك مدخراً من الأعمال الصالحة ما يبقى عند فناء ذخرك مستديماً للنعمة بما يقيدها من شكرك وما يصونها أن تبتذل من بشرك عالماً أن التقية حلية الإيمان وضمان الأمان وزاد أهل الجنان إلى الجنان بقول الله سبحانه في كتابه العزيز: " وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى ".

وأخلص نيتك في خدمة أمير المؤمنين فمع الإخلاص الخلاص وأد له الأمانة فإن أداءها أطيب القصص يوم القصاص وقم في خدمته المقام المحمود واستدم بها صعود ركاب السعود فقد عرفك الله بركة النصيحة وعوائدها وأنجزت لك الآمال المنبسطة مواعدها واستشرف أحوال القراء فهم أحق قومٍ بالتهذيب ولزوم أساليب التأديب فمن كان للآيات مرتلاً وللدراسة متبتلاً وبأثواب الصلاح متقمصاً وبخصائص الدين متخصصاً ولما في صدره بقلبه لا بلسانه حافظاً وعلى آداب ما حفظ محافظاً فذلك الذي تشافه تلاوته القلوب وتروض بأنواء المدامع جدوب الذنوب ومن كان دائم الإطالة في سفر البطالة ساتراً لأنوار المعرفة بظلم الجهالة فحقٌ عليك أن تصرفه وتبعده وتجعل التوبة للعود موعده وكذلك المؤذنون فهم أمناء الأوقات ومتقاضون ديون الصلوات ولا يصلح للتأذين إلا من كملت أوصاف عدالته وأمنت أوصام جهالته.

وأما الأمانة في الأموال التي وكلت إلى خزنك وختمك والأمتعة التي وكلت إلى تقويمك وحكمك فأن تؤدى بسلوك أخلاقك وهي الأمانة واتباع طباعك وهي الإباء للخيانة وأن تستمر على وتيرتك ومشكور سيرتك ومشهور سررتك ومنير بصيرتك وأن لا تؤتى من هوًى تتبعه ولا حيفٍ تبتدعه ولا قويً تنخدع له ولا ضعيف تخدعه ولا من محاباةٍ وإن أحببت ولا من مداجاة والله يتولى توفيقك وتوقيفك كيفما تقلبت واذكر ما يتلى من آيات الله في مثلها: " إِنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأمَانَاتِ إلى أهْلِها " ويديم على ما يحب تصريفك إن شاء الله تعالى.

ما كتب به القاضي الفاضل أيضاً وهي: أما بعد فإن رتب الولايات متفاوتة الأقدار متباينة الأخطار وكل شيءٍ منها -ومنها عند أمير المؤمنين بمقدار ولها رجال مشرفو الأقدار ومحالها بحضرته مقدرةٌ تقدير منازل الأقمار ومحال الأولياء بمقامه محال الأهلة تتنقل بين أول النماء إلى انتهاء الإبدار ومن أميزها قدراً وأحقها بأن يكون صدراً وأن يشرح لمن حله صدراً وأن يسوق إليه الخاطب من استحقاقه مهراً ولاية مدينة مصر: لأنها المجاورة لمحل الخلافة وكل مصرٍ بالنسبة إليها معها بالإضافة وهي خطبة النيل وفرضة المنيل وبها إذا هجمت الخطوب المنيل ومنها من عثرات الأيام المقيل ومنها تؤنس أنوار الإمامة على أنها تتوضح بغير التأميل وبدء التأميل ولا يؤهل لولايتها إلا كل حاملٍ لعبئها الثقيل ولا تسند الخدمة فيها إلا لكل مثرٍ من ذخائر السياسة غير فقير ولا مقل ولا يتوقل رتبتها إلا من تكون به الرتب منيرة ومحاسنه لا تمل مما يمل ولا يمتطي

صهوتها إلا من لا يطأطيء للأطماع عزة نزاهته ولا يذل ولا يرتقي درجتها إلا من يهتدي بأعلام الديانة التي لا تضل ولا يقرأ سجلها إلا لمن يطوي مظالم الرعية طي الكتاب للسجل.

ولما كنت أيها الأمير ممن توقدت هذه الأوصاف فيه توقد النار في ذرى علمها وأوجد معاني معاليها وأنقذها من إسار عدمها وارتقى إلى هضبات الرياسة المنيعة بما جعل خلاله المسلم فضلها مثل سلمها وناولته الدراية عناني سيفها وقلمها وشهدت الأيام بتقدم قدمه في مراتبها وقدمها وأمنت الصواب أن يتبع أفعاله إذا أمضاها بعيب بذمها وكتبت أقلام رماحه سطور الطعن في صدور العدا مستمدة من دمها وتجشم مشقات المعالي فأثرته تعفي راحة بجسمها واجتمعت فيه صفات المحاسن المتفرقة فقضى عليها بتجسيمها وتصدر الدرجات المحصنة من مطالع الحاضر لحظه من رقتها ونسيمها وتعرضت ذخائر المحامد لما في طبعه من اقتناصها ونعيمها وقرت عين المنازل فما زوت وجه إقبالها ولا بسطت راحة تظلمها وانثنت إليه عقائلها المصونة فما ثنت دون ديانته عنان تلومها وأثرك في كل ولاية مشكور وسعيك في كل غاية غير مقصور وغناؤك في المهمات معد مذخور ومساجلك عن أيسر ما وصلت إليه مدفوع مدحور وليل شبابك بالكوكب الدري من صولتك منحور وأفعالك أفعال من لا يجوز غير محرز كسب الأجور وخلالك خلال من انتظم في سلك الذين يرجون تجارةً لن تبور.

وقد سلفت لك خدم تصرفت فيها وتدرجت وعرفت بطهر الذكر من رعيتها وتأرجت وتحوبت من الأوزار على ما يوقع ذنبك وتحرجت وجريت على أجمل عادة واقتضيت عند انقضاء شأو الإبداء استئناف شأو الإعادة.

ومثل بحضرة أمير المؤمنين لسان أمره وسيف زجره السيد الأجل الذي قام بما استكفاه فأحسن وحسن وصان حمى الملك فأحصن وحصن وجاد بنفسه في سبيل الله فما ضن وكان مكان ما أمل عند اصطفائه وفوق ما ظن وسدد قصوده فمرقت سهامها وما مرقت عن طاعته وأطلع سعوده فأنارت نجوماً لأوليائه ورجوماً لأهل خلاف خلافته وأطلقت أحكام عدل الله في خلق الله أحكام مراماته وسيف إخافته فالدنيا بيمن إيالته عن مآخذ السراء وطلقاء الجود بما عملته يده من قيود الإحسان في عداد الأسراء ورضا أمير المؤمنين عنه كافلٌ له بأن يرضي الله في الأعداء وملوك الأرض إن فدت اسماء طيبةٌ أنفسها له بالفداء والدنيا متأرجة بطيب خبره والعلياء متبرجة بحسن نظره وبحار التدبير لا تفارق زبد أمواجها إلا بفاخر جوهره وقوانين السياسة لا توجد مسندة إلا عن اتباع أثره ولاحظ لمحاربه إلا سلمه بعثاره وتثلمه بعثيره فأثنى عليك بحضرته واصفاً وثنى إليك عنان عنايته عاطفاً ورأى تقليدك ولايتها معرباً باستحقاقك عارفاً - خرج أمر أمير المؤمنين إليه بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك بتقليدك ولاية المعونة والحسبة بمدينة مصر والجيزة والقرافة إنافةً بك عن النظراء وإبانةً عما لك من جميل الآراء وتطريةً لحظك بما حصل به من الإطراء ورعاية لما لك من الانتهاء إلى أقصى غايات الإحسان والإجراء وإيجاباً لما تتوسل به من العناء وذخائر الغناء والإثراء وإشادةً لقدرك الذي أشاده ما أنت عليه من الإيواء إلى ظل النزاهة والاستيناء.

فتقلد ما قلدته من هذه الخدمة وارفل بما ضفا عليك من ملابس هذه النعمة وبما صفا لديك من موارد هذه الجمة وقدم تقوى الله أمامك واتبع وصيتها التي استعمل الله بها إمامك فبها النجاة مضمونة والرحمة متيقنة لا مظنونة قال الله سبحانه في كتابه المكنون: " وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ولا هُمْ يَحْزَنُون ".

واعتمد المساواة بين الناس فيما هو حكم والنظر بالعدل في كل ما هو ظلم ولا تجعل بين الغني والفقير في الحق فرقاً واسلك فيهم طريقاً واحداً فقد ضل من سلكفيهم طرقاً واشمل أهل المدينة بطمأنينة تنيم الأخيار وتوقظ الأشرار وأمنةٍ تساوي فيها بين ظلام الليل ونور النهار: لتكون ولايتك لهم موسماً وموردها لثغور الأمر مبسماً وأنصف المظلوم واقمع الظالم وكن لنفسك زعيماً بنجاتها فالزعيم لها غارم وانه عما نهى الله عنه من الفحشاء والمنكر أمر بالمعروف وحسبك أن تعرف به وتذكر وخذ في الحدود بالاعتراف أو الشهادة ولا تتعد حدها بنقص ولا زيادة وكما تقيمها بالبينات فكذلك تدرؤها بالشبهات وفي هذه المدينة من أعيان الدولة ووجوهها وكل سامي الأقدار نبيهها وأرباب السيوف والأقلام والمعدودين في العلماء والأعلام والمعدلين الذين هم مقاطع الأحكام والتجار الذين هم عين الحلال والحرام والرعية الذين بهم قوام العيش في الأيام من يلزمك أن تكون لهم مكرماً ولإيالتهم محكماً ومن ظلمهم متحرجاً متأثماً ولسانهم في اشكر عن لسانك متكلماً وإلى قلوبهم بجميل السيرة متحبباً ولمساخطهم - ما لم تسخط الله - متجنباً.

واشدد من المستخدمين بباب الحكم في إشخاص من يتقاعد عن الحضور مع خصمه ويتبع حكم جهله فيخرج عن قضية الشرع وحكمه وأوعز إلى أصحاب الأرباع بإطلاعك على الخفايا وإبانة كل مستور من القضايا وأن يتيقظوا لسكنات الليل وغفلات النهار وخذهم في الليل بما التزموه من الحرس من مكايد اللصوص والدوار وأيقظهم لأن يتيقظوا فربما اجتنى ثمر الأمن من

غرس الحذار وإذا ظفرت بجان قد أوبقه عمله وطمح إلى الفساد أمله فاجمع له بين التنكيل والتوكيل أو ذي ريبة إن زاد ريبة بالحبس الطويل وإلا فطالع بأمره إن كان من غير هذا القبيل وواصل التطواف في العدد الوافر والسلاح الظاهر في أرجاء المدينة وأطرافها وعمر بسرك سائر أرجائها وأكنافها وانظر في الحسبة نظر من يحتسب ما عند الله خيرٌ وأبقى ومن يرغب في الأجر ويعرض عن شعار لباس التمويه واللبس وامنع أن يخلو رجل بامرأة ليست بذات محرم: لتكون قد سلمت وسلمت من شبهتي المطمع والمطعم واستوضح آلات المعاملات وغيرها فبها تخف الموازين أو ترجح " يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرضِ والسَّموات "واعتمد في تهذيبها ما تحسن فيه للمسيء والمحسن لأنك تكف أحدهما عن عمل المتهافت وعن المهوب الممعن.

وتقدم بنفض الأذى عن جادة الطريق وانه أن تحمل دابةٌ أكثر مما تطيق وتفقد الجوامع والمساجد بالتنظيف إبانةً لجمالها وصيانةً من ابتذالها ولا تمكن أحداً أن يحضرها إلا مؤدياً للفرض أو منتظراً أو متطوعاً أو عالماً أو متعلماً أو مستمعاً فإنها أسواق الآخرة ومنازل التقوى العامرة وأجر الأمور على عاداتها واسترشد في طارئاتها ومشكلاتها فاعلم هذا واعمل به.

إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة سجلٍ بولاية قاضٍ بثغر الإسكندرية من إنشاء القاضي الفاضل من هذه الرتبة وهي: من عبد الله ووليه إلى آخره.

أما بعد فالحمد لله الذي نشر راية التوحيد وأعز ملة الإسلام وهدى بكرمه من اتبع رضوانه سبل السلام رافع منار الشراع وحافظ نظامه ومجزل الثواب لمن عمل بأمره في تحليل حلاله وتحريم حرامه وسع كل شيء رحمةً وعلماً وساوى بين الخليقة فيما كان حكماً وقال جل من قائل في كتابه العزيز: " وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وهُوَ مُؤْمِنٌ فلا يَخَافُ ظُلْماً ولا هَضْماً ".

سبحانه من خالق لم يزل رؤوفاً ببريته عادلاً في أقضيته مضاعفاً أجر من خشيه وعمل بخيفته موفراً ذلك له يوم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته.

يحمده أمير المؤمنين أن أفاض عليه أنواراً إلهية وتعبد البرية بأن جعلها بطاعته مأمورةً وعن مخالفته منهية واستخلف منه على الخليقة القوي الأمين وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين ويسأله أن يصلي على جده الذي عم إرساله بالرحمة وكشف بمبعثه كل غمة وجعل شرعه خير شرع وأمته خير أمة فأحيا من الإيمان ما كان رميماً وهدى بالإسلام صراطاً مستقيماً وخاطبه الله فيما أنزل عليه بقوله: " إنَّا أنْزَلْنَا إلَيْكَ الكتَابَ بالحقِّ لتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أراكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ للخائِنينَ خَصِيماً " وعلى أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي وفر الله نصيبه من العلم والحكمة وجعل خلافته في أرضه لا تخرج عن ذريته الهداة الائمة وعلى آلهما الأطهار وعترتهما السادة سلاماً باقياً إلى يوم الدين.

وإن أمير المؤمنين لما أفرده الله به من المآثر وتوحده به من المناقب والمفاخر وخصه بشرفه من الإحسان إلى أوليائه بالإنعام إليهم في الدنيا والشفاعة لهم في اليوم الآخر يرتاد لجلائل الخدم من يشار إليه ويومى ويختار لتوليها من يكون بأثقالها ناهضاً وبأعبائها قؤوماً ويسند أمرها إلى من لا يتمارى في سؤدده ولا يختلف في فضله ويعدق شؤونها بمن عدقت الرياسة به وبأسلافه من قبله فيكون إذا شرف بها عرف منزلتها ومحلها ووقع الاتفاق على التمثل بقوله: " وَكَانُوا أحَقَّ بها وأهْلَها ".

ولما كنت أيها القاضي المكين من البيت الذي اشتهر قدره وارتفع ذكره وحلت رتبته بأوصاف كلٍ من أهله في قوله وفعله وترددت رياسته في عددٍ كثير لا عهد للرياسة بالتردد في مثله وكانت لك ولمن مضى من أسلافك آثارٌ في الخدم خلدت لكم مجداً يبقى وأقرت من الحديث به ما لا يسمو إليه النسيان ولا يرقى فكل ما تتولونه متجمل بكم ولا يريد معكم زيادة وكل ما يعتمد فيه عليكم قد نال مطلوبه وبلغ البغية والإرادة والذي يخرج عن نظركم يتلهف عليكم حنيناً إليكم واشتياقاً وإن رد إليكم لم يأل تشبثاً بكم وتمسكاً واعتلاقاً هذا إلى ما لكم من الحرمات المرعية والموات التي ليست بمنسية والسيد الأجل الأفضل الذي حسبه من المفاخر قيامه بحق الله لما غفل الملوك عنه وقعدوا واستيقاظه بمفرده حين ناموا دون استخلاصه مما عراه ورقدوا وإن انتصابه آيةٌ أظهرها الله للملة وحسم بها في رفع منار الدين كل علة فإذا أنفقت الأعمار في بيان أوصافه كانت جديرةً بذلك حرية وإذا ذكرت آثاره في الإسلام كان العلم بكرمها لاحقاً بالعلوم الضرورية فما ينسب المتوسع في التقريظ له إلى تغال ولا تضييع وقت يقضى في اهتمامٍ بالثناء على مناقبه واشتغال يواصل الثناء عليك والشكر لك ويتابع من ذلك ما إذا ذكر اليسير منه شرفك وجملك ويصف ما كان لأخيك القاضي المكين - رحمه الله - من الاجتهاد في المناصحات ومن الأفعال

الحسنة والأعمال الصالحات ومن الوجاهة التي أحلته مكاناً متجاوزاً غاية الآمال الطامحات ما رفعه عن طبقات كثير من سادات الناس وجعل حاسديه في راحةٍ لما شملهم من دعة الياس.

وإنك أيها القاضي المكين الأشرف الأمين قد بلغت مداه في الجلالة وورثت مجده لا عن كلالة وحويت فضله وفخره وقفوت أثره وأحييت ذكره وحزت خلاله الجميلة وأفعاله الرضية وحصلت الفضيلتين الذاتية والعرضية ولذلك تقررت نعوتك القاضي المكين لاستيجابك فيما تقضي به جزيل الثواب ولتمكن أفعالك في محل الصواب والأشرف الأمين لشرف نفسك وكون أمانتك في حاضر يومك على ما كانت في ماضي أمسك وتاج الأحكام لأن ما يصدر منها سامي المنهاج وقد ارتفع محله كما ارتفع محل التاج وجمال الحكام لأنك لما وليت ما ولوا جملتهم إذ فعلت من الواجب فوق ما فعلوا وعمدة الدين لأن من كان مثلك ركن إليه الدين واستند وتوكأ على جانبه واعتمد وعمدة أمير المؤمنين لأنك ذخيرةٌ لدولته ونعم البقية الصالحة لمملكته.

ومعلوم أن ثغر الإسكندرية - حماه الله تعالى - الثغر الرفيع المقدار الذي هو قرة العين للإسلام وقذًى في عيون الكفار ومحله مما تتطامن له معاقل التوحيد وحصونه وهو مشتملٌ من الفقهاء والصلحاء والمرابطين وأهل الدين على من لم يزل يحفظه ويصونه وإليه تتنال السفار وتتردد التجار وهو المقصود من الأقطار القصية النائية ومن البلاد القريبة الدانية وما زالت أحواله جاريةً بنظرك على أحسن الأوضاع وأفضلها وأوفى القضايا وأكملها وما كان استخدام غيرك فيه إلا ليظهر إشراق شمسك وليزول الشك في تبريزك على جنسك وليتبين فضل مباشرتك وتوليك على أن ذلك لم يكن مكتتماً وليتحقق أن عقد صلاحه لا يكون بتولي غيرك متسقاً ولا منتظماً.

وقد رأى أمير المؤمنين إمضاء ما رآه السيد الأجل الأفضل من إقرارك على الحكم والقضاء: لاطلاعك من ذلك على سره ونفاذك في جميع أمره ولخبرتك به ودربتك ولاستقلالك ومضائك ومعرفتك وإنك إذا استمررت على عادتك غنيت عن تجديد وصيتك فتماد على سنتك ولا تخرج عن سبيلك ومحجتك وأنت تعلم أن الشهود بهم يعطي الحكام ويمنعون وبأقوالهم يفصلون ويقطعون وبشهاداتهم تثبت الظلامات وتبطل وعليها يعتمد في انتزاع الحقوق ممن يدافع ويمطل فواجبٌ أن يكونوا من أتقياء الورى وممن لا يتبع الهوى فاستشف أحوالهم واستوضح أمورهم وأفعالهم فمن كان بهذه الصفة فأجره على عادته في استماع مقالته ومن كان بخلافه فقف الأمر على عدالته واحسم مادة الضرر في قبول شهادته وقد جعل لك ذلك من غير استئذان عليه ولا اعتراض لك فيه ولا تقرب أحداً من رتبة العدالة وارفعها بإزالة الأطماع فيها عن الإهانة والإذالة واغضض من أبصار المتطلعين إليها والمتوثبين عليها بالتطارح على الجهات والتماسها بالعنايات التي هي من أقوى الشبهات وإن ورد إليك توقيعٌ وتزكيةٌ من الباب فأصدره في مطالعتك ليحيط العلم به ويخرج إليك من الأمر ما تفعل على حسبه وافعل في دار الضرب وأحوال المستخدمين والمتصرفين على ما أتت به العالم البصير والعارف الخبير.

وقد جعل لك إضافةٍ إلى ذلك النظر في أمر جميع هذا الثغر المحروس وأسند إليك ووكل إلى صائب تدبيرك وإلى حسن تهذيبك وإلى بركة سياستك وإلى عملك فيه بمقتضى ديانتك وصار جميع المستخدمين به من قبلك متصرفين ولأوامرك متوكفين وعند ما تحده واقفين ولمراسمك متابعين غير مخالفين فمن أحمدته منهم وعلمت نهضته فأجره على عادته ورسمه ومن كان بخلاف ذلك فاستبدل به وامح من الخدمة ذكر اسمه فلا يد مع يدك ولا عدول عن مقصدك والاستخدام في هذا الأمر قد أسند إليك ورد وكونهمن جهة غيرك أغلق بابه وسد فلا تصرف فيه إلا لمن صرفته ولا خدمة إلا لمن استخدمته.

وتأكيد القول عليك لا يزيدك حرصاً والمعرفة بهمتك وخبرتك تغنيك عن أن توصى والذي تقدم ذكره في هذا السجل إرهاف لحدك وإعلاءٌ لجدك وإطلاع لكوكب سعدك والله يتولى تأييدك وتوفيقك ويوضح إلى الخير سبيلك وطريقك فاعلم هذا واعمل به وطالع مجلس النظر بأمور خدمتك وما تحتاج إلى عمله في جهتك.

إن شاء الله عز وجل.

وأما السجلات المكتتبة بالوظائف الديوانية فكما كتب به بعض كتابهم بولاية ديوان المرتجع: أما بعد فإنه من حسنت آثاره في مناصحات الأئمة الخلفاء وارتفع محله في طاعتهم عن الأنظار والأمثال والأكفاء وظهرت بركات أفعاله فيما يتولاه ظهور الشمس ليس بها من خفاء وباهى بتدبيره كل ما يباشره من أمر خطير قدره واستدعت من الثناء والإطراء ما يتأرج نشره ويتضوع ذكره وتساوى عنده القول والعمل ونافس فيه الخبر الخبر ورتبه مرتبه مقدماً على من مضى من طبقته وغبر ووسم الأعمال بسمات في العمائر تضاف إليه وتنسب وغدت الخدم تزهى به وتعجب وهو لا يزهى ولا ينظر ولا يعجب.

كان رد المهمات إليه حسن نظرٍ لها وإذا حظرت جلالة توليها على غيره أضحى نفاذه منتهجاً له محلها وكان التنويه به حقاً من حقوقه وواجباً من واجباته والمبالغة في تكريمه وتفخيمه مما يتعين الانتهاء فيه إلى أقصى آماده وأبعد غاياته.

ولما كنت في متولي الدواوين مشهور الشأن والقدر وحالاً من مراتب الكفاة المقدمين في حقيقة الصدر إن انتظموا عقداً كنت فيه الواسطة وإن قسط غيرك على معامل لم تكن أفعالك قاسطة ولك السياسة التي ظلت ساحاتها رحاباً والرياسة التي من وصفك بها فما تملق ولا داجى ولا حابى والصناعة البارعة التي تشهد بها الطروس واليراع والأمانة الوافية التي ارتفع فيها الخلاف ووقع عليها الإجماع والتصرف في أنواع الكتابة على تباين ضروبها والاستيلاء على ظاهرها ومستورها وواضحها ومكتومها والأخذ لها عن أهل بيتك الذين لم يزالوا فيها عريقين ولم ينفكوا في مداها سابقين غير ملحوقين وقد زدت عليهم بما حزته بهمتك ونلته بقريحتك حتى بلغت منها ذروةً شامخةً علية وحصلت فضيلتين فضيلةً ذاتية وفضيلةً عرضية وأمنت من يباريك ويساجلك وكفيت من يناوئك ويطاولك وكان الديوان المرتجع عن بهرام وغيره من أجل الدواوين وأوفاها وأحقها بالتقديم وأولاها: لأنه يشتمل على نواحٍ مختارة ويحتوى على ضياعٍ مكنوفة بالعمارة وقد زاده ميزةً على غيره كونك ناظراً فيه وأنك مدبر أمره ومستوفيه.

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووزيره السيد الأجل الأفضل الذي عز بحسن سيرته الملك وتضاعف بهاؤه وضمنت مصالح الأمور تدبيراته وآراؤه وظلت شؤون الدولة بما يقرره منتظمةً مستقيمة وغدت الميامن والسعود مخيمةً في داره مقيمة واتفقت على الثناء عليه مختلفات الأقوال وقضت مهابته بحماية النفوس وصيانة الأموال وفاوضه في أمر هذا الديوان فأفاض في وصفك وشكرك وأطنب في تقريظك وإجمال ذكرك ونبه على الحظ في توليك إياه وواصل من مدحك بما يتضوع عرفه ويطيب رياه وقرر لك من توليه ما يصل سبب الخيرات بسببه وميزك بما لم يطمع أحدٌ من كافة متولي الدواوين به فلم يجعل فيه يداً مع يدك ولا نظراً إلا لك بمفردك فلا يرفع أحد شيئاً إلى غير ديوانك من حساب ما يجري في أعماله ولا معاملة لبيت المال إلا معك فيما يحل من أمواله فأمضى أمير المؤمنين ذلك وأمر به وخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك الديوان المرتجع المذكور: ثقةً بأنك تأتي فيه على الإرادة وتتأتى لبلوغ الغرض وزيادة فاستخر الله تعالى وباشر أموره بجدك المعهود وشمر عن ساق عزمك المشهود وسعيك المحمود واجر على رسمك في العمل بما يحفظ أوضاعه ويزجي ارتفاعه ويزيح علته ويغزر مادته فاعتقد مواصلة الليل والنهار في مصالحه فرضاً إذا اعتقدها غيرك نفلاً واجعل اجتهادك لاستخراج أمواله وكن عليها إلى أن يصل إلى بيت المال قفلاً واستنظف ما فيه من تقاوٍ وباق وافعل في تدبيره ما يجري أموره على الوفاق واستخدم من الكتاب من تحمده وترتضيه ونصهم إلى الأفعال التي تستدعي شكرك لهم وتقتضيه ولا تسوغ لضامنٍ ولا عاملٍ أن يقصر في العمارة واعتمد من ذلك ما يكون على كفايتك أوضح دلالة وأصح أمارة.

وقد أمر أمير المؤمنين أن تجري الحال على ما كانت عليه من دخول ذلك وبيعه بغير مكس في جميع الأعمال وأزاح مع ذلك علتك ببسط يدك وإنفاذ أمرك وإمضاء قولك وإفرادك بالنظر من غير أن يكون لأحدٍ من متولي الدواوين على اختلافهم نظرٌ معك فتماد في حسن تدبيره على سنتك ولا تخرج عن مذهبك وطريقتك والله يوفقك ويسعدك ويعينك ويعضدك فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله عز وجل.

المرتبة الثالثة من المذهب الأول من سجلات ولايات الفاطميين أن تفتتح بالتصدير أيضاً وهو من عبد الله ووليه إلى آخر التصلية على النبي صلى الله عليه وسلم وأمير المؤمنين علي رضي الله عنه ثم يؤتى بالبعدية لكن من غير تحميد بل يقال: أما بعد فإن أولى أو إن أحق ونحو ذلك ويذكر مناقب المولى ثم يأتي بالوصايا واعلم أن هذه المرتبة من السجلات يشترك فيها أرباب السيوف وأرباب الأقلام من أصحاب الوظائف الدينية والوظائف الديوانية.

فأما سجلات أرباب السيوف فكأصحاب زموم طوائف الرجال يعني التقدمة عليهم والولايات ونحو ذلك على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخ ولاياتٍ لأرباب السيوف بالحضرة من هذه المرتبة.

نسخة سجل بزم طائفة من إنشاء القاضي الفاضل وهي: من عبد الله ووليه إلى آخره.

أما بعد فإن أمير المؤمنين يصطنع من يرتضيه لتأليف عبيده وضمهم ويستوقفه للنظر في تقديم رجال مملكته وزمهم ويختار من يجتبيه لإحراز مدحهم بالبعد من موجبات ذمهم ولا يؤهل لذلك إلا من توسل بالغناء وتقرب واستقل بالأعباء وتدرب

وأطلق حده التوفيق فمضى وتذرب وأودع الإحسان فما زايل محله ولا تغربن ولابس الأمور ملابسة من فطن وجرب وقد أيد الله دولته بفتاه وأمينه وعقده وثمينه السيد الأجل الذي غدت آراؤه للمصالح كوافل وأذكى للتدبير عيون حزم غير ملتفتاتٍ عنه ولا غوافل وأطلع من السعد نجوماً غير غوارب ولا أوافل وقام بفرائض النصائح قيام من لم يجوز فيها رخص النوافل وتحدثت بأفعاله رماحه في المحافل فما راعت الجحافل.

ولما مثل بحضرة أمير المؤمنين أجمل ذكرك وأطابه وقصد بك غرض الاصطناع فأصابه واستمطر لك الإنعام الغدق السحاب فأجابه ووصف ما أنت عليه من شهامةٍ شهدت وشهرت وصرامةٍ تظاهرت وظهرت وكفايةٍ برعت وفرعت ونزاهةٍ استودعت الأمانة فرعت ومناصحةٍ انفردت بوصفها وتحلت واسطة عقد صفها وجهادٍ لم يزل به القرآن مغرياً والصعب المقاد مذعناً والخطب عابياً في قيادها مدعياً وقرر لك الاستخدام في زم الطائفة فأمضى تقريره واستصاب تدبيره وخرج أمره إليه بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل وإيداعه ما تهتدي به وتعمل بتأديبه فتقلد ما قلدته من ذلك عاملاً بالتقية فإنها الحجة والمحجة والجنة والجنة والمدد السليم والمربح القويم والنعمة والنعيم يقول الله سبحانه في كتابه الحكيم: " وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأوى " فانهض بشروط هذا الزم نهوضاً يؤدي عنك من النصح مفروضاً ويجعل لك كل يوم كتاب شكر مفضوضاً وسس هذه الطائفة بما يوليها دواعي الوفاق ويحميها من عوادي الافتراق واجهد في منافعها مجتلباً ولأخلاف درها محتلباً وانتصب لاستشفاف أحوالهم وتعهدها وملاحظة أفعالهم وتفقدها فمن ألفيته إلى فرائض الخدمة مسرعاً وبنوافلها متطوعاً وبكرمه عما يشينه مترفعاً شحذت بصيرته بالتكرمة ورشحت همته للتقدمة ومن وجدته لتلك الصفات الزائنة مخالفاً وللصفات الشائنة مؤالفاً ولنفسه عما يرفعها صارفاً قومت أوده وثقفته وأشرفت به على منهج الصراط ووقفته فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة سجلٍ بولاية الفسطاط المعبر عنها بمصر على نحو ما تقدم في ولاية القاهرة وهي: أما بعد فإن أمير المؤمنين لما خص الله به آراءه من التأييد الذي يسدد سهامها ويجزل من التوفيق سهامها وأطلق به يده من أيادٍ تسبق آماد الآمال وتكاثر أوهامها وألبس الدين ببقائه من مهابةٍ تصير قلوب أعدائه مهامها وميز به عصره من خصائص نصر لا تطيل الأيام استفهامها ولا تخشى استبهامها ويسره من نبإ دعوته التي طبقت أنجاد الأرض وتهامها ورقاه من محل أمانة الإمامة التي لا يظهر أرباب الألباب على أسرار الله ولا اتهامها وناطه بتدبيره من إيالة البرية والاعتناء بمصالحها وأصابه من مراشد اليقين التي تستضيء العقول بمصابحها وأتى به الأنفس الصالحة من تقواها وصرف بما صرفه على لسانه من الحكم عنها مضار الشبه وطواها وألبسه من هدي النبوة التي قرب الله إسناد من رآها وفضل من رواها يستغزر مواد التوفيق من خالقه بنصحه في الخلائق ويقدم الاستخارة بين يدي أفعاله فهي به أملك الخلال وأخص الخلائق ويعتام للقيام بتكاليف الاستنهاض ويختار لتقويم الميادٍ من اشتهر بالتدبير وجبر المنهاض ويقدم لكبار الولايات وعواليها وخصائص الرتب وغواليها من تكافأت في استيعاب المحاسن خلاله وخطب الخدم المتكثرة لأولي الحظوظ استقلاله وعلم استبداده بطيب الذكر وأمن انفصاله وأوى إلى جنة مريعة وجنة منيعة من الولاء وألحفته ظلاله واستقام على محجة واضحة من المخالصة ولم يخف زيغه ولا ضلاله ومضت ضرائبه في المهمات مضاء الحسام الذي لا ينبو حده ولا يثبت انفلاله وصح بصيرةً في المناصحة فما سر الأعداء شكه ولا اعتلاله وأعطى الخدم حقوقها من إقامة القوانين ونهض بأعبائها المثقلة نهضة المشمرين غير الوانين واشتدت وطأة تبادره على المفسدين والجانين وتظاهرت شواهد ميزته بما يكثر له الحساد ويرغم الشانين واقتنى من نفائس المحامد ما يعده أهل النظر قنية القانين واستبقى من جميل الأحدوثة ما يبقى ذكره بعد فناء الفانين ووفقت في الخدمة مصادره وموارده وانتظمت درر الذكر بحسن ذكره فأتلفت فوارده ونشدت ضوال الغناء فالتقت عنده غرائبه وشوارده واختصت مساعيه بالإبرار على الأنظار وصحت خلاله على عيب النقد كما صحح النار نور الأبصار ونظر لمن أسند إليه أمره نظراً يعفيه من تطرق الأكدار والمضار ورعى له ما هو متوسل به من آثارٍ حقيقةٍ بالإيثار وكفايةٍ تأخذ للخدم من الفخر بالثار.

ولما كنت أيها الأمير المراد بهذا الإيراد المطرد إليه هذا الاستطراد المعدود في أمراء الدولة العلوية من الأعيان الأفراد المخلي سيفه بين المساعي الجميلة ينتقي منها ما اختار ويصطفي ما أراد المهادى الصفات الحسنة فلا جاحد من عداته ولا راد المضطلع بما يعي حمله الحازم المطيق المستنفد في أفعاله المشكورة أقوال الواصف المنطيق الواصل بمحمود مساعيه إلى غايات السابقين في مهل الجامع في تدبير المهمات بين رأيٍ احتنك وحزمٍ اكتهل المنظور بعين الحزم بآيات دواعيه المترقي إلى أمانيه في درج مساعيه المجيب دعوة العزم إذا قام فلم يسمع المقصرون داعيه المجتهد في تشييد أركان التدبير إذا ارتقب اضطرابه وخيف تداعيه الممتثل وصايا الأدب الصالح فهو بقلبه راعيه وبسمعه واعيه الشهم الذي ينفذ في الأمور نفاذ السهم الألمعي الذي لا أن يماثل بما أوتي من بسطة الفهم المتبوئ من النعمة منزلة شكر لا يروم ضيفها أن يريمه ومربع حمد لا يسوم نازلها غير أن يسيمه المباشر من مأثور السياسة ما استفاض ذكره فلم تتطرق عليه أسباب الجحد البالغ بسمو المساعي ما قصر الأكفاء عنه ولم يقصروا عن الجهد الحال من التقدمة في هضابها إذا نزل الأكفاء منها في الوهد الحامل من

أعباء المشايعة ما غدا به من الموفين على الأنظار الموفين بالعهد المحقوق من الوسائل بأن يجودها النجاح بأغزر ديمة وأسقى عهد المؤدي فيما يسند إليه فروض التفويض الملي بأن لا تنوب فرصة حزم إلا كان ملياً باللحاق والتعويض المكتفي من وصايا الحزم بما يقوم له مقام التصريح من التعريض المستوجب أن تجدى إلى استحقاقه وتهدى سحائب الطول الطويل العريض المستوعب شرائط الرياسة بالاستيلاء على أدواتها المتتبع مظان الخطوب بمفاجأة الغرض في مداواتها المبرز على القرناء بخلال لا تطمع الهمم في مساماتها ولا مساواتها الآخذ من كل شيء بأحسنه فأي حسنة لم يؤتها ولم ياتها النافذ الآراء إذا المشكلات لم يتضح لأرباب الألباب مصمت بيانها المصيب شواكل الضرائب فسهام آرائه مدلولةٌ على شواتها المتبرج المقاصد لعيان الحمد إذا تحفزت الأفعال ووارت سوآتها المعروف بثبوت الجنان حين يلتبس الشجاع بالجبان المشكور في مواقف الحرب بأفواه الجراح ولسان السنان المقدم حيث الأعضاء تتزيل والأقدام تتزلزل المقتحم غمرات الهيجاء والأرواح عن ولايات الأجسام تعزل.

وقد وليت الولايات فاستقللت بها أحسن استقلال ورفع لك منار العدل فاستدللت منه بأوضح استدلال وجعلتها على من تؤويه حرماً وعلى من يطرقها حمى وكنت لجمهور زمانك في المصالح والنصائح مقسماً ولحكم التقوى ولو ضفت مشقاتها دون حكم الهوى محكماً.

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووزيره السيد الأجل الذي حل المشكلات من رأيه ورياته بالشمس وضحاها وتعرضت له آية الليل من العدا فجلاها بسيوفه ومحاها وثبت نصاب الملك الفاطمي حين أدارت الحرب على فتكاته رحاها واقتاد الأعداء إلى مصارعها بخزائم من العزائم وأعجلها وأوحاها وقام بنصر أئمة الهدى حين قعد الناس ورعى الله عزيمته الصابرة في البأساء والضراء وحين الباس وخاطر في حفظ الدين بنفسٍ تجري محبتها مع الأنفاس وحل من ملوك الأرض محل العين من الراس بل الراس من الحواس وأتعبت الأجسام هممه الجسام وأعدى الزمان فتبسم جذلاً بعدله البسام وقسمت المطامع أمواله فحمى المجد الموفر عليه من الانقسام.

فطالع أمير المؤمنين بأخبارك بعد اختبارك وتوسلك إلى التقدمة بمرضي آثارك وما أظهره الامتحان من نقاء سريرتك وأسرارك واستقامتك على مثلى الطريقة واستبصارك وأن ولاية مصر من أنفس الولايات محلاً وأثبتها على غيرها فضلاً بمجاورتها للمقام الكريم وحصولها من استقلال الركاب الشريف إليها على الشرف العظيم واختصاصها من مجال الخلافة بما جمع لها بين الفخرين الحادث والقديم وأوجب لها على غيرها من البلاد مزيةً ظاهرة التكريم والتقديم وما يمت به أهلها من شرف الجوار الذي لآمالهم به التخيير في الإحسان والتحكيم وما رأى من إسناد ولايتها إليك علماً أنك ممن تزكو لديه الصنيعة وتروق في جيد كفايته فرائد المنن البضيعة وتتطامن لاستحقاقه ذروة كل مرتبة رفيعة خرج أمر أمير المؤمنين إليه بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك بالولاية المذكورة فتقلد ما قلدك منها مقدماً تقوى الله على كل فعل وقول متبرئاً إليه من طول الحول معداً ذخيرتها النافعة ليوم الهولح قال الله في محكم الكتاب: " وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزاد التَّقْوى واتَّقُون يَا أُولي الألباب ".

وانظر في هذه الولاية حاكماً بالقسطاس وساو في الحق بين طبقات الناس ولا تميز فيه رفيعاً على حقير ولا غنياً على فقير وأقم الحدود من وجبت عليه إقامةً يرتدع بها المغرور وتستقيم بها الشؤون وتنتظم الأمور وراع من بهذه المدينة المحروسة من شهودها ومتميزي أهلها ففيها الفقهاء والأتقياء والقراء والعلماء والمتميزون الأعيان الوجوه وأهل السلامة الذين يستوجب كلٌ منهم نيل ما يأمله وبلوغ ما يرجوه فاعتمد إعزازهم وتوخ تكرمتهم ووفهم ما يجب لهم من الحق والقهم بالوجه المسفر الطلق وأمر بالمعروف ونص إليه وانه عن المنكر وعاقب عليه وتفقد أحوال المطاعم والمشارب وحافظ على إجرائها على أحكام الصواب وقضايا الواجب واحظر في المكاييل والموازين البخس والتطفيف وقدم الإنذار في ذلك والتحذير والتخويف وأوعز بتنظيف المسالك والساحات وامنع من توعير السبل والطرقات واعتمد كل ليلة مواصلة التطواف على أرجاء هذه المدينة وأكنافها ومتابعة الإطلال على نواحيها وأطرافها واعمل فيمن تظفر به من عابث وعاد ومنتهج طريق الفساد ما يرتدع به سواه ويجعله موعظةً لمن يعدل عن الصواب ويتبع هواه واشدد من المتصرفين على باب الحكم العزيز في قود أباة الخصوم لينظر بينهم فيما ينتصف به المظلوم من الظلوم وتقدم بتوقير الجوامع وصيانتها وحافظ على ما عاد ببهجتها ونظافتها وخذ المستخدمين من الأرباع بأن يتيقظ كلٌ منهم لما يجري في عمله وأن يكون كل ما يحدث وينهى إليك من قبله وانظر في الصناعة المحروسة وفي عمائر الأساطيل المظفرة المنصورة وتوفر على تدبير أمورها والاهتمام بشؤونها وحفظ ما فيها من الأخشاب والحديد والعدد والآلات والأسباب وابعث المستخدمين على المناصحة فيها وبذل الجهد في قصد مصالحها وتوخيها وأجر أمر هذه الولاية على ما يشهد بحسن أثرك وجميل ذكرك وطيب خبرك فاعلم هذا واعمل به وطالع مجلس النظر السيدي الأجلي بأمور خدمتك وما يحتاج إليه من جهتك إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة سجلٍ بولاية الأعمال القوصية وهي بعد التصدير: أما بعد فإن أمير المؤمنين - لموضعه من خلافة الله التي أعمره إياها وأنار بنظره محياها والإمامة التي أفرعه ذراها وناط به عراها وما وكله إليه من القيام بحفظ الإسلام الذي رضيه ديناً وألبسه بعدله تحسيناً وبذبه عنه تحصيناً وما استودعه إياه من جوامع الحكم وعدقه بكفالته من رعاية الأمم وعضد به آراءه من التأييد والتوفيق وأوجبه من فرض طاعته على كل مطيق - يصطفي لمعونته على النهوض بما حمله الله من أعباء الأمانة والشكر على ما اختصه به من الوجاهة عنده والمكانة ويستكفي فيما أمر به من إحسان الإيالة في بريته وينتخب لتفويض أمورهم والسلوك بهم مسالك رأفته في سيرته من يكون اصطفاؤه لرضا الله عنه مطابقاً واجتباؤه لشرائط المراد والاقتراح موافقاً وانتصابه للمهمات أفضل ما بدئ به وقدم اعتماده وإسناد الأمر الجسيم إليه أوفى ما عظم بتدبره شأنه ورفع بنظره عماده وإن ولي ولايةً جعلها بمهابته حرماً آمناً على أهلها من المخاوف وغدا حسن سيرته برهاناً على فضله يضطر إلى التصديق به المؤالف والمخالف وأعاد حميد أثره محلها ربيعاً ممرعاً وقرب حسن ثنائه من المطالب ما كان بعيداً ممتنعاً وإن ندب للجلى عاد مظفر المقاصد محفوفاً بالميامن والمساعد ساحباً ذيل الفخر حائزاً لكنوز الأجر مستعيناً بتوحيده على العدد الجم والعسكر الدهم.

وإن هذه الأوصاف قد أصبحت لك أيها الأمير أسامي لم تزدك معرفة وخواص لمهمات إلى ملابستك إياها متطلعةٌ متشوفة وأفعالك الحميدة قد بنت لك بكل ربع مناراً وجعلت لك في كل مكرمة سماتٍ وآثاراً وجميل رأى أمير المؤمنين فيك قد زاد توفيق مساعيك وضاعف ارتقاء معاليك وجعل الخيرة مقترنة بمقاصدك ومراميك وسما بك إلى رتبة من الوجاهة تتذبذب دونها مطارح الهمم وأحلك من الثقة بك منزلةً لا تفضي إليها خواطر الظنن والتهم وتحقق من يقينك ومضاء عزيمتك وعدل سيرتك وصفاء سريرتك ما جعل حظك عنده زائد النماء وذكرك بحضرته مكنوفاً بالشكر والثناء ووسائلك إليه متقبلة وقد أدركت في ريق الشباب حزامة الكهول واستنجحت في مقاصدك بضميرٍ من الولاء مأهول ولك البيت الذي كثر فيه الأمجاد والأفاضل وأحلك في دعة الناس من يخافهم المباري والمناضل وتساوت في اعتقاد تفضيلهم حالتا السر والجهر وأصلح بعزائمهم ما ظهر من الفساد في البر والبحر وفت المطامع بفضيلة هذا النسب وفضيلة النفس ودلت مآثرك على ما ظهر من خصائصك دلالة الفجر على الشمس.

ولما رآك أمير المؤمنين أهلاً للعون على استيجابه لطفاً لله عنده والتماس عوائد صنعه الجميل فيمن فارق سعيه ونبذ عهده انتضى منك حساماً حاسماً للأدواء معيناً في اللأواء طباً بتأليف الأهواء لا ينبو غراره ولا يخشى اغتراره ولا يفل حده ولا يؤويه غمده فانحقنت الدماء وسكنت الدهماء وعم الأمن وعظم من الله تعالى الطولوالمن وأصبح مكان القول فيك ذا سعةٍ فسيحاً ولسان الإحماد لأفعالك منطلقاً فصيحاً وحصلت من الوجاهة عند أمير المؤمنين بحيث قدرك رتبةٌ خطيرة ولا تنأى عنك بجانبها منزلة رفيعة أثيرة بل غدت خواصها فيك لاستجزال حظها من الجمال بك راغبة وممتنعاتها لاستكرام الأكفاء طالبةً للإفضال بل خاطبة إذا كان ما يعدم التتمة بك لا يعدم شعثاً واختلالاً وما حظي منها بمقاربتك يتيه زهوًا بك واختيالاً فإذا أراد أمير المؤمنين أن ينظر إلى عمل من أعمال مملكته ويرفع من محله ويفيض عليه من سحائب رأفته ما يكون ماحياً لآثار جدبه ومحله ويعم بالبركات أقطاره ويبلغ كلاً من أهله مآربه من العدل وأوطاره استند منك إلى القوي الأمين والكامل الذي لا يخدع الظن فيه ولا يمين إذا استكفي أمراً حمى حماه بالماضيين: حسامه واعتزامه وتمسك في حفظ نظامه بالحسنيين: طاعة الله وطاعة إمامه.

ولما كانت مدينة قوص وأعمالها أمدى أعمال المملكة مسافة وأبعدها من دار الخلافة وتشتمل على كثيرٍ من أجناس الناس وأخلاطٍ يحتاج فيهم إلى إحسان السياسة والإيناس وعليه معاج المسافرين من كل فجٍ عميق وإليه يقصد الحجاج إلى بيت الله العتيق رأى أمير المؤمنين وبالله توفيقه أن يرد ولاية الحرب بها إليك ويعول في تقويم مائدها وضم نشرها عليك وأن يحسم بك داءها ويحسن بنظرك رواءها ويعم أهلها بك رأفةً ومناً فخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بالولاية المذكورة فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين واعتمد على تقوى الله التي جعلها شرطاً في الإيمان وأمر باعتمادها في السر والإعلان فقال في كتابه المبين: " وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين ".

وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر وابسط عدل أمير المؤمنين على البادين والحضر وأقم الحدود على من وجبت عليه بمقتضى الكتاب والسنة وقم بما أمر الله به من ذلك بأنفذ عزمٍ وأقوى منة وساو في الحق بين الضعيف والقوي وآس بين العدو والولي والذمي والملي واجعل من تضمه هذه الولاية ساكنين في كنف الوقاية مشمولين بالصون والحماية وليكن أربهم في الصلاح في أربك فكلٌ منهم شاكرٌ لله على النعمة بك وبث في أقطارها ما يحجز النفوس العادية عن التظالم ويعيد شيمتهم بعد العدوان مخلدة إلى التوادع والتسالم ومن أقدم على كبائر الإجرام ولم يتحرج عن الدم الحرام فامتثل فيه ما أمر الله به في قوله: " إِنَّمَا

جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ ورَسُولَه ويَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ من خِلاَفٍ أو يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ".

واعتمد المستخدم في الحكم العزيز والدعوة الهادية - ثبتهما الله - بما يقوي عزمه وينفذ حكمه وأجزل حظه من إعزاز الجانب وتيسير المطالب وأحسن إليه العون على صون المؤمنين واجتلاب المستخبثين والمستخدمون في الأموال من مشارفٍ وعامل وغيرهما فاندبهم في عمارة الأعمال وبلغهم في المرافدة كنه الآمال واشدد منهم في صون الارتفاع وحفظه من الإفراط والضياع وضافرهم على استخراج الخراج وخذهم بحمل المعاملين على أعدل منهاج.

والرجال العسكرية المركزية المستخدمون معك فاستخدمهم في الخدم السانحة وصرفهم في المهمات القريبة والنازحة فمن استقام على طريق الصواب أجريت أموره على الانتظام والاستتباب ومن كان للإخلال آلفاً وللواجب مخالفاً قومت بالتأديب أوده وحلأته عن مورد الفساد الذي تورده.

هذه درر من الوصايا فابعث على إحضاره الثقة بهدايتك إلى كل صواب واعتلاقك من الديانة والأمانة بأوثق الأسباب وإحاطة علم أمير المؤمنين باستغنائك بذاتك وكمال أدواتك عن الإيقاظ والتنبيه والإرشاد فيما تنظر فيه والله يوفقك إلى ما يرضيه ويجعل الخيرة مكتنفة لما ترويه وتمضيه فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة سجلٍ بولاية الأعمال الغربية وهي: أما بعد فإن أمير المؤمنين - لما فضله الله به من إمامة البشر وشرفه وأناله إياه من الخلافة التي نظم بها عقد الدين الحنيف وألفه وأمضاه الله له في أقطار البسيطة من الأوامر ونقله إليه من الخصائص النبوية التي تجملت بذكرها فروق المنابر ومكنه له من السلطان الذي تخضع له الجبابرة وتدين وعضده به من التأييد الذي أرغم المشركين وخفض منار الملحدين وآثره به من مزايا التقديس والتمجيد وألهمه إياه من استكمال السيرة التي أصبح الزمن بجمالها حالي الجيد وأنجد به ملكه من موالاة النصر ومتابعة الإظفار وحازه له من مواريث النبوة المنتقلة إليه عن آبائه الأطهار واصطفاه له من إيضاح سبل الهدى المعتاد وألهمه إياه من إسباغ ملابس الرحمة على الحاضر من الأمم والباد ووفر عليه اجتهاده من استدناء المصالح واجتلابها وصرف إليه همه من تمهيد مسالك الأمنة وفتح أبوابها - يتصفح أمور دولته تصفح العاني بتهذيب أحوالها ويتفقد أعمال مملكته تفقداً يزيل شعثها ويؤمن من اختلالها ويعدق المهمات الخطيرة بالصدور الأفاضل من أصفيائه ويزيد في رفع منازل أوليائه إلى الغاية التي تشهد بجلالة مواضعهم من جميل آرائه ويفيض عليهم من أنوار سعادته ما يظهر سناه للأبصار ويمنحهم من اصطفائه ما لا يزال دائم الثبات والاستقرار ويعول في صيانة الرعايا من المضار وحراسة الأعمال المتميزة من عيث المفسدين والدعار على من تروع مهابته ضواري الآساد وتكفل عزائمه بقطع دابر الفساد ويبدع في السياسة الفاضلة ويغرب وتعجب أنباؤه في حسن التدبير وتطرب ويعم الرعايا بضروب الدعة والسكون ويشملهم من الأمنة والطمأنينة بأنواع وفنون وتقوم كفايته بسد الخلل وتقويم الأود ويبلغ في تيمنه في اكتساب المحامد إلى أقصى غايةٍ وأبعد أمد ويعنى بحفظ النواميس وإقامة القوانين ويدأب في استعمال السيرة الشاهدة له باستكمال الفضل المبين ولا يألو جهداً في تقريب الصلاح واستدنائه ويقصد من الأفعال الجميلة ما تلهج به الألسن بإطابة ثنائه.

ولما كنت أيها الأمير نجماً من نجوم الدين المضيئة المشرقة وثمرةً من ثمرات دوحة العلاء الزكية المورقة وفذاً في الفضائل البديعة وفرداً في المحاسن التي لم تفز بنظير ذكرها أذنٌ سميعة وسيفاً يحسم داء الفساد حداه وكافياً لا يتجاوزه الاقتراح ولا يتعداه وماجداً حاز المفاخر عن أهل بيته كابراً عن كابر وعلماً في المآثر يهتدي به الأعيان الأكابر وهماماً تملأ مهابته القلوب وماضياً تلوذ بمضائه الأعمال الخطيرة وتؤوب وصدراً تقر له الرؤساء بارتفاع المنزلة ومهذباً أغرته شيمه الرضية ببث الإنصاف وبسط المعدلة وحازماً لا يخشى اختداعه واغتراره وعازماً لا يكهم عزمه ولا يكل غراره.

وقد ألقت إليك المناقب قيادها مطيعة وأحلتك الرياسة في أشمخ ذروة رفيعة وتألفت عندك الفضائل تألف الجواهر في العقود وتكفلت لك مساعيك المحمودة بتضاعف الميامن وترادف السعود وتكاملت فيك الخلال المطابقة لكرم أعراقك واستعملت الأفعال الشاهدة بمبالغتك في ولاء أئمتك وإغراقك وحصل لك من الانتماء إلى البيت الصالحي الكريم ما كسبك فخراً لا يبرح ولا يريم وخصك في كل زمن بمضاعفة التفخيم والتقديم وأنالك من الإقبال غاية الرجال وجعل وجاهتك فسيحة الفناء وسيعة الأرجاء.

ولك المهابة التي تغني غناء الجيوش المتكاثرة العدد والجشاعة التي تسلط قوارع الدمار على من كفر وعند والعزم الذي استمدت السيوف الباترة من مضائه وعز جانب التوحيد بانتضائه لجهاد أعداء الله وارتضائه والإقدام الذي تلوذ منه أسود الوقائع بالفرار والبأس الذي لا يعصم منه الهرب ولا ينجي من بوادره الحذار.

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووزيره وصائن ملكه وظهيره السيد الأجل الذي فأثنى عليك ثناءً طال وطاب وحرر في ذكر مناقبك ومحاسنك القول والخطاب وذكر مالك من الأعمال في الأعمال الغربية التي أعادت الأمنة على الرعية وما استعملت فيهم من السيرة العادلة والسياسات الفاضلة وقرر لك الخدمة في ولاية أعمال الغربية فخرج أمر أمير المؤمنين إليه بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك بالولاية المذكورة فتقلد ما قلدته عاملاً بتقوى الله سبحانه الذي إليه تصير الأمور ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وقال الله جل من قائل في كتابه المكنون: " إنَّ اللهَ مَعَ الذِينَ اتَّقَوْا والذِينَ هُمْ مُحْسِنُون " فاعمم بالعدل من تشتمل عليه هذه الولاية وانته في حياطتهم وكلاءتهم إلى الغاية وصنهم من كل أذًى يلم بساحتهم وتوفر على ما عاد باستتباب مصلحتهم واخصص أهل الستر والسلامة بما يصلح أحوالهم ويشرح صدورهم ويبسط آمالهم وقابل الأشرار منهم بما يدوخ شرتهم ويكف عن ذوي الخير مضرتهم واشدد وطأتك على الدعار وأهل العناد وتطلبهم حيث كانوا من البلاد واقصد حماية السبل والطرقات وصنها من غوائل المفسدين على ممر الأوقات ومن ظفرت به من المجرمين فاجعله مزدجراً لأمثاله وموعظةً لمن يسلك مسلك ضلاله والمقدمون على سفك الدم الحرام والمرتكبون لكبائر الذنوب والإجرام فامتثل فيهم ما أمر الله تعالى به في كتابه الكريم إذ يقول: " إنَّما جَزَاءُ الذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ ورَسُولَهُ ويَسْعَوْنَ في الأرْضِ فَساداً أنْ يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أيْدِيهِمْ وأرْجُلُهُمْ من خِلافٍ أو يُنْفَوْا منَ الأرض ذلكَ لَهُمْ خِزْيٌ في الدُّنيَا وَلَهُمْ في الآخرة عَذابٌ عَظِيم " .

وأجزل حظ النواب في الحكم العزيز من عنايتك واجعل لهم نصيباً وافراً من اهتمامك ورعايتك وعاضدهم على إقامة منار الشرع وأجر أحوالهم على أجمل قضية وأحسن وضع.

والمستخدمون في الأموال تشد منهم شداً يبلغهم الآمال ويقضي بتزجية الارتفاع وتثمير الاستغلال وعاضدهم على عمارة البلاد ووازرهم على ما تكون به أحوالها جاريةً على الاطراد.

والرجال المركزية والمجردون فاستنهضهم في المهمات القريبة والبعيدة وخذهم بلزوم المناهج المستقيمة السديدة وقابل الناهض منهم بما يستوجبه لنهضته وقوم المقصر بما يوزع من يسلك مسلكه ويقتفي طرقته فاعلم هذا واعمل به وطالع إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة سجلٍ بولاية ثغر الإسكندرية كتب به لابن مصال من إنشاء القاضي الفاضل وهي: أما بعد فإن أمير المؤمنين - لما أكرمه الله به من شرف المنصب والنصاب وأجار العباد بآبائه الطاهرين من عبادة الأوثان والأنصاب وأوردهم من موارد حكمه التي كل صادرٍ عن ري قلبه منها صاد وسخره بأمره من رياح الصواب التي تجري بأمره رخاءً حيث أصاب وأصمى بسهام عزائمه من مقاتل الباطل وحلى بأنوار مكارمه من أجياد الأماني العواطل وأنجزه على يد أياديه من وعود سعودٍ تظل السحب المواطر بمثلها هواطل وتوحده به من الإمامة التي أعز بها أحزاب التوحيد وأجراه من بركاته التي لا تقول الآمال لها هل من مزيد وأوراه من فتكاته التي لا تقول لها الآجال هل من محيد وأجد به من إرادته لأزمة الأيام فهي بين إنعامه وإسقامه تفيد وتبيد وأحدثه له من معجزات التأييد التي تملك أحاديثها رق التأبيد وشرف به قدره في ملكوت السموات والأرض والملائكة له أنصارٌ والملوك له عبيد وألهمه من إيداع جلي صنائعه حيث لا ينكر المقلد ولا يستغرب التقليد وأنطق به لسان كرمه من بدائع إحسان تروق بين الترديد والتوليد - ينظر بنور الله فيمن ينظر به للجمهور ويجلو عقائل المكارم على من هو ماهرٌ في تقدمة المهور ويربح الذين يرجون بولائه تجارةً لن تبور ويقتدح الأنوار المودعة في سواد الشباب كما يودع في سواد العين بياض النور ويرفع رتب الأعيان حتى إذا تعاطاها سواهم ضرب بينه وبينها بسور وتعود أياديه إلى بيوت النعم فكل بيتٍ تولاه كالبيت المعمور وتهدي السرور بهم إلى صدور الثغور والابتسام إلى ثغور الصدور ويرى أنهم يستوجبون فواضله ميراثاً وإذا سلمت إليهم أعنة الولايات كانت لهم تراثاً وإذا تبوءوا الرتب العلية كانت الرياسة لهم داراً والسياسة أثاثاً لا سيما الصدر الذي عرفته السعادة لدولة أمير المؤمنين واحداً يجمع فضل سلفه وندباً ما عرضت عليه جواهر الدنيا فضلاً عن أعراضها إلا ولاها عطف نزاهته وظلفه وألمعياً تتناثر معاني المعالي من شمائله كما تنتثر من غصن القلم ثمار أحرفه وكفؤاً للصدور من أنهضه بها بنص تكلفه أنهضه بها فضل كلفه وقواماً بالأمور يمضي عليها مضاء النجم في بحر حندسه لا السهم في نحر هدفه وملاكاً للثغور إذا حل منها في إسكندريتها فهو على الحقيقة نجمٌ حل برج شرفه وطوداً للوقار يعتزي الحلم منه إلى أقومه لا إلى أحنفه وشرطاً للاختيار يكتفي مصطفيه منة معرفه ومؤونة معنفه ومعنًى للفخار لم ينتصف فيه من

لسان ولما كنت أيها الأمير واسطة عقد هذه الأوصاف الحسنى ومنجد ألفاظها من الحقيقة بالمعنى الأسنى المتوحد من الرياسة باسمٍ لا يجمع بعده ولا يثنى الجاري إلى غايةٍ من المجد لا يرد عنها عنانه ولا يثنى الجدير إذا ولي أن يسكن الرعية اليوم المستبد بالحمد حتى استقر عدلاً لا تسكنه في غدٍ عدناً وينجز فيهم وعد الله الصادق في قوله: " وَلَيُبَدِّلَنَّهم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً " فيما يفعل واستقرى فيما يكنى الثبت الذي لا تقرع الأهوال صفاته الندب الذي لا تبلغ الأقوال صفاته الولي الذي لا تكدر الأحوال مصافاته الجامع بين فضل السوابق وفضل اللواحق المتجلي في سماء الرياسة نيراً لا تهتضمه صروف الليالي المواحق المشكور الفعال لا بألسنة الحقائب بل بألسنة الحقائق المستبد بالهمم الجلائل المدلولة على المحاسن الدقائق المستمد صوب الصواب من خاطرٍ غير خاطل المستجد ثوب الثواب بسعي ينصر الحق على الباطل المستعد لعقب الأيام بأقرانٍ من الحزم تثنيها على الأعقاب المسترد بمساعيه فوارط محاسن كانت مطوية في ضمائر الأحقاب السامي بهمته إلى حيث تتقاصر النواظر السوامي المقرطس بعزيمته حيث لا تبلغ الأيدي الروامي المستقل بقط نواجم الخطوب وحسمها المستقر في النفوس أنه يقوم في ظلمها مقام نجمها المطلق وجهاً فلا غرو أن تجلى به الجلى المطلق وصفاً حسناً فلا يعرض له لولا ولا إلا المؤيد العزمات في صون ما يفوض إليه ويليه المتقى الوثبات ممن يجاوره من الأعداء ويليه المحيي بمسعاه ما شاده أولوه والمتوضحة فيه نصوص المجد الذي كانوا تأولوه والآوي إلى بيتٍ تناسقت في عقوده الرؤساء الجلة والطالع منه في سماءٍ إذا غربت منها البدور أشرقت فيها الأهلة.

ولقد زدت عليهم وما قصروا زيادة أبيض الفجر على أزرقه وكنت شاهد من يروي مناقبهم البديعة ودليل من ادعى أن المكارم لكم ملكةٌ وعند سواكم وديعة وقبلت وصاياهم في المعالي فكأنما كانت لديكم شريعة ونصرتم الدولة العلوية فكنتم لها أمثل أولياء وأخص شيعة وتجملت أنسابكم باصطناعها وكفاكم إن عددتم لصنائع الله صنيعة وأباحتكم من اصطفائها كل درجةٍ على تعاطي الأطماع عليةٍ منيعة وقدمتكم جيش برها وبحرها وكان منكم سيف جهادها ونجم ليلها وفارس كرها وصالت بكم على أعدائها كل مصال وأغربت من يليها إلا إذا استقرت في داركم إلى مصار وحين خرجت منها خائفاً تترقب وأبقيت فيها حائفاً يتعقب كنت الذهب المشهور الذي ما بهرجه الرغام والحرف المجهور الذي ما أدرجه الإدغام وكنت وإن كنت بين الكفار عنهم شديد النفار وحللت فيهم محل مؤمن آل فرعون يدعوهم إلى النجاة وإن دعوه إلى النار وعدت إلى باب أمير المؤمنين عود الغائب إلى رحله والآئب إلى أهله واستقررت به استقرار الجوهر في فصله والفرع في أصله وأبان الاستشفاف عن جوهرك الشفاف وخرجت من تلك الهفوات خروج الرياح لا خروج الكفاف وأعربت السعادة إذ حيتك بمشيبٍ أسود وتبع الأماجد غبارك الذي يرفع من طريق السؤدد واعتلقت بعروة الجد فلست من ددٍ ولا منك دد وضبرت قلب العيش الأصفى بعد العيش الأنكد لا جرم أن أمير المؤمنين أنساك سيئة أمسك بحسنة يومك وسما بك إلى أعلى رتب الأولياء وأغناك عن تعرض سومك وأنعم بك على قومٍ ما عرفوا إلا رياسة قومك.

وحضر بحضرة أمير المؤمنين أمين مملكته ويمين فتكته - السيد الأجل الذي أتى الله به سهماً إلى مصر وهي كنانته وأفرده بمزية السبق فلا حظ لمساجله إلا أن تدمى بنانته ورعى الرعية منه ناظرٌ لا تلم بناظره مراود الهجود وقام بالملك منه قائمٌ لا يزال يورده موارد الجود وأعنته يد الغلاب عن لسان الجلاب ونال نادرة الأمل في نادرة الطلاب وجمت فتكاته من الهرمين إلى الحرمين وصرف الرمح تصريف القلم وكأنه يصول ويصل بقلمين ورد الله به العدو منخذلاً وطالما لقيه فأقام منجدلاً وأضحى به ذيل النعمة منسحباً وستر الأمنة منسدلاً ودبر الأمور فأمسكها حازماً وعقلها متوكلاً - فأنهى ما لسلفك عند الأئمة الخلفاء من مزية الاصطفاء وما لك في نفسك من الحسنات التي ما برحت بارحة الخفاء وما اطلع عليه من خلالك التي ما أخلت بمنقبة وأفعالك التي ما تغايرت في يومٍ ذي نعمة ولا يومٍ ذي مسغبة وما لك من وثائق العقود وما فيك من الأوصاف المؤكدة لعلائق السعود وقرر لك الخدمة في كذا وكذا - خرج أمر أمير المؤمنين إليه بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك بالخدم المذكورة وهي التي فرقت لسلفك وجمعت لديك كما أن محاسنهم المفرقة منتظمة العقود عليك: ليكمل لك ولايتي الثغر والسيادة في حال وليسد بك ثغر الجهاد وثغر الإمحال ولتقوم في هذا مقام الجحفل الجرار وفي ذلك مقام الحيا الهطال ولتكون فرائد الإنعام عندك توأماً وليجعل ابتداء تصرفك لغيرك تماماً وليختصر لك طريق الكمال وليجري بك في ميدان الشكر طليق الآمال فتقلد ما قلدته منهما عاملاً بتقوى الله التي هي مصالح الأعمال وميدان الإتحاف والإجمال وسبب النجاة في الابتداء وعند المآل قال الله سبحانه في كتابه الذي لم يجعل له عوجاً: " وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ له مَخْرَجاً ".

وابسط العدل على من يحويه هذا الثغر الذي هو ثغر الثغور الباسم وأولاها بأن تكون أيامه بأوامر الله وأمر أمير المؤمنين مواسم ففيه من صدور المحافل وقلوب الجحافل وعيون المدارس وأعيان الفوارس وتجار الدنيا والآخرة وأخبار الأمة المقيمة والمسافرة ووفور مكارم عدل أمير المؤمنين التي هي بالرجاء واردة وبالرضا صادرة من يؤثر أن يكون فضل السكون لهم شاملاً ورداء الأمن عليهم سابلاً وسحاب الإنعام عليهم هاطلاً وحالهم في الاتساق لا متغيراً ولا حائلاً وساو في الحق بين أبعدهم وأقربهم ومقيمهم ومتغربهم واعتمد منهم من تقدم ذكره بما يرهف في الطاعة خاطره ويشحذه ويصونه من تحيف

الأيدي الجائرة وينقذه واخصص العلماء بكرامة تعينهم على التعليم والأعيان بمزية توضح لهم ما لهم من مزية التقديم واكفف عوادي أهل الشره والشر واقمع غلواء من اعتز بغير الله واغتر وتوخهم بإقامة المهابة وبسطها وكف الشوكة وقطها وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر وأقم الحدود إقامة من يثاب عليها ويؤجر وتفقدها على حدها غير داخل في الأقل ولا خارج إلى الأكثر وأذك العيون على من يلم بسواحل الثغر من أسطول العدو اللعين ومراكبه واحجز باليقظة بينه وبين تلصيص مطالبه وأمر أهله باتخاذ الأسلحة التي يعز الله بها جانبه ويذل مجانبه وتبلغ العدو اللعين من ذكرها ما يعملها وهي في أيديهم موفرة ويبذلها في مقاتلهم وبيوتهم بها معمرة قال الله سبحانه في آياته المتلوة: " وأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة ".

واعتمد للأعمال البحرية مثل ما تقدم شرحه من تأمين الأخيار وترويع الأشرار وتتبع كل مريب مستخفٍ بالليل وساربٍ بالنهار ومن ظفرت به قد حارب الله في أرضه وصار قتله من فرضه فنفذ حكم الله فيه في آية السيف وأمضه وادع إلى عمارة بلادها وتخفرها وتفقد المصالح بها وتكثرها وإطابة أنفس المزارعين بما تخففه عنهم من وطأة كانت ثقيلة وتقلله عنهم من مغارم لم تكن قليلة فما عمرت البلاد بمثل النزاهة التي هي شيمتك المعتادة والمعدلة التي هي من خلالك مستفادة واعتمد كلاً من النائب في الحكم العزيز والناظر في الدعوة الهادية والمشارف بالثغر والعمال برعاية تحفظ مراتبهم وتلحظ مطالبهم وتنفذ الأحكام وتبلغ بما ينظرون فيه من المصالح غايات التمام وتعز طائفة الإيمان وتظهر عليهم أثر الإحسان وتستدر حلب الأموال وتستديم عمارة الأعمال وتقضي بمواصلة الحمول وتحصيل الغلال وتعود بها عليك عوائد الأجر والجمال ومثلك اشتهاراً أيها الأمير من ولي فلم تطل له الوصايا التي يحتاج إلى إطالتها سواه ويوثق بما يذكيه من عيون حزمٍ غير غوافل ولا سواه ويحقق أن تقواه رقيب سره ونجواه وأن أمير ورعه يحكم على أسير هواه والله سبحانه يجعل نعمة أمير المؤمنين لديك مأمولة الدوام موصولة الحبل ويتمها عليك كما أتمها على أبويك من قبل إن شاء الله تعالى.

قلت: وعلى هذا النمط كانت سجلات سائر ولايات أعمال الديار المصرية فكانت تكتب على نظير ذلك في الوجه القبلي ولاية الجيزية وولاية الإطفيحية وولاية البهنساوية وولاية البوصيرية وولاية الأشمونين والطحاوية وولاية السيوطية وولاية الإخميمية وولاية الفيوم وولاية واح البهنسا وولاية الواح الداخلة وولاية الواح الخارجة.

ومن الوجه البحري ولاية القليوبية وولاية منية تردي وهي منية غمر وولاية المرتاحية وولاية الدقهلية وولاية مدينة تنيس - وولاية المنوفية وولاية جزيرة بني نصر وربما أضيفت إلى المنوفية وعبر عنهما بالمنوفيتين وولاية - وبها كانت دار الطراز جزيرة قوسينيا وولاية البحيرة وولاية ثغر رشيدٍ المحروس وولاية ثغر نستراوه وولاية ثغر دمياط وولاية الفرما بساحل الشامي فيما دون العريش.

وأما البلاد الشامية فقد تقدم أنها كانت خرجت عنهم وتملكت الفرنج غالب سواحل الشام ولم يبق معهم إلا ساحل عسقلان وما قاربه وكان مقر الولاية بها في عسقلان.

وهذه نسخة سجل بولايتها وهي: أما بعد فإن أولى ما وفر أمير المؤمنين حظه من العناية والاشتمال واعتقد العكوف على مصالحه من أشرف القربات وأفضل الأعمال وأسند أمره إلى من يستظهر على الأسباب المعيية بحسن صبره وعدق النظر فيه بمن لا يشكل عليه أمرٌ لمضائه ونفاذه ومعرفته وخبره ما كان حرزاً للمرابطين ومعقلاً وملتحداً للمجاهدين وموئلاً وموجباً لكل مجتهد أن يكون لدرجات الثواب مرتقياً متوقلاً عملاً بالحوطة للإسلام الذي جعله الله في كفالته وضمانه وتمادياً على سياسته التي أقر بفضلها إقرار الضرورة كافة ملوك زمانه وحرصاً على الأفعال التي لم يزل مقصوداً فيها بألطاف الله تعالى وتوفيقه وتبتلاً للأمور التي أرشده الله سبحانه في تدبيرها إلى منهج الصواب وطريقه ومضاعفةً من الحسنات عند أوليائه أهل الحق وحزبه وفريقه.

ولما كانت مدينة عسقلان - حماها الله تعالى - غرةً في بهيم الضلال والكفر وحرماً يمتاز عن البلاد التي كلمها الشرك بالناب والظفر وهو من أشرف الثغور والحصون وأهله أنصار الدين القيم المحفوظ المصون وكنت أيها الأمير من أعيان أمراء الدولة وكبرائهم ووجوه أفاضلهم ورؤسائهم ولك في الطاعة استرسال الأمن في مواطن المخاوف وفي الذب عنها وحمايتها مواقف كريمةٌ لا توازى بالمواقف وقد وصلت في ولائها القديم بالحديث والتالد بالطريف وحين وليت مهماتٍ استنجد فيها بعزمك واستعين عليها بحزمك تهيب الأعداء فيها ذكر اسمك وكان من آثارك فيها ما شهر غفلها بوسمك فلا يباريك مبارٍ إلا أربيت عليه وزدت ولا يناويك مناوٍ إلا أنسيت ذكره أو كدت فكم لك من مقامٍ محمودٍ يسير ثناؤه ووصفه وكم لك من ذكرٍ جميل يفوح أرجه ويتضوع عرفه وكم لك من مجالٍ في المشايعة لا يقصر أمده ولا يكبو طرفه والسيد الأجل الأفضل الذي عظم الله قدره ورفع مجده وجعله في الغضب لتوحيده دون جميع البرية أمة وحده وألهمه التجرد لنصرة الإيمان فقام بحق الله

لما غفل الملوك وقعدوا وأمده بمواد السعد فاستيقظ بمفرده حين ناموا عن استخلاصه مما عراه ورقدوا وأضحى انتصابه آيةً أظهرها الله للملة وغدا انتصاره معجزةً حسم بها في رفع منار الدين كل علة فهمته مصروفةٌ على ما يعز الشريعة الحنيفية وعزمته موقوفةٌ على الدفع عنها بأطراف الذوابل وحد المشرفية فبلغه الله في كل ما يحاوله ما يضاعف فخره وأعانه على ما يقدمه لمعاده ويجعله في الآخرة ذخره بحوله ومنه وطوله وفضله.

فلا يزال هذا السيد الأجل يثني عليك ثناءً يخلد لك ولعقبك مجداً باقياً ويحبوك من الوصف والإطراء بما يجعلك في مراتب الوجاهة والنباهة سامياً راقياً ويرشحك من الخدم لأجلها قدراً ويطلع منك في آفاق سمائها بدراً ويجعل لك بما يؤهلك له صيتاً ويسير لك ذكراً وحين جدد شكرك وأوصل على عادته ما يشيد أمرك قرر لك ولاية ثغر عسقلان - حماه الله تعالى - الذي هو ثغر الدين وكنانة الموحدين ووزر الأتقياء المجاهدين وشجًى في صدور الكفرة المعاندين فأمضى أمير المؤمنين ما رآه من هذا التقرير وعلم أن البركة مضمونةٌ فيما يتكلفه من التدبير وخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك ولاية هذا الثغر المحروس وعمله وما هو منتظم معه من سهله وجبله فاعرف قدر هذه النعمة التي رفعتك على جميع الأمراء وأغناك فيها حسن رأي أمير المؤمنين ووزيره السيد الأجل الأفضل عن الوسائط والسفراء وأحلتك أعلى مراتب الرفعة والسمو وأحظتك مع بعد الدار بمزية القرب من قلبيهما والدنو فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين من هذه الولاية الشامخة المحل التي غدا محظورها على غيرك من المباح لك المحل وتلقها من الشكر بما يجعلها إليك آوية ولديك مقيمةً ثاوية واعمل فيها بتقوى الله التي إذا أظلمت الخطوب طلعت في ليلها فجراً قال الله عز من قتال: " وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرَاً "

واشمل أهل هذه الولاية بالمماثلة بينهم فيما كان حقاً ولا تجعل بين الشريف والمشروف في الواجب فرقاً وأمر بالمعروف وابعث عليه وانه عنه المنكر وامنع من الإجراء إليه وأقم الحدود مستمراً في إقامتها على العادة ومتوقياً من نقص ما يؤمر به منها أو زيادة واصرف النصيب الأجزل الأوفر الأكمل إلى الاستيقاظ للعدو المخذول المجاور لك والبحث عن أخباره وعمل المكايد له ومواصلته بما يديم مخافته ووجله واغزه في عقر داره واقصده بما يقضي بخفض مناره ولا تهمل تسيير السرايا إليه وإطلاع الطائع بالمكاره عليه واعتمده بما يشرد عنه لذيذ منامه وازرع في قلبه خوفاً يهابك به في يقظته وفي أحلامه وافعل في أمر من يجرد إليك من عسكر البدل المنصور في تقرير نوب المناسر ولتتخير لها كل متوثب على الإقدام متجاسر ما تقتضيه الحال مما أنت أقوم لمعرفته وأهدى الناس في سبيله ومحجته ووفر حظ القاضي المكين متولي الحكم والمشارفة من إعزازك وإكرامك واشتمالك واهتمامك ورعايتك ومعاضدتك والعمل في ذلك بما هو معروفٌ من سياستك ومشهورٌ من رياستك وكذلك المستخدم في الدعوة الهادية ثبتها الله تعالى فاعتمده بما يعز أمره ويبسط أمله ويشرح صدره وضافر على أمر المال ووفور الاستغلال والعمل في ذلك بما فيه أكبر حظٍ للديوان واجر على ما هو مشهورٌ عنك في ولايتك من حسن السياسة والعمل بقضايا المصلحة والتبتل لما تستقيم به أمور الخدمة وحفظ أهل السلامة وأرباب الدين وإعمال السيف في مستوجبيه من المفسدين والمتمردين مما أنت أنفذ الولاة فيه وأعلمهم بما يوجبه الصواب ويقتضيه فاعلم هذا واعمل به وطالع مجلس النظر بما تجب المطالعة بمثله إن شاء الله تعالى.

المذهب الثاني أن يفتتح ما يكتب في الولاية بلفظ هذا ما عهد عبد الله ووليه فلان أبو فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين لفلان الفلاني حين ولاه كيت وكيت من غير تعرضٍ لتحميد في أول ما يكتب ولا في أثنائه ثم يقال: أمره بكذا وأمره بكذا على قاعدة ما كان يكتب في العهود بديوان الخلافة ببغداد وهو قليل الاستعمال عندهم للغاية القصوى ولم أظفر منه بغير هذا العهد وهذه نسخة عهد على هذه الطريقة كتب به عن الحاكم بأمر الله الفاطمي للحسين بن علي بن النعما بقضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب مضافاً إلى ذلك النظر في دور الضرب والعيار وأمر الجوامع والمساجد وهو: هذا ما عهد عبد الله ووليه المنصور أبو علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين للقاضي حسين بن علي بن النعمان حين ولاه الحكم بالمعزية القاهرة ومصر والإسكندرية وأعمالها والحرمين حرسهما الله تعالى وأجناد الشام وأعمال المغرب وإعلاء المنابر وأئمة المساجد الجامعة والقومة عليها والمؤذنين بها وسائر المتصرفين فيها وفي غيرها من المساجد والنظر في مصالحها جميعاً ومشارفة دار الضرب وعيار الذهب والفضة مع ما اعتمده أمير المؤمنين وانتحاه وقصده وتوخاه: من اقتفائه لآثاره وانتهائه إلى إيثاره في كل عليةٍ للدولة ينشرها ويحييها ودنيةٍ من أهل القبلة يدثرها ويعفيها وما التوفيق إلا بالله ولي أمير المؤمنين عليه توكله في الخيرة له ولسائر المسلمين فيما قلده إياه من أمورهم وولاه.

أمره أن يتقي الله عز وجل حق التقوى في السر والجهر والنجوى ويعتصم بالثبات واليقين والنهى وينفصم من الشبهات والشكوك والهوى: فإن تقوى الله تبارك وتعالى موئلٌ لمنوأل إليها حصين ومعقل لمن اقتفاها أمين ومعول لمن عول عليها مكين ووصية الله التي أشاد بفضلها وزاد في سناها بما عهد أنه من أهلها فقال تبارك وتعالى: " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين "

وأمره أن لا ينزل ما ولاه أمير المؤمنين إياه من الأحكام في الدماء والأشعار والأبشار والفروج والأموال عن منزلته العظمى من حقوق الله المحرمة وحرماته المعظمة وبيناته المبينة في آياته المحكمة وأن يجعل كتاب الله عز وجل وسنة جدنا محمدٍ خاتم الأنبياء والمأثور عن أبينا علي سيد الأوصياء وآبائنا الأئمة النجباء - صلى الله على رسوله وعليهم - قبلةً لوجهه إليها يتوجه وعيها يكون المتجه فيحكم بالحق ويقضي بالقسط ولا يحكم الهوى على العقل ولا القسط على العدل إيثاراً لأمر الله عز وجل حيث يقول: " فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ " وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ".

وأمره أن يقابل ما رسمه أمير المؤمنين وحده لفتاه برجوان من إعزازه والشد على يده وتنفيذ أحكامه وأقضيته والقصر من عنان كل متطاول على الحكم والقبض من شكائمه بالحق المفترض لله جل وعز ولأمير المؤمنين عليه: من ترك المجاملة فيه والمحاباة لذي رحم وقربى وولي للدولة أو مولى فالحكم لله ولخليفته في أرضه والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين والمتطاول عليه والمباين للإجابة إليه حقيقٌ بالإذالة والنهوض فليتق الله أن يستحيي من أحد في حق له: " وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ ".

وأمره أن يجعل جلوسه للحكم في المواضع الضاحية للمتحاكمين ويرفع عنهم حجابه ويفتح لهم أبوابه ويحسن لهم انتصابه ويقسم بينهم لحظه ولفظه قسمةً لا يحابي فيها قوياً لقوته ولا يردي فيها ضعيفاً لضعفه بل يميل مع الحق ويجنح إلى جهته ولا يكون إلا مع الحق وفي كفته ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه ومحاباته بين يدي الحكم العدل الديان: " يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِن خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَهْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه ".

وأمره أن ينعم النظر في الشهود الذين إليهم يرجع وبهم يقطع في منافذ القضايا ومقاطع الأحكم ويستشف أحوالهم استشفافاً شافياً ويتعرف دخائلهم تعرفاً كافياً ويسأل عن مذاهبهم وتقلبهم في سرهم وجهرهم والجلي والخفي من أمورهم فمن وجده منهم في العدالة والأمانة والنزاهة والصيانة وتحري الصدق والشهادة بالحق على الشيمة الحسنى والطريقة المثلى أبقاه وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى وأن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدله أو يرد شهادته ولا يقبله: ليكون في الأمرين على ما يحد له ويمثله ويأمن فيما هذه سبيله كل خلل يدخله إذ كانت الشهادة أس الأحكام وإليها يرجع الحكام والنظر فيمن يؤهل لها أحق شيءٍ بالإحكام قال الله تقدست أسماؤه: " يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أو الْوَالِدَيْنِ وأمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلي أموال الأيتام والوصايا وأولي الخلل في عقولهم والعجز عن القيام بأموالهم حتى يجوز أمرها على ما يرضى الله ووليه: من حياطتها وصيانتها من الأمناء عليهم وحفظهم لها ولفظهم لما يحرم ولا يحل أكله منها فيتبوأ عند الله بعداً ومقتاً آكل الحرام والموكل له سحتاً قال الله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ".

وأمره أن يشارف أئمة المساجد والقومة عليها والخطباء بها والمؤذنين فيها وسائر المتصرفين في مصالحها مشارفةً لا يدخل معها خللٌ في شيء يلزم مثله: من تطهير ساحتها وأفنيتها والاستبدال بما تبذل من حصرها في أحيانها وعمارتها بالمصابيح في أوقاتها والإنذار بالصلوات في ساعاتها وإقامتها لأوقاتها وتوفيتها حق ركوعها وسجودها مع المحافظة على رسومها وحدودها من غير اختراع ولا اختلاع لشيءٍ منها: " إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ على المُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً ".

وأمره أن يرعى دار الضرب وعيار الذهب والفضة بثقات يحتاطون عليهما من كل لبس ولا يمكنون المتصرفين فيهما من سببٍ يدخل على المعاملين بهما شيئاً من الوكس إذ كان بالعين والورق تتناول الرباع والضياع والمتاع ويبتاع الرقيق وتنعقد المناكح وتتقاضى الحقوق فدخول الغش والدخل فيما هذه سبيله جرحةٌ للدين وضررٌ على المسلمين يتبرأ إلى الله منهما أمير المؤمنين.

وأمره أن يستعين على أعمال الأمصار التي لا يمكنه أن يشاهدها بأفضل وأعلم وأرشد وأعمد من تمكنه الاستعانة به على ما طوقه أمير المؤمنين في استعماله.

قال الله عز وجل: " إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمواتِ والأَرْضِ والْجِبَالِ فأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ".

هذا ما عهد أمير المؤمنين فأوف بعهده تهتد بهديه وترشد برشده وهذا أول إمرة أمرها لك فاعمل بها وحاسب نفسك قبل حسابها ولا تدع من عاجل النظر لها أن تنظر لمآبها: " يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ".

وكتب في يوم الأحد لسبع ليالي بقين من صفر سنة 389.

المذهب الثالث من مذاهب كتاب الدولة الفاطمية ان يفتتح ما يكتب بالحمد لله أن يفتتح ما يكتب في الولايات بخطبة مبتدأةٍ بالحمد لله كما يكتب في أعلى الولايات في زماننا ويقال: يحمده أمير المؤمنين على كذا وكذا ويسأله أن يصلي على محمد وآله وعلى جده علي بن أبي طالب ثم يقال: وإن أمير المؤمنين لم يزل ينظر فيمن يصلح لهذه الولاية وإنه لم يجد من هو كفؤٌ لها غير المولى وإنه ولاه تلك الوظيفة ثم يوصى بما يليق به من الوصية ثم يقال: هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عليك فاعمل به أو نحو ذلك مما يعطي هذا المعنى وقد أورد علي بن خلف من إنشائه في كتابه مواد البيان المؤلف في ترتيب الكتابة للدولة الفاطمية عدة تقاليد لأرباب السيوف.

تقليد في رسم ما يكتب للوزير وهو: الحمد لله المنفرد بالملكوت والسلطان المستغني عن الوزراء والأعوان خالق الخلق -منها بلا ظهير ومصورهم في أحسن تصوير الذي دبر فأتقن التدبير وعلا عن المكلف والمشير المان على عباده بأن جعلهم بالتوازر إخواناً وبالتظافر أعواناً وأفقر بعضهم إلى بعض في انتظام أمورهم وصلاح جمهورهم.

يحمده أمير المؤمنين أن استخلفه في الأرض وناط به أسباب البرم والنقض واسترعاه على بريته واستخلصه لخلافته وقيضه لإعزاز الإسلام وحياطة الأنام وإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام ويسأله الصلاة على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وخيرة الأصفياء المؤيد فأفضل الظهراء وأكمل الوزراء: علي بن أبي طالب المتكفل في حياته بنصره وإظهار شريعته والقائم بعد وفاته مقامه في أمته صلى الله عليهما وعلى الأئمة من ذريتهما مفاتيح الحقائق ومصابيح الخلائق وسلم وشرف وكرم.

وإن الله تعالى نظر لخلقه بعين رحمته وخص كلاً منهم بضرب من ضروب نعمته وأقدرهم بالتعاضد على انتظام أمورهم الوجودية وأوجدهم السبل بالترافد إلى استقامة شؤونهم الدنيوية: لتنبجس عيون المعاون بتوازرهم وتدر أخلاف المرافق بتظافرهم.

وأولى الناس باتخاذ الوزراء واستخلاص الظهراء من جعله الله تعالى إلى حقه داعياً ولخلقه راعياً ولدار الإسلام حامياًن وعن حماه مرامياً واستخلفه على الدنيا وكلفه سياسة المسلمين والمعاهدين ولذلك سأل موسى عليه السلام وهو القوي الأمين في استخلاص أخيه هارون لوزارته وشد أزره بموازرته فقال: " واجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي " واستوزر محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو المؤيد المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ابن عمه علياً سيد الأوصياء بدليل قوله له: أنت مني كهارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي لأن الإمام لو تولى كل ما قرب وبعد بنفسه وعول في حيطته على حواسه لنص ذلك بتطرق الخلل ودخول الوهن والشلل وإنما تستعين الأئمة على ما كفلها الله بكفاة الأعوان وأهل النصرة في الأديان وذوي الاستقلال والتشمير والمعرفة بوجوه السياسة والتدبير والخبرة بمجاري الأعمال وإن أمير المؤمنين لم يزل يرتاد لوزارته حقيقاً بها مستحقاً نعتها جامعاً بين الكفاية والغناء والمناصحة والولاء والأبوة والاختصاص والطاعة والإخلاص والنصرة والعزم وأصالة الرأي والحزم ونفاسة السياسة والتدبير والنظر بالمصلحة في الصغير والكبير والاحتيال والتأديب وملابسة الأيام والتجريب والانتماء إلى كريم المناجب بضمير المناصب ويكرر في الاختيار تقليده ويجيل في الانتقاء تأمله وتدبره.

وكلما عرضت له مخيلة قمن توافق إيثاره أخلف نؤءها وكلما لاحت له بارقةٌ تطابق اختياره خبا ضوءها حتى انتهت رويته إليك وأوقفه ارتياده عليك فرآك لها من بينهم أهلاً وبتقمص سربالها أولى وبالاستبداد بإمرتها أحق وأحرى: لاشتمالك على أعيان الخصائص التي كان زيادٌ لها جامعاً وحلولك في أعيان المناقب التي لم تزل ترومها متحلياً بفرائدها وما شهرت به من إفاضة العدل والإقساط وإغاضة الجور والإشطاط وإنالة الحق والإنصاف وإزالة الظلم والإجحاف ومراعاة النصح بإنسانك شاهداً ومناجاته بحذارك جاهداً ولنهوضك بالخطب إذا ألم وأشكل والحادث إذا أهم وأعضل وتفردك بالمساعي الصالحة والآثار الواضحة والطرائق الحميدة والمذاهب السديدة والتحلي بالنزاهة والظلف والعطل من الطبع والنطف وفضل السيرة وصدق السريرة ومحبة الخاصة والعامة والمعرفة بقدر الأمانة والاضطلاع بالصنيعة والحفظ للوديعة.

فرأى أمير المؤمنين برأيه فيما يريه ويقضي له بالصلاح فيما يعزم عليه ويمضيه ويسدد مراميه ومساعيه ويتعهده في جميع مقاصده بلطف تحلو ثماره وتحسن عليه وعلى الكافة آثاره أن قد ولاك النظر في مملكته وأعمال دولته: برها وبحرها وسهلها ووعرها وبدوها وحضرها ورد إليك سياسة رجالها وأجنادها وكتابها وعرفائها ورعيتها ودواوينها وارتفاعها ووجوه جباياتها وأموالها وعدق بك البسط والقبض والبرم والنقض والحط والرفع والعطاء والمنع والإنعام والودع والتصريف والصرف ثقةً بأن الصواب منوط بما تسدي وتلحم وتفيض وتنظم وتنقض وتبرم وتصدر وتورد وتقرر وتأتي وتذر فلتهنأ هذه النعمة متملياً بملبسها سارياً في قبسها وتلقها من الشكر بما يسترهنها ويخلدها ويقرها عليك ويؤبدها واعرف ما أهلك له أمير المؤمنين من هذا المقام الأثير والمحل الخطير فإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

عن التبصير مستغنياً عن التنبيه - وأنت وإن كنت مكتفياً - بفضل حصافتك وثقابة فطنتك وحسن ديانتك ووثاقة تجربتك والتذكير فإن أمير المؤمنين لا يمتنع أن يزيدك من مراشده ما يقفك على سنن الصواب ومقاصده وهو يأمرك بتقوى الله تعالى في سرك وجهرك واستشعار خشيته ومراقبته والله قد جعل لمن اتقاه مخرجاً من ضيق أمره وحرجه ونصب له أعلاماً على مناهج فرجه.

وأن تستعمل الإنصاف والعدل وتسبغ الإحسان والفضل وتلين كنفك وتظهر لطفك وتحسن سيرك تفيض برك وتصفح وتحلم وتعفو وتكرم وتبصر من ترجو صلاحه وتفهمه وتنصف من أفرط جماحه وتقومه وتأخذ بوثائق الحزم وجوامع العزم والغلظة والشدة على من طغى ولج في غيه وعتا وبارز الله وأمير المؤمنين بالخلاف والشقاق والانحراف والنفاق مستعملاً فاضل التدبير عند الموادعة وفاصل المكافحة عند المقارعة مصلحاً للفاسد مشتتاً للشارد مكثراً لأولياء الدولة وخلصائها وحاصداً لبغاتها وأعدائها واعظاً مذكراً للغافل مؤمناً للمظلوم الخائف مخيفاً للظالم الحائف مستصلحاً للمسيئين مذكراً بإحسان المحسنين متنجزاً لهم الجزاء على بلائهم في الطاعة وآثارهم في الخدمة.

وأن تنظر في رجال الدولة على اختلافهم نظراً يسلك بهم سبيل السداد ويجري أمورهم على أفضل العرف المعتاد فأما الأماثل والأمراء والأعيان والرؤساء فتحفظ على من أحمدت طريقته وعرف إخلاصه وطاعته شعار رياسته وتزيد في تكرمته وتنتهي به إلى ما تتراءى إليه مواضي همته وأما طوائف الأجناد فتقرهم على مراتبهم في ديوان الجيش المنصور وتخصهم من عنايتك بالنصيب الموفور وتستخدمهم في سد الثغور وتسديد الأمور وتراعي وصول أطماعهم إليهم أوقات الاستحقاق إليهم وانفاقهم نصاب الوجوب منهم وأما الكتاب المستخدمون منهم في استخراج الأموال وعمارة الأعمال فتخص كفاتهم بما تقتضيه كفايتهم وأمناءهم بما توجبه أماناتهم وتستبدل بالعاجز الخبيث الطعمة والطبع المستشعر شعار المذمة: ليتحفظ النزه المأمون بنزاهته وأمانته ويقلع الدنس الخؤون عن دنسه وخيانته وتأمر من تختاره لخدمة أمير المؤمنين منهم أن يسيروا بالسير الفاضلة ويعملوا على الرسوم العادلة فلا يضيعوا حقاً لبيت مال المسلمين ولا يخيفوا أحداً من المعاملين.

وأما الرعية فيأمرك أن تحكم بينها بالسوية وتعتمدها بعدل القضية وترفع عنها نير الجور وتحميها من ولاة الظلم تسوسها بالفضل والرأفة متى استقامت على الطاعة وتأدبت في التباعة وتقومها متى أجرت إلى المنازح والافتتان وأصرت على مغضبة السلطان.

وأما الأموال وهي العدة التي ترهف عزائم الأولياء وتغض من نواظر الأعداء فتستخرجها من محقها وتضعها في مستحقها وتجتهد في وفورها وتتوفر على ما عاد بدرورها وأن تطالع أمير المؤمنين بذره وجله وعقد أمرك وحله وتنهي إليه كل ما تعزم على إنهائه وترجع فيه إلى آرائه: ليكرمك من مواد تبصيره وتعريفه ويزيدك من هدايته وتوقيفه بما يفضي بك إلى جادة الخير وسبيله ويوضح لك علم النجاح ودليله.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك: وقد أودعه من تلويح الإشارة ما يكتفى به عن تصريح العبارة ثقةً بأنك الأريب الألمعي والفطن اللوذعي الذي تنتهي به متون التذكير إلى أطرافه وحواشيه فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين وكن عند حسن ظنه في فضلك وصدق مخيلته في كمالك والله تعالى يعرف أمير المؤمنين وجه الخيرة في تصيير أمره إليك وتعويله في مهماته عليك ويوفقك لشكر الموهبة في استخلاصك والمنحة في اجتبائك وينهضك بما حملك من أعباء مظاهرته وجشمك من أثقال دولته ويسددك إلى ما يدر عليك أخلاف نعمته والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ما أورده في رسم تقليد زم الأقارب: وهو التقدمة على أقارب الخليفة وهذه نسخته: الحمد لله الذي ابتدأ بنعمته ابتداءً -ومنها واقتضاباً وأعادها جزاءً وثواباً وميز من اختصه بهداية خلقه واستخلصه لإظهار حقه بأضفاها عطافاً وأصفاها نطافاً وأحسنها

شعاراً وأجملها آثاراً واستخرجهم من أطيب البرية أعراقاً وأطهرها شيماً وأخلاقاً وأقدمها سؤدداً ومجداً وأكرمها أباً وجداً وتوحد بأفضل ذلك وأعلاه وأكمله وأسناه محمداً صفوته من خلصائه وخيرته من أنبيائه فأظهره من المنجب الكريم والمنجم الصميم والدوحة الطاهر عنصرها الشريف جوهرها الحلو ثمرها ورشح من اختاره من عترته لسياسة بريته والدعاء إلى توحيده وطاعته.

يحمده أمير المؤمنين أن شرفه بميراث النبوة وفضلة بأكرم الولادة والأبوة وأحله في الذروة العالية من الخلافة وناط به أمور الكافة ويسأله الصلاة على جده محمد وعلي أبيه صلى الله عليهما.

وإن أمير المؤمنين يرى أن من أشرف نعم الله عليه موقعاً وألطف مواهبه لديه موضعاً توفيقه للمحافظة على من يواشجه في كريم نسبه ويمازجه في صميم حسبه ويدانيه في طاهر مولده ويقاربه في طيب محتده وتنزيل كل ذي تميز منهم في دين وعلم ودراية وفهم وإحلاله بالمنزلة التي يستوجبها بفاضل نسبه وفضل مكتسبه ويبعث أنظاره على التحلي بخصاله والتزين بخلاله: ليحصل لهم من فضل الخلائق والآداب ما يضاهي الحاصل لهم من عراقة المناجب والأنساب ولذلك لا يزال ينوط أمورهم ويكل تدبيرهم إلى أعيان دولته وأماثل خاصته الذين يعتادون حضرته ويراوحونها ويطالعونه بحقائق أحوالهم وينهونها ويستخرجون أمره في مصالحهم بما يذلل لهم قطوف إحسانه وطوله ويعذب لهم مشارع بره وفضله وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

فإن كان العهد إلى خادم قال: ولما كنت بحضرة أمير المؤمنين معدوداً في أولي النباهة المترشحين للاستقلال بأعباء دولته وذوي الوجاهة المستخلصين لاستكفاء جلائل مملكته: لما اجتمع فيك من إباء النفس وعزتها ووثاقة الديانة وحصافتها وسداد السيرة واستقامتها ونقاء السريرة وطهارتها وتقيلك منهج أمير المؤمنين ومذهبه وتمثلك بهديه وأدبه ونشئك في قصور خلافته وارتضاعك در طاعته - رأى - والله تعالى يعزم له على الخير في آرائه ويوفقه لصالح القول والعمل في انحائه - أن قلدك زم بني عمه الأشارف الإسماعيليين ثقةً بسياستك وحميد طريقتك وإنافةً لمنزلتك وإعراباً عن أثير مكانتك.

وإن كان العهد إلى شريف قيل بدلاً من هذا الفصل: ولما كنت بحضرة أمير المؤمنين ممن زين شريف محتده بمنيف سؤدده وطاهر مولده بظاهر محتده وكريم تالده بنفيس طارفه وجليل سالفه بنبيل آنفه مقتفياً سنن أوليتك مفرعاً على أصول دوحتك ضارباً بالسهم المعلى في الدين والعلم حائزاً خصل السبق في الرجاحة والفهم رأى أمير المؤمنين أن قلدك نقابة بني عمه الأشراف الفلانيين: ثقةً بأنك تعرف ما يجمعهم وإياك من الأرحام الواشجة والأواصر المتمازجة وتحسن السيرة بهم والتعهد لهم والتوفر عليهم.

ثم يوصل الكلام بأي الخطابين قدم فيقال: فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين مستشعراً تقوى الله وطاعته معتقداً خيفته ومراقبته سائراً فيمن ولاك أمير المؤمنين بسيرته مستناً بسنته متأدباً بآدابه مقتفياً مناهج صوابه وإكرام هذه الأسرة التي خصها الله تعالى بكرامته وفرض مودتها على أهل طاعته ونزهها عن الأدناس وطهرها من الأرجاس فقال جل قائلاً: " إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً " .

واعرف لهم حق مراتبهم الدانية من أمير المؤمنين ونزلهم بحيث نزلهم الله من الدنيا والدين واعتمد تعظيم مشايخهم توقيرهم وسياسة شبانهم وتدبيرهم وتقويم أخلاقهم وتثقيفهم وخذهم بلزوم الطرائق الحميدة والمذاهب السديدة التي تليق بأصولهم الطاهرة وفروعهم المثمرة ومناحتهم الصميمة ومناجبهم الكريمة وتفقد منشاهم ومرباهم وخلطاهم وقرباهم فمن تناكرت أعراقه وأخلاقه وأنسابه وآدابه بالغت في تنبيهه وتعريفه فإن نجع ذلك فيه وإلا بسطت يدك إلى تهذيبه وإصلاحه وتأديبه: ليستيقظ من منامة غرته ويرجع إلى اللائق بشرف ولادته وانظر فيما أوقف عليهم من الأملاك والمستغلات والضياع والإقطاعات والرسوم والصلات واندب لتولي ذلك من تسكن إلى ثقته وأمانته من الكتاب وراع سيرته في عمارته وطريقته في تثمير ماله وزيادته فإن ألفيته كافياً أميناً أقررته وإن وجدته عاجزاً خؤوناً صرفته واستبدلت به من يحسن خبرك ويطيب أثرك وأجر الأمر في قسمته بين ذكورهم وإناثهم على الرسوم التي يشهد بها ديوانهم واكتب الرقاع عنهم إلى الحضرة في اقتضاء رسومهم وما يعرض من مهمات أمورهم وتتنجز كل ما يتعلق بهم وتنوب عنهم فيه: لتستقيم شؤونهم بسياستك وتنتظم أحوالهم بحسن سيرتك.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فاعمل به وانته إلى متضمنه إن شاء الله تعالى.

ما أورده في رسم تقليدٍ بنقابة العلويين وهو: الحمد لله الذي انتجب من أسرار عباده قادةً جعلهم لمصالحهم نظاماً -ومنها وانتخب من أخيار خليقته سادةً صيرهم لأمورهم قواماً وعدق بهم هداية من ضل وتقويم من دل وتعليم من جهل وتذكير من غفل ونصبهم أعلاماً على طرق الرشاد وأدلة على سبل السداد.

يحمده أمير المؤمنين أن اختصه بأثرة الخلافة والإمامة وميزه بمزية الولاية على الأمة والزعامة وأنهضه بما كلفه من سياسة بريئته وتنزيلهم منازلهم من اختصاصه وإيثاره وإحلالهم في محالهم من استخلاصه واختياره ويسأله الصلاة على أشرف الأمم نجاراً وأطيبهم عنصراً وأعظمهم مفخراً سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه وباب حكمته وعلمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الراسخ في نسبه المداني له في حسبه سيفه الباتر ومعجزه الباهر ومكاتفه المظاهر وعلى الأئمة من ذريتهما المهديين وسلم تسليماً.

وإن أمير المؤمنين - بما خصه الله تعالى من شرف المنجم والمولد وكرم المحتد وخوله من مناصب الخلفاء والأئمة وناط به من إمامة الأمة - يرى أن من نعم الله التي يجب التحدث بشكرها وتحق الإفاضة في نشرها توفيقه للنظر في أحوال ذوي لحمته وأولي مناسبته المواشجين له في أرومته المعتزين إلى كرم ولادته وتوخيهم بما يرفلهم في ملابس الجمال ويوقلهم في هضبات الجلال ويرتبهم في الرتب التي يستوجبونها ويراها أولى بمغارسهم وأنسابهم وماساً بأنفسهم وآدابهم ولذلك يصرف اهتمامه إلى ما يجمع لهم بين شرف الأعراق وكرم الأخلاق وطهارة العناصر والأواصر وحيازة المناقب والمآثر.

ولما كنت بحضرة أمير المؤمنين من جلتهم العلماء وطهرتهم الأزكياء وأبرارهم الصلحاء وخيارهم الفضلاء الذي تضارعت أخلاقهم وأعراقهم وتقارعت أنسابهم وآدابهم وتشاكهت مواردهم ومصادرهم وتشابهت أوائلهم وأواخرهم واتفقت جيوبهم ودخائلهم وتوضحت عن الدين والخير مخايلهم هذا مع ما يراعاه أمير المؤمنين من كريم مساعيك في خدمته وإصابة مراميل في طاعته واعتصامك بحبل متابعته ونهوضك بحقوق ما أسبغه عليك من نعمته رأى أمير المؤمنين - والله تعالى يقضي له في أن قلدك النقابة على الأشراف الطالبيين أجمعين المقيمين - آرائه بحسن الاختيار ويمده بالعون والتأييد في مجاري الأقدار بالحضرة وسائر أعمال المملكة شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً ثقةً بأنك تصدق مخيلته فيك واعتقاده وتستدعي بكفاية ما استكفاك شكره وإحماده وتستدر بالاستقلال والغناء أخلاف إحسانه وفضله وتمتري بالاضطلاع بمضلع الأثقال فائض امتنانه وطوله فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين عاملاً بتقوى الله وطاعته مستشعراً لخيفته ومراقبته وأحسن رعاية من عدق بك رعايته وسياسة من وكل إليك سياسته واعلم أن أمير المؤمنين قد ميزك على كافة أهل نسبك وجميع من يواشجك في حسبك وجعلك عليهم رئيساً ولهم سائساً فاعرف لهم حق القرابة والمشابكة وتشاجر الأنساب والمشاركة فإن الله تعالى يقول: " قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى " وعمهم جميعاً بالتوقير والإكرام والتفقد والاهتمام واتخذ شيخهم أباً وكهلهم أخاً وطفلهم ولداً وافرض لهم من الحنان والإشفاق والفضل والإحسان ما تقتضيه الرحم الدانية والأواصر المتقاربة وكن مع ذلك متفقداً لأحوالهم مطالعاً لسيرهم وأفعالهم فمن ألفيته سالكاً لأقصد الطرائق متخلقاً بأجمل الخلائق حارساً لشرفه متشبهاً بسلفه فزده في الأثرة زيادةً ترغب أمثاله في اقتفاء مذهبه وتبعثه على التأدب بأدبه ومن وجدته مستحسناً ما لا يليق بصريح عرقه راكباً ما ليس من طرقه فأيقظه بنافع الوعظ وذكره بناجع اللفظ فإن استقام على الطريقة المثلى ورجع إلى الأجدر والأولى عرفت ذلك من فعله وفرضت له ما تفرضه لصلحاء أهله: فإن الله تعالى قد فتح باب التوبة ووعد بإقالة أهل الإنابة ومن انحرف عن التذكير وانصرف عن التبصير وأصر وتمادى وارتكب ما يوجب حداً امتثلت أمر الله تعالى فيه وأقمت الحد عليه غير مصغٍ إلى شفاعة ولا موجب لحق ذريعة: فإن أمير المؤمنين يصل من ذوي أنسابه من وكدها بأسبابه ويقطع من أوجب الحق قطيعته ولا يراعي رحمه وقرابته.

ووكل بهم من يروي إليك أخبارهم ويكشف لك آثارهم: ليعلموا أنهم ببالٍ من مطالعتك وبعينٍ من اهتمامك ومشارفتك فيكبح ذلك جامحهم عن العثار والسقط ويمنع طامحهم من الزلل والغلط وتوخهم في خطابك بالإكرام وميزهم عن محاورة العوام ولا تقابل أحداً منهم ببذاء ولا سب ولا قدح في أمٍ ولا أب فإنهم فروع دوحة أمير المؤمنين وعترته الذين طهرهم الله من الأرجاس وفرض قراهم على الناس ووفر اهتمامك على صيانة النسب من الوكس وحياطته من اللبس فإنه نسب الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يتصل يوم انقطاع الأنساب وسببه الذي يتشج يوم انفراط الأسباب وأثبت أسماء كافة من يعتزي إلى هذا البيت منسوبة إلى أصولها: لتأمن من دخيل ملصقٍ يتزور عليها ومختلق ملحق ينضم إليها وإن عرف مدعٍ نسباً لا حجة له فيه ولا بينة عنده عليه فغلظ له العقاب واشهره شهرة تحجزه عن معاودة الكذاب واحتط في أمر المناكح وصنها عن العوام ووقر كرائم أهل البيت عن ملابسة اللئام وإن ادعى أحدٌ من الرعية حقاً على شريفٍ فاحملها على السوية وعده بإنصاف خصمه وامنعه من ظلمه وإن ثبت أيضاً في مجلس الحكم حقٌ على أحد من الأشراف فانزعه منه وول على من في البلاد أهل السداد منهم والرشاد ومرهم بتقيل مذهبك ونقل أدبك واصرف اهتمامك إلى حفظ أوقافهم وأملاكهم ومستغلاتهم في سائر الأعمال

وحطها من العفاء والاضمحلال وتوفر على تثمير ارتفاعها وتزجية مالها واستخدم لضبط حاصلها وجهات منفقها من تسكن إلى ثقته وتثق بنهضته ووزع ما يرتفع من استغلالها بينهم على رتبهم التي يشهد بها ديوانهم.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فآنته إليه منتهجاً لتمثيله معتمداً بدليله وطالع أمير المؤمنين بما التبس عليك وأبهم وأشكل واستعجم: ليقفك على واضح السنن ورشدك إلى أحسن السنن واستعن بالله يهدك لمعونته واستهده يؤيدك بهدايته إن شاء الله تعالى.

ومنها - ما أورده في رسم تقليدٍ بزم طوائف الرجال.

الحمد لله البديع تقديره الحكيم تدبيره الذي أتقن ما صنع وأحكمه وكمل ما أبدع وتممه وأعطى كل مصلحة من مصالح عباده نظاماً وكل مرفق من مرافق خلقه قواماً فلا يقارب فيما خلق وصور ولا يشاكل فيما قدر ودبر ورأب ثلم بريته بمن استخلصه من خاصتها لسياسة عامتها وانتخبه من أشرافها لتسديد أطرافها وإقامة من سادها لإصلاح فاسدها وتقويم يحمده أمير المؤمنين أن أحله في المنزلة العلية: من اصطفائه واستخلاصه والذروة السنية: من اجتبائه واختصاصه وفوض إليه تنزيل الرتب وتخويلها وإقرار المنازل وتحويلها وناط به البرم والنقض والرفع والخفض والريش والحص والزيادة والنقص وسوغه الشكر على مواهبه السابغ عطافها الفسيحة أكتافها البعيدة أطرافها ويسأله أن يصلي على نبي الرحمة ومفيد الحكمة سيدنا محمد خاتم الرسل وموضح السبل صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه وخليفته على أمته وقومه: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ومولى المسلمين وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين.

وإن أمير المؤمنين بما فوضه الله تعالى إليه من حماية الأنام والمراماة عن دار الإسلام وكفله من غض نواظر أهل العناد وتنكيس رؤوس رؤساء الإلحاد لا يزال ينظر في مصالح عبيده وتوفر سياسة رجال دولته وجنوده الذين هم حزب الله الغالبون وجنده المنصورون ويرد النظر في أمورهم والتقدم عليهم وزم طوائفهم إلى خواص دولته وأعيان مملكته الذين بلا طرائقهم وحمد خلائقهم: من الغناء والكفاية والسداد وحسن السياسة ونقلهم في الخدم فاستقلوا بأعبائها وأثقالها ونهضوا بناهض أعمالها ومضت عزائمهم في حياطة البيضة واشتدت صرائمهم في تحصين الحوزة وصدقت نياتهم في المراماة عن الملة والمحاماة عن الدعوة والدولة.

ولما كنت بحضرة أمير المؤمنين معداً لمهماته معدوداً في أماثل كفاته مشهوراً بحسن السياسة لما تورده وتصدره معروفاً بفضل السيرة فيما تأتيه وتذره رأى أمير المؤمنين - والله يرشده لأعود الآراء بالصلاح والإصلاح وأدناها من الخير والنجاح - أن قلدك زمام طائفة الرجال الفلانيين ويوصفون بما تقتضيه مكانتهم من الدولة وحسن سيرهم في الخدمة إنافةً بقدرك وإبانةً عن خطرك وتنويهاً بذكرك وتفخيماً لأمرك.

وهو يأمرك بتقوى الله تعالى وطاعته واستشعار مراقبته ورياضة خلائقك على محبة العدل وإيثار الفضل واتباع اللطف واجتناب العسف وتوخي الإنصاف وبسط الهيبة من غير إجحاف وأن تخص هذه الطائفة من النظر في أمورها وتعهد صغيرها وكبيرها بما يسدد أحوالها ويحقق آمالها وتأخذها بأحسن الآداب اللائقة بأمثالها وسلوك الطريقة المعهود من أعيانها وأماثلها وتشعرها من أمير المؤمنين بما يشرح صدرها في خدمته ويقر عينها في طاعته والمسارعة إلى مكافحة أعدائه والتميز في نصرة أوليائه وتطالع بحال من يستحق الاحترام ويستوجب إفاضة الإنعام وتكتب الرقاع عنها مستدعياً للرباطات في الأطماع والعاجزين شاملاً في التعويد والتأمير والتلقيب والولايات قاصداً في ذلك ما يفسح آمالها في الآجال ويوثقها بدرور الأمثال فإنهم أمراء الحروب وكفاة الخطوب الذين يجاهدون عن الحوزة ويرامون عن الدولة وافرض لهم من الإكرام وتام الاهتمام ما تقتضيه مكانتهم في الدولة وموضعهم من الخدمة وتكفل أوساطهم بالرعاية واصرف إليهم شطراً موفوراً من العناية وألحق من برز منهم وتقدم ونهض وخدم بنظرائه وأمثاله وساو بينه وبين أشكاله وتعهد أطرافهم بملاحظتك وتفقدهم بسياستك وخذهم بلزوم السير الحميدة والمذاهب السديدة والتوفر على ما يرهف عزائمهم ويؤيد أيديهم ولا تفسح لأحد من هذه المذاهب في مخالطة العوام ولا مشاركة التجار والاحتراف ووكل بهم من النقباء من يبتلي سيرهم وينهي إليك أخبارهم: فمن علمته قد اجترأ إلى نسخ المذهب فتناوله بأليم الأدب واحضضهم على الإدمان في نقل السلاح والضرب بالسيف والمطاعنة بالرمح والإرماء عن القوس وميز من مهر واستقل وقصر بمن ضجع وأخل فهم كالجوارح التي ينفعها التعليم والإجراء ويضرها الإهمال والإبقاء وفي صرفك الاهتمام إليهم ما يزيد في رغبة ذي الهمة العلية ويبعث المعروف في النفس الدنية وأن تطالبهم بالاستعداد وارتباط الخيول الجياد والاستكثار من السلاح الشاك والجنن وليكن ما تطالبهم بإعداده من هذه الأصناف على حسب الفروض من العطاء ولا ترخص لأحد في الاقتناع بما لا يليق بمنزلته والرضا بما يقع دون ما يعتده أماثل طبقته.

ومن مات من هذه الطائفة وخلف ولداً يتيماً فضمه إلى أمثاله وانظر في حاله ووكل به من يفقهه في دينه ويعلمه ما لا غنى به عن تعليمه من كتاب الله وسنته ومن يهذبه في الخدمةويعلمه العمل بآلاتها والتنقل في حالاتها ويطلق له من إنعام أمير المؤمنين ما يقوم بكلفتها ولوازمها وخذ كل من تقدمهم بخدمها والجري على عادتها في النهوض بما يستنهض به ولا يفسح لها في التثاقل عنه وسو بينهم في الاستخدام ولا تخص قوماً دون قوم بالترفيه والإجمام فإن في ذلك إرهافاً لعزائمهم وتقويةً لمننهم وإفاضة العدل عليهم.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك قد وكد به الحجة عليك فتأمله ناظراً وراجعه متدبراً وانته إلى مصايره ومراشده واعمل على رسومه وحدوده يوفق الله مقاصدك ويسعد مصالحك ويتولاك إن شاء الله تعالى.

ورسوم هذه العهود يتفاضل الخطاب فيها بحسب تفاضل الطوائف ومن يولى عليها.

وهذا الأنموذج متوسط تمكن الزيادة عليه والنقص منه.

ما أورده في رسم تقليد بإمارة الحج وهذه نسخته: الحمد لله الذي طهر بيته من الأرجاس وجعله مثابةً للناس وآمن من -ومنها حله ونزله وأوجب أجر من هاجر إليه ووصله.

يحمده أمير المؤمنين أن خصه بحيازة البيت الأعظم والحجر المكرم والحطيم وزمزم وأفضى إليه ميراث النبوة والإمامة وتراث الخلافة والزعامة وجعله لفرضه موفياً ولحقوقه مؤدياً ولحدوده حافظاً ولشرائعه ملاحظاً ويسأله أن يصلي على من أمره بالتأذين في الناس بالحج إلى بيته الحرام لشهادة منافعهم وتأدية مناسكهم وقضاء تفثهم ووفاء نذرهم وذكر خالقهم والطواف بحرمه والشكر على نعمه: سيدنا محمدٍ رسوله صلى الله عليه وعلى وصيه وخليفته وباب مدينة علمه وحكمته: علي بن أبي طالب سيد الوصيين وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين.

وإن أولى ما صرف أمير المؤمنين إليه همته ووفر عليه رعايته مثابراً عليه وناهضاً لحق الله تعالى فيه النظر في أمر رفق الحجيج الشاخصة إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام ورده إلى من حل محلك من الدين وتميز بما تميز به صلحاء المسلمين: من العلم ورجاحة الحلم ونفاذ البصيرة وحسن السريرة وعدل السيرة ولذلك رأى أمير المؤمنين أن قلدك أمر رفق الحجيج المتوجهة من موضع كذا إلى الحرمين المحروسين وولاك الحرب والأحداث بها: واثقاً باستقلالك غنائك وسدادك وإصابة آرائك فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين بعزمٍ ثاقب ورأيٍ صائب وهمة ماضية ونفس سامية وشمر فيه تشميراً يعرب عن محلك من الاضطلاع ويدل على استقلالك بحق الاصطناع وخص الحجاج بأتم الأحظ وكن من أمرهم على تيقظ واعتمد ترقبهم في المسير وسو في رعايتهم بين الصغير والكبير فإنهم جميعاً إلى الله متوجهون وإلى بيته الحرام قاصدون وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وافدون قد استقربوا بعيد الشقة واستدمثوا خشن المشقة رغبةً في ثواب الله وعفوه والنجاة من عقابه وسطوه وتقرباً إليه بارتسام أمره وطاعته وإيجاباً للحرمة بالحلول في عراص بيته وأفنيته فمرافدتهم واجبة ومساعدتهم لازبة حتى يصلوا إلى بغيتهم وقد شملتهم السلامة في الأنفس والأموال والأمنة في الخيل والرجال: متوجهين وقارين وقافلين بعد أن يشهدوا منافعهم ويؤدوا مناسكهم ويعملوا بما حد لهم.

وردهم في سيرهم عن الازدحام ورتبهم على الانتظام وراعهم في ورود المناهل وامنعهم عن التحادث عليها والتكاثر فيها حتى لا ينفصلوا منها إلا بعد الارتواء ووقوع التساوي والاكتفاء وقدم أمامهم من يمنعهم من التسرع وأخر وراءهم من يحفظهم من التقطع ورتب ساقتهم ولا تخل بحفظهم من جميع جهاتهم وطالع أمير المؤمنين في كل منزل تنزله ومحلٍ تحله بحقيقة أمرك ليقف عليها ويمدك بما ينهضك فيها.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فتدبره عاملاً عليه متبصراً بما فيه عاملاً بما يحسن موقعه لك ويزيدك من رضا الله وثوابه إن شاء الله تعالى.

ومنها - ما أورده في رسم تقليد الإمارة على الجهاد وهذه نسخته.

الحمد لله الصادق وعده الغالب جنده ناصر الحق ومديله وخاذل الباطل ومذيله محل النكب بمن انصرف عن سبيله ومنزل العقاب بمن تحرف عن دليله الذي اختار دين الإسلام فأعلى مناره ووضح أنواره واستخلص له من أوليائه أعضاداً لا تأخذهم

في الحق لومة لائم ولا يغمضون عن المكافحة دونه جفن حالم وجزاهم على سعيهم في نصرته جزاءً فيه يتنافس المتنافسون وإلى غاياته يرتمي بالهمم المجدون قصداً من الله تعالى في إعزاز دينه وإنجاز ما وعد به خلفاءه من إظهاره وتمكينه وقطعاً لشوكة أهل العناد وتعفية لآثار ذوي الفساد وتوفيراً لأحاظي من بذل الاجتهاد من سعداء عباده في الجهاد.

يحمده أمير المؤمنين أن اختصه بلطيف الصنع فيما استرعاه ووفقه للعمل بما يرضيه فيما ولاه وأعانه على المراماة عن دار المسلمين والمحاماة عن ذمار الدين ومجاهدة من ند عنهما صادفاً ونكب عن سبيلهما منصرفاً وإبادة من عند عن طاعته واتخذ معه إلهاً آخر لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يقول المشركون علواً كبيراً واستنزالهم من صياصيهم قهراً واقتساراً وإخراجهم عن بيوتهم عزاً واقتداراً وإذاقتهم وبال أمرهم وعاقبة كفرهم اتباعاً لقول الله تعالى إذ يقولك " يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مع الْمُتَّقِينَ ".

ويسأله أن يصلي على أشهر الخلق نوراً وفضلاً وأطهر البرية فرعاً وأصلاً وأرشد الأنبياء دليلاً وأقصد الرسل سبيلاً: محمدٍ رسوله الذي ابتعثه وقد توعر طريق الحق عافياً وتغور نور الهدى خافياً والناس يتسكعون في حنادس الغمرات ويتورطون في مهاوي الهلكات لا يعرفون أنهم ضلالٌ فيستهدون ولا عميٌ فيستبصرون فأيده وعضده ووفقه وسدده ونصره وأظهره وأعانه وآزره وانتخب له من صفوة خلقه أولياء كاتفوه على ظهور حقه سمحوا بالأنفس العزيزة والأموال الحريزة وجاهدوا معه بأيدٍ باسطةٍ ماضية وعزائم متكافية متوافية وقلوبٍ على الكفار قاسية وعلى المؤمنين رؤوفة حانية فلما صدقوا ما عاهدوا الله عليه وارتسموا أمره وانتهوا إليه شركهم معه في الوصف والثناء وأضافهم إليه في المدح والإطراء فقال جل قائلاً: " محمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ على الكُفَّارِ رُحماءُ بَيْنَهُم " صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سيف الله الفاصل وسنانه العامل ومعجز رسوله الباهر ووزيره المظاهر مبيد الشجعان ومبير الأقران ومقطر الفرسان ومكسر الصلبان ومنكس الأوثان ومعز الإيمان الذي سبق الناس إلى الإسلام وتقدمهم في الصلاة والصيام وعلى الأئمة من ذريتهما الميامين البررة الطاهرين وسلم تسليماً.

وإن أمير المؤمنين بما كلفه الله تعالى من أمر دينه ووعده من إظهاره وتمكينه يرى أن أفضل ما رنا إليه ببصر بصيرته ورمى نحوه بطامح همته ما شملت الدين والدنيا بركته وعمت الإسلام والمسلمين عائدته وحل محل الغيث إذا تدفق وهمع النهار إذا تألق ولمع.

ولا شيء أعود على الأمة وأدعى إلى سبوغ النعمة من علو كلمتهم وارتفاع رايتهم وتحصين حوزتهم وإيمان منصتهم وتأدية الفريضة في مجاهدة أعدائهم وصرفهم عن غلوائهم واقتيادهم بالإذلال والصغار وكبحهم بشكائم الإهوان والاقتسار ومواصلتهم بغزو الديار وتعفية الآثار وإيداع الرعب في صدورهم وتكذيب أماني غرورهم ووعظهم بألسنة القواضب ومكاتبتهم على أيدي الكتائب: لما في ذلك من ذل الشرك وثبوره وعز التوحيد وظهوره ووضوح حجة أولياء الله تعالى على أعدائه بما ينزله عليهم من نصره ومعونته ويؤيدهم به من تأييده وعنايته لا جرم أن أمير المؤمنين مصروف العزمة موقوف الهمة على تنفيذ البعوث والسرايا والمواصلة بالجيوش والعرايا وتجهيز المرتزقة من أولياء الدولة وحض المطوعة من أهل الملة على ما أمر الله تعالى به من غزو المشركين وجهاد الملحدين نافذاً في ذلك بنفسه وباذلاً فيه عزيز مهجته عند تسهل السبل إلى البعثة ووجود الفسحة ومعولاً فيه عند التعذر على أهل الشجاعة والرجاحة من أعيان أهل الإسلام الذين أيقنت ضمائرهم وخلصت بصائرهم ورغبوا في عاجل الذكر الجميل وآجل الأجر الجزيل وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يجريه فيما يصدر ويورد على أفضل ما لم يزل يولى ويعود: من التوفيق في رأيه وعزمه والتسديد في تدبيره وحزمه ويؤتيه من ذلك أفضل ما آتاه ولياً استخلفه وأميناً كفله عباده وكلفه وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

ولما كنت بحضرة أمير المؤمنين ممن يعده لجلائل مهماته ويعده من أعيان كفاته ورآه سداداً للخلل وعماداً في الحادث الجلل وسهماً في كنانته صائباً وشهاباً في سماء دولته ثاقباً وسيفاً بيد الدين قاطعاً ومجناً عن الحوزة دافعاً رأى - وبالله التوفيق - أن يقدمك على جيوش المسلمين وبعوثهم الشاخصة إلى جهاد المشركين فقلدك الحرب والأحداث بها وعقد لك لواءً بيده يلوي إليك الأعناق وينكس لك رؤوس أهل الشقاق وشرفك بفاخر ملابسه وحملانه وضاعف لديك مواد إحسانه وحباك بطوقٍ من التبر مرصع بفاخر الدر عادقاً هذه الخدمة منك بالنصيح المأمون والنجيح الميمون الذي تتوضح فيه أنوار اللبابة وتلوح عليه آثار النجابة واثقاً بما تنطوي عليه من الإخلاص والولاية وتتحلى به من الغناء والكفاية ويفترضه من الاستمرار على سنن الطاعة والاستقامة على سمت الانقياد والتباعة وتوجبه من مناصحة المسلمين والتشمير في نصرة الدين.

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين مستشعراً تقوى الله وطاعته في الإسرار والإعلان معتقداً خيفته ومراقبته في الإظهار والإبطان مخلص القلب رابط اللب واثقاً بنصر الله الذي يسبغه على خلصائه ويفرغه على أوليائه آخذاً بوثائق الحزم متمسكاً بعلائق العزم ناظراً من وراء العواقب متفرساً في وجوه التجارب مقلصاً سجوف الآراء بإضفاء غيرا التدبير ممراً مرائر التقرير موغلاً في المخاتل والمكايد حارساً للمطالع والمراصد يقظان النفس والناظر متحرزاً في موقف الواني والمخاطر وأن تتوجه على بركة الله وعونه وحسن توفيقه ويمن تأييده بعد أن تتسلم من الجيوش المنصورة جرائد بعدة رجال أمير المؤمنين السائرين تحت رايتك المنوطين بسياستك وتعرضهم عليها فتتخير من شهرت بسالته وكفاحه وعتق جواده وكمل سلاحه وعرف بصدق العزيمة في مقارعة الأعداء وحسن الطوية في الإخلاص والولاء وتستبدل بالورع الجبان والرعديد الضعيف الجنان الناقص العدة المقصر النجدة المدخول النية النغل الطوية فإذا كملت العدة من أهل الجلد والشهامة وأولي الحماسة والصرامة استدعيت من بيت المال ما ينفق فيهم من مستحق أطماعهم ومعونة طريقهم وأجريت النفقة فيهم على أيدي عارضيهم وكتابهم فإذا أزحت عللهم فاستصحب من العدد والسلاح والخيم والأزواد والأموال ما يرهب الأعداء وينهض الأولياء وأذن في مطوعة المسلمين بجهاد المشركين في كل بلدةٍ تنزلها ومحلة تحلها وابذل لهم الظهر والميرة والمعونة بالسلاح وما يستدعونه وأرهف عزائمهم في غزو الكفار وإجلائهم عن الأوطان والديار واسلك الطريق القاصد ولا تفارق أهل المناهل والموارد ولا تغذ السير إغذاذاً تنقطع له الرجال وتتأخر به الأزواد ولا تتلوم في المنازل تلوماً تتصرم فيه الآماد ويوجد المشركين مهلة للاحتيال والاستعداد وراع جيشك عند الحل والترحال ولا تباعد بين مضاربهم إذا نزلوا ولا تمكنهم من التفرد إذا ارتحلوا وخذهم بالاجتماع والالتئام والتآلف والانتظام ولا سيما إذا حصلوا في أرض العدو فإنهم ربما اهتبلوا الفرصة في المسير المتسرع والمبيت المتفرد ونالوا منه ما تتوسم به الهضيمة على أهل الإسلام والعياذ بالله.

وإذا دانيت القوم فأعط الحزامة حقها مستعملاً تارةً للدهاء والخداع وأخرى للقاء والقراع فربما أغنت المساترة عن المكاشرة ونابت مخايل التلطف عن مداخل التعسف وكفت غوائل المخادعة عن مواقف المماصعة وقد قال إمام الحرب وزعيم الطعن والضرب: الحرب خدعةٌ.

وإذا عزمت على المصاع والمنافحة والإيقاع والمكافحة فبث من سرعان الفرسان الذين لا تشك في محض نصحهم ولا ترتاب بصدق نياتهم طلائع تطلعك على الأخبار وعيوناً تكشف لك حقائق الآثار وتغض الطرف عن مجاوري الديار ومر من تقدمه عليهم بأن لا يقتحم خطراً ولا يركب غرراً وليكن من تنفذه في ذلك من أهل الخبرة بالطرق والساحات والدخلات والأدوية والفجوات حتى لا يتم للعدو فيهم حيلة ولا ينالهم منه غيلة فإذا أتوك بالخبر اليقين وأقبسوك قبس النور المبين بدأت الحرب مستخيراً لله تعالى مقدماً أمامك الاستنجاح به واستنزال النصر من عنده مرتباً للكتائب معيباً للصفوف والمقانب زاحفاً بالراجل محصناً بالفارس والرامي مجتناً بالتارس واشحن القلب والجناحين بالشجعان المستبقين والأبطال الحلاسين وأنزل إلى رحى الحرب من خف ركابه من الأنجاد الراغبين في علو الصيت والذكر الطالبين الفوز بالثواب والأجر واجعل وراءهم ردءاً وأعدلهم مدداً يوازرونهم إن يجئهم ما لا يطيقونه ويحين ويطايرونهم على ما خلص إليهم وادعين وقف من التأخير والإقدام والنفود والإحجام موقفاً تعطي الحزامة فيه حظها والروية قسطها مصمماً ما كان التصميم أدنى لانتهاز الفرصة واهتبال الغرة متلوماً ما كان التلوم أحمد للعاقبة وأسلم للمغبة.

واعلم أن ريح النصر قد تهب للكافرين على المسلمين فلا يكن ذلك قادحاً منك في الدين فإن الله تعالى يستدرج بسنة الباطل لا بسنة الإظفار ويريهم الإقدار في مخايل الأقدار حتى إذا فرحوا بما أوتوا أوردتهم كواذب أمانيهم موارد الهلكة وأخذوا بغتة ودالت دولة الحق لأوليائها مرفوعة الأعلام آخذةً بنواصي العداة والأقدام وتحقق أن الأمور بخواتيمها والأعمال بتمامها وأنه ولي المؤمنين.

ما جمع موقفٌ فئتي شكٍ ويقين وكفر ودين إلا كان الفلج والنصر لأهل التقى والدين والخسارة والبوار على الشاكين الكافرين تصديقاً لوعده تعالى إذ يقولك " ولَقَدْ سَبَقَتْ وتحفظ بنفسك ولا تلقها في المهالك متهوراً ولا ترم بها في المتالف مخاطراً ولا تساعدها على مطاوعة الحمية والنخوة وتحرز قبل السقطة والهفوة فإنك - وإن كنت واحداً من الجيش - أوحدهم الذين يتبادرون إليه ويعتمدون في السياسة عليه وما دمت محفوظاً ملحوظاً فالهيبة عالية والعين سامية وإن ألم بك - والله يعصمك - ريب توجه الخلل وأرهف حد الوهن والشلل. -خطب أو نالك - والله يكفيك

وإن دعتك نفسك إلى الجهاد وحملك تصرفك على الكفاح والجلاد فليكن ذلك عند الإحجام وتزلزل الأقدام: فإن ذلك يشحذ عزائم المسلمين ويقوي شكائم المتأخرين غير مضيع للحذر في الورد والصدر وكذلك فاحرس أماثل القواد ووجوه الأجناد الذين تشفى صدور الكفار بمصارعهم وتنقع غللهم بمضايعهم وحام عنهم حماية الجفون عن المقل وصنهم صيانة الصوارم

من الخلل ودافع عن كافة جند المسلمين المرتزقين والمتطوعين فإن الله تعالى قد كافى بين دمائهم وسوى بين ضعفائهم وأقويائهم على أنه سبحانه قد وعدهم عن بذل الأنفس في مجاهدة الملحدين وإبادة المشركين الجزاء الجسيم والنعيم المقيم والبقاء الذي لا يعتوره فناء والجذل الذي لا يعترضه انقضاء.

وقدم على الأساطيل والمراكب الحربية وأعمالها ورجال البحر من تختاره لذلك من أماثل الأمراء المشهورين بالشدة والنجدة والبصارة والمهارة والخبرة بشقة البحر والقتال فيه ومره بالتسحيل وملازمة السيف والإرساء من الشطوط بحيث يتأمل مضاربك ليكون ما حمل عليها من ميرةٍ وعدةٍ قريباً منك فإن نازلت ثغراً من ثغور الساحل فاملأه بالخيل من بره وبالسفائن من بحره واستخدم لحفظ ما فيها من الأزواد والأسلحة والعدد والنفط ودهن البلسان والحبال والعرادات وغيرها من الآلات من تثق بأمانته ومعرفته وتقدم إليهم بالحوطة على ما يخرجونه من العواري واسترجاعه بعدى الغنى عنه واستظهر بذلك استظهاراً يحمد موقعه لك ويعرف به رصين رأيك وسديد مذهبك.

واستخلص لمجالستك من أهل الأصالة والحزم والرجاحة والفهم والدراية والعلم والتجارب في ممارسة الحروب وملابسة الخطوب من ترجع إلى رأيه فيما أشكل وتعتمد على تجربته فيما أعضل ولا تستبد برأيك فإن الاستبداد يعمي المراشد ويبهم المقاصد.

ولما كانت الشورى لقاح الأفهام والكاشفة لغواشي الإبهام أمر الله تعالى بها نبيه عليه السلام فقال: " وشَاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ فإذا عَزَمْتَ فَتَوكَّلْ على اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتوكِّلين " .

ولا تشاور جباناً ولا مثبطاً عن انتهاز الفرصة الممكنة ولا متهوراً يحملك على الغرة المهلكة وتأن في الآراء فإن التأني يجم الألباب ويجلو وجه الصواب ويقلص سجوف الارتياب واضرب بعض الآراء ببعضٍ وسجلها وأجل فكرك فيها وتأملها فإذا صرحت عن زبدتها وانشقت أكمامها عن ثمرتها فأمض صحيحها واعتمد نجيحها وإذا استوى بك وبالعدو مرحى الحرب فحرقهم بنار الطعن وأذقهم وبال أمرهم وعاقبة كفرهم ولا ترق لهم واتبع ما أمر الله تعالى به في الغلظة عليهم فإنه يقول: " يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ ولْيَجِدُوا فِيكُم غِلْظَةً واعْلَمُوا أنَّ الله مَعَ المُتَّقِينَ " فإن جنحوا للسلم والموادعة مصانعين فقابل بالقبول فإن الله تعالى يقول: " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لَهَا وتَوَكَّلْ عَلى اللهِ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ".

وابذل الأمان لمن طلبه واعرضه على من لم يطلبه وف لمن تعاهده بعهده واثبت لمن تعاقده على عقده ولا تجعل ما تفرطه ورسوله من ذلك ذريعة إلى الخديعة ولا وسيلة إلى الغيلة: فإن الله سبحانه وتعالى يقول: " يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أوْفُوا بالعُقُود " صلى الله عليه وسلم يقول: الناس عند شروطهم وإذا أعانك الله على افتتاح معاقل المشركين واستضافته إلى ما بأيدي المسلمين فارفع السيف عن قاطنيه واعتمد اللطف بالمقيمين فيه وادعهم إلى الإسلام واتل عليهم ما وعد الله به أهله من كريم المقام فمن أجابك إلى استشعار ظله والاعتصام بحبله فافرض له ما تفرضه لإخوانك في الدين واضمم إليهم علماء المسلمين من يبصرهم ويرشدهم ويثقفهم ويسددهم وخير من آثر المقام على دينه بين تأدية الجزية والاستعباد والمملكة فإن أدوا الجزية فأجرهم مجرى أهل الذمة المعاهدين وخصهم من الرعاية بما أمر به في الدين وإن أبوا ذلك فإن الله تعالى قد أباح دماء رجالهم واستعباد ذراريهم ونسائهم وابتن بالمعقل مسجداً جامعاً يجمع فيه بالمسلمين ويخطب على منبره لأمير المؤمنين وارفع منارته حتى تعلو على كنائس المشركين وانصب فيه إماماً يؤدي الصلاة في أوقاتها وخطيباً مصقعاً يخطب الناس ويعظهم ومكبرين يدعون إلى الصلوات وينبهون على حقائق الأوقات وقواماً وخداماً يتولون تنوير مصابيحه وتعهد تنظيفه وفرشه وأطلق لهم من الأرزاق والجرايات ما يبعثهم على ملازمته ويعينهم على خدمته واحتط على من يحصل في يدك من أسرى المشركين لتفدي بهم من في قبضتهم من أسراء المسلمين وإذا عرضوا عليك الفداء فاحذر من خديعةٍ تتم فيه أو حيلة تتوجه في افتكاك معروفٍ منهم بمجهولٍ من أهل الإسلام وإن كان الله تعالى قد فضل أدنياء المسلمين على عظماء الملحدين ولم يسو بينهم في دنيا ولا آخرةٍ ولا دين إلا أن هذا مما يوجب الحزم الحوطة فيه وإن ظفرت بنسيب لطاغيتهم المتملك عليهم أو خصيص به فاحمله إلى حضرة أمير المؤمنين ليقربها رهينة على من قبلهم من المأسورين وسبيلاً إلى انتزاع ما يبذلونه في فدايته من المعاقل والحصون.

وقد أمضى لك أمير المؤمنين أن تعقد الهدنة معهم إذا رغبوا فيها على الشرائط التي تعود بعلو كلمة الملة وتجمع الخواطر والاستظهار للدولة فعاقدهم محتاطاً واشترط عليهم مشطاً وتحرز في العقد مما يوجب تأولاً ويدخل وهناً ويطرق وهياً وتحفظ بجوالي المعاهدين والأموال المقبوضة في فداء الغلات والغنائم وسبي المشركين حتى يحمل ذلك إلى بيت مال المسلمين فينظر أمير المؤمنين في تفريقه على مستحقه وإيصاله إلى مستوجبه وافحص عن أحوال المستأمنين إليك تفحصاً يكشف ضمائرهم

ويبلو سرائرهم وتحرز منهم تحرزاً يؤمنك مكايدهم وحيلهم وخدائعهم وغيلهم وإذا نازلت حصناً من حصون الكفار فكن على يقظة من مخاتلهم في الليل والنهار وانصب الحرس والأرصاد واحذر الغرة ولا تهمل الاعتداد: لتعرف أعداء الله أن طرفك ساهد وجنانك راصد وتفقد أمر الجيش وأزح علة من ترقبه في الأطماع والمواكدات ومطوعته في المعاون والجرايات ولا تغفل عنهم غفلة تضطرهم إلى الانفلال وتدعوهم إلى الانفصال وأحسن إلى من حسن في الكفاح أثره وطاب في الإبلاء خبره وعده عن أمير المؤمنين بالحباء الجزيل والعطاء والتنويل فإن ذلك قادحٌ لعزائم الأولياء باعثٌ لهم على التصميم في اللقاء فإذا أنت - بمشيئة الله - شفيت الصدور واحتذيت المأمور وأعززت الدين وذللت الملحدين ودوخت البلاد ونكست رؤوس أهل العناد فانقلب بعساكر أمير المؤمنين ومطوعة المسلمين إلى حضرته واثقاً بجميل جزائه وجليل حبائه وطالع في موردك ومصدرك بما يجدده الله لك ويفتحه على يدك واذكر ما أشكل عليك ليمدك أمير المؤمنين بالتبصير والتوقيف والتعليم والتعريف واستعن بالله فهو خير معين وتوكل على الله فإنه نعم الوكيل.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فاعمل به وانته إليه يسدد الله مساعيك ويصوب مراميك إن شاء الله تعالى.

قلت: وأورد في خلال ذلك من تقاليد أرباب السيوف جملةٌ أسقط من صدرها التحميدات.

ما أورده في رسم تقليد الإمارة على قتال أهل البغي أن يقال بعد التحميد ما مثاله: وإن الله تعالى أوجب طاعة أولي الأمر على كافة المؤمنين وأكد فرضها على جميع المسلمين فقال جل قائلاً " يا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنكم " علماً منه تعالى بأن الطاعة ملاك الأمر ونظامه ومساك الجمهور وقوامه وأنه لا تتم سياسةٌ مع الشقاق والانحراف.

وأمر سبحانه باستتابة من ألقى العصمة من يده ونبذ الطاعة وراء ظهره بشافي المواعظ والتبصير ونافع التنبيه والتذكير فإن أقلع وتاب ورجع وأناب وإلا جوهد وقوتل وقوبل بالردع حتى يقبل ويعتصم بالطاعة وينتظم في سلك الجماعة فقال تعالى: " فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ الله " وإِنْ طائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما " وقال:.

وإن الغلاة فارقوا اجتماع المسلمين وانسلخوا من طاعة أمير المؤمنين نابذين لبيعته شائين بطل دعوته وشقوا عصا الإسلام واستخفوا محمل الحرام واستوطئوا مركب السيئات والآثام وعرجوا عن قويم السنن وسموا بأراذل البدع أفاضل السنن وسعوا في الأرض بالفساد وجاهروا بالعصيان والعناد وكاتبهم أمير المؤمنين مبصراً ومعذراً منذراً ومخوفاً محذراً ودعاهم إلى التي هي أصلح في الأولى والأخرى وأربح في البدء والعقبى وأعلمهم أن الله تعالى لا يقبل صلاتهم ولا صيامهم ولا حجهم ولا زكاتهم ولا يمضي قضاياهم ولا حكوماتهم ولا عقودهم ومناكحاتهم ما داموا على معصية إمامهم ومفارقة ولي أمرهم الذي أوجب عليهم طاعته وفرض في أعناقهم تباعته وتابع في ذلك مواصلاً ووالاه مكاتباً ومراسلاً فأصروا على العقوق واستمروا على اطراح الحقوق ودعوا إلى الأسوإ لها من إقدام الجيوش عليهم ونقل العساكر إليهم ومقابلتهم بما يقوم أودهم ويصلح فاسدهم ويزع جاهلهم ويوقظ غافلهم.

وإن أمير المؤمنين تخيرك للتقدم على الجيش الهاتف نحوهم: لما يعلمه من شهامتك وصرامتك وسدادك وسياستك وإخلاصك ووفائك وكفايتك وغنائك ويوصف بما تقتضيه منزلته والأمر الذي هو أهل له وهو يأمرك أن تقدم النفوذ إليهم مستنجحاً دعاء أمير المؤمنين مستنزلاً لصروف الغالبين مستشعراً لباس التقوى في الإعلان والنجوى فإذا نازلتهم في عقر دارهم فأذقهم بالمضايقة وبال أمرهم واسلك بهم سبيل أمير المؤمنين وافتتحهم بالإرشاد وحضهم على ما يقضي بصلاح الدنيا والمعاد فإن استقاموا وتنصلوا وراجعوا ورجعوا فأعطهم الأمان وأفض عليهم ظل الإحسان وإن أصروا وتمردوا وجاهدوا واعتدوا فشمر لمنازلتهم وصمم في مقاتلتهم واثقاً بأن الله تعالى قد قضى بالنصر لأولياء أمير المؤمنين وأهل طاعته والخذلان لأعدائه وأهل معصيته إبانةً بذلك عن تأييده لمن اعتصم بحبله ودفعه لمن انسلخ من ظله وحجةً بالغةً لمن تمسك بطاعته وموعظةً شافيةً لمن استخف بحمل معصيته فإن ملكك الله تعالى البلاد وطهرها من أهل الفساد وشرد عنها الدعار والأشرار إلى أقاصي الديار فاجبب نواعق الفتنة والضلالة وعف آثار ذوي الغي والجهالة وأسبغ الأمن على أهل السلامة وأفرغ العدل على من سلك سبيل الاستقامة وأجر الأمر في الخطبة لأمير المؤمنين على الرسم المحدود والمنهج المعهود وطالعه بما انتهيت إليه ليكاتبك بما تعتمد عليه.

ويضمن هذا العهد ما يقع فيه من شروط العهد المتقدم ويؤمر أن لا يستصحب من الجند إلا من يثق بإخلاصه وصفائه ويسكن إلى أمانته ووفائه وأن يرفض المدخول النية النغل الطوية فإنه لا شيء أضر على المحاربة من لقاء عدو بجيشٍ مخامرين

وجند مماكرين وقد يكون في العساكر من يداهن ويظهر الخدمة وهو في مثل العدو: إما لأن بينهما سالف وداد وولاية قد تأصلت بإطماع وإفساد أو يكون لسلطانه قليل الإحماد.

وهذا الذي أوردناه ليس بمثال جامع وإنما هو الذي يتميز به هذا العهد عما تقدمه والكاتب إذا احتاج إلى استعماله رتبه وقدم م يجب تقديمه وأخر ما يجب تأخيره وأضاف إليه ما تجب إضافته إن شاء الله تعالى.

الحمد لله الموفق إلى دواعي رضاه المحسن العون على ما أوجب المزيد من إفضاله واقتضاه المثيب على ما هدى إليه من طاعته القابل عمل من استنفد في الشكر أقصى طاقته المتكفل بمصالح عباده المولي من مواهبه ما تعجز الخواطر والألسنة عن تعداده وصلى الله على جدنا محمدٍ الذي جعل اتباعه سبيلاً إلى سكن جنات الخلود وآلت بهداه نار الكفر إلى الهمود والخمود وأنقذ من مهاوي الضلال ووسم من حاده وحاد عن سبيله بالصغار والإذلال وخلف في أمته الثقلين كتاب الله وعترته وأبقى بهما فيهم آيته وهدايته وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مبرم أسباب الشريعة ومحكمها ومطلق سيوفه في نفوس أعداء الملة ومحكمها وباب مدينة علم النبوة التي لا يدخل إليها إلا منه وسيد من عناهم الله بقوله: " رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْه " وعلى آلهما الأئمة الهداة قوام الإسلام وساسة الأنام وخلفاء الله في أرضه والموفين بعهده والآمرين بأداء سنته وفرضه وركن العصمة الذي من لجأ إليه نجا والحصن الذي ما خاب من أمه فرجا منه فرجاً وسلم وعظم ووالى وكرم.

وإن أمير المؤمنين - لما أودعه الله إياه من أسرار الحكمة واجتباه له من إمامة الأمة واختاره له من كلاءة الخليفة وإيالتها وحفظ حوزتها من المخاوف ورعايتها وما خصه به من بنوة النبوة والرسالة وأفرد به رأيه من الجزالة والأصالة واكتنف به أنحاءه من التوفيق الذي لا يصدف عن غرض الإصابة ولا يحيد وعضده به من التأييد لعزائمه ببلوغ الغرض في نصرة التوحيد واستودعه إياه من الإقبال الذي يجعل المستحيل لمراده إمكاناً والتأييد الذي أوضح به لإمامته برهاناً وتوحده به من العصمة التي تصي بها مراميه مواقع الرشاد وتضمن الخيرة لما يعانيه من الأمور مما سد وساد - يعمل خواطره فيما يكفل للنفوس برضاها ويجزل للدين والدنيا به حظاها وتتظاهر به ضروب الصلاح على الأمة وتحيا به سنن الخيرات وتتم النعمة وينظر لمن استودعه الله إياهم من بريته نظر المؤدي الأمانة إلى مؤتمنه المستودع فيما يتقرب به إليه من البر شكر سوابغ منائحه ومننه ويقرب على الأمة منال الخير باصطفائه من يكون لأفاضل الشيم مستكملاً وإلى ما أزلفه إلى الله سبحانه من طاعة أمير المؤمنين متوصلاً ولشواذ الثناء بفاضل سيرته متحلياً وللتسمح في قوانين السياسة مجتنباً ولما علم رغبة الرعية فيه منتصباً وفيما بلغهم أقصى الآمال متسبباً وبمراقبة الله فيما يأتي ويذر متديناً وبحسن الجزاء على العمل بمرضاته متيقناً: ليكون أمير المؤمنين قد قضى ما أوجبه عليه مستخلفه باجتبائه واصطفائه واستحمد إليه بإسناد جلائل الخدم إليه واستكفائه وأتى ما تكون السلامة مضمونةً في مباديه وعواقبه وأحظى نبيل المراد في جميع جهاته وجوانبه مستديماً نعم الله التي أسداها إليه وأولاها مواصلاً حمده على مننه التي ظاهرها عليه ووالاها ويستعينه على لوازم عوارفه التي من أجلها خطراً وأحمدها في البرية أثراً وأجمعها لمنافع الخاص والعام وأعودها بحماية حوزة الإسلام وأشهدها ببراهين الأئمة وأدلها على عناية الله بهذه الأمة ما منحه أمير المؤمنين من موازرة فتاه ووزيره ومعينه على المصالح وظهيره السيد الأجل العادل أمير الجيوش أبي الحسن عليٍ الظافري - والدعاء - الذي أظهر الله به لأمير المؤمنين آيات حقوقه واستأصل ببأسه شأفة من تتابع في مروقه وبالغ في عقوقه وكسا الدهر بإيالته ملابس الجمال وفسح بفاضل سيرته مجال الآمال وبذل من الجهاد غاية الاجتهاد ووالى من عمارة البلاد ما أنطق بحمده الجماد واستخلص نخائل الصدور بلطف سياسته ووسع عدله ورغبت غرائب الآمال في الإيواء إلى سابغ فضله وتبارت الليالي والأيام في خدمة أغراضه في أعاديه واسترق قلوب الأولياء بما يواليه من بيض أياديه ووضع الأشياء في مواضعها غير محابٍ ولا مرخص ولم يحض بأيامه النيرة غير الطائع المخلص ولم ينفق للباطل سوق وأتت سيرته بما يرضي الخالق والمخلوق فالله تعالى يجعل مدته غير متناهيةٍ إلى مدى والنصر والتوفيق لآرائه مدداً ويخلد أبداً سعده وينجز لأمير المؤمنين على يده وعده.

ولما كانت منزلته عند أمير المؤمنين المنزلة التي تتطامن دونها المنازل والرتب وجلت أن ينالها أحدٌ ممن بعد أو قرب وأفعاله قدوةً يهتدى بأمثالها في الشكوك وسيرته قد عظمت عن أن تتعاطى مماثلتها همم الملوك ومحله عنده من الكمال بحيث تستحكم الثقة باختياره ويرجع في عقد الأمور وحلها إلى اتباع آثاره وموافقة إيثاره وكانت مراتب الأولياء عند أمير المؤمنين بحسب مراتبهم من قربه وموضعهم من رضاه مضاهياً لموضعهم من قلبه ومكانهم من الحظوة لديه مناسباً لمكانهم من الزلفة عنده وأحقهم بسناء الرتب من أقبسه زنده وكساه مجده ولا سيما من لم يخرج منه عن حكم الولد وحل منه محل القلب من الكبد ونشأ في دوحته غصناً نضيراً وطلع في سماء جلاله قمراً منيراً واعتلى بجده وقطع بحده وتظاهره شواهد سعده في مهده وكنت أيها الأمير الحاوي لهذا الفضل المبين المعتلق من ولاء أمير المؤمنين بالحبل المتين الذي نشأ متوقلاً في درج المعالي

وغدا متقيلاً في ظلال الصوارم والعوالي وأخذت بمراشد السيد الأجل العادل فزدت عن الظنون وأوفيت ووعدت عنك فصدقت ضمانها ووفيت وما زلت بعين الإجلال والتعظيم ملموحاً وبأفضل خلال الرؤساء ممنوحاً ولجلائل المراتب مؤهلاً وبلسان الإجماع مفضلاً ولم أعيا من أدواء النفاق حاسماً وفي مواقف المخاوف رابط الجأش حازماً ولما يعد الأماجد له مذخور المضاء وفيما تعانيه وتلابسه موفق الآراء وقد اكتنفك من اتباعك هدي السيد الأجل العادل - أدام الله قدرته وولاءه - ناصر الدين الأجل المظفر المقدم الأمين سيف الإمام ركن الإسلام شرف الأنام فخر الملوك مقدم الجيوش ذي الفضائل خليل أمير المؤمنين أبي الفضائل عباس الظافري العادلي أدام الله به الإمتاع وعضده وأحسن عنه الدفاع الذي هو فخر الملوك ونجلهم وأثراهم من المفاخر وأجلهم وأقدمهم في الرياسة قدماً وأعرقهم وأطيبهم أرج ثناءٍ وأعبقهم - ما جعلك أعلى الأعيان مفخراً وأكرم الجواهر عنصراً وأولاهم بآلاء أمير المؤمنين وعطائه وأسبقهم في مضمار اختياره واجتبائه وأثبتهم عنده مكانة وأحراهم في خدمه بتأدية الأمانة وقد عرف من مواقفك المشهودة ومقاماتك المحمودة ما كان منك في نوبة ابن مصال وجموع ضلاله وما استفاض من كونك سبب انهزامه وانفلاله وانقلاب تدبيره عليه وانعكاسه والتفريق بين جسده وراسه وحصل لك بذلك من إحماد أمير المؤمنين ما لا يبلغ الوصف مداه إذ كان قد جرد سيف نصر والدك الأجل المظفر وأنت حداه رأى أمير المؤمنين - وبالله توفيقه - أن لا يضيع ما فيك من جوهرٍ مكنون ولا يرجع في أمر نباهتك إلى ما تدل عليه السنون إذ كنت للكمال مع فتاء السن حائزاً وبمزية اصطناع أمير المؤمنين واختياره إياك فائزاً وفاوض السيد الأجل العادل - أدام الله قدرته - في تشريفك بولايةٍ يكشف بها شفوف جوهرك ويوضح لكافة البرية بماشرتك إياها ما استقر عنده من جميل مختبرك ووقع التعيين على تقليدك ولاية مصر وما مع ذلك من الصناعتين وغيرهما من حقوقهما فأمضى أمير المؤمنين ذلك لما لهذه الولاية من الحظوة بالقرب والدنو وليوفر على الإيثار على أن يبلغ نظرك إلى غايات العلو والسمو وخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك الخدمة المذكورة: علماً بانتظام شؤونها بإيالتك وحياطة حوزتها بسطاك ومهابتك وتحققاً أن بسياستك تعمها المصالح وتتظاهر عليها الميامن والمناجح وتظهر لها الحجة في الافتخار على سائر الأمصار وتستأنف بمقارنتك من الميزة ما لم تحظ به فيما سلف من الأعصار ويتضح بك البرهان لمن بالغ في تفضيلها وتنال من فائض العدل بسيرتك ما تكاد تغنى به عن نيلها فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك: معتمداً على تقوى الله الذي إليه تصير الأمور ويعلم خائنة الأعين وما واجعل من تحويه تخفي الصدور قال الله تعالى في محكم كتابه المبين: " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين " هذه المدينة بالعدل مشمولين وعلى أجمل السيرة والرسوم محمولين وساو في الحكم بين الشريف والدني وآس في المقدار بين الملي والذمي وأقم الحدود على من جب عليه بمقتضى الكتاب وصحيح الآثار ولا تتعدها بإقلالٍ ولا إكثار.

وفي هذه المدينة من ذوي الأنساب وأعيان الأجناد ومتميزي الكتاب وأماثل الشهود: فاعتمد تمييزهم والاحتفاء بهم ومعونتهم على مطالبهم ومحابهم وكذلك من تضمنت هذه الولاية من التجار والرعية وتوخهم بما يسكن جاشهم ويزيل استيحاشهم ويفسح لهم في الرجاء والأمل ويعينهم على صالح العمل وتقدم بحفظ الجامع العتيق وصونه وتوفيره على ما يليق به وتوقيره وامنع من ابتذاله في غير ما جعل له ونصب له من الإعلان بذكره فيه وأهله ووفر تام العناية وشامل الرعاية على من به من الفقهاء والعلماء والمتصدرين والقراء وحضهم بالتكرمة على المبالغة في طلب العلوم والتزود من صالح الأعمال ليوم الوقت المعلوم وخذ جميع المستخدمين معك بلزوم الطرائق الحميدة والمقاصد المستوفقة السديدة فمن استمر على ما ترضاه من اجتهاده وتستوفقه من صواب اعتماده أجريته على رسمه في الرعاية وتوخيته بالصون والحماية ومن كان بالخدم مخلاً وسلوكه عما يلزمه ضالاً مضلاً فأوعز بتأديبه وما يقضي بتقويمه وتهذيبه والثقة بوفور حظك من الصواب وإجرائك على ما يناط بك على الاستتباب أغنى عن الإطالة لك في الوصايا والإسهاب والله تعالى يقرن الخير بما تنظر فيه ويجعل التوفيق مضموناً فيما تذره وتأتيه وينيلك من رتب السعادة ما أنت له أهل ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

ومن السجلات بالوظائف الدينية على هذه الطريقة ما كتب به القاضي الفاضل عن العاضد بولاية بعض القضاة وهو: الحمد لله الواسعة عطاياه الوازعة قضاياه المشتملة على أقسام الخلق قسمه المبرور في سؤالهم يوم فصل القضاء قسمه المسطور في كتابه الذي ما فرط فيه من شيء محلل الشرع ومحرمه المتمثل فيه لمن مثله مطاع الأمر ومسلمه الكريم الذي لا يضيع ثواب العاملين ولا يقطع أسباب الآملين ولا يمنع طلاب السائلين العدل الذي قامت حجته على الناكبين والعادلين والحق الذي يقضي بالحق وهو خير الفاصلين مصفي مشارع الشريعة من أعراض الكدر وحامي معاقل الملة من انتقاض المدر ومنزه أوليائه من محاسنها في رياض الفكر ومعرفهم بما عرض عليهم من إنافتها لارتياض النظر وارتكاض الفطن والفطر جاعل الحكم سلطانه الذي يأوي اللهيف إلى ظله وحماه الذي يلجأ الضعيف إلى عدله ومفزع الرائع الذي يقف المشروف والشريف عند فصله وشفاء العلل الذي يذهب بكل ما في صدر من علة ومشرع الإنصاف الذي يفضي إلى الظمإ فيض سجله وموعد الخلائق يوم تطوى السماء كطي سجله ومظهره ليظهر به هذا الدين على الدين كله والآمر فيما أشكل منه بالتعريج إلى مستنبطه من أهله وجاعل الأئمة الهادين الحجج على من رجع إلى قياس عقله أو تقليد جهله وأحد الثقلين الذي يخفف عن كل

غارب كل ثقله وأخوه الكتاب فلن يفترقا حتى يردا الحوض يوم نهله وعله وصراطه المستقيم الذي من أتى اليوم فيها بزلة رأيه أتى غداً بزلة فعله ومنار الأنوار المضروب على طرق الساري في ليل الضلال وسبله وسبب العصمة التي أشار فيها إلى الاعتصام بحبله وصلى الله على جدنا محمد الذي عظم به جدنا واعتلق بسببه مجدنا ووجب به على كل من واد الله ورسوله ودنا وأورثنا من علمه ما حاز لنا شرفي الدين والدنا وحلم به نجير من ضاقت به المذاهب فرجا فرجاً وحكمه المشركون فيما شجر بينهم فلم يجدوا في أنفسهم بما قضى حرجاً وعلى أخيه وابن عمه القائم مقامه بفصل حكمه وفضل علمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي حرز له من المكرمات لبابها وطابت بغبار حلمه إقامة الألباب وإلبابها وميزه على الكافة بقوله: أنا مدينة العلم وعليٌ بابها وشهد طوراً بأنه أفتاهم فعلم أنه أقربهم به شبهاً وفي مدى الفضل أقصاهم وعلى الأئمة من ذريتهما الذين أنعموا فأجزلوا وحكموا فعدلوا وحملوا ثقل الأمانة فحملوا وجاهدوا في سبيل الله فعلوا بما فعلوا واستوجبوا الحمد بما أولوا والأجر بما ولوا صلاةً مأمونةً من الشبهات متوضحة الشيات.

ولما كان حكم الصواب في الحكم بين الناس أن يختار من بان صوابه واتضح وبان عنه حكم الهوى الذي فضح وأصغى ضميره إلى لسان الحق الذي فصح وعرض جوهره على محك النقد فصح وميز بينه وبين الرجال فثقل وزناً ورجح واحتج به الإسلام على من نوى مناواته فنجح وولي الأحكام بين المسلمين فأصلح وصلح وتسمح إذا كان الحق له وإذا ما كان فيه فما أسمح ولا سمح وجدد جده من معالم العلوم ما صح رسمه وأمح وأطلعته على خفايا المشكلات بديهة فكره لما لمح وملك عنان هواه رأيه فجنح إلى هواه وما جمح وشرح صدر الاختيار بما ملأ الأخيار من محاسنه وشرح وتعالى الاقتراح لهذه المرتبة فكان وفق ما أراد وفوق ما اقترح وتشبث بعين الأعمال الصالحة وتمسك وتنزه عن داءٍ يلازمها وأعراضٍ تشينها وتنسك وكثر الخوض في الباطل فإما صدع بالحق وإما أمسك وأعدى فصله وفضله على من شكا أو شك وغض عينيه عما أعطي سواه ومتع به واشترى طول راحته بنصيبه الآن من نصبه وحسره النعمة من تعبه وأيس الظالم من ممالاته ومبالاته وطمع المظلوم بقرب إعاناته وبعد إعناته ومر مر الدهر وحلا حلوه فلم يشهد باستمالاته عن حالاته ولم يرض أحد به حكم صرف دهر يجري بأذاته ولا كشفت منه التجارب إلا عن البصائر التي تروق السماع والنظار والحسنات التي قضت بصائرها بقضاء مناظرة الأنظار والديانة التي عمرت المحاريب في الليل وأطراف النهار والأمانة التي استمسك عقدها فما خيف عليه أن يتداعى ولا أن ينهار والصيانة التي استوى فوق مركبها فحلت بجنات عدن تجري من تحتها الأنهار.

ولما كنت أيها القاضي ملتقى هذه الأوصاف وطيعها ومشرق نحرها ومطلعها وملقى عصا ارتيادها ومنجعها ومورد فرط تلك الأموال ومشرعها ومراد هذه السمات التي تقع منك موقعها وتألف عندك موضعها واصل هذه المحامد التي إن استعلقت بسواه فمنه فرعها وقارع صفاة هذه الذروة التي ما كان لغيره أن يقرعها ومن تعده الخناصر أتقى كفاة الرتب وأورعها وأبلج أباة الريب وأردعها وأشدها قياماً ومقاماً في ذات الله وإن كان له أطوعها وأمضاها حداً إذا كف الباطل الغروب وأشرقها شمساً لا تتوارى بحجاب الغروب وأقواها سلةً في تنفيذ حكمٍ حقٍ إذا ضعف الطالب والمطلوب وأنقاها صحيفةً بما أودعها من نور العمل المكتوب وأبداها زهداً في دنياه إذا أنموا بوعدها الكاذب أمل إيتائها المكذوب وأدومها مصاحبةً لشكر لا يستقل به رفيقها المصحوب وأقومها طريقةً في الحسنات فما طريقه إلى الحوب بملحوب وأقواها طمأنينة قلب إلى ذكر الذي تطمئن به القلوب وأنهضها عزماً بما أعيا الهمم من تكاليف الطاعة وآد بسمع وبصر وفؤاد وأقدرها على مجاهدة الشهوات أشد الجهاد وأنظرها لنفسه في تحصيل عمل يشهد له يوم قياد الأشهاد وأمهدها لجنبه وذخائر التقوى نعم المهاد.

وإلى اليقين الذي ظهرت شواهده والعمل الذي جمعت إليك شوارده والدين الذي صفت إليك موارده والعلم الذي هبت بمذاكرتك رواكده والفهم الذي تظاهرت بمناظرتك مراشده والنظر الذي ألقى فرسان الجدال بالجدالة والأثر الذي يقضى به عليك بالعدالة والمحاماة عن الحق بما يقضي لمخالفه بالإذالة ولمواليه بالإدالة والإرشاد الذي ما بدا لفهم الشاك إلا بدا له والفتيا التي ضربت ثبج الباطل بسيوفها وحلت مسامع المستفيدين بشنوفها والجلالة التي لا يمل مسموع أوصافها والعدالة التي لا يمل مشروع إنصافها وكم ليلةٍ أغمدت ظلامها في نور التهجد والناس هجود وسكنت جفون مناقبها بيقظات السجود وأنشأت الخشية غمامها فاطفأت بماء الدمع النار ذات الوقود وبلغت رياضة الجوارح التي تريد ورياض القلب التي ترود فأسفر الصبح منك عن سارٍ واقف واستسر لك القبول عن أنس خائف وتأرجت أنفاس الأسحار باستغفارك وتم عنوان السجود بأسرارك وابيضت شية الليل بحلى آثارك واكتنفتك الطهارة حتى كأنك مصحف وأرهفتك الديانة حتى كأنك مرهف وحالفتك الركانة وكأنك مع سلامة الخلق أحنف وثقفتك السن فأبقت منك ما أبقت من سنان المثقف وعرفتك الأحكام بأنك ماضٍ على الحقائق عند الشبه تتوقف وألفتك النزاهة فشهد عدولٌ أن نكرة المطامع عندك لا تتعرف وصرفتك النزاهة عن دنيا إن كانت عرائسها تزف فغداً مواردها تنزف واستشرفتك المنازل التي لا تزال باعناق الأشراف تستشرف وما رأست حتى درست ولا تنبهت حتى تفقهت ولا أقنيت حتى أفنيت المحابر ولا تصدرت حتى تصبرت على كلفٍ تغلب الصابر فما حاباك من حباك ولا قدمك حتى علم أن سواك ما ساواك فرياستك لم تكن فلتة واستشراف وجه الرياسة لك لم يكن لفتة بل تنقلت متدرجاً وأثنى عليك

لسان حقيقة ما كان متلجلجاً ولو أقعدك حسبك أو أباك لقبلك المجد وما أباك فكيف ولك نفس بنت لك الشرف الخالد وجمعت الطريف منه إلى التالد ولم تقنع بما ورثت من تراث رياسة الوالد.

والسيد الأجل الذي أعاد إلى الدولة رونق نضارتها بعد رونق إضارتها وأفاضت عليه حيا إشارتها وأضافت إليه نص إشارتها واعطته السعادة أفضل إمارتها بما أعطته من فضل وزارتها واشتملت معاني النجاح من صفحة بشره التي عجلناك الآمال ببشارتها وأقرت حركاته الخلافة في دارها والأنوار في دارتها وقصرت مهابته أيدي الأعداء بعد استطالتها وأخمدت نارهم بعد استطارتها وذللت رياضته الأسود فلم ترع الأسماع بزأرها ولا العيون بزيارتها - يعدك للصدور صدراً ويعدك بما يرفع ذوي الأقدار قدراً ويذكرك بما تطيب به نشراً ويحسن ملبوسه بشراً ويراك أولى من أقام الحق لازماً جواده وأقعد الباطل حاسماً مواده ويصفك بالعدل الذي يتألم عليه الأضداد والسداد الذي لا يضرب بينك وبينه بالأسداد والنزاهة المنزهة عن التصنع بالرياء والسريرة الطيبة النشر والسيرة الحسنة الرواء.

ولما قرر لك النيابة عنه في الصلاة والخطابة والقضاء والمظالم والإشراف على الجوامع والمساجد ودار ضرب العين والورق والسكة بالحضرة وسائر أعمال المملكة أمضى أمير المؤمنين ما قرر وتخير لهذه العطية من تخير سكوناً إلى أمانتك التي حملت نوقها وركوناً إلى ديانتك التي أوجبت تطلع هذه الرتبة إليك وسوقها وعلماً أنك فارسها الذي اتسع ميدانه وواحدها الذي رجح ميزانه وكفؤها الذي تمكن مكانه فتقلد ما قلدت من ذلك عاملاً بتقوى الله التي يفوز العامل بها في مواقف الإسخاط ويجوز بها السالك متالف الصراط ويحوز بها الآمل معارف الاحتياط قال الله في فرقانه الذي نزله على عبده ليكون للعالمين نذيراً: " يا أَيُّهَا الذِين آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا برسُولِهِ يُؤْتكُمْ كِفْلَيْنِ من رَحْمتِه ويَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً ".

والحكم فهو عقد اللباس دنياً ودِيناً وسبيل الحق الذي يسلكه من جرى شمالاً وسلك يميناً وبه كف الله الأيدي المتعدية وأنقذ من النار النفوس المتردية وأقام حدود كل من استحقها ولم يتوقها وأوجب قصاص الدماء على من أراقها واستباح رقها وبه يقف القوي والضعيف موقفاً واحداً ويظهر أولو عدل الله لمن كان بعين قلبه مشاهداً وبه تتبين مواقع التحليل والتحريم وفيه تتعين مقاطع الحكم بالتحكيم ولمجالسه الوقار فهي جنةٌ لا لغو فيها ولا تأثيم والظالم فيه وإن ظفر فإنما ظفر بما يقطع له من نار الجحيم.

ولا تجعل بين المتحاكمين إليك من فرق وساو في الحكم بين كافة الخلق ولا تحكم بحجة أحد الخصمين وإن كان لها السبق: " ولا تقطع بعلمك وإن كنت عليماً ولا تبال في الله أن تغضب فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عمَّا جَاءَكَ من الحَقّ " ظالماً وترضي مظلوماً واجعل لنفسك من نظرك وإصغائك بين المترافعين إليك مقسوماً فلا تحقر خطأ الحكم وتجنب منه بينهما ما تجده عند الله عظيماً واحكم بينهم بما أنزل الله ولا تكن للخائنين خصيماً وتجلبب بالوقار الذي يبين فضل الملة ويشهد للكفر بالذلة ويلبسك فخر السراة الجلة ولا يمنعك مذموم التكبر عن محمود التدبر ولا جبر لكسر التجبر ولا خير فيمن لا يمهل روية التحير فالعجلة تضيق ميدان التخير وإذا أوضح الملتبس لفهمك وعز القطع بفصل حكمك فأفهم الظالم ما توجه عليه لخصمه فربما أوتي من سوء فهمه لا من طريق ظلمه ولعله لا يجمع عليه بين فوت مراده وبقاء إثمه وذاكر المقدمين على اليمني بما على من يمين وأن كاذبها يدع الديار بلاقع وأن خرق الجرأة على الله ما له من راقع وصرعة الفاجر ما لها من مزيل ولا رافع ومن قطعه الحصر عن الإفصاح وصرفه العي عن الإيضاح فاستعمل معه أناةً توضح ما يختلج في صدره ورفقاً يفصح ما يختلج في فكره فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إنَّكم لتَخْتَصمُون إليّ ولعَلَّ أحَدَكم أن يكونَ ألْحَن بحجَّته من الآخر فأقضي له على نحو ما أسمع ولدخول المجالس دهشة تورث اللسان عقلة ولمفاجأة المحافل حيرة تعقب البيان مهلة فواجب عليك ممن تدله أن تدله وممن يشده أن تشده: لتقضي بما تقضي وتمضي الحكم بحقيقة تمضي وإن تنجزت قضية قد فرطت وتدبرت نوبة قد أفرطت فبادر باستدراكها قبل وقوعك في أدراكها وتعذرك عن إدراكها ولست معصوماً من المغالط ولا موصوماً بالخطإ الفارط ولا ملوماً إلا إذا أقمت على ما الله منه ساخط فقد ذم الله من اتقى الخلائق ولم يتق الخلاق فقال تعالى: " يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولا يَسْتَخْفُونَ من اللهِ وهو معهم ".

وكتاب الله وسنة رسوله السراجان اللذان ما ضل هداهما والمهادان اللذان ما أوضحهما إليه وأبداهما وقد أغنت نصوصهما عن الأقيسة وأوضح خصوصهما عامة الأمور الملتبسة قال الله سبحانه: " ما فَرَّطْنَا في الكتاب مِنْ شَيْ " وقال تعالى: " وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه ومَا نَهَاكُمْ عَنْه فانْتَهُوا " وإن أشكلت نازلةٌ غير مسطورة وأعضلت واقعةٌ غير محصورة فاسترشد أمير المؤمنين في أمرها وقف على بحار علمه فلن تعدم سيح درها فأمير المؤمنين الذي أمر الله عند التنازع بأن نرد إليه ما أعضل وأثم أخذك للاستنباط إلا من الذين حكم الله أن يرد عليهم ما أشكل.

والشهادة فلقد أمر الله بإقامتها وكفى بالله شهيداً وكفى بذلك جلالة وتمجيداً ولا تتخذ إلا العدول المقانع ولا تسمع منهم إلا لمن هو لأمر الله سامع فهم الأعوان التي تدفع بها نار جهنم والجنن التي يتقي بها الحاكم سهام الآثام فيما حلل وحرم وإلى علمهم انتهت مقاطع الحقوق التي الله بها أعلم وما سرى حكمٌ إلا بعد أن تجد أقواله دليلاً ولك السمع ولهم البصر وكل أولئك كان عنه مسؤولاً واستشف أمورهم فمن ألفيته آلفاً لمحجة الصواب عائفاً لمضلة الارتياب لا يحاف بالإغضاب ولا يخاف بالإرهاب ولا يحسب حساباً إلا ليوم الحساب فاسمع مقالته وأقر عدالته ومن كان عن السبيل ناكباً وللهوى راكباً فأرجله عن ظهر العدالة وتتبع زلله بالإزالة وواصل فيهم ألسنة حكمك وأوجه علمك فلا تستنب إلا من تعلم أن خطأه عليك وصوابه لك ولا تعول إلا على من لا يخجل نفسك ولا يذم تعويلك.

وكاتبك فقلمه لسانك ولسانه ترجمانك إن وقع فإليك تنسب مواقع توقيعه وإن وصل حكماً بمسطوره فمقدارك مسطورٌ من مسموعه فلا ترض بالدون فيما يدون ولا تعول إلا على كل من تصور وتصون.

وحاجبك فهو عينك وإن سمي حاجباً ووجهك الذي تلقى به إذا كنت غائباً فاختر من يكون متخيراً في المقال متحلياً بحسن الفعال مجرباً في جميع الأحوال لا يلتفت إلى دنيا دينه ولا يخونك أمانته ولا تمتد يمينه ولا يقول عنك ولا عن نفسه إلا ما يزينك ويزينه ولا يخف إلى ما تخف به موازينه.

والخطباء فرسان المنابر وألسنة المحاضر وتراجم الشعائر وأئمة المجامع وسفراء القلوب بوساطة المسامع لمقامها الرافع ومبرها الفارع من القلوب على دائها وتدحر حربه شياطين الأمم عند اعتدائها ويعرب عن الهداية ويبالغ بلاغته في إهدائها ويتقن مخارج الحروف محسناً في أدائها وإبدائها وتحل موعظته عن العيون الجامدة عقد وكائها وينادي القلوب الصدية فيكون صداه صوب بكائها ويستشعر أردية الوقار فتشهد المنابر له بارتدائها وتغذي النفوس مواعظه والأيتام فأنت لهم والد وأجر نفقتك عليهم في الصحيفة وارد وهم ودائع الله لديك وذخائر الآباء إلا أنهم في يديك فأحسن بهم السياسة بالشفقة وأحسن لهم التدبير بالنفقة ومن آنست رشده فادفع ماله إليه ومن لم تسترشد قصده فأنفق منه عليه قال الله تنبيهاً وتحذيراً: " وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّه كَانَ حُوباً كَبِيراً ".

والمساجد بيوت الله التي يسبح له فيها بالغدو والآصال ومظان العبادة التي يعمرها أهل الاعتلاق بمعروفه والإفضال ومصاعد الكلم الطيب والعمل الصالح وأسواق الآخرة التي يوجب فيها المشترون صفقة البيع الرابح فعبد الطريق إلى زيارتها واشرح قلوب المتطهرين بطهارتها وانس القائمين بالليل والمستغفرين بالأسحار بإنارتها.

والمضروب بدار الضرب فهو عين ما تجب عليه الزكوات ونفس ما تحاز به المستملكات ومدار ما تشتمل عليه المعاملات وقيم ما تحقن به الدماء في الديات ومنتهى ما توفى به الصدقات وتوصي به الصدقات فتول أخذ عياره ومباشرة تصفية درهمه ودیناره وأخلصه لتنجو من النار بلفحات ناره واحفظ شكله الذي ينقش خاتم جوازه والأسماء المسطرة عليه وسيلة امتيازه على بقية الأحجار وإعزازه.

والوكالة على باب الحكم فهي كفاح المتناضلين وسلاح المتناصلين ومن ينتفع بها لا يعزل من الخطاب كما لا ينصب بها من ممن يفتح له الباطل الأبواب فلا توعها إلا لمن حسمته الدربة في السرعة من القربة وتدبر قول الله: " وإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّة " يؤمن على النساء والرجال ولا يعجبه إرسال لسانه في الحلال ولا يبطل الحق إذا أطلق لسانه في سعة المجال.

والمتصرفون الذين هم أيدي الشريعة التي تشخص الخصوم ويستعان بهم على قمع الظلوم ونفع المظلوم فتخير أن يكون أكبرهم من أهل طبقته وأمدهم تحسيناً لسمعته وتحصيناً لأمانته.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فاهتد بهديه وقم بفرض رعيه وحق وعيه وكريم سعي الآخرة أحسن سعيه وتصرف بين أمر الحق ونهيه والله سبحانه يبلغك من مناجح أمرك ما لا تبلغه بمطامح فكرك ويسر لك من بديهة الإرشاد ما تعجز عنه روية الارتياد فاعلم هذا من أمير المؤمنين ورسمه واعمل بموجبه وحكمه إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك ما أورده علي بن خلف الكاتب في كتابه مواد البيان في سجلٍ بالدعوة للدولة والمشايعة لها والموافقة على مذهبها وهو: الحمد لله خالق ما وقع تحت القياس والحواس والمتعالي عن أن تدركه البصائر بالاستدلال والأبصار بالإيناس الذي اختار الإسلام فأظهره وعظمه واستخلص الإيمان فأعزه وأكرمه وأوجب بهما الحجة على الخلائق وهداهم بأنوارهما إلى

أقصد الطرائق وحاطهما بأوليائه الراشدين شموس الحقائق الذين نصبهم في أرضه أعلاماً وجعلهم بين عباده حكاماً فقال تعالى: " وجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وأَوْحَيْنَا إِلَيهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ وإِقَامَ الصَّلاَةِ وإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ".

يحمده أمير المؤمنين أن أصطفاه لخلافته وخصه بلطائف حكمته وأقامه دليلاً على مناهج هدايته وداعياً إلى سبيل رحمته ويسأله الصلاة على سيدنا محمدٍ نبيه ابتعثه رحمةً للعالمين فأوضح معالم الدين وشرع ظواهره للمسلمين وأودع بواطنه لوصيه سيد الوصيين: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وفوض إليه هداية المستجيبين والتأليف بين قلوب المؤمنين ففجر ينابيع الرشاد وغور ضلالات الإلحاد وقاتل على التأويل كما قاتل على الرسل حتى أنار وأوضح السبل وحسر نقاب البيان وأطلع شمس البرهان صلى الله عليهما وعلى الأئمة من ذريتهما مصابيح الأديان وأعلام الإيمان وخلفاء الرحمن وسلم عليهم ما تعاقب الملوان وترادف الجديدان.

وإن أمير المؤمنين - بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة وأورثه من منصب الإمامة والأئمة وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين وتبصير من أعتصم بحبله من المؤمنين وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين - يعلم بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه وتغذية أفهامهم بلبانها وإرهاف عقولهم ببيانها وتهذيب أفكارهم بلطائفها وإنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها وتوقيفهم من علومها على ما يلحب لهم سبل الرضوان ويفضي بهم إلى روح الجنان وريح الحنان والخلود السرمدي في جوار الجواد المنان - ما يزال نظره مصروفاً إلى نوطها بناشئ في حجرها مغتذٍ بدرها سارٍ في نورها: عالمٍ بسرائرها المدفونة وغوامضها المكنونة موفراً على ذلك اختياره وقاصية انتقاده واختباره حتى أداه الاجتهاد إليك ووقفه الارتياد عليك فأسندها منك إلى كفئها وكافيها ومدرهها المبرز فيها ولسانها المترجم عن حقائقها الخفية ودقائقها المطوية ثقة بوثاثة دينك وصحة يقينك وشهود هديك وهداك وفضل سيرتك في كل ما ولاك ومحض إخلاصك وقديم اختصاصك وأجراك على رسم هذه الخدمة في التشريف والحملان والتنويه ومضاعفة الإحسان فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين مستشعراً للتقوى عادلاً من الهوى سالكاً سبيل الهدى فإن التقوى أحصن الجنن وأزين الزين و " ادْعُ إِلى سبِيلِ رَبِّكَ وحض فإن الله تعالى يقول: " وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَد أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً " بِالحِكْمةِ والمَوْعِظةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن " على ذلك فقال سبحانه: " وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ " وخذ العهد على كل مستجيبٍ راغب وشد العقد على كل منقادٍ ظاهر ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه ويصح عندك عفافه ودينه وحضهم على الوفاء ويقول جل من قائل: " إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّما بما تعاهدهم عليه فإن الله تعالى يقول: " وأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً " وكف كافة أهل الخلاف والعناد وجادلهم باللطف والسداد يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ " واقبل منهم من أقبل إليك بالطوع والانقياد ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول في بيعتك وإن حملتك على ذلك الشفقة والرأفة والحنان والعاطفة: فإن الله تعالى يقول لمن بعثه داعياً إليه بإذنه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: " وَمَا أَكْثَرُ الناسِ ولَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين " ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع ولا تلق الحب إلا في مزرعة لا تكدي على الزارع وتوخ لغرسك أجل المغارس وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين وتقربهم بقربان المخلصين وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات إلى نور البراهين والآيات واتل مجالس الحكم التي تخرج إليك في الحضرة على المؤمنين والمؤمنات والمستجيبين والمستجيبات في قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ولا تبذلها إلا لمستحقها ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ولا تستقل أفهامهم بتقبله واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ودل على اتصال المثل بالممنون فإن الظواهر أجسامٌ والبواطن أشباحها والبواطن أنفسٌ والظواهر أرواحها وإنه لا قوام للأشباح إلا بالأرواح ولا قوام للأرواح في هذه الدار إلا بالأشباح ولو افترقا لفسد النظام وانتسخ الإيجاد بالإعدام.

واقتصر من البيان على ما يحرس في النفوس صور الإيمان ويصون المستضعفين من الافتتان وانههم عن الإثم ظاهره وباطنه وكامنه وعالنه فإن الله تعالى يقول: " وذَرُوا ظاهِرَ الإثمِ وباطِنَه ".

واتخذ كتاب الله مصباحاً تقتبس أنواره ودليلاً تقتفي آثاره واتله متبصراً ورده متذكراً وتأمله متفكراً وتدبر غوامض معانيه وانشر ما طوي من الحكم فيه وتصرف مع ما حلله وحرمه ونقضه وأبرمه فقد فصله الله وأحكمه واجعل شرعه القويم الذي خص به ذوي الألباب وأودعه جوامع الصلوات ومحاسن الآداب سبباً تتبع جادته وتبلغ في الاحتجاج محجته وتمسك بظاهره وتأويله ومثله ولا تعدل عن منهجه وسبله واضمم نشر المؤمنين واجمع شمل المستجيبين وأرشدهم إلى طاعة أمير المؤمنين وسو بينهم في الوعظ والإرشاد والله تعالى يقول في بيته الحرام: " سَوَاءٌ العَاكِفُ فِيهِ والْبَاد " وزد لهم من الفوائد والمواد على حسب قواهم من القبول وما يظهر لك من جودة المحصول ودرجهم بالعلم ووف المؤمن حقه من الاحترام ولا تعدم الجاهل عندك قولاً سلاماً كما علم رب السلام وتوخ رعاية المؤمنين وحماية المعاهدين وميزهم من العامة بما ميزهم الله من فضل الإيمان والدين وألن لهم جانبك واحن عليهم والطف وابسط لهم وجهك وأقبل إليهم واعطف فقد سمعت قول الله تعالى لسيد

ولا تفسح لأحد منهم في التطاول بالدين ولا الإضرار بأحد من المرسلين: " واخْفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين " المعاهدين والذميين وميزهم بالتواضع الذي هو حلية المؤمنين وإذا ألبس عليك أمرٌ وأشكل وصعب لديك مرامٌ وأعضل فأنهه وقوله: " فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى " إلى حضرة الإمامة متبعاً قول الله تعالى: " فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُون " ليخرج إليك من بصائر توقيفها ومراشد تعريفها ما :اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً " يقفك على مناهج الحقيقة ويذهب بك في لاحب الطريقة واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والجزى والأخماس والقربات وما يجري هذا المجرى وتتقدم إلى كاتب الدعوة بإثبات أسماء أربابه واحمله إلى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتنقيله له ووصوله غليه وبترأ ذممهم عند الله منه واستنب عنك في أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة ومن تثق بديانته وتسكن فيه إلى وفور صناعته واعهد إليهم كما عهد إليك وخذ عليهم كما أخذ عليك واستطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته واستخدم كاتباً ديناً أميناً مؤمناً بصيراً عارفاً حقيقاً بالاطلاع على أسرار الحكمة التي أمر الله بصيانتها وكتمانها عن غير أهلها نقياً حصيفاً لطيفاً ينزلهم في مجلسك بحسب مراتبهم من العلم والدين والفضل.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فتدبره متبصراً وراجعه متدبراً وبه الوصايا تهدي وتسدد قلت: وعلى هذا سائر السجلات من هذا النوع.

وقد أورد في مواد البيان سجلاتٍ غير هذه حذف منها التحميد واقتصر على مقاصدها وفيما ذكر من ذلك مقنع.

المذهب الرابع مما كان يكتب لأرباب الولايات بالدولة الفاطمية مرتبة الأصاغر من أرباب السيوف والأقلام وليس لهذه الرتبة صيغٌ محصورةٌ في الافتتاح بل تفتتح بلفظ: إن أمير المؤمنين لما آتاه الله من كذا يفعل كذا وكذا ولما كنت بصفة كذا وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووزيره وأشار بكذا قررك أمير المؤمنين في كذا أو يقال: إن أولى أو إن أحق أو إن أجدر أو أقمن أو من حسنت طريقته أو من كان متصفاً بكذا كان خليقاً بكذا أو ولما كان كذا أو منشور تقدم بكتبه فلان ونحو ذلك.

فمن المكتتب عن الخليفة من هذه المرتبة لأرباب السيوف نسخة سجلٍ بزمٍ.

إن أمير المؤمنين لما آتاه الله من المحل الأرفع وجعله اليوم الآمر المطاع وغداً الشفيع المشفع يتعهد عبيده بعهاد كرمه ويجير من هجر النوائب من يحاول ظل حرمه ويقبل وسيلة من كانت النجابة أقوى وسائله وذممه ويؤمنه من إلحاق حوادث الدهر به ولممه فلا زال بأمورهم عانياً وبمكارم شيمته عن رفع مسائلهم غانياً لا سيما من حسن في الخدمة أثراً وطاب خبراً ونشرت أوصافه في أيدي الثناء فكانت برود وحبراً وضمن له الإحسان في كل زمان أن يأتي مستحمداً لا معتذراً وعدقت به بحار المحاماة فما أخرجت منه إلا جوهراً.

وغرس مقدمات المخالصة وكان لسانح الإنعام مستثمراً وصقل التجريب صفيحة طبعه وكان لضريبة الحزم مستأمراً واستبد بموجبات المحامد مؤثراً لها ومستأثراً وجعلت لديه أسباب الاستقلال التي قلت عند سواه فظل منها مهداً متكثراً.

ولما كنت أيها الأمير ممن قام له هذا الوصف مقام الاسم من المسمى وتوضحت مخايله به فلم يكن من اللغز المعمى وقام يقرر من الخدمة مشتملاً واستقل بشرائط التعويل مستكملاً وأدرك غايات المحاسن عجلاً متمهلاً وضمنت له الشبيبة أن يعلو كاهل الرياسة متكهلاً واشتهر بالتقدم فلم تعرف به أوضاح الصنائع غفلاً ولا مجهلاً واستوجب أن لا يزال في أفق الإنعام منهلاً عليه يغادر لديه غديراً ومنهلاً واستحق أن يملأ يديه من.

ناظره متأملاً وأدى فريضة النصيحة كافلاً متكفلاً ومعملاً لا متعملاً ونهض بتكاليف الخدمة متحملاً فيها ما لم يزل متحملاً.

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاة الذي أفتاه التوفيق باستبراره ووليه الذي جم به مورد السعد بعد استنزاره: السيد الأجل سيف نصره المهند باسه وليث حربه والسنان ناب وسحاب الرحمة إلى الإسلام بها حصل ربحي خضر الجناب ومتعب الرائح في غيه حتى عزب في سهوب الإسهاب بأطناب الإطناب ومستحق المدائح التي يعطر بها الجناب ويعطل بها الركاب والملك الذي خدمه الملوك لا لرتبة الغناء عنه بل لرتبة المناب فذكرك بما جملك واستمطر لك من الإحسان ما جم لك واستوفق في مناصحة الدولة عملك وقربت عليك بسفارته بحضرة أمير المؤمنين أملك وقرر لك الخدمة بالزم الفلاني إخلاداً إلى ما تنطوي عليه جملتك واعتماداً على ما تعز به كلمتك فأجابه أمير المؤمنين إلى ما أجابك إليه وتقدم أمره باستخدامك فيما عين عليه

وخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك ذلك فتقلد ما قلدته مستشعراً لباس التقوى ناهياً للنفس عن الهوى سالكاً الطريقة المثلى قال الله سبحانه: " والعاقِبَةُ لِلتَّقْوى ".

وهذه الخدمة من أمراء قبائل العرب وهي المنبع وسواها الغرب وما فيها من يدعى إلى خدمة إلا طبق المفصل وأتى على الأرب فخذها بالمرسوم لما تندب له من المهمات السانحة والعوارض والخفوف إليها بالأسلحة الروائع والخيول النواهض وألزم رجالها أن تحفظ من الطرقات ما يصاقبها وأن تسوق كل نفس بجنايتها إلى من يعفو عنها أو يعاقبها وقدم العرض الذي يستدل به على من كان بالوفاء ساقطاً وعن أعمال المملكة ساخطاً ليسترجع الديوان ما كان بيده ويفتضح من كانت الخيانة سريرة مقصده فاعلم هذا واعمل به.

إن أولى من رقاه إنعام أمير المؤمنين إلى المحل اليفاع وشفعت فيه وسائل فضائله فغني عن الاستشفاع وعظم له النفع لما به من عظيم الانتفاع وجردته يد الاختيار سيفاً من سيوف الذب عن الملة والدفاع واستقر في الرتب التي لا تنقل إلا إلى الزيادة ولا تغير إلا إلى الارتفاع وجليت عليه وجوه النعماء واضحة للثام واضعة اللفاع ونيطت منه وصايا الحزم بحافظٍ لها واع وتوفرت عليه بواعث الصنائع ودعت إليه دواع - من ترشح بالاستحقاق للرتب السنية وتأهل وسبق المجارين في حلبة الإخلاص على أنهم جهدوا وتمهل واستوجب امتطاء كاهل الرياسة بالفتك الذي شب والرأي الذي تكهل وثبت جأشه في المقامات التي يراع لها كل روع ويذهل ومنعت مهابته العدو أن يجهل عليه وأبت له حصافته أن يجهل وغريت همته بالمطلب الأصعب من العلاء وأنفت من المطلب الأسهل وولي الولايات الجليلة فظلت الرعايا تعل من موارد عدله وتنهل ونشأت لهم سحب الركاب التي برقها يتهلل وعارضها ينهل.

ولما كنت أيها الأمير الناهض بحقوق هذه السمات البعيد القدر من المساواة والمسامات المتنقل في درجات التقدمة والكرامات المنفرجة عن أنوار فتكاته ظلمات المقامات المعد النجدة لمواقف البأساء والضراء والراد على أعقابها الأبطال المعلمة بالفتكات المعلمات الدائم الغرام بمقامات الرياسة وإن كانت عظيمة المؤن جسيمة الغرامات القائم بما توجبه عليه صنائع أمير المؤمنين من حقوق المدافعة عن الحوزة وفروض المرامات المتظاهرة فيه شواهد الفضائل بأصدق الأعذار وأوضح العلامات المشهور المقامات إذا جرت من متون الصفاح جداول واهتزت من غصون الرماح قامات الآخذ بالأرصاد على العدا بسيوفٍ ترقب الرقاب وتهيم في الهامات الكافي الذي تنقل في الخدم فكان من الشكر مثري الأثر وانتدب في المهمات فكان مثاب التواء مسفر السفر المعروف في تصرفاته بانتهاز النجح وقصر البجح والمعول على أن تصفه أفعاله بشرح لصدر الاختيار به شرح المعدود يوم الروع من كفاة الخطب وحماة السرح الماضي الحد إذا كان السيف لعدم الضارب مشتبه الحد بالصفح وقدم فعل الاستقلال وأخر سؤال الاستغلال وأسكنه من المخالصة إلى دارٍ ببلوغ الآمال محلال وارتفعت كاهل المجد بسعي لمحظورها به استحلال وسهلت إلى الطاعة كل معتاص من المطالب وغدا الاستحقاق بمرادك نعم الكفيل وبأملك نعم الطالب واشتهرت بخلالٍ اقتضت الرغبة بما اقتضته إليك من الرغائب وعظم النفع بك حتى لا نفع مع غيبتك بحاضر ولا ضرر مع حضورك بغائب.

ومثل بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووليه وأمينه السيد الأجل الذي سارت أوصافه مسير الشمس وأنارت إنارتها وسقت مكارمه سقي الغيوث وأمارت إمارتها وسرت خيوله مسرى طيف الخيال وإن كره الأعداء زيارتها وقامت مهابته مقامها في البلاد وأغارت على القلوب إغارتها ونازع الأقمار بعلو القدر دارها وما حسبوا الدست له دارتها وأشارت له السعادة العلوية وأمضى التلطف إشارتها وأحسن به شارتها وطالع بما أنت عليه من طاعةٍ تبذل فيها الطاقة وكفايةٍ إذا تعاطاها الوصف المتسع ضيق نطاقه وعدك في سرعان الأولياء إذا رتب سواك في الساقة واحتسب بما لك من حسنات نظمها نظم السياقة وبما قرره لك من الخدمة إلى ولاية كذا - خرج أمر أمير المؤمنين بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك بالخدمة المذكورة سكوناً إلى مناصحتك التي سكنت ضميرك وركوناً إلى موالاتك التي حققت أملك وتقديرك وإيراداً لك إلى الموارد التي توجب تقديمك وتصديرك فتقلد ما قلدته منها بادئاً بتقوى الله التي إن جعلتها جنتك كانت جنتك وإن استشعرتها عمدتك وقال أنجزت في الدارين من السعادتين عدتك قال الله تعالى في كتابه المكنون: " إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا والَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُون " وابدأ في هذا الثغر الجليل قدره المصاقب لما به تعالى: " ويُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون " محل السعد ومقره الميسر به لكل عاملٍ ثوابه وأجره المحضوض على رباطه لمن توفر حظه من ذخائر الآخرة فأحسن ذخره - بعدل القضايا وصون الرعايا وبث السرايا وترويع العدو من جميع المطالع والثنايا وإهداء المنايا إليه في الغدوات والعشايا والتطلع على ما يجنه من المكايد والخفايا وكفاية أوساط الصفاح مصافحة أطراف الرماح تحايا ولا تخليه أن تجهز في كل يومٍ إليه راية أو تنفذ فيه رايا وأن تسترزق الله أمواله مغانم وحريمه سبايا وتطلع عليهم في عقر دارهم طوالع المنايا وقوارع الرزايا حتى لا تلوح فرجةٌ إلا اقتحمتها ولا تعن فرصةٌ إلا اغتنمتها وامدد على من بهذا الثغر جناح الرعاية والذب ومهد لهم

جانب العدل ليتبوءوا فيه آمني السر والسرب وصنهم صيانةً ترفع عنهم عوادي المضار وتوطد لهم أكناف السكون والاستقرار واعتمد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يطلق فيك ألسنة المادحين وينظمك في سلك من نحاه الله بقوله: وأقم الحد على من وجب عليه إقامةً لا تتعدى فيها الواجب " يأمُرُون بالمَعْرُوف ويَنْهَوْن عن المُنْكر وأُولئكَ من الصَّالِحين " ولا تفارق بها منهج الحق اللاحب وتوخ متولي الحكم بإعزاز ينفذ حكمه وإكرامٍ يشد في الحق عزمه ويردع الظالم ويمنع ظلمه وكذلك المستخدم في الدعوة الهادية عامله بما يشد أزره ويشرح في دعاء المستجيبين صدره وبالغ في عضد المستخدمين مبالغةً تدر بها الأموال وتوجد بها السبيل إلى توفير عطيات الرجال وتوسع عليهم فيها المجال وامنع من يتعرض لكسب الضرائب والإخلال بإلزام الواجب وشرور الأقلاب وقصد سرح لمال بالتباب وأقم للسور شطراً من اهتمامك تعمر أبراجه وأبدانه وتستخدم حراسه وأعوانه وترتب عليه الوقود في الليالي المظلمة وتعجز عن مناله المطامع الميسورة والأيدي المتسنمة وواصل من عمائره ما يتلافى الخلل قبل انفراجه ويعيد مبدأ الغارة على أدراجه فالقليل بالغفلة يستدعي كثرة الاهتمام وربما لم تصب فيه المرمى ولم ينجع المرام.

ومراكب الأسطول المنصورة فولها من ترتضي نهوضه ومن يقوم بشرائط الجهاد المفروضة وإذا آنس فرصة لم يعترضها التفويت وإذا نزل به القرن ناداه بعزم المستميت وإذا عرا المجتمع عرض جمعه للتشتيت واحتط على حواصل هذه المراكب فبها قوة الإسلام على عدوه ومدد استظهاره وعلوه وأقم من الرؤساء من له حيلةٌ في الأسفار وخبرة بمكايد الغارات والحصار ومثابرةٌ يقتدر بها على فتح أبواب المنافع وسد أبواب المضار ولك من البصيرة الجامعة والألمعية اللامعة ما أنت به جديرٌ أن تكون لك الذكرى نافعة فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

النوع الثاني مما كان يكتب في الدولة الفاطمية بالديار المصرية ما كان يكتب عن الوزير وقد علمت في الكلام على المسالك والممالك أن الوزير إذ ذاك كان في منزلة السلطان الآن وكان الشأن فيما يكتب فيه أن يفتتح بما يفتتح به المذهب الثالث مما كان يكتب عن الخليفة وهو أن يفتتح ما يكتب بلفظ: إن أولى أو إن أحق أو إن أجدر أو إن أقمن أو من حسنت ثم ما يكتب عن الوزير: تارةً يكتب بأمر الخليفة وتارةً يصدر عن الوزير استقلالاً فيبينه الكاتب في كتابته وهي: إما لصاحب سيف أو قلم.

فمن المكتتب عن الوزير في الدولة الفاطمية لأصحاب السيوف نسخة سجل بولاية الإسكندرية من إنشاء القاضي الفاضل رحمه الله وهي: من عد من الأولياء الأماثل ووجد عند الانتقاد قليل المماثل وتوسل بالحسنات التي يقبل عنده منها تشفيع الوسائل وتقبل السفارة له الشاملة الاستحقاق الذي يغني عن المسائل ولطف فكره لاقتناء الشيم الموجبة لارتقاء الدرجات الجلائل وألقت الرتب قناعها له عند الكفء الذي يقدم لها أفضل مهور الحلائل وأسفرت مواقف الغناء منه عن الهزبر الشهم واللوذعي الحلاحل وأفرج له الكفاة عن صدور المنازل الرفيعة فلم يكن بينه وبينها حائل واستقل بعظيم ما يفوض إليه فلم تحمل الأقوام ما هو حامل واتسع مجال كفايته في كل أمرٍ يضيق بالمباشر ضيق كفة الحابل وتتبع آثار الخلل بعزماته تتبع كانت الولايات الجليلات له من المعد المدخر وقربت عليه منازل الآثار التي يتجمل بها ويفتخر. - الغيث آثار الديار المواحل

ولما كان الأمير جامعاً لما أفيض فيه من هذه الصفة وموصوفاً بها من كل لسانٍ صادقٍ ونيةٍ منصفة جاريةً على غيره مجرى النكرة ومستندةً إليه استناد المعرفة مشتملاً على خلال كغرائب المكارم مستوفية متألفة كلفاً بالشيم الحميدة إذا افتضحت بها الشيم المتكلفة قمناً أن يوفي فيقرض سعيه إذا اقترضت المساعي المتسلفة نهاضاً بالمصاعب عندما تختلف في إعطائها العزائم المتخلفة آوياً من رجاحته إلى المعقل الحريز والحصن الحصين حاوياً لفضائل حسنةٍ منها الفتك الجري والرأي الرصين مقدماً على الأهوال إذا تغلقت وجوهها غبراً مصراً على الخطرات حتى يظنه الغمر غمراً مصافحاً للرماح إذا بدت أنامل الأسنة مباشراً للصفاح إذا ذعرت لها النفس المطمئنة جديراً أن يرد الخيل المغيرة تدمى نحورها وتمدحك وتذمها الجراح التي اشتملت عليها ظهورها وسما للأعداء سيوفك فعندك غمودها وفيهم صدورها - رأينا بما آتاه الله من رأي لا يستأخر أن يستخير ونظرٍ يستمر أن يمتاح من موارد الرشاد ويستنير ما خرج به أمرنا من ولايتك لثغر الإسكندرية بعد أن طالعنا مولانا صلوات الله عليه بما رأينا واسترشدنا بميامن إمضائه ما أمضينا وفاوضناه فيما فوضناه إليك وأفضينا وقضينا حق الخدمة فيما استمطرنا من صوب واقتضينا إذ كان الله قد خص خلاله بمواتاة الأقدار ووقف الميامن على ما يمضيه ويوقفه من أعنة الإيراد والإصدار وجعل الخيرة فيما يختار والحق دائراً حيث دار وأخلص للأولياء المستشعرين بولائه بخالصةٍ ذكرى الدار وجعل رأيه قطباً في سماء الخلافة عليه في مصالح خلق الله المدار فصحح ما عرضناه على مقام خلافته وصوبه وناجته بديهة الإلهام بما إنته عما صعد فيه المستشير وصوبه وخرج إلينا بأن يمضى لك هذا الأمر ويفوض إليك هذا الثغر فلتقابل هذه النعمة بشكرٍ يوجب استيفاء باقيها واعتدادٍ يمهد درجات مراقيها متنجزاً وعد الله لمستوفيه بإيلاء المزيد الجدير بإحالته من حالة التقليد إلى حالة التخليد جاعلاً تقوى الله حجته فيما يقطعه ويصله وعمدته فيما يمنعه ويبذله قال الله سبحانه في كتابه الذي

ولا تجعل في حكمك بين الخصماء فرقاً وإن فضله على كل كتاب: " وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى واتَّقُونِ يا أُولي الألباب " عدل أحدهما وليكن على الحق الذي لا مفاضلة فيه مقعدهما عندك وموردهما وانتصف للمظلوم من الظالم واعمل في ذلك عمل من لا تأخذه في الله لومة لائم وأقم الحدود متحرياً وأمضها إمضاء من لا يزال بعين طاعة الله متحلياً ونفذها غير مكثر ولا مقل فإن المكثر متعدٍ والمقل مخل.

وقد علمت ما للقاضي من التقدمة الشهيرة والرتبة الأثيرة والمساعي التي هي بألسنة الحمد مأثورة والأقوال التي هي في صحائف حسن الذكر مسطورة والحرمات التي شهدت بها الأيام واليال والموات التي انتظمت في سلوك التصرفات إنتظام اللآلي والصفات التي زهت بها أجياد المحامد الحوالي وله الخبرة بقوانين هذا الثغر وأحكامه والعادة التي لا خلاف أنها لمصالح ما يباشره وإحكامه وأنت مقدم أرباب السيوف في الثغر وهو مقدم أرباب أقلامه فاعرف له منزلته في الخدم المنوطة بكفالته والأمور المحوطة بإيالته ووفه من أثر الإكبار حقه ويسر فيما اشتد عليه من معونتك طرقه وأعن الداعي على ما هو بسبيله من الإرشاد وقم في إعلاء مناره قيام المغرم الشاد.

والأموال أولى ما صرفت إليها همك ووقفت عليها عزمك فاستنهض المستخدمين فيما يستادى ولا تمكنهم أن يحدثوا رسماً ولا يسقطوا معتاداً ولا بد من المقام بظاهر البحر مدة انفتاحه وتفقد الأسطور المقيم بالميناء تفقداً يستوعب أسباب إصلاحه وأذك العيون على سواحله فلم يخل أمر العدو من طارق ليل وخاطف نهار وذدهم عن بغتات هجومهم بما يبلغهم عنك من دوام التيقظ والاستظهار واستنهض الرجال في نوائب الخدم وحوادثها وصرفهم على موجبات المتجددات وبواعثها.

وهذا الثغر ففيه من أرباب الزوايا العاكفين على العبادات والعلماء الداعين الناس إلى الإفادات من لا يدخر الإكرام إلا لأن يؤدى إلى استحقاقهم ولا يصان المال إلا لأن يبذل لاستحقاقهم فأوصل إليهم ما هو مقرر لهم إيصالاً هنياً وأعفهم من مؤونة الهز وساقط عليهم رطباً جنياً واستنهض لنا دعواتهم فإنها أسهم الأسحار واستخلص لنا نياتهم فهم لنا جند الليل وغيرهم لنا جند النهار والسلام.

ومن ذلك نسخة سجلٍ بحماية الرباع وهي: من كان فيما يتولاه مشكور السعي محمود الأثر مستعملاً من النصح وبذل الجهد ما يزيد الخبر فيه على طيب الخبر معتمداً ما يدل على درايةٍ وخبرة ودربة متوخياً ما يجعل الخدم إذا ما ردت إليه لم تحل في دار غربة - استحق أن يورى زنده ويرهف حده وتقوى منته وتشحذ قريحته.

ولما كنت أيها الأمير ممن عرف نفاذه وأحمدت خلاله وشكرت طرائقه وارتضيت أفعاله وظهر فيما يباشره غناؤه واستقلاله وجمع إلى الكفاية نزاهة وإلى الأمانة نباهة وإلى اليقظة عفافاً وسداداً وإلى النهضة حزامةً لا يجد الطالب عليها مستزاداً تقدم فتى مولانا وسيدنا باستخدامك في حماية الرباع السلطانية بالمعزية القاهرة المحروسة: سكوناً إلى جدك وتشميرك وتعويلاً على تأتيك وتدبيرك فاستخر الله وباشر ما رد إليك من هذه الحماية بعزم لا يمازجه فتور وحزم لا يصاحبه قصور واكشف أحوال هذه الرباع كشفاً يعرف به حالها ويعلم منه استقامتها واختلالها وانتصب لاستخراج مالها من السكان واستعمل في استيدائه غاية الاستطاعة والإمكان.

وملاك الأمر فيها أن تتعهدها بالطواف فيها وأن تحافظ على حراسة غيرها وتناول أجرها ورم ما لعله يسترم منها ويتشعث والعكوف على ذلك بحيث لا يتوقف فيه أمرٌ ولا يتريث وحمل مال ارتفاعها إلى بيت المال المعمور بعد ما يصرف في مصالحها ويطلق فيما يتثبت به عليها ولك من الأمير من يعينك وينجدك ويلبي دعوتك ويعضدك ويظافرك على انتظام شؤونك ومقصدك: من الاشتمال بما يزيد على تأميلك فاجعل عليه اعتمادك وبه في الحل والعقد استرشادك فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

ومن الوظائف المكتتبة عن الوزير لأرباب الوظائف الدينية نسخة سجل بالحكم بقوص ومشارفة أعمال الصعيد وهي: من تقدمت لأسلافه خدم ومناصحات وكانوا مشهورين بأن طرائقهم في السداد مستقيماتٌ واضحات وعرف جميعهم بالصيانة والديانة والثقة والأمانة والمحافظة على ما يحظيهم عند ولي نعمتهم والعمل بما يقضي بطيب ذكرهم وحسن سمعتهم كان ذلك ذريعةً له ووسيلة وماتة ينال بها المواهب الجزيلة.

ولما كنت أيها القاضي على القضية المرضية من ولاء الدولة وطاعتها والحرص على الإخلاص لها ومشايعتها والتحلي بالعلم والتمييز في أربابه والتعلق بفعل الخير والتمسك بأسبابه والعمل بما ينفعك في عاجلتك وآجلتك والاجتهاد فيما يبعث على وفور

حظك من الإنعام وزيادتك وكانت لك دربة فيما تعانيه ودراية وصولة في حسن التأتي إلى أمدٍ بعيدٍ وغاية وقد تقدمت لأخيك رحمه الله - خدمةٌ أبانت عن حرصه ومناصحته وأعربت عن وفور نصيبه من النهى ورجاحته فأدى ذلك -القاضي الرشيد إلى بلوغه من رتب أمثاله أقصاها وإلى أن استقرت خدمه عليه وألقت عنده عصاها وهذه نصيبك إذا اقتفيتها فقد عرفت مفضاها وإذا عكفت عليها نالك من الإحسان على حسبها ومقتضاها - تقدم فتى مولانا وسيدنا باستخدامك في النيابة في الحكم بمدينة قوص والمشارفة بأعمال الصعيد الأعلى: تنويهاً بك وتكريماً لك وتمهيداً لمكان الاصطناع الذي رتبك فيه وأحلك فاعرف قدر هذه النعمة وقابلها ببذل الطاقة في النصح في الخدمة وبالغ في الشكر الذي يثبتها عندك ويديمها لك واحرص على القيام بحقها حرصاً تبذ به نظراءك وأمثالك واعمل في ذلك بما تضمنه التقليد المكتتب لك من مجلس القاضي الأعز الماجد أدام الله تمكينه وما أودعه من وصايا مرشدة وهداياتٍ إلى الصواب مقربة وعن الخطإ مبعدة وافعل في أمر المشارفة ما اشتملت عليه التذكرة المعمولة من الديوان فإنه يوضح لك منهج الصلاح ويأتيك منه بما يزيد على البغية والاقتراح وانتصب للعمارة والاستكثار من الزراعة بالمعدلة على المعاملين والاستخراج لحقوق بيت المال على أحسن القوانين وواصل من الحمول ما يكون محققاً للمظنون فيك والمأمول فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله عز وجل.

أحق من كانت المواهب عنده مخلدة والمنائح إليه متواصلةً متجددة والعوارف تفد عليه فتخيم في مغناه وتقيم والفواضل تأتي نحوه فتستقر في مثواه ولا تريم والنعم الشتى لا تشكو في مواطنه استيحاشاً ولا اغتراباً والمنن إذا حبي بها كان نيله له استحقاقاً منه لها واستيجاباً - من كرمت أعراقه ومحاتده وشهرت أوصافه ومحامده وصفت في المخالصة مصادره وموارده وكثرت في تقريظه غرائب الثناء وشوارده وشيد منار أسلافه بالتخلق بخلائقهم وأبقى الحديث عنهم بانتهاج سبلهم وطرائقهم وأحسن برهم في الاقتفاء لأثرهم والاقتداء بهديهم وإحياء ذكرهم بالعمل بما كانوا عليه في عودهم وبدئهم.

ولما كنت أيها القاضي لهذه الخلال جامعاً وإلى المراشد مصغياً سامعاً ولبلوغ ما ناله أسلافك بالمناصحات راجياً طامعاً ولك فيما يسند إليك نظرٌ يدل على صواب آرائك وفيما يرد إلى توليك كفايةٌ تميزك على نظرائك ولما ندبت للأحكام الشرعية أبنت عن الديانة والألمعية وحين باشرت الأعمال الديوانية نصحت واجتهدت وأخلصت النية والذي بيدك يتمسك بك ويتعلق بسببك تقدم فتى مولانا وسيدنا بكتب هذا - لأنك لما استكفيته نهضت وأحسنت فلذلك يأبى أن يكلفه غيرك وأن لا يتكفله إلا أنت المنشور بتجديد نظرك فيما هو بيدك من النيابة في الحكم العزيز بثغر دمياط - حماه الله تعالى - والمشارفة على الأحباس به وعلى مستخرج الجوالي فيه تقويةً لعزمك وإمضاءً لحكمك وشداً لأزرك وتأكيداً لأمرك وإنفاذاً لقولك وبسطاً ليدك وإيضاحاً لميزتك وإظهاراً لتكرمتك وإبانةً عن حسن النية وإعراباً عن جميل الرأي فيك فاجر على رسمك وعادتك واستغن بما أودعته تقاليدك من الوصايا واستمر على نهجك الذي أفضى بك إلى أحمد الأفعال وأجمل القضايا واستمر على نهجك الذي أفضى بك إلى أحمد الأفعال وأجمل القضايا وارتبط النعمة عندك بتماديك على عادتك وتوسل بمشكور السعي إلى نمو حظك ووفور زيادتك فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله عز وجل.

ومن ذلك نسخة سجل بالحكم بالأعمال الغربية وهي: من كان بالعلوم الدينية قؤوماً وفي الأمور الشرعية ممن يشار إليه ويومى وظل من يجاريه من طبقته قليلاً إذا لم يكن معدوماً وعلم نفاذه الذي سلم من المناقضة فيه والاختلاف وعرف اعتماده الواجب من غير ميل عنه ولا انحراف وكان لشمل الديانة والأمانة مؤلفاً جامعاً وغدا الوصف بجميل الخلال وحميد الأفعال عنه مسموعاً ذائعاً وآثاره في كل ما يتولاه مداحه وخطباؤه وسفراؤه في الرتب الجليلة نزاهته وظلف نفسه وإباؤه - صارت الأحكام بنظره مزهوة وأضحت الخدم الخطيرة تتوقع بإسنادها إليه استظهاراً وقوة فهي تتشوف إلى أن يوليها حظاً من محاسنه يكسبها نضرة وبهاء وتتصدى من نظره فيها لما يضمن لها إدراكاً للإرادة وبلوغاً إليها وانتهاء.

ولما كنت أيها القاضي حائزاً لهذه الصفات محيطاً بما اشتملت عليه من الأدوات سالكاً أعدل طريقٍ في الأمور إذا أشكلت عاملاً بقضايا الواجب إذا اعتمدت الإقبال عليك واتكلت ولك الخدمة السنية التي لا تطمح إليها كل أمنية والرتب الرفيعة التي لا ينالها إلا من كان عمله موافقاً لصادق النية وكل ما تباشره يغتبط بك ويأسى على فراقك وكل ما حظر على غيرك مباحٌ لك لاستيجابك له واستحقاقك فمن العدل أن تكون كفايتك على الأعمال مقسمة وأن تكون آثارك في كل ما تعانيه من أمور المملكة علامةً لك عليها وسمة وكانت الخدمة في الحكم بالغربية من التصرفات الوافية المقدار السامية الأخطار التي لا يسمو كل آمل إليها ولا يحدث كل أحد نفسه بتوليها وقد اشتهرت خبرتك بالأحكام وحفظك فيها للنظام وبتك للقصص المشكلة ورفعك للنوب فرأينا استخدامك نائباً عن القاضي الأعز الماجد في الصلاة والخطابة والقضاء بالأعمال الغربية المقدم ذكرها: إذ - المعضلة كنت تعدل في أحكامك ولا تخرج عن قضايا الصواب في نقضك وإبرامك ولا تحابي في الحق ذا منزلة ولا تنفك معتمداً ما يقضي لك بالميزة المتأكدة والرتبة المتاثلة وأمرنا بكتب هذا المسطور شداً لأزرك وتشييداً لأمرك وإيراءً لزندك وتقوية لعزمك وضمناه ما تقدم ذكره من وصفك وشكرك وتقريظك وإجمال ذكرك والثناء على علمك والأبانة عن قضيتك في قضائك

وحكمك فاعمل بما اشتمل عليه التقليد المكتتب لك من مجلس الحكم العزيز وانته إلى ما أودع من فصوله وكن عاملاً بمضمونه متبعاً لدليله والله يوفقك ويرشدك ويعينك ويسددك فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله عز وجل.

ومن ذلك نسخة سجل بالحكم والمشارفة بثغر عسقلان من سواحل الشام وهي: الذي منحنا الله من المفاخر الدالة على محلنا عنده والمآثر التي أوصلنا بها من الشرف إلى أمدٍ لا غاية بعده والقضايا العادلة التي أبانت عما أجراه الله لنا من اللطائف والسياسة الفاضلة التي تشهد لنا ببياض الصحائف قد ضاعف حظنا من التأييد فيما نراه ونمضيه وضمن لنا الهداية في حق الله تعالى إلى ما يرضيه وأجزل قسطنا من التوفيق في اجتباء من نجتبيه وحبب لنا إسناء المواهب لمن كان قليل النظير والشبيه ووقف اهتمامنا على التنبيه على كل مشكور المساعي وصرف اعتزامنا إلى التفقد للمقاصد التي هي على الاصطفاء من أقوى الدواعي ووفر التفاتنا إلى تأمل الإخلاص الذي صفت موارده وصحت سرائره وأحكمت معاقده وأحصدت مرائره وتوكل لصاحبه في بلوغ المطالب البعيدة المطارح وتبتل لمن وفق له في سبوغ العوارف المخصبة المسارح وجعلنا لا نغفل عمن بذل في الطاعة مهجته وأظهر بدؤوبه وانتصابه دليله على الولاء المحض وحجته وأبان عن تقواه وحسن إيمانه وتقرب باستفراغ وسعه إلى الله تعالى وإلى سلطانه وعمل فيما ائتمن عليه ما استوجب به جزيل الأجر وكان له من رأيه في أعداء الملة ما يقوم مقام العسكر الجر وعلم أن تجارته في المخالصة نافقةٌ مربحة وأن مراميه في المناصحة صائبةٌ منجحة وتيقن أنا بحمد الله لا نخيب أملاً ولا نضيع أجر من أحسن عملاً.

ولما كنت أيها القاضي المكين المرتضى ثقة الإمام جلال الملك وعماده ذو المعالي صفي أمير المؤمنين مستولياً على هذه الخلال التي تكفلت لك بإعلاء القدر ومحتوياً على هذه الخصال التي رتبتك على نظرائك في الصدر ولك من الحرمات سوابق لا يطمع فيها بلحاقك ومن الموات شوافع تجعل جسائك النعم وقفاً لاستحقاقك وقد عرفت بالجد والتشمير واشتهرت بصادق العزم وصائب التدبير وجعلت مؤهلاً لكل أمير خطير ومهمٍ كبير واستقر أنك إذا استكفيت جسيماً فقد وكل منك إلى الأمين الخبير: لأن لك الرياسة التي لا تجارى فيها ولا تبارى والكفاية التي لا يختلف فيها ولا يتمارى والفضائل التي تشهد بها أعداؤك وحسادك اضطراراً وما زالت أفعالك في كل ما تتولاه من الخدم الجللة دالةً على كرم طباعك وآثارك معربةً عن سعة ذرعك في الخير وامتداد باعك وأخبارك ناطقةً بإبائك عن الباطل واقتفائك للحق واتباعك ولما نظرت في القضاء تهلل بنظرك وجه الشرع وأبنت عن اضطلاعك من علمه بالأصل والفرع وعدلت في أحكامك ولم تعدل عن الواجب في نقضك وإبرامك وفعلت ما أقر عين الملة وأربيت على من تقدمك من القضاة الجلة واعتمدت من الإنصاف ما بردت به الغلة وأزحت به كل علة ووفيت هذه الخدمة جميع شروطها وفسحت في توليك أماني المظلومين بعد ضيقها وقنوطها وقمت في ذلك المقام الذي يقضي بثبوت النعمة عندك وخلودها وبالغت في ارتباطها بالشكر لعلمك أن شرودها بكنودها.

فأما الإشراف فإنك أتيت فيه ما دل على حسن المعرفة واستقبلت في وجهه كل صفة وأوضح أن كل من باشره لم يبلغ مداك والا جرى مجراك ولا وصل إلى غايتك بل ما طمع بمداناتك ولا مقاربتك وكل ما عدق بكفايتك فقد أتيت بحمد الله فيه على الأغراض لا جرم أنه مستدعٍ لزيادتك ومطالبٌ ومتقاض فحين اجتمعت لك هذه الأسباب استوجبت من إنعامنا ما يتنزه كرمنا عن تعويقه ومن جزيل إحساننا ما يكون تعجيله حقاً من حقوقه فشرفناك بتجديد ما هو بيدك من الحكم العزيز والمشارفة بثغر عسقلان حماه الله تعالى وجعلنا النيابة في الحكم عنا تنويهاً بك ورفعاً لشانك وتبييناً لموضعك عندنا ومكين مكانك فاعمل بتقوى الله التي أمر بها في كتابه الذي به يهتدي المؤمنون فقال عز من قائل: " يا أَيُّها الذِين آمنُوا اتقُوا اللهَ ولتنْظُرْ نفْسٌ ما قدَّمتْ لغَدٍ واتَّقُوا الله إنَّ الله خبيرٌ بما تَعْمَلُون " واجر على عادتك فيما حسن أثرك وأطاب خبرك معتمداً على ما تضمنته عهودك واشتملت عليه تقاليدك: من المساواة بين القوي والضعيف في الحق وإجراء الشريف والمشروف في المحاكمة مجرًى واحداً من غير فرق والنظر فيمن قبلك من الشهود وحملهم على القانون المألوف المعهود: من إقرار من ترتضيه والمطالعة بحال من تأباه لما توجبه طريقته وتقتضيه والمحافظة على أن لا يتعلق بشيء من أمور الحكم إلا من أحمد فعله وحصل له من التزكية ما يزكى به مثله إلى غير ذلك مما أودع فيها وأحاطت بها الوصايا التي لم يزل يستوعبها ويستوفيها.

واستقم على سبيلك في ضبط المال وحفظه وصونه واستعن على بلوغ المراد في ذلك بتأييد الله وتوفيقه وعونه وتماد على سننك في النظر في أحوال الثغر المحروس والانتصاب لمصالحه والتوفر على منافعه والاجتهاد في الجهاد بآرائك والاستمرار في ذلك على سديد أنحائك والله ولي عونك وإرشادك والمان بتبليغك فيما أنت فيه أقصى مرادك فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك نسخة سجل بتدريس وهي: أمير المؤمنين لما منحه الله من الخصائص التي جعلته لدينه حافظاً ولمصالح أمور المسلمين ملاحظاً ولما عاد بشمول المنافع لهم مواتراً وبما أحظاهم عنده تبارك وتعالى معيناً وعليه مثابراً لا يزال يوليهم

إحساناً وفضلاً ومناً ويسبغ عليهم إنعاماً لم يزل تسم هممهم إلى أن تتمنى وقد يسر الله تعالى لخلافته ودولته ووهب لإمامته ومملكته من السيد الأجل الأفضل أكرم ولي ضاعف تقواه وإيمانه وأكمل صفي وقف اهتمامه واعتزامه على ما يرضيه سبحانه وأعدل وزير لم يرض في تدبير الكافة بدون الرتبة العليا وأفضل ظهيرٍ ابتغى فيما أتاه الله الدار الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا فهو يظافر أمير المؤمنين على ما عم صلاحه عموم الهواء ويفاوض حضرته فيما يستخلص الضمائر بما يرفع فيه من صالح الدعاء.

ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الإسكندرية - حماه الله تعالى - على غيره من الثغور فإنه خليقٌ بعنايةٍ تامةٍ لا تزال تنجد عنده وتغور: لأنه من أوقى الحصون والمعاقل والحديث عن فضله وخطير محله لا تهمة فيه للراوي والناقل وهو يشتمل على القراء والفقهاء والمرابطين والصلحاء وأن طالبي العلم من أهله ومن الواردين إليه والطارئين عليه متشتتو الشمل متفرقو الجمع - أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلددين ولم يرض لهم أن يبقوا مذبذبين متبددين وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة منا عليهم وإنعاماً ومستقراً لهم ومقاماً ومثوًى لجميعهم ووطناً ومحلاً لكافتهم وسكناً فجدد السيد الأجل الأفضل أدام الله قدرته الرغبة إلى أمير المؤمنين في أن يكون ما ينصرف إلى مؤونة كل منهم والقيام بأوده وإعانته على ما هو بسبيله وبصدده: من عينٍ وغلة مطلقاً من ديوانه واسترفد أمير المؤمنين المثوبة في ذلك فأجابه جرياً على عادة إحسانه واستقرت التقدمة في هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبو الطاهر: لنفاذك واطلاعك وقوتك في الفقه واستضلاعك ولأنك الصدر في علوم الشريعة والحال منها في المنزلة الرفيعة والمشتغل الذي اجتمع له الأصول والفروع ومن إذا اختلف في المسائل والنوازل كان إليه فيها الرجوع هذا مع ما أنت عليه من الورع والتقى وأن مجاريك لا يكون إلا ناكصاً على عقبه مخفقاً وأمر أمير المؤمنين أن تدرس علوم الشريعة للراغبين وتعلم ما علمك الله إياه لمن يريد ذلك من المؤثرين والطالبين وخرج أمره بكتب هذا المنشور بذلك شداً لأزرك وتقويةً لأمرك ورفعاً لذكرك فأخلص في طاعة الله سراً وجهراً فإنه تعالى يقول في كتابه: " وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً " واعتمد توزيع المطلق عليهم وتقسيمه فيهم على حسب ما يؤدي اجتهادك إليه ويوقفك نظرك عليه وقرب ن ارتضيت طريقته وأبعد من أنكرت قضيته فقد وكل ذلك إليك وعدق بك من غير اعتراضٍ فيه عليك فمن قرأه أو قرئ عليه من الأمير المظفر والقاضي أدام الله تأييدهما - وكافة الحماة والمتصرفين والعمال والمستخدمين فليعتمد رعاية المدرسة المذكورة ومن احتوت - المكين عليه من الطلبة وإعزازهم والاشتمال عليهم والاهتمام بمصالحهم والتوخي على منافعهم وليتل هذا المنشور على الكافة بالمسجد الجامع وليخلد بهذه المدرسة حجةً بما تضمنه إن شاء الله عز وجل.

ومن ذلك سجل بولاية الحسبة من إنشاء القاضي الفاضل وهي: من شكرت خلائقه وتهذبت طرائقه وأمنت فيما يتولاه بوائقه ونيطت بعرى الصواب علائقه وفرجت بسداده مسالك الإشكال ومضايقه واستحوى من الأمانة قريناً في التصرفات يرافقه ولا يفارقه ونهض إلى الاستحقاق ولم تعقه دونه عوائقه وأثنى عليه لسان الاختبار وهو صحيح القول صادقه - استوجب أن يخص من كل قول بأجمله وأن يعان على نيل رجائه وبلوغ أمله وأن يقتدح زند نيته ليرى نور عمله وتيسر إلى النجاح متوعرات طرقه ومشكلات سبله وأن يقابل جريانه في الولاية قبله فيظهر عليه أثر الإحسان فيكون الشكر من قبل الإحسان لا من قبله ويورد من موارد النجح ما يتكفل له بالري من غلله ويوسم من مياسم الاصطناع ما يكون حلية أوصاله ويشفع سداد خلاله في سد خلله.

ولما كنت أيها الشيخ المشتمل على ما تقدم ذكره المستكمل من الوصف ما يجب شكره الآوي إلى حرزٍ من الصيانة حريز المستغني بغنائه عن الاستظهار بعزوة العزيز المستوجب إلى أن يعد من أهل التمييز لأنه من أهل التمييز المستوعب من الخلال الجميلة ما لا يقتضيه القول الوجيز المخرج من قضايا الدنايا فما يستبيح محرمها ولا يستجيز الممدح في خدمٍ كلها أخلصته خلاص الذهب الإبريز وكانت له مضماراً تشهد له أفعاله فيها بالسبق والتبريز المتوسل بأمانة عزبها جنابه عن الشبهة ووجدانها في الناس عزيز - تقدم فتى مولانا السيد الأجل باستخدام على الحسبة بمدينة كذا: فباشر أمرها مباشرة من يبذل في التقوى جهداً فلا يرى غيرها على ظمإٍ ورداً ولا يراه الله حيث نهاه ولا يأمره أبداً ولا ينهاه إلا نهاه ولا يرى ما كشفته إلا وهو عالمٌ أن الله يراه وانته فيها إلى ما ينتهي إليه من بذل غاية وسعد ومن لا يرتد عن جرركيه من عموم نفعه ومن يدل بتهذيب طباع الناس على طهارة طبعه ومن يستجزل حسن صنيع الله لديه بحسن صنعه ومن يستدعي منه بذل فضله بحظر ما أمر بحظره ومنعه واسلك فيما تستعمله من أمرها المذهب القصد والمنهج الأقوم واجتهد فيها اجتهاد معتصمٍ بحبل التقوى المتين وسببها المبرم وامنع أن يخلو رجل بامرأة ليست بذات محرم واستوضح أحوال المطاعم والمشارب وقوم كل من يخرج في شيءٍ منها عن السنن الواجب وعير المكاييل والموازين فهي آلات معاملات الناس واجتهد في سلامتك من الآثام بسلامتها من الإلباس والأدناس وحذر أن تحمل دابة ما لا تطيق حمله وأدب من يجري إلى ذلك يتوخى فعله وأوعز بتنظيف الجوامع والمساجد لتنير بالنظافة مسالكها كما تنير بالإضاءة حوالكها ففي ذلك إظهارٌ لبهجتها وجمالها وإيثارٌ لصيانتها عن

إخلاق نضرتها وابتذالها ولا تمكن أحداً أن يحضرها إلا لصلاةٍ أو ذكر قاطعاً للسان الخصام وموقظاً لعين الفكر فأما من يجعلها سوقاً للتجارة فقد حصل بهذه الجسارة على الخسارة فهي ميادين الضمر وموازين الرجح في الظاهر من أعمالهم والمضمر وما أحق لياليها أن تقوم بها الهجد لا السمر وهل أذن الله أن ترفع لغير اسمه أو تعمر واحظر أن يحضر الطرقات ما يمنع السلوك أو يوعره وافعل في هذا الأمر ما يردع العابث ويزجره وخذ النصارى واليهود والمخالفين بلبس الغيار وشد الزنار ففي ذلك إظهار لما في الإسلام من العزة وفي المخالفة من الصغار وإبانةٌ باشد للتأهب للمسير إلى النار وتفريق بين المؤمنين والكفار وأدب من يكيل مطففاً أو يزن متحيفاً أدباً يكون لمعاملته مزيفاً وله من معاودة على فعله زاجراً ومخوفاً فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

ومن المكتتب عن الوزير لأرباب الوظائف الديوانية سجلٌ بمشارفة الجوالي بالصعيد الأدنى والأشمونين وهي: من حسنت آثاره فيما يتولاه واستعمل من الاجتهاد ما يدل على معرفته بقدر ما تولاه كان اعتماده بما يؤكد سببه وينجح قصده ويبسط يده ويرهف حده فيما يضمن مصالح خدمته وينظم أمرها في سلك إيثاره وبغيته.

ولما كنت أيها الأمير لما ندبت إلى مشارفة الجوالي بالصعيد الأدنى والأشمونين قد أبنت عن الخبرة والدراية والأمانة والكفاية والانتصاب للاستخراج والجباية والاجتهاد في الوفاء بما كتبت به خطك والحرص على ما يجزل نصيبك من جميل الرأي وقسطك - تقدم فتى مولانا وسيدنا بكتب هذا المنشور مضمناً شكرك وإحمادك ومودعاً ما يبلغك في الخدمة بغيتك ومرادك وتجديد نظرك وتقوية يدك وإعزاز جانبك وتوخيك بما يشرح صدرك ويشد أزرك ويرفع موضعك ويزيح عللك ويقيم هيبتك ويفسح مجالك ويبلغك آمالك فاجر على رسمك في هذه المشارفة واستمر على عادة دؤوبك واجعل التقرب بالنصيحة غاية مطلوبك وواصل الانتصاب لاستخراج مال هذه الجوالي واستنضاضه واستيفائه واستنظافه وتماد في ذلك على سنتك الحميدة وطريقتك السديدة وثق بأن ذلك يسفر لك عن بلوغ أراجيك ويضاعف سهمك من حسن الرأي فيك فليعتمد الأميران معاضدة المذكور ومؤازرته وإعانته ومظافرته وإجابة ندائه وتلبية دعائه والشد منه في استخراج البواقي مع المال الحاضر: ليجد السبيل إلى الوفاء بما شرطه على نفسه وكتب خطه به والمبالغة في ذلك مبالغةٌ يعود نفعها على الديوان ويشهد لهما ببذل الطاقة والإمكان فليعلم ذلك وليعمل به إن شاء الله عز وجل.

ومن ذلك سجل باستيفاء الأعمال القبلية وهو: من كرم أصله ومحتده وحسن في الولاء ظاهره ومعتقده ولقن المخالصة عن الماضين من أسلافه ولزم في المناصحة منهجاً لم يعدل عنه إلى خلافه وتنقل في جلائل الخدم بكثرة الثناء عليه والتعديد لأوصافه وكان في كل ما يباشره على قضيةٍ تشهد بفضله وتدل من محاسن الخلال على ما لا يجتمع إلا في مثله على أنه قليل النظراء والأكفاء كلفٌ بالاقتداء بمكارم الأفعال والاتباع لها والاقتفاء - استوجب أن يرفع مكانه ومحله واستحق أن يحمل من أعباء المهمات ما لا ينهض به إلا مثله وصلح أن يجعل لما يراعي أمره سهماً من نظره فيه وأن يبرز من توليته إياه في ملبس جمال يسبغه حسن التدبير عليه ويضفيه.

ولما كنت أيها الشريف تاج الخلافة عضد الملك صنيعة أمير المؤمنين من جلة آل أبي طالب والموفوري الحظ من المآثر والمناقب ولك مع نسبك الشريف ميزة بيتك في الدولة العلوية - خلد الله ملكها - وتقدمه واستقرارك بنجوة من السناء لا يضايقه أحدٌ من طبقتك فيها ولا يزحمه وقد توليت أموراً جليلةً فكنت عليها القوي الأمين وأهلت لمنازل سنية فأوضحت لك الأثر الحسن وأظهرت منك الجوهر الثمين ولم تنتقل قط من شيء تتولاه إلى غيره مما تستحفظه وتستكفاه إلا كان الأولعليك يتلهف والثاني إليك يتطلع ونحوك يتشوف وما برحت ملتمساً من الرتب الخطيرة مخطوباً: لأن الأسباب التي غدت في غيرك متشتتة متفرقة قد ألفيت عندك مجتمعةً متألفة متسقة فلك النزاهة السابقة بك كل من يجاريك والوجاهة الرافعة قدرك على من يناويك والأمانة التي يشهد لك بها من لا يجاريك والوجاهة الرافعة قدرك على من يناويك والأمانة التي يشهد لك بها من لا يحابيك والديانة التي حزتها عن الشريف عضد الدولة أبيك - تقدم فتى مولانا وسيدنا بالتعويل عليك في تولي ديوان الاستيفاء على الأعمال القبلية وما جمع إليه الذي هو من أجل الدواوين قدراً وأنبهها ذكراً وأرفعها شاناً وأشمخها مكاناً وخرج أمره بكتب هذا التقليد لك فباشر ذلك متقياً لله تعالى فيه جارياً على مراقبة عادتك التي تزلف فاعلها وتحظيه فالله تعالى يقول إرشاداً لعباده وتفهيماً: " يأَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا اتَّقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عظِيماً ".

وتبتل إلى عمارة الأعمال وتزجية الارتفاع واستخراج الأموال واعتمد مواصلة الجد والتشمير واعكف على الاجتهاد الذي يشهد لك بقلة الشبيه وعدم النظير واستنظف البواقي من كل الجهات والأماكن وكن على ضبط ما تستخرج وصونه أحفظ له من الخزائن وانظر في أمر الكتاب نظر من يكشف عن جميع أسبابهم ويعلم أنه المخاطب على خطئهم وصوابهم وخذهم

بملازمة الاشغال والمواظبة على التنفيذ وعلى استيفاء الأعمال ولا تسوغ لضامن ولا عامل أن يضجع في العمارة ولا أن يماطل بها من ساعة إلى ساعة فإن فائت ذلك لا يلحق وفارطه لا يدرك وقد أزيحت علتك ببسط يدك وإنفاذ قولك وإمضاء حكمك فتماد على سنتك واستمر على رسمك واعلم هذا واعمل به وطالع بما تحتاج إلى المطالعة بمثله إن شاء الله تعالى.

سجل بمباشرة الأغنام والمطابخ.

لما كانت الأمانة كافلةً بالتنويه لأربابها والكفاية سافرةً في التمييز لمن يتعلق بأسبابها والخبرة خلةً لا يليق التصرف ولا يحسن إلا بها وكنت أيها القاضي مشهور النفاذ والمعرفة خليقاً إذا ذكر المرشحون للمهمات بأجمل صفة وقد علمت نباهتك واستقرت نزاهتك وحسن فيما تتولاه أثرك وطاب فيما تباشره خبرك.

وحين عدقت بك الخدم فيما يستدعى ويبتاع من الأغنام برسم المطابخ السعيدة وما ينفق ويطلق منها متصرفاً في ذلك بين يدي المخلص السديد صفي الملك مأمون الدولة أبي الحسن: فرج الحافظي أدام الله تأييده فشكر سعيك وأحمد قصدك ورضي اجتهادك واستوفق اعتمادك - تقدم فتى مولانا وسيدنا فلان بكتب هذا المنشور لك مضمناً ما يقضي بشد أزرك وشرح صدرك وتقوية منتك وإرهاف عزمك في خدمتك واعتمادك بما يؤدي إلى استقامة الأمر فيما عدق بك ومساعدتك ومعاضدتك ومعونتك في أسبابك وتبليغك أقصى طلابك والأميران يعتمدان رعايتك والشد منك وإعانتك والمحافظة على مصالح أمرك والتلبية لدعوتك وتوفير حظك من الملاحظة لشؤونك.

فلتعلم هذا ولتعمل به إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك نسخة منشور بمشارفة المواريث الحشرية والفروض الحكمية وهي: منشورٌ تقدم بكتبه فتى مولانا وسيدنا الأجل الأفضل لك أيها القاضي الرشيد سديد الدولة أبو الفتوح محمد بن القاضي السعيد عين الدولة أبي محمد عبد الله بن أبي عقيل - أدام الله عزك - لما اشتهرت كفايتك اشتهار الشمس وأمنت أمانتك دخول الشبهة واللبس وسلكت مذهب أسلافك في العفاف والنزاهة وظلف النفس وظلت آثارك فيما تتولاه شاهدة بديانتك وأفعالك فيما تستكفاه معربةً عن نباهتك وسيرتك فيما تتكلفه منتهيةً بك إلى أقصى أمد الاحتياط مفضية وقد أضحى سبيل تقديمك معبداً مذللاً وغدوت لما يناسب كريم بيتك مرشحاً مؤهلاً وإنما إبقاؤك على ما بيدك لتكمل إصلاحه وتهذيبه وتتمم تثقيفه وترتيبه ولذلك كتب هذا المنشور مقصوراً على إقرارك على ما أنت متوليه من الخدمة في مشارفة المواريث الحشرية وتقرير الفروض الحكمية فاجر على رسمك وعادتك واستمر على منهج في بذل استطاعتك والزم المعهود منك فإنه مغنٍ عن الاستزادة وتماد على ما أتيت فيه على البغية والإرادة واكتف بما تضمنته التذكرة الديوانية المعمولة لهذه الخدمة وحافظ من الاجتهاد على ما يجدد لك كل وقت ملبس نعمة فاعلم هذا واعمل به ولينسخ هذا المنشور بحيث ينسخ مثله إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك نسخة منشور بعمالة وهي: عندما وصفت به من اجتهاد ومناصحة وأمانةٍ ليس فيها مساهلةٌ ولا مسامحة ومخالصةٍ استمررت فيها القضية المستقيمة الواضحة وكفايةٍ تمسكت منها بالسبب الوثيق وحصلت على الصفقة الرابحة ومعاملةٍ تحريت فيها نهج من حبب إليه الأعمال الصالحة وكفايةٍ إذا باشرت الدهمة الكالحة أبدلتها بالغرة الواضحة وسمعةٍ ما برحت الألسن لذخائر ثنائها مبيحةً ولسرائر أسبابها بائحة وإنك إذا أهلت لخدمة جعلتها لشكرك لساناً ولكتاب كفايتك عنواناً ومن كان بها ملماً إذا رأتك دواءه كان مستعاراً بك أحياناً فاعتمد في هذه الخدمة ما يحقق بك ظناً ويقيم لك وزناً ويشد بك ركناً ويضاعف لديك مناً وينيلك من الإحسان ما تتمنى ويسني لك من الزيادة والحسنى ويتوكل في اقتضاء الحظ الجزيل الأسنى واسترفع الحسبانات التي ما يلزم رفعها ويحفظ به شرط الكفاية ووضعها واكشف ولا تبق ممكناً حتى تكشفه ثم استنطقه وحاصل به أصله ثم تجمله وحاقق الجهابذ على ما خرجت به البراآت ورفعت به الختمات ولا تخل وصولاً من أن تكون بخطك موصولاً واستخرج حقوق الديوان على ما مضت به مواضي سننه وخذ من كل شيء في خدمتك بأحسنه وأنزل نفسك من شؤون السنة بأمنع ظل وأحصنه واحمل التجار والسفار على عوائد العدل وشرائطه وقضايا الصون وحوائطه وشواهد الديوان وضرائبه ولا تتعد فيهم مألوف مطالبه وانظر في الأملاك السلطانية نظراً يصلح معتلها ويصحح مختلها ويوفر أجرها ويزجي غيرها وكذلك الأحباس والأحكار والمواريث: فحافظ على حفظ استغلالها وكف كف من يرى باستباحة أمر الحرمة واستحلالها وقد وردت لك من الديوان تذكرة فاهتد بمنظومها واقتد بمرسومها ولك من الآراء ما يشحذ عزمك وينفذ حكمك ويسني موردك ويعلي يدك ويمثل الرعاية فيك ويقيم على أن تكفي الديوان بما يكفيك والسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الثاني من الباب الرابع من المقالة الخامسة فيما يكتب من الولايات عن الملوك

الطرف الأول في مصطلح كتاب الشرق

قد تقدم في الكلام على ما كان عن الخلفاء أن الولايات في الخلافة العباسية ببغداد كانت تصدر عن الخلفاء دون الملوك المساهمين لهم في الأمر لا يشاركونهم في شيء من الولايات أصلاً.

وقد تقدم ذكر ما كان يكتب عن خلفائهم من الولايات هناك.

والمقصود هنا ما كان يكتب عن ملوك بني جنكزخان من البيت الهولاكوهي فمن بعدهم.

ولم أقف على شيء من مصطلحهم في ذلك فأورده هنا.

الطرف الثاني في مصطلح كتاب الغرب والأندلس فيما يكتب من الولايات عن الملوك واعلم أنهم يعبرون عما يكتب في جميع ولاياتهم بالظهائر: جمع ظهير يفتتحونه بلفظ هذا ظهير كما تقدم بيانه في الكلام على ما كان يكتب عن خلفاء المغرب.

ثم هي على ثلاثة أضرب: ما يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السيوف وهذه نسخة ظهير بنيابة السلطنة بالحضرة من إنشاء أبي عبد الله بن الخطيب وهي: هذا ظهير كريم منزلته من الظهار منزلة المعتمد به من الزهراء ومحله من الصكوك الصادرة عن أعاظم الملوك محل أولي الرايات الخافق العذبان والآراء فتح على الإسلام من بعد الإبهام أبواب السراء وراق طرازاً مذهباً على عاتق الدولة الغراء وأعمل عوامل الجهاد في طاعة رب العباد شارع لأهل الكفر والعناد من باب الإعمال والإغراء - أمر به فلان لصدر صدور أدائه وحسامه المشهور على أعدائه ووليه الذي خبر صدق وفائه وجلي في مضمار الخلوص له مغبراً في وجوه أكفئه شيخ شيوخ المجاهدين وقائد كتائبه المنصورة لغزو الكافرين والمعتدين وعدنه لآتى يدافع بها عن الدين وسائق ورده المبرز في الميادين الشيخ الأجل الأعز الأصفى الأمجد الأسعد الأسعد الأغنى الأحمق الأحب الأصل الأفضل المجاهد الأقصى الأرضي الأمضى الشهيد المقدس المرحوم أبي عبد الله بدر الدين ابن شيخ الشيوخ وعلم الأعلام المدافع عن حوزة الإسلام البعيد الغارة في تخوم عبدة الأصنام الشيخ الكبير الجليل الخطير الرفيع الصدر المعظم الموقر صاحب الجهاد الأرضي والعزم الأمضى المقدس المرحوم أي عمران موسى بن أبي زيد رحبن محيو بن عبد الحق بن محيو وصل الله سعده وحرس مجده وبلغه من مظاهرة دولته وكوازرة خلافته قصده.

رفع قبة العناية والاختيار على عماد وأشاد بدعوة التعظيم مسمعاً كل حي وجماد وقابل السعي الكريم بإخماد وأورد من البر غير تماد واستظهر بالوفاء الذي لم تستتر ناره برماد ولقصرت جياده عن بلوغ آماد وقلد سيف الجهاد عاتق الحسب اللباب وأعلق يدي الاستظهار بأوثق الأسباب واستغلظ على الأعداء بأحب الأحباب.

لما قامت له البارتين الصادقة على كرم شيمه ورسوخ قدمه وجنى منه عند الشدة والتمحيص ثمرة مؤولاه من نعمه قابل بالرعي ذممه وعظائم خدمه وشد اليد على عهده الذي عرفه حين انتكثت العقد وأخلق المعتقد وأستأسد النقد وتنكر الصديق وفرق الفريق وسدت على النظرة الطريق وتميز المغرق والغريق فأثقل له ميزان المكافآت وسجل له رسم المصادفات وجعله يمين الملك الذي به يناضل ويقاطع ويواصل وسيف الجهاد الذي يحمي بمضائه حوزة البلاد ومرآة النصح التي تتجلى بها وجوه الرشاد فقدمه - أعلى الله قدمه وشكر نعمه وأسعده فيما تيممه وشر بالنصر علمه - شيخ الغزاة بحضرته العلية وسائر بلاده النصرة: ترجع القبائل والأشايخ إلى نظره في السكنات وتستدر على يده من مقامه الكريم غيوم البركات وتقرر وسائلها بوساطة حظوته وتقصر خطاها بحقه الواجب عن خطوته فعليه تدور أفلاك جماعاتهم كلما اجتمعوا وأتلفوا وبحجة فضله يزول إشكالهم مهما اختلفوا وبلسانه المبين يقرر لهم ماأسلفوا وفي كنف رعيه ينشأ من أعقبوا من النشأة وخلفوا وبإقدامه تنهض أقدامهم مهما توقفوا فهو يعسوب كتائبهم الملتفة وفرزان قطعهم المصطفة وشهم جوارحهم الفارهة وعين عيونهم النابهة وتأويل أمورهم المتشابهة عن نظرة يردون ويصدون عيونهم النابهة وتأويل أمورهم المتشابهة عن نظره يردون ويصدرون وبإشارته يريشون ويبرون وآثاره يقتفون وبتلعة دواه المريني في خدمة مقامه النصري يقفون فهو الذي لا تأنف أشراف القبائل من اقتفاء آثاره ولا تجهل رفعة مقداره فلبيته المزية بالحق المستوجبة للفخر بسابقة السعادة لعبد الحق 7 ولذاته قصب السبق ولوفائه الشهرة في الغرب والشرق.

فليتول ذلك - تولاه الله - منشرحاً بالعز صدره مستمداً من شمس سعادته بدره معروفاً حقه معظماً قدره فهي خطة قومه وفريسة حومه وطية أمسه ويومه وكفء خطبته ومرمى رتبته وحلي جيده ومظهر توقيفه وتسديده - مطلقاً من عنان الثناء على أهل الغناء معاملاً بصادق الإطراء لذوي الآراء متغمداً بالإغضاء هفوات أهل المضاء معرفاً بالقبائل والعشائر والفصائل كلما وفدوا من الآفاق للاستلحاق منبهاً على مظان الاستحقاق مطبقاً للطباق مميزاً لجيادها يوم السباق حريصاً على إنماء الأعداد مطبقاً مفاصل الشراد محتاطاً على الأموال التي تمتري بها أكف الجباية ضروع العباد واضعاً مال الله حيث وضعه الحق من الورع والاستداد لا سيما في هذه البلاد حنى تعظم المزايا والمزاين وتتوفر الكتائب والخزائن ويبتهج السامع ويسر المعاين ويظهر الفضل على من تقدم وأن الظهراء كم غادرت من متردم ويتحسر من قصر ويتندم وعند الله يجد كل ماقدم.

فهي قلادة الله التي يضيع من أضاعها ويرضى عمن أعمل فيها أوامره وأطاعها.

وصل الله سعادته! وحرس مجادته - أولى من لاحظ ضرائرها واستطلع من ثنايا التوكل على الله بشائرها: نسبا وحسبا -وهو جداً وأبا وحداً وشبا ونجدةً وضحت مذهبا.

وعلى الغزاة - وفر الله جموعهم! وأنجد تابعهم ومتبوعهم! - أن يعرفوا قدر هذا التعظيم الذي خفقت أعلامه ووضحت أحكامه والاختصاص الذي لطف محله والاعتناء الكريم الذي ضفا ظله فيكونوا من إيجاب حقه حيث حد ورسم وميز ووسم لا يتخلف أحد منهم في خدمته أيده الله عن إشارته الموفقة ولا يشذ عن رياسته المطلقة بحول الله تعالى وقوته.

وهذا نسخة ظهير بنيابة السلطنة ببعض الأعمال وهي: هذا ظهير كريم مضمنة استجلاء لأمور الرعايا واستطلاع ورعاية كرمت منها أجناس وأنواع وعدل بهر منه شعاع ووصايا بحب لها إهطاع أصدرناه للفقيه أبي فلان لما تقرر لدينا دينه وعدله وفضله رأينا أنه أحق من نقلده المهم الأكيد ونرمي به من أغراض البر الغرض البعيد ونستكشف به أحوال الرعايا حتى لا يغيب عنا شيء من أحوالها ولا يتطرق إليها طارق من إهمالها وينهي إلينا الحوادث التي تنشأ فيها إنهاء يتكفل بحياطة أبشارها وأموالها.

وأمرناه أن يتوجه إلى جهة كذا - حاطها الله - فيجمع الناس في مساجدهم وينديهم من مشاهدهم ويبدأ بتقرير غرضنا في صلاح أحوالهم وإحساب آمالهم ومكابدتنا المشقة في مداراة عدوهم الذي يعلم من أحوالهم ما غاب عنهم - دفعه الله بقدرته ووقى نفوسهم وحريمهم من معرته - وبما رأينا من انبتات الأسباب التي فيك تؤمل وعجز الجيل التي كانت تعمل ويستدعي إنجادهم بالدعاء وإخلاصهم فيه إلى رب السماء ويسأل عن سيرة القواد وولاة الأحكام بالبلاد: فمن نالته مظلمة فليرفعها إليه ويقصها عليه: ليبلغها إلينا ويوفدها مقررة الموجبات علينا ويختبر ما افترض صدقة للجبل وما فضل عن كريم ذلك للعمل: ليعين لبناء الحصن بجبل قارة يسر الله لهم في إتمامه وجعل صدقتهم تلك مسك ختامه وغيره مما افترض إعانةً للماسفرين وإنجاداً لجهاد الكافرين فيعلم مقداره ويتولى اختباره حتى لا يجعل منه شيء على ضعيف ولا يعدل به لمشروف عن شريف ولا تقع فيه مضايقة ذي الجاه ولا مخادعة غير المراقب لله.

ومتى تحقق أن غنياً قصر به فيه عن حقه أو ضعيفاً كلف منه فوق طوقه فيجير الفقير من الغني ويجري من العدل على السنن السوي ويعلم الناس أن هذه المعونة وإن كانت بالنسبة إلى محل ضرورتها يسيرة وأن الله يضاعفها لهم أضعافاً كثيرة ليست مما يلزم ولا من المعاون التي بتكريرها يجزم وينظر في عهود المتوفين فيصرفها في مصارفها المتعينة وطرقها الواضحة البينة ويتفقد المساجد تفقداً يكسو عاريها ويتمم منها المآرب تتميماً يرضى باريها ويندب الناس إلى تعليم القرآن لصبيانهم فذلك أصل أديانهم ويحذرهم المغيب عن كطل شيء من أعشارهم فالزكاة أخت الصلاة وهما من قواعد الإسلام وقد اخترنا لهم بأقصى الجد والاعتزام ورفعنا عنهم رسم التعريف نظراً إليهم بعين الاهتمام وقدمنا الثقات لهذه الأحكام وجعلنا الخرص شرعياً في هذا العام وفيما بعده إن شاء الله من الأعوام.

ومن أهم ماأسندناه إليه وعولنا فيه عليه البحث بتلك الأحواز عن أهل البدع والأهواء والسائرين من السبيل على غير السواء ومن ينبز بفساد العقد وتحريف القصد والتلبس بالصوفية وهو في الباطن من أهل الفساد والذاهبين إلى الإباحة وتأويل المعاد والمؤلفين بين النساء والرجال والمتتبعين لمذاهب الضلال فمهما عثر على مطوق بالتهمة منبز بشيء من ذلك من هذه الأمة فليشد وثاقه شداً وليسد عليه سبيل الخلاص سداً ويسترع في شأنه الموجبات ويستوعب الشهادات حتى ننظر في حسم دائه ونعالج المرض بدوائه فليتول ما ذكرنا نائباً بأحسن المناب ويقصد وجه الله راجياً منه جزيل الثواب ويعمل عمل من لا يخاف في الله لومة لاشم ليجد ذلك في مواقف الحساب.

وعلى من يقف عليه من القواد والأشياخ والحكام أن يكونوا معه يداً واحدة على ما قررناه في هذه الفصول: من العمل المقبول والعدل المبذول ومن قصر عن غاية من غاياته أو خالف مقتضى من مقتضياته فعقابه عقاب من عصى أمر الله وأمرنا فلا يلومن إلا نفسه التي غرته وإلى مصرع النكير جرته والله المستعان.

وهذه نسخة ظهير بالإمرة على الجهاد وهي: هذا ظهير كريم بلغ فيه الاختيار الذي عضده الاختبار إلى أقصى الغاية وجمع له الوفاق الذي خدمه البخت والاتفاق والأهلية التي شهدت بها الآفاق بين نجح الرأي ونصر الراية وأنتجت به مقدمات الولاء نتيجة هذه الرتبة السامية العلاء والولاية واستظهر من المعتمد به على قصده الكريم في سبيل الله ومذهبه بليث من ليوث أوليائه شديد الوطأة على أعدائه والنكاية وفرع من فروع الملك الأصيل معروف الأبوة والإباية لتتضح حجة النصر العزيز والفتح المبين ذي القوة المتين محكمة الآية وتدل بداية هذه الدولة الرافعة لمعالم الدين المؤيدة في الأقوال والأفعال بمدد الروح الأمين على شرف النهاية.

أصدر حكمته وأبرز حكمه وقرر حده الماضي ورسمه عبد الله الغني بالله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر - عضد الله كتائبه وشد عضده ويسر في الظهور على أعداء الله قصده - لوليه المستولي على ميادين حظوته وإيثاره الفائز بالقدح المعلى من إجلاله وإكباره ظهير استنصاره وسيف جهاده المعد لصدق ضريبته ويوم افتخاره ويعسوب قبائل الغزاة بأصقاعه الجهادية وأقطاره الأمير أبي عبد الرحمن ابن الأمير أبي علي ابن السلطان أمير المسلمين أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق - وصل الله له أسباب سعده وأنجز للمسلمين بمظاهرته إياه على الكافرين سابق وعده لما وفد على بابه الكريم مؤثراً على ما كان بسبيله عن جواره ملقياً بمحلة الجهاد عصا تسياره مفضلاً ما عند الله على رحب أوطانه وأقطاره شيمة من أسرع إلى خير الآخرة ببداره قبل اكتمال هلاله وإبداره وعلى انبعاث أمله وترامي هممه واستقامة مداره - قابل أيده الله وفادته بالقبول الممدوح والصدر المشروح والعناية العالية المظاهر والصروح وجعل له الشرب المهني في مناهل الصنائع التي صنع الله لملكه والفتوح ولم يدخر عنه تقريباً يقف الأولياء دون مداه وترفيعاً تشهد به محافل الملك ومنتداه إلى أن ظفرت بحقيقة الموالاة الكريمة يداه ثم استظهر به على أعداء الله وعداه فوفى النصح لله وأداه وأضمره وأبداه وتحلى بالبسالة والجلالة والطهارة اللائقة بمنصب الإمارة في رواحه ومغداه حتى اتفقت الأهواء على فضله وعفافه وكمال أوصافه وظهرت عليه مخايل أسلافه.

ثم رأى الآن - سدد الله رأيه وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه - أن يوفد ركائب الاعتقاد الجميل على جنابه ويفسح ميدان الاستظهار بحسن منابه ويصل أسبابه بأسبابه ويضاعف بولائه الصادق اهتمامه ويقيمه في قود عساكره لجهاد البر مقامه فأضفى ملابس وده عليه وجعله فاتح أبواب الجنة بفضل الله بين يديه وأجراه مجرى عضده الذي تصدق عنه الضريبة في المجال وسيفه الذي يفرج به مضايق الأهوال ونصبه للقبائل الجهادية قبلة من مناصحة الله ومناصحة مشروعة ورايةً سعيدةً في ظاهرة متبوعة وعقد له الولاية الجهادية التي لا تعدل بولاية ولاتوازن عناية المعتمد بها بعناية يشهد بصراحة نسبها الدين وتتحلى بحلي غرتها الميادين.

فالجهاد في سبيل الله نحلة بني الأمة ومن بعده الإيمة ولاسيما في هذا القطر المتأكد فيه ذلك لأولي الدين والهمة.

فليتول ذلك تولي مثله وإن قل وجود مثله جارياً على سنن مجده وفضله سائراً من رضا الله على أضح سبله معتمداً عليه في الأمر كله.

وليعلم أن الذي يخلق ما يشاء ويختار قد هيأ له من أمره رشداً وسلك به طريقاً سدداً واستعمله اليوم فيما يحظي غداً وجعل حظه الذي عوضه نوراً وهدى وأبعد له في الصالحات مدى - ولينظر فيما لديه من القبائل الموفورة والجموع المؤيدة المنصورة نظراً يزيح العلل ويبلغ الأمل ويرعى الهمل ويحسن القول وينجح العمل منبهاً على أهل الغناء والاستحقاق مستدراً للعوائد والأرزاق معرفاً بالغرباء الواردين من الآفاق مطبقاً منهم للطباق متغمداً للهفوات بحسن الأخلاق مستجيداً للأسلحة والكراع مبادراً هيعات الصريخ بالإسراع مسترعياً للمشورة التي يقع الحكم فيها عن حصول الإجماع رفيقاً بمن ضعف عن طول الباع محتاطاً على الإسلام في مواقف الدفاع مقدماً عند اتجاه الأطماع صابراً في المضايق على القراع متقدماً للأبطال بالاصطناع مقابلاً نصائح أولي الخبرة بحسن الاستماع مستعملاً في الحروب مأجازه الشرع من وجوه الخداع حتى يكون عمله وفق شهرته البعيدة المطار وسيرته فيما أسند إليه مثلاً في الأقطار واستقامة التدبير على يديه ذريعةً إلى إرغام أنوف الكفار بقوة الله وحوله وعزته وطوله.

وعلى الغزاة بالحضرة العلية وسائر البلاد النصرية ومن بني مرين وسائر القبائل المجاهدين أن يعرفوا قدره ويمتثلوا في مرضاتنا أمره ويكونوا معه روحاً ويداً وجسداً وساعداً وعضداً فبذلك يشمله من الله ومن مقامنا الرضا والقبول والعز الموصول ويمضي في عدو الله النصول ويتأتى على خير الدنيا والآخرة الحصول إن شاء الله.

ومن وقف عليه فليعرف ما لديه بحول الله تعالى.

وهذه نسخة ظهير بالتقدمة على الطبقة الأولى من المجاهدين لولد السلطان وهي: هذا ظهير كريم فاتح بنشر الألوية والبنود وقود العساكر والجنود وأجال في ميدان الوجود جياد البأس والجود وأضفى ستر الحماية والوقاية بالتهائم والنجود على الطائفين والعاكفين والركع السجود - عقد للمعتمد به عقد التشريف والقدر المنيف زاكي الشهود وأوجب المنافسة بين مجالس السروج ومضاجع المهود وبشر السيوف في الغمود وأنشأ ريح النصر آمنة من الخمود أمضى أحكامه وأنهد العز أمامه وفتح عن زهر السرور والحبور أكمامه أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج يوسف ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد فرج ين نصر - أيد الله أمره وخلد ذكره - لكبير ولده وسابق أمده وريحانة خلده وياقوتة الملك على يده الأمير الكبير الطاهر الظاهر الأعلى واسطة السلك وهلال سماء الملك ومصباح الظلم الحالك ومظنة العناية الإلهية من مدبر الفلك ومجرى الفلك عنوان سعده وحسام نصره وعضده وسمي جده وسلالة فضله ومجده السعيد المظفر الهمام الأعلى الأمضى العالم العادل العامل الأرضى المجاهد المؤمل المعظم أبي الحجاج يوسف - ألبسه الله من رضاه عنه حلالاً لاتخلق جدتها الأيام ولا تبلغ كنهها الأفهام وبلغه في خدمة المبالغ التي يسر بها الإسلام وتسبح في بحار صنائعها الأقلام وحرس معاليه الباهرة بعينه التي لا تنام وكنفه بركنه الذي لا يضام - فهو الفرع الذي جرى بخصله على أصله وارتسم نصره في نصله واستمل جده على فضله وشهدت ألسن خلاله برفعة جلاله وظهرت دلائل سعادته في بدء كل أمر وإعادته.

ولما صرف وجهه إلى ترشيحه لافتراع هضاب المجد البعيد المدى وتوشيحه بالصبر والحلم واليأس والندى وأرهف منه سيفاً من سيوف الله لضرب هام العدا وأطلعه في سماء بدر هدى لمن راح وغدا وأخذه بالآداب التي تقيم من النفوس أودا وتبذر في اليوم فتجنى غدا ورقاه في رتب المعالي طوراً فطوراً ترقي النبات ورقاً ونوراً ليجده بحول الله يداً باطشةً على أعدائه ولساناً مجيباً عند ندائه وطرازاً على حلة عليائه وغماماً من غمائم آلائه وكوكباً وهاجاً بسمائه وعقد له لواء الجهاد على الكتيبة الأندلسية من جنده قبل أن ينتقل من مهده وظلله بجناح رايته وهو على كتد دايته واستركب جيش الإسلام ترحيباً بوفادته وتنويهاً بمجادته وأثبت في غرض الإمارة النصرية سهم سعادته - رأى أن يزيده من عنايته ضروباً وأجناساً ويتبع أثره ناساً فناساً قد اختلفوا لساناً ولباساً واتفقوا ابتغاء لمرضاة الله والتماساً ممن كرم انتماؤه وازينت بالحسب الغر سماؤه وعرف غناؤه وتأسس على المجادة بناؤه حتى لا يدع من العناية فناً إلا جلبه إليه ولامقادة إلا جعلها في يديه ولا حلة عز إلا أضفى ملابسها عليه.

وكان جيش الإسلام في هذه البلاد الأندلسية - أمن الله خلالها وسكن زلزالها وصدق في رحمة الله التي وسعت كل شيء آمالها - كلف همته ومرعى أذمته وميدان جياده ومتعلق أمد جهاده ومعراج إرادته إلا تحصيل سعادته وسبيل خلاله إلا بلوغ كماله فلم يدع له علة إلا أزاحها ولا طلبة إلا أجال قداحها ولا عزيمة إلا أورى اقتداحها ولارغبة إلا فسح ساحها آخذاً مروءته بالتهذيب ومصافة بالترتيب وآمله بالتقريب وتأنيب المريب مستنجزاً له وبه وعد النصر العزيز والفتح القريب ورفع عنه لهذا العهد نظر من حكم الأغراض في حماته واستشعر عن حسن الوساطة لهم بمصلحة ذاته وجلب جباته وتثمير ماله وتوفير أقواته ذاهباً أقصى مذاهب التعمير بأمد حياته فانفرج الضيق وخلص حسن نظره الطريق وساغ الريق ورضي الفريق.

والله الكفيل بنجح رأيه وشكر سعيه وصلة حفظه ورعيه - أن يحمد لهم اختياره ويحسن لديهم آثاره ويستنيب فيما بينه -رأى وبين سيوف جهاده وأبطال جلاده وحماة أحوازه وآلات اعتزازه من يجري مجرى نفسه النفيسة في كل معنى ومن يكون له لفظة الولاية وله - أيده الله - المعنى فقدمه على الجماعة الأولى كبرى الكتائب ومقاد الجنائب وأجمة الأبطال ومزنة الودق الهطال المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك الودق الهطال المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك الكرام وأعلام الإسلام وسائر قبائل بني مرين ليوث العرين وغيرهم من أصناف القبائل وأولي الوسائل ليحوط جماعتهم ويرفع بتفقده إضاعتهم ويستخلص للهو لأبيه - أيده الإبرار على فلك سعادة الأقدار كواكبهم تقديماً أشرق له وجه الدين الحنيف وتهلل وأحس باقتراب ما أمل فللخيل اختيال ومراح وللأسل السمر اهتزاز وارتياح وللصدور انشراح وللأمل مغدى في فضل الله ومراح.

فليتول ذلك - أسعده الله - تولي مثله ممن أسرة الملك أسرته وأسرة النبي صلى الله عليه وسلم أسرته والملك الكريم أصل لفرعه والنسب العربي مفخر لطيب طبعه آخذاً إشرافهم بترفيع المجالس بنسبة أقدارهم مقرباً حسن اللقاء بإيثارهم شاكراً غناءهم مستديماً ثناءهم مستدراً لأرزاقهم موجباً للمزية بحسب استحقاقهم شافعاً لديه في رغباتهم المؤملة ووسائلهم المتحملة مسهلاً الإذن لوفودهم المتلاحقة منفقاً لبضائعهم النافقة مؤنساً لغربائهم مستجلياً وعلى جماعتهم - رعى الله جهادهم ووفر أعدادهم - أن يطيعوه في طاعة الله وطاعة أبيه ويكونوا يداً واحدةً على دفاع أعادي الله وأعاديه ويشدوا في المواقف الكريهة أزره ويمتثلوا نهيه وأمره حتى يعظم الانتفاع ويثمر الدفاع ويخلص القصد لله والمطاع فلو وجد - أيده الله - غايةً في تشريفهم لبلغها أو موهبةً لسوغها لكن مابعد ولده العزيز عليه مذهب ولا وراء مباشرتهم بنفسه مرغب والله منجح الأعمال ومبلغ الآمال والكفيل بسعادة المآل.

فمن وقف على هذا الظهير الكريم فليعلم مقدار ما تضمنه من أمر مطاع وفخر مستند إلى إجماع ووجوب اتباع وليكن خير مرعي لخير راع بحول الله.

أيده الله - ليكون بعض المدد لأزواد سفره وسماط قفره في جملة ما أولاه من نعمه وسوغه من مواد كرمه - جميع -وأقطعه القرية المنسوبة إلى عرب غسان: وهي المحلة الأثيرة والمنزلة الشهيرة تنطلق عليها أيدي خدامه ورجاله جارية مجرى صالح ماله محررة من كل وظيف لاستغلاله إن شاء الله فهو المشتعان سبحانه وكتب في كذا.

وهذه نسخة ظهير لمشيخة الغزاة بمدينة مالقة وهو: هذا ظهير كريم أطلع الرضا والقبول صباحاً وأنشد للعناية في جو الوجود من بعد الركود رياحاً وأوسع العيون قوةًوإبصاراً والصدور انشراحاً وهيأ للمعتمد به مغذى في السعادة ومراحاً وهز منه سيفاً عتيقاً يفوق اختياراً ويروق التماحاً وولاه رياسة الجهاد في القطر الذي تقدمت الولاية فيه لسلفه فنال عزاً شهيراً وازداد فخراً صراحاً وكان له ذلك إلى أبواب السعادة مفتاحاً.

أمر به وأمضاه وأوجب العمل بحسبه ومقتضاه الأمير عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين والمجاهد في سبيل رب العالمين أبي الحجاج يوسف ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر - أيد الله أمره وأعز نصره وأسعد زمانه وعصره - لوليه في الله الذي كساه مولاه من جميل اعتقاده حللاً وأورده من عذب رضاه منهلاً وعرفه عوارف قبوله مفصلاً خطابها ومجملاً الشيخ أبي العلا إدريس ابن الشيخ أبي سعيد عثمان بن أبي العلا وصل الله أسباب سعادته وحرس علي مجادته وأجراه من ترفيع المكانة لديه على أحمد عادة سلفه وعادته.

ولما كان له القدر الجليل والمجد الأثيل والذكر الجميل والفضائل التي كرم منها الإجمال والتفصيل وأحرز قصب السبق بذاته وسلفه إذا ذكر المجد العريض الطويل وكان قد أعمل الرحلة إليه يحدوه إلى خدمته التأميل ويهوي به الحب الذي وضح منه السبيل وعاق عنه الواقع الذي تبين فيه عذره الجميل قابله بالقبول والإقبال وفسح له ميدان الرضا رحب المجال وصرف إليه وجه الاعتداد بمضائه رائق المجال وصرف إليه وجه الاعتداد بمضائه رائق الجمال سافراً عن بلوغ الآمال وآواه من خدمته إلى ربوة متسعة الأرجاء وارفة الظلال وقطع عنه الأطماع بمقتضى همته البعيدة المنال ثم رأى - والله ينجح رأيه ويشكر في سبيل الله عن الجهاد سعيه - أن يستظهر بمضائه ويرسل عليه عوارف آلائه ويعمر به رتب آبائه فقدمه - أعلى الله قدمه وشكرآلاءه ونعمه - شيخ الغزاة والمجاهدين وكبير أولي الدفاع عن الدين بمدينة مالقة حرسها الله أخت حضرة دار ملكه وثانية الدرة الثمينة من سلكه ودار سلفه وقرارة مجده والأفق الذي تألق منه نور سعده راجعاً إليه نظر القواعد الغربية رندة وركوان وما إليه رجوع الاستغلال والاستيراد والعز الفسيح المجال البعيد الآماد يقود جميعها إلى الجهاد عاملاًعلى شاكلة مجده في الإصدار والإيراد حتى يظهر على تلك الجهات المباركة آثار الحماية والبسالة ويعود لها عهد المجادة والجلالة وتتزين ملابس الإيالة.

وهو يعمل في ذلك الأعمال التي تليق بالمجد الكريم والحسب الصميم حتى ينمو عدد الحماة ويكف البأس أكف الغزاة ويعظم أثر الأبطال الكماة وتظهر ثمرة الاختيار ويشمل الأمن جميع الأقطار وتنحسم عنه أطماع الكفار وعلى من يقف عليه من الفرسان - وفر الله أعدادهم وأعز جهادهم - أن يكونوا ممتثلين في الجهاد لأمره عارفين بقدره ممضين فيما ذكر لحكمه واقفين عند حده ورسمه وعلى من سواهم من الرعايا والخدام والولاة والحكام أن يعرفوا قدر هذا الاعتناء الواضح الأحكام والبر المشرق القسام فيعاملوه بمقتضى الإجلال والإكرام والترفيع والإعظام على هذا يعتمد وبحسبه يعمل بحول الله وقوته.

الضرب الثاني ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية من أصحاب الأقلام

وهذه نسخة ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة وهو: هذا ظهير كريم أنتج مطلوب الاختيار قياسه ودل على ما يرضى الله عز وجل التماسه وأطلع نور العناية يجلو الظلام نبراسه واعتمد بمثابة العدل من عرف بافتراع هضبتها باس وألقى بيد المعتمد به زمام الاعتقاد الجميل تروق أنواعه وأجناسه وشيد مبنى العز الرفيع في قنة الحسب المنيع وكيف لا والله بانيه والمجد أساسه.

أمر به وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه أمير المسلمين أبو الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر - أيد الله أمره وخلد فخره - لقاضي حضرته العلية وخطيب حمرائه السنية المخصوص لديه بترفيع المزية المصروف إليه خطاب القضاة بإيالته النصرية قاضي الجماعة ومصرف الأحكام الشرعية المطاعة الشيخ أبي الحسن أبن الشيخ أبي محمد بن الحسن وصل الله سعادته وحرس مجادته وسنى من فضله إرادته عصب منه جبين المجد بتاج الولاية وأجال قداح الاختيار حتى بلغ الغاية وتجاوز النهاية فألقى منه بيمين عرابة الراية وأحله منه محل اللفظ من المعنى والإعجاز من الآية وحشر إلى مراعاة ترفيعه وجوه البر وأعيان العناية وأنطق بتبجيله ألسن أهل جيله بين الإفصاح والكناية.

ولما كان له الحسب الذي شهدت به ورقات الدواوين والأصالة التي قامت عليها صحاح البراهين والأباء الذين اعتز بمضاء قضاتهم الدين وطبق مفاصل الحكم بسيوفهم الحق المبين وازدان بمجالسة وزرائهم السلاطين: فمن فارس حكم أو حكيم تدبير أو قاض في الأمور الشرعية ووزير أو جامع بينهما جمع سلامةِ لاجمع تكسير تعدد ذلك واطرد ووجد مشرع المجد عذباً فورد وقصرت النظراء عن مداه فانفرد وفرى الفرى في يد الشرع فأشبه السيف الفرند وجاء في أعقابهم محيياً لما درس بما حقق ودرس جانياً لما بذر السلف المبارك واغترس طاهر النشأة وقورها محمود السجية مشكورها متحلياً بالسكينة حالاً من النزاهة بالمكانة المكينة ساحباً أذيال الصون بعيداً عن الاتصاف بالفساد من لدن الكون فخطبته الخطط العليه واغتبطت به المجادة الأولية واستعملته دولته التي ترتاد أهل الفضائل للرتب وتستظهر على المناصب بأبناء التقى والحسب والفضل والمجد والأدب ممن يجمع بين الطارف والتالد والإرث والمكتسب فكان معدوداً من عدول قضاتها وصدور نبهائها وأعيان وزرائها وأولي آرائها.

فلمتا زان الله خلافته بالتمحيص المتجلي عن التخصيص وخلص ملكه الأصيل كالذهب الإبريز من بعد التخليص كان ممن صحب ركابه الطالب للحق بسيف الحق وسلك في مظاهرته أوضح الطرق وجادل من حاده بأمضى من الحداد الذلق واشتهر خبر وفائه بالغرب والشرق وصلى به صلاة السفر والحضر والأمن والحذر وخطب به في الأماكن التي بعد بذكر الله عهدها والحضر والأمن والحذر وخطب به في الأماكن التي حمد قصدها حتى استقل ملكه فوق سريره وابتهج منه الإسلام بأميره وابن أميره ونزل الستر على العباد والبلاد ببركة إيالته ويمن تدبيره وكان الجليس المقرب المحل والحظي المشاور في العقد والحل والرسول المؤتمن على الأسرار والأمين على الوظائف الكبار مزين المجلس السلطاني بالوقار ومتحف الملك بغريب الأخبار وخطيب منبره العالي في الجمعات وقاريء الحديث لديه في المجتمعات.

ثم رأى - أيده الله - أن يشرك رعيته في نفعه ويصرف عوامل الحظوة إلى مزيد رفعه ويجلسه مجلس الشراع صلوات الله وسلامه عليه لإيضاح شرعه وأصله الوثيق وفرعه وقدمه - أعلى الله قدمه وشكر آلاءه ونعمه - قاضياً في الأمور الشرعية وفاصلاً في القضايا الدينية بحضرة غرناطة العلية حرسها الله تقديم الاختيار والانتقاء وأبقى له فخر السلف على الخلف والله يمتعه بطول البقاء.

فليتول ذلك عادلاً في الحكم مهتدياً بنور العلم مسوياً بين الخصوم حتى في لحظة والتفاته متصفاً من الحلم بأفضل صفاته مهيباً بالدين رؤوفاً بالمؤمنين مسجلاً للحقوق غير مبالٍ في رضا الخالق بسخط المخلوق جزلاً في الأحكام مجتهداً في الفصل بأمضى حسام مراقباً لله عز وجل في النقض والإبرام باراً بمشيخة أهل التوثيق عادلاً إلى سعة الأقوال عند المضيق سائراً من مشهور المذهب على أهدى طريق.

وأوصاه بالمشورة التي نقدح زناد التوفيق ويعلي الله بها الدرجات ويرفع وإلا فهو عن الوصاة غني وقصده قصد سني والله عز وجل ولي إعانته والكفيل بحفظه من الشبهات وصيانته.

أيده الله - أن ينظر في الأحباس على اختلافها والأوقاف على شتى أصنافها واليتامى التي انسدلت كفالة القضاة على -وأمره ضعافها فيذود عنها طوارق الخلل ويجري أمورها بما يتكفل وليعلم أن الله عز وجل يراه وأن فلتات الحكم تعاوده المراجعة

في أخراه فيدرع جنة تقواه فسبحان من يقول:)إن الهدى هدى الله(فعلى من يقف عليه أن يعرف حق هذا الإجلال صائناً منصبه عن الإخلال مبادراً أمره الواجب بالامتثال بحول الله.

وكتب في الثالث من شهر الله المحرم فاتح عام أربعة وستين وسبعمائة عرف الله فيه هذا المقام العلي عوارف النصر المبين والفتح القريب بمنه وكرمه فهو المستعان لا رب غيره.

وهذه نسخة ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة أيضاً وهو: هذا ظهير كريم أعلى رتبة الاحتفاء والاحتفال اختياراً واختباراً وأظهر معاني الكرامة والتخصيص انتقاءً واصطفاءً وإيثاراً ورفع لواء الجلالة على من اشتمل عليها حقيقة واعتباراً ورقى في درجات العز من طاولها علاء بهر أنواراً ودينا كرم في الصالحات آثاراً وزكا في الأصالة نجاراً وخلوصاً إلى هذا المقام العلي السعيد راق إظهاراً وإضماراً أمر به وأمضاه وأنفذ العمل بحكمه ومقتضاه فلان للشيخ القاضي العدل الأرضى قاضي الجماعة وخطيب الحضرة العلية المخصوص لدى المقام العلي بالحظوة السنية والمكانة الحفية الفاضل الحافل الكامل الموقر المبرور أبي الحسن ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل الأعز الماجد الأسنى المرفع الأحفل الأصلح المبارك الأكمل الموقر المبرور المرحوم أبي محمد بن الحسن - وصل الله عزته ووالى رفعته ومبرته ووهب له من صلة العناية الربانية أمله وبغيته - لما أصبح في صدور القضاة العلماء مشاراً إلى جلاله مستنداً إلى معارفه المخصوصة بكماله مطرزاً على الإفادة العلمية والأدبية بمحاسنه البديعة وخصاله محفوفاً مقعد الحكم النبوي ببركة عدالته وفضل جلاله وحل في هذه الحضرة العلية المحل الذي لايرقاه إلا عين الأعيان و لايتبوء مهاده إلا مثله من أبناء المجد الثابت الأركان وموالي العلم الواضح البرهان والمبرزين بالمآثر العلية في الحسن والإحسان وتصدر لقضاء الجماعة فصدرت عنه الأحكام الراجحة الميزان والأنظار الحسنة الأثر والعيان والمقاص التي وفت بالغاية التي لا تستطاع في هذا الميدان فكم من قضية جلا بمعارفه مشكلها ونازلةٍ مبهمة فيتح بإدراكه مقفلها ومسألة مهملة عرف نكرتها وقرر مهملها حتى قرت بعدالته وجزالته العيون وصدقت فيه الآمال الناجحة والظنون وكان في تصديره لهذه الولاية العظمى من الخير والخيرة ما عسى أن يكون - كان أحق بالتشفيع لولاياته وأولى وأجدر بمضاعفة النعم التي لا تزال تترادف على قدرة الأعلى.

فلذلك أصدر له - أيده الله - هذا الظهير الكريم مشيراً بالترفيع والتنويه ومؤكداً للإحتفاء الوجيه وقدمه - أعلى الله قدمه وشكر نعمه - خطيباً بالجامع الأعظم من حضرته - عمره الله بذكره - من علية الخطباء وكبار العلماء وخيار الفقهاء الصلحاء فليتول ذلك من جمعاته مظهراً في الخطبة أثر بركته وحسناته عاملاً على ما يقربه عند الله من مرضاته ويظفره بجزيل مثوباته بحول الله وقوته

الضرب الثالث ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية

وهذه نسخة ظهير بالقلم الأعلى المعبر عنه في بلادنا بكتابه السر وهي: هذا ظهير كريم نصب للمعتمد به الإنافة الكبرى ببابه فرفعه وأفرد له متلو العز جمعه ووتره وشفعه وقربه في بساط الملك تقريباً أرغم به أنف عداه ووضعه وفتح له باب السعادة وشرعه وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على من دون رتبته من أولي صنعته أن يتبعه ورعى له وسيلته السابقة عند استخلاص الملك لما ابتزه الله من يد الغاصب وانتزعه وحسبك من ذمام لا يحتاج إلى شيء معه.

أمر به الأمير فلان لفلان - وصل الله سعادته وحرس مجادته - أطلع له وجه العناية أبهى من الصبح الوسيم وأقطعه جناب الإنعام الجميم وأنشقه أرج الحظوة عاطر النسيم ونقله من كرسي التدريس والتعليم إلى مرقى التنويه والتكريم والرتبة التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم وجعل أقلامه جياداً لإجالة أمره العلي وخطابه السني في ميادين الأقاليم ووضع في يده أمانة القلم الأعلى جارياً من الطريقة المثلى على النهج القويم واختصه بمزية الشفوف على كتاب بابه الكريم.

لما كان ناهض الوكر في طلبة حضرته من البداية ولم يزل تظهر عليه لأولي التمييز مخايل هذه العناية: فإن حضر حلق العلم جلى في حلبة الحفاظ إلى الغاية وإن نظم أو نثر أتى بالقصائد المصقولة والمخاطبات المنقولة فاشتهر في بلده وغير بلده وصارت أزمة العناية طوع يده بما أوجب له المزية في يومه وغده.

وحين رد الله عليه ملكه الذي جبر به جناح الإسلام وزين وجوه الليالي والأيام وأدال الضياء من الظلام وكان ممن وسمه الوفاء وشهره وعجم الملك عود خلوصه وخبره فحمد أثره وشكر ظاهره ومضمره واستصحب على ركابه الذي صحب اليمن سفره وأخلصت الحقيقة نفره وكفل الله ورده وصدره ميمون النقيبة حسن الضريبة خالصاً في الأحوال المريبة ناطقاً عن مقامه

بالمخاطبات العجيبة واصلاً إلى المعاني البعيدة بالعبارات القريبة مبرزاً بالخدم الغريبة حتى استقام العماد ونطق بصدق الطاعة الحي والجماد ودخلت في دين الله أفواجاً العباد والبلاد لله الحمد على نعمه الثرة العهاد وآلائه المتوالية الترداد رعى له أيده الله - هذه الوسائل وهو أحق من يرعاها وشكر له الخدم المشكور مسعاها فقصر عليه الرتبة الشماء التي خطبها بوفائه - وألبسه أثواب اعتنائه وفسح له مجال آلائه وقدمه - أعلى الله قدمه وشكر نعمه - كاتب السر وأمير النهي والأمر تقديم الاختبار والاغتباط بخدمته الحسنة الآثار والتيمن باستخدامه قبل الحلول بدار الملك والاستقرار وغير ذلك من موجبات الإيثار.

فليتول ذلك عارفاً بمقداره مقتفياً لآثاره مستعيناً بالكتم لإسراره والإضطلاع بعظام أموره وكباره متصفاً بما يجمل من أمانته وعفافه ووقاره معطياً هذا الرسم حقه من الرياسة عارفاً بأنه أكبر أركان السياسة حتى يتأكد الاغتباط بتقريبه وإدنائه وتتوفر أسباب الزيادة في إعلائه وهو - إن شاء الله - غني عن الوصاة فهماً ثاقباً وأدباً لعيون الكمال مراقباً فهو يعمل في ذلك أقصى العمل المتكفل ببلوغ الأمل.

وعلى من يقف عليه: من حملة الأقلام والكتاب الأعلام وغيرهم من الكافة والخدام أن يعرفوا قدر هذه العناية الواضحة الأحكام والتقديم الراسخ الأقدام ويوجبوا من البر والإكرام والإجلال والإعظام بحول الله وقوته وكتب في كذ الطرف الثالث في مصطلح كتاب الديار المصرية الحالة الأولى ما كان عليه أمر نواب الخلفاء بهذه المملكة إلى ابتداء الدولة الطولونية نواب الخلفاء بداية الدولة الطولونية ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية في هذه المدة صرف عناية تقاصراً عن التشبه بديوان الخلافة إذ كانت الخلافة يومئذ في غاية العز ورفعة السلطان ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة في جانبها والولايات الصادرة عن النواب في نياباتهم متصاغرة بالنسبة إلى ما يصدر عن أبواب الخلافة من الولايات فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعي على نقله ولا تنصرف الهمم لتدوينه مع تطاول الأيام وتوالي الليالي.

الحالة الثانية ما كان عليه أمر الدولة الطولونية من حين قيام دولتهم إلى انقراض الدولة الأخشيدية وقد تقدم أن أحمد بن طولون أول من أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات فاستكتب ابن عبد كان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره وكان يفتتح ما يكتبه عنه في الولايات بلفظ إن أولى كذا أو إن أحق كذا وما أشبه ذلك.

وهذه نسخة عهد كتب به ابن عبد كان عن أحمد بن طولون بقضاء برقة ترشد إلى ماعداها من ذلك وهي: إن أحق من آثر الحق وعمل به وراقب الله من سر أمره وجهره واحترس من الزيغ والزلل في قوله وفعله وعمل لمعاده ورجعته إلى دار فاقته وفقره ومسكنته من جعل بين المسلمين حاكماً وفي أمورهم ناظراًفأراق الدماء وحقنها وأحل الفروج وحرمها وأعطى الحقوق وأخذها ومن علم أن الله تبارك وتعالى سائله عن مثقال الذرة من عمله وأنه إنما يتقلب في قبضته أيام مدته ثم يخرج من دنياه كخروجه من بطن أمه إما سعيداً بعمله وإما شقياً بسعيه.

لما وقفنا عليه من سديد مذهبك وقويم طريقتك وجميل هديك وحسن سيرتك ورجوناه فيك وقررناه عندك: من سلوك -وإنا الطريقة المثلى واقتفاء آثار أئمة الهدى والعمل بالحق لا بالهوى - رأينا تقليدك القضاة بين أهل ثغر برقة وأمرناك بتقوى الله الذي لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب وبطاعته التي من آثرها سعد ومن عمل بها حمد ومن لومها نجا ومن فارقها هوى - وأن تواصل الجلوس لمن بحضرتك من الخصوم: صابراً بنفسك على تنازعهم في الحقوق وتدافعهم في الأمور غير برم بالمراجعات ولا ضجر بالمحاكمات: فإن من حاول إصابة فصل القضاء وموافقة حقيقة الحكم بغير مادة من حلم ولا معونة من صبرٍ ولا سهمة من كظم لم يكن خليقاًبالظفر بهما ولا حقيقاً بالدرك لهما - وأن تقسم بين الخصمين إذا تقدما إليك وجلسا بين يديك في لحظك ولفظك وتوفي كل واحد منها قسمة من إنصافك وعدلك حتى ييأس القوي من ميلك ويأمن الضعيف من حيفك: فإن في إقبالك بنظرك وإصغائك بسمعك إلى أحد الخصمين دون صاحبه ما أضل الآخر عن حجته وأدخل الحيرة على فكره ورويته - وأن تحضر مجلس قضائك من يستظهر برأيه ومن يرجع إلى دينٍ وحجاً وتقىً: فإن أصبت أيدك وإن نسيت ذكرك - وأن تقتدي في كل ما تعمل فيه رويتك وتمضي عليه حكمك وقضيتك بكتاب الله الذي جعله صراطاً مستقيماً ونوراً مستبيناً فشرع فيه أحكامه وبين حلاله وحرامه وأوضح به مشكلات الأمور فهو شفاء لما في الصدور.

وما لم يكن في كتاب الله - عز وجل - نصه فإن فيما يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم حكمه وما لم يكن في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتفيت فيه سبيل السلف الصالح من أئمة الهدى رضي الله عنهم الذين لم يألوا الناس اختباراً ولا ادخروهم نصيحةً واجتهاداً عالماً أنك أسعد بالعدل ممن تعدل عليه وأحظى بإصابة الحق ممن تصيبه فيه: لما تتعجله من جميل وأن يكون الذين تحكم بشهادتهم - أحدوثته وذكره ويذخر لك من عظيم ثوابه وأجره ويصرف عنك من حوب ما تتقلده ووزره من أهل الثقة في أديانهم والمعروفين بالأمانة في معاملاتهم والموسومين بالصدق في مقالاتهم والمشهورين بالتقدم في

عدالاتهم: فإنك جاعلهم بين الله وبينك في كل كلام تصدره وحكم تبرمه وحقيق بأن لا ترضى لنفسك منهم إلا بما يرضى منك وتعلم أن ذلك هو الصدق وأنك قد أبليت عذرك في تخيرهم فإنه يعلم أن ذلك هو الصدق من نيتك والصحة من يقين تحسن عليه معونتك ويحضرك التوفيق في جميع أقضيتك - وأن يكون من تستعين به على المسالة عن أحوال هؤلاء الشهود وأن تجدد المسألة عنهم - ومذاهبهم وما يعرفون به وينسبون إليه في رحالهم ومساكنهم أهل الورع والأمانة والصدق والصيانة في كل مرة وتفحص عن خبرهم في كل قضية ثم لا يمنعك وقوفك على سقوط عدالة من تقدمت بتعديله من استقبال الواجب في مثله واستعمال الحق في أمره - وأن تشرف على أعوانك وأصحابك ومن تجري أمورك على يديه من خلفائك وأسبابك إشرافاً يمنعهم من الظلم للرعية ويقبض أيديهم عن المآكل الردية ويدعوهم إلى تقويم أودهم وإصلاح فاسدهم ويزيد في بصيرة ذوي الثقة والأمانة منهم فمن وقفت منه على امتثال لمذهبك وقبول لأدبك واقتصار فيما يتقلده لك أقررته وأحسنت مكافأته ومثوبته ومن شممت منه حيفاً في حكمه وتعدياً في سيرته وبسطاً ليده إلى مالا يحب له تقدمت في صرفه وألزمته في ذلك ما يلزمه - وأن تختار لكتابتك من تعرف سداد مذاهبه واستقلاله بما يتقلده وإيثاره للتأكد من صحته ومن تقدر عنده تقديماً في نصيحتك فيما يجري على يديه وتوخياً لصدقك فيما يحضره وتغيب عن مشاهدته فإنك تأمنه من أمر حكمك على مالا يؤتمن على مثله إلا الأمين وتفوض إليه من حجج الخصوم المرفوعين إليك ما لا يفوض إلا لذي العفاف والدين - وأن تتفقد مع ذلك أمره وتتصفح عمله وتشرف على ما تحت يديه بما يؤديك إلى أحكامه وضبطه ويؤمنك من وقوع خلل فيه - وأن تختار لحجابتك من لا يتجهم الخصوم ولا يختص بعضها دون بعض بالوصول وتوعز إليه في بسط الوجه ولين الكنف وحسن اللفظ ورفع المؤونة وكف الأذى.

فتقلد ما قلدناك من ذلك عاملاً بما يحق عليك لله عز وجل ذكره ومستعيناً به في أمرك كله: فإنا قلدناك جسيماً وحملناك عظيماً وتبرأنا إليك من وزره وإصره واعتمدنا عليك في توخي الحث وإصابته وبسط العدل وإفاضته واقبض لأرزاقك وأرزاق كتابك وأعوانك ومن يحجبك ولثمن قراطيسك وسائر مؤنك في كل شهر أربعين ديناراً فقد كتبنا إلى عامل الخراج بإزاحة ذلك أوقات استحقاقك إياه ووجوبه لك وإلى عامل المدينة بالشد على يدك والتقوية لأمرك وضم العدة التي كانت تضم إلى القضاة من الأولياء إليك وهما فاعلان ذلك إن شاء الله تعالى.

الحالة الثالثة ما كان عليه الأمر في زمن بني أيوب وكانوا يسمون ما يكتب عن ملوكهم من الولايات لأرباب السيوف والأقلام تقاليد وتواقيع و مراسيم وربما عبروا عن بعضها بالمناشير وهي في الافتتاحات على أربع مراتب: المرتبة الأولى أن تفتتح الولاية بخطبة مبتدأة بالحمد لله تعالى ثم يؤتى بالبعدية.

ويذكر ما سنح من حال الولاية والمولى ويوصى المولى بما يليق بولايته ثم يقال: وسبيل كل واقفٍ من النواب العمل به أو نحو ذلك وهي على ثلاثة أصناف: الصنف الأول أرباب السيوف من هذه المرتبة وهذه نسخة توقيع بولاية ناحية وإقطاع بلادها لمتوليها وهي: الحمد لله على عوائده الجميلة وعواطفه وفوائده الجزيلة وعوارفه ناصب الحق وناصره وقاصم البطل وقاصره ومنير الدين ومديله ومبير الكفر ومذيله وشاد أزر أوليائه وساد ثغرهم وناصر معزهم ومعز نصرهم الذي أضفى علينا مدارع نعمه وأصفى لدينا مشارع كرمه وأعلق أيدينا من العدل بأوكد الأسباب والأمراس وصرف بنا صرف العسف وكف بكفايتنا كف البؤس عن الرعية والباس وجلب إلى استجلاب الشكر من الناس همتنا وطوى على حب البر وإبرار المحب طويتنا وحسم بما أولاناه من أيدٍ مادة كل يدٍ تمتد إلى محظور ويسرنا ببساط العدل المطوي لما طوى بعدلنا بساط الظلم المنشور وأبى لنا أن نكفر نعمةً أو نهبها لكافر أو ندع شكر منةٍ أو نودعها عند غير شاكر.

ولما كان الأمير فلان ممن سبقت لجده ولأبيه - تعاهد الله بالعهاد مثواهما وخص بثرار الرحمة ثراهما - الحرم الأكيدة والخدم الطريفة والتليدة ولم يزالا مجتهدين في تعمير هذا البيت وتشييد أسه ملازمي الإدآب في إنمائه وتشديد غرسه مفضيين بالموالاة إلى مواليه مفصحين بالمعاداة لمعاديه رأينا - لازال الإقبال لآرائنا مقابلاً ومرافقاً والسعد مساعداً والتوفيق موافقاً - أن نلحقه بدرجة أوليه ونورده من كرمنا مورد جده وأبيه ونثني إليه عنان عنايتنا ونرعاه بعين رعايتنا ونلحفه جناح لطفنا ونبوئه مقعد شرف تحت ظلنا ونحرس حده من الفلول وجده من الخمول وعوده من الخور وورده من الكدر وأن نقرره على ما بوأنا فيه والده من الهبات والإنعام والإفضال والإحسان وجميع ما دخل تحت اسمه من المعاقل والبلدان وسيوضح ذلك بقلم الديوان.

فليقابل هذا الإنعام من الشكر بمثله ويواز هذا الإفضال من حسن القبول بعدله وليرتبط نعم الله عنده بالشكر الوافي الوافر فالسعيد من اطرح خلة الشاكي وادرع حلة الشاكر وليدمن التحدث بها فالتحدث بالنعم من الشكر ويستجذب موادها بإيضاح سبل البر ويجعل التقوى شعاره ودثاره ويخلص الطاعة لله إيراده وإصداره وليكن العدل ربيئته ورائده والأمر بالمعروف دليله

وقائده وليقم فيما نيط به حق القيام ويشمر في حفظ ما استرعيناه عن ساق الاهتمام ويعلم أن منزلته عندنا أسنى المنازل وأعلاها ومرتبته لدينا أبهج المراتب وأبهاها ومحله عندنا السامي الذي لا يضاهيه سامي فسبيله علم ذلك وتحقيقه وتيقنه وتصديقه وسبيل كل واقف على هذا المثال أن يقابله بالامتثال من سائر العمال وأرباب الولايات والأعمال.

والاعتماد على العلامة الشريفة في أعلاه إن شاء الله تعالى.

الصنف الثاني أرباب الوظائف الدينية.

وهذه نسخة توقيع بتدريس مدرسةٍ والنظر عليها والتحدث على أوقافها وسائر تعلقاتها وهي: الحمد لله الظاهر إحسانه الباهر برهانه القاهر سلطانه المتظاهر امتنانه نحمده على إنعامه حمداً يدوم به من حلب غزارته وحلي نضارته ازدياده وازديانه ونسأله أن يصلي على سيدنا محمد نبيه الشارع الشارح بيانه وعلى آله وصحبه الذين هم أعضاء شرعه وأركانه.

أما بعد فإنا لما نراه من تشييد بيوت ذوي البيوتات وإمضاء حكم المروءة في أهل المروءات وإرعاء موات ذوي الحقوق الحقيقية وإحياء الموات وموالاة النعم الشامل عمومها لأولي الخصوص والخلوص في الموالات مانزال نلحق درجات الأخلاف منهم في الاختصاص بالاستخلاص بالأسلاف فنوردهم من مشارع دولتنا ومشارب نعمتنا في الاصطفاء والاصطناع أعذب النطاف ونجيبهم من مغارس الرجاء ومجاري النماء في الإدناء والاجتباء ثمرات النعم الدانية القطاف ونفيض عليهم من مدارع البهجة والبهاء وحلل الثناء والسناء في الإكرام بالاحترام مايضفو على الأعطاف.

ولما كان الشيخ فلان متوحداً بالنسب الأثير الأثيل والحسب الجلي الجليل والمحتد الأكيد الأصيل والفضل الموروث والمكتسب والزكاء في المنتمى والمنتسب والذكاء الذي أنارت في أفق التوفيق ذكاؤه والولاء الذي بان في شرعة الإخلاص صفاؤه والدين الذي علا سنا سنته في منار التحميد والخلوص الذي حلا جنى جنته في مذاق التوحيد والرياسة التي تضوع ريا رياضها المونقة والسماحة التي تنوح حيا حياضها المغدقة والأمانة التي نهضت بها فضائله والموالاة التي نجحت بها عندنا وسائله - رأينا إجراءه على عادة والده في تولي المدرسة المعمورة التي أنشأها جده للشافعية بحلب وأوقافها وأسبابها وتدريسها وإعادتها واستنابة من يراه ويختاره في ذلك كله والنظر في جميع ما يتعلق بها كثرة وقلة وترتيب الفقهاء فيها وتقرير مشاهراتهم على ما يراه من تفضيل وتقديم وتفصيل وتقسيم وتخصيصٍ وتعميم ونقصٍ وتكميل وتتميم وحفظ الوقوف بالاحتياط في مصارفها والعمل فيها بشروط محبسيها وإطلاقها بقيود واقفيها بالابتداء بالعمارات التي تؤذن بتوفي الارتفاعات وتكثير المغلات وتنمية الثمرات مستشعراً تقوى الله التي هي حلية الأعمال الصالحات والعصمة الباقية والجنة الواقية عند النائبات.

وفوضنا ذلك إلى أمانته وبعده إلى من يقوم مقامه من إخوته تشييداً لبيتهم الكريم وتجديداً لمجدهم القديم ورفعاً لمكانتهم المكينة وحفظاً لمرتبتهم المصونة وأمرنا بإعفاء جميع أوقاف المدرسة وسائر أوقافهم وأملاكه وأملاك إخوته وحمايتهم من جميع المظالم والمطالب والنوائب والشوائب والعوارض والعراض واللوازم والكلف والمؤن والسخر والتبن والحطب والأطباق والأنزال وسائر التوزيعات والتقسيطات والأنفال وإعفاء فلاحيها ومزارعيها من جميع ذلك وإطلاق كل ما يصل من مغلات الأوقاف والأملاك المذكورة إلى مدينة حلب من جميع المؤن على الإطلاق وكذلك جميع ما لهم من البضاعات والبياعات والتجارات معفاة و مطلقة لا اعتراض عليها لأحد ولا تمد إلى شيء منها يد ذي يد وليتول ذلك على عادته المشكورة وأمانته المشهورة بنظر كاف شاف وكرم وافر واف وورع من الشوائب صاف وعزوف عن الدنيا بالدينيات متجاف وسداد لركن المصالح شائد وتذكر لترقي مواد المناجح رائد ورأي في ذمة الصواب راجح وسعي برتبة الرشاد ناجح وهمة عالية في نشر العلم بالمدرسة وإعلاء مناره وإلزام الفقهاء والطلبة بتدريسه وإعادته وحفظه وتكراره ومروءة تامة في الاشتمال فعلى إخوته ومخلفي أبيه بما يصل به الرحم ويظهر به الكرم ويحيي من مفاخر آبائه الرمم ويقوي لهم من معاقد مكارمه العصم.

وسبيل الولاة والنواب وكل واقف على هذا المثال إمضاء ذلك كله على سبيل الاستمرار وتصرم الأعمار وتصرف الأعصار وتقلب الأحوال والأدوار وحفظه فيهم وفي أعقابهم على العصور والأحقاب ووصل أسبابه عند انقطاع الأسباب من فسخ ينقض مبرم معاقده أو نسخ يقوض محكم مقاعده أو تبديل يكدر صافي موارده ومشارعه أو تحويل يقلص ضافي ملابسه ومدارعه وليبذل لهم المساعده في كل ما يعود له ولجماعته بصلاح الحال وفراغ البال ونجاح الآمال وإقامة الجاه في جميع الأحوال.

والعمل بالأمر العالي وبمقتضاه والاعتماد على التوقيع الأشرف به إن شاء الله تعالى الصنف الثالث أرباب الوظائف الديوانية وهذه نسخة توقيع بوزارة من إنشاء بعض بني الأثير وهي: الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده وأغنانا بمزيد عطائه عن ازدياده وجعلنا ممن استخلفه في الأرض فشكر عواقب إصداره ومباديء إيراده.

ولسان أنعمه أفصح مقالاً وأفسح مجالاً وإذا اختلفت خواطر الحامدين روية كاثرها ارتجالاً - ونسأله أن يوفقنا لتلقي -نحمده أوامره ونواهيه بالاتباع وأن يصغي بقلوبنا إلى إجابة داعي العدل الذي هو خير داع وينقذنا من تبعات مااسترعناه يوم يسأل عن رعيته كل راع.

أما بعد فإن الله قرن استخارته برشده وجعلها نوراً يهتدى به في سلوك جدده ويستمد من يمن صوابه ما يغني عن الرأي ومدده ومن شأننا أن نتأدب بآداب الله في جليل الأمر ودقيقه وإذا دل التوفيق امرءاً على عمله دل عملنا على توفيقه فمن عنوان ذلك أنا اصطفينا لوزارتنا من تحمدنا الأيام من أجله وتحسدنا الملوك على مثله ويعلم من أتى في عصره أنه فات السابقين من قبله وهو الزير الأجل السيد الصدر الكبير جلال الدين شرف الإسلام مجتبي الإمام فخر الأنام وليست هذه النعوت مما تزيد مكانه عرفاً ولا تستوفي من أوصافه وصفاً وإن عدها قوم جل ما يدخرونه من الأحساب ومعظم ما يخلفونه من التراث للأعقاب ولا يفخر بذلك إلا من أعدم من ثروة شرفه ورضى من الجوهر بصدفة وأنت فغير فاخر به ولا بما ورثته من مجد أبيك الذي أضحت الأيام به شهوداً والجدود له جدوداً وغدا وكأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن الصباح عموداً وقد علمت أنه كان إليه نسب المكارم وسيمها وكان ما بلغه من دنياه على عظمها لكنك خلفت لنفسك مجداً منك ميلاده وعنك إيجاده وإذا اقترن سعي الفتى بسعي أبيه فذلك هو الحسب الذي تقابل شرفاه وتلاقى طرفاه وغض الزمان عنه طرفه كما فتح بمدحه فاه وإذا استطرفت سادة قوم بنيت بالسؤدد الطريف التليد ولقد صدق الله لهجة المثني عليك إذ يقول: إنك الرجل الذي تضرب به الأمثال والمهذب الذي لا يقال معه: أي الرجال وإذا وازرت مملكة فقد حظيت منك بشد أزرها وسد ثغرها وأصبحت وأنت صدر لقلبها وقلب لصدرها فهي مزدانة منك بالفضل المبين معانة بالقوي الأمين فلا تبيت إلا مستخدماً ضميرك في ولائها ولا تغدو إلا مستجدياً كفايتك في تمهيدها وإعلائها.

ومن صفاتك أنك الواحد في عدم النظير والمعدود بألف في صواب التدبير والمؤازر عند ذكر الخير على الإعانة وعند نسيانه على التذكير ولم ترق إلى هذه الدرجة حتى نكحت عقبات المعالي فقضيت أجلها وآنست من طور السعادة ناراً فهديت لها ولم تبلغ من العمر أشده ولا نزع عنك الشباب برده بل أنت في ريعان عمرك المتجمل بريعان سؤدده المتقمص من سيما الخلال ما أبرز وقار المشيب في أسوده وهذا المنصب الذي أهلت له وإن كان ثاني الملك محلا وتلوه عقداً وحلاً فقد علا بك قدره وتأبل بك أمره وأصبح شخصك في أرجائه منار ورأيك وفضلك من حوله سور وسوار وله من قلمك خطيب يجادل عن أحساب الدولة فينفخها فخراً وسيف يجالد عن حوزتها فيمنحها نصراً ولقد كان من قبلك وقبل أبيك مكرهاً على إجابة خاطبه والنزول إليه عن مراتبه فلما جئتماه استقر في مكانه ورضي بعلو شأنكما لعلو شانه وقد علم الآن بأنك نزلته نزول الليث في أجمه واستقللت به استقلال الرمح باحدمه ومازالت المعالي تسفر بينك وبينه وأنت مشتغل بالسعير للسيادة وآدابها عن السعي للسيادة وطلابها فخذ ما وصلت إليه باستحقاق فضلك ومناقبه لا باتفاق طالعك وكواكبه.

واعلم أن هذه النعمة وإن جاءتك في حفلها وأناخت بك بصاحبها وأهلها فلا يؤنسها بك إلا الشكر الذي يجعل دارها لك داراً وودها مستملكاً لك لا معاراً وقد قيل: إن الشكر والنعمة توءمان وإنه لا يتم إلا باجتماع سر القلب وحديث اللسان فاجعله معروفها الذي تمسكها بإحسانه وتقيدها بأشطانه.

وقد أفردنا لك من بيت المال ما تستعين به على فرائض خدمك ونوافله وترد فضله على ابتناء مجدك وفضائله وذلك شيء عائد على الدولة طيب سمعته فلها محمود ذكره ومنك موارد شرعته وإذا حمدت مناهل الغدر كان الفضل للسحاب الذي أغدرها.

والمفرد باسمك من بيت المال كذا وكذا.

وكل ما تضمنه تقليد غيرك من الوصايا التي قرعت له عصاها ونبذت له حصاها فأنت مستغن عن استماعها مكتف باطلاع فكرك عن اطلاعها غير أنا نسألك كما سأل رسول الله معاذاً ونسأل الله أن يجعل لك من أمرك يسراً ومن عزمك نفاذاً وقد أجابنا لسان حالك بأنك تأخذ بتقوى الله التي ضمن لها العاقبة وجعل شيعتها الغالبة وأنك تجعلها بينك وبينه سبباً ممدوداً وبينك وبين الناس خلقاً معهوداً حتى تصبح وقد أمنت من دهرك عثاراً ومن أبنائه أسماعاً وأبصاراً - ومن شرائطها أن يكون الرجل

المسلم الذي سلم الناس من يده ولسانه وفي هذين كفاية عن غيرهما من الشيم التي تحفظ بها سياسات الأمم: فإن العدل هو الميزان الذي جعله الله ثاني الكتاب والإحسان الذي هو الطينة التي شاركتها القلوب في جبلتها مشاركة الأحباب.

وأما ماسوى ذلك من سياسة الملك في تقرير أصوله وتدبير محصوله: كالبلاد واستعمارها والأموال واستثمارها وولاة الأعمال واختبارها وتجنيد الجنود واختيارها فكل ذلك لا يصدر تدبيره إلا عن نظرك ولا يمشي فيه إلا على أثرك وأنت فيه الفقيه ابن الفقيه الذي سرى إليك علمه نفساً ودرساً وثمرةً وغرساً فهذا كتاب عندها إليك: فخذه بقوة الأمانة التي أبت السموات و الأرض حملها وما أطاقت ثقلها والله يسلك بك سدداً ويتحرى بك رشداً ويلزمك التوفيق قلباً ولساناً ويداً إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك نسخة توقيع بإعادة النظر بثغر الإسكندرية لابن بصاصة في شهور سنة ثمان وسبعين الحمد لله الذي أضحك الثغور بعد عبوسها ورد لها جمالها وأنار أفقها بطلوع شموسها وأحيا معالم الخير فيها وقد كادت أن تشرف على دروسها وأقام لمصالح الأمة من يشرق وجه الحق ببياض آرائه وتلتذ الاسماع بتلاوة أوصافه الجميلة وأنبائه حمد من أسبغت عليه النعماء وتهادت إليه الآلاء وخطبته لنفسها العلياء.

وبعد فأحق من أماس في أندية الرياسة عطفاً واستجلى وجوه السعادة من حجب عزها فأبدت له جمالاًولطفاً.

واصطفته الدولة القاهرة لمهماتها لما رأته خير كافل وتنقل في مراتبها السنية تنقل النيرات في المنازل ولما كان المجلس السامي القاضي الأجل الصدر الكبير الرئيس الأوحد الكامل المجتبى المرتضى الفاضل الرشيد جما الدين فخر الأنام شرف الأكابر جمال الصدور قدوة الأمناء ذخر الدولة رضي الملوك والسلاطين الحسين ابن القاضي زكي الدين أبي القاسم - أدام الله رفعته - ممن أشارت إليه المناقب الجليلة وصارت له إلى كل سؤل نعم الوسيلة - رسم بالأمر العالي المولوي السلطاني الملكي أن يفوض إليه نظر الإسكندرية المحروس ونظر متاجره ونظر زكواته ونظر -العادلي البدري - ضاعف الله علاء هو نفاذه صادره ونظر فوة والمزاحمتين فيقدم خيرة الله تعالى ويباشر هذا المنصب المبارك بعزماته الماضية وهممه العالية برأي لا يساهم فيه ولا يشارك ليصبح هذا الثغر بمباشرته باسماًحالياً وتعود بهجته له بجميل نظره ثانياً وينتصب لتدبير أحواله على عادته ويقرر قواعده بعالي همته ويجتهد في تحصيل أمواله وتحصين ذخائره واستخراج زكاته وتنمية متاجره ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا ألفوه منه والرفق الذي نقلوا أخباره السارة عته فإنهم هدايا البحور ودوالبة الثغور ومن ألسنتهم يطلع على ما تجنه الصدور وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم وحاموا عليه كالطيور وليعتمد معهم ما تضمنته المراسيم الكريمة المستقرة الحكم إلى آخر وقت ولايسلك بهم حالة توجب لهم القلق والتظلم والمقت وليواصل بالحمول إلى بيت المال المعمور وليملأ الخزائن السلطانية من مستعملات الثغر وأمتعته وأصنافه بكل مايستغنى به عن الواصل في البرور والبحور وليصرف همته العالية إلى تدبير أحوال المتاجر بهذا الثغر بحيث ترتفع رؤوس أموالها وتنمي وتجود سحائب فوائدها وتهمي وليراع أحوال المستخدمين في مباشراتهم ويكشف عن باطن سيرهم في جهاتهم ليتحققوا أنه مهيمن عليهم وناظر بعين الرأفة إليهم فتنكف يد الخائن منهم عن الخيانة وتتحلى أنامل الأمين بمحاسن الصيانة وليتفق فيما يأتيه ويذره ويقدمه من المهمات ويؤخره مع المجلس السامي الأمير الأجل الكبير المجاهد المقدم الأوحد النصير شمس الدين متولي الثغر أدام الله نعمته - فإنه نعم المعين على تدبير المهمات ونعمت الشمس المشرقة في ظلم المشكلات. - المحروس

وليطالع بالمتجددات في الثغر المحروس ليرد الجواب عليه عنها بما يشرح الصدور ويطيب النفوس وليتناول من الجامكية والجراية عن ذلك في غرة كل شهر من استقبال مباشرته ما يشهد يه الديوان المعمور لمن تقدمه من النظار بهذه الجهات وهي نظر الثغر وما أضيف إليه على ما شرح أعلاه.

المرتبة الثانية أن تفتتح الولاية بلفظ أما بعد حمد الله

أو أما بعد فإن كذا ويؤتى بما يناسب من ذكر الولاية والمولى ثم يذكر ما سنح من الوصايا ثم يقال وسبيل كل واقف عليه فمن المكتتب لأرباب السيوف من هذه المرتبة ما كان يكتب لبعض الولاة.

وهذه نسخة بولاية الشرقية وهي: أما بعد فإنا لما منحنا إياه من معجزات النصر المستنطق الألسنة بالتسبيح وآتاناه من نظر حمى ناضر عيش الأمة من التصويح وألبسناه من ثياب العظمة المخصوصة بأحسن التوشيع والتوشيح ووفقنا له من اصطفاء من نقبل عليه بوجه التأهيل للمهمات والترشيح وقواد من عزائمنا التي ترج بها أرض الكفر وتدوخ ووسعه لنا من الفتوح التي

أنباؤها خير ما تصدر به السير وتؤرخ - لانزال نبالغ فيما صان الحوزة وحاطها ومد رواق الأمنة ومهد بساطها وقرب نوازح المصالح وجمع أشتاتها وأوجب انصرام حبال اختلال الأمور واقتضى انبتاتها.

ولما كانت الأعمال الشرقية جديرة بمتابعة الاعتناء وموالاته وإعراق كرم التعهد فيما يحفظ نظامها بمغالاته وأحقها بأن تصرف إلى صونها وجوه الهمم الطوامح ويوقف عليها حسن الاحتفال الجامع دواعي تذليل الجامح إذ كانت أجدر الأعمال بكلاءة الفروع من أوضاعها والأصول والباب الذي لا يجب أن يدخله إلا من أذن له في القدوم إليها والوصول ويتعين التحرز وكنت أيها الأمير - على الطرقات التي منها إليها الإفضاء ويوكل بما دونها من المياه عيون حفظة لا يلزمها النوم والإغضاء أشد الأمراء بأساً وأوفاهم لحسن الذكر الجميل لباساً وأكثرهم لمهج الأعداء اختلاساً وأجمعهم للمحاسن المختلفة ضروباًوأجناساً وقد تناصرت على قصودك الحسنة واضحات الدلائل وتحلت أجياد خلالك من جواهر المفاخر بقلائد غير قلائل واستطار لك أجمل سمعه وفطمت سيوفك أبناء الكفر عن ارتضاعها من الملة الإسلامية ثدي طمعه ولا استبهمت طرق السياسة إلا هديت إلى مجاهلها ولاحلأ التقصير سواك عن شرائع النعم إلا غدوت بكفايتك وارد مناهلها وكم شهدت مقام جلاد وموقف جهاد فمزقت ثوب مارقه نسجاً وأدلت في ليل قسطه عوادي صوارمك شرجاً وقمت فيما وكل إليك من أمور الفاقوسية وقلعتي صدر وأيلة حرسهما الله تعالى قياماً أحظاك بالثناء والصواب واستنبت في كل منها من أجرى أمورها على الصواب - خرج أمر الملك الناصر بكتب هذا السجل بتقليدك ولاية الأعمال الشرقية المقدم ذكرها فاعتمد مباشرتها عاملاً بتقوى الله التي مغنمها خير ماقتاده مستشعروها لأنفسهم واستقاوه.

قال الله تعالى:)وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه(وأبسط العدل على أهل هذه الولاية واخصص أهل السلامة بما يسبل عليهم ستر الحياطة والحماية وتطلب المفسدين أتم تطلب واحظر عليهم التنقل في هذه البلاد والتقلب ومن ظفرت به منهم فقابله بما يوجبه حكم جريرته ويقتضيه موقع جريمته ويجعله مزدجراً لسالكي طريقته وشد من المستخلف على الحكم العزيز شداً ينصر جانب الشرع ويعزه ويكر به على الباطل ترويع الحق وأزه وأعن المستخدمين في المال على استفائه من وجوهه عند وجوبه وبلغ كلاً منهم من الإعانة على تحصيله أقصى مطلوبه وقوا أيديهم في تخضير البلاد وتعميرها وأبعث المزارعين على مباشرة أحوال الزراعة وتقرير أمورها وفيما يسترعونه من مصالح الأعمال ويعود عليهم في موجبات الرجاء بمناحج الآمال وراع أمر السبل والطرقات واجعل احتراسك عليها الآن موفياً على المتقدم من سالف الأوقات ولاتن في إنفاذ المتخبرين إلى بلاد العدو وتحديهم في الرواح والغدو بما يمنعهم من الهدو وكشف أخبارهم وتتبع آثارهم وتسيير الجواسيس والعياذ بالله - بالجملة الكافية وطالع بما - إلى ديارهم حتى لاتخفى عنك من شؤونهم خافية ولايجدوا سبيل غرة يهتبلونها يتجدد لك وما يرد من الأنباء عليك وغير ذلك مما يحتاج إلى علمه من جهتك وماتجري عليه أحكام خدمتك فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة بولاية الغربية من هذه المرتبة وهي: أما بعد فإنا - لما آتانا الله من سعادة لطرق الإرادات فيها تعبيد وأسبغه بنا من نعم لا يعدها التحديد ولا يحدها التعديد وأنهجنا به من اكتناف المطالب بنجاح لا يعقبه تعسير ولا يعسره تعقيد وأمضاه عن عزائمنا التي ما فتكت قط بالأعداء فقيد منهم فقيد ولقاه الأمنة بنظرنا من نضرة عيشٍ جانب الجفاف دوحة المخضل وأهداه بتبصرنا من أنوار الهدى المتقدمة كل ذي جهل ظل ممن ضل - لانزال نستوضح أمور أمراء دولتنا متصفحين ونبلو أخبار المؤهلين منهم لسياسة الرعية المرشحين ونكشف شؤونهم غير متجورين ولا متسمحين ونظهر في أحوالهم آثار الإيثار لرفع درجاتهم وأمارات الرفع منهم مقابلة على حياطة الأموال من نكون عليه وصون منجاتهم ونبوثهم مبوأ صدق من تصديق آمالهم وتحقيقها ونزف إليهم عقائل المنح المانع شكرهم من تسيب سيبها وتطرق تطليقها ونحمل لكل منهم مايؤمله من اجتهاده ويؤثره عملاً بآداب الله سبحانه في إجزال حظوظ المحسنين من إحسان المجازاة وإيلائهم المزيد الحاكم بنقص اعتدادهم عن الموازنة له والموازاة كما قال سبحانه وقوله هدى ونور وشفاء لما في الصدور: "ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور " ولما كان الأمير والنعوت والدعاء من أنجحهم فالاً وأرجحهم مقالاً وأصلحهم أعمالاً وأوضحهم كمالاً ومازالت أغصان نهاه متتابعة في بسوقها وضرائبه نافقة أعلاق المحامد بسوقها وعزائمه في إذلال الفرق المبالغة في فسوقها مشمرة عن سوقها وما برح في شوط الفخر راكضاً ولعقود مكروه الأمور التي تزيغ الأمانة رافضاً وبأعباء القيام بفرائض الآلاء ناهضاً وما انفكت مناقبه تعيي بيان الواصف وبنان العاد ومساعيه مدركة " وهي وادعة ما يعجز عن أقله جد الجاد ورأيه يرتق كل متفتق ومنبثق من الأمور المهمة بسداد الراتق الساد وجميل ذكره يفوح بما يفوق المسك فيثوب إليه من الثواب بالنائي الناد ومافتيء دأب شيمته الإعراض عن الموبق من الأعراض واختيار الرفق والإغراق فيما يديمه إلى سفك أعناق خرج أمر الملك الناصر بكتب هذا السجل له بتقليد ولاية الأعمال الغربية. - أسرى المسلمين من سرى العتق

فليتقلد ماقلده معتمداً على تقوى الله التي صرف عن معتمدها شرب التكدير ومنحه من المكارم عنده ما يوفي على التقدير وليجر على عادته في بسط ظل المعدلة ومد رواقها وصون مساحي الرعايا عن إملاقها منها وإخفاقها والمساواة بها بين الأقوى والأضعف والأدنى والأشرف والبادي والحضار والمناوئين والأنصار والخاص والعام والأجنبي ورب الحرمة والذمام: لينام المستورون على مهاد الأمن ويسلم جانب سلامة أموالهم وأرواحهم من الوهن وليعامل المستخلف على الحكم العزيز بما يستوجبه مثله من نصرة الأحكام ووكل إليه أمر الأمراء لمن آثرها والإحكام والإكرام الشامل لقدره والاهتمام الشارح لصدره وليتوخ المستخدمين في الأموال بما يكون لعللهم مريحاً ليصل إليهم ما يرمونه نجيحاً ويلزم من جرت عادته بلزوم الحدود واجتناب تعديها والتوفر على حفظ مسالكها والمترددين فيها وليطالع بما يتجدد قبله من الأحوال الطارية وما لم تزل الرسوم بإنهاء مثلها جارية إن شاء الله تعالى.

المرتبة الثالثة أن تفتتح الولاية بلفظ رسم

ثم يذكر أمر الولاية والمولى ويوضح ثم يقال وسبيل كل وقف عليه فمن المكتتب لأرباب السيوف من هذه المرتبة نسخة مرسوم بشد ناحيةٍ وهي: رسم - أعلى الله المراسيم وأدام نفاذها - بالإنعام على الأمير فلان بما يفيض عليه ملابس الاصطفاء ويضيفها ويسمي لقدمه في الثبات مدارج الارتقاء ويسنيها ويعرب عن اختصاصه بالمنزلة التي يفضل بها على مباريه واستخلاصه للمرتبة التي يفوت بها شأو مجاريه ويؤهله لثغر حارم المحروس وشدة توليه أموره بكفايته ونهضته وحزامته وجده وقد أمرنا بتسليم قلعة حارمٍ وأعمالها وسائر ما يختص بها ويضاف إليها من ضياعها ومواضعها إليه والتعويل في ولايتها وتعميرها وتثميرها عليه بموجب ما يفصل من الديوان على ما كان جارياً في الإقطاع المحروس للحال وسبيل أهل الديوان - أيدهم الله - العمل بالأمر العالي وبمقتضاه والاعتماد على التوقيع الأشرف به إن شاء الله تعالى.

بالتعويل على الأمير فلان في تولية الوقوف - ومن ذلك نسخة مرسوم بشد وقف وهي: رسم - أعلى الله المراسيم وأدام نفاذها بالجامع المعمور بحلب المحروسة والبيمارستان والمساجد والمشاهد بالأماكن والمواضع وظاهرها وباطنها وأعمالها وتفويضها إليه والاعتماد في جميعها عليه سكوناً إلى نهضته وكفايته ووثوقاً بخبرته ومعرفته وعلماً بنزاهته وسداده وأمانته وذلك لاستقبال سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

فليتول ذلك بكفاية كافية ونهضةٍ وافية وهمة لأدواء الأحوال شافية ونظر تام لشمل المصالح ضام وتدبيرٍ جميل في كل خاص من أسباب عمله وعامٍ وتقوى لله عز وجل تقوى بها يده ويضح بالاستقامة على سننها جدده ناظراً في الوقوف ومصارفها وتتبع شروط واقفها بكل ما يعود بتعمير أعمالها وتثمير أموالها وتدبير أحوالها مطالباً بحساب من تقدمه وتحقيق مبالغه تكميلاً وإضافة واحتساباً وسيافة وليطلب شواهده وليبن على الصحة قواعده وليلتمس ما يصح من بواقيه من جهاتها وليكشف بما يوضحه من سبل الأمانة وجوه شبهاتها وقد أذن له في استخدام من يراه من النواب والمتصرفين والمشارفين والوكلاء والمستخدمين على ما جرت به العادة من غير زيادة.

وسبيل النواب - أيدهم الله - العمل بالأمر العالي وبمقتضاه والاعتماد على العلامة الشريفة إن شاء الله تعالى.

المرتبة الرابعة أن يفتتح بلفظ إن أحق

أو إن أولى أو من كانت صفته كذا وما أشبه ذلك فمن ذلك نسخة منشور بنقابة الأشراف وهي: من كانت أوصافه شائعة بين الأنام وصنوف فضائله منشورةً لدى الخاص والعام مع شرف نسبٍ شامخ الأعلام وتقى " فخر به على الأنام وعلم يجلى به صدأ الأفهام وعفةٍ مرائرها محكمة الإبرام - كان جديراً بإفاضة سجال النعم عليه وقميناً بإرسال سيل المواهب إليه.

ولما كان الشيخ فلان متصفاً بهذه الصفات الجميلة ومتخصصاً بمزاياها الجليلة وضارباً فيها بالسهم المعلى ونازلاً منها في الشرف الأعلى ومتقمصاً ثوب الإخلاص والصفاء ومتشحاً بوشاح العفة والولاء - اختصصناه بزيادة التقديم والاجتباء وحبوناه بوفور الكرامة والاصطفاء وأجريناه على مستمر رسمه بالرعاية على ذرية أهل العباء حسب عادته المستقرة إلى آخر عهد من كانت الإيالة إليه وإلى رحمة الله مضى: ليسير فيهم بكتاب الله العظيم وسنة رسوله ويسلك جدد الحق الذي يوصله من الزلفى إلى أقصى مناه وسوله ويحضهم على تلاوة القرآن ومعرفة مايصلح للأديان.

وليسوا في الحكم بين الضعيف فيهم والقوي ويعم بالإنصاف الفقير والغني وليحسن إلى محسنهم وليجر على فضله لمسيئهم بعد أن يقدم إليه زجراً ووعيداً ويوسعه إنذاراً وتهديداً فإن وعى وارعوى وإلا سلط عليه أسباب الأذى وتولاه بما ستحقه من الجزا ويعيده إلى حالة الاستقامة والاستواء ويكفه عن دواعي الهوى.

ومن وجب عليه حد أقامه فيه وبادر إلى اعتماده وتوخيه حسب ما يوجبه حكم الشرع ويقتضيه.

وليكن رؤوفاً بهم ما استقاموا ومنتقماً منهم ما اعوجوا ومالوا وإن وجب على أحدهم حق لملي أو دني استخلصه منه ولم يمنعه تعلقه بنسبٍ شريف علي وإن افترى منهم مفتر على أحد من الملل قابله عليه بمايزجره عن قبيح العمل: فإن الناس في دار الإسلام ومن هو تحت الذمام سواسية وأقربهم إلى الله تعالى من كانت سيرته في الإسلام رضية وطويته في الإيمان خالصة نقية ومن حكم عليه حاكم من الحكام بحق ثبت عنده بالبينة العادلة أو الإعلام انتزعه منه أو سبحنه عليه إلى أن يرضى خصمه أو يرد أمره إلى الحاكم ويفوضه إليه.

وليحرس أنسابهم بإثبات أصولها وتحقيق فروعها ومن رام دخولاً فيه بدعوى يبطل فيها نقب عن كشف حاله وإظهار محاله وجازاه بما يستحقه أمثاله ويرتدع فيما بعد مثاله: ليخلص هذا النسب الكريم من دعوى المجهول واندماجه في أسرة الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم ويمنع من اتصال أيم من الأسرة إلى عامي ولايفسح أن يعقد عليها عقد إلا لكفء ملي: ليبرأ هذا المجد الشريف من التكدير ولا تزيفه شوائب التغيير.

ولينظر في الوقوف على المشاهد والذرية نظراً يحمده عليه من يعلمه من البرية ويحظيه بالصواب عند مالك المشية ويبتديء بعمارة أصولها واستكمال فروعها وقسمة مغلها على ماتضمنه شرط الواقفين لها وليحتط على النذور وينفقها على عادتها في المصالح والجمهور عالماً أن الله تعالى سائله عما توخاه في جميع ابلأمور وأنه لايخفى عليه كل خفي مستور.

قال الله سبحانه: " يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار " وأذنا له أن يستنيب عنه في حال حياته وبعد وفاته - فسح الله له في المهل وخوله صالح العمل - الأرشد من بنيه ومن يختاره لهذا الأمر وله يرتضيه.

وقد أنعمنا عليه بإجراء ما كان باسمه مستمراً إلى الآن وأضفنا إليه ما يعينه على النظر في مصالح الأشرة أدام الله له علة الشأن من تمليكٍ وإدرارٍ وتيسير وجعلناه له مستمراً وعليه مستقراً ويمن بعده من نسله والأعقاب على توالي الأزمان والأحقاب وحظرنا تغييره وفسخه وتبديله ونسخه: " فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم " وهو معين من ديوان الاستيفاء المعمور بهذا المنشور المسطور بالأمر العالي أعلاه الله وأمضاه عما كان قديماً وما أنعم عليه به آخراً وهو القديم الذي كان له وشهد به الديوان المعمور وهو الإقطاع من ناحية كذا ويجرى على عادته في إطلاق ما قرر له من ناحية كذا بشهادة الديوان الفلاني والمحدد الذي أنعم به عليه لاستقبال سنة سبع وسبعين وما بعدها.

وسبيل كافة الأسرة الطالبيين بمدينة كذا الانقياد إلى تباعته والامتثال لاشارته والتوفر على إجلاله وكرامته فإنه زعيمهم ومقدمهم ورئيسهم ومن خالفه منهم قابلناه وبأليم العقاب جازيناه والاعتماد في ذلك أجمع على التوقيع الأشرف العالي أعلاه الله والعلائم الديوانية فيه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة بولاية الشرقية وهي: لما كانت الأعمال الشرقية أجدر البلاد بأكيد الاهتمام وأخلق وأولاها بإضفاء سربال الاهتبال الذي لا يخلق إذا رث سواه وأخلق وأقمنها بحسن نظر يرسل لرسول على الرسم الأعنة في أدامة نضرة العمارة عليها ويطلق وأحقها بأن يبرم لها سبب تفقد لا يلتصق به رهن ولا يغلق وأجراها باعتناءٍ يقضي لأمرها بالاطراد وأولاها بتعهد يجعل مصالح الشؤون آلفة للثواء بها والمقام عائفة للنشوز عنها والشراد لأنها باب الشام وإليها ترد القوافل المترددة منه على مر الأيام ومنها يستكشف الأخبار ويستنهض الطوالع والمتخبرين وبمواصلة التفقد تعلم الأحوال الطارئة في كل وقت وحين فتجب المبالغة في حفظ طرقاتها ومياهها وأن تصرف الهمم إلى ضبط أحوالها وعامة أنقابها واتجاهها ويوضع بناء الحزم في صون أطرافها على أثبت قاعدة ويؤسس ويبالغ في إذكاء العيون على كل طارق يتخير للعدو الملعون ويتجسس وكنت أيها الأمير من المشهورين بالشجاعة والإقدام وذوي الكفاية الموفي ثراؤهم فيها على عارض الإعدام ومازلت معدوداً من خاص الأتراك الأعيان سهم المقصر مجاروهم إلى غاية البسالة عن اللحاق بهم والإدراك وقد تقدمت وولايتك هذه الأعمال فقصدت منها قصداً سديداً وألحفت الرعايا ظلاً من الأمنة مديداً - خرج الأمر بإيداع هذا المنشور ما أنعم به عليك من إعادتك إلى ولايتها فبالغ في استيضاح الأنباء وكشفها ورفع الونية في ذلك وصرفها ووكل به عزمة لا تلم سنة بطرفها وانته فيه إلى غايةٍ تضيق

سعة القول بوصفها وتابع في تسيير الطلائع وندبها وعول من كل قبيلة من العربان المستنهضين على شهمها وندبها واجتهد على -في حفظ الطرقات والمناهل واستنهض للتحرز عليها من هو عالم بها غير جاهل وتحفظ من جلل يتطرق - والعياذ بالله البلاد وخلل يتخللها وانتض لهذه المهمات بصارم حد تسلم مضاربه من عجز يفللها ولاتبق ممكناً في إنفاذ المتخبرين وإرسال من يغير على بلاد العدو من الخبيرين بمأن هذه سبيل المتدربين وألزم أرباب الحدود من جميع الأقطار حراسة حدودهم وخذهم باستنفاد وسعهم في الاحتياط واستفراغ مجهودهم وطالع بما يورد قبلك وأنه مايزيح بسرعة إجابتك عنه في الخدمة عللك فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة بولاية المرتاحية وهي: خرج الأمر بكتب هذا المنشور وتضمينه: إن من أظهر خلاصة جوهره السبك وارتفع في إشكائه بالإنصاف عن كل شاكٍ الشك وحصل عنده من الخلال الزكية نظم لاينحل وعقد لاينفك وأوفى على التقدير والظن في التدبير المفرج به عن الرعية الضنك - استوجب أن تسند إليه حمايتهم وتجعل إليه كلاءتهم.

ولما كنت أيها الأمير ممن أحمد عند بحر عزمه وتجريب نصل حزمه واعتبار فصل مقالته واختبار أصل أصالته وشكر استمراره على الاتصاف بمحض الولاء واستدراره أخلاف غرر الآلاء واستثماره أصناف جنى الثناء واستقراره أكناف وهبي الاعتناء ولم تزل في رفعتك وجيهاً وما برح جميل الرأي يديم بعثاً لتحف الإحسان نحوك وتوجيهاً وما انفكت مجاهدتك مجاهدةً في مهام إقدام تنويهاً وشجاعتك ملقية على الكفار كل كفاح يلقون منه كلاً ثقيلاً ويوماً كريهاً.

أودع هذا المنشور مارسم من استخدامك في ولاية الأعمال المرتاحية.

فباشرها معتمداً على تقوى الله سبحانه التي تقوى بها أسباب توفيقك وتناله وستلم أمور مباشرتك من خلل يكدر استبشارك وينكد واعتد العدل على من تشتمل عليه هذه الولاية وتحويه وبالغ فيما يزيل عنهم الحيف ويزويه واقصد ما يقضي لسربهم بالتأمين ويبلغهم من تحصين أوطانهم غاية التأميل واجعل أيدي المفسدين مكفوفة عن كافتهم ووجوه المعتدين مصروفةً عن إخافتهم وتطلب الأشارا وتتبع الدعار ومن ظفرت به منهم فلا تكن عن التكيل به ناكلاً ولاتقصر في الحوطة عليه والمطالعة به عاجلاً وعامل النائب في الحكم لاعزيز بانهاضه وصون مديد باعه في تنفيذ الأحكام عن انقباضه واعضده في إنفاذ قضاياه واختصاصه بإكرام يقبل عليه مطلق محياه وشد من الضامن في استيداء حقوق الديوان واستنطاقها على أحسن حال من غير خروج عن الضرائب المستقرة وعوائد العدل المستمرة وتحرز أن يكون لمناهضة العدو طروق إلى ناحيتك أو انتياب وشمر للتحفظ من مكايدهم تشميراً يزول عن حقيقته عارض الارتياب ولاتبق شيئاً يمكن لأهل ولايتك قواعد الأمنة منهم وتبتل لوقايتهم أذاهم تبتل من لاينام عنهم وطالع بما يحتاج إلى علمه من جهتك إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة بولاية السمنودية وهي: إن أولى من ولي الأعمال وتعلقت بكفايته الآمال وعدقت به المهمات وأسندت إليه الولايات من نطقت بمعدلته الألسنة وانتفت عن عين خبرته السنة وكان حسن السياسة لرعيته كثير العمارة مدة توليته شهماً في استخراج الحقوق من جهاتها صارماً في ردع المجرمين عن زلات النفس وهفواتها حسنةً سيرته خالصةً مناصحته وسريرته.

ولما كنت أيها الأمير فلان - أدام الله تأييدك وتسديدك وحراستك وتمهيدك - أنت المتوشح بهذه الصفات الحسان المتصف بما تقدم من الشرح والبيان الذي نطقت شمائلك بشهامتك وشهدت مخايلك بنباهتك - خرج الأمر الفلاني بأن تتولى مدينة سمنود وضواحيها وماهو معروف بها ومنسوب إليها بشرط بسط العدل ونشره وإعباق عرف الحق ونشره وأن تخفف الوطأة عنهم وتفعل ماهوأولى وتعلم أنك تسأل من الله تعالى في الأخرى ومنا في الأولى وأن تصون الرعايا وتجتلب لنا أدعيتهم وتعاملهم بما يطيب نفوسهم ويبلغهم بغيتهم حتى يتساوى في الحق ضعيفهم وقويهم ورشيدهم وغويهم ومليهم ودينهم وأن لاتقيم الحدود على من وجبت عليه إلا بمقتضى الشرع الشريف والعدل المنيف وأن لاتقيم الحدود على من وجبت عليه إلا بمقتضى الشرع الشريف والعدل المنيف وأن تشد من نواب الحكم العزيز وتفعل في ذلك فعل المهذب ذي التمييز وأن تحسر عن ساعد الاجتهاد في الجمع بين استخراج حميع الحقوق الديوانيه والعمارة وتجعل تقوى الله هي البطانة لك والظهارة وأن تبذل النهضة في استخراج الأموال وتحصيل الغلال على التمام والكمال بحيث لايتأخر منها الدرهم الفرد ولاالقدح الواحد وتفعل في فعل المشفق المشمر الجاهد وأن تديم مباشرتك للأقصاب في حال برشها وزراعتها وتربيتها وحملها واعتصارها وطبخها وتزكية أثمارها بحيث لاتكل الأمر في شيء من ذلك إلى غير ذي ذمة بمفرده ولاإلى من ليس بذي خبرة لايعلم مشقي التصرف من مسعده وقد جعلنا لك النظر على جميع النواحي الجارية في ديواننا بالوجه البحري خاصةً لتنظر في أمرها وتزجر أهل الجنايات بها وتفعل فيهاكل مايحمد به الأثر ويطيب بسماعه الخبر.

فتقلد ماقلدت وقم حق القيام بما إليه ندبت واعمل فيه بتقوى الله في سرك وجهرك وقدم الخوف من الله على جميع ماتأتيه أو تذره من أمرك وتسلمه شاكراً اما أسديناه إليك متمسكاً بما أوجبناه عليك فإن الشكر يوجب مزيدك ويكثر عديدك.

من عادتنا في التدبير وشيمتنا وسنتنا في السياسة وسيرتنا إسباغ المواهب والنعم وتنقيل عبيدنا في مراتب الخدم استرشاداً بأسلافنا الملوك واقتداءً واستضاءةً بأنوارهم المشرقة واهتداءً.

ولما كنت أيها الأمير ممن عرفت بسالته واشتهرت شجاعته وصرامته واستحق أن يلحظ بعين الرعاية وأن يشرف بالارتضاء للتعويل عليه في ولاية رأينا - وبالله توفيقنا - استخدامك في ولاية الأعمال النستراوية وخرج أمرنا إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك ذلك وتضمينه ما تعتمد عليه وتنتهي إلى الممثل لك فيه.

فتقلد ماقلدته عاملاً بتقوى الله فيما تسره وتعلنه معتمداً فيها على غاية ما يستطيعه المكلف ونهاية مايمكنه فالله تعالى يقول إرشاداً للمؤمنين وتفهيماً: " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً " وساو بين القوى من هذه الولاية والضعيف ولاتجعل في الحق فرقاً بين المشروف والشريف وامدد على كافتهم رواق السكون والأمنة وأجرهم في المعدلةعلى العادة الجميلة الحسنة وافعل في إقامة الحدود على من تجب عليه مايوجبه كتاب الله الكريم وتقضي به سنة نبيه محمد عليه أفضل الصلاة التسليم وادأب في حفظ السبل والمسالك واجتهد في ذلك الاجتهاد الذي يجب على أنظارك وأمثالك ومتى ظفرت بمن يؤذي مسافراً أو يخيف وارداً أو صادراً فطالع بحاله ليمثل لك في التمثيل بما تعتمده وتؤمر في شأنه بما تنتهي إليه وتقصده وراع المستخدمين على الحكم والدعوة فهما يتوليان ما بإعزازه يقوم منار الإسلام وتجري أمور الشريعة على أجمل وضع وأحسن نظام وخذ المستخدمين في الأموال الديوانية بالاجتهاد في العمارة وحمل المعاملين على ماتوجبه المعدلة والحرص على ماوفر الارتفاع وحماه من أسباب التفريط والضياع واستنهض الرجال المستخدمين معك فيما ترى ندبهم إليه واستنهاضهم فيه فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى وهذه نسخة بولاية الأسكندرية وهي: اهتمامنا بما حاط ثغر الإسكندرية - حماه الله تعالى وحصنه ومنحه أتم حظ التفقد وأكمله وأجمل وضع التعهد وأحسنه وقوى سبب استقامة شؤونه واتساق أموره ومكنه ومد ظل الدعة والسكون على كافة من تديره وسكنه وحفظ عليه نظام النضارة وأماط عنه مكروه الأحوال الضارة وأنام أهله على مضجع الأمن ومهاده وحكم بإحلالهم نجود الاتحاد على المصالح وإجلالهم عن وهاده و حمى سوام أموالهم من مشروب ورد أجاج ومرعى نبتٍ وخيم وجباهم من رسوم الإحسان وعوائده مالاينطبق لسان على زوائده بترخيم وملا آمال الأعداء عن التطرق إليه إخفاقاً ورد نصول سهام مكايدهم عنه على ما عهد من فضل الله سبحانه أفواقاً - إذ كان من أجل الثغور الإسلامية أوزاراً وأسبقها إلى غاية التفضيل ابتداراً وأكثرهم بمن حواه من صدور الدين وأئمة المسلمين افتخاراً وأفضلها محلاً ولم يزل مفزع السفار من كل جهةٍ رسلاً وتجاراً أوجب أن نسند ولايته ونرد كلاءته إلى من يجري في التدبير على حكم سياسته المعلوم الحسني الآخذ بيد المظلوم ويقوم بحسن التفويض والائتمان ويعطي بذل السلامة من حقوق انتقامه عهدة الأمان ويسلك فيما يعدق به طريق السداد ويلزم نهجه ولايمكن أن يكون له علي غير الصواب معاج ولاعرجة ويأخذ في كل أحواله بوثائق الحزم وتحل له أعماله الصالحة من مثوى المنازل الرفيعا ماهو على غيره من الحرام الجزم.

ولما كان الأمير المعني بهذا الوصف الواضح البيان المتكافئة في ذكر مناقبه شهادة السماع والعيان الكالىء ماينا ط به بقلب ألمعي وطرف يقظان الحال من الورع في أسمى مكان وأعلى مظان الجامع في إقامة شرع الإخلاص بين الفرائض والسنن الموفيه عزائمه على مضارب المهندة التي لا تقي منها مانعات الجنن الفائح من نبئه ماتؤثر صحاح الأنباء عن عليل نسيمه الجدير بما يزف إليه من عقائل جزيل الإنعام وجسيمه وقد أبان في ولايته بمطابقته بين شدته ولينه وإقامة منار الإنصاف المعرب عن امتداد باعه في الحرب وانقباض يمينه وإروائه كافة أهلها من نمير العون على استتباب الأمور ومعينه - خرج أمر الملك العادل بتقليده ولاية ثغر الإسكندرية حماه الله تعالى والبحيرة.

فليتقلد ماقلده إياه ويباشره منشرحاً صدره متهللاً محياه وليعتمد على تقوى الله التي هي خير عتاد وأفضل مااعتمد عليه في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهي نجاة أهل اليقين وفوز المتقين قال الله تعالى: " ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " وليبالغ في نشر العدل ومد جناحه وتعفية أذى الجور واجتياحه وليشمل الصغير والكبير من أهل الولاية برداء النصفة ويعاملهم بالجميل الموفي على الصفة ويقم الحدود على مستوجبيها وينته إلى الغاية في تجنب إضاعتها وتوقيها وليدل على المفسدين عين من يتتبع وقوعهم في قبضته ويتطلب ويقابل كلاً منهم بما يرى متعقباً بإيماض برق المعاقبة غير خلب ولايبق ممكناً في التنقيب على مرتكبي الآثام والمرتكنين على سفك الدم الحرام ومن ظفر به منهم فليحكم فيه شبا ظفر الانتقام ونابه ويقابله من الردع بما يؤمن من معاودة عادات التعدي على كل حقير ونابه وليجر على عادته فيما يسير عنه أحسن

السمعة ويشهد له بالتنزه عن خبيث الطعمة وقبيح الطعمة ويشد من القاضي متولي الحكم فيما يصدره ويورده ويحله ويعقده ويمضيه من الأحكام الشرعية ويعتمده في القضايا بما لديه من الألمعية ويعاضد المستخدمين في الأموال معاضده تثمره وتنمي الارتفاع وتوفره وتعود على الديوان بالحظ الوافي وتعرب عن كونه بمثل هذه الولاية نعم الكفء الكافي ويعامل التجار على تباين بلدانهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم معاملةً بجمل أثرها ويحسن ويتلقهم ببشر وطلاقةٍ تنطق بشكر استبشارهم بها الألسن ويحفظهم في أنفسهم وبضائعه ويستنفذ الوسع في دفع مضارهم وروائعهم ويعتمد بعث رجاله على الاستعداد للجهاد والتأهب لقراع الأضداد وينته إلى الغاية فيما يزيل منهم اعتذاراً ويزيح اعتلالاً ويوجب لهم الاقتدار على مكافحة عدو إن طرق الثغر والعياذ بالله تعالى.

وهذه نسخة بولاية برقة وهي: من حق الأطراف المتناهية في بعد أقطارها والبلاد الشاسعة عن ثواء المملكة ومحل استقراراها التي انتظمت في سلك أعمال المملكة الناصرية وانخرطت واستدركت معداتها لمن حوته فوائت الفوائد التي سلفت وفرطت - أن يديم أكيد الاهتمام لها التحصين والتحسين ولايغب أهلها مايغشاهم من الملاحظات مصبحين وممسين وتزجي لها سحائب كرم التعهد عهاده غدقاً ويعمل الأولياء في حياطتها من الغمود ألسنةً ويذكون دونها من القنا حدقاً ويفوض أمورهم إلى من تخف على يده كلفتهم وتجتمع بحسن سيرته ألفتهم ويشتمل من عنايته عليهم اشتمال الصدفة على القلوب وتنيلهم مهابته من كف عدوى العدا كل مؤثر مطلوب.

ولما كنت أيها الأمير من أميز سالكي هذه الطرائق وأمثل فرسان الحروب وحماة الحقائق وأشجع المجاهدين في الله حق جهاده وأجسرهم على إصلاء الشرك ضرام فتكٍ لايخشى أصلاد زناده ولك السياسة التي ترتب بين الأسود والظباء اصطحاباً والمخالصة التي لاتناجى إذا وصفت بالتغالي فيها ولاتحابى - خرج أمر الملك العادب بكتب هذا المنشور لك بما أنعم عليك بولايته وإقطاعه: وهو برقة بجميع أعمالها وحقوقها: من العقبة الصغرى وإلى آخر حدودها وبما أمر به كافة العربان المقيمين بهذه البلاد وجميع أهلها من حاضر وباد: من الإعلان لك بشعار الطاعة وصون مايلزمهم أداؤه إليك من فروض النصح عن الإضاعة وأن يبذلوا في موافقتك غاية الاجتهاد ويعتمدوا من امتثال مراسمك أحسن اعتماد ويحذروا من العدول عن أمرك ويجتنبوا مخالفة نهيك وزجرك فاستمسك بحبل التقوى الفائز من يعتصم به ويتعلق واستشعر من خيفة الله مايشرق لأجله عليك نور الرضوان ويتألق.

وعامل أهل هذه الولاية بالإنصاف وإياك قال الله تعالى في كتابه المكنون: " إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " ومكروه العدول عن محجة العدل والإنحراف وتوق العسف بهم والحيف عليهم واجتنب الترخيص لأصحابك في مد يد أحدٍ منهم بعدوان إليهم وسر فيهم سيرة ترؤف بهم وترفق وجانب سبيل من تقوم عنده أسواق اختلاق المتخرصين وتنفق ولاتخرج في تدبير الأمور عن قانون الشريعة ولاتجعل لك إلى فوز الآخرة عن تقديم العمل الصالح من ذريعة وغل عنهم أيدي حاضري المفسدين وأياديهم وأبنهم بالمهابة عن إصرارهم على المنكرات وتماديهم وكل يهم عزماً رادعاً لهم وازعاً ونكل بمن ظفرت به منهم تنكيلاً يزجر من يظل بحر الضلال نازعاً وشد من خلفاء الحكم العزيز في تنفيذ قضاياه وخصهم من الكرامة بما تقتضيه إقامة مناره وإنارة مزاياه واعتمد مايعيد الحقائق بوجوه ناضرة ويرد الأباطيل بصفقةٍ خاسرة وراع أمور التجار والحجاج مراعاةً تشملهم في السفر والإقامة وتحميهم من تطرق استهانةٍ إلى أحد منهم واستضامة وطالع بما يتجدد من أحوال خدمتك ومايحتاج إلى علمه من جهتك إن شاء الله عز وجل.

وهذه نسخة بولاية الفرما وهي: نحن - لما ضاعفه الله لدينا من إحسانه وأجزله وعدقه بنا من تدبير أمور الخلق وأسنده إلينا ووكله - نعتمد عبيدنا بتوفير الرعاية لهم والإكرام ونحافظ على ما يغمرهم من شامل الأفضال وسابغ الإنعام فنقدم للخدم من خطبها بخلوص طاعته ونؤهل للرتب من أبانت شيمته عن خبرته ومناصحته.

ولما كنت أيها الأمير ممن ظهرت مشايعته وموالاته وحسنت في مكافحة الأعداء مشاهده ومقاماته ووضحت في أفعاله دلائل وبالله - وبانت عليه سماته ولك مساع مشكورة ومواقف مشهورة ومقاصده هي من مآثرك معدودة وفي فضائلك مذكورة رأينا توفيقنا - استخدامك في ولاية الفرما والجفار: سكوناً إلى رضا مذهبك وثقة بانتظام الحال فيما يرد إليك ويناط بك وخرج أمرنا إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك الولاية المذكورة وتضمينه مانأمر به ونرسمه مما يهديك إلى الصواب فتتمسك به وتعكف عليه وتلزمه.

فتقلد ماقلدته شاكراً على هذه النعمى عاملاً بطاعة الله تعالى ومراقبته في السر والنجوى واعتدها زاداً إلى الآخرة تطمئن به القلوب وتقوى قال الله عز من قائل في كتابه: " وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ".

واعتمد في أهل هذه الولاية نصفة تعمهم ومعدلة وسسهم سياسة " تكون لسنة الخير مؤكدة ولسنة الجور مبدلة ومائل في الحق بين قويهم وضعيفهم ولاتجعل مزيةً في الواجب لشريفهم على مشروفهم وانتصف للمظلوم من المعتدي الظالم واعمل بالكتاب والسنة في الحدود التي تقيمها على ذوي الجرائر والجرائم وانتصب لحفظ الطرقات وصون الصادرين والواردين في جميع الأوقات ونكل بمن تظفر به من المفسدين واجعله عظةً لأمثاله من الظالمين والمعتدين وعاصد النائب في الحكم العزيز معاضدةً تقضي بإعزاز الجانب وساعده مساعدةً تنفذ بها أحكامه على قضيةً الواجب وكذلك متولي الدعوة الهادية فهي مصباح الزمان وبإشادة ذكره تقوى دعائم الإيمان فاجتهد في تمييز متوليها وإكرامه وبلغه في ذلك غاية مطلوبه ومرامه وتوفر على الشد من المستخدمين في الأموال وراعمايحسن لدينا فيما تنظر فيه من الأعمال واحرص على ماعاد بوفور ارتفاعها واجر أحوالها على أفضل رسومها وأوضاعها بحيث يكون العدل منبسطاً منبثاً والحيف منحسماً مجتثاً واجمل صحبة الرجال المستخدمين معك وأحسن معاشرتهم مع مطالبتهم بملازمة الخدمة واستنهاضهم في الأمور الشاقة المهمة فاعلم هذا واعمل به وطالع بما تحتاج إلى المطالعة به إن شاء الله تعالى.

وهذ نسخة بولاية عسقلان وهي: من شيمنا التي غدت للمصالح ضوامن وعلت فكل متطاول عندها متطامن وهممنا الكافلةللرعية بما يقر عيونها والقاضية للخاصة والعامة بما يوجب طمأنينتها وسكونها - أنعمنا النظر فيمانرعاها به ونسوسها وأعملنا الفكر فيما يستقيم به أمرها ويزول معه بوسها فيقف بنا الاجتهاد في ذلك على محجة الصواب التي لاضلال في سلوكها ويفضي منا الحرص إلى غاية لم يبلغها أحد من مدبري الدول وملوكها فننتخب لخطير الخدم من كان قؤوماً بها مستقبلاً بآصارها وننتجب لجليل الرتب الأعيان من أمراء دولتنا وأنصارهاحفظاً لما استحفظناه من أمور العباد والبلاد ورفعاً لعماد الصلاح وحسماً لمواد الفساد.

ولما كنت أيها الأمير من الأولياء الذين صفت في المخالصة ضمائرهم وحسنت في الطاعة عقائدهم وسرائرهم ونالوا من نبيه الحظ مأأطنب الواصف فيما يذكره منه ويرويه وأحمدوا المناصحة فيما رقوا فيه من درج التنويه وقد استكيفت مهماتتٍ من الخدم فكفيت همها وخففت ثقلها وأهلت لولايات سنية فحملت كلها وكنت مستحقاً لها وأهلها فلك موات حميدة من حسن المقاصد ومشكور المساعي وحرمات أكيدة ظلت على اصطفائك من أوفى البواعث وأقوى الدواعي وكانت مدينة عسقلان - حماها الله تعالى - ثغر الإسلام الذي لاثغر له في الشام سواه والرباط الذي من كان به فقد نال الثواب الجزيل وأحرزه وحواه وهو في عيون الكفار - خذلهم الله - نكتة وأسباب طمعهم فيه منقطعة بمحاماته منبتة ونحن نوفر اهتمامنا عليه رعايةً لمكانه المكين وننتصي الكفاة لتزليه توصلاً إلى النكاية في المشركين وهو معقل للمسلمين المجاهدين ورد ومجاوروه قوم لد وأمرهم أمر إد فيجب أن يرتاد لضبططه الندب الذي لاتهتبل غرته ويسام لحفظه العضب الذي لا تتقى ضربته ويختار لصونه الشهم الذي تقف على المصالح همته وتنفذ فيها عزمته.

وحين كانت هذه الصفات فيك موجودة وظلت محسوبةً من خلالك معدودة رأينا - وبالله توفيقنا - ماخرج به أمرنا إلى ديوان غلإنشاء من كتب هذا السجل بتقليدك ولاية هذا الثغر وضواحيه وعمله ونواحيه ثقة بمشهور مضائك وعلماً بإبراراك على نظرائك.

فتقلد هذه الخدمة عارفاً قدر ماخولت منها وعاملاً بتقوى الله وخيفته في جميع ماتأمر به وتنهى فإن تقواه الجنة الواقية وإن خيفته الذخيرة الواقية وإن خيفته الذخيرة الباقية وقد وعد الله المتقين بتيسير الأمور وتكفير السيئات وإعظام الأجور قال الله عز من قائل: " ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ".

ثم قال: " ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ".

واستعمل العدل في جميع من يشتمل عليه عملك ويجري عليه توليك ونظرك وساو في الحق بين الضعيف والقوي وماثل في الحكم بين القريب والقصي وإذا ثبت على شريفٍ حق فلا تحابه لرتبته وإذا ثبت لوضيع فخذه ممن لزمه واستقر في جهته.

واعتمد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مايستنطق بالثناء عليك ألسنة المادحين وينظمك فيمن عناهم الله تعالى بقوله: " وأقم "يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين الحدود على من لزمته بما أمر الله به إقامةً تجري بها مجراها وتوق الزيادة فيها والنقص توقي من يتمثل المجازاة كأنه يراها وهذا الثغر لمحله وسمو مقداره وقرب العدو منه ودنو داره لايقنع به بمركزيته ولايكتفي في حقه بمرابطيته وقراراته فنحن نسير إليه العساكر المظفرة دفعتين في كل سنة على حكم البدل: فيرده عسكر جديد مزاح العلة كثيف العدة وافر العدة يؤثر أن

يظهر أثره ويحافظ على مايطيب به ذكره وخبره فبث السرايا وشن الغارات وضيق على العدو فسيح النواحي والجهات وجهز إليه من يخيفه في مآمنه وابعث عليه من يطرقه في أحز أماكنه واندب من يطالعك بخفي أخباره ويظهر لك باطن أموره ومستور أسراره: لتنتهز فيه الفرصة إذ لاحت مخايلها وتبادر الغفلة منه إذا ظهرت دلائلها واجعل للمتطوعين من الكنانيين نصيباً من ثواب الجهاد واحملهم على استفراغ الوسع بغاية الحرص والاجتهاد وافعل في هذا الباب ما تتضاعف به مواد الأجر وتنتسخ به الأوزار كما ينتسخ الظلام بضياء الفجر واعضد متولي الحكم العزيز عضداً يعلي أمره ويشد أزره ويحرس نظامه وينفذ قضاياه وأحكامه وكذلك متولي الدعوة الهادية - ثبتها الله تعالى - فاعتمده بما يشرح صدره فيما يوضحه للمؤمنين ويهدي به المستجيبين والمتدينين ووفر موفر اهتمامك على مرافدة من يتولى أمر المال ومايجري في الخاص لتدر أخلافه ويزكو ارتفاعه وتغزر مادته ويتوفر مستخرجه ويحتمي من خيانةٍ وتحيف ويسلم استيداؤه من تريث وتوقف واستنهض الرجال المستخدمين في الأمور السوانح وصرفهم فيما ترى تصريفهم عليه من أسباب المنافع والمصالح واستمطر الإحسان لمن أحمدت طريقته وقوم بالتأديب ممن ذممت فعله وكرهت سيرته فاعلم هذا واعمل به وطالع بما يحتاج إلى المطالع بمثله إن شاء عز وجل.

أحق الأعمال بأن ينعم فيها النظر الشافي ويندب لحمل عبئها الأمين الكافي ويحال النظر في تقليدها للقيم بأمرها ويعمل الرأي لارتياد القوي على ضبطها وحصرها ماكان منها جامعاً لمصالح الدولة حائزاً لمهام المملكة: وهي أعمال الديوان والنظر في حفظ وجوه الأموال ومايعين على استنمائها ويعود بالزيادة في أصول أبوابها إذ كان ذلك ملاك الأمور وزمام التدبير في حفظ الجمهور والمعونة العظمى على الاستكثار من الرجال الذين بهم يتم حفظ البلاد وحماية الثغور.

ولما سلطنا البحث على استصلاح من نؤهله لهذه المنزلة واستخلاص من نحله بهذه المرتبة أدانا الاختبار والانتقاد وانتهى بنا الاعتيام والارتياد إلى اختيار الشيخ فلان: حين سفرت به النباهة في الكفاية والوجاهة في الخبرة والدراية وجب.

على اختصاصه بالفضل بالفضل الذي تحلى بأدبه والعفاف الذي اشتهر في مذهبه من الخصال الحميدة والخلال الرشيدة والفضائل الموروثة والمكتسبة والخلائق المنتقاة المهذبة ورأيناه أهلاً لإحلال هذه المكانة وعدلاً قيماً باحتمال هذه الأمانة وعلمنا أن الصنيعة عنده زاكية المغارس والنعمة المفاضة عليه ضافية الملابس فقلدناه أمر الديوان بحلب ومامعها من البلاد المضافة إليها والداخلة في حكمها: قاصي ذلك ودانيه وأواسطه وحواشيه مقدمين الاستخارة فيما نبديه من قول ونعزم عليه من وأمرناه أن يستشعر تقوى الله سبحانه فإنها الجنة الواقية والذخيرة النافعة الباقية ويعتلق أسبابها فإنها المنجية من المهالك الهادية إلى السبل الواضحة إذا اشتبهت المسالك محققاً ماتوسمناه فيه من مخايل الأصالة ودلائل الجزالة مصدقاً مااستلمحناه من كفايته وغنائه واستوضحناه من استقلاله واستقصائه وأن يبدأ فيرتب في كل معاملة أميناً من الثقات الكفاة مشهوداً له بالنهضة والأمانة المستوفاة وأن يزم الأعمال القاصية والدانية والبلاد القريبة والنائية بالضبط المستقصي والحفظ المستوفي وبمن يرتبه عليها من الكتاب الأمناء ويستصلحه لها من الحفظة النصحاء ويتتبع حال من بها من النواب: فمن شهدت له التجربة بالكفاية ودل الاختبار منه على العفة والأمانة واستدامه في خدمة المنوطة به وطالع من حاله بما يقضي له حسن النظر بحسبه ومن ألفاه متنكباً سبيل الأمانة مقارفاً طريق العجز والخيانة بادر إلى الاستبدال به وعجل قطع مابينه من الخدمة وبين سببه وأن يسترفع البواقي من الأموال في سائر الجهات والأعمال إلى آخر التاريخ الذي تليه مباشرة ويتصل بآخره مبدأ نظره وفاتحته موشحةً أوراق ذلك بخطوط الأمناء مفصلة جهاته بأسماء المعاملين والضمناء حتى إذا حملت إليه وصارت حجة على رافعها في يديه طالبه بموافقة من هو في ذمته وتقدم بعد تصديقه على ذلك بمضايقته بعد المطالعة بجلي الحال وحقيقته.

ثم يسترفع من مستوفي الديوان وعماله شروط الضمان ورسومخهم وقواعدهم في الضمان وعوائدهم: ليكون علم ذلك عنده مبيناً ووقت مساس الحاجة إليه حاضراً ويطالب بجرائد الضياع خاصها ومقطعها المشتملة على ذكر رسومها وحقوقها وعدد فدنها ومقاسها وجرائد الخراج اللازم لأرباب الأملاك على أملاكهم وتحقيق المصفوح عنه والمسامح به والباقي على الأداء في مهته وجرائد الجزية مفصلةً في نواحيها وأسماء أرباب إلى حين رفعها - وأن يطالب نواب الجزية في كل شهر بختمة تتضمن ذكر مصارف مايحول إليهم وإقامة وجوه المال الذي جمع عليهم مفصلة مميزة الابتياعات عن غلإطلاقات والضيافات عن السفرات والإصطبلات وكذلك نواب الأهراء يسترفع منهم مايدل على مثل ذلك وسائر المتولين في سائر الخدم يطالبهم بهذه المطالبة ويضيق عليهم في مثل ذلك سبيل المغالطة والمواربة ويجعل مؤاخذتهم بذلكمن الأمور الراتبة والوظائف اللازمة الواجبة حتى يتبين له الكافي من العاجز والأمين من الخائن.

وليتأمل وجوه الإخراجات ومبلغ الإطلاقات والإدرارات ويسترفعه من مظانه وفصلاً بجهاته منسوباً إلى أربابه ويتقدم بكتب مؤامرةًجامعة لذلك التفصيل دالة على المقدار المطلق في كل سنة محكم النظر الدقيق دون الجليل وليعتمد في إطلاق مايطلق منها على سبيل مايوقع به عند ذلك وليكن هذا من الأمور الجارية على العادة والرسم ويلزمه كل من نواب الديوان.

ومن المكتتب منها بالوظائف الدينية نسخة تقليد بولاية الحسبة من إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير وهي: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ".

هذا أمر يشتمل على معنى الخصوص دون العموم ولايختص به إلا ذوو الأوامر المطاعة أو ذوو العلوم وقد منحنا الله هذين الوصفين كليهما وجعلنا من المسخلفين عليهما.

فلنبدأ أولا بحمده الذي هو سبب للمزيد ثم لنأخذ في القيام بأمره الذي هو على كل نفس رقيب عتيد ولاريب أن إصلاح العباد يسري إلى الأرض حتى تزكو بطونها وتنمو عيونها ويشترك في بركات السماء ساكنها ومسكونها والأمر بذلك حمل إن لم تتوزعه الأكف ثقل على الرقاب وإذا انتشرت أطراف البلاد فإنها تفتقر إلى مساعدة من مستنيب ومستناب وقد اخترنا لميدنة كذا رجلاً لم نأل في اختياره جهداً وقدمنا فيه خيرة الله التي إذا صدقت نيتها صادفت رشداً وهو أنت أيها الشيخ فلان.

فابسط يدك بقوة إلى أخذ هذا الكتاب وكن حسنة من حسناتنا التي لم يرجح بها ميزان الثواب وحقق نظرنا فيك فأنه من نور الله الذي ليس دونه من حجاب.

واعلم أن أمر الشريعة مبني على التيسير لاعلى التعسير ولايضع اللسان موضع السوط إلا من أوتى زيادةً في التفسير وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مندوحة لمن لزمها وهي هدى لمن عمل بها ونور لمن عليماه ويكفي من ذلك قصة الأعرابي الذي أتى حاجته في المسجد فسارع الناس إليه فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: " إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوامعسرين ثم دعا بذنوب من ماء فصبه عليه وقال: ياأخا العرب إن المساجد لم توضع لشيء من هذا وإنما وضعت للصلاة وقراءة القرآن ".

فانظر إلى هذا الرفق النبوي الذي شفى وكفى وعفى على أثر المعصية لما عفا ولودعا ذلك الأعرابي لمثلها لنقل عن لين التهذيب إلى شدة التأديب وكذلك فكن أنت في الرفق الذي حدثت عنه ومن عاد فينتقم الله منه.

ونحن نأمرك أن تحتسب أولاً بلين القول لا بالأنف والنكير وأن تترفق في الموعظة التي هي طريق إلى الخشية والتذكير وأن لاتكون باحتسابك مدلاً بأنك على الصراط المستقيم وأن الناس بين يديك على سنن التثقيف والتقويم فإن من أكبر الذنوب ذنب الإعجاب والأولى لك حينئذ أن تعود على نفسك بالاحتساب ومن أدبك وأدب أمثالك أن يقف في أمره بالمعروف مع التقوى لامع هواه وأن لايفرق في إزالة المعصية أن تكون بيده أو بيد أحد سواه وإذا كنت كذلك قرنك الله بمن أنزل السكينة على لسانه ويده وقوم له أود الناس لتقويم أوده والله ينظر إلى قلب ابن آدم لا إلى عمله ولاإلى جسده.

وعليك بالمجاهدين الذين سلب عنهم ثوب العافية ومن اختفى منك بالاستتار فلا تكشف عن حاله الهافية وأما ذوو الهيئات فإن عثراتهم تقال وأعراضهم لا تذال ولربما كان التجاوز عنهم داعياً إلى الانتقال وفي قصة أبي محجنٍ وسعد ماينبئك أن الحياة أغنى في الازدجار وفي الناس أذناب لاقدر لها تذب عنه ورؤوس تذب عما لها من الأقدار.

وهاهنا من ضروريات الوصايا مايؤتى في مثله بتوكيد الأقزال وأكثر ذلك يدور في المعاملات التي ألفها قوم دون قوم واستمروا عليها يوماً دون يوم وقد أتى منها ماتفق على العمل به كل فريق وأيسر ذلك إزالة النخامة من المسجد وإماطة الأذى عن الطريق.

وهذه الوصايا كلها لاتفتقر فيها إلى التوقيف وأنت عالم بوضع كلمها في مواضعه وغيرك الذي يتعدى إلى التحريف فامض على السنن وأت بالحسن وسو بين حالتيك في السر والعلن وكن من خوف الله ورجائه بين رحلة سفر وقرارة وطن.

وهذا عهدنا إليك تتقمص اليوم منه رداءً جميلاً وستحمل غداً منه عبئاً ثقيلاً وقد فرضنا لك عن حق سعيك فريضةً تجد بها كفافاً وتمنعك أن تمد عينيك إلى غيرها استشرافاً فإن العمل الذي توليته ستغرق أوقاتك أن تكون للدنيا كاسبة وتشغل نفسك بالعمل والنصب لأن تكون عاملةً ناصبة.

وإذا نظرت إلى مانيط بك وجدته قد استحصى الزمن أو كاد وأنت فيه بمنزلة الباني وقواعده: وكل بناء على قدر بانيه وماشاد -.

ونحن نأمر ولاتنا على اختلاف مراتبهم أن يرفعوا من قدرك ويسددوا من أمرك وإذا استوعر عليك أمر من الجوانب سهلوا من وعرك والله أمر أهل طاعته بأن يكون بعضهم لبعض من الأعوان فقال جل وتعالى: " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ".

الحالة الرابعة مما يكتب عن ملوك الديار المصرية من الولايات ما عليه مصطلح كتاب الزمان بديوان الإنشاء بالديار المصرية مما يكتب عن السلطان لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم من التقاليد والمراسيم والتفاويض والتواقيع على ما سيأتي بيانه وفيه ثلاثة مقاصد المقصد الأول في مقدمات هذه الولايات وفيه مهيعان في بيان رجوع هذه الولايات إلى الطريق الشرعي قد تقدم في أول الكلام على العهود أن السلطنة في زماننا دائرة بين إمارة الإستيلاء: وهي أن يقلده الخليفة الإمارة على بلاد ويفوض إليه يدبيرها فيستولي عيها بالقوة وبين وزارة التفويض: وهي أن يستوزر الخليفة من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وفصلها على اجتهاده وأنها بإمارة الاستيلاء أشبه على ماتقدم بيانه هناك.

وقد صرح الماوردي في الأحكام السلطانية أنه إذا كمل في المستولي على الأمر بالقوة بعد تولية الخليفة له مع اشتماله على الصفات المعتبرة في المولى في الولاية الصادرة عن اختبار الخليفة الإسلام والحرية والأمانة وصدق اللهجة وقلة الطمع والسلامة من الميل مع الهوى والبراءة من الشحناء والذكاء والفطنة - جاز له مايجوز للخليفة من تولية وزارة التفويض وغيرها من سائر النيابات وجرى على من استوزره أو استنابه أحكام من استوزره الخليفة أو استنابه وإن لم يستكمل الصفات المعتبرة في الولاية الصادرة عن اختيار الخليفة استناب له الخليفة لكل ولاية من تتكامل فيه شروطها.

قلت: وقد كانت ملوك بني بويه وبني سلجوق مع غلبتهم على أمر الخلفاء ببغداد واستيلائهم يقتصرون في تصرفهم على متعلقات الملك في الجهاد والتصرف في الأموال ويكلون أمر الولايات إلى الخليفة يباشرها بنفسه ةتكتب عنه العهود والتقاليد على ماتشهد به نسخها الموجودة من إنشاء الصابي وغيره - وكذلك الخلفاء الفاطميون بمصر عند غلبة وزرائهم على الأمر من لدن خلافة المستنصر وإلى انقراض خلافتهم من الديار المصرية كالصالح طلائع بن زريك في وزارته للفائز والعاضد ونحو ذلك: فإن الخليفة هو الذي كانت الولايات تصدر عنه تارةً بإشارة الوزير وتارةً بغير إشارته على ماتشهد به نسخ السجلات المكتتبة في دولتهم على ماتقدم بيانه في الفصل الأول من هذا الباب.

على أن أصحابنا الشافعية وغيرهم من أئمة الفقهاء - رحمهم الله - قد صححوا الإمامة بغلبة الشوكة والاستيلاء على الأمر بالقهر دون استكمال شروط الإمامة وحينئذ فتكون جميع الولايات الصادرة عن السلطان صحيحةً شرعاً وإن لم يستنبه عنه الخليفة وكذلم مايترتب عليها على ما الأمر جار عليه الآن.

المهيع الثاني فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة هذه الولايات واعلم أنه يجب على الكاتب في ذلم الأمر مراعاة أمور.

الأمر الأول - براعة الاستهلاك بذكر اسم المولى أو نعته أو لقبه أو الوظيفة أو حال الولاية مع استصحاب براعة الاستهلال إلى آخر الخطبة ونحوها من الافتتاحات كما أشار إليه الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه اله في كتابه حسن التوسل كما تقدم ذكره في الكلاو على الأمر الثاني - مراعاة قطع الورق في الجملة لكل ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات وغيرها.

والذي يختص بهذا المكان ذكر مقادير قطع الورق فيما يتعلق بهذه الولايات وغيرها.

والذي يختص بهذا المكان ذكر مقادير قطع الورق فيما يتعلق بهذه الولايات خاصة وهي خمسة مقادير: - أحدها قطع الثلثين ويختص فيي الولايات بكبار التقاليد دون غيرها - وثانيها قطع النصف وفيه تكتب صغار التقاليد والمراسيم المكبرة

والتفاويض وكبار التواقيع وثالثها قطع الثلث وفيه تكتب صغار التواقيع والمراسيم التي لأصحابها بعض ميزةٍ لاتنتهي بهم إلى وخامسها قطع العادة الصغير وفيه تكتب صغار التواقيع والمراسيم التي هي في الرتبة الأخيرة. - رتبة قطع الثلث

الأمر الثالث - معرفة ماينا سب كل قطع من هذه المقادير من الأقلام.

وقد تقدم في المقالة الثالثة نقلاًعن العتريف مالكل مقدار من الأقلام.

والمتعلق بهذا الموضوع من ذلك أن لقطع الثلثتي قلم الثلث الثقيل ولقطع النصف قلم الثلث الخفيف ولقطع الثلث قلم التوقيعات ولقطع العادة مطلقاً قلم الرقاع.

الأمر الرابع - معرفة اللقب المطابق لرتبة كل ولايةٍ وصاحبها من الألقاب الأصول المتقدم ذكرها في الكلام على الألقاب من المقالة الثالثة وهي المقر والجناب والمجلس ومجلس كذا على الإضافة ومايناسب كل لقب من هذه الألقاب من الفروع المرتبة عليها كوصف المقر بالكريم العالي ووصف الجناب تارة بالكريم العالي وتارة بالسامي وإضافة مجلس في حق أرباب السيوف إلى الأمير فيقال: مجلس الأمير وفي حق أرباب الأقلام من العلماء وأصحاب الدواوين إلى القاضي فيقال: مجلس القاضي وفي حق الصلحاء إلى الشيخ فيقال مجلس الشيخ وأن لمن دون هؤلاء الصدر ويوصف بالأجل فيقال: الصدر الأجل وأن لكل أصل من هذه الأصول فروعاً شتى تترتب عليه.

وتقدم أيضاً في المقالة الرابعة في الكلام على المكاتبات الصادرة عن الأوباب السلطانية بالديار المصرية في زماننا إلى أهل المملكة مكاتبة كل واحد ممن جرت العادة بالمكاتبة إليه ومايختص به من الألقاب الأصول والفروع.

واعلم أن الولايات أعم من المكاتبات: فقديكون للشخص ولاية من الأبواب السلطانية وليس له مكاتبة إذ المكاتبات إنما تكون لقومٍ مخصوصين من أرباب الولايات.

إذا علم ذلك فكل من لك مكاتبة عن الأبواب السلطانية من أرباب السيوف والأقلام ممن تقدم ذكره في الكلام على المكاتبات إذا كتبتب له ولاية نعت بألقابه ونعوته التي بها بكاتب عن الأبواب السلطانية إلاأن الدعاء المصدر به المكاتبة يجعل في الآخر دون الأول: فإذا كانت المكاتبة إلى حدٍ 0 أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم قيل في ألقابه في الولاية المقر الكريم إلى آخر مايقتضيه الحال ثم يقال: فلان أعز الله تعالى أنصاره وكذلك في البواقي.

أما من لم تجر العادة بمكاتبةٍ إليه عن الأبواب السلطانية ممن يولى عنها فإن لكل طبقةٍ ألقاباً تخصهم.

ونحن نذكر الألقاب الأصول ومايتفرع عليها لكل طبقةٍ من كل طائفةٍ على الوضع الذي تقتضيه الولايات دون المكاتبات ليجري كل من أرباب الولايات على ماينا سبه من الألقاب.

وقد علمت فيما تقدم في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة أن الألقاب على ستة أنواع النوع الأول ألقاب أرباب السيوف.

والمستعمل منها بديوان الإنشاء تسع مراتب المرتبة الأولى - المقر الكريم مع الدعاء بعز الأنصار وهي: المقر الكريم العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي المؤيدي الزعيمي العوني الغيائي المرابطي الممهدي المشيدي الظهيري العابدي الناسكي الأتابكي الكفيلي معز الإسلام والمسلمين سيد أمراء العالمين ناصر الغواة والمجاهدين زعيم جيوش الموحدين ممهد الدول مشيد الممالك عماد الملة عون الأمة ظهير الملوك والسلاطين عذد أمير المؤمنين فلان باسمه الفلاني بلقب الإضافة إلى لقب السلطان أعز الله تعالى أنصاره.

المرتبة الثاني - الجناب الكريم مع الدعاء بعز النصرة وهي: الجناب الكريم العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي المؤيدي الزعيمي العوني الغياثي المثاغري المرابطي الممهدي المشيدي الظهيري الكافلي الفلاني عز الإسلام والمسلمين سيد الأمراء في العالمين نصرة الغواة والمجاهدين زعيم جيوش الموحدين مقام العساكر ممهد الدول مشيد الممالك عماد الملة عون الأمة ظهير الملوك والسلاطين سيف أمير المؤمنين فلانباسمه الفلاني بلقب الإضافة إلى لقب السلطان أعز الله تعالى نصرته.

المرتبة الثالثة - الجناب العالي مع الدعاء بمضاعفة النعمة وهي: الجناب العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي المؤيدي العوني الزعيمي الممهدي المشيدي الظهيري الكافلي الفلاني عز الإسلام والمسلمين سيد الأمراء في العالمين نصرة الغزاة والمجاهدين وعيم جيوش الموحدين ممهد الدول مشيد الممالك عماد الملة عون الأمة ظهير الملوك والسلاطين سيف أمير المؤمنين فلانباسمه الفلاني بلقب الإضافة إلى السلطانضاعف الله تعالى نعمته.

المرتبة الرابعة - الجناب العالي مع الدعاء بدوام النعمة وهي: الجناب العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي المؤيدي الأوحدي النصيري العوني الهمامي المقدمي الظهيري الفلاني عز الإسلام والمسلمين سيد الأمراء في العالمين نصرة الغزاة والمجاهدين مقدم العساكر كهف الملة ذخر الدولة عماد المملكة ظهير الملوك والسلاطين حسام أمير المؤمنين فلان الفلاني أدام الله المرتبة الخامسة - المجلس العالي والدعاء بدوام النعمة وهي: المجلس العالي الأميري الكبيري العالمي المجاهدي المؤيدي العوني الأوحدي النصيري الهمامي المقدمي الظهيري الفلاني عز الإسلام والمسلمين شرف الأمراء في العالمين نصرة الغزاة والمجاهدين مقدم العساكر كهف الملة ذخر الدولة ظهير الملوك والسلاطين حسام أمير المؤمنين فلان الفلاني أدام الله تعالى نعمته.

المرتبة السادسة - المجلس السامي بالياء والدعاء بدوام التأييد ونحوه وهي: المجلس السامي بالياء والدعاء بدوام التأييد ونحوه وهي: المجلس السامي الأميري الكبيري الذخري النصيري الأوحدي المؤيدي الفلاني مجد الإسلام بهاء الأنام شرف الأمراء ذخر المجاهدين عضد الملوك والسلاطين فلان الفلاني أدام الله تأييده.

المرتبة السابعة - السامي بغير ياء والدعاء أدام الله رفعته ونحوذلك وهي: المجلس السامي الأمير الأجل الكبير الغازي المجاهد المؤيد الأوحد المرتضى فلان الدين مجد الإسلام بهاء الأنام فخر الأمراء زين المجاهدين عمده الملوك والسلاطين أدام الله رفعته.

المرتبة الثامنة - مجلس الأمير والدعاء أدام الله سعده ونحوه وهي: مجلس الأمير الأجل الكبير الغازي المجاهد المؤيد الأوحد المرتضى فلان الدين مجد الأمراء زين المجاهدين المرتبة التاسعة - الأمير مجدداً عن المضاف إليه وهي: الأمير الأجل وربما زيد فيه فقيل الكبير المحترم ونحوذلك.

الجناب العالي مع الدعاء بمضاعفة -النوع الثاني ألقاب أرباب الوظائف الديوانية وهي على ست مراتب: المرتبة الأولى ألقاب الوزير وهي: الجناب العالي الصاحبي الكبيري العالمي الجناب العالي الأميري -النعمة وفيها أسلوبان: الأسلوب الأول الكبيري العالمي العادلي الأوحدي الأكملي القوامي النظامي الأثيري البليغي المنفذي المسددي المتصرفيظ الممهدي العوني المدبري المشيري الوزيري الفلاني صدح الأسلام والمسمين سيد الوزراء في العالمين رئيس الكبراء كبير الرؤوساء أوحد الأصحاب ملاذ الكتاب قوام الدول نظام الملك مفيد المناجح معتمد المصالح مرتب الجيوش عماد الملة عون الأمة مشير الملوك والسلاطين ولي أمير المؤمنين فلان الفلاني ضاعف الله تعالى نعمته.

قلت: وقدكان رتبته: المجلس العالي عندما كان يكتب له توقيع في قطع النصف المرتبة الثانية - المجلس العالي مع الدعاء بدوام النعمة وفيها أربعة أساليب: الأسلوب الأول - ألقاب كاتب السر على ماكان الأمر عليه في كتابة توقيع في قطع النصف ويدعى له: أدام الله نعمته وهي: المجلس العالي بالألقاب المتقدمة له مع الجناب العالي على مااستقر عليه الحال.

الأسلوب الثاني - ألقاب ناظر الخاص وهي: المجلس العالي القاضوي الكبيري العالمي الفاضلي الأوحدي الأكملي الرئيسي البليغي البارعي القوامي النظامي الماجدي الأثيري المنفذي المسددي المتصرفي الفلاني جمال الإسلام والمسملين سيد الرؤساء في العالمين قوام المصالح نظام المناجح جلال الأكابر قدوة الكتاب رئيس الأصحاب عماد الملة صفوة الدولة خالصة الملوك والسلاطين ولي أمير المؤمنين فلان الفلاني أدام الله تعالى نعمته.

الأسلوب الثالث - ألقاب وزير دمشق إذا صرح له بالوزارة وهي: المجلس العالي الصاحبي الوزيري الأجلي الكبيري العالمي العادلي المؤيدي الأوحدي القوامي النظامي الماجدي الأثيري المشيري الفلاني صلاح الإسلام والمسمين سيد الوزراء في العالمين رئيس الكبراء كبير الرؤساء بقية الأصحاب ملاذ الكتاب عماد الملة خالصة الدولة مشير الملوك والسلاكطين خالصة أمير المؤمنين فلان الفلاني أدام الله تعالى نعمته.

الأسلوب الرابع - ألقاب ناظر النظار بالشام إذا لم يكن وزيراً وهي: المجلس العالي القضائي الكبيري العالمي العاملي الأوحدي الرئيسي الأثيري القوامي النظامي المنفذي المتصرفي الفلاني مجد الإسلام والمسلمين شرف الرؤساء في العالمين أوحد الفضلاء جلال الكبراء حجة الكتاب صفوة الملوك والسلاطين خالصة أمير المؤمنين فلان الفلاني أدام الله تعالى نعمته.

المرتبة الثالثة - المجلس السامي بالياء مع الدعاء بدوام الرفعة ومافي معناها وهي: المجلس السامي القضائي الأجلي الكبيري العالمي الفاضلي الكاملي الرئيسي الأوحدي الأصيلي الأثيري البليغي الفلاني مجد الإسلام شرف الرؤساء في الأنام وزين البلغاء جمال الفضلاء أوحد الكتاب فخر الحساب صفوة الملوك والسلاطين أدام الله تعالى رفعته.

فإن كان من كتاب الإنشاء أسقط منه فخر الحساب.

المرتبة الرابعة - السامي بغير ياء مع الدعاء بدوام الرفعة ونحوه أيضاً وهي: المجلس السامي القاضي الأجل الكبير الصدر الرئيس الأوحد البارع الكامل الأصيل الفاضل فلان الدين جمال الإسلام بهاء الأنام شرف الأكابر زين الرؤساء أوحد الفضلاء زين الكتاب صفوة الملوك والسلاطين أدام الله رفعته.

المرتبة السادسة - القاضي وهي: القاضي الأجل.

وربما زيد في التعظيم الصدر الرئيس النوع الثالث ألقاب أرباب الوظائف الدينية وهي أيضاً على ست مراتب: المرتبة الأولى - الجناب العالي - وهي لمن استقر له كتابة تقليدٍ في قطع الثلثين من قضاة بالديار المصرية وهو الشافعي وهي: الجناب العالي القاضوي الشيخي الكبيري العالمي العاملي الأفضلي الأكملي الأوحدي البليغي الفريدي المفيدي النجيدي القدوي الحجي المحققي الورعي الخاشعة الناسكي الإمامي العلامي الأصيلي العريقي الحاكمي الفلاني جمال الإسلام والمسلمين شرف العلماء والعاملين أوحد الفضلاء المفيدين قدوة البلغاء حجة الأمة عمدة المحققين فخر المدرسين مفتي المسلمين جلال الحكام بركة الدولة صدر مصر والشام معز السنة مؤيد الملة شمس الشريعة رئيس الأصحاب لسان المتكلمين حكم الملوك والسلاطين ولي أمير المؤمنين فلان بنسبه أعز الله تعالى أحكامه.

وكذلك قاضي القضاة الحنفي بالديار المصرية عندما استقر المكتوب له تقليداً.

المرتبة الثانية - المجلس العالي وبها يكتب لقاضي القضاة الشافعي قبل أن يستقر مايكتب تقليداً بالألقاب والنعوت السابقة له مع الجناب وكذلك الثلاثة الباقون باختصار في الألقاب والنعوت وهي: المجلس العالي القاضوي الكبيري العالمي العاملي الأفضلي الأكملي الأوحدي البليغي الفريدي المفيدي النجيدي القدوي الحجي المحققي الإمامي الأصيلي العريقي الحاكمي الفلاني جمال الإسلام والمسلمين سيد العلماء العاملين أوحد الفضلاء المفيدين قدوة البلغاء حجة الأمة عمدة المحدثين فخر المدرسين مفتي المسلمين جلال الحكام حكم الملوك والسلاطين فلان الفلاني بنسبه أعز الله تعالى أحكامه.

المرتبة الثالثة - المجلس السامي بالياء وهي: المجلس السامي القضائي الكبيري العالمي الفاضلي الأوحدي الرئيسي المفيدي البليغي القدوي الأثيري مجد الإسلام والمسلمين جمال العلماء العامين أوحد الفضلاء صدر المدرسين عمدة المفتين خالصة الملوك والسلاطين فلان الفلاني أدام الله تعالى تأييده.

المرتبة الرابعة - السامي بغير ياء وهي: المجلس السامي القاضي الأجل الكبير الصدر الرئيس العالم الفاضل الكامل فلان الدين مجد الصدور زين الأعيان مرتضى الملوك والسلاطين فلان أدام الله تعالى رفعته.

المرتبة الخامسة - مرتبة مجلس القاضي وهي: مجلس القاضي الأجل الكبير العالم الفاضل الأوحد الصدر الرئيس مجد الإسلام بهاء الأنام زين الأعيان فخر الصدور مرتضى الملوك والسلاطين فلان أعزه الله تعالى.

المرتبة السادسة - مرتبة القاضي وهي: القاضي الأجل وربما زيد في التعظيم نحو الكبير الصدر الرئيس ونحو ذلك.

النوع الرابع ألقاب مشايخ الصوفية

وهي على خمس مراتب المرتبة الأولى - المجلس العالي وبها يكتب لشيخ الشيوخ بالديار المصرية وهي: المجلس العالي الشيخي الكبيري العالمي العاملي السالكي الأوحدي الزاهدي العابدي الخاشعي الناسكي المفيدي القدوي الإمامي النظامي الملاذي جلال الإسلام والمسمين شرف الصلحاء في العالمين شيخ شيوخ الإسلام أوحد العلماء في الأنام قدوة السالكين بركة الملوك والسلاطين فلان أعاد الله تعالى من بركاته.

المرتبة الثانية - المجلس السامي بالياء وهي: بالمجلس السامي الشيخي الكبيري الأوحدي الأكملي العابدي الخاشعي الناسكي جمال الإسلام زين الأنام صفوة الصلحاء فخر العباد بركة الملوك والسلاطين أعاد الله تعالى من بركته.

المرتبة الثالثة - المجلس السامي بغير ياء وهي: المجلس السامي الشيخ الصالح الزاهد العابد الورع الخاشع الناسك السلالك فلان الدين مجد الصلحاء زين المشايخ قدوة السالكين المرتبة الرابعة - مجلس الشيخ وهي: مجلس الشيخ الصالح الزاهد العابد الناسك السالك فلان الدين مجد الصلحاء زين المشايخ بركة الملوك والسلاطين أدام الله تعالى بركته.

المرتبة الخامسة - مرتبة الشيخ وهي: الشيخ الصالح الورع الزاهد ونحو ذلك نفع الله تعالى به.

النوع الخامس ألقاب من قد يكتب له بولاية من رؤساء العامة من التجار وغيرهم

وفيها أربع مراتب المرتبة الأولى - المجلس السامي بالياء وهي: المجلس السامي الصدري الأجلي الكبيري الرئيسي الفلاني.

المرتبة الثانية - المجلس السامي بغير ياء وهي: المجلس السامي الصدر الأجل الكبير الرئيس المحترم.

المرتبة الثالثة - مجلس الصدر وهي: مجلس الصدر الأجل الكبير المحترم المؤتمن فلان الدين.

ويقال في ألقاب المهتارية ونحوهم: الحاج فلان.

المرتبة الرابعة - مرتبة الصدر وهي: الصدر الأجل.

فإن زيد في تكريمه قبل ذلك: الكبير المحترم.

ألقاب زعماء أهل الذمة وهم ثلاثة الأول - بطرك النصارى اليعاقبة وهي: الحضرة السامية الشيخ الرئيس المبجل المكرم الكافي المعزز المفخر القديس شمس الرياسة عماد بني المعمودية كنز الطائفة الصليبية.

الثاني - بطرك الملكانية وتختصر ألقابه عما يكتب به لبطرك اليعاقبة بعض الاختصار.

رئيس اليهود وهي: الرئيس الأوحد الأجل الأعز الأخص الكبير شرف الدوديين فلان أبو فلان: سدده الله في أقواله -الثالث وثبته في أفعاله.

قلت: ومما يجب التنبه له أن ماتقدم من الألقاب والنعوت المفرعة على الألقاب الأصول ليست مما يوقف عند حد بل محتملة للزيادة والنقص بحسب ماتقتضيه الحال ويحتمله المقال بل ربما ولي بعض المناصب من فيه صفات تستحق ألقاباً ونعوتاً خاصة فيكتب له بذلك مراعاةً لما يقتضيه حاله ويستوجبه مقامه ثم يلي ذلك المنصب بعده من لايستحق الوصف بالألقاب والنعوت التي تخص المتقدم فيؤتى بها للثاني: كما اتفق فيما كتب به في نيابة الشام حين وليها الأمير بيد الخوارزمي رحمه الله وكان من الديانة على لايوجد غيره فكتب في ألقابه حينئذ: العابدي الناسكي الخاشعي فلزمت فيمن بعده وصارت مما يكتب به إلى الآن سواء اتصف نائبها بدينٍ أم لا - وكما اتفق في الصاحب علم الدين بن زنبور حين اجتمع له الوزارة ونظر الخاص والجيش فكتب له بألقاب ونعوتٍ جامعةٍ لألقاب تلك الوظائف ونعوتها فاستمر ذلك فيما يكتب به لكل من ولي الوزارة بعده إلى الآن حتى إنه يكتب في ألقاب الوزير الآنمرتب الجيوش وهو الألقاب الخاصة بناظر الجيش استطراداً لما كتب به لابن زنبور:

لانضمام نظر الجيش إليه على ما تقدم - وكما اتفق فيما كتب به للشيخ تقي الدين السبكي من الألقاب الجليلة المقدار الرفيعة المكانة في قضاء الشام لرفعه مقامه واتساع باعه في العلم وعلو مكانته في الخاصة والعامة فلزم كتابة ذلك لقاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية من حيث إنه لايليق بالحال أن يكون قاضي الشام أعلى رتبةً من قاضي الديار المصرية.

ثم سرى ذلك في كل من ولي المنصب بعد ذلك وهلم جراً إلى زماننا.

ومما يلتحق بذلك أنه قد جرت العادة في الزمن المتقدم وهلم جراً إلى زماننا أنه كان يكتب في الطرة لأرباب السيوف بعد الأميري الكبيري الفلاني بلقب الإضافة إلى لقب السلطان كالناصري ونحوه بخلاف أرباب الأقلام فإنه لم تجر العادة بأن يكتب لهم ذلك في شيءٍ في طرة تقاليدهم ولا تواقيعهم إلى أن لبس القاضي سعد الدين بن غرابٍ الكلوتة واستقر استاداراً في الدولة الناصرية فرج بن برقوق ثم استقر مشيراً وكتب له تقليد بالإشارة كتب له في طرة تقليده بعد الكبيري الناصري لجمعه بين السيف والقلم.

ثم جرى بعض الكتاب على مثل ذلك في غيره من أرباب الأقلام الأكابر: كالوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش ومن في معناهم من أرباب الوظائف الديوانية.

والحجة فيه ظاهرة من حيث إن كلاً من المذكورين إذا كتب عنه كتاب كتب في أعلاه تحت البسملة الملكي الناصري وإذا كتب عنه قصة كتب فيها تحت البسملة الملكي الفلاني ومقتضى ذلك أن يكتب لقب الإضافة إلى لقب السلطنة في تقليده أو توقيعه على ماتقدمت الإشارة إليه من فعل بعض الكتاب.

الأمر الخامس - مما يجب على الكاتب مراعاته معرفة الوصف اللائق بصاحب الوظيفة.

فيجب عليه مراعاة ماينا سبه من الأوصاف التي بقع بها تقريظه ومدحه: فإن كان نائب سلطنة وصفه بالشجاعة والنجدة وقوة العزم والشهامة وشدة الشكيمة ونصرة الدين وكفالأيدي العادية وإرهاب العدو وقمع المفسدين وإرغام أهل العدوان وحماية الثغور - إن كان في ثغر - ووفور الهيبة وبعد الصيت وطيران السمعة مع بسط المعدلة والرفق بالرعية والرأفة بخلق الله تعالى والشفقة عليهم والإحسان إلى الكافة والأخذ بقلوبهم والوقوف مع أحكام الشريعة وبذل الطاعة والمناصحة والمخالصة ونحو ذلك. - وقدم هجرته في الدولة - إن كان ابتداء أمره فيها

وإن كان نائب قلعة وصفه بالحذق واليقظة وقوة الحزم وشدة التحرز والمعرفة بأحوال وإن كان وزيراً وصفه بحسن التدبير وجزالة الرأي والاحتياط في الأمور والقيام بمصالح الإسلام وعمارة البلاد والنهوض في المهمات وكف الأيدي العادية والأخذ على يد المعتدي وتنمية الأموال وتثميرها وتسهيل مايحجري من الأرزاق على يده وبذل المجهود في معاضده الشريعة وشبه ذلك مما يجري هذا المجرى.

وإن كان كاتب سر وصفه بالفصاحة والبلاغة وقيام أقلامه في التأثير في العدو مقام السيوف والرماح وكتبه في تفريق الكتائب مقام الجيوش والعساكر وسدد الرأي وكتم الأسرار وحماية الممالك بنتائج أفكاره وماشاكل ذلك.

وإن كان ناظر جيش وصفه بالمعرفة بأمور الجيوش وترتيبها وأصناف الأمراء والجند والمستخدمين وترتيب مقاماتهم وماينخرط في هذا السلك.

وإن كان ناظر الخاص وصفه بالمعرفة بأمور الحساب والنهضة في المهمات والمعرفة بأحوال ديوان الخاص وجهاته والقدرة على تحصيل الأموال وزيادتها ومعرفة مايحتاج إليه من أصناف الأقمشة والطرز وغيرها مع الأمانة والعفة ومايجري مجرى ذلك.

وإن كان مستوفي الصحبة وصفه بالمعرفة بفنون الكتابة ونظم الحسبانات والاحتياط في استرفاعها مع الضبط والاحتراز والأمانة والعفة وما هو من هذا القبيل.

وإن كان ناظر خزانة الخاص وصفه بالأمانة والعفة والمعرفة بأصناف الخزانة: من الأقمشة والتشاريف والطرز ومعرفة مراتب أربابها ومايناسب كل واحد منهم من أنواع التشاريف من عاليها وهابطها ومايطابق ذلك.

وإن كان قاضياً وصفه بغزارة العلم وسعة الفضل ونصرة السنة وقمع البدعة والعدل في الأحكام وإنصاف المظلوم من الظالم والأخذ للضعيف من القوي والنزاهة عن المطاعم الوخيمة والمطامع الردية والبعد عن الأهواء في الحكم وماينخرط في هذا السلك.

وإن كان محتسباً وصفه بعد وصفه بالفضل بالعفة والأمانة وعلو الهمة وقوة العزم والصرامة ووفور الهيبة والنهوض بالأمر المعروف والنهي عن المنكر والنظر في منصالح المسلمين وعدم محاباة أهل الدنيا وأرباب الجاه وأنه لايفرق في الحق بين الجليل والحقير ومافي معنى ذلك.

وإن كان وكيل بيت المال وصفه بعد العلم والديانة بالوقوف مع الحق والتثبيت فيه ومراعاته المصلحة العامة في كل مايتعلق به والمعرفة بشروط الأعذار ومواقع إبداء الدافع ونفيه وأنه يقدم مصالح المسلمين على مصالح نفسه ومايقارب ذلك.

وإن كان مدرساً وصفه بسعة العلم والتضلع بالفنون والأخذ من كل منها بحظ وافر وطول الباع في البحث والمناظرة والوقوف مع الحق فيها وعدم الجدال في الباطل وتربية الطلبة وتأديبهم والتقريب على من عسر على فهمه شيء من المسائل وعدم الترفع عليهم وتنزيلهم منازلهم في الفضل وتقديم من برع منهم.

وإن كان خطيباً وصفه بالفصاحة والبلاغة وقوة اللسن وشدة الشكيمة في الكلام وتأثير وعظه في القلوب وانسكاب الدموع من وقع عظاته ومأأشبه ذلك.

وإن كان شيخ خانقاه وصفه بالورع والزهد والنسك وقطع العلائق من الدنيا وتربية المريدين وتسليكهم والوقوف مع طريق السلف الصالح.

وإن كان رئيس الأطباء وصفه بالحذق في الطب والمهارة فيه وتقدمه على غيره في الفن والمعرفة بالعقاقير ومافيها من نفع وضر والمعرفة بالأمراض والعلل وطرق العلاج ومايجري مجرى ذلك.

وإن كان رئيس الكحالين وصفه بالمعرفة في صنعة الكحل والتقدم على أبناء صنعته فيه والمعرفة بحال العين وأمراضها وأصناف الأكحال وما يوافق كل علة من ذلك وماينخرط في هذا السلك.

وإن كان رئيس اليهود أوبطركاً من بطاركة النصارى وصفه بالمعرفة بأمور ملته والوقوف مع قوانين شرعته ومعاطاة العدل في جماعته والتزام شروط الذمة والوقوف عند حدها والدخول الأمر السادس - مما يجب على الكاتب مراعاته وصية رب كل ولاية من الولايات المعتبرة بما يناسبها.

واعلم أن كل ما حسن وصية المولى به حسن وصفه به.

والوصايا مختلفة باختلاف موضوعاتها إلا أن الجميع يشترك في الوصية بتقوى الله فهي الأس الذي يبنى عليه والركن الذي يستند إليه.

وهذا الباب هو الذي يطول فيه سبح الكاتب ويحتاج فيه إلى سعة الباع فإنه مالم يكن الكاتب حاذقاً بما يلزم رب كل ولاية ليوفيها في الوصية حقها وإلا ضل عن الطريق وحاد عن جادة الصنعة ولذلك يقال للكاتب: القلم الأكبر: لأنه بصدد أن يعلم كل واحد من أرباب الولايات مايلزمه في ولايته.

وحينئذ فإن كان المتولينائب سلطنة وصي بتفقد العساكر وعرض الجيوش وإنهاضها للخدمةوانتقائه للوظائف من يليق بها وتنفيذ الأحكام الشرعية ومعاضدة حكام الشرع الشريف وإجراء الأوقاف على شروط واقفيها وملاحظة البلاد وعمارتها وإطابة قلوب أهلها والشد من مباشري الأموال وتقوية أيديهم ملازمة العدل وعدم الانفكاك عنه وتحصين مالديه من القلاع

واستطلاع الأخبار والمطالعة بها والعمل بما يرد عليه من المراسيم السلطانية وأن ماأشكل عليه يستضيء فيه بالآراء الشريفة والإحسان إلى الجند وتعيين إقطاع من مات وأن كانت نائب قلعة وصي بحفظ تلك القلعة وعمارة مادعت الحاجة إلى عمارته منها والأخذ بقلوب من فيها وجمعهم على الطاعة وأخذ قلوبهم بالإحسان إليهم وتحصينها بآلات الحصار وادخار آلات الحرب ومن المجانيق والقسي وسائر الآلات: من السهام واللبوس والستائر وغير ذلك.

وكذلك آلات أرباب الصنائع كآلات الحدادين وصناع القسيومن في معناهم مما يحتاج إلى عمله في آلات القلعة والاعتناء بغلق أبواب القلعة وقتحها وتفقد متجددات أحوالها في كل مساء وصباح وإقامة الحرس وإدامة العسس وتعرف أخبار المجاورين لها من الأعداء وإقامة نوب الحمام بها والمطالعة بكل مايتجدد لديه من الأخبار.

وإن كان وزيراً وصي بالعدل وزيادة الأموال وتثميرها والإقبال على تحصيلها من جهات الحل واختيار الكفاة الأمناء وتجنب الخونة وتطهير بابه وتسهيل حجابه والنظر في المصالح وأنه لايستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو خيانته والنظر في أمر الرواتب وإجرائها على أربابها.

وإن كان كاتب السر وصي بالاهتمام بتلقي أخبار الممالك وعرضها على المواقف الشريفة والإجابة عنها بما تبرز به المراسيم الشريفة وتعريف النواب في الوصايا التي تكتب في تقاليدهم عن المواقف الشريفة ما أبهم عليهم ويبين لهم مايقفون عند حده والنظر في تجهيز البريد والنجابة وما يبعث فيه من المصالح وينفذ فيه من المهمات والقصاد ومعرفة حقوق ذوي الخدمة والنصيحة وإجرائهم في رسوم الرواتب وعوائد البر والإحسان على أتم العوائد وتأليف قلوبهم والأخذ بخواطرهم والنظر في أمر الكشافة والديادب والنظارة والمناور والمحرقات وأبراج الحمام وصرف نظره إلى رسل الملوك الواردة ومعاملتهم بالإكرام والأخذ في صون سر الملك وكتمانه حتى عن نفسه وضبط ألواح البريد والاحتراز فيما تؤخذ عليه العلامة الشريفة ومراعاة كتاب ديوان الإنشاء والإحسان إليهم وأن لايستكتب في ديوانه إلا من علم صلاحه لذلك وكفايته ووثق منه بكتمان السر كما يثق به من نفسه.

وإن كان ناظر جيش وصي بالاحتياط في أمر ديوانه والوقوف على معالم هذه المباشرة وجرائد الجند والإقطاعات وتحرير الكشوف والمحاسبات واستيضاح أمر من يموت من أرباب الإقطاعات من ديوان المواريث أو من المقدمين والنقباء والاحتراز في أمر المربعات وجهات الإقطاعات ومايترتب عليها من المناشير والنظر في أمرالمقطعين من الجند والعرب والتركمان والأكراد ومن عليه تقدمة أو درك بلاد أو غير ذلك.

وإن كان ناظر خاص وصي بالاحتياط لديوانه والأخذ في تحصيل أموال جهاته وتنميتها وتثميرها وزيادتها وتوفيرها والتحرز فيما يرفع من حسباناتها والاهتمام بأمر التشاريف والخلع ومايختص بكل ولاية وغيرها من الشتاريف وماجرت به العادة من الهدايا المحضرة إلى وإن كان مستوفي صحبة وصي بإلزام الكتاب لما يلزمهم من الأعمال وتحريرها وعمل المكلفات وتقدير المساحات وتمييز مابين تسجيل الفدن في كل بلدٍ بحسب مايصلح لها من الزراعة وتمييز قيم بعضها على بعض ومستجد الجرائد ومايقابل عليه من ديوان الإقطاعات والأحباس وغير ذلك.

وإن كان ناظراً لخزانة الخاص وصي بتحصيل ما يحتاج إليه لتفصيل الخاص وتشاريف أرباب السيوف والأقلام: العرب والتركمان والأكراد وغيرهم وهدايا الملوك ومايجري مجرى ذلك: من العتابي والأطلس والمشربش والمقندس والمتمر والطرازات على اختلافها: من الزركش والباهي وأنواع المستعملات ومايحمل من دار الطراز وما يبتاع للخزانة العالية وما هو مرصد له من الجهات التي يحمل إليها متحصلها: لينفق في أثمان المبيعات ومصروفات المستعملات والاحتراز فيما ينفق من الأثمان وقيمة المبتاع وشهادات الرسائل المكتتبة إليه بالحمول وما يكتب بها من الرجعات وأن يحصل كل شيء هو بصدد الحاجة إليه من قبل الاحتياج.

وإذا كان قاضياً وصي بالتروي في أحكامه قبل إمضائها وأن يراجع الأمر مرة بعد أخرى واستشارة أهل العلم والرجوع إليهم فيما أشكل عليه واستخارة الله تعالى قبل الإقدام على الحكم والقضاء بحق الخصم بعد وضوحه والتسجيل له به والإشهاد على نفسه بذلك والتسوية بين الخصوم حتى في تقسيم النظر إلى الخصمين والتحري في استيداء الشهادات وأن لايقبل الشهود إلا من عرف بالعدالة: من رب قلم أو سيف والتنقيب عما يصدر من العقود ولايعول من شهود القيمة إلا على كل عارف بالقيم خبير بها والنظر في أمر الرسل والوكلاء والنظر في أمور مذهبه والاعتناء بشأنهم.

الشافعي التوصية بالنظر في دعاوى بيت المال ومحاكماته والاحتراز في قضاياها ولا يقبل فيها بين لوكيل بيت المال 0ويزاد فيها مدفع ولايعمل فيها بمسألة ضعيفة والنظر في أمر أموال الأيتام وأمر المتحدثين فيها بالإحسان إليهم وكذلك أموال الصدقات الجارية تحت نظره والتيقظ لإجرائها على السداد في صرفها في وجوه استحقاقها وأن لايعمل في مسألة تفرد بها مذهبه إلا بما نص عليه إمامه أو كان عليه أكثر أصحابه ولايعتمد في ذلك مرجوحاً ولا ماتفرد به قائله وأن لايولي في البر نائباً إلا من عرف استحقاقه وأهليته لما يتولاه.

ويزاد الحنفي الوصية بالعمل بما اقتضاه مذهبه من الأمور التي فيها صلاح الكثير من الناس: كتزويج المعصرات وشفعة الجوار ونفقة المعتدة البائن وعدم سماع بينة الإعسارإلا بعد مضي المدة المعتبرة في مذهبه والإحسان إلى من ضمه نطاق ولايته ممن نزح إليه أهل الشرق وأقاصي ويزاد المالكي الوصية بالتحري في بينات الدماء والإعذار إلى الخصم ليبدي مالديه من دافع والعمل بما تفرد به مذهبه مما فيه فسحة للناس: كالثبوت بالشهادة على الخط وولاية الأوصياء وإسقاط الريع والوقف المسترد بعد البيع والإحسان إلى من لديه من غرباء أهل مذهبه لا سيما من أتاه من بلاد المغرب.

ويزاد الحنبلي الوصية بالاحتياط في بيع مادثر من الأوقاف والاستبدال بها ورعاية المصلحة في ذلك لأهل الوقف بما أمكن والفسخ على من غاب عن زوجته الغيبة المستوجبة للفسخ عندهم ووقف الإنسان على نفسه وأمر الجوائح التي يحصل بها التخفيف عن ضعفاء الناس والمعامل على الزرع بالحرث ونحوه وغير ذلك مما يجري هذا المجرى والوصية بأهل مذهبه الذين هم أقل المذاهب عدةً وأنزرهم وظائف وأوقافاً ومعاملتهم بالإحسان.

وإن كانقاضي عسكروصي بنحو مايوصى به القاضي وأن يتخذ معه كاتباً يكتب للناس وأن يقبل من الجند من كان ظاهره العدالة فإن الشهود المعدين لتحمل الشهادة يعز وجودهم في العسكر وأن يكون له منزل معروف بقصد فيه إذا نصبت الخيام وأحسن مايكون ذلك عن يمين الأعلام السلطانية وأن يكون مستعداً للأحكام التي يكثر فصلها في العسكر: كالغنائم والشركة والقسمة والمبيعات والرد بالعيب وأن يسرع في فصل القضاء بين الخصوم: لئلا يكون في ذلك وإن كان محتسباً وصي بالنظر في أمر المكاييل والموازين وسائر المقادير والتحذير من الغش في الطعام والشراب وأن يتعرف الأسعار ويستعلم الأخبار في كل سوق من غير علم أهله وأن يقيم على الأسواق وأرباب ويستعلم الأخبار في كل سوق من غير علم أهله وأن يقيم على الأسواق وأرباب المعايش من ينوب عنه في النظر في أمورهم من الأمناء المأمونين وأن لايمكن أحداً من العطارين من بيع غرائب العقاقير إلا ممن لايستراب به بخط متطبب لمريض وأن يمنع المتحيلين على أكل أموال الناس بالباطل: من الطرقية وأهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة إلى بني ساسان من تعاطي كايتعاطونه من ذلك ويقمعهم ويحسم مادتهم والتصدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمنع من الغش وإخبار المشتري بأزيد مما اشترى به والنظر في أمر فقهاء المكاتي والعالمات من النساء ولايمكن منهم أحداً أن يتعاطى إلا من عرفت أمانته وأثرت صيانته وأن لايستنبت إلا أهل العفة والأمانة والنزاهة ممن بعد عن الطمع ونأى عن مطاعم السوء.

وإن كان وكيل بيت المال وصي بالعمل بالشرع الشريف في جميع أحكامه وأن من مات ولله ورثة تستوعب ميراثه لايكلفهم ثبوتاً فيه تعنت ومدافعة عن حقهم والتشديد في أمر من كانت قصته منكرة والتحرز من شهود الزور في مثل ذلك وأن يرجع في كل مايباع ويؤجر إلى العوائد وأن يتحرز في شهادة شهود القيمة ولايرجع فيها إلا لمن يوثق به ممن يكون عنده معرفة بقيم الأشياء وينبه على أن له أن يدعي بحق المسلمين حيث شاء عند من يشاء من أصحاب المذاهب وأن الدعوى عليه لاتكون إلا في مجلس الحكم العزيز الشافعي على ماجرت به العادة القديمة والاحتياط في حق بيت المال وليختر لالاستنابة في الأعمال من يصلح لذلك.

وإن كان مدرساً وصي بأن يقبل على جماعة درسه بطلاقة وجه وأن يستميلهم إليه جهد استطاعته ويربيهم كما يربي الولد ولده ويستحسن نتائج أفكارهم التي يأتون بها في درسه ويقدم منهم من يجب تقديمه وينزل كل واحد منهم منزلته ليهزهم ذلك إلى الأكباب على الاشتغال والازدياد في التحصيل ثم يأتي في كل مدرس بما يناسبه من أمورة العلم الذي يدرس فيه إن كان يدرس في علمٍ خاص.

وإن كان خطيباً وصي برعاية حق رتبة الخطابة والقيام بحق ازدواجها وأن يأتي من المواعظ يما يقرع الأسماع بالوعد والوعيد ويلين القلوب القاسية وأن يعد لكل مقام مقالاً يقوله وأن يخفف الخطبة ويأتي بها بليغة مفهومة إلى غير ذلك من متعلقات الخطابة.

وإن كان شيخ خانقاهوصي بالاجتهاد في العبادة والمشي على طريق السلف من الزهد والورع والعفاف وأن يأخذ جماعته بمآخذه في الأمور ون يعرف لجماعة مكانه حقوقهم الواجبة لهم وينزلهم منازلهم خصوصاً أولي السابقة منهم ويأخذ في الرفق بهم ومداراتهم مع ترتيب من استجد منهم وإجرائهم على طرائق الصوفية وتعريفهم الطريق إلى الله تعالى وتدريج المريدين على قدر ماتحتمله أفخامهم دون أن يهجم عليهم من أحوال الطريق بما لاتحتمله عقولهن واتباع سبيل الكتاب والسنة اللذين من حاد عنهما ضل ومن خرج عن جادتهما زل وكفهم عن ارتكاب البدع والجري على منهاجها ومن أتى ذنباً فخذه بالتوبة والاستغفار والإنكار على من أخذ في الشطحات والخروج عن قانون الشريعة ومنع من نحا هذا النحو أو جرى على هذه الجادة والإحسان إلى من يقدم عليه من الآفاق وحسن التلقي له وإكرام نزله بعد أن يعجل به بالإذن والأمر بأخذ عكازة وفرش سجادة وماينخرط في سلك ذلك.

وإن كان رئيس الأطباء وصي بالنظر في أمر طائفته ومعرفة أحوالهم ويأمر المعالج أن يعرف أولاً حقيقة المرض وأسبابه وعلاماته ثم ينظر إلى السن و الفصل والبلد وحينئذ يشرع في تخفيف الحاصل وقطع الواصل مع حفظ القوة وأن لايهاجم الداء ولايستغرب الدواء ولايقدم على الأبدان إلا ما يلائمها ولايخرج عن عادة الأطباء ولوغلب على ظنه الإصابة حتى يتبصر فيه برأي أمثاله ويتجنب الدواء ماأمكنته المعالجة بالغذاء والمركب ماأمكنته المعالجة بالمفرد ويتجنب القياس إلا ماصح بتجريب غيره في مثل من أخذ في علاجه وماعرض له وسنه وفصله وبلده ودرجة الدواء وأن يحذر التجربة فإنها خطر مع الاحتراز في المقادير والكيفيات وفي الاستعمال والأوقات ومايتقدم ذلك الدواء أو يتأخر عنه ولايأمر باستعمال دواء ولا ما يستغرب من غذاء حتى يحقق حقيقته ويعرف جديده من عتيقه ليعرف مقدار قوته في الفعل.

وإن كان رئيس الكحالين وصي بالنظر في حال جماعته أيضاً ومعرفة أحوالهم وأن لايصرف منهم إلا من عرف بحسن المدارة والملازمة في العلاج ويأمر كلاً مكنهم أن لايقدم على مداواة عينٍ حتى يعرف حقيقة المرض وأن يلاطفها بما يناسبها من الغذاء وأن يتخير من الكحل مافيه شفاء العين وجلاء البصر وأن يستشير الأطباء الطبائعية فيما أهم مما لايستغنى عن رأي مثلهم فيه من تخفيف المادة بالاستفراغ أو نقص دمٍ أو غير ذلك.

وإن كان رئي ساليهود وصي بضم جماعته ولم شملهم والحكم فيهم بقواعد ملته والنظر في أمور الأنكحة عندهم ومايعتبر عندهم فيها على الإطلاق ومايفتقر إلى الرضا من الجانبين في العقد والطلاق والنظر فيمن أوجب حكم دينه عليه التحريم والتوجه في صلاتهم تلقاء بيت المقدس إلى جهة قبلتهم وإقامة حدود التوراة على ماأنزل الله تعالى من غير تحريف ولا تبديل للكلمة بتأويل ولاغيره و اتباع ماأعطوا عليه العهد مع إلزوامه لهم ماالتزموه من حكم أمثالهم من أهل الذمة الذين أقروا في دار الإسلام على الصغار والإذعان لأهل الإسلام وعدم مضايقتهم للمسلمين في الطرق وتميزهم بشعارهم في الحمام كي لايحصل اللبس بالمسلمين وحمل شعار الذمة على رؤوسهم: وهي العمائم الصفر ويأخذهم بتجدي صبغه في كل حين وعدم التظاهر بما يقتضي المكناقضة: من ذكر الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم بسوء أو إظهار الخمر أو معتقدهم في العزير عليه السلام.

وله أن يرتب طبقاتهم على ماتقتضيه مراتبهم عنده وكذلك له التحدث في كنائس اليهود المستمرة إلى الآن بأيديهم من حين عقد الذمة من غير تجديد متخربٍ ولافعل مالم تعقد عليه الذمة ويقرهم عليه السلف الأول.

وإن كان بطرك النصارى النلكانية وصي بما عليه بناء شرعته من المسامحة والاحتمال والصبر على الأذى وعدم الاكتراث به وأخذ نفسه بهذه الآداب وأنه يقدم المصالحة بين المتحاكمين إليه قبل فصلها على البت فإنه قاعدة دينه المسيحي ولم تخالف في الملة الإسلامية وأنه ينقي صدور إخوانه من الغل ويتخلق لكل خلق جميل ولايستكثر من الدنيا ويتنزه عن أموال جماعتها والتوسل إلى أخذها وأن إليه أمر الكنائس والبيع وعليه أن يتفقدها في كل وقت ويرفع مافيها من الشبهات ويحذر رهبان الديارات من جعلها مصيدة للمال وأن يتجنبوا فيها الخلوة بالنساء ولايؤوي إليه أحداً من الغرباء القادمين عليه يكون فيه ريبةٌ ولايكمتم مااطلع عليه من ذلك عن المسامع الشريفة السلكطانية ولايخفي كتاباً يرد عليه من أحدٍ من الملوك أو يكتب له جواباً ويتجنب البحر ومايرد منه من مظان الريب.

وإن كان بطرك اليعاقبة قيل في وصيته نحو ماتقدم في وصية بطرك الملكانيين إلا أنه لايقال: واعلم أنك المدخل لإلى شريعتك قسيم الباب ومساوٍ له في الأمر والنهي والتحليل والتحريم.

ويقال بدل قوله وليتجنب البحر: وليتوق مايأتيه سراً من تلقاء الحبشة.

قلت: وهذه الوصايا مدخل إلى مايرضى به أصحاب الولايات ممن تقدم ذكره والأمر في الزيادة والنقص في ذلك بحسب المناسبة راجع إلى نظر الكاتب.

على أن المقر الشهابي ابن فضل الله رحمه الله قد ذكر في التعريف عدة وصايا ليست مما يكتب الآن فأضربنا عن ذكر مقاصدها هنا: لتورد برمتها في الكلام على مايكتب في متن التقاليد والتواقيع ونحوها مع النسخ التي تورد هناك عغلى صورة مأوردها لينسج على منوالها إن أمر بكتابة شيءٍ منها.

المقصد الثاني في بيان مقاصد ما يكتب في الولايات

وفيه جملتان في بيان الرسوم في ذلك ومقادير قطع الورق لكل صنف منها على سبيل الإجمال وهي على أربعة أنواع: النوع الأول التقاليد جمع تقليد.

يقال: قلدته أمركذا لإذا وليته إياه.

قال الجوهري: وهو مأخوذ من القلادة في العنق يقال قلدت المرأة فتقلدت قال: ومنه التقليد في الدين أيضاً.

ثم التقاليد تشتمل على طرة ومتن فأما الطرة فقد أشار إليها التعريف بقوله: وعنوانها تقليد شريف لفلان بكذا.

وأوضح ذلك في التثقيف فقال: وصورته: أن يكتب: تقليد شريف بأن يفوض إلى المقر الكريم أو إلى الجناب الكريم أو إلى الجناب العالي الأميري الكبيري الكافلي الفلاني أعز الله تعالى أنصاره أو نصرته أو ضاعف الله تعالى نعمته نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس أو بحلب المحروسة أو بطرابلس المحروسة أو نحوها على أجمل العوائد في ذلك وأكمل القواعد على ماشرح فيه.

قلت: وتفضيل هذا الإجمال: إن كان المكتوب له التقليد هو النائب الكافل كتب فيطرة تقليده: تقليد شريف بأن يفوض إلى المقر الكريم العالي الأميري الكبيري الكفيلي الفلاني فلان الفلاني بلقب الإضافة إلى لقب السلطان كالناصري مثلاً كفالة السلطنة الشريفة بالممالك وإن كان التقليد بكفالة السلطنة بالشام كتب: تقليد شريف بأن يفوض إلى لامقر الكريم العالي الأمير ي الكبيري الكفيلي فلانٍ الناصري مثلاً كفالة السلطنة بالشام المحروس على أتم العوائد في ذلك وأجمل القواعد على ماشرح فيه.

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بحلب كتب: تقليد شريف بأن يفوض إلى الجناب الكريم العالي الأميري الكبيري الكافلي الفلاني فلانٍ الناصري أعز الله تعالى نصرته نيابة السلطنة الشريفة بحلب المحروسة على أجمل العوائد في ذلك وأكمل القواعد على ماشرح فيه.

وإن كان التقليد بنيابة طرابلس كتب: تقليد شريف بأن يفوض إلى الجناب الكريم العالي الأميري الكبيري الكافلي الفلاني فلانٍ الناصري أعز الله تعالى نصرته نيابة السلطنة الشريفة بحلب المحروسة على أجمل العغوائد في ذلك وأكمل القواعد على ماشرح فيه.

وإن كان التقليد بنيابة طرابلس كتب: تقليد شريف بأن يفوض إلى الجناب العالي الأميري الكبيري الكافلي الفلاني فلانٍ الناصري: ضاعف الله تعالى نعمته نيابة السلطنة بطرابلس المحروسة على أجمل العوائد في ذلك وأكمل القواعد على ماشرح فيه.

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بحماة أبدل لفظ طرابلس بحماة.

وإن كان بنيابة السلطنة بصفد أبدل لفظ وحماة بصفد والباقي على ماذكر في طرابلس.

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بغزة - حيث جعلت نيابةً - كتب: تقليد شريف بأن يفوض إلى الجناب العالي الأميري الكبيري الكافلي الفلاني فلانٍ الناصري: أدام الله تعالى نعمته نيابة السلطنة الشريفة بغزة المحروسة على أجمل العوائد وأكمل القواعد على ماشرح فيه.

فإن كان مقدم العسكر كما هو الآن أبدل لفظ نيابة السلطنة الشريفة بلفظ تقدمة العسكر المنصور والباقي على ماذكر.

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بالكرك كتب: تقليد شريف بأن يفوض إلى الجناب العالي الصاحبي الفلاني فلانٍ الناصري: ضاعف الله تعالى نعمته الوزارة الشريفة بالممالك الإسلامية أعلاها تعالى على أجمل العوائد وأكمل القواعد بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ماشرح فيه.

وإن كان التقليد بكتابة السر كتب: تقليد شريف بأن يفوض إلى الجناب العالي القاضوي الكبيري اليميني الفلاني فلانٍ الناصري: ضاعف الناصري: ضاعف الله تعالى نعمته صحابة دواوين الإنشاء الشريفة بالممالك الإسلامية أعلاها الله تعالى على أجمل العوائد وأكمل القواعد بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ماشرح فيه.

وإن كان التقليد بقضاء قضاة الشافعية بالديار المصرية كتب: تقليد شريف بأن يفوض إلى الجناب العالي القاضوي الكبيري الفلاني فلان: أعز الله تعالى أحكامه قضاء قضاة الشافعية بالديار المصرية على أجمل العوائد وأكمل القواعد بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ماشرح فيه.

وإن كان التقليد بقضاء قضاة الحنفية كتب كذلك إلا أنه يبدل لفظ الشافعية بلفظ الحنفية.

وإن كان التقليد لأمير مكة كتب: تقليد شريف بأن يفوض إلى المجلس العالي الأميري الكبير الشريفي فلانٍ الفلاني: أدام الله تعالى نعمته إمرة مكة المشرفة على أجمل العوائد وأكمل القواعد على ماشرح فيه.

وإن كان بإمرة المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام زالتحية والإكرام كتب كذلك إلا أنه يبدل لفظ مكة المشرفة بلفظ المدينة الشريفة.

وإن كان بأمره آل فضل كتب: تقليد شريف بأن يفوض إلى المجلس العالي الأميري الكبيري الفلاني: أدام الله تعالى نعمته إمرة آل فضل على أجمل العوائد وأكمل القواعد على ماشرح فيه.

هذه جملة ماعهدت كتابته من التقاليد المكتتبة من ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة فإن ماحدث كتابة مايستحق أن يكتب له تقليد كالأتابكية ونحوها كتب بالألقاب اللائقة بصاحبه.

ثم وراء ذلك أمران: أحدهما - أنه قد تقدم نقلاً عن التعريف أنه يكتب في العنوان الذي هو الطرة: تقليد شريف لفلان بكذا فإن كتب تقليد بكفالة السلطنة مثلاً كتب: تقليد شريف للمقر الكريم العالي الأميري الكبيري الفلاني بكفالة السلطنة الشرفة بالممالك الإسلامية لى أجمل العوائد وأكمل القواعد على ماشرح فيه.

أنه اقتصر في التثقيف على قوله في آخر الطرة على أجمل العوائد في ذلك وأكمل القواعد وليس الأمر منحصراً في -الثاني ذلك بل لو عكس بأن قيل: تقليد شريف بأن يفوض إلى فلان كذا أو تقليد شريف لفلان بكذا على أكمل القواعد وأجمل العوائد على ماشرح فيه لكان سائغاً.

فإن كان صاحب التقليد على الرتبة: كالنائب الكافل ونائب الشام ونائب حلب والوزير وكاتب السر ونحوهم كتب على أجمل العوائد وأتمها وأكمل القواعد وأعمها أو بالعكس: بأن يكتب على أجمل العوائد وأعمها وأكمل القواعد وأتمها على ماشرح فيه.

وأما متن التقليد فقد قال في التعريف إن التقاليد كلها لاتفتتح إلا بالحمد لله وليس إلا ثم يقال بعدها: أما بعد ثم يذكر ماسنح في حال الولاية وحال المولى وحسن الفكر فيمن يصلح وأنه لم ير أحق من ذلك المولى ويسمى ثم يقال مايفهم أنه هو المقدم الوصف أو المتقدم إليه بالإشارة ثم يقال: رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني ويدعى له أن يقلد كذا

أو أن يفوض إليه كذا والأول أجل ثم يوصى بما يناسب تلك الولاية مما لابد منه تارةً جملياً وتارة تفصيلياً وينبه فيه على تقوى الله تعالى ثم يختم بالدعاء للمولى ثم يقال: وسبيل كل واقفٍ عليه العمل به بعد الخط الشريف أعلاه.

قال: ولفضلاء الكتاب في هذا أساليب وتفنن كثير الأعاجيب وكل مألوف غريب ومن طالع كلامهم في هذا وجد ماقلناه وتجلى له ماأبهمناه.

وذكره في التثقيف بأوضح معنى وأبين فقال: ويكتب بعد الصدر بخطبة مناسبة أولها الحمد لله إلى آخرها ثم أما بعد ويذكر مايرى ذكره من حال الولاية والمولى ويذكر اسمه وهو أن يقال: ولما كان المقر أو الجناب وألقابه ونعوته إلى آخرها ويدعى له: أعز الله أنصاره أو نصرته أو نحوه على ماجرت به عادته ولايزاد على دعوةٍ واحدة ثم يقال مايفهم أنه المراد بهذه الأوصاف أو المعني بهذه الإشارة أو نحو ذلك ثم يقال: اقتضى حسن رأينا الشريف ويذكر مايقتضى تكريمه وتعظيمه ثم يقال: فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني الفلاني ويدعى له بما يناسب الحال ثلاث دعوات أو أربعاً أن يفوض إلى المشار إليه كذا ثم يقال: فليتلقد ذلك أو فليتلق هذا التفويض أو نحو هذا ثم يوصى بما يناسب تلك الولاية مما لابد منه ويحرص أن ينبه فيه على العمل بالتقوى ثم يختم بالدعاء للمولى بالإعانة والتأييد ونحو ذلك ثلاث دعوات وأكثرها أربع وأقلها اثنتان ثم يقال: بعد الخط الشريف شرفه الله تعالى وأعلاه أعلاه إن شاء الله تعالى ثم التاريخ والمستند والحمدلة والحسبلة على العادة.

ولم يقل فيه: وسبيل كل واقف عليه كما قال في التعريف.

واعلم أن التقاليد على اختلافها ولاتخرج في مقادير قطع الورق عن مقدارين: الأول - قطع الثلثين بقلم الثقيل.

وفيه يكتب لنواب السلطنة بمصر والشام مطلقاً وكذلك الوزير والمشير وكاتب السر وقاضي قضاة الشافعية والحنفيه بالديار المصرية.

الثاني - قطع النصف بقلم الثلث.

وفيه يكتب لذوي التقاليد من أمراء العرب: وهم أمير مكة المشرفة وأمير المدينة الشريفة وأمير آل فضل من عرب الشام على ماتقدم ذكره.

ولايكتب من التقاليد شيء فيما دون هذا المقدار من قطع الورق بحال.

وسيأتي الكلام على نسخ التقاليد فيما بعد إن شاء تعالى.

النوع الثاني مما يكتب في الولايات السلطانية

المراسيم جمع مرسوم أخذاً من قولهم: رسمت له كذا فارتسمه إذا امتثله أم من قولهم: رسم علي كذا إذا كتب ويحتمل أن يكون منهما جميعاً.

الضرب الأول المراسيم المكبرة لم يتعرض لها المقر الشهابي ابن فضل الله في التعريف لأنها لم تكن مستعملةً في زمنه وإنما حدثت بعده.

قال في التثقيف: وهي على نمط التقاليد ليس بينهما اختلاف إلا في أمرين: أحدهما - أنه لايكتب شيء من المراسيم في قطع الثلثين بل في قطع النصف أو الثلث.

الثاني - أنه لايقال فيها تقليد شريف بل مرسوم شريف.

قلت: ويفترقان من أربعة وجوه.

أحدها - أنه يقتصر في طرة المرسوم على الأميري دون الكبيري بخلاف التقاليد فإنه يقال فيها الأميري الكبيري.

الثاني - أنه يقال في المرسوم: أن يستقر ولايقال: أن يفوض ولا: أن يقلد.

الثلث - أنه لايقال:)على أجمل العوائد وأتم القواعد بل يقال: على عادة من تقدمه وقاعدته.

الرابع - أنه لايقال في الصدر: أما بعد بل وبعد.

قال: وهي تختص بنواب القلاع المنصورة بالممالك الإسلامية وأمراء العربانممن بالشام وحلب وشادي مراكز البريد وغيرهم.

ثم هي على طبقتين: الطبقة الأولى - ما يكتب في قطع النصف بقلم خفيف الثلث وذلك للنواب بالقلاع: من مقدمي الألوف والطبلخانات: كنائب حمص والرحبة والبيرة وقلعة المسلمين وملطية وطرسوس وأذنة وبهسنى والفتوحات الجاهانية وغيرها ممن يكتب له المجلس العالي والسامي بالياء أو بغير ياء لى ماتقدم بيانه في المكاتبات إليهم.

وكذلك بعض أمراء العربان وهم أمير آل علبي وأمير بني عقبة.

قال في التثقيف: وصورة مايكتب في الطرة أن يكتب: مرسوم شريف بأن يستقر المجلس العالي أو السامي الأميري الفلاني فلان ويدعى بما يناسبه في النيابة في الجهة الفلانية على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته على ماشرح فيه.

فإن كانت النيابة تقدمة ألف: كنيابة الرحبة ونحوها كتب في طرة مرسوم نائبها: 0 مرسوم شريف بأن يستقر المجلس العالي الأميري الفلاني فلان أدام اله تعالى نعمته في المكان الفلاني على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته.

وإن كانت النيابة طبلخاناه كتب: مرسوم شريف بأن يستقر المجلس السامي الأمير فلان أدام الله تعالى تأييده في النيابة بمكان كذا على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته أو كتب: مرسوم شريف أن يستقر المجلس السامي الأمير فلان الدين فلان أدام الله تعالى تأييده في النيابة بمكان كذا على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته.

وإن كانت نيابة قلعة دمشق كتب: مرسوم شريف بأن يستقر المجلس العالي الأميري فلان أدام الله تعالى نعمته في النيابة بالقلعة المنصورة بدمشق المحروسة على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته على ماشرح فيه.

وكذلك كل قلعة بحسب ألقاب نائبها التي يكاتب بها.

ثم يكتب في الصدر بعد البسملة خطبة مفتتحة بالحمد لله ثم يقول: وبعد ويأتي بنحو ماتقدم ذكره في التقاليد ثم يقال: ولما كان المجلس العالي أو السامي إلى آخر ألقابه ثم يقال: فلان ويدعى له بما جرت به عادته ويقال مايفهم منه أنه المقصود بما تقدم ذكره من المدح والأوصاف السابقة ثم يقال: فلذلك رسم بالأمر الشريف إلى آخره أن يستقر المشار إليه في كذا على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته فليتلق ذلك ونحوه.

ثم يوصى بما يناسب وظيفته التي تولاها ويختم بنظير ماتقدم ذكره في ختم التقاليد.

الطبقة الثانية - من المراسيم المكبرة مايكتب في قطع الثلث بقلم التوقيعات.

قال في التثقيف: وصورته في الطرة والصدر على ماتقدم في الطبقة الأولى إلا أن خطبته تفتتح بأما بعد حمد الله وتختتم بما تقدم ذكره.

قال: وقد تكتب لنواب القلاع من أمراء العشرات: مثل نائب بغراس ونائب الدربساك ونائب كركر ونائب الكختا ونحوها.

قال: وكذلك أرباب الوظائف غير النيابات مثل شاد الدواوين بالشام وحلب وشاد مراكز البريد بهما ونحو ذلك وبعض أمراء العرب: كأمير بني مهدي ومقدم عرب جرم ومقدم عرب زبيد على ندرة فيه.

فإن كان المرسوم بنيابة من النيابات المذكورة وغيرها كتب: مرسوم كريم بأن يستقر المجلس السامي الأمير فلان الدين أعزه الله تعالى في النيابة ببغراس أو بالدربساك أو بكرك ومأأشبه ذلك على عادة من تقدمه وقاعدته.

وإن كان بالشام أو بحلب كتب: مرسوم كريم أن يستقر المجلس السامي الأمير فلان الدين: أعزه الله تعالى في شد الدواوين بالمكان الفلاني على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته على ماشرح فيه.

وإن كان بشد مراكز البريد أبد لفظ شد الدواوين بلفظ شد مراكز البريد بالمكان الفلاني.

وإن كان بإمرة بني مهدي كتب: في إمرة بني مهدي على عادة من تقدمه وقاعدته.

وإن كان بتقدمة عرب جرم كتب: في تقدمة عرب جرم على عادة من تقدمه وقاعدته.

وإن كان بتقدمة عرب زبيد أبدل لفظ جرم بزبيد وعلى ذلك.

الضرب الثاني المراسيم المصغرة

وهي مايكتب في قطع العادة وبها يكتب لأرباب السيوف بالولايات الصغيرة مثل نظر الأوقاف ونحوه.وهي صنفان:

الصنف الأول - مايترك فيه أوصال بياض بين الطرة والبسملة وهي أعلاها ويكتب بالسامي بغير ياء أو مجلس الأمير: وصورتها أن يكتب في الطرة: مرسوم شريف أن يستقر المجلس السامي الأمير فلان الدين أو مجلس الأمير فلان في كذا وكذا بما لذلك من المعلوم الشاهد به ديوان الوقف أو نحو ذلك على ماشرح فيه ثم يكتب في الصدر بعد البسملة ما صورته: رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني باللقب الخاص ولقب السلطنة ويدعى له بما فيه براعة الاستهلال بذكر الوظيفة أو اسم صاحبها أو لقبه ونحو ذلك وأقلها ثلاث فقرات فما زاد أن يستقر المجلس السامي الأمير الأجل إلى آخر ألقابه أو أن يستقر مجلس الأمير الأجل إلى آخر الألقاب لما له من كذا وكذا ويأتي من صفات المدح بما يناسب المقام ثم يقال: فليباشر ذلك أو فليتلق ذلك أو فليقابل صدقاتنا الشريفة بكذا ونحو ذلك ثم يوصى بما يليق به ويدعى له بدعوتين فقط ثم يقال: بعد الحظ الشريف العالي أعلاه الله تعالى.

قلت: وهذا الصنف إن روعي صاحبه كتب في قطع العادة المنصوري وإلا ففي قطع العادة الصغير.

قال في التثقيف: ومما ينبه عليه أنه لايكتب مرسوم شريف في قطع العادة إلا بمثل نيابة الشقيف بسفد وصرخد وعجلون والصبيبة فإنه لايولى فيها إلا مقدم حلقة أو جندي ومثل هذا لايكتب عن المواقف الشريفة إلا نادراً فإن كفال الممالك يستبدون بالتولية في ذلك.

الصنف الثاني - مايكتب في هيئة ورقة الطريق

ويكون في ثلاثة أوصال وصورته أن يكتب في الطرة ماصورته: مرسوم شريف أن يستقر فلان أو أن يرتب فلان في كذا وكذا على ماشرح فيه ويكون ذلك في سطرين ولا يكتب في أعلاه اسم الشريف كما يكتب في غيره: لأن من المعلوم أنه لايكتب في هذا إلا الاسم الشريف فيستغنى عن ذكره ثم يكتب في آخرذلك الوصل: رسم بالأمر الشريف على نحو ماتقدم إلا أنه لايحتاج في الدعاء إلى مايكون فيه براعة استهلال بل يكفي أعلاه الله وشرفه وأنفذه في الآفاق وصرفه ونحو ذلك أن يستقر فلان في كذا أو يرتب في كذا فليعتمد ذلك ويعمل بحسبه ومقتضاه بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه إن شاء الله تعالى.

النوع الثالث مما يكتب في الولايات السلطانية

التفاويض جمع تفويض وهو مصدر فوض الأمر إلى زيد إذا رده إليه ومنه قوله تعالى: وأفوض أمري إلى الله أي أرده إليه.

قال في التعريف: وبه يكتب لعامة القضاة يعني ممن دون أرباب التقاليد وهي من نمط التقاليد غير أنها يقال في تعريفها تفويض شريف لفلان بكذا.

ومقتضى ماذكره أنه إذا كتب تفويض شريف لفلان بكذا ومقتضى ماذكره أنه إذا كتب تفويض شريف بقضاء قضاة الديار المصرية مثلاً يكتب في الطرة: تفويض شريف للمجلس العالي القاضوي الكبير بقضاء قضاة المالكية بالديار المصرية على أجمل العوائد وأكمل القواعد بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ماشرح فيه ثم يأتي بنحو ما تقدم ترتيبه في التقاليد إلا أنه يكون أخصر.

قلت: ولم أقف على نسخة تفويض غير نسخةٍ واحدةٍ من إنشاء المقر الشهابي ابن فضل الله لبعض قضاة دمشق.

وقد أنشأت أنا تفويضاً بقضاء قضاة المالكية في الديار المصرية لقاضي القضاة جمال الدين يوسف البساطي حين ولي على أثر ولاية بقاضي القضاة جلال الدين البلقيني قضاء قضاة الشافعية افتتحته بلفظ: الحمد لله الذي شفع جلال الإسلام بجماله وكتبت له به وكتبت في طربته: تفويض شريف للمجلس العالي القاضوي الجمال يوسف البساطي المالكي عز الله تعالى أحكامه بقضاء قضاة المالكية بالديار المصرية على أجمل العوائد وأكمل القواعد على ماشرح فيه.

وقرأته بالمجلس العام بالمدرسة المنصورية.

وسيأتي ذكر نسخته في الكلام على النسخ في المقصد الثاني من هذا الطرف إن شاء الله تعالى

النوع الرابع التواقيع

جمع توقيع قد تقدم في مقدمة الكتاب عن ابن حاجب النعمان في ذخيرة الكتاب: أن التوقيع معناه في اللغة الخفيف ومنه قولهم: ناقة موقعة الجنبة إذا أثر فيها الرحل تأثيراً خفيفاً وأنه يحتمل غير ذلك.

وفي اصطلاح الأقدمين من الكتاب أنه اسم لما يكتب في حواشي القصص كخط الخليفة أو الوزير في الزمن المتقدم وخط كاتب السر الآن ثم غلب حتى صار علماً على نوع خاص مما يكتب في الولايات وغيرها.

قال في التعريف: وهي على أنموذج التفاويض.

قال: وقد يقال: أن يرتب وأن يقدم ثم قال: وعنوانها توقيع شريف لفلان بكذا ولا يقال فيها على اختلافها: وسبيل كل واقفٍ عليه كما في التقاليد يل يقال: فليعتمد ما رسم به فيه بعد الخط الشريف أعلاه.

وقد ذكر في التعريف أنها يكون لعامة أرباب الوظائف جليلها وحقيرها وكبيرها وصغيرها حتى الطبلخانات اللاحقين بشأو الكبار فمن دونهم.

وقال في التثقيف: إنها مختصة بالمتعممين من أرباب الوظائف الدينية والديوانية ولا يكتب لأرباب السيوف منها إلا القليل: مثل نظر البيمارستان ونظر الجامع الجديد ونظر الحرمين الشريفين يعني حرم القدس وحرم الخليل عليه السلام.

قلت: والجامع بين كلاميهما أنه في زمن صاحب التعريف كانت التواقيع تكتب بالوظائف لأرباب السيوف من النيابات وغيرها قبل أن تحدث المراسيم المكبرة المقدمة الذكر ثم خصت التواقيع بعد ذلك بالمتعممين دون أرباب السيوف.

ومضى الأمر على ذلك في زمن صاحب التثقيف فحجرى على حكمه ولم يبق ممن يكتب له توقيع من أرباب السيوف سوى نظار الجهات الثلاث المتقدمة الذكر: من البيمارستان المنصوري والجامع الجديد الناصري بمصر ونظر الحرمين: حرم القدس الشريف وحرم الخليل عليه السلام.

والحكم باقٍ على ذلك إلى الآن.

الطبقة الأولى ما يفتتح بخطبة مفتتحة بالحمد لله وفيها مرتبتان المرتبة الأولى - ما يكتب في قطع النصف بقلم خفيف الثلث.

قال في التثقيف: وصورته يعني ما يكتب لأرباب الأقلام أن يكتب في الطرة: توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالي القاضوي الكبيري الفلاني ويدعى له دعوةً واحدة نظر الجامع الجديد الناصري بما جرت به عادته على أجمل العوائد وأكمل القواعد بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقتٍ على ما شرح فيه قال: فإن كان حاكماً كتب له بعد الكبيري الحاكمي.

وإن كان كاتب السر كتب له بعد الكبيري اليميني لا غير.

ثم يكتب في الصدر خطبة مفتتحة بالحمد لله ثم يقال: أما بعد والتتمة على نظير ما ذكر في التقاليد إلا فيما يليق بالوظيفة والمتولي لها مما يناسب الحال.

وقد ذكر في التثقيف أنه كان يكتب بذلك للقضاة الأربعة بالديار المصرية والقضاة الأربعة بالشام وكاتب السر بمصر والشام وناظر الجيش بهما وناظر الدواوين المعمورة والصحبة الشريفة وهو ناظر الدولة.

وحينئذ فإن كتب بذلك لقاضي القضاة الشافعية بالديار المصرية على ما كان الأمر عليه أولاً كتب في الطرة توقيع شريف بأن يستقر المجلس العالي القاضوي الكبيري الفلاني فلان: أعز الله أحكامه في قضاء قضاة الشافعية بالديار المصرية على أجمل العوائد وأتمها وأكمل القواعد وأعمها بما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ماشرح فيه.

وإن كتب به لقاضي القضاة الحنفية على ماكان الأمر عليه أولاً أيضاً كتب له نظير قاضي القضاة الشافعية إلا أنه يبذل لفظ الشافعية بالحنفية.

وإن كتب لقاضي القضاة المالكية على ما الأمر مستقر عليه الآن كتب له كذلك وأبدل لفظ الشافعية والحنفية بالمالكية.

وإن كتب به لقاضي الحنفية على ما كان الأمر عليه أولاً أيضاً كتب له نظير قاضي القضاة الشافعية إلا أنه يبدل لفظ الشافعية بالحنفية.

وإن كتب لقاضي القضاة المالكية على ما الأمر مستقر عليه الآن كتب له كذلك وأبدل لفظ الشافعية والحنفية بالمالكية.

وإن كتب لقاضي القضاة الحنابلة فكذلك ويقال فيه الحنابلة.

وإن كتب به لأحد من القضاة الأربعة بالشام فكذلك إلا أنه يقال قضاء قضاة الشافعية أو الحنفية أو المالكية أو الحنابلة بالشام المحروس.

وإن كتب به لكاتب السر على ماكان الأمر عليه أولاً كتب: توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالي القاضوي الكبيري اليميني فلان ضاعف الله تعالى نعمته صحابة دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية أعلاها الله تعالى على أجمل العوائد وأكمل القواعد بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ماشرح فيه.

وإن كتب به لكاتب السر بالشام أبدل لفظ الممالك الإسلامية بالشأم المحروس.

وإن كتب به لناظر الجيش بالديار المصرية كتب: توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالي القاضوي الكبيري الفلاني: ضاعف الله تعالى نعمته نظر الجيوش المنصورة بالممالك الإسلامية أعلاها الله تعالى على ما شرح فيه.

وإن كتب به لناظر الجيش بالشام أبد لفظ الممالك الإسلامية بالشام المحروس.

وإن كتب به لناظر الدولة كتب: توقيع شريف بأن يفوض إلى الممجلس العالي القاضوي الكبيري الفلاني فلان ضاعف الله تعالى نعمته نظر الدواوين المعمورة والصحبة الشريفة على أجمل العوائد وأكمل القواعد بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ماشرح فيه.

وإن كتب به لناظر البيمارستان وكان صاحب سيفٍ كتب: توقيع شريف أن يفوض إلى المقر الكريم أو الجناب الكريم أو العالي على قدر رتبته الأميري الكبيري الفلاني فلان الناصري مثلاً: أعز الله أنصاره أ نصرته أو ضاعف الله تعالى نعمته بحسب مايليق به نظر البيمارستان المعمور المنصوري على أجمل العوائد وأكمل القواعد لما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ماشرح فيه.

وكذلك نظر الجامع الجديد ونظر الحرمين الشريفين كل بما يناسب الألقاب.

وعلى ذلك.

المرتبة الثانية من التواقيع - مايكتب في قطع الثلث بقلم التوقيعات وهو لمن مرتبته السامي بالياء.

قال في التثقيف: وصورته في الطرة والصدر على ماتقدم شرحه لكن بأخصر مما تقدم.

قال: وبذلك يكتب لنقيب الأشراف ولقضاة القضاة بحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرك وكذلك لقضاة العسكر بالممالك المذكورة والمفتين بدار العدل بها ووكلاء بيت المال بها والمحتسبين ونظار الجيش بها وكتاب الدست بمصر والشام وناظر البيوت بالديار المصرية.

وكذلك ناظر خزائن السلاح ومستوفي الصحبة وناظر بيت المال وناظر الخزانة الكبرى وخزانة الخاص وناظر الأحباس ومشايخ الخوانق الكبار: كسعيد السعداء وبيبرس بالقاهرة والشيمصاتية 7 بدمشق وكذلك تقدمة التركمان بالشام وتقدمة الأكراد به ومشيخة العائد.

فإن كتب بذلك لنقيب الأشراف كتب توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي الأميري الفلاني فلان: أدام الله تعالى علوه في نقابة الأشراف بالديار المصرية على عادة من تقدمه وإن كتب لقاضي قضاة الشافعية بحلب كتبتوقيع شريف أن يستقر المجلس السامي الأميري الفلاني فلان: أدام الله تعالى علوه في نقابة الأشراف بالديار المصرية على عادة من تقدمه وقاعدته على ماشرح فيه.

وإن كتب لقاضي قضاة الشافعية بحلب كتب توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامي القضائي الفلاني فلان: أيد الله تعالى أحكامه في قضاء قضاة الشافعية بحلب المحروسة على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته على ما شرح فيه.

وإن كتب للحنفي بها كتب كذلك وأبدل لفظ الشافعية بالحنفية وكذا في المالكية والحنابلة.

وإن كتب لأحد قضاة القضاة بغيرها: كطرابلس وحماة وصفد والكرك وأبدل لفظ حلب بلفظ تلك المدينة والباقي على حكمه.

وإن كتب لأحد قضاة العسكر بالممالك المذكورة كتب توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامي القضائي فلان الشافعي مثلاً أو نحو ذلك: أيد الله تعالى أحكامه في قضاء العسكر المنصور بالمكان الفلاني على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته.

وإن كتب بإفتاء دار العدل بشيء من هذه الممالك أبدل لفظ قضاء العسكربلفظ إفتاء دار العدل والباقي على حكمه.

وإن كتب لأحد من وكلاء بيت المال بها كتب: توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي القضائي الفلاني فلان: أدام الله تعالى رفعته في وكالة بيت المال المعمور بالمكان الفلاني على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته.

وإن كتب لأحد من المحتسبين بهذه الممالك كتب توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامي القضائي الفلاني: فلان: أدام الله تعالى رفعته في نظر الجيوش المنصورة بالمملكة الفلانية على عادة من تقدمه وقاعدته.

وإن كتب لأحد من كتاب الدست بالديار المصرية كتب توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامي القضائي الفلاني فلان: أدام الله تعالى رفعته غي كتاب الدست الشريف بالأبواب الشريفة.

ثم إن كان عن وفاةٍ عينه أو بنزول عينه.

وإن كان بالشام أبدل لفظ بالأبواب الشريفة بلفظ بالشام المحروس.

وإن كتب بذلك في نطر البيوت بالديار المصرية كتب توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي القضائي الفلاني: أدام الله رفعته في خزائن السلاح المنصورة على عادة من تقدمه في ذلك قاعدته.

وإن كتب باستيفاء الصحبة كتب توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي القضائي الفلاني: وإن كتب بنظر الخزانة الكبرى كتب توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي القضائي الفلاني أدام الله رفعته في نظر الخزانة العالمية الكبرى على عادة من تقدمه وقاعدته وإن كتب بنظر خزانة الخاص أبدل لفظ الخزانة العالية الكبرى بلفظ خزانة الخاص الشريف والباقي على ماتقدم.

وإن كتب بنظر االأحباس كتب توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي القضائي الفلاني فلان: أدام الله تعالى رفعته في نظر الأحباس المبرورة على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته.

وإن كتب بمشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء كتب توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي الشيخي الفلاني: أعاد الله تعالى من بركاته في مشيخة الخانقاه الصلاحية على عادة من تقدمه وقاعدته.

وإن كتب بمشيخة خانقاه بيبرس أبدل لفظ الخانقاه الصلاحية بلفظ الخانقاه الركنية بيبرس والباقي على ماتقدم.

وإن كتب بمشيخة الشيمصاتية بدمشق أبدل ذلك بلفظ الخانقاه الشميصاتية بالشام المحروس وإن كتب بتقدمة التركمان بالشام كتب توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامي الفلاني: أعزه الله تعالى في تقدمة التركمان بالشام المحروس على عادة من تقدمه وقاعدته.

وإن كتب بتقدمة الأكراد أبدل لفظ التركمان بلفظ الأكراد.

وإن كتب بمشيخة العائد كتب توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامي الفلاني: أعزه الله تعالى في مشيخة العائد على عادة من تقدمه وقاعدته.

وعلى ذلك.

الطبقة الثانية من التواقيع ما يفتتح بلفظ أما بعد حمد الله وهو لمن رتبته السامي بغير ياء وهي على مرتبتين المرتبة الأولى - مايكتب في قطع الثلث وهو الأصل فيما يكتب في الثلث ثم ترقي عنه إلى رتبة الافتتاح بالحمد.

ألا ترى أن المناشير التي تكتب في قطع الثلث بقلم التوقيعات تفتتح كلعها بلفظ أما بعد على ماسيأتي بيانه في المقالة السادسة في الكلام على المناشير إن شاء الله تعالى.

وصورته أن يكتب في الطرة توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامي القضائي فلان الدين أو الشيخ فلان الدين في كذا على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته على ماشرح فيه ثم يكتب في الصدر أما بعد حمد اللهوصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يقول: فإن أولى الأمور بكذا من هو بصفة كذا أو إن أولى الناس بالتقديم من هو متصف بكذا ونحو ذلك ثم يقال: ولما كان المجلس ويؤتى بنحو ماتقدم من المفتتح بالحمد لله.

قلت: وقد قل استعمال هذا الضرب بديوان الإنشاء الشريف وإن كان هو الأصل فيما يكتب في هذا القطع حتى لايكاد يكتب به إلا في النادر تغالياً في رفعة المكتوب لهم مع المسامحة لهم في مثل ذلك.

المرتبة الثانية - مايكتب من هذه الطبقة في قطع الثلث.

قال في التثقيف: وهو قليل جداً لايكون إلا في تدريس كبير أو نظر وقفٍ كبير أو كبيرٍ قديم الهجرة في الخدمة الشريفة إلا أن الوظيفة صغيرة لاتقتضي أن تكون في قطع الثلث.

الطبقة الثالثة من التواقيع ما يفتتح بلفظ رسم بالأمر الشريف وهي على مرتبتين المرتبة الأولى - مايكتب في قطع العادة المنصوري بقلم الرقاع وهو لمن رتبته السامي بغير ياء ممن لم تبلغ رتبته قطع الثلث.

قال في التثقيف: وصورته أن يكتب في الطرة توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامي القاضي فلان الدين: أعزه الله تعالى في كذا أو أن يرتب أو أن يقدم ويذكر ماتضمنه الشاهد من قصةٍ أو قائمةٍ من ديوان الوزارة أو الخاص أو غير ذلك على ماشرح فيه.

قال: ثم يكتب في الصدر بعد البسملة رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني الفلاني باللقب الخاص ولقب السلطنة: مثل الناصري الزيني ونحوذلك ويدعى للسلطان بأدعية تناسب الوظيفة والمتولي لها وأقلها ثلاث فقرات فما زاد أن يستقر المجلس السامي القاضي فلان الدين فلان أو مجلس القاضي فلان الدين فلان: أعزه الله تعالى في كذا لما له من صفاتٍ هي كذا وكذا ويأتي من صفات المدح بما يناسب المقام ثم يقال: فليباشر ذلك أو فليتلق هذا الإحسان أو فليقابل صدقاتنا الشريفة ونحو ذلك ثم يوصى بما يليق بتلك الرتبة ويدعى له بسجعتين فقط.

ثم يقال: بعد الحظ الشريف أعلاه.

ثم قال: وبذلك يكتب لكتاب الدرج ومستوفي الدولة وناظر الأهراء وناظر المطابخ ومشايخ الخوانق الصغار والتداريس الصغار وأنظار الأوقاف الصغار ونحوذلك مما لايأخذه حصر.

وحينئذ فإن كتب بذلك لكاتب درج كتب في الطرة توقيع شريف أ يستقر مجلس القاضي فلان الدين فلان: أعزه الله تعالىفي كتابة الدرج الشريف وإن كتب به لمستوفٍ من مستوفي الدولة كتب أن يستقر المجلس السامي القاضي فلان الدين فلان: أدام الله نعمته في استيفاء الدولة الشريفة على عادة من تقدمه وإن كتب لناظر الأهراء كتب 0 أن يستقر المجلس السامي القاضي فلان الدين فلان: أدام الله رفعته في نظر المطابخ السعيدة وإن كتب فنظر مطابخ السكر كتبأن يستقر المجلس السامي القاضي فلان الدين فلان: أدام الله رفعته في نظر المطابخ السعيدة.

وإن كتب بمشيخة خانقاه صغيرة كتب بأن يستقر المجلس السامي القاضي فلان الدين فلان: نفع الله تعالى ببركته في مكشيخة الخانقاه الفلانية على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته.

وإن كتب بتدريس صغير كتب أن يستقر في تدريس المدرسة الفلانية على عادة من تقدمه وقاعدته.

وإن كتب بنظر وقف كتب أن يستقر في نظر الوقف الفلاني ونحو ذلك.

ثم إن كان لشيءٍ من ذلك معلوم يشهد به الديوان السلطاني ككتابة الدرج واستيفاء الدولة كتب بعد قوله وقاعدته: بما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور.

وإن كان الشاهد بالمعلوم كتاب وقف كتب بما لذلك من المعلوم الشاهد به كتاب الوقف المبرور.

ويقول في آخر طرة كل ولاية من التقاليد والتفاويض والمراسيم والتواقعي على اختلافها: على ماشرح فيه.

الطبقة الرابعة التواقيع الصغار وهي لأصغر ما يكون من الولايات: من نظر وقفٍ صغيرٍ ونحو ذلك ويكون في ثلاثة أوصال ونحوها وهي على ضربين: وصورتها أن يكتب في أعلى الدرج: توقيع شريف بأن يستقر فلان في كذا على ماشرح فيه.

ويكون ذلك في سطرين ثم يكتب في آخر ذلك الوصل: رسم بالأمر العالي المولوي السلطاني إلى آخر ماتقدم في الطبقة الثالثة ويقال في الدعاء: " أعلاه الله وشرفه وأنفذه وصرفه " ونحو ذلك ثم قال: أن يستقر فلان في كذا ويشرح ماتضمنه الجواب في هامش القصة ثم يقال: فليعتمد هذا المرسوم الشريف كل واقفٍ عليه ويعمل بحسبه ومقتضاه من غير عدول عنه ولاخروج عن معناه بعد الخط الشريف أعلاه.

الضرب الثاني - مايكتب على ظهور القصص.

وكيفيته أن تلصق القصة التي شملها جواب كاتب السر أوغيره على وصلين من ورق العادة الصغير.

قال في التثقيف: وصورتها أن يكتب في ظاهر القصة بغير بسملة قبل الوصل الذي وصله بنحو أربع أصابع ماصورته: رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني على نحو ماتقدم.

ويدعى له: " أعلاه الله وشرفه وأنفذه وصرفه " على ماتقدم في الضرب الأول ثم يقال: أن يتأمل ما أنهاه رافعها باطناً وليتقدم بكذا وكذاويشرح ماتضمنه الجواب في هامش القصة ثم يقال: فليعتمد هذا المرسوم الشريف كل واقف عليه ويعمل بحسبه ومقتضاه بعد الخط الشريف أعلاه.

قال: وإن كان رافع القصة ممن هو متميز بعد التميز قيل: مترجمها بدل رافعها فإن زيد في قدره قيل: ماذكره مجلس القاضي أو المجلس السامي القاضي إن كان من هذه الرتبة وتذكر بعض ألقابه ثم يقال: أدام الله علوه أو أعزه الله فليتقدم ويكمل إلى آخره.

واعلم ان المقر الشهابي ابن فضل الله رحمه الله قد ذكر في التعريف افتتاحات أخرى للتواقيع بين رتبة أما بعد حمد الله ورتبة رسم بالأمر الشريف فقال: بعد الافتتاح بأما بعد حمد الله: وقد تستفتح بقول: أما بعد فإن أولى ماكان كذا أو ماهذا معناه وقد تستفتح بقول: من حسنت طرائقه وحمدت خلائقه أو ماهذا معناه وجعلها رتبة بعد رتبة.

قلت: وهذه الافتتاحات كانت مستعملة في الدولة العباسية ببغداد وفي الدولة الفاطمية بالديار المصرية والبلاد الشامية ثم في الدول التركية إلى زمن المقر الشهابي المشار إليه في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون ثم رفضت بعد ذلك وترك استعمالها بالديار المصرية البتة فلم يكن أحد من كتاب ديوان الإنشاء يستعمل شيئاً منها.

المقصد الثالث في بيان وضع كيفية ما يكتب في هذه الولايات في الورق ما يكتب في هذه الولايات في الورق ويتعلق به عشرة أمور الأمر الأول - الطرة وهي في اصطلاحهم عبارة عن طرف الدرج من أعلاه ثم أطلقوه على ما قلت: وليس صحيحاً من حيث اللغة فإنه في الأصل مأخوذ من طرة الثوب.

وقد ذكر الجوهري وغيره أن طرة الثوب هي طرفه الذي لا هدب فيه والذي لا هدب فيه من الثوب هو حاشيتاه بخلاف أعلاه وأسفله.

نعم يجوز أن تكون مأخوذة من الطر بمعنى القطع لأن الطرة مقتطعة عن كتابة المتن يفصل بينهما بياض ومنه سمي الشعر المرسل على الصدغ طرة.

وقد جرت العادة في كل ما يكتب له طرة أن يكتب في أعلى الدرج في الوسط بقلم الرقاع بكل حالٍ ما صورته الاسم الشريف ثم تكتب الطرة تلو ذلك من أول عرض الدرج إلى آخره دون هامش عن يمين ولا شمال: بحيث تكون أطراف المنتصبات من أول السطر الأول ملاصقة لأسفل ماكتب في أعلى الدرج مما تقدم ذكره.

ويأتي بالطرة المناسبة: من تقليدٍ أو مرسومٍ أو تفويضٍ أو توقيع بالقلم المناسب لمقدار قطع ذلك الورق على ما تقدم بيانه ويأتي على مايكتب في الطرة على ماتقتضيه الحال على ماسبق ذكره إلى أن ينتهي إلى آخره فإن انتهى في أثناء سطرٍ ترك باقيه بياضاً وكتب في آخره على ماشرح فيه بحيث يوافي آخر ذلك السطر وإن انتهى مايكتب في الطرة في آخر السطر كتب تحت ذلك السطر على حيال آخره على ماشرح فيه كما تقدم لايختلف الحال في ذلك في مكتوب ولاية إلا فيما يكتب على ظهور القصص فإن العادة جرت فيه أن لايكون له طرة ولايكتب في أعلاه الاسم الشريف: لأنه قد علم أنه لايكتب فيه إلا الاسم الأمر الثاني - البسملة الشريفة.

ومن شأنها أن تكتب في أول كل ولاية لها شأن عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: " كل أمر ذي بال لايبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم " يعني ناقص البركة ومحلها من كتب الولايات في أول الوصل الرابع بعد أوصال البياض.

أما مالابال له من كتب الولايات: كالتواقيع التي على ظهور القصص وماهو منها على صورة أوراق الطريق فقد جرى الاصطلاح على أنه لايكتب في أولها بسملة أصلاً بل تفتتح برسم بالأمر الشرف.

قلت: وقد كان القاضي علاء الدين علي الكركي حين ولي كتابة السر الشريف بالديار المصرية في أول سلطنة الظاهر برقوقٍ الثانية أمر أن تكتب في أول هذه التواقيع بسملة لطيفة المقدار طلباً للتبرك ثم ترك ذلك بعد موته وانتقال الوظيفة إلأى غيره.

ولايخفى أن ماعليه الاصطلاح هو الوجه: فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد قيد مايبدأ بالبسملة بما يكون له بال من الأمور ومقتضاه أن مالابال له لايبدأ فيه ببسملة.

على أنه قد كان أمر أن تجعل البسملة قبل قوله رسم بالأمر الشريف ومقتضى ذلك أن تقع العلامة فوق البسملة وفيه مالا يخفى بخلاف غيره من الولايات الكبار فإن العلامة تكون فيها تحت السطر الثاني من البسملة على ماسيأتي بيانه.

الأمر الثالث - الافتتاح الذي يلي البسملة.

وقد علمت مما تقدم أن الذي استقر عليه افتتاح كتب الولايات على اختلافها من أعلى وأدنى لايخرج عن ثلاثة أصناف: أحدها - الافتتاح بالحمد لله وهو أعلاها.

ثم تختلف رتبته بعد ذلك باختلاف مايكتب فيه من مقادير قطع الورق: إذ هو تارة تفتتح به التقاليد وتارة تفتتح به المراسيم المكبرة وتارة تفتتح به التفاويض وتارة تفتتح به كبار التواقيع.

الافتتاح بأما بعد حمد لله وهو المرتبة الثانية من المراسيم المكبرة والتواقيع الكبار وتكون في قطع الثلث تارةً وفي -الثاني قطع العادة المنصوري أخرى.

الثالث - الافتتاح برسم بالأمر الشريف وهو المرتبة الثلثة من المراسيم والتواقيع وهي أدنى رتبها.

وتكون في قطع العادة الصغير وربما كتب بها في قطع العادة المنصوري.

الأمر الرابع - البعدية فيما يفتتح فيه بالحمد لله

وهو على ضربين:

الأول - أن يقال بعد التحميد والتشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: أما بعد وهو الأعلى.

وتكون في التقاليد خاصة.

الثاني - وبعد وهي دون أما بعد.

وتكون في التفاويض وكبار المراسيم والتواقيع.

وقد مر القول على ذلك مستوفى " في الكلام على الفواتح في المقالة الثالثة.

الأمر الخامس - وصف المتولي بما يناسب مقامه ومقام الولاية من المدح والتقريظ.

وقد مر القول على ذلك في المقصد الأول من هذا الطرف في الكلام على مقدمات الولايات.

الأمر السادس - الألقاب المختصة بصاحب الولاية.

قد تقدم أنه يذكر في الطرة بعض الألقاب التابعة للقب الأصلي: من المقر والجناب وغيرهما مع التصريح باسم المولى والدعاء له بما يناسبه على ماتقدم بيانه هناك.

أما في أثناء الولاية فإنه يستوعب جميع ألقابه ويعاد ذكر الألقاب مستوفى " في المقصد الأول من هذا الفصل في الكلام على مقدمات الولايات.

الأمر السابع - وصية صاحب الولاية بما يناسب ولايته.

وقد تقدم التنبيه على ذلك في الكلام على مقدمات الولايات أيضاً.

الأمر الثامن - الدعاء لصاحب الولاية بما يناسبه إذا كان مستحقاً لذلك.

وقد ذكر في التعريف أن من استصغر من المولين لايدعى له في أول ولاية ولاآخرها وربما قيل بدل الدعاء أو بعده: والخير يكون.

الأمر التاسع - الخواتم: من كتابةإن شاء الله تعالىوالتاريخ والمستند والحمدلة والتصلية على نحو ماتقدم في المكاتبات.

فأما المشيئة فإنه يكتب في آخر مكتوب كل ولاية: إن شاء الله تعالى في سطرٍ منفردٍ.

وأما التاريخ فإنه يكتب في سطرين كما تقدم في المكاتبات فيكتب كتب في يوم كذا من شهر كذا في سطر ويكتب سنة كذا وكذا في سطر تحته.

وأما المستند فإنه يكتب تحت التاريخ كما تقدم في المكاتبات.

فإن كان بتلقي كاتب السر كتب في سطرٍ واحد حسب المرسوم الشريف وإن كان برسالة الدوادار كتب حسب المرسوم الشريف في سطر ثم كتب في سطر تحته برسالة الجناب العالي الأميري الكبيري الفلاني الدوادار الناصريمثلاً وإن كان بخط السلطان كتبحسب الخط الشريف وإن كان بإشارة النائب الكافل كتب بالإشارة العالية الأميرية الكبيرية الفلانية في سطر وكتب كافل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى في سطر تحته وإن كان بإشارة الوزير كتب بالإشارة العالية الصاحبية الوزيرية الفلانية في سطر ثم كتب في السطر الثاني مدير الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى وإن كان الوزير صاحب سيف أسقط منها الصاحبية.

أللهم إلا أن يكون مرسوماً صغيراً أو توقيعاً صغيراً مما كتب في هيئة ورقة الطريق أو على ظهر القصة فإنه إن كان بتلقي كاتب السر كتب المستند على حاشية التوقيع على سمت مابين السطر الأول والثاني وإن كان بإشارة النائب الكافل كتب هناك بالإشارة العالية سطرين على نحو ماتقدم فيما يكتب تحت التاريخ وإن كان بإشارة الوزير فالأمر كذلك وإن كان برسالة الدوادار كتب على الحاشية هناك حسب المرسوم الشريف ثم كتب تحت التاريخ برسالة الجناب العالي إلى آخر المستند.

وأما الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ففي سطر تحت المستند كما في المكاتبات يكتب فيها الحمد لله وحده ثم يخلي بياضاً ثم يكتب وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه.

وأما الحسبلة ففي سطر تحت ذلك يكتب فيه حسبنا الله ونعم الوكيل على ماتقدم في المكاتبات.

الأمر العاشر - البياض الواقع في كتب الولايات وله ستة مواضع: الأول - فيما بين الطرة والبسملة وهي ثلاثة أوصال بالوصل الذي فيه الطرة لايتجاوز ذلك في مقدار قطع كبير ولاصغير.

إلا أنه ربما اقتصر على وصلين فيما استصغر شأنه من الرتبة الثالثة من التواقيع.

الثاني - الحاشية فيما على يمين البسملة ومابعدها.

وأهل زماننا يعبرون عن ذلك بالهامش ولم أجد له أصلاً في اللغة.

وقد تقدم القول عليها في المقالة الثالثة في الكلام على متعلقات قطع الورق ومايخرط في سلكه.

أما آخر الأسطر فإنه لابياض فيه على أن ملوك الروم يجعلون لكتبهم حاشيةً من أول الأسطر وحاشيةً من آخرها على ماتقدم القول عليها في الكتب الواردة عن صاحب القسطنطينية.

الثالث - بيت العلامة وهو فيما بين السطر الأول: وهو الذي يلي البسملة وبين السطر الثاني: وهو الذي يكون في آخر وصل البسملة.

وقد تقدم في الكلام على مقادير الورق في المقالة الثالثة أن مقداره في الزمن القديم كان قدر شبر وقد شاهدناه دون ذلك بقليل فيما كتب به في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون على مايشهد به الموجود من تواقيعهم ثم تناقص قليلاً فلما غلا الورق وقصرت الأوصال نقص مقداره حتى صارنحو نصف شبر وهو على ذلك إلى الآن.

ويزيد ذلك وينقص باعتبار قطع الورق فإنه في القطع الكبير يكون الوصل أطول منه في القطع الصغير.

مابين الأسطر في متن الولاية وهو على مقدار النصف من بيت العلامة في القطع الكبير والقطع الصغير لايكاد ذلك -الرابع يختلف إلا في التواقيع والمراسيم التي هي على هيئة أوراق الطريق والتي على ظهور القصص فإن مابين السطرين منها يكون متضايقاً حتى يكون بقدر ثلاثة أصابع مطبوقةٍ.

مابين أسطر اللواحق فيما بعد إن شاء الله تعالى فإنه يكون مابين كل سطرين في متن الولاية إلا في المستند إذا كان -الخامس سطرين مثل أن يكون برسالة الدوادار ونحوها فإن السطرين يكونان متلاصقين.

السادس - ما بعد اللواحق في آخر الكتاب وهو قدر يسير قدر إصبعين مطبوقين أو ثلاثة أصابع مطبوقاتٍ وما قارب ذلك.

المهيع الثاني ما يكتب في متن الولايات من التقاليد والمراسيم

في ذكر نسخ مما يكتب في متن الولايات من التقاليد والمراسيم المكبرة والتفاويض والتواقيع قلت: وقد كنت هممت أن أجعل ابتداآت التقاليد والتفاويض والمراسيم والتواقيع: من الافتتاح بالحمد لله أو بأما بعد حمد الله أو برسم بالأمر الشريف في فصل مستقل ومقاصدها المتعلقة بالوظيفة في فصل على حدة ليختار الكاتب الذي لا يحسن الإنشاء ما أحب من الابتداآت المناسبة للاسم أو اللقب ونحوهما ثم يبين القصد المتعلق بالوصف.

ثم أضربت عن ذلك وأتيت بالنسخ على صورتها لأمور: منها - أن في تضييع النسخة إفساداً لصورتها وضياع فضيلة المنشئين وإشاعة ذكرهم.

أن يعرف أن الصورة التي تورد مما كتب به في الزمن السابق وأنها مصطلح قد اصطلح عليه أهل ذلك الزمان: -ومنها ومنها - أن يعرف المنشئ ترتيب من تقدم لينسج على منواله.

وإذا أراد من لا دربة له بالإنشاء أخذ تحميدة من تقليد أو توقيع وغيرهما ونقلها إلى مقصد من مقاصد الولاية لم يعجزه ذلك.

ثم قسمته على ثلاثة أقسام: ولايات وظائف الديار المصرية وهي على نوعين النوع الأول الولايات بالحضرة وهي على ستة أضرب الضرب الأول ولايات أرباب السيوف وهي على طبقتين الطبقة الأولى ذوات التقاليد وهي على ثلاث وظائف الوظيفة الأولى الكفالة وهي نيابة السلطنة بالحضرة وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف المملكة في المقالة الثانية أن الكفالة هي أعلى رتب السلطنة وأن النائب الكافل يحكم في كل مايحكم فيه السلطان ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك بخلاف غيره من النواب فإن كل نائب لايعلم إلا على مايختص بخاصة نيابته.

وقد تقدم في مقدمة الولايات أن لقبه المقر الكريم على مااستقر عليه الحال.

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة كتب بها من إنشاء الشهاب محمود الحلبي رحمه الله وهي: الحمد لله الذي جعل ركن الدولة في دولتنا القاهرة ثابت القواعد على فرقد الفراقد راقياً في رتب العلو الآخذة من أفق التأييد بالمطالع ومن نطق العز بالمعاقد حالياً بعقود المهابة التي لاتزال لرعبها على الأعداء طلائع خيلٍ في المراقب وروائع خيال في المراقد حاوياً من أنواع المفاخر مالو كاثرته الدراري غدت وهي لمجموعة فراقد أو فاخرته الدرر ثقبتها الأفكار النواقد مقلداً من سيفو الظفر مالاتنبؤ في نصرة الإسلام مضاربه وكيف تنبؤ وأوامرنا لعقود حمائلها على عواتق مجده عواقد.

نحمده على نعمه التي عدقت أمور دولتنا بمن يرفع بأسه منارها وعقدت قواعد مملكتنا بمن يوالي فضله أنوارها وعضدت همم أوليائنا بمن إذا تخيلت أعداء الدين مواقع صوارمه كان أمنع صونها إسارها وأنفع سلاحها فرارها.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تشرق الهمم بلوامعها وتشرف الكلم بجوامعها وتزكو الأمم بما تنقل الألسنة منها عن القلوب إلى مسامعها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أقامنا الله لنصر دينه وألهمنا تفويض مصالح أمته إلى كل ولي مارفعت راية نصر إلا تلقاها عرابة مجده بيمينه وعضدنا في جهاد أعدائه بأعز صفي ينوب بأسه للجيش عن طليعته ويقوم رأيه في الحرب مقام كمينه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين اختارهم لصحبته وارتضاهم وأرهفهم لإقامة ملته وانتضاهم فمنهم من فاز بمزيتي سيقه وتصديقه ومنهم من كان الشيطان ينكب عن طريقه ومنهم من اختار الشهادة على الانتصار بفريقه ورفيقه ومنهم من أقامه بشرف الأخوة معه مقام شقيقه صلاة يبلغه إخلاص مقيمها ويعرض عليه إيمان مديمها وسلم.

أما بعدن فإنا - من حين أورثنا الله ملك الإسلام لا عن كلالة وألبسنا في مواقف الذب عن دينه حلل العز المعلمة بالجلالة وكمن لنا في أرضه وأنهضنا بمسنون الجهاد وفرضه ونشر دعوة ملكنا في طول الوجود وعرضه - لم نزل نرتاد لكفالة الممالك الإسلامية من تأوي منه إلى ركن شديد ورأي سديد وحزمٍ يقرب من مواهب النصر كل بعيد وعزم إذا أرهف صوارمه من أدنى الصعيد وجف لهول مواقعها باب الحديد فهو المطوي في أثناء ضمائرنا وإن تقلدنا قبله سواه والمنوي في أحناء سرائرنا وإنما لامريءٍ مانواه قد حلب قدم هجرته الدهر أشطره وكتب حسن خبرته من عنوان السير أسطره وتمثلت مرآة الزمان لفكره فاجتلى صور الوقائع في صفائها وترددت تجارب الأمم على سمعه فعلم ما يأتي ومايذر في تركها واقتفائها

واستقبل دولة أسلافنا الشريفة من فواتحها فكان لسان محاسنها وبنان ميامنها وخزانة سرها وكنانة نهيها وأمرها وطليعة تأييدها وذريعة أوليائها إلى عوارفها وجودها وعنوان أخبارها وعنان سوابقها التي لاتدرك مآثر من سلف شق غبارها ويمين قبضتها المصرفة بين البأس والندى وأمين آرائها المؤيدة بالتوفيق اللدني على العدا وركنها المشيد بالأسل وهو ماتبنى عليه الممالك وحصنها المصفح بالصفاح فلا تستطيع الأهواء أن تتوقل إليه تلك المسالك وزعيم جيوشها التي اجتنت من قصب قواضيه ثمر النصر غير مرة ومتقدم عساكرها التي اجتلت به وجوه الظفر الحلوة في أيام الكريهة المرة.

ولما كان المقر الكريم الفلاني هو معنى هذه الصفات المبهمة ومبنى هذه القواعد المحكمة وطراز حلل هذه الأحوال المعلمة وسر المقاصد الظاهرة وسلك هذه النجوم الزاهية بل فلك هذه الدراري الزاهرة: تحلق صوادح البراعة فتقع دون أوصافه بمراحل وتغوص سوابح اليراعة فيلقيها العجز عن استخراج دور نعوته بالسواحل فأوصافه تذكر على وجه الإجماع لعجز ألسنة الأقلام عن بلوغها إلى غايتها ووصولها فلذلك اقتضت آراؤنا الشريفة أن نفسح مجال الهدى بتفويض إيالة الممالك إليه وأن نقطع آمال العدا بالاعتماد في زعامة الجيوش الإسلامية عليه وأن نقر عيون الرعايا بإلقاء مقاليد العدل والإحسان إلى يديه وأن نصون عقائل المالك من مهابته بما يغدو سوراً لعواصمها وسوارالمعاصمها وشنباً تفتر ثغورها عن بروقه أو لهباً يقطع طريق أمل العدا عن تخيل خيالها في طروقه ليعتضد الدين منه بركنه ويتغلب على الشرك في حالتي حربه ووهنه ويتقلب كل من رعايانا بين وهاد يمنه ومهاد أمنه - رسم بالأمر الشريف - لازال ملكه على الأركان راقياً من أفق النصر إلى أعلى مكانةٍ وأرفع مكان - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالديار المصرية والممالك الإسلامية شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً فلا يخرج منها شيء عن أوامره وأحكامه ولايعدل في سلمها وحربها عن حكمي سيوفه وأقلامه.

فليستقر في هذه الرتبة العالية استقرار الأركان المواكث والأطواد اللوابث والأصول النوابت والنجوم الثوابت مؤثلاً قواعدها برأيه السديد ورايته معوذاً كمالها بسيف النصر وآيته مبتدئاً في إعلاء منارها من العدل بأقصاه ومن الإحسان بغايته مكثراً أعداد الجيوش الإسلامية برأيه السعيد مقرباً من مطامح النصر النائية كل بعيد موكلاً بحركات العدو وسكناته جفناً لايألف الغرار وسيفاً لايعرف القرار وعزماً لايرضى من عدوه دون اصطلامه الفرار فلاتزال جيوش الإسلام بجميل تعاهده مزاحة العوائق مزالة العلائق لامانع لها عن الركوب ولاقاطع عن الوثوب قد أعدتها عزائمه فكل زمانها بالتأهب للقاء وقت إمكانه وأمدت بأسها صوارمه فهي لاتسأل عن عدد عدوها بل عن مكانه مقيماً منار العدل الذي هو أساس الملك ودعامته ورأس الحكم بأمر الله في خلقه وهامته ونور الخصب الكافل بمصالح العباد والبلاد وعامته ناشراً له في أقطار الممالك ماحياً بنور إقامته آية ليل الظلم الحالك معاضداً أحكام الشريعة المطهرة بالانقياد إليها والاعتماد في الحل والعقد عليها والاحتفال برفع منارها: فإن ذلك من أفضل ماقدمته الدول الصالحة بين يديها مقدماً عمارة البلاد على كل مهم: فإنها الأصل الذي تتفرع عنه المصالح على افتراقها والمادة التي تستطيل الجيوش الإسلامية على العدا بتوسعها في إنقادها وإنفاقها والأسباب التي تعين الغيوث على نماء مابسط الله لعباده من أرزاقها وأكد مصالحها الرفق الذي ماكان في شيء إلا زانه والعدل الذي ماتصف به ملك إلا حفظه وصانه فقد جعلنا أمره في ذلك جميعه من أمرنا المطاع واقتصرنا عن ذكر الوصايا بما في خصائصه الكريمة من حسن الاضطلاع وجميل الإطلاع واكتفينا بما في خلائقه الجميلة من محاسن لو تخير نفسه لم يزدها على مافيه من كرم الطباع والله تعالى يؤيده وقد فعل ويجعل ركنه من أثبت قواعد الدين وقد جعل إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة أيضاً وهي: الحمد لله الذي زان دولتنا القاهرة من حسامها بتقليده وصان حمى ممالكنا الشريفة من أوليائنا بمن تغدو مواقع سيوفه من كل عدو قلائد جيده وزاد جلالة الملك بمن إذا ركب في مواكب نيابته أورد جياد رعبه من كل متوج من ملوك العدا مناهل وريده وفوض تقدمة جيوشنا المنصورة إلى من تضاعف مهابته في عيون العدا عدد جنوده وتعزوه سرايا خيله في يقظته وتطلع عليه طلائع خياله في هجوده وإذا صلت سيوفه في موقف وغى أغرت رأس كل مستكبر لم يعرف الله قبل ركوعه بسجوده مشرف أقدار أوليائنا من المراتب بما تشرف به أقدار المراتب في نفسها ومفضل أيام دولتنا على الدول بما ألفته من جلالة ملكنا في أمسها ومجمل سير أصفيائنا من المعدلة بما إذا غرسته في قلوب الرعايا كان الدعاء الصالح ثمرة غرسها ومقلد خواصنا من إيالة الملك مالإذا خطبت به الأقلام على منابر الأنامل نقلت البلاغة نقلت البلاغة في تلك الأوصاف عن قسها ومفيض حلل الأنباء المرقومة بأسنى الرتب على من إذا زانت حبرها اللابس زانها بلبسها وإذا أشرقت به هالة المواكب لوغى " سقطت فوارس ملوك العدا عن مراكبها واضطربت الأسرة بملوك فرسها وإذا كتمته الأعداء أنباءها نطقت ألسنة رياحه بأسرار أهل الشرك ولايرى أسمع من صمها ولاأفصح من خرسها وإذا تطاولت أبطال الوقائع للقائه افترت ثغور سيوفه عن شنب النصر لإلفها بمعانقة الأعناق وأنسها.

نحمده على نعمه التي جادت شرف أسمائنا إلى أسماع المنابر وأنطقت بمضاعفة الأنباء لأوليائنا ألسنة الأقلام في أفواه المحابر وأعادت بسيف النصر حقوق ملكنا الذي تلقيناه مع الأولية والأولوية من أسلافنا الكرام كابراً عن كابرٍ.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة لاتزال سيوفنا بإعلاء منارها ناهضة وجياد جهادنا لنشر دعوتها في الآفاق راكضة ومواد نعمنا ونقمنا لأمال حامليها باسطة ولأرواح جاحديها قابضة ونشهد أ سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أيده الله تعالى بنصره وآتاه من معجزاته مايحول البصر دون حصره وجعله أمام الأنبياء وإمامهم مع تأخر عصره ونصره بالرعب الذي زحزح كل ملك عن سريره وأنزل كل متوج من قصره صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هجروا في نصرته مألوف الأوطان والأوطار وركبوا في لإقامة ملته مخوف الأهوال والأخطار وفتحوا بيمن دعوته مااشتملت عليه المشارق والمغارب من الأرجاء الممتدة والأقطار صلاةً لايزال سيف جهادنا لدوامها مقيماً وحكم جلادنا لإقامتها مديماً وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من سمت التقاليد بأوصافها وصرفت أمور الممالك بين بأسه وإنصافه وحليت مواقف الخدمة الشريفة من جواهر مهابته بما هو جدير بحلي السيف وزينت مجالس العدل من إبالته بما هو مبرأ من الميل والهوى منزه عن الظلم والحيف وملئت القلوب من مخافته بما يمنع ذا القوة في الباطل من توهم البطش وذا الصبوة في الهوى من استزاره ويحسن لها الفرار ويهون عليها في حنب ماتتوقعه من مواقع سيوفه البي والإسار وعدق به من مصالح الأقاليم مايصرفه بيمين دأبها اليمن ويسار شأنها اليسار وفوضت زعامة الجيوش منه إلى همام يقوم بأمرها على مايجب وليث لو لم ينهض بألوفها المؤلفة في الوقائع لكان من نفسه وحدها في جحفل لجب ومقدام آلاف العدا في شجاعته آحاد وضرغام قسور أهل الكفر بين يدي وثباته وأسودهم تقاد من لم نزل نعده في أركان البيت الشريف المنصوري بالخناصر ونعده للمواقف التي ليس للدين فيها غير تأييد الله وحد السيف ناصر وندخره من معادن أوليائنا الذين تمسكوا من الانتماء إلينا بأمكن الأسباب وأقوى الأواصر ونقلد أعطاف الأواصر منه سيفاً يرمى منه بيت العدا ومعاقلهم بأفتك حاصدٍ وأفلل حاصر فكم من مواقف شفع فيها الشجاعة بالخضوع لربه ومواطن لبس فيها قلبه على الدرع إذا لبس غيره الدرع على قلبه ومسالك سلكها في طاعة الله وطاعتنا والسيوف تنفر من قربها ومشاهد شهدها في طاعة الله وطاعتنا والقلوب تفر من حجبها وليالٍ قطعها في خدمتنا لم يصحب غير ألسنة أسنته وأعين شهبها ومقاصد للدين بلغها والسهام لاتحملها من الفرق قوادم النسور وسرايا وقف بينها وبين العدا فضرب بينهم من شجاعته بسور وبحار حرب لم تتجاسر السوابح على قطعها حتى مد عليها من معوجات سيوفه قناطر ومن مقومات ذوابله جسور وكم أنام الرعايا في مهاد عدله فلم يطرقها طيف ظالم في الكرا ولاروع سربهم خيال مغير أوهمهم السرى بل كانوا محفوظين بمهابته محفوفين بمواهبه وادعين في ظله الذي مادجا عليهم ليل خطب إلا أطلع لهم بدور الأمن في ولما كان فلان هو الذي سار بذكر مهابته المثل وصار له في قلوب الأعداء من الرعب ماتشابه فيه القاتلان الوجل والخجل وجمع محاسن الصفات فما أخذ عنه أو نطق به أو نظر إليه إلا وجد ملء المسامع والأفواه والمقل ولاجرد على العدا سيفاً إلا وودعت أرواحهم الأجساد ولاأرهف في مجالس العدل والإحسان قلماً إلا وضمنت له الآجام التي نشأ بها كرم السيول وسطوة الآساد ولاطلع في أفق مواكب إلا وهالت العدا هالة بدره ودلت على عظم سلطاننا رفعة قدره وشهدت له بحسن طاعتنا طاعة أمرائنا لأمره وأسلف من خدمة والدنا السلطان الشهيد مالم تزل به عندنا حقوق مرعية وسوابق مرضية ورتبة تقديم سنية ومزية تقريب جعلته مشاهداً بالعيان مقدماً في النية - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نروع العدا بسيفه ونريهم على تقدمته على الجيوش يقظة ماكانوا يروونه حلماً من طيفه وليعلم الأعداء معاجلة أخذهم بالعنف والحيف وأننا لاتأخذنا في الله لومة لائم فليس بيننا وبين أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم إلا السيف.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالت ممالك الإسلام به مفترة المباسم عالية مدى المهابة إذا طرقتها عواصف رياح العدا وقفت دون بلوغها دامية المناسم - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية على العادة في ذلك والقاعدة تفويضاً يفيض على الممالك حلل المهابة ويسلب أعداء الذين رداء الأمن فلا ينفعهم الخضوع ولا الإنابة ويضاعف لنا أدعية الرعايا الصالحة بإجرائهم على ماألفوه من العدل والإحسان فمنهم الدعاء الصالح ومن كرم الله الإجابة.

فليتقلد هذه الرتبة الدالة على ارتفاع قدره لدينا الشاهدة له باحتفالنا بما أوجبه إخلاصه من حقوق الطاعة والولاء علينا المنبهة على أنه سيفنا الذي نصون الممالك بحده ونصول على العدا بمضائه الذي تهلل وجوه النصر كلما أسفر من غمده وليستقر في ذلك نافذاً في المصالح الإسلامية أمره مغيراً على جيوش الأعداء ذكره معملةً في حماية الدين بيضه المرهفة وسمره مجملةً بإشراق طلعته مطتالع المواكب مسيرةً نجوم أسنته إلى قلوب أعداء الدين مسير الكواكب مخفقةً بخفوق رايته مساعي الكفر الصادرة عن آمالهم الكواذب ليعلم عدو الله أنه أشد طلباً له من أجله وألزم لعنقه من عمله وأسبق إليه من رجع صوته وأنزل عليه من مفاجأة موته وليجمل النظر في مصالح الجيوش الإسلامية بما يضاعف عدتها ويبقي على توالي الأحقاب حدتها وجدتها ويأخذهم بإدامة التمرن في الحروب وإطالة عنان التأهب للركوب ويعين كلاً منهم بملاحظة حاله على استدامة قوته وإمكانه ويجعلهم بالاقتباس من شجاعته من القوم الذين لايسألون عن عدد عدوهم بل عن مكانه وليكن لكلمة الشريعة الشريفة رافعاً ولشبه من يمتنع عن الانقياد إلى الأحكام دافعاً وعلى يد من يتطرق إلى الخروج عن أحكامه آخذاً ولمن لم يسلك الأدب

بين يدي حكامه بما يقتضيه تعظيم الحكم العزيز مؤاخذاً وليأمر النواب بإقامة منار العدل الذي يوم منه خير للأرض من أن تمطر أربعين يوماً ويصرف إلى مصالح الثغور الإسلامية وحمايتها فكراً لم يختر دعةً ونظراً يأنف أن يألف نوماً وملاك الوصايا تقوى الله وهي من خصائص نفسه الكريمة وراحة روحه التي هي للفكر في مصالح الإسلام مديمة فليجتهد في المحافظة عليها مااستطاع ويمض لها في مصالح الإسلام أمره الذي جعلناه من أمرنا مطاع.

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة أيضاً كتب به عن السلطان الملك أبي بكر ابن الناصر محمد بن قلاوون للأمير طقزدمر أمير مجلس في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة بعد أن بطلت في دولة أبيه الملك الناصر عدة سنين وهي: الحمد لله الذي اصطفى لسلطاننا المنصور من ينوب عنا في رعاية الجمهور أحسن مناب وأضفى على ملكنا المعمور من رياسته أسر سربال ومن حراسته أجل جلباب وكفى دولتنا الشريفة بساسته مهمات الأمور: فلتأييدها بقيامه دوام ولتشييدها باهتمامه استصحاب وشفى الصدور بصدور إشارته المباركة التي لها بأوامرنا العالية اقتران ومن ضمائرنا الصافية اقتراب وأوفى له من برنا العميم بحقه الذيله بعهده استحقاق للتقديم وإيجاب وسبقه القديم الذي له من سعيد المصاهرة أكرم اتشاج ومن حميد المظاهرة ألزم انتساب.

نحمده على أن بصر آراءنا بطرق الوفاق وسبل الصواب ونشكره على أن نصر راياتنا في الآفاق: فلقلوب العدا من خوفها إلرهاق وإرهاب.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً منزهة عن الشك والارتياب موجهة إلى قبلتها التي ترضاها الألباب ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أظفر عزمه بالثبات وقهر خصمه بالتباب ووفر قسمه من الإنجاد ويسرحزبه للإنجاب وأظهر اسمه بعد اسمه فحلا في الأفواه ذكره وطاب صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا من بعده في رعاية عهده أحسن الأداب صلاة متصلة الأسباب موصلة إلى خير مآل متكلفة بنعم باب لايزال لسحب جودها في الوجود انصباب ولمقترب وفودها ورود إلى مظان الرضوان من غير إغباب ماجرد انتقامنا على الأعداء سيف سطاً يقد الرقاب وأورد إنعامنا الإولياء بحر ندى زاخر العباب وجدد قيامنا بعلم هدى مرت عليه الأعوام ومالمح له أثر ولافتح له باب واعتمد مقامنا الشريف في الجمع للقلوب والتأليف على أعلى ولي أعلى جناب وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن أولى من اعتمدنا في الإنجاب والإنجاح على ديانته وانتجدنا فيما أردنا من الاستصحاب للصلاح بإعانته واعتضدنا على علو مكانه - في تقطين الممالك وتأمين المسالك بصيانته ورعينا عند والدنا الشهيد - سقى الله عهده صوب الرضوان ودنو مكانته فاكتفينا في كفالة الأمة ولإيالة النعمة بخشيته من ربه واستكانته - من حمدت سجاياه وتعددت مزاياه واستندت إلى مأأمر الله تعالى به من العدل والإحسان في الأحكام قضاياه ووجدت منه الزهد والرفق رعاة الإسلام ورعاياه فهو الممدوح فعله من جميع الألسنة الممنوح فضله في سائر الأزمنة الملموح عليه آثار القبول الظاهر من عناية الله لما نواه من الخير لخلق الله وأبطنه فهو عاضد السلطنة الذي حل من العلياء موطنه وكافل المملكة الذي سبق إلى كل مجد فأدركه وسيف الدولة الحامي الحوزة البادي الصولة ومن له اشتمال على العليا ومن يقارن التحقيق له رأساً ولايباين التوفيق له سعياً ويعاون الهدى والنهى على طول المدى له أمراً ونهياً ويعاين الورى لسلطاننا المنصور منه مهدياً يجمل لدولتنا حفظاً ويحسن لملكنا رعياً.

وكان فلان هو الذي لم يزل متعين المحاسن متبين الميامن متمكن الرياسة في كل الأماكن فحلمه إذا اضطربت الجبال الرواسي ثابت ساكن وعلمه الزائد بأوضاع السياسة وأنواع النفاسة للوجود من بهجته زائن ورأيه الصائب للبلاد والعباد صائن ورعية للخلق بالحق: القوي منه خائف والضعيف إليه راكن وبشره هادٍ للرائي وبادٍ للمعاين وذكره الجميل سائر في الآفاق والأقطار والمدائن حتى أظهر الله تعالى بإمداد نيرنا الأعظم من إشراق بدره الكامل ماهو في سر الغيب كامن وشهر سيفه الذي يغدو الإيمان من مهابته في كنفٍ منيعٍ وحرم آمن.

ولما مضت على منصب النيابة الشريفة في أيام والدنا الشهيد بضع سنين وانقضت الأيام والليالي والدهر بموهبتها ضنين ولاوطيت لها ربوة ولا امتطيت لها صهوة وكانت في سلك ملكه مندرجة وبصفو سلطنته ممتزجة إلى أن قضى عليه الرضوان النحب وأفضى من الجنان إلى المحل الرحب رأينا بعده بمن كان يتحقق وده أن نستأنس وأمضينا وصيته المباركة في اختيار ثمرة الإخلاص بمن كان له الاختصاص يغرس وأفضينا إليه بالمناب عنا لما كان من أنوار والدنا الشهيد في كل تسديد يقتبس ومن الاستشار بمجالسته يفوز فيحوز حكم الحكم لأنه كان أمير ذلك المجلس وقضينا باعتماد أمره الكريم بعد أمرنا الشريف: لأنه الخبير الذي لاينبهم عليه شيء من خفايا القضايا ويلتبس - اقتضى حسن الرأي الشريف إلقاء مافي أيدينا

من مقاليد الممالك إلى يده وإبقاء وديعة هذا الأمر العظيم إلى صونه وعونه وتشدده ولإيفاء جنابه إلى حميد هذه الغاية التي هي للمناسبة مناسبة لسؤدده.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يجمع شمل الإسلام بتعينه وتفرده ويرجع أمر الأنام منه إلى مأمون الرأي رشيده سفاح السيف مهنده منصور العزم مؤيده ويوسع الخليقة إذا وليهم بالرأفة والرحمة ومن أولى من أبي بكر بأن يخص أصحاب محمد عند الخلافة بإعذاب منهل الجود وموردة - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية - أعلاها الله تعالى - نيابةً شاملة محيطة كاملة بسيطة تعني كل أمير ومأمور وتدني أمرها الذي يعامل بالإجلال ويقابل بالسرور براً وبحراً وسهلاً ووعراً غوراً ونجداً بعداً وقرباً شرقاً وغرباً ومامنحه الله تعالى لوالدنا الناصر من الممالك ويدخر لسلطاننا المنصور ويخبى: تستوعب أمر مانأى من هذه الأقاليم ودنا وتجب طاعته فيها على كل من كان مؤمناً ويمتثل في ذلك كله أمره وتعمل فيه الروية فيجمل فكره ويؤمل فيه فتحه ونصره وينقل به مدحه وشكره ولاينفصل منحه وبره ناظراً في هذه النيابة الشريفة بفكره التام سائراً فيها السير الجميل من الدربة والإلهام ناشراً ظلال المعدلة على من سار أو أقام مظاهراً بجنابه منل أجل مقام.

ونحن وإن كنا نتحقق من خلاله الحسنى كل وصف يسنى ونثق منه بذي الصدر السليم الذي هو على المقاصد يعان وبالمحامد يعنى فلسنا نخل بالوصية التي نعلم أن به عنها استغنا ولكننا لانترك بها التبرك ولاندع ماسن الله تعالى منها وشرع ولانغفل مايجب به أن يحتفل فقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمضى أمره المسموع كل ذي رجوع إلى الله تعالى منهم وإنابة فقد أولاه الله تعالى كل جميل قبل أن ولاه وحلاه بالسمات والمكرمات قبل أن رفع علاه وأعطاه ماأرهب العدا من سطاه وهداه إلى كل رشد تأتم به الهداة.

فأهم ذلك تقوى الله تعالى وهو عليها مجبول وأمرها عنده متلقى بالقبول والعدل فهو فهو من مأمول والاتصاف بالإنصاف فهو دأبه فيما يفعلويقول والجهاد: فعزائمه في ميدانه تجول وصورامه بها من قراع فرسانه فلول والزعماء والأكابر: فلهم من محافظته اعتناء وبملاحظته شمول والعساكر الإسلامية: فبتأييده تبظش أيديهم بالعدا وتصول وزعماء البلاد فلهم إلى ظل رحمته إيواء وبكنف نعمته ظلول وممالك الإسلام فما منها إلا معمور بما أوته كفالته مأهول وثغوره فكلها بسام بفتكاته التي ألقى رعبها في البحر فهو بين كل فاجر وبين البحر يحول وماهو بذلك من حميد المسالك موصول ومحله المقدم لأنه أهم الأصول: من إكرام الحكام وإبرام الأحكام واستيفاء الحدود واقتفاء السنن المعهود: من إنجاز الوعود وإحراز السعود والإجهاز على كل كفور وجحود والاحتراز من فظاظة الناس بلإفاضة الجود فكل ذلك على خاطره مسرود ولما آثره مورود وفي ذخائره موجود ومن خبرته معلوم معهود وعن فكرته مشهور ومن فطرته مشهود فليسع أمرنا هذا جميع الأمراء والجنود وليرجع إليه كل من هو من جملة المد معدود وليقابل مرسومنا بالسمع والطاعة أهل السنة والجماعة ساعة الوقوف عليه وحالة الورود والله تعالى يصلح ببقائه الوجود ويمنح باهتمامه المقصود ويفتح المعاقل باعتزامه الذي ليس بمردود عن مراده ولامصدود بل يصبح الكفر من خوفه محصوراً ويمسي وهو بسيفه محصود والعلامة الشريفة أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

يوصى بتقوى الله تعالى وتنفيذ الأحكام الشرعية ومعاضده حكامها واستخدام السيوف لمساعدة أقلامها وتفقد العساكر المنصورة وعرضها وإنهاضهم لنوافل الخدمة وفرضها والتخير للوظائف وإجراء الأوقاف على شرط كل واقف والملاحظة الحسنى للبلاد وعمارة أوطانها وإطابة قلوب سكانها ومعاضدة مباشري الأموال مع عدم الخروج عما ألف من عدل هذه الأيام الشريفة وإحسانها وتحصين مالديه وتحسين كل مأأمره إليه واستطلاع الأخبار والمطالعة بها والعمل بما يرد عليه من المراسيم المطاعة والتمسك بسببها وأنه مهما أشكل عليه يستضيء بنور آرائنا العالية فهو يكفيه ومن قتل من الجند أو مات وخلف ولداً يصلح لإقطاعه يعين به ليقوم بمخلفيه ويقال من هذا مايقوم بتمام الغرض ويوفيه.

الوظيفة الثانية الوزارة لصاحب سيف

واعلم أن أول من أطلق عليه لقب الوزارة في الإسلام أبو حفص الخلال وزير أبي العباس السفاح أول خلفائهم كما ذكره القضاعي فيعيون المعارف في أخبار الخلائف ثم صارت الوزارة بعد ذلك للخلفاء والملوك دائرةً بين أرباب السيوف والأقلام تارةً يليها صاحب سيف وتارةً يليها صاحب قلم إلا أنها في أرباب الأقلام أكثر وعلى ذلك جرى عرف الدريا المصرية من ابتداء الأمر وإلى الآن.

ومما ينبه عليه أن الوزير إذا كان صاحب سيف كان في مجلس السلطان قائماً في جملة الأمراء القائمين وإذا كان صاحب قلم كان جالسل " كما يجلس أرباب الأقلام: من كاتب السر وغيره.

وهذه نسخة تقليد بالوزارة كتب به للأمير سيف الدين بكتمر.

وهي: الحمد لله الذي شد أزر دولتنا القاهرة من أوليائنا بأمضى سيف وعضد أيامنا الزاهرة من أصفيائنا بأعدل ولي لايوجد في حكمه حيف وعدق تدبير أمور ممالكنا الشريفة بمن تحجب مهابته ذوي الأطماع الطامحة عما لايحب فلا يلم بهم فيها خاطر ولا يطرقهم بها طيف جاعل التأييد لآرائنا مصباحاً والتوفيق موافقاً لأوامرتا التي لاتهمل من مصالح الإسلام مندوباً ولاتدع من مهمات الملك واجباً وغلإقبال تالياً لمراسيمنا في ارتياد من يغدو قلب المحق من حيفه ساكناً وقلب المبطل من خوفه واجباً واليمن تابعاً لاستخارتنا في انتخاب من لم يزل في خدمتنا الشريفة للأدعية الصالحة جالباً ولمنافع الإسلام والملك طالباً ولمضارهما حاجباً.

نحمده على نعمه التي عضدت أيامنا بمن جمعت أدواته رتبتي السيف والقلم وعدقت تدبير ممالكنا بمن أحرزتصفاته مزيتي العلم والعلم وشد أزر دولتنا بمن يبيض بمعدلته من صحائف أيامنا ماهو أحب إليها من حمر النعم.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة نعدها للقائه ونتيمن بها في افتقاده من نعتضد به في مصالح أهلها وانتقائه ونقدمها أمام كل أمر ندخره لاعتلاء ولينا بالتقى وارتقائه ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذ أرسله إلى الأمم طراً وخصه بالأمة التي جعل أمارة سبقها إلى الخيرات أن غدت محجلة غراً وأيده بنصره وبالمؤمنين الذين مامنهم إلا من أعرض عن زخرف الدنيا وإن كان حلواً وقال الحق وإن كان مراً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ولوا أمته فعدلوا والذين تمسكووا بسنن سنته فما حادوا عنها ولاعدلوا صلاةً لاتوال الألسن لإقامتها مديمة والقلوب لإدامتها مقيمة وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من أبرزت الضمائر في الاعتضاد به مكنون طويتها واعتمدت الخواطر في تصريح علانيتها بأولويته لمصالح الإسلام على نيتها وشتوفت البلاغة لرقم مفاخره وتنافست المعاني في تخليد ملآثره وهنأت المعدلة نفسها برفع لوائها وأبدت الدولة أنسها بناشر برها في الأقطار وآلائها وافترت ثغور الأقاليم المحروسة بمن تلهج بمصالحها ألسنة أقلامه واخضرت ربى آمال الأولياء بما يسفر عنه من تهلل بهاء غرر أيامه من هززنا منه لمصالح الإسلام سيفاً يصل ماأمر الله به أن يوصل ويفصل منمهمات الممالك مايقتضي الحق أن يفصل ويبرز من معادن العدل والإحسان ماهو في سر خلائقه كامن وينزل من استقامت سيرته في الحمى المخصب والحرم الأمن ويصون الأموال بمهابته فلا تمتد إليها هواجس الأطماع ولا تتجاسر أبصار غير الأمناء أن تقص نبأ رؤيتها على الأسماع ويضاعفها بخبرته التي تهديها الأمانة إلى معادنها وتدلها النزاهة على مواطنها وتبدي لها ظواهر الأعمال أسرار بواطنها ويعمر بيوت الأموال بعمارة البلاد ويثمر فروع الطوارف من مصالحها بحفظ أصول التلاد ويكف أكف الظلم عن الرعايا فلا يخشى محق على حقه ولايخاف مستقيم على ماقسم له من رزقه ولا يطمح قوي إلى من يستضعف جانبه ولايطمع باغ في الحيف على أحدٍ مخالطه في نشب كان أو مجانبه.

ولما كان الجناب العالي الفلاني هو الذي أشير إلى مناقبه واعتضد منه بمطيع لله في السر والعلن ومراقبه وفوض تدبير الممالك منه إلى من لاتأخذه في الحق لومة لاشم واعتدت أيامنا الزاهرة منه على من طالما سرى في مصالحها على جياد العزائم وشد أزر الملك من موازرته بمن يكسو دست الوزارة أبهةً وجلالاً ويلبس منصبها سناً لو ملكته الشمس مارامت عن بروج شرفها انتقالاً ويمد على الرعايا لواء عدل لايقلص له هجير الظلم كما تتقلص الظلال ظلالاً وتطلع به شموس الأرزاق على أولياء دولتنا لكن لاترهب كالشموس غروباً ولازوالاً مع مهابة تخيف الأسد في أجماتها ومعدلة تعين الغيوث على رفع محول البلاد ودفعع أزماتها وديانةٍ زانها التقى وخبرةٍ صانها الورع وهما أفضل مابه يرتقى.

وكانت الوزارة الشريفة نظام المملكة وقوامها وذروة الدولة وسنامها وتاج المراتب وإكليلها وعتاد الخزائن الجامع دقيق المصالح الإسلامية وجليلها - اقتضت آراؤنا الشريفة أن تزين هذه الرتبة بجوهر فرنده وأن يصدر منصبها عن مناقب لاتصدر إلا عن جهته ومفاخر لاترد إلا من عنده وأن يطلف في مصالحها قلمه ويمضي في قواعدها أشاراته وكلمه ويطلع في أفقها شمس تدبيره ويعدق به مايراه في أمورها من صغيرالأمر وكبيره وأن نجعل مسامع الأقاليم على سعتها إلى أوامره وتواهيه مصغية وأن تصد بسمعته عمن بعد عوارض الإمهال الملهية ومواقع الإهمال المطغية.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالت سحائب بره مستهلة وركائب المحامد إلى حرم نعمه مهلة - أن تفوض إليه الوزارة الشريفة بالممالك الإسلامية على أكمل القواعد وأجمل العوائد تفويضاً يعلي مرامه ويمضي مضاء ألسنة الأسنة أقلامه ويبسط في مصالح الأقاليم المحروسة يده ولسانه ويلقي إليه من مهمات كل قطر أزمته ليصرف على مايراه من المصالح عنانه.

فليستقر في هذه الرتبة السنية استقرار الدرر في أسلاكها والدراري في أفلاكها نافذ الأمر في مصالح شرقها وغربها مطاع القول في بعد أماكنها منه وقربها ناشراً كلمة العدل في أرجائها محققاً بالإحسان آمال أممٍ قصرت على كرمنا ممدود رجائها معلياً منار الشرع الشريف بمعاضدة حكامه والوقوف عند ألأوامره المطاعة وأحكامه حافظاً أقدار الرتب بأكفائها معتمداً على ذوي البيوت المحافظين على اتباع سير أسلافهم واقتفائهم معولاً على ذوي البيوت المحافظين على اتباع سير أسلافهم واقتفائهم معولاً على ذوي الخبرة التامة مع الديانة مراعياً مع ظهور المعرفة جانب العفة والنزاهة والصيانة موكلاً بمصالح بيوت الأموال والخزائن المعمورة مواد الأموال ومعينها صارفاً إلى عمارة البلاد جميل تدبير تعتضد البحار والسحب منه بمساعدها على ري الأرض ومعينها ميسراً مواد أرزاق خدم دولتنا القاهرة وأوليائها بجميل بشره وحسن روائه مسهلاً مطالب أرباب الرواتب والصدقات بطلاقة وجهٍ لو تأمله امرؤ صادي الجوانح لارتوى من مائه: ليتوفر أهل الوظائف على خدمهم بقلوب منبسطة الآمال ويناضل عنها الفقراء بسهام الليل التي لاتطيش إذا طاشت النبال فقد جعلنا أمره في ذلك جميعه من أمرنا فليكتب يمتثل وليقل في مصالحنا بما يراه يسر كلامه سري الرياح ويسر قوله سير المثل ولايمض عقد ولاحل ولا ولاية ولا عزل ولارفع ولاخفض ولاإبرام ولانقض إلا عن رأيه وإشارته وبنص خطه وعبارته.

وفي سيرته السرية وديانته التي هي من أسباب الهوى عرية مايغني عن وصايا تملى على فكره وقواعد تحجلى على ذكره وملاكها تقوى الله: وهي من أخص أوصافه ونشر العدل والإحسان وهما من نتائج إنصاته لأمور الرعايا وإنصافه لكن على سبيل الذكرى التي تنفع المؤمنين وترفع درجات المتقين فليجعلها نجي خاطره وقبلة ناظره والله تعالى يعلي قدره وقد فعل ويجعله من عباده المتقين وقد جعل بمنه وكرمه.

والاعتماد على الخط الوظيفة الثالثة الإشارة وهي وظيفة قد حدثت كتابتها ولم يعهد بها كتابة في الزمن القديم وهذه نسخة تقليد أنشأته بالإشارة للأمير جمال الدين يوسف البشاسي إستادار في الدولة الناصرية فرج حين فوضت إليه الإشارة مضافة إلى الاستدارية وكتب له به المقر الشمسي العمري كاتب الدست الشريف في شعبان سنة تسع وثمانمائة وهي: الحمد لله الذي جدد للديار المصرية بالمحاسن اليوسفية رونق جمالها وأعز جانبها بأجل عزيز ملأت هيبته الوافرة فسيح مجالها وأسعد جدها بأسعد مشير أدارت آراؤه الصائبة متقاعس الأمور مابين يمينها وشمالها وأكرم مآبها بأمثل كاف عاد حسن تدبيره بضروبٍ من المصالح أنام الخلق من ظلالها وأجاب سؤلها بأكمل لم تعدل عن خطبتها له وإن أطال في مطالها.

نحمده على أن أغاث الدولة القاهرة بمن أخصب به بعد الإمحال ربعها وطال بطوله بعد القصور فرعها وحسن في المناظر بحسن تأتيه لذي التأمل ينعها.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له الذي شرع المشورة وحث عليها وعدق أمر السيف والقلم بها فردهما عند اختلاف الرأي إليها شهادةً ترفع قائلها إلى أسنى المراتب وتعليه وتقرب المخلص في انتحالها من مقام الاستخلاص وتدنيه ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي ورد وارد الأمة من منهل شرعته المطهرة ماعذب مشرعه وردا وصدراً والتقطت السيارة أحاديث فضله فصيرتها للرفاق سمراً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تقيلوا مساحب أذياله في العدل فعدلوا ولزموا منهج سننه الواضح فما حادوا عن سواء السبيل ولاعدلوا صلاة تفوق العدا حصراً وترفع بركاتها عن الأمة حصراً وترفع بركاتها عن الأمة حصراً وتبدل العسر يسراً فتعيد عجاف الزمانت سماناً وسنبلات الوقت بعد اليبس خضراً وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن للمملكة قواعد تبنى عليها وأركاناً تستند إليها ودعائم يشد بالاعتضاد بها بنيانها وعمداً في الممهمات سلطانها وهذه البماني وإن اتسع نطاقها وامتد بامتداد المملكة رواقها فإن بالسيف والقلم قوامها وبالتعلق بحبالها بقاءها ودوامها إذ كانا قطبين عليهما مدار فلكها ونقطتين عنهما ينشأ الخط المستقيم في تدبير ملكها وزعيمين يترافع إليهما عند التحالف ولايقوم أحدهما برأسه لدى التخالف بل لهما إمام يرجعان إليه ويعولان عند اضطراب الأمور عليه وهو الرأي الذي لايقطع أمر دون حكمه ولايهتدي سارٍ في مهامه المهمات إلا بنجمه إذ كان على الشجاعة مقدماً ودليله من المعقول والمنقول مسلماً والمتسم به لايزال عند الملوك مبجلاً معظماً ولايقدمون عليه ولداً ولاوالداً ولايؤثرون على معاضدته عضداً ولا ولا ساعداً إن أشار برأي تمسك الملك منه بالحبل المتين أومحضه كلام نصح قال: " إنك اليوم لدينا مكين ولما كان الجناب العالي الأميري الكبير إلى آخر ألقابه يوسف اناصري: ضاعف الله تعالى نعمته هو الذي حنكته التجارب و حلب الدهر أشطره وعرف بتقليب الأمور على

ممر الزمان مخبره مع مااشتمل عليه من الرأي الصاشب والفكر الذي إذا أبدت قريحته في الارتياء عجباً أتت فطرته السليمة بالعجائب.

هذا وقد علا في الدولة القاهرة مقامه ورشقت أغراض مقاصدها بانقضاء الآجال في الوقائع سهامه وساس العساكر فأحسن في سياستها التدبير وبذل في نفقاتها الأموال فمال فيها إلى الإسراف دون التقتير واستجلب الخواطر فأخذ منها بمجامع القلوب واقتاد النفوس الأبية قهراً فأطاعه من بين الشمال والجنوب وقام من المهمات الشريفة بما لم يسبقه إليه سابق وأتى من خوارق العادات في التفيذ بما لم يلحقه فيه لاحق وبادر إلى ترتيب المصالح فرتبها ولم يعقه في انتهاز الفرصة عن دفع المفاسد عائق وأخذ في حط الأسعار فورد منهلاً من المعروف صافياً وأمر بإبطال المعاملين فكان له عملاً على توالي الأزمان باقياً ولازم بعد رضا الله تعالى رضا ملكه ففاز بأشرف المآثر في الحديث والقديم وتأسى في تعريفه بنفسه بيوسف عليه السلام فقال: " اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم " - اقتضى حسن الرأي الشريف تنويهنا بذكره وتقديمه على غيره ممن رام هذه الرتبة بحجب دونها والله غالب على أمره.

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري الزيني - لازال يجمع لأوليائه شمل المعالي ويرقي أصفياءه في درجات العز على ممر الأيام والليالي - أن تفوض إلى المشار إليه الإشارة الشريفة التي هي أسنى المقامات وأعلاها وأقصى المرامات لدينا وأغياها مع ما انضم إلى ذلك من النظر في الوزارة الشريفة التي جل قدرها وعلا في المناصب ذكرها والخاص الذي اختص بمهماتنا الشريفة والديوان المفرد الذي غمر ممالكنا السعيدة ذا الوظيفة وغير ذي الوظيفة وتعلقات المملكة شرقاً وغرباً ولوازمها المفترقة بعداً وقرباً.

فليتلق مافوض إليه بيمينه التي طالما ربحت في الطاعة صفقتها ويقابله بالقبول الذي محله من القلوب مهجتها مقدماً تقوى الله تعالى فيما خفي من مقاصده وظهر مؤثراً رضاه في كل مايأتي ويذر معتمداً في المصالح اعتماد ذي اليقظة الساهر آتياً من غرائب الرغائب بما يحقق قول القائل: كم ترك الأول للآخر والوصايا كثيرة ومن بحره تستخرج دررها ومن سوابق آرائه تستوضح أوضاحها وغررها والله تعالى يديم عليه نعم إقبالنا الباطنة والظاهرة ويتولاه من العناية بما يحقق له دائم قوله: " والاعتماد على الخط الشريف أعلاه تعالى أعلاه إن شاء الله تعالى. أنت وليي في الدنيا والآخرة "

الطبقة الثانية ممن يكتب له من أرباب السيوف الوظيفة الأولى نظر البيمارستان لصاحب سيف الحمد لله رافع قدر من كان من خدمتنا الشريفة كريم الخلال ومعلي درجة من أضفى عليه الإخلاص في طاعتنا العلية مديد الظلال ومجدد نعم من لم يخصه اعتناؤنا بغاية إلا رقته همه فيها إلى أسنى رتب الكمال ومفوض النظر في قرب الملوك السالفة إلى من لم يلاحظ من خواصنا أمراً إلا سرنا ما نشاهد فيه الأحوال الحوال.

نحمده على نعمه التي لاتزال تسري إلى الأولياء عوارفها ومناهله التي لاتبرح تشتمل على الأصفياء عواطفها وآلائه التي تسدد آراءنا في تفويض القرب إلى من إذا باشرها سر بسيرته السرية مستحقها وواقفها.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً رفع الإخلاص لواءها وأفاض الإيمان على وجوه حملتها إشراقها وضياءها ووالى الايقان إعادة أدائها بمواقف الحق وإبداءها.

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المخصوص بعموم الشفاعة العظمى المقصوص في السنة ذكر حوضه الذي من شرب منه شربة فإنه بعدها لايظما المنصوص على من نبوته في الصحف المنزلة وبشرت به الهواتف نثراً ونظماً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا من طاعته بالرتب الفاخرة وحازوا بالإخلاص من محبته سعادة الدنيا والآخرة وأقبلوا على حظوظهم من رضا الله ورضاه فلم يلووا على خدع الدنيا الساحرة صلاةً دائمة الاتصال آمنة وبعد فإن أولى الأمور بالنظر وأحقها بتوفير الفكر على اعتباد مناهجها واعتماد مناجحها أمر جهات البر التي تقرب بها السلطان الشهيد الملك المنصور قدس الله روحه إلى من أفاض نعمه عليه وتنوع في إنشائها فأحسن فيها كما أحسن الله إليه ورغب بها فيما عند الله: لعلمه أن ذلك من أنفس الذخائر التي أعدها بين يديه وحل منها في أكرم بقعة نقله الله بها عن سريره إلى مقعد صدق عند ربه وعمر بها مواطن العبادة في يوم سلمه بعد أن عفى بها معاقل الكفر في يوم حربه وأقام بها منار العلوم فعلا منالها وأعد للضعفاء بها من مواد البر والإلطاف مالو تعاطته الأغنياء قصرت عن التطاول إليه أموالها وأن نرتاد لها من إذا فوضنا إليه أمراً تحققنا صلاحه وتيقنا نجتحه واعتقدنا تنمية أمواله واعتمدنا في مضاعفة ارتفاعه وانتفاعه على أقواله وأفعاله وعلمنا من ذلك مالانحتاج فيه

إلى اختبار ولااعتبار ولايحتاج في بيان الخبرة فيه إلى دليل إلا إذا احتاج إليه النهار لنكون في ذلك بمثابة من ضاعف لهذه القرب أسباب ثوابها أو جدد لها وقفاً: لكونه أتى بيوت الإحسان في ارتياد أكفاء النظر من أبوابها.

ولما كان فلان هو الذي نبهت أوصافه على أنه ماولي أمراً: إلا وكان فوق ذلك قدراً ولااعتمد عليه فيما تضيق عنه همم الأولياء إلا رحب به صدراً ولا طلع في أفق رتبة هلالاً إلا وتأملته العيون لأجل رتب الكمال بدراً يدرك مانأى من مصالح مايليه بأدنى نظر ويسبق في سداد مايبائره على مايجب سداد الآراء ومواقع الفكر.

ونحن نزداد غبطة بتدبيره ونتحقق أن كل كل ماعدقنا به إليه من أمر جليلٍ فقد أسندناه إلى عارفه وفوضناه إلى خبيره - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نعدق بجميل نظره هذا المهم المقدم لدينا وأن نفوض إليه نظر هذه الأوقاف التي النظر في مصالحها من آكد الأمور المتعينة علينا.

فرسم بالأمر الريف - لازال فضله عميماً وبره يقدم في الرتب من كان من خواص الأولياء كريماً - أن يفوض إليه كيت وكيت.

فليل هذه الرتبة التي أريد بها وجه الله وماكان لله فهو أهم وقصد بها النفع المتعدي إلى العلماء والفقراء والضعفاء زمراعة ذلك من أخص المصالح وأعم ولينظر في عموم مصالحها وخصوصها نظراً يسد خللها ويزيح عللها ويعمر أصولها ويثمر محصولها ويحفظ في أماكنها أموالها ويقيم بها معالم العلوم في أرجائها ويستنزل بهامواد الرحمة لساكنها بألسنة قرائها ويستعيد صحة من بها من الضعفاء بإعداد الذخائر لملاطفة أسقامها ومعالجة أدوائها ويحافظ على شروط الواقف في إقامة وظائفها واعتبار مصارفها وتقديم ما قدمه مع ملاءة تدبيره باستكمال ذلك على أكمل مايجب وتمييز حواصلها بما يستدعي إليها من الأصناف أبت يعز زجزدها ويجتلب وضبط تلك الحواصل التي لاخزائن لها أوثق من أيدي أمنائه وثقاته وىمودع لها أوفق من أمانة من يتقي الله حق تقانه فلذلك وكلناه في الوصايا إلى الوظيفة الثانية نظر الجامع الطولوني من إنشاء المقر البدري ابن المقر العلائي بن فضل الله صاحب ديوان الإنشاء الشريف في الدولة الظاهرية برقوق كتب به المقر الشمسي العمري كاتب الدست الشريف لأبي يزيد الدوادار وهي: الحمد لله الذي أقام أوليائنا خير ناظر يقر به كل ناظر وأدام بنا بناء المعروف الزاهر وحسنه الباهر وأنام الأنام في مهاد الأمن بانتقاء ولي لسان الكون حامد له ومادح وشاكر وفتح أبواب السعادة باصطفاء صفي طاب بسفارته كل خاطر من مقيم وخاطر ومنح أسباب السيادة بأوفى وفي وفي عمر بوجوده الوجود وغمر بجوته كل بادٍ وحاضر وأبصر بالدين المتين والفضل المبين فأقمناه للنظر على بيوت الله تعالى لأولويته بذلك: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر 0 نحمده على نعمه التي ظهرت بالمزيد فسرت السرائر وظهرت بنور الرشد المديد فأشرق بها الباطن والظاهر ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له العزيز القادر شهادةً صدقت في الإخلاص بها الألسنة والضمائر ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله معدن الأسرار وبحر الجود الزاخر ومنبع الأنوار صاحب الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة والمفاخر الذي يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده الأوائل والأواخر صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه النجوم الزواهر الذين جاهدوا في الله حق جهاده فكان كل منهم للدين الحنيف أعظم مجتهد ومؤيد وناصر وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من ألقيت إليه مقاليد الأمور وصرفناه في جميع مصالح الجمهور وفوضنا إليه النظر في بيوت الله تعالى ليعمرها بنظره السعيد وتضاعف له الأجور ومكنا له في دولتنا الشريفة حتى صار قطب فلكها عليه تدور وبسطنا يده ولسانه فهو ينطق عنا ويأمر بالقضاء والقدر في الورود والصدور وقيدنا الأرزاق بقلمه والمهمات بكلمه فلافضل إلا من فيضه المنشور - من امتاز على غيره بفضيلتي السيف والقلم وتقدم في الطاعة الشريفة بأثبت قدم كان بها من السابقين الأولين من القدم واتصف بالشجاعة والشهامة والمعرفة التامة والحلم والعدل والحكم فهو الترجمان عنا الناطق بفصل الخطاب في السر للترك والعرب والعجم وعرف بالرأي السديد والنظر السعيد والتدبير الحميد والقول المفيد والجود والكرم وطبع على الخير الجزيل والدين الجميل عمره في الحق قائم لاتأخذه في الحق لومة لائم طالما أحسا بحسن السفارة من العدم.

هو واحد في الفضل والنظر السعيد لأبي سعيد.

قد تفرد في العفة والديانة والثقة والأمانة والتحف بالصفا وتردى بالوفا وشفى بالخير والجبر من كان بالفقر على شفا فحصل له الشفا ووفى بالعهود والمواثيق وذلك أمر ماخفى ولحق في الجود والدين بسميه أبي يزيد البسطامي الولي: قالوا: الولي أبو يزيدٍ قد مضى وهو الفريد بفضله والصادق! قلت: الأمير أبو يزيدٍ مثله هذاك سابقه وهذ اللاحق! ولما كان فلان هو المشار إليه بهذه الصفات الحسنة والمناقب التي تنوعت في مدائحها الألسنة وعرف بالجود فملك حبه الأفئدة فارتفعت الأصوات

بالدعاء له معلنة طالما أنال النعم وأزال النقم وجبر القلوب وكشف الكروب وجلا ظلام الخطوب ونشر المعروف وأغاث الملهوف وأنقذ من المهالك وعمر بتدبيره الممالك ووصل الأرزاق وأجرى الأطلاق على الإطلاق - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نعتمد في جميع الأشياء عليه ونلقي مقاليد الأمور إليه وننوط به المهمات وغيرها: ليكون العلم بالكليات والجزئيات لديه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يتحف بالمزيد من كرمه ويسبغ جلابيب نعمه ويجري بحر فضله الواسع ويعم بنظره المقربين من أوليائه كل جامع للخير جامع أن يستقر.

فليتلق هذا التفويض الجليل بقبوله ويبلغ الجامع المذكور مايرتقبه من عمارته التي هي غاية مأمولة.

ومنه تؤخذ الوصايا لأنه لساننا الناطق وسفير مملكتنا العالم بالحقائق والدقائق فلايحتاج أن يوصى ولاأن نفتح معه في الوصية باباً ومايصلح أن يقال لغيره لايجوز أن يكون له خطاباً: ومثلك لايدل على صوابٍ وأنت تعلم الناس الصوابا! والله تعالى يؤيده في القول والعمل ويعم بوجوده وجود الوجود وقد فعل ويبقيه مدى الدهر ويستخدم لسعوده الساعة واليوم والجمعة والشهر ويجعل بابه الطاهر مفتوحاً للقاصدين على الدوام ويقيمه واسطة عقد الملك فإنه مبارك أينما كان ورحمة للأنام والاعتماد على الخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الثالثة بقايا الأشراف

وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية في المقالة الثانية أن موضوعها التحدث على الأشراف وهو أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت: وقد جرت العادة أن الذي يتولى هذه الوظيفة يكون من رؤوس الأشراف وأن يكون من أرباب الأقلام وإنما أوردته مع أرباب السيوف لأن المقر الشهابي بن فضل الله قد ذكر في بعض دساتيره الشامية أنه يكتب لنقيب الأشراف الأميريولايكتب له القضائي ولو كان صاحب قلم.

وقد رأيت له عدة تواقيع على ذلك مكتتبةً من الأبواب السلطانية وعن نائبي الشام وحلب وغيرهما معبراً عنه فيها بالأميري وتوقيعه في قطع الثلث مفتتح بخطبة مفتتحة بالحمد لله.

وهذه نسخة توقيع بنقابة الأشراف وهي: الحمد لله مشرف الأنساب وموفي الأحساب حقوق ملاحظتهم بغير حساب وجاعل أيامنا الشريفة تحمد الاكتساب.

نحمده بمحامد حسنة الإيجاد والإيجاب ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة لاشك في مقالها ولاارتياب ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ونبيه الذي أنزل عليه الكتاب وشرف به الذراري من شجرته المباركة الأعقاب صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً لاتتوارى شمسها بحجاب.

وبعد فإن خير ماصرفت الهمم إلى تشييد مبانيه وتقييد مهمل رواعيه وملاحظة قاصيه وداني المحافظة على كل مايرفع قدر الآل ويعليه ويرد إليهم عنان الاعتناء ويثنيه.

ولما كاتب العترة الطاهرة النبوية وراث الوحي الذين آل إليهم ميزاته وأهل البيت الذين حصل لهم من السؤدد آياته وقد سأل الله هو المسؤول لهم القربى وخصهم بمزايا حقيق بمثل متصرفهم أنه بها يحبى وأنها لهم تجبى: لما في ذلك من بركاتٍ ترضي سيد المرسلين وتعجبه ويسطر الله الأجر لفاعله ويكتبه وكان لابد لهم من رئيس ينضد سلكهم وينظمه ويعظم فخرهم ويفخمه ويحفظ أنسابهم ويصقل بمكارمه أحسابهم وينمي بتدبيره ريعهم ويتابع تحت ظل هذه الشجرة الزكية مازكى ينعهم ويحفظهم في ودائع النسل ويصد عن شرف أرومتهم من الأدعياء المدعين بكل بسل ويحرس نظامهم ويوالي إكرامهم ويأخذهم بمكارم الأخلاق ويمدهم بأنواع الإرفاد والإرفاق ويتولى ردع جانيهم إذا لم يسمع ويتدبر فيه قوله: " أنفك منك وإن كان أجدع " ولما كان فلان هو المشار إليه من بني هذه السلالة وله من بينهم ميزة باطنة وظاهرة وإن كانوا كلهم شيئاً واحداً في الإجلال والإعظام فقد تميزت من بين الأنامل السبابة على الخنصر والبنصر والوسطى والإبهام وكم ثمر جني فضل بعضه على بعض في الأكل وهو يسقى بماء واحد وقد امتاز على بني هاشمٍ سيد المرسلين عليه أفضل الثلاة والسلام - اقتضى

حسن الرأي المنيف أن رسم بالأمر الشريف - لابرح يختار وينتقي ويجتبي من يخشى الله ويتقي - أن تفوض إليه نقابة الأشراف الطالبيين على عادة من تقدمه من النقباء السادة.

فليجمع لهم من الخير مايبهج الزهراء البتول فعله ويفعل مع أهله وقرابته منهم ماهو أهله وليحفظ مواليدهم ويحرز أسانيدهم ويضبط أوقافهم ويعتمد إنصافهم ويثمر متحصلاتهم ويكثر بالتدبير غلاتهم ويأخذ نفسه بمساواتهم في جميع حالاتهم وليأخذهم بالتجمع عن كلمايشين والعمل بما يزين حتى يضيفوا إلى السؤدد حسن الشيم وإلى المفاخر فاخر القيم وكل مايفعله معهم من خير أو غيره هو له وعليه ومنه وإليه والله يحفظه من خلفه ومن بين يديه بمنه وكرمه! وهذه نسخة وصية لنقيب الأشراف أوردها في التعريف فقال: ونحن نجلك عن الوصايا إلا ما نتبرك بذكره ويسرك إذا اشتملت على سره فأهلك أهلك راقب الله ورسوله جدك صلى الله عليه وسلم فيما أنت عنه من أمورهم مسؤول وارفق يهم فهم أولاد أمك وأبيك حيدرة والبتورة وكف يد من علمت أنه قد استطال بشرفه فمد إلى العناد يدا وأن الأعمال محفوظة ثم معروضة بين يدي الله فقدم في اليوم ماتفرح به غدا وأزل البدع التي ينسب إليها أهل الغلو في ولائهم والعلو فيما يوجب الطعن على آبائهم: لأنه يعلم أن السلف الصالح رضي الله عنهم كانوا منزهين عما يدعيه خلف السوء من افتراق ذات بينهم ويتعرض منهم أقوام إلى مايجرهم إلى مصارع حينهم فللشيعة عثرات لاتقال من أقوال ثقال فسد هذا الباب سد لبيب واعمل في حسم مواده عمل أريب وقم في نهيهم والسيف في يدك قيام خطيب وخوفهم من قوارعكمواقع كل سهم مصيب فما دعي بحي على خير العمل إلى خير من الكتاب والسنة والإجماعفانظم في نادي قومك عليها عقود الاجتماع.

ومن اعتزى إلى اعتزال أو مال إلى الزيدية في زيادة مقال أو ادعى في الأئمة الماضين مالم يدعوه أو اقتفى في طرق الإمامية بعض ما ابتدعوه أو كذب في قول على صادقهم أو تكلم بما أراد على لسان ناطقهم أوقال: إنه تلقى عنهم سراً ضنوا على الأمة ببلاغه وذادوهم عن لذة مساغه أو روى عن سوم القيفة والجمل غير ماور أخباراًأو تمثل بقول من يقول: عبد شمس قد أوقدت لبني هاشم ناراً أو تمسك من عقائد الباطن بظاهر أو قال إن الذات القائمة بالمعنى تختلف في مظاهر أو تعلق له بأئمة الستر رجاء أو انتظر مقيماً برضوى عنده عسل وماء أو ربط على السرداب فرسه لمن يقود الخيل يقدمها اللواء أو تلفت بوجهه يظن علياً كرم الله وجهه في الغمام أو تفلت من عقال العقل في اشتراط العصمة في الإمام.

فعرفهم أجمعين أن هذا من فساد أذهانهم وسوء عقائد أديانهم فإنهم عدلوا في التقرب بأهل هذا البيت الشريف عن مطلوبهم وإن قال قائل إنهم طلبوا فقل له: كلا بل ران على قلوبهم.

وانظر في أمور أنسابهم نظراً لايدع مجالاً للريب ولايستطيع معه أحد أن يدخل فيهم بغير نسب ولايخرج منهم بغير سبب وساوق المتصرفين في أموالهم في كل حساب واحفظ لهم كل حسب.

وأنت أولى من أحسن لمن طعن في أسانيد هذا الحديث الشريف أو تأول فيه على غير مراد قائله صلى الله عليه وسلم تأديباً وأراهم مما يوصلهم إلى الله تعالى وإلى رسوله طريقاً قريباً ونكل بمن علمت أنه قد مالأ على الحق أو مال إلى فريق الباطل فرقاً وطوى صدره على الغل وغلب من أجله على ماسبق في علم الله تعالى من تقديم من تقدم حنقاً وجار وقد أوضحت لهم الطريقة المثلى طرقاً واردعهم إن تعرضوا في القدح إلى نضال نصال وامنعهم فإن فرقهم كلها وإن كثرت خابطة في ظلام ضلال وقدم تقوى الله في كل عقد وحل واعمل بالشريعة الشريفة فإنها النسب الموصول الحبل.

واعلم أن المقر الشهابي بن فضل الله قد ذكر في التعريف عدة وصايا لجماعة من أرباب السيوف لم يكتب لأحد منهم في زماننا بل رفض استعمالها وأهمل.

ونحن نذكرها حفظاً لذكرها واحتياطاً أن يقتضي الحال في زمنٍ كتابة شيءٍ منها.

إحداها - وصية أتابك المجاهدين.

وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن أصله أطابك بالطاء المهملة ومعناه الأب الأمير وأن أول من لقب بذلك زنكي أطابك صاحب الموصل ثم غلبت فيه التاء المثناة بدل الطاء وهي: وأنت ابن ذلك الأب حقيقة وولد ذلك الوالد الذي لم تعمل له إلا دماء الأعداء عقيقة وقد عرفت مثله بثبات الجنان وصلت بيدك ووصلت إلى مالم يصل إليه رمح ولاقدر عليه

سنان ولم يزاحمك عدو إلا قال له: أيها البادي المقاتل كيف تزاحم الحديد ولاسمي اسمك لجبار إلا قال له: " وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ماكنت منه تحيد ".

وأنت أولى من قام بهذه الوظيفة وألف قلوب هذه الطائفة التي ماحلم بها حالم إلا وبات يرعد خيفة فليأخذ هذا الأمر بزمامه وليعمل الله ولإمامه وليرم في حب البقاء الدائم بنفسه على المني ولينادم على معاقرة الدماء زهور سكاكينه الحني واطبع منهم زبراً تطاول السيوف بسكاكسنها وتأخذ بها الأسود في عرينها وتمتد كأنها آمال لما تريد وترسل كأنها آجال ولهذا هي إلى كل عدو أقرب من حبل الوريد وأذك منها شعلاً إذا دعيت بأحسابها لاتجد إلا متحامياً وارم منهم سهاماً إذا دعيت بأنسابها الإسماعيلية فقد جاء اسماعيل كان رامياً وفرج بهم عن الإسلام كل مضيق واقلع عن المسلمين من العوانية كل حجر في الطريق وصرف رجالك الميامين وتصيد بهم فإنهم صقور ومناسرهم السكاكين واخطف بهم الأبصار فبأيمانهم كل سكينة كأنها البرق الخاطف واقطف الرؤوس فإنها ثمرات أينعت لقاطف واعرف لهم حقهم وضاعف لهم تكريماً وأدم لهم بنا براً واعلم أنهم مثل الوحوش فزد عميماً وقدم أهل النفع منهم فقد قدمهم الله " وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً " في تأنيسهم واشكر إقدامهم فطالما اقتحموا على الملوك وماهابوا يقظة حرسهم وارفع بعضهم على بعض درجاتٍ في نفقات تسافيرهم وقعود مجلسهم ولاتسو بينهم فيما هم سواء لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

واصل هذه الدعوة مازالت تنتقل بالمواريث حتى انتهت إلينا حقوقها وأومضت بنا حيث خلعت هياكلها بجرعاء الحمى بروقها والله تعالى يبوقفه ويرشده ويطول باعه لما قصرت عنه سواعد الرماح ووصلت إليه يده.

وصية أستاذ الدار وليتفقد أحوال الحاشية على اختلاف طوائفها وأنواع وظائفها وليرتبها في الخدمة على مايجب -الثانية وينظر في أمورهم نظراً لايخفى معه شيء مما هم عليه ولايحتجب وليبدأ في أمورهم نظراً لايخفى معه شيء مما هم عليه ولايحتجب وليبدأ بمهم السماط المقدم الذي يقدم ومايتنوع فيه من كل مطعم ومايمد منه في كل يوم بكرة والعصر ومايستدعى معه من الطواريء التي لايحدها الحد ولايحصرها الحصر وأحوال المطبخ الكريم الذي منه ظهور تلك المخافي ووفاء ذلك الكرم الوافي والتقدم إلى الأمناء والمشرفين فيه بأمانة الإنفاق وصيانة المآكل مما يعاب على الإطلاق.

ثم أمر المكشروب وماتغلق عليه أبواب الشراب خاناه السعيدة من لطائف مأكول ومشروب وشيءٍ عزيزٍ لايجود إلا فيها إذا عز المطلوب ومراجعة الأطباء فيما تجري عليه قوانينها وتشب لطبخه من حمر اليواقيت كونينها وإفراز ماهو للخاص الشريف منها وماهو للتفرقة ومالايصرف إلا بخط الطبيب ولايسلم إلا إلى ثقة.

ثم الطشت خانها السعيدة التي هي خزانة اللباس وموضع مانبرز به من الزينة للناس ومايحتاج إليه من آلات التطبيب ومايعين لها من الصابون وماء الورد والطيب وغير ذلك من بقية ماهي مستقرة ويؤخذ منها مستدرة ومن يستخدم بها ممن برأ من الريب وعرف بالعفاف والأدب وعلم أنه من أهل الصيانة وعلى ماسلم إليه ومن خالطه الأمانة.

ثم الفراش خاناهوماينصب فيها من الخيام ومايكون فيها من فرش سفر ومقام وشمع يفضض كافور كافوريته آبنوس الظلام.

ثم غلمان الإصطبل السعيد والنجابة وإن كان إلى سواء استخدامهم ولدي غيره مستقرهم ومقامهم لكنهم كاخرجوا من عديده ولايروقهم ويروعهم إلا حسن وعده وخشن وعيده.

ثم المناخات السلطانية ومابها من جمال ومايسرح فيها من مالٍ وجمال ومن يستخدم فيها من سيروان ومهمرد ومافيها من قطار مزدوج وفرد فيوفر لهذه الجهة نصيباً من النظر يشاهد أمورها وقد غابت في الأقطار وتفرقت كالسحب يلزمها القطار القطار وليكونوا على باله فإنهم يسرقون الذرة من العين ومعهم الذهب العين محملاً بالقنطار فليحسن منهم الارتياد وليتخير أرقهم أفئدة فإنهم بكثرة ملازمتهم للإبل مثلها حتى في غلظ الأكباد.

وطوائف المعاملين والأبقار ومن عليها من العاملين وزرائب الغنم وخولها ورعائها وأصناف البيوت الكريمة.

وماتطلبه في استدعائها ونفقات الأمراء المماليك السلطانية في إهلال كل هلال ومايصرف في كساهم على جاري عادتهم إو إذا دعت إليه ضرورة الحال ومايؤخذ عليه خطه من وصولات تكتب واستدعاآت تحسب من لوازمه وهي للكثرة لاتحسب

فليكن لهذا مراعياً ولأموره واعياً ولما يجب فيه دون مالايجب مستدعياً وإليه داعياً وهو كبير البيت وإليه يرجع أمر كل مملوك ومستخدم ويأمره يؤخر من يؤخر ويقدم من يقدم ومثله يتعلم منه ولايعلم وعصاه على الكل محمولة على الرقاب مبسوطة في العفو والعقاب ومكانه بين يدينا حيث نراه ويرانا ولدينا قاب قاسين أو أدنى من قاب.

وعليه بتقوى الله فيها تمام الوصايا وكما الشروط والأمر بها فعصاه محكمه وأمره مبسوط وكل ماينباط بنا: من خاصة أمورنا في بيتنا - عمره الله ببقائناوزارد تعميره - بتدبيره منوط.

الثالثة - وصية أمير آخور.

وقد تقدم في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة أنه مركب من لفظين: عربي وهو أمير ومعناه معروف وأخور فارسي ومعناه العلف والمعنى أمير العلف.

وكأنه في الأصل كان هو المتولي لعلوفة الخيل ثم ارتفعت وظيفته حتى صار صاحبها من أكبار الأمراء القمديمن وهو يتحدث وهذه نسخة وصيته: " وليكن على أكمل مايكون من إزاحة الأعذار والتأهب لحركاتنا الشريفة في ليل كان أو نهار مقدماً الأهم فالأهم من الأمور والأبدأ فالأبدأ من تقديم مراكبنا السعيدة وتهيئة موكبنا المنصور وترتيب ذلك كله على ما جرت به العوائد وتحصيل ماتدعو الحاجة إليه على قدر الكفاية والزوائد والنظر في جميع إصطبلاتنا الشريفة والجشارات السعيدة وخير البريد والركايب المعدة لقطع كل مدى بعيد ومايجتمع في ذلك وينقسم ومايركب منها ويجنب مما يسم الأرض بالبدور والأهلة من كل حافر ومنسم وماهو برسم الإطلاق ومايعد لمماليك الطباق وخيل التلاد ومايجلب من قود كل قبيلة من القباشل ويجيء من كل بلدٍ من البلاد والمشترى مما يباع من المواريث ويستعرض من الأسواق ومايعد للمواكب وللسباق وليجل رأيه في ترتيب ذلك كله في مراتبه على ماتقتضيه المهمات والاحتراز في التلاد مما لعله يبدل ويقال هو هذا أو يؤخذ بحجة أنه مات وليجتهد في تحقيق مانفق وليحرره على حكم مايتحقق عنده لاعلى ماانفق وكذلك فليكن فحصه عمن ستخدم عنده من الغلمان ولايهمل أمورهم مع معاملتهم بالإحسان ولايستخدم إلا من تشكر سيرته في أحواله وتعرف خبرته فيما يراد من أمثاله وكذلك الركابة الذين تملك أيديهم أعنة هذه الكرائم والتحرز في أمرهم ممن لعله يأوي غليهم من أرباب الجرائم والأوشاقيه الذين هم مثل مماليكه وهم في الحقيقة إخوانه وجماعة المباشرين الذين هم في مباشرة الإصطبلات السعيدة ديوانه وكل هؤلاء يلزمهم أمثالهم من السلوك ويعلمهم بما يجب عليهم أن يتعلموه من خدمة الملوك ولايسمح لأحد منهم في أمر يفضي إلى إخلال ولايقتضي فرط إدلال وليقم أودهم بالأدب فإن الأدب مافيه إذلال وكل هؤلاء الطوائف ممن يتجنب العامة مخالطتهم بما طار في أيام من تقدم عن أمثالهم من سوء السمعة ويتخوف منهم السرعة فليكن لهم منك أعظم زاجر ومن شكي إليك منهم فسارع إلى التنطيل به وبادر واشهر من فعلك لهم مايوجب منهم الطمأنينة ولايعود أحد بعده يكذب يقينه وأمراء أخورية الذين هم أتباعك وبهم يمتد باعك هم بحسب ما تجعلهم بصدده ومامنهم إلا من يقدر أن يتعدى حده في مقام قدمه وبسط يده فاجعل لكل منهم مقاماً معلوماً وشيئاً تجعل له فيه تحكيماً.

وتثمين الخيول المشتراة والتقادم قومها بأهل الخبرة تقويم عدل وقل الحق ولايأخذك فيه لوم ولاعذل ومايصرف من العليق برسم الخيول السلطانية ومن له من صدقاتنا الشريفة عليق مر بصرفه عند الاستحقاق واضبطه بالتعليق وتصرف في ذلك كله ولاتتصرف إلا تصرف شفيق وصنه بأقلان جماعة الديوان ولاتقنع في غير أوقات الضرورة برفيق عن رفيق وكذلك البراسيم السلطانية أصلاً وزيادة ولا تصرف إلا مانأمر به وإلا فلا تخرج فيه عن العادة ونزلاؤك من أمراء العربان عاملهم بالجميل وزد في أخذ خواطرهم ولو ببسط بساط الأنس لهم فما هو قليل لتتضاعف رغبتهم في كل عام وليستدلوا ببشاشة وجهك لهم على مابعده من الأنعام وبغال الكؤوسات السعيدة والأعلام المنصورة وأثقال الخزانة العالية المعمورة واجعلها من المهمات المقدمة والمقدمات لنتائج أيام النصر المعلمة ورتبها في مواقفها وأتمها أتم مايكون من وظائفها فبها تثبت مواقف العسكر المنصور وإليها يأوي كل مستظل ورحى الحرب تدور وغير ذلك من قماش الإصطبلات السعيدة من الذهب والفضة والحرير وكل قليل وكثير باشره مباشرة من لايتخلى وأحصه خرجاً ودخلاً وإياك والأخذ بالرخص أو إهمال الفرص أو طلب فائت جرم أهملته حتى نكص.

الرابعة - وصية مقدم المماليك.

وقد تقدم في الكلام على أرباب الوظائف أنه يتحدث في أمر المماليك السلطانية والحكم بينهم ويركب خلفهم إذا ركب السلطان كأنه يحفظهم والوصية هي: وليحسن إليهم وليعلم أنه واحد منهم ولكنه مقدم عليهم وليأخذ بقلوبهم مع إقامة المهابة التي يخيل

إليهم بها أنه معهم وخلفهم وبين يديهم وليلزم مقدم كل طبقة بما يلزمه عند تقسيم صدقاتنا الجارية عليهم: من ترتيب الطباق وإجراء ساقيةٍ جارية من إحساننا إليهم ولاينس السواق وليكن لأحوالهم متعهداً ولأمورهم متفقداً وليستعلم أخبارهم حتى لايزال منها على بصيرة وليعرف ماهم عليه مما لايخفى عليه فإنهم وإن لم يكونوا له أهلاً فإنهم جيرة وليأمر كلاً منهم ومن مقدميهم والسواقين لهم بما يلزمهم من الخدمة وليرتبهم على حكم مكانتهم منا فإن تساووا فليقدم من له قدمة وليعدل في كل تفرقة وليحسن في كل عرض ونفقة وليفرق فيهم مالهم من الكساوى ويسبل عليهم رداء الشفقة وليعد منهم لغابنا المحمي سباعاً تفترس العادية وليجمل النظر في أمر الصغار منهم والكبار أصحاب الطبقات العالية وليأخذهم بالركوب في الأيام المعتادة والدخول إلى مكان الخدمة الشريفة والخروج على العادة وليدرهم في أوقات البياكير والأسفار نطاقاً دائر الدهليز المنصور وليأمرهم أمراً عاماً بأن لايركب أحد منهم إلا بدستور ولاينزل إلا بدستور وليحترز عليهم من طوائف الغلمان ولايستخدم منهم إلا معروفاً بالخير ويقيم عليهم الضمان وليحرر على من دخل عليهم وخرج ولايفتح لأحد منهم إلا من عليم أنه ليس في مثله حرج ولايدع للريبة بينهم مجالاً للأضطراب وليوص مقدميهم بتفقد مايدخل إليهم فإن الغش أكثره من الطعام والشراب وليدم مراجعتنا في أمرهم فإن بها يعرف الصواب وليعمل بما نأمره به ولايجد جوى " في جواب.

الضرب الثاني أرباب الوظائف الدينية

الطبقة الأولى أصحاب التقاليد ممن يكتب له بالجناب العالي وتشتمل على عدة وظائف: الوظيفة الأولى القضاء قد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على ترتيب الوظائف أن الديار المصرية كان يليها قاضٍ واحد إلى أن كانت الولة الظاهرية بيبرس في أوائل الدولة التركية وقاضي القضاة يومئذ القاضي تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الشافعي فاضطرب الأمر لاختلاف المذاهب فاقتضى رأي السلطان تقرير أربعة قضاة من كل مذهب قاض وقرر القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز في قضاء قضاة الشافعية على حاله وكتب لكل منهم تقليد بذلك ثم خص قاضي القضاة الشافعية بالتولية في بلاد الريف دون غيره من القضاة الثلاثة واستمر الأمر على ذلك إلى الآن.

إلا أنه لما حدث بديوان الإنشاء تنويع مايكتب لأرباب اللأقلام إلى تقاليد في قطع الثلثين وتفاويض وتواقيع في قطع النصف تقرر الحال على أن يكتب للقضاة الأربعة تواقيع في قطع النصف تقرر الحال على أن يكتب للقضاة الأربعة تواقيع في قطع لنصف بالمجلس العالي ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن ولي القاضي عماد الدين أحمد الكركي الأزرقي قضاء قضاة الشافعية في أول سلطنة الظاهر برقوق الثانية وأخوه القاضي علاء الدين علي كاتب السر فعني بأخيه عماد الدين المذكور فكتب له تقليداً في قطع الثلثين بالجناب العالي.

وبقي الثلاثة على ماكانوا عليه من كتابة التواقيع إلى أن ولي القاضي جمال الدين محمود الحلبي القيسري المعروف بالعجمي رحمه الله قضاء قضاة الحنفية في الدولة الظاهرية أيضاً مضافاً إلى نظر الجيش فكتب له تقليد في قطع الثلثين بالجناب العالي أيضاً وبقي المالكي والحنبلي على ماكانا عليه من كتابة التواقيع في قطع النصف.

ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن ولي قاضي القضاة جمال الدين يوسف البساطي قضاء قضاة المالكية في الدولة الناصرية فرج بن الظاهر برقوق فأنشأت له تفويضاً وكتبت له به ولم يكن أحد ممن عاصرناه كتب له تفويض غيره.

ثم لما ولي الشيخ جمال الدين عبد الله الأقفهيس قضاء المالكية كتب له توقيع في قطع النصف إلا أنه كتب له بالجناب العالي كما يككتب لأصحاب التقاليد وجرى الأمر فيمن بعده على ذلك.

ولم يبق من هو على النمط الأول سوى قاضي القضاة الحنايلة ويوشك أن يكتب لكل من المالكي والحنبلي أيضاً تقليد: لمساواتهم بغيرهم من الأربعة.

وقد ذكرت مايكتب لهم من تقاليد وتواقيع هنا جمعاً للمفترق وتقريباً للمأخذ وهأنا أذكر مايكتب للأربعة على الترتيب.

الأول: قضاء القضاة الشافعية وهذه نسخة تقليدٍ بقضاء القضاة الشافعية كتب به لقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز رحمه الله حين استقر أحد القضاة الأربعة بعد انفراده بالوظيفة على ماتقدم وهي من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله تعالى وهي: الحمد لله مجرد سيف الحق على من اعتدى وموسع مجاله لمن راح إليه واغتدى وموضح طريقه لمن اقتاد

واقتدى ومزين سمائه بنجوم تستمد الأنوار من شمس الهدى الذي أعذب لشرعة الشريعة المحمدية ينبوعاً وأقامها أصلاً مد بثمار الرشد فروعاً.

نحمده على نعمه التي ألزمتنا لتشييد مبانيها شروعاً ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة نعمر بها من القلوب والأفواه ربوعاً ونصلي على سيدنا محمد الذي أرسله الله إلى الخلائق جميعاً وقام بعبء الأمر يصنع حسناً ويحسن صنيعاً صلى الله عليه وعلى آله صلاةً لايبرح برقها ملموعاً ولاينفك وترها بالتسليم مشفوعاً.

وبعد فإن أحق من جدد له شرف التقريض وخلد له إرضاء الأحكام وإمضاء التفويض وريش جناحه وإن لم يكن المهيض وفسح مجاله وإن كان الطويل العريض ورفع قدره على الأقدار وتقسمت من سحائبه الأنواء ومن أشعته الأنوار من غزر مده فجرت منه في رياض الحق الأنهار وغداً تخشع لتقواه القلوب وتنصت لقوله الأسماع وترنو لمحياه الأبصار وقد أوفى من إرشاده للأمة لطفاً فلطفاً وأوقد من علمه جذوةً لاتخبو وقبساً بلاهوى لايطفى وفات النظراء والنظار فلايرسل أحد معه طرفاً ولايمد إليه من حيائه طرفاً واحتوى من علوم الشريعة على ماتفررق من غيره وغدا خير دليل إلى الحق فلا يقتدى في المشكلات إلا برأي اجتهاده ولايهتدى في المذاهب إلا بسيره وكان لفلك الشريعة المحمدية قطباً ولجثمانها قلباً ولسوارها قلباً ولدليلها برهاناً ولأنسانها عيناً ولعينها إنساناً فكم أرضى بني الأنام على الأيام وكم أغضى حياءً مع قدرته على الانتقام وكم أمضى لله حكماً لاانفصال لعروته ولا انفصام وكم أمضى لله حكماً لاانفصال لعروته ولا انفصام وكم قضى بالجور في ماله وبالعدل في الأيتام فلو استعداه الليل على النهار لأنصفه من تعديه ولم يداجه لما ستره عليه من تعديه في دياجيه فهو الصادع بما أمر الله به ولو على نفسه والمسترد الحقوق الذاهبة من غير محاباة حتى لغده من يومه وليومه من أمسه.

ولما كان قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ممن هو في أحسن هذه السمات قد تصور وكات نجوم السماء السماء بأنواره تتكثر وتجوهر بالعلوم فأصبح حقيقةً هو التاج المجوهر وله مزايا السؤدد التي لايشك فيها ولايرتاب وسجايا الفضل التي إذا دخل إليه غيره من باب واحد دخل هو إليه من عدة أبواب وهو شجرة الأحكام ومصعد كلم الأحكام الحكام ومطلع أنجم شرائع الإسلام ومهبط وحي المقدمات والارتسام ومجتمع رفاق القضايا في الحلال والحرام - خرج الأمر الشريف بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القضاة بالديار المصرية: فليستصحب من الحق ماهو ملي باستصحابه وليستمر على إقامة منار الحق الذي هو موثق عراه ومؤكد أسبابه وليحتلب من أخلاف الإنصاف ماحفله اجتهاده ليد احتلابه عالماً بأن كل إضاءة إنارتها من قبسه وإن استضاء بها في دياجي المنى وكل ثمرة من مغترسه و إن مد إليها يد الاجتنا وكل جدول هو من بحره وإن بسط إليه راحة الاغتراف وكل منهج هو من جادته وإن ثنى إلى سلوكه عنان الانصراف لاالانحراف وهو بحمد الله المجتهد المصيب والمادة للعناصر وإن كان نصيبه منها أوفر نصيب وسجاياه يتعلم منها كيف يوصى ويعلم ومزاياه تقوم الأود كيف يقوم والله الموفق بمنه وكرمه! الثاني - قاضي القضاة الحنفية على ماستقر عليه الحال من لدن القاضي جمال الدين محمود القيسري وإلى آخر وقت.

وموضوعها النظر في الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ويختص نظره بمصر والقاهرة خاصة.

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضاة الحنفية كتب به لمن لقبه شمس الدين وهي: الحمد لله الذي أطلع في أفق الدين الحنيف شمساً منيرة ورفع درجة من جعله من العلم على شريعةٍ ومن الحكم على بصيرة وقلد أمور الأمة لمن يعلم أن بين يديه كتاباً لايغادر صغيرة ولاكبيرة ووفق لفصل القضاء من مشى على قدم أقدم الأئمة فسار في مذهبه المذهب أحسن سيرة الذي أدخر للحكم في أيامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضل ذخيرة وقضى بإرجاء أمره لنختار له من تحلى به بعد العطل وكل قضاء خيرة وأيقظ عنايتنا لمن رقد الدهر عن فضله فباتت عين الاستحقاق باستقرار رتبته قريرة.

نحمده حمد من توافت إليه النعم الغزيرة وتوالت عليه المنن الكثيرة في المدد اليسيرة وأخصبت في أيامه رياض الفضائل فهي بكل عالم عدم النظير نضيرة وافتتح دولته برفع منار العدل فآمال أهل الظلم عن تعاطيه قاصرة وأيدي أهل الباطل عن الامتداد إليه قصيرة وخص المناصب في ممالكه بالأكفاء فإذا تلبست بهم همم غيرهم عادت خاسئةً أو امتدت إليها أبصار من دونهم رجعت حسيرة.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تصلح العلن والسرية وتصبح بها القلوب موقنة والألسن ناطقةً والأصابع مشيرة ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعث الله به الرسل مخبرةً وأنزل الكتب بمبعثه بشيرة واجتباه من خير أمة من أكرم أرومة وأشرف عشيرة وأظهر أنوار ملته إلا لمن أعمى الغي بصيرته وهل ينفع العمي شمس الظهيرة وخصه بالأئمة الذين

وفقهم للاستعانة بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة وجعل علماءهم ورثة الأنبياءفلو ادعيت لأحكامهم العصمة لكانت بذلك جديرة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً نتقرب بدوامها إلى الله فيضاعفها لنا أضعافاً كثيرة وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى الأمور بأن تشاد قواعده وتتعهد معاهده ويعلى مناره وتفاض بطلوع شمسه أنواره ويحلى به بعد العطل جيده وينظم في سلك عقود الأمة فريدة وتكمل به قوى الدين تكملة الأجساد بقوى الطبائع الأربع وتعمر ربوع الملة التي ليس بعدها من مصيف لملة ولامربع وتثبت به قوائم الشرع التي ماللباطل في إمالة بعضها من مطمع وتجلى به عمن ضاق عليه المجال في بعض المذاهب الغمة ويستقر به عدد الحكام على عدد الأئمة المستقر على عدد الخلفاء الراشدين من خلفاء الأمة ويمد به على الخلق جناح الرحمة وافر القوادم وراف الظلال ويجمع به عليهم ماجمع الله في أقوال أئمتهم من الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال - أمر القضاء على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه الذي اشتق الله له من الملة الحنيفية نسبة سرت في الآفاق وأفاض عليه من مواد القياس الجلي كنوزاً نمت على الإنفاق وعضد أيامه بولييي عهد قولهما حجة فيما تفردا به من الخلاف أو اجتمعا عليه من الوفاق وعد من التابعين لقدم عهده وسمي سراج الأمة لإضاءة نوره بهما من بعده.

ولما خلا بانتقال مباشرة الله تعالى توقف مدةً على ارتياد الأكفاء وارتياء من هو أهل الاصطفاء واختيار من تكمل به رفعة قدره ويعيد لدسته بتصدر على بساط سليمانه بهجة صدره ويغدو لسر إمامه بعد إماتة هذه الفترة ياعثاً ويصبح وإن كان واحد عصره لأبي يوسف ثانياً ولمحمد بن الحسن ثالثاً ويسبه به البخي زهداً وعلماً والطحاوي تمسكاً بالسنة وفهماً ويغترف القدوري من يحره ويعترف الحصري بالحصر عن إحصاء فضله وحصره ويقف من مذهب ابن ثابت على أثبت قدم وينتمي من فقه النعمان إلى فرع زاكٍ وأصل ثابت وينشر من أحكامه ماإن وافق الأئمة فهو حجة قاطعة ومحجة ساطعة أو خالفهم بمذهبه فهو رحمة واسعة ونعمه وإن كانت بين الطرق فارقةٌ فإنها على الحق جامعة.

ولماكان فلان هو المنتظر لهذه الرتبة انتظار الشمس بعد الغسق والمرتقب لبلوغ هذه المنزلة التي تقدمت إليها بوادر استحقاقه في السبق والمعطوف على من وصف من الأئمة وإن تأخر عن زمانه عطف وهو الذي يعدل دم الشهداء مداد أقلامه وتضع الملائكة أجنحتها رضاً بما يصنع من نقل خطواته في طلب العلم وسعي أقدامه ودخل من خشية الله تعالى في زمرة من حصر بإنما وهجر المضاجع في طاعة الله لتحصيل العلم فلو عدت هجعاته لقلما وهجر في إحراز الفضائل فقيد أوابدها وأحرز شواردها ولجج في بحار المعاني فغاص على جواهرها ونظر نظرةً في نجوم العلوم فاحتوى على زهرها وارد خمائل الفضائل فاستولى على أزاهرها وانتهى إليه علم مذهبه فبرز على من سلف وجارى علماء عصره فوقفت أبصارهم عن رؤية غباره وماوقف ونحا نحو إمامه فلوقابله يعقوب مع معرفته في بحث لانصرف وتعين عليه الضاء وإن كان فرض كفاية لافرض عين وقدمه الترجيح الذي جعل رتبته همزة استفهامٍ ورتبة غيره بين بين - اقتضى رأينا الشريف اختصاصه بهذا التمييز والتنبيه على فضله البسيط بهذا اللفظ الوجيز.

فلذلك رسم أن يفوض إليه كيت وكيت.

فليتول هذه الرتبة التي أصبح فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نائباً وبشرعه قائماً ويتقلدها تقلد من يعلم ألأنه قد أصبح على حكم الله مقدماً على الله قادماً ويتثبت تثبت من يعتصم بالله في حكمه فإن أحد الخصكين قد يكون ألحن بحجته وإن كان ظالماً ويلبس لهذا المنصب حلة تمنع المبطل من الإقدام عليه وتدفع الظالم عن التطاول إلى أمر نزعه الشرع من يديه وتؤمن الحق من امتداد يدي الجور والحيف إليه وليسوا بين الخصمين في مجلسه ولحظه ويعدل بينهما في إنصاته ولفظه: ليعلم ذو الجاه أنه مساوٍ في الحق لخصمه مكفوف باستماع حجته عن الطمع في ظلمه ولاينقض حكماً لم يخالف نصاً ولاسنةً ولإجماعاً وليشارك فيما لايجهله من القضايا غيره من العلماء ليتزيد بذلك مع اطلاعه اطلاعاً وليغتنم في ذلك الاستعانة بآرائهم فإن الله تعالى لاينتزع هذا العلم انتزاعاً وليسد مسالك الهوى عن فكره ويصرف دواعي الغضب لغير الله عن المرور بذكره وليجعل العمل لوجه الله نتيجة علمه وليحكم بما أراه الله والله يحكم لا معقب لحكمه إن شاء الله تعالى.

قاضي قضاة المالكية: وهذه نسخة تقليد بقضاء المالكية لقاضي القضاة جمال الدين يوسف البساطي المقدم ذكره في -الثالث العشر الأخير من رجب الفرد سنة أربع وثمانمائة وهو: الحمد لله الذي شفع جلال الإسلام بجماله وناط أحكامه الشرعية بمن اقترن بحميد مقاله جميل فعاله وخص مذهب عالم المدينة بخير حاكم ماجرى حديثه الحسن يوماً إلا وكان معدوداً من رجاله وعدق النظر في أحكامه بأجل عالم لو طلب له في الفضل مثل لعجز الزمان أن يأتي بمثاله.

نحمده على أن أخلف من النبعة الزكية صنواً زاكساً وأدال من الأخ الصالح أخاً للعلوم شافياً ولمنصبه العلي ولله الحمد وافياً ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له مجرد سيف الحق على كل مبطل معاند ومرهف حده القاضب لكل ملحدٍ عن سواء السبيل حائد وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل نبي فاق الأنام بفضله وعم البرية بعدله وسد باب التوبة على منتقصه فلم تكن لتقبل توبة مثله وكان إلى مالك مصيره فلا جرم قضى بإهدار دمه وتحتم قتله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ذابوا عن حمى الدين وذادوا وسلكوا سبيل المعدلة إذ حكموا فما ضلوا عن سنن الطريق ولاحادوا صلاةً تبقى ببقاء الدهور ولاتزول بهجة جمالها بتوالي الأعوام والشهور وسلم تسليمكاً كثيراً.

أما بعد فإن أولى ماقصر عليه النظر واستغرقت فيه الفكر وعر العيون فيه السهر وصرفت إليه الهمم ورغبت في البراءة من تخلفه الذمم - النظر في أمرمنصب الشرع الشريف الذي يأوي الملهوف إلى ظله ويلجأ المستجير إلى عدله ويتعلق العفاة بوثيق عروته وميتن حبله وبرهبته يكف الظالم عن ظلمه وينتصف الخصم من خصمه ويذعن العاصي إلى طاعته وينقاد الأبي إلى حكمه ويأتم به الحائر في دجى الجهل فيستضيء بنوره ويهتدي بنجمه لاسيما مذهب مالكٍ الذي لم يزل للدين من أهل الإلحاد مثئراً وللقصاص من أهل العناد مبتدراً وبسل سيف الحق على الطغاة المتمردين مشتهراً ففاز من سطوات الإرهاب بأرفع المراتب وعلا رقاب الملحدين بأرهف القواضب وخص من سفك دماء المبطلين على البت بما لم يشاركه فيه غيره من المذاهب فوجب أن يختار له من ينص الاختبار على أنه أهل للاختيار ويقطع المنافس أنه الراجح وزناً عند الاعتبار وتأخذ مناقبه البسيطة في البسط فلا تنفذ إذا نفدت مناقب غيره المركبة عند الاعتبار وتأخذ مناقبه البسيطة في البسط فلا تنفد إذا نفدت مناقب غيره المركبة عند الاختصار ويشهد له ضده بالتقدم في الفضل وإنم لم تتقدم منه دعوى ويعترف له بالاستحقاق خصمه فيتمسك من عدم الدافع فيه بالسبب الأقوى ويحكم له بعلو الرتبة مناوئه فيرتفع الخلاف وتنقطع النجوى ويسجل له حاسده بثبوت المفاخر المحكوم بصحتها فلا ينقضها حالكم وإن بلغ من تدقيق النظر الغاية القصوى وتنفذ أحكامه في البرية فلا يوجد لها مخالف وتحذر شيعة الباطل سطوته فلا يرى لباطل محالف ويشتهر عنه من نصرة الحق مايأمن معه المستضعف الخائف ويتحقق فيه من قيام العدل مايرتدع به الظالم الحائف ويستوي عنده في لزوم الحق القوي والضعيف ولايفرق في لازمه بين المشروف والشريف ولايميز في حمل الأعباء الشرعية بين الشاق وغيره ولابين الثقيل والخفيف ولايحابي قريباً بقرابته ولا جليلاً لجلالته ولا طالماً خوف ظلمه ولاذا استطالةٍ لاستطالته ولايستزله ذو لسن للسنة ولابليغ لبلاغته ولايخالف بين الصديق الملاطف وغيره إلا في منع قبول شهادته.

ولما كان المجلس العالي القاضوي الكبيري الإمامي العالمي الصدري الرئيسي الأوحدي العلامي الكاملي الفاضلي المفيدي الفريدي الحجي القدوي الخاشعي الناسكي الحاكمي الجمالي جمال الإسلام شرف الأنام حاكم الحكام أوحد الأئمة مفيد الأمة مؤيد الملة معز السنة شمس الشريعة سيف المناظرين لسان المتكلمين حكم الملوك والسلاطين خالصة أمير المؤمنين أبو المحاسن يوسف البساطي المالكي - أدام الله تعالى نعمته - هو المراد من هذه الصفات التي وقعت من محله الكريم موقعها والمقصود من هذه السمات التي ألفت من سيرته الفاضلة موضعها وقارع صفاة هذه الذروة التي ماكان ينبغي لغيره أن يقرعها وشمس الفضل الحقيق بمثلها أن لايتوارى جمالها بحجاب الغروب وفاصل مشكلات القضايا إذا اشتد إشكالها وعظمت في فصلها الخطول ومتعين الولاية التي إذا كانت في حق غيره على الإباحة كانت في حقه على الوجوب وقد درب الأحكام وخبرها وعرف على التحقيق حالها وخبرها وورد من مشاربها الرائقة أصفى المناهل فأحسن وردها وصدرها ونفست جواهر فوائده ففاقت جواهر المعادن وغطت محاسن فضله فضائل غيره ولاتنكر المحاسن ليوسف وهو أبو المحاسن فعلومه المدونة بالبيان والتحصيل كافلة ومقدمات تنبيهاته بنتائج النوارد الحسنة متواصلة وتهذيب ألفاظه المنقحة تؤذن بالتحرير وعيون مسائلة المتواردة لاتدخل تحت حصر ولاتقدير فلو رآه مالكلقال: ماأعظم هذه الهمة أو أدركه ابن القاسم لوفر من الثناء عليه قسمة أو عاصره ابن عبد الحكم لحكم له بأن سهمه قد أصاب الغرض وغيره أطاش الريح سهمه أو عاينه أشهب لقال قد ركب هذا الشهباء أنى يلحق أو سمع ابن وهب كلامه لقطع بأنه هية ربانية وبمثله لم يسبق أو بلغ ابن حبيب أو استشعر بقدومه ابن سيرين لبشر به أو جاوره ابن عوف لعاف مجاورة غيره أو مجاوزة طنبه أو جالسه ابن يونس لتأنس بمجالسته أو حاضره أبو الحسن بن القصار لأشجى قلبه بحسن محاضرته أو جاروه ابن عوف لعاف مجاورة غيره أو مجاوزة طنبه أو جالسه ابن يونس لتأنس بمجالسته أو حاضره أبو الحسن بن القصار لأشجى قلبه بحسن محاضرته أو جاراه القاضي عبد الوهاب لقضى بعلو مكانته أو اتصل ذكره بالمازري لزرى على مازر لبعدها عن دار إقامته أو اطلع القاضي عياض على تحقيقاته لاستحسن تلك المدارك أو ناظره ابن عبد السلام لسلم أنه ليس له في المناظرة نظير ولا في تدقيق البحث مشارك أو مر به ابن الجلاب لجلب فوائده إلى بلاده أو حضره ابن الحاجب لتحقق أنه جامع الأمهات على انفراده.

هذا وقد حف بجلال لاعهد لأحد مثله ولاطاقة لفاضل بمقاومة فضله ولايسمح الزمان بنظيره من بعده كما لم يسمح به من قبله فاجتمع من جمال الجلال وجلال الجمال مالم يكن ليدخل تحت الإمكان وعزز عددهما من أعلام الأئمة بثالث ورابع فقام بناء

الدين من المذاهب الأربعة على أربعة أركان ولاعبرة بما يذهب إليه الذاهبون من كراهة التربيع تبعاً للمنجمين في اعتقادهم الفاسد فقد ورد أن زوايا الحوض على التربيع وذلك فيه أعظم دليل وأقوم شاهد.

وكان مذهب مالك رحمه الله هو المراد من هذه الولاية بالتخصيص والمجلس الجمالي المشار إليه هو المقصود بهذا التفويض بالتنصيص - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نوفي مرتبته السنية حقها ونبويء النعم مستحقها ونملك رقاب المعالي مسترقها ونقدم على طائفة المالكية من أضحى لهم جمالاً ونتحفهم بمن أمسى لعزهم كمالاً ونفوض قضاء مذهبهم إلى من إذا جرى في ميدان حكمه قاللتمحاسن قضاياه: هكذا هكذا وإلا فلا لا ونسند الأحكام الشرعية إلى مامن هو بها أعرف ونقفها على من عرف أنه على الحقائق ماضٍ وعند السنة يتوقف ونعدق أمرها بمن ألف النزاهة فنكرة المطامع عنده لا تتعرف ونكل النظر فيها إلى من أمسى لشروط الاستيجاب جامعاً ونقدم في ولاية هذا المنصب من شفع له استحقاقه وكفى بالاستحقاق شافعاً.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يبسط لأوليائه من بساط الأنس ما كان مطوياً وينيلهم من رغائب الآمال ماكان عنهم من سالف الأزمان مزوياً - أن يفوض إليه قضاة مذهب عالم المدينة وإمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي: قدس الله تعالى روحه.

فليتلق مافوض إليه بأفضل تلق يليق بمثله ويتقبله تقبلا يناسب رفعه محله ويبتهج بأجل تفويض لم يسمح بتمنيه لآخر من قبله.

ومن أهم مانوصيه به ونوجه القول إليه بسببه تقوى الله تعالى التي هي ملاك الأمر كله وقوام الدين من أصله والاشتمال عليها في سره وجهره والعمل بها في قوله وفعله ثم بر الخلق والإحسان إليهم والتجاوز عنهم إلا فيما أوجبه الشرع من الحقوق عليهم ففي التقوى رضا الله وفي البر رضا الله ورضا الخلق فقد حصل على خير الدنيا والآخرة ووراء ذلك قاعدة في الوصايا جامعة وتذكرة لذوي الذكرى نافعة وهي أن يتأمل أحوال غيره تأمل من جعلها لنفسه مثالاً ولنسجه منوالاً فما ساتحسنه منها أتى مثله وكااستقبحه تحنب فعله واقفاً في ذلك عند ماوردت به الشريعة المطهرة بنص صريح أو تأويل صحيح معرضاً عن العقليات المحضة فلا مجال للعقل في تحسين ولاتقبيح.

وأما أدب القضاء الجاري ذكر مثله في العهود والنظر في أمر النواب وكتاب الحكم والشهود فهو به أدرب وأدرى وبمعرفة ذلك لهم وعليهم أحق وأحرى غير أنا نوصيه بالتثبت في أمر الدماء وعلاقتها وتحقق حكمها قبل الحكم بإراقتها فإن ذلك لمادة القلق فيها أحسم ومن تبعاتها في الدارين أسلم والوصايا كثيرة ولكنها منه تستفاد وعنه تؤخذ وإليه تعاد والله تعالى يتولاه ويحوطه فيما ولاه ويديم عليه هذه النعمة فما فوق منصبه منصب يتمناه والاعتماد .

إن شاء الله تعالى.

وكتب لست إن بقين من شهر رجب الفرد عام أربع وثمانمائة حسب المرسوم الشريف بمقتضى الخط الشريف.

وهذه نسخة توقيع بقضاء القضاة الحنفية بدمشق من إنشاء القاضي ناصر الدين ابن النشائي وهي: الحمد لله الذي جعل منار الشرع الشريف مستمراً على الدوام وشمل منصب الحكم العزيز للعالم بعد العالم على ممر الأيام وأجمل انتخاب من يقوم بأعباء القضايا ومن تدوم به مزايا السجايا فيتخير لذلك الإمام بعد الإمام وأقبل بوجه اجتبائه على ولي نتأكد بإنصاته وإنصافه إحكام الأحكام وعدل باعتنائه إلى تعيين من ترتفع به في العلوم أعلام الإعلام ومن يتأيد به الحق في كل نقض وإبرام.

نحمده على نعمه الوافرة الأقسام السافرة اللثام عن وجوهالزيادة الوسام ونشكره على مننه الجسام ومواهبه التي لاتبرح ثغور إمسانها لذوي ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة كفيلة بالمرام منيلة للإكرام جميلة التلفظ والالتئام جزيلة الكنف والاعتصام ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أقام الله به شعائر الإسلام وأظهر شرائع الدين الحنيف بحسام نصره الحسام وأورث من أهله من أمته كنوز العلوم التي لاتنفد فوائدها مع كثرة الإنفاق مدى السنين والأعوام صلى الله عليه وعلى آلة وصحبه الذين هوا المؤمنين بإلهام الكلام وعدوا على المشركين بسهام الكلام وأبدوا من إرشادهم إلى خفايا القضايا ما يظهر بتهذيبهم ظهور بدر التمام صلاة دائمة باقية تجزل لقائلها الأجر التام وترسل إليه سحائب المواهب هاطلة الغمام وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من تذهب به مذهبه وتحلى به محمل الشرع الشريف ومنصبه وأنار بنور إرشاده ليل الشك وغيهبه وسهل بتقريبه على فهم الطالب مطلبه وهمى به وابل العلم وصيبه وأتيح به للمستفيد كنزالفوائد التي يدنو بها أربه وشيم من برق شيمه بالشام ماوجد في الجود صادقه وفقد خلبه - من علا في العلوم نسبه وتأكد في الدين سببه وشيد مبني المعالي معربه وصقل مرايا الأفهام مهذبه وزاحم منكب الجوزاء في ارتفاع القدر منكبه وجمل مواكب المباحث في الأصول والفروع موكبه وسحن بدقائق الحقائق سحبه واشتاق إلى قربه موطن الحكم العزيز فما زال يرتقبه وارتاح الزمان إلى عفافه وإنصافه فأرشد حيث نختاره لذلك وننتخبه.

ولما كان المجلس العالي.

أيد الله أحكامه هو الذي أرشد الطالبين في البداية وأفاد المنتهين درجات النهاية وأفهم المستفيدين صواب الهداية وغدا سابقاً في حلبة العلماء إلى أقصى غاية.

كم قرب إلى الأذهان غامض المشكل وأوضح مفهومه وكم أشاع فرائد فوائده التي طبق الأرض بها علومه وكم أباح لقط ألفاظه المشحونه بالحكم فتحلى الناس بدررها المنثورة والمنظومة مع ماله من دينٍ متين واتباع لسنن الحق في الحكم بين للخلق على يقين - اقتضى حسن الرأي الشريف أن يقرن منصب القضاء بجماله وأن يعوض عن إمامه المفقود بإمامه الموجود ليستمر الأمر على حاله.

فلذلك رسم.

لازالت أئمة العلم الشريف في أيامه يخلف بعضهم بعضاً وأقدارهم تدوم رفعتها مدى المدد فلا تجد نقصاً ولانقضاً - أن - يفوض.

فليباشر ذلك بعلمه المأثور وحكمه المشهور وإنصافه الذي يعدل فيه ةاتصافه بالحق الذي مابرح يوفيه قاضياً بين الخصوم بما أمر الله عز وجل مراقباً لخشية الله على عادته مذيعاً للملة الحنيفة أنواع إفادته قاطعاً بنصل نصه مشكل الإلباس جامعاً في أحكامه المسددة بمقتضى مذهبه بين الكتاب والسنة والقياس ومازالت عمدته التي يعتمد عليها وعدته التي يستند في إسناد أمره إليها والله تعالى بجمل الأيام بأحكامه ويبلغ من خير الدنيا والآخرة غاية مراده ومرامه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة المالكية أيضاً أنشأته لقاضي القضاة جمال الدين البساطي المذكور عند عودته إلى الوظيفة لأربع بقين من ذي القعدة سنة سبع وثمانمائة.

وقد وافق عود شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن البلقيني إلى قضاة الشافعية أيضاً وهي: الحمد لله الذي أعاد لرتبة القضاء رونق جمالها وأسعد جدها بأسعد قرانٍ ظهرت آثار يمنه بما آثرته من ظهور جلاله وأجاب سؤلها بأجل حاكم لم تعدل عنه يوماً في سؤالها وأسعد طلبتها بأكمل كفء لم تنفك عن خطبته وإن أطال في مطالها وأكرم مآبها بأكرم كافٍ مافاتها منال ماضٍ إلا أدركته به في مآلها.

نحمده على أن أعطيت القوس باريها وأعيدت مياه الاستحقاق إلى مجاريها وردت الشاردة إلى مالكٍ ألفت منه بالآخرة ماألفت من خيره مباديها.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً يخفق بالإخلاص مناطها ويزداد مع طول الأمد نشاطها ولاينطوي على ممر الأيام - إن شاء الله تعالى - بساطها ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل نبي رفع قواعد الدين وشاد وقام في الله حق القيام فحسم بسيف الشرع مادة الفساد وأحكم بسد الذرائع سداد الأمور فجرت أحكام شريعته المطهرة على السداد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين استنشق من معدلتهم أطيب عرف وخصوا من صفات الكمال بأحسن حلية وأكمل وصف صلاةً توهي عرا الإلحاد وتفصمها وتبك أعناق أهل وبعد فلاخفاء في أن الأبصار تتشوف لرؤية الهلال مع قرب الغيبة للإخذ منه بنصيبها والشمس يترقب طلوعها في كل يومٍ وإن قرب زمان مغيبها والمسافر يسر بإيابه وإن تكرر قدومه من بعيد المسافة وقريبها والسهران يتطلع من ليلته الطويلة إلى طلوع فجرها والمناصب السنية تأزر إلى مستحقها كما تأرز الحية إلى جحرها.

ولما كان المجلس العالي القاضوي إلى آخر ألقابه أعز الله تعالى أحكامه هو الذي حمدت في القضاء آثاره وسارت بحسن السيرة في الآفاق أخباره وحسن بحسن تأتيه في الورد والصدر إيراده وإصداره وتنافس في جميل وصفه الطرس والقلم وظهرت فضائله ظهور نار القرى ليلاً على علم ونشرت الأيام من علومه ماتطوى إليه المراحل وجادت مواطر فكره بما يخصب به جناب المربع الماحل وعمرت من منصب القضاء بولايته معاهده وجرت بقضايا الخير في البدء والعود عوائده ونفذت بنفاذ أوامره في الوجود أحكامه ورقم في صحائف الأيام على توالي الدهور نقضه وإبارمه وسجل بثبوت أحقيته فانقطعت دون بلوغ شأوه الأطماع وحكم بموجب فضله فانعقد على صحة تقدمه الإجماع ففراشد فواشده المدونة تؤدن بالبيان والتحصيل ومقدمات تنبيهاته المحققة تكفي نتائج إفضالها عن غلإجمال والتفصيل وجواهر ألفاظه الرائقة نعم الذخيرة التي تقتنى ومدارك معانيه الفائقة حسبك من ثمرة فكر جتنى وتهذيب إيرادته الواضحة تغني في إدراكها عن الوسائل وتحقيق مسائله الدقيقة تحقق فيها أنها عيون المسائل - وكانت وظيفة قضاء قضاة المالكية بالديار المصرية في رفيع رتبتها ووافر حرمتها قد ألقت إليه مقاليدها ورفعت بالانتماء إلة مجلاسه العالي أسانيدها وعرفت محله الرفيع فتعلقت منه بأعز منال وحظيت بجماله اليوسفي المرة بعد الأخرى فقالت: لابراح لي عن هذا الجمال وعجمت بتكرر العود عوده فأعرضت عن السوى وقرت بالإياب إليه عيناً فألقت عصاها واستقر بها النوى - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نعيد الوظيفة المذكورة إليه ونعول في استكشاف مشكلات الإحكام على مالديه إقرار " للأمر في نصابه ورداً له بعد الشراد إلى مثابه وإسعافاً للمنصب بطلبته وإن أتعب غيره نفسه في طلابه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يبديء المعروف ويعيده ويوفر نصيب الأولياء ويزظيده - أن يفوض إلى المجلس العالي المشار إليه قضاء القضاة بمذهب عالم المدينة وإمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي رضي الله عنه على جاري عادته المتقدمة في ذلك وأن يضاف إليه تدريس قبة الصالح ةالأنظار الشاهد بها توقيعه الشرف وأن لايقرر أحد في دروس المالكية من مدرس ومعيد إلا بتعيينه على أتم العوائد وأجملها وأعم القواعد وأكملها.

فليعد إلى رتبته السنية برفيع قدره وعلى همته ويقابل إحساننا بالشكر نتحفه بمزيد الإقبال إذ لازيادة في العلو على رتبته.

ثم أول مانوصيه به ونؤكد القول عليه بسببه تقوى الاه التي هي ملاك الأمور كلها وأولى المفترضات في عقد الأمور وحلها فهي العصمة التي من لجأ إليها نجا والوقاية التي ليس لمن حاد عنها من لحاق قوارع الله ملتجا.

ونتبع ذلك بالتلويح إلى الاحتياط في المسائل التي تفرد بها مذهبه الشريف ضيقاً وسعة واختص بها إمامه الأصبحي دون غيره من الأئمة الأربعة وهي مسائل قليلة آثارها في الورى كثيرة جليلة منها سفك دم المنتقص والساب وتحتم قتله على البت وإن تاب فعليه أن يأخذ في ذلك بالاهتمام ولايعطي رخصة في حق أحدٍ من الأنبياء والملائكة عليهم السلام ليكون ذلك وسيلة إلى الخلوص عن القذى وذريعةً إلى سلامه الشرف الرفيع من الأذى إلا أنا نوصيه بالتثبت في الثبوت وأن لايعجل بالحكم بإراقة الدم فإنه لايمكن تداركه بعد أن يفوت.

ومنها: الشهادة على الخط وإحياء مامات من كتب الأوقاف والأملاك وتقريب ماشط فلايقبل فيه إلا اليقظ الواقف مع تحققه دون حدسه ولايطلق عنان الشهود فإن الكاتب ربما شاتبه عليه خط نفسه - ومنها: ثبوت الولاية للأوصياء فيجريها على اعتقاده ولكن إذا ظهرت المصلحة في ذلك على وفق مراده - ومنها: إسقاط غلة الوقف إذ استرد بعد بيعه مدة بقائه في يد المشتري يحذيراً من الإقدام على بيع الوقف وعقوبة رادعةً لبائعة المجتري إلى عير ذلك من مسائل الانفراد وما شاركه فيه غيره من المذهب لموافقة الاعتقاد فيمضضي الحكم فيه بأقوى العزائم ويلزم فيها بما استبان له من الحق ولاتأخذه في الله لومة لائم.

وأما غير ذلك من الوصايا الراجعة إلى أدب القضاء فلديه منها الخبر والخبر ومنه تستملى فوصيته بها كنقل التمر إلى هجر والله تعالى يعامله بلطفه الجميل ويحفه بالعناية الشاملة في المقام والرحيل إن شاء الله تعالى والاعتماد.

وهذه نسخة توقيع قضاة الحنابلة وهي: الحمد لله الذي أطلع في افق الدين القيم شمساً منيرة ورفع درجة من جعله من العلم على شريعة ومن الحكم على بصيرة وقلد أمور الأمة بمن يعلم أن بين يديه كتاباً لايغادر صغيرة ولاكبيرة ووفق لفصل القضاء من مشى على قدم إمامه الذي ادخر منه للحكم في أيامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضل ذخيرة وقضى بإرجاء أمره لنختار له من تحلى به بعد العطل وكل قضاءً خيرة وأيقظ عنايتنا لمن رقد الدهر عن فضله فباتت عين الاستحقاق باستقرار رتبته قريرة.

نحمده حمد من توافت إليه النعم الغزيرة وتوالت عليه المنن الكثيرة في المدد اليسيرة وأخصبت في أيامه رياض الفضائل فهي بكل عالم عدم النظير نضيرة وافتتح دولته برفع منار العدل فآمال أهل الظلم عن تعاطيه قاصرة وأيدي أهل الباطل عن الامتداد إليه قصيرة وخص المناصب في ممالكه بالأكفاء فإذا تلبست بها همم غيرهم عادت خاسئة أو امتدت إليها أبصار من دونهم رجعت حسيرة.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً تصلح العلن والسرية وتصبح بها القلوب موقنةً والألسن ناطقةً والأصابع مشيرة ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعث الله به الرسل مخبرةً وأنزل الكتب بمبعثه بشيرة واجتباه في خير أمة من أكرم أرومةٍ وأشرف عشيرة وأظهر أنوار ملته إلا لمن أعمى الغي بصيرته وهل تنفع العمي شمس الظهيرة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تتقرب بدوامها إلى الله فيضاعفها لنا أضعافاً كثيرة وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى الأمور بأن تشاد قواعده وتتعهد معاهده ويعلى مناره وتفاض بطلوع شمسه أنواره وتكمل به قوى الدين تكملة الأجساد بقوى الطبائع الأربع وتعمر به ربوع الملة التي ليس بعدها من مصيف لملة ولامربع وتثبت به قوائم الشرع التي ماللباطل في إمالة بعضها من مطمع أم رالقضاء على مذهب الإمام الرباني أحمد بن حنبل رضي الله عنه وكان قد خلا بانتقال مباشره إلى الله تعالى وتوقف مدة على ارتياد الأكفاء والإرشاد إلى من هو أهل الاصطفاء واختيار من تكمل به رفعة قدره ويعيد لدسته على بساط سليمانه بهجة صدره.

ولما كان فلان هو المنتظر لهذه الرتبة انتظار الشمس بعد الغسق والمرتقب لبلوغ هذه المنزلة التي تقدمت إليها بوادر استحقاقه في السبق والمعطوف على الأئمة من أصحاب إمامه - وإن تأخر زمانه - عطف النسق وهو الذي مازال يعدل دم الشهداء مداد أقلامه وتضع الملائكة أجنحتها رضاً بما يصنع من نقل خطواته في طلب العلم وسعي أقدامه ودخل من خشية الله تعالى في زمرة من حصر بإنما وهجر المضاجع في طاعة الله ولتحصيل العلم فلو عدت هجعاته لقلما وهجر في إحراز الفضائل فقيد أوابدها وأحز شواردها ولجج في بحار المعاني فغاص على جواهرها ونظر نظرةً في نجوم العلوم فاحتوى على زهرها وزار خمائل الفضائل فاستوى على أزاهرها وانتهى إليه علم مذهبه فبرز على من سلف وجارى علماء عصره فوقفت أبصارهم عن رؤية غباره فبرز على من سلف وجارى علماء عصره فوقفت أبصارهم عن رؤية غباره وماوقف وتعين عليه لاقتضى -القضاء وإن كان فرض كفاية لافرض عين وقدمه الترجيح الذي جعل رتبته همزة استفهام ورتبة غيره بين بين رأينا الشريف اختصاصه بهذا التمييز والتنبيه على فضله البسيط بهذا اللفظ الوجيز.

فلذلك رسم أن يفوض إليه كيت وكيت.

فليتول هذه الرتبة التي أصبح فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - نائباً وبشرعه قائماً ويتقلدها تقلد من يعلم أنه قد أصبح على حكم الله تعالى مقدماً وعلى الله قادماً ويتثبت تثبت من يعتصم بحبل الله تعالى مقدماً وعلى الله قادماً ويتثبت تثبت من يعتصم بحبل الله في حكمه فإن أحد الخصمين قد يكون ألحن بحجته وإن كان ظالماً ويلبس لهذا المنصب حلة تمنع المبطل من الإقدام عليه وتدفع الظالم عن التطاول إلى أمر نزعه الشرع الشريف من يديه ويؤمن الحق من امتداد يد الجور والحيف إليه وليسو بين الخصمين في مجلسه ولحظه مكفوف باستماع حجته عن الطمع في ظلمه ولاينقض حكماً لم يخالف نصاً ولاسنة ولا إجماعاً وليشارك فيما لايجهله من القضايا غيره من العلماء ليتزيد بذلك مع إطلاعه إطلاعاً وليغتنم في ذلك الاستعانة بآرائهم: فإن الله تعالى لاينتزع هذا العلم انتزاعاً وليسد مسالك الهوى عن فكره ويصرف دواعي الغضب لغير الله عن المرور وهذه نسخة وصية أوردها في بذكره وليجعل العمل لوجه الله نتيجة علمه وليحكم بما أراه الله " والله يحكم لامعقب لحكمه " التعريف تشمل القضاة الأربعة قال: وصية جامعة لقاض من أي مذهب كان وهي: وهذه التربة التي جعل الله إليها منتهى القضايا وإنهاء الشكايا ولايكون صاحبها إلا من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ومتولي الأحكام الشرعية بها كما ورث عن نبي الله صلى الله عليه وسلم علمه كذلك يورث حكمه وقد أصبح بيده زمام الأحكام وفصل القضاء الذي يعرض بعضه بعده على غيره من الحكام ومامنهم إلا من ينقد نقد الصيرفي وينفذ حكمه نفاذ المشرفي فليترو في أحكامه قبل إمضائها وفي المحاكمات إليه قبل فصل قضائها وليراجع الأمر مرة بعد مرة حتى يزول عنه الالتباس ويعاود فيه بعد التأمل كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والإجماع والقياس ومالأشكل عليه بعد ذلك فليجل ظلمه بالاستخارة وليحل مشكلة بالاستشارة ولاير نقصاًعليه إذا استشار فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالشورى ومر من أول السلف من جعلها بينه وبين خطأ الاجتهاد سوراً فقد يسنح للمرء ماأعيا غيره وقد أكثر فيه الدأب ويتفطن الصغير لما لم يفطن إليه الكبير كما فطن ابن عمر رضي الله عنهما للنخلةو ومامنعه أن يتكلم إلا صغر سنه ولزوماً مع من هو أكبر منه للأدب ثم إذا وضح له الحق قضى به

لمستحقه وسجل له به وأشهد على نفسه بثبوت حقه وحكم له به حكماً يسره يوم القيامة أن يراه وإذا كتب له به ذكر بخير إذا بلي وبقى الدهر ماكتبت يداه.

وليسوا بين الخصوم حتى في تقسيم النظر حتى لايدخل عليه زيف وليتحر في استيداء الشهادات فرب قاض ذبح بغير سكين وشاهدٍ قتل بغير سيف ولايقبل منهم إلا من عرف بالعدالة وألف منه أن يرى أوامر النفس أشد العدا له - وغير هؤلاء ممن لم تجر له بالشهادة عادة ولاتصدى للارتزاق بسحتها ومات وهو حي على الشهادة فليقبل منهم من لايكون في قبول مثله ملامة فرب عدلٍ بين منطقةٍ وسيف وفاسقٍ في فرجيه وعمامة - ولينقب على مايصدر من العقود التي يؤسس أكثرها على شفا جرف هار ويوقع في مثل السفاح إلا أن الحدود تدرأ بالشبهات ويبقى العار - وشهود اتلقيمة الذين يقطع بقولهم في حق كل مستحق ومال كل يتيم ويقلد شهاداتهم على كل أمر عظيم فلا يعول منهم إلا على كل رب مالٍ عارفٍ لاتخفى عليه القيم ولا يخاف معه خطأ الحدس وقد صقل التجريب مرآة فهمه على طول القدم.

وليتأن في ذلك كله أناةً لاتقضي بإضاعة الحق ولاإلى المطاولة التي تقضي إلى ملل من استحق وليمهد لرمسه ولايتعلل بأن القاضي أسير الشهود وهو كذلك وإنما يسعى لخلاص نفسه - والوكلاء هم البلاء المبرم والشياطين المسولون لمن توكلوا له الباطل ليقضى به وإنما تقطع لهم قطعة من جهنم فليكف بمهابته وساوس أفكارهم ومساوي فجارهم ولايدع لمحجنى أحدٍ منهم ثمرةً إلا ممنوعة ولايد اعتداء تمتد إلا مغلولة إلى عنقه أو مقطوعة وليطهر بابه من دنس الرسل الذين يمشون على غير الطريق وإذا رأى واحد منهم درهماً ود لو حصل في يده ووقع في نار الحريق وغير هذا مما لايحتاج به مثله أن يوصى ولاأن يحصى عليه منه أفراد عمله وهو لايحصى ومنها النظر في أمور أوقاف أهل مذهبه نظر العموم فليعمرها بجميل نظره فرب نظرة أنفع من الغيوم وليأخذ بقلوب طائفته الذين خص من بينهم بالتقديم وتفاوت بعد ما بينه وبينهم حتى صار يزيل عارض الرجل منهم النظرة منه ويأسو جراحه منه التكليم.

وهذه الوصايا إنما ذكرت على سبيل الذكرى وفيه - بحمد الله - أضعافها ولهذا ولينا والحمد لله شكرا وقد جعلنا له أن يستنسب من يكون بمثل أوصافه أو قريباً من هذه المثابة ومن يرضى له أن يحمل عنه الكل ويقاسمه ثوابه وتقوى الله تعالى هي جماع الخير ولاسيما لصاحب هذه الوظيفة ولمن وليها أصلاً وفرعاً لايستغني عنها رب حكم مطلق التصرف ولاخليفة.

ويزاد الشافعي: وليعلم أنه صدر المجلس وأنه أدنى القوم وإن كانوا أشباهه منا حيث نجلس وأنه ذو الطيلسان الذي يخضع له رب كل سيف ويبلس وليتحقق أنه إنما رفعه علمه وتقاه وأن سبب دينه لادنياه هو الذي رقاه فليقدر حق هذه النعم وليقف عند حد منصبه الذي يود لو اشترى سواد مداده بحمر النعم.

ويقال في وصيته: وأمر دعاوى بيت المال المعمور ومحاكماته التي فيها حق كل فردٍ فرد من الجمهور فليحترز في غاية الاحتراز وليعمل بما يقتضيه لها الحق من الصيانة والإحراز ولايقبل فيها كل بينة للوكيل عن المسلمين فيها مدفع ولايعمل فيها بمسألة ضعيفة يظن أنها ماتضر عند الله فإنها ماتنفع وله حقوق فلايجد من يسعى في تملك شيءٍ منها بالباطل منه إلا الياس ولايلتفت إلى من رخص لنفسه وقال: " هو مال السلطان " فإنه مالنا فيه إلا مالواحدٍ من الناس.

وأموال الأيتام ومنهم صغار لايهتدون إلى غير الثدي للرضاع ومنهم حمل في بطون الأمهات فليأمر المتحدثين لهم بالإحسان إليهم وليعرفهم بأنهم سيجزن في بينهم بمثل مايعملون معهم إذا ماتوا وتركوا مافي يديهم وليحذر منهم من لاولد له: " وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم ".

وليقص عليهم في مثل ذلك أنباء من سلف تذكيراً وليتل عليهم القرآن ويذكرهم بقوله تعالى: " إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ".

والصدقالت الموكولة إلى تصريف قلمه المأكولة بعدم أمانة المباشرين وفي في ذممه يتيقظ لإجرائها على السداد في صرفها في وجوه استحقاقها والعمل بما لا يجب سواه في أخذها وإنفاقها والمسائل التي تفرد بها مذهبه وترجح عنده بها العمل وأعد عنها الجواب لله إذا سأل لايعمل فيها بمرجوح إلا إذا كان نص مذهب إمامه أو عليه أكثر الأصحاب ولرآه قد حكم به أهل العلم ممن تقدمه لرجحانه عنده وللاستصحاب.

ونواب البر لايقلد منهم إلا من تحقق استحقاقه فإنه إنما يوليه على مسلمين لاعلم لأكثرهم فهم إلى ذي العلم أشد فاقة هذا إلى مايتعرف من ديانتهم ومن عفافهم الذي يتجرع المرء منهم به مرارة الصبر من الفاقة وهو به يتحلى ثم لايزال له عين عليهم فإن الرجال كالصناديق المقفلة لايعرف الرجل ماهو حتى ويزاد الحنفي: وليعلم أن إمامه أول من دون الفقه وجمعه وتقدم وأسبق العلماء من تبعه وفي مذهبه ومذاهب أصحابه أقوال في المذهب ومسائل مالحقه فيها مالك وهو أول من جاء بعده وممن يعد من سوابقه أشهب ومن أهمها تزويج الصغائر وتحصينهن بالأكفاء من الأزواج خوفاً عليهن من الكبائر وشفعة الجوار التي لة لم تكن من رأيهم لما أمن جار السوء على رغم الأنوف ولأقام الرجل الدهر ساكنافي داره بين أهله وهو يتوقع المخوف وكذلك نفقة المعتدة التي هي بالتي تستطيع أن تتزوج من رجل ينفق عليها من ماله ومن استدان مالاً فأكله وادعى الإعسار ولفق له بينةً أراد أن تسمع له ولم يدخل الحبس ولا أرهق من أمر الإعسار وأهل مذهبه على أنه يسجن ويمكث مدة ثم إذا أدعى أن له بينة " أحضرت ثم هل تقبل أو لا.

فهذا وأمثاله مما فيه عموم صلاح وعظيم نفع مافيه جناح فيقض في هذا كله إذا رآه بمقتضى مذهبه وليهتد في هذه الآراء وسواها بقمر إمامه الطالع أبي حنيفة وشبهه وليحسن إلى فقهاء أهل مذهبه الذين أدنى إليه أكثرهم الاغتراب وحلق بهم إليه طائر النهار حيث لايحلق البازي وجناح الليل حيث لايطير الغراب وقد تركوا وراءهم من البلاد الشاسعة والأمداد الواسعة مايراعى لهم حقه إذا عدت الحقوق ويجمعه وإياهم به أبواه أبو حنيفة ومامثله من ينسب إلى العقوق.

ومذهبه له السيف المصلت على من كفر والمذهب بدم من طل دمه وحصل به الظفر من عدا قدره الوضيع وتعرض إلى أنبياء الله صلوات الله عليهم بالقول الشنيع فإنه إنما يتقل بسيفه المجرد ويراق دمه تعزيزاً بقوله الذي به تفرد ولم يزل سيف مذهبه لهم بارز الصفحة مسلماً لهم إلى مالك خازن النار من مذهب مالكٍ الذي مافيه فسحة وفي هذا مايصرح غدر الدين من القذى ومالم تطل دماء هؤلاء " لايسلم الشرف الرفيع من الأذى " ولإنما نوصيه بالتحري في الثبوت والبينة التي لايستدرك بها مايفوت وإنما هو رجل يحيا أو يموت فليتمهل قبل بت القضاء وليعذر إليهم لاحتمال ثبوت تفسيق الشهود أو بغضاء حتى لايعجل تلافاً ولايعجل بما لايتلافى فكما أننا نوصيه أن لاينقض في شد الوثاق عيهم إبارماً فهكذا نوصيه أن لايصيب بغير حقه دماً حراماً وكذلك قبول الشهادة على الخط وإحياء مامات من الكتب وإدناء ماشط فهذا مما فيه فسحة للناس وراحة مافيها ياس إلا أنه يكون الثبوت بهذه البينة للاتصال لالنزع يدٍ ولاإلزام بمجردها بمال وهذا مايراه من ولاية الأوصياء وهو مما تفرد به دون البقية وفيه مصلحة وإلا فما معنى الوصية وهو زيادة احتراز ماتضر احتراز ماتضر مراعاة مثلها في الأمور الشرعية وسوى هذا مثل إسقاط الريع في وقف استرد وقد بيع وعطل المشتري من التكسب بذلك المال مدة لايشتري ولايبيع وهذا مما يبت قضاءه في مثله ويجعل عقاب من أقدم على بيع الوقف إحرامه مدة البيع من مغله وسوى ذلك مما عليه العمل ومما إذا قال فيه قال وإذا حكم عدل.

وفقهاء مذهبه في هذه البلاد قليل ماهم وهم غرباء فليحسن مأواهم وليكرم بكرمه مثواهم وليستقر بهم النوى في كنفه فقد ملوا طول الدرب ومعاناة السفر الذي هو أشد الحرب ولينسهم أوطانهم ببره ولايدع في مآقيهم دمعاً يفيض على الغرب.

ويزاد الحنبلي: والمهم المقدم - وهو يعلم ماحدث على أهل مذهبه من الشناعة وما رموا به من الأقوال التي نتركها لما فيها من البشاعة ونكتفي به في تعفية آثارها وإماطة أذاها عن طرق مذهبه لتأمن السالكة عليه من عثارها فتعالى الله أن يعرف بكيف أو يجاوب السائل عنه بهذا إلا بالسيف والانضمام إلى الجماعة والحذر من الانفراد وإقرار آيات الصفات على ماجاءت عليه من الاعتقاد وأن الظاهر غير المراد والخروج بهم إلى النور من الظلماء وتأويل مالابد من تأويله مثل حديث الأمة التي سئلت عن ربها: أين هو فقالت في السماء وإلا ففي البلية بإثبات الجهة مافيها من الكوارث ويلزم منها الحدوث والله سبحانه وتعالى قديم ليس بحادثٍ ولامحلاً للحوادث وكذلك القول في القرآن ونحن نحذر من تكلم فيه بصوت أو حرف فما جزاء من قال بالصوت إلا سوط وبالحرف إلا حتف ثم بعد ههذا الذي يزع به الجهال ويرد دون غايته الفكر الجوال ينظر في أمور مذهبه ويعمل بكل ماصح نقله عن إمامه وأصحابه: من كان منهم في زمانه ومن تخلف عن أيامه فقد كان رحمه الله إمام حق نهض وقد قعد الناس تلك المدة وقام نوبة المحنة مقام سيد تيم - رضي الله عنه - نوبة الردة ولم تهب به زعازع المريسي وقد هبت مريساً ولا ابن أبي داود وقد جمع له كل ذود وساق إليه من كل قطر عيساً ولانكث عهدة ماقدم له المأمون في وصية أخيه من الموائق.

ولاروعه سوط المعتصم وقد صب عليه عذابه ولاسيف الواثق فليقف على أثره وليقف بمسندهلى مذهبه كله أو أكثره وليقض بمفرداته وماختاره أصحابه الأخيار وليقلدهم إذا لم تختلف عليه الأخبار وليحترز لدينه في بيع مادثر من الأوقاف وصرف ثمنه في مثله والاستبدال لما فيه المصلحة لأهله والفسخ على من غاب مدةً يسوغ في مثلها الفسخ وترك زوجةً لم يترك لها

نفقة وخلاها وهي مع بقائها في زوجيته كالمعلقة وإطلاق سراحها لتتزوج بعد ثبوت الفسخ بشروطه التي يبقى حكمها به حكم المطلقة وفيما يمنع مضاره الجار ومايتفرع على قوله صلى الله عليه وسلم: " لاضرر ولاضرار " وأمر وقف الإنسان على نفسه وإن رآه سوى أهل مذهبه وطلعت به أهلة عليماء لولاهم لما جلا الزمان جنح غيهبه وكذلك الجوائح التي يخفف بها عن الضعفاء وإن كان لايرى بها الإلزام ولاتجري لديه إلا مجرى المصالحة بدليل الالتزام وكذلك المعاملة التي للولا الرخصة عندهم فيما لم أكل أكثر الناس إلا الحرام المحض ولاأخذ قسم الغلال والمعامل هو الذي يزرع البذور ويحرث الأرض وغير ذلك مما هو من مفرداته التي هي للرفق جامعة وللرعايا في أكثر معايشهم وأسبابهم نافعة فإذا استقرت الفروع كانت الأصول لها جامعة.

وفقهاء مذهبه هم الفقراء لقلة المحصول وضعف الأوقاف وهي على الرقة كالرماح المعدة للثقاف فخذ بخواطرهم ومد آمالهم في غائب وقتهم وحاضرهم واشملهم بالإحسان الذي يرغبهم ويقل به طلبهم لوجوه الغنى ويكثر طلبهم.

الطبقة الثانية من أرباب الوظائف الدينية أصحاب التواقيع

وتشتمل على مراتب المرتبة الأولى ما كان يكتب في النصف بالمجلس العالي كما كان يكتب للقضاة الأربعة أولاً وقد تقدم المرتبة الثانية ما يكتب في قطع الثلث بالسامي بالياء واعلم أن الأصل فيما يكتب من التواقيع أن يفتتح بأما بعد إلا أن الكتاب قد تسامحوا فيه فافتتحوا لمن علت رتبته حيث اقتضى الحال الكتابة له في الثلث بالحمد لله وأبقوا من انحطت رتبته عن ذلك على ماكان عليه الافتتاح بأما بعد وهاأنا أورد ماسنح من ذلك مما أنشأه الكتاب الوظيفة الأولى قضاء العسكر وقد تقدم في المقالة الثانية أن موضوعها التحدث في الأحكام في الأسفار السلطانية وأن له مجلساً يحضره بدار العدل في الحضر.

وقد جرت العادة أن يكون قضاة العسكر أربعة: من كل مذهب قاض.

وهذه نسخة توقيع شريفٍ بقضاء العسكر المنصور بالحضرة السلطانية وهي: الحمد لله الذي رفع للعلم الشريف في أيامنا الزاهرة مناراً وزاد بإعلاء رتب أهله دولتنا القاهرة رفعةً وفخاراً وزان أحكامه الشريفة بحكامه الذين طلعوا في غياهب مشكلاته بدوراً وتدفقوا في إفاضته في الأحكام الشرعية بحاراً.

نحمده على نعمه التي حلت فحلت ومننه التي أهلت الجود فاستهلت.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تكون لقائلها ذخراً وتعلي للمتمسك بها في الملأ ذكراً ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي هو أسبق الأنبياء رتبة وإن كان آخرهم عصراً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أضحوا للمقتدين بهم شموساً منيرة وللمهتدين بعلومهم نجوماً زهراً صلاةً لاتزال الألسن تقيمها والأسماع تستديمها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من نوهنا بذكره ونبهنا على رفعة قدره وأطلقنا ألسنة الأقلام في وصف مفاخره وشكره وأثلنا قواعد مجده التي لو رام بنان البيان استقصاءها حال الحصر دون حصره ونفذنا كلم حكمه ورفعنا في أندية الفضائل ألوية فنونه وأعلام نصره من لم يزل دم الشهداء بعدل مداد أقلامه وتقيم منار الهدى أدلة فضائله وشواهد أحكامه وتوضح الحق حتى يكاد المتأمل يلحظ الحكم لوضوحه ويبصره وينصر الشرع بأمداد عليمه ولينصرن الله من ينصره وشيد مذهب إمامه الإمام الفلاني فأصبح فسيح الأرجاء وإن لم يكن فيه فسحة وجدد قواعد العدل في قضايا العددل في قضايا عساكرنا المنصورة فهو مشاهد من كلمه ومن نظره في لمحة ملحة.

ولما كان فلان هو الذي نعتنا بما تقدم من الخطاب خلائقه الحسنى وأثنينا على ماهو عليه من الإقبال على جوهر العلم دون التعرض إلى العرض الأدنى مع ماحواه من مواد فضائل تزكو على كثرة الإنفاق وفرائد فوائد تجلب علي أيدي الطلبة إلى الآفاق وقوة في الحق الذي لاتأخذه فيه لومة لائم وعدل أحكام في الخلق ألذ من سنة الكرى في جفن نائم - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نوطد في عساكرنا المنصورة قواعد أحكامه ونوطن كلاً منهم على أنه تحت مايمضيه في أقضيته النافذه من نقضه وإبرامه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه قضاء العساكر المنصورة الشريفة.

على أجمل العوائد وأكمل القواعد وأن تبسط كلمته في كل مايتعلق بذلك من أحكام الشرع الشرف فليحكم في ذلك كله بما أراه الله من علمه وآتاه من حكمه وحكمه وبين له من سبل الهدى وعينه لبصيرته من سنن نبيه صلى الله عليه وسلم التي من حاد عنها فقد جار واعتدى وليقف من الأحكام عندما قررته الشريعة المطهرة من أحكام الله التي لايعقلها إلا العالمون ويأمر كلاً من المتقاضين بالوقوف عندما حد له: " من يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ".

والوصايا وإن كثرت فمن مثله تفاد وإن جلت فسمعه في غنى عما يبدأ له منها ويعد وملاكها تقوى الله تعالى التي هي شعار أنسه وحلية يومه وأمسه والله تعالى يسدده في القول والعمل ويوفقه لما يرضاه ويصونه من الخطأ والخطل.

وهذه وصية لقاضي العسكر أوردها في التعريف وهي أن يقال: وهو الحاكم حيث لاتنفذ إلا أقضية السيوف ولاتزدحم الغرماء إلا في مواقف الصفوف والماضي قلمه وكل خطي يمد بالدماء والممضى سجله وقد طوى العجاج كالكتاب سجل السماء وأكثر مايتحاكم إليه في الغنائم التي لم تحل لأحد قبل هذه الأمة وفي الشركة وماتطلب فيه القسمة وفي المبيعات ومايرد منها بعيب وفي الديون المؤجلة ومايحكم فيها بغيب وكل هذا مما لايحتمل طول الأناة في القضاء واشتغال الجند المنصور عن مواقف الجهاد بالتردد إليه بالإمضاء فليكن مستحضراً لهذه المسائل ليبت الحكم في وقته ويسارع السيف المصلت في ذلك الموقف ببته وليعلم أن العسكر المنصورهم في ذلك الموطن أهل الشهادة وفيهم من يكون جرحه تعديلاً له وزيادة فليقبل منهم من لاتخفى عليه سيما القبول ولايرد منهم من لايضره أن يرده هو وهو عند الله مقبول وليجعل له مستقراً معروفاً في المعسكر يقصد فيه إذا نصبت الخيام وموضعاً يمشي فيه ليقضي فيه وهو سائر وأشهر ماكان على يمين الأعلام وليلزم ذلك طول سفره وفي مدد المقام و لايخالفه ليبهم على ذوي الحوائج فما هو بالصالحية بمصر ولابالعادلية الشام وليتخذ معه كتاباً تكتب للناس وإلا فمن أين يوجد مركز الشهود وليسجل لذي الحق بحقه وإلا فما أنسد باب الجحود وتقوى الله هي التي بها تنصر الجنود ومالم تكن أعلى ما يكون على أعلام الرحب وإلا فما الحاجة إلى نشر البنود.

الوظيفة الثانية إفتاء دار العجل

وموضوعها الجلوس بدار العدل حيث يجلس السلطان لفصل الحكومات والإفتاء فيما لعله يطرأ من الأحكام بدار العدل.

وهي وظيفة جليلة لصاحبها مجلس بدار العدل يجلسه مع القضاة الأربعة ومن في معناهم.

وهذه نسخة توقيع لمن لقبه جمال الدين ينسج على منوالها وهي: الحمد لله جاعل العلم للدين جمالاً وللدنيا عصمةً وثمالاً ولأسباب النجاة والنجاح شارةً إذا تحلى بها ذو لاتمييز كان أحسن ذوي المراتب حالاً وأجلهم في الدراين مبدأ ومآلاً وأحقهم برتبة التفضيل التي ضربت لها السنة المطهرة فضل البدر على الكواكب مثالاً.

نحمده على نعمه التي خصت دار عدلنا الشريف من العلماء بأكفائها واصطفت لما قرب من مجلسنا المعظم من دل على أن التأييد قرين اصطفائها.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً يفتر عن شنب الصواب ثغرها ويتفتح عن فصل الخطاب زهرها ونشهد أن سيدنا محمداً عيده ورسوله المخصوص بمحكم التنزيل المنصوص في الصحف المنزلة على ذكر أمته الذين علماؤهم كأنبياء بني اسرائيل صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هم كالنجوم المشرقة من اقتدى به اهتدى وكالرجوم المحرقة من اعتدى وجد منها شهاباً رصدا وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى ماارتدنا له من رياض العلم من سما فيه فرعه ورحب بتلقي أنواع العلوم ذرعه وبسقت في فنون الفضائل أفنانه ونسقت فرائد الفوائد في سلك الطروس بنانه - فتيا دار عدلنا الشريف التي أحكامنا لها تابعة و أغصان العدل بثمار فتاويها مورقة يانعة وأعيينا إلى أفواه مفتيها رامقة وآذاننا لمقالاتهم سامعة.

ولما كان فلان هو ثمرة هذا الارتياد ونخبة هذا الانتقاد المعقود عليه في اختيار العلماء بالخناصر والعريق في أصالة العلوم بأصالةٍ ثابتة الأواصر والذي إذا أجاب تدفقت أنواء الفوائد وتألقت أضواء الفرائد واتخذت مسائل فقهه قواعد تترتب الأحكام الشرعية عليها ومصادر وحيه موارد - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نوين بهجة هذه الوظيفة بجماله وننزه إشراقها بنور فضائله التي لو قابلها بدر الأفق نازعته حلة كماله.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالت أحكامه مع أوامر الشرع الشريف واقفة ومعدلته الشريفة باقتفاء آثار الحق لمشتكيات الظلم كاشفة - أن يفوض إليه كذا: فليباشر هذه الوظيفة السنية مفجراً ينابيع العلوم في أرجائها محققاً للفتاوى بتسهيل مواردها وتقريب أوجائها موضحاً طرقها بإقامة براهينه وأدلته مبدياً دقائقها التي يشرق بها أفق الفكر إشراق السماء بنجومها والأفق بأهلته مظهراً من غوامضها مايقرب على الأفهام مناله ويفسح لجساد القرائح مجاله وينقح لكل ذي ترو رويته ولك مرتجل بديهته وارتجاله فإنه الكامل الذي قطع إلى بلوغ الغاية مسالك الليالي والإمام الذي غاص فكره من كل بحر لجج المعاني فاستخرج منها مكنون اللآلي مع أن علمه المهذب غني عن تنبيه الوصايا ملي بما يلزم هذه الوظيفة من الخصائص والمزايا فإن البحر يأبى إلا تدفقاً والبدر إلا تألقاً والله تعالى يزيده من فضله ويزين به أفق الوظيفة الثالثة الحسبة وقد تقدم أن موضوعها التحدث على أرباب المعايش والصنائع والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته.

وحاضرة الديار المصرية تشتمل على حسبتين: الأولى - حسبة القاهرة: وهي أعلاهما قدراً وأفخمهما رتبة ولصاحبها مجلس بدار العدل مع القضاة الأربعة وقضاة العسكر ومفتي دار العدل وغيرهم وهو يتحدث في الوجه البحري من الديار المصرية في ولاية النواب وعزلهم.

قلت: ولم تزل الحسبة تولى للمتعممين وأرباب الأقلام إلى الدولة المؤيدية شيخ فولاها للأمير سيف الدين منكلي بغا الفقيه أمير حاجب مضافة إلى الحجوبية.

على أن في سجلات الفاطميين مايشهد لها في الزمن المتقدم.

وربما أسندت حسبة القاهرة إلى والي القاهرة وحسبة مصر إلى والي مصر.

وهذه نسخة توقيع من ذلك وهي: الحمد لله مجدد عوائد الإحسان ومجري أولياء دولتنا القاهرة في أيامنا الزاهرة على ماألفوه من الرتب الحسان ظن ومضاعف نعمنا على من ىجتنى لنا بحسن سيرته الدعاء الصالح من كل لسان.

نحمده على نعمه التي لاتحصى بعدها ولاتحصر بحدها ولاتستزاد بغير شكر آلاء المنعم وحمدها.

ونشهد أن لاإله إلا الله لاشريك له شهادة نقيمها في كل حكم وتحاول سيوفنا جاحديها فتنهض فتنطق بالحجة عليهم وهم بكم ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من ائتمر بالعدل والإحسان وأعدل آمر أمته بالوزن بالقسط وأن لايخسروا الميزان صلى الله عليه وعلى آله وصحيه الذين احتسبوا في سبيل الله جل عتادهم واحتبسوا أنفسهم في مقاطعة أهل الكفر وجهادهم فلا تنتهب جنائبها في الوجود وتسري نجائبها في التهائم والنجود وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من دعاه إحساننا لرفع قدره وإنارة بدره وإعلاء رتبته وإناء منزلته وإعلام مخلص الأولياء بمضاعفة الإحسان إليه أن الله لايضيع أجر من أحسن عملاً وأن كرمنا لايخيب لمن أسلف سوابق طاعته في أيامنا الشريفة أملاً من لم تزل خدمه السابقة إلى الله مقربة وعن طرق الهوى منكبة وبالله مذكرة وعلى الباقيات الصالحات من الأعمال موفرة مع ماأضافه إلى ذلك من أمر بمعروف وإغاثة ملهوف ونهي عن منكر واحتساب في الحق أتي فيه بكل ماتحمد خلائقه وتشكر واجتناب لأعراض الدنيا الدنية واجتهاد لما يرضي الله ويرضينا من اتباع سيرتنا السرية وشدة في الحق حتى يقال به ويقام ورفق بالخلق إلا في بدع تنتهك بها حرمة الإسلام أو غش إن لم يخص ضرره الخاص فإن ذلك يعم العام.

ولما كان فلان هو الذي اختص من خدمتنا بما رفعه لدينا وأسلف من طاعتنا مااقتضى تقريبه منا واستدعاءه إلينا ونهض فيما عدقناه به من مصالح الرعايا وكان مشكور المساعي في كل ماعرض من أعماله في ذلك علينا - اقتضى رأينا الشرف أن يفوض إليه كذا فليستقر في ذلك مجتهداً في كل ما يعم البرايا نفعه ويجمل لديهم وقعه ويمنع من يتعرض باليسار إلى مالهم بغير حق أو يضيق بالاحتكار على ضعفائهم مابسط الله لهم من رزق ويذب عنهم بلإقامة الحدود شبه تعطيلها ويعرفهم بالمحافظة على الحق في المعاملات قواعد تحريمها وتحليلها ويريهم بالإنصاف نار القسطاس المستقيم لعلمه يبصرون ويؤدب من يجد فيهم من المطففين: الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ويأمر أهل الأسواق بإقامة الجماعات والجمع ويقابل من تخلف عن ذلك بالتأديب الذي يردع من أصر فيه على المخالفة ويزع ويلزم ذوي الهيئات بالصيانة التي تناسب مناصبهم وتوافق مراتبهم وتنزه عن الأدناس مكاسبهم وتصون عن الشوائب شاهدهم وغائبهم ولايمكن ذوي البيوع أن يغبنوا ضعفاء الرعايا وأغبياءهم ولايفسح لهم أن يرفعوا على الحق أسعارهم ويبخسوا الناس أشياءهم.

وليحمل كلاً منهم على المعاملات الصحيحة والعقود التي غدت لها الشريعة الشريفة مبيحة ويجنبهم العقود الفاسدة والحيل التي تغر بتدليس السلع الكاسدة وهو أخبر بالبيوع المنصوص على فسادها في الشرع الشريف وأدرى بملا في عدم تحريرهم المكابيل والموازين من الإخسار والتطفيف فليفعل ذلك في كل مايجب ويحتسب فيه مايدخره عند الله ويحتسب ولتكن كلمته في ذلك مبسوطة ويد تصرفه في جميع ذلك محيطة وبما يستند إليه كم أوامره محوطة ويقدم تقوى الله على كل أمر ويتبع فيه رضا الله تعالى لارضا زيد وعمرو والخط الشريف أعلاه.

وهذه نسخة توقيع من ذلك بحسبة الفسطاط المعبر عنه الآن بمصر عوداً إليها وهي: الحمد لله الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر الشاهد بالعدل الذي تقوى به كلمة الإيمان وتنصر والغامر بالجود الذي لايحصى والفضل الذي لايحصر العامر ربوع ذوي البيوت بتقديم من انعقدت الخناصر على فضله الذي لايجحد ولاينكر.

.

نحمده على نعمه التي لاتزال ألسنة الأقلام ترقم لها في صحف الإنعام ذكراً وتجدد لها بإصابة مواقع الإحسان العام شكراً ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً تصدع بنورها ليل الشرك فيؤول فجراً ونشهد أ سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي قمع الله به من اغتر بالمعاصي وغرر وأقام بشريعته لواء الحق الأطهر ومنار العدل الأظهر وعلى آله وصحبه الذين سلكوا من الهدايا بإرشاده منهج الحق الأنور واحتسبوا نفوسهم في نصرته ففازوا من رضاه بالحظ الأوفى والنصيب الأوفر.

وبعد فإن الله تعالى لما جعل كلمتنا المبسوطة على العدل والإحسان مقصورة وأوامرنا الشريفة بإقامة منار المعروف ممؤيدةً منصورة وأحكامنا المشهورة بالإنصاف في صحائف الدهر بالمحاسن مسطورة وألهمنا من اتباع الشرع الشريف ماغدت به قلوب الرعايا آمنة مسرورة - قصدنا أن نختار لمراتب الديانة والعفاف من لم يزل بيته بالصدارة عليا ووصفه بأنواع المحامد والممادح ملياً.

ولما كان فلان هو الذي ورث بالسيادة عن سلف طاهر وتلقى السعادة عن بيت فروعه التقوى فأزرت بالروض الزاهي الزاهر وسرت سرائره بحسن سيرته وسيره وأبطن من الديانة ما أظهرته أدلة خيره وتنقل في المراتب الدينية الدينية فأربى في حسن السلوك على غيره وسلك من الأمانة الطريق المثلى واعتمد ماعدم بع مضاهياً ومثلاً وجنى مانطق بإنصافه فضل الكيل والميزان ورجاه من أهل الخير كل ذي إحسان وخشية أهل الزيغ والبهتان وكانت الحسبة المباركة بمصر المحروسة قد ألفت قضاياه وأحكامه وعرفت بالخير معروفة وشكرت نقضه وإبارمه فارقها على رغمها منه اختياراً وعادت له خاطبةً عقيلة نزاهته التي لا تجارى.

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي أن يفوض إليه كذا.

فليقدم خيرة الله في مباشرة هذه الوظيفة وليقم منارها بإقامة حدودها الشريفة ولينظر في الكيل والميزان اللذين هما لسان الحق الناطق ولينشر لواء العدل الذي طالما خفقت بنوده في أيامنا حتى غدا قلب المجرم وليحسن النظر في المطاعم والمشارب وليرع أهل البدع ممن مستخف بالليل وسارب وفيه - بحمد الله تعالى - من حسن الألمعية مايغني عن الإسهاب في الوصايا ويعين على السداد في نفاذ الأحكام وفصل القضايا وكيف لاوهو الخبير بمايأتي ويذر والصدر الذي لايعدو الصواب إن ورد أو صدر والله تعالى يعمر به للعدل معلماً ويكسوه بالإقبال في أيامنا الشريفة ثوباً بالثواب معلماً والخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه.

وهذه وصية محتسب أوردها في التعريف وهي: وقد ولي أمر هذه الرتبة ووكل بعينه النظر في مصالح المسلمين لله حسبة فلينظر في الدقيق والجليل والكثير والقليل ومايحصر بالمقادير وما يحصر ومايؤمر فيه بمعروف أو ينهي عن منكر ومايشتري ويباع ومايقرب بتحريره إلى الجنة ويبعد من النار ولو لم يكن قد بقي بينه وبينها إلا قدر باع أو ذراع وكل مايعمل من المعايش في نهار أوليل ومالايعرف قدره إلا إذا نطق لسان الميزان أو تكلم فم الكيل.

وليعمل لديه معدلاً لكل عمل وعيار " إذا عرضت عليه المعايير يعرف من جار ومن عدل وليتفقد أكثر هذه الأسباب ويحذر من الغش فإن الداء أكثره من الطعام والشراب وليتعرف الأسعار ويستعلم الأخبار في كل سوق من غير إعلام لأهله ولا

إشعار وليقم عليهم من الأمناء من ينوب عنه في النظر ويطمئن به وإن غاب إذا حضر ويأمره بإعلامه بما أعضل ومراجعته مهما أمكن فإن رأي مثله أفضل.

ودار الضرب والنقود التي منها تنبث وقد يكون فيها من الزيف مالايظهر إلا بعد طول اللبث فليتصد لمهماتها بصدره الذي لايحرج وليعرض منها على المحك من رأيه مالا يجوز عليه بهرج مايعلق من لاذهب المكسور ويروبص من الفضة ويخرج ومأكلت النار كل لحامه أو بعضه فليقم عليه من جهته الرقباء وليقم على شمس ذهبه من يرقب منه ماترقب من الشمس الحرباء وليقم الضمان على العطارين والطرقية من بيع غرائب العقاقير إلا ممن لايستراب فيه وهو معروف وبخط متطبب ماهرٍ لمريضٍ معينٍ في دواء موصوف.

والطرقية وأهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة إلى ساسان ومن يأخذ أموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان وكل إنسان سوء من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لا إنسان امنعهم كل المنع واصدعهم مثل الزجاج حتى لاينجير لهم صدع وصب عليهم النكال وإلا فما يجدي في تأديبهم ذات التأديب والصفع واحسم كل هذه المواد الخبيثة واقطع مايجدد ضعفاء الناس من هذه الأسباب الرثيثة ومن وجدته قد غش مسلماً أوأكل بباطل درهماً أو أخبر مشترياً بزائد أو خرج عن معهود العوائد أشهره في البلد وأركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب وعالمات النساء وغيرهما من الأنواع ممن يخاف من ذئب العائث في سرب الظباء والجآذر ومن يقدم على ذلك ومثله وما يحاذر ارشقهم بسهامك وزلزل أقدامهم بإقدامك ولاتدع منهم إلا من اختبرت أمانته واخترت صيانته.

والنواب لاترض منهم إلا من يحسن نفاذاً ويحسب لك أجر استنابته إذا قيل لك من استنبت فقلت هذا وتقوى الله هي نعم المسالك ومالك في كل ما ذكرناه بل أكثره إلا إذا عملت فيه بمذهب مالك.

الوظيفة الرابعة وكالة بيت المال

وهي وظيفة عظيمة الشان رفيعة المقدار وقد تقدم أن موضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترواته: من أرضٍ وغير ذلك مما يجري هذا المجرى وأن متوليها لايكون إلا من أهل العلم والديانة وأن له مجلساً بدار العدل: تارة يكون دون مجلس المحتسب وتارة فوق مجلسه بحسب رفعة قدر كل منهما في نفسه.

وقد أضيف إليها في المباشرة نظر كسوة الكعبة الشريفة وصارا كالوظيفة الواحدة.

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المال: الحمد لله جامع المناصب الدينية لمن خطبته لها رتبتان: العلم والعمل ومكمل الرتب السنية لمن وجدت فيه أهبتان: الورع والتقى وعدمت منه خلتان: الحرص والأمل جاعل اختصاص الرتب بأكفائها حلية الدول والنظر في مصالحها الخاصة والعامة زينة أيامنا التي تتلفت إلى محاسنها أجياد الأيام الأول.

نحمده على نعمة التي عصمت آراءنا من اعتراض الخلل وأمضت أوامرنا من مصالح الأمة بما تسري به المحامد سري النجوم ويسير به الشكر سير المثل.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً لم نزل نستنطق بها في الجهاد ألسنة الأسل ونوقظ لإقامتها عيون جلاد لها الغمود جفون والسهام أهداب السيوف مقل ونشهد أن محمداً ورسوله الذي أظهر الله دينه على الأديان وشرف ملته على الملل وأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى وعاد ولم يكمل الليل بين السير والقفل صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هجروا في المهاجر إليه الأحياء والحلل وشفوا بأسنة سنته العلل والغلل وتفردوا بكمال المفاخر فإذا خلعت الأقلام على أوصافهم حللاً غدت منها في أبهى من الحلل صلاةً تتوالى بالعشى والإبكار وتتواتر في الإشراق والطفل وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى الرتب بإنعام النظر في ارتياد أكفائها وانتقاد فرائد الأعيان لها وانتقائها واستخارة الله تعالى في اختيار من يكون أمر دينه هو المهم المقدم لديه واستنارة التوفيق في اصطفاء من يكون مهم آخرته هو المرئي المصور بين عينيه مع مااتصف به من محاسن سجايا جبلت عليها طباعة وخص به من سوابق مزايا رحب بها في تلقي المصالح الدينية صدره وباعه رتبتان يعم نفعهما ويخص ويحسن وقعهما بما يبديه من أوصافه ويقص ويتعلق كل منهما بجماعة الأمة فرداً فرداً

ويشتملان على منافعهم على اختلافها بدأ وإعادةً وعكساً وطرداً ويكون المتصدي لهما مناقشاً على حقوقهم وهم ساهون ومفتشاً عن مصالحهم وهم عنها لاهون ومناضلاً عنهم وهم غافلون ومشمراً للسعي في مصالحهم وهم في حبر الدعة رافلون ومتكلفاً لاستماع الدعوى عنهم جواب فلوات الجواب ومتكفلاً بالتحري في المحاورة عنهم وإصابة شاكلة الصواب ومؤدياً في وهما وكالة بيت المال نصحهم جهده تقرباً إلى مراضينا وله عندنا الرضا وابتغاء ثواب الله: " والله عنده حسن الثواب " المعمور والحسبة الشريفة بالقاهرة المحروسة: فإن منافع وكالة بيت مال المسلمين عائدة عليهم آئلة بأحكام الشريعة المطهرة إليهم راجعة إلى ما يعمهم مساره معدة لما تدفع به عنهم من حيث لايشعرون مضاره صائنة حقوقهم من تعدي الأيدي الغاصبة حافظة بيوت أموالهم من اعتراض الآمال العاملة الناصبة: وكذلك نظر الحسبة: فإنه من أخص مصالح الخلق وأعمها وآكد الوظائف العامة وأكملها استقصائية للمصالح الدينية والدنيوية وأتمها يحفظ على ذوي الهيئات أقدارهم ويبين بتجنب الهنات في الصدر مقدارهم ويصون بتوقي الشبهات إيرادهم وإصدارهم وينزه معاملاتهم عن فساد يعارضها أو شبه تنافي كمال الصحة وتناقضها ويحفظ أقواتهم من غش متلف أو غلو مجحف إلى غير ذلك من أدويةٍ لابد من الوقوف على صحة ترتيبها وتركيبها وتتبع الأقوال التي تجري بها الثقة إلى غاية تجريبها ولذلك لاتجمعان إلا لمن أوقفه علمه على جادة العمل واقتصر به ورعه على مادة الحق فليس له في التعرض إلى غيره أمل وسمت به أوصافه إلى معالم الأمور فوجد التقى أفضل مايرتقى وعرضت عليه أدواته جوهر الذخائر فوجد العمل الصالح أكمل ما ينتقد منها ومايتقى وتحلى بالأمانة فصارت له خلقاً وسجية وأنس بالنزاهة فكانت له في سائر الأحوال للنجاة نجية وأرته فضائله الحق حيث هو فتمسك بأسبابه وتشبث بأهدابه واتصف به في سائر أحواله فإن أخذ أخذ بحكمه وإن أعطى أعطى به واحترز لدينه فهو به ضنين واستوثق لأمانته وإن لم يكن فيها بحمد الله متهماً ولاعليها بظنين واجتنى ثمار المحامد الحلوة من كمام الأمانة المرة وعلم أن رضا الله تعالى في الوقوف مع الحق فوقف معه في كل ماساءه للخلق وسره.

ولما كان فلان هو الذي أمسكت الفضائل بما كملها من آداب نفسه ونفاسة آدابه وتجاذبته الرتب للتحلي بمكانته فلم تكن هذه التربة بأحق به من الأعلام لفظاً ونوهت بذكره العلوم الدينية التي أتقنها بحثاً وأكملها دراية وأثبتها حفظاً فأوصافه كالأعلام المشتقة من طباعه والدالة بدوامها على انحصار سبب الاستحقاق فيه واجتماعه المنبهة على أنه هو المقصود بهذه الإشارات التي وراءها كل مايحمد من اضطلاعه بقواعد هذه الرتب واطلاعه فهو سر ما ذكر من نعوتٍ وأوصاف ومعنى ماشهر من معدلة وإنصاف ورقوم ماحبر من حلل أفيضت منه على أجمل أعطاف - رسم.

أن يفوض.

تفويضاً يقع به الأمر في أحسن مواقعه ونضع به الحكم في أحمد مواضعه ويحل من أجياد هذه المناصب محل الفرائد من القلائد ويقع من رياض هذه المراتب وقوع الحيا الذي سعد به رأي الرائد.

فليباشر هاتين الوظيفتين مرهفاً في مصالحهما همةً غير همة مجتهداً من قواعدهما فيما تبرأ به عند الله منا ومنه الذمة محاققاً على حقوق بيت المال حيث كانت محاققة من يعلم أنه مطلوب بذلك من جميع الأمة متحرياً للحق فلا يغدو لما يجب له مهملاً ولا لما يجب عليه مماطلاً واقفاً مع حكم الله تعالى الجلي في الأخذ والعطاء فإنه سيان من ترك حقاً أو أخذ باطلاً مجرياً عوائد الحسبة على مائلف من تدبيره وعرف منإتقانه وتحريره وشهر من اعتماده للواجب في سائر أموره مكتفياً بما اطلع عليه قديماً من مصالحها منتهياً إلى ماسبقت معرفته به من أسبابها وهذه وصية وكيل بيت المال أوردها في التعريف.

وهو الوكيل في جميع حقوق المسلمين وماله معهم إلا حق رجلٍ واحد والمكلف بالمخاصمة عنهم حتى يقر الجاحد وهو القائم للدعوى لهم وعليهم والمطلوب من الله ومنا بما يؤخذ لهم أو يؤخذ من يديهم والمعد لتصحيح العقود وترجيح جهة بيت المال في العقار المبيع والثمن المنقود والمتكلم بكتاب الوكالة الشرعية الثابتة والثابت القدم والأقدام غير ثابتة والمفسوح المجال في مجالس الحكام والمجادل بلسان الحق في الأحكام والموقوفة كل دعوى لم تسمع في وجهه أو في وجه من أذن له في سماعها والمرجوع إليه في إماتة كل مخاصمة حصل الضجر من طول نزاعها وإبداء الدوافع مالم يجد بداً من الإشهاد عليه بعدم الدافع والانتهاء إلى الحق كان له أو عليه ولايقف عند تثقيل مثقل " ولاشفاعة شافع وبوقوفه تحدد الحدود وتمتحن الشهود ويمشي على الطرق المستقيمة وتحفظ لأصحابها الحقوق القديمة وبه يتم عقد كل بيع وإيجار وإذا كانت المصلحة فيها لعامة المسلمين ظاهرة ولهم فيما يوكل عنهم فيه الحظ والغبطة بحسب الأوقات الحاضرة.

ونحن نوصيه في ذلك كله بالعمل بما علم والانتهاء في مقتضى قولنا إلى مافهم وتقديم تقوى الله فإنه متى قدمها بين يديه سلم والوقوف مع رضا الله تعالى فإنه متى وقف معه غنم والعمل بالشرع الشريف كيفما توجهت به أحكامه والحذر من الوقوف إذا

نفذت سهامه ومن مات له ورثة معروفة تستكمل بحقها ميراثه وتحوز بحظها تراثه لايكلفهم ثبوتاً يكون من باب العنت والمدافعة بحقٍ لايحتاج مستحقه إلى زيادة ثبت وإنما أنت ومن كانت فقضيته منكرة والمعروف من مستحقي ميراثه نكرة فأولئك شدد في أمرهم وأوط شهداءهم في الاستفسار منهم على جمرهم وتتبع باطن الحال لعله عنك لايتستر ولايمشي عليك فيه الباطل ويمشي شاهد الزور بكميه ويتبختر فإن تحققت صحة شهاداتهم وإلا فأشهرهم في الدنيا ودعهم في الآخرة لايخفف عنهم العذاب ولايفتر وكل مايباع أو يؤجر ارجع فيه إلى العواشد وتقلد أمر الصغير وجدد لك أمراً منا في الكبير وذلك بعد مراعاة ما يجب مراعاته والتأني كل التأني حتى يثبت ماينبغي إثباته وشهود القيمة عليهم المدار وبشهادتهم يقدر المقدار ومالم يكونوا من ذوي الأقدار ومن أهل الخبرة بالبر والجدار وممن اشترى العقار واستغله وبنى الدار وإلا فاعلم أن مثله لايرجع إليه ولايعول ولاسيما في حق بيت المال عليه فاتفق مع ولاة الأمور من أهل الأحكام على تعيين من تعين لتقليد مثل هذه الشهادة وتعرف منهم من له كل الخبرة حتى تعرف أنه من أهل الزهادة ولك أن تدعي بحق المسلمين حيث شئت ممن ترى أن حقه عنده يترجح وأن بينتهم تكون عنده أوضح فأما الدعوى عليك فمن عادتها أن لاتسمع إلا في مجلس الحكم العزيز الشافعي - أجله الله تعالى - ونحن لانغير العوائد ولاننقض مابنت الدول السالفة عليه القواعد فليكن في ذلك المجلس سماعها إذا تعينت وإقامة البينات عليها إذا تبينت والله الله في حق بيت المال ثم الله الله في الوقت الحاضر والمآل ومن تبستنيبهم عنك بالأعمال لاتقر منهم إلا من تقر به عينك ويوفى به عند الله بما تحصله من الدنيا دينك ومن كان لعمله مصلحاً ولأمله منجحاً ولاتغير عليه فيما هو فيه ودعه حتى يتبين لك خافيه ولتستقص في كل وقت عنهم الأخبار ولتستعلم حقائق ماهم عليه بمن تستصحبه من الأخيار ولاتزال منهم على يقين وعملٍ بما فيه خلاص دنيا ودين.

الوظيفة الخامسة الخطابة

وهي من أجل الوظائف وأعلاها رتبةً في نفس الأمر.

وموضوعها معروف وتختص هذه الطبقة من التواقيع بخطابة الجوامع.

وهذه نسخة توقيع بخطابة الجامع بقلعة الجبل المحروسة حيث مصلى السلطان من إنشاء شهاب الدين محمود الحلبي: الحمد لله الذي أنار بالذكر قلوب أوليائه وكشف بالذكرى بصائر أصفيائه وأنال أهل العلم بالإبلاغ عنه إلى خلقه وراثة أنبيائه واختار لإذكارنا بآلاء الله من فرسان المنابر من يجاهد الأعداء بدعائه ويجاهر الأوداء من مواعظه بما يعلم كل منهم أن في مؤلم صوادعه دواء دائه فإذا افتتح بحمد الله أثنى عليه بمواد علمه حق ثنائه ونزهه بما ينبغي لسبحات وجهه وجلال قدسه وتقدس أسمائه وأثنى كما يجب على نبيه صلى الله عليه وسلم الذي آدم ومن بعده الرسل تحت لوائه وإذا تليت على خيل الله خطبته تشوقت لبقاء أعداء الله إلى لقائه وخطبت الجنان من بذل نفوسها ونفائسها بما أقتنته في سبيل الله لاتقائه.

نحمده على أن جعلنا لذكره مستمعين ولأمره ونهيه متبعين وعلى حمده في كل ملأ من الأولياء مجتمعين.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً لاتزال تختال بذكرها أعطاف المنابر وتتعطر ألسنة الأقلام بما تنقله منها عن أفواه المحابر ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي هدى الله من تقدم من الأمة بخبره ومن تأخر بخبره وجعل روضة من رياض الجنة بين قبره ومنبره صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هم أول من عقدت بهم من الجمع صلواتها وأكرم من زهيت به من الجهاد والمنابر صهواتها صلاةً لانزال نقيمها عند كل مسجد ونديمها في كل متهم في الآفاق ومنجد وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى المنابر أن يرتاد له من أئمة العلماء علامة عصره ورحلة مصره وإمام وقته الذي يصدع بالحق وإن صدع وعالم زمانه الذي يقوم في كل مقام بما يناسبه مما يأخذ في الموعظة الحسنة ومايدع منبر نذكر بآلاء الله على أعواده وإن لم نزل لها من الذاكرين وننبه فيه على شكر الله بالرأفة على خلقه وإن لم نبرح لها بذلك وغيره من الشاكرين ونشوق عليه إلى الجهاد في سبيل الله بما أعد لما على ذلك من النصر والأجر وإن كنا على الأبد إليه مبادرين وإلى إقامة دعوة الحق به مباكرين.

ولما كان فلان هو الذي تعين لرقي هذه الرتبة فخطب لخطابتها وتبين أنه كفؤها الذي تتشوق النفوس إلى مواعظه فترغب في إطالتها لإطابتها - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نحلي بفضائله أعطاف هذا المنبر الكريم وأن تحتص نحن وأولياؤنا بسماع مواعظه التي ترغب فيما عند الله بجهاد أعداء الله والله عنده أجر عظيم.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يطلع في أفق المنابر من الأولياء شمساً منيرة ويقيم شعائر الدين من الأئمة الأعلام بكل مشرق العلانية طاهر السريرة - أن يفوض إليه كذا: فليحل هذه الرتبة التي لم تقرب لغيره جيادها ويحل هذه العقيلة التي لاتزان بسوى العلم والعمل أجيادها ويرق هذه الهضبة التي يطول إلا على مثله صعودها ويلق تلك العصبة التي تجتمع للأولياء به حشودها.

وهو يعلم أنه في موقف الإبلاغ عن الله لعباده والإعلام لما أعد الله في دار كرامته لمن جاهد في الله حق جهاده والإنذار لمن قصر في إعداد الأهبة ليوم معاده وهو بمحضر من حماة الإسلام ومشهد ممن قلدناه أمر أمة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة و السلام فليقصر خطبه على طاعة لله لولاة أمر قدمتها بين يديها وتوبةٍ يبعث الهمم على تعجيلها وأوقات مكرمة ينبه الأمم على احترامها بتقوى الله وتبجيلها ودنيا ينذر من خداعها ويبين للمغتر بها ماعرف من خلائقها المذمومة وألف من طباعها وأخرى يوضح للمعرض عنها وشك قدومها ويحذر المقصر في طلابها من عذابها ويبشر المشمر لها بنعيمها.

وليعلم أن الموعظة إذا خرجت من الألسنة لم تعد الأسماع ولم يحصل منها على غير تعقل القرائن والأسجاع وإذا خرجت من القلوب وقعت في مثلها وأثمرت في الحال بالمحافظة على فرض الطاعة ونفلها وسكنت في السرائر طباع طاعةٍ تأبى على محاول نقلها وقدحت في البصائر من أنواع المعرفة مالم يعهد من قبلها.

وليجعل خطبه في كل وقتٍ مناسبةً لأحوال مستمعيها متناسبةً في وضوح المقاصد بين إدراك من يعي غوامض الكلام ومن لايعيها فخير الكلام ماقل ودل وإذا كان قصر خطبة الرجل وطول صلاته منبئين عن فقهه فما قصر من حافظ على ذلك ولاأخل وليوشح خطبه من الدعء لعموم الأمة فقد تعينت - إن شاء الله - الإصابة وهذه الوصايا على سبيل الذكرى التي تنفع المؤمنين وترفع المحسنين والله تعالى يجعله - وقد فعل - من أوليائه المتقين بمنه وكرمه إن شاء الله وهذه وصية خطيب أوردها في التعريف: وليرق هذه الرتبة التي رفعت له ذرا أعوادها وقدمت له من المنابر مقربات جيادها وليصعد منها على أعلى درجة وليسعد منها بصهوة كأنما كانت له من بكرة يومه المشرق مسرجة وليرع حق هذه الرتبة الشريفة والذروة التي ماأعدت إلا لإمامٍ فردٍ مثله أو خليفة وليقف حيث تخفق على رأسه الأعلام ويتكلم فتخرس الألسنة وتجف في فم الذرا الأقلام وليقرع المسامع بالوعد والوعيد ويذكر بأيام الله من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ويلين القلوب القاسية وإن كان منها ماهو أشد قسوةً من الحجارة والحديد وليكن قد قدم لنفسه قبل أن يتقدم وليسبل عليه درع التوبة قبل أن يتكلم وليجعل لكل مقام مقالاً يقوم به على رؤوس الأشهاد ويفوق منه سهماً لايخطيء موقعه كل فؤاد وليقم في المحراب مقام من يخشى ربه ويخاف أن يخطف الوجل قلبه وليعلم أن صدفة ذلك المحراب ماانفلقت عن ممثل درته المكنونة وصناديق الصدور ماأطبقت على مثل جوهرته المخزونة ولؤم بذلك الجم الغفير وليتقدم بين أيديهم فإنه السفير وليؤد هذه الفريضة التي هي من أعظم الأركان وأول الأعمال التي توضع في الميزان وأقرب القرب التي يجمع إليها داعي كل أذان وليقم بالصلاة في أوقاتها وليرح بها الإمام وعليه بالتقوى في عقد كل نية وأمام كل قضية والله تعالى يجعله ممن ينقلب إلى أهله وهو مسرور وينصب له الوظيفة السادسة الإمامة بالجوامع والمساجد والمدارس الكبار التي تصدر التولية عن السلطان في مثلها وهذه نسخة توقيع بالإمامة: أما بعد حمد الله على نعمه التي جعلت أيامنا الشريفة تزيد أهل الفضائل إكراماً وتخص بالسيادة والتقديم من أنشأه الله تعالى قرة أعينٍ وجعله للمتقين إماماً وقدمه على أهل الطاعة الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والشهادة له بالوحدانية التي تكسو مخلصها جلالاً وساماً والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أم الناس وعلمهم الصلاة وأظهر في إقامة الدين مقالاً محموداً ومقاماً وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بسنته توثقاً واعتصاماً - فإن خير الرتب في هذا العصر وفيما تقدم رتبة الإمامة حيث تقدم سيد البشر في محرابها على الأمة وأم فاختارها من اتبع الطريق المحمدية وشرعها وعلم سناءها ورفعها فزاد بذلك سمواً إلى سموه وحصل على تضاعف الأجر ونموه وهو فلان.

لازالت إيامه الشريفة تشمل ذوي الأصالة والصدارة بجزيل فضلها وعوائد إنعامه تجري بإتمام المعروف فتبقي الرتب -رسم الدينية بيد مستحقها وتسارع إلى تخليد النعم عند أهلها - أن يستمر فلان في كذا جارياً فيه على أجمل العادات إعانةً له على اكتساب الأجور بما يعتمده من تأهيل معهد العبادات ورعايةً لتكثير المبار وترجيحاً لما اشتمل عليه من حسن النظر في كل إيراد وإصدار وتوفيراً للمناجح التي عرفت من بيته الذي كم ألف منه فعل جميل وعمل بار ووثوقاً بأنه يعتمد في عمارة مساجد الله سبحانه وتعالى أن تشهد به الملائكة المتعاقبون بالليل والنهار والله تعالى يجعل النعم عنده مؤبدة الاستقرار إن شاء الله تعالى.

الوظيفة السابعة التدريس

وموضوعه إلقاء المسائل العلمية للطلبة وهذه نسخة توقيع بتدريس كتب به للقاضي عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة عوضاً عن والده في جمادى الآخرة سنة ثلاثين وسبعمائة وهي: الحمد لله متم فضله على كل أحد ومقر النعمة على كل والد وولد الذي خص أولياءنا ببلوغ الغايات في أقرب المدد واستصحاب المعروف فما ينوع منهم خاتم من يدٍ إلا ليد.

نحمده بأفضل مايحمده به من حمد ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً باقية على الأبد ونصلي على سيدنا محمد نبيه الذي جعل شريعته واضحة الجدد قائمةً بأعلام العلماء قيام الأمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين شبههم في الهدى بالنجوم وهم مثلها في كثرة العدد وسلم تسليماً مكثيراً.

وبعد فإن نعمنا الشريفة لاتتحول ومواهبنا الجزيلة لاتزال لأوليائنا تتخول وكرمنا يمهد منازل السعود لكل بدر يتنقل وشيمنا الشريفة ترعى الذمم لكل من أنفق عمره في ولائها وتحفظ مالها من المآثر القديمة بإبقائها من نجباء أبنائها مع مانلاحظه في استحقاق التقديم وانتخاب من ترقى منهم بين العلم والتعليم وحصل في الزمن القليل العلم الكثير واستم من نور والده وهو البدر المنير وعلم بأنه في الفضائل سر أبيه الذي شاع وخليفته الذي لو لم ينص عليه لما انعقد إلا عليه الإجماع والواحد الذي ساد في رتبة أبيه وماخلت من مثله - لاأخلى الله منه البقاع! وكان المجلس السامي القضائي الفلاني هو المراد بما قدمنا من صفاته الجميلة وتوسمنا أنه لمعة البدر وهي لاتخفى لأنها لاترد العيون كليلة ورأى والده المشار إليه من استحقاقه ماقتضى أن ينوه بذكره وينبه على المعرفة بحق قدره فآثر النزول له عما باسمه من تدريس الزاوية بجامع مصر المحروسة ليقوم مقامه ويقرر فوائده وينشر أعلامه ويعلم أنه قد حلق في العلياء حتى لحق البدر وبلغ تمامه فعلمنا أن البركة فيما أشار وأن اليمن بحمد الله فيما رجحه من الاختيار.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - زاد الله في شرفه وجعل أقطار الأرض في تصرفه - أن يرتب في هذا التدريس عوضاً عن والده أطال الله بقاءه على عادته وقاعدته إلى آخر وقت لأنه أحق من استحق قدره الرفيع التمييز وأولى بمصر ممن سواه لما عرفت به مصر من العزيز ثم من عبد العزيز.

ونحن نوصيك أيها العالم - وفقك الله - بالمداومة على ما أنت بصدده والمذاكرة للعلم فإنك لاتكائر العلماء إلا بمدده والعمل بتقوى الله تعالى في كل قصد وتصدير وتقريب وتقرير وتأثيل وتأثير وتقليل وتكثير ونص وتأويل وترتيب وترتيل وفي كل ماتزداد به رفعتك وتطير به سمعتك ويحسن به الثناء على دينك المتين ويقوم به الدليل على ماوضح من فضلك المبين.

واعلم بأنك قد أدركت بحمد الله تعالى وبكرمنا وبأبيك وباستحقاقك ما ارتد به كثير عن مقامك ووصلت في البداية إلى المشيخة في زاوية إمامك فاعمل في إفادة الطلبة بما يرفع الرافعي به الراية ويأتم بك إمام الحرمين في النهاية فقد أمسيت جار البحر فاستخرج جمانه واجتهد لتصيب في فتاويك فإن أوليك سهام رميها من كنانة وسبيل كل واقفٍ عليه العمل بمقتضاه والاعتماد وهذه نسخة توقيع بتدريس زاوية الشافعي بالجامع العتيق أيضاً من إنشاء المولى زين الدين بن الخضر موقع الدست كتب به لتاج الدين محمد الإخنائي شاهد خزانة الخاص بالنيابة عن عمه قاضي القضاة تقي الدين المالكي في أيام حياته مستقلاً بعد وفاته وهي: أما بعد حمد الله على أن زان مجالس المدارس في أيامنا الشريفة بتاجها وأقربها من ذوي الإنابة من يستحق النيابة عن تقي قوى الأحكام بإحكامها وإنتاجها ورفع قدر بيتٍ مباركٍ طالما اشتهر علم علمه وصدر عن صدره فكان مادة مسرة النفس وابتهاجها وجعل عوارفنا ترعى الذرية الصالحة في عقبها وتولي كل رتبة من أضحى لأهلها بوجاهته مواجهاً والشهادة له بالوحدانية التي: تنفي شرك الطائفة الكافرة ومعلول احتجابها والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي استقامت به أمور هذه الأمة بعد اعوجاجها وتشرفت به علماؤها حتى صارت كأنبياء بين اسرائيل بحسن استنباطها للجمل وجميل استخراجها وعلى آله وصحبه الذين علموا وعملوا وأوضحوا لهذه الملة قويم منهاجها - فإن أولى الأولياء ببلوغ الأمل وتعاهد مدارس العلم بصالح العمل وإظهار سر الفوائد للطالبين وحل عقود مشكلها بجميل الإطلاع وحسن اليقين ومن حوى معرفة الفروع والأصول وحاز من مذهبه المذهب خير محصول ونشأ في حجر الفضائل وأقوى الدلائل وله في الآباء والأبوة الديانة التي بلغ بها من الإقبال مرجوه طالما سارت أحكام عمه - أجله الله - في الأقطار وحكم فأبدى الحكم بين أيدينا أو في الأمصار وله العفاف والتقى والمآثر الجميلة وجميل الآثار والفتاوى التي أوضح بها مشكلاً وفتح مقفلاً والفصل بين الخصوم بالحق المحتلى من - والبركة التي لدولتنا الشريفة منها نصيب وافر والتصميم الذي اقترن بغزارة العلم والوقار الظاهر فهو - أعز الله أحكامه العلماء العاملين وله البشرى بما قاله أصدق القائلين في النبأ الذي تتم به الزيادة والنماء: " إنما يخشى الله من عباده العلماءَ.

ولما كان المجلس السامي هو الذي استوجب التصدير لإلقاء الدروس وأضحى محله مناسباً لمحلها أن يستقر في تدريس زواية الشافعي فلينب عن عمه في هذا التدريس وليقف مايسر النفوس من أثره النفيس وليفد الطلبة على عادته وليبد لهم من النقول مايظهر غزير مادته وليستنبط المسائل وليجب بالأدلة المسائل وليرجح المباحث وليكن لوالده - رحمه الله - أحق وارث وليستقل بهذه الوظيفة المباركة بعد وفاة عمه أبقاه الله تعالى وليتزيد من العلم ليبلغ من صدقاتنا الشريفة آمالاً والله تعالى يسدد له بالتقوى أقوالاً وأفعالاً بمنه وكرمه.

وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية المجاورة الرتبة الإمام الشافعي رضي الله عنه كتب به لقاضي القضاة تقي الدين ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر وهي: الحمد لله شافي عي البحث بخير إمام الشافعي والآتي منه في الزمن الأخير بمن لو كان في الصدر الأول لأثنى على ورعه ودينه كل صحابي وتابعي ومفيد الأسماع من وجيز قولها المحرر ما لولا السبق لما عدل إلى شرح وجيز سواه الرافعي.

نحمده على نعم ألهمت وضع الأشياء في محلها واستيداعها عند أهلها وتأتيها بمايزيل الإشكال بانجذاب من شكله مناسب لشكلها.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً يتزين بها المقال ويتبين بها الحق من الضلال ونشهد أن محمداً عبده موضح الطرق إلى الحق المبين وناهجها إلى حيث مجتمع الهدى ومرتبع الدين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تهدي إلى صراط الذين ورضي الله عن أصحابه الذين منهم جاء بالصدق وصدق به فقوي سبب الدين المتين ومنهم من فرق بين الحق والباطل وكان إمام المتقين وسمي أمير المؤمنين ومنهم من جهز جيش العسرة فثبت جأش المسلمين ومنهم من أعطاه صلى الله عليه وسلم الراية فأخذها منه باليمين ورضي اللع عن بقية الصحابة أجمعين.

وبعد فلما كان مذهب الإمام الشافعي محم بن إدريس رضي الله عنه هو شهدة المتلفظ وكفاية المتحفظ وطراز ملبس الهدى وميدان الاجتهاد الذي لاتقف أعنة جياده عن إدراك المدى وقد تجملت ديار مصر من بركة صاحبه بمن تشد إليه الرحال وتفخر جبانة هو فيها حال وجيد هو بجواهر علومه حال ومن يحسن إلى ضريحه المنيف الاستناد وإذا قرئت كتبه لديه قيل ماأبعد هذا المرمى الأسنى! وما أسعد حلقة تجمع بين يدي جدثه يتصدر فيها أجل حبر ويتصدى لنشر العلوم بها من عرف بحسن السيرة عند السبر ومن لولا خرق العوائد لأجاب بالشكر والثناء عليه صاحب ذلك القبر كلما قال: قال صاحب هذا القبر رضي الله عنه - - حسن بهذه المناسبة أن لاينتصب في هذا المنصب إلا من يحمد هذا السيد الإمام جواره ومن يرضيه حسن العبارة ومن يستحق أن يتصدر بين نجوم العلماء بدارة تلك الخطة فيقال قد جمل الله به دارة هذا البدر وعمر به من هذا المدرس داره الذي يفتقر إلى تنويل نعمه وتنويه قلمه من الأئمة كل غني ويعجب ببلاغة خطبه وصياغة كتبه من يحتلي ومن يجتني ومن يهنا المستفيدون من عذوبة ألفاظه وصفاء معانيه بالمورد الهني ومن إذا سح سحابه الهطال اعترف له بالمهو والهمول المزني والذي لسعد جده من أبيه ليث أكرم به من ليث وأكرم ببنيه من أشبال! وأعزز به من فاتح قعد كل ذي شماس وإذا أخذ بالنص ذهب الاقتياس وإذا قاس قيل هذا بحر المذهب المشار إليه بالأصابع في مصره جلالةً ولاينكر لبحر المصر الإشارة بالأصابع ولاالقياس بإحاطته وحياطته قلم الفتاوى وقلم التنفيذ ومن يفخر به كل عالم مفيد إذا قال: أنا بين يديه طالب وأنا له تلميذ ومن حيثما التفت وجدت له سؤدداً جماً وكيفما نظرت رأيت له من هنا حكماً!!! فهو الأصل ومن سواه فروع وهم الأثماد وهو الينبوع وهو مجموع السيادة المختار منه الإفادة فما أحسنه من اختيار ومأأتمه من مجموع.

وكان قاضي القضاة سيد العلماء رئيس الأصحاب مقتدى الفرق قدوة الطوائف الصاحب تقي الدين عبد الرحمن ولد الصاحب قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز أدام الله شرفه ورحم سلفه وهو منتهى رغبة الراغب ومشتهى منية الطالب ومن إذا أضاءت ليالي النفوس بأقمار فتاويه قيل بياض العطايا في سواد المطالب ومن تتفق الآراء على أنه بسن الكهولة شيخ المذاهب ومن عليه يسحن الاتفاق وبه يجمل الوفاق وإذا ولي هذا المنصب ابتهج بولايته إياه مالك في المدينة وأبو حنيفة وأحمد رضي الله عنهم في العراق واهتزت به وبمجاورة فوائده من ضريح إمامه جانب ذلك القبر طرباً وقالت الأم لقد أبهجت - رحم الله بجدك وإبائك جداً وأباً ولقد استحقيت أن يقول لك منصب سلفك رضي الله عنهم: أهلاً وسهلاً ومرحباً وهذه نسمات - سلفك صباً كانت الإفادة هنالك تعرفها منك من الصبا.

فالحمد لله على أن أعطى قوس ذلك المحراب باريها وخص بشق سهامها من لايزال سعده مباريها وجمل مطلع تلك السماء ببدرٍ كم باتت عليه الدرر تحسد دراريها وألهم حسن الاختيار أن يجري القلم بما يحسن بالتوقيع الشريف موقعه ويجمل في أثناء الطروس وضعه وموضعه.

فرسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني: - أجراه الله بالصواب وكشف بارتيائه كل ارتياب ولازال يختار وينتقي للمناصب الدينية كل عالم بأحكام السنة والكتاب - أن يفوض إليه تدريس المدرسة الصلاحية الناصرية المجاورة لضريح الإمام الشافعي بالقرافة رضي الله عنه.

فليخول ولينول كل ذي استفادة وليجمل منه بذلك العقد الثمين من علماء الدين بأفخم واسطةٍ تفخر بها تلك القلادة وليذكر من الدروس مايبهج الأسماع ويرضي الانتجاع ويجاد به الانتفاع ويحتلبه من أخلاف الفوائد ارتضاء الارتضاع ويتناقل الرواة فوائده إلى علماء كل أفق من البقاع وليقل فإن الأسماع لفوائده منصتة والأصوات لمباحثه خاشعة والقلوب لمهابته مخبتة ولينهض قوي المسائل بما يحصل لها أعظم انتعاش وليمت مأأماته من البدع فيقال به له: هذا محمد بن إدريس مذ قمت أنت عاش وليسمع بعلومه من به من الجهل صمم وليستنطق من به من الفهاهةبكم وليحقق عند الناس يتعصبه لهذا الإمام أنه قد قام بالتنويه به الآن الحاكم ابن الحاكم أخو الحاكم كما قام به فيما سلف بنو عبد الحكم.

وأما غير ذلك من الوصايا فهو بحمد الله صاحب إلهامها وجالب أقسامها وجهينة أخبارها ومطلع أنوارها فلا يعاد عليه مامنه يستفاد ولا ينثر عليه در هو منظمه في الأجياد والله تعالى يعمر بسيادته معالم الدين وأكنافه ويزين بفضله المتين أوساط كل مصر وأطرافه ويضيف إليه من السمتفيدين من بإرفاقه وإشفاقه يكون عيشه خفضاً بتلك الإضافة ويجعله لايخصص حنةه بمعهد دون معهد ولابمسافةٌ دون مسافةٍ ويبقيه ومنفعته إلى ساريةٍ سارية الإطافة واللطافة وألطافه بهذه الولاية تقول لكل طالبٍ في القرافة الق رافه.

وكان من جملة وظائفه تدريس هذه -قلت: ولما توفي قاضي القضاة بدر الدين بن أبي البقاء - تغمده الله تعالى برحمته المدرسة كان السلطان قد سافر إلى الشام في بعض الحركات فسافر ابنه أقضى القضاة جلال الدين حتى أدرك السلطان بالطريق على القرب من غزة فولاه الوظيفة المذكورة مكان أبيه وكان القاضي نور الدين بن هلال الدولة الدمشقي حاضراً هناك فأشار إليه القاضي فتح الدين فتح الله كاتب السر الشريف - عامله الله بلطفه الخفي - بإنشاء صدر لتوقيعه يسطر به للعلامة الشريفة السلطانية فأنشأ له سجعتين هما: الحمد لله الذي أظهر جلال العلماء الشافعية بحضرة إمامهم وأقام سادات الأبناء مقام آبائهم في بث علومهم وصلاتهم وصيامهم.

ولم يجاوز ذلك إلى غيره فسطر التوقيع بهاتين السجعتين وعلم عليه العلامة السلطانية.

وكان من قول نور الدين بن هلال الدولة للقاضي جلال الدين المذكور: إن هذا التوقيع يبقى أبيض: فإنه ليس بالديار المصرية من ينهض بتكملته على هذا الأسلوب.

فسمع القاضي كاتب السر كلامه فكتب لي بتكملته على ظهره وعاد به القاضي جلال الدين فأعطانيه وأخبرني بكلام ابن هلال الدولة وكان من قوله فتلكأت عن ذلك ثم لم أجد بداً من إكماله وإن لم أكن من فرسان هذا الميدان فأنشأت له تينك السجعيتن مأأكملته به فجاء منه تلو السجعتين السابقتين اللتين أنشأهما ابن هلال الدولة: وخص برياسة العلم أهل بيتٍ رأت كهولهم في اليقظة مايتمنى شيوخ العلماء أن لو رأوه من منامهم.

وجاء من وسطه: اقتضى حسن الرأي الشريف أن ننوه بذكره ونقدمه على غيره ممن رام هذا المقام فحجب دونه والله غالب على أمره وجاء في آخره: والله تعالى يرقيه إلى أرفع الذرا وهذه الرتبة وإن كانت بدايته فهي نهاية غيره وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا وقد أعوزني وجدان النسخة عند إرادة إثباتها في هذا التأليف لضياع مسودتها ولم يحضرني منها غير ماذكرته.

وفيما تقدم من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر من توقيع القاضي تقي الدين ابن بنت الأعز مالاينظر مع وجوده إلى غيره.

وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية بمصر المختصة بالمالكية المعروفة بالقمحية بمصر المحروسة أنشأته لقاضي القضاة جمال الدين الأفقهسي وهي: الحمد لله الذي زين معالم المدارس من أعلام العلماء بحمالها وميز مراتب الكملة بإجراء سوابق الأفكار في ميادين الدروس وفسيح مجالها وعمر معاهد العلم بأجل عالم إذا ذكرت وقائع المناظرة كان رأس فرسانها وريس رجاله وناط مقاصد صلاح الدين بأكمل حبر إذا أوردت مناقبه المأثورة تمسك أهل الديانة منها بوثيق حبالها.

نحمده على اختيار الجواهر والإعراض عن العرض والتوفيق لإدراك المرامي وإصابة الغرض.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له الذي خص أهل العلم بكريم جبائه وشرف مقامهم في الخليقة فجعلهم في حمل الشريعة ورثة أنبيائه شهادةً تعذب لقائلها بحسن الإيراد ورداً وتجدد لمنتحليها بمواطن الذكر عهداً فيتخذ بها عند الرحمن عهداً ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل نبي علم وعلم وأكرم رسولٍ فصل الأحكام إذ شرع وندب وأوجب وحلل وحرم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين عنوا بتفسير كتاب الله تعالى فأدركوا دقيق معانيه واهتموا بالحديث روايةً ودرايةً ففازوا بتأسيس فقه الدين وإقامة مبانيه صلاةً تحيط من بحار العلم بزاخرها وتأخذ من الدروس بطرفيها فتقارن الحمد في أولها وتصحب الدعاء في آخرها ماتتبع بالمنقول مواقع الأثر وعول في المعقول على إجالة الفكر وإجادة النظر وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى ماصرفت النفوس إليه هممها وأخلصت فيه نيتها وخلصت من تبعاته ذممها وتبعت فيه آثار من سلف من الملوك الكرام وأعارته كلي نظرها وقامت بواجبه حق القيام - أمر المدارس التي هي مسقط حجر الاشتغال بالعلك ومستقر قاعدته وقطب فلك تطلابه ومحيط داشرته وميدان فرسان المشايخ ومدار رجالها ومورد ظماء الطلبة ومحط رحالها لاسيما المدارس الأيوبية التي أسس على الخير بناؤها وكان عن صلاح الدين منشؤها فتألق برقها واستطار ضياؤها.

ومن أثبتها وثيقة وأمثلها في الترتيب طريقة المدرسة القمحية بالفسطاط الآخذة من وجوه الخير بنطاقها والمخصوص بالسادة المالكية امتداد رواقها إن اعتبرت رعاية المذاهب قالت: قد مالك ومامالك وإن عملت حسبة المدارس في البر كانت لها فذالك قد رتب بها أربعة دروسٍ فكانت لها كالأركان الأربعة وجعلت صدقتها الجارية براً فكانت أعظم براً وأعم منفعة.

ولما كان المجلس العالي القاضوي الشيخي الكبيري العالمي العاملي الأفضلي الأكملي الأوحدي البليغي الفريدي المفيدي النجيدي القدوي الحجي المحققي الإمامي الجمالي: جمال الإسلام والمسلمين شرف العلماء العاملين أوحد الفضلاء المفيدين قدوة البلغاء زين الأمة وحد الأئمة رحلة الطالبين فخر المدرسين مفتي الفرق لسان المتكلمين حجة الناظرين خالصة الملوك والسلاطين ولي أمير المؤمنين أبو محمدعبد الله الأقفهسي المالكي - ضاعف الله تعالى نعمته - هو عين أعيان الزمان والمحدث بفضله في الآفاق وليس الخير كالعيان ماولي منصباً من المناصب إلا كان له أهلاً ولأراد الانصراف من مجلس علم إلا قال له مهلاً ولارمى إلى غاية إلا أدركها ولاأحاط به منطقة طلبةٍ إلا هزها بدقيق نظره للبحث وحركها وإن أطال في مجلسه أطاب وإن أوجز قصر محاوره عن الإطالة وأناب وإن أورد سؤالاً عجز مناوئه عن جوابه أو فتح باباً في المناظرة أحجم مناظره عن سد بابه وإن ألم ببحث أربى فيه وأناف وإن أفتى بحكم اندفع عنه المعارض وارتفع فيه الخلاف فنوارده المدونة فيها البيان والتحصيل ومقدماته المبسوطة إجمالها يغني عن التفصيل ومشارقه النيرة لايأفل طالعها ومداركه الحسنة لايسأم سامعها وتهذيبه المهذب جامع الأمهات وجواهره الثمينة لاتقاوم القيمة ولاتضاهى في الصفات - اقتضى حسن الرأي فلذلك رسم بالأمر الشريف الشريف أن ننوه بذكره ونقدمه على غيره ممن حاول ذلك فامتنع عليه " والله غالب على أمره " لازالت مقاصده الشريفة في مذاهب السداد ذاهبة ولأغراض الحق - العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري الزيني والاستحقاق صائبة - أن يستقر المجلس العالي المشار إليه في تدريس المدرسة الصلاحية بمصر المحروسة المعروفة بالقمحية عوضاً عن فلان الفلاني على عادة من تقدمه.

فليتلق ذلك بالقبول ويبسط في مجالس العلم لسانه فمن كان بمثابته في الفضل حق له أن يقول ويطول وملاك الأمر تقوى الله تعالى فهي خير زاد والوصايا كثيرة وعنه تؤخذ ومنه تستفاد والله تعالى يبلغه من مقاصده الجميلة غاية الأمل ويرقبه من هضاب المعالي إلى أعلى مراتب الكمال وقد فعل والاعتماد على الخط الشريف أعلاه تعالى أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة توقيع أيضاً بتدريس المدرسة الصلاحية المذكورة أنشأته للقاضي شمس الدين محمد ابن المرحوم شهاب الدين أحمد الدفري المالكي في شعبان سنة خمس وثمانمائة وهو: الحمد لله مطلع شمس الفضائل في سماء معاليها ومبلغ دراري الذراري النبيهة الذكر بسعادة الجد غاية غيرها في مباديها وجاعل صلاح الدين أفضل قصدٍ فوقت العناية سهامها بإصابة غرضه في مراميها ومجدد معالم المدارس الدراسة بخير نظر يقضي بتشييد قواعدها وإحكام مبانيها.

نحمده على أن صرف إلى القيام بنشر العلم الشريف اهتمامنا وجعل بخيرته العائدة إلى التوفيق في حسن الاختيار اعتصامنا.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له مفيض نتائج الأفكار من وافر إمداده ومخصص أهل التحقيق بدقيق النظر تخصيص العام بقصره على بعض أفراده ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أوفر البرية في الفضل سهماً والقائل تنويهاً بفضيلة العلم: لابورك لي في صبيحة يومٍ لا أزداد فيه علماًصلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين حلوا من الفضل جواهره الثمينة والتابعين وتابعي التابعين الذين ضربت آباط الإبل منهم إلى عالم المدينة.

وبعد فإن أولى ماصرفت إليه الهمم وبرئت بتأدية حقه الذمم وغدت النفوس بالنظر في مصالحه مشتغلة والفكر لشرف محله منه إلى غيره متنقلة والنظر في امر المدارس التي جعلت للاشتغال بالعلم سبباً موصولاً ولطلبته ربعاً لايزال بمجالس الذكر مأهولاً لاسيما المدارس التي قدم في الإسلام عهدها وعذب باستمرار المعروف على توالي الأيام وردها.

ولماكانت المدرسة الصلاحية بفسطاط مصر المحروسة قد أسس على التقوى بنيانها ومهدت على الخير قواعدها وأركانها واختصت طائفة المالكية منها بالخصيصة التي أغنى عن باطن الأمر عنوانها وكان المجلس السامي هو الذي خطبته الرتب الجليلة لنفسها وعينته لهذا الوظيفة فضائله التي قد آن ولله الحمد بزوغ شمسها وعهدت منه المعاهد الجليلة حسن النظر فتاقت في يومها إلى ماألفت منه في أمسها - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نفرده بهذه الوظيفة التي يقوم إفراده فيها مقام الجمع ونجمع له من طرفيها مايتفق على حسنه البصر ويقضي بطيب خبره السمع.

لازال يقيم للدين شعاراً ويرفع لأهل العلم - فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري الزيني: الشريف مقداراً - أن يستقر في الوظيفة المذكورة لما اشتهر من علمه وديانته وبان عفته المشهورة ونزاهته واتصف به من الإفادة وعرف عنه من نشر العلوم في الإبداء والإعادة وشاع من طريقته في إيضاحه وبيانه وذاع من فوائده التي قدمته على أبناء زمانه ورفعته إلى هذه المرتبة باستحقاقه على أقرانه.

فليباشر تدريسها مظهراً من فوائده الجليلة ماهو في طي ضميره مضمراً من حسن بيانه كما يستغنى بقليله الجليلة ماهو في طي ضميره مضمراً من حسن بيانه مايستغنى بقليله عن كثيره مقرباً إلى أذهان الطلبة بتهذيب ألفاظه الرائقة مايفيد مورداً من علومه المدونة مايجمع له بين نوادر المقدمات ومدارك التمهيد موفياً نظرها بحسن التدبير حق النظر مفراً رزقها بما يصدق الخبر فيه الخبر قاصداً بذلك وجه الله الذي لايخيب لراج أملاً معاملاً فيه الله معاملة من يعلم أنه لايضيع أجر من أحسن عملاً.

وملاك الوصايا تقوى الله تعالى فليجعلها إمامه ويتخيلها في كل الأحوال أمامه ويتخيلها في كل الأحوال أمامه والله تعالى يسدده في قوله وعمله ويبلغه من رضاه نهاية سؤله وغاية أمله إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة توقيع بالتدريس بقبة الصالح أنشأته لقاضي القضاة جمال الدين يوسف البساطيبعد أن كتب له بها مع قضاء القضاة المالكية في العشر الأخير من شعبان سنة أربع وثمانمائة وهي: الحمد لله الذي جعل للعلم جمالاً تتهافت على دركه محاسن الفضائل وتتوارد على ثبوت محامده المتواردة قواطع الدلائل وتحقق شواهد الحال من فضله مايتلمح فيه من لوائح المخايل.

نحمده على نعمه التي ماستهلت على ولي فأقلع عنه غمامها ولا استقرت بيد صفي فانتزعت من يده حيث تصرف زمامها ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تزهر بمعالم الدين غروسها وتينع بثمار الفوائد المتتابعة دروسها وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدراً وأولهم في علو المرتبة مكاناً وإن كان آخرهم في الوجود عصراً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الحائرين بقربه أفخر المناقب والفائزين من درجة الفضل بأرفع المراتب صلاةً تكون لحلق الذكر نظاماً ولأولها افتتاحاً ولآخرها ختاماً وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن من شيمنا الشريفة وسجايانا الزاكية المنيفة أنا إذا منحنا منحاً لانستعيده وإذا أعطينا عطاءً لاننقصه بل نزيده وإذا قربنا ولياً لا نقصيه وإذا أنعمنا على صفي إنعاماً لانعده عليه ولانحصيه.

ولما كان تدريس المدرسة المالكية بقبة الصالح من أعلى دروسهم قدراً وأرفعها لدى التحقيق ذكراً وأعظمها إذا ذكرت الدروس فخراً إذ بمجال جداله تنفطر المرائر وبميدان مباحثه تشتهر البلق من مضمرات الضمائر وبسوق مناظرته يتميز النضار عن الشبه وبمحك مطارحته تتبين الحقائق من الشبه وبمظان مجلسه يعرف العالي والسافل وبمعركة فرسانه يعرف من المفصول والفاضل ومن ثم لايليه من علمائهم إلا الفحول ولايتصدى لتدريسه إلا من أمسى بحسام لسانه على الأقران يصول ولم يزل في جملة الوظائف المضافة لقضاء القضاة في الأول والآخر تابعاً لمنصب الحكم في الولاية كل زمن إلا

القليل النادر وكان المجلس العالي القاضوي الكبيري إلى آخر ألقابه أدام الله تعالى نعمته قد اشتملت ولايته عليه لابتداء الأمر استحقاقاً وحفظه كرمنا عليه فلم يجد الغير إليه استطراقاً - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نتبع ذلك بولاية ثانيةٍ تؤكد حكم الولاية الأولى ونردفه بتوقيع يجمع له شرف القدمة والجمع ولو بوجه أولى.

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري الزيني - لازال يعتمد في مشاهد الملوك أتم المصالح ويخص الصالح منهم بمزيد النتظر حتى يقال ماأحسن الناصر في مصالح الصالح - أن يستمر المجلس العلاي المشار إليه على مابيده من الولاية الشريفة بالتدريس بقبة الصالح المذكورة ومنع المعارض وإبطال ماكتب به وماسيكتب مادام ذلك في يده على أتم العوائد وأكملها وأحسن القواعد وأجملها.

فليتلق مافوض إليه بكلتا يديه ويشكر إحساننا الشريف على هذه المنحة فإنها نعمة جديدة توجب مزيد الشكر عليه وليتصدر بهذا الدرس الذي لم تزل القلوب تتقطع على إدراكه حسرات وليتصدر بهذا الدرس الذي لم تزل القلوب تتقطع على إدراكه حسرات ويتصد لإلقاء فوائده التي إذا سمعها السامع قال: هنا تسكب العبرات ويبرز لفرسان الطلبةمن.

صدره من كمينه ويفض على جداولهم الجافة ماسح به فكره من ينابيع معينه مستخرجاً لهم من قاموس قريحته درر ذلك البحر الزاخر مظهراً من مكنون علمه مالايعلم لمدة أول ولايدرك لمداه آخر وينفق من ذخائر فضله ماهو بإنفاقه ملي متفقداً لفضل غنائه من هو عن فرائده المربحة غير غني مقرراً للبحث تقريراً يزول معه الالتباس مسنداً فروعه النامية إلى أثبت الأصول من الكتاب والسنة والإجماع والقياس معتمداً لما عليه جادة مذهبه في الترجيح جارياً على ما ذهب إليه جهابذة محققيه من التصحيح مقبلاً بطلاقة وجهه في درسه على جماعته باذلاً في استمالتهم طاقة جهده محسناً في التعليم مايبقى له ذكره على الأبد منمياً ناشئتهم بالتدريب الحسن تنمية الغروس جاهداً في ترقيهم بالتدريج حتى يؤهل من لم يكن تظن فيه أهلية الطلب لأن يتصدى للفتاوى وإلقاء الدروس سالكاً من مناهج التقوى أحسن المسالك مورداً من تحقيقات مذهبه ماإذا لمحة اللامح لم يشك أن لزمام المذهب مالك والله تعالى يجريه على ماألفه من موارد إنعامه ويمنع هذه الرتبة السنية: تارة بمجالس دروسه وتارةً بمجالس أحكامه والاعتماد.

وهذه نسخة توقيع بتدريس الحديث بالجامع الحاكمي من إنشاء الشهاب محمود الحلبي للشيخ قطب الدين عبد الكريم وهي: الحمد لله الذي أطلع في أفق السنة الشريفة من أعلام علمائها قطباً وأظهر في مطالعها من أعيان أئمتها نجوماً أضاء بهم الوجود شرقاً وغرباً وأقام لحفظها من أئمة أعلامها أعلاماً أحسنوا عن سندها دفاعاً وأجملوا عن متونها ذباً وشرف بها أهلها فكلما بعدت راحلتهم في طلبها ازدادوا من الله قرباً واختار لحملها أمناء شغفت محاسنهم قلوب أهل الفرق على اختلافها حباً وسلكوا باتباعها سنن السنن فأمنوا أن تروع لهم الشبه سرباً وألهمنا من تعظيم هذه الطائفة مامهد لهم في ظل تقربنا إليه مقاماً كريماً ومنزلاً رحباً وعصم آراءنا في الارتياد له من الخلل فلا نختار له إلا من تسر باختباره طلبة وتغبط بتعيينه نحمده على نعمه التي صانت هذه الرتبة السنية بأكفائها وزانت هذه المرتبة الشريفة بمن لم تمل عينه في تأثيل قواعدها إلى إغفائها وجعلت هذه الدرجة العلية فلكاً تشرق فيه لاشمة الحديث أنوار علوم تفنى الدهور دون إطفائها.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة مجادل عن سنته الشريفة بألسنة أسنته مجالدٍ عن كلمتها بقبض معاقد وإطلاق أعنته باعث بالجهاد دعوتها إلى كل قلب كان عن قبولها في حجب أكنته ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أوتي جوامع الكلم ولوامع السنة التي من اعتصم بهاعصم ومن سلم بها سلم فهي مع كتاب الله أصل شرعه القويم وحبل حكمه الذي لاتتمكن يد الباطل من حل عقده النظيم وكنوز دينه التي لايلقاها إلا ذو حظ عظيم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين عضوا على سنته بالنواجذ وذبوا عن شريعته بسيوف الجلاد القواطع وسهام الجدال النوافذ صلاةً لايزال يقام فرضها ويملأ بها طول البسيطة وعرضها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى ماتوجهت الهمم إلى ارتياد أئمته وتوفرت الدواعي على التقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفويض علم الحديث النبوي صلوات الله وسلامه على قائله وحفظه بدروسه التي جعلت أواخر - مناصبه إلى البررة الكرام من أمته زمنه في صحة نقله ومعرفة أسراره كأوائله وأن نختار لذلك من نشأ في طلبه حتى اكتهل وسرى في تحصيله سرى الأهلة حتى اكتمل وغذي بلبان التبحر فيه حتى امتزج بأديمه وجد في تحصيله واجتهد حتى ساوى في الطلب بين حديث عمره وقديمه وحفظ من متونه مابمثله يستحق أن يدعى حافظاً وغلب على فنونه حتى قل أن يرى بغير علومه والنظر في أحكامه لافظاً فإنه بعد كتاب الله العزيز مادة هذا الدين الذي يحكم بنصوصه وتتفاوت رتب العلماء في حسن العمل بمطلقه ومقيده وعمومه وخصوصه وعنهما تفرعت أحكام الملة فملأت علومها جميع الآفاق وزكت أحكامها الشرعية على كثرة الإنفاق

وسرى الناس منها على المحجة التي استوى في الإشراق ليلها ونهارها وعلا على الملل بالبراهين القاطعة نورها ومنارها وكفى أهلها شرفاً أنهم يذبون عن سنة نبيهم ذب الليوث ويجودون على الأسماع بما ينفع الناس في أمر دينهم ودنياهم منها جود الغيوث ويحافظون على ألفاظها محافظة من سمعها منه صلى الله عليه وسلم ويعظمون مجالس أقرادها ونقلها حتى كأنهم لحسن الأدب جلوس بين يديه ويغالون في العلو طلباً للقرب منه وذلك من أسنى المطالب ويرحلون لضم شوارده من الآفاق فياقرب المشارق عندهم من المغارب! ولما كان المجلس السامي الفلاني: هو الذي عني بكل ماذكر من وصفٍ كريم وحديث ورع قديم وقدم هجرة في علم الحديث اقتضت له حسن أولوية ووجوب تقديم وتلقى هذا العلم كما وصف عن أئمته حتى صار من أعيانهم ولقي منهم علماء أضحى باقتفائهم كما كتانوا رحلة زمانهم ونظر في علومه فأتقنها فكأنه ينطق فيها بلسان ابن الصلاح وأحرز غايات الكمال في أسماء الرجال فإلى إطلاعه يرجع في تجريح المجرح وتعديل الصحاح وكان منصب تدريس الحديث الشريف النبوي الذي أنشأناه بالجامع الحاكمي تكثيراً لنشر أحاديث من لاينطق عن الهوى ونويناه لارتواء الرواة من بحر هذا العلم الشريف بالإعانة على ذلك وإنما لكل امريء مانوى قد استغرقت أوقات مباشره بتفويضنا الحكم العزيز على مذهبه إليه وتوفير زمانه على .

قلت: وتختلف أحوال التواقيع التي تكتب بالتداريس باختلاف موضوعاتها: من تدريس التفسير والحديث والفقه واللغة والنحو وغير ذلك في براعة الاستهلال والوصايا وهو في الوصايا آكد.

وهذه نسخ وصايا أوردها في التعريف: وصية مدرس - وليطلع في محرابه كالبدر وحوله هالة تلك الحلقة وقد وقت أهداب ذلك السواد منه أعظم اسوداداً من الحدقة وليرق سجادته التي هي لبدة جواده إذا استن الجدال في المضمار وليخفأضواء أولئك العلماء الذين هم كالنجوم كما تتضاءل الكواكب في مطالع الأقمار وليبرز لهم من وراء المحراب كمينه وليفض على جداولهم الجافة معينه وليقذف لهم من جنبات مابين جنبيه درر ذلك البحر العجاج وليرهم من غرر حجياده مايعلم به أن سوابقه لايهولها قطع الفجاج وليظهر لهم من مكنون علمه ماكان يخفيخ الوقار وليهب من ممنون فضله مايهب منه عن ظهر غنى أهل الافتقار وليقرر تلك البحوث ويبين مايرد عليها ومايرد به من منعها وتطرق بالنقض إليها حتى لاتنفصل الجماعة إلا بعد ظهور الترجيح والإجماع على كلمةٍ واحدةٍ على الصحيح وليقبل في الدروس طلق الوجه عغلى جماعته وليستملهم إليه بجهد استطاعته وليربهم كما يربي الوالد الولد وليستحسن ماتجيء به أفكارهم وإلا فكم رجل بالجبه لبنت فكر وأد هذا إلى أخذهم بالاشتغال وقدح أذهانهم للاشتعال ولينشيء الطلبة حتى ينمي منهم الغروس ويؤهل منهم من كان لايظن منه أنه يتعلم لأن يعلم ويلقي الدروس.

وصية مقريء: وليدم على ماهو عليه من تلاوة القرآن فإنه مصباح قلبه وصلاح قربه وصباح القبول المؤذن له برضا ربه وليجعل سوره له أسواراً وآياته تظهر بين عينيه أنواراً وليتل القرآن بحروفه وإذا قرأ استعاذ وليجمع طرقه وهي التي عليها الجمهور ويترك الشواذ ولايرتد دون غايةٍ لإقصار ولايقف فيعد أن أتم لم يبق بحمد الله إحصار وليتوسع في مذاهبه ولايخرج عن قراءة القراء السبعة أئمة الأمصار وليبذل للطلبة الرغاب وليشبع فإن ذوي النهمة سغاب ولير الناس ماوهبه الله من الاقتدار فإنه احتضن السبع ودخل الغاب وليتم مباني ماأتم ابن عامر و أبو عرو له التعمير ولفه الكسائي في كسائه ولم يقل جدي ابن كثير وحم به لحمزة أن يعود ذاهب الزمان وعلم أنه لا عاصم من أمر الله يلجأ معه إليه وهو الطوفان وطفق يتفجر عليماً وقد وقفت السيول الدوافع وضر أكثر قراء الزمان لعدم تفهيمهم وهو نافع وليقبل على ذوي الإقبال على الطلب وليأخذهم بالتربية فما منهم إلا من هو إليه قد انتسب وهو يعلم مامن الله عليه بحفظ كتابة العزيز من النعماء ووصل سببه منه بحبل الله الممتد من الأرض إلى السماء فليقدر حق هذه النعمة بحسن إقباله على التعليم والإنصاف إذا سئل فعلم الله مايتناهى " وفوق كل ذي علم عليم ".

وصية محدث: وقد أصبح بالسنة النبوية مضطلعاً وعلى ماجمعته طرق أهل الحديث مطلعاً وصح في الصحيح أن حديثه الحسن وأن المرسل منه في الطلب مقطوع عنه كل ذي لسن وأن سنده هو المأخوذ عن العوالي وسماعه هو المرقص منه طول الليالي وأن مثله لايوجد في نسبة المعرق ولايعرف مثله للحافظين ابن عبد البر بالمغرب و خطيب بغداد بالمشرق وهو يعلم مقدار طلب الطالب فإنه طالما شد له النطاق وسعى له سعيه وتجشم المشاق وارتحل له يشتد به حرصه والمطايا مرزمة وينبهه له طلبه والجفون مقفلة والعيون مهومة ووقف على الأبواب لايضجره طول الوقوف حتى يؤذن له في ولوجها وقعد القرفصاء في المجالس لاتضيق به على قصر فروجها.

فليعامل الطلبة إذا أتوه للفائدة معاملة من جرب ولينشط الأقرباء منهم ويؤنس الغرباء فما هو إلا ممن طلب آونةً من قريب وآونةً تغرب وليسفر لهم صباح قصده عن النجاح ولينتق لهم من عقوده الصحاح وليوضح لهم الحديث وليرح خواطرهم

بتقريبه ماكان يسار إليه السير الحثيث وليؤتهم مما وسع الله عليه في المجال ويعلمهم مايجب تعليمه من المتون والرجال ويبصرهم بمواقع الجرح والتعديل والتوجيه والتعليل والصحيح والمعتل الذي تتناثر فيه عن دراسة أويقنع فيه بمجرد رواية ومثله مايزاد حلماً ولايعرف بمن رخص في حديثٍ موضوعٍ أو كتم علماً.

وصية نحوي: وهو زيد الزمان الذي يضرب به المثل وعمرو الأوان وقد كثر من سيبويه الملل ومازني الوقت ولكنه الذي لم تستبح منه الإبل وكسائي الدهر الذي لو تقدم لما اختار غيره الرشيد للمأمون وذو السؤدد لا أبو الأسود مع أنه ذو السابقة والأجر الممنون وهو ذو البر المأثور والقدر المرفوع ولواؤه المنصوب وذيل فخاره المجرور والمعروف بما لاينكر لمثله من الحزم والذاهب عمله الصالح بكل العوامل التي لم يبق منها لحسوده إلا الجزم وهو ذو الأبنية التي لايفصح عن مثلها الإعراب ولايعرف أفصح منها فيما أخذ عن الأعراب والذي أصبحت أهدابه فوق عمائم الغمائم تلاث ولم يزل طول الدهر يشكر من أمسه ويومه وغده وإنما الكلمات ثلاث.

فليتصد للإفادة وليعلمهم مثل ماذكر منه أمسه ويومه وغده وإنما الكلمات الثلاث.

فليتصد للإفادة وليعلمهم مثل ماذكر فيه من علم النحو نحو هذا وزيادة وليكن للطلبة نجماً به يهتدى وليرفع بتعليمه قدر كل خبر يكون خبراً له وهو المبتدا وليقدم منهم كل من صلح للتبريز واستحق أن ينصب إماماً بالتمييز وليورد من موارده أعذب النطاف وليجر إليه كل مضاف إليه كل مضاف إليه ومضاف وليوقفهم على حقائق الأسماء ويعرفهم دقائق البحوث حتى اشتقاق الاسم هل هو من السمو أو من السيماء وليبين لهم الأسماء الأعجمية المنقولة والعربية الخالصة وليدلهم على أحسن الأفعال لامايشتبه فيه بصفات كان وأخواتها من الأفعال الناقصة وليحفظهم المثل وكلمات الشعراء ولينصب نفسه لحد أذهان بعضهم ببعض نصب الإغراء وليعامل جماعة المستفيدين منه بالعطف ومع هذا كله فليرفق بهم فما بلغ أحد علماً بقوة ولاغايةً بعسف.

وهذه وصية لغوي أوردها في التعريف وموضوعه الجلوس بصدر المجلس بجامع أو نحوه.

ويجلس متكلم أمامه على كرسي كأنه يقرأ عليه يفتتح بالتفسير ثم بالرقائق والوعظيات فإذا انتهى كلامه وسكت أخذ المتصدر في الكلام على ما هو في معنى تفسير الآية التي يقع الكلام عليها ويستدرج من ذلك إلى ما سنح له من الكلام.

وربما أفرد التصدير عن المتكلم على الكرسي.

وهذه نسخة توقيع بتصدير أنشأته للشيخ شهاب الدين أحمد الأنصاري الشهير بالشاب التائب بالجامع الأزهر وهي: رسم.

لازالت صدقاته الشريفة تختص المجالس بمن إذا جلس صدر مجلس كان لرتبته أجمل صدرٍ يجتبى من علماء التفسير ومت إذا دقق لم يفهم شرحه إلا عنه وإذا سلك سبيل الإيضاح كان كلامه في الحقيقة تفسير تفسير وتصطفي من سراة الأماثل من دار نعته بين الشاب التائبو الشيخ الصالح فكان له أكرم نعتٍ على كل تقدير - أن يستمر المجلس السامي أدام الله تعالى رفعته - في كذا وكذا لأنه الإمام الذي لا تسامى علومه ولاتسام والعلامة الذي لاتدرك مداركه ولاترام والحبر الذي تنعقد على فضله الخناصر وفارس الحلبة الذي يعترف بالقصور عن مجاراة جياده المناظر وآية التفسير التي لاتنسخ وعقد حقيقته الذي لايفسخ والماهر الذي استحق بمهارته التصدير والجامع لفنونه المتنوعة جمع سلامةٍ لا جمع تكسير وترجمان معانيه الآتي من غرائب تأويله بالعجب العجاب والعارف بهدي طريقه الذي إذا قال قال الذي عنده علم من الكتاب وزاهد الوقت الذي زين بالعلم العمل وناسك الدهر الذي قصر عن مبلغ مداه الأمل.

فليتلق ماألقي إليه بالقبول وليستند إلى صدر مجلس يقول فيه ويطول وليبين من معاني كتاب الله ماأجمل ويوضح من خفي مقاصده ماأشكل وليسلك في تفسيره أقوم سنن ويعلن بأسراره الخفية فسر كتاب الله أجدر أن يكون على علن وليجر فيه على ماألف من تحقيقاته فإنه لم يحقق المناظرة فمن وليأخذ مشايخ أهل مجلسه الإحسان ويحض شبابهم على التوبة ليجبهم الله فيتصل في المحبة سندهم فإن الشاب التائب حبيب الرحمن والله تعالى يرقيه إلى أرفع الذرا ويرفع مجلسه السامي على محل الثريا " وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً إن شاء الله تعالى.

الوظيفة التاسعة النظر

وموضوعه التحدث في أمور خاصة بإباحة ضروراتها وعمل مصالحها واستخراج متحصل جهانها وصرفه على الوجه المعتبر ومايجري مجرى ذلك.

وتشتمل على عدة أنظار: منها: نظر الأحباس: جمع حبس وهو الوقف: فقد تقدم في المقالة الثانية أنه كان أثل وضعه أراضي اشتراها الإمام الليث بن سعد رضي الله عنه ووقفها على جهات بر ثم تبعه الناس في لإضافة الأوقاف إلى ذلك إلى أن كانت وزارة الصاحب بهاء الدين ابن حنا في سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري فأفرد للجوامع والمساجد والربط والزوايا ونحو ذلك رزقاً وقصر تحدث ناظر الأحباس ومباشريه عليها وأفردت الأوقاف بناظر ومباشرين كما سيأتي: وهذه نسخة توقيع بتدريس الطب بالبيمارستان المنصوري كتب بها لمهذب الدين وهي: الحمد لله الذي دبر بحكمته الوجود وعم برحمته كل موجود وحال بنفع الدواء بين ضر الداء كما حالت عطاياه دون الوعود نحمده ونشكره وهو المشكور المحمود ونثني عليه خير الثناء قياماً وقعوداً وعلى الجنوب وفي السجود ونستزيده من فضله فإنه أهل الفضل والجود.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة الله بها والملائكة وأول العلم شهود ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المبشر لأمته بالجنات والخلود صلى الله عليه و على آله وصحبه صلاة دائمة إلى يوم الوعود.

وبعد فإنا لما أقام الله بنا شعائر الإيمان وأصبح دينه بحمد الله منصوراً بنا على سائر الأديان وجاهدنا في الله حق الجهاد باليد والقلب واللسان وشيدنا لعلومه وشرائعه كل بديع الإتقان ورتبنا فيه من العلماء الأعيان كل رفيع الشان واخترنا له الأخيار من أهل العلم بالطب والفقه والحديث والقرآن ورأينا كل من تقدمنا من الملوك وإن سلك في سياسة الرعية أحسن سلوك وقد اهتم بعلم الأديان وأهمل علم الأبدان وأنشأ كل منهم مدرسة ولم يحفل ببيمارستان وغفل عن قوله صلى الله علسه وسلم: العلم علمان ولم يأخذ أحداً من رعيته بالاشتغال بعلم الطب المضطر إليه ولاوقف وقفاً على طلبة هذا العلم المنصوص عليه ولاأعد له مكاناً يحضر منه من يشتغل بهذا الفن فيه ولانصب له شخصاً يتمثل هذا المشتغل لديه - علمنا نحن بحمد الله تعالى من ذلك ما جهلوه وذكرنا من هذه القربة ماأهملوه ووصلنا من هذه الأسباب الدينية والدنيوية مافصلوه وأنشأنا بيمارستاناً يبهر العيون بهجة ويفوق الأبنية بالدليل والحجة وبحفظ الصحة والعافية على كل مهجة لو حله من أشفى لعوجل بالشفا أو جاءه من أكمده السقم لاشتفى أو أشرف عليه العمر بلا شفاء لعاد عنه بشفا ووقفنا عليه من الأوقاف المبرورة مايملأ العينين ويطرف سماع جملته الأذنين ويعيد عنه من أمه مملوء اليدين وأبحنا التداوي فيه لكل شريف ومشروفٍ ومأمور وأمير وساوينا في الانتفاع به بين كل صغير وكبير وعلمنا أن لانظير لنا في ملكنا ولانظير له في لإبقائه فلم نجعل لوقفه وشرطه من نظير وجعلنا فيه مكاناً للاشتغال بعلم الطب الذي كاد أن يجهل وشرعنا للناس إلى ورد بحره أعذب منهل وسهلنا عليهم من أمره ما كان الحلم به من اليقظة أسهل وارتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس وينتفع به الرئيس من أهل الصناعة والمرؤوس ويؤتمن على صحة الأبدان وحفظ النفوس فلم نجد غير رئيس هذه الطائفة أهلاً لهذه المرتبة ولم نرض بها من لم تكن له هذه المنقبة وعلمنا أنه متى وليها أمسى بها معجباً وأضحت به معجبة.

ولما كان المجلس السامي مهذب الدين هو الرئيس المشار إليه والوحيد الذي تعقد الخناصر عليه وكان هو الحكيم بقراط بل الجليل سقراط بل الفاضل جالينوس بل الأفضل ديسقوريدوس - اقتضت الآراء الشريفة أن تزاد جلالته بتولية هذا المنصب الجليل جلالة وأن تزف إليه تجر أذيالها ويزف إليها يجرر أذياله وأن يقال: لم يك يصلح إلا لها ولم تك تصلح إلا له فلذلك سم لازال للدين ناصراً ولأعلام العلوم ناشراً - أن يفوض إليه تدريس الطب بالبيمارستان المبارك المنصوري - بالأمر الشريف المستجد الإنشاء بالقاهرة المحروسة علماً بأنه المتمهر في هذا الفن وأنه عند الفراسة فيه والظن وأنه سقراط الإقليم إذا كان غيره سقراط الدن وثقةً بأنا للجوهر التقطنا وبالخير قد اغتبطنا وعلى الخبير قد سقطنا.

فليتلق هذه النعمة بالشكر الجليل والحمد الجزيل والثناء الذي هو بالنماء والزيادة كفيل ولينتصب لهذا العلم المبارك انتصاب من يقوم بالفرض منه والسنة ويعرف له فيه الفضل ويتقلد له فيه المنة ويثنى على آثاره الجميلة فيه وتثنى إليه الأعنة وليبطل بتقويمه الصحة ماألفه ابن بطلان وليرنا بتدبيره جبلة البر فإنه جالينوس الزمان وليبذل النجاه من الأمراض والشفاء من الأسقام فإنه ابن سينا الأوان وليجمع عنده شمل الطلبة وليعط كل طالبٍ منهم ماطلبه وليبلغ كل ممتن من الاشتغال أربه وليشرح لهم صدره وليبذل لهم من عمره شطره وليكشف لهم من هذا العلم المكنون سره وليرهم ما خفي عنهم منه جهرة وليجعل منهم جماعة طبائعية وطائفة كحالين وجرائحية وقوماً مجبرين وبالحديد عاملين وأخرى بأسماء الحشائش وقوى الأدوية وأصافها عالمين وليأمر كلاً منهم بحفظ مايجب حفظه ومعرفة ما يزيد به حظه وليأخذه بما يصلح به لسانه ولفظه

ولايفتر عنهم في الاشتغال لحظة وليفرد كل علم من العلوم طائفة ولكل فن من فنونه جماعةً بمحاسنه عارفة وليصرف إليهم من وجوه فضائله كل عارفة وليكشف لهم ماأشكل عليه من غوامضه فليس لهم من دون إيضاحه كاشفة لينشر في هذا المكان المبارك من أرباب هذه العلوم قوم بعد قوم ويظهر منهم في الغد - إن شاء الله - أضعاف ماهو ظاهر منهم اليوم وليقال لكل من طلبته إذا شرع في إجازته وتزكيته: لقد أحسن شيخه الذي عليه تأدب وإن من خرج هذا المهذب عاملاً في ذلك بشروط الواقف أعز الله نصره واقفاً عند أمره أمضى الله أمره والخير يكون إن شاء الله تعالى وهذه نسخة توقيع بنظر الأحباس مفتتحة بأما بعد وهي: أما بعد حمد لله الذي أذن أن ترفع بيوته ويذكر فيها اسمه ويكثر فيها قسم ثوابه ويجزل قسمه والصلاة على سيدنا محمد الذي عظم به قطع دابر الكفر زكثر حسمه - فإن خير من عول عليه تأسيس بيوت الله وعمارة ربوعها ولم شعثها وشعب صدوعها والقيام بوظائفها وتسهيل لطائفها وتأهيل نواحيها لهبوط الملائكة لتلقي المصلين فيها من كان ذا عزم لاتأخذه في الله لومة لائن وحزم لايلم بأفعاله لمم المآثم ونظرٍ ثاقب ورغبةٍ في اختيار جميل المآثر والمناقب ومبائرةٍ ترعى قوانين الأمور وتكتنفها اكتناف مراقب.

ولما كان فلان ممن هذه الأوصاف شعاره وإلى هذه الأمور بداره وكم كتب الله به للدولة أجر راكع وساجد وكم شكرته وذكرته ألسنة أعلام الجوامع وأفواه محاريب المساجد - اقتضى منيف الملاحظة والمحافظة على كل قريب من بيوت الله وشاهد أن خرج الأمر الشريف - لابرح بكشف الأوجال ويدعو له في الغدو والآصال رجال - أن يفوض لفلان نظر ديوان الأحباس والجوامع والمساجد المعمورة بذكر الله تعالى.

فليباشرها مباشرة من يراقب الله إن وقع أو توقع وإن أطاع أو تطوع وإن عزل أو ولي وإن أدب من نهى عبداً إذا صلى وليجتهد كل الاجتهاد في صرف ريع المساجد والجوامع في مصارفها الشرعية وجهاتها المرعية وليأخذ أهلها بالملازمة في أحيانها وأوقاتها وعمارتها بمصابيحها وآلاتها وحفظ مايحفظون به لأجلها ومعاملتهم بالكرامة التي ينبغي أن يعامل مثلهم بمثلها وليحرر في إخراج الحلالات إذا خرجت وأخرجت وفي مستحقات الأجاشر إذا استحقت وإذا عجلت وفي التواقيع إذا أنزلت وإذا نزلت وفي الاستئمارات التي أهملت وكان ينبغي لو أهلت وإذا باشر و ظهر له بالمباشرة خفايا هذا الديوان وفهم ماتحتويه جرائد الإحسان فليكن إلى مصالحه أول مبادر ويكفيه تدبر قوله تعالى: " إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر " قلت: وقد كنت أنشأت توقيعاً بنظر الأحباس للقاضي بدر الدين حسن الشهير بابن الداية مفتتحاً بالحمد لله جاء فرداً في بابه إلا أن مسودته غيبت عني فلم أجدها لأثبتها هاهنا كما أثبت غيرها مما أنشأته: من البيعات والعهود والتواقيع والرسائل وغير ذلك.

ومنها - نظر الأوقاف بمصر والقاهرة المحروستين ويدخل فيه أوقاف الحرمين وغيرهما.

وهذه نسخة توقيع بنظرها وهي: الحمد لله الذي حفظ معالم البر من الدثور وأحيا آثار المعروف والأجور وصان الأوقاف المحبسة من تبديل الشروط على توالي الأيام والشهور.

نحمده على فضله الموفور ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة لها في القلوب نور على نور ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المؤيد المنصور الطالع البدور المبعوث بالفرقان والنور والمنعوت في التوراة والإنجيل والزبور صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ماكرت الدهور وطلعت كواكب ثم توغر.

وبعد فإن أهل الخير من المؤمنين تقربوا إلى الله سبحانه وتعالى من طيبات أموالهم بأوقاف وقفوها على وجوه البر وعرفوها وجعلوا لها شروطاً ووصفوها فتقبل الله لهم ذلك ثم ماتوا فما انقطع عملهم بها وهم في برزخ المهالك ووليها بعدهم الأمناء من النظار فقاموا بحقوقها وحفظ الآثار وأجروا برها الدار في كل دار وصانوا معالمها ن الأغيار وشاركوا واقفيها في الصدقة لأنهم خزان أمناء أخيار.

ولما كان فلانهو الذي لايتدنس عرضه بشائبة ولاتمسي المصالح وهي عن فكره غائبة ولاتبرح نجوم السعود طالعةً عليه غير غائبة وهو أهل أن يناط به التحدث في جهات البر الموقوفة وأموال الخير المصروفة لأنه نزه نفسه عماليس له فلو كانت أموال غيره غنماً ما اختص منها بصوفة فلذلك رسم.

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة حسنة التأثير جميلة التثمير مأمونة التغيير مخصوصة بالتعبير ولينظر في هذه الأوقاف على اختلافها من ربوع ومباني ومساكن ومغاني وخاناتٍ مسبلة وحوانيت مكملة ومسقفات معمورة وساحاتٍ مأجورة غير مهجورة

وليبدأ بالعمارة فإنها تحفظ العين وتكفي البناء دثوره وليتبع شروط الوقفين ولايعدل عنها فإن في ذلك سروره ويندرج في هذه الأوقاف ماهو على المساجد ومواطن الذكر: فليقم شهارها وليحفظ آثارها وليرفع منارها والوصايا كثيرة التقوى ظلها المخطوب ومراقبة الله أصلها المطلوب ووصلها المحبوب والله تعالى يجمع على محبته القلوب بمنه وكرمه!.

البيمارستان المنصوري بين القصرين لأرباب الأقلام وهو من أجل الأنظار وأرفعها قدراً مازال يتولاه الوزراء -ومنها وكتاب السر ومنفي معناهم.

وهذه سخة توقيع من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهي: الحمد لله رافع قدر من كان في خدمتنا الشريفة كريم الخلال ومعلي درجة من أضفى عليه الإخلاص في طاعتنا العلية مديد الظلال ومجدد نعم من لم يخصه اعتناؤنا بغاية إلا ورقته همته فيها إلى أسنى رتب الكمال ومفوض النظر في قرب سلفنا الطاهر إلى من لم يلاحظ من خواصنا أمراً إلا سرنا ما نشاهد فيه من الأحوال الحوال.

نحمده على نعمه التي لاتزال تسري إلى الأولياء عورافها ومننه التي لاتبرح تشمل الأصفياء عواطفها وآلائه التي تسدد آراءنا في تفويض قربنا إلى من إذا باشرها سر بسيرته السرية مستحقها وواقفها.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة رفع الإخلاص لواءها وأفاض الإيمان على وجوه جملتها إشراقها وضياءها ووالى الإيقان إعادة أدائها بمواقف الحق وإبداءها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المخصوص بعموم الشفاعة العظمى المقصوص في السنة ذكر حوضه الذي من شرب منه شربةً فإنه بعدها لايظما المنصوص على نبوته في الصحف المنزلة وبشرت به الهواتف نثراً ونظماً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا من طاعته بالرتب الفاخرة وحازوا بالإخلاص في محبته سعادة الدنيا والأخرة وأقبلوا على حظهم من رضا الله ورضاه فلم يلوا على خدع الدنيا الساحرة صلاةً دائمة الاتصال آمنةً شمس دولتها من الغروب والزوال وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى الأمور بإنعام النظر في مصالحها وأحقها بتوفير الفكر على اعتبار مناهجها واعتماد مناجحها - أمر جهات البر قدس الله روحه - بها إلى من أفاض نعمه عليه وتنوع في إنشائها فأحسن فيها كما أحسن -التي تقرب والدنا السلطان الشهيد الله إليه ورغب بها فيما عند الله لعلمه أن ذلك من أنفس الذخائر التي أعدها بين يديه وحل منها في أكرم بقعة نقله الله بها عن سريره إلى مقعد صدق عند ربه وعمر بها مواطن العبادة في ويم سلمه بعد أن عفى على معاقل الكفر في يوم حربه وأقام بها منار العلوم فعلا منالها وأعد للضعفاء بها من مواد البر والإلطاف مالو تعاطته الأغنياء قصرت عن التطاول إليه أموالها وأن نرتاد لها من إذا فوضنا إليه أمراً تحققنا صلاحه وتيقنا نجاحه واعتقدنا تنمية أمواله واعتمدنا في مضاعفة ارتفاعه وانتفاعه على أقواله وأفعاله وعلمنا من ذلك مالانحتاج فيه إلى أخبار ولااختبار ولايحتاج في بيان الخيرة فيه إلى دليل إلا إذا احتاج إليه النهار لنكون في هذا بمثابة من ضاعف لهذه القرب أسباب ثوابها أو جدد لها وقفاً لكونه أتى بيوت الإحسان في ارتياد الأكفاء لها من أبوابها.

ولذلك لما كان فلان هو الذي صان أموال خواصنا وأبان عن يمن الآراء في استئثارنا به لمصالحنا الخاصة واختصاصنا واعتددنا بجميل نظره في أسباب التدبير التي تملأ الخزائن وتدل على أن من الأولياء من هو أوقع على المقاصد من سهامم الكنائن وتحقق أنه كما في العناصر الأربعة معادن فكذلك في الرجال معادن ونبهت أوصافه على أنه ماولي أمراً إلا وكان فوق ذلك قدراً ولااعتمد عليه فيما تضيق عنه همم الأولياء إلا رحب به صدراً ولاطلع في أفق رتبه هلالاً إلا وتأملته العيون في أجل درج الكمال بدراً يدرك مانأى من مصالح مايليه بأدنى نظر ويسبق في سداد مايباشره على مايجب سداد الآراء ومواقع الفكر فنحن نزداد كل يوم غبطة بتدبيره ونتحقق أن كل ماعدقنا به إليه من أمرٍ جليلٍ فقد أسندناه إلى عارفه وفوضناه إلى خبيره - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نعدق بجميل نظره أمر هذا المهم المقدم لدينا وأن نفوض إليه فرسم بالأمر الشريف - أن يفوض إليه كيت وكيت. -لازال فضله عميماً وبره يقدم في الرتب من كان من الأولياء كريماً

فليل هذه الرتبة التي أريد بها وجه الله وماكان لله فهو أهم وقصد بها النفع المتعدي إلى العلماء والفقراء والضعفاء ومراعاة ذلك من أخص المصالح وأعم ولينظر في عموم مصالحها وخصوصها نظراً يسد خللها ويزسح عللها ويعمر أصولها ويثمر محصولها ويحفظ في أماكنها أموالها ويقيم معالم العلوم في أرجائها ويستنزل بها مواد الرحمة لساكنها بألسنة قرائها ويستعيد صحة من بها من الضعفاء بإعداد الذخائر لملاطفة أسقامها ومعالجة أدوائها ويحافظ على شروط الواقف - قدس الله روحه - في إقامة وظائفها واعتبار مصارفها وتقديم ماقدمه مع ملاءة تدبيره باستكمال ذلك على أكمل مايجب وتمييز حواصلها لما

يستدعي إليها من الأصناف التي يعز وجودها ويجتلب وضبط تلك الحواصل التي لاخزائن لها أوثق من أيدي أمنائه وثقاته ولامودع لها أوفق من أمانة من يتقي الله حق تقاته وليفعل في لذك جميعه ماعرفناه من تدبيره الجميل خبراً وخبراً وحمدناه في كل مايليه ورداً في المصالح وصدراً فإنه - يحمد الله - الميمون نظراً وتصرفاً المأمون نزاهة وتعففاً الكريم سجيةً وطباعاً الرحيب في تبقي المهمات الجليلة صدراً وباعاً فلذلك وكلناه في الوصايا إلى حسن معرفته واطلاعه ويمن نهوضه بمصالحنا وإطلاعه والله تعالى يسدده في قوله وعمله ويحقق بالوقوف مع مراضي الله تعالى ومراضينا غاية أمله إن شاء الله تعالى.

ومنها - نظر الجامع الناصري بقلعة الجبل.

وهذه نسخة توقيع بنظره كتب به للقاضي جلال الدين القزويني وهو يومئذ قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية وهي: الحمد لله الذي زاد بنا الدين رفعةً وجلالا وجعل لنا على منار الإسلام إقبالاً وأحسن لنظرنا الشريف في كل اختيار مآلا ووفق مرامي مرامنا لمن أخلصنا عليه اتكالا.

نحمده حمداً يتواتر ويتوالى ويقرب من المنى منالا وتنير به معاهد نعمه عندنا وتتلالا ونديمه إدامةً لانبغي عنها حولاً ولا انتقالا.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً نصدقها نية ومقالا ونرجو بالتغالي فيها القبول منه تعالى ويتراسل عليها القلب واللسان فلا يعتري ذاك سهو ولايخاف هذا كلالا ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي كرم صحابه وآلا ودلهم على الرشد فورثوه علماء الأمة رجالا صلى الله عليه وعليهم صلاةً نسترعي عليها من الحفظة أكفاءً أكفالا ونستمد لرقمها المذهبات بكراً وآصال وتسمو إليه الأنفاس سمو حباب الماء حالاً فحالا مامدت الليالي على أيامها وبعد فإن من بنى حق عليه أن يشيد ومن أراد أن سنته الحسنى تبقى فليتخذ معيناً على مايريد ومن أنشأ برا فلابد مباشرعنه يضمن له التجدي ويظن به مع تأثيره التخليد ومن تاجر لله لمعروف فما يسخو بالمشاركة فيه لمن يقوم مقام نفسه أو يزيد ومن بدأ جميلاً فشرط صلاحه أن يسنده إلى من له بالمراقبة تقييد فيما يبديء ويعيد وأي إشادة أقوى من التأسيس على التقوى أو معين أجل من حاكم استخلصناه لنا ولإخواننا المسلمين أو مباشر أنفع من سيد ارتدى بالمجد وتلفع وتروى بالعلوم وتضلع أو مشاركٍ في الخير أولى من ولي قلدناه ديننا قبل الدنيا وأعليناه بالمنصبين: الحكم والخطابة فتصرف منهما بين الكلمة العالية والدرجة العليا أو أحسن مراقبةً من حبر يعبد الله كأنه يراه وإمام يدعو إليه دعاء أوابٍ أواه ثد انفرد بمجموع المحاسن يقيناً وأصبح قدره الجلي الجليل يعينا وعن المدائح يغنينا فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا ولكن نصرح باسمه تنويهاً وتعييناً وتحسيناً لسيرة أيامنا الشريفة بعالم زمانها وتزييننا لاعذر لفكر لم ينضد مناقبه وقد تمثلت معاليه جواهر وقلمٍ لم يوش الطروس بمعانيه بعدما زان من فنونها أنواع الأزاهر وهو المجلس العالي القضائي الإمامي العالمي العاملي العلامي الكاملي الفاضلي القدوي المفيدي الخاشعي الناسكي الورعي الحاكمي الجلالي حجة الإسلام والمسلمين قدوة العلماء العاملين في العالمين بركة الأمة علامة الأئمة عز السنة مؤيد الدولة سيف الشريعة شمس النظر مفتي الغرر خطيب الخطباء إمام البلغاء لسان المتكلمين حكم الملوك والسلاطين ولي أمير المؤمنين أبو المعالي محمد ابن قاضي القضاة سعد الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن عمربن أحمد ابن قاضي القضاة الشافعية: أدام الله عزة الشرع الشريف بأحكامه وترفيه سيوف الجلاد وأسله بلسان جداله وأقلامه قاض يفرق بين المهترجين برأي لايطيش حلمه ولايزل حكمه ويتقي الشبهات بورع يتبعه عمله ويهديه علمه مالحظ جهةً إلا حظيت ببركة دارةً مزنها ساريةٍ مناجحها سار يمنها ولا أقبل على بيتٍ من بيوت الله إلا من حن إلى سبحات الجلال ولاتكلم في وقفٍ إلا أجراه في صالح الأعمال على أقوم مثال ونحن لهذه المزايا نرد إلى نظره الكريم ماأهمنا من عمارة مسجدٍ وجامع ونقلده من أوقافنا مايخلفنا فيه خيراً فإن الأوقاف ودائع.

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري - لايزال يصيب الصواب ولايعدو أولي الألباب - أن يفوض إليه نظر الجامع الناصري المعمور بذكر الله تعالى بقلعة الجبل المحروسة وأوقافه والنظرعلى التربة والمدرسة الأشرفيين وأوقافهما.

ومنها - نظر مشهد الإمام الحسين رضي الله عنه بالقاهرة المحروسة.

وقد تقدم في الكلام على خطط القاهرة في المقالة الثانية أن الصالح طلائع بن رزيك حين قصد نقل رأس الإمام الحسين إلى القاهرة بنى لذلك جامعه خارج بابي زويلة فبلغ ذلك الخليفة فأفرد بها هذه القاعة من قاعات القصر وأمر بنقلها إليها.

وهذه نسخة توقيع بنظره من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهي: الحمد لله الذي جعل مواطن الشرف في أيامنا الزاهرة محصورة في أكفائها ومشاهد السيادة في دولتنا القاهرة مقصورةً على من حبته أوامرنا باعتنائها وخصته آلاؤنا باصطفائها الذي أجرى حسن النظر في مظان الآباء الطاهرة على يد من طلع في أفق العلياء من أبنائها وعمر معاهد القربات بتدبير من بدأ بقواعد دينه وأجاد إحكام تشييدها وإتقان بنائها.

نحمده على ماخصت به أيامنا من رفع أقدار ذوي السيادة والشرف واتصف به إنعامنا من مزبد بر علم بحسن ظهوره على الأولياء أن الخير في الشرف.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً يعرف بها من اعترف ويشرف قدر من له بالمحافظة عليها شغف ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي طهر الله بضعته الزهراءوبنيها وخصهم بمزية القربى التي نزهه أن يسأل على الهداية أجراً إلا المودة فيها صلى الله عليه وعلى آله الذين هم أجدر بالكرم وأحق بمحاسن الشيم ومامنهم إلا من تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم وعلى آله وأصحابه الذين أنعم الله به عليهم واتبعوه في ساعة وبعد فإن أولى من زينت به مواطن الشرف وعدقت به العناية بخدمة من درج من بيت النبوة وسلفت وعمرت به مشاهد آثارهم التي هي في الحقيقة لهم غرف ونالت الدولة من تدبيره الجميل بعض حظها وخصت بقعته المباركة من نظره بما ينوب في خدمة محله الشريف عن مواقع لحظها وجعلت به لابن رسول الله من خدمة أبيه معها نصيباً وفعلت ذلك إذ خبرت خدمته أجنبياً علماً أنها تتضاعف له إذا كان نسبياً وحكمت بماقام عندها مقام الثبوت وأمرته أن يبدأ بخدمة أهل البيت فإن لازمها لديها مقدم على البيوت - من طلع شهاب فضله من الشرف السني في أكرم أفق وأحاطت به أسباب السؤدد من سائر الوجوه إحاطة الطوق بالعنق وزان الشرف بالسؤدد والعلم بالعمل والرياسة باللطف فاختارته المناصب واختالت به الدول وتقدم بنفسه ونفاسة أصله فكان شوط من تقدمه وراء خطوه وهو يمشي على مهل واصطفته الدولة القاهرة لنفسها فتمسك من الموالاة بأوثق أسبابها واعتمدت عليه في بث نعمها وبعث كرمها فعرف في ذلك الأمور من وجهها وأتى البيوت من أبوابنا العالية لحسن سيرته في إكرامهم السرى واكتفت حتى مع ترك الكرامة إليهم ببشاشة وجهه التي هي خير من القرى وصان البيوت عن الإقواء بتدبيره الذي هو من مواد الأرزاق وزاد الحواصل بتثميره مع كثرة الكلف التي لو حاكتها الغمائم لأمسكت خشية الإنفاق.

ولما كان فلان هو الذي تليت مناقب بيته الطاهر وجليت مفاخر أصله الزاهر وتجملت بشرف خلاله خلال الشرف التي تركها الأول للآخر وكان مشهد الإمام السيج الحسين ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة بقعةً هي منتجع الرحمة ومظنه إجابة الأمة وروضة من شرفت بانتقاله إليها وتربة شهيد الزهراء صلوات الله على أبيها وعليها وبه الآنمن رواتب القربات ووظائف العلوم وجهات الخير مايحتاج إلى اختيار من يجمل النظر فيه ويسلك نهج سلفه في الإعراض عن عرض الدنيا ويقتفيه - رأينا أن نختار لذلك لأنفسنا فكان الكفء الكريم واختبرناه لمصالحنا فخبرنا منه الحفيظ العليم وأن نقدم مهم ذلك البيت على مهم بيوتنا فإن حقوق آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق بالتعظيم.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالت مكارمه ذوي القربى جديرة ومراسيمه على إقدار ذوي الرتب على مايجب قديرة - أن يفوض إليه النظر على مشهد الإمام الحسين انب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة على قاعدة من تقدمه في ذلك بالمعلوم الشاهد به ديوان الوقف: لما قدمناه من أسباب رجحته لذلك وبيناه من أمور أوضحت في اختيارنا له المسالك ومن أولى منه بهذه الرتبة التي شهدت له باستحقاقها مناصبه ومناسبه أو أقدر منه على أمثال هذه الوظيفة وقد أقرت بكماله وكرم خلاله مراتب الباب الشريف فليمعن النظر في مباشرة أوقاف هذه البقعة المباركة مظهراً ثمرة تفويضها إليه مبيناً نتيجة تعرضها له وعرضها عليه منبهاً على سر التوفيق فيما وضع أمرنا من مقاليد أمرها في يديه مجتهداً في تمييز أموال الوقف من كل كاتب حديث موضحاً من شفقة الولدعلى مانسب إلى الوالد ماشهدت به في حقها الأحاديث سالكاً من خدمة ذلك المشهد مايشهد له به غداً عند جده ناشراً من عنايته به لواء فضل رفعه في الحقيقة رفع لمجده وليلحظ تلك المصالح بنظره الذي يزيد أموالها تثميراً ورباعها تعميراً وحواصلها تمييزاً وتوفيراً وارج أيها السيد الشريف عند الله تعالى بذلك عن كل حسنة عشراً إن ذلك كان على الله يسيراً وصن ما بيدك عن شوائب الأدناس: " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ".

وقد خبرنا من سيرتك وسريرتك مالانحتاج أن نزداد به خبرا ولأن نبلوه بعدما سلف مرةً أخرى ولكن نذكرك بتقوى الله التي أنت بهامتصف وبوجودها فيك معروف وبوجوبها عليك تعترف فقدمها بين يديك واجعلها العمدة فيما اعتمدنا فيه عليك إن شاء الله تعالى.

المرتبة الثالثة ما يكتب في قطع العادة الصغير من الوظائف الدينية ما يكتب في قطع العادة الصغير مفتتحاً برسم بالأمر الشريف وهو لمن كانت رتبته مجلس القاضي وربما كتب فيه بالسامي بغير ياء لمن قصد تعظيمه وهو قليل وبه يكتب لأرباب الوظائف الصغار من الخطباء والمدرسين ونظار الأوقاف وغيرهم ممن لاينحصر كثرةً.

وهذه نسخة توقيع بنظر البيمارستان العتيق الذي رتبه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في بعض قاعات قصر الفاطميين وهي: رسم بالأمر الشريف - لازالت أيامه تفيد علاء وتستخدم أكفاء وتضفي ملابس النعماء على كل علي فتكسوه بهجة وبهاء - أن يستقر فلان في نظر البيمارستان الصلاحي بالقاهرة المحروسة بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت لكفاءته التي اشتهر ذكرها وأمانته التي صدق خبرها خبرها ونزاهته التي أضحى بها علي النفس فغدا بكل ثناء ملياً ورياسته التي أحلت قدرة أسمى رتبةٍ فلا غرو أن يكون علياً.

فليباشر نظر البيمارستان المذكور مباشرةً يظهر بها انتفاعه وتتميز بها أوضاعه ويضحى عامر الأرجاء والنواحي ويقول لسان حاله عند حسن نظره وجميل تصرفه: الآن كما بدا صلاحي وليجعل همته مصروفةً إلى ضبط مقبوضة ومصروفة ويظهر نهضته المعروفة بتثمير ريعه حتى تتضاعف مواد معروفه ويلاحظ أحوال من فيه ملاحظةً تذهب عنهم الباس ويراع مصالح حاله في تنميته وتزكيته حتى لايزال منه شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس وليتناول واعلم أن من تواقيع أرباب الوظائف الدينية مايكتب في هيئة أوراق الطريق أو على ظهر القصص وقد تقدم: وهذه نسخة توقيع بالتحدث في وقف: رسم أن يستقر القاضي فلان - بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني - أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه الدين فلان في التحدث في الوقف الفلاني بما لذلك من المعلوم الشاهد به كتاب الوقف.

فليعتمد هذا المرسوم الشريف كل واقف عليه ويعمل بحسبه وبمقتضاه بعد الخط الشريف إن شاء الله تعالى.

الضرب الثالث من الولايات بالحضرة السلطانية

بالديار المصرية الوظائف الديوانية وهي على طبقتين: الطبقة الأولى أرباب التقاليد في قطع الثلثين ممن يكتب له الجناب العالي وفيها وظيفتان الوظيفة الأولى الوزارة إذا كان متوليها من أرباب الأقلام كما هو الغالب وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية نقلاً عن مسالك الأبصار أن ربها ثاني السلطان لو أنصف وعرف حقه إلاأنها لما حدثت عليها النيابة تأخرت وقعد بها مكانها حتى صار المتحدث فيها كناظر المال لايتعدى الحديث فيه ولايتسع له في التصرف بجريان الأحوال في الولاية والعزل.

وقد تقدم ذكر ألقابه مستوفاةً في الكلام على مقدمة الولايات في الطرف الأول من هذا الفصل والكلام على طرة تقليده في الكلام على التقاليد.

وهذه نسخة تقليد بالوزارة كتب لها للصاحب بهاء الدين بن حنا من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر وهي: الحمد لله الذي وهب لهذه الدولة القاهرة من لدنه ولياً وجعل مكان سرها وشد أزرها عليا ورضي لها من لم يزل عند ربه مرضيا.

نحمده على لطفه الذي أمسى بنا حفيا ونشكره على أن جعل دولتنا جنةً أورث تدبيرها من عباده من كان تقياً ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نسبح بها بكرة وعشيا ونصلي على سيدنا محمد الذي آتاه الله الكتاب وجعله نبيا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً نتبع بها صراطاً سويا.

وبعد فإن أولى ماتنغمت ألسنة الأقلام بتلاوة سوره وتنعمت أفواه المحابر بالاستداد لتسطير سيره وتناجت الكرام الكاتبون بشكر مجمله ومفصله وتناشدت الرواة بحسن لسنه وترنمت الحداة بطيب غزله وتهادت الأقاليم تحف معجله ومؤجله وعنت وجوه المهارق لصعود كلمه الطيب ورفع صالح عمله - ماكان فيه شكر لنعمةٍ تمنها على الدولة سعادة جدودها وحظوظها وإفادة مصونها ومحفوظها وإرادة مرموقها بحسن الاستيداع وملحوظها وحمد لمنحةٍ أفاءتها بركات أحسنت للمملكة الشريفة مآلاً وقربت لها منالاً وأصلحت لها أحوالاً وكاثرت مدد البحر فكلما أجرى ذاك ماءً أجرت هي مالاً وإن ضنت السحب أنشأت هي سحبا وإن قيل - بشح سيحنا -: رونق الأرض ذهب عوضت عنه ذهبا كم لها في الوجود من كرم وكرامة وفي الوجوه من وسوم ووسامة كم أحيت مهجاً وكم جعلت للدولة من أمرها مخرجاً وكم وسعت أملاً وكم تركت صدر الحزن سهلاً وكم تركت صدر الخزائن ضيقاً حرجاً كم استخدمت جيش تهجد في بطن الليل وجيش جهادٍ على ظهور الخيل وكم أنفقت في واقفٍ في

قلب بين صفوف الحروب وفي واقفٍ في صفوف المساجد من أصحاب القلوب كم سبيل يسرت وسعود كثرت وكم مخاوف أدبرت حين درت وكم آثارٍ في البلاد والعباد آثرت وأثرت وكم وافت ووفت وكم كفت وكفت وكم أعفت وعفت وعفت وكم بها موازين للأولياء ثقلت وموازين للأعداء خفت كم أجرت من وقوف وكم عرفت بمعروف كم بيوت عبادةٍ صاحب هذه البركات هو محرابها وسماء جودٍ هو سحابها ومدينة علم هو بابها تثني الليالي على تغليسه إلى المساجد في الحنادس والأيام على تهجيره لعيادة الفقراء وحضور الجنائز وزيادة القبور الدوارس يكتن تحت جناح عدله الظاعن والمقيم وتشكر مباره يثرب وزمزم مكة والحطيم كم عمت سنن تفقداته ونوافله وكم مرت صدقاته بالوادي - فسح الله في مدته - فأثنت عليه رماله وبالنادي فأثنت عليه أراملة مازار الشام إلا أغناه ومن منة المطر ولاصحب سلطانه في سفر إلا قال: نعم الصاحب في السفر والحضر.

ولما كان المنفرد بهذه البركات هو واحد الوجود ومن لايشاركه في الزوايا شريك وإن الليالي بإيجاد مثله غير ولود وهو الذي لو لم نسمه قال سامع هذه المناقب: هذا الموصوف عند اله وعند خلقه معروف وهذا الممدوح بأكثر من هذه الممادح والمحامد من ربه ممدوح وممنوح وهذا المنعوت بذلك قد نعتته بأكثر من هذه النعوت الملائكة وإنما نذكر نعوته التذاذا فلا يعتقد خاطب ولاكاتب أنه وفى جلالته بعض حقها فإنه أشرف من هذا وإذا كان لابد للممادح أن تجول وللقلم أن يقول فتلك بركات المجلس العالي الصاحبي السيدي الورعي الزاهدي العابدي الوليد الذخري الكفيلي الممهدي المشيدي العوني القوامي النظامي الأفضلي الأشرفي العالمي العادلي البهائي سيد الوزراء في العالمين كهف العابدين ملجأ الصالحين شرف الأولياء المتقين مدبر الدول سداد الثغور صلاح الممالك قدوة الملوك والسلاطين يمين أمير المؤمنين علي محمد: أدام الله جلاله.

من تشرف الأقاليم بحياطة قلمه المبارك والتقاليد بتجديد تنفيذه الذي لايساهم فيه ولايشارك فما جدد منها إنما هو بمثابة آيات فتردد أو بمنزلة سجلات في كل حين بها يحكم وفيها يشهد حتى تتناقل ثبوته الأيام والليالي ولايخلو جيد دولة من أنه يكون الحالي بما له من فاخر اللآلي.

فلذلك خرج الأمر العالي - لابرح يكسب بهاء الدين المحمدي أتم الأنوار ولابرحت مراسمه تزهو من قلم منفذه بذي الفقر وذي الفقار - أن يضمن هذا التقليد الشريف بالوزارة التامة العامة الشاملة الكاملة: من المآثر الشريفة الصاحبية البهائية أحسن التضمين وأن ينشر منها مايتلقى رايته كل رب سيف وقلم باليمين وأن يعلم كافة الناس ومن تضمه طاعة هذه الدولة وملكها وسلكها من ملك وأمير وكل مدينةٍ ذات منبر وسرير وكل واحد جمعته الأقاليم من نواب سلطنة وذي طاعةٍ مذعنة وأصحاب عقد وحل وظعنٍ وحل وذي جنود وحشود ورافعي أعلامٍ وبنود وكل راعٍ ورعية وكل من ينظر في الأمور الشرعية وكل صاحب علم وتدريس وتهليل وتقديس وكل من يدخل في حكم هذه الدولة الغلبة في شموسها المضيئة وبدورها المنيرة وشهبها الثاقبة في الممالك المصرية والنوبية والساحيلة والكركية والشوبكية والشامية والحلبية ومايتداخل بين ذلك من ثغور وحصون وممالك - أن القلم المبارك الصاحبي البهائي في جميع هذه الممالك مبسوط وأمر تدبيرها به منوط ورعاية شفقته لها تحوط وله النظر في أحوالها وأموالها وإليه أمر قوانينها ودواوينها وكتابها وحسابها ومراتبها ورواتبها وتصريفها ومصروفها وإليه التولية والصرف وإلى تقدمه البدل والنعت والتوكيد والعطف فهو صاحب الرتبة التي لايحلها سواه وسوى من هو مرتضيه من السادة الوزراء بنيه وماسمينا غيره وغيرهم بالصحوبية فليحذر من يخاطب غيره وغيرهم بها أو يسميه فكما كان والدنا الشهيد رحمه الله يخاطبه بالوالد قد خاطبناه بذلك وخطبناه وماعدلنا عن ذلك بل عدلنا لأنه ما ظلم من أشبه أباه فمنزلته لاتسامى ولاتسام ومكانته لاترامى ولاترام فمن قدح في سيادته من حساده زناد قدحٍ أحرق بشرر شره ومن ركب إلى جلالته ثبج سوء أغرق في بحره ومن فتل لسعادته حبل كيدٍ فإنما فتله مبرمه لنحره فلتلزم الألسنة والأقلام والأقدام في خدمته أحسن الآداب وليقل المترددون: حطة إذا دخلوا الباب ولايغرنهم فرط تواضعه لدينه وتقواه فمن تأدب معه تأدب معنا ومن تأدب معنا تأدب مع الله.

وليتل هذا التقليد على رؤوس الأشهاد وتنسخ نسخته حتى ننماقلها الأمصار والبلاد فهو حجتنا على من سمناه خصوصاً ومن يدخل في ذلك بطريق العموم فليعلموا فيه بالنص والقياس والاستنباط والمفهوم والله يزيد المجلس الصاحبي الزيري البهائي سيد الوزراء من فضله ويبقيه لغاب هذه الدولة يصونه لشبله كما صانه لأسده من قبله ويمتع بنيته الصالحة التي يحسن بها - إن شاء الله - نماء الفرع كما حسن نماء أصله بمنه وكرمه وهذه نسخة تقليد بالوزراة كتب به للصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين ابن الصاحب بهاء الدين علي بن حنا في ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وستمائة من إنشاء المولى شهاب الدين محمودٍ الحلبي تغمده الله برحمته وهي: الحمد لله مكمل الوزارة بطلعة تاجها ومشرف قدرها بمن تشرق عليها أشعة سعده إشراق الكواكب على أبراجها ورافع لواء مجدها بمن تلقته بعد الجفاء في حلل سرورها وحلي ابتهاجها وتحلت بعد العطل من جواهر مفاخره بما تتزين عقود السعود بازدواجها وترفل من انتسابها إلى أبهة بهائه بما يود ذهب الأصيل لو امتزج بسلوك

انتساجها لذي شيد قواعد هذه المرتبة السنية في أيامنا وجددها وبعث لها على فترة من الأكفاء من حسم الأدواء فكان مسيحها وشرع المعدلة فكان محمدها وردها بحكم الاستحقاق إلى من لايختلف في أنه صاحبها ورجعها إلى من خطبته لنفسها بعد أن أحجم لشرف قدرها خاطبها.

نحمده على أن شد أزر ملكنا بأكرم وزير وأيمن مشير وأجل من ينتهي إلى بيت كريم وحسبٍ صمصم ومن إذا قال لسان قالت كفايته: " ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة نقر بها سراً وعلنا ونقر ملكنا: " ائتوني به استخلصه لنفسي " بها هذه العقيلة الجليلة عند من يكسوها مجده رفعةً وسنا ويلبس جفن الدهر عنها وسنا ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المخصوص بكل صاحب شهد الكتاب والسنة بفضله وقام بعضهم بحسن مؤازرته مقام من شد الله به عضد من سأله وزيراً من أهله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً لاتغرب شمسها ولايعزب أنسها ولايتفاوت في المحافظة عليها غدها وأمسها وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن أولى من خطبت بحمده الأقلام وافتتحت به الدولة التي ابتسمت بنسيمها ثغور الأيام وودت مسكة الليل لو مازجت أنفاسه وأمل بياض النهار لو أخذ من غير سمة عوض الورق قرطاسه وتحاشدت النجوم لتنتسق في سلك معانيه وطارت بذكره في الآفاق أنباء السعود وحكمت الجدود بأنه في اقتبال إقباله نهاية الآباء وغاية الجدود وافترت به ثغور الممالك عن أحسن الدر النضيد وسرت بذكره رفاق الآفاق ففي كل مادٍ منادٍ وفي كل بر بريد واختالت به أعطاف الدولة القاهرة فأوت من الرأي السديد إلى كل ركنٍ شديد ونطق به العدل والحق فخرس الظلم ومايبديء الباطل ومايعيد وجرت به أقدار ذوي الرتب على أجما مناهجها فأما العدل فيقربون نجياً وأما أهل الظلم فأولئك ينادون من مكانٍ بعيد وبدت به وجوه المصالح سافرةً بعد الحجاب بارزةً بعد طول الانتقال إلى الانتقاب داخلةً بوفود المحامد من كل باب إلا الظلم فإنه بحمد الله قد سد ذلك الباب.

وأقر منصب الوزارة الشريفة أنا أعدنا به الحق إلى نصابه ورددناه إلى من هو أولى به بعد اغتصابه وألبسناه من بهجة أيامنا تاجاً رد عليه عزاً لاتطمع يد الذهب في انتزاعه عنه ولااستلابه وتقليده لمن يود الفرقد لو عقد به إكليله ويتمنى الطرف لو أدرك غاية مجده وإن رجع وهو حسير البصر كليله وتفويض ذلك إلى من كان له وهو في يد غيره ومن به وببيته تمهدت قواعده فما كان فيه من خير فهو من سيرتهم وماكان من شر فمن قبل المقصر من عثارهم في سيره ومأأحدث فيه من ظلم فهو منه براء إذ إثم ذلك على من اجترأ عليه ومأأجري به من معروف فإلى طريقهم منسوب وإن تلبس منه بما لم يعط من نسب إليه وماخلا منهم هذا الدست الكريم إلا وهم بالأولوية في صدره الجلوس ولاتصدى غيرهم لتعاطيه إلا وأقبلت عليه في أيامه الجسوم وعلية النفوس.

ولذلك لما كانت هذه الدولة القاهرة مفتتحةً بالبركات أيامها ماضية بكف الظلم ونشر العدل سيوفها وأقلامها مستهلةً بالأرزاق سحب فضلها التي لايقلع غمامها - اقتضت الآراء الشريفة اختيار خير صاحبٍ يعين على الحق بآرائه ويجمل الدست ببهجته وروائه ويجري الأرزاق بوجهٍ لو تأمله امرؤ ظامىء الجوانح لارتوى من مائه وكان المجلس العالي الصاحبي الوزيري الجوانح لارتوى من مائه وكان المجلس العالي الصاحبي الوزيري التاجي: أدام الله تعالى نعمته ورحم سلفه هو المخطوب لفضله والمطلوب لهذا الدست الذي تعين له دون الأكفاء وإن لم يكن غير أهله من أهله ومازال يتشوف إليه تشوف البروج إلى نجوم السعود ويتطلع إلى محياه الذي هو كنور الشمس في الدنو وكمحلها في الصعود ومازالت الأدعية الصالحة ترتفع في أيامه لمالك عصره والآراء تقام منها جنود لتأييده وحشود لنصره والأموال تحمل منها إلى خزانته بأشبه بموج البحر في الحضر دون حصره.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - ضاعف الله مواهبه العميمة وكمل جلال دولته بتفويض أمورها إلى ذوي الأصول العريقة والبيوت القديمة - أن تحلى منه هذه الرتبة العليه بما حلى به الدين وتعقد له راية فضلها المتين ليتلقاها شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً وبراً وبحراً وشاماً ومصراً ويحلى حلاه علم وعلو وسيف وقلم ومنبر وسرير ومأمور وأمير.

فليتلق أمره بالطاعة كل مؤتمر بأمرنا الشريف جارٍ في طاعتنا المفروضة بين بيان التقليد وعنان التصريف وليبادر إلى تدبير أمور الأقاليم بأقلامه المباركة ويمض القواعد على ماتراه آراؤه المنزهة عن المنازعة في الأمر والمشاركة ولينشر كلمة العدل التي أمر الله بإضافة الإحسان إليها ويمت بدع الظلم فإن الله يشكره على تلك الأمانة ويحمده عليها ويسهل رزق الصدقات ووظائف القربات فإن ذلك من أجل ماقدمته الطائفة الصالحة بين يديها وليكثر بذلك جنود الليل فإنها لاتطيش سهامها ويتوق من محارتها بظلم فإنه لايداوى بالرقى سمامها وليعوذ بتمائم التيسير مواهبنا فإن تمام النعمة تمائمها وليطلق قلمه في البسط والقبض وليعد بتدبيره على هذا المنصب الشريف بهجته ويتدارك بآرائه ذماءه وبدوائه مهجته ويصن عن شوائب الظلم

حرمته ويخلص ذمتنا من المآثم وذمته وليعلم أن أمور المملكة الشريفة منوطة بآرائه وأحكامه مضبوطة بأقواله وأقلامه فليجعل فكره مرآة تجلو عليه صورها ويقم آراءه صحفاً تتلو لديه سورها ويأمر النواب بما يراه من مصالحنا ليلبوه ساميعن ويسهر جفنه في مصالح البلاد والعباد لترقد الرعايا في مهاد الأمن وادعين ويعضد الشريعة المطهرة بتنفيذ أحكامها وإعلاء أعلامها وإظهار أنوارها وإقامة مارفعه الله من منارها ولايعدل في أمور مباشرتها بالممالك الشريفة عن آرائه ولايمضي فيها عزلاً ولاولايةً إلا بعد تتبعه الواجب في ذلك واستقرائه وهو أعلم بما يجب لهذه الرتبة من قواعد إليه يرجع في أوضاعها وعليه يعول في اصطلاحها لانفرادها فيه واجتماعها فليفعل في ذلك ماهو عليه بحسن الثناء جدير وليعتصم بالله في أموره فإنه نعم المولى ونعم النصير إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليد بالوزراة كتب به للصاحب ضياء الدين بالاستمرار على الوزارة من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي: الحمد لله الذي شد أزر ملكنا الشريف بمن أضاء في أفق الدين علمه وشيد قواعد عدلنا المنيف بمن أعلت منار الحق آياته في أحكام الممالك وحلمه ووطد أركان دولتنا القاهرة بمن يفعل في نكاية أعداء الله فعل الحرب العوان سلمه وأجرى الأرزاق في أيامنا الزاهرة على يد من كفت أقلامه كف الحوادث فلا عدوان تغشى ظلمه ولاعادٍ يخشى ظلمه وصان ممالكنا المحروسة بآراء من إن صرف إلى نكاية أعداء الله حد يراعه لم ينب موقعه ولم يعف كلمه وإن صرفه في حماية ثغر لم يشم برقه ولم يدق بالوهم ظلمه وإن حمى جانب إقليم عز على الأيام ثل عروش ماحماه وشمه وإن أرهفه لذب عن دين الله راعت عدو الدين منه يقظته وسله عليه حلمه.

نحمده على نعمه التي زانت أسنى مناصب الدنيا في أيامنا الزاهرة بضياء الدين وأعلت أقدار الرتب العليا بتصرفها بآراء من أصبح علمه علماً للمتقين وعمله سنناً للمقتدين وفجرت ينابيع الأرزاق في دولتنا القاهرة بيد من أغنى بيدنا المعتفين وقمع بمهابتنا المعتدين.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً أعاد يمنها على سمع المنابر من نعوتنا مافقد وأطفأ إعلانها عن حملتها لهب العناد وقد وقد وفوض اعتناؤنا بمصالح أهلها أمورهم إللى أكمل من انتقى لنا التأييد من ذخائر العلماء وأفضل من انتقد ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أقامنا الله للذب عن أمته وجلا بنور جهادنا لأعدائه عن قلب كل مؤمن ماأظله من غمه وران عليه من غمته وعضدنا من أئمة ملته بمن أردنا مصالح العباد والبلاد في إلقاء كل أمر إليه بأزمته صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من فاز بسبقه وحاز بتصديقه قدم صدقه واختصه الله بمؤازرة نبيه دون من اجتباه من خلقه ومنهم من كان الشيطان ينكب عن طرقه ونطق من الصواب بما نزل الذكر الحكيم على وفقه وسمي الفاروق لتمييزه بين الحق والباطل وفرقه ومنهم من قابل المعتدين برفقة وقتل شهيداً على حقه وكانت ملائكة الرحمن تستحيي من خلقه الكريم وكرم خلقه ومنهم من طلع لامع نور الإيمان من أفقه وكان سيفه من كل ملحد في دين الله بمثابة قلادة عنقه وطلق الدنيا تورعاً عنها وبيده مفاتيح مابسط الله للأمة من رزقه صلاةً يقيم الإيمان فرضها ويملآ بها الإيقان طول البسيطة وعرضها وتزين كواكب ومواكب نصرها سماء الدنيا وأرضها وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن أولى من رقمت لأعطاف فضله حلل الكلام ونظمت لأجياد ذكره فوائد المعاني المستخرجة من بحار الفكر على ألسنة الأقلام ووشحت التقاليد من مناقبه بما هو أحسن من اتساق الدراري على هالات البدور وجلي على المسامع مفاخره بما هو أبهى من النور في العيون وأحلى من الأمن في القلوب وأوقع من الشفاء في الصدور وأطلع في أفق الطروس من أوصافه شمس أسفر بانواع العلوم ضياؤها وأنشئت في أثناء السطور من نعت مآثره سحب إذا أسفر بأنواع العلوم ضياؤها وأنشئت في أثناء السطور من نعت مآثره سحب إذا قابلتها وجوه الحيا سترها بحمرة البرق حياؤها وأودعت المهارق من ذكر خلاله لطفاً يود ذهب الأصيل لو ناب عن أنفاسها ومنحت صدور المعاني من معاليه طرفاً تتمنى الرياض العواطر لو تلقت عن أنفاسها - من سمت الوزارة باستقرارها منه في معدن الفضائل واتسمت منه بالصاحب الذي أعادت أيامه مافقد من محاسن الأوائل وابتسمت من علومه بالعلامة الذي تتفرع من أحكامه أحكام الفروع وتتفجر من تواقيعه عيون المسائل واتصفت من معدلته بالمنصف الذي هجر في أيامه هجير الحيف والظلم فالأوقات في أيامه المباركة كلها أسحار وأصائل وابتهجت من إنصافه بالعادل الذل سهل على ذوي المطالب حجاب بابه فلا يحتاج أن يطرق بالشفاعات ولا أن يستفتح بالوسائل وأشرقت من مفاخره بالكامل الذي حسنت به حلل الثناء فكأنها ابتسام ثغور النور في أثناء الخمائل فالعدل في أيامه كالإحسان شامل والمعروف بأقلامه كالسحب المتكفلة بري الأرض الهامل والظلم والإنصاف مفترقان منه بين العدم والوجود فلا يرى بهذا آمراً ولايرد عن هذا آمل قد أعطى دست الوزراة الشريفة حقه: فالأقدار بآياته مرفوعة والمضار بمعدلته مدفوعة وكلمة المظلوم بإنصاف إنصاته مسموعة وأسباب الخيرات بحسن نيته لنيته الحسنة مجموعة والأقاليم بكلاءة أقلامه محوطة وأحوال المملكة بآرائه المشتملة على مصالحها منوطة والثغور بحسن تفقده مفترة المباسم مصونة بإزاحة الأعذار عن مر الرياح

النواسم آهلة النواحي بموالاة الحمول التي لاتزال عيسها بإدامة السرى دامية المناسم والبلاد بما نشرت أقلامه من العدل معمورة والرعايا بما بسطت يد إحسانه من الإحسان مغمورة وأرباب التصرف بما تقتضيه أقلامه عن الحيف منهية وبالرفق مأمورة والأيدي بالأدعية الصالحة لأيامنا الزاهرة مرتفعة والرعية لتقلبها في مهاد الأمن والدعة بالعيش منتفعة وبيوت الأموال آهلة على كثرة الإنفاق والغلال متواصلة مع التوفر على عمارة البلاد والحمول متوالية مع أمن من صدرت عنهم على مافي أيديهم من الطوارف والتلاد والأمور بالتيقظ لها على سعة الممالك مضبوطة والنفوس بالأمن على ماهي عليه من التملي بالنعم مغبوطة والمناصب مصونة بأكفائها والمراتب آهلة بالأعيان الذين تنبهت لهم في أيامه عيون الحظ بعد إغفائها ومجالس آهلة بالأعيان الذين تنبهت لهم في أيامه عيون الحظ بعد إغفائها ومجالس المعدلة حالية بأحكام سيرته المنصفة ومواطن العلم عالية بما يملي فيها من فوائده التي أتعب ألسنة الأقلام مافيها من صفة.

ولما كان الجناب العالي الصاحبي الوزيري الضيائي وزير الممالك الشريفة هو الذي كرمت به مناسبها وعظمت بالانتماء إليه مناصبها وتحلت بعلمه معاطفها ونزلت على حكم حلمه عوارف برها العميمة وعواطفها وزهت بجواهر فضائله أجيادها واستوت في ملابس حلل المسرة أيامها الزاهية وأعيادها وأنارت بمعدلته ليليها وأشرقت بالانتظام في سخاب إيالته للآليها فكم من أقاليم صان قلمه أموالها وممالك حلى عدله أحوالها وبلاد أعان تدبيره السحب على ريها وأعمال أبان عن استغنائها بتأثيره عن منة الحيا حسن مسموعها ومرئيها وأرزاقٍ أدرها ورزق أجراها على قواعد الإحسان وأقرها وجهات بر أعان واقفيها عليها وأسباب خيرٍ جعل أيامنا بإدامة فتحها السابقة إليها وقدم سعاية أزالها وأزلها وكلمة حادثةٍ أذالها وأذلها ووجوه مضرة ردها بيد المعدلة وصدها وأبواب ظلم لاطاقة للرعية بسلوكها أغلقها بيمنى يمنه وسدها فدأبه أن يسدد إلى مقاتل العدا باتخاذ اليد عند الفقراء سهام الليل التي لاتصدها الدروع وأن يجدد لأوليائنا من عوارف آلائنا أخلاف بر تروي الآمال وهي حافلة الضروع - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نزين بمجده غرر التقاليد ونجدد إليه في أمور وزارتنا الشريفة إلقاء المقاليد وأن نوشي الطروس من أوصافه بما يجدد على أعطافها الحبر ونردد على ألسنة الأقاليم من نعوته لاتمل المسامع إيارد الخبر منه بعد الخبر.

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني - لازال الدين في أيامه الشريفة مشرقاً ضياؤه آهلةً باعتلائه مرابع الوجود وأحياؤه ممدودةً على الأمة ظلاله الوارفة وأفياؤه - أن يجدد هذا التقليد باستقرار تجديداً لايبلي الدهر حلله ولاتقوض الأيام حلله بل يشرق في أفق الممالك إشراق النجوم الثوابت ويتفرع في مصالح الملك تفرع الأفنان الناشئة في الأصول النوابت وتختال به مناصب الدولة القاهرة في أسنى ملابسها وتضيء به مواطن العلوم إضاءة صباحه المصباح في يد قابسها وتسترفع لنا به الأدعية الصالحة من كل لسان وتجتلي به لأيامنا الزاهرة من كل أفق وجوه الشكر الحسان.

فلتجر أقلامه في صالح النوابت وتختال به مناصب الدولة القاهرة في أسنى ملابسها وتضيء به مواطن العلوم إضاءة صباحة المصباح في يد قابسها وتسترفع لنا به الأدعية الصالحة من كل لسان وتجتلى به لأيامنا الزاهرة من كل أفق وجوه الشكر الحسان.

فلتجر أقلامه في مصالح دولتنا على أفضل عادتها ويرسلها في نشر العدل على سجيتها وفي إجراء الجود على جادتها ويكف بها أكف الحوداث فإنما تزال أسباب الظلم بحسم مادتها ولينطقها في مصالح الأموال بما تظل له مسامع الحمول مصغية ويطلقها في عمارة البلاد بما تغدو له ألسنة الخصب حافظةً ولما عداه ملغية وكذلك الخزائن التي هي معاقل الإسلام وحصونه وحماه الذي لايبتذل بغير أمرنا الشريف في مصالح الملك والملة مصونة فليجعلها بتدبيره كالبحار التي لاتنقص بكثرة الوارد جماحها ولا تنزحها السحب لكثرة ماتحمل إلى الآفاق غمامها ولتكن كلمة العدل من أهم ما تفتتح به مجالسه وآكد مايؤمر به محاضرة من الأولياء ومجالسه وأزكى ما يستجيد به لاستثمار الدعاء الصالح مغارسه وأوثق مايحوط به حمى الملك الذي إذا عفا جفن عينه كان حارسه وأول ماينبغي أن ينافس عليه حاضر ديته وغائبه وأولى مايعد على إهماله نكاله ويعد على إقامته رغائبه.

وليلاحظ من مصالح كل إقليم ماكأنه ينظر إليه بعين قلبه ويمثل صورته في مرآة ليه فيقر كل أمر على مايراه من سداده ويقرر حال كمل ثغر على يحصل به المراد في سداده فيغدو لأعذاره بموالاة الحمول إليه مزيجاً ويمسي بسد خلله لخواطر أهل الكفر متعباً ولخواطرنا الشريفة مريحاً وينظر في أحوال من به من الجند والرجال بما يؤكد الطاعة عليهم ويجدد الاستطاعة لديهم ويزيل أعذارهم واعتذارهمبوثوب حقوقهم إليهم ويوفرهم على إعداد الأهبة للأعداء أذا أتوهم من فورهم ويكفهم بإدار الأرزاق عليهم عن اعتدائهم على الرعايا وجورهم ويتفقد من أحوال مباشريها وولاة الحكم والتحكم فيها مايعملون به أن مناقشهم على الأمور اليسيرة ن والهفوات التي يرونها قلقلة وهي بالنسبة إلى كثرة الرعايا كثيرة ويتعاهد

أمور الرتب الدينية فلا تؤخذ مناصبها بالمناسب ولاتغدو أوقافها المعدة لاكتساب العلوم في المكاسب بل يتعين أن يرتاد لها العلماء الأعيان حيث حلوا ويقرر في رتبها الأئمة الأكفاء وإلا اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فضلوا وأضلوا.

ولتكن أقلامه على كل ماجرت به العوائد في ذلك محتوية وأيامه على أكمل القواعد في ذلك وغيره منطوية فما ثم شيء من قواعد الوزارة الشريفة خارج عن حكمه فليكتب يمتثل وليقل في مصالح دولتنا القاهرة يكن قوله أمضى من الظبا وأسرى من الصبا وأسير من المثل فلا تمضى في ذلك ولاية ولاعزل ولا منع ولابذل ولاعقد ولاحل إلا وهو معدوق بآرائه متوقف على تنفيذه وإمضائه متلقى مايقرر فيه من تلقائه وفي الاكتفاء بسيرته مايغني عن إطرائه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليد بالوزارة: الحمد لله الذي شد لدولتنا القاهرة باصطفاء أشرف الوزراء أزراً وخص أيامنا الزاهرة باجتباء من حماها عدله أن تضع أو تحمل وزراً وأفاض إنعامنا على من طلع في أفق خدمتنا هلالاً واستقل بحسن السير والسيرة بدراً وضاعف إحساننا لمن لانرفعه إلى رتبة شرف إلا وكان أجل الأكفاء على ذلك قدرةً وقدراً وجمل ملكنا بمن إذا افتخرت الدول ببعض مناقبه كفاها ذلك جلالاً وفخراً وإذا ادخرت تدبيره وبذلت ماعداه فحسبها مأأبقته وقايةٍ للملك وذخراً وبسط عدلنا في الأقاليم بيد من حين أمرنا القلم بتقليده ذلك سجد في الطرس شكراً وافتتح بحمد الله يذكر النعمة به على آلائه إن في ذلك لذكرى وأخذ في وصف دجرر مفاخره نحمده حمد من والى إلى أوليائه مواد النعم وأضفى على أصفيائه ملابس الكرم وحفظ لمن أخلص في طاعته معارف معروفه التي هي في أهل النهى ذمم ونبه لمصالح رعاياه من عم عدله وإن لم يغف عن ملاحظة أمورهم ولم ينم.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً نعلنها ونعليها ونرخص أرواح جاحديها ونغليها ونوالي النعم على المتمسك بها ونوليها ونقرب بيمنها رتب الأولياء من إحساننا وندنيها ونجدد لهم بتأييدها ملابس المنن نظهر عليهم آثار النعم السنية فيها ونرفعهم بحسن عنايتنا إلى أشرف غايةٍ كانوا يسرون أهليتهم لها والله يبديها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أقامنا لنصر دينه فقمنا به كما أمر وأبقى على أيامنا حكم أيامه فاستمر الحال على ما سبقت به دعوته من تأييد الدين بعمر وخصنا ممن ينتمي إلى أصحابه بأجل صاحبٍ ينوب عن شمس عدلنا في محو ظلمة الظلم مناب القمر صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الزهر الغرر وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من اختيرت جواهر الكلام لرصف مفاخره وانتخبت غرر المعاني لوصف آثاره في مصالح الإسلام ومآثره وقامت خطباء الأقلام على منابر الأنامل بشيرةً بيمن أيامه وتطلعت مقل الكواكب مشيرةً إلى ماأقبل على الأقاليم من إقباله وسحت سحب أقلامه وتبرجت زهر النجوم لينتظم في عقود مناقبه سعودها وتأرجت أرجاء المهارق إذ تبلج من ليلٍ عن فجرٍ عمودها وسارت به أنباء السعود والقلم الناطق بذكره وهو المحلق الميمون طائره والطرس الموشع بشكره وهو المخلق الذي تملأ الدنيا بشائره - من استخلصته الدولة القاهرة لنفسها فتملاها عيناً وسر بها قلباً واختصته بخواصها الشريفة فرحب بها صدراً ولياها لباً وكلف بمؤازرتها بذاتها حتى قيل: " هذه تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً " وأحلته من وزارتها الشريفة بالمكان الأسنى والحرم الحرير وأثنت على فضله الأسمى بلسان والحرم الحرير وأثنت على فضله الأسمى بلسان الكرم البسيط الوجيز واعتمدت في أمور رعاياهاعلى مافيه من عدل وورع لاينكر وجودهما من مثله وهو في الحقيقة عمر بن عبد العزيز وأدنته عنايتنا منا لما فيه من فضل عميم وحسب صميم ونسبٍ حديث مجده قديم وأصالة إذا افتخرت يوماً تميم وحسب صميم ونسب حديث مجده قديم وأصالة إذا افتخرت يوماً تميم بقومها قالت أين تميمك من جده صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغرسته لنفسها وطال ذلك الغرس وطاب الثمر واعتضدت بتدبيره فكان له عند أطراف العوالي في مكانه الأعز أظرف سمر ووثقت بما فيه من عدل ومعرفة لاينكر من نحا الصواب اجتماعهما في عمر واشتقت بمزيد قربنا فأمسى في خدمتنا جليلاً وأصبح خليلاً ورعت له ماقد تم من تدبير أتى عليه بنفسه وسدادٍ ظهرت مزية كل يومٍ منه على أمسى وسعي جميل مابرح في مصالح الإسلام رائحاً وغادياً واجتهادٍ في أمور أهل الجهاد مابرح يدأب فيه علماً بما أعد الله لمن جهز غازياً ودان له من حسن ملاحظته الأمور ماليس للوصف به من قبل وتأملت ما يكشف له على البعد من المصالح التي يأمر بالصواب فيها وكيف لا وعمر الذي شاهد السرية على البعد من سارية الجبل وأيقنت ببسط العدل في الرعايا إذ هو مؤتمر والعادل آمر وتحققت عمارة البلاد على يديه لأن عمر بحكم العدل عند الحقيقة عامر.

ولذلك لما كان المجلس العالي الفخري - ضاعف الله نعمته - هو الذي قربته طاعتنا نجياً ورفعته ولايتنا مكاناً علياً وحقق له اجتهاده في مصالح الإسلام الأمل من رضانا وكان عند ربه مرضياً وأخلص في خدمة دولتنا الشريفة فاتخذته لخاص الأمور وعادتها صفياً وأظهر مابطن من جميل اجتهاده فجعلته لمصالح الملك وزيراً وصاحباً ووالياً وأنجزت منه لتدبير أمور الممالك ماكان الزمن به ماطلاً وأجرت على يده التي هي ملية بتصريف الأرزاق مالا يبرح غمامه هاطلاً وقلدته رعاية الأمور وأمور

الرعايا علماً أنه لايترك لله حقاً ولايأخذ باطلاً وقلدت جيده بأسنى حلى هذه الرتبة الجليلة وإن لم يكن منها بحكم قربه منا عاطلاً ورفعت له لواء عدل مازال له بالمنى في أيمنا الشريفة حاملاً وكملت له ببلوغ الغاية من أفق العلو رفعة قدره ومازال المؤهل للكمال باعتبار مايؤول إليه كاملاً ونوهت بذكره وماكان لظهور مخايل هذا المنصب الجليل عليه في وقتٍ خاملاً ونظرت الرعايا فما عدلت بهم عن بر رفيق وصاحبٍ شفيق ووزير عمري السيرة ماسلك طريقاً إلا وعدل شيطان الظلم عن ذلك الطريق وكان هذا المنصب الجليل غاية مدار الممالك عليها وقبلة توجه وجوه أهل الطاعة فيما يفاض عليهم من نعمنا إليها وهو الذي يتدرع صاحبه من أنواع الطاعات لبوساً ويعالج من أدواء المهام مابغير عزائمه لايوسى ويتردد في المخالصة والمناصحة من مالك أمره بمنزلة هارون من موسى - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نفوض ذلك إلى من نهض في طاعتنا الشريفة بما يجب وعلمنا تحرزه لدينه ولنافيما يأتي ويجتنب ومن تزاد به مع فخره أيامنا الشريفة فخراً ويصبح له مع ماله من الجلالة في نفسه رتب جلالة أخرى.

ولهذا رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني: - لازال يصرف الأقدار بيمين أيامه وبشرف الأقدار ببره وإنعامه ويدر على الأولياء وابل جوده الذي تخجل الديم من دوامه - أن تفوض إليه الوزارة الشريفة الكاملة على جميع الممالك الإسلامية: شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً وبراً وبحراً وشاماً ومصراً على أجمل القواعد في ذلك وأكملها وأسنى الفوائد وأفضلها وأتم الأحوال التي يستغنى بمجملها عن مفصلها.

فليعط هذه الرتبة من جلالته حظاً كانت من إبطائه على وجل ويجار الغمائم بوابل إنعامنا الذي يعلم به أن حمرة البرق في أثنائه خجل ويطلق قلمه في مصالح الدولة القاهرة بسطاً وقبضاً وإبراماً ونقضاً وتدبيراً يعين النيل والغمام على تتبع المحل ماوجد كل منهما أرضاً ويعمل آراءه المباركة تدبيراً للمناجح وتدريباً وتقريراً للقواعد وتقريباً ونظراً يجعل لكل عملٍ من ملاحظته نصيباً وفكراً يحاسب به على حقوق الله وحقوق خلقه فإن الله هو المناقش على ذلك " وكفى بالله حسيباً " .

ويبدأ بالعدل الذي رسم الله به وبالإحسان في ملكنا الشريف ويخفف - مع الجمع بين المثالح - عن خلق الله الوطأة فإن الإنسان ضعيف وينجز لأولياء دولتنا مواد الأرزاق فإن سيف المنع الذي نحاشي أيامنا عن تجريده أقل نكاية من التسويف ويمنع الولاة من ظلم الرعايا باعتبار أحوالهم دون أقوالهم فإن منهم من يدعي العدل ويجور ويظهر الرفق ويحيف وليتتبع أدواء المحل تتبع طبيبٍ خبير ويصرف الأمور بجميل تدبيره فإن البركة معدوقة بحسن التدبير ويستقبل ري البلاد - إن شاء الله تعالى - بسداد حزم يغتفر به هذا القليل لذلك الكثير ويستخلف بالرفق والعدل أضعاف مافات في أمسه فإن ذلك على الله يسير وليهتم ببيوت الأموال فيوالي إتيان الحمول إليها من أبوابها ويضاعف بها الحواصل التي لايطلع بغير حسن التدبير على أسبابها فإنها معادن الذخائر وموارد الرجال وإذا أعد منها جبالاً شوامخ تلا إنفاقنا في سبيل الله: " ويسألونك عن الجبال " .

وكذلك الخزائن التي هي معاقل الإسلام وحصونه وحماه الذي لايبتذل بغير أمرنا الشريف في مصالح الملك والملة مصونة فيجعلها بتدبيره الجميل كالبحار التي لاتنقص بكثرة الوراد جمامها ولاتنزحها السحب على كثرة ما تحمل إلى الآفاق غمامها وليلاحظ من مصالح كل إقليم بما تمثله له على البعد أفكاره ويأمر في أحوال من به من الجند بما يؤكد الطاعة عليهم ويجدد الاستطاعة لديهم ويزيح أعذارهم واعتذارهم بوصول حقوقهم إليهم ويوفرهم على إعداد الأهبة للأعداء إذا أتوهم من فورهم ويكفهم بإدرار الأرزاق عليهم عن اعتدائهم على الرعايا وجورهم ويجعل ثغور كل جانب - بتيسير محصولها وتثمير ذخائرها التي هي من موارد رجالها - مصفحة بالصفاح مشرقةً بأسنى الرماح مسدودةً من جهة العدو عنها مسالك الرياح ويتفقد من أحوال مباشريه وولاة الحكم والتحكم فيه مايعلمون به أنه مناقشهم على الأمور اليسير والهفوات التي يرونها قليلةً وهي بالنسبة إلى كثرة الرعايا كثيرة والأحوال التي إذا عددها الكتاب عليهم قالوا: " ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرةً ولاكبيرةً ويتعاهد أمور الرتب الدينية فلا تؤخذ مناصبها بالمناسب ولاتعد رزقها المعدة لاكتساب العلم في المكاسب بل يتعين أن يرتاد لذلك العلماء الأعلام حيث حلوا ويقرر في مراتبها الأكفاء وإلا اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فضلوا وأضلوا وقد جعلنا أمره في ذلك جميعه من أمرنا فليقل يمتثل وينشر كلمة عدلنا التي يسير بطريقتها المثلى المثل ولاتمضى ولاية ولاعزل ولامنع ولابذل ولاعقد ولاحل إلا وهو معدوق بآرائه متلقى من تلقائه متوقف على تنفيذه وإمضائه وقد اختصرنا الوصايا اكتفاء بما فيه من حسن الشيم واقتصرنا على ذكر بعض المزايا إذ مثله لايدل على صواب ولايزاد مافيه من كرم لكن تقوى الله أولى ماذكر به من لم يزل لربه ذاكراً وأحق ماشكر على التوفيق من لم يبرح له به شاكراً والله يزيد قدره اعتلاء ويضاعف للدولة الشريفة احتفالاً بشكره واعتناءً.

وهذه نسخة تقليد بالوزارة الحمد لله الذي شد أزر الملك من الوزراء بالمكين الأمين وأشرك في أمر ملكه من هو على صلاح الجمهور خير معين وألقى مقاليد حسن تدبيره لمن دلت عليه بركة الاستخارة وصوب أمر دقيقه وجليله لمن هو لجميل الثناء

المعنى وإليه ببنان الاجتباء الإشارة وناول كتابها لمن هو أحق بتحمل أعبائه ورقى منصبها لمن لاشبهة بأنه الحقيق باستعلائه وناول قلم إعطائها ومنعها لواضع الإشارة في محليها وعدق تثمير أموالها بمن لايأخذها بمقتضى يبديه إلا من حلها.

نحمده على حسن إلهامه وشريف إفهامه ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة عبدٍ مخلصٍ في أدائها محق في إعادتها وإبدائها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله خير من هو بالحق مبعوث وبالصدق منعوت صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً لاتزال مستمرةً في كل وقت موقوت وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن يد الوزارة هي اليد الباسطة فيما قل وجل والمتحكمة فيما عدق بالملك من كل عقد وحل والموقوف عند إشارة بنانها وإليها التحكم في كل إعطاء ومنع وتفريقٍ وجمع وعزلٍ وولاية ونهاية كل نهي وأمر ومالها من غاية وربها من الملك كالروح الباصرة من العين واللسان المعبر عن كل زين وشين وحسبه أنه في المحل من ذات اليمين ومن مكانة التمكن في الحرز الحصين ولهذا لايؤهل لها إلا من انعقد على سؤدده الإجماع وانقطعت دون لحاق شرفه الأطماع وتأصل في فخارها وتفرع وقام بفروض كفاية كفالتها وتطوع وسار حديث مناقبه في الآفاق وجاء بالاختبار بالوفاق وحسن صورةً وعنى وتعددت مناقبه فدلت على أه الفرد إذا اتسقت عقوده مثنى مثنى وكان المجلس العالي الفلاني رب حوزتها وسريرها وروح بصر مرتمق هذه المحامد وإليه أمر مصيرها والذي حكمت له السيادة بمنالها وحكمته وأوضحت بأصالتها وجه الصواب في اختياره لها وأحكمته وقد حاز من متفرق لوازمها ماتفرق فيمن سواه وحوى من أدواتها مادل على أن الله خلقه فسواه إن قال فالصواب موكل بمنطقه أو صمت فعظم مهابته قائم مقامه بجميل الخلق لاتخلقه قد جمع إلى التواضع فرط المهابة وإلى الابتداء بالمعروف حسن الإجابة إن ذكرت الصدارة فهو مالك زمامها أو الرياسة فهو غرة لثامها أو الكفالة فهو مصرف عنانها أو الوزارة فهو عين أعيانها لم تزل رتبتها متشوقةً لحلوله ممهدة لشريف تأهيله.

ولما تحلى منها بهذه الحلى وسار حديث ملاءته بتخويلها في الملا وتلا لسان القلم سور هذه المحاسن وتلا الثاني بالأول منها أمتعه الله بما وهبه من حسن مؤازرته وشد عضد مملكته بالإمتاع بربح حسن معاملته لله وله - إذا تلا رسم بالأمر العالي ولمتاجرته - أن تفوض الوزارة المفخمة المكرمة المبجلة المعظمة للمشار إليه: تفويضاً عاماً للقريب من مصالحها والبعيد والطارف والتليد والمقيم والنازح والغادي والرائح والسانح والبارح والباغم والصادح.

فليباشر مافوض إليه منها مباشرة مثله لمثلها وليعطها من نيله مناسب نيلها وليأخذ أمرها بكلتا يديه وليعرها جانباً من احتفاله ليظهر عليها آثار سؤدده كما ظهر شريف تخويلها عليه وليطلق فيها لسان نهيه وأمره وليعمل في مصالحها صالح فكره فقد عدقت به مهامها: جليلها وحقيرها وقليلها وكثيرها وأميرها ومأمورها وخليلها وضريرها وناعقها وناعبها وكاسيها وكاسبها ودانيها وقاصيها وطائعها وعاصيها ومستقبلها وحالها وماضيها ووليها وقاضيها ثقة بتمام تدبيره وحميد تأثيره وأنه إن حكم فصل وإن قطع أو وصل كان الحزم فيما قطع ووصل إذ هو الوزير الذي قد صرف عن عمل الأوزار وسار إلا أنه في كل منهج سار تقطر السيادة من معاطفه وتجني ثمر المنى من أغصان قلمه يد قاطفه لاشيء يخرج عن حكمه ولامصلحة تعزب عن علمه فولاية الحكام معدوقة بإشارته موقوفة على مايثبته ببليغ عبارته.

ومع جلالة قدره لايحتاج إلى التأكيد في الأموال واستدرار أخلافها والرعايا جانبها إذ هي الأم الحنونة بتجنب عقوقها والخزائن فهو أدرى بما يجب من تضييق صدرها بالمناقيص عن الانشراح والاهتمام بحواصل تشريفها المستجلبة إفاضة ملابسها قلب من غدا وراح وثم دقائق هو أدرى بمالها من طرائق وحقائق هو أعرف إذ كان فيها الفاتق الراتق فهو - أجله الله - غني عن تفصيلها وذهنه أشرف عن الوصايا المندوبة لتوصيلها والله تعالى يقدر له وبه الخير ويتمتع بحسن تدبيره المقرون بجميل السريرة والسير والخط الشرف أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

وهذه وصية وزير أوردها في التعريف وهي: يوصى بتقوى الله فإنه عليه رقيب وإليه أقرب من كل قريب فليجعله أمامه وليطلب منه لكل ماشرع فيه تمامه وليجل رأيه في كل ماتشد به الدولة أزرها وتسند إليه ظهرها وليجعل العدل أصلاً يبني على أسه والعمل في أموره كلها لسلطانه لالنفسه وليدع منه الغرض جانباً وحظ النفس الذي لايبدو إلا من العدو ليصدق من دعاه صاحباً وليبصر كيف يثمر الأموال من جهاتها وكيف يخلص بيوت الأموال بالاقتصار على الدراهم الحلال من شبهاتها وليتنزه مطاعم العساكر المنصورة عن أكل الحرام فإنه لايسمن ولايغني من جوع ولايرى به من العين إلا مايحرم الهجوع وليحذر من هذا فإن المفاجيء به كالمخاتل وليتجنب إطعام الجند منه فإن آكل الدراهم الحرام مايقاتل وليحسن كيف يولي ويعزل ويسمن ويهزل وعليه بالكفاة الأمناء تجنب الخونة وإن كانوا ذوي غناء وإياه والعاجز ومن لو رأى المصلحة بين عينيه ألفى بينه وبينها ألف حاجز وليطهر بابه ويسهل حجابه ويفكر فيما بعد أكثر مما قرب: مقدماً للأهم فالأهم من المصالح

وينظر إلى ماغاب عنه وحضر نظر المماسي والمصابح ولايستبدل إلا بمن ظزهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيانته ولايدع من جميل نظره من صحت لديه كفايته أو تحققت عنده أمانته وليسلك أقصد الطرق في أمر الرواتب التي هي من صدقاتنا الشريفة وصدقات من تقدم من الملوك وهي إما لمن وجب له حق وإن كان غنياً أو عرف صلاحه وهو صعلوك وكذلك ماهو لأيتام الجند الذين ماتوا على الطاعة وأمثالهم ممن خدم دولتنا القاهرة بما استطاعه فإن غالب من مات منهم لم يخلف لهم إلا مانسمح لهم له من معروف ونجريه لمه من جارٍ هو أنفع من كثير مما يخلفه الآباء للأبناء من المال المتملك والوقف الموقوف وليصرف اهتمامه إلى استخلاص مال الله الذي نحن أمناؤه وبه يشغل أوقاته وتمتليء كالإناء آناؤه فلا يدع شيئاً يجب لبيت المال المعمور من مستحقه ولايسمح في تخلية شيءٍ منه كما أننا نوصيه أنه لايأخذ شيئاً إلا بحقه وليبق لأيامنا الزاهرة بتواقيعه ذكراً لايفنى وبراً لا يزال ثمره الطيب من قلمه يجنى ليكون من رياح دولتنا التي تغتنم مايثيره من سحابها الممطر وحسنات أيامنا التي ماذكرنا وذكر معنا إلا وقيل: نعم الملك ونعم الوزير.

الوظيفة الثانية كتابة السر

ويقال لصاحبها صاحب دواوين الإنشاء وقد تقدم في الكلام على ترتيب الوظائف أن موضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها وتصريف المراسيم ورود وصدوراً والجلوس لقراءة القصص بدار العدل وأنه صار يوق فيما كان يوقع فيه بقلم الوزراة.

قلت: وقد كان فيما تقدم يكتب له توقيع في قطع النصف بلقب المجلس العالي ثم استقر أن يكتب له تقليد في قطع الثلثين بلقب الجناب العالي.

وقد تقدم الكلام على تقليده في الكلام على وهذه نسخة تقليدٍ بكتابة السر كتب بها للمقرالحيوي محيي الدين بن فضل الله عن عوده إلى كتابة السر بالديار المصرية في جمادى الأولى سنة ثلاث.

من إنشاء الشريف شهاب الدين أحد كتاب الدرج الشريف وهي: الحمد لله المان بفضله المستعان به في الأمر كله الذي رفع أول الأولياء منن العلياء إلى محله ووضع النعم عند من ينص الاستحقاق على تقديمه بمنصبه ويجل مافوض إليه من أجله وأبدع نظام السؤدد بأجمل حالٍ مادام يحيى جامع شمله وأودع سر ملكنا الشريف عند الحفيظين منه ومن نجله وأرجع الرياسة إلى من سما ثباتاً ونما نباتاً وعلا عزماً ووفى حزماً فبيمن آثاره تضرب الأمثال ولاتجد في يمن سجاياه كمثله.

نحمده على أن أعاد بنا الحق إلى أهله ونشكره على أن جاد روض الآمال بواكف سحاب كرمنا ووبله ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة من وفق للصواب في قوله وفعله وتحقق منه جميل الإخلاص في جميع مذاهبه وسبله ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المؤوي يوم الجزاء إلى سابغ ظله والمروي يوم العطش الأكبر بسائغ نهله والنبي الذي بعثه خاتم ارسله وآتاه من الكرامة مالم يؤت أحداً من الأنبياء من قبله والمجتبي من علماء صحابته من أهله لإيداع سره وصونه وإبلاغ أمره وحمله صلى الله عليه وعلى آله الذين سبقوا إلى غايات الفخار وخصوا بخصله ورضي الله عن أصحابه المجاهدين في حبه المعتصمين بحبله خصوصاً الصديق الذي أحسن الخلافة من بعده وقاتل من ارتد بقتله ومن فرق بين الحق والباطل بحسن سيرته ومحض عدله ومن تلقى عنه آيات الكتاب فأحسن في تربيته وجمعه وأدائه ونقله ومن كان فارس حربه وحارس سربه وكاتب وحيه وخاطب كفله وعن بقية المهاجرين والأنصار الذين انفردوا بأكمل الفضل وأجله صلاةً ورضواناً وضح بهاما نور الهدى لمستدله ماشفى كرمنا الصدور بصدور إقباله إلى من قام بفرض ولائه ونفله وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فنعمنا لاتزال للعهود حافظة وبالجود متحفة وبالسعود ملاحظة وعلى المعهود من كرم شيمها محافظة وللخدم مكافية وللقسم موفية وبالنعم موافية وبمألوف الكرم ملافية اتباعاً لسبيل الصواب وإيداعاً للمنحة عند من لحقه في استحقاقها إيجاب فلملحله اقتران بالاقتراب ولفعله إنجاز لوعود الصعود وإنجاب ولفيض الله تعالى عليه من القبول أبهاى جلباب وله سبق ولاء لملكنا بعد جفاء فيه السنين والأحقاب وصدق ود ماضاع لدينا ولاخاب وقدم هجرة كم لها في تأييد الدين انتصار وانتصاب وتعدد مناقب هي في الإشراق والرفعة كالنجوم وفي الكثرة عدد الرمل والحصى والتراب فما دعاه سلطاننا إلا استجاب ولااستوعاه سره إلا غدا به يصان ولايصاب ولا استنطقنا قلمه إلا كفى الخطب بأملح خطاب ولاستثرنا رأيه إلا حضر الرشد وماغاب فكم فرق للأعداء من كتيبة بكتاب وقرب من ظفرٍ واللسيف في القراب فبدعواته يستنزل من النعماء أهمر سحاب وببركاته جاء نصر الله والفتح وكان كيد الكافرين في تباب وبأقلامه إنعامنا يهب وانتقامنا يهاب فهي على الممالك أمنع سياج ولها في مسالك الخير أبدع منهاج وللدولة به وبولده استغناء وإليهما احتياج فكم ضمنا درر كلامهما الأدراج وأطلعا زهر

أقلامهما من المهارق في أبراج وكم واصلت في ليل النقس السرى والإدلاج حتى أبدت صباح النجاح عند باعهما الرحب فسحة وانفراج.

ولما كان المجلس العالي المحيوي هو أسرى من تلقى إليه الأسرار وتبقى منه عند أحرى الأحرار فكم لها صان أين صار وكم لخواطرنا الشريفة من أفعاله سار حيث سار وكم له من كرمنا دار في كل دار فمنا لقربه إيثار ولأثنيتنا عليه إكبار ولنا بفضائله إقرار يوجب للنعم عنده الإقرار - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نعيد إليه منصبه ونزيد لديه الموهبة ونجعل تفضيله لدولتنا أعظم مزيةٍ ومنقبة ونراه أجل كفء لاستجلاء عقائل الأسرار المحجبة وإن كان لنزاهته لايخطبها فهي لوجاهته ترغب أن تخطبه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني - لابرح بفضل الله يحيي الدين وبتأييده يبين أنه الحق المبين وبتسديده يصيب عين الصواب في التعيين - أن نفوض للمشار إليه صحابة ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب الشريفة شرفها الله وعظمها: على أجمل عوائده وأكمل قواعده وأحسن حالاته في حسن مقاصده ونفوذ مايبلغه من رسائل عدلنا في مصادر كل أمر وموارده وليستقر باسمه من المعلوم كذا وكذا.

فليتلق منصبه المبارك بأمل في كرمنا مبسوط ورتبته التي يحمي حماها ويحوط ممضياً للمهمات والمراسم مبقياً من يمن آثاره ماتضحى به ثغور الثغور واسم معيداً لمن عنده من كتابنا أوقات الأنس فأيامهم به كلها مواسم وبها لهم من الخيرات أجزل المقاسم وقد وفروا دواعيهم إلى الخدمة إذ وفر على نفقتهم دواعيه وهو لسان الدولة وهم أذن صونٍ لما يلقيه إليهم واعية فحق فلسرير لهم إلى وداده أن يجنحوا وبإسعاده أن ينجحوا وعن ولائه لن يبرحوا: " قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا " الملك به سرور وللدولة منه أشعة أيامه وطلعة شهابه نور على نور وبهما عماد الشرف الأعلى مرفوع وبيت الفضل الأوفى معمور وهو وبل هذا الغيث الغمر وشبل هذا الليث الهصور طالما هزم الصفوف من كتبنا بالسطور وجهز برداً سرها بالصون مكتوم وعلمها بالنصر منشور وهو كنز الفضائل وكتباه الذهب شذور ومن هذه الأسرة العمرية بأفق العلياء نجوم وأهلة وبدور وللنير الأكبر إشراق وأتلاق وسفور وغيره بالوصايا المأمور وسواه نبين له قصد السبيل حتى لايضل ولايجور ولا نحتاج أن نذكره بما هو من علمه مذكور وفي صحائفه مسطور ولانعلمه سداداً إذ هو عليه مجبول ومفطور بل الهدى منه ملتمس ومقتفى " ومقتبس ومأثور وبحمد الله مافي حزمة قصور ولافي عزمه فتور وهو بحر العلم المحيط وثبير الحلم الموفور وليس التقديم له بمستغرب بل فضله المعروف المشهور والله تعالى يرعة له في خدمتنا عهداً قديماً ويبقيه للدعاء إن شاء الله تعالى. مواصلاً ومديماً ويوزعه شكر فضل الله على ذلك " وكان فضل الله عليك عظيماً "

وهذه نسخة تقليد بكتابة السر كتب بها للقاضي شهاب الدين بن فضل الله وهي: الحمد لله على عناية حفظت ملكنا الشريف بمعقباتها وصانته بصاحب تصريف تقوم كتبه وآراؤه مقام الكتائب ورياتها وسنت لنا الخيرة لمن نجتني بقلمه النصر من ثمراتها وبينت الحسنى في طريقة المثلى حتى انقسم الصبح من قسماتها اقتسم النجح من عاداتها واتسم فكره بالنصح وقد ضلت الأفكار عن إصاباتها فظلت في غفلاتها.

نحمده حمداً يهب مع الأنفاس في هباتها ويهب من اللطائف الحسان أفضل هباتها وينبه القلوب لتقييد شوارد النعم بصدق نياتها وينافس الكرام الكاتبين على نفائس الثناء في تسبيح لغاتها بصفيح سماواتها ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تملأ الصحف بحسناتها وتملي الوجوه بالأنوار في توجهاتها وتلوح من سماتها سيمياء لاتشق على الأبصار في توسماتها وتفخر برقمها الأقلام بأنه لاطعن في اعتدال حركاتها على الرماح في اعتدال قاماتها ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أدى الرسالة بما تحمله من أماناتها ورعى العهود لمن أخلص في مراعاتها ودعا الأمة بإذن الله إلى سبيل نجاتها واستأمن على الوحي كتاباً سبقوا في الساعدة إلى غاياتها وبلغوا عنه السنة بإباناتها والسور وآياتها صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه فرسان البلاغة ورواتها وحفظة الأسرار وثقاتها وصاغة المعاني في الألفاظ الغر بنفثاتها وأولي الأحلام التي لاتطيشها وقائع الدهر بروعاتها ولاتذهلها عن الأوراد في أوقاتها وتليق الوفود بأقواتها والأخلاق التي استع نطاقها في تصرفاتها وامتنع حجابها أن تتخطاه الخدع بهفواتها صلاةً تزيد الأعمار بزكاتها وتزين الأعمال ببركاتها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن الملك عمود بناؤه بسره وارتفاعه بالتأسيس لمستقره وامتناعه بعد العساكر المنصورة بكاتب يخاتل العدو في مكره قبل مكره ويقاتل في الحرب والسلم بنفاذ رأيه ونفاث سحره ويقابل كل حال بما يحسن موقعه من صدمه بصدره أو صده بصبره وينظر في العواقب نظر البصير بأمره الواعي لاحتيال عذره قبل اختيال الباغي في غدره إذا جادل فبالحجة البالغة وإذا جاوب أبطل الأهوال الزائغة وإذا أمرنا بالعدل والإحسان سيرهما عنا كالشمس وانتخبنا منهم كثيراً ارتضيناهم أصحاباً

ومارسنا جماعة ازددنا بهم إعجاباً ورأينا طوائف فيهم من إن أجاد اجتناءً لزهرات القول حاد عن الجادة اجتناباً وإن كلف نفسه مذاهب الكتاب أخل بمقاصد الملوك إن كتب عنهم كتاباً.

ولم نظفر بمن تمت فيه الشروط المشروطة ومت بالدائرة المحيطة إلى الفضائل المبسوطة وامتاز بفهم لايقبل على الفساد ولايقبل الأغلوطة إن أمليناه إملاءً ذكره وإن حمنا حول معنى " لاتؤدي إليه العبارة فسره وإن سردنا عليه فصلاً مطولاً خبره وربما رأى المصلحة في اختصاره فاختصره وإن أودعناه سراً ستره وصانه بمحو غيب أثره وكتمه إما بخطه عن قلبه فلم يدركه أو بقلبه عن لحظة فلم يره وإن خلينا بينه وبين غرض من أغراضنا الشريفة استخرجه كما في خواطرنا وأظهره - كالمجلس العالي القضائي الأجلي الكبيري العالمي العادلي العوني العلامي القوامي النظامي المدبري المشيري الفاضلي الكاملي الأوحدي المفوهي الخاشعي السفيري الشهابي صلاح الإسلام والمسلمين سيد الرؤساء في العالمين قدوة العلماء العاملين إمام الفضلاء والمتكلمين رئيس الأصحاب ملاذ الكتاب سفير الأمة عماد الملة لسان السلطنة مدبر الدول مشيد الممالك مشير الملوك والسلاطين ولي أمير المؤمنين أحمد بن فضل الله ضاعف الله نعمته فإنا خطبناه لهذه الوظيفة واستخلصناه على كثرة المتعينين لأنفسنا الشريفة وامتحناه في الأمور الجليلة واللطيفة وحملناه الأعباء الثقيلة والخفيفة وأوقفناه مرة أخرى أطلقنا تصريفه وأنعمنا النظر في حاله حتى تحققنا تثقيفه وكتب واستكتب عنا سراً وجهراً فملأ قلباً وسمعاً وباشر مراسمنا العالية مصراً وشاماً وصلاً وقطعاً فعز رفعة وعم نفعاً وأنشأ التقاليد قلدها ونفذ المهمات وسددها ووقع التواقيع وأطلق بها وقيد قيدها ومشى المصالح باحتراز مابددها واحترس ماعقدها وجهز البرد بهمة ماقيدها طلب الراحة ولا أقعدها وهو كاتب الملوك وصانع سلوك وشارع سلوك وصائغ ذهب مسبوك وناسج وشي محوك وجامع صفاتٍ ماسواها هو المتروك لايعدو بالكلمة محلها ولايؤاخي بالقرينة إلا شكلها ولايسمح بمخاطبةٍ إلا لمن تعين لها ولايعامل بالغلظة إلا من استوجبها ولايخص بالحسنى إلا أهلها نأمره بالتهويل فيزلزل قواعد العدو ونشير إليه بالتهوين فيفيد مع بقاء المهابة الهدو وقد رضيناه حق الرضا وأضربنا به عمن بقي من أكابر الكتاب ونسينا من مضى وتعين علينا أن نحكم له بهذا الاعتبار ونحمله على هذا المقتضى وأن نطلعه في سماء دستنا الشريف شهاباً أضا وأن نقلده مهما مازال هو القائم بتنفيذ أشغاله والساعي بين أيدينا الشريفة في تدبير مقاصده وجملة أحواله إلى ماله من بيتٍ أثلوا مجده وأثروا سعده وأرثوا عندنا وده وبنى كما بنوا واجتنى من السؤدد ماجتنوا ورمى في خدمة الدول إلى مارموا إلا أن مذهبه في البيان أحلى وأسلوبه بحمد الله قد لحظته سعادة أيامنا الزاهرة فما فيه لو ولا ولولا سوى أنه اتفق معارض اعترض بين السهم والهدف وسفه نفسه فوقف في مواقف التلق ودق عنه شأن كاتب السر فسقط من حيث طمع في السقوط وماعرف ورام الدخول بين الملك وبين يده وبين اللسان ومايحدثه به الضمير من حقيقة معتقده والاطلاع على مالو لم يكن للإنسان لما أداره في خلده والتعدي بما ليس له من لفظه متوقع وسرى في مسرى " لو طمح إليه طرف السها لتقطع وماعلم أن كاتب السر هو مستودع الخبايا ومستطلع الخفايا وقلمه ابن جلا وطلاع الثنايا وفي استداده يعرف بالمنى ويرعف بالمنايا وله الكتابة والتوقيع والتصرف فيما للتنفيذ من التحسين والتنويع وغير ذلك من التفريق والتجميع والتأصيل والتفريع والترغيب والترهيب والتأمين والترويع.

ولما دل ذلك المعترض بإكباره وأطال المطار في غير مطاره وقال الناس إن أبوابنا العالية جنة حفت من سوء أخلاقه بالمكاره رمينا به من شاهق وأبعدناه لآخرته أزهد ماهدر من تلك الشقاشق وتقدمنا بإنشاء هذا التوقيع الشريف تقويةً لكاتب سرنا الشريف في تصريفه وبينا أنه لايقاس به أحد فإنه لسان السلطان ويده وكفى بذلك دلالةً على تشريفه.

فرسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري - لازال إذا عزم صمم وإذا بدأ المعروف تمم وإذا استخار الله في شيء رضي بخيرته وسلم - أن يستقل المجلس العالي القضائي الشهابي احمد بن فضل الله المشار إليه بصحابة دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة: رفيقاً لأبيه المجلس العالي القضائي المحيوي: ضاعف الله تعالى نعمته وبركته في المباشرة وشريكاً بل منفرداً ليقوم معه ودونه بما قام من كتابةٍ باطنةٍ وظاهرةٍ استقل كل منهما بها فيما بعد وقرب مما يضمه نطاق الدولة القاهرة مع ماهو مستقر فيه من كتابة السر الشريف والتصرف في المهمات الشريفة والتصريف وهو المنفرد بتقديم البريد وعرضه ومباشرة ختمه وفضه وقراءته بين أيدينا واستخراج مراسمنا الشريفة في كل مناب ومشافهة وخطاب وابتداء وجواب وملطف ومكبر ومقدم ومؤخر ومكمل ومشطر وإليه أمر البريد والقصاد والنجابة ومن اشتمل من الدجى جلبابه أو ألقته إلى ملاءة الصباح المنشورة يد ليلةٍ منجابة وتعيين من يرى تعيينه منهم في المهمات الشريفة السلطانية والمصالح المقدسة الإسلامية وإليه الحمام الرسائلي وتزجيته وزجالته ومدرجته ومن يصل من رسل الملوك إلى أبوابنا العالية وجميع من يكاتب الدولة الشريفة من كل منتسب وغريب وبعيد وقريب وقراءة القصص لدينا والكتابة على مايسوغ كتابة مثله وأخذ العلامة الشريفة من يده.

وأما من نستكتبهم عنا في ممالكنا الشريفة فهو المقلد لأعبائهم والمخلى بينه وبين مايراه في اجتبائهم يستكتب كل أحد فيما يراه ويرفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ منهم مستيقظ ومنهم نائم في غمرات كراه كل هذ من غير معارضةٍ له فيه ولا اعتراض عليه في شيءٍ منه يبلغنا مهماتنا الشريفة ويتلقى عنا ومنه إلينا وإليه منا.

وأما مايرد عليه من الرسائل عنا بما يكتب به فيمشي مالايمكن وقوفه ويراجعنا فيما لايكون إلا بعد مراجعتنا تصريفه فليمس على هذه القاعدة وليستقل بهذه الوظيفة استلالاً هو كالخبر محل الفائدة ولينشر من إقبالنا الشريف عليه بالصلات العائدة ونحن نختصر له الوصايا لأنه الذي يمليها ونقتصر منها على التقوى فإنها الذخيرة النافعة لمن يعانيها والباقية الصالحة خير لمن يقتفيها والله تعالى يقوي أسبابه وينير شهابه ويزيد من المعالي اكتسابه ويغنينا بقلمه عن سنانٍ يتقدم عامله وبلسانه عن سيفٍ يفارق قرابه والاعتماد على الخط الشريف أعلاه.

وهذه نسخة تقليد بعود القاضي شهاب الدين بن فضل الله إلى كتابة السر.

من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء الشريف وهي: الحمد لله الذي أحمد العقبى بفضله وأكد النعمى بوصله وأودع سر ملكنا الشريف عند أهله وأطلع شهاب الدين من أفق العلياء في محل شرفه وشرف محله ورفع قدره في سيره إلى بروج السعود وحلوله بدرجات الصعود ونقله وأرجع الموهبة منه إلى من يشكرها بقوله وفعله وأينع الفرع الزاكي الذي يحيا أصله بواكف سحاب كرمنا ووبله وأتم النعمة عليه كما أتمها على أبويه من قبله وضم له أطراف الرياسة وجمع شملها بشملة وعم بفضله وفضلنا أهل هذا البيت الذين فطروا على السؤدد وبصروا من رضانا باتباع سبله.

نحمده على إضفاء ظله ونشكره على إصفاء نهله ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً أشرق نور هداها بمستبدله وأغدق نوء نداها بمستهله ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله خاتم رسله وجعل له الفضل على الخلق كله وألهم به سبل هدية وسنن عدله وأرشده إلى فرض دينه ونفله وأودعه السر الذي لم يودعه سواه وحمله من أعباء الرسالة مالم ينهض غيره يحمله صلى الله عليه وعلى آله أغصان الشجرة الزهراء التي هي بضعة منه ونبعة من أصلة ورضي الله عن أصحابه الذين أجلهم من أجله خصوصاً من بادرإلى الإيمان فخض من السبق بخصله ومن أيد به الدين وفر الشيطان من ظله ومن جهز جيش العسرة حتى غزا العدا بخيله ورجله ومن كان باب مدينة العلم ومانح جزله وفاتح قفله وعن بقية المهاجرين والأنصار الذي مامنهم إلامن جاهد حتى قام الدين بنصره ونصله صلاة دائمةً يجعلها اللسان أهم شغله ويتلقى قادمها من مواطن القبول بأكرم نزله مارمى قوس العزم بصائب نبله وحمى حمى الملك بليثه وشبله وفوض أجل المناصب إلىفاضل العصر وأجله.

أما بعد فإن آراءنا لاتزال للمصالح مراعية ولاتبرح بالإسعاد إلى الأولياء ساعية فتدعو إلى مقامها من وفر على الإخلاص دواعيه وتدني من ملكها من له بالخفايا أعظم بصيرةٍ وفي جميل القضايا أجمل طواعية وتلقي أسرارها إلى من له لسان حق ناطق وأذن خيرٍ واعية وتقدم من له قدم صدق ثابتة ويد بيضاء طولى في المهمات عالية لتغدو سهام أقلامه إلى الأغراض رامية وصوائب أفكاره عن حمى الملك محاميه وتكون عبارته للمقاصد موفيةً وإشارته لموعد اليمن موافية وتضحي ديم نعمنا الواكفة لسوابق خدمه مكافية لما يتصل بذلك من المصالح وتناجي خواطرنا الشريفة به المناجح ويقبل عليه وجه الإقبال في كل حال ويغدو إليه طرف الأجلال وهو طامح فنجمل به ممالكنا مصراً وشاماً ونسدد به مرمى " ونصيب مراماً ونحفظ له ولأبيه في خدمتنا حقاً وذماماً ونكون له في الحالتين براً وإكراماً ونعلي محله إعلاناً بعلو مكانه وإعلاماً فيؤلف للرياسة نظاماً ويضاعف للرتبة إعظاماً ويعمل يراعاً بل حساماً ويجلو وجه المنى طلقاً ويبدو بعد البشر بساماً ويحسن بأعباء المهمات قياماً وحيث نقلته أوطانه هضاب المجد وقلته وأين وجهته أعلت قدره ونوهته وكلما أوفدته أفاضت عليه ملبس العز وجددته واختصته بالتصرف وأفردته وانتضت ماضي اجتهاده وجردته وأجرته من إجراء فضلها على ماعودته واستقلت له منائحها من كثير المواهب ماخولته ومن كبير المناصب وماقلدته.

ولما كان فلان هو الذي أودع الأسرار فحفظها واطلع على الدقائق فرعاها ببصيرته ولحظها وباشر مهماتنا فأمضاها وسر خواطرنا وأرضاها وظهرت منه بين أيدينا كفاية لاتضاهى وقلد أجياد أوليائنا من تقاليده عقوداً وأدنى من المقاصد بلطف عبارته بعيداً وأغنى الدولة أن تجهز جيشاً وجهز بريداً وأبان بمقاله عما في أنفسنا فلم يبق مزيداً وصان الأسرار فجعل لها في خلده خلوداً وجمع أشتات المحاسن فأضحى فريداً كم لعمة في خدمتنا من هجرة قديمة ولأبيه من موالاةٍ هي للمخالصة مواصة ومديمة ولكم لهما أسباب في الريساة قوية وطرائق في الهداية قويمة وكم كاتب يسر الله بهداهما تعليمه وتفهيمه وقدر على يديهما وصوله إلى رتب العلياء وتقديمه فمنفعتهما عميمة ونبعتها صميمة ولهما في الشام ومصر أجمل شيمة وكم له هو أيضاً

من تقدمات اقتضت تكريمه وكفايةٍ عند علومنا الشريفة معلومة وكتابةٍ حلل المهارق بوشيها مرقومة فلو قابله الفاضل عبد الرحيم لبادر إلى فضله إقراره وتسليمه أو عبد الحميد لكانت مناهجه الحميدة بالنسبة إلى مذاهبه ذميمة أو سمع عبد الرحمن مقاله لضمن ألفاظه معانيه العيقيمة أو أدركه قدامة لعرف تقديمه واقتدى بسبله المستقيمة أو حوى الجوهري فراشد ألفاظه لعرف أن صحاحه إذا قرنت بها سقيمة أو رأى 0 ابن العديم خطه لاستغنت منه بسلاسل الذهب نفسه العديمة أو الولي لاستجدى من صوب إجادته أغزر ديمة أو نظره ابن مقلة لوجدت مقلته نضرة خطه ونعيمه أو ابن البواب لكان خدين بابه وخديمه فهم صدور اقتضى حسن رأينا الشريف أن نلقي إليه منصباً هو أولى به ونقر عينه بدنوه منا واقترابه ونمتع البصر بخطه وخطابه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني - لابرح يعيد نعمه كما بدأها أول مرة ويسر القلوب بكافٍ أودعه سره ويحمد لأحمد الأولياء عوده ومستقره - فليتلق هذه النعمة بشكرها وليترق منصباً رفيعاً يناسب رقعه قدره وليبسط قلمه في تنفيذ مهم الممالك من نهيه وأمره وليحفظ مأأودعه من خفي سره وليلاحظ المهمات بفكره وليحافظ على مايعرفه من رضانا طول دهره ونحن نعلم من صواب أفعاله وتسديدها مالانحتاج معه إلى تكثير الوصايا وتعديدها ولاإلى تكريرها وترديدها ولاسيما وقد سلفت له بها خبرة لانفتقر إلى استيعاب ذكراها ولا إلى تجديدها وتقدمت له مباشرة استبشرنا بميمونها وأثنينا على حميدها واستدنينا سناها واستغنينا عن سواها بوجودها وله بحمد الله توفر التوفيق وهو الحقيق بما فوضنا إليه على التحقيق وفضله من الشوائن عري وفي المجانبين عريق وقدره بتجديد النعم جدير وبخلال الكرم خليق والله تعالى يوضح به من الخير أبين طريق ويسر بمقدمه الولي والصديق ويفرق به بين الحق والباطل فجده الفاروق وهو من أكرم فريق بمحمده وآله! الحمد لله الذي أظهر لتدبير دولتنا شهاباً يعلو على فرقد الفراقد وكمل به عقود الممالك فسمت جواهر فرائدها على الدراري إذ كان واسطة تلك الفرائد ومعيد إحساننا إلى خير ولي أغنى تدبيره عمن سواه فكان بالألف ذلك الواحد ومخول مواد كرمنا لمن هو صدر أسرارنا ويمين مملكتنا في كل صادر عنها وارد ومنقل الأكفاء إلى مراتب سعودهم فتصبح ألوية محامدهم في معاقل العز أفخر معاقد ومحلي ملكنا الشريف بأكل كافٍ مأأم مصراً إلا تلقته بالهناء ولافارق شاماً إلا أسفت عليه تلك الربوع والمعاهد.

نحمده على نعم أقرت عيون الأولياء لما أقرتهم من مواد جودنا على أكمل القواعد ونشكره على مابلغنا من جميل المآرب وبلوغ المقاصد ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تنجي قائلها من جميع الشدائد ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تنجي قائلها من جميع الشدائد ونشهد أن سيدنا محمداً سيد البشر عبده ورسوله الذي جاد بهدايته فكان أكرم جائد صلى الله عليه وعلى آله وصحابته خصوصاً على أول الخلفاء أبي بكر الصديق الذي لافخر كفخاره وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حامل أسراره وفاتح أمصاره وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان مبدل عسره بيساره وعلى ابن عمه علي بن أبي طالب أعز أنسبائه وأخص أصهاره وعلى بقية مهاجريه وأنصاره صلاةً سهلة المشارع عذبة الموارد.

وبعد فإن من سجيتنا إذا تيمنا بولي لا نوال نلحظه ونرعى حقوق خدمه في القرب والبعد ونحفظه ونقابل مأأسلفه بنفائس النعم ونفيض عليه ملابس الجود والكرم لاسيما من لم زيل بظهر لنا كل يوم تعبداً جديداً ومن أصبح في الفصاحة والبلاغة وحيداً ومن جمع أطراف السؤدد والرياسة فلم يبرح بهما فريداً ومن تحسن النعم بإفاضتها عليه وتكمل المنن بإضافة محاسنها إليه وتزهو فرائد البلاغة بانتظامها في سلك مجده وتشرق كواكب اليراعة في اتساقها في فلك سعده وكان للبابته في الاختصاص بنا اليد الطولى وتلا لسان اعتنائنا في الحالين: " وللآخرة خير لك من الأولى " .

ولما كنت أيها الصدر شهاب الدين احق الناس بهذا المنصب لما لوالدك - أبقاه الله تعالى - من الحقوق ولما أسلفاه من الخدم التي لايحسن التناسي لها ولا العقوق ولأنك جمعت في المجد بين طارفٍ وتالد وفقت بأزكى نفر وعم وإخوة ووالد وجلالة ماورثتها عن كلالة وخلال مالها في السيادة من إخلال ومفاخر تكاثر البحر الزاخر ومآثر يعجز عن وصفها الناظم والناثر ولما نعلمه من فضائلك التي لاتجحد رعيناك في عودك لوظيفتك وعود احمد أحمد.

ولما كان فلان هو الذي تقطر الصاحة من أعطاف قلمه وتخطر البلاغة في أثواب حكمه وتنزل المعاني الممتنعة من معاقل القرائح على حكمه وتقف جياد البداهة المتسرعة حيرى قبل التوسط في علمه إن وشى الطرس فرياض أو أجرى النقس فحياض أو نظم فقلائد أو نثر ففرائد لايتجاسر المعنى المطروق أن يلم بفكره ولايقدم المعنى المتخيل المسبوق للمرور بذكره ولايجوز زيف الكلام على ذهنه المتقد ولايثبت غثاء الكلام لدى خاطره المنتقد فعبد الحميد كعبد الرحيم في العجز عن لحاق علومه التي يجد الراغب على نورها هدى والأصمعي لو أدركه لتلا عليه: " هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً والطغرائي لو عاصره لزاد نظمه وازداد على نوره هدى والحريري لو رافقه لأمن في مقاماته من التجريح والردى قد

قصرت عن غاية كماله جياد القرائح وعجزت عن وصف صفاته حجميع المدائح وشرف نصبه بانتسابه إليه ورفع قدره بمثوله لديه مع ماتميز به من نزاهةٍ صرف بها عن الدنيا طرفه وزهادةٍ زانت بالسعد صدره وملاءةٍ ملأت بالعفة كفه فهو واحد زمانه وأوحد أوانه والبحر الذي يحدث عن فضله ولاحرج والروض الذي ينقل عن فضله إلى الأسماع أطيب الأرج وكان قد مال عن منصبه وهو يذكره وفارقه وهو يشكره ونادى غيره وبقوله يلبي وشغل بغيره وهو يقول حسبي شهاب الدين فلما رءاه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ""حسبي:

اقتضى حسن الرأي - فلما حصل له الاستئناس وزال عنه القلق والالتباس قال: " ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس " الشريف أن نخصه باستقرار رتبته لديه وأن نستمر به على وظيفته السنية فرسم بالأمر الشريف - لازال شهاب سعده لامعاً وسحاب كرمه هامعاً ومطاع أمره لمصالح الدين والدنيا جامعاً - لمناقبه التي وفرت ميامنها واسفرت بوصف آثاره الحسنة كوامنهات وأن يعاد إليها كما يعاد السوار إلى الزند أو كما يعود نسيم الصبا إلى الرند فليؤنس منصباً كان إليه مشتاقاً ومجلساً كان منتظراً أن يزر من ملابس جلاله على عنقه أطواقاً وليجمل هالةً كانت متشوقةً إلى عقود دره فاحمد الله على ماخصصناك له من مزيد الاعتناء وأن السعادة في أيامنا الشريفة متصلة فتشمل الآباء والأبناء ويكفيك بهذا التوقيع الشريف إذ بلغت به جميع الأماني وتوجناه بيميننا الشريفة لقرب عهدها بمصافحة الركن اليماني واصطفيناك بقلمٍ عظم شأناً بتلك الستور وغذا معموراً بالهداية ببركة البيت المعمور وازداد بمشافهة الحرم الشريف نوراً على نور فليحسن نظره المبارك في ذلك كله وليبد مايحسن في هذه الوظيفة من مثله وفي تقدم مباشرته في هذه الوظيفة وعلمه مايغني عن كثرة الوصايا وملاكها تقوى الله تعالى وهي أكمل المزايا وليحمد أفعاله ويصل أسباب اعتماده بسببها والله تعالى يجمل له مواهب تخويله ويجعل له الخير في تنقله وتحويله والخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليد بكتابة السر: الحمد لله الذي جعل خواطر أوليائنا بإقرار نعمنا مستقرة ومواطر آلائنا على ذوي الإخلاص في ولائنا دائمة الديم مستمرة وبشائر رضانا تجدد لكل من ذوي الاختصاص ابتهاجه وبشره وسوافر أوجه إقبالنا لأولي الاصطفاء والوفاء مشرقة الأوضاح متهلله الأسره مودع أسرار ملكنا الشريف من آل فضل الله عند أكرم أسرة وممتع دولتنا بخير كافٍ دقق في مصالحنا فكره وأنفق مناجحنا عمره ومجمع أنجمهم بأفق تقريبنا مرةً بعد مرة فنحيي نيرهم الأكبر وقد شيدنا بارتقائهم بيته وشددنا بعلائهم أزره.

نحمده على أن جبل سجايانا على الإحسان والمبرة ونشكره على أن أجزل عكايانا لمن لم يزل يعرف حقه ويألف خيره ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً تشرح لمؤمنها صدره وتصلح لموقنها أمره ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أسمى على الخلائق قدره وتولى في المضايق نصره وأعلى في المشارق والمغارب ذكره صلى الله عليه وعلى آله أعز عترة ورضي الله عن أصحابه الذين أسدوا المنة وسدوا الثغرة صلاةً ورضواناً متواصلين في كل أصيل ومكررين في كل بكرة ماوهب فضل الله مستحقاً فسر بالعواطف والعوارف سره وعقب في سماء الإسعاد كوكب كوكباً فحل محله وقر مقره وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فشيمنا ترعى لأوليائها حقوقاً ونعمنا الغامرة تسني صدقاتها لمن لم يزل في ولائها صدوقاً وتزيد هباتها توفيراً لمن عهدت منه لمراضيها توفيقاً وتجدد بتعاهدها معهد الفضل فلا يمسي خلياً بل يضحي بإكرامها خليقاً وتشيد بإحسانها بيتاً أسس على تقوى الله وطاعة سلطانها فغدا بالحفظ حقيقاً وتحمي باعتنائها جوانبه من الغير فلا يرهب حماه لها طروقاً ولاتجد بفضل الله لها عليه طريقاً وتطلع في بروج سعودها زهراً تروق شروقاً وتجمع على مهماتها من عظموا فضلاً وكرمول فريقاً وتودع أسرارها عند سراتهم ركوناً إليهم وسكوناً ورضاً بهم ووثوقاً وتشفع منائحها بمنائح تزيد آمالهم نجاحاً وتفيد أمانيهم تحقيقاً وترفع مكاناً علياً إلى حيث اتسع الرار من ملكها من كان بالميامن ملياً وفي المحاسن عريقاً ويخلف في خدمها شقيق منهم شقيقاً ويصرف أوامرها ونواهيها من أعيانهم من تأمن المصالح مع اجتهاده تفويتاً وتخاف الأعداء لسداده تعويقاً طالما ائتمناهم على إيداع أسرارنا فحلت من سرائرهم مستودعاً وثيقاً وعينوا للمعالي فصادفت طويتنا من يقظتهم ونهضتهم تصديقاً فهم أولى أن نجعل لأجيادهم بعقود جودنا تطويقاً وأحق أن نرفع بنعمنا محلهم ونجمع في خدمتنا شملهم فلا يخشون نقضاً ولاتفريقاً.

ولما كان المجلس العالي الفلاني هو الذي لحظه عنايتنا فعلا فعلاً وأيقظته إشارتنا فغدا في الحكم كهلاً وحفظه رعايتنا فعمرت بيته العمري الذي مازال بالعوارف ملموحاً وللقبول أهلاً وأحظته سعادتنا اقتضى حسن الرأي الشريف أن نجري بمراسمنا أقلامه ونوفر من إنعامنا فلذلك رسم بالأمر الشريف - لابرحت سحائبه عامة ومواهبه لها مزيد وإدامة ورعايته إذا ابتدأت

فضلاً رأت إتمامه وكواكبه تسيرفي منازل عزها ولنيرها الأكبر الإرشاد والإمامة - أن يفوض إليه كذا وكذا على أجمل العوائد وأكمل القواعد نظير ماكان مستقراً لأخيه.

فليباشر هذه الوظيفة التي لها وبه وبأهله أعظم فخار وليحل هذه الرتبة التي مامنهم إلا من يجتبي ويستخار وليجمل هذا المنصب الذي إليهم مصيره في جميع الأمصار وليحل المهارق بإنشاءاته التي شان مطاولها عن شأوها الإقصار وليتوقل هذه الهضبة التي لها على عليائهم اقتصار وفي آبائهم وأبنائهم لها تعيين وانحصار وليدبج الطروس من خطه بالوشي الرقيم وليبهج النفوس من خطابه بالدر النظيم وليسرج الشموس من أوضاع كتابته التي تبرز من إبريز كنوزها ابن العديم وليجهز البرد التي تقدمها مهابتنا فلم يكتبها من كتائب الأعداء هزيم وليوين نقاصدها التي قرن بها الفتح القريب والنصر العزيز والفضل العظيم وهو بحمد الله غني عن الإرشاد بالوصايا والتفهيم علي القدر لايحتاج مع ألمعيته إلى تنبيه ولاإلى تعليم وهو أئمة هذه الصناعة ولهم الفضل القديم وسبيلهم السوي وصراطهم القويم والله تعالى يوفر لهم فضلنا العميم ويظفر أقدارهم من لدنا بتكرير التكريم ويسني أمرهم في آفاق العلياء يسعد ويقعد ويقيم ويديم لكل منهم في ظل نعمنا المزسد والتأكيد والتقديم والعلامة الشريفة أعلاه حجة وهذه وصية لكاتب السر أوردها في التعريف وهي: وليأمر عنا بما يقابل بالامتثال ويقال به: السيوف لأقلامه مثال ويبلغ من ملوك العدا مالاتبلغه الأسنة ولاتصل إليه المراكب المشرعة القلوع والخيول المطلقة الأعنة وليوقع عنا بما تذهب الأيام ويبقى ويخلد من الحسنات مايلفى آخرةً ويلقى وليمل من لدنه من غرر الإنشاء مايطرز كل تقليد وتلقى إليه المقاليد ولينفذ من المهمات ماتحجب دونه الرماح وتحجم عن مجاراة خيل البريد به الرياح وليتلق مايرد إلينا من أخبار الممالك على اتساع أطرافها وماتضمه ملاءة النهار ملء أطرافها وليحسن لدينا عرضها وليؤد بأدائها واجب الخدمة وليتم فرضها وليجب عنا بما استخرج فيه مراسمنا المطاعة ولما وكل إلى رأيه فسمع له الصواب وأطاعه وليمض ما يصدر عنا مما يجوب الأفاق ويزكو على الإنفاق ويجول مابين مصر والعراق ويطير به الحمام الرسائلي وتجري الخيل العتاق ولير النواب ماأبهم عليهم بما يريهم من ضوء آرائنا وليؤكد عندهم أسباب الولاء بما يوالي إليهم من عميم آلائنا وليأمر الولاة بما يقف به كل منهم عند حده ولايتجاوزه في عمله ولايقف بعده على سواه بأناملة وليتول تجهيز البريد واستطلاع كل خبر قريب وبعيد والنجابة وماتسير فيه من المصالح وتأخذ منه بأطراف الأحاديث إذا سألت منه بأعناق المطي الأباطح وأمور النصحاء والقصاد ومن ظل سرهم عنده إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها وهم شتى في البلاد وليعرف حقوق ذوي الخدمة منهم وأهل النصيحة الذين رضي الله عنهم ولاينس عوائدهم من رسم إحساننا الموظف وكرمنا الذي يستميل به القلوب ويتألف وليصن السر بجهده وهيهات أن يختفي وليحجبه حتى عن مسمعيه فسر الثلاثة غير الخفي والكشافة الذين هم ربيئة النظر وجلابة كل خبر ومن هم أسرع طروقاً من الطيف وأدخل في نحور الأعداء من ذباب السيف وهم أهل الرباط بالخيل ومامنهم إلا من هو مقبل ومدرك كالليل والديادب والنظارة ومن يعلم به العلم اليقين إذا رفع دخانه أو ناره وهم في جنبات حيث لايخفى لأحد منهم منار ولايزال كلنبأ بتنويرهمك كأنه جبل في رئاسه نار والحمام الرسائلي ومايحمل من بطائق ويتحمل من الأنباء ماليس سواه له بطائق ويخوض من قطع الأنهار ويقطع إلينا مابعد مسافة شهر وأكثر منه في ساعة من نهار ويعزم السرى لايلوي على الرباع ويعلم أنها من ملائكة النصر لأنها رسل ولها أجنحة مثنى وثلاث ورباع وغير هذا مما هو به معدوق وإليه تحدى به النوق ومن رسل الملوك الواردة وطوائف المستأمنين الوافدة وكل هؤلاءهولا مالهم المترجم والمصرح عن حالهم المحمحم فليعاملهم بالكرامة وليوسع لهم من راتب المضيف مايحبب إليهم في أبوابنا العالية الإقامة وليعلم أنه هو ليجنا المستشار المؤتمن والسفير الذي كل أحدٍ بسفارته مرتهن وهو إذا كتب بناننا وإذا نطق لسننا وإذا خاطب ملكاً بعيد المدى عنواننا وإذا سدد رأيه في نحور الأعداء سهمنا المرسل وسنناننا فلينزل نفسه مكانها ولينظر لدينا رتبته العلية إذا رأى مثل النجول عيانها.

فليراقب الله في هذه الربتة وليتوق لدينه فإن الله لايضيع عنده مثقال حبة وليخف سوء الحساب وليتق الله ربه وجماعة الكتاب بديوان الإنشاء بالممالك الإسلامية هم على الحقيقة رعيته وهداهم بما تدهم به من الآلاء ألمعيته فلا تستكتب إلا من لاتجد عليه عاتباً ولايجد إلا إذا قعد بين يديه كاتبا والوصايا منه تستملى.

الطبقة الثانية من أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة السلطانية أصحاب التواقيع

أصحاب التواقيعوهم على ثلاث درجات أصحاب التواقيعالدرجة الأولى ما يكتب في قطع النصف مايكتب في قطع النصف بالمجلس العالي وكلها مفتتحة بالحمد لله وتشتمل على أربع وظائف سوى ما تقدم أنه نقل إلى رتبة التقاليد وهو كتابة السر.

أصحاب التواقيع الوظيفة الأولى نظر الخاص وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أنها وظيفة محدثة أحدثها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين أبطل الوزراة وأن أصل موضوعها التحدث فيما هو خاص بمال

السلطان وأن صاحبها صار كالوزير لقربه من السلطان وتصرفه في تدبير جملة الأمور وتعيين المباشرين إلا أنه لايقدر على الاستقلال بأمر بلا لابد له من مراجعة السلطان.

وقد تقدم ذكر ألقابه في الكلام على مقدمه الولايات من هذا الفصل وعلى طرة توقيعه في الكلام على التواقيع.

وهذه نسخة توقيع بنظر الخاص كتب به للقاضي شمس الدين موسى بن عبد الوهاب في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون وهي: الحمد لله الذي جعل كل جرح بنا يوسى وعجل كل نعمة تبدل بوساً وتغير بالسرور من المساء لبوساً.

نحمده حمداً يشرح صدوراً ويسر نفوساً ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً ترفع لقائلها رؤوساً وتطلع في آفاق ممالكنا الشريفة شموساً وتنشيء في أيامنا الزاهرة غروساً ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بشر به موسى صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً تملأ طروساً وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن العمل بالسنة أولى مايتمسك به المتمسك وقد قال صلاى الله عليه وسلم: " أبدأ بنفسك " و كانت الخواص الشريفة هي المصلحة الخاصة بنا المتعلقة دون كل شيء بأنفسنا لأن من خزائنها العالية تتفرق مواهبنا الشريفة في الوجود وتتحلى معاطف الأمراء والجنود وكان فيها من لم يزل هو وبنوه قائمين بها أحسن قيام وفيها من ممالكنا الشريفة مايضاهي بمدده الغمام من حضر منهم لايتفقد معه من غاب ومن كتب منهم في شيءٍ من مصالحها قال الذي عنده علم من الكتاب كم أجرت صدقاتنا الشريفة بأقلامهم من إنعام وتقسموا في مصالحنا الشريفة هذا في الخاص وهذا في العام طالما انقطع والدهم رحمه الله تعالى بعذر فمشوا الأمور على أكمل سداد وأجمل اعتماد وأتم مالو حضر أبوهم ومكان هو المتولي لما زاد فما خلت في وقتٍ منه أو من أحد منهم لما غاب من بقي يسد عنه فلم يزل منهم ربعها مأنوساً ولاسئل فيها عن قصة إلا وأنبأت بها صحف إبراهيم وموسى.

وكان المجلس العالي فلان هو الذي تفرد آخراً بهذه الوظيفة واستقل فيها بين أيدينا الشريفة وسافر فيها إلى ثغر الإسكندرية - حرسها الله تعالى - فافتر بيمن تصرفه وحسن تعففه وعدم فيها المضاهي لأنه لاشيء يضاهي الشمس إذا حل سرها في منازل شرفه كم كفت له كفاية وبدت بداية وكم بلغ من غاية كم له من همم وكم تقدمت له قدم وكم اعترف السيف ببز القلم كم له من همم وكم تقدمت له قدم وكم اعترف السيف ببز القلم كم له في خدمة المقامات العالية أولادنا أثر جميل وفعل جلي جليل وسلوك فلا يحتاج في الشمس إلى دليل كم أحسن في مرة كم رددناه إلى الكرك كرة كم غلب على السحاب فرقى إليها وبلغ النجوم وله قدوم عليها فلما انتقل والده القاضي تاج الدين عبد الوهاب إلى رحمه الله تعالى احتاج إلى توقيع شريفٍ بالاستقلال في وظيفة نظر الخاص الشريف التي خلت عن أبيه ليعلم كل متطاول إليها أنه لايصل إليها مع وجود بنيه فما عاد إلا وعاد بعين العناية محروساً ولاأقبل على كرمنا إلا قال " وقد أوتيت سؤلك ياموسى ".

فلذلك رسم بالأمر الشريف - زاد الله شرفه ومكن في الأرض تصرفه - أن يفوض إليه نظر الخاص الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة على عادة والده رحمه الله في هذه الوظيفة وقاعدته في رتبتها المنيفة ليقضي ماكان في خاطر أبيه من الزطر ولأنه في أمثاله عين الأعيان والعين أولى بالنظر.

فليباشر مأأنعمت به صدقاتنا العميمة عليه على ماعهد منه بالأمس وعرف به من حسن السلوك كمن يمشي في ضوء الشمس وليقدم تقوى الله والأمانة فهما أفضل مايقدم وأجمل مايعمل به من تقدم والنهضة فإنها هي التي تقوم بها المصالح والتصدي لما هو بصدده فإن به يتم كل عمل صالح وليحتفظ على الخزائن العالية وليكن فيها كواحد من رفقته عملاً بالعادة فيها وإلا فنحن نعلم من كفايته أنه يكفيها وليثمر الجهات التي إليه مرجعها والأموال التي يدوم إليه من العين تطلعها وليستجلب خواطر التجار بإيصال حقوقهم إليهم والقائمين في خدمة أبوابنا الشريفة بتعجيل ما تنعم به صدقاتنا الشريفة عليهم وليكن إلى ماتبرز به مراسمنا الشريفة مسارعاً ولها في كل ماأشكل عيه من الأمور مراجعاً وبقية هذا من كل مايحتاج أن نوصيه بتعلمه فقد علم مما جرت به عادتنا الشريفة بأن نقوله في مثله ولهذا نختصر في الوصايا التي تشرح اكتفاءً بما لآتاه الله بنا من فضله والله تعالى يأخذ به إلى النجاح ويفتتح له بنا أحسن الافتتاح والاعتماد على الخط الشريف أعلاه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة توقيع بنظر الخاص: الحمد لله الذي جعل خواص النعم لملكنا الشريف لأجلها ونفائس الذخائر من دولتنا القاهرة بمحلها وأخاير المفاخر مبسوطاً في أيامنا ظلها.

نحمده بمحامده التي لانملها ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً أشرق مستهلها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي ختمت به أنبياؤها ورسلها وبعثه الله للأرحاميبلها وللأولياء يجلها وللأعداء يذلها ولسيوف النصر من الغمود يسلها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ماشد على مطيةٍ رحلها وولي المراتب أهلها وسلم تسليماً مثيراً.

وبعد فإن خزائن ملكنا الشريف مستودع كل ثمين وممالكنا المعظمة لا تعدق إلا بالثقة الأمين ومتاج خواصنا الشريفة لايثمرها إلا من رأيه يعضد قلمه في اليمين والمتجر المحروس لايقوم بنماء محصوله إلا من له حزم سديد وعزم متين ونظر الخواص هو الذروة العالية فمرتقيها على كل مايعترضه معين.

ولما كان فلان هو المختار على يقين والمخطوب لهذا المنصب ليزيده في التحسين والتحصين والذي إن نظر في القليل عاد كثيراً بالألوف والمئين فإن دبر تدبيراً حفظ وحرس وصين وضبط في حسن الاعتماد بلغ إلى الصين وإن توجه إلى الثغر المحروس تفجر له عن أمواله الجمة وأخرج له من فاخر الحلل ماحسن راقمه رقمه وصدر عنه إلى أبوابنا الشريفة بالتحف المثمنة والحمول التي أوقرت السفن في النيل والإبل في السيبل فأزال الغمة وأنار الأمور المدلهمة ونشر ماطواه لدينا فشكرناه له ماتقدم مما أتمه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف.

فليباشر هذا المنصب الكريم بتدبير يصلح الفاسد وينفق الكاسد ويكبت الحاسد ويكثر الأموال ويسعد الأحوال ويثمر الذخائر ويسر السرائر ويوفرحاصل الجواهر ويكثر التحف من كل صنف فاخر ويوفي المهمات الشريفة حقها في الأول والآخر وينشر التشاريف كالأزاهر.

وليختر الأمناء الثقات وليحرر كل منهم الميقات وليبع لخاصنا الشريف ويشتر بالأرباح في سائر الأوقات وليتلق تجار الكارم الزاردين من عدن باستجلاب الخواطر وبسط المنن ونشر المعدلة عليهم ليجدوا من ايمن مالم يجدوه في اليمن وكذلك تجار الجهة الغربية الواردين إلى الثغر المحروس من أصناف المسلمين والفرنج: فليحسن لهم الوفادة وليعاملهم بالمعدلة المستفادة فإن مكاسب الثغر منهم ومن الله الحسنى وزيادة والوصايا كثيرة وهو غني عن الإعادة وملاكها تقوى الله فلقتف رشاده وليصلح ملآبه ومعاده ولايتدنس بأقذار هذه الدنيا فإنها جمرة وقادة والله تعالى يحرس إرفاقه وإرفاده بمنه وكرمه!: بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه إن شاء الله تعالى.

أصحاب التواقيع الوظيفة الثانية نظر الجيش وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن موضوعها التحدث في الإقطاعات بمصر والشام والكتابة بالكشف عنها ومشاورة السلطان عليها وأخذ خطه وقد تقدم ذكر ألقابه في جملة الألقاب في الكلام على مقدمات الولايات في هذا الفصل وتقدم ذكر مايكتب في طرة تقليده في الكلام عن التواقيع.

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش: الحمد لله الذي عدق بالأكفاء مصالح الجنود وصرف أقلامهم فيما تقطعه من الجود واجتبى لمراتب السيادة من تحمده الأقلام في العطايا البيض والسيوف في الخطوب السود.

نحمده وهو المحمود ونشكره شكراً مشرق الميامن والسعود ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة عذبة الورود يجد ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أضحت به المخلص بركتها يوم العرض " ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود " جيوش الإسلام منشورة الألوية والبنود منصورة السرايا في التهائم والنجود صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ماأورق عود وأولج نهار السيوف في ليل الغمود وسلم تسليماً.

وبعد فإن أجل رتب هذه الدولة الشريفة مرتقى وأجملها منتقى وأكرمها هادياً حلى بعقد السيادة مفرقاً رتبة محكمنا مرتقيها في أرزاق الجيوش الذين هم حماة الدين وأنصاره ولهم رواح الظفر وابتكاره ولهذا لايحظى بتسنمها إلا من علا مقداراً وشكرت الدولة الشريفة له آثاراً وجيبت عليه السعادة أثوابها وأوكفت عليه سحابها وأنزلته ساحاتها ورحابها وغدت لأحاديث عليائه تروي وحمده الميسور والمنشور والمطوي.

ولما كان فلان هو الذي نمت مآثره وكرمت مفاخره واستوت على العلياء مظاهره وشكر استبصاره وحياطته وكمل سلوكه منهج الفخار وجادته وأحصى الجنود عدداً وإن كاثروا النجوم مدداً وأحاط بالأرض المقطعة فلم تكن نواحيها عنه ممتنعة ولم

يغادر منها شيئاً إلا أحصاه واتبع سبب مراضينا حتى بلغ أقصاه فالعلم يثني عليه والعلم والحرب والسلم يشكرانه لمناسبة نظره القرطاس والقلم - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نرقيه هضبةً سامية العلى فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه نظر الجيش.

الخ.

فليباشر هذه الوظيفة المباركة وليحل ذراها الأسمى وليجمل اطلاعه على الجيوش المنصورة حتى لايغادر منها اسماً لتغدو مصالحها وريقة الغراس باسقة وعقودها نفيسة الفرائد متناسقة وليجر نظره المبارك فيما صرفناه فيه آخذاً بيمن السداد من فعله وحسن التنفيذ من فيه ملزماً من تحت نظره بإتقان ماهم بصدده من العروض والأمثلة حتى تغدو لديه ممثلة محرراً للإقطاعات وعلم خفاياها فيما نهبه ونقطعه ونصله ونقطعه والمقايضات وإن اختلفت والإفراجات وإن اكتنفت والمغلات الآتية والأخرى التي سلفت ومايخص المتصل ومن فعل المنفصل والمتحصل والعبرة والخاص والعدة لذوي الإمرة ومنها مصري لاغنى عن تحريره وشامي يفتقر إلى الإتقان في قليله وكثيره ولينظر فيمن له جامكيه أو إقطاع مجزل وكلاهما في دولتنا سماك: هذا رامح وهذا أعزل.

هذه وصايا جمه وأنت غني عن أن يستقصي القلم ذكرها أو يتمه والله تعالى يجمل به رتبه ويبلغه أربه ويرفع عليه لواء المجد وعذبه بعد العلامة الشريفة أعلاها الله تعالى أعلاه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش: الحمد لله الذي أعز الجيوش المنصورة وجز أعناق العدا بالسيوف المشهورة وهز ألوية التأييد المنشورة وجعل الجحافل مشرفةً وأجنحتها خافقةً وساقتها محدقةً وقلوبها مسرورة.

نحمده بمحامده المذكورة ونشهد أن لا إله غلا الله وحده لا شريك له شهادة مأثورة موصولةً غير مهجورة ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أبطل من الشيطان غروره وصان للإسلام حوزته وثغوره وسن لأمته الاستخارة والمشورة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً نورت من الليل ديجوره وكثرت لقائلها أجوره وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أحوال جيوشنا يتعين حسن النظر في أمرها والقيام بمواد نصرها وإسعافها بناظر يحرر جهات أرزاقها ويضبطها مخافة افتراقها ويأمر بنظم جرائد أسمائهم واتفاقها ويتقن الحلى ويبين يوم العرض محله في ارتقاء العلى ويصون المحاسبات لكل منفصل ومتصل من الحلل ويسرع في الدخول والخروج مايصل به لك حقه عن استحقاق الأجل.

ولما كان فلان هو الممدوح بألسنة الأقلام والرئيس بين الأنام والمشكور بين أرباب السيوف وذوي الأقلام والمأمون فيما يعدق به من مهام والعزيز المثال والسائر بمجده الأمثال والمنشور فضله في كل منشور والظاهر أثره وتحرير في الديوان المعمور والذي شكرته المملكة الشريفة فهو من صدورها في الصدور.

فلذلك رسم بالأمر الشريف.

الخ فليباشر نظر هذا المنصب السعيد بأمانة تحفظ أرزاق العساكر وتجلو الظلام العاكر وليحرر جرائد التجريد وليصن العدة الكاملة من التبديد ولتكن أوراق البياكر نصب عينيه حتى إذا طلبت منه أحضرها محررة وإذا وقع فيهم حركة كانت أقلامه غير مقصرة وليرغب في اقتناء الثناء حتى يصبح عنده منه جملة من الألوف وليكن للأمانة والنصح نعم الألوف وليتق الله مع أصحاب السيوف وليستجلب خواطر أرباب الصفوف وليجعل به براً في كل أرض يطوف وتقوى الله فهي السبيل المعروف فلينعم بجنتها الدانية القطوف وليلبس بردتها الضافية السجوف والله تعالى من المخوف بمنه وكرمه!.

وهذه وصية ناظر جيش أوردها في التعريف قال: وليأخذ امر هذا الديوان بكليته ويستحضر كل مسمى فيه إذا دعي باسمه وقوبل عليه بحليته وليقم فيه قياماً بغيره لم يرض وليقدم من يجب تقديمه في العرض وليقف على معالم هذه المباشرة وجرائد جنودنا ماتضحي له من الأعلام ناشرة وليقتصد أمر كل ميت تأتي إليه م ديوان المواريث الحشرية ورقة وفاته أو يخبره به مقدمه أو نقيبه إذا مات معه في البيكار عند موافاته وليحرر ماتضمنته الكشوف ويحقق مايقابل به من إخراج كل حال على ماهو معروف حتى إذا سئل عن أمر كان عنه لم يخف وإذا كشف على كشف أظهر ماهو عليه ولاينكر هذا لأهل الكشف وليحترز في أمر كل مربعة ومافيها من الجهات المقطعة وكل منشور يكتب ومثال عليه جميع الأمر يترتب ومايثبت عنده

وينزل في تعليقه ويرجع فيه إلى تحقيقه وليعلم أن وراءه من ديوان الاستيفاء من يساوقه في تحرير كل إقطاع وفي كل زيادة وأقطاع وفي كل ماينسب إليه وإن كان إنما فعله بأمرنا المطاع فليتبصر بمن وراءه وليتوق اختلاق كل مبطل وافتراءه وليتحقق أنه هو المشار إليه دون رفقته والموكل به النظر والمحقق به جملة جندنا المنصور من البدو والحضر.

وإليه مدارج الأمراء فيما تنزل وأمر كل جندي له ممن فارق أو نزل وكذلك مساوقات الحساب ومن يأخذ بتاريخ المنشور أو على السياقة ومن هو في العساكر المنصورة في الطليعة أو في الساقة.

وطوائف العرب والتركمان والأكراد ومن عليهم تقدمة أو يلزمهم روك بلاد أو غير ذلك مما لايفوت إحصاؤه القلم وأقصاه أو أدناه تحت كل لواءٍ ينشر أو علم فلا يزال لهذا كله مستحضراً وعلى خاطره محضراً لتكون لفتات نظرنا إليه دون رفقته في السؤال راجعة وحافظته الحاضرة غنيةً عن التذكار والمراجعة.

أصحاب التواقيع الوظيفة الثالثة نظر الدواوين المعبر عنها بنظر الدولة وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن موضوعها التحدث في كل مايتحدث فيه الوزير وأن كل ماكتب فيه الوزير يكشف مثلاً كتب فيه يكشف عما رسم به ونحو ذلك.

وتقدم ذكر ألقابه في الكلام على مقدمات الولايات من هذا الفصل وتقدم ذكر مايكتب في طرة توقيعه في الكلام على التواقيع.

وهذه نسخة توقيع بنظر الدواوين كتب له لتاج الدين بن سعيد الدولة وهي: الحمد لله الذي خص من أخلص في الطاعة من آلائنا بحسن النظر وأجنى من غرس في قلبه أصل الإيمان من عوارف أيامنا الزاهرة يانه الثمر ورفع من استضاء في دولتنا القاهرة بأنوار الهدى من حجول الرتب إلى مكان الغرر وأظهر لوامع السعادة من نعمنا على من أضاءله الرشد فرآه بعين البصيرة قبل البصر.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة خهي أرفع مايقتنى وأنفع مايدخر وأفضل مانجت له الفرقة الموحده وهلكت به الفرق الأخر ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف البشر وأرأف البدو والحضر والمبعوث إلى الأمم كافةً لما قضاه الله تعالى من سعادة منآمن وشقاوة من كفر صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الميامين الغرر صلاةً دائمة الورد والصدر باقية العين والأثر وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من خصه برنا بالنظر الحسن وشمله كرمنا من الرتب بما يهجر في بلغوغ مثله الوسن واشتمل عليه معروفنا بما يجعل يراعه في مصالح الدولة القاهرة جميل العبارة حسن اللسن من سمت به نفسه إلى سعادة الآخرة فأتته سعادة الدنيا تابعة وسلك في مراضي الدولة القاهرة طريق الإخلاص فغدت لكل خير حاويةً ولكل يمن جامعة كمع كفاءةٍ جاءت المناصب على قدر ومعرفةٍ مالحظت المصالح بأقرب نظر إلا نمت الأموال وبدرت البدر وخبرةٍ مااعتبرت فيها محاسن سيرته في كل مايباشره إلا صغر خبرها الخبر ونزاهةٍ سلكت في كل مايليه أحسن المسالك وعفةٍ رفعته من الرتب الديوانية إلى مفارقها ولارتبة للتاج إلا ذلك.

ولما كان فلان هو الذي اجتنى من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضل الجنى وفازمن عوارفها العميمة بجميل المخالصة مازاد على المنى وانتمى من أدوات نفسه إلى كمال المعرفة والعفة وهما أفخر مايدخر للرتب الجليلة وأنفس مايقتنى وعني من أسباب استحقاقه المناصب بما اقتضى إحسان الدولة القاهرة أن يحتفل بتقديمه وأن يعتنى.

فلذلك رسم أن يفوض إليه نظر الدواوين المعمورة: فليباشر ذلك محلياً هذه الربتة بعقود تصرفه الجميل ومجلياً في هذه الحلبة بسبق معرفته الذي لا يحتاج إلى دليل ومبيناً من نتائج قلمه مماييرهن على أنه موضع الاختيار ومن كوامن اطلاعه مالايحتاج إلى برهان إلا إذا احتاج إليه النهار فلا يزال فرع يراعه في روض المصالح مثمراً وليل نقسه في ليل الأعمال مقمراً وحسن نظره إلى ماقرب ونأى من المصالح محدقاً ولسان قلمه لما دق من أمور الأقاليم محققاً ورسم خطه لما يستقر في الدواوين المعمورة مثبتاً ووسم تحريره لما يجتبى من غروس المصالح منبتاً ولدر أخلاف الأعمال بحسن الاطلاع محتلباً ولوجوه الأموال بإنفاق التوجه إلى تثميرها إن أقبلت مجتلياً وإن أعرضت مختلباً فإن الأمور معادن يستثيرها التصرف الجميل ومنابت ينميها النظر الجلي والإتقان الجليل.

وملاك كل أمر تقوى الله تعالى فيجعلها إمامه ويتخيلها في كل حالٍ أمامه والله تعالى يوفقه يمنه وكرمه! قلت: وربما أضيف إلى نظر الدواوين المعمورة نظر الصحبة الشريفة الآتي ذكرها وكتب بها جميعاً لشخص واحد.

وهذه نسخة توقيع بها جميعاً كتب لها لتاج الدين بن سعيد الدولة على إثر إسلامه من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهي: الحمد لله الذي خص من أخلص في الطاعة من آلائنا بحسن النظر وأجنى من غرس في قلبه أصل الإيمان من عوارف أيامنا الزاهرة يانع الثمر ورفع من استضاء في دولتنا القاهرة بأنوار الهدى من حجول الرتب إلى مكان الغرر وأظهر لوامع السعادة من نعمنا على من أضاء له الرشد فرآه بعين البصيرة قبل البصر.

نحمده على إحسانه الذي عمر وامتنانه الذي بهر وفضله الذي عم كل من زظهر له الهدى ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً هي أرفع مايقتنى وأنفع مايدخر وأوضح مانجت له الفرقة الموحدة وهلكت به الفرق الأخر ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف البشر وأرأف البدو والحضر والمبعوث إلى الأمم كافة لما قضاه من سعادة من آمن وشقاوة من كفر صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الميامين الغرر صلاةً دائمة الورد والصدر باقية العين والأثر وسلم تسليماً كثيرا.

وبعد فإن أولى من خصه برنا بالنظر الحسن وشمله كرمنا من الربت بما يهجر في بلوغ مثله الوسن واشتمل عليه معروفنا بما يجعل يراعه في مصالح الدولة القاهرة جميل العبارة حسن اللسن من سمت به نفسه إلى سعادة الآخرة فأتته سعادة الدنيا تابعة وسلك في مراضي الدولة القاهرة طريق الإخلاص فغدت لكل خيرٍ حاوية ولكل يكممن جامعة مع كفاءةٍ جاءت المناصب على قدر ومعرفةٍ مالحظت المصالح بأقرب نظرٍ إلا نمت الأموال وبدرت البدر وخبرةٍ مااعتبرت فيها محاسن سيرته في مباشرةٍ إلا صغر خبرها الخبر ونزاهةٍ سلكت به في كل مايليه أحسن المسالك وعفةٍ رفعته من الرتب الديوانية إلى غررها ولارتبة للتاج إلا ذلك.

ولما كان فلان هو الذي اجتنى من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضل الجنى وفاز من عوارفها العميمة بجميل المخالصة مازاد على المنى وانتمى من أدوات نفسه إلى كمال المعرفة والعفة وهما أفخر مايدخر للرتب الجليلة وأنفس مايقتنى وعني من أسباب استحقاقه المناصب والرتب بما اقتضى إحسان الدولة القاهرة أن يحتفل بتقديمه وأن يعتنى - فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه نظر الدواوين المعمورة ونظر الصحبة الشريفة.

فليباشر ذلك محلياً هذه الرتبة بعقود تصرفه الجميل ومجلساً في هذه الحلبة بسبق معرفته التي لاتحتاج إلى دليل ومبيناً من نتائج قلمه مايبرهن على أنه موضه الاختيار ومن كوامن اطلاعه مالايحتاج إلى برهان إلا إذا احتاج إليه النهار فلا يزال فرع يراعه في روض المصالح مثمراً وليل نقسه في ليل الأعمال مقمراً وحسن نظره إلى ماقرب ونأى من الصمالح محدقاً ولسان قلمه لما دق وجل من أمور الأقاليم محققاً ورسم خطه يستقر في الدواوين المعمورة مثبتاً ووسم تحريره لما يجتنى من غروس المصالح منبتاً ولدر أخلاف الأعمال بحسن الاطلاع محتلباً ولوجوه الأموال بإنفاق التوجه إلى تثميرها إن أقبلت مجتلياً وإن أعرضت مختلباً فإن الأمور معادن يستثيرها التصرف الجميل ومنابت ينميها النظر الجلي والإتقان الجليل وملاك كل أم رتقوى الله تعالى فليجعلها إمامه ويتخيلها في كل وقت أمامه والله تعالى يوفقه بمنه وكرمه والخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه.

أصحاب التواقيع الوظيفة الرابعة نظر الصحبة وموضوعها أن صاحبها يتحدث مع الوزير في كل مايتحدث ويشاركه في الكتابة في كل مايكتب فيه ويوقع في كل مايكتب فيه للوزير.

وهذه نسخة توقيع بنظر الصحبة كتب به للشريف شهاب الدين نتاظر الصحبة من غنشاء الشهاب محمود الحلبي وهو: الحمد لله الذي جعل الشرف حيث حل ركابنا مصاحباً وأطلع ببفضل في أفق خدمتنا من أولياء دولتنا شهاباً ثاقباً وعدق النظر في صحبتنا بمن لم يزل لمصالحنا ملاحظاً ولأوامرنا مراقباً وفوض أمور مباشرة حال من اجتهد أو قصر في خدمتنا إلى من لم يزل بنفسه في واجب الطاعة منافساً وعلى فرض الموالاة محاسباً.

نحمده حمد من أجمل في أوليائنا نظراً وخص بالنظر في صحبتنا من اختبرت خدمته فتساوت في الطاعة والمناصحة سفراً وحضراً واعتمد في ملاحظة مباشري مايمر عليه من ممالكه على من لايهمل له حقاً ولايحدث له ضرراً.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً لاتزال جيوشنا لإعلاء منارها مجهزة وسرايانا إلى مقاتل جاحديها البارزة مبرزة ووعود النصر على من ألحد فيها لنا معجلة وعلى أيدينا منجزة ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أنهضنا الله منن جهاد أعداء دينه بما فرض وأيقظنا لرفع أدقار أهل بيته فلم يقصر بأحد منهم في أيمنا أمل ولابعد عليه غرض وخصنا منهم بمن تمسك بجوهره الأعلى فلم يتعرض من من هذا الأدنى إلى عرض صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين مامنهم إلا من يكاد يمسكه عرفان راحته وإلا المؤثر طاعة الله ورسوله وأولي الأمر على راحته صلاةً دائمة الاتصال آمنة شمس خلودها من الغروب والزوال وسلم تسليماً كثيرا.

وبعد فإن أولى من اخترناه لصحبتنا الشريفة على علم وأعددناه لمهماتنا الكريمة لما فيه من تسرع إدراك وتثبتٍ في حكم وبسطنا له فيما عدقناه به من ذلك لساناً ويداً وحفظنا به ال وال من وصول مسترق السمع إليها " فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً " وادخرناه أقلامه لمصالح كل إقليم يمر ركابنا الشريف عليه وفوضنا مناقشة مباشريه على ماأهملوه من حقوق الله تعالى وحقوق الرعايا إليه وقمناه لتصفح ذلك بنفسه وتلمح زيادة كل يومٍ على أمسه وانتزاع الحق ممن مد يده إلى ظلم بكف كفه عنه ورفع يده وارتجاع الواجب ممن أقدم عليه بالباطل في يومه واطرح المؤاخذة به في غده وغير ذلك مما أحصاه الله ونسوه واعتمدوا فيه على المصلحة فاجتنبوا ثمرة ما غرسوه - من كان له في المناصحة قدم صدقٍ عند ربه وفي خدمة الدولة القاهرة قدم هجرة تقتضي مزيد قربه فكان أبدأ بمرأى من عنايتنا ومسمع ومن إحساننا بالمكان الذي ليس لأحدٍ من الأكفاء في بلوغ غايته أمل ولامطمع وتفرد باجتماع الدين والمنصب والأصالة والعلم والكرم وهذه خلال الشرف أجمع.

ولما كان فلان هو الذي اجتنى من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضل الجنى وفاز من عوارفها العميمة بجميل المخالصة مازاد على المنى وانتمى من أدوات نفسه ونسبه إلى كمال المعرفة والعفة وهما أفخر مايدخر للرتب الجليلة وأنفس مايقتنى وعني من أسباب استحقاقه المناصب والرتب بما اقتضى إحسان الدولة القاهرة أن يحتفل بتقديمه وأن يعتنى.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه نظر الصحبة الشريفة.

فليباشر ذلك محلياً هذه الرتبة بعقود تصرفه الجميل ومجلياً في هذه الحلبة بسبق معرفته التي لاتحتاج إلى دليل ومبيناً من نتائج قلمه مايبرهن على أنه موضع الاختيار ومن كوامن اطلاعه مالايحتاج إلى برهان إلا إذا احتاج إليه النهار فلا يزال فرع يراعه في روض المصالح مثمراً وليل نقسه في ليل الأعمال مقمراً وحسن نظره إلى ماقرب ونأى من المصالح محدقاً ولسان قلمه لما دق وجل من أمور الأقاليم محققاً ورسم خطه لما يستقرفي الدواوين المعمورة مثبتاً ووسم تحريره لما يجتنى من غروس المصالح منبتاً ولدر أخلاف الأعمال بحسن الاطلاع محتلباً ولوجوه الأموال بإنفاق التوجه إلى تثميرها إن أقبلت مجتلياً وإن أعرضت مختلباً فإن الأمور معادن يستثيرها التصرف الجميل ومنابت ينميها النظر الجلي والاتقان الجليل وملاك كل أمر تقوى الله تعالى فيجعلها إمامه ويتخيلها في كل حال أمامه والله تعالى يسدده ويوفقه يمنه وكرمه! إن شاء الله تعالى.

قلت: وربما أضيف إلى نظر الصحبة نظر الدواوين الشريفة وحينئذ فيحتاج الكاتب أن يأتي في براعة الاستهلال بما يقتضي الجمع بينهما ويورد من الوصايا مايختص بكل منهما.

والكاتب البليغ يتصرف في ذلك على وفق مايحدث له من المعاني ويسنح له من الألفاظ.

أصحاب التواقيع الدرجة الثانية ما يكتب في قطع الثلث من تواقيع أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة بالديار المصرية مايكتب في قطع الثلث: بالمجلس السامي بالياء مفتتحاً بالحمد لله إن قصد تعظيم المكتوب له على ماهو الأكثر أو بأما بعد حمد الله جريا على الأصل لما يكتب في قطع الثلث على ما تقف عليه في النسخ وتشتمل على وظائف: أصحاب التواقيع الوظيفة الأولى كتابة الدست والمراد دست السلطنة.

وقد تقدم الكلام عليها في مقدمة الكتاب في الكلام على ديوان الإنشاء وتقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن موضوعها أن يجلس أصحابها بدار العدل أيام الكواكب خلف كاتب السر ويقرأون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر ويكتبون عليها بما تقتضيه الحال بعد إشارة السلطان بالكتابة ثم يحمل ما يكتبون عليه من القصص إلى كاتب السر فيعينها.

وأن هذه الوظيفة كانت من أجل الوظائف وارفعها قدراً منحصرةً في عددٍ قليل نحو الثلاثة فما حولها ثم وقع التساهل في أمرها ودخل فيها العدد الكثير حتى جاوز العشرين وبقيت الرياسة فيهم لعدد مخصوص منهم وقنع الباقون بالاسم.

وقد تقدم ذكر طرة توقيعه في الكلام على التواقيع.

وهذه نسخة توقيع بكتابة الدست وهي: الحمد لله الذي فضل الكرام الكاتبين وأحيا بفضائل اللآخرين الأولين الذاهبين وأنزل في القصص " لا تخف نجوت من القوم الظالمين ".

نحمده وهو المحمود المعين ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة قومٍ مخلصين ونشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين ورسول رب العالمين والشافع من المذنبين من المؤمنين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً باقيةً إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن العدل الشريف دار جدرانها الأمر المطاع وأبوابها الخير الذي لايضاع وسقفها الرحمة والاتضاع وصدرها الإحسان المديد الباع وصحنها الأمن والسرور فلا يخاف أحد فيه ولايراع وجلساؤها الكابتون عارضو الرقاع وهم معدن الصدارة وموطن الكتابة والكناية والإشارة وأقلامهم تأتي بحسن التشبيه والاستعارة وتطرز حواشي الرقاع بوشي بادي الإنارة ماختير أحدهم للجلوس في دسته إلاوقد أرضى من اختاره وتميز بحسن السمت والوفاء والوقار والشارة.

ولما كان فلان هو الذي له في السؤدد أصل عريق وفي الفضائل له قلم مطيق وفي البلاغة له لسان منطيق وإذا دبج قرطايه فهو للروض شقيق ونباته الجوهر لا الآس والشقيق وأصبح للجلوس في الدست الشريف أهلاً على التحقيق.

فلذلك رسم أن يستقر في كتابة الدست.

الخ فليحل هذا الدست الشريف مبهجاً ببيانه مثلجاً بنور يده ولسانه قارئاً من قصص الناس وظلاماتهم في إيوانه كل شيءٍ في أوانه لايكتم ظلامة مكتوبة في وقعه بل يعرف ملكه بها ويبلغها سمعه فإنه في هذا المحل أمين والأمين محل النصح والخير والرفعة وإذا وقع فهو مأمور فليأت بما يبهج الصدور ويشفي غليل الشاكي بلفظه الزاكي والوصايا كثيرة لكن سنلمك ببعضها الحاكي وهو تقوى الله فهي تاجها المجوهر وبدرها المنور وكوكبها الأزهر والله تعالى يمتعه بالفضل الذي لايحول ولايتغير بمنه وكرمه! إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة توقيع من ذلك أيضاً وهي: الحمد لله الذي أفاض على الأولياء من فضله وأهمى عليهم من مواهبه مايقصر عنه الغمام في وبله وطله ومنح دست الملك الشريف من الألفاظ المجيدة والفضائل المفيدة.

نحمده على نعمه التي أجزلت إحسانها وأجملت امتنانها وبزغت مزهرةً فقدمت من الدولة أعيانها ونشكره على عوارفه التي ألقي لأهل الثناء عننها ورحب لذوي البيوت صدرها وفض عنوانها.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً تشهد القلوب إيمانها ويدخر القائل لها ليوم المخاف أمانها ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أظهر الله به الشريعة المطهرة وأبانها وشرف به هذه الأمة ورفع على جميع الأمم شانه وبعثه رحمةً إلى كافة الخلق فأقام بمعجزاته دليل الهداية وبرهانها وأطفأ بنور إرشاده شرر الضلالة ونيرانها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين مامنهم إلا من نزه نفسه النفيسة وصانها وسلك في خدكته وصحبته الطريقة المثلى فأحسن إسراره أموره وإعلانها صلاةً دائمةً باقيةً تجمل بالأجور اقترانها وسلم تسليماً كثيرا.

وبعد فإنه لما كانت وظيفة توقيع الدست الشريف من أجل الوظائف وأسناها وأنفسها وأعلاها وأجملها وأبهاها القائم بها سفير الرعية إلى الملك في حاجتهم وترجمان معرب عن شكايتهم وكاشف أحسن ناشر عن ظلامتهم جالس على بساط الأنس بقرب تعين أن يندب رئيس وابن رئيس وجوهر بحرٍ نفيس - الحضرة منفذ نهي مليكه وأمره مبلغ ذا الحاجة من إنعامه جوده وبره ذو أصل في السؤدد عريق ولسانٍ في الفضائل طليق وقلم حلي الفاضل على التحقيق وكان المقر العالي الفلاني هو المشار إليه بهذه الأولوية والمراد من سطور هذه المحامد اللؤلؤية فلذلك رسم بالأمر العالي أن يستقر المشار إليه في وظسفة توقيع الدست الشريف عوضاً عن فلان بحكم وفاته.

فليباشر ذلك مباشرة تشكر مدى الزمان وتحمد في كل وقتٍ وأوان وليدبج المهارق بوشي يفوق قلائد العقيانن وليملأ بالأجور لنا صحفاً بما يوحيه عنا من خيراتٍ حسان ونحن فلا نطيل له الوصايا ولانحليه بها فهي له سجايا مع ماأدبه به علمه الجم وعمله الذي ماانصرف إلى شيء إلا تم ويجمعها تقوى الله تعالى وهي عقد ضميره وملاك أموره ومابرح هو وبيته الكريم مصابيح أفقها ومفاتيح مغلقها ولهم حدد ملابسها وللناس فواضل مخلقها والله تعالى يزيده من إحسانه الجزيل ونعمه التي يرتدي منها كل رداءٍ جميل ويمتعه بإمارته التي ماشكر بها إلا قال أدباً: حسبنا الله ونعم الوكيل والاعتماد في مسعاه على الخط الكريم.

أصحاب التواقيع الوظيفة الثانية نظر الخزانة الكبرى وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن هذه الوظيفة كانت كبيرة الموضع من حيث إنها مستودع أموال المملك إلى أن حدثت عليها خزانة الخاص فانحطت رتبتها حينئذ وسميت الخزانة الكبرى باسمٍ هو أعلى منها وأنه لم يبق فيها سوى خلع تخلع وتصرف أولاً فأولاً.

وقد تقدم مايكتب في طرة توفيع ناظرها.

وهذه نسخة توقيع بنظر الخزانة: الحمد لله الذي جعل الخزائن لذخائرنا كهوفاً وملابس إقبالنا سنوفاً ومواهبنا تجزل عطاءً ومعروفاً وإقبالنا على محسن التدبير ومجمل التأثير عطوفاً وأيدينا في إسكان جنتها قطوفاً.

نحمده حمداً مألوفاً ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً أوضحت معروفاً ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أزال مخوفاً وأقام الصلاة والجهاد صفوفاً وشهر على العدا عند تأييد الهدى سيوفاً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ماسدل الليل سجوفاً وسلم تسليماً.

وبعد فإن الملك الشريف له تحف مصونة وذخائر مكنونة وأصناف حسان في خزائننا مخزونة وجواهر عالية القيمة ثمينة لايقوم عليها إلامن لايمد عين عفافه إلى المال وإن كثرت آلافه وولج لجة هذه الذخائر ولم تلم بالبلل أطرافه وهو فلان: العريق في انتسابه الوثيق انتماؤه إلى فضل الله وجنابه النقي ثوب عرضه التقي بتمسكه بسنته وفرضه الوفي نظره بغضه المستمسك بجمبع الخير دون بعضه من بيت السيادة ومن هو من بيت السيادة فالسؤدد نجم سمائه وطود أرضه.

فللك رسم بالأمر الشريف أن يستقر.

فليباشر هذه الوظيفة بعمل ونية متسلماً ذخائر هذا الخزانة العلية وأمورها وأحوالها وتفصيلها وإجمالها وحمولها وأحمالها وحللها المرقومة وذخائرها المعلومة وجواهرها المنظومة وأكياسها المختومة وصناديقها المركومة ماعن علمه فيها شيء خاف وصونه لها كاف وأمر الله بين النون والكاف.

وليعلم أن خزائننا تصب فيها سحائب التحف والأموال والأصناف من سائر الممالك والمدن والثغور والأطراف ومنها يخرج بجهاز مواهبنا وإنعامنا للأولياء الأشراف وإنما هي لمصالح المسمين في الجمع والائتلاف وتقوية أهل الطاعة على أهل الاختلاف فليضبط ماتطلقه وإن كانت الأقلام لا تستطيع ذلك لكثرة الإسعاف ولتكن التشاريف المثمنة الكاملة حاصلة بمناطقها المجوهرة الهائلة وطرزها الطائلة وتعابيها الفاضلة حتى إذا أنعمنا منها على أحدٍ بشيءٍ يأيت بحموله وقد حمد فاعله.

والوصاياكثيرة وتقوى الله نظام عقدها وغمام رفدها وزمام مجدها وتمام سعدها فليكن متلفعاً ببردها متضوعاً بندها وهو غني عن الوصايا ومدها والله تعالى يؤيد حركاته في قصدها والخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

وهذه وصية لناظر الخزانة أوردها في التعريف وليملأ بنظره صدور الخزائن وليجمع فيها أشتات المحاسن وليعد فيها كل مايدخر للإنفاق ويحتفظ به للإطلاق ويحصل مايضاهي البحر بالتفريع والتأصيل والجمل والتفاصيل ومالايوزن إلا بالقناطير ولايحصي منه ملء الأساطير ومايهيأ من التشارف الشريفة التي تباهي أشعة الشموس بلمعها وتحاسن وشائع الروض بخلعها ومافيها من مخلقات ألوانٍ لاتماثل بتصوير ولايظنها الأولياء إلا الجنة ولباسهم فيها حرير وماتحتوي عليه من عتابي وأطلس ومشربش ومقندس وكل طراز مذهب وباهي وماهومن ذهب أو له يضاهي وكل مايتشرف به صاحب سيف وقلم ويعطى إنعاماً أو عند أول استخدام في خدم وماهو مع هذا من أنواع المستعملات والنواقص والمكملات ومايحمل من دار الطراز ويحمد مما يأتي من المبتاع من بز وبزاز وماهو مرصد للخزانة العالية من الجهات التي يحمل إليها متحصلها لينفق في أثمان

المبيعات ومايستعمل ومايعلم منه بالطرز ويعمل وبقية ما يدخر في حواصلها من مال بيت المال الذي يحمل وذلك كله فهو الناظر عليه والمناظر عنه مما خرج من عنده ووصل إليه والمحاجج عنه بالمراسيم التي تشك للحفظ وتنزل لديه فليراع ذلك جميعه حق المراعاة وليحرر قدر ماينفق من الأثمان وقيمة المبيعات ولحترز فيما يزكي بعضه بعضاً من شهادة الرسائل المكتتبة إليه بالحمول ومايكتب بهامن الرجعات وليعر المعاملين من نظره مالايجدون معه سبيلاً ولايقدرون معه على أن يأخذوا فوق قدر استحقاقهم كثيراً ولاقليلاً وليقدم تحصيل كل شيءٍ قبل الاحتياج إليه ووبدعه لوقته ولايمثل لديه إلا سرعة الطلب الذي متى تأخر أخر لوقته والأمانة الأمانة والعفاف العفاف فما كان منهما واحد رداء امريءٍ إلا زانه ولولاهما لما قال له الملك إنك اليوم لدينا مكين أمين وسلم إليه الخزانة.

الوظيفة الثالثة نظر خزانة الخاص وهي الخزانة التي استحدثت في الدولة الناصرية 0 محمد بن قلاوون 9 عند استحداث وظيفة نظر الخاص وقد انتقل ماكان يحمل إلى الخزانة الكبرى ويصرف منها إلى هذه الخزانة سوى الخلع كما تقدمت الإشارة إليه في الكلام على توقيع ناظر الخزانة الكبرى.

وهذه نسخة توقيع بنظر خزانة الخاص كتب به للقاضي شرف الدين محمد بن علاء الدين الجوجري في مستهل شهر رجب الفرد سنة تسع وثلاثين وسبعمائة وهي: الحمد لله الذي زاد بنظرنا الشريف شرف من لمحه من أوليائنا ولحظه وأفاد المستأنف من برنا من عهدنا له الفطره السليمة وتيقنا منه الفكرة واليقظة وأعاد للخلف الكريم وجعلهم على خزائن جودنا العميم: لأنهم العلماء الحفظة وجاد بالطرف من خاص إنعامنا لمن لقلمه عند الإدناء من سرير الملك إنجاز عدة وللسانه عند ارتقاء منبر النسك إبراز عظة.

نحمده على أن أجزل لمن عول على شامل كرمنا جزاءه وعوضه ونشكره على أن تطول بنوافل نعمنا لمن قام بعد أبيه بلوزام خدمتنا المفترضة وعكف أعمالنا على بيتٍ مباركٍ مامنهم إلا من شمل من إحساننا بالمنح لما بذل لسلطاننا من النصح ومحضه.

ونشهد أن لاإله إلا وحده لاشريك له شهادة يودع مصونها في الآرائك المتعلية ويقصطع الشكوك المعترضة ونشهد أن سيدنا محمداً عبده وروسوله الذي عظمت عطايا بذله فالبحار المرتفعة عنها منخفضة وكرمت سجايا فضله فليست بمنتقلة وأبرمت قضايا عدله فليست بمنتضة وعمت البرايا يده البيضاء التي هي بالأرزاق في الآفاق منبسطة وليست عن الإنفاق خشية الإملاق منقبضة صلى الله عليه وعلى آله وصحبة الذين مامنهم إلا من اقرض الله قرضاً حسناً فضاعف له ماأقرضه صلاة تدني لقائلها في الأولى من النعمة والأمان أمله وتؤتيه في الأخرى من الرحمة والرضوان غرضه وسلمه تسليماً كثيرا.

وبعد فإن أولى من رفع بإكرامنا إلى رتبة علائه واتفع من مقامنا الشريف باختصاص خدمته وإخلاص ولائه - من شفع مزاياه بجمع أشتات العلوم في أبكاره وآنائه واستودع ذخائر ملكنا المصونة فكان حفيظاً عليماً عند اقترابه منا وإدنائه وصدع القلوب بإيداع وعظه وإبدائه واتبع سبيل والده القويم في الشدة في الحق والتصميم وسلك طريقته التي هداه الله إليها بتوفيقه فأدرك غايته في ابتدائه وقنع بما آتاه الله تعالى فآثرت مكارمنا رفعة محله وتوسعة حبائه وبرع في إتقان الفضائل التي آذنت بإصطفائه واجتبائه ووقع عليه اختيارنا الذي نستخير الله تعالى له في إبرام كل أمرٍ وإمضئه وأجمع عليه رأينا الذي كم أصاب الصواب في تعيين العلماء الأنجاب فنص عليه الاستحقاق بإيجاب الترجيح واقتضائه.

وكان المجلس السامي الشرفي هو الذي قدمناه بعد أبيه لشهادة خزائننا الشريفة فشاهدنا من حسن سيره مأأبهج ونظمناه في سلك أولياء الملك فسلك من الخير أقوم منهج ثم أردنا الآن أن هلاله ينتقل إلى رتبة الكمال لما تدرب وتدرج وأعدنا له تام بذكره لدينا وبشكره عندنا يلهج - فاقتضى حسن الرأي الشريف أن - الإقبال حيث شرف دولتنا الأعلى - زاد الله تعالى تأييده هذا النظر الجميل عنه لايخرج وهذا الوقر الجليل لايعدل به عن فرع منجب لأصل طيب أثمر الولاء والدعاء لأيامنا الشريفة وأنتج.

فلذلك رسم بالأمر الشريف.

الخ لازالت الصدور بصدور أحكامه تثلج والأمور بمرور إنعامه تفضل على الحق الأبلج - أن يستقر في نظر حزانة خاصنا.

الخ فلينطلق لسان كلمه بالإخلاص في حمد الخاص والعام من هذا الإكرام الذي بمطارفه تسربل وبعوارفه تتوج وليطلق سنان قلممه في تبييض المصاحف بذكر إنعام المقام الذي هو كالبحر ويفصح عن حمده فهو بحم الله لايتلجلج وليحقق ببيان حمكمه ضبط الأصل والخصم والواصل والحاصل والمحضر والمخرج ولينفق في أوليائنا من عوائد صلات نعمائنا التي تقبضها أيدي ملوك المدائن ببسطٍ ومن بعضها صدور الخزائن تحرج وليسلك سنن أبيه التي بها يستظهر ويفتخر ويستدل ويحتج ويستمسك بسببه الأقوى من الديانة التي بابها من النجاة في الدارين غير مرتج ونترك له تفصيل الوصايا لأنه قرين كفيل ملكنا القوي الأمين ذي الإرشاد والسداد فمع مرافقته في الإصدار والإيراد والتكرار والتعداد لم يحتج والله تعالى يجعل الطروس بذكر تقديمه تحبر وتديج الدروس تنشر وعلومه تعطر وتتأرج بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الرابعة نظر البيوت والحاشية

وقد تقدم أن موضوعها التحدث في كل مايتحدث فيه أستاد الدار وتقدم الكلام على مايكتب في طرة تقليد ناظرها.

الحمد لله الذي عمر البيوت بنواله وكثر فيها أصناف النعم بإفضاله وجعل فيها الخير يتضاعف مع كل يوم بتجدده ومع كل شهرٍ بإقباله.

نحمده على مديد ظلاله ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة عبدٍ صادق في مقاله ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي رحم الله العالمين بإرساله وسقى الجيش من كفه بنبع زلاله وأوى إلى المدينة دار هجرته وانتقاله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الناصرين لهذا الدين في كل حاله وسلم تسليماً.

وبعد فإن طراز الملك الشريف البيوت الكريمة: فمنها يتفجر ينبوع الرزق الجاري ومنها يضيء سقط الزند الواري ومنها تبسط الخوانات وتمد الأسمطة في المهمات ومنها يقوم للسعد نصبات وأي نصبات ومنها تقسم ألوان الطيبات على مقترح الشهوات وعماد أمرها على ناظر يقوم بتأصيلها وتفريعها وتجنيسها وتنويعها وتكثير حاصلها واستدعاء واصلها وجمع كل مافيه مرغوب وادخار كل ماهو محبوب وتأليف القلوب على شكره وجل مافيها عمل القلوب.

ولما كان فلان هو الرشيد في فعله المأمون في فضله الأمين في عقده وحله المسدد في الحالكله المعطي المباشرة حقها على ماينبغي في الشهر من مستهله فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقرفي نظر البيوت.

الخ.

فليباشر هذه الوظيفة الكريمة مستجلياً المنافع مشنفاً بحسن سيرته المسامع طالعاً من العفاف في أبهى المطالع مستدعياً ماجرت العادة باستدعائه من أصناف المتجر السعيد من أصنافٍ متعددة ونواع منضدة وليزح أعذار المصالح السعيدة من كل صنف على حدة وليستجلب خواطر المعاملين بوفائهم وإنجازهم كل عدة واللرواتب اليومية ليصرفها لمستحقها والبيوتات فليسد خللها حتى لايظهر نقص فيها ومرتبات الآدر الشريفة فلتكن نصب عينيه على مايرضيها ومااخترناه لهذه الوظيفة إلا لأنه أنسب من يليها.

والوصايا كثيرة وتقوى الله فلتكن أطيب ثمراتٍ يجتنيها وأحسن منحاتٍ يجتليها وأزين زينةٍ يحتليها وهو غني عما تشافهه به الأقلام من فيها والله تعالى يصون همه ويعليها بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة توقيع بنظر البيوت: الحمد لله الذي جدد لأوليائنا ملابس السعود وشيد لهم مباني العز وزضاعف لقدرهم الترقي والصعود ووالى إليهم سحائب الفضل المستهلة بالكرم والجود.

نحمده على نعمه الضافية البرود ومننه الصافية الورود ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صاحب الحوض المورود واللواء المعقود صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين جاد كل منهم بماله ونفسه في رضاه والجود بالنفيسين أقصى غاية الجود صلاةً دائمة الإقامة في التهائم والنجود وبعد فإن أولى من غدت البيوت آهلة بوفود نظره عامرةً بسداده وجميل فكره مشيدةً بما يبديه من أوضاح التقرير وغرره - من سما همة وحسن سمتاً وسلك في الأمانة طريقاً لاعوج فيها ولاأمتاً وحل في الرتب فخلاها وتنقل فيها فما قالت له إيه وقال الذي فارقها آها وكان فلان هو الذي استحق بكفايته حسن التنقل واستوجب الصلة

والعائد لما فيه من جميل التأتي والتوصل - اقتضى حسن الرأي الشريف أن ننقله إلى رتب السعادة وأن نخصه كل حينٍ من نعمنا بالحسنى وزيادة فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقر.

فليضبط أصولها وفروعها ومفردها ومجموعها وليونس بحياطة اجتهاده ربوعها وليكفلها بأمانةٍ تضم أطرافها ونزاهةٍ تحلي أعطافها وكتابةٍ تحصر حليلها ودقيقها ونباهةٍ توفي شروطها وحقوقها وليحرر وارها ومصروفها ليغدو مشكور الهمم موصوفها وليلاحظ جرائد حسابها ويحفظ من الزيغ قلم كتابها حتى ينمي تصرفه على الأوائل ويشكر تعرفه وتعطفه على كل عامل ومعامل والله تعالى يبلغه من الخير ماهو آمل بمنه وكرمه إنشاء الله تعالى.

الوظيفة الخامسة نظر خزائن السلاح وقد تقدم أن موضوعها التحدث فيما يستعمل ويبتاع من أنواع السلاح الذي يحمل للزردخاناه السلطانية.

وقد جرت العادة أن يحمل مايتحصل من ذلك في كل سنةٍ إلى الزردخاناه مرةً واحدة.

وقد تقدم مايكتب في طرة توقيع ناظرها.

وهذه نسخة توقيع بنظر السلاح من إنشاء المولىشمس الدين بن القيسراني كتب به لفخر الدين أخي جمال الدين ناظر الخاص وهي: أما بعد حمد الله تعالى الذي ضاعف فخر المناصب بمتوليها ورفع قدر المراتب بمن يكبرها بقدره العلي ويعليها وأمد المقانب بنظر ذي المناقب الذي يزين بمرهف حزمه أسلحتهم ويحليها ويمضي بماضي عزمه كل فرند فريدٍ ليسعر نار صليله بنظره السعيد ويجلبها جاعل أيامنا الشريفة تقدم لخدحها كل سري تسري به همه إلى العلياء وتنتخب لحسن نظرها من يعلو بكرم الذات وجمال الإخاء وتولي من الأولياء من يعد للإعداء خزائن سلاح تبيدهم بها جسوشنا المؤيدة في فيافي البيداء إذا دارت رحى الحرب الزبون وثارت وغى الغارة الشعواء والشهادة له بالوحدانية التي اتسق بدرها في سماء الإخلاص وأشرق فجرها بضياء القرب والاختصاص وسما فخرها بجلال الحمال فأصبح بحمد الله آخذاً في المزيد آمناً من الانتقاص وعلا ذكرها بما درعنا به مندروع التوحيد وأسبغ علينا منه كل سابغةٍ دلاس والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ الذي خصه الله بالتكريم والتعظيم وختم به الرسل الكرام بما منحه من الاصطفاء والتقديم وأوحى إليه في الكتاب الحكيم: " أن اتبع ملة إبراهيم وقرب قربهم لديه صلى الله عليه وأذهب بينهم - فإن من شيم وعلى آله وصحبه الذين هم " أشداء على الكفار رحماء بينهم " " أيامنا الشريفة أن تبلغ أولياءها مراماً وترعى لأصفيائها ذماماً وتصطفي لولاية الرتب من أضحى ثغر ولائه بساماً وتجرد لحسن النظر من يجرد بهممه حساماً لاسيما من اقتفى سنن أخيه - أجله الله - فيما يأتي ويذر واهتدى بهديه في كل ورد وصدر وحذا حذوه السديد الأثر السعيد النظر واتبع رشده الساطع البلج اللامع الغرر وسار سيره الذي تتأرج به أرجاء الممالك فحيث سار سر إذ هو جمال الجود جلال الوجود مقيل عثار الملهوف والمجهود موئل التهائم والنجود مستجلب الدعاء لنا من الطائفين والعاكفين والركع والسجود ذو المآثر التي ذكرها أعطر من الروض المجود الموجود والمناقب التي يساوي فيها الكواكب ويسامتها في السعود والصعود.

ولما كان المجلس العالي الفخري قد أصبح فخره بأخوته نامياً وقدره بأبوته سامياً وأصبحت مفاخره به خالدة وجمع مزايا اقتضى رأينا الشريف أن أن نشدد به أزراً ونجدد له في إصلاح السلاح نظراً ليكون - وسجايا جمعت له طارف السعد وتالده لأخيه - أعزه الله تعالى - النظر على الخاص والعام وبيده مقاليد خزانتنا التي يشمل منها البرايا بصنوف الإنعام وتدبير خواصنا الشريفة وجيوشنا المؤيدة وله النظر على أعمال لبوس تقي من الجيوش البوس: البيضذات القوانس واليلب المدار والسمر المداعس والبيض المهندة.

فلذلك رسم.

لازال يجمع لأوليائه على آلائه شملاً ويرفع أقدار أهل الكرم باستقرار النعم إذ كانوا لها أهلاً وبها أولى - أن يستقر فلان في نظر خزائن السلاح المنصورة على عادة من تقدمه وقاعدته وبمعلومه الشاهد به الديوان المعمور لهذه المآثر التي بثها القلم والمفاخر التي اشتهرت كالنار على العلم فليكشف مابهذه الخزائن من عدة الحرب والآلات المعدة في الهيجاء للطعن والضرب ويشمرفي تكثيرها عن ساعد اجتهاده ويعزز مواد الإمداد بها بحسن نظره ويمن اعتماده ويستعمل برسمك جهاد الأعداء كل نصلٍ صقيل وصمصامٍ له في الهام صليل وصفيحةٍ بيضاء تبيض بها بين أيدينا الصحيفة وليوس ترهب عدو الله وتضاعف تخويفه وزاعبي يرعب وسمهري يزهق بلسان سنانه النفوس ويذهب وخرصانٍ تكلم الأبطال بأسل ألسنتها في الحروب

وقواصل لها في سماء العجاج شروق وفيتحليء الكفار غروب وبدنٍ يقد الأبدان ولأمةٍ لم تبار في تحصينها وتخييرها ولم تدان وفضفاضةٍ على جنود الإسلام تفاض وسابغةٍ تسبغ على كل واجل من أهل الإيمان ليقضي من أهل الشرك ماهو قاض.

وليحفظ ماينفق على هذا العدد من الضياع ويأت بما تأتي به الضياع على أحسن الوجوه وأجمل الأوضاع وليضبط مايصرف عليها من الأموال ويعتمد في نظرها ماتحمد عاقبة أمره في سائر الأحوال ويتيمن في سائر أفعاله بميامن كماله ويسترشد بمراشده في أموره باليمن والرشد من خلال جماله وبسلك بحسن نظره لهذه الخزائن ماينتظر به أن يفوق أنظار الأنظار ويرتقب ويعلم أن هذا أول إقبالنا عليه " وأول الغيث قطر ثم ينسكب " والله تعالى يجعل خزائن الإسلام بجمال فخره آهلة ويوردها موارد العز الدائم ويصفي من أكدار الأقذار لها مناهله والعلامة الشريفة أعلاه حجة بمقتضاه.

الوظيفة السادسة استيفاء الصحبة وصاحبها يتحدث في كل مايتحدث فيه ناظر الصحبة المقدم ذكره.

وهذه نسخة توقيع من ذلك من إنشاء القاضي ناصر الدين بن النشائي وهي: الحمد لله الذي زاد فخار أوليائنا رفعة المقدار أفاد الصحبة الشريفة خير كافٍ استوجب منا بجميل خدمته جزيل الإيثار وجاد بالجود وابتدأ السعود لمن حسن فيه الاختيار وحمد الاختبار وارتاد للمناصب العلية كل مستوفٍ للمحاسن له حقوق وفاءٍ لاتضاع وقدم ولاء أجمل فيه الإيراد والإصدار.

نحمده على نعمٍ أجزلت الآثار ونشكره على منن أجملت المسار ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة مخلص يترشف ساح ثوابها الدار في تلك الدار ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أيد الله به المؤمنين وأخمد نار الكفار وبعثه رحمةً للعالمين فأقام بناء الإسلام بعد ماكاد ينهار وأسرى به إلى السبع الطباق فطبق نبأ معجزاته الأرض وملأ الأقطار صلاةً باقية لاتزال أغصان أجورها دانية القطوف زاكية الثمار وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أجل النعم ماعلت ملابسها وأجمل المنن ماغلت نفائسها وأكمل المنح ما زكت في رياض الإقبال غرائسها وأجزل العطايا ماجليت في حلل الفخار عرائسها وأولى الأولياء بتحويل ذلك لديه وتخويل هذه المولهب إليه وإسباغ أثواب الامتنان عليه واجتبائه لرتب عليت محلاً واختياره لمنصب يصبح به جيده من عقود العناية محلى - من شكرت أوصافه واشتهر عفافه وحسن منا إسعاده وإسعافه وحمدت خلاله ومآثره وجاز فخر نعته وفخر ذاته فلا غرو أن تعددت مفاخره وأسلفنا من خدمته ماستوجب أن يجني به ثمار الإحسان وقدم بين أيدينا الشريفة من يمن تصرفه ماأنتج له مضاعفة الآلاء الحسان.

ولما كان فلان هو الذي تحلى من هذه الأوصاف بعقودها وتجلى في مطارف برودها وأثنت على خصاله ألسنة الأقلام وأثبتت جميل خلاله في صحف أوراقها وصحائف الأيام وحاز من الأمانة والنزاهة كل مايشكر به على الدوام وامتاز لحسن الكتابة التي تقر النواظر وتسر الخواطر وتزري بالروض البسام ماباشر رتبةً إلا وفى بها وحفظ أموالها وغلالها وضبط أمورها وكفى بها - اقتضى رأينا الشريف أن ننقله إلى درجات السعادة ونمنحه من إقبالنا الشريف زيادة الحسنى وحسن الزيادة ونخصه بوظيفةٍ تدنيه نما قرباً لنكون قد أجملنا له الابتداء والإعادة.

ولذلك رسم بالأمر الشريف - لازال فخر أوليائه آلائه سامياً وقدر أصفيائه بمديد عطائه نامياً - أن يستقر في كذا.

فليتلق هذا الإحسان بيد الاستحقاق وليتقلد عقود الامتنان الذي كطالمتا قلد جود الأعناق وليباشر ذلك مباشرة يسر خبرها ويسير خبرها ويشنف الأسماع تأثيرها وأثرها وليسلك فيها من السداد مايؤكد حمده ومن حسن الاعتماد مايؤيد سعده وليعتمد فيها من الأمانة ماهو المشهور من اعتماده ومن العفاف ماصح عنه نقل إسناده وليدبج المراسيم الشريفة بقلمه السعيد وليوشها بكتابته التي بها السحن مبديء ومعيد وليضبط جميع أموال الديوان المعمور وغلاله وسائر أمواله وأحواله وليستوف بقلمه على مباشريه وعماله وليحط علماً بخراج بلاده وأعماله وليسترفع الحساب شاماً ومصراً وليتصفح الرقاع بالممالك الشريفة المحروسة ليحوي بجميعها خبراً وليتعين جملها وتفصيلها ليكون بمخرجها أدرب وبمردودها أدرى وليحصر متحصلها ومصروفها ومعجلها وموقوفها حتى لايخرج شيء عن علمه ولتكن جملة هذا الأمر محررة في ذهنه ليجيب عنها عند السؤال بتحقق قهمه والوصايا كثيرة وهوبها خبير عليم حائز منها أوفى وأوفر تقسيم وملاكها تقوى الله تعالى فليجعلها عمدته وليتخذها في كل الأمور ذخيرته والله تعالى يضاعف له من لدنا إحساناً ويرفهع له قدراً وشأناً والاعتماد على الخط أعلاه.

وهذه وصية لمستوفي الصحبة أوردها في التعريف وهي: فهو المهيمن على الأقلام والمؤمن على مصر والشام والمؤمل لما يكتب بخطه في كل ترتيبٍ وإنعام والملازم لصحبة سلطانه في كل سفر ومقام وهو مستوفي الصحبة والمستولي بالهمم على

كل رتبة والمعول على تحريره والمعمول بتقريره والمرجوع في كل الأمور إلى تقديره به يتحرر كل كشف ويكف كل كف وبتنزيله وإلا مايكمل استخدام ولاصرف وهو المتصفح عنا لكل حساب والمتطلع لكل ماحضر وغاب والمناقض لأقلام الكتاب والمحقق الذي إذا قال قال الذي عنده علم من الكتاب والمظهر للخبايا والمطلع للخفايا والمتفق على صحة ماعنده إذا حصل الخلاف ووصل الأمر فيه إلى التلاف وليلزم الكتاب بما يلزمهم من الأعمال ويحررها بمستقر إطلاقه وضرائب رؤوس المال وعمل المكلفات وأن يكلفوا عملها وتقدير المساحات وليتتبع خللها وليلزمهم بتمييز قيمها بعض عن بعض وتفاوت مابين تسجيل الفدن في كل بلد بحسب ماتصلح له زراعة كل أرض وبمستجد الجرائد ومايقابل عليه ديوان الإقطاع والأحباس وغير ذلك مما لايحصل فيه التباس.

ومثلك ريزود بالتعليم ولاينازع فكل شيء يؤخذ منه بالتسليم وماثم مايوصى به رب وظيفةٍ إلا وعنده ينزل علمه وفيه ينزه فهمه وملاك الكل تقوى الله والأمانة فهما الجنتان الواقيتان والجنتان الباقيتان وقد عرف منهما بما يفاض منه عليه أسبغ جلباب وأسبل سترٍ يصان به هو ومن يتخذهم من معنين ونواب والله تعالى يبلغه من الربت أقصاها ويجري قلمه الذي لايدع في مال ممالكنا الشريفة صغيرةً ولاكبيرةً إلا أحصاها.

الدرجة الثالثة ما يكتب في قطع العادة من تواقيع أرباب الوظائف الديوانية بالديار المصرية مايكتب في قطع العادة: إما في المنصوري مفتتحاً بأما بعد حمد الله أو على قدر المكتوب له في القطع الصغير مفتتحاً برسم بالأمر الشريف إن انحط قدره على ذلك وفيها وظائف: منها: كتابة الدرج بديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة.

وهذه نسخة توقيع بكتابة الدرج الشريف كتب له للقاضي تاج الدين عبد الرحيم بن الصاحب فخر الدين بن أبي شاكر وهي: رسم بالأمر الشريف - لازالت صدقاته الشريفة تشمل نجباء الأبنا وميراته الجسيمة تجزل للولد البار حسن الزيادة وزيادة الحسنى وهباته الكريمة تقبل بوجه الإحسان على فرع الأصل الأسمى وترصع تاجه بجوهر فخره الأسنى وسماته الوسيمة بجمل شد أزر الوزارة الفخمة بأكفأ نجل ثنى الزمان عنان الرياسة إليه وعليه أثنى - أن يستقر فلان في كذا وكذا: لأنه ربي في حجر الرياسة واجتنى من الروض المجد الذي أعلى السعد غراسه ونشأ من محل السؤدد والفخار وبزغ من بيتٍ حقت له رفعة الأقدار وبسق غصن فرعه من أصلٍ ثابت وسما بدوح عز في مواطن المعالي نابت وهمى ندى قلمه بانتسابه إلى سراة الكتاب فناهيك من كاتبٍ لأبي الخلل كابت تعترف الدولة لسلفه لسالف العهود وتغترف من منهل تدبيرهم المورود وتتحلى من تاجهم بأسنى العقود وتسمو من فخر وزارتهم فخرهم بما يملأ الوجود بالجود وتختال من تصريف أقلامهم وأقلام تصريفهم في ففجرها الباذخ - روض التنفيذ المجود فإن ذكرت ملآثر جده قصرت عن إدراكها الجدود وإن شكرت مناقب والده - أجله الله مشهود وهو بلسان العام والخاص ممدوح محمود وإلى معاني خطه تنتهي درجات الصعود والسعود فلا غرو لهذا الفرع الناجب أن يتبع أصله وأن يسلك فضائله وفضله وأن يقفو منهجه ويحذو في الكتابة طريقته المبهجة ويأتي من البراعة بسننها القويم ويبرز من اليراعة وشي خطه الرقيم وأن يحلي أجياد المهارق بجوهر تاجه النضيد النظيم وأن تحلو ألفاظه في الإنشاء حين تمر على الأسماع مرور النسيم سيما وقد ظهرت عليه من مخايل الرئاسة دلائل وشرعت له مناهل الأدب والفضائل وحاز من حسن النشأة ما سار بشكره المثل وحصل من الاشتغال على كنز المعرفة واشتمل وغدا جديراً بكل مرتبة سنية وكل رفعة هي بأعدائها مبنية فليباشر ذلك مباشرة يجعلها لباب المعالي مفتتحاً وللزيادة من كل خير سبباً كلما أبدى الدهر مساءً وضحى ولينقل في اتباع مهيع المجد عن والده ودجده أبقاهما الله تعالى وليدأب للتحلي بأخلاقهما الحسنة أقوالاً وأفعالاً وليبهج الطروس بوشي قلمه ولينمق المكاتبات ببلاغة كلمه وليتخذ الصون شعاره والعفاف دثاره والأمانة معتمده والنزاهة مستنده وضبط القول مادته وحفظ اليد واللسان جادته والوصايا كثيرة وملاكها التقويى وهي حليته الحقيقية وعقيدته العقلية والمنطقية فليجعلها دأبه وليرض في إعلانه لها ربه والله تعالى يعلي قدره وجده ويحفظه وأباه وجده.

وهذه نسخة توقيع شريف بمتابة درج تجديداً وهي: رسم.

لازال يمنح الأولياء بتجديد النعم إحسانا ويولي البلغاء فضلاً يعلي بهم رتبةً وشانا ويبدي لهم في ديوان إنشائه الشريف - فضائل جمةً وبيانا - أن يجدد هذا التوقيع الشريف باسم فلان تجديداً لأنوار الإحسان إليه وتأكيداً لمزايا الامتنان لديه وتسديداً لمستنده الذ ألقاه وجه الإقبال إليه لما حازه من فضيلةٍ تامة وبلاغةٍ ملأت ببديع المعاني ومعاني البديع ألفاظه وكلامه وكتابةٍ أجرت في حواشي الطروس بمحقق التوقيعات أقلامه وأمانةٍ بنت على الصدق والعفاف أقسامه ورياسةٍ تأثل مجدها فبلغ مرامة واتصل سعدها فلا يخشى انفصامه وبعد شأوها فهي السامية إلى رفع المنازل من غير سآمة.

قد اتصف من البراعة بجميل الأوصاف وظهر استحقاقه فهو باد غير خاف وتروى من بحر البلاغة حيث ورد منهلها الصاف وسلك طرق الخير فتضاعف له الإسعاد والإسعاف وامتاز بمزايا التجمل في أموره والعفاف واستحق بذلك أن نجدد له فضل الألفة ونؤكد له بكرمنا نيلاً اعتاده وعرفه.

فليستمر في ذلك استمرار " به أسباب الخير مؤتلفة ووجوه الفضائل عن صنوف الكتابة غير منصرفة وليبد من البلاغة بيانها البديع ويجمل منزل العلياء الرفيع ويسلك مسلك ه في الأمانة ويتق الله تعالى بملازمة المراقبة والديانة والله تعالى يعلي مكانه ويزيد في اقتناء الفضائل إمكانه والاعتماد على العلامة الشريفة أعلاه إن شاء الله تعالى.

قلت وربما كتب التوقيع لكاتب الدرج بزيادة معلوم فيحتاج الكاتب إلى أن يأتي بعبارة تجمع إلى ماتقدم من براعة الاستهلال مايليها من موجب الاتسحقاق وسبب الزيادة وترادف الإحسان.

وهذه نسخة توقيع بشهادة الخزانة كتب به لابن عبادة وهي: أما بعد حمد الله الذي أفاض على الأولياء من خزائن فضله وأفاء لهم أوفر نصيب من إحسانه المشور فيه عدل قسمه وقسم عدله وأهمى عليهم من سحب مواهبه مايقصر عنه الغمام في وبله وطله وأسبغ عليهم من جوده العميم مايصفو لديهم المرح في وارف ظله والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ نبيه ورسوله أشرف رسله وخاتم من جاء من الأنبياء من قبله والهادي ببعثته الشريفة إلى طرق الحق وسبله وعلى آله وصحبه الذين تابعوه في قوله وفعله وبايعوه على المظاهرة في نصرة الدين الحنيف وأهله وجمعوا هممهم على التئام كلمة الإيمان وجمع شمله وأرهف كل منهم في نصره ماضي عزمه ونصله - فإن أولى من رعيت له حقوق ذمامه ومنح أجزل العطاء الذي تقضي الأقدار بدوامه ولوحظ بعين الإقبال ما أسلفه من حسن الطاعة لله ولرسوله ولإمامه - منجد في الخدمة فأضحى الجد له خادماً وداوم على المناصحة فغدا سعده دائما وأخذ من كل فضل بزمامه ومت بما له على الدولة لاشريفة من حرمته وذمامه وسلك وتمسك من الإخلاص بأقوى في أداء الأمانة السنن القويمة وجعل على خزائن الأرض بما تلا لسان فضله: " إني حفيظ عليم " السباب وجعلت له التقوى محلا يدخل عليه ملائكة القبول من كل باب وزين سماء المعالي بكواكب مجده فما تشوف إليها طرف متطاول إلا وأتبعه شهاب.

ولما كان فلان هو الذي غدا حسن مناقبه إلى شكره مرشداً وإلى ذكره بالجميل مسعداً وألهج لسان الفلم في وصفه منشداً واختص من هذه المحامد بأوفرها قسماً وطلع في أفق هذا الثناء الجميل نجماً فلذلك رسم.

استيفاء الدولة وموضوعها التحدث في كل مايتحدث فيه الوزير وناظر الدولة وضبط الأموال الديوانية وكتابة -ومنها الحسبانات وكل مايجري مجرى ذلك.

وقد جرت العادة أن يكون فيها مستوفيان.

وهذه نسخة توقيع باستيفاء الدولة: أما بعد حمد الله الذي صان الأموال بالأقلام المحررة والدفاتر المسطرة والحسبانات المصدرة والجوامع المسيرة والتيقظ الذي استخرج البواقي المنكسرة والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أزالظلام الظلم ونوره ومحت الجور وغيره وأيد الحق وأظهره وعلى آله البررة وصحبه خصوصاً العشرة المبشرة - فإن الدولة الشريفة من الأقلام ضابطاً ولها من الحساب نظاماً أصبح عليها سياجاً وحائطاً يصون الأموال أن تكون بأيدي الخائنين نهبى ويحرز المطلقات بعداً وقرباً وقلم الاستيفاء هو الذي إذا طاشت أقلام الكتاب كان في رأسها لجاماً وإذا خصم المباشرون بالمصروف قبل السائغ الصحيح ورد ماكان سقيماً وخرج مالم يكن تماماً.

ولماكان فلان هو الذي في الرئاسة كبير معروف وفي السعادة حميد موصوف وفي قلمه تصحيح كل مصروف وله في الدولة آثار مرضية تشكرها الأقلام والسيوف مانظر في حساب إلا أزال عنه مابه يعاب ولارأى فذالك إلا وأوضح فيها المسالك ولاعرض باقي إلا استخرج مايتعين استخراجه بقلمه الراقي وفهمه الواقي فلذلك رسم أن يستقر.

فليباشر هذه الوظيفة بتحريره وتحبيره وتمييزه وتثميره وتوفيره وتكثيره وإيراده وتصديره وتسهيله وتيسيره وإزالة تعسيره وإذا أمسك دفاتره أظهر مآثره وإذا نسيت الجمل أبدى تذاكره والعمدة على شطبه في الحسبانات الحاضرة فلا يخرج من عنده شيء بغير ثبوت فإن التواقيع الشريفة هي كالأمثال سائرة ولايتخذ المعين إلا الأمين ولايستعين إلا بمن هو مأمون اليمين

والوصايا كثيرة وهو غني عن التبيين فليتق الله رب العالمين وليستجلب لنا الأدعية من القفراء الصالحين فإن صدقاتنا الشريفة تنعم عليهم بمرتبات وأرزاق ونعم وأطلاق فليسهل قلت: وقد يكتب لوظيفة استيفاء الدولة مفتتحاً برسم.

وهذه نسخة توقيع من ذلك باستيفاء الدولة كتب له لعلم الدين بن ريشة وهي: رسم بالأمر الشريف - لابرحت أيامه الشريفة ترفع لذوي الكفاءة من إحسانها علماً وترجع مصالح الدولة إلىمن أحسن فيها خطاباً وأعمل في مهماتها قلماً وتختار من دأب في تكميل أدواته حتى صار على أنظاره متقدماً - أن يرتب فلان علماً بكفايته التي وضحت ودرايته التي فاقت مناظرها ورجحت وأمانته التي حصلت النماء وأربحت وهمته التي ميزت الأموال بإحرازها فعلى السداد ختمت وبالتحري افتتحت.

فليباشر هذه الوظيفةالتي تحتاج إليه تحتاج إليه باحتراز مثله والرتبة التي تيعين على مباشرها إيصال كل حق إلىأهله فقد أرجعنا ضبطها وتحريرها إليه واعتمدنا في تيسير أموالها وسد أحوالهاعليه فهو جدير ببلوغ القصد فيما قررناه لديه وحررناه بقلمه ويديه.

فليبسط في مصالح الديوان المعمور وأمواله قلمه وليعمل بماهو علم من تبيين حقائق أحوال وظيفته ويخلص فيه قوله وكلمه وليصن الأموال ويتفقد مايلزم العمال ويحث على حمول بيت المال ولبيسترفع الحسبانات من جهاتها على العادة وليستودع دجفاترها وجرائدها من يتحقق تحرزه وسداده وليتخذ معينيه من أرباب الحذق والراية والاطلاع على كل نقص وزيادةه وإبداء وإعادة وله من نفسه مالايحتاج معه إلى زيادة الوصايا وتكثيرها ومن ألمعيته مايدرك به الفصل في جليل الأمور وحقيرها فإنه قدج تخلق بأخلاق أهل الأدب وشارك في جليل الخطب وسد ماإليه عزمه انتدب والله تعالى يبلغه من الجود غاية الأرب ويعينه على صالح العمل وانتهاز القرب والاعتماد.

الخ ومنا - استيفاء الخاص.

وصاحبها في الخاص كمستوفي الدولة في ديوان الوزارة.

لازالت أيامه الشريفة تقدم بمهماتها أميناً -وهذه نسخة توقيع باستيفاء الخاص لمن لقبه أمين الدين وهي: رسم بالأمر الشريف وتقدم في خدمته من اضحى معلى شمالاً ويميناً وتولي الرتب السنية من جعل التحرز لقلمه مصاحباً ولكلمه معيناً - أن يستقر فلان في كذا: لما عرف من رئاسته التي ميزته وأمانته التي جمعت الرفع فأحرزته وضبطه الذي ترقى به في المراتب وتنقل وإدراكه الذي يصون به غوامض المصالح ويعقل ولما سلف له من خدمةٍ ملك فيها السداد ومباشرة علم بها ماهو متصف به من حسن الاعتماد.

فليباشر هذه الوظيفة التي وليها وليشهر من همته فيها مايرفع مكانته ويعليها وليدم المراقبة لمصالح ديوان الخاص الشريف في كل قولٍ وعمل وليسارع إلىمايفيد المناجح ويبلغ من الضبط والتحرز غاية الأمل وليصن الأموال من ضياعها ويحافظ على سلوك طرائق الحق واتباعها وليسترفع الحسبانات من أربابها ويتفقد محرراتها التي هو أعلم وأدرى بها ويتخذ من معينيه من أضحت معرفته للدقائق جامعة ويحتفل بمتحصلات أموال الخاص بعزمته التي أضحت معرفته لمكانته رافعة لاسيما ثغر الإسكندرية التي قد أصبحت جهاتها لطلب أقلامه متابعةً طائعة وليلزم كل عامل بتحرير مايجب عليه وما تنبغي فيه المراجعة فإنا قد أقمناه لذلك مستوفياً وليتصفح أموره الجليلة والحقيرة مستوضحاً مستقصياً وليتق الله الذي يبلغه من زيادة منحنا الأمل ويعينه على صالح العمل والله تعالى يمنحه من الخير ماينجح مسعاه وينزهه عن الزيغ والزلل والاعتماد.

لازال يطلع لذوي الكفاية من إحسانه في - الخ وهذه نسخة توقيع في المعنى لمن لقبه بدر الدين وهي: رسم بالأمر الشريف سماء الإقبال بدراً ويرفع لمن أم الأبواب من أوليائه ذوي الرئاسة قدراً ويشفع لمن شكرت معرفته بنجح القصد فانشرح له بالمنن الجمة صدراً - أن يستقر فلان في كذا: لكفايته التي خطب بسببها إلى مقره ودرايته التي استوجب بها أن نطق لسان القلم بذكره ونزاهته التي أجمعت بها أمثاله على شكره وأمانته التي تستدعي الحق في حلو الأمر ومره وديانته التي هي من أصل في كل أمره وصيانته التي يعتمدها في سره وجهره ومشارفته المصالح بعين يقظته التي يلوح لها وجه الصواب فيقف عند فليباشر هذه الوظيفة التي أسلفها حسن الاعتماد وليوفها من معهود يقظته يمن الاجتهاد وليحقق حسن ظن المباشرين ورغبتهم فيه من الإنصاف في الإرفاق والإرفاد وليعمر جهات الأموال بجميل الاقتصاد وينجز الأحوال على سبيل السداد وليتبع منهاج الخير في كل مايأتيه من إصدار وإيراد فقد رجع ضبط هذه الجهة إليه واعتمد في تحريرها عليه فليصن الأموال ويتفقد ماتحسن به العقبى والمآل وليتحر في جميع ماهو لازم له أن يكون على الحق الواضح والسنن القويم فإنه المتجر الرابح

والمآب الناجح وتقوى الله تعالى فهي عمدة كل عبدٍ صالح والوصايا كثيرة مبينة تغني عن إفصاح الشارح والله تعالى يلهمه الطريق السديدة ويرشده ويعينه بالتوفيق وينجده إن شاء الله تعالى.

ومنها - استيفاء البيوت والحاشيةوهذه نسخة توقيع بذلك كتب بها لعلم الدين شاكر عوضاً عن تاج الدين بن الغزولي في الأيام الأشرفية شعبان بن حسين وهي: رسم بالأمر الشريف - لازالت صدقاته الشريفة تمنح الأكفاء من إحسانها نعماً وتضاعف لهم من عطائها كرماً وأيامه الشريفة تعم البيوت الكريمة بكافٍ قد نشرت له الأمانة في دولته الأشرفية علماً ومواهبه تقدم أن يستقر المجلس السامي القاضي فلان الدين - للوظائف من أضحى شاكراً لله تعالى وتبسط له في دواوين أعز الأنصار قلماً في كذا وكذا: لأمانته الموفورة ومعرفته المشهورة ومحاسنه المذكورة وسيرته المشكورة وكتابته التي أضحت في صفحات الحسبانات مسطورة وديانته التي جددت بهجته وسروره وخبرته بمنازل البيوت المعمورة وقدم هجرته في الوظائف التي أوجبت نقلته إلىأجلها وصدارته التي رفعته إلى أرفع محلها كم له في دواوين أعز الأنصار من أقلام منفذه وآراء مسددة ونظرٍ أصلح به كل فاسد وكبت به كل حاسد وضبطٍ لأصول الأموال وتتبع للمصالح في البكر والآصا.

فليباشر هذه الوظيفة المباركة التي هو أخبر بمباشرتها وأعلم بأحوال البيوت الكريمة وعمارتها وليظهر في الحاشية السعيدة مآثره السحنة ونزاهته التي نطقت بشكرها الألسنة وليبد في مباشرته كم كل شيءٍ أحسنه وليسلك طرائق الأمانة وليقف آثار ذوي العفاف والصيانة وليلازم مباشرة أعز ولي في المساء والصباح ولايشغله عن مصالح ممهد الدول من هو لسلطاننا الأشرف أمير السلاح والله تعالى يفتح له من الخير أبواب النجاح.

والاعتماد على الخط الشريف أعلاه إن شاء الله تعالى.

قلت: ومما ينخرط في سلك تواقيع أرباب الوظائف السلطانية وظائف دواوين الأمراء الخاصكية فإنه ربما كتب عن السلطان التوقيع لبعض أرباب وظائف دواوينهم كما يكتب في الوظائف السلطانية.

أما بعد حمد الله الذي هدى إلى الملة المحمدية من أسر الإيمان في قلبه ونواه وضم إلى الأمة الإسلامية من أضمر الإخلاص فأظهره الله في متقلبه ومثواه وجمع لولي الدولة ومخلصها الفرج والفرح لأنه من توكل عليه كفاه والشهادة بالوحدانية التي تبلغ قائلها من رضاه مناه وتجعل جناته لمن أسرها جنانه مستقره ومأواه والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي قصم عداه وفصم عرا من عاداه من أهل الشرك وعداه وعلى آله وصحبه الذين اهتدوا بهداه واستجدوا جداه ولبوا نداه وأموا نداه صلاةً تجزل لمصليها ثوابه وتجمل مآبه وتحمد عقباه 0 فإن أولى من رفع له الكرم محلاً وقلدته النعم عقداً محلى وأعيد إلى رتبة الاصطفاء وفوض إليه ديوان أعز الأخصاء فصرف قلمه في مهامه وحصلت همه على جميع أقسامه وعدقت مصالحه بتدبيره ومناجحه بتأثيله وتأثيره ومتحصلاته بتمييزه وتثميره وأحواله وأمواله: هذه بحسن تصرفه وهذه بيمن تقريره - من دخل في دين الله القويم واجتباه وهداه إلى الصراط المستقيم وكساه الإسلام حلة شرفه وبوأه الإيمان مباني غرفه ونوى الاستقامة في إقامته ومنصرفه والتحف بجلباب الإسلام وارتدى وتلبس بالإيمان فصد عنه الأذى ورد الردى وغدا من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى مع كفاية أوجبت له التقريب والتقدين وجددت له ملابس التكبير والتكريم وكتابةٍ فاق بها أمثاله وعلا مثاله وبلغته من العلياء مرامه ومناله ومعرفةٍ بفنون الحساب وخبرة اعترف بها الكتاب والحساب وأوجبت له من الإقبال مالم يكن في حساب.

ولما كان مجلس القاضي فلان: هو الذي أخذا القلم في مدحه والكرم في منحه اقتضى رأينا الشريف أن نقبل على إقباله على الدين بوجه الإقبال وأن نبلغه في أيامنا الشريفة ماكان يرجوه من اللآمال فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يرفع من كان للدولة ولياً ويضع الشيء محله بتقديم من أضحى عرفانه جلياً.

فليباشر ذلك مباشرةً تبلغه أملاً من الاعتلاء وتنوله مراماً من الاعتناء وتؤمنه من طوارق الزمن وحوادث الاعتداء عالماً بأن دولتنا الفلانية المنصورة تجازي عن الحسنة بأمثالها وأن أيامنا الفلانية المشهورة المشكورة تبلغ أولياءها غاية آمالها وأننا أجزلنا بره وأجملنا ذكره وأجرينا على لسان القلم حمده وشكره فليعتمد في مباشرته الأمانة المبرة والنزاهة التي رفعت ماساءه ووضعت ماسره وليشمر في مصالح هذا الديوان السعيد عن ساعد اجتهاده ويعتمد في أموره ماألف من سداده ويتحر من السعادة ماكان قبل القول من سعاده وليتق الله حق تقاته ويجعل التقوى حليةً لأوقاته وحلة علىسائر تصرفاته ويسر بتقواه قلت: وغالب مايعتنى به من تواقيع أرباب سيراً خبراً وخبرا ويذر جوراً وجبرا " ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا " الأقلام المفتتحة برسم الدعاء المصدر به المصدر به التواقيع واشتماله على براعة الاستهلال.

وهذه جملة أدعية من ذلك ينسج على منوالها: أثير الدين - لازال فلك فضله أثيراً وطالع سعده منيراً وهبوب ريح مبراته للخيرات مثيراً.

أمين الدين - لازال ينبغي للخدم الشريفة خير أمين ويصطفي للقيام بالمصالح أنهض معين ويجتبي لأهم المهمات من هو غير متهم في المناصحة وغير ظنين.

بدر الدين - لازال يولي المناصب الدينية من سلك في النواهة مسلكاً جميلاً ويولي الفضل الجزيل من أصحى إشراق بدره على آثار حظه دليلاً.

برهان الدين - لازالت أوامره الشريفة ترفع للعلماء شاناً وتقيم على استحقاقهم دليلاً واضحاً وبرهاناً.

تاج الدين - لازالت صدقاته الشريفة ترفع تاج الفضائل على الرؤوس وبره الشامل يذكي النفوس ويزكي الغروس وتوارد إفضاله يوشي المهارق ويدبج الطروس.

تقي الدين - لازالت صدقاته الشريفة تقدم كل تقي وترجح ميزان من هو بالفضائل أملى ملي وترفع قدر من إذا سئل عن محله في الرياسة قيل علي.

جلال الدين - لازالت صدقاته الشريفة تزيد جلال ذوي الفضل جلالاً وإحسانه المتواتر يوسع في البر لأولي الاستحقاق مجالاً وبره المتتابع تقصر عنه خطا كل بر فينادى: هكذا هكذا وإلا فلا لا رضي الدين - لازال رضي السجايا ظاهر المزايا مسترسل ديم العطايا.

زين الدين - لازال نواله الشريف زيناً لنائله وسؤاله المحقق إجابته شرفاً لسائله وقاصد بابه الشريف يوم بالخير في عاجل الأمر وآجله.

سراج الدين - لازالت عنايته الشريفة تخص أولياءها بجزيل المواهب وتبلغهم من صدقاتها العامة غاية الآمال وأقصى المطالب وتوقد لهم من أنوار سعادتها سراجاً يغلب على نورالكواكب.

سري الدين - لازالت صدقاته الشريفة تصطفي من أرباب الكتابة من يجيد المعاني فلا يضع لفظاً إلا جعل تحته معنى سرياً وترتضي من فرسان البراعة في ميدان اليراعة من يرتقي ببلاغته مكاناً علياً وتجتبي من أهل الإجادة من تميز بالإفادة فلا يزال كلامه الطروس حليا.

شرف الدين: لازالت صدقاته الشريفة تضع الشيء فيمحله وترجع الفضل إلى مستحقه وأهله وتختار للمناصب من ظهر شرفه بين قوله وفعله.

شمس الدين - لازالت صدقاته الشريفة تطلع في سماء الممن ذوي الرياسة شمساً ونعمه الجسيمة تنبت في روض الإحسان غرساً ومراسمه العالية تنقل إلى رتب الرياسة من شدت كفه على عدد الأماني خمساً.

شهاب الدين - لازالت صدقاته الشريفة تطلع في أفقها شهاباً وتهمل من جزيل المواهب للأماني سحاباً وتضع الشيء في محله وتزيد الأمور انتظاماً والدعاء استجلاباً.

صدر الدين - لازالت آراؤه الشريفة تستجيد من ذوي الفضائل من جاوز الجوزاء نظماً وفاق النثرة نثراً وتستعيد للمناصب من الأمائل من تقصر عن مجده الكوكب وفعة وقدراً وتستزيد في المرابت من فاق سحبان وائلٍ وساد الأوائل في مجالس العلياء صدراً.

صلاح الدين - لازال أمره الشريف يقدم من يفيد ويجيد فيكون لكل أمر صلاحاً وكرمه الطويل المديد يشمل من ذوي الفضائل من فاق سحبان وائلٍ فصاحةً وفاق حاتم الأوائل سماحاً ورأيه الرشيد السديد يختار من إذا انتضى اليراعة غلب رأيه سيوفاً وطال قلمه رماحاً.

ضياء الدين - لازالت آراؤه الجميله تختار من ذوي الفضائل الجليلة من تزداد به المناصب ضياءً ونعمه الجزيلة تعم كل باعر إذا ادلهمت الخطوب كان فوه لها جلاءً وعوارفه المستطيلة علم الدين - لازال جزيل إحسانه أوضح من نارٍ على علم ومزيد امتنانه يشمل أرباب السيف والقلم وسحب بنانه تسح فلا تشح بجزيل الكرم.

علاء الدين - لازال علاء دولته يصطفي ذوي الفضائل ويختار من الفصحاء من يفوت الأواخر كما أضحى يفوت الأوائل ويقدم من هو في تدبير اليراعة كعلي بن هلال وفي حسن البراعة كسحبان وائل.

عز الدين - لازالت صدقاته الشريفة تزيد ذوي الأقلام من جزيل الإنعام فتنيلهم عزاً وتستجيد من كتابها الأعلام من خص بجواهر الكلام فكل حسن إلى كلامه يعزى وتستفيد من نجباء الأيام كل بارع كأن كلامه زهر الكمام فلو خاطب سحبان لأورثه قصوراً وعجزاً.

عماد الدين - لازالت آراؤه الشريفة تتخذ من نجباء الكتاب عماداً وتختار من ذوي الفضائل في الخطاب من تجد لكلامه حسناً وسداداً وتقدم من أهل الفضل في السؤال والجواب من لاتعدم في كل مقاصده رشاداً.

عضد الدين - لازالت صدقاته الشريفة تجعل من إنعامها لخدامها عضداً وتلحظ بعين إكرامها وحسن احتلرامها من طال في الفضل مدى وتزين مطالع أيامها بشموس أعلامها فلا ترى مثلهم أحداً.

غرس الدين - لازالت صدقاته الشريفة تنبت في روض الإحسان من أرباب البيان غرساً وتجتني من كمام اللسان أزاهر النكت الحسان وتزين بها طرساً وتفيض من مواهب البنان مايشهد لها بجزيل الامتنان فيطيب كل آملٍ نفساً.

غياث الدين - لازالت صدقاته الشريفة تبدي لكل آمل غياثها وتضفي ظلها على من استجار بها واستغاثها وتنطق ألسن أقلامها بمواهب إنعامها فتبذل طريفها وتراثها.

فتح الدين - لازالت صدقاته الشريفة تتخير من ذوي الأقلام من يفتح أبواب الكلام فتحاً وتهب جزيل الإنعام لمن يستحقه من الكتاب الأعلام فينال بذلك ثناءً وربحاً وتقرب بيد العناية والإكرام من ذوي الرياسة والاحترام من هز على البلغاء قدحاً.

فخر الدين - لازالت آراؤه الشريفة تنصب من المناصب من يزيد بحسن مباشرته فخرها وتمطي ظهور المراتب من إذا أظلمت الأيام لعدم فاضل ظهر بفضيلته فجرها قطب الدين - لازالت صدقاته الشريفة تدير على قطب البلاغة من أرباب اليراعة نجوماً وتشير بعنايتها إلى من حاز من الفضل فنوناً وأحيا من الآداب رسوماً وتشير بعنايتها إلى من حاز من الفضل فنوناً وأحيا من الآداب رسوماً وتنير بدور سعدها لمن لم يزل قلمه لأسرار الملك كتوماً.

كريم الدين - لازالت صدقاته الشريفة تشمل من ذوي الفضائل من عد في فصله وأصله كريماً فتقدم من لاله في البلاغة مماثل فلا يزال بكل فن عليماً وتنصب في المناصب من فات قيس الأوائل رأياً وفاق قساً بحديث بلاغته قديماً.

كمال الدين - لازالت سعادته الباهرة تطلع في سماء العلياء من فاق البدور كمالاً وأوامره القاهرة تقدم أسنى البلغاء جلالاً واسمى صدقاته الوافية تعم من ذوي الفضائل من زاد بحسن المناصب بحسن مباشرته مهابةً وجمالاً.

مجد الدين - لازالت صدقاته الشريفة تملك أعنة الأقلام من تراه لها مجداً وتودع بجيد الأيام من جواهر الفضلاء عقداً وتشمل بأياديها الكرام من إذا جمع البلغاء كان بينهم فرداً محيي الدين - لازالت أوامره الشريفة تشمل من البلغاء من شهر بفصل الخطاب وإذا ماتت الفضائل يحييها وغيث جودهالهامي يفيض فيض السحاب فيبادر العفاة ويحييها وعنايته تعم ذوي الألباب فتمهد رتب العز و تهييها.

موفق الدين - لازالت صدقاته الشريفة تطلع كل هلال من اهتدى به كان موفقاً وتملك من يزري بابن هلال أنى كتب: رقاعاً ومحققاً وتفيض لراجيها أفضل نوالٍ من شبهه بالغيث كان محققاً.

ناصر الدين - لازال يقرب من أصحى لأهل الكلام بمهفات اللأقلام ناصراً ويهب طويل الإنعام لمن باعه مديد في النثر والنظام فمابرح فضله وافراً وينتخب من غدا شريعاً لعادات الكرام مضارعاً لصفات الكتاب الأعلام وأصبح في البيان نادراً.

نجم الدين - لازالت أومره الشريفة تطلع في أفق السعادة من ذوي السيادة نجماً وتعم بجزيل الإفادة من عرف بالفضل وبالإجادة وفاق أقرانه نثراً ونظماً وتسمح من عنايتها بالإرادة لمن هو أهل الحسنى وزيادة بتجزل له من كرمها قسماً.

نور الدين - لازالت صدقاته الشريفة تعم بالنوال من هو في البراعة متسع المجال فيزيد الكلام نوراً وحسناته تشمل ذوي الآمال بما يحمد في البدء والمآل فتملأ القلوب سروراً ومبراته تصل أولي الكمال وتنتخب أخيار العمال فلا برح أنفذ الملوك أموراً.

نظام الدين - لازال يتخير من كان في الناس مجيداً وفي البيان مجيداً فحسن لفظه نظاماً ويهب من بره مزيداً لمن كان في الخدمة مريداً فلا ينقض للنصيحة ذماماً ويبذل كرماً مفيداً لمن يراه في الفضل مبدئاً ومعيداً فحاز فخاراً وطاب كلاماً.

همام الدين - لازال يرتضي من هو في فرسان اليراعة أنهض همام ويقتضي وعد كرمه لمن نهض في الرياسة نهوض اهتمام وينتضي عضد ذهنه فيصيب مفصل كل كلام.

ولي الدين - لازال يحلي أجياد المناصب من ذوي البلاغة بمن يحسن في الكلام الصياغة فينظمه حلياً ويجلي كرب المراتب من فرسان اليراعة بمن راح فضله ولفظه جلياً ويولي المناصب منغدا في البيان وافر البضاعة فاتخذته الأقلام وليا.

الضرب الرابع من الوظائف التي يكتب فيها بالديار المصرية مشيخة الخوانق

وكلها يكتب بها تواقيع مشيخة الخوانق وهي على طبقات: الطبقة الأولى ما يكتب في قطع النصف بالمجلس العالي مفتتحاً بالحمد لله وهو مشيخة الشيوخ خاصة واعلم أن مشيخة الشيوخ كانت فيما تقدم تطلق على مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء فيكتب فيها بذلك ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن بنى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الخانقاه الناصرية بسرياقوس استقرت الشيوخ على من يكون شيخاً بها والأمر على ذلك إلى الآن.

وهذه نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ بالخانقاه الصلاحية سعيد السعداء بالقاهرة المحروسة بتسم الشيخ شمس الدين بن النخجواني من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله العمري وهي: الحمد لله مرقي أوليائه وموقي أصفيائه وملقي كلمة الإخلاص لمن تلقى سرها المصون عن نحمده على مصافاة أهل صفائه وموافاة نعمنا لمن تمسك بعهود وفائه وتسلك فأصبحت رجال كالجواهر لاتنتظم في سلكه ولاتعد من أكفائه وطالع للدين شمساً يباهي الشمس رضيائه ويباهل البدر التمام فيتغير تارةً من خجله وتارةً من حيائه.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة نعدها ذخراً للقائه وفخراً باقياً ببقائه راقاي " في الدرحات العلى بارتقائه.

ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله مبلغ أنبائه ومسوغ الولفى لأحبائه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان من أهل ولائه ومن عرف به الله لما تفكر في آلائه صلاةً يؤمل دوامها من نعمائه ويؤمن عليها سكان أرضه وسمائه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى مااستقام به الشخص على الطريقة واستدام به الرجوع إلى الحقيقة واستام به يطمئن إلى خالقه لا إلى الخليقة وحفظ أفقه بنير تستضيء به النيرات ونوعٍ تتقسم به الغمائم الممطرات - طائفة أهل الصلاح ومن معهم منإخوان أهل الصفاء الصوفية داعي الفلاح ومن تضمهم من الواردين إليهم إلى جناح والصادرين عنهم بنجاح ومن تفتح له فيهم أبواب السماء وتمنح بنفسهم عامة الخلق ملابس النعماء ومن يكشف بتهجدهم جنح كل ظلام ويكسف بتوجههم عارضة كل بدر تمام ويستشفى ببركاتهم من داء كل سقام ويستسقى بدعائهم إذا قصر النيل وقص جناحه الغمام.

وهم أولياء الله وأحباؤه وبهم يتعلل كل لبيب هم سقامه وهم أطباؤه أنحلهم الحب حتى عادوا كالأرواح وأشغلهم الحب بصوت كل حمام شجاهم لماغنى وبرح بهم لما ناح وأطربهم كل سمع فوجدوا بكل شيء شجناً وعذبهم الهوى فاستعذبوا أن لايلائموا وسناً ومثل فرط الكلف لهم الأحباب فما رأوا لهم حالاً إلا حسناً وأثقل تكرار الذكرى قلوبهم فماعدوا غربةً غربةً ولاوطناً قربت المحبة لهم في ذات كل متباعد وألفت أشتاتهم فاختلفت الأسماء والمعنى واحد.

هي قطب نجومهم السائرة ومراكز -والخانقاه الصلاحية بالقاهرة المحروسة المعروفة بسعيد السعداء - قدس الله روح واقفها أفلاكهم الدائرة وإليها تنحط رحال سفارهم وعليها تحط رحال سفارهم تضطرب فرقهم في البلاد وإليها مرجعهم وعليا مجتمعهم وفيها مواضع خلواتهم ومطالع جلواتهم ومكان صلاتهم وإمكان صلاتهم ومشرق شموسهم ومؤنق غروسهم ومنهاج طريقتهم ومعراج حقيقتهم مأوى هذه الطائفة الطائفة في شرق البلاد وغربها وبعدها وقربها وعجمها وعربها ومن رفع سجوفها أو هو محجوب بحجبها والمؤهلة والعراب وأهل الاغتراب هي فسيحهم الرحيب وصفيحهم القريب ومثالهم إذا اجتمعوا في الملأ الأعلى زمراً واخترقوا المهامة وماجازوا بيداء ولاجابوا مقفراً وبلغوا الغاية ومأزعج ركابهم حادٍ في ليلسرى ووصلوا ومافارقوا فرشهم الممهدة إلى ماوراء الورى شرط كل خانقاه أن لاتغلق في وجه من ينزل فيها باباً ولاتطيل جهاتها الممنعة له حجاباً ولاتعجل مقاماتها المرفعة له قبل.

وهذه نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ وهي مشيخة الخانقاه الناصرية بسرياقوس مما كتب بذلك للشيخ نظام الدين الأصفهاني منإنشاء السيد الشريف شمس الدين: الطرة توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالي الشيخي النظامي إسحق ابن الشيخ المرحوم جلال الدين عاصم ابن الشيخ المرحوم سعد الدين محمد الأصفهاني القرشي الشافعي - أدام الله النفع ببركته - مشيخة الخانقاه السعيدة الناصرية بسرياقوس - قدس الله روح واقفها - ومشيخة الشيوخ بالديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والفتوحات الساحلية وسائر الممالك الإسلامية المحروسة على عادته في ذلك وقاعدته ومعلومه وأن يكون ما يخص بيت المال من ميراث كل من يتوفى من الصوفيه بالخانقاه بسرياقوس للشيخ نظام الدين المشار إليه بحيث لايكون لأمين الحكم ولا لديوان المواريث معه في ذلك حديث وتكون أمور الخانقاه المذكورة فيما يتعلق بالمشيخة وأحوال الصوفية راجعةً للشيخ نظام الدين المشار إليه ولايكون لأحد من المحكام ولا من جهة الحسبة ولا القضاة في ذلك حديث معه ولايشهد أحد من الصوفية ولاينتسب إلا بإذنه على جاري عادته في ذلك على ماشرح فيه وأولة: الحمد لله على نعمه التي ألفت للصالحين من عباده نظاماً واستأنفت للصائحين إلى مراده إحراماً وصرفت أوامرنا بالعدل والإحسان لمن فوض أموره إلى ربه فأنجح له من مزيد التأييد مراداً ومراماً وعطفت بأوجه إقبالها الحسان على من هو متنزه عن دنياه متوجه إلى أخراه يمضي نهاره صياماً وليله قياماً.

نحمده على أن جعلنا نرعى للأولياء ذماماً ونسعى بالنعماء إليهم ابتداء وإتماماً ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً ترفع للمخاصين في عليين مقاماً وتدفع بأعمال الصدق عن المتوكلين عليه بأساً وأسقاماً ونشهد أن عليين مقاماً وتدفع بأعمال الصدق عن المتوكلين عليه بأساً وأسقاماً ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي جعله للمتقين إماماً وفضله على النبيين إجلالاً وإعظاماً وكمله بالسمات المكرمات والصفات المشرفات مما لا يضاهى ولايسامى صلى الله عليه وعلى آله الذين شرفوا إضافة إلى نسبه الشريف و انضماماً ورضي الله عن أصحابه الذين عرفوا الحق فبذلوا في إقامته اجتهاداً واهتماماً صلاةً تجمل افتتاحاً واختتاماً وتجزل إرباحاً وإنعاماً وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فشيمنا العدل والإنصاف لمن له بيمن الأعراق اتصال وبحسن الأخلاق اتصاف ومن كرمنا الفضل والإسعاف لمن لاخفاء في تعينه لتصدير التقديم وتكريم التكريم ولاخلاف ومن سجايانا الجميلة أن لاتضاع حقوق من هو في الزهادة والعبودية إمام لألسنة الأيام بحلاه الحسنة إقرار واعتراف لمزايانا جميل المحافظة وجليل الملاحظة لمن توكل على الله حق التوكل فله انتصار بالله تعالى وانتصاف: لأنه العريق الأسلاف الرفيق بالضعاف الحقيق بتوفير التوفيق الذي له بحركاته المباركة اكتناف المطيق النهوض بأعباء الرياسة: لأن للقلوب على محبته ائتلاف السبوق إلى غايات الغلوات الذي تحف به في بلوغ آماد الإسعاد من الله تعالى ألطاف والصدوق النية مع الله تهالى فكم والى لنعمائه الزيادة والاستئناف.

وكان المجلس العالي الشيخي الإمامي الكبيري العالمي العاملي الأوحدي القدوي الورعي الزاهدي الناسكي الخاشعي السالكي الأصيلي العريقي القوامي العلامي النظامي: جمال الإسلام والمسلمين شرف العلماء في العالمين أوحد الفضلاء قدوة المشايخ مربي السالكين كنز الطالبين موضح الطريقة مبين الحقيقة شيخ شيوخ العارفين بركة الملوك والسلاطين ولي أمير المؤمنين إسحق ابن الشيخ المرحوم فلان - أدام الله النفع ببركاته - هو المفوض أموره إلى ربه المعرض عن الدنيا بباطنه وقلبه المتعوض بما عند الله من فضله فما زال الإيثار من شأنه ودأبه إلى إخوانه وصحبه فهو من الذين يطعمون الطعام على حبه

ويلهمون من العمل المبرور إلى اقربه من الله وأحبه ويقومون الظلام مع أولياء الله المخلصين وحزبه ويستديمون الإنعام من الله تعالى بالإحسان إلى عباده ففرعهم لأصلهم في صنعهم الإنعان من الله تعالى بالإحسان إلى عباده ففرعهم لأصلهم في صنعهم مشبه ويستسلمون لأحكام الله تعالى وكلهم شاكر لربه على حلو القضاء ومره صابر على سهل الأمر وصعبه سائر بالصدق في شرق الوجود وغربه مثابر على الحق في عجم الخلق وعربه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يوصل الحقوق إلى مستحقيها ويجمل الوثوق بمن تتجمل المراتب الدينية منه بترقيها - أن يفوض إلى المشار إليه مشيخة الخانقاه السعيدة الناصرية بسرياقوس - قدس الله روح واقفها - ومشيخة الشيوخ بالديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والفتوحات الساحلية وسائر الممالك الإسلامية المحروسة على عادته في ذلك وقاعدته ومعلومه وأن يكون مايخص بيت المال المعمور من ميراث كل من يتوفى من الصوفيه بالخانقاه المذكورة للمشار إليه بحيث لايكون لأمين الحكم ولا لديوان المواريث معه في ذلك حديث وتكون أمور الخانقاه المذكورة فيما يتعلق بالمشيخة وأحوال الصوفية راجعةً إليه ولايكون لأحدٍ من الحكام ولا من جهة الحسبة ولاالقضاة في ذلك حديث معه ولايشهد أحد من الصوفية فليعد إليها عوداً حميداً وليفد من الإصلاح مالم يزل مفيداً وليعتصم بالله تعالى مولاه فيما تولاه وقد آتاه الله تثبيتاً وتسديداً وليشهد بها من القوم المباركين من كان عوده قبل الصوم عيداً وهو أعزه الله تعالى المسعود المباشرة المحمود المعاشرة المشهود منه اعتماد الاجتهاد في الدنيا والآخرة المعهود منه النفع التام في فقراء مصر والشام فكم أثر الخير وآثره وكثر البر ووارته ويسر السير الحسن الذي لم يبرح لسان الإجماع شاكره.

ونحن نوصيه عملاً بما أمر الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه المبين بقوله وهو أصدق القائلين: وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين وإن كنا نتحقق ما هو عليه من العلم والدين والحكم الرصين والزهد والورع اللذين نحن منهما على بينة ويقين باتباع شروط الواقفين والإمتاع بالعوارف أولياء الله العارفين: فإنه مازال حيث حل في جميع الآفاق عاملاً في لإيصلا الحقوق لذوي الاستحقاق.

ونأمرهم أن يكون لهم على تكريمه إتفاق وفي متابعته اجتماع واتساق فإنه شيخ الطوائف وإمام تقتبس منه اللطائف وتلتمس منه الهداية في المواطن والمواقف والله تعالى يمتع ببركاته الأمة ويسمع منه في الخلوات لنا الدعوات التي تكون لأوراده المقوبلة مفتتحة ومتمة ويصله بعنايته التي تقيد الهم وتؤيد الهمة ويجعله حيث كان للفقراء نعمةً وبين الناس رحمة والعلامة الشريفة أعلاه حجة بمقتضاه.

أرباب الوظائف العادية من أرباب الوظائف بالديار المصرية بالحضرة أرباب الوظائف العادية وكلها تواقيع وهي على طبقات: الطبقة الأولى رئيس الأطباء المتحدث عليهم من يكتب له في قطع النصف بالمجلس العالي وهو رئيس الأطباء المتحدث عليهم في الإذن في التطبب والعلاج والمنع في ذلك ومايجري هذا المجرى وهذه نسخة توقيع برياسة الطب وهي: الحمد لله مؤتي الحكمة من يشاء من عباده ومعطي أمانة الأرواح من ترقي في حفظها إلى رتبة اجتهاده وجاعل علم الأبدان أحد قسمي العلم المطلق في حالي اجتماعه وانفارده وموفق من جعل نصح خلق الله فيه سبباً لسعادة دنياه وذخيرةً صالحةً ليوم معاده ومبلغ من كان دائباً في إعانة البرية على طاعة ربها بدوام الصحة غاية مرامه ورافع رتبة من دل اختياره واختباره على وفور علمه ونجح علاجه وإصابة رأيه وسداده.

نحمده على نعمه التي خصت بنعمنا من كمل في نوعه وفصله وحسن في علمه وعمله قوله وفعله وجمع من أمانة وظيفته ومعرفتها ماإذا جلس في أسنى مناصبها قيل: هذا أهله ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً تشرق البصائر بأضوائها وتفرق الضمائر بإخلاصها من أدوائها وتغدق بيمينها أنواء التوفيق فتتأرج رياض الإيمان بين روائها وإروائها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أنارت ملمته فلم تخف على ذي نظر وعلت أدلته فلم ينلها من في باع رويته قصر وبهرت معجزاته فلو حاولت الأنفاس حصرها أفناها العي والحصر صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كانوا لأدواء القلوب علاجاً ولسلسبيل الإيمان مزاجاً وللبصائر السائرة في دجى الشبهات سراجاً صلاةً دائمة الإقامة متصلة الدوام إلى يوم القيامة وسلم تسلمياً كثراً.

وبعد: فإن صناعة الطب علم موضوعها حفظ الأبدان النفيسة ومقصودها إعانة الطبيعة على حماية الأعضاء الرئيسية ومدارها الأعمر على معرفة العوارض وأسبابها ومدركها الأتم الوقوع على الصواب في معرفة الجسوم وأوصابها وحينئذٍ تتفاوت رتب أهلها عند تشعب مداركها واختلاف مسالكها وتشابه عللها والتباس صوابها بخللها إذ لايميز ذلك حق تمييزه إلا من طال في العلم تبحره وحسن في رتب هذا الفن تصدره وطابق بين نقله وعلاجه وعرف حقيقة كل مركب من الأدوية

ومفردٍ ولقب بشرعة التقوى إذ كان الإقدام على النفوس قبل تحقق الداء والدواء مذموماً شرعاً وعقلاً ولذلك تحتاج إلى رئيس ينعم في مصالحها نظره ويجمل في منافعها ورده وصدره ويعتبر أحوال أهلها بمعيار فضله ويلزم الداخل فيها ببلوغ الحد الذي لابد منه بين أرباب هذا الشأن وأهله ويعرف لأكابر هذا الفن قدر منحهم الله من علم وعمل ويبسط رجاء المبتديء إذا كمل نفسه حتى لايكون له فيها بغير كمال الاستحقاق طمع لاأمل.

ولمل كان المجلس السامي القاضي الأجل الحكيم فلان الدين: هو الذي بلغ من العلم غاية مراده واحتوى من هذا الشأن على حاوية من 0ماجمع به رتب الفاضلين فيه على آنفراده فلو عاصره الرئيس لاعتمد عليه في كليات قانونه أو الرازي لعلم أم بعض فنونه قد حلب هذا العلمأشطره وأكل قراءة هذا الفن رموزه وأسطره وحل أسراره الغامضة وارتوى من سحب رموزه بأنواء لم يسم غير فكره بروقها الوامضة وأسلف منخدمة أبوابنا العالية سفراً وحضراً ماقتضى له مزية شكره وتقاضى له مزيد التنبيه على قدره والتنويه بذكره وحمد فيه الفريدان: صحة نقله وإصابة فكره وعلم أنه جامع علوم هذه الصناعة فلا يشذ منها شيء عن خاطره ولايغيب منها نقل عن ذكره.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال شهاب فضله لامعاً وسحاب بره هامعاً - أن يكون فلان متولي رياسة الأطباء بالديار المصرية على عادة تقدمه.

فليباشرهذه الرياسة ناظراً في مصالحها مطلعاً من شهاب فضله مايزين أفقها زينة السماء بمصابيحها متفقداً أحوال مباشريها متلمحاً أحوال المستقبل بأعبائها والداخل فيها سالكاً في ذلك سبيل من تقدمه من رؤسائها حاكماً في أمورها بماجرت به العادة المستقرة بين أكابرها وعلمائها مطارحاً من قدمت أمورها بما جرت به العادة المستقرة بين أكابرها وعلمائها مطارحاً من قدمت هجرته فيها بما يقتضي له مراجعة أصوله ملزماً من ظهر قصوره فيها بالتدربإلى حد لايقنع منه بدون حصوله مجيباً في الإذن لمن أظهر الاستحقاق صدق ماآدعاه قابلاً في الثبوت من مشايخ هذه الصناعة من لايشهد إلا بما علمه ولايخبر من التدرب إلا بما رآه ووعاه متحرياً في الثبوت لدينه آذناً بعد ذلك في التصرف إن ترقى علمه باستحقاقه إلى رتبة تعيينه وليعط هذه الوظيفة حقها من تقديم المبرزين في علمها وتكريم من محه الله درجتي نقلها وفهمها وتعليم من ليس عليها من أدواتها المعتبرة غير وسمها واسمها ومنع من يتطرق من الطرقية إلى معالجة وهو عار عن ردائها وكف يد من يتجهم على النفوس فيما غمض من أدوائها قبل تحقق دوائها واعتبار التقوى فيمن يتصدى لهذه الوظيفة فإنها أحد أركانها واختيار الأمانة فيمن يصلح للإطلاع على الأعضاء التي لولا الضرورة المبيحة حرم الوقوف على مكانها وليكن في ذلك جميعه مجانباً للهوى ناوياً نفع الناس فإنما لمريء مانوى والله تعالى يحقق له الأمل ويسدده في القول والعمل بمنه وكرمه.

وهذه نسخة توقيع برياسة الطب من إنشاء الشيخ سهاب الدين محمدو الحلبي كتب بها لشهاب الدين الحكيم في المحرم سنة تسع وسبعمائة وهي: أما بعد حمد الله حاسم أدواء القلوب بلطائف حكمته وقاسم أنواع العلوم بين من كمل استعدادهم لقبول ماقتضته حمته وقسمته وجاعل لباس العافية من نعمه التي هي بعد الإيمان أفضل ماأفاض على العبد من بره وأسبغ عليه من نعمته والمنزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته ومقرب مانأى من الفضائل على من أسرى إليها على مطايا عزمه وسرى لتحصيلها على جياد همته وملهم آرائنا بتفويض أمانة الأرواح إلى من أنفق في خدمة الطبيعة أيام عمره فكان بلوغ الغاية في علمها نتيجة خدمته والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي شرح الله بالهدى صدور أمته وخصه منهم بأعلام كل علم وأئمته وجلا بيقين ملته عن كل قلبٍ ماران عليه من الشك وغمته وعلى آله وصحبه الذين حماهم من الزيغ والزلل مافجر الهدى لهم من جوامع الكلم وأفاض التقى عليهم من أنوار عصمته حفإن أولى الأمور أن يعتمد فيها على طبيبها الخبير ويصان جوهرها عن عرض العرض عغى غير ناقدها البصير وتحمى مواردها عمن لم يعرف كيف يجتنب مواقع التكدير وترفع كواكبها عمن لم تدرك أفكاره دقائق الححوادث وحقائق التأثير - أمر صناعة الطب التي موضوعها الأبدان القائمة بالعبادة والأجسام القائمة بما تيعاقب عليها من الحوادث والزيادة والنفوس التي ماعنها إن حصل فيها التقريظ بدل ولاعوض والأرواح التي إن عرض الفناء لجوهرها فلا بقاء بعده للعرض والطبيعة التي إن خدمت على مايجب نهضت على مايجب بالصحة حق النهوض والأمزجة التي إن نفرت لعدم التأتي في سياستها أعجزت من يروض.

ولذلك تفتقر على كثرة أربابها وتحتاج مع غوارة المتمسكين بأسبابها وتضطر وإن اندفعت الضرورات بكثرة متقنيها وتتشوف وإن وجد الجم الغفير من المتلبسين بأدواتها والمتبحرين فيها - إلى رئيس ينعم في اعتبار أكفائها النظر ويدفع عن رتبتها بتطرق غير أهل الغير ويعرف من أحوال مباشريها ما لايكفي في خبرها فلا يقبل إلا من علم مقدار علمه ووثق مع الحفظ بصحة فهمه ورضي عن خبره في الطب واجتهاده واعتبر منه كل نوع تحت أجناسه المتعددة على حدته وانفراده وجاراه في كليات الفن فرآه في كل حلبةٍ راكضاً وطارحه في فصول العلم فوجده بحمل أعباء ماتفرع منها ناهضاً واختبر دربته فوجدها

موافقة لتحصيله مطابقةً لما حواه من إجمال كل فن وتفصيله وتتبع مواقع دينه فوجدها متينه ومواضع أمانته فألفاها مكينة وأسباب شفقته ونصحه فعرف أنها على ماجمع من الأدوات الكاملة معينة ويتعين أن يكون هذا الرئيس في أوانه و الرازي في زمانه و الفارابي في كونه أصلاً تتفرع فنون الحم في أفنانه علاجه شفاء حاضر وكلائه نجاة من كل خطر مخامر وتدبيره للصحة تقويم وتصفحه تثقيف لعلماء الصناعة وتسليم ودروسه ذخائر ينفق من جواهر حكمها كل حكيم.

ولماكان المجلس العالي الصدري الشهابي هو المراد بالتعين لهذه الوظيفة والمقصود بنا أشير إليه في استحقاق هذه الرتبة من عبارةٍ صريحةٍ أو كنايةٍ لطيفة وأنه جمع من أدوات هذا الفن ماافتقرق واحتوى على أصوله وفروعه فاجتمعت على أولويته الطوائف واتفقت على تفضيله الرفق واحتوى على أصوله وفروعه فاجدتمعت على أولويته الطوائف واتفقت على تفضيله الفرق فلو عاصره أبقراط لقضى له في شرح فصوله بالتقدمة ولو أدرك جالينوس لاقتدى في العلاج بما علمه ومع مباشرة ألفت بين الصحة والنفوس وملاطفة أشرقت مواقع البرء بها في الأجساد إشراق الشموس واطلاع يعرف به مبلغ ما عند كل متصد لهذه الصناعة من العلم وتبحر في الفنون لايسلم به لأحدٍ دعوى الأهلية إلا بعد حرب جدالٍ هو في الحقيقة عين السلم - فرسم بالأمر العالي أن يستقر فلان في رياسة الأطباء الطبائعية بالديار المصرية والشام المحروس على عادته وعادة من تقدمه في ذلك ويكون مستقلاً فيها بمفرده.

فلينظر في أمر هذه الطائفة نظراً تبرأ به الذمة ويحصل به على رضا الله تعالى روضا رسوله صلى الله عليه وسلم في الشفقة على الأمة ويعطي به الصناعة حقها ويطلق من يد من تطاول إليها بغير أهليةٍ رقها ويصون النفوس من إقدام من تقدم بغير خبرةٍ كاملةٍ عليها ويذب عن الأرواح تطرق من يتطرق بغير معرفة وافرةٍ إليها فإن فارط التفريط في النفوس قل أن يستدرك ومن لم تجتمع فيه أدوات المعرفة التامة والدين فما ينبغي له أن يدخل في المعالجة قبل الكمال وإن دخل فلا يترك والدين فما ينبغي له أن يدخل في المعالجة قبل الكمال وإن دخل فلا التامة والدين فما ينبغي له أن يدخل في المعالجة قبل الكمال وإن دخل فلا يترك فإن من لازم صلاح الأرواح صلاح الأجساد وإن الداء الذي لادواء له أن تكون العلة في وادٍ والمعالجة في وادٍ فلا يقبل في التزكية إلا من يثق بدينه كوثوقه بعلمه ولايصرف أحداً في هذه الصناعة إلا الذين زكت أعمالهم قبل التزكية وليشفعها بالامتحانات التي تسفر عن وحجوه الوثوق بالأهلية لثام دقائقها المنكية فإن العيان شاهد لنفسه ومن لم تنفعه شهادة فعله في يومه لم ينفعه غيره في أمسه ولايمض فيها حكماً قبل استكمال نصاب الشهادة وقبل التثبت بعد كمالها: فإن المعالجة محاربة للدءء والموت بجهالة المحارب له شهادة وليأمر من ألجيء إلى معالجة مرض لايعرفه بمتابعة من هو أوفق منه بالتقديم ومراجعة من هو أعلم منه به: فإن الحوادث قد تختلف وفوق كل ذي عليم عليم.

وملاك المور تقوى الله فليجعلها حجته فيما بين الله وبينه والافتقار إلى توفيقه فليصرف إلى ذلك قلبه وعينه والخير يكون إن شاء الله تعالى.

وليتعرف أولاً حقيقة المرض بأسبابه وعلاماته ويستقص أعراض المريض قبل مداواته ثم ينظر إلى السن والفصل والبلد ثم إذا عرف حقيقة المرض وقدر مايحتمله المزاج من الدواء لما عرض يشرع في تخفيف الحاصل وقطع الواصل مع حفظ القوى.

ولايهاجم الداء ولايستغرب الدواء ولايقدم على الأبدان إلا بما يلائمها ولايبعد الشبه ولايخرج عن جادة الأطباء ولو ظن الإصابة حتى يقوى لديه الظن ويتبصر فيه برأي أمثاله وليتجنب الدواء مأأمكنه المعالجة بالغذاء والمركب ما أمكنه المعالجة بالمفرد وإياه والقياس إلا ماصحح بتجريب فغيره في مثل مزاج من أخذ في علاجه وماعرض له وسنه وفصله وبلده ودرجة الدواء.

وليحذر من التجربة فقد قال أبقراط وهو رأس القوم: إنها خطر.

ثم إذا اضطر إلى وصف دواءٍ صالح للعلة نظر على ما فيه من المنافاة وإن قلت وتحيل لإصلاحه بوصف يصلح معه مع الاحتراز في وصف المقادير والكميات والكيفيات في الاستعمال والأوقات ومايتقدم ذلك الدواء أو يتأخر عنه.

ولايأمر باستعمال دواء ولاما يستغرب في غذاء حتى يحقق حقيقته ويعرف جديدة من عتيقه: ليعرف مقدار قوته في الفعل.

وليعلم أن الإنسان هو بنية الله وملعون من هدمها وأن الطبيعة مكافية وبؤسى لمن ظلها وقد سلم الأرواح وهي وديعة الله في هذه الأجسام فليحفظها وليتق الله ففي ذلك جميع الأقسام وإياه ثم إياه أن يصف دواءً ثم يكون هو الذي يأتي به أو يكون هو الذي يدل عليه أو المتولي لمناولته للمريض ليستعمله بين يديه وفي هذا كله لله المنة ولنا إذ هديناه له وأرشدناه إليه.

وهذه نسخة توقيع برياسة الكحالين.

الضرب السادس من أرباب الوظائف بالديار المصرية زعماء أهل الذمة

ويكتب لجميعهم تواقيع في قطع الثلث بألقابهم السابقة مفتتحةً بأما بعد حمد الله ويشتمل هذا الضرب على ثلاث وظائف الوظيفة الأولى رآسة اليهود وموضوعها التحدث على جماعة اليهود والحكم عليهم والقضاء على مقتضى دينهم وغير ذلك.

وقد تقدم في الكلام على النحل والملل أن الموجودين من اليهود ثلاث طوائف: وهم الربانيون والقراؤون والسامرة.

وقد جرت العادة أن يكون الرئيس من طائفة الربانيين دون غيرهم وهو يحكم على الطوائف الثلاث.

وهذه نسخة توقيع برآسه اليهود من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر و هي: أما بعد حمد الله الذي جعل ألطاف هذه الدولة القاهرة تصطفي لذمتها من اليهود رئيساً فرئيسا وتختار لقومها كما اختار من قومه موسى وتبهج لهم نفوساً كلما قدمت عليهم نفيسا والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي والرسول الذي أجمل الوصية بالملي والذمي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه كماهطل وبلي ومانزل وسمي - فإن معدلة هذه الدولة تكتنف الملل والنحل بالاحتياط وتعمهم من إنصافها وإسعافها بأوفر الأنصباء وأوفى الأقساط وتلمهم من حادث الزمن إذا اشتط ومن صرفه إذا شاط وتضمهم كما ضمت البنوة إلى جناح النبوة الأسباط لاتزال ترقب الإل والذمة في المسلمين وأهل الذمة وتقضي لهم بحسن الخبرة ورعاية الحرمة وتبيحهم من أمر دينهم ماعليه عوهدوا وتمنحهم من ذلك ماعليه عوقدوا وتحفظ نواميسهم بأحبارٍ تحمد موادهم إذا شوفهوا وتحسن مرآهم إذا شوهدوا: من كل إسارئيلي أجمل للتوراة الدرسة وأحسن لأسفار أنبيائه اقتباسه وأجمل التماسه ومن نبهته نباهته للتقدمة فما طعم اجتهاده يوماً حتى صار وجه الوجاهة في قومه ورأس الرأسة فأصبح فيهم معدوم النظير معدوداً منهم بكثير وموصوفاً بأنه في شرح أسفارٍ عبرانية حسن التفسير واستحق من بين شيعته أن يكون رئاس الكهنة وأن تصبح القلوب في مجامعهم بحسن منطقة مرتهنة وبأن للجهالة بتثقيفه لشيعته تحجب عقائدهم عن أن تغدو ممتهنة.

ولما كان فلان هو لمحاسن هذا التقريظ بهجة ولجسد هذا التفويض مهجة ولممادح هذا الثناء العريض لهجة ولعين هذا التعيين غمضها وليد هذه الأيادي بسطها وقبضها ولأبكار أفكار هذه الأوصاف متقاضيها ومقتضها ومن أدنيت قطاف النعماء ليد تقدمته على غيظ من غص منها واجتنى غضها - اقتضى حسن الرأي الشريف أن يميز على أبناء جنسه حق التمييز وأن يجاز له من التنويه والتنويل أجل ماجيز.

ورسم بالأمر الشريف - لازال يختار فيجمل الاختيار ويغدو كالغيث الذي يعم بنفعه الربا والوهاتد والأثمار والأشجار - أن تفوض إليه رآسه اليهود على اختلافهم: من الربانيين والقرائين والسامرة بالديار المصرية حماها الله وكلأها فليجعل أسبابهم بالتقوى تقوى وغروسهم بالتدبير لاتذوى ومقاصدهم لايمازجها شك وشكوى ولينزل عليهم منا مناً يسليهم صنعاً حتى لايفارقوا واختلابها تأتيه وإياه والتيه حتى لايقال: كأنه بعد لم يخرج من التيه.

وجماعة الربانيين فهم الشعب الأكبر والحزب الأكثر فعاملهم بالرفق الأجدى والسر الأجدر ولكونك منهم لاتمل معهم على غيرهم فيما به من النفس الأمارة تؤمر.

وجماعة القرائين فهم المعروفون في هذه الملة لملازمة الأدلة والاحتراز في أمر الأهلة فانصب لأمرهم من لم يتوله حين يتوله ومن كان منهم له معتقد فلا يخرج عن ذلك ولايحرج ولايلجم منهم بلجامٍ من نار إنكار من في ليلة سبته بيته عليه لايسرج.

والسامرة فهم الشعب الذين آذن التنظيف أهله بحروبه ولم يك أحدهم لمطعم لكم ولامشرب بأكوله ولاشروبه فمن قدرت على رده بدليلٍ من مذهبك في شروق كل بحثٍ وغروبه فارده من منهج تحيده عن ذلك وهروبه وإلا فقل له: ياسامري بصرت بما لم تبصروا به.

" وليكن حكمك فيهم بالبت " وافق بهم فإن " المنبت لاأرضاً قطع ولاظهراً أبقى " فإياك أن تكون ذلك المنبت ومرهم بملازمة قوانينهم كيلا يعدو أحد منهم في السبت واجعل أمور عقودهم مستتبة وأحسن التحري والتحرير لهم في إتقان كل كتبة ولاتختر إلا الأعيان من كل خزانة وديان ومن كان له من داود عليه السلام لحمة نسب وله به حرمة نسب فارغ له حقه وأصحبه من الرفق أكرم رفقة.

والجزية فهي لدمائكم وأولادكم عصمة وعلى دفاعها لادافعها وصمة ولأجلها ورد: من آذى ذمياً كنت خصمه وهي ألم من السيف إجارة وهي أجرة سكنى دار الإسلام كما هي لاستحقاق المنفعة بها إجارة فأدوها وبها نفوسكم فأدوها " وإن تعدو نعمة الله لاتحصوها فعدوا ألطاف الله بها ولا تعدوها ودوام على مه زجراً لتارك علامة ومن قصد منها خلاصه فقل له في الملأ: ماذا خلا صة ومن ركن في أمرها إلى الإخلاد والإخلال وسكن إلى الإهمال ولم يرض بأن راية الذلة الصفراء على رأسه تشال فأوسعه إنكار " وألزمه منا شعاراً وإن قام بنصره منهم معشر خشن فأرهم بعد العلامة خشكاراً وخذهم بتجنب الغش ىالذي هو للعهد مغير ومغيب واكفف من هو لما ينافيه معير ومعيب وأما من هو مجيب لذلك فهو لقصده محبب وانقل طباعهم عن ذلك وإن أبت عن التناقل فانتقامنا يتلو: " قل لا يستوي الخبيث والطيب ".

وقد علم أن الذي تتعاطونه من نفخ في البوق إنما هو كما قلتم للتذكار فاجتهدووا أن لايكون لتذكار العجل الحنيذ الذي له خوار هذه وصايانا لك ولهم فقل لهم: هذه موهبة الدولة وإحسانها إليكم ولطفها بكم وعاطفتها عليكم وبصرهم بذلك كلما تلا إحساننا إليهم: " يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ".

وهذه نسخة توقيع برآسة اليهود أيضاً: أما بعد حمد الله على أن جعل ملاحظة هذه الدولة القاهرة لجميع الملل ناظرة وإحسانها لايغفل مصلحة لأولي الأديانم غائبة ولاحاضرة والصلاة على سيدنا محمد الذي جعل ذمته وعهده وفيين لك نسمة مؤمنةٍ وكافرة - فإن الله تعالى لما مد رواق عدل هذه الأيام الشريفة على كل معاهد: من متقربٍ ومتباعد و ساوى بينهم في النظر الذي صدق الرأي وصدق الرائد - اقتضى جميلها أن يسهم لكل من أهل الذمة أوفر نصيب وأن لايقال لأحد منهم من الإجحاف مايريب وأن لاتكون أمورهم مضاعة ولاتعبداتهم مراعة ولا شرائعهم غير مصونة ولاأحكامهم عاريةعن حسن معون وكانت جماعهة اليهود وإن كانوا أولي غي وصدق النصارى فيهم وصدقوا في النصارى من أنهم ليسوا على شي لابد لهم من مباشرٍ يأخذهم بالأمر الأحوط والناموس الأضبط والمراسيم التي عليهم تشرط وكان الذي يختار لذلك ينبغي أن لا يكون إلا من أكبر الكهنة وأعلم الأحبار وممن عرف م ندينهم مالأجله يصطفى ولمثله يختار وممن فيه سياسة تحجزه عن المضار وتحجبه عن الاستنفار وكان فلان الرئيس هو المتميز بهذه الأوصاف على أبناء جنسه وله وازع من نفسه ورادع من حسن حدسه وخدمة في مهمات الدولة يستحق بها الزيادة في أنسه وهو من بين جماعته مشهور بالوجاهة موصوف بالنباهة ذو عبرانية حسنة التعبير ودراسةٍ لكتب أهل ملته على مافيها من التغيير - اقتضى جميل الاختصاص المنيف أن يرسم بالأمر الشريف - لابرح يرقب الإل ولالذمة ويرعى للمعاهدين الحرمة أن تفوض إليه رآسة اليهود الربانيين والقرائين والسامرة على عادة من تقدمه.

فليباشر ذلك مستوعباً أمورهم كلها مستودعاً دقها وجلها مكباشراً من أحوالهم ماجرت عادة مثله من الرؤساء أنيباشر مثلها غير مفرط في ضبط ناموس من نواميس المملكة ولامغفل الإنكار على من يتجاوزذلك إلى موارد الهلكة ومن فعل مايقضي بنفض عهده فعليه وعلى مستحسنه له من المقاتلة مايتعظ به كل من يفعل ذلك من بعده بحيث لايخرج أحد منهم في كنيسته ولافي يهوديته ولافي منع جزيته عن واجبٍ معهود ومن خالف فوراء ذلك من الأدب ماتقضعر منه الجلود وماجعلهم الله ذمة للمسلمين إلا حقناً لدمائهم فلا يبحها أحد منهم فتاجتمع له شماتة أهل الأديان من أعدائهم بأعدائهم - الوصايا كثيرة وإنما هذه نخبتها الملخصة وفيها من حساب الإحسان إليهم ماتغدو به أيام الإمهال لهم ممحصة والله يوفقه في كل تصرف مرغوب وتأفف من مثله مطلوب بمنه وكرمه! وهذه وصية لرئيس اليهود أوردها في التعريف وهي: وعليه بضم جماعته ولم شملهم باستطاعته والحكم فيهم على قواعد ملته وعوائد أئمته في الحكم إذا وضح له بأدلته وعقود الأنكحة وخواص يعتبر عندهم فيها على الإطلاق ومايفتقر فيها إلى الرضا من الجانبين في العقد يعتبر عندهم فيها على الإطلاق ومايفتقر فيها إلى الرضا من الجانبين في العقد والطلاق وفيمن أوجب عنده حكم دينه عليه التحريم وأوجب عليه الانقياد إلى التحكيم ومأدعوا فيه التواتر من الأخبار والتظافر على العمل به مما لم يوجد فيه نص وأجمعت عليه الأحبار والتوجه تلقاء بيت المقدس إلى جهة قبلتهم ومكطان تعبد أهل ملتهم والعمل في هذا جميعه بما شرعه موسى الكليم والوقوف معه إذا ثبت أنه فعل ذلك النبي الكريم وإقامة

حدود التوراة على ماطأنزل الله من غير تحريف ولاتبديل كلمةٍ بتأويل ولاتصريف واتباع ماأعطوا عليه العهد وشدوا عليه العقد وأبقوا فيه ذماءهم ووقوا به دماءهم وماكانت تحكم به الأنبياء والربانيون ويسلم إليه الإسلاميون منهم ويعبر عنه العبرانيون كل هذا مع إلزامه لهم بما يلزمهم من حكم أمثالهم أهل الذمة الذين أقروا في هذه الديار ووقاية أنفسهم بالخضوع والصغار ومد رؤوسهم بالإذعان لأهل ملة الإسلام وعدم مضايقتهم في الطرق وحيث يحصل الالتباس بهم في الحمام وحمل شعار الذمة الذي جعل لهم حلية العمائم وعقد على رؤوسهم لحفظهم عقد التمائم وليعلم أن شعارهم الأصفر موجب لئلا يراق دمهم الأحمر وأنهم تحت علم علامته آمنون وفي دعة أصائله ساكنون وليأخذهم بتجديد صبغة في كل حين وليأمرهم بملازمته ملازمة لاتوال علائمها على رؤوسهم تبين وعدم التظاهر لما يقتضي المناقضة أو يفهم منه المعارضة أو يدع فيه غير السيف وهو إذا كلم شديد العارضة وله ترتيب طبقات أهل ملته من الأحبار فمن دونهم على قدر استحقاقهم وعلى مالا تخرج عنه كلمة اتفاقهم وكذلك له الحديث في جميع كنائس اليهود المستمرة إلى الآن المستقرة بأيديهم من حين عقد عهد الذمة ثم ما تأكد بعده لطول الزمان من غير تحجديد متجدد ولاإحداث ثدر متزيد ولافعل شيءٍ مما لم تعقد عليه الذمة ويقر عليهم سلفهم الأول سلف هذه الأمة وفي هذا كفاية وتقوى اللهوخوفنا بأسنا رأس هذه الأمور المهمة.

ولايعجز عن لم شعث طائفته مع قلتهم وتأمين سربهم الذي لو لم يؤمنوا فيه لأكلهم الذئب لذلتهم وليصن بحسن السلوك دماءهم التي كأنما صبغت عماشمهم الحمر منها بما طل وأقود لهم منها النار الحمراء فلم يتقوها إلا بالذل وليعلم أنهم شعبة من اليهود لايخالفونهم في أصل المعتقد ولافي شيء يخرج عن قواعد دينهم لمن انتقد ولولا هذا لما عدول في أهل الكتاب ولاقنع منهم إلا بالإسلام أو ضرب الرقاب فليين على هذا الأساس ولينبيء قومه أنهم منهم وإنما الناس أجناس وليلتزم من فروع دينه مالايخالف فيه إلا بأن يقول لامساس وإذا كان كما يقول: إنه كهارون عليه السلام فليلتزم الجدد وليقم من شرط الذمة بما يقيم به طول المدد وليتمسك بالموسوية من غير تبديل ولاتحريف في كلمٍ ولاتأويل وليحص عمله فإنه عليه مسطور وليقف عند حده ولايتعد طوره في الطور وليحكم في طائفته وفي أنكحتهم ومواريثهم وكنائسهم القديمة المعقود عليها بما هو في عقد دينه وسبب لتوطيد قواعده في هذه الرتبة التي بلغها وتوطينه.

الوظيفة الثانية بطركية النصارى الملكية

وهم أقدم من اليعاقبة وقد تقدم في الكلام على النحل والملل أنهم أتباع ملكا الذي ظهر قديماً ببلاد الروم وأن الروم وهذه نسخة توقيع لبطرك الملكية: أما بعد حمد الله منوع افحسان لأولي الأديان وموصله ومفرعه لكل طائفةٍ ولكل إنسان والصلاة على سيدنا محمدٍ الذي أباد الله من أباد وأبان منعهده وذمته من أبان - فإن الطائفة الملكية من النصارى لما كانت لهم السابقة في دينهم ولهم أصل الرآسة والنفاسة في تعيينهم ومابرحت لهم في الكلاءة والحفظ قدم السابقة ورتبة بملوكهك الرومانية سامقة ومازالت لهم خدم الدول إلى أغراضها متسوقة ومتسابقة ولهم جوار مشكور وتبتل مشهور وعليهم وصايا من الملوك في كل ورود وصدور ولهم م نفوسهم مزايا تستوجب احترامهم وتستدعي إكرامهم وكان لابد لهم من بطريركٍ يلاحظ أحوالهم أتم الملاحظة ويستدعي لهم من الدولة أعظم محافظة ويحفظ نواميس قبيلهم ويحسن دراسة أناجيلهم ويعرفهم قواعد معتقداتهم ويأخذهم بالدعاء لهذه الدولة القاهرة في جميع صلواتهم ويجمعهم على سداد ويفرقهم على مراد وكان البطريرك فلان هو المتفق بين طائفته على تعيينه والمجمع على إظهار استحقاقه وتبيينه والذي له مزايا لو كان فيه واحدة منها لكفته في التأهيل ولرفعته إلى منصب الجليل فلذلك رسم.

لا برح يعطي كل أحد قصطه ويدخل كل لأبوابه ساجداً وقائلاً حطة - أن يباشر بطركية النصارى الملكية على عادة من البطاركة السالفة لهذه الدولة.

فليحط أمورها الجزئية والكلية والظاهرة والخفية وليأخذهم بما يلزمهم من قوانين شرعتهم وكل مايريدون من حسن سمعتهم وأما الديرة والبيع والكنائس التي للملكية فمرجعها إلى صونه وأمرها مردود إلى جميل إعانته وعونه والأساقفة والرهبان فهم سواد عين معتقده وخلاصة منتقده فلا يخلهم من تبجيل وحسن تأهيل وتتقدم إلى من بالثغور من جماعتك بأن لايدخل أحد منهم في أمر موبق ولافي مشكل موثق ولايميلون كل الميل إلى غربي من جنسهم وليكن الحذر لغدهم من يومهم وليومهم من أمسهم ولايشاكلون رسولاً يرد ولاقاصداً يفد وطريق السلامة أولى ماسلك ومن ترك الدخول فيما لايعنيه ترك هذه جملة من الوصية لامعة أفلح واهتدى من بها استنار ورشد من لها استشار والله يوفقك في كل مقصد تروم ويجعلك بهذه الوصايا تقول وتقوم.

وهذه وصية لبطرك الملكية أوردها في التعريف وهي: وهو كبير أهل ملته والحاكم عليهم مامتد في مدته وإليه مرجعهم في التحريم والتحليل وفي الحكم بينهم بما أنزل في التوراة ولم ينسخ في الإنجلي وشريعته مبنية على المسامحة والاحتمال

والصبر على الأذى وعدن الاكتراث به والاحتفال فخذ نفسك في الأول بهذه الآداب واعلم بأنك في المدخل إلى شريعتكم طريق إلى الباب فتخلق من الأخلاق بكل جميل ولاتستكثر من متاع الدنيا فإنه قليل وليقدم المصالحة بين المتحاكمين إليه قبل الفصل البت فإن الصلح كما يقال سيد الأحكام وهو قاعدة دينه المسيحي ولم تخالف فيه المحمدية الغراء دين الإسلام ولنظف صدور إخوانه من الغل ولايقنع بما ينظفه ماء المعمودية من الأجسام وإليه أمر الكنائس والبيع وهو رأس جماعته والكل له تبع فإياه أن يتخذها له تجارةً مربحة أو يقتطع بها مال نصراني يقربه فإنه مايكون قد قربه إلى المذبح وإنما ذبحه وكذلك الديارات وكل عمر والقلالي فيتعين عليه أن يتفقد فيها كل أمر وليجتهد في إجراء أمورها على مافيه رفع الشبهات وليعلم أنهم إنما اعتزلوا فيها للتعبد فلا يدعها اتتخذ متنزهات فهم إنما أحدثوا هذه الرهبانية للتقلل في هذه الدنيا والتعفف عن الفروج وحبسوا فيها أنفسهم حتى إن أكثرهم إذا دخل فيها مايعود يبقى له خروج فليحذهم من عملها مصيدةً للمال أوخلوة له ولكن بالنساء حراماً ويكون إنما تنزه عن الحلال وإياه ثم إياه أن يؤوي إليها الغرباء القادمين عليه من يريب أو يكتم عن الإنهاء إلينا مشكل أمرٍ ورد عليه من بعيد أوقريب ثم الحذر الحذر من إخفاء كتاب يرد عليه من أحدٍ من الملوك ثم الحذر الحذر من الكتابة إليهم أو المشي على مثل هذا السلوك وليجتنب البحر وإياه من اقتحامه فإنه يغرق أوتلقي مايلقيه جناح غرابٍ منه فإنه بالبين ينعق والتقوى مأمور بها أهل كل ملة وكل موافق ومخالف في القبلة فليكن عمله بها وفي الكناية ما يغني عن التصريح وفيها الوظيفة الثالثة بطركية اليعاقبة وقد تقدم في الكلام على النحل والملل الخلف في نسبتهم: فقيل إنهم أتباع ديسقرس وإنه كان اسمه في الغلمانية يعقوب وقيل اتباع يعقوب البرذعاني وقيل غير ذلك والأصح عندج المؤرخين الأول وبطركهم يحكم على طاءفة اليعاقبة وجميع نصارى الحبشة أتباعه وفي طاعته ملك الحبشة الأكبر وعنه تصدر ولايته.

وهذه نسخة توقيع لبطرك النصارى اليعاقبة: أما بعد حمد الله الذي أظهر دين الإسلام على الدين كله وأصدر أمور الشرائع عن عقد شرعه وحله وصير حكم كل ملة راجعاً إلى حكم عدله والشهادة له بالوحدانية التي تدل على أ ه الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد وليس شيء كمثله والصلاة السلام على سيدنا محمد أعظم أنبيائه وأكرم رسله وأشرف ولد آدم ونسله المصطفى في علم الله من قبله ووسيلته في التوراة من غرور الشيطان وخذاله والذي أطفأ الله ببركته نار نمروذ عن إبراهيم وجعلها برداً وسلاماً وأجله من أجله وبشر به عيسى بن مريم عبد الله وابن أمته وأقر موسى بن عمران كليم الله بفضله وعلى آله الطيبين الطاهرين من فروع أصله وأصحابه سامعي قوله وتابعي بله - فإن الله تعالى لما ارتضى الإسلام ديناً وأفضى بالملك إلينا وقضى لنا في البسيطة بسطة وتمكيناً وأمضى أوامرنا المطاعة بشمول اليمن شمالاً ويميناً - لم نزل نولي رعابيانا الإحسان رعايةٍ وتوطينا وندبم لأهل الذمة منا ذمةً وتأميناً وكانت طائفة النصارى اليعاقبة بالديار المصرية لهم من حين الفتح عهد وذمام ووصية سابقة من سبدنا رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ولابد من بطريرك يرجعون إليه في الأحكام ويجتمعون عليه في كل نقض وإبرام.

ولما كانت الحضرة السامية الشيخ الرئيس المبجل المكرم الكافي المعزز المفخر القديس شمس الرآسة عماد بني المعمودية كنز الطائفة الصليبية اختيار الملوك والسلاطين فلان: وفقه الله هو الذي تجرد وترهب وأجهد روحه وأتعب وصام عن المأكل والمشرب وساح فأبعد ومنع جفنه لذيذ المرقد ونهض في خدمة طائفته وجد وخفض لهم الجناح وبسط الخد وكف عنهم اليد واستحق فيهم التبجيل لما تميز به عليهم من معرفة أحكام الإنجيل وتفرد - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نلقي إليه أمر هذه الفرقة ونفوض ونبدلهم عن بطريكهم المتوفى ونعوض.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لابرحت مراسمه مطاعة ومراحمه لإنزال أهل كرمها بيعتها مرعية غير مراعة - أن يقدم الشيخ شمس الرآسة المذكور على الملة النصرانية اليعقوبية ويكون بطريركاً عليها على عادة من تقدمه وقاعدته بالديار المصرية والثغور المحروسة والجهات التي عادته فليسلك سبيل السوا ولايملك نفسه الهوى وليتمسك بخوف الله تعالى إن فعل أو نوى أو أخبر عن الحواريين أو روى فالعليم مراقب والعظيم معاقب والحكيم أمر أولي العقول بالفكرة في العواقب والحالكم ذغا بحقوق الخلق غداً يطالب والظلم في كل ملة حرام والعدل واجب فليستوف الإنصاف بين القوي والضعيف والحاضر والغائبيقصد مصلحتهم وليعتمد نصيحتهم وليمض على مايدينون به بيوعهم وفسوخهم ومواريثهم وأنكحتهم وليقمع غاوويهم وليسمع دعاويهم وليلزمهم من دينهم بما وجدوه فطنوه واعتقدوه وليتبع سبيل المعدلة فلا يعدوها عائدة إليه أمور القسيسين واعتقدوه وليتبع سبيل المعدلة فلا يعدوها عائدة إليه أمور القسيسين والرهبان في جميع الديرو الكنائس بسائر البلدان ولايعترض عليه فيما هو راجع إليه من هذا الشان.

ولايقدم منهم إلى رتبة إلا من استصلحه ولايرجح إلى منزلةٍ إلا من رشحه إليها ورجحه متبعاً في ذلك مابينه له العدل وأوضحه مرتجع الرتبة ممن لم تكن الصدور لتقدمته منشرحة مجمعاً لغيره في الإيراد والإصدار على اعتماد المصلحة وقد

أوضحنا له ولهم سبيل النجاة فليقتفوه وعرفناهم بالصواب والخيرة لهم إن عرفوه وليسأل الله ربه السلامة فيما لم يفعل وبهع يفوه والعلامة الشريفة أعلاه.

وهذه نسخة توقيع لبطرك النصارى اليعاقبة كتب به للشيخ المؤتمن في شهور سنة أربع وستين أما بعد حمد الله على نعمه التي نشرت لواء دولتنا في الآفاق فأوى كل أحد إلى ظله وبسطت معدلتنا في البلاد على الإطلاق فمنحت الخاص والعام من برنا بوابله وطله واصطنعت بذمامها ملوك الملل وحكام الطوائف فنطقوا عن أمرنا في عقد كل أمر وحله والشهادة بوحدانيته التي تنجح أمل المخلص في قوله وفعله وتفتح لمن تمسك بعروتها أبواب النجاة فيصبح في أمانٍ في شأنه كله والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدراً في محكم الذكر ونقله المبعوض رحمةً للعاملين زيادةً في رفعة مقامه وتقريراً لفضله المنعوت بالرأفة والرحمة في محكم كتابه الذلايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ولم يستطع أحد أن يأتي بسورة من مثله وعلى آله وصحبه الذين اتبعوا طريقته المثلى وسلكوا مناهج سبله وعقدوا الذمم لأهل الملل واستوصوا بهم خيراً لما عرفوه من سعة وحلمه وبذله - فإنه لما كانت الطائفة المسيحية والفرقة اليعقوبية ممن أوت تحت ظلنا الذي عم الوجود وسكنت في حرم ذمامنا الذي سار نبؤه في التهائم والنجود وتمسكت من طاعتنا واتباع أوامرنا بما سلف لها من الهدن والعهود وكانت أحكامهم مما يحتاج إلى منيدور عليه أمرها في كل حال وتنتظم به مصالح شملها ليبلغوا بها يحتاج إلى من يدور عليه أمرها في كل حال وتنتظم به مصالح شملها ليبلغوا بها يحتاج إلى من يدور عليه أمرها في كل حال وتنتظم به صالح شملها ليبلغوا بها الأمال ويأمنوا في معتقدهم فيها فيها من الإخلال وأنه إذا مات بطريرك لهم لابد أن نرسم لهم يغيره ليعتمدوا في ذلك مايتقدم به إليهم في نهيه وأمره ويسلك بهم في أحكامهم مايجب ويعرف كلامنهم مايأتي ويذر ويفعل يجتنب ويفصل بينهم بمقتضى مايعتقدونه في إنجيلهم ويمشي أحوالهم على موجبه في تحريمهم وتحليلهم ويزجر من خرج عن طريقه ليرجع إلى مايجب عليه أسوة رفيقه ويقضي بينهم بما يعتقدونه من الأحكام ويبين لهم قواعد دينهم في كل نقض وإبرام فلما هلك الآن بطريكهم مه من هلك رسمنا لهم أن ينتخبوا لهم من يكون لطريقته قد سلك وأن يختاروا لهم من يسوس أمورهم على أكمل الوجوه لنرسم بتقديمه عليهم فيقوم بما يؤملونه منه ويرتجوه.

وكان الحضرة السامية القديس المبجل الجليل المكرم الموقر الكبير الديان الرئيس الروحاني الفاضل الكافي المؤتمن جرجس بن القس مفضل اليعقوبي عماد بني المعمودية كنز الأمة المسيحية منتخب الملة الصليبية ركن الطائفة النصرانية اختيار الملوك والسلاطين - أطال الله تعالى بهجته وأعلى على أهل طائفته درجته - قد حاز من فضائل ملته أسماها وصعد من درجات الترقي على أبناء جنسه أعلاها فنره نفسه عن مشاركة الناس وتقشف بين أهله في المآكل واللباس وترك الزواج والنكاح واشتغل بعبادته التي لازم عليها في المساء والسصباح وألقى نفسه إلى الغاية في الإطراح وساح بخاطره في الفكرة وإن لم يكن بجسده قد ساح وارتاض بترك الشهوات مدة زمانه واطرح الملاذ لتعلو درجته بين أهله برفعة مكانه واشتمل من علوم طائفته على الجانب الوافر وعرف من أوامرهم ونواهيهم ماتقربه منهم العين والناظر وطلب من الرب به من أقواله وأفعاله فوقع ايختيارهم عليه وسألوا صدقاتنا الشريفة إلقاء أمرهم إليه.

فرسم بالأمر الشريف - لازال إحسانه إلى سائر العالم واصلاً وجوده لكل طائفةٍ بارتياد أكفائها شاملاً - أن يقدم حضرة القديس المؤتمن جرجس المشار إليه على الطائفة اليعقوبية من الملة النصرانية بالديار المحروسة والجهات الجاري بها العادة ويكون بطريركاً عليهم على عادة من تقدم في ذلك ومستقر قاعدته إلى آخر وقت قائماً بما يجب عليه من أمور هذه الملة باذلاً جهده في سلوك ماينبغي مما ينظم عليه أمره كله فاصلاً بينهم بما يعتقدونه من الأحكام متصرفاً على كل أسقف وقس ومطران في كل نقض وإبرام مالكاً من أمور القيسيسين والرهبان والشمامسة الزمام مانعاً من يروم أمراً لايسوغه وضع ولاتقرير جاعلاً نظره عليه منتقداً بالتحرز في التخيير زاجراً من يخرج منهم عن اتباع طريق الشريعة المطهرة التي يصح بها عقد الذمة ملزماً بسلوكها في كل ملمة فإن ذلك من الأمور المهمة آمراً من في الديرة من الرهبان بمعاملة المارين بهم والنازلين عليهم بمزيد الإحسان ومديد الإكرام والقيام بالضيافة المشروطة من وليتحدث في قسمة مواريثهم إذا ترافعوا إليه وليجعل فصل أمور أهل طائفته من المهمات لديه وليشفق من المهمات لديه وليشفق على الكبير والصغير وليتنزه عن قليل متاع الدنيا والكثير وليزهد في الجليل قبل الحقير.

وفي اطلاعه على أحكام دينه مايكفيه في الوصية ومايرفعه بين أبناء جنسه في الحياة الدنيوية والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله أعلاه.

وهذه نسخة توقيع لبطرك اليعاقبة وهي: أما بعد حمد الله على أن جعل من إحسان هذه الدولة لكل ملي وذمي نصيباً وفوق إلى أهداف الرعاية سهماً فسهماً مامنها إلا ماشوهد مصيباً والصلاة على سيدنا محمد الذي أحمد الله له سرى في صلاح الخلائق

وتأويباً - فإنه لما كان من سجايا الدولة القاهرة النظر في الجزئيات والكليات من أمور الأمة وتجاوز ذلك إلى رعاية أهل الذمة صلى الله عليه وسلم - بوصلته منهم بأم - لاسيما من سبقت وصية سيد المرسين عليهم من القبط الذين شرفهم رسول الله إبراهيم ولده عليه السلام وقبول هديتهم التي أبقت لهم مزية على ممر ايام وكانوا لابد لهم من بطريك يحفظ سوامهم ويضبط خواصهم وعوامهم ويجمع شمل رهبانهم ويراعي مصالح أديانهم ويحرر أمور أعيادهم ومواسهم في كل كنيس ويدعو للدولة القاهرة في كل تقديس وتجعل له الخيرة في ضبط أمور البيع والديرة واختيار الأساقفة والكهان وحفظ النواميس المسيحية في كل قربان ولايصلح لذلك إلا من هو بتول وكل خاشع عاملٍ ناصبٍ يستحق بذلك أن هذا الأمر إليه يؤول.

ولما كان البطريرك فلان هو المجمع على صلاحيته للبطركية على شعبه والتقدمة على أبناء المعمودية من شيعته وصحبه لما له من علم في دينه ومعرفةٍ بقوانينه وضبطٍ لأفانينه وعقل يمنعه عن التظاهر بما ينافي العهود ويلافي الأمر المعهود - اقتضى جميل الاختيار أنه رسم بالأمر الشريف - لابرح يضع كل شيء في موضعه من الاستحقاق ويبلاغ في الإرفاد لأهل الملل والإرفاق - أن يباشر بطركية جماعة اليعاقبة بالديار المصرية على عادة من تقدمه في هذه الرتبة ومن ارتقى قبله إلى هذه الهضبة.

فليباشر أمر هذه الطائفة وليجعل معونته بهم طائفة وليضبط أمورهم أحسن ضبط وأجمله وأتمه وأكمله وليأخذهم بما يلزمهم من القيام بالوظائف المعروفة والعهود المألوفة وليلزمهم بما يلزمهم شرعاً من كف عن تظاهر ممنوع أو تعاطي محذور منكور الشرور والشروع أو تنكب عن طريق الاستقامة وكما أنهم عدلوا عن الإسلام لايعدلون عن السلامة.

وأما أمور الديرة والكنائس فأمرها إليك مردود فاجر فيها على المعهود وأقم فيها عنك من يحسن النيابة ومن يجمل الإنابة ومن يستجلب الدعاء لهذه الدولة القاهرة في كل قداس ويعدد التقدس والأنفاس وعلى رهبان الأديرة للمساجد والجوامع وظائف لاتمنع ولاتؤخر ولاتحوج أحداً منهم أنه بها يذكر وليشرط على أهلها أنهم لايأوون طليعة الكفار ولامن يحصل منه إلا خير وإلا يحصل الإضرار وليأمرهم بحسن الجوار والقيام بما هو موظف عليهم للمسلمين السفار ويغر السفار هذه نبذة من الوصايامقنعة ولو وسع القول لكان ذا سعة وفي البطريرك من النباهة مايلهمه الصواب والله يجعل حسن الظن به لاارتياء فيه ولاارتياب بمنه وكرمه! والاعتماد.

الخ وهذه نسخة توقيع لبطرك اليعاقبة وهي: أما بعد حمد الله الذي خص كل ملةٍ بمنة وأقام بأوامرنا على كل طائفةٍ من نرضاه فنحقق بلإحسننا ظنه وجعل من شيمنا الشريفة الوصية بأهل الكتاب عملاً بالسنة والشهادة بوحدانيته التي نتخذ بينها وبين الشك والشرك من قوة الإيمان جنة وندخر أجورها فنسمو بها يوم العرض إلى أعلى غرف الجنة والصلاة والسلام على نبيه محمدٍ أكرم من أرسله إلى الأمم فأنال كلاً من البرايا يمنه وأعظم من بعثه فشرع الدين الحنيف وينه وعلى آله وأصحابه الذين لم فإن دولتنا القاهرة العوارف السحان والشيم الكريمة والعطايا والإحسان والفواضل التي - تزل قلوب المؤمنين بهم مطمئنة للآمال منها مايربي عليها ويزيد والمآثر التي بحر برها الوافر المديد ولكل ملةٍ من نعمها نوال جزيل ولكل فرقة من مواهبها جانب يقتضي التخويل ولايقضي بالتحويل ولكل طائفة من يمنها ومنها منائح طائفة بمزيد التنويل ولكل أناس من معدلتها نصيب يشمل الملل وعادة معروفٍ توارتت مع أنها خالصة من السآمة والملل سجية سخية بنا شرفت ومزية مروية منا ألفت وإن أهل الكتاب لطائفة كثرت بأبوابنا الشريفة عداداً واستصفت من مناهل جودنا مورداً وانتظمت في سلك رعايانا فأضحى سبب فضلنا لها مؤكداً وكانت الملة المسيحية والفرقة اليعقوبية لابد لها بعد موت بطريكهت من إقامة غيره وتقديم من يرتضى بفعله وقوله وسيره لتقتدي به عقد أمورها وحلها وتحريمها وتحليلها ووصلها وفصلها وتهتدي به في معتقدها وتركن إلى مايذكره من مجموع أحكام الإنجيل ومفردها وينتصب للفصل بين خصومها بما يقتضيه عرفانه ويظهر لأهل ملته بيانه حتى لاتجد في أمر دينها إلا ماتريده وبما نديمه لها من استنمرار الهدنه تبدي دعاءه وتعيده فإن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نستوصي بأهل الكتاب خيراً ونحن نسلك من اتباع شريعته الكمطهرة مانحسن فيه - إن شاء الله - سيرة يسيرةً وسيراً.

ولما كانت الحضرة السامية الشيخ الرئيس المبجل المكرم الفاضل الكافي الثقة عماد بني المعمودية كنز الطائفة الصليبية اختيار الملوك والسلاطين فلان - أطال الله بقاءه وأدام على أهل طائفته ارتقاءه - ممن اتفق على شكره أبناء جنسه واستوجب أن يرقى إلى هذه الرتبة بنفسه واشتهر بمعرفة أحوال فرقه وهجر الهل والوطن في تهذيب خلقه وحرم في مدة عمر النكاح وسار في المهامة والقفار وساح أضحى خميص البطن خاوي الوفاض قد ترك الطيبات وهجر التنعم وارتاض واعتمد في قوله على الإله وسأل الرب أن يبلغه في أهل ملته ماتمناه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يجمع الفرق على الدعاءلأيامه الشريفة ويديم للأقربين مواد مواهبه المألوفة - أن يقدم الشيخ فلان على الملة النصرانية اليعقوبية ويكون بطريركاً عليها على عادة من تقدمه ومستقر قاعدته بالديار المصرية والثغور المحروسة والجهات التي عادته بها إلى آخر وقت فليتول ذلك سالكاً من طرق النواهة مايجب فاصلاً بين النصارى بأحكام دينه التي لاتخفى عنه ولاتحتجب مالكاً أزمة كل أسقف وقومس ومطران مرجحاً بين القديس والقسيس والشماس والرهبان لتصبح أحكام كبيرهم وصغيرهم به منوطة ومواريثهم مقسومة بشرعته التي هي لديهم مبسوطة ويقف منهم إلا من رضي بتأهيله وليأمر كل قاصٍ منهم ودان ومن يتعبد بالديرة والصوامع من الرجال والنسوان برفع الأدعية بدوام دولتنا القاهرة التي أسدت لهم هذا الإحسان ويلزم كلاً منهم بأن لايحدث حادثاً ويكرم نزل من قدم عليه راجلاً أو لابئاً فإن هذه الولاية قد آلت إليه وهو أدرب بما تنطوي شروطها عليه والله تعالى يجعل البهجة لديه مقيمة والنعمة عليه مستديمة والخط الشريف أعلاه حجة بموجبه وبمقتضاه إن شاء الله تعالى.

وهذه وصية لبطرك اليعاقبة أوردها في التعريف قال: ويقال في وصية بطرك اليعاقبة مثل مافي وصية بطرك الملكية إلا فيما ينبه عليه.

ويسقط منه قولنا: 0 واعلم بأنك في المدخل إلى شريعتك طريق إلى الباب إذ كان لايدين بطاعة الباب الذي هو رأس الملكانيين وإنما هو رأس الملكانيين وإنما هو رأس اليعاقبة نظيرة للملكانيين ويقال مكان هذه الكلمة واعلم بأنك في المدخل إلى شريعتك قسيم الباب وأنتما سواء في الأتباع ومتساويان فإنه لايزداد مصراع على مصراع ويسقط منه قولنا: وليجتنب البحر وإياه من اقتحامه فإنه يغرق وثانية هذه الكلمة إذا كان ملك اليعاقبة مغلغلاً في الجنوب من تلقاء الحبشة حتى إذا قدر فلا يشم أنفاس الجنوب وليعلم أن تلك المادة وإن كثرت مقصرة ولايحفل بسؤدد السودان فإن الله جعل آلة الليل مظلمة وآية النهاء مبصرة ثم يختم بالوصية بالتقوى كما تقدم ونحو هذا والله أعلم.

ما هو خارج عن حاضرتي مصر والقاهرة من وظائف الديار المصرية

مما يكتب لأربابها. وهي ثلاث جهات الجهة الأولى ثغر الإسكندرية والوظائف فيها على ثلاثة أصناف الصنف الأول وظائف أرباب السيوف وبها وظيفة واحدة وهي النيابة وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أنها كانت أولاً ولايةً إلى أن طرقها الفرنج في سنة سبع وستين وسبعمائة فاستقرت من حينئذ نيابة يكتب لنائبها تقليد في قطع الثلثين بالجناب العالي مع الدعاء لمضاعفة النعمة وهذه نسخة تقليد بنيابة ثغر الإسكندرية: الحمد لله على نعم باسمة الثغر مسفرة الفجر رافعة القدر نحمده حمداً بشرح الصدر ويطلع طلوع البدر ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تحالف من يحالفها وتخالف من يخالفها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل نبي رابط في سبيل الله وجاهد وكابد في الجهاد أعداء الدين وكايد صلى الله وعلى آله وصحبه الذين خاضوا في غمرات الدجى كل غمر وندبوا لحماية الدين فكانوا ليوم كريهةٍ وسداد ثغر.

أما بعد فإن الاهتمام بالثغور هو أولى ماإليه حمد وعلى مصالحها اعتمد وكان ثغر اللإسكندرية المحروس هو المفتر عن أحسن الثنايا والمخصوص من الحياطة بأتم المزايا والذي كم شفت شفاهه من سقم عند ارتشاف والذي المثاغر به والمرابط كم له بالحسنات من ائتلاف كافلٍ بما تستدعيه مصلحة أهله من إنصاف ذو عزم يمضي والسهام مستودعة في الكنائن ويقضي بالعدل المزيل للشوائب والشوائن ومن له حزم يسد ثغر المعايب دون كل ملاحظ ومعاين وله سياسة تحفظ بمثلها الثغور وتصان الأمور وله بشاشة تستجلب النفور وتوفق مابين الألسنة من أولي الود والصدور وله حياطة بينما يقال: هذا جانبه دمث إذ يقال: هذا جانبه صعب ممتنع وبينما يقال ليقظته للمصلحة: هذا سحاب جهام إذ يقال هذاسيل مندفع.

ولما كان فلان هو مستوعب هذه الصفات ومستودع هذه الأسماء والسمات وإليه بهذه المناقب يشار وهو ساحب أذيال هذا الفخار - اقتضى حسن الرأي الشريف أن تفوض إليه السلطنة الشريفة بثغر الإسكندرية المحروس تفويضاً يمضي في مصالحه لسانه وقلمه ويصرف بين الأوامر والنواهي إشارته وكلمه ويزين مواكبه بطلعته ويزيد مهابته ببعد صيته واشتهار سمعته.

فليباشر هذه الوظيفة مجملاً مواكبها مكملاً مراتبها موثلاً بقواعد الأمن أرجاءها وجوانيها ناشراً لواء العدل على عوالمها قابضاً بالإنصاف لمظلوم رعيتها على يد ظالمها معلياً منار الشرع الشريف بمعاضدة حكامه والانقياد إلى أحكامه والوقوف في كل أمر مع نقضه وإبرامه وليحرس جوانب هذا الثغر ويحميها وليصن عوارضه ومافيها مع نقضه وإبرامه وليحرس جوانب هذا الثغر ويحميها وليصن عوارضه ومافيها ومن فيها وليكلأه برأ وبحراً وليرخ عليه من ذبه ستراً فستراً ولينجح لسافرته طلباً وليبلغهم من العدل والإحسان أرباً ويجمل معاملة منوجد منهم في سفره نصباً واتخذ سبيله في البحر عجباً.

والرعية فهم طراز الممالك وعنوان العمارة الذي من شاهده في هذا الثغر علم ماوراء ذلك وأحسن إليهم وارأف بهم وبلغهم من عدل هذه الدولة غاية أربهم وأمور الحمس والديوان فلها قواعد مستقرة وقوانين مستمرة فاسلك منها جدداً واضحاً وابتغ لها علماً لائحاً وغير ذلك فلا يكاد على فهمك يخفى من تقوى الله التي بها تكف عين المضار وتكفى والله تعالى يلهمك صواباً ولايجعل بين حججاك وبين المصالح حجاباً بمنه وكرمه! الصنف الثاني الوظائف الدينية من الوظائف التي يكتب بها بثغر الإسكندرية الوظائف الدينية وكلها تواقيع وفيها مرتبتان المرتبة الأولى ما يكتب منها في قطع الثلث الوظيفة الأولى القضاء وهو الآن مختص بالمالكية وقاضيها يتحدث في نفس المدينة وظاهرها ليس له ولاية فيما هو خارج عنها.

وهذه نسخة توقيع بقضاء ثغر الإسكندرية المالكي كتب به للشيخ وجيه الدين محمد بن عبد الله المعطي الإسكندري المالكيوهي: الحمد لله رافع قدر من نوه العلم بذكره ونور التقى مواقع فكره ونبه الورع على رفعة قدره وأشرق به منصب الحكم العزيز إشراف الأفق بطلوع بدره وأضاءت بنو أحكامه غوامض القضايا الشرعية إضاءة الدحى بغرة فجره وقضى له دوام الإصابة في الاجتهاد بإحراز أجريه إذا كان أحد قسمي الاجتهاد مقتضياً لأجره ومليء صدره بأنواع العلوم الدينية فوسع له الشرع الشريف صدر مجلسه وأعد له مجلس صدره وزخر من خاطره بحر العلم فارتوت رياض الخواطر بأ وار فرائد دره وأسفر وجه الدين بنور علمه وعمله: فقام هذا مقان السرور في أساريره وناب هذا مناب الشنب في ثغره.

نحمده حمداً يزيد قدر النعم تنويهاً ويسوغ في المحامد تعظيماً لمسدي المنة وتنزيهاً وينهض بشكر التوفيق في اختصاص منصب الحكم بمن كان عند الله وجيهاً.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تفتر ثغور الإسلام بإدامتها وتبنى قواعد الإيمان على إقامتها وتشيم بوارق النصر على جاحدها من أثناء غمامتها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أنارت الآفاق بملته ودارة أدراة التشبيه بين أنبياء إسارئيل وعلماء أمته وضاهى شرعة شمس الظهيرة في وضوح أحكامه وظهور أدلته صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين عملوا لما علموا وجاهدوا أعداء الله فما ضعفوا لذلك ولاألموا وقضوا بالحق بين أمته فلا المقضي لهم أثمر ولاالمقضي عليهم ظلموا صلاةً لاتزال لها الأرض مسجداً ولايبرح ذكرها متهماً في الآفاق ومنجداً وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من قلد الحكم وإن نای به الورع عن توقعه وخطب للقضاء وإن أعرض به الزهد عن طلابه وتتبعه ودعي إليه إذ الإجابة عليه متعينه ووضعت مقاليده بحكم الاستحقاق في يديهٌ إذ أولويته البينة لا تحتاج إلى بينهة - من عقدت علية تعينه لهذا المنصب الجليل الخناصر ودعت إلى استدعائه إليه فضائله الثابتة القواعد وزهادته الزاكية الأواصر ودلت عليه علومه دلالة الأضواء على لوامع الشهب ونبهت عليه فنونه تنبيه الأنواء على مواقع السحب وشهد بورعه المتين تفقهه واعتزاله وأنبأ عن نهوضه بنصرة الدين قوة جداله الذي هو جلاد مثله ونزاله وتبحر في أنواع العلوم حتى جاوز البحر بمثله ولكنه العذب الزلال وشغل نفسه بالتنوع في الفنون فكان التحلي بعبادة الله ثمرة ذلك الاشتغال ومشى على قدم الأئمة العلماء من أسلافه فلم يشق في ذلك المضمار غباره ونشأ على طريقة العلم والعمل: فنهاره بالانقطاع إليه ليله وليله بالاشتغال بهما نهاره.

ولما كان فلان هو الذي خطبته هذه الرتبة السنية لنفسها وتشوقت إلى الإضاءة بطلوعه في أفقها تشوف المطالع إلى الإضاءة بطلوع شمسها وأثنى لسان القلم على فضائله وهو يعتذر من الاختصار واقتصرت البلاغة على اليسير من التعريض بوصفه وطالب مالايحصر معذور في الاقتصادد والاقتصار وعين لما تعين عليه من مصالح الإمة وذلك يقضي لمثله من أنصار السنة أن يتأخر عن مثلها أو يغيب وكان ثغر الإسكندرية المحروس من المعاقل التي يفتر عن شنب النصر ثغرها ومن أركان الدين الذي يغص بأبطالها بحرها وهي مأوى صلحاء الجهاد الذين سهام ليلهم أسبق إلى العدا من سهامهم وموطن العلماء من أهل الاجتهاد الذين يعدل دم الشهداء مداد أقلامهم وهي داره التي تزهى به نواحيها وموطن رباطه ابلذي يوم وليلة منه في سبيل الله خير من الدنيا ومافيها - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نخص منصب حكمها بعالم أفقها المنير وزاهد ثغرها الذي ماشام برقه بصر عدو إلا وانقلب إليه خاسئاً وهو حسير وأن نفوض إليه منصب القضاء والحكم لعزيز بثغر الإسكندرية المحروس على قاعدة من تقدمه فيه نظراً في عموم ذلك الثغر المحروس به إلى من انعقد إجماع أئمة عصره ومصره على سعة علمه ووفور وزعه وكمال فضله.

فليباشر هذا المنصب الذي ملاك أمره العلم والتقى ونظام حكمه العدل والورع وهما أكمل مابه يرتقى وليحكم بما أراه الله منوقاعد مذهبه المحكمة وأحكام غمامه التي هي بمصالح الدين والدنيا محكمة وليقض بأقوال إمام دار الهجرة التي منها صدرت السنة إلى الآفاق وعنها أخذت ذخائر العلم التي تزكو على كثرة الإنفاق وبها حمى الأحكام الدينية موطأ الأكناف وفيها

استقام عمود الملة ممدود الطرف على سائر الأطراف فليل من ذلك وغيره جميع ماكان يليه من تقدمه وتقتضيه قواعد ولايته التي أمضينا فيه لسانه وقلمه.

فأما مايدخل تحت هذا الإجمال من آداب القضاء وقواعده وأدواته وعوائده: من تخصيص الحكم بأوقاته ومساواته بين الخصمين في إنصافه وإنصاته واجتناب الحكم في الأوقات المقتضية لتركه وتوقي نقض الأحكام التي نظمها عدم مخالفة النص والإجماع في سلكه فإنه مكتف بالإجمال عن تفصيلها مكتف عن ذكر كثيرها بالإيماء إلى قليلها إذ هو أدرى بأوضاعها شرعاً وعرفاً وأدرب لما قد يشذ منها عن ألمعيته أو يخفى وملاك الوصايا تقوى الله تعالى وهي من خصائص نفسه وفواتح ماابتدأ الورع بإتقان درسه والله تعالى يؤيد حكمه ويعلي علمه بمنه واعلم أنه قد كان فيما تقدم بقضائها كتب ب هللقاضي علم الدين الإخنائي الشافعي في ثامن شعبان سة ثلاثين وسبعمائة وهي: الحمد لله الذي رفع لنا في كل ثغر علماً وأجرى لنا في جوار كل بحر ما يضاهيه كرماً وجعل من حكام دولتنا الشريفة من يعرف بنسبه الإسنائي بل السنائي أنه يمحو من الظلم ظلماً.

نحمده على أن زادنا نعماً ووفر للأحكام الشرعية بنا قسماً وأغلى قيماً فأضحت تنافس الدر الثمين قيماً ونشهد أن لاإله ألا الله وحده لاشريك له شهادة " نجرد لإقامتها سيفاً وقلماً ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي جعل الله له شريعة ماذية ودیناً قيماً ونصب من أئمة أتباعه كل علم يهدي أمماً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة باقية مابقيت الأرض والسما وسلم تسليماً.

وبعد فإن أولى الثغور بأن لايزال به علم مرفوع وعلم مصون حجابه الممنوع وعمل يمشي به أئمة الأمة على طريقه فإنها من دار الملك في أعز مقام ومن مجاوزرة البحر في موطن جهاد تخفق -المشروع ثغر الإسكندرية - حماها الله تعالى به الأعلام وغالب من فيها إما فقيه يتمسك بالشريعة الشريفة في علو علومه أو رب مال له وقوف بمجلس الحكم العزيز ينتصف من خصام خصومه ولم تزل وظيفة القضاء بها آهلة الصدور كاملة البدور متهلله بما لا يفوت الشنب كبارق الجزع إذا حكى إيماض الثغور وكان لها مدة قد خلت ونحن نفكر فيمن يكون سداداً لثغرها وكافياً فيما يهم في الأحكام الشرعية من أمرها وكافلاً من الحق الذي أمر الله به بما يقي النفوس وقائماً في مدجارسها بما يزيد معالمها إشادةً في الدروس حتى أجمعت آراؤنا الشريفة على من يحسن عليه الإجماع وتحسم به دواعي النزاع ويحسد علمه علم الشمس لما علا عنها من كرة الاتفاع ومن يتضوع بنشر العدل في يمنى كفة القلم وإذا وقفت به الركائب قالت: ياشاري القصد هذا البان والعلم وكان المجلس السامي القضائي العلمي الإسنائي الشافعي أدام الله علوه هو العلم المنشور والعلم المشهور والمراد به تقدم من وصف مشكور فاقتضت مراسمنا المطاعة أن تناط به من الأحكام الشرعية زالقضايا وأن يبسم هذا الثغر بحكمه عن واضح الثنايا.

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري: زاده الله شرفاً وضاعف له تصرفاً - أن يفوض إليه القضاء بمدينة إسكندرية - حماها الله تعالى - على عادة من تقدمه وقاعدته المستقرة إلى آخر وقت على أن يستنيب عنه في تحمله وفيا شاء منه من هو موصوف بصفته موثوق بدينه وعلمه ومعرفته ولينتصب في مجلس الحم العزيز لمن ينتصف وليعمل بما يرضينا من مراضي الله تعالى فإن للعيون أن تنظر وللألسنة أتن تصف ولينظر في أمر الشهود فإن الأحكام الشرعية على شهادتهم تبنى وليحترز من الوكلاء فإن منهم من يجعل الظن يقيناً واليقين ظناً ولينظر في أمور الأيتام ويتصرف في أموالهم بالحسن وليقم الحدود على مقتضى مذهبه وليعول في العقود على من لايخاف معه امرؤ على غلحاق في نسبه وغير هذا مما إليه مرجعه وإليه ينتهي مفترقه ومجتمعه وبحكمه يفصل أمره أجمعه وليتخذ الله تعالى عليه رقيباً ويعلم أن سيرى كل مايعمله عند الله قريباً وتقوى اللله هي التي نتخذ معه عليها عهداً مسؤولاً ورجاءً مأمولاً وقولاً عند الله وملائكته وأنبيائه مقبولاً ونقلده منها على كل مخالف سيفاً مسلولاً ونحن نرغب إلى الله أن يوفقه في حكمه ويعينه على كل مايملى من الوصايا بما هو ملي به من عمله وعلمه والخط الشريف أعلاه حجة فيه.

قلت: وكان قد استحدث بالإسكندرية قاضٍ حنفي في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين يولى من الأبواب السلطانية رفقاً للقاضي المالكي بها يتحدث في الأحكام في القضايا بمذهبه خاصة وأمر مودع الأيتام ونظر الأوقاف وغير ذلك من متعلقات قضاء القضاة مختص بالمالكي ثم صارت بعد ذلك تارة يولى بها حنفي كذلك وتارة تشغر منه.

فإن وليها حنفي كتب له في قطع الثلث كما يكتب للقاضي المالكي وليس بها الآن شافعي إلا نائباً عن المالكي ولاحنلي بها أصلاً.

ومحتسبها يمضي تحدثه فيما يختص به قاضيها وليس له نواب فيما هو خارج عن ذلك من البلاد.

وهذه نسخة توقيع بالحسبة بثغر الإسكندرية الحمد لله الذي جعل المناصب في أيامنا الزاهرة محفوظةً في أكفائها مضمونةً لمن تقاضت له من الإقبال رد جفائها معدوقةً في مآلها إلى من زانها بمعرفته الحسنة وحسن بهائها مخصوصةً بمن دلت كفاءته وكفايته على أنه أولى بتقربها وأحق باصطفائها.

أحمده على نعمه التي لم تخيب في إحساننا أملاً ولم تضيع سعي من أحسن العمل في مصالح دولتنا إن الله لايضيع أجر من أحسن عملاً ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً هي أشرف مافه به اللسان وأفضل ماتعبد به افنسان وأرفع ماملكت به في الدنيا والآخرة عظام الرتب الحسان ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أحل الطيبات وأباحها وأزال الشبهات وأزاحها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بأحكامه ووقفوا مع ماشرع لهم من حلال دينه وحراوه وحافظوا على العمل بسنته بعده محافظتهم عليها في أيامه صلاةً يتوقد سراجها ويتأكد بها انتساق السنة وانتساجها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من رجع فيه حق منصبه إلى نصابه ورد به واجب رتبته إلى من جعلته سوابق سيرته أولى به وتقاضت له سيرته عواطف كرمنا ونهضت نزاهته باستطلاع ماغبا عنه من عوارفنا ونعمنا وأغنته أوصافه عن تجدي ثناء يستعاد به برنا القديم ويستدام له به فضلنا العميم وتستدر به أخلاف كرمنا الذي تساوى في عمومه الظاعن والمقيم - من زان التقى أوصافه وكملت العفة معرفته وإنصافه وتولت الديانة نظره فيما عدق به من مصالح الرعايا خصوصاً وعموماً وتكفلت الخبرة من اعتباره لأمور الأقوات بأن جعل لكل منها في الجودة حداً معلوماً وباشر مافوض إليه فجمع بين رضا الله تعالى ورضا خلقه وعول عليه في حسبة أعز الثغور لدينا فتصبح الرعايا فيما بسط لهم من رزقه.

ولما كان فلان هو الذي أضاءت أوصافه وهل تنكر الإضاءة للسراج وتشوفت إليه رتبته فلم يكن لها إلا إليه ملاذ وإلا عليه معاج فسلك من السير أضاها لربه ومن الأحوال أجمعها لأمن عاقبته وسلامة غبة ومن الاجتهاد في مصالح الرعايا مايضاعف شكره على احتسابه ومن الخيرة مايعرف كلا منهم كيف يكون اكتساء البرية في اكتسابه - رسم أن يستقر.

فليستمر في ذلك على عادته التي ناضلت عنه فأصابت قاعدته التي دعت له عواطفنا نعمنا فأجابت وليزد في التحذير والتحقيق مااستطاع ويناقش حتى يستقر على الصحة فيما يباع أو يبتاع ويقابل على الغش بما يردع متعاطيه ويزجر صانع الأعمال الفاسدة عن استدامتها ومن يوافقه على ذلك ويواطيه ويثمر أموال الأحباس بملاحظة أصولها والمحافظة على ريعها ومحصولها وإمضاء مصارفها على شروط واقفيها إن علمت ومزية ماقدم من شكره والثناء عليه وملاك ذلك جيمعه تقوى الله تعالى وهي أخص ماقدم من أوصافه والرفق بالرعايا وإنه من أحسن حلى معرفته وإنصافه والخير يكون إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الثالثة نظر الصادر

وموضوعها التحدث في قدر مقرر يؤخذ من تجار الفرنج الواردين إلى االإسكندرية وعليه مرتبات لناسٍ مخصوصين من أهل العلم والإصلاح ينفق عليهم بمقادير معلومة من متحصل هذه الجهة.

وهذه نسخة توقيع بنظر الصادر والوارد أنشأته عن السلطان الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق للقاضي ناصر الدين محمد الطناحي إمام المقام الشريف السلطاني في منتصف شهر صفر سنة أربع وثمانمائة وهي: الحمد لله الذي جعل من سلطاننا الناصر لأخص ولي أعز ناصر وخصه من فائض كرمنا المتتابع ومننا المترادف بأكرم وارد وأبر صادر وبواه من فضلنا المنيف أفضل مبوأ: فتارة تأتم به نحمده على أن جعلنا نتبع في الولايات نهج الصواب ونقتفيه ولآثرنا من أثرة الأوبة بأعلى مواقع الاجتباء والوالد سر أبيه ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له الذي أذل طغاة الكفر بقمع آناف كبرائهم وألزمهم الصغار بمالٍ يؤخذ من أقوياء أغنيائهم فيفرق في ضعفاء المسلمين وفقرائهم ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي ندب إلى مبرة أهل الفضل وذويه ورغب في رعاية المودة للأباء بقوله: إن من أبر البر بر الرجل أهل ود أبيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين عدقت بهم مهمات فقاموا بحقها ووكلت إليهم جلائل الولايات فإحرزوا بجميل التأثير قصب سبقها صلاةً يبقى على مدى الأيام حكمها ولايتغير على مر الزمان رسمها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن من كريم سجايانا التي جبلنا عليه وشريف شيمنا التي يجذبنا طيب العنصر إليها أننخص أخص الأولياء بأسنى الولايات ونتحف أصفى الأصفياء بنهاية غيره من البديات ونرفع قدر من لم يزل ظهره للملوك محراباً وننوه بذكر من رغبت فيه الوظائف فعدلت إليه عن سواه إضراباً.

وكان المجلس السامي القاضوي العالمي العاملي الفاضلي الكاملي البارعي البليغي الماجدي الأوحدي الأثيري الأثيلي العريقي الأصيلي الخطيبي الناصري مجد الإسلام بهاء الأنام شرف الرؤساء أوحد الكبراء صدر الأعسان جمال الخطباء جلال النظار صفوة الملوك والسلاطين أبو عبد الله محمد أبن المجلس السامي الجمالي المرحوم عبد الله الطناحي إمام المقام الشريف: أدام الله تعالى رفعته - قد طالت في المخالصة قدمته ووفرت من صدق الموالاة قسمته فرفع على الايتداء خبره ونصب على المدح تقدمه فحمد في الاختيار أثره وكمانت وظيفتا نظر الصادر وخطابة الجامع الغربي بثغر الإسكندرية المحروس - حرسه الله تعالى وحماه وصان من طروق العدو المخذول حماه - من أرفع الوظائف قدراً وأميزها رتبة وأعلاها ذكراً - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نسند ولايتهما إليه ونعتمد في القيام بمصالحمها عليه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالت آراؤه مسددة ونعمه على الأولياء في كل حين مجددة - أن يستقر المشار إليه في الوظيفتين المذكورتين عوضاً عمن كانتا بيده لما لهما من المعلوم ويفسح له في الاستنابة على عادة من تقدمه في ذلك: استناداً إلى أمانته التي بلغت به من العفة منتهاها وكفايته التي عجز المتكلفون عن الوصول إلى مداها وفصاحته التي أعجزت ببراعتها الخطباء الأماثل وبلاغته التي قضت بالعي على قس إيادٍ وتحكمت بالفهاهة على سحبان وائل.

فليتلق ماأسند إليه بيده الطولى وباعه المديد وليقابل هذه النعمة الحفيلة بالشكر فإن الشكر مستلزم للمزيد عالماً أن نظر الصادر يقدمه أهل الثغر على عامة الوظائف مادق منها وماجل ويتبرك المرتبون عليه بما يأخذونه من رتبه وإن قل فليحسن النظر فيه وروداً وصدراً ويميز ريعه بحسن النظر فيه حتى يقول المعاند: ماأحسن هذا نظراً! والجامع الغربي فهو أجل جوامع الثغر الإسكندري قدراً وأعظمها في الأقطار صيتاً وأسيرها في الآفاق ذكراً يحضر الجمعة في أهل الشرق والغرب ويلم بخطبته سكان الوهاد والهضاب فليرق منبره من خطبه المنبر لخطبته وعلم علو مقامه فقابله بعلو رتبته ويشنف الأسماع بوعظه ويشج القلوب بلفظه ويحيي العقول بتذكيره ويبك العيون بتحذيره وليعد للجامع ماتعوده من الإسعاد ويجدد مادرس من معالم خطابته حتى يقال: هذا ابن المنير قد عاد وعماد الوصايا تقوى الله فهي ملاك الأمور كلها وعليها مدار أحوال الدنيا والآخرة في عقدها وحلها وهاتان مقدمتا خيرٍ فليكن لنتيجتهما يرتقب ولايقطع بالوقوف معهما رجاءه فأول الغيث قطر ثم ينسكب والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه حجة فيه بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

الصنف الثالث من الوظائف التي يكتب بها بثغر الإسكندرية المحروس الوظائف الديوانية

وهي على طبقتين من يكتب له في قطع الثالث بالمجلس السامي بالياء وهو ناظر المباشرة بها وعنه يعبر بناظر الإسكندرية دون ناظر الأصل المقدم ذكره في جملة الوظائف الديوانية بالحضرة وموضوع هذه الوظيفة التحدث في الأموال السلطانية بالإسكندرية مما يتحصل من المأخوذ من تجار الفرنج وسائر المتاجر الواصلة براً وبحراً بالقبض والصرف والحمل إلى الأوباب السلطانية.

وهذه نسخة توقيع ثغر الإسكندرية كتب به للقاضي جمال الدين ابن بصاصة وهي: الحمد لله الذي أضحك الثغور بعد عبوسها ورد إليها جمالها وأنار أفقها بطلوع شموسها وأحيا معالم الخير فيها وقد كادت أن تشرف على دروسها وأقام لمصالح الأمة من يشرق وجه الحق ببياض آرائه وتلتذ الأسماع بتلاوة أوصافه الجميلة وأنبائه.

نحمده حمد من أسبغت عليه النعماء وتهادت إليه الآلاء وخطبته لنفسها العلياء ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً ترفع قدر قائلها وتعليه وتعز جانب منتحلها وتدنيه وأن محمداً عبده ورسوله أفضل نبي رابط وجاهد وأكرم رسول جنح للسلم بأمر ربه فهادن وعاهد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأشياعه وحزبه وبعد فأحق من ماس في أردية الرياسة عطفاً واستجلى وجوه السعادة من حجب عزها فأبدت له جمالاً ولطفاً واصطفته الدولة القاهرة لمهماتها لمل رأته خير كافل وتنقل في مراتبها ولما كان فلان أدام الله رفعته ممن أشارت إليه المناقب الجليلة وصارت له إلى كل سؤال نعم الوسيلة رسم بالأمر الشريف - لازال.

أن يستقر في نظر ثغر الإسكندرية المحروس ويباشر هذا المنصب المبارك بعزماته الماضية وهممه العالية برأي لايساهم فيه ولايشارك: ليصبح هذا الثغر بمباشرته باسماً حالياً وتعود بهجته له بجميل نظره ثانياً وينتصب لتدبير أحواله على عادته ويقرر قواعده بعالي همته ويجتهد في تحصيل أمواله وتحصين ذخائره واستخراج زكاته وتنمية متاجره ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا ألفوه منه والرفق الذي نقلوا أخباره السارة عنه فإنهم هدايا البحور ودوالبة الثغور ومن ألسنتهم يطلع على ماتجنه الصدور وإذا بذر لهم حب الإحسن نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور وليعتمد معهم حالة توجب لهم القلق

والتظلم والمقت وليواصل بالحمول إلى بيت المال المعمور وليملأ لاخزائن السلطانية من مستعملات الثغر وأمتعته وأصنافه لكل ماتستغني به عن الواصل في اليرور والبحور وليصرف همته العالية إلى تدبير أحوال المتاجر بهذا الثغر بحيث ترتفع رؤوس أموالها وتنمي وتجود سحائب فوائدها وتهمي وليراع أحوال المتسخدمين في مباشراتهم ويكشف عن باطن سيرهم في جهاتهم ليتحققوا أنه مهيمن عليهم وناظر بعين الرأفة إليهم فتنكف يد الخائن منهم عن الخيانة وتتحلى أنامل الأمين بمحاسن الصيانة وليطالع بالمتجددات في الثغر المحروس ليرد الجواب عليه منا بما يشرح الصدور ويطيب النفوس وليتناول من المعلوم على ذلك في غرة كل شهر مايشهد به الديوان المعمور والله تعالى يتولاه ويعضده ويؤيده ويسدده بمنه وكرمه!.

قلت: وربما كتب لناظرها توقيع مفتتح بأما بعد حمد الله في قطع الثلث.

وهذه نسخة توقيع بنظر ثغر الإسكندرية وهي: أما بعد حمد الله مفيض حلل إنعامنا على من أخلص في طاعتنا الشريفة قلبه ولسانه ومولي فضل آلائنا العميمة على من أرهف في مصالحنا عزمه وبنانه ومحلي رتب عليائنا الشريفة بمن أشرق في سماء المعالي بدره وإنسانه وأينعت في غصون الأماني قطوفه وأفنانه ومبلغ أقصى غاية المجد في أيامنا الزاهرة بمن تبتسم بجميل نظره الثغور وتعتصم بحميد خبره وخبرته الأمور وتشرق من جميل تدبيره البدور وتعتمد على هممه الأيام والدهور والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم والناشر لواء العدل بسنته الواضح وشرعه القويم والمنجز لمن اقتفى سبله أوفى تكريم وأوفر حظ عظيم وعلى آله وأصحابه مااهتدى بهديهم ذوو البصائر والأبصار وارتدى بأرديتهم المعلمة مقتفي الآثار - فإن أولى من أسندنا إلى نظره الجميل رتبة عز مازالت طيور الآمال عليها تحوم وعدقنا بتدبيره الجليل منصب سيادة مابرحت الأماني له تروم واعتمدنا على همته العلية فصدق الخبر الخبر وركنا إلى حميد رأيه ولما كان فلان هو الذي اتسق في ذورة هذه المعالي وانتظم به عقد هذه اللالي وحوى بفضيلة اللسان والبيان مالم تدركه المرهفات والعوالي فماحل ذروة عز إلا وحلاها بنظره الجليل ولارقي رتبة سيادةٍ إلا وأسفر في ذروتها وجه صبحه الجميل ولاعدق بنظره كفاية رتبةٍ إلا وكان لها خير كفيل.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال ينتصي للرتب العلية خير منجد وممير ويمتطي للمناصب السنية نعم المولى ونعم النصير - أن يستقر.

فإنه القوي الأمين والمتسمك من تقوى الله تعالى ومراقبته بالسبب المتين والمتسند بجميل كفايته وحميد ديانته إلى حصن حصين والمستذري بأصالته وإصابته إلى الجنة الواقية والحرم الأمين فليقدم خيرة الله تعالى في مباشرة الوظيفة المذكورة بعزم لاينبو وهمة لاتخبو وتدبير يتضاعف على ممر الأيام ويربو ونظرٍ لايعزب عن مكباشرته فيه مثقال ذرة إلا وهي من خاطره في قرار مكين وضبطٍ لاتمتد معه يد لامس إليها إلا ويجد من مرهفه مايكف كفها عن الخيانة بالحق المبين وليضاعف همته في مصالح هذه الجهة التي عدقناها بنظره السعيد وليوفر عزمته فإن الحازم من ألقى السمع وهو شهيد والوصايا كثيرة ومثله لايدل عليها والتنبيهات واضحة وهو - وفقه الله - أهدى أن يرشد إليها والله تعالى يوفقه في القول والعمل ويصلح بجميل تدبيره وحميد تأتيه كل خلل بمنه وكرمه! من يكتب له في قطع الثلث بالمجلس السامي بغير ياء أو مجلس القاضي وفيها وظيفتان الوظيفة الأولى كتابة الدرج وصاحبها هو الذي يقوم بالإسكندرية مقام كاتب السر بالأبواب السلطانية في قراءة المكاتبة على النائب وكتابة الأجوبة ومايجري مجرى ذلك.

وهذه نسخة توقيع من ذلك: رسم بالأمر الشريف - لازال شاملاً فضله كاملاً عدله هاكلاً بالإحسان ويله متصلاً بالجميل حبله ملاحظاً بعين العناية للبيت الزاكي فرعه الطيب أصله معلياً نجمه إلى أسنى المراتب التي لاينبغي أن يكون محلها إلا محله - أن يستقر فلان في كتابة الدرج بثغر الإسكندرية المحروس على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته لالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت: لأصالته المعرقة وغصون نسبه المورقة وآدابه الجمة وفضيلته التي أبدى بها علمه وكتابته التي حلت المهارق وأبدت من الجواهر ماتتمنى لمسه المفارق وتذوي لنضارته أزاهر الروض النضير وتتفرد في الحسن فلا تجد لها من نظير وتبرز كالعقود في أجياد الترائب وتنشيء كتباً تغني عن الكتائب مع ماله من رآسةٍ أثبتت معاليه ونفاسةٍ أضحت بجواهرها الأوصاف حالية وصدارة توالت منه فاستوجب بها مزيد الحسنى المتوالية قد خول في كرم الأصل فلا غرو أن أمسى نجيباً ودعا بديع اللفظ ولطيف المعنى فغدا كل منهما لأمره طائعاً وبالإذعان مجيباً ودعا بديع اللفظ ولطيف المعنى فغدا كل منهما لأمره طائعاً وبالإذعان مجيباً وعلا كوكبه فأضحى في الرفعة بعيداً وإن كان في مرأى العين قريباً وزكا من أكابره إلى كل فريدٍ في سؤدده واحدٍ في علاه يفوق الجمع في عدده فهو إنسان عين زمانه ومالك زمام الإنشاء ومصرف عنان بنانه ومبرز الحسنات بسفارته المقبولة وإطلاق بيانه فلا غرو ان استوجب منا مايقضي له بالمزيد واستحق باتباع أصله العالم التقي إدراك مايريد وتحلى بمناقبه ومآثره ونقل عن عفافه ومفاخره.

فاستمر في ذلك على أجمل عوائده وأجزل فوائده سالكاً في ذلك طرائفه الحميدة ومناهجه ومناهج أسلافه السديدة مبرزاً من خطه ما يخجل به الطروس ويسر بمزاياه لانفوس وينظم كالعقود ويلوح للأبصار حسن رونقه المشهود والله تعالى يجعل إحساننا لدى بيته الكريم مستمراً وامتناننا العميم عنده مستقراً وثغر العناية به مفتراً بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الثانية نظر دار الطراز بثغر الإسكندرية

وهذه نسخة توقيع بذلك كتب بها لصلاح الدين بن علاء الدين علي بن البرهان سنة إحدى وأربعين وسبعمائة من غنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء وهي: رسم بالأمر الشريف - لازال إيثاره يكرم من غدا صلاحه لحلة العلى طرازاً واختياره يقدم للمناصب الجليلة من ورث من أبيه نهضةً واحترازاً - أن يستقر فلان في كذا: لكفايته المعروفة المحققة ودرايته المألوفة بركاتها الموفرة وحركاتها الموفقة وديانته التي منها الأكابر على ثقة وأمانته التي تعتمد الحق مستدعيةً ومنفقةً وصيانته التي هي للواصل حافظة وعلى الحاصل مشفقة.

فليباشر هذه الوظيفة التي كانت في سالف الزمان إلى الحكام تضاف وللعلماء الأعلام عليها نظر وإشراف ومنها يسدل على أوليائنا لباس الإنعام وترسل أجناس الإتحاف وتسربل الكعبة البيت الحرام في كل عام بجلبابها المحكم النسج المعلم الأطراف وليصن ذهبها عند صرفه وقبضه وليزن خزها بتقريب مشوبه وتحرير محضه وليبن عن حسن التدبير في إبرام حريرها ونقضه وليستجلب رجالها وصناعها وليجنب أحوالها ضياعها وليستجد أصنافها وأنواعها وليتفقد أكنافها وبقاعها حتى يظهر في أعمالها آثار الصلاح وتشكر مباشرته التي هي محمودة الانتهاء مسعودة الافتتاح والله يقرن رجاءه بالأرباح ويؤذن له حيث سلك بإصابة الصواب والفلاح بمنه وكرمه! قلت: ودار الطراز هذه هي التي تعمل فيها المستعملات السلطانية: مما يحمل إلى خزانة الخاص الشريف من الأقمشة المختلفة الصفات: من الحرير والمقترح المخوص بالذهب والتفاصيل المنقوشه بضروب النقوش المختلفة وغيرذلك من رقيق الكتان وغيره مما لايوجد مثله في قطر من أقطار الأرض ومنه تتخذ الأقمشة التي يلبسها السلطان وأهل دوره ومنه تعمل الخلع والتشاريف التي يلبسها أكابر الأمراء وأعيان الدولة وسائر أهل المملكة ومنه تبعث الهدايا والتحف إلى ملوك الأقطار.

وقد كان يكتب لناظر هذه الدار توقيع عن الأبواب السلطانية خارج عن توقيع منناظر الإسكندرية على ماتقدم ذكره.

أما الآن فقد صار ذلك تحت نظر ناظر الإسكندرية يتحدث فيه كما يتحدث في سائر أمورها ومرجع الكل إلى ناظر الخاص بالأبواب السلطانية.

الجهة الثانية مما هو خارج عن حاضرتي مصر والقاهرة بالديار المصرية - بلاد الريف والمراد بالريف في أصل اللغة موضع المياه والزرع وقد تقدم أن ريف الديار المصرية وجهان الوجه الأول الوجه القبلي وهو المعبر عنه بالصعيد وقد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك أنه ينقسم إلى صعيدٍ أعلى وصعيدٍ أسفل وقد كانت ولايته العامة في الزمن المتقدم يعبر عن صاحبها بوالي الولاة بالوجه القبلي ثم استقرت نيابة سلطنة على حد تقدمة العسكر بغزة في رتبة المكاتبة في الأيام الظاهرية برقوق وهي على ذلك إلى الآن ونائبها يكتب له تقليد بنيابة السلطنة بها في قطع النصف.

وهذه نسخة تقليدٍ شريفٍ من ذلك من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء وهي: الحمد لله الذي رحم بتعاهد نظرنا البلاد والعباد وحسم بموارد زواجرنا مواد الفساد وأحمد في هذا الوجه لنا الآثار ووطأ بنا المهاد وأفرد آراءنا بجميع المصالح على الجمع والإفراد وأولى بنا الرعية الخير في استرعاء من يبذل في صيانتهم الاجتهاد وأعلى بنا كلمة العدل فهي تنشر وتذاع وأوهلا بنا كلمة الظلم فهي تقهر وتذاد وأجلى بانتقامنا فئة الضلال فلها عن ملكنا الشريف اندفاع وانطراد نحمده على أن قرن بآرائنا السداد وشنكره على أن ضمن اصطفاءنا حسن الارتياد ونشهد أن لإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تقوم حجتها يوم يقوم الأشهاد وتدوم بهجتها علماً للإرشاد ونشهد أن سيد البشر محمداً عبده ورسوله الذي فضل العالم وساد وأجزل المكارم وجاد وهدى بشرعه من خاد وأردى بردعه ممن حاد وأجرى بجوده النفع حيث كان وأبدى ببأسه القمع لمن كاد وأخمد بأسيافه الباطل فباد وجعل لأنف مخالفه الإرغام ولجيبش مجانفه الإرعاد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأنجاب الأنجاد صلاةً لها تضاعف وتعداد وبعد فإن الله تعالى لما أعلى همنا وأصعدها ووفى عزائمنا من النصر موعدها وأسعف بملكنا الرعية وأسعدها وضاعف بنا لديهم النعمة وجددها وأوضح بنا سبل المعدلو وجددها وأوضح بنا سبل المعدلة وجددها وأنجح بسلطاننا آمال الخليقة وأنجدها - لم نخل من ملاحظتنا أدنى القطار ولاأبعدها ولم نغفل من ممالكنا ناحية إلا نحاها فضلنا وقصدها فأقر

بها الصالحات وخلدها وأثر بها المسامحات وأبدها ونصر الشريعة وأيدها وسد الزريعة بأفعال حزمٍ سددها ووطن أهلها ووطدها وأورد من بها موارد الأمن لما وردها.

ولما واجه إقبالنا في هذه الأيام الوجه القبلي وصعد إلى الصعيد الأعلى ركابنا العلي لمحنا بلاده وتعددها وتعين ملاحظته وتأكدها وكثرة السلاك لسبله والملاك لخوله والوارد لنهله والوفاد من قبله وهو منهج التجار في التوجه من أبوابنا الشريفة والجواز وباب اليمن والحجاز وفي الحقيقة هذا المجاز يتعين له الحفظ وفيه الاحتراز وبه كراسي منها السيارة تمتار وعلى سواها من البلاد تمتاز وبه مراكز ولاة ينفرد كل منها عن الآخر وينحاز وهي: إطفيح والبهنسى والأشموني ومنفلوط وسيوط وإخميم وقوص وهذه الأقاليم مجتمعة متفرقة وحدود بعضها ببعضٍ متعلقة وبها إقطاعات مقدمي الألوف والطلبخاناه والمماليك والحلقة وإليها تردد الركاضة والمرتوقة وربما أخاف المفسدون من بعضها سبله وقطع طرقه فاتهم البري وسلم الجري ولبس على من هو عن الخيانة عري فرأينا أن ننصب بهذه الأقاليم والي ولاة يجوس بنفسه خلالها ويدوس بخيله سهلهاوجبالها ويفجأ مفسديها ويبغت معتديها ويخمد نفاقها ويحمد وفاقها وينصف ضعافها ويذهب خلافها ويزيل شكواها ويكف عدواها ويصلح فسادها ويوضح سدادها ويوصل حقوقها وبستأصل عقوقها ويواصل طروقها ويقابل بالعقاب فسوقها ويمنع باهتمامه أهواءها ويشفي بحسامه أدواءها.

ولما كان المجلس السامي الأميري الحسام يهو الذي عرف أحوالها وخبرها وولي من أقاليمها ماعلم به مصالحها واعتبرها وعهدت منه الأمانة والكفاية وتحققت من أقاليمها ماعلم به مصالحها واعتبرها وعهدت منه الأمانة والكفاية وتحققت بنهضته في كل عمل ويقظته في كل ولاية - اقتضى حسن الرأي الشريف أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بهذه الأعمال المذكورة والأقاليم كلها وأن ينتضي فيها حسامه الذي ينبغي أن يرتضى وينتضى لمثلها وأن يحل محله إذ اخترناه لأعلى رتب الولاة وأجلها وأن نصل أسباب النعمة لديه بذه النعم التي كل ولايةٍ فرع لأصلها.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالت أيامه الشريفة تخص الرتب العليه بأهاها وتشمل ذوي الاهتمام بإحسانها وفضلها - أن يفوض إلى المشار إليه ولاية الولاة بالوجه القبلي.

فليباشر ذلك بهمة تمضي في البلاد عزائمها ونهضة تسير إلى دانيها وقاصيها صوارمها وشهامةٍ يدهش المتمردين قادمها ويفقد مواد الفساد من حسامها حاسمها.

ونحن نرسم له بأمور يلازمها ونوصيه بوصايا يدوامها أن يكون بتقوى الله تعالى عاملاً وللنصح باذلاً وللشريعة مؤمناً وللمنافقين موهان " وللرعايا موطناً وللنزاهة مظهراً ومبطناً وعن الأبرياء كافاً وعن الأتقياء عافاً وعن الأموال منزاً وإلى مايصلح الأعمال من صالح الأعمال موجهاً وليغد في الأمور مثبتاً ولذوي الفجور مشتتاً ولسماع حجج الخصوم منصتاً ولاسجعل لحلوله الأقاليم حيناً مؤقتاً بل يدخل المدينه على حين غفلة من أهلها وليبغت بحلوله هذه النواحي ليعلم ماهم عليه من ترك الفواحش أو فعلها وليقم لكل جهةٍ من يعلمه بما يحتاج إلى علمه ويبكر له بما يفتقر أهل البلاد إلى الستر عنه وكتمه وليلحظ المحارس والأدراك وليجعل لكل شارد من بطشه أسرع إدراك - وقد رسمنا لولاة الأعمال المذكورة ومن فيها من نواب الأمراء والمشايخ بهذه الصورة وأن لايجبروا مفسداً ولايؤووه ولاينزلووا خائناً ولايحووه ولايستروا مختفياً ولايخبوه ولايحلوا نازحاً ولايوطنوه بل يحضروه ولايؤخروه ويمسكوه ولايتركوه ويسلموه ولايحموه ومن خالف هذا المرسوم أو اعتمد غير هذه الرسوم فهو لنفسه ظلوم وقد برئت منه الذمة وزالت عنه الحرمة وزلت قدمه وذهب ماله ودمه وقرئت مراسيمنا بذلك هنالك على منابر الجوامع وسمعها كل سامع وهم لك على امتثال أوامرنا مساعدون وعلى اجتناب نواهينا معاضدون وللإصلاح مااستطاعوا مريدون وقاصدون فلا تمكن أحداً من العربان ولا من الفلاحين أن يركب فرساً فإنما يعدها للخيانة مختلساً ولايكون لها مرتبطاً ولامحتسباً وكن لهم ملاقياً مراقباً فمن فعل ذلك فانتقم منه بما رسمكنا معاقباً ولاتمكنهم من حمل السلاح ولا ابتياعه ولااستعارته ولااستيداعه وتفقد من بالأقاليم من تجاره وصناعه فخذ بالقيمة ماعند التجار واقمع بذلك نفس الفجار وأضرم نار العذاب على من أضرم لعمل ذلك النار وأمر كل فئتين متعاديتين بالمصالحة وأكفف بذلك يد المكافحة وحلف بعضهم لبعضٍ بعد تحليف أكابرهم لناعلى السيرة الحميدة والنية الصالحة وخذهم في الجنايات بالعدل والمشاححة وفي المطالبات بالرفق إن لم تكن مسامحة واحملهم على محجة الحق الأبلج والشريعة الواضحة.

ولإذا رفعت إليك شكوى فأزلها أو سئلت إقالة عثرة لذي هيئة فأقلها أو وجب حد فأقمه لحينه أو ارتبت في أمر فترو حتى تهتدي ليقينه ولاتعتقل إلا من أجرم جرماً الاعتقال والحبس ولاتسرع إلى ماتخشى فيه اللبس واعمل على براءة الذمة واجهد أن لا يكون أمرك عليك غمة ولاترجح للهوى على خصم خصمه ولاتظلمه فإن الظلم ظلمة وخف نقمة الله فهي أعظم نقمة

ولاتأخذك على البريء غلظة ولاقسوة كما لاينبغي أن تأخذك في الجريء رأفة ولارحمة والله تعالى برفع لك بالطاعة رتباً وينجح لك بالخدمة طلباً ويبلغ بك في الإصلاح أرباً ويرد بك أمر كل مفسد مخيباً ويوضح لك من الهداية مغيباً وينزل بك من الخيرات طيباً والخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بالوجه القبلي أيضاً من إنشاء الشريف شهاب الدين كتب به لعلاء الدين المرادي وهي: الحمد لله الذي جعل إقبالنا مسفر الوجوه ونوالنا مبلغاً كلاً من الأولياء ما يؤمله منن القرب من أبوابنا الشريفة ويرجوه وإفضالنا يوفر أقسام النعم لمنن وفر دواعيه على طاعتنا فلا يزال استحقاقه يعينه ويدعوه وإجمالنا ينجز وعود التقديم لمن تعددت خدمه فلا يتجاوزه التكريم ولايعدوه.

نحمده على أن جعل إنعامنا يهب الجزيل ويحبوه ونشكره على أن أقلمنا نحق الحق فنرفعه فيدمغ الباطل ويعلوه.

ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً هي خير ماينطق به الإنسان ويفوه لايبرح اللسان يكرر غخلاصها ويتلوه ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي رفع الله ببعثته عن هذه الأمة كل مكروه وحمى بشرعته الدين الحنيف فلا يلم به التبديل ولايعروه وأفاض ببركاته في كل وجه مايوسع الخير ويدره ويمنع الشر ويذروه صلى الله عليه وعلى آله الذين هم عثرته وأقربوه وصحبه الذين استمعوا قوله واتبعوه صلاةً لايزال وافدها يتبع سبيل الإجابة ويقفوه ويصل إلى محل القبول ولايجفوه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن الله تعالى بما قرن آراءنا بالسداد وأحين بنا النظر في صلاح البلاد ومصالح العباد لم نزل نرفع أقدار المخلصين بمزية الاختيار والارتياد ونجمعهم في صعيد الإحسان ونحلمهم رتب الإصعاد وندني منهم من له تام اهتمام وشاد اجتهاد ونميز منهم من حسن حالاً لالجمع والإفراد.

والولاية على الولاة بالوجه القبلي من أهم مايلمح وأعم مايختار له من للحق ينصر وللخلق ينصح إذ بهذا الوجه عيون البلدان ووجوه العربان وكراسي الأقاليم الحسان ومراكز الولايات التي تحل دائرة السوء بأهل العدوان وإقطاعات الجند والأمراء والخواص الشريفة التي على عمارتها إجماع الآراء وعليه تتردد التجار وإليه بالميزة يشار ومنه تتعدد المنافع فيتعين أن ندفع عنه المضار ونلقي أموره لمن ينتقى حزمه وعزمه ويختار.

ولما كان فلان هو الذي له ولايات اقتضت تقديمه وسبقت منه سوابق خدم أجزلت تكريمه ومازال في الشام علي الهمة حسن الشيمة وطهر البر من كل فاجر ورأى أن التقوى أربح المتاجر وأعذب للرعية من المعدلة الموارد فصدر من أبوابنا إلى أحمد المصادر - اقتضى حسن ألأرأي اشريف أن نجعل له من إقبالنا النصيب الوافر فلذلك رسم بالأمر الشريف - لابرح يزيد الأقدار علاءً ويظهرها من تكريمه في أحسن المظاعهر - أن تفوض إليه نيابة لاسلطنة الشريفة بالوجه القبلي وجميع نواحيه على عادة من تقدمه في ذلك ومستقل قاعدته إلىآخر وقت.

فليتلق هذه الولاية المباركة بقبول حسن وليوقظ جفن سيفه الذي لم يعرف الوسن وليتق الله ربه في السر والعلن وليحكم بما شرع الله وسن وليجتهد في إحماد العواقب وإخماد الفتن لبسكن من تردد إليها أو سكن وليلاحظ هذه الأقاليم بعزائمه السيارة وليحافظ على سلوك سيرته السارة وليستطلع من كل بلد أخباره ويتتبع كم كل والٍ آثاره وإن رأى منكراً أزاله أو وجد مبطلاً أذالهأو حقاً أداله وليعظم أحكام الشرع وحكامه وليجعله إمامه ليسعى نوره أمامه وليطالعنا بما تتعين فيه المطالعة ويراجع أوامرنا فيما تجب فيه المراجعة وليستجلب لأيامنا الأدعية النافعة وليباشر بنفسه الأمور التي هي له راجعة وليراع في القضايا المصلحة الجامعه ولتكن حمايته للمؤمنين واقية وفتكته بالمجرمين واقعة وليسع الرعايا بالمعدلة الواسعة ويمنع المجترئين بالأخذه الرابية والهيبة الرادعة ولايمكن أحداً من العربان بجميع الوجه القبلي أن يركب فرساً ولايقتنيه ويكف بذلك الأيدي المعتدية فإن المصلحة لمنعهم من ركوبها مقتضية وليقم الحرمة والمهابة وليدم قيامه في الخدمة وانتصابه وليرهف حد عزمه ويمضيه ويجرد سيف الانتقام على المفسدين وينتضيه ومن وجده من العربان خالف المرسوم الشريف من منعه من ركوب الخيل كائناً من كان ضرب عنقه وأرهقه من البطش بما أرهقه: ليرتدع به أثماله ولايتسع لأحدٍ في الشر مجاله.

وقد كتبنا إلى سائر الأقاليم بمساعدته وأمرناهم بمعاونته ومعاضدته وأكدنا عليهم في البمادرة إلى مايراه من جميع الأمور من غير تهاون ولاتقصير ولافتور حتى لاتفوت مصلحة عن وقتها ولاتزال جموع المعتدين معاجلة بكبتها وقد حذرنا العربان من مخالفة مارسمنا بالعترض لما يوجب هلاك نفوسهم وقطع رؤوسهم.

وليقرأ هذا المرسوم الشريف على المنابر بجميع نواحي الوجه القبلي لتمتثل مكراسمه ويتلقى بالقبول قادمه وليقفوا عنده ويقفوا رشده ويرهبوا من الشر وعيده ويستنجزوا من الخير وعده وهو - بحمد اله - مابرح مهذباً وبأكمل الآداب مؤدباً وبما يفعله إلى رضا الله تعالى ورضانا مقرباً والله تعالى يجعله مختاراً مجتبى ويوزعه شكر منحنا الذي أجزل له الحبا وخص به هذا العمل الجليل فضاعف خصبه واهتز وربا ويطلعه مباركاً ميموناً حيث حل قيل له: مرحباً ويصعد به هذه الرتبة ويهبه توفيقاً مستصحباً ويمهد به الطرق للسالكين حتي يتلو عليه لسان التأمين: فتيمموا صعيداً طيبا والخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليد شريف بنيابته أيضاً من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله وهي: الحمد لله مطلق التصرف فيما كان ممنوعاً ومنطق المتصرف ليكون قوله الصواب مسموعاً وموسع نطاق المصرف فس جميع ماتعين أن يكون له مجموعاً.

نحمده حمداً يعذب ينبوعاً وينبت بمزيد الشكر زروعاً ويدر ضروعاً ونشهد أن لاإله غلا الله وحده لاشريك له شهادة تتفرع فروعاً وتسكن جموعاً وتسكت جموعاً ونشهد أن محمدا: " عبده ورسوله الذي أقوى لأهل الطغيان ربوعاً وأجرى لعيون الزرد عليهم دموعاً وأغرى القسي بالحنين إليهم وروعاً وأسقط من تشكى جوعاً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تعم درع الفجر بشفقها المخلق صدوعاً وسلم تسليماً كثيراً وبعد فإنه لايستقيم نجاح الأمور ويستدام صلاح الجمهور إلا بتفقد أحوال ولاتهم وتعهجد سلوك الرعايا مع رعاتهم ورد مجموع كل عمل إلى من لا يبيت طرفه في مصالحهم مملوءاً من الوسن ولايقر له في التنقل في مهماتهم جواد فيرسن ولاتهدأسيوفه في الأغماد مابرقت بارقة فتن ولايشرب الماء إلا ممزوجاً بدمٍ ولايبيت إلا على دمن وكانت الديار المصرية المحروسة أحوج شيء إلى هذا الموصوف وأكثر اضطراراً إلى ماتشام له في صلاح رعاياها لوامع سيوف والوجه القبلي بها هو الجامع مايزيد على السبعة الأقاليم الحائز من أهل الحضر والبادية لكل ظاعن ومقيم قد امتد حتى كاد لا ينتهي إلى آخر ولايلتهي بما يكنفه من بر مقفر وبحرٍ زاخر قد جاور بالأدوية العميقة الحوت في الماء وجاوره في السماء برفعة الجبال وتطاول حتى اتصل طرفاه الجنوبي بالجنوب الشمالي بالشمال وحوت مجاريه من النيل المبارك ما مد الرزق الممتد وأمد المد المبيض على عنبره ثراها المسود وهو الوجه الذي تعرف في كوثر نيله نضرة النعيم ويبهر حسناً من أول قطرةٍ تقع من مرآه الجميل على وسيم قد حال فيه الماء محمراً كنمايشرب ندى ورد الخدود وحلا كأنما ضرب الضرب في لمى ريقه المورود وكان لاينهض بأعبائه ويرد بالغيظ متقرحة عيون رقبائه ويمنع كل منسر منسر يحذر أن ينتهب وذيل خبائه إلا من تقدمت له درب يتعلم في جليل الخطوب من مضائها السيف المذرب ويقتدي في دقيق التلطف بسياستها القلم المجرب وكان فلان هو الذي تتهادى كفايته الأمال ويتعادى نفعه والسحب فلا يدرى بمن منهما التروي ولمن الاتجال وقد ولي الأعمال البهنساوية فأضحى المغل في بيادره يتبادر والإقبال يتكاثر إقباله والمحل يتناذر ومزدرعاتها تعرف سيماها في وجوهها من أثر سجود الليل كزرع أخرج شطأه فاستازر فاقتضى حسن رأينا الشريف أن نطلق تصرف فيما فخرج الأمر الشريف العالي - لازال يؤيد عز الدين ظهوراً ويتم به في أعماله نوراً - أن يكون فلان كاشفاً ووالي الولاة بالوجه القبلي بأجمعه: معطله ومزدرعه وبره وبحره وعامره وقفره وأهل حضره وباديته وأصحاب زرعه وماشيته على عادة من تقدمه وقاعدته في ذلك ليأمن المقين والسلك ويجمع على الطاعة من قبله هنالك وينتظم عقد عقائدهم المتهالك ويقوي الله أجره والشرع الشريف يكون نهيه وأمره والحكام والأحكام هما ما هما فليحفظ زمامهما ولينفذ إلى الأغراض سهامهما وليوصل الحقوق إلى أربابها ويسهل المطالب على طلابه ولينصف إنصافاً لايشتكى معه حيف وليقم المهابة حتى لايقدر على التعدي طارق طيف وليجرد عزائمه فإن من العزائم ماهو أمضى من السيف وليحسن قرى التيل القادم في كل قريةٍ فإنه ضيف.

فعليك بما نأمرك به من تعبئة صفوف الجسور لأمداده والاستعداد لمجر عوالي صواريه ومجرى جياده وتفقد قبل قدومه طريقه واترك عن ري البلاد تعويقه وأقم الجسور فهي قيام الجسور واحفر التراع فإنها تراعيى وأسفر له عن عرائس قراها المجلوة وجوها كلما قسن له إصبعاً يقيس ذراعاً واقطع بإيصال حق كل ناحيةٍ إليها من الماء منازعة الخصوم ونبئهم أن الماء قسمة بينهم لكل منهم شرب يومٍ معلوم ولاتدع به أحداً من أهل المفاسد ومن جرت لهم بسوابق الفتن عوائد ومن يتعزز برب جاه ومن ومن لا يكون له إلى حماية اتجاه ومن خرج بوجهه للشر مصرحاً أولباب عقابٍ مستفتحاً أو وقف على درب أو قطع طريق أو توعد أهل رفاقٍ أو أهل فريق أو أقدم على ضرر أحدٍ في نفس أو مال أو خشيت له عاقبة في بدايةٍ أو مآل أو نزل في بلد أميرٍ ليتغطى بجناحه أو ترامى إلى عصبة يحمل منهم حد سلاحه فسل عليهم سيفك الماضي وأحسن إلى الناس إذا خشيت أن تسيء إليهم التقاضي ومن أمسكته منه فأمض حكم الله فيهم وأقم الحدود على متعديهم وطهر الأرض بماء السيوف من أنجاسهم وعلق منهم أناساً بحبل الوريد إلى مدارج أنفاسهم واصلب منهم على الجذوع من تناوح الرياح بسعفهم وأوثق منهم بالسلاسل والأغلال من لاتقتضي جرائمهم إيصالهم في المقابلة إلى حد تلفهم وأكرم قدوم من يرد عليك من الكارم وقرر بحسن تلقيك أنك أول ماقدمناه لهم من المكارم ظ فهم سمار كل نادي ورفاق كل ملاح وحادي ولابد أن يتحدث السمار وتتداول

بينهم الأسمار فاجعل شكرنا دأب ألسنتهم ومننا حلية أعناقهم ومنحنا سبباً لاستجلاب رفاقهم فهم من مواد الإرفاق وجواد مايحمل من طرف الآفاق وقد بقي من بقايا أهل العقائد الفاسدة والمعاقد البائدة من يتعين إقعاد قائمهم والتيقظ لمتيقظهم والنوم عن نائمهم.

ونحن ننبهك على هذه الدقائق ونوقفك على أطرافها ولك رأيك إذا حقت الحقائق وطالع أبوابنا العالية بما أشكل عليك تتنزل أنوار هدانا أقرب من رجع نفسك إليك وأقدر حق هذه النعمة فإننا أولينا منها مالايضاهى وولياناك من بلادنا قبلةً نرضاها وتولياناك حيث وجهت وجهك شطر المسجد الحرام ونوعت لك أرواح الحجاز وأنت في مصر وريفها العام والله تعالى يديم منك سيفاً يروع مهزه ويويد بك الدين فإنه بك يقوم وجاهه ويدوم عزه والاعتماد على الخط الشريف أعلاه إن شاء الله تعالى.

الوجه الثاني الوجه البحري من وجهي الديار المصرية البحري

وهو الشمالي وكانوا في الزمن القديم يخصونه باسم الريف مثل اختصاص الوجه القبلي بالصعيد.

وأرباب الولايات فيه على ضربين: الضرب الأول أرباب السيوف وتختص الكتابة منهم الآن ىعن الأبواب السلطانية بنائب السلطنة بالوجه البحري ومقره مدينة دمنهور من البحيرة وكان من الزمن المتقدم يكتفي في البحيرة بواليها وكذلك في كل سائر الأعمال بالوجه البحري وفوق الكل ولاية عامة يعبر صاحبها بوالي الولاة وربما زيد بالوجه البحري وربما عبر عنه بالكاشف.

ثم استقرت نيابةً في رتبة العسكر بغزة في أيام الظاهر وهذه نسخة تقليد تصلح لنائب الوجه البحري مما كان كتب به المقر الشهابي بن فضل الله الوالي الولاة بها وهي: الحمد لله الذي أقام بنا كاشفاً لكل شكوى كاسفاً بال كل عدوى عارفاً بنهاية كل دعوى عاطفاً بعدلنا إلى إزاحة كل لأوى وإزالة كل بلوى بنهاية كل دعوى عاطفاً بعدلنا إلى إزاحة كل لأوى وإزالة كل بلوى.

نحمده وهوأهل الحمد والتقوى ونشهد ان لاإله إلا الله وحده لاشريك له شهادة نأمن بها الدانية والقصوى ونؤمن بها على السر والنجوى ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من مهد له جنة المأوى وأشرف به على شرف المثوى صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين فطم بشريعته نفوسهم عما تهوى وفطر فطنهم عليها حتى لاتضل ولاتغوى صلاةً ترتوي بفائضها السحب ماتروى وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن من سجايا أيامنا أن نكشف كل كرب ونحسن إلى رعايا بلادنا إحساناً ينوع في كل صرب وندىم الأمن حتى لاندع سوى النيل قاطع طريقٍ أو خارجاً على درب ونجرد من المهابة سيفاً يخشى من قربه وطيفاً بيبيت به طير الكرا متململاً على جنبه وخوفاً لبابه من الخصائص المحمدية أنه يتقدم إلى قلوب الأعداء متململاً على جنبه وخوفاً لبابه من الخصائص المحمدية أن يتقدم إلى قلوب الأعداء مسيرة شهر جيش رعبه وكانت الديار المصرية المحروسة هي التي لايحمد سواها ذو وجهين ولايوجد لها في جانبيها مماثل في شيئين والوجه البحري أوسعهما عراضاً وأقربهما من الري أرضاً وأصدقهما للبارق المحمر ومضاً وأجمعهما للذهب مذاهب وللفضة أفضا وأثبتهما وطأة لمجرى النيل إذا أقبل في تياره يت افع واشتدت خيله ركضاً وهو الوجه المتهلل بشراً المتضوع بطيب رياحه نشراً المتزين بمدائنه أكثر مما زينه في مقاصيره قيصر وفي مدائه كسرى المتثني بعروس كل قريةٍ زف بها النيل في مسرى وبه الثغور التي لاتشام لها بروق والمحارس التي مالعادية إليها طروق وله من البحرين حاجزان ومن الجانبين بر مقفر وريف مقمر متبارزان وفيه م الشعوب والقابئل في الحض روالبادية من لايؤمن منه باتره ولايخمد بغير مايراق من دم مفسدسهم ثائرة.

وكان لايقوم بها كل القيام ويجمع فرائدها المشذرة في أكمل نظام إلا من انقلبت الأمور بقلبه كل التقليب وجردت النوب عزمه في الوائب فجردت سيفاً يحمد في التجريب ولم يزل منذ بلغ الحلم أميراً مطاعاً ومندوباً لايفرق في المهمات إذا طارت نفوس الأنظار شعاعاً وأوقدت الأسنة سواعاً وهماماً لو أومض البرق ساعة بؤسه لارتعدت فرائصه زمعاً لاإزماعاً أو قابله الريح المعتدل عند أحكامه لأطبقت الأمم على أمه لايماثله في العدل قطعاً وأجمعت على تفرده إجماعاً.

وكان فلان هو العلي هممأ الجزل مداومة الجزيل ديماً الملي بما لا يقدر على مثل دفعه البحر متدفقاً وهمي الغمام منسجماً وقد حمدنا له في كل ماباشره أثراً وأخمدنا بجميل ملاحظته كل بر ضراً فباشر الوجه القبلي فملأ عين الناظر المتوسم وعم سروروه حتى غامزه جاره الوجه البحري ببنانه المخضب وضاحكه بثغره المبتسم فلما تنقل فيهما استقرار الوجهين وما

والاهما وعرف في وجهه نضرة النعيم بما أولاهما وأخصب جانباهما وجد بهذا كله ثم جد بهذا فطاب الواديان كلاهما فاقتضى حسن الرأي الشريف أن لايخلو الجهان معاً من نظره الجلي الجميل وأن يجلو عليه محاسنهما الكاملة ليفارق على وجه جميلٍ ويواصل على وجه جميل.

فخرج الأمر الشريف - لازال يختار علياً ويختال كل غمام يرتضي له ولياً - أن يكون والي الولاة بالوجه البحري جميعه متفرداً بأفراده ومجموعه ومحكماً في قبائله وجموعه وبعيده وقريبه وبديعه وغريبه وكل ماهو داخل فيه عائد إلى أعماله وراجع إلى متوليه على عادة من تقدم وقاعدته فيما يليه وهي مايذكر من الأعمال: الغربية الشرقية البحيرة المنوفية إبيار أشمون قليوب.

ولاأمر ولانهي إلا إليه راجع وله في متجددات الأمور مراجع ولاأربابتصريفٍ إلا وله عليهم تصرف ولاصاحب جد ولاحد إلا فيه يمضي ويتوقف وتقوى الله تعالى أول مانوصيه بسببها ونوصله إلى رتبها وإقامة لشرع الشريف وإدامة مباره وإعلاء مناره ومعاضدة حكمه وحكامه وأعوانه وأنصاره والوقوف معه في إيراده وإصداره وإعلانه وإسراره والعمل به فإنه مايضل من نشى في ضوء نهاره وعمارة البلاد بإدامة العدل وتكميل الري وتزطين السكان وقمع الفساد واعتماد حكم التذاكر الشريفة لأمر الجراريف التي تعمل والترع التي تراعى والجسور التي لايقدم جسور على أنها تهمل فهما قانون الري الكامل والضامن لخصب البر السابل وإذا أجرى الله النيل على عاداته الجميلة لايدع للمحل عيناً حتى وياري بالري سوءته ويخفف بتيسر وصول حق كل مكان إليه وطأته ولايدع عالياً إلا مستفلاً ولامعطلاً إلا معتملاً ولاطوق بحر إلا تمتد يد النيلإلى زر جيوبه ولاطائف رمل إلا يطوف طائف شرب على جرعائه وكثيبه حتى يعم الجميع ويعمر ربوعها بمتا ينسجه لها من ملابس حلل الربيع.

وعليه بالإنصاف بين المساكين والإنصات إلى الباكين منهم والمتباكين ووصل أمورهم على الحق الذي نشر الله في أيامنا الزاهرة علمه ومقتضى الشرع الشريف فإنه ماخاب من أدام عليه حكمه وأدار إليه علمه وأما أهل الفساد والاشتباه ومن يحتمي بصاحب شوكةٍ أو يتمسك برب جاه أو ينزل بلد أمير كبير مستظلاً بذراه أو ملتجئاً من خوفٍ أو مستطعماً من قرى قراه فجميع هؤلاء تتبع فرقهم ورفاقهم وطهر الأرض منهم وامسح بالسيوف أعناقهم واثخن في قتلاهم وأثقل بالقيود أسراهم وشدد وثاقهم وكذلك من حماهمه وولاهم أو استحسن أو من عليهم أو مانع عنهم أوقال ماهو منهم وهو منهم وكل أجرهم في الحكم مجراهم وأطل تحت أطباق الثرى ثواهم ونبه منهم أناساً على رؤوس الجذوع وأنم آخرين نومة لاينتبهون بها من كراهم حتى يتأدب بهم كل من أعرض ويتداوى بمداواته كل من في قلبه مرض.

ومأأشكل عليك فاسترشد فيه بمطالعة أبوابنا الشريفة: لتجد هدى " واضحاً وحقاً لائحاً ةالله تعالى يجعلك من الممهدين لأرضه القائمين في أنواع الجهاد بفرضه والاعتماد على الخط الشريف أعلاه.

الجهة الثالثة درب الحجاز الشريف

وقد تقدم أنه كان في الزمن المتقدم يكتب عن السلطان تقليد لأمير الركب في الدولة الفاطمية وماتلاها.

أما الآن فقد ترك ذلك ورفض كما رفض غيره من الكتابة لأرباب السيوف بالحضرة السلطانية ولم يبق الآن من يكتب له من ديوان الإنشاء شيء سوى قاضي الركب.

وقد جرت العادة أن يكتب له توقيع في قطع العادة مفتتحاً برسم وهذه نسخة توقيع من ذلك كتب به للشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله في مبدإ أمره وهيك رسم بالأمر الشريف - لازال يعين على البر والتقوى ويرتاد لوفد الله من يتمسك في نشر الأحكام الشرعية بينهم بالسبيل الأقوم والسبب الأقوى - أن يستقر فلان في كذا: لما اختص به من غزارة علومه وإفاضة فضائله المتنوعة إلى قوته في الحق وتصمصه فإن مثله من يختار لهذه الوظيفة الجارية بين وفد الله الذين هم أحق ببراءة الذمم وأولى بمعرفة حكم الله تعالى فيما يجب على التلبس بالإحرام إلى الحرم وأحموج إلى الاطلاع على جزاء الصيد فيما جوزاء المتعرض إليه مثل ماقتل من النعم إلى غير ذلك من ثبوت الأهلة التي تترتب أحكام الحج عليها والحكم في محظورات الإحرام ومايجب على المتعرض إليها فليباشر هذه الوظيفة في الوقت المشار إليه عادة من تقدمه فيها مجتهداً في قواعدها التي هي أولى من نهض بها وأحق من يوفيها.

قلت: أما شهود السبيل المعبر عنهم بشهود المحمل فإنما تكتب لهم مربعات شريفة من ديوان الوزارة.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه القسم الثاني مما يكتب من الولايات عن الأبواب 5
السلطانية ما يكتب لأرباب الوظائف بالممالك الشامية واعلم أن نواب السلطنة في التولية على ضربين: الضرب الأول من لا تصدر عنه منهم تولية في عمل نيابته من لا تصدر عنه تولية وهم نواب الديار المصرية: من النائب الكافل ونائب الإسكندرية ونائب الوجه البحري ونائب الوجه القبلي فليس لأحد منهم تصرف في ولاية ولا عزل لنائبٍ ولا كاشفٍ ولا والي حربٍ.

إنما النائب الكافل يكتب في بعض الأمور على القصص والسلطان هو الذي يباشر الكتابة على الولايات بنفسه والنائب الكافل يكتب بالاعتماد على ما يكتب عليه السلطان كما تقدمت الإشارة إليه في موضعه.

الضرب الثاني من تصدر عنه التولية والعزل في عمل نيابته

وهم نواب السلطنة بالمماليك الشامية السبع المقدم ذكرها: من النيابات الصغار والوظائف الديوانية والوظائف الدينية ووظائف مشايخ التصوف والوظائف العادية: كرياسة الطب ونحوها ووظائف زعماء أهل الذمة: من رياسة اليهدو وبطركية النصارى وغير ذلك.

فأما النيابات الصغار التي في أعمال النيابات العظام: فما كانت نيابته إمرة عشرة فأكثر يولي فيه النواب وربما ولى فيه السلطان.

وما كانت نيابته إمرة طبلخاناه فأكثر: يولي فيه السلطان وربما ولى فيه النواب.

وما كانت نيابته تقدمة ألف فولايته مختصة بالسلطان دون النواب.

وأما الوظائف الديوانية فما كان منها صغيراً ككتابة الدرج وما في معناها فأكثر ما يوليها النواب.

وما كان منها جليلاً: ككتابة السر وما في معناها ونظر الجيش ونظر المال فتوليته مختصة بالسلطان.

وما كان منها متوسطاً بين الطرفين: ككتابة الدست ونحوها: ففي دمشق تارةً يولي فيها السلطان وتارةً يولي فيها النائب.

وفيما دونها من النيابات غالب من يولي فيها النواب وقد يولي فيها السلطان.

وأما الوظائف الدينية فما كان منها صغيراً: كالتداريس الصغار والخطابات بالجوامع الصغار وأنظار المدارس والجوامع الصغار ونحو ذلك فإنه يولي فيها النواب ولا يولي فيها السلطان إلا نادراً.

وما كان منها جليلاً: كقضاء القضاة فإن توليته مختصة بالسلطان.

وما كان منها متوسطاً بين الرتبتين: كقضاء العسكر وإفتاء دار العدل والحسبة ووكالة بيت المال ومشيخة الشيوخ ونحو ذلك: فتارةً يولي فيها السلطان وتارةً يولي فيها النواب.

إلا أن تولية السلطان فيها في النيابات الكبار كالشام أكثر وتولية النواب فيها فيما دون ذلك أكثر.

وأما مشيخة الخوانق فقد يولي فيها السلطان وقد يولي فيها النواب: إلا أن تولية السلطان في مشيخة الشيوخ بالشام أكثر وتولية النواب في غير مشيخة الشيوخ بدمشق وفي غيرها من وظائف الصوفية في غير دمشق أكثر.

وأما الوظائف العادية كرياسة الطب ونحوها ففي جميع النيابات توليتها من النواب أكثر وربما ولى فيها السلطان.

وأما وظائف زعماء أهل الذمة: كرياسة اليهود وبطركية النصارى فيستبد بها النواب دون السلطان: لزيادة حقارتها في الوظيفة والبعد عن حضرة السلطان.

وقد تقدم في الكلام على ترييب الممالك بالبلاد الشامية أنه كان بها سبع ممالك عظامٍ استقرت سبع نيابات: النيابة الأولى نيابة دمشق ويعبر عنها بكفالة السلطنة بالشام ووظائفها على نوعين:

النوع الأول ويشتمل ما يكتب به من وظائفها عن الأبواب السلطانية

على أربعة أصناف الصنف الأول أربا السيوف وهم على طبقات الطبقة الأولى من يكتب له تقليدٌ في قطع الثلين بالمقر العالي مع الدعاء بعز الأنصار: وهو نائب السلطنة بها وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام كتب به عن السلطان الملك العادل كتبغا للأمير سيف الدين غرلو العادلي من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهو: الحمد لله الذي جعل لسيف دولتنا على عاتق الملك الأعز نجاداً وادخر لكفالة مملكتنا من الأولياء من تناسب وصفاه اجتهاداً في مصالح الإسلام وجهاداً وعدق أمور رعاينا بمن أيقظ لها سيفه وجفنه فامتلأت عيونهم بما وهب وسلب من نومه ونوم العدا رقاداً ورفع ألوية إحساننا على من زاد برفعها ظل عدله انبساطاً على الرعية وامتداداً ووطد قواعد ممالكنا بمن أجلنا الفكر في حسن اختياره انتقاءً لمصالح الإسلام وانتقاداً وأدى لشكر نعم الله التي لا يؤدى شكر بعضها ولو أن ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ أو كان البحر مداداً.

نحمده على نعمه التي جعلت عزائمنا على الأبد منصورة ومقاصدنا على مصالح المسلمين مقصورة وىراءنا تفوض زعامة الجيوش إلى من تصبح فرق الأعداء بفرقة مغزوةً وممالكهم بمهابته محصورة.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا نزال ننشر دعوتها في الآفاق ونرهف لإقامتها في ممالكنا سيفاً يصل إلا ما أمر الله بقطعه ويقطع إلا الأرزاق ونرهب من ألحد فيها بكل وليٍّ لرعبه في القلوب ركض ولرايته في الجوانح خفق ولأسنته في الصدور إشراق ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من فوض حكماً في أيامه إلى من اعتمد عليه وأرأف من استخلف على من بعد عنه من أمته من يعلم أن صلاحهم في يديه وألطف من عدق شيئاً من أمور أهل ملته بمن أعانه الله وسدده في دفع عدوهم وصلاح ما يرفع من أحوالهم إليه صلى لله عليه وعلى آله وصحبه الذين ولوا على الأمة فعدلوا وأمروا بما جبله الله عليه من الرأفة والنعمة والرحمة فامتثلوا وعلموا أن الحق فيما نهج لهم من طرق طريقته المثلى فما مالوا عن ذلك ولا عدلوا صلاةً لا تغرب شمسها ولا يعزب أنسها ولا تعتبر أوقات إقامتها إلا ويقصر عن يومها في الكثرة أمسها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى ما أعملنا إليه ركائب الآراء المؤيدة وصرفنا إليه أزمة نجائب الأفكار المسددة وأجلنا فيه طرف النظر الذي لا يشق في بلوغ الغاية غباره ولا يدرك وأحلنا الأمر فيه على التأييد الذي هو عمدتنا فيما يؤخذ من ثواقب الآراء وما يترك وقدمنا فيه مهم الاستخارة الذي يتلوه التوفيق وعلمنا أن ألذ أسباب الاهتداء إليه سلوك طريق النصح لله ولرسوله وللإسلام فسلكنا إليه من ذلك الطريق وقصرنا النية فيه على مصالح الأمة التي هي فرض العين بل عين الفرض وأطلنا الارتياد فيه لتعين من نرجو له ممن عناهم الله بقوله: " الذين إن مكناهم في الأرض " وندبنا له سيفاً لم يزل في صدور الأعداء صدره وفي يد جبار السموات قائمه واردنا لتقدمة الجيوش فيه زعيماً طالما مل ضوء الصبح مما يغيره ومل سواد الليل مما يزاحمه وقدمنا له من نشأ في حجر ولائنا وغذي بلبان برنا وآلائنا وشهد الوقائع بين يدينا وخبرنا من سيرته النهوض في الرعايا بما كتب الله لهم من الرأفة والرحمة علينا - أمر نيابة سلطنتنا الشريفة بالممالك الشامية التي نابت فيها مهابتنا عن الإقامة فيها وجعلتها عنايتنا من أشرف ممالكنا التي نخصها على البعد بدوام الملاحظة ونصفيها وهي واسطة عقد ممالكنا ومحط رحال طرقنا إلى جهاد الأعداء ومسالكنا وهالة أهله سرى القصد إلى لحظها في أديم الأرض مواقع سنابكنا ومواطن القربات التي نصت الآثار الصحيحة عليها ومظان العبادات التي طالما نصت ركائب العباد العباد إليها ومقام الأبدال الذين هم أهل دار المقامة ومستقر طائفة الدين الذين لا يزالون ظاهرين على أعدائهم لا يضهم من خذلهم إلى يوم القيامة وفلك الثغور الذي تشرق منه كواكب سعودها وتتصرف من نوئه إلى من جاورها من العدا خاطفات بروقها وقاصفات رعودها فكم ذي جنودٍ أمها فهلك وما ملك وسلك إليها بجيوشه فزلت وتزلزلت قدمه حيث سلك ولجيشها البأس الذي وجود الأعداء به عدم والحد الذي يعرفه وأن نفوض أمرها إلى من ينشر بها على الأمة لواء عدلنا ويبسط فيها بالرأفة والرحمة رداء فضلنا ويحيي بها سنن الإحسان التي مبدأ أيامها غاية من سلف من قبلنا ويقيم منار الملك من بأسه على أرفع عماد وينيم الرعايا من عدله في أوطإ مهاد ويكف أكف الظلم حتى لا يتجاسر إلى إعادة يده إليها عادٍ ومن عاد ويجرد إلى العدا من خياله وخيله سرايا تطرد عن موارد جفونهم بقوائمها الرقاد وتستعيد عوادي أرواحهم من مستودعات أجسادهم فهي بحكم العارية غير مستقرةٍ في

الأجساد ويصون الرتب عن تطرق من يفسد أحوالها لعدم أهليته: فإنه ما سلك أحدٌ في أيامنا طرق الفساد فساد ويعلم به أنا جردنا على العدا سيفاً يسبق إليهم العذل ويزاحم على قبض نفوسهم الأجل وتتحلى بتقليده الدول ويتحقق بفتكه أنه لا حاكم بيننا وبينهم إلا السيف الذي إن جار فيهم فقد عدل.

ولذلك لما كان المجلس العالي الفلاني: هو الذي اخترناه لذلك على علم وقلدناه أمور الممالك: لما فيه من حدة بأسٍ وآية حلم وعجمنا عوده فكان ليناً على الأولياء فظاً على العدا وبلونا أوصافه فعلمنا منه السداد الذي لا يضع به الندى في موضع السيف ولا السيف في موضع الندى وعرضنا سداده على حسن اعتبارنا للأكفاء فكان سميرنا وحمل فزين معروضاً وراع مسددا وهززناه فكان سيفاً ينصل حده الخطب إذ أعضل وأعطيناه أمر الجيوش فلم يختلف فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يصطفي من الأولياء كل كفءٍ كريم أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الشامية: تفويضاً يعلي قدره ويبسط في مصالح الملك والممالك أمره ويطلق في مصالح الدولة القاهرة سيفه وكلمه ويدر على الأولياء إحساننا الذي إذا جارى الغيث أخجل دوامه ديمه ويرفع بالعدل منار دوام ملكنا الذي قرنه الله للأمة بجودنا ويضيف باسترفاع الأدعية الصالحة لدولتنا من كل لسان جنود الليل إلى جنودنا وينظر في أمور الممالك الشامية نظراً عاماً ويعمل في سداد ثغورها وسداد أمورها رأياً ثاقباً وفكراً تاماً ويأمر النواب من سد خللها بما كفايته أدرى به منهم وينبههم من مصالحها على ما ظهر لفكره المصيب وخفي عنهم ويلاحظ أموال ما بعد من البلاد كملاحظته أموال ما دنا وينظر في تفاصيل أمورها: فإنها وإن كانت على السداد فليس بها عن حسن نظرة غنى ويسلك بالرعايا سنن إنصافه التي وكلته معرفتنا به إليها ويجريهم على عوائد الإحسان التي كانت من خلقه سجيةً وزدناه تحريضاً عليها.

وهو يعلم أن الله تعالى قد أقامنا من الجهاد في أعدائه بسنته وفرضه ومكن لنا في الأرض: لإقامة دعوته وإعلاء كلمته وتطهير أرضه وعضدنا بتأييده لنصرة الإسلام وأمدنا من عدد نصره بكل سيفٍ تروع الأعداء به اليقظة وتسله عليهم الأحلام وبث سرايا جيوشنا براً وبحراً: فهي إما سوارٍ في البر تمر مر السحاب أو جوارٍ منشآتٌ في البحر كالأعلام ويتعاهد أحوال الجيوش الشامية كل يوم بنفسه ويعدهم في غده بإعادة ما عتبره من عرضهم في أمسه ويرتب أمر كل إقليم وحاله ويتفقد من يباشر بالتقدمة تقدمه إلى الأطراف وارتحاله ويأمرهم كل يوم بالتأهب للعرض الذي يباشره غداً بين يدينا إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام كتب به للأمير جمال الدين أقوش الأشرفي في جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وسبعمائة من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله تعالى وهي: الحمد لله الذي جعل الدين في أيامنا الزاهرة زاهياً بجماله سامياً بتقديم من إذا أرهف في الذب عنه بسيف عزمه غدت الجنة تحت ظلاله حالياً بتفويض زعامة جيوشه إلى من لو فاخر به البدور تعجبت من نقصانها وكماله عالياً بإيالة من تتولد معاني النصر والظفر بين الكاملين: من روية رأيه وارتجاله راقياً على هام الكفر بعزائم من لا يزال تصبح مهابته العدا بطلائع خيله وتبيتهم بطوارق خياله نامياً بإسناد الحكم فيه إلى من يقطع إنصافه بين المبطل ورجائه ويصل العدل منه بين المحق وبين آماله.

نحمده على نعمه التي أنامت الرعايا من معدلتنا في أوطإ مهاد وأدامت الدعاء الصالح لأيامنا بإعلاء كلمتي العدل والجهاد وأقامت الإيالة في أسنى ممالكنا بمن هو أجرى من الغيوث وأجرأ من الليوث في مصالح البلاد والعباد.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تزال الألسن لإقامتها مديمة والضمائر على إدامتها مقيمة والقلوب تعقد من كلمة إخلاصها وإخلاص كلمتها في جيد الإيمان تميمة والتوحيد يظهر أنوارها في الوجوه الوسيمة بمأمن مطالع القلوب السليمة.

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي جبله على خلقٍ عظيم وجعله وإن تأخر عصره من مقام النبوة في أعلى رتب التقديم ومن على الأمة بإرساله إليهم من أنفسهم وأنه بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين دعوا إلى طاعته وأجابوا وحكموا بسنته وأصابوا وجاهدوا المعرضين عن ملته حتى رجعوا إلى الهدى وأنابوا صلاةً لا تغيب أنوؤها ولا يفارق وجوه أهلها وقلوبهم رواؤها وإرواؤها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإنه - لما أجرانا الله عليه من عوائد نصره وأغرانا به من حصد الشرك وحصره ومنحنا من بسطة ملك زينت بها أسارير البسيطة وأسرتها ووهبنا من فواتح فتوحٍ علت على وجوه الكفر مساءتها وبدت على وجه الإسلام مسرتها - لم نزل نؤدي شكر نعم الله بالإحسان إلى عباده ونستزيد منها بتفويض أمورهم إلى من يقوم في الذب عنهم مقام الجيش على انفراده فلا نقدم على الرأفة بخلق الله أمراً ولا نحابي في بسط المعدلة عليهم زيداً ولا عمراً ولا نعدل بهم عمن إذا ركب في موكب

نيابتنا زانه وجمله وإذا جلس على بساط عدلنا زاده وكمله وإذا رسم أمرنا أصغت السيوف إلى مراسمه وإذا نظر بعين عنايتنا ثغراً أهدى الشنب إلى مباسمه وإذا رام في مصالح الإسلام أمراً قرب على رأيه بعيده وإذا رمى في حماية الممالك عدواً سبق إلى مقاتله قبل السيوف وعيده وإذا جرد جيشاً إلى أعداء الإسلام جرت قبل اللقاء ذيول هزائمها ورأت الفرار أمنع لها من صوارمها ونثلت ما في كنائنها من سهامٍ ضعفت عن الطيران قوى قوادمها.

ولما كان الجناب العالي الفلاني هو معنى هذه الفرائد وسر هذه الأوصاف التي للشرك منها مصائب هي عند الإسلام فوائد وفارس هذه الحلبة التي أحرز قصب سبقها وكفء هذه الرتبة التي أخذها دون الأكفاء بحقها لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يأخذ أمر الجهاد إلا بجده وما ليل المجد بنائم يسري إلى قلوب الأعداء رعبه وهو في مكانه وتؤدي مهابته في نكاية الكفر فرض الجهاد قبل إمكانه ويشفع العدل في الرعايا بالإحسان إليهم ويجمع بين إرهاب المعتدين وشدة الوطأة عليهم ويقف في أحكامه مع الشريعة التي أعلى الله تعالى منارها ويستضيء بأحكامها التي هي لأبصار النظار تعير أنوارها.

وكانت المملكة الشامية المحروسة من الممالك الإسلامية بمنزلة القوة في اليمين والواسطة في العقد الثمين والإدراك في الصدور والإشراق في البدور وبها الأرض المقدسة والحصون التي هي على نكاية الأعداء مؤسسة ولها الجيوش التي ألفت في الجهاد السرى وأنفت لسيوفها في الجفون الكرى ومرت على مقاتل العدا أسنتها وصرفت في مسالك الحرب أعنتها وراعت ملوك أهل الكفر سمعة أمرائها وحاطتها أمداد النصر في حروبها من بين يديها ومن ورائها وفيها من الأئمة العلماء الأعيان من يعدل دم الشهداء مداد أقلامهم ومن الأتقياء الصلحاء من لا تطيش دون مقاتل أهل الكفر مواقع سهامهم - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نمنع هذه الرتبة السنية بجمالها وأن نبلغ هذه الدرجة السرية بمن حوى هذه الأوصاف الفاخرة غاية آمالها ليصبح بها لواء عدلنا مرفوع الذوائب ومنهل فضلنا مدفوع الشوائب وكلمة جهادنا نافذةً في المشارق والمغارب وقبضة بأسنا آخذةً من أعداء الدين بالذرا والغوارب وطليعة كتائبنا مؤتمةً بمن توقن الطي أن فريقه إذا ما التقى الجمعان أول غالب.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زالت صوارمه للشرك قامعة ومراسمه لمصالح الدين والدنيا جامعة - أن تفوض إليه تفويضاً يرفع علمه ويمضي في مصالح الإسلام سيفه وقلمه وينشر في آفاق الممالك الشامية عدله ويبسط على رعايا تلك الأقاليم المحروسة فضله وظله فيطلع في أفق المواكب هالة أهلتها وطراز حلتها وطلعة لوائها وواسطة عقود مقدمها وآرائها وزينة تسييرها ووقوفها وحلية طلائعها وصفوفها ويجلس في مواطن الجلوس صادعاً بالحق في حكمه آمراً بإدامة التأنيب للعدو في أيام سلمه معطياً منصب النيابة الشريفة حقه من الجلالة موفياً رتبتها المنيفة ما يجب لها من أبهة المهابة وكفاءة الكفالة ولا يزال لمصالح الجيوش المنصورة ملاحظاً وعلى إزاحة أعذارهم محافظاً وإلى حركات عدو الإسلام وسكناته متطلعاً وإلى ما يتعين من إبطال مكايده متسرعاً ولبواطن أحوالهم بحسن الاطلاع محققاً ولجموعهم بيمن الاجتماع للقائهم مفرقاً فلا يضمرون مكيدةً إلا وعلمها عنده قبل ظهورها لديهم ولا يسرون غارة إلا ورايتا خيله المغيرة أسبق منها إليهم.

وليكن لمنار الشرع الشريف معلياً ولأقدار أربابه مغلياً ولرتب العلماء رافعاً ولأقوالهم في الأحكام الشرعية سامعاً ولذوي البيوت القديمة مكرماً ولأهل الورع والصلاح معظماً وعلى يد الظالم ضارباً وفي اقتناء الأدعية الصالحة لدولتنا القاهرة راغباً ولجميل النظر في عمارة البلاد مديماً وبحسن الفكر في أمور الأموال معملاً رأياً بمصالحها عليماً ولجهات البر بجليل العناية والإعانة عامراً وعن كل ما لا يجب اعتماده ناهياً وبكل ما يتعين فعله آمراً.

وفي كمال خلاله وأدوات جماله ما يغني عن الوصايا إلا على سبيل الذكرى التي تنفع المؤمنين وترفع المتقين وملاكها تقوى الله تعالى وهي من خصائص نفسه الكريمة وعوائد سيرته الحديثة والقديمة والله تعالى يسدده في القول والعمل ويؤيده وقد فعل إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام كتب بها للأمير سيف الدين تنكز الناصري في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة وسبعمائة من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهي: الحمد لله مفوض أسنى الممالك في أيامنا الزاهرة إلى من تزهو بتقليده ومشيد قواعد أسمى الأقاليم في دولتنا القاهرة بمن يعلو بإيالته ما يلقى إليه معاقد مقاليده ومسدد الآراء في تصريف أعنة جيوشنا المنصورة بتقديم من تغدو سيوفه من عنق كل متوج من العدا قلادة جيده وناشر لواء العدل في رعايانا وإن بعدوا بمن تنيم كلاً منهم في مهد الأمن والدعة يد مهابته وتمهيده ومعلي منار الجهاد في سبيله بمن إذا جرد سيفه في وغىً تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك بين تجريبه وتجريده.

نحمده على نعمه التي أيدت آراءنا بوضع كل شيءٍ في مستحقه وقلدت سيف النصر من أوليائنا من يأخذه في مصالح الإسلام بحقه وجددت آلاءنا لمن إذا جارت الحتوف سيوفه إلى مقاتل العدا فاتها وفاقها بمزيتي كفايته وسبقه.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تزال ألسنتنا ترفع منارها وسيوفنا تصلي من جحدها قبل نارها وآراؤنا تفوض مصالح جملتها إلى من إذا رجته لنصرةٍ أنالها وإذا أسدى معدلةٌ أنارها.

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أيده الله بنصره وجعله سابق من تقدم من الرسل على عصره وآتاه من الفضائل ما يضيق النطق عن إحصائه ومن المعجزات ما يحول الحصر دون حصره صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بهداه وهجروا في طاعته من عاداه ونهضوا في رضا الله تعالى ورضاه إلى مظان الجهاد وإن بعد مداه صلاة يشفعها التسليم ونبتغي إقامتها عند الله والله عنده أجرٌ عظيم وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن أولى ما أعملنا في مصالحه الفكر وتدبرنا أحواله بكل رأيٍ يسدده الحزم المروى ويؤيده الإلهام المبتكر وقدمنا فيه الاستخارة على ما جزم اليقين بأن الخيرة للإسلام والمسلمين في اعتماده وتمسكنا فيه بحبل التوفيق الذي ما زال تتكفل لنا في كل أمرٍ بسداده وفي كل ثغرٍ بسداده - أمر الممالك الشامية التي هي واسطة عقد الممالك ومجتمع ما يفضي إلى مواطن النصر من المسالك ومركز فلك الأقاليم الذي تنتظم عليه بروج ثغورها ونقطة دائرة الحصون التي منها مادتها وعليها مدار أمورها وغيل ليوث الحرث التي كم أنشبت أظفار أسنتها في طرة ظفر ومواطن فرسان الوغى التي كم أسفر عن إطلاق أعنتها إلى غايات النصر وجه سفر وأن نرتاد لكفالة أمورها وكفاية جمهورها وحماية معاقلها المصونة وثغورها وزعامة جيوشها وإرغام طارقي أطرافها من أعداء الدين وثل عروشها من جرده الدين فكان سيفاً على أعدائه وانتقاه حسن نظرنا للمسلمين فكان التوفيق الإلهي متولي جميل انتقاده وانتقائه وعجمنا عود أوصافه فوجدناه قوياً في دينه متمكناً في طاعته بإخلاص تقواه وصحة يقينه متيقظاً لمصالح الإسلام والمسلمين في حالتي حركته وسكونه آخذاً عنان الحزم بيسر يسراه وسنان العزم بيمن يمينه واقفاً مع الحق لذاته مقدماً مشاق الجهاد على سائر مآربه ولذاته ماضياً كسيفه إلا أنه لا يألف كالسيف الجفون راضياً في راحة الآخرة بمتاعب الدنيا ومصاعبها فلا يرعى في مواطن الجهاد إذا حلها أكناف الهوينا ولا روض الهدون مانعاً حمى الإسلام لا حمى الوقبى بضربٍ يفرق بين أسباب الحياة ويؤلف بين أشتات المنون.

ولما كان فلان هو الذي تشوفت هذه الرتبة إلى أن تتجمل به مواكبها وتتكمل به مراتبها وتنتظم على دسته هالة أمرائها كما تنتظم على هالة بدر السماء كواكبها فإذا طلع في أفق موكبٍ أعشت الأعداء جلالته وأعدت الأولياء بسالته وسرى إلى قلوب أهل الكفر رعبه وفعل فيهم سلمه ما يفعل من غيره حربه وإذا جلس على بساط عدلٍ خرس الباطل وأنجز ما في ذمته الماطل وتكلم الحق بملء فيه وتبرأ الباطل حتى ممن يسره ويخفيه وإن نظر في مصالح البلاد أعان الغيث على ريها برفقه وأعاد رونق عمارتها بكف أكف الظلم ووصول كل ذي حقٍّ إلى حقه - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نجعل فنون أفنانه بيمن إيالته دانية القطوف وأن نصير جنتها تحت ظلال سيفه: فإن الجنة تحت ظلال السيوف.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال زمن عصره مؤرخاً بالفتوح وسيف نصره على من كفر دعوة نوح - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس: تفويضاً يحسن به المناب في تلك الممالك عنا وينشر فيها من العدل والإحسان ما يلقاه منا ويلبسها من حلل المهابة ما يضاعف به أمن سربها وتصبح به السيوف المجردة أحفظ لها من قربها ويطلع في أفق مواكبها الجليلة طلوع الشمس التي يعم نفعها ويعشي النواظر لمعها ويجلس في دست نيابتنا حاكماً فيها بأمرنا جازماً بحكم الشرع الشريف الذي قد علم أنه حلية سرنا وجهرنا ناشراً من مهابة الملك ما ترجف له القلوب من العدا وتصبحهم به سرايا رعبه على بعد المدى ملزماً من قبله من الجيوش المنصورة بمضاعفة إعداد القوة وإدامة التأهب الذي لا تبرح بسمعته بلاد أهل الكفر مغزوة مطلعاً على أحوال العدا بلطف مقاصده ونكاية مكايده وحسن مصادره في التدبير وموارده فلا يبرمون أمراً إلا وقد سبقهم إلى نقض مبرمه ولا يقدمون رجلاً إلا وقد أخرها بوثبات إقدامه وثبات قدمه.

وليعظم منار الشرع الشريف بتكريم حكامه والوقوف مع أحكامه ويرفع أقدار حملة العلم بترفيه أسرارهم وتسهيل مآربهم وأوطارهم وليعم الرعايا بعدله وإنصافه ويسترفع لنا أدعية الأولياء والصلحاء بإسعاده وإسعافه.

وفي خصائص أوصافه الكريمة وسجاياه التي هي لمصالح الإسلام مستديمة ما يغني عن تشددٍ في القول والعمل والله تعالى يؤيده وقد فعل ويجعله من أوليائه المتقين وقد جعل إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام كتب به للأمير يلبغا الكاملي بعد نيابته بحلب وحماة من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله وهي: الحمد لله مجري الأقدار برفعة الأقدار ومثري آمال من حسنت له في خدمتنا الآثار بمواهب العطايا والإيثار وممري غروس نعم أوليائنا التي رعى عهدها عهاد سحب جودنا الغزار جاعل أصفياء مملكتنا الشريفة كل حين في ازدياد ومانح المخلصين في خدمتنا مزيد الإسعاف والإسعاد وفاتح أبواب التأييد بسيوف أنصارها التي لا تهجع في الأعماد.

نحمده على مواهب نصره ونشكره على إدراك المآرب من جوده الذي يعجز لسان القلم عن حصره ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تؤيد قائلها في مواقفه وتجمع له من خير الدنيا بين تالده وطارفه ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي هدى الله به هذه الأمة من الصلال وفضل به المجاهدين حيث جعل الجنة تحت ما لسيوفهم من ظلال صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً لا انفصاح لعروتها ولا انفصال ولا انقضاء لأسبابها ولا زوال وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن أولى من انتدب لحفظ ممالك الإسلام وأتمن على صونها بعزمه الذي لا يسامى ولا يسام وأسند إليه من أمور الرعايا بأجل الممالك ما يقضي بمزيد التكريم واعتمد على صيانته وديانته لما شهد الاختبار بأنه أهلٌ للتقديم وجربت الدول مخالصته وتحقق اهتمامه الذي بلغه من العز غايته وأثنت على حسن سيرته وسريرته سوابق خدمه وشكر اهتمامه في المخالصة التي أعربت عن عزمه ففاق أشباهاً وأنظاراً وكفل الممالك الشريفة الحلبية والحموية فأيدها أعواناً وأنصاراً وبسط فيها من العدل والإنصاف ما أعلى له شأناً ورفع له مقداراً وسلك فيها مسلكاً شنف أسماعاً وشرف أبصاراً.

ولما كان المقر الكريم إلى آخره هو صاحب هذه المناقب وفارس هذه المقانب ونير هذه الكواكب كم أبهج النفوس بما له من عزمٍ مشكور وحزم مأثور ووصفٍ بالجميل موفور.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال لسيف أوليائه مرهفاً ولا برح لأخصائه مسعداً ومسعفاً - أن تفوض إلى المشار إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس على أجمل عوائد من تقدمه في ذلك وأكمل قواعده.

فليتناول هذا التقليد الشريف بيدٍ لم يزل لها في الولاء الباع المديد الطويل ويتلق هذا الإحسان بالشكر الذي هو بدوام النعمة خير كفيل ويضاعف ما هو عليه من اهتمامٍ لم يزل منه مألوفاً واعتزامٍ إذا لاقى غيره مهماً واحداً لاقى هو ألوفاً ويمعن النظر في مصالح هذه المملكة الشامية المحروسة ويعتمد من حسن تدبيره ما تغدو ربوعها بحسن ملاحظته عامرةً مأنوسة.

وهو يعلم أن العدل من شيم دولتنا الشريفة وسجية أيامنا التي هي على هام الجوزاء منيفة فليسلك سننه ويتبع فرضه وسننه ويعلم أن عدل سنةٍ خيرٌ من عبادة ستين سنة ولينشر على الرعايا ملابسه الحسنة ويعظم الشرع الشريف وحكامه ويعين الإقطاعات لمن يستحقها من الأيتام أو يوجب الاستحقاق إكرامه والله تعالى يجعل السعد خلفه وأمامه ويؤديه تأييداً يبلغه مراده من النصر ومرامه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام: الحمد لله الذي طهر الشام وقدسه وصانه وحرسه وجعل لسلطاننا فيه قواعد بالنصر مؤسسة وأنواراً للهدى مقتبسة وكفله بمن إذا صف له العدو افترسه وأذله وأركسه وأرغم معطسه وقطف بسيفه أروسه ومن يعطى النصر إذا امتطى فرسه ومن كرم الله نفسه وكثر أنسه وعطر نفسه ومن ينصف المظلوم من ظالمه ويبلغ السائل ملتمسه ومن لبس ثوب العفاف والتقى فكان خير ثوبٍ لبسه.

نحمده على أصل جودٍ غرسه وعارض سوءٍ حبسه ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أزالت الشرك ومحت نجسه ونشهد أن محمداص عبده ورسوله الذي أنبع الله من أصابعه عيناً منبجسة واخضر العود اليابس لما لمسه وأضعف الوساوس المختلسة وانتزع الحق ممن بخسه وحماه الله من الشيطان لما ولد فما نخسه ونور القلب الذي خيم عليه الضلال وطمسه وكان الشرك قد انبث في الأرض فطواه دينه وكبسه ومحاه ودرسه وجاء بالقرآن فطوبى لمن تلاه ودرسه وأنزل عليه: " واعلموا أنما غنمتم من شيءٍ فأن لله خمسه " صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما أولج الله الليل في النهار وغمسه وميز بنصف العدد من الثلث سدسه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن الشام هو عقد النظام وأجل ممالك الإسلام ومعدن النصر الذي بروقه تشام ومستقر البركات الوسام وعسكره أفضل عسكرٍ في حسن الاعتزاء والاعتزام لا يرهبون الحمام ويخوضون لجج المنون بالحسام ونيابة السلطنة الشريفة به من أجل النيابات مقداراً وأكرمها آثاراً وأعزها أنصاراً إذ هو تلقاء أوامرنا الشريفة المنطوية عليها أسرار البريد ومن عنده تتفرع

المهمات للقريب والبعيد وعنه يصدر البريد وإليه يرد بكل ثناء جديد ومنه يأتي إلى مسامعنا الشريفة بما نريد فلا يحل دار سعادتها إلا من هو منصورٌ سعيد وذو رأيٍ سديد ولما كان فلان هو الضاري على العدا والغيث المتوالي الندى والهمام الذي جرد سيف عزمه أبداً فلا يرى مغمدا واتصف بحسن الصفات فما ساد سدى قد تجملت الممالك بآرائه ورواياته وثباته ووثباته وروض تدبيره وطيب نباته وحسن اعتماده في خدمة ملكنا الشريف ومهماته إن ذكرت الموالاة الصادقة كان راوي مسندها وحاوي جيدها والآوي إلى ظلها المديد وطيب موردها وإن ذكرت الشجاعة كان زعيم كتائبها ومظهر عجائبها وليث مضاربها ومجرد قواضبها وفارس جنائبها ومطلب أطلابها ومنجح مطالبها ومجلي غياهبها - اقتضى حسن الرأي الشريف أن يعقد عليه لواء الاحتشام في الشام وأن يخص بالبركات المخلصة من الدركات.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس على عادة من تقدمه وقاعدته وأن يكون داخلاً في نيابته الشريفة ما هو مضافٌ إلى الشام المحروس: من ممالك وقلاع ومدنٍ وضياع وثغورٍ ومواني وسواحل في أقاصٍ وأداني تفويضاً اتسقت درره وأشرقت غرره وتليت آياته وسوره.

فليمهد بالعدل أكناف البلاد ولينظر بعين الرعاية والسداد ولينشر لواء الإنصاف لتكون الأمة تحت ظله الضافي وإليه الحق مضاف وليدر الأرزاق من الأخلاف وليأمر بإقامة الحدود على شارب السلاف وعلى السارقين بالقطع من خلاف وليسترهف عزائم العساكر المنصورة في القتال والجهاد وليأخذهم بحسن الاستعداد وليعرف للأمراء منازلهم: فإنهم أركانٌ وأعضاد وأنصارٌ وأمجاد وأولياء دولتنا الشريفة الماحون للفساد وممن تتجمل بهم المواكب وتتفطر بهم للعدا الأكباد والله الله في الشرع الشريف وإقامة مناره وتنفيذ كلمة أحكامه وإزالة أعذاره والتقوى فهي أفضل شعاره وقرة أبصاره والوصايا فمنه يشرق هلالها إلى أن يتم في إبداره ويتكمل بأنواره وهو غنيٌّ عن إكثاره.

فخذ تقليدنا هذا باليمين والبس من هذا التفويض الملبس الأسنى الثمين وأخبار البريد المنصور فلا تقطعها عنا فمنه إلينا ترد أخبار البريد وإليه ترد المهمات منا والله تعالى يخوله كل يوم من إحساننا في الزيادة والحسنى والخط الشريف أعلاه.

الطبقة الثانية من يكتب له تقليدٌ شريفٌ

في قطع النصف بالمجلس العالي وهو الوزير من أرباب السيوف وهو بالمملكة الشامية على حد الوزير بالديار المصرية وهذه نسخة مرسوم من ذلك: الحمد لله مسدد سهام الاختيار ومسير الأولياء إلى منازل العلياء مسير الأهلة إلى منازل الإبدار الذي جدد نعماً وعدد كرماً وعلم مواقع الاضطرار إلى مواقع الأوزار فأرسل إليها من تستهل آراؤه ديماً.

نحمده حمداً كثيراً ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لم يتخذ صاحباً ولا وزيراً ونصلي على سيدنا محمد الذي عمر الله به البلاد تعميراً وأحسن بالعدل تقريراً صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين ظاهروه بالسيوف والأقلام كاتباً وأميراً صلاةً لا ينقطع تواليها ولا تزال الآفاق تتناقلها وتستهديها.

وبعد فإن أولى من عظم شأنه وكرم مكانه وثبت مكانه وأنبت في منابت الرماح قلمه الذي هو ترجمانه وبسطت في تشييد الممالك يده وأطلق لسانه - من كان علامة العلم وغدا بالنشاط في كبره فتي السن كهل الحلم الذي فاق جلالة ونسباً واستعلى همة وأدباً وعرف بالديانة التي طار صيتها في الآفاق شرقاً ومغرباً والهمة التي سواء عليها أحملت قلماً أم انتضت قضباً.

ولما كنت أيها المجلس الفلاني - أدام الله تأييدك وتسديدك وتمهيدك وكبت حسودك وضاعف صعودك - أنت المعني بهذه المآثر المنضدة عليك هذه الجواهر الدالة على مناقبك هذه المفاخر الذي وجدناك على الانتقاد تزيد استخلاصاً وتعدو على السبك خلاصاً فلذلك خرج الأمر الشريف أن توزر وتحمى موارد آرائك لتستغزر ويكون لك الحكم في المملكة الشامية عموماً وتتصرف في معاملاتها مجهولاً ومعلوماً على أكمل قواعد الوزراء وأتمها وأجملها وأعمها متصرفاً في الكثير والقليل والحقير والجليل تعزل وتولي من شيت وتكفي وتستكفي من ارتضيت.

ونحن نوصيك بالرفق الذي هو أخلق والعدل الذي تستدر به سحب الأموال وتستغدق والحق فإن كل القضايا به تتعلق ويمن السياسة فإن الرياسة بها تكمل وتعدق وإياك والغرض الذي هو يهوي بصاحبه ويرديه في عواقبه واتق الله الذي لا تتم

الصالحات إلا بتقواه واحذر أن تكون مع من ضل سبيله واتبع هواه والله تعالى ينجح رجاءك ويوضح منهجك ويعلي درجك ويلقنك إذا خاصمت واختصمت حججك إن شاء الله تعالى.

الطبقة الثالثة من يكتب له مرسومٌ شريف

وهي على مرتبتين المرتبة الأولى من يكتب له في قطع النصف وهو نائب قلعة دمشق إن كان مقدم ألفٍ كما كان أولاً كتب له بالمجلس العالي.

أو طبلخاناه كما هو الآن كتب له بالسامي بغير ياء.

وبالجملة فإنه يكتب له مفتتحاً بالحمد لله.

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بنيابة قلعة دمشق المحروسة من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله رحمه الله وهي: الحمد لله مشرف القلاع ومصرف رجالها في الامتناع ومعرف من جادلها أن الشمس عالية الارتفاع.

نحمده حمداً يشنف الأسماع ويشرف الإجماع وتحلق في صعوده الملائكة أولي أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نرجو بها لما بقي من قلاع الكفر الاقتلاع واستعادة ما قر معهم من قرىً وضاع من ضياع ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي حمى به درة الإسلام من الارتضاع وصان به حوزة الحق أن تضاع صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً دائمةً ما أسبل لليل ذيلٌ وامتد للشمس شعاع وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن للحصون حواضر كما للبلاد وحواضن تضم بقاياها ضم الأمهات للأولاد ومعاقل يرجع إليها إذا نابت النوب الشداد ومعاقد يعتصم من منعتها بجبال ويتمسك بأطواد وقلعة دمشق المحروسة هي التي تفتخر بقايا البقاع بالاتصال بسببها والتمسك في الشدائد بذيل حسبها لا يهتدى في السلم والحرب إلا بمنارها ولا يقتدى في التسليم والامتناع إلا بآثارها ولا يستقى إلا بما يفيض على السحب من فيض أمطارها قد ترجلت لتبارز وتقدمت لتناهز ودلت بقواها فما احتجبت من سجوف الجبل بحجاب ولا احتجزت من الغمام بحاجز بل ألقت إلى قرار الماء حجلها وأثبتت في مستنقع الموت رجلها وكشفت للحرب العوان قناعها وأشعلت أبنيتها من الذهب شعاعها وأشغلت أفنيتها البروق أن تطاول باعها أو تحاول ارتفاعها قد جاورت قبتها الزرقاء أختها السماء وجاوزت بروجها منطقة البروج اعتلاء وهي معقل الإسلام يوم فزعهم وأمن قلوبهم أعاذها الله من جزعهم وقد نزل العدو عليها ونازلها زماناً بجموعه وأعانه عليه قومٌ آخرون وأقدموا وتقدموا وهم متأخرون وطاولوها فكانت حسرةً عليهم ونكالاً لما خلفهم وما بين يديهم وثبت الله بها أقدام بقية القلاع وقوى بعزائمها إقدام من فيها على الامتناع وقلعة الجبل المحروسة وإياها كالأختين وهي لها ثانية اثنين وكلتا 8 هما لكرسي ملكنا الشريف منزلٌ سعيد ومتنزه يود صفيح الأفلاك لو ترامى إليه من مكان بعيد.

فلما رسمنا بنقل من كان في النيابة الشريفة بها في منازلها من مكان إلى مكان وقدمناه أمامها كما يهتز في قادمة الرمح السنان واتخذنا من بروق عزائمه لبعض ثغورها الضاحكة شنباً ومن هممه المتصلة المدد بها ما نمد منها إلى سمائها سبباً - اقتضى رأينا الشريف أن نعول في أمرها المهم وبرها الذي به مصالح كثيرٍ من ممالكنا الشريفة تتم ونحلي مشارفها بمن تضاحك البروق سيوفه في ليل كل نقع مدلهم ونحمي حماها برجل تمنع مهابته حتى عن نقل الأسنة طارق الطيف أن يلم وهو الذي لا تزعزع له ذرا ولا يناخ لبادرة سيله في ذرا ولا يقدر معه الأسد أن يبيت حول غابه مصحرا ولا الطير أن يحلق إليه إلا ماسحاً بجناحه على الثرى ولا أدلجت وكان فلانٌ هو حامي هذا الحمى ومانع ما يحلو في الثغور من موارد اللمى وغيور الحي فلا تبرز له إلا من عقائل المعاقل قاصرات الطرف كالدمى وحافظ ما استودع من مصون واستجمع من حصون واستجهر من موارد تردها من زرد الدروع عيون ويفرق منها المجانيق سحائب ممطرةً بالمنون فصمم رأينا الشريف على اختياره ليوقل صهوة هذا الجواد ويوفي ما يجب لهذه العقيلة من مرتمق لحظ ومرتمى فؤاد ويبحث من الشغف بها عن أمل آمل أو مراد مراد ويعجب من عقيلتها المصونة أن أبراجها تتبرج وما لنعماها إنعامٌ ولا لسعادها إسعاد.

فرسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني - أعلاه الله وشرفه وأدام في الأرض ومن عليها تصرفه - أن تفوض إليه النيابة بقلعة دمشق المحروسة: على عادة من تقدمه وقاعدته ومقاربته ومباعدته وتخليه ومساعدته وكل ما جرت

به العوائد في رجائها ورجالها ومالها ومآلها وهذه نيابةٌ شريفة وسحابة مطيفة ونعمةٌ تقابل برعايتها وتكتم نوافجها بإذاعتها وتقوى الله حلية عنقها وحلة أفقها ومجرى المجرة إجلالاً في طرقها.

فعليك بحفظها ليلاً ونهاراً وتفقد أحوال من فيها سراً وجهاراً وفتح بابها وغلقها مع الشمس وتصفح ما بها من لبس وتتبع أسبابها كما في النفس والتصدي لملازمة الخدمة الشريفة في أبوابنا العالية ببابها والأخذ في أدوات حفظها بمجامع أطرافها دون التمسك بأهدابها والتجسس على من يلم فيها جفنه بكرىً وما أثقله مناماً وإلزام كل واحدٍ بما يلزمه من الوظائف في ليله ونهاره وإدلاجه وابتكاره ومن عليه في هذا المعقل إشراف من شرفاته أو تسورٌ على أسواره وإظهار الرهج والصيت والسمعة بالاهتمام في كل ليلة بزفاف عروسها وضرب الحرس لنواقيسها والإعلان لصباح الخير لنا في صبحاتها والدعاء الصالح في تغليسها وصيانة ما فيها من حواصل أو يصل إليها من واصل وما فيها من ذخائر وما في خزائنها العالية من مدد البحر الزاخر وما تشتمل عليه دار الضرب من أموالٍ تضرب للهبات برسمنا وأموال الناس التي حملت إليها لتشرف نقودها باسمنا وخزائن السلاح المنصورة وما يستكثر فيها من عدد وما يستغزر من مدد والمجانيق التي تخطر منها كل خطارة كالفنيق وتصعد ومرماها إلى السماء كأنما تخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق شائلة عقاربها آفلة بالأعمار كواكبها والحدوج والقسي والرايات وغير ذلك من سلاح أو دروع ترد السهام على أعقابها وتحني قامات العوالي وتضيق صدور الصفاح.

والبحرية وغيرهم من رجال هذه القلعة المحروسة من نجوم آفاقها وغيوم إرعادها وإبراقها وديمها إذا أسبلت المسالمة ذيولها وأعوانها إذا شمرت الحرب عن ساقها.

وبقية المستخدمين وأرباب الصنائع الذين هم عمارة أوطانها وأمارة العناية بها من سلطانها فكل ذلك مذخورٌ لمنافع الإسلام وما ريش السهم لأنه في كل ساعةٍ يرمى ولا طبع السيف لأنه في كل بارقة يشام فاحفظ لأوقاتها تلك المواد المذخورة والحظ هؤلاء الرجال فإنهم ظهر العساكر المنصورة وخذ بقلوبهم وأوصل إليهم حقوقهم واجمع على طاعتنا الشريفة متفرقهم وأكرم فريقهم ومنهم المماليك السلطانية وهم إخوانك في ولائنا والذين تشركهم في آلائنا وبالغ في حفظ المعتقلين في سجونها ولفظ المعتقدين خلافاً في مكنونها ونحن نعيذها بالله أن نقول: تفقدها بالترميم والإصلاح ولكنا نأمرك أن تتعهدها بما تتعهده من الزين الملاح ولك من معاضدة من في ذلك الإقليم من لك برأيه طريقٌ مستقيم ومن تراجعه فيما أشكل عليك من الأمور وتجد به في طاعتنا الشريفة نوراً على نور واتبع مراسمنا المطاعة فهي شفاءٌ لما في الصدور والوصايا كثيرة والله تعالى يجعلك على بصيرة ويتولاك بما فيه حسن السيرة وصلاح السريرة والاعتماد.

وهذه نسخة مرسوم شريف بنيابة قلعة دمشق المحروسة كتب بها لحسام الدين لاجين الإبراهيمي من إنشاء الشريف شهاب الدين رحمه الله وهي: الحمد لله الذي صان الحصون بانتضاء الحسام وزان الملك بارتضاء ذوي اليقظة من الأولياء والاهتمام وأبان سبيل السعادة لمن أحسن بفروض الطاعة وأجمل القيام.

نحمده على أن جعل نعمنا لأصفيائنا وافرة الأقسام ونشكره على أن أقبل عليهم بأوجه إقبالنا الوسام ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لعقود إخلاصها انتظام ولسعود اختصاصها التئام ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي منحه الإجلال والإعظام ومدحه بالإفضال والإكرام ورجحه بمزايا الفضل على جميع الأنام صلى الله عليه وعلى آله وصحبه بدور التمام ورضي عن أصحابه الذين لهم صدق الاعتزام صلاةً ورضواناً لهما تجديدٌ ومزيدٌ وتأييدٌ ودوام وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد: فإن آلاءنا لا تزال تختار الأكفاء وآراءنا لا تبرح تمنح ذوي المناصحة الإصفاء ونعماءنا تديم لملابس إجلالها على أولى الخدم الإفاضة والإضفاء وتفي بوعود جودها لمن أدام لمناهج المخالصة الاقتفاء.

ولما كان فلانٌ هو الذي عرفت له في مهماتنا خدمٌ سالفة والفت منه همةٌ عليةٌ خصته بكل عارفة وخولناه نعمنا الواكفة وأهلناه لاستحفاظ الحصون فساعده توفر التوفيق وساعفه ونقلناه في الممالك فسار سيرةً حميدةً اقتضت لمواهبنا لديه المضاعفة - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نرفع محله بأعز القلاع ونطلعه بأفق سعدها أيمن إطلاع ونندبه لضبطها فيحسن له فيها الاستقرار ويحمد منها له الاستيداع.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زالت صدقاته تحقق الأطماع وهباته تفيض ملابسها التي فليباشر النيابة بالقلعة المذكورة باذلاً الاجتهاد مواصلاً للعزم والسداد عاملاً بالحزم في كل إصدارٍ وإيراد كافلاً منها بحسن الاعتماد حافظاً حواصلها من الضياع

مقرراً أحوالها على أجمل الأوضاع وليأخذ رجالها بالائتلاف على الخدمة والاجتماع وليحرضهم على المبادرة إلى المراسيم والإسراع وليطالع من أمورها بما يتعين عليه لأبوابنا العالية في المطالعة ويجب لعلومنا الشريفة عليه الاطلاع وليراجع كافل الممالك الشامية بما جعلنا لآرائه فيه الإرجاع وليكن له إلى إشارته إصغاءٌ واستماع وإلى سبيل هديه اقتفاءٌ واتباع وليقف عند ما يتقدم به إليه فبذلك يحصل له الرشد والانتفاع والله تعالى يجدد عليه سوابغ نعمنا التي جادت بأجناسٍ وأنواع ويجرد في نصرتنا حسامه الذي من بأسه الأعداء ترهب وترتاع ويديم له ولجميع الأولياء من صدقات دولتنا الشريفة الإمتاع والخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

وهذه وصية نائب قلعة أوردها في التعريف: وعليه بحفظ هذه القلعة التي زفت إليه عقيلتها الممنعة وجليت عليه سافرة ودونها السماء بالسحب مقنعة وسلمت إليه مفاتيحها وخواتيم الثريا أقفال وأوقدت له مصابيحها وفتائل البروق لا تشب لقفال.

فليبدأ بعمارة ما دعت الحاجة إليه من تجديد أبنيتها وتشييد أقبيتها وشد عقودها وعد ما لا يحصى في الذخائر من نقودها وتنبيه أعين رجالها والكواكب قد همت برقودها والأخذ بقلوب من فيها وتدارك بقية ذمائهم وتلافيها وجمعهم على الطاعة وبذر الإحسان فيهم إذا عرف أرضاً تزكو فيها الزراعة والتمادي لهم: فرب رجال تجزى عن عدة سنين في ساعة وتحصين هذا الحصن المنيع بما يدخر في حواصله ويستمد بعمارة البلاد المختصة به من واصله وما يكون به من المجانيق التي لا ترقى عقاربها ولا توقى منها أقاربها ولا ترد لها مضارب ولا يكف من زبانى زبانيتها كل ضارب ولا يخطيء سهمها ولا يخفى بين النجوم نجمها ولا يعرف ما في صندوقها المقفل من البلاء المرسل ولا ما في فخذها المشمر الساق من النشاط الذي لا يكسل وغيرها من الرايات التي في غيرها لا تشد ولسوى خرها لا تعقد وما رمى فيها من السهام التي تشق قلب الصخر وتبكي خنساء كل فاقدة على صخر وكذلك قسي اليد التي لا يد بها ولا قبل وكنائن السهام التي كم أصبح رجلٌ وبه منها مثل الجبل وما يصان من اللبوس ويعد للنعيم والبوس وما يمد من الستائر التي هي أسوار الأسوار ولمعاصم عقائل المعاقل منها حلى سوى كل سوار وهي التي تلاث لثمها على مباسم الشرفات وتضرب حجبها على أعالي الغرفات وسوى هذا مما تعتصم به شوامخ القلال ويتبوأ به مقاعد للقتال فكل هذا حصله وحصنه واحسبه وحسنه وأعد منه في الأمن لأوقات الشدائد واجرفيه على شأو من تقدم وزد في العوائد وهكذا ما يدخر من عدد أرباب الصنائع ومدد التحصين المعروف بكثرة التجارب في الوقائع والأزواد والأقوات وما لا يزال يفكر في تحصيله لأجل بعض الأوقات وكن من هذا مستكثراً وله على ما سواه مؤثراً حتى لا تزال رجالك مطمئنة الخواطر طيبة القلوب ما عليها إلا السحب المواطر واعمل بعادة القلاع في غلق أبواب هذه القلعة وفتحها وتفقد متجددات أحوالها في مساء كل ليلة وصبحها وإقامة الحرس وإدامة العسس والحذار ممن لعله يكون قد تسور أو اختلس وتعرف أخبار من جاورك من الأعداء حتى لا تزال على بصيرة ولا تبرح تعد لكل أمرٍ مصيره وأقم نوب الحمام التي قد لا تجد في بعض الأوقات سواه رسولاً ولا تجد غيره مخبراً ولا سواه مسؤولاً وطالع أبوابنا العالية بالأخبار وسارع إلى ما يرد عليك منها من ابتداءٍ وجواب وصب فكرك كله إليها وإلى ما تتضمنه من الصواب.

المرتبة الثانية من المراسيم التي تكتب بحاضرة دمشق لأربا السيوف

ما يكتب في قطع الثلث وفيها وظيفتان الأولى - شد الدواوين بدمشق. -

وصاحبها يتحدث فيما يتحدث فيه شاد الدواوين بالديار المصرية وقد تقدم.

وهذه نسخة مرسوم شريف بشد الدواوين بدمشق: الحمد لله الذي أرهف لمصالح دولتنا القاهرة من الأولياء سيفاً ماضياً وجرد لمهمات خدمتنا الشريفة من الأصفياء عضباً يغدو الملك عن تصرفه الجميل راضياً وجدد السعود في أيامنا الزاهرة لمن لا تحتاج همه في عمارة البلاد المحروسة متقاضياً.

نحمده على نعمه التي تستغرق المحامد وتستوجب الشكر المستأنف على الحامد ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مجاهدٍ لأعدائها مجاهرٍ لإعلائها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدراً وأولهم في الرتبة مكانةً وإن كان آخرهم عصراً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نهضوا بما أمروا وعمروا الدين قبل الدنيا فلم تتمكن الأيام من نقض ما عمروا صلاةً يتأرج نشرها ويتبلج بشرها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من عدق به من مهماتنا الشريفة أعمها نفعاً وأحسنها في عمارة البلاد وقعاً وأكثرها لخزائن الأموال تحصيلاً وجمعاً وأجمعها لمصالح الأعمال وأضبطها لحواصل الممالك التي إذا أعد منها جبالاً تلا عليها لسان الإنفاق: " ويسألونك عن

الجبال " من زانت عزمه نزاهته وكملت قوته في الحق خبرته ونباهته وكان من أولياء دولتنا المعدين لشد أركانها وإشادة بنيانها والنهوض بمصالحها المتنوعة ونشر كلمة عدلها التي تغدو بالأدعية الصالحة مبسوطةً وبالأثنية العاطرة متضوعة.

ولما كان فلان هو الذي أشير إلى محاسنه ونبه على إبريز فضله المظهر من معادنه مع صرامةٍ تخيف الليوث ونزاهةٍ تعين على عمارة البلاد الغيوث وخبرةٍ بإظهار المصالح الخفية وفية وبإبراز معادن الأموال من وجوهها الجلية ملية ومعرفةٍ تعم البلاد بين الرغبة والرهبة وتجعل مثل ما يودع فيها بالبركة والنماء مثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل في كل سبنلةٍ مائة حبة - اقتضت آراؤنا الشريفة أن ننبه على حسن اعتنائنا بأمره واعتمادنا بما قدمه من أسباب إسناء رتبته ورفعة قدره فلذلك رسم - زاد الله في علائه - أن يفوض إليه.

فليباشر ذلك مظهراً من مصالح الدولة القاهرة ما كان في ضمير كفايته مكنوناً مبرزاً من تثمير الأموال وتعمير الأعمال ما يحقق به من خصب البلاد بمشيئة الله تعالى ما كان مظنوناً موالياً إلى الخزائن المعمورة من حمول تدبيره ما يمسي به طائر تصرفه ميموناً وسبب توقفه مأموناً.

وليكن النظر في عمارة البلاد هو المهم المقدم لديه والأمر الذي يتعين توفر اهتمامه عليه فليجتهد في ذلك اجتهاداً يظهر أثره ويجتنى ثمره ويحمد ورده وصدره وتتفرع عنه أنواع المصالح وتترتب عليه أسباب المناجح وملاك ذلك بسط المعدلة التي هي خيرٌ للبلاد من أن تمطر أربعين يوماً واعتماد الرفق الذي لا يضر معه البأس قوماً ولا جيلب على فاعله مع الحزم لوماً ولا يطرد عمن أنامه العدل في مهاد الدعة نوماً وليصرف إلى استجلاب الأموال وموالاة حملها همةً ناهضة وعزمةً إلى ما قرب ونأى من المصالح راكضة وقوةً بأسباب الحزم آخذةً وعلى أعنة التدبير قابضة وفيما خبرناه من عزائمه المشكورة وسيرته التي ما برحت بين أولياء دولتنا القاهرة مشهورة ما يكتفى به عن الوصايا المؤكدة ويوثق به فيما عدق به من الأمور المسددة لكن تقوى الله تعالى أولى الوصايا وأولها وأحق ما تليت عليه تفاصيلها وجملها فليقدم تقوى الله بين يديه ويجعلها العمدة فيما اعتمد فيه عليه بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه.

الوظيفة الثانية - شد المهمات.

وصاحبها يتحدث فيما يطلب للأبواب السلطانية من المستعملات وغيرها.

وقد ذكر في التثقيف أن عادته أن يكون مقدم ألفٍ.

وهذه نسخة توقيع بشد المهمات بدمشق وهي: الحمد لله الذي شد عرى المصالح من الأولياء بكل ذي أيد وكل من هو في المهمات أبطش بعمرٍو من زيد ومن له تدبيرٌ كم أغنى باقتناصه لشوارد الأمور عن حبالة صيد.

وبعد فإن أحق من استخلص لاستخلاص الأموال واختير لصونها من الاختزال وحفظها من الاختلال وأهل قلمه وكلمه: هذا للتمثيل وهذا للامتثال وفوض إليه التصرف في الترغيب والتهيب والاجتهاد في التمييز والتحرير والتوفير إذ كل مجتهدٍ مصيب - من اشتهر بأنه ذو حزم لا يني وعزمٍ عن المصالح لا ينثني واحتفالٍ بالأحوال التي منها نكرٌ لمن يجني وشكرٌ لمن يجتني وله نباهةٌ يدرك بها كل إيهامٍ وكل إبهام ويطلع بها على فلتات ألسنة الأقلام ويفهم بها مقاصد كل من هو من الجنة في كل وادٍ يهيم ولا يخفى عليه جرائر الجرائد ولا مخازي المخازيم وفيه رحمةٌ كم أصبح بها وهو الأتقى ولم يأت قساوةً يكون بها هو المنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى وكم ساس الأمور ودبرها فأحسن فيها السياسة وأجمل التدبير واستخرج الشيء الكثير بالتخويف اليسير حتى جمع حسن تدبيرٍ واسترعا وصنع حسناً وأحسن صنعا.

ولما كان فلان هو لهذا الأمر الجليل المسترعى واسمه في أول مدارج التنويه والتنويل خير مستدعى وفيه من جميل الأصاف ما يرضي حسن الاقتراح وقد خبر أمور الكتبة وقد علم من أحوالهم ما هو أحرى لهم بالتجربة وعرف خفايا المعاملات معرفةً اقتضى حسن الرأي المنيف أن رسم بالأمر الشريف - لابرح - تامة وأحاط بجزئيات الجهات وكلياتها إحاطةً خاصة وعامة يشد عضد كل مهتم من الأولياء بأخي كل عزم ويجعل له سلطاناً لا يكل مصلحةً إلى حزم ذي حزم - أن يفوض إليه شد المهمات بالشام المحروس.

فليضبط الأمور ضبطاً مستوعباً ولينتصب لذلك انتصاباً مترتباً وليحترز منفذاً ومصرفاً ومسرعاً ومستوقفاً ومتى ظهر حقٌّ يتمسك به تمسك الغريم ولا يحاب فيه ذا باسٍ قويٍّ ولا ذا منهجٍ إلى المنع والدفع غير قويم وما من جهة إلا ولها شروطٌ صوب الصواب ولا يعتمد على غير الحق منكباً عن ترويج الكتاب ولتكن الحمول مسيرة والمتخرجات متوفرة وجهات الخاص مقررة إذ الضمان لا ينتظر لهم نظرةٌ إلى ميسرة فإنهم سوس المعاملات وكواسر الجهات ومنهم يحفظ أو يضاع وبهم يترقى أو ينحط الارتفاع وجهات المقطعين الواجب له أن يجعل عليها واقيةٌ باقية ولتحم لهم حتى لا يتطاول إلى ذروتها امتداد الأيدي المختزلة ولا خطا العدوان الراقية وليصرف وجهه بحفظه إلى مراقبة من في باب الشد من مقدمين ومن رسلٍ يأكلون أموال الناس بالباطل ويبيعون الآجل بالعاجل ويخيفون العام والخاص وكل منهم يروم الغناء وهو رقاص.

هذه زبدةٌ من الوصايا مقنعة وعزماتٌ غنيةٌ عن تكثيرٍ في القول أو توسعة والله تعالى يكون له ويعينه بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى.

الصنف الثاني من الوظائف بدمشق الوظائف الدينية

وجميع ما يكتب فيها تواقيع وهي على مرتبتين المرتبة الأولى ما يكتب في قطع النصف بالمجلس العالي بالياء مفتتحاً بالحمد لله وبذلك يكتب للقضاة الأربعة بحاضرة دمشق.

وهذه نسخة توقيع بقضاء الشافعية بدمشق المحروسة كتب به لقاضي القضاة بهاء الدين أبي البقاء السبكي وهي: الحمد لله الذي أقر أحكام الشرع الشريف في أيامنا الزاهرة على أكمل القواعد وأمر مدار الحكم المنيف في دولتنا القاهرة على أجمل العوائد وأمضى فصل القضاء في ممالكنا الشامية بيد إمامٍ غنيت فضائله عن الشواهد وأمته الأئمة لاقتباس الفوائد وعدقت أحكام الملة منه بمجاهرٍ في الحق مجاهد مسددٍ في الدين سهم اجتهادٍ رمى به شاكلة الصواب عن أثبت يدٍ وأشد ساعد.

نحمده على نعمه التي حلت مناصب الدين في ممالكنا الشريفة بأكفائها وعلت رتب العلم في دولتنا القاهرة باستقرار من جعلته فضائله غاية اختيارها ونهاية اصطفائها ودلت على اعتنائنا بتنفيذ أحكام من أتعبت سيرته الجميلة من سهد في اتباعها وجهد في اقتفائها ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تزال أعلامنا بها تنتصر وأيامنا على الجهاد لتكون كلمتها هي العليا تقتصر وأقلامنا لنشر دعوتها في الآفاق تسهب ولا توجز وتطنب ولا تختصر ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من قضت أمته بالحق فعدلت وتلقت عنه أحكام ملته ففاقت بذلك الأمم وفضلت وحكمت بما أراها الله من شرعته فما مالت عن سننه القويم ولا عدلت صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أسلموا لله فسلموا وعملوا في دين الله بما علموا وبذلوا النفوس في طاعته فما استكانوا لما أصابهم في سبيل الله ولا ألموا صلاةً نؤدي بها من أمر الله المفترض ونرغم بإقامتها الذين في قلوبهم مرض وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من تنقل في رتبة السنية ووطدت له بمصر والشام قواعد سيرته السرية وأطلقت جياد اليراعة في إمضاء حكمه في المملكتين مثاني أعنتها وأنطقت صعاد البراعة في إعلاء بهائه فيهما ألسنة أسنتها وأردنا أن نرده إلى أعز الممالك علينا لنقر عينها وقصدنا أن نعيده إلى رتبته بها لنوفي باستعادته دينها واخترنا أن نجدد لهذه الوظيفة سالف عهده وأن نريه اعتناءنا بأمر منصبه الذي لم يله مثله من الأئمة من بعده وعلمنا أن الديار المصرية قد اختصت بفضائله زمناً طويلاً وأن البلاد الشامية قد ألفت من أحكامه ما لم ترد به بديلاً - من ظهرت فضائله ظهور نعته وتهادت فوائده رفاق الآفاق: من علماء زمانه وأئمة وقته وعلمت أوصاف الصدور الأول من علمه وورعه وسمته ونشرت الأيام من علومه ما لم يطو بل تطوى إليه المراحل ونقلت الأقلام من فنونه ما يروى فيروى به السمع الظامي ويخصب به الفكر الماحل وألفت الأقاليم من حكمه ما غدت به بين مسرورٍ بإشراقه ومروعٍ بفراقه فمن أقضيةٍ مسددة وأحكامٍ مؤيدة وأقوالٍ منزهةٍ عن الهوى وأحوالٍ صادرةٍ عن زهادةٍ محكمة القواعد ونزاهةٍ مجتمعة القوى وإصابةٍ دالةٍ على ما وراءها من علمٍ وورع وإجابةٍ في الحق تحيا بها السنن وتموت البدع وشدةٍ في الدين تصدع في كل حكم بالحق وإن صدع وعدلٍ لا يستلان جانبه وحزمٍ لا يستزل صاحبه ولا ستنزل راكبه وقوةٍ في الحق تمنع المبطل من الإقدام عليه ولينٍ في الله يفسح للحق مجال القول بين يديه ومجالس غدت بالعلم طيبة الأرج وفضائل يحدث فيها عن مواد فكره عن البحر ولا حرج وبدائع تضرب إلى استماعها أكباد الإبل وبدائه تهرم الأيام وعمر شبابها مقتبل.

ولما كان المجلس العالي - أدام الله نعمته - هو الذي ورد على أبوابنا العالية ونور ولائه يسعى بين يديه وصدر الآن عنها وحلل آلائنا تضفو عليه وأقام في خدمتنا الشريفة معدوداً في أكرم من بها قطن وعاد إلى الشام مجموعاً له بين مضاعفة النعم

والعود إلى الوطن وهو الذي تختال به المناقب وتختار فضله العواقب ويشرق قلمه بالفتاوى إشراق النهار وتغدق منافعه إغداق السحب بالأمطار وتحدق الطلبة به إحداق الكمامة بالثمر والهالات بالأقمار وهو شافي عي كل شافعي ودواء ألم كل ألمعي طالما جانب جنبه المضاجع سهاداً وقطع الليل ثم استمده لمدد فتاويه مداداً وجمع بين المذهبين نظراً وتقليداً والمذهبين من القولين قديماً وجديداً وسلك جميع الطرق إلى مذهب إمامه وملك حسانها فأسفر له كل وجهٍ تغطى من أوراق الكتب بلثامه وانفتحت بفهمه للتصانيف أبوابٌ شغلت القفال أقفالها ونفحت نفحاتٌ ما للماوردي مثالها ومنحت حللاً يفخر الغزالي إذا نسج على منواله سربالها فلو أدركه الرافعي لشرح الوجيز من لفظه وأملى أحكام المذاهب من حفظه وصدر المسائل بأقواله وأعد لكل سؤالٍ واردٍ حجةً من بحثه وبرهاناً من جداله فله في العلم المرتقى الذي لا يدرك والمنتهى الذي لا ينازع في تفرده ولا يشرك والغاية التي أحرزها دون غيره فلولا المشقة لم تترك وهو الذي ما زال بهذه الرتبة ملياً وبما عدق بذمته من أحكامها وفياً وبكل ما يرضي الخليقة عنه من أحوالها قائماً وكان عند ربه مرضياً وبأعبائها مستقلاً من حين منحه الله العلم ناشئاً وآتاه الحكم صبياً.

وما برح تدعوه التقوى فيجيبها ويترك ما لا يريب نفسه تنزيهاً عما يريبه فكم فجر بالبلاد الشامية من علمه عيوناً وغرس بها من أفنان فضله فنوناً وكان لها خير جارٍ ترك لها ما سواها وأكرم نزيل نوى بالوصول إليها مصلحة دينه فلم يضيع الله له نيته التي نواها وألف قواعد أهلها وعوائدهم وعرف بحسن اطلاعه ما جبل الله عليه غائبهم وشاهدهم وعدوه من النعم المقبلة عليهم واقتدوا في محبته بالذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ثم قدم إلى الديار المصرية وما كان قدومه إلا علينا ووفد إليها بحسن مودته ومحبته اللتين ما وفد بهما إلا إلينا فرأينا منه إماماً لا يحكم في توليته الحكم بالهوى ولا ينوى في تقليده القضاء غير مصلحة المسلمين ولكل امرىءٍ ما نوى وهو - بحمد الله - لم يزل بقواعد هذا المنصب خبيراً وبعوائد هذه الرتبة بصيراً وبإجرائها على أكمل السنن وأوضح السنن جديراً وبإمضاء حكم الله الذي يحقق إيجاد الحق فيه للأمة أنه من عند الله " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً " مع ما تكملت به فضائله من الوقوف مع الحق المبين والتحلي بالورع المتين والتخلي للعبادة التي أصبح من اتصف بها مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

فلذلك رسم بالأمر الشريف الأشرفي الناصري - لا زال علم العلم في أيامه مرفوعاً وألم الجهل بما خص الله به دولته من الأئمة الأعلام مدفوعاً - أن يفوض إلى المشار إليه قضاء القضاة الشافعية ونظر الأوقاف بدمشق المحروسة وأعمالها بالبلاد الشامية وما هو مضاف إلى ذلك من الصدقات والتداريس والتصدير وغير ذلك على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته ومعلومه.

فليقابل هذا التقليد السعيد بيدٍ زيد في الحق تمكنها وعلى الخير تمرنها وفي العدل انبساطها وفي أحكام الله تعالى بحسن المعاضدة على الحق قوتها واحتياطها وليمض على ما ألف من سيرته التي زان العلم أوصافها وزان الورع اتصافها وحلى العدل مفاخرها وأحيا التقى مآثرها وتناقلت رفاق الآفاق أحكامها واستصحبت من هدايا هداها ما تتحف به حكامها وفيما نعت من محاسنه ما يغني عن الوصايا المجددة والإشارات المرددة لكن الذكرى بتقوى الله تنفع المؤمنين وترفع المتقين وتجمع مصالح الدنيا والدين فليجعلها خلقه ما استطاع وليرِ حكمها هو الحكم المتبع وأمرها هو الأمر المطاع والاعتماد رابع عشر المحرم سنة خمس وسبعين قلت: ولم أقف على تفويض لقاضٍ من كتابة من تقدم سوى تفويض واحد من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله كتبه لقاضي القضاة شهاب الدين ابن المجد عبد الله بالشام المحروس على مذهب الإمام الشافعي.

وهذه نسخته: الحمد لله على التمسك بشرائعه والتنسك بذرائعه والتوسل إلى الله بتأييد أحكام شارعه والتوصل به إلى دينٍ يقطع به من الباطل أعناق مطامعه.

نحمده حمداً يأخذ من الخير بمجامعه ويضاهي الغمام في عموم منافعه ويباهي السيف بقلم الشرع في قهر عاصيه وحماية طائعه ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تؤدي للإيمان أمانة ودائعه وتهدي إلى صيانة مشارعه وتقيم من العلماء كل شهابٍ تقسم الأنوار بلوامعه وتقسم الأبصار ببدائعه وتجول الفتاوى في صدره الفسيح وتتجول في شوارعه وترهف منهم للحكم العزيز كل قلمٍ يدل السهم على مواقعه وينبه الرمح من مقاتل الأعداء على مواضعه ويسري غمامه إلى الأعداء بصواعقه وإلى الأولياء بهوامعه ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أسعد الأمة بطالعه وأصعد الأئمة في مطالعه وأسعف الملة بما أبقى الله فيها من حسن صنائعه ويمن طلائعه ومن شريعته التي أمن حبلها الممدود من جذب قاطعه وكفي شر قاطعه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تتوالى إليه توالي العذب إلى منابعه وبعد فإن الله لما أقامنا لحماية شرعه الشريف أن يستباح حماه أو يباح لأحد من حكامه أن يركب هواه أو يتعدى حدوده في سخطه أو رضاه أو يحدث في جعلنا نجد على إقامة مناره أن يطمس وإدامة مباره أن يقلع منارها أو يبخس - أمره ما ليس منه إلا أن يكون رداً على سواه

استدامةً لتأبيس حكامه وتأييد أحكامه لأنه سحائب أنواءٍ يعم الربيع ربوعها ومشكاة أنوارٍ يكاثر الصباح لموعها وأفاويق وفاقٍ تنيم به الأمة ضروعها وشجرة مباركة إسلامية زكت أصولها ونمت فروعها شكراً لله على ما خصنا به: من تحصين ممالك الإسلام وتحسين مسالك دار السلام لنمنع المحن أن تسام وبروق الفتن أن تشام ووجوه الفتوى أن تتزين إلا بشامة الشام غبطةً بأن الله جعل للإسلام منها ما هو خيرٌ وأبقى وأشرف وأتقى وأعظم بلدٍ تتشعب بالمذاهب طرقاً وتود المجرة لو وقفت بها على الشريعة نسقاً تتزاحم في مركزها الأعلام وتتضافر على الجهاد في الله بالجلاد والجدال تارةً بالسيوف وتارةً بالأقلام.

ودمشق حرسها الله هي أم ذلك الإقليم ومدده الذي يحنو على مشارعها حنو الوالدة على الفطيم وتنبت بها فوائد لا تأمن معها الغواني حتى تلمس جانب العقد النظيم وهي دار العلم ومدار الحكم وموطن علماء تتعاقب فيها كواكبهم وتتناوب سحائبهم وتتناهى إلى حكمها العزيز الشكوى وتنفصل بحكم حاكمها الدعوى ويمتد جناح طيلسانه على رضوى ويحلق البرق وراء فهمه ولا يبلغ غايته القصوى ويطول قلمه على السيف المشهر ويرفرف سجله على الشرع المطهر كم حلت في صدوره صدور وكم طلعت منهم شموسٌ وبدور وكم حمدت منهم أمور عاقبةٍ ولله عاقبة الأمور كم أداء درسٍ بهم ذكر وكم أدب نفسٍ شكر كم بهم مجدٌ رسخ وجدٌّ لملة ممالاةٍ نسخ كم أقضيةٍ لهم بالحق وصلت وقضيةٍ للحق فصلت ومهنة من غلبهم اللاحق حصلت كم سجل صاحب هذا المنصب حامل علمه المنشور ومصباح ديمه الحافلة على ممر الدهور بشرف مدرس علمٍ يطلع من محرابه ونساك حلم يبدو بدره التمام خلف سحابه ومجلس إفادةٍ انعقد عليه فيه الإجماع ومحفل سادةٍ كان فيهم واسطة عقد الاجتماع.

ولما تزلزلت قدم منابره وانتهك حجاب ضمائره واستزله الشيطان بكيده المتين وأضله على علمه المبين وسبق القلم الشرعي بما هو كائن ومضى الحكم القطعي بما هو من تصرفه بائن - تردد الاختيار الشريف فيمن نحلي جيده بتقليدها ونؤهل يراعه لتسليم مقاليدها وصوبنا صواب النظر فيه مصراً وشاماً واستشرفنا أعلاماً وتيقنا لأقوى ما يكون لها قواماً وابتكرنا أنه لا يصلح إلا من كان لحلة المجد طرازاً ويزيد العمل إليه اعزاءً والعلم به اعتزازاً إلى أن أجمع رأينا العالي على من لا ينكر ذو قدم ولا قدم ولا قلم أنه السابق ولا يجحد رب علمٍ ولا عمل ولا علم أنه الباسق ولا يشك أن من فوائده يستمد المطر ومن توقد ذهنه يقدح زناد البارق ولا يرتاب البحر أن فرائده ما يطوق العنق ويشنف الأذن ويتوج المفارق ولا يمارى في فضله الذي لو طلب له مثيلٌ لم يصب ولو ادعى الكوكب الساري أنه له شبيهٌ لمسه النصب أو تلفتت أعناق القنا إلى قلمه لأيقنت أنها كلٌّ على القضب وهو الذي أفنى عمره في تحصيل العلم اشتغالاً وجد في الطلب لصالح العمل وإن تغالى وبقي فقيه قومٍ ما جد منهم مثله ماجد ولا جادت يد كريمٍ منهم تمتد بما هو جائد ودرج أقرانه إلى الله وخلي دونهم شرعاً لا يرد وارداً وخلف بعدهم سهماً في الكنانة واحداً.

وكان المجلس العالي - أدام الله تأييده - هو الذي تختال به المناقب وتختار فضائله العواقب وتشرق بقلمه الفتاوى إشراق النهار وتغدق منافعه إغداق السحب بالأمطار وتحدق به الطلب إحداق الكمامة بالثمر والهالات بالأقمار وهو شافي عي كل شافعي ودواء ألم كل ألمعي طالما جانب جنبه المضاجع سهاداً وقطع الليل ثم استمده لمدد فتاويه مداداً وجمع بين المذهبين نظراً وتقليداً والمذهبين من القولين قديماً وجديداً وسلك جميع الطرق إلى مذهب إمامه وملك حسانها فأسفر له كل وجه تغطى من أوراق الكتب بلثامه وانفتحت بفهمه للتصانيف أبواب شغلت القفال أقفالها ونفحت له نفحاتٌ ما للماوردي مثالها وسفحت ديمٌ غزارٌ يسقي المزني سجالها ومنحت حللاً يفخر الغزالي إذا نسج على منواله سربالها.

فرسم بالأمر الشريف - لا زال يجدد ملابس فضله ويقلد كل عملٍ لصالح أهله - أن يفوض إليه قضاء قضاة الشافعية بدمشق المحروسة وأعمالها وجندها وضواحيها وسائر الممالك الشامية المضافة إليها والمنسوبة لها والمحسوبة فيها يولي ذلك ولايةً صحيحةً شرعية على عادة من تقدمه وقاعدته المرعية مع ما هو مضاف إلى من كان قبله من تدريس المدارس تفويضاً لا ينافسه فيه منافس ولا يجالسه في درسه إلا من ارتضى من النجوم أن يجالس وأذنا له أن يستنيب عنه من لا يخجل عند الله ولا عندنا باستنابته ولا يداخله ظنٌّ في خلاص ذمته بإنابته إلى الله في نيابته على أنه يتفقد أعمالهم ويتصفح أحوالهم: فمن نقل إليه ثقاته أنه على طريقٍ مستقيمٍ أقره وإلا صرفه ثم لا يكون له إلى عمله كرة وهو القائم بحجة الشرع الشريف وحجة الله والعياذ بالله - في أموره تعود اللائمة وأنت تعلم أنا ما كنا نعرفك عياناً وإنما وصفت لنا حتى كأنا - عليه قائمة وعليه إن قصر نراك وسمعت بما نحن عليه حتى كأنك ترانا فشيد لمن شيد لك شكرهم أركاناً وأعلى ذكرهم لمجدك بنياناً وجعل لك قدرهم الجميل منا سلطاناً وأقم بحسن سلوكك على ما قالوا فيك برهاناً واعرف لهم حق معروفهم وجازهم عن حسن ظنهم بالحسنات إحساناً.

ونحن نوصيك بوصايا تشهد لنا يوم القيامة عليك ببلاغها ويعترض منها في الحلوق شبحاً: فأي الرجال يقدر على مساغها فإن قمت بها كان لنا ولك في الأجر اشتراك وإن أضعت حقوقها فالله يعلم أننا أخرجنا هذه الأمانة من عنقنا وقلدناك والله وملائكته بيننا وبينك شهود على ما أوليناك وما ولياناك فعليك بتقوى الله في السر والإعلان والعمل بما تعلمه سواءٌ رضي فلانٌ أو سخط فلان والانتهاء إلى ما يقتضيه عموم المصالح وإمضاء كل أمرٍ على ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وكان عليه السلف الصالح وإقامة حدود الله ولا تتعد حدوده وقمع البدع لإظهار الحق لا لإثارة فتنةٍ مقصودة فقد علمت ما أنكرته أنت وأمثالك من الأئمة العلماء على من تقدمك من تسرعه في مثل ذلك وتطلعه إلى مطالب سقط دونها في مهاوي المهالك فإياك إياك أن تتبع في هذا النحو سبله أو تنه عن خلقٍ وتأتي مثله.

والصدقات الحكمية على مادة المساكين وجادة الشاكين ففرقها على أهلها واجمع لك الحسنات عند الله بتبديد شملها ولا تبق بما يصل - منها بقيةٌ تبقى معرضة لأكلها فلو أراد واقفوها - رحمهم الله - في أجورها وخص الأسارى - أحسن الله خلاصهم به إحسانك إليهم ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

جبرهم الله -: منهم الطفل والمميز والمراهق ومن لم يملك رشده أو من يحتاج أن يبلغ في جواز التصرف أشده وكل -والأيتام هؤلاء فيهم من لا يعلم من يضره ممن ينفعه ولكن الله يعرفه وفي أعماله يرفعه فاجتهد أن تكون فيهم أباً براً وأن تتخذ فيهم عند الله أجراً وأن تعامل في بنيك بمثل ما عاملتهم إذا انقلبت الدار الأخرى واحفظ أموالهم أن تنتهكها أجرة العمال وترجع في قراضها إلى ما يجحف برؤوس الأموال ومثل أعمالك المعروضة على الله في صحائفها المعروضة واحذر من المعاملة لهم إلا بفائدةٍ ظاهرة ورهنٍ مقبوضة.

والجهات الدينية هي بضاعة حفظك ووداعة لحظك فلا تول كل جهةٍ إلا من هو جامعٌ لشرطها قائمٌ بموازين قسطها.

والشهود هم شهداء الحق وأمناء الخلق وعلى شهاداتهم تبنى الأحكام فإياك والبناء على غير أساسٍ ثابتٍ فإنه سريع الانهدام ومنهم من يشهد في قيمة المثل ويتعين أن يكون من أهل البلد الأمثل لأنه لا يعرف القيمة إلا من هو ذو سعةٍ ممول ومنهم من أذن له في العقود فامنع منهم من تسهل بسببٍ من الأسباب وما تمهل إشفاقاً لاختلاط الأنسال والأنساب يقبل بالتعريف ما يخلو من الموانع الشرعية من كان ولا يحسن في تزويجه يمسك إمساكاً بمعروفٍ ولا يسرح تسريحاً بإحسان وهؤلاء مفاسدهم أكثر من أن تحصى والبلاء بهم أكبر من أن يستقصر أو يستقصى فاعتبر أحوالهم اعتباراً جلياً وفكر في استدراك فارطهم فكراً ملياً ومن لم يكن له من العلم والدين ما يوضح له المشتبهات فإياك وتركه فرب معتقدٍ أنه يطأ وطأً حلالاً وقد أوقعه هذا ومثله في وطء الشبهات ومنهم من يعمد إلى التحليل ويرتكب منه محذوراً غير قليل وهو بعينه نكاح المتعة الذي كان آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم النهي عنه وقام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه محذراً منه فاحسم هذه المادة الردية التي تؤلم عضواً فيسري إلى سائر الأعضاء ألمها ويبقى في كثير من الذراري المولودة من هذه الأنكحة الفاسدة ثلمها.

والرسل والوكلاء بمجلس الحكم العزيز ومن يلمزك في الصدقات وما نزل في أمورٍ ما يريدون بها تقليد حكمك بل ما يقضون به الأوقات فلا تدع ممن تريد منهم إلا كل مشكور الطريق مشهور القصة بين الخصوم بطلب التوفيق.

والمكاتيب هي سهامك النافذة وأحكامك المؤاخذة فسدد مراميها ولا تردفها ما عرض عليك من الأحكام حتى لا يسرع الدخول فيها والمحاضر هي محل التقوي فاجتهد فيها اجتهاداً لا تذر معه ولا تبقي.

وأما قضايا المتحاكمين إليك في شكاويهم والمحاكمين في دعاويهم فأنت بهم خبير ولهم ناقدٌ بصير فإذا أتوك لتكشف بحكمك لأواءهم فاحكم بينهم بما أراك الله ولا تتبع أهواءهم وقد فقهك الله في دينه وأوردك من موارد يقينه ما جعله لك نوراً وجلاه لك سفوراً وأقامه عليك سوراًن وعلمك ما لم تكن تعلم منه أموراً فإن أشكل عليك أمرٌ فرده إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع أصحابه فإن لم تجد فعندك من العلماء من تجعل الأمر بينهم شورى ولأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتابٌ كتبه إلى بعض القضاة فاعمل بمقتضاه واعلم بأن الله تعالى قد ارتضاك لخلقه فاعمل على رضاه.

والأئمة العلماء هم إخوانك في الدين وأعوانك على ردع المبتدعين ولسانك في المحفل وجناحك إذا جلسوا ذات الشمال وذات اليمين فنزلهم منازلهم التي أحلهم الله في شرفاتها وبوأهم رفيع غرفاتها وتألف خواطرهم فإنك تنظر إلى كثير من الأمور في صفاء مصافاتها.

ومن نسب إلى خرقة الفقر وأهل الصلاح هم أولياء الله المقربون وأحباؤه الأقربون فعظم حياتهم وجانب محاباتهم فما منهم وإن اختلفت أحوالهم إلا من هو على هدىً مبين واحرص أن تكون لهم حباً يملا قلوبهم فإن الله ينظر إلى قوم من قلوب قومٍ آخرين.

وانتصب للدروس التي تقدمت بها على وافد الطلبة فإن الكرم لا يمحقه الالتماس والمصباح لا يفني مقله كثرة الاقتباس والغمام لا ينقصه توالي المطر ولا يزيده طول الاحتباس والبحر لا يتغير عن حاله وهو لا يخلو عن الوارد في عدد الأنفاس.

والوصايا كثيرة وإنما هذه نبذةٌ جامعة وبارقةٌ لامعة ومنك يستفاد بساط القول وانبساط الطول ولهذا يكتفى بما فيك والله تعالى يكفيك ويحصي حساب أعمالك الصالحة ليوفيك حتى تجد فلا يتخلف بك السير وتستعد ليختم لك بخاتمة الخير والاعتماد على الخط الشريف.

قلت: وهذه نسخة توقيع بقضاء أنشأته بدمشق للقاضي شرف الدين مسعود وهي: الحمد لله الذي شيد أحكام الشرع الشريف وزاد حكامه في أيامنا شرفاً ورفع منار العلم على كل منارٍ وبوأ أهله من جنات إحساننا غرفاً وأباح دم من ألحد فيه عناداً أو وجه إليه طعناً وأوجب الانقياد إليه بقوله تعالى: " إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا " وألهم الصواب في اختيار من لم يزل لهذه الرتبة معداً ومن رجالها معدوداً وصرف وجه إقبالنا إلى من ارتضيناه للمسلمين حاكماً فأصبح بنظرنا مسعوداً.

ونحمده حمد من اعتنى بالقيام بشرائع الإسلام وتعظيم شعائره ونصح للرعية فيمن ولاه عليهم وأعطى منصب الشرع حقه بتقديم أكابره.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يقضى لصاحبها بالنجاة من النار ويسجل لقائلها بالثبوت في ديوان الأبرار وأن محمداً عبده ورسوله الذي شرط الإيمان بالرضا بحكمه وأوجب طاعته أمراً ونهياً واستجابةً وتحكيماً فقال تعالى: " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً " صلى الله عليه وعلى آهل وصحبه الذين نحن بسيرهم مهتدون وبآثارهم مقتدون وعلى آله وصحبه الغر الكرام الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون صلاةً لا يختلف في فضلها اثنان ولا يتنازع في قبولها خصمان وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فلما كانت مرتبة الشرع الشريف هي أعلى المراتب ومنصب حكامه في الورى أرفع المناصب إليه تنتهي المخاصمات فيفصلها ثم لا تعدوه ويحكم فيه على الخصم فيذعن لحكمه ثم لا يشنوه بل يتفرق الخصمان وكلٌّ منهما بما قضي له وعليه راض ويقول المتمرد الجائر لحاكمه: قد رضيت بحكمك فاقض في ما أنت قاض وناهيك برتبةٍ كان النبي صلى الله عليه وسلم هو المتصدي للقيام بواجبها والخلفاء الراشدون - رضوان الله عليهم - محافظين على أداء رواتبها ثم اختص بها العلماء الذين هم ورثة الأنبياء من الخليقة واستأثروا بها دون غيرهم من سائر الناس فهم أهلها على الحقيقة إذ لا يؤهل لهذه الرتبة إلا من ارتقى إلى درجات الكمال واتصف بأحسن الأوصاف واحتوى على أنفس الخصال وتضلع من العلم الشريف بما يرويه وفاق في العقل والنقل بما يبحثه ويرويه.

ولما كان المجلس الفلاني هو عين هذه القلادة وواسطة عقدها وقطب دائرتها وملاك حلها وعقدها إذ هو شريح الزمان ذكراً وأبو حامد سيرةً وأبو الطيب نشراً لا جرم ألبسته أيامنا الزاهرة من الحكم ثوباً جديداً وأفاض عليه إنعامنا نحلةً نعقبها - إن شاء الله تعالى - مزيداً.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زالت الشريعة المطهرة بمناصرته في أعز صوان وحكامها بمعاضدته في أعلى درجة وأرفع مكان - أن يفوض إليه.

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة مثله لمثلها وليعمل بما يعلمه من أحكامها فهو ابن بجدتها والخبير بمسالك وعرها وسهلها فهو الحاكم الذي لا يساوى والإمام الذي يقتدى به في الأحكام والفتاوى فعليه بالتأني في الأحكام والتثبت فيما يصدر عنه من النقض والإبرام ولينظر في الأمر قبل الحكم المرة ثم الأخرى ويكرر النظر في ذلك ولو أقام شهراً ويراجع أهل العلم فيما وقف عليه ويشاورهم فما ندم من استشار ويقدم استخارة الله تعالى في سائر أموره فما خاب من استخار وليدر مع الحق كيف دار ويتبع الصواب أنى توجه ويقتفي أثره حيث سار وإذا ظهر له الحق قضى به ولو على ابنه وأبيه وأعز أصدقائه وأخص

ذويه غير مفرقٍ في فصل القضاء بين القوي والضعيف والوضيع والشريف ولا مميزٍ في تنفيذ الحكم بين الغني والفقير والسوقة والأمير وليسو بين الخصوم حتى في تقسيم النظر إليهم كما في موقف الحكم وسماع الدعوى ورد الأجوبة فيما لهم وعليهم وليستخلف من النواب من حسنت لديه سيرته وحمدت عنده طريقته ويوص كلاً منهم بما نوصيه به ويبالغ في تأكيد وصيته ويستحضر السر في قوله صلى الله عليه وسلم: " ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ".

وليمعن النظر في أمر الشهود الذيبن تترتب على شهادتهم أمور الدنيا والفروج والأموال ويتفقد أمرهم في كل وقت ولا يغفل عنهم في حال من الأحوال ويحملهم من الطرائق على أحسن وجهها وأحقهم بإمعان النظر شهود القيمة والعمائر الذين يقطع بقولهم في أملاك الأيتام والأوقاف مما تنفر عنه القلوب وتنبو عنه الضمائر.

والوكلاء والمتصرفون فهم قوم فضل عنهم الشر فباعوه واستحفظوا الود فلم يراعوا حقه وأضاعوه فهم آفة أبواب القضاة بلا نزاع كيف وهم الضباع الضارية والذئاب الجياع.

وما تحت نظره من أوقاف المدارس والأسرى والصدقات وغيرها مما يقصد به واقفوه وجه البر وسبيل القربات يحسن النظر في وجوه مصارفها مع حفظ أحوالها الذي هو أغيا مراد واقفها.

وأهل العلم أبناء جنسه الذين فيهم نشأ ومنهم نجم وجنده الذين يقصدونه بالفتاوى فيما قضى وحكم فليوفر لهم الإحسان ويصنع معهم من المعروف ما يبقى ذكره على ممر الأزمان ومثله لا يحتاج إلى كثرة الوصايا وثوقاً بما عنده من العلم بالأحكام والمعرفة بالقضايا لكن عليه بتقوى الله ومراقبته يكن له مما يتبوءه ظهيراً ويسترشده في سائر أموره يجعل له من لدنه هادياً ونصيراً والله تعالى يبلغ واثق أمله من كرمنا مراماً ويوطيء له المهاد ببلدٍ حسنت مستقراً ومقاماً إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة المالكية بالشام من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي تغمده الله برحمته وهي: الحمد لله جاعل المذاهب الشرعية في أيامنا الشريفة زاهيةً بأركانها الأربعة مستقرةً على النظام الذي غدت به قواعد الحجة محكمةً ومواقع الرحمة متسعة فإذا خلا ركنٌ من مباشرةٍ أقمنا من تكون القلوب على أولويته مجتمعة وانتقينا له من الأتقياء من تغدو به الأمة حيث كانت منتفعة واستدعينا إليه من تغدو الأدعية الصالحة لنا بتفويض الحكم إليه مرتفعة الذي خص مذهب إمام دار الهجرة بكل إمام هجر في التبحر فيه دواعي السكون وبواعث الدعة وجمل منصب حكمه بمن كمل بعلوم الدين فخره فإذا حكم غدت الأقضية لحكمه منفذةً وإذا قضى أضحت الأحكام لأقضيته متبعة.

نحمده على نعمه التي جعلت مهم الشرع الشريف لدينا كالاستفهام الذي له صدر الكلام وبمثابة النية المقدمة حتى على تكبيرة الإحرام ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أثبت الإخلاص حكمها وأحكم الإيمان علمها وأبقى اليقين على صفحات الوجوه والوجود وسمها المشرق واسمها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أخذ ميثاق النبيين في الإقرار بفضله وخصه بالكتاب الذي أخرس الأمم عن مجاراته فلو " اجتمعت الإنس وأرسله " بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله " صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بسننه وسنته وأوضحوا والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله " شرعه الشريف لمن تلقاه بعدهم من أئمة أمته صلاة لا تزال بقاع الإيمان لأحكامها منبتة وأنواء الإيقان لأوامها مقلتة وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإنه لما كانت الأحكام الشرعية تتوقف على ملاحظة قضاء قضاتها في غالب الأمور وتستند إلى مراجعة أصول حكامها في أكثر مصالح الجمهور لم يكن بدٌّ من مراعاة أصولها التي إنما تنوب الفروع عنها وتدبر أحوال أحكام حكامها التي تنشأ أقضية النواب منها ولذلك لما أصبح منصب قضاء القضاة على مذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه بالشام المحروس لضعف مباشره الممتد في حكم الخالي وتعطل بعجزه المشتد مما ألف به قديماً حال حكمه الحالي وتمادى ذلك إلى أن ترقى الناس منه إلى درجة اليقين وتناهى الحكم فيه إلى أن يعين أن يرتاد من يتعين لمثله من الأئمة المتقين لئلا يخلو هذا المذهب من قاضي قضاة يقيم مناره ويديم أنواره ويرفع شعاره ويحيي مآثر إمامه وآثاره ويؤمن كمال أفقه أن يعاود سراره وكان المجلس السامي القاضوي الفخري هو الذي لا يعدوه الارتياد ولا يقف دونه الانتقاء والانقياد ولا تتجاوزه الإصابة في الاجتهاد: لما عليه من علمٍ جعله مخطوباً للمناصب وعملٍ تركه مطلوباً للمراتب التي لاتذعن لكل طالب وتقى أعاده مرتقياً لكل أفقٍ يصلح له كل شارق وورع فتح له أبواب التلقي بالاستدعاء وإن لم تفتح لكل طارق وهو هجر الكرا في تحصيل مذهب إمام دار الهجرة إلى أن وصل إلى ما وصل وأنفق مدة عمره في اقتناء فوائده إلى أن حصل من الثروة بها على ما اقتضت آراؤنا الشريفة أن - حصل فسارت فتاويه في الآفاق ونمت بركات فوائده التي أنفقها على الطلبة فزكت على الإنفاق

نبقي فخر هذا المنصب الجليل بفخره وأن نخص هذا المذهب النبيل بذخره وأن نحلي جيده بمن نقلنا إلى وشام الوسام ما كان من حسن شنب العلم مختصاً بثغره.

فرسم بالأمر الشريف - لا زال لأحكام الشرع مقيماً وللنظر الشريف في عموم مصالح الإسلام وخصوصها مديماً أن يفوض إليه.

لما تقدم من تعينه لذلك وتبين من أنه لحكم الأولوية بهذه الرتبة من مذهب الإمام مالك مالك.

فليل هذه الوظيفة حاكماً بما أراه الله من مذهبه مراعياً في مباشرتها حق الله في الحكم بين عباده وحق منصبه مجتهداً فيما تبرأ به الذمة من الوقوف مع حكم الله في حالتي رضاه وغضبه واقفاً في صفة القضاء على ما نص فيه من شروطه وأوضح من قواعده وشرح من أدبه ممضياً حقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقضيه رأي إمامه متوجاً الحكم بنصوصه المجمع عليها من أئمة مذهبه في نقض كل أمرٍ وإبرامه جارياً في ذلك على قواعد أحكام هذا المذهب الذي كان مشرقاً في ذلك الأفق بجماله وزينه واقفاً في ذلك جميعه مع رضا الله تعالى فإنه في كل ما يأتي ويذر بعينه والله تعالى يسدده في قوله وعمله ويبلغه من رضاه نهاية سوله وغاية أمله بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الحنابلة كتب بها للقاضي علاء الدين منجى التنوخي وهي: الحمد لله الذي رفع بعلاء الدين قضاء قضاته وأوضح الهدى في القيام في توليتهم بمفترضاته وأعلى منار الشرع بما أوقفهم عليه من أحكامه ووفقهم له من مرضاته.

نحمده حمداً نستعيد من بركاته ونستعيذ به أن نضل في ضوء مشكاته ونستعين عليه برب كل حكم يمدنا قلبه بسكونه وقلمه بحركاته ويثبت من جميل محضره لدينا ما يرفع مس شكاته ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً يستودع إخلاصها في قلوب تقاته وتفوض أحكامها إلى ثقاته ويحمى سرحها من أبطال الجلاد والجدال بكل مشتاقٍ إلى ملاقاته ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل من حكم بما أنزل الله من آياته وجاهد في الله برأيه ورياته وشرع

من الدين ما ينجي المتمسك به من غواياته صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أقام شرعه منهم بكماته وجعل حكمهم دائم النفوذ أبداً بأقلام علمائه وسيوف حماته وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فمنصب الحكم الذي به تفصل الأمور وتنفرج له الصدور وتتسدد أقلام حكامه سهاماً وتفيض غماماً وتتعلم منه الأسود زئيراً ويطول السيف صليلاً والرمح صريراً وتنتصب بين يدي حكامه الأقدام وتنتصف على أحكامه الخصام وتنكس الرؤوس لهيبته إطراقاً وتغض المقل فما تدير جفوناً ولا تقلب أحداقاً ويجري بتصريفه قلم القضاء ويجاري مرهفه البروق فتقر له بالمضاء وقد شيد الله مبانيه في ممالكنا الشريفة مصراً وشاماً على أربعة أركان وجمع في قضائه الأئمة الأربعة لتكمل بهم فصول الزمان ومذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبلٍ رضي الله عنه هو بالسنة النبوية الطرا المذهب وطريقة السلف الصلاح في كل مذهب وقد تجنب من سلف من علمائه التأويل في كثير ووقف مع الكتاب والسنة وكل منهما هو المصباح المنير.

وكانت دمشق المحروسة هي مدار قطبهم ومطلع شموسهم ونجومهم وشهبهم وأهلها كثيراً ما يحتاجون إلى حاكم هذا المذهب في غالب عقد كل بيع وإيجار ومزارعةٍ في غلالٍ ومساقاةٍ في ثمار ومصالحةٍ في جوائح سماويةٍ لا ضرر فيها ولا ضرار وتزويج كل مملوكٍ أذن له سيده بحرةٍ كريمة واشتراطٍ في عقدٍ بأن تكون الامرأة في بلدها مقيمة وفسخ إن غاب زوجها ولم يترك لها نفقةً ولا أطلق سراحها وبيع أوقافٍ دائرةٍ لا يجد أرباب الوقف نفعاً بها ولا يستطيعون إصلاحها.

فلما استأثر الله بمن كان قد تكمل هذا المنصب الشريف بشرفه وتجمل منه ببقية سلفه حصل الفكر الشريف فيمن نقلده هذه الأمانة في عنقه ونهنيء هذا المنصب بطلوع هلاله في أفقه إلى أن ترجح في آرائنا العالية المرجح المرجى وتعين واحداً لما ابتلي الناس بالقضاء كان المنجى ابن المنجى طالما تطرزت له الفتاوى بالأقلام والتفت به حلقة إمام وخاف في طلب العلم من مضايقة الليالي فما نام - اقتضى حسن الرأي الشريف أن يفوض إليه قضاء القضاة بالشام المحروسة على مذهب الإمام الرباني أحمد بن حنبل الشيباني رضي الله عنه.

فليحكم في ذلك بما أراه الله من علمه وآتاه من حكمه وبينه له من سبيل الهدى وعينه لبصيرته من سنن نبيه صلى الله عليه وسلم التي من حاد عنها فقد جار واعتدى ولينظر في أمور مذهبه ويعمل بكل ما صح نقله عن إمامه وأصحابه من كان منهم في زمانه ومن تخلف عن أيامه وقد كان - رحمه الله - إمام حقٍّ نهض وقد قعد الناس تلك المدة وقام نوبة المحنة وقام سيد تيمٍ رضي الله عنه نوبة الردة ولم تهب به زعازع المريسي وقد هبت مريساً ولا ابن أبي داود وقد جمع كل ذودٍ وساق له من كل قطرٍ عيساً ولا نكث عهد ما قدم إليه المأمون في وصية أخيه من المواثق ولا روعه صوت المعتصم وقد صب عليه عذابه ولا سيف الواثق فليقف على أثره وليقف بمسنده على مذهبه كله أو أكثره وليقض بمفرداته وما اختاره أصحابه الأخيار وليقلدهم إذا لم تختلف عليه الأخبار وليحترز لدينه في بيع ما دثر من الأوقاف وصرف ثمنه في مثله والاستبدال بما فيه المصلحة لأهله والفسخ على من غاب مدةً يسوغ في مثلها الفسخ وترك زوجةً لم يترك لها نفقة وخلاها وهي مع بقائها في زوجيته كالمعلقة وإطلاق سراحها لتتزوج بعد ثبوت الفسخ بشروطه التي يبقى حكمها به حكم المطلقة وفيما يمنع مضاره الجار وما تفرع على قوله صلى الله عليه وسلم: " لا ضرر ولا ضرار " وأمر وقف الإنسان على نفسه وإن رآه سوى أهل مذهبه وطلعت به أهلة علماء لولاهم لما جلا الزمان جنح غيهبه.

وكذلك الجوائح التي يخفف بها عن الضعفاء وإن كان لا يرى بها الإلزام ولا تجري إلا مجرى المصالحة دليل الالتزام.

وكذلك المعاملة التي لولا الرخصة عندهم فيها لما أكل أكثر الناس إلا الحرام المحض ولا أخذ قسم الغلال والمعامل هو الذي يزرع البذر ويحرث الأرض وغير ذلك مما هو محيط بمفرداته التي هي للرفق جامعة وللرعيا في أكثر معايشهم وأسبابهم نافعة وإذا استقرت الأصول كانت الفروع لها تابعة والخط الشريف أعلاه إن شاء الله تعالى.

المرتبة الثانية من تواقيع الوظائف الدينية بدمشق

ما يكتب في قطع الثلث مفتتحاً بالحمد لله إن علت ربتة المتولي أو بأما بعد حمد الله إن انحطت رتبته عن ذلك بالمجلس السامي وفيها وظائف

الوظيفة الأولى - قضاء العسكر.

وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة كما بالديار المصرية.

الوظيفة الثانية - إفتاء دار العدل بدمشق.

وبها أربعة: من كل مذهبٍ واحدٌ كما بالديار المصرية.

الوظيفة الثالثة - الحسبة.

وهذه نسخة توقيع بالحسبة الشريفة: الحمد لله مجدد النعم في دولتنا الشريفة لمن ضفت عليه ملابسها ومضاعف المنن في أيامنا الزاهرة لمن سمت به نفائسها ومولي الآلاء لمن بسق غرسا لديه فزهت بجماله ثمراتها وزكت مغارسها.

نحمده على نعمه التي تؤنس بالشكر أوانسها وتؤسس على التقوى مجالسها ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً استضاء بنور الإيمان قابسها واجتنى ثمر الهدى غارسها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من أشرقت به معالم التوحيد فعمر دارسها وأشرق دامسها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قلوبهم مشاهد الذكر وألسنتهم مدارسها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من أمضي له ما كان به أمر ورسم وجدد له من المناصب الدينية ما عرف به من قبل ووسم وأثبت لترقيه ما حتم له به من المراتب السنية بمقتضى الاستحقاق وحكم - من رقمت أوامرنا له حلة منصبٍ يجددها الإحسان وأمرت له مراسمنا بوظيفة تؤكد عوارفنا الحسان وأثلت له نعمنا منصباً أعد له من كمال الأهلية أكمل ما يعده لذلك الإنسان.

ولما كان فلان هو الذي تحلى من إحساننا بما يأمن معه سعيد رتبته من العطل واتسم من برنا وامتناننا بما هو في حكم اقتضى إحساننا أن نجدد له مواقع النعم ونشيد من رجائه مواضع ما شمله من البر - المستقر له وإن ألوى به الدهر ومطل والكرم ونري من عدق بنا رجاء أمله أننا نتعاهد سقيا آمال الأولياء والخدم.

فلذلك رسم.

لا زال بره شاملاً وبدره في أفق الإحسان كاملاً - أن يفوض إليه نظر الحسبة ويستمر في ذلك على حكم التوقيع الشريف - الذي بيده لما سبق من اختياره لذلك واصطفائه وادخاره لهذا المنصب من كفاة أعيانه وأعيان أكفائه ولما تحلى به من رياسةٍ زانته عقودها وتكمل له من أصالةٍ ضفت عليه حبرها وسمت به برودها وتجمل به من نزاهةٍ أشرقت في أفق صعودها إلى الرتبة الجليلة سعودها واتصف به من كمال معرفةٍ نجزت له به من مطالب المناصب وعودها.

فليباشر ذلك معطياً هذه الوظيفة من حسن النظر حقها محققاً بجميل تصرفه تقدم أولويته وسبقها وليكن لأمر الأقوات ملاحظاً وعلى منع ذوي الغدر من الاحتكار المضيق على الضعفاء محافظاً وعلى الغش في الأقات مؤدباً ولإجراء الموازين على حكم القسط مرتباً ولمن يرفع الأسعار لغير سببٍ رادعاً ولمن لا يزعه الكلام من المطففين بالتأديب وازعاً ولقيم الأشياء محرراً ولقانون الجودة في المزروع والموزون مقرراً ولذوي الهيئات بلزوم شرائط المروءة آخذاً وعلى ترك الجمع والجماعات لعامة الناس مؤاخذاً ولتقوى الله تعالى في كل أمرٍ مقدماًن وبما يخلصه من الله تعالى لكل ما تقع به المعاملات بين الناس مقوماً وفي خصائص نفسه ما يغنيه عن تأكيد الوصايا وتكرار الحث على تقوى الله تعالى التي هي أشرف المزايا فليجعلها شعار نفسه ونجي أنسه ومسدد أحواله التي تظهر بها مزية يومه على أمسه والخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه حجةٌ بمقتضاه.

وهذهنسخة توقيع بنظر الحسبة الشريفة من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله مضافاً إلى نظر أوقاف الملوك وهي: الحمد لله مثيب من احتسب ومجيب المنيب فيما اكتسب.

نحمده حمداً رب الأدب صرب الطرب ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً ظاهرة الحسب طاهرة النسب ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل من انتدى وانتدب وأدب أمته فأحسن الأدب صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً يكتتم أجرها فليكتتب ويستتم بها كل صلاح ويغتنم بها كل فلاح وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن الحسبة الشريفة هي قانون جواد الأوضاع ومضمون مواد الإجماع تجمع إلى الشريعة الشريفة سياسةً يرهب جدها ويرهف حدها وتخشى الرعايا سطوات مباشها وتتنحى عما تصبه سيول بوادرها وأصحابها الآلة التي هي أخت السيف في التأثير ولكل منهما سطوةٌ تخاف لا فرق بينهما إلا ما بين التأنيث والتذكير وله التصرف المطلق والتعرف الذي يفتح من الحوانيت على أربابها كل بابٍ مغلق ولركوبه في المدينة زينةٌ يحشر لها الناس ضحى ورهبةٌ يغدو بها كل أمينٍ لشأنه مصلحا وإليه الرجوع في كل تقويم وهو المرجو في كل أمرٍ عظيم وهي بدمشق - حرسها الله تعالى - من أجل المناصب التي تتعلق عو إليها بيد متوليها وتؤمل منازل البدور وإن ربها ترجع إلى تصريفه أزمة الأمور وينتجع سحابه الهطل غمامة الجمهور وتحيا به سنةٌ عمريةٌ لولاها لضاقت رحاب المعاملات وضاعت بالغش المعايش المتداخلات وظهر الغبن في غالب ما يشرى ويباع وانتشر التطفيف الذي يزيل راجحة الميزان ونو الزراع ولكم ناب بحسن تدبيره عن الغمام ونظر في الدقيق والجليل للخاص والعام طالما انحط به سعرٌ غلا أن يقوم ووجد من الأقوات صنفٌ لا يوجد ولو بذل من الشمس دينارٌ والبدر درهم.

وكان المجلس السامي القضائي الأجلي الكبيري الصدري الرئيسي العالمي الكافلي الفاضلي الأوحدي الأثيري الماجدي الأصيلي العمادي مجد الإسلام شرف الرؤساء بهاء الأنام جمال الصدور فخر الأعيان خالصة الدولة صفوة الملوك والسلاطين: أدام الله علوه هو الذي ربته السيادة على وسادها ولبته السعادة إلى مرادها وبنت العلياء قواعدها على عماده وثنت المراتب أعناقها متشوفةً إلى حسن اعتماده وباشر الجامع المعمور خصوصاً والأوقاف الشامية عموماً فعمرها وكثر أعدادها وأنمى من بركات نظرة متحصلاتها وثمرها وشيد في كل منها مواطن عبادة وملقتى حلقةٍ ومدار سبحةٍ ومفرش سجادة وأبى الله أن يقاس به أحدٌ والجامع الفروق ولذين أحسنوا الحسنى وزيادة فأوجب له جميل نظرنا أن نضاعف له الأجر في كل عمل إليه ينتسب ونزيده في رزقه سعةً: من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب فرأينا أنه أحق أن يقلد من أمور الحسبة الشريفة حكمها المصرف وحكمها المعرف ويقام فيها بهدي من تقدمه في تقرير أمورها على أثبت القواعد وتقدير مصالحها على

أجمل ما جرت به العوائد ويطهر أقواتها من الدنس فيما يحضر على الموائد وإخافة الأعناق من مضاربه التي تقطع ما غفا السيف عنه من مناط القلائد.

فرسم بالأمر الشريف العالي - لا زالت بمراسيمه تتلقى كل رتبة وتتوقى الدنايا بمن يقوم بالحسبة - أن يفوض إليه النظر على الحسبة الشريفة بدمشق وما معها من الممالك الشامية المضافة إليها بالمعلوم المستقر الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت: مضافاً إلى ما هو بيده: من نظر الأوقاف المبرورة بالشام وأوقاف الملوك خلا نظر الجامع المعمور إلى آخر وقت بحكم إفراده لمن عين له تفويضاً يضمه إلى ربائب كنفه ويعمه بمواهب شرفه ويحله في أعلى غرفه ويحليه بما يحسد الدر ما رمى من صدفه.

فاتق الله في أحوالك وانتق من يجمع عليه من النواب في أعمالك وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فمنك المنكر لا يعرف والمعروف منك لا ينكر واعتبر أحوال أرباب المعايش اعتباراً يصلح للناس أقواتهم ويرغد أوقاتهم ولا تدع صاحب سلعةٍ يتعدى إلى غير ما أحله الله له من المكاسب ولا صاحب معيشةٍ يقدم على تخلل خللٍ في المآكل والمشارب واقصد التسوية بالحق فإنه سواء فيه البائع والمشتري ولا فرق بين الرخيص والثمين وأقم الموازين بالقسط حتى لا تتمكن كفاتها أن تتحامل ولا تتحمل ولا يستطيع قلبها أن يميل مع من يتمول ولا يقدر لسانها أن يكتم الشهادة بالحق وإن كان مثقال حبةٍ من خردل واجعل لك على أهل المبايعات حفظة لتظل أعمالهم لك تنسخ وتفقد الأسواق مما يتولد فيها من المفاسد فإن الشيطان ربما باض في الأسواق وفرخ.

وأرباب الصنائع فيهم من يدلس وفقهاء المكاتب منهم من لعرضه يدنس والقصاص غالبهم يتعمد الكذب في قصصه وأهل النجامة كم منهم من لعب مرةً بعقل امرأةٍ وأمات رجلاً بغصصه وآخرون ممن تضل بهم العقول وتظل حائرةً فيهم النقول وكثيرٌ ممن سوى هؤلاء يدك مبسوطةٌ عليهم وأحكامك محيطة بهم من خلفهم وبين يديهم فقوم منهم من مال وقلد مالكاً رضي الله عنه فيما رآه من المعاقبة تارةً بإنهاك الجسد وتارةً بإفساد المال فربما أطغى الغنى والمصباح فربما قطب.

وثم من لا يستقيم حتى يؤدب ومن لا يلم على شعثٍ وأي الرجال المهذب وفيك من الألمعية نورٌ باهر وكوكبٌ زاهر فلا حاجة إلى أن تلقي الوصايا أقلامها أيها يكفلك ولا تنبهك على زينة العفاف فيها وهل حللك والله تعالى يوفق اعتمادك ويوفر من التقوى زادك والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الرابعة - وكالة بيت المال المعمور.

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المال من إنشاء القاضي تاج الدين البانباري للقاضي نجم الدين أبي الطيب.

الحمد لله الذي جعل الطيبات للطيبين وهدى بالنجم المنير السبيل المبين وعدق بأئمة الدين مصالح المسلمين وآتانا بتفويضنا إليه وتوكلنا عليه شرفاً في الشأن وقوةً في اليقين.

نحمده على أن أعان بخيره وهو خير معين ونشكره على أن بصرنا في الإرادات بالملائكة المقربين ونصرنا في الولايات بالقوي الأمين ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أنوارها في القلب مشرقةٌ على الصفحات والجبين وأذكارها على اللسان جعلت الإنسان من صالح المؤمنين ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله هادي المهتدين وموضح شرعة الإحسان للمحسنين وابو الطيب وأبو القاسم كني بأولاده المطهرين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من كان من السابقين الأولين ومنهم من كان مهيباً للكفر يهين ومنهم من تزوج بابنتي الرسول ولم يتفق ذلك لغيره من سالف السنين ومنهم من كان الخير ملء يديه: فشمول البركة بشماله وذو الفقار في اليمين وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فأكرم التفويض ما صادف محلاً وأبرك الولايات ما وجد قدراً معلى وأحسن الإحسان ما أصبح به الحال محلى وأسنى الأنجم ما أشرق في مطلعه وتجلى وأحق الولاة بإعلاء منصبه من أقبلت عليه وجوه الإقبال حين تولى وأولى الولايات بإجمال النظر وإمعانه في تشييد شانه وتمكين مكانته ومكانه وحفظ حوزته من سائر أركانه - وكالة بيت المال المعمور التي بها تصان الأرض المقيسة ومنها تستبصر الآراء الرئيسة وبها يؤمن الاستيلاء على المحال والأبنية من كل جائر وبها تزاد قيم المبيعات مما هو لبيت المال ما بين عامرٍ وداثر وإلى متوليها تأتي الرغبات ممن يبتاع أرضاً وبه تمضى المصالح وتقضى وبه يظهر التمييز في الثمن الأرضى وهي في الشام فخيمة المقدار كريمة الآثار مرضيةٌ بالربح في كل أرض بينة المصالح

في كل بناء دائرةٌ بالنجح في كل دار فلا يشيم برقها ويتوج فرقها ويوفيها حقها إلا من له علمٌ وتبصرة وعرفانٌ أوضح الطريق وأظهره وحسن رأي فيما آثره وأثره وصدارةٌ ورد بها منهل الكرام البررة.

وكان فلانٌ هو ذو السؤدد العريق والباسق في الدوح الوريق والمنتسب إلى أعز فريق والطيب أصلاً وفرعاً على التحقيق والإمام في علومه التي أصلت التفريع ووصلت التفريق والموفق فيما يأتي ويذر والله ولي التوفيق قد أشرق بدمشق نجمه نوراً وابتسم البرق الشامي به سروراً وتصدر بمحافلها فشرح صدوراً وابتنى له سؤدداً وجعل مكارم الأخلاق عليه سوراً تلقى بمحضره المسائل فتلقى منه ولياً مرشدا وتذكر لديه المباحث فتجد على ذهنه المتوقد هدى وإذا اضطرب قولٌ مشكلٌ سكن بإبانته وهدا إن تأول أصاب في تأويله وإن نظر في مصلحةٍ كان رأيه في السداد موافقاً لقيله وقد استخرنا الله تعالى - وهو نعم الوكيل - في توكيله.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه.

فليأت هذا المنصب المنصب وبل بركته من بابه وليخيم في فسيح رحابه ولينعم بجناته في جنابه وليحرر ما يباع من أملاك بيت المال بشروطه ولوازمه المسطورة في كتابه وليردع من استولى على أرضٍ باغتصابه فليس لعرقٍ ظالمٍ حقٌّ: وهو إما بناءٌ بإنشائه وإما غراسٌ بإنشابه وما يرتجع إلى بيت المال المعمور من أرضٍ وعقار وروضاتٍ ذات غراسٍ وأنهار وقرى وما يضاف إلى ذلك من آثار فليحرر مجموعه وليسلك في ذلك الطريقة المشروعة وليشفق إشفاق المتقين الماهدين لمآلهم ولينصح لنا وللمسلمين فهو وكيل بيت مالهم.

ومن مات ولا وارث له من عصبةٍ أو كلالة فإن لبيت المال أرضه وداره وماله.

وقد وكلنا إليك هذا التقليد وقلدناك هذه الوكالة ووالدك - رحمه الله - كانت مفوضةً إليه قديماً فلذلك أحيينا بك تلك الأصالة.

أعزك الله - أن الوصايا إن طالت فقد طاب سبحها وإن أوجزت فقد كفى لمعها ولمحها وعلى الأمرين فقد أنارها هنا -واعلم بالتوفيق صبحها وحسن بالتصديق شرحها وأطرب من حمام أقلامها صدحها والتقوى فهي أولها وآخرها وختمها وفتحها والله تعالى يسقي بك كل قضبةٍ ذوى صيحها والخير يكون إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة توقيع شريف بوكالة بيت المال بالشأم أيضاً: الحمد لله كافي من توكل عليه ومحسن مآل من فوض أمره إليه ومجمل مآب من قدم رجاءنا عند الهجرة إلى أبوابنا بين يديه ومقر عين من أسهر في استمطار عوارفنا بكمال الأدوات نحمده على نعمه التي جعلت سعي من أم كرمنا مشكوراً وسعد من قصد حرمنا مشهوراً وإقبال من أقبل إلى أبوابنا العالية محققاً يتقلب في نعمنا محبوراً وينقلب إلى أهله مسروراً ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نعتضد فيها بالإخلاص ونعتصم ونتمسك في الدنيا والآخرة بعروتها التي لا تنفصم ونوكل في إقامة دعوتها سيوفنا التي لا تزال هي وأعناق جاحديها تختصم ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أضاءت شريعته فلم تخف على ذي نظر وأنارت ملته فأبصرها القلب قبل البصر وعمت دعوته فاستوى في وجوب إجابتها البشر واختصت أمته بعلماء يبصرون من في طرفه عمى ويظهرون حق من في باعه قصر صلى الله عليه وعلى آله الذين عملوا بما علموا وعدلوا فيما حكموا وحفظوا بالحق بيوت أموال الأمة فاشترك أهل الملة فيما غنموا صلاةً توكل الإخلاص بإقامتها وتكفل الإيمان بإدامتها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد: فإن أهم ما صرفت إليه الهمم وأعم ما نوجب في اختيار الأكفاء له براءة الذمم وأخص ما اتخذنا الاستخارة فيه دليلاً وأحق ما أقمنا عنا فيه من أعيان الأمة وكيلاً لا يدع حقاً للأمة ما وجد إليه سبيلاً - أمر بيت مال المسلمين الذي هو مادة جهادهم وجادة جلادهم وسبب استطاعتهم وطريق إخلاصهم في طاعتهم وسداد ثغورهم وصلاح جمهورهم وجماع ما فيه إتقان أحوالهم واستقرار أمورهم ومن آكد مصالحه وأهمها وأخص قواعده وأعمها وأكمل أسباب وفوره وأتمها الوكالة التي تصون حقوقه أن تضاع وتمنع خواصه أن تشاع وتحسن عن الأمة في حفظ أموالها المناب وتتولى لكلٍّ من المسلمين فيما فرض الله لهم الدعوى والجواب ولذلك لم نزل نتخير لها من ذخائر العلماء من زان الورع سجاياه وكمل العلم مزاياه وانعقد الإجماع على كماله وقصرت الأطماع عن التحلي بجمال علمه: وهل يبارى من كان علمه من جماله.

ولما كان المجلس السامي الشيخي الفلاني هو الذي ظهرت فضائله وعلومه ودل على بلوغ الغاية منطوق نعته ومفهومه وحلى علمه بالورع الذي هو كمال الدين على الحقيقة وسلك طريقة أبيه في التفرد بالفضائل فكان بحكم الإرث من غير خلافٍ

صاحب تلك الطريقة مع نسب لنسيب ما مر حلاله وتقيً ما ورثه من أبيه عن كلالة وثباتٍ في ثبوت الحق لا تستفزه الأغراض وأناة في قبول الحكم لا تحيل جواهره الأعراض ووقوفٍ مع الحق لا يبعده إلى ما لا يجب وبسطةٍ في العلم بها يقبل ما يقبل ويجتنب ما يجتنب وتحقيقٍ تجري الدعاوى الشرعية على محجته وإنصافٍ لا يضر خصمه معه كونه ألحن منه بحجته مع وفادة إلى أبوابنا العالية تقاضت له كرمنا الجم وفضلنا الذي خص وعم - اقتضت آراؤنا الشريفة أن يرجع إلى وطنه مشمولاً بالنعم مخصوصاً من هذه الرتبة بالغاية التي يكبو دونها جواد الهمم منصوصاً على رفعة قدره التي جاءت هذه الوظيفة على قدر مداوماً لشكر أبوابنا على اختياره لها بعد إمعان الاختبار وإنعام النظر.

فرسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه وكالة بيت المال المعمور بالشام المحروس.

فليرق هذه الرتبة التي هي من أجل ما يرتقى ويتلق هذه الوكالة التي مدار أمرها على التقى وهو خير ما ينتقى ويباشر هذه الوظيفة التي مناط حكمها في الورى الذي لا تستخف صاحبه الأهواء ولا تستفزه الرقى ولينهض بأعبائها مستقلاً بمصالحها متصدياً لمجالس حكمها العزيز لتحرير حقوق بيت المال وتحقيقها متلقياً ما يرد من أمر الدعاوى الشرعية التي يبت مثلها في وجهه بطريقها منقباً عن دوافع ما يثبت له وعليه محسناً عن بيت المال الوكالة فيما جره الإرث الشرعي إليه مستظهراً في المعاقدة بما جرت به العادة من جوه الاحتراز مجانباً جانب الحيف في الأخذ والعطاء بأبواب الرخص وأسباب الجواز منكباً في تشدده عن طريق الظلم الذي من تحلى به كان عاطلاً سالكاً في أموره جادة العدل فإنه سيان من ترك حقه وأخذ باطلاً مجتهداً في تحقيق ما وضح من الحقوق الشرعية وكمن متتبعاً ما غالت الأيام في إخفائه فإن الحق لا يضيع بقدم العهد ولا يبطل بطول الزمن.

وفي أوصافه الحسنة وسجاياه التي غدت بها أقلام أيامنا لسنة وعلومه التي أسرت إليها أفكاره والعيون وسنة ما يغني عن وصايا يطلق عنان اليراعة في تحديدها أو قضايا ينطق لسان البراعة في توكيدها ملاكها تقوى الله وهي سجية نفسه ونجية أنسه وحلية خلاله المعروفة في يومه وأمسه فيليقدمها في كل أمر ويقف عند رضا الله فيها لا رضا زيد ولا عمرو والله الموفق بمنه وكرمه.

الوظيفة الخامسة - الخطابة.

وهذه نسخة توقيع بالخطابة بالجامع الأموي كتب بها لزين الدين الفارقي من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي: الحمد لله رافع الذين أوتوا العلم درجات وجاعل أرجاء المنابر بفضائل أئمة الأمة أرجات وشارح الصدوربذكره بعد أن كانت من قبل المواعظ حرجات الذي زان الدين من العلماء بمن سلمت له فيه الإمامة وصان العلم من الأئمة المتقين بمن أصحب له جامح الفضل يصرف كيف شاء زمامه ووطد ذروة المنبر الكريم لمن يحفظ في هداية الأمة حقه ويرعى في البداية بنفسه ذمامه ووطأ صدر المحراب المنير لمن إذا أم الأمة أرته خشية الله أن وجه الله الكريم أمامه.

نحمده على ما منحنا من صون صهوات المنابر إلا عن فرسانها وحفظ درجات العلم إلا عمن ينظر بإنسان السنة وينطق بلسانها ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تزال أفواه المحابر تثبت طروسها وأنواء المنابر تنبت غروسها وألسنة الإخلاص تلقي على المسامع من صحف الضمائر دروسها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي شرفت المنابر أولاً برقيه إليها وآخراً بذكر اسمه الكريم عليها فهي الرتبة التي يزيد تبصرةً على ممر الدهور بقاؤها والدرجة التي يطول إلا على ورثة علمه ارتقاؤها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ذكرهم بأيام الله فذكروها وبصرهم بآلاء الله فشكروها وعرفهم بمواقع وحدانيته فجادلوا بسنته وأسنته الذين أنكروها صلاةً لا تبرح لها الأرض مسجداً ولا يزال ذكرها مغيراً في الآفاق ومنجداً وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإنه لما كانت الخطابة من أشهر شعائر الإسلام وأظهر شعار ملة سيدنا محمدٍ عليه أفضل الصلاة والسلام شرعها الله تعالى لإذكار خلقه بنعمه وتحذير عباده من نقمه وإعلام بريته بما أعد لمن أطاعه في دار كرامته من أنواع كرمه وجعلها من وظائف الأمة العامة ومن قواعد وراثة النبوة التامة يقف المتلبس بها موقف الإبلاغ عن الله لعباده ويقوم الناهض بفرضها مقام المؤدي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أمته عن مراد الله ورسوله دون مراده ويقيمها في فروض الكفايات على سنن سبله ويستنزل بها مواد الرحمة إذا ضن الغيث على الأرض بوبله وكان المسجد الجامع بدمشق المحروسة هو الذي سارت بذكره الأمثال وقيل هذا من أفراد الدهر التي وضعت على غير مثال قد تعين أن نرتاد له بحكم خلوه من الأئمة من هو مثله فرد الآفاق وواحد العصر عند الإطلاق وإمام علماء زمانه غير مدافع عن ذلك وعلامة أئمة أوانه الذي يضيء بنور

فتاويه ليل الشك الحالك وناصر السنة الذي تذب علومه عنها وحاوي ذخائر الفضائل التي تنمي على كثرة إنفاقه على الطلبة منها وشيخ الدنيا الذي يعقد على فضله بالخناصر ورحلة الأقطار الذي غدت نسبته إلى أنواع العلوم زاكية الأحساب طاهرة الأواصر وزاهد الوقت الذي زان العلم بالعمل وناسك الدهر الذي صان الورع بامتداد الفضائل وقصر الأمل والعابد الذي أصبح حجة العارف وقدوة السالك والصادع بالحق الذي لا يبالي من أغضب إذا رضي الله ورسوله بذلك.

ولما كان فلانٌ هو الذي خطبته لهذه الخطابة علومه التي لا تسامى ولا تسام وعينته لهذه الإمامة فضائله التي حسنت بها وجوه العلم الوسام حتى كأنها في فم الزمن ابتسام وألقى إليه مقاليدها كماله الذي صد عنها الخطاب وسد دونها أبواب الخطاب وقيل: هذا الإمام الشافعي أولى بهذا المنبر وأحرى بهذا المحراب - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نحلي أعطاف هذا المنبر بفضله الذي يعيد عوده رطيباً ويضمخ طيباً منه ما ضم خطيباً وأن نصدر بهذا المحراب فلذلك رسم.

لا زال يولي الرتب الحسان ويجري بما أمر الله به من العدل والإحسان - أن تفوض إليه الخطابة والإمامة بجامع دمشق - المحروس على عادة من تقدمه.

فليرق هذه الرتبة التي أمطاه الله ذروتها وأعطاه الفضل صهوتها وعينه تفرده بالفضائل لإذكار الأمة عليها ورجحه لها انعقاد الإجماع على فضله حتى كادت للشوق أن تسعى إليه لو لم يسع إليها حتى تختال منه بإمامٍ لا تعدو مواعظه حبات القلوب لأنها تخرج من مثلها ولا تدع خطبه أثراً للذنوب لأنها توكل ماء العيون بغسلها ولا تبقي نصائحه للدنيا عند المغتر بها قدراً لأنها تبصره بخداعها ولا تترك بلاغته للمقصر عن التوبة عذراً: فإنها تحذره من سرعة زوال الحياة وانقطاعها ولا تجعل فوائده لذوي النجدة والبأس التفاتاً إلى أهل ولا ولدٍ لأنها تبشره بما أعد الله لمن خرج في سبيله ولا تمكن زواجره من نشر الظلم أن يمد إليه يداً لأنها تخبره بما في الإقدام على ذلك من إغضاب الله ورسوله.

مع قصر الخطبة - للظالم مجال زجره وليطب قلب العالم العامل بوصف ما أعد الله له من أجره وليجعل خطبه كل -فليطل وقتٍ مقصورةً على حكمه مقصودةً في وضوح المقاصد بين من ينهض بسرعة إدراكه أو يقعد به بطء فهمه فخير الكلام ما دل ببلاغته وإن قل وإذا كان قصر خطبة الرجل وطول صلاته مئنةً من فقهه فما قصر من حافظ على حكم السنة فيهما ولا أخل.

الحمد لله الذي جعل درجات العلماء آخذةً في مزيد الرقي وخص برفيع الدرجات من الأئمة الأعلام كل تقي وألقى مقاليد الإمامة لمن يصون نفسه النفيسة بالورع ويقي وأعاد إلى معارج الجلال من لم يزل يختار حميد الخلال وينتقي وأسدل جلباب السؤدد على من أعد للصلاة والصلات من قلبه وثوبه كل طاهر نقي.

نحمده على أن أعلى علم الشرع الشريف وأقامه وجعل كلمة التقوى باقيةً في أهل العلم إلى يوم القيامة ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عدل قيد الفضل بالشكر وأدامه وأيد النعمة بمزيد الحمد فلا غرو أن جمع بين الإمامة والزعامة ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أعلى الله به عقيرة مرتل الأذان ومدرج الإقامة وأغلى ببركته قيمة من تمسك بسبيل الهدى ولازم طريق الاستقامة صلى الله عليه وعلى آله الذين عقدوا عهود هذا الدين وحفظوا نظامه وعلى أصحابه الذين ما منهم إلا من اقتدى بطريقه فاهتدى إلى طرق الكرامة صلاةً لا تزال بركاتها تؤيد عقد اليقين وتديم ذمامه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن من شيم دولتنا الشريفة أن ترفع كل عالي المقدار مكاناً علياً وتجعل له من اسمه وصفته قولاً مسمعاً وفعلاً مرضياً وتوطد له رتب المعالي وتزيد قدره فيها رقياً وتكسوهم من جلباب السؤدد مطرفاً مباركاً وطياً وتطلق لسان إمامه بالمواعظ التي إذا تعقلها أولو الألباب ولما كان المجلس العالي هو الذي أعز أحكام الشريعة الشريفة وشادها وأبدى من ألفاظه المباركة المواعظ الربانية وأعادها وأذاع فيها أسرار اليقين وزادها وأصلح فسادها وقوم منادها وكيف لا وقد جمع من العلوم أشتاتاً وأحيا من معالم التقى رفاتاً وأوضح من صفات العلماء العاملين بهديه وسمته هدياً وسماتاً فلذلك خرج الأمر الشريف الصالحي العمادي.

قلت: وهذه نسخة توقيع بخطابته أيضاً أنشأته للشيخ شهاب الدين بن حاجي.

الحمد لله الذي أطلع شهاب الفضائل في سماء معاليها وزين صهوات المنابر بمن قرت عيونها من ولايته المباركة بتواليها وجمل أعوادها بأجل حبرٍ لو تستطيع فرق قدرتها لسعت إليه وفارقت - خرقاً للعادة - مبانيها وشرف درجها بأكمل عالمٍ ما وضع بأسافلها قدماً إلا وحسدتها على السبق إلى ما مس قدمه أعاليها.

نحمده على أن خص مطاقع الخباء من فضل اللسن بالباع المديد وقصر الجامع الأموي على أبلغ خطيبٍ يشيب في تطلب مثله الوليد وأفرد فريد الدهر باعتبار الاستحقاق برقي درج منبره السعيد ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تخفق على مواكب الصفوف أعلامها وتتوفر من تذكير آلاء الله تعالى أقسامها ولا تقصر عن تبليغ المواعظ حبات القلوب أفهامها ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل نبي نبه القلوب الغافلة من سناتها وأيقظ الخواطر النائمة من سباتها وأحيا رميم الأفئدة بقوارع المواعظ بعد مماتها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين علا مقامهم ففاتت أعاقبهم الرؤوس ورفعت في المجامع رتبهم فكانت منزلتهم منزلة الرئيس من المرؤوس صلاةً لا تزال الأرض لها مسجداً ولا يبرح مفترق المنابر باختلاق الآفاق لاجتماعها مورداً.

وبعد فإن أولى ما صرفت العناية إليه ووقع الاقتصار من أهم المهمات عليه - أمر المساجد التي أقيم بها للدين الحنيف رسمه وبيوت العبادات التي أمر الله تعالى أن ترفع ويذكر فيها اسمه لاسيما الجوامع التي هي بمنزلة الملوك من الرعية وأماثل الأعيان من بين سائر البرية ومن أعظمها خطراً وأبينها في المحاسن أثراً وأسيرها في الآفاق النائية خبراً بعد المساجد الثلاثة التي تشد الرحال إليها ويعول في قصد الزيارة عليها - جامع دمشق الذي رست في الفخر قواعده وقامت على ممر الأيام شواهده وقاوم الجم الغفير من الجوامع واحده ولم تزل الملوك تصرف العناية إلى إقامة شعائر وظائفه وتقتصر من أهل كل فنٍّ على رئيس ذلك الفن وعارفه فما شغرت به وظيفةٌ إلا اختاروا لها الأعلى والأرفع ولا وقع التردد فيها بين اثنين إلا تقيلوا منهما الأعلم والأروع خصوصاً وظيفة الخطابة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم للقيام بها متصدياً ولما كان المجلس العالي القاضوي الشيخي الكبيري العالمي الفاضلي الأوحدي الأكملي الرئيسي المفوهي البليغي الفريدي المفيدي النجيدي القدوي الحجي المحققي الورعي الخاشعي الناسكين الإمامي العلامي الأثيلي العريقي الأصيلي الحاكمي الخطيبي الشهابي جمال الإسلام والمسلمين شرف العلماء العاملين أوحد الفضلاء المفيدين قدوة البلغاء المجتهدين حجة الأمة عمدة المحدثين فخر المدرسين مفتي المسلمين معز السنة قامع البدعة مؤيد الملة شمس الشريعة حجة المتكلمين لسان المناظرين بركة الدولة خطيب الخطباء مذكر القلوب منبه الخواطر قدوة الملوك والسلاطين ولي أمير المؤمنين أبو العباس أحمد أدام الله تعالى نعمته: هو الذي خطبته هذه الخطابة لنفسها وعلمت أنه الكفء الكامل فنسيت به في يومها ما كان من مصاقع الخطباء في أمسها إذ هو الإمام الذي لا تسامى علومه ولا تسام والعلامة الذي لا تدرك مداركه ولا ترام والحبر الذي تعقد على فضله الخناصر والعالم الذي يعترف بالقصور عن مجاراة جياده المناظر والحافظ الذي قاوم علماء زمانه بلا منازع وعلامة أئمة أوانه من غير مدافع وناصر السنة الذي يذب بعلومه عنها وجامع أشتات الفنون التي يقتبس أماثل العلماء منها وزاهد الوقت الذي زان العلم بالعمل وناسك الدهر الذي قصر عن مبلغ مداه الأمل ورحلة الأقطار الذي تشد إليه الرحال وعالم الآفاق الذي لم يسمح الدهر له بمثال - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نرفعه من المنابر على علي درجها ونقطع ببراهينه من دلائل الإلباس الملبسة داحض حججها ونقدمه على غيره ممن رام إبرام الباطل فنقض وحاول رفع نفسه بغير أداة الرفع فخفض.

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري المعزي - لا زال يرفع لأهل العلم راساً ويحقق لذوي أن يفوض إلى المجلس العالي المشار إليه خطابة الجامع المذكور بانفراده على أتم -الجهل من بلوغ المراتب السنية ياساً القواعد وأكملها وأحسن العوائد وأجملها.

فليرق منبره الذي عاقب فيه رامحه الطالع أعزل غيره الغارب وليتبوأ ذروة سنامه الأرفع من غير شريك له ولا حاجب وليقصد بمواعظه حبات القلوب ويرشق شهاب قراطيسها المانعة فإنها الغرض المطلوب وليأت من زواجر وعظه بما يذهب مذهب الأمثال السائرة ويرسلها من صميم قلبه العامر فإن الوعظ لا يظهر أثره إلا من القلوب العامرة ويقابل كل قوم من التذكير بما يناسب أحوالهم على أكمل سنن ويخص كلاً من أزمان السنة بما يوافق ذلك الزمن والوصايا كثيرةٌ وإنما تهذيب العلم يغني عنها وتأديب الشريعة يكفي مع القدر اليسير منها وتقوى الله تعالى ملاك الأمور وعنده منها القدر الكافي والحاصل الوافي والله تعالى يرقيه إلى أرفع الذرى الوظيفة السادسة - التداريس الكبار بدمشق المحروسة.

وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الريحانية كتب به لقاضي القضاة عماد الدين الطرسوسي الحنفي عوضاً عن جلال الدين الرازي.

كتب بسؤال بعض كتاب الإنشاء وهي: الحمد لله الذي جعل عماد الدين علياً وأحكم مباني من حكم فلم يدع عصياً وقضى في سابق قضائه لإمضاء قضائه أن لا يبقي عتياً.

نحمده على ما وهب به من أوقات الذكر بكرةً وعشياً ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تنبه بالعلم بوحدانيته من كان غبياً وتكبت لمقاتل سيوف العلماء من كان غوياً ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي كان عند ربه رضياً وعلى ذبه عما شرع من الدين مرضياً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً لا يزال فضل قديمها مثل حديثها مروياً وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فلما كانت رتب العلم هي التي يتنافس عليها ويتطاول إلى التنقل إليها ويختار منها ما كسي بمباشرة المتقدم ملابس الجلال وآن له أن ينتقل إليه البدر بعد الهلال وكانت المدرسة الريحانية بمحروسة دمشق هي ريحانة المجالس وروضة العلم الزاكية المغارس وبحر الفوائد الذي يخرج الفرائد ومسرح العلماء الذي قد آن أن يظفر به منهم من الألف زائد.

ولما توفي من آلت إليه وعالت مسألتها إلا عليه وكان ممن قد ولي الأحكام استقلالاً وكان لبصر الدنيا جلاءً وللدين جلالاً لم تكن إلا لمن ينسى به ذلك الذاهب وينسب إليه علم مذهبه كله وإن كان لا يقتصر به على بعض المذاهب ويعرف من هو وإن لم يصرح باسمه ويعرف من هو وإن لم يذكر بعلاء قدره العلي وعلمه ولا يمترى أنه خلف أبا حنيفة فيمن خلف وحصل على مثل ما حصل عليه القاضي أبو يوسف وذهب ذلك في السلف الأل مع من سلف وأعلم بجداله أن محمد بن الحسن ليس من أقران أبي الحسن وأن زفر لم يرزق طيب أنفاسه في براعة اللسن وأن الطحاوي ما طحا به قلبٌ إلى الحسان طروب والقاضي خان لديه منه الأنبوب وتلقب شمس الأئمة لما طلع علم أنه قد حان من شمس النهار غروب والرازي لما جاء تيقن أنه يروزه عن علم الجيوب والمرغيناني مس ولم يرغن له في مطلوب والثلجي ما برد لطالب غله والخبازي لم يوجد عنده لطعامٍ فضلة والهنداوني ما أجدى في جلاد الجدال ولا هز نصله ولم يزل يشار إليه والتقليد الشريف له بالحكم المطلق بما تضمنه من محاسن أوصافه شاهد ودست الحكم على على كيوان شائد ومدارس العلم تسر من حبه ما حنيت عليه من محاريبها الأضالع ومجالس القضاء تظهر بقربه ما لم يكن تدانى إليه المواضع.

وكان الجناب الكريم العالي القضائي الأجلي الإمامي الصدري العالمي العاملي العلامي الكاملي الفاضلي الأوحدي المفيدي الورعي الحاكمي العمادي ضياء الإسلام شرف الأنام صدر الشام أثير الإمام سيد العلماء والحكام رئيس الأصحاب معز السنة مؤيد الملة جلال الأئمة حكم الملوك والسلاطين خالصة أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن الطرسوسي الحنفي قاضي القضاة بالشام - نشر ملاءة مذهبه وحلى بجلوسه للحكم طرفي النهار إضاة مفضضه وتوشيع مذهبه طالما ساس الرعية بحكمه وساد نظراءه في معرفة العلوم الشرعية بعلمه وحكمه وسار مثل فضله في الأقطار وضوء الشمس مرد شعاعه فطال إلى السماء وقصر الأفق الممتد على طول باعه وفاض فيض الغمام وما اكتال البحر بكيله ولا صار مثل صاعه وعرضت عليه هذه المدرسة التي لم يكن لغيرهأن يحبى ريحانتها ولا أن تؤدى إلى يد سواه فيودع أمانتها فآثرها على أنه ترك المدرسة المقدمية المتقدم له درسها المعظم به في كل حينٍ غرسها ليوسع بها على الطالب مذهبه ويفرغ لها ساعةً من أوقاته المنتهبة ويهب لها من حقه الذي هو في يده ما لو شاء ما وهبه.

فرسم بالأمر الشريف - لا زال يقرب الآماد ويرضي القوم وأقضاهم علي وأثبتهم طوداً العماد - أن يفوض إليه تدريس المدرسة الريحانية المعينة أعلاه على عادة من تقدمه وقاعدته إلى آخر وقت بحكم تركه للمقدمية ليهب عليه روحها وتهب له السعادة ريحها ولها من البشرى بعلمه ما تميس به ريحانة ريحها سروراً وتميد وقد أكنت جبلاً من العلم وقوراً وتمتد وقد بوصية إلا وهو يعلمه ويلقنها من - نافحت في مسكة الليل عبيراً وفي أقحوانة الصباح كافوراً وما نوصي مثله - أجل الله قدره حفظه ويعلمها ومن فصل قضائه تؤخذ الآداب وتنفذ سهام الآراء والآراب.

وتقوى الله بها باطنه معمور وكل أحدٍ بها مأمور وما نذكره بها إلا على سبيل التبرك بذكرها والتمسك بأمرها.

والفقهاء والمتفقهة هم جنده وبهم يجد جده فليجعلهم له في المشكلات عدة وليصرف في الإحسان إليهم جهده والله تعالى يعينه على ما ولي ويعينه لكل علياء لا يصلح أن يحلها إلا علي.

وسبيل كل واقفٍ عليه العمل به بعد الخط الشريف أعلاه.

الوظيفة السابعة - التصادير بدمشق المحروسة.

وهذه نسخة توقيع أنشأته لقاضي القضاة بدر الدين محمد ابن قاضي القضاة بهاء الدين أبي البقاء وولده جلال الدين محمد بإعادة تصديرين كانا باسمهما بالجامع الأموي بدمشق: أحدهما انتقل إليهما عن سلفهما والثاني بنزول وخرج عنهما عند استيلاء تنم نائب الشام على الشام في سنة اثنتين وثمانمائة ثم أعيد إليهما في شوال من السنة المذكورة في قطع الثلث وهي: الحمد لله الذي جعل بدر الدين في أيامنا الزاهرة متواصل رتب الكمال متردداً في فلك المعالي بأكرم مساغ بين بهاءٍ وجلال منزهاً عن شوائب النقص في جميع حالاته: فإما مرتقب الظهور في نحمده على أن أقر الحقوق في أهلها وانتزع من الأيدي الغاصبة ما اقتطعته الأيام الجائرة بجهلها ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تحمي قائلها من شوائب التكدير وتصون منتحلها من عوارض الإصدار إذا ورد أصفى مناهل التصدير ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل نبيٍّ اقتفت أمته آثاره واتبعت سننه وأكرم رسولٍ دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الحق وأعلام الهدى وحماة الدين وكفاة الردى صلاةً يبقى على مدى الأيام حكمها ولا يندرس على ممر الليالي رسمها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من رعيت له الحقوق القديمة وحفظت له مساعيه الكريمة وخلدت عليه النعم التي حق لها أن تكون بأهلها مقيمة من كرم أصلاً وطاب فرعاً وزكا منبعاً وعذب نبعاً ووقع الإجماع على فضله المتواتر فأعدق الحكم بتفضيله قطعاً ومن إذا تكلم فاق بفضله نثر اللآلي وإذا قدر قدره انحطت عن بلوغ غايته المعالي وإذا طلع بدره المضيء من أفق مجلسه الموروث عن أبيه وأعمامه قال: ليت أشياخي شهدوا هذا المجلس العالي ومن إذا جلس بحلقته البهية غشيته من الهيبة جلالة وإذا أطافت به هالة الطلبة والمستفيدين قيل: ما أحسن هذا البدر في هذه الهالة! ومن تتيه طلبته على أكابر العلماء بالانتماء إليه وتشمخ نفوس تلامذته على غيره من المتصدرين بالجلوس بين يديه ومن إذا أقام بمصر طلع بالشام بدره ولو أقام بالشام وكان المجلس العالي القاضوي الكبيري العالمي العاملي الأفضلي الأكملي الأوحدي البليغي الفريدي المفيدي النجيدي القدوي الحجي المحققي الإمامي الأصيلي البدري جمال الإسلام والمسلمين شرف العلماء العاملين أوحد الفضلاء المفيدين قدوة البلغاء حجة الأدب عمدة المحدثين فخر المدرسين مفتي الفرق أوحد الأئمة زين الأمة خالصة الملوك والسلاطين ولي أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد ابن المجلس العالي القاضوي الكبيري المرحومي البهائي أبي البقاء الشافعي السبكي ضاعف الله تعالى نعمته: هو عين أعيان الزمان والمحدث بفضله على ممر الليالي وليس الخبر كالعيان ما ولي منصباً من المناصب الدينية إلا كان له أهلاً ولا أراد الانصراف من مجلس علم إلا قال له مهلاً ولا استبدل به في وظيفة إلا نسب مستبدله إلى الحيف ولا صرف عن ولايةٍ إلا قال استحقاقه: كيف ساغ ذلك لمتعاطيه فكيف وكيف.

وكان ولده المجلس السامي القضائي الكبيري العالمي الفاضلي الكاملي البارعي الأصيلي العريقي الجلالي ضياء الإسلام فخر الأنام زين الصدور جمال الأعيان نجل الأفاضل سليل العلماء صفوة الملوك والسلاطين خالصة أمير المؤمنين أبو محمد بلغ الله تعالى فيه عارفيه غاية الأمل وأقر به عين الزمان كما أقر به عين أبيه وقد فعل قد أرضع لبان العلم وربي في حجره ونشأ في بيته ودرج من وكره وكمل له سؤدد الرفين: أباً وأماً وحصل على شرف المحتدين: خالاً وعماً لم يقع عليه بصر متبصر إلا قال: نعم الولد ولا تأمله صحيح النظر إلا قال: هذا الشبل من ذاك الأسد ولا رمى والده إلى غايةٍ إلا أدركها ولا أحاط به منطقة طلبةٍ إلا هزها للبحث وحركها ولا اقتفى أثر أبيه وجده في مهيع فضلٍ إلا قال قائله: أكرم بها من ذريةٍ ما أبركها! واتفق أن خرج عنهما ما كان باسمهما من وظيفتي التصدير بالجامع الأموي المعمور بذكر الله تعالى بدمشق المحروسة: المنتقلة إحداهما إليهما عن سلفيهما الصالح قدماً والصائرة الأخرى بطريقٍ شرعي معتبرٍ وضعاً وثابتٍ حكماً - اقتضى حسن الرأي الشريف أن يحفظ لهما سالف الخدمة ويرعى لهما قديم الولاء فالعبرة في التقديم عند الملوك بالقدمة.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال لذوي البيوت حافظاً وعلى الإحسان لأهل العلم الشريف على ممر الزمان محافظاً - أن يعاد ذلك إليهما ويوالى مزيد الإحسان عليهما فيلتقيا ذلك بالقبول ويبسطا بالقول ألسنتهما فمن شمله إنعامنا الشريف حق له أن يقول ويطول وملاك أمرهما التقوى فهي خير زاد والوصايا وإن كثرت فعنهما تؤخذ ومنهما تستفاد والله تعالى يقر لهما بهذا الاستقرار عينا ويبهج خواطرهما بهذه الولاية إبهاج من وجد ضالته فقال: " هذه بضاعتنا ردت إلينا ".

والاعتماد في ذلك على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الثامنة - النظر.

وهذه نسخة توقيع بنظر البيمارستان النوري كتب بها لمن لقبه شهاب الدين وهي: رسم.

لا زال يطلع في سماء المناصب السنية من ذوي الأصالة والكفاية شهاباً ويوزع المستحقين بجهات البر شكره إذ اختار لهم - من أهل النهضة من ارتدى العفاف جلباباً ويودع صحائف الأيام ذكره الجميل حين أحيا قربات الملوك السالفين بانتخاب من يجدد لهم بحسن المباشرة ثواباً - أن يحمل مجلس الأمير فلان: أعزه الله تعالى فيما هو بيده من نظر البيمارستان النوري بدمشق المحروسة على حكم التوقيع الكريم والولاية الشرعية اللذين بيده واستقراره في ذلك بمقتضاهما استقراراً يبسط في هذا المنصب يده ولسانه ويظهر شهاب عدله الذي يحرق من الجور شيطانه ويبرز من مباشرته ما عرف جوهره بحسن الانتقاء وإبريزه بحسن الانتقاد ومن تأثيره ما تبلغ به الأنفس المراد بأوسع مراد ويبدي من تدبيره ما ينتج تمييز الوقف وتثميره.

فليباشر ذلك على عادة مباشرته الحسنة وليسلك فيها ما عهد من طريقته المستحسنة محصلاً من المفردات ما يصرفها لمستحقها وقت الحاجة إليها مثابراً على حسن معالجة المضرور الذي لا تقدر يده من العجز عليها مواصلاً فعل الخير باستمرار صدقات الواقف ليشاركه في الأجر والثواب مستجلباً له من الدعاء ولنا بمشاركته في الأمر بالعمل بسنته إلى يوم المآب ضابطاً أموال هذه الجهة بتحرير الأصول والمطلق والحساب والحساب متقدماً إلى الخدام والقومة بحسن الخدمة للعاجز والضعيف مؤكداً عليهم في أخذهم بالقول اللين دون الكلام العنيف ملزماً لهم بجودة الخدمة ليلاً ونهاراً مؤاخذاً لهم بما يخلون به من ذلك إهمالاً وإقصاراً متقدماً إلى أرباب وظائف المعالجة ببذل النصيحة واستدراك الأدواء المسقمة بإتقان الأدوية الصحيحة وليتفقد الأحوال بنفسه: ليعلم أهل المكان أن وراءهم من يقابلهم على التقصير وليبذل في ذلك جهده فإن الاجتهاد القليل يؤثر الخير الكثر.

والوصايا كثيرةٌ وعنده من التأدب بالعلم وحسن المباشرة ما فيه كفاية وفي أخلاقه من جميل المآثر وما حازه في البداية ما ينفعه في النهاية ولكن تقوى الله عز وجل هي السبب الأقوى والمنهل الذي من ورده يروى فليجعلها له ذخيرةً ليوم المعاد ومعقلاً عند الخطوب الشداد والله تعالى يبلغه من التوفيق الأمل والمراد بمنه وكرمه! والاعتماد.

إن شاء الله تعالى.

الصنف الثالث من تواقيع أرباب الوظائف بحاضرة دمشق

تواقيع أرباب الوظائف الديوانية وفيها مرتبتان الضرب الأول تواقيع الوزارة بالمملكة الشامية على ما استقر عليه الحال فقد - ذكر في التعريف أنه يكتب بالشام للصاحب عز الدين أبي يعلى حمزة بن القلانسي رحمه الله بالجناب العالي لجلالة قدره وسابقة خدمه وعناية من كتب له بذلك.

لكنه لم يبين مقدار قطع الورق لذلك.

ولا يخفى أنه كتب به في قطع الثلثين على القاعدة في أنه يكتب للجناب في قطع الثلثين.

وقد ذكر بعد ذلك أن الذي استقر عليه الحال أنه يكتب للوزير بالشام المجلس العالي بالدعاء كما كتب للصاحب أمين الدين أمين الملك.

وفيه وظائف: الوظيفة الأولى - ولاية تدبير الممالك الشامية.

وهذه نسخة توقيع للصاحب أمين الملك المذكور بتدبير الممالك الشامية والخواص الشريفة والأوقاف المبرورة من إنشاء الصلاح الصفدي وهي: الحمد لله الذي جعل ولي أيامنا الزاهرة أميناً وأحله من ضمائرنا الطاهرة مكاناً أينما توجه وجده مكينا وخصه بالإخلاص لدولتنا القاهرة فهو يقيناً يقينا وعضد بتدبيره ممالكنا الشريفة فكان على نيل الأمل الذي لا يمين يمينا وزين به آفاق المعالي فما دجا أمرٌ إلا كان فكره فيه صحيحاً مبينا وجمل به الرتب الفاخرة فكم قلد جيدها عقداً نفيساً ورصع تاجها درأ ثمينا وأعانه على ما يتولاه فهو الأسد الأسد الذي اتخذ الأقلام عرينا.

نحمده على نعمه التي خصتنا بولي تتجمل به الدول وتغنى الممالك بتدبيره عن الأنصار والخول وتحسد أيامنا الشريفة عليه أيام من مضى من الدول الأول ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نستمطر بها صوب الصواب ونرفل منها في ثوب الثواب ونعتد برها واصلاً ليوم الفصل والمآب ونشهد أن محمداً عبده الصادق الأمين ورسوله الذي لم يكن عن الغيب بضنين وحبيه الذي فضل الملائكة المقربين ونجيه الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حجةٌ على الملحدين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين صحبوا ووزروا وأيدوا حزبه ونصروا وعدلوا فيما نهوا وأمروا صلاةً تكون لهم هدىً إذا حشروا وتضوع لهم عرفهم في العرف وتطيب نشرهم إذا نشروا وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وبعد فإن أشرف الكواكب أبعدها داراً وأجلها سرىً وأقلها سراراً وأعلاها مناراً وأطيب الجنات جناباً ما طاب أرجاً وثماراً وفجر خلاله كل نهرٍ يروع حصاه حالية العذارى ورنحت معاطف غصونه سلاف النسيم فتراها سكارى ومدت ظلال الغصون فتخال أنها على وجنات الأنهار تدب عذاراً.

وكانت دمشق المحروسة لها هذه الصفات وعلى صفاها تهب نسمات هذه السمات لم يتصف غيرها بهذه الصفة ولا اتفق أولوا الألباب إلا على محاسنها المختلفة فهي البقعة التي يطرب لأوصاف جمالها الجماد والبلد الذي ذهب بعض المفسرين إلى أنها إرم ذات العماد وهي في الدنيا أنموذج الجنة التي وعد المتقون ومثال النعيم للذين عند ربهم يرزقون وهي زهرة ملكنا ودرة سلكنا وقد خلت هذه المدة ممن يراعي تدبيرها ويحمي حوزتها ويحاشيها من التدمير ويملأ خزائنها خيراً يجلى إذا ملأنا ساحتها خيلاً ورجلاً - تعين أن ننتدب لها من جربناه بعداً وقرباً وهززناه مثقفاً وسللناه عضباً وخبأناه في خزائن فكرنا فكان أشرف ما يدخر وأعز ما يخبى كم نهى في الأيام وأمر وكم شد أزراً لما وزر وكم غنيت به أيامنا عن الشمس ولياليا عن القمر وكم رفعنا راية مجدٍ تلقاها عرابة فضله بيمين الظفر وكم علا ذرا رتبٍ تعز على الكواكب الثابتة فضلاً عمن ينتقل في المباشرات من البشر وكم كانت الأموال جمادى وأعادها ربيعاً غرد به طائر الإقبال وصفر.

ولما كان الصاحب أمين الملك هو معنى هذه الإشارة وشمس هذه الهالة وبدر هذه الدارة نزل من العلياء في الصميم وفخرنا بأقلامه التي هي سمر الرماح كما فخرت بقوسها تميم وحفظت الأموال في دفاتره التي يوشيها فأوت إلى الكهف والرقيم وقال وعقم الزمان أن يجيء بمثله إن الزمان بمثله لعقيم وتشبه به أقوامٌ لسان قلمه: " اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم " فبانوا وبادوا وقام منهم عباد العابد فلما قام عبد الله كادوا - أردنا أن تنال الشام حللت بهذا حلةٌ ثم حلةٌ بهذا فطاب الواديان كلاهما فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه تدبير الممالك الشريفة ونظر الخواص الشريفة والأوقاف المبرورة على عادة من تقدمه في ذلك.

فليتلق هذه الولاية بالعزم الذي نعهده والحزم الذي شاهدناه ونشهده والتدبير الذي يعترف الصواب له ولا يجحده حتى يثمر الأموال في أوراق الحساب وتزيد نمواً وسمواً فتفوق الأمواج في البحار وتفوت القطر من السحاب مع رفق يكون في شدته ولينٍ يزيد مضاء حدته وعدلٍ يصون مهلة مدته والعدل يعمر والغدر يدمر ولا يثمر بحيث إن الحقوق تصل إلى أربابها والمعاليم تطلع بدور بدرها كاملةً كل هلالٍ على أصحابها والرسوم لا تزداد على الطاقة في بابها والرعايا يجنون ثمر العدل في أيامه متشابهاً وإذا أنعمنا على بعض أوليائنا بنحلٍ فلا يكدر وردها بأن تؤخر وإذا استدعينا لأبوابنا بمهم فليكن الإسراع إليه يخجل البرق المتألق في السحاب المسخر فما أردناك إلا لأنك سهمٌ خرج من كنانة وشهمٌ لا ينهي إلى الباطل عيانه وعنانه فاشكر هذه النعمة على منائحها وشنف الأسماع بمدائحها متحققاً أن في النقل بلوغ العز والأمل وأنه لو كان في شرف المأوى بلوغ منىً لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل فاستصحب الفرح والجذل بدل الفكر والجدل.

ويعبر عنها بصحابة ديوان الإنشاء الشريف بدمشق.

وشأنه هناك شأن كاتب السر بالأبواب السلطانية.

وهذه نسخة توقيع بصحابة ديوان الإنشاء بالشام كتب بها لفتح الدين ابن الشهيد من إنشاء القاضي ناصر الدين بن النشائي في مستهل ذي القعدة سنة أربع وستين وسبعمائةٍ وهي: الحمد لله مجزل المن والمنح ومرسل سحائب العطاء السمح ومعمل فكرنا الشريف في انتخاب من أورى زند الخير بالقدح ومنقل السر بين الأفاضل من صدرٍ إلى صدرٍ بحمىً يصون له السرح ويغني مشهور ألفاظه عن الشرح ومجمل بناء الدين بما سكن به من صميم الفضل المبين وما اقترن بأبوابه من حركة الفتح.

نحمده على نعم عاطرة النفح ونشكره على منن عالية السفح ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تنجي قائلها من حر الجحيم وتقية شر شرر ذلك اللفخ وتخطب بها ألسنة الأقلام على منابر الأنامل فتنشيء عندها من مطربات الورق على غصون الأوراق هديل الصدح ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة وعامل الأمة بالنصح وأزال عنهم الترح وأمنه الله على أسرار وحيه فكان أشرف أمينٍ خصه الله في محكم آياته بالمدح وجعله أعظم من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فلم تأخذه في الله لومة لائم ممن لحا وممن لم يلح صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أهل الوفاء والصفاء والصفاح والصفح والذين جاهدوا في الله حق جهاده بالنفس والمال والكد والكدح ورفعوا أعلامهم المظللة ونصبوا أقلامهم المعدلة فكم لهم في المشركين من جراح لا تعرف الجرح وذادوا عن حوزة الدين بإراقة دم الكفار المتمردين فحسن منهم الذب والذبح وكانوا فرسان الكلام وأسود الإقدام الذين طالما خسأت بهم كلاب الشرك فلم تطق النبح صلاةً دائمةً باقية الصرح ما اقترن النظر باللمح وما هطل السحاب بالسح وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من خطبت المناصب العلية محاسنه الجليلة الجلية ورغبت المراتب التي هي بالخير حرية في جميل حالته التي هي بعقود المفاخر حلية وسحبت سحائب الإقبال الوابلية ذيول فضائله الفاضلية واكتسب العلوم الفرعية والأصلية من مجاميع من شهدت المفاخر بأنه لم يزل الشهيد لها وابن الشهيد وحمدت المآثر -فنونه التي تعرب عن أنواع الفوائد الجملية والتفصيلية التي هو الشهير بها فما عليها في جميل الأدات من مزيد وتشيدت مباني معاليه التي اقترن باب خيرها منه بالفتح المبين وتمهدت معاني أماليه بالتخيل اللطيف واللفظ المتين وتعددت أوصاف شيمه فهي لمحاسن الدهر تزيد وتزين وغدا من الكاتبين الكرام والكرام الكاتبين الذين تضح باطلاعهم مراصد المقاصد وتبين.

طالما اتسق عقد نظمه المتين وبسق غصن قلمه المثمر بالدين وأضاف إلى أدب الكتاب حلية العلماء المتقنين وارتقب أفعال الجميل التي استوجب بها حسن الترقي إلى أعلى درجات المتقين وقلد أجياد الطروس جواهر ألفاظه التي تفوق الجوهر عن يقين فهي بنضار خطه مصوغةٌ أبهج صياغة في طريق الإنشاء سالكةٌ نهج البلاغة وكذا بحار الفضائل واردةٌ مناهلها المساغة كم أعرب كلمه الطيب عن سح سحاب الصواب الصيب وكم أغنى في المهمات بكتبه عن جيش الكتائب وقضبه وكم هزأت صحائفه بالصفائح وكم أغنت راشقات فكره الثابتة العلم عن سهو السهم الرائح وكم تشاجرت أقلامه البيض الفعال هي وسمر الرماح فكان نصرها اللائح وكم تعارض نشر وصفه وشذا الطيب فألفى الزمان ثناءه هو الفائح وكم اشتمل على أنواع من النفاسة فاستوجب منا مناً يقضي له بأجزل المنى والمنائح.

ولما كان المجلس العالي القاضوي الأجلي الكبيري العالمي الفاضلي الكاملي الأوحدي الأثيري الرئيسي البليغي المفيدي المجيدي الأصيلي العريقي العابدي الزاهدي المؤتمني الفتحي جمال الملوك والسلاطين ولي أمير المؤمنين محمد بن الشهيد أدام الله نعمته هو الذي أعرب القلم عن صفاته وأطرب المسامع ما أداه اليراع عن أدواته ورام البنان أن يستوعب بيان شركه فلم يدرك شأو غاياته وتسارعت بدائع البدائه من أفكاره فسابقت جريان يراعه في أبياته وراقت أماليه لناقلي ألفاظه ومعانيه فشكر السمع والفهم بها هبات هباته فآدابه مشهورة وعلومه مذكورة وتحليه بمذاهب الصوفية ارتاضت به نفسه الخيرة الخبيرة وإخلاصه في عبادة الله تعالى حسنت به منه السيرة والسريرة وصيانته للأسرار الشريفة استحق بها إسناد أمرها إليه وإيداع غوامضها لديه والتعويل في حفظها وفي لفظه للفظها عليه - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نجتبيه لما تحققنا منه من ذلك ونخصه بصحابة ديوان الإنشاء الشريف في أجل الممالك ونجعل قدمه ثابتة الرسوخ والصعود في مشيخة الشيوخ ليسلك فيها أحسن المسالك.

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي الأشرفي الناصري - لا زال لأبوابه الشريفة فتحٌ في الخير يقدمه النصر ولسحابه منحٌ ما يعرف مدد أمداده القصر - أن تفوض إليه صحابة ديوان الإنشاء الشريف ومشيخة الشيوخ بالشام المحروس على عادة من تقدمه وقاعدته ومعلومه الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت.

فليباشر ذلك بوافر عفافه ووافي إنصافه ومشهور أمانته ومشكور صيانته كاتماً للأسرار كاتباً للمبار ليكون من الأبرار عالقاً مصالح الأنام بإرشاد رأيه وصوابه ضابطاً أحوال ديوانه متحرياً في كثير الأمور وقليلها: فإن الكتاب يظهر من عنوانه محرراً لما يملي معتبراً لما يكتب مجملاً للمطالعات الكريمة بفكره المتسرع وتصوره الأرتب حافظاً أزمة ما يصدر من مثال وما يرد في المهمات الشريفة فهو أدرى وأدرب بما على ذلك يترتب محافظاً كعادته على دينه لازماً لصدق يقينه خافضاً لأهل الخير جناحه مانحاً لهم نجاحه معاملاً للفقراء بكرم نفس بالله غنية ملاحظاً لأحوالهم بالقول والفعل والعمل والنية محترماً لكبيرهم حانياً على صغيرهم مفكراً فيما يعود نفعه عليهم راكناً في الباطن والظاهر إليهم معنياً لهم بالاشتغال بالعبادة مسلكاً لهم الطريق إلى الله فإنها الطريق الجادة مستجلباً لدعواتهم الصالحة مستفيداً من متاجر بركاتهم الرابحة.

والوصايا كثيرةٌ ومن نور إفادته تقتبس ومن مشهور مادته تلتمس وملاكها التقوى وهي أول كل أمرٍ وآخره وبملازمتها تتم له مفاخره والله تعالى يحرسه في السر والنجوى ويظهر بإرشاده للمعاني والبيان كل نجوى بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة توقيع بكتابة السر بالشام كتب به للقاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله عندما رسم بنقله من القاهرة إلى دمشق في ذي الحجة سنة إحدى عشرة وسبعمائة من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهي: الحمد لله الذي خص دولتنا الشريفة برعاية الذمم وحفظ ما أسلف الأولياء من الطاعات والخدم وإدامة ما أسدته إلى خدم أيامنا الزاهرة من الآلاء والنعم وإفاضة حلل اعتنائها التي هي أحب إلى من شرف بولائها من حمر النعم وأبقى عوارفها على من لم يزل معروفاً في صون أسرارها بسعة الصدر وفي تدبير مصالحها بصحة الرأي وفي تنفيذ مراسمها بطاعة اللسان والقلم.

نحمده على نعمه التي ما استهلت على ولي فأقلع عنه غمامها ولا استقرت بيد صفي فانتزع من يده حيث تصرف زمامها ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا نزال نعتصم بحبلها المتين ويتلقى عرابة إخلاصنا راية فضلها باليمين ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أكرم مبعوثٍ إلى الأمم بالإحسان والكرم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كرمت أنسابهم وأضاءت لهم وجوههم وأحسابهم فرفلوا في حلل ما اكتسوه من سننه واكتسبوه من سننه فحسن منها اكتساؤهم واكتسابهم صلاةً لا تزال لها الأرض مسجداً ولا يبرح ذكرها مغيراً في الآفاق ومنجداً وسلم تسليماً كثيرا.

وبعد فإن أولى من خولته مكارمنا الإقامة حيث يهوى من وطنه وبوأته نعمنا الجمع بين ذمام برنا وبين ما فارقه من سكنه وملكته عواطفنا زمام التصرف حيثما أمكن من خدمتنا الشريفة وعرفته عوارفنا أن مكانته عندنا على حالها حيث أدى ما عدق به من وظيفة - من لم يزل قلمه لسان مراسمنا وعنان ما نجريه في الآفاق من سوابق مكارمنا وترجمان أوامرنا وخطيب آلائنا التي غدت بها أعطاف التقاليد من جملة منابرنا.

ولما كان المجلس العالي: هو الذي لم يبرح صدره خزانة أسرارنا وفكره كنانة إعلاننا في المصالح وإسرارنا وخاطره مرآة آرائنا ويراعه مشكاة ما يشرق: من أنوار تدبيرنا أو يبرق: من أنواء آلائنا ينطق قلمه في الأقاليم عن ألسنة أوامرنا المطاعة وينفذ كلمه عن مراسمنا في ديوان الإنشاء بما تقابله أقلام الجماعة بالسمع والطاعة وكانت سنه قد علت في خدمتنا إلى أن رأينا توفير خاطره على البركات عن كثير مما يتبع ركابنا الشريف من لوازم الحركات وأن نعفيه مما يلزم الإقامة بأبوابنا الشريفة من كثرة المثول بين يدينا وأن نقتصر به على أخف الوظيفتين إذ لا فرق في ربتة السر بين ما يصدر عنا أو ما يرد إلينا.

فرسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني أن يكون فلانٌ صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالشام المحروس بمعلومه الشاهد له به الديوان المعمور بالأبواب العالية عوضاً عن أخيه المجلس السامي القضائي المحيوي يحيى بن فضل الله ويستمر أخوه القاضي محيي الدين المذكور مع جملة الكتاب بديوان الإنشاء الشريف بالشام المحروس بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور.

فليباشر هذه الرتبة التي تأثلت به قواعدها وعن تقريره وتحريره أخذ كل من كان بأنواعها وأوضاعها علیماً فإنه لم يخرج عن أخيه شيءٌ وصل إليه ولا فوض له إلا ما هو بحكم عموم الأولوية والأولية في يديه وأما ما يتعلق بذلك من وصايا تبسط وقواعد تشرط فإنها منه استفادها من رقمها وعنه ارتوى بها ورواها من تلعمها ونحن نعلم من ذلك ما لا يحتاج إلى أن يزداد فيه يقيناً ولا أن نزيده بذكره معرفةٌ وتمكيناً والاعتماد.

قلت: ومن غريب ما وقع: أنه كتب للمقر الشهابي بن فضل الله بكتابة السر بالشام حين وليها بعد انفصاله من الديار المصرية توقيعٌ مفتتح بأما بعد حمد الله من إنشاء المولى تاج الدين بن البارنباري وكأنه إنما كتب بذلك عند تغير السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون عليه على ما هو مذكور في الكلام على كتاب السر في مقدمة الكتاب.

وهذه نسخة توقيع بكتابة السر بالشام المحروس: أما بعد حمد الله منقل الشهب في أحب مطالعها ومعلي الأقدار بتصريف الأقدار ورافعها ومبهج النفوس بمعادها إلى أوطانها ومواضعها وممضي مشيئته في خليقته بالخيرة فيما يشاء لطالعها والشهادة له بالوحدانية الآخذة من القلوب بمجامعها والصلاة على سيدنا محمدٍ الذي بصر الأمة بهديها ومنافعها وصان شرعته فإن ممالكنا الشريفة - الشريفة تلو الملل بنسخ شرائعها وعلى آله وصحبه الذين استودعوا أسرار الملة فحفظوا نفيس ودائعها هي سواءٌ لدينا في التعظيم وأولياء دولتنا الشريفة ينتقلون فيها في منازل التكريم وعندنا من فضل الله رعايةٌ للعهد القديم

وتأكيدٌ لأسباب التقديم فلا غضاضة لمن نقلناه من أبوابنا إليها ولا وهن يطرأ على علو المراتب ويعتريها حيث صدقاتنا دائمة وثغور إقبالنا باسمة ومراسمنا لمساعدة الأقدار في الأيام حاكمة والشهاب لو لم يسر في سمائه لما اهتدى الناظرون بضيائه والدرة لو مكثت في صدفها لما حظيت في العقود بشرفها.

وكان المجلس العالي القضائي الشهابي قد أقام في خدمتنا الشريفة بالأبواب العالية حافظاً للأسرار قائماً بما نحب ونختار ثم لما أخذ حظه من القرب من أيدينا الشريفة: رأينا أن عوده إلى أوطانه وأهله من تمام إيمانه وأن مرجعه إلى محله من نعيم الله عليه وفضله وما سار إلا والإقبال يزوده والاستقبال به وأهل بيته يسعده ويصعده.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن ينقل إلى كتابة الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة وأن يكون متحدثاً عن والده على ما كان عليه بالديار المصرية وليقرر له من المعلوم كذا وكذا.

فليسر إلى دار كرامته وليستقر في موطن إقامته قرير العين مملوء اليدين مسروراً برفع المحل في المملكتين وليكن لوالده - أعزه الله تعالى - عضداً وليصبح له في مهماتنا الشريفة ساعداً ويداً وليضح به اليوم براً ليجد رضا الله غداً فإن والده بركة الممالك وله قديم هجرة وسالف خدمة وحسن طوية فنحن نرعاه لذلك والمهمات الشريفة يتلقاها بنفسه وليصدر فصول المطالعة مدبجة على عادته في تدبيج طرسه وليستعن بالله فهو ولي الإعانة وليعتمد على الرفق في أمره فما كان الرفق في شيءٍ إلا زانه وما بعد عنا من كان بعيداً بالصورة قريباً بالمعنى والله تعالى يزيده منا مناً والخط الشريف أعلاه حجة فيه إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الثالثة - نظر الجيوش بالشام.

وشأن صاحبها كتابة المربعات التي تنشأ من الشام وتنزيل المناشير الشريفة التي تصدر إليه.

وهذه نسخة توقيع شريفٍ من ذلك كتب به لموسى بن عبد الوهاب من إنشاء السيد الشريف شهاب الدين وهي: الحمد لله الذي جعل إحساننا عائداً بصلاته وفضلنا يجمع شمل الإسعاد بعد شتاته وعواطفنا تنبه جفن الإقبال من إغفائه وسناته.

نحمده على أن نصر بنا جيش الإسلام في أرجاء ملكنا الشريف وجهاته وجعل البركة واليمن بأمرنا في حالتي محوه وإثباته ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً زادت في جزاء المخلص وحسناته وأضحت نوراً يسعى بين يديه إلى رحمة ربه وإلى جناته ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أظهر الله به واضح آياته وأصبح النشر عابقاً من نشر راياته ومحا الفترة بهديه وسر سرائر أوليائه وأكمد قلوب عداته صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما تأرج وبعد فإن من النعم ما إذا عادت أقرت العيون وحققت الآمال والظنون ورفعت الأقدار وإن لم يزل رفيعاً محلها وجمعت المسار الممتد على الأفئدة ظلها وعمرت ربوع الإحسان وغمرت بمنائحها الحسان كهذه النعمة التي تلقت الإقبال من حافل غمامه وجمعت شمل التقديم مشفوعاً بإكرامه وأعادت سماء التكريم هاديةً بقطبها مشرقة الأرجاء بنور ربها وسفرت بدورها بمن هو أولى باجتلائها وتهيأت رتبها لمن هو جديرٌ باعتلائها وحقيقٌ بأن تعود المواهب بعد فترتها وأن تقبل عليه وجوه المنائح بعد لفتتها لتصبح كواكب الإسعاد كأنها ما أفلت وعطايا التخويل كأنها ما انتقلت ويعود عليه اليوم كأمسه ويرجع أفق العوارف الجسام مشرقاً ببدر الاجتباء وشمسه.

ولما كان فلانٌ هو الذي حسنت في الخدم الشريفة آثاره وحمد إيراده في المهمات الشريفة وإصداره وشكره شامه ومصره وسما في كل جهةٍ حلها محله وقدره وتحققت منه رآسةٌ قضت له بإبداء النعم وإعادتها وأن تجزي له الدولة من الإكرام على أجمل عادتها وأن ترعى له حقوقٌ ألفها حديثاً وقديماً وتنشر عليه ظلال الفضل حتى لا يفقد منها على طول المدى تكريماً.

فلذلك رسم بالأمر الشريف. لازال. أن يستقر.

تجديداً لملابس سعده وتأكيداً لقواعد مجده وترديداً للفضل الذي حلا منهل ورده ورعايةً لخدمه التي أكبت عليها السيوف نصرها الله تعالى - بمصر والشام ولما له من حسن سمتٍ زاده وقاره وأصلٍ صالح طابت - والأقلام وشكرت تأثيرها جنودنا منه ثماره.

فليستقر في هذه الوظيفة المباركة: عالماً أن لسان القلم أمسك عن الوصايا لأنه خبر هذه الوظيفة فرعاً وأصلاً وألفت منه ناظراً علاً قدراً وكرم محتداً وفصلاً وهو بحمد الله أدرى بسلوك منهاجها القويم وأدرب باقتفاء سننها المستقيم والخير يكون والاعتماد في ذلك على الخط الشريف إن شاء الله تعالى أعلاه حجة بمقتضاه.

المرتبة الثانية من مراتب أرباب التواقيع الديوانية بدمشق - من يكتب له في قطع الثلث بالمجلس السامي بالياء مفتتحاً بالحمد لله إن علت رتبته وإلا بأما بعد وتشتمل على وظائف منها - نظر الخزانة العالية وشأنها هناك نظير الخزانة الكبرى بالديار المصرية في القديم ونظير خزانة الخاص الآن.

وهذه نسخة توقيع بنظر الخزانة العالية: أما بعد حمد الله على نعمه التي خصت المناصب السنية في أيامنا الزاهرة بكل كفءٍ كريم وجعلت على خزائن الأرض من أولياء دولتنا القاهرة كل حفيظٍ عليم وأفاضت ظل إنعامنا على من إذا أنعم النظر في حق ذوي البيوت القديمة كان أحق بالتقديم والصلاة على سيدنا محمدٍ أفضل من حباه بفضله العميم واجتباه لهداية خلقه إلى السنن القويم وجعل سلامة الصلاة المقبولة من النقص مقرونةً بالصلاة عليه والتسليم - فإن أولى من رجحه لخدمتنا الاختيار وقدمه في دولتنا الاختبار وأخلصه حسن نظرنا الشريف رتبة أبيه من قبل وأغدق له سحاب برنا صوب إحسانٍ فلم يصبه طلٌّ بل وبل - ومن حمد سيره وسيره وشكر في طاعتنا ورده وصدره وزان الأصالة بالنباهة والرآسة بالوجاهة والمعرفة بالنزاهة وجمع بين الظلف والاطلاع والتضلع من العفة والاضطلاع والصفات التي لو تخيرها لنفسه لم يزدها على ما فيه من كرم الطباع.

ولما كان نظر الخزانة العالية بدمشق المحروسة رتبةً لا يرقى إليها من الأكفاء إلا من ومن ولا يقدم لها من الأولياء إلا من تعين من رؤساء العصر وفضلاء الزمن وكان فلانٌ هو الذي عينه لها ارتياد الأكفاء واصطفي هو من أهل الصفاء وتقدم من وصف محاسنه ما لا يروع تمام بدره وظهوره بالنقص والاختفاء.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه نظر الخزانة المذكورة.

فليباشر ذلك مباشرة من يحقق في كفايته وفضيلته التأميل ويظهر حسن نظره الذي هو كالنهار لا يحتاج إلى دليل وليجر على جميل عادته في النهوض في خدمتنا بالسنة والفرض ويضاعف اجتهاده الذي بمثله جعل من اختير على خزائن الأرض وهو يعلم أن هذه الرتبة مآل الأموال وذخائر الإسلام التي هي مادة الجيوش وموارد الإفضال فليعمل في مصالحها فكره ودأبه وإذا كان حسن نظرنا الشريف قد جعله المؤتمن عليها: " فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتقي الله ربه ".

وفي سيرته التي عرفت وصفاته التي إن وصفت فما أنصفت ما يغني عن تفاصيل الوصايا وجملها وإعادة مزايا التأكيد: قولها وعملها لكن ملاكها الصيانة التي هو بها موصوف والتقوى التي هو بها معروف والاعتماد على الخط الشريف أعلاه.

ومنها - صحابة ديوان النظر وصحابة ديوان الجيش ونحو ذلك من الوظائف الديوانية بدمشق.

قلت: هذا إن كتب من الأبواب الشريفة السلطانية وإلا فالغالب كتابة ذلك عن نائب السلطنة بدمشق

الصنف الرابع من الوظائف بدمشق وظائف المتصوفة ومشايخ الخوانق

وفيها مرتبتان المرتبة الأولى ما يكتب في قطع الثلث بالمجلس السامي بالياء مفتتحاً بالحمد لله وبذلك يكتب لشيخ الشيوخ بالشام وهو شيخ الخانقاه الصلاحية المسماة بالشميصاتية وهذه نسخة توقيع بذلك وهي: الحمد لله الذي اختار لعمارة بيوته أولياء يحبونه ويحبهم وأصفياء حفهم برحمته فاجتهدوا في طاعته فازداد قربهم وأتقياء زهدوا في الدنيا وأبدلوا الفاني بالباقي وطاب في مورد الصفاء شربهم.

نحمده حمد من جعل حب الله دثاره وملابس التقوى شعاره ونشكره والشكر لمزيد النعم أمارة وللقلوب الداثرة عمارة ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلصٍ في التوحيد يتبوأ بها جنان الخلد ويخلص من سماع قول جهنم: هل من مزيد ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أسرى به إلى حضرة أنسه وحظيرة قدسه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين

منهم من سبق الأمة بشيءٍ وقر في صدره ومنه من دلت واقعة سارية على علو شأنه ورفعة قدره صلاةً لا تزال الأرض لها مسجداً ولا يبرح ذكرها مغيراً في الآفاق ومنجداً وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أحق من عومل بالتقديم وأجدر من يخص بالتكريم من كان قدره في الأولياء عظيماً وذكره في الآفاق بين أهل المعرفة قديماً وتجريده عن الدنيا مشهوراً وسعيه على قدم الطاعة مشكوراً وشهوده لمقام الكمال مستجلياً واستجلاؤه لمواد الأنس مستملياً فهو في هذه الطائفة الجليلة سري المقدار معروف الصفة في حلية الأولياء ومناقب الأبرار والمتقدم من ولما كان المجلس السامي الشيخي الكبيري العالمي العاملي الأوحدي الزاهدي الورعي الأصيلي الفلاني جلال الإسلام والمسلمين وشرف الصلحاء في العالمين شيخ الشيوخ قدوة السالكين معتقد الملوك والسلاطين أعاد الله تعالى من بركاته: هو المقصود من هذه العبارة والملحوظ بهذه الإشارة - اقتضى حسن الرأي الشريف أن يخص في الدنيا بالتعظيم ويميز في هذه الأمة بالتكريم.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال له من جنود الليل جيشٌ لا تطيش سهامه ومن فرسان المحاريب مددٌ لا تزل في ملاقاة الرجال أقدامه - أن يستقر في كذا.

فليقابل هذه النعمة بالسرور وليتأثل هذه الفضيلة بحمد الله الشكور وليواظب على وظيفة الدعاء بدوام أيامنا الزاهرة وليستمطر جزيل الفضل من سحائب جودنا الماطرة وليبسط يده في عمل المصالح وليستمر على السعي الحسن والعمل الصالح فإن هذه البقعة مأوى القادم والقاطن وتسمو على أمثالها من المواطن وليكن لأسرارهم موقراً ولأقواتهم المعينة على الطاعة ميسراً والله تعالى يجعل خلواته معمورة وأفعاله مبرورة الاعتماد في ذلك على الخط الشريف.

قلت: هذا إن وليها شيخٌ من مشايخ الصوفية على عادة الخوانق.

وقد يليها كاتب السر بالشام فيكتب تقليده بكتابة السر في قطع النصف بالمجلس العالي على عادة كتاب السر ويشار في تقليده إلى بعض الألفاظ الجامعة بين المقامين ويضاف إلى ألقاب كتابة السر بعض ألقاب الصوفية المناسبة لهذا المقام.

على أنه ربما كتب بولايتها عن نائب السلطنة بالشام لكاتب السر أو غيره.

المرتبة الثانية من يكتب له في قطع العادة مفتتحاً برسم

وهذه نسخة توقيع من ذلك وهي: رسم بالأمر الشريف - لا زالت أوامره تحل القربات محلها ومراسمه تسند الرتب الدينية لمن إذا خصوا بمواقعها كانوا أحق بها وأهلها - أن يرتب فلانٌ في كذا: إذ هو أولى من خص بمواطن العبادة ونص بترفيه الأسرار على التحلي بإفاضة الإفادة ووفر كده على اجتلاء وجوه المعارف من أفق المراقبة وجمع خاطره لاجتناء ثمرة الأنس من أفنان الطاعات النابتة في رياض المحاسبة مع تمسكه بعلوم الشريعة الذي خلص معرفته من الشوائب وأحيا الدجى من اقتبال شبيبة ظلامه إلى أن تشيب منه الذوائب ونفع متعدٍّ إلى كل طالب فضلٍ وملتمس ودين باهر من مصباح مشكاة العلم والعمل لكل باغي نورٍ ومقتبس.

فليستقر شيخاً بالمكان الفلاني: لتعمر أرجاؤه بتهجده وتشرق خلواته بتعبده وتعذب موارده بأوراده وتطلع مجلسه نجوم معرفته البازغة من أفق إيراده ولتغدو هذه البقعة روضة أفكار وقبلة أذكار ومراقي دعوات ومرافيء بركات تستنزل بين صلوات مقبولةٍ وخلوات وليتناول المعلوم المستقر له ترفيهاً لسره وتنزيهاً لفكره وإعانةً على الانقطاع بهذه البقعة التي تتصل به أسباب السعادة في أرجائها وتخصيصاً لها منه بإمام تقىً لو كان لبقعةٍ أن تجتني بركته لكان منتهى رجائها وليرفع من الأدعية الصالحة لأيامنا المباركة ما لا تزال مواطن القبول لنفحاته المترقبة متلقية وما لا تبرح النفوس لخشيته المانعة متوقية والاعتماد على الخط الشريف أعلاه حجةٌ بمقتضاه.

قلت: هذا إن كتب عن الأبواب السلطانية وإلا فالغالب كتابة ذلك عن نائب السلطنة بالشام.

النوع الثاني من وظائف دمشق ما هو خارج عن حاضرتها

وقد تقدم في المقالة الثانية: أن لدمشق أربع صفقات وهي: الغربية والشرقية والقبلية والشمالية.

فأما الصفقة الغربية: وهي المعبر عنها بالساحلية والجبلية على ما تقدم فيها ففيها من وظائف أرباب السيوف عدة وظائف وتولي فيها الأبواب السلطانية.

منها - نيابة القدس.

وقد تقدم أنها كانت في الزمن المتقدم ولاية صغيرةً يليها جندي ثم استقرت نيابة طلبلخاناه في سنة سبع وسبعين وسبعمائة وأن العادة جرت أن يضاف إليها نظر الحرمين: حرم الخليل عليه السلام وحرم القدس والذي يكتب له مرسومٌ في قطع الثلث بالسامي بالياء.

ومنها - نيابة قلعة الصبيبة.

وقد تقدم أنها من أجل القلاع وأمنعها وأنه كان يليها نائبٌ مفرد من أجناد الحلقة أو مقدميها عن نائب دمشق ثم أضيفت إلى والي بانياس ثم استقرت في سنة أربع عشرة وثمانمائة في الدولة الناصرية فرج نيابةً.

ومنها - نيابة قلعة عجلون.

وقد تقدم أنها على صغرها حصنٌ حصينٌ مبنيةٌ على جبل عوف بناها أسامة بن منقذ أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في سلطنة العادل أبي بكر وأنه كان مكانها راهبٌ اسمه عجلون فسميت به.

ثم استقرت في الدولة الناصرية فرج في سنة أربع عشرة وثمانمائة إمرة طبلخاناه.

وقد تقدم أول هذا القسم ما يكتب للمقدمين وما يكتب للطبلخاناه وما يكتب للعشرات.

أما أرباب الوظائف الدينية.

فمنها - مشيخة الخانقاه الصلاحية بالقدس.

وتوقيعها يكتب في قطع الثلث مفتتحاً بالحمد لله.

ومنها - مشيخة حرم الخليل وتوقيعها في العادة يكتب مفتتحاً برسم.

وأما الصفقة القبلية فالتي يولى بها من الأبواب السلطانية نيابة صرخد.

وقد تقدم في الكلام على ترتيب المملكة الشامية أنه قد يجعل فيها من يقرب من رتب السلطنة وحينئذ: فإن وليها مقدم ألفٍ كان مرسومه في قطع النصف بالمجلس العالي وإن وليها أمير طبلخاناه كان مرسومه في قطع النصف أيضاً بالسامي بالياء.

وأما الصفقة الشرقية فالنيابات بها على طبقتين: الطبقة الأولى ما يكتب به مرسومٌ شريفٌ في قطع النصف وهو ما يليه مقدم ألفٍ أو طبلخاناه وفيها نيابات النيابة الأولى - نيابة حمص.

وقد تقدم أنها كانت نيابةً جليلةً كان يليها في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون مقدم ألفٍ وأنه ذكر في التثقيف أنها صارت الآن طبلخاناه.

وحينئذ: فإن كان بها مقدم ألفٍ كان مرسومه في قطع النصف بالمجلس العالي وإن كان طبلخاناه كان مرسومه في قطع الثلث بالمجلس السامي بالياء.

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بنيابة السلطنة بحمص: الحمد لله مقدر كل أجلٍ إلى حين ومقرر أمور الممالك في عباده الصالحين الذي جعل بنا نحمده على اختيارٍ لا يصل إليه قدح القادحين ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نكون بها في غمرات الحروب على السوابح سابحين ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أكرم المانحين وأعظم الفاتحين وأشرف من ولى الأعمال الكفاة الوفاة المكافحين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً لا تزال فيها الحفظة على أعمالنا مماسين ومصابحين وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن مراسيمنا الشريفة وإن تأخر وقتها إلى أجلٍ معدود وأمدٍ ممدود ومضت أيامٌ ولياليٍ ولها بابٌ مسدود وعملٌ سببه غير مشدود - فإنا كالسيف يتلاهى إذا صمم لا يرجع وكالغمام تتمادى مدد مده ثم يجود فلا يقلع ولم نزل منذ فوض الله أمور بلاده إلينا وصرف أمور جمهور عباده بيدينا نرى أن نحمي غاباتها بأشد الأسود ونرمي غاياتها بمن هو لأمرٍ ما يسود ونحوط جنباتها بمن لا يستبيح حرمه إلا الوفود ونحط ركائب رعاياها منه على من هو المقصود وننيب إلى ما يترجح من مصالحهم لدينا ونستنيب لمن يترجى الحسنى إذا عرضت متجددات أمورهم علينا وإذا انفرد بحكم لا يظن إلا أنه بمسمع من أذنينا ومرأىً من عينينا لأن نواب الممالك الشريفة فروع عدلنا الشريف ونحن أصلها وأسباب إحسانٍ بأوامرنا المطاعة قطعها ووصلها.

وكانت حمص المحروسة من أكبر الممالك القديمة والمدن العظيمة تغرق الأقاليم في مدها وتمتد عساكرها فتعد حماة حماة من جندها وهي من الشام المحروس في ملتقى مواكبه ومجر عواليه ومجرى سوابقه ومجمع كتائبه طالما كان بها الحرب سجالاً وطالما سابقت بها الرجال آجالاً وكان لنا بها في الحرب يومان عوضنا الله أدناهما بما حفظت المعارك وضاقت الأرض بدماء القتلى ففاض إلى السماء ما التقى بالشفق من تلك المسالك واتصلت بالبر والبحر من جانبيها واتصفت بأنها مهب الرياح ومركز الرماح لما يهب لنا من بشرى النصر ويخفق من عصائبنا المنصورة عليها.

فلما تطاول الأمد على خلوها ممن ينوب عن السلطنة الشريفة في أحكامها ويؤوب إلى تسديد مرامي سهامها لم تزل آراؤنا العالية تجول فيمن يصلح أن يقدم قدمه إلى رتبتها العلية ويجرد منها عزائمه المشرفية ويجمع بها على طاعتنا الشريفة من فيها من العساكر المنصورة والقبائل المشهورة والطوائف المذكورة ويبسط بساط العدل في كافة جنودها ورعاياها فإنها بهؤلاء محروسةٌ وبهؤلاء معمورة - فرأينا أن أولى من حكم في عاصيها والمطيع واتخذ لسوريا السور المنيع من هو الموثوق بما أمضت السيوف من هممه وأرضت التجارب من سوابق خدمه وطارت سمعة شكره في الآفاق وطابت أثنيته فجاءت بما يعرف من الطرب لإسحاق وكان قد تقدمت له في عينتاب نيابةٌ كم أصابه فيها رجلٌ بالعين ثم إنه من العين تاب وقام بين أيدي كفلاء ممالكنا الشريفة حاجباً وفهم من أحكامهم التي تلقوها منا ما أصبح لها صاحباً فما للنيابة إحكام أحكام إلا وهو به عالم ولا تولية حكم إلا وقد استحقها لقرب ما بين الحاجب والحاكم.

فاقتضت مراسيمنا المطاعة أن يزان -وكان فلانٌ هو المرتضى للبس هذه المفاخر والمنتظر الذي كم ترك الأول فيه للآخر جيده بهذا التقليد وتلقى إليه المقاليد وتمد يد هذه الرتبة لتلقيه وتخضع عنق هذه المرتبة لترقيه وتحول إليه هذه النعمة التي ألحقت قدره بالأكفاء وأهلت همته للاكتفاء وشرفت مكانه بما أجمعت عليه آراؤنا الشريفة له من الاصطفاء وأحسنت به الظن لما رأت نيته الجميلة ممثلةً من خاطره في مرآة الصفاء.

فرسم بالأمر الشريف - لا زال مرفوعاً به كل علم ممنوعاً به حمى كل حرم - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بحمص المحروسة وأعمالها وجندها وعمالها وعساكرها وعشائره وعامرها وغامرها وأولها وآخرها ودانيها وقاصيها وكل ما في حدودها الأربعة وداخلٍ في جهاتها الممنعة على أكمل ما جرت به عوائد من تقدمه واستقرت عليه القواعد المتقدمة.

فاتق الله في أمورك واجعل الشرع الشريف مشكاة نورك وعظم حكامه ونفذ أحكامه فهم أمنع سورك واعدل فهو قرار خواطر جمهورك وتيقظ لسداد ثغورك وارفق لتطلق به نطق نطاق شكورك وأقم الحدود فإنها زيادةٌ في أجورك.

وأما العساكر المنصورة فجمل بهم في خدمتنا الشريفة مواكبك وكمل بعزائمهم مضاربك ولا تستخدم منهم إلا من يسرك أن تراه في يوم العرض وتعقد هوادي جياده السماء بالأرض واحم أطراف بلادك من عادية الرجال واحفظ جانبيها من تخطف الغارات فسر قيامها لا يدفعه غير احتيال واهتم بالجهاد تحت صناجقنا المنصورة لأعداء الله متى أجمعوا وضرسهم بأنياب أسنتك فأنت صاحب العصا وهي تتلقف ما صنعوا وعمر بلادها بملاحظتك الجميلة ونم أمورها فهي قوام الجنود وهم إلى الثقة

في النصر الوسيلة وسارع إلى ما ترد به مراسمنا الشريفة عليك لنهديك إلى صراطٍ مستقيم وعجل البريد فإنك تعلم به ما لست بعليم وبقية الوصايا لا حاجة إليها لما تعرفه من قديم والله تعالى يمتعك بكل خلق كريم والخط الشريف أعلاه.

النيابة الثانية - نيابة الرحبة.

وهذه نسخةٌ بنيابتها: الحمد لله الذي أمدنا بنصره وشمل بجود سلطاننا أهل عصره وأيده بجنودٍ أولها متصلٌ بأول عراقه وآخرها بآخر مصره وفرق بسهامه الأعداء في حواصل الطير بين حضنه وخصره.

نحمده حمداً يقوم بشكره ويحافظ على حسن ذكره ويستعاذ به إلا مما يدمر على العدا من عواقب مكره ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً ترغم من جادله بكفره وتمزقه بين كل ناب سيف وظفره ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله مقيماً لأمره ومديماً في الجهاد لإعمال بيضه وسمره صلى الله عليه وعلى آله وصحبه حملة سره ونقلة هديه بأسره صلاةً باقيةً في الوجود بقاء دهره راقيةً ارتقاء زهره.

وبعد فإن الثغور بسدادها والبحور بأمدادها والنحور لا تحلى بأحسن من حلية نجادها والممالك المحروسة لا تحرس إلا بشهب خرصانها ولا تسقى بأنقع مما تطله من الدماء سحب فرسانها والفرات لا تحمى مواردها إلا بأمثال سيوفها القواضب ولا تمنع مخاوضها إلا بدمٍ خاضب والحصون لا يرضى بها كل منجنيق غضبان إلا بوصال مغاضب والقلاع لا تتطلع عيون ديادبها إلا لمن ماء الكرى في جفونه ناضب والمعاقل لا تسمح بعقائلها إلا لمن هو على خطبتها مواظب وكانت الرحبة - حرسها الله تعالى - هي أويسع مكان رحابا وأدنى إلى مطرٍ سحابا وأوثق ما أغلق على البلاد بابا وأقرب ما سمع حراسها في السماء دعاءً مجابا قد ملئت سماؤها حرساً شديداً وشهباً ومدت كواكب الدلو واستقت من الغمام قلباً وعدت ما وراء المجرة فعميت لا أعني إلا ابن طوقٍ - خازنها ومنزل أمنٍ وفي غاب الأسد مساكنها -دونها المسالك وحسبت لملك ونسبت إلى مالك ومالكٌ وقد وقفت لبغداد في فم المضيق وهمت بلاد العدا أن تخوض الفرات إليها فقالت: ما لك إلي طريق قد افتر في وجه العساكر المنصورة ثغرها الضاحك ورد قرن الشمس فرعها المتماسك.

فلما أغمد حسامها المسلول وأقلع غمامها وكل هدبٍ بالبكاء عليه مبلول - اقتضى رأينا الشريف أن نجدد لعروسها زفافا ولبيوتها أفوافا ولسيوفها جلاءً ولسقوفها إعلاءً ونوليها لمن تكون همته فيها جديدة الشباب أكيدة الأسباب ليكون أدعى لمصالحها وأرعى لمناجحها وأوعى لما يجمعه سمعه من مصالحها وأسعى في حماية مماسيها ومصابحها وكان فلانٌ هو أصلب من في كنائننا الشريفة عوداً وأنجز وعوداً وأصدق رعوداً وأيمن إذا طلع نجمه في أفقٍ سعوداً.

فرسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه نيابة الرحبة المحروسة على عادة من تقدمه وقاعدته فليتول ذلك مقدماً تقوى الله والعمل بما شرع واتباع مراسمنا الشريفة فمثله من اتبع وحماية أطرافها من كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير وصيانة أكنافها من كل عصابة محلقة إلى جوها كالطير وحفظها من عادية كل أفاك وسفاك وبادية أعراب وأتراك وكل فارس فرسٍ وراكب بعير وكل وقفة محاصرٍ وحقطة مغير وجانبي برٍّ وبحر: في أحدهما المسالك تعمى والآخر لا وليتخطف من الأخبار ما تلمع لدينا بوارقه ويتقطف من الأقوال ثمراتها ولا يدع كل ما تجمعه حدائقه وليجعل له من المناصحين طلائع ما منهم إلا من هو في انتهاب الأخبار أبو الغارات ومن إذا ألجمه الخوف كان له في لمع البروق إشارات وليتخذ من الكشافة من يسبق قبل أن يرتد إليه طرفه ومن الخيالة من لا يرتد عن وقذ الرماح طرفه ومن القصاد من لا يطوي عنه خبراً ومن الديادب من يعيره وقل أن تعار العيون نظراً وليحفظ التجار في مذاهبهم غدواً ورواحاً ومساءً وصباحاً وليستوص بهم خيراً فإنهم طالما ازدانت بهم صدور الخزائن على امتلائها انشراحاً وليأخذ منهم ما لبيت المال فكم وجدوا بعطائه أرباحاً وليوصل إلى أرباب القرارات ما لهم من مقررٍ معلوم وليعطه ما تصدقنا به عليهم وهو مشكورٌ وإلا أعطاهم وهو مذموم وليعمر البلاد بتوطين أهل القرى وإنامتها بالعدل ملآنة الجفون من الكرى وليكن للفرات متيقظاً لئلا يطغى بها التيار ويغلب بمدها المخمر على سكرها من السكر الخمار ويقوى على سدها قبل أن لا يقدر على مقاواة البحار ويتفقد مبانيها فإنها من أسنى ما تتفقده الأبصار وليغلق وليعف فإن زروعها لتكون: " كمثل زرعٍ أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار " العفاف هو الغنى وليؤمن من يليه فإن الأمان هو المنى وليقر ما استقر بيننا وبين القوم من صلح أكدت أواخيه وأصبح كلٌّ من أهل الجانبين لا يفر من أخيه ولا يرخص لأحدٍ فيما ينقضه لا في عاجل أمرٍ ولا في تراخيه حتى إذا كشفت الحرب عن ساقها وشدت عقد نطاقها فليكن بحسب مراسمنا الشريفة اعتماده في شن كل غارة وسن كل ماض مرهفاً غراره وجوس خلال ديار العدا واختطاف كل قمرٍ من دارة والمحرقات التي لا تحرق نباتاً حتى تشب في ضلوعهم والعيارة فهي الزلازل التي تتساقط منها مباني ربوعهم وموالاة البعوث: فإن كل بعثٍ يتكفل بشتات جموعهم والعمل بكل ما ترد به مراسمنا العالية والمواصلة

بكتبه التي نرفض ما سوى أخبارها المتوالية وإرسال كل بريد وحمام تحلق بهما: إما ريحٌ ظاهرة وإما ريحٌ عادية والله تعالى يقرب له الغايات المنادية بمنه وكرمه!.

النيابة الثالثة - نيابة مصياف.

وهذه نسخة مرسوم بنيابتها: الحمد لله الذي صرف ممالكنا الشريفة في الممالك وشرف بنا كل حصن لا تعرض له المجرة في المسالك وعرف بالتربية في خدمة أبوابنا العالية إلى أين ينتهي السالك.

نحمده على نعمه التي نعتد بها الحمد من ذلك ونرغب أن نلقى الله على أداء الأمانة فيها كذلك ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيما هو مالك ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أضاء به كل حالٍ حالك وأنحى به من مهاوي المهالك وجمع به من الأمة ما وهى وهي كالعق المتهالك صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة يجد بها قائلها في الدار الآخرة كل هناءٍ هنالك وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن النظر في أمور الممالك هو أول ما يقدمه الملك وأولى ما يتقدم إليه من سلك ومملكة بيت الدعوة هي من أجل ما تفردت به ممالكنا الشريفة وامتدت به في الأماكن المخيفة وأرسلت من قلاعها من يقتلع العدا بوثوبه ويسابق السهم إلى مطلوبه ويتعبد بموالاتنا التي ورثها عن سلفه في طاعة أئمتهم وعلموا بها أن الدولة العلوية ما انقضت حتى انتقلت إلينا الولاية على شيعتهم وأن الملك الإسماعيلي فينا قد انحصر ميراثه وأن كل من مات من الخلفاء الفاطميين - رحمهم الله - نحن وراثه فهم بهذا يبذلون نفوسهم في الطاعة الشريفة التي يرونها فرضاً عليهم ويبلغون بنا أعلى مراتب الإيمان: لأنهم إذا رأوا منكراً أزالوه بيديهم كم هجموا على عدو من أعداء الله هجمة طيف! وكم استطالوا بسكينٍ لا يتطاول إلى مباراتها سيف! وكم أوقدوا لهم بارقة عزمٍ فقيل: هذه سحابة صيف! وكم وردوا بالدماء خداً غدا ينادي: يا كرام الورد ضيف!.

وكانت مصياف - حرسها الله تعالى - هي كرسي هذه المملكة وقلعتها هي التي بذوائب الجوزاء متمسكة واقتضت مراسمنا المطاعة نقل النائب بها إلى ما رسمنا به الآن فخلت ممن يترقى فيها إلى أعز مكان واحتاجت إلى من تغنى به عما يقال: من اعتقال رمحٍ فحصل الفكر الشريف فيمن نقلده هذه النيابة ويتقلد أمر هذه العصابة ويتصرف في أمورها بمقتضى ما ترد به مراسمنا المطاعة ويعلم أنه من شيعتنا: لأنه داعينا في هذه الجماعة فرأينا أن أحق الناس بها من قدمه ولاؤه وعظمه انتماؤه ونبه عليه اهتمام همته التي لا تشابهها الكواكب في سيرها وعزائمه التي طالما كان بها في خدمتنا الشريفة يظل بموماةٍ ويمسي بغيرها ولم تزل به مساعيه حتى وصل إلى المزيد وأسرع له الشيب في طاعتنا الشريفة: لأنه في كل وقتٍ كان يسمع قعقعة لجام البريد وكان فلانٌ هو الذي أشار إليه القول بوصفه ودل عليه ثناؤه بعرفه.

فرسم أن تفوض إليه النيابة بمصياف وأعمالها على عادة من تقدمه وقاعدته.

فليقدم تقوى الله تعالى فيما وليه ولينشر جناح عدلنا الشريف على من يليه وليعمل بالأحكام الشرعية في كل ما يقضيه وليسلك في أهلها أوضح المراشد وليبين لهم أنه يدعوهم إلى سبيل الرشاد إلا ما ادعاه راشد وليوصل إلى المجاهدين أرزاقهم التي هي أثمان نفوسهم وثمار ما دنى القطاف من رؤوسهم.

وأهل من مات أو يموت منهم على طاعتنا الشريفة فكن عليهم متعطفاً ومن طلب منك الإنصاف فكن له منصفاً وافعل معهم أحسن الأسوة وقل لهم عنا: إن الصدقات الشريفة قد استجابت لكم يا أهل الدعوة وخذ بقلوبهم لتزداد من حبهم وقل للمجاهدين: " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم " والأموال فصنها من الضياع وعمارة البلاد عليك بها فإن القلعة لا تكون إلا بالمدينة والمدينة لا تكون إلا بالضياع وامتثال مراسمنا الشريفة وكل ما يرسم به سارع إلى اعتماده وطائفة المجاهدين لا تدع منهم إلا من هو معتد لجهاده والكتمان الكتمان! فبه تنال المطالب وتدرك المآرب وعليك بقمع المفسدين - وردع المعتدين وإقامة الحدد: فإن بها أقام الله هذا الدين ونحن نغتني بما فيك من المعرفة وبما أنت عليه - بحمد الله تعالى من كمال كل صفة عن استيعاب الوصايا التي لم تبرح سجاياك بها متصفة والله تعالى يزيدك من كل نوع أشرفه والخط الشريف أعلاه.

وأما الصفقة الشمالية فالذي يولى بهذه الصفقة عن الأباب السلطانية نيابة بعلبك فقط.

وقد تقدم في الكلام على ترتيب المملكة الشامية أنها كانت أولاً إمرة عشرة ثم صارت طبلخاناه وأن نائب الشام يولي بها وربما وليت من الأبواب الشريفة السلطانية وحينئذ فيكون مرسوم نائبها في قطع الثلث بالمجلس السامي بالياء.

وهذه نسخة مرسوم بنيابة بعلبك: أما بعد حمد الله على أملٍ حقق مناه وصدق غناه وفرق عليه سحب اعتناءٍ أورق به عوده وطاب جناه والصلاة والسلام على نبيه سيدنا محمدٍ الذي كمل بناه وعلى آله وصحبه ما شيد معقلٌ فخار مبناه - فإن من أعظم مدن الشام القديمة ودور الملك التي ذهب من يحلها من الملوك وبقيت آثاره مقيمة مدينة بعلبك وهي التي تحصن الإسلام بقلعتها وتحصل الرعب في قلوب الأعداء بمنعتها بنيت على عهد سليمان بن داود عليهما السلام وأتقن بناؤها وهالت أسوارها حتى نسب إلى صنعة الجن بناؤها ودعمت السماء عمدها فطالت شرفها حتى كادت تخضخض في سجل السحاب يدها وجمعت محاسن في سواها لا توجد وتقرر بملكها من الملوك: تارةً سعيداً وتارة أمجد وما خلت من علماء عظيمي الشان وصلحاء يلمهم الجبلان: سيس ولبنان وهي باب دمشق المفتوح وسحاب الأنواء المسفوح بالسفوح وباب البروق التي آلت أنها بأسرارها لا تبوح ومآب السفارة التي تغدو محملة أوقار ركائبها وتروح ولها العين المسبلة الرواتب والجبال الراسة الوقار لمفرقها الشائب العالية الذرى كأنها متلفعةٌ من قطع السحائب ولما كان من فيها الآن ممن لا تستغني الدولة القاهرة عن قربه ولا تستثني أحداً معه في تجريه سيفه المشهور من قربه أجلنا الرأي في كفءٍ لعروسها ومماثل لمركز تأود غروسها فلم نجد أدرى بأحوالها وأدرب بما يؤلف على الطاعة قلوب رجالها كمن استقر به فيها مع أبيه الماضي - رحمه الله - الوطن ونالا منه الوطر ومرت عليهم فيه سنون وأيامٌ هتف بها داعي قصر ولا غنىً عنه مع ماله من ولاياتٍ صحب فيها الناس وفارقهم على وجهٍ جميل ورافقهم ثم انصرف وانصرفوا عنه وما ذمه في النازلين نزيل وكان فلانٌ هو المتوقد الشهاب المتوقل في تلك الهضاب المشكور قولاً وديناً المشهور بوضع كل شيءٍ في موضعه شدةً ولياناً.

فلذلك رسم- لا زال إحسانه أحمد واختياره مقدماً - أن يرتب في نيابة بعلبك على عادة من تقدمه وقاعدته مبتدئاً حسن النظر في الأمور العامة لا يدع ظلامة ولا يدع سالك طريقٍ إلى سلامة ولا يعد سمعاً إلا لسماع شكرٍ لا ملامة ولينظر في المظالم نظراً ينجلي به سدفها وليشكر العشير توطياً يوطأ به هدفها وليلاحظ الأمور الديوانية بما ينمي به أموالها ويندي بسحابه المتدفق أحوالها.

والأوقاف فليشارك واقفيها في إحسانهم وليجر حسناتها على ما كانت عليه في زمانهم وليكن لها نعم الكفيل في دوام المحافظة وليتفقد ما فيها من الحواصل والزردخاناه مما يذخر لوقته ويؤخر لفرط الشغف به لا لمقته.

ومن أهم ما يحتفظ به قلوب الرجال وعمارة الأسوار فإنها للفرسان المقاتلة مجال وعليها تنصب المجانيق وتتخطف الآجال.

وأما الشريعة المطهرة: فإن من تعدى غرق أو أوشك أن يغرق واتباع أوامرها: وإلا ففيم يعذب من يعذب ويحرق من يحرق وتقوى الله تعالى هي الوصية الجامعة والتذكرة التي ترتد بها الأبصار خاشعة وليفهم هذه الوصايا ولا يخرج شيئاً منها من قلبه وليتبين معانيها ليكون بها على بينةٍ من ربه والله تعالى يكشف عنه غطاء حجته ويزعه عما يأخذه ويؤاخذه

الصنف الثاني ممن هم خارج دمشق

ممن يولي عن الأبواب السلطانية - أمراء العربان وهم على طبقتين: الطبقة الأولى من يكتب له منهم تقليدٌ في قطع النصف بالمجلس العالي وهو أمير آل فضل خاصةً: سواءٌ كان مستقلاً بالإمارة أو شريكاً لغيره فيها وقد تقدم في الكلام على ترتيب المملكة الشامية نقلاً عن مسالك الأبصار أن ديارهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة آخذين على شقي الفرات وأطراف العراق. وهذه نسخة تقليدٍ بإمره آل فضل: كتب به للأمير شجاع الدين فضل بن عيسى عوضاً عن أخيه مهنا عندما خرج أخوه المذكور مع قرا سنقر الأفرم ومن معهما من المستحبين وأقام هو بأطراف البلاد ولم يفارق الخدمة في شهور اثنتي عشرة وسبعمائة من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهو: الحمد لله الذي منح آل فضل في أيامنا الزاهرة بحسن الطاعة فضلاً وقدم عليه بقديم الإخلاص في الولاء من أنفسهم شجاعاً يجمع لهم على الخدمة ألفةً وينظم لهم على المخالصة شملاً وحفظ عليهم من إعزاز مكان بيتهم لدينا مكانةً لا تنقض لها الأيام حكماً ولا تنقص لها الحوادث ظلاً.

نحمده على نعمه التي شملت ببرنا الحضر والبدو وألهجت بشكرنا ألسنة العجم في الشدو والعرب في الحدو وأعملت في الجهاد بين يدينا من اليعملات ما يباري بالنص والعنق الصافنات في الجنب والعدو ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً ندرأ بها الأمور العظام ونقلد بيمنها ما أهم من مصالح الإسلام لمن يجري بتدبيره على أحسن نظام ونشهد أن محمداً

عبده ورسوله المبعوث من أعلى ذوائب العرب وأشرفها الرجو الشفاعة العظمى يوم طول عرض الأمم وهول موقفها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كرمت بالوفاء أنسابهم وأضاءت بتقوى الله وجوههم وأحسابهم صلاةً لا تزال الألسن تقيم نداءها والأقلام ترقم رداءها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من أجنته الطاعة ثمرة إخلاصه ورفعته المخالصة إلى أسنى رتب تقريبه واختصاصه وألف بمبادرته إلى الخدمة الشريفة قلوب القبائل وجمع شملها وقلده حسن الوفاء من أمر قومه وإمرتهم ما يستشهد فيه بقول الله تعالى: " وكانوا من ارتقى إلى أسنى رتب دنياه بحفظ دينه ودل تمسكه بأيمانه على صحة إيمانه وقوة يقينه ولاحظته عيون - أحق بها وأهلها " السعادة فكان في حزب الله الغالب وهو حزبنا وقابلته وجوه الإقبال فأرته أن المغبون من فاته تقريبنا وقربنا ورأى إحساننا إليه بعين لم يطرفها الجحود ولم يطرقها إعراض السعود فسلك جادة الوفاء وهي من أيمن الطرق طريقاً واقتدى في الطاعة والولاء بمن قال فيهم بمثل قوله: " وحسن أولئك رفيقاً ". ولما كان المجلس العالي.

هو الذي حاز من سعادة الدناي والآخرة بحسن الطاعة ما حاز وفاز من برنا وشكرنا بجميل المبادرة إلى الخدمة بما فاز وعلم مواقع إحساننا إليه فعمل على استدامة وبلها واستزادة فضلها والارتواء من معروفها الذي باء بالحرمان منه من خرج عن ظلها مع ما أضاف إلى ذلك: من شجاعةٍ تبيت منها أعداء الدين على وجل ومهابةٍ تسري إلى قلوب من بعد من أهل الكفر اقتضت آراؤنا الشريفة أن نمد على أطراف الممالك المحروسة منه سوراً مصفحاً بصفاحه مشرفاً - سرى ما قرب من الأجل بأسنة رماحه.

فرسم بالأمر الشريف العالي - لا زال يقلد وليه فضلاً ويملأ ممالكه إحساناً وعدلاً - أن يفوض إليه كيت وكيت: لما تقدم من أسباب تقديمه وأوميء إليه من عنايتنا بهذا البيت الذي هو سر حديثه وقديمه ولعلمنا بأولويته التي قطبها الشجاعة وفلكها الطاعة ومادتها الديانة والتقى وجادتها الأمانة التي لا تستزلها الأهواء ولا تستفزها الرقى.

وليكن لأخبار العدو مطالعاً ولنجوى حركاتهم وسكناتهم على البعد سامعاً ولديارهم كل وقت مصبحاً حتى يظنوه من كل ثنيةٍ عليهم طالعاً وليدم التأهب حتى لا تفوته من العدو غارةٌ ولا غرة ويلزم أصحابه بالتيقظ لإدامة الجهاد الذي جرب الأعداء منه مواقع سيوفهم غير مرة وقد خبرنا من شجاعته وإقدامه وسياسته في نقض كل أمرٍ وإبرامه ما يغني عن الوصايا التي ملاكها تقوى الله تعالى وهي من سجاياه التي وصفت وخصائصه التي ألفت وعرفت فليجعلها مرآة ذكره وفاتحة فكره والله تعالى يؤيده في سره وجهره بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بإمرة آل فضل كتب بها للأمير حسام الدين مهنا بن عيسى من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهي: الحمد لله الذي أهرف حسام الدين في طاعتنا بيد من يمضي مضاربه بيديه وأعاد أمر القبائل وإمرتهم إلى من لا يصلح أمر العرب إلا عليه وحفظ رتبة آل عيسى باستقرارها لمن لا يزال الوفاء والشجاعة والطاعة في سائر الأحوال منسوباتٍ إليه وجعل حسن العقبى بعنايتنا لمن لم يتطرق العدو إلى أطراف البلاد المحروسة إلا ورده الله تعالى بنصرنا وشجاعته على عقبيه.

نحمده على نعمه التي ما زالت مستحقةً لمن لم يزل المقدم في ضميرنا المعول عليه في أمور الإسلام وأمورنا المعين فيما تنطوي عليه أثناء سرائرنا ومطاوي صدورنا ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً توجب على قائلها حسن التمسك بأسبابها وتقتضي للمخلص فيها بذل النفوس والنفائس في المحافظة على مصالح أربابها وتكون للمحافظ عليها ذخيرةً يوم تتقدم النفوس بطاعتها وإيمانها وأنسابها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث من أشرف ذوائب العرب أصلاً وفرعاً المفروضة طاعته على سائر الأمم ديناً وشرعاً المخصوص بالأئمة الذين بثوا دعوته في الآفاق على سعتها ولم يضيقوا لجهاد أعداء الله وأعدائه ذرعاً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين حازوا بصحبته الرتب الفاخرة وحصلوا بطاعة الله وطاعته على سعادة الدنيا والآخرة وعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف فلم يزحزحهم عن ظلها الركون إلى الدنيا الساخرة صلاةً تقطع الفلوات ركائبها وتسري بسالكي طرق النجاة نجائبها وتنتصر بإقامتها كتائب الإسلام ومواكبها وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن أولى من تلقته رتبته التي توهم إعراضها بأيمن وجه الرضا واستقبلته مكانته التي تخيل صدودها بأحسن مواقع القبول التي تضمنت الاعتداد من الحسنات بكل ما سلف والإغضاء من الهفوات عما مضى وآلت إليه إمرته التي خافت العطل منه وهي به حالية وعادت منزلته إلى ما ألفته لدينا: من مكانةٍ مكينةٍ وعرفته عندنا: من رتبةٍ عالية - من أمنت شمس سعادته في أيامنا من الغروب والزوال ووثقت أسباب نعمه بأن لا يروع مريرها في دولتنا بالانتفاض ولا ظلالها بالانتقال وأغنته

سوابق طاعته المحفوظة لدينا عن توسط الوسائل واحتجت له مواقع خدمه التي لا تجحد مواقفها في نكاية الأعداء ولا تنكر شهرتها في القبائل وكفل له حسن رأينا فيه بما حقق مطالبه وأحمد عواقبه وحفظ له وعليه مكانته ومراتبه فما توهم الأعداء أن برقه خبا حتى لمع ولا ظنوا أن ودقه أقلع حتى همى وهمع ولا تخيلوا أن حسامه نبا حتى أرهفته عنايتنا فحيثما حل من أوصالهم قطع وكيف يضاع مثله وهو من أركان الإسلام التي لا تنزل الأهواء ولا ترتقي الأطماع متونها ولا تستقل الأعداء عند جهادها واجتهادها في مصالح الإسلام حسبها ودينها.

ولما كان المجلس العالي.

هو الذي لا يحول اعتقادنا في ولائه ولا يزول اعتمادنا على نفاذه في مصالحنا ومضائه ولا يتغير وثوقنا به عما في خواطرنا من كمال دينه وصحة يقينه وأنه ما رفعت بين يدينا راية جهادٍ إلا تلقاها عرابة عزمه بيمينه فهو الولي الذي حسنت عليه آثار نعمنا والصفي الذي نشأ في خدمة أسلافنا ونشأ بنوه في خدمنا والتقي الذي يأبى دينه إلا حفظ جانب الله في الجهاد بين يدي عزيمتنا وأمام هممنا - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نصرح له من الإحسان بما هو في مكنون سرائرنا ومضمون ضمائرنا ونعلن بأن رتبته عندنا بمكانٍ لا تتطاول إليه يد الحوادث ونبين أن أعظم أسباب التقدم ما كان عليه من عنايتنا وامتناننا أكرم بواعث.

فلذلك رسم أن يعاد إلى الإمرة على أمراء آل فضل ومشايخهم ومقدميهم وسائر عربانهم ومن هو مضافٌ لهم ومنسوبٌ إليهم على عادته وقاعدته.

فليجر في ذلك على عادته التي لا مزيد على كمالها ولا محيد عن مبدئها في مصالح الإسلام ومآلها آخذاً للجهاد أهبته من جمع الكلمة واتحادها واتخاذ القوة وإعدادها وتضافر الهمم التي ما زال الظفر من موادها والنصر من أمدادها وإلزام أمراء العربان بتكميل أصحابهم وحفظ مراكزهم التي لا تسد أبوابها إلا بهم والتيقظ لمكايد عدوهم والتنبه لكشف أحوالهم في رواحهم وغدوهم وحفظ الأطراف التي هم سورها من أن تسورها مكايد العدا وتخطف من يتطرق إلى الثغور من قبل أن يرفع إلى أفقها طرفاً أو يمد على البعد إلى جهتها المصونة يداً وليبث في الأعداء من مكايد مهابته ما يمنعهم القرار ويحسن لهم الفرار ويحول بينهم وبين الكرى لاشتراك اسم النوم وحد سيفه في مسمى الغرار.

وأما ما يتعلق بهذه الرتبة من وصايا قد ألفت من خلاله وعرفت من كماله فهو ابن بجدتها وفارس نجدتها وجهينة أخبارها وحلبة غايتها ومضمارها فيفعل في ذلك كله ما شكر من سيرته وحمد من إعلانه وسريرته وقد جعلنا في ذلك وغيره من مصالح إمرته أمره من أمرنا: فيعتمد فيه ما يرضي الله تعالى ورسوله ويبلغ به من جهاد الأعداء أمله وسوله والله الموفق بمنه وكرمه! والاعتماد.

الطبقة الثانية من عرب الشام

من يكتب له مرسومٌ شريفٌ وهم على مرتبتين المرتبة الأولى من يكتب له في قطع النصف وهم ثلاثة الأول - أمير آل علي - ورتبته السامي بالياء.

وقد تقدم أن منازلهم مرج دمشق وغوطتها بين إخوانهم آل فضل وبني عمهم آل مراء ومنتهاهم إلى الجوف والحيانية إلى الشبكة إلى تيماء إلى البراذع.

وأنه ذكر في التعريف: أنهم إنما نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الإمرة إلى مهنا بن عيسى.

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بإمرة آل علي كتب به للأمير عز الدين جماز بعد وفاة والده محمد بن أبي بكر من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله وهي: الحمد لله الذي أنجح بنا كل وسيلة وأحسن بنا الخلف عمن قضى في طاعتنا الشريفة سبيله ومضى وخلى ولده وسيلة وأمسك به دمعة السيوف في خدودها الأسيلة وأمضى به كل سيفٍ لا يرد مضاء مضاربه بخيلة وأرضى بتقليده كل عنق وجمل كل جميلة.

نحمده على كل نعمةٍ جزيلة وموهبةٍ جميلة ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً ترشد من اتخذ فيها نجوم الأسنة دليله وتجعل أعداء الله بعز الدين ذليلة وأن محمداً عبده ورسوله الذي أكرم قبيله وشرف به كل قبيلة وأظهر به العرب على العجم وأخمد من نارهم كل فتيلة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً بكل خيرٍ كفية وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن دولتنا الشريفة لما خفق على المشرق والمغرب جناحها وشمل البدو والحضر سماحها ودخل في طاعتها الشريفة كل راحلٍ ومقيم في الأقطار وكل ساكن خيمةٍ وجدار - ترعى النعم بإبقائها في أهلها وإلقائها في محلها مع ما تقدم من رعايةٍ توجب التقديم وتودع بها الصنائع في بيتٍ قديمٍ وتزين بها المواكب إذا تعارضت جحافلها وتعارفت شعوبها وقبائلها واستولت جيادها على الأمد وقد سبقت أصائلها وتداعت فرسانها وقد اشتبهت مناسبها ومناصبها ومناصلها وكانت قبائل العربان ممن تعمهم دعوتنا الشريفة وتضمهم طاعتنا التي هي لهم أكمل وظيفة ولهم النجدة في كل باديةٍ وحضر وإقامةٍ وسفر وشامٍ وحجاز وإنجادٍ وإنجاز ولم يزل لآل عليٍّ فيهم أعلى مكانة وما منهم إلا من توسد سيفه وافترش حصانه وهم من دمشق المحروسة رديف أسوارها وفريد سوارها والنازلون من أرضها في أقرب مكان والنازحون ولهم إلى الدار بها أقطار وأوطان قد أحسنوا حول البلاد الشامية مقامهم واستغنوا عن المقارعة على الضيفان لما نصبوا بقارعة الطريق خيامهم وباهوا كل قبيلةٍ بقومٍ كاثر النجوم عديدهم وأوقدوا لهم في اليفاع ناراً إذا همى القطر شبتها عبيدهم وهم من آل فضلٍ حيث كان عليها وحديث في المسامع حليها فلما انتهت الإمرة إلى الأمير المرحوم شمس الدين محمد ابن أبي بكر رحمه الله - جمعهم على دولتنا القاهرة وأقام فيهم يبتغي بطاعتنا الشريفة رضا الله والدار الآخرة ثم أمده الله من ولده بمن ألقى إليه همه وأمضى به عزمه وكان الذي يتحمل دونه مشتقات أمورهم ويتلقى شكاوى آمرهم ومأمورهم ويرد إلى أبوابنا العالية مستمطراً لهم سحائب نعمنا التي أخصب بها مرادهم وساروا في الآفاق ومن جدواها راحلتهم وزادهم وتفرد بما جمعه من أبوته وإبائه وركز في كل أرضٍ مناخ مطيه ومرسى خبائه وضاهى في المهاجرة إلى أبوابنا الشريفة النجوم في السرى وحافظ على مراضينا الشريفة فما انفك من نار الحرب إلا إلى نار القرى وورد عليه مرسومنا الشريف فكان أسرع من السهم في مضائه.

كم له من مناقب لا يغطي عليها ذهب الأصيل تمويهاً! وكم تنقل من كورٍ إلى سرجٍ ومن سرج إلى كورٍ فتمنى الهلال أن يكون لهما شبيهاً! كما أجمل في قومه سيرة! وكم جمل سريرة! كم أثمر لها أملاً! وكم أحسن عملاً! كم سد خللاً! كم جمع في مهماتنا الشريفة كل من امتطى فرساً وركب جملاً! كم صفوفٍ به تقدمت وسيوفٍ أقدمت وحتوفٍ حمائم الحمائم بها على الأعداء ترنمت!!.

وكان المجلس السامي الأميري الأجلي الكبيري المجاهدي المؤيدي العضدي النصيري الأوحدي المقدمي الذخري الظهيري الأصيلي مجد الإسلام والمسلمين شرف الأمراء في العالمين همام الدولة حسام الملة ركن القبائل ذخر العشائر نصرة الأمراء والمجاهدين عضد الملوك والسلاطين جماز بن محمد أدام الله نعمته -: هو المراد بما تقدم والأحق بأن يتقدم والذي لو أن الصباح صوارم والظلام جحافل لتقدم فلما مات والده رحمه الله نحا إلى أبوابنا العالية ونور ولائه يسعى بين يديه ووقف بها: وصدقاتنا الشريفة ترفرف عليه فرأينا أنه بقية قومه الذين سلفوا وخلف آبائه الذين عن زجر الخيل ما عزفوا وكبيرهم الذي يعترف له والدهم ووليدهم وأميرهم الذي به ترعى عهودهم وشجرتهم التي تلتف عليه من أنسابهم فروعها وفريدهم الذي تجتمع عليه من جحافلهم جموعها.

فرسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه إمرة آل علي: تامةً عامة كاملةً شاملة يتصرف في أمورهم وآمرهم ومأمورهم قرباً وبعداً وغوراً ونجداً وظعناً وإقامة وعراقاً وتهامة وفي كل حقيرٍ وجليل وفي كل صاحب رغاءٍ وثغء وصرير وصليل على أكمل عوائد أمراء كل قبيلة وفي كل أمورهم الكثرة والقليلة.

ونحن نأمرك بتقوى الله فيها صلاح كل فريق وإصلاح كل رفيق ونجاح كل سالكٍ في طريق.

والحكم: فليكن بما يوافق الشرع الشريف والحقوق: فخلصها على وجه الحق من القوي والضعيف والرفق بمن وليته من هذا الجم الغفير والجمع الكبير وإلزام قومك بما يلزمهم من طاعتنا الشريفة التي هي من الفروض اللازمة عليهم والقيام في مهماتنا الشريفة التي تبرز بها مراسمنا المطاعة إليك وإليهم وحفظ أطراف البلاد والذب عن الرعايا من كل طارق يطرقهم إلا بخير والمسارعة إلى ما يرسم لهم به ما دامت الأسفار في عصاها سير والإفراج لعربك لا تسمح به إلا لمن له حقيقة وجود وله في الخدمة الشريفة أثرٌ موجود ومنعهم: فلا يكون إلا إذا توجه منعهم أو توانت عزائمهم وقل نفعهم والمهابة: فانشرها كسمعتك في الآفاق ودع بوارق سيوفها تشام بالشام وديمها تراق بالعراق وخيول التقادم: فارتد منها كل سابقٍ وسابقةٍ تقف دنهما الرياح ويحسدهما الطير إذا طار بغير جناح ولا تتخذ دوننا لك بطانةً ولا وليجة ولا تقطع عنا أخبارك البهيجة وليعرف قومه له حقه

ويوفوه من التعظيم مستحقه فإنه أميرهم وأمره من أمرنا المطاع فمن نازع فقد خالف النص والإجماع والله تعالى يوفقه ما استطاع بمنه وكرمه! والخط الشريف.

الثاني - أمير آل فضل.

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بالتقدمة على عربي آل فضلٍ وآل علي كتب به للأمير فخر الدين عثمان بن مانع بن هبة وهو: الحمد لله الذي خص من والى هذه الدولة بالتقدمة والفخر ورمى من عاداها بالمذلة والقهر ومد في عمر أيامها حتى يستنفد الدهر وحتى توصف أيامها - وإن قصرت - بالمسار: كل شهرٍ يمر منها كالعام واليوم كالشهر.

نحمده على ما منحنا من تأييد وظفر وطوى دعوة من عاندنا بعد النشر ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً إن دخلت شواهدها تحت الإحصاء فلا تدخل فوائدها تحت الحصر وأن محمداً عبده ورسوله الذي جعل الله به الهداية في المبدإ والشفاعة في المعاد يوم الحشر صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تسعد بعد الشقاء وتجبر بعد الكسر.

وبعد فإن الله سبحانه وتعالى لما مكن لنا في الأرض وجعل بيدنا البسط والقبض وأرانا كيف نصنع الجميل ونجمل الصنع وكيف نجبر قلب من جعل في أيامنا جبره بعد الصدع وكيف تصبح أنجم ذوي الأقدار في سماء مملكتنا نيرة المطالع وكيف نلقي الخير في عراصها من رامه إذا كان على الخير في غير أيامنا مانع وكيف نحل التقدمة فيمن إذا عقل في حللها قيل: هذا هو أحق بها ممن كان وهذا الذي ما برحت التقدمة في بيته في صدر الزمان وهذا الذي إذا ذكر آل فضل وآل علي كانت له مرتبة الشرف ولا غرو أن تكون مرتبة الشرف لعثمان وأننا لا نمطي صهوة العز إلا لأهلها ولا ننسخ الآية لمن تقدم في التقدمة إلا بخير منها أو مثلها ولا نسلم رايتها إلا لمن تعقد عليه الخناصر ولا يتسنم ذروتها إلا من هو أحق بها وأهلها في الأول والآخر.

ولما كان المجلس السامي الأميري فخر الدين عثمان بن مانع بن هبة: هو المراد بهذا القول الحسن والممدوح بحشد هذا المدح الذي يسر السر والعلن والحقيق من الإحسان بكلما والخير بأن والخصيص من سوالف الخدم بما والمفضل على سائر النظراء ولو قيس بمن - اقتضى حسن الرأي الشريف أن رسم بالأمر الشريف - لا زال ذو القدر في أيامه يرتفع وذو الفضل في دولته لا يعز عليه مطلبٌ ولا يمتنع وذو الأصالة التي يجتمع له فيها من النعماء ما لا يلتئم له في غيرها ولا يجتمع - أن تفوض إليه التقدمة على العربان بالشام المحروس وهم من يأتي ذكره على ما استقر عليه الحال في ترتيبهم وأن منازله الداروم: بعداً وقرباً حضراً وبدواً عامراً وغامراً رائحاً وغادياً من الرستن إلى الملوحة.

والعرب: آل فضل وآل علي حيث ساروا نزلوا منزلة المذكور أو بمنزلة الأمير شمس الدين محمد بن أبي بكر والخدمة واحدة والكلمة على اتفاق المصالح متعاضدة.

فليكن للقوى جسد روحها لا بل روح جسدها ومجموع القبائل أوحد عددها إذا صح الأول من عددها وقطب فلكها الذي على تدبيره مدارها وعلى تقريره اقتصارها وعلى تقدمته تعويلها وإلى نسبة إمارته جملتها وتفصيلها وليجمعهم على الطاعة فإن الطاعة ملاك الأمر للآمر وأس الخير للبادي والحاضر وليعلم أن لكل منهم نقابةً تعرف وعلمية أصالةٍ بها يعرف ومنزلةً يرثها الولد عن الوالد ومشيخةً ترجع من ذلك البيت إلى ذلك الواحد فليحفظ لهم الأنساب وليرع لهم الأسباب وإذا أمروا بأمرٍ من مهام الدولة يتلو عليهم: " ادخلوا الباب ".

والألزام له ولهم مخاوض تحفظ ومفاوز تلحظ ومطارح لا تلفظ ومشاتٍ ومصايف ونفائض ومصارف ومرابع ومراتع ودنوٌّ واقتراب وتوطن واغتراب وإغارةٌ ونهيض وبرقٌ ووميض.

فليرتب ذلك أجمل ترتيب وليسلك فيه خير مذهب وتهذيب وليدع العادي ويلاحظ الرائح والغادي وليؤمن ذلك الجانب فأمننا تطرب أبياته المحدو والحادي وعليهم عداد مقرر وقانونٌ محرر وليكن على يد شاده شاداً ولسبب تأييدهم مادأ ويعلم أنه وإن كان قد أغمض من جفونه فيما مضى وأعرض عنه في الزمن الأول الذي انقضى وقدم عليه من كان دونه فقد رد الله له أبكار الأمر وعونه فلا يجعل لقائلٍ عليه طريقاً ولا يدخل في أمرٍ يقال عنه فيه: كان غيره به حقيقاً بل يفوق من تقدم في الخدمة والهمة والصرامة ولاعزمة والله يوزعه شكر هذه النعمة والخط الشريف.

الثالث - أمير آل مراء ورتبته السامي بالياء.

وقد تقدم أن منازلهم حوران.

وعن مسالك الأبصار أن ديارهم بين بلاد الجيدور والجولان إلى الزرقاء والضليل إلى آخر بصرى.

ومشرقاً إلى حرة كشب على القرب من مكة المشرفة زادها الله شرفاً.

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بإمرة آل مراء كتب بها للأمير بدر الدين شطي بن عمر وهي: الحمد لله الذي زين آفاق المعالي بالبدر ورفع بأيامنا الشريفة خير وليٍّ أضحى بين القبائل جليل القدر ومنح من أخلص في خدم دولتنا الشريفة مزيد الكرم فأصبح بإخلاصه شديد الأزر وأجزل بره لأصائل العرب العرباء فوفر لهم الأقسام وأسبغ ظلال كرمه على من يرعى الجار ويحفظ الذمام.

نحمده على نعمٍ هطل سحابها ومننٍ تفتحت بالمسار أبوابها ونشهد أن لا إله غلا الله وحده لا شريك له شهادةً تقرب صاحبها يوم الفزع الأكبر من المحل الآمن وتورده نهر الكوثر الذي ماؤه غير آسن ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله من أشرف القبائل وأوضح بنور رسالته الدلائل فأنقذ الله به هذه الأمة من ضلالها وبوأها من قصور الجنان أعلى غرفها وأشرف ظلالها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أوضحوا مناهج الإيمان وشيدوا قواعد الدين إلى أن علت كلمته في كل مكان فكان عصرهم أجمل عصر وقرنهم خير أوان وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من أدنينا من بساط الاصطفاء محله وارتشف من سحاب معروفنا طله فوبله ونال من عواطفنا منزلة القرب على بعد الدار وحكم له حسن نظرنا الشريف بتوالي غزير كرمنا المدرار.

ولما كان المجلس الفلاني: هو المشار إليه بهذا النعت الحسن والموصوف بالشجاعة في السر والعلن - رسم بالأمر الشريف - لا زال بدره ساطع الأنوار وبره هامع القطار وخيره يشمل الأولياء بجزيل الإيثار وجميل الآثار - أن يستقر المشار إليه في كيت وكيت: لأنه البطل الشديد والفارس الصنديد وليث الحرب المذكور ومن هو عندنا بعين العناية منظور.

وليثق من صدقاتنا الشريفة بمايؤمل ويعهد وليتحقق قربه من مقامنا الشريف والعود أحمد وليتلق هذا الإحسان بقلب منشرح وأمل منفسح وليجتهد في أمر عربانه الذين في البلاد فإنا جعلنا عليه في أمورهم الاعتماد وقد أقمنا أميراً على عرب آل مراء فليشمر عن ساعد الاجتهاد في مصالح دولتنا الشريفة بغير زورٍ ولا مراء وليقمع المفسد من عربانه ويقابله بالنكال والصالح الخير منهم يجزل له النوال والوصايا كثيرةٌ ولمثله لا تقال والخط الشريف أعلاه حجة فيه إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بنصف إمرة آل مراء كتب به لقناة بن نجاد في العشر الأخر من شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله وهي: الحمد لله الذي استخدم لنصرنا كل سيف وقناة وكل سرعةٍ وأناة وكل مثقفٍ تسلى جناياته ويعذب جناه وكل ماضٍ لا يعوقه عن مقاصده الصالحة يعوق وهو عبد مناة.

نحمده حمد من أغناه ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً يستمد من قبلها فلق الصباح سناه ويفك منها من قبضة السيوف عناه ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بوأه منازل الشرف وبناه وأحله من العرب في مكان يخضع له رأس كل جبار ويخشع بصره وتستمع لما يوحى أذناه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تخصهم من كل شرف بأسماه وأسناه وسلم تسليماً.

وبعد فإن لكل ثاكلةٍ قراراً ولكل هاجرةٍ مزاراً ولكل معصمٍ سواراً لا يليق إلا بزنده ولك عنقٍ درأ لا يصلح إلا لعقده ولكل سيفٍ طال هجوعه في غمده انسلالاً ولكل قناةٍ لم تعتقل مدةً اعتقالاً وكانت إمرة آل مراء قد ثبتت من البيت الأحمدي بأوثق أوتادها ووصلت منه في الرفعة إلى نجادها ولم تزل تنتقل في آفاقها بدورهم الطالعة وتضيء عليها من صفاحهم بروقهم اللامعة وتجول فيها من سوابقهم السحب الهامعة وتغني في حروبها عزائمهم إذا وقعت الواقعة وتقدمت للمجلس السامي الأميري الفلاني بركابنا الشريف صحبةٌ حمد فيها السرى وخدمةٌ أوقدت له نار القرى وهاجر إلينا في وقتٍ دل على وفائه

وسهر إلى قصدنا الليل وله النجم محيط المقل بإغفائه وانقطع إلينا بأمله ولازم من عهدنا الشريف صالح عمله واستحق تعجيل نعمنا الشريفة وإن تأخرت لأجل موقوت وأملٍ نجاحه لا يفوت.

فلما آن أن تفاض عليه ثيابها ويضاف إليه ثوابها ويصرف في قومه أمره ويشرف بينهم قدره ويعرف من لم يعرف المسك أنه عندنا ذكره ومن جهل البر: أنه على ما يحمد عليه شكره ومن أنكر أن شيئاً أصعب من الموت: أنه في مجال الموت صبره ومن خالف فيما هو أمضى من القضاء: أنه في البيعة صدره ومن ادعى أنه لا تصيبه البيض والسمرك أنها مثقفته وبتره وزال من هذا البيت العريق الطود وهو ثابت ونزع منه السنان لولا أنه في قناته نابت ولولاه لهاجت هذه القبيلة إلى من يقبل على نباتها ويقيل بها: تارة ينجد في نجدها وأخرى يحول في جولاتها - رسم بالأمر الشريف أن يقلد من إمرة آل مراء ما كان الأمير ثابت بن عساف رحمه الله يتقلده إلى آخر وقت ويرفع فيها إلى كل مسامتةٍ وسمت ليكمل ما نقص من التمام وصفه ويعلم أنه حلق إليه حتى أتى دون نصف البدر فاختطف النصف وذلك النصف هو نصفه ليكون لهم إحدى اليدين وأخرى تقع لسيف بحدين.

وتقوى الله أبرك ما اشتملت عليه عودها وانتخبت له زبيدها فليتخذها له ذروةً يهتدي بها أنى سلك من الفجاج واقتحم من حلك العجاج.

وعليه بحسن الصحبة لرفيقه ويمن القبول على فريقه وإقامة الحدود على ما شرع الله من دينه القويم وإدامة التيقظ للثأر المنيم وإنزال عربه ومن ينزل عليه أو ينزل عليهم في منازلهم.

وليجمع قومه على طاعتنا الشريفة كل الجمع ويقابل ما ترد به مراسمنا المطاعة عليه بما أوجب الله لها من الطاعة والسمع وليأخذ للجهاد أهبته ويعجل إليه هبته وليقف من وراء البلاد الشامية المحروسة دريئةً لأسوارها المنيعة ونطاقاً على معاقلها الرفيعة وسداً من بين أيديا وخلفها لباب كل ذريعة وخندقاً يحوط بلادها الوسيعة وحجاباً يمنع فيها من تعدى الحق وخاض الشريعة ولا يفارق البلاد حتى يعبس في وجوهها السحاب ولا يعود حتى تؤذن زروعها المخيمة بذهاب والكرم هو فيه سجايا والعزم ما برح لوشان أسنته بكل قناةٍ لحايا والحزم بيده المراوية من آل مراءٍ يظهر له الخفايا والشجاعة هو في رباها المنيرة ابن جلا وطلاع الثنايا وما رضع المرمل كأفاويق الوفاق ولا وضع شيئاً في موضعه كمداراة الرفاق فليكن لرفيقه أكثر مساعدةً من الأخ لأخيه وأكبر معاضدةً من المصراع لقسيمه والجفن لجفنه والشيء لما يؤاخيه.

هذا يجب ويتعين وليس يجمعهما فرد طاعة ولا يلزمهما لشيءٍ واحدٍ استطاعة فكيف وهو و رفيقه إلينا اعتزاؤهما ومنا إعزازهما وهما فرعان معتنقان: لدينا إجناؤهما وبيدنا إهزازهما.

وليحصل من الخيل كل سابقةٍ تليق أن تقدم إلينا وسابحةٍ في كل مهمةٍ حين يقدم علينا.

والشرع الشريف يكون إليه مىبك وعليه عفوك وعقابك وبمقتضاه عقد كل نكاح لا يصح غلا على وجهه المرضي وإلا فهو سفاح والميراث على حكمه لمن جره إليه وإلا فهو ظلمٌ صراح وبقية ما نوصيه به إذا انتهى منه إلى هذه النبذة فما عليه في سواها جناح.

وسبيل كل واقفٍ على تقليدنا هذا أن ينيب إلى نصوصه ويؤوب إلى عمومه وخصوصه والحذر من الخروج عنه بقولٍ أو عمل فالسيف أسبق من العذل والله تعالى يمتعه بما وهبه من العز في النقل والمحاسن التي هي يد المسامع والأفواه والمقل والخط الشريف أعلاه.

المرتبة الثانية من أرباب المراسيم من العرب

من يكتب له في قطع الثلث بالسامي بغير ياء مفتتحاً بأما بعد وهم ثلاثة أيضاً الأول - أمراء بني مهدي وهي مقسومة بين - أربعة.

ورتبة كل منهم مجلس الأمير.

وقد تقدم أن منازلهم البلقاء إلى مائر إلى الصوان إلى علم أعفر.

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بربع إمرة بني مهدي وهي: أما بعد حمد الله على نعمه التي حققت في كرمنا المآرب وأجزلت من آلائنا المواهب وقربت لمن رجانا بإخلاص الطاعة ما يأبى عليه من المطالب والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ المبعوث من أشرف ذوائب لؤيٍّ بن غالب المخصوص باللواء الذي لا يضحى من أوى إلى ظله والحوض الذي لا ظمأ بعد وروده لشارب وعلى آله وصحبه الذين فازوا من صحبته وطاعته بأسمى المراتب وأسنى المناقب - فإن أولى من رفعت رعايتنا قدره وأطلعت عنايتنا في أفق السعادة بدره وحققت آلاؤنا سوله وبلغته صدقاتنا مرامه ومأموله - من أحكم في طاعتنا أسباب ولائه وأتقن في خدمتنا انتساب بعيده وانتمائه وتقرب إلينا بإخلاصه في اجتهاده ومت بما يرضينا من احتفاله بأمور جهاده مع ما تميز به من أسباب تتقاضى كرمنا في تقديمه وتقتضي إجراءه على ما ألف أولياء الطاعة من حديث إحساننا وقديمه.

ولما كان فلانٌ هو الذي اختص بهذه المقاصد وعني بما ذكر من المصادر والموارد - رسم ان يرتب في ربع إمرة بني مهدي.

فليرتب فيما رسم له به من ذلك قائماً من وظائفها بما يجب عالماً من مصالحها بما يأتي وما يجتنب واقفاً لاعتماد ما يرد عليه من المراسم وقوف المنتظر المرتقب ملزماً عربه من الخدم بما يؤكد طاعتهم ومن إعداد الأهبة بما يضاعف استطاعتهم ومن المحافظة على أسباب الجهاد بما يجعل في رضا الله تعالى ورضانا قوتهم وشجاعتهم وليقدم تقوى الله تعالى بين يديه ويجعل توفيقه العمدة فيما اعتمد فيه عليه والخير يكون إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة مرسومٍ شريف بربع إمرة بني مهدي أيضاً: أما بعد حمد الله على نعمه التي جددت لمن أخلص في الطاعة رتب السعود ورفعت من نهض في الخدم الشريفة حق النهوض إلى مناصب الجدود والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ المخصوص بلواء الحمد المعقود وظل الشفاعة الممدود والحوض الذي لا ينضب على كثرة الورود وعلى آله وصحبه الذين وفوا بالعهود وبدت سيماهم في وجوههم من أثر السجود - فإن أولى من اجتلى وجوه النعم واجتنى ثمرة ما غرس من الخدم وارتقى إلى ما أنعم به عليه من التقدم الذي أقامه السعد لاستحقاقه على أثبت قدم - من نشأ في طاعتنا الشريفة يدين بولائها ويتقلب في خير نعمها وآلائها ويتعبد بما يؤهل له من خدمها ويبادر إلى ما يندب له من المهام الشريفة بين يدي مراسمنا أو تحت علمها.

ولما كان فلانٌ هو الذي ذكرت طاعته وشكرت خدمه وشجاعته - رسم.

أن يرتب في ربع إمرة بني مهدي على عادة من تقدمه وقاعدته.

فليرتب في ذلك قائماً بما يجب عليه من وظائفها المعروفة المألوفة وخدمها التي هي على ما تبرز به أوامرنا الجارية موقوفة وليكن هو وعربه بصدد ما يؤمرون به من خدمةٍ يبادرون إليه وطاعةٍ يثابرون عليها وتأهب للجهاد حيث سرت الجيوش المنصورة لم يبق لهم عائقٌ عن التوجه بين يديها وسياسةٍ تأخذهم من الطرائق الحميدة بسلوك ما يجب ويعرف بها سلوك ما يسلك واجتناب ما يجتنب والخير يكون إن شاء الله تعالى.

الثاني - مقدم زبيد.

ومنازل بعضهم بالمرج وغوطة دمشق وبعضهم بصرخد وحوران.

أما بعد حمد الله الذي أبقى بنا للنعم تأبيداً وأحسن العاقبة لأحسن عاقبةٍ أدام لهم فيها تخليداً وأحيا بهم منهم حياً نكتب لأميرهم وإمرتهم في كل حينٍ تقليداً ونفل منهم نوفلاً فلا نزال نجدد فيهم ملابس الفخار بذكر اسمه تجديداً ورعى بنا أبناء بيتٍ تناسقوا أبناءً وجدوداً وتباشروا بولدٍ لما خلف والده ابن سعيدٍ لا يكون إلا سعيداً والصلاة والسلام على نبيه محمدٍ الذي أهلك بسيفه كل غاشم وأخجل بسيبه كل غمام لوجنة الرياض واشم وأسعد بسببه نوفلاً وعبد شمسٍ بأخوتهما لهاشم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه خلاصة العرب صلاةً لا يعد ضريباً لها الضرب وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن العساكر المنصورة الإسلامية: منهم حاضرةٌ أهل جدار وباديةٌ في قفار وقومٌ هم المدن الممدنة وقومٌ عليها أسوار وهم صنفان: صنفٌ لا تمل السيوف عواتقهم وصنفٌ سيوفهم تحبس بها مناطقهم والعرب أكرم أهل البوادي وأعظم قبائلهم تضرماً كالبرق مباراةً للسحب الغوادي قد نصبوا بقارعة الطريق خيامهم وسرحوا مع أسراب الظباء سوامهم ووقفوا دون

الممالك المحروسة كتائب مصفوفة ومواكب بما تعرف به العرب من الشجاعة موصوفة وزبيد من أفخرها قبيلة وأكثرها فوارس: فأما أحسابها فكريمةٌ وأما وجوهها فجميلة شاميةٌ أعرقت أنساباً في يمنها وأتهمت بشطء أسنتها ما تفتح في المجرة من سوسنها فما يبيت بطلٌ منهم على دمن ولا يعرف فارسٌ إلا إذا تملى في الخليطين من شامٍ ومن يمن كم فيهم بمواقع الطعان فطنٌ ذو كيس وكم صبغ منهم بالدماء رايةً حمراء يمنيٌّ لا ينسب إلى قيس كم كرب على معد يكرب منهم فارس ونسب إلى زبيدٍ وهو خشن الملابس منهم صاحب الصمصامة بقي مثلها السيف فرداً وكم قتل من أقرانه الشجعان من أخٍ صالح وبوأه في العجاج بيديه لحداً ومن نجومهم الزواهر السراة وغيومهم الأكابر السراة من لم يزل حول دمشق وما يليها من حوران منارة منازل وأوطان حاموا عن جنابها المصون وحاموا حول غوطتها تشبهاً بحمائمها على الغصون وماثلوا بسيوفهم أنهارها ورماحهم حول دوحات الأيك أشجارها واستلأموا بمثل غدرانها دروعاً وحكوا بما أطلوا من دماء الأعداء شقائق روضها وبما جروا من حللهم المسهمة سيلاً ولم يزل لهم من البيت النوفلي من يجمع جماعتهم ويضم تحت راية الدولة الشريفة طاعتهم يخلف ابن منهم لأبيه أو أخٌ لأخيه وينتظم كل فرقد مع من يناسبه وينضاف كل كوكبٍ إلى من يؤاخيه.

وكان مجلس الأمير الأجل فلان بن فلان الزبيدي - أدام الله عزه - هو بقية من سلف من آبائه وعرف مثل الأسد القسورة بإبائه وانحصر فيه من استحقاق هذه الرتبة ميراث أبيه واستغرق جميع ما كان من أمر قومه وإمرتهم يليه.

فرسم بالأمر الشريف - زاده الله تعالى شرفاً وذخر به لكل سالفٍ خلفاً - أن يرتب في إمرة قومه من زبيد النازلين بظاهر دمشق وبلاد حوران المحروس على عادة أبيه المستقرة وقاعدته المستمرة إلى آخر وقت من غير تنقيصٍ له عن نجم سعده في سمةٍ ولا سمت تقدمهُ تشمل جميعهم ممن أعرق وأشأم وأنجد وأتهم لا يخرج أحدٌ منهم عن حكمه ولا ينفرد عن قسمه لا ممن هو في جدار ولا ممن هو مصحرٌ في قفار يمشي على ما كان عليه أبوه ويقوم فيهم مقامه الذي كان عليه هو وأولوه.

ونحن نوصيك بتقوى الله تعالى وباتباع حكم الشريعة الشريفة ما أقمت على بلدٍ أو أزمعت ارتحالاً وبجمع قومك على الطاعة فرساناً وركباناً ورجالاً واتباع أوامرها الشريفة وأمر نوابنا الذين هم بإزائهم وما اعتزاز من قبلك إلا لما مالوا إليه في اعتزائهم والتأهب أنت وقومك لما رسم به في ليل أو نهار وحماية حمىً أنتم حوله في صحراء مصحرة أو من وراء جدار والمطالعة بمن ينتقل من أصحابك بالوفاة والوصايا كثيرة ومثلك أيسر ما قال له امرءٌ كفاه والله تعالى يوفقك لما يرضاه ويؤثرك في كل أمرٍ للعمل بمقتضاه وسبيل كل واقف عليه العمل به بعد الخط الشريف شرفه الله تعالى وأعلاه أعلاه إن شاء الله تعالى.

النيابة الثانية من نيابات البلاد الشامية

نيابة حلب النوع الأول من بحاضرة حلب وهم على أصناف الصنف الأول منهم أرباب السيوف وهم على طبقتين الطبقة الأولى من يكتب له تقليدٌ وهو نائب السلطنة بها وتقليده في قطع الثلثين بالجناب الكريم وهذه نسخة تقليدٍ شريفٍ بنيابة السلطنة بحلب كتب به للأمير أستدمر من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهي: الحمد لله حافظ ثغور الإسلام في أيامنا الزاهرة بمن يفتر عن شنب النصر سيفه وناظم نطاق الحصون في دولتنا القاهرة على همم من لم يزل يغزو عدو الدين قبل طلوع طلائعه طيفه وناشر لواء العدل في أسنى ممالكنا بيد من لا يؤمن في الحق فوته ولا يرهب في الحكم حيفه ومدخر أجر الرباط في سبيله لمن لم يبت ليلة إلا والتأييد نزيله والنصر سميره والظفر ضيفه الذي جعل الجهاد في أطراف الممالك المحروسة سوراً لعواصمها والصعاد في مقاتل أعداء الدين شجناً في صدورها وشجى في غلاصمها والسيوف الحداد تزهى بمشاركتها لاسم من بليت منه أجساد أهل الكفر بقاسمها ورميت منه أعمارهم بقاصمها وأرهف لهذا الأمر من أوليائنا سيفاً تتحلى الشهباء بجواهر فرنده وتتوقع الأعداء مواقع فتكاته قبل تألق برقه من سحب غمده ويعرف أهل الكفر مضاربه التي لا تطيق مقاتلهم جحدها وتتفرق عصب الضلال فرقاً من مهابته التي طالما أغارت على جيوشهم المتعددة وحدها.

نحمده على نعمه التي جعلت النصر لأجياد ممالكنا عقوداً والكفر للهب صوارمنا وقوداً والتأييد من نتائج سيوفنا التي تأنف أن ترى في مضاجع الغمود رقوداً ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تعلي منار الهدى وتطفيء أنوار العدا وتخلي أجساد أهل الكفر من قوى أرواحهم فتغدو كديارهم التي لا يجيب فيها إلا الصدى ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أعلى الله بناء الإيمان بتأذينه وأيدنا في الذب عن ملته بكل ولي يتلقى راية النصر بيمينه وأعاننا على مصالح أمته بكل سيفٍ تتألق نار الأجل من زنده ويترقرق ماء الحياة من معينه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين وسمت أسنتهم من وجوه الكفر أغفالاً وكانت سيوفهم لمعاقل أهل الشرك مفاتح فلما فتحت غدت لها أقفالاً فمنهم من فاز بمزية السبق إلى تصديقه ومنهم من

كان الشيطان ينكب عن طريقه ومنهم من أمر بإغماد سيف الانتصار لدمه عن مريقه ومنهم من حاز رتبة أختانه وصهره دون أسرته الكرام وفريقه صلاةً دائمة الخلود مستمرة الإقامة في التهائم والنجود وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من حليت التقاليد بلآليء أوصافه وملئت الأقاليم بمواقع مهابته وإنصافه وريعت قلوب العدا بطروق خياله قبل خيله وخاف الكفر كل شيءٍ أشبه ظباه من توقد شموس نهاره أو حكى أسنته من تألق نجوم ليله ومد على الممالك من عزماته سورٌ مصفحٌ بصفاحه مشرفٌ بأسنة رماحه ساميةٌ على منطقة الجوزاء منطقة بروجه نائيةٌ على أماني العدا مسافة رفعته فلا يقدر أمل باغٍ على ارتقائه ولا رجاء طاغٍ على ولوجه - من تمهدت بسداد تدبيره الدول وشهدت بسير محاسنه السير الأول وتوطدت الممالك على أسنته فحققت أن أعلى الممالك ما يبنى على الأسل وسارت في الآفاق سمعته فكانت أسرى من الأحلام وأسبق من الأوهام وأسير من المثل وصانت الثغور صوارمه فلم يشم برقها إلا أسيرٌ أو كسير أو من إذا رجع إليها بصره انقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير وزانت الأقاليم معدلته فلا ظلم يغشى ظلامه ولا جور يخشى إلمامه ولا حق تدحض حجته ولا باطل يعلو كلامه فالبلاد حيث حل بعدله معمورة وبإيالته مغمورة وسيوف ذوي الأقلام وأقلامهم بأوامره في مصالح البلاد والعباد منهيةٌ ومأمورة.

ولما كان الجناب العالي هو الذي عانق الملك الأعز نجاده والليث الذي لم يزل في سبيل الله إغارته وإنجاده والكمي الذي كم له في جهاد أعداء الله من موقف صدقٍ يضل فيه الوهم وتزل فيه القدم والهمام الذي إن أنكرت أعناق العدا مواقع سيوفه فما بالعهد من قدم والمقدام الذي لا ننكر مشاهده في إرغام الكفر ولا تكفر والزعيم الذي حمت مهابته السواحل فخاف البحر: وهو العدو الأزرق من بأسه الأحمر على بني الأصفر والمقدم الذي كم ضاقت بسرايا شيعته الفجاج! وكم أشرقت نجوم أسنته من أفق النصر في ظلم العجاج! وكم حمى العذب الفرات على البعد بسيوفه وهي مجاورةٌ للملح الأجاج!! مع سطوةٍ أنامت الرعايا في مهاد أمنها ورأفةٍ عمرت البرايا بعافطة إقبالها ويمنها ورفقٍ تكفل لسهل البلاد وحزنها بإعانة مزنها وشجاعةٍ أعدت الجيوش التي قبله فغدت آحادها ألوفاً وفتكاتٍ عودت الطير الشبع من وقائعه فباتت على راياته عكوفاً ومعدلةٍ عمت من في إيالته فأضحى الضعيف في الحق قوياً عنده والقوي في الباطل ضعيفاً.

وكانت البلاد الحلبية المحروسة هي المملكة التي لا تجارى شهباؤها في حلبة فخار والرتبة التي لا يؤهل لها من خواص الأولياء الأعزة إلا من استخرنا الله تعالى في تقليد جيد مفاخره بلآليء كفالتها فخار فهي سور الممالك الذي لا تتسوره الخطوب وأم الثغور التي ما برح يسفر بابتسامتها عن شنب النصر وجه الزمن القطوب وموطن الرباط الذي كل يوم وليلة فيه خير من الدنيا وما فيها وعقيلة الأقاليم التي كم أشجى قلوب الملوك الأكابر صدودها وأسهر عيون العظماء الأكاسرة تجافيها بل هي عقدٌ دره حصونه وروضٌ سيوف الكماة جداوله ورماح الحماة غصونه وحمى لم تزل عيون عنايتنا بعون الله تحفه وأيدي تأييدنا بقوة الله تصونه - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نرهف بحمايتها هذا السيف الذي تسابق الأجل مضاربه وتبطل الحيل تجاربه ويتقدم خبر عزائمه خبرها فلا يدرى: هل ريح الجنوب أسرى وأسرع أم جنائبه وتبث مهابته أمام سراياه إلى العدا سرايا رعبٍ تفل جمعهم وتسبق إلى التحرز من بأسه بصرهم وسمعهم وتسفر بكل أفق عن شيعة مغيرة أو كتيبةٍ تجعلها لمعالي النصر الكامنة مثيرة.

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي - لا زالت أوامره مبسوطةً في البسيطة وممالكه محوطةً بمهابته الشاملة ومعدلته المحيطة - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالمملكة الحلبية: تفويضاً يعوذها من عيون العدا بآيات عزائمه ويعودها اجتناء ثمر المنى والأمن من ودق صوارمه وينظم دراري الأسنة من أجياد حصونها في مكان القلائد ويجعل كماة أعدائها لخوفه أضعف من الولدان وأجبن من الولائد ويجرد إلى مجاوريها من همته طلائع تحصرهم في الفضاء المتسع وتسد عليهم مجال الأرض الفسيحة فيغدو لهم حزنها الحزن الشامل وسهلها السهل الممتنع.

فليتقلد هذه الرتبة التي بمثلها تزهى الأجياد وبتقليدها يظهر حسن الانتقاء لجواهر الأولياء والانتقاد وبتفويضها إلى مثله يعلم حسن الارتياد لمصالح البلاد والعباد وليزد جيوشها المنصورة إرهاباً لعدوهم وإرهافاً لصوارم الجهاد في رواحهم وغدوهم وإدامةً للنفير الذي حببه الله إليهم وقوةً على مجاوريهم من أهل النفاق الذين يحسبون كل صيحةٍ عليهم فإنهم فرسان الجلاد الذين ألفوا الوقائع وأسوار الفرات الذين عرفوا في الذب عن ملتهم بحفظ الشرائع وكشافة الكرب الذين لا يزال لهم في سائر بلاد العدا سرايا وعلى جميع مطالع ديار الكفر طلائع وهم بتقدمته تتضاعف شجاعتهم وتزيد استطاعتهم وطاعتهم وليأخذهم بمضاعفة الأهب وإدامة السعي في حفظ البلاد والذب والتشبه بأسود الغابات التي همها في المسلوب لا السلب وليهتم بكشف أحوال عدو الإسلام ليبرح آمناً على الأطراف من حيفهم متيقظاً لمكايدهم في رحلتي شتائهم وصيفهم مفاجئاً في كل منزل بسيرٍ يروع سربهم ويكدر شربهم ويجعل روح كل منهم من خوف قدومه نافرةً عن الجسد ويسلبهم بتوقع مفاجأته القرار ولا

قرار على زأرٍ من الأسد ولا تزال قصاده بأسرار قلوب الأعداء مناجية ولا تبرح له من أعيان عيونه بين العدا فرقة ناجية وليحتفل بتدريج الحمام التي هي رسل أعنته وإقامة الديادب الذين إذا دعوا همهمةً بألسنة النيران لبتهم ألسنة أسنته وليمت قلوب أعدائه بوجل لقائه قبل الأجل وليزد في الحزم على ابن مزيدٍ الذي لم ير في الأمن إلا في درعٍ مضاعفة لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل وليجعل أحوال القلاع المحروسة دائماً بمرأى منه ومسمع ويشيدها من ملاحظته باحتفال لا يدع لشائم برقها وحمول أموالها مطمعاً فقد استكمل حسن النظر في مصالحها أجمع وليقم منار الشرع الشريف بمعاضدة حكامه والانقياد إلى أحكامه والوقوف مع نقضه وإبرامه: فليجعل حكم الشريعة المطهرة أمامه وإمامه وليقم أمر الله فيمن اقتاده الشرع إلى حكمه فجاذب زمامه ويعظم حملة العلم الذي أعلى مناره وأفاض على الأمة أنواره وحفظ بهم على الملة سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وآثاره وليكن لأقدارهم رافعاً ولمضارهم دافعاً ولأوقافهم بجميل الاحتفال عامراً وفي مصالحهم بتحلية الأحوال آمراً ولينشر لواء العدل الذي أمر الله بنشره ويشفعه بالإحسان الذي هو مألوفٌ من سجاياه ومعروفٌ من طلاقة بشره ويمد على الرعايا ظل رأفته الذي يضفي في النعم لباسهم ويديم إلفهم بالرفاهية واستئناسهم ويقم حكم سياسته على من لم يستقم ويقف مع رضا الله تعالى في كل أمر: فإذا رحم فلله فليرحم وإذا انتقم فلغير الله لا ينتقم وليعتن بعمارة البلاد ببسط العدل الذي ما احتمى به ملكٌ إلا صانه والرفق الذي لم يكن في شيءٍ إلا زانه وتوخي الحق الذي من جعله نصب عينيه وفقه الله له وأعانه.

وكذلك أمر الأموال: فإنها ذخيرة الملك وعتاده ومادة الجيش الذي إذا صرفت إلى مصالحهم هممه لم يخش عليه انقطاعه ولا نفاده وجميع الوصايا قد ألفنا من سيرته فيها فوق ما نقترح وخبرنا من مقاصده فيها ما يقول للسان قلمها: قد عرفت ما أومأت إليه من مقاصدك فاسترح وملاكها تقوى الله تعالى ورضانا وهو المألوف من عدله وإنصافه والله تعالى يديمها بتأييده وقد فعل ويجعله من أركان الإسلام وأعلام المسلمين وقد جعل بمنه وكرمه والاعتماد.

إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليدٍ شريفٍ بنيابة حلب أيضاً كتب بها عن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون للأمير شمس الدين قراسنقر بإعادته إليها من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهي: الحمد لله الذي جعل العواصم بإقامة فرض الجهاد في أيامنا الشريفة معتصمة والثغور بما تفتر عنه من شنب النصر في دولتنا القاهرة مبتسمة والصوارم المرهفة في أطراف الممالك بأيدي أوليائنا لأرواح من قرب أو بعد عنها من الأعداء مقتسمة والحصون المصفحة بصفاحنا بأعلام النصر معلمة وبسيما الظفر متسم معلي قدر من أحسن في مصالح الإسلام عملاً ورافع ذكر من يبسط إلى عز طاعة الله ورسوله وطاعتنا أملاً ومجدد سعد من تلبس الأقلام من أوصافه أفخر الحلل إذا خلعت من المحامد على أوصافه حللاً ومفوض زعامة الجيوش بمواطن الرباط في سبيله إلى من إذا فللت مقاتل العدا سيوف الجلاد كانت عزائمه من السيوف المرهفة بدلاً.

نحمده على نعمه التي جعلت طاعتنا من آكد أسباب العلو وخدمتنا من أنجح أبواب الرفع بحسب المبالغة في الخدمة والغلو ونعمنا شاملةً للأولياء بما يربي على طوامح الآمال في البعد والدنو ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تستنزل بها مواد النصر والظفر وتستجزل بها ذخائر التأييد التي كم أسفر عنها وجه سفر وترهف بها سيوف الجهاد التي كم آلفت من آمن وكفت من كفر ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أنزل سكينته عليه وزويت له الأرض فرأى منها ما يبلغ ملك أمته إليه وعرضت عليه كنوز الدنيا فأعرض عما وضع من مقاليدها بيديه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين رضي الله عنهم صلاةً دائمة الظلال آمنة شمس دوامها من الزوال وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن أولى من طوقت أجياد الممالك بفرائد أوصافه وفوقت إلى مقاتل العدا سهام مهابته التي تحول منهم بين كل قلبٍ وشغافه وخصت به أم الثغور التي در لها حلبها ومدت عليها أفياء النصر الممدودة ذوابلها وقضبها وأهدى أرج التبلج افترارها وشنبها - من تقوم مهابته مقام الألوف وتجتني سمعته من ذوابل العزائم ثمر النصر المألوف ويسبق خياله سرايا خيله التي هي أسرى من هوج الرياح إلى هزم الجموع وتفريق الصفوف وتنظيم أسنة رماحه في الوغى قلوب العدا نظم السطور وتنثر صفاحه رؤوسهم نثر الحروف وتحيط بنطاق الممالك المتطرفة صوارمه إحاطة الأسوار بالحصون والخمائل بالغصون والهالات بالأقمار والجوانح بالأسرار ولا تبيت ملوك العدا منه إلا على وجل ولا يرى في الأمن إلا في درعٍ مضاعفةٍ لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل ولا يخفى عن ألمعيته ما يضمر الأعداء من الحركات قبل إظهارها ولا يبعد على عزماته ما هي مليةٌ به من بدارها أعداء الدين بدارها وإذا جلس لنشر المعدلة تبرأ الظلم من فكر جواز البغي والجور على إنسان وشفع ما تصدى من ذلك بما أمر الله به من العدل والإحسان.

ولما كان الجناب العالي الفلاني هو الذي ملئت قلوب العدا برعبه وانطوت قلوب الرعايا على حبه وتهللت وجوه المنى في سلمه واستهلت سحب المنايا في حربه وجمع بين حدة البأس ولطف التقى فكان هو الكمي الذي شفع الشجاعة بالخضوع لربه وحاط ما وليه من الأقاليم بسوري بأسه وعدله فبات كل أحدٍ وادعاً في مهاده آمناً في سربه وأغارت سرايا مهابته قبل طلوع طلائعه فأصبح كل من العدا أسير الذعر قبل إمساكه قتيل الخوف قبل ضربه مع احتفال بعمارة البلاد أعان السحب على ريها واشتمالٍ على مصالح العباد قام في تيسير أرزاقهم مقام وسمي الغمائم ووليها وتيقظ لمصالح الثغور أنام عنها عيون الخطوب وإشراقٍ في أفق المواكب سا وجه الدين نور البشر ووجه الكفر ظلام القطوب.

وكانت المملكة الحلبية عقيلة المعاقل وعصمة العواصم وواسطة عقود الممالك وسلك فرائد النصر التي كم أضاءت بها إلى الكفر وجوه المسالك لا تدرك في مضمار الفخار شهباؤها ولا ترى إلا كما ترى النجوم في عيون العدا حصباؤها ولها من الحصون المصونة كل قلعة يتهيب الطيف سلوك عقابها ويتقاصر لوح الجو عن منال عقابها فهي عزيزة المنال إلا على كريم كفائته بعيدة مجال الآمال إلا على ما ألفت من إيالة كفايته سامية الأفق إلا على شمسه نابية الطرف إلا على ما عرفت من سلوكه في أمسه ظامية الغروس التي أنشأها في مصالحها إلى ما اعتادته من سقيا غرسه - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نزيدها إشراقاً بشمس جلاله واعتلاءً بسيفه الذي رياض الجنة تحت ظلاله وأن نعيد أمرها إلى من طالما حسن عدله بقعتها وحصن بأسه قلعتها وأطارت مهابته سمعتها وأطالت سيرته سكون رعاياها في مهاد الأمن وهجعتها وأعاد وجوده أحوال مجاوريها من العدا إلى العدم وأباد سيفه أرواح معانديها: فلو أنكرته أعناقهم لم يكن بالعهد من قدم.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زالت شمس عدله مشرقةً في الوجود وغيث فضله مستهل الجود في التهائم والنجود - أن تفوض إليه.

تفويضاً يحدد ارتفاعها ويعمر وهادها وبقاعها ويؤيد اندفاع مضارها وانتفاعها ويعيد الإشراق إلى مطالعها والأمور إلى مواقعها من سداد التدبير ومواضعها والإقدام إلى جيوشها وأبطالها والشجاعة إلى حماتها ورجالها.

فليطلع في أفق مواكبها طلوع نعته الكريم ويجر في جوانبها ما ألفته من موارد عدله الذي فارقه غمامه وأثر سيله مقيم ويعاود مصالح تلك المملكة التي لا تصلح أمورها إلا عليه ويراجع عصمة تلك العقيلة التي لا تطمع أبصار عواصمها إلا إليه ويلق في قلوب مجاوريها ذلك الرعب الذي نعى إلى كل منهم نفسه وأسلاه عماه في يديه ويثبت تلك المهابة التي جعلت منايا العدا براحته يأمرها فيهم وينهاها وينشر في الرعايا تلك المعدلة التي هي كالشمس: لا تبتغي بما صنعت منزلةً عندهم ولا جاها ولتكن أحوال عدو الإسلام بمرأىً منه على عادته ومسمع ويكف أطماع الكفار على قاعدته فلا يحدث لهم إلى شيم برق الثغور مطمحٌ ولا في العلم بشنبها مطمع وليكن من أرصاده نهار عدو الدين وليله ومن أمداده مجاز الجهاد وحقيقته فلا يبرح يبيتهم خياله إذا لم تصبحهم خيله ولا يبرح له من أعيان عيونه بين العدا فرقةٌ ناجية وطائفةٌ بأسرار قلوب القوم مناجية لتكون له مقاتلهم على طول الأبد بادية وتغدو منازلهم خاويةً بين سراياه الرائحة والغادية.

وليتعاهد أحوال الجيوش بإدامة عرضها وإقامة واجبات القوة وفرضها وإطالة صيت السمعة المشهورة لكماتها في طول بلاد العدا وعرضها وإزاحة أعذارها للركوب وإزالة عوائق ارتيادها للوثوب وإعداد العدد التي لها من أيديهم طلوعٌ وفي مقاتل أعدائهم غروب وليتفقد أحوال الحصون المصونة بسداد ثغورها وسداد أمورها وإزاحة أعذار رجالها وإرهاف همم حماتها التي تضيق على آمال العدا سعة مجالها وتوفير ذخائرها وتعمير بواطنها وظواهرها وتحصين مسالكها التي يرهب الخيال المتولي إلى العيون وليعل منار الشرع الشريف بتشييد مناره وإحكامه وتنفيذه لقضايا قضاته وأحكام حكامه والوقوف في كل أمر مع نقضه في ذلك وإبرامه ورفع أقدار حملة العلم على ما ألفوه من الرفعة والسمو في أيامه.

ولتكن وطأة بأسه على أهل الفساد مشتدة وأوامره متقدمةً بوضع الأشياء في مواضعها: فلا توضع الحدة موضع الأناة ولا الأناة موضع الحدة.

وليراع عهود الموادعين مهما استقاموا ويجمع عليهم أن يكفوا أنامل بأسه التي هم في قبضتها رحلوا أو أقاموا ولتخبر ألسنة النيران بشبها على اليفاع والآكام من قدم لمكيدة أو طعن بمطار الحمام - وجميع ما يتعلق بهذه المرتبة السنية من قواعد فإلى سالف تدبيره ينسب ومن سوابق تقريره وتحريره يحسب فهو ابن بجدتها وفارس نجدتها ومؤثل قواعدها ومؤثر ما حمد من امتداد عضدها إلى مصالح الإسلام وساعدها فليفعل في ذلك ما يشكره الله والإسلام عليه ويثبت الحجة عند الله تعالى في إلقاء

المقاليد إليه وملاك الوصايا تقوى الله وهي سجية نفسه وثمرة ما اجتنى في أيام الحياة من غرسه ونشر العدل والإحسان فبهما تظهر مزية يومه الجميل على أمسه والله تعالى يجعل نعمه دائمة الاستقبال وشمسه آمنة من الغروب والزوال والاعتماد.

الطبقة الثانية من يكتب له في قطع الثلث بالمجلس السامي

وفيها وظائف الوظيفة الأولى نيابة القلعة بها وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بنيابة قلعة حلب: الحمد لله معلي قدر من تحلى بالأمانة والصون ورافع مكانة من كان فيما عرض من العوارض نعم العون ومؤهل من أرشدنا إليه للاجتباء حسن الاختبار ومبلغ الإيثار من شكرت عنه محامد الآثار.

نحمده حمد الشاكرين ونشكره شكر الحامدين ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلصٍ في اعتقاده مبرإٍ من افتراء كل جاحدٍ وإلحاده ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أرسله بالحق بشيراً ونذيراً وأيده بسلطانٍ منه وطهر به الأرض من دنس الضلال تطهيراً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً لا يزال علم العلم بها منشوراً وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن العناية بالحصون توجب أن لا يختار لها إلا من هو مليٌّ بحفظها موفر لها من حسن الذب غاية حظها حسن المرابطة مبرأً من دنس الأفعال الساقطة ذو قلبٍ قويٍّ وقالب وعزمٍ ما زال لمهمات الأمور أشجع مغالب إذ هو للمرابطين بها أوثق حرزٍ حريز وأصون حجابٍ لمبارزة ذوي التبريز فتصبح به مستوراً عوارها كاتمةً لأسرارها أسوارها تخاطلب منازليها من مجانيقها بأبلغ لسان وتشافه ملاجيها من أنفة أنفها إلا أنه بأعلى مكان.

ولما كانت القلعة الفلانية بهذه المنزلة الرفيعة والمكانة التي كل مكانةٍ بالنسبة والإضافة إلى علو مكانها المكانة الوضيعة - اخترنا لها وابتغينا واستوعبنا بالتأهيل لنيابتها ولم نترك في استيعابنا ولا أبقينا فلم نجد لولايتها كفأً إلا من نظمت عقود هذا التقليد لتقليده ورتلت سور هذه المحامد بمبديء لسان تقريظه ومعيده إذ هو أوثق من يلقى إليه إقليدها وأكفأ من ينجز به موعودها إذ كان المكين والثقة المتحلي إذ كان التحلي مما يزين العاطل المشين إن ذكر الرأي فهو المتصف بسديده أو العزم فهو الموسوم بشديده أو التثبت فهو من صفة شجاعته أو حسن المظافرة فهو الباذل فيها جهد استطاعته.

زاده الله مضاءً ونفاذاً واستحواءً واستحواذاً - ولما كانت هذه المناقب مناقبه وهذه المذاهب مذاهبه رسم بالأمر الشريف العالي - أن تفوض نيابة السلطنة بالقلعة الفلانية وما هو منسوبٌ إليها من ربضٍ ونواح وقرىً وضواح للمجلس السامي فلان.

فليرق إلى رتبتها المنيف قدرها المهم سرها وجهرها وليكن من أمر مصالحها على بصيرة ومن تفقد أحوالها على فطنةٍ ما زالت منه مخبورة وليأخذ محرزها من الجند وغيرهم بالملازمة لما عدق به من الوظائف ويتقدم إلى واليها مع طوافها أول طائف وليتفقد حواصلها من الذخائر وواصلها من التبذير بمن يرتبه على حفظها من الأخاير ومهما عرض يسرع بالمطالعة بأمره والإعلام بنفعه وضره.

هذه نبذةٌ كافيةٌ للوثوق بكفايته والعلم بسديد كفالته والله تعالى يحسن له الإعانة ويجزل له

الوظيفة الثانية شد الدواوين بحلب

وهذه نسخة توقيع بشد الدواوين بحلب: الحمد لله الذي أرهف في خدمة دولتنا كل سيفٍ يزهى النصر بتقليده ويروى نبأ الفتح عن تجربته في مصالح الإسلام وتجريده ويروى حده إذا قابله عدو الدين من قلب قلبه وموارد وريده.

نحمده على نعمه السابغة حمد متعرضٍ لمزيده ونشكره على منته السائغة شكر مستنزلٍ مواد تأييده ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقرٍّ بتوحيده مسرٍّ مثل ما يظهر من الخضوع لكبرياء تقديسه وتمجيده مصرٍّ على جهاد من ألحد في آياته بنفسه وجنوده ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من دعت دعوته الأمم إلى الاعتراف بخالقها بعد جحوده وأنجز لأمته من الاستيلاء على الكفر سابق وعوده وأمال به عمود الشرك فأهوى إلى الصعيد بعد صعوده صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ما منهم إلا من بذل في طاعة الله وطاعته نهاية مجهوده وأطفأ نار الكفر بعد وقودها بإيقاد لهب الجهاد بعد خموده صلاةً تقترن بركوع الفرض وسجوده وتقام أركانها في أغوار الوجود ونجوده وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى ما أجملنا في مصالحه النظر وأعملنا في ارتياد الأكفاء له بوادر الفكر واخترنا له من الأولياء من كان معدوداً من خواصنا محبوباً بمزيد تقريبنا ومزية اختصاصنا أمر الأموال الديوانية بالمملكة الحلبية وتفويض شد دواوينها المعمورة إلى من تضاعفها رتبته المكينة ونزاهته المتينة ويده التي هي بكمال العفة مبسوطة وخبرته التي بمثلها يحسن أن تكون مصالح الدولة القاهرة منوطة ومنزلته التي تكف عن الأموال الأطماع العادية ومهابته التي تكفي الأولياء من ضبط الأعمال بما يروي الآمال الصادية لأنها مواد الثغور التي ما برحت عن شنب النصر مفترة وأمداد الجيوش التي جعل الله لها أبداً على أعدائه الكرة ورياض الجهاد التي تجتنى منها ثمرات الظفر الغضة وكنوز الملك التي ينفق منها في سبيل الله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

ولما كان فلانٌ هو الذي اخترناه لذلك على علم ورجحناه لما اجتمع فيه من سرعة يقظةٍ وأناة حلم وندبناه في مهماتنا الشريفة فكان في كل موطنٍ منها سيفاً مرهفاً واخترناه فكان في كل ما عدقناه به بين القوي والضعيف منصفاً وعلمنا من معرفته ما يستثير الأموال من مكامنها ومن نزاهته ما يظهر أشتات المصالح من معادنها ومن معدلته ما يمتع الرعايا باجتناء ثمر المنى من إحسان دولتنا القاهرة واجتلاء محاسنها - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نحلي جيد تلك الرتبة بعقود صفاته الحسنة وأن ننبه على حسن همه التي ما برحت تسري إلى مصالح الدولة القاهرة والعيون وسنة.

فلذلك رسم أن يفوض إليه ذلك تفويضاً يبسط في مصالح الأموال لسانه ويده ويقصر على مضاعفة ارتفاع الأعمال يومه الحاضر وغده ويحسن بسد الخلل وتتبع الإهمال مصدره الجميل وموارده ويجعل له في مصالحها العقد والحل والتصرف النافذ في كل ما دق من الأموال الديوانية وجل.

فليباشر ذلك بهمةٍ علمنا في الحق مواقع سيفها وأمنا على الرعايا بما اتصفت به من العدل والمعرفة من مواقع حتفها وأيقظت العيون الطامحة لسلوك ما لا يجب بما لم تزل تتخيله من روائع طيفها وليثمر الأموال بالجمع في تحصيلها بين الرغبة والرهبة ويجعل ما يستخرج منها ببركة العفة والرفق: " كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل في كل سنبلةٍ مائة حبة ".

وليعف أثر الحمايات ورسمها ويزل بالكلية عن تلك الممالك الحسنة وسمها القبيح واسمها وليكن مهم الثغور هو المهم المقدم لديه والنظر في كلف القلاع المحروسة هو الفرض المتعين أداؤه عليه فيحمل إليها من الأموال والغلال ما يعم حواصلها المصونة ويكفي رجالها الفكر في المؤونة ويضاعف ذخائرها التي تعد من أسباب تحصينها ويصبح به حمل عامها الواحد كفاية ما يستقبله مع موالاة الحمول من سنينها وما عدا ذلك من الوصايا فقد ألقينا إلى سمعه ما عليه يعتمد وعرفناه أن تقوى الله أوفى ما به يستبد وإليه يستند بعد الخط الشريف.

وهم على طبقتين أيضاً: الطبقة الأولى من يكتب له في قطع الثلث بالسامي بالياء ويشتمل على وظائف منها: قضاء القضاة.

وبها أربعة قضاةٍ: من كل مذهب قاضٍ كما في الديار المصرية والشام.

والشافعي منهم هو الذي يولي بالبلاد كما في مصر والشام.

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعية: الحمد لله الذي رفع منار الشرع الشريف وأقامه ونور به كل ظلامٍ وأزال به كل ظلامة وجعله صراطاً سوياً للإسلام والسلامة الذي جعل القضاة أعلاماً بهم يهتدى ونصبهم حكاماً بمراشدهم يقتاد ويقتدى وأخذ بهم الحق من الباطل حتى لا يعتل في قضيةٍ ولا يعتدى والصلاة على سيدنا محمدٍ الذي أوضح الله به الطريق وأبدى به بين الحلال والحرام التفريق صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تتكفل لرغبات قائلها بالتحقيق.

وبعد فإن أحق ما وجهت الهمم إلى تصريفه وجهاً مسفراً وقربت إلى يد الاقتطاف من شجرته المباركة غصناً مثمراً وسهدت في الاختيار له والاصطفاء لحظاً ما زال للفكر في مصالح الأمة مسهراً - الشرع الشريف الذي حرس الله به حومة الدين وحمى جانبه وحفظ به أقوال الهدى عن المجادلة من المبتدعين وأطرافه من المجاذبة وكانت حراسته معدوقةً باختيار الأئمة الأعلام وموقوفةً على كل من يطاعن البدع عند الاستفتاء برماح الخط وليست رماح الخط غير الأقلام ومصرفة إلى كل منصفٍ في قضاياه حتى لو ترافعت إليه الليالي لأنصفها من الأيام.

ولما كان فلانٌ هو مدلول هذه العبارة ومرتمى هذه المشارة ومرتمق هذه الإشارة وقد حل من الممادح في محل صعب المرتقى على متوقله وطلع من منازل سعودها في بروج بعيدة الأوج إلا على سير بدره وتنقله وطالما حكم فأحكم وفصل ففصل وروجع فما رجع وعدل فعدل وشهدت مراتبه الشريفة بأنه خير من تنولها ميراثاً واستحقاقاً وأجل من كادت تزهو به مطالع النجوم إشرافاً وإشراقاً وكانت حلب المحروسة مركز دائرة لأيامه وسلك جوهر تصريفه الذي طالما تقلدت أحسن العقود بنظامه وقد افتخرت به افتخار السماء بشمسها والروضة بغرسها والأفهام بإدراك حسها والأيام بما عملته من خيرٍ في يومها وأسلفته في أمسها وقد اشتاقت إلى قربه شوق النفس إلى تردد النفس والليلة إلى طلوع النجم أو لا فإلى إضاءة القبس.

فلذلك خرج الأمر الشريف بأن يجدد له هذا التوقيع بالحكم والقضاء بالمملكة الحلبية وأعمالها وبلادها على عادته.

فليستخر الله تعالى وليستصحب من الأحكا ما همته مليةٌ باستصحابه ويستوعب من أمورها ما تتوضح المصالح باستيعابه ويقم بها منار العدل والإحسان وينهض بتدبير ما أقعده منها زمانة الزمان.

وعنده من الوصايا المباركة ما يستغني به عن المساهمة فيها والمشاركة لكن الذكرى النافعة عند مثله نافقة فإن لم يكن شعاع هلالٍ فبارقة وليتق الله ما استطاع ويحسن عن أموال اليتامى الدفاع ويحرس موجود من غاب غيبةً يجب حفظ ماله فيها شرعاً ويقطع سبب من رام لأسباب الحق قطعاً ولا يراع لحائفٍ حرمةً فإن حرمات الحائفين لا ترعى وينظر في الأوقاف نظراً يحرسها ويصونها ويبحث عنها بحثاً يظهر به كمينها والله تعالى يسدده في أحكامه بمنه وكرمه! قلت: وعلى ذلك تكتب تواقيع بقية القضاة بها من المذاهب الثلاثة الباقية.

ومنها: وكالة بيت المال المعمور.

وهذه نسخة توقيع من ذلك كتب بها لمن لقبه كمال الدين وهي: الحمد لله الذي جعل كمال الدين موجوداً في اقتران العلم بالعمل وصلاح بيت المال معهوداً في استناده إلى من ليس له غير رضا الله تعالى وبراءة الذمة أمل وارتقاء رتب المتقين مقصوراً على من بارتقاء مثله من أئمة الأمة تزهى مناصب الدول والاكتفاء بالعلماء محصوراً في الآراء المعصومة بتوفيق الله من الخلل.

نحمده على نعمه التي جعلت مهم مصالح الإسلام مقدماً لدينا واختصاص المراتب الدينية بالأئمة الأعلام محبباً إلينا ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً رفع الجهاد علمها وأمضى الاجتهاد كلمها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أشرقت سماء ملته من علماء أمته بأضوإ الأهلة ونطقت أحكام شرعته على ألسنة حملة سنته بأوضح الأدلة وبزغت شمس هدايته في تهائم الوجود ونجوده فانطوت بها ظلم الأهواء المضلة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نصحوا لله ولرسوله وآثروا رضاه على نفوسهم فلم يكن لهم مرادٌ سوى مراده ولا سولٌ غير سوله وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من تلقاه كرما بوجه إقباله واختارت له آلاؤنا من الرتب ما صده الإجمال في الطلب عن تعلقه بباله ورأى إحساننا مكانه من العلم والعمل فعدق به من مصالح المسلمين ما لم يتركه أولاً إلا موافقةً له لا رغبةً عن خياله ورعى برنا وفادته فاقتضى إعادته من مناصبه إلى ما لم يزل مشرق الأفق بكمال طلعته وطلعة كماله - من ظهرت لوامع فوائده وبهرت بدائع فرائده وتدفقت بحار فضائله وتألقت أشعة دلائله وتنوعت فنونه: فهو في كل علم ابن بجدته وفارس نجدته وحامل رايته وجواد مضماره الذي تقف جياد الأفكار دون غايته.

ولما كان فلانٌ هو هذا البحر الذي أشير إلى تدفقه والبدر الذي أوميء إلى كمال ما تألق به من أفقه وكانت وكالة بيت المال المعمور بحلب المحروسة من المناصب التي لا يتعين لها إلا من تعقد الخناصر عليه ويشار ببنان الاختصاص إليه ويقطع بجميل نهوضه فيما يوضع من المصالح الإسلامية بيديه وله في مباشرتها سوابق وآثارٌ إن لم تصفها ألسنة الأقلام أوحت بها تلك الأحوال الخالية وهي نواطق - اقتضت آراؤنا الشريفة إنعام النظر في الإنعام عليه بمكانٍ ألفه ومنصبٍ رفع ما أسلفه فيه من جميل السيرة قدره عندنا وأزلفه.

فرسم بالأمر الشريف - لا زال بابه ثمال الآمال وأفق السعد الذي لو أمه البدر لما فارق رتب الكمال - أن يفوض إليه كذا: لما ذكر من أسباب عينته وفضائل تزينت به كما زينته ووفادةٍ تقاضت له نزل الكرامة واقتضت له مواد الإحسان وموارده في السرى والإقامة.

فليل هذه الرتبة التي على مثله من الأئمة مدار أمرها وبمثل قوته في مصالحها يتضاعف در احتلابها ويترادف احتلاب درها مراعياً حقوق الأمة فيما جره الإرث الشرعي إليهم مناقشاً عن المسلمين فيما قصره مذهبه المذهب من الحقوق المالية عليهم واقفاً بالحق فيما يثبت بطريقة المعتبر تابعاً لحكم الله فيما يختلف سبيله وفيما يحرر بالعيان أو يحقق بالخبر محافظاً على ما يؤول إلى بيت المال بلطف تدقيقه وحسن تحقيقه وقبول الدافع بوجهه ودفعه بطريقه ولا يمنع الحق إذا ثبت بشروطه التي أعذر فيها ولا يدفع الواجب إذا تعين بأسبابه التي يتقاضاها الشرع الشريف ويقتضيها وهو الوكيل عن الأمة فيما لهم وعليهم ومتولي المدافعة عنهم فيما يقره الشرع بين يديهم فليؤد عنهم أمانة دينه ويجتهد لهم فيما وضعناه من أمر هذه الوكالة الشريفة بيمينه وملاك هذا الأمر الوقوف مع الحق الجلي والتمسك بالتقوى التي تظهر بها قوة الأمين وأمانة القوي والله تعالى يوفقه ويسدده.

قلت: وفي معنى ما تقدم من قطع الورق والألقاب الحسبة ونظر الأوقاف الكبار وخطابة الجوامع الجليلة وكبار التداريس وما يجري مجرى ذلك: إذا كتب به من الأبواب السلطانية وإلا فالغالب كتابة ذلك جميعه عن نائب السلطنة بها.

الطبقة الثانية من يكتب له في قطع العادة بالسامي بغير ياء

أو بمجلس القاضي قال في التثقيف: وهم من عدا القضاة الأربعة من أرباب الوظائف الدينية فيدخل في ذلك قضاء العسكر وإفتاء دار العدل وما يجري مجرى ذلك حيث كتب من الأبواب السلطانية.

الصنف الثالث من أرباب الوظائف

أرباب الوظائف الديوانية وهم على طبقتين الطبقة الأولى من يكتب له في قطع الثلث بالسامي بالياء وتشتمل على -بحلب وظائف منها: كتابة السر ويعبر عنها في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية - بصاحب ديوان المكاتبات وربما قيل: صاحب ديوان الرسائل.

قال في التثقيف: وربما كتب له في قطع النصف.

وهذه نسخة توقيع شريفٍ من ذلك وهي: الحمد لله الذي زان الدولة القاهرة بمن تغدو أسرارها من أمانته في قرارٍ مكين وحلى أيامنا الزاهرة بمن تبدو مراسمها من بلاغته في عقد ثمين ومجمل الكتب السائرة بمن إذا وشتها براعته ويراعته قيل: هذا هو السحر البياني إن لم يكن سحرٌ مبين.

نحمده على نعمه التي خصت الأسرار الشريفة بمن لم يرثها عن كلالة ونصت في ترقي مناصب التنفيذ على من يستحقها بأصالة الرأي وقدم الأصالة ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً رقم الإخلاص طروسها وسقى الإيمان غروسها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي آتاه جوامع الكلم ولوامع الهدى والحكم صلى الله عليه وعلى آله وصبحه الذين كتب في قلوبهم الإيمان وكبت بهم أهل الطغيان صلاةً يشفعها التسليم ويتبعها التعظيم وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى الرتب بإرتياد من تعقد على أولويته الخناصر ويعتمد على أصالته التي ما برحت في الاتصال والاتصاف بها ثابتة الأواصر ويعتقد في أمانته التي تأوي بها الأسرار إلى صخرةٍ أعيا الرجال انصداعها ويعتضد بفضائله التي يقل في كثير من الأكفاء اجتماعها ويعول فيها على بلاغته التي أعطت كل مقامٍ حقه من الإطناب والإيجاز ويرجع فيها إلى بديهته التي جرت بها سوابق المعالي إلى غاية الحقيقة في مضمار المجاز - رتبةٌ هي خزانة سرنا وكنانة نهينا وأمرنا فلا يتعين لبلوغها إلا من ومن ولا يعين لتلقيها وترقيها إلا أفراد قل أن يكثر مثلهم في زمن ولا يحسن أن تكون إلا في بيتٍ عريقٍ في أنسابها وثيقٍ في تمكن عرا أسبابها عليم بقواعدها التي إذا اشتبهت طرق آدابها كان أدرى بها.

ولما كان فلانٌ هو الذي ذكرت أسباب تعينه لهذه الرتبة وتعيينه وفتحت أبواب أولويته بتلقي راية هذا المنصب بيمينه مع أدواتٍ كملت مفاخره وصفاتٍ جملت مآثره وكتابةٍ إذا جادت أنواؤها أرض طرسٍ أخذت زخرفها وإذا حاذت أنوارها وجه سماءٍ ودت الدراري لو حكت أحرفها وبلاغةٍ إن أطرت بوصفٍ أغارت الفرائد وأعارت دررها القلائد وأتت من رقة المعاني بما هو أحسن من دموع التصابي في خدود الخرائد وإن أغرت بعدوٍّ أعانت على مقاتله السيوف ودلت على مكامنه الحتوف وديانةٍ رفعته عند الله وعندنا إلى المكان الأسنى وصيانةٍ جمعت له من آلائنا واعتنائنا بين الزيادة والحسنى وأمانةٍ أغنته

بجوهر وصفها الأعلى عن التعرض إلى العرض الأدنى وبراعةٍ اعتضد بها يراعه في بلوغ المقاصد اعتضاد الرقص بالمغنى.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه كذا فليبشر بتلقي هذا الإحسان بيد الاستحقاق وليتلق عقود هذا الامتنان الذي طالما قلده فخره الأعناق وليباشر ذلك مباشرةً يسر خبرها ويسري خبرها ويشنف الأسماع تأثيرها وأثرها وليسلك فيها من السداد ما يؤكد حمده ومن حسن الاعتماد ما يؤيد سعده والوصايا كثيرةٌ وهو بها خبيرٌ عليم حائزٌ منها أوفر الأجزاء وأوفى التقسيم وملاكها تقوى الله فليجعلها عمدته وليتخذها في كل الأمور ذخيرته والله تعالى يضاعف له من لدنا إحساناً ويرفع له قدراً وشأناً والاعتماد في ذلك على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه.

ومنها: نظر المملكة الحلبية القائم مقام الوزير.

وهذه نسخة توقيع من ذلك: كتب به لعماد الدين سعيد بن ريان بالعود إليها وهي: الحمد لله رافع قدر من جعل عليه اعتماداً ومجدد سعد من غدا في كل ما يعدق به من قواعد النظر الحسن عماداً ومسني حمد من تكفل له جميل التصرف أن لا تبعد الأيام عليه مراداً ومجزل مواد النعم لمن إذا استمطر قلمه في المصالح همى فافتن أفنانا وأينع تثميراً وأثمر سداداً وإذا أيقظ نظره في ملاحظة الأعمال استجلى وجوه المصالح انتقاءً لما خفي منها وانتقاداً.

نحمده على نعمه التي لا تزال النعم بها مجددة والقواعد موطدة والكرم معاداً وآلائه التي جعل لها الشكر ازدياناً على الأبد وازدياداً ومننه التي لا يقوم بها ولا بأداء فرضها الحمد ولو أن ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ أو كان البحر مداداً ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تألو هممنا اجتهاداً في إعلاء منارها وجهاداً ولا تكبو جياد عزائمنا دون أن تسنها من الجاحدين قلوباً وتجري بها من المنكرين ألسنةً وتقلدها من المشركين أجياداً ولا تنبو صوارمنا حتى تتخذ لها من وريد كل معاندٍ مورداً ومن قمم كل ناكثٍ أغماداً ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أسرى الله به إليه فبلغ في الارتقاء سبعاً شداداً وأنزل عليه أشرف كتبه بياناً وأعجزها آيةً واوضحها إرشاداً وبعثه إلى الأحمر والأسود فسعد من سعد به إيماناً وشقي من شقي به عناداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين لم يألفوا في طاعة الله وطاعته مهاداً صلاةً لا تستطيع لها الدهور نفاداً ولا تملها الأسماع تعداداً وترداداً وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من سما به منصبه الذي عرف به قديماً وزهيت به رتبته التي لم يزل فيها لاقتناء الشكر مستديماً وتحلت به وظيفته التي لم يبرح يلبس بها ثوب الثناء قشيباً ويجر بها رداء السعد رقيماً وتقاضت له عوارفنا معارفه التي لم يزل عقدها في جيد المراتب السنية نظيماً وتطلع إليه مكانه فكأنه بقدم هجرته لم يبرح فيه وإن بعد عنه مقيماً - من لم يزل قلمه بصرفه في أسنى ممالكنا الشريفة كاسمه سعيداً وطرف نظره فيما يليه من المناصب السنية يريه من المصالح ما كان غائباً ويدني إليه من أسباب التدبير ما كان بعيداً فما أعمل في مصالح الدولة القاهرة قلماً إلا وأقبلت نحوه وجوه الأموال سافرة ولا لحظ في مهمات وظائفها أمراً إلا وعاودته أسباب التثمير النافرة ولا اعترض قلمه بنطقه وفكره إلا وغدت الثلاثة على كل ما فيه عمارة ما يفوض غليه من الأعمال متضافرة وذلك لما اجتمع فيه من عفة نفسه وكمال معرفته وطهارة يراعه واتصف به من حسن اضطلاعه وجميل اطلاعه وجبلت عليه طباعه من نزاهةٍ زانت خبرته ومن ينقل مشكوراً عن طباعه.

ولما كان فلانٌ هو الذي حنت إليه رتبته وتلفت إليه منصبه ودعته وظيفته النفيسة إلى نفسها واعتذرت بإقبالها غليه في يومها اقتضت -عن نشوزها عنه في أمسها واشتاقت إلى التحلي بفضائله التي لم تزل تزهى بما ألفته منها على نظرائها من جنسها آراؤنا الشريفة أن نجمل لها عادتها ونجدد له من الإحسان بمباشرتها السعيدة إعادته ونعيد إليه بمباشرة نظره الجميل مسرته التي ألفها وسعادته. فلذلك رسم.

لا زال بره لعماد الدين رافعاً وأمره بالأحسان شافعاً - أن يفوض إليه نظر المملكة الحلبية على عادة من تقدمه. -

فليباشر هذه المملكة التي هي من أشهر ممالكنا سمعة وأيمنها بقعة وأحسنها بلاداً وأخصبها رباً ووهاداً وأكثرها حصوناً شواهق وقلاعاً سوامي سوامق وثغوراً لا تشيم ما افتر منها البروق الخوافق مباشرةً تزيد مصالحها على ما عرفته وتريها من خبرته فوق ما ألفته وتدل على ما فيه من كفاءة هذبتها التجارب وهدتها الأنوار الثواقب وصرفتها الأفكار المطلعة على الطوالع من المغارب وسددها إلى الأغراض الجميلة الخلو من الأغراض ووقفها على جواهر الصواب عدم اعتراض النظر إلى الأعراض وأراها التوفيق ما تأتي من وجوه التدبير وما تذر وعرفتها المعرفة الاحتراس من مخالفة الصواب فما تزال من

ذلك على حذر وفتحت لها الدربة أبواب التثمير فما لحظت أمراً من الأمور الديوانية إلا وبدت البدر ولتكن النعم المصونة المقدم لديه والنظر في مصالح القلاع المحروسة هو الغرض المنصوص عليه فليضاعف ذخائرها ويتفقد موارد أمورها ومصادرها وفي معرفته بقواعد هذه الوظيفة ما يغني عن الوصايا لكن ملاكها تقوى الله فليجعلها نجي نفسه وسمير أنسه والخط الشريف.

ومنها - نظر الجيش بها.

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش بالمملكة الحلبية وهي: الحمد لله الذي جعل أفق السعادة بطلوع شمسه منيراً وأقر في رتب العلياء من يغدو ناظرها بحسن نظره قريراً وحلى مفارق المناصب السنية بصدرٍ إذا تغالى اللسان في وصفه كان بنان البيان إليه مشيراً واختار لأمصار ممالكنا الشريفة من إذا فوض إليه نظرها كان بنسبته إلى الإبصار حقيقاً به وجديراً.

نحمده وهو المحمود ونشكره شكراً مشرق السعود ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً عذبة الورود ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أضحت به شيوخٌ من الإسلام منشورة البنود صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما أورق عود وأولج نهار السيوف في ليل الغمود وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن الله تعالى لما خص كل مملكةٍ من ممالكنا الشريفة بكثرة الجيوش والأنصار وجعل جيوشنا وعساكرنا تكاثر عدد النجوم في كل مصرٍ من الأمصار وكانت المملكة الشريفة الحلبية هي ركنٌ من أركان الإسلام شديد وذخرٌ ما دعاهم داعٍ إلا ولباه منهم عددٌ عديد - وجب أن يختار للنظر عليها من الأكفاء من سما في الرآسة أصله وزكا فرعه فاستحق بما فيه من المعرفة تمييز قدره ورفعه وفاق في فضل السيادة أبناء جنسه وأشرقت أفلاك المعالي بطلوع شمسه وأقر بنظره نظر الجيوش المنصورة وسارت الأمثلة بما اتفق عليه فيه من حسن خبرة وخيرة وكان فلانٌ هو الذي طلع في أفق هذا الثناء شمساً منيرة واختبر بالكفاية والدراية واختير لهذا المنصب على بصيرة وهو الذي له من جميل المباشرة في المناصب السنية ما هو كالشمس لا يخفى والذي أحسن النظر في الأقاف المبرورة حتى تمنى كل منصبٍ جليلٍ أن يكون عليه وقفاً وهو الذي حوى من الفضائل ما لا يوجد له نظيرٌ ولا شبيه والذي سما إلى رتبة من المعالي رفيعةٍ وكان ذا الجد النبيه والأب لبنيه.

فلذلك رسم. لا زال يقر الناظر بجوده ويحسن النظر في أمر جيوشه وجنوده - أن يفوض إليه كذا: علماً بأنه أحق بذلك وأولى وأن كفايته لا يستثنى فيها بإلا ولا بلولا وأن السداد مقترنٌ بحسن تصريفه وعلمه قد أغنى عن تعليمه بمواقع التسديد وتوفيقه.

فليباشر ذلك بصدرٍ منشرح وأملٍ منفسح عاملاً بالسنة من تقوى الله تعالى والفرض عالماً بأنا عند وصلونا إلى البلاد نأمر بعرض الجيوش: فليعمل على ما يبيض وجهه يوم العرض وليلزم عدةً من المباشرين بعمل ما يلزمهم من التفريع والتأصيل والتجريد والتنزيل وتحرير الأمثلة والمقابلة عليها وسلوك الطريق المستقيم التي لا يتطرق الذم إليها والملاحظة لأمور الجيوش المنصورة في قليل الإقطاعات وكثيرها وجليلها وحقيرها بحيث يكون علمه محيطاً بذلك إحاطة الليل ويشترط على من يتعين تنزيله ما استطاع من قوةٍ ومن رباط الخيل ويقابل الأمور المضطربة بالإضراب ويسلك أحسن المسالك في سيره وسيرته: فإننا فوضنا إليه الجيوش المنصورة من جند المملكة الحلبية ومن أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب.

والوصايا كثيرةٌ وإن كثرت فعلمها عنده وقد ضرب له منها مثلٌ فليكن على سياقته فيما لم يذكر في العدة وأهم الأمور أن يتمسك من خشية الله بالسبب الأقوى ويجعل تقوى الله عماده في كل الأمور: فإن خير الزاد التقوى والخط الشريف أعلاه حجةٌ فيه.

الطبقة الثانية من يكتب له من أهل المملكة الحلبية في قطع العادة مفتتحاً برسم

إما مع مجلس القاضي أو مع القاضي الأجل ككتاب الدرج ومن في رتبتهم إن كتب لأحدٍ منهم من الأبواب السلطانية وإلا فالغالب استبداد نائب السلطنة بها بالكتابة في ذلك.

فإن كتب شيءٌ منها من الأبواب السلطانية فليمش فيه على نحو ما تقدم في الديار المصرية والمملكة الشامية التي قاعدتها دمشق.

النوع الثاني من ارباب الوظائف بالمملكة الحلبية من هو خارجٌ عن حاضرتها

وهم على أصناف الصنف الأول أربا السيوف وهم غالب من يكتب لهم عن الأبواب السلطانية وقد تقدم أن العادة جاريةٌ بتسمية ما يكتب لمن دون أرباب النيابات العظام: من دمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد وغزة والكرك - مراسيم وأن التقاليد مختصة بالنواب العظام المقدم ذكرهم.

ولا يخفى أن النيابات الداخلة في المملكة الحلبية مما هو تحت أمر نائب وبالجملة فأمرهم لا يخرج عن ثلاثة أضرب: إما مقدم ألف كنائب البيرة ونائب قلعة الروم المعبر عنها في ديوان الإنشاء بقلعة المسلمين ونائب ملطية ونائب طرسوس ونائب البلستين ونائب البهنسى ونائب آياس المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية.

وإما طبلخاناه كنائب جعبر ونائب درندة ونحوهما.

وإما أمير عشرة كنائب عني تاب ونائب الراوندان ونائب كركر ونائب بغراس ونائب الشغر وبكاس ونائب الدربساك ونائب سرفندكار ومن في معناهم.

وقد تقدم في الكلام على المكاتبات نقلاً عن التثقيف.

أن هؤلاء النواب تختلف أحوالهم في الارتفاع والانحطاط: فتارةً تكون عادة تلك النيابة أمير طبلخاناه ثم يولى فيها عشرةٌ وبالعكس.

وقد تكون عادتها طبلخاناه فيستقر بها مقدم ألف وبالعكس.

والضابط في ذلك أن من يكتب له المرسوم: إن كان مقدم ألف كتب مرسومه في قطع النصف بالمجلس العالي وإن كان طبلخاناه كتب له مرسومه في قطع النصف أيضاً بالسامي بالياء وإن كان أمير عشرة كتب مرسومه في قطع الثلث.

فأما ما يكتب في قطع النصف فإنه يفتتح بالحمد لله سواء كان صاحبه مقدم ألفٍ أو أمير طبلخاناه.

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بنيابة آياس وهي المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية يستضاء بها في ذلك وهي: الحمد لله الذي جعل من أولياء دولتنا الشريفة كل سيفٍ لا تنبو مضاربه واصطفى لبوادر الفتوحات من أنصارنا من تحمد آراؤه وتجاربه وألهمنا حسن الاختيار لمن تؤمن في المحافظة مآربه وتعذب في المخالطة مشاربه وحقق آمالنا في مضاعفة الفتح التي أغنى الرعب فيها عما تدافعه سيوف الإسلام وتحاربه.

نحمده حمداً يضاعف لنا في التأييد تمكيناً ونشكره شكراً يستدعي أن يزيدنا من فضله نصراً عزيزاً وفتحاً مبيناً ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نخلص فيها يقيناً من المخاوف يقينا ونرد من نهلها معيناً ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أيده الله بالملائكة والروح وزوى له الأرض فرأى مشارقها ومغاربها ونرجو أن يكون ما زواه له مدخراً لنا من الفتوح صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هم خير أمةٍ أخرجت للإسلام والذين ما زال الإيمان بهم مرفوع الألوية والأعلام والذين لم يبرح داعي الضلالة تحت قهر سيوفهم: فإذا أغفى جرت عليها سيوفها الأحلام صلاةً يطيب اللسان منها فيطرب ويعرب عن صدق الإخلاص في تكرارها فيغرب وسلم تسليماً.

أما بعد فإن أولى من تستند أمور الممالك لعزمته ويلقى أمر بوادر الفتوحات السعيدة لهمته ويعتمد في تدبير أحوال البلاد والعباد على يمن تصرفه وممتد نهضته - من لم يزل معروفاً سداد رأيه مشكوراً في الخدمة الشريفة حسن سعيه مؤيداً في عزمه مظفراً في حزمه مأمون التأثير ميمون التدبير كافياً في المهمات كافلاً بعلو الهمات إذا هم ألقى بين عينيه صادق عزمه وإذا اعتمد عليه في مهم تلقاه بهمته وحزمه وإذا جرد كان هو السيف اسماً وفعلاً وإذا دارت رحى الحرب الزبون فهو الشهم الذي لا يخاف سهماً ولا يرهب نصلاً.

ولما كان.

هو بدر الأفق ومقلد هذا العقد ولا يصلح هذا الطوق إلا لهذا العنق وهو الذي فاق الأولياء اهتماماً وراق العيون تقدماً وإقداماً وأرضى القلوب نصحاً ووفاء وأنضى الهمم احتفالاً للمصالح واحتفاء طالما جرب فحمد عند التجارب وجرد فأغنى عن اقتضى حسن الرأي الشريف أن نقلده فتوحاتٍ أنقذها الله - القواضب واختبر فاختيير ونظر في خصائصه فلم يوجد له نظير تعالى من شرك الشرك وأخرجها إلى النور بعد ظلام الإفك وبشرها أن هذه سحابة نصرٍ يأتي وابله إن شاء الله تعالى بعد رذاذه وأنها مقدمة سعدٍ تتلو قوله تعالى: " وعدكم الله مغانم كثيرةً تأخذونها فعجل لكم هذه ".

فلذلك رسم.- لا زال الفتح في دولته يزهو بانتظام سلكه وأيامه الشريفة تسترد مغتصب البلاد من يد الكفر إلى بسطة ملكه وقبضة ملكه وإحسانه يحمي الحصون بسيفٍ يروع العدا ببأسه وفتكه - أن يفوض.

اعتماداً على مضائه الذي لا ينكر مثله فليباشر النيابة المذكورة: معملاً رأيه في تمهيد أحوالها وتقرير أمورها التي راق الأولياء راع الأعداء ما كان من مآلها مجتهداً في حفظ ما بها من القلاع والحصون مبادراً إلى كل ما يحمي حماها ويصون قائماً حق القيام في مصالح تقريرها وأحوال تحريرها وأمور تمهدها ومنافع تشيدها وحواصل تكفيها واسباب مصلحةٍ توافيها بمزيد الاهتمام وتوفيها وليكن بأحكام الشرع الشريف مقتدياً وبنور العدل والإحسان مهتدياً وبتقوى الله عز وجل متمسكاً وبخشية الله متنسكاً وهو يعلم أن هذه الفتوحات قذىً في حدقة العدو المخذول وشجاً في حلوقهم وعلةٌ في صدورهم وحسرةً في قلوبهم.

فليكن دأبه الاجتهاد الذي ليس معه قرار والتحرز الذي يحليها أو يحميها فيكون عليها بمنزلة سورٍ أو سوار ويصفحها من عزمه بالصفاح ويجعل عليها من شرفات حزمه ما يكون أحد من أسنة الرماح ثم لا يزال احتياطه محيطاً بها من كل جانب وتيقظه لأحوالها بمنزلة عين مراقب واحتفاله الاحتفال الذي بمثله يصان رداؤها من كل جاذب ثم لا تزال قصاده وكشافه وطلائعه لا يقر بهم السرى ولا يعرفون طعم الكرى يطلعون من أخبار العدا على حقائقها وتتحيل كل فرقة منهم على معرفة الأحوال بينهم بمكرٍ من تعدد طرقها واتساع طرائقها لتكون المتجددات عنده بمنزلة ما يراه في مرآة نظره وسر أمور العدا لديه قبل أن يشيع بينهم ذكر خبره والوصايا كثيرةٌ وهو بحمد الله لا يحتاج مع معرفته إلى تبصرة ولا يفتقر مع حسن بصيرته إلى تذكرة والله تعالى يتولاه ويعينه على ما ولاه بعد الخط الشريف أعلاه.

وأما من يكتب له في قطع الثلث بمجلس الأمير وهم الشعرات فقد ذكر في التعريف: أنه يكتب لهم من الأبواب السلطانية على ذلك.

قلت: وقد تقدم في الطبقة السابعة أن الكختا وكركر والدربساك قد تكون عشرةً أيضاً.

وفي معنى ذلك نيابة عين تاب والراوندان والقصير والشغر وبكاس إذا كانت عشرة.

ونيابة دبركي إذا كانت عشرة فيفتتح فيها بأما بعد حمد الله على عادة ما يكتب للعشرات.

وهذه نسخة مرسومٍ شريف من هذه الرتبة كتب به لنائب حجر شغلان من معاملة حلب وهي: أما بعد حمد الله الذي شيد المعاقل الإسلامية بأكفائها وصان الحصون المحروسة بمن شكرت همته في إعادتها وإبدائها وحمى سرحها بمن أيقظ في الخدمة الشريفة عيون عزمه فما ألمت بعد إيقاظه بإغفائها والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ الذي انتضى سيوف التأييد فإن من -فأعزت الهدى وأذلت العدا حين انتضائها وعلى آله وصحبه ما بدت النجوم في ظلمائها وسرت الغيوم في فضائها شكرت همته وثبتت في الطاعة الشريفة قدمه وأشبه عزمه في مضائه صارمه وأضحت ثغور تقديمه باسمة - أولى بأن ترفع هذه الدولة الشريفة من محله وتنشر عليه من تكريمها وارف ظله وترتضيه لقلاع الإسلام وتشييدها وتجتبيه لصونها وتأييدها وتجعله قرة عينها وحلية جيدها وتمضي كلمته ف مصالحها وتعدق به أسباب مناجحها فيصبح ولقدره منا إعلاءٌ وإعلان ويمسي وله شغلٌ بطاعتنا العالية الشان وشغل بالمعقل الذي يحرز بعزمه ويصان فلأجل ذلك غدا وله من هذه النيابة على الحقيقة شغلان.

وكان فلان هو الذي جادت عليه دولتنا الزاهرة بسحائبها وأشرقت على حظوظه سعود كواكبها وأسمت له قدراً وجعلت له إمرةً وأمراً وصرفته إلى نيابة معقلٍ معدودٍ من قلاع الممالك الإسلامية وحصونها ومعاقلها التي علت محلاً فالجبال الشم من

دونها قد أصبح شاهقاً في مبناه ممنعاً في مغناه محصناً برجاله مصوناً من ماضيين: السيف في مضائه والعزم ف احتفاله - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نوقله رتبة هذه النيابة وننشر عليه من إحساننا سحابه.

فذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال.

أن يستقر. فليحل هذه النيابة المباركة مظهراً من عزمه ما تحمد عواقبه وتعلو مراقبه وتسمو مراتبه وتتوضح سبله ومذاهبه محصناً لسرحه معززاً مواد نجحه مراعياً أحوال رجاله المعدين من حماته وأبطاله حتى يغدو يقظين فيما يندبهم إليه ويستنهضهم فيه مبادرين إلى كل ما يحفظ هذا الحصن ويحميه ومن بهذا المعقل من الرعية فليرفق بضعفائهم وليعاملهم بما يستجلب لنا به صالح دعائهم والوصايا كثرةٌ وملاكها التقوى فليتمسك بها في السر والنجوى وليغرسها في كل قول يبديه وفعل يرتضيه فإن غروسها لا تذوى.

والله يوفقه لصالح القول والعمل ويصونه من الخطإ والخطل والخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى تعالى والحمد لله وحده.

قلت: وقد تقدم أنه لا يكتب عن السلطان مرسومٌ بنيابة في قطع العادة لأن ذلك لا يكون إلا لجندي وهو دون ومثل ذلك إنما يكتب عن نواب الممالك.

الصنف الثاني مما هو خارجٌ عن حاضرة حلب الوظائف الدينية

بمعاملتها من القلاع وغيرها وهي في الغالب إنما تصدر الكتابة فيها عن نائب حلب أيضاً أو قاضيها إن كان مرجع ذلك إليه.

فإن صدر شيءٌ منها عن الأبواب السلطانية كان في قطع العادة مفتتحاً برسم.

وهذه نسخة توقيعٍ من هذا النمط ينسج على منواله كتب به لقاضي قلعة المسلمين وهي: رسم بالأمر الشريف - لا زال عدله أن يستقر في -مؤيداً للحكام ورأيه مسدداً في النقض والإبرام وسلطانه يختار للمناصب الدينية من نطقت بشركه ألسنة الأنام كذا: لما اشتهر فليباشر هذه الوظيفة المباركة بالحق حاكماً وللرفق ملازماً وللتقوى مداوماً وهو غنيٌّ عن الإسهاب في الوصايا مليٌّ بسلوك تقوى الله في القضايا والله تعالى يزيده تأييداً ويضاعف له بمواد السعادة تجديداً والعلامة الشريفة أعلاه حجةٌ بمقتضاه.

الصنف الثالث مما هو خارج عن حاضرة حلب الوظائف الديوانية

وهي إنما تصدر في الغالب أيضاً عن نائب حلب.

فإن كتب شيءٌ منها عن الأبواب السلطانية كان في قطع العادة مفتتحاً برسم بالأمر.

وهذه نسخة توقيعٍ من ذلك يستضاء به فيما يكتب من هذا النوع كتب بها بنظر جعبر من معاملة حلب وهي: رسم بالأمر الشريف - لا زال منهل الندى مستهل الجدى معيداً للإحسان كما بدا - أن يعاد فلانٌ إلى وظيفته: لما ألفت من سيرةٍ له لم تزل تحمد وسيما خيرٍ منه على مثل الشمس تشهد ولأمانته التي لم تزل تفتر بها الثغور وتخضر بها المعاهد: تارةً في طوق النحر وتارةً في نحور البحور وأصالةٍ امتد ظلها الظليل وعرف منها في العصر حسن الأصيل وأينعت أكرم فرعٍ زكا منبته في الأرض المقدسة وجوار الخليل ولما أسلف في هذه المباشرة من عملٍ صالح وسداد اعتمادٍ لم يخرج عن تحرير تقريرٍ وتقرير مصالح وكتابةٍ رآها الرائي ونقلها الناقل وكفايةٍ فليباشر هذه العروس فقد أنقدها سالف الخدم وأمهرها وليثابر سقيا الغروس التي أنشأها في هذه الجهة وثمرها وليسلك مسلكه الذي لم يزل مخيماً على رؤوس الفتن ومهوماً به طرف الأمن لليقظة الذي لا يلم به الوسن مخولاً في وظيفته المبرات مستقبلاً للمسرات مفتخراً بمباشراته التي تجري مجاري البحار: تارةً الملح الأجاج وتارةً العذب الفرات وهو أعرف بما يقدمه من أمانةٍ بها يتقدم وديانة يرجب بها استكفاؤه ويحكم وتقوى الله جماعها فليكن بها متمسكاً وبمشاغلها متنسكاً والله تعالى يجعل عطاءه موفراً وعمله متدفقاً ليرد جعبراً جعفراً.

النيابة الثالثة نيابة طرابلس ووظائفها التي جرت العادة بالكتابة فيها من الأبواب السلطانية

على نوعين النوع الأول ما هو بحاضرة طرابلس وهو على ثلاثة أصناف الصنف الأول أرباب السيوف وهم على طبقتين الطبقة الأولى من يكتب له تقليد وهو نائب السلطنة بها.

ومرسومه في قطع الثلثين ولقبه الجناب العالي مع الدعاء بمضاعفة النعمة.

وهذه نسخة تقليد شريف بنيابتها: الحمد لله الذي جعل لنا التأييد مدداً والنصر عتاداً لا نفقد مع وجوده من الأولياء أحداً والعز وزراً تصم شهبه مسامع العدا: فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً " والفتح ذخراً فحيث ما نشاء مددنا إليه بقوة الله يداً وشددنا عليه بمعونته عضداً.

نحمده على نعمه التي جعلت مراتب دولتنا فلكاً تشرق في رتب الأولياء إشراق البدور وثغور ممالكنا أفقاً حيثما شامته العدا ضرب بينهم وبينه من سيوف مهابتنا بسور وفواتح الفتوح النائية دانيةً من همم أصفيائنا فإذا يمموا غرضاً طارت إليه سهامهم بأجنحة النسور ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً يرفع الجهاد علمها وينصر الإيمان كلمها ويزجي الإيقان إلى رياض التأييد ديمها ويستنطق التوحيد بإعلائها وإعلانها سيف أيامنا الزاهرة وقلمها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ونبيه المخصوص بالآيات والذكر الحكيم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نصروا الله فنصرهم وأظهروا دينه فأعزهم وأظهرهم ويسروا لأمته سبل الهدى فهداهم وللسبيل يسرهم صلاةً لا يزال اليقين يقيم دعوتها والتوحيد يعصم من الانفصام عروتها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من تفتر الثغور بإيالته عن شنب النصر وترمي الحصون بكفالته من شام من العدا برقها بشررٍ كالقصر وتقسم السواحل بمهابته من جاور من أهل الكفر بحرها بين الحصد والحصر وتمنع عزماته شواني العدا أن تدب عقاربها أو تركب اللجج بغير أمانه مراكبها أو ينتقل عن ظهر البحر إلى غير سيوفه أو قيوده محاربها - من لم يزل في نصرة الدين لامعاً كالبرق شهابه زاخراً كالبحر عبابه واصباً على الشرك عذابه ظامياً إلى موارد الوريد سيفه سارياً إلى قلوب أهل الكفر قبل جفونهم طيفه قائمةً مقام شرف الحصون أسنة رماحه غنية بروج الثغور عن تصفيحها بالجلمد بصفا صفاحه مع خبرة بتقدمة الجيوش تضاعف إقدامها وتثبت في مواطن اللقاء أقدامها وتسدد إلى مقاتل أهل الكفر سهامها وتقرب عليها في البر والبحر منالها وتبعد مراميها على من رامها ومعدلةٍ للرعايا السكون في مهاد أمنها والركون إلى ربا إقبالها ووهاد يمنها فسرب الرعايا مصونٌ بعدله والعدل مكنونٌ بين قوله وفعله.

ولما كان فلانٌ هو الليث الذي يحمى به غابه والنير الذي يزهى أفقٌ تألق فيه شهابه والهمام الذي تعدي همهه فرسان الوغى اقتضت آراؤانا - فتعد آحادها بالألوف والشجاع الذي إذا استعانت سواعد الشجعان بسيوفها استعانت بقوة سواعده السيوف الشريفة أن نحلي به جيد مملكةٍ انتظمت على وشام البحر وأحاطت بما في ضميره من بلاد العدا إحاطة القلائد بالنحر.

فرسم بالأمر الشريف لا زال.

أن يفوض إليه كيت وكيت: لما أشير إليه من أسباب تعينه لهذه الرتبة المكينة وتحليه بما وصف من المحاسن التي تزهى بها عقائل الحصون المصونة.

فليل هذه النيابة الجليلة بعزمة تجمل مواكبها وهمة تكمل مراتبها ومهابةٍ تحوط ممالكها وصرامة تؤمن مسالكها ومعدلةٍ تعمر ربوعها ورباعها ويقظة تصون حصونها وقلاعها وشجاعة تسري إلى العدا سرايا رعبها وسطوة تعدي السيوف فلا تستطيع الكماة الدنو من قربها وسمعة ترهب مجاوريه حتى يتخيل البحر أنه من أعوانه على حربها.

وليؤت تقدمة الجيوش الإسلامية حقها من تدبير يجمع على الطاعة أمرها وأمراءها ويرفع في مراتب الخدمة الشريفة على ما يجب أعيانها وكبراءها ويرهب بإدامة الاستعداد قلوب أعدائها ويربط بأيزاكها شواني البحر حتى تعتد الرباط في ذلك من الفروض التي يتعبد بأدائها فلا يلوح قلع في البحر للعدا إلا وهو يرهب الوقوع في حبالها ولا تلحظ عين عدوٍّ سنا البر إلا وهي تتوقع أن تكحل بنصالها وليقم منار العدل بنشر لوائه ويعضد حكم الشرع الشريف برجوعه إلى أوامره وانتهائه وليكف يد الظالم عنها فلا تمتد إليها بنان وليشفع العدل بالإحسان إلى الرعية فإن الله يأمر بالعدل والإحسان وفي سيرته التي جعلته

صفوة الاختيار ونخبة ما أوضحته الحقيقة من الاختبار ما يغني عن الوصية إلا على سبيل الذكرى التي تنفع المؤمنين وترفع قدر الموقنين وملاكها تقوى الله تعالى: فليجعلها أمام اعتماده وإمام إصداره وإيراده والله تعالى يديم مواد تأييده وإسعاده إن شاء الله تعالى.

الطبقة الثانية من يكتب له مرسومٌ شريفٌ في قطع الثلث بالمجلس السامي بغير ياء

وتشتمل على وظائف منها - شد الدواوين بطرابلس.

وهذه نسخة توقيع بها: الحمد لله مجدد الرتب لمن نهض فيها إخلاصه بما يجب ومولي المنن لمن إذا اعتمد عليه من مهمات الدولة القاهرة في أمرٍ عرف ما يأتي فيه وما يجتنب ومؤكد النعم لمن إذا ارتيدت الأكفاء في الخدمة الشريفة كان خيرة من يختار ونخبة من ينتخب.

نحمده على نعمه التي سرت إلى الأولياء عوارفها واشتمل على الأصفياء وافر ظلالها ووارفها ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تزلف لديه وتكون لقائلها ذخيرةً يوم العرض عليه ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف مبعوث إلى الأمم وأكرم منعوت بالفضل والكرم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ولوا أمر الأمة فعدلوا وسلكوا سنن سنته فما مالوا عنها ولا عدلوا وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى ما اختير له من الأولياء كل ذي همة عليه وعزمة بمصالح ما يعقد به من مهمات الدولة القاهرة ملية وخبرة بكل ما يراد منها وفية ويقظة تلحظ في كل ا قرب ونأى من المصالح الأمور الباطنة والأحوال الخفية وصرامة تؤيس من استلانة جانبه ونزاهة تؤمن من إمالة رأيه في كل أمرٍ عن سلوك واجبه ومعرفة مطلعة ونهضة بكل ما إن حمله من أعباء المهمات الشريفة مضطلعة - أمر الأموال الديوانية: فإنها معادن الأرزاق ومواد مصالح الإسلام على الإطلاق وخزائن الدولة التي لو ملكتها الغمائم لأمسكت خشية الإنفاق وذخائر الثغور التي مواقعها من أعداء الدين مواقع الشجا في القلوب والقذى في الأحداق.

ولما كان المجلس السامي هو الذيسمت به هممه ورسخت في خدم الدولة القاهرة قدمه وتبارى في مصالح ما يعدق به من المهمات الشريفة سيفه وقلمه وكانت المملكة الطرابلسية من أشهر ممالكنا سمعة وأيمنها بقعة وأعمرها بلاداً وأخصبها رباً ووهاداً وأكثرها حصوناً شواهق وقلاعاً سوامي سوامق وثغوراً لا تشيم ما افتر من ثغورها البروق الخوافق ولها الخواص الكثيرة والجهات الغزيرة والأموال الوافرة والغلات المتكاثفة المتكاثرة - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نرتاد لها من يسد خلل عطلها ويشد عضد ميدها وميلها وينهض من مصالحها بما يراد من مثله ويعيد لها بحسن المباشرة بهجة من فقدته من الأكفاء من قبله.

فلذلك رسم.

أن يفوض إليه شد الدواوين المعمورة بالمملكة الطرابلسية والحصون المحروسة على عادة من تقدمه في ذلك.

فليباشر ذلك بمعرفة تستخرج الأموال من معادنها وتستثير كوامن المصالح من مكامنها وتثمر أموال كل معاملة بحسن الاطلاع عليها وصرف وجه الاعتناء إليها وتفقد أحوال مباشريها ومباشرة ما يتجدد من وجوه الأموال فيها وضبط ارتفاعها بعمل تقديره وحفظ متحصل ضياعها من ضياعه وصون بذارها عن تبذيره وليجتهد في عمارة البلاد بالرفق الذي ما كان في شيءٍ إلا زانه والعدل الذي ما اتصف به ملكٌ إلا صانه والعفة التي ما كانت في امريءٍ إلا وفقه الله تعالى في مقاصده وأعانه وليقدم تقوى الله بين يديه ويتعتمد على توفيقه فيما اعتمد فيه عليه إن شاء الله تعالى.

قلت: وعلى ذلك يكتب شد مراكز البريد ونحوها.

الصنف الثاني من الوظائف بطرابلس التي يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية - الوظائف الدينية

وهي على مرتبتين المرتبة الأولى من يكتب له في قطع الثلث بالمجلس السامي بالياء وتشتمل على وظائف منها: القضاء.

وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة: من كل مذهب قاض.

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعية بها ينسج على منواله وهي: الحمد لله الذي أعز الدين بعلمائه وعضد الحكم بالمتقين من أوليائه وأوضح الرشد للمقتدين بمن جعلهم في الهداية كنجوم سمائه وجعل لكل من الأئمة من مطالع الظهور أفقاً يهتدى فيه بأنواره ويقتدى بأنوائه.

نحمده على أن جعل سهم اجتهادنا في الارتياد للأحكام مصيباً وقسم لكل من أفقي ممالكنا من بركة علماء قسيمه الآخر نصيباً ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تعصم من الهوى في الحكم لعباده وتفصم العرا ممن جاهر فيها بعناده ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اضاءت أنوار ملته فاستشف العلماء لوامعها ووضحت آثار سنته فأحرز أئمة الأئمة جوامعها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين دعوا إلى الله فأجابوا ودعوا إلى الحكم بسنته فأصابوا صلاةً لا تزال الألسن تقيمها والإخلاص يديمها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى ما أدى فيه الاجتهاد جهده وبلغ فيه الارتياد حده واستضيء فيه بنور التوفيق واستصحب فيه من استخار الله خير رفيق - أمر الحكم العزيز وتفويضه إلى من وسع الله تعالى مجال علمه وسدد مناط حكمه وطهر مرام قلبه ونور بصره في الحكم وبصيرته فأصبح فيهما على بينة من ربه فاجرى الحق في البحث والفتيا على لسانه ويمينه ونزهه عن إرادة العلم لغير وجهه الكريم ونبهه على ابتغاء ما عند الله بذلك والله عنده أجر عظيم.

ولما خلا منصب قضاء القضاة بطرابلس المحروسة على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه: وهو المنصب الذي يضيء بالأئمة الأعلام أفقه وتلتقي بالفضلاء الكرام طرقه وتحتوي على أرباب الفنون المتعددة مجالسه وتزكو بالفوائد المختلفة مغارسه وكان فلانٌ هو الذي أشير إلى خصائص فضله ونبه على أن الاجتهاد للأمة أفضى إلى إسناد الحكم منه إلى أهله وأنه واحد زمانه وعلامة أوانه وجامع الفضائل على اختلافها وقامع البدع على افتراق شبهها منه وأتلافها وحاوي الفروع التي لا تتناهى والمربي على رب كل فضيلةٍ لا يعرف غيرها ولا يألف سواها - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نجزم من ارتياده لهذه الرتبة بهذا الرأي السديد وأن نقرب سراه إلى هذا المنصب الذي ناداه بلسان الرغبة من مكان بعيد.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال إحسانه كالبدر يملأ المشارق والمغارب وبره كالبحر يقذف للقريب الجواهر ويبعث للبعيد السحائب - أن يفوض إليه كذا.

فليطلع بذلك الأفق الذي يترقب طلوعه رقبة أهلة المواسم ويسرع إلى تلك الرتبة التي تكاد تستطلع أنباءه من الرياح النواسم وينشر بها فرائده التي هي أحق أن تطوى إليها المراحل ويقدم بها على الأسماع الظامية لعذب فوائده قدوم الغمام على الروض الماحل ويل هذا المنصب الذي هو فيه بين عدل ينشره وحقٍّ يظهره وباطل يزهقه وغالب يرهقه ومظلوم ينصره.

وليكن أمر أموال الأيتام المهم المقدم لديه وحديث أوقاف البر من أول وأولى مايصرف فكره الجميل إليهه ويتعاهد كشف ذلك بنفسه ولا يكتفي في علمه فعل اليوم باطلاعه على أمره في أمسه وهو يعلم أن الله يجعله بذلك مشاركاً للواقفين في الأجر المختص بهم والشكر المنسوب إليهم خارجاً من العهدة في أمر اليتامى باستعمال الذين يخشون لو تركوا من خلفهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم وليقم منار الحق على ما يجب وإن سر قوماً وساء قوماً ويقم بالعدل على ما شرع: فإن عدل يومٍ خيرٌ للأرض من أن تمطر أربعين يوماً.

وأما ما عدا ذلك من أحوال الحكم وعوائده وآداب القضاء وقواعده فكل ذلك من خصائصه يستفاد ومن معارفه يستزاد وملاك ذلك كله تقوى الله وهي من أطهر حلاه الحسنة وأشرف صفاته التي تتداولها الألسنة فليجعلها وسيلة تسديده في القول والعمل وذخيرة آخرته التي ليس له في غيرها أمل ويقلد العلى فيما حدثته من أسباب نقلته فإن كمال العز في النقل والله تعالى يمده بمواد تأييده وقد فعل ويجعله من أوليائه المتقين وقد جعل بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى.

قلت: وعلى ذلك تكتب تواقيع القضاة الثلاثة الباقين.

ومنها: وكالة بيت المال.

وهذه نسخة توقيع من ذلك وهي: الحمد لله الذي عمر بيت مال المسلمين بسداد وكيله ونمو تحصيله ومزيد تمويله وتمسكه بالصدق من قيله وسلوكه ما تبين من سبيله واعتماده الحق في دليله ودفعه المضار وجلبه المسار بتخويله.

نحمده على بره وتفضيله ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهٌ تنزه عن نده ومثيله ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله لتمام هذا الدين وتكميله وأنزل عليه المعجزات في تنزيله وحفظ به الذكر الحكيم من تبديله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وقبيله وسلم تسليماً.

وبعد فإن بيت المال المعمور هو نظام الإسلام وذخر الأنام وفيه محصول المسلمين تحت نظر الإمام وفيه مادة المجاهدين في سبيل الله على تطاول الأيام وإليه تجبى القناطير المقنطرة من الأموال وعنه تصدر المبيعات من الأملاك ما بين أراض وأبنية ومحال.

والوكيل على ذلك عنا بالمملكة الطرابلسية المحروسة هو الذاب عن حوزته القائم بتأمين روعته المجتهد ف تمييز رجعته وينبغي أن يكون من العلماء الأعلام الأئمة المعول عليهم في الأمور المهمة البصير بما يترجح به جانب بيت المال المعمور ويكشف كل غمه العريق في السيادة التي انقادت إليها السجايا الجميلة بالأزمة.

ولما كان فلانٌ هو الراقي هضبة هذه المآثر الطالع كوكب مجده السافر المستحق لكل ارتقاءٍ على المنابر ويعد سلفاً كريماً نصيراً في المفاخر ويمت ببيتٍ بحره زاخر وله في مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه بحثٌ فاق به الأشابه والنظائر وعنده علمٌ بالمسائل المضروب مثلها فليباشر هذه الوظيفة محترزاً في كل ما يأتيه ويذره ويقصده ويحرره ويورده ويصدره ويبنيه ويقدره ويخفيه ويظهره ويبديه ويستره ويدنيه ويحضره ويقرر جانب بيت المال المعمور بما فيه الحظ الموفور والغبطة في كل الأمور وهو عالمٌ بما فيه صلاح الجمهور ومن رغب في ابتياع أراض وقراح وأبنية وأملاك ورحاب فساح مما هو جار في ملك بيت المال فليوفر جانب القيمة على ما فيه الصلاح وهو بحمد الله من بيت الدين والصلاح والإصلاح وهو يقوي بإسناده الأحاديث الصحاح ومن له حقٌّ في بيت المال فليسمع دعوى مدعيه ولا يصرف درهماً ولا شيئاً إلا بحقٍّ واضحٍ فيما يثبته فيه وهو وكيلٌ مأمونٌ في تأتيه ومعنى الوكيل الذي يوكل إليه الأمر الذي يليه.

والوصايا كثيرةٌ وأجلها تقوى الله بالسمع والبصر واللسان فمن تمسك بها من إنسان فإنه يفوز بالإحسان وهو غنيٌّ عن الوصايا بما فيه من البيان والله يجعله في كلاءة الرحمن بمنه وكرمه!.

والخط الشريف أعلاه.

إن شاء الله تعالى.

قلت: وقد يكتب لوكالة بيت المال ونحوها بالافتتاح بأما بعد على قاعدة أصل الكتابة في قطع الثلث.

والكاتب في ذلك على ما يراه بحسب ما يقتضيه الحال.

المرتبة الثانية من تواقيع أربا الوظائف الدينية بطرابلس _ من يكتب له في قطع العادة مفتتحاً برسم

وهذه نسخة توقيع من هذه الرتبة بوظيفة قراءة الحديث النبوي على قائله أفضل الصلاة والسلام لمن اسمه يحيى يستضاء به - لا زال رميم الفضل بأرواح عنايته يحيا وأحاديث مننه الحسان تعيها أذنٌ واعيةٌ من -في ذلك وهي: رسم بالأمر الشريف طيب السماع لا تعيا ولا برحت أولياء خدمه تثني على صدقاته بألسنة الأقلام وتدير على الأسماع من رحيقها كؤوساً مسكية الختام - أن يستقر في كذا استقراراً ترشف الأسماع كؤوس روايتها فلا تروى ورتب كماله يقصر عن طلوعها كل باعٍ فمناواته لا تنوى وربوع معروفه لا تبيد وآيات صلاته ينطق بتلاوتها كل بليغ فيبديء ويعيد لأنه العالم الذي أحيا من مدارس العلوم ما درس والفاضل الذي أضاء ببصر علومه ليل الجهل ولا غرو: فطرة الصبح تمحي آية الغلس والكامل الذي لا يشوب كماله نقيصة والأمثل الذي أتته المعالي رخيصة والإمام الذي تأتم وراءه الأفاضل وتأخر عصره ففاق الأوائل ما درس إلا وجمع من فوائد أبي حنيفة وابن إدريس ولا عرس بليل الطلب إلا حمد عند إدراك طلبه ذلك التعريس ولا أعاد الدروس للطلبة إلا وترشحت منه بالفوائد ولا جمع ما فصله العلماء إلا وأتى بالجمع الذي لا نظير له في الفرائد.

فليباشر هذه الوظيفة مباشرةً أنوار هداها لا تخمد وليلازمها ملازمةً تشكره عليها الألسنة وتحمد وأنت - أدام الله تعالى فوائدك - لا تحتاج إلى الوصايا إذ أنت بها علام وبأسبابها متمسكٌ وبالقيام بها يقظٌ غير نائم لكن التقوى أولى بمن عرف الأمور ولباس سوابغها يبعد كل محذور والاعتماد على الخط الشريف أعلاه.

الصنف الثالث من الوظائف بطرابلس التي يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية - الوظائف الديوانية

وهي على مرتبتين المرتبة الأولى ما يكتب في قطع الثلث بالمجلس السامي بالياء وتشتمل على وظائف منها: كتابة السر ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بصاحب ديوان المكاتبات.

وهذه نسخة توقيعٍ من ذلك وهي: الحمد لله الذي جعل الأسرار عند الأحرار وطوى الصحف على حسنات الأبرار وأجرى الأقلام ترجماناً للأفكار وجعل الحفظة يكتبون الأعمال مع تطاول الأعمار آناء الليل وأطراف النهار وبسط المعاني أرواحاً والألفاظ لها أشباحاً مع التكرار وأبهج الصدور بصدور الكتب والإيراد والإصدار.

نحمده على فضله المدرار ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة إقرار وعملٍ بالجوارح بلا إنكار ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المصطفى من مضر بن نزار المخصوص بالمهاجرين والأنصار الثاوي بأشرف بقعة تزار المشرف كتاب الوحي: فهم يكتبون بما يمليه عليهم المختار وجبريل يلقي على قلبه الآيات والأذكار عن رب العزة المسبل الأستار صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما نفح روضٌ معطار وسح صوب أمطار وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن ملاك الملك الشريف حفظ سره والاحتفال بكتبه الشريفة ولفظها ودره وخطابها ونثره وخطها ونشره وختمها وعطره وتجهيزها مع الأمناء الثقات الذين تؤمن غائلة أحدهم في كل أمره وما ألقي السر الشريف إلا لأكمل الأعيان وصدر الزمان وبليغ كسحبان وفصيح كقس في هذا الزمان وأصيل في الأنساب وعريق في كرم الأحساب وفاضلٍ يعنو له فاضل بيسان وينشي لفظه الدر والمرجان وكاتب السر فلا يفوه بلسان.

ولما كان فلانٌ هو واسطة عقد الأفاضل ورأس الرؤساء الأماثل وحافظ السر في السويداء من قلبه وناظم الدر في سطور كتبه والمورد على مسامعنا الشريفة من عبارته ألفاظاً عذاباً القائل صواباً والمجيد خطاباً وإذا جهز مهماً شريفاً راعاه بعينه عوداً وذهاباً وإذا استعطف القلوب النافرة عادت الأعداء أحباباً وإذا أرعد وأبرق على مأزقٍ أغنى عن الجيوش وأبدى عجباً عجاباً وإذا كتب أنبت في القرطاس رياضاً خصاباً.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه كذا.

فليحل هذا المنصب الشريف حلول القمر هالته وليعد إليه أيام سره وسروره الفائتة وليعرب عن أصولٍ ثابتة وفروعٍ في منابت الخير نابتة ولينفذ المهمات الشريفة أولاً فأولاً من غير أن يعدق مهماً بغيره أو يبيته إلى غده وليحرر البريد المنصور بيديه غير معتمد فيه على غير رشده ولا يغب عن وظيفته طرفة عينٍ بل يكون كالنجم في رصده لمرتصده وليوص كتاب الإنشاء لديه والمتصرفين بين يديه بكتم السر فإن ذلك إليه فإذا أفشى أحدٌ من السر كلمة فليزجره وليأمره أن يحفظ لسانه وقلمه وليعط كل قضية ما تستحقها من تنفيذ كلمة والابتداءات والأجوبة فلتكن ثغورها بألفاظه متشنبة وعقودها بإملائه منتظمة فأما الابتداء فهو على اقتراحه وأما الجواب فهو على ما يقتضيه الكتاب الوارد باصطلاحه ولا يملي إلا إلى ثقاته ونصاحه والكتب الملوكية فليوفها مقاصدها وليراع عوائدها والتقوى فهي الهام من أمره وختام عطره وتمام بدره والوصايا فهي كثيرةٌ لديه وفي صدره والله تعالى يكمل به أوقات عصره بمنه وكرمه! والخط الشريف أعلاه.

ومنها: نظر المملكة القائمة بها مقام الوزارة.

وهذه نسخة توقيعٍ من ذلك وهي: الحمد لله مفيض حلل إنعامنا على من أخلص في طاعتنا الشريفة قلبه ولسانه ومولي فضل آلائنا العميمة على من أرهف في مصالحها آلة عزمه وبنانه ومحلي رتب علیائنا الشريفة بمن أشرق في نحمده حمداً يبلغ به أقصى غاية المجد من تبتسم بجميل نظره الثغور وتعتصم بحميد خبره وخبرته الأمور ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تشرق بها البدور ويعتمد عليها في الأيام والدهور ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الهادي إلى الحق وإلى

طريق مستقيم والناشر لواء العدل بسننه الواضح وشرعه القويم وعلى آله وصحبه الذين اهتدى بهديهم ذوو البصائر والأبصار وارتدى بأرديتهم المعلمة مقتفي الآثار من النظار وسلم تسليماً.

وبعد فإن أولى من أسندنا إلى نظره الجميل رتبة عز ما زالت بنو الآمال عليها تحوم وعدقنا بتدبيره الجميل منصب سيادة ما برحت الأماني له تروم واعتمدنا على همه العلية فصدق الخبر الخبر وركنا إلى حميد رأيه فشهد السمع له وأدى النظر.

ولما كان فلانٌ هو الذي رقى في ذروة هذه المعالي وانتظم به عقد هذه اللآلي وحوى بفضيلة البيان واللسان ما لم تدركه المرهفات والعوالي فما حل ذروة عز إلا حلاها بنظره الجميل ولا رقى رتبة سيادة إلا وأسفر في ذروتها وجه صبحه الجميل ولا عدق بنظره كفالة رتبة إلا وكان لها خير كفيل.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال ينتصي للرتب العلية خير منجد ومغير ويختار للمناصب السنية نعم المولى ونعم النصير - أن يفوض إليه كذا فإنه القوي الأمين والمتمسك من تقوى الله تعالى وكفايته بالسبب المتين والمستند بجميل كفالته وحميد ديانته إلى حصن حصين والمستذري بأصالته الطاهرة وإصابته إلى الجنة الواقية والحرم الأمين.

فليقدم خيرة الله تعالى ويباشر الجهة المذكورة بعزم لا ينبو وهمة لا تخبو وتدبيرٍ يتضاعف على ممر الأيام ويربو ونظرٍ لا يعزب عن مباشرته مثقال ذرة إلا وهي من خاطره في قرار مكين وضبط لا تمتد إليه يد ملتمس إلا ويجد من مرهفه ما يكف كفها بالحد المتين وليضاعف همته في مصالح هذه الجهة التي عدقناها بنظره السعيد وليوفر عزمته فإن الحازم من ألقى السمع أهدى من أن يرشد إليها والله يوفقه - وهو شهيد والوصايا كثيرةٌ ومثله لا يدل عليها والتنبيهات واضحةٌ وهو - وفقه الله تعالى في القول والعمل ويصلح بجميل تدبيره وحميد تأثيله كل خلل والاعتماد على الخط الشريف إن شاء الله تعالى.

نظر الجيش بها: وهذه نسخة توقيع بها لمن لقبه شمس الدين وهي: الحمد لله الذي أطلع في سماء المعالي شمساً منيرة -ومنها وأينع غروس أولي الصدارة بعهاد سحب عوارفه الغزيرة وأبدع الإحسان إلى من قدمه الاختبار والاختيار على بصيرة.

نحمده على نعمه التي عم فضلها ومد على أولياء الدولة القاهرة ظلها ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تزلف لديه وتسلف ما يجده المتمسك بها يوم العرض عليه ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من بعث إلى الأمم كافة وأكرم من غدت أملاك النصر آيته حافة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين حازوا بصحبته الشرف وفازوا بطاعة الله وطاعته من الجنان بغرف من فوقها غرف.

وبعد فإن أولى ما عدق بالأكفاء وأحق ما صرف إليه وجه الاعتناء وأجدر ما أوقظ له طرف كاف لا يلم بالإغفاء - أمر الجيوش المنصورة بطرابلس المحروسة التي لا ينهض بأعباء مصالحها إلا من عرف بالسداد في قلمه وكلمه وألف منه حسن التصرف فيما يبديه من نزاهته ويظهره من همه بخبرة مؤكدة وآراء مسددة ومعرفة أوضاع ترتيبها وأحوالها وقواعد مقدميها وأبطالها وكفايةٍ تفتح رحاب حالها.

ولما كان فلانٌ هو الصدر الملي بوافي الضبط ووافر الاهتمام والكافي الذي نطقت بكفايته ألسنة الخرصان وأفواه الأقلام والضابط الذي لا يعجز فهمه عن إحاطة العلم بذوي الآلام.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال يقدم للمراتب كافياً مشكوراً ويرشح لملناصب صدراً أضحى بالأمانة مشهوراً - أن يفوض إليه كذا: لأنه الصدر الذي تزاحمت ألسنة الثناء عليه وترادفت بين أيدينا محامده فقررنا العوارف لديه وشكرت عندنا هممه في سداد كل ما يباشره وذكرت لدينا بالخير سيرته وسرائره.

فليباشر هذه الوظيفة الجليلة متحلياً بين الأنام بعقودها مطلعاً شمس نزاهته في فلك سعودها ناهضاً بأعباء منصبه السعيد ضابطاً قواعده بكل تحرير تليد متقناً ديوان الجيوش المنصورة معملاً في ملاحظتها نافذ البصر وحسنى البصيرة محرراً أوراق العدة والعدة باذلاً في ضبط الحلى اهتمامه وجهده والله تعالى يسعد جده ويجدد سعده والخط الشريف أعلاه.

إن شاء الله تعالى.

قلت: وربما كتب مفتتحاً في هذه الرتبة بأما بعد فإنها أصل ما يكتب في قطع الثلث.

المرتبة الثانية من مراتب أرباب الوظائف الديوانية بطرابلس - من يكتب له في قطع العادة بمجلس القاضي

وهو قليل الوقوع. والغالب في ذلك أن يكتب عن نائب السلطنة بها.

وهذه نسخة توقيع من هذه الرتبة بكتابة الدست بطرابلس يقاس عليه ما عداه من ذلك وهي: رسم بالأمر الشريف - لا زال أمره الشريف يزيد من يصطفيه شرفاً وبره المنيف يفيد من يجتبيه تحفاً وخيره المطيف يجيد لمن يختاره جوداً ويسر قلب من رفعه إلى صدر الدست صعوداً فيبوئه من جنات العلياء غرفاً - أن يستقر في كذا: استقراراً تجتنى منه ثمار الخيرات وتجلى عليه عروس المسرات لأنه الرئيس الذي تفتخر هذه الوظيفة بانتسابها إليه وتتجمل حللها وألويتها إذا نشرت عليه والفاضل الذي ألقت إليه البلاغة زمامها والكامل الذي ملك بيانها ونظامها والأديب الذي لا يدرك في الآداب واللبيب الذي يقصر عنه طول عامة الطلاب كم له من كتابةٍ حسنة الاتساق وبلاغة حصل على فضلها الاتفاق وديانةٍ أطلق فيها لسانه ويده فشكرها الناس على الإطلاق فهو مستند الرآسة وابن من حاز كل فخار وراسه والعلم المشهور علمه وصاحب القلم المشكور رقمه فالمناصب بارتفاعه إليها مفتخرة والمراتب بعلائه مستبشرة والأسماع بفضائله مشنفة والأسجاع بكلمه مشرفة.

فليباشر هذه الوظيفة وليسلك فيها طريق نفسه العفيفة وليدبج القصص بأقلامه وليبهج التواقيع بما يوقع مبرم فصيح كلامه وليزين الطروس بكتابته ولينعش النفوس ببلاغته وليجمل من المباشرة ما تصبح منه مطالع شرفه منيرة وتمسي به عين محبه قريرة والوصايا فهو خطيب منبرها ولبيب موردها ومصدرها والتقوى فليلازم فيها شعاره وليداوم بها على ما يبلغ به أوطاره والله تعالى يجعل سعوده كل يومٍ في ازدياد ويسهل له ما يرفع ذكره بين العباد بمنه وكرمه!.

والاعتماد في ذلك على الخط الشريف أعلاه إن شاء الله تعالى.

ما هو خارجٌ عن حاضرتها

وهم على ثلاثة أصناف أيضاً الصنف الأول أرباب السيوف وقد تقدم أنه ليس بها مقدم ألف سوى نائب السلطنة بها وحينئذ فالنيابات بمعاملتها على طبقتين: الطبقة الأولى الطبلخاناه ومراسيمهم تكتب في قطع الثلث بالسامي بالياء مفتتحة بالحمد لله.

وهذه نسخة مرسوم شريف من ذلك بنيابة قلعة تصلح لنائب اللاذقية ينسج على منوالها وهي: الحمد لله الذي جعل الحصون الإسلامية في أيامنا الزاهرة مصفحةً بالصفاح والثغور المصونة في دولتنا القاهرة مشرفةً بأسنة الرماح والمعاقل المحروسة مخصوصةً من أوليائنا بمن يعد بأسه لها أوقى الجنن وذبه عنها أقوى السلاح.

نحمده على نعمه التي عوارفها عميمة وطوارفها كالتالدة للمزيد مستديمة ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تنطق الضمائر قبل الألسنة بإخلاصها وتشرق القلوب بعموم إحاطتها بها واختصاصها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أشرقت بنور ملته الظلم وارتوت بفور شريعته الأمم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين امتطوا إلى جهاد أعداء وبعد فإن أولى ما عقد عليه في صيانة الحصون الخناصر واعتمد على مثله في كفاية المعاقل إذا لم يكن غير تأييد الله وحد السيف ناصر - من هو في حفظ ما يليه كالصدور التي تصون الأسرار والكمائم التي تحوط الثمار مع اليقظة التي تذود الطيف أن يلم بحماة حماه والفطنة التي تصد الفكر أن يتخيل فيه ما اشتمل عليه وحواه والأمانة التي ينوي فيها طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعتنا الشريفة ولكل امريءٍ ما نواه.

ولما كان فلانٌ هو السيف الذي تروق تجربته ويروع تجريده وإذا ورد في الوغى منهل حربٍ فمشرعه من كل كميٍّ وريده - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نرهف حده بحفظ أسنى الحصون عندنا مكاناً ومكانة وأسمى المعاقل رفعةً وعزة وصيانة.

فرسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه النيابة بقلعة كذا.

فليباشر هذه النيابة السامي قدرها الكامل في أفق الرتب بدرها مباشرةً تصد الأفكار عن توهمها والأبصار عن توسمها والخواطر عن تخيل مغناها والسرائر عن تمثل صورتها ومعناها.

وليكن لمصالحها متلمحاً ولنجوى رجالها متصفحاً ولأعذار حماتها مزيحاً وللخواطر من أسباب كفايتها مريحاً ولمواطنها عامراً وبما قل وجل من مصالحها آمراً ولوظائفها مقيماً وللنظر في الكبير والصغير من أمورها مديماً ولخدمتها مضاعفاً ولكل ما يتعين الاحتفال به من مهماتها واقفاً وملاك الوصايا تقوى الله: وهي أول ما يقدمه بين يديه وأولى ما ينبغي أن يصرف نظره إليه فليجعل ذلك خلق نفسه ومزية يومه على أمسه والخير يكون والخط الشريف أعلاه إن شاء الله تعالى.

الطبقة الثانية العشرات ومراسيمهم

إن كتبت من الأبواب السلطانية ففي قطع الثلث بالسامي بغير ياء مفتتحة بأما بعد إلا أن الغالب كتابتها عن نائب السلطنة.

وهذه نسخة مرسوم شريف بنيابة قلعة بلاطنس من معاملتها وهي: أما بعد حمد الله على نعمٍ توالى رفدها ووجب شكرها وحمدها وعذب لذوي الآمال وردها والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ الذي رفع به لقريشٍ مجدها فعلا جدها وعلى آله وصحبه صلاةً لا يحصى عددها ولا يحصر حدها - فإنه لما كان فلان من قدمت تقادم خدمه وتعالى به إلى العلياء سامي هممه وترفع به حسن ولائه حتى أعلت الدولة من شأنه ورفعت من علمه واستكفته لمصون الحصون وجادت عليه بصوب إحسان روى الأماني فأضحت نضرة الغصون وكانت قلعة فلانة هي القلعة التي شمخت بأنفها على القلاع علواً وسامت الجوزاء سمواً فوجب أن لا يستحفظ عليها وفيها إلا من عرف بحسن المحافظة وتوفيها وكان المشار إليه هو عين هذه الأوصاف والوارد من حسن الطاعة المورد الصاف - اقتضى حسن الرأي الشريف أن ننوه بذكره ونرفع من قدره.

ولذلك رسم.

لا زال. أن تفوض إليه النيابة بهذه القلعة المحروسة وأن تكون بأوانس صفاته مأنوسة. -

فليكن فيما استحفظ كفواً وليورد الرعية من حسن السيرة صفواً وإذا تعارض حكم الانتقام وكان الذنب دون الحد فليقدم عفواً.

وعليه بالعدل فإنه زمام الفصل والقلعة ورجالها وذخائرها وأموالها فليمعن النظر في ذلك بكرةً وأصيلاً وإجمالاً وتفصيلاً وتحصيناً وتحصيلاً.

وعليه بالتمسك بالشريعة المطهرة وأحكامها المحررة وليردع أهل الفساد ويقابل من ظهر منه العناد بما يؤمن المناهج ويجدد المباهج والوصايا كثيرة فليكن مما ذكر على بصيرة أعانه الله على ما أولاه ورعاه فيما استرعاه والخط الشريف أعلاه حدةٌ بمقتضاه والخير يكون إن شاء الله تعالى.

الصنف الثاني مما هو خارج عن حاضرة طرابلس الوظائف الدينية والغالب كتابتها عن نائب السلطنة بطرابلس.

فإن كتب شيءٌ منها عن الأبواب السلطانية كان وهذه نسخة توقيعٍ من ذلك بنظر وقفٍ على جامع بمعاملة طرابلس كتب به لمن لقبه زين الدين وهي: رسم بالأمر الشريف - لا زال كريم نظره يستنيب عنه بمصالح بيوت الله تعالى من تزداد بنظره شرفاً وزيناً ويعين لها من الأعيان من تسر به خاطراً وتقر به عيناً ويمنحها من إذا باراه مبارٍ وجد بينهما بوناً وبيناً ويقرر لها أن يستقر بالنظر على كذا: استقراراً يرى - كل كافٍ إذا فاه راءٍ بوصف آرائه الملموحة عين صوابها ولا يجد عليها عيناً الوقف بنظره على ربعه طلاوة ويجد بمباشرته في صحنه حلاوة ويعرب عن استمراره على حسن الثناء ويجد من نيل ريعه أكمل وفاء لأنه الناظر الذي لا يمل إنسانه من حسن النظر ولا يكل لسانه عن الأمر بالمصالح ولفظه عن إلقاء الدرر والشريف الذي وجدت مخايل شرفه من فضل خلاله والجواد الحائز بجوده قصب السبق على أمثاله والكامل الذي لا توجد في صفاته نقيصة والفاضل الذي أتته الفضائل على رغمها رخيصة.

فليباشر هذا النظر مباشرةً تكحل نظاره فيها بالوسن وليقابلها من جميل سلوكه بكل وجه حسن وليبدأ أوقاف الجامع المذكور بالعمارة وليقطع بمدية أمانته يد من يشن على ماله الغارة وليأمر أرباب وظائفه باللزوم وليخص كلاً منهم من فضله بالعموم وليتق الله تعالى في القول والعمل وليجتهد على أن لا يتخلل مباشرته الخلل والاعتماد على الخط الشريف أعلاه.

الصنف الثالث مما هو خارجٌ عن حاضرة طرابلس أرباب الوظائف الديوانية وقل أن يكتب فيها شيءٌ عن الأبواب الشريفة السلطانية وأن الغالب كتابة ما يكتب فيها من نائب السلطنة بطرابلس.

فإن اتفق كتابة شيءٍ من ذلك عن الأبواب السلطانية مشى الكاتب فيه على نهج ما تقدم في الوظائف الدينية: من كتابته في قطع العادة بمجلس القاضي مفتتحاً برسم لا يختلف الحال منه في ذلك إلا في الفرق بين التعلقات الدينية والديوانية.

والكاتب الماهر يصرف قلمه في ذلك وفي كل ما يحدث من غيره على وفق ما تقتضيه الحال وبالله المستعان.

النيابة الرابعة نيابة حماة

ووظائفها التي تكتب بها من الأبواب السلطانية ما بحاضرتها خاصة وهي على ثلاثة اصناف الصنف الأول أرباب السيوف وليس بها منهم إلا نائب السلطنة خاصة.

ويكتب له تقليدٌ في قطع الثلثين بالجناب العالي مع الدعاء بمضاعفة النعمة.

وهذه نسخة تقليد بنيابة حماة: الحمد لله ذي التدبير اللطيف والعون المطيف والحياطة التي تستوعب كل تصريف وكل نحمده بمحامد جميلة التفويف حسنة التأليف مكملة التكييف بريةٍ من التطفيف حريةٍ بكل شكرٍ منيف وذكرٍ شريف ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خلص تحريرها عن كل تحريف وتنزه مقالها عن تسويد تفنيد أو تسويف ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صاحب الدين الحنيف والمبعوث بالرحمة والتخفيف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً متناوبةً تناوب الصرير والصريف والشتاء والمصيف وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن من شيم الدولة وسجاياها وأحكامها وقضاياها تقديم الأهم فالأهم وتحتيم الأتم من الرأي وتحكيم التدبير الأعم وفعل كل ما يحوط الممالك ويحفظها ويذكي العيون لملاحظتها ويوقظها: لما أوجبه الله من حقوقها وحظره من عقوقها ولا يكون ذلك إلا باختيار الأولياء لضبطها والتعويل على الأمليا‌ء بالقيام بشرطها والاستناد من الزعماء إلى من يوفي من الخراجة والعيون وافي قسطها.

ولما كانت المملكة الحموية جديرةً بالالتفات حقيقةً بالحياطة من جميع الجهات مستدعيةً من جميل النظر كل ما يحرس ربعها ويديم نفعها ويحفل ضرعها ويلم شعثها ويشعب صدعها ويسر سمعها ويفعم شرعها ويعظم شرعها ويكتنفها اكتناف السور والسوار والهالة للبدر والأكمام للثمار وكان فلانٌ هو المتقشع سحاب هذا الوصف عن بدره المنير والمتقلع ضباب هذا التفويض عن نور شمسه المنعشة قوى كل نبت نضير والذي بأهليته لرتبة هذا التفويض ما خاب المستخير ولا ندم المستشير والذي يفرده استحقاقه بهذه الرتبة فلا يقول أحدٌ من كبيرٍ ولا صغيرٍ امتثالاً للمراسيم الشريفة في حقه: منا أميرٌ ومنكم أمير - اقتضى جميل الرأي المنيف أن خرج الأمر الشريف - لا برح يحسن التعويل ويهدي إلى سواء السبيل ويمضي مضاء القضاء المنزل والسيف الصقيل - أن تفوض إليه نيابة السلطنة المعظمة في مملكة كذا وكذا.

فليقدم خيرة الله قائلاً وفاعلاً ومقيماً وراحلاً وموجهاً ومواجهاً ومسجلاً وساجلاً وعالماً وعاملاً ومعتمداً على الله في أمره كله.

وليكن من هذه المعرفة قريباً وعلى كل شيءٍ حتى على نفسه رقيباً وإذا اتقى الله كفاه الله الناس وإن اتقى الناس لم يغنوا عنه من الله شيئاً فليقس على هذا القياس ويقتبس هذا الاقتباس.

وأما الوصايا فالعساكر المنصورة هم مخلب الظفر وظفره وبهم يكشف من كل عودٍّ سره ويخلى وطنه ووكره ويضرب زيده وعمره ويبدد جمعه ويساء صنعه ويعمى بصره ويصم سمعه وهم أسوارٌ تجاه الأسوار وأمواجٌ تندفع وتندفق أعظم من اندفاق البحار وما منهم إلا من هو عندنا لمن المصطفين الأخيار فأحسن استجلاب خواطرهم واستخلاب بواطنهم وسرائرهم واستحلاب الشائع من طاعاتهم في مواردهم ومصادرهم وكن عليهم شفوقاً وبهم في غير الطاعة والاستعباد رفوقاً وأوجب لهم بالجهاد والاجتهاد حقوقاً واصرف لهم حملاً لأعباء المهمات والملمات مطيقاً واستشر منهم ذوي الرأي المصيب ومن أحسن التجريب ومن تتحقق منه النصح من الكهول والشيب ممن كلل بغيرة منه ما شب فإن المرء كثيرٌ بأخيه وإذا اجتمعت غصونٌ في يد أيد عست على قصفه وقصف كل واحدة فواحدة لا يعييه.

والجهاد فهو ملاك كل استحواءٍ واستحواذ وبه تتميز أفعال الكفار بالنفاد وأفعال الدين الحنيف بالنفاذ وما جعل الله للمدافعين عن دين الله سواه ولا مزجي صوب صواب إلا إياه وعلى ذلك جعل الله أرزاقهم وهيأ لهم به إرفاقهم فليكرمهم بأخذ الأهبة في الاعتلاء والانصباب في كل هضبة والاستعداد برباط الخيل وكل قوة.

ومن الوصايا التي ينبغي أن ترسم في جبهات الفكر دون توانٍ أو ركون أن لا يستحقر عدواً ولا يستهزيء بقلته لا رواحاً ولا غدواً وليكن للاستظهار مستوعباً ولإعمال المكايد مستوثباً وللكشف بعد الكشف مستصحباً وغير ذلك من الأمور التي بها صلاح الجمهور.

والشرع الشريف وتنفيذ أحكامه وتقوية أيدي حكامه فهو ميزان الإسلام والسلامة وقوام الصلاح والاستقامة وأخوه المرتضع من ثدي الحق العدل الذي كم شاق وكثيراً ما على أهل الباطل شق وعم القريب والبعيد والسائق والشهيد والمريب والمريد وكل ذي ضعف مبيد وكل ذي بأس شديد وكل مستشيرٍ ومستزيد فإن ذلك إذا شمل حاط وتم به الارتياد والارتباط وهدى إلى أقوم صراط.

والحدود فهي حياة النفوس وبها تزال البؤوس فأقمها ما لم تدرأ بالشبهات الشرعية والأمور المرعية.

والأموال فهي مجلبة الرجال ومخلبة الآمال وبها يشد الأزر ويقوى الاستظهار والظهر فيشد من الذين أمرها بهم معدوق ويقوي أيديهم بكل طريق في كل طروق بحيث لا يؤخذ إلا الحق ولا يترك شيءٌ من الحقوق.

والرعية فهم عند والي الأمر ودائع: ينبغي أنها تكون محفوظة وبعين الاعتناء ملحوظة فأحسن جوارهم وأزل نفارهم واكفف عنهم مضارهم ولا تعاملهم إلا بما لا تسأل عنه غداً بين يدي ربك فإنه يراك حين تقوم وأعد جواباً لذلك فكل راع راع مسؤول.

وأما غير ذلك فلابد أن تطلعك المباشرة على خفايا تغنيك عن المؤامرة وستتوالى إليك الأجوبة عند المسافرة في المكاتبات الواردة والصادرة والله يوفقك في كل منهجٍ تسلكه وتقتفيه ويسددك فيما من ذلك تنتحيه.

قلت: أما سائر أرباب الوظائف بها: كشد الدواوين وشد مراكز البريد وغيرهما فقد جرت العادة أن النائب يستقل بتوليتها.

فإن قدر كتابة شيءٍ من ذلك لأحد بها كتب لمن يكون طبلخاناه في قطع النصف بالسامي بغير ياء ولمن يكون عشرة في قطع الثلث بمجلس الأمير كما في غيرها.

الصنف الثاني أرباب الوظائف الدينية

وهم على مرتبتين المرتبة الأولى من يكتب له في قطع الثلث بالسامي بالياء.

وهم قضاة القضاة الأربعة.

المرتبة الثانية من يكتب له في قطع العادة: إما في المنصوري مفتتحاً بأما بعد وإما في الصغير مفتتحاً برسم.

وعلى ذلك تكتب تواقيع قضاة العسكر بها ومفتي دار العدل والمحتسب ووكيل بيت المال ووظائف التداريس والتصادير ونظر الأحباس إن كتب شيءٌ من ذلك عن الأبواب السلطانية وإلا فالغالب كتابة ذلك عن النائب بها.

النيابة الخامسة نيابة صفد

وقد تقدم في الكلام على المكاتبات أنها في رتبة نيابة طرابلس وحماة في المكاتبة وأنها تذكر بعد حماة في المطلقات.

ووظائفها التي تولى من الأبواب السلطانية على ثلاثة أصناف: الصنف الأول أرباب السيوف وفيه وظيفتان الوظيفة الأولى نيابة السلطنة بها ويكتب تقليده في قطع الثلثين وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بصفد كتب به لسيف الدين قطلقتمس السلحدار الناصري في سابع رمضان سنة عشر وسبعمائة من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهي: الحمد لله الذي صان الثغور المحروسة من أوليائنا بسيف لا تنبو مضاربه وخص أسنى الممالك المصونة من أصفيائنا بعضب لا يفل غربه محاربه وقدم على زعامة الجيوش من خواصنا ليثاً يسكن إليه كل أسدٍ من أسدٍ ذائلةٍ تغالبه حافظ نطاق البحر من أبطال دولتنا بكل كميٍّ تصد البحر مهابته أن يستقل براكبه أو تستقر على ظهره مراكبه وناشر لواء عدلنا في أقاليمنا بما يغني كل قطر أن تتدفق جداوله أو تستهل به سحائبه.

نحمده على نعمه التي جعلت سيف الجهاد رائد أوامرنا وقائد جيوشنا إلى مواقف النصر وعساكرنا وذائد أعداء الملة عن أطراف ممالكنا التي أسبق إليها من رجع النفس في الدجى تألق نجوم ذوابلنا وفي الضحى تبلج غرر صوارمنا ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً يستظل الإيمان تحت لوائها وتعبق الأكوان بما تنطق به الألسنة من أروائها ويشرق الوجود بما يبدو على الوجوه من روائها وتجادل أعداءها في الآفاق لرفع كلمة ملتها على الملل وإعلائها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم الأنبياء وأشرف حملة الأنباء صلى الله عليه وعلى آله وصحبه المخصوصين بأسنى مراتب الاجتباء صلاةً دائمةً بدوام الأرض والسماء أما بعد فإن أولى من فوضت إليه زعامة الجيوش بأسنى الممالك وعدق به من تقدم العساكر ما يرجف بمهابته هناك أرض العدو هنالك وعقد به للرعايا لواء عدل تجلى بإشراق ليل الظلم الحالك وعول عليه من جميل السيرة فيما تعمر به البلاد وتأمن به الرعايا وتطمئن به المسالك - من لم يزل في خدمة الدولة القاهرة سيفاً ترهب العدا حده ويخاف أهل الكفر فتكاته تحققاً أن آجالهم عنده ويتوقع كل كميٍّ من عظماء الشرك أن رأسه سيكون غمده مع سياسة تشتمل على الرعايا ظلالها الممتدة وسيرة تضع الأشياء مواضعها فلا تضع الحدة موضع اللين ولا اللين موضع الحدة وتوفرٍ على عمارة البلاد يعين على ريها طل الأنواء والوابل وبراءةٍ تجعل ما يودع فيها بالبركة والنماء: " كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل ".

ولما كان الجناب العالي هو السيف الذي على عاتق الدولة نجاده والليث الذي لم يزل في سبيل الله إغارته وإنجاده والغيث الذي يخصب بمعدلته البلد الماحل والأسد الذي تصد ساكني البحر مهابته فيتحققون أن العطب لا السلامة في الساحل اقتضت آراؤنا الشريفة أن نزيد حد عزمه إرهافاً وأن نرهب العدا ببأسه الذي يرد آحاد ما تقدم عليه من الجيوش آلافاً وأن نفوض إليه من أمور رعايانا ما إذا أسند إليه يوسعهم عدلاً وإنصافاً.

فلذلك رسم بالأمر الشريف: أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بصفد المحروسة: تفويضاً يعلي قدره ويمضي في عموم مصالحها وخصوصها نهيه وأمره ويرهف في حفظ سواحلها وموانيها بيضه وسمره ويصلي مجاورها من ساكني الماء من بأسه المتوقد جمره.

فليتلق هذه النعمة بباع شركه المديد ويترق هذه المرتبة بمزية اعتزامه التي ليس عليها فيما يعدق به من مصالح الإسلام مزيد وينشر بها من عموم معدلته ما لا يخص دون قومٍ قوماً ويعمر بلادها بالعدل: فإن عدل يومٍ واحدٍ خيرٌ للأرض من أن تمطر أربعين يوماً ويبسط فيها من مهابته ما يكف أكف البغاة أن تمتد ويمنع رخاء أهوية أهلها أن تشتد ويؤمن المسالك أن تخاف والرعايا أن يجار عليهم أو يحاف وليكن من في تقدمته من الجيوش المنصورة مكملي العدد والعدد ظاهري اللأمة التي هي مادة المجالدة وعون الجلد مزاحي الأعذار فيما يرسم لهم به من الركوب مزالي العوائق في التأهب لما هم بصدده من الوثوب حافظي مراكزهم حفظ العيون بأهدابها آخذي أخبار ما يشغل البحر من قطع العدا في حال بعدها كحال اقترابها بحيث لا يشرف على البر من قطع المخذولين إلا أسيرٌ أو كسير أو من إذا رجع بصره إلى السواحل ينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير وليكن أهل الجبال بمهابته كأهل السهل في حسن انقيادهم وطاعتهم ويصد عنهم بسطوته مجال الأوهام المتصلة فلا تنصرف إلى غير مجاوريهم من الأعداء مواقع بأسهم وشجاعتهم وملاك الوصايا تقوى الله: وهي من أخص أوصافه والجمع بين العدل والإحسان وهما من نتائج إنصافه فليجعلهما عمدتي حكمه في القول والعمل والله تعالى يجعله من أوليائه المتقين وقد فعل والاعتماد.

إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الثانية نيابة قلعة صفد

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بنيابة قلعة صفد المحروسة من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله كتب به للأمير سيف الدين أزاق الناصري خامس المحرم سنة أربعٍ وثلاثين وسبعمائة وهي: الحمد لله الذي خص الحصون برفعة ذراها وسمعة من فيها من رجالٍ تحمي حماها وتخطف أبصار السيوف بسناها وتصيب برميها حتى قوس قزح إذا راماها.

نحمده حمداً تبرز به المعاقل في حلاها وتفخر به عقائل القلاع على سواها وتشرف به شرفاتها حتى تجري المجرة في رباها ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً يطيب جناها ويطنب في السماء مرتقاها ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي كتب به للأمة هداها وكبت عداها وبوأها مقاعد للقتال تقصر دونها النجوم في سراها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً لا ينقطع عنهم قراها وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين.

وبعد فإن صفد صفت ووفت ووفت وكفت وكفت وجاورت البحر فما غمضت عنه لديادبها عيون ولا خيطت لسيوفها بالكرى جفون ولا ونت لرماحها عزائم شابت لممها ولا انتشت من السهام نبالٌ تفيض ديمها ولا أطالت مجانيقها السكوت إلا لتهدر شقاشقها وتهد بها من الجبال شواهقها وتهول العدا بما تريهم من التهويل وترمي به من كفاتها الحجارة من سجيل.

وهي القلعة التي يضرب المثل بحصانتها ويطمئن أهل الإسلام في إيداع أموالهم وأهلهم إلى أمانتها قد أطلت على الكواكب نزولاً وجردت على منطقة بروجها من البروق نصولاً وأتعبت الرياح لما حلقت إليها وأخافت الهلال حتى وقف رقيباً عليها وفيها من جنودنا المؤيدة من نزيدهم بها مدداً وتطيب قلوبهم إذا خرجوا لجهاد أعداء الله وخلوا لهم فيها مالاً وولداً.

وكانت النيابة بهذه القلعة المحروسة قد كادت تنطق بشكواها وتتظلم ممن أساء صحبتها لما تولاها واقتضت آراؤنا العالية أن نزحزح ظلامه عن صباحها ونقوض خيامه عما فرش على الفلك الشاهقة من بطاحها وفكرنا فيمن له بالقلاع المحروسة دربةٌ لا يخفى عليه بها سلوك ولا يخاف معه على هذه الدرة الثمينة في سلوك ممن حمد في دولتنا الشريفة مساء صباح ومن كان في أبوابنا العالية هو الفتاح ومن له همةٌ تناط بالثريا مطالبها وعزمةٌ ما القضاء إلا قواضبها ومعرفةٌ ما الرمح المثقف إلا تجاربها وكفايةٌ ما الغر الزواهر إذا عددت إلا مناقبها.

وكان المجلس السامي - أدام الله عزه - هو المحلق إلى هذه المرتبة والمخلق بالأصيل أرديتها المذهبة والمحقق في صفاته الورع والمنزه عن تدنيس طباعه بالطمع وله في الأمانة اليد المشكورة وفي الصيانة ما يمتع به ذيول السحاب المجرورة ومن التقوى ما قرب عليه المطالب البطية ومن الفروسية ما اتخذ كل ذروةٍ صهوةً وكل جبلٍ مطية ومن الاستحقاق ما يسهل له من صدقاتنا الشريفة صفد: وفي اللغة أن الصفد هو العطية.

فرسم بالأمر الشريف - شرفه الله وعظمه وأحكمه وحكمه - أن يرتب في النيابة بقلعة صفد المحروسة: على عادة من تقدم وقاعدته في التقرير وأما كيف يكون اعتماده فسنرشده منه بصبحٍ منير.

فقدم تقوى الله في سرك ونجواك واقصر على القناعة رجواك واحفظ هذه القلعة من طوارق الليل والنهار وأعد من قبلك للقتال في قرى محصنة أو من وراء جدر واملأ سماءك حرساً شديداً وشهباً وكثر رجالها لتباري بهم النجوم في أمثالها من بروج السماء عديداً وخذ إلى طاعتنا الشريفة بقلوبهم وهم على ذلك ولكنا نريد أن نزيدهم توكيداً وتألفهم على موالاتنا حتى لا تجد أنت ولا هم إلى المزيد مزيداً وتفقد الذخائر والآلات وتيقظ لما تلجيء إليه الضائقة في أوسع الأوقات وحصن مبانيها وحصل فيها من الذخائر فوق ما يكفيها ومن السلاح ما هو أمنع من أسوارها وأنفع في أوقات الحاجة مما تكنزه الخزائن من درهمها ودينارها: من مجانيق كالعقارب شائلةٌ أذنابها دافعةٌ في صدر الخطب إذا نابها ترمي بشرر كالقصر وتنزل من السماء بآيات النصر ومن قسي: منها ما تدافع بالأرجل مرامي سهامه ومنها ما تدور بالأيدي كأس حمامه ومنها ما يسكت إذا أطلق حتى لا يسمع لام كلامه ومنها ما يترنم إذا غنى بالحمام صوت حمامه ومن ستائر يستر بها وجهها المصون ومنائر يشاهد منها أقرب من يكون أبعد ما يكون ورهجية تجلى بها في كل ليلة عروسها الممنعة ودراجة تحاط بها من جهاتها الست وحدودها الأربعة وأقر نوب الحمام الرسائلي فبها تسقط علينا وعليك الأخبار ويطوى المدى البعيد في أول ساعة من نهار وافتح الباب وأغلقه بشمس واحترز على ما اشتملت عليه من مال ونفس وبقية الوصايا أنت بها أمس والله تعالى يزيل عنك اللبس والاعتماد.

الصنف الثاني أرباب الوظائف الديوانية

والذين يكتب لهم من الأبواب السلطانية صاحب ديوان الرسائل وناظر المال وناظر الجيش ووكيل بيت المال.

وما عدا ذلك فإنه يكتب عن نائبها وربما كتب عن الأبواب السلطانية.

الصنف الثالث أرباب الوظائف الدينية وهي على مرتين المرتبة الأولى: ما يكتب في قطع الثلث بالسامي بالياء وهم القضاة الأربعة.

المرتبة الثانية: من يكتب له في قطع العادة وتشتمل على قضاء العسكر وإفتاء دار العدل والحسبة ووكالة بيت المال.

الصنف الرابع أرباب الوظائف الديوانية

والذي يكتب به من الوظائف الديوانية بها - ثلاث وظائف يكتب لكل منهم في قطع الثلث بالسامي بالياء وهم: صحابة ديوان المكاتبات ونظر المال ونظر الجيش.

فإن كتب لأحد غير هؤلاء كتب له في قطع العادة.

النيابة السادسة نيابة غزة وقد تقدم أنها تارةً تكون نيابةً وتارة تكون تقدمة عسكر ومقدم العسكر بها يراجع نائب الشام في أموره.

وبكل حال فالوظائف التي تولى بها من الأبواب السلطانية على صنفين: الصنف الأول أرباب السيوف وليس بها منهم إلا نائب السلطنة إن كانت نيابةً أو مقدم العسكر إن كانت تقدمة عسكر.

فكيفما كان فإنه يكتب له تقليدٌ في قطع الثلثين بالجناب العالي مع الدعاء بدوام النعمة.

وهذه نسخة تقليد بنيابتها: كتب به للأمير علم الدين الجاولي من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهو: الحمد لله رافع علم الدين في أيامنا الزاهرة بإقامة فرض الجهاد وإدامته وجامع رتب التقديم في دولتنا القاهرة لمن تفتر الثغور بين ترقرق عدله وتألق صرامته وقاطع أطماع المعتدين بمن يتوقد بأسه في ظلال رفقه توقد البرق في ظلل غمامته وقامع أعدائه الكافرين بتفويض تقدمة الجيوش بأوامرنا إلى كل وليٍّ يجتنى النصر ويجتلى من أفنان عزماته ووجاهة زعامته.

نحمده على نعمه التي سددت ما يصدر من الأوامر عنا وقلدت الرتب السنية بتقليدها أعز الأولياء منا مناً ورجحت مهمات الثغور لدينا على ما سواها فلا نعدق أمورها إلا بمن تعقد عليه الخناصر نفاسةً به وضناً ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تزال القلوب بإخلاصها متدينة والألسنة بإعلانها متزينة والأسنة والأعنة متباريين في إقامة دعوتها التي لا تحتاج أنوارها البينة إلى البينة ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف مبعوثٍ إلى الأمم وأكرم منعوتٍ بالفضل والكرم وأعز منصور بالرعب الذي أغمدت سيوفه قبل تجريدها في القمم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نهضوا بجهاد أعداء الله وأعدائه على أثبت قدم وسروا لفتح ما زوي له من الأرض على جياد العزائم ونجائب الهمم وبذلوا نفائسهم ونفوسهم للذب عن دينه فلم تستزل أقدامهم حمر النعم ولم يثن إقدامهم بيض النعم صلاةً لا يمل السامع نداءها ولا تسأم الألسن إعادتها وإبداءها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإنا من حين مكن الله لنا في أرضه وأنهضنا بمسنون الجهاد وفرضه وقلدنا سيف نصره الذي انتضاه واقامنا لنصرة دينه الذي ارتضاه لم يزل مهم كل ثغر مقدماً لدينا وحفظ كل جانب جاور العدو براً وبحراً متعيناً على اعتنائنا ومحبباً إلينا فلا نرهف لإيالة الممالك إلا من إذا جرد سيفه أغمده الرعب في قلوب العدا ومن إن لم تسلك البحر خيله بث في قلوب ساكنيه سرايا مهابةٍ لا ترهب موجاً ولا تستبعد مدى ومن إذا تقدم على الجيوش أعاد آحادها إلى رتب الألوف وجعل طلائعها رسل الحتوف وأعداهم بأسه فاستقلوا أعداءهم وإن كثروا وأغراهم بمعنى النكاية في كتائب العدا: فكم من قلب بالرماح قد نظموا وكم من هامٍ بالصفاح قد نثروا.

ولذلك لما كان فلانٌ هو الذي ما زال الدين يرفع علمه والإقدام والرأي يبثان في مقاتل العدا كلومه وكلمه والعدل واليأس يتوليان أحكامه فلا يمضيان إلا بالحق سيفه وقلمه فكم نكس راية عدوٍّ كانت مرتفعة وأباح عزمه وحزمه معاقل شرك كانت ممتنعة وكم زلزل ثباته قدم كفر فأزالها وهزم إقدامه جيوش باطلٍ ترهب الآساد نزالها فهو العلم الفرد والبطل الذي لأوليائه الإقبال والثبات ولأعدائه العكس والطرد والولي الذي لولا احتفالنا بنكاية العدا لم نسمح بمثله والهمام الذي ما عدقنا به أمراً إلا وقع في أحسن مواقعه وأسند إلى أكمل أهله.

وكانت البلاد الغزاوية والساحلية والجبلية على ساحل البحر بمنزلة السور المشرف بالرماح المصفح بالصفاح مروجه الحماة وقلله الكماة لا يشيم برقه من ساكني البحر إلا أسيرٌ أو كسير أو من إذا رجع إليه طرفه ينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير وبها الجيش الذي كم لسيوفه في رقاب العدا من مواقع ولسمعته في قلوب أهل الكفر من إغارة تركتها من الأمن بلاقع وبها الأرض المقدسة والمواطن التي هي على التقوى مؤسسة والمعابد التي لا تعدق أمورها إلا بمثله من أهل الدين والورع والأعمال التي هو أدرى بما يأتي من مصالحها وأدرب بما يدع - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نعدق به نيابة ملكها ونزين بلآليء مفاخره عقود سلكها وأن نفوض إليه زعامة أبطالها وتقدمة عساكرها التي تلقى البحر بأزخر من عبابه والأرض بأثبت من جبالها وأن نرمي بحرها من مهابته بأهوال من أمواجه وأمر في لهوات ساكنيه من أجاجه لتغدو عقائل آهله أرقاء سيفه الأبيض وذابله ويتبر العدو الأزرق من بني الأصفر خوف بأسه الأحمر.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه كيت وكيت: تفويضاً يحقق في مثل رجاءها ويزين بعدله أرجاءها ويصون ببأسه قاطنها وظاعنها ويعمر ويغمر برفقه وإنصافه مساكنها وساكنها.

فليباشر هذه الرتبة التي يكمل به سعودها وتجمل به عقودها مباشرة يخيف بأسها الليوث في أجماتها ويعين عدلها الغيوث على دفع أزماتها ويغدو بها الحق مرفوع العلم مسموع الكلم ماضي السيف والقلم ممدود الظل على من بها من أنواع الأمم وليأخذ الجيوش التي بها من إعداد الأهبة بما يزيل أعذارهم عن الركوب ويزيح عوائقهم عن الوثوب ويجعلهم أول ملبٍّ لداعي الجهاد وأسرع مجيب لنداء ألسنة السيوف الحداد وينظم أيزاكهم على البحر انتظام النجوم في أفلاكها والشذور في أسلاكها فلا تلوح للأعداء طريدةٌ إلا طردت ولا قطعةٌ إلا قطعت ولا غرابٌ إلا حصت قوادمه ولا شامخ عمارة إلا وأتيح له من اللهاذم هادمه وليعل منار الشرع الشريف بإمضاء أحكامه ومعاضدة حكامه والانقياد إلى أوامره والوقوف مع موارد نهيه ومصادره ولتكن وطأته على أهل العناد مشتدة ومعرفته تضع الأشياء مواضعها: فلا تضع الحدة موضع اللين ولا اللين موضع الحدة وليعلم أنه وإن بعد عن أبوابنا العالية مخصوصٌ منا بمزية قربه مختصٌّ بمنزلة إخلاصه التي اصبح فيها على بينة من ربه وجميع ما يذكر من الوصايا فهو مما يحكى من صفاته الحسنة وأدواته التي ما برحت الأقلام في وصف كمالها فصيحة الألسنة وملاكها تقوى الله وهي في خصائصه كلمة إجماع وحلية أبصار وأسماع والله تعالى قدره وقد فعل ويؤديه في القول والعمل والاعتماد.

وهذه نسخة تقليد بتقدمة العسكر بغزة المحروسة: الحمد لله مبديء النعم ومعيدها ومؤكد أسبابها بتجديدها ومعلي أقدارها بمزايا مزيدها الذي زين أعناق الممالك من السيوف بتقليدها وبين من ميامنه ما ردت إليه بمقاليدها.

نحمده بمحامده التي تفوت الدراري في تنضيدها وتفوق الدر فيتمنى منه عقد فريدها ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نافعةً لشهيدها جامعةً لتوحيدها ناقعةً لأهل الجحود مما يورد الأرض بالدماء من وريدها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي كاثر الأمم بأمته في عديدها وظاهر على أعداء الله بمن يفل باس حديده فيرسل من أسنته نجوماً رجوماً لمريدها صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً نتظافر بتأييدها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن من عوائد دولتنا القاهرة أن تعود بإحسانها وتجود بثبوت كل قدم في مكانها وإذا ولت عرف سحابها عن جهة عادت إليها أو سلبت لها رونقاً أعادت بهجته عليها وكانت البلاد الغزاوية وما معها قد تمتعت من قدماء ملوك بيتنا الشريف بسيف مشهور وبطل تشام بوارق عزمه في الثغور وهو الذي عم بصيبه بلادها سهلاً وجبلاً وعمر روضها بعدل أغناها أن يسقي طلٌّ طللاً وجمع أعمالها براً وبحراً ومنع جانبيها شاماً ومصراً وألف أهلها منه سيرةً لولا ما استأثرنا الله به من سره لما أفقدناهم في هذه المدة حلاوة مذاقها وسريرةً لا نرضى معها بكف الثريا إذا بسطت لأخذ ميثاقها ولم نرفع يده إلا لأمرٍ قضى الله به لأجل موقوت ومضى منه ما يعلم أنه بمرجوعه القريب لا يفوت لأن الشمس تغيب لتطلع بضوءٍ جديد والسيف يغمد ثم ينتضى فيقد القد والجيد والعيون تسهد ثم يعاودها الرقاد والماء لو لم يفقد في وقت لما وجد لموقعه بردٌ على الأكباد.

فلما بلغ الكتاب أجله وأخذ حقه من المسألة وانتقل من كان قد استقر فيها إلى جوار ربه الكريم وفارق الدنيا وهو على طاعتنا مقيم - اقتضت آراؤنا الشريفة أن يراجع هذه العقيلة كفؤها القديم وترجع هذه الأرض المقدسة إلى من فارقها وما عهده بذميم.

من لم تزل به عقائل المعاقل تصان وخصور الحصون بحمائل سيوفه تزان ومباسم الثغور تحمى في كل ناحية من أسنته بلسان وحمى الثغرين وما بينهما من الفجاج وجاور البحرين فمنع جانبيهما: فهذا عذبٌ فراتٌ وهذا ملحٌ أجاج وله في العدا وقائع زلزلت لمواقعها الألوف ومواقف لولا ما نعقت فيها من غربان البين لطال على الديار الوقوف وهو الذي مدحت له في بيتنا المنصور المنصوري من الخدمة سوابق وحمدت طرائق وكثرت محاسن وكبرت ميامن ولمعت كواكب وهمعت سحائب وصدحت حمائم وفتحت كمائم وعزت جيوشنا المؤيدة له بمضارب وهزت سيوفاً حداداً وهو بالسيف ضارب.

وكان المجلس العالي - أدام الله تعالى نعمته - هو الذي حمدت له آثار وحسنت أخبار وعمت مدح وتمت منح فرسمنا بإقراره في هذا المنصب الشريف في محله وإعادته إلى صيب وبله وإنامة أهلها مطمئنين في عدله وإقرار عيون من أدرك زمانه بعوده ومن لم يدرك زمانه بما سيرونه من فضله.

فرسم بالأمر الشريف - لا زالت ملابس نعمه تخلع وتلبس برودها وعرائس كرمه تفارق ثم تراجع غيدها - أن تفوض إليه أمور غزة المحروسة وأعمالها وبلادها والتقدمة على عساكرها وأجنادها والحكم في جميع ما هو مضافٌ إليها من سهلٍ ووعر وبر وبحر وسواحل ومواني ومجرى خيول وشواني ومن فيها من أهل عمد ورعايا وتجار وأعيان في بلد ومن يتعلق فيها بأسباب ويعد في صف كتبة وكتاب.

على عادة من تقدم في ذلك وعلى ما كان عليه من المسالك.

وسنختصر له الوصايا لأنه بها بصير وقد تقدم لها على مسامعه تكرير ورأس الأمور التقوى وهو بها جدير وتأييد الشرع الشريف فإنه على هدىً وكتاب منير والاطلاع على الأحوال ولا ينبئك مثل خبير.

والعدل فهو العروة الوثقى والإنصاف حتى لا يجد مستحقاً والعفاف فإن التطلع لما في أيدي الناس لا يزيد رزقاً والاتصاف بالذكر الجميل هو الذي يبقى وعرض العسكر المنصور ومن ينضم إليه من عربه وتركمانه وأكراده وكل مكبرٍ في جحافله ومكثرٍ لسواده وأخذهم بالتأهب في كل حركةٍ وسكون والتيقظ بهم لكل سيف مشحوذ وفلكٍ مشحون والاحتراز من قبل البر والبحر وإقامة كل يزك في موضعه كالقلادة في النحر ولا يعين إقطاعاً إلا لمن يقطع باستحقاقه ويقمع العدا بما يعرف في صفحات الصفاح من أخلاقه ولا يخل المباشرين من عنايةٍ تمد إليهم ساعد المساعدة فلا يخلوا في البلاد بعمارةٍ تغدو في حللها مائدة وليحفظ الطرقات حفظاً تكون به ممنوعة ويمسك المسالك فإنه في مفرق طرقاتها المجموعة وليقدم مهمات البريد وما ينطق على جناح الحمام وليتخذهما نصب عينيه في اليقظة والمنام فرب غفلةٍ لا يستدرك فائتها ركض ورسالةٍ لا يبلغها إلا رسولٌ ينزل من السماء وآخر يسيح في الأرض ويرصد ما ترد به مراسمنا العالية ليسارع إليه ممتثلاً ويطالعنا بما يتجدد عنده حتى يكون لدينا ممثلاً وهو يعلم أنه واقفٌ من بابنا الشريف بالمجاز وقدام عينينا حقيقةً وإن قيل على طريق المجاز فليؤاخذ نفسه مؤاخذة من هو بين يدينا ويعمل بما يسره أن يقدم فيما يعرض من أعماله علينا والله تعالى يزيده حظوةً لدينا ويؤيد به الإسلام حتى لا يدع على أعداء الله للدين ديناً والاعتماد.

الصنف الثاني الوظائف الديوانية بغزة

وبها ثلاث وظائف: يكتب لكل منها في قطع العادة بالسامي بغير ياء وهي: كتابة الدرج القائمة مقام كتابة السر ونظر المال ونظر الجيش.

قال في التثقيف: أما قاضيها ومحتسبها ووكيل بيت المال بها فإنهم نوابٌ عن أرباب هذه الوظائف بالشام فلا يكتب لأحد منهم شيءٌ عن المواقف الشريفة.

قلت: وما ذكره بناءً على أنها تقدمة عسكر.

أما إذا كانت نيابةً فإن هذه الوظائف يكتب بها عن الأبواب السلطانية.

وقد يكتب حينئذ بوكالة بيت المال والحسبة عن النائب ويكون ذلك جميعة في قطع العادة مفتتحاً بأما بعد في المنصوري أو برسم في الصغير على حسب ما يقتضيه الحال.

على أنه قد حدث بها في الدولة الظاهرية قاض حنفيٌّ يكتب له من الأبواب السلطانية.

النيابة السابعة نيابة الكرك

وأرباب الولايات بها من الأبواب السلطانية على أصناف الصنف الأول أرباب السيوف وليس بها منهم غير نائب السلطنة ويكتب له تقليدٌ في قطع الثلثين بالمجلس العالي.

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بالكرك كتب به للأمير سيف الدين أيتمش من إنشاء الشيخ الحمد لله الذي خص بعزائمنا معاقل الإسلام وحصونه وبصرنا باختيار من نرتبه في كل معقل منها من أمجاد الأمراء ليحفظة ويصونه وجعلها بعنايتنا روضاً تجتلي أبصار الأولياء من بيض صفاحنا نوره وتجتني من سمر رماحنا غصونه وعوذها من آيات الحرس بما لا تزال حماتها وكماتها يروون خبره عن سيفنا المنتضى لحفظها ويقصونه.

نحمده على نعمه التي أعلت بنا بناء الممالك وحاطتها من نبل مهابتنا بما لو تسللت بينه الأوهام ضاقت بها المسالك وصفحتها من صفاح عنايتنا بما يحول برقه بينها وبين ما يستر طيف العد من الظلام الحالك ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تعصم من أوى إلى حرم إخلاصها وتنجي غداً من غدا من أهل تقريبها واختصاصها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أضاءت ملته فلم تخف على ذي بصر وعلت شرعته فغدا باع كل ذي باعٍ عن معارضتها ذا قصر وسمت أمته فلو جالدها معادٍ أوبقه الحصر أو جادلها مناوٍ أوثقه الحصر صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كانت معاقلهم صهوات جيادهم وحصونهم عرصات جلادهم وخيامهم ظلال سيوفهم وظلالهم أفياء صعادهم صلاةً لا يزال الإخلاص لها مقيماً والإيمان لها مديماً وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى الحصون الإسلامية بأن تحوط عنايتنا أركانه وتتعاهد رعايتنا مكانه وتلاحظ مهابتنا أحواله فتحليها وتشاهد أوامرنا قواعده فتشيدها بجميل النظر وتعليلها وتحول سطواتنا بين آمال الأعداء وتوهمه وتحجب مخافة بأسنا أفكار أهل العناد عن تأمل ما في الضمي وتوسمه - حصنٌ انعقد الإجماع على انقطاع قرينه وامتناع نظيره فيما خصه الله به من تحصينه فهو فرد الدهر العزيز مثاله البعيد مناله المستكنة في ضمائر الأودية الغوامض بقعته المستجنة بقلل الجبال الشواهق نقعته السائر في أقطار الأرض صيته وسمعته.

ولما كانت قلعة الكرك المحروسة هي هذه العقيلة التي كم ردت آمال الملوك راغمة ومنعت أهواء النفوس أن تمثلها في الكرى الأجفان الحالمة وكان فلانٌ ممن ينهض مثله بحفظ مثلها ويعلم أن أمانتها التي لا تحملها الجبال قد أودعت منه إلى كفئها ووضعت كفايتها في أهلها فهو سيفنا الذي يحوطها ذبابه ووليا الذي من طمح بصره إلى أفق حله أحرقه شهابه ونشو أيامنا التي تنشيء كل ليث يقنص الظفر ظفره وينبو بالسيوف نابه وغذي دولتنا الذي ما اعتمدنا فيه على أمرٍ إلا كرم به نهوضه وحسن فيه منابه - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نخصها بمهابة سيفه ونحصنها بما فيه من قوة في الحق تكف كل باغٍ عن حيفه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زالت الحصون المصونة تختال من ملكه في أبهى الحلل وتعلو معاقل الكفر بسلطانه علو ملة الإسلام على الملل - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالكرك المحروس تفويضاً يعلي قدره ويطلع في أفقها بدره ويطلق في مصالحها سيفه بالحق وقلمه ويمضي في حمايتها أفعاله وكلمه ويسدد في أمورها آراءه المقرونة بالصواب وهممه.

فليباشر هذه الرتبة العلية صورةً ومعنى الملية إذا طاولت الكواكب بأن لا يعلم منها أسمى وأسنى وليجتهد في مصالحها اجتهاداً يوالي له من شكرنا المنح ويأتي فيه من مواضينا بالغرض المقترح ويزيدها إلى حصانتها حصانةً وقوة ويزينها بسياسته التي تغدو قلوب أهل العناد بمخافتها مغزوة ولينظر في مصالح رجالها فيكون لحماتهم مقدمأن ولمقدميهم مكرماً ولا عذارهم مزيحاً ولخواطرهم بتيسير مقرراتهم مريحاً وليكن لمنار الشرع الشريف معظماً ولأحكامه في كل عقد محكماً ولما قرب وبعد من بلاد نيابته عامراً ولأكف الجور عن الرعية كافاً: فلا يبرح عن الظلم ناهياً وبالعدل آمراً وملاك الوصايا تقوى الله فليجعلها حلية نفسه ونجي أنسه ووظيفة اجتهاده التي تظهر بها مزية يومه على أمسه والله تعالى يسدده في أحواله ويعضده في أفعاله وأقواله بمنه وكرمه! وهذه نسخة تقليد السلطنة بالكرك كتب به للأمير تلكتمر الناصري عندما كان المقر الشهابي

أحمد ولد السلطان الملك الناصر بالكرك وهو: الحمد لله الذي جعل بنا الممالك محصنة الحصون محميةً بكل سيف يقطر من حده المنون ممنعةً لا تتخطى إليها الظنون محجبةً لا تراها من النجوم عيون رافلةً من الكواكب في عقد ثمين منيعةً أشبهت السماء واشتبهت بها فأصبحت هذه البروج من هذه لا تبين.

نحمده على نعمه التي رفعت الأقدار وشرفت المقدار وحلت في ممالكنا الشريفة كل عقيلةٍ ما كان معصمها الممتد إلى الهلاك ليترك بغير سوار ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً رفعت للحصون العالية رتباً وملئت بها سماؤها حرساً وشهباً وأعلت مكانها فاقتبست من البرق ناراً ووردت من السحاب قلباً ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من بعث ولاةً على الأمصار وكفاةً على الأقطار صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما صدحت الحمائم وسفحت الغمائم وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن خير من حميت به الممالك وحمدت - ولله المنة - منه المسالك وارتقت همم إلى الشمس والقمر والنجوم وما أشبه ذلك من حصل الوثوق به في أشرف مملكة لدينا وأفضل ما يعرض في دولتنا الشريفة من أعمالها الصالحة علينا: وهي التي قعدت من الجبال على مفارقها واتصلت من النجوم بعلائقها وتحدرت الغمائم من ذيولها وطفت على السماء وطافت على الكواكب فجرت المجرة من سيولها وكان الكرك المحروس هو المراد ومدينته التي لم يخلق مثلها في البلاد وقلعته تتشكى الرياح لها طلوع واد ونزول واد وهي أرضٌ تمت بأنها لنا سكن ونمت مناقبها بما في قلوبنا من حب الوطن واستقرت للمقامات العالية أولادنا - أعزهم الله بنصره - فانتقلت من يمينٍ إلى يسار وتقابلت بين شموسٍ وأقمار وجاد بها البحر على النهار.

فلما خلت نيابة السلطنة المعظمة بها عرضنا على آرائنا الشريفة من تطمئن به القلوب ويحصل المطلوب وتجري الأمور به على الحسنى فيما ينوب وتباري عزائمه الرياح بمرمى كل مقلة وهزة جيد ولا يشك في أنه كفؤ هذه العقيلة وكافي هذه الكفالة التي ما هي عند الله ولا عندنا قليلة وكافل هذه المملكة التي كم بها بنيةٌ أحسن من بنية وخميلةٌ أحسن من خميلة من كان من أبوابنا العالية مطلعه وبين أيدينا الشريفة لا يجهل موضعه طالما تكملت به الصفوف وتجملت به الوقوف وحسن كل موصوف ولم تخف محاسنه التي هو بها معروف كم له شيمةٌ علية وهمةٌ جلية وتقدمات إقدام بكل نهاية غاية ملية وعزائم لها بنعته أدام الله نعمته - هو لابس هذه البرود التي - مضاء السيف وباسمه قوة الحديد وهي بالنسبة إليه ملكية وكان المجلس العالي رقمت والعقود التي نظمت وجامع هذه الدرر التي قسمت والدراري التي سمت إلى السماء لما وسمت وهو من الملائك في الوقار وله حكم كالماس وبأسٌ يقطع الأحجار وهو ملكٌ نصفه الآخر من حديد كما أن لله ملائكةً نصفهم من الثلج ونصفهم من نار وهو الذي اقتضت آراؤنا الشريفة أن نجعله في خدمة ولدنا - أمتعه الله ببقائنا - نائباً بها وقائماً بحسن منابها والمتصرف فيها بين أيديه الكريمة والمتلقي دونه لأمورها التي قلدنا بها عنقه أمانةً عظيمة.

فلذلك خرج الأمر الشريف - لا زال به سيف الدين ماضياً ولا برح كل واحد بحكم سيفه في كل تجريد وقلمه في كل تقليد راضياً - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالكرك المحروس وما معه على عادة من تقدمه فيها وقاعدته التي يتكفل لها بالإحسان وبكف العدوان ويكفيها وكل ما فيها من أمرٍ فهو به منوط وكل عمل لها به محوط وحكمه في مصالحنا الشريفة في جميع بلادها مبسو وله تطالع الأمور ومنه تصدر المطالعة وبه تزال كل ظلامة وتزاح كل ملامة ويؤيد الشرع الشريف ويؤبد حكمه وينثر علمه وينشر علمه وتقام الحدود بحده والمهابة بجده.

ورجال هذه القلعة به تتألف على طاعتنا الشريفة قلوبهم والرعايا يعمهم بالعدل والإحسان وأيسر ما عندنا مطلوبهم وهؤلاء هم شيعتنا قبلك ورعيتنا الذين هم لنا ولك فرفرف عليهم بجناحك وخذهم بسماحك والمسارعة إلى امتثال مراسمنا الشريفة هي أول ما نوصيك باعتماده واولى ما يقبس من نوره ويستمد من أمداده فلا تقدم شيئاً على الانتهاء إلى أمره المطاع والعمل في السمع والطاعة باكر له ما يمكن أن يستطاع وخدمة أولادنا فلا تدع فيها ممكناً واعلم بأن خدمتهم وخدمتنا الشريفة سواءٌ لأنه لا فرق بينهم وبيننا وهذه القلعة هي التي أدعناها في يمين أمانتك وحميناها بسيفك وصناها بصيانتك فالله الله في هذه الوديعة وأد الأمانة فإنها نعمت الذريعة واحفظها بقوة الله وتحفظ بأسوارها المنيعة وعليك بالتقوى لتقوى والوقوف عن الشريعة والله تعالى يزيدك علواً ويبلغك مرجواً والاعتماد.

قلت: وربما ولي نيابة الكرك من هو جليل الرتبة رفيع القدر من أولاد السلطان أو غيرهم فتعظم النيابة بعظمه ويرفع قدرها بارتفاع قدره وتكون مكاتبته وتقليده فوق ما تقدم بحسب ما يقتضيه الحال من الجناب أو غيره.

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بالكرك كتب بها عن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لولده الملك الناصر أحمد قبل سلطنته وكتب له فيه بالجناب العالي من إنشاء الشريف شهاب الدين وهي: الحمد لله الذي اسعدنا بوراثة الملك والممالك وأرشدنا للرأي المصيب في أن نستنيب من نشاء من ذلك وأيدنا بالعون والصون في حفظ ما هنا ولحظ ما هنالك وعودنا الإمداد بيمنه المتداول والإنجاد بمنه المتدارك وسددنا بالفضل والإسعاف إلى أن نتبع من العدل والإنصاف أنجح السبل وأوضح المسالك وعضدنا من ذريتنا بكل نجل معرق ونجم مشرق يرشق شهابه في الكرب الحال ويأتلق صوابه في الخطب الحالك وأفردنا بالنظر الجميل والفكر الجليل إلى نحمده! وكيف لا يحمد العبد المالك! ونشكره على أن أهلنا لإقامة الشعائر وإدامة المناسك ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جل في جبروته عن مشابهٍ وتعالى في ملكوته عن مشارك ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أنجد جنوده من الملأ الأعلى بالملائك وأمد بعوثه بالنصر والظفر في جميع المواقف والمعارك وأيد أمته بولاية ملوك يجلسون في النعيم على الأرائك ويحرسون حمى الدين بجهادهم واجتهادهم من كل فاتنٍ وفاتك صلى الله عليه وعلى آله سفن النجاة المؤمنين من المخاوف والمنقذين من المهالك ورضي الله عن اصحابه الذين نظموا شمل الإيمان وهزموا جمع البهتان بكل باترٍ وفاتك صلاةً ورضواناً يضحي لقائلهما في اليوم العبوس الوجه الطلق والثغر الضاحك وينشر فيحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك ما ابتهل بصالح الدعاء وناجح الاستدعاء لأيامنا كل عابد وناسك وعول حسن آرائنا على تقديم من هو لجميل آثارنا سالك وأقبل بالإقبال سنا شهابه المنير يجلو ما تثير من ليل نقعها السنابك فحصل للكرك والشوبك بهذا القدوم فخار مسيرك بينهما وبين النجوم الشوابك.

أما بعد فإن الله تعالى آثرنا بتوفير التوفيق ويسرنا من الهدى إلى أقوم طريق ووهبنا في الملك النسب العلي العريق والحسب الذي هو بالتقديم والتحكيم حقيق وقلدنا من عهد بيعة السلطنة ما لحمده في الآفاق تطريق ولعقده في الأعناق تطويق ففيأنا من شجرة هذا البيت الشريف الناصري المنصوري كل غصن وريق وهيأ للبرية تكريماً عميماً بتقديم من له المجد يتعين وبه السؤدد يليق وأطلع في أفق أعز الممالك علينا من بيتنا شهاب علا هو للبدر في الكمال والجمال شبيهٌ وشقيق وأطعنا أمر الله تعالى في معاملة الولد البار معاملة الوالد الشفيق وأودعنا لديه ما أودعه الله تعالى لدينا: مملكةً مرتفعةً متسعةً ليرتفع محله ويتسع أمله ولا يضيق وجمعنا له أطرافها لتكون لكلمته العليا بها الاجتماع من غير تفريق.

ولما كان الجناب العالي الولدي الشهابي سليل الملوك والسلاطين خليل أمير المؤمنين هو الذي تشير رتب الكفالة بترقيه وتقر عيون الأولياء بتعينه لإلقاء أمرنا المطاع وتلقيه وتلهج الألسنة ضارعة إلى الله تعالى أن يخلد ملك بيته الشريف ويبقيه وتعرج إلى السموات دعوات الأتقياء أن يوقيه الله مما يتقيه ونمسك في هذا المقام لسان المقال عن مدحه أدباً ونترك الافتخار بالمال والعيدد إيثاراً لثواب الله وطلباً وندرك موعظة الله سبحانه في كتابه قصداً وأرباً " والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ عقباً ".

وببركة هذا القصد يتم لنا فيه المراد ويعم هذه المملكة النفع بهذا الإفراد فإنها معهد النصر والفتح ومشهد الوفر والمنح ومصعد العز الذي لما وطئنا صرحه تدكدك للعدا كل صرح وتملك للهدى كل سرح ونشقنا بها لقرب المزار من طيب طيبة أعظم نفح وقد بقينا بجاه الحال بها في تيسير التأييد فكان كاللمح وجرى خلفنا السمح بعد ذلك على عادته في الحكم والصفح وسرى ذكرنا في الشرق والغرب وللحاة به أطرب صدح وآتى الله من فضله ملكنا نعماً تجل عن العد والشرح فيها منشأ دولة الدول ومنها فتح الفتوح وبإضافته إلينا تفاؤل خيرٍ مشهورٍ ملموح كما قيل قبلها كرك نوح فبتطهير الأرض من الكفار عزائمنا تغدو وتروح وبالاستناد بأطول الأعمار أمارةٌ بادية الوضوح وآثار بركة الاسم الشريف المحمدي تظهر علينا في الحركات والسكنات وتلوح وفخار هذه المملكة المباركة: لاختصاصها بالحرمين الشريفين عليها طلاوةٌ وسعادةٌ وفيها روح وكنا قد سلكنا بهذا الولد النبيل سنة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل في ولده إسماعيل عليهما السلام التام في كل بكرة وأصيل حيث فارقه وأفرده وتفقده في كل حين وتعهده حتى شد الله تعالى به عضده ورفع هو وأبوه قواعد البيت وأعانه لما شيده فأجمل الله تعالى به عضده ورفع هو وأبوه قواعد البيت وأعانه لما شيده فأجمل الله لنا هذا القصد وأحمده وكمل هذا الشروع وأسعده وأجزل له من فوائده أوفر هبةٍ وأنجز له من عوائده أصدق عدة فأحللناه في هذه المدة بمملكة الكرك فسلك من حسن السجايا أحسن مسلك وملك قلوب الرعايا وبما وهب من المنح تملك وبسنتنا في التواضع للحق مع الخلق تمسك وبشيمنا وخلقنا في الجود تخلق فبذل وما أمسك.

ولما بلغ أشده واستوى وبزغ شهاب علاه الذي هو وبدر السماء سوا وحاز مكارم الأخلاق وحوى وفاز سلطاننا فين جابته بحسن النية: وإنما لكل امرىءٍ ما نوى - حكمناه في هذه النيابة التي ألفها ودربها وعرف أمورها وجربها واستمال خواطر أهلها واستجلبها وأدنى لهم لما دنا منهم الميامن ولما قر بها منهم قربها واستحق كفالتها واستوجبها وأظهر الله تعالى فيه من الشمائل أنجبها ومن الخلائق أرحبها ومن الأعراق أطيبها ومن العوارف أنسبها ومن العواطف أقربها ومن البسالة أرهفها

وأرهبها ومن الجلالة أحبها إلى القلوب وأعجبها ومن السيادة ما أخذت نفسه لها أهبها ومن الزيادة ما يتعين له شكر الله الواهب الذي وهبها ومن السعادة ما رفعت الأقدار على مناكب الكواكب رتبها وأطلعت لحماته سماء العلياء شهبها ورقت على هامة الجوزاء منصبها واستصحبت من العناية لهذا البيت مزيةً فرض الله بها له الطاعة وكتبها فاستخرنا الله تعالى الذي يختار لنا ويخير وسألناه التأييد والتيسير وفوضنا إليه وهو الكفيل لنا بالتدبير في كل مبدإٍ ومصير واستعنا به وهو نعم النصير واقتضى حسن الرأي الشريف أن نسرج شهابه المنير وننتج للأولياء يمن التأثيل بحسن هذا التأثير وننهج في بره سبلاً تقدمنا إليها كل ذي منبرٍ وسرير ونثلج الصدور ونقر العيون بسعيد الإصدار وحميد هذا التقرير.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا برح أمره يصيب السداد فيما إليه يصير وخبره يحمل الموافاة فللألسنة عن مكافأة بره تقصير - أن تفوض نيابة السلطنة الشريفة بالكرك المحروس والشوبك للجناب العالي الولدي الشهابي وما ينضم إلى ذلك وينضاف من جميع الأقطار والأكناف وجمعنا له من هذه المملكة الأطراف وجعلنا له على سهلها وجبلها إشراف وصرفناه منها فيما هو عن علمه الكريم غير خاف نيابةً كاملة كافلة شاملة عامة تامة وافرة سافرة يستلزم طاعته فيها الافتراض وتنحسم عنه فيها مواد الاعتراض وتنفذ مراسمه من غير توقفٍ ولا انتقاض وتبسط يده البيضاء من غير انقباض ويرتفع رأيه من غير انخفاض.

فلتقدر رعية هذه البلاد نعمة هذا التفويض قدرها وليسألوا الله أن يوزعهم لحسن هذا التفويض شكرها فقد أنشأ لهم يسرها وأفاء لهم برها وألقى إليهم جودها وخيرها وابقى عندهم عزها ونصرها وليتبعوا السبيل القويم وليجمعوا على الطاعة التي تبقي عليهم نعمة العافية وتديم وليسمعوا ويطيعوا لما يرد إليهم من المراسيم فمن لم يستقم كما أمر لا يستمر بهذه البلاد ولا يقيم والعاقل لنفسه خصيم والجاهل من عدم النعمة وحرم النعيم وفراستنا تلمح نتائج الخير من هذا التقديم وسياستنا تصلح ما قرب منا وما بعد بتعريف أحكام التحكيم وكيف لا وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم المؤمل لتمام السؤدد قبل أن يعقد عليه التميم المشتمل على الخلال الموجبة له الفضل العميم المتوصل بيمن حركاته إلى أن يكون لمثل هذا الملك العظيم وإلى أمانته استيداعٌ وإلى صيانته تسليم المقبل وجهدنا الإقبال فتتلو الرجال: " ما هذا بشراً إن هذا إلا ملكٌ كريمٌ ".

ونحن نأمرك من التقوى بما به من الله أمرنا ونبصرك من الهدى بما له هدينا وبصرنا ونبقي لديك من بدائعها ما به خصصنا وأوثرنا ونوصيك اتباعاً للكتاب والسنة ونؤتيك من الهداية ما لله في الإرشاد إليه المنة: فقد وعظ ووصى لقمان - عليه السلام - ابنه وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن فحقق الله تعالى في نجاحه رجاءه وفي فلاحه ظنه ونذكر جنابك ونرجو أن تكون ممن تنفعه الذكرى ونسير شهابك إلى أفق السعد ونأمل أن تيسر لليسرى ونؤمرك فتزيد علم عزك رفعاً ولواء مجدك نشراً ونأمرك ثقةً بحسن أخلاقك فيتلو لسان وفاقك: " ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً " فمثلك من أيدته العصم وأصعدته الهمم وحمدته الأمم وأرشدته إلى الحكم ما عهدته فكرته من الحكم وسددته أعراقه وأخلاقه فلا يزاد على ما فيه من كرم فلا نذكر منك ناسياً ولا نفكر لاهياً ولا نأمر وننهى إلا من لم يزل بالمعروف آمراً وعن المنكر ناهياً.

فاتق الله تعالى: فعلى التقوى مرباك وراقب اللهتعالى: فالمراقبة للملوك من بيتك ملاك وجد في نصرة الحق ولا تأب: فقد أنجد الله تعالى بذلك جدك وأباك واعدل فبالعدل تعمر الدول وأقم منار الشرع فهو الأصل الذي يرد إليه من القضايا كل فرع ومجاله الرحب إذا ضاق الذرع فأيد حاكمه وشيد معالمه وأكد الإلزام بأحكامه اللازمة.

والأمراء والجند فهم جناح النجاح وصفاح الصفاح فاعتمد أحوالهم بالصلاح وأرد فيهم ما استطعت الإصلاح والخيالة والرجالة الذين يحمى بهم مصون الحصون أن يستباح فالحظ أمورهم بعين فكرك في كل مساءٍ وصباح فمن نهض في الخدمة تعين من النعمة أن يزاد ومن قصر في العزم قضى الحزم أن يزاح والرعايا فهم للإحسان ودائع وللامتنان صنائع فأعذب لهم من المعدلة المشارع وانصب لهم من إقامة الحرمة الزواجر والروادع وأخصب لهم من النعمة مربعاً يرغب الجامح ويقرب الطائع وأهل الذمة فآوهم إلى كنف العدل الواسع واحمهم أن تمتد إلى أنفسهم يد جانٍ وإلى أموالهم يد طامع وأقم عليهم بأساً يحل بهم إذا اعتدوا القواصم والقوارع وأدم لهم مهابة تسد من فساد الذرائع وعاود آراءنا الشريفة وراجع وواصل بأنبائك السارة وأفعالك البارة وتابع وبما تتطلع إليه خواطرنا العاطفة من متجدداتك المباركة أتحف وطالع والله تعالى يشنف بحسن سيرتك المسامع ويشرف بحلول عدلك المحافل والمجامع ويوزعك شكر نعمته ويجعل لك من عصمته أعظم وازع ويمتعك بأيامنا التي فيها الخير الشامل والبر الجامع ويصون بخلالك الحسنى ما استحفظت من أسنى الودائع ويزين سماء العلياء بجلالك فمنها لك قمراها والنجوم الطوالع ويوفق بجميل قصدك إلى أن تأخذ من القلوب بالمجامع ويحقق في إسعاد جنابك المطالب ويشرق بإصعاد شهابك المطالع والعلامة الشريفة أعلاه حجةٌ بمقتضاه.

لصنف الثاني أرباب الوظائف الدينية وبها قاض واحدٌ شافعي

وتوقيعه في قطع الثلث بالسامي بالياء الصنف الثالث الوظائف الديوانية وهي ثلاث وظائف يكتب لكل منها توقيعٌ في قطع العادة: الأولى كتابة الدرج والثانية نظر المال الثالثة نظر الجيش.

القسم الثالث مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ما يكتب لأرباب الوظائف بالمملكة الحجازية وقد تقدم أنها تشتمل على ثلاث قواعد: القاعدة الأولى مكة المشرفة وبها وظيفتان الوظيفة الأولى الإمارة وقد تقدم أن إمارتها في بني الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وأنها كانت تولى من أبواب الخلافة ببغداد إلى حين انقراضها إلا ما تغلب عليه الفاطميون أصحاب مصر في خلال ذلك.

ثم استقرت آخراً من جهة ملوك مصر إلى الآن.

ويكتب له تقليدٌ في قطع النصف بالمجلس العالي بزيادة ألقاب تخصه وقد تقدمت ألقابه في أول هذا الطرف.

وهذه نسخة تقليد بإمرة مكة المشرفة: كتب بها عن الملك الناصر محمد بن قلاوون لأسد الدين رميثة بن أبي نمي بإمرة مكة المشرفة عوضاً عن أخيه عطيفة عند قتل الأمير الدمرجان دار وولده خليل من إنشاء المولى تاج الدين بن البارنباري رحمه الله في المحرم سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة وهي: الحمد لله الحكيم: فالشريف من اتبع أوامره العظيم: فالسعيد من اتقى غضبه بأعماله الزاكية ونياته الطاهرة الكريم: فالفائز من سلك مراضيه في الدنيا ليأمن في الآخرة ومن أخاف عاكف حرم الله وباديه فقد باء بالأفعال الخاسرة ومن عظم شعائر الله فقد رفل في حلل الإقبال الفاخرة.

نحمده على ألطافه الباطنة والظاهرة ونشكره ونرجوه وما زال ينجح راجيه ويزيد شاكره ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من اتخذ الحق ناصره وأودع إخلاصها ضمائره ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله من الحرم فألف القلوب النافرة وفتح مكة فطهرها من الزمرة الكافرة وقال في ذلك اليوم: من أغلق عليه بابه فقد أمن فأمسى أهلها ونفوسهم بالأمن ظافرة صلى الله عليه وعلى آله بني الزهراء العترة الزاهرة وعلى صحبه النجوم السافرة وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن الحكم بالعدل شعارنا وبالله اقتداؤنا واقتدارنا وفي الإحسان رغبتنا وفي كل عنق منتنا نصفح ونمنح ونرعى من أمسى قديم الهجرة في ولايتنا وأصبح ونقيم من أهل البيت لحفظ ذلك البيت الأصلح فالأصلح ونقدم من لم يزل مقدماً وإلى صوب الصواب يجنح فينجح وننجي من الهلكة من لاح له منهج الخير فسلكه فأفلح.

وكانت مكة المعظمة هي أم القرى والبلد الأمين المجزل فيه القرى نشأ الإسلام في بطحائها وحرمها الله فلا ينفر صيدها ولا يعضد شجرها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد تأكيداً لتشريفها وإعلائها وطلعت شمس النبوة من شعابها وغسلت الذنوب بوبل سحابها فيها زمزم وكزة جبريل وفيها بدأ الوحي والتنزيل وإليها أعنقت الركاب ففي كل أبطح للمطي مسيرٌ ومسيل فكم أتى إليها من سائر الناس سائر وكم أتى إليها الناس رجالاً وعلى كل ضامر فالرحمة مستقرة بين نواحيها والعيون تتملى بأنوار تلك الأستار حتى تجتليها والشفاه تتشرف بتقبيل ذلك الحجر الذي يشهد لها في غدٍ ويقيها فطوبى لمتقيها وسحقاً لمن أخاف وفد الله فيها ونحن قد بصرنا الله بخدمة بيتها المحرم وحرمها المعظم وكرر إليها حجنا وكرمه فلله الحمد أن كرر حجنا وكرم وما برحنا نقيم في إمارتها من العترة النبوية كل شريف النسب وكل من يكتسب فيها رضا الله تعالى: وكل امرىءٍ وما اكتسب فمن أصلح منهم أقمناه ومن حاد عن الطاعة وجحد النعمة أزلناه ومن أخاف فيه السبيل لم نجعل له إلى الخير سبيلاً ومن استقام على الطريقة توكلنا على الله وولياه وكفى بالله وكيلاً.

وكان فلانٌ هو الذي ما زالت خواطرنا الشريفة تقدمه على بني أبيه وتختاره أميراً وتجتبيه وربما سلفت من بيته هناتٌ صفحنا عنها الصفح الجميل وما قابلناهم إلا بما يليق لمجدهم الحسني الحسن الأصيل والإمرة وإن كانت بيد غيره هذه المدة فما كان في الحقيقة أميرٌ عندنا والآن قد اقتضت آراؤنا الشريفة أن نقيمه في بلده أميراً مفرداً إليه يشار وأن نصطفيه - وإنه عندنا لمن المصطفين الأخيار - وأن نجعل الكلمة واحدةً ليأمن النزيل والجار ومتى تجاذب الأمر كلمتان فسد نظامه ومتى أفرد الحكم حسنت أحكامه ومتى توحد الأمر زال الاختلاف وزاد الائتلاف وأقبلت أيامه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه إمرة مكة المشرفة على عادة والده.

فليتقلد ما فوضناه إليه من الإمرة والنيابة بمكة المعظمة شاكراً ما أنعم الله به عليه من مراضينا التي لا نجاة لمن لم ينل منها نصيباً موفوراً ولا فوز لمن لم يدرك منها حظاً كبيراً وليشرع في تمهيد البلاد من إزالة المظلمة وليطهرها من كل مجترىءٍ على الله تعالى في البقعة المحرمة ولا يقرب من في قلبه مرضٌ فيعديه ولا يرجع لمن فيه شقاقٌ ظاهرٌ في صفحات وجهه وفلتات فيه وليعلم أن هذا بلدٌ حرامٌ حرمه الله يوم خلق السموات والأرض وصير حج بيته على مستطيعه من الفرض وجعله للناس معاداً ومعاذاً وقال صلى الله عليه وسلم يوم عرفة: " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ".

فليمنع الدماء من أن تراق والأموال من أن تؤخذ بغير استحقاق والظلم في البلد الحرام حرام وبنو حسن أحق باتباع سنة الإسلام واتق الله لتلقاه بالوجه الأبيض والعمل الأغر واتبع سنة جدك: فعلى اتباعها حث وأمر والق وفد الله في البر والبحر بالحسنى فهم أضيافه وأمن الحج ليتم نسكه وطوافه.

هذا تقليدنا لك أيها الشريف: فطب نفساً بمراضينا وصفحنا عما مضى ومنحنا الرضا حقاً يقيناً لأنا نتحقق أن الإحسان يحرسنا ويقينا إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة تقليد شريف لأمير مكة المشرفة: الحمد لله الذي جعل البيت مثابةً للناس وأمناً ونصب فيه للقانتين ركناً وجعل أرض الحرم لا تبيد بركاتها ولا تفنى وجعل لشجرة النسب الهاشمي فيها أصلاً شريفاً كم أخرج غصناً وآتى بني الحسن فيها إحساناً من لدنه وحسناً وأقام منهم أميراً في ذلك المحل الأسنى.

نحمده فرادى ومثنى ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً كاملة اللفظ والمعنى ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي شيد الله به للدين خير مبنى وأضحت الضلوع على محبته تحنى وثمار الخير مما بين روضته ومنبره تجنى وخصه الله بالشرع المستقيم والدين الأهنى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً في الصدور لها سكنى وسلم تسليماً.

وبعد فإن أم القرى خير البلاد بلا مرا قد جعل الله للناس إليها رحلةً وسرى وهجروا في قصدهم إليها لذيذ الكرى ونصب فيها بيتاً متين العرى وأنبع فيها بئراً ماؤها يشفي السقيم ويبرىء الورى وجعل فيها للشرف بيتاً عالي الذرى فأميرها المطاع من أهل بيت النبوة لا يخيب ولا يضاع ذو همة تخافها السباع ويرهبها البطل الشجاع يعد من الآباء أسلافاً كراماً كمصابيح السماء تجلو ظلاماً وقد طيب الله مقامهم وأعلى مقامهم حين جاوروا مقاماً.

ولما كان.

هو شريف العرب المعرق في النسب الطيب الحسب المحيي من آثار آبائه ما ذهب الشريف النفس: فلا يلتفت إلى العرض الأدنى من الرقة وأكد شكره الحرم وأهله وأثنى على صفاء سيرته الصفا وعلى مروءته المروءة إذ طاب أصله قد اقتفى في الكرم أباه وجده وأمن سبيل الحاج من جهة البر ومن جهة البحر من جدة.

فلذلك رسم أن يفوض إليه.

فليحل البلد الحرام حاكماً وآمراً وليستجلب له من العاكف والباد شاكراً وليحسن للطائفين والعاكفين والركع السجود وليتبع آثار آبائه أهل الكرم والجود وليؤمن الخائف في تلك التهائم والنجود وليردع الحائف عن حيفه فلا يعود وليعلم أنه بوادٍ غير ذي زرعٍ ولكن فيه للبركات ظلٌّ ممدود وخير مشهود وبمكة مولد أشرف مولود وجده الحسن رضي الله عنه فليكن حسن الفعال فكما ساد يسود وليعرب عن الثناء الأبيض عندما يتمسك بتلك الستور السود وليتلق المحمل الشريف في كل عام بالاحتفال والإكرام والطاعة التي يبلغ بها المرام وليقف مع أمراء الحاج مقيماً لحرمتهم بجميل الاحترام وليكف الأشرار من العبيد والموالي عن النهب والتخطف لوفد الله الذي قطع السرى بالأيام والليالي وليلازم خدمة المحمل الشريف على ما يناسب شرفه حتى يقف بعرفة ثم يدفع إلى المزدلفة إلى أن يقضي الحج ويرحل من مكة المشرفة وليكن سياجاً على الحجاج في تلك الفجاج حتى لا يفقد أحدهم عقالاً ولا يجد اختزالاً ويرحلون عن مكة المعظمة من الذنوب خفافاً وبمننه ثقالاً.

والوصايا كثيرةٌ وهو غنيٌّ عن أن نطيل له فيها مقالاً وتقوى الله فمن تمسك بها حسن حالاً وأنتم أهلها كرمكم الله أهلاً وآلاً والله الله في حفظ جانب الصحابة رضي الله عنهم فليردع عن الخوض فيهم جهالاً والله يجعله مغموراً مسروراً بنعم الله تعالى بمنه وكرمه!.

وهذه وصيةٌ لأمير مكة أوردها في التعريف: وليعلم أنه قد ولي حيث ولد بمكة في سرة بطحائها وأمر عليها ما بين بطن نعمانها إلى فجوة روحائها وأنه قد جعلت له ولاية هذا البيت الذي به تم شرفه وعلت غرفه وعرف حقه له أبطحه ومعرفه إذ كان أولى ولاة هذا الحرم بتعظيم حرماته وسرور جوانبه بما يلوح من البشر على قيماته ولأنه أحق بني الزهراء بما ابقته له آباؤه وألقته إليه من حديث قصيٍّ جده الأقصى أنباؤه وهو أجدر من طهر هذا المسجد من أشياء ينزه أن يلحق به فحش عابها وشنعاء هو فليتلق راية هذه الولاية باليمين وليتوق ما يتخوف به ذلك البلد الأمين وليعلم أنه قد أعطى الله عهده وهو بين ركن ومقام وأنه قد بايع الله: واله عزيزٌ ذو انتقام وليعمر تلك المواطن ويغمر ببره المار والقاطن وليعمل في ذلك بما ينجث عنه نجاره ويأمن به سكان ذلك الحرم الذي لا يروع حمامه فكيف جاره ولينصت إلى اسمه عز وجل حيث يعلن به الداعي على قبة زمزم في كل مساءٍ وليعرف حق هذه النعمة وليعامل من ولي عليهم بما يليق أن يعامل به من وقف تحت ميزاب الرحمة وقد أكد موثقه والله الله في نقصه ومد يده على الحجر الأسود يمين الله في أرضه وليتبصر أين هو فإن الله قد استأمنه على بيته الذي بناه وسلمه إليه بمشعره الحرام ومسجد خيفه ومناه وإنه البيت المقصود: وكل من تشوق حمى ليلى فإنما قصده أو لعلع بلعلعٍ فإنما عناه وفي جمعه يجتمع كل شتيت وفي ليالي مناه يطيب المبيت وبمحصبه تقام المواسم وتفتر الثغور البواسم وتهب من قبل نعمان الرياح النواسم وفي عقوة داره محط الرحال في كل عام وسر كل ذات عود تجذب بقلعٍ وعوذٍ تقاد بزمام وإليه تضرب التجار البراري والبحار وتأتيه الوفود على كل قطار يحدى من الأقطار وكل هؤلاء إنما يأتون في ذمام الله بيته الذي من دخله كان آمناً وإلى محل ابن بنت نبيه الذي يلزمه من طريق بر الضيف ما أخذ لهم وإن لم يكن ضامناً.

فليأخذ بمن أطاع من عصى وليردع كل مفسد ولاسيما العبيد فإن العبد المفسد لا يزجره إلا العصا وليتلق الحجاج بالرحب والسعة فهم زواره وقد دعاهم إلى بيته وإنما دعاهم إلى دعة وليتلق المحمل الشريف والعصائب المنصورة وليخدم على العادة التي هي من الأدب مع الله تعالى معنى ومعها صورة وليأخذ بخواطر التجار فإنهم سبب الرفق لأهل هذا البلد وتوسعة ما لديهم والمستجاب فيهم دعوة خليله إبراهيم - صلوات الله عليه - إذ قال: " واجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم ".

ولا تتحيف أموالهم بغرامةٍ يقل بها الغنم ولا بظلامة فإنه بإزاء هذا البيت الذي يرد دونه من أراد فيه إلحاداً بظلم ولينظر كيف حبس دونه الفيل وليكف عادية من جاوره من الأعراب حتى لا يخاف ابن سبيل وليقم شعائر الشرع المطهر وأوامر أحكامه التي قامت بأبويه: بحكم جده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسيف أبيه حيدر وليأمر طوائف الأشراف وأشياعهم وسائر أهل موالاتهم وأتباعهم بلزوم ما كان عليه صالح السلف وما عليه الإجماع وتجنب ما كانت الزيدية زادت فيه وكف الأطماع وليتق الله فإنه مسؤولٌ لديه عما استرعاه وقد اصبح وهو له راع وإياه أن يتكل على شرف بلده فإن الأرض لا تقدس أحداً أو شرف محتده فإن في يوم القيامة لا ينفع ولدٌ والداً ولا والدٌ ولداً.

الوظيفة الثانية قضاء مكة

وهذه نسخة توقيع بقضاء مكة المشرفة: الحمد لله الذي أنفذ الأحكام بالبلد الحرام وأيد كلمة الشرع في بلده ومنشئه بين الركن والمقام وجعل الإنصاف الجزيلن حول حجر إسماعيل متسق النظام.

نحمده حمداً حسن الدوام ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبدٍ قائمٍ بحقها أحسن القيام ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله السامي من ولد سام والذي قام لله حتى ورمت منه الأقدام وأسري به من مكة إلى السماء مرتين: في اليقظة والمنام صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الصلاة والصيام وسلم تسليماً.

وبعد فإن وظيفة القضاء بمكة المعظمة هي أجل منصبٍ بتلك الأباطح ونورها في الجبين لائح فإن الشرع نشأ منها والوحي أنزل فيها فزهيت البطائح وظهرت النصائح وأطربت الصوادح وأسكتت النوائح وغمرت المنائح وانتشرت المصالح فمن ولي الحكم بها وعدل فذلك هو العدل الصالح وكيف لا وماء زمزم شرابه وأستار البيت تمسها أثوابه وعلى الله أجره وثوابه وفي ذلك الجناب الشريف كرم جنابه وإذا دعا الله عند الملتزم جاءه من القبول جوابه.

ولما كان فلانٌ هو فرع الدوحة المثمرة ومحصل من العلوم الشرعية المادة الموفرة وله البحوث التي هي عن أحسن الفوائد وغرر الفرائد مسفرة ورضي أهل الحرم لما جبل عليه من خيرٍ فلذلك رسم.- لا زال.

فليكن في أم القرى كالوالد المشفق على الورى وليتمسك من التقوى بأوثق العرا وليخش رب هذا البيت إنه سميعٌ يسمع ويرى ووفد الله قطعوا إليه المراحل في السرى ليصافحوا كفه المضمخ عنبرا وليقض بين الخصوم بالحق فمثله من درأ الباطل: قد جعله الله جار بيتٍ عالي الذرا وفي أرضٍ شرف الله جبالها وقدس غيرانها فمنها غار ثورٍ وغار حرا لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعبد في غار حرا وأوى إلى غار ثورٍ لما هاجر مؤيداً مظفرا والوصايا كثيرةٌ وملاكها تقوى الله فليتمسك بها من أمامٍ وورا والله تعالى يجعل نهاره منورا وليله مقمرا بمنه وكرمه! القاعدة الثانية المدينة النبوية وبها ثلاث وظائف الوظيفة الأولى الإمارة والأمر فيها على ما مر في إمارة مكة المشرفة.

وقد تقدم أن إمارتها في بني الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ويكتب لها تقليدٌ في قطع النصف بالمجلس العالي أيضاً بألقاب مخصوصة وقد تقدم ذكر ألقابه.

وهذه نسخة تقليد شريف بإمارة المدينة النبوية كتب به للأمير بدر الدين ودي بن جماز من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله سقى الله عهده: الحمد لله الذي صرف أمرنا في أشرف البقاع وشرف قدرنا بملك ما انعقد على فضله الإجماع وعرف أهل طيبة الطيبة كيف طلع البدر عليهم من ثنيات الوداع وأمدها بوديٍّ صغر للتحبب وإلا فهو واد متدفق الأجراع.

نحمده على نعمه التي أغنت مهابط الوحي عن ارتقاب البرد اللماع وارتقاء النظر مع بدره المنير إلى كل شمس سافرة القناع ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تخمد من الضلال ما شاع ومن البدع ما استطار له في كل أفقٍ شعاع ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف من أنفت به حمية الامتناع وألفت بنا سنته أن ترعى لأهلها ولا تراع وعصفت ريحها بمن يمالي دينه فمال إلى الابتداع صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ليس في فضل أحدٍ منهم نزاع وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن الاهتمام بكل جهة على قدر شرفها وعلى حسب الدرة الثمينة كرامة صدفها والكمامة بثمرها والغمامة بمطرها والهالة بما يجلو الدجى من قمرها والمدينة الشريفة النبوية لولا ساكنها ما عاجت إليها الركائب ولا ناجت حدائقها غر السحائب ولا وقفت بتأرج شذا الروضة الغناء بها الجنائب ولا بكى متيمٌ دمن العقيق بمثله من دم ذائب ولا هاج إليها البرق متألقاً ولا هام صبٌّ فيها بظبيات سلع والنقا ولكنها مثوى النبوة ترابها ومهوى الرسل جنابها ومأوى كتاب الله الفسيح رحابها دار الهجرة التي تعالت شمس الشريعة بأفقها وتوالت سحب الهدى من بين أبيرقها وهي ثانية مكة المعظمة في فضلها إلا ما ذهب إليه في تفضيلها على مكة مالك بن أنس ومنها انبعثت للهدى نوارة كل نور وشعاع كل قبس وكانت لنبي هذه الأمة صلى الله عليه وسلم أبقى داريه وأعلى سماءٍ حوت ثلاثة أقمارٍ منه ومن جاريه.

ولما كان بها لبعض الولاة من الشيعة مقام ولهم فيها تحاملٌ لا يجوز معه من الانتقاد إلا الانتقال أو الانتقام حتى إنه فيما مضى لما كثر منهم على بغض الصاحبين - رضي الله عنهما - الإصرار واشرأبوا في التظاهر بسبهما إلى هتك الأستار دب من النار في هذا الحرم الشريف ما تعلق بكل جدار وأبت لها حمية الغضب إلا أن يطهر ما سنته أيدي الروافض بالنار فلما اتصل بنا الآن أن منهم بقايا وجدوا آباءهم على أمة واقتدوا بهم في مذهب الإمامية بما لا أراده الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أولئك الأئمة وحضر المجلس العالي الأميري الأصيلي الكبيري العادلي المجاهدي المؤيدي الزعيمي المقدمي الذخري الكافلي الشريفي الحسيبي النسيبي الأوحدي البدري عز الإسلام والمسلمين شرف الأمراء في العالمين نصرة الغزاة والمجاهدين جمال العترة الطاهره جلال الأسرة الزاهرة طراز العصابة العلوية كوكب الذرية الدرية خلاصة البقية النبوية ظهير الملوك والسلاطين نسيب أمير المؤمنين ودي بن جماز الحسيني - أدام الله تعالى نعمته - بين أيدينا الشريفة بمحضر قضاة القضاة الأربعة الحكام وتذمم بأن مع طلوع بدره المنير لا تبقى ظلامةٌ ولا ظلام وتكفل لأهل السنة بما أشهدنا الله به عليه ومن حضر وتلقى بإظهار فضل الترتيب كما هم عليه: النبي صلى الله عليه وسلم ثم أبو بكرٍ ثم عمر فما اختصهما الله بجواره إلا ليثبت لهما على غيرهما إفضالاً وليجعل قبورهما في معرفة أقربهم منه درجةً مثالاً لما تواترت به الأحاديث الشريفة في فضائلهما مما هو شفاء الصدور ووفاءً بعهده إذ يقول: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور " فلم يسعنا إلا أن نجعل له منا تقليداً يمحو بحده ما حدث من أحداث البدع ويجدد من عهد جده نبينا صلى الله عليه وسلم في معرفة حق أصحابه رضي الله عنهم ما شرع وثوقاً بأنه من بيتٍ كان أول هذا الدين الحنيف من دله ومبدأ هذا الحق الظاهر ما أثلته ومثلته في سلفه الشريف بأقارب متصلة وأنه هو المورث من الفخار ما ورثه عن آبائه الكرام المحدث عن كرم الجدود بما لا يحقر له جوارٌ أو يخفر ذمام المشرق من الأسرة العلوية بدراً تماماً المحدق به

من الكواكب العلوية ما يظن به أباً تسمى وابناً تسامى المنتخب من آباء صدق أحسن في ديارهم الصنيع وحفظ من حسبهم الكريم ما أوشك أن يضيع واستضاء بلامعةٍ من هدى سلفه السابق وهامعةٍ من ندى ما يرويه السحاب عن الجود والبرق عن المهارق تهتز بمقدمه المدينة سروراً وتفتر رباها منه بنسب كأن على نسبه من شمس الضحى نوراً ويتباشر ما بين لابتيها بمن يحمي حماها ويحيي محياها وتتشوف منه ربا كل ثنية إلى ابن جلاها وطلاع ثناياها مع ما لا يجحد من أن له فيها من أبيه حق الوراثة وأنه لما كان هذا ثاني المسجدين احتاج إلى ثاني اثنين تعظيماً للواحد وفراراً من الثلاثة ليكون هو ومن فيها الآن بمنزلة يدين كلتاهما تقبل الأخرى وأذنين كلتاهما توعي درأ وعينين ما منهما إلا ما يدرك أمراً بعيداً وفرقدين لا يصلح أن يكون أحدهما فريداً وقمرين لا يغلب أحدهما على الآخر في التسمية بالقمرين وعمرين وكفى شرفاً أن لا يوجد في الفضل ثالثٌ للعمرين.

فرسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني - زاد الله بن المواطن شرفاً وزاد به البواطن الشريفة حباً وشغفاً - أن يفوض إليه نصف الإمرة بالمدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام شريكاً للأمير سيف الدين ابن أخيه ورسيلاً معه فيما يليه ولكل منهما حقٌ لا يكاد الآخر يخفيه هذا له بر الولد وهذا له حرمة الوالد لأن ابن الأخ ولدٌ وعم الرجل صنو أبيه فتقسم الإمرة بينهما نصفين وتوسم جباه الكتب الصادرة عنهما لهما باسمين.

والوصايا تمد من عنانها وتعد من أعيانها فأولها تقوى الله فإنها من شعائر القلوب وبشائر الغيوب وأمائر نجاح كل مطلوب والاعتصام بالشريعة الشريفة: فإنها الحبل الممدود والجبل الذي كم دونه من عقبة كؤود والانتهاء إلى ما نص عليه الكتاب والسنة والإجماع وقص جناح من مال به الهوى إلى مجاذبة الأطماع وتلقي وفد الله الزائر بما ألفه نزيل هذا الحمى من كرامة الملتقى وتوقي المذمة فإنها دنسٌ لا يحمد مثله نقاء هذا النقا ونعني بالمذمة ما نسب إلى الروافض من البدع التي لا تطهرها غر السحاب ولا يستبيح معها لدخول المسجد الطاهر من قنع بمقامه حوله التيمم بالتراب ولا يدع أحداً من هذه الفرقة الضالة سلام الله عليهم - بإناءٍ امتلأ ماءً ولم تبق فيه فضلة. -بعلي ولا يعيره بما يكون به مثلة ولا يشبه قلبه في محبة أهل البيت

ولا يظن جاهلٌ منهم أن عليه - كرم الله وجهه - كان على أحد من الصاحبين معاتباً أو عاتب أو أنه تأول في خلافتهما معتقداً أن أحداً منهما غاصب فما تأخر عن البيعة الأولى قليلاً إلا لاشتغاله بما دهمه بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم من المصائب وإلا فقد اتخذ أم ولدٍ من سبي أبي بكر رضي الله عنه لا كما يدعيه كل كاذب وقد تزوج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنته أم كلثوم وأقام بأمره الحدود وناب عنه وهو غائب فيكف من عادية هؤلاء الروافض الأشرار ما سيصلون في المواقفة بناره وسيصلون إلى الموافقة على ما طار من شراره ولا يدع للإمامية إماماً يقتدي به منهم قومٌ شرار ولا قاضياً يقضي بينهم: فإنه إنما يقطع لمن قضى له أو عليه قطعةٌ من نار ولا عالماً يرفع له علم ولا يفتح لهم بفتوى على مذاهبهم فم حتى ولا ما يتحرك به في فم الدواة القلم.

وليطهر هذا المسجد الشريف من دنسهم وليمط ما يحمله أديم مجلدات التصانيف من نجسهم وسكان هذا الحرم الشريف ومن أقام عندهم من المجاورين أو خالطهم من زمر المقيمين والسائرين يحسن لأمورهم الكفالة ولا يتعرض لأحدٍ منهم بما يؤذي نفسه ولا يناله فهم في جوار نبينا صلى الله عليه وسلم وفي شفاعته وكلٌ منهم نزيل حرمه ومكثر سواد جماعته وحقهم واجب على كل مسلم فكيف على حامي ذلك الحمى بل من له إلى نسبه الشريف منتمى.

واصحب رفيقك بالمعروف فإنكما مفترقان والسعيد من لا يذم بعد فراقه ومستبقان إلى كل موردٍ لا يدرى أيكما المجد في سباقه ومتفقان على فرد أمرٍ وأفضلكما من دوام صاحبه على إرفاقه وصحبه على وفاقه.

وأما ما للمدينة الشريفة من تهائم ونجودٍ مضافةٍ إليها ومستظلة بجدرها أو متقدمة في الصحراء عليها فهي ومن فيها: إما أن توجد بقلوبهم فهم أعوان وإما أن تنفر فهم أشبه شيءٍ بالإبل إذا نفرت تعلق بذنب كل بعيرٍ شيطان فأقربهما إلى المصلحة تقريبهم وتأليفهم بما يقرب به بعيدهم ويزداد قربى قريبهم والركبان التي تتقد بهم جمرات الأصباح والعشايا ويعتقد كلٌ منهم في معاجه إلى المدينة الشريفة أن تمام الحج أن تقف عليها المطايا فهم هجود سرى ووفود قرى وركودٌ في أفق الرحال خلعت مقلهم على النجوم الكرى ومعهم المحامل الشريفة التي هي ملتف شعابهم ومحتف ركابهم وهي من أسرتنا المرفوعة ومبرتنا المشروعة فعظم شعائر حرماتها وقبل أمام منابرها الممثلة مراكز راياتها وأكرم من جاء في خفارتها ومن جال في دجى الليل لا يستضيء إلا بما يبدو من إشارتها وقد أشهدنا عليك من هو لك يوم القيامة خصيم وأنت وشأنك فيما أنت به عليم.

وباقي الوصايا أنت لها متفطن وعليها متوطن وما ينتفع الشريف بحسبه إن لم يكن عمله بحسبه ولا يرتفع بنسبه إن لم يتجنب مكان نشبه والله تعالى يمتع بدوام شرفه ولا يضيع له أجر حال عمله الصالح وسلفه والاعتماد.

وهذه نسخة تقليد شريف بإمرة المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام: الحمد لله الفرد بلا شريك الواحد لا من أعداد تقتضي التشويك المليك الذي يتناهى إليه تقليد كل مليك.

نحمده حمداً يكمل مواهب التمليك ويحمد عواقب التسليك ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تصدع التشكيك وتصد كل أفيك وتسد خلل التدريك ونشهد أن محمداً عبده ورسوله خير من حمي به عريك وحمى عليه تريك وحمل حتى تأتى له التحرير على التحريك وتأنى وما فاته على أعدائه النصر الوشيك صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تخلص كالذهب السبيك وترفع ما شيد وتمنع ماشيك وسلم تسليماً كثيراً.

حرماً لا يستباح وحمىً ليس إلا لمن انتهكه -أما بعد فلما كانت المدينة الشريفة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام دمٌ مباح وجناباً ما على من حله جناح ومهبط وحي لا يمسح بأركانه لغير الملائكة جناح ولا يمسك بعصمة من أغضى فيه على قذى وسكت لساكنيه على أذى.

ولما اتصل بنا عن الروافض ما لا صبر لمسلم يرجو الله واليوم الآخر عليه ولا وجه لمن قنع فيها بإخراج يديه ولا عذر لمن لقي الله مغصباً لما ينهى إليه لا مغضباً لما ينال رسول الله صلى الله عليه وسلم من التعرض إلى صاحبيه مما تقاضى منا ما يمحو ظلامه الممتد وظلمه المشتد وبدعهم فسواءٌ من ابتدعها ومن ارتد - فمكنا بتقليدنا الشريف من أعطى الله وأعطانا على قوله موثقاً وجرد عزائم لا تردها من خدعهم الرقى وأشهد الله عليه ومن حضر أنه لا يدع هذه الفرقة الضالة حتى يدع يتيمها ويعد لمقاتل السيوف حطيمها: مما تضمنه نص ماضي ذلك التقليد وما ضم ذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد ونبهنا على أنه بدرٌ لم يبق مع طلوعه ظلمةٌ ولا ظلامة ولا إضاعةٌ ولا إضامة ولا ما تتجنب به الركائب تمام الحج في مواقفها ولا تنكر ما جهلت في قباب قباءٍ من معارفها وترد أعطانها ولا يسوقها إلى الأبرق بارقٌ على أطلاله ولا يعجبها إن خيل لها في النخيل مقيل في ظلاله.

وكان المجلس العالي - أدام الله تعالى نعمته هو المتكفل بتطهير ذلك الحرم الشريف من ألم كل قولٍ يفترى ولم كل باطلٍ يلم يقظةٌ أو طيف كرى وإزالة كل شحٍّ فيها على من أمل قرى أم القرى وإماتة كل بدعة تسكب على مثلها العبرات وإماطة كل أذىً من طريق منى والجمرات ومنع شقاشق شيعةٍ تغلي مراجلها من الزفرات وقطع كل نجوى ينادون بها من وراء الحجرات وقلع طائفةٍ لولا إقامة حدود الله لكفاهم ما يقطع أكبادهم من الحسرات وكان بها من أولاد أخيه بل بعضه منه وبعضه من بني أبيه من التهى عما تتحلى به شيم الشريف الشريفة وانتهى إلى ما لا يعنيه ولا يغنيه في تأخير خليفة وتقديم خليفة وأهمل حقوقاً عواقبها مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم مخيفة وأوهم عقوقاً لأصحابه بل له لقوله: " دعوا لي أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مدي أحدهم ولا نصيفه ".

وبقي يتصل بنا في هذا المعنى ما لا يقال مما يقال عنهم ويصل أذاهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحبيه وقد قال: " إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع في أفق السماء وإن أبا بكرٍ وعمر منهم " يطلبون في التقديم على من قدمه الله رد فائت ما جرى به القدر ويضربون صفحاً عما لا أراده الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله: " لا أدري ما قد بقي لي فيكم فاقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكرٍ وعمر ".

مع ما أضيف إلى هذا من قوادح نواب وفواتح أبواب وحوادث تزعج مقر النبوة أنباؤها وتمتد على مشارق الأنواء ظلماؤها وتغير عوائد الوفود في كرامة زائرهم وإدامة بشاشة الملتقى لسائرهم وأمن سربهم أن يراع وشربهم أن يتمثل به لغير برق شعاع وضمهم إلى ذلك الحمى الذي لا يضام نزيله ولا يرام في طريق المجرة سبيله ولا يضل سارٍ إليه ووجوه سكان الحمى دليله ولا يضيع وقد تلقاه من النسيم بليله بليله ولا يقف وقفة المريب وضوء الصابح من أيمن النقا قنديله ولا يخشى وشعب ذلك الحي شعبه وقبيله قبيله وإراحة ركابهم التي أزعجها حادي السرى وإمتاعهم بقرب الجوار عوضاً من دموعهم عما جرى.

فلما لم يبق لمن أشرنا إليه - ممن أعطانا عهد موثقه وسار لا يريد إلا نقاء نقاه وبراءة أبرقه - إلا أن يحط بالمدينة الشريفة ركابه ويبعد الشكوى مما لا عهد من معاهدها اقترابه - أصر من فيها من ذوي قرابته على منعه أن يدخلها إلا بقتال يخل

مقاعد الحرم ويحل معاقد الحرم ويشعل ناراً يصلى بها من لم تمتد له يدٌ إليها إلى وقود ويروع من الآلاف فيها من يمتد له في غير مراتع غزلان النقا سجاف قيام معقود وقدم إلى أبوابنا العالية من كان فيها مقيماً وأنعمنا عليه بإبقاء النصف ففاته الكل لما لم يقنع أن يكون قسيماً فابت حميتنا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولتلك المواطن المعظمة إلا أن نطهرها مما أسبلت على سريره أذيالها وما أطاقت على مضضه الأليم احتمالها.

أن تفوض إليه إمرة المدينة الشريفة النبوية - فرسم بالأمر الشريف - لا زال قدره عالياً وبره لا يخل بودي ولا يخلي موالياً على ساكنها أفضل الصلاة والسلام: مستقلاً بأعبائها مستهلاً سحابه على أرجائها إمرةً تستوعب جميعها وتستوعي لمراسمه رباها وربوعها وعاصيها ومطيعها وتهائمها ونجودها وقريبها وبعيدها وكل ما يدخل لها في حد وينتظم لها في عد وأهل حاضرتها وباديتها وما تقف عليه من السحب ركائب رواعيها وغاديتها ومن تتبسم بهم ثناياها وتتنسم لهم أرواح بكرها وعشاياها ومن يضمهم جناحها المفضل ويلمهم وشاحها المفضل ويجمعهم جيشها السائر ويلفهم في شملة الدجى قمرها الزاهر تفويضاً يدخل فيه كل شريف ومشروف ومجهول ومعروف ومستوطن من أهلها وغريبٍ انتهت به إليها مطارح سبلها ما - فيه تأويلٌ ولا تعليلٌ ولا استثناءٌ ولا انثناء ولا تخرج منه الأرض المغبرة ولا الروضة الغناء لا شبهة فيه لداحض ولا حجة لمعارض يستقل بها جميعها بدره التمام وبره الغمام وبحره الذي يأبى فريده أن يؤاخى في نظام وأمره الذي يتلقى به عن الثقة من سادات بيته مقاليد الأحكام وتقاليد ما يجري به القلم ويمضي السيف الحسام إفراداً في التحكيم وأنفةً لمثله من ضرر التقسيم وفراراً من الشركة المشتقة من الشرك: " إن الشرك لظلمٌ عظيم " ولايةً تامة عامة كاملة شاملة لا يبقى من أهل نجدٍ من لا يدخل في حكمها وينضاف إلى قسمها تقابل السوابق في غاياتها وتقاتل الجحافل تحت راياتها ويعد مع أهل بدر فيها ويعد من حقوقها ما يوفيها.

وقد سبق من الوصايا ما فيه غنى إلا ما لا تخل العوائد به مما يذكر هنا وقد حويت بحمد الله في جميع طباعك وجميل انطباعك من حق اعتزامك وصدق التزامك ما هو كالسنا للشمس والمنى للنفس مما تحسد على شرفه النجوم وتنافس العلياء ما تعلق به الغيوم.

فكمل بتقوى الله شرفك واتبع في الشريعة الشريفة سلفك وكتاب الله المنزل أنتم أهل بيت فيكم تنزل وسنة جدكم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تهمل وهي مجدكم المؤثل ومعرفة حق من مضى عنكم وإلا فعمن تنقل ومنكم وإلا فممن تؤمل وإزالة البدع وإلا فلأي شيءٍ سيوفكم تصقل ولماذا رماحكم تعدل والرافضة وغلاة الشيعة هم دنس من انتمى إلى هذا البيت الشريف بولائه وسبب وقوف من يقصد الدخول تحت لوائه فهم وإن حسبوا من أمداده ليسوا - وحاشى نوره الساطع - إلا من المكثرين لسواده أرادوا حفظ المودة في القربى فأخلوا وقصدوا تكثير عددهم فقلوا وأنف من هو بريءٌ من سوء مذهبهم أن يتظاهر بالولاء فيعد من أهل البدع بسببهم مع أنهم طمعوا في رضا الله فأخطأتهم المطامع وصحيحٌ أنهم زادوهم عدداً إلا أنها كزيادة الشغياء أو كزيادة الأصابع.

فصمم عزمك على ما عاهدت الله عليه من رفع أيدي قضاتهم ومنعهم هم ومن اتبع خطوات الشيطان في سبيل مرضاتهم وحذرهم مما لا يعود معه على أحد منهم سترٌ يسبل ولا يبقى بعده لغير السيف حكم يقبل فمن خاض للسلف الصالح يم ذمٍّ أغرق في تياره أو قدح فيهم زناد عناد أحرق بناره وألزم أهل المدينة الشريفة - على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم - بكلمة السنة فإنها أول ما رفعت بتلك المواطن المعظمة أعلامها وسمعت في تلك الحجرة المكرمة أحكامها مع تعفية آثار ما ينشأ على هذه البدعة من الفتن حتى لا ينعقد لها نقعٌ مثار وتوطئة أكناف الحمى لئلا يبقى به لمبطلٍ في مدارج نطقه عثار والوصية بسكان هذا الحرم الشريف ومن ينزل به من نزيل ويجاور به مستقراً في مهاد إقامة أو مستوفزاً على جناح رحيل ومن يهوي إليهم من ركائب ويأوي إليهم من رفقة مالت من نشوات الكرى بهم راقصات النجائب ومن يصل من ركبان الآفاق وإخوان نوىً يتشاكون إليهم مر الفراق ومن يتلاقى بهم من طوائف كلهم في بيوت هذا الحي عشاق وأمم شتى جموعهم: من مصرٍ وشام ويمن وعراق وما يصل معهم في مسيل وفودنا وسبيل جودنا ومحاملنا الشريفة التي ينصب لنا بها في كل أرض سرير وأعلامنا التي ما سميت بالعقبان إلا وهي إليها من الأشواق تطير فمتى شعرت بمقدم ركابهم أو برقت لك عوارض الأقمار من سماء قبابهم فبادر إلى تلقيهم وقبل لنا الأرض في آثار مواطيهم وقم بما يجب في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعتنا وأخرج عنهم كل يد ولا تخرجهم عن جماعتنا.

وأهل البادية هم حزبك الجيش اللهام وحربك إذا كان وقودها جثثٌ وهام وهم قوم لم يؤدبهم الحضر ولا يبيت أحدٌ منهم لأنفته على حذر فاستجلب بمداراتك قلوبهم الأشتات وبادر حبال إبلهم النافرة قبل البتات وترقب مراسمنا المطاعة إذا ذرت لك مشارقها وتأهب لجهاد أعداء الله متى لمعت لك من الحروب بوارقها وأحسن كما أحسن الله إليك وولولا أن السيف لا يحتاج

إلى حليةٍ لأطلنا حمائل ما نمليه عليك فما شهد للشريف بصحة نسبه أوكى من عمله بحسبه والله تعالى يقوي أسبابك المتينة ويمتع العيون بلوامعك المبينة ويمسك بك ما طال به وهذه نسخة تقليد بإمرة المدينة النبوية وهي: الحمد لله الذي خص بالنضرة دار الهجرة وأطلع للإيمان فجره بتلك الحجرة وطيب طيبة وأودع فيها سليل الأسرة.

نحمده حمداً نأمن به مكره ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد تمسك بالحج وتنسك بالعمرة ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي شرف الله قدره وأنفذ أمره وأيده في ساعة العسرة وكان أكرم الناس في العشرة وأسخى العالمين إذ يبسط بالجود راحتيه فما أسمح عشره صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة ثبتت شجرتها من الأرض فاتصلت فروعها بالسدرة وسلم تسليماً.

وبعد فإن المدينة النبوية معدن الهدى والوقار ومسكن الرضوان والأنوار ومهبط الملائكة الأبرار ومنزل الوحي في الليل والنهار ودار الهجرة للنبي المختار وتربة مدفنه الزاكي المعطار تشد الرحال إليها من أقاصي الأقطار ويأتي إليها الظالمون لأنفسهم بالاستغفار فيرجعون وقد محيت عنهم الأوزار فقلوب أهل الاشتياق مقيمةٌ في فناء تلك الدار وإن كانت أجسامهم بعيدةً من وراء البحار وبها من آل البيت سادةٌ أطهار وأمراء كبار يتقرب إلى الله بحبهم في الإعلان والإضمار ويتوسل بولائهم في دعوة الأسحار قد ضموا إلى كرم الراحة وسماحة الأنفس المرتاحة شجاعةً وبسالة وعلويةً فعالة وتمسكاً بالمروءة المعروفة بشرف الأصالة وهم يتوارثون إمرتها عن آباء سادات وكرام لهم في الفضل عادات.

ولما كان فلان هو بقية الأسرة المتضوعة وثمرة الشجرة المتفرعة والمخصوص بالوصف الذي رفعه والقول الذي اتبعه حين سمعه - ما زال في المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مشكور الطريقة محفوظ الوثيقة معروف الحقيقة موصوف الآثار الحسنة بين الخليقة يجتني لكل صالحة من تلك الروضة الشريفة المثمرة الوريقة ويحمي السرح أن ينتهب ويطفيء نار الفتن فما تلتهب ويعظم المجاورين والواردين والقادمين على حمى سيد العجم والعرب.

فلذلك رسم أن يستقر.

فليحل هذا الربع المعمور بالتقى وليباشر هذه الإمرة الشريفة زادها الله علواً وارتقا وليستعملا لسكينة فإنها جميلة اللقا وليسلك الأدب مع ساكن النقا وليعتمد على حسن اليقين فإنه لو وقا وقد جاور العقيق فاصبح بقلائده الفاخرة مطوقا وليحكم بالعدل في بلدٍ نشأ منه العدل والإنصاف فمنذ اجتمعا فيه ما افترقا وليصن شرفه من الولوج في فتنة وليغمد سيفه ولا يشهره في وقت محنة ويحقن الدماء أن تراق ويتلق الزوار بالإرفاق فإنهم جاءوا من أقاصي الآفاق رجالاً وعلى النياق تحثهم الصبابة والأشواق.

وكلمة الشرع وشعار السنة فليكن معظماً لها باتفاق بغير شقاق وشيخ الحرم الشريف وخدامه ومجاوريه فليكرم محاسنهم ويعامله بحسن الأخلاق ويتجاوز عن مسيئهم بطيب أخلاق وحواصل الحرم الشريف المخزونة فيه فلتكن محميةً من التبذير في وقت الإنفاق وتلك دارٌ هم سكانها الطيبو الأعراق والتقوى فمن بيتهم الشريف آثارها الإشراق وعليهم نزل الفرقان والتحريم والطلاق فماذا عسى أن يوصيه وهو أهل الفضل على الإطلاق والله تعالى يجعل نجاره في الفخر مجليه في السباق بمنه وكرمه!.

وهذه وصية لأمير المدينة أوردها في التعريف وهي: فكمل بتقوى الله شرفك واتبع في الشريعة سلفك وكتاب الله المنزل أنتم أهل بيت فيكم تنزل وسنة جدك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تهمل وهي مجدكم المؤثل ومعرفة حق من مضى عنكم وإلا فعمن تنقل ومنكم وإلا فممن تؤمل وإزالة البدع وإلا فلأي شيءٍ سيوفكم تصقل ولماذا رماحكم تعدل والرافضة وغلاة الشيعة هم دنس من انتمى إلى هذا البيت الشريف بولائه وسبب وقوف من يقصد الدخول تحت لوائه فهم وإن حسبوا من أمداده ليسوا - وحاشى نوره الساطع - إلا من المكثرين لسواده أرادوا حفظ المودة في القربى فأخلوا وقصدوا تكثير عددهم فقلوا وأنف من هو بريءٌ من سوء مذهبهم أن يتظاهر بالولاء فيعد في أهل البدع بسببهم مع أنهم طمعوا في رضا الله فأخطأتهم المطامع وصحيحٌ أنهم زادوهم عدداً إلا أنها كزيادة الشغياء أو كزيادة الأصابع.

فصمم عزمك على ماعاهدت الله عليه من رفع أيدي قضاتهم ومنعهم من اتباع خطوات الشيطان في سبيل مرضاتهم وحذرهم مما لا يعود معه على أحد منهم ستر يسبل ولا يبقى معه لغير السيف حكمٌ يقبل فمن خاض للسلف الصالح يم ذم أغرق في تياره أو قدح فيهم زناد عناد أحرق بناره وألزم أهل المدينة الشريفة النبوية بكلمة السنة فإنها أول ما رفعت بتلك المواطن

المعظمة أعلامها وسمعت في تلك الحجرة المكرمة أحكامها مع تعفية آثار ما ينشأ على هذه البدعة من الفتن حتى لا ينعقد لها نقعٌ مثار وتوطئة أكناف ذلك الحمى لئلا يبقى به لمبطل في مدارج نطقه عثار والوصية بسكان هذا الحرم الشريف على الحال به أفضل الصلاة والسلام ومن ينزل به من نزيل ويجاور به مستقراً في مهاد إقامة أو مستوفزاً على جناح رحيل ومن يهوي إليهم من ركائب ويأوي إليهم من رفقةٍ مالت من نشوات الكرى بهم راقصات النجائب ومن يصل من ركبان الآفاق وإخوان نوىً يتشاكون إليهم مر الفراق ومن يتلاقى بها من طوائف كلهم في بيوت هذا الحي عشاق وأمم شتى جموعهم من مصرٍ وشام ويمن وعراق وما يصل معهم في مسيل وفودنا وسبيل جودنا ومحاملنا الشريفة التي ينصب لنا بها في كل أرضٍ سرير فمتى شعرت بمقدم ركابهم أو برقت لك عوارض الأقمار من سماء قبابهم فبادر إلى تلقيهم وقبل لنا الأرض في آثار مواطيهم وقم بما يجب في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعتنا وأخرج عنهم كل يد ولا تخرجهم عن جماعتنا.وأهل البادية هم حزبك الجيش اللهام وحربك إذا كان وقودها جثثٌ وهام وهم قوم لم يؤدبهم الحضر ولا يبيت أحدٌ منهم لأنفته على حذر فاستجلب بمداراتك قلوبهم الأشتات وبادر حبال إبلهم النافرة قبل الانتبات وترقب مراسمنا المطاعة إذا ذرت لك مشارقها وتأهب لجهاد أعداء الله متى لمعت لك من الحروب بوارقها وأحسن كما أحسن الله إليك ولولا أن السيف لا يحتاج إلى حلية لأطلنا حمائل ما نمليه عليك فما شهد للشريف بصحة نسبه أزكى من عمله بحسبه والله تعالى يقوي أسبابك المتينة ويمتع العيون بلوامعك المبينة ويمسك بك ما طال به إرجاف أهل المدينة.

الوظيفة الثانية القضاء

وكان في الزمن القديم بها قاض واحدٌ شافعيٌّ ثم استقر بها قاضيان آخران: حنفيٌّ ومالكيٌّ يكتب لكلٍّ منهما توقيعٌ في قطع الثلث بالسامي بالياء.

وهذه نسخة تقليد بقضاء الشافعية بالمدينة النبوية: الحمد لله الذي جعل الشرع الشريف دافق السيول وفي طيبة له الأصول ومنها نشأ وتفرع فله في البسيطة عمومٌ وشمول وكل قطر به مشمول وكل ربع به مأهول وتأكد به المعلوم وتبدد به المجهول وزالت الشرائع كلها وهو إلى آخر الدهور لا يزول.

نحمده وحمده يطول ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً عمرت بها طلول ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف رسول وأكرم مأمول وأفضل مسؤول ومهندٍ من سيوف الله مسلول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبي الفروع والأصول وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن الشرع الشريف معدنه في أرضٍ ثوى خير الرسل فيها ومنشؤه في بلدٍ ملائكة الله تحميها فلا يلي أقضية الناس إلا من طالت ذوائب علمه وأشرقت ثواقب فهمه وبنيت على الأصول قواعد حكمه وتحلى بالورع فتجلى في سماء النجاة كنجمه.

ولما كان فلانٌ هو الذي جذبته السعادة إلى مقرها وخطبته المغفرة إلى موطن برها وأهلته الأقدار إلى جوار نبيٍّ هو خاتم الأنبياء وفاتح أمرها وأصبح للحكم في المدينة مستحقاً لما فيه من سكينة وتحصيل للعلم ومن حصل العلم كان الله معينه.

فلذلك رسم أن يستقر.

فليباشر منصباً جليلاً في محل جليل وليعلم أن سائر الأمصار تغبطه وتحسده وما لمنصبه من مثيل أين يوجد سواه في كل سبيل من قاض هو بسيد المرسلين نزيل ومن يصبح ويمسي جاراً للمستجير في المحشر الطويل.

فاحكم بين ناس طيبة بورعٍ وتأصيل وتحريرٍ في تحريم وتحليل واتق الله في كل فعل وقيل واستقم على الحق حذار أن تميل فصاحب الشرع أنت منه قريب والنبي من الله قريبٌ وحبيبٌ وخليل وماذا عسى أن نوصيه وهو بحمد الله تعالى كالنهار لا يحتاج إلى دليل.

وأما الخطابة: فارق درج منبرها وشنف الأسماع من ألفاظك بدرها وحرر ما تقوله من المواعظ فإن صاحب العظات يسمعك وتواضع لله فإن الله يرفعك وهذا المرقى فقد قام فيه النبي الأمي سيد الثقلين ومن بعده الخليفتان قرتا العين ومن بعدهما عثمان ذو النورين وعليٌّ رضي الله عنه أبو الحسنين فاخشع عند المطلع واصدع بما ينفع وانظر لما تقوله فإن رسول الله صلى الله

عليه وسلم هناك يسمع وقاضي المدينة وخطيبها يرجو أن ليس للشيطان فيه مطمع والله تعالى يحوز له الخير ويجمع بمنه وكرمه!.

الوظيفة الثالثة مشيخة الحرم الشريف

وقد جرت العادة أن يكون له خادمٌ من الخصيان المعبر عنهم بالطواشية يعين لذلك من الأبواب وهذه نسخة توقيع شريف من ذلك: الحمد لله الذي شرف بخدمة سيد الرسل الأقدار وفضل بالتأهل للدخول في عداد كرمه بخدمته من اختاره لذلك من المهاجرين والأنصار وجعل الاختصاص بمجاورة حرمه أفضل غاية تهجر لبلوغها الأوطان والأوطار وعجل لمن حل بمسجده الشريف تبوأ أشرف روضة تردها البصائر وترودها الأبصار.

نحمده على نعمه التي أكملها خدمة نبيه الكريم وأفضلها على مصالح مجاوري قبر رسوله الهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم وأجملها الانتظام في سلك خدمة حرمه لأنها بمنزلة واسطة العقد الكريم النظيم ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً مزلفةً لديه مقربةً إليه مدخرةً ليوم العرض عليه ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف نبي بعث إلى الأسود والأحمر وأكرم من أنار ليل الشرك بالشرع الأقمر صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين فخرت الحبشة بهجرتهم الأولى ونجا النجاشي بما اتخذ عندهم من السابقة الحسنة واليد الطولى وأولي بلالهم من السبق إلى خدمة أشرف الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام أفضل ما يولى صلاةً لا يزال شهابها مرشداً وذكرا في الآفاق مغيراً ومنجداً وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإن أولى من اعتمد عليه من أفاء الله عليه من نعمه وأفاض عليه من ملابس كرمه وشرف قدره بأن أهله لخدمة سيد الرسل بل لمشيخة حرمه وخصه برتبة هي أسنى الرتب الفاخرة وأجمع الوظائف لشرف الدنيا والآخرة - من رجحه لذلك دينه المتين وورعه المكين وزهده الذي بلغ به إلى هذه الرتبة التي سيكون بها - إن شاء الله تعالى - وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين.

ولما كان فلانٌ هو الذي أدرك من خدمة سيد الرسل غاية سوله وزكت عند الله هجرته التي كانت على الحقيقة إلى الله ورسوله وسلك في طريق خدمته الشريفة أحسن السلوك وانتهت به السعادة إلى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرض بجوهرها الأعلى عن عرض خدمة الملوك وفاز من مجاورة الحجرة الشريفة بما عظمت عليه به المنة وحل به مما بين القبر والمنبر في روضة من رياض الجنة وأقام في مقام جبريل ومهبط الوحي والتنزيل يتفيأ ظلال الرحمة الوارفة ويتهيأ من تلك النعمة بالعارفة بعد العارفة - تعين أن يكون هو المحلى بعقود مشيخة ذلك الحرم والمتولي لمصالح هذه الطائفة التي له في التقدم عليهم أثبت قدم.

فرسم بالأمر الشريف لا زال.

أن تفوض إليه المشيخة على خدام الحرم الشريف النبوي: للعلم بأنه العامل الورع والكافل الذي يعرف أدب تلك الوظيفة: من خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم - على ما شرع والزاهد الذي آثر جوار نبيه على سواه فليستقر في هذه الوظيفة الكريمة قائماً بآدابها مشرفاً بها نفسه التي تشبثت من خدمته الشريفة بأهدابها سالكاً في ذلك ما يجب محافظاً على قواعد الورع في كل ما يأتي وما يجتنب قاصداً بذلك وجه الله الذي لا يخيب لرابح أملاً ولا يضيع أجر من أحسن عملاً ملزماً كلاً من طائفة الخدام بما يقربه عند الله زلفى ويضاعف الحسنة الواحدة سبعين ضعفاً هادياً من ضل في قوانين الخدمة إلى سواء السبيل مبدياً لهم من آداب سلوكه ما يغدو لهم منه أوضح هاد وأنور دليل وفيه من آداب دينه ما يغني عن تكرار الوصايا وتجديد القضايا والله تعالى يسدده في القول والعمل ويوفقه لخدمة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وقد فعل بمنه وكرمه.

القاعدة الثالثة الينبع

وبها وظيفةٌ واحدةٌ وهي النيابة وقد تقدم أن نيابتها في بني الحسن من بني قتادة أيضاً.

وعدل بها عن لفظ الإمارة إلى لفظ النيابة تصغيراً لشأنها عن مكة والمدينة.

ويكتب لنائبها مرسومٌ شريفٌ في قطع الثلث بالمجلس السامي بغير ياء.

وهذه نسخة مرسوم شريف بنيابة الينبع كتب به لمخذم بن عقيل في عاشر رجب الفرد سنة أربع وثلاثين وسبعمائة من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله وهو: الحمد لله الذي أتم لدولتنا الشريفة أنعماً وأحسن في تقديم شريف كل قوم تقدماً وأمضى في كف كف الأعداء رمحاً سمهرياً وسيفاً مخذماً.

نحمده حمداً يكاثر عدد القطر إذا همى ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تؤمن بالإدمان عليها منجداً ومتهما ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي شرف من إليه انتمى وعلى نسبه الشريف ارتمى وبجواره المنيع احتمى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين طلعوا في صباح كل نهارٍ شموساً وفي عشية كل ليلٍ أنجما وسلم تسليماً.

وبعد فإن أولى من أعدنا له سعادة جده وعدنا إلى عوائده الحسنى لأبيه وجده ورعت صدقاتنا الشريفة قصده الجميل وشرفه الذي سما به من أصله إلى النجم فرع لا ينال طويل وأقرت عينه بسكنه واستقرت به مراسمنا العالية في مسكنه وأغنته عنايتنا الشريفة عن انتظار كل نجم سعادة يطلع وبعثت إليه كل خير إلى وطنه وهو ينبع منزلة نسبه الصميم والحسب الذي يتمسك به في قومه كل كريم والشرف الذي أنارت كواكبه والوصف الذي ينظم الدر ثاقبه.

ولما كان المجلس السامي الأمير الأجل الكبير الشريف الحسيب النسيب الأوحد العضد النصير الأصيل فلان الدين مجد الإسلام زين الأنام شرف الأمراء الأشراف فخر العترة الطاهرة جمال الأسرة الزاهرة نسيب الخلافة عضد الملوك والسلاطين مخذم بن عقيل أيده الله تعالى - هو الذي تقدمت إليه كل إشارة وحسنت به كل شارة وتعجلت له بمراضينا الشريفة من مخلق الشفق كل بشارة وحصل في الينبع ما حصل من الاعتداء وامتدت الأيدي به إلى ما كان لحجاج بيت الله من وديعة وظن أنه لا يشيع خبره في البيداء فخالف الواجب وتعدى الشريعة فاقتضت آراؤنا الشريفة تفويضها إلى العارف منها بما يجب العالم من طريق سلفه الصالح بما يأتي فيها ويجتنب العامل في طاعتنا الشريفة بما هو به وبمثله من أهل الشرف يليق الماشي في خدمتنا الشريفة وفي خدمة الوفود إلى بيت الله الحرام على الطريق.

فرسم بالأمر الشريف - أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه - أن تفوض إليه النيابة بالينبع على عادة من تقدمه وقاعدته إلى آخر وقت.

فليقدم تقوى الله في كل ما تقدم ويقف مع حكم الشرع الشريف فإنه المهم المقدم وليستوص بالحجاج خيراً فإنهم وفد الله وهو عليه سيقدم وليؤمن الطريق فإنه بين حرمين: بيت الله ومسجد رسوله صلى الله عليه وسلم وليحفظ أمانة الله فيما يخلي ويخلف عنده الحجاج - كتب الله سلامتهم - من وداعة وليأخذ بقلوب الجلابة فإنهم في توسيعهم على أهل الحرمين كالمتصدقين وإن كانوا تجاراً ببضاعة وليوصل من تأخر من أبناء السبيل إلى مأمنهم وليخص بالعدل أهل بلده ليستقروا آمنين في موطنهم والرفق فهو الذي بحلله يزين وبحليه يستحسن والتأني في معرفة الحق من الباطل فإن به الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الباطل يبين ولزوم الطاعة التي أوجبها الله لنا على عباده وندب إليها وملازمة الجماعة التي يكفيه من بركاتها أن يد الله عليها وإقامة الخدمة فيما قبله من البلاد وكل حاضر وباد وكل من كاد أو كاد أو تعرض لعناد العباد فمن أقدم على محذور أو تقدم إلى محظور أو ارتكب في الخلاف أمراً من الأمور فجره بالبغي إلى مصرعه وحرك السيف لمضجعه ودع الرمح الذي اعتقله للشقاق يبكي للإشفاق عليه بأدمعه وقد رأيت كيف طريقتنا المثلى وسيرتنا التي لا تجد لها مثلاً فاسلك هذه المحجة وحسبك أن تتخذ بينك وبين الله حجة وفي هذا عن بقية الوصايا غنى والله يزيل عنك الخوف في الخيف ويبلغك المنى في منى والاعتماد.

القسم الرابع مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ما يقع على سبيل الندور

وهو الذي يقع في حين من الأحيان من غير أن يسبق له نظير قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في حسن التوسل: ويحتاج الكاتب فيه إلى حسن التصرف على ما يقتضيه الحال.

فمن ذلك ما يكتب به للنيابة الخارجة عن المملكة إذا رغب فيها متوليها.

وهذه نسخة تقليد الشريف من ذلك كتب به المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبي لمتملك سيس بإقراره على ما هو قاطع النهر من بلاده وهي: الحمد لله الذي خص أيامنا الزاهرة باصطناع ملوك الملل وفضل دولتنا القاهرة بإجابة من سأل بعض ما أحرزته لها البيض والأسل وجعل من خصائص ملكنا إطلاق الممالك وإعطاء الدول والمن بالنفوس التي جعلها النصر لنا من

جملة الخول وأغرى عواطفنا بتحقيق رجاء من مد إلى عوارفنا كف الأمل وأفاض بمواهب نعمائنا على من أناب إلى الطاعة حلل الأمن بعد الوجل وانتزع بآلائنا لمن تمسك بولائنا أرواح رعاياه من قبضة الأجل وجعل برد العفو عنه وعنهم بالطاعة نتيجة ما أذاقهم العصيان من حرارة الغضب: إذ ربما صحت الأجسام بالعلل.

نحمده على نعمه التي جعلت عفونا ممن رجاه قريباً وكرمنا لمن دعاه بإخلاص الطاعة مجيباً وبرنا لمن أقبل إليه مثيباً بوجه الأمل منيباً وبأسنا مصيباً لمن لم يجعل الله له في التمسك بمراحمنا نصيباً ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تعصم دم من تمسك بذمامها وتحسم مواد من عاندها بانتقام حسامها وتفصم عرى الأعناق ممن أطمعه الغرور في انفصال أحكامها وانفصامها وتقصم من قصد إطفاء ما أظهره الله من نورها واقتطاع ما قضاه من دوامها وتجعل كلمة حملتها هي العليا ولا تزال أعناق جاحديها في قبضة أوليائها وتحت أقدامها ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بالهدى ودين الحق إلى كل أمة المنعوت في الكتب المنزلة بالرأفة والرحمة المخصوص مع عموم المعجزات بخمس: منها الرعب الذي كان يتقدمه إلى من قصده ويسبقه مسيرة شهر إلى من أمه المنصوص في الكتب المحكمة على جهاد أمته الذين لا حياة لمن لم يتمسك من طاعتهم بذمة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فتحوا بدعوته الممالك وأوضحوا بشرعته إلى الله المسالك وجلوا بنور سنته عن وجه الزمن كل حالٍ حالك وأوردوا من كفر بربه ورسله موارد المهالك ووثقوا بما وعد الله نبيه حين زوى له مشارق الأرض ومغاربها من أن ملكهم سيبلغ إلى ما زوى الله له من ذلك صلاةً لا تزال الأرض لها مسجداً ولا يبرح ذكرها مغيراً في الآفاق ومنجداً ما استفتحت ألسنة الأسنة النصر بإقامتها وأبادت أعداءها باستدامتها وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإنه لما آتانا الله ملك البسيطة وجعل دعوتنا بأعنة ممالك الأقطار محيطة ومكن لنا في الأرض وأنهضنا من الجهاد في سبيله بالسنة والفرض وجعل كل يوم تعرض فيه جيوشنا من أمثلة يوم العرض وأظلتنا بوادر الفتوح وأظلت على الأعداء سيوفنا التي هي على من كفر بالله وكفر النعمة دعوة نوح وأيدنا بالملائكة والروح على من جعل الواحد سبحانه ثلاثةً: فانتصر بالأب والابن والروح وألقت إلينا ملوك الأقطار السلام وبذلت كرائم بلادها وتلادها رغبةً في الالتجاء من عفونا إلى ظل أعلى من الأعلام وتوسل من كان منهم يظهر الغلظة بالذلة والخضوع وتوصل من كان منهم يبدي القوة بالإخلاص الذي رأوه لهم أقوى الجنن وأوقى الدروع - عاهدنا الله تعالى أن لا نرد منهم آملاً ولا نصد عن مشارع كرمنا ناهلاً ولا نخيب من إحساننا راجياً ولا نحليء عن ظل برنا لاجياً علماً أن ذلك شكرٌ للقدرة التي جعلها الله لنا على ذلك الأمل ووثوقاً بأنه حيث كان في قبضتنا متى نشاء نجمع عليه الأنامل اللهم إلا أن يكون ذلك اللاجيء للغل مسراً وعلى عداوة الإسلام مصراً فيكون هو الجاني على نفسه والحاني على موضع رمسه والمفرط في مصلحة يومه وغده بتذكير عداوة أمسه.

ولما كان من تقدم بالمملكة الفلانية قد زين له الشيطان أعماله وعقد بحبال الغرور آماله وحسن له التمسك بالتتار الذين هم بمهابتنا محصورون في ديارهم مأسورون في حبائل إدبارهم عاجزون عن حفظ ما لديهم قاصرون عن ضبط ما استلبته السرايا المنصورة من يديهم ليس منهم إلا من له عند سيوفنا ثار ولها في عنقه آثار ومن يعلم أنه لابد له عندنا من خطتي خسف: إما القتل أو الإسار.

وحين تمادى المذكور في غيه وحمله الغرور على ركوب جواد بغيه أمرنا جيوشنا المنصورة فجاست خلال تلك الممالك وداست حوافر خيلها ما هنالك وساوت في عموم القتل والأسر بين العبد والحر والمملوك والمالك وألحقت رواسي جبالهم بالصعيد وجعلت حماتهم كزروع فلاتهم منها قائمٌ وحصيد فأسلمهم الشيطان ومر وتركهم وفر وماكرهم وماكر وأعلمهم أن موعدهم الساعة والساعة أدهى وأمر وأخلفهم ما ضمن لهم من العون وقال لهم: " إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون ".

وكان الملك فلانٌ ممن تدبر طرق النجاة فلم ير إليها سوى الطاعة سبيلاً وتأمل أسباب النجاح فلم يجد عليها غير صدق الانتماء دليلاً فأبصر بالخدمة موضع رشده وأدرك بسعيه نافر سعده واراه افقبال كيف ثبتت قدمه في الملك الذي زلت عنه قدم من سلف وأظهر له الإشفاق على رعاياه مصارع من أورده سوء تدبير أخيه موارد التلف وعرفه التمسك بإحساننا كيف احتوت يده على ما لم يبق غضبنا في يد أخيه منه إلا الأسى والأسف وحسنت له الثقة بكرمنا كيف يجمل الطلب وعلمته الطاعة كيف يستنزل عوارفنا عن بعض ما غلبت عليه سيوفنا: وإنما الدنيا لمن غلب وانتمى إلينا فصار من خدم أيامنا وصنائع إنعامنا وقطع علائقه من غيرنا فلجأ منا إلى ركنٍ شديد وظلٍّ مديد ونصر عتيد وحرمٍ يأوي أمله إليه وكرم تقر نضارته ناظريه وإحسان يمتعه بما أقره عطاؤنا في يديه وامتنان يضع عنه إصره والأغلال التي كانت عليه - اقتضى إحساننا أن نغضي له عن بعض ما حلت جيوشنا ذراه وحلت سطوات عساكرنا عراه وأضعفت عزمات سرايانا قواه ونشرت طلائع جنودنا ما كان ستره صفحنا عنهم من عورات بلادهم وطواه وأن نخوله بعض ما وردت خيولنا مناهله ووطئت جيادنا غاربه وكاهله وسلكت كماتنا فملكت دارسه وآهله وأن نبقي مملكة هذا البيت الذي مضى سلفه في الطاعة عليه ويستمر ملك الأرمن

الذي أجمل السعي في مصالحه بيديه لتتيمن رعاياه به ويعلموا أنهم أمنوا على أرواحهم وأولادهم بسببه ويتحققوا أن أثقالهم بحسن توصله إلى طاعتنا قد خفت وأن بوادر الأمن بلطف توسله إلى مراضينا قد أطافت بهم وحفت وأن سيوفنا التي كانت مجردةً على مقاتلهم بجميل استعطافه قد كفتهم بأسها وكفت وأن سطوتنا الحاكمة على أرواحهم قد عفت عنهم بملاطفته وعفت فرسم أن يقلد كيت وكيت ويستقر بهذه المملكة الفاسدة استقراراً لا ينازع ف استحقاقه ولا يعارض فيما سبق من إعطائه له وإطلاقه ولا يطالب عنه بقطيعة ولا يطلب منه بسببه غير طوية مخلصة ونفس مطيعة ولا تخشى عليه يدٌ جائرة ولا سريةٌ في طلب الغرة سائرة ولا تطرق كناسه أسد جيوش مفترسة ولا سباع نهاب مختلسة بل تستمر بلاده المذكورة في ذمام رعايتنا وحضانة عنايتنا وكنف إحساننا ووديعة برنا وامتناننا لا تطمح إليها عين معاند ولا يمتد إليها إلا ساعد مساعد وعضد معاضد.

فليقابل هذه النعمة بشكر الله الذي هداه إلى الطاعة وصان بإخلاص ولائه نفسه ونفائس بلاده من الإضاعة وليقرن ذلك بإصفاء موارد المودة وإضفاء ملابس الطاعة التي لا تزداد بحسن الوفاء إلا جدة واستمرار المناصحة في السر والعلن واجتناب المخادعة ما ظهر منها وما بطن وأداء الأمانة فيما استقر معه الحلف عليه ومباينة ما يخشى أن يتوجه بسببه وجه عتب إليه واستدامة هذه النعمة بحفظ أسبابها واستقامة أحوال هذه المنة برفض موجبات الكدر واجتنابها وإخلاص النية التي لا تعتبر ظواهر الأحوال الصالحة إلا بها.

ومن ذلك ما يكتب به لحكم رماة البندق.

قد جرت العادة أنه إذا كان للسلطان عنايةٌ برمي البندق أقام لرماته حاكماً من الأمراء الذين لهم عنايةٌ برمي البندق.

الحمد لله الذي خص أيامنا الزاهرة باستكال المحاسن في كل مرام وجعل من أولياء دولتنا القاهرة من أصاب من كل مرمى بعيد شاكلة الصواب حتى أصبح حاكماً فيه بين كل رام وجمع لخواصنا من أشتات المفاخر ما إذا برزوا فيه للرياضة ليلاً أغنت فسيهم عن الأهلة ورجومها عن رجوم الظلام وسدد مقصاد أصفيائنا في كل أمر فما شغلوا بمسرة سر إلا وكانت من أقوى أسباب التمرن على خوض الغمرات العظام واقتحام الحرب اللهام واشتمال جلابيب الدجى في مصالح الإسلام.

نحمده على نعمه الوسام وأياديه الجسام وآلائه التي ما برحت بها ثغور المسار دائمة الابتسام ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تعصم من الزلل وتؤمن من الزيغ والخلل وتلبس المتمسك بها من أنوار الجلالة أبهى الحلل ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المنزع عن الهوى المخصوص بالوحي الذي علمه شديد القوى الدال على اعتبار الأعمال بصحة القصد بقوله صلى الله عليه وسلم: " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىءٍ ما نوى " صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين وفق الإخلاص مساعيهم ووفر الإيمان دواعيهم صلاةً دائمة الاتصال مستمرة الإقامة بالغدو والآصال وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فإنه لما كان رمي البندق من أحسن ما لهت به الكماة في حال سلمها ومن أبهج ما حفظت به الرماة حياة نفوسها وعزة عزمها على ما فيه من اطراح الراحة واجتنابها واستدعاء الرياضة واجتنائها وخوض الظلمات في الظلام وتوخي الإصابة في غمرات الدجى التي تخفى فيها المقاتل على حدق السهام وارتقاب ظفر يسفر عنه وجه سفر ومهاجمة خطر تفضي إلى بلوغ وطر - وله شرائط تقتضي التقدم بين أربابه وقواعد لا يخالفها من كان مبرزاً في أصحابه وأدوات كمال لابد للمتحلي بهذه الرتبة منها وحسن خلال تهدر أعمال من بعد عليه مرامها وقصرت مساعيه عنها وعوائد معلومةٌ بين أرباب هذا الشأن وكبرائه ومقاصد مفهومةٌ فيما يتميز به المصيب الحاذق على نظرائه.

ولما كان الجناب العالي الفلاني مما يشار إليه في هذه الرتبة ببنان الترجيح ويرجع إلى أقواله فيما اقتضى التعديل فيما بين أربابها والتجريح ويعمل فيها بإشارته الخالصة من الهوى والأغراض ويعول فيها على قدم معرفته المميزة بين أقدار الرماة مع تساوي إصابة الأغراض لاحتوائه على غايات الكمال فيها وسبقه منها إلى مقامات حسان لا يعطيها حقها إلا مثله ولا يوفيها - اقتضى رأينا الشريف أن نعدق به أحكامها ونرد إلى أمره ونهيه كبراءها وحكامها.

فرسم بالأمر الشريف أن يكون حاكماً في البندق لما يتعين من اختصاصها بجنابه ويتبين من أولويته بالحكم في هذا الفن على سائر أربابه.

فليل ذلك حاكماً بشروطه اللازمة بين أهله المعتبرة بها خلال الكمال في قول كل أحد منهم وفعله المميزة بين تفاوت الرماة بحسب كيفية الرمي وإتقانه المرجحة في كثرة الطير بإمكانه له في وقت البروز ومكانه المهدرة ما يجب بين أهل هذا الفن

إهداره المثبتة ما يتعين في كمال الأدوات إثباته في قدم الكبراء وإقراره وليعمل في ذلك جميعه بما تقتضيه معرفته المجمع في فنه عليها ويتقدم فيها بما تدله عليه خبرته التي ما برح وجه الاختيار مصروفاً إليها والله تعالى يسدده في القول والعمل ويبلغه مراتب الرفعة في خلاله الجميلة وقد فعل والخير يكون إن شاء الله تعالى.

قلت: وربما كان المرسوم المكتتب لمن هو دون من تقدم من أمير عشرة أو من في معناه فيفتتح بأما بعد ويكمل على نحو ما تقدم.

وهذه نسخةٌ ثانيةٌ لحاكم البندق مفتتحةٌ بأما بعد وهي: أما بعد حمد الله الذي لا معقب لحكمه ولا يعزب شيءٌ عن علمه ولا قنوط من رحمته وسعة حلمه ملهم أهل محاربة أعداء دينه بالرياضة لها في أيام سلمه ومنجز وعود السعود لمن كان النجم مبدأ همته والصدق حلة سجيته والعز حلية اسمه والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ الذي هدى الله بنور ملته العادلة من تردى في ظلمات ظلمه ورفع منار النبوة بما خصه به من افتتاح التقدم في رتبتها وختمه وعلى آله وصحبه الذي سرى كلٌّ منهم إلى فإن أولى من رعيت له أسباب قدمه وتقدمه وفتحت له أبواب حكمه في رتبته - غاية الكمال على نجائب همته وجياد عزمه وتحكمه وأعيد إلى مكانته التي رقاها باستحقاقه قديماً ورفع إلى منزلته التي لم يزل بقواعدها خبيراً وبأوضاعها عليماً - من ارتقى في رتبته إلى نجم أفقها واقتدى في مناهجه بدليل مسالكها وطرقها فأتى في مصالحها بيوت الإصابة من أبوابها ونقل فيها أوضاع الإجادة عمن كان أدرى بها وتقدم فيها تقدم هجرته وسبق قدمه وبلغ في مقاماتها الغاية بين وثبات ساعده وثبات قدمه وجمع من أشتات الطير ما افترق في غيره وحوى من السبق إلى أنواعها ما حكم بسعد نجمه ويمن طيره فكم ليلةٍ أسفر فيما أبرزوه عن صباح نجاحه وكم طائرٍ زاحم النسرين بقوادمه أصبح لديه محمولاً بجناحه وكم أنزلت أهلة قسية الطير على حكمها وكم حكت بنادقه في رجوم الطير المحلقة إلى السماء انقضاض نجمها وكم أبصر مقاتل الطير وهي من الليل في ظلماتٍ بعضها فوق بعض وكم اشتغل من الطير الواجب بندب رميٍ لم يشغله من إعداد الأهبة للجهاد عن الفرض حتى كاد النسر الطائر إذا توهم أن الهلال قوسه يغدو كأخيه واقعاً والمرزم المحلق في الأفق يمسي لإشارة بنادقه الصم متتبعاً حتى أصبح وهو الكبير في فنه بآداب التعريف وأضحى وهو الخبير بنوعه بطريق النقل والتوقيف.

ولما كان فلانٌ هو كبير هذا الفن وخبيره ومقدم هذا النوع الذي لم يزل بنجلائه عظيم كل عصر وأميره وقديم هذا المرمى الذي جل المراد به الجد لا اللعب وأليف هذا المرام الذي ينشط إليه اللاعب ويستروح إليه التعب - اقتضى الرأي الشريف أن نجعله حاكماً في هذه الرتبة الجليلة بما علم أو علم منها فاصلاً بين أهلها بمعرفته التي ما برحت يؤخذ بها في قواعدها وينقل عنها - فرسم بالأمر الشريف أن يكون حاكماً في البندق.

فليستقر في هذه الرتبة التي تلقاها بيمين كفايته ويمنه وارتقاها بتفرده في نوعه وتقدمه في فنه وليعتمد الإنصاف في أحكام قواعدها وإجراء أمر أربابها على أحوالها المعروفة وعوائدها وينافس المعروفين بها على التحلي بآدابها والتمسك من المروءة والأخوة بأفضل أهدابها وينصف بينهم فيما يعتد به من واجبها ويلزم الداخل فيها بالمشي على المألوف من طرقها والمعروف من مراتبها ولا يحكم في التقديم والتأخير بهوى نفسه ولا يقبل من لم يتحر الصدق في يومه أنه قبل منه في أمسه فإن استدامة شروطها أمانٌ من السقوط عن درجها وإذا حكمت نفوس أهلها الصدق في أقوالها وأفعالها فقد خرجت من خط حرجها وليرع لذوي التقدم فيها قدم هجرتهم واشتهار سيرتهم الحسنة بين أسرتهم وقد خبر من أصافه الحسنة وسابق رتبته التي لم تكن عين العناية عنها وسنة ما اقتضى استقرار رتبته على مكانتها ومكانها واكتفي له من مبسوط الوصايا بعنوانها فليتق الله في قوله وعمله ويجعل الاعتماد على توفيقه غاية أمله والخير يكون إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك ما يكتب به في إلباس الفتوة اعلم أن طائفةً من الناس يذهبون إلى إلباس لباس الفتوة ويقيمون لذلك شروطاً وآداباً جاريةً بينهم.

ينسبون ذلك في الأصل إلى أنه مأخوذٌ عن الإمام علي كرم الله وجهه.

والطريق الجاري عليه أمرهم الآن أنه إذا أراد أحدهم أخذ الطريق عن كبيرٍ من كبراء هذه الطائفة اجتمع من أهلها من تيسر جمعه وتقدم ذلك الكبير فيلبس ذلك المريد ثياباً ثم يجعل في كوز أو نحوه ماءً ويخلط به بعض ملح ويقوم كل منهم فيشرب من ذلك الماء وينسبه إلى كبيره. وربما اعتنى بذلك بعض الملوك.

وقد جرت العادة في ذلك أنه إذا ألبس السلطان واحداً من ابن الأمراء أن يكتب له بذلك توقيعاً.

وهذه نسخة توقيع بفتوة من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر وهو: الحمد لله الذي جعل أنساب الفتوة متصلة بأشرف أسباب النبوة وأفضل من أمده منه بكل حيل وقوة وأسعد من سما فكان علياً على كل من سام علوه.

نحمده حمداً تغدو الأفواه به مملوة ونشكره على مواهبه بآيات الشكر المتلوة ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من جعل إلى منهج التوحيد رواحه وغدوه ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي شد الله أزره بخير من أفتى وفتى فنال كل فتويٍّ من الفتيان به شرف الأبوة والبنوة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نصروا وليه وخذلوا عدوه صلاةً موصلةً إلى نيل الأماني المرجوة.

وبعد فإن خير من اتصل به رجاء الرجال الأجواد وطوى البعيد إلى تحصيل مرامه كل طود من الأطواد وأماط به عن مكارم الأخلاق لثام كل جود وامتطى ظهر خير جواد واستمسك من ملابس الشرف بما يؤمن ويؤمل وما يشد به من كل خير لباس التقوى وما تؤيد به عزيمته فتقوى وما يتقيد به على رؤوس الأحزاب وما يتنزل به عليه أحسن آيةٍ من هذا الكتاب - من اشتهر بالشجاعة التي تقدم بها على قومه وحمد أمسها في يومه وبالشهامة التي لها ما للسهام من تفويق ولزرق الأسنة من تحذيق ولبيض الصفاح من حدة متون وللسمهرية من ازدحامٍ إذا ازدحمت المنون ومن صدق العزيمة ما يشهد به كرم الشيمة ومن شدة الباس ما يجتمع به على طاعته كثيرٌ من الناس ومن صدق اللهجة واللسان ما اتصف عفافه منهما بأشرف ما يتصف به الإنسان ومن طهارة ما يتنافس على مثله المتنافسون ويستضيء بأنواره القابسون ويرفل في حلل نعمائه اللابسون وكان من الذين أبانوا عن حسن الطاعة وأنابوا وإذا دعوا إلى استنفار جهادٍ واجتهادٍ لبوا وأجابوا والذين لا يلوون ألسنتهم عن الصدق ولا يولون وجوههم عن الحق والذين لا يقعدهم عن بلوغ الأوطار مع إيمانهم حب الأوطان وإذا نفذوا في حرب الأعداء لا ينفذون إلا بسلطان.

ولما كان فلانٌ ذو المفاخر والمآثر أمير الفتيان مميز الإخوان والأعيان هو صاحب هذا المحفل المعقود والممدوح بهذا المقال المحمود والممنوح بهذا المقام المشهود والثناء الذي سر باله بما سربله أثواب العزة والفخار والاعتناء الذي استخير الله في اصطفائه واختباره في ذلك فخار - اقتضى حسن الرأي الشريف - كرم الله أنصاره وأعلى مناره - أن نجيب وسائل من وقف في هذا القصد وقفة سائل لينال بذلك كل إحسان وإحسان كل نائل ودعا إلى الكريم العام بالإنعام والدعاء لسلطان يدعى له ويدعو كل الأنام فقال: أسأل الله وأسأل سلطان الأرض ملك البسيطة إمام العصر رافع لواء النصر ناصر الملة المحمدية محيي الدولة العباسية فاتح البلاد والقلاع والأمصار قاهر الكفار مبيد الفرنج والأرمن والتتار سلطان الزمان خسروان إيران شاهنشاه القان سلطان العالم وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك الذي انتهى إليه عن أمير المؤمنين الإمام الأواب المغوار علي بن أبي طالب ذي الفخار شرف الفتوة واتصال الأنساب.

قلت: هذا ما وقفت عليه من نسخة هذا التوقيع.

وقد ذكر الشيخ شهاب الدين محمودٌ الحلبي في كتابه حسن التوسل نسخة تقليد أنشأه في الفتوة أسقط منه أول الخطبة وهو: وابتدأ منه بقوله: نحمده على ما منحنا من نعم شتى ووهبنا من علم وحلم غدونا بهما أشرف من أفتى في الكرم وفتى وآتانا ملك خلال الشرف الذي لا ينبغي لغير ما اختصنا به من الكمال ولا يتأتى وخصنا به من رفع أهل الطاعة إلى سماء النعم يتبوأون من جنان الكرم حيث شاءوا: وغيرهم لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من انتمى في فخار أبوة التقى إلى حسب علي وانتهى من بنوة المروءة إلى سببٍ قويٍّ ونسب زكي وارتدى حلل الوقار بواسطة الفتوة عن خير وصيٍّ عن أشرف نبي ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي نور شريعته جلي وجاه شفاعته ملي وبسيفه وبه حاز النصر من انتمى إليه: فلا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي.

وبعد فإن أولى من لبى إحساننا نداء وده وربى امتناننا نتاج ولائه الموروث عن أبيه وجده ورقاه كرمنا إلى رتبة علاءٍ يقف جواد الأمل عن بلوغها عند حده وتلقت كرائمنا وفد قصده بالترحيب وأنزلت جار رجائه من مصر نصرها بالحرم الآمن والربع الخصيب وأذنت لأمله ما نأى من الأغراض حتى بلغه بفضلها سهم اجتهاده المصيب وأعدت له من حلل الجلالة ما هو أبهى من رداء السماء الذي تزداد على الأبد جدة برده القشيب وخصته لابتناء المجد بأجل بنوة جعلت له في إرث خلال الشرف أوفر حظٍّ وأوفى نصيب - من سمت منابر المجد بذكره وابتسمت أسرة الحمد بشكر أوصافه ووصف شكره واختالت مواد الثناء بحسن خلاله واختارت كواكب السناء إقبال طوالعه بطوالع إقباله وتمسك من طاعتنا بأمثل أسباب الهدى واعتصم بعروة بنوة الأبناء فأوطأه التوثق بها رقاب العدا واتصف بمحاسن الشيم في مودتنا فأضحى فتي السن كهل الحلم يهتز للندى وانتمى إلينا فأصبح لدينا ملكاً مقرباً وأوجب من حقوق الطاعة علينا ما أمسى به لدينا - مع جلالة الأبناء - ابناً وغدونا له - في

نسب الفخر العريق أباً ونشأ في مهاد الملك فسما به للعلم والعلم بالسيف والقلم والبأس والكرم واعتزى إلى أبوة حنونا ببنوة رجائه فتشبه بعدل أيامنا: ومن يشبه أباه فما ظلم وتحلى بصدق الولاء وهو أول ما يطلب في سر هذا النسب ويعتبر وتحلى لنكاية عدو الإسلام بلطف مكايده إذ السيوف تجز الرقاب وتعجز عما تنال الإبر.

ولما كان فلانٌ هو الذي زان بموالاتنا عقود مجده وزاد في طاعتنا على ما ورث من مكارم أبيه وجده وساد الملوك في اقتبال شبابه وصان ملك أبيه عن عوارض أوصابه باتباع ما أوصى به وأنفت صوارمه أن تكون لغير جهاد أعداء الله معدة وعزائمه أن تتخذ عدو الله وعدوه أولياء تلقي إليهم بالمودة وسهامه أن تسدد إلا إلى مقاتل العدا وأسنته أن يبل لها من غير مناهل صدور الكفر صدى مع اجتماع خلال الشرف لشرف خلاله وافتراق أسباب السرار عن هالة كماله وسؤاله ما ليس لغيره أن يمد إليه يداً والتماسه من كرمنا العميم أجل ما نحل والدٌ والداً وأنه وقف على قدم الرجاء الثابت ومت بقدم غروس الولاء التي أصلها في روض المودة نابت وقال: أسأل الله وأسأل سلطان الأرض القائم لجهاد أعداء الله بالسنة والفرض فاتح الأمصار الذي لم تزل سيوفه تهاجر في سبيل الله عن غمودها إلى أن صار له من الملائكة الكرام أنصار الذي كرم الله شرف الفتوة بانتمائها إليه وأعلى قدر بنوة المروءة باتصالها به عن الخلفاء الراشدين عن أب فأبٍ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وأورثه من خلقه الكرم والبأس فتحليا منه بأجل مواف وأكمل موافق ومنحه بحفظ العهد من خصائصه ما عهد به إليه النبي الأمي من أنه ما يحبه إلا مؤمنٌ ولا يبغضه إلا منافق أعز الله سلطانه وأوطأ جياده معاقل الكفر وأوطانه أن يتقبل قصدي بقبول حسن ويقبل بوجه كرمه على أملي الذي لم يقعد به عن فروض الطاعات وسننها وسن وينظمني في سلك عقود الفتوة ملتزماً بأسبابها مقتدياً بطاعته التي هي أكمل أنسابها متصفاً بموالاته التي لا يثبت لها حكمٌ إلا بها آتياً بشروط فاستخرنا الله تعالى في عقد لواء هذا الفخار لمجده فخار ونظمناه لعقد هذا المقام الكريم واسطةٌ لمثله كان يزينها الادخار.

فرسم بالأمر الشريف - لا زال جوده يعلي الجدود ويوطد لأبناء ملوك الزمن من رتب الشرف فوق ما وطدت الآباء والجدود - أن نصل سببه بهذا السبب الكريم ونعقد حسبه في الفتوة بأواخي هذا الحسب الصميم ونعذق نسبه بأصالة هذه الأبوة التي هي إلا عن مثله عقيم ويفاض عليه شعار هذا الخلق المتصل عن أكرم وصيٍّ بمن قال الله تعالى في حقه: " إنك لعلى خلقٍ عظيم ".

فليحل هذه الهضبة التي أخذت من أفق العز بالمعاقد ويحل هذه الرتبة التي دون بلوغها من نوع الفراقد ألف راقد ويجر رداء الفخر على أهداب الكواكب ويزاحم بمواكب مجده النجوم على ورود نهر المجرة بالمناكب وليصل شرف هذه النسبة من جهته بمن رآه أهلاً لذلك وليفت في الفتوة بما علم من مذهبنا الذي انتهى فيه منا إلى مالك وليطل على ملوك الأقطار بهذه الرتبة التي تفانى الرجال على حبها ويصل على صروف الأقدار بهذه العناية التي جعلته - وهي حلية حزب الله - من حزبها وليصل سر هذا الفضل العميم بإيداعه إلى أهله وانتزاعه ممن لم يره أهلاً لحمله.

قلت: وما تقدم مما يكتب عن الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية والممالك الشامية لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وغيرهم: من التقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم: المكبرة والمصغرة ليس هو على سبيل الاستيعاب بل على سبيل التمثيل والتذكير لينسج على منواله وينهج على نهجه.

فإن استيفاء ما يكتب في ذلك مما يشق ويقف القصد دونه.

بلا لابد من حوادث تحدث لم يسبق لها مثال يقتفى أثره.

فيحتاج الكاتب إلى حسن التصرف في إيراد ما يلائم ذلك ويناسبه.

وكل كاتب ينفق من كسبه على قدر سعته والله تعالى هو الموفق إلى نهج الصواب والهادي إلى طريق الحق في الأمور كلها بمنه وكرمه.